

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ
مِنْ
أَضْوَاءِ الْبَيِّنَاتِ

تأليف
الشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار
ابن حنبل الشافعي

إعداد
أ. د. سيد محمد سادات الشافعي
أستاذ الإعلام الإسلامي بكلية الدعوة
والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار الفضة
السعودية

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ
مِنْ
أَضْوَاءِ الْبَيِّنَاتِ

تأليف
الشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار
ابن بكري الشنقيطي

إعداد
أ. د. سيد محمد ساداتي الشنقيطي
أستاذ الإعلام الإسلامي بكلية الدعوة
والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار الهدى النبوي
مصر - المنصورة

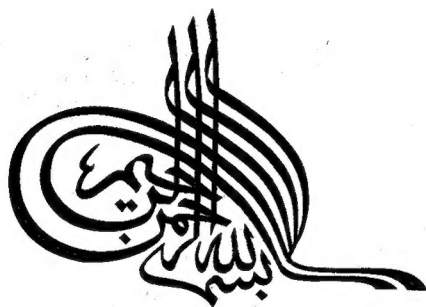
دار الفضيحة
الرياض - السعودية

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

الناسِر

دار الهدى النبوي
مصر - المنصورة

وزارة الفضيحة
الرياض ١١٥٤٣ - ص.ب ٥١١٤٢
تلفاكس ٢٣٣٣٠٦٣



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة مختصر الكتاب

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمد عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإنه لما كان كتاب الله هو العروة الوثقى وحبل الله المتين وهو النور الذي يبدد ظلمات الكفر والجهل والمعصية والبدعة ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [٥٦] يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١١﴾ [المائدة].

وكنت ممن من الله عليهم بمعايشة كتاب الله وإطالة التأمل فيه ومحاولة الغوص وراء معانيه العظيمة وأوامره وأحكامه الرشيدة مع رغبة صادقة في معرفة زواجره ونواهيها، وكنت في سبيل ذلك كثير المداومة على مطالعة كتب التفسير التي ألفها علماءنا الأجلاء الفضلاء. وكنت بالفطرة شديد الميل إلى الوقوف عند التفاسير التي ركزت على تفسير القرآن بالقرآن باعتباره أفضل أنواع التفسير وأجلها قدراً، وكنت ولا زلت أتنفئ أن يكون الاهتمام بهذا المنهج في التفسير هو ما تصرف فيه الأوقات، وما ينبغي أن يكون الشغل الشاغل لمن يتصدى لتفسير كتاب الله وبيان معانيه وجعلها في متناول عامة المسلمين دعوة لهم لتكون مستند حركتهم، ومركز عملهم كيما يسعدوا في العاجل والآجل، لذلك وجدتنى مشدوداً إلى كتاب أحسبه فريداً من نوعه في هذا الباب لم تقع عيني على مثله هو (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن) لشيخنا بل شيخ الجيل الذي وجد فيه وشيخ من أتى بعده الإمام العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي ابن عمنا والمقدم فينا، وتأكد بعد المعايشة أن كثيراً من الناس قد لا يحسنون الغوص وراء معانيه ولا يجدون السباحة في بحره الزاخر، لطول نفس الشيخ في العلوم التي حواها كتاب الله فوقوفه الطويل عندها في مباحث متخصصة غاية ونهاية هي محل اهتمام من طلبة العلم الراسخين فيه حيث إن الشيخ رحمته الله كان يعلم يقيناً أن المستفيدين بالدرجة الأولى من الكتاب هم طلبة العلم، وكان رحمته الله لا يوزعه في طبعته الأولى إلا عليهم وبشرط أن يكونوا قد حصلوا على الأجزاء الأولى منه لأنه كان قد أفاض في

الكشف عن منهجه في مقدمة الجزء الأول من الكتاب، كما كان كثير الإحالة على الأجزاء الأخرى التي تقدمت لكل ما سبق ورغبة في جعل هذا التفسير الجليل في متناول عامة المسلمين من خلال التركيز على بيان معاني الآيات التي فسرهما الشيخ وفق منهجه سواء كان التفسير بنصوص القرآن أو الأقوال اللغوية والشواهد الشعرية التي تجلي حقيقة معنى الآية مع إيضاح رأي الشيخ في المسائل التي تتعلق بالموضوعات ذات العلاقة في الآية والاقتصار على ذلك باعتباره أبرز ما يحتاج إليه عامة الناس وقد اخترت له اسماً يطابق حقيقته ويتفق مع ما وضعه الشيخ اسماً لأصل الكتاب وهو «تفسير القرآن بالقرآن من أضواء البيان» ولا يفوتني هنا التأكيد على أنني لم أكن لأجراً على مثل هذا العمل لولا ما لمست من تشجيع أخي الدكتور محمد المختار بن محمد الأمين ابن الشيخ بعد أن بينت له شدة اهتمامي بتيسير انتفاع عامة الناس بالكتاب إذ أنني حتى بعد موافقته ترددت كثيراً وأمضيت أكثر من سنتين في التردد بعدها شرح الله صديري لهذا العمل الذي أسأل الله أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم نافعاً للمسلمين.

وهنا ملاحظة قبل اختتام هذه المقدمة تتمثل في أن الشيخ ﷺ لم يفسر كل آيات القرآن وإنما اقتصر تفسيره في كل سورة على الآيات التي فسرهما آيات أخرى من كتاب الله وربما كان غياب إدراك هذه الحقيقة مما حال بين الكثيرين من عامة الناس وبين الانتفاع به بصورة مثلى.

ومن باب من لا يشكر الناس لا يشكر الله، فإني أتقدم لكل من ساعدني في اختصار هذا الكتاب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أ. د. سيد بن محمد ساداتي الشنقيطي



مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، إله الأولين والآخرين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الذي اصطفاه وجعله سيد ولد آدم أجمعين.

الحمد لله الذي أنزل على خاتم الرسل والأنبياء أكمل كتاب، فكشف به ظلمات الجهل وأسباب العذاب، وأماط به عن نقائص العلوم وذخائرها الحجاب، وكشف به عن حقائق الدين وأسراره ومحاسنه النقاب، وأخلص به العبادة للعزیز الوهاب، وفتح به لنيل مآرب الدارين الباب، وأغلق باتباعه والعمل به دون الشر جميع الأبواب، تحيى بوابل علومه القلوب النيرة أعظم مما تحيى الأرض بوابل السحاب، يتميز بتدبر آياته الخطأ من الصواب، والقشور من اللباب، وتجل ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره عن الوصمة والعاب ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَذَّبُوا عَنْكَ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وعد الله متبعه ما هو خير وأبقى، وقال فيه: ﴿فَمَنْ آتَبَعْ هَذَا فَلَا يَضِلَّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].

وأوعد المعرضين عنه من جميع الأحزاب بالنار، قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ، مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]، وهو عام للكفار، وشبه بالحرر المعرضين عنه من الكفرة، قال: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [٤٩] كَانَهُمْ حُمْرٌ مُتَسِفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ [المدثر]، فيكفي المعرض عنه أنه حمار، وأنه من حمير النار.

وبين تعالى أن المعرض عنه يحمل يوم القيامة ما لا يستطيع له حملاً، قال: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَلِيدًا فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ [طه]، فتح الله تعالى به قلوباً غلفاً، وأعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقال فيه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه]، لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على طول التكرار، ما تعاقب الليل والنهار، رفع الله تعالى به قوماً ووضع به آخرين، وقال: ﴿تَذَرِي وَنَّ يَكْذِبُ بِهَذَا الْغَيْثِ سَتَذَحَّجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٤﴾ وَأَتْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم]، وهو آخر الكتب السماوية عهداً برب العالمين، فكل الشر في الإعراض عنه، وكل الخير في الإقبال عليه، فطوبى لمن كان حجة له، وويل لمن كان حجة عليه ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، ففيه للمطيع أعظم وعد، وللعاصي أشد وعيد.

ومع هذا كله، فإن أكثر المنتسبين للإسلام اليوم في أقطار الدنيا معرضون عن التدبر في آياته، غير مكترئين بقول من خلقهم: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد]، لا يتأدبون بأدابه، ولا يتخلقون بما فيه من مكارم الأخلاق يطلبون الأحكام في التشريعات الضالة المخالفة له، غير مكترئين بقول ربهم: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. وقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]، بل المتأدب بأداب القرآن المتخلق بما فيه من مكارم الأخلاق محتقر مغموز فيه عند جلهم إلا من عصمه الله فهم يحتقرونه واحتقاره لهم أشد كما قال الشافعي رحمه الله:

فهذا زاهد في قرب هذا وهذا فيه أزهد منه فيه

وإياك يا أخي ثم إياك، أن يزهدي في كتاب الله تعالى كثرة الزاهدين فيه، ولا كثرة المعترقين لمن يعمل به ويدعو إليه، واعلم أن العاقل الكيس الحكيم لا يكثر بانتقاد المتجانبين، واسمع قول الأديب الكبير محمد بن حنبل الشنقيطي الحسني رحمه الله:

لا تسؤ بالعلم ظنا يا فتى	إن سوء الظن بالعلم عطب
لا يزهديك أخي في العلم أن	غمر الجهال أرباب الأدب
إن تر العالم نضوا مرملا	صفر كف لم يساعده سبب
وتر الجاهل قد حاز الفنى	محرز المأمون من كل أرب
قد تجوع الأسد في آجامها	والذئاب الغبس تعتام القتب
جرع النفس على تحصيله	مضض المرين ذل وسغب
لا يهاب الشوك قطاف الجنى	وإبار النحل مشتار الضرب

أما بعد: فإننا لما عرفنا إعراض أكثر المتسمين باسم المسلمين اليوم عن كتاب ربهم ونبيهم له وراء ظهورهم، وعدم رغبتهم في وعده، وعدم خوفهم من وعيده، علمنا أن ذلك مما يعين على من أعطاه الله علماً بكتابه أن يجعل همته في خدمته من بيان معانيه، وإظهار محاسنه، وإزالة الإشكال عما أشكل منه، وبيان أحكامه، والدعوة إلى العمل به، وترك كل ما يخالفه.

واعلم أن السنة كلها تندرج في آية واحدة من يحجره الزاخر، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَلَيْنَاكَ الرَّسُولُ فَحُذِرْهُ وَمَا نَهَاكَ عَنْهُ فَأَنْتَهُوَ﴾ [الحشر: ٧]، ومن أهم المقاصد في ذلك، هذا الكتاب المبارك الذي هذه ترجمته، واعلم أن من أهم المقصود بتأليفه أمران:

أحدهما: بيان القرآن بالقرآن، لإجماع العلماء على أن أشرف أنواع التفسير وأجلها تفسير كتاب الله بكتاب الله، إذ لا أحد أعلم بمعنى كلام الله - جل وعلا - من الله - جل وعلا -، وقد التزمنا أن لا نبين القرآن إلا بقراءة سبعية، سواء كانت قراءة أخرى في الآية المبينة نفسها، أو آية أخرى غيرها، ولا نعتمد على البيان بالقراءات

الشاذة وربما ذكرنا القراءة الشاذة استشهداً للبيان بقراءة سبعية، وقراءة أبي جعفر ويعقوب وخلف ليست من الشاذ عندنا ولا عند المحققين من أهل العلم بالقراءات.

وثانيهما: بيان الأحكام الفقهية في جميع الآيات الميسنة بالفتح في هذا الكتاب، فإننا نبين ما فيها من الأحكام، وأدلتها من السنة، وأقوال العلماء في ذلك، ونرجح ما ظهر لنا أنه الراجح بالدليل من غير تعصب لمذهب معين، ولا لقول قائل معين؛ لأننا ننظر إلى ذات القول لا إلى قائله؛ لأن كل كلام فيه مقبول ومردود، إلا كلامه ﷺ، ومعلوم أن الحق حق ولو كان قائله حقيراً.

ألا ترى أن ملكة سبأ في حال كونها تسجد للشمس من دون الله هي وقومها لما قالت كلاماً حقاً صدقها الله فيه، ولم يكن كفرها مانعاً من تصديقها في الحق الذي قالت، وذلك في قولها فيما ذكر الله عنها: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَؤُلَّةَ﴾ [النمل: ٣٤]، فقد قال تعالى مصداقاً لها في قولها: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤]، وقد قال الشاعر:

لا تحقرن الرأي وهو موافق حكم الصواب إذا أتى من ناقص
فالدر وهو أعز شيء يقتنى ما حط قيمته هوان الغائص

وقد تضمن هذا الكتاب أموراً زائدة على ذلك، كتحقيق بعض المسائل اللغوية وما يحتاج إليه من صرف وإعراب، والاستشهاد بشعر العرب وتحقيق ما يحتاج إليه في المسائل الأصولية والكلام على أسانيد الأحاديث، كما ستراه إن شاء الله تعالى.

واعلم أن أنواع البيان المذكورة في هذا الكتاب المبارك كثيرة جداً. وقد أردنا أن نذكر في هذه الترجمة جملاً من ذلك ليعلم بها الناظر كثرة ما تضمنه هذا الكتاب المبارك من أنواع بيان القرآن بالقرآن، ويكون على بصيرة في الجملة من فائده قبل الوقوف على جميع ما فيه.

وبعد ذلك نذكر مقدمة في تعريف الإجمال والبيان، وما يحتاج إليه من مسائلهما من غير تطويل في ذلك، ثم نشرع - إن شاء الله - في المقصود مرتباً على ترتيب سور القرآن العظيم، ونرجو من الله الكريم على ما فينا أن نكون داخلين في قوله ﷺ، الثابت في صحيح البخاري من حديث أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وفي رواية له: «إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» كما نرجوه تعالى أن يوفقنا للعمل بما علمنا من كتابه، والتخلق بما فيه من المكارم، والتأديب بآدابه، وأن يعلمنا ما جهلنا، ويذكرنا ما نسينا منه، وأن يرزقنا إخلاص النية في جميع الأعمال، وأن يحفظنا بفضلته ورحمته من فساد القصد في الأعمال، إنه رحيم كريم.

اعلم - وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه - أن من أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك بيان الإجمال الواقع بسبب اشتراك، سواء كان الاشتراك في اسم أو فعل أو حرف.

ومثال الإجمال بسبب الاشتراك في اسم قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ قُرُوءٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]؛ لأنَّ القرء مشترك بين الطهر والحيض، وقد أشار تعالى إلى أن المراد بأقراء العدة الأطهار بقوله: ﴿فَطَقُّوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، فاللام للتوقيت ووقت الطلاق المأمور به فيه في الآية الطهر لا الحيض، وتدل له قرينة زيادة التاء في قوله: ﴿ثَلَاثَةٌ قُرُوءٌ﴾، لدلالاتها على تذكير المعدود وهو الأطهار، فلو أراد الحيضات لقال: ثلاث قروء بلا هاء؛ لأن العرب تقول: ثلاثة أطهار وثلاث حيضات. وسترى بعض الكلام على هذه المسألة في هذه الترجمة وتحقيق المقام فيها بأدلته في سورة البقرة إن شاء الله تعالى.

ومن أمثلة الاشتراك في اسم قوله تعالى: ﴿وَلْيَبْطُؤُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، فإنَّ العتيق يطلق بالاشتراك على القديم، وعلى المعتقد من الجابرة وعلى الكريم وكلها قيل به في الآية وتصريح الله بأنه أقدم البيوت التي وضعت للناس في قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِكَاءُ﴾ [آل عمران: ٩٦] الآية، يدل للأول.

ومثال الإجمال بسبب الاشتراك في فعل قوله تعالى: ﴿وَأَلَيْلَ إِذَا عَسَسَ﴾ [التكوير]، فإنه مشترك بين إقبال الليل وإدباره، وقد جاءت آية تؤيد أن معناه في الآية أدبر وهي قوله تعالى: ﴿وَأَلَيْلَ إِذَا أَذْبَرَ﴾ [٣٣] ﴿وَالصُّحُوحَ إِذَا أَشْفَرَ﴾ [٣٤] [المدرثر]، فكون عسس في الآية بمعنى أدبر يطابق معنى آية المدرثر هذه كما ترى، ولكن الغالب في القرآن أنه تعالى يقسم بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضيائه إذا أشرق، كقوله: ﴿وَأَلَيْلَ إِذَا يَفْتُنَى﴾ [١] ﴿وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَلَّى﴾ [٢] [الليل]. وقوله: ﴿وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَّهَا﴾ [٣] ﴿وَأَلَيْلَ إِذَا يَفْشَهَا﴾ [٤] [الشمس]. وقوله: ﴿وَالصُّحُوحَ﴾ [٥] ﴿وَأَلَيْلَ إِذَا سَجَى﴾ [٦] [الضحى]، إلى غير ذلك من الآيات، والحمل على الغالب أولى وهذا هو اختيار ابن كثير وهو الظاهر خلافاً لابن جرير. وسترى إيضاح هذا المبحث إن شاء الله في سورة التكوير.

ومن أمثلة الاشتراك في فعل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، فإنه مشترك بين قولهم عدل به غيره إذا سواه به ومنه قول جرير:

أثعلبة الفوارس أم رياحاً عدلت بهم طهية والخشابا

أي سويتهم بهم وبين قولهم: عدل بمعنى مال وصد ويدل للأول قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [٧] ﴿إِذْ سَأَلْتُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء]. وقوله: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] الآية.

ومثال الإجمال بسبب الاشتراك في حرف قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غَشَاةً﴾ [البقرة: ٧]، فإنَّ الواو في قوله: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ﴾ محتملة للعطف على ما قبلها وللاستئناف، ولكته تعالى بين في سورة الجاثية، أن قوله هنا: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] معطوف ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، وأن قوله: ﴿وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غَشَاةً﴾ [البقرة: ٧] جملة مستأنفة مبتدأ وخبر، فيكون الختم على

القلوب والأسماع والغشاوة على خصوص الأبصار، والآية التي بين بها ذلك هي قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَمَّ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ [الباقية: ٢٣]، وسترى في سورة البقرة، الجواب عن آية النحل إن شاء الله تعالى.

ومن أمثلة الاشتراك في حرف أيضاً الاشتراك في الواو من قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]، فإنها محتملة للعطف فيكون الراسخون في العلم يعلمون تأويل المتشابهة ومحتملة للاستئناف، فيكون الله تعالى مستأثراً بعلمه دون خلقه، وفي الآية قرائن ترجح أنها للاستئناف أوضحها ابن قدامة في روضة الناظر قال: وفي الآية قرائن تدل على أن الله سبحانه وتعالى منفرد بعلم تأويل المتشابهة وأن الوقف الصحيح عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، لفظاً ومعنى، أما اللفظ فلائه لو أراد عطف الراسخين لقال: ويقولون آمناً به بالواو، وأما المعنى فلائه ذم مبتغي التأويل، ولو كان ذلك للراسخين معلوماً لكان مبتغيه ممدوحاً لا مذموماً؛ ولأن قولهم: آمناً يدل على نوع تفويض وتسليم لشيء لم يقفوا على معناه إلى آخره. وسترى تمامه وتفصيله إن شاء الله في سورة آل عمران.

ومن أمثلة الاشتراك في حرف قوله تعالى: ﴿فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٦]، فإن لفظة «من» مشتركة بين التبويض وابتداء الغاية، وقد قال الشافعي، وأحمد - رحمهما الله -: هي في هذه الآية الكريمة للتبويض، فاشتراطاً صعيداً له غبار يعلق باليد، وقال مالك وأبو حنيفة - رحمهما الله -: هي لابتداء الغاية فلم يشترطاً ماله غبار، بل أجازا التيمم على الرمل والحجارة وقولهما أنسب؛ لأن قوله تعالى بعده: ﴿وَمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]، نكرة في سياق النفي زيدت قيلها لفظة «من» لتوكيد العموم، والنكرة إذا كانت كذلك فهي نص صريح في شمول النفي لجميع أفراد الجنس والتكليف بخصوص ما له غبار لا يخلو من حرج؛ لأن كثيراً من بلاد الله لا يوجد فيها إلا الجبال أو الزمال، وسيأتي تحقيق هذا المبحث وإيضاحه باليسرة في سورة المائدة، إن شاء الله تعالى.

والمقصود في الترجمة مطلق المثال، ومن أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك بيان الإجمال الواقع بسبب إبهام في اسم جنس جمعاً كان أو مفرداً، أو اسم جمع أو صلة موصول أو معنى حرف، فمثال الإبهام في اسم جنس مجموع قوله تعالى: ﴿فَلَقَدْ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ﴾ [البقرة: ٣٧]، فقد أبهمها هنا وذكرها في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَلَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، ومن أمثلته في اسم جنس مفرد قوله تعالى: ﴿وَقَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ يَمَّا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧] الآية، فقد أبهمها هنا وبينها بقوله: ﴿وَرُبُّدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ أَمَةً وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [٥] وتضمن في الأرض ورؤى فرعونك وهنكن وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون [٦] [القصر]، ومن

أمثلته قوله: ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، فقد بيّنها بقوله: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [السجدة: ١٣] الآية، ونحوها من الآيات. ومن أمثلته قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، فقد بيّن عهده بقوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة: ١٢] وبين عهدهم بقوله: ﴿لَأُكْفِرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [المائدة: ١٢] الآية، ومن أمثلته قوله: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدُّهُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]؛ لأن الأشد يتناول البلوغ ويتناول ثلاثين سنة، وأربعين، وستين وغير ذلك؛ كما قيل فيه بكل ذلك ومن إطلاقه على الخمسين قول سحيم بن وثيل.

أخو خمسين مجتمع أشدى ونجذني مداورة الشؤون

ولكن الله تعالى بيّن أنّ المراد به في شأن اليتيم بلوغ النكاح بقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦]، ومثال الإجمال بسبب الإبهام في اسم جمع قوله تعالى في سورة الدخان: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿١٦﴾ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَكَهِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الدخان]، فالقوم: اسم جمع وقد أبهمه هنا وكذلك قوله في الأعراف: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٣٧] الآية، فإنه أبهم فيه القوم أيضاً ولكنه بيّن في سورة الشعراء، أنّ المراد بأولئك القوم بنو إسرائيل لقوله في القصة بعينها: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء] الآية. ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [النمل]، فإنه أبهم هؤلاء القوم هنا ولكنه أشار إلى أنهم سبأ بقوله عن الهدهد مقرأ له: ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بَنُو يَافِثَ ﴿٣٧﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَلِيكَهُمْ﴾ [النمل: ٢٢-٢٣]، ومثال الإجمال بسبب الإبهام في صلة موصول قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْتَمِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١] فقد أبهم هنا هذا المتلو عليهم الذي هو صلة الموصول ولكنه بيّنه بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهُنَّ وَأَبْهُنَّ﴾ [المائدة: ٣] الآية، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، فإنه أبهم هنا هؤلاء الذين أنعم عليهم، ولكنه بين المراد بهم بقوله: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، فإنه هنا أبهم هذا الذي أخفاه ﷺ، في نفسه وأبداه الله، ولكنه أشار إلى أنّ المراد به زواجه زينب بنت جحش حيث أوحى إليه ذلك وهي في ذلك الوقت تحت زيد بن حارثة؛ لأن زواجه إياها هو الذي أبداه الله بقوله: ﴿فَلَمَّا فَصَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرَ زَوْجَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وهذا هو التحقيق في معنى الآية الذي دل عليه القرآن وهو اللائق بجنابه ﷺ، وبه تعلم أنّ ما يقوله كثير من المفسرين من أنّ ما أخفاه في نفسه ﷺ، وأبداه الله وقوع زينب في قلبه ومحبه

لها وهي تحت زيد وأنها سمعته قال: «سبحان مقلب القلوب» إلى آخر القصة فإنه كله لا صحة له، والدليل عليه أن الله لم يبد من ذلك شيئاً مع أنه صرح بأنه مبدي ما أخفاه رسوله ﷺ. وسترى إن شاء الله تحقيق المقام في هذه المسألة في سورة الأحزاب.

ومثال الإيهام في معنى حرف قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [المنافقون: ١٠]، فإن لفظة «من» فيه للتبعض ولكن هذا البعض المدلول عليه بحرف التبعض المأمور بإنفاقه مبهم هنا، وقد بينه تعالى بقوله: ﴿وَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ﴾ [البقرة: ٢١٩] الآية، والغفو الزائد على الحاجة الضرورية، وسترى إيضاحه في أول سورة البقرة، إن شاء الله تعالى.

ومن أنواع البيان في هذا الكتاب المبارك بيان الإجمال الواقع بسبب احتمال في مفسر الضمير وهو كثير، ومن أمثلته قوله تعالى في سورة العاديات: ﴿وَإِنَّكُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات]، فإن الضمير يحتمل أن يكون عائداً إلى الإنسان، وأن يكون عائداً إلى رب الإنسان المذكور في قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات]، ولكن النظم الكريم يدل على عوده إلى الإنسان وإن كان هو الأول في اللفظ بدليل قوله بعده: ﴿وَإِنَّكُمْ لِحِثِّ الْخَبِيرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات]، فإنه للإنسان بلا نزاع، وتفريق الضمائر بجعل الأول للرب والثاني للإنسان لا يليق بالنظم الكريم.

ومن أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك أن يذكر شيء في موضع ثم يقع سؤال عنه وجواب في موضع آخر كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة]، فإنه لم يبين هنا ما المراد بالعالمين، ولكنه وقع سؤال عنهم وجواب في موضع آخر، وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣، ٢٤] الآية، وسؤال فرعون هذا - لعنه الله - وإن كان في الأصل عن الرب جل وعلا، فقد دخل فيه الجواب عن المراد بالعالمين كما ترى، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة]، فإنه لم يبينه هنا مع أنه وقع سؤال عنه وجواب في موضع آخر وهو قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الأنعام: ١٧ - ١٩] الآية.

ومن أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك أن يكون الظاهر المتبادر من الآية بحسب الوضع اللغوي غير مراد بدليل قرآني آخر على أن المراد غيره ومثاله قوله تعالى: ﴿الطَّلَقُ مَرَّتَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩] الآية، فإن ظاهره المتبادر منه أن الطلاق كله محصور في المرتين، ولكنه تعالى بين أن المراد بالمحصور في المرتين خصوص الطلاق الذي تملك بغده الرجعة بقوله: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، فإن المتبادر من مفهوم الغاية أنه إذا بلغ أشده، فلا مانع من قربان ماله بغير التي

هي أحسن، ولكنه تعالى بين أن المراد بالغاية أنه إن بلغها يدفع إليه ماله إن أونس منه الرشد، وذلك في قوله: ﴿حَقٌّ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦] الآية.

ومن أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، ويكون في نفس الآية قرينة تدل على بطلان ذلك القول، ومثاله قول أبي حنيفة رحمته الله: إن المسلم يقتل بالكافر الذمي مثلاً قائلاً: إن ذلك يفيد عموم النفس بالنفس في قوله: ﴿وَكُنِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالْيَسْنَ بِالْيَسَنِ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥] الآية، فإن قوله تعالى في آخر الآية: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥] الآية، قرينة على عدم دخول الكافر؛ لأن صدقته لا تكفر عنه شيئاً إذ لا تنفع الأعمال الصالحة مع الكفر، كما سترى تحقيقه في المائدة: إن شاء الله تعالى، ومن أمثلته قول الحسن البصري رحمته الله: إن المراد بابني آدم في قوله: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ [المائدة: ٢٧] الآية، رجلان من بني إسرائيل فإن قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣١] الآية، دليل على أن ذلك وقع في مبدأ الأمر قبل أن يعلم الناس دفن الموتى، أما في زمن بني إسرائيل فلا يخفى دفن الموتى على أحد، ولا يحتاج إسرائيلي المراد بقوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَكُمْ مِنْكُمْ مَثَافِئَهُ فِرَاقًا يُثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ [المائدة: ٩٥]، أنه متعمد لقتله ناس لإحرامه، فإن قوله تعالى في آخر الآية: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ [المائدة: ٩٥]، يدل على أنه مرتكب معصية والناسي لإحرامه غير مرتكب إثماً حتى يقال فيه ليدوق وبال أمره، ومن أمثلته قول كثير من الناس: إن آية الحجاب أعني قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣] الآية، خاصة بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم، فإن تعليله تعالى لهذا الحكم الذي هو إيجاب الحجاب بكونه أظهر لقلوب الرجال والنساء من الريبة في قوله: ﴿ذَلِكُمْ أَظْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، قرينة واضحة على قصد تعميم الحكم، إذ لم يقل أحد من جميع المسلمين: إن غير أزواج النبي صلى الله عليه وسلم لا حاجة إلى طهارة قلوبهن، ولا إلى طهارة قلوب الرجال من الريبة منهن، وقد تقرر في الأصول أن العلة قد تعمم معلولها وإليه أشار في مراقي السعود بقوله:

وقد تَخِصَّصَ وقد تعمم لأصلها لكنها لا تخرم

وسترى - إن شاء الله - تحقيق مسألة الحجاب في سورة الأحزاب، ومن أمثلته قول بعض أهل العلم: إن أزواجه صلى الله عليه وسلم، لا يدخلن في أهل بيته في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣] الآية، فإن قرينة السياق صريحة في دخولهن؛ لأن الله تعالى قال: ﴿قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُحِدْنَ﴾ [الأحزاب: ٢٨]، ثم قال في نفس خطابه لهن: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. ثم قال بعده: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَكُنْ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٤] الآية.

وأجمع جمهور علماء الأصول على أن صورة سبب النزول قطعية الدخول فلا يصح إخراجها بمخصص، وروي عن مالك: أنها ظنية الدخول، وإليه أشار في مراقبي السعود بقوله:

واجزم بإدخال ذوات السبب وارو عن الإمام ظناً تصب

فالحق أنهم داخلات في الآية، وسترى - إن شاء الله - تحقيق ذلك في سورة الأحزاب.

ومن أنواع البيان التي تضمنها أيضاً أن يذكر وقوع شيء في القرآن، ثم يذكر في محل آخر كيفية وقوعه كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [البقرة: ٥١] الآية، فإنه لم يبين هنا كيفية الوعد بها هل كانت مجتمعة أو مفرقة؟ ولكنه بينها في الأعراف بقوله: ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْتَهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِيقَتُ رَبِّيهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢]، ومن أمثله قوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَشَرُّ نَظَرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠]، فإنه بين كيفية إغراقه لهم في مواضع آخر كقوله: ﴿أَنِّي أَضْرِبُ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَاتَّقَلَّتْ﴾ [الشعراء: ٦٣] الآية، وقوله: ﴿فَأَضْرِبْ لَهُمُ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: ٧٧] الآية، ومن هذا القبيل أن يذكر وقوع أمر من غير تعرض إلى كونه وقع أولاً بتنجز أو تعليق، ثم يبين ذلك في موضع آخر، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤] الآية، فإنه لم يبين هنا هل ذلك الأمر بالسجود وقع أولاً بتنجز أو تعليق وقد بين في (الحجر) و(ص) أنه وقع أولاً معلقاً قال في الحجر: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلَاسِلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿١٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الحجر: ١٨-١٩]. وقال في سورة ص: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [ص: ٧٦-٧٧].

ومن أنواع البيان المذكورة فيه أن يقع طلب لأمر، ويبين في موضع آخر المقصود من ذلك الأمر المطلوب، ومثاله قوله تعالى في الأنعام: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَكُلَّ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَّفُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [الأنعام: ٨] الآية، فإنه بين في الفرقان أن مرادهم بالملك المقترح إنزاله أن يكون نذيراً آخر معه ﷺ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الفرقان: ٧].

ومن أنواع البيان التي تضمنها أيضاً أن يذكر أمر في موضع، ثم يذكر في موضع آخر شيء يتعلق بذلك الأمر، كأن يذكر له سبب أو مفعول أو ظرف مكان أو ظرف زمان أو متعلق: فمثال ذكر سببه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، فإنه لم يبين هنا سبب قسوة قلوبهم ولكنه بينه بقوله: ﴿فِيمَا تَقْضِيهِمْ لِيُنْشِقُّهُمْ لَعْنُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]. وقوله: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]. ومن أمثلة ذكر السبب قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، فإنه أشار هنا لسبب اسودادها بقوله: ﴿فَأَمَّا

الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ ﴿١٠٦﴾ [آل عمران: ١٠٦] الآية، وقد بيّنه في مواضع آخر كقوله: ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]، ونحوها من الآيات كما سترى - إن شاء الله - تحقيقه في آل عمران.

ومن أمثلة ذكر المفعول الواحد قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ ﴿١٦﴾ [النازعات]، فإنه لم يذكر هنا مفعول بخشي، ولكنه أشار إليه في هود والذاريات وإيضاحه أن الإشارة في قوله هنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ ﴿١٦﴾ [النازعات]، راجعة إلى ما أصاب فرعون من النكال والعذاب المذكور في قوله: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ ﴿١٥﴾ [النازعات]. فإذا عرفت ذلك فاعلم أنه تعالى صرح في سورة هود بأن فيما أصاب فرعون من العذاب آية لمن خاف عذاب الآخرة فصرح بأن الخوف واقع على عذاب الآخرة فهو المفعول، والخوف المذكور في هود هو الخشية المذكورة في النازعات فقوله في هود: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٧٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ﴾ [هود: ٩٧ - ٩٨]، إلى قوله: ﴿الْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩]. وقوله بعده: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣] يدل على أن المفعول المحذوف في النازعات هو عذاب الآخرة لتصريحه تعالى به في نفس القصة في هود ويؤيده قوله تعالى في الذاريات: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الذاريات] الآية؛ لأن قوله: ﴿وَفِي مُوسَى﴾ [الذاريات: ٣٨]، معطوف على قوله: ﴿وَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات]، فيكون المعنى: وتركنا في قصة فرعون مع موسى وما أصابه من العذاب بسبب تكذيبه له آية للذين يخافون العذاب الأليم، ففيه بيان المفعول وأنه عذاب الآخرة، كما ذكر في هود، وسترى - إن شاء الله - إيضاحه في النازعات، ومثاله في أحد المفعولين قوله: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٥١] الآية، ونحوها من جميع آيات اتخاذهم العجل إلهاً فإن المفعول الثاني محذوف في جميعها، وتقديره اتخذتم العجل إلهاً ونكتة حذفه دائماً التنبيه على أنه لا ينبغي أن يتلفظ بأن عجلاً مصطنعاً إله، وقد أشار إلى هذا المفعول في طه بقوله: ﴿فَكَذَّبْتَكَ أَلْفَى السَّامِئِ ﴿٧٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُمْ خَوَافاً فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ [طه: ٨٧ - ٨٨].

ومثال ذكر ظرف المكان قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢﴾ [الفاتحة]، ثم بين في سورة الروم، أن السموات والأرض من الظروف المكانية لحمده جلّ وعلا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ١٨] الآية. ومثال ذكر ظرف الزمان قوله تعالى في القصص: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠] وقوله في أول سبأ: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١]، فبين أن الدنيا والآخرة من الظروف الزمانية لحمده، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: ١٤٣]، فإنه بيّن في النساء أن شهادة الرسول واقعة يوم القيامة وذلك في قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى

هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿١٨﴾ يَوْمَئِذٍ يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ شِئَىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ ﴿[النساء: ٤١]،
 [٤٢]، ومثال ذكر المتعلق بقوله تعالى في النساء: ﴿وَحَرِصَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بَأْسَ
 الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: ٨٤] الآية. فإنه لم يبين هنا متعلق التحريض ولكنه بينه في الأنفال
 بقوله: ﴿وَحَرِصَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥] الآية. ومن أمثلته قوله تعالى:
 ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٣٣] وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ
 يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] الآية. فإنه ذكر في البقرة لإتيانه جل وعلا يوم القيامة متعلقاً،
 وذلك في قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] الآية.
 فالجار والمجرور الذي هو قوله في ظلل يتعلق بقوله: يأتيتهم ومن أمثلته قوله: ﴿وَإِذَا
 أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ [الرحمن: ٣٧] الآية. وقوله: ﴿وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ
 ﴿[الحاقة: ١٦]﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، فقد ذكر لانشقاقها متعلقاً في
 الفرقان في قوله: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ﴾ [الفرقان: ٢٥] الآية.

ومن أنواع البيان المذكورة في هذا الكتاب المبارك الاستدلال على أحد المعاني
 الداخلة في معنى الآية بكونه هو الغالب في القرآن فغلبته فيه دليل على عدم خروجه من
 معنى الآية، ومثاله قوله تعالى: ﴿لَاغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، فقد قال بعض
 العلماء: إن المراد بهذه الغلبة، الغلبة بالحجة والبيان، والغالب في القرآن هو استعمال
 الغلبة في الغلبة بالسيف والسنان، وذلك دليل واضح على دخول تلك الغلبة في الآية؛
 لأن خير ما يبين به القرآن القرآن فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ﴾
 [آل عمران: ١٢] وقوله: ﴿وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ [النساء: ٧٤].
 وقوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبَرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنْ
 الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٦٥]. وقوله: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ
 مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦٦] الآية. وقوله: ﴿لَمْ يَغْلِبِ الرُّومُ﴾
 فِي أَذَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ مُسْتَغْلِبُونَ ﴿[الروم: ١-٤]، إلى
 غير ذلك من الآيات، وقد يكون المعنى المذكور متكرراً قصده في القرآن، إلا أنه ليس
 أغلب من قصد سواه، والاستدلال به مذكور في هذا الكتاب أيضاً، وهو دون الأول
 في الرتبة، فلا استدلال به شبه الاستثناس، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾
 [البقرة: ١٩]، فقد قال بعض أهل العلم: معناه مهلكهم. وإطلاق الإحاطة وإرادة
 الإهلاك متكرر في القرآن، إلا أنه ليس أغلب في معنى الإحاطة في القرآن ومنه قوله
 تعالى: ﴿وَقَلَّبْنَا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله: ﴿لَنَأْتِيَنَّ بِهِ جَمِيعًا إِلَّا أَنْ يَحِطَّ
 بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]، على أحد القولين وقوله: ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ﴾ [الكهف: ٤٢] الآية.
 وسترى هذا المبحث في سورة البقرة، إن شاء الله تعالى.

ومن هذا النوع إطلاق الظلم على الشرك كقوله: ﴿وَلَوْ يَلْسُوا بِمَنْهُمْ يَطْمُرُ﴾
 [الأنعام: ٨٢]. وقوله: ﴿إِنَّكَ أَلْشَرُّ لَطَمُ﴾ [لقمان: ١٣]. وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمْ

الظَّالِمُونَ ﴿البقرة: ٢٥٤﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس]، كما ستره - إن شاء الله تعالى - في البقرة والأنعام.

ومن أنواع البيان المذكورة في هذا الكتاب المبارك وهو من أهمها بيان أن جميع ما وصف الله به نفسه في هذا القرآن العظيم من الصفات كالاستواء واليد والوجه ونحو ذلك من جميع الصفات، فهو موصوف به حقيقة لا مجازاً مع تنزيهه - جل وعلا - عن مشابهة صفات الحوادث سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، وذلك البيان العظيم لجميع الصفات في قوله - جلّ وعلا -: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فنفى عنه مماثلة الحوادث بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وأثبت له الصفات على الحقيقة بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وسترى - إن شاء الله - تحقيق هذا المبحث وإيضاحه بالآيات القرآنية بكثرة في سورة الأعراف.

ومن أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك أنا إذا بيّنا قرآناً بقرآن في مسألة يخالفنا فيها غيرنا، ويدعي أن مذهبه المخالف لنا يدل عليه قرآن أيضاً، فإننا نبين بالسنة الصحيحة صحة بياننا وبطلان بيانه، فيكون استدلالنا بكتاب وسنة، فإن استدل من خالفنا بسنة أيضاً مع القرآن الذي استدل به، فإننا نبين رجحان ما يظهر لنا أنه الراجح، وكذلك إذا استدل مخالفنا بقرآن ولم يقدّم دليل من سنة شاهدنا لنا ولا له، فإننا نبين وجه رجحان بياننا على بيانه.

مثال الأولى من هذه المسائل الثلاث قولنا: إن قراءة ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦]، بالخفض المفهومة مسح الرجلين في الوضوء تبينها قراءة ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالنصب الصريحة في الغسل فهي مبينة وجوب غسل الرجلين في الوضوء، فيفهم منها أن قراءة الخفض لأجل المجاورة للمخفض أو لغير ذلك من المعاني، كما ستره - إن شاء الله - مبيناً في المائدة، فيقول الشيعي القائل بمسح الرجلين في الوضوء: بل قراءة الخفض صريحة في المسح على الرجلين فهي مبينة أن قراءة النصب من العطف على المحل؛ لأن المجرور الذي هو برؤوسكم في محل نصب فنقول: السنة الصحيحة تدل على صحة بياننا وبطلان بيانك، كقوله ﷺ: «وَيُلِّ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ» وغير ذلك من الأحاديث الصحيحة المصراحة بوجوب غسل الرجلين في الوضوء، ولنا أيضاً أن نقول: لو سلمنا أن قراءة وأرجلكم بالخفض يراد بها المسح، فلا يكون ذلك المسح إلا على خف؛ لأن من أنزل عليه القرآن ﷺ، قيل له: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] ولم يمسح ﷺ، على رجله في الوضوء إلا على خفين، فتكون قراءة النصب مبينة لوجوب غسلهما، وقراءة الخفض مبينة لجواز المسح على الخفين، وسترى تحقيق هذه المسألة - إن شاء الله - في محلها من سورة المائدة.

ومثال المسألة الثانية من المسائل الثلاث المذكورة قولنا: إن الأظهر في القراء

في قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، أنها الأطهار بدليل قوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ] [١]، وإلزمنا الأمور بالطلاق فيه زمن الطهر لا زمن الحيض، فدل على أن العدة بالطهر، وتدل له السنة الصحيحة كقوله ﷺ في حديث ابن عمر: «فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ» والإشارة في قوله «فَتِلْكَ الْعِدَّةُ» لزمن الطهر الواقع فيه الطلاق، وهو تصريح من النبي ﷺ، بأن الطهر هو العدة، وتدل له التاء في ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ كما تقدم، واستدل من يقول: بأن القروء الحيضات بكتاب وسنة أيضاً، أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿وَالَّتِي يَلَيْسَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْ﴾ [الطلاق: ٤]، فإنه رتب العدة بالأشهر على عدم الحيض، فدل على أن أصل العدة بالحيض، وأن الأشهر بدل من الحيضات عند عدمها، وأما السنة فحديث اعتداد الأمة بحيضتين، وحديث «دعي الصلاة أيام أقرائك» وسترى تفصيل هذه المسألة وأدلة الفريقين في سورة البقرة - إن شاء الله. وقد ذكرنا أن كونها الأطهار أرجح دليلاً في نظرنا؛ لأن آيتها أصرح وحديثها المصرح بها أصح.

ومثال المسألة الثالثة من المسائل الثلاث المذكورة بياناً أن نائب الفاعل ربيون في قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، على قراءة البناء للمفعول بقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، ونحوها من الآيات، وبيانه أننا لو قلنا: إن نائب الفاعل ضمير النبي لزم على ذلك قتل كثير من الأنبياء في ميدان الحرب، كما تدل عليه صيغة كآين وتصريح الله تعالى بأنه كتب الغلبة لنفسه ولرسله ينفي ذلك نفيّاً لا خفاء به، لا سيما وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرُوا وَلَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣٤]، فإن قوله تعالى: ﴿وَلَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ صريح في أنه لا مبدل لكون الرسل غالبين؛ لأن غلبتهم لأعدائهم هي مضمون كلمة ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، فلا شك أنها كلماته التي صرح بأنها لا مبدل لها كما ذكره القرطبي وغير واحد، ونفى عن المنصور أن يكون مغلوباً نفيّاً باتاً بقوله: ﴿إِنْ يَصْرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وقد أوضح تعالى أن المقتول من المتقاتلين ليس غالباً في قوله: ﴿وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ الآية [النساء: ٧٤]، حيث جعل الغالب قسماً مقابلاً للمقتول، ومعلوم ضرورة من اللسان الذي نزل به القرآن المقتول من المتقاتلين ليس بغالب، فهذا يبين بإيضاح أن نائب الفاعل ربيون، ويستشهد له بقراءة قتل بالتشديد؛ لأن التكرير المدلول عليه بالتشديد يدل على وقوع القتل على الربيين، ولأجل هذه القراءة رجح الزمخشري وابن جني والبيضاوي والألوسي وغيرهم أن نائب الفاعل ربيون، وقد قدمنا أننا لا نعتمد في البيان على القراءة الشاذة، وإنما نذكرها استشهاداً للبيان بقراءة سبعة كما هنا فيقول المخالف لنا في هذه المسألة كابن جرير، وابن إسحاق، والسهيلي - رحمهم الله - وغيرهم: قد دلت آيات أخر على أن نائب الفاعل ضمير النبي ﷺ وهي

الآيات المصرحة بوقوع القتل على بعض الأنبياء كقوله: ﴿فَفَرِّقَا كَذَبْتُمْ وَفَرِّقَا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، ونحوها من الآيات، وهي تبين أن القتل في محل النزاع واقع على النبي ﷺ فنقول: يجب تقديم بياننا على بيانكم من ثلاثة أوجه:

الأول: أن الآيات المصرحة بقتل الكفار بعض الرسل التي هي دليل بيانكم أعم من محل النزاع؛ لأن النزاع في قتل الرسل في ميدان الحرب خاصة دون غيره، والآيات التي دلت على قتل بعض الرسل ليست واحدة منها في خصوص القتال البتة، والبيان لا يكون بالأعم؛ لأن الدليل على الأعم ليس دليلاً على الأخص؛ لإطباق العقلاء كافة على أن وجود الأعم لا يقتضي وجود الأخص؛ فمطلق قتل الرسول لا يدل على كونه في جهاد؛ لأنه أعم من كونه في جهاد أو غيره كما هو واضح، بخلاف البيان الذي ذكرنا بقوله: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، ونحوها، فإنه في محل النزاع؛ لأنه يصرح بأن الرسل غالبون، وهو نص في أن الرسول المقاتل غير مقتول؛ لأن المقتول غير غالب كما بينه بقوله: ﴿فَيَقْتُلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ [النساء: ٧٤]، كما تقدم، ومعلوم أنه لا يعارض خاص في محل النزاع بأعم منه.

الوجه الثاني: أن البيان الذي ذكرناه تتفق به آيات القرآن العظيم على أفصح الأساليب العربية ولم يقع بينها تصادم البتة، وما ذكره المخالف يؤدي إلى أن تناقضها ومصادمة بعضها لبعض؛ لأن الرسول الذي لم يؤمر بجهاد إذا قتل لم يكن في ذلك إشكال ولا مناقضة لقوله: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، لأنه لم يؤمر بالمغالبة، فلا يصدق عليه أنه مغلوب ولا غالب لعدم وجود المغالبة من أصلها في حقه؛ لأنها إن عدمت من أصلها فلا يقال غالب ولا مغلوب؛ لأن الغلبة صفة إضافية لا تقوم إلا بين متغالبين بخلاف قتل الرسول المأمور بالمغالبة في الجهاد، فإنه مناقض لقوله: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، والله يقول فيما وعد به رسوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّئِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

الثالث: أن جميع الآيات الدالة على قتل بعض الرسل المستدل بها على صورة النزاع كلها واردة في قتل الرسل في غير جهاد، كقتل بني إسرائيل أنبياءهم ظلماً في غير قتال، وسترى - إن شاء الله تعالى - تحقيق هذا المبحث في آل عمران، والصفافات والمجادلة، وربما كان في الآية الكريمة أقوال كلها حق وكل واحد منها يشهد له قرآن، فإننا نذكرها ونذكر القرآن الدال عليها من غير تعرض لترجيح بعضها؛ لأن كل واحد منها صحيح، ومثاله قوله تعالى في أول الأنعام: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٣]، فإن فيه للعلماء ثلاثة أقوال:

الأول: أن المعنى وهو الإله، أي المعبود بحق في السموات والأرض، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤].

الثاني: أن قوله: في السموات وفي الأرض متعلق بقوله: يعلم سرهم وعليه فالمعنى وهو الله يعلم سرهم وجهركم في السموات والأرض، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [الفرقان: ٦].

الثالث: وهو اختيار ابن جرير أن الوقف على قوله: ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾ متعلق بقوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ [الأنعام: ٣]، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ءَأْمَنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ﴾ الآية [الملك: ١٦]، وسترى - إن شاء الله - إيضاحه في الأنعام.

ومن أنواع البيان المذكورة فيه تفسير اللفظ بلفظ أشهر منه وأوضح عند السامع كقوله في حجارة قوم لوط: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ الآية [الحجر: ٧٤]، فإنه تعالى بين في الذاريات في القصة بعينها أن المراد بالسجيل الطين، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَى قَوْمٍ ثَغْرَيْنَ لِنُزِيلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣] الآية.

ومن أنواع البيان المذكورة فيه أن يرد لفظ محتمل لأن يراد به الذكر وأن تراد به الأنثى، فيبين المراد منهما، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَنُفَسٍّ﴾ الآية [البقرة: ٧٢]، فإن النفس تطلق على الذكر والأنثى، وقد أشار تعالى إلى أنها هنا ذكر بتذكير الضمير العائد إليها في قوله: ﴿فَقُلْنَا أَصْرَبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ الآية [البقرة: ٧٣].

ومن أنواع البيان المذكورة فيه أن يكون الله خلق شيئاً لحكم متعددة فيذكر بعضها في موضع، فإنما نبين البقية المذكورة في المواضع الأخر، ومثاله قوله تعالى في الأنعام: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ الآية [الأنعام: ٩٧]، فإن من حكم خلق النجوم تزيين السماء الدنيا ورجم الشياطين أيضاً كما بينه تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]. وقوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُوْكُبِ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: ٧].

ومن أنواعها أن يذكر أمر أو نهى في موضع، ثم يبين في موضع آخر هل حصل الامتثال في الأمر أو النهي أو لا؟ وكذلك أن يذكر شرط ثم يذكر في موضع آخر هل حصل ذلك الشرط أو لا؟

فمثال الأمر قوله تعالى لنبيه ﷺ والمؤمنين: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦] إلى قوله: ﴿لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٣٦].

فقد بين أنهم امتثلوا هذا الأمر بقوله: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، إلى قوله: ﴿لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ومثال النهي قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ [النساء: ١٥٤]، فقد بين أنهم لم يمتثلوا بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ الآية [البقرة: ٦٥]، وقوله: ﴿وَسَأَلْتَهُم عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ الآية [الأعراف: ١٦٣]، والمراد بعضهم.

ومثال الشرط قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَزُودَكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ أَسْتَطَعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧]، فقد بين في أول المائدة أنهم لم يستطيعوا بقوله: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وقد بينه أيضاً بقوله في براءة والفتح والصف: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣].

ومن أنواع البيان المذكورة فيه أن يذكر أن شيئاً سيقع ثم يبين وقوعه بالفعل كقوله في الأنعام: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ الآية [الأنعام: ١٤٨]، وصرح في النحل، بأنهم قالوا ذلك بالفعل بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية [النحل: ٣٥].

ومن أنواع البيان المذكورة في هذا الكتاب المبارك أن يحيل تعالى على شيء ذكر في آية أخرى، فإنما نبين الآية المحال عليها كقوله في النساء: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ الآية [النساء: ١٤٠]، والآية المحال عليها هي قوله تعالى في الأنعام: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨]. ومن أمثلته قوله تعالى في النحل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا فَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ الآية [النحل: ١١٨]، والمراد به ما قص عليه في الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ الآية [الأنعام: ١٤٦]. ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْتَ فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢] فإن محل الإتيان المعبر عنه بلفظة حيث المحال على الأمر به هنا أشير إليه في موضعين:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]؛ لأن قوله: ﴿فَأْتُوا﴾ أمر منه تعالى بالإتيان، وقوله: ﴿حَرْثَكُمْ﴾ يعين محل الإتيان وأنه في محل حرث الأولاد وهو القبل دون الدبر فانضح أن محل الإتيان المأمور به المحال عليه هو محل بذر الأولاد، ومعلوم أنه القبل، وسترى - إن شاء الله - تحقيق تحريم الإتيان في الدبر في سورة البقرة.

ثانيهما: قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ بَشِرُوا وَعَدُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]. فقولته تعالى: ﴿يَشْرُونَهُنَّ﴾ أي جامعوهن، والمراد بـ ﴿مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الولد على التحقيق، وهو قول الجمهور، وعليه فالمعنى جامعوهن ﴿وَأَتَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، أي ولتكن تلك المجامعة في محل ابتغاء الولد، ومعلوم أنه القبل دون غيره، وسترى إيضاحه - إن شاء الله تعالى - في محله.

ومن أنواع البيان المذكورة فيه أن يذكر شيئاً له أوصاف مذكورة في مواضع أخرى، فإنما نبين أوصافه المذكورة في تلك المواضع كقوله تعالى: ﴿وَنَدَخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧]، فإنما نبين صفات ظل أهل الجنة المذكورة في غير هذا الموضع كقوله: ﴿أَكْثُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، وقوله: ﴿وَزُلْزِلَ زَلْزَلًا﴾ [الواقعة: ١٠]، ونحو ذلك، ومنها أيضاً

أن يذكر وصف الشيء، ثم يذكر نقيض ذلك الوصف لضد ذلك الشيء كقوله في ظل أهل النار: ﴿أُطْلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [الأنعام: ١٦] ﴿أُطْلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ [الأنعام: ٢٠] لَا ظِلِّ وَلَا يَبْقَى مِنَ اللَّهِ ۖ [المرسلات]، مع ذكر أوصاف ظل أهل الجنة كما قدمنا.

ومن أهم أنواع البيان المذكورة فيه أن يشير تعالى في الآية من غير تصريح إلى برهان يكثر الاستدلال به في القرآن العظيم على شيء، فإننا نبين ذلك، ومثاله قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٦] ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]، فقد أشار تعالى في هذه الآية الكريمة إلى ثلاثة براهين من براهين البعث يكثر الاستدلال على البعث بكل واحد منها في القرآن.

الأول: خلق الخلائق أولاً فإنه من أعظم الأدلة على القدرة على الخلق مرة أخرى، وقد أشار تعالى إلى هذا البرهان هنا بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، وأوضحه في آيات كثيرة كقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]. وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، والآيات بمثل هذا كثيرة جداً.

الثاني: خلق السموات والأرض؛ لأن من خلق ما هو أكبر وأعظم فهو قادر على خلق ما هو أصغر بلا شك، وأشار لذلك هنا بقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢]، وأوضحه في آيات كثيرة كقوله: ﴿إِنَّمَا أَشَدُّ خَلْقًا أَرِ السَّمَاءَ بَنَاهَا﴾ [الأنعام: ٧٧] الآية [النازعات]. وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]. وقوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، والآيات بمثل هذا كثيرة أيضاً.

الثالث: إحياء الأرض بعد موتها، وقد أشار له هنا بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]، وأوضحه في آيات كثيرة كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ﴾ [فصلت: ٣٩]، وقوله: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩]. وقوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]، والآيات بمثل ذلك كثيرة أيضاً، وسترى إن شاء الله تعالى أمثلة كثيرة للبراهين الثلاثة المذكورة في محلها.

ومن أنواع البيان المذكورة فيه أن يذكر لفظ عام، ثم يصرح في بعض المواضع بدخول بعض أفراد ذلك العام فيه كقوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعْتِرَ اللَّهِ﴾ [الحج: ٣٢]، فقد صرح بدخول البدن في هذا العموم بقوله بعده: ﴿وَالْبَدَنُ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعْتِرِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣٦].

واعلم: أن مما التزمنا في هذا الكتاب المبارك أنه إن كان للآية الكريمة مَبْنِيٌّ من القرآن غير واف بالمقصود من تمام البيان فإننا نتمم البيان من السنة من حيث إنها تفسير

للمبين باسم الفاعل، ومثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، فقد أشار تعالى إلى أوقاتها في قوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ أَشْمِينَ﴾ الآية [الإسراء: ٧٨]، وقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ الآية [هود: ١١٤]، وقوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ الآية [الروم]، على ما ذكره جمع من العلماء من أنها في أوقات الصلاة وكقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، على القول بأنها في الزكاة وأنها غير منسوخة، فإنها تشير لها آيات الزكاة كقوله: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقوله: ﴿وَمِمَّا أَرْجَبْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وكقوله: ﴿قُلْ لَا أَمِدُّ فِي مَا أُرْحَىٰ إِلَىٰ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَائِفَةٍ يَطْعَمُهُ﴾ الآية [الأنعام: ١٤٥]، فإن القرآن زيد فيه على هذا الحصر تحريم الخمر فبين ما زاده ﷺ بالسنة الصحيحة، فمثل هذه المسائل نبينها بياناً تاماً بالسنة تبعاً للبيان القرآني.

واعلم: أن الغالب في الأمثلة التي ذكرناها تعددها في القرآن بكثرة، ومنها ما يتعدد من غير كثرة وربما ذكرنا فرداً من أفراد البيان لا نظير له كإشارته تعالى إلى أقل أمد الحمل بقوله: ﴿وَحَمْلُهُمْ وَفَصْلُهُمْ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحاف: ١٥]. مع قوله: ﴿وَفَصْلُهُمْ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، فلم يبقَ للحمل من الثلاثين شهراً بعد عامي الفصال إلا ستة أشهر، فدل ذلك على أنها أمد للحمل يوضع فيه تاماً.

واعلم: أن أقسام البيان في هذا الكتاب المبارك بالنسبة إلى المنطوق والمفهوم أربعة؛ لأن كلا من المبين باسم المفعول والمبين باسم الفاعل قد يكون منطوقاً، وقد يكون مفهوماً، فالمجموع أربع من ضرب حالتي المنطوق في حالتي المفهوم.

الأولى: بيان منطوق بمنطوق كبيان قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يَتَلَبَّسُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١]. وبقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ الآية [المائدة: ٣].

الثانية: بيان مفهوم بمنطوق كبيان مفهوم قوله: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، بمنطوق قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي مَا آذَانُهُمْ وَفَرُّهُ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ﴾ [فصلت: ٤٤] وقوله: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

الثالثة: بيان منطوق بمفهوم كبيان قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ﴾ الآية [المائدة: ٣]. بمفهوم آية الأنعام، فإن تحريم الدم مطلقاً منطوق هنا وقوله تعالى في الأنعام: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]، يدل بمفهوم مخالفته على أن غير المسفوح ليس كذلك فبين هذا المفهوم أن المراد بالدم في الآية الأولى غير المسفوح، ومن أمثله بيان قوله: ﴿وَالزَّانِي﴾ [النور: ٢]، بمفهوم الموافقة في قوله: ﴿فَعَلَيْنَّ نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]، فإنه يفهم من مفهوم موافقته أن العبد الذكر كالأمة في ذلك يجلد خمسين جلدة، فبين هذا المفهوم أن المراد بالزاني خصوص الحر.

واعلم: أن مثل هذا من مفهوم الموافقة يسميه الشافعي وبعض الأصوليين قياساً،

وهو المعروف عندهم بالقياس في معنى الأصل، ويسمى مفهوم الموافقة، وإلغاء الفارق، وتنقيح المناط، وأكثر أهل الأصول على أنه مفهوم وليس بقياس، كما سترى تحقيقه في مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، ومن أمثلة بيان المنطوق بالمفهوم قوله في الخمر: ﴿رَجَسَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة: ٩٠]، فإنه يدل على أنها نجسة العين؛ لأن الرجس هو المستقذر الخبيث ويدل عليه مفهوم قوله في شراب الآخرة: ﴿وَسَقَلَهُمْ رَئِيمٌ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]؛ فإن مفهومه أن خمر أهل الدنيا ليست كذلك كما قاله الفراء وغير واحد، وسترى إيضاحه في المائدة إن شاء الله تعالى.

الرابعة: بيان مفهوم بمفهوم ومثاله قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٥]، على القول بأن المراد بالمحصنات الحرائر، كما روي عن مجاهد فإنه يدل بمفهومه على أن الأمة الكتابية لا يجوز نكاحها، ويدل لهذا أيضاً مفهوم قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥]، فمفهوم قوله: المؤمنات يدل على منع تزويج الإماء الكافرات ولو عند الضرورة، وهو بيان مفهوم بمفهوم كما ترى.

واعلم - وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه -: أن هذا الكتاب المبارك تضمن أنواعاً كثيرة جداً من بيان القرآن بالقرآن غير ما ذكرنا تركنا ذكر غير هذا منها خوف إطالة الترجمة، والمقصود بما ذكرنا من الأمثلة مطلق بيان كثرة الأنواع التي تضمنها واختلاف جهاتها - وفي البعض تنبيه لطيف على الكل - والغرض أن يكون الناظر في الترجمة على بصيرة مما يتضمنه الكتاب في الجملة قبل الوقوف على جميع ما فيه.



مقدمة في تعريف الإجمال والبيان في اصطلاح أهل الأصول

اعلم أولاً أن المجمل في اللغة: هو المجموع، وجملة الشيء مجموعه، وأما في الاصطلاح فقد اختلفت فيه عبارات أهل الأصول، والتحقيق: أنه هو ما احتمل معنيين أو أكثر من غير ترجح لواحد منهما أو منها على غيره، وعرفه في مراقي السعود بقوله:

وذو وضوح محكم والمجمل هو الذي المراد منه يجهل

واعلم أن المبهم أعم من المجمل عموماً مطلقاً، فكل مجمل مبهم، وليس كل مبهم مجملاً، فمثل قولك لعبدك: تصدق بهذا الدرهم على رجل، فيه إبهام وليس مجملاً؛ لأن معناه لا إشكال فيه؛ لأن كل رجل تصدق عليه به حصل به المقصود، والدليل على أن المجمل هو ما ذكرنا أن اللفظ لا يخلو من أحد أمرين:

إما أن يدل على معنى واحد لا يحتمل غيره فهو النص نحو: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وإما أن يحتمل غيره، وهذا له حالتان:

الأولى: أن يكون أحد المحتملين أظهر.

والثانية: أن يتساويا بأن لا يكون أحدهما أظهر من الآخر، فإن كان أحد المعنيين أظهر فهو الظاهر ومقابله محتمل، وإن استويا فهو المجمل كما ذكرنا، وحكم النص أنه لا يعدل عنه إلا بنسخ، وحكم الظاهر أنه لا يعدل عنه إلا بدليل أقوى منه يدل على صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه إلى المحتمل المرجوح، وحكم المجمل أن يتوقف فيه حتى يدل دليل مبين للمقصود من المحتملين، وصرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه إلى المحتمل المرجوح هو المعروف في اصطلاح أهل الأصول بالتأويل، وسيأتي إيضاح أنواع التأويل كلها - إن شاء الله تعالى - في سورة آل عمران.

واعلم أن اللفظ قد يكون واضح الدلالة من وجه مجملاً من وجه آخر كقوله تعالى: ﴿وَمَأْتُوا حَقُّهُ يَوْمَ حَصَادِهِمُ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فإنه واضح في إيتاء الحق، مجمل في مقداره؛ لاحتماله النصف أو أقل أو أكثر، وإلى هذا أشار في مراقي السعود بقوله:

وقد يجي الإجمال من وجه ومن وجه يراه ذا بيان من فطن

وأما البيان فهو لغة: اسم مصدر بمعنى التبيين، وهو الإيضاح والإظهار كالسلام بمعنى التسليم، والكلام بمعنى التكليم، والطلاق بمعنى التطلق، وقد يطلق على المبين والمبين؛ بالكسر والفتح، ومن أهل الأصول من يطلق البيان على كل إيضاح سواء أتقدمه خفاء أم لا، وكثير من الأصوليين لا يطلقون البيان بالاصطلاح الأصولي إلا على

إظهار ما كان فيه خفاء وعليه درج في مراقي السعود بقوله معرفاً للبيان في الاصطلاح:

تصيير مشكل من الجلي وهو واجب على النبي
إذا أريد فهمه وهو بما من الدليل مطلقاً يجلو العمي

فكل ما يزيل الإشكال يسمى بياناً في الاصطلاح بمعنى المبين بالكسر، وسترى - إن شاء الله - في هذا الكتاب المبارك من أنواع البيان وأنواع ما به البيان ما فيه كفاية.

واعلم أن التحقيق جواز بيان المتواتر من كتاب أو سنة بأخبار الآحاد، وكذلك يجوز بيان المنطوق بالمفهوم كما قدّمنا خلافاً لقوم منعوا ذلك زاعمين أن المنطوق أظهر من المفهوم والأظهر لا يبين بالأخفى، وحكاه الباجي عن أكثر المالكية وأجيب بأنه ما كل منطوق يقدم على المفهوم بل بعض المفاهيم أقوى دلالة على الأمر من دلالة المنطوق عليه، ألا ترى أن دلالة مفهوم حديث «في الغنم السائمة زكاة» عند من لا يرى الزكاة في المعلوفة أظهر في عدم الزكاة في المعلوفة، من دخولها في عموم منطوق حديث [في أربعين شاة شاة]؛ لأن المفهوم أخص بها وأقوى دلالة فيها من عموم المنطوق، وإلى هذا أشار في مراقي السعود بقوله:

وبين القاصر من حيث السند أو الدلالة على ما يعتمد

فالبيان بالقاصر سنداً كبيان المتواتر بالآحاد، والبيان بالقاصر دلالة كبيان المنطوق بالمفهوم كما قدّمنا، والمراد بقصوره في الدلالة أغلبية ذلك لا لزومه في كل حال كما أشرنا إليه آنفاً، وحكى القاضي الباقلاني عن جماعة من العراقيين أن المبين بالفتح إن كان وجوبه يعم جميع المكلفين كالصلاة فلا يبين إلا بمتواتر، وإليه أشار في (مراقي السعود) بقوله:

وأوجب عند بعض علما إذا وجوب ذي الخفاء عما

ولا يخفى سقوط هذا القول وأنه لا وجه لرد حديث صحيح دال على بيان نص من غير معارض بدعوى أنه لم يتواتر ومنع بيان المتواتر مطلقاً بالآحاد أشد سقوطاً.

واعلم أن الأصوليين اختلفوا في البيان بالقول هل هو أقوى من البيان بالفعل أو لا؟ قال مقيده - عفا الله عنه -: الظاهر أن التحقيق في ذلك هو ما حققه أبو إسحاق الشاطبي رحمته، وهو أن كل واحد منهما أقوى من صاحبه من جهة، فالفعل يبلغ من بيان الكيفيات المعينة المخصوصة ما لا يبلغه القول، والقول يبلغ من بيان الخصوص والعموم في الأحوال والأشخاص ما لا يبلغه الفعل.

مسائل تتعلق بالبيان

المسألة الأولى: إذا ورد بعد المجمل قول وفعل، فلا يخلو الأمر من واحدة من

ثلاث حالات:

الأولى: أن يتفق القول والفعل . **الثانية:** أن يزيد الفعل على القول .

الثالثة: أن يزيد القول على الفعل ، فإن اتفق القول والفعل معاً ، فالمتقدم منهما هو المبين والثاني تأكيد له ، كما لو قال بعد نزول آية القطع في السرقة : القطع من الكوع ، وقطع بالفعل من الكوع وإن جهل المتقدم فالبيان بأحدهما لا بعينه ، وقال الآمدي : يتعين المرجوح إن كان أحدهما أرجح ؛ لأن المرجوح لا يكون مؤكداً للمراجح .

قال القرافي : وهو غير متجه ؛ لأن الأضعف يزيد في رتبة الظن الحاصلة قبله كزيادة شاهد على أربعة وإن زاد الفعل على القول ، كبيانه ﷺ ، أن كيفية الصوم هي صوم كل يوم بانفراده من غير وصال بين يومين ، مع أنه ﷺ ربما واصل ، فإن البيان يكون بالقول والفعل يدل على مطلق الطلب في حقه ﷺ ، خاصة بندب أو إيجاب تقدم القول أو تأخر ، وقال أبو الحسن البصري : المتقدم منهما هو البيان وألزم نسخ الفعل المتقدم مع إمكان الجمع ، قال المحلي : ولو نقص الفعل عن مقتضى القول كما لو طاف بعد نزول آية الحج طوافاً واحداً وأمر باثنين فقياس الأول أن القول هو البيان ونقص الفعل تخفيف عنه ﷺ ، تأخر الفعل أو تقدم ، وقياس ما لأبي الحسن أن البيان هو المتقدم ، وإلى هذه المسألة أشار في (مراقي السعود) بقوله :

والقول والفعل إذا توافقا	فانم البيان للذي قد سبقا
وإن يزد فعل فللقول انتسب	والفعل يقتضي بلا قيد طلب
والقول في العكس هو المبين	وفعله التخفيف فيه بين

المسألة الثانية: اعلم أنه لا يجوز تأخير البيان لمجمل أو ظاهر لم يرد ظاهره عن وقت الحاجة إلى العمل به ، وقال قوم : يجوز عقلاً لكنه لم يقع بالفعل ، وأجراه كثير منهم على الخلاف في مسألة التكليف بما لا يطاق ، وإلى هذه المسألة أشار في (مراقي السعود) بقوله :

تأخر البيان عن وقت العمل وقوعه عند المنجيز ما حصل

وذكر بعض المتأخرين عن ابن العربي المالكي أنه قال في كتابه المحصول : لحظت ذلك مدة ثم ظهر لي جوازه ، ولا يكون من تكليف ما لا يطاق بل رفعاً للحكم وإسقاطاً له في حق المكلف ، قال مقيده - عفا الله عنه - : وبناء على أن البيان لا يجوز تأخيره عن وقت الفعل صرحوا بأن التخصيص بعد العمل بالعام نسخ في البعض ، وكذلك التقييد بعد العمل بالمطلق ؛ لأن كلا من التخصيص والتقييد بيان وهو لا يتأخر عن وقت الفعل ، فإذا تأخر تعين النسخ ، وإليه أشار في (المراقي) في التخصيص بقوله :

وإن أتى ما خص بعد العمل نسخ والغیر مخصصاً جلی

وفي التقييد بقوله :

وإن يكن تأخر المقييد عن عمل فالنسخ فيه يعهد
تنبيه : فإن قيل : قد وقع تأخير البيان عن وقت الحاجة كما وقع في صبح ليلة

الإسراء، فإن جبريل عليه السلام، لم يبين للنبي ﷺ، كيفيتها ولا وقتها حتى ضاعت، فالجواب من وجهين أشار لهما العبادي في الآيات البيّنات:

أحدهما: أن وجوبها كان مشروطاً بالبيان قبل فوات وقتها ولم يبين له ﷺ؛ ولذا لم يفعلها أداء ولا قضاء. قال: ومن هنا يعلم أن الكلام في غير الوجوب المعلق على البيان، أما هو فلا يتصور فيه تأخير البيان عن وقت الفعل.

ثانيهما: أن الصلوات الخمس فرضت ليلة الإسراء على أن ابتداء الوجوب من ظهر ذلك اليوم فما بعده دون ما قبله.

المسألة الثالثة: أما تأخير البيان إلى وقت الحاجة إلى العمل به فالتحقيق أنه جائز وواقع وهو مذهب الجمهور ومقابله ثلاثة أقوال آخر:

الأول: أنه لا يجوز مطلقاً.

الثاني: أنه يجوز في المجمع دون ماله ظاهر غير مراد، كالعام والمطلق.

الثالث: عكس هذا وهو جوازه فيما له ظاهر غير مراد دون المجمع وهو أبعداها، وإلى هذه الأقوال أشار في (المراقبي) بقوله:

تأخيره للاحتجاج واقع وبعضنا هو لذاك مانع
وقيل بالمنع بما كالمطلق ثم بعكسه لدى البعض انطق

أما تأخير أصل التبليغ إلى وقت الحاجة، فقال بعض العلماء بجوازه أيضاً، وخالف فيه بعضهم، وقال الفخر الرازي وابن الحاجب والآمدي: لا يجوز تأخير تبليغ القرآن قولاً واحداً لأنه متعبد بتلاوته، ولم يؤخر ﷺ، تبليغه بخلاف غيره، وقال بعض أهل الأصول: قد يمنع تعجيل التبليغ ويجب تأخيره إلى وقت الحاجة إن كان يخشى من تعجيله مفسدة، قالوا: فلو أمر ﷺ، بقتال أهل مكة بعد سنة من الهجرة، وجب تأخير تبليغ ذلك للناس، لئلا يستعد العدو إذا علم ويعظم الفساد، ولذلك لما أراد عليه الصلاة والسلام قتالهم قطع الأخبار عنهم حتى دهمهم، وكان ذلك أيسر لغلبتهم وقهرهم، وإلى هذا أشار في (المراقبي) بقوله:

وجائز عدم تبليغ له ودرء ما يخشى أبقى تعجيله

والضمير في قوله: له عائد إلى الاحتياج في البيت المذكور قبله أي جائز تأخير التبليغ إلى وقت الاحتياج له.

المسألة الرابعة: لا يشترط في البيان أن يعلمه جميع المكلفين الموجودين في وقته، بل يجوز أن يكون بعضهم جاهلاً به ودليله الوقوع، فقد جاءت فاطمة الزهراء والعباس عليهما السلام أباً بكر عليه السلام يطلبان ميراثهما من النبي ﷺ، متمسكين بعموم ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ الآية [النساء: ١١] وعموم ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

وَالْأَنْبِيَاءُ ﴿النساء: ٣٣﴾، ولم يعلموا أنه ﷺ بيّن أن هذا العموم لا يتناول الأنبياء - صلوات الله عليهم وسلامه - بقوله: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث» الحديث، وإلى هذه المسألة أشار في (المراقي) بقوله:

ونسبة الجهل لذي وجود بما يخصص من الموجود
وسميته: «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» وهذا أوان الشروع في المقصود.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الفاتحة

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾. لم يذكر لحمده هنا ظرفاً مكانياً ولا زمانياً. وذكر في سورة الروم، أن من ظروفه المكانية: السموات والأرض في قوله: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [الروم: ١٨] - وذكر في سورة القصص أن من ظروفه الزمانية: الدنيا والآخرة في قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ الآية [القصص: ٧٠]، وقال في أول سورة سبأ: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١] والألف واللام في ﴿الْحَمْدُ﴾ لاستغراق جميع المحامد. وهو ثناء أثنى به تعالى على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه به.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. لم يبين هنا ما العالمون، وبيّن ذلك في موضع آخر بقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٣٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ الآية [الشعراء: ٢٣ - ٢٤].

قال بعض العلماء: اشتقاق العالم من العلامة؛ لأن وجود العالم علامة لا شك فيها على وجود خالقه متصفاً بصفات الكمال والجلال. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ وَآخِلَافِ الْإِنْسِ وَالتَّهَارِ لَاَيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ﴿١٦٠﴾ [آل عمران]، والآية في اللغة: العلامة.

قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. هما وصفان لله تعالى، واسمان من أسمائه الحسنى، مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، والرحمن أشد مبالغة من الرحيم؛ لأن الرحمن هو ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا، وللمؤمنين في الآخرة، والرحيم ذو الرحمة للمؤمنين يوم القيامة. وعلى هذا أكثر العلماء. وفي كلام ابن جرير ما يفهم منه حكاية الاتفاق على هذا. وفي تفسير بعض السلف ما يدل عليه، كما قاله ابن كثير، ويدل له الأثر المروي عن عيسى: كما ذكره ابن كثير وغيره أنه قال عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ رحمن الدنيا والآخرة و﴿الرَّحِيمُ﴾ رحيم الآخرة. وقد أشار تعالى إلى هذا الذي ذكرنا حيث قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]. وقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿٥٩﴾ [طه]، فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته. قاله ابن كثير ومثله قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَاتٍ وَيَقْرَأْنَ مَا يُمِسُّهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ [الملك: ١٩]، أي ومن رحمانيته: لطفه بالطير، وإمساكه إياها صافات وقابضات في جو السماء، ومن أظهر الأدلة في ذلك قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ [الرحمن]. إلى قوله: ﴿فَيَا أَيُّهَا رَبِّكَمَا﴾

تَكْذِبَانَ ﴿١٢﴾ [الرحمن]. وقال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، فخصهم باسمه الرحيم. فإن قيل: كيف يمكن الجمع بين ما قررتم، وبين ما جاء في الدعاء المأثور من قوله ﷺ: «رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما؟». فالظاهر في الجواب - والله أعلم - أن الرحيم خاص بالمؤمنين كما ذكرنا، لكنه لا يختص بهم في الآخرة، بل يشمل رحمتهم في الدنيا أيضاً، فيكون معنى رحيمهما رحمة المؤمنين فيهما.

والدليل على أنه رحيم بالمؤمنين في الدنيا أيضاً: أن ذلك هو ظاهر قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]؛ لأن صلاته عليهم وضلاة ملائكته وإخراجه إياهم من الظلمات إلى النور رحمة بهم في الدنيا. وإن كانت سبب الرحمة في الآخرة أيضاً، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُنْصَرَفِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة]، فإنه جاء فيه بالباء المتعلقة بالرحيم الجارة للضمير الواقع على النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار، وتوبته عليهم رحمة في الدنيا وإن كانت سبب رحمة الآخرة أيضاً. والعلم عند الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ﴿١٣﴾. لم يبينه هنا. وبينه في قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ ﴿١٤﴾ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا﴾ الآية [الانفطار: ١٧ - ١٨]. والمراد بالدين في الآية الجزاء. ومنه قوله تعالى ﴿يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥]، أي جزاء أعمالهم بالعدل.

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾. أشار في هذه الآية الكريمة إلى تحقيق معنى لا إله إلا الله؛ لأن معناها مركب من أمرين: نفي وإثبات. فالنفي: خلع جميع المعبودات غير الله تعالى في جميع أنواع العبادات، والإثبات: إفراد رب السموات والأرض وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه المشروع. وقد أشار إلى النفي من لا إله إلا الله بتقديم المعمول الذي هو ﴿إِيَّاكَ﴾. وقد تقرر في الأصول، في مبحث دليل الخطاب الذي هو مفهوم المخالفة. وفي المعاني في مبحث القصر: أن تقديم المعمول من صيغ الحصر. وأشار إلى الإثبات منها بقوله: ﴿نَعْبُدُ﴾. وقد بين معناها المشار إليه هنا مفصلاً في آيات آخر كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢١]، فصرح بالإثبات منها بقوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]. وصرح بالنفي منها في آخر الآية الكريمة بقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]. وكقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فصرح بالإثبات بقوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النحل: ٢٦]، وبالنفي بقوله: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وكقوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فصرح بالنفي منها بقوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وبالإثبات بقوله: ﴿وَتُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وكقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ الآية [الزخرف: ٢٦ - ٢٧]، وكقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء]. وقوله: ﴿وَسَلِّمْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزخرف]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. أي لا نطلب العون إلا منك وحدك؛ لأن الأمر كله بيدك وحدك لا يملك أحد منه معك مثقال ذرة. وإتيانه بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ بعد قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ فيه إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتوكل إلا على من يستحق العبادة؛ لأن غيره ليس بيده الأمر. وهذا المعنى المشار إليه هنا جاء مبيناً واضحاً في آيات أخر كقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ الآية [هود: ١٢٣]. وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ الآية [التوبة: ١٢٩]. وقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٩]. وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، وإلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. لم يبين هنا من هؤلاء الذين أنعم عليهم، وبين ذلك في موضع آخر بقوله: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

تنبيهان:

الأول: يؤخذ من هذه الآية الكريمة صحة إمامة أبي بكر الصديق عليه السلام؛ لأنه داخل فيمن أمرنا الله في السبع المثاني والقرآن العظيم - أعني الفاتحة - بأن نسأله أن يهدينا صراطهم. فدل ذلك على أن صراطهم هو الصراط المستقيم. وذلك في قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ؛ وقد بين الذين أنعم عليهم فعد منهم الصديقين. وقد بين عليه السلام أن أبا بكر عليه السلام، من الصديقين، فاتضح أنه داخل في الذين أنعم الله عليهم... الذين أمرنا الله أن نسأله الهداية إلى صراطهم فلم يبق لبس في أن أبا بكر الصديق عليه السلام، على الصراط المستقيم، وأن إمامته حق.

الثاني: قد علمت أن الصديقين من الذين أنعم الله عليهم. وقد صرح تعالى بأن مريم ابنة عمران صديقة في قوله: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ الآية [المائدة: ٧٥]، وإذن فهل تدخل مريم في قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أو لا؟.

الجواب: أن دخولها فيهم يتفرع على قاعدة أصولية مختلف فيها معروفة، وهي: هل ما في القرآن العظيم والسنة من الجموع الصحيحة المذكورة ونحوها مما يختص بجماعة الذكور تدخل فيه الإناث أو لا يدخلن فيه إلا بدليل منفصل؟ فذهب قوم إلى أنهم يدخلن في ذلك. وعليه: فمريم داخلة في الآية واحتج أهل هذا القول بأمرين:

الأول: إجماع أهل اللسان العربي على تغليب الذكور على الإناث في الجمع.

والثاني: ورود آيات تدل على دخولهن في الجموع الصحيحة المذكرة ونحوها، كقوله تعالى في مريم نفسها: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْقَنِينِ﴾ [التحریم: ١٢]. وقوله في امرأة العزيز: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٣]. وقوله في بلقيس: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل: ٢٤]. وقوله فيما كالجمع المذكر السالم: ﴿فَلَمَّا أَهَيَّأُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٣٨]، فإنه تدخل فيه حواء إجماعاً.

وذهب كثير إلى أنهم لا يدخلن في ذلك إلا بدليل منفصل. واستدلوا على ذلك بآيات كقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾؛ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٣٥]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]. ثم قال: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ الآية [النور: ٣١]، فعطفهن عليهم يدل على عدم دخولهن.

وأجابوا عن حجة أهل القول الأول بأن تغليب الذكور على الإناث في الجمع ليس محل نزاع. وإنما النزاع في الذي يتبادر من الجمع المذكر ونحوه عند الإطلاق. وعن الآيات بأن دخول الإناث فيها، إنما علم من قرينة السياق ودلالة اللفظ، ودخولهن في حالة الاقتران بما يدل على ذلك لا نزاع فيه.

وعلى هذا القول: فمريم غير داخلة في الآية وإلى هذا الخلاف أشار في مراقبي السعود بقوله:

وما شمول من للأنثى جنف وفي شبهه المسلمين اختلفوا

وقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾. قال جماهير من علماء التفسير: ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾؛ اليهود و﴿الضَّالِّينَ﴾؛ النصارى. وقد جاء الخبر بذلك عن رسول الله ﷺ، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه. واليهود والنصارى وإن كانوا ضالين جميعاً مغضوباً عليهم جميعاً، فإن الغضب إنما خص به اليهود، وإن شاركهم النصارى فيه؛ لأنهم يعرفون الحق وينكرونه ويأتون الباطل عمداً، فكان الغضب أخص صفاتهم. والنصارى جهلة لا يعرفون الحق، فكان الضلال أخص صفاتهم.

وعلى هذا فقد يبين أن ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾؛ اليهود. وقوله تعالى فيهم: ﴿قَبَلَهُو يَعْصِي عَلَى عَصِيٍّ﴾ الآية [البقرة: ٩٠]، وقوله فيهم أيضاً: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ الآية [المائدة: ٦٠]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا الْعَهْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٢].

وقد يبين أن الضالين النصارى، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾. صرح في هذه الآية بأن هذا القرآن هدى للمتقين، ويفهم من مفهوم الآية - أعني مفهوم المخالفة المعروف بدليل الخطاب - أن غير المتقين ليس هذا القرآن هدى لهم، وصرح بهذا المفهوم في آيات أخر كقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]. وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الاسراء: ٨٢]. وقوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٩]. وقوله تعالى: ﴿وَلَزِيدَكَ كِبًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُفِينًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤]... الآية. ومعلوم أن المراد بالهدى في هذه الآية الهدى الخاص الذي هو التفضل بالتوفيق إلى دين الحق، لا الهدى العام، الذي هو إيضاح الحق.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾. عبر في هذه الآية الكريمة بـ«من» التبعيضية الدالة على أنه ينفق لوجه الله بعض ماله لا كله. ولم يبين هنا القدر الذي ينبغي إنفاقه، والذي ينبغي إمساكه. ولكنه بين في مواضع أخر أن القدر الذي ينبغي إنفاقه: هو الزائد على الحاجة وسد الخلة التي لا بد منها، وذلك كقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ﴾ [البقرة: ٢١٩]، والمراد بالغفو: الزائد على قدر الحاجة التي لا بد منها على أصح التفسيرات، وهو مذهب الجمهور. ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ [الأعراف: ٩٥]، أي كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم.

وقال بعض العلماء: الغفو: نقيض الجهد، وهو أن ينفق ما لا يبلغ إنفاقه منه الجهد واستفراغ الوسع. ومنه قول الشاعر:

خذي العفو مني تستديمي مودتي ولا تنطقي في سورتني حين أغضب

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الاسراء: ٢٩]، فنهاه عن البخل بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾. ونهاه عن الإسراف بقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾؛ فيتعين الوسط بين الأمرين. كما بينه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، فيجب على المنفق أن يفرق بين الجود والتبذير، وبين البخل والاقتصاد، فالجود غير التبذير، والاقتصاد غير البخل، فالمنع في محل الإعطاء مذموم. وقد نهى الله عنه نبيه ﷺ،

بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾؛ والإعطاء في محل المنع مذموم أيضاً، وقد نهى الله عنه نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾، وقد قال الشاعر:

لا تمدحَنَّ ابن عباد وإن هطلت يدها كالمزن حتى تخجل الدِّمَا
فإنها فلتات من وساوسه يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرماً

وقد بين تعالى في مواضع آخر أن الإنفاق المحمود لا يكون كذلك، إلا إذا كان مصرفه الذي صرف فيه مما يرضي الله. كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ وَلِلَّذِينَ وَالْآفَرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٥]... الآية وصرح بأن الإنفاق فيما لا يرضي الله حسرة على صاحبه في قوله: ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [الأنفال: ٣٦]... الآية وقد قال الشاعر:

إن الصنِيعَة لا تعد صنِيعَة حتى يصاب بها طريق المُضْنِيع

فإن قيل: هذا الذي قررتم يقتضي أن الإنفاق المحمود هو إنفاق ما زاد على الحاجة الضرورية، مع أن الله تعالى أثنى على قوم بالإنفاق وهم في حاجة إلى ما أنفقوا، وذلك في قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

فالظاهر في الجواب - والله تعالى أعلم - هو ما ذكره بعض العلماء من أن لكل مقام مقالاً، ففي بعض الأحوال يكون الإيثار ممنوعاً. وذلك كما إذا كانت على المنفق نفقات واجبة. كنفقة الزوجات ونحوها فتبرع بالإنفاق في غير واجب وترك الفرض لقوله ﷺ: «أبداً بمن تعول»، وكأن يكون لا صبر عنده عن سؤال الناس فينفق ماله ويرجع إلى الناس يسألهم ماله، فلا يجوز له ذلك، والإيثار فيما إذا كان لم يضيع نفقة واجبة، وكان واثقاً من نفسه بالصبر والتعفف وعدم السؤال.

وأما على القول بأن قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ يعني به الزكاة، فالأمر واضح، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةً﴾. لا يخفى أن الواو في قوله: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ﴾؛ محتملة في الحرفين أن تكون معطوفة على ما قبلها، وأن تكون استثنائية. ولم يبين ذلك هنا، ولكن بين في موضع آخر أن قوله: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ وأن قوله: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ﴾؛ استئناف والجار والمجرور خبر المبتدأ الذي هو ﴿غِشْوَةٌ﴾؛ وسوغ الابتداء بالنكرة فيه اعتمادها على الجار والمجرور قبلها. ولذلك يجب تقديم هذا الخبر؛ لأنه هو الذي سوغ الابتداء بالمبتدأ كما عقده في الخلاصة بقوله:

ونحو عندي درهم ولني وطر ملتزم فيه تقدم الخبر

فتحصل أن الختم على القلوب والأسماع، وأن الغشاوة على الأبصار؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْرٍ خَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ

بَصَرِهِ عَشْتَوَ ﴿الجاثية: ٢٣﴾، والختم: الاستيثاق من الشيء حتى لا يخرج منه داخل فيه ولا يدخل فيه خارج عنه، والغشاوة: الغطاء على العين يمنعها من الرؤية. ومنه قول الحارث بن خالد بن العاص:

كما هو معروف في النحو. وأجاز بعضهم كونه معطوفاً على محل المجزور. فإن قيل: قد يكون الطبع على الأبصار أيضاً. كما في قوله تعالى في سورة النحل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ﴾ [النحل: ١٠٨].

فالجواب: أن الطبع على الأبصار المذكور في آية النحل: هو الغشاوة المذكورة في سورة البقرة، والجاثية، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨﴾.

لم يذكر هنا بياناً عن هؤلاء المنافقين، وصرح بذكر بعضهم بقوله: ﴿وَمِنَ حَوْلِكَ مِنَ الْأَعْرَابِ مُتَفَقِّهُونَ وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى الْغَفَاكِ﴾ [التوبة: ١٠١].

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾. لم يبين هنا شيئاً من استهزائه بهم. وذكر بعضه في سورة الحديد، في قوله: ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣].

قوله تعالى: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُيٌّ﴾. ظاهر هذه الآية أن المنافقين متصفون بالصمم والبكم والعمى. ولكنه تعالى بين في موضع آخر أن معنى صممهم، وبكمهم، وعماهم، هو عدم انتفاعهم بأسماعهم، وقلوبهم، وأبصارهم وذلك في قوله - جلّ وعلا -: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِّنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَرَقٌّ﴾. الصيب: المطر، وقد ضرب الله في هذه الآية مثلاً لما جاء به محمد ﷺ من الهدى والعلم بالمطر؛ لأن بالعلم والهدى حياة الأرواح، كما أن بالمطر حياة الأجسام. وأشار إلى وجه ضرب هذا المثل بقوله - جلّ وعلا -: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتًا يُغَذِّي رِيْقَهُ وَالَّذِي خُبْتُ لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَجَسًا﴾ [الأعراف: ٥٨].

وقد أوضح ﷺ هذا المثل المشار إليه في الآيتين في حديث أبي موسى المتفق عليه، حيث قال ﷺ: «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها، وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني به، فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

قوله تعالى: ﴿فِي ظُلُمٍ﴾، ضرب الله تعالى في هذه الآية المثل لما يعتري الكفار

والمنافقين من الشبه والشكوك في القرآن، بظلمات المطر المضروب مثلاً للقرآن، وبين بعض المواضع التي هي كالظلمة عليهم؛ لأنها تزيدهم عمى في آيات آخر كقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ لأن نسخ القبلة يظن بسببه ضعاف اليقين أن النبي ﷺ ليس على يقين من أمره حيث يستقبل يوماً جهة، ويوماً آخر جهة أخرى، كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢].

وصرح تعالى بأن نسخ القبلة كبير على غير من هداه الله وقوى يقينه، بقوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وكقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الزُّبُرَ الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٦٠]؛ لأن ما رآه ليلة الإسراء والمعراج من الغرائب والعجائب كان سبباً لاعتقاد الكفار أنه ﷺ كاذب؛ لزعيمهم أن هذا الذي أخبر به لا يمكن وقوعه. فهو سبب لزيادة الضالين ضلالاً. وكذلك الشجرة الملعونة في القرآن التي هي شجرة الزقوم. فهي سبب أيضاً لزيادة ضلال الضالين منهم؛ لأن النبي ﷺ لما قرأ: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٤]، قالوا: ظهر كذبه؛ لأن الشجر لا ينبت في الأرض اليابسة فكيف ينبت في أصل النار؟

وكقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المائدة: ٣١]؛ لأنه ﷺ لما قرأ قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المائدة: ٣٠]، قال بعض رجال قريش: هذا عدد قليل فنحن قادرون على قتلهم، واحتلال الجنة بالقوة؛ لقلة القائمين على النار التي يزعم محمد ﷺ، أنا سندخلها. والله تعالى إنما يفعل ذلك اختباراً وابتلاء، وله الحكمة البالغة في ذلك كله، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعُوا﴾. ضرب الله المثل بالرعد لما في القرآن من الزواجر التي تفرع الأذان وتزعج القلوب. وذكر بعضاً منها في آيات آخر كقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَعْفَةً﴾... الآية [فصلت: ١٣]، أو كقوله: ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ تَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾ [النساء: ٤٧]، أو كقوله: إني ﴿نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبا: ٤٦].

وقد ثبت في صحيح البخاري في تفسير سورة الطور، من حديث جبير بن مطعم رضى الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور. فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٢٥]، إلى قوله: ﴿الْمُهَيَّيظُونَ﴾ [الطور: ٣٧]، كاد قلبي أن يطير إلى غير ذلك من قوارع القرآن وزواجره، التي خوفت المنافقين حتى قال الله تعالى فيهم: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَادُّونَ﴾ [المنافقون: ٤]، والآية التي نحن بصيدها، وإن كانت في المنافقين، فالعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

قوله تعالى: ﴿وَرَقَّ﴾. ضرب تعالى المثل بالبرق؛ لما في القرآن من نور الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة. وقد صرح بأن القرآن نور يكشف الله به ظلمات الجهل

والشك والشرك. كما تكشف بالنور الحسي ظلمات الدجى كقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وقوله: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] وقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾. قال بعض العلماء: محيط بالكافرين، أي مهلكهم، ويشهد لهذا القول قوله تعالى: ﴿لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]، أي تهلكوا عن آخركم. وقيل: تغلبوا. والمعنى متقارب؛ لأن الهالك لا يهلك حتى يحاط به من جميع الجوانب، ولم يبق له منفذ للسلامة ينفذ منه. وكذلك المغلوب. ومنه قول الشاعر:

أحطنا بهم حتى إذا ما تيقنوا بما قد رأوا مالوا جميعاً إلى السلم

ومنه أيضاً: بمعنى الهلاك قوله تعالى: ﴿وَلُحِيطَ بِشَرِّهِ﴾... الآية [الكهف: ٤٢]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا أَهْمَ أُحِيطَ بِهِمْ﴾... الآية [يونس: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرَقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ﴾. أي يكاد نور القرآن لشدة ضوئه يعمي بصائرهم، كما أن البرق الخاطف الشديد النور يكاد يخطف بصر ناظره، ولا سيما إذا كان البصر ضعيفاً؛ لأن البصر كلما كان أضعف كان النور أشد إذهاباً له. كما قال الشاعر:

مثل النهار يزيد أبصار الورى نوراً ويعمي أعين الخفاش
وقال الآخر:

خفافيش أعمها النهار بضوئه ووافقها قطع من الليل مظلم

وبصائر الكفار والمنافقين في غاية الضعف، فشدّة ضوء النور تزيدها عمى. وقد صرح تعالى بهذا العمى في قوله: ﴿أَفَنَنْتَعِلُ أَنْتَ أَنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩]. وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ [فاطر]، إلى غير ذلك من الآيات. وقال بعض العلماء: ﴿يَكَادُ الْبَرَقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ﴾؛ أي يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَصَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾. ضرب الله في هذه الآية المثل للمنافقين؛ إذ كان القرآن موافقاً لهوائهم ورغبتهم عملوا به، كما نكحتهم للمسلمين وإرثهم لهم. والقسم لهم من غنائم المسلمين، وعصمتهم به من القتل مع كفرهم في الباطن، وإذا كان غير موافق لهوائهم، كبذل الأنفس والأموال في الجهاد في سبيل الله المأمور به فيه وقفوا وتأخروا. وقد أشار تعالى إلى هذا بقوله: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [٥٨] وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ [٥٩] [النور].

وقال بعض العلماء: ﴿كُلَّمَا أَصَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾؛ أي إذا أنعم الله عليهم بالمال والعافية قالوا: هذا الدين حق ما أصابنا منذ تمسكنا به إلا الخير ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾؛ أي وإن أصابهم فقر أو مرض أو ولدت لهم البنات دون الذكور قالوا: ما

أضابنا هذا إلا من شؤم هذا الدين وارتدوا عنه. وهذا الوجه يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ١١١﴾ [الحج].

وقال بعض العلماء: إضاءته لهم معرفتهم بعض الحق منه وإظلامه عليهم ما يعرض لهم من الشك فيه.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١١٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ١١٣. أشار في هذه الآية إلى ثلاثة براهين من براهين البعث بعد الموت، وبينها مفصلة في آيات أخر.

البرهان الأول: خلق الناس أولاً المشار إليه بقوله: ﴿أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ١١٢﴾؛ لأن الإيجاد الأول أعظم برهان على الإيجاد الثاني، وقد أوضح ذلك في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ١٢٧﴾ [الروم: ٢٧]. وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ١١٤﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. وكقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُمِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ١١٥﴾ [الإسراء: ٥١]. وقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ١١٦﴾ [يس: ٧٩]. وقوله: ﴿أَفَمَيَّنَّا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ ١١٧﴾ [ق: ١٥]. وكقوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ تُرَابٍ ١١٨﴾ [الحج: ٥]. وكقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى ١١٩﴾ [الواقعة: ٦٢].

ولذا ذكر تعالى أن من أنكر البعث فقد نسي الإيجاد الأول، كما في قوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ١٢٨﴾ [يس: ٧٨]. وقوله: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِثْلُ لَسَوْفَ أَخْرُجُ ١٢٩﴾ [الأنبياء: ١٢٩]. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَذْكُرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلٍ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا ١٣٠﴾ [مریم: ١٣٠]. ثم رتب على ذلك نتيجة الدليل بقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ١٣١﴾ [مریم: ٦٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

البرهان الثاني: خلق السموات والأرض المشار إليه بقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ١١٢﴾؛ لأنهما من أعظم المخلوقات، ومن قدر على خلق الأعظم فهو على غيره قادر من باب أخرى. وأوضح الله تعالى هذا البرهان في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ١٥٧﴾ [غافر: ٥٧]. وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ١٥٨﴾ [يس: ٨١]. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لَهُنَّ بَنَاتٍ ١٥٩﴾ [الاحقاف: ٣٣]. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ ١٦٠﴾ [الإسراء: ٤٩]. وقوله: ﴿مَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ١٦١﴾ [نجم: ١٦١]. رَفَعَ سَمَكَهَا فَمَوَّنَهَا ١٦٢. الآية [النازعات] إلى غير ذلك من الآيات.

البرهان الثالث: إحياء الأرض بعد موتها؛ فإنه من أعظم الأدلة على البعث بعد الموت، كما أشار له هنا بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ١١٣﴾؛

وأوضحه في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَمَنْ مَّيَّنَهُ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَشِيعَةً إِذَا أُنْزِلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنْ الَّذِي أَحْيَاها لَمَيِّمٌ أَلَمْ يَكُنْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ [فصلت]. وقوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ لِنُخْرِجَ ۝﴾ [ق: ١١]، يعني خروجكم من قبوركم أحياء بعد أن كنتم عظاماً رميمًا. وقوله: ﴿وَيُخْرِجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُ ۝﴾ [الروم: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا نَقَالَ سُقْنَاهُ لِيَلْكَرَ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝﴾ [الأعراف: ٥٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾. لم يصرح هنا باسم هذا العبد الكريم، صلوات الله وسلامه عليه، وصرح باسمه في موضع آخر وهو قوله: ﴿وَأَمَّا مَا نُنَزِّلُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ۝﴾ [محمد: ٢]، صلوات الله وسلامه عليه.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۝﴾. هذه الحجارة قال كثير من العلماء: إنها حجارة من كبريت. وقال بعضهم: إنها الأصنام التي كانوا يعبدونها. وهذا القول يبينه ويشهد له. قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ۝﴾ الآية [الأنبياء: ٩٨].

قوله تعالى: ﴿وَيَبْرِئِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۝﴾. لم يبين هنا أنواع هذه الأنهار، ولكنه بين ذلك في قوله: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ۝﴾ [محمد: ١٥]. قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ۝﴾، لم يبين هنا صفات تلك الأزواج، ولكنه بين صفاتهن الجميلة في آيات أخر كقوله: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ۝﴾ [الصفات]. وقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ۝﴾ [الرحمن]. وقوله: ﴿وَكُورٌ عِينٌ ۝﴾ [الأنبياء]. وقوله: ﴿وَكُلُوبٌ أَرَاكَا ۝﴾ [النبا]. إلى غير ذلك من الآيات المبينة لجميل صفاتهن، والأزواج: جمع زوج بلا هاء في اللغة الفصحى، والزوجة [بالهاء] لغة، لا لحن كما زعمه البعض. وفي حديث أنس عن النبي ﷺ «إنها زوجتي» أخرجه مسلم. ومن شواهد قول الفرزدق:

وإن الذي يسعى ليفسد زوجتي كساع إلى أسد الشرى يستبيلها

وقول الآخر:

فبكى بناتي شجوهن وزوجتي والظاعنون إلي ثم تصدعوا

قوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ۝﴾. لم يبين هنا هذا الذي أمر به أن يوصل، وقد أشار إلى أن منه الأرحام بقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقْطَعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝﴾ [محمد]. وأشار في موضع آخر إلى أن منه الإيمان بجميع الرسل، فلا يجوز قطع بعضهم عن بعض في ذلك بأن يؤمن بعضهم دون بعضهم الآخر. وذلك في قوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥١].

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾. ظاهره أن ما في الأرض جميعاً خلق بالفعل قبل السماء، ولكنه بين في موضع آخر أن المراد بخلقه قبل السماء، تقديره، والعرب تسمي التقدير خلقاً كقول زهير: ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ض القوم يخلق ثم لا يفري وذلك في قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت: ١٠]. ثم قال: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾... الآية. في قوله: ﴿خَلِيفَةً﴾؛ وجهان من التفسير للعلماء. أحدهما: أن المراد بالخليفة أبونا آدم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -؛ لأنه خليفة الله في أرضه في تنفيذ أوامره. وقيل: لأنه صار خلفاً من الجن الذين كانوا يسكنون الأرض قبله. وعليه فالخليفة: فعيلة بمعنى فاعل. وقيل: لأنه إذا مات يخلفه من بعده، وعليه فهو من فعيلة بمعنى مفعول. وكون الخليفة هو آدم هو الظاهر المتبادر من سياق الآية. ثانيهما: أن قوله: خليفة مفرد أريد به الجمع، أي خلائف، وهو اختيار ابن كثير. والمفرد إن كان اسم جنس يكثر في كلام العرب إطلاقه مراداً به الجمع كقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ فِي جَنَّتِ وَنَهَرٍ﴾ [القمر]، يعني وأنهار بدليل قوله: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ الآية [محمد: ١٥]. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]. وقوله: ﴿فَإِنْ طَبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: ٤]. ونظيره من كلام العرب قول عقيل بن علفة المري:

وكان بنو فزارة شرعم
وقول العباس بن مرداس السلمي:

فقلنا اسلموا إنا أخوكم
وأشد له سيويه قول علقمة بن عبدة التميمي:

بها جيف الحسرى فأما عظامها
فبيض وأما جلدها فصليب
وقول الآخر:

كلوا في بعض بطنكم تعفو
فإن زمانكم زمن خميص
وإذا كانت هذه الآية البريمة تحتل الوجهين المذكورين. فاعلم أنه قد دلت آيات آخر على الوجه الثاني، وهو أن المراد بالخليفة: الخلائف من آدم وبنيه لا آدم نفسه وحده. كقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ الآية. ومعلوم أن آدم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - ليس ممن يفسد فيها، ولا ممن يسفك الدماء. وكقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية [فاطر: ٣٩].

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية [الأنعام: ١٦٥]. وقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ﴾ الآية [النمل: ٦٢]. ونحو ذلك من الآيات. وللعلماء أقوال فيما يتعلق بكون هذه الآية أصل في وجوب نصب الخليفة، وخلاصة رأى الشيخ في المسألة هو:

ويمكن الجواب عن هذا بأن المراد بالخليفة آدم، وأن الله أعلم الملائكة أنه يكون من ذريته من يفعل ذلك الفساد وسفك الدماء. فقالوا ما قالوا، وأن المراد بخلافة آدم الخلافة الشرعية، وبخلافة ذريته أعم من ذلك، وهو أنهم يذهب منهم قرن ويخلفه قرن آخر.

«قال مقيده - عفا الله عنه -: من الواضح المعلوم من ضرورة الدين أن المسلمين يجب عليهم نصب إمام تجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الله في أرضه. ولم يخالف في هذا إلا من لا يعتد به، ومن أراد التفصيل فليعد إليه في أصل الكتاب.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾. يعني مسميات الأسماء لا الأسماء كما يتوهم من ظاهر الآية. وقد أشار إلى أنها المسميات بقوله: ﴿أَنْثُوْنِي بِأَسْمَاءَ هَؤُلَاءِ﴾، الآية كما هو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾. لم يبين هنا هذا الذي كانوا يكتُمون. وقد قال بعض العلماء: هو ما كان يضمره إبليس من الكبر. وعلى هذا القول فقد بينه قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنِ وَاسْتَكْبَرَ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾.

يبين هنا هل قال لهم ذلك قبل خلق آدم أو بعد خلقه؟ وقد صرح في سورة (الحجر ووص) بأنه قال لهم ذلك قبل خلق آدم. فقال في الحجر: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلَاصِلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر]. وقال في سورة ص: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنِ وَاسْتَكْبَرَ﴾. لم يبين هنا موجب استكباره في زعمه، ولكنه بينه في مواضع آخر كقوله: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. وقوله: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَّاسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلَاصِلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿٧٣﴾﴾ [الحجر].

تنبيه: مثل قياس إبليس نفسه على عنصره، الذي هو النار وقياسه آدم على عنصره، الذي هو الطين واستنتاجه من ذلك أنه خير من آدم. ولا ينبغي أن يؤمر بالسجود لمن هو خير منه، مع وجود النص الصريح الذي هو قوله تعالى: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾؛ يسمى في اصطلاح الأصوليين فاسد الاعتبار. وإليه الإشارة بقول صاحب (مراقي السعود):

والخلف للنص أو إجماع دعا فساد الاعتبار كل من وعى

فكل من رد نصوص الوحي بالأقيسة فسلفه في ذلك إبليس، وقياس إبليس هذا لعنه الله باطل من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه فاسد الاعتبار؛ لمخالفة النص الصريح كما تقدم قريباً.

الثاني: أنا لا نسلم أن النار خير من الطين، بل الطين خير من النار؛ لأن طبيعتها الخفة والطيش والإفساد والتفريق، وطبيعته الرزانة والإصلاح فتودعه الحبة فيعطيكها سنبلة والنواة فيعطيكها نخلة. وإذا أردت أن تعرف قدر الطين فانظر إلى الرياض الناضرة وما فيها من الثمار اللذيذة، والأزهار الجميلة، والروائح الطيبة. تعلم أن الطين خير من النار.

الثالث: أنا لو سلمنا تسليماً جدلياً أن النار خير من الطين؛ فإنه لا يلزم من ذلك أن إبليس خير من آدم؛ لأن شرف الأصل لا يقتضي شرف الفرع، بل قد يكون الأصل رفيعاً والفرع وضيعاً، كما قال الشاعر:

إذا افتخرت بأبَاء لهم شرف قلنا: صدقت ولكن بشئ ما ولدوا
وقال الآخر:

وما ينفع الأصل من هاشم إذا كانت النفس من باهله

قوله تعالى: ﴿فَلَقَىٰ آدَمَ مِن رَّبِّهِ كَلِمَتَيْنِ﴾؛ لم يبين هنا ما هذه الكلمات، ولكنه بينها في سورة الأعراف بقوله: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّا تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف].

قوله تعالى: ﴿يَنبِئُ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكَ﴾؛ لم يبين هنا ما هذه النعمة التي أنعمها عليهم، ولكنه بينها في آيات أخر. كقوله: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَاكَ مِن ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سَوَءَ الْعَذَابِ﴾ الآية وقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَيَجْعَلُهُمْ أُيُمَةً وَيَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [٥] وَتَكُنْ لَهُمُ فِي الْأَرْضِ وَرِثَةٌ فِرْعَوْنُ وَهَمْنٌ وَضُودُهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ [١] [القصر]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾. لم يبين هنا ما عهده وما عهدهم، ولكنه بين ذلك في مواضع أخر كقوله: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المائدة: ١٢]، فعهدهم هو المذكور في قوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؛ وعهده هو المذكور في قوله: ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ الآية، وأشار إلى عهدهم أيضاً بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُسَيِّئُنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ الَّذِي يُبْطِلُ﴾. الحق الذي لبسوه بالباطل: هو إيمانهم ببعض ما في التوراة، والباطل الذي لبسوا به الحق: هو كفرهم ببعض ما في التوراة

وجحدهم له، كصفات رسول الله ﷺ، وغيرها مما كتموه وجحدوه، وهذا يبينه قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] الآية - والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب كما تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْعِيثُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ الاستعانة بالصبر على أمور الدنيا والآخرة لا إشكال فيها. وأما نتيجة الاستعانة بالصلاة فقد أشار لها تعالى في آيات من كتابه. فذكر أن من نتائج الاستعانة بها: النهي عما لا يليق وذلك في قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وأنها تجلب الرزق وذلك في قوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعِيقَةُ لِلْقَوِيِّ﴾ [طه: ١٣١]؛ ولذا كان ﷺ، إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة.

وإيضاح ذلك: أن العبد إذا قام بين يدي ربه يناجيه ويتلو كتابه هان عليه كل ما في الدنيا رغبة فيما عند الله، ورهبة منه فيتباعد عن كل ما لا يرضي الله فيرزقه الله ويهديه.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْتَغُونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ﴾ الآية. المراد بالظن هنا؛ اليقين كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةً﴾ الآية. ظاهر هذه الآية عدم قبول الشفاعة مطلقاً يوم القيامة. ولكنه بين في مواضع آخر أن الشفاعة المنفية هي الشفاعة للكفار، والشفاعة لغيرهم بدون إذن رب السموات والأرض.

أما الشفاعة للمؤمنين بإذنه فهي ثابتة بالكتاب، والسنة، والإجماع، فنص على عدم الشفاعة للكفار بقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]. وقد قال: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]. وقال تعالى عنهم مقررأ له: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٨]. وقال: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ١٨٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقال في الشفاعة بدون إذنه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقال: ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرَضَى﴾ [النجم: ١٦]. وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضَى لَهُ قَوْلًا﴾ [النجم: ١٦]. [طه]، إلى غير ذلك من الآيات وادعاء شفعاء عند الله للكفار أو بغير إذنه، من أنواع الكفر به جل وعلا. كما صرح بذلك في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنْفِثُونَ اللَّهَ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

تنبيه: هذا الذي قررنا من أن الشفاعة للكفار مستحيلة شرعاً مطلقاً، يستثنى منه شفاعته ﷺ؛ لعمه أبي طالب في نقله من محل من النار إلى محل آخر منها. كما ثبت عنه ﷺ، في الصحيح، فهذه الصورة التي ذكرنا من تخصيص الكتاب بالسنة.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ سَوَاءَ الْعَذَابِ﴾. بيّنه بقوله بعده: ﴿يُذَيِّبُونَ آبَاءَكُمْ﴾ الآية.

حيث من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم والإقفار: هو الإقواء بعينه. والدليل من القرآن على أن الفرقان هو ما أوتي موسى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ...﴾ الآية [الأنبياء: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلِ﴾ لم يبين هنا من أي شيء هذا العجل المعبود من دون الله؟ ولكنه بيّن ذلك في مواضع أخر كقوله: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُلُوسِهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُمُ خُورٌ﴾ [الأعراف: ١٤٨]. وقوله: ﴿وَلَكِنَّا جُمَلْنَا أَوزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُمُ خُورٌ ﴿طه: ٨٧ - ٨٨﴾، ولم يذكر المفعول الثاني للاتخاذ في جميع القرآن وتقديره: باتخاذكم العجل إليها. كما أشار له في سورة طه، بقوله: ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُمُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى ﴿طه: ٨٧ - ٨٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾؛ أوضحه بقوله: ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَالْهَيْئَةِ ظُلَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٧١].

قوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا﴾. لم يبين هنا هذا الذي أتاهم ما هو، ولكنه بيّن في موضع آخر أنه الكتاب الفارق بين الحق والباطل. وذلك في قوله: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٥٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾. أجمل قصتهم هنا وفصلها في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣] الآيات.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنزِعْ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾. لم يبين مقصودهم بقولهم: ما هي إلا أن جواب سؤالهم دل على أن مرادهم بقولهم في الموضع الأول ما هي أي: ما سنها؟ بدليل:

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ﴾ الآية. وأن مرادهم بقولهم: ما هي في الموضع الآخر هل هي عاملة أو لا؟ وهل فيها عيب أو لا؟ وهل فيها وشي مخالف للونها أو لا؟ بدليل قوله: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْمَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا﴾. لم يصرح هل هذه النفس ذكر أو أنثى؟ وقد أشار إلى أنها ذكر بقوله: ﴿فَعَقَلْنَا أَسْرِيَهُ بِبَعْضِهَا﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُعَيِّنُ اللَّهُ الْفَوْتَ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ الآية. أشار في هذه الآية إلى أن إحياء قتيل بني إسرائيل، دليل على بعث الناس بعد الموت؛ لأن من أحيا نفساً واحدة بعد موتها قادر على إحياء جميع النفوس، وقد صرح بهذا في قوله: ﴿مَا خَلَقْتُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ الآية. لم يبين هنا سبب قسوة

قلوبهم، ولكنه أشار إلى ذلك في مواضع آخر كقوله: ﴿فَسِمْ قُلُوبَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [البقرة: ١٣]. وقوله: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾. اختلف العلماء في المراد بالأمني هنا على قولين:

أحدهما: أن المراد بالأمنية القراءة؛ أي لا يعلمون من الكتاب إلا قراءة ألفاظ دون إدراك معانيها. وهذا القول لا يتناسب مع قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ﴾، لأن الأمي لا يقرأ.

وثانيهما: أن الاستثناء منقطع، والمعنى لا يعلمون الكتاب، لكن يتمنون أمني باطلة، ويدل لهذا القول. قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة: ١١١]. وقوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [النساء: ١٢٣].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسُكُمْ﴾. يعني: تقتلون إخوانكم، وبين أن ذلك هو المراد، كثرة ورود ذلك في القرآن نحو قوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، أي لا يلزم أحدكم أخاه، وقوله: ﴿أَوَلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢]، أي بإخوانهم وقوله: ﴿فَأَقْضُوا أَنْفُسَكُمْ﴾؛ أي بأن يقتل البريء من عبادة العجل من عبده منهم، إلى غير ذلك من الآيات. ويوضح هذا المعنى قوله ﷺ: «إن مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم، كمثل الجسد الواحد، إذا أصيب منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾. يتبين مما قبله أن البعض الذي آمنوا به هو فداء الأسارى منهم، والبعض الذي كفروا به هو إخراجهم من ديارهم وقتلهم ومظاهرة العدو عليهم، وإن كفروا بغير هذا من الكتاب وآمنوا بغيره منه.

قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾. لم يبين هنا ما هذه البيّنات ولكنه بينها في مواضع آخر كقوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ طَائِرًا فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَآيَةٌ الْأَكْمَةِ وَالْأَنْبَرِ وَأُخَى الْمَوْتِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَتَيْنُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُلُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْتَهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾. هو جبريل على الأصح، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]. وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ الآية [مريم: ١٧].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾. لم يبين هنا ما هذه البيّنات وبينها في مواضع آخر كقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣]. وقوله: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ [١٣٧] وَزَجَّ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ الآية [الأعراف: ١٠٧، ١٠٨]. وقوله: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ الآية [الشعراء: ٦٣]. إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾. قال بعض العلماء: هو من السمع بمعنى الإجابة ومنه قولهم: سمعاً وطاعة أي إجابة وطاعة، ومنه: سمع الله لمن حمده في الصلاة؛ أي أجاب دعاء من حمده، ويشهد لهذا المعنى قوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور]، وهذا قول الجمهور.

وقيل: إن المراد بقوله: ﴿وَاسْمَعُوا﴾؛ أي بأذانكم ولا تمتنعوا من أصل الاستماع. ويدل لهذا الوجه: أن بعض الكفار ربما امتنع من أصل الاستماع خوف أن يسمع كلام الأنبياء، كما في قوله تعالى عن نوح مع قومه: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا فِيءَآذَانِهِمْ وَأُصْبَحُوا شِيَائِهِمْ وَاصِرُوا أَكْفَرًا لَا يَسْمَعُونَ لَوْلَا أَلْقَيْنَا فِي سَمْعِكَ الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح]. وقوله عن قوم نبينا ﷺ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت]. وقوله: ﴿وَإِذَا بُتِلَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِبَيِّنَةٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا﴾ [الحج: ٧٢]. وقوله: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾؛ لأن السمع الذي لا ينافي العصيان هو السمع بالأذان دون السمع بمعنى الإجابة.

قوله تعالى: ﴿يُودُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْضِيهِ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾. معنى الآية: أن أحد المذكورين يتمنى أن يعيش ألف سنة وطول عمره لا يزرزحه؛ أي لا يبعده عن العذاب، فالمصدر المنسبك من أن وصلتها في قوله: ﴿أَنْ يُعَمَّرَ﴾؛ فاعل اسم الفاعل الذي هو مزحزحه على أصح الأعراب وفي لو، ومن قوله: ﴿لَوْ يُعَمَّرَ﴾؛ وجهان: الأول: وهو قول الجمهور أنها حرف مصدري، وهي وصلتها في تأويل مفعول به ليود، والمعنى: يود أحدهم أي يتمنى تعميم ألف سنة، ولو: قد تكون حرفاً مصدرياً لقول قتيلة بنت الحارث:

ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ المحنق
أي: ما كان ضرك منك.

وقال بعض العلماء: إن لو هنا هي الشرطية والجواب محذوف وتقديره: لو يعمر ألف سنة، لكان ذلك أحب شيء إليه، وحذف جواب لو مع دلالة المقام عليه واقع في القرآن، وفي كلام العرب فمنه في القرآن قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر]، أي لو تعلمون علم اليقين لما ألهاكم التكاثر. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ [الرعد: ٣١]، أي لكان هذا القرآن أو لكفرتم بالرحمن. ومنه في كلام العرب قول الشاعر:

فأقسم لو شيء أتانا رسوله سواك ولكن لم نجد لك مدفعا

أي لو شيء أتانا رسوله سواك لدفعناه. إذا عرفت معنى الآية فاعلم أن الله قد أوضح هذا المعنى مبيناً أن الإنسان لو متع ما متع من السنين ثم انقضى ذلك المتاع وجاءه العذاب أن ذلك المتاع الفائق لا ينفعه، ولا يغني عنه شيئاً بعد انقضائه وحلول العذاب محله. وذلك في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ [٢٥] ثَرُ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا

يُوعِدُونَ ﴿٩٦﴾ مَا أَفْعَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَمُونُ ﴿٩٧﴾ [الشعراء]، وهذه هي أعظم آية في إزالة الداء العضال الذي هو طول الأمل. كفانا الله والمؤمنين شره.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية. ظاهر هذه الآية أن جبريل ألقى القرآن في قلب النبي ﷺ من غير سماع قراءة ونظيرها في ذلك قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ﴿٩٢﴾ عَلَى قَلْبِكَ الآية [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]. ولكنه يبين في مواضع آخر أن معنى ذلك أن الملك يقرؤه عليه حتى يسمعه منه، فتصل معانيه إلى قلبه بعد سماعه، وذلك هو معنى تنزيله على قلبه. وذلك كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَحْرُكَ بِهِ لِسَانُكَ لِنَتَجَبَّلَ بِهِ﴾ ﴿٩١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿٩٢﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿٩٣﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿٩٤﴾ [القيامة]. وقوله: ﴿وَلَا تَجَبَّلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

قوله تعالى: ﴿أَوْكَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذُوا فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾. ذكر في هذه الآية أن اليهود كلما عاهدوا عهداً نبذوا فريق منهم، وصرح في موضع آخر أن رسول الله ﷺ هو المعاهد لهم وأنهم يتقضون عهدهم في كل مرة. وذلك في قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ [الأنفال]، وصرح في آية أخرى بأنهم أهل خيانة إلا القليل منهم. وذلك في قوله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ بَشَرٌ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ الآية. ذكر في هذه الآية الكريمة أن كثيراً من اليهود نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ولم يؤمنوا به. ويبين في موضع آخر أن هؤلاء الذين لم يؤمنوا بالكتاب هم الأكثر. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلْ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾.

لم يبين هنا هذا الذي سأل موسى من قبل ما هو؟ ولكنه بيّنه في موضع آخر. وذلك في قوله: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ الآية [النساء: ١٥٣].

قوله تعالى: ﴿فَاعْقِبُوا وَأَصْغُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرٍ﴾: هذه الآية في أهل الكتاب كما هو واضح من السياق، والأمر في قوله: ﴿بِأَمْرٍ﴾.

قال بعض العلماء: هو واحد الأوامر. وقال بعضهم: هو واحد الأمور، فعلى القول الأول: بأنه الأمر الذي هو ضد النهي؛ فإن الأمر المذكور هو المصرح به في قوله: ﴿فَقِيلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ ﴿٨٩﴾ [التوبة]، وعلى القول بأنه واحد الأمور: فهو ما صرح الله به في الآيات الدالة على ما أوقع باليهود

من القتل والتشريد كقوله: ﴿فَأَنذَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يٰٓأُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴿١١٤﴾ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمُ ٱلْآيَةُ [الحشر: ٢، ٣]. إلى غير ذلك من الآيات، والآية غير منسوخة على التحقيق.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ الآية.

قال بعض العلماء: نزلت في صد المشركين النبي ﷺ، عن البيت الحرام في عمرة الحديبية عام ست من الهجرة.

وعلى هذا القول: فالخراب معنوي، وهو خراب المساجد بمنع العبادة فيها.

وهذا القول يبينه ويشهد له قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الآية [الفتح: ٢٥].

وقال بعض العلماء: الخراب المذكور هو الخراب الحسي. والآية نزلت فيمن

خرب بيت المقدس وهو يختصر أو غيره وهذا القول يبينه ويشهد له قوله - جلّ وعلا -: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّكُوا مَا عَلَوُا تَتَبَرَّكُوا﴾ [الإسراء: ٧].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾. هذا الولد المزعوم - على زاعمه لعائن الله

- قد جاء مفصلاً في آيات أخر كقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَكُلُّهُمْ أَلِلٌّ أُلِّقَ يَوْمَهُمُ الْغَوْرُ﴾ [التوبة: ٣٠]. وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ الآية [النحل: ٥٧].

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِلَ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. يفهم من هذه الآية أن الله علم أن من

ذرية إبراهيم ظالمين. وقد صرح تعالى في مواضع أخر بأن منهم ظالماً وغير ظالم. كقوله: ﴿وَمِن دُرِّيَّتَيْهَا تُحْسِنُ وَظَلَامٌ لِّنَفْسِهِ مِثْلُ﴾ [الصافات: ١١٣]. وقوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ الآية [الزخرف: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ رَفَعَ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾. ذكر في هذه الآية رفع

إبراهيم وإسماعيل لقواعد البيت. وبين في سورة الحج، أنه أراه موضعه بقوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]؛ أي عينا له محله وعرفناه به. قيل: دله عليه بمزنة كان ظلها قدر مساحته، وقيل: دله عليه بريح تسمى الحجوج كنست عنه حتى ظهر أسه القديم فبنى عليه إبراهيم وإسماعيل عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن دُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ

أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [٢٨] رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ؛ لم يبين هنا من هذه الأمة التي أجاب الله بها دعاء نبيه إبراهيم وإسماعيل. ولم يبين هنا أيضاً هذا الرسول المسؤول الذي بعثه فيهم من هو؟ ولكنه يبين في سورة الجمعة، أن تلك الأمة العرب، والرسول هو سيد الرسل محمد ﷺ. وذلك في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ

وَرَزَكِهِمْ وَبَعَثْنَاهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٣٠﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴿١٣١﴾ [الجمعة: ٢، ٣]، لأن الأميين العرب بالإجماع. والرسول المذكور نبينا محمد ﷺ، إجماعاً. ولم يبعث رسول من ذرية إبراهيم وإسماعيل إلا نبينا محمد ﷺ وحده.

وثبت في الصحيح أنه هو الرسول الذي دعا به إبراهيم ولا ينافي ذلك عموم رسالته ﷺ إلى الأسود والأحمر.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية. لم يبين هنا ما ملة إبراهيم وبينها بقوله: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام]، فصرح في هذه الآية بأنها دين الإسلام الذي بعث الله به نبيه محمداً ﷺ. وكذا في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية [النحل].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ﴾ الآية. أشار إلى أنه دين الإسلام هنا بقوله: ﴿فَلَا تَتَوَنَّأْ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾؛ وصرح بذلك في قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. وقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ لم يبين هنا هذا الذي أنزل إلى إبراهيم، ولكنه بين في سورة الأعلى أنه صحف، وأن من جملة ما في تلك الصحف: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [١١] وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢﴾ [الأعلى]. وذلك في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ [٨] صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿٩﴾ [الأعلى].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَوْقَىٰ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾؛ لم يبين هنا ما أوتيه موسى وعيسى، ولكنه بينه في مواضع آخر. فذكر أن ما أوتيه موسى هو التوراة المعبر عنها بالصحف في قوله: ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [٩] [الأعلى]. وذلك كقوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ﴾ [الأنعام: ١٥٤]، وهو التوراة بالإجماع. وذكر أن ما أوتيه عيسى هو الإنجيل كما في قوله: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ [الحديد: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَوْقَىٰ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَفْرُقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ أمر الله النبي ﷺ، والمسلمين في هذه الآية أن يؤمنوا بما أوتيه جميع النبيين وأن لا يفرقوا بين أحد منهم حيث قال: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا أَوْقَىٰ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَفْرُقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾. ولم يذكر هنا هل فعلوا ذلك أو لا؟ ولم يذكر جزاءهم إذا فعلوه، ولكنه بين كل ذلك في غير هذا الموضع. فصرح بأنهم امتثلوا الأمر بقوله: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفْرُقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وذكر جزاءهم على ذلك بقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ لم يبين

هنا الصراط المستقيم. ولكنه بينه بقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ الآية. أي خياراً عدولاً، ويدل لأن الوسط الخيار العدول. قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وذلك معروف في كلام العرب ومنه قول زهير:

هم وسط يرضى الأنام لحكمهم إذا نزلت إحدى الليالي بمعظم

قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. لم يبين هنا هل هو شهيد عليهم في الدنيا أو الآخرة؟ ولكنه بين في موضع آخر أنه شهيد عليهم في الآخرة وذلك في قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ﴿١٩﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ شِئِيَ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٢٢﴾﴾ [النساء].

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ الآية. ظاهر هذه الآية قد يتوهم منه الجاهل أنه تعالى يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، بل هو تعالى عالم بكل ما سيكون قبل أن يكون. وقد بين أنه لا يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه بقوله - جلّ وعلا -: ﴿وَلَيَبْتَلِيَّ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. فقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ بعد قوله: ﴿وَلَيَبْتَلِيَّ﴾؛ دليل قاطع على أنه لم يستفد بالاختبار شيئاً لم يكن عالمًا به، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً؛ لأن العليم بذات الصدور غني عن الاختبار؛ وفي هذه الآية بيان عظيم لجميع الآيات التي يذكر الله فيها اختباره لخلقه. ومعنى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾؛ أي علماً يترتب عليه الثواب والعقاب فلا ينافي أنه كان عالمًا به قبل ذلك، وفائدة الاختبار ظهور الأمر للناس، أما عالم السر والنجوى فهو عالم بكل ما سيكون كما لا يخفى.

وقوله: ﴿مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾؛ أشار إلى أن الرسول هو محمد ﷺ، بقوله مخاطباً له: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ الآية؛ لأن هذا الخطاب له إجماعاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّكُمْ﴾ أي صلاتكم إلى بيت المقدس على الأصح ويستروح ذلك من قوله قبله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ الآية، ولا سيما على القول باعتبار دلالة الاقتران، والخلاف فيها معروف في الأصول.

قوله تعالى: ﴿فَلَنَوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾؛ بيّنه قوله بعده: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَعْلَمُهُمُ اللَّهُ وَيَعْلَمُهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾. لم يبين هنا ما اللاعنون، ولكنه أشار إلى ذلك في قوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦٢]. قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية. لم يبين هنا وجه كونهما آية،

ولكنه بين ذلك في مواضع آخر. كقوله: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّهَا وَزَيَّنَّهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝١﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِجْسًا مِنْ كُلِّ نَجَسٍ يُهَيِّجُ ۝٢ بَصِيرَةً وَذَكَرْنَاهُ لِكُلِّ عَبْدٍ مُثِيبٍ ۝٣﴾ [ق]. وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَاتَّعِجْ بِالْبَصَرِ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ ۝٤﴾ ثُمَّ أُنْزِلَ إِلَيْكَ الْغُرُوثُ خَاسِفًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٥﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۝٦﴾ [الملك]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ۝٧﴾ [الملك].

قوله تعالى: ﴿وَاخْتَلَفَ الْأَيْلُ وَالنَّهَارُ﴾. لم يبين هنا وجه كون اختلافهما آية، ولكنه بين ذلك في مواضع آخر كقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّتِيلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَيْلٍ تَسْمَعُونَ ۝٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَيْلٍ تَبْصُرُونَ ۝٩﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾ [القصاص]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؛ لم يبين هنا كيفية تسييره، ولكنه بين ذلك في مواضع آخر كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ فَانزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١١﴾ [الأعراف]. وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْعَلُهُمْ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدَّكَ يُخْرَجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [النور: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوُونَ الْعَذَابَ﴾ الآية. المراد بالذين ظلموا الكفار، وقد بين ذلك بقوله في آخر الآية ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ۝١٢﴾ ويدل ذلك قوله تعالى عن لقمان مقررًا له: ﴿يَبْنِي لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. وقوله - جل وعلا -: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]. وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۝١٣﴾ [يونس].

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا أَتَّبِعُوا﴾ أشار هنا إلى تخاصم أهل النار. وقد بين منه غير ما ذكر هنا في مواضع آخر كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝١٤﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنْخَنَ صَدَدْنَكُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ شُرَكَمِمْ ۝١٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ [سبا: ٣١ - ٣٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ﴾. لم يذكر هنا ما يترتب على اتباع خطواته من الضرر، ولكنه أشار إلى ذلك في سورة النور، بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ الآية [النور: ٢١].

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. لم يبين هنا هذا الذي يقولونه عليه بغير علم، ولكنه فصله في مواضع آخر فذكر أن ذلك الذي يقولونه بغير علم هو: أن الله حرم البحائر والسوائب ونحوها، وأن له أولاداً، وأن له شركاء، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً. فصرح بأنه لم يحرم ذلك بقوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِغَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [المائدة: ١٠٣]. وقوله: ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٤٠]. وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ الآية [يونس: ٥٩]. وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ [النحل: ١١٦]، إلى غير ذلك من الآيات. ونزه نفسه عن الشركاء المزعومة بقوله: ﴿سُبْحَنَهُ وَقَعْلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، ونحوها من الآيات ونزه نفسه عن الأولاد المزعومة بقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ﴾ الآية [البقرة: ١١٦]. ونحوها من الآيات فظهر من هذه الآيات تفصيل، ما أجمل في اسم الموصول الذي هو ما، من قوله: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ﴾ الآية. ظاهر هذه الآية أن جميع أنواع الميتة والدم حرام، ولكنه بيّن في موضع آخر أن ميتة البحر خارجة عن ذلك التحريم وهو قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ [المائدة: ٩٦]. إذ ليس للبحر طعام غير الصيد إلا ميتته. وما ذكره بعض العلماء من أن المراد [بطعامه] قديده المجفف بالملح مثلاً، وأن المراد [بصيده] الطري منه. فهو خلاف الظاهر؛ لأن القديد من صيده فهو صيد جعل قديداً، وجمهور العلماء على أن المراد بطعامه ميتته. منهم: أبو بكر الصديق، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر، وأبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه أجمعين وعكرمة، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وإبراهيم النخعي، والحسن البصري وغيرهم. كما نقله عنهم ابن كثير. وأشار في موضع آخر إلى أن غير المسفوح من الدماء ليس بحرام وهو قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]، فيفهم منه أن غير المسفوح كالحمرة التي تعلقو القدر من أثر تقطيع اللحم ليس بحرام، إذ لو كان كالمسفوح لما كان في التقييد بقوله: ﴿مَسْفُوحًا﴾.

فائدة: وقد جاء عن النبي ﷺ أن الله أحل له ولأمته ميتين ودمين. أما الميتتان: فالسمك والجراد، وأما الدمان: فالكبد والطحال.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾. لم يبين هنا سبب اضطراره، ولم يبين المراد بالباغي والعادي، ولكنه أشار في موضع آخر إلى أن سبب الاضطرار المذكور المخصصة، وهي الجوع وهو قوله: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَحْصَةٍ﴾ [المائدة: ٣]، وأشار إلى أن المراد بالباغي والعادي المتجانف للإثم، وذلك في قوله: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَحْصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ﴾ [المائدة: ٣]، والمتجانف المائل ومنه قول الأعشى:

تجانف عن حجر اليمامة ناقتي وما قصدت من أهلها لسوائكا

فيفهم من الآية أن الباغي والعادي كلاهما متجانف لإثم، وهذا غاية ما يفهم منها.
وقال بعض العلماء: الإثم الذي تجانف إليه الباغي هو الخروج على إمام المسلمين، وكثيراً ما يطلق اسم البغي على مخالفة الإمام، والإثم الذي تجانف إليه العادي هو إخافة الطريق وقطعها على المسلمين، ويلحق بذلك كل سفر في معصية الله. اهـ.

وقال بعض العلماء: إثم الباغي والعادي أكلهما المحرم مع وجود غيره، وعليه فهو كالتأكيد لقوله: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ﴾؛ وعلى القول الأول: لا يجوز لقاطع الطريق والخارج على الإمام الأكل من الميتة وإن خافا الهلاك ما لم يتوبا، وعلى الثاني يجوز لهما أكل الميتة إن خافا الهلاك وإن لم يتوبا.

ونقل القرطبي عن قتادة، والحسن، والربيع، وابن زيد، وعكرمة، أن المعنى: غير باغ؛ أي في أكله فوق حاجته، ولا عاد بأن يجد عن هذه المحرمات مندوحة، ويأكلها.
ونقل أيضاً عن السدي أن المعنى غير باغ في أكلها شهوة وتلذذاً، ولا عاد باستيفاء الأكل إلى حد الشبع.

وقال القرطبي أيضاً: وقال مجاهد وابن جبير وغيرهما: المعنى غير باغ على المسلمين، ولا عاد عليهم، فيدخل في الباغي والعادي قطاع الطريق، والخارج على السلطان، والمسافر في قطع الرحم، والغارة على المسلمين، وما شاكله، وهذا صحيح. فإن أصل البغي في اللغة قصد الفساد يقال: بغت المرأة تبغي بغاء إذا فجرت.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَكُمْ عَلَى إِلَافَةٍ﴾ [النور: ٣٣]، وربما استعمل البغي في طلب غير الفساد، والعرب تقول: خرج الرجل في بغاء إبل له؛ أي في طلبها، ومنه قول الشاعر:

لا يَمْنَعُكَ مِنْ بَغَا الخَيْرِ تَعْقَادِ الرِّثَائِمِ
إِنْ الْأَشْيَاءُ كَالْأَيَا مِنْ وَالْأَيَامِنْ كَالْأَشَائِمِ

وذكر القرطبي عن مجاهد: أن المراد بالاضطرار في هذه الآية: الإكراه على أكل المحرم، كالرجل يأخذه العدو فيكرهونه على لحم الخنزير وغيره من معصية الله تعالى، وذكر أن المراد به عند الجمهور من العلماء المخصصة التي هي الجوع كما ذكرنا.

وقد قدما أن آية ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ﴾ [المائدة: ٣]، مبينة لذلك وحكم الإكراه على أكل ما ذكر يؤخذ من قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]، بطريق الأولى، وحديث: «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

قوله تعالى: ﴿وَأَتَى الْفَالَّ عَلَى حَبِّهِ﴾ لم يبين هنا هل هذا المصدر مضاف إلى فاعله فيكون الضمير عائداً إلى من أتى المال، والمفعول محذوفاً، أو مضافاً إلى مفعوله فيكون الضمير عائداً إلى المال، ولكنه ذكر في موضع آخر ما يدل على أن المصدر مضاف إلى فاعله، وأن المعنى على حبه أي حب مؤتي المال لذلك المال وهو قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]: ولا يخفى أن بين القولين تلازماً في المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَحِينَ الْبَاسِ﴾. لم يبين هنا ما المراد بالباس، ولكنه أشار في موضع آخر إلى أن البأس القتال، وهو قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٧]. كما هو ظاهر من سياق الكلام.

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لِمَلَّكُمْ تَنَفُّونَ﴾ [٢١٧]. قال بعض العلماء: هي ثلاثة من كل شهر، وعاشوراء. وقال بعض العلماء: هي رمضان، وعلى هذا القول فقد بينها تعالى بقوله: ﴿شَهْرَ رَمَضَانَ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾. لم يبين هنا هل أنزل في الليل منه أو النهار؟ ولكنه بين في غير هذا الموضع أنه أنزل في ليلة القدر، من رمضان وذلك في قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [١]. [القدر]، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]؛ لأن الليلة المباركة هي ليلة القدر على التحقيق، وفي معنى إنزاله وجهان: الأول: أنه أنزل فيها جملة إلى السماء الدنيا، كما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنه.

والثاني: أن معنى إنزاله فيها ابتداء نزوله كما قال به بعضهم. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾. ذكر في هذه الآية أنه - جل وعلا - قريب يجيب دعوة الداعي، وبين في آية أخرى تعليق ذلك على مشيئته - جل وعلا - وهي قوله: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ...﴾ الآية [الأنعام: ٤١]. وقال بعضهم: التعليق بالمشيئة في دعاء الكفار كما هو ظاهر سياق الآية، والوعد المطلق في دعاء المؤمنين وعليه، فدعائهم لا يرد، إما أن يعطوا ما سألوا، أو يدخر لهم خير منه، أو يدفع عنهم من السوء بقدره.

وقال بعض العلماء: المراد بالدعاء العبادة وبالإجابة الثواب، وعليه فلا إشكال. قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾؛ بينه قوله: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾؛ والعرب تسمي ضوء الصبح خيطاً، وظلام الليل المختلط به خيطاً، ومنه قول أبي داود الإيادي:

فلما أضاءت لنا سدفه ولاح من الصبح خيط أنارا
وقول الآخر:

الخيط الأبيض ضوء الصبح منفلق والخيط الأسود جنح الليل مكتوم
قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ مِمَّنْ أَعْفَى﴾. لم يصرح هنا بالمراد بمن اتقى، ولكنه بينه بقوله: ﴿وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ مِمَّنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآلَتَيْنِ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ

هُمْ الْمُنْفَوْنَ ﴿١٩٧﴾ ، والكلام في الآية على حذف مضاف أي ولكن ذا البر من اتقى، وقيل: ولكن البر بر من اتقى، ونظير الآية في ذلك من كلام العرب قول الخنساء:

لا تسأم الدهر منه كلما ذكرت
أي ذات إقبال، وقول الشاعر:

وكيف تواصل من أصبحت
أي كخلالة أبي مرحب وقول الآخر:

لعمرك ما الفتیان أن تنبت اللحي
أي ليس الفتیان فتیان نبات اللحي.

قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ فيه ثلاثة أوجه للعلماء:

الأول: أن المراد بالذين يقاتلونكم من شأنهم القتال، أي دون غيرهم، كالنساء، والصبيان، والشيوخ الفانية، وأصحاب الصوامع.

الثاني: أنها منسوخة بآيات السيف الدالة على قتالهم مطلقاً.

الثالث: أن المراد بالآية تهيج المسلمين وتحريضهم على قتال الكفار، فكأنه يقول لهم: هؤلاء الذين أمرتكم بقتالهم هم خصومكم، وأعداؤكم الذين يقاتلونكم، وأظهرها الأول وعلى القول الثالث، فالمعنى يبينه ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُخْضِرْتُمْ قَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾. اختلف العلماء في المراد بالإحصار في هذه الآية الكريمة فقال قوم: هو صد العدو المحرم ومنعه إياه من الطواف بالبيت. وقال قوم: المراد به حبس المحرم بسبب مرض ونحوه. وقال قوم: المراد به ما يشمل الجميع من عدو ومرض ونحو ذلك.

ولكن قوله تعالى بعد هذا: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾؛ يشير إلى أن المراد بالإحصار هنا صد العدو للمحرم؛ لأن الأمن إذا أطلق في لغة العرب انصرف إلى الأمن من الخوف لا إلى الشفاء من المرض، ونحو ذلك، ويؤيده أنه لم يذكر الشيء الذي منه الأمن، فدل على أن المراد به ما تقدم من الإحصار، فثبت أنه الخوف من العدو، فما أجاب به بعض العلماء من أن الأمن يطلق على الأمن من المرض، كما في حديث «من سبق العاطس بالحمد أمن من الشوص، واللوص، والعلوص» أخرجه ابن ماجة في سننه فهو ظاهر السقوط؛ لأن الأمن فيه مقيد بكونه من المرض، فلو أطلق لانصرف إلى الأمن من الخوف.

وقد يجاب أيضاً بأنه يخاف وقوع المذكور من الشوص الذي هو وجع السن، واللوص الذي هو وجع الأذن، والعلوص الذي هو وجع البطن؛ لأنه قبل وقوعها به يطلق عليه أنه خائف من وقوعها؛ فإذا أمن من وقوعها به فقد أمن من خوف.

أما لو كانت وقعت به بالفعل فلا يحسن أن يقال: أمن منها؛ لأن الخوف في لغة العرب هو الغم من أمر مستقبل، لا واقع بالفعل، فدل هذا على أن زعم إمكان إطلاق الأمن على الشفاء من المرض خلاف الظاهر.

وللعلماء أقوال أرجحها ما ذهب إليه الشيخ في قوله: الذي يظهر لنا رجحانه بالدليل من الأقوال المذكورة هو ما ذهب إليه مالك والشافعي وأحمد في أشهر الروايتين عنه، أن المراد بالإحصار في الآية إحصار العدو، وأن من أصابه مرض أو نحوه لا يحل إلا بعمرة؛ لأن هذا هو الذي نزلت فيه الآية ودل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ الآية.

ولا سيما على قول من قال من العلماء: إن الرخصة لا تتعدى محلها، وهو قول جماعة من أهل العلم.

وأما قوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦] فجمهور العلماء على أن المراد به شاة فما فوقها، وهو مذهب الأئمة الأربعة، وبه قال علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ورواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال طاوس، وعطاء، ومجاهد، وأبو العالية، ومحمد بن علي بن الحسين، وعبد الرحمن بن القاسم، والشعبي، والنخعي، والحسن، وقتادة، والضحاك، ومقاتل بن حيان، وغيرهم، كما نقله عنهم ابن كثير وغيره.

وقال جماعة من أهل العلم: إن المراد بما استيسر من الهدي، إنما هو الإبل والبقر دون الغنم، وهذا القول مروى عن عائشة، وابن عمر، وسالم، والقاسم، وعروة بن الزبير، وسعيد بن جبير، وغيرهم.

قال ابن كثير: والظاهر أن مستند هؤلاء فيما ذهبوا إليه قصة الحديدية، فإنه لم ينقل عن أحد منهم أنه ذبح في تحلله ذلك شاة، وإنما ذبحوا الإبل والبقر.

ففي الصحيحين عن جابر قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقر كل سبعة منا في بقرة».

قال مقيد - عفا الله عنه - لا يخفى أن التحقيق في هذه المسألة: أن المراد بما استيسر من الهدي ما تيسر مما يسمى هدياً، وذلك شامل لجميع الأنعام: من إبل، وبقر، وغنم، فإن تيسرت شاة أجزاء، والناقة والبقرة أولى بالأجزاء.

وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: «أهدى ﷺ مرة غنماً».

قال مقيد - عفا الله عنه -: التحقيق في هذه المسألة هو التفصيل الذي ذهب إليه ابن عباس (رضي الله عنه)، وهو أنه إن استطاع إرسال الهدي إلى الحرم أرسله، ولا يحل حتى يبلغ الهدي محله، إذ لا وجه لنحر الهدي في الحل مع تيسر الحرم، وإن كان لا يستطيع إرساله إلى الحرم نحره في المكان الذي أحصر فيه من الحل.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

لم يبين هنا ما هذا الفضل الذي لا جناح في ابتغائه أثناء الحج. وأشار في آيات آخر إلى أنه ربح التجارة كقوله: ﴿وَأَخْرُجُوا بَصَرِيَّوْنَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَتَّوْنَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]؛ لأن الضرب في الأرض عبارة عن السفر للتجارة، فمعنى الآية يسافرون يطلبون ربح التجارة، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]؛ أي بالبيع والتجارة، بدليل قوله قبله: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩]؛ أي فإذا انقضت صلاة الجمعة فاطلبوا الربح الذي كان محرماً عليكم عند النداء لها.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب أن غلبة إرادة المعنى المعين في القرآن تدل على أنه المراد؛ لأن الحمل على الغالب أولى، ولا خلاف بين العلماء في أن المراد بالفضل المذكور في الآية ربح التجارة، كما ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّكَاسُ﴾ لم يبين هنا المكان المأمور بالإفاضة منه المعبر عنه بلفظة حيث، التي هي كلمة تدل على المكان، كما تدل حين على الزمان. ولكنه يبين ذلك بقوله: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ... الآية، وسبب نزولها أن قريشاً كانوا يقفون يوم عرفة بالمزدلفة، ويقولون: نحن قطان بيت الله، ولا ينبغي لنا أن نخرج من الحرم؛ لأن عرفات خارج عن الحرم وعامة الناس يقفون بعرفات، فأمر الله النبي ﷺ، والمسلمين، أن يفيضوا من حيث أفاض الناس، وهو عرفات، لا من المزدلفة كفعل قريش.

وهذا هو مذهب جماهير العلماء، وحكى ابن جرير عليه الإجماع، وعليه فلفظة (ثم) للترتيب الذكري بمعنى عطف جملة على جملة، وترتيبها عليها في مطلق الذكر، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَكَرَّجَ رَبِّي﴾ (١٣) أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ (١٤) يَسْمَا ذَا مَقَرَبَةٍ (١٥) أَوْ مَشْكِيكًا ذَا مَقَرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ (١٧) [البلد].

وقول الشاعر:

إن من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جده

وقال بعض العلماء: المراد بقوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾ الآية. من مزدلفة إلى منى، وعليه فالمراد بالناس إبراهيم.

قال ابن جرير في هذا القول: ولولا إجماع الحجة على خلافه لكان هو الأرجح.

قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْرَحُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لم يبين هنا سخرية هؤلاء الكفار من هؤلاء المؤمنين، ولكنه بين في موضع آخر أنها الضحك منهم والتغامز وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (١٦) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (١٧) [المطففين: ٢٩ - ٣٠]

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾. لم يبين هنا فوقية هؤلاء المؤمنين على هؤلاء الكفرة، ولكنه بين ذلك في مواضع آخر كقوله: ﴿قَالِ يَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ

يَضْحَكُونَ ﴿٢١٦﴾ عَلَى الْأَرْكَانِ يُنظَرُونَ ﴿٢١٧﴾ [المطففين]. وقوله: ﴿أَهْؤَلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا بِنَالِهِمْ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَذَلُّوا لِمَنَّةٍ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَخْزُونَ ﴿٢١٨﴾﴾ [الأعراف].

قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾. لم يصف هذا الخير هنا بالكثرة وقد وصفه بها في قوله: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَعُوا﴾. لم يبين هنا هل استطاعوا ذلك أو لا؟ ولكنه بين في موضع آخر أنهم لم يستطيعوا، وأنهم حصل لهم اليأس من رد المؤمنين عن دينهم، وهو قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾... الآية [المائدة: ٣]. وبين في مواضع أخرى أنه مظهر دين الإسلام على كل دين كقوله في براءة، والصف، والفتح: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الفتح: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، لم يبين هنا ما هذا الإثم الكبير؟ ولكنه بين في آية أخرى أنه إيقاع العداوة والبغضاء بينهم، والصد عن ذكر الله، وعن الصلاة، وهي قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْحَرِّ وَالْيَمْرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [المائدة: ٩١].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾، ظاهر عمومه شمول الكتابيات، ولكنه بين في آية أخرى أن الكتابيات لسن داخلات في هذا التحريم، وهي قوله تعالى: ﴿وَالْأَخَصَانَتْ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٥]، فإن قيل: الكتابيات لا يدخلن في اسم المشركات بدليل قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: ١]. وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: ٦].

وقوله: ﴿مَّا يَوْءُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٠٥]، والعطف يقتضي المغايرة. فالجواب أن أهل الكتاب داخلون في اسم المشركين كما صرح به تعالى في قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّى ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُ اللَّهُ أَنَّهُ يُؤَفِّكُونَ ﴿٢٢٠﴾﴾ أَخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرَبَّنَّهُمْ زَيْبًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [التوبة].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَقَهَّرَ فَأَقْوَمُ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾؛ لم يبين هنا هذا المكان المأمور بالإتيان منه المعبر عنه بلفظة «حيث» ولكنه بين أن المراد به الإتيان في القبل في آيتين:

إحداهما: هي قوله هنا: ﴿فَأَتُوا حَرَّكُمْ﴾؛ لأن قوله: ﴿فَأَتُوا﴾. أمر بالإتيان بمعنى الجماع وقوله: ﴿حَرَّكُمْ﴾؛ يبين أن الإتيان المأمور به إنما هو في محل الحرث يعني بذر الولد بالنطفة، وذلك هو القبل دون الدبر كما لا يخفى؛ لأن الدبر ليس محل بذر للأولاد، كما هو ضروري.

ثانيهما: قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَيْنَ بَشِيرًا مَّا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾. لأن المراد بما كتب الله لكم، الولد، على قول الجمهور، وهو اختيار ابن جرير، وقد نقله عن ابن عباس، ومجاهد، والحكم، وعكرمة، والحسن البصري، والسدي، والربيع، والضحاك بن مزاحم، ومعلوم أن ابتغاء الولد إنما هو بالجماع في القبل، فالقبل إذن هو المأمور بالمباشرة فيه، بمعنى الجماع فيكون معنى الآية فالآن بأشروهن ولتكن تلك المباشرة في محل ابتغاء الولد، الذي هو القبل دون غيره، بدليل قوله: ﴿وَأَتَعُوا مَّا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾؛ يعني الولد.

ويتضح لك من هذا أن معنى قوله تعالى: ﴿أَنَّى شِئْتُمْ﴾ يعني أن يكون الإتيان في محل الحرث على أي حالة شاء الرجل، سواء كانت المرأة مستلقية أو باركة أو على جنب، أو غير ذلك، ويؤيد هذا ما رواه الشيخان وأبو داود والترمذي عن جابر رضي الله عنه قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت: ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾. فظهر من هذا أن جابراً رضي الله عنه يرى أن معنى الآية، فأتوهن في القبل على أية حالة شئتم ولو كان من ورائها.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾. لم يصرح هنا بالمراد بما كسبته قلوبهم، ولم يذكر هنا ما يترتب على ذلك إذا حنث، ولكنه بين في سورة المائدة أن المراد بما كسبت القلوب، هو عقد اليمين بالنية والقصد، وبين أن اللازم في ذلك إذا حنث كفارة، هي: إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة ومن عجز عن واحد من الثلاثة فصوم ثلاثة أيام، وذلك في قوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾... الآية [المائدة: ٨٩].

قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرَیَصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾. ظاهر هذه شمولها لجميع المطلقات، ولكنه بين في آيات آخر خروج بعض المطلقات من هذه العموم، كالحوامل المنصوص على أن عدتهن رضع الحمل، في قوله: ﴿وَالَّتِي يَبْسَنَ مِنَ الْمَجْصِ مِنْ سَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ﴾ [الطلاق: ٤]. وكالمطلقات قبل الدخول المنصوص على أنهن لا عدة عليهن أصلاً، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ فَمَتَّعُوهُنَّ وَسِرَّجُوهُنَّ سِرَّاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

أما اللواتي لا يحضن لكبر أو صغر، فقد بين أن عدتهن ثلاثة أشهر في قوله: ﴿وَالَّتِي يَبْسَنَ مِنَ الْمَجْصِ مِنْ سَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ﴾ [الطلاق: ٤].

قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةُ قُرُوءٍ﴾. فيه إجمال؛ لأن القرء يطلق لغة على الحيض، ومنه قوله ﷺ: «دعي الصلاة أيام أقرائك». ويطلق القرء أيضاً على الطهر ومنه قول الأعشى:

أفي كل يوم أنت جناشم غزوة تشد لأقصاها عزيماً عزائكا
مورثة مالا وفي الحي رفعة لما ضاع فيها من قووء نساكا

وخلاصة قول الشيخ: وأدلة من ذهب إلى أن المراد بالقرء الطهر: هو الأظهر لأن مدار الخلاف هل القروء الحيضات أو الأطهار؟ وهذه الآية، وهذا الحديث، دلا على أنها الأطهار. ولا يوجد في كتاب الله، ولا سنة نبيه ﷺ، شيء يقاوم هذا الدليل، لا من جهة الصحة، ولا من جهة الصراحة في محل النزاع؛ لأنه حديث متفق عليه مذكور في معرض بيان معنى آية من كتاب الله تعالى. وقد صرح فيه النبي ﷺ بأن الطهر هو العدة مبيناً أن ذلك هو مراد الله جل وعلا، بقوله: ﴿فَطَلِقُوهُنَّ لِئَدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، فالإشارة في قوله ﷺ: فتلك العدة، راجعة إلى حال الطهر الواقع فيه الطلاق؛ لأن معنى قوله فليطلقها طاهراً؛ أي في حال كونها طاهراً، ثم بين أن ذلك الحال الذي هو الطهر هو العدة مصرحاً بأن ذلك هو مراد الله في كتابه العزيز، وهذا نص صريح في أن العدة بالطهر، وأنث الإشارة لتأنيث الخبر، ولا تخلص من هذا الدليل لمن يقول هي الحيضات إلا إذا قال: العدة غير القروء، والنزاع في خصوص القروء كما قال بهذا بعض العلماء.

وهذا القول يرده إجماع أهل العرف الشرعي، وإجماع أهل اللسان العربي، على أن عدة من تعتد بالقروء هي نفس القروء لا شيء آخر زائد على ذلك. وقد قال تعالى: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١] وهي زمن التريص إجماعاً، وذلك هو المعبر عنه بثلاثة قروء التي هي معمول قوله تعالى: ﴿يَرْبِضَنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨] في هذه الآية فلا يصح لأحد أن يقول: إن على المطلقة التي تعتد بالأقراء شيئاً يسنى العدة. زائداً على ثلاثة القروء المذكورة في الآية الكريمة البتة، كما هو معلوم.

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْلِنُ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾. ظاهر هذه الآية الكريمة أن أزواج كل المطلقات أحق بردهن، لا فرق في ذلك بين رجعية وغيرها. ولكنه أشار في موضع آخر إلى أن البائن لا رجعة له عليها، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

وذلك لأن الطلاق قبل الدخول بائن، كما أنه أشار هنا إلى أنها إذا بانت بانقضاء العدة لا رجعة له عليها، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيُؤْلِنُ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾؛ لأن الإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾؛ راجعة إلى زمن العدة المعبر عنه في الآية بثلاثة قروء.

واشترط هنا في كون بعولة الرجعيات أحق بردهن إرادتهم الإصلاح بتلك الرجعة، في قوله: ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾؛ ولم يتعرض لمفهوم هذا الشرط هنا، ولكنه صرح في مواضع أخرى: أن زوج الرجعية إذا ارتجعها لا بنية الإصلاح بل بقصد الإضرار بها؛ لتخالعه أو نحو ذلك، أن رجعتها حرام عليه، كما هو مدلول النهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْكِنُكُمْ ضَرَارًا لَعَنَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾.

فالرجعة بقصد الإضرار حرام إجماعاً، كما دل عليه مفهوم الشرط المصرح به في قوله: ﴿وَلَا تُسْكِنُكُمْ ضَرَارًا﴾؛ الآية. وصحة رجعته حينئذ باعتبار ظاهر الأمر، فلو صرح للحاكم بأنه ارتجعها بقصد الضرر، لأبطل رجعته كما ذكرنا، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَالرِّجَالُ عَلَىٰ ذَرَّةٍ﴾.. لم يبين هنا ما هذه الدرجة التي للرجال على النساء، ولكنه أشار لها في موضع آخر وهو قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّاتٌ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤]، فأشار إلى أن الرجل أفضل من المرأة؛ وذلك لأن الذكورة شرف وكمال والأنوثة نقص خلقي طبيعي، والخلق كأنه مجمع على ذلك؛ لأن الأنثى يجعل لها جميع الناس أنواع الزينة والحلي، وذلك إنما هو لجبر النقص الخلقي الطبيعي الذي هو الأنوثة، بخلاف الذكر فجعل ذكوريته يكفيه عن الحلي ونحوه.

وقد أشار تعالى إلى نقص المرأة وضعفها الخلقيين الطبيعيين، بقوله: ﴿أَوَمَن يُنَشِّئُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨]؛ لأن نشأتها في الحلية دليل على نقصها، فلزم المرأة جبره، والتغطية عليه بالحلي كما قال الشاعر:

وما الحلبي إلا زينة من نقيصة يتمم من حسن إذا الحسن قصرا
وأما إذا كان الجمال موفراً كحسنك لم يحتج إلى أن يزورا
ولأن عدم إبانها في الخصام إذا ظلمت دليل على الضعف الخلقي، كما قال الشاعر:
بنفسي وأهلي من إذا عرضوا له ببعض الأذى لم يدر كيف يجيب
فلم يعتذر عذر البريء ولم تزل به سكتة حتى يقال مريب
ولا عبرة بنواد النساء؛ لأن النادر لا حكم له.

وأشار بقوله: ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]، إلى أن الكامل في وصفه وقوته وخلقته يناسب حاله، أن يكون قائماً على الضعيف الناقص خلقة.
ولهذه الحكمة المشار إليها جعل ميزاته مضاعفاً على ميراثها؛ لأن من يقوم على غيره مترقب للنقص، ومن يقوم عليه غيره مترقب للزيادة، وإيثار مترقب النقص على مترقب الزيادة ظاهر الحكمة.

كما أنه أشار إلى حكمة كون الطلاق بيد الرجل دون إذن المرأة بقوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُ لَكُمْ﴾؛ لأن من عرف أن حقله غير مناسب للزراعة لا ينبغي أن يرغم على الازدراع في حقل لا يناسب الزراعة. ويوضح هذا المعنى أن آلة الازدراع بيد الرجل، فلو أكره على البقاء مع من لا حاجة له فيها حتى ترضى بذلك، فإنها إن أرادت أن تتجامع لا يقوم ذكره، ولا ينتشر إليها، فلم تقدر على تحصيل النسل منه، الذي هو أعظم الغرض من النكاح بخلاف الرجل، فإنه يولدها وهي كارهة كما هو ضروري.

قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾. ظاهر هذه الآية الكريمة أن الطلاق كله منحصر في المرتين، ولكنه تعالى بين أن المنحصر في المرتين هو الطلاق الذي تملك بعده الرجعة لا مطلقاً، وذلك بذكره الطلقة الثالثة التي لا تحل بعدها المراجعة إلا بعد زوج.

وهي المذكورة في قوله: ﴿إِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ﴾ الآية، وعلى هذا القول فقوله: ﴿أَوْ تَتَرَبَّعُ يَحْسَنُ﴾؛ يعني به عدم الرجعة. وقال بعض العلماء: الطلقة الثالثة هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَتَرَبَّعُ يَحْسَنُ﴾؛ وروي هذا مرفوعاً إليه ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ سَأَلْتُمْ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَنْهِيٍّ يَحْسَنُ﴾.

لم يبين في هذه الآية. ولا في غيرها من آيات الطلاق حكمة كون الطلاق بيد الرجل دون إذن المرأة، ولكنه يبين في موضع آخر أن حكمة ذلك أن المرأة حقل تزرع فيه النطفة كما يزرع البذر في الأرض، ومن رأى أن حقله غير صالح للزراعة فالحكمة تقتضي أن لا يرغم على الازدراع فيه، وأن يترك وشأنه؛ ليختار حقلاً صالحاً لزراعته وذلك في قوله تعالى: ﴿وَسَأَلْتُمْ حَرْثَ لَكُمْ﴾ كما تقدم إيضاحه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ سِتًّا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

صرح في هذه الآية الكريمة بأن الزوج لا يحل له الرجوع في شيء مما أعطى زوجته، إلا على سبيل الخلع، إذا خافا ألا يقيما حدود الله فيما بينهما، فلا جناح عليهما إذن في الخلع؛ أي: لا جناح عليها في الدفع، ولا عليه هو في الأخذ.

وصرح في موضع آخر بالنهي عن الرجوع في شيء مما أعطى الأزواج زوجاتهم، ولو كان المعطى قطاراً، وبين أن أخذه بهتان وإثم مبین، وبين أن السبب المانع من أخذ شيء منه هو أنه أفضى إليها بالجماع. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ سِتًّا أَنْتُمْ بِهَتْنًا وَإِنَّمَا فِيمَا تَأْخُذُونَ وَكَيفَ تَأْخُذُونَ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾.

[النساء]. وبين في موضع آخر أن محل النهي عن ذلك إذا لم يكن عن طيب النفس من المرأة؛ وذلك في قوله: ﴿إِنْ طَلَّقَ طَلِّقَ لَكُمْ عَنْ مَقَرٍّ مِنْهُ قَسًا فَلَئِنْ فَتَاكُمْ فَتَاكُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ [النساء: ٤]. وأشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَزَّيْتُمْ مِنْهُ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيزَةِ﴾ [النساء: ٢٤].

تنبيه: أخذ ابن عباس من هذه الآية الكريمة أن الخلع فسخ ولا يعد طلاقاً؛ لأن الله تعالى قال: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَيْنِ﴾ ثم ذكر الخلع بقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾؛ فلم يعتبره طلاقاً ثالثاً، ثم ذكر الطلقة الثالثة بقوله: ﴿إِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ﴾ الآية. وبهذا قال عكرمة وطاوس وهو رواية عن عثمان بن عفان وابن عمر، وهو قول إسحاق بن راهويه، وأبي ثور وداود بن علي الظاهري كما نقله عنهم ابن كثير وغيره، وهو قول الشافعي في القديم وإحدى الزويتين عن أحمد.

قال مقيده - عفا الله عنه -: الاستدلال بهذه الآية على أن الخلع لا يعد طلاقاً ليس بظاهر عندي؛ لما تقدم مرفوعاً إليه ﷺ من أن الطلقة الثالثة هي المذكورة في قوله: ﴿أَوْ تَتَرَبَّعُ يَحْسَنُ﴾ وهو مرسل حسن.

قال في فتح الباري: والأخذ بهذا الحديث أولى، فإنه مرسل حسن يعتضد بما أخرجه الطبري من حديث ابن عباس بسند صحيح. قال: «إذا طلق الرجل امرأته تطليقتين فليتنق الله في الثالثة. فإذا أن يمسكها فيحسن صحبتها، أو يسرحها فلا يظلمها من حقها شيئاً».

وعليه ففراق الخلع المذكور لم يرد منه إلا بيان مشروعية الخلع عند خوفهما ألا يقيما حدود الله؛ لأنه ذكر بعد الطلقة الثالثة. وقوله: فإن طلقها إنما كرره؛ ليرتب عليه ما يلزم بعد الثالثة، الذي هو قوله: ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ﴾. ولو فرعنا على أن قوله تعالى: ﴿أَوْ تَرْجِعْ بِالْحَقِّ﴾. يراد به عدم الرجعة، وأن الطلقة الثالثة هي المذكورة في قوله: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ﴾. لم يلزم من ذلك أيضاً عدم عد الخلع طلاقاً؛ لأن الله تعالى ذكر الخلع في معرض منع الرجوع فيما يعطاه الأزواج. فاستثنى منه صورة جائزة، ولا يلزم من ذلك عدم اعتبارها طلاقاً، كما هو ظاهر من سياق الآية، وللعلماء أقوال في الخلع وأحكامه وخلاصة قول الشيخ:

قال مقيد - عفا الله عنه -: وكون الخلع طلاقاً ظاهر من جهة المعنى: لأن العوض المبذول للزوج من جهتها إنما بذلته في مقابلة ما يملكه الزوج، وهو الطلاق؛ لأنه لا يملك لها فراقاً شرعاً إلا بالطلاق، فالعوض في مقابله. ويدل له ما أخرجه البخاري في قصة مخالعة ثابت بن قيس زوجه من حديث ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس، أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ثابت بن قيس ما أعتب عليه من خلق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «أتردين عليه حديقته؟» قالت: نعم. قال رسول الله ﷺ: «اقبل الحديقة وطلقها تطليقة» فإن قوله ﷺ: «اقبل الحديقة وطلقها تطليقة»، فيه دليل على أن العوض مبذول في الطلاق الذي هو من حق الزوج.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْتُمْ أَجَلَهُنَّ فَأُمْكُوهُنَّ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَوْ سَرَّوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾. ظاهر قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَلَنْتُمْ أَجَلَهُنَّ﴾ انقضاء عدتهن بالفعل، ولكنه بين في موضع آخر أنه لا رجعة إلا في زمن العدة خاصة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيُؤْكِلْنَهُنَّ أَقْرَبُ مِنْ ذَلِكَ فِي ذَلِكَ﴾؛ لأن الإشارة في قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ راجعة إلى زمن العدة المعبر عنه بثلاثة قروء في قوله تعالى: ﴿وَالطَّلَاقُ ثَلَاثٌ﴾. فاتضح من تلك الآية أن معنى فلنن أجلهن. أي: قاربن انقضاء العدة، وأشرفن على بلوغ أجلها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنْكِرُوهُنَّ لِعَنَتُهُنَّ﴾. صرح تعالى في هذه الآية الكريمة بالنهي عن إمساك المرأة مضارة لها؛ لأجل الاعتداء عليها بأخذها ما أعطاها؛ لأنها إذا طال عليها الإضرار افتدت منه؛ ابتغاء السلامة من ضرره. وصرح في موضع آخر بأنها إذا أتت بفاحشة مبينة جاز له عضلها، حتى تفدي منه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوهُنَّ لِيَتَّبِعْنَ الْفَاحِشَةَ الْمُبَيَّنَةَ﴾ [النساء: ١٩]. واختلف العلماء في المراد بالفاحشة المبينة. فقال جماعة منهم هي: الزنا، وقال قوم هي:

النشوز والعصيان وبذاءة اللسان. والظاهر شمول الآية لكل كما اختاره ابن جرير. وقال ابن كثير: إنه جيد، فإذا زنت أو أساءت بلسانها، أو نشزت جازت مضاجرتها؛ لتفتدي منه بما أعطاها على ما ذكرنا من عموم الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا وَلَدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة أن الرجل إذا أراد أن يطلب لولده مرضعة غير أمه لا جناح عليه في ذلك، إذا سلم الأجرة المعينة في العقد، ولم يبين هنا الوجه الموجب لذلك، ولكنه بينه في سورة الطلاق بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَايَرْتُمْ فَسَرِّعْ لَكُمُ الْوُقُوعَ﴾ [الطلاق: ٦]، والمراد بتعاسرهم: امتناع الرجل من دفع ما تطلبه المرأة، وامتناع المرأة من قبول الإرضاع بما يبذله الرجل ويرضى به.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾. ظاهر هذه الآية الكريمة أن كل متوفى عنها تعتد بأربعة أشهر وعشر، ولكنه بين في موضع آخر أن محل ذلك ما لم تكن حاملاً، فإن كانت حاملاً كانت عدتها وضع حملها، وذلك في قوله: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]، ويزيده إيضاحاً ما ثبت في الحديث المتفق عليه من إذن النبي ﷺ لسبيعة الأسلمية في الزواج بوضع حملها بعد وفاة زوجها بأيام، وكون عدة الحامل المتوفى عنها بوضع حملها هو الحق، كما ثبت عنه ﷺ خلافاً لمن قال: تعتد بأقصى الأجلين. ويروى عن علي وابن عباس. والعلم عند الله تعالى.

تنبيهان:

الأول: هاتان الآيتان أعني قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] من باب تعارض الأعمين من وجه، والمقرر في الأصول الترجيح بينهما، والراجع منهما يخص به عموم المرجوح كما عقده في (المراقي) بقوله:

وإن يك العموم من وجه ظهر فالحكم بالترجيح حتماً معتبر

وقد بينت السنة الصحيحة أن عموم: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ﴾ [الطلاق: ٤] مخصص لعموم ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾. مع أن جماعة من الأصوليين ذكروا أن الجموع المنكرة لا عموم لها، وعليه فلا عموم في آية البقرة؛ لأن قوله: ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ جمع منكر فلا يعم بخلاف قوله: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ﴾ [الطلاق: ٤] فإنه مضاف إلى معرف بآل، والمضاف إلى المعارف بها من صيغ العموم، كما عقده في (مراقي السعود) بقوله عاطفاً على صيغ العموم:

وما معرفاً بآل قد وجداً

أو بإضافة إلى معرف إذا تحقق الخصوص قد نفى

الثاني: الضمير الرابط للجملة بالموصول محذوف؛ لدلالة المقام عليه؛ أي

والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بعدهم أربعة أشهر وعشراً كقول العرب: السنن منون بدرهم؛ أي منون منه بدرهم.

قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾.

ظاهر هذه الآية الكريمة أن المتعة حق لكل مطلقة على مطلقها المتقي، سواء أطلقت قبل الدخول أم لا فرض لها صداق أم لا؟ ويدل لهذا العموم قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ قُلُوبُ الْأَرْوَاحِ إِنَّ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتُمْ أُمْتِعْكُمْ وَأَرْحَبْكُمْ سَرَلَكُمْ جَيْلًا﴾ [الأحزاب: ٢١] وقد تقرر في الأصول أن الخطاب الخاص به ﷺ يعم حكمه جميع الأمة إلا بدليل على الخصوص كما عقده في (مراقي السعود) بقوله:

ومأبى به قد خطب النبي تعميمه في المذهب السني

وهو مذهب الأئمة الثلاثة، خلافاً للشافعي القائل بخصوصه به ﷺ إلا بدليل على العموم، كما بيناه في غير هذا الموضع. وإذا عرفت ذلك فاعلم أن أزواج النبي مفروض لهن ومدخول بهن، وقد يفهم من موضع آخر أن المتعة لخصوص المطلقة قبل الدخول وفرض الصداق معاً؛ لأن المطلقة بعد الدخول تستحق الصداق، والمطلقة قبل الدخول وبعد فرض الصداق تستحق نصف الصداق. والمطلقة قبلهما لا تستحق شيئاً، فالمتعة لها خاصة لجبر كسرها وذلك في قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ﴾ ثم قال: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ فهذه الآية ظاهرة في هذا التفصيل، ووجهه ظاهر معقول.

وقد ذكر تعالى في موضع آخر ما يدل على الأمر بالمتعة للمطلقة قبل الدخول وإن كان مفروضاً لها، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ قُلُوبُ الْأَرْوَاحِ إِنَّ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتُمْ أُمْتِعْكُمْ وَأَرْحَبْكُمْ سَرَلَكُمْ جَيْلًا﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ لأن ظاهر عمومها يشمل المفروض لها الصداق وغيرها، وبكل واحدة من الآيات الثلاث أخذ جماعة من العلماء. والأحوط الأخذ بالعموم، وقد تقرر في الأصول أن النص الدال على الأمر مقدم على الدال على الإباحة، وعقده في (مراقي السعود) بقوله:

وناقل ومثبت والأمر بعد النواهي ثم هذا الآخر

على إباحة... إلخ.

فقوله: ثم هذا الآخر على إباحة. يعني: أن النص الدال على أمر مقدم على النص الدال على إباحة، للاحتياط في الخروج من عهدة الطلب. والتحقيق أن قدر المتعة لا تحديد فيه شرعاً؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَى الْكُوفِيِّ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمَقَرِّي قَدَرُهُ﴾ فإن توافقا على قدر معين فالأمر واضح، وإن اختلفا فالحاكم يجتهد في تحقيق المناط، فيعين القدر على ضوء قوله تعالى: ﴿عَلَى الْكُوفِيِّ قَدَرُهُ﴾ [البقرة: ٢٣٦] هذا هو الظاهر وظاهر قوله: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾ وقوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ﴾ يقتضي وجوب المتعة في الجملة خلافاً لمالك ومن وافقه في عدم وجوب المتعة أصلاً، واستدل بعض المالكية على عدم وجوب المتعة

بأن الله تعالى قال: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ وقال: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ قالوا: فلو كانت واجبة لكانت حقاً على كل أحد. وبأنها لو كانت واجبة لعين فيها القدر الواجب.

قال مقيدة - عفا الله عنه -: هذا الاستدلال على عدم وجوبها لا ينهض فيما يظهر؛ لأن قوله: ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ٩١]، و﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ تأكيد للوجوب وليس لأحد أن يقول لست متقياً مثلاً؛ لوجوب التقوى على جميع الناس. قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَعْوَهُنَّ﴾... الآية ما نصه: وقوله: ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ تأكيد لإيجابها؛ لأن كل واحد يجب عليه أن يتقي الله في الإشراف به ومعاصيه، وقد قال تعالى في القرآن: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾، وقولهم: لو كانت واجبة لعين القدر الواجب فيها، ظاهر السقوط. فنفقة الأزواج والأقارب واجبة ولم يعين فيها القدر اللازم، وذلك النوع من تحقيق المناط مجمع عليه في جميع الشرائع كما هو معلوم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أُخْبِتُهُمْ﴾.

المقصود من هذه الآية الكريمة، تشجيع المؤمنين على القتال بإعلامهم بأن الفرار من الموت لا ينجي، فإذا علم الإنسان أن فراره من الموت أو القتل لا ينجيه، هانت عليه مبارزة الأقران؛ والتقدم في الميدان. وقد أشار تعالى أن هذا هو مراده بالآية حيث أتبعها بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وصرح بما أشار إليه هنا في قوله: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفَرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذْ لَا تُنْعَوْنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب] وهذه أعظم آية في التشجيع على القتال؛ لأنها تبين أن الفرار من القتل لا ينجي منه، ولو فرض نجاة منه فهو ميت عن قريب، كما قال قعنب ابن أم صاحب.

إذا أنت لاقيت في نجدة	فلا تنهيبك أن تقدما
فإن المنية من يخشها	فسوف تصادفه أينما
وإن تتخطاك أسبابها	فإن قصارك أن تهزما

وقال زهير:

رأيت المنيا خبط عشواء من نصب	تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم
------------------------------	--------------------------

وقال أبو الطيب:

وإذا لم يكن من الموت بد	فمن العجز أن تكون جباناً
-------------------------	--------------------------

ولقد أجاد من قال:

في الجبن عار وفي الإقدام مكرمة	والمرء في الجبن لا ينجو من القدر
--------------------------------	----------------------------------

وهذا هو المراد بالآيات المذكورة، ويؤخذ من هذه الآية عدم جواز الفرار من الطاعون إذا وقع بأرض وأنت فيها، وقد ثبت عن النبي ﷺ النهي عن الفرار من الطاعون وعن القدوم على الأرض التي هو فيها إذا كنت خارجاً عنها.

تنبيه: لم تأت لفظة (ألم تر) ونحوها في القرآن مما تقدمه لفظ ألم، معداة إلا بالحرف الذي هو إلى. وقد ظن بعض العلماء أن ذلك لازم والتحقيق عدم لزومه وجواز تعديته بنفسه دون حرف الجر، كما يشهد له قول امرئ القيس:

ألم تريايني كلما جئت طارقا وجدت بها طيباً وإن لم تطيب
قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أضعافاً كثيرة﴾.

لم يبين هنا قدر هذه الأضعاف الكثيرة، ولكنه بين في موضع آخر أنها تبلغ سبعمائة ضعف وتزيد عن ذلك. وذلك في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُبْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ سَبْعِ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.
قوله تعالى: ﴿وَاتَّكَفَّ اللَّهُ الْمُلُوكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلِمَهُ وَمَا يَشَاءُ﴾.

لم يبين هنا شيئاً مما علمه، وقد بين في مواضع آخر أن مما علمه صنعة الدروع كقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾... الآية [الأنبياء: ٨٠].
وقوله: ﴿وَأَنَّا لَهُ الْعَلِيدُ﴾ [١١] أَيْ أَعْمَلُ سَبْعَتِ وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ [سبا: ١٠، ١١].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يفهم من تأكيده هنا بأن واللام أن الكفار ينكرون رسالته كما تقرر في فن المعاني، وقد صرح بهذا المفهوم في قوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾... الآية [الرعد: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾. لم يبين هنا هذا الذي كلمه الله منهم وقد بين أن منهم موسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - بقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. وقوله: ﴿إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَتِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]. قال ابن كثير: منهم من كلم الله يعني موسى ومحمداً ﷺ، وكذلك آدم كما ورد في الحديث المروي في صحيح ابن حبان عن أبي ذر رضي الله عنه.

قال مقبده - عفا الله عنه -: تكليم آدم الوارد في صحيح ابن حبان يبينه قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ وأمثالها من الآيات فإنه ظاهر في أنه بغير واسطة الملك، ويظهر من هذه الآية نهى حواء عن الشجرة على لسانه، فهو رسول إليها بذلك، قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ ما نصه: وقد سئل رسول الله ﷺ عن آدم أنبي مرسل هو؟ فقال: نعم نبي مكلم، قال ابن عطية: وقد تأول بعض الناس أن تكليم آدم كان في الجنة، فعلى هذا تبقى خاصية موسى. اهـ. وقال ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ في سورة البقرة ما نصه: لأن آدم كان هو النبي ﷺ أيام حياته، بعد أن أهبط إلى الأرض، والرسول من الله جل ثناؤه إلى ولدوه، فغير جائز أن يكون معنياً وهو - الرسول ﷺ - بقوله: ﴿فَإِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ أي: رسل. اهـ. محل الحجة منه بلفظه. وفيه وفي كلام ابن كثير المتقدم عن

صحيح ابن حبان التصريح بأن آدم رسول وهو مشكل مع ما ثبت في حديث الشفاعة المتفق عليه من أن نوحاً عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام أول الرسل ويشهد له قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣] والظاهر أنه لا طريق للجمع إلا من وجهين:

الأول: أن آدم أرسل لزوجه وذريته في الجنة، ونوح أول رسول أرسل في الأرض، ويدل لهذا الجمع ما ثبت في الصحيحين وغيرهما: ويقول: «ولكن اتوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض»... الحديث. فقله إلى أهل الأرض لو لم يرد به الاحتراز عن رسول بعث لأهل الأرض، لكان ذلك الكلام حشواً، بل يفهم من مفهوم مخالفته ما ذكرنا. ويُستأنس له بكلام ابن عطية الذي قدمنا نقل القرطبي له.

الوجه الثاني: أن آدم أرسل إلى ذريته وهم على الفطرة لم يصدر منهم كفر فأطاعوه، ونوح هو أول رسول أرسل لقوم كافرين ينهاهم عن الإشراك بالله تعالى، ويأمرهم بإخلاص العبادة له وحده، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾... الآية [يونس: ١٩]. أي: على الدين الحنيف أي حتى كفر قوم نوح، وقوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ الآية. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾.

أشار في مواضع آخر إلى أن منهم محمداً ﷺ كقوله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] أو قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبا: ٢٨]، وقوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان]. وأشار في مواضع آخر إلى أن منهم إبراهيم كقوله: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ إلى غير ذلك من الآيات. وأشار في موضع آخر إلى أن منهم داود وهو قوله: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥]. وأشار في موضع آخر إلى أن منهم إدريس وهو قوله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم]. وأشار هنا إلى أن منهم عيسى بقوله: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَتِينَتَ﴾.

تنبيه: في هذه الآية الكريمة أعني: قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْأَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ الآية. إشكال قوي معروف. ووجهه: أنه ثبت في حديث أبي هريرة المتفق عليه أنه ﷺ قال: «لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله» وثبت أيضاً في حديث أبي سعيد المتفق عليه «لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة»... الحديث، وفي رواية «لا تفضلوا بين أنبياء الله»، وفي رواية «لا تخيروني من بين الأنبياء». وقال القرطبي في تفسير هذه الآية ما نصه: وهذه الآية مشكلة، والأحاديث ثابتة بأنه النبي ﷺ قال: «لا تخيروا بين الأنبياء ولا تفضلوا بين أنبياء الله»

رواها الأئمة الثقة، أي: لا تقولوا فلان خير من فلان، ولا فلان أفضل من فلان. اهـ.
قال ابن كثير في الجواب عن هذا الإشكال ما نصه: والجواب من وجوه؛ أحدها: أن
هذا كان قبل أن يعلم بالتفضيل، وفي هذا نظر. الثاني: أن هذا قاله من باب الهضم
والتواضع. الثالث: أن هذا نهى عن التفضيل في مثل هذه الحال التي تحاكموا فيها عند
التخاصم والتشاجر. الرابع: لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية. الخامس: ليس مقام
التفضيل إليكم، وإنما هو إلى الله عز وجل، وعليكم الانقياد والتسليم له والإيمان به.
اهـ. منه بلفظه، وذكر القرطبي في تفسيره أجوبة كثيرة عن هذا الإشكال، واختار أن منع
التفضيل في خصوص النبوة، وجوازه في غيرها من زيادة الأحوال والخصوص
والكرامات فقد قال ما نصه: قلت وأحسن من هذا قول من قال: إن المنع من التفضيل
إنما هو من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها، وإنما التفضيل في زيادة
الأحوال والخصوص والكرامات والألطف والمعجزات المتباينات.

وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل، وإنما تتفاضل بأمور أخرى زائدة عليها؛ ولذلك
منهم رسل وأولو عزم، ومنهم من اتخذ خليلاً، ومنهم من كلم الله ورفع بعضهم
درجات. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآيَاتِنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].
قلت: وهذا قول حسن فإنه جمع بين الآي والأحاديث من غير نسخ، والقول
بتفضيل بعضهم على بعض إنما هو بما منح من الفضائل وأعطى من الوسائل، وقد أشار
ابن عباس إلى هذا فقال: إن الله فضل محمداً ﷺ على الأنبياء وعلى أهل السماء
فقالوا: بم يا ابن عباس فضله على أهل السماء؟ فقال: إن الله تعالى قال: ﴿وَمَنْ
يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهُ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].
وقال لمحمد ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [١] لِنَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ
[الفتح: ١، ٢]. قالوا: فما فضله على الأنبياء؟ قال: قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ
رَسُولٍ إِلَّا يُلَاقِي قَوْمَهُ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] وقال الله عز وجل: لمحمد ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبا: ٢٨] فأرسله إلى الجن والإنس، ذكره أبو محمد
الدارمي في مسنده، وقال أبو هريرة: خير بني آدم نوح وإبراهيم وموسى ومحمد ﷺ
وهم أولو العزم من الرسل، وهذا نص من ابن عباس وأبي هريرة في التعيين، ومعلوم
أن من أرسل أفضل ممن لم يرسل؛ فإن لمن أرسل فضل على غيره بالرسالة، واستووا
في النبوة إلى ما يلقاه الرسل من تكذيب أممهم وقتلهم إياهم، وهذا مما لا يخفاء به.
اهـ. محل الغرض منه بلفظه.

واختار ابن عطية كما نقله عنه القرطبي أن وجه الجمع جواز التفضيل إجمالاً
كقوله ﷺ: «أنا سيد آدم ولا فخر» ولم يعين ومنع التفضيل على طريق الخصوص
كقوله: «لا تفضلوني على موسى» وقوله: «لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن
مئى» ونحو ذلك والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مِمَّا انْفَقَوْا مَتًّا وَلَا أَدَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [٢٢٢] ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [٢٢٢] ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [٢٢٢] وقد صرح تعالى بهذا المفهوم في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَبْطُلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَدَىٰ﴾.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾. صرح في هذه الآية الكريمة بأن الله ولي المؤمنين، وصرح في آية أخرى بأنه وليهم، وأن رسول الله ﷺ وليهم، وأن بعضهم أولياء بعض وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥] الآية وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وصرح في موضع آخر بخصوص هذه الولاية للمسلمين دون الكافرين وهو قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [١١] [محمد]، وصرح في موضع آخر بأن نبيه ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو قوله تعالى: ﴿الَّتِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، وبين في آية البقرة هذه، ثمرة ولايته تعالى للمؤمنين، وهي إخراجهم من الظلمات إلى النور بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، وبين في موضع آخر أن من ثمرة ولايته إذهاب الخوف والحزن عن أوليائه، وبين أن ولايتهم له تعالى بإيمانهم وتقواهم وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [١٦] الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ [١٦] [يونس]، وصرح في موضع آخر أنه تعالى ولي نبيه ﷺ وأنه أيضاً يتولى الصالحين وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ المراد بالظلمات الضلالة، وبالنور الهدى، وهذه الآية يفهم منها أن طرق الضلال متعددة؛ لجمعه الظلمات وأن طريق الحق واحدة؛ لإفراده النور، وهذا المعنى المشار إليه هنا بينه تعالى في مواضع أخرى كقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. قال ابن كثير في تفسير هذه الآية ما نصه: ولهذا وحد تعالى لفظ النور وجمع الظلمات؛ لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة وكلها باطلة كما قال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِئِذَا لَأَخْلُكُمُ تَتَفَقَّحُونَ﴾ [١٥٤] [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿وَجَمَلُ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ﴾ [ق: ١٧] إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرد الحق وانتشار الباطل وتعددته وتشعبه منه بلفظه.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الظَّالِمُونَ﴾. قال بعض العلماء: الطاغوت: الشيطان ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي يخوفكم من أوليائه وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ فِي

سَبِيلَ الطَّاغُوتِ فَقَتَلُوا أَوْلِيَائِهِ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٨﴾ [النساء]، وقوله: ﴿أَفَنَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَائِكَ مِنْ دُونِ وَهْمٍ لَكُمْ عَدُوًّا﴾ [الكهف: ٥٠]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَخْلَدُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَائِهِ﴾ [الأعراف: ٣٠]. والتحقيق أن كل ما عبد من دون الله فهو طاغوت والحظ الأكبر ذلك للشيطان كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَكُنِّيْ عَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُمْ لَيْسَ﴾ [يس: ٦٠] وقال: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ [النساء]، وقال عن خليله إبراهيم: ﴿يَتَّبِعْتَنِي لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم: ٤٤]، وقال: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخِرَ إِلَهُ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَدِّلُوهُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿كَأَلَيْذِي يَفْعَلُ مَالُهُ رَبَّنَا الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ مَغَاسِقُ﴾. بين أن المراد بالذي: الذين بقوله: ﴿لَا يَفْعَلُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾.

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. لم يبين هنا سبب فقرهم؛ ولكنه بين في سورة الحشر أن سبب فقرهم هو إخراج الكفار لهم من ديارهم وأموالهم بقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ الآية [الحشر: ٨].

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾. معنى هذه الآية الكريمة أن من جاءه موعظة من ربه يزجره بها عن أكل الربا فانتهى أي: ترك المعاملة بالربا؛ خوفاً من الله تعالى وامتنالاً لأمره: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾؛ أي ما مضى قبل نزول التحريم من أموال الربا ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن الله لا يؤاخذ الإنسان بفعل أمر إلا بعد أن يحرمه عليه، وقد أوضح هذا المعنى في آيات كثيرة فقد قال في الذين كانوا يشربون الخمر، ويأكلون مال الميسر قبل نزول التحريم: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ [المائدة: ٩٣].

وقال في الذين كانوا يتزوجون أزواج آبائهم قبل التحريم: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢] أي: لكن ما سلف قبل التحريم فلا جناح عليكم فيه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣].

وقال في الصيد قبل التحريم: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْمَا سَلَفَ﴾ [المائدة: ٩٥]. وقال في الصلاة إلى بيت المقدس قبل نسخ استقباله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل النسخ.

ومن أصرح الأدلة في هذا المعنى أن النبي ﷺ والمسلمين لما استغفروا لقربائهم الموتى من المشركين وأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أُصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة] وندموا على استغفارهم للمشركين أنزل الله في ذلك: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥] فصرح بأنه لا يضلهم بفعل أمر إلا بعد بيان اتقائه.

قوله تعالى: ﴿يَمَحُوقُ اللَّهُ الْإِبْرَاءَ﴾. صرح في هذه الآية الكريمة بأنه يمحى الربا أي: يذهب بالكلية من يد صاحبه أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به كما قاله ابن كثير وغيره، وما ذكر هنا من محق الربا أشار إليه في مواضع آخر كقوله: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لِيَرْبُوا فِيْ أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٩] وقوله: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَيْثُ وَالْطَّيْبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]. وقوله: ﴿وَيَجْعَلُ الْخَيْثُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِيْ جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧] كما أشار إلى ذلك ابن كثير في تفسير هذه الآية.

واعلم أن الله صرح بتحريم الربا بقوله: ﴿وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ وصرح بأن المتعامل بالربا محارب لله بقوله: ﴿يَنَاقِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿١٧٦﴾.

وصرح بأن أكل الربا لا يقوم، أي من قبره يوم القيامة إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس بقوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ والأحاديث في ذلك كثيرة جداً.

واعلم أن الربا منه ما أجمع المسلمون على منعه ولم يخالف فيه أحد وذلك كربا الجاهلية، وهو أن يزيده في الأجل على أن يزيده الآخر في قدر الدين، وربا النساء بين الذهب والذهب، والفضة والفضة، وبين الذهب والفضة، وبين البُرِّ والبُرِّ، وبين الشعير والشعير، وبين التمر والتمر، وبين الملح والملح، وكذلك بين هذه الأربعة بعضها مع بعض.

قوله تعالى: ﴿وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتُ﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة أنه تعالى يربي الصدقات وبين في موضع آخر أن هذا الإرباء مضاعفة الأجر، وأنه يشترط في ذلك إخلاص النية لوجه الله تعالى وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ ذِكْوَرٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿يَنَاقِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾.

ظاهر هذه الآية الكريمة أن كتابة الدين واجبة؛ لأن الأمر من الله يدل على الوجوب. ولكنه أشار إلى أنه أمر إرشاد لا إيجاب بقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقْبُوضَةً﴾؛ لأن الرهن لا يجب إجماعاً وهو بدل من الكتابة عند تعذرهما في الآية فلو كانت الكتابة واجبة لكان بدلها واجباً. وصرح بعدم الوجوب بقوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيَوْزِلْ الَّذِي أُوتِيَ ائْتَمَتُ﴾؛ فالتحقيق أن الأمر في قوله: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ للندب والإرشاد؛ لأن لرب الدين أن يهبه ويتركه إجماعاً، فالندب إلى الكتابة فيه إنما هو على جهة الحيلة للناس قاله القرطبي. وقال بعضهم: إن أشهدت فحزم، وإن ائتمنت ففي حل وسعة ابن عطية، وهذا القول هو الصحيح، قاله القرطبي أيضاً.

وقال الشعبي: كانوا يرون أن قوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ﴾... الآية، ناسخ لأمره بالكتب، وحكى نحوه ابن جريج، وقاله ابن زيد، وروى عن أبي سعيد الخدري وذهب الربيع إلى

أن ذلك واجب بهذه الألفاظ ثم خففه الله تعالى بقوله: ﴿فَإِنْ آمَنَ بِبَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ وتمسك جماعة بظاهر الأمر في قوله: ﴿فَأَخْتَبُوهُ﴾ فقالوا: كتابة الدين واجب فرض بهذه الآية بيعاً كان أو قرضاً؛ لثلا يقع فيه نسيان أو جحود وهو اختيار ابن جرير الطبري في تفسيره. وقال ابن جريج: من أدا فليكتب ومن باع فليشهد. اهـ من القرطبي وسيأتي له زيادة بيان إن شاء الله قريباً.

تنبيه: أخذ بعض العلماء من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ﴾. أن الرهن لا يكون مشروعاً إلا في السفر كما قاله مجاهد والضحاك وداود والتحقيق جوازه في الحضر.

وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة أنه ﷺ توفي ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير. وفي الصحيحين أنها درع من حديد.

وروى البخاري وأحمد والنسائي وابن ماجه عن أنس أنه ﷺ رهن درعاً عند يهودي بالمدينة وأخذ منه شعيراً لأهله. ولأحمد والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس مثل حديث عائشة فدل الحديث الصحيح على أن قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ﴾ لا مفهوم مخالفة له؛ لأنه جرى على الأمر الغالب، إذ الغالب أن الكاتب لا يتعذر في الحضر وإنما يتعذر غالباً في السفر، والجري على الغالب من موانع اعتبار مفهوم المخالفة كما ذكرناه في هذا الكتاب مراراً. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾. ظاهر هذا الأمر الوجوب أيضاً فيجب على من باع أن يشهد وبهذا قال أبو موسى الأشعري: وابن عمر والضحاك وسعيد بن المسيب وجابر بن زيد ومجاهد وداود بن علي وابنه أبو بكر وعطاء وإبراهيم قاله القرطبي، وانتصر له ابن جرير الطبري غاية الانتصار وصرح بأن من لم يشهد مخالف لكتاب الله وجمهور العلماء على أن الإشهاد على المبيعة وكتابة الدين أمر مندوب إليه لا واجب، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنَ بِبَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾... الآية.

وقال ابن العربي المالكي: إن هذا قول الكافة قال: وهو الصحيح ولم يحك عن أحد ممن قال بالوجوب إلا الضحاك قال: وقد باع النبي ﷺ وكتب، قال: ونسخة كتابه بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اشترى العدا بن خالد بن هوزة من محمد رسول الله ﷺ اشترى منه عبداً أو أمة لا داء ولا غائلة ولا خبثة بيع المسلم للمسلم. وقد باع ولم يشهد واشترى ورهن درعه عند يهودي ولم يشهد، ولو كان الإشهاد أمراً واجباً لوجب مع الرهن لخوف المنازعة. اهـ.

قال القرطبي بعد أن ساق كلام ابن العربي هذا ما نصه قلت: قد ذكرنا الوجوب عن غير الضحاك وحديث العدا هذا أخرجه الدارقطني وأبو داود وكان إسلامه بعد الفتح وحنين، وهو القائل: قاتلنا رسول الله ﷺ يوم حنين فلم يظهرنا الله ولم ينصرنا. ثم أسلم فحسن إسلامه. ذكره أبو عمر وذكر حديثه هذا.

وقال في آخره: قال الأصمعي: سألت سعيد بن أبي عروبة عن الغائلة فقال: الإباقي والسرقة والزنى وسألته عن الخبثة فقال: بيع أهل عهد المسلمين.

وقال الإمام أبو محمد بن عطية: والوجوب في ذلك قلق، أما في الوثائق فصعب شاق، وأما ما كثر فربما يقصد التاجر الاستتلاف بترك الإشهاد. وقد يكون عادة في بعض البلاد. وقد يستحي من العالم والرجل الكبير الموقر فلا يشهد عليه فيدخل ذلك كله في الائتمان ويبقى الأمر بالإشهاد ندباً لما فيه من المصلحة في الأغلب ما لم يقع عذر يمنع منه كما ذكرنا، وحكى المهدوي والنحاس ومكي عن قوم أنهم قالوا: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ منسوخ بقوله: ﴿إِنْ آمَنَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ وأسند النحاس عن أبي سعيد الخدري وأنه تلا: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ آمَنَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمْتَتَهُ﴾ قال: نسخت هذه الآية ما قبلها.

قال النحاس: وهذا قول الحسن والحكم وعبد الرحمن بن زيد.

قال القرطبي: وهذا لا معنى له؛ لأن هذا حكم غير الأول وإنما هذا حكم من لم يجد كاتباً.

قال الله عز وجل: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقُومَتَهُ إِنْ آمَنَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ أي: فلم يطالبه برهن ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمْتَتَهُ﴾ قال: ولو جاز أن يكون هذا ناسخاً للأول، لجاز أن يكون قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْهَنَ أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْمَغَاطِبِ﴾ [النساء: ٤٣]. ناسخاً لقوله عز وجل: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: ٦]. ولجاز أن يكون قوله عز وجل: ﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُّتَتَابِعَيْنِ﴾ [النساء: ٩٢] ناسخاً لقوله عز وجل: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

وقال بعض العلماء: إن قوله تعالى: ﴿إِنْ آمَنَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ لم يبين بآخر نزوله عن صدر الآية المشتملة على الأمر بالإشهاد بل وردا معاً، ولا يجوز أن يرد الناسخ والمنسوخ معاً جميعاً في حالة واحدة، قال: وقد روي عن ابن عباس أنه قال لما قيل له: إن آية الدين منسوخة قال: لا والله إن آية الدين محكمة ليس فيها نسخ، قال: والإشهاد إنما جعل للطمأنينة وذلك أن الله تعالى جعل لتوثيق الدين طرقاً منها الكتاب ومنها الرهن ومنها الإشهاد ولا خلاف بين علماء الأمصار أن الرهن مشروع بطريق النذب لا بطريق الوجوب فيعلم من ذلك مثله في الإشهاد، وما زال الناس يتبايعون حضراً وسفراً وبراً وبحراً وسهلاً وجبلاً من غير إشهاد مع علم الناس بذلك من غير نكير. ولو وجب الإشهاد ما تركوا النكير على تاركة، قلت: هذا كله استدلال حسن وأحسن منه ما جاء من صريح السنة في ترك الإشهاد وهو ما أخرجه الدارقطني عن طارق بن عبد الله المحاربي رضي الله عنه قال: أقبلنا في ركب من الريزة وجنوب الريزة حتى نزلنا قريباً من المدينة ومعنا طعينة لنا، فبينما نحن قعود إذ أتانا رجل عليه ثوبان أبيضان فسلم فرددنا عليه، فقال: من أين القوم؟ فقلنا: من الريزة وجنوب الريزة قال: ومعنا

جمل أحمر فقال: تبيعونني جملكم هذا؟ فقلنا: نعم قال: بكم؟ قلنا: بكذا وكذا صاعاً من تمر. قال: فما استوضعنا شيئاً وقال: قد أخذته، ثم أخذ برأس الجمل حتى دخل المدينة فتوارى عنا فتلاومنا بيننا وقلنا: أعطيتكم جملكم من لا تعرفونه، فقالت الطعينة: لا تلاوموا فقد رأيت وجه رجل ما كان ليخفركم. ما رأيت وجه رجل أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه فلما كان العشاء أتانا رجل، فقال: السلام عليكم أنا رسول رسول الله ﷺ إليكم وإنه أمركم أن تأكلوا من هذا حتى تشبعوا وتكتالوا حتى تستوفوا قال: فأكلنا حتى شبعنا واكتلنا حتى استوفينا. وذكر الحديث الزهري عن عمارة بن خزيمة أن عمه حدثه وهو من أصحاب النبي ﷺ: أن النبي ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي، ... الحديث. وفيه فططق الأعرابي يقول: هلم شاهداً يشهد أنني بعثتك قال خزيمة بن ثابت: أنا أشهد أنك بعته. فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال: بم تشهد؟ قال: بتصديقك يا رسول الله ﷺ فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين. أخرجه النسائي وغيره. اهـ من القرطبي بلفظه.

قال مقيد - عفا الله عنه -: وفيما نقلنا الدلالة الواضحة على أن الإشهاد والكتابة مندوب إليهما لا فرضان واجبان كما قاله ابن جرير وغيره، ولم يبين الله تعالى في هذه الآية أعني: قوله - جلّ وعلا -: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ اشتراط العدالة في الشهود ولكنه بينه في مواضع أخر كقوله: ﴿مِمَّنْ رَضَوْا مِنَ الشَّهَدَاءِ﴾ وقوله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ [الطلاق: ٢٢]. وقد تقرر في الأصول أن المطلق يحمل على المقيد كما بيناه في غير هذا الموضع.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

لم يبين هنا هل أجاب دعاءهم هذا أو لا؟ وأشار إلى أنه أجابه بقوله في الخطأ ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ [الأحزاب: ٥] الآية. وأشار إلى أنه أجابه في النسيان بقوله: ﴿وَمَا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، فإنه ظاهر في أنه قبل الذكرى لا إثم عليه في ذلك ولا يقدح في هذا أن آية ﴿وَمَا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ [الأنعام: ٦٨] مكية، وآية ﴿لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا﴾ مدنية؛ إذ لا مانع من بيان المدني بالمكي كعكسه. وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ لما قرأ ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال الله تعالى نعم.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾.

لم يبين هنا هل أجاب دعاءهم هذا أو لا؟ ولم يبين الإصر الذي كان محمولاً على من قبلنا، وبين أنه أجاب دعاءهم هذا في مواضع أخر كقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ﴾. إلى غير ذلك من الآيات. وأشار إلى بعض الإصر الذي حمل على من

قبلنا بقوله: ﴿فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاتَّقُوا أَنْفُسَكُمْ﴾؛ لأن اشتراط النفس في قبول التوبة من أعظم الإصر، والإصر الثقل في التكليف ومنه قول النابغة.

يا مانع الضيم أن يغشى سراتهم والحامل الإصر عنهم بعد ما عرفوا



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾.

يحتمل أن المراد بالتأويل في هذه الآية الكريمة التفسير وإدراك المعنى، ويحتمل أن المراد به حقيقة أمره التي يؤول إليها وقد قدمنا في مقدمة هذا الكتاب أن أنواع البيان التي ذكرناها فيه أن كون أحد الاحتمالين هو الغالب في القرآن. يبين أن ذلك الاحتمال الغالب هو المراد؛ لأن الحمل على الأغلب أولى من الحمل على غيره. وإذا عرفت ذلك فاعلم أن الغالب في القرآن إطلاق التأويل على حقيقة الأمر التي يؤول إليها كقوله: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠] وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: ٥٣]... الآية. وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩] وقوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] إلى غير ذلك من الآيات. قال ابن جرير الطبري: وأصل التأويل من آل الشيء إلى كذا إذا صار إليه ورجع يؤول أو لا، وأولته أنا صيرته إليه، وقال: وقد أشد بعض الرواة بيت الأعشى:

على أنها كانت تأول حبها تأول ربعي السقاب فأصحابا

قال: ويعني بقوله: تأول حبها مصير حبها، ومرجعه وإنما يريد بذلك أن حبها كان صغيراً في قلبه فال من الصغر إلى العظم، فلم يزل ينبت حتى أصبح فصار قديماً كالسقب الصغير الذي لم يزل يشب حتى أصبح، فصار كبيراً مثل أمه. قال وقد ينشد هذا البيت:

على أنها كانت توابع حبها توالى ربعي السقاب فأصحابا

وعليه فلا شاهد فيه، والربعي: السقب. الذي ولد في أول التاج ومعنى أصحاب انقاد لكل من يقوده، ومنه قول امرئ القيس:

ولست بذئ رثية إمر إذا قيد مستكرها أصحابا

والرثية: وجع المفاصل. والإمر: بكسر الهمزة وتشديد الميم مفتوحة بعدها راء هو الذي ياتمر لكل أحد؛ لضعفه وأشد بيت الأعشى المذكور الأزهري وصاحب اللسان:

ولكنها كانت نوى أجنبية توالى ربعي السقاب فأصحابا

وأطالا في شرحه وعليه فلا شاهد فيه أيضاً.

تنبيه: اعلم أن التأويل يطلق ثلاثة إطلاقات:

الأول: هو ما ذكرنا من أنه الحقيقة التي يؤول إليها الأمر، وهذا هو معناه في القرآن.

الثاني: يراد به التفسير والبيان، ومنه بهذا المعنى قوله ﷺ في ابن عباس: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل». وقول ابن جرير وغيره من العلماء، القول في تأويل قوله تعالى: كذا وكذا أي: تفسيره وبيانه. وقول عائشة الثابت في الصحيح: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي» يتأول القرآن تعني يمثله ويعمل به. والله تعالى أعلم.

الثالث: هو معناه المتعارف في اصطلاح الأصوليين، وهو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه إلى محتمل مرجوح بدليل يدل على ذلك، وحاصل تحرير مسألة التأويل عند أهل الأصول أنه لا يخلو من واحدة من ثلاث حالات بالتقسيم الصحيح:

الأولى: أن يكون صرف اللفظ عن ظاهره بدليل صحيح في نفس الأمر يدل على ذلك، وهذا هو التأويل المسمى عندهم بالتأويل الصحيح، والتأويل القريب كقوله ﷺ الثابت في الصحيح: «الجار أحق بصقيبه» فإن ظاهره المتبادر منه ثبوت الشفة للجار، وحمل الجار في هذا الحديث على خصوص الشريك المقاسم حمل له على محتمل مرجوح، إلا أنه دل عليه الحديث الصحيح المصرح بأنه إذا صرفت الطرق وضربت الحدود، فلا شفة.

الحالة الثانية: أن يكون صرف اللفظ عن ظاهره لأمر يظنه الصارف دليلاً وليس بدليل في نفس الأمر، وهذا هو المسمى عندهم بالتأويل الفاسد، والتأويل البعيد، ومثل له الشافعية، والمالكية، والحنابلة بحمل الإمام أبي حنيفة رضى الله عنه المرأة في قوله ﷺ: «أيا امرأة نكحت بغير إذن وليها، فنكاحها باطل، باطل» على المكاتب، والصغيرة، وحمله أيضاً ﷺ المسكين في قوله: ﴿سِتِينَ مِسْكِينَ﴾ [المجادلة: ٤] على المد، فأجاز إعطاء ستين مداً لمسكين واحد.

الحالة الثالثة: أن يكون صرف اللفظ عن ظاهره لا لدليل أصلاً، وهذا يسمى في اصطلاح الأصوليين لعباً، كقول بعض الشيعة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] يعني عائشة رضى الله عنها، وأشار في (مراقي السعود) إلى حد التأويل، وبيان الأقسام الثلاثة بقوله معرفاً للتأويل:

حمل لظاهره على المرجوح	واقسمه للفاسد والصحيح
صحيحه وهو القريب ما حمل	مع قوة الدليل عند المستدل
وغيره الفاسد والبعيد	وما خلا فلعبا يفيد
إلى أن قال:	

فجعل مسكين بمعنى المد عليه لائح سمات البعد

كحمل مرأة على الصغيرة وما ينافي الحرة الكبيرة
وحمل ما ورد في النصيام على القضاء مع الالتزام

أما التأويل في اصطلاح خليل بن إسحاق المالكي الخاض به في مختصره، فهو عبارة عن اختلاف شروح المدونة في المراد عند مالك رحمته الله وأشار له في (المراقي) بقوله:
والخلف في فهم الكتاب صير إياه تأويلاً لدى المختصر
والكتاب في اصطلاح فقهاء المالكية المدونة.

قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾... الآية. لا يخفى أن هذه الواو محتملة للاستئناف فيكون قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ مبتدأ، وخبره يقولون، وعليه فالمتشابه لا يعلم تأويله إلا الله وحده، والوقف على هذا تام على لفظة الجلالة ومحتملة لأن تكون عاطفة، فيكون قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ معطوفاً على لفظ الجلالة، وعليه فالمتشابه يعلم تأويله الراسخون في العلم أيضاً، وفي الآية إشارات تدل على أن الواو استئنافية لا عاطفة، قال ابن قدامة: في روضة الناظر ما نصه: ولأن في الآية قرائن تدل على أن الله سبحانه متفرد بعلم المتشابه، وأن الوقف الصحيح عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْكُمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ لفظاً ومعنى، أما اللفظ فلأنه لو أراد عطف الراسخين لقال: ويقولون آمنا به بالواو أما المعنى فلأنه ذم مبتغي التأويل، ولو كان ذلك للراسخين معلوماً لكان مبتغيه ممدوحاً لا مذموماً؛ ولأن قولهم آمنا به، يدل على نوع تفويض وتسليم لشيء لم يقفوا على معناه لا سيما إذا تبعوه بقولهم: كل من عند ربنا، فذكرهم ربهم هاهنا يعطي الثقة به والتسليم لأمره، وأنه صدر من عنده، كما جاء من عنده المحكم؛ ولأن لفظة أما لتفصيل الجمل فذكره لها في الذين في قلوبهم زيغ مع وصفه إياهم باتباع المتشابه وابتغاء تأويله يدل على قسم آخر يخالفهم في هذه الصفة، وهم الراسخون. ولو كانوا يعلمون تأويله لم يخالفوا القسم الأول في ابتغاء التأويل وإذ قد ثبت أنه غير معلوم التأويل لأحد فلا يجوز حمله على غير ما ذكرناه. اهـ من الروضة بلفظه.

ومما يؤيد أن الواو استئنافية لا عاطفة، دلالة الاستفراء في القرآن أنه تعالى إذا نفى عن الخلق شيئاً وأثبت لنفسه، أنه لا يكون له في ذلك الإثبات شريك كقوله: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]. وقوله: ﴿لَا يَجِبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصاص: ٨٨]. فالمطابق لذلك أن يكون قوله: ﴿وَمَا يَسْكُمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ معناه: أنه لا يعلمه إلا هو وحده كما قاله الخطابي وقال: لو كانت الواو في قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ للنسق لم يكن لقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا﴾ فائدة والقول بأن الوقف تام على قوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ وأن قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ ابتداء كلام هو قول جمهور العلماء، للأدلة القرآنية التي ذكرنا.

وممن قال بذلك عمر، وابن عباس، وعائشة، وعروة بن الزبير، وعمر بن عبد العزيز،

وابن مسعود، وأبي بن كعب، نقله عنهم القرطبي وغيره، ونقله ابن جرير، عن يونس، عن أشهب، عن مالك بن أنس، وهو مذهب الكسائي والأخفش والفراء وأبي عبيد.

وقال أبو نهيك الأسدي: إنكم تصلون هذه الآية وإنها مقطوعة وما انتهى علم الراسخين إلا إلى قولهم آمنا به كل من عند ربنا، والقول بأن الواو عاطفة مروي أيضاً عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، والربيع، ومحمد بن جعفر بن الزبير، والقاسم بن محمد وغيرهم. وممن انتصر لهذا القول وأطال فيه ابن فورك ونظير الآية في احتمال الاستثاف والعطف قول الشاعر:

الريح تبكي شجوها والبرق يلمع في الغمامة

فيحتمل أن يكون والبرق مبتدأ والخبر يلمع كالتأويل الأول، فيكون مقطوعاً مما قبله، ويحتمل أن يكون معطوفاً على الريح، ويلمع في موضع الحال على التأويل الثاني أي: لامعاً.

واحتج القائلون بأن الواو عاطفة بأن الله - سبحانه وتعالى - مدحهم بالرسوخ في العلم، فكيف يمدحهم بذلك وهم جهال.

قال القرطبي: قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمرو: هذا القول هو الصحيح فإن تسميتهم راسخين يقتضي أنهم يعلمون أكثر من المحكم الذي يستوي في علمه جميع من يفهم كلام العرب، وفي أي شيء هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع. انتهى منه بلفظه.

قال مقيده - عفا الله عنه -: يجب عن كلام شيخ القرطبي المذكور بأن رسوخهم في العلم هو السبب الذي جعلهم ينتهون حيث انتهى علمهم، ويقولون فيما لم يقفوا على علم حقيقته من كلام الله - جلّ وعلا -: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ بخلاف غير الراسخين فإنهم يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وهذا ظاهر.

وممن قال بأن الواو عاطفة الزمخشري في تفسيره الكشف. والله تعالى أعلم ونسبة العلم إليه أسلم.

وقال بعض العلماء: والتحقيق في هذا المقام أن الذين قالوا هي عاطفة، جعلوا معنى التأويل التفسير وفهم المعنى كما قال النبي ﷺ: «اللهم علمه التأويل» أي التفسير وفهم معاني القرآن، والراسخون يفهمون ما خوطبوا به وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه. والذين قالوا: هي استثنائية جعلوا معنى التأويل حقيقة ما يؤول إليه الأمر وذلك لا يعلمه إلا الله، وهو تفصيل جيد ولكنه يشكل عليه أمران: الأول قول ابن عباس رضي الله عنه: التفسير على أربعة أنحاء: تفسير: لا يعذر أحد في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير: لا يعذر أحد في فهمه، فهذا تصريح من ابن عباس أن هذا الذي لا يعلمه إلا الله بمعنى التفسير لا ما تؤول إليه حقيقة الأمر.

وقوله هذا ينافي التفصيل المذكور. الثاني: أن الحروف المقطعة في أوائل السور

لا يعلم المراد بها إلا الله إذ لم يقم دليل على شيء معين أنه هو المراد بها من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا لغة العرب. فالجزم بأن معناها كذا على التعيين تحكم بلا دليل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ۝١٠﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة أن الكفار يوم القيامة لا تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئاً، وذكر أنهم وقود النار أي: حطبها الذي تتقد فيه، ولم يبين هنا هل نفيه لذلك تكذيب لدعواهم أن أموالهم وأولادهم تنفعهم، وبين في مواضع آخر أنهم ادعوا ذلك ظناً منهم أنه ما أعطاهم الأموال والأولاد في الدنيا إلا لكرامتهم عليه واستحقاقهم لذلك، وأن الآخرة كال الدنيا يستحقون فيها ذلك أيضاً فكذبهم في آيات كثيرة فمن الآيات الدالة على أنهم ادعوا ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ۝٢٥﴾ [سبا] وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧]، يعني في الآخرة كما أوتيته في الدنيا وقوله: ﴿وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] أي: بدليل ما أعطاني في الدنيا، وقوله: ﴿وَلَكِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] قياساً منه للآخرة على الدنيا. ورد الله عليهم هذه الدعوى في آيات كثيرة كقوله هنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾. وقوله: ﴿يَتَحَسَّبُونَ أَنَّمَا يُدِيرُ بِهِ مِنْ مَالٍ وَيَتَنَبَّأُونَ ۝٥٩﴾ [سبا] لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٦١﴾ [المؤمنون]، وقوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ [سبا: ٣٧]، وقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نَلْعَلُّ لَهُمْ لِيَدَّرَاوُا۟. إِنَّمَا وَكُنَّا عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٧٨﴾، وقوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٧٩﴾ [الأعراف] إلى غير ذلك من الآيات.

وصرح في موضع آخر أن كونهم وقود النار المذكور هنا على سبيل الخلود وهو قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾. لم يبين هنا من هؤلاء الذين من قبلهم وما ذنوبهم التي أخذهم الله بها.

وبين في مواضع آخر أن منهم قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب، وأن ذنوبهم التي أخذهم بها هي الكفر بالله وتكذيب الرسل وغير ذلك من المعاصي، كعقر ثمود للناقاة وكلوا قوم لوط، وكتطيف قوم شعيب للمكيال والميزان، وغير ذلك كما جاء مفصلاً في آيات كثيرة كقوله في نوح وقومه: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤] ونحوها من الآيات، وكقوله في قوم هود: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] ونحوها من الآيات، وكقوله في قوم صالح: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود: ٦٧] ونحوها من الآيات، وكقوله في قوم لوط:

﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهُمَا﴾ [الحجر: ٧٤] ونحوها من الآيات وكقوله في قوم شعيب: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء] ونحوها من الآيات.

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ الآية. ذكر في هذه الآية الكريمة أن وقعة بدر آية؛ أي علامة على صحة دين الإسلام إذ لو كان غير حق لما غلبت الفئة القليلة الضعيفة المتمسكة به الفئة الكثيرة القوية التي لم تتمسك به.

وصرح في موضع آخر أن وقعة بدر بينة؛ أي لا لبس في الحق معها وذلك في قوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وصرح أيضاً بأن وقعة بدر فرقان فارق بين الحق والباطل وهو قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَىٰ عَبْدًا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١].

قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَمِ وَالْحَرْثِ﴾. لم يبين هنا كم يدخل تحت لفظ الأنعام من الأصناف.

ولكنه قد بين في مواضع أخر أنها ثمانية أصناف هي الجمل، والناقة، والثور، والبقرة، والكبش، والنعجة، والتميس، والعنز، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَمِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢]. ثم بين الأنعام بقوله: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الظَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣] يعني الكبش والنعجة ﴿وَمِنَ الْعَمَزِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣] يعني: التيس والعنز إلى قوله: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٤] يعني: الجمل والناقة ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٤] الثور والبقرة وهذه الثمانية هي المرادة بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَمِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦] وهي المشار إليها بقوله: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَمِ أَزْوَاجًا﴾ الآية [الشورى: ١١].

تنبيه: ربما أطلقت العرب لفظ النعم على خصوص الإبل، ومنه قوله ﷺ: «من حمر النعم» يعني: الإبل وقول حسان ﷺ:

وكانت لا يزال بها أنيس خلال مروجها نعم وشاء
أي: إبل وشاء.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

صرح تعالى: في هذه الآية الكريمة أن اتباع نبيه موجب لمحبة - جلّ وعلا - ذلك المتبع، وذلك يدل على أن طاعة رسوله ﷺ هي عين طاعته تعالى، وصرح بهذا المدلول في قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ فَاتَّقِ اللَّهَ مَا ظَهَرَ مِنْهُ وَمَا بَاطَنٌ لَّهُ فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدِيرٌ عَلِيمٌ﴾ [الحشر: ٧].

تنبيه: يؤخذ من هذه الآية الكريمة أن علامة المحبة الصادقة لله ورسوله ﷺ هي اتباعه ﷺ، فالذي يخالفه ويدعي أنه يحبه فهو كاذب مفتر؛ إذ لو كان محباً له لأطاعه، ومن المعلوم عند العامة أن المحبة تستجلب الطاعة ومنه قول الشاعر:

لو كان صادقاً لأطعته
و قول ابن أبي ربيعة المخزومي:

ومن لو نهاني من حبه
عن الماء عطشان لم أشرب
وقد أجاد من قال:

قالت: وقد سألت عن حال عاشقها
بالله صفه ولا تنقص ولا تزد
فقلت: لو كان رهن الموت من ظمأ
وقلت: قف عن ورود الماء لم يزد
قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَ الْكِبَرُ﴾.

لم يبين هنا القدر الذي بلغ من الكبر، ولكنه بين في سورة مريم أنه بلغ من الكبر عتياً. وذلك في قوله تعالى عنه: ﴿وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨] والعتي: اليبس والقحول في المفاصل والعظام من شدة الكبر. وقال ابن جرير في تفسيره: وكل مثناه إلى غايته في كبر أو فساد أو كفر فهو عات وعاس.

قوله تعالى عن زكريا: ﴿وَأَمْرَأَىٰ عَاقِرٌ﴾ لم يبين هنا هل كانت كذلك أيام شبابها، ولكنه بين في سورة مريم أنها كانت كذلك قبل كبرها بقوله عنه: ﴿وَكَانَتْ أَمْرَأَىٰ عَاقِرًا﴾ [مريم: ٥].
قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾.

لم يبين هل المانع له من كلام الناس بكم طراً له، أو آفة تمنعه من ذلك. أو لا مانع له إلا الله وهو صحيح لا علة له. ولكنه بين في سورة مريم، أنه لا بأس عليه، وأن انتفاء التكلم عنه لا لبكم، ولا مرض وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠]؛ لأن قوله سويّاً حال من فاعل تكلم مفيد لكون انتفاء التكلم بطريق الإعجاز وخرق العادة، لا لاعتقال اللسان بمرض، أي يتعذر عليك تكليمهم ولا تطيقه، في حال كونك سوي الخلق سليم الجوارح، ما بك شائبة بكم ولا خرس، وهذا ما عليه الجمهور، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ﴾. وعن ابن عباس: أن سويّاً عائد إلى الليالي. أي: كاملات مستويات، فيكون صفة الثلاث، وعليه فلا بيان بهذه الآية لآية آل عمران.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشِيرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾.

لم يبين هنا هذه الكلمة التي أطلقت على عيسى؛ لأنها هي السبب في وجوده من إطلاق السبب وإرادة مسببه، ولكنه بين في موضع آخر. أنها لفظة كن وذلك في قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾ وقيل: الكلمة بشارة الملائكة لها بأنها ستلده واختاره ابن جرير، والأول قول الجمهور.

قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾.

لم يبين هنا ما كلمهم به في المهد. ولكنه بينه في سورة مريم بقوله: ﴿فَأَشَارَتْ

إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَ إِنْ عَبْدُ اللَّهِ عَاتَلَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٢٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٢١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٢٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٢٣﴾ [مريم].
 قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾.

أشار في هذه الآية إلى قصة حملها بعيسى وبسطها مبينة في سورة مريم بقوله: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١١﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم: ١٦، ١٧]. إلى آخر القصة وبين النفخ فيها في سورة التحريم والأنبياء، معبراً في التحريم بالنفخ في فرجها، وفي الأنبياء بالنفخ فيها.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِجُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾. لم يبين هنا الحكمة في ذكر قصة الخواريين مع عيسى. ولكنه بين في سورة الصف، أن حكمة ذكر قصتهم هي أن تتأسى بهم أمة محمد ﷺ في نصرة الله ودينه، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْخَوَارِجِ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٢﴾﴾. لم يبين هنا مكر اليهود بعيسى ولا مكر الله باليهود، ولكنه بين في موضع آخر أن مكرهم به محاولتهم قتله، وذلك في قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧]، وبين أن مكره بهم إلقاءه الشبه على غير عيسى وإنجاؤه عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وذلك في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧] وقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾... الآية [النساء: ١٥٧].

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾. قال: بعض العلماء أي: منجيك ورافعك إلي؛ أي في تلك النومة ويستأنس لهذا التفسير بالآيات التي جاء فيها إطلاق الوفاة على النوم كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ الآية [الأنعام: ٦٠]. وقوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية. لم يبين هنا ما وجه محاجتهم في إبراهيم، ولكنه بين في موضع آخر أن محاجتهم في إبراهيم هي قول اليهود: أنه يهودي، والنصارى إنه نصراني وذلك في قوله: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَتَعْلَمُ أَرَأَيْتُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [البقرة: ١٤٠]. وأشار إلى ذلك هنا بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [١٦١] مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾. قال بعض العلماء: يعني إذا أخرجوا التوبة إلى حضور الموت فتابوا حينئذ، وهذا التفسير يشهد له قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ﴾

الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُنْتُ أَلْتَنَ وَلَا أَلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّاءٌ [النساء: ١٨]. وقد تقرر في الأصول حمل المطلق على المقيد، ولا سيما إذا اتحد الحكم والسبب كما هنا.

وقال بعض العلماء: معنى ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ لن يوفقوا للتوبة حتى تقبل منهم ويشهد له قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّهُمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٧]. [النساء] فعدم غفرانه لهم لعدم هدايتهم السبيل الذي يغفر لصاحبه ونظيرها قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ [آل طه: ١٦٨، ١٦٩].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّاءٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ وَلَا ذَهَبًا﴾. صرح في هذه الآية الكريمة، أن الكفار يوم القيامة لا يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به. وصرح في مواضع أخر أنه لو زيد بمثله لا يقبل منه أيضاً كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٣٦]. وبين في مواضع أخر أنه لا يقبل فداء في ذلك اليوم منهم بتاتاً كقوله: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد: ١٥] وقوله: ﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدَلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ٧٠]، وقوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨] والعدل الفداء.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾. صرح في هذه الآية، أنه غني عن خلقه، وأن كفر من كفر منهم لا يضره شيئاً، وبين هذا المعنى في مواضع متعددة، كقوله عن نبيه موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، وقوله: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، وقوله: ﴿تَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَعْتَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦]، وقوله: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ [يونس: ٦٨] إلى غير ذلك من الآيات، فالله تبارك وتعالى يأمر الخلق وينهاهم؛ لا لأنه تضره معصيتهم ولا تنفعه طاعتهم، بل نفع طاعتهم لهم وضرر معصيتهم عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] وقال: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦] وقال: ﴿يَكْتَابُهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ٦٨].

وثبت في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ، فيما يرويه عن ربه أنه قال: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً... الحديث.

تنبيه: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ بعد قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ يدل على أن من لم يحج كافر والله غني عنه.

وفي المراد بقوله: ومن كفر أوجه للعلماء.

الأول: أن المراد بقوله ومن كفر أي: ومن جحد فريضة الحج، فقد كفر والله غني عنه، وبه قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد قاله ابن كثير.. ويدل لهذا الوجه ما روي عن عكرمة ومجاهد من أنهما قالاً لما نزلت ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ قالت اليهود: فنحن مسلمون. فقال النبي ﷺ: «إن الله فرض على المسلمين حج البيت من استطاع إليه سبيلاً» فقالوا: لم يكتب علينا، وأبوا أن يحجوا. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

الوجه الثاني: أن المراد بقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ [البقرة: ١٢٦] أي: ومن لم يحج على سبيل التغليظ البالغ في الزجر عن ترك الحج مع الاستطاعة كقوله للمقداد الثابت في الصحيحين حين سأله عن قتل من أسلم من الكفار بعد أن قطع يده في الحرب: «لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلة قبل أن تقتله، وإنك بمنزلة قبل أن يقول الكلمة التي قال».

الوجه الثالث: حمل الآية على ظاهرها وأن من لم يحج مع الاستطاعة فقد كفر. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من ملك زاداً وراحلة ولم يحج بيت الله فلا يضره مات يهودياً أو نصرانياً؛ وذلك بأن الله قال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾».

روى هذا الحديث الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه كما نقله عنهم ابن كثير وهو حديث ضعيف ضعفه غير واحد بأن في إسناده هلال بن عبد الله مولى ربيعة بن عمرو بن مسلم الباهلي، وهلال هذا.

قال الترمذي: مجهول، وقال البخاري: منكر الحديث، وفي إسناده أيضاً الحارث الذي رواه عن علي عليه السلام.

وقال الترمذي: إنه يضعف في الحديث. وقال ابن عدي: هذا الحديث ليس بمنحوظ، اهـ بالمعنى من ابن كثير.

وقال ابن حجر: في الكافي الشاف، في تخريج أحاديث الكشاف. في هذا الحديث أخرجه الترمذي من رواية هلال بن عبد الله الباهلي، حدثنا أبو إسحاق، عن الحارث، عن علي رفعه: «من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً». وقال: غريب وفي إسناده مقال، وهلال بن عبد الله مجهول، والحارث يضعف، وأخرجه البزار من هذا الوجه، وقال: لا نعلمه عن علي إلا من هذا الوجه، وأخرجه ابن عدي، والعقيلي في ترجمة هلال، ونقلوا عن البخاري أنه منكر الحديث.

وقال البيهقي في الشعب: تفرد به هلال وله شاهد من حديث أبي أمامة، أخرجه الدارمي بلفظ «من لم يمنعه عن الحج حاجة ظاهرة، أو سلطان جائر، أو مرض حابس، فمات فليمت إن شاء يهودياً، أو إن شاء نصرانياً» أخرجه من رواية شريك، عن ليث بن

أبي سليم، عن عبد الرحمن بن سابط عنه، ومن هذا الوجه أخرج البيهقي في الشعب، وأخرجه ابن أبي شيبة، عن أبي الأحوص، عن ليث، عن عبد الرحمن مرسلًا لم يذكر أبا أمامة وأورده ابن الجوزي في الموضوعات من طريق ابن عدي، وابن عدي أورده في الكامل في ترجمة أبي المهزوم يزيد بن سفيان عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه. ونقل عن القلاس أنه كذب أبا المهزوم، وهذا من غلط ابن الجوزي في تصرفه؛ لأن الطريق إلى أبي أمامة ليس فيها من اتهم بالكذب.

وقد صح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: من أطاق الحج فلم يحج فسواء مات يهوديًا أو نصرانيًا. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾.

أكثر العلماء على أنها منسوخة بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. وقال بعضهم: هي مينة للمراد منها فقوله حق تقاته. أي: بقدر الطاقة. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾. لم يبين هنا ما بلغته معاداتهم من الشدة، ولكنه بين في موضع آخر أن معاداتهم بلغت من الشدة أمراً عظيماً حتى لو أنفق ما في الأرض كله؛ لإزالتها وللتأليف بين قلوبهم لم يقد ذلك شيئاً وذلك في قوله: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَ اللَّهِ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِصُرِّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٧] وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُمْ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [١٨] [الأنفال].

قوله تعالى: ﴿وَسُودٌ وَجُوهٌ﴾. بين في هذه الآية الكريمة أن من أسباب اسوداد الوجوه يوم القيامة الكفر بعد الإيمان وذلك في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾. وبين في موضع آخر أن من أسباب ذلك الكذب على الله تعالى وهو قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]. وبين في موضع آخر أن من أسباب ذلك اكتساب السيئات وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَيَرْجِعُهُمْ إِلَيْهَا مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ غَاصِرٍ كَانَمَا أَغْشَيْتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٧]. وبين في موضع آخر أن من أسباب ذلك الكفر والفجور وهو قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْجَعُهَا قَرَّةٌ ۖ أَثَرُ عَلَيْهَا ۖ هِيَ الْكُفْرُ وَالْفَجْرُ ۖ﴾ [عبس].

وهذه الأسباب في الحقيقة شيء واحد عبر عنه بعبارات مختلفة، وهو الكفر بالله تعالى؛ وبين في موضع آخر شدة تشويه وجوههم بزرقة العيون وهو قوله: ﴿وَتَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢] وأقبح صورة أن تكون الوجوه سوداً والعيون زرقاً، ألا ترى الشاعر لما أراد أن يصور علل البخيل في أقبح صورة وأشوهها اقترح لها زرقه العيون، واسوداد الوجوه في قوله:

وللبخيل على أمواله علل زرق العيون عليها أوجه سود

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾.

ذكر هنا من صفات هذه الطائفة المؤمنة من أهل الكتاب أنها قائمة. أي: مستقيمة على الحق وأنها تتلو آيات الله آناء الليل وتصلي وتؤمن بالله وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر. وذكر في موضع آخر أنها تتلو الكتاب حق تلاوته وتؤمن بالله وهو قوله: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١].

وذكر في موضع آخر أنهم يؤمنون بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليهم وأنهم خاشعون لله لا يشتركون بآياته ثمناً قليلاً. وهو قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. وذكر في موضع آخر أنهم يفرحون بإنزال القرآن وهو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦]. وذكر في موضع آخر أنهم يعلمون أن إنزال القرآن من الله حق، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ الآية [الأنعام: ١١٤]. وذكر في موضع آخر أنهم إذا تلى عليهم القرآن خروا لأذقانهم سجداً وسبحوا ربهم وبكوا، وهو قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [١٨] وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُوتُونَ وَيَزِدُّهُمْ خُشوعًا [١٩] [الإسراء: ١٠٩]. وقال في بكائهم عند سماعه أيضاً: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]. وذكر في موضع آخر أن هذه الطائفة من أهل الكتاب، تؤتى أجرها مرتين وهو قوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [٥١] الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ [٥٢] وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ [٥٣] أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا [القصص: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾.

يعني: وتؤمنون بالكتب كلها كما يدل له قوله تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ [الشورى: ١٥] وقوله: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَرْضَهَا أَسْمَوَاتٍ وَالْأَرْضَ﴾. يعني عرضها كعرض السموات والأرض كما بينه قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَعَلْنَا عَرْضَهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١] وآية آل عمران هذه تبين أن المراد بالسما في آية الحديد جنسها الصادق بجميع السموات كما هو ظاهر، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾. المراد بالقرح الذي مس المسلمين هو ما أصابهم يوم أحد من القتل والجراح، كما أشار له تعالى في هذه السورة الكريمة في مواضع متعددة كقوله: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظَرْتُمْ﴾ [١٢٩] وقوله: ﴿وَيَخِذْ مِنْكُمْ شَهِدًا﴾ الآية وقوله: ﴿حَقٌّ إِذَا فُتِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَصَحَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَا مَا تَجِبُونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ

الَّذِينَكَ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴿١١٣﴾ وقوله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلَوْنَهَا عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ﴾ ونحو ذلك من الآيات.

وأما المراد بالقرح الذي مس القوم المشركين فيحتمل أنه هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والأسر، وعليه فالإشارة بقوله: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَيْكَ إِلَى الْمَلَيْكَةِ أَتَىٰ مَعَكُمْ فَقَتَلُوا الَّذِينَ مَاتُوا سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١١٤﴾﴾ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فلا شك أن الله شديد العقاب ﴿١١٥﴾ [الأنفال]. ويحتمل أيضاً أنه هزيمة المشركين أولاً يوم أحد كما سيأتي قريباً - إن شاء الله تعالى -، وقد أشار إلى القرحين معاً بقوله: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مُمْسِكًا﴾ فالمراد بمصيبة المسلمين القرح الذي مسهم يوم أحد، والمراد بمصيبة الكفار بمثلها قبل القرح الذي مسهم يوم بدر؛ لأن المسلمين يوم أحد قتل منهم سبعون والكفار يوم بدر قتل منهم سبعون، وأسر سبعون.

وهذا قول الجمهور، وذكر بعض العلماء أن المصيبة التي أصابت المشركين هي ما أصابهم يوم أحد من قتل وهزيمة، حيث قتل حملة اللواء من بني عبد الدار، وانهمز المشركون في أول الأمر هزيمة منكراً وبقي لواءهم ساقطاً حتى رفعته عمرة بنت علقمة الحارثية وفي ذلك يقول حسان:

فلولا لواء الحارثية أصبحوا يباعون في الأسواق بيع الجلائب

وعلى هذا الوجه: فالقرح الذي أصاب القوم المشركين يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾... الآية. ومعنى تحسونهم: تقتلونهم وتستأصلونهم، وأصله من الحس الذي هو الإدراك بالحاسة فمعنى حسه أذهب حسه بالقتل ومنه قول جرير:

تحسهم السيوف كما تسامنى حريق النار في أجم الحصيد

وقول الآخر:

حسناهم بالسيف حساً فأصبحت بقيتهم قد شردوا وتبددوا

وقول رؤبة:

إذا شكونا سنة حسوسا تأكل بعد الأخضر اليبيسا

يعني بالسنة الحسوس: السنة المجدبة التي تأكل كل شيء، وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب أن الآية قد يكون فيها احتمالان وكل منهما يشهد له قرآن، وكلاهما حق فنذكرهما معاً، وما يشهد لكل واحد منهما.

قال بعض العلماء: وقرينة السياق تدل على أن القرح الذي أصاب المشركين ما وقع بهم يوم أحد؛ لأن الكلام في وقعة أحد ولكن الشبهة في قوله: مثليها تدل على أن

القرح الذي أصاب المشركين ما وقع بهم يوم بدر؛ لأنه لم ينقل أحد أن الكفار يوم أحد أصيبوا بمثلي ما أصيب به المسلمون، ولا حجة في قوله: ﴿تَحْسُونَهُمْ﴾؛ لأن ذلك الحس والاستئصال في خصوص الذين قتلوا من المشركين، وهم أقل ممن قتل من المسلمين يوم أحد، كما هو معلوم.

فإن قيل: ما وجه الجمع بين الأفراد في قوله: ﴿فَرَحٌ مِّثْلُهُ﴾ وبين التثنية في قوله: ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾ فالجواب - والله تعالى أعلم - أن المراد بالتثنية: قتل سبعين وأسر سبعين يوم بدر، في مقابلة سبعين يوم أحد، كما عليه جمهور العلماء.

والمراد بإفراد المثل: تشبيه القرع بالقرح في مطلق النكاية والألم، والقراءتان السبعيتان في قوله: ﴿إِنْ يَمَسَّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ﴾ بفتح القاف وضمها في الحرفين معناهما واحد فهما لغتان كالضعف والضعف.

وقال الفراء: القرع بالفتح: الجرح، وبالضم ألمه. اهـ. ومن إطلاق العرب القرع على الجرح قول متمم بن نويرة التيمي:

قعيدك ألا تسمعيني ملامة ولا تنكئ قرع الفؤاد فيجعا

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَاهِرِينَ﴾. أنكر الله في هذه الآية. على من ظن أنه يدخل الجنة دون أن يبتلى بشدائد التكليف التي يحصل بها الفرق بين الصابر المخلص في دينه، وبين غيره، وأوضح هذا المعنى في آيات متعددة كقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَخْذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة]، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿لَقَدْ فِتْنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت].

وفي هذه الآيات سر لطيف وعبرة وحكمة، وذلك أن أبانا آدم كان في الجنة يأكل منها رغداً حيث شاء في أتم نعمة وأكمل سرور، وأرغد عيش. كما قال له ربه: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ [البقرة]، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى [طه] ولو تناسلنا فيها لكننا في أرغد عيش وأتم نعمة، ولكن إبليس - عليه لعائن الله - احتال بمكره وخداعه على أبونا حتى أخرجهما من الجنة، إلى دار الشقاء والتعب. وحينئذ حكم الله تعالى أن جنته لا يدخلها أحد إلا بعد الابتلاء بالشدائد وصعوبة التكليف. فعلى العاقل منا - معاصر بني آدم - أن يتصور الواقع ويعمل، أننا في الحقيقة سبي سباه إبليس بمكره وخداعه من وطنه الكريم إلى دار الشقاء والبلاء، فيجاهد عدوه إبليس ونفسه الأمارة بالسوء حتى يرجع إلى الوطن الأول الكريم، كما قال العلامة ابن القيم تغمد الله برحمته:

ولكننا سبي العدو فهل ترى نرد إلى أوطاننا ونسلم
ولهذه الحكمة أكثر الله تعالى في كتابه من ذكر قصة إيليس مع آدم لتكون نصب
أعيننا دائماً.

قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾.

هذه الآية الكريمة على قراءة من قرأ ﴿قَاتَلَ﴾ بالبناء للمفعول يحتمل نائب الفاعل فيها أن يكون لفظة ربيون وعليه فليس في قتل ضمير أصلاً، ويحتمل أن يكون نائب الفاعل ضميراً عائداً إلى النبي، وعليه فمعه خبر مقدم وربيون مبتدأ مؤخر سوغ الابتداء به اعتماده على الظرف قبله ووصفه بما بعده والجملة حالية والرباط الضمير وسوغ إتيان الحال من النكرة التي هي نبي وصفه بالقتل ظلماً، وهذا هو أجود الأعراب المذكورة في الآية على هذا القول، وبهذين الاحتمالين في نائب الفاعل المذكور يظهر أن في الآية إجمالاً. والآيات القرآنية مبينة أن النبي المقاتل غير مغلوب بل هو غالب كما صرح تعالى بذلك في قوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]. وقال قبل هذا: ﴿أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠] وقال بعده: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

وأغلب معاني الغلبة في القرآن الغلبة بالسيف والسنان كقوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٦٥]، وقوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦]، وقوله: ﴿اللَّهُ ﷻ غَلَبَ الرُّومَ ﷻ فِي أَذَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَافِلُونَ ﷻ فِي بَيْضِ سِنِينَ ﷻ﴾ [الروم: ١-٤]، وقوله: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ كَفَرُوا سَفَلُونَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

وبين تعالى أن المقتول ليس بغالب بل هو قسم مقابل للغالب بقوله: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ [النساء: ٧٤] فاتضح من هذه الآيات أن القتلى ليس واقعاً على النبي المقاتل؛ لأن الله كتب وقضى له في أزاله أنه غالب، وصرح بأن المقتول غير غالب.

وقد حقق العلماء أن غلبة الأنبياء على قسمين، غلبة بالحجة والبيان، وهي ثابتة لجميعهم، وغلبة بالسيف والسنان، وهي ثابتة لخصوص الذين أمروا منهم بالقتال في سبيل الله؛ لأن من لم يؤمر بالقتال ليس بغالب ولا مغلوب؛ لأنه لم يغلب في شيء وتصريحه تعالى بأنه كتب أن رسله غالبون شامل لغلبتهم من غالبهم بالسيف، كما بينا أن ذلك هو معنى الغلبة في القرآن، وشامل أيضاً لغلبتهم بالحجة والبيان، فهو مبين أن نصر الرسل المذكور في قوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ الآية [غافر: ٥١]، وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْغُلَبَاءِ ﷻ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﷻ﴾ [الصافات] أنه نصر غلبة بالسيف والسنان للذين أمروا منهم بالجهاد؛ لأن الغلبة التي بين أنها كتبها لهم أخص من مطلق النصر؛ لأنها نصر خاص، والغلبة لغة القهر، والنصر لغة إعانة المظلوم، فيجب بيان هذا الأعم بذلك الأخص.

وبهذا تعلم أن ما قاله الإمام الكبير ابن جرير رحمته الله ومن تبعه في تفسير قوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ﴾ ... الآية [غافر: ٥١]. من أنه لا مانع من قتل الرسول المأمور بالجهاد، وأن نصره المنصوص في الآية، حينئذ يحمل على أحد أمرين:

أحدهما: أن الله ينصره بعد الموت، بأن يسلط على من قتله من ينتقم منه، كما فعل بالذين قتلوا يحيى وزكريا وشعيا من تسليط بختنصر عليهم، ونحو ذلك.

ثانيهما: حمل الرسل في قوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] على خصوص نبينا ﷺ وحده، أنه لا يجوز حمل القرآن عليه لأمرين:

أحدهما: أنه خروج بكتاب الله عن ظاهره المتبادر منه بغير دليل من كتاب، ولا سنة ولا إجماع، والحكم بأن المقتول من المتقاتلين هو المنصور بعيد جداً، غير معروف في لسان العرب، فحمل القرآن عليه بلا دليل غلط ظاهر، وكذلك حمل الرسل على نبينا وحده ﷺ فهو بعيد جداً أيضاً، والآيات الدالة على عموم الوعد بالنصر لجميع الرسل كثيرة، لا نزاع فيها.

ثانيهما: أن الله لم يقتصر في كتابه على مطلق النصر الذي هو في اللغة إعانة المظلوم، بل صرح بأن ذلك النصر المذكور للرسل نصر غلبة بقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ ... الآية [المجادلة: ٢١]، وقد رأيت معنى الغلبة في القرآن ومرت عليك أن الله جعل المقتول قسماً مقابلاً للغالب في قوله: ﴿وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ [النساء: ٧٤]، وصرح تعالى: بأن ما وعد به رسله لا يمكن تبديله بقوله - جل وعلا -: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوَدُوا حَتَّىٰ آتَاهُم نَصْرًا وَلَا مِذْلَ لِكَلِمَةٍ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّئِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام]. ولا شك أن قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] من كلماته التي صرح بأنها لا تبدل لها وقد نفى - جل وعلا -: عن المنصور أن يكون مغلوباً نفيّاً باتاً بقوله: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ وذكر مقاتل أن سبب نزول قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ الآية [المجادلة: ٢١]. أن بعض الناس قال: أظن محمد وأصحابه أن يغلبوا الروم، وفارس، كما غلبوا العرب زاعماً أن الروم وفارس لا يغلبهم النبي ﷺ لكثرتهم وقوتهم فأنزل الله الآية، وهو يدل على أن الغلبة المذكورة فيها غلبة بالسيف والستان؛ لأن صورة السبب لا يمكن إخراجها، ويدل له قوله قبله: ﴿أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٥٨] وقوله بعده: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب، أننا نستشهد للبيان بالقراءة السبعية بقراءة شاذة، فيشهد للبيان الذي بينا به، أن نائب الفاعل ربيون، وأن بعض القراء غير السبعة قرأ قتل معه ربيون بالتشديد؛ لأن التثنية المدلول عليه بالتشديد يقتضي أن القتل واقع على الربيين.

ولهذه القراءة رجح الزمخشري، والبيضاوي، وابن جني أن نائب الفاعل ربيون،

ومال إلى ذلك الألوسي في تفسيره مبيناً أن دعوى كون التشديد لا ينافي وقوع القتل على النبي؛ لأن كآين إخبار بعدد كثير أي: كثير من أفراد النبي قتل خلاف الظاهر، وهو كما قال، فإن قيل قد عرفنا أن نائب الفاعل المذكور محتمل لأمرين، وقد ادعيتم أن القرآن دل على أنه ربيون لا ضمير النبي لتصريحه بأن الرسل غالبون، والمقتول غير غالب، ونحن نقول: دل القرآن في آيات أخر، على أن نائب الفاعل ضمير النبي، لتصريحه في آيات كثيرة بقتل بعض الرسل كقوله: ﴿فَقَرِيفًا كَذَبْتُمْ وَفَرِيفًا نَقَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٨٧] وقوله: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ قِيلَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾، فما وجه ترجيح ما استدللتم به على أن النائب ربيون، على ما استدللنا به على أن النائب ضمير النبي فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أن ما استدللنا به أخص مما استدللتم به، والأخص مقدم على الأعم، ولا يتعارض عام وخاص، كما تقرر في الأصول، وإيضاحه أن دليلنا في خصوص نبي أمر بالمبالغة في شيء، فنحن نجزم بأنه غالب فيه تصديقاً لرَبنا في قوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] سواء أكانت تلك المغالبة في الحجة والبيان، أم بالسيف والسنان، ودليلكم فيما هو أعم من هذا؛ لأن الآيات التي دلت على قتل بعض الرسل، لم تدل على أنه في خصوص جهاد، بل ظاهرها أنه في غير جهاد، كما يوضحه.

الوجه الثاني: وهو أن جميع الآيات الدالة على أن بعض الرسل قتلهم أعداء الله، كلها في قتل بني إسرائيل أنبياءهم، في غير جهاد، ومقاتله إلا موضع النزاع وحده.

الوجه الثالث: أن ما رجحناه من أن نائب الفاعل ربيون، تتفق عليه آيات القرآن اتفاقاً واضحاً، لا لبس فيه على مقتضى اللسان العربي في أفصح لغاته، ولم تتصادم منه آيتان، حيث حملنا الرسول المقتول على الذي لم يؤمر بالجهاد، فقتله إذن لا إشكال فيه، ولا يؤدي إلى معارضة آية واحدة من كتاب الله؛ لأن الله حكم للرسل بالغلبة، والغلبة لا تكون إلا مع مغالبة، وهذا لم يؤمر بالمغالبة في شيء، ولو أمر بها في شيء لغلب فيه، ولو قلنا بأن نائب الفاعل ضمير النبي لصار المعنى أن كثيراً من الأنبياء المقاتلين قتلوا في ميدان الحرب، كما تدل عليه صيغة (وكأين) المميزة بقوله: من نبي، وقتل الأعداء هذا العدد الكثير من الأنبياء المقاتلين في ميدان الحرب مناقض مناقضة صريحة لقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] وقد عرفت معنى الغلبة في القرآن، وعرفت أنه تعالى، بين أن المقتول غير الغالب، كما تقدم، وهذا الكتاب العزيز ما أنزل ليضرب بعضه بعضاً، ولكن أنزل ليصدق بعضه بعضاً، فاتضح أن القرآن دل دلالة واضحة على أن نائب الفاعل ربيون، وأنه لم يقتل رسول في جهاد، كما جزم به الحسن البصري وسعيد بن جبير، والزجاج، والفراء، وغير واحد، وقصدنا في هذا الكتاب البيان بالقرآن، لا بأقوال العلماء؛ ولذا لم ننقل أقوال من رجع ما ذكرنا.

ومما رجح به بعض العلماء كون نائب الفاعل ضمير النبي من أن سبب النزول يدل على ذلك؛ لأن سبب نزولها أن الصائح صاح قتل محمد ﷺ وأن قوله: ﴿أَفَأَمِنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ يدل على ذلك وأن قوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يدل على أن الربين لم يقتلوا لأنهم لو قتلوا لما قال عنهم: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ﴾... الآية. فهو كلام كله ساقط وترجيحات لا معول عليها، فالترجيح بسبب النزول فيه أن سبب النزول لو كان يقتضي تعيين ذكر قتل النبي لكانت قراءة الجمهور قاتل بصيغة الماضي من المفاعلة جارية على خلاف المتعين وهو ظاهر السقوط كما ترى والترجيح بقوله: ﴿أَفَأَمِنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ ظاهر السقوط؛ لأنهما معلقان بأداة الشرط والمعلق بها لا يدل على وقوع نسبة أصلاً لا إيجاباً ولا سلباً حتى يرجح بها غيرها.

وإذا نظرنا إلى الواقع في نفس الأمر وجدنا نبهم ﷺ في ذلك الوقت لم يقتل ولم يمت والترجيح بقوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ سقوطه كالشمس في رابعة النهار، وأعظم دليل قطعي على سقوطه قراءة حمزة والكسائي ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ السَّبْحِ الْفَرَارِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمُ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] كل الأفعال من القتل لا من القتال وهذه القراءة السبعية المتواترة فيها. فإن قتلوكم بلا ألف بعد القاف فعل ماضٍ من القتل فاقتلوهم أفتقولون هذا لا يصح لأن المقتول لا يمكن أن يؤمر بقتل قاتله. بل المعنى قتلوا بعضكم وهو معنى مشهور في اللغة العربية يقولون: قتلونا وقتلناهم يعنون وقوع القتل على البعض كما لا يخفى. وقد أشرنا إلى هذا البيان في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿مَا مَأْنَا وَمَا قُتِلُوا﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة أن المنافقين إذا مات بعض إخوانهم يقولون لو أطاعونا فلم يخرجوا إلى الغزو ما قتلوا، ولم يبين هنا هل يقولون لهم ذلك قبل السفر إلى الغزو وليشطوهم أو لا؟ ونظير هذه الآية: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨] ولكنه بين في آيات أخر أنهم يقولون لهم ذلك قبل الغزو وليشطوهم كقوله: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ [التوبة: ٨١]. وقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّذِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمْ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: ١٨] وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَبَنَ لِيُظِلَّ﴾ [النساء: ٧٢] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٧٧). ذكر في هذه الآية الكريمة أن المقتول في الجهاد والميت كلاهما ينال مغفرة من الله ورحمة خيراً له مما يجمعه من حطام الدنيا وأوضح وجه ذلك في آية أخرى بين فيها أن الله اشتري منه حياة قصيرة فانية منغصة بالمصائب والآلام بحياة أبدية لذيدة لا تنقطع ولا يتأذى صاحبها بشيء واشترى منه مالاً قليلاً فانياً بملك لا ينفد ولا ينقضي أبداً وهي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمْ

الْجَنَّةَ يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ الَّتِي بَاعْتُمْ بِهَا وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٥٩﴾ [التوبة]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَرًا رَأَيْتَ مِمَّا بَاعْتُمْ بِهِ وَمَلَكًا نَكِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ [الإنسان] وبين في آية أخرى أن فضل الله ورحمته خير مما يجمعه أهل الدنيا من حطامها، وزاد فيها الأمر بالفرح بفضل الله ورحمته دون حطام الدنيا وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [يونس] وتقديم المعمول يؤذن بالحصر أعني قوله: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨] أي: دون غيره فلا يفرحوا بحطام الدنيا الذي يجمعونه. قال تعالى: ﴿لَنْ نَقْصُصَ عَنْكُمْ فِئْتَانًا مِمَّا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْطَانًا وَرَحِمْتَ رِيبَكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الآية.

قد قدمنا في سورة الفاتحة في الكلام على قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] أن الجموع المذكورة ونحوها مما يختص بجماعة العقلاء من الذكور إذا وردت في كتاب الله تعالى أو سنة نبيه ﷺ اختلف العلماء فيها هل يدخل فيها النساء أو لا يدخلن؟ إلا بدليل على دخولهن. وبذلك تعلم أن قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يحتمل دخول النساء فيه وعدم دخولهن بناء على الاختلاف المذكور ولكنه تعالى بين في موضع آخر أنهم داخلات في جملة مَنْ أَمَرَ ﷺ بالاستغفار لهم وهو قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ اللَّهِ﴾ الآية.

ذكر في هذه الآية أن من اتبع رضوان الله ليس كمن باء بسخط منه؛ لأن همزة الإنكار بمعنى النفي ولم يذكر هنا صفة من اتبع رضوان الله، ولكن أشار إلى بعضها في موضع آخر وهو قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٦١﴾﴾ فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى اللَّهِ فَفَضَّلَ لَهُمْ يَمَسُّهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٦٢﴾﴾.

وأشار إلى بعض صفات من باء بسخط من الله بقوله: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَقُولُونَ كَفَرُوا وَلَئِنْ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْكَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [المائدة] ويقولونه هنا: ﴿وَمَنْ يَفْلِكُ يَأْتِ بِمَا غَلَّ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِنْهَا قُلْتُمْ أَنَّنَا هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة أن ما أصاب المسلمين يوم أحد إنما جاءهم من قبل أنفسهم، ولم يبين تفصيل ذلك هنا، ولكنه فضله في موضع آخر وهو قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ آلَ اللَّهِ وَعَدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾. وهذا هو الظاهر في معنى الآية؛ لأن خير ما يبين به القرآن القرآن.

وأما على القول الآخر فلا بيان بالآية، وهو أن معنى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أنهم خيروا يوم بدر بين قتل أسارى بدر، وبين أسرهم وأخذ الفداء على أن يستشهد منهم في العام القابل قدر الأسارى، فاختراروا الفداء على أن يستشهد منهم في العام القابل سبعون قدر أسارى بدر، كما رواه الإمام أحمد وابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب، وعقده أحمد البدوي الشنقيطي في نظمه للمغازي بقوله:

والمسلمون خيروا بين الفدا وقدرهم في قابل يستشهدا
وبين قتلهم فمالوا للفا لأنه على القتال عضا
وأنه أدى إلى الشهادة وهي قصارى الفوز والسعادة

ونظمه هذا للمغازي جل اعتماده فيه على عيون الأثر لابن سيد الناس اليعمري، قال في مقدمته:

أرجوزة على عيون الأثر جل اعتماد نظمها في السير
وذكر شارحه أن الألف في قوله: يستشهدا مبدلة من نون التوكيد الخفيفة وأنها في البيت كقوله:

ربما أوفيت في علم ترفعن ثوبي شمالات
وعلى هذا القول: فالمعنى قل هو من عند أنفسكم حيث اخترتم الفداء واستشهدا قدر الأسارى منكم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾. نهى الله تبارك وتعالى في هذه الآية عن ظن الموت بالشهداء، وصرح بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وأنهم فرحون بما آتاهم الله من فضله، يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ولم يبين هنا هل حياتهم هذه في البرزخ يدرك أهل الدنيا حقيقتها أو لا؟ ولكنه بين في سورة البقرة أنهم لا يدركونها بقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة] لأن نفي الشعور يدل على نفي الإدراك من باب أولى كما هو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ الآية.

قال جماعة من العلماء: المراد بالناس القائلين: إن الناس قد جمعوا لكم، نعيم بن مسعود الأشجعي أو أعرابي من خزاعة. كما أخرجه ابن مردويه من حديث أبي رافع ويدل لهذا توحيد المشار إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ الآية.

قال صاحب الإتيقان: قال الفارسي: ومما يقوي أن المراد به واحد قوله: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ فوقعت الإشارة بقوله: ذلكم إلى واحد بعينه، ولو كان المعنى جمعا لقال: إنما أولئك الشيطان. فهذه دلالة ظاهرة في اللفظ. اه منه بلفظه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٧٨﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة أنه يملي للكافرين ويمهلهم لزيادة الإثم عليهم وشدة العذاب، وبين في موضع آخر: أنه لا يمهلهم متنعمين هذا الإمهال إلا بعد أن يبتليهم بالبأساء والضراء، فإذا لم يتضرعوا أفاض عليهم النعم وأمهّلهم حتى يأخذهم بغتة، كقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَاسِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ١٧٩﴾ ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آلَنَا الْفَرَّاءُ وَالنَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٨٠﴾ [الأعراف]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَاسِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ١٨١﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَاسُنَا فَضَرَّعُوا إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّثْلِسُونَ ١٨٢﴾ [الأنعام: ٤٢ - ٤٤].

وبين في موضع آخر: أن ذلك الاستدراج من كيد المتين، وهو قوله: ﴿سَتَلِدْهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ١٨٣﴾ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ١٨٤﴾ [الأعراف].

وبين في موضع آخر: أن الكفار يغترون بذلك الاستدراج فيظنون أنه من المسارعة لهم في الخيرات، وأنهم يوم القيامة يؤتون خيراً من ذلك الذي أوتوه في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُؤْتُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَمِنْ بَيْنِ ١٨٥﴾ شَايِعٌ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ١٨٦﴾ [المؤمنون]. وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّلَدًا ١٨٧﴾ [مریم: ٧٧]، وقوله: ﴿وَلَكِن رُّودَتْ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ١٨٨﴾ [الكهف: ٣٦]، وقوله: ﴿وَلَكِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ ١٨٩﴾ [فصلت: ٥٠]، وقوله: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا ١٩٠﴾ [سبا: ٣٥]. كما تقدم، والبأساء: الفقر والفاقة، والضراء: المرض على قول الجمهور، وهما مصدران مؤنثان لفظاً بألف التأنيث الممدودة.

قوله تعالى: ﴿لَتَبْلُوكَ فِي أَمْوَالِكَم وَأَنفُسِكُمْ وَلَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ١٩١﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة أن المؤمنين سيبتلون في أموالهم وأنفسهم، وسيسمعون الأذى الكثير من أهل الكتاب والمشركين، وأنهم إن صبروا على ذلك البلاء والأذى واثقوا بالله، فإن صبرهم وتقاهم من عزم الأمور؛ أي من الأمور التي ينبغي العزم والتصميم عليها لوجوبها.

وقد بين في موضع آخر أن من جملة هذا البلاء: الخوف والجوع وأن البلاء في الأنفس والأموال هو النقص فيها، وأوضح فيه نتيجة الصبر المشار إليها هنا بقوله: ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ١٩١﴾ وذلك الموضع هو قوله تعالى: ﴿وَلَتَبْلُوكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالتَّمَرَّتِ وَبَشِّرَ الصَّابِرِينَ ١٩٢﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ١٩٣﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ١٩٤﴾ [البقرة]. وقوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ١٩٥﴾ [التغابن: ١١].

ويدخل في قوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ الصبر عند الصدمة الأولى، بل فسرهُ بخصوص ذلك بعض العلماء، ويدل على دخوله فيه قوله قبله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

وبين في موضع آخر: أن خصلة الصبر لا يعطاها إلا صاحب حظ عظيم وبخت كبير، وهو قوله: ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت].

وبين في موضع آخر: أن جزاء الصبر لا حساب له، وهو قوله: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

قوله تعالى: ﴿وَبَنَدُكُرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. ذكر في هذه الآية: أن من جملة ما يقوله أولوا الأبواب: تنزيه ربهم عن كونه خلق السموات والأرض باطلاً، لا لحكمة سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وصرح في موضع آخر: بأن الذين يظنون ذلك هم الكفار، وهددهم على ذلك الظن السيئ بالويل من النار، وهو قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص].

قوله تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾. لم يبين هنا ما عنده للأبرار، ولكنه بين في موضع آخر أنه النعيم، وهو قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الإنفطار]. وبين في موضع آخر أن من جملة ذلك النعيم: الشرب من كأس ممزوجة بالكافور، وهو قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان].



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النَّسَاءِ

قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا آلَيْنَهُنَّ أَمْوَالَهُنَّ﴾ الآية.

أمر الله تعالى في هذه الآية الكريمة بإيتاء اليتامى أموالهم، ولم يشترط هنا في ذلك شرطاً، ولكنه بين بعد هذا أن هذا الإيتاء المأمور به مشروط بشرطين:

الأول: بلوغ اليتامى.

والثاني: إيناس الرشد منهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَتِلُوا آلَيْنَهُنَّ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ وتسميتهم يتامى في الموضعين، إنما باعتبار يتمهم الذي كانوا متصرفين به قبل البلوغ، إذ لا يتم بعد البلوغ إجماعاً، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَى السَّحَرَةَ سَجِيدِينَ﴾ [الأعراف] يعني اللذين كانوا مسحوقين، إذ لا سحر مع السجود لله.

لم يبين هنا حكمة تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث مع أنهما سواء في القرابة. ولكنه أشار إلى ذلك في موضع آخر وهو قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]؛ لأن القائم على غيره المنفق ماله عليه مترقب للنقص دائماً، والمقوم عليه المنفق عليه المال مترقب للزيادة دائماً، والحكمة في إثارة مترقب النقص على مترقب الزيادة جبراً لنقصه المترقب ظاهرة جداً.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾. صرح تعالى في هذه الآية الكريمة بأن البنات إن كن ثلاثاً فصاعداً، فلهن الثلثان وقوله: ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ يوهم أن الاثنتين ليستا كذلك، وصرح بأن الواحدة لها النصف، ويفهم منه أن الاثنتين ليستا كذلك أيضاً، وعليه ففي دلالة الآية على قدر ميراث البنتين إجمال.

وقد أشار تعالى: في موضعين إلى أن هذا الظرف لا مفهوم مخالفة له، وأن للبنتين الثلثين أيضاً:

الأول: قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾، إذ الذكر يرث مع الواحدة الثلثين بلا نزاع، فلا بد أن يكون للبنتين الثلثان في صورة، وإلا لم يكن للذكر مثل حظ الأنثيين؛ لأن الثلثين ليسا بحظ لهما أصلاً، لكن تلك الصورة ليست صورة الاجتماع، إذ ما من صورة يجتمع فيها الابتان مع الذكر ويكون لهما الثلثان، فتعين أن تكون صورة انفردتهما عن الذكر. واعتراض بعضهم هذا الاستدلال بلزوم الدور قائلاً: إن معرفة أن للذكر الثلثين في الصورة المذكورة تتوقف على معرفة حظ الأنثيين؛ لأنه ما علم من الآية أن للذكر مثل حظ الأنثيين فلو كانت معرفة حظ الأنثيين مستخرجة من حظ الذكر لزم الدور ساقط؛ لأن المستخرج هو الحظ المعين للأنثيين وهو الثلثان، والذي يتوقف عليه معرفة حظ الذكر هو معرفة حظ الأنثيين مطلقاً، فلا دور لانفكاك الجهة، واعتراضه بعضهم أيضاً بأن لابن مع البنتين النصف، فيدل على أن فرضهما النصف، ويؤيد الأول أن البنتين لما استحقيا مع الذكر النصف علم أنهما إن انفردتا عنه، استحققتا أكثر من ذلك؛ لأن الواحدة إذا انفردت أخذت النصف، بعدما كانت معه تأخذ الثلث، ويزيده أيضاً أن البنت تأخذ مع الابن الذكر الثلث بلا نزاع، فلأن تأخذه مع الابنة الأنثى أولى. فبهذا يظهر أنه - جلّ وعلا -، أشار إلى ميراث البنتين بقوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ كما بينا، ثم ذكر حكم الجماعة من البنات، وحكم الواحدة منهن بقوله: ﴿فَإِنْ كُنْ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ ومما يزيده إيضاحاً، أنه تعالى فرعه عليه بالفاء في قوله: ﴿فَإِنْ كُنْ﴾؛ إذ لو لم يكن فيما قبله ما يدل على سهم الإناث لم تقع الفاء موقعها كما هو ظاهر.

الموضع الثاني: هو قوله تعالى في الأخنتين: ﴿وَإِنْ كَانَتَا أُثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَاثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾؛ لأن البنت أمسّ رحماً، وأقوى سبباً في الميراث من الأخت بلا نزاع. فإذا صرح تعالى: بأن للأختين الثلثين، علم أن البنتين كذلك من باب أولى، وأكثر العلماء على أن فحوى الخطاب، أعني: مفهوم الموافقة الذي المسكوت فيه أولى بالحكم من المنطوق، من قبيل دلالة اللفظ لا من قبيل القياس، خلافاً للشافعي وقوم، كما علم في الأصول فالحمد لله تبارك وتعالى لما بين أن للأختين الثلثين، أفهم بذلك أن البنتين كذلك من باب أولى. وكذلك لما صرح أنه لما زاد على الاثنتين من البنات الثلثين فقط، ولم يذكر حكم ما زاد على الاثنتين من الأخوات، أفهم أيضاً من باب أولى أنه ليس لما زاد من الأخوات غير الثلثين؛ لأنه لما لم يعط للبنات علم أنه لا تستحقه الأخوات، فالمسكوت عنه في الأمرين أولى بالحكم من المنطوق به، وهو دليل على أنه قصد أخذه منه، ويزيد ما ذكرنا إيضاحاً ما أخرجه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي وابن ماجه، عن جابر رضي الله عنه، قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد قتل أبوهما يوم أحد، وإن عمهما أخذ مالهما، ولم يدع لهما مالاً، ولا ينكحان إلا ولهما مال، فقال ﷺ: «يقضي الله تعالى، في ذلك». فنزلت آية الميراث فبعث رسول الله ﷺ إلى عمهما، فقال: «اعط ابنتي سعد الثلثين، واعط أمهما الثمن، وما بقي فهو لك».

وما يروى عن ابن عباس رضي الله عنه، من أنه قال: للبنتين النصف؛ لأن الله تعالى، قال: ﴿وَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلَاثًا مِمَّا تَرَكَ﴾ فصرح بأن الثلثين إنما هما لما فوق الاثنتين فيه أمور، الأول: أنه مردود بمثل؛ لأن الله قال أيضاً: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ فصرح بأن النصف للواحدة جاعلاً كونها واحدة شرطاً معلقاً عليه فرض النصف.

وقد تقرر في الأصول أن المفاهيم إذا تعارضت قدم الأقوى منها، ومعلوم أن مفهوم الشرط أقوى من مفهوم الظرف؛ لأن مفهوم الشرط لم يقدم عليه من المفاهيم، إلا ما قال فيه بعض العلماء: إنه منطوق لا مفهوم وهو النفي والإثبات، وإنما من صيغ الحصر والغاية، وغير هذا يقدم عليه مفهوم الشرط قال في (مراقي السعود) مبيناً مراتب مفهوم المخالفة:

أعلاه لا يرشد إلا العلما	فما لمنطوق بضعف انتمى
فالشرط فالوصف الذي يناسب	فمطلق الوصف الذي يقارب
فعدد ثمة تقديم يلي	وهو حجة على النهج الجلي

وقال صاحب جمع الجوامع ما نصه: مسألة الغاية قيل: منطوق والحق مفهوم يتلوه الشرط، فالصفة المناسبة، فمطلق الصفة غير العدد، فالعدد، فتقديم المعمول... إلخ، وبهذا تعلم أن مفهوم الشرط في قوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ أقوى من مفهوم الظرف في قوله: ﴿وَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ الثاني: دلالة الآيات المتقدمة على

أن للبتين الثلثين، الثالث: تصريح النبي ﷺ بذلك في حديث جابر المذكور آنفاً.
الزابع: أنه روي عن ابن عباس الرجوع عن ذلك.

قال الألوسي في تفسيره ما تضح: وفي شرح البيهقي نقلاً عن الشريف شمس الدين الأرموني أنه قال في شرح فرائض الوسيط: صح رجوع ابن عباس ﷺ عن ذلك فصار إجماعاً. اهـ. منه بلفظه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ﴾ إلى قوله ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ﴾. المراد في هذه الآية بالإخوة الذين يأخذ المنفرد منهم السدس وعند التعدد يشتركون في الثلث ذكرهم وأنثاهم، سواء إخوة الأم بدليل بيانه تعالى أن الأخوة من الأب أشقاء أو لا، يرث الواحد منهم كل المال، وعند اجتماعهم يرثون المال كله للذكر مثل حظ الأنثيين.

وقال في المنفرد منهم: وهو يرثها إن لم يكن لها ولد، وقال في جماعتهم: وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين. وقد أجمع العلماء على أن هؤلاء الإخوة هم الإخوة من الأب، كانوا أشقاء أو لأب. كما أجمعوا على أن قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً﴾ الآية. أنها في إخوة الأم وقرأ سعد بن أبي وقاص وله أخ أو أخت من أم. والتحقيق أن المراد بالكلالة عدم الأصول والفروع كما قال النباظم:

ويسألونك عن الكلالة هي انقطاع النسل لا محالة
لا والد يبقى ولا مولود فانقطع الأبناء والجدود

وهذا قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأكثر الصحابة وهو الحق - إن شاء الله تعالى - .
واعلم أن الكلالة تطلق على القرابة من غير جهة الولد والوالد، وعلى الميت الذي لم يخلف والدًا ولا ولدًا، وعلى الوارث الذي ليس بوالد ولا ولد. وعلى المال الموروث ممن ليس بوالد ولا ولد، إلا أنه استعمال غير شائع واختلف في اشتقاق الكلالة.

واختار كثير من العلماء أن أصلها من تكالها إذا أحاط به، ومنه الإكليل لإحاطته بالرأس، والكل لإحاطته بالعدد؛ لأن الورثة فيها محيطة بالميت من جوانبه لا من أصله ولا فرعه.

وقال بعض العلماء: أصلها من الكلال بمعنى الإعياء؛ لأن الكلالة أضعف من قرابة الآباء والأبناء.

وقال بعض العلماء: أصلها من الكل بمعنى الظهر وعليه فهي ما تركه الميت وراء ظهره، واختلف في إعراب قوله: كلاله. فقال بعض العلماء: هي حال من نائب فاعل يورث على حذف مضاف؛ أي يورث في حال كونه ذا كلاله أي قرابة غير الآباء والأبناء، واختاره الزجاج وهو الأظهر، وقيل: هي مفعول له؛ أي يورث لأجل الكلالة أي القرابة، وقيل: هي خبر كان، ويورث صفة لرجل، أي: كان رجل موروث ذا كلاله ليس بوالد ولا ولد، وقيل غير ذلك والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَأَنكِحُوا فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾. لم يبين هنا هل جعل لهن سبيلاً أو لا؟ ولكنه بين في مواضع آخر أنه جعل لهن السبيل بالحد كقوله في البكر: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ الآية [النور: ٢٢]. وقوله في الثيب (الشيخ والشيخة إذا زينا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم) لأن هذه الآية باقية الحكم كما صح عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه وإن كانت منسوخة التلاوة. وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أن حكم الرجم مأخوذ أيضاً من آية أخرى محكمة غير منسوخة التلاوة وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَفْسِيًّا مِّنَ الْكِتَابِ يُخَوِّنُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٢٣]؛ فإنها نزلت في اليهودي واليهودي للذين زنيا وهما محصنان ورجمهما النبي ﷺ، فذمه تعالى في هذا الكتاب للمعرض عما في التوراة من رجم الزاني المحصن، دليل قرآني واضح على بقاء حكم الرجم، ويوضح ما ذكرنا من أنه تعالى جعل لهن السبيل بالحد قوله ﷺ الثابت في الصحيح: «خذوا عني: قد جعل الله لهن سبيلاً».

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ الآية. نهى الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن نكاح المرأة التي نكحها الأب، ولم يبين ما المراد بنكاح الأب هل هو العقد أو الوطاء، ولكنه بين في موضع آخر أن اسم النكاح يطلق على العقد وحده، وإن لم يحصل مسيس وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩] فصرح بأنه نكاح وأنه لا مسيس فيه.

وقد أجمع العلماء على أن من عقد عليها الأب حرمت على ابنه وإن لم يمسهما الأب، وكذلك عقد الابن محرم على الأب إجماعاً، وإن لم يمسهما وقد أطلق تعالى النكاح في آية أخرى مريداً به الجماع بعد العقد، وذلك في قوله: ﴿فَإِنْ طَلَقَهَا فَلَا جُلُ لَهِ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠]؛ لأن المراد بالنكاح هنا ليس مجرد العقد، بل لا بد معه من الوطاء كما قال ﷺ لامرأة رفاعة القرظي: «لا، حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك» يعني الجماع ولا عبرة بما يروى من المخالفة عن سعيد بن المسيب؛ لوضوح النص الصريح الصحيح في عين المسألة. ومن هنا قال بعض العلماء: لفظ النكاح مشترك بين العقد والجماع، وقال بعضهم: هو حقيقة في الجماع مجاز في العقد؛ لأنه سببه. وقال بعضهم بالعكس.

تنبيه: قال بعض العلماء: إن لفظة (ما) من قوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾ مصدرية وعليه فقوله: من النساء متعلق بقوله: ﴿تُنكِحُوا﴾ لا بقوله نكح، وتقرير المعنى على هذا القول ولا تنكحوا من النساء نكاح آبائكم أي: لا تفعلوا ما كان يفعله آبائكم من النكاح الفاسد، وهذا القول هو اختيار ابن جرير، والذي يظهر وجزم به غير واحد من المحققين أن ما موصولة واقعة على النساء التي نكحها الآباء، كقوله تعالى: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ وقد قدمنا وجه ذلك؛ لأنهم كانوا ينكحون نساء آبائهم

كما يدل له سبب النزول، فقد نقل ابن كثير عن أبي حاتم أن سبب نزولها أنه لما توفي أبو قيس بن الأسلت خطب ابنه امرأته، فاستأذنت رسول الله ﷺ في ذلك، فقال: ارجعي إلى بيتك فترلت: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾.

قال مقيده - عفا الله عنه -: نكاح زوجات الآباء كان معروفاً عند العرب، ومن فعل ذلك أبو قيس بن الأسلت المذكور، فقد تزوج أم عبيد الله وكانت تحت الأسلت أبيه، وتزوج الأسود بن خلف ابنة أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار وكانت تحت أبيه خلف، وتزوج صفوان بن أمية فاخته ابنة الأسود بن المطلب بن أسد. وكانت تحت أبيه أمية، كما نقله ابن جرير عن عكرمة قائلًا: إنه سبب نزول الآية، وتزوج عمرو بن أمية زوجة أبيه بعده فولدت له مسافراً وأبا معيط، وكان لها من أمية أبو العيص وغيره، فكانوا إخوة مسافر وأبي معيط وأعمامها، وتزوج منظور بن زبان بن سيار الفزاري زوجة أبيه مليكة بنت خارجة، كما نقله القرطبي وغيره ومليكة هذه هي التي قال فيها منظور المذكور بعد أن فسخ نكاحها منه عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

ألا لا أباً لي اليوم ما فعل الدهر إذا منعت مني مليكة والخمر
فإن تك قد أمست بعيداً مزارها فحي ابنة المري ما طلع الفجر

وأشار إلى تزويج منظور هذا زوجة أبيه ناظم عمود النسب، بقوله في ذكر مشاهير فزارة.

منظور الناكح مقتاً وحلف خمسين ما له على منع وقف

وقوله: وحلف... إلخ. قال شارحه: إن معناه أن عمر بن الخطاب حلفه خمسين يميناً بعد العصر في المسجد أنه لم يبلغه نسخ ما كان عليه أهل الجاهلية من نكاح أزواج الآباء، وذكر السهيلي وغيره أن كنانة بن خزيمة تزوج زوجة أبيه خزيمة فولدت له النضر بن كنانة، قال: وقد قال ﷺ: «ولدت من نكاح لا من سفاح» فدل على أن ذلك كان سائغاً لهم.

قال ابن كثير: وفيما نقله السهيلي من قصة كنانة نظر، وأشار إلى تضعيف ما ذكره السهيلي ناظم عمود النسب بقوله:

وهند بنت مر أم حارثه شخيصه وأم عنز ثالثه
برة أختها عليها خلفا كنانة خزيمة وضعفا
أختهما عاتكة ونسلها عذرة التي الهوى يقتلها

وذكر شارحه أن الذي ضعف ذلك هو السهيلي نفسه، خلافاً لظاهر كلام ابن كثير ومعنى الأبيات أن هند بنت مر أخت تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس هي أم ثلاثة من أولاد وائل بن قاسط وهم الحارث وشخيص وعنز، وأن أختها برة بنت مر كانت زوجة خزيمة بن مدركة، فتزوجها بعد ابنه كنانة، وأن ذلك مضعف، وأن أختها عاتكة بنت مر هي أم عذرة أبي القبيلة المشهورة بأن الهوى يقتلها، وقد كان من

مختلفات العرب في الجاهلية إرث الأقارب أزواج أقاربهم، كان الرجل منهم إذا مات وألقى ابنه أو أخوه مثلاً ثوباً على زوجته ورثها وصار أحق بها من نفسها، إن شاء نكحها بلا مهر وإن شاء أنكحها غيره وأخذ مهرها، وإن شاء عضلها حتى تفتدي منه، إلى أن نهاهم الله عن ذلك بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا... الآية. وأشار إلى هذا ناظم عمود النسب بقوله:

القول فيما اختلفوا واخترقوا ولم يقدر إليه إلا التزق

ثم شرع يعدد: مختلفاتهم إلى أن قال:

وَأَنْ مِنَ الْقَى زَوْجَ أَبِيهِ وَنَحْوَهُ بَعْدَ الثَّوَى ثَوْباً يَرِيهِ
أُولَى بِهَا مِنْ نَفْسِهَا إِنْ شَاءَ نَكَحَ أَوْ أَنْكَحَ أَوْ أَسَاءَ
بِالْعُضْلِ كِي يَرِثَهَا أَوْ تَفْتَدِي وَمَهْرَهَا فِي النِّكَاحَيْنِ لِلرَّدَى

وأظهر الأقوال في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أن الاستثناء منقطع، أي لكن ما مضى من ارتكاب هذا الفعل قبل التحريم فهو معفو عنه كما تقدم، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ الآية. يفهم منهن أن حليلة دعيه الذي تبناه لا تحرم عليه، وهذا المفهوم صرح به تعالى في قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ نِسَاءَ وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِأَنَّهَا لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزِلِ أَهْلِيَّاهُمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧] وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤] وقوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ الآية [الأحزاب: ٤٠].

أما تحريم منكوحة الابن من الرضاع فهو مأخوذ من دليل خارج وهو تصريحه ﷺ بأنه يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

اعلم أولاً أن لفظ المحصنات أطلق في القرآن ثلاث إطلاقات:

الأول: المحصنات العفائف. ومنه قوله تعالى: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفَّحَاتٍ﴾ أي عفائف غير زانيات.

الثاني: المحصنات الحرائر. ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَلَيْتِهِنَّ نِصْفٌ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنْ الْعَدَايِ﴾ أي على الإماء نصف ما على الحرائر من الجلد.

الثالث: أن يراد بالإحصان التزوج. ومنه على التحقيق قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْكَ بِمَحْشَرَةٍ﴾. أي: فإذا تزوجن. وقول من قال من العلماء: إن المراد بالإحصان في قوله: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَ﴾ الإسلام بخلاف الظاهر من سياق الآية؛ لأن سياق الآية في الفتيات المؤمنات حيث قال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا﴾.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية ما نصه: والأظهر والله أعلم أن المراد

بالإحصان ههنا التزويج؛ لأن سياق الآية يدل عليه حيث يقول ﷺ: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيِّئَتِكُمْ﴾ والله أعلم. والآية الكريمة سياقها في الفتيات المؤمنات، فتعين أن المراد بقوله: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْنَ﴾ أي تزوجن كما فسرهن ابن عباس وغيره. اهـ. محل الغرض منه بلفظه. فإذا علمت ذلك فاعلم أن في قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ - أوجه من التفسير هي أقوال للعلماء، والقرآن يفهم منه ترجيح واحد معين منها.

قال بعض العلماء: المراد بالمحصنات هنا أعم من العفائف والحرائر والمتزوجات، أي حرمت عليكم جميع النساء إلا ما ملكت أيمانكم بعقد صحيح أو ملك شرعي بالرق، فمعنى الآية على هذا القول تحريم النساء كلهن إلا بنكاح صحيح أو تسر شرعي، وإلى هذا القول ذهب سعيد بن جبير وعطاء والسدي، وحكي عن بعض الصحابة واختاره مالك في الموطأ.

وقال بعض العلماء: المراد بالمحصنات في الآية الحرائر، وعليه فالمعنى وحرمت عليكم الحرائر غير الأربع، وأحل لكم ما ملكت أيمانكم من الإماء، وعليه فلا استثناء منقطع.

وقال بعض العلماء: المراد بالمحصنات: المتزوجات، وعليه فمعنى الآية وحرمت عليكم المتزوجات؛ لأن ذات الزوج لا تحل لغيره إلا ما ملكت أيمانكم بالسبي من الكفار، فإن السبي يرفع حكم الزوجية الأولى في الكفر، وهذا القول هو الصحيح، وهو الذي يدل القرآن لصحته؛ لأن القول الأول فيه حمل ملك اليمين على ما يشمل ملك النكاح، وملك اليمين لم يرد في القرآن إلا بمعنى الملك بالرق، كقوله: ﴿فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيِّئَتِكُمْ﴾. وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] وقوله: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ ۖ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٥، ٦] في الموضوعين، فجعل ملك اليمين قسماً آخر غير الزوجية. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النور: ٣٣] فهذه الآيات تدل على أن المراد بما ملكت أيمانكم الإماء دون المنكوحات كما هو ظاهر، وكذلك الوجه الثاني غير ظاهر؛ لأن المعنى عليه: وحرمت عليكم الحرائر إلا ما ملكت أيمانكم، وهذا خلاف الظاهر من معنى لفظ الآية كما ترى.

قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾. يعني: كما أنكم تستمتعون بالمنكوحات فأعطوهن مهوزهن في مقابلة ذلك، وهذا المعنى تدل له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ فإفضاء بعضهم إلى بعض المصرح بأنه سبب لاستحقاق الصداق كاملاً، هو بعينه الاستمتاع المذكور هنا في

قوله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ ... الآية. وقوله: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ فِحْلًا﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْنَاهُنَّ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٢٢٩]. فالآية في عقد النكاح، لا في نكاح المتعة كما قال به من لا يعلم معناها، فإن قيل التعبير بلفظ الأجور يدل على أن المقصود الأجرة في نكاح المتعة؛ لأن الصداق لا يسمى أجراً، فالجواب أن القرآن جاء فيه تسمية الصداق أجراً في موضع لا نزاع فيه؛ لأن الصداق لما كان في مقابلة الاستمتاع بالزوجة كما صرح به تعالى في قوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾ صار له شبه قوي بأثمان المنافع فسمي أجراً، وذلك الموضع هو قوله تعالى: ﴿فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن بلا نزاع، ومثله قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْنَاهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: ٥]؛ أي مهورهن فاتضح أن الآية في النكاح لا في نكاح المتعة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيَّنَّيْكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾. ظاهر هذه الآية الكريمة أن الأمة لا يجوز نكاحها، ولو عند الضرورة إلا إذا كانت مؤمنة بدليل قوله: ﴿مِنْ فَيَّنَّيْكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ فمفهوم مخالفته أن غير المؤمنات من الإماء لا يجوز نكاحهن على كل حال، وهذا المفهوم يفهم من مفهوم آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٥] فإن المراد بالمحصنات فيها الحرائر على أحد الأقوال، ويفهم منه أن الإماء الكوافر لا يحل نكاحهن ولو كن كتابيات، وخالف الإمام أبو حنيفة رحمته الله فأجاز نكاح الأمة الكافرة، وأجاز نكاح الإماء لمن عنده طول ينكح به الحرائر؛ لأنه لا يعتبر مفهوم المخالفة كما عرف في أصوله - رحمته الله.

أما وطء الأمة الكافرة بملك اليمين، فإنها إن كانت كتابية فجمهور العلماء على إباحة وطئها بالملك؛ لعموم قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦]. ولجواز نكاح حرائرهم فيحل التسري بالإماء منهم. وأما إن كانت الأمة المملوكة له مجوسية أو عابدة وثن ممن لا يحل نكاح حرائرهم فجمهور العلماء على منع وطئها بملك اليمين.

قال ابن عبد البر: وعليه جماعة فقهاء الأمصار وجمهور العلماء، وما خالفه فهو شذوذ لا يعد خلافاً، ولم يبلغنا إباحة ذلك إلا عن طاوس.

قال مقيد - عفا الله عنه -: الذي يظهر من جهة الدليل - والله تعالى أعلم -، جواز وطء الأمة بملك اليمين وإن كانت عابدة وثن أو مجوسية؛ لأن أكثر السبايا في عصره رحمته الله من كفار العرب وهم عبدة أوثان، ولم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه حرم وطأهن بالملك لكفرهن ولو كان حراماً لبيته، بل قال صلى الله عليه وسلم: «لا توطأ حامل حتى تضع، ولا غير ذات حمل حتى تحيض حيضة» ولم يقل حتى يسلمن ولو كان ذلك شرطاً لقاله، وقد أخذ الصحابة سبايا فارس وهن مجوس، ولم ينقل أنهم اجتنبوهن حتى أسلمن.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَحْصَنَ فَإِنْ أَتَيْكَ بِفَحْشَةٍ فَقَلْبَيْنِ نِصْفٍ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾. لم يبين هنا هذا العذاب الذي على المحصنات - وهن الحرائر - الذي نصفه على الإماء، ولكنه بين في موضع آخر أنه جلد مائة بقوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدٍ﴾ [النور: ٦] فيعلم منه أن على الأمة الزانية خمسين جلدة، ويلحق بها العبد الزاني فيجلد خمسين، فعموم الزانية مخصوص بنص قوله تعالى: ﴿فَقَلْبَيْنِ نِصْفٍ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ وعموم الزاني مخصوص بالقياس على المنصوص؛ لأنه لا فارق البتة بين الحرة والأمة إلا الرق، فعلم أنه سبب تشطير الجلد فأجري في العبد لاتصافه بالرق الذي هو مناط تشطير الجلد، وهذه الآية عند الأصوليين من أمثلة تخصيص عموم النص بالقياس، بناء على أن نوع تنقيح المناط المعروف بالغاء الفارق يسمى قياساً، والخلاف في كونه قياساً معروف في الأصول. أما الرجم فمعلوم أنه لا يشطر، فلم يدخل في المراد بالآية.

تنبيه: قد علمت مما تقدم أن التحقيق في معنى أحصن أن المراد به تزوجن، وذلك هو معناه على كلتا القراءتين قراءته بالبناء للفاعل والمفعول، خلافاً لما اختاره ابن جرير من أن معنى قراءة أحصن - بفتح الهمزة والصاد مبنياً للفاعل - أسلمن، وأن معنى أحصن - بضم الهمزة وكسر الصاد مبنياً للمفعول - زوجن، وعليه فيفهم من مفهوم الشرط في قوله: ﴿فَإِذَا أَحْصَنَ﴾، أن الأمة التي لم تتزوج لا حدَّ عليها إذا زنت؛ لأنه تعالى علق حدها في الآية بالإحصان، وتمسك بمفهوم هذه الآية ابن عباس، وطاوس، وعطاء، وابن جريج، وسعيد بن جبير، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وداد بن علي في رواية فقالوا: لا حد على مملوكة حتى تتزوج، والجواب عن هذا - والله أعلم - أن مفهوم هذه الآية فيه إجمال وقد بينته السنة الصحيحة، وإيضاحه أن تغليق جلد الخمسين المذكور في الآية على إحصان الأمة، يفهم منه أن الأمة التي لم تحصن ليست كذلك فقط، فيحتمل أنها لا تجلد ويحتمل أنها تجلد أكثر من ذلك أو أقل أو ترجم إلى غير ذلك من الاحتمالات، ولكن السنة الصحيحة دلت على أن غير المحصنة من الإماء كذلك، لا فرق بينها وبين المحصنة، والحكمة في التعبير بخصوص المحصنة دفع توهم أنها ترجم كالحررة، فقد أخرج الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني رضي الله عنهما قالوا: سئل النبي ﷺ عن الأمة إذا زنت ولم تحصن، قال: «إن زنت فاجلدوها، ثم إن زنت فاجلدوها، ثم إن زنت فاجلدوها ثم يبعوها ولو بصفير». قال ابن شهاب: لا أدري أبعد الثالثة، أو الرابعة، وحمل الجلد في الحديث على التأديب غير ظاهر، لاسيما وفي بعض الروايات التصريح بالحد، فمفهوم هذه الآية هو بعينه الذي سئل عنه النبي ﷺ، وأجاب فيه بالأمر بالجلد في هذا الحديث المتفق عليه، والظاهر أن السائل ما سألته إلا لأنه أشكل عليه مفهوم هذه الآية، فالحديث نص في محل النزاع، ولو كان جلد غير المحصنة أكثر أو أقل من جلد المحصنة لبيته ﷺ.

وبهذا تعلم أن الأقوال المخالفة لهذا لا يعول عليها، كقول ابن عباس ومن وافقه المتقدم أنفأ، وكالقول بأن غير المحصنة تجلد مائة، وهو المشهور عن داود بن علي الظاهري، ولا يخفى بعده وكالقول بأن الأمة المحصنة ترجم وغير المحصنة تجلد خمسين، وهو قول أبي ثور، ولا يخفى شدة بعده. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة أن النشوز قد يحصل من النساء، ولم يبين هل يحصل من الرجال نشوز أو لا؟ ولكنه بين في موضع آخر أن النشوز أيضاً قد يحصل من الرجال، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾. وأصل النشوز في اللغة الارتفاع، فالمرأة الناشز كأنها ترتفع عن المكان الذي يضاجعها فيه زوجها، وهو في اصطلاح الفقهاء الخروج عن طاعة الزوج، وكأن نشوز الرجل ارتفاعه أيضاً عن المحل الذي فيه الزوجة وتركه مضاجعتها. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفَهَا﴾. لم يبين في هذه الآية الكريمة أقل ما تضاعف به الحسنة، ولا أكثره، ولكنه بين في موضع آخر أن أقل ما تضاعف به عشر أمثالها، وهو قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]. وبين في موضع آخر أن المضاعفة ربما بلغت سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله، وهو قوله: ﴿تَثَلُّ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ﴾ [البقرة: ٢٦١] كما تقدم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ شِئِيَ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ الآية.

على القراءات الثلاث معناه أنهم يتمنون أن يستولوا بالأرض، فيكونوا تراباً مثلها على أظهر الأقوال، ويوضح هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ رَبًّا﴾ [النبا: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْفُرُونَ اللَّهَ حَذِيثًا﴾.

بين في موضع آخر أن عدم الكتم المذكور هنا، إنما هو باعتبار إخبار أيديهم وأرجلهم بكل ما عملوا عند الختم على أفواههم إذا أنكروا شركهم ومعاصيهم وهو قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، فلا يتنافى قوله: ﴿وَلَا يَكْفُرُونَ اللَّهَ حَذِيثًا﴾ مع قوله عنهم: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وقوله عنهم أيضاً: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ [النحل: ٢٨] وقوله عنهم: ﴿بَلْ لَمْ تَكُنْ تَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ [غافر: ٧٤] للبيان الذي ذكرنا والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾. بين تعالى في هذه الآية زوال السكر بأنه هو أن يثوب للسكران عقله، حتى يعلم معنى الكلام الذي يصدر منه بقوله: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْرُونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضَلُّوا

السَّيِّئِ ﴿٤٤﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة أن الذين أوتوا نصيباً من الكتاب مع اشتراطهم الإضلال يريدون إضلال المسلمين أيضاً.

وذكر في موضع آخر أنهم كثير، وأنهم يتمنون ردة المسلمين، وأن السبب الحامل لهم على ذلك إنما هو الحسد، وأنهم ما صدر منهم ذلك إلا بعد معرفتهم الحق وهو قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَكًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]. وذكر في موضع آخر أن هذا الإضلال الذي يتمنونه للمسلمين لا يقع من المسلمين، وإنما يقع منهم - أعني المتمنين الضلال للمسلمين - وهو قوله: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران].

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَلَغَمَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾.

لم يبين هنا كيفية لعنة لأصحاب السبت، ولكنه بين في غير هذا الموضع أن لعنه لهم هو مسخهم قردة ومن مسخه الله قرداً غضباً عليه فهو ملعون بلا شك، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥] وقوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦]. والاستدلال على مغايرة اللعن للمسح بعطفه عليه في قوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ [المائدة: ٦٠] لا يفيد أكثر من مغايرته للمسح في تلك الآية، كما قاله الألوسي في تفسيره وهو ظاهر، وللعنة في اللغة: الطرد والإبعاد، والرجل الذي طرده قومه وأبعدوه لجناياتهم تقول له العرب: رجل لعين، ومنه قول الشاعر:

ذعرت به القطا ونفيت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين

وفي اصطلاح الشرع: اللعنة: الطرد والإبعاد عن رحمة الله، ومعلوم أن المسخ من أكبر أنواع الطرد والإبعاد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ﴿٤٥﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة أنه تعالى لا يغفر الإشراك به وأنه يغفر غير ذلك لمن يشاء، وأن من أشرك به فقد افترى إثماً عظيماً. وذكر في مواضع أخرى أن محل كونه لا يغفر الإشراك به إذا لم يتب المشرك من ذلك، فإن تاب غفر له كقوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠]؛ فإن الاستثناء راجع لقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨] وما عطف عليه؛ لأن معنى الكل جمع في قوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]، وقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]. وذكر في موضع آخر: أن من أشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً عن الحق، وهو قوله في هذه السورة الكريمة أيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ﴿٤٥﴾.

يُشْرِكْ بِهِ وَيَقْعِرُ مَا دُونَكَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٦﴾. وصرح بأن من أشرك بالله فالجنة عليه حرام ومأواه النار بقوله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقوله: ﴿وَنَادَىٰ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ آفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ٥٥].

وذكر في موضع آخر أن المشرك لا يرجى له خلاص، وهو قوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ السَّيْحُ فِي مَكَانٍ سَحِينٍ﴾ [الحج: ٣١] وصرح في موضع آخر: بأن الإشراك ظلم عظيم بقوله عن لقمان مقررًا له: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. وذكر في موضع آخر: أن الأمن التام والاهتداء، إنما هما لمن لم يلبس إيمانه بشرك، وهو قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: ٨١] وقد صرح عنه ﷺ أن معنى بظلم بشرك.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

أنكر تعالى عليهم في هذه الآية تزكيتهم أنفسهم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ﴾ ويقولوه: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٥﴾﴾ وصرح بالنهي العام عن تزكية النفس وأخرى نفس الكافر التي هي أخس شيء وأنجسه بقوله: ﴿هُوَ أَغْلَىٰ بِكَوَإِذَا أَنْشَأَكَ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتَ أَجْنَةٌ فِي بَطْنٍ أُمَّهَاتِكَ فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢]. ولم يبين هنا كيفية تزكيتهم أنفسهم، ولكنه بين ذلك في مواضع أخرى، كقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُمْ﴾ [المائدة: ١٨] وقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَنَدْخِلْهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾. وصف في هذه الآية الكريمة ظل الجنة بأنه ظليل، ووصفه في آية أخرى بأنه دائم، وهي قوله: ﴿أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، ووصفه في آية أخرى بأنه ممدود وهي قوله: ﴿وَبُذِّلَ مَدَدٌ﴾ [الواقعة: ٣٠]. وبين في موضع آخر أنها ظلال متعددة وهو قوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ﴿٦١﴾﴾ [المرسلات: ٦١]. وذكر في موضع آخر أنهم في تلك الظلال متكئون مع أزواجهم على الأرائك وهو قوله: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٦١﴾﴾ [يس: ٦١]، والأرائك: جمع أريكة وهي السرير في الحجلة؛ والحجلة بيت يزين للعروس بجميع أنواع الزينة، وبين أن ظل أهل النار ليس كذلك بقوله: ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: ٦١]، ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٦١﴾ لَا ظِلِّ وَلَا يَنْفَعُ مِنَ الْهَبِ ﴿٦٢﴾﴾ [المرسلات: ٦٢]، وقوله: ﴿وَأَصْحَابُ الشَّيْطَانِ مَا أَصْحَابُ الشَّيْطَانِ ﴿٦١﴾﴾ [المرسلات: ٦١]، ﴿وَبُذِّلَ مَدَدٌ ﴿٦١﴾﴾ [المرسلات: ٦١]، ﴿وَبُذِّلَ مَدَدٌ ﴿٦١﴾﴾ [المرسلات: ٦١]، ﴿وَبُذِّلَ مَدَدٌ ﴿٦١﴾﴾ [المرسلات: ٦١].

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَزِدُوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ الآية.

أمر الله في هذه الآية الكريمة، بأن كل شيء تنازع فيه الناس من أصول الدين وفروعه أن يرد للتنازع في ذلك إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؛ لأنه تعالى قال: ﴿مَنْ يُطِيعِ

الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ؛ وأوضح هذا المأمور به هنا بقوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] الآية، ويفهم من هذه الآية الكريمة أنه لا يجوز التحاكم إلى غير كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وقد أوضح تعالى هذا المفهوم موبخاً للمتحاكمين إلى غير كتاب الله وسنة نبيه ﷺ مبيناً أن الشيطان أضلهم ضلالاً بعيداً عن الحق بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ⑩، وأشار إلى أنه لا يؤمن أحد حتى يكفر بالطاغوت بقوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْمَرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ومفهوم الشرط أن من لم يكفر بالطاغوت لم يستمسك بالعروة الوثقى. وهو كذلك، ومن لم يستمسك بالعروة الوثقى فهو بمعزل عن الإيمان؛ لأن الإيمان بالله هو العروة الوثقى، والإيمان بالطاغوت يستحيل اجتماعه مع الإيمان بالله؛ لأن الكفر بالطاغوت شرط في الإيمان بالله أو ركن منه، كما هو صريح قوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾... الآية [البقرة: ٢٥٦].

تنبيه: استدل منكرو القياس بهذه الآية الكريمة، أعني قوله تعالى: ﴿إِنْ لَنْ تَزْعُمَ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ﴾، على بطلان القياس قالوا: لأنه تعالى أوجب الرد إلى خصوص الكتاب والسنة دون القياس، وأجاب الجمهور بأنه لا دليل لهم في الآية؛ لأن إلحاق غير المنصوص بالمنصوص لوجود معنى النص فيه لا يخرج عن الرد إلى الكتاب والسنة، بل قال بعضهم: الآية متضمنة لجميع الأدلة الشرعية، فالمراد بإطاعة الله العمل بالكتاب وإطاعة الرسول العمل بالسنة، وبالرد إليهما القياس؛ لأن رد المختلف فيه غير المعلوم من النص إلى المنصوص عليه، إنما يكون بالتمثيل والبناء عليه، وليس القياس شيئاً وراء ذلك. وقد علم من قوله تعالى: ﴿إِنْ لَنْ تَزْعُمَ﴾ أنه عند عدم النزاع يعلم بالمتفق عليه، وهو الإجماع قاله الألوسي في تفسيره.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ ⑪. ذكر في هذه الآية الكريمة أن المنافقين إذا دعوا إلى ما أنزل الله، وإلى الرسول ﷺ يصدون عن ذلك صدوداً؛ أي يعرضون إعراضاً. وذكر في موضع آخر أنهم إذا دعوا إليه ﷺ ليستغفر لهم لووا رؤوسهم، وصدوا واستكبروا، وهو قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ ⑫ [المنافقون].

قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ⑬. أقسم تعالى في هذه الآية الكريمة بنفسه الكريمة المقدسة، أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم رسوله ﷺ في جميع الأمور، ثم ينقاد لما حكم به ظاهراً وباطناً ويسلمه تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة، وبين في آية أخرى

أن قول المؤمنين محصور في هذا التسليم الكلي، والالتقياد التام ظاهراً وباطناً لما حكم به ﷺ، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ الآية [النور: ٥١].

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَوْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾.

ذكر في هذه الآية الكريمة أن المنافقين إذا سمعوا بأن المسلمين أصابتهم مصيبة؛ أي من قتل الأعداء لهم، أو جراح أصابتهم، أو نحو ذلك يقولون: إن عدم حضورهم معهم من نعم الله عليهم.

وذكر في مواضع آخر أنهم يفرحون بالسوء الذي أصاب المسلمين، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠] وقوله: ﴿وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَقُولُوا وَهُمْ فَرِحُوا﴾ [التوبة: ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْسَتْ بَيْنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة، أن المنافقين إذا سمعوا أن المسلمين أصابهم فضل من الله، أي: نصر وظفر وغنيمة، تمنوا أن يكونوا معهم ليفوزوا بسهامهم من الغنيمة. وذكر في موضع آخر أن ذلك الفضل الذي يصيب المؤمنين يسوءهم لشدة عداوتهم الباطنة لهم، كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ سَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٠] وقوله: ﴿إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ سَوْهُمْ﴾ [التوبة: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ الآية.

ذكر في هذه الآية الكريمة، أنه سوف يؤتي المجاهد في سبيله أجراً عظيماً سواء أقتل في سبيل الله، أم غلب عدوه، وظفر به. وبين في موضع آخر أن كلتا الحاليتين حسنى، وهو قوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرْضَوْنَ بِنَا آلَاَ إِنْ أَحَدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢] والحسنى صيغة تفضيل؛ لأنها تأنيث الأحسن.

قوله تعالى: ﴿وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. لم يصرح هنا بالذي يحرض عليه المؤمنين، ما هو، وصرح في موضع آخر بأنه القتال، وهو قوله: ﴿حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥]. وأشار إلى ذلك هنا بقوله في أول الآية: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٠] وقوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفَى بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: ٨٤].

قوله تعالى: ﴿أَتَرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾.

أنكر تعالى في هذه الآية الكريمة على من أراد أن يهدي من أضله الله، وصرح فيها بأن من أضله الله لا يوجد سبيل إلى هداه، وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١] وقوله: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦] ويؤخذ من هذه الآيات أن العبد

ينبغي له كثرة التضرع والابتغال إلى الله تعالى: أن يهديه ولا يضلّه، فإن من هداه الله لا يضل، ومن أضله لا هادي له؛ ولذا ذكر عن الراسخين في العلم أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ﴾ إلى قوله ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٩٥). ذكر في هذه الآية الكريمة أنه فضل المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وأجرًا عظيمًا، ولم يتعرض لتفضيل بعض المجاهدين على بعض، ولكنه بين ذلك في موضع آخر وهو قوله: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلًا أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ [الحديد: ١٠] وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ يفهم من مفهوم مخالفته أن من خلفه العذر إذا كانت نيته صالحة يحصل ثواب المجاهد.

وهذا المفهوم صرح به النبي ﷺ في حديث أنس الثابت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم من مسير ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه»، قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله؟! قال: «نعم حبسهم العذر» وفي هذا المعنى قال الشاعر:

يا ظاعنين إلى البيت العتيق لقد سرتهم جسوماً، وسرنا نحن أرواحاً
إننا أقمنا على عذر وعن قدر ومن أقام على عذر فقد راحا

تنبيه: يؤخذ من قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ أن الجهاد فرض كفاية لا فرض عين؛ لأن القاعدين لو كانوا تاركين فرضاً لما ناسب ذلك وعده لهم الصادق بالحسنى؛ وهي الجنة والثواب الجزيل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. قال بعض العلماء: المراد بالقصر في قوله: ﴿أَنْ تَقْصُرُوا﴾ في هذه الآية قصر کیفیتها لا كميتها، ومعنى کیفیتها: أن يجوز فيها من الأمور ما لا يجوز في صلاة الأمن. كأن يصلي بعضهم مع الإمام ركعة واحدة، ويقف الإمام حتى يأتي البعض الآخر فيصلّي معهم الركعة الأخرى وكصلاتهم إيماء رجالاً وركباناً وغير متوجهين إلى القبلة، فكل هذا من قصر کیفیتها ويدل على أن المراد هو هذا القصر من کیفیتها، قوله تعالى: بعده يليه مبيناً له ﴿وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾. وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩] ويزيده إيضاحاً أنه قال هنا: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وقال في آية البقرة: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩]؛ لأن معناه فإذا أمنتُمْ فأتّمموا کیفیتها بركوعها وسجودها وجميع ما يلزم فيها مما يتعذر وقت الخوف.

وعلى هذا التفسير الذي دل له القرآن، فشرط الخوف في قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَقْبَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ معتبر أي: وإن لم تخافوا منهم أن يفتنوكم فلا تقصروا من كفيتهما، بل صلوا على أكمل الهيئات، كما صرح به في قوله: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وصرح باشتراط الخوف أيضاً لقصر كفيتهما بأن يصلها الماشي والراكب بقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ رَجَافاً أَوْ زُرْقَاناً﴾ [البقرة: ٢٣٩]. ثم قال: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم﴾ [البقرة: ٢٣٩]. يعني فإذا أمنتُمْ فأقيموا صلاتكم كما أمرتم بركوعها وسجودها، وقيامها وقعودها، على أكمل هيئة وأتمها، وخير ما يبين القرآن القرآن، ويدل على أن المزداد بالقصر في هذه الآية القصر من كفيتهما كما ذكرنا، أن البخاري صدر باب صلاة الخوف بقوله: باب صلاة الخوف وقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلْيَسَّ عَلَيْكُمْ جُنَاحُ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَقْبَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ الْكَافِرِينَ كَاثُرٌ لَكُمْ عَذَابٌ مُبِينٌ﴾ وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكُمْ وَلْيَاخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكُمْ وَلْيَاخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٢٣٩﴾ وما ذكره ابن حجر وغيره من أن البخاري ساق الآيتين في الترجمة ليشير إلى خروج صلاة الخوف عن هيئة بقية الصلوات بالكتاب قولاً، وبالسنّة فعلاً، لا ينافي ما أشرنا إليه من أنه ساق الآيتين في الترجمة لينبه على أن قصر الكيفية الوارد في أحاديث الباب هو المراد بقصر الصلاة في قوله: ﴿فَلْيَسَّ عَلَيْكُمْ جُنَاحُ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَقْبَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ويؤيده أيضاً أن قصر عددها لا يشترط فيه الخوف، وقد كان ﷺ يقصر هو وأصحابه في السفر وهم في غاية الأمن، كما وقع في حجة الوداع وغيرها، وكما قال ﷺ لأهل مكة: «أتموا فإنما قوم سفر».

ومن رغب المزيد فليعد للأصل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾.

ذكر في هذه الآية الكريمة أن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً أي: شيئاً مكتوباً عليهم واجباً حتماً، موقتاً أي: له أوقات يجب بدخولها ولم يشر هنا إلى تلك الأوقات، ولكنه أشار لها في مواضع أخر كقوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] فأشار بقوله: ﴿لِذِكْرِكَ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] وهو زوالها عن كبد السماء على التحقيق إلى صلاة الظهر والعصر وأشار بقوله: ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨] وهو ظلامه إلى صلاة المغرب والعشاء، وأشار بقوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨] إلى صلاة الصبح وعبر عنها بالقرآن بمعنى القراءة؛ لأنها ركن فيها من التعبير عن الشيء باسم بعضه.

وهذا البيان أوضحته السنة إيضاحاً كلياً، ومن الآيات التي أشير فيها إلى أوقات الصلاة كما قاله جماعة من العلماء، قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ لِلَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّكُوتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿٨﴾ [الروم]. قالوا: المراد بالتسبيح في هذه الآية الصلاة. وأشار بقوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ إلى صلاة المغرب والعشاء وبقوله: ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ إلى صلاة الصبح، وبقوله: ﴿وَعَشِيًّا﴾ إلى صلاة العصر، وبقوله: ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ إلى صلاة الظهر. وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤] وأقرب الأقوال في الآية أنه أشار بطرفي النهار إلى صلاة الصبح أوله وصلاة الظهر والعصر آخره؛ أي في النصف الأخير منه وأشار بزلف من الليل إلى صلاة المغرب والعشاء.

وقال ابن كثير: يحتمل أن الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس، وكان الواجب قبلها صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها، وقيام الليل، ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس، وعلى هذا فالمراد بطرفي النهار والصلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها والمراد بزلف من الليل قيام الليل.

قال مقيده - عفا الله عنه -: الظاهر أن هذا الاحتمال الذي ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله بعيد؛ لأن الآية نزلت في أبي اليسر في المدينة بعد فرض الصلوات بزمان فهي على التحقيق مشيرة لأوقات الصلاة، وهي آية مدنية في سورة مكية وهذه تفاصيل أوقات الصلاة بأدلتها المبينة لها من السنة، ولا يخفى أن لكل وقت منها أولاً وآخرًا، أما أول وقت الظهر فهو زوال الشمس عن كبد السماء بالكتاب والسنة والإجماع.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨]؛ فاللام للتوقيت ودلوك الشمس زوالها عن كبد السماء على التحقيق.

وأما السنة فمنها حديث أبي برزة الأسلمي عند الشيخين كان النبي ﷺ يصلي الهجير التي تدعونها حين تدحض الشمس... الحديث، ومعنى تدحض: تزول عن كبد السماء.

وفي رواية لمسلم: حين تزول، وفي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه كان النبي ﷺ يصلي الظهر بالهاجرة، وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه أنه خرج حين زاغت الشمس فصلى الظهر، وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «أمني جبريل عند باب البيت مرتين فصلى بي الظهر حين زالت الشمس» الحديث أخرجه الإمامان الشافعي وأحمد، وأبو داود وابن خزيمة والدارقطني والحاكم في المستدرک وقال: هو حديث صحيح.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ﴾ إلى قوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٦). نهى الله تعالى المسلمين في هذه الآية الكريمة عن الوهن، وهو الضعف في طلب أعدائهم الكافرين، وأخبرهم بأنهم إن كانوا يجدون الألم من القتل والجراح فالكفار كذلك، والمسلم يرجو من الله من الثواب والرحمة ما لا يرجوه الكافر، فهو

أحق بالصبر على الآلام منه، وأوضح هذا المعنى في آيات متعددة كقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٩) ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَجٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَجٌ مِثْلُهُ﴾ [آل عمران: ٣] وكقوله: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَِّ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَبْزُكَ أَعْمَالُكُمْ﴾ (١٣٥) [محمد]... إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾. ذكر في هذه الآية أن من فعل ذنباً فإنه إنما يضر به خصوص نفسه لا غيرها، وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤] وقوله: ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾... الآية [فصلت: ٤٦] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ الآية.

ذكر في هذه الآية الكريمة أنه علم نبيه ﷺ ما لم يكن يعلمه، وبين في مواضع آخر أنه علمه ذلك عن طريق هذا القرآن العظيم الذي أنزله عليه كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية [الشورى: ٥٢]. وقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْقَافِلِينَ﴾ (٢) [يوسف] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾ الآية.

ذكر في هذه الآية الكريمة أن كثيراً من مناجاة الناس فيما بينهم لا خير فيه. ونهى في موضع آخر عن التناجي بما لا خير فيه، وبين أنه من الشيطان؛ ليحزن به المؤمنين وهو قوله تعالى: ﴿بَنَاتِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَلْنَهُنَّ بِالْأُذُنِ وَالْعَذْوَنِ وَمَعْصَبَتِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالْقَوَىٰ وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (١) ﴿إِنَّمَا التَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٢) [المجادلة].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ لم يبين هنا هل المراد بالناس المسلمون دون الكفار أو لا. ولكنه أشار في مواضع آخر أن المراد بالناس المرغوب في الإصلاح بينهم هنا المسلمون خاصة كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقوله: ﴿وَلَنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]. فتخصيصه المؤمنين بالذكر يدل على أن غيرهم ليس كذلك كما هو ظاهر، وكقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١].

وقال بعض العلماء: إن الأمر بالمعروف المذكور في هذه الآية في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ يبينه: قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ (١) ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ﴾ (٢) ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (٣) [العصر]، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَدْرَأَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨] والآية الأخيرة فيها أنها في الآخرة، والأمر بالمعروف المذكور إنما هو في الدنيا. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾. المراد في هذه الآية بدعائهم الشيطان المريد عبادتهم له، ونظيره قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَهْدَىٰ إِلَيْكُمْ يَتَّبِعِ ۚ إِنَّ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾. الآية [يس: ٦٠]. وقوله عن خليله إبراهيم مقررأ له: ﴿يَتَّبِعِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مریم: ٤٤] وقوله عن الملائكة ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾. الآية [سبا: ٤١] وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧] ولم يبين في هذه الآيات ما وجه عبادتهم للشيطان ولكنه بين في آيات أخر أن معنى عبادتهم للشيطان إطاعتهم له واتباعهم لتشريع وإيثاره على ما جاءت به الرسل من عند الله تعالى كقوله: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَؤْمِنَ إِلَىٰ آيَاتِهِمْ لِيُحْدِلُوا ۚ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]؛ فإن عدي بن حاتم رضي الله عنه لما قال للنبي ﷺ كيف اتخذوهم أرباباً؟ قال له النبي ﷺ: «إنهم أحلوا لهم ما حرم الله وحرموا عليهم ما أحل الله فاتبعوهم» وذلك هو معنى اتخاذهم إياهم أرباباً، ويفهم من هذه الآيات بوضوح - لا لبس فيه - أن من اتبع تشريع الشيطان مؤثراً له على ما جاءت به الرسل. فهو كافر بالله، عابد للشيطان، متخذ الشيطان رباً وإن سمي اتباعه للشيطان بما شاء من الأسماء؛ لأن الحقائق لا تتغير بإطلاق الألفاظ عليها كما هو معلوم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَا اتَّخَذَنَّ مِّنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾.

بين هنا فيما ذكر الشيطان كيفية اتخاذها لهذا النصيب المفروض بقوله: ﴿وَلَا أُصَلِّتُهُمْ وَلَا أُمَيِّنُهُمْ وَلَا أُمِرْتُهُمْ فَلْيَتَّبِعُوا خَلْقَ اللَّهِ﴾ المراد بتبتيك أذان الأنعام شق أذن البهيرة مثلاً وقطعها ليكون ذلك سمة وعلامة لكونها بهيرة أو سائبة كما قاله قتادة والسدي وغيرهما، وقد أبطله تعالى بقوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَهِيرَةٍ﴾ [المائدة: ١٠٣]. والمراد ببحرها شق أذنها كما ذكرنا والتبتيك في اللغة: التقطيع ومنه قول زهير:

حتى إذا ما هوت كف الوليد لها طارت وفي كفه من ريشها بتك

أي: قطع، كما بين كيفية اتخاذها لهذا النصيب المفروض في آيات أخر كقوله: ﴿لَا قُدْرَ لَهْمُ صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ثُمَّ لَا يَنْبَغُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧] وقوله: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخْرِيتُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْنِكَ ذُرِّيَّتَهُ﴾ [الإسراء: ٦٢]. ولم يبين هنا هل هذا الظن الذي ظنه إبليس ببني آدم أنه يتخذ منهم نصيباً مفروضاً، وأنه يضلهم بتحقيق لإبليس، أو لا ولكنه بين في آية أخرى أن ظنه هذا تحقق له وهي قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ [سبا: ٢٠]. ولم يبين هنا الفريق السالم من كونه من نصيب إبليس، ولكنه بينه في مواضع أخر كقوله: ﴿وَلَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٣٩] إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠] وقوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَنُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُمُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٣٣]، إلى غير ذلك من

الآيات ولم يبين هنا هل نصيب إبليس هذا هو الأكثر أو لا ولكنه بين في مواضع آخر أنه هو الأكثر كقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧] وقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٢٣] وقوله: ﴿وَلَنْ تَقْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ بِضُلُوكَ﴾ [الأنعام: ١١٦] وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [٧] [الصفات]. وقد ثبت في الصحيح أن نصيب الجنة واحد من الألف والباقي في النار.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُ بِهِمْ فَنَنْصِرُكَ خَلْقَ اللَّهِ﴾. قال بعض العلماء: معنى هذه الآية أن الشيطان يأمرهم بالكفر وتغيير فطرة الإسلام التي خلقهم الله عليها، وهذا القول يبينه ويشهد له قوله تعالى: ﴿فَأَقْصَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] إذ المعنى على التحقيق لا تبدلوا فطرة الله التي خلقكم عليها بالكفر. فقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] خبر أريد به الإنشاء إيداناً بأنه لا ينبغي إلا أن يمثل حتى كأنه خبر واقع بالفعل لا محالة، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفْثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ الآية [البقرة: ١٩٧] أي لا ترفثوا، ولا تفسقوا، ويشهد لهذا ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تجدون فيها من جدعاء» وما رواه مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار بن أبي حمار التميمي. قال: قال رسول الله ﷺ: «إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم».

وأما على القول بأن المراد في الآية بتغيير خلق الله خصاء الدواب، والقول بأن المراد به الوشم، فلا بيان في الآية المذكورة، وبكل من الأقوال المذكورة. قال جماعة من العلماء، وتفسير بعض العلماء لهذه الآية بأن المراد بها خصاء الدواب يدل على عدم جوازها؛ لأنه مسوق في معرض الذم واتباع تشريع الشيطان، أما خصاء بني آدم فهو حرام إجماعاً؛ لأنه مثله وتعذيب وقطع عضو، وقطع تسل من غير موجب شرعي، ولا يخفى أن ذلك حرام.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ الآية.

لم يبين هنا شيئاً من أمانيتهم، ولا من أمانتي أهل الكتاب، ولكنه أشار إلى بعض ذلك في مواضع آخر كقوله في أمانتي العرب الكاذبة: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبا] وقوله عنهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩] ونحو ذلك من الآيات، وقوله في أمانتي أهل الكتاب: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيّاً تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة: ١١١]. وقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَانِيَّةُ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّواؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]. ونحو ذلك من الآيات.

وما ذكره بعض العلماء من أن سبب نزول الآية أن المسلمين وأهل الكتاب

تفاخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم ونبينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله فأنزل الله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾... الآية. لا ينافي ما ذكرنا؛ لأن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ الآية.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه لا أحد أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله في حال كونه محسناً؛ لأن استفهام الإنكار مضمن معنى النفي، وصرح في موضع آخر: أن من كان كذلك فقد استمسك بالعروة الوثقى، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [لقمان: ٢٢] ومعنى إسلام وجهه لله إطاعته وإذعانه، وانقياده لله تعالى بامثال أمره، واجتناب نهيه في حال كونه محسناً؛ أي مخلصاً عمله لله لا يشرك فيه به شيئاً مراقباً فيه الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فالله تعالى يراه، والعرب تطلق إسلام الوجه، وتريد به الإذعان والانقياد التام، ومنه قول زيد بن نفيال العدوي:

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له المزن تحمل عذاباً زلالاً
وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صخوراً ثقالاً
قوله تعالى: ﴿وَمَا يُثَلَّ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يُتَمَّى النِّسَاءِ﴾ الآية.

لم يبين هنا هذا الذي يتلى عليهم في الكتاب ما هو، ولكنه بينه في أول السورة وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ الآية. كما قدمناه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فقوله هنا: ﴿وَمَا يُثَلَّ﴾ في محل رفع معطوفاً على الفاعل الذي هو لفظ الجلالة، وتقرير المعنى قل الله يفتيكم فيهن، ويفتيكم فيهن أيضاً: ﴿وَمَا يُثَلَّ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يُتَمَّى النِّسَاءِ﴾ الآية. وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ الآية. ومضمون ما أفنى به هذا الذي يتلى علينا في الكتاب هو تحريم هضم حقوق اليتيمات فمن خاف أن لا يقسط في اليتيمة التي في حجره فليتركها ولينكح ما طاب له سواها، وهذا هو التحقيق في معنى الآية كما قدمنا، وعليه فحرف الجر المحذوف في قوله: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ هو عن أي: ترغبون عن نكاحهن لقلة ما لهن وجمالهن؛ أي كما أنكم ترغبون عن نكاحهن إن كن قليلات مال وجمال فلا يحل لكم نكاحهن إن كن ذوات مال وجمال إلا بالإقساط إليهن في حقوقهن كما تقدم عن عائشة رضي الله عنها.

وقال بعض العلماء: الحرف المحذوف هو في، أي ترغبون في نكاحهن إن كن متصفات بالجمال وكثرة المال مع أنكم لا تقسطون فيهن، والذين قالوا بالمجاز واختلفوا في جواز حمل اللفظ على حقيقته ومجازه معاً أجازوا ذلك في المجاز العقلي كقولك: أغناني زيد وعطاؤه، فإسناد الإغناء إلى زيد حقيقة عقلية، وإسناده إلى العطاء

مجاز، فجاز جمعها، وكذلك إسناد الإفتاء إلى الله حقيقي، وإسناده إلى ما يتلى مجاز عقلي عندهم؛ لأنه سببه فيجوز جمعهما.

وقال بعض العلماء: إن قوله: ﴿وَمَا يَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ في محل جر معطوفاً على الضمير، وعليه فتقرير المعنى قل الله يفتيكم فيهن ويفتيكم فيما يتلى عليكم وهذا الوجه يضعفه أوران:

الأول: أن الغالب أن الله يفتي بما يتلى في هذا الكتاب، ولا يفتي فيه لظهور أمره. الثاني: أن العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض ضعفه غير واحد من علماء العربية، وأجازه ابن مالك مستدلاً بقراءة حمزة، والأرحام بالخفض عطفاً على الضمير من قوله: تسألون به، وبوروده في الشعر كقوله:

فاليوم قربت تهجوناً وتشتمناً
فأذهب فما بك والأيام من عجب
بجر الأيام عطفاً على الكاف، ونظيره قول الآخر:

نعلق في مثل السواري سيوفنا
وما بينها والكعب مهوى نفانف
بجر الكعب معطوفاً على الضمير قبله، وقول الآخر:

وقد رام آفاق السماء فلم يجد
له مصعداً فيها ولا الأرض مقعداً
فقوله: ولا الأرض بالجر معطوفاً على الضمير، وقول الآخر:

أمر على الكتيبة لست أدري
أحتفي كان فيها أم سواها
فسواها في محل جر بالعطف على الضمير، وأجيب عن الآية بجواز كونها قسماً، والله تعالى له أن يقسم بما شاء من خلقه، كما أقسم بمخلوقاته كلها في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقِيمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ الآية [الحاقة].

وعن الأبيات بأنها شذوذ يحفظ، ولا يقاس عليه، وصحح العلامة ابن القيم رحمته جواز العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض، وجعل منه قوله تعالى: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤] فقال: إن قوله: ﴿وَمَنِ﴾ في محل جر عطفاً على الضمير المجرور في قوله: ﴿حَسْبُكَ﴾ وتقرير المعنى عليه حسبك الله؛ أي كافيك، وكافي من اتبعك من المؤمنين، وأجاز ابن القيم والقرطبي في قوله: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ أن يكون منصوباً معطوفاً على المحل؛ لأن الكاف مخفوض في محل نصب ونظيره قول الشاعر:

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا
فحسبك والضحاك سيف مهند

بنصب الضحاك كما ذكرنا، وجعل بعض العلماء منه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَكُمْ بِرَازِقِينَ﴾ [الحجر] فقال: ومن عطف على ضمير الخطاب في قوله لكم وتقرير المعنى عليه، وجعلنا لكم ولمن لستم له برازقين فيها معاش، وكذلك إعراب وما يتلى بأنه مبتدأ خبره محذوف أو خبره في الكتاب، وإعرابه منصوباً على أنه مفعول لفعل

محذوف تقديره، ويبين لكم ما يتلى، وإعراجه مجروراً على أنه قسم، كل ذلك غير ظاهر.
وقال بعض العلماء: إن المراد بقوله: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ آيات
المواريث؛ لأنهم كانوا لا يورثون النساء فاستفتوا رسول الله ﷺ في ذلك فأنزل الله
آيات المواريث.

وعلى هذا القول فالمبين لقوله: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ هو قوله:
﴿يُؤْتِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ الآيتين. وقوله في آخر السورة: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ
فِي الْكَلَالَةِ﴾ والظاهر أن قول أم المؤمنين أصح وأظهر.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ تَقُومُوا لِلنِّسَاءِ بِالْقِسْطِ﴾. القسط العدل، ولم يبين هنا هذا
القسط الذي أمر به لليتامى، ولكنه أشار له في مواضع آخر. كقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ
الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقوله: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ
فَأَخْوَفُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، وقوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ
﴿١﴾﴾ [الضحى]، وقوله: ﴿وَمَا أَكَلَ مَالًا عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٧].
ونحو ذلك من الآيات فكل ذلك فيه القيام بالقسط لليتامى.

قوله تعالى: ﴿وَأَحْضَرْتَ الْأَنْفُسَ الشُّحَّ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن
الأنفس أحضرت؛ الشح أي: جعل شيئاً حاضراً لها كأنه ملازم لها لا يفارقها؛ لأنها
جبلت عليه. وأشار في موضع آخر: أنه لا يفلح أحد إلا إذا وقاه الله شح نفسه، وهو
قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] ومفهوم الشرط أن
من لم يوق شح نفسه لم يفلح وهو كذلك، وقيد بعض العلماء بالشح المؤدي إلى منع
الحقوق التي يلزمها الشرع، أو تقتضيها المروءة، وإذا بلغ الشح إلى ذلك، فهو بخل
وهو رذيلة. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾.

هذا العدل الذي ذكره تعالى هنا أنه لا استطاع هو العدل في المحبة، والميل
الطبيعي؛ لأنه ليس تحت قدرة البشر بخلاف العدل في الحقوق الشرعية فإنه مستطاع،
وقد أشار تعالى إلى هذا بقوله: ﴿فَإِنْ حَفِظْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰ آلَا
تَعْمَلُوا﴾ أي تجوروا في الحقوق الشرعية، والعرب تقول: عال يعول إذا جار ومال،
وهو عائل، ومنه قول أبي طالب:

بميزان قسط لا يخيس شعيرة له شاهد من نفسه غير عائل

أي: غير مائل ولا جائر، ومنه قول الآخر:

قالوا تبعنا رسول الله واطرحوا قول الرسول وعالوا في الموازين

أي: جاروا وقول الآخر:

ثلاثة أنفس وثلاث ذود لقد عال الزمان على عيالي

أي: جار ومال. أما قول أحيحة بن الجلاح الأنصاري:

وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل
وقول جرير:

الله نزل في الكتاب فريضة لابن السبيل وللفقير العائل
وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ ﴿٨١﴾.

فكل ذلك من العيلة، وهي الفقر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ [التوبة: ٢٨]. فعال التي بمعنى جار واوية العين، والتي بمعنى افتقر يائية العين. وقال الشافعي رحمه الله: معنى قوله: ﴿أَلَا تَعُولُوا﴾؛ أي يكثر عيالك من عال الرجل يعول إذا كثر عياله، وقول بعضهم: إن هذا لا يصح وإن المسموع أعال الرجل بصيغة الرباعي على وزن أفعل فهو معيل إذا كثر عياله فلا وجه له؛ لأن الشافعي من أدري الناس باللغة العربية؛ ولأن عال بمعنى كثر عياله لغة حمير، ومنه قول الشاعر:

وأن الموت يأخذ كل حي بلا شك وإن أمشي وعيالا
يعني: وإن كثرت ماشيته وعياله، وقرأ الآية طلحة بن مصرف ألا تعيلوا بضم التاء من أعال إذا كثر عياله على اللغة المشهورة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة أن الزوجين إن افترقا أغنى الله كل واحد منهما من سعته وفضله الواسع، وربط بين الأمرين بأن جعل أحدهما شرطاً والآخر جزاء. وقد ذكر أيضاً أن النكاح سبب للغنى بقوله: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٢].
قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِخَاصِرَةٍ﴾ الآية.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه إن شاء أذهب الناس الموجودين وقت نزولها، وأتى بغيرهم بدلاً منهم، وأقام الدليل على ذلك في موضع آخر، وذلك الدليل هو أنه أذهب من كان قبلهم وجاء بهم بدلاً منهم وهو قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُم مِّنْ ذُرِّيَّتِكُمْ قَوْمًا خَاسِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

وذكر في موضع آخر: أنهم إن تولوا أبدل غيرهم وأن أولئك المبدلين لا يكونون مثل المبدل منهم، بل يكونون خيراً منهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]. وذكر في موضع آخر: أن ذلك هين عليه غير صعب وهو قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ ﴿١٠١﴾ [إبراهيم] أي: ليس بممتنع ولا صعب.

قوله تعالى: ﴿أَيَبْنُوتُ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

ذكر في هذه الآية الكريمة أن جميع العزة له - جل وعلا - وبين في موضع آخر:

أن العزة التي هي له وحده أعز بها رسوله، والمؤمنين، وهو قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] أي وذلك بإعزاز الله لهم والعزة الغلبة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَزَّزْنِي فِي الْخَطَابِ﴾ [ص: ٢٣]. أي غلبني في الخصام، ومن كلام العرب من عزيز يعنون من غلب استلب ومنه قول الخنساء:

كَأَن لَّمْ يَكُونُوا حَمَى يَخْتَشَى إِذِ النَّاسُ إِذَا ذَاكَ مِنْ عَزِيزَا
قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا﴾ إلى قوله ﴿إِنَّمَا إِذَا مَثَلُهُمْ﴾. هذا المنزل الذي أحال عليه هنا هو المذكور في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨] وقوله هنا: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ لم يبين فيه حكم ما إذا نسوا النهي حتى قعدوا معهم، ولكنه بينه في الأنعام بقوله: ﴿وَلَمَّا يُنْشِئَنَّ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدَ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

في معنى هذه الآية أوجه للعلماء:

منها: أن المعنى ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ يوم القيامة ﴿سَبِيلًا﴾ وهذا مروى عن علي بن أبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهما، ويشهد له قوله في أول الآية: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ﴾. وهو ظاهر.

قال ابن عطية: وبه قال جميع أهل التأويل كما نقله عنه القرطبي وضعفه ابن العربي زاعماً أن آخر الآية غير مردود إلى أولها. ومنها أن المراد بأنه: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ يمحو به دولة المسلمين ويستأصلهم ويستبيح بيضتهم كما ثبت في صحيح مسلم وغيره عنه رضي الله عنه من حديث ثوبان أنه قال: «وإني سألت ربي ألا يهلك أمتي بسنة بعامة وألا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم وإن الله قد أعطاني لأمتي ذلك حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبى بعضهم بعضاً» ويدل لهذا الوجه آيات كثيرة كقوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١]. وقوله: ﴿وَكُلَّ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥] إلى غير ذلك من الآيات.

ومنها: أن المعنى أنه لا يجعل لهم عليهم سبيلاً إلا أن يتواصوا بالباطل ولا يتناهوا عن المنكر، ويتقاعدوا عن التوبة فيكون تسلط العدو عليهم من قبلهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

قال ابن العربي: وهذا نفيس جداً وهو راجع في المعنى إلى الأول؛ لأنهم منصورون لو أطاعوا، والبلية جاءتهم من قبل أنفسهم في الأمرين.

ومنها: أنه لا يجعل لهم عليهم سبيلاً شرعاً، فإن وجد فهو بخلاف الشرع، ومنها: أن المراد بالسبيل الحجة أي: ولن يجعل لهم عليهم حجة، ويبينه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ قَسِيْرًا﴾ [الفرقان] وأخذ بعض العلماء من هذه الآية الكريمة منع دوام ملك الكافر للعبد المسلم. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُتَاتَىٰ يَرَوْنَ النَّاسَ وَلَا يُذَكِّرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيْلًا﴾.

بين في هذه الآية الكريمة صفة صلاة المنافقين بأنهم يقومون إليها في كسل ورياء، ولا يذكرون الله فيها إلا قليلاً، ونظيرها في ذمهم على التهاون بالصلاة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَاتَىٰ﴾ [التوبة: ٥٤]، وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۚ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون]. ويفهم من مفهوم مخالفة هذه الآيات أن صلاة المؤمنين المخلصين ليست كذلك، وهذا المفهوم صرح به تعالى في آيات كثيرة كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ ١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ ٢﴾ [المؤمنون]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ ٩﴾ [المؤمنون]، وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝ ٣١ رِجَالٌ لَا لُئْلِهِمْ بَحْدَرٌ ۚ وَلَا يَبْغُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧]. إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَفِقِينَ فِي الذِّكْرِ الْاَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ الآية.

ذكر في هذه الآية الكريمة أن المنافقين في أسفل طبقات النار عياداً بالله تعالى. وذكر في موضع آخر أن آل فرعون يوم القيامة يؤمر بإدخالهم أشد العذاب، وهو قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وذكر في موضع آخر: أنه يعذب من كفر من أصحاب المائدة عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُرِّئُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ۝ ١٥﴾ [المائدة]. فهذه الآيات تبين أن أشد أهل النار عذاباً المنافقون وآل فرعون ومن كفر من أصحاب المائدة، كما قاله ابن عمر رضي الله عنهما. والدرك: بفتح الراء وإسكانها لغتان معروفتان وقراءتان سبعيتان.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعُجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ الآية.

لم يبين هنا سبب عفوهم عنهم ذنب اتخاذ العجل إلهاً ولكنه بينه في سورة البقرة بقوله: ﴿فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ الآية.

لم يبين هنا هل امثلوا هذا الأمر، فتركوا العدوان في السبت أولاً، ولكنه بين في مواضع آخر أنهم لم يمتثلوا وأنهم اعتدوا في السبت كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ [البقرة: ٦٥]. وقوله: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْفَرِيكَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرْهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بَهْتَانًا عَظِيمًا﴾.

لم يبين هنا هذا البهتان العظيم الذي قالوه على الصديقة مريم العذراء، ولكنه أشار في موضع آخر إلى أنه رميهم لها بالفاحشة، وأنها جاءت بولد لغير رشده في زعمهم الباطل لعنهم الله - وذلك في قوله: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرُؤُا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [مريم] يعنون ارتكاب الفاحشة ﴿يَتَأَخَذَ هَرُونَ مَا كُنَّ أَبْوَالُ أُمَرَأَ سَوَوْ وَمَا كَانَتْ أُمْلَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم] أي: زانية فكيف تفجرين ووالداك ليسا كذلك؟! وفي القصة أنهم رموها بيوسف النجار وكان من الصالحين، والبهتان أشد الكذب الذي يتعجب منه.

قوله تعالى: ﴿فِيُظَاهِرُ مِن الذِّينِ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِيتٌ أُحِلَّت لَهُمْ﴾.

لم يبين هنا ما هذه الطيبات التي حرمها عليهم بسبب ظلمهم ولكنه بيّنها في سورة الأنعام بقوله: ﴿وَعَلَى الذِّينِ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفَرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَةِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا إِلَّا مَا جَمَعْتَ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْخَوَاصِيَ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِغَنِيمٍ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ [الأنعام].

قوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَاسٍ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾.

لم يبين هنا ما هذه الحجة التي كانت تكون للناس عليه لو عذبهم دون إنذارهم على السنة الرسل، ولكنه بيّنها في سورة طه بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه] وأشار لها في سورة القصص بقوله: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ مَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص].

قوله تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾.

هذا الغلو الذي نهوا عنه هو وقول غير الحق، هو قول بعضهم إن عيسى ابن الله، وقول بعضهم هو الله، وقول بعضهم هو إله مع الله سبحانه وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً كما بيّنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧] وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]. وأشار هنا إلى إبطال هذه المفتريات بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾؛ وقوله: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾، وقوله: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأَمَّمُ صِدْقَةٍ كُنَّا بَآكَالَانِ الطَّاغُوتِ﴾ [المائدة: ٧٥]. وقوله: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ﴾ [المائدة: ١٧].

وقال بعض العلماء: يدخل في الغلو وغير الحق المنهي عنه في هذه الآية ما قالوا من البهتان على مريم أيضاً، واعتمده القرطبي وعليه فيكون الغلو المنهي عنه شاملاً

للتفريط والإفراط. وقد قرر العلماء أن الحق واسطة بين التفريط والإفراط وهو معنى قول مطرف بن عبد الله. الحسنة بين سيئتين، وبه تعلم أن من جانب التفريط والإفراط فقد اهتدى، ولقد أجاد من قال.

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأمور ذميم وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى، وقولوا عبد الله ورسوله».

قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾.

ليست لفظة من في هذه الآية للتبعيض، كما يزعمه النصارى افتراء على الله، ولكن من هنا لا ابتداء الغاية، يعني أن مبدأ ذلك الروح الذي ولد به عيسى حياً من الله تعالى؛ لأنه هو الذي أحياه به، ويدل على أن «من» هنا لا ابتداء الغاية.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجن: ١٣].

أي: كائناً مبدأ ذلك كله منه جل وعلا ويدل لما ذكرنا ما روي عن أبي بن كعب أنه قال: «خلق الله أرواح بني آدم لما أخذ عليهم الميثاق، ثم ردها إلى صلب آدم، وأمسك عنده روح عيسى عليه الصلاة والسلام»؛ فلما أراد خلقه أرسل ذلك الروح إلى مريم، فكان منه عيسى ﷺ، وهذه الإضافة للتفضيل؛ لأن جميع الأرواح من خلقه جل وعلا كقوله: ﴿وَطَهَّرَ بَنِي إِسْرَافِيلَ﴾ [الحج: ٢٦] وقوله: ﴿ثَاقَةُ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣]. وقيل: قد يسمى من تظهر منه الأشياء العجيبة روحاً ويضاف إلى الله، فيقال هذا روح من الله أي: من خلقه، وكان عيسى يرى الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، فاستحق هذا الاسم، وقيل: سمي روحاً بسبب نفخة جبريل ﷺ المذكورة في سورة الأنبياء والتحريم، والعرب تسمي النفخ روحاً؛ لأنه ريح تخرج من الروح، ومنه قول ذي الرمة.

فقلت له ارفعها إليك وأحيها بروحك واقتته لها قيصة قدرا

وعلى هذا القول فقوله «وروح» معطوف على الضمير العائد إلى الله الذي هو فاعل ألقاها، قاله القرطبي والله تعالى أعلم.

وقال بعض العلماء: وروح منه، أي رحمة منه، وكان عيسى رحمة من الله لمن اتبعه، قيل: ومنه وأيده بروح منه، أي برحمة منه، حكاه القرطبي أيضاً، وقيل: روح منه، أي: برهان منه وكان عيسى برهاناً وحجة على قومه. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُم نُورًا مُّبِينًا﴾.

المراد بهذا النور المبين القرآن العظيم؛ لأنه يزيل ظلمات الجهل والشك كما يزيل النور الحسي ظلمة الليل، وقد أوضح تعالى ذلك بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ونحو ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ أَثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلْثَانُ مِمَّا تَرَكَ﴾ الآية.

صرح في هذه الآية الكريمة بأن الأختين ترثان الثلثين، والمراد بهما الأختان لغير أم، بأن تكونا شقيقتين أو لأب بإجماع العلماء، ولم يبين هنا ميراث الثلاث من الأخوات فصاعداً، ولكنه أشار في موضع آخر إلى أن الأخوات لا يزدن على الثلثين، ولو بلغ عددهن ما بلغ وهو قوله تعالى في البنات: ﴿إِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ ومعلوم أن البنات أمس رحماً وأقوى سبباً في الميراث من الأخوات، فإذا كن لا يزدن على الثلثين ولو كثرن فكذلك الأخوات من باب أولى.

وأكثر علماء الأصول على أن فحوى الخطاب أعني: مفهوم الموافقة الذي المسكوت فيه أولى بالحكم من المنطوق، من قبيل دلالة اللفظ، لا من قبيل القياس، خلافاً للشافعي وقوم، وكذلك المساوي على التحقيق فقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لِّمَا أُمِرْتُ بِعَمَلٍ مِّثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ الآية [الزلزلة]. يفهم منه من باب أولى أن من عمل مثقال جبل يراه من خير وشر وقوله: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ الآية [الطلاق: ٢] يفهم منه من باب أولى قبول شهادة الثلاثة والأربعة مثلاً من العدول، ونهيه ﷺ عن التضحية بالعوراء، يفهم منه من باب أولى النهي عن التضحية بالعمياء، وكذلك في المساوي، فتحريم أكل مال اليتيم يفهم منه بالمساواة منع إحراقه وإغراقه، ونهيه ﷺ عن البول في الماء الراكد، يفهم منه كذلك أيضاً النهي عن البول في إناء وصبه فيه، وقوله ﷺ: «من أعتق شركاً له في عبد» الحديث. يفهم منه كذلك أن الأمة كذلك، ولا نزاع في هذا عند جماهير العلماء وإنما خالف فيه بعض الظاهرية.

ومعلوم أن خلافهم في مثل هذا لا أثر له، وبذلك تعلم أنه تعالى لما صرح بأن البنات وإن كثرن ليس لهن غير الثلثين، علم أن الأخوات كذلك من باب أولى. والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة المائدة

قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾. لم يبين هنا ما هذا الذي يتلى عليهم المستثنى من حلية بهيمة الأنعام؛ ولكنه بيّنه بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمَ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ﴾، إلى قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾. فالمذكورات في هذه الآية الكريمة كالموقوذة والمتردية، وإن كانت من الأنعام؛ فإنها تحرم بهذه العوارض. والتحقيق أن الأنعام هي الأزواج الثمانية، كما قدمنا في سورة آل عمران، وقد

استدل ابن عمر، وابن عباس، وغير واحد من العلماء بهذه الآية على إباحة أكل الجنين إذا ذكيت أمه ووجد في بطنها ميتاً. وجاء عن النبي ﷺ «أن ذكاة أمه ذكاة له» كما أخرجه أبو داوود، والترمذي، وابن ماجه من حديث أبي سعيد. وقال الترمذي: إنه حسن، وزواه أبو داوود عن جابر عن النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾. يعني إن شئتم، فلا يدل هذا الأمر على إيجاب الاصطياد عند الإحلال، ويدل عليه الاستقراء في القرآن، فإن كل شيء كان جائزاً، ثم حرم لموجب، ثم أمر به بعد زوال ذلك الموجب، فإن ذلك الأمر كله في القرآن للجواز، نحو قوله هنا: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ وقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقوله: ﴿فَاقْتُلْ بَشِرْهُمْ﴾ الآية [البقرة: ١٨٧]، وقوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْتَ فَأَتَوْهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

ولا ينقض هذا بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾... الآية [التوبة: ٥]؛ لأن قتلهم كان واجباً قبل تحريمه العارض بسبب الأشهر الأربعة، سواء قلنا: إنها أشهر الإمهال المذكورة في قوله: ﴿فَيَسْجُحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢] أو قلنا: إنها الأشهر الحرم المذكورة في قوله تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦]. وبهذا تعلم أن التحقيق الذي دل عليه الاستقراء التام في القرآن أن الأمر بالشيء بعد تحريمه يدل على رجوعه إلى ما كان عليه قبل التحريم من إباحة أو وجوب، فالصيد قبل الإحرام كان جائزاً؛ فمنع للإحرام، ثم أمر به بعد الإحلال بقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ فيرجع لما كان عليه قبل التحريم، وهو الجواز، وقتل المشركين كان واجباً قبل دخول الأشهر الحرم، فمنع من أجلها، ثم أمر به بعد انسلاخها في قوله: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ [التوبة: ٥]، فيرجع لما كان عليه قبل التحريم، وهو الواجب. وهذا هو الحق في هذه المسألة الأصولية.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: وهذا أمر بعيد الحظر، والصحيح الذي يثبت على السير أنه يرد الحكم إلى ما كان عليه قبل النهي، فإن كان واجباً رده واجباً، وإن كان مستحباً فمستحب، أو مباحاً فمباح. ومن قال: إنه للوجوب؛ ينتقض عليه بآيات كثيرة، ومن قال: إنه للإباحة؛ يرد عليه بآيات أخرى، والذي ينتظم الأدلة كلها هذا الذي ذكرناه كما اختاره بعض علماء الأصول، والله أعلم. انتهى منه بلفظه.

وقد تقرر في الأصول أن الاستقراء التام حجة بلا خلاف، وغير التام المعروف، بـ «إلحاق الفرد بالأغلب» حجة ظنية، كما عقده في (مراقي السعود) في كتاب الاستدلال بقوله:

ومنه الاستقراء بالجزئي	على ثبوت الحكم للكلي
فإن يعم غير ذي الشقاق	فهو حجة بالاتفاق
وهو في البعض إلى الظن انتسب	يسمى لحوق الفرد بالذي غلب

فإذا عرفت ذلك، وعرفت أن الاستقراء التام في القرآن دل على ما اخترنا، واختاره ابن كثير، وهو قول الزركشي من أن الأمر بعد الحظر يدل على رجوع الحكم إلى ما كان عليه قبل التحريم، عرفت أن ذلك هو الحق. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ الآية.

نهى الله المسلمين في هذه الآية الكريمة أن يحملهم بغض الكفار؛ لأجل أن صدوهم عن المسجد الحرام في عمرة الحديبية أن يعتدوا على المشركين بما لا يحل لهم شرعاً.

كما روى ابن أبي حاتم في سبب نزول هذه الآية عن زيد بن أسلم، قال: «كان رسول الله ﷺ وأصحابه بالحديبية حين صدّهم المشركون عن البيت، وقد اشتد ذلك عليهم، فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة، فقال أصحاب النبي ﷺ: نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم، فأنزل الله هذه الآية». اهـ بلفظه من ابن كثير.

ويدل لهذا قوله قبل هذا: ﴿وَلَا ءَآيِينَ ءَلَيْتَ الْحَرَامَ﴾، وصرح بمثل هذه الآية في قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْتَدُوا﴾ الآية، وقد ذكر تعالى في هذه الآية أنهم صدوهم عن المسجد الحرام بالفعل على قراءة الجمهور ﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾ بفتح الهمزة؛ لأن معناها: لأجل أن صدوكم، ولم يبين هنا حكمة هذا الصد، ولم يذكر أنهم صدوا معهم الهدى معكوفاً أن يبلغ محله، وذكر في سورة الفتح أنهم صدوا معهم الهدى، وأن الحكمة في ذلك المحافظة على المؤمنين والمؤمنات، الذين لم يتميزوا عن الكفار في ذلك الوقت، بقوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدَىٰ مَعَكُوفًا أَن يَبْلُغَ حِمْلَهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّارْتَدُّوا عَنْكُمْ فَكُنْتُمْ لَكُفْرًا وَلَكِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الفتح]؛ وفي هذه الآية دليل صريح على أن الإنسان عليه أن يعامل من عصى الله فيه، بأن يطيع الله فيه.

وفي الحديث: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك».

وهذا دليل واضح على كمال دين الإسلام، وحسن ما يدعو إليه من مكارم الأخلاق، مبين أنه دين سماوي لا شك فيه.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ معناه: لا يحملنكم شَنَاٰنُ قوم على أن تعتدوا، ونظيره من كلام العرب قول الشاعر:

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

أي حملتهم على أن يغضبوا.

وقال بعض العلماء: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي: لا يكسبنكم، وعليه فلا تقدير لحرف الجر في قوله: ﴿أَن تَعْتَدُوا﴾؛ أي لا يكسبنكم بغضهم الاعتداء عليهم.

وقرأ بعض السبعة «شَتَان» بسكون النون؛ ومعنى الشَتَان على القراءتين - أي بفتح النون، ونسكونها -: البغض. مصدر «شَنَاه» إذا أبغضه.

وقيل: على قراءة سكون النون يكون وصفاً كالغَضْبَان، وعلى قراءة «إِنْ صَدُّوكُمْ» بكسر الهمزة؛ فالمعنى: إن وقع منهم صدمهم لكم عن المسجد الحرام، فلا يحملنكم ذلك على أن تعتدوا عليهم بما لا يحل لكم.

وإبطال هذه القراءة بأن الآية نزلت بعد صد المشركين النبي ﷺ وأصحابه بالحديبية، وأنه لا وجه لاشتراط الصد بعد وقوعه - مردود من وجهين:

الأول منهما: أن قراءة «أَنْ صَدُّوكُمْ» بصيغة الشرط قراءة سبعية متواترة لا يمكن زدها، وبها قرأ ابن كثير، وأبو عمرو من السبعة.

الثاني: أنه لا مانع من أن يكون معنى هذه القراءة: إن صدوكم مرة أخرى على سبيل الفرض، والتقدير كما تدل عليه صيغة «إِنْ»؛ لأنها تدل على الشك في حصول الشرط، فلا يحملنكم تكرار الفعل السيء على الاعتداء عليهم بما لا يحل لكم. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

ظاهر هذه الآية الكريمة أن المرتد يحبط جميع عمله برده من غير شرط زائد، ولكنه أشار في موضع آخر إلى أن ذلك فيما إذا مات على الكفر، وهو قوله: ﴿وَمَنْ يَزِيدْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧].

ومقتضى الأصول حمل هذا المطلق على هذا المقيد، فيقيد إحباط العمل بالموت على الكفر، وهو قول الشافعي ومن وافقه، خلافاً لمالك القائل بإحباط الردة العمل مطلقاً. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾.

في قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ ثلاث قراءات: واحدة شاذة، واثنان متواترتان.

أما الشاذة: فقراءة الرفع، وهي قراءة الحسن. وأما المتواترتان: فقراءة النصب، وقراءة الخفض.

أما النصب: فهو قراءة نافع، وابن عامر، والكسائي، وعاصم في رواية حفص من السبعة، ويعقوب من الثلاثة.

وأما الجر: فهو قراءة ابن كثير، وحمزة، وأبي عمرو، وعاصم في رواية أبي بكر. أما قراءة النصب: فلا إشكال فيها؛ لأن الأرجل فيها معطوفة على الوجوه، وتقدير المعنى عليها: فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، وأرجلكم إلى الكعبين وامسحوا برؤوسكم.

وإنما أدخل مسح الرأس بين المغسولات محافظة على الترتيب؛ لأن الرأس يمسح بين المغسولات، ومن هنا أخذ جماعة من العلماء وجوب الترتيب في أعضاء الوضوء حسبما ذكر في الآية الكريمة.

وأما على قراءة الجر: ففي الآية الكريمة إجمال، وهو أنها يفهم منها الاكتفاء بمسح الرجلين في الوضوء عن الغسل كالرأس، وهو خلاف الواقع للأحاديث الصحيحة الصريحة في وجوب غسل الرجلين في الوضوء والتوعد بالنار لمن ترك ذلك، كقوله ﷺ: «ويل للأعقاب من النار».

اعلم أولاً أن القراءتين إذا ظهر تعارضهما في آية واحدة لهما حكم الآيتين، كما هو معروف عند العلماء، وإذا علمت ذلك فاعلم أن قراءة «وَأَرْجُلَكُمْ» بالنصب صريح في وجوب غسل الرجلين في الوضوء، فهي تُفهم أن قراءة الخفض إنما هي لمجاورة المخفوض مع أنها في الأصل منصوبة بدليل قراءة النصب، والعرب تخفض الكلمة لمجاورتها للمخفوض، مع أن إعرابها النصب، والرفع.

وما ذكره بعضهم من أن الخفض بالمجاورة معدود من اللحن الذي يتحمل لضرورة الشعر خاصة، وأنه غير مسموع في العطف، وأنه لم يجز إلا عند أمن اللبس، فهو مردود بأن أئمة اللغة العربية صرحوا بجوازه. وممن صرح به الأخفش، وأبو البقاء، وغير واحد. ولم ينكره إلا الزجاج، وإنكاره له - مع ثبوته في كلام العرب، وفي القرآن العظيم - يدل على أنه لم يتبع المسألة تتبعاً كافياً.

والتحقيق: أن الخفض بالمجاورة أسلوب من أساليب اللغة العربية، وأنه جاء في القرآن لأنه بلسان عربي مبين.

فمنه في النعت، قول امرئ القيس:

كأن ثبيراً في عرانيين ودقه كبير أناس في بجاد مزمل

بخفض «مزمل» بالمجاورة، مع أنه نعت «كبير» المرفوع بأنه خبر «كأن».

وقول ذي الرمة:

تريك سنة وجه غير مقرفة ملساء ليس بها خال ولا ندب

إذ الرواية بخفض «غير»، كما قاله غير واحد للمجاورة، مع أنه نعت «سنة» المنصوب بالمفعولية.

ومنه في العطف قول النابغة:

لم يبق إلا أسير غير منفلت وموثق في حبال القد مجنوب

بخفض «موثق» لمجاورته المخفوض، مع أنه معطوف على «أسير» المرفوع بالفاعلية.

وقول امرئ القيس:

وظل طهارة اللحم ما بين منضج صفيف شواء أو قدير معجل
بجر «قدير» لمجاورته للمخفوض، مع أنه عطف على «صفيف» المنصوب بأنه
مفعول اسم الفاعل الذي هو «منضج»، والصفيف: فعيل بمعنى مفعول وهو المصفوف
من اللحم على الجمر لينشوي، والقدير: كذلك فعيل بمعنى مفعول، وهو المجعول في
القدر من اللحم لينضج بالطبخ.

وهذا الإعراب الذي ذكرناه هو الحق؛ لأن الإنضاج واقع على كل من الصفيف
والقدير، فما زعمه «الصبان» في حاشيته على «الأشموني» من أن قوله «أو قدير»
معطوف على «منضج» بتقدير المضاف، أي وطابخ قدير... إلخ ظاهر السقوط؛ لأن:
المنضج شامل لشاوي الصفيف، وطابخ القدير. فلا حاجة إلى عطف الطابخ على
المنضج لشموله له، ولا داعي لتقدير «طابخ» محذوف.

وما ذكره العيني من أنه معطوف على «شواء»، فهو ظاهر السقوط أيضاً؛ وقد رده
عليه «الصبان»؛ لأن المعنى يصير بذلك: و صفيف قدير، والقدير لا يكون صفيفاً.
والتحقيق: هو ما ذكرنا من الخفض بالمجاورة، وبه جزم ابن قدامة في المغني.
ومن الخفض بالمجاورة في العطف قول زهير:

لعب الزمان بها وغيرها بعدي سوافي المور والقطر
بجرّ «القطر» لمجاورته للمخفوض مع أنه معطوف على «سوافي» المرفوع، بأنه
فاعل غير.

ومنه في التوكيد قول الشاعر:

يا صاح بلغ ذوي الزوجات كلهم أن ليس وصل إذا انحلت عرى الذنب
بجرّ «كلهم» على ما حكاه الفراء لمجاورة المخفوض، مع أنه توكيد «ذوي»
المنصوب بالمفعولية.

ومن أمثله في القرآن العظيم في العطف - كالأبي التي نحن بصدددها - قوله
تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۖ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكُونِ ۖ﴾ [الواقعة]، على قراءة حمزة،
والكسائي.

ورواية المفضل عن عاصم بالجر لمجاورته لأكياب وأباريق، إلى قوله: ﴿وَلَمَّزَ
طَبِيرٌ مِمَّا يَشْتَبُونَ ۖ﴾ [الواقعة] مع أن قوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۖ﴾ [الواقعة] حكمه الرفع؛
فقليل: إنه معطوف على فاعل «يطوف» الذي هو ﴿وَلَدَانِ مُخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧].

وقيل: هو مرفوع على أنه مبتدأ خبره محذوف دل المقام عليه. أي: وفيها حور
عين، أو لهم حور عين.

وإذن فهو من العطف بحسب المعنى.

وقد أنشد سيويه للعطف على المعنى قول الشماخ، أو ذي الرمة:

بادت وغير آيهن مع البلا .. إلا رواكد جمرهن هيباء
ومشجج أما سواء قذاله .. فبدا وغيب ساره المعزاء

لأن الرواية بنصب «رواكد» على الاستثناء، ورفع مشجج عطفاً عليه؛ لأن المعنى لم يبق منها إلا رواكد ومشجج؛ ومراده بالرواكد أثافي القدر، وبالمشجج وتد الخباء، وبه تعلم أن وجه الخفض في قراءة حمزة والكسائي هو المجاورة للمخفوض، كما ذكرنا خلافاً لمن قال في قراءة الجر: إن العطف على أكواب، أي: يطاف عليهم بأكواب وبحور عين. ولمن قال: إنه مغطوف على جنات النعيم، أي: هم في جنات النعيم، وفي حور على تقدير حذف مضاف، أي: في معاشرة حور.

ولا يخفى ما في هذين الوجهين:

لأن الأول يرد بأن الحور العين لا يطاف بهن مع الشراب؛ لقوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْبُيُوتِ﴾ [الرحمن].

والثاني فيه أن كونهم في جنات النعيم، وفي حور ظاهر السقوط كما ترى، وتقدير ما لا دليل عليه لا وجه له.

وأجيب عن الأول بجوابين:

الأول: أن العطف فيه بحسب المعنى؛ لأن المعنى: يتنعمون بأكواب وفاكهة ولحم وحور. قاله الزجاج وغيره.

الجواب الثاني: أن الحور قسمان: ١ - حور مقصورات في الخيام، ٢ - حور يطاف بهن عليهم. قاله الفخر الرازي وغيره، وهو تقسيم لا دليل عليه، ولا يعرف من صفات الحور العين كونهن يطاف بهن كالشراب، فأظهرها الخفض بالمجاورة، كما ذكرنا.

وكلام الفراء وقطرب، يدل عليه، وما رد به القول بالعطف على أكواب من كون الحور لا يطاف بهن يرد به القول بالعطف على ﴿وَلَدَنٌ مُّطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ١٧]، في قراءة الرفع؛ لأنه يقتضي أن الحور يظفن عليهم كالولدان، والقصر في الخيام ينافي ذلك.

وممن جزم بأن خفض ﴿وَأَرْجُلُكُمْ﴾ لمجاورة المخفوض البيهقي في «السنن الكبرى»، فإنه قال ما نصه: باب قراءة من قرأ «وَأَرْجُلُكُمْ» نصباً، وأن الأمر رجع إلى الغسل وأن من قرأها خفضاً، فإنما هو للمجاورة. ثم ساق أسانيده إلى ابن عباس، وعلي، وعبد الله بن مسعود، وعروة بن الزبير، ومجاهد، وعطاء، والأعرج، وعبد الله بن عمرو بن غيلان، وناقع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم القارئ، وأبي محمد يعقوب بن إسحاق بن يزيد الحضرمي أنهم قرؤوها كلهم: ﴿وَأَرْجُلُكُمْ﴾ بالنصب.

قال: وبلغني عن إبراهيم بن يزيد التيمي أنه كان يقرؤها نصباً، وعن عبد الله بن عامر اليحصبي، وعن عاصم برواية حفص، وعن أبي بكر بن عياش من رواية الأعشى، وعن الكسائي، كل هؤلاء نصبوها.

ومن خفضها فإنما هو للمجاورة، قال الأعمش: كانوا يقرؤونها بالخفض، وكانوا يغسلون. اهـ كلام البيهقي.

ومن أمثلة الخفض بالمجاورة في القرآن في النعت قوله تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمِ تُحِيطُ﴾ [هود: ٨٤] بخفض محيط مع أنه نعت للعذاب. وقوله تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٦]، ومما يدل أن النعت للعذاب، وقد خفض للمجاورة، كثرة ورود الألف في القرآن نعتاً للعذاب. وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج] على قراءة من قرأ بخفض «محفوظ» كما قاله القرطبي. ومن كلام العرب «هذا جحر ضب خرب» بخفض خرب لمجاورة المخفوض مع أنه نعت خبر المبتدأ، وبهذا تعلم أن دعوى كون الخفض بالمجاورة لحناً لا يتحمل إلا لضرورة الشعر باطلة، والجواب عما ذكره من أنه لا يجوز إلا عند أمن اللبس هو أن اللبس هنا يزيله التحديد بالكعيبين، إذ لم يرد تحديد الممسوح، وتزيله قراءة النصب، كما ذكرنا. فإن قيل: قراءة الجحر الدالة على مسح الرجلين في الوضوء هي المبينة لقراءة النصب بأن تجعل قراءة النصب عطفاً على المحل؛ لأن الرؤوس مجرورة بالباء في محل نصب على حد قول ابن مالك في الخلاصة:

وجر ما يتبع ما جر ومن راعى في الاتباع المحل فحسن

وابن مالك وإن كان أورد هذا في «إعمال المصدر» فحكمه عام، أي: وكذلك الفعل والوصف كما أشار له في الوصف بقوله:

واجرر أو انصب تابع الذي انخفض كمبتغي جاء ومالاً من نهض

فالجواب: أن بيان قراءة النصب بقراءة الجر - كما ذكر - تأباه السنة الصريحة الصحيحة الناطقة بخلافه، وبتوعد مرتكبه بالويل من النار، بخلاف بيان قراءة الخفض بقراءة النصب، فهو موافق لسنة رسول الله ﷺ الثابتة عنه قولاً وفعلاً.

فقد أخرج الشيخان في صحيحيهما، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: تخلف عنا رسول الله ﷺ في سفرة سافرنها فأدركنا، وقد أرهقتنا الصلاة؛ صلاة العصر، ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فننادى بأعلى صوته: «أسبغوا الوضوء، ويل للأعقاب من النار» وكذلك هو في الصحيحين، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «أسبغوا الوضوء، ويل للأعقاب من النار»، وروى البيهقي والحاكم بإسناد صحيح عن عبد الله بن حارث بن جزء، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ويل للأعقاب، وبطون الأقدام من النار».

وروى الإمام أحمد، وابن ماجه، وابن جرير، عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ويل للأعقاب من النار».

وروى الإمام أحمد عن معقيب، أن النبي ﷺ قال: «ويل للأعقاب من النار». وروى ابن جرير عن أبي أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ويل للأعقاب من النار»، قال: فما بقي في المسجد شريف ولا وضع إلا نظرت إليه يقلب عرقوبه ينظر إليهما. وثبت في أحاديث الوضوء عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وعلي، وابن عباس، ومعاوية، وعبد الله بن زيد بن عاصم، والمقداد بن معد يكره: «أن رسول الله ﷺ غسل الرجلين في وضوئه، إما مرة أو مرتين أو ثلاثاً» على اختلاف رواياتهم. وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ توضأ فغسل قدميه. ثم قال: «هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به».

والأحاديث في الباب كثيرة جداً، وهي صحيحة صريحة في وجوب غسل الرجلين في الوضوء، وعدم الاجتزاء بمسحهما.

قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ الآية.

اعلم أن لفظة «من» في هذه الآية الكريمة محتملة لأن تكون للتبعيض، فيتعين في التيمم التراب الذي له غبار يعلق باليد؛ ويحتمل أن تكون لابتداء الغاية؛ أي مبدأ ذلك المسح كائن من الصعيد الطيب، فلا يتعين ما له غبار. وبالأول قال الشافعي، وأحمد، وبالثاني قال مالك، وأبو حنيفة رحمهم الله تعالى جميعاً.

فإذا علمت ذلك، فاعلم أن في هذه الآية الكريمة إشارة إلى هذا القول الأخير، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ فقلوه: ﴿مَنْ حَرَجٌ﴾ نكرة في سياق النفي زيدت قبلها «من»، والنكرة إذا كانت كذلك، فهي نص في العموم، كما تقرر في الأصول، قال في (مراقي السعود) عاطفاً على صيغ العموم:

وفي سياق المنفي مثلاً يذكر إذا بنى أو زيد من منكر

فالآية تدل على عموم النفي في كل أنواع الحرج، والمناسب لذلك كون «من» لابتداء الغاية؛ لأن كثيراً من البلاد ليس فيه إلا الرمال أو الجبال، فالتكليف بخصوص ما فيه غبار يعلق باليد، لا يخلو من حرج في الجملة.

ويؤيد هذا ما أخرجه الشيخان في صحيحيهما من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، نصرت بالزعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل» وفي لفظ: «فعنده مسجده وطهوره»... الحديث.

فهذا نص صحيح صريح في أن من أدركته الصلاة في محل ليس فيه إلا الجبال أو الرمال أن ذلك الصعيد الطيب الذي هو الحجارة، أو الرمل طهور له ومسجد.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ أَوْ لَا وَاعُوا أَوْ بَاسٍ أَوْ غَيْرُ الْمُبِينِ﴾ الآية.

لم يبين هنا شيئاً من ذلك الكثير الذي بينه لهم الرسول ﷺ مما كانوا يخفون من الكتاب، يعني التوراة والإنجيل، وبين كثيراً منه في مواضع آخر.

فمما كانوا يخفون من أحكام التوراة رجم الزاني المحصن، وبينه القرآن في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ فَوِيقَٰهُمْ مِنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران].

يعني يدعون إلى التوراة ليحكم بينهم في حد الزاني المحصن بالرجم، وهم معرضون عن ذلك منكرون له. ومن ذلك. ما أخفوه من صفات الرسول ﷺ في كتابهم، وإنكارهم أنهم يعرفون أنه هو الرسول، كما بينه تعالى بقوله: ﴿وَكَاذِبُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْهِمُوا عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَمِنَٰهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

ومن ذلك إنكارهم أن الله حرم عليهم بعض الطيبات بسبب ظلمهم ومعاصيهم، كما قال تعالى: ﴿فَيُظَاهِرُ مِنَّ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِيعَتِ اجَلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]، وقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَرَسِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَعْضِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام].

فإنهم أنكروا هذا، وقالوا لم يحرم علينا إلا ما كان محرماً على إسرائيل، فكذبهم القرآن في ذلك في قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [آل عمران].

ومن ذلك كتم النصارى بشارة عيسى ابن مريم لهم بمحمد ﷺ، وقد بينها تعالى بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُنِيرًا بِلِسَانِي مِّنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَجْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات المبينة لما أخفوه من كتبهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ الآية. قال جمهور العلماء: إنها بنا آدم لصلبه، وهما هابيل، وقايل.

وقال الحسن البصري رحمه الله: هما رجلان من بني إسرائيل، ولكن القرآن يشهد لقول الجماعة، ويدل على عدم صحة قول الحسن، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَثُ سَوَاءَ أَحْيَاهُ﴾، ولا يخفى على أحد أنه ليس في بني إسرائيل رجل يجهل الدفن حتى يدل عليه الغراب، فقصة الاقتداء بالغراب في الدفن، ومعرفة منه تدل على أن الواقعة وقعت في أول الأمر قبل أن يتمرن الناس على دفن الموتى، كما هو واضح، ونبه عليه غير واحد من العلماء. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿مَنْ أَجَلٌ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾.

صرح في هذه الآية الكريمة أنه كتب على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً، ولم يتعرض هنا لحكم من قتل نفساً بنفس،

أو بفساد في الأرض، ولكنه بين ذلك في مواضع أخرى، فبين أن قتل النفس بالنفس جائز، في قوله: ﴿وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ يَنْفُسَ بِالنَّفْسِ﴾، وفي قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وقوله: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

واعلم أن آيات القصاص في النفس فيها إجمال بينته السنة، وحاصل تحرير المقام فيها أن الذَّكَرَ الحرَّ المسلم يقتل بالذكر الحرَّ المسلم إجماعاً، وأن المرأة كذلك تقتل بالمرأة كذلك إجماعاً. وأن العبد يقتل كذلك بالعبد إجماعاً، وإنما لم نعتبر قول عطاء باشتراط تساوي قيمة العبدین، وهو رواية عن أحمد، ولا قول ابن عباس: ليس بين العبيد قصاص؛ لأنهم أموال، لأن ذلك كله يردّه صريح قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وأن المرأة تقتل بالرجل؛ لأنها إذا قتلت بالمرأة فقتلها بالرجل أولى، وأن الرجل يقتل بالمرأة عند جمهور العلماء فيهما.

وللعلماء في المسألة أقوال يرجع من أراد الوقوف عليها إلى الأصل.

قوله تعالى ﴿أَنْتُمْ مَنْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾. فاعلم أن مفهوم قوله: ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾، هو المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾.

قال ابن كثير في تفسيره: المحاربة هي المخالفة والمضادة، وهي صادقة على الكفر، وعلى قطع الطريق، وإخافة السبيل، وكذا الإفساد في الأرض، يطلق على أنواع من الشر، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُوتِلَ فِي الْأَرْضِ يُفْسِدُ فِيهَا وَيُهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

فإذا علمت ذلك فاعلم أن المحارب الذي يقطع الطريق، ويخيف السبيل، ذكر الله أن جزاءه واحدة من أربع خلال هي: أن يقتلوا، أو يصلبوا، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفوا من الأرض. وظاهر هذه الآية الكريمة: أن الإمام مخير فيها، يفعل ما شاء منها بالمحارب، كما هو مدلول، أو لأنها تدل على التخيير.

ونظيره في القرآن قوله تعالى: ﴿فَقَدِيَّةٌ مِمَّنْ صَبَّأُ أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ سُكْنٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقوله تعالى: ﴿فَكَفَّرْنَاهُ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرِ رَقَبَةٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّرَ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾.

واعلم أن الصَّلب المذكور في قوله ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾، اختلف فيه العلماء. فقيل: يصلب حياً، ويمنع من الشراب، والطعام، حتى يموت، وقيل: يصلب حياً، ثم يقتل برمح، ونحوه، مصلوباً، وقيل: يقتل أولاً، ثم يصلب بعد القتل، وقيل: ينزل بعد ثلاثة أيام، وقيل: يترك حتى يسيل صديده. والظاهر أنه يصلب بعد القتل زمناً يحصل فيه اشتهاً لذلك؛ لأن صلبه ردع لغيره.

وكذلك قوله: ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾، اختلف العلماء في المراد بالنفي فيه أيضاً، فقال بعضهم: معناه أن يُطلبوا حتى يقدر عليهم، فيقام عليهم الحد، أو يهربوا من دار الإسلام، وهذا القول رواه ابن جرير، عن ابن عباس، وأنس بن مالك، وسعيد بن جبير، والضحاك، والربيع بن أنس، والزهري، والليث بن سعد، ومالك بن أنس.

وقال آخرون: هو أن ينفوا من بلدهم إلى بلد آخر، أو يخرجهم السلطان، أو نائبه، من عمالته بالكلية، وقال عطاء الخراساني، وسعيد بن جبير، وأبو الشعثاء، والحسن، والزهري، والضحاك، ومقاتل بن حيان: إنهم ينفون، ولا يخرجون من أرض الإسلام.

وذهب جماعة إلى أن المراد بالنفي في الآية السجن؛ لأنه نفي من سعة الدنيا إلى ضيق السجن، فصار المسجون كأنه منفي من الأرض، إلا من موضع استقراره، واحتجوا بقول بعض المسجونين في ذلك:

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها فلسنا من الأموات فيها ولا الأحياء
إذا جاءنا السجن يوماً لحاجة عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا
وهذا قول أبي حنيفة وأصحابه، ولا يخفى عدم ظهوره.

واختار ابن جرير، أن المراد بالنفي في هذه الآية، أن يخرج من بلده إلى بلد آخر، فيسجن فيه، وروي نحوه عن مالك أيضاً، وله اتجاه؛ لأن التغريب عن الأوطان نوع من العقوبة، كما يفعل بالزاني البكر، وهذا أقرب الأقوال، لظاهر الآية؛ لأنه من المعلوم أنه لا يراد نفيهم من جميع الأرض إلى السماء، فعلم أن المراد بالأرض أوطانهم التي تشق عليهم مفارقتها. والله تعالى أعلم.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا﴾، فأمر بإقامة الحدود على المحارب إذا جمع بين شيئين، وهما: المحاربة، والسعي في الأرض بالفساد. ولم يخص شريفاً من وضع، ولا رفيعاً من دنياه. اهـ من القرطبي.

قال مقيده - عفا الله عنه -: ومما يدل على عدم اعتبار المكافأة في قتل الحزابة، إجماع العلماء على أن عفو ولي المقتول في الحزابة لغو لا أثر له، وعلى الحاكم قتل المحارب القاتل. فهو دليل على أنها ليست مسألة قصاص خالص، بل هناك تغليظ زائد من جهة المحاربة.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾.

اعلم أن جمهور العلماء على أن المراد بالوسيلة هنا هو القربة إلى الله تعالى بامتنال أوامره، واجتناب نواهيه على وفق ما جاء به محمد ﷺ بإخلاص في ذلك لله تعالى؛ لأن هذا وحده هو الطريق الموصلة إلى رضى الله تعالى، ونيل ما عنده من خير الدنيا والآخرة.

وأصل الوسيلة الطريق التي تقرب إلى الشيء، وتوصل إليه وهي العمل الصالح بإجماع العلماء؛ لأنه لا وسيلة إلى الله تعالى إلا باتباع رسوله ﷺ، وعلى هذا فالآيات المبينة للمراد من الوسيلة كثيرة جداً كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكُمْ إِلَّا رِجَالًا مِّنْكُمْ عَلَيْهِمْ سُلُوكُ سَبِيلٍ﴾ [الحشر: ٧]، وكقوله: ﴿قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: ٣١]، وقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بالوسيلة الحاجة، ولما سأله نافع الأزرق هل تعرف العرب ذلك؟ أنشد له بيت عترة:

إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلي وتخصبي

قال: يعني لهم إليك حاجة، وعلى هذا القول الذي روي عن ابن عباس، فالمعنى: ﴿وَاتَّبِعُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾، واطلبوا حاجتكم من الله؛ لأنه وحده هو الذي يقدر على إعطائها. ومما يبين معنى هذا الوجه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَاتَّبِعُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقوله: ﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾، وفي الحديث: «إذا سألت فاسأل الله».

قال مقيده - عفا الله عنه -: التحقيق في معنى الوسيلة هو ما ذهب إليه عامة العلماء من أنها التقرب إلى الله تعالى بالإخلاص له في العبادة، على وفق ما جاء به الرسول ﷺ وتفسير ابن عباس داخل في هذا؛ لأن دعاء الله والابتهال إليه في طلب الحوائج من أعظم أنواع عبادته التي هي الوسيلة إلى نيل رضاه ورحمته.

وبهذا التحقيق تعلم أن ما يزعمه كثير من ملاحدة أتباع الجاهل المدعين للتصوف من أن المراد بالوسيلة في الآية الشيخ الذي يكون له واسطة بينه وبين ربه، أنه تخطئ في الجهل والعمى وضلال مبين وتلاعب بكتاب الله تعالى. واتخاذ الوسائط من دون الله من أصول كفر الكفار، كما صرح به تعالى في قوله عنهم: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَمْلِكُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَقَبْلَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الطريق الموصلة إلى رضى الله وحبته ورحمته هي اتباع رسوله ﷺ، ومن حاد عن ذلك فقد ضل سواء السبيل ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ ... الآية [النساء: ١٢٣].

والظاهر أن الوسيلة في بيت عترة معناها التقرب أيضاً إلى المحبوب؛ لأنه وسيلة لنيل المقصود منه، ولذا أنشد بيت عترة المذكور ابن جرير، والقرطبي وغيرهما لهذا المعنى الذي ذكرنا. وجمع الوسيلة: الوسائل، ومنه قول الشاعر:

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا وعاد التصافي بيننا والوسائل

وهذا الذي فسرنا به الوسيلة هنا هو معناها أيضاً في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ

يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ؟... الآية [الإسراء: ٥٧]، وليس المراد بالوسيلة أيضاً المنزل التي في الجنة التي أمرنا ﷺ أن نسأل له الله أن يعطيه إياها، نرجو الله أن يعطيه إياها؛ لأنها لا تنبغي إلا لعبد، وهو يرجو أن يكون هو.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ أُوتِيئَتْنَا هَٰذَا فَاخْذُوهُ وَإِن لَّمْ تَأْتِنَا بِهِ فَاعْتَدُوا لَهُ﴾. في هذه الآية الكريمة إجمال؛ لأن المشار إليه بقوله هذا، ومفسر الضمير في قوله: ﴿فَاخْذُوهُ﴾، وقوله: ﴿لَمْ تَأْتِنَا بِهِ﴾ لم يصرح به في الآية، ولكن الله أشار له هنا، وذكره في موضع آخر.

اعلم أولاً: أن هذه الآية نزلت في اليهودي واليهودي اللذين زنيا بعد الإحصان، وكان اليهود قد بدلوا حكم الرجم في التوراة، فتعمدوا تحريف كتاب الله، واصطلحوا فيما بينهم على أن الزاني المحصن - الذي يعلمون حده في كتاب الله التوراة: الرجم - أنهم يجلدونه ويفضحونه بتسويد الوجه والإركاب على حمار. فلما زنى المذكوران قالوا فيما بينهم: تعالوا نتحاكم إلى محمد ﷺ في شأن حدهما، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه ذلك واجعلوه حجة بينكم وبين الله تعالى ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم فيهما بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه، فإذا عرفت ذلك فاعلم أن المراد بقوله: ﴿هَٰذَا﴾، وقوله: ﴿فَاخْذُوهُ﴾، وقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَأْتِنَا بِهِ﴾ هو الحكم المحرف الذي هو الجلد والتحميم كما بينا، وأشار إلى ذلك هنا بقوله: ﴿يُحَرِّقُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾. يَقُولُونَ إِنَّ أُوتِيئَتْنَا هَٰذَا؛ يعني المحرف والمبدل الذي هو الجلد والتحميم فخذوه ﴿وَإِن لَّمْ تَأْتِنَا بِهِ﴾ بأن حكم بالحق الذي هو الرجم ﴿فَاخْذُوا﴾ أن تقبلوه.

وذكر تعالى هذا أيضاً في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٣]، يعني التوراة ﴿يُحَكِّمُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني في شأن الزانيين المذكورين ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَمُحَرِّضُونَ﴾ أي عما في التوراة من حكم رجم الزاني المحصن، وقوله هنا: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَمُحَرِّضُونَ﴾، هو معنى قوله عنهم: ﴿وَإِن لَّمْ تَأْتِنَا بِهِ فَاخْذُوا﴾، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿بِمَا اسْتَحِفُّوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾.

أخبر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الأحرار والرهبان استحفطوا كتاب الله يعني استودعوه، وطلب منهم حفظه، ولم يبين هنا هل امتثلوا الأمر في ذلك وحفظوه، أو لم يمتثلوا الأمر في ذلك وضيعوه؟ ولكنه بين في مواضع آخر أنهم لم يمتثلوا الأمر، ولم يحفظوا ما استحفطوه، بل حرفوه وبدلوه عمداً بقوله: ﴿يُحَرِّقُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦]. وقوله: ﴿يُحَرِّقُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾، وقوله: ﴿يَتَمَلَّوْنَ قُرْآنًا لَّا يُفِيدُونَ شَيْئاً مِنْهُ﴾ [الأنعام: ٩١]، وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩]، وقوله - جلّ وعلا -: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونِ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾. اختلف العلماء في هذه الآية الكريمة: هل هي في المسلمين، أم في الكفار، فروي عن الشعبي أنها في المسلمين، وروي عنه أنها في اليهود، وروي عن طاوس أيضاً أنها في المسلمين، وأن المراد بالكفر فيها كفر دون كفر، وأنه ليس الكفر المخرج من الملة، وروي عن ابن عباس في هذه الآية أنه قال: ليس الكفر الذي تذهبون إليه، رواه عنه ابن أبي حاتم، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، قاله ابن كثير.

قال بعض العلماء: والقرآن العظيم يدل على أنها في اليهود؛ لأنه تعالى ذكر فيما قبلها أنهم يحرفون الكلم من بعد مواضعه، وأنهم يقولون: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا﴾ يعني الحكم المحرف الذي هو غير حكم الله ﴿فَحَذُّوهُ وَإِنْ لَّمْ تَوْتَوْهُ﴾ أي المحرف، بل أوتيتم حكم الله الحق ﴿فَأَحْذَرُوا﴾، فهم يؤمرون بالحد من حكم الله الذي يعلمون أنه حق.

وقد قال تعالى بعدها ﴿وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾، فدل على أن الكلام فيهم، وممن قال بأن الآية في أهل الكتاب، كما دل عليه ما ذكر: البراء بن عازب، وحذيفة بن اليمان، وابن عباس وأبو مجلز، وأبو رجاء العطاردي، وعكرمة، وعبيد الله بن عبد الله، والحسن البصري وغيرهم، وزاد الحسن، وهي علينا واجبة. نقله عنهم ابن كثير، ونقل نحو قول الحسن عن إبراهيم النخعي.

وقال القرطبي في تفسيره: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ و﴿الظَّالِمُونَ﴾ و﴿الْفَاسِقُونَ﴾ نزلت كلها في الكفار، ثبت ذلك في صحيح مسلم من حديث البراء، وقد تقدم. وعلى هذا المذهب. فأما المسلم فلا يكفر وإن ارتكب كبيرة. وقيل: فيه إضمار، أي ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ رداً للقرآن وجحداً لقول الرسول ﷺ فهو كافر. قاله ابن عباس ومجاهد.

فالآية عامة على هذا، قال ابن مسعود، والحسن: هي عامة في كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار، أي معتقداً ذلك ومستحلاً له. فأما من فعل ذلك، وهو معتقد أنه مرتكب محرم، فهو من فساق المسلمين وأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له.

وقال ابن عباس في رواية: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ فقد فعل فعلاً يضاهي أفعال الكفار، وقيل: أي ومن لم يحكم بجميع ما أنزل فهو كافر. فأما من حكم بالتوحيد، ولم يحكم ببعض الشرائع فلا يدخل في هذه الآية، والصحيح الأول، إلا أن الشعبي قال: هي في اليهود خاصة: واختاره النحاس. قال: ويدل على ذلك ثلاثة أشياء: منها: أن اليهود ذكروا قبل هذا في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هَادُوا﴾ فعاد الضمير عليهم.

ومنها: أن سياق الكلام يدل على ذلك، ألا ترى أن بعده ﴿وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ﴾، فهذا الضمير لليهود بإجماع، وأيضاً فإن اليهود هم الذين أنكروا الرجم والقصاص، فإن قال

قائل: «مَنْ» إذا كانت للمجازاة فهي عامة إلا أن يقع دليل على تخصيصها. قيل له: «من» هنا بمعنى الذي، مع ما ذكرناه من الأدلة. والتقدير: واليهود الذين لم يحكموا بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون. فهذا من أحسن ما قيل في هذا.

ويروى أن حذيفة سئل عن هذه الآيات، أهى في بني إسرائيل؟ فقال: نعم هي فيهم، ولتسلكن سبيلهم حذو النعل بالنعل، وقيل: الكافرون للمسلمين، والظالمون لليهود، والفساقون للنصارى، وهذا اختيار أبي بكر بن العربي، قال: لأنه ظاهر الآيات، وهو اختيار ابن عباس، وجابر بن زيد، وابن أبي زائدة، وابن شبرمة والشعبي أيضاً. قال طاوس وغيره: ليس بكفر ينقل عن الملة، ولكنه كفر دون كفر.

وهذا يختلف: إن حكم بما عنده على أنه من عند الله فهو تبديل له يوجب الكفر، وإن حكم به هوى ومعضية فهو ذنب تدركه المغفرة على أصل أهل السنة في الغفران للمذنبين، قال القشيري: ومذهب الخوارج أن من ارتشى، وحكم بحكم غير الله فهو كافر، وعزا هذا إلى الحسن والسدي، وقال الحسن أيضاً: أخذ الله على الحكام ثلاثة أشياء: ألا يتبعوا الهوى، وألا يخشوا الناس ويخشوه، وألا يشتروا بآياته ثمناً قليلاً، انتهى كلام القرطبي.

قال مقيده - عفا الله عنه -: الظاهر المتبادر من سياق الآيات أن آية ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ نازلة في المسلمين؛ لأنه تعالى قال قبلها مخاطباً لمسلمي هذه الأمة ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخِشُوهُنَّ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، ثم قال: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ فالخطاب للمسلمين كما هو ظاهر متبادر من سياق الآية، وعليه فالكفر إما كفر دون كفر، وإما أن يكون فعل ذلك مستحلاً له، أو قاصداً به جحد أحكام الله وردها مع العلم بها.

أما من حكم بغير حكم الله، وهو عالم أنه مرتكب ذنباً فاعل قبيحاً، وإنما حملة على ذلك الهوى فهو من سائر عصاة المسلمين، وسياق القرآن ظاهر أيضاً في أن آية ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ في اليهود لأنه قال قبلها: ﴿وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفُ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنُ بِالْأُذُنِ وَاللِّسَنُ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

فالخطاب لهم لوضوح دلالة السياق عليه، كما أنه ظاهر أيضاً في أن آية ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ في النصارى، لأنه قال قبلها: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

واعلم أن تحرير المقام في هذا البحث أن الكفر والظلم والفسق كل واحد منها ربما أطلق في الشرع مراداً به المعصية تارة، والكفر المخرج من الملة أخرى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ معارضة للرسول وإبطالاً لأحكام الله فظلمه وفسقه وكفره كلها كفر

مخرج عن الملة، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَخُذْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ معتقداً أنه مرتكب حراماً فاعل قبيحاً فكفره وظلمه وفسقه غير مخرج عن الملة، وقد عرفت أن ظاهر القرآن يدل على أن الأولى في المسلمين، والثانية في اليهود، والثالثة في النصارى، والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، وتحقيق أحكام الكل هو ما رأيت، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ الآية، قد قدمنا احتجاج أبي حنيفة رحمته الله تعالى بعموم هذه الآية على قتل المسلم بالذمي. ونفس الآية فيها إشارة إلى أن الكافر لا يدخل في عموم الآية، كما ذهب إليه جمهور العلماء، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ نَصَّدَفَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾... الآية.

ومن المعلوم أن الكافر ليس من المتصدقين الذين تكون صدقتهم كفارة لهم؛ لأن الكفر سيئة لا تنفع معها حسنة، نبه على هذا إسماعيل القاضي في أحكام القرآن كما نقله ابن حجر في فتح الباري، وما ذكره إسماعيل القاضي من أن الآية تدل أيضاً على عدم دخول العبد، بناء على أنه لا يصح له التصديق بجرحه؛ لأن الحق لسيدته غير مسلم؛ لأن من العلماء من يقول: إن الأمور المتعلقة ببدن العبد كالقصاص، له العفو فيها دون سيده، وعليه فلا مانع من تصدقه بجرحه، وعلى قول من قال: إن معنى ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾، أن التصديق بالجناية كفارة للجاني، لا للمجني عليه، فلا مانع أيضاً من الاستدلال المذكور بالآية؛ لأن الله لا يذكر عن الكافر أنه متصدق؛ لأن الكافر لا صدقة له لكفره، وما هو باطل لا فائدة فيه لا يذكره الله تعالى في معرض التقرير والإثبات، مع أن هذا القول ضعيف في معنى الآية.

وجمهور العلماء من الصحابة، فمن بعدهم على أن معناها: فهو كفارة للمتصدق، وهو أظهر؛ لأن الضمير فيه عائد إلى المذكور، وذلك في المؤمن قطعاً دون الكافر، فالاستدلال بالآية ظاهر جداً.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَخُذْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾. لم يبين هنا شيئاً مما أنزل في الإنجيل الذي أمر أهل الإنجيل بالحكم به، وبين في مواضع أخر أن من ذلك البشارة بمبعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ووجوب اتباعه. والإيمان به كقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، إلى غير ذلك من الآيات.



لطيفة لها مناسبة بهذه الآية الكريمة:

ذكر بعض العلماء أن نصرانياً قال لعالم من علماء المسلمين: ناظرني في الإسلام والمسيحية أيهما أفضل؟ فقال العالم للنصراني: هلم إلى المناظرة في ذلك، فقال

النصراني: المتفق عليه أحق بالاتباع أم المختلف فيه؟ فقال العالم: المتفق عليه أحق بالاتباع من المختلف فيه؟ فقال النصراني: إذن يلزمكم اتباع عيسى معنا، وترك اتباع محمد ﷺ؛ لأننا نحن وأنتم نتفق على نبوة عيسى، ونخالفكم في نبوة محمد عليهما الصلاة والسلام، فقال المسلم: أنتم الذين تمتنعون من اتباع المتفق عليه؛ لأن المتفق عليه الذي هو عيسى قال لكم: ﴿وَمِنْ بَرِّ رَسُولِي يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَمَّهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، فلو كنتم متبعين عيسى حقاً لاتبعتم محمداً ﷺ، فظهر أنكم أنتم الذين لم تتبعوا المتفق عليه ولا غيره. فانقطع النصراني.

ولا شك أن النصارى لو كانوا متبعين عيسى، لاتبعوا محمداً ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

قد قدمنا أن هذه الآية في النصارى، والتي قبلها في اليهود، والتي قبل تلك في المسلمين، كما يقتضيه ظاهر القرآن.

وقد قدمنا أن الكفر، والظلم، والفسق كلها يطلق على المعصية بما دون الكفر، وعلى الكفر المخرج من الملة نفسه. فمن الكفر بمعنى المعصية. قوله ﷺ لما سأله المرأة عن سبب كون النساء أكثر أهل النار، أن ذلك واقع بسبب كفرهن ثم فسره بأنهن يكفرن العشير. ومن الكفر بمعنى المخرج عن الملة، قوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ الآية [الكافرون]، ومن الظلم بمعنى الكفر قوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [يونس] وقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. ومنه بمعنى المعصية قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا لِنَفْسِهِمْ وَمِنْهُمْ مَقْصُودٌ﴾ [فاطر: ٣٢]. ومن الفسق بمعنى الكفر قوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]. ومنه بمعنى المعصية قوله في الذين قذفوا عائشة، ﷺ: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

ومعلوم أن القذف ليس بمخرج عن الملة، ويدل له قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ [النور: ١١]. ومن الفسق بمعنى المعصية أيضاً، قوله في الوليد بن عتبة: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ مِّنْكُمْ فَصَلُّوا وَتَوَلَّوْا﴾ الآية [الحجرات: ٦].

وقد قدمنا أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، فمن كان امتناعه من الحكم بما أنزل الله، لقصد معارضته ورده، والامتناع من التزامه، فهو كافر ظالم فاسق كلها بمعناها المخرج من الملة. ومن كان امتناعه من الحكم لهوى، وهو يعتقد قبح فعله، فكفره وظلمه وفسقه غير المخرج من الملة، إلا إذا كان ما امتنع من الحكم به شرطاً في صحة إيمانه، كالامتناع من اعتقاد ما لا بد من اعتقاده، هذا هو الظاهر في الآيات المذكورة. كما قدمنا، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض، ولكنه بين في مواضع آخر أن ولاية بعضهم لبعض زائفة ليست خالصة؛ لأنها لا تستند على أساس صحيح - هو دين الإسلام -، فبين أن العداوة والبغضاء بين النصارى دائمة إلى يوم القيامة، بقوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرْنَا أَخَذْنَا مِنِّيهِمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾، وبين مثل ذلك في اليهود أيضاً، حيث قال فيهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ عَلَتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا يَمًا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَنًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾، والظاهر أنها في اليهود فيما بينهم، كما هو صريح السياق، خلافاً لمن قال إنها بين اليهود، والنصارى.

وصرح تعالى بعدم اتفاق اليهود معللاً له بعدم عقولهم في قوله: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

تنبيه: أخذ بعض العلماء من قوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أن اليهودي، والنصراني، يتوارثان. ورده بعض العلماء، بأن المراد بالآية، ولاية اليهود لخصوص اليهود، والنصارى لخصوص النصارى، وعلى هذا المعنى فلا دليل في الآية لتوارث اليهود والنصارى.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّمْ يَنكُمُ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة، أن من تولى اليهود والنصارى من المسلمين فإنه يكون منهم بتولية إياهم؛ وبين في موضع آخر أن توليهم موجب لسخط الله، والخلود في عذابه، وأن متوليهم لو كان مؤمناً ما تولاهم، وهو قوله تعالى: ﴿تَكْرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِنَفْسٍ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمُ خَالِدُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِزَةِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْهِ مَا أَخَذْنَاهُمُ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

ونهى في موضع آخر: عن توليهم مبيناً سبب التنفير منه؛ وهو قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَيسُرُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَيسُرُ الْكُفَّارُ مِنَ أَحْبَابِ الْقُبُورِ﴾ [المتحنة: ١٣].

وبين في موضع آخر: أن محل ذلك، فيما إذا لم تكن الموالاة بسبب خوف، وتقية، وإن كانت بسبب ذلك فصاحبها معذور، وهو قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ وَلَا أَن تَسْقُوا مِنْهُمْ مَّاءً ثَقِيلاً﴾ [آل عمران: ٢٨]، فهذه الآية الكريمة فيها بيان لكل الآيات القاضية بمنع موالاة الكفار مطلقاً وإيضاح؛ لأن محل ذلك في حالة الاختيار، وأما عند الخوف والتقية، فيرخص في موالاتهم، بقدر المداراة التي يكتفى بها شرهم، ويشترط في ذلك سلامة الباطن من تلك الموالاة.

ومن يأتي الأمور على اضطرار. فليس كمثل آتيها اختياراً

ويفهم من ظواهر هذه الآيات أن من تولى الكفار عمداً اختياراً، رغبة فيهم أنه كافر مثلهم.

قوله تعالى: ﴿ذَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدِيرُونَ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾.

ذكر في هذه الآية الكريمة أن الذين في قلوبهم مرض، وهم المنافقون، يعتذرون عن موالة الكفار من اليهود بأنهم يخشون أن تدور عليهم الدوائر، أي دول الدهر الدائرة من قوم إلى قوم، كما قال الشاعر:

إذا ما الدهر جر على أناس كلاكله أناخ بأخريتنا

يعنون إما بقحط فلا يميزونا، ولا يتفضلوا علينا، وإما بظفر الكفار بالمسلمين، فلا يدوم الأمر للنبي ﷺ وأصحابه، زعماً منهم أنهم عند تقلب الدهر بنحو ما ذكر، يكون لهم أصدقاء كانوا محافظين على صداقتهم، فينالون منهم ما يؤمل الصديق من صديقه، وأن المسلمين يتعجبون من كذبهم في إقسامهم بالله جهد أيمانهم إنهم لمع المسلمين، وبين في هذه الآية: أن تلك الدوائر التي حافظوا من أجلها على صداقة اليهود أنها لا تدور إلا على اليهود، والكفار، ولا تدور على المسلمين، بقوله: ﴿فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾... الآية، و«عسى» من الله نافذة؛ لأنه الكريم العظيم الذي لا يطمع إلا فيما يعطي.

والفتح المذكور قيل: هو فتح المسلمين لبلاد المشركين. وقيل: الفتح الحكيم، كقوله: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وعليه فهو حكم الله بقتل مقاتلة بني قريظة، وسبي ذراريهم، وإجلاء بني النضير. وقيل: هو فتح مكة، وهو راجع إلى الأول.

وبين تعالى في موضع آخر أن سبب حلفهم بالكذب للمسلمين أنهم منهم؛ إنما هو الفرق أي الخوف، وأنهم لو وجدوا محلاً يسترون فيه عن المسلمين لسارعوا إليه، لشدة بغضهم للمسلمين، وهو قوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِمِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَحْذَرُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَعْتَرِبًا أَوْ يُذَوِّبُوا بِإِثْمِهِمْ وَهُمْ يَحْمِلُونَ﴾ [التوبة: ٥٦، ٥٧] ففي هذه الآية بيان سبب أيمان المنافقين. ونظيرها قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ [المجادلة: ١٦].

وبين تعالى في موضع آخر أنهم يحلفون تلك الأيمان ليرضى عنهم المؤمنون، وأنهم إن رضوا عنهم، فإن الله لا يرضى عنهم، وهو قوله: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [التوبة].

وبين في موضع آخر: أنهم يريدون بأيمانهم إرضاء المؤمنين، وأن الله ورسوله

أحق بالإرضاء، وهو قوله: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢].

وبين في موضع آخر أنهم يحلفون لهم ليرضوا عنهم، بسبب أن لهم عذراً صحيحاً، وأن الله أمرهم بالإعراض عنهم، لا لأن لهم عذراً صحيحاً، بل مع الإعلام بأنهم رجس، ومأوهم النار بسبب ما كسبوا من النفاق، هو قوله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَنُغَرِّبَنَّ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ١٥].

وبين في موضع آخر أن أيمانهم الكاذبة سبب لإهلاكهم أنفسهم، وهو قوله: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ ... الآية [التوبة: ٤٢].

وهذه الأسباب لحلف المنافقين التي ذكرت في هذه الآيات راجعة جميعاً إلى السبب الأول، الذي هو الخوف، لأن خوفهم من المؤمنين هو سبب رغبتهم في إرضائهم، وإعراضهم عنهم بأن لا يؤذوهم؛ ولذا حلفوا لهم؛ ليرضوهم وليعرضوا عنهم؛ خوفاً من أذاهم، كما هو ظاهر.

تنبيه: قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا﴾، فيه ثلاث قراءات سبعيات:

الأولى: «يقول»: بلا واو مع الرفع، وبها قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر.
الثانية: «ويقول» بإثبات الواو مع رفع الفعل أيضاً، وبها قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي.

الثالثة: بإثبات الواو، ونصب يقول عطفاً على ﴿أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ وبها قرأ أبو عمرو.
قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ رَيْدٍ مِنْكُمْ عَنْ رَيْدِهِمْ فَفَوَّ بِأَنَّهُ يَفْعَلُ بِهُمْ وَيُجِيبُهُمْ أَدْلَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعَزُّ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. أخبر تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة أنهم إن ارتد بعضهم فإن الله يأتي عوضاً عن ذلك المرتد بقوم من صفاتهم: الذل للمؤمنين، والتواضع لهم، ولين الجانب. والقسوة، والشدة على الكافرين. وهذا من كمال صفات المؤمنين، وبهذا أمر الله نبيه ﷺ، فأمره بلين الجانب للمؤمنين، بقوله: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، وقوله: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، وأمره بالقسوة على غيرهم بقوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّارُ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَطَ عَلَيْهِمْ وَمَآوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٦]، وأثنى تعالى على نبيه باللين للمؤمنين في قوله: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَیْظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وصرح بأن ذلك المذكور من اللين للمؤمنين، والشدة على الكافرين، من صفات الرسول ﷺ وأصحابه ، بقوله: ﴿يُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقد قال الشاعر في رسول الله ﷺ:

وما حملت من ناقة فوق رحلها أبر وأوفى ذمة من محمد
وأعطى إذا ما طالب العرف جاءه وأمضى بحد المشرفي المهند
وقال الآخر فيه:

وما حملت من ناقة فوق رحلها أشد على أعدائه من محمد
ويفهم من هذه الآيات أن المؤمن يجب عليه أن لا يلين إلا في الوقت المناسب
للين، وألا يشتد إلا في الوقت المناسب للشدة؛ لأن اللين في محل الشدة ضعف
وخور، والشدة في محل اللين حمق وخرق؛ وقد قال أبو الطيب المتنبى:
إذا قيل حلم قل فللحلم موضع وحلم الفتى في غير موضعه جهل



قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن أهل الكتاب لو أطاعوا الله، وأقاموا كتابهم باتباعه، والعلم بما فيه؛ ليسر الله لهم الأرزاق وأرسل عليهم المطر، وأخرج لهم ثمرات الأرض.

وبين في مواضع آخر أن ذلك ليس خاصاً بهم، كقوله عن نوح وقومه ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿٦٦﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿٦٧﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿٦٨﴾﴾ [نوح] وقوله عن هود وقومه: ﴿وَيَقُولُوا اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢]، وقوله عن نبينا عليه الصلاة والسلام وقومه: ﴿وَأِنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْكُمْ مَنَّا حَسَنًا إِلَّا أَجَلِي مُسَيٍّ﴾ [هود: ٣]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِثْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. على أحد الأقوال، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [الأعراف: ٩٦]. وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] وقوله: ﴿وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعِيقَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿٣٣﴾﴾ [طه] ومفهوم الآية: أن معصية الله تعالى سبب لنقيض ما يستجلب بطاعته، وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، ونحوها من الآيات.

قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة، أن أهل الكتاب قسمان: طائفة منهم مقتصة في عملها، وكثير منهم سيء العمل، وقسم هذه الأمة إلى ثلاثة أقسام في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢] ووعد الجميع بالجنة بقوله: ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [فاطر]. وذكر القسم الرابع: وهو الكفار منها بقوله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ [فاطر: ٣٦].

وأظهر الأقوال في المقتصد، والسابق، والظالم: أن المقتصد هو من امتثل الأمر، واجتنب النهي، ولم يزد على ذلك. وأن السابق بالخيرات هو من فعل ذلك، وزاد بالتقرب إلى الله بالنوافل، والتورع عن بعض الجائزات؛ خوفاً من أن يكون سبباً لغيره. وأن الظالم هو المذكور في قوله: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [التوبة: ١٠٢]، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَا الرَّسُولَ بِلَغٍ مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية.

أمر تعالى في هذه الآية نبيه ﷺ بتبليغ ما أنزل إليه، وشهد له بالامثال في آيات متعددة، كقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [النور: ٥٤]، وقوله: ﴿قَوْلَ عَنَّهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٌ﴾ [الذاريات]، ولو كان يمكن أن يكتفى شيئاً، لكتفى قوله تعالى: ﴿وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، فمن زعم أنه ﷺ، كتم حرفاً مما أنزل عليه، فقد أعظم الافتراء على الله وعلى رسوله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَكْمُلُونَ﴾ (٦٧).

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن بني إسرائيل عموا وصموا مرتين، تتخللهم توبة من الله عليهم، وبين تفصيل ذلك في قوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤]، فبين جزاء عما هم وصمهم في المرة الأولى بقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: ٥]، وبين جزاء عما هم، وصمهم في المرة الآخرة بقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عَلَوُا تَتَبَرَّأُ﴾ [الإسراء: ٧]، وبين التوبة التي بينهما بقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٦]، ثم بين أنهم إن عادوا إلى الإفساد عاد إلى الانتقام منهم بقوله: ﴿وَلَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]، فعادوا إلى الإفساد بتكذيبه ﷺ، وكنتم صفاته التي في التوراة، فعاد الله إلى الانتقام منهم، فسلط عليهم نبيه ﷺ فذبح مقاتلة بني قريظة، وسبى نساءهم وذريتهم، وأجلى بني قينقاع، وبني النضير. كما ذكر تعالى طرفاً من ذلك في سورة الحشر. وهذا البيان الذي ذكرنا في هذه الآية ذكره بعض المفسرين، وكثير منهم لم يذكره، ولكن ظاهر القرآن يقتضيه؛ لأن السياق في ذكر أفعالهم القبيحة الماضية: من قتل الرسل، وتكذيبهم، إذ قبل الآية المذكورة: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾.

ومعنى ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ ظنوا ألا يصيبهم بلاء وعذاب من الله بسبب كفرهم، وقتلهم الأنبياء؛ لزعهم الباطل أنهم أبناء الله، وأحباؤه، وقوله: ﴿كَثِيرٌ

وَمَنْهُمْ أَحْسَنُ أَوْجَهَ الْإِعْرَابِ فِيهِ؛ أَنَّهُ بَدَلَ مِنْ وَאוِ الْفَاعِلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَعَمُوا وَصَمُوا﴾، كَقَوْلِكَ: جَاءَ الْقَوْمُ أَكْثَرَهُمْ. وقوله: ﴿أَلَا تَكُونُ فَتْنَةً﴾، قرأه حمزة، والكسائي، وأبو عمرو بالرفع، والباقون بالنصب، فوجه قراءة النصب ظاهر؛ لأن الحسبان بمعنى الظن، ووجه قراءة الرفع، تنزيل اعتقادهم لذلك - ولو كان باطلاً - منزلة العلم، فتكون أن مخففة من الثقيلة. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧٤).

أشار في هذه الآية، إلى أن الذين قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَالِكٌ فُلُتَحٌ﴾ لو تابوا إليه من ذل، لتاب عليهم وغفر لهم؛ لأنه استعطفهم إلى ذلك أحسن استعطاف، وألطفه، بقوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾، ثم أشار إلى أنهم إن فعلوا ذلك غفر لهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وصرح بهذا المعنى عاماً لجميع الكفار بقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ﴾... الآية [الأفال: ٣٨].

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا بِكُلَّانِ أَلْطَعَامِ﴾.

ذكر في هذه الآية الكريمة أن عيسى وأمه كانا يأكلان الطعام، وذكر في مواضع آخر أن جميع الرسل كانوا كذلك. كقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ الآية [الفرقان: ٢٠]، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقوله: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ بُيِّنْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظُرْ أَنَّ يُؤْفَكُونَ﴾: معنى قوله: ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن الحق، والمراد بصرفهم عنه، قول بعضهم: إن الله هو المسيح ابن مريم، وقول بعضهم: إن الله ثالث ثلاثة، وقول بعضهم: عزيزاً ابن الله - سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً -، وعلى من يقول ذلك لعائن الله إلى يوم القيامة، فإنهم يقولون هذا الأمر الذي لم يقل أحد أشنع منه ولا أعظم، مع ظهور أدلة التوحيد المبينة له؛ ولذا قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ بُيِّنْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظُرْ أَنَّ يُؤْفَكُونَ﴾ على سبيل التعجب من أمرهم، كيف يؤفكون إلى هذا الكفر مع وضوح أدلة التوحيد؟!

قوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ الآية.

قال بعض العلماء: الذين لعنوا على لسان داود: الذين اعتدوا في السبت، والذين لعنوا على لسان عيسى ابن مريم: هم الذين كفروا من أهل المائدة. وعليه فلعن الأولين مسخهم قرده، كما بينه تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، وقوله: ﴿فَلَمَّا عَتَا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦]، ولعن الآخرين هو المذكور في قوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مَنِّكُمْ فَإِنَّ أَهْلَهُ عَذَاباً لَا أَهْلَهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥]، وذكر غير واحد أنه

مسخهم خنازير، وهذا القول مروى عن الحسن، وقتادة، ومجاهد، والباقر، نقله الألويسي في تفسيره، وقال: واختاره غير واحد. ونقله القرطبي عن ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وأبي مالك، وذكر أنه روي عن النبي ﷺ.

وقال بعض من قال بهذا القول: إن أهل أيلة لما اعتدوا في السبت، قال داود عليه الصلاة والسلام: «اللهم ألبسهم اللعن مثل الرداء، ومثل المنطقة على الحقوين»، فمسخهم الله قردة، وأصحاب المائدة لما كفروا، قال عيسى عليه الصلاة والسلام: «اللهم عذب من كفر بعد ما أكل من المائدة عذاباً لم تعذبه أحداً من العالمين، وألعنهم كما لعنت أصحاب السبت، فأصبحوا خنازير».

وأن هذا معنى لعنهم على لسان داود، وعيسى ابن مريم. وفي الآية أقوال غير هذا تركنا التعرض لها؛ لأنها ليست مما نحن بصدد.

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْخَذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُم بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾.

قد قدمنا في سورة البقرة أن المراد بما عقدتم الأيمان، هو ما قصدتم عقد اليمين فيه، لا ما جرى على ألسنتكم من غير قصد نحو: «لا والله» و«بلى والله»، ومنه قول الفرزدق:

ولست بمأخوذ بلغو تقوله إذا لم تعد عاقدات العزائم
وهذا العقد معنوي، ومنه قول الحطيئة:

قوم إذا عقدوا عقداً لجارهم شدوا العناب وشدوا فوقه الكربا

وقرأه حمزة، والكسائي، وشعبة عن عاصم ﴿عَقَّدْتُمْ﴾ بالتخفيف بلا ألف. وقرأه ابن ذكوان عن ابن عامر (عاقدتم) بألف بوزن فاعل، وقرأه الباقر بالتشديد من غير ألف، والتضعيف والمفاعلة: معناهما مجرد الفعل بدليل قراءة ﴿عَقَّدْتُمْ﴾ بلا ألف، ولا تضعيف، والقراءات يبين بعضها بعضاً، و(ما) في قوله ﴿بِمَا عَقَّدْتُمْ﴾ مصدرية على التحقيق لا موصولة، كما قاله بعضهم زاعماً أن ضمير الربط محذوف.

وفي المراد باللغو في الآية أقوال أشهرها عند العلماء اثنان:

الأول: أن اللغو ما يجري على لسان الإنسان من غير قصد، كقوله: «لا والله» و«بلى والله».

وذهب إلى هذا القول الشافعي، وعائشة في إحدى الروايتين عنها. وروي عن ابن عمر، وابن عباس في أحد قوليه، والشعبي، وعكرمة في أحد قوليه، وعروة بن الزبير، وأبي صالح، والضحاك في أحد قوليه، وأبي قلابة، والزهري، كما نقله عنهم ابن كثير، وغيره.

القول الثاني: أن اللغو هو أن يحلف على ما يعتقد، فيظهر نفيه، وهذا هو مذهب مالك بن أنس، وقال: إنه أحسن ما سمع في معنى اللغو، وهو مروى أيضاً عن

عائشة، وأبي هريرة، وابن عباس في أحد قوليه، وسليمان بن يسار، وسعيد بن جبير، ومجاهد في أحد قوليه، وإبراهيم النخعي في أحد قوليه، واليخسن، وزرارة بن أوفى، وأبي مالك، وعطاء الخراساني، وبكر بن عبد الله، وأحد قوليه عكرمة، وحبيب بن أبي ثابت، والسدي، ومكحول، ومقاتل، وطاوس، وقتادة، والربيع بن أنس، ويحيى بن سعيد، وربيعة، كما نقله عنهم ابن كثير.

والقولان متقاربان، واللغو يشملهما؛ لأنه في الأول لم يقصد عقد اليمين أصلاً، وفي الثاني لم يقصد إلا الحق والصواب. وغير هذين القولين من الأقوال تركته لضعفه في نظري. واللغو في اللغة: هو الكلام بما لا خير فيه، ولا حاجة إليه، ومنه حديث: «إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب يوم الجمعة أنصت، فقد لغوت، أو لغيت».

وقول العجاج:

ورب أسراب حجيح كظم
عن اللغا ورفث التكلم
قوله تعالى: ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.

لم يقيد هنا «رقبة» كفارة اليمين بالإيمان، وقيد به كفارة القتل خطأ. وهذه من مسائل المطلق والمقيد في حالة اتفاق الحكم، مع اختلاف السبب، وكثير من العلماء يقولون فيه بحمل المطلق على المقيد، فتقيد رقبة اليمين والظهار بالقيد الذي في رقبة القتل خطأ، حملاً للمطلق على المقيد وخالف في ذلك أبو حنيفة ومن وافقه.

وقد أوضحنا هذه المسألة في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب) في سورة النساء عند قوله تعالى: ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]؛ ولذلك لم نطل الكلام بها هنا.

والمراد بالتحرير: الإخراج من الرق، وربما استعملته العرب في الإخراج من الأسر والمشقات، وتعب الدنيا ونحو ذلك، ومنه قول والده مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥] أي من تعب أعمال الدنيا، ومنه قول الفرزدق همام بن غالب التميمي:

أبني غداة إنني حررتكم
فوهبتكم لعطية بن جعال
يعني حررتكم من الهجاء، فلا أهجوكم.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْفَنَاءُ وَالْمَيْسَرُ وَالْأَسَافُ وَالْأَرْكَامُ رَجْسٌ﴾، يفهم من هذه الآية الكريمة أن الخمر نجسة العين، لأن الله تعالى قال: إنها رجس، والرجس في كلام العرب كل مستقذر تعافه النفس. وقيل: إن أصله من الركنس، وهو العذرة والتن.

قال بعض العلماء: ويدل لهذا مفهوم المخالفة في قوله تعالى في شراب أهل الجنة ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]؛ لأن وصفه لشراب أهل الجنة بأنه طهور يفهم منه، أن خمر الدنيا ليست كذلك، ومما يؤيد هذا أن كل الأوصاف التي مدح بها تعالى خمر الآخرة منفية عن خمر الدنيا، كقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ﴾ [٤٧] [الصافات]، وكقوله: ﴿لَا يَصْنَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ﴾ [١٦] [الواقعة]، بخلاف خمر الدنيا ففيها

غول يغتال العقول، وأهلها يصدعون أي يصيبهم الصداع الذي هو وجع الرأس بسببها، وقوله ﴿وَلَا يُزْفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩] على قراءة فتح الزاي مبنياً للمفعول، فمعناه: أنهم لا يسكرون، والنزيف السكران، ومنه قول حميد بن ثور:

نزيف ترى ردع العبير بجيبها كما ضرج الضاري النزيف المكلم
يعني أنها في ثقل حركتها كالسكران، وأن حمرة العبير الذي هو الطيب في جيبها كخمرة الدم على الطريد الذي ضرجه الجوارح بدمه: فأصابه نزيف الدم من جرح الجوارح له، ومنه أيضاً قول امرئ القيس:

وإذ هي تمشي كمشي النزيف يصصره بالكشيب البهر
وقوله أيضاً:

نزيف إذا قامت لوجه تمايلت تراشي الفؤاد الرخص ألا تخترا
وقول ابن أبي ربيعة أو جميل:

فلثمت فاهاً أخذاً بقرونها شرب النزيف ببرد ماء الحشرج
وعلى قراءة ﴿يُزْفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩] بكسر الزاي مبنياً للفاعل، ففيه وجهان من التفسير للعلماء:

أحدهما: أنه من أنزف القوم إذا حان منهم النزف وهو السكر؛ ونظيره قولهم: أحصد الزرع؛ إذا حان حصاده، وأقطف العنب؛ إذا حان قطافه، وهذا القول معناه راجع إلى الأول.

والثاني: أنه من أنزف القوم إذا فئت خمرهم، ومنه قول الحطيئة:
لعمري لئن أنزفتما أو صحتوما لبئس الندامى أنتم آل أبجرا
قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾.

هذه الآية الكريمة يفهم من دليل خطابها - أي مفهوم مخالفتها - أنهم إن حلوا من إحرامهم جاز لهم قتل الصيد، وهذا المفهوم مصرح به في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾، يعني: إن شئتم، كما تقدم إيضاحه في أول هذه السورة الكريمة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مَتَعِدًا﴾ الآية.

ذهب جمهور العلماء إلى أن معنى هذه الآية الكريمة: ومن قتله منكم متعمداً لقتله ذكراً لإحرامه. وخالف مجاهد رحمته الله الجمهور قائلاً: إن معنى الآية: ومن قتله منكم متعمداً لقتله في حال كونه ناسياً لإحرامه، واستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمْ اللَّهُ مِنْهُ﴾، كما سيأتي إيضاحه إن شاء الله تعالى.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، ويكون فيها قرينة دالة على عدم صحة ذلك القول؛ وإذا عرفت

ذلك فاعلم أن في الآية قرينة واضحة دالة على عدم صحة قول مجاهد كَتَبَهُ، وهي قوله تعالى: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾، فإنه يدل على أنه متعمد أمراً لا يجوز، أما الناسي فهو غير آثم إجماعاً، فلا يناسب أن يقال فيه: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾، كما ترى. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ الآية. ظاهر عموم هذه الآية الكريمة يشمل إباحة صيد البحر للمحرم بحج أو عمرة، وهو كذلك، كما بينه تخصيصه تعالى بتحريم الصيد على المحرم بصيد البر في قوله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾، فإنه يفهم منه أن صيد البحر لا يحرم على المحرم، كما هو ظاهر.



قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا تَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ﴾. قد يتوهم الجاهل من ظاهر هذه الآية الكريمة عدم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن نفس الآية فيها الإشارة إلى أن ذلك فيما إذا بلغ جهده فلم يقبل منه المأمور، وذلك في قوله ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾؛ لأن من ترك الأمر بالمعروف لم يهتد. وبمن قال بهذا: حذيفة، وسعيد بن المسيب، كما نقله عنهما الألوسي في تفسيره، وابن جرير، ونقله القرطبي عن سعيد بن المسيب، وأبي عبيد القاسم بن سلام، ونقل نحوه ابن جرير عن جماعة من الصحابة منهم ابن عمر وابن مسعود.

فمن العلماء من قال: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ أي أمرتم فلم يسمع منكم. ومنهم من قال: يدخل الأمر بالمعروف في المراد بالاهتداء في الآية، وهو ظاهر جداً ولا ينبغي العدول عنه لمنصف.

ومما يدل على أن تارك الأمر بالمعروف غير مهتد، أن الله تعالى أقسم أنه في خسر في قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ ۖ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُ خَسِيرٌ ۝١٠٣﴾، فالصبر، فالحق وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبعد أداء الواجب لا يضر الأمر ضلال من ضل؛ وقد دلت الآيات كقوله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا فَتَنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، والأحاديث على أن الناس إن لم يأمرُوا بالمعروف، ولم ينهوا عن المنكر عظم الله بعذاب من عنده.

فمن ذلك ما خرج الشيطان في صحيحيهما: عن أم المؤمنين أم الحكم زينب بنت جحش رضي الله عنها «أن النبي ﷺ دخل عليها فرعاً مرعوباً يقول: لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بأصبعيه الإبهام والتي ليهما، فقلت: يا رسول الله أنهلك وفيما الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث».

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، وكان

الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ من فوقنا. فإن تركوهم وما أرادوا، هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعاً»، أخرجه البخاري والترمذي.

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن رأى الناس الظالم فلم يأخذوا على يده، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»، رواه أبو داود والترمذي والنسائي بأسانيد صحيحة.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل، أنه كان الرجل يلقي الرجل فيقول: يا هذا اتق الله، ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨) ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (٨٠) ثم قال: كلا، والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً، أو ليضربن الله قلوب بعضهم ببعض ثم ليلعنكن كما لعنهم».

رواه أبو داود والترمذي: وقال: حسن، وهذا لفظ أبي داود، ولفظ الترمذي: قال رسول الله ﷺ: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي، نهتهم علماءهم فلم ينتهوا، فجالسهم وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون» فجلس رسول الله ﷺ وكان متكئاً، فقال: «لا والذي نفسي بيده حتى يأطروهم على الحق أطراً».

ومعنى تأطروهم: أي تعطفوهم. ومعنى تقصرونه: تحبسونه.

والأحاديث في الباب كثيرة جداً، وفيها الدلالة الواضحة على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل في قوله: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ ويؤيده كثرة الآيات الدالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كقوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتْلِحُونَ﴾ (١٠٤) [آل عمران: ١٠٤]، وقولنه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقوله: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨) ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٧٩)، وقوله: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ

فَلْيَكْفُرْ ﴿[الكهف: ٢٩]، وقوله: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]، وقوله: ﴿أَمْجِنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابٍ بَينِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، وقوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

والتحقيق في معناها أن المراد بتلك الفتنة التي تعم الظالم وغيره هي: أن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه عمهم الله بالعذاب، صالحيهم، وطالحيهم. وبه فسرهما جماعة من أهل العلم. والأحاديث الصحيحة شاهدة لذلك كما قدمنا طرفاً منها.



قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنْ شَهِدَةِ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآيِينَ﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة أن كاتم الشهادة آثم، وبين في موضع آخر أن هذا الإثم من الآثام القلبية، وهو قوله: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبِيٌّ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، ومعلوم أن منشأ الآثام والطاعات جميعاً من القلب؛ لأنه إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخْرَجَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَذَى﴾. معناه إخراجهم من قبورهم أحياء بمشيئة الله وقدرته، كما أوضحه بقوله: ﴿وَأُزِيئَهُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحِيَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَذَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾... الآية. لم يذكر هنا كيفية كفه إياهم عنه، ولكنه بينه في مواضع أخرى، كقوله: ﴿وَمَا قُلُوهُ وَمَا صَلَوُهُ وَلَكِنْ سُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، وقوله: ﴿وَمَا قُلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨]، وقوله: ﴿وَمُطَهَّرُكَ مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ الآية. قال بعض أهل العلم: المراد بالإحياء إلى الحواريين الإلهام، ويدل له ورود الإحياء في القرآن بمعنى الإلهام كقوله: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ الآية [النحل: ٦٨] يعني ألهمها. قال بعض العلماء: ومنه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مُوسَى أَنِ أَزْضِعِي﴾ [القصص: ٧]. وقال بعض العلماء معناه: أوحيت إلى الحواريين إحياء حقيقياً بواسطة عيسى، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنعام

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

في قوله تعالى: ﴿يَعْدِلُونَ﴾ وجهان للعلماء:

أحدهما: أنه من العدول عن الشيء بمعنى الانحراف، والميل عنه، وعلى هذا

فقوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾ متعلق بقوله: ﴿كَفَرُوا﴾، وعليه فالمعنى: إن الذين كفروا بربهم يميلون وينحرفون عن طريق الحق إلى الكفر والضلال، وقيل على هذا الوجه: إن «الباء» بمعنى «عن» أي يعدلون عن ربهم، فلا يتوجهون إليه بطاعة، ولا إيمان.

وثانيهما: أن «الباء» متعلقة بـ«يعدلون»، ومعنى يعدلون: يجعلون له نظيراً في العبادة، من قول العرب: عدلت فلاناً بفلان، إذا جعلته له نظيراً وعديلاً؛ ومنه قول جرير:

أثعلبة الفوارس أم رياحاً عدلت بهم طهية والخشابة

يعني أ جعلت طهية والخشابة نظراء وأمثالاً لبني ثعلبة، وبني رياح، وهذا الوجه الأخير يدل له القرآن، كقوله تعالى عن الكفار الذين عدلوا به غيره: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَنفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٧١ إِذْ سُوِّيَكُمْ رَبِّ الْمَلَكَيْنِ ٧٢﴾ [الشعراء]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَصِبِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وأشار تعالى في آيات كثيرة إلى أن الكفار ساءوا بين المخلوق والخالق - فبحهم الله تعالى - كقوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقَ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الروم: ١٦]، وقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٧٦﴾ [النحل]، وقوله: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]، إلى غير ذلك من الآيات. وعدل الشي في اللغة مثله، ونظيره، قال بعض علماء العربية: إذا كان من جنسه، فهو عدل - بكسر العين - وإذا كان من غير جنسه، فهو عدل - بفتح العين - . ومن الأول قول مهلهل:

على أن ليس عدلاً من كليب	إذا برزت مخبأة الخدور
على أن ليس عدلاً من كليب	إذا اضطرب العضاه من الدبور
على أن ليس عدلاً من كليب	غداة يلابل الأمر الكبير

يعني: أن القتلى الذين قتلهم من بكر بن وائل بأخيه كليب - الذي قتله حساس بن مرة البكري - لا يكافؤونه، ولا يعادلونه في الشرف.

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿أَوْ عَدَلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥]؛ لأن المراد نظير الإطعام من الصيام، وليس من جنسه، وقوله: ﴿وَإِن تَعَدِلْ كُلَّ عَدِلٍ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، والعدل: الفداء؛ لأنه كأنه قيمة معادلة للمفدى تؤخذ بدله.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَنَجْوَكُمْ﴾... الآية. في هذه الآية الكريمة ثلاثة أوجه للعلماء من التفسير. وكل واحد منها له مصداق في كتاب الله تعالى:

الأول: أن المعنى: وهو الله في السماوات وفي الأرض، أي: وهو الإله المعبود في السماوات والأرض؛ لأنه - جلّ وعلا - هو المعبود وحده بحق في الأرض والسما. وعلى هذا فجملة «يعلم» حال، أو خبر، وهذا المعنى يبينه، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ﴾ [الزخرف: ٨٤]، أي: وهو المعبود في

السماء والأرض بحق، ولا عبرة بعبادة الكافرين غيره؛ لأنها وبال عليهم، يخلدون بها في النار الخلود الأبدي، ومعبوداتهم ليست شركاء الله سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، ﴿إِنْ مِنْ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣]، ﴿وَمَا يَنْجِي الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءُ إِنْ يَسْمُوتُوا إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦]. وهذا القول في الآية أظهر الأقوال، واختاره القرطبي.

الوجه الثاني: أن قوله: ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ يتعلق بقوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ أي: وهو الله يعلم سركم في السماوات وفي الأرض؛ وبين هذا القول ويشهد له قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾... الآية [الفرقان: ٦].

قال النحاس: وهذا القول من أحسن ما قيل في الآية. نقله عنه القرطبي.

الوجه الثالث: وهو اختيار ابن جرير، أن الوقف تام على قوله: ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾، وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾ يتعلق بما بعده، أي يعلم سركم وجهركم في الأرض، ومعنى هذا القول: أنه - جل وعلا - مستوٍ على عرشه فوق جميع خلقه، مع أنه يعلم سر أهل الأرض وجهركم لا يخفى عليه شيء من ذلك. وبين هذا القول، ويشهد له قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَنُورُ﴾ [المائدة: ١٧]، وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، مع قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿فَلَنَقْضَنَّ عَنْهُمْ بَعْثًا وَرَأًى كَمَا غَايَبَتْ﴾ [الأعراف: ٧]. وسيأتي إن شاء الله تحقيق هذا المقام بإيضاح في سورة الأعراف.

واعلم أن ما يزعمه الجهمية من «أن الله تعالى في كل مكان» مستدلين بهذه الآية على أنه في الأرض؛ ضلال مبين، وجهل بالله تعالى؛ لأن جميع الأمكنة الموجودة أحقر وأصغر من أن يحل في شيء منها رب السماوات والأرض الذي هو أعظم من كل شيء، وأعلى من كل شيء، محيط بكل شيء ولا يحيط به شيء، فالسماوات والأرض في يده - جل وعلا - أصغر من حبة خردل في يد أحدنا، وله المثل الأعلى، فلو كانت حبة خردل في يد رجل فهل يمكن أن يقال: إنه حالٌ فيها، أو في كل جزء من أجزائها. حاشا وكلا، هي أصغر وأحقر من ذلك، فإذا علمت ذلك فاعلم أن رب السموات والأرض أكبر من كل شيء وأعظم من كل شيء «محيط بكل شيء»، ولا يحيط به شيء، ولا يكون فوقه شيء ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبا: ٣]، سبحانه وتعالى علواً كبيراً لا نحصى ثناء عليه، هو كما أثنى على نفسه ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ [طه: ٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرَاطِينَ فَلَسَوْهُ بِإِذْيِهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [٧]. ذكر في هذه الآية الكريمة أن الكفار لو نزل الله عليهم كتابا مكتوباً في قرطاس، أي: صحيفة، إجابة لما اقترحوه، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلَنْ تُؤْمِنَ لِرُؤْيَاكَ

حَتَّىٰ تَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ ﴿٣٩﴾ [الإسراء: ٣٩]، فعاینوا ذلك الكتاب المنزل، ولمسته أيديهم؛ لعاندوا، وادّعوا أن ذلك من أجل أنه سحرهم. وهذا العناد واللجاج العظيم والمكابرة الذي هو شأن الكفار بيّنه تعالى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿٧﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحجر]، وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الطور]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكُكَةَ وَكَلَّمَهُمُ التَّوْقُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١١]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقوله: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١]، وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام: ٢٥] إلى غير ذلك من الآيات. وذكر تعالى نحو هذا العناد واللجاج عن فرعون وقومه في قوله: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأعراف].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴿٧﴾﴾. لم يبيّن هنا ماذا يريدون بإنزال الملك المقترح، ولكنه بيّن في موضع آخر أنهم يريدون بإنزال الملك أن يكون نذيراً آخر مع النبي ﷺ، وذلك في قوله: ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الفرقان].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَّفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾﴾. يعني أنه لو نزل عليهم الملائكة وهم على ما هم عليه من الكفر والمعاصي، لجاءهم من الله العذاب من غير إمهال ولا إنظار؛ لأنه حكم بأن الملائكة لا تنزل عليهم إلا بذلك، كما بيّنه تعالى بقوله: ﴿مَا نُنْزِلُ الْمَلَكُكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحجر]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَكُكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلِيشُونَ ﴿٩﴾﴾.

أي: لو بعثنا إلى البشر رسولا ملكياً لكان على هيئة الرجل ليمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه؛ لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من شدة النور، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة الرسول البشري. وهذه الآية الكريمة تدل على أن الرسول ينبغي أن يكون من نوع المرسل إليهم، كما أشار تعالى إلى ذلك أيضاً بقوله: ﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء: ٩٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الكفار استهزءوا برسل قبل نبينا ﷺ، وأنهم حاق بهم العذاب بسبب ذلك، ولم يفصل هنا كيفية استهزائهم، ولا كيفية العذاب الذي أهلكوا به، ولكنه فصل كثيراً من ذلك في مواضع أخرى متعددة في ذكر نوح وقومه، وهود وقومه، وصالح وقومه، ولوط وقومه، وشعيب وقومه، إلى غير ذلك.

فمن استهزأهم بنوح: قولهم له: «بعد أن كنت نبياً صررت نجاراً»، وقد قال الله تعالى عن نوح: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨]، وذكر ما حاق بهم بقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [الغنكوت: ١٤] وأمثالها من الآيات.

ومن استهزأهم بهود: ما ذكره الله عنهم من قولهم: ﴿إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرِكَ بَعْضُ إِلَهِنَا يَسُوءُ﴾ [هود: ٥٤]، وقوله عنهم أيضاً: ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَا عَنْ قَوْلِكَ﴾... الآية [هود: ٥٣]. وذكر ما حاق بهم من العذاب في قوله: ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾... الآية [الذاريات: ٤١]، وأمثالها من الآيات.

ومن استهزأهم بصالح: قولهم فيما ذكره الله عنهم: ﴿يَصْلِحُ أَقْبَانَا بِمَا نَعْدَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وقولهم: ﴿يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: ٦٢]. وذكر ما حاق بهم بقوله: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جِثِيمًا﴾ [هود: ٧٧]، ونحوها من الآيات.

ومن استهزأهم بلوط: قولهم فيما حكى الله عنهم: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ الآية [النمل: ٥٦]، وقولهم له أيضاً: ﴿لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧]. وذكر ما حاق بهم بقوله: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّنْ سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤] ونحوها من الآيات.

ومن استهزأهم بشعيب: قولهم فيما حكى الله عنهم: ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا وَمَا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِتْنًا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١]، وذكر ما حاق بهم بقوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، ونحوها من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾. يعني أنه تعالى هو الذي يرزق الخلائق، وهو الغني المطلق فليس بمحتاج إلى رزق. وقد بين تعالى هذا بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥١﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٢﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٣﴾ [الذاريات]. وقراءة الجمهور على أن الفعلين من الإطعام، والأول مبني للفاعل، والثاني مبني للمفعول، كما بيناه، وأوضحته الآية الأخرى. وقرأ سعيد بن جبير ومجاهد والأعمش الفعل الأول كقراءة الجمهور، والثاني بفتح الياء والعين مضارع طعم الثلاثي بكسر العين في الماضي، أي: أنه يرزق عباده، ويطعمهم، وهو - جل وعلا - لا يأكل؛ لأنه لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه المخلوق من الغذاء؛ لأنه - جل وعلا - الغني لذاته، الغني المطلق، سبحانه وتعالى علواً كبيراً، ﴿يَتَأَيَّمُوا النَّاسُ أُنْتُمْ أَلْفَقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٦].

والقراءة التي ذكرنا عن سعيد ومجاهد والأعمش، موافقة لأحد الأقوال في تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَلْضَكَمَدُ﴾ ﴿٢﴾ [الإخلاص]، قال بعض العلماء: ﴿أَلْضَكَمَدُ﴾ السيد

الذي يلجأ إليه عند الشدائد والحوائج. وقال بعضهم: هو السيد الذي تكامل سؤدده وشرفه وعظمته، وعلمه وحكمته، وقال بعضهم: ﴿الضَّمَكْدُ﴾ هو الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وعليه: فما بعده تفسير له. وقال بعضهم: هو الباقي بعد فناء خلقه. وقال بعضهم: ﴿الضَّمَكْدُ﴾ هو الذي لا جوف له، ولا يأكل الطعام. وهو محل الشاهد. وممن قال بهذا القول: ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، ومجاهد، وعبد الله بن بريدة، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، وعطية العوفي، والضحاك، والسدي؛ كما نقله عنهم ابن كثير، وابن جرير وغيرهما.

قال مقيد - عفا الله عنه -: من المعروف في كلام العرب، إطلاق الصمد على السيد العظيم، وعلى الشيء المصمت الذي لا جوف له، فمن الأول قول الزبرقان: سبروا جميعاً بنصف الليل واعتمدوا ولا رهينة إلا سيّد صمد وقول الآخر:

علوته بحسام ثم قلت له خذها حذيف فانت السيّد الصمد
وقول الآخر:

ألا بكر الناعي بخير بني أسد بعمر بن مسعود وبالسيد الصمد
ومن الثاني قول الشاعر:

شهاب حروب لا تزال جياده عوابس يعلكن الشكيم المصمدا

فإذا علمت ذلك، فالله تعالى هو السيد الذي هو وحده الملجأ عند الشدائد والحاجات، وهو الذي تنزه وتقدس وتعالى عن صفات المخلوقين كأكل الطعام ونحوه، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ الآية.

يعني أول من أسلم من هذه الأمة التي أرسلت إليها، وليس المراد أول من أسلم من جميع الناس، كما بينه تعالى بآيات كثيرة تدل على وجود المسلمين قبل وجوده ﷺ، ووجود أمته، كقوله عن إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتَ رَبِّيَ الْعَلَمِينَ﴾ [البقرة]، وقوله عن يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقوله: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله عن لوط وأهله: ﴿فَمَا وَهَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَسْأَلَكَ اللَّهُ بَشْرًا فَلَا تَصْغُرْ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَسْأَلَكَ بِغَيْرِ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. أشار تعالى بقوله هنا: ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بعد قوله: ﴿وَلَنْ يَسْأَلَكَ بِغَيْرِ﴾ إلى أن فضله وعطاءه الجزيل لا يقدر أحد على رده، عمن أراده له تعالى. كما صرح بذلك في قوله: ﴿وَإِنْ يَرِدْكَ بَشِيرٌ فَلَا تُرَافِقْهُ لَقَدْ يُلْقِيهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [يونس: ١٠٧].

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾.

صرح في هذه الآية الكريمة بأنه ﷺ منذر لكل من بلغه هذا القرآن العظيم كائناً من كان. ويفهم من الآية أن الإنذار به عام لكل من بلغه، وأن كل من بلغه ولم يؤمن به فهو في النار، وهو كذلك. أما عموم إنذاره لكل من بلغه، فقد دلت عليه آيات أخر أيضاً كقوله: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لِلنَّاسِ إِنْ رَمَوْهُ اللَّهُ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبا: ٢٨]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْقُرْآنَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان]. وأما دخول من لم يؤمن به النار، فقد صرح به تعالى في قوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالِقَارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]. وأما من لم تبلغه دعوة الرسول ﷺ فله حكم أهل الفترة الذين لم يأتهم رسول. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

هذه الآية الكريمة تدل على أن الله - جل وعلا - الذي أحاط علمه بكل موجود ومعدوم، يعلم المعدوم الذي سبق في الأزل أنه لا يكون لو وجد كيف يكون؛ لأنه يعلم أن رد الكفار يوم القيامة إلى الدنيا مرة أخرى لا يكون، ويعلم هذا الرد الذي لا يكون لو وقع كيف يكون، كما صرح به بقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. وهذا المعنى جاء مصرحاً به في آيات أخر:

فمن ذلك: أنه تعالى سبق في علمه أن المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، لا يخرجون إليها معه ﷺ والله ثبّطهم عنها لحكمة، كما صرح به في قوله: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ أُلُوعَائِهِمْ فَبُطِئَتْهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٤٦]، وهو يعلم هذا الخروج الذي لا يكون لو وقع كيف يكون، كما صرح به تعالى في قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكَ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾... الآية [التوبة: ٤٧]. ومن الآيات الدالة على المعنى المذكور قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُورُ فِي طَغْيِهِمْ يَعَٰمَهُونَ﴾ [٧٥] [المؤمنون]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَيَحْزَنُونَكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ الآية.

صرح تعالى في هذه الآية الكريمة، بأنه يعلم أن رسوله ﷺ يحزنه ما يقوله الكفار من تكذيبه ﷺ، وقد نهاء تعالى عن هذا الحزن المفرط في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ الآية [فاطر: ٨]، وقوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٢٨]، وقوله: ﴿فَلَمَّا كَبُخَ نَفْسُكَ عَلَىٰ مَا نَادَيْتَهُمْ أَنْ يَرْكَبُوا مَعَكَ قُلْ لَا يَخْلُقُ إِلَّا بِي وَبِمَشِيئَتِي﴾ [الشعراء: ٢٢].

والباخع: هو المهلك نفسه، ومنه قول غيلان بن عقبة:

ألا أيهذا الباخع الوجد نفسه شئ نحتة عن يديه المقادر

وقوله: ﴿فَلَمَّا كَبُخَ﴾ في الآيتين يراد به النهي عن ذلك، ونظيره: ﴿فَلَمَّا كَبُخَ تَارِكٌ بِعُصَىٰ يَوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ [هود: ١٢]، أي: لا تهلك نفسك حزناً عليهم في الأول، ولا تترك بعض ما يوحى إليك في الثاني.

قوله تعالى: ﴿وَالْمَوْتُ يَبِغُثُهُمُ اللَّهُ﴾ الآية. قال جمهور علماء التفسير: المراد بالموتى في هذه الآية: الكفار، وتدل لذلك آيات من كتاب الله؛ كقوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [٢٢]، وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَتُ﴾ [فاطر: ٢٢]، وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُزِيلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ذكر في هذه الآية الكريمة: أنه قادر على تنزيل الآية التي اقترحها الكفار على رسوله، وأشار لحكمة عدم إنزالها بقوله: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وبين في موضع آخر: أن حكمة عدم إنزالها أنها لو أنزلت ولم يؤمنوا بها لنزل بهم العذاب العاجل، كما وقع بقوم صالح لما اقترحوا عليه إخراج ناقة عشراء، وبراء، جوفاء، من صخرة صماء، فأخرجها الله لهم منها بقدرته ومشيبته، فعقروها ﴿وَقَالُوا يَصْطَلِحُ أَثْنَانَا بِمَا نَعِدُنَا﴾ [الأعراف: ٧٧]، فأهلكهم الله دفعة واحدة بعذاب استئصال، وذلك في قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَإِنَّا لَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]. وبين في مواضع آخر أنه لا داعي إلى ما اقترحوا من الآيات؛ لأنه أنزل عليهم آية أعظم من جميع الآيات التي اقترحوها وغيرها، وتلك الآية هي هذا القرآن العظيم؛ وذلك في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]، فإنكاره - جل وعلا - عليهم عدم الاكتفاء بهذا الكتاب عن الآيات المقترحة يدل على أنه أعظم وأفخم من كل آية، وهو كذلك. ألا ترى أنه آية واضحة، ومعجزة باهرة، أعجزت جميع أهل الأرض، وهي باقية تتردد في أذان الخلق غضة طرية حتى يأتي أمر الله، بخلاف غيره من معجزات الرسل صلوات الله عليهم وسلامه؛ فإنها كلها مضت وانقضت.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ غَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴿٤١﴾ الآية.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن المشركين إذا أتاهم عذاب من الله، أو أتتهم الساعة أخلصوا الدعاء الذي هو مخ العباد لله وحده، ونسوا ما كانوا يشركون به؛ لعلمهم أنه لا يكشف الكروب إلا الله وحده - جل وعلا.

ولم يبين هنا نوع العذاب الدنيوي الذي يحملهم على الإخلاص لله، ولم يبين هنا أيضاً إذا كشف عنهم العذاب هل يستمرون على إخلاصهم، أو يرجعون إلى كفرهم وشركهم، ولكنه بين كل ذلك في مواضع آخر.

فبين أن العذاب الدنيوي الذي يحملهم على الإخلاص، هو نزول الكروب التي يخاف من نزلت به الهلاك؛ كأن يهيج البحر عليهم وتلتطم أمواجه، ويغلب على ظنهم أنهم سيغرقون فيه إن لم يخلصوا الدعاء لله وحده؛ كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي

الْفَالِكِ وَجَرَبَ عَلَيْهِمُ رِيحٌ طَوِيفَةٌ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَئِنْ آمَنَّا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَجْتَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعَثُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴿يونس: ٢٢، ٢٣﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقوله: ﴿وَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَالِكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلُلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ [القمان: ٣٢]... إلى غير ذلك من الآيات.

وبين أنهم إذا كشف الله عنهم ذلك الكرب، رجعوا إلى ما كانوا عليه من الشرك في مواضع كثيرة؛ كقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يَنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ٦٤]، وقوله: ﴿فَلَمَّا أَجْتَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعَثُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

وبيّن تعالى أن رجوعهم للشرك بعد أن نجاهم الله من الغرق من شدة جهلهم، وعماهم؛ لأنه قادر على أن يهلكهم في البر كقدرته على إهلاكهم في البحر، وقادر على أن يعيدهم في البحر مرة أخرى، ويهلكهم فيه بالغرق، فجراتهم عليه إذا وصلوا البر لا وجه لها؛ لأنها من جهلهم وضلالهم، وذلك في قوله: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ [٢٨] أَمْ آمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِبًا مِنْ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ ذَنْبًا نَبِيْعًا﴾ [الإسراء: ٦٦].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَىٰ وَالْعَشَىٰ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢]. نهى الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة نبيه ﷺ عن طرد ضعفاء المسلمين وفقرائهم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه. وأمره في آية أخرى أن يصبر نفسه معهم، وأن لا تعدو عيناه عنهم إلى أهل الجاه والمنزلة في الدنيا، ونهاه عن إطاعة الكفرة في ذلك وهي قوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَىٰ وَالْعَشَىٰ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنِ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [٢٨] [الكهف].

كما أمره هنا بالسلام عليهم، وبشارتهم برحمة ربهم - جل وعلا - في قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا قُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] الآية.

وبيّن في آيات أخر أن طرد ضعفاء المسلمين الذين طلبه كفار العرب من نبينا ﷺ فنهاه الله عنه، طلبه أيضاً قوم نوح من نوح، فأبى؛ كقوله تعالى عنه: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [هود: ٢٩]، وقوله: ﴿وَيَقُولُوا مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ [هود: ٣٠]، وقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٤]، وهذا من تشابه قلوب الكفار المذكور في قوله تعالى: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾. أجرى الله تعالى الحكمة بأن أكثر أتباع الرسل ضعفاء الناس؛ ولذلك لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن نبينا ﷺ: أشرف الناس يتبعونه، أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم. قال: هم أتباع الرسل.

فإذا عرفت ذلك فاعلم أنه تعالى أشار إلى أن من حكمة ذلك فتنة بعض الناس ببعض، فإن أهل المكانة والشرف والجاه يقولون: لو كان في هذا الدين خير لما سبقنا إليه هؤلاء؛ لأننا أحق منهم بكل خير، كما قال هنا: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾... الآية، إنكاراً منهم أن يمن الله على هؤلاء الضعفاء دونهم، زعماً منهم أنهم أحق بالخير منهم، وقد رد الله قولهم هنا بقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ؟﴾.

وقد أوضح هذا المعنى في آيات أخر؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، وقوله: ﴿وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَوِي قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم].

والمعنى: أنهم لما رأوا أنفسهم أحسن منازل، ومتاعاً من ضعفاء المسلمين اعتقدوا أنهم أولى منهم بكل خير، وأن أتباع الرسول ﷺ لو كان خيراً ما سبقوهم إليه. ورد الله افتراءهم هذا بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا﴾ [مريم]، وقوله: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّآ مُدْهَرِّجُهُمْ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ۚ شَارِعٍ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ الآية.

أمر الله تعالى نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يخبر الكفار، أن تعجيل العذاب عليهم الذي يطلبونه منه ﷺ ليس عنده، وإنما هو عند الله إن شاء عجله، وإن شاء أخره عنهم. ثم أمره أن يخبرهم بأنه لو كان عنده لعجله عليهم، بقوله: ﴿قُلْ لَوْ أَنِّي عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية. وبين في مواضع أخر أنهم ما حملهم على استعجال العذاب إلا الكفر والتكذيب، وأنهم إن عاينوا ذلك العذاب علموا أنه عظيم هائل لا يستعجل به إلا جاهل مثلهم؛ كقوله: ﴿وَلَكِنْ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَّا أَتَمُّ مَعْدُودَةٍ لِّيَقُولُوا مَا يَحْسِبُهُ أَلَا يَوْمُ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾﴾ [هود]، وقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُسْفِهُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨]، وقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ بَيْنَا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يونس].

وبين في موضع آخر أنه لولا أن الله حدد لهم أجلاً لا يأتيهم العذاب قبله، لعجله عليهم، وهو قوله: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

تنبيه: قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ لَوْ أَنِّي عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ

الْأَمْرُ﴾ الآية، صريح في أنه ﷺ لو كان بيده تعجيل العذاب عليهم، لعجله عليهم، مع أنه ثبت في الصحيحين من حديث عائشة ؓ: أن النبي ﷺ أرسل الله إليه ملك الجبال، وقال له: إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين - وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها - فقال ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا».

والظاهر في الجواب: هو ما أجاب به ابن كثير - ﷺ - في تفسير هذه الآية، وهو أن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبون تعجيله في وقت طلبهم تعجيله لعجله عليهم. وأما الحديث فليس فيه أنهم طلبوا تعجيل العذاب في ذلك الوقت، بل عرض عليه الملك إهلاكهم، فاختر عدم إهلاكهم. ولا يخفى الفرق بين المتعنت الطالب تعجيل العذاب وبين غيره.

قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الآية.

بين تعالى المراد بمفاتيح الغيب بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٢١]، فقد أخرج البخاري وأحمد وغيرهما عن ابن عمر، عن النبي ﷺ أن المراد بمفاتيح الغيب: الخمس المذكورة في الآية المذكورة.

والمفاتيح: الخزائن، جمع مفتاح بفتح الميم، بمعنى المخزن، وقيل: هي المفاتيح جمع مفتاح، بكسر الميم، وهو المفتاح، وتدل له قراءة ابن السمين: مفاتيح بياء بعد التاء جمع مفتاح. وهذه الآية الكريمة تدل على أن الغيب لا يعلمه إلا الله، وهو كذلك؛ لأن الخلق لا يعلمون إلا ما علمهم خالقهم - جل وعلا.

وعن عائشة ؓ، قالت: «من زعم أن رسول الله ﷺ يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]» أخرجه مسلم. والله تعالى في هذه السورة الكريمة أمره ﷺ أن يعلن للناس أنه لا يعلم الغيب، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

ولذا لما رُميت عائشة ؓ بالإفك، لم يعلم أهي بريئة أم لا، حتى أخبره الله تعالى بقوله: ﴿أَوَلَيْكَ مِزَانٌ مِّمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور: ٢٦].

وقد ذبح إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام عجله للملائكة، ولا علم له بأنهم ملائكة حتى أخبروه، وقالوا له: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠]. ولما جاءوا لوطاً لم يعلم أيضاً أنهم ملائكة، ولذا ﴿سَمِيَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧]، يخاف عليهم من أن يفعل بهم قومه فاحتشمتهم المعروفة حتى قال: ﴿لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَيْتُ إِلَىٰ زَوْجِي شَدِيدًا﴾ [هود: ٨٠]، ولم يعلم خبرهم حتى قالوا له: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنَاصِلُونَكَ﴾ [هود: ٨١].

ويعقوب ﴿٢٢﴾ ابيضت عيناه من الحزن على يوسف، وهو في مصر لا يدري خبره حتى أظهر الله خبر يوسف.

وسليمان ﴿٢٣﴾ مع أن الله سخر له الشياطين والريح، ما كان يدري عن أهل مأرب قوم بلقيس، حتى جاءه الهدهد وقال له: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَكٍ مَبْنُوعٍ...﴾ الآيات [النمل: ٢٢].

ونوح عليه وعلى نبيينا الصلاة والسلام ما كان يدري أن ابنه الذي غرق ليس من أهله الموعود بنجاتهم، حتى قال: ﴿رَبِّ إِنِّي مِنْ أَهْلِكَ وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ [هود: ٤٥]، ولم يعلم حقيقة الأمر حتى أخبره الله بقوله: ﴿قَالَ يَنْحُثِرُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّبِعْ مَا يَشَاءُ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي أَخَذْتُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

وقد قال تعالى عن نوح في سورة هود: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾ [هود: ٣١]، والملائكة عليهم الصلاة والسلام لما قال لهم: ﴿أَتُيْتُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٣٢﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا [البقرة: ٣١، ٣٢].

فقد ظهر أن أعلم المخلوقات وهم الرسل والملائكة، لا يعلمون من الغيب إلا ما علمهم الله تعالى، وهو تعالى يعلم رسله من غيبه ما شاء، كما أشار له بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقوله: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ ﴿٣٣﴾ إِلَّا مَنْ أَرَادَ مِنْ رُسُولِي... الآية [الجن: ٢٦، ٢٧].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة أن النوم وفاة. وأشار في موضع آخر إلى أنه وفاة صغرى، وأن صاحبها لم يمت حقيقة، وأنه تعالى يرسل روحه إلى بدنه حتى ينقضي أجله، وأن وفاة الموت التي هي الكبرى قد مات صاحبها؛ ولذا يمسك روحه عنده، وذلك في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٤١﴾ [الزمر].

قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ الآية. لم يبين هنا ماذا يحفظون. وبينه في مواضع آخر، فذكر أن مما يحفظونه بدن الإنسان بقوله: ﴿لَهُمْ مَعْشَرَ مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، وذكر أن مما يحفظونه جميع أعماله من خير وشر، بقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿٢٤﴾ كِرَامًا كَثِيرِينَ ﴿٢٥﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَقْعَلُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ [الانفطار]، وقوله: ﴿إِذْ يَنْفَخُ الْنَّافِثَاتُ عَنِ الْإِيمَانِ وَعَنِ الْإِيمَانِ قَعِيدٌ ﴿٢٧﴾ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ﴿٢٨﴾ [ق]، وقوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ ﴿٢٩﴾ [الزخرف].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَتْ الَّذِينَ يُخَوِّضُونَ فِي آبَائِنَا فَاغْرَضَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾. نهى الله تعالى نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة عن مجالسة الخائضين في آياته، ولم يبين كيفية خوضهم فيها التي هي سبب منع مجالستهم، ولم يذكر حكم مجالستهم هنا. وبين ذلك كله

في موضع آخر، فيبين أن خوضهم فيها بالكفر والاستهزاء بقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ الآية [النساء: ١٤٠].

وبين أن من جالسهم في وقت خوضهم فيها مثلهم في الإثم بقوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، وبين حكم من جالسهم ناسياً، ثم تذكر، بقوله هنا: ﴿وَلَمَّا يُسَيِّئْكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، كما تقدم في سورة النساء. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَا كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾... الآيات.

قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ في المواضع الثلاثة؛ محتمل لأنه كان يظن ذلك، كما زوى عن ابن عباس وغيره، ومحتمل لأنه جازم بعدم ربوبية غير الله، ومراده: هذا ربي في زعمكم الباطل، أو أنه جذب أداة استفهام الإنكار. والقرآن يبين بطلان الأول؛ وصحة الثاني. أما بطلان الأول، فالله تعالى نفى كون الشرك الماضي عن إبراهيم في قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في عدة آيات، ونفى الكون الماضي يستغرق جميع الزمن الماضي، فثبت أنه لم يتقدم عليه شرك يوماً ما.

وأما كونه جازماً موقناً بعدم ربوبية غير الله، فقد دل عليه ترتيب قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَا كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ - إلى آخره - «بالفاء» على قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُوْنُ مِنَ الْمُتَوَفِّيْنَ﴾ (٧٥) فدل على أنه قال ذلك موقناً مناظراً ومحاجاً لهم، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾... الآية، وقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ الآية.

المراد بالظلم هنا الشرك كما ثبت عن النبي ﷺ في صحيح البخاري وغيره من حديث عبد الله بن مسعود ؓ، وقد بينه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾، الآية.

قال مجاهد وغيره: هي قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطٰنًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ؟﴾ [الآية: ٨١]، وقد صدقه الله، وحكم له بالأمن والهداية، فقال: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٨١).

والظاهر شمولها لجميع احتجاجاته عليهم، كما في قوله: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾؛ لأن الأفول الواقع في الكوكب والشمس والقمر أكبر دليل وأوضح حجة على انتفاء الربوبية عنها، وقد استدل إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -، بالأفول على انتفاء الربوبية في قوله: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾، فعدم إدخال هذه الحجة في قوله:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا غَيْرُ ظَاهِرٍ، وبما ذكرنا من شمول الحجة لجميع احتجاجاته المذكورة صدر القرطبي. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. ذكر تعالى أن هؤلاء الأنبياء المذكورين في هذه السورة الكريمة لو أشركوا بالله لحبط جميع أعمالهم.

وصرح في موضع آخر بأنه أوحى هذا إلى نبينا، والأنبياء قبله - عليهم كلهم صلوات الله وسلامه -، وهو قوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَجْبَلَ عَنْكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وهذا شرط، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع، لقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ [الزخرف: ٨١]، على القول بأن «إن» شرطية، وقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَكُلٍّ﴾ [الأنبياء: ١٧]، وقوله: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [الزمر: ٤].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلَ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾. أي لا أحد أظلم ممن قال: سأُنزل مثل ما أنزل الله. ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: ٣١]. وقد بين الله تعالى كذبهم في افتراءهم هذا حيث تحدى جميع العرب بسورة واحدة منهم، كما ذكره تعالى في البقرة بقوله: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، وفي يونس بقوله: ﴿قُلْ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨]، وتحداهم في هود بعشر سور ماثلة في قوله: ﴿قُلْ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ [هود: ١٣]، وتحداهم به كله في الطور بقوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ١٦].

ثم صرح في سورة بني إسرائيل بعجز جميع الخلاق عن الإتيان بمثله في قوله: ﴿قُلْ لَنْ أَجْتَمِعَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]. فاتضح بطلان دعواهم الكاذبة.

قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ الآية.

لم يصرح هنا بالشيء الذي بسطوا إليه الأيدي، ولكنه أشار إلى أنه التعذيب بقوله: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾، وصرح بذلك في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]، وبين في مواضع آخر أنه يراد ببسط اليد التناول بالسوء، كقوله: ﴿وَيَسْطُلُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ﴾ [المتحة: ٢]، وقوله: ﴿لَنْ يَسْطُرَ إِلَيْكَ يَدَاكَ لِتَقْتُلَنِي﴾ الآية [المائدة: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكُم مَّا حَوَّلَكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ الآية. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الكفار يأتون يوم القيامة كل واحد منهم بمفرده، ليس معهم شركاؤهم. وصرح تعالى بأن كل واحد يأتي فرداً في قوله: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مریم: ٩٥]. وقوله في هذه الآية: ﴿كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي منفردين لا مال، ولا أناث، ولا رقيق، ولا خول عندكم، حفاة عراة غرلاً، أي غير مختونين، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. وقد عرفت من الآية

أن واحد الفرادى فرداً، ويقال فيه أيضاً: فرد بالتحريك، ومنه قول نابغة ذبيان:

من وحش وجرة موشى أكارعه طاوي المصير كسيف الصيقل الفرد
قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ وَصَلَ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

ذكر في هذه الآية الكريمة: أن الأنناد التي كانوا يعبدونها في الدنيا تضل عنهم يوم القيامة، وينقطع ما كان بينهم وبينها من الصلات في الدنيا، وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة جداً؛ كقوله: ﴿وَإِذَا خُتِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ وَكَانُوا بِعَادَتِهِمْ كافرين﴾ [الأحقاف]، وقوله: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم]، وقوله: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثِنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَنُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَمَأْوَسُكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن لَّصِيرَةٍ﴾ [العنكبوت]، وقوله: ﴿إِن مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَصْرِفُهُمْ أَوْ يَتَلَوَّنَهُ﴾ [الشعراء]، وقوله هنا: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] الآية.

قوله تعالى: ﴿وَجَمَلَ آيِلَ سَكَا﴾.

أي مظلماً ساجياً، ليسكن فيه الخلق فيستريحوا من تعب الكد بالنهار؛ كما بينه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ آيِلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ آيِلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُم بِضِيَاءٍ أَوْ لُجٍّ تَسْمَعُونَ﴾ [٧]، قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [٧]، وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ آيِلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧١-٧٣]، وقوله: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ يعني الليل، ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني بالنهار، ﴿وَمِن آيَاتِهِ آيِلَ وَالنَّهَارُ﴾ [نصلت: ٣٧].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ الآية.

ظاهر هذه الآية الكريمة أن حكمة خلق النجوم هي الاهتداء بها فقط؛ كقوله: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، ولكنه تعالى بين في غير هذا الموضع أن لها حكمتين آخرين غير الاهتداء بها، وهما: تزيين السماء الدنيا، ورجم الشياطين بها؛ كقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وقوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوْكَبِ﴾ [١]، وَحَفَظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ [٧]، لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلِ الْأَعْلَىٰ وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ [٨]، نُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ [٩]، إِلَّا مَن خَلَفَ الْمَنَظَفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ [١٠]﴾ [الصفات]، وقوله: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحَفَظْنَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ﴾ الآية.

لم يبين هنا كيفية إنشائهم من نفس واحدة، ولكنه بين في مواضع أخر أن كيفية: أنه خلق من تلك النفس الواحدة التي هي آدم: زوجها حواء، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا

رَجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴿النساء: ١﴾، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ الآية [الأعراف: ١٨٩].

قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْآبَظُرُ﴾ الآية.

أشار في مواضع أخر إلى أن نفى الإدراك المذكور هنا لا يقتضي نفى مطلق الرؤية، كقوله: ﴿وَجِئُوا يَوْمَ الْحُجَّةِ﴾ [٢٢] إِلَى رَبِّهَا نَاطِقَةٌ ﴿٢٣﴾ [القيامة]، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، والحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم، وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحَجُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، يفهم منه أن المؤمنين ليسوا محجوبين عنه، وهو كذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ الآية. يعني ليزعموا أن النبي ﷺ إنما تعلم هذا القرآن بالدرس والتعليم من غيره من أهل الكتاب، كما زعم كفار مكة أنه ﷺ تعلم هذا القرآن من جبر ويسار، وكنا غلامين نصرانيين بمكة، وقد أوضح الله تعالى بطلان افتراءهم هذا في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبْ وَهَذَا لِسَانُ عَرَبٍ مُّثَبِّتٌ﴾ [النحل: ١٢٣]، وقوله: ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ [٢٤]، ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [٢٥]، ﴿سَاطِئِهِ سَفَرٌ﴾ [المدثر: ١٦]، ومعنى ﴿يُؤْتَرُ﴾: يرويه محمد ﷺ عن غيره في زعمهم الباطل. وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [٤]، ﴿وَقَالُوا أَأُتِيتُكَ الْكِتَابَ أَفَرَّغْتَهُ فَمِثْلُ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [٥]، ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٤ - ٦]، إلى غير ذلك من الآيات. وفي قوله: ﴿دَرَسْتَ﴾ ثلاث قراءات سبعيات: قرأه ابن كثير، وأبو عمرو: «دَارَسْتَ» بألف بعد الدال مع إسكان السين وفتح التاء؛ من المفاعلة بمعنى: دارست أهل الكتاب ودارسوك حتى حصلت هذا العلم. وقرأه بقية السبعة غير ابن عامر: «درَسْتَ» بإسقاط الألف، مع إسكان السين وفتح التاء أيضاً، بمعنى: درست هذا على أهل الكتاب حتى تعلّمته منهم.

وقرأه ابن عامر: «دَرَسْتَ» بفتح الدال والراء والسين وإسكان التاء على أنها تاء التانيث، والفاعل ضمير عائد إلى الآيات المذكورة في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَصْرِفُ الْآيَاتِ﴾.

قال القرطبي: وأحسن ما قيل في قراءة ابن عامر أن المعنى: ولئلا يقولوا انقطعت وانمحت، وليس يأتي محمد ﷺ بغيرها. اهـ.

وقال القرطبي: ﴿وَلْيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ الواو للعطف على مضمّر؛ أي نصرّف الآيات، لتقوم الحجة وليقولوا: درست. وقيل: ﴿وَلْيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ صرفناها.

قال مقيده - عفا الله عنه -: ومعناها آيل إلى شيء واحد، ويشهد له القرآن في آيات كثيرة دالة على أنه يبين الحق واضحاً في هذا الكتاب ليهدي به قوماً، ويجعله حجة على آخرين، كقوله: ﴿لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنَذِرُ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ [مريم: ٩٧]، وقوله: ﴿قُلْ

هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴿فَصَلِّ: ٤٤﴾، وقوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيُرَدَّدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِأَنَا وَلَا يَتَّابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ﴾ [المذثر: ٣١]، كما قال هنا: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِيُبَيِّنَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. فالأشقياء يقولون: تعلمته من البشر بالدراسة وأهل العلم، والسعداء يعلمون أنه الحق الذي لا شك فيه.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه جعل لكل نبي عدوًّا، وبين هنا أن أعداء الأنبياء هم شياطين الإنس والجن. وصرح في موضع آخر أن أعداء الأنبياء من المجرمين، وهو قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمَجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]، فدل ذلك على أن المراد بالمجرمين شياطين الإنس والجن. وذكر في هذه الآية أن من الإنس شياطين، وصرح بذلك في قوله: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤]. وقد جاء الخبر بذلك مرفوعاً من حديث أبي ذر عند الإمام أحمد وغيره. والعرب تسمي كل متمرّد شيطاناً سواء كان من الجن أو من الإنس كما ذكرنا أو من غيرهما، وفي الحديث: «الكلب الأسود شيطان». وقوله: «شياطين» بدل من قوله: «عدوًّا»، أو مفعول أول لـ «جعلنا»، والثاني «عدوًّا» أي جعلنا شياطين الإنس والجن عدوًّا.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة أن إطاعة أكثر أهل الأرض ضلال، وبين في مواضع أخرى أن أكثر أهل الأرض غير مؤمنين، وأن ذلك واقع في الأمم الماضية، كقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]، وقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٢٣]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٦١]، وقوله: ﴿إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨]، إلى غيرها من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية.

التحقيق أنه فصله لهم بقوله: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَّا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَائِفَةٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾... [الآية ١٤٥]. ومعنى الآية؛ أي شيء يمنعكم أن تأكلوا ما ذكيتكم، وذكرتم عليه اسم الله، والحال أن الله فصل لكم المحرم أكله عليكم في قوله: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَّا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾... الآية، وليس هذا منه.

وما يزعمه كثير من المفسرين من أنه فصله لهم بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾... [الآية [المائدة: ٣]، فهو غلط؛ لأن قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ من سورة المائدة، وهي من آخر ما نزل من القرآن بالمدينة، وقوله: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ من سورة الأنعام، وهي مكية. فالحق هو ما ذكرنا. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مَجْرِمِهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ الآية.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أنه جعل في كل قرية أكبر المجرمين منها ليمكروا فيها، ولم يبين المراد بالأكابر هنا، ولا كيفية مكروهم. وبين جميع ذلك في مواضع آخر: فبين أن مجرميها الأكابر هم أهل الترف، والنعمة في الدنيا، بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبا: ٢٦]، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّتٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، ونحو ذلك من الآيات.

وبين أن مكر الأكابر المذكور: هو أمرهم بالكفر بالله تعالى، وجعل الأنداد له، بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ [سبا: ٢٣]، وقوله: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ [٢٣]، وقالوا: لَا نَذُرُّ إِلَّا الْهَتَكَ﴾ الآية [نوح: ٢٢، ٢٣]. وأظهر أوجه الإعراب المذكورة في الآية عندي اثنان:

أحدهما: أن «أكابر» مضاف إلى مجرميها، وهو المفعول الأول لجعل التي بمعنى صير، والمفعول الثاني هو الجار والمجرور، أعني ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾. وثانيهما: أن «مجرميها» مفعول أول، و«أكابر» مفعول ثان، أي جعلنا مجرميها أكابرها، والأكابر جمع الأكبر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾.

يعنون أنهم لن يؤمنوا حتى تأتيهم الملائكة بالرسالة، كما أتت الرسل، كما بينه تعالى في آيات آخر، كقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْآلَتُكُمُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ الآية [الفرقان: ٢١]، وقوله: ﴿أَوْ تَأْتَىٰ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةُ قِيلًا﴾ [الاسراء: ٩٢]، إلى غير ذلك من الآيات. قوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ الآية.

جاء عن النبي ﷺ أنه سئل عن هذه الآية الكريمة، فقيل: كيف يشرح صدره يا رسول الله ﷺ؟ قال: «نور يقذف فيه، فينشرح له، وينفسح». قالوا: فهل لذلك من أمانة يعرف بها؟ قال: «الإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت». ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿يَمْعَثِرُ الْإِنِّ وَالْإِنِّسَ الَّذِي يَأْتِيَكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ الآية. قال بعض العلماء: المراد بالرسول من الجن نذرهم الذين يسمعون كلام الرسل، فيبلغونه إلى قومهم. ويشهد لهذا أن الله ذكر أنهم من الذين يندرون لقومهم في قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذِيرِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧].

وقال بعض العلماء: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من مجموعكم الصادق بخصوص الإنس؛ لأنه لا رسل من الجن، ويستأنس لهذا القول بأن القرآن ربما أطلق فيه المجموع مراداً بعضه، كقوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦]، وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤]، مع أن العاقر واحد منهم، كما بينه بقوله: ﴿فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَطَعْنَهُ فَقَعَرَهُ﴾ [القمر: ١٦].

واعلم أن ما ذكره الحافظ ابن كثير رحمته الله وغيره من أجلاء العلماء في تفسير هذه الآية، من أن قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن]، يراد به البحر الملح خاصة دون العذب: غلط كبير، لا يجوز القول به؛ لأنه مخالف مخالفة صريحة لكلام الله تعالى؛ لأن الله ذكر البحرين الملح والعذب، بقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢]، ثم صرح باستخراج اللؤلؤ والمرجان منهما جميعاً بقوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢]، والحلية المذكورة هي: اللؤلؤ والمرجان، فقصره على الملح مناقض للآية صريحاً، كما ترى.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾.

النفي في هذه الآية الكريمة منصب على الجملة الحالية، والمعنى أنه لا يهلك قوماً في حال غفلتهم، أي عدم إنذارهم، بل لا يهلك أحداً إلا بعد الإعذار والإنذار على السنة الرسل عليهم صلوات الله وسلامه؛ كما بين هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقوله: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجْمٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقوله: ﴿وَلَنْ مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤٠]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوعَ﴾ [النحل: ٣٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّنَّا عَمَلُوًّا﴾.

بين في موضع آخر: أن تفاضل درجات العاملين في الآخرة أكبر، وأن تفضيلها أعظم من درجات أهل الدنيا، وهو قوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء].

قوله تعالى: ﴿وَأَتَاوْا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِمُ﴾ الآية.

اختلف العلماء في المراد بهذا الحق المذكور هنا، وهل هو منسوخ أو لا؟ فقال جماعة من العلماء: هذا الحق هو الزكاة المفروضة، وممن قال بهذا: أنس بن مالك، وابن عباس، وطاوس، والحسن، وابن زيد، وابن الحنفية، والضحاك، وسعيد بن المسيب، ومالك. نقله عنهم القرطبي، ونقله ابن كثير عن أنس وسعيد وغيرهما. ونقله ابن جرير عن ابن عباس، وأنس، والحسن، وجابر بن زيد، وسعيد بن المسيب، وقتادة، وطاوس، ومحمد بن الحنفية، والضحاك، وابن زيد.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ الآية. ذكر في هذه الآية الكريمة أنهم سيقولون: لو شاء الله ما أشركنا، وذكر في غير هذا الموضع أنهم قالوا ذلك بالفعل؛ كقوله في النحل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]، وقوله في الزخرف: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠]. ومرادهم أن الله لما كان قادراً على منعهم من الإشراك، ولم يمنعه منه أن ذلك دليل

على رضاه بشرهم، ولذلك كذبهم هنا بقوله: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَوْلَا أَنْ تَكْفُرُوا بِالْآيَةِ... الآية، وكذبهم في الزخرف بقوله: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠]، وقال في الزمر: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧].

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الآية. الظاهر في قوله: ما حرم ربكم عليكم، أنه مضمن معنى ما وصاكم به فعلاً، أو تركاً؛ لأن كلاً من ترك الواجب وفعل الحرام، حرام؛ فالمعنى وصاكم ألا تشركوا، وأن تحسنوا بالوالدين إحساناً.

وقد بين تعالى أن هذا هو المراد بقوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ﴾ الآية. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ هُمْ﴾ الآية.

نهى الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن قتل الأولاد من أجل الفقر الواقع بالفعل؛ ونهى في سورة الإسراء عن قتلهم خشية الفقر المترقب المخوف منه، مع أنه غير واقع في الحال بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا تَكُونُوا﴾ [الإسراء: ٣١]. وقد أوضح ﷺ معناه حين سألته عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أي الذنب أعظم؟ فقال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»، قال: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»، قال: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

وأخذ بعض أهل العلم من هذه الآية منع العزل؛ لأنه وأد خفي. وحديث جابر: «كنا نعزل والوحي ينزل»، يدل على جوازه. لكن قال جماعة من أهل العلم: إنه لا يجوز عن الحرية إلا بإذنها، ويجوز عن الأمة بغير إذنها، والإملاق: الفقر، وقال بعض أهل العلم: الإملاق: الجوع.

وحكاية النقاش عن مؤرج، وقيل: الإملاق: الإنفاق، يقال: أملك ماله بمعنى أنفقه، وذكر أن علياً قال لامرأته: أملقي ما شئت من مالك.

وحكي هذا القول عن منذر بن سعيد، ذكره القرطبي، وغيره، والصحيح الأول. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ الآية.

قد يتوهم غير العارف من مفهوم مخالفة هذه الآية الكريمة، أعني مفهوم الغاية في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أنه إذا بلغ أشده فلا مانع من قربان ماله بغير التي هي أحسن، وليس ذلك مراداً بالآية، بل الغاية ببلوغ الأشد يراد بها أنه إن بلغ أشده يدفع إليه ماله، إن أونس منه الرشد، كما بينه تعالى بقوله: ﴿فَإِنْ ءَاسَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦].

والتحقيق: أن المراد بالأشد في هذه الآية البلوغ، بدليل قوله تعالى: ﴿إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ ءَاسَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦].

والبلوغ يكون بعلامات كثيرة: كالإنبات، واحتلام الغلام، وحيض الجارية، وحملها، وأكثر أهل العلم على أن سن البلوغ خمس عشرة سنة، ومن العلماء من قال:

إذا بلغت قامته خمسة أشبار، فقد بلغ، ويروى هذا القول عن علي، وبه أخذ الفرزدق في قوله يرثي يزيد بن المهلب:

ما زال مذ عقدت يده إزاره . . . فسمما فأدرك خمسة الأشبار
يدني خوافق من خوافق تلتقي . . . في ظل معتبط الغبار مثار
والأشد، قال بعض العلماء: هو واحد لا جمع له كالأنك، وهو الرصاص،
وقيل: واحده شند، كفلس وأفلس، قاله القرطبي وغيره، وعن سيبويه أنه جمع شدة،
ومعناه حسن؛ لأن العرب تقول: بلغ الغلام شدته، إلا أن جمع الفعل فيه على أفعل
غير معهود، كما قاله الجوهري. وأما أنعم، فليس جمع نعمة، وإنما هو جمع نعم، من
قولهم بؤس ونعم، قاله القرطبي. وقال أيضاً: وأصل الأشد من شد النهار إذا ارتفع،
يقال: أتيته شد النهار، وكان محمد بن محمد الضبي ينشد بيت عترة:

عهدي به شد النهار كأنما خضب اللبان ورأسه بالعظم
وقال الآخر:

تطيف به شد النهار طعينة طويلة أنقاء اليدين سحوق
قال مقبده - عفا الله عنه -: ومنه قول كعب بن زهير:

شد النهار ذراعاً عيطل نصف قامت فجوابها نكد مثاكيل
فقوله: «شد النهار»، يعني وقت ارتفاعه، وهو بدل من اليوم في قوله قبله:

يومنا يظل به الحرباء مصطخداً كأن ضاحيه بالشمس محلول
فشد النهار بدل من قوله «يوماً»، بدل بعض من كل، كما أن قوله: «يوماً» بدل
من «إذا» في قوله قبل ذلك:

كأن أوب ذراعيها إذا عترقت وقد تلفع بالقور العساقيل

لأن الزمن المعبر عنه «بإذا» هو بعينه اليوم المذكور في قوله «يوماً يظل» البيت.
ونظيره في القرآن، قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٢٢﴾﴾
[النازعات]، وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَافَةُ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ يَقْرَأُ الرَّءُفُ ﴿٢٤﴾﴾ . . . الآية [عبس: ٣٣، ٣٤]،
وإعراب أبيات كعب هذه يدل على جواز تداخل البدل، وقوله: «ذراعاً عيطل» خبر كأن
في قوله: «كأن أوب ذراعيها» البيت.

وقال السدي: الأشد ثلاثون سنة، وقيل: أربعون سنة، وقيل: ستون سنة، ولا
يخفى أن هذه الأقوال بعيدة عن المراد بالآية كما بينا، وإن جازت لغة، كما قال
سحيم بن وثيل:

أخو خمسين مجتمع أشدى ونجذني مداورة الشؤون

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. أمر تعالى في هذه الآية الكريمة بإيفاء الكيل والميزان بالعدل، وذكر أن من أخلّ بإيفائه من غير قصد منه لذلك، لا حرج عليه لعدم قصده، ولم يذكر هنا عقاباً لمن تعمد ذلك، ولكنه توعد بالويل في موضع آخر، ووبخه بأنه لا يظن البعث ليوم القيامة، وذلك في قوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١١ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝١٢ وَإِذَا كَالَهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝١٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝١٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالِينَ ۝١٦﴾ [المطففين].

وذكر في موضع آخر أن إيفاء الكيل والميزان خير لفاعله، وأحسن عاقبة، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الَّتِي تَقِيمُ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝١٧﴾ [الإسراء].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾. أمر تعالى في هذه الآية الكريمة بالعدل في القول، ولو كان على ذي قرابة، وصرح في موضع آخر بالأمر بذلك، ولو كان على نفسه أو والديه، وهو قوله تعالى: ﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

قوله تعالى: ﴿وَبَهِّدِ اللَّهَ أَوْفُوا﴾ الآية. أمر تعالى في هذه الآية الكريمة بالإيفاء بعهد الله، وصرح في موضع آخر أن عهد الله سيسأل عنه يوم القيامة، بقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، أي عنه.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ الآية. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن من حكم إنزال القرآن العظيم قطع عذر كفار مكة؛ لثلاثاً يقولوا: لو أنزل علينا كتاب لعلنا به، ولكنا أهدى من اليهود والنصارى، الذين لم يعملوا بكتبهم. وصرح في موضع آخر أنهم أقسموا على ذلك، وأنه لما أنزل عليهم ما زادهم نزوله إلا نفوراً وبعداً عن الحق، لاستكبارهم ومكرهم السيئ، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ الْإِنْمَىٰ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤١ أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكُرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۝٤٢﴾ [فاطر: ٤٢، ٤٣].

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ الآية.

قال بعض العلماء: إن هذا الفعل - أعني صدف - في هذه الآية لازم، ومعناه أعرض عنها، وهو مروي عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة.

وقال السدي: «صدف» في هذه الآية متعدية للمفعول، والمفعول محذوف، والمعنى أنه صدّ غيره عن اتباع آيات الله، والقرآن يدل لقول السدي؛ لأن إعراض هذا الذي لا أحد أظلم منه عن آيات الله صرح به في قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾، إذ لا إعراض أعظم من التكذيب، فدل ذلك على أن المراد بقوله: ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾، أنه صدّ غيره عنها فصار جامعاً بين الضلال والإضلال.

وعلى القول الأول فمعنى «صدف» مستغنى عنه بقوله: «كذب»، ونظير الآية على

القول الذي يشهد له القرآن - وهو قول السدي - قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾،
اه. وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ الآية [النحل: ٨٨].

وقد يوجه قول ابن عباس وقتادة ومجاهد بأن المراد بتكذيبه، وإعراضه؛ أنه لم
يؤمن بها قلبه، ولم تعمل بها جوارحه، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا سَلَٰى وَلَٰكِنْ
كَذَّبَ وَقَتَلَ﴾ [القيامة]، ونحوها من الآيات الدالة على اشتغال الكافر على التكذيب
بقلبه، وترك العمل بجوارحه. قال ابن كثير في تفسيره، بعد أن أشار إلى هذا: ولكن
كلام السدي أقوى وأظهر، والله أعلم، اه.

وإطلاق «صدف» بمعنى أعرض كثير في كلام العرب، ومنه قول أبي سفيان بن الحارث:
عجبت لحكم الله فينا وقد بدا له صدفنا عن كل حق منزل
وروي أن ابن عباس أشد بيت أبي سفيان هذا لهذا المعنى، ومنه أيضاً قول ابن الرقاع:
إذا ذكرن حديثاً قلن أحسنه وهنّ عن كل سوء يتقى صدف
أي: معروضات.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْمَلَأِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ الآية.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة إتيان الله - جل وعلا - وملائكته يوم القيامة،
وذكر ذلك في موضع آخر، وزاد فيه أن الملائكة يجيئون صفوفاً، وهو قوله تعالى:
﴿وَبَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر]، وذكره في موضع آخر، وزاد فيه أنه - جل
وعلا - يأتي في ظلل من الغمام، وهو قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي
ظُلُلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَأِكَةُ﴾ ... الآية [البقرة: ٢١٠]، ومثل هذا من صفات الله تعالى التي
وصف بها نفسه يمر كما جاء ويؤمن بها، ويعتقد أنه حق، وأنه لا يشبه شيئاً من صفات
المخلوقين، فسبحان من أحاط بكل شيء علماً ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا
يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ الآية. قال بعض العلماء: المراد بالنسك
هنا: النحر؛ لأن الكفار كانوا يتقربون لأصنامهم بعبادة من أعظم العبادات: هي النحر،
فأمر الله تعالى نبيه أن يقول إن صلاته ونحره كلاهما خالص لله تعالى، ويدل على هذا
قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر]، وقال بعض العلماء: النسك جميع
العبادات، ويدخل فيه النحر. وقال بعضهم: المراد بقوله: «وانحر» وضع اليد اليمنى
على اليسرى تحت النحر في الصلاة، والله تعالى أعلم.

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأعراف

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ الآية.

قال مجاهد، وقتادة، والسدي: «حرج» أي شك؛ أي لا يكن في صدرك شك في كون هذا القرآن حقاً، وعلى هذا القول فالآية، كقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧] وقوله: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٦٠] وقوله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أُنزِلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِّ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٤٤].

والممتري: هو الشاك؛ لأنه مفتعل من المرية وهي الشك، وعلى هذا القول فالخطاب للنبي ﷺ.

والمراد نهى غيره عن الشك في القرآن، كقول الراجز:

* إياك أعني واسمعي يا جارة *

وكقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءِثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]، وقوله: ﴿لَيْنَ أَشْرَكَتَ لِيَحِبِّطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقوله: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ ... الآية [البقرة: ١٢٠]. ومعلوم أنه ﷺ لا يفعل شيئاً من ذلك، ولكن الله يخاطبه ليوجه الخطاب إلى غيره في ضمن خطابه ﷺ.

وجمهور العلماء: على أن المراد بالحرَج في الآية الضيق؛ أي: لا يكن في صدرك ضيق عن تبليغ ما أمرت به لشدة تكذيبهم لك؛ لأن تحمل عداوة الكفار، والتعرض لبطشهم مما يضيق به الصدر، وكذلك تكذيبهم له ﷺ مع وضوح صدقه بالمعجزات الباهرات مما يضيق به الصدر. وقد قال ﷺ: «إِذَا يَثْلَغُوا رَأْسِي فِيدَعُوهُ خَبْرَةً»، أخرجه مسلم، والثغ: الشدخ، وقيل ضرب الرطب باليابس حتى يشدخ، وهذا البطش مما يضيق به الصدر.

ويدل على هذا الوجه الأخير في الآية قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَاقَ بِهِ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧]، وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ نَفْسَكَ عَلَىٰ ءِثَرِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤].

ويؤيد الوجه الأخير في الآية أن الحرج في لغة العرب: الضيق، وذلك معروف في كلامهم، ومنه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١]، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقوله: ﴿يَجْعَلُ صَدْرُ صَاحِبٍ حَرْجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]؛ أي شديد الضيق، إلى غير ذلك من الآيات، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة، أو جميل:

فخرجت خوف يمينها فتبسمت
وقول العرجي:

عوجي علينا ربة الهودج إنك إلا تفعلني تحرجي
والمراد بالإحراج في البيتين: الإدخال في الحرج، بمعنى الضيق كما ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿لِنُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. لم يبين هنا المفعول به لقوله: ﴿لِنُنْذِرَ﴾، ولكنه بيّنه في مواضع أخرى؛ كقوله: ﴿وَنُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا﴾ [مريم: ٩٧]، وقوله: ﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ [يس: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات، كما أنه بين المفعول الثاني للإنذار في آيات أخرى؛ كقوله: ﴿لِنُنْذِرَ بِأَسَا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: ٢]، وقوله: ﴿فَأَنْذَرْتُمْ نَارًا تَلْقَٰئُ﴾ [الليل: ٤٠]، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبا: ٤٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد جمع تعالى في هذه الآية الكريمة بين الإنذار والذكرى في قوله: ﴿لِنُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فالإنذار للكفار، والذكرى للمؤمنين، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿فَأَنصَحُوا بِسَنتِهِ لِيَسْلُطَ عَلَيْكُمْ رَسُولُهُ مَنِّي وَأَنصَحُوا لِرَبِّكُمْ وَأَنصَحُوا لِنَفْسِكُمْ وَأَنصَحُوا لِمَن يَكُونُ فِيكُمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنْ لَّدُنَّ﴾ [مريم: ٩٧]، وقوله: ﴿وَذِكْرٌ فَإِنَّ الْأَذْكَرَ نَفْعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

ولا ينافي ما ذكرنا - من أن الإنذار للكفار، والذكرى للمؤمنين - أنه قصر الإنذار على المؤمنين دون غيرهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١]؛ لأنه لما كان الانتفاع بالإنذار مقصوراً عليهم، صار الإنذار كأنه مقصور عليهم؛ لأن ما لا نفع فيه فهو كالعدم.
ومن أساليب اللغة العربية: التعبير عن قليل النفع بأنه لا شيء.

وحاصل تحرير المقام في هذا المبحث: أن الإنذار يطلق في القرآن إطلاقين:

أحدهما: عام لجميع الناس؛ كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُورَ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١]، وقوله: ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وهذا الإنذار العام: هو الذي قصر على المؤمنين قصراً إضافياً في قوله: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾... الآية [يس: ١١]؛ لأنهم هم المستفعدون به دون غيرهم.

وثانيهما: إنذار خاص بالكفار؛ لأنهم هم الواقعون فيما أنذروا به من النكال والعذاب، وهو الذي يذكر في القرآن مبيناً أنه خاص بالكفار دون المؤمنين كقوله: ﴿لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا﴾ [مريم: ٩٧]، وقوله هنا: ﴿لِنُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، اهـ.

والإنذار في اللغة العربية: الإعلام المقترن بتهديد، فكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذاراً.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِّنْ قَرَبٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأَسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ فَايَلُوتُ﴾. خوف الله تعالى في هذه الآية الكريمة الكفار الذين كذبوه ﷺ، بأنه أهلك كثيراً من القرى بسبب

تكذيبهم الرسل، فمنهم من أهلكها بياتاً، أي ليلاً، ومنهم من أهلكها وهم قائلون، أي في حال قيلولتهم، والقيلولة: الاستراحة وسط النهار. يعني: فاحذروا تكذيب رسولي ﷺ لئلا أنزل بكم مثل ما أنزلت بهم. وأوضح هذا المعنى في آيات أخرى كقوله: ﴿وَلَقَدْ أَسْنَهَيْتُمْ بِرُسُلِي مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام، وقوله: ﴿فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا تَارِيَةُ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مَعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾ [الحج]، وقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكَنُهَا لَمْ تَشْكَنْ مِنْ بَدْوِهَا إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصاص]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [محمد: ١٠]، ثم بين أنه يريد تهديدهم بذلك، بقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ أَثْلًا﴾ [محمد: ١٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد هدد تعالى أهل القرى بأن يأتيهم عذابه ليلاً في حالة النوم، أو ضحى في حالة اللعب، في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [٧] أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ [٨]. وهدد أمثالهم من الذين مكروا السيئات بقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [٩] أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل].

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَتُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [٥].

يبين تعالى في هذه الآية الكريمة أن تلك القرى الكثيرة التي أهلكها في حال البيات، أو في حال القيلولة، لم يكن لهم من الدعوى إلا اعترافهم بأنهم كانوا ظالمين.

وأوضح هذا المعنى في قوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [١١] فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَانَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ [١٢] لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكَلُونَ﴾ [١٣] قَالُوا يَبُولْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [١٤] فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَبِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٥].

قال ابن جرير رحمه الله: في هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ: «ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم»، حدثنا بذلك ابن حميد، حدثنا جرير عن أبي سنان، عن عبد الملك بن ميسرة الزراد قال: قال عبد الله بن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم»، قال: قلت لعبد الله: كيف يكون ذلك؟ قال: فقرأ هذه الآية: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَتُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [٥].

قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٦]. لم يبين هنا الشيء المسؤول عنه المرسلون، ولا الشيء المسؤول عنه الذين أرسل إليهم.

وبين في مواضع أخرى أنه يسأل المرسلين عما أجابتهم به أمهم، ويسأل الأمم عما أجابوا به رسلهم.

قال في الأول: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩].

وقال في الثاني: ﴿وَيَوْمَ يَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٥] [القصص].

وبين في موضع آخر أنه يسأل جميع الخلق عما كانوا يعملون، وهو قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٩٢] ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

وهنا إشكال معروف: وهو أنه تعالى قال هنا: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [١] وقال أيضاً: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٩٢] ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر]، وقال: ﴿وَقَفُّوهُمْ إِنْهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [١٢] [الصافات]، وهذا صريح في إثبات سؤال الجميع يوم القيامة، مع أنه قال: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]، وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنِشْ وَلَا جَنَّا﴾ [١٦] [الرحمن].

وقد بينا وجه الجمع بين الآيات المذكورة في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) وسنزيده إيضاحاً هنا إن شاء الله تعالى.

اعلم أولاً: أن السؤال المنفي في الآيات المذكورة أخص من السؤال المثبت فيها؛ لأن السؤال المنفي فيها مقيد بكونه سؤالاً عن ذنوب خاصة؛ فإنه قال: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]، فخصه بكونه عن الذنوب، وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنِشْ وَلَا جَنَّا﴾ [١٦] [الرحمن]، فخصه بذلك أيضاً، فيتضح من ذلك أن سؤال الرسل والموءودة مثلاً ليس عن ذنب فعلوه فلا مانع من وقوعه؛ لأن المنفي خصوص السؤال عن ذنب، ويزيد ذلك إيضاحاً قوله تعالى: ﴿لَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا مِن دِينِهِمْ﴾ [١٦] الآية [الأحزاب: ٨]، وقوله بعد سؤاله لعيسى المذكور في قوله: ﴿وَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [١٦] الآية [المائدة: ١١٦]، ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [١٦] الآية [المائدة: ١١٩]، والسؤال عن الذنوب المنفي في الآيات: المراد به سؤال الاستخبار والاستعلام؛ لأنه - جل وعلا - محيط علمه بكل شيء، ولا ينافي نفى هذا النوع من السؤال ثبوت نوع آخر منه هو سؤال التوبيخ والتقريع؛ لأنه نوع من أنواع العذاب، ويدل على هذا أن سؤال الله للكفار في القرآن كله توبيخ وتقريع؛ كقوله: ﴿وَقَفُّوهُمْ إِنْهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [١٢] ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ﴾ [١٥] [الصافات]، وقوله: ﴿أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [١٦] [الطور]، إلى غير ذلك من الآيات، وبإقافي أوجه الجمع مبين في كتابنا المذكور - والعلم عند الله تعالى -.

قوله تعالى: ﴿فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ عِلَلَهُمْ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [٧].

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه يقص على عباده يوم القيامة ما كانوا يعملونه في الدنيا، وأخبرهم بأنه - جل وعلا - لم يكن غائباً عما فعلوه أيام فعلهم له في دار الدنيا، بل هو الرقيب الشهيد على جميع الخلق، المحيط علمه بكل ما فعلوه من صغير وكبير، وجليل وحقيق، وبين هذا المعنى في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى

ثَلَاثَةَ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ [المجادلة: ٧]، وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٨﴾﴾ [يونس: ٨].

تنبيه: في هذه الآية الكريمة الرد الصريح على المعتزلة النافين صفات المعاني، القائلين: إنه تعالى عالم بذاته، لا بصفة قامت بذاته، هي العلم، وهكذا في قولهم: قادر، مريد، حي، سميع، بصير، متكلم، فإنه هنا أثبت لنفسه صفة العلم بقوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ بَعْلَهُمْ﴾، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهُ يَعْزِمُهُ﴾... الآية [النساء: ١٦٦]. وهي أدلة قرآنية صريحة في بطلان مذهبهم الذي لا يشك عاقل في بطلانه وتناقضه.

قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾.

يبين تعالى في هذه الآية الكريمة أن وزنه للأعمال يوم القيامة حق، أي لا جور فيه، ولا ظلم، فلا يزداد في سيئات مُسيء، ولا ينقص من حسنات محسن.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعُفْهَا... الآية [النساء: ٤٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا يَسْأَلُونَ ﴿٩﴾﴾.

يبين تعالى في هذه الآية الكريمة: أن من ثقلت موازينهم أفلحوا، ومن خفت موازينهم خسروا بسبب ظلمهم، ولم يفصل الفلاح والخسران هنا.

وقد جاء في بعض المواضع ما يدل على أن المراد بالفلاح هنا كونه في عيشة راضية في الجنة، وأن المراد بالخسران هنا كونه في الهاوية من النار، وذلك في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٩﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأَمَّهُمْ هَكَوِيَةٌ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿١٢﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١٣﴾﴾ [القارعة: ١٣].

وبين أيضاً خسران من خفت موازينه بقوله: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٤﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمْ أُنَارٌ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١٥] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً﴾ الآية. لم يبين هنا كيفية هذه المعاش التي جعل لنا في الأرض، ولكنه بين ذلك في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾

﴿٢٦﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَبْغَيْنَا فِيهَا جَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَبَّأْنَا وَقْصَبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيَّنَّاهَا ﴿٢٩﴾ وَجَدَّيْنِ غَلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَكَّهُنَّ أَبَا ﴿٣١﴾ مَمْلَأًا لَكُمْ وَلَا تَعْمِيَكُمْ ﴿٣٢﴾ [عبس].

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا شَوَقْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُبْرِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ [السجدة]، وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٣٢﴾ [طه].

وذكر كثيراً من ذلك في سورة النحل؛ كقوله: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٥﴾ [النحل]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾. قال بعض العلماء: معناه: ما منعك أن تسجد، و«لا» صلة، ويشهد لهذا قوله تعالى في سورة «ص»: ﴿قَالَ يَبْنَطُ مَا مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾ [ص: ٧٥]، وقد أوضحنا زيادة لفظة «لا» وشواهد ذلك من القرآن، ومن كلام العرب في سورة البلد، في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾.

ذكر في هذه الآية الكريمة: أن إبليس - لعنه الله - خلق من نار، وعلى القول أن إبليس هو الجان الذي هو أبو الجن، فقد زاد في مواضع أخر أوصافاً للنار التي خلقه منها، من ذلك أنها نار السموم، كما في قوله: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ ﴿٧٧﴾ [الحجر]، ومن ذلك أنها خصوص المارج، كما في قوله: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنَ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ ﴿٦٥﴾ [الرحمن]، والمارج أخص من مطلق النار؛ لأنه اللهب الذي لا دخان فيه.

وسميت نار السموم؛ لأنها تنفذ في مسام البدن لشدة حرها، وفي (صحيح مسلم) عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم». ورواه عنها أيضاً الإمام أحمد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ ﴿١٣﴾.

يبين تعالى في هذه الآية الكريمة: أنه عامل إبليس اللعين بنقيض: قصده؛ حيث كان قصده التعظيم والتكبر، فأخرجه الله صاغراً حقيراً ذليلاً، متصفاً بنقيض ما كان يحاوله من العلو والعظمة، وذلك في قوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾، والصغار: أشد الذل والهوان، وقوله: ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مُنْحَرًا﴾، ونحو ذلك من الآيات، ويفهم من الآية، أن المتكبر لا ينال ما أراد من العظمة والرفعة، وإنما يحصل له نقيض ذلك؛ وصرح تعالى بهذا المعنى في قوله: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِيَكْفُرِينَ﴾ [غافر: ٥٦].

وبين في مواضع أخر كثيراً من العواقب السيئة التي تنشأ عن الكبر - أعادنا الله والمسلمين منه - فمن ذلك أنه سبب لصرف صاحبه عن فهم آيات الله، والاهتداء بها كما في قوله تعالى: ﴿سَاءَ صِرْفٌ عَلَى الَّذِينَ يَنْكَرُونَ فِي الْأَرْضِ بَغْيَ الْحَقِّ﴾، ومن ذلك أنه من

أسباب الشواء في النار، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَمُوتٌ بَلْ يُسْكَرُونَ﴾ [الزمر: ٦٠]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥]، ومن ذلك أن صاحبه لا يحبه الله تعالى، كما في قوله: ﴿لَا جَزَاءَ لَكَ اللَّهُ بِمَا يَشْكُرُونَ وَمَا يُقِلُّونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢]، ومن ذلك أن موسى استعاذ من المتصف به، ولا يستعاذ إلا مما هو شرّ، كما في قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بَيُّورِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٧]، إلى غير ذلك من نتائج السيئة، وعواقبه الوخيمة، ويفهم من مفهوم المخالفة في الآية: أن المتواضع لله - جل وعلا - يرفعه الله.

وقد أشار تعالى إلى مكانة المتواضعين له عنده في مواضع أخرى؛ كقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَلَى الْآرِضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٢]، وقد صح عنه عليه السلام أنه قال: «إنه أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»، وقد قال الشاعر:

تواضع تكن كالبدور تبصر وجهه على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالمدخان يعلو بنفسه إلى صفحات الجو وهو ضيع
وقال أبو الطيب المتنبي:

ولو لم يعمل إلا ذو محل تعالى للجيش وانحط القتام
قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [٤] قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٥﴾.

لم يبين هنا في سورة الأعراف الغاية التي أنظره إليها، وقد ذكرها في «الحجر» و«ص» مبيناً أن غاية ذلك الإنظار هو يوم الوقت المعلوم؛ لقوله: في سورة «الحجر» و«ص»: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [٧] إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨﴾ [الحجر: ٨]، فقد طلب الشيطان الإنظار إلى يوم البعث، وقد أعطاه الله الإنظار إلى يوم الوقت المعلوم.

وأكثر العلماء يقولون: المراد به وقت النفخة الأولى. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرُونَ﴾. هذا الذي ذكر إبليس أنه سيوقع بني آدم فيه، قاله ظناً منه أنهم سيطيعونه فيما يدعوهم إليه حتى يهلكهم، وقد بين تعالى في سورة «سبا» أن ظنه هذا صدق فيهم، بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ﴾ [سبا: ٢٠]، كما تقدمت الإشارة إليه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مُدْحَرًا لَنْ نَعَمَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [١٨].

بين في هذه الآية الكريمة أنه قال لإبليس: اخرج منها في حال كونك مذموماً مدحوراً، والمذموم: المعيب أو الممقوت، والمدحور: المبعد عن الرحمة، المطرود، وأنه أوعده بملء جهنم منه، ومن تبعه. وأوضح هذا المعنى في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ [١٩] لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ نَعَمَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٥﴾ [ص: ٢٥]،

وقوله: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَلَيْتَ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَوْفُورًا ۝١٦﴾ وَأَسْتَفْزِزُ مِنْ أَسْتَلَمَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَلِتِلْبِ عَلَيْهِمْ بِحَبْلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِندَهُمْ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ الشَّيْطَانِ إِلَّا غُورًا ۝١٧﴾ [الإسراء]، وقوله: ﴿فَكَبِّبُوا فِيهَا لَهُمُ وَالْقُلُوبِ ۝١٨﴾ وَخُودُ وَإِلَيْسَ أَجْمَعُونَ ۝١٩﴾ [الشعراء]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْنَيْتُكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ﴾.

حذر تعالى في هذه الآية الكريمة بني آدم أن يفتنهم الشيطان كما فتن أبويهم، وصرح في موضع آخر، أنه حذر آدم من مكر إبليس قبل أن يقع فيما وقع فيه، ولم يُنَجِّه ذلك التحذير من عدوه، وهو قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَتَقَادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ۝٢٠﴾ [طه].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ الآية.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن الكفار إذا فعلوا فاحشة، استدلوا على أنها حق وصواب، بأنهم وجدوا آباءهم يفعلونها، وأنهم ما فعلوها إلا لأنهم صواب ورشد.

وبين في موضع آخر: أن هذا واقع من جميع الأمم، وهو قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أَمْرٍ وَإِنَّا عَلَىٰ مَا تَأْتِيهِمْ مُّقْتَدُونَ ۝٢١﴾ [الزخرف].

ورد الله عليهم هذا التقليد الأعمى في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَتْ آبَاءُؤُهُمْ لَا يَسْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، وقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَتْ آبَاءُؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]، وقوله: ﴿قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٢٤]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ۝٢٢﴾ فَهُمْ عَلَىٰ مَا تَأْتِيهِمْ يَهْرَعُونَ ۝٢٣﴾ [الصافات: ٦٩، ٧٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾.

في هذه الآية الكريمة للعلماء وجهان من التفسير:

الأول: أن معنى ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾؛ أي كما سبق لكم في علم الله من سعادة أو شقاوة، فإنكم تصيرون إليه؛ فمن سبق له العلم بأنه سعيد صار إلى السعادة، ومن سبق له العلم بأنه شقي صار إلى الشقاوة، ويدل على هذا الوجه قوله بعده: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾، وهو ظاهر كما ترى، ومن الآيات الدالة عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرَ كُفْرًا وَمَنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَلْقُهُمْ﴾ [هود: ١١٩]؛ أي ولذلك الاختلاف - إلى شقي وسعيد - خلقهم.

الوجه الثاني: أن معنى قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾؛ أي كما خلقكم أولاً، ولم تكونوا شيئاً، فإنه يعيدكم مرة أخرى، ويبعثكم من قبوركم أحياء بعد أن متم وصرتم عظاماً رميمًا، والآيات الدالة على هذا الوجه كثيرة جداً، كقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ

نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا» [الأنبياء: ١٠٤]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ٢٧]، وقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ مِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قُرْبٍ﴾ [الحج: ٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أنه قد يكون في الآية وجهان، وكل واحد منهما حق، ويشهد له القرآن؛ فنذكر الجميع؛ لأنه كله حق، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيْطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة، أن الكفار اتخذوا الشياطين أولياء من دُون الله، ومن تلك الموالاة طاعتهم لهم فيما يخالف ما شرعه الله تعالى، ومع ذلك يظنون أنفسهم على هدى.

وبيّن في موضع آخر: أن من كان كذلك فهو أخسر الناس عملاً، والعياذ بالله تعالى، وهو قوله - جل وعلا -: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٣٠﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٣١﴾﴾ [الكهف: ١٣٠-١٣١].



تنبيه: هذه النصوص القرآنية تدل على أن الكافر لا ينفعه ظنه أنه على هدى؛ لأن الأدلة التي جاءت بها الرسل لم تترك في الحق لبساً ولا شبهة، ولكن الكافر لشدة تعصبه للكفر لا يكاد يفكر في الأدلة التي هي كالشمس في رابعة النهار؛ لجأاً في الباطل، وعناداً؛ فلذلك كان غير معذور. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾. أمر الله تعالى في هذه الآية الكريمة نبيه ﷺ: أن يسأل سؤال إنكار: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾، كاللباس في الطواف، ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ كالأنعام، والنحرث التي حرّمها الكفار، وكاللحم والدود الذي حرّمه بعض العرب في الجاهلية في الحج.

وصرح في مواضع آخر: أن من قال ذلك على الله فهو مفتر عليه - جل وعلا -، كقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَقُولَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [النحل: ١٣١]، وقوله: ﴿قَدْ حَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأنعام: ١٣٢]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ لَكُمْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَقَرُّوتَ ﴿١٣٣﴾﴾ [يونس: ١٣٣]، وطلبهم في موضع آخر طلب إعجاز أن يأتوا بالشهداء الذين يشهدون لهم أن الله حرم هذا، ونهى نبيه ﷺ أن يشهد لهم شهود زور أن يشهد معهم، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِيَهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَسًا هَؤُلَاءِ ضَلُّوا

فَقَاتِلْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ﴿٣٨﴾. لم يبين هنا السبب الذي مكنتهم من إضلالهم، ولكنه بين في موضع آخر: أن السبب الذي مكنتهم من ذلك هو كونهم سادتهم وكبراءهم، ومعلوم أن الأتباع يطيعون السادة الكبراء فيما يأمرونهم به، وهو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ (٣٧) ﴿رَبَّنَا آتِنَاهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ الآية [الأحزاب: ٦٧، ٦٨]. وبسط ذلك في سورة «سبا» بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْفُوقُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣٩) ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ تَجْرِمِينَ﴾ (٤٠) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ [سبا: ٣١ - ٣٣].

قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة، وأمثالها من الآيات: أن الأتباع يسألون الله يوم القيامة أن يضاعف العذاب للمتبعين، وبين في مواضع أخرى: أن مضاعفة العذاب للمتبعين لا تنفع الأتباع، ولا تخفف عنهم من العذاب، كقوله: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَتَكُرُّ فِي الْعَذَابِ مُشْرِكُونَ﴾ (٤١) [الزخرف]، وقوله هنا: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ﴾... الآية، وقوله: ﴿وَقَالَ أُولَاهُمْ لِأَخْرَجْتُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَلَوْ قُوْا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٤٢)، وقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِذْ قَالَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ (٤٣) [غافر]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أنه - جل وعلا - ينزع ما في صدور أهل الجنة من الحقد والحسد الذي كان في الدنيا، وأنهم تجري من تحتهم الأنهار في الجنة، وذكر في موضع آخر أن نزاع الغل من صدورهم يقع في حال كونهم إخواناً على سرر متقابلين آمنين من النصب، والخروج من الجنة. وهو قوله تعالى، في «الحجر»: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (٤٤) ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (٤٥) [الحجر].

قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ الآية. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن بين أهل الجنة وأهل النار حجاباً يوم القيامة، ولم يبين هذا الحجاب هنا، ولكنه بينه في سورة الحديد بقوله: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ سُورًا لِّمَنِ بَاطِلٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾... الآية [الحديد: ١٣].

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسَمِهِمْ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن أصحاب الأعراف، يعرفون كلًّا - من أهل الجنة وأهل النار - بسيماهم. ولم يبين هنا سيما أهل الجنة، ولا أهل النار، ولكنه أشار لذلك في مواضع أخرى، كقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾... الآية [آل عمران: ١٠٦].

فبياض الوجوه وحسنها: سيما أهل الجنة، وسوادها وقبحها وزرقة العيون: سيما أهل النار. كما قال أيضاً في سيما أهل الجنة: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ (٤٦)

[المطففين]، وقال: ﴿وَيَوْمَ يُؤْمَضُ فَالْصُّرَةُ ۖ﴾ [القيامة]، وقال في سيما أهل النار: ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فُجُوهُهُمْ قَطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾... الآية [يونس: ٢٧]. وقال ﴿وَيَوْمَ يُؤْمَضُ عَلَيْهَا عَبْرَةٌ ۖ﴾... الآية [عبس]، وقال: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَفْعَىٰ عَنْكُمْ جَمْعَكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تُشْكِرُونَ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن أصحاب الأعراف قالوا لرجال من أهل النار يعرفونهم بسيماهم: لم ينفعكم ما كنتم تجمعونه في الدنيا من المال، ولا كثرة جماعتكم وأنصاركم، ولا استكباركم في الدنيا.

وبين في مواضع أخرى وجه ذلك - وهو أن الإنسان يوم القيامة، يحشر فرداً، لا مال معه، ولا ناصر، ولا خادم، ولا خول - وأن استكباره في الدنيا يجزى به عذاب الهون في الآخرة، كقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقوله: ﴿وَنُرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِنَا فَردًا﴾ [مریم: ٨٨]، وقوله: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مریم: ٩٥]، وقوله: ﴿قَالُوا لِمَ تَجْعَلُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ يَقُولُ الْكَافِرُ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شَفْعَةٍ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة: أن الكفار، إذا عاينوا الحقيقة يوم القيامة يقرون بأن الرسل جاءت بالحق، ويتمنون أحد أمرين: أن يشفع لهم شفعاء فينقلوهم، أو يردوا إلى الدنيا ليصدقوا الرسل، ويعملوا بما يرضي الله، ولم يبين هنا هل يشفع لهم أحد؟ وهل يردون؟ وماذا يفعلون لو ردوا؟ وهل اعترفهم ذلك بصدق الرسل ينفعهم؟ ولكنه تعالى بين ذلك كله في مواضع أخرى، فبين أنهم لا يشفع لهم أحد بقوله: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَفْعِينَ ۖ﴾ الآية [الشعراء]، وقوله: ﴿فَمَا لَنَشْفَعُكَ الشَّافِعِينَ ۖ﴾ [المدثر]، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. مع قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

وبين أنهم لا يردون، في مواضع متعددة، كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۖ﴾ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰ وَلَكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۖ﴾ [السجدة]. فقوله: ﴿وَلَكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾... الآية. دليل على أن النار وجبت لهم، فلا يردون، ولا يعذرون، وقوله ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَهَآءُ كُفُّوا أَلْتَذَكَّرُ فَذُوقُوا﴾ [فاطر: ٣٧]. فصرح بأنه قطع عذرهم في الدنيا بالإمهال مدة يتذكرون فيها، وإنذار الرسل، وهو دليل على عدم ردهم إلى الدنيا مرة أخرى، وأشار إلى ذلك بقوله: ﴿أَوَلَمْ نَكُونُوا أَنفُسُنَا مِن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، جواباً لقولهم: ﴿أَخْرَجْنَا إِلَىٰ

أَجَلٍ قَرِيبٍ يُجِزُّكَ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعَ الرَّسُولَ [إِسْوَهِم: ٤٤]، وقوله: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ [غافر: ١٢]، بعد قوله تعالى عنهم: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١]، وقوله: ﴿وَتَرْبُتُهُمْ بِمُضْضُونَ عَلَيْهَا حَاشِيَةً مِنَ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ مِنْ ظَرْفٍ حَافِيٍّ﴾ ... الآية [الشورى: ٤٥]، بعد قوله: ﴿وَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤]، وقوله هنا: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ ... الآية، بعد قوله: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُعَاعٍ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ﴾ ... الآية.

فكل ذلك يدل على عدم الرد إلى الدنيا، وعلى وجوب العذاب، وأنه لا محيص لهم عنه.

وبين في موضع آخر أنهم لو ردوا العادوا إلى الكفر والطغيان؛ وهو قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ ... الآية [الأنعام: ٢٨]، وفي هذه الآية الكريمة دليل واضح على أنه تعالى يعلم المعدوم الممكن الذي سبق في علمه أنه لا يوجد كيف يكون لو وجد، فهو تعالى يعلم أنهم لا يردون إلى الدنيا مرة أخرى، ويعلم هذا الرد الذي لا يكون لو وقع كيف يكون، كما صرح به في قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، ويعلم أن المتخلفين من المنافقين عن غزوة تبوك لا يحضرونها؛ لأنه هو الذي ثبتهم عنها لحكمة، كما بينه بقوله: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ ... الآية [التوبة: ٤٦]، وهو يعلم هذا الخروج الذي لا يكون، لو وقع كيف يكون، كما صرح به في قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكَ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧]، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَمَيْنَاهُمْ لَكُنَّا بِهَمٍ مِنْ ضَرٍّ لِلْجَوِّ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٥) [المؤمنون]، إلى غير ذلك من الآيات.

وبين في مواضع آخر: أن اعترافهم هذا بقولهم: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا مِنَّا بِالْحَقِّ﴾ لا ينفعهم، كقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضُوا بِذُنُوبِهِمْ فَحَقًّا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (١١) [الملك]، وقوله: ﴿لَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، ونحو ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾. لم يفصل هنا ذلك، ولكنه فصله في سورة «فصلت» بقوله: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ كُفْرُونَ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (١) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَنَى فِيهَا قُفُورًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّاعِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اأْنِيتَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَفَضَّلَهُنَّ سَبْعَ سَعَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا [فصلت: ٩ - ١٢].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْمَرْثِ يُقْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ﴾ الآية. هذه الآية الكريمة وأمثالها من آيات الصفات كقوله ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] ونحو ذلك؛ أشكلت على كثير من الناس إشكالاً ضل بسببه خلق لا يحصى كثرة، فصار قوم إلى التعطيل وقوم إلى التشبيه - سبحانه وتعالى علواً كبيراً عن ذلك كله - والله - جل وعلا - أوضح هذا غاية الإيضاح، ولم يترك فيه أي لبس ولا إشكال. وحاصل تحرير ذلك أنه - جل وعلا - بين أن الحق في آيات الصفات متركب من أمرين:

أحدهما: تنزيه الله - جل وعلا - عن مشابهة الحوادث في صفاتهم، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وثانيهما: الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه في كتابه، أو وصفه به رسوله ﷺ؛ لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله ﴿أَتَشْتَمُّ أَعْلَمُ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠]، ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ الذي قال فيه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٢) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم]، فمن نفى عن الله وصفاً أثبتته لنفسه في كتابه العزيز، أو أثبتته له رسول الله ﷺ زاعماً أن ذلك الوصف يلزمه ما لا يليق بالله - جل وعلا -، فقد جعل نفسه أعلم من الله ورسوله بما يليق بالله - جل وعلا -، ﴿سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]!

ومن اعتقد أن وصف الله يشابه صفات الخلق، فهو مشبه ملحد ضال، ومن أثبت لله ما أثبتته لنفسه أو أثبتته له رسوله ﷺ مع تنزيهه - جل وعلا - عن مشابهة الخلق، فهو مؤمن جامع بين الإيمان بصفات الكمال والجلال، والتنزيه عن مشابهة الخلق، سالم من ورطة التشبيه والتعطيل، والآية التي أوضح الله بها هذا، هي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فنفى عن نفسه - جل وعلا - مماثلة الحوادث بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وأثبت لنفسه صفات الكمال والجلال بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فصرح في هذه الآية الكريمة بنفي المماثلة مع الاتصاف بصفات الكمال والجلال.

والظاهر أن السر في تعبيره بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] دون أن يقول مثلاً: وهو العلي العظيم، أو نحو ذلك من الصفات الجامعة: أن السمع والبصر يتصف بهما جميع الحيوانات، فبين أن الله متصف بهما، ولكن وصفه بهما على أساس نفي المماثلة بين وصفه تعالى وبين صفات خلقه؛ ولذا جاء بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ففي هذه الآية الكريمة إيضاح للحق في آيات الصفات لا لبس معه ولا شبهة البتة، وسنوضح - إن شاء الله - هذه المسألة إيضاحاً تاماً بحسب طاقتنا، وبالله - جل وعلا - التوفيق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة: أن رحمته - جل وعلا - قريب من عباده المحسنين، وأوضح في موضع آخر صفات عبده الذين سيكتبها لهم في قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾.

ووجه تذكير وصف الرحمة مع أنها مؤنثة في قوله: ﴿قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦] ولم يقل قريبة، فيه للعلماء أقوال تزيد على العشرة، نذكر منها - إن شاء الله - بعضاً، ونترك ما يظهر لنا ضعفه أو بعده عن الظاهر.

منها: أن الرحمة مصدر بمعنى الرحم، فالتذكير باعتبار المعنى.

ومنها: أن من أساليب اللغة العربية أن القرابة إذا كانت قرابة نسب تعين التأنيث

فيها في الأنثى فتقول: هذه المرأة قريبتى أي في النسب، ولا تقول: قريب مني، وإن كانت قرابة مسافة جاز التذكير والتأنيث، فتقول: داره قريب وقريبة مني، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقول امرئ القيس:

له الويل إن أمسى ولا أم هاشم قريب ولا البسباسة ابنة يشكرا

ومنها: أن وجه ذلك إضافة الرحمة إلى الله - جل وعلا -.

ومنها: أن قوله ﴿قَرِيبٌ﴾ صفة موصوف محذوف؛ أي شيء قريب من المحسنين.

ومنها: أنها شبهت بفعيل بمعنى مفعول الذي يستوي فيه الذكر والأنثى.

ومنها: أن الأسماء التي على فعيل ربما شبهت بالمصدر الآتي على فعيل، فأفردت لذلك، قال بعضهم: ولذلك أفرد الصديق في قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاحِجُهُ أَوْ صَدِيقُهُ﴾ [النور: ٦١]، وقول الشاعر:

وهن صديق لمن لم يشب، اهـ.

والظهير في قوله: ﴿وَالْمَلَكُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤] إلى غير ذلك من الأوجه.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾. على قراءة

عاصم: ﴿بُشْرًا﴾ بضم الباء الموحدة، وإسكان الشين: جمع بشير؛ لأنها تنتشر أمام

المطر مبشرة به، وهذا المعنى يوضحه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَةً﴾

[الروم: ٤٦]، وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾، يعني برحمته المطر، كما جاء مبيناً في غير

هذا الموضع كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ أَغْصَانُ مِنْ بَعْدِ مَا قَطَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشورى:

٢٨] وقوله: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْرِجُ مِنَ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَفْلَحَ سَحَابًا نَقَالًا سُفُّنُهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ الآية.

بين في هذه الآية الكريمة أنه يحمل السحاب على الريح، ثم يسوقه إلى حيث يشاء

من بقاع الأرض، وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثَبَّثُ سَحَابًا

فَسُقْنَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ [فاطر: ٩]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا إِلَى الْأَرْضِ الْجُبَّ فَنَخْرِجُ مِنْهُ

زَعَا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٧٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿أَوْ عَجِبْتَ أَنْ جَاءَكَ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكَ عَلَىٰ رَجُلٍ مَكَرٌ لِيُنْذِرَكَ﴾. أنكر تعالى

في هذه السورة الكريمة على قوم نوح، وقوم هود عجبهم من إرسال رجل؛ وبين في

مواضع آخر أن جميع الأمم عجبوا من ذلك، قال في عجب قوم نبيينا ﷺ من ذلك:

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢]، وقال: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ

جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ [ق: ٢]، وقال عن الأمم السابقة: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ

فَقَالُوا أَأَبْشَرُ مِنْكُمْ فَاكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَعْصَمُوا وَكَفَرُوا وَكَلَّمُوا نَجْمًا﴾ [التغابن: ٦]، وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ

بِالنَّذْرِ﴾ [القمر: ٢٣، ٢٤]، وقال: ﴿لَئِنْ أَتَيْنَاكُمْ شَيْئًا إِذْكَرُوا إِذَا

لَخَيْرُونَ ﴿٦٤﴾، وصرح بأن هذا العجب من إرسال بشر مانع للناس من الإيمان بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء].

ورد الله عليهم ذلك في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا ﴿٦٦﴾﴾ [الأنبياء: ٧]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رِجَالًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ﴿٦٩﴾﴾. لم يبين هنا كيفية إغراقهم، ولكنه بينها في مواضع آخر كقوله: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَرٍ ﴿٧٠﴾﴾ [القمر]، وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [العنكبوت: ١٤].

قوله تعالى: ﴿اتَّخِذُوا لِي ذُرِّيًّا ﴿٧٢﴾﴾. لم يبين هنا شيئاً من هذا الجدل الواقع بين هود - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - وبين عاد، ولكنه أشار إليه في مواضع آخر كقوله: ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٦٩]، ﴿إِنْ تَقُولُ إِلَّا أَعْرَضَكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوِّ قَالَ إِنْ شِئْتَ اللَّهُ وَآشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [هود: ٦٩]، ﴿مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [هود: ٦٩]، ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود: ٦٩].

قوله تعالى: ﴿وَقَطَعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ﴿٧٧﴾﴾. لم يبين هنا كيفية قطعه دابر عاد. ولكنه بينه في مواضع آخر، كقوله: ﴿وَلَمَّا عَادَ فَأَتَاهُكُورٍ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَلَيْهِ ﴿٧٨﴾﴾ [الحاقة: ٦٩]، وقوله: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٧٩﴾﴾ [الذاريات: ٦٩]، ونحو ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَفَعَرُوا التَّافَةَ ﴿٨٠﴾﴾. ظاهر هذه الآية الكريمة أن عقرها باشرته جماعة، ولكنه تعالى بين في سورة القمر أن المراد أنهم نادوا واحداً منهم، فباشر عقرها، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَالِحًا فَتَطَاعَى فَمَقَرَّ ﴿٨١﴾﴾ [القمر].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِيَصْلِحْ أَتَيْنَا بِمَا نَكْفُرُ ﴿٨٢﴾﴾. لم يبين هذا الذي يعدهم به. ولكنه بين في مواضع آخر أنه العذاب كقوله: ﴿وَلَا تَسْهَوْا بِسُوِّ فَإِذَا عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٦٤]، وقوله هنا: ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾، وقوله: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴿٨٥﴾﴾ [هود: ٦٥]، ونحو ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٨٦﴾﴾. لم يبين هنا سبب رجفة الأرض بهم، ولكنه بين في موضع آخر أن سبب ذلك صيحة الملك بهم، وهو قوله: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: ٦٧]، والظاهر أن الملك لما صاح بهم رجفت بهم الأرض من شدة الصيحة، وفارقت أرواحهم أبدانهم، والله - جل وعلا - أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَتَلَفْتُكُمْ رَسُولًا رَاقٍ ﴿٨٨﴾﴾. بين تعالى هذه الرسالة التي أبلغها نبيه صالح إلى قومه في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَأِلَى تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ

اللَّهُ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسْوَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ .

قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ النَّجْشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ .

بين تعالى أن المراد بهذه الفاحشة اللواط بقوله بعده: ﴿إِنَّكُمْ لَأَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ . . . الآية، وبين ذلك أيضاً بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٦٥﴾ [الشعراء]، وقوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَكَاحِكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] .

قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ . ظاهر هذه الآية الكريمة أنه لم ينج مع لوط إلا خصوص أهله، وقد بين تعالى ذلك في «الذاريات» بقوله: ﴿فَأَفْرَجْنَا مِنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ [الذاريات]، وقوله هنا: ﴿إِلَّا أَمْرًا تُمْرَأْتُمْ كَانَتْ مِنْ الْفَافِرِينَ﴾ أوضحه في مواضع أخرى، فبين أنها حائنة، وأنها من أهل النار، وأنها واقعة فيما أصاب قومها من الهلاك، قال فيها، هي وامرأة نوح: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوْحٍ وَأَمْرَأَتِ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ ﴿٦١﴾ [التحریم]، وقال فيها وحدها - أعني امرأة لوط - ﴿إِلَّا أَمْرًا لَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ [هود: ٨١] .

قوله تعالى: في قوم لوط: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٨٤﴾ . لم يبين هنا هذا المطر ما هو، ولكنه بين في مواضع أخرى أنه مطر حجارة أهلكتهم الله بها كقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]، وأشار إلى أن السجيل الطين بقوله في «الذاريات»: ﴿يُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ ﴿٣٢﴾ [الذاريات]، وبين أن هذا المطر مطر سوء لا رحمة بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرُ السَّوْءِ﴾ [الفرقان: ٤٠]، وقوله تعالى في «الشعراء»: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ ﴿١٧٢﴾ [الشعراء] .

قوله تعالى: ﴿وَتَبَعُونَهَا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِهِ وَتَبَعُونَهَا عَوْجًا﴾ . الضمير في قوله: ﴿وَتَبَعُونَهَا﴾ راجع إلى السبيل وهو نص قرآني على أن السبيل مؤنثة، ولكنه جاء في موضع آخر ما يدل على تذكير السبيل أيضاً، وهو قوله تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿وَلِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَلِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ .

بين تعالى حكمه الذي حكم به بينهم بقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْغَةَ﴾ [هود: ٩٤] : وقوله ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ ﴿٨٨﴾ ، وقوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [الشعراء: ١٨٩] . فإن قيل: الهلاك الذي أصاب قوم شعيب ذكر تعالى في الأعراف أنه رجفة، وذكر في هود أنه صيحة، وذكر في الشعراء أنه عذاب يوم الظلة .

فالجواب: ما قاله ابن كثير رحمه الله في تفسيره، قال: وقد اجتمع عليهم ذلك كله،

أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلمت فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام، اهـ. منه.

قوله تعالى: ﴿فَنُوحِيَ عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَتَلَفْتُمْ كُفْرَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (٩٣). بين - جل وعلا - الرسالات التي أبلغها رسوله شعيب إلى قومه في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي﴾ [هود: ٨٤]، ونحوها من الآيات، وبين نصحه لهم في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَيَاقَوْمِ لَا يَحْرِمَكُم شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨١]. وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أنكر نبي الله شعيب - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - الأسى؛ أي الحزن على الكفار إذا أهلكهم الله بعد إبلاغهم، وإقامة الحجة عليهم مع تماديهم في الكفر والطغيان لجأاً وعناداً، وإنكاره لذلك يدل على أنه لا ينبغي، وقد صرح تعالى بذلك فنهى نبينا ﷺ عنه في قوله: ﴿وَلَا يَزِيدُ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨]، ومعنى لا تأس: لا تحزن، وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: ٨٨].

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ الآية.

ذكر أنباءهم مفصلة في مواضع كثيرة، كالأيات التي ذكر فيها خبر نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وغيرهم، مع أمهم صلوات الله وسلامه عليهم.

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ الآية.

في هذه الآية الكريمة للعلماء أوجه من التفسير، بعضها يشهد له القرآن:

منها: أن المعنى فما كانوا ليؤمنوا بما سبق في علم الله يوم أخذ الميثاق أنهم يكذبون به، ولم يؤمنوا به، لاستحالة التغير فيما سبق به العلم الأزلي، ويروى هذا عن أبي بن كعب، وأنس، واختاره ابن جرير، ويدل على هذا الوجه آيات كثيرة كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٩٦) [يونس]، وقوله: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، ونحو ذلك من الآيات.

ومنها: أن معنى الآية أنهم أخذ عليهم الميثاق، فآمنوا كرهاً، فما كانوا ليؤمنوا بعد ذلك طوعاً، ويروى هذا عن السدي، وهو راجع في المعنى إلى الأول.

ومنها: أن معنى الآية أنهم لو ردوا إلى الدنيا مرة لكفروا أيضاً، فما كانوا ليؤمنوا في الرد إلى الدنيا بما كذبوا به من قبل؛ أي في المرة الأولى، ويروى هذا عن مجاهد، ويدل لمعنى هذا القول قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمْ بِأَعْيُنُهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٨]، لكنه بعيد من ظاهر الآية.

ومنها: أن معنى الآية فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم

بالحق أول ما ورد عليهم، وهذا القول حكاه ابن عطية، واستحسنه ابن كثير، وهو من أقرب الأقوال لظاهر الآية الكريمة، ووجهه ظاهر؛ لأن شؤم المبادرة إلى تكذيب الرسل سبب للطبع على القلوب والإبعاد عن الهدى، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ تَرَضُّ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية قد تكون فيها أوجه من التفسير، كلها يشهد له قرآن، وكلها حق، فنذكر جميعها، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَشَّرْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [النمل: ١٣، ١٤].

بين تعالى هنا أن فرعون وملاه ظلموا بالآيات التي جاءهم بها موسى، وصرح في النمل بأنهم فعلوا ذلك جاحدين لها، مع أنهم مستيقنون أنها حق لأجل ظلمهم وعلوهم، وذلك في قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [النمل: ١٣، ١٤].

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِ﴾ [النمل: ١٣]. ذكر تعالى هنا أن موسى نزع يده فإذا هي بيضاء، ولم يبين أن ذلك البياض خال من البرص، ولكنه بين ذلك في سورة «النمل» و«القصص» في قوله فيهما: ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [طه: ٢٢]، أي من غير برص.

قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ [النمل: ١٤].

بين هنا أن موسى لما جاء بأية العصا واليد قال الملأ من قوم فرعون: إنه ساحر، ولم يبين ماذا قال فرعون؟ ولكنه بين في «الشعراء» أن فرعون قال مثل ما قال الملأ من قومه، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْمَهُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [النمل: ١٤].

لم يبين هنا هذا السحر العظيم ما هو؟ ولم يبين هل أوجس موسى في نفسه الخوف منه؟ ولكنه بين كل ذلك في «طه» بقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعْتُهُمْ يَخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ سَعَىٰ﴾ [طه: ١١]، فأوجس في نفسه خيفة مؤمن ﴿فَلَمَّا لَا تَخَفُ﴾ [طه: ١٢]، إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّىٰ مَا صَعَوْا إِنَّمَّا صَعَوْا كَيْدُ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَىٰ﴾ [طه: ١٣]، ولم يبين هنا أنهم تباعدوا مع موسى موعداً لوقت مغالبتهم مع السحرة، وأوضح ذلك في سورة «طه» في قوله عنهم: ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَاكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَأَجَعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ [طه: ٥٨، ٥٩].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَأَصْلَحْنَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [طه: ٦٠]. لم يبين هنا الشيء الذي توعدهم بأنهم يصلحهم فيه، ولكنه بينه في موضع آخر، كقوله في «طه»: ﴿وَلَأَصْلَحْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ﴾ [طه: ٧١].

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ نُصِيبَهُمْ سَيْفَةً يَظْلَرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن فرعون وقومه إن أصابتهم سيئة؛ أي قحط وجذب ونحو ذلك، تطيروا بموسى وقومه فقالوا: ما جاءنا هذا الجذب والقحط إلا من شؤمكم، وذكر مثل هذا عن بعض الكفار مع نبينا ﷺ في قوله: ﴿وَلَنْ نُصِيبَهُمْ سَيْفَةً يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِكَ﴾ [النساء: ٧٨] وذكر نحوه أيضاً عن قوم صالح مع صالح في قوله: ﴿قَالُوا أَطَرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ [النمل: ٤٧]، وذكر نحو ذلك أيضاً عن القرية التي جاءها المرسلون في قوله: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَإِن لَّا تُنْفِثُوا لَرْجَمَكُمُ﴾ [يس: ١٨]، وبين تعالى أن شؤمهم من قبل كفرهم ومعاصيهم، لا من قبل الرسل، قال في «الأعراف»: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَرَيْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وقال في سورة «النمل» في قوم صالح: ﴿قَالُوا أَطَرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَرَيْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧]. وقال في «يس»: ﴿قَالُوا طَرَيْتُمْ مَعَكُمْ﴾ [يس: ١٩].

قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا﴾. لم يبين هنا من هؤلاء القوم، ولكنه صرح في سورة «الشعراء» بأن المراد بهم بنو إسرائيل، لقوله في القصة بعينها: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٥٩) ... الآية «الشعراء»، وأشار إلى ذلك هنا بقوله بعده: ﴿وَكُنْتَ كَكَيْتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] الآية.

قوله تعالى: ﴿وَكُنْتَ كَكَيْتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الآية.

لم يبين هنا هذه الكلمة الحسنى التي تمت عليهم، ولكنه بينها في القصص بقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَىٰ الَّذِيكُ اسْتَضِعُّوهُ فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (٥) ونُكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَىٰ فِتْنَتَكَ وَهُمَنْ وَخَوَدُهُمَا وَنَهْمُ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) [القصص].

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعْ أَبْصَرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِي﴾. استدلل المعتزلة النافون لرؤية الله بالأبصار يوم القيامة بهذه الآية على مذهبهم الباطل، وقد جاءت آيات تدل على أن نفي الرؤية المذكور، إنما هو في الدنيا، وأما في الآخرة فإن المؤمنين يرونه - جل وعلا - بأبصارهم، كما صرح به تعالى في قوله: ﴿يَوْمَ يُؤْمَرُ تَائِبُهُ﴾ (١٣) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرُهُ (١٤) [القيامة]، وقوله في الكفار: ﴿لَا يَتَّبِعُهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَ يُؤْمَرُ لِمَحْجُوبُونَ﴾ (١٥) [المطففين]، فإنه يفهم من مفهوم مخالفته أن المؤمنين ليسوا محجوبين عنه - جل وعلا -.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال في قوله تعالى: ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٍ﴾ [يونس: ٢٦] الحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم؛ وذلك هو أحد القولين في قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]، وقد تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة بأبصارهم، وتحقيق المقام في المسألة أن رؤية الله - جل وعلا - بالأبصار جائزة عقلاً في الدنيا والآخرة، ومن أعظم الأدلة على جوازها عقلاً في دار الدنيا قول موسى: ﴿رَبِّ ارْجِعْ أَبْصَرَ إِلَيْكَ﴾ لأن موسى لا يخفى عليه الجائز والمستحيل في حق الله تعالى، وأما شرعاً فهي جائزة وواقعة في الآخرة كما

دلت عليه الآيات المذكورة، وتواترت به الأحاديث الصحاح، وأما في الدنيا فممنوعة شرعاً كما تدل عليه آية «الأعراف» هذه، وحديث: «إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا» كما أوضحناه في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾. بين في هذه الآية الكريمة سخافة عقول عبدة العجل، وويخهم على أنهم يعبدون ما لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً، وأوضح هذا في «طه» بقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه]، وقد قدمنا في سورة «البقرة» أن جميع آيات اتخاذهم العجل إلهاً حذفت فيها للمفعول الثاني في جميع القرآن كما في قوله هنا: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَدْوٍ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا... الآية، أي اتخذوه إلهاً، وقد قدمنا أن النكتة في حذفه دائماً: التنبيه: على أنه لا ينبغي التلفظ بأن عجلاً مصطنعاً من جماد إلّه، وقد أشار تعالى إلى هذا المفعول المحذوف دائماً في «طه» بقوله: ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ [طه: ٨٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرَ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن عبدة العجل اعترفوا بذنبهم، وندموا على ما فعلوا، وصرح في سورة «البقرة» بتوبتهم ورضاهم بالقتل وتوبة الله - جل وعلا - عليهم بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ يَقَوْمِ إِنْكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمْ الْعِجَلِ فَتَقُولُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ قَالُوا أَنْفُسُكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٨٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَيْسًا قَالَ إِنَّمَا خَلَقْتُوْنِي مِنْ بَدْوٍ أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾. أوضح الله ما ذكره هنا بقوله في «طه»: ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَقْتُمْ مُّوْعِدِي﴾ [طه: ٨٦، ٨٧].

قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي﴾ الآية.

أشار تعالى في هذه الآية الكريمة إلى ما اعتذر به نبي الله هارون لأخيه موسى عما وجهه إليه من اللوم، وأوضحه في «طه» بقوله: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحَاقِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه]، وصرح الله تعالى ببراءته بقوله: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠] قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى [طه: ٩١].

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾. هذه الآية الكريمة فيها التصريح بأنه ﷺ رسول إلى جميع الناس، وصرح بذلك في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبا: ٢٨]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ

عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ [الفرقان]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]، وقيد في موضع آخر عموم رسالته ببلوغ هذا القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَرْحَىٰ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأَتَذْكُرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وصرح بشمول رسالته لأهل الكتاب مع العرب بقوله: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَاسَلَمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِلَّا قَوْلُوا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ [آل عمران: ٢٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَاسْمُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ الْيَسَّىٰ الَّذِي يُؤْمِرُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ الآية. لم يبين هنا كثرة كلماته، ولكنه بين ذلك في مواضع أخرى، كقوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَعْلَمَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِبِئْسَلِهِ مِدَادًا﴾ [الكهف: ١٨]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُّ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ آبْحَرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [القمان: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَخُذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقَ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ الآية.

هذا الميثاق المذكور يبينه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُيِّنَ مَا يَشْرُونَ﴾ [آل عمران: ٧٧].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [٧٢] أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [٧٣].

في هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير معروفان عند العلماء:

أحدهما: أن معنى أخذه ذرية بني آدم من ظهورهم: هو إيجاد قرن منهم بعد قرن، وإنشاء قوم بعد آخرين، كما قال تعالى: ﴿كَمَا أَنشَأَكُم مِّنْ ذُرِّيَّتِهِ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣٩]، وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ﴾ [النمل: ٦٢]، ونحو ذلك من الآيات: وعلى هذا القول، فمعنى قوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ أن إشهادهم على أنفسهم إنما هو بما نصب لهم من الأدلة القاطعة بأنه ربهم المستحق منهم لأن يعبدوه وحده، وعليه، فمعنى ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾، أي قالوا ذلك بلسان حالهم لظهور الأدلة عليه، ونظيره من إطلاق الشهادة على شهادة لسان الحال قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ [التوبة: ١٧]، أي بلسان حالهم على القول بذلك، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [١] وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات: ٧] أي بلسان حاله أيضاً على القول بأن ذلك هو المراد في الآية أيضاً.

واحتج من ذهب إلى هذا القول بأن الله - جل وعلا - جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراف به - جل وعلا - في قوله: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [٧٢] أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ قالوا: فلو كان الإشهاد المذكور الإشهاد عليهم يوم الميثاق، وهم في صورة الذر لما كان حجة عليهم؛ لأنه لا يذكره منهم أحد عند وجوده في الدنيا، وما لا علم للإنسان به لا يكون حجة عليه.

فإن قيل: إخبار الرسل بالميثاق المذكور كاف في ثبوته قلنا: قال ابن كثير في تفسيره: الجواب عن ذلك أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم، فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من التوحيد، ولهذا قال: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾... الآية، اه منه بلفظه.

فإذا علمت هذا الوجه الذي ذكرنا في تفسير الآية، وما استدلل عليه قائله به من القرآن، فاعلم أن الوجه الآخر في معنى الآية: أن الله أخرج جميع ذرية آدم من ظهور الآباء في صورة الذر، وأشهدهم على أنفسهم بلسان المقال: ﴿الَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾، ثم أرسل بعد ذلك الرسل مذكرة بذلك الميثاق الذي نسيه الكل ولم يولد أحد منهم وهو ذاكر له، وإخبار الرسل به يحصل به اليقين بوجوده.

قال مقيد - عفا الله عنه -: هذا الوجه الأخير يدل عليه الكتاب والسنة:

أما وجه دلالة القرآن عليه، فهو أن مقتضى القول الأول أن ما أقام الله لهم من البراهين القطعية كخلق السماوات والأرض، وما فيهما من غرائب صنع الله؛ الدالة على أنه الرب المعبود وحده، وما ركز فيهم من الفطرة التي فطروا عليها تقوم عليهم به الحجة، ولو لم يأتهم نذير، والآيات القرآنية مصرحة بكثرة، بأن الله تعالى لا يعذب أحداً حتى يقيم عليه الحجة بإنذار الرسل، وهو دليل على عدم الاكتفاء بما نصب من الأدلة، وما ركز من الفطرة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، فإنه قال فيها: حتى نبعث رسولا، ولم يقل حتى نخلق عقولا، وننصب أدلة ونركز فطرة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾... الآية [النساء: ١٦٥]، فصرح بأن الذي تقوم به الحجة على الناس، وينقطع به عذرهم، هو إنذار الرسل، لا نصب الأدلة والخلق على الفطرة.

وهذه الحجة التي بعث الرسل لقطعها، بينها في «طه» بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْرَجَ﴾ [طه]، وأشار لها في «القصص» بقوله: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٢٧]، ومن ذلك أنه تعالى صرح بأن جميع أهل النار قطع عذرهم في الدنيا بإنذار الرسل، ولم يكتف في ذلك بنصب الأدلة كقوله تعالى: ﴿كَلَّمَآ أَلْفَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [٨] قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ١]، وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُوكُم لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [٧١] [الزمر: ٨] صيغة عموم، وأن لفظة (الذين) في قوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [الزمر: ٧١] صيغة عموم أيضاً؛ لأن الموصول يعم كل ما تشمله صلته.

وأما السنة: فإنه قد دلت أحاديث كثيرة على أن الله أخرج ذرية آدم في صورة الذر فأخذ عليهم الميثاق كما ذكر هنا، وبعضها صحيح. قال القرطبي في تفسير هذه الآية: قال أبو عمر - يعني ابن عبد البر -: لكن معنى هذا الحديث قد صح عن النبي ﷺ من وجوه ثابتة كثيرة من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعبد الله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وأبي هريرة رضي الله عنهم، أجمعين وغيرهم، اهـ. محل الحاجة منه بلفظه، وهذا الخلاف الذي ذكرنا، هل يكتفى في الإلزام بالتوحيد بنصب الأدلة، أو لا بد من بعث الرسل لينذروا؟ هو مبنى الخلاف المشهور عند أهل الأصول في أهل الفترة: هل يدخلون النار بكفرهم؟ وحكى القرافي عليه الإجماع، وجزم به النووي في (شرح مسلم). أو يعذرون بالفترة؟ وهو ظاهر الآيات التي ذكرناها، وإلى هذا الخلاف أشار في (مراقي السعود) بقوله:

ذو فترة بالفرع لا يراع وفي الأصول بينهم نزاع

وقد حققنا هذه المسألة مع مناقشة أدلة الفريقين في كتابنا (دفع إبهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة «بني إسرائيل» في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ولذلك اختصرناها هنا.

قوله تعالى: ﴿فَثَلَّهُ كَثَلُ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ﴾. ضرب الله تعالى المثل لهذا الخسيس الذي آتاه آياته فانسلخ منها بالكلب، ولم تكن حقارة الكلب مانعة من ضربه تعالى المثل به، وكذلك ضرب المثل بالذباب في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْطَّلُوبُ﴾ [الحج: ١٧]. وكذلك ضرب المثل ببيت العنكبوت في قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَرَهَا أَلْبُيُوتَ لَيَبْتَ الْعَنْكَبُوتُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١١]. وكذلك ضرب المثل بالحمار في قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الصَّالِاتُ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَاثِتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٩]. وهذه الآيات تدل على أنه تعالى لا يستحي من بيان العلوم النفيسة عن طريق ضرب الأمثال بالأشياء الحقيرة، وقد صرح بهذا المدلول في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

هدد تعالى في هذه الآية الذين يلحدون في أسمائهم بتهديد:

الأول: صيغة الأمر في قوله: ﴿وَذَرُوا﴾ فإنها للتهديد.

والثاني: في قوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وهدد الذين يلحدون في آياته في سورة حم «السجدة» بأنهم لا يخفون عليه، في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي عَايَتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٤٠]، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿أَفَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ﴾ الآية [فصلت: ٤٠]،

وأصل الإلحاد في اللغة: الميل، منه اللحد في القبر، ومعنى إلحادهم في أسمائه هو كاشتقاقهم اسم اللات من اسم الله، واسم العزى من اسم العزيز، واسم مناة من المنان، ونحو ذلك. والعرب تقول: لحد وألحد بمعنى واحد. وعليهما، القراءتان يلحدون بفتح الباء والحاء من الأول، وبضمها وكسر الحاء من الثاني.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ ... الآية.

هذه الآية الكريمة تدل على أن وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله - جل وعلا -. وقد جاءت آيات أخر تدل على ذلك أيضاً كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ (٤٦) ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ (٤٧) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلَا﴾ (٤٨) [النازعات]، وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنها الخمس المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية [لقمان: ٣٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْرَثْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ ... الآية.

هذه الآية تدل على أنه ﷺ لم يكن يعلم من الغيب إلا ما علمه الله، وقد أمره تعالى أن يقول: إنه لا يعلم الغيب، في قوله في «الأنعام»: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ ... الآية [الأنعام: ٥٠]، وقال: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢١) ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ ... الآية [الجن: ٢٦، ٢٧]، وقال: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ... الآية [النمل: ٦٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

والمراد بالخير من هذه الآية الكريمة، قيل: المال، ويدل على ذلك كثرة ورود الخير بمعنى المال في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (٨) [العاديات]، وقوله: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]، وقوله: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ ... الآية [البقرة: ٢١٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقيل: المراد بالخير فيها العمل الصالح، كما قاله مجاهد وغيره، والصحيح الأول؛ لأنه ﷺ مستكثر جداً من الخير الذي هو العمل الصالح؛ لأن عمله ﷺ كان ديمة، وفي رواية كان إذا عمل عملاً أثبتته.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ... الآية.

ذكر في هذه الآية الكريمة أنه خلق حواء من آدم ليسكن إليها، أي: ليألفها ويطمئن بها، وبين في موضع آخر أنه جعل أزواج ذريته كذلك، وهو قوله: ﴿وَمِنْ عَائِشَةٍ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَتْهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٦٠).

في هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير معروفان عند العلماء، والقرآن يشهد لأحدهما:

الأول: أن حواء كانت لا يعيش لها ولد، فحملت، فجاءها الشيطان، فقال لها:

سمي هذا الولد عبد الحارث فإنه يعيش، والحارث من أسماء الشيطان، فسمته عبد الحارث فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَالِحًا﴾ أي ولدًا إنسانًا ذكرًا جعلًا له شركاء بتسميته عبد الحارث. وقد جاء بنحو هذا حديث مرفوع، وهو معلول كما أوضحه ابن كثير في تفسيره.

الوجه الثاني: أن معنى الآية أنه لما أتى آدم وحواء صالحاً كفر به بعد ذلك كثير من ذريتهما، وأسند فعل الذرية إلى آدم وحواء؛ لأنهما أصل لذريتهما كما قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي بتصويرنا لأبيكم آدم؛ لأنه أصلهم؛ بدليل قوله بعده: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، ويدل لهذا الوجه الأخير أنه تعالى قال بعده: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُظْلَمُونَ (١٩١)، وهذا نص قرآني صريح في أن المراد المشركون من بني آدم، لا آدم وحواء. واختار هذا الوجه غير واحد للدلالة القرآن عليه. ومن ذهب إليه الحسن البصري، واختاره ابن كثير - والعلم عند الله تعالى -.

قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩١) وَإِنَّمَا يَزْعُمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٩٢). بين في هذه الآية الكريمة ما ينبغي أن يعامل به الجاهل من شياطين الإنس والجن، فبين أن شيطان الإنس يعامل باللين، وأخذ العفو، والإعراض عن جهره وإساءته. وأن شيطان الجن لا منجى منه إلا بالاستعاذة بالله منه. قال في الأول: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩١)، وقال في الثاني: ﴿وَإِنَّمَا يَزْعُمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٩٢)، وبين هذا الذي ذكرنا في موضعين آخرين:

أحدهما: في سورة «قد أفلح المؤمنون» قال فيه في شيطان الإنس: ﴿أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَكْفَرُ مَا يَصِفُونَ﴾ (٩١) [المؤمنون]، وقال في الآخر: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨) [المؤمنون].

وثانيهما: في حم «السجدة»، قال فيه في شيطان الإنس: ﴿أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]. وزاد هنا أن ذلك لا يعطاه كل الناس، بل لا يعطيه الله إلا لذي الحظ الكبير والبخت العظيم عنده فقال: ﴿وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبُّوا وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٢٥) [فصلت] ثم قال في شيطان الجن: ﴿وَإِنَّمَا يَزْعُمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦٦) [فصلت].

قوله تعالى: ﴿وَلِإِخْوَانِهِمْ يَمُدُّهُمْ فِي الْفِتْنَةِ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ (٦٦).

ذكر في هذه الآية الكريمة أن إخوان الإنس من الشياطين يمدون الإنس في الغي، ثم لا يقصرون، وبين ذلك أيضاً في مواضع أخر كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْذُهُمْ أَوْ لَا تَوْذُهُمْ أَزَا﴾ [مريم]، وقوله: ﴿يَمْعَشَرُ الْيَمِينَ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، وبين في موضع آخر أن بعض الإنس إخوان للشياطين، وهو قوله: ﴿إِنَّ الْمُبْدِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧].

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنفال

قوله تعالى: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ الآية.

اختلف العلماء في المراد بالأنفال هنا على خمسة أقوال:

الأول: أن المراد بها خصوص ما شذ عن الكافرين إلى المؤمنين، وأخذ بغير حرب، كالفرس والبعير يذهب من الكافرين إلى المسلمين، وعلى هذا التفسير، فالمراد بالأنفال هو المسمى عند الفقهاء فيثاً، وهو الآتي بيانه في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: ٦]، وممن قال بهذا القول عطاء بن أبي رباح.

الثاني: أن المراد بها الخمس، وهو قول مالك.

الثالث: أن المراد بها خمس الخمس.

الرابع: أنها الغنيمة كلها، وهو قول الجمهور، وممن قال به ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، والضحاك، وقتادة، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد. قاله ابن كثير.

الخامس: أن المراد بها أنفال السرايا خاصة، وممن قال به الشعبي، ونقله ابن جرير عن علي بن صالح بن حي، والمراد بهذا القول: ما ينقله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش، واختار ابن جرير أن المراد بها الزيادة على القسم.

قال ابن كثير: ويشهد لذلك ما ورد في سبب نزول الآية، وهو ما رواه الإمام أحمد، حيث قال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا أبو إسحاق الشيباني، عن محمد بن عبيد الله الثقفي، عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان يوم بدر، وقتل أخو عمير، قتلت سعيد بن العاص. وأخذت سيفه وكان يسمى ذا الكتيفة، فأتيت به النبي ﷺ فقال: «أذهب فاطرحه في القبط»، قال: فرجعت وبني ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخو وأخذ سلمي. قال: فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال. فقال رسول الله ﷺ: «أذهب فخذ سلبك»، وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا أبو بكر، عن عاصم بن أبي النجود، عن مصعب بن سعد، عن سعد بن مالك قال: قلت: يا رسول الله قد شفاني الله اليوم من المشركين فهب لي هذا السيف. فقال: «إن هذا السيف لا لك ولا لي، ضعه»، قال: فوضعت، ثم رجعت فقلت: عسى أن يعطي هذا السيف من لا يبلي بلائي، قال:

فإذا رجل يدعوني من ورائي، قال: قلت: قد أنزل الله فيَّ شيئاً. قال: «كنت سألتني السيف، وليس هو لي وإنه قد وهب لي فهو لك». قال: وأنزل الله هذه الآية: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من طرق عن أبي بكر بن عياش، وقال الترمذي: حسن صحيح، وهكذا رواه أبو داود الطيالسي: أخبرنا شعبة، أخبرنا سماك بن حرب قال: سمعت مصعب بن سعد يحدث عن سعد قال: نزلت في أربع آيات من القرآن: أصبت سيفاً يوم بدر فأتيت النبي ﷺ فقلت: نفلنيه. فقال: «ضعه من حيث أخذته» - مرتين - ثم عاودته فقال النبي ﷺ: «ضعه من حيث أخذته» فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ الآية، وتام الحديث في نزول ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَرْبُ وَالْمَيِّتُ﴾... الآية [المائدة: ٩٠]، وآية الوصية. وقد رواه مسلم في صحيحه من حديث شعبة به، وقال محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر عن بعض بني ساعدة قال: سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة يقول: أصبت سيف ابن عائد يوم بدر، وكان السيف يدعى بالمرزبان، فلما أمر رسول الله ﷺ الناس أن يردوا ما في أيديهم من النفل أقبلت به فألقيته في النفل، وكان رسول الله ﷺ لا يمنع شيئاً يسأله، فرآه الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي فسأله رسول الله ﷺ فأعطاه إياه، ورواه ابن جرير من وجه آخر، اهـ. كلام ابن كثير.

قال مقيد - عفا الله عنه -: جمهور العلماء على أن الآية نزلت في غنائم بدر لما اختلف الصحابة فيها، فقال بعضهم: نحن هم الذين حُزنا الغنائم، وحويناها فليس لغيرنا فيها نصيب، وقالت المشيخة: إنا كنا لكم رداءً، ولو هزمتم للجأتكم إلينا. فاختصموا إلى النبي ﷺ. وقد روى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن عبادة بن الصامت: أنها نزلت في ذلك. وقال الترمذي: هذا حديث صحيح. ورواه ابن حبان في صحيحه، والحاكم في المستدرک وقال: صحيح الإسناد على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وروى نحو ذلك أبو داود والنسائي، وابن حبان والحاكم، وابن جرير، وابن مردويه من طريق عن داود بن أبي هند، عن عكرمة عن ابن عباس. وعلى هذا القول الذي هو قول الجمهور، فالآية مشكلة مع قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ﴾ الآية.

وأظهر الأقوال التي يزول بها الإشكال في الآية: هو ما ذكره أبو عبيد ونسبه القرطبي في تفسيره لجمهور العلماء أن قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾... الآية. ناسخ لقوله: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾... الآية. إلا أن قول أبي عبيد: إن غنائم بدر لم تخمس؛ لأن آية الخمس لم تنزل إلا بعد قسم غنائم بدر، غير صحيح، ويدل على بطلانه ما ثبت في صحيح مسلم من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «كان لي شارف من نصيبي من المغنم يوم بدر، وكان رسول الله ﷺ أعطاني شارفاً من الخمس يومئذ» الحديث.. فهذا نص صحيح في تخميس غنائم بدر؛ لأن قول علي في هذا الحديث الصحيح «يومئذ» صريح في أنه يعني يوم بدر كما ترى.

فالحاصل أن آية ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾... الآية. بينت أنه ليس المراد قصر الغنائم على الرسول المذكور في أول السورة، وأنها تعطى أربعة أخماس منها للغانمين، وقد ذكرنا آنفاً أن أبا عبيد قال: إنها ناسخة لها، ونسبه القرطبي للجمهور، وسيأتي لهذا المبحث زيادة إيضاح إن شاء الله تعالى في الكلام على قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾... الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيتَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾. في هذه الآية الكريمة التصريح بزيادة الإيمان، وقد صرح تعالى بذلك في مواضع أخر كقوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، وقوله: ﴿لَيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَرَدَّادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧].

وتدل هذه الآيات بدلالة الالتزام على أنه ينقص أيضاً؛ لأن كل ما يزيد ينقص، وجاء مصرحاً به في أحاديث الشفاعة الصحيحة كقوله: «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه مثقال حبة من إيمان» ونحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُشَاقِقُكَ الْعُنَاسُ أَمْنَهُ مِنْهُ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه ألقي النعاس على المؤمنين ليجعل قلوبهم آمنة غير خائفة من عدوها؛ لأن الخائف الفزع لا يغشاه النعاس، وظاهر سياق هذه الآية أن هذا النعاس ألقي عليهم يوم بدر؛ لأن الكلام هنا في وقعة بدر، كما لا يخفى.

وذكر في سورة آل عمران أن النعاس غشيهم أيضاً يوم أحد، وذلك في قوله تعالى في وقعة أحد: ﴿ثُمَّ أُنزِلَ عَلَيْكُمْ مِن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةٌ نُّعَاسًا﴾... الآية [آل عمران: ١٥٤].

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفِخُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾... الآية. المراد بالفتح هنا في هذه الآية عند جمهور العلماء: الحكم، وذلك أن قريشاً لما أرادوا الخروج إلى غزوة بدر تعلقوا بأستار الكعبة، وزعموا أنهم قطان بيت الله الحرام، وأنهم يسقون الحجيج، ونحو ذلك، وأن محمداً ﷺ فرق الجماعة، وقطع الرحم، وسفه الآباء، وعاب الدين، ثم سألوا الله أن يحكم بينهم وبين النبي ﷺ، بأن يهلك الظالم منهم، وينصر المحق. فحكم الله بذلك وأهلكهم، ونصره، وأنزل الآية. ويدل على أن المراد بالفتح هنا الحكم؛ أنه تعالى أتبعه بما يدل على أن الخطاب لكفار مكة، وهو قوله: ﴿وَإِنْ تَنْهَوُا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدًا﴾، وبين ذلك إطلاق الفتح بمعنى الحكم في القرآن في قوله عن شعيب وقومه: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]؛ أي احكم بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الحاكمين. ويدل على ذلك قوله تعالى عن شعيب في نفس القصة: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَّا يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧]. وهذه لغة حمير لأنهم يسمون القاضي فتاحاً والحكومة فتاحة، ومنه قول الشاعر:

ألا أبلغ بني عمرو رسولاً بأنني عن فتاحتكم غني

أي عن حكومتكم وقضائكم. أما ما ذكره بعض أهل العلم من أن الخطاب في قوله: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا﴾ للمؤمنين، أي تطلبوا الفتح والنصر من الله، وأن الخطاب في قوله بعده: ﴿وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ للكافرين، فهو غير ظاهر، كما ترى.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَنَ لَكُمْ وَأَوَّلَكُمْ فَتَنَةً وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

أمر تعالى الناس في هذه الآية الكريمة أن يعلموا أن أموالهم وأولادهم فتنة يختبرون بها، هل يكون المال والولد سبباً للوقوع فيما لا يرضي الله؟ وزاد في موضع آخر أن الأزواج فتنة أيضاً، كالمال والولد، فأمر الإنسان بالحدز منهم أن يوقعوه فيما لا يرضي الله. ثم أمره إن اطلع على ما يكره من أولئك الأعداء الذين هم أقرب الناس له وأخصهم به، وهم الأولاد والأزواج أن يعفو عنهم، ويصفح ولا يؤاخذهم، فيحذر منهم أولاً، ويصفح عنهم إن وقع منهم بعض الشيء، وذلك في قوله في التغابن: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوَّلَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤٨) إِنَّمَا آمَنَ لَكُمْ وَأَوَّلَكُمْ فَتَنَةً وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٤٩) [التغابن].

وصرح في موضع آخر بنهي المؤمنين عن أن تلهيهم الأموال والأولاد عن ذكره - جل وعلا - وأن من وقع في ذلك فهو الخاسر المغبون في حظوظه، وهو قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٩١) [المنافقون]، والمراد بالفتنة في الآيات الاختبار والابتلاء، وهو أحد معاني الفتنة في القرآن.

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٦). قال ابن عباس، والسدي، ومجاهد وعكرمة، والضحاك وقتادة، ومقاتل بن حيان، وغير واحد: فرقاناً: مخرجاً. زاد مجاهد: في الدنيا والآخرة. وفي رواية عن ابن عباس فرقاناً: نجاة. وفي رواية عنه: نصراً. وقال محمد بن إسحاق: فرقاناً، أي فصلاً بين الحق والباطل، قاله ابن كثير.

قال مقيده - عفا الله عنه -: قول الجماعة المذكورة: إن المراد بالفرقان المخرج: يشهد له قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾... الآية [الطلاق: ٢]. والقول بأنه النجاة أو النصر، راجع في المعنى إلى هذا؛ لأن من جعل الله له مخرجاً أنجاه ونصره. لكن الذي يدل القرآن واللغة على صحته في تفسير الآية المذكورة هو قول ابن إسحاق؛ لأن الفرقان مصدر زيدت فيه الألف والنون، وأريد به الوصف أي الفارق بين الحق والباطل، وذلك هو معناه في قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ [الفرقان: ١]، أي الكتاب الفارق بين الحق والباطل، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٤]، وقوله: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ [البقرة: ٥٣]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، ويدل على أن المراد بالفرقان هنا: العلم الفارق بين الحق والباطل، قوله

تعالى في الحديد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفَايَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾... الآية [الحديد: ٢٨].

لأن قوله هنا: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨] يعني: علماً وهدى تفرقون به بين الحق والباطل، ويدل على أن المراد بالنور هنا الهدى ومعرفة الحق، قوله تعالى فيمن كان كافراً فهداه الله: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ الآية [الأنعام: ١٢٢]. فجعل النور المذكور في الحديد: هو معنى الفرقان المذكور في الأنفال كما ترى. وتكفير السيئات والغفران المرتب على تقوى الله في آية الأنفال، كذلك جاء مرتباً أيضاً عليها في آية الحديد، وهو بيان واضح كما ترى.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا قَدْ سَعَيْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾. قد بينا قبل هذا الآيات المصراحة بكذبهم، وتعجيز الله لهم عن الإتيان بمثله، فلا حاجة إلى إعادتها هنا، وقوله هنا في هذه الآية عنهم: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ رد الله عليهم كذبهم وافتراءهم هذا في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [٥] قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا [٦] [الفرقان] وما أنزله عالم السر في السموات والأرض فهو بعيد جداً من أن يكون أساطير الأولين، وكقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِمَا نُسِطُ إِلَيْهِ يُلْحِذُونَ آيَاتِهِ أَعَجَبُ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٧]، إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا لِمَا نُسِطُ إِلَيْهِ أَفْمَطَرٌ عَلَيْنَا حِجَابٌ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [٢٢].

ذكر هنا في هذه الآية الكريمة ما يدل على أن كفر مكة في غاية الجهل حيث قالوا: ﴿فَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾... الآية، ولم يقولوا فاهدنا إليه، وجاء في آيات أخر ما يدل على ذلك أيضاً كقوله عنهم: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١١]، وقوله: ﴿وَسَتَجْلِبُونَ بِالْعَذَابِ﴾... الآية [الحج: ٤٧]، وقوله: ﴿وَلَكِنْ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أَنتُمْ مَعْدُودُونَ لِيَقُولُوا مَا يَجْحِسُ﴾ [هود: ٨] وذكر عن بعض الأمم السالفة شبه ذلك، كقوله في قوم شعيب: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [١٧] [الشعراء]، وقوله عن قوم صالح: ﴿يَصْلَحْ أَتَيْنَا بِمَا نَعَدْنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وسيأتي لهذا إن شاء الله زيادة إيضاح في سورة «سأل سائل».

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أُولَآؤُهُ إِلَّا الْمُتَفَوِّنُونَ﴾. صرح تعالى في هذه الآية الكريمة بنفي ولاية الكفار على المسجد الحرام، وأثبتها لخصوص المتقين، وأوضح هذا المعنى في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [٧] إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ [٨] [التوبة].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ الآية.

المكاء: الصفير، والتصديّة: التصفيق. قال بعض العلماء: والمقصود عندهم بالصفير والتصفيق التخليط حتى لا يسمع الناس القرآن من النبي ﷺ، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَقْلَبُونَ﴾ [فصلت].

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَلِالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ﴾. ظاهر هذه الآية الكريمة أن كل شيء حواه المسلمون من أموال الكفار فإنه يخمس حسبما نص عليه في الآية، سواء أوجفوا عليه الخيل والركاب أو لا، ولكنه تعالى بين في سورة «الحشر» أن ما أفاء الله على رسوله من غير إيجاب المسلمين عليه الخيل والركاب، أنه لا يخمس، ومصارفه التي بين أنه يصرف فيها كمصارف خمس الغنيمة المذكورة هنا، وذلك في قوله تعالى: في شيء بني النضير: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: ٦]، ثم بين شمول الحكم لكل ما أفاء الله على رسوله من جميع القرى بقوله: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الحشر: ٧].

اعلم أولاً أن أكثر العلماء فرقوا بين الفبي والغنيمة، فقالوا: الفبي هو ما يسره الله للمسلمين من أموال الكفار من غير انتزاعه منهم بالقهر، كفي بني النضير الذين نزلوا على حكم النبي ﷺ ومكنوه من أنفسهم وأموالهم يفعل فيها ما يشاء؛ لشدة الرغب الذي ألقاه الله في قلوبهم، ورضي لهم ﷺ أن يرتحلوا بما يحملون على الإبل غير السلاح، وأما الغنيمة فهي ما انتزعه المسلمون من الكفار بالغلبة والقهر، وهذا التفريق يفهم من قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾... الآية، مع قوله: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: ٦]، فإن قوله تعالى: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾... الآية: ظاهر في أنه يراد به بيان الفرق بين ما أوجفوا عليه وما لم يوجفوا عليه كما ترى، والفرق المذكور بين الغنيمة والفبي عقده الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي في نظمه للمغازي بقوله:

في غزوة بني النضير

وفيتهم والفبي في الأنفال ما لم يكن أخذ عن قتال
أما الغنيمة فعن زحاف والأخذ عنوة لدى الزحاف

لخير مرسل إلخ.

وقوله: وفيتهم مبتدأ خبره لخير مرسل، وقوله: والفبي في الأنفال.. إلخ: كلام اعتراضي بين المبتدأ والخبر بين الفرق بين الغنيمة والفبي. وعلى هذا القول فلا إشكال في الآيات؛ لأن آية ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ ذكر فيها حكم الغنيمة، وآية ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ [الحشر: ٧] ذكر فيها حكم الفبي. وأشير لوجه الفرق بين المسألتين بقوله: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: ٦]؛ أي فكيف يكون غنيمة لكم، وأنتم لم تتعبوا فيه ولم تتزعموه بالقوة من مالكيه.

وقال بعض العلماء: إن الغنيمة والفِيء واحد، فجميع ما أخذ من الكفار على أي وجه كان غنيمة وفِيءاً، وهذا قول قتادة رحمته الله وهو المعروف في اللغة، فالعرب تطلق اسم الفِيء على الغنيمة، ومنه قول مهلهل بن ربيعة التغلبي:

فلا وأبي جليله ما أفأنا من النعم المؤيل من بعير
ولكننا نهكنا القوم ضرباً على الأثباج منهم والنحور

يعني: أنهم لم يشتغلوا بسوق الغنائم ولكن بقتل الرجال، فقوله: أفأنا يعني غنمنا، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]؛ لأن ظاهر هذه الآية الكريمة شمول ذلك لجميع المسيبات ولو كن متزعات قهراً، ولكن الاصطلاح المشهور عند العلماء هو ما قدمنا من الفرق بينهما، وتدل له آية الحشر المتقدمة، وعلى قول قتادة فآية الحشر مشكلة مع آية الأنفال هذه، ولأجل ذلك الإشكال قال قتادة رحمته الله تعالى: إن آية ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾... الآية، ناسخة لآية ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾... الآية [الحشر: ٦]. وهذا القول الذي ذهب إليه رحمته الله باطل بلا شك، ولم يلجئ قتادة رحمته الله إلى هذا القول إلا دعواه اتحاد الفِيء والغنيمة، فلو فرق بينهما كما فعل غيره لعلم أن آية الأنفال في الغنيمة، وآية الحشر في الفِيء، ولا إشكال. ووجه بطلان القول المذكور: أن آية ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾... الآية، نزلت بعد وقعة بدر، قبل قسم غنيمة بدر؛ بدليل حديث علي الثابت في صحيح مسلم، الدال على أن غنائم بدر خمست، وآية التخميس التي شرعها الله بها هي هذه، وأما آية الحشر فهي نازلة في غزوة بني النضير بإطباق العلماء، وغزوة بني النضير بعد غزوة بدر بإجماع المسلمين ولا منازعة فيه البتة، فظهر من هذا عدم صحة قول قتادة - رحمه الله تعالى - وقد ظهر لك أنه على القول بالفرق بين الغنيمة والفِيء لا إشكال في الآيات، وكذلك على قول من يرى أمر الغنائم والفِيء راجعاً إلى نظر الإمام، فلا منافاة على قوله بين آية الحشر، وآية التخميس إذا رآه الإمام. والله أعلم.



قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيَتْهُ فَتُكَ فَتُكْتَبُونَ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٩). أمر الله تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة بالثبات عند لقاء العدو، وذكر الله كثيراً، مشيراً إلى أن ذلك سبب للفلاح؛ والأمر بالشيء نهي عن ضده، أو مستلزم للنهي عن ضده، كما علم في الأصول، فتدل الآية الكريمة على النهي عن عدم الثبات أمام الكفار، وقد صرح تعالى بهذا المدلول في قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيَتْهُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ (٢٠) إلى قوله: ﴿وَيَسِّرْ لِّلْمُصِیِّرِ﴾ [الأنفال]، وفي الأمر بالإكثار من ذكر الله تعالى في أضييق الأوقات؛ وهو وقت التحام القتال، دليل واضح على أن المسلم ينبغي له الإكثار من ذكر الله على كل حال؛ ولا سيما في وقت الضيق، والمحِب الصادق في حبه لا ينسى محبوه عند نزول الشدائد.

قال عترة في معلقته:

ولقد ذكرتكم والرماح نواهل مني وبيض الهند تظفر من دمي
وقال الآخر:

ذكرتكم والخطى يخطر بيننا وقد نهلت فينا المثقفة السمر
تنبيه: قال بعض العلماء: كل «لعل» في القرآن فهي للتعليل إلا التي في سورة
الشعراء: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَافِحَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء] فهي بمعنى «كأنكم تخلدون».
قال مقيد - عفا الله عنه -: لفظة «لعل» قد ترد في كلام العرب مراداً بها التعليل،
ومنه قوله:

فقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا نكف ووثقتم لنا كل موثق
فلما كفنا الحرب كانت عهدكم كشبه سراب بالمال متألق
فقوله «لعلنا نكف» يعني «لأجل أن نكف»، وكونها للتعليل لا ينافي معنى
الترجي؛ لأن وجود المعلول يرجى عند وجود علته.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾. نهى الله - جل وعلا - المؤمنين
في هذه الآية الكريمة عن التنازع، مبيناً أنه سبب الفشل، وذهاب القوة، ونهى عن
الفرقة أيضاً في مواضع أخرى، كقوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران:
١٠٣]، ونحوها من الآيات، وقوله في هذه الآية: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي قوتكم.
وقال بعض العلماء: نَصْرُكُمْ؛ كما تقول العرب: الريح فلان إذا كان غالباً، ومنه قوله:
إذا هبت رياحك فاغتنمها فإن لكل عاصفة سكون
واسم «إن» ضمير الشأن.

وقال صاحب الكشف: الريح الدولة، شبهت في نفوذ أمرها، وتمشيه بالريح في
هبوبها، ف قيل: هبت رياح فلان، إذا دالت له الدولة، ونفذ أمره، ومنه قوله:

يا صاحبي ألا لا حي بالوادي إلا عبيد قعود بين أذواي
أنظران قليلاً ريث غفلتهم أم تعدوان فإن الريح للعاوي
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾
إلى قوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الشيطان غرَّ
الكفار، وخدعهم، وقال لهم: لا غالب لكم وأنا جار لكم.

وذكر المفسرون: أنه تمثل لهم في صورة «سراقه بن مالك بن جعشم» سيد بني
مدلج بن بكر بن كنانة، وقال لهم ما ذكر الله عنه، وأنه مجيرهم من بني كنانة، وكانت
بينهم عداوة، ﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفُتَيَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾، عندما رأى الملائكة وقال لهم:
﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾، فكان حاصل أمره أنه غرهم، وخدعهم حتى
أوردتهم الهلاك، ثم تبرأ منهم.

وهذه هي عادة الشيطان مع الإنسان كما بينه تعالى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿كَذَلِكَ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ الآية [الحشر: ٥٩]. وقوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وكقوله: ﴿يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]. وقد قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

سرنا وساروا إلى بدر لحينهم لو يعلمون يقين الأمر ما ساروا
دلاهم بغرور ثم أسلمهم إن الخبيث لمن ولاه غرار

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [٥٣]. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه؛ وأوضح هذا المعنى في آيات أخر، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]، وقوله: ﴿وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِنْ مُمْسِكَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيْتَةٍ مِنْ نَفْسِكُمْ﴾ [النساء: ٧٩]، إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٥٤].

قال بعض العلماء: إن قوله: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ في محل رفع بالعطف على اسم الجلالة، أي حسبك الله، وحسبك أيضاً من اتبعك من المؤمنين.

وممن قال بهذا الحسن، واختاره النحاس وغيره، كما نقله القرطبي، وقال بعض العلماء: هو في محل خفض بالعطف على الضمير الذي هو الكاف في قوله: ﴿حَسْبُكَ﴾ وعليه، فالمعنى: حسبك الله أي كافيك وكافي من اتبعك من المؤمنين، وبهذا قال الشعبي، وابن زيد وغيرهما، وصدر به صاحب الكشف، واقتصر عليه ابن كثير وغيره، والآيات القرآنية تدل على تعيين الوجه الأخير، وأن المعنى كافيك الله، وكافي من اتبعك من المؤمنين؛ لدلالة الاستقراء في القرآن على أن الحسب والكفاية لله وحده، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥١]، فجعل الإيتاء لله ورسوله، كما قال: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]، وجعل الحسب له وحده، فلم يقل: وقالوا حسبنا الله ورسوله، بل جعل الحسب مختصاً به وقال: ﴿إِلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ؟﴾ [الزمر: ٣٦] فخص الكفاية التي هي الحسب به وحده، وتمدح تعالى بذلك في قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِبَصِيرَةٍ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ [٣٧]، ففرق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له بنصره وبعياده.

وقد أثنى سبحانه وتعالى على أهل التوحيد والتوكل من عباده حيث أفردوه

بالحسب، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ الآية [التوبة: ١٢٩]، إلى غير ذلك من الآيات، فإن قيل: هذا الوجه الذي دل عليه القرآن، فيه أن العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض، ضعفه غير واحد من علماء العربية، قال ابن مالك في (الخلاصة):
وعود خافض لدى عطف على ضمير خفص لازماً قد جعلاً
فالجواب من أربعة أوجه:

الأول: أن جماعة من علماء العربية صححوا جواز العطف من غير إعادة الخافض، قال ابن مالك في (الخلاصة):

وليس عندي لازماً إذ قد أتى في النظم والنثر الصحيح مثبتاً
وقد قدمنا في «سورة النساء» في الكلام على قوله: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ [النساء: ١٢٧] شواهد العربية، ودلالة قراءة حمزة عليه، في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١].

الوجه الثاني: أنه من العطف على المحل؛ لأن الكاف مخفوض في محل نصب، إذ معنى ﴿حَسْبُكَ﴾ يكفيك، قال في (الخلاصة):

وجر ما يتبع ما جر ومن راعى في الاتباع المحل فحسن
الوجه الثالث: نصبه بكونه مفعولاً معه، على تقدير ضعف وجه العطف، كما قال في (الخلاصة):

والعطف إن يمكن بلا ضعف أحق والنصب مختار لدى ضعف النسق
الوجه الرابع: أن يكون ﴿وَمَنْ﴾ مبتدأ خبره محذوف، أي ﴿وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فحسبهم الله أيضاً، فيكون من عطف الجملة، والعلم عند الله تعالى.
قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَهِدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [٧٥].

لم يعين تعالى في هذه الآية الكريمة المراد بأولي الأرحام؛ واختلف العلماء في هذه الآية، هل جاء في القرآن ما يبين المراد منها أو لا؛ فذهب جماعة من أهل العلم إلى أنها بينها آيات المواثيق؛ كما قدمنا نظيره في قوله: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٧].

ومن أراد الزيادة فليرجع إلى الأصل.

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة التوبة

اعلم أولاً أن الصحابة رضي الله عنهم لم يكتبوا سطر **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** في سورة «براءة» هذه في المصاحف العثمانية، واختلف العلماء في سبب سقوط البسملة منها على أقوال:

ومنها: أن البسملة رحمة وأمان، و«براءة» نزلت بالسيف؛ فليس فيها أمان، وهذا القول مروى عن علي رضي الله عنه، وسفيان بن عيينة.

ومنها: أن ذلك على عادة العرب إذا كتبوا كتاباً فيه نقض عهد، أسقطوا منه البسملة، فلما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم علياً رضي الله عنه ليقراها عليهم في الموسم؛ قرأها، ولم يبسم على عادة العرب في شأن نقض العهد. نقل هذا القول بعض أهل العلم، ولا يخفى ضعفه.

ومنها: أن الصحابة لما اختلفوا هل «براءة» و«الأنفال» سورة واحدة أو سورتان؛ تركوا بينهما فرجة؛ لقول من قال: إنهما سورتان، وتركوا البسملة؛ لقول من قال: هما سورة واحدة، فرضي الفريقان وثبتت حجتاهما في المصحف.

ومنها: أن سورة «براءة» نسخ أولها فسقطت معه البسملة. وهذا القول رواه ابن وهب، وابن القاسم، وابن عبد الحكم، عن مالك، كما نقله القرطبي.

وعن ابن عجلان، وسعيد بن جبير، أنها كانت تعدل سورة «البقرة»، وقال القرطبي: والصحيح أن البسملة لم تكتب في هذه السورة؛ لأن جبريل لم ينزل بها، فيها. قاله القشيري، اهـ.

قال مقيده - عفا الله عنه -: أظهر الأقوال عندي في هذه المسألة؛ أن سبب سقوط البسملة في هذه السورة؛ هو ما قاله عثمان رضي الله عنه لابن عباس.

فقد أخرج النسائي، والترمذي، وأبو داود، والإمام أحمد، وابن حبان في (صحيحه)، والحاكم في (المستدرک) وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال - وهي من المثاني -، وإلى براءة - وهي من المائين - فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ووضعتموهما في السبع الطول، فما حملكم على ذلك؟

فقال عثمان رضي الله عنه: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان إذا أنزل عليه شيء يدعو بعض من

يكتب عنده، فيقول: ضعوا هذا في السورة التي فيها كذا وكذا، وتنزل عليه الآيات فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت «الأنفال» من أوائل ما أنزل بالمدينة، و«براءة» من آخر ما أنزل من القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وقبض رسول الله ﷺ، ولم يبين لنا أنها منها، فظننت أنها منها، فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ووضعتها في السبع الطول، اهـ.

تنبيهان:

الأول: يؤخذ من هذا الحديث أن ترتيب آيات القرآن بتوقيف من النبي ﷺ، وهو كذلك بلا شك، كما يفهم منه أيضاً: أن ترتيب سوره بتوقيف أيضاً فيما عدا سورة «براءة»، وهو أظهر الأقوال، ودلالة الحديث عليه ظاهرة.

الثاني: قال أبو بكر بن العربي المالكي - رحمه الله تعالى -: في هذا الحديث دليل على أن القياس أصل في الدين. ألا ترى إلى عثمان وأعيان الصحابة كيف لجأوا إلى قياس الشبه عند عدم النص، ورأوا أن قصة «براءة» شبيهة بقصة «الأنفال» فألحقوها بها، فإذا كان القياس يدخل في تأليف القرآن، فما ظنك بسائر الأحكام.

قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾:

ظاهر هذه الآية الكريمة العموم في جميع الكفار المعاهدين، وأنه بعد انقضاء أشهر الإمهال الأربعة المذكورة في قوله: ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ لا عهد لكافر.

وفي هذا اختلاف كثير بين العلماء، والذي يبينه القرآن، ويشهد له من تلك الأقوال، هو أن محل ذلك إنما هو في أصحاب العهود المطلقة غير الموقته بوقت معين، أو من كانت مدة عهده الموقت أقل من أربعة أشهر، فتكمل له أربع أشهر، أما أصحاب العهود الموقته الباقي من مدتها أكثر من أربعة أشهر، فإنه يجب لهم إتمام مدتهم، ودليله المبين له من القرآن؛ هو قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وهو اختيار ابن جرير، وروي عن الكلبي، ومحمد بن كعب القرظي، وغير واحد، قاله ابن كثير. ويؤيده حديث علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ، بعثه حين أنزلت «براءة» بأربع:

ألاً يطوف بالبيت عريان.

ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامهم هذا.

ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته.

ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة.

قوله تعالى: ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾... الآية.

قال بعض العلماء: كان ابتداء التأجيل بالأشهر الأربعة المذكورة من شوال؛

وآخره سُلخ المحرم، وبه قال الزهري - رحمه الله تعالى - ولكن القرآن يدل على أن ابتداءها من يوم النحر على الأصح من أنه يوم الحج الأكبر، أو يوم عرفة على القول بأنه هو يوم الحج الأكبر، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَنْفَخُ فِي الْفُفُوفِ نَفْخًا يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾... الآية. وهو صريح في أن ابتداء الإعلام المذكور من يوم الحج الأكبر، وهو يوم النحر، ولا يخفى انتهاءها في العشر من ربيع الثاني.

قال ابن كثير: - في تفسير هذه الآية - وقال الزهري: كان ابتداء التأجيل من شوال، وآخره سُلخ المحرم، وهذا القول غريب، وكيف يحاسبون بمدة لم يبلغهم حكمها، وإنما ظهر لهم أمرها يوم النحر، حين نادى أصحاب رسول الله ﷺ بذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَنْفَخُ فِي الْفُفُوفِ نَفْخًا يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾. قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَيْنَا الْيَوْمَ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ إِلَىٰ مَدِينِهِمْ﴾.

يفهم من مفهوم مخالفة هذه الآية: أن المشركين إذا نقضوا العهد جاز قتالهم، ونظير ذلك أيضاً، قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَمُّوْا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ وهذا المفهوم في الآيتين صرح به - جل وعلا - في قوله: ﴿وَلِإِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مِمَّنْ بَعْدَ عَهْدِهِمْ فَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَبِلْتُمْ أَتَيْتُمُ الْكُفْرَ إِنَّهُمْ لَا يَتَّقُونَ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُوا﴾ (١٦). قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُنْشِئَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾... الآية.

اختلف العلماء في المراد بالأشهر الحرم.

فقال ابن جرير: إنها المذكورة في قوله تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكََ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ قاله أبو جعفر الباقر.

ولكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم في حقه المحرم، وحكى نحو قوله هذا علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وإليه ذهب الضحاك.

ولكن السياق يدل على أن المراد بها أشهر الإمهال المذكورة في قوله: ﴿فَاسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾.

قال ابن كثير، في تفسير هذه الآية: والذي يظهر من حيث السياق، ما ذهب إليه ابن عباس، في رواية العوفي عنه، وبه قال مجاهد، وعمرو بن شعيب، ومحمد بن إسحاق، وقتادة، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن المراد بها، الأشهر الأربعة المنصوص عليها بقوله: ﴿فَاسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ ثم قال: ﴿وَإِذَا أُنْشِئَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ أي: إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمت عليكم قتالهم فيها، وأجلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم؛ لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر، مع أن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتي بيان حكمها في آية أخرى، اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَهَكُومًا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن كفار مكة هموا بإخراجه ﷺ من مكة، وصرح في مواضع أخر بأنهم أخرجوه بالفعل،

كقوله: ﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ [المتحنة: ١]، وقوله: ﴿وَكَايَنَ مِنْ قَرِيْبٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِيْبِكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ﴾ [محمد: ١٣]، وقوله: ﴿إِلَّا نُنْصِرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وذكر في مواضع آخر: محاولتهم لإخراجه قبل أن يخرجوه، كقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُواكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء: ٧٦].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾. نهى الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن موالة الكفار، ولو كانوا قرباء، وصرح في موضع آخر: بأن الاتصاف بوصف الإيمان مانع من موادة الكفار ولو كانوا قرباء، وهو قوله: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاعَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾.

ذكر تعالى ما أصاب المسلمين يوم حنين في هذه الآية الكريمة، وذكر ما أصابهم يوم أحد بقوله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجَتْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٣]، وصرح بأنه تاب على من تولى يوم أحد بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، وأشار هنا إلى توبته على من تولى يوم حنين بقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧) كما أشار بعض العلماء إليه.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية. أظهر الأقوال وأقربها للمصواب في معنى ﴿يَكْنِزُونَ﴾ في هذه الآية الكريمة، أن المراد بكنزهم الذهب والفضة وعدم إنفاقهم لها في سبيل الله، أنهم لا يؤدون زكاتها. قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: وأما الكنز؟ فقال مالك: عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر: هو المال الذي لا تؤدى زكاته.

وزى الثوري، وغيره، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، قال: ما أدي زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وما كان ظاهراً لا تؤدى زكاته فهو كنز. وقد روي هذا عن ابن عباس، وجابر، وأبي هريرة، موقوفاً ومرفوعاً.

وقال عمر بن الخطاب نحوه: أيما مال أديت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفوناً في الأرض، وأيما مال لم تؤد زكاته فهو كنز يكرى به صاحبه، وإن كان على وجه الأرض، اهـ.

وممن روي عنه هذا القول: عكرمة، والسدي، ولا شك أن هذا القول أصوب الأقوال؛ لأن من أدى الحق الواجب في المال الذي هو الزكاة لا يكرى بالباقي إذا أمسكه؛ لأن الزكاة تطهره كما قال تعالى: ﴿حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ ولأن المواريث ما جعلت إلا في أموال تبقى بعد مالكيها.

ومن أصرح الأدلة في ذلك: حديث طلحة بن عبيد الله وغيره في قصة الأعرابي أخي بني سعد، من هوازن، وهو ضمام بن ثعلبة، لما أخبره النبي ﷺ: بأن الله فرض عليه الزكاة، وقال: هل عليّ غيرها، فإن النبي قال له: «لا، إلا أن تطوع».

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا مَاذَا يُفْقُونَ قُلِ الْمَغْفُورُ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقد قدمنا في «البقرة» تحقيق أنه ما زاد على الحاجة التي لا بد منها، وقوله: «ليس فيما دون خمسة أوسق»، الحديث؛ لأن صدقة نكرة في سياق النفي فهي تعم نفي كل صدقة. وفي الآية أقوال أخرى:

منها: أنها منسوخة بآيات الزكاة؛ كقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾. وذكر البخاري هذا القول بالنسخ عن ابن عمر أيضاً. وبه قال عمر بن عبد العزيز، وعراك بن مالك، اهـ. وعن علي أنه قال: أربعة آلاف فما دونها نفقة وما كان أكثر من ذلك فهو كنز، ومذهب أبي ذر رضي الله عنه في هذه الآية مغروف، وهو أنه يحرم على الإنسان أن يدخر شيئاً فاضلاً عن نفقة عياله، اهـ. ولا يخفى أن ادخار ما أدت حقوقه الواجبة لا بأس به، وهو كالضروري عند عامة المسلمين.

فإن قيل: ما الجواب عما رواه الإمام أحمد، عن علي رضي الله عنه، قال: مات رجل من أهل الصفة، وترك دينارين أو درهمين فقال رسول الله ﷺ: «كَيْتَانِ؛ صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ»، اهـ. وما رواه قتادة عن شهر بن حوشب، عن أبي أمامة صدي بن عجلان قال: مات رجل من أهل الصفة فوجد في مثزرة دينار فقال رسول الله ﷺ: «كَيْتَانِ» ثم توفي آخر فوجد في مثزرة دينار فقال رسول الله ﷺ: «كَيْتَانِ». وما روى عبد الرزاق وغيره عن علي رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «تَبَّ لِلذَّهَبِ تَبًّا لِلْفُضَّةِ»، يقولها ثلاثاً، فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: فأَيُّ مالٍ نتخذ؟ فقال عمر رضي الله عنه: «أنا أعلم لكم ذلك من رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله؛ إن أصحابك قد شق عليهم وقالوا: فأَيُّ المال نتخذ؟ فقال: «لَسَانًا ذَاكِرًا وَقَلْبًا شَاكِرًا وَزَوْجَةً تَعِينُ أَحَدَكُمْ عَلَى دِينِهِ». ونحو ذلك من الأحاديث.

فالجواب - والله تعالى أعلم -: أن هذا التغليظ كان أولاً ثم نسخ بفرض الزكاة كما ذكره البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما.

وقال ابن حجر في (فتح الباري): قال ابن عبد البر: وردت عن أبي ذر آثار كثيرة تدل على أنه كان يذهب إلى أن كل مال مجموع يفضل عن القوت وسداد العيش؛ فهو كنز يذم فاعله، وأن آية الوعيد نزلت في ذلك.

وخالفه جمهور الصحابة ومن بعدهم، وحملوا الوعيد على مانع الزكاة، إلى أن قال: فكان ذلك واجباً في أول الأمر، ثم نسخ، ثم ذكر عن شداد بن أوس أنه قال: كان أبو ذر يسمع الحديث من رسول الله ﷺ فيه الشدة ثم يخرج إلى قومه ثم يرخص فيه النبي ﷺ فلا يسمع الرخصة، ويتعلق بالأمر الأول، اهـ.

وقال بعض العلماء: هي في خصوص أهل الكتاب، بدليل اقترانها مع قوله: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ﴾ الآية.

فإذا علمت أن التحقيق أن الآية عامة، وأنها في من لا يؤدي الزكاة، فاعلم أن المراد بها هو المشار إليه في آيات الزكاة؛ وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك، أن البيان بالقرآن إذا كان غير واف بالمقصود نتمم البيان من السنة، من حيث إنها بيان للقرآن المبين به، وآيات الزكاة كقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾... الآية، وقوله: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقوله: ﴿أَنفِقُوا مِمَّا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، لا تفي بالبيان فنيئنه بالسنة، وقد قال ابن خويز منداد المالكي، تضمنت هذه الآية: زكاة العين، وهي تجب بأربعة شروط: حرية، وإسلام، وحول، ونصاب سليم من الدين، اه؛ وفي بعض هذه الشروط خلاف.



قوله تعالى: ﴿أَنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ الآية.

لا يخفى ما في هذه الآية الكريمة من التشديد في الخروج إلى الجهاد على كل حال، ولكنه تعالى بين رفع هذا التشديد بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُفْقُونَ حَرَجٌ﴾ [التوبة: ٩١]... الآية؛ فهي ناسخة لها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْأَصْدَقَةُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَاةُ فُلُؤْهُمُ فِي الرِّقَابِ﴾. قال الشافعي، والليث: إن المراد بالرقاب المكاتبون.

وروي نحوه عن أبي موسى الأشعري، والحسن البصري، ومقاتل بن حيان، وعمر بن عبد العزيز، وسعيد بن جبير، والنخعي، والزهري، وابن زيد. ويدل لهذا القول قوله تعالى في المكاتبين: ﴿وَأَتَاهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، وقال ابن عباس: الرقاب أعم من المكاتبين، فلا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة. وهو مذهب مالك وأحمد وإسحاق.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. صرح تعالى في هذه الآية الكريمة، بأن من يؤذي رسول الله ﷺ له العذاب الأليم.

وذكر في «الأحزاب» أنه ملعون في الدنيا والآخرة، وأن له العذاب المهين، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿مَا يَحْذَرُونَ﴾.

صرح في هذه الآية الكريمة بأن المنافقين يحذرون أن ينزل الله سورة تفضحهم وتبين ما تنطوي عليه ضمائرهم من الخبث؛ ثم بين أنه مخرج ما كانوا يحذرونه، وذكر في موضع آخر أنه فاعل ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَنْ لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَهُمْ﴾ [٢٩] إلى قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٢٩ - ٣٠]، وبين في موضع آخر شدة خوفهم، وهو قوله: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

صرح في هذه الآية الكريمة: أن المنافقين ما وجدوا شيئاً ينقمونه؛ أي يعيبونه ويتنقدونه إلا أن الله تفضل عليهم فأغناهم بما فتح على نبيه ﷺ من الخير والبركة.

والمعنى أنه لا يوجد شيء يحتمل أن يعاب أو ينقم بوجه من الوجوه، والآية كقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج]، وقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهَا إِلَّا أَنْتَ ءَامِنًا بِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ رَبِّنَا لَمَّا جَلَدْنَا﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وقوله: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْتَ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠].

ونظير ذلك من كلام العرب؛ قول النابغة الذبياني:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب
وقول الآخر:

ما نقموا من أمية إلا أنهم يضربون إن غضبوا
وقول الآخر:

فما بك في من عيب فإني جبان الكلب مهزول الفصيل
قوله تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة شدة حر نار جهنم - أعادنا الله والمسلمين منها -، وبين ذلك في مواضع أخرى؛ كقوله: ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦]، وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَنْفٌ لَاشِقْوَى﴾ [المعارج: ١١]، وقوله: ﴿كَلَّا فَخِضَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]، وقوله: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَمْلِكْ مِنْ حَمِيمٍ﴾ [الحج: ١١]، وقوله: ﴿وَلَنْ يَسْتَغِيثُوا يَغَاثُوا يَمَاءً كَأَلْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ الآية [الكهف: ٢٩]، وقوله: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِخُرُوجٍ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ إلى قوله: ﴿الْمُخَلَّفِينَ﴾. عاقب الله في هذه الآية الكريمة: المتخلفين عن غزوة تبوك بأنهم لا يؤذن لهم في الخروج مع نبيه، ولا القتال معه ﷺ؛ لأن شؤم المخالفة يؤدي إلى فوات الخير الكثير.

وقد جاء مثل هذا في آيات أخر كقوله: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِنَاخِلُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥]، وقوله: ﴿وَقَلِّبْ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، إلى غير ذلك من الآيات؛ والخالف هو الذي يتخلف عن الرجال في الغزو فيبقى مع النساء والصبيان، ومنه قول الشنفرى:

ولا خالف دارية متررب يروح ويغدو داهنا يتكحل

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَحْنُ مَعَ الْقَتْعِيِّنَ﴾ [٨١].

ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة، أنه إذا أنزل سورة فيها الأمر بالإيمان، والجهاد مع نبيه ﷺ، استأذن الأغنياء من المنافقين في التخلف عن الجهاد مع القدرة عليه، وطلبوا النبي ﷺ أن يتركهم مع القاعدين المتخلفين عن الغزو.

وبيّن في موضع آخر أن هذا ليس من صفات المؤمنين، وأنه من صفات الشاكين الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وذلك في قوله: ﴿لَا يَسْتَدِينُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [٩٩] إِنَّمَا يَسْتَدِينُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿١٠٠﴾، وبيّن أن السبيل عليهم بذلك، وأنهم مطبوع على قلوبهم؛ بقوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَدِينُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ الآية.

وبيّن في مواضع أخرى شدة جزعهم من الخروج إلى الجهاد، كقوله: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ تُحْكَمُ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ظَنًّا أَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢]، وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْحُوفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْحُوفُ سَلَفُوا﴾ [الأحزاب: ١٧] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾. صرح تعالى في هذه الآية الكريمة بأن الذين اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار بإحسان، أنهم داخلون معهم في رضوان الله تعالى، والوعد بالخلود في الجنات والفوز العظيم، وبيّن في مواضع أخرى، أن الذين اتبعوا السابقين بإحسان يشاركونهم في الخير، كقوله - جل وعلا - : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ لَمَّا بَلَغُوا نَبَأَهُمْ﴾ [الجمعة: ٣]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَّهَهُدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥].

ولا يخفى أنه تعالى صرح في هذه الآية الكريمة، أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، وهو دليل قرآني صريح في أن من يسبهم ويبغضهم، أنه ضال مخالف لله - جل وعلا - حيث أبغض من رضي الله عنه؛ ولا شك أن بغض من رضي الله عنه مضادة له - جل وعلا - وتمرد وطغيان.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِتِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ الآية:

صرح في هذه الآية الكريمة أن من الأعراب ومن أهل المدينة منافقين لا يعلمهم رسول الله ﷺ، وذكر تعالى نظير ذلك عن نوح في قوله عنه: ﴿قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [١٧٧] الآية [الشعراء]، وذكر نظيره عن شعيب - عليهم كلهم صلوات الله وسلامه - في قوله: ﴿يَقِئْتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨١]. وقد أطلع الله نبيه على بعض المنافقين كما تقدم في الآيات الماضية، وقد أخبر صاحبه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، بشيء من ذلك، كما هو معلوم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾

الآية: لم يبين هنا هذه الموعدة التي وعدها إياه، ولكنه بيّنها في سورة «مريم» بقوله: ﴿قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا﴾ ﴿١٧﴾ [مريم].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿١٨﴾. هذه الآية الكريمة تدل على أن بعث هذا الرسول الذي هو من أنفسنا الذي هو متصف بهذه الصفات المشعزة بغاية الكمال، وغاية شففته علينا هو أعظم من: الله تعالى، وأجزل نعمه علينا، وقد بيّن ذلك في مواضع أخرى؛ كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٧﴾ [الأنبياء]، إلى غير ذلك من الآيات. وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

أمر تعالى في هذه الآية الكريمة ﷺ، بالتوكل عليه - جل وعلا - . ولا شك أنه ممثّل ذلك، فهو سيد المتوكلين عليه صلوات الله وسلامه، والتوكل على الله تعالى، وهو شأن إخوانه من المرسلين صلوات الله عليهم وسلامه.

كما بيّن تعالى ذلك في آيات أخرى، كقوله عن هود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَآشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ مِّنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ [هود]، وقوله تعالى عن نوح: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَكْفُرُوا إِن كَانَ كِبَرٌ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي وَتَذَكَّرِي بِمَا نَبَأَ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ ﴿٦١﴾ [يونس]، وقوله تعالى عن جملة الرسل: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ [إبراهيم: ١٢]. ومن أوضح الأدلة على عظم توكل نبينا ﷺ على الله، قوله يوم حنين، وهو على بغلة في ذلك الموقف العظيم:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

باسم الرحمن الرحيم

سورة يونس

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ الآية.

ذكر في هذه الآية الكريمة: أن الذين كفروا يعذبون يوم القيامة بشرب الحميم، وبالعذاب الأليم، والحميم: الماء الحار، وذكر أوصاف هذا الحميم في آيات أخرى،

كقوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيرٍ ؕ إِنِّىٓ أَرَىۥٓ إِلَهُكَ أَنَّ الْكَافِرِينَ يَكُونُونَ لَهَبًا وَّاهِبًا ۚ﴾ [الرحمن: ٤٤]، وقوله: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، وقوله: ﴿هَٰذَانِ خَصَمَانِ أَحْصَمُوا فِي رَيْبِهِمُ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۖ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۚ﴾ [الحج: ٢٠]، وقوله: ﴿وَإِن يَسْتَفِشُوا يَغْثُوا يَمَآءَ ۖ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ... الآية [الكهف: ٢٩]، وقوله: ﴿فَنُفِثُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۖ فَشَرِبُوا شَرَبَ الْمُهْلِ ۖ﴾ [الواقعة: ٥٥].

وذكر في موضع آخر أن الماء الذي يسقون صديد - أعاذنا الله وإخواننا المسلمين من ذلك بفضلله ورحمته -، وذلك في قوله تعالى: ﴿مِن رَّأْيِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَفَىٰ مِنْ مَّآءٍ صٰدِرٍ ۖ﴾ [التجسس: ١٦]، ولا يَكَاذُ يُسِغُهُ [إبراهيم: ١٧].

وذكر في موضع آخر أنهم يسقون مع الحميم الغساق، كقوله: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ۖ﴾ [٥٧]، وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ۖ﴾ [٥٨]، وقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۖ﴾ [٥٩]، إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا ۖ﴾ [النبا: ٦٥]، والغساق: صديد أهل النار - أعاذنا الله والمسلمين منها - وأصله من غسقت العين سال دمعها، وقيل: هو لغة، البارد المتنن، والحميم الآني: الماء البالغ غاية الحرارة، والمهل: دُرْدِيُّ الزيت أو المذاب من النحاس والرصاص، ونحو ذلك، والآيات المبينة لأنواع عذاب أهل النار كثيرة جداً.

قوله تعالى: ﴿وَنَجِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية أن تحية أهل الجنة في الجنة سلام، أي يسلم بعضهم على بعض بذلك، ويسلمون على الملائكة، وتسلم عليهم الملائكة بذلك، وقد بين تعالى هذا في مواضع أخرى؛ كقوله: ﴿نَجِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۖ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ﴾ [٢٣]، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۖ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ۖ﴾ [مريم: ٦٢]، وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۖ﴾ [٢٥]، إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ۖ﴾ [الواقعة: ٢٦]، وقوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ۖ﴾ [يس: ٥٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

ومعنى السلام: الدعاء بالسلامة من الآفات.

والتحية مصدر حياك الله بمعنى أطال حياتك.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحَاجَتِهِ ۖ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّهِ مَسَّهُ ۖ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الإنسان في وقت الكرب، يبتهل إلى ربه بالدعاء في جميع أحواله فإذا فرج الله كربته، أعرض عن ذكر ربه، ونسي ما كان فيه كأنه لم يكن فيه قط.

وبين هذا في مواضع أخرى كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسَىٰ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ۖ﴾ الآية [الزمر: ٨]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۖ﴾ الآية [الزمر: ٤٩]، وقوله: ﴿وَإِذَا أُنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنِعْمَتِنَا ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الضُّرُّ فَدُوعًا ۖ﴾ [الفصلت: ٥١]. والآيات في مثل ذلك كثيرة.

إلا أن الله استثنى من هذه الصفات الذميمة عباده المؤمنين، بقوله في سورة هود: ﴿وَلَئِنْ أَدْنَيْتُهُ نَعَمًا بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ۝١٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١٦﴾ [هود]، وقد قال ﷺ: «عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له، وإن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِ نَفْسِي﴾. أمر الله تعالى في هذه الآية الكريمة نبيه ﷺ أن يقول: إنه ما يكون له أن يبدل شيئاً من القرآن من تلقاء نفسه، ويفهم من قوله: ﴿مِنْ تِلْقَآئِ نَفْسِي﴾...، أن الله تعالى يبدل منه ما شاء بما شاء.

وصرح بهذا المفهوم في مواضع أخرى؛ كقوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ﴾ [النحل: ١٠١]، وقوله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقوله ﴿سَفَرْتُكَ فَلَا تَنْسَخْ﴾ ١٠١ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ۝٧٧﴾ [الأعلى].

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

في هذه الآية الكريمة حجة واضحة على كفار مكة؛ لأن النبي ﷺ لم يبعث إليهم رسولاً حتى لبث فيهم عمراً من الزمن، وقدر ذلك أربعون سنة، فعرفوا صدقه، وأمانته، وعدله، وأنه بعيد كل البعد من أن يكون كاذباً على الله تعالى، وكانوا في الجاهلية يسمونه الأمين، وقد ألقمهم الله حجراً بهذه الحجة في موضع آخر، وهو قوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ مُنْكَرُونَ﴾ ١١١﴾ [المؤمنون]؛ ولذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان، ومن معه عن صفاته ﷺ، قال هرقل لأبي سفيان: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا، وكان أبو سفيان في ذلك الوقت زعيم الكفار، ورأس المشركين، ومع ذلك اعترف بالحق، والحق ما شهدت به الأعداء.

فقال له هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب فيكذب على الله، اه، ولذلك ويخهم الله تعالى بقوله هنا: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَفْكُرُونَ﴾.

ضرب الله تعالى في هذه الآية الكريمة المثل للدنيا بالنبات الناعم المختلط ببعضه ببعض، وعماً قليل ييبس، ويكون حصيداً يابساً كأنه لم يكن قط، وضرب لها أيضاً المثل المذكور في «الكهف» في قوله: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾، إلى قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّراً﴾ [الكهف: ٤٥]، وأشار لهذا المثل بقوله في «الزمر»: ﴿ثُمَّ يَهَيِّجُ فَتْرَتَهُ مُصْفِراً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَمًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١]، وقوله في «الحديد»: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهَيِّجُ فَتْرَتَهُ مُصْفِراً ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾... الآية [الحديد: ٢٠].

تنبيه: التشبيه في الآيات المذكورة عند البلاغيين من التشبيه المركب؛ لأن وجه

الشبه صورة منتزعة من أشياء، وهو كون كل من المشبه والمشبّه به يمكن ما شاء الله، وهو في إقبال وكمال، ثم عمّا قليل يضمحل ويحول، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾. ذكر في هذه الآية الكريمة، أنه يوم القيامة يجمع الناس جميعاً، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وصرح في «الكهف» بأن لا يترك منهم أحداً، بقوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كُفٌّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفْتَ﴾ الآية.

صرح في هذه الآية الكريمة، بأن كل نفس يوم القيامة تبلو، أي تخبر وتعلم ما أسلفت، أي قدمت من خير وشر، وبين هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿يَبْنُوْا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٢] وقوله: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَابُ﴾ [الطارق: ٩] وقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَكَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [الأنعام: ١٣] وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ يَوْمَئِذٍ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا كِتَابٌ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وأما على قراءة تتلو بتاءين ففي معنى الآية وجهان:

أحدهما: أنها تتلو بمعنى تقرأ في كتاب أعمالها جميع ما قدمت، فيرجع إلى الأولى.

وثانيهما: أن كل أمة تتبع عملها، لقوله ﷺ: «لتتبع كل أمة ما كانت تعبده؛ فيتبع من كان يعبد الشمس، الشمس... الحديث».

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَقُلْ أَفَلَا لَتَقُون﴾.

صرح الله تعالى في هذه الآية الكريمة، بأن الكفار يقرّون بأنه - جل وعلا - هو ربهم الرازق المدبر للأمور المتصرف في ملكه بما يشاء، وهو صريح في اعترافهم بربوبيته، ومع هذا أشركوا به - جل وعلا -.

والآيات الدالة على أن المشركين مقرون بربوبيته - جل وعلا - ولم ينفعهم ذلك لإشراكهم معه غيره في حقوقه - جل وعلا - كثيرة، كقوله: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقوله: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، وقوله: ﴿قُلْ لَّيْنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨٤]، إلى قوله: ﴿فَأَنِّي سُحَّرْتُ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩] إلى غير ذلك من الآيات؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

والآيات المذكورة صريحة في أن الاعتراف بربوبيته - جل وعلا - لا يكفي في الدخول في دين الإسلام إلا بتحقيق معنى لا إله إلا الله نفيًا وإثباتًا، وقد أوضحناه في سورة «الفاتحة» في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥].

أما تجاهل فرعون لعنه الله لربوبيته - جل وعلا - في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: ٢٣)؛ فإنه تجاهل عارف لأنه عبد مربوب، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَاطِرٍ﴾ (الإسراء: ١٠٢)، وقوله: ﴿وَحَمِدُوا بِهَا وَاسْتَفْتَنَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (النمل: ١٤).

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا لِلْخَلْقِ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَنْتَ تُؤْفِكُونَ﴾.

ألقم الله تعالى المشركين في هذه الآيات حجراً، بأن الشركاء التي يعبدونها من دونه لا قدرة لها على فعل شيء، وأنه هو وحده - جل وعلا - الذي يبدأ الخلق ثم يعيده بالإحياء مرة أخرى، وأنه يهدي من يشاء.

وصرح بمثل هذا في آيات كثيرة كقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيْضُكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ شِبْهَنتُمْ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الروم)، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَوةً وَلَا نُشُوراً﴾ (الفرقان: ٣) وقوله: ﴿تَبَّأْتُمُ النَّاسَ أَذْكَرُوا بِعَمَلِهِمْ عَلَيَّكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (فاطر: ٣)، وقوله: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ (النحل: ١٧)، وقوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ (الرعد: ١٦)، وقوله: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ﴾ (الزمر)، وقوله: ﴿أَفَمَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ (الملك: ٢١)، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ (العنكبوت: ١٧).

والآيات في مثل ذلك كثيرة، ومعلوم أن تسوية ما لا يضر ولا ينفع ولا يقدر على شيء مع من بيده الخير كله المتصرف بكل ما شاء، لا تصدر إلا ممن لا عقل له، كما قال تعالى عن أصحاب ذلك: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (١٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلٌ لَكِتَابٍ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٧). صرح تعالى في هذه الآية الكريمة، أن هذا القرآن لا يكون مفترى من دون الله مكذوباً به عليه، وأنه لا شك في أنه من رب العالمين - جل وعلا - وأشار إلى أن تصديقه للكتب السماوية المنزلة قبله وتفصيله للعقائد والحلال والحرام ونحو ذلك، مما لا شك أنه من الله - جل وعلا -؛ دليل على أنه غير مفترى، وأنه لا ريب في كونه من رب العالمين. وبين هذا في مواضع أخرى، كقوله: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلٌ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف)، وقوله: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (١١) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (الشعراء)، وقوله: ﴿وَبَلَّغْنَا أَنْزَلْنَاهُ وَإِلَّا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (الإسراء: ١٠٥)، والآيات في مثل ذلك كثيرة.

ثم إنه تعالى لما صرح هنا بأن هذا القرآن ما كان أن يفترى على الله، أقام البرهان

القاطع على أنه من الله، فتحدى جميع الخلق بسورة واحدة مثله، ولا شك أنه لو كان من جنس كلام الخلق لقدر الخلق على الإتيان بمثله، فلما عجزوا عن ذلك كلهم حصل اليقين، والعلم الضروري أنه من الله - جل وعلا -، قال - جل وعلا - في هذه السورة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ تحداهم أيضاً في سورة «البقرة» بسورة واحدة من مثله، بقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٣]، وتحداهم في «هود» بعشر سور مثله بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ ... الآية [هود: ١٣]، وتحداهم في «الطور» به كله بقوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الطور: ٤٠].

وصرح في سورة «بني إسرائيل» بعجز جميع الخلائق عن الإتيان بمثله بقوله: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الإسراء: ٤١]، كما قدمنا، وبين أنهم لا يأتون بمثله أيضاً بقوله: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ ... الآية [البقرة: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾. التحقيق أن تأويله هنا، هو حقيقة ما يؤول إليه الأمر يوم القيامة، كما قدمنا في أول «آل عمران»، ويدل لصحة هذا قوله في «الأعراف»: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِي نَسُوهُ مِنْ قَبْلٍ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ﴾ [الأعراف: ٥٣]، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْفَعُوا عَذَابِي﴾ [ص: ٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيقُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾﴾. أمر الله تعالى نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة، أن يظهر البراءة من أعمال الكفار القبيحة إنكاراً لها، وإظهاراً لوجوب التباعد عنها، وبين هذا المعنى في قوله: ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَلِي دِينٍ﴾ [الكافرون: ١ - ٦]، ونظير ذلك، قول إبراهيم الخليل - وأتباعه - لقومه: ﴿إِنَّا بَرَاءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية [الممتحنة: ٤].

وبين تعالى في موضع آخر أن اعتزال الكفار، والأوثان والبراءة منهم؛ من فوائده تفضل الله تعالى بالذرية الطيبة الصالحة، وهو قوله في «مريم»: ﴿فَلَمَّا أَغْتَرَفْتُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ إلى قوله: ﴿عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٩ - ٥٠].

وقال ابن زيد، وغيره: إن آية: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ﴾ ... الآية، منسوخة بآيات السيف.

والظاهر أن معناها محكم؛ لأن البراءة إلى الله من عمل السوء لا شك في بقاء مشروعاتها.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾ الآية..

بين تعالى في هذه الآية الكريمة، أن الكفار إذا حشروا استقلوا مدة مكثهم في دار الدنيا، حتى كأنها قدر ساعة عندهم، وبين هذا المعنى في مواضع آخر، كقوله في

آخر «الأحقاف»: ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ بَرَزَ مَا يُوعَدُونَ لَوْ يَلْبِثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ فِيْهِ لَكِ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الآية «الأحقاف: ٣٥»، وقوله في آخر «النازعات»: ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ بَرَزَتْهَا لَوْ يَلْبِثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ [٤٦] «النازعات»، وقوله في آخر «الروم»: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ ... الآية [الروم: ٥٥].

وقد بيّنا بليّضاح في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) وجه الجمع بين هذه الآيات المقتضية أن الدنيا عندهم كساعة، وبين الآيات المقتضية أنها عندهم كأكثر من ذلك؛ كقوله تعالى: ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه]، وقوله: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَنَّا آلَاءَ اللَّهِ﴾ [المؤمنون]؛ فانظره فيه في سورة: «قد أفلح المؤمنون» في الكلام على قوله: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَنَّا آلَاءَ اللَّهِ﴾ [المؤمنون].
قوله تعالى: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾.

صرح في هذه الآية الكريمة أن أهل المحشر يعرف بعضهم بعضاً فيعرف الآباء الأبناء، كالعكس، ولكنه بين في مواضع آخر أن هذه المعرفة لا أثر لها، فلا يسأل بعضهم بعضاً شيئاً، كقوله: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً﴾ [المعارج: ١٠، ١١]، وقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ [المؤمنون].

وقد بيّنا في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) أيضاً، وجه الجمع بين قوله: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وبين قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسْأَلُونَ﴾ [الصفات]، في سورة: «قد أفلح المؤمنون»، أيضاً.
قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

صرح تعالى في هذه الآية الكريمة: بخسران المكذبين بلفظه، وأنهم لم يكونوا مهتدين، ولم يبيّن هنا المفعول به لقوله خسر، وذكر في مواضع كثيرة أسباباً من أسباب الخسران، وبيّن في مواضع آخر المفعول المحذوف هنا، فمن الآيات المماثلة لهذه الآية، قوله تعالى في «الأنعام»: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ الآية [الأنعام: ٣١]، وقوله تعالى في «البقرة»: ﴿بَقَعَتْ قَالُوا يَحْشَرُنَا عَلَى مَا قَرَرْنَا فِيهَا﴾ ... الآية [الأنعام: ٣١]، وقوله تعالى في «البقرة»: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٨١]، وقوله في «البقرة»: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْنَا مِنْكُمْ فِي الْكِتَابِ بِتُؤْمِنِهِمْ عَلَى تِلَاوَةِ آيَاتِهِ أُولَئِكَ يَوْمَئِذٍ كَافِرُونَ﴾ [البقرة: ٨١]، وقوله في «الأعراف»: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، وقوله في «الأعراف»: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَادٍ﴾ [الأعراف: ٩٩]، وقوله في «الزمر»: ﴿لَهُمْ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الزمر: ٦٢].

والآيات في مثل هذا كثيرة، وقد أقسم تعالى على أن هذا الخسران لا ينجو منه إنسان؛ إلا بأربعة أمور:

الأول: الإيمان. الثاني: العمل الصالح.

الثالث: التواصي بالحق. الرابع: التواصي بالصبر.

وذلك في قوله: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ [العصر: ١، ٢] إلى آخر السورة الكريمة، وبين في مواضع آخر، أن المفعول المحذوف الواقع عليه الخسران هو أنفسهم، كقوله في «الأعراف»: ﴿وَمَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَمَا كَانُوا يَعَانِتُنَا يَظْلُمُونَ ۝٩﴾ [الأعراف]، وقوله في «المؤمنون»: ﴿وَمَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۝٥٢﴾ [المؤمنون] وقوله في «هود»: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝٦١﴾ [هود].

وزاد في مواضع آخر خسران الأهل مع النفس، كقوله في «الزمر»: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُمِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، وقوله في «الشورى»: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورى: ٤٥].

وبين في موضع آخر أن خسران الخاسرين قد يشمل الدنيا والآخرة، وهو قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُمِينُ ۝١١﴾ [الحج: ١١].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ﴾.

بين الله تعالى في هذه الآية الكريمة لنبيه ﷺ أنه إما أن يريه في حياته بعض ما يعد الكفار من النكال والانتقام، أو يتوفاه قبل ذلك، فمرجعهم إليه - جل وعلا - لا يفوته شيء مما يريد أن يفعله بهم لكمال قدرته عليه، ونفوذ مشيئته - جل وعلا - فيهم. وبين هذا المعنى أيضاً في مواضع آخر، كقوله في سورة «المؤمن»: ﴿فَكَيْفَ تَرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَكَ فَإِنَّا يَرْجِعُونَ﴾ [غافر: ٧٧]، وقوله في «الزخرف»: ﴿فَإِنَّمَا نَذْهَبُ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ۝١١﴾ أو نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ۝١٢﴾ [الزخرف]، إلى غير ذلك من الآيات.

تنبيه: لم يأت في القرآن العظيم فعل مضارع بعد (إِنْ) الشرطية المدغمة في (ما) المزیدة لتوكيد الشرط، إلا مقترناً بنون التوكيد الثقيلة، كقوله هنا: ﴿وَإِنَّا لَنُرِيكَ﴾ الآية، ﴿فَإِنَّمَا نَذْهَبُ﴾ الآية [الزخرف: ٤١]، ﴿فَإِنَّمَا تَتَفَنَّهْمُ﴾ [الأنفال: ٥٧]، ﴿وَإِنَّمَا تَخَافُكَ مِنْ قَوْمٍ﴾... الآية [الأنفال: ٥٨].

ولذلك زعم بعض علماء العربية وجوب اقتران المضارع بالنون المذكورة في الحال المذكورة، والحق أن عدم اقترانه بها جائز، كقول الشاعر:

فلما ترينني ولي لمة فإن الحوادث أودى بها

وقول الآخر:

زَعَمْتَ تَمَاضِرْ أَنَّنِي إِمَامَةٌ يسدّد أبينوها الأصاغر خلّتي
 قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾. صرح تعالى في هذه الآية الكريمة أن لكل أمة
 رسولاً، وبين هذا في مواضع أخر، كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ [النحل:
 ٣٦]، وقوله: ﴿وَأَن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾
 [الزمر: ٢٣] إلى غير ذلك من الآيات، وقد بيّن ﷺ أن عدد الأمم سبعون أمة في حديث
 معاوية بن حيدة القشيري رضي الله عنه: «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها، وأكرمها على الله»،
 وقد بيّننا هذه الآيات في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)، ووجه الجمع
 بينها وبين قوله: ﴿لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ [يس: ٦]، في سورة «الرعد» في الكلام
 على قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.
 أوضح الله تعالى معنى هذه الآية الكريمة في سورة «الزمر» بقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ
 الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءُ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾
 ﴿٦٧﴾ وَوُفِّقَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٦٨﴾ [الزمر: ٦٧].
 قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾.
 صرح تعالى في هذه الآية الكريمة بأن لكل أمة أجلاً، وأنه لا يسبق أحد أجله
 المحدد له، ولا يتأخر عنه.

وبين هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿مَّا تَسْقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ﴾
 [الحجر: ٢١]، وقوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤]، وقوله: ﴿وَلَنْ
 يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]، إلى غير ذلك من الآيات.
 قوله تعالى: ﴿أَتُمَرِّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُكُمْ بِهِ ءَاكُنَّ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿٥١﴾.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة، أن الكفار يطلبون في الدنيا تعجيل العذاب كفراً
 وعناداً، فإذا عاينوا العذاب آمنوا، وذلك الإيمان عند معاينة العذاب وحضوره لا يقبل
 منهم، وقد أنكر ذلك تعالى عليهم هنا بقوله: ﴿أَتُمَرِّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُكُمْ بِهِ ءَاكُنَّ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.
 قبول إيمانهم في ذلك الحين بقوله: ﴿ءَاكُنَّ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

وأوضح هذا المعنى في آيات أخر، كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ
 وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّتَ اللَّهُ إِلَيْنَا قَدْ خَلَتْ
 فِي عِبَادَتِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ [غافر: ٨٥] وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ
 لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٩٠﴾ ءَاكُنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ
 الْمُنْشِدِينَ ﴿٩١﴾ [يونس: ٩١]، وقوله: ﴿وَلَيْسَتِ الثُّوبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ
 أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ أَنَّنِي﴾ الآية [النساء: ١٨]، إلى غير ذلك من الآيات، واستثنى
 الله تعالى قوم يونس دون غيرهم: بقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنْتَ فَفَعَلَهَا إِيْمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ
 لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿٩٦﴾ [يونس: ٩٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَبَّطَهُ﴾. ذكر تعالى عن موسى في هذه الآية أنه قال: إن الله سبطل سحر سحرة فرعون.

وصرح في مواضع أخر بأن ذلك الذي قال موسى، إنه سيقع، من إبطال الله لسحرهم، أنه وقع بالفعل؛ كقوله: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٧٨﴾ ﴿فَعُلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ ﴿١٧٩﴾ [الأعراف] ونحوها من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَأَ صِدْقٍ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية أنه بوأ بني إسرائيل مَبْوَأَ صِدْقٍ.

وبين ذلك في آيات أخر كقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَنَرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿٥٧﴾ وَكَثُورٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ [الشعراء]، وقوله: ﴿كَرَّ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿١٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿١٦﴾ [الدخان] إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿١٨﴾ [الدخان]. ومعنى ﴿بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَأَ صِدْقٍ﴾: نزلناهم منزلاً مرضياً حسناً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿٦٧﴾. صرح تعالى في هذه الآية الكريمة، أن من حقت عليه كلمة العذاب، وسبقت له في علم الله الشقاوة لا ينفعه وضوح أدلة الحق، وذكر هذا المعنى في آيات كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا﴾ [القمr: ٢]، وقوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ﴿٤١﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ آيَاتِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ ﴿١٥٥﴾ [يوسف]، وقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]. والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْا لَكُمْ ءَامَتُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾. ظاهر هذه الآية الكريمة أن إيمان قوم يونس ما نفعهم إلا في الدنيا دون الآخرة، لقوله: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾.

ويفهم من مفهوم المخالفة في قوله: ﴿فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ أن الآخرة ليست كذلك، ولكنه تعالى أطلق عليهم اسم الإيمان من غير قيد في سورة «الصفات»، والإيمان منقذ من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، كما أنه بين في «الصفات» أيضاً كثرة عددهم وكل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ فَآمَنُوا فَتَرَكْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ ﴿٤٨﴾ [الصفات].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ الآية.

صرح تعالى في هذه الآية الكريمة أنه لو شاء إيمان جميع أهل الأرض لآمَنُوا كلهم جميعاً، وهو دليل واضح على أن كفرهم واقع بمشيئته الكونية القدرية. وبين ذلك

أيضاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ١٠٧]، وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾ [الأنعام: ٣٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة أن من لم يهده الله فلا هادي له، ولا يمكن أحداً أن يقهر قلبه على الانسراح إلى الإيمان إلا إذا أراد الله به ذلك.

وأوضح ذلك المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتُهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ [المائدة: ٤١]، وقوله: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدًى فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٤٧]، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، وقوله: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَ هَادِيٍّ لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً كما تقدم، في سورة «النساء».

والظاهر أنها غير منسوخة، وأن معناها أنه لا يهدي القلوب ويوجهها إلى الخير إلا الله تعالى، وأظهر دليل على ذلك أن الله أتبعه بقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لِتُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. أمر الله - جل وعلا - جميع عباده أن ينظروا ماذا خلق في السماوات والأرض من المخلوقات الدالة على عظم خالقها، وكماله، وجلاله، واستحقاقه لأن يُعبد وحده - جل وعلا -.

وأشار لمثل ذلك بقوله: ﴿سَرُّهُمْ أَيْنَمَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، وبيخ في سورة «الأعراف» من لم يمثل هذا الأمر وهنده بأنه قد يعاجله الموت فينقضي أجله قبل أن ينظر فيما أمره الله - جل وعلا - أن ينظر فيه لينبه بذلك على وجوب المبادرة في امتثال أمر الله - جل وعلا - وذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

تنبيه: آية «الأعراف» هذه التي ذكرنا تدل دلالة واضحة على أن الأمر يقتضي الفور، وهو الذي عليه جمهور الأصوليين، خلافاً لجماعة من الشافعية وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَفَرَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾. أوضح هذا المعنى في قوله: ﴿فَأَفَرَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾... الآية [الروم: ٣٠].
قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ الآية.

أوضح معناه أيضاً بقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾. لم يبيّن هنا ما حكم الله به بين نبيه وبين أعدائه، وقد بيّن في آيات كثيرة أنه حكم بنصره عليهم، وإظهار دينه على

كل دين، كقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر] إلى آخر السورة، وقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح] إلى آخرها، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١]، إلى غير ذلك من الآيات.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة هود

قوله تعالى: ﴿الرَّ كُتِبَ عَلَيْكَ إِذْنُهُ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

اعلم أن العلماء اختلفوا في المراد بالحروف المقطعة في أوائل السور اختلافاً كثيراً، واستقرأ القرآن العظيم يرجح واحداً من تلك الأقوال، وسنذكر الخلاف المذكور وما يرجحه القرآن منه بالاستقراء فنقول، وبالله - جل وعلا - نستعين:

قال بعض العلماء: هي مما استأثر الله تعالى بعلمه، كما بيناه في «آل عمران» وممن روي عنه هذا القول: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود رضي الله عنهم وعامر، والشعبي، وسفيان الثوري، والربيع بن خيثم، واختاره أبو حاتم بن حبان.

وقيل: هي أسماء للسور التي افتتحت بها، وممن قال بهذا القول: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ويروى ما يدل لهذا القول عن مجاهد، وقتادة، وزيد بن أسلم، قال الزمخشري في تفسيره: وعليه إطباق الأكثر. ونقل عن سيويه أنه نص عليه. ويعتضد هذا القول بما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة «ألم» السجدة، و﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ [الإنسان: ١].

ويدل عليه أيضاً قول قاتل محمد السجاد بن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه يوم الجمل، وهو شريح بن أبي أوفى العبسي؛ كما ذكره البخاري في صحيحه في أول سورة المؤمن: يذكرني حاميم والرمح شاجرٌ فهلا تلا حاميم قبل التقدم

وحكى ابن إسحاق أن هذا البيت للأشتر النخعي قائلاً: إنه الذي قتل محمد بن طلحة المذكور، وذكر أبو مخنف أنه لمدلج بن كعب السعدي، ويقال: كعب بن مدلج. وذكر الزبير بن بكار أن الأكثر على أن الذي قتله عصام بن مقشعر. قال المرزباني: وهو الثبت، وأنشد له البيت المذكور. وقبله:

وأشعث قوام بآيات ربه	قليل الأذى فيما ترى العين مسلم
هتكت له بالرمح جيب قميصه	فخر صريعاً لليدين وللهم
على غير شيء غير أن ليس تابعا	علياً ومن لا يتبع الحق يندم

يذكرني حاميم... البيت، اه من فتح الباري.

فقوله: «يذكرني حاميم، بإعراب «حاميم» إعراب من لا ينصرف»، فيه الدلالة على ما ذكرنا من أنه اسم للسورة.

وقيل: هي من أسماء الله تعالى. وممن قال بهذا: سالم بن عبد الله، والشعبي، وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير، وروي معناه عن ابن عباس رضي الله عنه، وعنه أيضاً: أنها أقسام أقسم الله بها، وهي من أسمائه، وروي نحوه عن عكرمة.

وقيل: هي حروف، كل واحد منها من اسم من أسمائه - جل وعلا -، فالألف من ﴿الْم﴾ [البقرة]، مثلاً: مفتاح اسم الله، واللام مفتاح اسمه لطيف، والميم مفتاح اسمه مجيد، وهكذا. ويروى هذا عن ابن عباس، وابن مسعود، وأبي العالية، واستدل لهذا القول بأن العرب قد تطلق الحرف الواحد من الكلمة، وتريد به جميع الكلمة كقول الراجز:

قلت لها قفي فقالت لي قاف لا تحسبي أنا نسينا الإيجاف

فقوله: «قاف» أي وقفت، وقول الآخر:

بالخير خيرات وإن شراً فإ لا أريد الشر إلا أن تا

يعني: وإن شراً فشر، ولا أريد الشر إلا أن تشاء، فاكثى بالفاء والتاء عن بقية الكلمتين.

قال القرطبي: وفي الحديث «من أعان على قتل مسلم بشر كلمة» الحديث، قال سفيان: هو أن يقول في قتل: اق، إلى غير ما ذكرنا من الأقوال في فواتح السور، وهي نحو ثلاثين قولاً.

أما القول الذي يدل استقرار القرآن على رجحانه فهو: أن الحروف المقطعة ذكرت في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها. وحكى هذا القول الرازي في تفسيره عن المبرد، وجمع من المحققين، وحكاه القرطبي عن الفراء وقطرب، ونصره الزمخشري في (الكشاف).

قال ابن كثير: وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية، وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزي، وحكاه لي عن ابن تيمية.

ووجه شهادة استقرار القرآن لهذا القول: أن السور التي افتتحت بالحروف المقطعة يذكر فيها دائماً عقب الحروف المقطعة الانتصار للقرآن وبيان إعجازه، وأنه الحق الذي لا شك فيه.

وذكر ذلك بعدها دائماً دليل استقراره على أن الحروف المقطعة قصد بها إظهار إعجاز القرآن، وأنه حق.

قال تعالى في البقرة: ﴿الْعَمَّ﴾، وأتبع ذلك بقوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١، ٢]، وقال في آل عمران: ﴿الْعَمَّ﴾، وأتبع ذلك بقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ﴿٢﴾ زَكَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ [آل عمران: ١ - ٣]، وقال في الأعراف: ﴿الْعَمَّ﴾، ثم قال: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١ - ٢]، وقال في سورة يونس: ﴿الرَّءُ﴾، ثم قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، وقال في هذه السورة الكريمة التي نحن بصدددها - أعني سورة هود - ﴿الرَّءُ﴾ ثم قال: ﴿كِتَابٌ أَخْبَرَكُمْ بِأَيْتُمُ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، وقال في سورة يوسف ﴿يُوسُفَ: ١، ٢﴾، وقال في الرعد: ﴿الْعَمَّ﴾، ثم قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ [الرعد: ١].

وقال في سورة إبراهيم: ﴿الرَّءُ﴾، ثم قال: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، وقال في سورة الحجر: ﴿الرَّءُ﴾، ثم قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: ١]، وقال في سورة طه: ﴿طَهَ﴾، ثم قال: ﴿مَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ ﴿٢﴾ [طه]، وقال في سورة الشعراء: ﴿طَسَّ﴾، ثم قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَنِعُّ نَفْسَكَ [الشعراء: ١ - ٣]، وقال في سورة النمل: ﴿طَسَّ﴾ ثم قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ١]، وقال في القصص: ﴿طَسَّ﴾ ثم قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ﴿٢﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مَوْسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [القصص: ٢]، وقال في سورة الروم: ﴿الْعَمَّ﴾ ثم قال: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَافِلُونَ [الروم: ٢]، وقال في سورة لقمان: ﴿الْعَمَّ﴾ ﴿٢﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ [لقمان: ٢] وقال في سورة السجدة: ﴿الْعَمَّ﴾.

ثم قال: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ٢]، وقال في سورة يس: ﴿يَسَ﴾، ثم قال: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ٢]، وقال في سورة ص: ﴿صَ﴾ ثم قال: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١]، وقال في سورة المؤمنون: ﴿حَمَّ﴾ ثم قال: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [المؤمنون: ٢]، وقال في فصلت: ﴿حَمَّ﴾ ثم قال: ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [فصلت: ٢]، وقال في سورة الشورى: ﴿حَمَّ﴾ ﴿٢﴾ عَسَقَ ﴿٢﴾، ثم قال: ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [الشورى: ١ - ٣]، وقال في سورة الزخرف: ﴿حَمَّ﴾ ثم قال: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الزخرف: ٢]، وقال في سورة الدخان: ﴿حَمَّ﴾ ثم قال: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ... الآية [الدخان: ١ - ٣]، وقال في سورة الجاثية: ﴿حَمَّ﴾ ثم قال: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِمُؤْمِنِينَ [الجاثية: ٢]، وقال في سورة الأحقاف: ﴿حَمَّ﴾، ثم قال: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ [الأحقاف: ١ - ٣]، وقال في سورة ق: ﴿قَ﴾ ثم قال: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١].

وقد قدمنا كلام الأصوليين في الاحتجاج بالاستقراء بما أغنى عن إعادته هنا. وإنما أخرنا الكلام على الحروف المقطعة مع أنه مرت سور مفتتحة بالحروف المقطعة؛ كالبقرة، وآل عمران، والأعراف، ويونس؛ لأن الحروف المقطعة في القرآن المكي غالباً، والبقرة، وآل عمران مدينتان والغالب له الحكم، واخترنا لبيان ذلك سورة هود؛ لأن دلالتها على المعنى المقصود في غاية الظهور والإيضاح؛ لأن قوله تعالى: ﴿كَتَبَ أَهْكَمَتَ ءَيْنْتُمْ ثُمَّ فَصَلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ بعد قوله: ﴿الر﴾ واضح جداً فيما ذكرنا، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرَّيْتُهُ زَلِيلٌ وَبَشِيرٌ﴾.

هذه الآية الكريمة فيها الدلالة الواضحة على أن الحكمة العظمى التي أنزل القرآن من أجلها، هي أن يعبد الله - جل وعلا - وحده، ولا يشرك به في عبادته شيء؛ لأن قوله - جل وعلا -: ﴿كَتَبَ أَهْكَمَتَ ءَيْنْتُمْ ثُمَّ فَصَلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ... الآية، صريح في أن آيات هذا الكتاب فصلت من عند الحكيم الخبير لأجل أن يعبد الله وحده، سواء قلنا أن «أن» هي المفسرة، أو أن المصدر المنسبك منها ومن صلتها مفعول من أجله؛ لأن ضابط «أن» المفسرة أن يكون ما قبلها متضمناً معنى القول، ولا يكون فيه حروف القول.

ووجهه في هذه الآية أن قوله: ﴿أَهْكَمَتَ ءَيْنْتُمْ ثُمَّ فَصَلَتْ﴾ فيه معنى قول الله تعالى لذلك الأحكام والتفصيل دون حروف القول، فيكون تفسير ذلك هو: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.

وأما على القول بأن المصدر المنسبك من «أن» وصلتها مفعول له فالأمر واضح، فمعنى الآية أن حاصل تفصيل القرآن هو أن يعبد الله تعالى وحده ولا يشرك به شيء، ونظير هذا المعنى قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء]، ومعلوم أن لفظة «إنما» من صيغ الحصر، فكأن جميع ما أوحى إليه منحصر في معنى «لا إله إلا الله» وقد ذكرنا في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)؛ أن حصر الوحي في آية الأنبياء هذه في توحيد العبادة، حصر له في أصله الأعظم الذي يرجع إليه جميع الفروع؛ لأن شرائع الأنبياء كلهم داخلية في ضمن معنى «لا إله إلا الله» لأن معناها: خلع جميع المعبودات غير الله - جل وعلا - في جميع أنواع العبادات، وإفراده - جل وعلا - وحده بجميع أنواع العبادات؛ فيدخل في ذلك جميع الأوامر والنواهي القولية والفعلية والاعتقادية.

والآيات الدالة على أن إرسال الرسل، وإنزال الكتب لأجل أن يعبد الله وحده كثيرة جداً، كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء]، وقوله: ﴿وَمَثَلِ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد أشرنا إلى هذا البحث في سورة الفاتحة، وسنستقصي الكلام عليه - إن شاء الله تعالى - في سورة «الناس»، لتكون خاتمة هذا الكتاب المبارك حسنى.

قوله تعالى: ﴿وَأَن أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُعْطِكُمْ مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الآية. هذه الآية الكريمة تدل على أن الاستغفار والتوبة إلى الله تعالى من الذنوب سبب لأن يمتع الله من فعل ذلك متاعاً حسناً إلى أجل مسمى؛ لأنه رتب ذلك على الاستغفار والتوبة ترتيب الجزاء على شرطه.

والظاهر أن المراد بالمتاع الحسن: سعة الرزق، ورغد العيش، والعافية في الدنيا، وأن المراد بالأجل المسمى: الموت، ويدل لذلك قوله تعالى في هذه السورة الكريمة عن نبيه هود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿وَيَقُولُ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلَ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَبُرْزُكُم قُوَّةً إِلَى قُرَّتِكُمْ﴾، وقوله تعالى عن نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٧﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٨﴾ وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ حَبًّا وَبَسِيطًا ﴿١٩﴾ وَيُغْنِيكُمْ مِنَ الْمَرْحِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [نوح]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَنَعْنَا عَلَيْهِم بِرُكْنٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنْفِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦]. وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يُلْقُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَخْفُونَ شَاءَ بِهِمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾. يبين تعالى في هذه الآية الكريمة، أنه لا يخفى عليه شيء، وأن السر كالعلانية عنده، فهو عالم بما تنطوي عليه الضمائر وما يعلن وما يسر، والآيات المبينة لهذا كثيرة جداً، كقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَحَنَّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١١﴾﴾ [ق]، وقوله - جل وعلا -: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ بَعْلَهُمْ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس: ٦١]، ولا تقلب ورقة من المصحف الكريم إلا وجدت فيها آية بهذا المعنى.

تنبيه مهم: اعلم أن الله - تبارك وتعالى - ما أنزل من السماء إلى الأرض واعظاً أكبر، ولا زاجراً أعظم مما تضمنته هذه الآيات الكريمة وأمثالها في القرآن، من أنه تعالى عالم بكل ما يعمل خلقه، رقيب عليهم، ليس بغائب عما يفعلون. وضرب العلماء لهذا الواعظ الأكبر، والزاجر الأعظم مثلاً ليصير به كالمحسوس، فقالوا: لو فرضنا أن ملكاً قتالاً للرجال، سفاكاً للدماء شديد البطش والنكال على من انتهك حرمة

ظلماً، وسيّافه قائم على رأسه، والنطع مبسوط للقتل، والسيّف يقطر دماً، وحول هذا الملك الذي هذه صفته جواريه وأزواجه وبناته، فهل ترى أن أحداً من الحاضرين يهتم بريبة أو بحرام يناله من بنات ذلك الملك وأزواجه، وهو ينظر إليه، عالم بأنه مطلع عليه؟! لا، وكلا! بل جميع الحاضرين يكونون خائفين، وجلة قلوبهم، خاشعة عيونهم، ساكنة جوارحهم خوفاً من بطش ذلك الملك.

ولا شك - والله المثل الأعلى - أن رب السموات والأرض - جل وعلا - أشد علماً، وأعظم مراقبة، وأشد بطشاً، وأعظم نكالاً وعقوبة من ذلك الملك، وحماه في أرضه محارمه، فإذا لاحظ الإنسان الضعيف أن ربه - جل وعلا - ليس بغائب عنه، وأنه مطلع على كل ما يقول وما يفعل وما ينوي؛ لأن قلبه، وخشي الله تعالى، وأحسن عمله لله - جل وعلا -.

ومن أسرار هذه الموعظة الكبرى أن الله - تبارك وتعالى - صرح بأن الحكمة التي خلق الخلق من أجلها هي أن يبتليهم أيهم أحسن عملاً، ولم يقل: أيهم أكثر عملاً، فالابتلاء في إحسان العمل، كما قال تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. وقال في الملك: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝١١﴾.

ولا شك أن العاقل إذا علم أن الحكمة التي خلق من أجلها هي أن يبتلى، أي يختبر بإحسان العمل؛ فإنه يهتم كل الاهتمام بالطريق الموصلة لنجاحه في هذا الاختبار، ولهذه الحكمة الكبرى سأل جبريل النبي ﷺ عن هذا ليعلمه لأصحاب النبي ﷺ فقال: «أخبرني عن الإحسان»، أي وهو الذي خلق الخلق لأجل الاختبار فيه، فبيّن النبي ﷺ أن الطريق إلى ذلك هي هذا الواعظ، والزاجر الأكبر الذي هو مراقبة الله تعالى، والعلم بأنه لا يخفى عليه شيء مما يفعل خلقه، فقال له: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

واختلف العلماء في المراد في هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ﴾ وقوله: ﴿يَسْتَفْشُونَ شِيَاهَهُمْ﴾، وفي مرجع الضمير في قوله: ﴿مِنْهُ﴾.

فقال بعض العلماء: معنى ﴿يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ﴾ يزورون عن الحق، وينحرفون عنه؛ لأن من أقبل على الشيء استقبله بصدوره، ومن أزور عنه وانحرف ثنى عنه صدره، وطوى عنه كشحه، بهذا فسره الزمخشري في (الكشاف).

قال مقيده - عفا الله عنه -: وهذا المعنى معروف في كلام العرب، فهم يعبرون باعوجاج الصدر عن العدول عن الشيء والميل عنه، ويعبرون بإقامة الصدر عن القصد إلى الشيء وعدم الميل عنه.

فمن الأول قول ذي الرمة غيلان بن عقبة العدوي عدي الرباب.

خليلي عوجا بارك الله فيكما
تكن عوجة يجزيكما الله عنده
على دار مي من صدور الركائب
بها الأجر أو تقضى ذمامة صاحب
يعني: أثنا صدور الركائب إلى دار مي.

ومن الثاني قول الشنفرى.

أقيموا بني أمي صدور مطيكم
فإني إلى قوم سواكم لأميل
وقول الآخر:

أقول لأم زنباع أقيمي
صدور العيش شطر بني تميم
وقيل: نزلت هذه الآية الكريمة في الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة.

كان حلو المنطق، يلقي رسول الله ﷺ بما يحب وينطوي له بقلبه على ما يسوء.

وقيل: نزلت في بعض المنافقين، كان إذا مر بالنبي ﷺ ثنى صدره وظهره،
وطأ رأسه وغطى وجهه لكيلا يراه النبي ﷺ فيدعوه إلى الإيمان. حكى معناه عن
عبد الله بن شداد.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في قوم كانوا يكرهون أن يجامعوا أو يتغوطوا
وليس بينهم وبين السماء حجاب، يستحيون من الله.

وقال بعض العلماء: معنى ﴿يَسْتَفْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ يغطون رؤوسهم لأجل كراهتهم
استماع كلام الله، كقوله تعالى عن نوح: ﴿وَإِنِّي كَلِمًا دَعَوْتُهُمْ لِيَنْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغُهُمْ فِي
أَذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾... الآية [نوح: ٧].

وقيل: كانوا إذا عملوا سوءاً ثنوا صدورهم وغطوا رؤوسهم، يظنون أنهم إن فعلوا
ذلك أخفوا به عملهم على الله - جل وعلا - ويدل على هذا الوجه قوله تعالى:
﴿لِيَسْتَحْفُوا مِنْهُ﴾... الآية.

وقرأ ابن عباس هذه الآية الكريمة: «ألا إنهم تشنوني صدورهم» وتشنوني مضارع
اشنوني، ووزنه افعلول من الشني كما تقول احلولي من الحلاوة، وصدورهم في قراءة
ابن عباس بالرفع فاعل تشنوني، والضمير في قوله: ﴿مِنْهُ﴾ عائد إلى الله تعالى في أظهر
القولين. وقيل: راجع إليه ﷺ كما مر في الأقوال في الآية.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى
الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

صرح في هذه الآية الكريمة أنه خلق السماوات والأرض لحكمة ابتلاء الخلق،
ولم يخلقهما عبثاً ولا باطلاً، ونزه نفسه تعالى عن ذلك، وصرح بأن من ظن ذلك فهو
من الذين كفروا وهددهم بالنار، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ
ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۖ﴾ [ص: ١٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ

عَبَسْنَا وَانْكَرْنَا لِمَا لَا تُرْجَوْنَ ﴿١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١٦﴾ [المؤمنون]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات]، وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَسْأَلَكُمْ إِنَّكُمْ أَهْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾. المراد بالأمة هنا: المدة من الزمن، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]، أي تذكر بعد مدة.

تنبيه: استعمل لفظ «الأمة» في القرآن أربعة استعمالات:

الأول: هو ما ذكرنا هنا من استعمال الأمة في البرهة من الزمن.

الثاني: استعمالها في الجماعة من الناس، وهو الاستعمال الغالب، كقوله: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُوتُ﴾ [القصص: ٢٣]، وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ [يونس: ٤٧]، وقوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً﴾ [البقرة: ٢١٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

الثالث: استعمال «الأمة» في الرجل المقتدى به؛ كقوله: ﴿إِنَّا إِزْهَيْمَ كَانَتْ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠].

الرابع: استعمال «الأمة» في الشريعة والطريقة؛ كقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]، وقوله: ﴿إِنَّا هَذِهِ أُمَّةُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ... الآية [الأنبياء: ٩٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾. صرح تعالى في هذه الآية الكريمة: أن من عمل عملاً يريد به الحياة الدنيا أعطاه جزاء عمله في الدنيا، وليس له في الآخرة إلا النار.

ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، ولكنه تعالى بين في سورة بني إسرائيل تعليق ذلك على مشيئته - جل وعلا - بقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]، وقد أوضحنا هذه المسألة غاية الإيضاح في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في الكلام على هذه الآية الكريمة؛ ولذلك اختصرناها هنا.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾.

صرح تعالى في هذه الآية الكريمة، أن هذا القرآن لا يكفر به أحد كائناً من كان إلا دخل النار. وهو صريح في عموم رسالة نبينا ﷺ إلى جميع الخلق، والآيات الدالة على ذلك كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ لِتُذَكِّرَ بِهِ مَنِ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقوله: ﴿طَسَّ﴾ [القصص: ١]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبا: ٢٨]، وقوله: ﴿قُلْ يَٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ الآية.

نهى الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة عن الشك في هذا القرآن العظيم، وصرح أنه الحق من الله، والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة جداً، كقوله: ﴿الْمَ تَزِيلُ ۚ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ...﴾ الآية [البقرة: ١، ٢]، وقوله: ﴿الْمَ تَزِيلُ ۚ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [السجدة: ١، ٢]، ونحو ذلك من الآيات، والمرية: الشك.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. صرح تعالى في هذه الآية الكريمة بأن أكثر الناس لا يؤمنون، ويبن ذلك أيضاً في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف]، وقوله: ﴿وَإِن تُلَاقُوا أَكْثَرَ مِن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿يُضَعِّفُ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾.

يبين تعالى في هذه الآية الكريمة أن الكفار الذين يصدون الناس عن سبيل الله ويبغونها عوجاً، يضاعف لهم العذاب يوم القيامة؛ لأنهم يعذبون على ضلالهم، ويعذبون أيضاً على إضلالهم غيرهم، كما أوضحه تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل].

ويبين في موضع آخر أن العذاب يضاعف للأتباع والمتبوعين، وهو قوله في الأعراف: ﴿حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُمَا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِجْنَهُمْ لِأَرْثُنَّهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَعَذِّبْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ﴾ [الأعراف: ٣٨].

قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾.

في هذه الآية الكريمة للعلماء أوجه، بعضها يشهد له القرآن:

الأول: وهو اختيار ابن جرير الطبري في تفسيره، ونقله عن ابن عباس، وقتادة، أن معنى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾، أنهم لا يستطيعون أن يسمعوا الحق سماعاً منتفعاً، ولا أن يبصروه إبصاراً مهتداً، لاشتغالهم بالكفر الذي كانوا عليه مقيمين عن استعمال جوارحهم في طاعة الله تعالى، وقد كانت لهم أسماع وأبصار.

ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَفَعَدَّةَ فَمَا آغَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعَدْتُهُمْ مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَمْجَدُونَ بِتَأْيِتِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

الثاني: وهو أظهرها عندي أن عدم الاستطاعة المذكور في الآية، إنما هو للختم الذي ختم الله على قلوبهم وأسماعهم، والغشاوة التي جعل على أبصارهم.

ويشهد لهذا القول قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ غِشَاوَةً﴾ [البقرة: ٧]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧]، ونحو ذلك من الآيات.

وذلك الختم والأكنة على القلوب جزاء من الله تعالى لهم على مبادرتهم إلى الكفر وتكذيب الرسل باختيارهم ومشيتهم كما دلت عليه آيات كثيرة، كقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، وقوله: ﴿فَلَمَّا رَاغَوْا فَبَلَغُوا أَمْرًا لَّهُمْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]، وقوله: ﴿وَنَقَلْنَا آفَاقَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

الثالث: أن المعنى ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾؛ أي لشدة كراهيتهم لكلام الرسل على عادة العرب في قولهم: لا أستطيع أن أسمع كذا، إذا كان شديد الكراهية والبغض له، ويشهد لهذا القول قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُتِلَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ تَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ [الحج: ٧٢]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ [فصلت: ٢٦]، وقوله: ﴿وَإِنِّي كُنَّا دَعَوْنَهُمْ لِنَفِغَهُ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ [نوح: ٧].

الرابع: أن «ما» مصدرية ظرفية؛ أي يضاعف لهم العذاب مدة كونهم يستطيعون أن يسمعوا ويصبروا، أي يضاعف لهم العذاب دائماً.

الخامس: أن «ما» مصدرية في محل نصب بنزع الخافض، أي يضاعف لهم العذاب بسبب كونهم يستطيعون السمع والإبصار في دار الدنيا، وتركوا الحق مع أنهم يستطيعون إدراكه بأسماعهم وأبصارهم، وقد قدمنا في سورة النساء قول الأخفش الأصغر بأن النصب بنزع الخافض مقيس مطلقاً عند أمن اللبس.

السادس: أن قوله: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ من صفة الأصنام التي اتخذوها أولياء من دون الله، فيكون متصلاً بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ وتكون جملة: ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ اعتراضية، وتقرير المعنى على هذا القول: وما كان لهم من دون الله من أولياء ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون؛ أي الأصنام التي اتخذوها أولياء من دون الله، وما لا يسمع ولا يبصر لا يصح أن يكون ولياً لأحد. ويشهد لمعنى هذا القول، قوله تعالى في الأعراف: ﴿أَلَهُمْ أَزْجُلٌ يَمْسُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آيَاتٌ يَتَّبِعُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ الآية [الأعراف: ١٩٥]، ونحوها من الآيات.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية الكريمة قد تكون فيها أقوال، وكلها يشهد له قرآن فنذكر الجميع، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ الآية.

ضرب الله تعالى في هذه الآية الكريمة المثل للكافر بالأعمى والأصم، وضرب المثل للمؤمن بالسميع والبصير، وبين أنهما لا يستويان، ولا يستوي الأعمى والبصير، ولا يستوي الأصم والسميع. وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة:

قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۖ﴾ (٢٧) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٨﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢٩﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٣٠﴾ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٣١﴾ [فاطر]. وقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَحَقٌ كَمَن هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَذْكُرُ أَوْلَآءَ الْأَلْبَابِ ۖ﴾ (٣٢) [الرعد]. وقوله: ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمِعُ الْقُتَمَ الدَّعَاةَ إِذَا وَلَوْا مَدِينًا ۖ﴾ (٣٣) [الروم]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَمَا زَكَّٰكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِكَ الدَّيَّ الرَّأْيَ﴾.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن الملائكة من قوم نوح قالوا له: ما نراك اتبعك منا إلا الأسافل والأراذل. وذكر في سورة الشعراء، أن اتباع الأراذل له في زعمهم مانع لهم من اتباعه بقوله: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

وبيّن في هذه السورة الكريمة: أن نوحاً - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - أبى أن يطرد أولئك المؤمنين الذين اتبعوه بقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُّلتَقُوا رَبَّهُمْ وَلَكِنِّي أَرْكَبُ قَوْمًا يَّجْهَلُونَ﴾ (٣٤) وَيَقْوَىٰ مَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنَّ طَرَفَهُمْ ﴿٣٥﴾ [هود: ٢٩ - ٣٠]. وذكر تعالى عنه ذلك في الشعراء أيضاً بقوله: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ (٣٦) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٧﴾ [الشعراء].

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَقْوَىٰ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْتَوٍ مِّن رَّبِّي وَءَالَيْتِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِيتَ عَلَيْكُمْ أَتُرْمِكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾ (٣٨). ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة عن نبيه نوح: أنه قال لقومه: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي أخبروني، ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْتَوٍ مِّن رَّبِّي﴾، أي على يقين ونبوة صادقة لا شك فيها، وأعطاني رحمة منه مما أوحى إليّ من التوحيد والهدى، فخفي ذلك كله عليكم، ولم تعتقدوا أنه حق، أي مكنتني أن ألزمكم به، وأجبر قلوبكم على الانقياد والإذعان لتلك البينة التي تفضل الله علي بها، ورحمني بآياتها، والحال أنكم كارهون لذلك؟ يعني ليس بيدي توفيقكم إلى الهدى وإن كان واضحاً جلياً لا لبس فيه، إن لم يهدكم الله - جل وعلا - إليه.

وهذا المعنى صرح به - جل وعلا - عن نوح أيضاً في هذه السورة الكريمة بقوله: ﴿وَلَا يَفْعَلُوكَ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَصْحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَيَقْوَىٰ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَّا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ الآية.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة عن نبيه نوح - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - أنه أخبر قومه أنه لا يسألهم ما لاً في مقابلة ما جاءهم به من الوحي والهدى، بل يبذل لهم ذلك الخير العظيم مجاناً من غير أخذ أجره في مقابلة.

وبيّن في آيات كثيرة: أن ذلك هو شأن الرسل عليهم صلوات الله وسلامه، كقوله في سبأ عن نبينا ﷺ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبأ: ٤٧]. وقوله فيه، أيضاً في آخر ص: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (٨١) [ص].

وقوله في الطور والقلم: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ [الطور]. وقوله في الفرقان: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان]. وقوله في الأنعام: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقوله عن هود في سورة هود: ﴿يَنْفَوْرَ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي﴾.

وقوله في الشعراء عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب - عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام -: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء]. وقوله تعالى عن رسل القرية المذكورة في يس: ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠، ٢١].

وقد بينا وجه الجمع بين هذه الآيات المذكورة وبين قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة سبأ في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ [سبأ: ٤٧].

ويؤخذ من هذه الآيات الكريمة: أن الواجب على أتباع الرسل من العلماء وغيرهم أن يبذلوا ما عندهم من العلم مجاناً من غير أخذ عوض على ذلك، وأنه لا ينبغي أخذ الأجرة على تعليم كتاب الله تعالى، ولا على تعليم العقائد والحلال والحرام.

وللعلماء أقوال متعددة في المسألة يرجع لها في الأصل وخلاصة رأي الشيخ ما نصه: قال مقيده - عفا الله عنه -: الذي يظهر لي - والله تعالى أعلم -، أن الإنسان إذا لم تدعه الحاجة الضرورية فالأولى له ألا يأخذ عوضاً على تعليم القرآن، والعقائد، والحلال والحرام، للأدلة الماضية. وإن دعت الحاجة أخذ بقدر الضرورة من بيت مال المسلمين؛ لأن الظاهر أن المأخوذ من بيت المال من قبيل الإعانة على القيام بالتعليم لا من قبيل الأجرة. والأولى لمن أغناه الله أن يتعفف عن أخذ شيء في مقابل التعليم للقرآن والعقائد والحلال والحرام، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اجْعَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾. ذكر الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أمر نبيه نوحاً - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -: أن يحمل في سفينته من كل زوجين اثنين، وبين في سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون] أنه أمره أن يسلكهم أي يدخلهم فيها، فدل ذلك على أن فيها بيوتاً يدخل فيها الراكبون؛ وذلك في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنْزِيلُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، ومعنى «اسلك»؛ أدخل فيها من كل زوجين اثنين؛ تقول العرب: سلكت الشيء في الشيء؛ أدخلته فيه. وفيه لغة أخرى وهي: أسلكنته فيه، رباعياً بوزن أفعل، والثلاثية لغة القرآن؛ كقوله: ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، وقوله: ﴿أَسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ [القصاص: ٣٢]، وقوله: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الشعراء]، وقوله: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الحجر]، وقوله: ﴿مَا سَلَكْنَاهُ فِي سَرٍّ﴾ [المدثر]؛ ومنه قول الشاعر:

وكننت لزاز خصمك لم أعرد وقد سلوكوك في يوم عصيب
ومن الرباعية قول عبد مناف بن ربح الهذلي:

حتى إذا أسلكوهم في قتائده شلا كما تطرد الجمالة الشردا
قال مقيدة - عفا الله عنه -: الذي يظهر لي أن أصل السلك الذي هو الخيط فعل
بمعنى مفعول، كذبح بمعنى مذبوح، وقتل بمعنى مقتول؛ لأن الخيط يسلك أي يدخل
في الخرز لينظمه؛ كما قال العباس بن مرداس السلمي:

عين تأوبها من شجوها أرق فالماء يغمرها طورا وينحدر
كأنه نظم در عند ناظمة تقطع السلك منه فهو منتثر
والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية
الكريمة أنه أمر نوحاً أن يحمل في السفينة أهله إلا من سبق عليه القول، أي سبق عليه
من الله القول بأنه شقي، وأنه هالك مع الكافرين.

ولم يبين هنا من سبق عليه القول منهم، ولكنه بين بعد هذا أن الذي سبق عليه
القول من أهله هو ابنه وامرأته.

قال في ابنه الذي سبق عليه القول: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَى
أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَعَالٍ بَيْنَهُمَا الْوُجُ فَكَانَ مِنَ الْمُنْفَرِينَ﴾ وقال
فيه أيضاً: ﴿قَالَ يَنْتُحِ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾. وقال في امرأته: ﴿ضَرَبَ
اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ﴾ إلى قوله: ﴿مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ بِحَبْرٍهَا وَمُرْسَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة، أن نبيه نوحاً - عليه وعلى نبيينا الصلاة والسلام -
أمر أصحابه الذين قيل له احملهم فيها أن يركبوا فيها قائلاً: ﴿بِسْمِ اللَّهِ بِحَبْرٍهَا وَمُرْسَهَا﴾؛
أي بسم الله يكون جريها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسوها.

وبين في سورة الفلاح أنه أمره إذا استوى على السفينة هو ومن معه أن يحمدا الله
الذي نجاههم من الكفرة الظالمين، ويسأله أن ينزلهم منزلاً مباركاً؛ وذلك في قوله:
﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَعَكَ عَلَى الْفَلَاحِ فَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١٨) **وَقُلْ رَبِّ
انزِلْنِي مُنزَلاً مباركاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ** (١٩) [المؤمنون].

وبين في سورة الزخرف ما ينبغي أن يقال عند ركوب السفن وغيرها بقوله:
﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَاحِ وَالْآفَاحِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (٢٢) **لَسْتُمْ عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ
تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَمَّ مُقَرَّرِينَ**
(٢٣) **وَأَنَّا إِنَّا لَمُسْقُونَ** (٢٤) [الزخرف].

ومعنى قوله: ﴿مُفْرِنِينَ﴾ أي مطيقين، ومنه قول عمرو بن معد يكرب:

لقد علم القبائل ما عقيل لنا في النائبات بمقرنين
وقول الآخر:

ركبتم صعبتي أشد وجين وليستم للصعاب بمقرنين
وقول ابن هزيمة:

أقرنت ما حملتني ولقلما يطاق احتمال الصديا دعد والهجر
قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَجْرِي فِيهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾. ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن السفينة تجري بنوح ومن معه في ماء عظيم، أمواجه كالجبال.

وبين جريانها هذا في ذلك الماء الهائل في مواضع آخر؛ كقوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُمُ فِي الْبَارِيَةِ ۚ لَنَجْعَلَنَّ لَكُمْ تَذَكُّرًا وَفِيهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ۖ﴾ [الحاقة: ١٧]. وقوله: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۖ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فُتِّرَ ۚ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۚ تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفْرٌ ۚ﴾ [القمر: ١٤]. ولقد تركناها مائة فهل من مُدِّكِرٍ ﴿١٥﴾ [القمر: ١٥].

وبين في موضع آخر أن أمواج البحر الذي أغرق الله فيه فرعون وقومه كالجبال أيضاً بقوله: ﴿فَالْتَقَى فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۚ﴾ [الشعراء: ٦٣]، والطود: الجبل العظيم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ الآية.

لم يبين هنا أمره الذي جاء الذي نجي منه هوداً والذين آمنوا معه عند مجيئه، ولكنه بين في مواضع آخر أنه الإهلاك المستأصل بالريح العقيم التي أهلكهم الله بها فقطع دابرهم، كقوله: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۚ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّيْرِ ۚ﴾ [الذاريات: ٢٤].

وقوله: ﴿وَلَمَّا عَادُ فَاغْلَبَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۚ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَينَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۚ﴾ [الحاقة: ٦، ٧]. وقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۚ تَنْزِعُ النَّاسَ كَانْتَهُمْ أَعْجَازًا تَخَلَّى مُتَقَعِّرٌ ۚ﴾ [القمر: ١٥]. وقوله: ﴿فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ ۚ﴾ ... الآية [فصلت: ١٦].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا ۚ﴾. بين هذا الأمر الذي جاء بقوله: ﴿كَانَ لَمْ يَبْنُوا فِيهَا إِلَّا إِنَّمَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا لِّثَمُودَ ۚ﴾ ونحوها من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا﴾ الآية.

لم يبين هنا ما المراد بهذه البشرى التي جاءت بها رسل الملائكة إبراهيم، ولكنه أشار بعد هذا إلى أنها البشارة بإسحاق ويعقوب في قوله: ﴿وَأَمَّا آتُكُمُ الْبَارِئَةُ فَصَدَقَتْ ۚ فَبَشَّرْنَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۚ﴾؛ لأن البشارة بالذرية الطيبة شاملة للأم والأب، كما يدل على ذلك قوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ۚ﴾ [الصافات: ١٢].

وقوله: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]، وقوله: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَظِيمٍ﴾ [الحجر]، وقيل: البشرى هي إخبارهم له بأنهم أرسلوا لإهلاك قوم لوط، وعليه فالآيات المبينة لها كقوله هنا في هذه السورة: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠] الآية.

وقوله: ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ﴾ [٥٨] ﴿إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٥٩]. وقوله: ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ﴾ [٦١] ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات]، وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانَ ظَالِمِينَ﴾ [العنكبوت].

والظاهر القول الأول: وهذه الآية الأخيرة تدل عليه؛ لأن فيها التصريح بأن إخبارهم بإهلاك قوم لوط بعد مجيئهم بالبشرى؛ لأنه مرتب عليه بأداة الشرط التي هي «لما» كما ترى.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [٦١] ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن إبراهيم لما سلم على رسل الملائكة وكان يظنهم ضيوفاً من الآدميين، أسرع إليهم بالإتيان بالقرى وهو لحم عجل حنيد - أي منضج بالنار - وأنهم لما لم يأكلوا أوجس منهم خيفة، فقالوا: لا تخف، وأخبروه بخبرهم.

وبيّن في الذاريات أنه راغ إلى أهله - أي مال إليهم - فجاء بذلك العجل وبين أنه سمين، وأنه قربه إليهم، وعرض عليهم الأكل برفق فقال لهم: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ وأنه أوجس منهم خيفة وذلك في قوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ ضَيْفَ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [٦٦] إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّتَكَبِّرُونَ [٦٥] فَرَأَىٰ إِلَهُ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ [٦٦] فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ [٦٧] فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً... الآية [الذاريات: ٢٤ - ٢٨].

تنبيه: يؤخذ من قصة إبراهيم مع ضيفه هؤلاء أشياء من آداب الضيافة.

منها: تعجيل القرى لقوله: ﴿فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾.

ومنها: كون القرى من أحسن ما عنده؛ لأنهم ذكروا أن الذي عنده البقر وأطيبه لحماً الفتى السمين المنضج.

ومنها: تقرب الطعام إلى الضيف.

ومنها: ملاطفته بالكلام بغاية الرفق، كقوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.

ومعنى قوله: ﴿نَكَّرَهُمْ﴾؛ أي أنكرهم لعدم أكلهم، والعرب تطلق نكر وأنكر بمعنى واحد، وقد جمعهما قول الأعشى:

وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا

وروي عن يونس: أن أبا عمرو بن العلاء حدثه: أنه صنع هذا البيت وأدخله في شعر الأعشى. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَوَئِلَيَّ إِلَهِ وَاَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢﴾. بين الله - جل وعلا - في هذه السورة الكريمة ما قالته امرأة إبراهيم لما بشرت بالولد وهي عجوز، ولم يبين هنا ما فعلت عند ذلك، ولكنه بين ما فعلت في الذاريات بقوله: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَفٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝٧٣﴾ [الذاريات]، وقوله: ﴿فِي صَرَفٍ ۝٧٤﴾ أي ضجة وصيحة، وقوله: ﴿فَصَكَتْ وَجْهَهَا ۝٧٥﴾ أي لطمته.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُرْشِيُّ يُحْدِثُ لَنَا فِي قَوْمٍ لُوطٌ ۝٧٦﴾. لم يبين هنا ما جادل به إبراهيم الملائكة في قوم لوط، ولكنه أشار إليه في العنكبوت بقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُرْشِيِّ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ۝٧٧﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَسْجِنَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ ۝٧٨﴾ [العنكبوت: ٣١، ٣٢].

فحاصل جداله لهم أنه يقول: إن أهلكتم القرية وفيها أحد من المؤمنين أهلكتم ذلك المؤمن بغير ذنب، فأجابه عن هذا بقولهم: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ۝٧٩﴾ [العنكبوت: ٣٢]. ونظير ذلك قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٨٠﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٨١﴾ [الذاريات].

قوله تعالى: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لِلْعَذَابِ عَذَابٌ عِزٌّ مَرْدُودٌ ۝٨٢﴾.

هذا العذاب الذي صرح هنا بأنه آت قوم لوط لا محالة، وأنه لا مرد له بينه في مواضع متعددة، كقوله في هذه السورة الكريمة: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّضْجُورٍ ۝٨٣﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِعَبِيدٍ ۝٨٤﴾.

وقوله في الحجر: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ ۝٨٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُنْتَرِسِينَ ۝٨٦﴾ [الحجر]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا أَلَسَوءُ ۝٨٧﴾... الآية [الفرقان: ٤٠]، وقوله: ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ۝٨٨﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ۝٨٩﴾ [الشعراء].

وقوله: ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّن طِينٍ ۝٩٠﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۝٩١﴾ [الذاريات]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَ بِهِمْ وَصَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٩٢﴾. ذكر الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة، أن لوطاً - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - لما جاءته رسل ربه من الملائكة حصلت له بسبب مجيئهم مساءة عظيمة ضاق صدره بها، وأشار في مواضع متعددة إلى أن سبب مساءته وكونه ضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب؛ أنه ظن أنهم ضيوف من بني آدم كما ظنه إبراهيم - عليهما الصلاة والسلام - وظن أن قومه ينتهكون حرمة ضيوفه فيفعلون بهم فاحشة اللواط؛ لأنهم إن علموا بقدوم ضيف فرحوا واستبشروا به ليفعلوا به الفاحشة المذكورة، فمن ذلك قوله هنا: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ مُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَقَوْمُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَعِيفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝٩٣﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِن حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ۝٩٤﴾ [هود: ٧٨ - ٧٩].

وقوله في الحجر: ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [٧٦] قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٧٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ ﴿٧٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٨١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٨٢﴾ [الحجر].

وقوله: ﴿يُهْرَعُونَ﴾؛ أي يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك، ومنه قول مهلهل:

فجاءوا يهرعون وهم أسارى تقودهم على رغم الأنوف

وقوله: ﴿وَلَا تُخْزَوْنَ﴾؛ أي لا تهينون ولا تذلون بانتهاك حرمة ضيفي، والاسم منه: الخزي - بكسر الخاء وإسكان الزاي - ومنه قول حسان في عتبة بن أبي وقاص:

فأخزاك ربي يا عتيب بن مالك ولقّاك قبل الموت إحدى الصواعق

وقال بعض العلماء: قوله: ﴿وَلَا تُخْزَوْنَ﴾ من الخزية، وهي الخجل والاستحياء من الفضيحة؛ أي لا تفعلوا بضيفي ما يكون سبباً في خجلي واستحيائي، ومنه قول ذي الرمة يصف ثوراً وحشياً تطارده الكلاب في جانب جبل من الرمل:

حتى إذا دومت في الأرض راجعة كر ولو شاء نجى نفسه الهرب

خزية أدركته بعد جولته من جانب الحبل مخلوطاً بها الغضب

يعني أن هذا الثور لو شاء نجا من الكلاب بالهرب، ولكنه استجيا وأنف من الهرب، فكر راجعاً إليها. ومنه قول الآخر:

أجاعة أم الثوير خزية على فراري أن لقيت بني عبس

والفعل منه: خزي يخزي، كرضي يرضى، ومنه قول الشاعر:

من البيض لا تخزي إذا الريح ألصقت بها مرطاً أو زایل الحلي جيدها

وقول الآخر:

وأنى لا أخزى إذا قيل مملق سخي وأخزى أن يقال بخيل

وقوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ [الحجر: ٧٢] معناه أقسم بحياتك، والله - جل وعلا - له أن يقسم بما شاء من خلقه، ولم يقسم في القرآن بحياة أحد إلا نبينا ﷺ وفي ذلك من التشريف له ﷺ ما لا يخفى.

ولا يجوز لمخلوق أن يحلف بغير الله، لقوله ﷺ: «من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت».

وقوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ مبتدأ خبره محذوف، أي لعمرك قسمي، وسمع من العرب تقديم الراء على اللام في لعمرك فنقول فيها: رعملك، ومنه قول الشاعر:

رعملك إن الطائر الواقع الذي تعرض لي من طائر لصدوق

وقوله: ﴿لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ [الحجر: ٧٢]؛ أي عماهم وجهلهم وضلالهم، والعمه: عمى

القلب، فمعنى ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢] يترددون متحيرين لا يعرفون حقاً من باطل، ولا نافعاً من ضار، ولا حسناً من قبيح.

واختلف العلماء في المراد بقول لوط - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ في الموضوعين على أقوال:

الأول: أنه أراد المدافعة عن ضيفه فقط، ولم يرد إمضاء ما قال، وبهذا قال عكرمة وأبو عبيدة.

الثاني: أن المراد بناته لصلبه، وأن المعنى: دعوا فاحشة اللواط وأزوجكم بناتي، وعلى هذا فتزويج الكافر المسلمة كان جائزاً في شرعه، كما كانت بنات نبينا ﷺ تحت الكفار في أول الإسلام كما هو معروف، وقد أرسلت زينب بنت رسول الله ﷺ عقدها الذي زفتها به أمها خديجة بنت خويلد ﷺ إلى زوجها أبي العاص بن الربيع، أرسلته إليه في فداء زوجها أبي العاص المذكور لما أسره المسلمون كافراً يوم بدر، والقصة مشهورة، وقد عقدها الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي في مغازيه بقوله في غزوة بدر:

وابن الربيع صهر هادي الملة إذ في فداءه زينب أرسلت
بعقدها الذي به أهدتها له خديجة وزففتها
سرحه بعقدها وعهدا إليه أن يردها له غدا

الخ، القول الثالث: أن المراد بالبنات: جميع نساء قومه؛ لأن نبي القوم أب ديني لهم، كما يدل عليه قوله تعالى في نبينا ﷺ: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ أَمْهَنَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] وفي قراءة أبي بن كعب: «وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم» وروي نحوها عن ابن عباس، وبهذا القول قال كثير من العلماء.

وهذا القول تقربه قرينة وتبعده أخرى، أما القرينة التي تقربه فهي: أن بنات لوط لا تسع جميع رجال قومه كما هو ظاهر، فإذا زوجهن لرجال بقدر عددهن بقي عامة رجال قومه لا أزواج لهم فيتعين أن المراد عموم نساء قومه، ويدل للعموم قوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٥٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]، وقوله: ﴿لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ [الأعراف: ٨١]، ونحو ذلك من الآيات.

وأما القرينة التي تبعده: فهي أن النبي ليس أباً للكافرات، بل أبوة الأنبياء الدينية للمؤمنين دون الكافرين، كما يدل عليه قوله: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٦].

وقد صرح تعالى في الذاريات: بأن قوم لوط ليس فيهم مسلم إلا أهل بيت واحد، وهم أهل بيت لوط، وذلك في قوله: ﴿فَمَا وَحَدَّا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٦١].

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِىَ بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ ءَاوِىَ إِلَيَّ رُكْنٌ سَدِيدٌ﴾ [٨١] قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رَمَلْنَاكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن نبيه لوطاً وعظ قومه ونهاهم أن يفضحوه في ضيفه، وعرض عليهم النساء وترك الرجال، فلم يلتفتوا إلى قوله،

وتمادوا فيما هم فيه من إرادة الفاحشة فقال لوط: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ... الآية. فأخبرته الملائكة بأنهم رسل ربه، وأن الكفار الخبثاء لا يصلون إليه بسوء. وبين في القمر أنه تعالى طمس أعينهم، وذلك في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ، فَطَمَسَا أَعْيُنَهُمْ فَذُرُّوا عَلَيَّ وَتَدْرَى﴾ [القمر].

قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْفُتْ مِنكُم أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أمر نبيه لوطاً أن يسري بأهله بقطع من الليل، ولم يبين هنا هل هو من آخر الليل، أو وسطه، أو أوله، ولكنه بين في القمر أن ذلك من آخر الليل وقت السحر، وذلك في قوله: ﴿إِلَّا مَالُ لُوطٍ لَّجَّيْنَهُمْ سِحْرٍ﴾ [القمر: ٣٤]. ولم يبين هنا أنه أمره أن يكون من ورائهم وهم أمامه، ولكنه بين ذلك في الحجر بقوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْفُتْ مِنكُم أَحَدٌ وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْفُتْ مِنكُم أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾. قرأه جمهور القراء: ﴿إِلَّا أَمْرَانِكَ﴾ بالنصب، وعليه فالأمر واضح؛ لأنه استثناء من الأهل، أي أسر بأهلك إلا امرأتك فلا تسرب بها، واتركها في قومها فإنها هالكة معهم.

ويدل على هذا الوجه قوله فيها في مواضع: ﴿كَانَتْ مِنْ الْغَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣] والغابر: الباقي، أي من الباقيين في الهلاك.

وقرأ أبو عمرو وابن كثير: ﴿إِلَّا أَمْرَانِكَ﴾ بالرفع على أنه بدل من «أحد» وعليه فالمعنى أنه أمر لوطاً أن ينهى جميع أهله عن الالتفات إلا امرأته فإنه أوحى إليه أنها هالكة لا محالة، ولا فائدة في نهيتها عن الالتفات لكونها من جملة الهالكين.

وعلى قراءة الجمهور فهو لم يسر بها، وظاهر قراءة أبي عمرو وابن كثير: أنه أسرى بها والتفت فهلكت.

قال بعض العلماء: لما سمعت هذا العذاب التفت وقالت: واقوماه؛ فأدركها حجر فقتلها.

قال مقيده - عفا الله عنه -: الظاهر أن وجه الجمع بين القراءتين المذكورتين أن السر في أمر لوط بأن يسري بأهله، هو النجاة من العذاب الواقع صباحاً بقوم لوط، وامرأة لوط مصيبتها ذلك العذاب الذي أصاب قومها لا محالة، فنتيجة إسراء لوط بأهله لم تدخل فيها امرأته على كلا القولين، وما لا فائدة فيه كالعدم، فيستوي معنى أنه تركها ولم يسر بها أصلاً، وأنه أسرى بها وهلكت مع الهالكين.

فمعنى القولين راجع إلى أنها هالكة وليس لها نفع في إسراء لوط بأهله؛ فلا فرق بين كونها بقيت معهم، أو خرجت وأصابها ما أصابهم.

فإذا كان الإسراء مع لوط لم ينجها من العذاب، فهي ومن لم يسر معه سواء، والعلم عند الله تعالى.

وقوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ قرأه نافع وابن كثير «فاسر» بهمزة وصل؛ من سري يسري، وقرأه جمهور القراء: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ بقطع الهمزة، من أسرى الرباعي على وزن أفعل، وسرى وأسرى: لغتان وقرءانان صحيحتان سبعيتان، ومن سرى الثلاثية، قوله تعالى: ﴿وَأَلِّ إِذَا يَسَّرَ﴾ [الفجر]، فإن فتح ياء «يسري» يدل على أنه مضارع سرى الثلاثية، وجمع اللغتين قول نابغة ذبيان:

أسرت عليه من الجواز سارية تزجى الشمال عليها جامد البرد
فإنه قال: أسرت، رباعية في أشهر روايتي البيت. وقوله: سارية، اسم فاعل سرى الثلاثية، وجمعهما أيضاً قول الآخر:

حتى النضيرة ربة الخدر أسرت إليك ولم تكن تسري
بفتح تاء «تسري» واللغتان كثيرتان جداً في كلام العرب، ومصدر الرباعية الإسراء على القياس، ومصدر الثلاثية السرى - بالضم - على وزن فَعَلَ - بضم ففتح - على غير قياس، ومنه قول عبد الله بن رواحة:

عند الصباح يحمد القوم السرى وتنجلي عنهم غيابات الكرى
قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ الآية.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن موعد إهلاك قوم لوط وقت الصبح من تلك الليلة، وكذلك قال في الحجر في قوله: ﴿وَفَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر]، وزاد في الحجر أن صيحة العذاب وقعت عليهم وقت الإشراق، وهو وقت طلوع الشمس بقوله: ﴿فَأَخَذْتُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر].

قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾. اختلف العلماء في المراد بحجارة السجيل اختلافاً كثيراً، والظاهر أنها حجارة من طين في غاية الشدة والقوة. والدليل على أن المراد بالسجيل: الطين. قوله تعالى في الذاريات في القصة بعينها: ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ [مُؤَمَّةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُؤْسِفِينَ] [الذاريات]، وخير ما يفسر به القرآن: القرآن. والدليل على قوتها وشدتها: أن الله ما عذبهم بها في حالة غضبه عليهم، إلا لأن النكال بها بالغ شديد. وأيضاً فإن بعض العلماء قالوا: السجيل والسجين: أختان، كلاهما الشديد من الحجارة والضرب. ومنه قول ابن مقبل:

ورجلة يضربون البيض ضاحية ضرباً تواصي به الأبطال سجيना
وعلى هذا، فمعنى: من سجيل: أي من طين شديدة القوة. والعلم عند الله تعالى.
قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾. في هذه الآية الكريمة ثلاثة أوجه من التفسير للعلماء: اثنان منها كلاهما يشهد له القرآن، وواحد يظهر أنه ضعيف.

أما الذي يظهر أنه ضعيف فهو أن المعنى: أن تلك الحجارة ليست ببعيدة من قوم لوط؛ أي لم تكن تخطئهم.

قاله القرطبي وغيره؛ لأن هذا يكفي عنه قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا﴾ [الحجر: ٧٤] ونحوها من الآيات، أما الوجهان اللذان يشهد لكل واحد منهما قرآن:

فالأول منهما: أن ديار قوم لوط ليست تبعيدة من الكفار المكذبين لنبينا؛ فكان عليهم أن يعتبروا بما وقع لأهلها إذا مروا عليها في أسفارهم إلى الشام، ويخافوا أن يوقع الله بهم بسبب تكذيب نبينا محمد ﷺ مثل ما وقع من العذاب بأولئك، بسبب تكذبيهم لوطاً ﷺ، والآيات الدالة على هذا كثيرة جداً؛ كقوله: ﴿وَلَكُمْ لُتُرُونَ عَلَيْهِمْ مُّصْحِحِينَ ۖ﴾ (٢٧) ﴿وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٢٨) [الصافات]، وقوله: ﴿وَأَنهَا لِسَبِيلِ مُّغِيثٍ ۖ﴾ (٦١) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾ (٧٧) [الحجر]، وقوله: ﴿وَرَكَّا فِيهَا أَتَىٰ لِالَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۖ﴾ (٢٧) [الذاريات]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ رَكَنَّا مِنْهَا آيَةً بِّنَتْهُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۖ﴾ (٢٥) [العنكبوت]، إلى غير ذلك من الآيات، وعلى هذا القول فالضمير في قوله: ﴿وَمَا هِيَ﴾ راجع إلى ديار قوم لوط المفهومة من المقام.

الوجه الثاني: أن المعنى: وما تلك الحجارة التي أمطرت على قوم لوط ببعيد من الظالمين الفاعلين مثل فعلهم، فهو تهديد لمشركي العرب كالذي قبله.

ومن الآيات الدالة على هذا الوجه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتُهُمْ﴾ [محمد]، فإن قوله: ﴿وَاللَّكْفِرِينَ أَمْتُهُمْ﴾ ظاهر جداً في ذلك، والآيات بنحو ذلك كثيرة.

وللعلماء في عقوبة من ارتكب جريمة اللواط أقوال مبسطة في الأصل فليرجع إليها من أراد الوقوف عليها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنهَضَكُمْ عَنْهُ﴾. ذكر الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة عن نبيه شعيب - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - أنه أخبر قومه أنه إذا نهاهم عن شيء انتهى هو عنه، وإن فعله لا يخالف قوله.

وفيه من هذه الآية الكريمة أن الإنسان يجب عليه أن يكون متنبهاً عما ينهى عنه غيره، مؤتمراً بما يأمر به غيره.

وقد بين تعالى ذلك في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ١].

وفي الصحيحين من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتابه في النار، فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع عليه أهل النار فيقولون: أي فلان! أأنت كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟» فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتية، وأنهاكم عن المنكر وآتية.

ومعنى قوله ﷺ: «فتدلق أقتابه»؛ أى تتدلى أمعأوه.

وأخرج وكيع وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبزار وابن المنذر وابن أبي

حاتم وابن حيان، وأبو نعيم في الحلية، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان وغيرهم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي رجلاً تقرض شفاههم بمقاريض من نار، كلما قرضت رجعت، فقلت لجبريل: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء خطباء من أمتك، كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون». قاله صاحب (الدر المنثور)، اهـ. وقد قال الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
وقد أجاد من قال:

وغير تقني يأمر الناس بالتقى طبيب يداوي الناس وهو مريض
ومعلوم أن عمل الإنسان بما ينصح به غيره أدعى لقبول غيره منه؛ كما قال الشاعر:
فإنك إذا ما تأت ما أنت أمر به تلف من إياه تأمر آتيا
قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَكَرِيمٌ إِنَّمَا صَعِيقًا وَلَا رَهْطًا لَرَجْمَتِكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝٩١﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن نبيه شعيباً - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - منعه الله من الكفار، وأعز جانبه بسبب العواطف العصبية، والأواصر النسبية من قومه الذين هم الكفار.

وهو دليل على أن المتمسك بدينه قد يعينه الله ويعزه بنصرة قريبه الكافر، كما بينه تعالى في مواضع أخرى؛ كقوله في صالح وقومه: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾... الآية [النمل: ٤٩].

ففي الآية دليل على أنهم لا قدرة لهم على أن يفعلوا السوء بصالح - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - إلا في حال الخفاء، وأنهم لو فعلوا به ذلك خفاء وسرقة لكانوا يحلفون لأوليائه الذين هم عصبته أنهم ما فعلوا به سوءاً، ولا يشهدوا ذلك ولا حضروه خوفاً من عصبته؛ فهو عزيز الجانب بسبب عصبته الكفار، وقد قال تعالى لنبينا ﷺ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَكَوَّيْ ۝١﴾ [الضحى]؛ أي آواك بأن ضمك إلى عمك أبي طالب.

وذلك بسبب العواطف العصبية، والأواصر النسبية، ولا صلة له بالدين البتة؛ فكونه - جل وعلا - يمتن على رسوله ﷺ بإيواء أبي طالب له؛ دليل على أن الله قد ينعم على المتمسك بدينه بنصرة قريبه الكافر.

ومن ثمرات تلك العصبية النسبة قول أبي طالب:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفيناً
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة أبشر بذاك وقر منه عيوناً
وقوله أيضاً:

ونمنعه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

ولهذا لما كان نبي الله لوط - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - ليس له عصبية في قومه الذين أرسل إليهم، ظهر فيه أثر عدم العصبية؛ بدليل قوله تعالى عنه: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ سَدِيدٌ﴾.

وهذه الآيات القرآنية تدل على أن المسلمين قد تنفعهم عصبية إخوانهم الكافرين. ولما ناصر بنو المطلب بن عبد مناف بني هاشم لم يناصرهم بنو عبد شمس بن عبد مناف وبنو نوفل بن عبد مناف؛ عرف النبي ﷺ لبني المطلب تلك المناصرة التي هي عصبية نسبية لا صلة لها بالدين؛ فأعطاهم من خمس الغنيمة مع بني هاشم، وقال: «إنا وبنو المطلب لم نفترق في جاهلية ولا إسلام» ومنع بني عبد شمس وبنو نوفل من خمس الغنيمة، مع أن الجميع أولاد عبد مناف بن قصي.

وقال أبو طالب في بني عبد شمس وبنو نوفل:

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا عقوبة شر عاجل غير آجل
بميزان قسط لا يخيس شعيرة له شاهد من نفسه غير عائل
لقد سفهت أحلام قوم تبدلوا بني خلف قيضا بنا والغياطل

والغياطل «بالغين المعجمة». ومراد أبي طالب بهم: بنو سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي «القبيلة المشهورة من قبائل قريش». وإنما سموا الغياطل؛ لأن قيس بن عدي بن سعد بن سهم الذي هو من سادات قريش العظام، وهو الذي يعنيه عبد المطلب بقوله يرقص ابنه عبد الله وهو صغير:

كأنه في العز قيس بن عدي في دار سعد ينتدي أهل الندى

تزوج امرأة من كنانة تسمى «الغيطة» وهي أم بعض أولاده؛ فسمي بنو سهم الغياطل؛ لأن قيس بن عدي المذكور سيدهم.

فهذه الآيات القرآنية تدل على أن الله قد يعين المؤمن بالكافر لتعصبه له، وربما كان لذلك أثر حسن على الإسلام والمسلمين؛ وقد يكون من من الله على بعض أنبيائه المرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم -، وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» وفي المثل: «اجتن الثمار وألق الخشبة في النار».

فإذا عرفت دلالة القرآن على أن المسلم قد ينتفع برابطة نسب وعصبية من كافر، فاعلم أن النداء بالروابط العصبية لا يجوز؛ لإجماع المسلمين على أن المسلم لا يجوز له الدعاء بيا لبني فلان ونحوها.

وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في تلك الدعوة: «دعوها فإنها منتنة». وقوله ﷺ: «دعوها» يدل على وجوب تركها؛ لأن صيغة افعل للوجوب، إلا للدليل صارف عنه، وليس هنا دليل صارف عنه، ويؤكد ذلك تعليله الأمر بتركها بأنها منتنة، وما صرح النبي ﷺ بالأمر بتركه وأنه منتن لا يجوز لأحد

تعاطيه، وإنما الواجب على المسلمين النداء برابطة الإسلام التي هي من شدة قوتها تجعل المجتمع الإسلامي كله كأنه جسد إنسان واحد؛ فهي تربطك بأخيك المسلم كربط أعضائك بعضها ببعض، قال ﷺ: «إن مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

وإذا تأملت قوله تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، تحققت أن الروابط النسبية تتلاشى مع الروابط الإسلامية؛ وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

ولا يخفى أن أسلافنا معاشر المسلمين إنما فتحوا البلاد ومصرّوا الأمصار بالرابطة الإسلامية، لا بروابط عصبية، ولا بأواصر نسيية.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُودُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ﴾. قيد تعالى خلود أهل الجنة وأهل النار بالمشيئة، فقال في كل منهما: ﴿السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ﴾، ثم بين عدم الانقطاع في كل منهما، فقال في خلود أهل الجنة: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُودُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا﴾ [هود: ١٠٨]، ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ يُجْذَرُ﴾ [هود: ١٠٨].

وقال في خلود أهل النار: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]. ومعلوم أن «كلما» تقتضي التكرار بتكرر الفعل الذي بعدها.

وقد أوضحنا هذه المسألة إيضاحاً تاماً في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوٍ لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، وفي سورة النبا في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبأ: ١٣].



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يوسف

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَتَابِعْ إِنِّي بَرَأْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَجْدِينَ﴾. لم يبين هنا تأويل هذه الرؤيا، ولكنه بينه في هذه السورة الكريمة في قوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ﴾ [٩٩] وَرَفَعَ أَبْوِيهِ عَلَى الْمَعْرِشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَتَابِعْ هَذَا تَأْوِيلَ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا. ومن المعلوم أن رؤيا الأنبياء وحي.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْئِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

بين الله - جل وعلا - أنه علم نبيه يوسف من تأويل الأحاديث، وصرح بذلك أيضاً في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكْنًى لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

واختلف العلماء في المراد بتأويل الأحاديث.

فذهب جماعة من أهل العلم إلى أن المراد بذلك: تعبير الرؤيا، فالأحاديث على هذا القول هي الرؤيا، قالوا: لأنها إما حديث نفس أو ملك أو شيطان.

وكان يوسف أعبر الناس للرؤيا، ويدل على هذا الوجه الآيات الدالة على خبرته بتأويل الرؤيا، كقوله: ﴿يَصْنَعِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الظُّرَّ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (١) وقوله: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ (٢) إلى قوله: ﴿يَعَصِرُونَ﴾.

قال بعض العلماء: المراد بتأويل الأحاديث معرفة معاني كتب الله وسنن الأنبياء، وما غمض وما اشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها، يفسرها لهم ويشرحها، ويدلهم على مودعات حكمها.

وسميت أحاديث؛ لأنها يحدث بها عن الله ورسله، فيقال: قال الله كذا، وقال رسوله كذا، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الاعراف: ١٨٥].

وقوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْغَدِيثِ﴾ ... الآية [الزمر: ٢٣].

ويدل على هذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢] وقوله: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْزَقَانِهِ إِلَّا نَبْأُكُمَا بتأويله قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمْنِي رَبِّي﴾ ... الآية.

قال مقيده - عفا الله عنه -: الظاهر أن الآيات المذكورة تشمل ذلك كله: من تأويل الرؤيا، وعلوم كتب الله وسنن الأنبياء، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٣). الظاهر أن مراد أولاد يعقوب بهذا الضلال الذي وصفوا به أباهم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - في هذه الآية الكريمة، إنما هو الذهاب عن علم حقيقة الأمر كما ينبغي.

ويدل على هذا ورود الضلال بهذا المعنى في القرآن وفي كلام العرب، فمنه بهذا المعنى قوله تعالى عنهم مخاطبين أباهم: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ الْقَدِيرِ﴾ (٤) وقوله تعالى في نبينا ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ (٥) [الضحى]، أي لست عالماً بهذه العلوم التي لا تعرف إلا بالوحي، فهذاك إليها وعلمك بما أوحى إليك من هذا القرآن العظيم. ومنه بهذا المعنى قول الشاعر:

وتظن سلمى أنني أبغي بها بدلاً أراها في الضلال تهيم
يعني: أنها غير عالمة بالحقيقة في ظنها أنه يبغي بها بدلاً وهو لا يبغي بها بدلاً.
وليس مراد أولاد يعقوب الضلال في الدين، إذ لو أرادوا ذلك لكانوا كفاراً،
وإنما مرادهم أن أباهم في زعمهم في ذهاب عن إدراك الحقيقة، وإنزال الأمر منزلته
اللائقة به، حيث أثر اثنين على عشرة، مع أن العشرة أكثر نفعاً له، وأقدر على القيام
بشؤونه وتدبير أموره، واعلم أن الضلال أطلق في القرآن إطلاقين آخرين:

أحدهما: الضلال في الدين، أي الذهاب عن طريق الحق التي جاءت بها الرسل -
صلوات الله عليهم وسلامه -، وهذا أشهر معانيه في القرآن؛ ومنه بهذا المعنى: ﴿غَيْرِ
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [١٦١]
[الصفات]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

ثانيهما: إطلاق الضلال بمعنى الهلاك والغيبة، من قول العرب: ضل السمن في
الطعام، إذا غاب فيه وهلك فيه، ولذلك تسمي العرب الدفن إضلالاً؛ لأنه تغييب في
الأرض يؤول إلى استهلاك عظام الميت فيها؛ لأنها تصير رميماً وتمتزج بالأرض، ومنه
بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ...﴾ الآية [السجدة: ١٠].

ومن إطلاق الضلال على الغيبة قوله تعالى: ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾
[الأنعام: ٢٤]، أي غاب واضمحل.

ومن إطلاق الضلال على الدفن قول نابغة ذبيان:

فآب مضلوه بعين جلية وغودر بالجولان حزم ونائل
فقوله: مضلوه، يعني دافنيه، وقوله: بعين جلية، أي بخبر يقين، والجولان: جبل
دفن عنده المذكور.

ومن الضلال بمعنى الغيبة والاضمحلال؛ قول الأخطل:

كنت القذى في موج أكرر مزبد قذف الأنبي به فضل ضلالا
وقول الآخر:

ألم تسأل فتخبرك الديار عن الحي المضلل أين ساروا
قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِمْ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ
بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [١٥]. أخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أوحى إلى
يوسف - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - أنه سينبئ إخوته بهذا الأمر الذي فعلوا به
في حال كونهم لا يشعرون.

ثم صرح في هذه السورة الكريمة بأنه - جل وعلا - أنجز ذلك الوعد في قوله:
﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [١٨].

وصرح بعدم شعورهم بأنه يوسف في قوله: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَّفَهُمْ وَهُمْ لَمْ تُعْرِفُوهُ﴾.

وهذا الذي ذكرنا أن العامل في الجملة الحالية هو قوله: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ﴾ أي لتخبرنهم ﴿بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ في حال كونهم ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ بأنك يوسف هو الظاهر. وقيل: إن عامل الحال هو قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ وعليه، فالمعنى أن ذلك الإحياء وقع في حال كونهم لا يشعرون بأنه أوحى إليه ذلك.

وقرأ هذه الآية جمهور القراء ﴿غَيَّبَتِ الْجُبُ﴾ بالإنفراد، وقرأ نافع «غيابات الجب» بصيغة الجمع، وكل شيء غُيِبَ عنك شيئاً فهو غيابة، ومنه قيل للقبر غيابة، ومنه قول الشاعر: وإن أنا يوماً غيبتي غيابتي فسيروا بسيري في العشيرة والأهل والجمع في قراءة نافع نظراً إلى تعدد أجزاء قعر الجب التي تغيب الداخل فيها عن العيان. واختلف العلماء في جواب «لما» من قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ أمثبت أم محذوف؟ فقيل: هو مثبت، وهو قوله: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ الآية؛ أي لما كان كذا وكذا يا أبانا، واستحسن هذا الوجه أبو حيان.

وقيل: جواب «لما» هو قوله: ﴿أَوْحَيْنَا﴾، والواو صلة. وهذا مذهب الكوفيين، تزداد عندهم الواو في جواب «لما» وحتى، وإذا وعلى ذلك خرجوا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمُوا وَلَكُمُ الْيَجِينُ﴾... الآية [الصفات: ١٠٣، ١٠٤]، وقوله: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَ وَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ الآية، وقول امرئ القيس:

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحي بنا بطن حقف ذي ركام عقتقل
أي لما أجزنا ساحة الحي انتحي.

وقيل: جواب «لما» محذوف، وهو قول البصريين، واختلف في تقديره. فقيل: إن تقديره فعلوا به ما فعلوا من الأذى.

وقدره بعضهم: فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب عظمت فتتهم. وقدره بعضهم: فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب جعلوه فيها. واستظهر هذا الأخير أبو حيان: لأن قوله: ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ﴾ يدل على هذا المقدر، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَهُودُ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ الآية.

ظاهر هذه الآية الكريمة قد يفهم منه أن يوسف - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - هم بأن يفعل مع تلك المرأة مثل ما همت هي به منه؛ ولكن القرآن العظيم بين براءته - عليه الصلاة والسلام - من الوقوع فيما لا ينبغي؛ حيث بين شهادة كل من له تعلق بالمسألة ببراءته، وشهادة الله له بذلك واعتراف إبليس به.

أما الذين لهم تعلق بتلك الواقعة فهم: يوسف، والمرأة، وزوجها، والنسوة، والشهود.
 أما جزم يوسف بأنه بريء من تلك المعصية فذكره تعالى في قوله: ﴿هِيَ زَوَدْتَنِي
 عَنْ نَفْسِي﴾ وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ الآية.
 وأما اعتراف المرأة بذلك ففي قولها للنسوة: ﴿وَلَقَدْ زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ﴾
 وقولها: ﴿الْفَنِّ حَصَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾.
 وأما اعتراف زوج المرأة ففي قوله: ﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَذِبِكُمْ إِنَّ كَيْدَكُنْ عَظِيمٌ﴾
 يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿١٩﴾
 وأما اعتراف الشهود بذلك ففي قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ
 قَمِيصُهُ فَرَدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ الآية.
 وأما شهادة الله - جل وعلا - ببراءته ففي قوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّؤْءَ
 وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِّنْ عِبَادِنَا الْمُتَّخِصِينَ﴾.

قال الفخر الرازي في تفسيره: قد شهد الله تعالى في هذه الآية الكريمة على طهارته أربع مرات:

أولها: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّؤْءَ﴾ واللام للتأكيد والمبالغة.

وثانيها: قوله: ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾ أي وكذلك لنصرف عنه الفحشاء.

وثالثها: قوله: ﴿إِنَّهُ مِّنْ عِبَادِنَا﴾ مع أنه تعالى قال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان].

ورابعها: قوله: ﴿الْمُتَّخِصِينَ﴾ وفيه قراءتان: قراءة باسم الفاعل، وأخرى باسم المفعول.

فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتياً بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص.

ووروده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه لنفسه، واصطفاه لحضرته.

وعلى كلا الوجهين: فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزهاً عما أضافوه إليه، اهـ من تفسير الرازي، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿مَعَادُ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَوْلَىٰ إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ﴾.

وأما إقرار إبليس بطهارة يوسف ونزاهته ففي قوله تعالى: ﴿قَالَ فِعْرَ لَكَ لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٢٠] إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٢١﴾ [ص]، فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين، ولا شك أن يوسف من المخلصين، كما صرح تعالى به في قوله: ﴿إِنَّهُ مِّنْ عِبَادِنَا الْمُتَّخِصِينَ﴾ فظهرت دلالة القرآن من جهات متعددة على براءته مما لا ينبغي.

وقال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية ما نصه: وعند هذا نقول: هؤلاء الجهال

الذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام هذه الفضيحة، إن كانوا من أتباع دين الله تعالى فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته، وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته؛ ولعلمهم يقولون: كنا في أول الأمر تلامذة إبليس، إلى أن تخرجنا عليه فردنا في السفاهة عليه؛ كما قال الخوارزمي:

وكنّت امرأةً من جنّد إبليس فارتقى بي الدهر حتى صار إبليس من جندي
فلو مات قبلي كنت أحسن بعده طرائق فسق ليس يحسبها بعدي
فثبت بهذه الدلائل أن يوسف عليه السلام بريء مما يقول هؤلاء الجهال، اه كلام الرازي.
ولا يخفى ما فيه من قلة الأدب مع من قال تلك المقالة من الصحابة وعلماء السلف
الصالح! وعذر الرازي في ذلك هو اعتقاده أن ذلك لم يثبت عن أحد من السلف الصالح.
وسترى في آخر هذا المبحث أقوال العلماء في هذه المسألة - إن شاء الله تعالى - .
فإن قيل: قد بينتم دلالة القرآن على براءته عليه السلام مما لا ينبغي في الآيات
المتقدمة، ولكن ماذا تقولون في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ بِهَا؟﴾ قال جواب من وجهين:
الأول: أن المراد بهم يوسف بها خاطر قلبي صرف عنه وازع التقوى، وقال بعضهم:
هو الميل الطبيعي والشهوة الغريزية المزمومة بالتقوى، وهذا لا معصية فيه؛ لأنه أمر جبلي
لا يتعلق به التكليف؛ كما في الحديث عنه عليه السلام: أنه كان يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول:
«اللهم هذا قسمني فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك» يعني ميل القلب الطبيعي.
ومثال هذا ميل الصائم بطبعه إلى الماء البارد، مع أن تقواه تمنعه من الشرب وهو
صائم، وقد قال عليه السلام: «ومن همّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة» لأنه ترك ما
تميل إليه نفسه بالطبع خوفاً من الله، وامتناعاً لأمره، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ
رَبِّهِ وَهَمَّ الْفَسْ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ أَلْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝﴾ [النازعات].
وهم بنو حارثة وبنو سلمة بالفراز يوم أحد، كهّم يوسف هذا، بدليل قوله: ﴿إِذْ
هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: ١٢٢]؛ لأن قوله: ﴿وَاللَّهُ
وَلِيُّهُمَا﴾، يدل على أن ذلك الهّم ليس معصية؛ لأن اتباع المعصية بولاية الله لذلك
العاصي إغراء على المعصية.
والعرب تطلق الهّم وتريد به المحبة والشهوة، فيقول الإنسان فيما لا يحبه ولا
يشتهيه: هذا ما يهمني، ويقول فيما يحبه ويشتهيه: هذا أهم الأشياء إلي، بخلاف هم
امرأة العزيز، فإنه همّ عزم وتصميم، بدليل أنها شقت قميصه من دبر وهو هارب عنها،
ولم يمنعها من الوقوع فيما لا ينبغي إلا عجزها عنه.
ومثل هذا التصميم على المعصية: معصية يؤاخذ بها صاحبها، بدليل الحديث الثابت
في الصحيح عنه عليه السلام من حديث أبي بكرة: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول
في النار» قالوا: يا رسول الله قد عرفنا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حربصاً على
قتل صاحبه» فصرح عليه السلام بأن تصميم عزمه على قتل صاحبه معصية أدخله الله بسببها النار.
وأما تأويلهم همّ يوسف بأنه قارب الهّم ولم يهّم بالفعل، كقول العرب: قتلت له
لم أخف الله، أي قاربت أن أقتله، كما قاله الزمخشري.
وتأويل الهّم بأنه همّ بضربها، أو همّ بدفعها عن نفسه، فكل ذلك غير ظاهر، بل
بعيد من الظاهر ولا دليل عليه.

والجواب الثاني: وهو اختيار أبي حيان: أن يوسف لم يقع منه هم أصلاً، بل هو منفي عنه لوجود البرهان.

قال مقيده - عفا الله عنه -: هذا الوجه الذي اختاره أبو حيان وغيره هو أجرى الأقوال على قواعد اللغة العربية؛ لأن الغالب في القرآن وفي كلام العرب أن المحذوف يذكر قبله ما يدل عليه، كقوله: ﴿فَلْيَكُونُوا مِنْ كَافِرِينَ﴾ [يونس: ٨٤]؛ أي إن كنتم مسلمين فتوكلوا عليه، فالأول: دليل الجواب المحذوف لا نفس الجواب؛ لأن جواب الشروط وجواب «لولا» لا يتقدم، ولكن يكون المذكور قبله دليلاً عليه كآلية المذكورة. وكقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]؛ أي إن كنتم صادقين فهااتوا برهانكم.

وعلى هذا القول: فمعنى الآية، وهم بها لولا أن رأى برهان ربه، أي لولا أن رآه هم بها، فما قبل «لولا» هو دليل الجواب المحذوف، كما هو الغالب في القرآن واللغة. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ [القضص: ١٠]، فما قبل «لولا» دليل الجواب، أي لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به.

واعلم أن جماعة من علماء العربية أجازوا تقديم جواب «لولا» وتقديم الجواب في سائر الشروط: وعلى هذا القول يكون جواب «لولا» في قوله: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ هو ما قبله من قوله: ﴿وَهُمْ بِهَا﴾. وإلى جواز التقديم المذكور ذهب الكوفيون، ومن أعلام البصريين: أبو العباس المبرد، وأبو زيد الأنصاري.

وقال الشيخ أبو حيان في البحر المحيط ما نصه: والذي أختاره أن يوسف ﷺ لم يقع منه هم بها البتة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان؛ كما تقول: لقد قارفت لولا أن عصمك الله، ولا نقول: إن جواب «لولا» متقدم عليها، وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك، بل صريح أدوات الشروط العاملة مختلف في جواز تقديم أجوبتها عليها. وقد ذهب إلى ذلك الكوفيون، ومن أعلام البصريين: أبو زيد الأنصاري، وأبو العباس المبرد.

بل نقول: إن جواب «لا» محذوف لدلالة ما قبله عليه، كما يقول جمهور البصريين في قول العرب: أنت ظالم إن فعلت، فيقدرونه إن فعلت فأنت ظالم، ولا يدل قوله أنت ظالم على ثبوت الظلم، بل هو مثبت على تقدير وجود الفعل، وكذلك هنا التقدير: لولا أن رأى برهان ربه لهم بها، فكان وجود الهم على تقدير انتفاء رؤية البرهان، لكته وجد رؤية البرهان فانتفى الهم، ولا التفات إلى قول الزجاج، ولو كان الكلام: ولهم بها كان بعيداً، فكيف مع سقوط اللام؟ لأنه يوهم أن قوله: «هم بها»، هو جواب «لولا» ونحن لم نقل بذلك، وإنما هو دليل الجواب، وعلى تقدير أن يكون نفس الجواب فاللام ليست بلازمة، لجواز أن يأتي جواب «لولا» إذا كانت بصيغة الماضي باللام، وبغير لام تقول: لولا زيد لأكرمتك. ولولا زيد أكرمتك. فمن ذهب

إلى أن قوله: «هم بها» نفس الجواب لم يبعد. ولا التفات لقول ابن عطية، أن قول من قال: إن الكلام قد تم في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ وأن جواب «لولا» في قوله: ﴿وَهُمْ بِهَا﴾ وأن المعنى لولا أن رأى برهان ربه لهم بها، فلم يهم يوسف ﷺ.

قال: وهذا قول يردده لسان العرب وأقوال السلف. اهـ.

أما قوله: يرده لسان العرب فليس كما ذكر، وقد استدل من ذهب إلى جواز ذلك بوجوده في لسان العرب، قال الله تعالى: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَظُنَّا عَلَيْهَا لِكُنْتَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠]، فقوله: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ﴾، إما أن يتخرج على أنه الجواب على ما ذهب إليه القائل، وإما أن يتخرج على ما ذهبنا إليه من أنه دليل الجواب، والتقدير: لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به.

وأما أقوال السلف: فنعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيء من ذلك؛ لأنها أقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضاً، مع كونها قاذحة في بعض فساق المسلمين فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة.

والذي روي عن السلف لا يساعد عليه كلام العرب؛ لأنهم قدرُوا جواب «لولا» محذوفاً ولا يدل عليه دليل؛ لأنهم لم يقدروا لـ «هم بها» ولا يدل كلام العرب إلا على أن يكون المحذوف من معنى ما قبل الشرط؛ لأن ما قبل الشرط دليل عليه، اهـ. محل الغرض من كلام أبي حيان بلفظه.

وقد قدمنا أن هذا القول هو أجرى الأقوال على لغة العرب، وإن زعم بعض العلماء خلاف ذلك.

فبهذين الجوابين تعلم أن يوسف - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - بريء من الوقوع فيما لا ينبغي، وأنه إما أن يكون لم يقع منه هم أصلاً بناء على أن الهم معلق بأداة الامتناع التي هي «لولا» على انتفاء رؤية البرهان، وقد رأى البرهان فانتهى المعلق عليه، وبانتفائه ينتفي المعلق الذي هو همّه بها كما تقدم إيضاحه في كلام أبي حيان.

وإما أن يكون همّه خاطراً قليلاً صرف عنه وازع التقوى، أو هو الشهوة والميل الغريزي المزموم بالتقوى كما أوضحناه، فبهذا يتضح لك أن قوله: «وهم بها» لا يعارض ما قدمنا من الآيات على براءة يوسف من الوقوع فيما لا ينبغي.

فإذا علمت مما بينا دلالة القرآن العظيم على براءته مما لا ينبغي، فاعلم أن هناك أقوال للعلماء خلاف ما لا ينبغي فليرجع إليها في الأصل من أراد.

قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذَّابِينَ﴾ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِّنْ كَذِبِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨). يفهم من هذه الآية لزوم الحكم بالقرينة الواضحة الدالة على صدق أحد الخصمين، وكذب الآخر؛ لأن ذكر الله

لهذه القصة في معرض تسليم الاستدلال بتلك القرينة على براءة يوسف يدل على أن الحكم بمثل ذلك حق وصواب؛ لأن كون القميص مشقوقاً من جهة دبره دليل واضح على أنه هارب عنها، وهي تنوشه من خلفه، ولكنه تعالى بين في موضع آخر أن محل العمل بالقرينة ما لم تعارضها قرينة أقوى منها، فإن عارضتها قرينة أقوى منها أبطلتها، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾؛ لأن أولاد يعقوب لما جعلوا يوسف في غيابة الجب، جعلوا على قميصه دم سخلة؛ ليكون وجود الدم على قميصه قرينة على صدقهم في دعواهم أنه أكله الذئب.

ولا شك أن الدم قرينة على افتراس الذئب له، ولكن يعقوب أبطل قرينتهم هذه بقرينة أقوى منها، وهي عدم شق القميص، فقال: سبحانه الله! متى كان الذئب حليماً كيساً يقتل يوسف ولا يشق قميصه؛ ولذا صرح بتكذيبه لهم في قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾. وهذه الآيات المذكورة أصل في الحكم بالقرائن.

ومن أمثلة الحكم بالقرينة: الرجل يتزوج المرأة من غير أن يراها سابقاً؛ فتزفها إليه ولائد لا يثبت بشهادتين أن هذه هي فلانة التي وقع عليها العقد؛ فيجوز له جماعها من غير احتياج إلى بيّنة تشهد على عيناها أنها هي التي وقع العقد عليها؛ اعتماداً على قرينة النكاح.

وكالرجل ينزل ضيفاً عند قوم، فتأتيه الوليدة أو الغلام بالطعام؛ فيجوز له الأكل من غير احتياج إلى ما يثبت إذن مالك الطعام له في الأكل، اعتماداً على القرينة.

وكقول مالك، ومن وافقه: إن من شم في فيه ريح الخمر يحد حد الشارب، اعتماداً على القرينة؛ لأن وجود ريحها في فيه قرينة على أنه شربها، وكمسائل اللوث وغير ذلك.

وقد قدمنا في سورة المائدة صحة الاحتجاج بمثل هذه القرائن، وأوضحنا بالأدلة القرآنية؛ أن التحقيق أن شرع من قبلنا الثابت بشرعنا شرع لنا، إلا بدليل على النسخ غاية الإيضاح، والعلم عند الله تعالى.

وقال القرطبي: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾.

استدل الفقهاء بهذه الآية في إعمال الأمارات في مسائل من الفقه، كالقسامة وغيرها، وأجمعوا على أن يعقوب عليه السلام استدل على كذبهم بصحة القميص، وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت، فما ترجح منها قضى بجانب الترجيح، وهي قوة التهمة، ولا خلاف في الحكم بها، قاله ابن العربي، اهـ كلام القرطبي، واختلف العلماء في الشاهد في قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

فقال بعض العلماء: هو صبي في المهد، وممن قال ذلك: ابن عباس، والضحاك، وسعيد بن جبير، وعن ابن عباس أيضاً، أنه رجل ذو لحية، ونحوه عن الحسن، وعن زيد بن أسلم، أنه ابن عم لها كان حكيماً، ونحوه عن قتادة وعكرمة، وعن مجاهد، أنه ليس بإنسي ولا جان، هو خلق من خلق الله.

قال مقيده - عفا الله عنه -: قول مجاهد هذا يرده قوله تعالى: ﴿مَنْ أَهْلَهَا؟﴾؛ لأنه صريح في أنه إنسي من أهل المرأة، وأظهر الأقوال: أنه صبي، لما رواه أحمد، وابن جرير، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم»، اهـ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدُكَ عَظِيمٌ﴾. هذه الآية الكريمة إذا ضمت لها آية أخرى حصل بذلك بيان أن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان، والآية المذكورة هي قوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]؛ لأن قوله في النساء: ﴿إِنَّ كَيْدُكَ عَظِيمٌ﴾، وقوله في الشيطان: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، يدل على أن كيدهن أعظم من كيده.

قال القرطبي: قال مقاتل عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، وقال: ﴿إِنَّ كَيْدُكَ عَظِيمٌ﴾» اهـ.

وقال الأديب الحسن بن أية الحسني الشنقيطي:

ما استعظم الإله كيدهنه إلا لأنهن هن هنه

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (٢١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِينَ لُتْنُنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدُّنَّ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ. بين الله تعالى في هذه الآية الكريمة ثناء هؤلاء النسوة على يوسف بهذه الصفات الحميدة فيما بينهن، ثم بين اعترافهن بذلك عند سؤال الملك لهن أمام الناس في قوله: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَسْبَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوٍّ قَالَتْ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ ائْتِنِي حَصَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾. لم يبين هنا هذا الذي أجمعوا أمرهم عليه، ولم يبين هنا أيضاً المراد بمكرهم؛ ولكنه بين في أول هذه السورة الكريمة أن الذين أجمعوا أمرهم عليه هو جعله في غيابة الجب، وأن مكرهم هو ما فعلوه بأبيهم يعقوب وأخيه يوسف، وذلك في قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾.

وقد أشار تعالى في هذه الآية الكريمة إلى صحة نبوة نبينا ﷺ؛ لأنه أنزل عليه هذا القرآن، وفصل له هذه القصة. مع أنه ﷺ لم يكن حاضراً لدى أولاد يعقوب حين أجمعوا أمرهم على المكره، وجعله في غيابة الجب، فلولا أن الله أوحى إليه ذلك ما عرفه من تلقاء نفسه.

والآيات المشيرة لإثبات رسالته، بدليل إخباره بالقصص الماضية التي لا يمكنه علم حقائقها إلا عن طريق الوحي كثيرة، كقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَسْتُمْ أَنَّهُمْ كَافُلٌ مَرِيْمَ﴾ [آل عمران: ٤٤]. وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرَفَرَةِ إِذْ فَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤]. وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٤٥]. وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْأُطُورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٤٦]. وقوله:

﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلِكِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (١٠٦) ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (١٠٧) [ص].
 وقوله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩]. إلى غير ذلك من الآيات.

فهذه الآيات من أوضح الأدلة على أنه ﷺ رسول كريم، وإن كانت المعجزات الباهرة الدالة على ذلك أكثر من الحصر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (١٠٦). قال ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعامر الشعبي، وأكثر المفسرين: إن معنى هذه الآية أن أكثر الناس، وهم الكفار ما كانوا يؤمنون بالله بتوحيدهم له في ربوبيته إلا وهم مشركون به غيره في عبادته.

فالمراد بإيمانهم اعترافهم بأنه ربهم الذي هو خالقهم ومدبر شؤونهم، والمراد بشركهم عبادتهم غيره معه، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة جداً، كقوله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١٠٦) [يونس]، كقوله: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (١٠٧) [الزخرف]، وقوله: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (١٠٨) [الزخرف]، وقوله: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّيْءَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (١٠٩) [العنكبوت]، وقوله: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فُلِيَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١١٠) [العنكبوت]، وقوله: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١١١) [سيفورون]، قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١١٢) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١١٣) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (١١٤) قُلْ مَنْ يَدْبِرُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٥) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُشْحَرُونَ (١١٦) [المؤمنون]، إلى غير ذلك من الآيات ومع هذا فإنهم قالوا: ﴿اجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (١٠٥) [ص].

وهذه الآيات القرآنية تدل على أن توحيد الربوبية لا ينقذ من الكفر إلا إذا كان معه توحيد العبادة، أي عبادة الله وحده لا شريك له، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (١٠٦).

وفي هذه الآية الكريمة إشكال: وهو أن المقرر في علم البلاغة أن الحال قيد لعاملها وصف لصاحبها، وعليه فإن عامل هذه الجملة الحالية الذي هو يؤمن مقيد بها، فيصير المعنى تقييد إيمانهم بكونهم مشركين، وهو مشكل لما بين الإيمان والشرك من المنافاة.

قال مقيد - عفا الله عنه -: لم أر من شفى الغليل في هذا الإشكال، والذي يظهر لي - والله تعالى أعلم - أن هذا الإيمان المقيد بحال الشرك إنما هو إيمان لغوي لا شرعي؛ لأن من يعبد مع الله غيره لا يصدق عليه اسم الإيمان البتة شرعاً؛ أما الإيمان اللغوي فهو يشمل كل تصديق، فتصديق الكافر بأن الله هو الخالق الرزاق يصدق عليه اسم الإيمان لغة مع كفر بالله، ولا يصدق عليه اسم الإيمان شرعاً.

وإذا حققت ذلك علمت أن الإيمان اللغوي يجامع الشرك فلا إشكال في تقييده به، وكذلك الإسلام الموجود دون الإيمان في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، فهو الإسلام اللغوي؛ لأن الإسلام الشرعي لا يوجد ممن لم يدخل الإيمان في قلبه، والعلم عند الله تعالى.

وقال بعض العلماء: «نزلت آية ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٦١﴾ في قول الكفار في تلييتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك» وهو راجع إلى ما ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ذكر الله - جل وعلا - في هذه الآية أن من أخبار المرسلين مع أممهم، وكيف نجى الله المؤمنين وأهلك الكافرين عبرة لأولى الأبواب، أي عظة لأهل العقول.

وبين هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله في قوم لوط: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا عَلَيْهِمْ مُصِيبَاتٌ﴾ ﴿١٧٧﴾ وبِأَيِّ آيَاتٍ أَتَى الْقَوْمَ لُوطُ ﴿١٧٨﴾ [الصافات]، كما تقدمت الإشارة إليه مراراً، والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الرعد

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾. ظاهر هذه الآية الكريمة قد يفهم منه أن السماء مرفوعة على عمد، ولكننا لا نراها، ونظير هذه الآية قوله أيضاً في سورة «لقمان»: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠].

واختلف العلماء في قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ على قولين: أحدهما أن لها عمداً ولكننا لا نراها، كما يشير إليه ظاهر الآية، وممن روي عنه هذا القول: ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وغير واحد، كما قاله ابن كثير.

وروي عن قتادة أيضاً، أن المعنى أنها مرفوعة بلا عمد أصلاً، وهو قول إياس بن معاوية، وهذا القول يدل عليه تصريحه تعالى في سورة «الحج» أنه هو الذي يمسكها أن تقع على الأرض في قوله: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥].

قال ابن كثير: فعلى هذا يكون قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تأكيداً لنفي ذلك، أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها كذلك، وهذا هو الأكمل في القدرة، اهـ.

قال مقيد - عفا الله عنه -: الظاهر أن هذا القول من قبيل السالبة لا تقتضي وجود الموضوع، والمراد أن المقصود نفي اتصاف المحكوم عليه بالمحكوم به، وذلك صادق بصورتين:

الأولى: أن يكون المحكوم عليه موجوداً، ولكن المحكوم به منتف عنه، كقولك: ليس الإنسان بحجر، فالإنسان موجود والحجرية منتفية عنه.

الثانية: أن يكون المحكوم عليه غير موجود فيعلم منه انتفاء الحكم عليه بذلك الأمر الموجودي، وهذا النوع من أساليب اللغة العربية، كما أوضحناه في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)، ومثاله في اللغة قول امرئ القيس:

على لاحب لا يهتدى بمناره إذا سافه العود النباطي جرجرا
أي لا منار له أصلاً حتى يهتدى به، وقوله:

لا تفزع الأرنب أهوالها ولا ترى الضب بها ينجحر
يعني لا أرانب فيها ولا ضباب.

وعلى هذا فقوله: ﴿يَعْرِ عَمِدَ تَرَوْنَهَا﴾؛ أي لا عمد لها حتى تروها، والعمد: جمع عمود على غير قياس، ومنه قول تابغة ذبيان:

وخيس الجن إني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد
والصفاح - بالضم والتشديد -: الحجر العريض.

قوله تعالى: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُتُ﴾ الآية. المراد بالسيئة هنا: العقوبة وإنزال العذاب قبل الحسنة، أي قبل العافية، وقيل الإيمان، وقد بين تعالى في هذه الآية أن الكفار يطلبون منه ﷺ أن يعجل لهم العذاب الذي يخوفهم به إن تمادوا على الكفر، وقد بين هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: ٤٧]، وكقوله: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، وكقوله: ﴿يَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٧]، وقوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [الأنفال: ٢٠]، وقوله: ﴿وَأَذِّقُوا اللَّهَ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ أَلْحَقٌ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمِطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقوله: ﴿يَسْتَغْلِبُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]، وقوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١١]، إلى غير ذلك من الآيات.

وسبب طلبهم لتعجيل العذاب هو العناد، وزعم أن النبي ﷺ كاذب فيما يخوفهم به من بأس الله وعقابه، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَيَّ أَنتُمْ مَعْدُودُونَ لَقَوْلُكَ مَا يَخَسِبُهُ﴾ [هود: ٨]، وكقوله: ﴿يَصْلُحُ أَقْبَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وقوله: ﴿قَالُوا يَنْتَوُحُ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثُرْتَ جِدَالَنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢]، كما تقدمت الإشارة إلى هذا.

والمثلاث: العقوبات واحداثها مثله. والمعنى: أنهم يطلبون تعجيل العذاب تمرداً وطغياناً، ولم يتعظوا بما أوقع الله بالأمم السالفة من المثلاث، أي العقوبات، كما فعل بقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وفرعون وقومه وغيرهم. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه ذو مغفرة للناس على ظلمهم، وأنه شديد العقاب، فجمع بين الوعد والوعيد ليعظم رجاء الناس في فضله، ويشدد خوفهم من عقابه وعذابه الشديد؛ لأن مطامع العقلاء محصورة في جلب النفع ودفع الضرر، فاجتماع الخوف والطمع أدعى للطاعة. وقد بين هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [١٦٧] [الأنعام]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [١٦٥] [الأنعام]، وقوله جل وعلا: ﴿يَتَقَى عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [٥١] وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ [٥١] [الحجر]، وقوله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾. أي إنما عليك البلاغ والإنذار، أما هدايتهم وتوفيقهم فهو بيد الله تعالى، كما أن حسابهم عليه جل وعلا. وقد بين هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ ونحو ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾. أظهر الأقوال في هذه الآية الكريمة أن المراد بالقوم الأمة، والمراد بالهادي الرسول، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾... الآية [يونس: ٤٧]، وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ [النحل: ٣٦]، وقد أوضحنا أقوال العلماء وأدلتهم في هذه الآية الكريمة في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُ كُلُّ أُنْفٍ﴾.

لفظة «ما» في هذه الآية يحتمل أن تكون موصولة والعائد محذوف، أي يعلم الذي تحمله كل أنثى، وعلى هذا فالمعنى يعلم ما تحمله من الولد على أي حال هو من ذكورة وأنوثة، وخداج، وحسن وقبح، وطول وقصر، وسعادة وشقاوة، إلى غير ذلك من الأحوال.

وقد دلت على هذا المعنى آيات من كتاب الله، كقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤]؛ لأن «ما» فيه موصولة بلا نزاع، وكقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ وَإِنَّ أَنْتَ أَجَنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُكُمْ فِي الْأَرْضِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦].

ويحتمل أيضاً: أن تكون لفظة «ما» في هذه الآية الكريمة مصدرية، أي يعلم حمل كل أنثى بالمعنى المصدري، وقد جاءت آيات تدل أيضاً على هذا المعنى،

كقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١]، وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فصلت: ٤٧].

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية قد يكون لها وجهان كلاهما حق، وكلاهما يشهد له قرآن، فنذكر الجميع.

وأما احتمال كون لفظة «ما» في هذه الآية استفهامية، فهو بعيد فما يظهر لي، وإن قال به بعض أهل العلم، وقد دلت السنة الصحيحة على أن علم ما في الأرحام المنصوص عليه في الآيات المذكورة مما استأثر الله به دون خلقه، وذلك هو ما ثبت في صحيح البخاري من أن المراد بمفاتيح الغيب في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، الخمس المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [القصص: ٣٤]، والاحتمالان المذكوران في لفظة «ما» من قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ﴾... الآية، جاريان أيضاً في قوله: ﴿وَمَا تَفِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ فعلى كونها موصولة فيهما، فالمعنى يعلم الذي تنقصه وتزيده، وعلى كونها مصدرية، فالمعنى يعلم نقصها وزيادتها.

واختلف العلماء في المراد بقوله: ﴿وَمَا تَفِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ وهذه أقوالهم في الآية بواسطة نقل صاحب (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) أخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله: ﴿وَمَا تَفِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: «هي المرأة ترى الدم في حملها».

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿وَمَا تَفِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ قيل: «خروج الدم» ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: «استمساله».

وأخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿وَمَا تَفِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ قال: «أن ترى الدم في حملها»، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: «في التسعة الأشهر».

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿وَمَا تَفِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: «ما تزداد على التسعة وما تنقص من التسعة».

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ﴿وَمَا تَفِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ قال: «ما دون تسعة أشهر» ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ فوق التسعة».

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿وَمَا تَفِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ يعني «السقط» ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ يقول: «ما زادت في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً؛ وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومنهن من تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد في الحمل ومنهن من تنقص، فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله تعالى وكل ذلك بعلمه تعالى».

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك رضي الله عنه قال: «ما دون التسعة أشهر فهو غيض وما فوقها فهو زيادة».

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة رضي الله عنه قال: «ما غاضت الرحم بالدم يوماً إلا زاد في الحمل يوماً حتى تكمل تسعة أشهر طاهراً»..

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله: ﴿وَمَا يَغِيضُ الْأَرْحَامَ﴾ قال: «السقط» وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في الآية قال: «إذا رأت الدم هش الولد، وإذا لم تر الدم عظم الولد»، اهـ من (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) ..

وقيل: الغيض والزيادة يرجعان إلى الولد كنقصان إصبع وغيرها، وزيادة إصبع وغيرها. وقيل: الغيض: انقطاع دم الحيض وما تزداد بدم النفاس بعد الوضع، ذكر هذين القولين القرطبي.

وقيل: تغيض تشتمل على واحد، وتزداد تشتمل على توأمين فأكثر.

قال مقيد - عفا الله عنه -: مرجع هذه الأقوال كلها إلى شيء واحد وهو أنه تعالى عالم بما تنقصه الأرحام وما تزيده؛ لأن معنى تغيض تنقص وتزداد أي تأخذه زائداً، فيشمل النقص المذكور نقص العدد ونقص العضو من الجنين ونقص جسمه إذا حاضت عليه فتقلص، ونقص مدة الحمل بأن تسقطه قبل أمد حمله المعتاد، كما أن الزيادة يشمل زيادة العضو وزيادة العدد وزيادة جسم الجنين إن لم تحض وهي حامل، وزيادة أمد الحمل عن القدر المعتاد، والله - جل وعلا - يعلم ذلك كله، والآية تشمل كله.

قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِإِئْتِلَ وَسَارٍ بِالنَّهَارِ﴾ (١٠). بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن السر والجهر عنده سواء، وأن الاختفاء والظهور عنده أيضاً سواء؛ لأنه يسمع السر كما يسمع الجهر، ويعلم الخفي كما يعلم الظاهر، وقد أوضح هذا المعنى في آيات أخر كقوله: ﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) [المملك]، وقوله: ﴿وَلَنْ يَجْهَرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْكَثِيرَ وَأَخْفَى (٧)﴾ [طه]، وقوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود: ٥]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا نُوْسُوْهُ بِهِ نَفْسَهُ﴾ [ق: ١٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأظهر القولين في المستخفي بالليل والسابر بالنهار، أن المستخفي هو المختفي المستتر عن الأعين، والسابر هو الظاهر البارز الذاهب حيث يشاء. ومنه قول الأحنس بن شهاب التغلبي:

وكل أناس قاربوا قيد فحلهم ونحن خلعنا قيده فهو سارب

أي ذاهب حيث يشاء ظاهر غير خاف.

وقول قيس بن الخطيم:

إني سربت وكنت غير سرور
وتقرب الأحلام غير قريب
وقيل: السارب؛ الداخل في السرب ليتوارى فيه، والمستخفي الظاهر من خفاه
يخفيه: إذا أظهره، ومنه قول امرئ القيس:

خفاهن من أنفاقهن كأنما خفاهن ودق من عشي مجلب
قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾. بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة أنه لا يغيّر ما
بقوم من النعمة والعافية حتى يغيروا ما بأنفسهم من طاعة الله جل وعلا.

والمعنى أنه لا يسلب قوماً نعمة أنعمها عليهم حتى يغيروا ما كانوا عليه من
الطاعة والعمل الصالح، وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ
مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَ عَلَيْ قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾... الآية [الأنفال: ٥٣].

وقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى].

وقد بيّن في هذه الآية أيضاً أنه إذا أراد قوماً بسوء فلا مرد له، وبين ذلك أيضاً في
مواضع أخر كقوله: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، ونحوها من
الآيات، وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، يصدق بأن
يكون التغيير من بعضهم كما وقع يوم أحد بتغيير الرماة ما بأنفسهم فعمت البلية الجميع،
وقد سئل ﷺ: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث» والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ الآية.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي يري خلقه البرق خوفاً وطمعاً. قال
قتادة: خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشقته، وطمعاً للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في
رزق الله. وعن الحسن: الخوف لأهل البحر، والطمع لأهل البر، وعن الضحاك:
الخوف من الصواعق، والطمع في الغيث.

وبيّن في موضع آخر: إن إراءته خلقه البرق خوفاً وطمعاً من آياته جل وعلا،
الدالة على أنه المستحق لأن يعبد وحده لا شريك له. وذلك في قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ
يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾... الآية [الرؤم: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظَلَّلَهُمْ بِالْغَدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾ [١٧].

وبيّن تعالى في هذه الآية الكريمة أنه يسجد له أهل السماوات والأرض طوعاً
وكرهاً وتسجد له ظلالهم بالغدو والأصال. وذكر أيضاً سجود الظلال، وسجود أهل
السماوات والأرض في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّوْنَ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ
وَالشَّمَائِلِ سُجْدًا لِلَّهِ وَقَدْ دَخَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ
وَالْمَلَأِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ إلى قوله: ﴿يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٨ - ٥٠]، واختلف

العلماء في المراد بسجود الظل وسجود غير المؤمنين، فقال بعض العلماء: سجود من في السماوات والأرض من العام المخصوص؛ فالمؤمنون والملائكة يسجدون لله سجوداً حقيقياً وهو وضع الجبهة على الأرض يفعلون ذلك طوعاً، والكفار يسجدون كرهاً، أعني المنافقين لأنهم كفار في الباطن ولا يسجدون لله إلا كرهاً كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالاً يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُفْقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَاهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤]، والدليل على أن سجود أهل السماوات والأرض من العام المخصوص، قوله تعالى في سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨]. فقلوه: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨]، دليل على أن بعض الناس غير داخل في السجود المذكور، وهذا قول الحسن وقتادة وغيرهما ذكره الفراء وقيل الآية عامة والمراد بسجود المسلمين طوعاً انقيادهم لما يريد الله منهم طوعاً، والمراد بسجود الكافرين كرهاً انقيادهم لما يريد الله منهم كرهاً؛ لأن إرادته نافذة فيهم وهم منقادون خاضعون لصنعه فيهم ونفوذ مشيئته فيهم وأصل السجود في لغة العرب الذل والخضوع، ومنه قول زيد الخيل:

بجمع تضل البلق في حجراته ترى الأكم فيها سجداً للجوافر

ومنه قول العرب: أسجد إذا طأطأ رأسه وانحنى. قال حميد بن ثور:

فلما لوين على معصم وكف خضيب وأستوازها

فضول أزمته أسجدت سجود التصاري لأخبارها

وعلى هذا القول فالسجود لغوي لا شرعي، وهذا الخلاف المذكور جار أيضاً في سجود الظلال-ف قيل: سجودها حقيقي، والله تعالى قادر على أن يخلق لها إدراكاً تدرك به وتسجد لله سجوداً حقيقياً، وقيل: سجودها ميلها بقدرة الله أول النهار إلى جهة المغرب وآخره إلى جهة المشرق، وادعى من قال هذا أن الظل لا حقيقة له لأنه خيال فلا يمكن منه الإدراك.

ونحن نقول: إن الله - جل وعلا - قادر على كل شيء، فهو قادر على أن يخلق للظل إدراكاً يسجد به لله تعالى سجوداً حقيقياً والقاعدة المقررة عند علماء الأصول هي حمل نصوص الوحي على ظواهرها إلا بدليل من كتاب أو سنة ولا يخفي أن حاصل القولين:

أحدهما: أن السجود شرعي وعليه فهو في أهل السماوات والأرض من العام المخصوص.

والثاني: أن السجود لغوي بمعنى الانقياد والذل والخضوع وعليه فهو باق على عمومته، والمقرر في الأصول عند المالكية والحنابلة وجماعة من الشافعية أن النص إن دار بين الحقيقة الشرعية والحقيقة اللغوية حمل على الشرعية وهو التحقيق خلافاً لأبي

حنيئة في تقديم اللغوية، ولمن قال يصير اللفظ مجملاً لاحتمال هذا وذاك وعقد هذه المسألة صاحب (مراقي السعود) بقوله:

واللفظ محمول على الشرعي إن لم يكن في مطلق العرفي
فاللغوي على الجلي ولم يجب بحث عن المجازي الذي انتخب

وقيل: المراد بسجود الكفار كرهاً سجود ظلالهم كرهاً وقيل: الآية في المؤمنين فبعضهم يسجد طوعاً لخفة امتثال أوامر الشرع عليه، وبعضهم يسجد كرهاً لثقل مشقة التكليف عليه، مع أن إيمانه يحمله على تكلف ذلك والعلم عند الله تعالى.

وقوله: ﴿يَالْقُدُّوْا﴾ يحتمل أن يكون مصدرأ، أو يحتمل أن يكون جمع غداة، والآصال جمع أصل بضمّتين وهو جمع أصيل وهو ما بين العصر والغروب ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي:

لعمري لأنت البيت أكرم أهله وأقعد في أفيائه بالأصائل

قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّٰهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ﴾. أشار تعالى في هذه الآية الكريمة إلى أنه هو المستحق لأن يعبد وحده لأنه هو الخالق وحده، ولا يستحق من الخلق أن يعبدوه إلا من خلقهم وأبرزهم من العدم إلى الوجود؛ لأن المقصود من قوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ إنكار ذلك وأنه هو الخالق وحده بدليل قوله بعده: ﴿قُلِ اللّٰهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾؛ أي خالق كل شيء هو المستحق لأن يعبد وحده، ويبيّن هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، وقوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقوله: ﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١١]، وقوله: ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللّٰهِ فَأَرَوْهُ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١]، إلى غير ذلك من الآيات؛ لأن المخلوق محتاج إلى خالقه فهو عبد مربوب مثلك يجب عليه أن يعبد من خلقه وحده كما يجب عليك ذلك، فأنتم سواء بالنسبة إلى وجوب عبادة الخالق وحده لا شريك له.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن الكفار اقترحوا عليه ﷺ الإتيان بآية ينزلها عليه ربه، ويبيّن هذا المعنى في مواضع متعددة كقوله: ﴿فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْآوَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]، إلى غير ذلك من الآيات، ويبيّن تعالى في موضع آخر أن في القرآن العظيم كفاية عن جميع الآيات في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]، ويبيّن في موضع آخر حكمة عدم إنزال آية كناقصة صالح ونحوها بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ﴾ [الإسراء: ٥٩]، كما تقدمت الإشارة إليه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِيَ بِهِ الْمَوْتُ﴾ الآية، جواب «لو» في هذه الآية محذوف. قال بعض العلماء: تقديره لكان هذا القرآن.

وقال بعضهم: تقديره لكفرتم بالرحمن، ويدل على هذا الأخير قوله قبله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ وقد قدمنا شواهد حذف جواب «لو» في سورة البقرة وقد قدمنا في سورة يوسف أن الغالب في اللغة العربية أن يكون الجواب المحذوف من جنس المذكور قبل الشرط، ليكون ما قبل الشرط دليلاً على الجواب المحذوف.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾.

يبين في هذه الآية الكريمة أن الرسل قبله ﷺ من جنس البشرية يتزوجون ويلدون وليسوا ملائكة؛ وذلك أن الكفار استغربوا بعث آدمي من البشر كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٢]، فأخبر أنه يرسل البشر الذين يتزوجون ويأكلون كقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنْهُمْ لِيَاكُلُوا الطَّعَامَ وَيَتَشَابَهُوا فِي الْآسَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ [الأنبياء: ٨]. إلى غير ذلك من الآيات كما تقدمت الإشارة إليه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾. الظاهر أن قوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ عطف على لفظ الجلالة، وأن المراد به أهل العلم بالتوراة والإنجيل ويدل قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولَاؤُلَا الْعِلْمِ﴾... الآية [آل عمران: ١٨]، وقوله: ﴿إِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]. وقوله ﴿فَتَنَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، إلى غير ذلك من الآيات.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة إبراهيم

قوله تعالى: ﴿الرَّ كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ الآية.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أنزل على نبيه ﷺ هذا الكتاب العظيم ليخرج به الناس من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان والهدى وأوضح هذا المعنى في آيات أخر كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَنْ عَبْدِهِ عَيْنَيْ يَتَنَبَّهَ لِخُرُوجِكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الحديد: ٩]، وقوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، إلى غير ذلك من الآيات كما تقدمت الإشارة إليه، وقد بين تعالى هنا أنه لا يخرج أحداً من الظلمات إلى النور إلا بإذنه - جل وعلا - في قوله: ﴿بِإِذْنِ

رَبِّهِمْ... الآية، وأوضح ذلك في آيات آخر كقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لِتُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

بيّن الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه لم يرسل رسولا إلا بلغة قومه لأنه لم يرسل رسولا إلا إلى قومه دون غيرهم، ولكنه بيّن في مواضع آخر أن نبينا ﷺ أرسل إلى جميع الخلائق دون اختصاص بقومه ولا بغيرهم كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِيَّايَ رُسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبا: ٢٨]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم رسالته لأهل كل لسان، فهو ﷺ يجب عليه إبلاغ أهل كل لسان وقد قدمنا في سورة البقرة قول ابن عباس رضي الله عنهما: «إن الله فضل محمداً ﷺ على الأنبياء وعلى أهل السماء فقالوا: بم يا ابن عباس فضله على أهل السماء؟ فقال: إن الله تعالى قال: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَنُكْرِهِنَّ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء]، وقال لمحمد ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [١] لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ [الفتح: ١، ٢] قالوا: فما فضله على الأنبياء قال: قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ وقال الله ﷻ لمحمد ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبا: ٢٨]، فأرسله إلى الجن والإنس ذكره أبو محمد الدارمي في مسنده كما تقدم، وهو تفسير من ابن عباس للآية بما ذكرنا والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾.

اختلف العلماء في معنى هذه الآية الكريمة فقال بعض العلماء: معناها أن أولئك الكفار جعلوا أيدي أنفسهم في أفواههم ليعضوا عليها غيظاً وحنقاً لما جاءت به الرسل إذ كان فيه تسفيه أحلامهم وشتم أصنامهم وممن قال بهذا القول عبد الله بن مسعود وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير، واستدل عليه بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾... الآية [آل عمران: ١١٩]. وهذا المعنى معروف من كلام العرب، ومنه قول الشاعر:

تردون في فيه غش الحسود حتى يعض على الأكف

يعني أنهم يغيظون الحسود حتى يعض على أصابعه وكفيه: قال القرطبي: ومنه قول الآخر أيضاً:

قد أفنى أنامله أزمه فأضحى يعض على الوظيفا

أي أفنى أنامله عضاً. وقال الراجز:

لو أن سلمى أبصرت تحذدي ودقة بعظم ساقبي ويدي
وبعد أهلي وجفاء غودي عضت من الوجد بأطراف اليد
وفي الآية الكريمة أقوال غير هذا، منها أنهم لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا
بأيديهم إلى أفواههم من العجب، ويروى عن ابن عباس، ومنها أنهم كانوا إذا قال لهم نبيهم
أنا رسول الله إليكم أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم أن اسكت تكذيباً له ورداً لقوله. ويروى
هذا عن أبي صالح، ومنها أن معنى الآية: أنهم ردوا على الرسل قولهم وكذبوهم
بأفواههم، فالضمير الأول للرسل والثاني للكفار، وعلى هذا القول ففي بمعنى الباء،
ويروى هذا القول عن مجاهد وقتادة ومحمد بن كعب. قال ابن جرير: وتوجيهه أن «في» هنا
بمعنى الباء قال: وقد سمع من العرب أدخلك الله بالجنة يعنون في الجنة. وقال الشاعر:
وأرغب فيها عن لقيط ورهطه ولكنني عن سنيس لست أرغب

يريد وأرغب بها قال ابن كثير: ويؤيد هذا القول تفسير ذلك بتمام الكلام وهو
قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾.

قال مقبده - عفا الله عنه -: الظاهر عندي خلاف ما استظهره ابن كثير - رحمه الله تعالى -
لأن العطف بالواو يقتضي مغايرة ما بعده لما قبله فيدل على أنه المراد بقوله: ﴿فَرَدُّوا
أَيْدِيَهُمْ﴾... الآية، غير التصريح بالتكذيب بالأفواه والعلم عند الله تعالى، وقيل: المعنى أن
الكفار جعلوا أيديهم في أفواه الرسل رداً لقولهم، وعليه فالضمير الأول للكفار والثاني
لرسل، ويروى هذا عن الحسن، وقيل: جعل الكفار أيدي الرسل على أفواه الرسل
ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم، ويروى هذا عن مقاتل وقيل: رد الرسل أيدي الكفار في
أفواههم. وقيل غير ذلك، فقد رأيت الأقوال وما يشهد له القرآن منها والعلم عند الله تعالى.
تنبيه: جمع الفم مكسراً على أفواه يدل على أن أصله فوه فحذفت الهاء والواو
وعوضت عنهما الميم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾. صرح
تعالى في هذه الآية الكريمة أن الكفار صرحوا للرسل بأنهم كافرون بهم، وأنهم شاكون
فيما جاءوهم به من الوحي، وقد نص تعالى على بعضهم بالتعيين أنهم صرحوا بالكفر به
وأنهم شاكون فيما يدعوهم إليه كقول قوم صالح له: ﴿أَنْ تَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ
مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ [هود: ٦٢] وصرحوا بالكفر به في قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنتُمْ كَاذِبُونَ أَنْتُمْ كَاذِبُونَ كَذِبًا مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ [ص: ٧٥] قال الذين استكبروا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنُمْ بِهِ كَاذِبُونَ ﴿٧٦﴾
[الأعراف] ونحو ذلك من الآيات، وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أن من
أنواع البيان التي تضمنها أن يذكر عموم في آية ثم يصرح في آية أخرى بدخول بعض
أفراد ذلك العموم فيه كما هنا، وكما تقدم المثال له بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ
اللَّهِ﴾ [الحج: ٣٢] مع قوله: ﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعِيرِ اللَّهِ﴾... الآية [الحج: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن الكفار توعدوا الرسل بالإخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم، إن لم يتركوا ما جاءوا به من الوحي. وقد نص في آيات أخر أيضاً على بعض ذلك مفصلاً كقوله عن قوم شعيب: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَاهِنِينَ﴾ [٨٨، ٨٩] الآية [الأعراف: ٨٨، ٨٩] وقوله عن قوم لوط: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ أَلَا لَوطُ مِن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّظَاهَرُونَ﴾ [٥١] [النمل] وقوله عن مشركي قريش: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْفِرْزُوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلِيقُوكَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [٦١] [الإسراء] وقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [٦٢] [الأنفال] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [٦٣] [النمل] ولَنَسْخَنَنَّ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [٦٤] [النمل].

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أوحى إلى رسله أن العقاب والنصر لهم على أعدائهم وأنه يسكنهم الأرض بعد إهلاك أعدائهم، وبين هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [٦٥] [النمل] إِنَّهُمْ هُمُ الْمُصْذَرُونَ [٦٦] [النمل] وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ [٦٧] [الصافات] وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [٦٨] [المجادلة] وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [٦٩] الآية [غافر: ٥١]. وقوله: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [٧٠] [الأعراف] وقوله: ﴿وَأَوْثَرْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرُوقَ الْأَرْضِ وَمَعْرِبَهَا أَتَىٰ بَرْكُنَا فِيهَا﴾ [٧١] الآية [الأعراف: ١٣٧]. إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾. لم يبين هنا كيفية خيبة الجبار العنيد، ولكنه أشار إلى معنى خيئته وبعض صفاته القبيحة في قوله في سورة «ق»: ﴿أَلْقَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [٧٢] مَنَّاعٍ لِلْخَلْعِ مُنْتَبِهِ مُرِيٍّ [٧٣] الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ [٧٤] [ق] والجبار المتعبر في نفسه، والعنيد المعاند للحق. قاله ابن كثير.

قوله تعالى: ﴿مَنْ وَرَّاهُ جَهَنَّمَ﴾ [٧٥] الآية. وراء هنا بمعنى أمام كما هو ظاهر، ويدل عليه إطلاق وراء بمعنى أمام في القرآن وفي كلام العرب فمنه في القرآن قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩] أي أمامهم ملك، وكان ابن عباس يقرؤها: «وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا»، ومن إطلاق «وراء» بمعنى «أمام» في كلام العرب قول لبيد:

أليس ورائي إن تراخت منيتي لزوم العصا تجنى عليها الأصابع

وقول الآخر:

أترجو بنو مروان سمعي وطاعتي وقومي تميم والفلاة ورائيا
وقول الآخر:

ومن ورائك يوم أنت بالغه لا حاضر معجز عنه ولا باد
فوراء بمعنى أمام في الآيات. وقال بعض العلماء: معنى ﴿مَنْ وَرَّاهُ جَهَنَّمَ﴾؛ أي من
بعد هلاكه جهنم، وعليه فوراء في الآية بمعنى بعد، ومن إطلاق وراء بمعنى بعد قول النابغة:
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب
أي ليس بعد الله مذهب، قاله القرطبي. والأول هو الظاهر وهو الحق.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾. ضرب الله تعالى لأعمال الكفار مثلاً في هذه الآية الكريمة برماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف، أي شديد الريح فإن تلك الريح الشديدة العاصفة تطير ذلك الرماد ولم تبق له أثر، فكذلك أعمال الكفار كصلات الأرحام وقرى الضيف والتنفيس عن المكروب وبر الوالدين ونحو ذلك يبطلها الكفر ويذهبها، كما تطير تلك الريح ذلك الرماد، وضرب أمثالا آخر في آيات أعمال الكفار بهذا المعنى كقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ يَفْعَعُ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩] وقوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَمْلَكَتْهُ...﴾ الآية [آل عمران: ١١٧]. وقوله: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٥] وقوله: ﴿وَقَدَرْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان] إلى غير ذلك من الآيات. وبين في موضع آخر أن الحكمة في ضربه للأمثال أن يتفكر الناس فيها فيفهموا الشيء بنظرة، وهو قوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، ونظيره قوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. وبين في موضع آخر أن الأمثال لا يعقلها إلا أهل العلم وهو قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت]. وبين في موضع آخر أن المثل المضروب يجعله الله سبب هداية لقوم فهموه وسبب ضلال لقوم لم يفهموا حكمته، وهو قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]. وبين في موضع آخر أنه تعالى لا يستحي أن يضرب مثلاً ما ولو كان المثل المضروب بعوضة فما فوقها قيل فما هو أصغر منها لأنه يفوقها في الصغر، وقيل: فما فوقها أي فما هو أكبر منها هو قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ

لَا يَسْتَحْيَ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا ﴿٢٦﴾ [البقرة: ٢٦]؛ ولذلك ضرب المثل بالعنكبوت في قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: ٢٧]، وضربه بالحمار في قوله: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَارًا...﴾ الآية [الجمعة: ٥]، وضربه بالكلب في قوله: ﴿فَنُتْلُوهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٦] إلى غير ذلك والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ بَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾. هذه المحاجة التي ذكرها الله هنا عن الكفار بينها في مواضع آخر كقوله: ﴿وَلَا يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ بَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر] كما تقدم إيضاحه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّكَ اللَّهُ وَعْدَكُمْ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾. بين في هذه الآية أن الله وعدهم وعد الحق وأن الشيطان وعدهم فأخلفهم ما وعدهم. وبين هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله في وعد الله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ [النساء: ١٢٢] وقوله: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْعَهْدَ﴾ [آل عمران: ٩] وقوله في وعد الشيطان: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمِينُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء] ونحو ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿يَحْيِيهِمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾. بين في هذه الآية الكريمة أن تحية أهل الجنة في الجنة سلام، وبين في مواضع آخر أن الملائكة تحييهم بذلك، وأن بعضهم يحيي بعضاً بذلك، فقال في تحية الملائكة لهم: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٢﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ يَمَّا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] وقال: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ [الزمر: ٧٣] وقال: ﴿وَيُلْقُونَ فِيهَا بَحِيرَةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، وقال في تحية بعضهم بعضاً: ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس: ١٠] كما تقدم إيضاحه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾. هذا تهديد منه تعالى لهم بأن مصيرهم إلى النار وذلك المتاع القليل في الدنيا لا يجدي من مصيره إلى النار، وبين هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨] وقوله: ﴿نَمَتْنَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٦﴾﴾ [القمان] وقوله: ﴿تَمَتَّعْ فِي الْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ إِنَّنَا مَرَجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يونس] وقوله: ﴿لَا يَعْرِفُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٦١﴾ تَمَتَّعْ قَلِيلًا ثُمَّ مَا لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ...﴾ الآية [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَعْجَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿١٦١﴾﴾. أمر تعالى في هذه الآية الكريمة بالمبادرة

إلى الطاعات كالصلوات والصدقات من قبل إتيان يوم القيامة الذي هو اليوم الذي لا بيع فيه ولا مخالّة بين خليلين فينتفع أحدهما بخلة الآخر، فلا يمكن أحداً أن تباع له نفسه فيفديها، ولا خليل ينفع خليله يومئذ، وبين هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]. وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد: ١٥] وقوله: ﴿وَأَنفِقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨]. ونحو ذلك من الآيات، والخلال في هذه الآية، قيل: جمع خلة كقلة وقلال، والخلة: المصادقة، وقيل: هو مصدر خاله على وزن فاعل مخالّة وخلالاً، ومعلوم أن فاعل ينقاس مصدرها على المفاعلة والفعال. وهذا هو الظاهر، ومنه قول امرئ القيس:

صرفت الهوى عنهن من خشية الردى ولست بمقلي الخلال ولا قال
أي لست بمكروه المخالّة.

قوله تعالى: ﴿وَأَجْتَنِي وَبَيَّ أَن تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾. لم يبين هنا هل أجاب دعاء نبيه إبراهيم هذا، ولكنه بين في مواضع آخر أنه أجابه في بعض ذريته دون بعض كقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مَحْسَنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣] وقوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾... الآية [الزخرف: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿فَن تَبَعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَن عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن نبيه إبراهيم قال: إن من تبعه فإنه منه، وأنه رد أمر من لم يتبعه إلى مشيئة الله تعالى، إن شاء غفر له لأنه هو الغفور الرحيم. وذكر نحو هذا عن عيسى ابن مريم في قوله: ﴿إِن تَعْبُدُونِي فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَفْغَرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ﴾ [المائدة] وذكر عن نوح وموسى التشديد في الدعاء على قومهما، فقال عن نوح إنه قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِبَابًا﴾ إلى قوله: ﴿فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧] وقال عن موسى: أنه قال: ﴿رَبَّنَا يُخْلِصْنَا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا أطْمَئِنَّ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] والظاهر أن نوحاً وموسى - عليهما وعلى نبيينا الصلاة والسلام - ما دعوا ذلك الدعاء على قومهما إلا بعد أن علما من الله أنهم أشقياء في علم الله لا يؤمنون أبداً، أما نوح فقد صرح الله تعالى له بذلك في قوله: ﴿وَأَرْحَمَ إِلَى نُوْحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] وأما موسى فقد فهم ذلك من قول قومه له: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢] فإنهم قالوا هذا القول بعد مشاهدة تلك الآيات العظيمة المذكورة في الأعراف وغيرها.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ أَفِيدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْتُفَهُم مِّنَ الشَّجَرَاتِ﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن نبيه إبراهيم - عليه وعلى نبيينا الصلاة والسلام - دعا لذريته الذين أسكنهم بمكة المكرمة أن يرزقهم الله من الثمرات. وبين في سورة البقرة

أن إبراهيم خص بهذا الدعاء المؤمنين منهم، وأن الله أخبره أنه رازقهم جميعاً مؤمنهم وكافرهم ثم يوم القيامة يعذب الكافر، وذلك بقوله: ﴿وَلَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ ءَمَانٍ مِنْهُمْ بِإِلَهِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ [البقرة: ١٢٦]. قال بعض العلماء: سبب تخصيص إبراهيم المؤمنين، في هذا الدعاء بالرزق أنه دعا لذريته أولاً أن يجعلهم الله أئمة ولم يخصص بالمؤمنين فأخبره الله أن الظالمين من ذريته لا يستحقون ذلك. قال تعالى: ﴿وَلَا أَنْتَ إِبْرَاهِيمَ رَبُّ بِكَانَتِ قَاتِمُهُنَّ قَالَ إِي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٦]. فلما أراد أن يدعو لهم بالرزق خص المؤمنين بسبب ذلك فقال: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ ءَمَانٍ مِنْهُمْ بِإِلَهِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، فأخبره الله أن الرزق ليس كالإمامة، فالله يرزق الكافر من الدنيا ولا يجعله إماماً؛ ولذا قال له في طلب الإمامة ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٦] ولما خص المؤمنين بطلب الرزق قال له: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ [البقرة: ١٢٦].

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن إبراهيم طلب المغفرة لوالديه وبين في آيات أخر أن طلبه الغفران لأبيه إنما كان قبل أن يعلم أنه عدو الله فلما علم ذلك تبرأ منه كقوله: ﴿وَمَا كُنْتُ أَسْتَغْفِرُ لِبَرِّهَيْهِ لَئِنْ عَلِمْتُ مِنْهُ مَوْعِدَةً وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأْتُ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] ونحو ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه يؤخر عقاب الكفار إلى يوم تشخص فيه الأبصار من شدة الخوف، وأوضح ذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخَصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء: ٩٧]، ومعنى شخوص الأبصار أنها تبقى مفتوحة لا تغمض من الهول وشدة الخوف.

قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ﴾. الإهطاع في اللغة: الإسراع، وقد بين تعالى في مواضع أخر أنهم يوم القيامة يأتون مهطعين أي مسرعين، إذا دعوا للحساب، كقوله تعالى: يوم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ [٧] ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى النَّارِ﴾ [القمر: ٧، ٨]. وقوله: يوم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَّاءَ﴾ [المعارج: ٤٣]، ﴿ذَلِكَ حَسْرَةً عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤] إلى غير ذلك من الآيات.

ومن إطلاق الإهطاع في اللغة بمعنى الإسراع قول الشاعر:

بدجلة دارهم ولقد أراهم بدجلة مهطعين إلى السماع

أي مسرعين إليه.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن المجرمين وهم الكفار يوم القيامة يقرنون في الأصفاذ، وبين تعالى هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿وَلَا أَلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَبِيحًا مُقَرَّنِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان] ونحو ذلك من الآيات.

والأصفاد: هي الأغلال والقيود، واحدها: صفد بالسكون، وصفد بالتحريك. ومنه قول عمرو بن كلثوم:

فأبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا
وقوله تعالى: ﴿وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ۖ ﴿٢٧﴾ وَمَآخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۖ ﴿٢٨﴾﴾ [ص].

قوله تعالى: ﴿وَتَعَثَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾. بين في هذه الآية الكريمة أن النار يوم القيامة تغشى وجوه الكفار فتحرقها، وأوضح ذلك في مواضع آخر كقوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ۖ ﴿١٢٤﴾﴾ [المؤمنون]، وقوله: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾... الآية [الأنبياء: ٣٩] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ﴾. بين في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن بلاغ لجميع الناس، وأوضح هذا المعنى في قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ لِتُدْرِكَ بِهِ وَمَنْ يَلْعَ ۖ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأنعام] وبين أن من بلغه ولم يؤمن به فهو في النار كائنًا من كان في قوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾... الآية [هود: ١٧].

قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلْيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ﴾، بين في هذه الآية الكريمة أن من حكم إنزال القرآن العظيم العلم بأنه تعالى إله واحد، وأن من حكمه أن يتعظ أصحاب العقول، وبين هذا في مواضع آخر، فذكر الحكمة الأولى في سورة هود في قوله: ﴿كَتَبْنَا أُحْمَكَتْ ءَايَاتُنَا ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۖ ﴿١﴾﴾ [الأنعام]... الآية [هود: ١ - ٢]. كما تقدم إيضاحه، وذكر الحكمة الثانية في قوله: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَذْكُرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرُوا أُولُوا الْأَلْبَابِ ۖ ﴿٢٢﴾﴾ [ص] وهم أصحاب العقول السليمة من شوائب الاختلال. وواحد الأبواب: لب بالضم، والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحجر

قوله تعالى: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۖ ﴿٢﴾﴾.

ذكر في هذه الآية الكريمة أن الكفار إذا عرفوا حقيقة الأمر تمنوا أنهم كانوا في دار الدنيا مسلمين، وندموا على كفرهم، وبين هذا المعنى في مواضع آخر كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَكَوْنُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام] وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْشَرُنَا عَلٰٓى مَا قَرَّطْنَا فِيهَا﴾... الآية [الأنعام: ٢٣١]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعْصِي الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۖ ﴿٢٧﴾﴾

[الفرقان] إلى غير ذلك من الآيات، وأقوال العلماء في هذه الآية راجعة إلى شيء واحد؛ لأن من يقول: إن الكافر إذا احتضر وعاین الحقيقة تمنى أنه كان مسلماً، ومن يقول: إنه إذا عاین النار ووقف عليها تمنى أنه كان مسلماً، ومن يقول: إنهم إذا عاینوا إخراج الموحدين من النار تمنوا أنهم كانوا مسلمين، كل ذلك راجع إلى أن الكفار إذا عاینوا الحقيقة ندموا على الكفر وتمنوا أنهم كانوا مسلمين.

وقرأ نافع وعاصم ﴿زُبَيْمًا﴾ بتخفيف الباء، وقرأ الباقون بتشديدها، والتخفيف لغة أهل الحجاز، والتثقيل لغة تميم وقيس وربيعة، ومن الأول قول عدي بن الرعاء الغساني: ربما ضربة بسيف صقيل بين بضري وطعنة نجلاء والثاني كثير جداً ومنه قول الآخر:

ألا ربما أهدت لك العين نظرة قصارك منها أنها عنك لا تجدي

ورب في هذا الموضع قال بعض العلماء: للتكثير أي يود الكفار في أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين؛ ونقل القرطبي هذا القول عن الكوفيين قال: ومنه قول الشاعر:

ألا ربما أهدت لك العين... البيت

وقال بعض العلماء: هي هنا للتقليل لأنهم قالوا ذلك في بعض المواضع لا في كلها لشغلهم بالعذاب فإن قيل: «ربما» لا تدخل إلا على الماضي فما وجه دخولها على المضارع في هذا الموضع؟ فالجواب أن الله تعالى لما وعد بوقوع ذلك صار ذلك الوعد للجزم بتحقيق وقوعه كالواقع بالفعل، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَهُ... الآية [النحل: ١] ونحوها من الآيات، فعبر بالماضي تنزيلاً لتحقيق الوقوع منزلة الوقوع بالفعل. قوله تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبُوا وَيَلْبَسُوا الْأَمَلُ سَوْفَ يَعْمُونَ ﴿٣﴾﴾.

هدد الله تعالى الكفار في هذه الآية الكريمة بأمره نبيه ﷺ أن يتركهم يأكلون ويتمتعون فسوف يعلمون حقيقة ما يؤول إليه الأمر من شدة تعذيبهم وإهانتهم وهددهم هذا النوع من التهديد في مواضع أخر كقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠] وقوله: ﴿كُلُوا وَشَبَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [المرسلات] وقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨] وقوله: ﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الزخرف] وقوله: ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الطور] إلى غير ذلك من الآيات، وقد تقرر في فن المعاني وفي مبحث الأمر عند الأصوليين أن من المعاني التي تأتي لها صيغة أفعال التهديد كما في الآية المذكورة. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ذَرَهُمْ﴾ يعني اتركهم وهذا الفعل لم يستعمل منه إلا الأمر والمضارع، فماضيه ترك ومصدره الترك واسم الفاعل منه تارك، واسم المفعول منه متروك. وقال بعض العلماء: هذه الآية منسوخة بآيات السيف والعلم عند الله. قال القرطبي: «والأمل الحرص على الدنيا والانكباب عليها والحب لها والإعراض عن

الآخرة». وعن الحسن رضي الله عنه أنه قال: «ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل» وقد قدمنا علاج طول الأمل في سورة البقرة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُنَا الَّذِي نُرِىٰ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾. قد يقال في هذه الآية الكريمة كيف يقرون بأنه أنزل إليه الذكر وينسبونه للجنون مع ذلك، والجواب أن قولهم: ﴿يَتَّبِعُنَا الَّذِي نُرِىٰ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ يعنون في زعمه تهكماً منهم به، ويوضح هذا المعنى ورود مثله من الكفار متهمين بالرسول عليهم صلوات الله وسلامه في مواضع أخر كقوله تعالى عن فرعون مع موسى قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]، وقوله عن قوم شعيب: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيلُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٧﴾. (لو ما) في هذه الآية الكريمة للتحضيض وهو طلب الفعل طلباً حثيثاً، ومعنى الآية أن الكفار طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم طلب تحضيض أن يأتيهم بالملائكة ليكون إتيان الملائكة معه دليلاً على صدقه أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وبين طلب الكفار هذا في آيات أخر كقوله مع فرعون عن موسى: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جِلَّةٌ مَّعَهُ الْمَلَكَةُ مُقَرَّبِينَ ۝٢٥﴾ [الزخرف]، وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ۝٣١﴾ [الفرقان]، وقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرٌ﴾ [الفرقان: ٧]، وقوله: ﴿أَوْ تَأْتِي بَالِغًا إِلَيْنَا الْمَلَكَةُ قِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢] إلى غير ذلك من الآيات.

واعلم أن «لو» تتركب مع «لا وما» لمعنيين: الأول منهما التحضيض، ومثاله في «لو ما» في هذه الآية الكريمة ومثاله في «لولا» قول جرير:

تعدون عقر النيب أفضل مجدكم
بني ضوطري لولا الكمي المقنعا
يعني فهلا تعدون الكمي المقنع، المعنى الثاني: هو امتناع شيء لوجود غيره وهو في لولا كثير جداً، كقول عامر بن الأكواع رضي الله عنه:

تالله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

ومثاله في «لو ما» قول ابن مقبل:

لو ما الحياء ولو ما الدين عبتكما
ببعض ما فيكما إذ عبتما عوري

وأما «هل» فلم تتركب إلا مع «لا» وحدها للتحضيض.

تنبيه: قد ترد أدوات التحضيض للتوبيخ والتنديم فتختص بالماضي أو ما في تأويله نحو: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قُرَيْشٌ أَمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيْمَتُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس: ٩٨]، وقوله: ﴿لَوْلَا جَاءَهُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ﴾ [النور: ١٣]، وقوله: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ [الأحقاف: ٢٨]، وجعل بعضهم منه قول جرير:

تَعْبُدُونَ عِقْرَ النِّيبِ

البيت المتقدم آنفاً. قائلاً: إن مراده توبيخهم على ترك عد الكمي المقنع في الماضي.

قوله تعالى: ﴿مَا نُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ (٨). بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه ما ينزل الملائكة إلا بالحق أي بالوحي وقيل بالعذاب، وقال الزمخشري: «إلا تنزيلاً متلبساً بالحكمة والمصلحة، ولا حكمة في أن تأتيكم الملائكة عياناً تشاهدوهم ويشهدون لكم بصدق النبي ﷺ لأنكم حيثئذ مصدقون عن اضطرار» قال: «ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾. وبين تعالى في هذه الآية الكريمة أنهم لو نزلت عليهم الملائكة ما كانوا منظرين وذلك في قوله: ﴿وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ لأن التنوين في قوله: «إذا» عوض عن جملة، ففيه شرط وجزاء، وتقدير المعنى: ولو نزلت عليهم الملائكة ما كانوا منظرين؛ أي مهملين بتأخير العذاب عنهم. وقد بين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى لَوْمٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠] إلى غير ذلك من الآيات. وقوله: ﴿مَا نُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ﴾ قرأه حفص وحمزة والكسائي نزل بنونين الأولى مضمومة والثانية مفتوحة مع كسر الزاي المشددة والملائكة بالنصب مفعول به لتنزل، وقرأ شعبة تنزل بقاء مضمومة ونون مفتوحة مع تشديد الزاي مفتوحة بالبناء للمفعول والملائكة بالرفع نائب فاعل تنزل، وقرأ الباقر تنزل بفتح التاء والنون والزاي المشددة أصله تنزل فحذفت إحدى التائين، والملائكة بالرفع فاعل تنزل كقوله: ﴿نُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ [القدر: ٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٩). بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي نزل القرآن العظيم، وأنه حافظ له من أن يزداد فيه أو ينقص أو يتغير منه شيء أو يبدل، وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت]، وقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٠) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١١) إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا مِثْلُ الْبَاطِلِ﴾ (١٢) وهذا هو الصحيح في معنى هذه الآية أن الضمير راجع إلى النبي ﷺ كقوله: ﴿لَحَافِظُونَ﴾ راجع إلى الذكر الذي هو القرآن وقيل الضمير راجع إلى النبي ﷺ كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] والأول هو الحق كما يتبادر من ظاهر السياق.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه جعل في السماء بروجاً. وذكر هذا أيضاً في مواضع أخر كقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١]، وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج]. والبروج: جمع برج.

واختلف العلماء في المراد بالبروج في الآيات المذكورة، فقال بعضهم: البروج الكواكب، وممن روي عنه هذا القول مجاهد وقتادة، وعن أبي صالح أنها الكواكب

العظام وقيل: هي قصور في السماء عليها الحرس وممن قال به عطية، وقيل: هي منازل الشمس والقمر، قاله ابن عباس. وأسماء هذه البروج: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت.

قال مقيده - عفا الله عنه -: أطلق تعالى في سورة النساء البروج على القصور الحصينة في قوله: ﴿إِنَّمَا تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]. ومرجع الأقوال كلها إلى شيء واحد؛ لأن أصل البروج في اللغة الظهور، ومنه تبرج المرأة بإظهار زينتها، فالكواكب ظاهرة والقصور ظاهرة، ومنازل القمر والشمس كالقصور بجامع أن الكل محل ينزل فيه، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاهَا لِلنَّاطِرِينَ﴾. صرح تعالى في هذه الآية الكريمة أنه زين السماء للناظرين. وبين في مواضع أخر أنه زينها بالنجوم، وأنها السماء الدنيا كقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ...﴾ الآية [الملك: ٥]، وقوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُوكِبِ﴾ [الصافات: ٦].

قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [٧] إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ [٨]. وصرح تعالى في هذه الآية الكريمة أنه حفظ السماء من كل شيطان رجيم، وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: ٧] وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥] وقوله: ﴿فَمَنْ يَسْتَعِجِ الْآنَ يَجِدْ لَمْ يَشَأْ رَصَدًا﴾ [الجن: ٩] وقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٣٨] وقوله: ﴿أَمْ هُمْ سَامِعُونَ فِيهِ فَلَيَأْتِ مُسْتَعِظُهُمْ بِشَاطِرٍ مُبِينٍ﴾ [٣٨] [الطور: ٣٨] إلى غير ذلك من الآيات. والاستثناء في هذه الآية الكريمة في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ﴾ [٨] قال بعض العلماء: هو استثناء منقطع، وجزم به الفخر الرازي أي لكن من استرق السمع، أي الخطفة اليسيرة فإنه يتبعه شهاب فيحرقه كقوله تعالى: ﴿وَقَدْفُورٌ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ [٨] دُحُورًا وَهُمْ عَذَابٌ وَأَصْبُ [٩] إِلَّا مَنْ خَطَفَ الْخُطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ [١٠] [الصافات: ١٠] وقيل: الاستثناء متصل، أي حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئاً من الوحي وغيره، إلا من استرق السمع فإننا لم نحفظها من أن تسمع الخبر من أخبار السماء سوى الوحي، فأما الوحي فلا تسمع منه شيئاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ [٣٨]... [الشعراء: ٣٨]، قاله القرطبي. ونظيره: ﴿إِلَّا مَنْ خَطَفَ﴾ [الصافات: ١٠] فإنه استثناء من الواو في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلَمًا﴾ [الصافات: ٨].

تنبيه: يؤخذ من هذه الآيات التي ذكرنا أن كل ما يتمشدد به أصحاب الأقدار الصناعية من أنهم سيصلون إلى السماء وبينون على القمر، كله كذب وشقشقة لا طائل تحتها، ومن اليقين الذي لا شك فيه أنهم سيقفون عند حدهم ويرجعون خاسئين أذلاء عاجزين ﴿ثُمَّ أُجِيعَ أَبْصَرُ كَرِيمٍ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ أَبْصَرٌ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ١٠] ووجه دلالة

الآيات المذكورة على ذلك أن اللسان العربي الذي نزل به القرآن يطلق اسم الشيطان على كل عات متمرد من الجن والإنس والدواب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَأَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤] وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينََ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] ومنه قوله ﷺ: «الكلب الأسود شيطان» وقول جرير:

أيام يدعونني الشيطان من غزلي وكن يهوينني إذ كنت شيطانا

ولا شك أن أصحاب الأقمار الصناعية يدخلون في اسم الشياطين دخولاً أولياً لعتوهم وتمردهم، وإذا علمت ذلك فاعلم أنه تعالى صرح بحفظ السماء من كل شيطان كائناً من كان في عدة آيات من كتابه، كقوله هنا: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [فصلت: ١٢] إلى غير ذلك من الآيات.

وصرح بأن من أراد استراق السمع أتبعه شهاب راصد له في مواضع آخر كقوله: ﴿فَمَنْ يَسْمِعْ أَنَّىٰ يَحِدِّ لَمْ شَهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٩] وقوله: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَفَ السَّمْعَ فَاتَّبَعُ شَهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [١٨] وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَاتَّبَعُهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠] وقال: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَرُولُونَ﴾ [الشعراء: ٣٣] وقال: ﴿أَمْ هُمْ سَاهٍ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَاتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسَاطِنٍ مُّبِينٍ﴾ [الطور: ١٨] وهو تعجيز دال على عجز البشر عن ذلك عجزاً مطلقاً، وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ ثُلُكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ [١٧] جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ [١٦] [ص]. فقوله في هذه الآية الكريمة: فليرتقوا في الأسباب، أي فليصعدوا في أسباب السموات التي توصل إليها، وصيغة الأمر في قوله: فليرتقوا، للتعجيز، وإيرادها للتعجيز دليل على عجز البشر عن ذلك عجزاً مطلقاً. وقوله - جل وعلا - بعد ذلك التعجيز ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ [١٦] يفهم منه أنه لو تنطع جند من الأحزاب الارتقاء في أسباب السماء أنه يرجع مهزوماً صاغراً داخراً ذليلاً، ومما يدل على أن الآية الكريمة يشار فيها إلى شيء ما كان يظنه الناس وقت نزولها إبهامه - جل وعلا - لذلك الجند بلفظة ما في قوله: ﴿جُنْدٌ مَا﴾ وإشارته إلى مكان ذلك الجند أو مكان انهزامه إشارة البعيد في قوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ ولم يتقدم في الآية ما يظهر رجوع الإشارة إليه إلا الارتقاء في أسباب السموات.

فالآية الكريمة يفهم منها ما ذكرنا، ومعلوم أنها لم يفسرها بذلك أحد من العلماء، بل عبارات المفسرين تدور على أن الجند المذكور الكفار الذين كذبوه ﷺ، وأنه ﷺ سوف يهزمهم، وأن ذلك تحقق يوم بدر أو يوم فتح مكة، ولكن كتاب الله لا تزال تظهر غرائبه وعجائبه متجددة على مر الليالي والأيام، ففي كل حين تفهم منه أشياء لم تكن مفهومة من قبل، ويدل على ذلك حديث أبي جحيفة الثابت في الصحيح أنه لما سأل علياً ﷺ هل خصهم رسول الله ﷺ بشيء؟ قال له علي ﷺ: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهماً

يعطيه الله رجلاً في كتاب الله وما في هذه الصحيفة الحديث. فقلوه ﷺ: إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في كتاب الله يدل على أن فهم كتاب الله تتجدد به العلوم والمعارف التي لم تكن عند عامة الناس، ولا مانع من حمل الآية على ما حملها عليه المفسرون.

وما ذكرنا أيضاً أنه يفهم منها لما تقرّر عند العلماء من أن الآية إن كانت تحتل معاني كلها صحيحة تعين حملها على الجميع كما حققه بأدلته الشيخ تقي الدين أبو العباس بن تيمية رحمه الله في رسالته في علوم القرآن.

وصرح تعالى بأن القمر في السبع الطباق في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّى حَقَّقَ اللَّهُ سُبُحَ سَنَوَاتٍ طَبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٥، ١٦] فعلم من الآيات أن القمر في السبع الطباق، وأن الله حفظها من كل شيطان رجيم، فلم يبق شك ولا لبس في أن الشياطين أصحاب الأقمار الصناعية سيرجعون داخرين صاغرین عاجزين عن الوصول إلى القمر والوصول إلى السماء، ولم يبق لبس في أن السماء التي فيها القمر ليس يراد بها مطلق ما علاك، وإن كان لفظ السماء قد يطلق لغة على كل ما علاك، كسقف البيت، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾... الآية [الحج: ١٥]. وقد قال الشاعر:

وقد يسمى سماء كل مرتفع وإنما الفضل حيث الشمس والقمر

تصريحه تعالى بأن القمر في السبع الطباق؛ لأن الضمير في قوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ﴾ [نوح: ١٦] راجع إلى السبع الطباق وإطلاق المجموع مراداً بعضه كثير في القرآن وفي كلام العرب.

ومن أصرح أدلته: قراءة حمزة والكسائي ﴿فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَنْتُمْ أَهْلُهَا﴾ [البقرة: ١٩١] من القتل في الفعلين؛ لأن من قتل بالبناء للمفعول لا يمكن أن يؤمر بعد موته بأن يقتل قاتله، ولكن المراد: فإن قتلوا بعضكم فليقتلهم بعضكم الآخر، كما هو ظاهر، وقال أبو حيان في (البحر المحیط) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦]. وصح كون السموات ظرفاً للقمر؛ لأنه لا يلزم من الظرف أن يملأه المظروف. تقول: زيد في المدينة، وهو في جزء منها.

واعلم أن لفظ الآية صريح في أن نفس القمر في السبع الطباق؛ لأن لفظة «جعل» في الآية هي التي بمعنى صير، وهي تنصب المبتدأ والخبر، والمعبر عنه بالمبتدأ هو المعبر عنه بالخبر بعينه لا شيء آخر، فقولك: جعلت الطين خزفاً، والحديد خاتماً، لا يخفى فيه أن الطين هو الخزف بعينه، والحديد هو الخاتم، وكذلك قوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦]، فالنور المجعول فيهن هو القمر بعينه، فلا يفهم من الآية بحسب الوضع اللغوي احتمال خروج نفس القمر عن السبع الطباق، وكون المجعول فيها مطلق نوره؛ لأنه لو أريد ذلك لقليل: وجعل نور القمر فيهن، أما قوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ فهو صريح في أن النور المجعول فيهن هو عين القمر؛ ولا يجوز صرف القرآن

عن معناه المتبادر بلا دليل يجب الرجوع إليه، ويوضح ذلك أنه تعالى صرح في سورة الفرقان بأن القمر في خصوص السماء ذات البروج بقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا يَرَبًّا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان] وصرح في سورة الحجر بأن ذات البروج المنصوص على أن القمر فيها هي بعينها المحفوظة من كل شيطان رجيم بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَازِبَةً لِلشَّاطِرِينَ﴾ [١٦] وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾.

وما يزعمه بعض الناس من أنه - جل وعلا - أشار إلى الاتصال بين أهل السماء والأرض في قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى] يقال فيه: إن المراد جمعهم يوم القيامة في المحشر، كما أطبق عليه المفسرون، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِمٍ يَبْطِرُ بِبَنَاتِهِ إِلَّا أُنْثِيَ أَثْلُكُمْ مَا قَرَّبْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام].

ويوضح ذلك تسمية يوم القيامة يوم الجمع في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّلَافُي﴾ [التغابن: ٩]. وكثرة الآيات الدالة على أن جمع جميع الخلائق كائن يوم القيامة، كقوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِقْدَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الواقعة]، وقوله: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشْقَى الْأُمَمُ بِالْفَتَنِ وَرَبُّ الْمَلَكُوتِ تَنْزِيلًا﴾ [١٥] [الفرقان]، وقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر]، وقوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

مع أن بعض العلماء قال: المراد ما بث من الدواب في الأرض فقط، فيكون من إطلاق المجموع مراداً بعضه، وهو كثير في القرآن وفي (لسان العرب)، وبعضهم قال: المراد بدواب السماء الملائكة زاعماً أن الديب يطلق على كل حركة.

قال مقيد - عفا الله عنه -: ظاهر الآية الكريمة أن الله بث في السماء دواب كما بث في الأرض دواب ولا شك أن الله قادر على جمع أهل السموات وأهل الأرض وعلى كل شيء، ولكن الآيات القرآنية التي ذكرنا بينت أن المراد بجمعهم: حشرهم جميعاً يوم القيامة وقد أطبق على ذلك المفسرون. ولو سلمنا تسليماً جديلاً أنها تدل على جمعهم في الدنيا فلا يلزم من ذلك بلوغ أهل الأرض إلى أهل السماء، بل يجوز عقلاً أن ينحدر من في السماء إلى من في الأرض، لأن الهبوط أهون من الصعود وما يزعمه من لا علم عنده بكتاب الله تعالى من أن قوله - جل وعلا -: ﴿يَتَقَشَّرُ اللَّحْنُ وَالْإِنْسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن] يشير إلى الوصول إلى السماء بدعوى أن المراد بالسلطان في الآية: هو هذا العلم الحادث الذي من نتائجه الصواريخ والأقمار الصناعية وإذا فإن الآية قد تكون فيها الدلالة على أنهم ينفذون بذلك العلم من أقطار السموات والأرض مردود من أوجه.

الأول: أن معنى الآية الكريمة هو إعلام الله - جل وعلا - خلقه أنهم لا محيص لهم ولا مفر عن قضائه ونفوذ مشيئته فيهم، وذلك عندما تحف بهم صفوف الملائكة يوم القيامة فكلما فروا إلى جهة وجدوا صفوف الملائكة أمامهم، ويقال لهم في ذلك الوقت: ﴿يَمَعْشَرُ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾... الآية [النساء: ١٣٠] والسلطان: قيل الحجة والبينة، وقيل: الملك والسلطنة، وكل ذلك معدوم عندهم يوم القيامة فلا نفوذ لهم كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر] وقال: ﴿أَخَافُ عَلَيْكَ يَوْمَ النَّادِ﴾ [الرحمن: ٣٣]؛ لأنهم كانوا ينفذون إلى السماء قبل حدوث السلطان المزعوم.

والوجه الثاني: أن الجن أعطاهم الله القدرة على الطيران والنفوذ في أقطار السموات والأرض وكانوا يسترقون السمع من السماء كما صرح به تعالى في قوله عنهم: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدُ الشَّمْسِ لِلْإِسْمَاعِ﴾ [الجن: ٩] وإنما منعوا من ذلك حين بعث ﷺ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَحِدْ لَوْ شَهِبًا رَصَدًا﴾ [الجن: ٩]، فالجن كانوا قادرين على بلوغ السماء من غير حاجة إلى صاروخ ولا قمر صناعي، فلو كان معنى الآية هو ما يزعمه أولئك الذين لا علم لهم بكتاب الله لم يقل - جل وعلا -: ﴿يَمَعْشَرُ الْجِنِّ﴾ [الرحمن: ٣٣]؛ لأنهم كانوا ينفذون إلى السماء قبل حدوث السلطان المزعوم.

الوجه الثالث: أن العلم المذكور الذي لا يجاوز صناعة يدوية أهون على الله - جل وعلا - من أن يطلق عليه اسم السلطان؛ لأنه لا يجاوز أغراض هذه الحياة الدنيا ولا نظر فيه البتة لما بعد الموت؛ ولأن الدنيا كلها لا تزن عند الله جناح بعوضة. وقد نص تعالى على كمال حقارتها عنده في قوله - جل وعلا -: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوقِعَهُمْ سُقُوطًا مِّنْ فَضَّةٍ﴾ إلى قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥] وعلم هؤلاء الكفار نفى الله عنه اسم العلم الحقيقي وأثبت له أنه علم ظاهر من الحياة الدنيا، وذلك في قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلُقُ اللَّهُ وَعَدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ١٠] يظهر من الحيوة الدنيا وهم عن الآخرة هم غفلون ﴿٧﴾ [الروم] فحذق الكفار في الصناعات اليدوية كحذق بعض الحيوانات في صناعاتها بإلهام الله لها ذلك، فالنحل تبني بيت عسلها على صورة شكل مسدس يحار فيه حذاق المهندسين ولما أرادوا أن يتعلموا منها كيفية ذلك البناء وجعلوها في أجباح زجاج لينظروا إلى كيفية بنائها أبت أن تعلمهم فطلت الزجاج بالعسل قبل البناء كيلا يروا كيفية بنائها كما أخبرتنا الثقة بذلك.

الوجه الرابع: أنا لو سلمنا تسليماً جديلاً أن ذلك المعنى المزعوم كذباً هو معنى الآية، فإن الله أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾... الآية [الرحمن: ٣٥]، فهو يدل على ذلك التقدير على أنهم لو أرادوا النفوذ من أقطارها حرقهم ذلك الشواظ والنحاس، والشواظ: اللهب الخالص، والنحاس: الدخان، ومنه قول النابغة:

يضئ كضوء سراج السليط لم يجعل الله فيه نحاساً

وكذلك ما يزعمه بعض من لا علم له بمعنى كتاب الله من أن الله أشار إلى اتصال أهل السماوات وأهل الأرض بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾... الآية [الأنبياء: ٤] بصيغة الأمر في لفظة «قل» على قراءة الجمهور وبصيغة الماضي ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ﴾... الآية، في قراءة حمزة والكسائي وحفص عن عاصم؛ فإن الآية الكريمة لا تدل على ذلك لا بدلالة المطابقة ولا التضمن ولا الالتزام؛ لأن غاية ما تفيد الآية الكريمة أن الله - جل وعلا - أمر نبيه أن يقول: إن ربه يعلم كل ما يقوله أهل السماء وأهل الأرض على قراءة الجمهور وعلى قراءة الأخوين وحفص، فمعنى الآية أنه ﷺ أخبر قائلًا: إن ربه - جل وعلا - يعلم كل ما يقال في السماء والأرض، وهذا واضح لا إشكال فيه ولا شك أنه - جل وعلا - عالم بكل أسرار أهل السماء والأرض وعلاياتهم لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين.

وكذلك ما يزعمه من لا علم عنده بمعنى كتاب الله - جل وعلا - من أنه تعالى أشار إلى أن أهل الأرض سيصعدون إلى السموات واحدة بعد أخرى بقوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٨]، زاعماً أن معنى الآية الكريمة: لتركبن أيها الناس طبقاً؛ أي سماء، عن طبق؛ أي بعد سماء حتى تصعدوا فوق السماوات، فهو أيضاً جهل بكتاب الله، وحمل له على غير ما يراد به.

اعلم أولاً أن في هذا الحرف قراءتين سبعيتين مشهورتين:

إحدهما لتركبن بفتح الباء وبها قرأ من السبعة: ابن كثير وحمزة والكسائي، وعلى هذه القراءة فاعل لتركبن ثلاثة أوجه معروفة عند العلماء:

الأول: وهو أشهرها أن الفاعل ضمير الخطاب الواقع على النبي ﷺ أي لتركبن أنت يا نبي الله طبقاً عن طبق أي بعد طبق أي حالاً بعد حال أي فترقي في الدرجات درجة بعد درجة، والطبق في لغة العرب: الحال، ومنه قول الأقرع بن حابس التميمي:

إني امرؤ قد حلبت الدهر أشطره وساقني طبق منها إلى طبق

وقول الآخر:

كذلك المرء إن ينسأ له أجل يركب على طبق من بعده طبق

أي حال بعد حال في البيتين. وقال ابن مسعود والشعبي ومجاهد وابن عباس في إحدى الروايتين والكلبي وغيرهم ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٨] أي لتصعدن يا محمد سماء بعد سماء، وقد وقع ذلك ليلة الإسراء. والثاني: أن الفاعل ضمير السماء؛ أي لتركبن، هي؛ أي السماء طبقاً بعد طبق أي لتنتقلن السماء من حال إلى حال أي تصير تارة كالدهان وتارة كالمهل وتارة تتشقق بالغمام، وتارة تطوى كطي السجل للكتب، والثالث: أن الفاعل ضمير يعود إلى الإنسان المذكور في قوله: ﴿يَتَأْتِيَ الْإِنْسَانَ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا﴾ [الانشقاق: ٦]؛ أي لتركبن أيها الإنسان حالاً بعد حال من

صغر إلى كبر ومن صحة إلى سقم كالعكس، ومن غنى إلى فقر كالعكس، ومن موت إلى حياة كالعكس ومن هول من أهوال القيامة إلى آخر وهكذا.

والقراءة الثانية: وبها قرأ من السبعة نافع وابن عامر وأبو عمرو وعاصم لتركين بضم الباء وهو خطاب عام للناس المذكورين في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْبُؤَ بَيْبِئِهِ﴾ (٧) إلى قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْبُؤَ وَرَّاهَ ظَهْرَهُ﴾ (١٠) ... الآية [الانشقاق]، ومعنى الآية لتركين أيها الناس حالاً بعد حال فتنقلون في دار الدنيا من طور إلى طور وفي الآخرة من هول إلى هول.

فإن قيل: يجوز بحسب وضع اللغة العربية التي نزل بها القرآن على قراءة ضم الباء أن يكون المعنى لتركين أيها الناس طبقاً بعد طبق؛ أي سماء بعد سماء حتى تصعدوا فوق السماء السابعة كما تقدم نظيره في قراءة فتح الباء خطاباً للنبي ﷺ. وإذا كان هذا جائزاً في لغة القرآن فما المانع من حمل الآية عليه؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أن ظاهر القرآن يدل على أن المراد بالطبق الحال المتنقل إليها من موت ونحوه وهول القيامة بدليل قوله بعده مرتباً له عليه بالفاء: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢) وإذا قرئ عليهم القرآن لا يستجدون ﴿١٣﴾ [الانشقاق] فهو قرينة ظاهرة على أن المراد إذا كانوا ينتقلون من حال إلى حال ومن هول إلى هول فما المانع لهم من أن يؤمنوا ويستعدوا لتلك الشدائد؟ ويؤيده أن العرب تسمي الدواهي بنات طبق كما هو معروف في لغتهم.

والوجه الثاني: أن الصحابة رضي الله عنهم هم المخاطبون الأولون بهذا الخطاب وهم أولى الناس بالدخول فيه بحسب الوضع العربي، ولم يركب أحد منهم سماء بعد سماء بإجماع المسلمين فدل ذلك على أن ذلك ليس معنى الآية، ولو كان هو معناها لما خرج منه المخاطبون الأولون بلا قرينة على ذلك.

الوجه الثالث: هو ما قدمنا من الآيات القرآنية المصرحة بحفظ السماء وحراستها من كل شيطان رجيم كائناً من كان، فبهذا يتضح أن الآية الكريمة ليس فيها دليل على صعود أصحاب الأقمار الصناعية فوق السبع الطباق، والواقع المستقبل سيكشف حقيقة تلك الأكاذيب والمزاعم الباطلة.

وكذلك ما يزعمه بعض من ليس له علم بمعنى كتاب الله - جل وعلا - من أن الله تعالى أشار إلى بلوغ أهل الأرض إلى السماوات بقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا نِّتَةً﴾ ... الآية [الجاثية: ١٣] فقالوا: تسخيره - جل وعلا - ما في السماوات لأهل الأرض دليل على أنهم سيبلغون السماوات، والآية الكريمة لا تدل على ذلك الذي زعموا أنها تدل عليه؛ لأن القرآن بين في آيات كثيرة كيفية تسخير ما في السماء لأهل الأرض. فبين أن تسخير الشمس والقمر لمنافعهم وانتشار الضوء عليهم ولكي يعلموا عدد السنين والحساب كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ

الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿١٣﴾ [إبراهيم]. ومنافع الشمس والقمر اللذين سخرهما الله لأهل الأرض لا يحصيها إلا الله كما هو معروف. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِِّنِ وَالْحِسَابِ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوِّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِِّنِ وَالْحِسَابِ﴾ [الإسراء: ١٢] إلى غير ذلك من الآيات. وكذلك سخر لأهل الأرض النجوم ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر كما قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِي﴾ [الأعراف: ٥٤] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]، وقال: ﴿وَعَلَّمَكُمُ الْوَيْلَ وَالْجَمِيمَ هُم يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١١] إلى غير ذلك من الآيات. فهذا هو تسخير ما في السماء لأهل الأرض وخير ما يفسر به القرآن القرآن. ومما يوضح ما ذكرنا أن المخاطبين الأولين بقوله: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠] وهم الصحابة رضي الله عنهم لم يسخر لهم شيء مما في السموات إلا هذا التسخير الذي ذكرنا الذي بيّنه القرآن العظيم في آيات كثيرة، فلو كان يريد به التسخير المزعوم عن طريق الصواريخ والأقمار الصناعية لدخل فيه المخاطبون الأولون كما هو ظاهر.

وكذلك قوله: ﴿وَكَايَن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٥]؛ فإن معنى مرورهم على ما في السموات من الآيات نظرهم إليها كما بيّنه تعالى في آيات كثيرة كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَكَاوُتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥] وقوله: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] وقوله: ﴿سَرُّهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. إلى غير ذلك من الآيات.

واعلم - وفقني الله وإياك - أن التلاعب بكتاب الله - جل وعلا - وتفسيره بغير معناه لمحاولة توفيقه مع آراء كفر الإفرنج ليس فيه شيء البتة من مصلحة الدنيا ولا الآخرة وإنما فيه فساد الدارين، ونحن إذ نمنع التلاعب بكتاب الله وتفسيره بغير معناه نحض جميع المسلمين على بذل الوسع في تعليم ما ينفعهم من هذه العلوم الدنيوية مع تمسكهم بدينهم كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] كما سترى بسطه - إن شاء الله - في سورة بني إسرائيل.

فإن قيل: هذه الآيات التي استدللتم بها على حفظ السماء من الشياطين واردة في حفظها من استراق السمع وذلك إنما يكون من شياطين الجن فدل ذلك على اختصاص الآيات المذكورة بشياطين الجن؟

فالجواب: إن الآيات المذكورة تشمل بدلالاتها اللغوية شياطين الإنس من الكفار، قال في (لسان العرب): والشيطان معروف، وكل عات متمرّد من الإنس والجن والدواب: شيطان، وقال في (القاموس): والشيطان معروف، وكل عات متمرّد من إنس أو جن أو دابة، اهـ.

ولا شك أن من أشد الكفار تمرداً وعتواً الذين يحاولون بلوغ السماء فدخلوهم في اسم الشيطان لغة لا شك فيه، وإذا كان لفظ الشيطان يعم كل متمرّد عات، فقله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (٧) صريح في حفظ السماء من كل متمرّد عات كائناً من كان. وحمل نصوص الوحي على مدلولاتها اللغوية واجب إلا للدليل يدل على تخصيصها أو صرفها عن ظاهرها المتبادر منها كما هو مقرر في الأصول، وحفظ السماء من الشياطين معناه: حراستها منهم. قال الجوهري في (صحاحه): حفظت الشيء حفظاً: أي حرسه، اهـ. وقال صاحب (لسان العرب): وحفظت الشيء حفظاً: أي حرسه، اهـ. وهذا معروف في كلام العرب، فيكون مدلول هذه الآية بدلالة المطابقة ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (٧) أي وحرسناها؛ أي السماء من كل عات متمرّد.

ولا مخالفة لمفهوم قوله تعالى: ﴿رَجِيمٍ﴾ وقوله: ﴿مَارِدٍ﴾ [الصفات: ٧]؛ لأن مثل ذلك من الصفات الكاشفة، فكل شيطان يوصف بأنه رجيم وبأنه مارد وإن كان بعضهم أقوى تمرداً من بعض، وما حرسه الله - جل وعلا - من كل عات متمرّد لا شك أنه لا يصل إليه عات متمرّد كائناً من كان ﴿ثُمَّ أُنْجِ الْأَبْصَرَ كَذِبَيْنِ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْأَبْصَرَ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (١) [الملك: ٤] والعلم عند الله تعالى، اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾.

اللواقح جمع لاقح، وأصل اللاقح: التي قبلت اللقاح فحملت الجنين، ومنه قول ذي الرمة:

إذا قلت عاج أو تفتيت أبرقت بمثل الخوافي لاقحاً أو تلقح
وأصل تلقح: تتلقح، حذف إحدى التائين، أي توهم أنها لاقح وليس كذلك، ووصف الرياح بكونها لواقح؛ لأنها حوامل تحمل المطر كما قال تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا مِقْطَالًا﴾ [الأعراف: ٥٧] أي حملت سحاباً ثقلاً، فاللواقح من الإبل حوامل الأجنة، واللواقح من الريح حوامل المطر، فالجميع يأتي بخير؛ ولذا كانت الناقة التي لا تلد يقال لها عقيم، كما أن الريح التي لا خير فيها يقال لها عقيم، كما قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ (١) [الذاريات]. وقال بعض العلماء: اللواقح بمعنى الملاقح، أي التي تلقح غيرها من السحاب والشجر، وعلى هذا ففيه وجهان: أحدهما: أن المراد النسبة، فقله: لواقح: أي ذوات لقاح، كما يقال سائف ورامح أي ذو سيف ورمح، ومن هذا قول الشاعر:

وغررتني وزعمت أنك لابن في الحي تامر

أي ذولبن وتمر. وعلى هذا فمعنى لواقح، أي ذوات لقاح؛ لأنها تلقح السحاب والشجر. وثانيهما: أن لواقح بمعنى ملاقح جمع ملقحة، وملقح اسم فاعل القحت السحاب والشجر كما يلحق الفحل الأنثى، وغاية ما في هذا القول إطلاق لواقح وإرادة ملاقح، ونظيره قول ضرار بن نهشل يرثي أخاه يزيد أو غيره:

لسبك يزيد ضارع لخصومة ومختبب مما تطيح الطوائح

فإن الرواية تطيح - بضم التاء - من أطاح الرباعي، والمناسب لذلك المطيحات لا الطوائح، ولكن الشاعر أطلق الطوائح وأراد المطيحات كما قيل هنا بإطلاق اللوائح وإرادة الملاقيح؛ أي الملقحات باسم الفاعل، ومعنى إلقاح الرياح السحاب والشجر أن الله يجعلها لهما كما يجعل الذكر للأنثى، فكما أن الأنثى تحمل بسبب ضراب الفحل فكذلك السحاب يمتلئ ماء بسبب مري الرياح له والشجر ينفث عن أكمامه وأوراقه بسبب إلقاح الريح له، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾ أي تلتفح السحاب فتدر ماء، وتلتفح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها، وقال السيوطي في الدر المنثور: وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾ قال: يرسل الله الريح فتحمل الماء فتلقح به السحاب فيدر كما تدر اللقحة ثم يمطر. وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس رضي الله عنه قال: يرسل الله الريح فتحمل الماء من السحاب فتجري به السحاب فيدر كما تدر اللقحة، وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾ قال: تلتفح الشجرة وتجري السحاب. وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي رجاء رضي الله عنه قال قلت للحسن رضي الله عنه: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾ قال: لوائح للشجر، قلت: أو السحاب، قال: وللسحاب تمر به حتى يمطر. وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾ قال: تلتفح الماء في السحاب. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾ قال: الريح يبعثها الله على السحاب فتلقحه فيمتلئ ماء. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب السحاب، وابن جرير، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه والديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ريح الجنوب من الجنة، وهي الريح اللوائح التي ذكر الله في كتابه وفيها منافع للناس، والشمال من النار تخرج فتمر بالجنة فيصيبها نفحة منها فبردها هذا من ذلك». وأخرج ابن أبي الدنيا عن قتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نصرت بالصبا وأهلك عاد بالبور والجنوب من الجنة وهي الريح اللوائح».

هذا حاصل معنى كلام العلماء في الرياح اللوائح وقد قدمنا قول من قال: إن اللوائح هي حوامل المطر وأن ذلك القول يدل عليه قوله تعالى: ﴿حَوَّجْ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [الأعراف: ٥٧]؛ أي حملتها. وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يكون للشيء أوصاف فيذكر بعضها في موضع، فإننا نبين بقية تلك الأوصاف المذكورة في مواضع آخر. ومثلنا لذلك بظل أهل الجنة فإنه تعالى وصفه في سورة النساء بأنه ظليل في قوله: ﴿وَنُدَّخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧]. وقد

وصفه بأوصاف آخر في مواضع آخر كقوله: ﴿أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] وقوله: ﴿وَلِئَلَّا تَمْدُدَّ﴾ [الواقعة] إلى غير ذلك من أوصافه.

وإذا علمت ذلك فاعلم أنه تعالى وصف الرياح في هذه الآية بكونها لواقح وقد بينا معنى ذلك آنفاً، ووصفها بأوصاف آخر، من ذلك وصفه لها بأنها تبشر بالسحاب في قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦] وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧] على قراءة من قرأها بالباء، ومن ذلك وصفه لها بإثارة السحاب كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ [الأعراف: ٥٧]، ﴿فَتَثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨]. وقال صاحب الدر المنثور: وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن عبيد بن عمير قال: «يبعث الله المثيرة فتقم الأرض قمًا، ثم يبعث المبشرة فتثير السحاب فيجعله كسفًا ثم يبعث المؤلفة فتؤلف بينه فيجعله ركاماً ثم يبعث اللواقح فتلقحه فيمطر». وأخرج ابن المنذر عن عبيد بن عمير قال: «الأرواح أربعة: ريح تقم، وريح تثير تجعله كسفًا، وريح تجعله ركاماً، وريح تمطر».

قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْفَقْتُمْ مِمَّا﴾.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة عظيم منته بإنزال الماء من السماء وجعله إياه عذاباً صالحاً للسقيا، وبين ذلك أيضاً في مواضع آخر كقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، ﴿وَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]، ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١١، ١٢]، وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [النحل: ١١]، ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ بَلَدَةً قَيْنًا وَنُفِيقَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْفَكُمَا وَأَنَايِي كَثِيرًا﴾ [الفرقان] إلى غير ذلك من الآيات.

والتحقيق أن أسقى وسقى لغتان معناهما واحد كأسرى وسرى، والدليل على ذلك القراءتان السبعيتان في قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٦٦] فإنه قرأه بعض السبعة بضم النون من أسقى الرباعي، وقرأه بعضهم بفتحها من سقى الثلاثي، ويدل على ذلك أيضاً قول لبيد:

سقى قومي بني مجد وأسقى نميراً والقبائل من هلال

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْشَأْنَاهُ لَمْ يَخْزَيْنِ﴾ فيه للعلماء وجهان من التفسير كلاهما يشهد له قرآن؛ الأول: أن معنى ﴿وَمَا أَنْشَأْنَاهُ لَمْ يَخْزَيْنِ﴾؛ أي ليست خزائنه عندكم بل نحن الخازنون له ننزله متى شئناه، وهذا الوجه تدل عليه آيات كقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [النحل: ١٧] وقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ [الأنعام: ١٠٩] والآية [المنافقون: ٧] ونحو ذلك من الآيات، والوجه الثاني: أن معنى ﴿وَمَا أَنْشَأْنَاهُ لَمْ يَخْزَيْنِ﴾ بعد أن أنزلناه عليكم؛ أي لا تقدر على حفظه في الآبار والعيون والغدران

بل نحن الحافظون له فيها ليكون ذخيرة لكم عند الحاجة، ويدل على هذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [٢٣] [المؤمنون] وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [٢٤] [الملك] وقوله: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُمْ طَلَبًا﴾ [٢٥] [الكهف] وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ بين في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي يحيي ويميت، وأوضح ذلك في آيات كثيرة كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِنَّا الْغَافِرُونَ﴾ [ق]، وقوله تعالى: ﴿رَبِّیَ الَّذِیْ یُحْیِی وَیُمِیتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ یُحْیِی وَیُمِیتُ رَبُّکُمْ رَبُّ آبَائِکُمْ الْأَوَّلِينَ﴾ [الدخان: ٨]، وبين في مواضع أخر أنه أحياءهم مرتين وأماتهم مرتين كقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَتُنَزِّلُ الْأَنْهَارَ اثْنَتَيْنِ وَالتَّانِيَّتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] وقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] والإماتة الأولى هي كونهم نطفاً وعلقاً ومضغاً، والإماتة الثانية هي موتهم عند انقضاء آجالهم في الدنيا، والإحياء الأولى نفخ الروح فيهم وإخراجهم أحياء من بطون أمهاتهم، والإحياء الثانية بعثهم من قبورهم، أحياء يوم القيامة، وسيأتي له - إن شاء الله تعالى - زيادة إيضاح.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه الوارث، ولم يبين الشيء الذي يرثه، وبين في مواضع أخر أنه يرث الأرض ومن عليها كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٥٠] وقوله: ﴿وَنُرِثُهُ مَا يَقُولُ وَإِنَّا فَرْدٌ﴾ [٨١] [مريم]. ومعنى «ما يقول» أي نرثه الذي يقول إنه يؤتاه يوم القيامة من المال والولد كما ذكره الله عنه في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِیْ كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾ [٧٧] [مريم]. ومعنى كونه يرث الأرض ومن عليها أنه يبقى بعد فناء خلقه متصفاً بصفات الكمال والجلال يفعل ما يشاء كيف يشاء.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ [٧١].

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه خلق أباناً آدم من صلصال من حمأ مسنون، والصلصال: الطين اليابس الذي يصل أي يصوت من يبسه إذا ضربه شيء ما دام لم تمسه النار فإذا أمسته النار فهو حينئذٍ فخار، وأصل الصليل والصلصلة واحد، والفرق بينهما أنك إذا توهمت في الصوت مداً فهو صليل، وإذا توهمت فيه ترجيعاً فهو صلصلة، والحمأ: الطين الأسود المتغير، والمسنون قيل: المصور من سنة الوجه وهي صورته، ومنه قول ذي الرمة:

تريك سنة وجه غير مقرفة ملساء ليس بها خال ولا ندب

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه لما سأل نافع بن الأزرق عن معنى المسنون وأجابه بأن معناه المصور قال له: وهل تعرف العرب ذلك فقال له ابن عباس: نعم أما سمعت قول حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وهو يمدح رسول الله ﷺ:

أغر كأن البدر سنة وجهه جلا الغيم عنه ضوءه فتبدداً
وقيل: المستون المصوب المفرغ أي أفرغ صورة إنسان كما تفرغ الصور من
الجواهر المذوبة في أمثلتها وقيل: المسنون المتن، وقال بعض العلماء: المسنون
الأملس. قال: ومنه قول عبد الرحمن بن حسان:

ثم خاصرتها إلى القبة الخضراء تمشي من مرمر مسنون

أي أملس صقيل، قاله ابن كثير. وقال مجاهد: الصلصال هو المتن. وما قدمنا
هو الحق بدليل قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٥] إذا
عرفت هذا فاعلم أن الله - جل وعلا - أوضح في كتابه أطوار هذا الطين الذي خلق منه
آدم فبين أنه أولاً تراب بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا ترَابٌ مِنْ ترَابٍ﴾ [آل
عمران: ٥٩]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ترَابٍ﴾ [الحج: ٥]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ترَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ﴾ [غافر: ٦٧] إلى غير ذلك
من الآيات. ثم أشار إلى أن ذلك التراب بل فصار طيناً يعلق بالأيدي في مواضع آخر
كقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّزِيزٍ﴾ [الصفات: ١١] وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ
مِّنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] وقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة: ٧] إلى غير ذلك
من الآيات، وبين أن ذلك الطين أسود، وأنه متغير بقوله هنا: ﴿مِنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾. وبين
أيضاً أنه يابس حتى صار صلصلاً أي تسمع له صلصلة من ييبسه بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا
الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ... الآية وقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٥]، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِلِيلِسَ أَن يَكُونَ مَعَ السَّجِدِينَ﴾ [٢١]. بين في هذه الآية الكريمة
أن إبليس أبى أن يسجد لآدم، وبين في مواضع آخر أنه تكبر عن امتثال أمر ربه بقوله
في البقرة: ﴿إِلَّا إِلِيلِسَ أَن يَكُونَ مَعَ السَّجِدِينَ... الآية [البقرة: ٣٤]، وقوله في سورة ص: ﴿إِلَّا
إِيلِيلِسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص: ٧٦] وأشار إلى ذلك هنا بقوله: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِّاسْجُدَ
لِشَيْءٍ خَلَقْتُمُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ [٢٣] كما تقدمت الإشارة إليه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَتْلِيلِسَ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّجِدِينَ﴾ [٢٢]. بين تعالى في هذه
الآية الكريمة أنه سأل إبليس سؤال توبيخ وتقريع عن الموجب لامتناعه من السجود لآدم
الذي أمره به ربه - جل وعلا -، وبين أيضاً في (الأعراف و ص) أنه وبخه أيضاً بهذا
السؤال قال في الأعراف: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] وقال في ص: ﴿قَالَ يَتْلِيلِسَ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. وناداه باسمه إبليس في (الحجر
وص) ولم يناد به في الأعراف.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِّاسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتُمُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ [٢٣]. هذا القول
الذي ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة عن إبليس - لعنه الله - أنه لم يكن ليسجد لبشر

مخلوق من الطين مقصوده به أنه خير من آدم؛ لأن آدم خلق من الطين وهو خلق من النار كما يوضحه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (٢٤). بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أمر إبليس بالخروج من الجنة مؤكداً أنه رجين وبين في الأعراف أنه خروج هبوط وأنه يخرج متصفاً بالصغار والذل والهوان بقوله: ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مُّذْنَبًا رَبَّكَ لَا يَنْصُرُكَ مِنْهُ أَحَدٌ وَلَئِنْ لَّمْ يَكُنْ لَكَ آيَةٌ فَاقْبَلْهُ مِنِّي وَأَنصُرْكَ بِقَوْلِي كَمَا أَنصُرُكَ بِقَوْلِي﴾ [الأعراف: ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٢٥). بين في هذه الآية الكريمة أن اللعنة على إبليس إلى يوم الدين وصرح في سورة (ص) بأن لعنته - جل وعلا - على إبليس إلى يوم الدين بقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (ص) وقد قدمنا في الفاتحة بيان يوم الدين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ مَوَاقِعَ الْقُرْآنِ﴾ الآية.

قال بعض العلماء: هذا قسم من إبليس بإغواء الله له على أنه يغوي بني آدم إلا عباد الله المخلصين ويدل عليه أنه أقسم بعزته تعالى على ذلك في قوله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأَعْرِضَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (ص) وقيل: الباء في قوله: ﴿بِمَا أَغْوَيْنِي﴾ سببية.

قوله تعالى: ﴿لَأَزِيدَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن إبليس أخبر أنه سيبدل جهده في إضلال بني آدم حتى يضل أكثرهم، وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿لَأَقْنُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٧) ثُمَّ لَأَنْتَهُنَّ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) [الأعراف]، وقوله: ﴿وَقَالَ لَا أَخَذْتُ مِنْ عَبْدِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ ... الآية [النساء: ١١٨]، وقوله: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٢) [الإسراء]. وهذا قاله إبليس قبل أن يقع ظناً منه أنه يتمكن من إضلال أكثر بني آدم، وقد بين تعالى أنه صدق ظنه هذا بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٠) [سبا]، وكل آية فيها ذكر إضلال إبليس لبني آدم بين فيها أن إبليس وجميع من تبعه كلهم في النار كما قال هنا: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٢٤) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ... الآية. وقال في الأعراف: ﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مُّذْنَبًا رَبَّكَ لَا يَنْصُرُكَ مِنْهُ أَحَدٌ وَلَئِنْ لَّمْ يَكُنْ لَكَ آيَةٌ فَاقْبَلْهُ مِنِّي وَأَنصُرْكَ بِقَوْلِي كَمَا أَنصُرُكَ بِقَوْلِي﴾ [الأعراف] وقال في سورة بني إسرائيل: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ (١٢) [الإسراء] وقال في سورة ص: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) [ص].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ (٨٤) ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الشيطان لما أوعد بأنه سيضل أكثر بني آدم استثنى من ذلك عباد الله المخلصين معترفاً بأنه لا قدرة له على إضلالهم، ونظيره قوله في سورة ص أيضاً: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأَعْرِضَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

﴿٨٧﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٨﴾ [ص]. وعباد الله المخلصون هم: المرادون بالاستثناء في قوله في بني إسرائيل ﴿لَا حَتَنَكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقوله في سبأ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ] وهم الذين احترز منهم بقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ أَكْثَرَهُمْ شَكَرٌ﴾ [الأعراف: ١٧]. وبين تعالى في مواضع أخر أن الشيطان لا سلطان له على أولئك المخلصين كقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [٩٩] ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠] وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّي بَالِ الْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ [سبأ: ٢١]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وقوله: ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ قرأه ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو بكسر اللام اسم فاعل وقرأه نافع والكوفيون بفتح اللام بصيغة اسم المفعول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ﴾ ﴿٩٠﴾. بين في هذه الآية الكريمة أن المتقين يوم القيامة في جنات وعيون، ويقال لهم يوم القيامة: ﴿أَدْخُلُوا بِسَلَامٍ ءَامِينَ﴾ ﴿٩١﴾ وذكر في مواضع أخر صفات ثوابهم وربما بين بعض تقواهم التي نالوا بها هذا الثواب الجزيل كقوله في الذاريات: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿ءَاخِذِينَ مَا ءَانَهُمْ رَبُّهُمْ إِيَّاهُمْ كَانُوا بِدَلِّ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَفِرُونَ﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ﴾ ﴿٩٦﴾ [الذاريات]، وقوله في الدخان: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ ءَامِينَ﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَفَكِّلِينَ﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿كَذَلِكَ وَرَوَّجْتُهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ ﴿١٠٠﴾ ﴿يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ فُكْهَةٍ ءَامِينَ﴾ ﴿١٠١﴾ ﴿لَا يَدْخُلُوتُ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةُ الْأُولَىٰ وَوَقَّهَتْهُمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ ﴿١٠٢﴾ ﴿فَصَلَا مِّنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿١٠٣﴾ [الدخان]، وقوله في الطور: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿١٠٤﴾ ﴿فُكْهِينَ بِمَا ءَانَهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَّهَتْهُمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ ﴿١٠٥﴾ ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٠٦﴾ ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَرَوَّجْتُهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ ﴿١٠٧﴾ [الطور]، وقوله في القمر: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ ﴿١٠٨﴾ ﴿فِي مَقْعَدٍ صَدِيقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْدِرٍ﴾ ﴿١٠٩﴾ [القمر]، وقوله في المرسلات: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿١١٠﴾ ﴿وَفُوكَهُ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ ﴿١١١﴾ ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١١٢﴾ [المرسلات] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد بينا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن الشيء الذي له أوصاف متعددة في القرآن نبين أوصافه عند ذكر بعضها كما تقدم مثاله مراراً وكما هنا.

والمقتي اسم فاعل الاتقاء وأصل مادة الاتقاء (وقى) لفيف مفروق فاؤه واو وعينه قاف ولامه ياء فدخله تاء الافتعال فصارت وقى أو تقى فأبدلت الواو التي هي فاء الكلمة تاء للقاعدة المقررة في التصريف أن كل واو هي فاء الكلمة إذا دخلت عليها تاء الافتعال يجب إبدالها، أعني الواو تاء وإدغامها في تاء الافتعال نحو اتصال من الوصل واتزن من الوزن واتحد من الوحدة واتقى من الوقاية، وعقد هذه القاعدة ابن مالك في الخلاصة بقوله:

ذوالالين فاتا في افتعال أبدا . وشذ في ذي الهمز نحو ائتكلالا
والاتقاء في اللغة: اتخاذ الوقاية دون المكروه، ومنه قول نابغة ذبيان:
سقط النصيب ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد
يعني استقبلتنا بيدها جاعلة إياها وقاية تقيها من أن ننظر إلى وجهها لأنها تستره
بها، وقول الآخر:

فألقت قناعاً دونه الشمس واتقت بأحسن موصولين كف ومعصم
والتقوى في اصطلاح الشرع: هي اتخاذ الوقاية دون عذاب الله وسخطه وهي
مركبة من أمرين: هما امثال أمر الله واجتناب نهيهِ .

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِخْوَانًا﴾ بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه
نزع ما في صدور أهل الجنة من الغل في حال كونهم إخواناً وبين هذا المعنى في الأعراف
وزاد أنهم تجري من تحتهم الأنهار في نعيم الجنة وذلك في قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ
غَلٍ يَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ . . . الآية [الأعراف: ٤٣] .

قوله تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ بين في هذه الآية الكريمة أن المتقين الذين هم
أهل الجنة يوم القيامة يكونون على سرر، وأنهم متقابلون ينظر بعضهم إلى وجه بعض
ووصف سررهم بصفات جميلة في غير هذا الموضع، منها أنها منسوجة بقضبان الذهب
وهي الموضونة قال في الواقعة: ﴿ثَلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [١٣] وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَى سُرُرٍ
مَوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَكِينِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ [الواقعة]، وقيل: الموضونة المصفوفة كقوله:
﴿مُتَكِينِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: ٢٠] ومنها أنها مرفوعة كقوله في الغاشية: ﴿فِيهَا سُرُرٌ
مَرْفُوعَةٌ﴾ [٢٢] [الغاشية] وقوله في الواقعة: ﴿وَفُورٌ مَرْفُوعٌ﴾ [٢٢] [الواقعة] وقوله: ﴿مُتَكِينِينَ عَلَى
رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرٍ حِسَانٍ﴾ [الرحمن] إلى غير ذلك من الآيات .
قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ .

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن أهل الجنة لا يمسهم فيها نصب وهو التعب
والإعياء، وقوله نصب نكرة في سياق النفي فتعم كل نصب، فتدل الآية على سلامة
أهل الجنة من جميع أنواع التعب والمشقة، وأكد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ
أَلْجَأْنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر]؛ لأن
اللغوب هو التعب والإعياء أيضاً، قد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله أمرني أن
أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب» .

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن أهل الجنة
لا يخرجون منها وأكد نفي إخراجهم منها بالباء في قوله: ﴿بِمُخْرَجِينَ﴾ فهم دائمون في
نعيمها أبداً بلا انقطاع . وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [٢٧] خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف]،

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ تَكُونُ فِيهِ أَبَدًا﴾، وقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُوفٌ﴾ [هود: ١٠٨] وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ ﴿ص﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٥١﴾ بين في مواضع آخر أن ضيف إبراهيم المذكورين في هذه الآية أنهم ملائكة كقوله في هود: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ۖ﴾ [هود: ٦٩] كما تقدم، وقوله: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٣﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ لم يبين تعالى في هذه الآية الكريمة هل رد إبراهيم السلام على الملائكة أو لا؛ لأنه لم يذكر هنا رده السلام عليهم، وإنما قال عنه إنه قال لهم: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ وبيّن في هود والذاريات أنه رد عليهم السلام بقوله في هود: ﴿قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]، وقوله في الذاريات: ﴿قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ فَرَأَى إِلَهُه فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٥٦﴾ [الذاريات]، وبيّن أن الوجل المذكور هنا هو الخوف لقوله في القصة بعينها في هود: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ [هود: ٧٠] وقوله في الذاريات: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ [الذاريات: ٢٨]. وقد قدمنا أن من أنواع البيان في هذا الكتاب بيان اللفظ بمرادف له أشهر منه كما هنا لأن الخوف يرادف الوجل وهو أشهر منه، وبيّن أن سبب خوفه هو عدم أكلهم بقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٥٤﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن أولئك الضيف الكرام الذين هم ملائكة بشروا إبراهيم بسلام موصوف بالعلم ونظير ذلك قوله تعالى أيضاً في الذاريات: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَظِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]. وهذا الغلام بين تعالى أنه هو إسحاق كما يوضح ذلك قوله في الذاريات: ﴿تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٥٨﴾ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرْفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٥٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ [الذاريات: ٢٨ - ٣٠]؛ لأن كونها أقبلت في صرة أي صيحة وضجة وصكت وجهها، أي لطمته قائلة إنها عجوز عقيم يدل على أن الولد المذكور هي أمه كما لا يخفى، ويزيده إيضاحاً تصريحه تعالى ببشارتها هي بأنها تلده مصرحاً باسمه واسم ولده يعقوب وذلك في قوله تعالى في هود في القصة بعينها: ﴿وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِهِ إِسْحَاقُ يَعْقُوبَ﴾ ﴿٦١﴾ قَالَتْ يَبْئُوتَنِي مَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٦٢﴾ [هود]. وأما الغلام الذي بشر به إبراهيم الموصوف بالحلم المذكور في الصفات في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَّدِينَ﴾ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي فِي الْمَنَازِرِ أَتَى أَذُنُكَ﴾ ... الآية [الصفات: ٩٩ - ١٠٢] فهو إسماعيل وستري - إن شاء الله تعالى - في سورة الصفات دلالة الآيات القرآنية على أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق على وجه

قاطع للنزاع، والغلام يطلق في لغة العرب على العبد وعلى الصغير الذي لم يبلغ وعلى الرجل البالغ ومن إطلاقه على البالغ، قول علي عليه السلام يوم النهروان:

أنا الغلام القرشي المؤتمن أبو حسين فاعلمن والحسن
وقوله صفوان بن المعطل السلمي لحسان عليه السلام.

تلق ذباب السيف عني فإنني غلام إذا هوجيت لست بشاعر
وقول ليلى الأخيلية تمدح الحجاج بن يوسف:

إذا نزل الحجاج أرضاً مريضة تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها غلام إذا هز القناة سقاها

وربما قالوا للأثني غلامه، ومنه قول أوس بن غلفاء الهجيمي يصف فرساً:

ومركضة صريح أبيها يهان لها الغلام والغلام
قوله تعالى: ﴿قَالَ ابْتَزُّنُونِي عَلَى أَنْ سَتِيَ الْكَبِيرُ﴾.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن نبيه إبراهيم قال: إنه وقت البشرى بإسحاق مسه الكبير، وصرح في هود بأن امرأته أيضاً قالت: إنه شيخ كبير في قوله عنها: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢] كما صرح عنها هي أنها وقت البشرى عجوز كبيرة السن وذلك كقوله في هود: ﴿يَقُولُ لَوْ أَنِّي دُلْتُ وَآنَا عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢] وقوله في الذاريات: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩]. وبين في موضع آخر عن نبيه إبراهيم أنه وقت هبة الله له ولده إسماعيل أنه كبير السن أيضاً، وذلك قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿فِيمَ تَبْشُرُونَ﴾. الظاهر أن استفهام نبي الله إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - للملائكة بقوله: ﴿فِيمَ تَبْشُرُونَ﴾ استفهام تعجب من كمال قدرة الله تعالى، ويدل على ذلك أنه تعالى ذكر أن ما وقع له وقع نظيره لامرأته حيث قالت: ﴿ءَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢] وقد بين تعالى أن ذلك الاستفهام لعجبها من ذلك الأمر الخارق للعادة في قوله: ﴿قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود: ٧٣]. ويدل عليه أيضاً وقوع مثله من نبي الله زكريا - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - لأنه لما قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً فَإِنَّهُ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [مريم: ٣] عجب من كمال قدرة الله تعالى فقال: ﴿رَبِّ أَنِّي كُنْتُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَتِ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٣٨ - ٤٠]. وقوله: ﴿فِيمَ تَبْشُرُونَ﴾ قرأه ابن عامر وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي بفتح النون مخففة وهي نون الرفع وقرأه نافع بكسر النون مخففة - وهي نون الوقاية مع حذف ياء المتكلم لدلالة الكسرة عليها، وقرأه ابن كثير بالنون المكسورة المشددة مع المد، فعلى قراءة ابن كثير لم تحذف نون الرفع ولا المفعول به بل نون الرفع مدغمة في نون الوقاية وياء المتكلم هي المفعول به، وعلى قراءة الجمهور فنون الرفع ثابتة والمفعول به محذوف على حد قول ابن مالك:

وحذف فضلة أجز إن لم يضر كحذف ما سيق جواباً أو حصر

وعلى قراءة نافع فنون الرفع محذوفة لاستثقال اجتماعها مع نون الوقاية.

قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْطُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّي إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ (٥٦). بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن نبيه إبراهيم قال للملائكة: إنه لا يقنط من رحمة الله - جل وعلا - إلا الضالون عن طريق الحق، وبين أن هذا المعنى قاله أيضاً يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم لبنيه في قوله: ﴿يَنْبَغِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْفَوُّمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٥٧) [يوسف] قال أبو حيان في البحر المحيط في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾... الآية، وروح الله رحمته وفرجه وتنفيه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ (٥٨) ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾... الآية. أشار في هذه الآية الكريمة إلى أن المراد بهؤلاء القوم المجرمين قوم لوط الذين أرسل إليهم فكذبوه، ووجه إشارته تعالى لذلك استثناء لوط وأهله غير امرأته في قوله: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥٩) ﴿إِلَّا أَمْرَانَهُ﴾، وصرح بأنهم قوم لوط بقوله في هود في القصة بعينها: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمٍ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠]. وصرح في الذاريات بأنهم أرسلوا إلى هؤلاء القوم المجرمين ليرسلوا عليهم حجارة من طين في قوله: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ (٦٠) لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٦١) [الذاريات]. وصرح في العنكبوت أنهم قالوا: إنا مهلكوهم بسبب ظلمهم ومنزلون عليهم جزاً من السماء بسبب فسقهم وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (٦٢) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا تَحَرَّ أَتْلَهُ بَيْنَ فَيْهًا [العنكبوت: ٣١، ٣٢] وقولوه: ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَانَكَ كَانَتْ مِنَ الْقُدِيِّينَ﴾ (٦٣) إِنَّا مُزِيلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ [العنكبوت: ٣٣، ٣٤]. وقوله: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٦٤) بين في هذه الآية الكريمة أنه استثنى آل لوط من ذلك العذاب النازل بقومه، وأوضح هذا المعنى في آيات أخر كما تقدم في هود في قوله: ﴿قَالُوا يَنْلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانَكَ﴾ [هود: ٨١] وقوله في العنكبوت: ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَانَكَ﴾ [العنكبوت: ٣٣] وقوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْقُدِيِّينَ﴾ (٦٥) [الأعراف] وقوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ (٦٦) ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْقُدِيِّينَ﴾ (٦٧) الآية [الشعراء] وقوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ كَانَتْ مِنَ الْقُدِيِّينَ﴾ (٦٨) [الأعراف] إلى غير ذلك من الآيات. وما ذكر في هذه الآية الكريمة من استثناء امرأته من أهله الناجين في قوله: ﴿إِلَّا أَمْرَانَهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَنِ الْقُدِيُّينَ﴾ (٦٩) أوضحه في هذه الآيات التي ذكرنا آنفاً ونحوها من الآيات وبين في الذاريات أنه أنجى من كان في قوم لوط من المؤمنين وأنهم لم يكن فيهم من المسلمين إلا بيت واحد وهم آل لوط وذلك في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٠) فَمَا وَحَدَّا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧١) [الذاريات].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن لوطاً - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - لما جاءه الملائكة والمرسلون لإهلاك قومه قال لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾، وصرح في مواضع أخر أنه حصلت له مساءة بمجيبهم، وأنه ضاق ذرعاً بذلك كقوله في هود: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٦٧﴾﴾ [هود: ٦٧] وقوله في العنكبوت: ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَافَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴿٢٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢٣] وذكر تعالى في الذاريات أن نبيه إبراهيم قال لهم أيضاً قوم منكرون كما ذكر عن لوط هنا وذلك في قوله: ﴿قَالَ سَلِّمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]. وقوله ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ قيل معناه أنهم غير معروفين والنكرة ضد المعرفة وقيل: إنه رآهم في صفة شباب حسان الوجوه فخاف أن يفعل بهم قومه فاحشة اللواط فقال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ وقال الزمخشري في (الكشاف): منكرون أي تنكركم نفسي وتفر منكم فأخاف أن تطرقوني بشر بدليل قوله: ﴿بَلْ جَحْتَنَكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْشُونَ وَأَبْتَنَكَ بِالْحَقِّ﴾... الآية، ويدل على هذا الوجه أنه بين في هود أن سبب إنكار إبراهيم لهم عدم أكلهم من لحم العجل الذي قدمه إليهم وذلك في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِمْ نَكَرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴿٧٠﴾﴾ [هود: ٧٠]؛ لأن من استضاف وامتنع من الأكل خيف منه الشر، وقوله تعالى في هذه الآيات: ﴿إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ﴾ قرأه حمزة والكسائي بإسكان النون بعد الميم المضمومة مخففاً اسم فاعل أنجى على وزن أفعل، وقرأه غيرهما من القراء بفتح النون وتشديد الجيم اسم فاعل نجى على وزن فعل بالتضعيف والإنجاء والتنجية معناهما واحد، وقوله: ﴿قَدَرْنَا مِنْهَا لَمِنَ الْفَنِيَةِ﴾ قرأه أبو بكر عن عاصم بتخفيف الدال وقرأه غيره بتشديدها وهما لغتان معناهما واحد، وقوله: ﴿جَاءَ آلَ لُوطٍ﴾ قرأه قالون والبزي وأبو عمرو بإسقاط الهمزة الأولى وتحقيق الثانية مع القصر والمد، وقرأه ورش أيضاً بتحقيق الأولى وإبدال الثانية ألفاً مع القصر والمد. وعن ورش أيضاً تحقيق الأولى وتسهيل الثانية مع القصر والتوسط والمد وقرأه قبل مثل قراءة ورش إلا أنه ليس له مع التسهيل إلا القصر، وقرأ الباقيون بتحقيق الهمزتين وكل على أصله من المد وما ذكر من قراءة ورش وقيل هو التحقيق عنهما وإن قيل غيره، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾. سبب استبشار قوم لوط أنهم ظنوا الملائكة شباباً من بني آدم فحدثتهم أنفسهم بأن يفعلوا بهم فاحشة اللواط كما يشير لذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحْنِي﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴿٣٧﴾﴾ [القمر: ٣٧]، وقوله: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَقِيلَ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ٧٨] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن فيما أوقع من النكال بقوم لوط آيات للمتأملين في ذلك تحصل لهم بها الموعظة

والاعتبار والخوف من معصية الله أن ينزل بهم مثل ذلك العذاب الذي أنزل بقوم لوط لما عصوه وكذبوا رسوله، ويبين هذا المعنى في مواضع آخر كقوله في العنكبوت: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الذاريات] وقوله في الذاريات: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات] وقوله هنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ [٧٥]، وقوله في الشعراء بعد ذكر قصة قوم لوط: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [٨] [الشعراء] كما صرح بمثل ذلك في إهلاك قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب في الشعراء، وقوله: ﴿لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ أصل التوسم تفعل من الوسم وهو العلامة التي يستدل بها على مطلوب غيرها يقال: توسمت فيه الخير إذا رأيت مبسمه فيه، أي علامته التي تدل عليه، ومنه قول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه في النبي ﷺ:
 إني توسمته فيك الخير أعرفه والله يعلم أنني ثابت النظر
 وقال الآخر:

توسمت لما رأيت مهابة عليه وقلت المرء من آل هاشم
 هذا أصل التوسم وللعلماء فيه أقوال متقاربة يرجع معناها كلها إلى شيء واحد، فغن قتادة: للمتوسمين أي المعتبرين وعن مجاهد: للمتوسمين أي المتفرسين، وعن ابن عباس، والضحاك: للمتوسمين أي الناظرين وعن مالك عن بعض أهل المدينة: للمتوسمين أي للمتأملين. ولا يخفى أن الاعتبار والنظر والتفرس والتأمل معناها واحد، وكذلك قول ابن زيد ومقاتل: للمتوسمين؛ أي للمتفكرين وقول أبي عبيدة: للمتوسمين أي للمتبرسين، فمأل جميع الأقوال راجع إلى شيء واحد وهو أن ما وقع لقوم لوط فيه موعظة وعبرة لمن نظر في ذلك وتأمل فيه حق التأمل، وإطلاق التوسم على التأمل والنظر والاعتبار مشهور في كلام العرب، ومنه قول زهير:

وفيهن ملهى لا للصديق ومنظر أنيق لعين الناظر المتوسم

أي المتأمل في ذلك الحسن، وقول طريف بن تميم العنبري:

أو كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا إلى غريفهم يتوسم

أي ينظر ويتأمل، وقال صاحب (الدر المنثور): وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال: للناظرين. وأخرجه عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن قتادة في قوله: ﴿لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال: هم المتفرسون.

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن جعفر بن محمد في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ [٧٥] قال: هم المتفرسون. وأخرج البخاري في تاريخه والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن السني وأبو نعيم معاً في الطب وابن مردويه والخطيب عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ثم

قرأ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَكِّينَ﴾ (٧٥) قال: «للمتفرسين» وأخرج ابن جرير عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإن المؤمن ينظر بنور الله» وأخرج ابن جرير عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «احذروا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله وينطق بتوفيق الله» وأخرج الحكيمة الترمذي والبخاري وابن السني وأبو نعيم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله عبداً يعرفون الناس بالتوسم».

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ (٧٦). بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن ديار قوم لوط وأثار تدمير الله لها بسبيل مقيم، أي بطريق ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعد، يمر بها أهل الحجاز في ذهابهم إلى الشام، والمراد أن آثار تدمير الله لهم التي تشاهدون في أسفاركم فيها لكم عبرة ومزدجر يوجب عليكم الحذر من أن تفعلوا كفعلهم لئلا ينزل الله بكم مثل ما أنزل بهم وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿وَأَنكُمْ لَنُرَوْنَ عَلَيْهِمْ مُّصِحِّينَ﴾ (٧٧) ﴿وَاللَّيْلُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٧٨) [الصفات] وقوله: ﴿أَفَلَا يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ (١٠) [محمد] وقوله فيها وفي ديار أصحاب الأيكة: ﴿وَإِنَّمَا لِيَا مِأْمِرٍ مُّبِينٍ﴾ إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ (٧٨) فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية أن أصحاب الأيكة كانوا ظالمين، وأنه - جل وعلا - انتقم منهم بسبب ظلمهم، وأوضح هذه القصة في مواضع أخر كقوله في الشعراء: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تُنْقَوْنَ (٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (٧٩) إلى قوله ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٧٩) [الشعراء] فبين في هذه الآية أن ظلمهم هو تكذيبهم رسولهم وتطفيفهم في الكيل وبخسهم الناس أشياءهم وأن انتقامه منهم بعذاب يوم الظلة، وبين أنه عذاب يوم عظيم، والظلة سحابة أظلتهم فأضرمتها الله عليهم ناراً فأحرقتهم، والعلم عند الله تعالى، وقرأ نافع وابن عامر وابن كثير «ليكة»... في (الشعراء وص) بلام مفتوحة أول الكلمة وتاء مفتوحة آخرها من غير همز ولا تعريف على أنه اسم للقرية غير منصرف، وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي «الأيكة» بالتعريف والهمز وكسر التاء، وقرأ كذلك جميع القراء في (ق والحجر) قال أبو عبيدة: ليكة، والأيكة اسم مدينتهم كمكة وبكة، والأيكة في لغة العرب: الغيضة وهي جماعة الشجر، والجمع الأيك، وإنما سموا أصحاب الأيكة؛ لأنهم كانوا أصحاب غياض ورياض، ويروى أن شجرهم كان دوماً وهو البقل، ومن إطلاق الأيكة على الغيضة قول النابغة:

تجلو بقادمتي حمامة أيكة برداً أسف لتائه بالاثمد

وقال الجوهري في (صحاحه): ومن قرأ أصحاب الأيكة فهي الغيضة، ومن قرأ ليكة فهي اسم القرية ويقال هما مثل بكة ومكة، وقال بعض العلماء: الأيكة: الشجرة، والأيك: هو الشجر الملتف.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾ (٨٠).

الحجر: منازل ثمود بين الحجاز والشام عند وادي القرى، فمعنى الآية الكريمة: كذبت ثمود المرسلين، وقد بين تعالى تكذيب ثمود لنبيه صالح - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - في مواضع أخرى، كقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثُمُودُ الْمُرْسِلِينَ﴾ (٧٤) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿الشعراء: ١٤١، ١٤٢﴾. وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشعر: ١٤] وقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثُمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ (٧٣) فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثْلًا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٌ ﴿[القمر: ٢٤] وقوله: ﴿فَعَقَرُوهَا نَاقَةً وَعَنَّا عَنْ آمْرِ رَبِّيهِمْ وَقَالُوا يَصْلِحُ أَثْنَانَا بِمَا قَعَدْنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسِلِينَ﴾ (W) [الأعراف] إلى غير ذلك من الآيات، وإنما قال إنهم كذبوا المرسلين مع أن الذي كذبوه هو صالح وحده؛ لأن دعوة جميع الرسل واحدة؛ وهي تحقيق معنى «لا إله إلا الله» كما بينه تعالى بأدلة عمومية وخصوصية؛ قال معممًا لجميعهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾... الآية [الأنبياء: ٢٥]. وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وقال: ﴿وَسَلَّمَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ (٥٥) [الزخرف] إلى غير ذلك من الآيات، وقال في تخصيص الرسل بأسمائهم: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]. وقال: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥]. وقال: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥] إلى غير ذلك من الآيات، فإذا حققت أن دعوة الرسل واحدة عرفت أن من كذب واحداً منهم فقد كذب جميعهم؛ ولذا صرح تعالى بأن من كفر ببعضهم فهو كافر حقاً. قال: ﴿وَيَقُولُونَ ثُوْمُنٌ يَبْعُضُ وَنَكَفَرُ بِبَعْضٍ وَنُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سُبُلًا﴾ (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا [النساء: ١٥٠، ١٥١]. وبين أنه لا تصح التفرقة بينهم بقوله: ﴿لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٣٦] وقوله: ﴿لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ووعد الأجر على عدم التفرقة بينهم في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ﴾... الآية [النساء: ١٥٢]. وقد بينا هذه المسألة في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب».

قوله تعالى: ﴿وَعَالَيْتَهُمْ ءَايَاتُنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (٨١). ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أتى أصحاب الحجر - وهم ثمود - آياته فكانوا عنها معرضين. والإعراض: الصدود عن الشيء وعدم الالتفات إليه؛ كأنه مشتق من العرض - بالضم - وهو الجانب؛ لأن المعرض لا يولي وجهه بل يثني عطفه ملتفتاً صاعداً.

ولم يبين - جل وعلا - هنا شيئاً من تلك الآيات التي آتاهم، ولا كيفية إعراضهم عنها، ولكنه بين ذلك في مواضع أخرى، فبين أن من أعظم الآيات التي آتاهم تلك الناقة التي أخرجها الله لهم، بل قال بعض العلماء: إن في الناقة المذكورة آيات جمّة، كخروجها عشراً، وبراء، جوفاء، من صخرة صماء، وسرعة ولادتها عند خروجها،

وعظمها حتى لم تشبهها ناقة، وكثرة لبنها حتى يكفيهم جميعاً، وكثرة شربها؛ كما قال تعالى: ﴿لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] وقال: ﴿وَيَنْهَنُّمُ أَنْ أَلْمَأَ قِسْمَةً بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرِبٍ مُخَضَّرٌ﴾ [القمر: ٧٨].

فإذا علمت ذلك فاعلم أن مما يبين قوله هنا: ﴿وَالْيَنْهَنُّمُ عَائِلَتَنَا﴾ قوله: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأَيِّ بَيِّنَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٦] قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ [الشعراء: ١٥٦] وقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةٌ أَللَّهُ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقوله: ﴿وَالْيَنْهَنُّمُ نَمُودَ النَّاقَةِ مُبْصِرَةً﴾ الآية [الإسراء: ٥٩]، وقوله: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فَمَنْ لَهَا فَارْتَبِعْهُمْ وَأَصْطَرِ﴾ [القمر: ٧٨] وقوله: ﴿وَيَنْقُورُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤] إلى غير ذلك من الآيات.

وبين إعراض قوم صالح عن تلك الآيات في مواضع كثيرة؛ كقوله: ﴿فَعَقَرُوهَا النَّاقَةَ وَكُتُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ آتَيْنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦٥] وقوله: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]، وقوله: ﴿كَذَبَتْ نَمُودُ بِطَغْوَانَهَا﴾ [١١] إِذِ ابْتِغَتْ أَشْقَانَهَا [١٢] فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةُ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا [١٣] فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَحَسُونَهَا [١٤] [الشعراء: ١٤] وقوله: ﴿فَنَادُوا صَالِحًا فَغَاطَى فَعَقَرَ﴾ [١٥] [القمر: ١٦] وقوله: ﴿وَالْيَنْهَنُّمُ نَمُودَ النَّاقَةِ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقوله: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [١٦] مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأَيِّ بَيِّنَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [١٧] [الشعراء: ١٧] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَكَاوُوا يَنْجُوتَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتَا آمِينٌ﴾ [٨٢] . ذكر - جل - وعلا - في هذه الآية الكريمة أن أصحاب الحجر وهم ثمود قوم صالح كانوا آمنين في أوطانهم، وكانوا ينتحون من الجبال بيوتاً. وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله تعالى: ﴿أَتَذْكُرُونَ فِي مَا هَلُمْنَا آمِينٌ﴾ [٨٢] فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ [٨٣] وَزُرُوعٍ وَنَحْلٍ ظَلُمْنَا هَاضِمٌ [٨٤] وَتَنْجُوتَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتَا فَرِهَيْنَ [٨٥] [الشعراء: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَنْجُوتَ مِنْ سُوءِهَا فَصُورًا وَتَنْجُوتَ الْجِبَالِ يَبُوتَا فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ... الآية [الأعراف: ٧٤]، وقوله: ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [٨٦] [الفجر: ٩] أي قطعوا الصخر بنحته بيوتاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ . ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق؛ أي ليدل بذلك على أنه المستحق لأن يعبد وحده، وأنه يكلف الخلق ويجازيهم على أعمالهم.

فدلت الآية على أنه لم يخلق الخلق عبثاً ولا لعباً ولا باطلاً، وقد أوضح ذلك في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطُلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [٨٧] [ص: ٨٧]، وقوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل

عمران: ١٩١]، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾ [الأنبياء: ١٠٦] ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٩]، وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [١٥] ﴿فَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١٦]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٢١]، وقوله: ﴿أَحْسَبُ الْإِنْسَانَ أَن يُتْرَكَ سُدىً﴾ [٢٢] ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْقُهُ مِن مَّوِيٍّ يُنْقَى﴾ [٢٣] ﴿[القيامة] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَارِثَ السَّاعَةِ لَآئِيَةً﴾.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الساعة آتية، وأكد ذلك بحرف التوكيد الذي هو «إن» ولام الابتداء التي تزحلقها إن المكسورة عن المبتدأ إلى الخبر، وذلك يدل على أمرين: أحدهما: إتيان الساعة لا محالة. وثانيهما: أن إتيانها أنكره الكفار؛ لأن تعدد التوكيد يدل على إنكار الخبر، كما تقرر في فن المعاني.

وأوضح هذين الأمرين في آيات آخر، فبين أن الساعة آتية لا محالة في مواضع كثيرة كقوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥] وقوله: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧] وقوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [١] ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج: ١، ٢]، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْ مَا نَذِيرُ مَا السَّاعَةُ﴾ [الجاثية: ٣٢]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ٧٦] وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفُهَا إِلَّا هُوَ ثَلُثٌ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

وبين - جل وعلا - إنكار الكفار لها في مواضع آخر، كقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبا: ٣]، وقوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ [التغابن: ٧] وقوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ﴾ [٢٤] ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [٢٥] [الدخان] والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ أمر الله - جل وعلا - نبيه - عليه الصلاة والسلام - في هذه الآية الكريمة أن يصفح عمن أساء الصَّفْحَ الْجَمِيلَ؛ أي بالحلم والإغضاء. وقال علي وابن عباس: الصَّفْحَ الْجَمِيلَ: الرضا بغير عتاب. وأمره ﷺ يشمل حكمة الأمة؛ لأنه قدوتهم والمشرع لهم. وبين تعالى ذلك المعنى في مواضع آخر، كقوله: ﴿فَاصْبِرْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩]، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغَى الْجَاهِلِينَ﴾ [القصاص: ٥٥]، وقوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ [البقرة: ١٠٩]. إلى غير ذلك من الآيات.

وقال بعض العلماء: هذا الأمر بالصفحة منسوخ بآيات السيف. وقيل: هو غير منسوخ، والمراد به حسن المخالقة، وهي المعاملة بحسن الخلق. قال الجوهرى في (صاحبه): والخلق: السجية، يقال: خالص المؤمن، وخالق الفاجر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه الخلاق العليم، والخلص العليم كلاهما صيغة مبالغة. والآية تشير إلى أنه لا يمكن أن يتصف الخلاق بكونه خلافاً إلا وهو عليم بكل شيء، لا يخفى عليه شيء، إذ الجاهل بالشيء لا يمكنه أن يخلقه.

وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس، ٧٨]، وقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المالك، ٦٧]، وقوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِغُلَامٍ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق، ٧]، وقوله تعالى مجيباً للكفار لما أنكروا البعث وقالوا: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق، ٢]، مبيناً أن العالم بما تمزق في الأرض من أجسادهم قادر على إحيائهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ﴾ [ق، ١] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أتى نبيه ﷺ سبعا من المثاني والقرآن العظيم، ولم يبين هنا المراد بذلك. وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية الكريمة إن كان لها بيان في كتاب الله غير واف بالمقصود، أننا نتمم ذلك البيان من السنة، فنبين الكتاب بالسنة من حيث إنها بيان للقرآن المبين باسم الفاعل، فإذا علمت ذلك فاعلم أن النبي ﷺ بين في الحديث الصحيح: أن المراد بالسبع المثاني والقرآن العظيم في هذه الآية الكريمة: هو فاتحة الكتاب، ففاتحة الكتاب مبينة للمراد بالسبع المثاني والقرآن العظيم، وإنما بينت ذلك بإيضاح النبي ﷺ لذلك في الحديث الصحيح.

قال البخاري في صحيحه في تفسير هذه الآية الكريمة: حدثني محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة، عن خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد بن المعلى قال: مر بي النبي ﷺ وأنا أصلي، فدعاني فلم آت حتى صليت، ثم أتيت فقال: «ما منعك أن تأتيني؟» فقلت: كنت أصلي، فقال: «ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٢٤]» ثم قال: «ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد» فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكرته فقال: «(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)﴾ [الفاتحة]، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»، حدثنا

آدم، حدثنا ابن أبي ذئب، حدثنا سعيد المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم».

فهذا نص صحيح من النبي ﷺ أن المراد بالسبع المثاني والقرآن العظيم: فاتحة الكتاب، وبه تعلم أن قول من قال أنها السبع الطوال غير صحيح، إذ لا كلام لأحد معه ﷺ، ومما يدل على عدم صحة ذلك القول: أن آية الحجر هذه مكية، وأن السبع الطوال ما أنزلت إلا بالمدينة. والعلم عند الله تعالى.

وقيل لها «مثنائي»؛ لأنها تنثنى قراءتها في الصلاة. وقيل لها «سبع»؛ لأنها سبع آيات. وقيل لها «القرآن العظيم»؛ لأنها هي أعظم سورة، كما ثبت عن النبي ﷺ في الحديث الصحيح المذكور آنفاً.

وإنما عطف القرآن العظيم على «السبع المثاني» مع أن المراد بهما واحد وهو الفاتحة، لما علم في اللغة العربية: من أن الشيء الواحد إذا ذكر بصفتين مختلفتين جاز عطف إحدهما على الأخرى تنزيلاً لتغاير الصفات منزلة تغاير الذوات؛ ومنه قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أُنْزِلَ أَتْرَجَ الْمُرْجَى (٤) [الاعلى]، وقول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾.

لما بين تعالى أنه أتى النبي ﷺ السبع المثاني والقرآن العظيم، وذلك أكبر نصيب، وأعظم حظ عند الله تعالى، نهاء أن يمد عينيه إلى متاع الدنيا الذي متع به الكفار؛ لأن من أعطاه ربه - جل وعلا - النصيب الأكبر والحظ الأوفر، لا ينبغي له أن ينظر إلى النصيب الأحقر الأخس، ولا سيما إذا كان صاحبه إنما أعطيه لأجل الفتنة والاختبار، وأوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله في (طه): ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَابْقَىٰ﴾ (٣٦) وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسئلك رزقاً نحن نرزقك والعقبة للفقوى (٣٧) [طه] والمراد بالأزواج هنا: الأصناف من الذين متعهم الله بالدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾. الصحيح في معنى هذه الآية الكريمة: أن الله نهى

نبيه ﷺ عن الحزن على الكفار إذا امتنعوا من قبول الإسلام، ويدل على ذلك كثرة ورود هذا المعنى في القرآن العظيم، كقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقوله: ﴿لَكَ بِمَنْجُ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣) [الشعراء]، وقوله: ﴿فَلَمَّا لَكَ بِمَنْجُ نَفْسِكَ عَلَىٰ عَائِدَتِهِمْ﴾ (٤) [الكهف]، وقوله: ﴿وَلَزِيدَكَ كَيْثاً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨] إلى غير ذلك من الآيات. والمعنى: قد بلغت ولست مسؤولاً عن شقاوتهم إذا امتنعوا من الإيمان، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، فلا تحزن عليهم إذا كانوا أشقياء.

قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. أمر الله - جل وعلا - نبيه في هذه الآية الكريمة بخفض جناحه للمؤمنين، وخفض الجناح كناية عن لين الجانب والتواضع، ومنه قول الشاعر:

وأنت الشهير بخفض الجناح فلا تك في رفعه أجدلا

وبين هذا المعنى في مواضع أخرى؛ كقوله في الشعراء: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء]، وكقوله: ﴿فَمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ إِنَّهُ لَمُتٌ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِظَ آلِقَابُ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَأَعُفْ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] إلى غير ذلك من الآيات.

وفهم من دليل خطاب الآية الكريمة - أعني مفهوم مخالفتها - أن غير المؤمنين لا يخفض لهم الجناح، بل يعاملون بالشدة والغلظة. وقد بين تعالى هذا المفهوم في مواضع أخرى؛ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ جَاهَدِ الْكُفَّارَ وَالْمُتَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، وقوله: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وقوله: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] كما قدمناه في المائدة.

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى الْمُقَسِّمِينَ﴾. في المراد بالمقتسمين أقوال للعلماء معروفة، وكل واحد منها يشهد له قرآن، إلا أن في الآية الكريمة قرينة تضعف بعض تلك الأقوال:

الأول: أن المراد بالمقتسمين: الذين يحلفون على تكذيب الرسل ومخالفتهم، وعلى هذا القول فالإقسام افتعال من القسم بمعنى اليمين، وهو بمعنى التقاسم. ومن الآيات التي ترشد لهذا الوجه قوله تعالى عن قوم صالح: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل: ٤٩]. أي نقتلهم ليلاً، وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعُثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النحل: ٣٨]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، وقوله: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف: ٤٩] إلى غير ذلك من الآيات، فكانهم كانوا لا يكذبون بشيء إلا أقسموا عليه؛ فسموا مقتسمين.

القول الثاني: أن المراد بالمقتسمين: اليهود والنصارى، وإنما وصفوا بأنهم مقتسمون لأنهم اقتسموا كتبهم فآمنوا ببعضها وكفروا ببعضها. ويدل على هذا القول قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ نَحْنُ مُؤْمِنُونَ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠].

القول الثالث: أن المراد بالمقتسمين: جماعة من كفار مكة اقتسموا القرآن بأقوالهم الكاذبة، فقال بعضهم: هو شعر. وقال بعضهم: هو سحر. وقال بعضهم: كهانة، وقال بعضهم: أساطير الأولين. وقال بعضهم: اختلقه محمد ﷺ. وهذا القول تدل عليه الآيات الدالة على أنهم قالوا في القرآن تلك الأقوال المفتراة الكاذبة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا

هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٩٢﴾ [الحاقة]، وقوله: ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ ﴿٩٣﴾ [المدثر]، وقوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا آخِلُقُ﴾ [ص: ٧]، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلْ رَبُّكُمْ قَالُوا أُسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل]، وقوله: ﴿وَقَالُوا أُسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فِيهِ ثَمَلٌ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان] إلى غير ذلك من الآيات.

والقرينة في الآية الكريمة تؤيد هذا القول الثالث ولا تنافي الثاني بخلاف الأول؛ لأن قوله ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ ﴿٩١﴾ أظهر في القول الثالث، لجعلهم له أعضاء متفرقة بحسب اختلاف أقوالهم الكاذبة، كقولهم: شعر، سحر، كهانة... إلخ.

وعلى أنهم أهل الكتاب - فالمراد بالقرآن كتبهم التي جزؤوها فآمنوا ببعضها وكفروا ببعضها، أو القرآن لأنهم آمنوا بما وافق هواهم منه وكفروا بغيره.

وقوله: ﴿عِضِينَ﴾ جمع عضة، وهي العضو من الشيء، أي جعلوه أعضاء متفرقة، واللام المحذوفة أصلها واو. قال بعض العلماء: اللام المحذوفة أصلها هاء، وعليه فأصل العضة عضيهة، والعضه: السحر؛ فعلى هذا القول - فالمعنى جعلوا القرآن سحراً؛ كقوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ [المدثر: ٢٤]؛ وقوله: ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ [القصص: ٤٨] إلى غير ذلك من الآيات.

والعرب تسمي الساحر عاضهاً، والساحرة عاضهة، والسحر عاضهاً. ويقال: إن ذلك لغة قريش؛ ومنه قول الشاعر:

أعوذ بربي من النافثا
ت في عقد العاضه المعضه
قوله تعالى: ﴿فَاصْغُرْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾. أي فاجهر به وأظهره؛ من قولهم: صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً، كقولك: صرح بها.

وهذه الآية الكريمة أمر الله فيها نبيه ﷺ بتبليغ ما أمر به علناً في غير خفاء ولا مواربة. وأوضح هذا المعنى في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾... الآية [المائدة: ٦٧].

وقد شهد له تعالى بأنه امتثل ذلك الأمر فبلغ على أكمل وجه في مواضع آخر؛ كقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وقوله: ﴿فَوَلِّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾. في هذه الآية الكريمة قولان معروفان للعلماء: أحدهما: أن معنى ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي لا تبال بتكذيبهم واستهزائهم، ولا يصعب عليك ذلك؛ فالله حافظك منهم. والآية على هذا التأويل معناها ﴿فَاصْغُرْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، أي بلغ رسالة ربك، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾، أي لا تبال بهم ولا تخشهم، وهذا المعنى كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

ثانيهما: وهو الظاهر في معنى الآية أنه كان في أول الأمر مأموراً بالإعراض عن المشركين، ثم نسخ ذلك بآيات السيف، ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُّنتَظَرُونَ﴾ [السجدة]، وقوله: ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَّن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم]، وقوله: ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٨] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّاكَ الْمُسْتَهْزِينَ﴾ [٩٥]. بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة أنه كفى نبيه ﷺ المستهزئين الذين كانوا يستهزئون وهم قوم من قريش. وذكر في مواضع أخر أن كفاه غيرهم؛ كقوله في أهل الكتاب: ﴿سَيُكَلِّمُكُمُ اللَّهُ...﴾ الآية [البقرة: ١٣٧]، وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

والمستهزئون المذكورون: هم الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والحارث بن قيس السهمي، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب. والآفات التي كانت سبب هلاكهم مشهورة في التاريخ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [٩٧]. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يعلم أن نبيه ﷺ يضيق صدره بما يقول الكفار فيه من الطعن والتكذيب، والطعن في القرآن. وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَهُ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢]، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ١]، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء] إلى غير ذلك من الآيات، وقد قدمنا شيئاً من ذلك في الأنعام.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [٩٨]. أمر - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية بأمرين: أحدهما: قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، وثانيهما: قوله: ﴿وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾.

وقد كرر تعالى في كتابه الأمر بالشئين المذكورين في هذه الآية الكريمة، كقوله في الأول: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر]، وقوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [ق: ٣٩]، وقوله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَاسْتَغْفِرْ لِدُنْيَاكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَمِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [غافر] والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وأصل التسبيح في اللغة: الإبعاد عن السوء. ومعناه في عرف الشرع: تنزيه الله - جل وعلا - عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله. ومعنى سبّ: نزه ربك - جل وعلا - عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله. وقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي في حال كونك متلبساً بحمد ربك، أي بالثناء عليه بجميع ما هو أهله من صفات الكمال والجلال؛ لأن لفظه ﴿بِحَمْدِ

رَبِّكَ﴾ أضيفت إلى معرفة فتعم جميع المحامد من كل وصف كمال وجلال ثابت لله - جل وعلا - . فستغرق الآية الكريمة للثناء بكل كمال؛ لأن الكمال يكون بأمرين: أحدهما: التحلي عن الرذائل، والتزهد عما لا يليق، وهذا معنى التسبيح، والثاني: التحلي بالفضائل والاتصاف بصفات الكمال، وهذا معنى الحمد، فتم الثناء بكل كمال، ولأجل هذا المعنى ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»، وكقوله في الثاني وهو السجود: ﴿كَلَّا لَا تُلَهِيهُ لَكُمْ وَأَسَاجِدُ وَاقْرَأْ﴾ [العلق]، وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان]، وقوله: ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، ويكثر في القرآن العظيم إطلاق التسبيح على الصلاة.

تنبيه: اعلم أن ترتيبه - جل وعلا - الأمر بالتسبيح والسجود على ضيق صدره ﷺ بسبب ما يقولون له من السوء، دليل على أن الصلاة والتسبيح سبب لزوال ذلك المكروه، ولذا كان ﷺ إذا حزبه أمر يادر إلى الصلاة، وقال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾... الآية [البقرة: ٤٥]. ويؤيد هذا ما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي من حديث نعيم بن همار رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره» فينبغي للمسلم إذا أصابه مكروه أن يفرج إلى الله تعالى بأنواع الطاعات من صلاة وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ﴾. أمر الله - جل وعلا - نبيه ﷺ بأن يعبد ربه، أي يتقرب له على وجه الذل والخضوع والمحبة بما أمر أن يتقرب له به من جميع الطاعات على الوجه المشروع، وجل القرآن في تحقيق هذا الأمر الذي هو حظ الإثبات من لا إله إلا الله، مع حظ النفي منها. وقد بين القرآن أن هذا لا ينفع إلا مع تحقيق الجزء الثاني من كلمة التوحيد، الذي هو حظ النفي منها. وهو خلع جميع المعبودات سوى الله تعالى في جميع أنواع العبادات، قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال ﴿فَاعْبُدْهُ وَأَطِيعْ لِعِندِيهِ﴾ [مريم: ٦٥]، وقال: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف] والآيات في مثل ذلك كثيرة جداً.

قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾. قالت جماعة من أهل العلم، منهم سالم بن عبد الله بن عمر، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم: اليقين: الموت، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَرَبِّكَ مِنَ الْيَقِينِ﴾ [٤٣] وَلَرَبُّكَ لَطَوِيمٌ الْيَقِينِ [٤٤] وَكُنَّا نَحْنُ مَعَ الْيَقِينِ [٤٥] وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الْيَقِينِ [٤٦] حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ [٤٧] [المدثر] وهو الموت. ويؤيد هذا ما أخرجه البخاري في صحيحه من حديث الزهري عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أم العلاء (امراة من الأنصار) أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات، قالت أم العلاء: رحمة الله عليك أبا السائب!

فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله قد أكرمه؟» فقالت: بأبي وأمي يا رسول الله! فمن يكرمه الله؟! فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين، وإني لأرجو له الخير..» الحديث. وهذا الحديث الصحيح يدل على أن اليقين الموت. وقول من قال: إن المراد باليقين انكشاف الحقيقة، وتيقن الواقع لا ينافي ما ذكرنا؛ لأن الإنسان إذا جاءه الموت ظهرت له الحقيقة يقيناً، ولقد أجاد التهامي في قوله:

والعيش نوم والمنية يقظة والمرء بينهما خيال ساري

وقال صاحب (الدر المنثور): أخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، والحاكم في التاريخ، وابن مردويه، والديلمي عن أبي مسلم الخولاني قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أوحى إلي أن أجمع المال وأكون من التاجرين، ولكن أوحى إلي أن سبح ﴿يَحْمَدُ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ٩٨ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ٩٩﴾».

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود ؓ عن النبي ﷺ قال: «ما أوحى إلي أن أجمع المال وأكون من التاجرين، ولكن أوحى إلي أن سبح ﴿يَحْمَدُ رَبَّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ٩٨ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ٩٩﴾».

وأخرج ابن مردويه والديلمي عن أبي الدرداء ؓ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أوحى إلي أن أكون تاجراً ولا أجمع المال متكاثراً، ولكن أوحى إلي أن سبح ﴿يَحْمَدُ رَبَّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ٩٨ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ٩٩﴾».

تنبيهان:

الأول: هذه الآية الكريمة تدل على أن الإنسان ما دام حياً وله عقل ثابت يميز به، فالعبادة واجبة عليه بحسب طاقته، فإن لم يستطع الصلاة قائماً فليصل قاعداً، فإن لم يستطع فعلى جنب. وهكذا قال تعالى عن نبيه عيسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -: ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١] وقال البخاري في صحيحه: «باب إذا لم يطق قاعداً صلى على جنب» وقال عطاء: إن لم يقدر أن يتحول إلى القبلة صلى حيث كان وجهه، حدثنا عبدان عن عبد الله، عن إبراهيم بن طهمان قال: حدثني الحسين المكتب، عن بريدة، عن عمران بن حصين ؓ، قال: كانت بي بواسير، فسألت النبي ﷺ عن الصلاة فقال: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب»، اهـ ونحو هذا معلوم؛ قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال ﷺ: «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم...» الحديث.

التنبيه الثاني: اعلم أن ما يفسر به هذه الآية الكريمة بعض الزنادقة الكفرة المدعين للتصوف، من أن معنى اليقين المعرفة بالله - جل وعلا - وأن الآية تدل على أن العبد إذا وصل من المعرفة بالله إلى تلك الدوحة المعبر عنها باليقين - أنه تسقط عنه العبادات والتكاليف؛ لأن ذلك اليقين هو غاية الأمر بالعبادة.

إن تفسير الآية بهذا كفر بالله وزندقة، وخروج عن ملة الإسلام بإجماع المسلمين، وهذا النوع لا يسمى في الاصطلاح تأويلاً، بل يسمى لعباً كما قدمنا في سورة آل عمران، ومعلوم أن الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - هم وأصحابهم هم أعلم الناس بالله، وأعرفهم بحقوقه وصفاته وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع ذلك أكثر الناس عبادة لله - جل وعلا -، وأشدّهم خوفاً منه وطمعاً في رحمته، وقد قال - جل وعلا -: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة النحل

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ أَمْرٌ لِّلَّهِ﴾. أي قرب وقت إتيان القيامة. وعبر بصيغة الماضي تنزيلاً لتحقيق الوقوع منزلة الوقوع، واقترب القيامة المشار إليه هنا بيّنه - جل وعلا - في مواضع آخر، كقوله: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١١]، وقوله - جل وعلا -: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، وقوله: ﴿وَمَا يَذُرُكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقوله: ﴿وَمَا يَذُرُكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]، وقوله - جل وعلا -: ﴿أَرَأَيْتِ الْآزِفَةَ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النجم: ١٧] إلى غير ذلك من الآيات.

والتعبير عن المستقبل بصيغة الماضي لتحقيق وقوعه كثير في القرآن، كقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤]، وقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَتِ الْجَنَّةُ وَالْجَهَنَّمَ وَالشَّهَدَاءُ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [٦٦]، وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ [الزمر: ٦٩ - ٧١].

فكل هذه الأفعال الماضية بمعنى الاستقبال، نزل تحقق وقوعها منزلة الوقوع.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾. نهى الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة عن استعجال ما وعد به من الهول والعذاب يوم القيامة، والاستعجال هو طلبهم أن يعجل لهم ما يوعدون به من العذاب يوم القيامة.

والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة، كقوله - جل وعلا -: ﴿وَسَتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لِّجَاءِ هَؤُلَاءِ الْعَذَابِ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٥٦]، ﴿سَتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْ أَنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، وقوله: ﴿سَتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ

ءَامِنُوا مُتَشَفِّعِينَ مِنْهَا [الشورى: ١٨]، وقوله: ﴿وَلَكِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لِيَقُولُوا مَا يَحْسِبُونَ﴾ [هود: ٨]، وقوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٥٦]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٠١] إلى غير ذلك من الآيات.

والضمير في قوله: فلا تستعجلوه في تفسيره وجهان:

أحدهما: أنه العذاب الموعد به يوم القيامة، المفهوم من قوله: ﴿إِنَّ أَمْرُ اللَّهِ﴾. وثانيهما: أنه يعود إلى الله؛ أي لا تطلبوا من الله أن يعجل لكم العذاب، قال معناه ابن كثير.

وقال القرطبي في تفسيره: قال ابن عباس: لما نزلت ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَاشْأَقُّ الْقَصْرِ﴾ [القمر] قال الكفار: إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت! فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون، فأمسكوا فانتظروا فلم يروا شيئاً، فقالوا: ما نرى شيئاً! فنزلت ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١]، فأشفقوا وانتظروا قرب الساعة؛ فامتدت الأيام فقالوا: ما نرى شيئاً، فنزلت ﴿إِنَّ أَمْرُ اللَّهِ﴾ فوثب رسول الله ﷺ والمسلمون وخافوا، فنزلت ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فاطمأنوا، فقال النبي ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بأصبعيه السبابة والتي تليها، اه محل الغرض من كلام القرطبي، وهو يدل على أن المراد بقوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾؛ أي لا تظنوه واقعاً الآن عن عجل، بل هو متأخر إلى وقته المحدد له عند الله تعالى.

وقول الضحاك ومن وافقه: إن معنى: ﴿إِنَّ أَمْرُ اللَّهِ﴾؛ أي فرائضه وحدوده - قول مردود ولا وجه له، وقد رده الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره قائلاً: إنه لم يبلغنا أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ استعجل فرائض قبل أن تفرض عليهم، فيقال لهم من أجل ذلك: قد جاءكم فرائض الله فلا تستعجلوها، أما مستعجلو العذاب من المشركين فقد كانوا كثيراً، اه.

والظاهر المتبادر من الآية الكريمة - أنها تهديد للكفار باقتراب العذاب يوم القيامة مع نهيهم عن استعجاله.

قال ابن جرير في تفسيره: وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: هو تهديد من الله لأهل الكفر به وبرسوله، وإعلام منه لهم قرب العذاب منهم والهلاك؛ وذلك أنه عقب ذلك بقوله سبحانه وتعالى: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] فدل بذلك على تقريره المشركين به ووعيده لهم، اه.

قوله تعالى: ﴿يُرِزُّ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

أظهر الأقوال في معنى الروح في هذه الآية الكريمة: أن المراد بها الوحي؛ لأن الوحي به حياة الأرواح، كما أن الغذاء به حياة الأجسام.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله: ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [١٦] يَوْمَ هُمْ بَرْزُورُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٧﴾ [غافر].

ومما يدل على أن المراد بالروح الوحي إتيانه بعد قوله: ﴿يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ بقوله: ﴿أَن أُنْذِرُوا﴾؛ لأن الإنذار إنما يكون بالوحي، بدليل قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ [الأنبياء: ٤٥]. وكذلك إتيانه بعد قوله: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥] بقوله: ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥]؛ لأن الإنذار إنما يكون بالوحي أيضاً. وقرأ هذا الحرف ابن كثير وأبو عمرو «ينزل» بضم الياء وإسكان النون وتخفيف الزاي، والباقون بالضم والتشديد، ولفظة «من» في الآية تبعيضية، أو لبيان الجنس.

وقوله: ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [البقرة: ٩٠]؛ أي ينزل الوحي على من اختاره وعلمه أهلاً لذلك؛ كما بينه تعالى بقوله: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقوله: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥]، وقوله: ﴿بِسْمَا أَسْرَفُوا يَوْمَ أَنفُسُهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَعَثْنَا أَن نُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [البقرة: ٩٠].

وهذه الآيات وأمثالها رد على الكفار في قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

قوله تعالى: ﴿أَن أُنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾. الأظهر في «أن» من قوله: ﴿أَن أُنْذِرُوا﴾ أنها هي المفسرة؛ لأن إنزال الملائكة بالروح - أي بالوحي - فيه معنى القول دون حروفه فيكون المعنى: أن الوحي الذي أنزلت به الملائكة مفسر بإنذار الناس «بلا إله إلا الله» وأمرهم بتقواه.

وقد أوضح - جل وعلا - هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢١]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، وقوله: ﴿وَمَثَلُ مَن أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٥]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوْحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَهَلْ أَنتم مُمسِكُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١٨] إلى غير ذلك من الآيات، وقد قدمنا معنى الإنذار، ومعنى التقوى.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [٢]. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه هو خالق السماوات والأرض، وأن من يخلق هذه المخلوقات العظيمة ينتزه ويتعظم أن يعبد معه ما لا يخلق شيئاً، ولا يملك لنفسه شيئاً. فالآية تدل على أن من يبرز الخلائق من العدم إلى الوجود، لا يصح أن يعبد معه

من لا يقدر على شيء؛ ولهذا أتبع قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ بقوله: ﴿تَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]. فدل على أن المعبود هو الخالق دون غيره، وقوله: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [٧] وقوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [١] الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ بَدِيرًا [٢] وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا [٣]﴾ [الفرقان]، وقوله - جل وعلا - : ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الفرقان: ١١]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ [فاطر: ٤٠]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنَوِّى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الاحقاف: ١٧]، وقوله - جل وعلا - : ﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاسْتَعِصُوا لَهُ إِنَّكَ الَّذِي تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣]، وقوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ [٢٥] أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ... الآية [الطور: ٣٥]، [٣٦]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [٢٦] أَمْوَتْ غَيْرَ أَحْيَاءٍ، إلى غير ذلك من الآيات.

فهذه الآيات تبين أن الذي يستحق أن يعبد هو من يخلق الخلق، ويبرزهم من العدم إلى الوجود، أما غيره فهو مخلوق مربوب، محتاج إلى من يخلقه، ويدبر شؤنه.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه خلق الإنسان من نطفة، وهي مني الرجل ومني المرأة؛ بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢] أي أخلط من ماء الرجل وماء المرأة.

وقال صاحب (الدر المنثور) بعد ذكر بعض الروايات في تفسير الأمشاج بالأخلط من ماء الرجل وماء المرأة، وأخرج الطستى عن ابن عباس: أن نافع بن الأزرق قال: أخبرني عن قوله: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ قال: اختلاط ماء الرجل وماء المرأة إذا وقع في الرحم. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت أبا ذؤيب وهو يقول:

كأن الريش والفوقين منه خلال النصل خالطه مشيج

ونسب في (اللسان) هذا البيت لزهير بن حرام الهذلي، وأنشده هكذا:

كأن النصل والفوقين منها خلال الريش سيط به مشيج

قال: ورواه المبرد:

كأن المتن والشرحين منه خلاف النصل سيط به مشيح
قال: ورواه أبو عبيدة:

كأن الريش والفوقين منها خلال النصل سيط به المشيح
ومعنى «سيط به المشيح» خلط به الخلط.

إذا عرفت معنى ذلك، فاعلم أنه تعالى بين أن ذلك الماء الذي هو النطفة، منه ما هو خارج من الصلب، أي وهو ماء الرجل، ومنه ما هو خارج من الترائب وهو ماء المرأة، وذلك في قوله - جل وعلا -: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۚ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۖ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۗ﴾ [الطارق]؛ لأن المراد بالصلب صلب الرجل وهو ظهره، والمراد بالترائب ترائب المرأة وهي موضع القلادة منها، ومنه قول امرئ القيس:

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل
واستشهد ابن عباس لنافع بن الأزرق على أن الترائب موضع القلادة بقول المخبل أو ابن ربيعة:

والزعفران على ترائبها شرقا به اللبات والنحر
فقوله هنا: ﴿مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۗ﴾ يدل على أن الأمشاج هي الأخلاط المذكورة، وأمر الإنسان بأن ينظر مم خلق في قوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۚ﴾ [الطارق] تنبيه له على حقارة ما خلق منه؛ ليعرف قدره، ويترك التكبر والعتو، ويدل على ذلك قوله: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ۚ﴾ ... الآية [المرسلات].

وبين - جل وعلا - حقارته بقوله: ﴿أَبْطَغُ كُلُّ أَمْرٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۚ﴾ [المعارج] وَمَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ في غاية تحقير ذلك الأصل الذي خلق منه الإنسان، وفي ذلك أعظم ردع، وأبلغ زجر عن التكبر والتعظيم.

وقوله - جل وعلا -: ﴿إِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُتِينٌ﴾، أظهر القولين فيه أنه ذم للإنسان المذكور. والمعنى: خلقناه ليعبدنا ويخضع لنا ويطيع، ففاجأ بالخصومة والتكذيب، كما تدل عليه «إذا» الفجائية، ويوضح هذا المعنى قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۚ﴾ [الذاريات] مع قوله - جل وعلا -: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُتِينٌ ۚ﴾ [المعارج] وَمَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْجِ الْعِظَمُ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ [يس]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۚ﴾ [الفرقان] وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾، وقوله: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِثُّ لَسَوْفَ

أُخْرِجُ حَيًّا ﴿١١﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿١٢﴾ [مريم] إلى غير ذلك من الآيات، وسيأتي إن شاء الله تعالى زيادة إيضاح لهذا المبحث في «سورة الطارق».

قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه خلق الأنعام لبني آدم يتفنعون بها تفضلاً منه عليهم، وقد قدمنا في «آل عمران» أن القرآن بيّن أن الأنعام هي الأزواج الثمانية التي هي الذكر والأنثى من الإبل، والبقر، والضأن، والماعز، والمراد بالدفء على أظهر القولين: أنه اسم لما يدفأ به، كالملء اسم لما يملأ به، وهو الدفء من اللباس المصنوع من أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَانِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى خَمْسِينَ ﴿٥٩﴾﴾ وقيل: الدفء نسلها، والأول أظهر، والنسل داخل في قوله ﴿وَمَنْفَعٌ﴾ أي من نسلها ودرها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

ومنافع الأنعام التي بيّن الله - جل وعلا - امتنانه بها على خلقه في هذه الآية الكريمة، بينها لهم أيضاً في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [المؤمنون]، وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٦١﴾﴾ ولَكُمْ فِيهَا مَنْفَعٌ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ وَبُيُوتِكُمْ ءَايَتُهُ فَأَيُّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ [غافر]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمِلَتْ أَيْدِيًا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٦١﴾﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنْفَعٌ وَمَشَارِبٌ أَفْلا يَشْكُرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يسر] وقوله: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَالِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَكُمْ مُّقْرِنِينَ ﴿٧٦﴾﴾ وَإِنَّا إِلَهُ رَبَّنَا مُنْقِلُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزخرف]، وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَرْوَاحٍ﴾ [الزمر: ٦٦] إلى غير ذلك من الآيات.

والأظهر في إعراب «والأنعام» أن عامله وهو «خلق» اشتغل عنه بالضمير فنصب بفعل مقدر وجوباً يفسره «خلق» المذكور، على حد قول مالك في الخلاصة:

فالسابق أنصبه بفعل أضمرنا حتماً موافق لما قد أظهرنا

وإنما كان النصب هنا أرجح من الرفع؛ لأنه معطوف على معمول فعل، وهو قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ تُطْفَأَةٍ﴾، فيكون عطف الجملة الفعلية على الجملة الفعلية أولى من عطف الاسمية على الفعلية لو رفع الاسم السابق؛ وإلى هذا أشار ابن مالك في الخلاصة بقوله عاطفاً على ما يختار فيه النصب:

وبعد عاطف بلا فصل على معمول فعل مستقر أولاً

وقال بعض العلماء: إن قوله: «والأنعام» معطوف على «الإنسان» من قوله: «خلق الإنسان» والأول أظهر كما ترى.

وأظهر أوجه الإعراب في قوله: «لكم فيها دفع» أن قوله «دفع» مبتدأ خبره «لكم فيها» وسوغ الابتداء بالنكرة اعتمادها على الجار والمجرور قبلها وهو الخبر كما هو معروف؛ خلافاً لمن زعم أن «دفع» فاعل الجار والمجرور الذي هو: «لكم».

وفي الآية أوجه أخرى ذكرها بعض العلماء تركنا ذكرها لعدم اتجاهها عندنا، والعلم عند الله تعالى.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ [النحل: ٦] يعني أن اقتناء هذه الأنعام وملكيتهما فيه لمالكها عند الناس جمال؛ أي عظمة وزفعة، وسعادة في الدنيا لمقتنيها، وكذلك قال في الخيل والبغال والحمير «لتركبوها وزينة» فعبّر في الأنعام بالجمال، وفي غيرها بالزينة، والجمال: مصدر جمل فهو جميل وهي جميلة، ويقال أيضاً: هي جملاء؛ وأنشد لذلك الكسائي قول الشاعر:

فهي جملاء كبدر طالع بذات الخلق جميعاً بالجمال

والزينة: ما يتزين به. وكانت العرب تفتخر بالخيول والإبل ونحو ذلك، كالسلاح، ولا تفتخر بالبقر والغنم، ويدل على ذلك قول العباس بن مرداس يفتخر بمأثر قبيلته بني سليم:

واذكر بلاء سليم في مواطنها ففي سليم لأهل الفخر مفتخر

قوم هم نصبروا الرحمن واتبعوا دين الرسول وأمر الناس مشتجر

لا يغرسون فسيل النخل وسطهم ولا تخاور في مشتاهم البقر

إلا سوابح كالعقبان مقربة في دارة حولها الأخطار والعكر

والسوابح: الخيل، والمقربة: المهيأة المعدة قريباً، والأخطار: جمع خطر - بفتح السكون، أو كسر فسكون - وهو عدد كثير من الإبل على اختلاف في قدره. والعكر - بفتحيتين -: جمع عكرة، وهي القطيع الضخم من الإبل أيضاً على اختلاف في تحديد قدره. وقول الآخر:

لعمري لقوم قد برى أمس فيهم مرابط للأمهار والعكر الدثر

أحب إلينا من أناس بقنة يروح على آثار شائهم النمر

وقوله: «العكر الدثر» أي المال الكثير من الإبل، وبدأ بقوله: ﴿حِينَ تَرْمِيْنَ﴾ لأنها وقت الرواح أملاً ضروعاً وبطوناً منها وقت سراحها للمرعى.

وأظهر أوجه الإعراب في قوله: ﴿وَزَيْنَةٌ﴾ أنه مفعول لأجله، معطوف على ما قبله؛ أي لأجل الركوب والزينة.

قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه

يخلق ما لا يعلم المخاطبون وقت نزولها، وأبهم ذلك الذي يخلقه لتعبيره عنه بالموصول ولم يصرح هنا بشيء منه، ولكن قرينة ذكر ذلك في معرض الامتنان بالمركوبات تدل على أن منه ما هو من المركوبات، وقد شوهذ ذلك في إنعام الله على عباده بمركوبات لم تكن معلومة وقت نزول الآية، كالطائرات، والقطارات، والسيارات.

ويؤيد ذلك إشارة النبي ﷺ إلى ذلك في الحديث الصحيح. قال مسلم بن الحجاج ﷺ في صحيحه: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ليث، عن سعيد بن أبي سعيد، عن عطاء بن ميناء، عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والله لينزلن ابن مريم حكماً عادلاً فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية، ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد»، اهـ.

ومحل الشاهد من هذا الحديث الصحيح، قوله ﷺ: «ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها» فإنه قسم من النبي ﷺ أنه ستترك الإبل فلا يسعى عليها. وهذا مشاهد الآن للاستغناء عن ركوبها بالمرائب المذكورة.

وفي هذا الحديث معجزة عظيمة، تدل على صحة نبوته ﷺ وإن كانت معجزاته - صلوات الله عليه وسلامه - أكثر من أن تحصر.

وهذه الدلالة التي ذكرنا تسمى دلالة الاقتران، وقد ضعفها أكثر أهل الأصول، كما أشار له صاحب (مراقي السعود)، بقوله:

أما قران اللفظ في المشهور فلا يساوي في سوى المذكور

وصحح الاحتجاج بها بعض العلماء، ومقصودنا من الاستدلال بها هنا أن ذكر ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في معرض الامتنان بالمركوبات لا يقل عن قرينة دالة على أن الآية تشير إلى أن من المراد بها بعض المركوبات، كما قد ظهرت صحة ذلك بالعيان.

وقد ذكر في موضع آخر أنه يخلق ما لا يعلمه خلقه غير مقترن بالامتنان بالمركوبات، وذلك في قوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس].

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾. اعلم أولاً - أن قصد السبيل: هو الطريق المستقيم القاصد، الذي لا اعوجاج فيه، وهذا المعنى معروف في كلام العرب، ومنه قول زهير بن أبي سلمى المزني:

صحبا القلب عن سلمى وأقصر باطله	وعرى أفراس الصبا ورواحله
وأقصرت عما تعلمين وسددت	على سوى قصد السبيل معادله
وقول امرئ القيس:	

ومن الطريقة جائر وهدى	قصد السبيل ومنه ذو دخل
-----------------------	------------------------

فإذا علمت ذلك فاعلم أن في معنى الآية الكريمة وجهين معروفين للعلماء، وكل منهما له مصداق في كتاب الله، إلا أن أحدهما أظهر عندي من الآخر.

الأول منهما: أن معنى ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أن طريق الحق التي هي قصد السبيل على الله، أي موصلة إليه، ليست جائزة، ولا جائزة عن الوصول إليه وإلى مرضاته ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾؛ أي ومن الطريق جائر لا يصل إلى الله، بل هو زائغ وحائد عن الوصول إليه. ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا أَسْبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقوله: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [١٦١] [يس].

ويؤيد هذا التفسير قوله بعده: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ وهذا الوجه أظهر عندي، واستظهره ابن كثير وغيره، وهو قول مجاهد.

والوجه الثاني: أن معنى الآية الكريمة: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾؛ أي عليه - جل وعلا - أن يبين لكم طريق الحق على السنة رسله.

ويدل على هذا الوجه قوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَى رُسُلِنَا الْبَلَاغُ الْأَمِينُ﴾ [التغابن: ١٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

وعلى هذا القول، فمعنى قوله: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ غير واضح؛ لأن المعنى: ومن الطريق جائر عن الحق، وهو الذي نهاكم الله عن سلوكه، والجائر: المائل عن طريق الحق. والوجهان المذكوران في هذه الآية جاريان في قوله: ﴿إِنَّا عَلَيْنَا لَهِدَى﴾ [١٦٢] . . . الآية [الليل].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه لو شاء هداية جميع خلقه لهداهم أجمعين، وأوضح هذا المعنى في آيات أخر، كقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ١٠٧]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨]، إلى غير ذلك من الآيات. وقد قدمنا هذا في سورة يونس.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾.

تقدم الكلام على ما يوضح معنى هذه الآية الكريمة في سورة الحجر.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [١٠] يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [١١]. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن إنباته بالماء ما يأكله الناس من الحبوب والثمار، وما تأكله المواشي من المرعى - من أعظم نعمه على بني آدم، ومن أوضح آياته الدالة على أنه

هو المستحق لأن يعبد وحده، وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٦٧]، وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ [٥٤] ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [طه: ٥٤]، وقوله: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [٣٥] ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا﴾ [٣٦] ﴿وَالْجِبَالُ أَوَّاهًا مُنْمَقًا﴾ [٣٧] ﴿لَكُمْ لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [٣٨]، وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [١] ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ [٢] ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ [ق: الآية]، وقوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ لِمَنْ هُمْ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ١٠]، وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً مُنْجَايًا﴾ [٤] ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ [٥] ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ [١١] [النبا: ١١] والآيات بمثل هذا كثيرة جداً.

تنبيهان:

الأول: اعلم أن النظر في هذه الآيات واجب، لما تقرر في الأصول «أن صيغة الأمر تقتضي الوجوب إلا للدليل يصرفها عن الوجوب»، والله - جل وعلا - أمر الإنسان أن ينظر إلى طعامه الذي به حياته، ويفكر في الماء الذي هو سبب إنبات حبه - من أنزله؟! ثم بعد إنزال الماء وري الأرض من يقدر على شق الأرض من النبات وإخراجه منها؟! ثم من يقدر على إخراج الحب من ذلك النبات؟! ثم من يقدر على تنميته حتى يصير صالحاً للأكل؟! ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ [الأنعام: ٩٩]. وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ [٢٤] ﴿أَنَا صَبَّيْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ [٢٥] ﴿ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَفَاقًا﴾ [٢٦] ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ [٢٧] ﴿وَعَبًّا وَقَضْبًا﴾ [٢٨] ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ [٢٩] ﴿وَحَدَائِقَ غُلًّا﴾ [٣٥] ﴿وَفَيْكَةً وَأَبَا﴾ [٣٦] ﴿مَثَلًا لَكُمْ وَلِيَأْمُرَكُمْ﴾ [٣٧] ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَافَةُ﴾ [٣٨] [عبس: ٣٨].

وكذلك يجب على الإنسان النظر في الشيء الذي خلق منه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥] وظاهر القرآن أن النظر في ذلك واجب، ولا دليل يصرف عن ذلك.

التنبيه الثاني: اعلم أنه - جل وعلا - أشار في هذه الآيات من أول سورة «النحل» إلى براهين البعث الثلاثة التي قدمنا أن القرآن العظيم يكثر فيه الاستدلال بها على البعث:

الأول: خلق السماوات والأرض المذكور في قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٧٣]. والاستدلال بذلك على البعث كثير في القرآن، كقوله: ﴿وَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ أَسَافَةً بِئِنَّهَا﴾ [٧] ﴿رَفَعَ سَكَتَهَا﴾ [إلى قوله: ﴿مَثَلًا لَكُمْ وَلِيَأْمُرَكُمْ﴾ [٣٨] [النازعات]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ لِيُخْلِقْهُنَّ يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ الْمَوْتَى بَلَى﴾ [الأحاف: ٣٣]، وقوله: ﴿لَخَلَقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [٨١] [يس: ٨١] إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم.

البرهان الثاني: خلق الإنسان أولاً المذكور في قوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾؛ لأن من اخترع قادر على الإعادة ثانياً، وهذا يكثر الاستدلال به أيضاً على البعث، كقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٦]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ﴾ [الروم: ٢٧]، وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تَرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، وقوله: ﴿أَفَعَبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]، إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم.

البرهان الثالث: إحياء الأرض بعد موتها المذكور هنا في قوله: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ﴾، فإنه يكثر في القرآن الاستدلال به على البعث أيضاً، كقوله: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُجِي الْمَوْتِ﴾ [فصلت: ٣٩]، وقوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]، أي كذلك الإحياء خروجكم من قبوركم أحياء بعد الموت، وقوله: ﴿وَنُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩] أي من قبوركم أحياء بعد الموت، وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا نَفَقَالَا سَفْنَةً لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُحْيِي الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧] وقوله: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَائِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنبِتَتْ مِنْ كُلِّ دَوْحٍ بِهَيْجِ ذَلِكَ يَنَّ اللَّهُ هُوَ لَاقٍ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ١٦]، إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم.

فهذه البراهين الثلاثة يكثر جداً الاستدلال بها على البعث في كتاب الله كما رأيت وتقدم.

وهناك برهان رابع يكثر الاستدلال به على البعث أيضاً ولا ذكر له في هذه الآيات، وهو إحياء الله بعض الموتى في دار الدنيا، كما تقدمت الإشارة إليه في «سورة البقرة»؛ لأن من أحيا نفساً واحدة بعد موتها قادر على إحياء جميع النفوس: ﴿مَّا خَلَقْكُمْ وَلَا بَعَثْكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

وقد ذكر - جل وعلا - هذا البرهان في سورة البقرة، في خمسة مواضع:

الأول: قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥١].

الثاني: قوله: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣].

الثالث: قوله - جل وعلا -: ﴿فَقَالَ لَهُمْ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

الرابع: قوله: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى جِمَازِكَ وَرَجَعَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْوَطَائِرِ كَيْفَ تُنْشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

الخامس: قوله تعالى: ﴿قَالَ فَخَذَ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصَرَّهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعَاهُنَّ وَيَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِنَهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي ترعون مواشيك السائمة في ذلك الشجر الذي هو المرعى، والعرب تطلق اسم الشجر على ما تنبتة الأرض من المرعى، ومنه قول النمر بن تولب العكلي:

إنا أتيناك وقد طال السفر نقود خيلاً ضمراً فيها صغر
نطعمها اللحم إذا عز الشجر

والعرب تقول: سامت المواشي؛ إذا رعت في المرعى الذي ينبتة الله بالمطر، وأسامها صاحبها؛ أي رعاها فيه، ومنه قول الشاعر:

مثل ابن بزعة أو كآخر مثله أولى لك ابن مسيمة الأجمال
يعني يا ابن راعية الجمال التي تسيماها في المرعى.

وقوله: ﴿يُنَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ﴾ قرأه شعبه عن عاصم «نبت» بالنون، والباقون بالياء التحتية.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِئِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٢). ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه سخر لخلقه خمسة أشياء عظام، فيها من عظيم نعمته ما لا يعلمه إلا هو، وفيها الدلالات الواضحات لأهل العقول على أنه الواحد المستحق لأن يعبد وحده.

والخمس المذكورة هي: الليل، والنهار، والشمس، والقمر، والنجوم.

وكرر في القرآن ذكر إنعامه بتسخير هذه الأشياء، وأنها من أعظم أدلة وحدانيته واستحقاقه للعبادة وحده، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْمَرْثِيِّ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ يَطْلُبُهُ حِينًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِئِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وإغشاؤه الليل والنهار: هو تسخيرهما، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ١٢]. وقوله: ﴿وَعَايَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [الشمس: ١٧]. وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْنَا لَفْظِ الْقَدِيرِ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [القمر: ٢٨]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَاحِبٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]. وقوله: ﴿وَاللَّجَجُ هُمْ هَتُونَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

وفي هذه الآية الكريمة ثلاث قراءات سبعيات في الأسماء الأربعة الأخيرة التي هي الشمس، والقمر، والنجوم، ومسخرات؛ فقرأ بنصبها كلها نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وعاصم في رواية شعبة. وقرأ برفع الأسماء الأربعة: ابن عامر، على أن «والشمس» مبتدأ وما بعده معطوف عليه و«مسخرات» خبر المبتدأ،

وقرأ حفص عن عاصم بنصب «والشمس والقمر» عطفاً على «الليل والنهار» ورفع «والنجوم مسخرات» على أنه مبتدأ وخبر، وأظهر أوجه الإعراب في قوله: «مسخرات» على قراءة النصب أنها حال مؤكدة لعاملها، والتسخير في اللغة: التذليل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَذَكِّرُونَ﴾ (١٣). قوله: «وما» في محل نصب عطفاً على قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣] أي وسخر لكم ما ذرأ لكم في الأرض، أي ما خلق لكم فيها في حال كونه مختلفاً ألوانه.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة امتنانه على خلقه بما سخر لهم مما خلق لهم في الأرض، منبهاً على أن خلقه لما خلق لهم في الأرض مع ما فيه من النعم العظام، فيه الدلالة الواضحة لمن يذكر ويتعظ على وحدانيته واستحقاقه لأن يعبد وحده، وكرر هذا المعنى في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الحاشية: ١٣]، وقوله: ﴿وَالْأَرْضُ وَصَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ (١٤) فِيهَا فَتَكُهُمُ وَالشَّجَرُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١٥) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٦) فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٧) [الرحمن]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ دَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (١٨) [الملك].

وأشار في هذه الآية الكريمة إلى أن اختلاف ألوان ما خلق في الأرض من الناس والدواب وغيرهما من أعظم الأدلة على أنه خالق كل شيء، وأنه الرب وحده، المستحق أن يعبد وحده.

وأوضح هذا في آيات أخر، كقوله في «سورة فاطر»: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنًا وَعَرَابِيٌّ سُودٌ﴾ (١٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُمْ كَذَلِكَ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨]، وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَخَلَقَ السَّيِّئَاتِ وَالنَّاسَ وَالْأَنْعَامَ﴾ [الروم: ٢٢] ولا شك أن اختلاف الألوان والمناظر والمقادير والهيئات وغير ذلك، فيه الدلالة القاطعة على أن الله - جل وعلا - واحد، لا شبيه له ولا نظير ولا شريك، وأنه المعبود وحده.

وفيه الدلالة القاطعة على أن كل تأثير فهو بقدرته وإرادة الفاعل المختار، وأن الطبيعة لا تؤثر في شيء إلا بمشيئته - جل وعلا.

كما أوضح ذلك في قوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّرَةٌ وَجَعَتْ مِنْ أَعْتَابِ زَرْعٍ وَنَحِيلٍ صِنَوَانٍ وَغَيْرِ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَحِيدٍ وَفُضِّلَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٩) [الرعد] فالأرض التي تنبت فيها الثمار واحدة؛ لأن قطعها متجاورة، والماء الذي تسقى به ماء واحد، والثمار تخرج متفاضلة، مختلفة في الألوان والأشكال والطعوم، والمقادير والمنافع.

فهذا أعظم برهان قاطع على وجود فاعل مختار، يفعل ما يشاء كيف يشاء، سبحانه - جل وعلا - عن الشركاء والأنداد.

ومن أوضح الأدلة على أن الطبيعة لا تؤثر في شيء إلا بمشيئته - جل وعلا -، أن النار مع شدة طبيعة الإحراق فيها ألقى فيها الحطب وإبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -، ولا شك أن الحطب أصلب وأقسى وأقوى من جلد إبراهيم ولحمه؛ فأحرقت الحطب بحرهما، وكانت على إبراهيم برداً وسلاماً لما قال لها خالقها: ﴿يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] فسبحان من لا يقع شيء كائنًا ما كان إلا بمشيئته - جل وعلا -، فعال لما يريد.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿يَذْكُرُونَ﴾ أصله يتذكرون، فأدغمت التاء في الذال، والاذكار: الاعتبار والاعتاظ.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَىٰ الْفَلَكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [٧]. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنه سخر البحر؛ أي ذلله لعباده حتى تمكنوا من ركوبه، والانتفاع بما فيه من الصيد والحلية، وبلوغ الأقطار التي تحول دونها البحار، للحصول على أرباح التجارات ونحو ذلك.

فتسخير البحر للركوب من أعظم آيات الله، كما بينه في مواضع آخر، كقوله: ﴿وَأَيُّ لَمْ أَنَا حَمْلَانَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ﴾ [١١] وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ [١٢] [يس]، وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفَلَكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية] إلى غير ذلك من الآيات.

وذكر في هذه الآية أربع نعم من نعمه على خلقه بتسخير البحر لهم:

الأولى: قوله: ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وكرر الامتنان بهذه النعمة في القرآن؛ كقوله: ﴿أَمِلْ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَآرَةِ﴾ [المائدة: ٩٦]، وقوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [فاطر: ١٢].

الثانية: قوله: ﴿وَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وكرر الامتنان بهذه النعمة أيضاً في القرآن، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [٧] فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكُمَا تَكْذِبَانِ [١٣] [الرحمن] واللؤلؤ والمرجان: هما الحلية التي يستخرجونها من البحر للبسها، وقوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ الْفَلَكَ مَوَاجِرَ فِيهِ﴾ وكرر في القرآن الامتنان بشق أمواج البحر على السفن، كقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [١١] وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ [١٢]، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

الرابعة: الابتغاء من فضله بأرباح التجارات بواسطة الحمل على السفن المذكور

في قوله هنا: ﴿وَلِتَسْتَبْغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾؛ أي كأرباح التجارات، وكرر في القرآن الامتنان بهذه النعمة أيضاً، كقوله في «سورة البقرة»: ﴿وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقوله في «فاطر»: ﴿وَوَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَآخِرَ لِمَنْ يَنْتَبِغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢]، وقوله في «الجاثية»: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِيَتَجَرَّيَ الْفُلْكَ فِيهِ يَأْتِرُوا وَلِتَسْتَبْغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢] إلى غير ذلك من الآيات.

تنبيه: فإن قيل: عموم حديث حذيفة المذكور الذي استدللتم به، وبيان القرآن أنه شامل للبس الفضة والشرب فيها، وقلتم: إن كونه وارداً في الشرب في آنية الفضة لا يجعله خاصاً بذلك، فما الدليل في ذلك على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؟ فالجواب: أن النبي ﷺ سئل عما معناه: هل العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب؟ فأجاب بما معناه: أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قال البخاري في صحيحه: حدثنا مسدد، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا سليمان التيمي، عن أبي عثمان، عن ابن مسعود - رضي الله تعالى عنه -: أن رجلاً أصاب من امرأة قبله، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فأنزلت عليه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النِّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَيْلٍ إِنَّ أَحْسَنَ يَذْهَبَ أَلْسِنَاتٍ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤] [هود] قال الرجل: ألي هذه؟ قال: «لمن عمل بها من أمتي»، اهـ. هذا لفظ البخاري في التفسير في «سورة هود»، وفي رواية في الصحيح قال: «لجميع أمتي كلهم»، اهـ.

فهذا الذي أصاب القبله من المرأة نزلت في خصوصه آية عامة اللفظ، فقال للنبي ﷺ: ألي هذه؟ ومعنى ذلك: هل النص خاص بي لأنني سبب وروده؟ أو هو على عموم لفظه؟ وقول النبي ﷺ له: «لجميع أمتي» معناه أن العبرة بعموم لفظ ﴿إِنَّ أَحْسَنَ يَذْهَبَ أَلْسِنَاتٍ﴾ [هود: ١١٤] لا بخصوص السبب، والعلم عند الله تعالى.

وقوله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: ﴿وَوَرَى الْفُلْكَ﴾ أي السفن، وقد دل القرآن على أن «الفلك» يطلق على الواحد وعلى الجمع، وأنه إن أطلق على الواحد ذكر، وإن أطلق على الجمع أنثى، فأطلقه على المفرد مذكراً في قوله: ﴿وَمَا يَهُ هُم أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكَ الْمَسْجُونِ﴾ [١١] وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ [١٢] [يس]. وأطلقه على الجمع مؤنثاً في قوله: ﴿وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقوله: ﴿مَوَآخِرَ﴾ جمع ماخرة، وهو اسم فاعل، مخرت السفينة تمخر - بالفتح - وتمخر - بالضم - مخراً ومخوراً: جرت في البحر تشق الماء مع صوت. وقيل: استقبلت الريح في جريتها، والأظهر في قوله: ﴿وَلِتَسْتَبْغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أنه معطوف على قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْهُ لَحَمًا طَرِيًّا﴾ و«العل» هنا للتعليل كما تقدم.

والشكر في الشرع: يطلق من العبد لربه؛ كقوله هنا ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وشكر العبد لربه: هو استعماله نعمه التي أنعم عليه بها في طاعته، وأما من يستعين بنعم الله على معصيته فليس من الشاكرين؛ وإنما هو كنود كفور.

وشكر الرب لعبده المذكور في القرآن كقوله: **إِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ** [البقرة: ١٥٨] وقوله: **إِنَّكَ رَبَّنَا لَقَفُورٌ شَكُورٌ** [فاطر: ٣٤]: هو أن يشيب عبده الشواب الجزيل من العمل القليل، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: **وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَرَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴿١٥﴾ **وَعَلَّمَكُم مَّا يَلْتَمِسُونَ هُم يَهْتَدُونَ** ﴿١٦﴾ ذكر - جل وعلا - في هاتين الآيتين أربع نعم من نعمه على خلقه، مبيناً لهم عظيم منته عليهم بها:

الأولى: إلقاءه الجبال في الأرض لتثبت ولا تتحرك، وكرر الامتنان بهذه النعمة في القرآن كقوله: **أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا** ﴿١﴾ **وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا** ﴿٧﴾ [الأنبياء]، وقوله: **وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوْسًا** [المرسلات: ٢٧]، وقوله - جل وعلا -: **خَلَقَ السَّمَوَاتِ يَغْفِرَ عَمَلِ تَرْوَنَهَا وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ** [لقمان: ١٠]، وقوله: **وَالْجِبَالَ أَرْسَسْنَا** ﴿٣٣﴾ [النازعات]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً، ومعنى تميد: تميل وتضطرب.

وفي معنى قوله: **﴿أَنْ﴾** [الصف: ٣] وجهان معروفان للعلماء: أحدهما: كراهة أن تميد بكم. وثانيهما: أن المعنى: لئلا تميد بكم؛ وهما متقاربان.

الثانية: إجراؤه الأنهار في الأرض المذكورة هنا في قوله: **﴿وَأَنْهَرَ﴾** [الرعد: ٣] وكرر تعالى في القرآن الامتنان بتفجير الماء في الأرض لخلقها: كقوله: **﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾** ﴿٢٢﴾ **وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ** [إبراهيم: ٣٢، ٣٣]، وقوله: **﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾** ﴿١٨﴾ **أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ** ﴿١٩﴾ **لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ** ﴿٢٠﴾ [الواقعة]، وقوله: **﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾** ﴿٢٤﴾ **لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾** [يس: ٣٤، ٣٥]...

الثالثة: جعله في الأرض سبلاً يسلكها الناس، ويسيرون فيها من قطر إلى قطر في طلب حاجاتهم المذكورة هنا في قوله: **﴿وَسُبُلًا﴾** وهو جمع سبيل بمعنى الطريق، وكرر الامتنان بذلك في القرآن، كقوله: **﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾** [الأنبياء: ٣١]، وقوله: **﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾** ﴿١٦﴾ **لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا** ﴿١٥﴾ [نوح]، وقوله: **﴿قَالَ عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾** ﴿٥٢﴾ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ فِيهَا سُبُلًا** [طه: ٥٢، ٥٣]، وقوله: **﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾** [الملك: ١٥]، وقوله: **﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾** ﴿١﴾ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴿١٥﴾ [الزخرف]، إلى غير ذلك من الآيات.

الرابعة: جعله العلامات لبني آدم؛ ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر المذكور هنا في قوله: **﴿وَعَلَّمَكُم مَّا يَلْتَمِسُونَ هُم يَهْتَدُونَ﴾** ﴿١٦﴾، وقد ذكر الامتنان بنحو ذلك في القرآن في قوله: **﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾** [الأنعام: ٩٧].

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾، تقدم بيان مثل هذه الآية في موضعين.
قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٨).

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن بني آدم لا يقدرّون على إحصاء نعم الله لكثرتها عليهم، وأتبع ذلك بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فدل ذلك على تقصير بني آدم في شكر تلك النعم، وأن الله يغفر لمن تاب منهم، ويغفر لمن شاء أن يغفر له ذلك التقصير في شكر النعم، وبين هذا المفهوم المشار إليه هنا بقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وبين في موضع آخر أن كل النعم على بني آدم منه - جل وعلا -، وذلك في قوله: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾. وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن المفرد إذا كان اسم جنس وأضيف إلى معرفة أنه يعم كما تقرر في الأصول؛ لأن «نعمة الله» مفرد أضيف إلى معرفة فعم النعم؛ وإليه الإشارة بقول صاحب (مراقي السعود) عاطفاً على صيغ العموم: أو بإضافة إلى معرف إذا تحقق الخصوص قد نفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أُسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٤).

ذكر - جل علا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار إذا سئلوا عما أنزل الله على نبيه محمد ﷺ قالوا: لم ينزل عليه شيء، وإنما هذا الذي يتكلم به من أساطير الأولين، نقله من كتبهم، والأساطير: جمع أسطورة أو إسطورة، وهي الشيء المسطور في كتب الأقدمين من الأكاذيب والأباطيل، أصلها من سطر: إذا كتب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُتِبَ مَسْطُورٌ﴾ [الطور]. وقال بعض العلماء: الأساطير: الترهات والأباطيل، وأوضح هذا المعنى في آيات أخرى، كقوله: ﴿وَقَالُوا أُسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكُتِبَ فِيهِ شَيْءٌ عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان]، وقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أُسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿مَاذَا﴾ [البقرة: ٢٦] يحتمل أن تكون «ذا» موصولة و«ما» مبتدأ، وجملة «أنزل» صلة الموصول، والموصول وصلته خبر المبتدأ، ويحتمل أن يكون مجموعها اسماً واحداً في محل نصب، على أنه مفعول «أنزل» كما أشار له في الخلاصة بقوله: ومثل ماذا بعد ما استفهام أو من إذا لم تلغ في الكلام

وبين - جل وعلا - كذب الكفار في دعواهم أن القرآن أساطير الأولين بقوله: ﴿قُلْ أُنْزِلَ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ [الفرقان: ٦]، ويقولونه هنا: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِيدُونَ﴾ (١٩). ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن أولئك الكفار الذين يصرفون الناس عن القرآن بدعواهم أنه أساطير الأولين، تحملوا أوزارهم - أي ذنوبهم - كاملة، وبعض أوزار أتباعهم الذين اتبعوهم في الضلال، كما يدل عليه حرف التبعية الذي هو «من» في قوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾... الآية.

وقال القرطبي: «من» لبيان الجنس، فهم يحملون مثل أوزار من أضلوهم كاملة.
وأوضح تعالى هذا المعنى في قوله: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أُنْقَالَهُمْ وَأَتْقَالًا مَعَ أُنْقَالِهِمْ وَلِيَسْتَلْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت] واللام في قوله: ﴿لِيَحْمِلُوا﴾ تتعلق بمحذوف دل المقام عليه، أي قدرنا عليهم أن يقولوا في القرآن: أساطير الأولين؛ ليحملوا أوزارهم.

تنبيه: فإن قيل: ما وجه تحملهم بعض أوزار غيرهم المنصوص عليه بقوله: ﴿وَيَنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أُنْقَالَهُمْ وَأَتْقَالًا مَعَ أُنْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] مع أن الله يقول: ﴿وَلَا يُزِرُّ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ويقول - جل وعلا -: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ويقول ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، إلى غير ذلك من الآيات. فالجواب - والله تعالى أعلم - أن رؤساء الضلال وقادته تحملوا وزرين: أحدهما: وزر ضلالهم في أنفسهم.

وثانيهما: وزر إضلالهم غيرهم؛ لأن من سنَّ سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً، وإنما أخذ بعمل غيره لأنه هو الذي سنه وتسبب فيه، فعوقب عليه من هذه الجهة لأنه من فعله، فصار غير مناف لقوله: ﴿وَلَا يُزِرُّ وَازِرَةٌ﴾... الآية [الأنعام: ١٦٤].

وقال مسلم بن الحجاج رحمته الله في صحيحه: حدثني زهير بن حرب، حدثنا جرير بن عبد الحميد، عن الأعمش، عن موسى بن عبد الله بن يزيد، وأبي الضحى عن عبد الرحمن بن هلال العبسي عن جرير بن عبد الله قال: جاء ناس من الأعراب إلى رسول الله ﷺ عليهم الصوف: فرأى سوء حالهم، قد أصابتهم حاجة، فحث الناس على الصدقة فأبطلوا عنه حتى روي ذلك في وجهه، قال: ثم إن رجلاً من الأنصار جاء بضرة من ورق، ثم جاء آخر، ثم تتابعوا حتى عُرف السرور في وجهه، فقال رسول الله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء»، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء»، اهـ.

أخرج مسلم في صحيحه هذا الحديث عن جرير بن عبد الله من طرق متعددة، وأخرجه نحوه أيضاً من حديث أبي هريرة بلفظ: أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»، اهـ.

قال مقيد - عفا الله عنه -: هذه النصوص الصحيحة تدل على رفع الإشكال بين الآيات، كما تدل على أن جميع حسنات هذه الأمة في صحيفة النبي ﷺ، فله مثل

أجور جميعهم؛ لأنه - صلوات الله عليه وسلامه - هو الذي سنَّ لهم السنن الحسنة جميعها في الإسلام، نرجو الله له الوسيلة والدرجة الرفيعة، وأن يصلي ويسلم عليه أتم صلاة وأزكى سلام.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿يَغْيِرْ عَلَيْهِ﴾ يدل على أن الكافر غير معذور بعد إبلاغ الرسول المؤيد بالمعجزات، الذي لا لبس معه في الحق، ولو كان يظن أن كفره هدى؛ لأنه ما منعه من معرفة الحق مع ظهوره إلا شدة التعصب للكفر، كما قدمنا الآيات الدالة على ذلك في الأعراف، كقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا أَشْيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وقوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الأنبياء: ١٠٣] الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٧]، وقوله: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] وحملهم أوزارهم هو اكتسابهم الإثم الذي هو سبب ترديهم في النار، أعاذنا الله والمسلمين منها؟

وقال بعض العلماء: معنى حملهم أوزارهم: أن الواحد منهم عند خروجه من قبره يوم القيامة يستقبله شيء كأقبح صورة، وأنتنها ريحاً؛ فيقول: من أنت؟ فيقول: أو ما تعرفني! فيقول: لا والله، إلا أن الله قبح وجهك! وأنتن ريحك! فيقول: أنا عمك الخبيث، كنت في الدنيا خبيث العمل متنته فطالما ركبتني في الدنيا! هلم أركبك اليوم؛ فيركب على ظهره، اهـ.

وقوله: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُّوكَ﴾ «ساء» فعل جامد؛ لإنشاء الذم بمعنى بش، و«ما» فيها الوجهان المشار إليهما بقوله في الخلاصة:

وما مميز وقيل فاعل في نحو نعم ما يقول الفاضل

وقوله: ﴿يَزُرُّوكَ﴾ أي يحملون، وقال قتادة: يعملون، اهـ.

قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار الذين كانوا قبل كفار مكة قد مكروا؛ وبين ذلك في مواضع آخر، كقوله: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٤٢]، وقوله: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولِ مِنْهُ الْجَبَالِ﴾ [إبراهيم: ١١].

وبين بعض مكر كفار مكة بقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وذكر بعض مكر اليهود بقوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وبين بعض مكر قوم صالح بقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٥١]، فَنَنْظُرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١].

وذكر بعض مكر قوم نوح بقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ [٢٣] وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ

وبيّن مكر رؤساء الكفار في قوله: ﴿بَلْ مَكْرُ الْإِلِّ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ [سبأ: ٣٣]. والمكر: إظهار الطيب وإبطان الخبيث، وهو الخديعة. وقد بيّن - جل وعلا - أن المكر السيئ لا يرجع ضرره إلا على فاعله؛ وذلك في قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بُنِيَْنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾. أي اجتثه من أصله واقتلعه من أساسه، فأبطل عملهم وأسقط بنيانهم، وهذا الذي فعل بهؤلاء الكفار الذين هم نمروذ وقومه، كما قدمنا في «سورة الحجر»، فعل مثله أيضاً بغيرهم من الكفار؛ فأبطل ما كانوا يفعلون ويدبرون، كقوله: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقوله: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله: ﴿فَأَنذَرْتَهُمْ اللَّهَ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرِبُونَ يُلُوبِهِمْ بِأَيْدِيهِمُ وَالْمُؤْمِنِينَ فَاغْتَبَرُوا يَتَأَوَّلُوا الْآبَصِرَ﴾ [الحشر: ٢] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِبُهُمْ﴾. أي يفضحهم على رؤوس الأشهاد ويهينهم بإظهار فضائحهم، وما كانت تجنه ضمائرهم، فيجعله علانية. وبيّن هذا المعنى في مواضع آخر، كقوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَاسٌ فِي الْقُبُورِ ۖ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات]؛ أي أظهر علانية ما كانت تكنه الصدور، وقوله: ﴿يَوْمَ تَبْلُ السَّرَابُ﴾ [الطارق].

وقد بيّن - جل وعلا - في موضع آخر أن من أدخل النار فقد ناله هذا الخزي المذكور، وذلك في قوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران: ١٩٢] وقد قدمنا في سورة «هود» إيضاح معنى الخزي.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ابْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْكِنُونَ فِيهِمْ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يسأل المشركين يوم القيامة سؤال توبيخ، فيقول لهم: أين المعبودات التي كنتم تخاصمون رسلي وأتباعهم بسببها، قائلين: إنكم لا بد لكم أن تشركوها معي في عبادتي!

وأوضح هذا المعنى في مواضع آخر، كقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ ابْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٢٢]، وقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ابْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ [٢٣] من دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ۖ﴾ [الشعراء: ٢٢]، وقوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ ابْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [٢٤] من دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ۖ﴾ [غافر: ٧٣، ٧٤]، وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا ابْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ۖ﴾ [الأعراف: ٣٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقرأ عامة القراء ﴿شُرَكَائِيَ﴾ بالهمزة وياء المتكلم، ويروى عن ابن كثير من رواية البزي أنه قرأ «شركاي» بياء المتكلم دون همز، ولم تثبت هذه القراءة. وقرأ الجمهور ﴿تُشْكِنُونَ﴾ بنون الرفع مفتوحة مع حذف المفعول. وقرأ نافع «تشاقون» بكسر النون الخفيفة التي هي نون الوقاية، والمفعول به ياء المتكلم المدلول عليها بالكسرة مع

حذف نون الرفع، لجواز حذفها من غير ناصب ولا جازم إذا اجتمعت مع نون الوقاية، كما تقدم تحريره في «سورة الحجر» في الكلام على قوله: ﴿فَيَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [الحجر: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿فَأَلْقُوا السَّلَمَ﴾. أي الاستسلام والخضوع، والمعنى أظهرها كمال الطاعة والانقياد، وتركوا ما كانوا عليه من الشقاق. وذلك عندما يعاينون الموت، أو يوم القيامة، يعني أنهم في الدنيا يشاقون الرسل؛ أي يخالفونهم ويعادونهم، فإذا عاينوا الحقيقة ألقوا السلم، أي خضعوا واستسلموا وانقادوا حيث لا ينفعهم ذلك. ومما يدل في القرآن على أن المراد بإلقاء السلم: الخضوع والاستسلام قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤] على قراءة نافع وابن عامر وحمزة بلا ألف بعد اللام؛ بمعنى الانقياد والإذعان، وقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضَ لَكُمْ فَلَمْ يُقْبَلْكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾ [النساء: ٩٠]، وقوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْزِلْكُمْ وَيَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾ [النساء: ٩١].

والقول بأن السلم في الآيتين الأخيرتين: الصلح والمهادنة لا ينافي ما ذكرنا؛ لأن المصالح منقاد مذعن لما وافق عليه من ترك سوء، وقوله: ﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَرُونَ﴾ [النحل: ٨٧] فكله بمعنى الاستسلام والخضوع والانقياد. والانقياد عند معاينة الموت لا ينفع، كما قدمنا، وكما دلت عليه آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِسْلَامَ﴾ [النساء: ١٨]، وقوله: ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا﴾ [غافر: ٨٥]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ١١]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. يعني أن الذين تتوفاهم الملائكة في حال كونهم ظالمي أنفسهم إذا عاينوا الحقيقة ألقوا السلم وقالوا: ما كنا نعمل من سوء، فقوله: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ معمول قول محذوف بلا خوف. والمعنى أنهم ينكرون ما كانوا يعملون من سوء، وهو الكفر وتكذيب الرسل والمعاصي، وقد بين الله كذبهم بقوله: ﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وبين في مواضع آخر أنهم ينكرون ما كانوا عليه من الكفر والمعاصي كما ذكر هنا، وبين كذبهم في ذلك أيضاً؛ كقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [٢٣] أَظْهَرَ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَرُونَ [٢٤] [الأنعام]، وقوله: ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ [غافر: ٧٤] وقوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَقُولُونَ لَمْ كُنَّا بِمُحِلِّينَ لَكُمْ وَنَحْسَبُكُمْ أَنكُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ آلَاءَ إِنْتُمْ هُمْ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ٨]، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ حَبْرًا مَنجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢] أي حراماً محرماً أن تمسونا بسوء؛ لأننا لم نفعل ما نستحق به ذلك، إلى غير ذلك من الآيات. وقوله هنا «بلى» تكذيب لهم في قولهم: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾.

تنبيه: لفظة «بلى» لا تأتي في اللغة العربية إلا لأحد معنيين لا ثالث لهما:

الأول: أن تأتي لإبطال نفي سابق في الكلام، فهي نقيضة، «لا»؛ لأن «لا» لنفي الإثبات، و«بلى» لنفي النفي؛ كقوله هنا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ فهذا النفي نفته لفظة «بلى»؛ أي كنتم تعملون السوء من الكفر والمعاصي؛ وكقوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثَنَّ﴾ [التغابن: ٧]، وكقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبا: ٣] وقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] فإنه نفى هذا النفي بقوله - جل وعلا -: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ...﴾ الآية [البقرة: ١١٢]، ومثل هذا كثير في القرآن وفي كلام العرب.

الثاني: أن تكون جواباً لاستفهام مقترن بنفي خاصة، كقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ﴾ [يس: ٨١]، وقوله: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [غافر: ٥٠]، وهذا أيضاً كثير في القرآن وفي كلام العرب، أما إذا كان الاستفهام غير مقترن بنفي فجوابه بـ«نعم» لا بـ«بلى» وجواب الاستفهام المقترن بنفي و«نعم» مسموع غير قياسي، كقوله:

أليس الليل يجمع أم عمرو وإيانا فذاك لنا تداني
نعم، وترى الهلال كما أراه ويعلوها النهار كما علاني

فالمحل لـ«بلى» لا لـ«نعم» في هذا البيت.

فإن قيل: هذه الآيات تدل على أن الكفار يكتمون يوم القيامة ما كانوا عليه من الكفر والمعاصي، كقوله عنهم: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقوله: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ ونحو ذلك مع أن الله صرح بأنهم لا يكتمون حديثاً في قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

فالجواب: هو ما قدمنا من أنهم يقولون بالسنتهم: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، فيختم الله على أفواههم، وتكلم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يكسبون، فالكتم باعتبار النطق بالجحد وبالألسنة. وعدم الكتم باعتبار شهادة أعضائهم عليهم والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّخَلَّوْا أَوْبَ جَهَنَّمَ﴾. لم يبين هنا عدد أبوابها، ولكنه بين ذلك في «سورة الحجر» في قوله - جل وعلا -: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: ١٦] أرجو الله أن يعيذنا وإخواننا المسلمين منها ومن جميع أبوابها! إنه رحيم كريم. قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن المتقين إذا سئلوا عما أنزل الله على رسول الله ﷺ قالوا: أنزل عليه خيراً؛ أي رحمة وهدي وبركة لمن اتبعه وآمن به، ويفهم من صفة أهل هذا الجواب بكونهم متقين - أن غير المتقين يجيبون جواباً غير هذا. وقد صرح تعالى بهذا المفهوم في قوله عن غير المتقين وهم الكفار: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ كما تقدم.

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من أحسن عمله في هذه الدار التي هي الدنيا كان له عند الله الجزاء الحسن في الآخرة. وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتَىٰ أَرْسِلْنَا سَ بَاطِلًا مِّن دُونِ اللَّهِ خَلْقًا مِّثْلَ مَا فَسَدُوا فِي الدُّنْيَا إِنَّا كَاشِفُوهُمْ إِلَىٰ أَرْضٍ مَّوَدَّعَةٍ وَسَ بَاطِلًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٢٦]. والحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم. وقوله: ﴿وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١]، وقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٤١]، وقوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل: ٨٩]، وقوله في هذه الآية: ﴿حَسَنَةٌ﴾؛ أي مجازاة حسنة بالجنة ونعيمها، والآيات في مثل ذلك كثيرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن دار الآخرة خير من دار الدنيا، وكرز هذا المعنى في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ [الفصص: ٨٠]، وقوله: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْآبَرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ١١]، وقوله: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [١٧] [الأعلى]، وقوله: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ١]، وقوله: ﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ﴾ [١٤]، قل أَوْثِنْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّن ذَ لِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ [آل عمران: ١٤، ١٥]. وقوله: «خير» صيغة تفضيل، حذف همزتها لكثرة الاستعمال تخفيفاً؛ وإليه أشار ابن مالك في الكافية بقوله:

وغالباً أغناهم خير وشر عن قولهم أخير منه وأشر

وإنما قيل لتلك الدار: الدار الآخرة؛ لأنها هي آخر المنازل، فلا انتقال عنها البتة إلى دار أخرى. والإنسان قبل الوصول إليها ينتقل من محل إلى محل، فأول ابتدائه من التراب، ثم انتقل من أصل التراب إلى أصل النطفة، ثم إلى العلقة، ثم إلى المضغة، ثم إلى العظام، ثم كسا الله العظام لحماً، وأنشأها خلقاً آخر، وأخرجها للعالم في هذه الدار، ثم ينتقل إلى القبر، ثم إلى المحشر، ثم يفرقون ﴿يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ [الزلزلة: ٦] فسالك ذات اليمين إلى الجنة، وسالك ذات الشمال إلى النار ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَقُونَ﴾ [١٤] فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَائِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ [الروم].

فإذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار - فعند ذلك تلقى عصا التسيار، ويذبح الموت، ويقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت! يا أهل النار خلود فلا موت! ويبقى ذلك دائماً لا انقطاع له ولا تحول عنه إلى محل آخر.

فهذا معنى وصفها بالآخرة، كما أوضحه - جل وعلا - بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [١٢] ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْثَةَ عَ لَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَ لَقَةَ

مُضِيقَةً فَخَلَقْنَا الْمُضِيقَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿٤٦﴾ [المؤمنون].

تنبيه: أضاف - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة الدار إلى الآخرة، مع أن الدار هي الآخرة بدليل قوله: ﴿وَلِلْآخِرَةِ﴾ الآية [الأنعام: ٣٢]، بتعريف الدار ونعتها بالآخرة في غير هذا الموضع، وعلى مقتضى قول ابن مالك في الخلاصة:

ولا يضاف اسم لما به اتحد معنى وأول موهما إذا ورد

فإن لفظ «الدار» يؤول بمسمى الآخرة، وقد بينا في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في «سورة فاطر» في الكلام على قوله: ﴿وَمَكَرَ السَّيِّئُ﴾ [فاطر: ٤٣] أن الذي يظهر لنا أن إضافة الشيء إلى نفسه بلفظين مختلفين - أسلوب من أساليب اللغة العربية؛ لتنزيل التغيرات في اللفظ منزلة التغيرات في المعنى، وبيننا كثرته في القرآن، وفي كلام العرب، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَنَعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

مدح الله - جل وعلا - دار المتقين التي هي الجنة في هذه الآية الكريمة؛ لأن «نعم» فعل جامد لإنشاء المدح. وكرر الثناء عليها في آيات كثيرة؛ لأن فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ نِعَمًا وَمَلَأْنَا كَيْدًا﴾ [الإنسان]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

قوله تعالى: ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن المتقين يدخلون يوم القيامة جنات عدن، والعدن في لغة العرب: الإقامة، فمعنى جنات عدن: جنات إقامة في النعيم، لا يرحلون عنها، ولا يتحولون. وبين في آيات كثيرة أنهم مقيمون في الجنة على الدوام، كما أشار له هنا بلفظة «عدن»، كقوله: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]، وقوله: ﴿الَّذِينَ أُطْلِقُوا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ﴾ [فاطر: ٣٥]. والمقامة: الإقامة. وقد تقرر في التصريف: أن الفعل إذا زاد على ثلاثة أحرف فالمصدر الميمي منه، واسم الزمان، واسم المكان كلها بصيغة اسم المفعول، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان] على قراءة نافع وابن عامر بضم الميم من الإقامة. وقوله: ﴿قِيمًا لِّبَذْرِ بَاسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ ﴿١﴾ مُكَيِّتٍ فِيهِ أَبَدًا ﴿٢﴾ [الكهف]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿يَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بين أنواع تلك الأنهار في قوله: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ إلى قوله: ﴿مِّن سَلْسَلٍ مَّصْقُوطٍ﴾ [محمد: ١٥]، وقوله هنا: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ أوضحه في مواضع أخرى؛ كقوله: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا

مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ [ق]، وقوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتَ فِيهَا خَالِدٌ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ ﴿٣٦﴾ [الفرقان]، وقوله: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ [الزمر]، وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ تَزَلَا مِنْ عَفْوَهِ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ [فصلت]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية: ﴿كَذَلِكَ يَجْرَى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ يدل على أن تقوى الله هو السبب الذي به تنال الجنة. وقد أوضح تعالى هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ ﴿١٣﴾ [مريم]، وقوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٣١﴾ [آل عمران]، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿٤٥﴾ [الحجر]، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعِجْرٍ﴾ ﴿٧﴾ [الطور] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوْفَّعْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ طِينًا يَقُولُونَ سَلِّمْ عَلَيْنَا أَدْخِلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣٢﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن المتقين الذين كانوا يمثلون أوامر ربهم، ويجتنبون نواهيه تتوفاهم الملائكة، أي يقبضون أرواحهم في حال كونهم طيبين؛ أي طاهرين من الشرك والمعاصي - على أصح التفسيرات - ويبشرونهم بالجنة، ويسلمون عليهم. وبين هذا المعنى أيضاً في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ [فصلت]، وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمْ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ ﴿٢٢﴾ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَىٰ الَّذِينَ ﴿١٤﴾ [الرعد]، والبشارة عند الموت، وعند دخول الجنة من باب واحد؛ لأنها بشارة بالخير بعد الانتقال إلى الآخرة. ويفهم من صفات هؤلاء الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ويقولون لهم سلام عليكم ادخلوا الجنة، أن الذين لم يتصفوا بالتقوى لم تتوفهم الملائكة على تلك الحال الكريمة، ولم تسلم عليهم، ولم تبشرهم.

وقد بين تعالى هذا المفهوم في مواضع أخر، كقوله: ﴿الَّذِينَ تَوْفَّعْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظِلَالِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا لَسَلَامٌ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوْفَّعْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظِلَالِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيهِمْ كُنْتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿تَوْفَّعْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظِلَالِي أَنفُسِهِمْ﴾ وقوله: ﴿تَوْفَّعْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ طِينًا﴾، قراءتهما عامة القراء غير حمزة «توفاهم» بتاءين فوقيتين، وقرأ حمزة «يتوفاهم» بالياء في الموضعين. تنبيه: أسند هنا - جل وعلا - التوفي للملائكة في قوله: ﴿تَوْفَّعْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾

وأسنده في «السجدة» لملك الموت في قوله: ﴿قُلْ يَتُوبُكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجد: ١١]،
وأسنده في «الزمر» إلى نفسه - جل وعلا - في قوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾
[الزمر: ٤٢]. وقد بينا في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة
«السجدة»: أنه لا معارضة بين الآيات المذكورة؛ فإسناده التوفي لنفسه؛ لأنه لا يموت
أحد إلا بمشيئته تعالى، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا
مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وأسنده لملك الموت؛ لأنه هو المأمور بقبض الأرواح،
وأسنده إلى الملائكة لأن لملك الموت أعواناً من الملائكة ينزعون الروح من الجسد
إلى الحلقوم فيأخذها ملك الموت، كما قاله بعض العلماء، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه بعث في كل أمة رسولا بعبادة الله
وحده، واجتناب عبادة ما سواه، وهذا هو معنى «لا إله إلا الله»؛ لأنها مركبة في نفي
وإثبات، فنفيها هو خلع جميع المعبودات غير الله تعالى في جميع أنواع العبادات،
وإثباتها هو إفراده - جل وعلا - بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي
شرعه على السنة رسله عليهم صلوات الله وسلامه.

وأوضح هذا المعنى كثيراً في القرآن عن طريق العموم والخصوص، فمن
النصوص الدالة عليه مع عمومها قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي
إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقوله: ﴿وَنَسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ
رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ١٥]، ونحو ذلك من الآيات.

ومن النصوص الدالة عليه مع الخصوص في أفراد الأنبياء وأممهم قوله تعالى:
﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [الأعراف: ٥٩]،
وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُودًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [الأعراف: ٦٥]،
وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ مَكَّةَ قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ
غَيْرِي﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ مَكَّةَ قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا
لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [الأعراف: ٨٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

واعلم أن كل ما عبد من دون الله، فهو طاغوت، ولا تنفع عبادة الله إلا بشرط
اجتناب عبادة ما سواه، كما بينه تعالى بقوله: ﴿فَمَنْ يَكْثُرِ الطَّاغُوتَ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدْ
اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ
مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾. ذكر - جل
وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الأمم التي بعث فيها الرسل بالتوحيد منهم سعيد،
ومنهم شقي، فالسعيد منهم يهديه الله إلى اتباع ما جاءت به الرسل، والشقي منهم يسبق

عليه الكتاب فيكذب الرسل، ويكفر بما جاءوا به، فالدعوة إلى دين الحق عامة، والتوفيق للهدى خاص؛ كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]؛ فقلوه ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي من الأمم المذكورة في قوله: ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾، وقوله: ﴿مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ أي وفقه لاتباع ما جاءت به الرسل. والضمير المنصوب الذي هو رابط الصلة بالموصول محذوف؛ أي فمنهم من هداه الله، على حد قوله في الخلاصة:

والحذف عندهم كثير منجلى في عائد متصل إن انتصب بفعل أو وصف كمن نرجو يهب

وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾؛ أي وجبت عليه ولزمته؛ لما سبق في علم الله من أنه يصير إلى الشقاوة؛ والمراد بالضلالة: الذهاب عن طريق الإسلام إلى الكفر.

وقد بين تعالى هذا المعنى في آيات أخر، كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرَ كُفْرًا وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]، وقوله: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [٣٧]. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية أن حرص النبي ﷺ على إسلام قومه لا يهدي من سبق في علم الله أنه شقي.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، وقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِهِمْ فَلَوْبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١]، وقوله: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيِّ هَادِيٍّ لَمْ يَذُرْهُمْ فِي طَبَقَتِهِمْ يَمْعُونُ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقرأ هذا الحرف نافع، وابن عامر، وابن كثير، وأبو عمر: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ بضم الياء وفتح الدال؛ من «يُهدي» مبنياً للمفعول، وقوله: ﴿مِنْ﴾ نائب الفاعل، والمعنى أن من أضله الله لا يهدي، أي لا هادي له.

وقرأه عاصم، وحمزة، والكسائي بفتح الياء وكسر الدال، من «يهدي» مبنياً للفاعل، وقوله: ﴿مَنْ يُضِلُّ﴾ مفعول به ليهدي، والفاعل ضمير عائد إلى الله تعالى، والمعنى أن من أضله الله لا يهديه الله، وهي على هذه القراءة فيمن سبقت لهم الشقاوة في علم الله؛ لأن غيرهم قد يكون ضالاً ثم يهديه الله كما هو معروف.

وقال بعض العلماء: لا يهدي من يضل ما دام في إضلاله له؛ فإن رفع الله عنه الضلالة وهده فلا مانع من هده. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن الكفار حلفوا جهد أيمانهم - أي اجتهدوا في الحلف - وغلظوا الأيمان على أن الله لا يبعث من يموت، وكذبهم الله - جل وعلا - في ذلك بقوله: ﴿بَلَىٰ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾، وكرر في آيات كثيرة هذا المعنى المذكور هنا من إنكارهم للبعث وتكذيبه لهم في ذلك، كقوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]، وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقوله: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِزُّ الْعَظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [٧٨] قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ [يسر]، وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١] والآيات بمثل هذا كثيرة جداً.

وقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ نفى لنفيهم البعث كما قدمنا، وقوله: ﴿وَعَدًا﴾ مصدر مؤكد لما دلت عليه «بلى»؛ لأن «بلى» تدل على نفي قولهم: لا يبعث الله من يموت، ونفي هذا النفي إثبات، معناه: لتبعثن، وهذا البعث المدلول على إثباته بلفظة «بلى» فيه معنى وعد الله بأنه سيكون، فقوله: ﴿وَعَدًا﴾ مؤكد له. وقوله: ﴿حَقًّا﴾ مصدر أيضاً؛ أي وعد الله بذلك وعداً، وحقه حقاً، وهو مؤكد أيضاً لما دلت عليه «بلى»، واللام في قوله: ﴿لَيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾، وفي قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، تتعلق بقوله: «بلى» أي يبعثهم ليبين لهم.. إلخ. والضmir في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ عائد إلى من يموت؛ لأنه شامل للمؤمنين والكافرين.

وقال بعض العلماء: اللام في الموضعين تتعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾، أي بعثناه ليبين لهم.. إلخ، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [٢٨]. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه لا يتعاضى على قدرته شيء، وإذا يقول للشيء «كن» فيكون بلا تأخير؛ وذلك أن الكفار لما «أقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت»، ورد الله عليهم كذبهم بقوله: ﴿بَلَىٰ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ بين أنه قادر على كل شيء، وأنه كلما قال لشيء «كن» كان.

وأوضح هذا المعنى في مواضع آخر، كقوله في الرد على من قال: «من يحيي العظام وهي رميم»: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يسر].

وبيّن أنه لا يحتاج أن يكرر قوله: «كن» بل إذا قال للشيء «كن» مرة واحدة، كان في أسرع من لمح البصر - في قوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، ونظيره قوله: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران]، وقال ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَنَافِيسَ وَجُلُودَ﴾ [لقمان: ٨٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

وعبر تعالى عن المراد قبل وقوعه باسم الشيء؛ لأن تحقق وقوعه كالوقوع بالفعل؛ فلا تنافي الآية إطلاق الشيء على خصوص الموجود دون المعدوم؛ لأنه لما سبق في علم الله أنه يوجد ذلك الشيء، وأنه يقول له كن فيكون - كان تحقق وقوعه بمنزلة وقوعه، أو لأنه أطلق عليه اسم الشيء باعتبار وجوده المتوقع، كتسمية العصير خمراً في قوله: ﴿إِنِّي أَرِنِّي أَصْبَرُ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٣٦]، نظراً إلى ما يؤول إليه في ثاني حال. وقرأ هذا الحرف ابن عامر والكسائي «فيكون» بفتح النون منصوباً بالعطف على قوله: «أن نقول»: وقيل: منصوب بأن المضمره بعد الفاء في جواب الأمر. وقرأ الباقون بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي فهو يكون. ولقد أجاد من قال:

إذا ما أراد الله أمراً فإنما يقول له كن قوله فيكون

واللام في قوله: «الشيء» وقوله: «له» للتبليغ. قاله أبو حيان.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه لم يرسل قبله ﷺ من الرسل إلا رجالاً، أي لا ملائكة، وذلك أن الكفار استغربوا جداً بعث الله رسلاً من البشر، وقالوا: الله أعظم من أن يرسل بشراً يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؛ فلو كان رسلاً أحداً حقاً لأرسل ملائكة كما بينه تعالى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢]، وقوله: ﴿بَلْ عِمْيَؤُا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ [ق: ٢]، وقوله: ﴿وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَسْئَلُ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، وقوله: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩١]، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْلِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَعَفَى اللَّهُ﴾ [التغابن: ٦]، وقوله: ﴿أَشْرَكَ مِمَّا وُجِدَ تَلْعَفُهُ﴾ [القمر: ٢٤]، وقوله: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧]، وقوله: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةِ وَأُتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [٣٧]، ولين أطمعهم بشرٌ مِثْلُكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَيْرُ رِجَالٍ﴾ [المؤمنون: ٢١]، وقوله: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد بين الله - جل وعلا - في آيات كثيرة أن الله ما أرسل لبني آدم إلا رسلاً من البشر، وهم رجال يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويتزوجون، ونحو ذلك من صفات البشر: كقوله هنا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَتَلَوُا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٣٢]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَتَلَوُا

أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ [الأنبياء]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]، وقوله: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقرأ جمهور القراء هذا الحرف «يُوحِي إِلَيْهِمْ» بالياء المثناة التحتية، وفتح الحاء مبنياً للمفعول، وقرأه حفص عن عاصم «نُوحِي إِلَيْهِمْ» بالنون وكسر الحاء مبنياً للفاعل، وكذلك قوله في آخر سورة يوسف ﴿إِلَّا رِجَالًا تُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْفُرُجِ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وأول الأنبياء ﴿إِلَّا رِجَالًا تُوحِي إِلَيْهِمْ فَتَنَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ٧]، كل هذه المواضع قرأ فيها حفص وحده بالنون وكسر الحاء، والباقون بالياء التحتية وفتح الحاء أيضاً. وأما الثانية في سورة الأنبياء وهي قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ [الأنبياء: ٢٥]؛ فقد قرأه - بالنون وكسر الحاء - حمزة والكسائي وحفص. والباقون بالياء التحتية وفتح الحاء أيضاً، وحصر الرسل في الرجال في الآيات المذكورة لا ينافي أن من الملائكة رسلاً، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَيَرْسِلُ فِيهِمُ الرُّسُلَ إِلَى الَّذِينَ يَنْصُرُ اللَّهُ فَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١]؛ لأن الملائكة يرسلون إلى الرسل، والرسل ترسل إلى الناس، والذي أنكره الكافر هو إرسال الرسل إلى الناس، وهو الذي حصر الله فيه الرسل في الرجال من الناس؛ فلا ينافي إرسال الملائكة للرسل بالوحي، ولقبض الأرواح، وتسخير الرياح والسحاب، وكتب أعمال بني آدم، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَالْمُرِيدُ أَمْرًا﴾ [النازعات].

تنبيه: يفهم من هذه الآيات أن الله لم يرسل امرأة قط؛ لقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ [يوسف: ١٠٩]. ويفهم من قوله: ﴿فَتَنَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾، أن من جهل الحكم يجب عليه سؤال العلماء والعمل بما أفته به. والمراد بأهل الذكر في الآية أهل الكتاب، وهذه الأمة أيضاً يصدق عليها أنها أهل الذكر؛ لقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩]، إلا أن المراد في الآية أهل الكتاب، والباء في قوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ قيل: تتعلق بـ«ما أرسلنا» داخلاً تحت حكم الاستثناء مع «رجالاً»؛ أي وما أرسلنا إلا رجالاً بالبينات، كقولك: وما ضربت إلا زيداً بالسوط؛ لأن أصله ضربت زيداً بالسوط، وقيل: تتعلق بقوله «رجالاً» صفة له؛ أي رجالاً متلبسين بالبينات، وقيل: تتعلق بـ«أرسلنا» مضمراً دل عليه ما قبله؛ كأنه قيل: بم أرسلوا؟ قيل: بالبينات. وقيل: تتعلق بـ«نُوحِي» أي نُوحِي إِلَيْهِمْ بالبينات؛ قاله صاحب (الكشاف)، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَفْكُرُونَ﴾.

المراد بالذكر في هذه الآية: القرآن، كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وقد ذكر - جل وعلا - في هذه الآية حكمتين من حكم إنزال القرآن على النبي ﷺ:

المقام عليه، كقولك مثلاً: أنمهلكم فنضرب عنكم الذكر صفحاً؟! أعموا فلم يروا إلى ما بين أيديهم؟! ألم تأتكم آياتي فلم تكن تتلى عليكم؟! وهكذا، وإلى هذا الوجه أشار ابن مالك في الخلاصة بقوله:

وحذف متبوع بدا هنا استبح وعطفك الفعل على الفعل يصح

ومحل الشاهد في الشطر الأول دون الثاني.

وثانيهما: أن الفاء والواو كلتاها عاطفة للجملة المصدرة بهمزة الاستفهام على ما قبلها؛ إلا أن همزة الاستفهام ترحلت عن محلها فتقدمت على الفاء والواو، وهي متأخرة عنهما في المعنى، وإنما تقدمت لفظاً عن محلها معنى لأن الاستفهام له صدر الكلام.

فبهذا تعلم أن في قوله تعالى في هذه الآية التي هي قوله: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَّرُوا السَّيِّئَاتِ﴾... الآية، الوجهين المذكورين؛ فعلى الأول، فالمعنى أجهل الذين مكروا السيئات وعيد الله بالعقاب؟ أفأمن الذين مكروا السيئات... إلخ. وعلى الثاني، فالمعنى فأمن الذين مكروا السيئات؛ فالفاء عاطفة للجملة المصدرة بالاستفهام. والأول هو الأظهر. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾. تقدم بيان هذه الآية وأمثالها من الآيات في «سورة الرعد».

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَازَهُبُونَ﴾. نهى الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة جميع البشر عن أن يعبدوا إلهاً آخر معه، وأخبرهم أن المعبود المستحق لأن يعبد وحده واحد، ثم أمرهم أن يرهبوه؛ أي يخافوه وحده؛ لأنه هو الذي بيده الضر والنفع، لا نافع ولا ضار سواه. وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنبياء: ١٠١] وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ [١٠٢]، وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [١٠٣]، وقوله: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩].

وبيّن - جل وعلا - في مواضع آخر استحالة تعدد الآلهة عقلاً، كقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهِ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَوْلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٢]، وقوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَآتَيْنَاكَ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢]. والآيات بعبادته وحده كثيرة جداً، فلا نطيل بها الكلام، وقدم المفعول في قوله: ﴿وَأَنذَرْتُ فَازَهُبُونَ﴾ للدلالة على الحصر. وقد تقرر في الأصول في مبحث «مفهوم المخالفة، وفي المعاني في مبحث القصر»، أن تقديم المعمول من صيغ الحصر أي خافون وحدي ولا تخافوا سواي، وهذا الحصر المشار إليه هنا بتقديم

المعمول بينه - جل وعلا - في مواضع آخر، كقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْا الْكَاسَ وَأَخْسَوْنَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله: ﴿الَّذِينَ يُلْقُونَ رِسَالَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الَّذِينَ وَاصِبًا﴾. الدين هنا: الطاعة؛ ومنه سميت أوامر الله ونواهيه ديناً، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]. والمراد بالدين في الآيات: طاعة الله بامتثال جميع الأوامر، واجتناب جميع النواهي، ومن الدين بمعنى الطاعة: قول عمرو بن كلثوم في معلقته:

وأياماً لنا غراً كراماً عصينا الملك فيها أن ندينا

أي عصيناه وامتنعنا أن ندين له؛ أي نطيعه، وقوله: ﴿وَاصِبًا﴾ أي دائماً؛ أي له - جل وعلا -: الطاعة والذل والخضوع دائماً؛ لأنه لا يضعف سلطانه، ولا يعزل عن سلطانه، ولا يموت ولا يغلب، ولا يتغير له حال بخلاف ملوك الدنيا؛ فإن الواحد منهم يكون مطاعاً، له السلطنة والحكم، والناس يخافونه ويظمعون فيما عنده برهة من الزمن، ثم يعزل أو يموت، أو يذل بعد عز، ويتضع بعد رفعة؛ فيبقى لا طاعة له ولا يعبأ به أحد، فسبحان من لم يتخذ ولدأ، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، وكبره تكبيراً.

وهذا المعنى الذي أشار إليه مفهوم الآية بينه - جل وعلا - في مواضع آخر، كقوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ أَلَمِكِ تُؤْتِي أَلَمَكِ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ أَلَمَكِ مَن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة] لأنها ترفع أقواماً كانت منزلتهم منخفضة في الدنيا، وتخفض أقواماً كانوا ملوكاً في الدنيا، لهم المكانة الرفيعة، وقوله: ﴿لِمَنِ أَلَمُكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

ونظير هذه الآية المذكورة قوله: ﴿وَيَقْدُفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۖ دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ [الصافات: ٩] أي دائم، وقيل: عذاب موجه مؤلم، والعرب تطلق الوصب على المرض، وتطلق الوصب على الدوام، وروي عن ابن عباس أنه لما سأله نافع بن الأزرق عن قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الَّذِينَ وَاصِبًا﴾ قال له: الواصب الدائم، واستشهد له بقول أمية بن أبي الصلت الثقفي:

وله الدين واصباً وله الملـك وحـمد له على كل حال

ومنه قول الدؤلي:

لا أبتغي الحمد القليل بقاؤه يوماً بزم الدهر أجمع واصباً

وممن قال بأن معنى الواصب في هذه الآية الدائم: ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وميمون بن مهران، والسدي وقتادة، والحسن والضحاك، وغيرهم. وروي عن ابن عباس أيضاً واصباً، أي واجباً، وعن مجاهد أيضاً، واصباً، أي: خالصاً، وعلي قول مجاهد هذا، فالخبر بمعنى الإنشاء؛ أي اربهاوا أن تشرکوا بي شيئاً، وأخلصوا لي الطاعة، وعليه فالآية كقوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ يَتَّقُونَ﴾ [آل عمران]، وقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقوله: «واصباً» حال عمل فيه الظرف.

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ نَتَّقُونَ﴾ أنكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة على من يتقي غيره؛ لأنه لا ينبغي أن يتقي إلا من بيده النفع كله والضرر كله؛ لأن غيره لا يستطيع أن ينفك بشيء لم يردده الله لك، ولا يستطيع أن يضرك بشيء لم يكتبه الله عليك.

وقد أشار تعالى هنا إلى أن إنكار اتقاء غير الله، لأجل أن الله هو الذي يرجى منه النفع، ويخشى منه الضرر، ولذلك أتبع قوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ نَتَّقُونَ﴾ بقوله: ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ نَّعْمَةٍ مِّنْ اللَّهِ تَعْلَمُونَ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ [٥٣] ومعنى تجأرون: ترفعون أصواتكم بالدعاء والاستغاثة عند نزول الشدائد؛ ومنه قول الأعشى أو النابغة يصف بقرة:

فطافت ثلاثاً بين يوم وليلة وكان النكير أن تضيف وتجاراً
وقول الأعشى:

يرأوح من صلوات المليك طوراً سجوداً وطوراً جواراً

ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتَفِيقِهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ﴾ [٥٤] لا تُصْرُونَ [٥٥] [المؤمنون] وقد أشار إلى هذا المعنى في مواضع آخر، كقوله: ﴿وَلَن يَمَسَّكَ اللَّهُ يَضْرِبَ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإَن يَمَسَّكَ يَخْطِرْ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿وَلَن يَمَسَّكَ اللَّهُ يَضْرِبَ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَرَدَّ يَخْطِرْ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقوله: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لِمَنْ يُدْفِعُ﴾ [فاطر: ٢]، وقوله: ﴿قُلْ لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾ [التوبة: ٥١]، وقوله: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِي﴾ [الزمر: ٣٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجند منك الجند». وفي حديث ابن عباس المشهور: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء كتب الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُونَ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ [٥٣] ومعنى تجأرون: ترفعون أصواتكم بالدعاء والاستغاثة عند نزول الشدائد؛ ومنه قول الأعشى أو النابغة يصف بقرة:

تعالى في هذه الآية الكريمة أن بني آدم إذا مسهم الضر دعوا الله وحده مخلصين له الدين؛ فإذا كشف عنهم الضر، وأزال عنهم الشدة، إذا فريق منهم وهم الكفار يرجعون في أسرع وقت إلى ما كانوا عليه من الكفر والمعاصي. وقد كرر - جل وعلا - هذا المعنى في القرآن؛ كقوله في «يونس»: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجِرْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَبَاقٍ وَفِرَحُوا بِهَا جَلَّتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ إلى قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَتَّبِعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢ - ٢٣]، وقوله: «في الإسراء»: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا بَلَغَكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [٧] [الإسراء]، وقوله في آخر «العنكبوت»: ﴿فَلَمَّا بَلَغْتُمُ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقوله في «الأنعام»: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُنْشَرُونَ﴾ [١٤] [الأنعام]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا هذا في «سورة الأنعام» في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلِ ارْءَيْتَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ... الآية [الأنعام: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿فَتَتَّبِعُوا فُسُوقَ قَلْمُونٍ﴾. صيغة الأمر في قوله: «فتمتعوا» للتهديد، وقد تقرر في «فن المعاني، في مبحث الإنشاء»، وفي «فن الأصول، في مبحث الأمر» أن من المعاني التي تأتي لها صيغة افعال التهديد؛ كقوله هنا: ﴿فَتَتَّبِعُوا فُسُوقَ قَلْمُونٍ﴾ وتشهد لهذا المعنى آيات أخرى، كقوله: ﴿قُلِ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨]، وقوله: ﴿قُلِ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، وقوله: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبِعُوا وَيُلْهِمِ الْأَمْلُ فَسُوقَ يَعْمُونٍ﴾ [الحجر: ١١]، وقوله: ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾ [الزخرف: ٨٢]، وقوله: ﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ [٨٢] [الزخرف]، وقوله: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ [١١] [المرسلات]، وقوله: ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [١٥] [الطورا]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتَسْتَأْذِنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [٥١]. في ضمير الفاعل في قوله: «لما يعلمون» وجهان:

أحدهما: أنه عائد إلى الكفار؛ أي ويجعل الكفار للأصنام التي لا يعلمون أن الله أمر بعبادتها، ولا يعلمون أنها تنفع عابديها أو تضر عاصيها، نصيباً... إلخ؛ كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [٧] [التيج] ونحو ذلك من الآيات.

وقال صاحب (الكشاف): ومعنى كونهم لا يعلمونها، أنهم يسمونها آلهة، ويعتقدون فيها أنها تضر وتنفع، وتشفع عند الله؛ وليس كذلك! وحقيقتها أنها جماد، لا يضر ولا ينفع؛ فهم إذا جاهلون بها.

وثانيهما: أن واو «يعلمون» واقعة على الأصنام؛ فهي جماد لا يعلم شيئاً؛ أي ويجعلون للأصنام الذين لا يعلمون شيئاً لكونهم جماداً - نصيباً... إلخ. وهذا الوجه

كقوله: ﴿أَتُوتُ غَيْرَ لَحْوَءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (١١)، وقوله: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا يَتَنَبَّأُ وَيَتَنَبَّأُكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ (١٢) [يونس]، وقوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥]، إلى غير ذلك من الآيات. وعلى هذا القول - فالواو راجعة إلى «ما» من قوله «لما لا يعلمون». وعبر عنها بـ «ما» التي هي لغير العاقل؛ لأن تلك المعبودات التي جعلوا لها من رزق الله نصيباً جماد لا تعقل شيئاً، وعبر بالواو في «لا يعلمون» على هذا القول لتنزيل الكفار لها منزلة العقلاء في زعمهم أنها تشفع، وتضر وتشفع.

وإذا عرفت ذلك، فاعلم أن هذا المعنى المذكور في هذه الآية الكريمة بينه تعالى في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَحْمَتِهِ وَهَذَا إِشْرَاقُنَا فَمَا كَانَتْ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام]؛ وذلك أن الكفار كانوا إذا حرثوا حرثاً، أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منها جزءاً، وللوثن جزءاً، فما جعلوا من نصيب الأوثان حفظوه، وإن اختلط به شيء مما جعلوه لله ردوه إلى نصيب الأصنام، وإن وقع شيء مما جعلوه لله في نصيب الأصنام تركوه فيه، وقالوا: الله غني والصنم فقير، وقد أقسم - جل وعلا - على أنه يسألهم يوم القيامة عن هذا الافتراء والكذب! وهو زعمهم أن نصيباً مما خلق الله للأوثان التي لا تنفع ولا تضر في قوله: ﴿تَاللَّهِ لَنُشْلَنَّ عَنْكَ كُتُبَهُ تَقْرُونَ﴾ وهو سؤال توبيخ وتقريع.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (١٣) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٤) يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٥). قوله: «يجعلون» أي يعتقدون. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار يعتقدون أن الله بنات إناثاً؛ وذلك أن خزاعة وكنانة كانوا يقولون: الملائكة بنات الله؛ كما بينه تعالى بقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ الآية [الزخرف: ١٩]. فزعموا لله الأولاد! ومع ذلك زعموا له أخس الولدين وهو الأنثى، فالإناث التي جعلوها الله يكرهونها لأنفسهم ويأفنون منها، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أي لأن شدة الحزن والكآبة تسود لون الوجه. ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي ممتلئ حزناً وهو ساكت. وقيل ممتلئ غيظاً على امرأته التي ولدت له الأنثى. ﴿يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾، أي يختفي من أصحابه من أجل سوء ما بشر به لثلا يروا ما هو فيه من الحزن والكآبة أو لثلا يشمتوا به ويعيروه. ويحدث نفسه وينظر: ﴿أَيُمْسِكُهُ﴾ أي ما بشر به وهو الأنثى. ﴿عَلَى هُونٍ﴾ أي هوان وذلل. ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أي يدفن المذكور الذي هو الأنثى حياً في التراب، يعني ما كانوا يفعلون بالبنات من الوأد وهو دفن البنت حية، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ (١٦) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (١٧)﴾ [التكوير].

وأوضح - جل وعلا - هذه المعاني المذكورة في هذه الآيات في مواضع أخرى، فبين أن جعلهم الإناث لله، أو الذكور لأنفسهم قسمة غير عادلة، وأنها من أعظم الباطل. وبين أنه لو كان متخذاً ولداً - سبحانه وتعالى - عن ذلك! لا صطفى أحسن النسيبين، ووبخهم على أن جعلوا له أخس الولدين، وبين كذبهم في ذلك، وشدة عظم ما نسبوه إليه، كل هذا ذكره في مواضع متعددة، كقوله: ﴿الْكُفْرُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ (٢١) ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ (٢٢) [النجم]، وقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهمْ لَيَقُولُونَ﴾ (١٥٦) ﴿وَلَدَ اللَّهُ وَلَئِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٥٦) ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ (١٥٦) ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (١٥٦) [الصفات]، وقوله: ﴿أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَقَوْلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ (٤٠) [الإسراء: ٤٠]، وقوله: ﴿أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ (١٦) [الزخرف]، وقوله: ﴿أَوَ ارَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٤١) [الزمر]، وقوله: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ (٣٩) [الطورا].

وقال - جل وعلا -: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾، وقال: ﴿أَوْمَن يُنْسَوْنَ فِي الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ (١٨) [الزخرف] وقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٧) [الزخرف].

وبين شدة عظم هذا الافتراء بقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٨٨) ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَتَشَقَّى الْأَرْضُ وَخِزْرُ الْجِبَالِ هَذَا﴾ (٩٠) ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ (٩١) ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (٩٢) ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (٩٣) [مريم]، وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَقَوْلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ مبتدأ وخبر، وذكر الزمخشري والفراء وغيرهما: أنه يجوز أن تكون «ما» في محل نصب عطفاً على «البنات»؛ أي ويجعلون لله البنات، ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون. ورد إعرابه بالنصب الزجاج، وقال: العرب تستعمل في مثل هذا ويجعلون لأنفسهم؛ قال القرطبي. وقال أبو حيان «في البحر المحيط» قال الزمخشري: ويجوز في «ما» فيما يشتهون الرفع على الابتداء، والنصب على أن يكون معطوفاً على «البنات» أي وجعلوا لأنفسهم ما يشتهون من الذكور. انتهى. وهذا الذي أجازاه من النصب تبع فيه الفراء والحوافي. وقال أبو البقاء وقد حكاه: وفيه نظر. وذهل هؤلاء عن قاعدة في النحو: وهي أن الفعل الرفع لضمير الاسم المتصل لا يتعدى إلى ضميره المتصل المنصوب؛ فلا يجوز: زيد ضربه، أي زيداً. تريد ضرب نفسه؛ إلا في باب ظن وأخواتها من الأفعال القلبية، أو فقد وعدم؛ فيجوز: زيد ظنه قائماً، وزيد فقده، وزيد عدمه. والضمير المجرور بالحرف كالمنصوب المتصل؛ فلا يجوز: زيد غضب عليه، تريد غضب على نفسه، فعلى هذا الذي تقرر لا يجوز النصب؛ إذ يكون التقدير: ويجعلون لهم ما يشتهون، فالواو ضمير مرفوع و«لهم» مجرور باللام، فهو نظير: زيد غضب عليه، اهـ.

والبشارة تطلق في العربية على الخبر بما يسر، وبما يسوء، ومن إطلاقها على الخبر بما يسوء قوله هنا: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ﴾... الآية، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، ونحو ذلك من الآيات.

وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: من بغضهم للبنات مشهور معروف في أشعرهم؛ ولما خطبت إلى عقيل بن علفه المري ابنته الجرباء قال:

إنني وإن سيق إلي المهر ألف وعبدان وذود عشر
أحب أصهاري إلي القبر

ويروى لعبد الله بن طاهر قوله:

لكل أبي بنت يراعي شؤونها ثلاثة أصهار إذا حمد الصهر
فبعل يراعيها وخدر يكنها وقبر يواربها وخيرهم القبر

وهم يزعمون أن موجب رغبتهم في موتهن، وشدة كراهيتهم لولادتهن: الخوف من العار، وتزوج غير الأكفاء، وأن تهان بناتهم بعد موتهم؛ كما قال الشاعر في ابنة له تسمى مودة:

مودة تهوى عمر شيخ يسره لها الموت قبل الليل لو أنها تدري
يخاف عليها جفوة الناس بعده ولا ختن يرجى أود من القبر
وقال الآخر:

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً والموت أكرم نزال على الحرم
وقد ولدت امرأة أعرابي أنثى، فهجرتها لشدة غيظه من ولادتها أنثى فقالت:

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل بالبيت الذي يلينا
غضبان ألا نلد البنينا ليس لنا من أمرنا ما شينا
وإنما نأخذ ما أعطينا

تنبيه: لفظة «جعل» تأتي في اللغة العربية لأربعة معان:

الأول: بمعنى اعتقد، كقوله تعالى هنا: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ قال في الخلاصة:

وجعل اللذ كاعتقد

الثاني: بمعنى صير كما تقدم في الحجر، كقوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾

[نوح: ٦١]، قال في الخلاصة:

والسبي كصيرا وأيضاً بها انصب مبتدأ وخبرا

الثالث: بمعنى خلق؛ كقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ

وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] أي خلق الظلمات والنور.

الرابع: بمعنى شرع؛ كقوله:

وقد جعلت إذا ما قمت يشقيني ثوبي فأنهض نهض الشارب السكر

قال في الخلاصة:

كأنشأ السائق يحدو وطفق كذا جعلت وأخذت وعلق

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿سُبْحَنُكَ﴾؛ أي تنزيهاً له - جل وعلا - عما لا يليق بكماله وجلاله، وهو ما ادعوا له من البنات سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً!

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ (٦١).

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه لو عاجل الخلق بالعقوبة لأهلك جميع من في الأرض، ولكنه حلیم لا يعجل بالعقوبة؛ لأن العجلة من شأن من يخاف فوات الفرصة، ورب السموات والأرض لا يفوته شيء أراحه. وذكر هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله في آخر «سورة فاطر»: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَّهُمُ الْعَذَابُ﴾ [الكهف: ٥٨]. وأشار بقوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى أنه تعالى يمهّل ولا يهمل، وبين ذلك في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ رَبُّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٦١) [إبراهيم]، وقوله: ﴿وَلَوْ لَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

وبين هنا أن الإنسان إذا جاء أجله لا يستأخر عنه، كما أنه لا يتقدم عن وقت أجله، وأوضح ذلك في مواضع أخرى؛ كقوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤]، وقوله: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]، إلى غير ذلك من الآيات.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ فيه وجهان للعلماء:

أحدهما: أنه خاص بالكفار؛ لأن الذنب ذنبهم، والله يقول: ﴿وَلَا يُزِدُ وَازِرَةً وَنَزَّ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]. ومن قال هذا القول قال: «من دابة» أي كافرة؛ ويروى هذا عن ابن عباس. وقيل: المعنى أنه لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء.

وجمهور العلماء، منهم ابن مسعود، وأبو الأحوص، وأبو هريرة، وغيرهم كما نقله عنهم ابن كثير وغيره، على أن الآية عامة؛ حتى إن ذنوب بني آدم لتهلك الجعل في جحره، والحبارى في وكرها، ونحو ذلك؛ لولا أن الله حلیم لا يعجل بالعقوبة، ولا يؤاخذهم بظلمهم.

قال مقيده - عفا الله عنه -: وهذا القول هو الصحيح؛ لما تقرر في الأصول من: أن النكرة في سياق النفي إذا زيدت قبلها لفظة «من» تكون نصاً صريحاً في العموم، وعليه فقوله: «من دابة» يشمل كل ما يطلق عليه اسم الدابة نصاً.

وقال القرطبي في تفسيره: فإن قيل: فكيف يعذب بالهلاك مع أن فيهم مؤمناً ليس بظالم؟ قيل: يجعل هلاك الظالم انتقاماً وجزاء، وهلاك المؤمن معوضاً بثواب الآخرة. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أراد الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على أعمالهم»، اه محل الغرض منه بلفظه. والأحاديث بمثله كثيرة معروفة.

وإذا ثبت في الأحاديث الصحيحة أن العذاب إذا نزل بقوم عمّ الصالح والطالح، فلا إشكال في شمول الهلاك للحيوانات التي لا تعقل. وإذا أراد الله إهلاك قوم أمر نبيهم ومن آمن منهم أن يخرجوا عنهم؛ لأن الهلاك إذا نزل عمّ.

تنبيه: قوله: «مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ» الضمير في «عليها» راجع إلى غير مذكور وهو الأرض؛ لأن قوله: «مِنْ دَابَّةٍ» يدل عليه؛ لأن من المعلوم أن الدواب إنما تدب على الأرض، ونظيره قوله تعالى: «مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ» [فاطر: ٤٥]، وقوله: «حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ» [ص: ٣٢] أي الشمس ولم يجر لها ذكر، ورجوع الضمير إلى غير مذكور يدل عليه المقام كثير في كلام العرب؛ ومنه قول حميد بن ثور:

وصهباء منها كالسفينه نضجت به الحمل حتى زاد شهراً عديدها
فقوله: «صهباء منها» أي من الإبل، وتدل عليه قرينة «كالسفينه» مع أن الإبل لم يجر لها ذكر، ومنه أيضاً قول حاتم الطائي:

أماوي ما يغني الشراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر
فقوله: «حشرجت وضاق بها» يعني النفس، ولم يجر لها ذكر، كما تدل عليه قرينة «وضاق بها الصدر»، ومنه أيضاً قول لبيد في معلقته:

حتى إذا ألفت يداً في كافر وأجن عورات الشغور ظلامها
فقوله «ألفت» أي الشمس، ولم يجر لها ذكر، ولكن يدل عليه قوله:
وأجن عورات الشغور ظلامها

لأن قوله: «ألفت يداً في كافر» أي دخلت في الظلام، ومنه أيضاً قول طرفة في معلقته:
على مثلها أمضي إذا قال صاحبي ألا ليتني أفديك منها وأفتدي
فقوله: «أفديك منها» أي الفلاة، ولم يجر لها ذكر، ولكن قرينة سياق الكلام تدل عليها.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: «يُؤَاخِذُ» الظاهر أن المفاعلة فيه بمعنى الفعل المجرد؛ فمعنى أخذ الناس يؤاخذهم: أخذهم بذنوبهم؛ لأن المفاعلة تقتضي الطرفين، ومجيئها بمعنى المجرد مسموع نحو: سافر وعافى. وقوله «يؤاخذ» إن قلنا: إن المضارع فيه بمعنى الماضي فلا إشكال، وإن قلنا: إنه بمعنى الاستقبال فهو على إيلاء لو المستقبل وهو قليل، كقوله: «وَلْيَحْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ» [النساء: ٩]، وقول قيس بن الملوح:

ولو تلتقي أصداؤنا بعد موتنا ومن دون رمسينا من الأرض سيسب
ولظل صدى صوتي وإن كنت رمة لصوت صدى ليلى يهش ويضطرب
والجواب بحمله على المضي في الآية تكلف ظاهر، ولا يمكن بتاتاً في البيتين،
وأمثله كثيرة في القرآن وفي كلام العرب، وقد أشار لذلك في الخلاصة بقوله:

لو حرف شرط في مضى ويقلل إيلاؤها مستقبلاً لكن قبل
قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾. أبهم - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة
هذا الذي يجعلونه لله ويكرهونه؛ لأنه عبر عنه بـ«ما» الموصولة، وهي اسم مبهم، وصلة
الموصول لن تبين من وصف هذا المبهم إلا أنهم يكرهونه. ولكنه بين في مواضع آخر
أنه البنات والشركاء وجعل المال الذي خلق لغيره، قال في البنات: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾
ثم بين كراهيتهم لها في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ﴾. وقال في
الشركاء: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ [الأنعام: ١٠٠] ونحوها من الآيات، وبين كراهيتهم للشركاء
في رزقهم بقوله: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي
مَا رَزَقْتَكُمْ فَإِنَّهُ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨]؛ أي إذا كان الواحد منكم لا يرضى أن يكون عبده المملوك شريكاً
له مثل نفسه في جميع ما عنده؛ فكيف تجعلون الأوثان شركاء لله في عبادته التي هي
حقه على عباده! وبين جعلهم بعض ما خلق الله من الرزق للأوثان في قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ
مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ إلى قوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].
وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ [النحل: ٥٦] كما تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَنُصِيفُ الْبَنَاتِ﴾ الكذب أن الكفار يقولون بالسنتهم الكذب؛ فيزعمون أن لهم الحسنى، والحسنى
تأنيث الأحسن، قيل: المراد بها الذكور؛ كما تقدم في قوله: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ والحق
الذي لا شك فيه أن المراد بالحسنى هو زعمهم أنه إن كانت الآخرة حقاً فسيكون لهم
فيها أحسن نصيب كما كان لهم في الدنيا، ويدل على صحة هذا القول الأخير دليلان:

أحدهما: كثرة الآيات القرآنية المبينة لهذا المعنى، كقوله تعالى عن الكافر: ﴿وَلَيْنِ
رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقوله: ﴿وَلَيْنِ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا
مُفْلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، وقوله: ﴿وَقَالَ لَأَوْثِينَ مَالًا وَلَوْلَا﴾ [مريم: ٧٧]، وقوله: ﴿وَقَالُوا لَنَحْنُ
أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبأ: ٢٥]، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُ بِهِ مِن مَّالٍ وَنَبِّئُ
﴿٥٥﴾ سَارِعَ هُمْ فِي الْفِتْرِ يَلَّا لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

والدليل الثاني: أن الله أتبع قوله: ﴿أَن لَّهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ بقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ
النَّارَ﴾ الآية، فدل ذلك دلالة واضحة على ما ذكرنا، والعلم عند الله. والمصدر
المنسبك من «أن» وصلتها في قوله: «أن لهم الحسنى» في محل نصب، بدل من قوله
«الكذب» ومعنى وصف ألسنتهم الكذب قولها للكذب صريحاً لا خفاء به.

وقال الزمخشري في (الكشاف) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾، ما نصه: فإن قلت: ما معنى وصف ألسنتهم الكذب؟ قلت: هو من فصيح الكلام وبليغه، جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه؛ فإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحيلته، وصورته بصورته؛ كقولهم: وجهها يصف الجمال، وعينها تصف السحر، اهـ.

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنْ لَّهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾. في هذا الحرف قراءتان سبعيتان، وقراءة ثالثة غير سبعية، قرأه عامة السبعة ما عدا نافعاً «مفراطون» بسكون الفاء وفتح الراء بصيغة اسم المفعول؛ من أفرطه. وقرأ نافع بكسر الراء بصيغة اسم الفاعل؛ من أفرط، والقراءة التي ليست بسبعية بفتح الفاء وكسر الراء المشددة بصيغة اسم الفاعل من فرط المضعف، وتروى هذه القراءة عن أبي جعفر، وكل هذه القراءات له مصداق في كتاب الله.

أما على قراءة الجمهور «مفراطون» بصيغة المفعول فهو اسم مفعول أفرطه: إذا نسيه وتركه غير ملتفت إليه؛ فقوله «مفراطون» أي متروكون منسيون في النار. ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِيهِمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١]، وقوله: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ [السجدة: ١٤]، وقوله: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِيكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ [الحج: ٣٤] فالنسيان في هذه الآيات معناه: الترك في النار. أما النسيان بمعنى زوال العلم فهو مستحيل على الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مریم: ٦٤]، وقال: ﴿قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [٥١ طه].

وممن قال بأن معنى «مفراطون» منسيون: متروكون في النار: مجاهد، وسعيد بن جبیر، وقتادة، وابن الأعرابي، وأبو عبيدة، والفراء وغيرهم. وقال بعض العلماء: معنى قوله: «مفراطون» على قراءة الجمهور؛ أي مقدمون إلى النار معجلون، من أفرط فلاناً وفرطته في طلب الماء: إذا قدمته، ومنه حديث: «أنا فرطكم على الحوض» أي متقدمكم، ومنه قول القطامي:

فاستعجلونا وكانوا من صحابتنا كما تقدم فراط لوراد
وقول الشنفرى:

هممت وهمت فابتدرنا وأسبلت وشمر مني فارط متمهل

أي متقدم إلى الماء. وعلى قراءة نافع فهو اسم فاعل أفرط في الأمر: إذا أسرف فيه وجاوز الحد. ويشهد لهذه القراءة قوله: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٣] ونحوها من الآيات. وعلى قراءة أبي جعفر، فهو اسم فاعل، فرط في الأمر: إذا ضيعه وقصر فيه، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]. فقد عرفت أوجه القراءات في الآية، وما يشهد له القرآن منها.

وقوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي حقاً أن لهم النار. وقال القرطبي في تفسيره: لا رد

لكلامهم (وتم الكلام) أي ليس كما تزعمون! جرم أن لهم النار! حقاً أن لهم النار! وقال بعض العلماء: «لا» صلة، و«جرم» بمعنى كسب؛ أي كسب لهم عملهم أن لهم النار. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٦].

بَيِّن - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن في الأنعام عبرة دالة على تفرد من خلقها، وأخلص لبنها من بين فَرْث ودم، بأنه هو وحده المستحق لأن يعبد، ويطاع ولا يعصى. وأوضح هذا المعنى أيضاً في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٦]، وقوله: ﴿وَاللَّامِئَاتُ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهَا أُنثَىٰ فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنشَأْنَا لَهُمْ أَهْلَ عَمِلَتِ أَيْدِيًا أَنْعَمْنَا لَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد دلت الآيات المذكورة على أن الأنعام يصح تذكيرها وتأنيسها؛ لأن ذكرها هنا في قوله: ﴿تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٦]، وأنشأ «في سورة قد أفلح المؤمنون» في قوله: ﴿تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٠١].

ومعلوم في العربية: أن أسماء الأجناس يجوز فيها التذكير نظراً إلى اللفظ، والتأنيث نظراً إلى معنى الجماعة الداخلة تحت اسم الجنس. وقد جاء في القرآن تذكير الأنعام وتأنيسها كما ذكرناه آنفاً. وجاء في تذكير النحل وتأنيسها؛ فالتذكير في قوله: ﴿كَانَهُمْ أَجْنَادٌ نَّحَلٌ مُنْقَعِرٌ﴾ [القمر: ٢٠]. والتأنيث في قوله: ﴿كَانَهُمْ أَجْنَادٌ نَّحَلٌ حَافِيُونَ﴾ [الحاقة: ١٧]، ونحو ذلك، وجاء في القرآن تذكير السماء وتأنيسها؛ فالتذكير في قوله: ب ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل: ١٨]. والتأنيث في قوله: ﴿وَالسَّمَاءُ بَيْنَهُمَا بِأَيِّدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧]. ونحو ذلك من الآيات. وهذا معروف في العربية، ومن شواهد قول قيس بن الحصين الحارثي الأسدي وهو صغير في تذكير النعم:

في كل عام نعم تحوونه يلقحه قوم وتنتجونه

وقرأ هذا الحرف نافع وابن عامر وشعبة عن عاصم «نسقيكم» بفتح النون، والباقون بضمها، كما تقدم بشواهد «في سورة الحجر».

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾.

جمهور العلماء على أن المراد بالسكر في هذه الآية الكريمة الخمر؛ لأن العرب تطلق اسم السكر على ما يحصل به السكر، من إطلاق المصدر وإرادة الاسم، والعرب تقول: سكر «بالكسر» سَكْرًا «بفتحين» وسُكْرًا «بضم فسكون».

وقال الزمخشري في الكشاف: والسكر: الخمر؛ سميت بالمصدر من سَكَّرَ سَكْرًا وسُكْرًا، نحو رَشَدَ رَشْداً ورُشْداً. قال:

وجاءونا بهم سكر علينا فأجلى اليوم والسكران صاحي

.. اهـ ..

ومن إطلاق السكر على الخمر قول الشاعر:

بئس الصحاة وبئس شربهم إذا جرى فيهم المزاء والسكر

ومن قال: بأن السكر في الآية الخمر: ابن عباس، وابن مسعود، وابن عمر، وأبو رزين، والحسن، ومجاهد، والشعبي، والنخعي، وابن أبي ليلى، والكلبي، وابن جبير، وأبو ثور، وغيرهم، وقيل: السكر: الخل، وقيل: الطعم وقيل: الغصير الحلو. إذا عرفت أن الصحيح هو مذهب الجمهور، وأن الله امتنَّ على هذه الأمة بالخمر قبل تحريمها، فاعلم أن هذه الآية مكية، نزلت بعدها آيات مدنية بينت تحريم الخمر، وهي ثلاث آيات نزلت بعد هذه الآية الدالة على إباحة الخمر:

الأولى: آية البقرة التي ذكر فيها بعض معائبها ومفاسدها، ولم يجزم فيها بالتحريم، وهي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمْ لَأَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]. وبعد نزولها تركها قوم للإثم الذي فيها، وشربها آخرون للمنافع التي فيها.

الثانية: آية النساء الدالة على تحريمها في أوقات الصلوات، دون الأوقات التي يصحو فيها الشارب قبل وقت الصلاة، كما بين صلاة العشاء وصلاة الصبح، وما بين صلاة الصبح وصلاة الظهر، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ [النساء: ٤٣].

الثالثة: آية المائدة الدالة على تحريمها تحريماً باتاً، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْأَسْهَابُ وَالْأَذْنَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩١].

وهذه الآية الكريمة تدل على تحريم الخمر أتم دلالة وأوضحها؛ لأنه تعالى صرح بأنها رجس؛ وأنها من عمل الشيطان، وأمر باجتنابها أمراً جازماً في قوله: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ واجتناب الشيء: هو التباعد عنه، بأن تكون في غير الجانب الذي هو فيه، وعلق رجاء الفلاح على اجتنابها في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ويفهم منه أنه من لم يجتنبها لم يفلح، وهو كذلك. ثم بيّن بعض مفاسدها بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾. ثم أكد النهي عنها بأن أورده بصيغة الاستفهام في قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ؟﴾ فهو أبلغ في الزجر من صيغة الأمر التي هي «انتهاوا» وقد تقرر في فن المعاني أن من معاني صيغ الاستفهام التي ترد لها الأمر؛ كقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾.

وقوله: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَاسَلُمْتُ﴾ [آل عمران: ٢٠]؛ أي أسلموا،

والجار والمجرور في قوله: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ﴾ يتعلق بـ ﴿تَتَّخِذُونَ﴾، وكرر لفظ «من» للتأكيد، وأفرد الضمير في قوله: «منه» مراعاة للمذكور؛ أي تتخذون منه، أي مما ذكر من ثمرات النخيل والأعناب. ونظيره قول رؤية:

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه في الجلد توليع البهق

فقوله: «كأنه» أي ما ذكر من خطوط السواد والبلق. وقيل: الضمير راجع إلى محذوف دل المقام عليه؛ أي ومن عصير ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه، أي عصير الثمرات المذكورة. وقيل: قوله: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ﴾ معطوف على قوله: ﴿بِمَا فِي بَطُونِهِ﴾ أي نسقيكم مما في بطونه ومن ثمرات النخيل. وقيل: يتعلق بـ «نسقيكم» محذوفة دلت عليها الأولى؛ فيكون من عطف الجمل، وعلى الأول يكون من عطف المفردات إذا اشتركا في العامل، وقيل: معطوف على «الأنعام» وهو أضعفها عندي.

وقال الطبري: التقدير، ومن ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون منه سكرًا، فحذف «ما».

قال أبو حيان (في البحر): وهو لا يجوز على مذهب البصريين. وقيل: يجوز أن يكون صفة موصوف محذوف، أي ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه. ونظير هذا من كلام العرب قول الراجز:

مالك عندي غير سوط وحجر وغير كبنداء شديدة الوتر

جادت بكفي كان من أرمى البشر

أي بكفي رجل كان... إلخ. ذكره الزمخشري وأبو حيان.

قال مقيد - عفا الله عنه -: أظهر هذه الأقوال عندي: أن قوله: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ﴾ يتعلق بـ «تتخذون» أي تتخذون من ثمرات النخيل، وأن «من» الثانية تأكيد للأولى، والضمير في قوله «منه» عائد إلى جنس الثمر المفهوم من ذكر الثمرات، والعلم عند الله تعالى.

تنبيه: اعلم أن التحقيق على مذهب الجمهور أن هذه الآية الكريمة التي هي قوله - جل وعلا -: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ منسوخة بآية المائدة المذكورة، فما جزم به صاحب (مراقي السعود) فيه وفي شرحه (نشر البنود) من أن تحريم الخمر ليس نسخاً لإباحتها الأولى بناء على أن إباحتها الأولى إباحة عقلية، والإباحة العقلية هي البراءة الأصلية، وهي بعينها استصحاب العدم الأصلي، وهي ليست من الأحكام الشرعية؛ فرفعها ليس بنسخ. وقد بين في (المراقي): أنها ليست من الأحكام الشرعية بقوله:

وما من البراءة الأصلية قد أخذت فليست الشرعية

وقال أيضاً في إباحة الخمر قبل التحريم:

أباحها في أول الإسلام براءة ليست من الأحكام

كل ذلك ليس بظاهر، بل غير صحيح؛ لأن إباحة الخمر قبل التحريم دلت عليها هذه الآية الكريمة، التي هي قوله: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾، وما دلت على إباحته آية من كتاب الله لا يصح أن يقال: إن إباحته عقلية، بل هي إباحة شرعية منصوبة في كتاب الله، فرفعها نسخ، نعم! على القول بأن معنى السكر في الآية: الخل أو الطعم أو العصير؛ فتحريم الخمر ليس نسخاً لإباحتها، وإباحتها الأولى عقلية. وقد بينا هذا المبحث في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب.

فإن قيل: الآية واردة بصيغة الخبر، والأخبار لا يدخلها النسخ كما تقرر في الأصول. فالجواب: أن النسخ وارد على ما يفهم من الآية من إباحة الخمر، والإباحة حكم شرعي. كسائر الأحكام قابل للنسخ، فليس النسخ وارداً على نفس الخبر، بل على الإباحة المفهومة من الخبر؛ كما حققه ابن العربي المالكي وغيره. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾؛ أي التمر، والرطب، والعنب، والزبيب، والعصير ونحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾. المراد بالإحياء هنا: الإلهام، والعرب تطلق الإحياء على الإعلام بالشيء في خفية؛ ولذا تطلقه على الإشارة، وعلى الكتابة، وعلى الإلهام؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾؛ أي ألهمها. وقال: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً﴾ [مريم: ١١]؛ أي أشار إليهم، وسمى أمره للأرض إحياء في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ نُخَبِّرُكَ أَخْبَارَهَا﴾ ①، بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ② [الزلزلة] ومن إطلاق الوحي على الكتابة قول لبيد في معلقته:

فمدافع الريان عرى رسمها خلقاً كما ضمن الوحي سلامها

ف«الوحي» في البيت - بضم الواو وكسر الحاء وتشديد الياء - جمع وحي بمعنى الكتابة، وسيأتي لهذه المسألة - إن شاء الله - زيادة إيضاح.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من الناس من يموت قبل بلوغ أَرْدَلِ العمر، ومنهم من يعمر حتى يرد إلى أَرْدَلِ العمر، وأَرْدَلِ العمر: آخره الذي تفسد فيه الحواس، ويختل فيه النطق والفكر، وخص بالرديلة؛ لأنه حال لا رجاء بعدها لإصلاح ما فسد، بخلاف حال الطفولة، فإنها حالة ينتقل منها إلى القوة وإدراك الأشياء. وأوضح هذا المعنى في مواضع أخرى؛ كقوله في سورة الحج: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤَفِّقُ اللَّهُ رَبَّهُ وَلَهُ الْحِجَابُ إِلَيْنَا وَأَرَادَ لَصَاحِبًا يُدْعَىٰ لِكَيْلَا يُغْلَبَ عَلَيْهِمْ رَبُّنَا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحج: ٥]، وقوله في الروم: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤]. وأشار إلى ذلك أيضاً بقوله: ﴿وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١]، وقوله في سورة المؤمن: ﴿ثُمَّ لِيَتَكُونُوا شُيُوعًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ مِنْ قَبْلٍ وَلِنَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

وقال البخاري في صحيحه في الكلام على هذه الآية الكريمة: باب قوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمَرِ﴾ حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا هارون بن موسى أبو عبد الله الأعور، عن شعيب، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «أعوذ بالله من البخل والكسل، وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات»، اهـ، وعن علي رضي الله عنه أن أرذل العمر خمس وسبعون سنة، وعن قتادة: تسعون سنة، والظاهر أنه لا تحديد له بالسنين. وإنما هو باعتبار تفاوت حال الأشخاص، فقد يكون ابن خمس وسبعين أضعف بدناً وعقلاً، وأشد خرفاً - من آخر ابن تسعين سنة، وظاهر قول زهير في معلقته:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً لا أباً لك يسأم

أن ابن الثمانين بالغ أرذل العمر، ويدل عليه قول الآخر:

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

وقوله: ﴿لَكِنَّ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ أي يرد إلى أرذل العمر، لأجل أن يزول ما كان يعلم من العلم أيام الشباب، ويبقى لا يدري شيئاً؛ لذهاب إدراكه بسبب الخرف، والله في ذلك حكمة.

وقال بعض العلماء: إن العلماء العاملين لا ينالهم هذا الخرف، وضياح العلم والعقل من شدة الكبر؛ ويستروح لهذا المعنى من بعض التفسيرات في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْتَهُ أَهْلًا سَفَلِينَ﴾ (٥) ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (النن: ٥ - ٦) الآية.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْهَدُونَ﴾ (٧١). أظهر التفسيرات في هذه الآية الكريمة أن الله ضرب فيها مثلاً للكفار، بأنه فضل بعض الناس على بعض في الرزق، ومن ذلك تفضيله المالكين على المملوكين في الرزق، وأن المالكين لا يرضون لأنفسهم أن يكون المملوكون شركاءهم فيما رزقهم الله من الأموال والنساء وجميع نعم الله، ومع هذا يجعلون الأصنام شركاء الله في حقه على خلقه، الذي هو إخلاص العبادة له وحده، أي إذا كنتم لا ترضون بإشراك عبيدكم معكم في أموالكم ونسائكم - فكيف تشركون عبيدي معي في سلطاني!

ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]. ويؤيده أن «ما» في قوله: ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ نافية؛ أي ليسوا برأدي رزقهم عليهم حتى يسووهم مع أنفسهم، اهـ.

فإذا كانوا يكرهون هذا لأنفسهم - فكيف يشركون الأوثان مع الله في عبادته! مع اعترافهم بأنها ملكه، كما كانوا يقولون في تلييتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

وهذه الآية الكريمة نص صريح في إبطال مذهب الاشتراكية القائل: بأنه لا يكون أحد أفضل من أحد في الرزق، والله في تفضيل بعضهم على بعض في الرزق حكمة؛ قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ قَسَمًا بِيَنَّهُمْ مَّعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلَخِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]، وقال: ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال: ﴿عَلَى الْكُوفِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرُهُ﴾ [البقرة: ٢٣٦] إلى غير ذلك من الآيات، وفي معنى الآية الكريمة قولان آخران:

أحدهما: أن معناها أنه جعلكم متفاوتين في الرزق، فرزقكم أفضل مما رزق ممالئكم، وهم بشر مثلكم وإخوانكم؛ فكان ينبغي أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم، حتى تساوا في الملبس والمطعم، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه أمر مالكي العبيد «أن يطعموهم مما يطعمون، ويكسوهم مما يلبسون». وعلى هذا القول فقوله تعالى: ﴿فَمَا إِلَيْكَ فُضِّلُوا بِرِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ لوم لهم، وتقريع على ذلك.

وثانيهما: أن معنى الآية: أنه - جل وعلا - هو رازق المالكين والمملوكين جميعاً، فهم في رزقه سواء، فلا يحسن المالكون أنهم يردون على ممالئهم شيئاً من الرزق، فإنما ذلك رزق الله يجريه لهم على أيديهم. والقول الأول هو الأظهر وعليه جمهور العلماء، ويدل عليه القرآن كما بينا، والعلم عند الله تعالى.

وقوله: ﴿أَفَبِعَمَةٍ أَللَّهُ يَبْخُلُونَ﴾ إنكار من الله عليهم جحودهم بنعمته؛ لأن الكافر يستعمل نعم الله في معصية الله، فيستعين بكل ما أنعم به عليه على معصيته، فإنه يرزقهم ويعافهم، وهم يعبدون غيره. ووجد: تتعدى بالباء في اللغة العربية، كقوله: ﴿وَبَخُلُوا بِهَا﴾ [النمل: ١٤]، وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَفْنَا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١] والجحود بالنعمة هو كفرانها.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنًا وَحَفْذَةً﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه امتن على بني آدم أعظم من أن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً، وجعل الإناث أزواجاً للذكور، وهذا من أعظم المنن، كما أنه أعظم الآيات الدالة على أنه - جل وعلا - هو المستحق أن يعبد وحده.

وأوضح في غير هذا الموضع أن هذه نعمة عظيمة، وأنها من آياته - جل وعلا -؛ كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، وقوله: ﴿يَتَخَسَّبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَبْرُكَ سُدًى﴾ [الزمر: ٢١]، ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ فَلَقٍ فُتُورًا﴾ [الأنعام: ٢٨]، ﴿جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [الأنعام: ١٢١]، [القيامة]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

واختلف العلماء في المراد بالحفدة في هذه الآية الكريمة؛ فقال جماعة من العلماء الحفدة: أولاد الأولاد؛ أي وجعل لكم من أزواجكم بنين، ومن البنين حفدة. وقال بعض العلماء: الحفدة الأعوان والخدم مطلقاً؛ ومنه قول جميل:

حفد الولائد حولهن وأسلمت بأكفهن أزمة الأجمال

أي أسرع الولائد الخدمة، والولائد الخدم، الواحدة وليدة، ومنه قول الأعشى:

كلفتم مجهولها نوقاً يمانية إذا الحداة على أكسائها حفدوا

أي أسرعوا في الخدمة، ومنه قوله في سورة الحفد التي نسخت: «وإليك نسعي ونحفد»؛ أي نسرع في طاعتك. وسورة الخلع وسورة الحفد اللتان نسختا يسن عند المالكية القنوت بهما في صلاة الصبح كما هو معروف.

وقيل: الحفدة الأختان، وهم أزواج البنات، ومنه قول الشاعر:

فلو أن نفسي طاوعتني لأصبحت لها حفد مما يعد كثير

ولكنها نفس علي أبية عيوف لإصهار اللثام قدور

والقدور: التي تتزهد عن الوقوع فيما لا ينبغي؛ تباعداً عن التدنس بقدره.

قال مقيده - عفا الله عنه -: الحفدة: جمع حافد، اسم فاعل من الحفد، وهو الإسراع في الخدمة والعمل. وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يكون في نفس الآية قرينة دالة على عدم صحة قول بعض العلماء في الآية؛ فبين ذلك.

وفي هذه الآية الكريمة قرينة دالة على أن الحفدة أولاد الأولاد؛ لأن قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ دليل ظاهر على اشتراك البنين والحفدة في كونهم من أزواجهم، وذلك دليل على أنهم كلهم من أولاد أزواجهم. ودعوى أن قوله: «وحفدة» معطوف على قوله «أزواجاً» غير ظاهرة. كما أن دعوى أنهم الأختان، وأن الأختان أزواج بناتهن، وبناتهن من أزواجهم، وغير ذلك من الأقوال - كله غير ظاهر. وظاهر القرآن هو ما ذكر، وهو اختيار ابن العربي المالكي والقرطبي وغيرهما، ومعلوم أن أولاد الرجل، وأولاد أولاده: من خدمه المسرعين في خدمته عادة. والعلم عند الله تعالى.

وهناك أقوال مستنبطة من الآية للعلماء في جواز وقوع النكاح بين الجن والإنس والإنس والجن يرجع إليها من أراد للأصل وخلاصة رأي الشيخ في المسألة هو:

قال مقيده - عفا الله عنه -: لا أعلم في كتاب الله ولا في سنة نبيه ﷺ نصاً يدل على جواز مناكحة الإنس الجن، بل الذي يستروح من ظواهر الآيات عدم جوازه، فقول في هذه الآية الكريمة: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾... الآية، ممتناً على بني آدم بأن أزواجهم من نوعهم وجنسهم - يفهم منه أنه ما جعل لهم أزواجاً تباينهم

كمباينة الإنس للجن، وهو ظاهر، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]. فقوله: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ في معرض الامتنان - يدل على أنه ما خلق لهم أزواجاً من غير أنفسهم؛ ويؤيد ذلك ما تقرر في الأصول من «أن النكرة في سياق الامتنان تعم» فقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ جمع منكر في سياق الامتنان فهو يعم، وإذا عمَّ دل ذلك على حصر الأزواج المخلوقة لنا فيما هو من أنفسنا، أي من نوعنا وشكلنا، مع أن قوماً من أهل الأصول زعموا «أن الجموع المنكرة في سياق الإثبات من صيغ العموم»، والتحقيق أنها في سياق الإثبات لا تعم، وعليه درج في (مراقي السعود) حيث قال في تعداده للمسائل التي عدم العموم فيها يصح:

منه منكر الجموع عرفاً . . . وكان والذي عليه انعطفاً

أما في سياق الامتنان فالنكرة تعم. وقد تقرر في الأصول «أن النكرة في سياق الامتنان تعم»، كقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨] أي فكل ماء نازل من السماء طهور، وكذلك النكرة في سياق النفي أو الشرط أو النهي، كقوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٦]، وقوله: ﴿وَلَا تُطِيعُ مِنْهُمْ آيَاتًا﴾ [الإنسان: ٢٤]. ويستأنس لهذا بقوله: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الشعراء: ١٦٦] فإنه يدل في الجملة على أن تركهم ما خلق الله لهم من أزواجهم، وتعديه إلى غيره يستوجب الملام، وإن كان أصل التوبيخ والتقريع على فاحشة اللواط؛ لأن أول الكلام: ﴿أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [١٦٥] وتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ [الشعراء: ١٦٥ - ١٦٦] فإنه وبخهم على أمرين: أحدهما: إتيان الذكور. والثاني: ترك ما خلق لهم ربهم من أزواجهم.

وقد دلت الآيات المتقدمة على أن ما خلق لهم من أزواجهم، هو الكائن من أنفسهم؛ أي من نوعهم وشكلهم؛ كقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾، وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾... الآية [الروم: ٢١]، فيفيد أنه لم يجعل لهم أزواجاً من غير أنفسهم، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [٧٣]. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات بإنزال المطر، ولا من الأرض بإنبات النبات، وأكد عجز معبوداتهم عن ذلك بأنهم لا يستطيعون، أي لا يملكون أن يرزقوا، والاستطاعة منفية عنهم أصلاً؛ لأنهم جماد ليس فيه قابلية استطاعة شيء.

وفيه من الآية الكريمة أنه لا يصح أن يعبد إلا من يرزق الخلق؛ لأن أكلهم رزقه، وعبادتهم غيره كفر ظاهر لكل عاقل، وهذا المعنى المفهوم من هذه الآية الكريمة بينه -

جل وعلا - في مواضع أخر، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [المنكوت: ١٧]، وقوله: ﴿أَمَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُمْ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ١٦]، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [٥١]، مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ [الذاريات] وقوله: ﴿قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِكَ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، وقوله: ﴿وَأَمْرُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْلَحٍ عَلَيْهَا لَا شَتَاكَ رِزْقًا نَحْنُ زَرْقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلْقَوِيِّ﴾ [طه]، وقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣]، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

تنبيه: في قوله: ﴿شَيْئًا﴾ في هذه الآية الكريمة ثلاثة أوجه من الإعراب:

الأول: أن قوله ﴿رِزْقًا﴾ مصدر، وأن ﴿شَيْئًا﴾ مفعول به لهذا المصدر؛ أي ويعبدون من دون الله ما لا يملك أن يرزقهم شيئاً من الرزق. ونظير هذا الإعراب قوله تعالى: ﴿أَوْ اطْعَمُوهُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ [البقرة: ١٤، ١٥]. فقوله: ﴿يَتِيمًا﴾ مفعول به للمصدر الذي هو إطعام؛ أي أن يطعم يتيماً ذا مقربة. ونظيره من كلام العرب قول المرار بن منقذ التميمي:

بضرب بالسيوف رؤوس قوم أزلنا هامهن عن المقييل

فقوله: «رؤوس قوم» مفعول به للمصدر المنكر الذي هو قوله «بضرب» وإلى هذا أشار في الخلاصة بقوله:

بفعله المصدر الحق في العمل مضافاً أو مجرداً أو مع ال

الوجه الثاني: أن قوله: ﴿شَيْئًا﴾ بدل من قوله: ﴿رِزْقًا﴾ بناء على أن المراد بالرزق هو ما يرزقه الله عباده؛ لا المعنى المصدري.

الوجه الثالث: أن يكون قوله: ﴿شَيْئًا﴾ ما ناب عن المطلق من قوله: ﴿يَمْلِكُ﴾؛ أي لا يملك شيئاً من الملك، بمعنى لا يملك ملكاً قليلاً أن يرزقهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾. نهى الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة خلقه أن يضربوا له الأمثال؛ أي يجعلوا له أشباهاً ونظراء من خلقه، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً!

وبين هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ أظهر الأقوال فيها، أن المعنى أن الله إذا أراد الإتيان بها فهو قادر على أن يأتي بها في أسرع من لمح البصر؛ لأنه يقول للشيء كن فيكون، ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجْدَةٌ كَلَمْحِ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

وقال بعض العلماء: المعنى هي قريب عنده تعالى كلمح البصر وإن كانت بعيداً عنكم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۖ وَرَأَوْهُ قَرِيبًا ۖ﴾ [المعارج]، وقال: ﴿وَلَيْتَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]. واختار أبو حيان (في البحر المحيط): أن «أو» في قوله «أو هو أقرب» للإيهام على المخاطب، وتبع في ذلك الزجاج، قال: ونظيره ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يُزِيدُوكَ﴾ [الصافات]، وقوله: ﴿أَتُنَهَّا أَمْرًا نَّيَلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنه أخرج بني آدم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، وجعل لهم الأسماع والأبصار والأفئدة؛ لأجل أن يشكروا له نعمه. وقد قدمنا: أن «لعل» للتعليل. ولم يبين هنا هل شكروا أو لم يشكروا؛ ولكنه يبين في مواضع أخرى: أن أكثرهم لم يشكروا؛ كما قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ١٢]. إلى غير ذلك من الآيات.

تنبيه: لم يأت السمع في القرآن مجموعاً، وإنما يأتي فيه بصيغة الأفراد دائماً، مع أنه يجمع ما يذكر معه كالأفئدة والأبصار. وأظهر الأقوال في نكتة إفراده دائماً: أن أصله مصدر سمع سمعاً، والمصدر إذا جعل اسماً ذكر وأفرد؛ كما قال في الخلاصة:

ونعتوا بمصدر كثيراً فالتزموا الأفراد والتذكير

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [٧٨]. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن تسخير الطير في جو السماء ما يمسكها إلا هو - من آياته الدالة على قدرته، واستحقاقه لأن يعبد وحده، وأوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِدٌ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٦].

تنبيه: لم يذكر علماء العربية الفعل - بفتح فسكون - من صيغ جموع التفسير.

قال مقيده - عفا الله عنه -: الذي يظهر لي من استقراء اللغة العربية أن الفعل - بفتح فسكون - جمع تكسير لفاعل وصفاً لكثرة وروده في اللغة جمعاً له، كقوله هنا: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ﴾ [الملك: ١٩]، فالطير جمع طائر، وكالصحب فإنه جمع صاحب، قال امرؤ القيس:

وقوفاً بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجمل

فقوله «صحبي» أي أصحابي، والركب فإنه جمع راكب، قال تعالى: ﴿وَالرَّكْبُ أَهْلٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٢] وقال ذو الرمة:

استحدث الركب عن أشياعهم خبراً أم راجع القلب من أطرابه طرب

فالركب جمع راكب، وقد رد عليه ضمير الجماعة في قوله: «عن أشياعهم» وكالشرب فإنه جمع شارب؛ ومنه قول نابغة ذبيان:

كأنه خارجاً من جنب صفحته سفود شرب نسوه عند مفتاد
فإنه رد على الشرب ضمير الجماعة في قوله: «نسوه... إلخ». وكالسفر فإنه جمع سافر؛ ومنه حديث «أتموا فإننا قوم سفر»، وقول الشنفرى:

كأن وغاها جرتيه وجاله أضاميم من سفر القبائل نزل
وكالرجل جمع راجل؛ ومنه قراءة الجمهور: «وأجلب عليهم بخيلك ورجلك» بسكون الجيم، وأما على قراءة حفص عن عاصم بكسر الجيم، فالظاهر أن كسرة الجيم إتياع لكسرة اللام؛ فمعناه معنى قراءة الجمهور، ونحو هذا كثير جداً في كلام العرب، فلا نطيل به الكلام، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُم سَرِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة منته على خلقه بأن جعل لهم سرايل تقيهم الحر، أي والبرد؛ لأن ما يقي الحر من اللباس يقي البرد. والمراد بهذه السرايل: القمصان ونحوها من ثياب القطن والكتان والصوف، وقد بين هذه النعمة الكبرى في غير هذا الموضع كقوله: ﴿يَبْنَىْ ءَادَمَ قَدْ أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ لِيَاسًا يُؤَرَى سَوَىْكُمْ وَرِيثًا﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقوله: ﴿يَبْنَىْ ءَادَمَ حُدُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]؛ أي وتلك الزينة هي ما خلق الله لهم من اللباس الحسن، وقوله هنا: ﴿وَسَرِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ﴾ المراد بها الدروع ونحوها، مما يقي لابسها وقع السلاح، ويسلمه من بأسه. وقد بين أيضاً هذه النعمة الكبرى، واستحقاق من أنعم بها لأن يشكر له في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٥]. وإطلاق السرايل على الدروع ونحوها معروف، ومنه قول كعب بن زهير:

شم العرانيين أبطال لبوسهم من نسج داود في الهيجا سرايل
قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار يعرفون نعمة الله؛ لأنهم يعلمون أنه هو الذي يرزقهم ويعافهم، ويدبر شؤونهم، ثم ينكرون هذه النعمة؛ فيعبدون معه غيره، ويسوونه بما لا ينفع ولا يضر، ولا يغني شيئاً.

وقد أوضح - جل وعلا - هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦١]. فقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ دليل على معرفتهم نعمته. وقوله: ﴿فَقُلْ أَفَلَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ دليل على إنكارهم لها، والآيات بمثل هذا كثيرة جداً.

وروي عن مجاهد أن سبب نزول هذه الآية الكريمة: أن أعرابياً أتى النبي ﷺ

فسأله، فقرأ عليه رسول الله ﷺ: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ يُوتِيَكُم سَكَا﴾ فقال الأعرابي: نعم! قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ يُؤْتَا...﴾ الآية، قال الأعرابي: نعم! ثم قرأ عليه كل ذلك يقول الأعرابي: نعم! حتى بلغ ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْلُونَ﴾ فولى الأعرابي؛ فأنزل الله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا...﴾ الآية.

وعن السدي رحمه الله: «يعرفون نعمة الله» أي نبوة محمد ﷺ ثم ينكرونها؛ أي يكذبونه وينكرون صدقه.

وقد بين - جل وعلا -: أن بعثه نبيه ﷺ فيهم من ممن الله عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وبين في موضع آخر: أنهم قابلوا هذه النعمة بالكفران؛ وذلك في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ١٨]. وقيل: يعرفون نعمة الله في الشدة، ثم ينكرونها في الرخاء. وقد تقدمت الآيات الدالة على ذلك، كقوله: ﴿فَلَمَّا بَجَنَّهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] ونحوها الآيات - إلى غير ذلك من الأقوال في الآية.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال بعض العلماء: معناه أنهم كلهم كافرون، أطلق الأكثر وأراد الكل، قاله القرطبي والشوكاني. وقال الشوكاني: أو أراد بالأكثر العقلاء دون الأطفال ونحوهم. أو أراد كفر الجحود، ولم يكن كفر كلهم كذلك، بل كان كفر بعضهم كفر جهل.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾. لم يبين تعالى في هذه الآية الكريمة متعلق الإذن في قوله: ﴿لَا يُؤْذِنُ﴾ ولكنه بين في (المرسلات) أن متعلق الإذن الاعتذار؛ أي لا يؤذن لهم في الاعتذار؛ لأنهم ليس لهم عذر يصح قبوله، وذلك في قوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ [٢٥] وَلَا يُؤْذِنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ [٢٦] (المرسلات).

فإن قيل: ما وجه الجمع بين نفي اعتذارهم المذكور هنا، وبين ما جاء في القرآن من اعتذارهم؛ كقوله تعالى عنهم: ﴿وَاللَّهُ رِئَاسًا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقوله: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن شَيْءٍ سِوَى﴾، وقوله: ﴿بَلْ لَّمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ [غافر: ٧٤]، ونحو ذلك من الآيات. فالجواب من أوجه:

منها: أنهم يعتذرون حتى إذا قيل لهم: اخسئوا فيها ولا تكلمون، انقطع نطقهم ولم يبق إلا الزفير والشهيق؛ كما قال تعالى: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٥].

ومنها: أن نفي اعتذارهم يراد به اعتذار فيه فائدة، أما الاعتذار الذي لا فائدة فيه فهو كالعدم، يصدق عليه في لغة العرب أنه ليس بشيء؛ ولذا صرح تعالى بأن المنافقين بكم في قوله: ﴿صُمُّ بُكْمٌ﴾ [البقرة: ١٨] مع قوله عنهم: ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]؛ أي لفصاحتهم وحلاوة ألسنتهم. وقال عنهم أيضاً: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْقَوفُ﴾

سَلَفُكُمْ بِالْأَيْدِي حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩] فهذا الذي ذكره - جل وعلا - من فصاحتهم وحلة السننهم، مع تصريحه بأنهم بكم - يدل على أن الكلام الذي لا فائدة فيه كلا شيء، كما هو واضح. وقال هبيرة بن أبي وهب المخزومي:

وإن كلام المرأة في غير كنهه كالنبل تهوي ليس فيها نصالها

وقد بنا هذا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في مواضع منه. والترتيب بـ«ثم» في قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ لَا يُوَدِّتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ لأجل الدلالة على أن ابتلاءهم بالمنع من الاعتذار المشعر بالإقناط الكلي أشد من ابتلائهم بشهادة الأنبياء عليهم بكفرهم. قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

اعلم أولاً: أن استعتب تستعمل في اللغة بمعنى طالب العتبي؛ أي الرجوع إلى ما يرضي العاتب ويسره. وتستعمل أيضاً في اللغة بمعنى أعتب: إذا أعطى العتبي؛ أي رجع إلى ما يحب العاتب ويرضى، فإذا علمت ذلك - فاعلم أن في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ وجهين من التفسير متقاربي المعنى.

قال بعض أهل العلم: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ أي لا تطلب منهم العتبي، بمعنى لا يكلفون أن يرضوا ربهم؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف، فلا يردون إلى الدنيا ليتوبوا. وقال بعض العلماء: «ولا هم يستعتبون»؛ أي يعتبون، بمعنى يزال عنهم العتب، ويعطون العتبي وهي الرضا؛ لأن الله لا يرضى عن القوم الكافرين، وهذا المعنى كقوله تعالى في قراءة الجمهور: ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤]؛ أي وإن يطلبوا العتبي - وهي الرضا عنهم لشدة جزعهم - فما هم من المعتبين بصيغته اسم المفعول؛ أي المعطين العتبي وهي الرضا عنهم؛ لأن العرب تقول: أعتبه إذا رجع إلى ما يرضيه ويسره، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي:

أمن المنون وريبه تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

أي لا يرجع الدهر إلى مسرة من جزع ورضاه. وقول النابغة:

فإن كنت مظلوماً فعبد ظلمته وإن كنت ذا عتبي فمثلك يعتب

وأما قول بشر بن أبي خازم:

غضبت تميم أن تقتل عامر يوم النصار فأعتبوا بالصيلم

يعني أعتبناهم بالسيف، أي أرضيناهم بالقتل؛ فهو من قبيل التهكم، كقول عمرو بن معدي كرب:

وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيع

لأن القتل ليس بإرضاء، والضرب الوجيع ليس بتحية. وأما على قراءة من قرأ «وإن

يستعتبوا» بالبناء للمفعول «فما هم من المعتبين» بصيغة اسم الفاعل، فالمعنى أنهم لو طلبت منهم العتبي وردوا إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله وطاعة رسله، فما هم من المعتبين؛ أي الراجعين إلى ما يرضي ربهم، بل يرجعون إلى كفرهم الذي كانوا عليه أولاً، وهذه القراءة كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٨٥).

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار إذا رأوا العذاب لا يخفف عنهم، ولا ينظرون؛ أي لا يمهلون، وأوضح هذا المعنى في مواضع أخرى، وبين أنهم يرون النار، وأنها تراهم، وأنها تكاد تقطع من شدة الغيظ عليهم؛ كقوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (٢٩) ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْةٌ فَتَبْتَهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٤٤) [الأنبياء]، وقوله: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ (٥٢) [الكهف]، وقوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا مَا غِطُّوا وَزَفَرُوا﴾ (١٢) [الفرقان]، وقوله: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ (٧) ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: ٧ - ٨]، وقوله: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٨٦). ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن المشركين يوم القيامة إذا رأوا معبوداتهم التي كانوا يشركونها بالله في عبادته قالوا لربهم: ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك! وأن معبوداتهم تكذبهم في ذلك فيقولون لهم: كذبتهم! ما كنتم إيانا تعبدون! وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ (٥) ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ (١) [الأحقاف]، وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٨٦) ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٨٧) [مريم]، وقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَمَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَسُكُمْ أَتَارَ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقوله: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [القصص: ٦٤]، وقوله: ﴿فَرِيقًا يَبْتَغِيهِمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِذَا نَاكَبْتُمْوهُمْ﴾ [يونس: ٢٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

فإن قيل: كيف كذبتهم آلهتهم ونفوا أنهم عبدوهم؟ مع أن الواقع خلاف ما قالوا، وأنهم كانوا يعبدونهم في دار الدنيا من دون الله!

فالجواب: أن تكذيبهم لهم منصب على زعمهم أنهم آلهة، وأن عبادتهم حق، وأنها تقربهم إلى الله زلفى، ولا شك أن كل ذلك من أعظم الكذب وأشنع الافتراء؛ ولذلك هم صادقون فيما ألقوا إليهم من القول، ونطقوا فيه بأنهم كاذبون. ومراد الكفار بقولهم

لربهم: هؤلاء شركاؤنا، قيل: ليحملوا شركاءهم تبعة ذنبهم. وقيل: ليكونوا شركاءهم في العذاب، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨]. وقد نص تعالى على أنهم وما يعبدونه من دون الله في النار جميعاً في قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. وأخرج من ذلك الملائكة وعيسى وعزيراً بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]؛ لأنهم ما عبدوهم برضاهم؛ بل لو أطاعوهم لأخلصوا العبادة لله وحده - جل وعلا -.

قوله تعالى: ﴿وَالْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [٨٧]؛ إلثاؤهم إلى الله السلم، هو انقيادهم له، وخضوعهم؛ حيث لا ينفعهم ذلك كما تقدم في قوله: ﴿وَالْقُوا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾. والآيات الدالة على ذلك كثيرة كقوله: ﴿بَلْ هُرِّ أَيْوَمَ مُسْتَلِيمُونَ﴾ [الصافات] وقوله: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١] ونحو ذلك من الآيات، وقد قدمنا طرفاً من ذلك في الكلام على قوله: ﴿وَالْقُوا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾.

وقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾؛ أي غاب عنهم واضمحل ما كانوا يفترونه من أن شركاءهم تشفع لهم وتقربهم إلى الله زلفى؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وكقوله: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]. وضلال ذلك عنهم مذكور في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠]، وقوله: ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٥]. وقد قدمنا معاني «الضلال» في القرآن وفي اللغة بشواهدا.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [٨٨]. اعلم أولاً أن «صد» تستعمل في اللغة العربية استعمالين: أحدهما: أن تستعمل متعدية إلى المفعول، كقوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الفتح: ٢٥]، ومضارع هذه المتعدية «يصد» بالضم على القياس، ومصدرها «الصد» على القياس أيضاً. والثاني: أن تستعمل «صد» لازمة غير متعدية إلى المفعول، ومصدر هذه «الصدود» على القياس، وفي مضارعها الكسر على القياس، والضم على السماع؛ وعليهما القراءتان السبعيتان في قوله: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧] بالكسر والضم.

فإذا عرفت ذلك، فاعلم أن قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ محتمل لأن تكون «صد» متعدية، والمفعول محذوف للدلالة المقام عليه؛ على حد قوله في الخلاصة:

وحذف فضلة أجز إن لم يضر كحذف ما سيق جواباً أو حصر

ومحتمل لأن تكون «صد» لازمة غير متعدية إلى المفعول، ولكن في الآية الكريمة ثلاث قرائن تدل على أن «صد» متعدية، والمفعول محذوف؛ أي وصدوا الناس عن سبيل الله.

الأولى: أنا لو قدرنا «صد» لازمة، وأن معناها: صدودهم في أنفسهم عن الإسلام - لكان ذلك تكراراً من غير فائدة مع قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بل معنى الآية: كفروا في أنفسهم، وصدوا غيرهم عن الدين فحملوه على الكفر أيضاً.

القرينة الثانية: قوله تعالى: ﴿زِدْتُهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾؛ فإن هذه الزيادة من العذاب لأجل إضلالهم غيرهم، والعذاب المزيده فوقه: هو عذابهم على كفرهم في أنفسهم؛ بدليل قوله في المضلين الذين أضلوا غيرهم: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، وقوله: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]؛ كما تقدم إيضاحه.

القرينة الثالثة: قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسِدُونَ﴾ فإنه يدل على أنهم كانوا يفسدون على غيرهم مع ضلالهم في أنفسهم، وقوله: ﴿فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ أي الذي استحقوه بضلالهم وكفرهم، وعن ابن مسعود: أن هذا العذاب المزيده: عقارب أنيابها كالنخل الطوال، وحيات مثل أعناق الإبل، وأفاعي كأنها البخاتي تضربهم، أعادنا الله وإخواننا المسلمين منها! والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنه يوم القيامة يبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم يشهد عليهم بما أجابوا به رسولهم، وأنه يأتي بنينا ﷺ شاهداً علينا. وبين هذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ۚ﴾ (١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُلَ لَوْ شِئُوا بِهِنَّ الْأَرْضُ [النساء: ٤١ - ٤٢]، وكقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩]، وكقوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۚ﴾ [الأعراف]، إلى غير ذلك من الآيات، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال له رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ» قال: فقلت: يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: «نعم، إني أحب أن أسمعه من غيري» فقرأت «سورة النساء» حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ۚ﴾ [النساء] فقال: «حسبك الآن» فإذا عيناه تذرفان، اهـ.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ منصوب بـ «اذكر» مقدراً، والشاهد في هذه الآية فاعل بمعنى فاعل، أي شاهداً عليهم من أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿وَوَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه نزل على رسوله هذا الكتاب العظيم تبياناً لكل شيء. وبين ذلك في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] على القول بأن المراد بالكتاب فيها القرآن، أما على القول بأنه اللوح المحفوظ - فلا بيان بالآية،

وعلى كل حال فلا شك أن القرآن فيه بيان كل شيء، والسنة كلها تدخل في آية واحدة منه؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وقال السيوطي في «الإكليل في استنباط التنزيل» قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ وقال: ﴿مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال ﷺ: «ستكون فتن». قيل: وما المخرج منها؟ قال: «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم». أخرجه الترمذي وغيره. وقال سعيد بن منصور في سننه: حدثنا خديج بن معاوية، عن أبي إسحاق، عن مرة، عن ابن مسعود قال: من أراد العلم فعليه بالقرآن؛ فإن فيه خبر الأولين والآخرين. قال البيهقي: أراد به أصول العلم. وقال الحسن البصري: أنزل الله مائة وأربعة كتب، أودع علومها أربعة: التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان، ثم أودع علوم الثلاثة الفرقان، ثم أودع علوم القرآن: المفصل، ثم أودع علوم المفصل: فاتحة الكتاب؛ فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير الكتب المنزلة، أخرجه البيهقي في «الشعب».

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة، وجميع شرح السنة شرح للقرآن.

وقال بعض السلف: ما سمعت حديثاً إلا التمسث له آية من كتاب الله.

وقال سعيد بن جبير: ما بلغني حديث عن رسول الله ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه في كتاب الله.. أخرجه ابن أبي حاتم، وقال ابن مسعود: إذا حدثتكم بحديث أنبأتكم بتصديقه من كتاب الله، أخرجه ابن أبي حاتم، وقال ابن مسعود أيضاً: أنزل في القرآن كل علم، ويبين لنا فيه كل شيء، ولكن علمنا يقصر عما يبين لنا في القرآن. أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لو أغفل شيئاً لأغفل الذرة والخرولة والبعوضة»، وقال الشافعي أيضاً: جميع ما حكم به النبي ﷺ فهو مما فهمه من القرآن.

قلت: ويؤيد هذا قوله ﷺ: «إني لا أحل إلا ما أحل الله في كتابه، ولا أحرم إلا ما حرم الله في كتابه»، رواه بهذا اللفظ الطبراني في الأوسط من حديث عائشة.

وقال الشافعي أيضاً: ليست تنزل بأحد في الدين نازلة إلا في كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها. فإن قيل: من الأحكام ما ثبت ابتداء بالسنة؟ قلنا: ذلك مأخوذ من كتاب الله في الحقيقة؛ لأن كتاب الله أوجب علينا اتباع الرسول ﷺ، وفرض علينا الأخذ بقوله.

وقال الشافعي مرة بمكة: سلوني عما شئتم، أخبركم عنه من كتاب الله. فقيل له: ما تقول في المحرم يقتل الزنور؟ فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]. وحدثنا سفيان بن عيينة،

عن عبد الملك بن عمير، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة بن اليمان، عن النبي ﷺ أنه قال: «اقتلوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر». وحدثنا سفيان، عن مسعر بن كدام، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب أنه أمر بقتل المحرم الزنور.

وروى البخاري عن ابن مسعود قال: «لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات لخلق الله» فقالت له امرأة في ذلك. فقال: ومالي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ، وهو في كتاب الله. فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول؟! قال: لئن قرأته لقد وجدته! أما قرأت: «وَمَا أَرْسَلُ فَحْدُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَأَنِهُوا» [الحشر: ٧]؟ قالت: بلى. قال: فإنه قد نهى عنه.

وقال ابن بركان: ما قال النبي ﷺ من شيء فهو في القرآن، أو فيه أصله قرب أو بعد، فهمه من فهم، أو عمه عنه من عمه، وكذا كل ما حكم أو قضى به.

وقال غيره: ما من شيء إلا يمكن استخراج منه القرآن لمن فهمه الله تعالى؛ حتى إن بعضهم استنبط عمر النبي ﷺ ثلاثاً وستين من قوله «في سورة المنافقين»: «وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا» [المنافقون: ١١] فإنها رأس ثلاث وستين سورة، وعقبها «بالتغابن» ليظهر التغابن في فقده.

وقال المرسي: جمع القرآن علوم الأولين والآخرين، بحيث لم يحط بها علماً حقيقة إلا المتكلم به، ثم رسول الله ﷺ، خلا ما استأثر الله به سبحانه، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم؛ مثل الخلفاء الأربعة، ومثل ابن مسعود، وابن عباس، حتى قال: لو ضاع لي عقل بعير لوجدته في كتاب الله. ثم ورث عنهم التابعون لهم بإحسان، ثم تقاصرت الهمم، وفترت العزائم، وتضاءل أهل العلم، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه؛ فنوعوا علومه، وقامت كل طائفة بفن من فنونه.

فاعتني قوم بضبط لغاته، وتحرير كلماته، ومعرفة مخارج حروفه وعددها، وعد كلماته وآياته، وسوره وأجزائه، وأنصافه وأرباعه، وعدد سجدياته، إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة، والآيات المتماثلة؛ من غير تعرض لمعانيه، ولا تدبر لما أودع فيه؛ فسموا القراء.

واعتني النحاة بالمعرب منه والمبني من الأسماء والأفعال، والحروف العاملة وغيرها. وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها، وضروب الأفعال، واللازم والمتعدي، ورسوم خط الكلمات، وجميع ما يتعلق به؛ حتى إن بعضهم أعرب مشكله، وبعضهم أعربه كلمة كلمة.

واعتني المفسرون بالفاظه، فوجدوا منه لفظاً يدل على معنى واحد، ولفظاً يدل

على معنيين، ولفظاً على أكثر؛ فأجروا الأول على حكمه، وأوضحوا الخفي منه، وخاضوا إلى ترجيح أحد احتمالات ذي المعنيين أو المعاني، وأعمل كل منهم فكره، وقال بما اقتضاه نظره.

واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية، والشواهد الأصلية والنظرية، مثل قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهُ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة؛ فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية الله ووجوده، وبقائه وقدمه، وقدرته وعلمه، وتنزيهه عما لا يليق به؛ وسموا هذا العلم بـ«أصول الدين».

وتأملت طائفة معاني خطابه؛ فرأت منها ما يقتضى العموم، ومنها ما يقتضى الخصوص، إلى غير ذلك؛ فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز، وتكلموا في التخصيص والإضمار، والنص والظاهر، والمجمل والمحكم والمتشابه، والأمر والنهي والنسخ، إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة، واستصحب الحال والاستقراء؛ وسموا هذا الفن «أصول الفقه».

وأحكمت طائفة صحيح النظر، وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام، وسائر الأحكام، فأسسوا أصوله وفروعه، وبسطوا القول في ذلك بسطاً حسناً؛ وسموه بـ«علم الفروع» وبـ«الفقه أيضاً».

وتلمجت طائفة ما فيه من قصص القرون السابقة، والأمم الخالية، ونقلوا أخبارهم، ودونوا آثارهم ووقائعهم؛ حتى ذكروا بدء الدنيا، وأول الأشياء؛ وسموا ذلك بـ«التاريخ والقصص».

وتنبه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال، والمواعظ التي تقلقل قلوب الرجال، وتكدد تلك الجبال، فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد، والتحذير والتبشير، وذكر الموت والمعاد، والنشر والخشر؛ والحساب والعقاب، والجنة والنار - فصولاً من المواعظ، وأصولاً من الزواجر؛ فسموا بذلك «الخطباء والوعاظ».

واستنبط قوم مما فيه من أصول التعبير؛ مثل ما ورد في قصة يوسف: من البقرات الشمان، وفي هنامي صنّحي السجن، وفي رؤية الشمس والقمر والنجوم ساجدات، وسموه «تعبير الرؤيا»؛ واستنبطوا تفسير كل رؤيا من الكتاب؛ فإن عز عليهم إخراجها منه، فمن السنة التي هي شارحة الكتاب، فإن عسر فمن الحكم والأمثال. ثم نظروا إلى اصطلاح العوام في مخاطباتهم، وعرف عاداتهم الذي أشار إليه القرآن بقوله: ﴿وَأَمْرٌ بِالْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وأخذ قوم مما في آيات الموارد من ذكر السهام وأربابها، وغير ذلك «علم الفرائض» واستنبطوا منها من ذكر النصف والثلث، والرابع والسادس والثلثين «حساب الفرائض»، ومسائل العول؛ واستخرجوا منه أحكام الوصايا.

ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على الحكم الباهرة في الليل والنهار، والشمس والقمر ومنازله، والنجوم والبروج، وغير ذلك - فاستخرجوا «علم المواقيت».

ونظر الكتاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ وبديع النظم، وحسن السياق والمبادئ، والمقاطيع والمخالص والتلوين في الخطاب، والإطناب والإيجاز، وغير ذلك فاستنبطوا منه «علم المعاني والبيان والبديع».

ونظر فيه أرباب الإشارات وأصحاب الحقيقة؛ فلاح لهم من ألفاظه معان ودقائق، جعلوا لها أعلاماً اصطلاحوا عليها، مثل الغناء والبقاء، والحضور والخوف والهيبة، والأنس والوحشة، والقبض والبسط، وما أشبه ذلك.

هذه الفنون التي أخذتها الملة الإسلامية منه.

وقد احتوى على علوم آخر من علوم الأوائل، مثل: الطب والجدل والهيئة، والهندسة والجبر، والمقابلة والنجامة، وغير ذلك.

أما الطب: فمداره على حفظ نظام الصحة، واستحكام القوة؛ وذلك إنما يكون باعتدال المزاج تبعاً للكيفيات المتضادة، وقد جمع ذلك في آية واحدة وهي قوله: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وعرفنا فيه بما يعيد نظام الصحة بعد اختلاله، وحدث الشفاء للبدن بعد اعتلاله في قوله: ﴿شَرَابٌ مَّخْلُفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾، ثم زاد على طب الأجساد بطب القلوب، وشفاء الصدور.

وأما الهيئة: ففي تضاعيف سوره من الآيات التي ذكر فيها من ملكوت السموات والأرض، وما بث في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات.

وأما الهندسة: ففي قوله: ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثُلُثِ شُعْبٍ ۖ لَا ظِلُّهُ وَلَا يَبْقَى مِنْ أَلْهَبٍ ۖ﴾ [المرسلات: ٢١] فإن فيه قاعدة هندسية، وهو أن الشكل المثلث لا ظل له.

وأما الجدل: فقد حوت آياته من البراهين والمقدمات والنتائج، والقول بالموجب، والمعارضة، وغير ذلك شيئاً كثيراً، ومناظرة إبراهيم أصل في ذلك عظيم.

وأما الجبر والمقابلة: فقد قيل: إن أوائل السور ذكر عدد وأعوام وأيام لتواريخ أمم سالفة، وإن فيها تاريخ بقاء هذه الأمة، وتاريخ مدة الدنيا، وما مضى وما بقي، مضروباً بعضها في بعض.

وأما النجمة: ففي قوله: ﴿أَوْ أَتَمَرَوْا مِنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف: ٤] فقد فسره ابن عباس بذلك.

وفيه من أصول الصنائع، وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها - فمن الصنائع الخياطة في قوله: ﴿وَطُفُفًا يَخِصِّفَانِ﴾ [الأعراف: ٢٢]. والحدادة في قوله تعالى: ﴿أَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦]، وقوله: ﴿وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ﴾ [سبأ: ١٠]. والبناء في آيات، والنجارة

﴿أَنْ أَصْنَعَ الْفُلْكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، والغزل ﴿نَقَضْتَ غَزْلَهَا﴾، والنسج ﴿كَمَثَلِ الْمَنْكَرِ
أَتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١]، والفلاحة ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ [الواقعة] في آيات أخر،
والصيد في آيات، والغوص ﴿وَالنَّيْطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ﴾ [ص: ١٧]، ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً
وَالصِّيَاغَةَ﴾ وَأَتَّخَذَ قَوْمٌ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا ﴿[الأعراف: ١٤٨]، والزجاجة ﴿صَرَخَ
مُزَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾ [النمل: ٤٤]، ﴿الْيَصْبِغُ فِي رُجَامٍ﴾ [النور: ٣٥]، والفخارة ﴿فَأَوْقَدَ لِي
يَهْمَنْ عَلَى الطِّينِ﴾ [القصاص: ٢٨]، والملاحة ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾
[الكهف: ٧٩]، والكتابة ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: ٤] في آيات أخر، والخبز والطحن ﴿أَحْمِلْ
فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ [يوسف: ٣٦]، والطبخ ﴿يَعْبَثُ حَنِيذٌ﴾ [هود: ٦٩]، والغسل
والقصارة ﴿رَبِّانَاكَ فَطَهَّرَ﴾ [المدثر: ٤]، ﴿قَالَ الْخَوَارِثُ﴾ [المائدة: ١١٢] وهم القصارون،
والجزارة ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة: ٣]، والبيع والشراء في آيات كثيرة، والصبغ ﴿صِبْغَةً
أَلَّهَ﴾ [البقرة: ١٣٨]، ﴿مُجَدِّدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ﴾ [فاطر: ٣٧]، والحجارة ﴿وَتَنْجَثُونَ مِنْ أَلْجَالِ
يُونَا﴾ [الأعراف: ٧٤]، والكيالة والوزن في آيات كثيرة، والرمي ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾
[الأنفال: ١٧]، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وفيه من أسماء الآلات، وضروب المأكولات والمشروبات والمنكوحات، وجميع
ما وقع ويقع في الكائنات ما يحقق معنى قوله: ﴿مَا قَرُنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾
[الأنعام: ٣٨]. انتهى كلام المرسى ملخصاً مع زيادات.

قلت: قد اشتمل كتاب الله على كل شيء، أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا
مسألة هي أصل، إلا وفي القرآن ما يدل عليها، وفيه علم عجائب المخلوقات،
وملكوت السموات والأرض، وما في الأفق الأعلى، وما تحت الثرى، وبدء الخلق،
وأسماء مشاهير الرسل والملائكة، وعيون أخبار الأمم السالفة؛ كقصة آدم مع إبليس في
إخراجه من الجنة، وفي الولد الذي سماه عبد الحارث، ورفع إدريس وإغراق قوم نوح،
وقصة عاد الأولى والثانية، وثمود، والناقة، وقوم لوط، وقوم شعيب الأولين والآخرين
فإنه أرسل مرتين. وقوم تبع، ويونس، وإلياس، وأصحاب الرس، وقصة موسى في
ولادته وفي إلقائه في اليم، وقتله القبطي، ومسيره إلى مدين وتزوجه ابنة شعيب،
وكلامه تعالى بجانب الطور، وبعثه إلى فرعون، وخروجه وإغراق عدوه، وقصة العجل،
والقوم الذين خرج بهم وأخذتهم الصعقة، وقصة القتال وذبح البقرة، وقصته في قتال
الجبارين، وقصته مع الخضر، والقوم الذين ساروا في سرب من الأرض إلى الصين،
وقصة طالوت وداود مع جالوت وقتله، وقصة سليمان وخبره مع ملكة سبأ وفتنته، وقصة
القوم الذين خرجوا فراراً من الطاعون فأماتهم الله ثم أحياهم، وقصة إبراهيم في
مجادلته قومه، ومناظرته النمرود، ووضعه إسماعيل مع أمه بمكة، وبنائه البيت، وقصة
الذبيح، وقصة يوسف وما أبسطها، وقصة مريم وولادتها عيسى وإرساله ورفع، وقصة
زكريا وابنه يحيى، وأيوب وذو الكفل، وقصة ذي القرنين ومسيره إلى مطلع الشمس

ومغربها وبنائه السد، وقصة أصحاب الكهف والرقيم، وقصة يختنصر، وقصة الرجلين اللذين لأحدهما الجنة، وقصة أصحاب الجنة الذين أقسموا ليصرمونها مصبحين، وقصة مؤمن آل فرعون، وقصة أصحاب الفيل، وقصة الجبار الذي أراد أن يصعد إلى السماء.

وفيه من شأن النبي ﷺ دعوة إبراهيم به، وبشارة عيسى وبعثه وهجرته. ومن غزواته: غزوة بدر (في سورة الأنفال) وأحد (في آل عمران) وبدر الصغرى فيها، والخندق (في الأحزاب)، والنضير (في الحشر)، والحديبية (في الفتح)، وتبوك (في براءة)، وحجة الوداع (في المائدة)، ونكاحه زينب بنت جحش، وتحريم سريره، وتظاهر أزواجه عليه، وقصة الإفك، وقصة الإسراء، وانشقاق القمر، وسحر اليهود إياه.

وفيه بدء خلق الإنسان إلى موته، وكيفية الموت، وقبض الروح وما يفعل بها بعد صعودها إلى السماء، وفتح الباب للمؤمنين وإلقاء الكافرة، وعذاب القبر والسؤال فيه، ومقر الأرواح، وأشرط الساعة الكبرى العشرة، وهي:

نزول عيسى، وخروج الدجال، ويأجوج ومأجوج، والندبة، والدخان، ورفع القرآن، وطلوع الشمس من مغربها، وإغلاق باب التوبة، والخسف.

وأحوال البعث: من نفخة الصور، والفرع، والصعق، والقيام، والحشر والنشر، وأحوال الموقف، وشدة حر الشمس، وظل العرش، والصراط، والميزان، والحوض، والحساب لقوم، ونجاة آخرين منه، وشهادة الأعضاء، وإتياء الكتب بالآيمان والشمالك وخلف الظهور، والشفاعاة، والجنة وأبوابها، وما فيها من الأشجار والثمار والأنهار، والحلي والألوان، والدرجات، ورؤيته تعالى، والنار وما فيها من الأودية، وأنواع العقاب، وألوان العذاب، والزقوم والحميم، إلى غير ذلك مما لو بسط جاء في مجلدات. وفي القرآن جميع أسمائه تعالى الحسنى كما ورد في حديث، وفيه من أسمائه مطلقاً ألف اسم، وفيه من أسماء النبي ﷺ جملة.

وفيه شعب الإيمان البضع والسبعون، وفيه شرائع الإسلام الثلاثمائة وخمس عشرة، وفيه أنواع الكبائر وكثير من الصغائر، وفيه تصديق كل حديث ورد عن النبي ﷺ، هذه جملة القول في ذلك، اه كلام السيوطي (في الإكليل).

وإنما أوردناه برمته مع طوله؛ لما فيه من إيضاح أن القرآن فيه بيان كل شيء، وإن كان في الكلام المذكور أشياء جديرة بالانتقاد تركنا مناقشتها خوف الإطالة المملة، مع كثرة الفائدة في الكلام المذكور في الجملة.

وفي قوله تعالى: ﴿يَتَيْنَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ وجهان من الإعراب:

أحدهما: أنه مفعول من أجله، والثاني: أنه مصدر منكر واقع حالاً؛ على حد

قوله في الخلاصة:

ومصدر منكر حالاً يقع بكثرة كبغته زيد طلع

تنبيه: أظهر القولين: أن التبيان مصدر، ولم يسمع كسر تاء التفعال مصدراً إلا في التبيان والتلقاء. وقال بعض أهل العلم: التبيان اسم لا مصدر. قال أبو حيان (في البحر): والظاهر أن «تبياناً» مصدر جاء على تفعال. وإن كان باب المصادر يجيء على تفعال (بالفتح) كالترداد والتطواف. ونظير تبيان في كسر تائه: تلقاء، وقد جوز الزجاج فتحه في غير القرآن. وقال ابن عطية: «تبياناً» اسم وليس بمصدر؛ وهو قول أكثر النحاة. وروى ثعلب عن الكوفيين، والمبرد عن البصريين: أنه مصدر، ولم يجئ على تفعال من المصادر إلا ضربان: تبيان وتلقاء، اهـ - والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً وَيُشْرِى لِّلْمُسْلِمِينَ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن العظيم هدى ورحمة وبشرى للمسلمين، ويفهم من دليل خطاب هذه الآية الكريمة - أي مفهوم مخالفتها - أن غير المسلمين ليسوا كذلك، وهذا المفهوم من هذه الآية صرح به - جل وعلا - في مواضع أخرى، كقوله: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا بِهِ هُدًى وَشِفَاءٌ ۚ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [نصفت: ٤٤]، وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقوله - جل وعلا -: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هُدًى أَوْ إيمَانًا ۚ قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٩]، وقوله: ﴿وَلَا يَزِيدُ كَيْدًا مِّنْهُمْ مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُفِينًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤] في الموضعين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يأمر خلقه بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وأنه ينهاهم عن الفحشاء والمنكر والبغى؛ لأجل أن يتعظوا بأوامره ونواهيه، فيمتثلوا أمره، ويجتنبوا نهيه. وحذف مفعول «يأمر، وينهى» لقصد التعميم.

ومن الآيات التي أمر فيها بالعدل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ٓأَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [النساء: ٥٨].

ومن الآيات التي أمر فيها بالإحسان قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقوله: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا احْسَنُوا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقوله: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصاص: ٧٧]، وقوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقوله: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١].

ومن الآيات التي أمر فيها بإيتاء ذي القربى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ذَا الْقُرْبَىٰ حَقُّهُ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّبِيلَ ۚ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

وقوله: ﴿وَمَاتَ ذَا الْفُرْقَيْنِ حَقًّا وَالْمُسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَلَا بُدْرَ تَبْدِيرًا﴾ [البقرة: ١٧٧] وقوله: ﴿وَمَاتَ الْمَالُ عَلَى حُيْتِهِ ذَوَى الْفُرْقَيْنِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقوله: ﴿أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْبَغٍ﴾ [البقرة: ١٧٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

ومن الآيات التي نهى فيها عن الفحشاء والمنكر والبغى قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقوله: ﴿وَذَرُوا ظِلَهِمُ الْإِثْمَ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، والمنكر وإن لم يصرح باسمه في هذه الآيات، فهو داخل فيها.

ومن الآيات التي جمع فيها بين الأمر بالعدل والتفضل بالإحسان قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ فهذا عدل، ثم دعا إلى الإحسان بقوله: ﴿وَلَيْنَ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ وقوله: ﴿وَحَرِّزُوا سِتْرَ سِتْنَةٍ مِّثْلَهَا﴾ [الشورى: ٤٠] فهذا عدل، ثم دعا إلى الإحسان بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

وقوله: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥] فهذا عدل، ثم دعا إلى الإحسان بقوله: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقوله: ﴿وَلَمَنْ أُنْصِرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١] فهذا عدل. ثم دعا إلى الإحسان بقوله: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَعَفَا إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٢]، وقوله: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء: ١٤٨] فهذا عدل، ثم دعا إلى الإحسان بقوله: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوهُ عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

فإذا عرفت هذا، فاعلم أن العدل في اللغة: القسط والإنصاف، وعدم الجور، وأصله التوسط بين المرتبتين؛ أي الإفراط والتفريط، فمن جانب الإفراط والتفريط فقد عدل، والإحسان مصدر أحسن، وهي تستعمل متعدية بالحرف نحو: أحسن إلى والديك؛ ومنه قوله تعالى عن يوسف: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠]. وتستعمل متعدية بنفسها كقولك: أحسن العامل عمله، أي أجاده وجاء به حسناً. والله - جل وعلا - يأمر بالإحسان بمعنييه المذكورين، فهما داخلان في الآية الكريمة؛ لأن الإحسان إلى عباد الله لوجه الله عمل أحسن فيه صاحبه. وقد فسر النبي ﷺ الإحسان في حديث جبريل بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، وقد قدمنا إيضاح ذلك في سورة هود.

فإذا عرفت هذا، فاعلم أن أقوال المفسرين في الآية الكريمة راجعة في الجملة إلى ما ذكرنا، كقول ابن عباس: العدل: لا إله إلا الله، والإحسان: أداء الفرائض؛ لأن عبادة الخالق دون المخلوق هي عين الإنصاف والقسط، وتجنب التفريط والإفراط، ومن أدى فرائض الله على الوجه الأكمل فقد أحسن؛ ولذا قال النبي ﷺ في الرجل الذي

حلف لا يزيد على الواجبات: «أفْلَحَ إِنْ صَدَقَ». وكقول سفيان: العدل: استواء العلانية والسريرة. والإحسان: أن تكون السريرة أفضل من العلانية. وكقول علي عليه السلام: العدل: الإنصاف. والإحسان: التفضل. إلى غير ذلك من أقوال السلف. والعلم عند الله تعالى وقوله: ﴿يُعْظِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. الوعظ: الكلام الذي تلين له القلوب.

تنبيه: فإن قيل: يكثر في القرآن إطلاق الوعظ على الأوامر والنواهي، كقوله هنا: ﴿يُعْظِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ مع أنه ما ذكر إلا الأمر والنهي في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ...﴾ الآية، وكقوله في سورة البقرة بعد أن ذكر أحكام الطلاق والرجعة: ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، وقوله في سورة الطلاق في نحو ذلك أيضاً: ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [الطلاق: ٢]. وقوله في النهي عن مثل قذف عائشة: ﴿يُعْظِكُمُ اللَّهُ أَنْ تُعَوِّدُوا لِإِثْمِهِ أَبَدًا﴾ [النور: ١٧]. مع أن المعروف عند الناس أن الوعظ يكون بالترغيب والترهيب ونحو ذلك لا بالأمر والنهي.

فالجواب: أن ضابط الوعظ هو الكلام الذي تلين له القلوب، وأعظم ما تلين له قلوب العقلاء أوامر ربهم ونواهيهم؛ فإنهم إذا سمعوا الأمر خافوا من سخط الله في عدم امتثاله، وطمعوا فيما عند الله من الثواب في امتثاله. وإذا سمعوا النهي خافوا من سخط الله في عدم اجتنابه، وطمعوا فيما عنده من الثواب في اجتنابه؛ فحداهم حادي الخوف والطمع إلى الامتثال، فلانت قلوبهم للطاعة خوفاً وطمعاً، والفحشاء في لغة العرب: الخصلة المتناهية في القبح؛ ومنه قيل لشديد البخل: فاحش؛ كما في قول طرفة في معلقته:

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيمة مال الفاحش المتشدد

والمنكر اسم مفعول أنكر؛ وهو في الشرع: ما أنكره الشرع ونهى عنه، وأوعد فاعله العقاب. والبغي: الظلم.

وقد بين تعالى أن الباغي يرجع ضرر بغيه على نفسه في قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيَكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣]، وقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]. وقوله: ﴿ذِي الْقُرْبَى﴾؛ أي صاحب القرابة من جهة الأب أو الأم، أو هما معاً؛ لأن إيتاء ذي القربى صدقة وصلة رحم، والإيتاء: الإعطاء. وأحد المفعولين محذوف؛ لأن المصدر أضيف إلى المفعول الأول وحذف الثاني. والأصل: وإيتاء صاحب القرابة؛ كقوله: ﴿وَمَاتَى الْمَالُ عَلَى حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَى﴾... الآية [البقرة: ١٧٧].

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾. أمر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة عباده أن يوفوا بعهد الله إذا عاهدوا، وظاهر الآية أنه شامل لجميع العهود فيما بين العبد وربّه، وفيما بينه وبين الناس، وكرر هذا في مواضع أخر كقوله (في الأنعام): ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ﴾... الآية [الأنعام: ١٥٢]، وقوله في الإسراء: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]. وقد قدمنا هذا في الأنعام.

وبين في موضع آخر أن من نقض العهد إنما يضر بذلك نفسه، وأن من أوفى به يؤتيه الله الأجر العظيم على ذلك؛ وذلك في قوله: ﴿فَمَنْ تَكُنْ فَإِنَّمَا يَنْتُكَ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَبِئْسَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]. وبين في موضع آخر أن نقض الميثاق يستوجب اللعن؛ وذلك في قوله: ﴿فِيمَا تَقْضِيهِمْ يَتَّبِعُهُمْ لَعْنُهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن ما عنده من نعيم الجنة باق لا يفنى، وأوضح هذا المعنى في مواضع أخرى؛ كقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ يُحْذَرُ﴾، [هود: ١٠٨]، وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَمْ يَنْفَدِ﴾ [ص: ١]، وقوله: ﴿وَيُشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْلُكُونَ الْغَالِبِينَ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَّا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. أقسم - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه سيجزي الذين صبروا أجراً - أي جزاء عملهم - بأحسن ما كانوا يعملون. وبين في موضع آخر أنه جزاء بلا حساب، كما في قوله: ﴿إِنَّمَا يُؤِتَى الصَّابِرُونَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

تنبيه: استنبط بعض العلماء من هذه الآية الكريمة أن فعل المباح حسن؛ لأن قوله في هذه الآية: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ صيغة تفضيل تدل على المشاركة، والواجب أحسن من المندوب، والمندوب أحسن من المباح، فيجازون بالأحسن الذي هو الواجب والمندوب، دون مشاركتها في الحسن وهو المباح؛ وعليه درج في (مراقى السعود) في قوله:

ما ربنا لم ينه عنه حسن وغيره القبيح والمستهجن

إلا أن الحسن ينقسم إلى حسن وأحسن؛ ومن ذلك قوله تعالى لموسى: ﴿فَخُذْهَا يَقْوَاهُ وَأَمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥]. فالجزء المنصوص عليه في قوله: ﴿وَأَنْ عَاقِبَتُهُمْ فَاعْبَادُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ حسن. والصبر المذكور في قوله: ﴿وَلَكِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ أحسن، وهكذا، وقرأ هذا الحرف ابن كثير وعاصم وابن ذكوان بخلف عنه «ولنجزي» بنون العظمة. وقرأه الباقر بالباء، وهو الطريق الثاني لابن ذكوان.

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٧]. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن كل عامل سواء كان ذكراً أو أنثى عمل عملاً صالحاً فإنه - جل وعلا - يقسم ليحييه حياة طيبة، وليجزيه أجره بأحسن ما كان يعمل.

اعلم أولاً أن القرآن العظيم دل على أن العمل الصالح هو ما استكمل ثلاثة أمور: الأول: موافقته لما جاء به النبي ﷺ؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

الثاني: أن يكون خالصاً لله تعالى؛ لأن الله - جل وعلا - يقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُوا مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [١٤ - ١٥].

الثالث: أن يكون مجتنباً على أساس العقيدة الصحيحة؛ لأن الله يقول: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ففقد ذلك بالإيمان، ومفهوم مخالفته أنه لو كان غير مؤمن لما قبل منه ذلك العمل الصالح.

وقد أوضح - جل وعلا - هذا المفهوم في آيات كثيرة، كقوله في عمل غير المؤمن: ﴿وَقَدْ مَنَّاَ عَلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان]، وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود]، وقوله: ﴿أَعْمَلُهُمْ كَرِيمٍ بَقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩]، وقوله: ﴿أَعْمَلُهُمْ كَرَمًا أَشَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، إلى غير ذلك من الآيات، واختلف العلماء في المراد بالحياة الطيبة في هذه الآية الكريمة.

فقال قوم: لا تطيب الحياة إلا في الجنة، فهذه الحياة الطيبة في الجنة؛ لأن الحياة الدنيا لا تخلو من المصائب والأكدار، والأمراض والآلام والأحزان، ونحو ذلك؛ وقد قال تعالى: ﴿وَلَكِ الدَّارُ الْآخِرَةُ لَهِىَ الْحَيَاةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]. والمراد بالحيوان: الحياة.

وقال بعض العلماء: الحياة الطيبة في هذه الآية الكريمة في الدنيا؛ وذلك بأن يوفق الله عبده إلى ما يرضيه، ويرزقه العافية والرزق الحلال؛ كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

قال مقيد - عفا الله عنه -: وفي الآية الكريمة قرينة تدل على أن المراد بالحياة الطيبة في الآية: حياته في الدنيا حياة طيبة، وتلك القرينة هي أننا لو قدرنا أن المراد بالحياة الطيبة: حياته في الجنة في قوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ صار قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تكراراً معه؛ لأن تلك الحياة الطيبة هي أجر عملهم؛ بخلاف ما لو قدرنا أنها في الحياة الدنيا؛ فإنه يصير المعنى: فلنحيينه في الدنيا حياة طيبة، ولنجزينه في الآخرة بأحسن ما كان يعمل، وهو واضح.

وهذا المعنى الذي دل عليه القرآن تؤيده السنة الثابتة عنه ﷺ.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة: والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت، وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب. وعن علي بن أبي طالب رحمه الله أنه فسرها بالقناعة، وكذا قال ابن عباس وعكرمة ووهب بن منبه - إلى أن قال - وقال الضحاك: هي الرزق الحلال، والعبادة في الدنيا. وقال الضحاك أيضاً: هي العمل بالطاعة والانشراح بها.

والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثني شرحبيل بن شريك، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه». ورواه مسلم من حديث عبد الله بن يزيد المقرئ به. وروى الترمذي والنسائي من حديث أبي هانئ، عن أبي علي الجنبلي، عن فضالة بن عبيد: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قد أفلح من هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً وقع به». وقال الترمذي: هذا حديث صحيح.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا همام، عن يحيى، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة. وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً» انفرد بإخراجه مسلم، اه من ابن كثير.

وهذه الأحاديث ظاهرة في ترجيح القول: بأن الحياة الطيبة في الدنيا؛ لأن قوله ﷺ: «أفلح» يدل على ذلك؛ لأن من نال الفلاح نال حياة طيبة. وكذلك قوله ﷺ: «يعطى بها في الدنيا» يدل على ذلك أيضاً. وابن كثير إنما ساق الأحاديث المذكورة لينبه على أنها ترجح القول المذكور. والعلم عند الله تعالى.

وقد تقرر في الأصول: أنه إذا دار الكلام بين التوكيد والتأسيس رجح حمله على التأسيس؛ وإليه أشار في (مراقي السعود) جامعاً له مع نظائر يجب فيها تقديم الراجح من الاحتمالين بقوله:

كذلك ما قابل ذا اعتلال من التأصل والاستقلال

ومن تأسس عموم وبقا الأفراد والإطلاق مما ينتقى

كذلك ترتيب لإيجاب العمل بما له الرجحان مما يحتمل

ومعنى كلام صاحب (المراقي) أنه يقدم محتمل اللفظ الراجح على المحتمل المرجوح، كالتأصل، فإنه يقدم على الزيادة: نحو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] يحتمل كون الكاف زائدة، ويحتمل أنها غير زائدة، والمراد بالمثل الذات؛ كقول العرب: مثلك لا يفعل هذا، يعنون أنت لا ينبغي لك أن تفعل هذا، فالمعنى ليس كالله شيء. ونظيره من إطلاق المثل وإرادة الذات: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ [الأحقاف: ١٠] أي على نفس القرآن لا شيء آخر مماثل له، وقوله: ﴿كَفَنَ مَثَلَهُ فِي أَفْطُلُمَتٍ﴾ [الأنعام: ١٢٢] أي كمن هو في الظلمات. وكالاتقلال، فإنه يقدم على الإضمار، كقوله تعالى: ﴿أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُمَكَّلُوا﴾ [المائدة: ٣٣]، فكثير من العلماء يضمرون قيوداً غير مذكورة فيقولون: أن يقتلوا إذا قتلوا، أو يصلبوا إذا قتلوا وأخذوا المال، أو تقطع أيديهم وأرجلهم إذا أخذوا المال ولم يقتلوا... إلخ.

فالمالكية يرجحون أن الإمام مخير بين المذكوراته مطلقاً؛ لأن استقلال اللفظ أرجح من إضمار قيود غير مذكورة؛ لأن الأصل عدمها حتى تثبت بدليل؛ كما أشرنا إليه سابقاً (في المائة) وكذلك التأسيس يقدم على التأكيد وهو محل الشاهد؛ كقوله: ﴿فَيَأْتِيَ الْآلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن]، وقولته: ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات]. قيل: تكرار اللفظ فيهما تأكيد، وكونه تأسيساً أرجح لما ذكرنا؛ فتحمل الآلاء في كل موضع على ما تقدم. قيل: لفظ ذلك التكذيب فلا يتكرر منها لفظ. وكذا يقال في سورة المرسلات فيحمل على المكذبين بما ذكر، قيل: كل لفظ... إلخ. فإذا علمت ذلك فاعلم - أنا إن حملنا الحياة الطيبة في الآية على الحياة الدنيا كان ذلك تأسيساً. وإن حملناها على حياة الجنة تكرر ذلك مع قوله بعده: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ﴾... الآية؛ لأن حياة الجنة الطيبة هي أجراً الذي يجزونه.

وقال أبو حيان (في البحر): والظاهر من قوله تعالى: ﴿فَلَنَجْزِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ أن ذلك في الدنيا؛ وهو قول الجمهور، ويدل عليه قوله: ﴿وَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ [الزمر: ٣٥] يعني في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

أظهر القولين في هذه الآية الكريمة أن الكلام على حذف الإرادة؛ أي فإذا أردت قراءة القرآن ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾... الآية. وليس المراد أنه إذا قرأ القرآن وفرغ من قراءته استعاذ بالله من الشيطان كما يفهم من ظاهر الآية، وذهب إليه بعض أهل العلم، والدليل على ما ذكرنا تكرر حذف الإرادة في القرآن وفي كلام العرب لدلالة المقام عليها؛ كقوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: ٦]، أي أردتم القيام إليها كما هو ظاهر، وقوله: ﴿إِنَّا نَنْجِيْهُمْ فَلَا تَلَاجُؤَ بِالْإِثْمِ﴾ [المجادلة: ٩]؛ أي إذا أردتم أن تتناجوا فلا تتناجوا بالإثم؛ لأن النهي إنما هو عن أمر مستقبل يراد فعله، ولا يصح النهي عن فعل مضى وانقضى كما هو واضح.

وظاهر هذه الآية الكريمة أن الاستعاذة من الشيطان الرجيم واجبة عند القراءة؛ لأن صيغة أفعل للوجوب كما تقرر في الأصول.

وقال كثير من أهل العلم: إن الأمر في الآية للتدب والاستحباب، وحكى عليه الإجماع أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة، وظاهر الآية أيضاً: الأمر بالاستعاذة عند القراءة في الصلاة لعموم الآية، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَيْسَ لَكُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ عَلَى الَّذِينَ هُمْ بِكُمْ مُّشْرِكُونَ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الشيطان ليس له سلطان على المؤمنين المتوكلين على الله، وأن سلطانه إنما هو على أتباعه الذين يتولونه والذين هم به مشركون. وبين هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾.

[الحجر]، وقوله: ﴿لَا تُغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٨) ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٩٩) [حسن]، وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ (١٠٠) [الإسراء]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ وَمَنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ [سبا: ٢١]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]. واختلف العلماء في معنى السلطان في هذه الآيات.

فقال أكثر أهل العلم: هو الحجة، أي ليس للشيطان عليهم حجة فيما يدعوههم إليه من عبادة الأوثان.

وقال بعضهم: ليس له سلطان عليهم؛ أي تسلط وقدرة على أن يوقعهم في ذنب لا توبة منه. وقد قدمنا هذا. والمراد بـ ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ﴾ الذين يطيعونه فيوالونه بالطاعة. وأظهر الأقوال في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أن الضمير عائد إلى الشيطان لا إلى الله، ومعنى كونهم مشركين به هو طاعتهم له في الكفر والمعاصي؛ كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَيْتِي عَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٦) [يسر]، وقوله عن إبراهيم: ﴿يَتَابَعِي لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مریم: ٤٤] إلى غير ذلك من الآيات. وأما سلطانه على الذين يتولونه فهو ما جعلوه له على أنفسهم من الطاعة والاتباع والموالاة، بغير موجب يستوجب ذلك.

تنبيه: فإنه قيل: أثبت الله للشيطان سلطاناً على أوليائه في آيات، كقوله هنا: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ أَعْجَلَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر] فلا استثناء يدل على أن له سلطاناً على من اتبعه من الغاوين؛ مع أنه نفى عنه السلطان عليهم في آيات أخرى، كقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٥) ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [سبا: ٢٠ - ٢١]. وقوله تعالى حاكياً عنه مقررأ له: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.

فالجواب هو: أن السلطان الذي أثبت له عليهم غير السلطان الذي نفاه، وذلك من وجهين:

الأول: أن السلطان المثبت له هو سلطان إضلاله لهم بتزيينه، والسلطان المنفي هو سلطان الحجة؛ فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها، غير أنه دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان. وإطلاق السلطان على البرهان كثير في القرآن.

الثاني: أن الله لم يجعل له عليهم سلطاناً ابتداء البتة، ولكنهم هم الذين سلطوه على أنفسهم بطاعته ودخولهم في حربه، فلم يتسلط عليهم بقوة؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]. وإنما تسلط عليهم بإرادتهم واختيارهم.

ذكر هذا الجواب بوجهيه العلامة ابن القيم رحمه الله. وقد بينا هذا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَكِّيهِ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه إذا بدل آية مكان آية، بأن نسخ آية أو أنساها، وأتى بخير منها أو مثلها - أن الكفار يجعلون ذلك سبباً للطعن في الرسول ﷺ؛ بادعاء أنه كاذب على الله، مفتر عليه. زعماً منهم أن نسخ الآية بالآية يلزمه البداء، وهو الرأي المجدد، وأن ذلك مستحيل على الله، فيفهم عندهم من ذلك أن النبي ﷺ مفتر على الله زاعمين أنه لو كان من الله لأقره وأثبتته، ولم يطرأ له فيه رأي متجدد حتى ينسخه.

والدليل على أن قوله: ﴿بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ معناه: نسخنا آية وأنسيناها قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقوله: ﴿سُقُرُوكَ فَلَا تَمَسُّهُ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦ - ٧] أي أن تيساه.

والدليل على أنه إن نسخ آية أو أنساها، لا بد أن يأتي ببديل خير منها أو مثلها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَأْتِي بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقوله هنا: ﴿بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾.

وما زعمه المشركون واليهود من أن النسخ مستحيل على الله لأنه يلزمه البداء، وهو الرأي المتجدد - ظاهر السقوط، واضح البطلان لكل عاقل؛ لأن النسخ لا يلزمه البداء البتة، بل الله - جل وعلا - يشرع الحكم وهو عالم بأن مصلحته ستنقضي في الوقت المعين، وأنه عند ذلك الوقت ينسخ ذلك الحكم ويبدله بالحكم الجديد الذي فيه المصلحة؛ فإذا جاء ذلك الوقت المعين أنجز - جل وعلا - ما كان في علمه السابق من نسخ ذلك الحكم، الذي زالت مصلحته بذلك الحكم الجديد الذي فيه المصلحة، كما أن حدوث المرض بعد الصحة وعكسه، وحدث الغنى بعد الفقر وعكسه، ونحو ذلك لا يلزم فيه البداء؛ لأن الله عالم بأن حكمته الإلهية تقتضي ذلك التغيير في وقته المعين له، على وفق ما سبق في العلم الأزلي كما هو واضح.

قد أشار - جل وعلا - إلى علمه بزوال المصلحة من المنسوخ، وتمحضها في الناسخ بقوله هنا: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَكِّيهِ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ نَأْتِي بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقوله: ﴿سُقُرُوكَ فَلَا تَمَسُّهُ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ [الأعلى: ٧] بعد قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعلى: ٧] يدل على أنه أعلم بما ينزل؛ فهو عالم بمصلحة الإنساء، ومصلحة تبديل الجديد من الأول المنسى.

مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة:

المسألة الأولى: لا خلاف بين المسلمين في جواز النسخ عقلاً وشرعاً، ولا في وقوعه فعلاً، ومن ذكر عنه خلاف في ذلك كأبي مسلم الأصفهاني - فإنه إنما يعني أن النسخ تخصيص لزمان الحكم بالخطاب الجديد؛ لأن ظاهر الخطاب الأول استمرار

الحكم في جميع الزمن. والخطاب الثاني دل على تخصيص الحكم الأول بالزمن الذي قبل النسخ؛ فليس النسخ عنده رفعاً للحكم الأول. وقد أشار إليه في (مراقي السعد) بقوله في تعريف النسخ:

رفع لحكم أو بيان الزمن بمحكم القرآن أو بالسنن
وإنما خالف فيه اليهود وبعض المشركين، زاعمين أنه يلزمه البداء كما بينا. ومن هنا قالت اليهود: إن شريعة موسى يستحيل نسخها.

المسألة الثانية: لا يصح نسخ حكم شرعي إلا بوحى من كتاب أو سنة؛ لأن الله - جل وعلا - يقول: ﴿وَإِذَا تَنَزَّلْنَا عَلَيْهَا مَائِدَانَا يَنْتَهِى قَالِ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتِ بِفَرْءٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَفِيَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [يونس] - وبه تعلم أن النسخ بمجرد العقل ممنوع، وكذلك لا نسخ بالإجماع؛ لأن الإجماع لا ينعقد إلا بعد وفاته ﷺ؛ لأنه ما دام حياً فالعبرة بقوله وفعله وتقريره ﷺ، ولا حجة معه في قول الأمة؛ لأن اتباعه فرض على كل أحد؛ ولذا لا بد في تعريف الإجماع من التقييد بكونه بعد وفاته ﷺ، كما قال صاحب (المراقي) في تعريف الإجماع:

وهو الاتفاق من مجتهدي الأمة من بعد وفاة أحمد
وبعد وفاته ينقطع النسخ؛ لأنه تشريع، ولا تشريع البتة بعد وفاته ﷺ، وإلى كون العقل والإجماع لا يصح النسخ بمجردهما - أشار في (مراقي السعد) أيضاً بقوله في النسخ:
فلم يكن بالعقل أو مجرد الإجماع بل ينمي إلى المستند
وقوله: «بل ينمي إلى المستند» يعني أنه إذا وجد في كلام العلماء أن نصاً منسوخاً بالإجماع، فإنهم إنما يعنون أنه منسوخ بالنص الذي هو مستند الإجماع، لا بنفس الإجماع؛ لما ذكرنا من منع النسخ به شرعاً، وكذلك لا يجوز نسخ الوحي بالقياس على التحقيق، وإليه أشار في (المراقي) بقوله:

ومنع نسخ النص بالقياس هو الذي ارتضاه جل الناس
أي وهو الحق.

المسألة الثالثة: اعلم أن ما يقوله بعض أهل الأصول من المالكية والشافعية وغيرهم من جواز النسخ بلا بدل، وعزاه غير واحد للجمهور، وعليه درج في (المراقي) بقوله:
وينسخ الخف بماله ثقل وقد يجيء عارياً من البدل

أنه باطل بلا شك. والعجب ممن قال به من العلماء الأجلاء مع كثرتهم، مع أنه مخالف مخالف صريحة لقوله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] فلا كلام البتة لأحد بعد كلام الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَدُّ مِنْ اللَّهِ

قِيلَا [النساء: ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿مَأْتُمْ أَغْلَمَ أَرَأَيْتُمْ﴾ [البقرة: ١٤٠] فقد ربط - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة بين النسخ، وبين الإتيان ببدل المنسوخ على سبيل الشرط والجزاء، ومعلوم أن الصدق والكذب في الشرطية على سبيل الشرط والجزاء، ومعلوم أن الصدق والكذب في الشرطية يتواردان على الربط؛ فيلزم أنه كلما وقع النسخ وقع الإتيان بخير من المنسوخ أو مثله كما هو ظاهر.

وما زعمه بعض أهل العلم من أن النسخ وقع في القرآن بلا بدل وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَجَمَّعَ الرَّسُولُ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُؤَيْكُمُ صَدَقَةٌ﴾ [المجادلة: ١٢] فإنه نسخ بقوله: ﴿أَسْفَقْتُمْ أَنْ تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُؤَيْكُمُ صَدَقَةً﴾ [المجادلة: ١٣]، ولا بدل لهذا المنسوخ.

فالجواب أن له بدلاً، وهو أن وجوب تقديم الصدقة أمام المناجاة لما نسخ بقي استحباب الصدقة ونديها، بدلاً من الوجوب المنسوخ كما هو ظاهر.

المسألة الرابعة: اعلم أنه يجوز نسخ الأخف بالأثقل، والأثقل بالأخف، فمثال نسخ الأخف بالأثقل: نسخ التخيير بين الصوم والإطعام المنصوص عليه في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤] بأثقل منه، وهو تعيين إيجاب الصوم في قوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ونسخ حبس الزواني في البيوت المنصوص عليه بقوله: ﴿فَأَنسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ [النساء: ١٥]، بأثقل منه وهو الجلد والرجم المنصوص على الأول منهما في قوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]، وعلى الثاني منهما بآية الرجم التي نسخت تلاوتها وبقي حكمها ثابتاً، وهي قوله: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله، والله عزيز حكيم). ومثال نسخ الأثقل بالأخف: نسخ وجوب مصابرة المسلم عشرة من الكفار المنصوص عليه في قوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبَرُوا عَلَى مَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٥]، بأخف منه وهو مصابرة المسلم اثنين منهم المنصوص عليه في قوله: ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦]. وكنسخ قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، بقوله: ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]؛ فإنه نسخ للأثقل بالأخف كما هو ظاهر. وكنسخ اعتداد المتوفى عنها بحول، المنصوص عليه في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، بأخف منه وهو الاعتداد بأربعة أشهر وعشر، المنصوص عليه في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرَزِقْنَهُنَّ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤].

تنبيه: اعلم أن في قوله - جل وعلا -: ﴿ثَاتٍ يَخْتَرِ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] إشكالاً من جهتين:

الأولى: أن يقال: إما أن يكون الأثقل خيراً من الأخف؛ لأنه أكثر أجراً، أو

الأخف خيراً من الأثقل لأنه أسهل منه، وأقرب إلى القدرة على الامتثال، وكون الأثقل خيراً يقتضي منع نسخه بالأخف، كما أن كون الأخف خيراً يقتضي منع نسخه بالأثقل؛ لأن الله صرح بأنه يأتي بما هو خير من المنسوخ أو مماثل له، لا ما هو دونه. وقد عرفت أن الواقع جواز نسخ كل منهما بالآخر.

الجهة الثانية من جهتي الإشكال في قوله: ﴿أَوْ مِثْلَهُمَا﴾ [البقرة: ١٠٦]؛ لأنه يقال: ما الحكمة في نسخ المثل ليبدل منه مثله؟ وأي مزية للمثل على المثل حتى ينسخ ويبدل منه؟

والجواب عن الإشكال الأول: هو أن الخيرية تارة تكون في الأثقل لكثرة الأجر، وذلك فيما إذا كان الأجر كثيراً جداً والامتثال غير شديد الصعوبة؛ كنسخ التخيير بين الإطعام والصوم بإيجاب الصوم؛ فإن في الصوم أجراً كثيراً كما في الحديث القدسي: «إِلَّا الصَّوْمُ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»، والصائمون من خيار الصابرين؛ لأنهم صبروا لله عن شهوة بطونهم وفروجهم؛ والله يقول: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] ومشقة الصوم عادية ليس فيها صعوبة شديدة تكون مظنة لعدم القدرة على الامتثال، وإن عرض ما يقتضي ذلك كمرض أو سفر؛ فالتسهيل برخصة الإفطار منصوص بقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وتارة تكون الخيرية في الأخف، وذلك فيما إذا كان الأثقل المنسوخ شديد الصعوبة بحيث يعسر فيه الامتثال؛ فإن الأخف يكون خيراً منه؛ لأن مظنة عدم الامتثال-تعرض المكلف للوقوع فيما لا يرضي الله، وذلك كقوله: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] فلو لم تنسخ المحاسبة بخطرات القلوب لكان الامتثال صعباً جداً، شاقاً على النفوس، لا يكاد يسلم من الإخلال به، إلا من سلمه الله تعالى، فلا شك أن نسخ ذلك بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] خير للمكلف من بقاء ذلك الحكم الشاق، وهكذا.

والجواب عن الإشكال الثاني هو أن قوله: ﴿أَوْ مِثْلَهُمَا﴾ يراد به مماثلة الناسخ والمنسوخ في حد ذاتيهما؛ فلا ينافي أن يكون الناسخ يستلزم فوائد خارجة عن ذاته يكون بها خيراً من المنسوخ، فيكون باعتبار ذاته مماثلاً للمنسوخ، وباعتبار ما يستلزمه من الفوائد التي لا توجد في المنسوخ خيراً من المنسوخ.

وإيضاحه أن عامة المفسرين يمثلون لقوله: ﴿أَوْ مِثْلَهُمَا﴾ بنسخ استقبال بيت المقدس باستقبال بيت الله الحرام؛ فإن هذا الناسخ والمنسوخ بالنظر إلى ذاتيهما متماثلان؛ لأن كل واحد منهما جهة من الجهات، وهي في حقيقة أنفسهما متساوية، فلا ينافي أن يكون الناسخ مشتتملاً على حكم خارجة عن ذاته تصيره خيراً من المنسوخ بذلك الاعتبار، فإن استقبال بيت الله الحرام تلزمه نتائج متعددة مشار لها في القرآن ليست موجودة في استقبال بيت المقدس، منها: أنه يسقط به احتجاج كفار مكة على

النبي ﷺ بقولهم: تزعم أنك على ملة إبراهيم ولا تستقبل قبلته! وتسقط به حجة اليهود بقولهم: تعيب ديننا وتستقبل قبلتنا، وقبلتنا من ديننا! وتسقط به أيضاً حجة علماء اليهود فإنهم عندهم في التوراة أنه ﷺ سوف يؤمر باستقبال بيت المقدس، ثم يؤمر بالتحويل عنه إلى استقبال بيت الله الحرام، فلو لم يؤمر بذلك لاحتجوا عليه بما عندهم في التوراة من أنه سيحول إلى بيت الله الحرام، والفرض أنه لم يحول.

وقد أشار تعالى إلى هذه الحكم التي هي إحاض هذه الحجج الباطلة بقوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ حَرَجْتَ قَوْلَ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٩] ثم بين الحكمة بقوله: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [البقرة: ١٥٠]. وإسقاط هذه الحجج من الدواعي التي دعت به ﷺ إلى حب التحويل إلى بيت الله الحرام المشار إليه في قوله تعالى: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَتَوَلَّىكَ قِبَلَهُ تَرْضَاهَا قَوْلَ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

المسألة الخامسة: اعلم أن النسخ على ثلاثة أقسام:

الأول: نسخ التلاوة والحكم معاً، ومثاله ما ثبت في صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن...» الحديث، فأية عشر رضعات منسوخة التلاوة والحكم إجماعاً.

الثاني: نسخ التلاوة وبقاء الحكم، ومثاله آية الرجم المذكورة آنفاً، وآية خمس رضعات على قول الشافعي وعائشة ومن وافقهما.

الثالث: نسخ الحكم وبقاء التلاوة، وهو غالب ما في القرآن المنسوخ؛ كآية المصابرة، والعدة، والتخيير بين الصوم والإطعام، وحبس الزواني. كما ذكرنا ذلك كله آنفاً.

المسألة السادسة: اعلم أنه لا خلاف بين العلماء في نسخ القرآن بالقرآن، ونسخ السنة بمتواتر السنة. واختلفوا في نسخ القرآن بالسنة كعكسه، وفي نسخ المتواتر بأخبار الآحاد، وخلافهم في هذه المسائل معروف. وممن قال بأن الكتاب لا ينسخ إلا بالكتاب، وأن السنة لا تنسخ إلا بالسنة: الشافعي رحمه الله.

قال مقيده - عفا الله عنه -: الذي يظهر لي - والله تعالى أعلم - هو أن الكتاب والسنة كلاهما ينسخ بالآخر؛ لأن الجميع وحي من الله تعالى، فمثال نسخ السنة بالكتاب: نسخ استقبال بيت المقدس باستقبال بيت الله الحرام؛ فإن استقبال بيت المقدس أولاً إنما وقع بالسنة لا بالقرآن، وقد نسخ الله بالقرآن في قوله: ﴿فَلَتَوَلَّىكَ قِبَلَهُ تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: ١٤٤]. ومثال نسخ الكتاب بالسنة: نسخ آية عشر رضعات تلاوة وحكماً بالسنة المتواترة. ونسخ سورة الخلع وسورة الحنف تلاوة وحكماً بالسنة المتواترة. وسورة الخلع وسورة الحنف: هما القنوت في الصبح عند المالكية. وقد أوضح صاحب (الدر المثور) وغيره تحقيق أنهما كانتا سورتين من كتاب الله ثم نسختا.

وقد قدمنا في سورة الأنعام أن الذي يظهر لنا أنه الصواب: هو أن أخبار الأحاد الصحيحة يجوز نسخ المتواتر بها إذا ثبت تأخرها عنه، وأنه لا معارضة بينهما؛ لأن المتواتر حق، والسنة الواردة بعده إنما بينت شيئاً جديداً لم يكن موجوداً قبل، فلا معارضة بينهما البتة لاختلاف زمنهما.

فقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ [الأنعام: ١٤٥]، يدل بدلالة المطابقة دلالة صريحة على إباحة لحوم الحمر الأهلية؛ لصراحة الحصر بالنفي والإثبات في الآية في ذلك. فإذا صرح النبي ﷺ بعد ذلك يوم خيبر في حديث صحيح «بأن لحوم الحمر الأهلية غير مباحة» فلا معارضة البتة بين ذلك الحديث الصحيح وبين تلك الآية النازلة قبله بسنين؛ لأن الحديث دل على تحريم جديد، والآية ما نفت تجدد شيء في المستقبل كما هو واضح.

فالتحقيق - إن شاء الله - هو جواز نسخ المتواتر بالأحاد الصحيحة الثابت تأخرها عنه، وإن خالف فيه جمهور الأصوليين، ودرج على خلافه وفاقاً للجمهور صاحب (المراقى) بقوله:

والنسخ بالأحاد للكتاب ليس بواقع على الصواب

ومن هنا تعلم أنه لا دليل على بطلان قول من قال: إن الوصية للوالدين والأقربين منسوخة بحديث «لا وصية لوارث». والعلم عند الله تعالى.

المسألة السابعة: اعلم أن التحقيق هو جواز النسخ قبل التمكن من الفعل، فإن قيل: ما الفائدة في تشريع الحكم أولاً إذا كان سينسخ قبل التمكن من فعله؟

فالجواب: أن الحكمة ابتلاء المكلفين بالعزم على الامتثال. ويوضح هذا - أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ولده، وقد نسخ عنه هذا الحكم بفدائه بذبح عظيم قبل أن يتمكن من الفعل. وبين أن الحكمة في ذلك: الابتلاء بقوله: ﴿إِنَّكَ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْكَبِيرُ﴾ [الصافات: ١٧] ومن أمثلة النسخ قبل التمكن من الفعل: نسخ خمس وأربعين صلاة ليلة الإسراء، بعد أن فرضت الصلاة خمسين صلاة، كما هو معروف. وقد أشار إلى هذه المسألة في (مراقي السعود) بقوله:

والنسخ من قبل وقوع الفعل جاء وقوعاً في صحيح النقل

المسألة الثامنة: اعلم أن التحقيق أنه ما كل زيادة على النص تكون نسخاً، وإن خالف في ذلك الإمام أبو حنيفة رحمه الله، بل الزيادة على النص قسمان:

قسم مخالف للنص المذكور قبله، وهذه الزيادة تكون نسخاً على التحقيق؛ كزيادة تحريم الحمر الأهلية، وكل ذي ناب من السباع مثلاً، على المحرمات الأربعة المذكورة في آية: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ [الأنعام: ١٤٥]؛ لأن الحمر الأهلية ونحوها لم يسكت عن حكمه في الآية، بل مقتضى الحصر بالنفي والإثبات في

قوله: ﴿لَا أُجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ [الأنعام: ١٤٥] - صريح في إباحة الحمر الأهلية وما ذكر معها؛ فكون زيادة تحريمها نسخاً أمر ظاهر.

وقسم لا تكون الزيادة فيه مخالفة للنص، بل تكون زيادة شيء سكت عنه النص الأول، وهذا لا يكون نسخاً، بل بيان حكم شيء كان مسكوتاً عنه؛ كتقريب الزاني البكر، وكالحكم بالشاهد، واليمين في الأموال. فإن القرآن في الأول أوجب الجلد وسكت عما سواه، فزاد النبي حكماً كان مسكوتاً عنه، وهو التغريب. كما أن القرآن في الثاني فيه ﴿فَإِنْ لَّمْ يَكُونَا بَجَائِنِ فَرَجُلٌ وَأَمْرَأَتَانِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وسكت عن حكم الشاهد واليمين، فزاد النبي ﷺ حكماً كان مسكوتاً عنه؛ وإلى هذا أشار في (مراقي السعود) بقوله:

وليس نسخاً كل ما أفاداً فيما رسا بالنص إلا ازدياداً
وقد قدمنا هذا في الأنعام في الكلام على قوله: ﴿قُلْ لَا أُجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ [الأنعام: ١٤٥].

قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أمر الله - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول: إن هذا القرآن الذي زعموا أنه افتراء بسبب تبديل الله آية مكان آية - أنه نزل عليه روح القدس من ربه - جل وعلا - فليس مفترياً له، وروح القدس: جبريل، ومعناه الروح المقدس؛ أي الظاهر من كل ما لا يليق.

وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي كُلِّ آلَةٍ رِجَالٌ يَذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَكُنَّا عَنْ أَكْثَرِ الْعَالَمِ﴾ [الشعراء: ٢١]، وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ حِصَانًا﴾ [طه: ١١٤]، وقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ بِهِ لِسَانُكَ لِنَتَكَلَّمَ بِهِ﴾ [الأنعام: ١١٠]، ﴿إِنْ عَلَيْنَا جُمُوعُهُمْ وَقَدْ آنَسُوا﴾ [١٧]، ﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَلِمْ يَدَكَ لِلْخَشْيَةِ﴾ [١٨]، [القيامة: ١٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾. أقسم - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أعلم أن الكفار يقولون: إن هذا القرآن الذي جاء به النبي ﷺ ليس وحياً من الله، وإنما تعلمه من بشر من الناس.

وأوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿وَقَالُوا أَأُتْرَكُ أَنْ يَكْتُبَهَا فَفِي ثَمَلٍ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، وقوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ [المدثر: ٢٤] أي يرويه محمد ﷺ عن غيره، وقوله: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ [الأنعام: ١٠٥]. كما تقدم في الأنعام.

وقد اختلف العلماء في تعيين هذا البشر الذي زعموا أنه يعلم النبي ﷺ، وقد صرح القرآن بأنه أعجمي اللسان؛ ف قيل: هو غلام الفاكه بن المغيرة، واسمه جبر، وكان نصرانياً فأسلم. وقيل: اسمه يعيش عبد لبني الحضرمي، وكان يقرأ الكتب الأعجمية. وقيل: غلام لبني عامر بن لؤى. وقيل: هما غلامان: اسم أحدهما يسار،

واسم الآخر جبر، وكانا صيقلين يعملان السيوف، وكانا يقرآن كتاباً لهم. وقيل: كانا يقرآن التوراة والإنجيل، إلى غير ذلك من الأقوال.

وقد بين - جل وعلا - كذبهم وتعتنهم في قولهم: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ بقوله: ﴿لَسَاتُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ أي كيف يكون تعلمه من ذلك البشر، مع أن ذلك البشر أعجمي اللسان، وهذا القرآن عربي مبين فصيح، لا شائبة فيه من العجمة؛ فهذا غير معقول.

وبين شدة تعتنهم أيضاً بأنه لو جعل القرآن أعجمياً لكذبوه أيضاً وقالوا: كيف يكون هذا القرآن أعجمياً مع أن الرسول الذي أنزل عليه عربي؛ وذلك في قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: ٤٤] أي أقرآن أعجمي، ورسول عربي؟ فكيف ينكرون أن القرآن أعجمي والرسول عربي، ولا ينكرون أن المعلم المزعوم أعجمي، مع أن القرآن المزعوم تعليمه له عربي.

كما بين تعتنهم أيضاً بأنه لو نزل هذا القرآن العربي المبين، على أعجمي فقرأه عليهم عربياً لكذبوه أيضاً، مع ذلك الخارق للعادة؛ لشدة عنادهم وتعتنهم، وذلك في قوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ۖ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٩].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ أي يميلون عن الحق، والمعنى لسان البشر الذي يلحدون، أي يميلون قولهم عن الصدق والاستقامة إليه - أعجمي غير بين، وهذا القرآن لسان عربي مبين، أي ذو بيان وفصاحة. وقرأ هذا الحرف حمزة والكسائي «يلحدون» بفتح الياء والحاء، من لحد الثلاثي. وقرأه الباقر «يلحدون» بضم الياء وكسر الحاء من ألحد الرباعي، وهما لغتان، والمعنى واحد؛ أي يميلون عن الحق إلى الباطل. وأما «يلحدون» التي في الأعراف، والتي في فصلت فلم يقرأهما بفتح الياء والحاء إلا حمزة وحده دون الكسائي. وإنما وافقه الكسائي في هذه التي في النحل وأطلق اللسان على القرآن؛ لأن العرب تطلق اللسان وتريد به الكلام؛ فتؤثنها وتذكرها؛ ومنه قول أعشي باهلة:

إني أتني لسان لا أسر بها من علو لا عجب فيها ولا سخر

وقول الآخر:

لسان الشر تهديها إلينا وخنت وما حسبتك أن تخونا

وقول الآخر:

أتني لسان بني عامر أحاديثها بعد قول نكر

ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] أي ثناء حسناً باقياً. ومن إطلاق اللسان بمعنى الكلام مذكراً قول الحطيئة:

ندمت على لسان فات مني فليت بأنه في جوف عكم

قوله تعالى: ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

قال بعض أهل العلم: إن هذا مثل ضرب به الله لأهل مكة، وهو رواية العوفي عن ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وحكاها مالك عن الزهري - رحمهم الله -، نقله عنهم ابن كثير وغيره.

وهذه الصفات المذكورة التي اتصفت بها هذه القرية - تتفق مع صفات أهل مكة المذكورة في القرآن؛ فقوله عن هذه القرية ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ قال نظيره عن أهل مكة؛ كقوله: ﴿أَوَلَمْ تُكُنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُبْحِجْنَ﴾ [القصص: ٥٧]. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُخَفِّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقوله: ﴿وَأَمَانُهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤]، وقوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقوله: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال نظيره عن أهل مكة أيضا؛ كقوله: ﴿يُحْبِجْنَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: ٥٧]، وقوله: ﴿لَا يَلْفُفُ قَرْيَشٌ لِّهِمْ رِحْلَةَ الْشِتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ [١] ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ [٢] ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾ [٣] [قريش]؛ فإن رحلة الشتاء كانت إلى اليمن، ورحلة الصيف كانت إلى الشام، وكانت تأتيتهم من كلتا الرحلتين أموال وأرزاق؛ ولذا أتبع الرحلتين بامتنانه عليهم بأن أطعمهم من جوع. وقوله في دعوة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، وقوله: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وقوله: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ ذكر نظيره عن أهل مكة في آيات كثيرة، كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [٤] [إبراهيم].

وقد قدمنا طرفاً من ذلك في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾.

وقوله: ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وقع نظيره قطعاً لأهل مكة؛ لما لجوا في الكفر والعناد، ودعا عليهم رسول الله ﷺ، وقال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف» فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء، حتى أكلوا الجيف والعلهز - وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه - وأصابهم الخوف الشديد بعد الأمن؛ وذلك الخوف من جيوش رسول الله ﷺ، وغزواته وبعوثة وسراياه، وهذا الجوع والخوف أشار لهما القرآن على بعض التفسيرات، فقد فسر ابن مسعود آية الدخان بما يدل على ذلك.

قال البخاري في صحيحه: باب ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١١٢﴾

[الدخان] فارتقب: فانتظر. حدثنا عبدان، عن أبي حمزة، عن الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، عن عبد الله قال: مضى خمس: الدخان، والروم، والقمر، والبطشة، واللزام. ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١١٣﴾ [الدخان] حدثنا يحيى، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن مسلم، عن مسروق قال: قال عبد الله: إنما كان هذا لأن قريشاً لما استعصوا على النبي ﷺ دعا بسنين كسني يوسف؛ فأصابهم قحط وجهد، حتى أكلوا العظام؛ فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد؛ فأنزل الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١١٣﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ [الدخان] فأتى رسول الله ﷺ ف قيل: يا رسول الله، استسقى الله لمضر، فإنها قد هلك! قال: «لمضر! إنك لجريء!» فاستسقى فسقوا؛ فنزلت ﴿تَكْرُمُ عَلَيْكُمْ﴾ [الدخان: ١٥] فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ [الدخان] يعني يوم بدر.

باب قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ [الدخان] حدثنا يحيى، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: دخلت على عبد الله فقال: إن من العلم أن تقول لما لا تعلم: الله أعلم، إن الله قال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ ﴿٨١﴾ [ص] إن قريشاً لما غلبوا النبي ﷺ واستعصوا عليه قال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف» فأخذتهم سنة أكلوا فيها العظام والميتة من الجهد، حتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع، ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ [الدخان] ف قيل له: إن كشفنا عنهم عادوا؛ فدعا ربه فكشف عنهم فعادوا، فانتقم الله منهم يوم بدر؛ فذلك قوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠] إلى قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦]، انتهى بلفظه من صحيح البخاري.

وفي تفسير ابن مسعود ﷺ لهذه الآية الكريمة ما يدل دلالة واضحة أن ما أذيقنا هذه القرية المذكورة في سورة النحل من لباس الجوع أذيقه أهل مكة، حتى أكلوا العظام، وصار الرجل منهم يتخيل له مثل الدخان من شدة الجوع. وهذا التفسير من ابن مسعود ﷺ له حكم الرفع؛ لما تقرر في علم الحديث من أن تفسير الصحابي بسبب النزول له حكم الرفع، كما أشار له صاحب (طلعة الأنوار) بقوله:

تفسير صاحب له تعلق بالسبب الرفع له محقق

وكما هو معروف عند أهل العلم. وقد قدمنا ذلك في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَتَوْهُمْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقد ثبت في صحيح مسلم أن الدخان من أشراط الساعة، ولا مانع من حمل

الآية الكريمة على الدخانين: الدخان الذي مضى، والدخان المستقبل - جمعاً بين الأدلة - وقد قدمنا أن التفسيرات المتعددة في الآية إن كان يمكن حمل الآية على جميعها فهو أولى، وقد قدمنا أن ذلك هو الذي حققه أبو العباس ابن تيمية رحمته الله في رسالته في علوم القرآن بأدلته.

وأما الخوف المذكور في آية النحل، فقد ذكر - جل وعلا - مثله عن أهل مكة أيضاً على بعض تفسيرات الآية الكريمة التي هي: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ [الرعد: ٣١] فقد جاء عن جماعة من السلف تفسير القارعة التي تصيبهم بسرية من سرايا رسول الله ﷺ. قال صاحب (الدر المنثور) أخرج الفريابي وابن جرير، وابن مردويه من طريق عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ قال: السرايا. وأخرج الطيالسي وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، من طريق سعيد بن جبير رضي الله عنه، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ قال: سرية ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ قال: أنت يا محمد ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ قال فتح مكة. وأخرج ابن مردويه، عن أبي سعيد رضي الله عنه في قوله: ﴿تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ قال سرية من سرايا رسول الله ﷺ ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ يا محمد ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾. وأخرج ابن أبي شينة وابن جرير، وابن المنذر وأبو الشيخ، والبيهقي في الدلائل، عن مجاهد رضي الله عنه قال: ﴿الْقَارِعَةُ﴾ السرايا ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ قال الحديبية ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ قال: فتح مكة. وأخرج ابن جرير عن عكرمة رضي الله عنه في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحج: ٥٥] - نزلت بالمدينة في سرايا النبي ﷺ، أو تحل أنت يا محمد قريباً من دارهم، أه محل الغرض منه.

فهذا التفسير المذكور في آية الرعد هذه، والتفسير المذكور قبله في آية الدخان يدل على أن أهل مكة أبدلوا بعد سعة الرزق بالجوع وبعد الأمن والطمأنينة بالخوف، كما قال في القرية المذكورة ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾، وقوله في القرية المذكورة ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾... الآية، لا يخفى أنه قال مثل ذلك عن قريش في آيات كثيرة، كقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

والآيات المصرحة بكفرهم وعنادهم كثيرة جداً؛ كقوله: ﴿أَجْعَلِ الْاِلَهَةَ اِلٰهًا وَحِداً ۚ اِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ۝٥ وَاطَّلَعَ اَللّٰهُ مِنْهُمْ اَنْ اَمْسُوا وَاصْبِرُوا عَلٰٓى ءَالِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٥ - ٦]، وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ اِنْ يَتَّخِذُونَكَ اِلَّا هُزُوًا ۚ اٰلَٰهَآ اَلَّذِیْ بَعَثَ اِلَٰهَآ رَسُوْلًا ۝٦ اِنَّ كَاذِبًا لِّبُصْلٰنَا عَنْ اِلٰهِنَا ۚ لَوْلَا اَنْتَ صَبَرْنَا عَلٰیہَا﴾ [الفرقان: ٤١ - ٤٢]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

فمجموع ما ذكرنا يؤيد قول من قال: إن المراد بهذه القرية المضروبة مثلاً في آية النحل هذه: هي مكة. وروي عن حفصة وغيرها: أنها المدينة، قالت ذلك لما بلغها قتل عثمان رضي الله عنه. وقال بعض العلماء: هي قرية غير معينة، ضربها الله مثلاً للتخويف من مقابلة نعمة الأمن والاطمئنان والرزق، بالكفر والطغيان. وقال من قال بهذا القول: إنه يدل عليه تنكير القرية في الآية الكريمة في قوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً... الآية.

قال مقبده - عفا الله عنه -: وعلى كل حال، فيجب على كل عاقل أن يعتبر بهذا المثل، وألا يقابل نعم الله بالكفر والطغيان؛ لئلا يحل به ما حل بهذه القرية المذكورة، ولكن الأمثال لا يعقلها عن الله إلا من أعطاه الله علماً؛ لقوله: ﴿وَلِئَلَّا تُؤْمِنُوا بِمَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْقُرْآنِ وَمَا يَسْتَأْذِنُ إِلَّا أَلْفَاظُهُمْ﴾ [العنكبوت].

وفي قوله في هذه الآية الكريمة «قرية» وجهان من الإعراب.

أحدهما: أنه بدل من قوله «مثلاً»، الثاني: أن «ضرب» مضمن معنى جعل، وأن «قرية» هي المفعول الأول، و«مثلاً» المفعول الثاني. وإنما أخرجت قرية لئلا يقع الفصل بينها وبين ضقاتها المذكورة في قوله: ﴿كَانَتْ آمِنَةً﴾... إلخ.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿مُطْمَئِنَّةٌ﴾ أي لا يزعجها خوف لأن الطمأنينة مع الأمن، والانزعاج والقلق مع الخوف.

وقوله: ﴿رَغَدًا﴾ أي واسعاً لذيداً. و«الأنعم» قيل جمع نعمة كشدة وأشد. أو على ترك الاعتداد بالتاء؛ كدرع وأدرع. أو جمع نعم كبؤس وأبؤس، كما تقدم في سورة الأنعام في الكلام على قوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف، هو أن يقال: كيف أوقع الإذاقة على اللباس في قوله: ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾. وروي أن ابن الراوندي الزنديق قال لابن الأعرابي إمام اللغة والأدب: هل يذاق اللباس؟! يريد الطعن في قوله تعالى: ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ﴾. فقال له ابن الأعرابي: لا بأس أيها النسناس! هب أن محمداً ﷺ ما كان نبياً! أما كان عربياً؟

قال مقبده - عفا الله عنه -: والجواب عن هذا السؤال ظاهر، وهو أنه أطلق اسم اللباس على ما أصابهم من الجوع والخوف؛ لأن آثار الجوع والخوف تظهر على أبدانهم، وتحيط بها كاللباس. ومن حيث وجدانهم ذلك اللباس المعبر به عن آثار الجوع والخوف أوقع عليه الإذاقة، فلا حاجة إلى ما يذكره البيانون من الاستعارات في هذه الآية الكريمة. وقد أوضحنا في رسالتنا التي سمينها (منع جواز المجاز في المنزل للتعبير والإعجاز) أنه لا يجوز لأحد أن يقول: إن في القرآن مجازاً، وأوضحنا ذلك بأدلته، وبيننا أن ما يسميه البيانون مجازاً أنه أسلوب من أساليب اللغة العربية.

وقد اختلف أهل البيان في هذه الآية، فبعضهم يقول: فيها استعارة مجردة؛ يعنون

أنها جيء فيها بما يلائم المستعار له. وذلك في زعمهم أنه استعار اللباس لما غشيهم من بعض الحوادث كالجوع والخوف، بجامع اشتماله عليهم كاشتمال اللباس على اللابس على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية التحقيقية، ثم ذكر الوصف الذي هو الإذاقة ملائماً للمستعار له الذي هو الجوع والخوف؛ لأن إطلاق الذوق على وجدان الجوع والخوف جرى عندهم مجرى الحقيقة لكثرة الاستعمال؛ فيقولون: ذاق البؤس والضرر، وأذاقه غيره إياهما، فكانت الاستعارة مجردة لذكر ما يلائم المستعار له، الذي هو المشبه في الأصل في التشبيه الذي هو أصل الاستعارة. ولو أريد ترشيح هذه الاستعارة في زعمهم لقليل: فكساها؛ لأن الإتيان بما يلائم المستعار منه الذي هو المشبه به في التشبيه الذي هو أصل الاستعارة يسمى «ترشيحاً»، والكسوة تلائم اللباس، فذكرها ترشيح للاستعارة. قالوا: وإن كانت الاستعارة المرشحة أبلغ من المجردة، فتجريد الاستعارة في الآية أبلغ؛ من حيث إنه روعي المستعار له الذي هو الجوع والجوع، بذكر الإذاقة المناسبة لذلك ليزداد الكلام وضوحاً.

وقال بعضهم: هي استعارة مبنية على استعارة؛ فإنه أولاً استعار لما يظهر على أبدانهم من الاصفرار والذبول والنحول اسم اللباس، بجامع الإحاطة بالشيء والاشتغال عليه، فصار اسم اللباس مستعاراً لآثار الجوع والخوف على أبدانهم، ثم استعار اسم الإذاقة لما يجدونه من ألم ذلك الجوع والخوف المعبر عنه باللباس، بجامع التعرف والاختبار في كل من الذوق بالقلم، ووجود الألم من الجوع والخوف؛ وعليه ففي اللباس استعارة أصلية كما ذكرنا. وفي الإذاقة المستعارة لمس ألم الجوع والخوف استعارة تبعية.

وقد ألمنا هنا بطرف قليل من كلام البيانين هنا ليفهم الناظر مرادهم، مع أن التحقيق الذي لا شك فيه أن كل ذلك لا فائدة فيه، ولا طائل تحته، وأن العرب تطلق الإذاقة على الذوق وعلى غيره من وجود الألم واللذة، وأنها تطلق اللباس على المعروف، وتطلقه على غيره مما فيه معنى اللباس من الاشتغال، كقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾، وقول الأعشى:

إذا ما الضجيع ثنى عطفها تشتت عليه فكانت لباسا

وكلها أساليب عربية. ولا إشكال في أنه إذا أطلق اللباس على مؤثر مؤلم يحيط بالشخص إحاطة اللباس، فلا مانع من إيقاع الإذاقة على ذلك الألم المحيط المعبر عنه باسم اللباس، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾. نهى الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة الكفار عن تحريم ما أحل الله من رزقه، مما شرع لهم عمرو بن لحي - لعنه الله - من تحريم ما أحل الله.

وقد أوضح - جل وعلا - هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿قُلْ هَلْ مِنْكُمْ شَهِدَاءُ الَّذِينَ

يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُوا مَعَهُمْ ﴿١٥٠﴾ [الأنعام: ١٥٠]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَدَّبَ لَكُمْ أَمْرًا عَلَى اللَّهِ تَقَرُّوْنَ ﴿١٥١﴾﴾ [يونس: ١٥١]، وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقوله: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَفْئِدَةِ خَالِصَةٌ إِلَيْنَا مِنْهُنَّ وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا...﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقوله: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَفْئِدَةٌ نُنْفِثُ فِي الْأَشْجَارِ أَفْئِدَةٌ نُنْفِثُ فِي الْأَشْجَارِ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ لِرِجْمِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٣٨]، وقوله: ﴿حِجْرٌ﴾ أي حرام، إلى غير ذلك من الآيات، كما تقدم.

وفي قوله: ﴿الْكُذِبُ﴾ أوجه من الإعراب:

أحدها: أنه منصوب بـ «تقولوا»؛ أي لا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من رزق الله بالحلال والحرم؛ كما ذكر في الآيات المذكورة آنفاً من غير استناد ذلك الوصف إلى دليل، واللام مثلها في قولك: لا تقولوا لما أحل الله: هو حرام. وكقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ﴾ [البقرة: ١٥٤]. وجملة «هذا حلال وهذا حرام» بدل من «الكذب» وقيل: إن الجملة المذكورة في محل نصب بـ «تصف» بتضمينها معنى تقول؛ أي: ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم، فتقول هذا حلال وهذا حرام. وقيل: «الكذب» مفعول به لـ «تصف». و«ما» مصدرية، وجملة «هذا حلال وهذا حرام» متعلقة بـ «لا تقولوا» أي لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب؛ أي لا تحرموا ولا تحللوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم، ويجوز في أفواهكم؛ لا لأجل حجة وبينة - قاله صاحب الكشف. وقيل: «الكذب» بدل من هاء المفعول المحذوفة؛ أي لما تصفه ألسنتكم الكذب.

تنبيه: كان السلف الصالح عليهم السلام يتورعون عن قولهم: هذا حلال وهذا حرام؛ خوفاً من هذه الآيات.

قال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة: قال الدارمي أبو محمد في مسنده: أخبرنا هارون، عن حفص، عن الأعمش قال: ما سمعت إبراهيم قط يقول: حلال ولا حرام، ولكن كان يقول: كانوا يكرهون، وكانوا يستحبون.

وقال ابن وهب: قال مالك: لم يكن من فتياء الناس أن يقولوا: هذا حلال وهذا حرام، ولكن يقولوا: إياكم كذا وكذا، ولم أكن لأصنع هذا. انتهى.

وقال الزمخشري: واللام في قوله: ﴿لِنَفِّثُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ﴾ من التعليل الذي لا يتضمن معنى الفرض، اهـ. وكثير من العلماء يقولون: هي لام العاقبة. والبيانون يزعمون أن حرف التعليل كاللام إذا لم تقصد به علة غائبة؛ كقوله: ﴿فَالنَّفْطُ مَالٌ وَرِقْعَةٌ لِيَكُونَ لَهُمْ عُدُوًّا﴾ [القصص: ٨]، وقوله هنا: ﴿لِنَفِّثُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ﴾ أن في ذلك استعارة تبعية في معنى الحرف.

قال مقيده - عفا الله عنه -: بل كل ذلك من أساليب اللغة العربية. فمن أساليبها: الإتيان بحرف التعليل للدلالة على العلة الغائبة؛ كقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]. ومن أساليبها الإتيان باللام للدلالة على ترتب أمر على أمر، كترتيب المعلول على علته الغائبة. وهذا الأخير كقوله: ﴿فَالْقَلْعَةُ إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهَا عَدُوٌّ وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]؛ لأن العلة الغائبة الباعثة لهم على التقاطه ليست هي. أن يكون لهم عدو، بل ليكون لهم قرة عين؛ كما قالت امرأة فرعون: ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَكَأَنَّ لَا تَفْقُتُونَهُ عَنِّي أَن يَفْعَنَّا أَوْ نَخْذُمُ وَلَكَّا﴾ [القصص: ٩] ولكن لما كان كونه عدواً لهم وحزناً يترتب على التقاطهم له؛ كترتيب المعلول على علته الغائبة - عبر فيه باللام الدالة على ترتيب المعلول على العلة. وهذا أسلوب عربي، فلا حاجة إلى ما يطيل به البيانون في مثل هذا المبحث.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [١١٧] مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [١١٨]. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الذين يفترون عليه الكذب - أي يختلقونه عليه - كدعواهم أنه حرم هذا وهو لم يحرمه، ودعواهم له الشركاء والأولاد لا يفلحون؛ لأنهم في الدنيا لا ينالون إلا متاعاً قليلاً لا أهمية له، وفي الآخرة يعذبون العذاب العظيم، الشديد المؤلم.

وأوضح هذا المعنى في مواضع آخر كقوله في يونس: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [١١٧] مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّهُمْ مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِبُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ [١٢٠] [يونس]، وقوله: ﴿ثُمَّ نَمُنُّهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [١٢١] [القمان]، وقوله: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ أي متاعهم في الدنيا متاع قليل. وقال الزمخشري: منفعتهم في الدنيا متاع قليل. وقوله: ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي لا ينالون الفلاح، وهو يطلق على معينين: أحدهما: الفوز بالمطلوب الأكبر. والثاني: البقاء السرمدي؛ كما تقدم بشواهد.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾، هذا المحرم عليهم، المقصوص عليه من قبل المحال عليه هنا هو المذكور في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

وجملة المحرمات عليهم في هذه الآية الكريمة ظاهرة، وهو كل ذي ظفر: كالنعامة والبعير، والشحم الخالص من البقر والغنم - وهو الثروب - وشحم الكلى، أما الشحم الذي على الظهر، والذي في الحوايا وهي الأمعاء، والمختلط بعظم كلحم الذنب وغيره من الشحوم المختلطة بالعظام فهو حلال لهم؛ كما هو واضح من الآية الكريمة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۖ شَٰكِرًا لِّأَنْعَمِهِ ۖ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۖ﴾. أننى الله - جل وعلا - في هاتين الآيتين الكريميتين على نبيه إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -: بأنه أمة؛ أي إمام مقتدى به، يعلم الناس الخير؛ كما قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، وأنه قانت لله، أي مطيع له. وأنه لم يكن من المشركين، وأنه شاكراً لأنعم الله، وأن الله اجتبا، أي اختاره واصطفاه، وأنه هداه إلى صراط مستقيم.

وكرر هذا الثناء عليه في مواضع أخرى، كقوله: ﴿وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ۖ﴾ [النجم]، وقوله: ﴿وَإِذْ بَاتِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ يُكَلِّمُ ۖ فَأَسْمَنَّ قَالَ إِنِّي بَاغِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُسُودًا مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهٖ عَالِمِينَ ۖ﴾ [الأنبياء]، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ۖ﴾ [الأنعام]، وقوله عنه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۖ﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۖ﴾ [آل عمران] وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْعَةٍ لِّإِبْرَاهِيمَ ۖ﴾ [٨٢] إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۖ﴾ [الصافات] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في الثناء عليه.

وقد قدمنا معاني «الأمة» في القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ﴾. قال بعض العلماء: الحسنه التي آتاه الله في الدنيا: الذرية الطيبة، والثناء الحسن. ويستأنس لهذا بأن الله بين أنه أعطاه بسبب إخلاصه لله، واعتزاله أهل الشرك: الذرية الطيبة. وأشار أيضاً لأنه جعل له ثناء حسناً باقياً في الدنيا، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَغْتَرَكُم مَّا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۖ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمِنَا وَجَعَلْنَا لَهُم لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۖ﴾ [مريم]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ۖ﴾ [الشعراء].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۖ﴾.

ذكر الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أوحى إلى نبينا ﷺ الأمر باتباع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. وبين هذا أيضاً في غير هذا الموضع كقوله: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَىٰ رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۖ﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۖ﴾ [٧٧] إلى قوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرُّسُلُ شُهَدَاءَ عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَاعْبُدُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ۖ﴾ [الحج: ٧٧ - ٧٨] الآية، وقوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ

فِي إِبرَاهِيمَ ﴿الْمُتَحَنِّنَ: ٤﴾، إلى غير ذلك من الآيات، والملة: الشريعة. والحنيف: المائل عن كل دين باطل إلى دين الحق. وأصله من الحنف: وهو اعوجاج الرجلين؛ يقال: برجله حنف؛ أي اعوجاج. ومنه قول أم الأحنف بن قيس ترقصه وهو صبي:

والله لولا حنف برجله ما كان في فتيانكم من مثله
وقوله: «حنيفاً» حال من المضاف إليه؛ على حد قول ابن مالك في الخلاصة:
ما كان جزء ما له أضيفاً أو مثل جزئه فلا تحيفاً

لأن المضاف هنا وهو «ملة» كالجزء من المضاف إليه وهو «إبراهيم»؛ لأنه لو حذف لبقى المعنى تاماً؛ لأن قولنا: أن اتبع إبراهيم، كلام تام المعنى كما هو ظاهر، وهذا هو مراده بكونه مثل جزئه.

قوله تعالى: ﴿وَجَدِلْهُمْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. أمر الله - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة: أن يجادل خصومه بالطريق التي هي أحسن طرق المجادلة من إيضاح الحق بالرفق واللين. وعن مجاهد ﴿وَجَدِلْهُمْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال: أعرض عن أذاهم. وقد أشار إلى هذا المعنى في قوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] أي إلا الذين نصبوا للمؤمنين الحرب فجادلهم بالسيف حتى يؤمنوا، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

ونظير ما ذكر هنا من المجادلة بالتي هي أحسن: قوله لموسى وهرون في شأن فرعون ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه]. ومن ذلك القول للين؛ قول موسى له: ﴿هَلْ لَكَ إِلَهٌ أَنْ تَزَيَّجَ ۖ وَاهْدِكْ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات].
قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أعلم بمن ضل عن سبيله؛ أي زاغ عن طريق الصواب والحق، إلى طريق الكفر والضلال.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخرى؛ كقوله في أول القلم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ٧ ﴿فَلَا تُطِيعُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [القلم]، وقوله في الأنعام: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام]، وقوله في النجم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَى﴾ [النجم: ٣٠] والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

والظاهر أن صيغة التفضيل التي هي «أعلم» في هذه الآيات يراد بها مطلق الوصف لا التفضيل؛ لأن الله لا يشاركه أحد في علم ما يصير إليه خلقه من شقاوة وسعادة، فهي كقول الشنفرى:

وإن مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن
بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل
أي لم أكن بعجلهم، وقول الفرزدق:

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا بَيْتاً دَعَائِمُهُ أَعْزَ وَأَطْوَلَ
أَيَّ عَزِيزَةٍ طَوِيلَةٍ.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾. نزلت هذه الآية الكريمة من سورة النحل بالمدينة، في تمثيل المشركين بحمزة ومن قتل معه يوم أحد. فقال المسلمون: لئن أظفرنا الله بهم لنمثلن بهم؛ فنزلت الآية الكريمة، فصبروا لقوله تعالى: ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ مع أن سورة النحل مكية، إلا هذه الآيات الثلاث من آخرها. والآية فيها جواز الانتقام والإرشاد إلى أفضلية العفو. وقد ذكر تعالى هذا المعنى في القرآن، كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقوله: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقوله: ﴿وَلَمَنْ أَتَصَبَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [٤١] إلى قوله: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [٤٢]، وقوله: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ تَعَفَّوْا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٨ - ١٤٩] كما قدمنا.

مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة:

المسألة الأولى: يؤخذ من هذه الآية حكم مسألة الظفر، وهي أنك إن ظلمك إنسان بأن أخذ شيئاً من مالك بغير الوجه الشرعي ولم يمكن لك إثباته، وقدرت له على مثل ما ظلمك به على وجه تأمن معه الفضيحة والعقوبة؛ فهل لك أن تأخذ قدر حقه أو لا؟.

أصح القولين، وأجراهما على ظواهر النصوص وعلى القياس أن لك أن تأخذ قدر حقه من غير زيادة؛ لقوله تعالى في هذه الآية: ﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ...﴾ الآية، وقوله: ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وممن قال بهذا القول: ابن سيرين وإبراهيم النخعي، وسفيان ومجاهد، وغيرهم.

وقالت طائفة من العلماء منهم مالك: لا يجوز ذلك؛ وعليه درج خليل بن إسحاق المالكي في مختصره بقوله في الوديعه: وليس له الأخذ منها لمن ظلمه بمثلها.

واحتج من قال بهذا القول بحديث «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»، اهـ. وهذا الحديث على فرض صحته لا ينهض الاستدلال به؛ لأن من أخذ قدر حقه ولم يزد عليه لم يخن من خانه، وإنما أنصف نفسه ممن ظلمه.

المسألة الثانية: أخذ بعض العلماء من هذه الآية الكريمة المماثلة في القصاص، فمن قتل بحديدة قتل بها، ومن قتل بحجر قتل به. ويؤيده «رضه ﷺ» رأس يهودي بين حجرين قصاصاً لجارية فعل بها مثل ذلك.

وهذا قول أكثر أهل العلم خلافاً لأبي حنيفة ومن وافقه، زاعماً أن القتل بغير

المحدد شبه عمد، لا عمد صريح حتى يجب فيه القصاص. وسيأتي لهذا - إن شاء الله - تعالى زيادة إيضاح في سورة الإسراء.

المسألة الثالثة: أطلق - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة اسم العقوبة على الجناية الأولى في قوله: ﴿يُمِثَّلُ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ والجناية الأولى ليست عقوبة؛ لأن القرآن بلسان عربي مبين، ومن أساليب اللغة العربية المشاكلة بين الألفاظ؛ فيؤدي لفظ بغير معناه الموضوع له مشاكلة للفظ آخر مقترن به في الكلام؛ كقول الشاعر:

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت اطبخوا لي جبة وقميصاً

أي خيطوا لي، وقال بعض العلماء: ومنه قول جرير:

هذي الأرامل قد قضيت حاجتها فمن لحاجة هذا الأرملة الذكر

بناء على القول بأن الأرامل لا تطلق في اللغة إلا على الإناث.

ونظير الآية الكريمة في إطلاق إحدى العقوبتين على ابتداء الفعل مشاكلة للفظ الآخر، قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾... الآية [الحج: ٦٠]، ونحوه أيضاً:

قوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] مع أن القصاص ليس بسينة وقوله: ﴿فَمَنْ آعَنَكَ عَلَيْهِمْ فَاغْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤]؛ لأن القصاص من المعتدى أيضاً ليس باعتداء كما هو ظاهر، وإنما أدى بغير لفظه للمشاكلة بين اللفظين:

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه ﷺ مأمور بالصبر، وأنه لا يمثل ذلك الأمر بالصبر إلا بإعانة الله وتوفيقه؛ لقوله: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وأشار لهذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿وَمَا يُقْلِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُقْلِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٢٥]؛ لأن قوله: ﴿وَمَا يُقْلِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ﴾ [فصلت: ٢٥]، معناه أن خصلة الصبر لا يلقاها إلا من كان له عند الله الحظ الأكبر والنصيب الأوفر، بفضل الله عليه، وتيسير ذلك له.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه مع عباده المتقين المحسنين، وقد تقدم إيضاح معنى التقوى والإحسان، وهذه المعية خاصة بعبادة المؤمنين، وهي بالإعانة والنصر والتوفيق، وكرر هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَتَمَّ وَارٍ﴾ [طه: ٤٦]، وقوله: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ [الأنفال: ١٢]، وقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٠] وقوله: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما المعية العامة لجميع الخلق فهي بالإحاطة التامة والعلم، ونفوذ القدرة، وكون الجميع في قبضته - جل وعلا - فالكائنات في يده - جل وعلا - أصغر من حبة

خردل، وهذه هي المذكورة أيضاً في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿مَا يَكُوثُ مِنْ تَجْوَى ثَلَنَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ١٧]، وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿فَلَنَقْصَنَّ عَنْهُمْ بَعْلَهُمْ وَمَا كُنَّا عَنْهُمْ بِغَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧] وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]، إلى غير ذلك من الآيات.

فهو - جل وعلا - مستو على عرشه كما قال، على الكيفية اللاتقة بكماله وجلاله، وهو محيط بخلقه، كلهم في قبضة يده، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا...﴾ الآية. قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً ويكون في الآية قرينة تدل على عدم صحة ذلك القول، فإننا نبين ذلك، فإذا علمت ذلك، فاعلم أن هذا الإسراء به ﷺ المذكور في هذه الآية الكريمة، زعم بعض أهل العلم أنه بروحه ﷺ دون جسده، زاعماً أنه في المنام لا اليقظة؛ لأن رؤيا الأنبياء وحي.

وزعم بعضهم أن الإسراء بالجسد، والمعراج بالروح دون الجسد. ولكن ظاهر القرآن يدل على أنه بروحه وجسده ﷺ يقظة لا مناماً؛ لأنه قال: ﴿بِعَبْدِهِ﴾ والعبد عبارة عن مجموع الروح والجسد؛ ولأنه قال: ﴿سُبْحَنَ﴾ والتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان مناماً لم يكن له كبير شأن حتى يتعجب منه، ويؤيده قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ٧]؛ لأن البصر من آلات الذات لا الروح، وقوله هنا: ﴿لَنُرِيَهُ مِنْ أَيْنَأَنْجَأَهُ﴾.

ومن أوضح الأدلة القرآنية على ذلك قوله - جل وعلا -: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ فإنها رؤيا عين يقظة لا رؤيا منام، كما صح عن ابن عباس وغيره.

ومن الأدلة الواضحة على ذلك أنها لو كانت رؤيا منام لما كانت فتنة، ولا سبباً لتكذيب قريش؛ لأن رؤيا المنام ليست محل إنكار؛ لأن المنام قد يرى فيه ما لا يصح، فالذي جعله الله فتنة هو ما رآه بعينه من الغرائب والعجائب؛ فزعم المشركون أن من ادعى رؤية ذلك بعينه فهو كاذب لا محالة، فصار فتنة لهم، وكون الشجرة الملعونة التي

هي شجرة الزقوم على التحقيق فتنة لهم أن الله لما أنزل قوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَمِيمِ﴾ [الصافات] قالوا: ظهر كذبه؛ لأن الشجر لا ينبت بالأرض اليابسة، فكيف ينبت في أصل النار! كما تقدم في البقرة.

ويؤيد ما ذكرنا من كونها رؤيا عين يقظة قوله تعالى هنا: ﴿لَئِنْ رَأَيْتُم مِّنْ عَآئِنٍ مِّنَ الْآيَةِ﴾ الآية، وقوله: ﴿مَّا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [٧] لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى [٨] [النجم]، وما زعمه بعض أهل العلم من أن الرؤيا لا تطلق بهذا اللفظ لغة إلا على رؤيا المنام مردود. بل التحقيق: أن لفظ الرؤيا يطلق في لغة العرب على رؤية العين يقظة أيضاً؛ ومنه قول الراعي وهو عربي قح:

فكبر للرؤيا وهش فؤاده وبشر نفساً كان قبل يلومها
فإنه يعني رؤية صائد بعينه. ومنه أيضاً قول أبي الطيب:

ورؤياك أحلى في العيون من الغمض

قاله صاحب (اللسان).

وزعم بعض أهل العلم أن المراد بالرؤيا في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ...﴾ الآية، رؤيا منام، وأنها هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٧] والحق الأول، وركوبه ﷺ على البزاق يدل على أن الإسراء بجسمه؛ لأن الروح ليس من شأنه الركوب على الدواب كما هو معروف، وعلى كل حال.

فقد تواترت الأحاديث الصحيحة عنه أنه أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وأنه عرج به من المسجد الأقصى حتى جاوز السموات السبع.

وقد دلت الأحاديث المذكورة على أن الإسراء والمعراج كليهما بجسمه وروحه، يقظة لا مناماً، كما دلت على ذلك أيضاً الآيات التي ذكرناها.

وعلى ذلك من يعتد به من أهل السنة والجماعة، فلا عبرة بمن أنكر ذلك من الملحدين.

وما ثبت في الصحيحين من طريق شريك عن أنس رضي الله عنه أن الإسراء المذكور وقع مناماً لا ينافي ما ذكرنا مما عليه أهل السنة والجماعة، ودلت عليه نصوص الكتاب والسنة؛ لإمكان أن يكون رأى الإسراء المذكور نوماً، ثم جاءت تلك الرؤيا كفلق الصبح فأسري به يقظة تصديقاً لتلك الرؤيا المنامية، كما رأى في النوم أنهم دخلوا المسجد الحرام، فجاءت تلك الرؤيا كفلق الصبح فدخلوا المسجد الحرام في عمرة القضاء عام سبع يقظة لا مناماً تصديقاً لتلك الرؤيا؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]. ويؤيد ذلك حديث عائشة الصحيح: «فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح» مع أن جماعة من أهل العلم قالوا: إن شريك بن عبد الله بن أبي نمر ساء حفظه في تلك الرواية المذكورة عن أنس،

وزاد فيها ونقص، وقدم وأخر. ورواها عن أنس غيره من الحفاظ على الصواب، فلم يذكروا المنام الذي ذكره شريك المذكور، وانظر رواياتهم بأسانيدهم ومتونها في تفسير ابن كثير - رحمه الله تعالى - فقد جمع طرق حديث الإسراء جمعاً حسناً بإتقان.

ثم قال ﷺ: والحق أنه - عليه الصلاة والسلام - أسري به يقظة لا مناماً من مكة إلى بيت المقدس راكباً البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين، ثم أتى بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها، فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع، فتلقاه من كل سماء مقربوها، وسلم على الأنبياء الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مر بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز منزلتهما ﷺ وعليهما وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام - أي أقلام القدر - بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى، وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب وألوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح، ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور، وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسنداً ظهره إليه؛ لأنه الكعبة السماوية يدخلها كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة، يتعبدون فيها ثم لا يعودون إليها إلى يوم القيامة، ورأى الجنة والنار، وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفاً بعباده. وفي هذا اعتناء بشرف الصلاة وعظمتها. ثم هبط إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء؛ فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح من يومئذ، ومن الناس من يزعم أنه أهمهم في السماء. والذي تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس، ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه، والظاهر أنه بعد رجوعه إليه؛ لأنه لما مر بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق؛ لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى.

ثم لما فرغ من الذي أريد به اجتماع به هو وإخوانه من النبيين، ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل ﷺ في ذلك، ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس، والله سبحانه وتعالى أعلم، انتهى بلفظه من تفسير الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى -.

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة: ثبت الإسراء في جميع مصنفات الحديث، وروي عن الصحابة في كل أقطار الإسلام، فهو متواتر بهذا الوجه. وذكر النقاش ممن رواه: عشرين صحابياً، ثم شرع يذكر بعض طرقه في الصحيحين وغيرهما، وبسط قصة الإسراء، تركناه لشهرته عند العامة، وتواتره في الأحاديث.

وذكر الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - في آخر كلامه على هذه الآية الكريمة

فائدتين، قال في أولاهما: فائدة حسنة جلييلة، وروى الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتاب (دلائل النبوة) من طريق محمد بن عمر الواقدي: حدثني مالك بن أبي الرجال، عن عمر بن عبد الله، عن محمد بن كعب القرظي قال: بعث رسول الله ﷺ دحية بن خليفة إلى قيصر... فذكر وروده عليه وقدمه إليه، وفي السياق دلالة عظيمة على وفور عقل هرقل، ثم استدعى من بالشام من التجار فجيء بأبي سفيان صخر بن حرب وأصحابه، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التي رواها البخاري ومسلم كما سيأتي بيانه، وجعل أبو سفيان يجتهد أن يحقر أمره ويصغره عنده، قال في هذا السياق عن أبي سفيان: والله ما معني من أن أقول عليه قولاً أسقطه به من عينه إلا أنني أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها علي ولا يصدقني في شيء. قال: حتى ذكرت قوله ليلة أسري به، قال: فقلت: أيها الملك، ألا أخبرك خبراً تعرف به أنه قد كذب. قال: وما هو؟ قال: قلت: إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم في ليلة، فجاء مسجداً هذا مسجد إيلياء، ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح. قال: وبطريق إيلياء عند رأس قيصر، فقال: بطريق إيلياء قد علمت تلك الليلة.

قال: فنظر إليه قيصر وقال: وما علمك بهذا؟ قال: إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد؛ فلما كانت تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبنني، فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرني كلهم فغلبننا، فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاول به جبلاً، فدعوت إليه الناجارة فنظروا إليه فقالوا: إن هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان ولا نستطيع أن نحركه، حتى نصبح فننظر من أين أتى! قال: فرجعت وتركت البابين مفتوحين. فلما أصبحت غدوت عليهما فإذا المجر الذي في زاوية المسجد مثقوب؛ وإذا فيه أثر مربوط الدابة. قال: فقلت لأصحابي: ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي وقد صلى الليلة في مسجدنا، اهـ.

ثم قال في الأخرى: فائدة، قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية في كتابه (التنوير في مولد السراج المنير): وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس وتكلم عليه فأجاد وأفاد. ثم قال: وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب وعلي، وابن مسعود وأبي ذر، ومالك بن صعصعة، وأبي هريرة، وأبي سعيد وابن عباس، وشداد بن أوس، وأبي بن كعب، وعبد الرحمن بن قرط، وأبي حبة وأبي ليلى الأنصاريين، وعبد الله بن عمرو وجابر وحذيفة، وبريدة وأبي أيوب، وأبي أمامة وسمرة بن جندب، وأبي الحمراء وصهيب الرومي، وأم هانئ، وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق ﷺ أجمعين، منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، وأعرض عنه الزنادقة والملحدون ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِيرُ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف] اهـ من ابن كثير بلفظه.

وقد قدمنا أن أحسن أوجه الإعراب في «سبحان» أنه مفعول مطلق، منصوب بفعل مجذوف؛ أي. أسبح الله سبحانه أي تسبيحاً، والتسبيح: الإبعاد عن السوء، ومعناه في الشرع: التنزيه عن كل ما لا يليق بجلال الله وكماله، كما قدمنا. وزعم بعض أهل العلم: أن لفظة «سبحان» علم للتنزيه؛ وعليه فهو علم جنس لمعنى التنزيه على حد قول ابن مالك في الخلاصة، مشيراً إلى أن علم الجنس يكون للمعنى كما يكون للذات:

ومثله برة للمبرة كذا فجار علم للفجرة

وعلى أنه علم، فهو ممنوع من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون. والذي يظهر لي - والله تعالى أعلم - أنه غير علم، وأن معنى «سبحان» تنزيهاً لله عن كل ما لا يليق به. ولفظة «سبحان» من الكلمات الملازمة للإضافة، وورودها غير مضافة قليل؛ كقول الأعشي:

فقلت لما جاءني فخره سبحان من علقمة الفاخر
ومن الأدلة على أنه غير علم، ملازمته للإضافة والأعلام تقل إضافتها، وقد سمعت لفظة «سبحان» غير مضافة مع التنوين والتعريف، فمثاله مع التنوين قوله:

سبحانه ثم سبحانا نعوذ به وقبلنا سبح الجودي والجمد
ومثاله معرفة قول الراجز:

سبحانك اللهم ذا السبحان

والتعبير بلفظ العبد في هذا المقام العظيم يدل دلالة واضحة على أن مقام العبودية هو أشرف صفات المخلوقين وأعظمها وأجلها؛ إذ لو كان هناك وصف أعظم منه لعبّر به في هذا المقام العظيم، الذي اخترق العبد فيه السبع الطباق، ورأى من آيات ربه الكبرى، وقد قال الشاعر في محبوب مخلوق، والله المثل الأعلى:

يا قوم قلبي عند زهراء يعرفه السامع والرائي
لا تدعني إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائي

واختلف العلماء في النكتة البلاغية التي نكر من أجلها «ليلاً» في هذه الآية الكريمة. قال الزمخشري في الكشف: أراد بقوله «ليلاً» بلفظ التنكير تقليل مدة الإسراء، وأنه أسري به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة، وذلك أن التنكير فيه قد دل على معنى البعوضة، ويشهد لذلك قراءة عبد الله وحذيفة «من الليل» أي بعض الليل، كقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً﴾ يعني بالقيام في بعض الليل، اه واعترض بعض أهل العلم هذا.

وذكر بعضهم أن التنكير في قوله: «ليلاً» للتعظيم؛ أي ليلاً أي ليل، دنا فيه المحب إلى المحبوب! وقيل فيه غير ذلك، وقد قدمنا: أن أسرى وسرى لغتان؛ كسقى وأسقى، وقد جمعهما قول حسان رضي الله عنه:

حي النضيرة ربة الخدر أسرت إليك ولم تكن تسري
بفتح التاء من «تسرى». والباء قوله من ﴿يَعْبُدُ﴾ في اللغتين للتعدية، كالباء في
﴿ذَهَبَ اللَّهُ نُورُهُمْ﴾ [البقرة: ١٧]. وقد تقدمت شواهد هذا في (سورة هود).

تنبيه: اختلف العلماء هل رأى رسول الله ﷺ ربه ليلة الإسراء بعين رأسه أم لا؟
فقال ابن عباس وغيره: رآه بعين رأسه، وقالت عائشة وغيرها: لم يره. وهو خلاف
مشهور بين أهل العلم معروف.

قال - مقيده عفا الله عنه - التحقيق الذي دلت عليه نصوص الشرع: أنه ﷺ لم يره
بعين رأسه. وما جاء عن بعض السلف من أنه رآه؛ فالمراد به الرؤية بالقلب؛ كما في
صحيح مسلم أنه رآه بفؤاده مرتين لا بعين الرأس.

ومن أوضح الأدلة على ذلك أن أبا ذر ﷺ (وهو هو في صدق اللهجة) سأل
النبي ﷺ عن هذه المسألة بعينها؛ فأفتاه بما مقتضاه أنه لم يره، قال مسلم بن الحجاج
- رحمه الله تعالى - في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا وكيع، عن يزيد بن
إبراهيم، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق، عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل
رأيت ربك؟ قال: «نور!! أنى أراه؟!».

حدثنا محمد بن بشار، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي (ح) وحدثني حجاج بن
الشاعر، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا همام، كلاهما عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق
قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته، فقال: عن أي شيء كنت تسأله؟ قال:
كنت أسأله: هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألت فقال: «رأيت نوراً» هذا لفظ مسلم.

وقال النووي في شرحه لمسلم: أما قوله ﷺ: «نوراً أنى أراه!!» فهو بتنوين «نور»
وفتح الهمزة في «أنى» وتشديد النون وفتحها. و«أراه» بفتح الهمزة، هكذا رواه جميع
الرواة في جميع الأصول والروايات، ومعناه: حجاب نور، فكيف أراه!!.

قال الإمام أبو عبد الله المازري ﷺ: الضمير في «أراه» عائد إلى الله - سبحانه
وتعالى - ومعناه: أن النور منعني من الرؤية، كما جرت العادة بإغشاء الأنوار الأبصار،
ومنعها من إدراك ما حالت بين الرائي وبينه.

وقوله ﷺ: «رأيت نوراً» معناه: رأيت النور فحسب، ولم أر غيره. قال: وروي
«نوراني» بفتح الراء وكسر النون وتشديد الياء، ويحتمل أن يكون معناه راجعاً إلى ما
قلناه؛ أي خالق النور المانع من رؤيته، فيكون من صفات الأفعال.

قال القاضي عياض ﷺ: هذه الرواية لم تقع إلينا! ولا رأيناها في شيء من
الأصول، اه محل الغرض من كلام النووي.

قال مقيده - عفا الله عنه -: التحقيق الذي لا شك فيه هو أن معنى الحديث هو ما
ذكر، من كونه لا يتمكن أحد من رؤيته لقوة النور الذي هو حجاب به. ومن أصرح الأدلة

على ذلك أيضاً حديث أبي موسى المتفق عليه: «حجابه لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» وهذا هو معنى قوله ﷺ: «نور! أني أراه؟». أي كيف أراه وحجابه نور، من صفته أنه لو كشفه لأحرق ما انتهى إليه بصره من خلقه.

وقد قدمنا أن تحقيق المقام في رؤية الله - جل وعلا - بالأبصار أنها جائزة عقلاً في الدنيا والآخرة، بدليل قول موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؛ لأنه لا يجهل المستحيل في حقه - جل وعلا - وأنها جائزة شرعاً وواقعة يوم القيامة، ممتنعة شرعاً في الدنيا قال: ﴿لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ إلى قوله: ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ومن أصرح الأدلة في ذلك حديث: «إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا» في صحيح مسلم وصحيح ابن خزيمة كما تقدم.

وأما قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَدَلَّكَ﴾ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ [النجم: ٨، ٩] - فذلك جبريل على التحقيق، لا الله - جل وعلا -.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾. أظهر التفسيرات فيه أن معنى «باركنا حوله» أكثرنا حوله الخير والبركة بالأشجار والثمار والأنهار. وقد وردت آيات تدل على هذا، كقوله تعالى: ﴿وَيَخْتِنُّهُ وَأُطُوعًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء]، وقوله: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ [الأنبياء] فإن المراد بتلك الأرض: الشام. والمراد بأنه بارك فيها أنه أكثر فيها البركة والخير بالخصب والأشجار والثمار والمياه؛ كما عليه جمهور العلماء.

وقال بعض العلماء: المراد بأنه بارك فيها أنه بعث الأنبياء منها، وقيل: غير ذلك، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿لَنُرِيَهُ مِنْ أَيْنَأُنْزِلُ﴾. الظاهر إنما أراه الله من آياته في هذه الآية الكريمة أنه أراه إياه رؤية عين؛ فهمزة التعدية داخله على رأي البصرية؛ كقوله: رأيت زيدا دار عمرو؛ أي جعلته يراها بعينه. و«من» في الآية للتبعيض، والمعنى «لنريه من آياتنا»؛ أي بعض آياتنا فنجعلها يراها بعينه، وذلك ما رآه ﷺ بعينه ليلة الإسراء من الغرائب والعجائب؛ كما جاء مبيناً في الأحاديث الكثيرة. ويدل ما ذكرنا في الآية الكريمة قوله تعالى في سورة النجم: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم].

قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ لما بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة عظم شأن نبيه ﷺ، ذكر عظم شأن موسى بالكتاب العظيم، الذي أنزله إليه وهو التوراة، مبيناً أنه جعله هدى لبني إسرائيل، وكرر - جل وعلا - هذا المعنى في القرآن، كقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَا صَرَبُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ...﴾

الآية [القصص: ٤٣]، وقوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾... الآية [الأنعام: ١٥٤]، وقوله: ﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾... الآية [الأعراف: ١٤٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾. اعلم أن هذا الحرف قرأه جمهور القراء «ألا تتخذون» بالتاء على وجه الخطاب؛ وعلى هذا «أن» هي المفسرة؛ فجعل التوراة هدى لبني إسرائيل مفسر بنهيهم عن اتخاذ وكيل من دون الله؛ لأن الإخلاص لله في عبادته هو ثمرة الكتب المنزلة على الأنبياء - صلوات الله عليهم وسلامه - وعلى هذه القراءة «لا» في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ ناهية، وقرأه أبو عمرو من السبعة «ألا يتخذوا من دوني وكيلاً» بالياء على الغيبة. وعلى هذه القراءة فالمصدر المنسبك من «أن» وصلتها مجرور بحرف التعليل المحذوف؛ أي وجعلناه هدى لبني إسرائيل لأجل ألا يتخذوا من دوني وكيلاً؛ لأن اتخاذ الوكيل الذي تسند إليه الأمور، وتفوض من دون الله ليس من الهدى؛ فمرجع القراءتين إلى شيء واحد، وهو أن التوكل إنما يكون على الله وحده لا على غيره.

وكرر هذا المعنى في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿رَبِّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (١)، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]؛ وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ الْعَرْشُ الْعَظِيمُ﴾ (٢) [التوبة]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، وقوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٣) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصِيرَنَّ عَلَىٰ مَا عَازٍيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٤) [إبراهيم]، وقوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦]، وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَارًا تُوقِئُ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَفْعَلُونَ إِنْ كَانُكُمْ عَلَيْكُمْ قِيَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: ٧١]، وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١]، وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿فَرَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

والوكيل: فعيل من التوكل؛ أي متوكلاً عليه، تفوضون إليه أموركم؛ فيوصل إليكم النفع، ويكف عنكم الضرر.

وقال الزمخشري: ﴿وَكَيْلًا﴾ أي رباً تكلون إليه أموركم. وقال ابن جرير: حفيظاً لكم سواي.

وقال أبو الفرج بن الجوزي: قيل للرب وكيل لكفايته وقيامه بشؤون عباده، لا على معنى ارتفاع منزلة الموكل وانحطاط أمر الوكيل، اه؛ قاله أبو حيان في (البحر).

وقال القرطبي: ﴿وَكَيْلًا﴾ أي شريكاً، عن مجاهد. وقيل: كفيلاً بأمورهم؛ حكاة الفراء. وقيل: رباً يتوكلون عليه في أمورهم؛ قاله الكلبي. وقال الفراء: كافياً. اهـ. والمعاني متقاربة، ومرجعها إلى شيء واحد، وهو أن الوكيل: من يتوكل عليه؛ فتفوض الأمور إليه، ليأتي بالخير، ويدفع الشر. وهذا لا يصح إلا لله وحده - جل وعلا - ولهذا حذر من اتخاذ وكيل دونه؛ لأنه لا نافع ولا ضار، ولا كافي إلا هو وحده - جل وعلا - عليه توكلنا، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من حملهم مع نوح؛ تنبيهاً على النعمة التي نجاهم بها من الغرق؛ ليكون في ذلك تهيج لذرياتهم على طاعة الله؛ أي يا ذرية من حملنا مع نوح فنجيناكم من الغرق، تشبهوا بأبيكم، فاشكروا نعمنا، وأشار إلى هذا المعنى في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [مريم: ٥٨].

وبيّن في مواضع آخر الذين حملهم مع نوح من هم، وبين الشيء الذي حملهم فيه، وبين من بقي له نسل وعقب منهم، ومن انقطع ولم يبق له نسل ولا عقب.

فبيّن أن الذين حملهم مع نوح هم أهله ومن آمن معه من قومه في قوله: ﴿قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَن ءَامَنَ﴾ [هود: ٤٠].

وبيّن أن الذين آمنوا من قومه قليل بقوله: ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

وبيّن أن ممن سبق عليه القول من أهله بالشقاء امرأته وابنه، قال في امرأته: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ﴾ إلى قوله: ﴿أَدْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]. وقال في ابنه: ﴿وَحَالٌ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣]، وقال فيه أيضاً: ﴿إِنَّمَا لَيْسَ مِن أَهْلِكَ إِنَّمَا عَمَلٌ عَثَرٌ صٰلِحٌ﴾ [هود: ٤٦].

وقوله: ﴿لَيْسَ مِن أَهْلِكَ﴾ أي الموعود بنجاتهم في قوله: ﴿فَاسْأَلْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، ونحوها من الآيات.

وبيّن أن الذي حملهم فيه هو السفينة في قوله: ﴿قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا﴾ [هود: ٤٠]؛ أي السفينة، وقوله: ﴿فَاسْأَلْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾؛ أي أدخل فيها - أي السفينة - ﴿مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

وبيّن أن ذرية من حمل مع نوح لم يبق منها إلا ذرية نوح في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمُ هَٰؤُلَاءِ الْقَابِضِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]، وكان نوح يحمد الله على طعامه وشرابه، ولباسه وشأنه كله؛ فسماه الله عبداً شكوراً.

وأظهر أوجه الإعراب في قوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا﴾، أنه منادى بحرف محذوف.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

أظهر الأقوال فيه: أنه بمعنى أخبرناهم وأعلمناهم. ومن معاني القضاء: الإخبار والإعلام؛ ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَذِهِ مَقْطُوعٌ مُّصْحِحِينَ﴾ [الحجر] والظاهر أن تعديته بـ«إلى» لأنه مضمن معنى الإحياء. وقيل: مضمن معنى: تقدمنا إليهم فأخبرناهم. قال معناه ابن كثير. والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾.

بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن من أحسن - أي بالإيمان والطاعة - فإنه إنما يحسن إلى نفسه؛ لأن نفع ذلك لنفسه خاصة، وأن من أساء - أي بالكفر والمعاصي - فإنه إنما يسيء على نفسه؛ لأن ضرر ذلك عائد إلى نفسه خاصة.

وبين هذا المعنى في مواضع أخرى؛ كقوله: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، وقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [٧] وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [٨] [الزلزلة]، وقوله: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلَأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [٤٤] [الروم] إلى غير ذلك من الآيات. واللام في قوله: ﴿وَأِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ بمعنى على؛ أي فعلها، بدليل قوله: ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]. ومن إتيان اللام بمعنى «على» قوله تعالى: ﴿وَيَحْزَنُونَ لِلْآذِقَانِ﴾؛ أي عليها، وقوله: ﴿فَسَلِّمْ لَكَ﴾ [الواقعة: ٩١]؛ أي سلام عليك، على ما قاله بعض العلماء، ونظير ذلك من كلام العرب: قول جابر التغلبي، أو شريح العبسي، أو زهير المزني أو غيرهم:

تناوله بالرمح ثم انثنى له فخر صريعاً لليدين وللبقم

أي على اليدين وعلى الفم، والتعبير بهذه اللام في هذه الآية للمشاكلة؛ كما قدمنا في نحو: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤].

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْا وَجُوهَكُمْ﴾، جواب «إذا» في هذه الآية الكريمة محذوف، وهو الذي تتعلق به اللام في قوله: «ليستوا» وتقديره: إذا جاء وعد الآخرة بعثناهم ليسوا وجوهكم؛ بدليل قوله في الأولى: ﴿إِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا﴾، وخير ما يفسر به القرآن القرآن، قال ابن قتيبة في (مشكل القرآن): ونظيره في حذف العامل قول حميد بن ثور:

رأنتني بحبليها فصدت مخافة وفي الحبل روعاء الفؤاد فروق

أي رأنتني أقبلت، أو مقبلاً. وفي هذا الحرف ثلاث قراءات سبعيات: قرأه علي الكسائي «لنساء وجوهكم» بنون العظمة وفتح الهمزة؛ أي لنساءها بتسليطنا إياهم عليكم يقتلونكم ويعذبونكم. وقرأه ابن عامر وحمزة وشعبة عن عاصم «ليساء وجوهكم» بالياء وفتح الهمزة والفاعل ضمير عائد إلى الله؛ أي ليسوء هو؛ أي الله، وجوهكم بتسليطه إياهم عليكم. وقرأه الباقون «ليستوا وجوهكم» بالياء وضم الهمزة بعدها واو الجمع التي هي فاعل الفعل، ونصبه بحذف النون، وضمير الفاعل الذي هو الواو عائد إلى الذين بعثهم الله عليهم ليسوا وجوههم بأنواع العذاب والقتل.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عَدُنَا﴾ لما بين - جل وعلا - أن بني إسرائيل قضى إليهم في الكتاب أنهم يفسدون في الأرض مرتين، وأنه إذا جاء وعد الأولى منهما بعث عليهم عباداً له أولى بأس شديد فاحتلوا بلادهم وعذبوهم. وأنه إذا جاء وعد المرة الآخرة: بعث عليهم قوماً ليسؤوا وجوههم، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة، وليتبروا ما علوا تتبيراً.

وبين أيضاً أنهم إن عادوا للإفساد المرة الثالثة فإنه - جل وعلا - يعود للانتقام منهم بتسليط أعدائهم عليهم؛ وذلك في قوله: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عَدُنَا﴾ ولم يبين هنا: هل عادوا للإفساد المرة الثالثة أم لا؟ ولكنه أشار في آيات أخر إلى أنهم عادوا للإفساد بتكذيب الرسول ﷺ، وكتب صفاته ونقض عهوده، ومظاهرة عدوه عليه، إلى غير ذلك من أفعالهم القبيحة. فعاد الله - جل وعلا - للانتقام منهم تصديقاً لقوله: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عَدُنَا﴾ فسلط عليهم نبيه ﷺ والمسلمين؛ فجرى على بني قريظة والنضير، وبني قينقاع وخيبر ما جرى من القتل والسبي والإجلاء، وضرب الجزية على من بقي منهم، وضرب الذلة والمسكنة.

فمن الآيات الدالة على أنهم عادوا للإفساد قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨١﴾ بِسْمَا أَشْرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَقِيًّا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِيتٌ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿وَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذُو فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٠]، وقوله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣]، ونحو ذلك من الآيات.

ومن الآيات الدالة على أنه تعالى عاد للانتقام منهم قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّا نَعْتُهُمْ خُصُومُهُمْ مِّنْ اللَّهِ فَانْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرَوْنَ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يٰٓأَوَّلِيَ الْبَصَرِ ﴿١﴾ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقَاتَلُوا وَتَأْخُذُونَ فَرِيقًا ﴿٣﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطُوبُهَا﴾ [الأحزاب: ٢٦ - ٢٧]، ونحو ذلك من الآيات. وتركنا بسط قصة الذين سلطوا عليهم في المرتين؛ لأنها أخبار إسرائيلية؛ وهي مشهورة في كتب التفسير والتاريخ، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾. في قوله: ﴿حَصِيرًا﴾ في هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير معروفان عند العلماء، كل منهما يشهد لمعناه قرآن، وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية قد يكون فيها وجهان أو أوجه وكلها صحيح ويشهد له قرآن؛ فنورد جميع ذلك لأنه كله حق:

الأول: أن الحصار: المحبس والسجن؛ من الخصر وهو الحبس. قال الجوهري: يقال حصره يحصره حصراً: ضيق عليه وأحاط به. وهذا الوجه يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلِذَا أَقْبُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان]، ونحو ذلك من الآيات.

الوجه الثاني: أن معنى «حصيراً» أي فراشاً ومهاداً؛ من الحصار الذي يفرش؛ لأن العرب تسمي البساط الصغير حصيراً. قال الثعلبي: وهو وجه حسن، ويدل على هذا الوجه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، ونحو ذلك من الآيات، والمهاد: الفراش.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهداً برب العالمين - جل وعلا - يهدي للتي هي أقوم؛ أي الطريقة التي هي أسد وأعدل وأصوب، «التي» نعت لموصوف محذوف، على حد قول ابن مالك في الخلاصة:

وما من المنعوت والنعت عقل يجوز حذفه وفي النعت يقل

وقال الزجاج والكلبي والفراء: للحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد الله والإيمان برسله.

وهذه الآية الكريمة أجمل الله - جل وعلا - فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم؛ لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة. ولكننا - إن شاء الله تعالى - سنذكر جملاً واقرة في جهات مختلفة كثيرة من هدى القرآن للطريق التي هي أقوم بياناً لبعض ما أشارت إليه الآية الكريمة، تنبيهاً ببعضه على كله من المسائل العظام، والمسائل التي أنكرها الملحدون من الكفار، وطعنوا بسببها في دين الإسلام، لقصور إدراكهم عن معرفة حكمها البالغة.

فمن ذلك توحيد الله - جل وعلا - فقد هدى القرآن فيه للطريق التي هي أقوم الطرق وأعدلها، وهي توحيد - جل وعلا - في ربوبيته، وفي عبادته، وفي أسمائه وصفاته، وقد دل استقراء القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيده في ربوبيته، وهذا النوع من التوحيد جبلت عليه فطر العقلاء، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَقُوا اللَّهَ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، وإنكار فرعون لهذا النوع من التوحيد في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء] تجاهل من عارف أنه عبد مربوب؛ بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

بصائر»، وقوله: ﴿وَحَمِّدُوا بِهَا وَاسْتَفْتَحُوا أَنْفُسَهُمْ ظُلُمًا وَعُورًا﴾ [النمل: ١٤] وهذا النوع من التوحيد لا ينفع إلا بإخلاص العبادة لله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِإِلَهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف]، والآيات الدالة على ذلك كثيرة جدًا.

الثاني: توحيده - جل وعلا - في عبادته، وضابط هذا النوع من التوحيد هو تحقيق معنى «لا إله إلا الله» وهي مترتبة من نفي وإثبات؛ فمعنى النفي منها: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله، كائنة ما كانت في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت، ومعنى الإثبات منها: إفراد الله - جل وعلا - وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على السنة رسله - عليهم الصلاة والسلام -، وأكثر آيات القرآن في هذا النوع من التوحيد، وهو الذي فيه المعارك بين البرسل وأمهم ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَجِدًّا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

ومن الآيات الدالة على هذا النوع من التوحيد قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢١]، وقوله: ﴿وَشَلَّ مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٥]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيْنَا أَنَّمَا لِلَّهِ هُكْمٌ إِنَّهُ وَجِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] فقد أمر في هذه الآية الكريمة أن يقول: أن ما أوحى إليه محصور في هذا النوع من التوحيد؛ لشمول كلمة «لا إله إلا الله» لجميع ما جاء في الكتب؛ لأنها تقتضي طاعة الله بعبادته وحده. فيشمل ذلك جميع العقائد والأوامر والنواهي، وما يتبع ذلك من ثواب وعقاب، والآيات في هذا النوع من التوحيد كثيرة.

النوع الثالث: توحيده - جل وعلا - في أسمائه وصفاته، وهذا النوع من التوحيد ينبنى على أصليين:

الأول: تنزيه الله - جل وعلا - عن مشابهة المخلوقين في صفاتهم، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

والثاني: الإيمان بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ على الوجه اللائق بكماله وجلاله؛ كما قال بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] مع قطع الطمع عن إدراك كيفية الاتصاف، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه] وقد قدمنا هذا المبحث مستوفى موضحاً بالآيات القرآنية «في سورة الأعراف».

ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته - جل وعلا - على وجوب توحيده في عبادته؛ ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير،

فإذا أقروا بربوبيته احتج بها عليهم على أنه هو المستحق لأن يعبد وحده. وبخهم منكرًا عليهم شركهم به غيره، مع اعترافهم بأنه هو الرب وحده؛ لأن من اعترف بأنه هو الرب وحده لزمه الاعتراف بأنه هو المستحق لأن يعبد وحده.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ إلى قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]، فلما أقروا بربوبيته وبخهم منكرًا عليهم شركهم به غيره بقوله: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَنْقُوتُونَ﴾ [يونس: ٣١].

ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٩﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴿٩٠﴾ فلما اعترفوا وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ثم قال: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٩١﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴿٩٢﴾ فلما أقروا وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ أَفَلَا تَنْقُوتُونَ﴾، ثم قال: ﴿قُلْ مَنْ مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ﴿٩٣﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴿٩٤﴾ فلما أقروا وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ فَاتَىٰ قَائِلٌ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩].

ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ [الرعد: ١٦] فلما صح الاعتراف وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ أَفَأَتَّخِذُكُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد: ١٦].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ فلما صح إقرارهم وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ فلما صح اعترافهم وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ فلما صح إقرارهم وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١ - ٦٣].

وقوله: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] فلما صح اعترافهم وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَائِقَ ذَاتٍ بِهَجَةٍ مَّا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ [النمل: ٥٩ - ٦٠] ولا شك أن الجواب الذي لا جواب لهم البتة غيره: هو أن القادر على خلق السموات والأرض وما ذكر معها، خير من جماد لا يقدر على شيء، فلما تعين اعترافهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ ولا شك أن الجواب الذي لا جواب غيره كما قبله، فلما تعين اعترافهم وبخهم منكرًا

عليهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْذَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الصفات: ٦١] ثم قال - جل وعلا -: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [الصفات: ٦٢] ولا شك أن الجواب كما قبله، فلما تعين إقرارهم بذلك وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [النمل: ٦٣] ولا شك أن الجواب كما قبله. فلما تعين إقرارهم بذلك وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ثم قال - جل وعلا -: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾ ولا شك أن الجواب كما قبله. فلما تعين الاعتراف وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَذَا مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلْ مِنْ ذَلِكَ مِمَّنْ شَيْءٌ﴾ [الروم: ٤٠] ولا شك أن الجواب الذي لا جواب لهم غيره هو: لا! أي ليس من شركائنا من يقدر على أن يفعل شيئاً من ذلك المذكور من الخلق والرزق والإماتة والإحياء، فلما تعين اعترافهم وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿سُبْحَنُكَ وَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

والآيات بنحو هذا كثيرة جدًا، ولأجل ذلك ذكرنا في غير هذا الموضع: أن كل الأسئلة المتعلقة بتوحيد الربوبية استفهامات تقرير، يراد منها أنهم إذا أقرروا رتب لهم التوبيخ والإنكار على ذلك الإقرار؛ لأن المقر بالربوبية يلزمه الإقرار بالألوهية ضرورة، نحو قوله تعالى: ﴿أَفَى اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله: ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنَى رَبًّا﴾ [الأنعام: ١٦٤] وإن زعم بعض العلماء أن هذا استفهام إنكار؛ لأن استقراء القرآن دل على أن الاستفهام المتعلق بالربوبية استفهام تقرير، وليس استفهام إنكار؛ لأنهم لا ينكرون الربوبية، كما رأيت كثرة الآيات الدالة عليه.

والكلام على أقسام التوحيد ستجده - إن شاء الله - في مواضع كثيرة من هذا الكتاب المبارك، بحسب المناسبات في الآيات التي نتكلم على بيانها بآيات آخر.

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: جعله الطلاق بيد الرجل، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّتْنُ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ . . . الآية [الطلاق: ١]، ونحوها من الآيات؛ لأن النساء مزارع وحقول، تبذر فيها النطف كما يبذر الحب في الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿سَاءَ لَكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

ولا شك أن الطريق التي هي أقوم الطرق أن الزارع لا يرغب على الازدراع في حقل لا يرغب الزراعة فيه لأنه يراه غير صالح له، والدليل الحسي القاطع على ما جاء به القرآن من أن الرجل زارع، والمرأة مزرعة وأن آلة الازدراع مع الرجل؛ فلو أرادت المرأة أن تجامع الرجل وهو كاره لها، لا رغبة له فيها لم ينتشر، ولم يقم ذكره إليها فلا تقدر منه على شيء، بخلاف الرجل فإنه قد يرغبها وهي كارهة فتحمل وتلد؛ كما قال أبو كبير الهذلي:

ممن حملن به وهن عواقد حبك النطاق فشب غير مهبل
فدلت الطبيعة والخلقة على أنه فاعل وأنها مفعول به؛ ولذا أجمع العقلاء على
نسبة الولد له لا لها.

وتسوية المرأة بالرجل في ذلك مكابرة في المحسوس، كما لا يخفى.

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: إباحته تعدد الزوجات إلى أربع، وأن الرجل إذا
خاف عدم العدل بينهما، لزمه الاقتصار على واحدة، أو ملك يمينه، كما قال تعالى:
﴿وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْبَيْنِ فَاَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنٍ وَتِلْكَ وَرِثَةُ الْوَرِثَةِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا
تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣]، ولا شك أن الطريق التي هي أقوم الطرق
وأعدلها، هي إباحة تعدد الزوجات لأمر محسوس يعرفها كل العقلاء.

منها: أن المرأة الواحدة تحيض وتمرض، وتنفس إلى غير ذلك من العوائق
المانعة من قيامها بأخص لوازم الزوجية، والرجل مستعد للتسبب في زيادة الأمة، فلو
حبس عليها في أحوال أعذارها لعطلت منافعه باطلاً في غير ذنب.

ومنها: أن الله أجرى العادة بأن الرجال أقل عدداً من النساء في أقطار الدنيا،
وأكثر تعرضاً لأسباب الموت منهن في جميع ميادين الحياة، فلو قصر الرجل على
واحدة، لبقى عدد ضخم من النساء محروماً من الزواج، فيضطرون إلى ركوب الفاحشة،
فالعدول عن هدي القرآن في هذه المسألة من أعظم أسباب ضياع الأخلاق، والانحطاط
إلى درجة البهائم في عدم الصيانة، والمحافظة على الشرف والمروءة والأخلاق! فسيحان
الحكيم الخبير! ﴿الرَّ كُتِبَ عَلَيْكُمُ أَنْ تُبَاحَ الْبَيْتِ ثُمَّ قُضِيَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١٢٩].

ومنها: أن الإناث كلهن مستعدات للزواج، وكثير من الرجال لا قدرة لهم على
القيام بلوازم الزواج لفقرهم. فالمستعدون للزواج من الرجال أقل من المستعدات له من
النساء؛ لأن المرأة لا عائق لها، والرجل يعوقه الفقر وعدم القدرة على لوازم النكاح؛
فلو قصر الواحد على الواحدة، لضاع كثير من المستعدات للزواج أيضاً بعدم وجود
أزواج؛ فيكون ذلك سبباً لضياع الفضيلة وتفشي الرذيلة، والانحطاط الخلقي، وضياع
القيم الإنسانية، كما هو واضح، فإن خاف الرجل ألا يعدل بينهما، وجب عليه
الاقتصار على واحدة، أو ما ملك يمينه؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾
[النحل: ٩٠]. والميل بالتفضيل في الحقوق الشرعية بينهما لا يجوز، لقوله تعالى:
﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمُطَلَقَاتِ﴾ [النساء: ١٢٩]، أما الميل الطبيعي بمحبة
بعضهن أكثر من بعض، فهو غير مستطاع دفعه للبشر، لأنه انفعال وتأثر نفسي لا فعل،
وهو المراد بقوله: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ١٢٩]، كما أوضحناه
في غير هذا الموضع. وما يزعمه بعض الملاحدة من أعداء دين الإسلام، من أن تعدد
الزوجات يلزمه الخصام والشغب الدائم المفضي إلى نكد الحياة؛ لأنه كلما أَرْضَى

إحدى الضرتين سخطت الأخرى؛ فهو بين سخطتين دائماً، وأن هذا ليس من الحكمة، فهو كلام ساقط، يظهر سقوطه لكل عاقل؛ لأن الخصام والمشغبة بين أفراد أهل البيت لا انفكاك عنه البتة، فيقع بين الرجل وأمه، وبينه وبين أبيه، وبينه وبين أولاده، وبينه وبين زوجته الواحدة؛ فهو أمر عادي ليس له كبير شأن، وهو في جنب المصالح العظيمة التي ذكرنا في تعدد الزوجات من صيانة النساء وتيسير التزويج لجميعهن، وكثرة عدد الأمة لتقوم بعددها الكثير في وجه أعداء الإسلام كلا شيء؛ لأن المصلحة العظمى يقدم جلبها على دفع المفسدة الصغرى.

فلو فرضنا أن المشغبة المزعومة في تعدد الزوجات مفسدة، أو أن إيلاام قلب الزوجة الأولى بالضرة مفسدة، لقدمت عليها تلك المصالح الراجعة التي ذكرنا، كما هو معروف في الأصول. قال في (مراقي السعود) عاطفاً على ما تلغى فيه المفسدة المرجوحة في جنب المصلحة الراجعة.

أو رجح الإصلاح كالأسارى تفدى بما ينفع للنصارى
وانظر تدلى دوالي العنب في كل مشرق وكل مغرب

فداء الأسارى مصلحة راجحة، ودفع فدائهم النافع للعدو مفسدة مرجوحة، فتقدم عليها المصلحة الراجعة، أما إذا تساوت المصلحة والمفسدة، أو كانت المفسدة أرجح كداء الأسارى بسلاح يتمكن بسببه العدو من قتل قدر الأسارى أو أكثر من المسلمين، فإن المصلحة تلغى لكونها غير راجحة، كما قال في (المراقي):

اخترم مناسبا بمفسد لزم للحكم وهو غير مرجوح علم

وكذلك العنب تعصر منه الخمر وهي أم الخبائث، إلا أن مصلحة وجود العنب والزبيب والانتفاع بهما في أقطار الدنيا مصلحة راجحة على مفسدة عصر الخمر منها، ألغيت لها تلك المفسدة المرجوحة، واجتماع الرجال والنساء في البلد الواحد قد يكون سبباً لحصول الزنى إلا أن التعاون بين المجتمع من ذكور وإناث مصلحة أرجح من تلك المفسدة، ولذا لم يقل أحد من العلماء: إنه يجب عزل النساء في محل مستقل عن الرجال، وأن يجعل عليهن حصن قوي لا يمكن الوصول إليهن معه، وتجعل المفاتيح بيد أمين معروف بالتقى والديانة كما هو مقرر في الأصول.

فالقرآن أباح تعدد الزوجات لمصلحة المرأة في عدم حرمانها من الزواج، ولمصلحة الرجل بعدم تعطل منافعه في حال قيام العذر بالمرأة الواحدة، ولمصلحة الأمة ليكثر عددها فيمكنها مقاومة عدوها لتكون كلمة الله هي العليا، فهو تشريع حكيم خبير لا يطعن فيه إلا من أعمى الله بصيرته بظلمات الكفر. وتحديد الزوجات بأربع تحديد من حكيم خبير، وهو أمر وسط بين القلة المفضية إلى تعطل بعض منافع الرجل، وبين الكثرة التي هي مظنة عدم القدرة على القيام بلوازم الزوجية للجميع، والعلم عند الله تعالى.

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: تفضيله الذكر على الأنثى في الميراث، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٧٦].

وقد صرح تعالى في هذه الآية الكريمة أنه يبين لخلقه هذا البيان الذي من جملته تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث لثلاث يضلوا، فمن سوى بينهما فيه فهو ضال قطعاً. ثم بين أنه أعلم بالحكم والمصالح وبكل شيء من خلقه بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٧٦]، وقال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾... الآية [النساء: ١١].

ولا شك أن الطريق التي هي أقوم الطرق وأعدلها، تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث الذي ذكره الله تعالى؛ كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى آيٍ وَهُوَ الرِّجَالُ عَلَى نَدْوَى دَرَجَةٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]؛ وذلك لأن الذكورة كمال خلقي، وقوة طبيعية، وشرف وجمال، والأنوثة نقص خلقي، وضعف طبيعي، كما هو محسوس مشاهد لجميع العقلاء، لا يكاد ينكره إلا مكابر في المحسوس.

وقد أشار - جل وعلا - إلى ذلك بقوله: ﴿أَوَمَنْ يُنَشِّئُ فِي الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨]؛ لأن الله أنكر عليهم في هذه الآية الكريمة أنهم نسبوا له ما لا يليق به من الولد، ومع ذلك نسبوا له أخس الولدين وأنقصهما وأضعفهما؛ ولذلك ينشأ في الحلية أي الزينة من أنواع الحلبي والحلل ليَجبر نقصه الخلقي الطبيعي بالتجميل بالحلي والحلل وهو الأنثى، بخلاف الرجل، فإن كمال ذكوره وقوتها وجمالها يكفيه عن الحلبي، كما قال الشاعر:

وما الحلبي إلا زينة من نقيصة يتمم من حسن إذا الحسن قصرا

وأما إذا كان الجمال موفراً كحسنك لم يحتج إلى أن يزورا

وقال تعالى: ﴿الْكُفْرُ وَاللَّذَّةُ وَالْأَنثَى﴾ [٢١] تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى [٢٢] [النجم] وإنما كانت هذه القسمة ضيزى؛ أي غير عادلة؛ لأن الأنثى أنقص من الذكر خلقة وطبيعة؛ فجعلوا هذا النصيب الناقص لله - جل وعلا - سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً! وجعلوا الكامل لأنفسهم كما قال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢] أي وهو البنات. وقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [٥٨] إلى قوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨ - ٥٩]، وقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ أي وهو الأنثى ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧].

وكل هذه الآيات القرآنية تدل على أن الأنثى ناقصة بمقتضى الخلقة والطبيعة، وأن الذكر أفضل وأكمل منها؛ ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ [الصافات] ﴿أَفَأَصْفَكَ رُحْمًا يُبَالَيْنَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا﴾، والآيات الدالة على تفضيله عليها كثيرة جداً.

ومعلوم عند عامة العقلاء أن الأنثى متاع لا بد له ممن يقوم بشؤونه ويحافظ عليه. وقد اختلف العلماء في التمتع بالزوجة هل هو قوت؟ أم تفكه؟ وأجرى علماء المالكية على هذا الخلاف حكم إلزام الابن بتزويج أبيه الفقير قالوا: فعلى أن النكاح قوت فعليه تزويجه؛ لأنه من جملة القوت الواجب له عليه، وعلى أنه تفكه لا يجب عليه على قول بعضهم، فانظر شبه النساء بالطعام والفاكهة عند العلماء. وقد جاءت السنة الصحيحة بالنهي عن قتل النساء والصبيان في الجهاد؛ لأنهما من جملة مال المسلمين الغانمين، بخلاف الرجال فإنهم يقتلون.

ومن الأدلة على أفضلية الذكر على الأنثى أن المرأة الأولى خلقت من ضلع الرجل الأول؛ فأصلها جزء منه. فإذا عرفت من هذه الأدلة أن الأنوثة نقص خلقي، وضعف طبيعي، فاعلم أن العقل الصحيح الذي يدرك الحكم والأسرار، يقضي بأن الناقص الضعيف بخلقه وطبيعته، يلزم أن يكون تحت نظر الكامل في خلقته، القوي بطبيعته؛ ليجلب له ما لا يقدر على جلبه من النفع، ويدفع عنه ما لا يقدر على دفعه من الضر؛ كما قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٤].

وإذا علمت ذلك، فاعلم أنه لما كانت الحكمة البالغة، تقتضي أن يكون الضعيف الناقص مقوماً عليه من قبل القوي الكامل، اقتضى ذلك أن يكون الرجل ملزماً بالإنفاق على نسائه، والقيام بجميع لوازمهن في الحياة؛ كما قال تعالى: ﴿وَيْمًا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤] ومال الميراث ما مسحاً في تحصيله عرقاً، ولا تسبياً فيه البتة، وإنما هو تمليك من الله لملكهما إياه تملكاً جبرياً؛ فاقتضت حكمة الحكيم الخبير أن يؤثر الرجل على المرأة في الميراث وإن أدليا بسبب واحد؛ لأن الرجل مترقب للنقص دائماً بالإنفاق على نسائه، وبذل المهور لهن، والبذل في نوائب الدهر، والمرأة مترقبة للزيادة بدفع الرجل لها المهر، وإنفاقه عليها وقيامه بشؤونها. وإثثار مترقب للنقص دائماً على مترقب الزيادة دائماً لجبر بعض نقصه المترقب، حكمته ظاهرة واضحة، لا ينكرها إلا من أعمى الله بصيرته بالكفر والمعاصي؛ ولذا قال تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ [النساء: ١١] ولأجل هذه الحكم التي بينا بها فضل نوع الذكر على نوع الأنثى في أصل الخلقة والطبيعة، جعل الحكيم الخبير الرجل هو المسؤول عن المرأة في جميع أحوالها. وخصه بالرسالة والنبوة والخلافة دونها، وملكه الطلاق دونها، وجعله الولي في النكاح دونها، وجعل انتساب الأولاد إليه لا إليها، وجعل شهادته في الأموال بشهادة امرأتين في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وجعل شهادته تقبل في الحدود والقصاص دونها، إلى غير ذلك من الفوارق الحسية والمعنوية والشرعية بينهما.

ألا ترى أن الضعف الخلقي والعجز عن الإبانة في الخصام عيب ناقص في الرجال، مع أنه يعد من جملة محاسن النساء التي تجذب إليها القلوب، قال جرير:

إن العيون التي في طرفها حور
يصر عن ذا اللب حتى لا حراك به
وقال ابن الدميني:

بنفسي وأهلي من إذا عرضوا له
فلم يعتذر عذر البريء ولم تزل
ببعض الأذى لم يدر كيف يجيب
به سكتة حتى يقال مريب

فالأول: تشب بهن بضعف أركانهن، والثاني: بعجزهن عن الإبانة في الخصام، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ فِي الْفُصَاوِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨]، ولهذا التباين في الكمال والقوة بين النوعين، صح عن النبي ﷺ اللعن على من تشبه منهما بالآخر، قال البخاري في صحيحه: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن قتادة، عن عكرمة عن ابن عباس ؓ قال: «لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال» هذا لفظ البخاري في صحيحه، ومعلوم أن من لعنه رسول الله ﷺ فهو ملعون في كتاب الله؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]. كما ثبت عن ابن مسعود ؓ كما تقدم.

فلتعلمن أيتها النساء اللاتي تحاولن أن تكن كالرجال في جميع الشؤون أنكن مترجلات متشبهات بالرجال، وأنكن ملعونات في كتاب الله على لسان رسوله ﷺ، وكذلك المخنثون المتشبهون بالنساء، فهم أيضاً ملعونون في كتاب الله على لسانه ﷺ، ولقد صدق من قال فيهم:

وما عجب أن النساء ترجلت ولكن تأنيث الرجال عجاب

واعلم - وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه - أن هذه الفكرة الكافرة، الخاطئة الخاصة، المخالفة للحس والعقل، وللوحي السماوي وتشريع الخالق البارئ من تسوية الأنثى بالذكر في جميع الأحكام والميادين، فيها من الفساد والإخلال بنظام المجتمع الإنساني ما لا يخفى على أحد إلا من أعمى الله بصيرته، وذلك لأن الله - جل وعلا - جعل الأنثى بصفاتها الخاصة بها صالحة لأنواع من المشاركة في بناء المجتمع الإنساني؛ صلاحاً لا يصلح لها غيرها كالحمل والوضع، والإرضاع وتربية الأولاد، وخدمة البيت، والقيام على شؤونه: من طبخ وعجن وكس ونحو ذلك. وهذه الخدمات التي تقوم بها للمجتمع الإنساني داخل بيتها في ستر وصيانة، وعفاف ومحافظة على الشرف والفضيلة والقيم الإنسانية، لا تقل عن خدمة الرجل بالاكتمال؛ فزعم أولئك السفلة الجهلة من الكفار وأتباعهم أن المرأة لها من الحقوق في الخدمة خارج بيتها مثل ما للرجل، مع أنها في زمن حملها ورضاعها ونفاسها، لا تقدر على مزاوله أي عمل فيه أي مشقة كما هو مشاهد، فإذا خرجت هي وزوجها بقيت خدمات البيت كلها ضائعة من حفظ الأولاد الصغار، وإرضاع من هو في زمن الرضاع منهم، وتهئية الأكل

والشرب للرجل إذا جاء من عمله. فلو أجروا إنساناً يقوم مقامها، لتعطل ذلك الإنسان في ذلك البيت التعطل الذي خرجت المرأة فراراً منه؛ فعدت النتيجة في حافرتها، على أن خروج المرأة وابتذالها فيه ضياع المروءة والدين؛ لأن المرأة متاع، هو خير متاع الدنيا، وهو أشد أمتعة الدنيا تعرضاً للخيانة؛ لأن العين الخائنة إذا نظرت إلى شيء من محاسنها فقد استغلت بعض منافع ذلك الجمال خيانة ومكرراً؛ فتعريضها لأن تكون مائدة للخونة فيه ما لا يخفى على أدنى عاقل، وكذلك إذا لمس شيئاً من بدنها بدن خائن سرت لذة ذلك اللمس في دمه ولحمه بطبيعة الغريزة الإنسانية؛ ولا سيما إذا كان القلب فارغاً من خشية الله تعالى، فاستغل نعمة ذلك البدن خيانة وغدراً. وتحريك الغرائز بمثل ذلك النظر واللمس يكون غالباً سبباً لما هو شر منه؛ كما هو مشاهد بكثرة في البلاد التي تخلت عن تعاليم الإسلام، وتركت الصيانة؛ فصارت نساؤها يخرجن متبرجات عاريات الأجسام إلا ما شاء الله؛ لأن الله نزع من رجالها صفة الرجولة والغيرة على حريمهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! نعوذ بالله من مسخ الضمير والذوق، ومن كل سوء، ودعوى الجهلة السفلة أن دوام خروج النساء بادية الرؤوس والأعناق والمعاصم والأذرع والسوق، ونحو ذلك يذهب إثارة غرائز الرجال؛ لأن كثرة الإمساس تذهب الإحساس. كلام في غاية السقوط والخسة؛ لأن معناه: إشباع الرغبة مما لا يجوز، حتى يزول الأرب منه بكثرة مزاولته وهذا كما ترى؛ ولأن الدوام لا يذهب إثارة الغريزة باتفاق العقلاء؛ لأن الرجل يمكث مع امرأته سنين كثيرة حتى تلد أولادهما، ولا تزال ملامسته لها، ورؤيته لبعض جسمها تثير غريزته، كما هو مشاهد لا ينكره إلا مكابر:

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

وقد أمر رب السموات والأرض، خالق هذا الكون ومدير شؤونه، العالم بخفايا أموره، وبكل ما كان وما سيكون بغض البصر عما لا يحل؛ قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضَصْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ الآية [النور: ٣٠ - ٣١].

ونهى المرأة أن تضرب برجلها لتسمع الرجال صوت خلخالها في قوله: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]. ونهاهن عن لين الكلام؛ لئلا يطمع أهل الخنى فيهن؛ قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢]. وسيأتي - إن شاء الله تعالى - تحقيق المقام في مسألة الحجاب (في سورة الأحزاب) كما قدمنا الوعد بذلك في ترجمة هذا الكتاب المبارك.

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: ملك الرقيق المعبر عنه في القرآن بملك اليمين

في آيات كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقِيلُوا فَارْجِعُوا أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَرْضِهِمْ حَفَظُونَ﴾ ⑤ ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَلَهُنَّ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ ⑥ [المؤمنون] «في سورة قد أفلح المؤمنون، وسأل سائل»، وقوله: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْأَجْنَبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ﴾ [النساء: ٢٤]، وقوله - جل وعلا -: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، وقوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ يَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [الأحزاب: ٥٢]، وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّ لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، وقوله - جل وعلا -: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ [النور: ٣١]، وقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحِ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْنَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥]، وقوله: ﴿فَمَا لِلَّذِينَ فَضَّلُوا بِرَأْيِي يَرْفَهُمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [النحل: ٧١]، وقوله: ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

فالمراد بملك اليمين في جميع هذه الآيات ونحوها: ملك الرقيق بالرق، ومن الآيات الدالة على ملك الرقيق قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ [النحل: ٧٥]، وقوله: ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ﴾ [البقرة: ٢٢١]، ونحو ذلك من الآيات.

وسبب الملك بالرق هو الكفر، ومحاربة الله ورسوله، فإذا أقدر الله المسلمين المجاهدين الباذلين مهجهم وأموالهم، وجميع قواهم، وما أعطاهم الله لتكون كلمة الله هي العليا على الكفار - جعلهم ملكاً لهم بالسبي؛ إلا إذا اختار الإمام المن أو الفداء؛ لما في ذلك من المصلحة على المسلمين.

وهذا الحكم من أعدل الأحكام وأوضحها وأظهرها حكمة، وذلك أن الله - جل وعلا - خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه، ويمثلوا أوامره ويجتنبوا نواهيه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ⑦ ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾ ⑧ [الذاريات]. وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، كما قال: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وفي الآية الأخرى «في سورة النحل»: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ⑨ [إبراهيم]. وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة ليشكروه، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ⑩ [النحل].

فتمرد الكفار على ربهم وطغوا وعتوا، وأعلنوا الحرب على رسله لئلا تكون كلمته هي العليا، واستعملوا جميع المواهب التي أنعم عليهم بها في محاربته، وارتكاب ما

يسخطة، ومعاداته ومعاداة أوليائه القائمين بأمره. وهذا أكبر جريمة يتصورها الإنسان. فعاقبهم الحكم العدل اللطيف الخبير - جل وعلا - عقوبة شديدة تناسب جريمتهم فسلبهم التصرف، ووضعهم من مقام الإنسانية إلى مقام أسفل منه كمقام الحيوانات، فأجاز بيعهم وشراءهم، وغير ذلك من التصرفات المالية، مع أنه لم يسلبهم حقوق الإنسانية سلباً كلياً، فأوجب على مالكيهم الرفق والإحسان إليهم، وأن يطعموهم مما يطعمون، ويكسوهم مما يلبسون، ولا يكلفوهم من العمل ما لا يطيقون، وإن كلفوهم أعانهم، كما هو معروف في السنة الواردة عنه ﷺ، مع الإيضاء عليهم في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦] كما تقدم.

وتشوف الشارع تشوفاً شديداً للحرية والإخراج من الرق؛ فأكثر أسباب ذلك، كما أوجبه في الكفارات من قتل خطأ وظهار ويمين وغير ذلك، وأوجب سراية العتق، وأمر بالكتابة في قوله: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ٣٣] ورغب في الإعتاق ترغيباً شديداً، ولو فرضنا - والله المثل الأعلى - أن حكومة من هذه الحكومات التي تنكر الملك بالرق، وتشنع في ذلك على دين الإسلام - قام عليها رجل من رعاياها كانت تغدق عليه النعم، وتسدي إليه جميع أنواع الإحسان، ودبر عليها ثورة شديدة يريد بها إسقاط حكمها، وعدم نفوذ كلمتها، والحيلولة بينها وبين ما تريده من تنفيذ أنظمتها، التي يظهر لها أن بهما صلاح المجتمع، ثم قدرت عليه بعد مقاومة شديدة فإنها تقتله شر قتلة، ولا شك أن ذلك القتل يسلبه جميع تصرفاته وجميع منافعه؛ فهو أشد سلباً لتصرفات الإنسان ومنافعه من الرق بمراحل، والكافر قام ببذل كل ما في وسعه ليحول دون إقامة نظام الله الذي شرعه؛ ليسيير عليه خلقه فينشر بسببه في الأرض الأمن والطمأنينة؛ والرخاء والعدالة، والمساواة في الحقوق الشرعية، وتنظم به الحياة على أكمل الوجوه وأعدلها وأسمأها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] فعاقبه الله هذه المعاقبة بمنعه التصرف، ووضع درجته وجريمته تجعله يستحق العقوبة بذلك.

فإن قيل: إذا كان الرقيق مسلماً فما وجه ملكه بالرق؟ مع أن سبب الرق الذي هو الكفر ومحاربة الله ورسله قد زال؟.

فالجواب: أن القاعدة المعروفة عند العلماء وكافة العقلاء أن الحق السابق لا يرفعه الحق اللاحق، والأحقية بالأسبقية ظاهرة لا خفاء بها، فالمسلمون عندما غنموا الكفار بالسبي ثبت لهم حق الملكية بتشريع خالق الجميع، وهو الحكيم الخبير، فإذا استقر هذا الحق وثبت، ثم أسلم الرقيق بعد ذلك كان حقه في الخروج من الرق بالإسلام مسبوقاً بحق المجاهد الذي سبقت له الملكية قبل الإسلام، وليس من العدل والإنصاف رفع الحق السابق بالحق المتأخر عنه، كما هو معلوم عند العقلاء، نعم، يحسن بالمالك

ويجمل به أن يعتقه إذا أسلم، وقد أمر الشارع بذلك ورغب فيه، وفتح الأبواب الكثيرة كما قدمنا - فسبحان الحكيم الخبير ﴿وَنَمَتْ رَكَّتْ رَيْكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبْدَل لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝١٥﴾ [الأنعام]. فقوله: ﴿صِدْقًا﴾ أي في الأخبار، وقوله: ﴿وَعَدْلًا﴾ أي في الأحكام، ولا شك أن من ذلك العدل الملك بالرق وغيره من أحكام القرآن.

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: القصاص؛ فإن الإنسان إذا غضب وهم بأن يقتل إنساناً آخر فتذكر أنه إن قتله قتل به، خاف العاقبة فترك القتل؛ فحيي ذلك الذي كان يريد قتله، وحيي هو؛ لأنه لم يقتل فيقتل قصاصاً، فقتل القاتل يحيا به ما لا يعلمه إلا الله كثرة كما ذكرنا، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأْتُوايَ الْأَنْبِيَاءَ لَمَلِكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٧٦﴾ [البقرة] ولا شك أن هذا من أعدل الطرق وأقومها؛ ولذلك يشاهد في أقطار الدنيا قديماً وحديثاً قلة وقوع القتل في البلاد التي تحكم بكتاب الله؛ لأن القصاص رادع عن جريمة القتل؛ كما ذكره الله في الآية المذكورة آنفاً. وما يزرعه أعداء الإسلام من أن القصاص غير مطابق للحكمة؛ لأن فيه إقلال عدد المجتمع بقتل إنسان ثان بعد أن مات الأول، وأنه ينبغي أن يعاقب بغير القتل فيحبس، وقد يولد له في الحبس فيزيد المجتمع كله كلام ساقط، عار من الحكمة! لأن الحبس لا يردع الناس عن القتل، فإذا لم تكن العقوبة رادعة فإن السفهاء يكثر منهم القتل؛ فيتضاعف نقص المجتمع بكثرة القتل.

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: قطع يد السارق المنصوص عليه بقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٨﴾ [المائدة]، وقال النبي ﷺ: «لو سرت فاطمة لقطعت يدها».

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: رجم الزاني المحصن ذكراً كان أو أنثى، وجلد الزاني البكر مائة جلدة ذكراً كان أو أنثى.

أما الرجم فهو منصوص بأية منسوخة التلاوة باقية الحكم، وهي قوله تعالى: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم».

وقد قدمنا ذم القرآن للمعرض عما في التوراة من حكم الرجم؛ فدل القرآن في آيات محكمة كقوله: ﴿يَقُولُونَ إِنَّا أَوْثَقْنَا هَذَا فَحَدُّهُ﴾ [المائدة: ٤١]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُذَمِّرُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ٢٣] - على ثبوت حكم الرجم في شريعة نبينا ﷺ لزمه في كتابنا للمعرض عنه كما تقدم.

وما ذكرنا من أن حكم الرجم ثابت بالقرآن لا ينافي قول علي عليه السلام، حين رجم امرأة يوم الجمعة: «رجمتها بسنة رسول الله ﷺ»؛ لأن السنة هي التي بينت أن حكم آية الرجم باق بعد نسخ تلاوتها.

ويدل على ذلك قول عمر رضي الله عنه في حديثه الصحيح المشهور: «فكان مما أنزل إليه آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها، رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده...» الحديث. والملحدون يقولون: إن الرجم قتل وحشي لا يناسب الحكمة التشريعية، ولا ينبغي أن يكون مثله في الأنظمة التي يعامل بها الإنسان؛ لقصور إدراكهم عن فهم حكم الله البالغة في تشريعه.

والحاصل أن الرجم عقوبة سماوية معقولة المعنى؛ لأن الزاني لما أدخل فرجه في فرج امرأة على وجه الخيانة والغدر، فإنه ارتكب أخس جريمة عرفها الإنسان بهتك الأعراض، وتقدير الحرمات، والسعي في ضياع أنساب المجتمع الإنساني، والمرأة التي تطاوعه في ذلك مثله. ومن كان كذلك فهو نجس قدر لا يصلح للمصاحبة؛ فعاقبه خالقه الحكيم الخبير بالقتل ليدفع شره البالغ غاية الخبث والخسة، وشر أمثاله عن المجتمع. ويظهره هو من التنجيس بتلك القاذورة التي ارتكب، وجعل قتله أفضح قتله؛ لأن جريمته أفضح جريمة، والجزاء من جنس العمل.

وقد دل الشرع المظهر على أن إدخال الفرج في الفرج المأذون فيه شرعاً يوجب الغسل، والمنع من دخول المسجد على كل واحد منهما حتى يغتسل بالماء. فدل ذلك على أن الفعل يتطلب طهارة في الأصل، وطهارته المعنوية إن كان حراماً قتل صاحبه المحصن؛ لأنه إن رجم كفر ذلك عنه ذنب الزنى، ويبقى عليه حق آدمي؛ كالزوج إن زنى بمتزوجة، وحق الأولياء في إلحاق العار بهم كما أشرنا إليه سابقاً. وشدة قبح الزنى أمر مركوز في الطبائع، وقد قالت هند بنت عتبة وهي كافرة: ما أقبح ذلك الفعل حلالاً! فكيف به وهو حرام! وغلظ - جل وعلا - عقوبة المحصن بالرجم تغليظاً أشد من تغليظ عقوبة البكر بمائة جلدة؛ لأن المحصن قد ذاق عسيلة النساء، ومن كان كذلك يعسر عليه الصبر عنهن. فلما كان الداعي إلى الزنى أعظم، كان الرادع عنه أعظم وهو الرجم.

وأما جلد الزاني البكر ذكراً كان أو أنثى مائة جلدة، فهذا منصوص بقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]؛ لأن هذه العقوبة تردعه وأمثاله عن الزنى، وتطهره من ذنب الزنى كما تقدم، وسيأتي - إن شاء الله تعالى - تفصيل ما يلزم الزناة من ذكور وإناث، وعبيد وأحرار «في سورة النور».

وتشريع الحكيم الخبير - جل وعلا - مشتمل على جميع الحكم من درء المفاسد وجلب المصالح، والجري على مكارم الأخلاق، ومحاسن العادات، ولا شك أن من أقوم الطرق معاقبة فطيع الجناية بعظيم العقاب جزاء وفاقاً.

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: هديه إلى أن التقدم لا ينافي التمسك بالدين، فما خيله أعداء الدين لضعاف العقول ممن ينتمي إلى الإسلام من أن التقدم لا يمكن إلا بالانسلاخ من دين الإسلام - باطل لا أساس له، والقرآن الكريم يدعو إلى التقدم

في جميع الميادين التي لها أهمية في دنيا أو دين، ولكن ذلك التقدم في حدود الدين، والتحلي بأدابه الكريمة، وتعاليمه السماوية؛ قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَالُ آوِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبْعِينَ وَفَقَّرَ فِي السَّرِّ وَأَعْمَلُوا صَاحِبًا...﴾ الآية [سبأ: ١٠ - ١١]. فقلوه: ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَبْعِينَ وَفَقَّرَ فِي السَّرِّ﴾ يدل على الاستعداد لمكافحة العدو، وقوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَاحِبًا﴾ [النمل: ١٩] يدل على أن ذلك الاستعداد لمكافحة العدو في حدود الدين الحنيف. وداود من أنبياء «سورة الأنعام» المذكورين فيها في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ﴾ [الأنعام: ٨٤]. وقد قال تعالى مخاطباً لنبينا ﷺ وعليهم بعد أن ذكرهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقد ثبت في صحيح البخاري عن مجاهد أنه سأل ابن عباس رضي الله عنهما من أين أخذت السجدة «في ص» فقال: أو ما تقرأ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ﴾... [الأنعام: ٨٤] ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَ﴾ [الأنعام: ٩٠] فسجدها داود، فسجدها رسول الله ﷺ.

فدل ذلك على أنا مخاطبون بما تضمنته الآية مما أمر به داود، فعلينا أن نستعد لكفاح العدو مع التمسك بديننا، وانظر قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] فهو أمر جازم بإعداد كل ما في الاستطاعة من قوة ولو بلغت القوة من التطور ما بلغت، فهو أمر جازم بمسايرة التطور في الأمور الدنيوية، وعدم الجمود على الحالات الأولى إذا طرأ تطور جديد، ولكن كل ذلك مع التمسك بالدين.

ومن أوضح الأدلة في ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنُفَقِّنَّ طَائِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ زُرَّائِكُمْ وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]. فصلاة الخوف المذكورة في هذه الآية الكريمة تدل على لزوم الجمع بين مكافحة العدو، وبين القيام بما شرعه الله - جل وعلا - من دينه، فأمره تعالى في هذه الآية بإقامة الصلاة في وقت التحام الكفاح المسلح يدل على ذلك دلالة في غاية الوضوح، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٥﴾ [الأنفال]. فأمره في هذه الآية الكريمة بذكر الله عند التحام القتال يدل على ذلك أيضاً دلالة واضحة. فالكفار خيلوا لضعاف العقول أن النسبة بين التقدم والتمسك بالدين، والسمت الحسن والأخلاق الكريمة - تباين مقابلة كتابين النقيضين كالعدم والوجود، والنفي الإثبات أو الضدين كالسواد والبياض، والحركة والسكون، أو المتضائفين كالأبوة والبنوة، والفوق والتحت. أو العدم والملكة كالبصر والعمى.

فإن الوجود والعدم لا يجتمعان في شيء واحد في وقت واحد من جهة واحدة، وكذلك الحركة والسكون مثلاً. وكذلك الأبوة والبنوة. فكل ذات ثبتت لها الأبوة لذات استحالت عليها البنوة لها، بحيث يكون شخص أباً و ابناً لشخص واحد؛ كاستحالة

اجتماع السواد والبياض في نقطة بسيطة، أو الحركة والسكون في جرم، وكذلك البصر والعمى لا يجتمعان.

فخيلوا لهم أن التقدم والتمسك بالدين متباينان تباين مقابلة، بحيث يستحيل اجتماعهما؛ فكان من نتائج ذلك انحلالهم من الدين رغبة في التقدم؛ فخسروا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.

والتحقيق أن النسبة بين التقدم والتمسك بالدين بالنظر إلى العقل وحده، وقطع النظر عن نصوص الكتاب والسنة إنما هي تباين المخالفة، وضابط المتباينين تباين المخالفة أن تكون حقيقة كل منهما في حد ذاتها تباين حقيقة الآخر، ولكنهما يمكن اجتماعهما عقلاً في ذات أخرى؛ كالبياض والبرودة، والكلام والقعود، والسواد والحلاوة.

فحقيقة البياض في حد ذاتها تباين حقيقة البرودة، ولكن البياض والبرودة يمكن اجتماعهما في ذات واحدة كالثلج، وكذلك الكلام والقعود فإن حقيقة الكلام تباين حقيقة القعود، مع إمكان أن يكون الشخص الواحد قاعداً متكلماً في وقت واحد، وهكذا، فالنسبة بين التمسك بالدين والتقدم بالنظر إلى حكم العقل من هذا القبيل، فكما أن الجرم الأبيض يجوز عقلاً أن يكون بارداً كالثلج، والإنسان القاعد يجوز عقلاً أن يكون متكلماً، فكذلك المتمسك بالدين يجوز عقلاً أن يكون متقدماً؛ إذ لا مانع في حكم العقل من كون المحافظ على امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، مشتغلاً في جميع الميادين التقدمية كما لا يخفى، وكما عرفه التاريخ للنبي ﷺ وأصحابه ومن تبعهم بإحسان. أما بالنظر إلى نصوص الكتاب والسنة كقوله تعالى: ﴿وَلْيَنْصُرُوا اللَّهَ مَن يَنْصُرُهُ﴾ الآية [الحج: ٤٠]، وقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَإِمَانًا لِّعِبَادِنَا الْمُتَّسِلِينَ﴾ (١٧) ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْمُتَّصِرُونَ﴾ (١٨) ﴿وَإِن جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (١٩) [الصافات]، وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنِي أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة]، وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآية [غافر: ٥١]، وقوله: ﴿قَتَلُوهُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ بِنَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٢٠) [التوبة]، ونحو ذلك من الآيات، وما في معناها من الأحاديث.

فإن النسبة بين التمسك بالدين والتقدم، كالنسبة بين الملزوم ولازمه؛ لأن التمسك بالدين ملزوم للتقدم، بمعنى أنه يلزم عليه التقدم، كما صرحت به الآيات المذكورة. ومعلوم أن النسبة بين الملزوم ولازمه لا تعدو أحد أمرين: إما أن تكون المساواة أو الخصوص المطلق؛ لأن الملزوم لا يمكن أن يكون أعم من لازمه، وقد يجوز أن يكون مساوياً أو أخص منه، ولا يتعدى ذلك. ومثال ذلك: الإنسان مثلاً، فإنه ملزوم للبشرية والحيوانية، بمعنى أن الإنسان يلزم على كونه إنساناً أن يكون بشراً وأن يكون حيواناً، وأحد هذين اللازمين مساو له في الماصدق وهو البشر. والثاني أعم منه ماصداً وهو الحيوان، فالإنسان أخص منه خصوصاً مطلقاً كما هو معروف.

فانظر كيف خيلوا لهم أن الربط بين الملزوم ولازمه كالتناقض الذي بين النقيضين والضدين، وأطاعوهم في ذلك لسذاجتهم وجهلهم وعمي بصائرهم، فهم ما تقولوا على الدين الإسلامي ورموه بما هو منه بريء إلا لينفروا منه ضعاف العقول ممن ينتمي للإسلام ليتمكنهم الاستيلاء عليهم؛ لأنهم لو عرفوا الدين حقاً واتبعوه لفعلوا بهم ما فعل أسلافهم بأسلافهم، فالدين هو هو وصلته بالله هي هي، ولكن المنتسبين إليه في جل أقطار الدنيا تنكروا له، ونظروا إليه بعين المقت والازدراء؛ فجعلهم الله أرقاء للكفرة الفجرة؛ ولو راجعوا دينهم لرجع لهم عزهم ومجدهم، وقادوا جميع أهل الأرض، وهذا مما لا شك فيه ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَبِلُوا بِبَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: بيانه أن كل من اتبع تشريعاً غير التشريع الذي جاء به سيد ولد آدم محمد بن عبد الله - صلوات الله وسلامه عليه - فاتباعه لذلك التشريع المخالف كفر بواح، مخرج عن الملة الإسلامية، ولما قال الكفار للنبي ﷺ: الشاة تصبح ميتة من قتلها؟ فقال لهم: «الله قتلها» فقالوا له: ما ذبحتم بأيديكم حلال، وما ذبحه الله بيده الكريمة تقولون إنه حرام! فأنتم إذن أحسن من الله؟! أنزل الله فيهم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوَّلِيَّائِهِمْ لِيُجْهِدُوكُمُ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام] وحذف الفاء من قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ يدل على قسم محذوف على حد قوله في الخلاصة:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

إذ لو كانت الجملة جواباً للشرط لاقتربت بالفاء على حد قوله في الخلاصة أيضاً:

واقرن بفأ حتماً جواباً لو جعل شرطاً لأن أو غيرها لم ينجعل

فهو قسم من الله - جل وعلا - أقسم به على أن من اتبع الشيطان في تحليل الميتة أنه مشرك، وهذا الشرك مخرج عن الملة بإجماع المسلمين، وسيوبخ الله مرتكبه يوم القيامة بقوله: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَنِيَّ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٠]؛ لأن طاعته في تشريعه المخالف للوحي هي عبادته، وقال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ [النساء: ٧٧] أي ما يعبدون إلا شيطاناً، وذلك باتباعهم تشريعه. وقال: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَّاؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، فسماهم شركاء لأنهم أطاعوهم في معصية الله تعالى، وقال عن خليله: ﴿يَتَابَعَتِ لَا تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم: ٤٤]، أي بطاعته في الكفر والمعاصي، ولما سأل عدي بن حاتم النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾... الآية [التوبة: ٣١]، بين له أن معنى ذلك أنهم أطاعوهم في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم، والآيات بمثل هذا كثيرة.

والعجب ممن يحكم غير تشريع الله ثم يدعي الإسلام؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ

إِلَى الَّذِينَ يَرْغُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٠﴾ [النساء]، وقال: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. وقال: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أُتْبَغَى حُكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام].

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: هديه إلى أن الرابطة التي يجب أن يعتقد أنها هي التي تربط أفراد المجتمع، وأن ينادي بالارتباط بها دون غيرها إنما هي دين الإسلام؛ لأنه هو الذي يربط بين أفراد المجتمع حتى يصير بقوة تلك الرابطة جميع المجتمع الإسلامي كأنه جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، فربط الإسلام لك بأخيك كربط يدك بمعصمك، ورجلك بساقك، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «إن مثل المؤمنين في تراحمهم وتعاطفهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»؛ ولذلك يكثر في القرآن العظيم إطلاق النفس وإرادة الأخ تنبيهاً على أن رابطة الإسلام تجعل أخا المسلم كنفسه؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَخْرُجُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤]، أي لا تخرجون إخوانكم، وقوله: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ أَنْفُسَهُمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] أي بإخوانهم على أصح التفسيرين، وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ...﴾ [الحجرات: ١١]، أي إخوانكم على أصح التفسيرين، وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٨]، أي لا يأكل أحدكم مال أخيه، إلى غير ذلك من الآيات؛ ولذلك ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

ومن الآيات الدالة على أن الرابطة الحقيقية هي الدين، وأن تلك الرابطة تتلاشى معها جميع الروابط النسبية والعصية: قوله تعالى: ﴿لَا تَحِدْ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] إذ لا رابطة نسبية أقرب من رابطة الآباء والأبناء والإخوان والعشائر. وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠] وقوله: ﴿فَأَصْبَحَتْ نَبِيعَتُهُ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

فهذه الآيات وأمثالها تدل على أن النداء برابطة أخرى غير الإسلام كالعصية المعروفة بالقومية لا يجوز، ولا شك أنه ممنوع بإجماع المسلمين.

ومن أصرح الأدلة في ذلك ما رواه البخاري في صحيحه قال: باب قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون] حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان قال: حفظناه من عمرو بن دينار قال: سمعت جابر بن عبد الله ﷺ يقول: كنا في غزاة فكسع رجل

من المهاجرين رجلاً من الأنصار؛ فقال الأنصاري: يا للأنصار!! وقال المهاجري: يا للمهاجرين!! فسمَّعها الله رسوله، قال: «ما هذا؟ فقالوا: كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال النبي ﷺ: «دعوها فإنها منتنة...» الحديث. فقول هذا الأنصاري: يا للأنصار، وهذا المهاجري: يا للمهاجرين هو النداء بالقومية العصبية بعينه، وقول النبي ﷺ: «دعوها فإنها منتنة» يقتضى وجوب ترك النداء بها؛ لأن قوله: «دعوها» أمر صريح بتركها، والأمر المطلق يقتضى الوجوب على التحقيق كما تقرر في الأصول؛ لأن الله يقول: ﴿الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، ويقول لإبليس: ﴿مَا مَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] فدل على أن مخالفة الأمر معصية. وقال تعالى عن نبيه موسى في خطابه لأخيه: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٣] فأطلق اسم المعصية على مخالفة الأمر، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] فدلَّت الآية على أن أمر الرسول ﷺ مانع من الاختيار، موجب للامتثال؛ لا سيما وقد أكد النبي ﷺ هذا الأمر بالترك بقوله: «فإنها منتنة» وحسبك بالتن موجباً للتباعد لدلالته على الخبث البالغ.

فدل هذا الحديث الصحيح على أن النداء برابطة القومية مخالف لما أمر به النبي ﷺ، وأن فاعله يتعاطى المتنن، ولا شك أن المتنن خبيث، والله تعالى يقول: ﴿الْقَيْنُتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ [النور: ٢٦]، ويقول: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وحديث جابر هذا الذي قدمناه عن البخاري أخرجه أيضاً مسلم في صحيحه، قال ﷺ: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة؛ وزهير بن حرب، وأحمد بن عبدة الضبي، وابن أبي عمر، واللفظ لابن أبي شيبة، قال ابن عبدة: أخبرنا، وقال الآخرون: حدثنا سفيان بن عيينة قال: سمع عمرو جابر بن عبد الله يقول: كنا مع النبي ﷺ في غزاة، فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار!! وقال المهاجري: يا للمهاجرين!! فقال رسول الله ﷺ: «ما بال دعوى الجاهلية!» قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال: «دعوها فإنها منتنة» الحديث.

وقد عرفت وجه دلالة هذا الحديث على التحريم، مع أن في بعض رواياته الثابتة في الصحيح، التصريح بأن دعوى الرجل: «يا لبني فلان» من دعوى الجاهلية، وإذا صح بذلك أنها من دعوى الجاهلية فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية». وفي رواية في الصحيح: «ليس منا من ضرب الخدود، أو شق الجيوب، أو دعا بدعوى الجاهلية»، وذلك صريح في أن من دعا تلك الدعوى ليس منا، وهو دليل واضح على التحريم الشديد. ومما يدل على ذلك قوله ﷺ: «من تعزى عليكم بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا» هذا حديث صحيح، أخرجه الإمام أحمد من طرق متعددة عن عتي بن ضمرة السعدي، عن أبي بن

كعب رضي الله عنه، وذكره صاحب الجامع الصغير بلفظ: «إذا سمعتم من يتعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه ولا تكنوا» وأشار إلى أنه أخرجه أحمد في المسند، والنسائي، وابن حبان، والطبراني في الكبير، والضياء المقدسي عن أبي رضي الله عنه، وجعل عليه علامة الصحة. وذكره أيضاً صاحب الجامع الصغير بلفظ: «إذا رأيتم الرجل يتعزى... إلخ»، وأشار إلى أنه أخرجه الإمام أحمد في المسند والترمذي، وجعل عليه علامة الصحة. وقال شارحه المناوي: ورواه عنه أيضاً الطبراني، قال الهيثمي: ورجاله ثقات، وقال شارحه العريزي: هو حديث صحيح. وقال فيه الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني في كتابه (كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس) قال النجم: رواه أحمد والنسائي وابن حبان عن أبي بن كعب رضي الله عنه. ومراده بالنجم: الشيخ محمد نجم الدين الغزي في كتابه المسمى (إتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن) فانظر كيف سَمَّى النبي ﷺ ذلك النداء «عزاء الجاهلية» وأمر أن يقال للداعي به «اعضض على هن أبيك» أي فرجه، وأن يصرح له بذلك ولا يعبر عنه بالكناية، فهذا يدل على شدة قبح هذا النداء، وشدة بغض النبي ﷺ له.

واعلم أن رؤساء الدعاة إلى نحو هذه القومية العربية: أبو جهل، وأبو لهب، والوليد بن المغيرة، ونظراؤهم من رؤساء الكفرة.

وقد بين تعالى تعصبهم لقوميتهم في آيات كثيرة، كقوله: ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾... الآية [المائدة: ١٠٤]، وقوله: ﴿قَالُوا بَلْ نَشْتَعُ مَا أَفْتَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾... الآية [البقرة: ١٧٠]، وأمثال ذلك من الآيات.

واعلم أنه لا خلاف بين العلماء - كما ذكرنا آنفاً - في منع النداء برابطة غير الإسلام؛ كالقوميات والعصبيات النسبية، ولا سيما إذا كان النداء بالقومية يقصد من ورائه القضاء على رابطة الإسلام وإزالتها بالكلية؛ فإن النداء بها حينئذ معناه الحقيقي أنه نداء إلى التخلي عن دين الإسلام، ورفض الرابطة السماوية رفضاً باتاً، على أن يعتاض من ذلك روابط عصبية قومية، مدارها على أن هذا من العرب، وهذا منهم أيضاً مثلاً؛ فالعروبة لا يمكن أن تكون خلفاً من الإسلام، واستبدالها به صفقة خاسرة؛ فهي كما قال الراجز:

بَدَلْتُ بِالْجُمَّةِ رَأْسًا أَزْعَرًا وبالثنايا الواضحات الدردرا

كما اشترى المسلم إذ تنصَّرا

وقد علم في التاريخ حال العرب قبل الإسلام وحالهم بعده كما لا يخفى.

وقد بين الله - جل وعلا - في محكم كتابه أن الحكمة في جعله بني آدم شعوباً وقبائل هي التعارف فيما بينهم. وليست هي أن يتعصب كل شعب على غيره، وكل قبيلة على غيرها؛ قال - جل وعلا -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَى﴾ [الحجرات: ١٣] فاللام في قوله: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾

لام التعليل، والأصل لتتعارفوا، وقد حذفت إحدى التاءين، فالتعارف هو العلة المشتملة على الحكمة لقوله: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾.

ونحن حين نصرح بمنع النداء بالروابط العصبية والأواصر النسبية، ونقيم الأدلة على منع ذلك، لا ننكر أن المسلم ربما انتفع بروابط نسبية لا تمت إلى الإسلام بصلة؛ كما نفع الله نبيه ﷺ بعمه أبي طالب. وقد بين الله - جل وعلا - أن عطف ذلك العم الكافر على نبيه ﷺ من منن الله عليه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَكَأْوَىٰ ۖ﴾ [الضحى] أي أواك بأن ضمك إلى عمك أبي طالب.

ومن آثار هذه العصبية النسبية قول أبي طالب فيه ﷺ:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

كما قدمنا في سورة هود.

وقد نفع الله بتلك العصبية النسبية شعبياً - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - كما قال تعالى عن قومه: ﴿قَالُوا يَسْعَيْتُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِتْنًا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ [هود: ٩١].

وقد نفع الله بها نبيه صالحاً أيضاً - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - كما أشار تعالى لذلك بقوله: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ [النمل] فقد دلت الآية على أنهم يخافون من أولياء صالح؛ ولذلك لم يفكروا أن يفعلوا به سوءاً إلا ليلاً خفية. وقد عزموا أنهم إن فعلوا به ذلك أنكروا وحلفوا لأوليائه أنهم ما حضروا ما وقع بصالح خوفاً منهم، ولما كان لوط - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - لا عصبة له في قومه ظهر فيه أثر ذلك حتى قال: ﴿قَالَ لَوْ أَنِّي لِيكُمْ قُوَّةٌ أَوْ ءَاوَيْتُ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود] وقد قدمنا هذا مستوفى في «سورة هود».

فيلزم الناظر في هذه المسألة أن يفرق بين الأمرين، ويعلم أن النداء بروابط القوميات لا يجوز على كل حال، ولا سيما إذا كان القصد بذلك القضاء على رابطة الإسلام، وإزالتها بالكلية بدعوى أنه لا يساير التطور الجديد، أو أنه جمود وتأخر عن مساهمة ركب الحضارة، نعوذ بالله من طمس البصيرة. وأن منع النداء بروابط القوميات لا ينافي أنه ربما انتفع المسلم بنصرة قريبه الكافر بسبب العواطف النسبية والأواصر العصبية التي لا تمت إلى الإسلام بصلة، كما وقع من أبي طالب للنبي ﷺ، وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» ولكن تلك القربابات النسبية لا يجوز أن تجعل هي الرابطة بين المجتمع؛ لأنها تشمل المسلم والكافر، ومعلوم أن المسلم عدو الكافر، كما قال تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ... الآية [المجادلة: ٢٢]، كما تقدم.

والحاصل أن الرابطة الحقيقية التي تجمع المفترق وتؤلف المختلف هي رابطة «لا

إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ألا ترى أن هذه الرابطة التي تجعل المجتمع الإسلامي كله كأنه جسد واحد، وتجعله كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً، عظفت قلوب حملة العرش ومن حوله من الملائكة على بني آدم في الأرض مع ما بينهم من الاختلاف، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَمْجُلُونَ الْأَرْضَ وَمَنْ حَوْلَهُمْ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّخَّاتِ وَمَنْ تَقِ السَّخَّاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [غافر]. فقد أشار تعالى إلى أن الرابطة التي ربطت بين حملة العرش ومن حوله، وبين بني آدم في الأرض حتى دعوا الله لهم هذا الدعاء الصالح العظيم، إنما هي الإيمان بالله - جل وعلا - لأنه قال عن الملائكة: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ فوصفهم بالإيمان. وقال عن بني آدم في استغفار الملائكة لهم: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧] فوصفهم أيضاً بالإيمان، فدل ذلك على أن الرابطة بينهم هي الإيمان وهو أعظم رابطة.

ومما يوضح لك أن الرابطة الحقيقية هي دين الإسلام قوله تعالى في أبي لهب عمّ النبي ﷺ: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾﴾ [المسد] ويقابل ذلك بما لسلمان الفارسي من الفضل والمكانة عند النبي ﷺ والمسلمين، وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال فيه: «سلمان منا أهل البيت» رواه الطبراني والحاكم في المستدرک، وجعل عليه صاحب الجامع الصغير علامة الصحة. وضعفه الحافظ الذهبي. وقال الهيثمي: فيه عند الطبراني كثير بن عبد الله المزني ضعفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات، وقد أجاد من قال:

لقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب

وقد أجمع العلماء على أن الرجل إن مات وليس له من القرباء إلا ابن كافر، أن إرثه يكون للمسلمين بإخوة الإسلام، ولا يكون لولده لصلبه الذي هو كافر، والميراث دليل القرابة، فدل ذلك على أن الأخوة الدينية أقرب من البنوة النسبية.

وبالجملة، فلا خلاف بين المسلمين أن الرابطة التي تربط أفراد أهل الأرض بعضهم ببعض، وتربط بين أهل الأرض والسماء، هي رابطة «لا إله إلا الله»، فلا يجوز البتة النداء برابطة غيرها. ومن وإلى الكفار بالروابط النسبية محبة لهم، ورغبة فيهم يدخل في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهمْ يَتَوَلَّهمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ فَيَنسَادُ كَيْدُكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٣] والعلم عند الله تعالى.

وبالجملة: فالمصالح التي عليها مدار الشرائع ثلاثة:

الأولى: درء المفاسد المعروف عند أهل الأصول بالضروريات.

والثانية: جلب المصالح، المعروف عند أهل الأصول بالحاجيات.

والثالثة: الجري على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، المعروف عند أهل

الأصول بالتحسينات والتتيمات. وكل هذه المصالح الثلاث هدى فيها القرآن العظيم للطريق التي هي أقوم الطرق وأعدلها.

فالضروريات التي هي درء المفساد، إنما هي درؤها عن ستة أشياء:

الأول: الدين، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليه بأقوم الطرق وأعدلها، كما قال تعالى: ﴿وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وفي آية الأنفال: ﴿وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿تَقَتِّلُوهُمْ أَوْ يُسْلَمُوا﴾ [الفتح: ١٦]، وقال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله» الحديث، وقال ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»، إلى غير ذلك من الأدلة على المحافظة على الدين.

والثاني: النفس، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليها بأقوم الطرق وأعدلها؛ ولذلك أوجب القصاص درءاً للمفسدة عن النفس، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾... الآية [البقرة: ١٧٨]، وقال: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِرِوَالِهِ سُلْطَانًا﴾.

الثالث: العقل، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليه بأقوم الطرق وأعدلها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَذْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أُنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩١]. وقال ﷺ: «كل مسكر حرام»، وقال: «ما أسكر كثيره فقليله حرام» كما قدمنا ذلك مستوفى «في سورة النحل» وللمحافظة على العقل أوجب ﷺ حد الشارب درءاً للمفسدة عن العقل.

الرابع: النسب، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليه بأقوم الطرق وأعدلها؛ ولذلك حرم الزنى وأوجب فيه الحد الرادع، وأوجب العدة على النساء عند المفارقة بطلاق أو موت؛ لئلا يختلط ماء رجل بماء رجل آخر في رحم امرأة محافظة على الأنساب؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّكُمْ كَانُمْ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٣٧)، ونحو ذلك من الآيات، وقال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ الآية [النور: ٢]. وقد قدمنا آية الرجم والأدلة الدالة على أنها منسوخة التلاوة باقية الحكم. وقال تعالى في إيجاب العدة حفظاً للأنساب: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْجِعْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ الآية [البقرة: ٢٢٨]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] وإن كانت عدة الوفاة فيها شبه تعبد لوجوبها مع عدم الخلوة بين الزوجين.

ولأجل المحافظة على النسب منع سقي زرع الرجل بماء غيره، فمنع نكاح الحامل حتى تضع، قال تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

الخامس: العرض، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليه بأقوم الطرق وأعدلها، فنهى المسلم عن أن يتكلم في أخيه بما يؤذيه، وأوجب عليه إن رماه بفرية حد القذف ثمانين جلدة؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَتَّبِعْ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]. وقبح - جل وعلا - غيبة

المسلم غاية التقبيح، بقوله: ﴿يَحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]، وقال في إيجاب حد القاذف: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِإِثْبَاتٍ شُهُدَاً فَالْجِدْوَةُ لِمَنْنَيْنِ جَلَدًا وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [النور: ٤ - ٥].

السادس: المال، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليه بأقوم الطرق وأعدلها؛ ولذلك منع أخذه بغير حق شرعي، وأوجب على السارق حد السرقة وهو قطع اليد كما تقدم؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْمُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٧﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨٨﴾﴾ [المائدة]. وكل ذلك محافظة على المال ودرء للمفسدة عنه.

المصلحة الثانية: جلب المصالح، وقد جاء القرآن بجلب المصالح بأقوم الطرق وأعدلها، ففتح الأبواب لجلب المصالح في جميع الميادين، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وقال: ﴿وَأَخْرَجُوا يَصْرِيخُونَ فِي الْأَرْضِ يَقُولُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الزمل: ٢٠]، وقال: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

ولأجل هذا جاء الشرع الكريم بإباحة المصالح المتبادلة بين أفراد المجتمع على الوجه المشروع؛ ليستجلب كل مصلحة من الآخر، كالبيع والإيجارات والأكرية والمساقاة والمضاربة، وما جرى مجرى ذلك.

المصلحة الثالثة: الجري على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، وقد جاء القرآن بذلك بأقوم الطرق وأعدلها. والحض على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات كثير جداً في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؛ ولذلك لما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن»؛ لأن القرآن يشتمل على جميع مكارم الأخلاق؛ لأن الله تعالى يقول في نبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [القلم].

فدل مجموع الآية وحديث عائشة على أن المتصف بما في القرآن من مكارم الأخلاق: أنه يكون على خلق عظيم؛ وذلك لعظم ما في القرآن من مكارم الأخلاق، وسنذكر لك بعضاً من ذلك تنبيهاً به على غيره.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. فانظر ما في هذه الآية من الحض على مكارم الأخلاق من الأمر بالعفو والنهي عن نسيان الفضل. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

أَنْ تَعْبُدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]. فانظر ما في هذه الآيات من مكارم الأخلاق، والأمر بأن تعامل من عصى الله فيك بأن تطيعه فيه. وقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦] فانظر إلى هذا من مكارم الأخلاق، والأمر بالإحسان إلى المحتاجين والضعفاء، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرٍ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩١]، وقال تعالى: ﴿يَبْقَىٰ مَا دَمَ خُدُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْنِيَنَّ الْجَهْلِينَ﴾ [القصص: ٥٥] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ما يدعو إليه القرآن من مكارم الأخلاق، ومحاسن العادات.

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: هديه إلى حل المشاكل العالمية بأقوم الطرق وأعدلها، ونحن دائماً في المناسبات نبين هدي القرآن العظيم إلى حل ثلاث مشكلات، هُنَّ من أعظم ما يعانى العالم في جميع المعمورة ممن ينتمي إلى الإسلام، تنبهاً بها على غيرها:

المشكلة الأولى: هي ضعف المسلمين في أقطار الدنيا في العدد والعدد عن مقاومة الكفار، وقد هدى القرآن العظيم إلى حل هذه المشكلة بأقوم الطرق وأعدلها؛ فبين أن علاج الضعف عن مقاومة الكفار إنما هو بصدق التوجه إلى الله تعالى، وقوة الإيمان به والتوكل عليه؛ لأن الله قوي عزيز، قاهر لكل شيء؛ فمن كان من حزبه على الحقيقة لا يمكن أن يغلبه الكفار ولو بلغوا من القوة ما بلغوا.

فمن الأدلة المبينة لذلك أن الكفار لما ضربوا على المسلمين ذلك الحصار العسكري العظيم في غزوة الأحزاب المذكور في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ [١١] هُنَاكَ أَتَى الْمُؤْمِنُونَ وَزَلُّوا زَلًّا شَدِيدًا [١٢] [الأحزاب] - كان علاج ذلك هو ما ذكرنا؛ فانظر شدة هذا الحصار العسكري وقوة أثره في المسلمين، مع أن جميع أهل الأرض في ذلك الوقت قاطعوهم سياسة واقتصاداً. فإذا عرفت ذلك فاعلم أن العلاج الذي قابلوا به هذا الأمر العظيم، وحلوا به هذه المشكلة العظمى، هو ما بينته - جل وعلا - (في سورة الأحزاب) بقوله: ﴿وَلَمَّا رَمَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [١٣] [الأحزاب].

فهذا الإيمان الكامل، وهذا التسليم العظيم لله - جل وعلا - ثقة به، وتوكلًا

عليه، هو سبب حل هذه المشكلة العظمى. وقد صرح الله تعالى بنتيجة هذا العلاج بقوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝١٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝١٦ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝١٧﴾ [الأحزاب].

وهذا الذي نصرهم الله به على عدوهم ما كانوا يظنونونه، ولا يحسبون أنهم يُنصرون به وهو الملائكة والريح، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَ تَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩] ولما علم - جل وعلا - من أهل بيعة الرضوان الإخلاص الكامل، ونوّه عن إخلاصهم بالاسم المبهم الذي هو الموصول في قوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١٨]؛ أي من الإيمان والإخلاص كان من نتائج ذلك ما ذكره الله - جل وعلا - في قوله: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝١٦﴾ [الفتح] فصرح - جل وعلا - في هذه الآية بأنهم لم يقدرُوا عليها، وأن الله - جل وعلا - أحاط بها فأقدرهم عليها، وذلك من نتائج قوة إيمانهم وشدة إخلاصهم.

فدلّت الآية على أن الإخلاص لله وقوة الإيمان به، هو السبب لقدرة الضعيف على القوي وغلبته له ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ [الفتح: ٢١] فعل في سياق النفي، والفعل في سياق النفي من صيغ العموم على التحقيق، كما تقرر في الأصول. ووجه ظاهر؛ لأن الفعل الصناعي «أعني الذي يسمى في الاصطلاح فعل الأمر أو الفعل الماضي أو الفعل المضارع» ينحل عند النحويين، وبعض البلاغيين عن مصدر وزمن، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

المصدر اسم ما سوى الزمان من مدلولي الفعل كأمن من أمن

وعند جماعة من البلاغيين ينحل عن مصدر وزمن ونسبة، وهذا هو الظاهر كما حرره بعض البلاغيين، في بحث الاستعارة التبعية.

فالمصدر إذن كامن في مفهوم الفعل إجماعاً فيتسلط النفي الداخل على الفعل على المصدر الكامن في مفهومه، وهو في المعنى نكرة؛ إذ ليس له سبب يجعله معرفة، فيؤول إلى معنى النكرة في سياق النفي. وهي من صيغ العموم.

فقوله: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ في معنى لا قدرة لكم عليها، وهذا يعم سلب جميع أنواع القدرة؛ لأن النكرة في سياق النفي تدل على عموم السلب وشموله لجميع الأفراد الداخلة تحت العنوان، كما هو معروف في محله.

وبهذا تعلم أن جميع أنواع القدرة عليها مسلوب عنهم، ولكن الله - جل وعلا -

أحاط بها فأقدرهم عليها؛ لما علم من الإيمان والإخلاص في قلوبهم ﴿وَلَنْ جُنْدًا لَهُمْ
الْقَلِيلُونَ﴾ [الصافات].

المشكلة الثانية: هي تسليط الكفار على المؤمنين بالقتل والجراح وأنواع الإيذاء،
مع أن المسلمين على الحق، والكفار على الباطل.

وهذه المشكلة استشكلها أصحاب النبي ﷺ، فأفتى الله - جل وعلا - فيها، وبين
السبب في ذلك بفتوى سماوية تتلى في كتابه - جل وعلا -.

وذلك أنه لما وقع ما وقع بالمسلمين يوم أحد فقتل عم رسول الله ﷺ وابن
عمته، ومثل بهما، وقتل غيرهما من المهاجرين، وقتل سبعون رجلاً من الأنصار،
وجرح ﷺ، وشقت شفته، وكسرت رباطه، وشج ﷺ.

استشكل المسلمون ذلك وقالوا: كيف يدال منا المشركون؟ ونحن على الحق
وهم على الباطل؟! فأنزل الله قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مِصْبِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْ لَمْ
أَنْ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. فقلوه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ
أَنْفُسِكُمْ﴾ فيه إجمال بينه تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ
حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْبَبَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ
مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ إلى قوله: ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

ففي هذه الفتوى السماوية بيان واضح؛ لأن سبب تسليط الكفار على المسلمين
هو فشل المسلمين، وتنازعهم في الأمر، وعصيانهم أمره ﷺ، وإرادة بعضهم الدنيا
مقدماً لها على أمر الرسول ﷺ. وقد أوضحنا هذا في سورة «آل عمران». ومن عرف
أصل الداء عرف الدواء؛ كما لا يخفى.

المشكلة الثالثة: هي اختلاف القلوب الذي هو أعظم الأسباب في القضاء على
كيان الأمة الإسلامية؛ لاستلزامه الفشل، وذهاب القوة والدولة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا
تَنْزِعُوا فَأَنْفُسُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقد أوضحنا معنى هذه الآية في سورة «الأنفال».

فترى المجتمع الإسلامي اليوم في أقطار الدنيا يضمحل بعضهم لبعض العداوة
والبغضاء، وإن جامل بعضهم بعضاً فإنه لا يخفى على أحد أنها مجاملة، وأن ما تنطوي
عليه الضمائر مخالف لذلك.

وقد بين تعالى في سورة «الحشر» أن سبب هذا الداء الذي عمت به البلوى إنما
هو ضعف العقل، قال تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤] ثم ذكر العلة
لكون قلوبهم شتى بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤]. ولا شك أن داء
ضعف العقل الذي يصيبه فيضعفه عن إدراك الحقائق، وتمييز الحق من الباطل، والنافع
من الضار، والحسن من القبيح، لا دواء له إلا إنارته بنور الوحي؛ لأن نور الوحي يحيا

به من كان ميتاً ويضيء الطريق للمتمسك به؛ فيريه الحق حقاً، والباطل باطلاً، والنافع نافعاً، والضرار ضاراً قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَثِّقَ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] ومن أخرج من الظلمات إلى النور أبصر الحق؛ لأن ذلك النور يكشف له عن الحقائق فيريه الحق حقاً، والباطل باطلاً، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ [١٨] وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ١٧]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْنَىٰ وَالْأَصْنَىٰ وَالصَّمِيعِ وَالصَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الإيمان يكسب الإنسان حياة بدلاً من الموت الذي كان فيه، ونوراً بدلاً من الظلمات التي كان فيها.

وهذا النور عظيم يكشف الحقائق كشفاً عظيماً؛ كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥] إلى قوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥] - ولما كان تتبع جميع ما تدل عليه هذه الآية الكريمة من هدي القرآن للتي هي أقوم، يقتضى تتبع جميع القرآن وجميع السنة؛ لأن العمل بالسنة من هدي القرآن للتي هي أقوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] وكان تتبع جميع ذلك غير ممكن في هذا الكتاب المبارك، اقتصرنا على هذه الجمل التي ذكرنا من هدي القرآن للتي هي أقوم تنبيهاً بها على غيرها، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [١١].

في هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير للعلماء، وأحدهما يشهد له قرآن. وهو أن معنى الآية ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ﴾ كأن يدعو على نفسه أو ولده بالهلاك عند الضجر من أمر، فيقول: اللهم أهلكني، أو أهلك ولدي؛ فيدعو بالشر دعاء لا يجب أن يستجاب له، وقوله: ﴿دُعَاءُهُ بِالْخَيْرِ﴾ أي يدعو بالشر كما يدعو بالخير فيقول عند الضجر: اللهم أهلك ولدي. كما يقول في غير وقت الضجر: اللهم عافه، ونحو ذلك من الدعاء.

ولو استجاب الله دعاءه بالشر لهلك، ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعِجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ [يونس: ١١]؛ أي لو عجل لهم الإجابة بالشر كما يعجل لهم الإجابة بالخير لفضى إليهم أجلهم أي لهلكوا وماتوا؛ فالاستعجال بمعنى التعجيل.

ويدخل في دعاء الإنسان بالشر قول النضر بن الحارث العبدري: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَتَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

فكما أن الليل والنهار آيتان من آياته - جل وعلا - فهما أيضاً نعمتان من نعمه - جل وعلا - .
وبين هذا المعنى المشار إليه هنا في مواضع أخرى، كقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُونُ فِيهِ أَمْ لَا تَحْصُرُونَ﴾ (٧٢) [الفصل]. فقوله: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾؛ أي في الليل، وقوله: ﴿وَلِتَسْتَبْغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي في النهار.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ (١) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (٢) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (٣) [النبا]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ (٤٧) [الفرقان] وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآيَاتُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الروم: ٢٣]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، إلى غير ذلك من الآيات.
وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالْحِسَابَ﴾ بين فيه نعمة أخرى على خلقه، وهي معرفتهم عدد السنين والحساب؛ لأنهم باختلاف الليل والنهار يعلمون عدد الأيام والشهور والأعوام، ويعرفون بذلك يوم الجمعة ليصلوا فيه صلاة الجمعة، ويعرفون شهر الصوم، وأشهر الحج، ويعلمون مضي أشهر العدة لمن تعتد بالأشهر المشار إليها في قوله: ﴿وَالَّتِي يَسْنَ مِنَ الْمَجِيزِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعَذَّبْنَاهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ﴾ [الطلاق: ٤]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]. ويعرفون مضي الآجال المضروبة للذيون والإجارات، ونحو ذلك.

وبين - جل وعلا - هذه الحكمة في مواضع أخرى؛ كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٥) [يونس]؛ وقوله - جل وعلا - ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، إلى غير ذلك من الآيات.
وقوله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: ﴿فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ فيه وجهان من التفسير للعلماء:

أحدهما: أن الكلام على حذف مضاف، والتقدير: وجعلنا نيري الليل والنهار، أي الشمس والقمر آيتين:

وعلى هذا القول فآية الليل هي القمر، وآية النهار هي الشمس. والمحو الطمس، وعلى هذا القول فمحو آية الليل، قيل معناه السواد الذي في القمر؛ وبهذا قال علي عليه السلام، ومجاهد، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: معنى: ﴿فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾؛ أي لم نجعل في القمر شعاعاً كشعاع الشمس ترى به الأشياء رؤية بيضاء. فنقص نور القمر عن نور الشمس هو معنى الطمس على هذا القول.

وهذا أظهر عندي لمقابلته تعالى له بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، والقول بأن معنى محو آية الليل السواد الذي في القمر ليس بظاهر عندي وإن قال به بعض الصحابة الكرام، وبعض أجلاء أهل العلم!

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ﴾... الآية على التفسير المذكور أي الشمس ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي ذات شعاع يبصر في ضوئها كل شيء على حقيقته.
قال الكسائي: هو من قول العرب: أبصر النهار: إذ أضاء وصار بحالة يبصر بها نقله عنه القرطبي.

قال مقيده - عفا الله عنه -: هذا التفسير من قبل قولهم: نهاره صائم، وليله قائم؛ ومنه قوله:

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ونمت وما ليل المحب بنائم
وغاية ما في الوجه المذكور من التفسير: حذف مضاف، وهو كثير في القرآن وفي كلام العرب إن دلت عليه قرينة؛ قال في الخلاصة:

وما يلي المضاف يأتي خلفاً عنه في الإعراب إذا ما حذف
والقرينة في الآية الكريمة الدالة على المضاف المحذوف قوله: ﴿فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ فإضافة الآية إلى الليل والنهار دليل على أن الآيتين المذكورتين لهما لا هما أنفسهما، وحذف المضاف كثير في القرآن؛ كقوله: ﴿وَسَلَّى الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]، وقوله: ﴿حَرِّمْتُ عَلَيْكُمْ أَنْهَكَكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] أي نكاحها، وقوله: ﴿حَرِّمْتُ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةَ﴾ [المائدة: ٣] أي أكلها، ونحو ذلك.

وعلى القول بتقدير المضاف، وأن المراد بالآيتين الشمس والقمر، فالآيات الموضحة لكون الشمس والقمر آيتين تقدمت موضحة في سورة النحل.
الوجه الثاني من التفسير: أن الآية الكريمة ليس فيها مضاف محذوف، وأن المراد بالآيتين نفس الليل والنهار، لا الشمس والقمر.

وعلى هذا القول فإضافة الآية إلى الليل والنهار من إضافة الشيء إلى نفسه مع اختلاف اللفظ، تنزيلاً لاختلاف اللفظ منزلة الاختلاف في المعنى، وإضافة الشيء إلى نفسه مع اختلاف اللفظ كثيرة في القرآن وفي كلام العرب، فمنه في القرآن قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ورمضان هو نفس الشهر بعينه على التحقيق، وقوله: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ [النحل: ٣٠]، والدار هي الآخرة بعينها؛ بدليل قوله في موضع آخر: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ [النحل: ٣٠] بالتعريف، والآخرة نعت للدار؛ وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ جَلِّ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] والحبل هو الوريد، وقوله: ﴿وَمَكَّرَ السَّيِّءُ﴾... الآية [فاطر: ٤٣]، والمكر هو السيئ بدليل قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

ومن أمثلته في كلام العرب قول امرئ القيس:

كبكر المقناة البيضاء بصفرة غذاها نمير الماء غير المحلل

لأن المقناة هي البكر بعينها، وقول عترة في معلقته:

ومشك سابغة هتكت فروجها بالسيف عن حامي الحقيقة معلم

لأن مراده بالمشك: السابغة بعينها؛ بدليل قوله: هتكت فروجها؛ لأن الضمير

عائد إلى السابغة التي عبر عنها بالمشك.

وقد أوضحنا هذه المسألة في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في

سورة فاطر، وبيننا أن الذي يظهر لنا أن إضافة الشيء إلى نفسه مع اختلاف لفظ

المضاف والمضاف إليه أسلوب من أساليب اللغة العربية؛ لأن تغاير اللفظين ربما نزل

منزلة التغاير المعنوي؛ لكثرة الإضافة المذكورة في القرآن وفي كلام العرب، وجزم

بذلك ابن جرير في بعض مواضعه في القرآن، وعليه فلا حاجة إلى التأويل المشار إليه

بقوله في الخلاصة:

ولا يضاف اسم لما به اتحد معنى وأول موهما إذا ورد

ومما يدل على ضعف التأويل المذكور قوله:

وإن يكونا مفردين فأضف حتماً وإلا أتبع الذي ردف

لأن إيجاب إضافة العلم إلى اللقب مع اتحادهما في المعنى - إن كانا مفردين -

المستلزم للتأويل، ومنع الاتباع الذي لا يحتاج إلى تأويل، دليل على أن ذلك من

أساليب اللغة العربية، ولو لم يكن من أساليبها لوجب تقديم ما لا يحتاج إلى تأويل

على المحتاج إلى تأويل كما ترى، وعلى هذا الوجه من التفسير، فالمعنى فمحونا الآية

التي هي الليل، وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة؛ أي جعلنا الليل ممحوا الضوء

مطموسه، مظلماً لا تستبان فيه الأشياء كما لا يستبان ما في اللوح المححو، وجعلنا

النهار مبصراً؛ أي تبصر فيه الأشياء وتستبان.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلَّنَهُ تَفْصِيلاً﴾ تقدم إيضاحه، والآيات

الدالة عليه في سورة «النحل» في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا

لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلِيمٌ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ

مَنْشُورًا﴾ [١٣] أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾.

في قوله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلِيمٌ﴾ وجهان

معروفان من التفسير:

الأول: أن المراد بالطائر: العمل، من قولهم: طار له سهم إذا خرج له؛ أي

ألزمناه ما طار له من عمله.

الثاني: أن المراد بالطائر ما سبق له في علم الله من شقاوة أو سعادة، والقولان متلازمان؛ لأن ما يطير له من العمل هو سبب ما يؤول إليه من الشقاوة أو السعادة.

فإذا عرفت الوجهين المذكورين فاعلم - أنا قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية قد يكون فيها للعلماء قولان أو أقوال، وكلها حق، ويشهد له قرآن - فنذكر جميع الأقوال وأدلتها من القرآن؛ لأنها كلها حق، والوجهان المذكوران في تفسير هذه الآية الكريمة كلاهما يشهد له قرآن.

أما على القول الأول بأن المراد بطائره عمله، فالآيات الدالة على أن عمل الإنسان لازم له كثيرة جداً؛ كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، وقوله: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق]، وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، وقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [٧] وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة]، والآيات بمثل هذا كثيرة جداً.

وأما على القول بأن المراد بطائره نصيبه الذي طار له في الأزل من الشقاوة أو السعادة، فالآيات الدالة على ذلك أيضاً كثيرة، كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِّمُكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وقوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٩] أي للاختلاف إلى شقي وسعيد خلقهم، وقوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وقوله: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فِي عُنُقِهِ﴾ أي جعلنا عمله، أو ما سبق له من شقاوة في عنقه؛ أي لازماً له لزوم القلادة أو الغل لا ينفك عنه؛ ومنه قول العرب: تقلدها طوق الحمامة، وقولهم: الموت في الرقاب. وهذا الأمر رقيقة في رقبتة، ومنه قول الشاعر:

أذهب بها أذهب بها طوقتها طوق الحمامة

فالمعنى في ذلك كله: اللزوم وعدم الانفكاك.

وقوله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: ﴿وَنُخْرِجُ لَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن ذلك العمل الذي ألزم الإنسان إياه يخرج له يوم القيامة مكتوباً في كتاب يلقاه منشوراً، أي مفتوحاً يقرؤه هو وغيره.

وبين أشياء من صفات هذا الكتاب الذي يلقاه منشوراً في آيات أخر، فبين أن من صفاته أن المجرمين مشفقون؛ أي خائفون مما فيه، وأنه لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وأنهم يجدون فيه جميع ما عملوا حاضراً ليس منه شيء غائباً، وأن الله - جل وعلا - لا يظلمهم في الجزاء عليه شيئاً؛ وذلك في قوله - جل وعلا -: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَيْلَنَا مَا هَذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف].

ويكثر إتيان التمييز بعد فاعلها المجرور بالباء. وزعم بعض علماء العربية أن جر فاعلها بالباء لازم، والحق أنه يجوز عدم جره بها، ومنه قول الشاعر:

عميرة ودع إن تجهزت غادياً كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً

وقول الآخر:

ويخبرني عن غائب المرء هديه كفى الهدى عما غيب المرء مخبراً

وعلى قراءة من قرأ (يُلْقَاهُ) بضم الياء وتشديد القاف مبنياً للمفعول، فالمعنى أن الله يلقيه ذلك الكتاب يوم القيامة؛ فحذف الفاعل فبني الفعل للمفعول.

وقراءة من قرأ: (يُخْرِجُ) - بفتح الياء وضم الراء - مضارع خرج مبنياً للفاعل، فالفاعل ضمير يعود إلى الطائر بمعنى العمل وقوله: ﴿كَتَبْنَا﴾ حال من ضمير الفاعل؛ أي ويوم القيامة يخرج هو أي العمل المعبر عنه بالطائر في حال كونه كتاباً يلقاه منشوراً، وكذلك على قراءة (يُخْرِجُ) - بضم الياء وفتح الراء - مبنياً للمفعول، فالضمير النائب عن الفاعل راجع أيضاً إلى الطائر الذي هو العمل؛ أي يخرج له هو أي طائره بمعنى عمله، في حال كونه كتاباً.

وعلى قراءة «يُخْرِجُ» - بضم الياء وكسر الراء - مبنياً للفاعل، فالفاعل ضمير يعود إلى الله تعالى، وقوله: ﴿كَتَبْنَا﴾ مفعول به؛ أي ويوم القيامة يخرج هو أي الله له كتاباً يلقاه منشوراً.

وعلى قراءة الجمهور منهم السبعة، فالنون في (نُخْرِجُ) نون العظمة لمطابقة قوله: ﴿أَلَزَمْتَهُ﴾ و﴿كَتَبْنَا﴾ مفعول به لنخرج كما هو واضح. - والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من اهتدى فعمل بما يرضي الله - جل وعلا - أن اهتداه ذلك إنما هو لنفسه؛ لأنه هو الذي ترجع إليه فائدة ذلك الاهتداء، وثمرته في الدنيا والآخرة، وأن من ضل عن طريق الصواب فعمل بما يسخط ربه - جل وعلا - أن ضلاله ذلك إنما هو على نفسه؛ لأنه هو الذي يجني ثمرة عواقبه السيئة الوحشية، فيخلد به في النار.

وبين هذا المعنى في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، وقوله: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسِهِ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم]، وقوله: ﴿فَدَجَّكُمْ بِصَابِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾، والآيات بمثل هذا كثيرة جداً. وقد قدمنا طرفاً منها في سورة «النحل».

قوله تعالى: ﴿وَلَا نُرْزِزُ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَىٰ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة

أنه لا تحمل نفس ذنب أخرى؛ بل لا تحمل نفس إلا ذنبها، فقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ أي لا تحمل، من وَزَرَ يَزِرُ؛ إذا حمل، ومنه سمي وزير السلطان؛ لأنه يحمل أعباء تدبير شئون الدولة. والوزر: الإثم؛ يقال: وزر يزر وزرا، إذا أثم. والوزر أيضاً: الثقل المثقل، أي لا تحمل نفس وازرة أي آثمة وزر نفس أخرى؛ أي إثمها، أو حملها الثقيل؛ بل لا تحمل إلا وزر نفسها. وهذا المعنى جاء في آيات أخر، كقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، وقوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقوله: ﴿تِلْكَ أُمَمٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا في سورة «النحل» بإيضاح أن هذه الآيات لا يعارضها قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، ولا قوله: ﴿لَيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]؛ لأن المراد بذلك أنهم حملوا أوزار ضلالهم في أنفسهم، وأوزار إضلالهم غيرهم؛ لأن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً كما تقدم مستوفى.

تنبيه: يرد على هذه الآية الكريمة سؤالان:

الأول: ما ثبت في الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما من «أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه» فيقال: ما وجه تعذيبه ببكاء غيره؛ إذ مؤاخذته ببكاء غيره قد يظن من لا يعلم أنها من أخذ الإنسان بذنب غيره؟

السؤال الثاني: إيجاب دية الخطأ على العاقلة؛ فيقال: ما وجه إلزام العاقلة الدية بجناية إنسان آخر؟

والجواب عن الأول: هو أن العلماء حملوه على أحد أمرين: الأول: أن يكون الميت أوصى بالنوح عليه، كما قال طرفة بن العبد في معلقته:

إذا مت فانعيني بما أنا أهله وشقي عليّ الجيب يابنة معبد

لأنه إذا كان أوصى بأن يناح عليه فتعذيبه بسبب إيضائه بالمنكر، وذلك من فعله لا فعل غيره.

الأمر الثاني: أن يهمل نهيهم عن النوح عليه قبل موته مع أنه يعلم أنهم سينوحون عليه؛ لأن إهماله نهيهم تفريط منه، ومخالفة لقوله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦] فتعذيبه إذا بسبب تفريطه، وتركه ما أمر الله به من قوله: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ﴾... الآية [التحریم: ٦] وهذا ظاهر كما ترى.

والجواب عن الثاني: بأن إيجاب الدية على العاقلة ليس من تحميلهم وزر القاتل، ولكنها مواساة محضة أوجبها الله على عاقلة الجاني؛ لأن الجاني لم يقصد سوءاً، ولا

إثم عليه البتة، فأوجب الله في جنائته خطأ الدية بخطاب الوضع، وأوجب المواساة فيها على العاقلة، ولا إشكال في إيجاب الله على بعض خلقه مواساة بعض خلقه؛ كما أوجب أخذ الزكاة من مال الأغنياء وردها إلى الفقراء. وأعتقد من أوجب الدية على أهل ديوان القاتل خطأ كأبي حنيفة وغيره - أنها باعتبار النصرة فأوجبها على أهل الديوان، ويؤيد هذا القول ما ذكره القرطبي في تفسيره قال: «وأجمع أهل السير والعلم أن الدية كانت في الجاهلية تحملها العاقلة، فأقرها رسول الله ﷺ في الإسلام. وكانوا يتعاقلون بالنصرة، ثم جاء الإسلام فجرى الأمر على ذلك؛ حتى جعل عمر الديوان، واتفق الفقهاء على رواية ذلك والقول به. وأجمعوا أنه لم يكن في زمن رسول الله ﷺ، ولا زمن أبي بكر ديوان، وأن عمر جعل الديوان، وجمع بين الناس، وجعل أهل كل ناحية يداً، وجعل عليهم قتال من يليهم من العدو»، انتهى كلام القرطبي - رحمه الله تعالى -.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾. ظاهر هذه الآية الكريمة أن الله - جل وعلا - لا يعذب أحداً من خلقه لا في الدنيا ولا في الآخرة، حتى يبعث إليه رسولاً ينذره ويحذره فيعصي ذلك الرسول، ويستمر على الكفر والمعصية بعد الإنذار والإعذار.

وقد أوضح - جل وعلا - هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] فصرح في هذه الآية الكريمة بأنه لا بد أن يقطع حجة كل أحد بإرسال الرسل، مبشرين من أطاعهم بالجنة، ومنذرين من عصاهم النار.

وهذه الحجة التي أوضح هنا قطعها بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين، بينها في آخر سورة طه بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه].

وأشار لها في سورة القصص بقوله: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَكُنُوتِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص]، وقوله - جل وعلا -: ﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَىٰ بَطْلٍ وَأَهْلُهَا غَفُلُونَ﴾ [الأنعام]. وقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩]، وكقوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [١٥٥] أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغفليين ﴿١٥٦﴾ أو تقولوا لو أننا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ﴿١٥٧﴾، إلى غير ذلك من الآيات.

ويوضح ما دلت عليه هذه الآيات المذكورة وأمثالها في القرآن العظيم من أن الله - جل وعلا - لا يعذب أحداً إلا بعد الإنذار والإعذار على السنة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - تصريحه - جل وعلا - في آيات كثيرة بأنه لم يدخل أحداً النار إلا بعد الإعذار

والإنذار على السنة الرسل؛ فمن ذلك قوله - جل وعلا - : ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا آلَهُ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴿[الملك: ٨ - ٩].

ومعلوم أن قوله - جل وعلا - : ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ يعم جميع الأفواج الملقين في النار. قال أبو حيان في (البحر المحيط) في تفسير هذه الآية التي نحن بصددتها ما نصه: «وكلماء» تدل على عموم أزمان الإلقاء فتعم الملقين.

ومن ذلك قوله - جل وعلا - : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُوكُم لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٧١) ﴿[الزمر]، وقوله في هذه الآية: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عام لجميع الكفار.

وقد تقرر في الأصول أن الموصولات كالذي والتي وفروعها من صيغ العموم؛ لعمومها في كل ما تشمله صلاتها، وعقده في (مراقي السعود) بقوله في صيغ العموم:

صيغة كل أو الجميع وقد تلا الذي التي الفروع

ومراده بالبيت أن لفظة «كل، وجميع، والذي، والتي» وفروعها كل ذلك من صيغ العموم؛ فقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الزمر: ٧١] عام في جميع الكفار. وهو ظاهر في أن جميع أهل النار قد أُنذرتهم الرسل في دار الدنيا؛ فغصوا أمر ربهم كما هو واضح.

ونظيره أيضاً قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ (٣٦) ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧]، فقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ إلى قوله: ﴿وَحَاءَ كُمْ النَّذِيرُ﴾ عام أيضاً في جميع أهل النار، كما تقدم إيضاحه قريباً.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ (٨) قَالُوا أَوَلَمْ نَكُ نَأْتِيَكُم رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (٥٠) ﴿[غافر]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن جميع أهل النار أُنذرتهم الرسل في دار الدنيا.

وهذه الآيات التي ذكرنا وأمثالها في القرآن تدل على عذر أهل الفترة بأنهم لم يأتهم نذير ولو ماتوا على الكفر؛ وبهذا قالت جماعة من أهل العلم.

وذهبت جماعة أخرى من أهل العلم إلى أن كل من مات على الكفر فهو في النار ولو لم يأت نذير، واستدلوا بظواهر آيات من كتاب الله، وبأحاديث عن النبي ﷺ، فمن الآيات التي استدلوا بها قوله تعالى: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَن يُمْسَكَ

مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿١٦﴾ [آل عمران]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، وقوله: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقوله: ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

وظاهر جميع هذه الآيات العموم؛ لأنها لم تخصص كافراً دون كافر؛ بل ظاهرها شمول جميع الكفار.

ومن الأحاديث الدالة على أن الكفار لا يعذرون في كفرهم بالفترة ما أخرجه مسلم في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: «في النار» فلما قفى دعاه فقال: «إن أبي وأباك في النار»، اهـ، وقال مسلم رحمه الله في صحيحه أيضاً: حدثنا يحيى بن أيوب، ومحمد بن عباد - واللفظ ليحيى - قالوا: حدثنا مروان بن معاوية، عن يزيد يعني ابن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «استأذنت ربي أن أستغفر لأبي فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي». حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، وزهير بن حرب قالوا: حدثنا محمد بن عبيد، عن يزيد بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله، فقال: «استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكرك الموت»، اهـ. إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على عدم عذر المشركين بالفترة.

وهذا الخلاف مشهور بين أهل الأصول، هل المشركون الذين ماتوا في الفترة وهم يعبدون الأوثان في النار لكفرهم، أم معذورون بالفترة؟ وعقده في (مراقي السعود) بقوله:

ذو فترة بالفرع لا يراع وفي الأصول بينهم نزاع

وللعلماء في هذا الموضوع أقوال يرجع من أراد الوقوف عليها إلى الأصل وخلاصة رأي الشيخ فيها:

قال مقيده - عفا الله عنه -: الظاهر أن التحقيق في هذه المسألة التي هي، هل يعذر المشركون بالفترة أم لا؟ هو أنهم معذورون بالفترة في الدنيا، وأن الله يوم القيامة يمتحنهم بنار يأمرهم باقتحامها، فمن اقتحمها دخل الجنة وهو الذي كان يصدق الرسل لو جاءته في الدنيا، ومن امتنع دخل النار وعذب فيها، وهو الذي كان يكذب الرسل لو جاءته في الدنيا؛ لأن الله يعلم ما كانوا عاملين لو جاءتهم الرسل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا فَإِنَّا مُتَرَفِّعُونَ فِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَمَرْغَمْنَا نَذِيرًا ﴿١١﴾﴾. في معنى قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتَرَفِّعِينَ﴾ في هذه الآية الكريمة ثلاثة مذاهب معروفة عند علماء التفسير:

الأول: وهو الصواب الذي يشهد له القرآن، وعليه جمهور العلماء أن الأمر في قوله: ﴿أَمَرْنَا﴾ هو الأمر الذي هو ضد النهي، وأن متعلق الأمر محذوف لظهوره. والمعنى: ﴿أَمَرْنَا مُتَرَفِّهًا﴾ بطاعة الله وتوحيده، وتصديق رسله واتباعهم فيما جاءوا به ﴿فَفَسَقُوا﴾ أي خرجوا عن طاعة أمر ربهم، وعصوه وكذبوا رسله ﴿فَفَحَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ﴾ أي وجب عليها الوعيد ﴿فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ أي أهلكناها إهلاكاً مستأصلاً، وأكد فعل التدمير بمصدره للمبالغة في شدة الهلاك الواقع بهم.

وهذا القول الذي هو الحق في هذه الآية تشهد له آيات كثيرة كقوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]. فتصريحه - جل وعلا - بأنه لا يأمر بالفحشاء دليل واضح على أن قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتَرَفِّهًا فَفَسَقُوا﴾؛ أي أمرناهم بالطاعة فعصوا، وليس المعنى أمرناهم بالفسق ففسقوا؛ لأن الله لا يأمر بالفحشاء.

ومن الآيات الدالة على هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ]. فقوله في هذه الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ﴾، لفظ عام في جميع المترفين من جميع القرى أن الرسل أمرتهم بطاعة الله فقالوا لهم: إنا بما أرسلتم به كافرون، وتبجحوا بأموالهم وأولادهم، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وبهذا التحقيق تعلم أن ما زعمه الزمخشري في كشافه من أن معنى ﴿أَمَرْنَا مُتَرَفِّهًا﴾؛ أي أمرناهم بالفسق ففسقوا. وأن هذا مجاز تنزيلاً لإسباغ النعم عليهم الموجب لبطرتهم وكفرهم منزلة الأمر بذلك، كلام كله ظاهر السقوط والبطلان؛ وقد أوضح إبطاله أبو حيان في «البحر»، والرازي في تفسيره، مع أنه لا يشك منصف عارف في بطلانه.

وهذا القول الصحيح في الآية جار على الأسلوب العربي المألوف، من قولهم: أمرته فعصاني؛ أي أمرته بالطاعة فعصى. وليس المعنى أمرته بالعصيان كما لا يخفى.

القول الثاني في الآية: هو أن الأمر في قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتَرَفِّهًا﴾ أمر كوني قدرى، أي قدرنا عليهم ذلك وسخرناهم له؛ لأن كلاً ميسر لما خلق له، والأمر الكوني القدرى كقوله: ﴿وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلَجَ بِالْبَصَرِ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر]، وقوله: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، وقوله: ﴿أَتُنْهَى أَمْرًا لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤]، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٧﴾﴾ [يس].

القول الثالث في الآية: أن «أمرنا» بمعنى أكثرنا؛ أي أكثرنا مترفيها ففسقوا.

وقال أبو عبيدة ﴿أَمَرْنَا﴾ بمعنى أكثرنا لغة فصيحة كآمرنا بالمد، ويدل على ذلك الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد عن سويد بن هبيرة أن النبي ﷺ قال: «خير مال امرئ مهرة مأمورة، أو سكة مأبورة».

تنبيه: في هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أن يقال: إن الله أسند الفسق فيها لخصوص المترفين دون غيرهم في قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ مع أنه ذكر عموم الهلاك للجميع، المترفين وغيرهم في قوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيَّهَا الْقَوْلُ فَمَزَجْنَا لَهَا تَدْمِيرَهَا﴾ يعني القرية، ولم يستثن منها غير المترفين؟، والجواب من وجهين:

الأول: أن غير المترفين تبع لهم، وإنما خص بالذكر المترفين الذين هم ساداتهم وكبرائهم؛ لأن غيرهم تبع لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ﴾ [١٧] [الأحزاب]، وكقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ أُتْبِعُوا مِنْ الذِّبِّ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [١٦] [البقرة]، وقوله: ﴿حَقَّ إِذَا أَذَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِجْنَهُمْ لِأَوْلَانَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّنَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: ٢١]، وقوله: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ [١٧] [غافر] إلى غير ذلك من الآيات.

الوجه الثاني: أن بعضهم إن عصى الله وبغى وطمع ولم ينههم الآخرون فإن الهلاك يعم الجميع كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] وفي الصحيح من حديث أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها أنها لما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بأصبعه الإبهام والتي تليها» قالت له: يا رسول الله، أنهلك وفيها الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثر الخبث» وقد قدمنا هذا المبحث موضعاً في سورة المائدة.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [١٧]. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أهلك كثيراً من القرون من بعد نوح؛ لأن لفظة «كم» في قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ خبرية، معناها الإخبار بعدد كثير، وأنه - جل وعلا - خير بصير بذنوب عباده، وأكد ذلك بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ الآية.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة أوضحت آيات أخر من أربع جهات:

الأولى: أن في الآية تهديداً لكفار مكة، وتخويفاً لهم من أن ينزل بهم ما نزل بغيرهم من الأمم التي كذبت رسلها؛ أي أهلكنا قروناً كثيرة من بعد نوح بسبب تكذيبهم الرسل، فلا تكذبوا رسولنا لئلا نفعل بكم مثل ما فعلنا بهم.

والآيات التي أوضحت هذا المعنى كثيرة كقوله في قوم لوط: ﴿وَلَا تَكْفُرُ لَكُمْ رُسُلُكُمْ عَلَيْهِمْ مُصِيبَاتٌ﴾ [١٧] ﴿وَبِالْأَيْلَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [٢٨] [الصافات]، وكقوله فيهم أيضاً: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّالشَّاكِرِينَ﴾ [٥٠] ﴿وَأَنهَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [٦١] [الحجر]، وقوله فيهم أيضاً: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [٢٥] [العنكبوت]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْكَافِرِينَ أَتَمَنَّا﴾ [١٧] [محمد]، وقوله بعد ذكره - جل وعلا -

إهلاكه لقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب في سورة الشعراء: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء]، وقوله في قوم موسى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَتَخَفْ﴾ [النازعات]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَن حَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣]، وقوله: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُيُوعَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ [الدخان: ٣٧]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على تخويفهم بما وقع لمن قبلهم.

الجهة الثانية: أن هذه القرون تعرضت لبيانها آيات أخر، فبينت كيفية إهلاك قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وفرعون وقومه من قوم موسى، وذلك مذكور في مواضع متعددة معلومة من كتاب الله تعالى. وبين أن تلك القرون كثيرة في قوله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان] وبين في موضع آخر أن منها ما لا يعلمه إلا الله - جل وعلا - وذلك في قوله في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩]. وبين في موضعين آخرين أن رسلهم منهم من قص خبره على نبينا ﷺ، ومنهم من لم يقصصه عليه. وهما قوله في سورة النساء: ﴿وَرَسُولًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرَسُولًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء]، وقوله في سورة المؤمن: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [غافر: ٧٨].

الجهة الثالثة: أن قوله: ﴿مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ يدل على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح أنها على الإسلام، كما قال ابن عباس: كانت بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام، نقله عنه ابن كثير في تفسير هذه الآية.

وهذا المعنى تدل عليه آيات أخر كقوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: ١٩]؛ لأن معنى ذلك على أصح الأقوال أنهم كانوا على طريق الإسلام، حتى وقع ما وقع من قوم نوح من الكفر؛ فبعث الله النبيين ينهون عن ذلك الكفر، مبشرين من أطاعهم بالجنة، ومنذرين من عصاهم بالنار، وأولهم في ذلك نوح - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -.

ويدل على هذا قوله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ...﴾ الآية [النساء: ١٦٣]. وفي أحاديث الشفاعة الثابتة في الصحاح وغيرها أنهم يقولون لنوح: إنه أول رسول بعثه الله لأهل الأرض كما قدمنا ذلك في سورة البقرة.

الجهة الرابعة: أن قوله: ﴿وَكُنْزٍ رَبِّكَ بِذُنُوبٍ عَابِدِهِ خَيْرٌ نَّصِيرًا﴾ فيه أعظم زجر عن ارتكاب ما لا يرضي الله تعالى.

والآيات الموضحة لذلك كثيرة جداً؛ كقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَمَنْ أَوْرَثَ إِلَهَ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق] وقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَبْتَنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَخْفُونَ مِنْهُ يَنَّاهُمْ يَدْعُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود: ٥]،

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، إلى غير ذلك من الآيات، وقد قدمنا هذا المبحث موضعاً في أول سورة هود، ولفظه «كم» في هذه الآية الكريمة في محل نصب مفعول به لـ «أهلكنا» و«من» في قوله «من القرون» بيان لقوله: ﴿كَمْ﴾ [البقرة: ٢١١] وتمييز له كما يميز العدد بالجنس. وأما لفظة «من» في قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ فالظاهر أنها لا ابتداء الغاية، وهو الذي اختاره أبو حيان في «البحر». وزعم الحوفي أن «من» الثانية بدل من الأولى، ورده عليه أبو حيان، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ (١٩). ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾؛ أي عمل لها عملها الذي تنال به، وهو امتثال أمر الله، واجتناب نهيه بإخلاص على الوجه المشروع ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾؛ أي موحد لله - جل وعلا - غير مشرك به ولا كافر به؛ فإن الله يشكر سعيه، بأن يشبه الثواب الجزيل عن عمله القليل.

وفي الآية الدليل على أن الأعمال الصالحة لا تنفع إلا مع الإيمان بالله؛ لأن الكفر سببه لا تنفع معها حسنة؛ لأنه شرط في ذلك قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

وقد أوضح تعالى هذا في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (٢٢) [النساء]، وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاتٍ طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٧) [النحل]، وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا بِمِثْلِهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٥١) [غافر] إلى غير ذلك من الآيات.

ومفهوم هذه الآيات أن غير المؤمنين إذا أطاع الله بإخلاص لا ينفعه ذلك؛ لفقد شرط القبول الذي هو الإيمان بالله - جل وعلا -.

وقد أوضح - جل وعلا - هذا المفهوم في آيات أخر كقوله في أعمال غير المؤمنين: ﴿وَقَدْ مَنَّآ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (٣٣) [الفرقان]، وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَكَرْبٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد بين - جل وعلا - في مواضع أخر أن عمل الكافر الذي يتقرب به إلى الله يجازى به في الدنيا، ولا حظ له منه في الآخرة كقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦) [هود]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (١٠) [الشورى].

وثبت عن النبي ﷺ نحو ما جاءت به هذه الآيات من انتفاع الكافر بعمله في الدنيا من حديث أنس، قال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، وزهير بن حرب - واللفظ لزهير - قالوا: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا همام بن يحيى، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطي بها في الدنيا ويجزي بها الآخرة. وأما الكافر فيطعم بحسناته ما عمل بها الله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزي بها».

حدثنا عاصم بن النضر التيمي، حدثنا معتمر قال: سمعت أبي، حدثنا قتادة عن أنس بن مالك: أنه حدث عن رسول الله ﷺ «أن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة من الدنيا، وأما المؤمن فإن الله يدخر له حسناته في الآخرة، ويعقبه رزقاً في الدنيا على طاعته». حدثنا محمد بن عبد الله الرازي، أخبرنا عبد الوهاب بن عطاء، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس، عن النبي ﷺ بمثل حديثهما.

واعلم أن هذا الذي ذكرنا أدلته من الكتاب والسنة من أن الكافر ينتفع بعمله الصالح في الدنيا: كبر الوالدين، وصلة الرحم، وإكرام الضيف والجار، والتنفيس عن المكروب ونحو ذلك، كله مقيد بمشيئة الله تعالى كما نص على ذلك بقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَغَالَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾.

فهذه الآية الكريمة مقيدة لما ورد من الآيات والأحاديث، وقد تقرر في الأصول أن المقيد يقضي على المطلق، ولا سيما إذا اتحد الحكم والسبب كما هنا. وأشار له في «مراقي السعود» بقوله:

وحمل مطلق على ذاك وجب إن فيهما اتحد حكم والسبب

قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً﴾ (٢٢).

الظاهر أن الخطاب في هذه الآية الكريمة متوجه إلى النبي ﷺ؛ ليشرع لأمته على لسانه إخلاص التوحيد في العبادة له - جل وعلا -؛ لأنه ﷺ معلوم أنه لا يجعل مع الله إلهاً آخر، وأنه لا يقعد مذموماً مخذولاً.

ومن الآيات الدالة دلالة واضحة على أنه ﷺ يوجه إليه الخطاب، والمراد بذلك التشريع لأمته لا نفس خطابه هو ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَلَا تُنْهَرُهَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيماً﴾ لأن معنى قوله: ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ...﴾ الآية؛ أي إن يبلغ عندك والداك أو أحدهما الكبر فلا تقل لهما أف، ومعلوم أن والديه قد ماتا قبل ذلك بزمان طويل؛ فلا وجه لاشتراط بلوغهما أو أحدهما الكبر بعد أن ماتا منذ زمن طويل، إلا أن المراد التشريع لغيره ﷺ، ومن أساليب اللغة العربية خطابهم إنساناً والمراد بالخطاب غيره. ومن الأمثلة السائرة في ذلك قول الراجز، وهو سهل بن مالك الفزاري:

إياك أعني واسمعي يا جاره

وسبب هذا المثل أنه زار حارثة بن لأم الطائي فوجده غائباً؛ فأنزلته أخته وأكرمته، وكانت جميلة؛ فأعجبه جمالها، فقال مخاطباً لأخرى غيرها لسمعها هي:

يا أخت خير البدو والحضاره كيف ترين في فتى فزاره
أصبح يهوى حرة معطاره إياك أعني واسمعي يا جاره
ففهمت المرأة مراده، وأجابته بقولها:

إنني أقول يا فتى فزاره لا أبتغي الزوج ولا الدعاره
ولا فراق أهل هذي الحاره فارحل إلى أهلك باستحاره

والظاهر أن قولها: «باستحارة» أن أصله استفعال من المحاورة بمعنى رجع الكلام بينهما؛ أي: ارحل إلى أهلك بالمحاورة التي وقعت بيني وبينك، وهي كلامك وجوابي له، ولا تحصل مني على غير ذلك! والهاء في «الاستحارة» عوض من العين الساقطة بالإعلال، كما هو معروف في فن الصرف.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الخطاب في قوله: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ ونحو ذلك من الآيات متوجه إلى المكلف، ومن أساليب اللغة العربية إفراء الخطاب مع قصد التعميم كقول طرفة بن العبد في معلقته:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود
وقال الفراء، والكسائي، والزمخشري، ومعنى قوله: ﴿فَنَقُذْ﴾ أي تصوير، وجعل الفراء منه قول الراجز:

لا يقنع الجارية الخضاب ولا الوشاحان ولا الجلباب
من دون أن تلتقي الأركاب ويقعد الأير له لعاب
أي يصير له لعاب.

وحكى الكسائي: قعد لا يسأل حاجة إلا قضاها بمعنى صار. قاله أبو حيان في البحر. ثم قال أيضاً: والقعود هنا عبارة عن المكث؛ أي فتمكث في الناس مذموماً مخذولاً؛ كما تقول لمن سأل عن حال شخص: هو قاعد في أسوأ حال. ومعناه ماكث ومقيم؛ سواء كان قائماً أم جالساً. وقد يراد القعود حقيقة؛ لأن من شأن المذموم المخذول أن يقعد حائراً متفكراً، وعبر بغالب حاله وهو القعود، وقيل: معنى ﴿فَنَقُذْ﴾ فتعجز. والعرب تقول: ما أقعدك عن المكارم، اهـ. محل الغرض من كلام أبي حيان. والمذموم هنا: هو من يلحقه الذم من الله ومن العقلاء من الناس، حيث أشرك الله ما لا ينفع ولا يضر، ولا يقدر على شيء.

والمخذول: هو الذي لا ينصره من كان يؤمل منه النصر؛ ومنه قوله:

إن المرء ميتاً بانقضاء حياته ولكن بأن يبغى عليه فيخذل

قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَنًا﴾. أمر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة بإخلاص العبادة له وحده، وقرن بذلك الأمر بالإحسان إلى الوالدين.

وجعل بر الوالدين مقروناً بعبادته وحده - جل وعلا - والمذكور هنا، ذكره في آيات أخر كقوله في سورة «النساء»: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَنًا﴾ [النساء: ٣٦]. وقوله في البقرة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَنًا﴾ [البقرة: ٨٣]. وقوله في سورة لقمان: ﴿إِلَّا كَبَسِطَ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [لقمان: ١٤].

وبين في موضع آخر أن برهما لازم ولو كانا مشركين داعيين إلى شركهما كقوله في لقمان: ﴿وَلِنْ جَهْدَكَ عَلَىٰ أَنْ تَشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفٌ﴾ [لقمان: ١٥]. وقوله في «العنكبوت»: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا وَإِنْ جَهْدَكَ لِتَشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ [العنكبوت: ٨].

وذكره - جل وعلا - في هذه الآيات بر الوالدين مقروناً بتوحيده - جل وعلا - في عبادته، يدل على شدة تأكيد وجوب بر الوالدين، وجاءت عن النبي ﷺ في ذلك أحاديث كثيرة.

وقوله - جل وعلا - في الآيات المذكورة: ﴿وَالِ الَّذِينَ إِحْسَنًا﴾ بينه بقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَنًا﴾ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَوْيَ وَلَا تُنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿١٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا ﴿١٤﴾؛ لأن هذا من الإحسان إليهما المذكور في الآيات. وسيأتي - إن شاء الله تعالى - إيضاح معنى خفض الجناح، وإضافته إلى الدل في سورة «الشعراء» وقد أوضحنا ذلك غاية الإيضاح في رسالتنا المسماة (منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز).

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ معناه: أمر وألزم، وأوجب ووصى ألا تعبدوا إلا إياه.

وقال الزمخشري: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾؛ أي أمر أمراً مقطوعاً به، واختار أبو حيان في (البحر المحيط) أن إعراب قوله: ﴿إِحْسَنًا﴾ أنه مصدر نائب عن فعله، فهو بمعنى الأمر، وعطف الأمر المعنوي أو الصريح على النهي معروف كقوله:

وقوفاً بها صبحى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وقال الزمخشري في الكشاف: ﴿وَالِ الَّذِينَ إِحْسَنًا﴾؛ أي: وأحسنوا بالوالدين إحساناً، أو بأن تحسنوا بالوالدين إحساناً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَعَرَضَ عَنْهُمْ آيَاتَهُ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ تَرَوْهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَنسُورًا﴾ ﴿١٨﴾.

الضمير في قوله: ﴿عَنَّهُمْ﴾ راجع إلى المذكورين قبله في قوله: ﴿وَأَتَتْ ذَا الْقُرْنَىٰ حَقًّا وَالْمُسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾، ومعنى الآية: إن تعرض عن هؤلاء المذكورين فلم تعطهم شيئاً لأنه ليس عندك، وإعراضك المذكور عنهم ﴿أَتَيْتَهُ رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ رَجُوعًا﴾ أي رزق حلال؛ كالفني يرزقه الله فتعطيهم منه ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّسُورًا﴾؛ أي ليناً لطيفاً طيباً، كالدعاء لهم بالغنى وسعة الرزق، ووعدهم بأن الله إذا يسر من فضله رزقاً أنك تعطيه من.

وهذا تعليم عظيم من الله لنبيه لمكارم الأخلاق، وأنه إن لم يقدر على الإعطاء الجميل فليتجمل في عدم الإعطاء؛ لأن الرد الجميل خير من الإعطاء القبيح.

وهذا الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، صرح به الله - جل وعلا - في سورة «البقرة» في قوله: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٣]. ولقد أجاد من قال:

إلا تكن ورق يوماً أجود بها للسائلين فإني لين العود
لا يعدم السائلون الخير من خلقي إما نوالي وإما حسن مردودي

والآية الكريمة تشير إلى أنه ﷺ لا يعرض عن الإعطاء إلا عند عدم ما يعطي منه، وأن الرزق المنتظر إذا يسره الله فإنه يعطيهم منه، ولا يعرض عنهم. وهذا هو غاية الجود وكرم الأخلاق، وقال القرطبي: ﴿قَوْلًا مِّسُورًا﴾ مفعول بمعنى الفاعل من لفظ اليسر كاليمون.

وقد علمت مما قرنا أن قوله: ﴿أَتَيْتَهُ رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ متعلق بفعل الشرط الذي هو ﴿تُعْرِضَنَّ﴾ لا بجزاء الشرط.

وأجاز الزمخشري في الكشاف تعلقه بالجزاء وتقديمه عليه، ومعنى ذلك: فقل لهم قولاً ميسوراً ابتغاء رحمة من ربك؛ أي يسر عليهم والطف بهم؛ لابتغائك بذلك رحمة الله، ورد ذلك عليه أبو حيان في (البحر المحيط) بأن ما بعد فاء الجواب لا يعمل فيما قبله. قال: لا يجوز في قولك: إن يقيم فاضرب خالداً أن تقول: إن يقيم خالداً فاضرب. وهذا منصوص عليه، انتهى.

وعن سعيد بن جبیر ﷺ أن الضمير في قوله: ﴿وَأِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ﴾ راجع للكفار؛ أي إن تعرضن عن الكفار ابتغاء رحمة من ربك، أي نصر لك عليهم، أو هداية من الله لهم. وعلى هذا فالقول الميسور: المداراة باللسان؛ قاله أبو سليمان الدمشقي، انتهى من البحر. ويسر بالتخفيف يكون لازماً ومتعدياً، وميسور من المتعدي، تقول: يسرت لك كذا إذا أعددت؛ قاله أبو حيان أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّتِهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُمْ كَانَ مَضُورًا﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من قتل مظلوماً فقد جعل الله لوليه سلطاناً، ونهاه عن الإسراف في القتل، ووعدته بأنه منصور، والنهي عن الإسراف في القتل هنا شامل ثلاث صور:

الأولى: أن يقتل اثنين أو أكثر بواحد، كما كانت العرب تفعله في الجاهلية، كقول مهلهل بن ربيعة لما قتل بجير بن الحارث بن عباد في حرب البسوس المشهورة: بؤ بشسع نعل كليب؛ فغضب الحارث بن عباد، وقال قصيدته المشهورة:

قرباً مربوط النعمة مني لقحت حرب وائل عن حيال
قرباً مربوط النعمة مني إن بيع الكرام بالشنع غالي - إلخ
وقال مهلهل أيضاً:

كبل قتيل في كليب غره حتى ينال القتل آل مره
ومعلوم أن قتل جماعة بواحد لم يشتركوا في قتله إسراف في القتل داخل في النهي المذكور في الآية الكريمة.

الثانية: أن يقتل بالقتيل واحداً فقط ولكنه غير القاتل؛ لأن قتل البريء بذنب غيره إسراف في القتل، منهي عنه في الآية أيضاً.

الثالثة: أن يقتل نفس القاتل ويمثل به، فإن زيادة المثلة إسراف في القتل أيضاً. وهذا هو التحقيق في معنى الآية الكريمة، فما ذكره بعض أهل العلم، ومال إليه الرازي في تفسيره بعض المبل، من أن معنى الآية فلا يسرف الظالم الجاني في القتل؛ تخويفاً له من السلطان، والنصر الذي جعله الله لولي المقتول لا يخفى ضعفه، وأنه لا يلتزم مع قوله بعده: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾.

وهذا السلطان الذي جعله الله لولي المقتول لم يبينه هنا بياناً مفصلاً، ولكنه أشار في موضعين إلى أن هذا السلطان هو ما جعله الله من السلطة لولي المقتول على القاتل، من تمكينه من قتله إن أحب. ولا ينافي ذلك أنه إن شاء عفا على الدية أو مجاناً.

الأول: قوله هنا: ﴿فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ بعد ذكر السلطان المذكور؛ لأن النهي عن الإسراف في القتل مقترناً بذكر السلطان المذكور يدل على أن السلطان المذكور هو ذلك القتل المنهي عن الإسراف فيه.

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأْتِيهِ الْأَلْبَابُ﴾ [البقرة: ١٧٨، ١٧٩]، فهو يدل على أن السلطان المذكور هو ما تضمنته آية القصاص هذه، وخير ما يبين به القرآن القرآن.

مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة:

المسألة الأولى: يفهم من قوله: ﴿مَظْلُومًا﴾ أن من قتل غير مظلوم ليس لوليه سلطان على قاتله، وهو كذلك؛ لأن من قتل بحق فدمه حلال، ولا سلطان لوليه في قتله، كما قدمنا بذلك حديث ابن مسعود المتفق عليه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ﷺ إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة» كما تقدم إيضاحه في سورة «المائدة».

وبيان هذا المفهوم في قوله: ﴿مَظْلُومًا﴾ يظهر به بيان المفهوم في قوله أيضاً: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١].

واعلم أنه قد ورد في بعض الأدلة أسباب آخر لإباحة قتل المسلم غير الثلاث المذكورة، على اختلاف في ذلك بين العلماء، من ذلك المحاربون إذا لم يقتلوا أحداً؛ عند من يقول بأن الإمام مخير بين الأمور الأربعة المذكورة في قوله: ﴿أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُكَلِّبُوا﴾ [المائدة: ٣٣]؛ كما تقدم إيضاحه مستوفى في سورة «المائدة».

ومن ذلك قتل الفاعل والمفعول به في فاحشة اللواط، وقد قدمنا الأقوال في ذلك وأدلتها بإيضاح في سورة «هود».

وأما قتل الساحر فلا يبعد دخوله في قتل الكافر المذكور في قوله: «التارك لدينه المفارق للجماعة» لدلالة القرآن على كفر الساحر في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَقًّا يَقُولَانِ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وأما قتل مانع الزكاة، فإنه إن أنكر وجوبها فهو كافر مرتد داخل في «التارك لدينه المفارق للجماعة»، وأما إن منعها وهو مقر بوجوبها فالذي يجوز فيه القتال لا القتل، وبين القتال والقتل فرق واضح معروف.

وأما ما ذكره بعض أهل العلم من أن من أتى بهيمة يقتل هو وتقتل البهيمة معه، لحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من وقع على بهيمة فاقتلوه واقتلوه معها» قال الهيثمي في (مجمع الزوائد): رواه أبو يعلى، وفيه محمد بن عمرو بن علقمة، وحديثه حسن، وبقيّة رجاله ثقات. ورواه ابن ماجة من طريق داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً.

وأكثر أهل العلم على أنه لا يقتل؛ لأن حصر ما يباح به دم المسلم في الثلاث المذكورة في حديث ابن مسعود المتفق عليه أولى بالتقديم من هذا الحديث، مع التشديد العظيم في الكتاب والسنة في قتل المسلم بغير حق، إلى غير ذلك من المسائل المذكورة في الفروع.

قال مقيد - عفا الله عنه -: هذا الحصر في الثلاث المذكورة في حديث ابن مسعود الثابت في الصحيح لا ينبغي أن يزداد عليه، إلا ما ثبت بوحى ثبوتاً لا مطعن فيه؛ لقوته، والعلم عند الله تعالى.

المسألة الثانية: قد جاءت آيات آخر تدل على أن المقتول خطأ لا يدخل في هذا الحكم كقوله: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]؛ لما ثبت في صحيح

مسلم من حديث ابن عباس وأبي هريرة أن النبي ﷺ لما قرأها، قال: «قال الله نعم قد فعلت». وقوله: «وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً» [النساء: ٩٢] ثم بين ما يلزم القاتل خطأ بقوله: «وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِيهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا» [النساء: ٩٢]. وقد بين ﷺ الدية قدراً وجنساً كما هو معلوم في كتب الحديث والفقه كما سيأتي إيضاحه.

والمسألة الثالثة: يفهم من إطلاق قوله تعالى: «وَمَنْ قَتَلَ مُظْلُومًا» أن حكم الآية يستوي فيه القتل بمحدد كالسلاح، وبغير محدد كرضخ الرأس بحجر ونحو ذلك؛ لأن الجميع يصدق عليه اسم القتل ظليماً فيجب القصاص.

وهذا قول جمهور العلماء، منهم مالك، والشافعي، وأحمد في أصح الروايتين.

وقال النووي في «شرح مسلم»: هو مذهب جماهير العلماء.

وهناك خلاف للعلماء حول التخيير لولي المقتول بين القتل والدية يرجع من أراد الوقوف عليه إلى الأصل.

قال مقبده - عفا الله عنه -: الذي يظهر لي رجحانه بالدليل في هذه المسألة أن ولي المقتول هو المخير بين الأمرين، فلو أراد الدية وامتنع الجاني فله إجباره على دفعها؛ لدلالة الحديث المتفق عليه على ذلك، ودلالة الآية المتقدمة عليه، ولأن الله يقول: «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ» [النساء: ٢٩]، ويقول: «وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» [البقرة: ١٩٥].

ومن الأمر الواضح أنه إذا أراد إهلاك نفسه صوناً لماله للوارث أن الشارع يمنعه من هذا التصرف الزائف عن طريق الصواب، ويجبره على صون دمه بماله.

قال مقبده - عفا الله عنه -: أظهر القولين عندي أنه يقرر ملك الميت لديته عند موته فتورث كسائر أملاكه؛ لتصريح النبي ﷺ للضحاك في الحديث المذكور بتورث امرأة أشيم الضبابي من ديته، والميراث لا يطلق شرعاً إلا على ما كان مملوكاً للميت، والله تعالى أعلم.

المسألة الرابعة: اختلف العلماء في تعيين ولي المقتول الذي جعل الله له هذا السلطان المذكور في هذه الآية الكريمة في قوله: «وَمَنْ قَتَلَ مُظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوَلِيَّهِ سُلْطَانًا» ... الآية.

قال مقبده - عفا الله عنه -: الذي يقتضي الدليل رجحانه عندي في هذه المسألة أن الولي في هذه الآية هم الورثة ذكوراً كانوا أو إناثاً، ولا مانع من إطلاق الولي على الأنثى؛ لأن المراد جنس الولي الشامل لكل من انعقد بينه وبين غيره سبب يجعل كلاً منهما يوالي الآخر كقوله تعالى: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» [التوبة: ٧١]، وقوله: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ» [الأنفال: ٧٥].

وحجة من قال أيضاً بكفره قوية؛ للحديث الدال على أنه أشقى الآخرين، مقروناً بقاتل ناقة صالح المذكور في قوله: «إِذْ أَنْبَأَتْ آسَفْنَاهَا ﴿٧﴾» [الشمس] وذلك يدل على كفره، والعلم عند الله تعالى.

تنبيه: أخذ بعض أهل العلم من هذه الآية الكريمة منع التقليد، قالوا: لأنه اتباع غير العلم.

قال مقيده - عفا الله عنه -: لا شك أن التقليد الأعمى الذي ذم الله به الكفار في آيات من كتابه تدل هذه الآية وغيرها من الآيات على منعه، وكفر متبعه؛ كقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ٧٦﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ٧٧﴾ [المائدة]، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ٧٨﴾ [القمان]، وقوله: ﴿أَمْ أَلْيَسَ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُتَسَمِّكُونَ ٧٩﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُهُتَدُونَ ٨٠ ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ٨١﴾ قُلْ أَوَلَوْ جِئْتَكُمْ بِآهْدَىٰ وَمِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ٨٢﴾ [الزخرف: ٢١ - ٢٤]، وقوله: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

أما استدلال بعض الظاهرية كابن حزم ومن تبعه بهذه الآية التي نحن بصدها وأمثالها من الآيات، على منع الاجتهاد في الشرع مطلقاً، وتضليل القائل به، ومنع التقليد من أصله، فهو من وضع القرآن في غير موضعه، وتفسيره بغير معناه، كما هو كثير في الظاهرية؛ لأن مشروعية سؤال الجاهل للعالم وعمله بفتياه أمر معلوم من الدين بالضرورة. ومعلوم أنه كان العامي يسأل بعض أصحاب النبي ﷺ فيفتيه فيعمل بفتياه، ولم ينكر ذلك أحد من المسلمين، كما أنه من المعلوم أن المسألة إن لم يوجد فيها نص من كتاب الله أو سنة نبيه ﷺ، فاجتهاد العالم حينئذ بقدر طاقته في تفهم كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ليعرف حكم المسكوت عنه من المنطوق به، لا وجه لمنعه، وكان جارياً بين أصحاب رسول الله ﷺ، ولم ينكره أحد من المسلمين، وسنوضح غاية الإيضاح - إن شاء الله تعالى - «في سورة الأنبياء، والحشر» مسألة الاجتهاد في الشرع، واستنباط حكم المسكوت عنه من المنطوق به بإلحاقه به قياساً؛ كان الإلحاق أو غيره. ونبين أدلة ذلك، ونوضح رد شبه المخالفين كالظاهرية والنظام، ومن قال بقولهم في احتجاجهم بأحاديث وآيات من كتاب الله على دعواهم، وبشبه عقلية حتى يتضح بطلان جميع ذلك.

وسنذكر هنا طرفاً قليلاً من ذلك يعرف به صحة القول بالاجتهاد والقياس فيما لا نص فيه، وأن إلحاق التظير بنظيره المنصوص عليه غير مخالف للشرع الكريم.

اعلم أولاً أن إلحاق المسكوت عنه بالمنطوق به بنفي الفارق بينهما لا يكاد ينكره إلا مكابر، وهو نوع من القياس الجلي، ويسميه الشافعي رحمه الله «القياس في معنى

الأصل» وأكثر أهل الأصول لا يطلقون عليه اسم القياس، مع أنه إلحاق مسكوت عنه بمنطوق به لعدم الفرق بينهما؛ أعني الفرق المؤثر في الحكم.

ومن أمثلة هذا النوع قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لِهَذَا أُنِي﴾ فإنه لا يشك عاقل في أن النهي عن التأنيف المنطوق به يدل على النهي عن الضرب المسكوت عنه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة] فإنه لا شك أيضاً في أن التصريح بالمؤاخذه بميثقال الذرة والإثابة عليه المنطوق به يدل على المؤاخذه والإثابة بميثقال الجبل المسكوت عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ﴾ [الطلاق: ٢]، لا شك في أنه يدل على أن شهادة أربعة عدول مقبولة وإن كانت شهادة الأربعة مسكوتاً عنها.

ونهي ﷺ عن التضحية بالعمياء يدل على النهي عن التضحية بالعمياء، مع أن ذلك مسكوت عنه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِهَتِنَا﴾ [النساء: ١٠]؛ لا شك في أنه يدل على منع إحراق مال البيتيم وإغراقه؛ لأن الجميع إتلاف له بغير حق.

وقوله ﷺ: «من أعتق شركاً في عبد فكان له مال يبلغ ثمن العبد قوم عليه عدل، فأعطى شركاؤه حصصهم وعتق عليه العبد، وإلا فقد عتق منه ما عتق» يدل على أن من أعتق شركاً له في أمة فحكمه كذلك؛ لما عرف من استقراء الشرع أن الذكورة والأنوثة بالنسبة إلى العتق وصفان طرديان لا تأثير لهما في أحكام العتق وإن كانا غير طرديين في غير العتق كالشهادة والميراث وغيرهما.

وقوله ﷺ: «لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان» لا شك في أنه يدل على منع قضاء الحكم في كل حال يحصل بها التشويش المانع من استيفاء النظر، كالجوع والعطش المفرطين، والسرور والحزن المفرطين، والحقن والحقب المفرطين.

ونهي ﷺ عن البول في الماء الراكد، لا شك في أنه يدل على النهي عن البول في قارورة مثلاً وصب البول من القارورة في الماء الراكد؛ إذ لا فرق يؤثر في الحكم بين البول فيه مباشرة وصبه فيه من قارورة ونحوها، وأمثال هذا كثيرة جداً، ولا يمكن أن يخالف فيها إلا مكابر، ولا شك أن في ذلك كله استدلالاً بمنطوق به على مسكوت عنه. وكذلك نوع الاجتهاد المعروف في اصطلاح أهل الأصول «بتحقيق المناط» لا يمكن أن ينكره إلا مكابر، ومسائله التي لا يمكن الخلاف فيها من غير مكابر لا يحيط بها الحصر، وسنذكر أمثلة منها، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥] فكون الصيد المقتول يماثله النوع المعين من النعم اجتهاد في تحقيق مناط هذا الحكم، نص عليه - جل وعلا - في محكم كتابه، وهو دليل قاطع على بطلان قول من يجعل الاجتهاد في الشرع مستحيلاً من أصله. والإنفاق على الزوجات واجب،

وتحديد القدر اللازم لا بد فيه من نوع من الاجتهاد في تحقيق مناط ذلك الحكم. وقيم المتلفات واجبة على من أتلف، وتحديد القدر الواجب لا بد فيه من اجتهاد. والزكاة لا تصرف إلا في مصرفها، كالفقير ولا يعلم فقره إلا بأمارات ظنية يجتهد في الدلالة عليها بالقرائن؛ لأن حقيقة الباطن لا يعلمها إلا الله. ولا يحكم إلا بقول العدل، وعدالته إنما تعلم بأمارات ظنية يجتهد في معرفتها بقرائن الأخذ والإعطاء وطول المعاشرة. وكذلك الاجتهاد من المسافرين في جهة القبله بالأمارات، إلى غير ذلك مما لا يحصى.

مسألة: قال ابن خويز منداد من علماء المالكية: تضمنت هذه الآية الحكم بالقافة؛ لأنه لما قال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ دل على جواز ما لنا به علم؛ فكل ما علمه الإنسان أو غلب على ظنه جاز أن يحكم به، وبهذا احتجنا على إثبات القرعة والخرص؛ لأنه ضرب من غلبة الظن، وقد يسمى علماً اتساعاً، فالقائف يلحق الولد بأبيه من طريق الشبه بينهما، كما يلحق الفقيه الفرع بالأصل عن طريق الشبه. وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ دخل علي مسروراً تبرق أسارير وجهه فقال: «ألم تر أن مجزراً المدلجي نظر آنفاً إلى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد عليهما قطيفة، قد غطيا رؤوسهما وبدت أقدامهما فقال: إن بعض هذه الأقدام لمن بعض» وفي حديث يونس بن يزيد: وكان مجزراً قائفاً، اهـ بواسطة نقل القرطبي في تفسيره.

قال مقيده - عفا الله عنه -: من المعلوم أن العلماء اختلفوا في اعتبار أقوال القافة؛ فذهب بعضهم إلى عدم اعتبارها. واحتج من قال بعدم اعتبارها بقصة الأنصارية التي لاعنت زوجها وجاءت بولد شبيه جداً بمن رमित به ولم يعتبر هذا الشبه النبي ﷺ، فلم يحكم بأن الولد من زنى ولم يجلد المرأة.

قالوا: فلو كان الشبه ثبت به الأنساب لأثبت النبي ﷺ به أن ذلك الولد من ذلك الرجل الذي رमित به؛ فيلزم على ذلك إقامة الحد عليها، والحكم بأن الولد ابن زنى، ولم يفعل النبي ﷺ شيئاً من ذلك كما يأتي إيضاحه (في سورة النور) إن شاء الله تعالى. وهذا القول بعدم اعتبار أقوال القافة مروى عن أبي حنيفة وإسحاق والثوري وأصحابهم.

وذهب جمهور أهل العلم إلى اعتبار أقوال القافة عند التنازع في الولد، محتجين بما ثبت في الصحيحين من حديث عائشة أن النبي ﷺ سر بقول مجز بن الأعور المدلجي: إن بعض هذه الأقدام من بعض، حتى برقت أسارير وجهه من السرور.

قالوا: وما كان ﷺ ليسر بالباطل ولا يعجبه، بل سروره بقول القائف دليل على أنه من الحق لا من الباطل؛ لأن تقريره وحده كاف في مشروعية ما قرر عليه، وأخرى من ذلك ما لو زاد السرور بالأمر على التقرير عليه، وهو واضح كما ترى.

واعلم أن الذين قالوا باعتبار أقوال القافة اختلفوا، فمنهم من قال: لا يقبل ذلك إلا في أولاد الإمام دون أولاد الحرائر، ومنهم من قال: يقبل ذلك في الجميع.

قال مقيده - عفا الله عنه -: التحقيق اعتبار ذلك في أولاد الحرائر والإماء؛ لأن سرور النبي ﷺ وقع في ولد حرة، وصورة سبب النزول قطعية الدخول كما تقرر في الأصول، وهو قول الجمهور وهو الحق، خلافاً للإمام مالك رحمه الله تعالى: إن صورة النسب ظنية الدخول، وعقده صاحب (مراقي السعود) بقوله:

واجزم بإدخال ذوات السبب وارو عن الإمام ظناً تصب

تنبيهان:

الأول: لا تعتبر أقوال القافة في شبه مولود برجل إن كانت أمه فراشاً لرجل آخر؛ لأن النبي ﷺ رأى شدة شبه الولد الذي اختصم فيه سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة بعتبة بن أبي وقاص ولم يؤثر عنده هذا الشبه في النسب لكون أم الولد فراشاً لزمعة، فقال ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحجر» ولكنه ﷺ اعتبر هذا الشبه من جهة أخرى غير النسب؛ فقال لسودة بنت زمعة رضي الله عنها «احتجبي عنه» مع أنه ألحقه بأبيها فلم ير سودة قط. وهذه المسألة أصل عند المالكية في مراعاة الخلاف كما هو معلوم عندهم.

التنبيه الثاني: قال بعض علماء العربية: أصل القفو: البهت والقذف بالباطل، ومنه الحديث الذي روي عن النبي ﷺ: «نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمنا ولا نتقي من أبينا» أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه وغيرهما من حديث الأشعث بن قيس، وساق طرق هذا الحديث ابن كثير في تاريخه. وقوله: «لا نقفو أمنا»؛ أي لا نقذف أمنا ونسبها. - ومنه قول الكمي:

فلا أرمي البريء بغير ذنب ولا أقفو الحواصن إن قفينا
وقول النابغة الجعدي:

ومثل الدمى شم العرانيين ساكن بهن الحياء لا يشعن التقافيا
والذي يظهر لنا أن أصل القفو في لغة العرب: الاتباع كما هو معلوم من اللغة، ويدخل فيه اتباع المساوي كما ذكره من قال: إن أصله القذف والبهت.
وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ فيه وجهان من التفسير:

الأول: أن معنى الآية أن الإنسان يسأل يوم القيامة عن أفعال جوارحه فيقال له: لم سمعت ما لا يحل لك سماعه؟! ولم نظرت إلى ما لا يحل لك النظر إليه؟! ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه!؟.

ويدل على هذا المعنى آيات من كتاب الله تعالى كقوله: ﴿وَلَسْتُمْ عَنْهَاكُمْ مَعْمُولُونَ﴾ [النحل: ٩٣]، وقوله: ﴿قَوْلِكَ لَسْتُمْ عَنْهُمْ أَمْعِينَ﴾ عَمَّا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿٩٦﴾ [الحجر]، ونحو ذلك من الآيات.

والوجه الثاني: أن الجوارح هي التي تسأل عن أفعال صاحبها، فتشهد عليه جوارحه بما فعل.

قال القرطبي في تفسيره: وهذا المعنى أبلغ في الحجة؛ فإنه يقع تكذيبه من جوارحه، وتلك غاية الخزي كما قال: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، وقوله: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠].

قال مقيده - عفا الله عنه -: والقول الأول أظهر عندي، وهو قول الجمهور. وفي الآية الكريمة نكتة نبه عليها في مواضع أخرى؛ لأن قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْفُورًا﴾ يفيد تعليل النهي في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ بالسؤال عن الجوارح المذكورة، لما تقرر في الأصول في مسلك الإيماة والتنبيه: أن «إن» المكسورة من حروف التعليل، وإيضاحه: أن المعنى انتهى عما لا يحل لك لأن الله أنعم عليك بالسمع والبصر والعقل لشكره، وهو مختبرك بذلك وسائلك عنه، فلا تستعمل نعمه في معصيته.

ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل]، ونحوها من الآيات.

والإشارة في قوله تعالى في هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ راجعة إلى ﴿السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ﴾ وهو دليل على الإشارة «بأولئك» لغير العقلاء وهو الصحيح. رمن شواهد في العربية قول الشاعر وهو العرجي:

يا ما أميلح غزلانا شدن لنا من هؤلياء كن الضال والسمر
وقول جرير:

ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام
خلافاً لمن زعم أن بيت جرير لا شاهد فيه، وأن الرواية فيه: «بعد أولئك الأقوام»، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [٣٧]. نهى الله - جل وعلا - الناس في هذه الآية الكريمة عن التجبر والتبختر في المشية، وقوله: ﴿مَرَحًا﴾ مصدر منكر، وهو حال على حد قول ابن مالك في الخلاصة:

ومصدر منكر حالاً يقع بكثرة كبغثة زيد طلع

وقرئ «مرحاً» - بكسر الراء - على أنه الوصف من مرح (بالكسر) يمرح (بالفتح) أي لا تمش في الأرض في حال كونك متبخترًا متميلاً مشي الجبارين.

وقد أوضح - جل وعلا - هذا المعنى في مواضع آخر كقوله عن لقمان مقررًا له:

﴿وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴿[لقمان: ١٨، ١٩]، وقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأصل المرح في اللغة: شدة الفرح والنشاط، وإطلاقه على مشي الإنسان متبخرًا مشي المتكبرين؛ لأن ذلك من لوازم شدة الفرح والنشاط عادة.

وأظهر القولين عندي في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ أن معناه لن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها وشدة وطئك عليها، ويدل على هذا المعنى قوله بعده: ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾؛ أي أنت أيها المتكبر المختال ضعيف حقير عاجز محصور بين جمادين! أنت عاجز عن التأثير فيهما، فالأرض التي تحتك لا تقدر أن تؤثر فيها فتخرقها بشدة وطئك عليها، والجبال الشامخة فوقك لا يبلغ طولك طولها، فاعرف قدرك! ولا تتكبر، ولا تمش في الأرض مرحاً.

القول الثاني: أن معنى: ﴿لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ لن تقطعها بمشيك، قاله ابن جرير، واستشهد له بقول رؤية بن العجاج:

وقاتم الأعماق خاوي المخترق مشتبه الأعلام لماع الخفق

لأن مراده بالمخترق مكان الاختراق؛ أي المشي والمرور فيه، وأجود الأعاريب في قوله: ﴿وَطُولًا﴾ أنه تمييز محول عن الفاعل، أي لن يبلغ طولك الجبال، خلافاً لمن أعربه حالاً ومن أعربه مفعولاً من أجله. وقد أجاد من قال:

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعاً فكم تحتها قوم هم منك أرفع

وإن كنت في عز وحرز ومنعة فكم مات من قوم هم منك أمتع

واستدل بعض أهل العلم بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ على منع الرقص وتعاطيه؛ لأن فاعله ممن يمشي مرحاً.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَكَ رُحُومًا بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَقَوْمٌ قَوْلًا عَظِيمًا ۝١٩﴾. الهمزة في قوله: ﴿أَفَأَصْفَكَ رُحُومًا بِالْبَيْنِ﴾ للإنكار، ومعنى الآية أفخصكم ربكم على وجه الخصوص والصفاء بأفضل الأولاد وهم البنون، لم يجعل فيهم نصيباً لنفسه، واتخذ لنفسه أدونهم وهي البنات! وهذا خلاف المعقول والعادة، فإن السادة لا يؤثر عبيدهم بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب، ويتخذون لأنفسهم أردأها وأدونها، فلو كان - جل وعلا - متخذاً ولدأ - سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً - لاتخذ أجود النصيين ولم يتخذ أردأهما! ولم يصطفكم دون نفسه بأفضلهما، وهذا الإنكار متوجه على الكفار في قولهم: الملائكة بنات الله، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، فقد جعلوا له الأولاد! ومع ذلك جعلوا له أضعفها وأردأها وهو الإناث! وهم لا يرضونها لأنفسهم. وقد بين الله هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿الْكُفْرُ أَكْثَرُ وَأَلَّا تَعْلَمَ إِنَّهُ عَمَلُ غَافِلِينَ ۝٢٠﴾

فَسَمِعُ صِيْرَكَ ﴿١٧﴾ [النجم]، وقوله: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ ﴿١٨﴾ [الطور]، وقوله: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الزمر: ٤] والآيات بمثل هذا كثيرة جداً، وقد بينا ذلك بإيضاح في «سورة النحل». وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّكُمْ لَقَائِلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ بين فيه أن ادعاء الأولاد لله - سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً - أمر عظيم جداً، وقد بين شدة عظمه بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخُضِرَ الْجِبَالُ هَذَا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِسْمَةِ فَرِادًا ﴿٩٥﴾ [مریم] فالمشركون - قبحهم الله - جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، ثم ادعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم؛ فاقترفوا الجريمة العظمى في المقامات الثلاث. والهمزة والفاء في نحو قوله: ﴿أَفَأَصْفَكَوْا﴾ قد بينا حكمها بإيضاح في «سورة النحل» أيضاً.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ ﴿١٢﴾. قرأ جمهور القراء «كما تقولون» بقاء الخطاب، وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم «كما يقولون» بياء الغيبة. وفي معنى هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير، كلاهما حق ويشهد له قرآن، وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية قد يكون فيها وجهان كلاهما حق، وكلاهما يشهد له قرآن فنذكر الجميع لأنه كله حق.

الأول من الوجهين المذكورين أن معنى الآية الكريمة لو كان مع الله آلهة أخرى كما يزعم الكفار لابتغوا - أي الآلهة المزعومة - أي لطلبوا إلى ذي العرش - أي إلى الله سبيلاً - أي إلى مغالبتة وإزالة ملكه؛ لأنهم إذا يكونون شركاءه كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض، سبحانه الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً!.

وهذا القول في معنى الآية هو الظاهر عندي، وهو المتبادر من معنى الآية الكريمة، ومن الآيات الشاهدة لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا بَضَّضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ﴿١٦﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٧﴾ [المؤمنون]، وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ [الأنبياء] وهذا المعنى في الآية مروى عن ابن عباس، وسعيد بن جبیر، وأبي علي الفارسي، والنقاش، وأبي منصور وغيره من المتكلمين.

الوجه الثاني في معنى الآية الكريمة أن المعنى لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً، أي طريقاً ووسيلة تقربهم إليه لاعترافهم بفضله. ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾، ويروى هذا القول عن قتادة، واقتصر عليه ابن كثير في تفسيره.

ولا شك أن المعنى الظاهر المتبادر من الآية بحسب اللغة العربية هو القول الأول؛ لأن في الآية فرض المحال، والمحال المفروض الذي هو وجود آلهة مع الله مشاركة له لا يظهر معه أنها تقترب إليه، بل تنازعه لو كانت موجودة، ولكنها معدومة مستحيلة الوجود، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ٤٥﴾. في هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير:

الأول: أن المعنى وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً؛ أي حائلاً وساتراً يمنعهم من تفهم القرآن وإدراكه لئلا يفقهوه فينتفعوا به. وعلى هذا القول، فالحجاب المستور هو ما حجب الله به قلوبهم عن الانتفاع بكتابه، والآيات الشاهدة لهذا المعنى كثيرة؛ كقوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي مَوَاقِنَا وَقرْ مِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونُ ٥﴾ [فصلت]، وقوله: ﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ٧﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الكهف: ٥٧]. إلى غير ذلك من الآيات، وممن قال بهذا القول في معنى الآية قتادة والزجاج وغيرهما.

الوجه الثاني في الآية: أن المراد بالحجاب المستور أن الله يستره عن أعين الكفار فلا يرونه، قال صاحب (الدر المنثور) في الكلام على هذه الآية: أخرج أبو يعلى وابن أبي حاتم وصححه؛ وابن مردويه، وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: لما نزلت ﴿تَبَّتْ يُدَىٰ أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] أقبلت العوراء أم جميل ولها ولولة وفي يدها فهر وهي تقول:

مذمماً أينا... ودينه قلينا... وأمره عصينا

ورسول الله ﷺ جالس، وأبو بكر رضي الله عنه إلى جنبه، فقال أبو بكر رضي الله عنه: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك؟ فقال: «إنها لن تراني» وقرأ قرأناً اعتصم به؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ٤٥﴾. فجاءت حتى قامت على أبي بكر رضي الله عنه فلم تر النبي ﷺ فقالت: يا أبا بكر، بلغني أن صاحبك هجاني؟! فقال أبو بكر رضي الله عنه: لا ورب هذا البيت ما هجاك. فانصرفت وهي تقول: قد علمت قريش أنني بنت سيدها، إلى غير ذلك من الروايات بهذا المعنى.

وقال أبو عبد الله القرطبي رحمته الله في تفسير هذه الآية، بعد أن ساق بعض الروايات نحو ما ذكرنا في هذا الوجه الأخير ما نصه: ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن منشور من أعمال قرطبة مثل هذا، وذلك أنني هربت أمام العدو وانحزت إلى ناحية عنه، فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان وأنا في فضاء من الأرض قاعد ليس يسترنني عنهما شيء، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن، فعبراً علي ثم رجعا من حيث جاءا، وأحدهما يقول للآخر: هذا ديبله (يعنون شيطناً) وأعمى الله - عز وجل - أبصارهم فلم يروني، اه وقال القرطبي: إن هذا الوجه في معنى الآية هو الأظهر. والعلم عند الله تعالى.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ قال بعض العلماء: هو من إطلاق اسم المفعول وإرادة اسم الفاعل؛ أي حجاباً ساتراً، وقد يقع عكسه كقوله تعالى: ﴿مِن مَّاءٍ ذَائِقٍ﴾ أي مدفوق ﴿عِشَّةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] أي مرضية، فإطلاق كل من اسم الفاعل واسم المفعول وإرادة الآخر أسلوب من أساليب اللغة العربية؛ والبيانون يسمون مثل ذلك الإطلاق «مجازاً عقلياً»، ومن أمثلة إطلاق المفعول وإرادة الفاعل كالقول في الآية، قولهم: ميمون ومشئوم، بمعنى يامن وشائم. وقال بعض أهل العلم: قوله ﴿مَسْتُورًا﴾ على معناه الظاهر من كونه اسم مفعول؛ لأن ذلك الحجاب مستور عن أعين الناس فلا يرونه، أو مستوراً به القارئ فلا يراه غيره؛ واختار هذا أبو حيان في (البحر)، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

يَبِّن - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه جعل على قلوب الكفار أكنة، (جمع كنان) وهو ما يستر الشيء ويغطيه ويكنه، لئلا يفقهوا القرآن، أو كراهة أن يفقهوه لحيلولة تلك الأكنة بين قلوبهم وبين فقه القرآن؛ أي فهم معانيه فهماً ينتفع به صاحبه، وأنه جعل في آذانهم وقراً أي صمماً وثقلاً لئلا يسمعه سماع قبول وانتفاع.

ويَبِّن في مواضع آخر سبب الحيلولة بين القلوب وبين الانتفاع به، وأنه هو كفرهم، فجازاهم الله على كفرهم بطمس البصائر، وإزاغة القلوب والطبع والختم والأكنة المانعة من وصول الخير إليها، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَاْفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

تنبيه: في هذه الآية الكريمة الرد الواضح على القدرية في قولهم: إن الشر لا يقع بمشيئة الله، بل بمشيئة العبد؛ سبحانه الله وتعالى علواً كبيراً عن أن يقع في ملكه شيء ليس بمشيئته! ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ١٠٧]، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾ [الأنعام: ٣٥] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى آبَائِهِمْ نُفُورًا﴾.

يَبِّن - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن نبيه ﷺ إذا ذكر ربه وحده في القرآن بأن قال: «لا إله إلا الله» ولَّى الكافرون على أدبارهم نفوراً، بغضاً منهم لكلمة التوحيد، ومحبة للإشراك به - جل وعلا -.

وأوضح هذا المعنى في مواضع آخر، مبيناً أن نفورهم من ذكره وحده - جل وعلا - سبب خلودهم في النار، كقوله: ﴿وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ أَشْمَازَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ نُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِيرُونَ ﴿٥٥﴾ [الزمر]، وقوله: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿٥٦﴾﴾ [غافر]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا نَارِكُوا إِلَهَيْنَا لِشَاعِرٍ تَجَنُّونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الصافات]، وقوله: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وقوله: ﴿وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ نَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونُ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ [الحج: ٧٢]، وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَأُمْلِكُنَّ تَقْلِيدُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [فصلت].

وقوله في هذه الآية: ﴿نُفُورًا﴾ جمع نافر؛ فهو حال؛ أي ولوا على أدبارهم في حال كونهم نافرين من ذكر الله وحده من دون إشراك. والفاعل يجمع على فعول كساجد وسجود، وراكع وركوع.

وقال بعض العلماء: «نفوراً» مصدر، وعليه فهو ما ناب عن المطلق من قوله: ﴿وَلَوْ﴾؛ لأن التولية عن ذكره وحده بمعنى النفور منه.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن المعبودين من دون الله الذين زعم الكفار أنهم يقربونهم إلى الله زلفى، ويشفعون لهم عنده لا يملكون كشف الضر عن عابديهم؛ أي إزالة المكروه عنهم، ولا تحويلاً؛ أي تحويله من إنسان إلى آخر، أو تحويل المرض إلى الصحة، والفقر إلى الغنى، والقحط إلى الجذب ونحو ذلك، ثم بين فيها أيضاً أن المعبودين الذين عبدتهم الكفار من دون الله يتقربون إلى الله بطاعته، ويبتغون الوسيلة إليه، أي الطريق إلى رضاه ونيل ما عنده من الثواب بطاعته فكان الواجب عليكم أن تكونوا مثلهم.

قال ابن مسعود: نزلت هذه الآية في قوم من العرب من خزاعة أو غيرهم، كانوا يعبدون رجالاً من الجن، فأسلم الجنيون وبقي الكفار يعبدونهم فأنزل الله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾... الآية، وعن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في الذين كانوا يعبدون عزيزاً والمسيح وأمه، وعنه أيضاً، وعن ابن مسعود، وابن زيد، والحسن: أنها نزلت في عبدة الملائكة. وعن ابن عباس أنها نزلت في عبدة الشمس والقمر والكواكب وعزير والمسيح وأمه.

وهذا المعنى الذي بينه - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن كل معبود من دون الله لا ينفع عابده، وأن كل معبود من دونه مفتقر إليه ومحتاج له - جل وعلا - بينه أيضاً في مواضع أخرى، كقوله «في سبأ» ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْفَعَالٍ دَرَجَةً فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٦١﴾﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُمْ ﴿سبأ: ٢٢ - ٢٣﴾ وقوله «في الزمر»: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا

تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُنْسِكَةٌ رَحْمَتِي قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ [الزمر: ٣٨]، إلى غير ذلك من الآيات، وقد قدمنا «في سورة المائدة» أن المراد بالوسيلة في هذه الآية الكريمة «وفي آية المائدة» هو التقرب إلى الله بالعمل الصالح، ومنه قول لبيد:

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم بلى كل ذي لب إلى الله واسل
وقد قدمنا «في المائدة» أن التحقيق أن قول عترة:

إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلي وتخضبي
من هذا المعنى، كما قدمنا أنها تجمع على وسائل، كقوله:

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا وعاد التصافي بيننا والوسائل
وأصح الأعراب في قوله: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أنه بدل من واو الفاعل في قوله: ﴿يَلْبِغُونَ﴾ وقد أوضحنا هذا «في سورة المائدة» بما أغنى عن إعادته هنا، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرَبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْيَسَكَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾. قال بعض أهل العلم: في هذه الآية الكريمة حذف الصفة - أي وإن من قرية ظالمة إلا نحن مهلكوها - وهذا النعت المحذوف دلت عليه آيات من كتاب الله تعالى؛ كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصاص: ٥٩] وقوله: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]؛ أي بل لا بد أن تنذرهم الرسل فيكفروا بهم وبربهم، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [الأنعام: ١٧]، وقوله: ﴿وَكَايْنِ مِنْ قَرَبَةٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُشُلِهِ فَمَاسَبَّتْهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْتُهَا عَذَابًا نَكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرَهَا خُسرًا ﴿٩﴾﴾ [الطلاق] إلى غير ذلك من الآيات، وغاية ما في هذا القول حذف النعت مع وجود أدلة تدل عليه، ونظيره في القرآن قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلَكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]؛ أي كل سفينة صالحة؛ بدليل أن خرق الخضر للسفينة التي ركب فيها هو وموسى يريد به سلامتها من أخذ الملك لها؛ لأنه لا يأخذ المعيبة التي فيها الخرق وإنما يأخذ الصحيحة، ومن حذف النعت قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَقْنَنَ جِثَّتْ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧٨]، أي بالحق الواضح الذي لا لبس معه في صفات البقرة المطلوبة، ونظيره من كلام العرب قول الشاعر، وهو المرقش الأكبر:

ورب أسيلة الخدين بكر مهففة لها فرع وجيد
أي فرع فاحم وجيد طويل، وقول عبيد بن الأبرص:

من قوله قول ومن فعله فعل ومن نائله نائل
أي قوله قول فصل، وفعله فعل جميل، ونائله نائل جزيل، وإلى هذا أشار في الخلاصة بقوله:

وما من المنعوت والنعت عقل يجوز حذفه وفي النعت يقل
وقال بعض أهل العلم: الآية عامة، فالقرية الصالحة إهلاكها بالموت، والقرية
الطالحة إهلاكها بالعذاب، ولا شك أن كل نفس ذائقة الموت، والمراد بالكتاب:
اللوح المحفوظ، والمسطور: المكتوب، ومنه قول جرير:

من شاء بايعته مالي وخلعته ما تكمل التيم في ديوانها سطرًا

وما يرويه مقاتل عن كتاب الضحاك بن مزاحم في تفسير هذه الآية من أن مكة
تخربها الحبشة، وتهلك المدينة بالجوع، والبصرة بالغرق، والكوفة بالترك، والجبال
بالصواعق والرواجف، وأما خراسان فهلاكها ضروب، ثم ذكر بلداً بلداً لا يكاد يعول
عليه؛ لأنه لا أساس له من الصحة، وكذلك ما يروى عن وهب بن منبه أن الجزيرة آمنة
من الخراب حتى تخرب أرمينية، وأرمينية آمنة حتى تخرب مصر، ومصر آمنة حتى
تخرب الكوفة، ولا تكون الملحمة الكبرى حتى تخرب الكوفة. فإذا كانت الملحمة
الكبرى فتحت قسطنطينية على يد رجل من بني هاشم، وخراب الأندلس من قبل الزنج،
وخراب إفريقية من قبل الأندلس، وخراب مصر من انقطاع النيل واختلاف الجيوش
فيها، وخراب العراق من الجوع، وخراب الكوفة من قبل عدو يحصرهم ويمنعهم
الشراب من الفرات، وخراب البصرة من قبيل الغرق، وخراب الأبله من عدو يحصرهم
براً وبحراً، وخراب الري من الديلم، وخراب خراسان من قبل التبت، وخراب التبت من
قبل الصين، وخراب الهند واليمن من قبل الجراد والسلطان، وخراب مكة من الحبشة،
وخراب المدينة من الجوع، اهـ. كل ذلك لا يعول عليه؛ لأنه من قبيل الإسرائيليات.

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّنَا ثُمُودُ النَّاقَةِ مُبْصِرَةٌ فَظَلَمُوا بِهَا﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية
الكريمة أنه أتى ثمود الناقة في حال كونها آية مبصرة، أي بينة تجعلهم يبصرون الحق
واضحاً لا لبس فيه فظلموا بها، ولم يبين ظلمهم بها ها هنا، ولكنه أوضحه في مواضع آخر
كقوله: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾
[الشمس: ١٤]، وقوله: ﴿فَأَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ [القمر: ١٦] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية
الكريمة أنه أخبر نبيه ﷺ أنه أحاط بالناس؛ أي فهم في قبضته يفعل فيهم كيف يشاء
فيسلط نبيه عليهم ويحفظه منهم. قال بعض أهل العلم: ومن الآيات التي فصلت بعض
التفصيل في هذه الإحاطة قوله تعالى: ﴿سَبِّحْهُمْ لَبَّحْمُ وَيَكُونُ الذُّبُرُ﴾ [القمر: ١٥]، وقوله:
﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتٌ يُوتُونَ﴾ الآية [آل عمران: ١٢]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾
[المائدة: ٦٧]. وفي هذا أن هذه الآية مكية، وبعض الآيات المذكورة مدني، أما آية
القمر وهي قوله: ﴿سَبِّحْهُمْ لَبَّحْمُ﴾ [القمر: ٤٥] الآتية فلا إشكال في البيان بها لأنها مكية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَرْثِيَا إِلَهٍ أَرِثَكَ إِلَّا وُتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي

الْقُرْآنَ ﴿١﴾. التحقيق في معنى هذه الآية الكريمة أن الله - جل وعلا - جعل ما أراه نبيه ﷺ من الغرائب والعجائب ليلة الإسراء والمعراج فتنة للناس؛ لأن عقول بعضهم ضاقت عن قبول ذلك، معتقدة أنه لا يمكن أن يكون حقاً، قالوا: كيف يصلي ببيت المقدس، ويخترق السبع الطباق، ويرى ما رأى في ليلة واحدة، ويصبح في محله بمكة؟ هذا محال! فكان هذا الأمر فتنة لهم لعدم تصديقهم به، واعتقادهم أنه لا يمكن، وأنه - جل وعلا - جعل الشجرة الملعونة في القرآن التي هي شجرة الزقوم فتنة للناس؛ لأنهم لما سمعوه ﷺ يقرأ: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿١٦﴾ [الصافات] قالوا: ظهر كذبه؛ لأن الشجر لا ينبت في الأرض اليابسة، فكيف ينبت في أصل النار؟ فصار ذلك فتنة، وبين أن هذا هو المراد من كون الشجرة المذكورة فتنة لهم بقوله: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ تُزَلُّوا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ﴾ ﴿١٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ [الصافات]، وهو واضح كما قرئ، وأشار في موضع آخر إلى الرؤيا التي جعلها فتنة لهم، وهو قوله: ﴿أَفَسَرُّونَهُ عَلَى مَا رَأَى﴾ ﴿٢٠﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿٢١﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿٢٢﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴿٢٣﴾ إِذْ يَنْفَى السِّدْرَةَ مَا يَفْئِي ﴿٢٤﴾ مَا ذَاكَ الْبَصَرُ وَمَا كُنَى ﴿٢٥﴾ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴿٢٦﴾ [النجم]. وقد قدمنا إيضاح هذا في أول هذه السورة الكريمة، وبهذا التحقيق الذي ذكرنا تعلم أن قول من قال: إن الرؤيا التي أراها الله إياها هي رؤياه في المنام بني أمية على منبره، وإن المراد بالشجرة الملعونة في القرآن بنو أمية لا يعول عليه؛ إذ لا أساس له من الصحة، والحديث الوارد بذلك ضعيف لا تقوم به حجة، وإنما وصف الشجرة باللعن لأنها في أصل النار، وأصل النار بعيد من رحمة الله، واللعن: الإبعاد عن رحمة الله، أو لخبث صفاتها التي وصفت بها في القرآن، أو للعن الذين يطعمونها، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ ﴿١١﴾. قوله تعالى في هذه الآية عن إبليس: ﴿أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ يدل فيه إنكار إبليس للِسجود بهمزة الإنكار على إياه واستكباره عن السجود لمخلوق من طين، وصرح بهذا الإباء والاستكبار في مواضع أخرى، فصرح بهما معاً «في البقرة» في قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنِ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] وصرح بإبائه «في الحجر» بقوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنِ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٦] وباستكباره في «ص» بقوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص: ٧٦] وبين سبب استكباره بقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] كما تقدم إيضاحه في «البقرة»، وقوله: ﴿طِينًا﴾ حال؛ أي لمن خلقته في حال كونه طيناً، وتجويز الزمخشري كونه حالاً من نفس الموصول غير ظاهر عندي. وقيل: منصوب بنزع الخافض؛ أي من طين، وقيل: تمييز، وهو أضعفها. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِسْمَةِ لَأَخْتِنَكَ﴾

ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن إبليس اللعين قال له: ﴿أَرَأَيْتَ أَنِّي بِكَ﴾ أي أخبرني، هذا الذي كرمته علي فأمرني بالسجود له وهو آدم؛ أي لم كرمته علي وأنا خير منه! والكاف في ﴿أَرَأَيْتَ﴾ حرف خطاب، وهذا مفعول به لأرأيت، والمعنى: أخبرني. وقيل: إن الكاف مفعول به، و«هذا» مبتدأ، وهو قول ضعيف. وقوله ﴿لَأَخْنِكَ ذُرِّيَّتَهُ﴾ قال ابن عباس: لأستولين عليهم، وقاله الفراء، وقال مجاهد: لأحتوينهم. وقال ابن زيد: لأضلنهم. قال القرطبي: والمعنى متقارب؛ أي لأستأصلنهم بالإغواء والإضلال، ولأجتاحنهم.

قال مقبده - عفا الله عنه -: الذي يظهر لي في معنى الآية أن المراد بقوله: ﴿لَأَخْنِكَ ذُرِّيَّتَهُ﴾، أي لأقودنهم إلى ما أشاء، من قول العرب: احتنكت الفرس: إذا جعلت الرسن في حنكه لتقوده حيث شئت. تقول العرب: حنكت الفرس أحنكه (من باب ضرب ونصر) واحتنكته: إذا جعلت فيه الرسن؛ لأن الرسن يكون على حنكه. وقول العرب: احتنك الجراد الأرض؛ أي أكل ما عليها، من هذا القبيل؛ لأنه يأكل بأفواهه، والحنك حول الفم. هذا هو أصل الاستعمال في الظاهر؛ فالاشتقاق في المادة من الحنك، وإن كان يستعمل في الإهلاك مطلقاً والاستئصال كقول الرازي:

أشكو إليك سنة قد أجهفت جهداً إلى جهد بنا وأضعفت
واحتنكت أموالنا واجتلفت

وهذا الذي ذكر - جل وعلا - عن إبليس في هذه الآية من قوله: ﴿لَأَخْنِكَ ذُرِّيَّتَهُ...﴾ الآية، بينه أيضاً في مواضع آخر من كتابه؛ كقوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿فَاعْرِضْكَ لَعُودِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه، في «سورة النساء» وغيرها.

وقوله في هذه الآية: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ بين المراد بهذا القليل في مواضع آخر كقوله: ﴿لَعُودِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص]، وقوله: ﴿لَأَرْزِيَنَّهُمْ لَهْمٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا عُودِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٦﴾﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الحجر] كما تقدم إيضاحه.

وقول إبليس في هذه الآية: ﴿لَأَخْنِكَ ذُرِّيَّتَهُ...﴾ الآية. قاله ظناً منه أنه سيقع وقد تحقق له هذا الظن، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [سبأ].

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿١٢٣﴾﴾. قال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة: ﴿قَالَ أَذْهَبَ﴾ هذا أمر إهانة؛ أي اجهد جهداً، فقد أنظرناك ﴿فَمَنْ يَبْعَكَ﴾ أي أطاعك من ذرية آدم ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ أي وافرأ؛ عن مجاهد وغيره. وقال الزمخشري وأبو حيان: ﴿أَذْهَبَ﴾ ليس من الذهاب

الذي هو نقيض المجيء، وإنما معناه: امض لشأنك الذي اخترته. وعقبه بذكر ما جره سوء اختياره في قوله: ﴿فَمَنْ يَمَعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَوْفُورًا﴾.

وهذا الوعيد الذي أوعد به إبليس ومن تبعه في هذه الآية الكريمة بينه أيضاً في مواضع أخر كقوله: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ (٨٤) ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ يَمَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٥) [ص]، وقوله: ﴿فَنَكْبِتُهَا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ (٩٤) ﴿وَنَحْنُ إِلَى إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ (٩٥) [الشعراء] إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿جَزَاءُ﴾ مفعول مطلق منصوب بالمصدر قبله؛ على حد قول ابن مالك في الخلاصة:

بمحله أو فعل أو وصف نصب وكونه أصلاً لهذين انتخاب

والذي يظهر لي أن قول من قال: إن «موفوراً» بمعنى وافر لا داعي له؛ بل «موفوراً» اسم مفعول على بابهِ من قولهم: وفر الشيء يفره، فالفاعل وافر، والمفعول موفور؛ ومنه قول زهير:

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

وعليه فالعنى جزاء مكماً متمماً، وتستعمل هذه المادة لازمة أيضاً تقول: وفر ماله فهو وافر؛ أي كثير؛ وقوله: «موفوراً» نعت للمصدر قبله كما هو واضح، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَلْبَبَ عَلَيْهِمْ حِجْلِكَ وَرَجِلَكَ وَشَارَكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ مَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (٩٦). قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة: هذا أمر قدرى؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيْطَانَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوْرَهُمْ أَوْ﴾ (٩٧) [مريم] أي تزعمهم إلى المعاصي إزعاجاً، وتسوقهم إليها سوقاً، انتهى.

قال مقيده - عفا الله عنه -: الذي يظهر لي أن صيغ الأمر في قوله ﴿وَأَسْتَفْزِرُ﴾، وقوله: ﴿وَأَلْبَبَ﴾، وقوله: ﴿وَشَارَكَهُمْ﴾ إنما هي للتهديد؛ أي افعل ذلك فسترى عاقبته الوخيمة كقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] وبهذا جزم أبو حيان في البحر، وهو واضح كما ترى، وقوله: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ﴾ أي استخف من استطعت أن تستفزه منهم، فالمفعول محذوف لدلالة المقام عليه، والاستفزاز: الاستخفاف. ورجل فز: أي خفيف، ومنه قيل لولد البقرة: فز؛ لخفة حركته. ومنه قول زهير:

كما استغاث بسبي فز غيطة خاف العيون ولم ينظر به الحشك

«والسبي» في بيت زهير بالسين المهملة مفتوحة بعدها ياء ساكنة وآخره همز: اللبن الذي يكون في أطراف الأجلاف قبل نزول الدرة. والحشك أصله السكون؛ لأنه مصدر حشكت الدرة، إذا امتلأت، وإنما حركه زهير للوزن. والغيطة هنا بقرة الوحش ذات اللبن، وقوله: ﴿بِصَوْتِكَ﴾ قال مجاهد: هو اللهو والغناء والمزامير؛ أي استخف من

استطعت أن تستخفهم باللهو والغناء والمزامير، وقال ابن عباس: ضوته يشمل كل داغ دعا إلى معصية؛ لأن ذلك إنما وقع طاعة له، وقيل: ﴿بَصَوْتِكَ﴾ أي وسوستك. وقوله: ﴿وَلَجَلَبَ﴾ أصل الإجلاب: السوق بجلبة من السائق. والجلبة: الأصوات؛ تقول العرب: أجلب على فرسه، وجلب عليه: إذا صاح به من خلفه واستحثه للسبق. والخييل تطلق على نفس الأفراس، وعلى الفوارس الراكبين عليها، وهو المراد في الآية. والرجل: جمع راجل، كما قدمنا أن التحقيق جمع الفاعل وصفاً على فعل بفتح فسكون وأوضحنا أمثله بكثرة، واخترنا أنه جمع موجود أغفله الصرفيون؛ إذ ليست فعل (بفتح فسكون) عندهم من صيغ الجموع. فيقولون فيما ورد من ذلك كراجل ورجل، وصاحب وصحب، وراكب وركب، وشارب وشرب - إنه اسم جمع ولا جمع، وهو خلاف التحقيق.

وقرأ جفيص عن عاصم «ورجلك» بكسر الجيم، لغة في الرجل جمع راجل. وقال الزمخشري: هذه القراءة على أن فعلاً بمعنى فاعل، نحو تعب وتاعب ومعناه وجمعك الرجل، اه أي الماشيين على أرجلهم.

﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾. أما مشاركته لهم في الأموال فعلى أصناف: منها: ما حرموا على أنفسهم من أموالهم طاعة له؛ كالبخائر والسوائب ونحو ذلك، وما يأمرهم به من إنفاق الأموال في معصية الله تعالى، وما يأمرهم به من اكتساب الأموال بالطرق المحرمة شرعاً كالربا والغصب وأنواع الخيانات؛ لأنهم إنما فعلوا ذلك طاعة له.

وأما مشاركته لهم في الأولاد فعلى أصناف أيضاً: منها: قتلهم بعض أولادهم طاعة له.

ومنها: أنهم يمجسون أولادهم ويهدونهم وينصرونهم طاعة له وموالة.

ومنها: تسميتهم أولادهم عبد الحارث وعبد شمس وعبد العزى ونحو ذلك؛ لأنهم بذلك سموا أولادهم عبيداً لغير الله طاعة له، ومن ذلك أولاد الزنى؛ لأنهم إنما تسبوا في وجودهم بارتكاب الفاحشة طاعة له إلى غير ذلك.

فإذا عرفت هذا، فاعلم أن الله بين في آيات من كتابه بعض ما تضمنته هذه الآية من مشاركة الشيطان لهم في الأموال والأولاد، كقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام]، فقتلهم أولادهم المذكور في هذه الآية طاعة للشيطان مشاركة منه لهم في أولادهم حيث قتلهم في طاعته. وكذلك تحريم بعض ما رزقهم الله المذكور في الآية طاعة له مشاركة منه لهم في أموالهم أيضاً، وكقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٧]، وكقوله: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَفْنَدُ وَحَرَّتْ جِجْرٌ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرَعْمِهِمْ وَأَنعَمْتُ حَرَمَتِ

طُهُورَهَا وَتَقَرُّونَ أَمْرَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَمْرًا عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٥﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَمْ عَلَىٰ اللَّهِ تَقَرُّونَ﴾ [يونس]، إلى غير ذلك من الآيات، ومن الأحاديث المبينة بعض مشاركته لهم فيما ذكر - ما ثبت في صحيح مسلم من حديث عياض بن حماد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله - عز وجل - إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم»، وما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله فقال بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان»، انتهى.

فاجتيال الشياطين لهم عن دينهم، وتحريمها عليهم ما أحل الله لهم في الحديث الأول، وضررها لهم لو تركوا التسمية في الحديث الثاني - كل ذلك من أنواع مشاركتهم فيهم. وقوله: «فاجتالتهم» أصله افتعل من الجولان؛ أي استخففتهم الشياطين فجالوا معهم في المضلال؛ يقال: جال واجتال: إذا ذهب وجاء، ومنه الجولان في الحرب: واجتال الشيء إذا ذهب به وساقه. والعلم عند الله تعالى، والأمر في قوله: ﴿وَعَدَهُمْ﴾ كالأمر في قوله: ﴿وَأَسْفَزْ﴾، وقوله ﴿وَأَجَلَبَ﴾ وقد قدمنا أنه للتهديد.

وقوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠] بين فيه أن مواعيد الشيطان كلها غرور وباطل؛ كوعده لهم بأن الأصنام تشفع لهم وتقربهم عند الله زلفى، وأن الله لما جعل لهم المال والولد في الدنيا سيجعل لهم مثل ذلك في الآخرة، إلى غير ذلك من المواعيد الكاذبة.

وقد بين تعالى هذا المعنى في مواضع آخر كقوله: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]، وقوله: ﴿وَلَكِنَّكُمْ فُتِنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَفُتِنْتُمْ وَأَرْبَبْتُمْ وَعَزَّكُمْ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [الحديد: ١٤]، وقوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾... [إبراهيم: ٢٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن عباده الصالحين لا سلطان للشيطان عليهم، فالظاهر أن في الآية الكريمة حذف الصفة كما قدرنا، ويدل على الصفة المحذوفة إضافته العباد إليه إضافة تشريف، وتدل على هذه الصفة المقدرة أيضاً آيات آخر كقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَكَ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [٩٩]، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ [النحل: ١٠٠]، وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [١١]، إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهَ فَلَمَّا تَجَدَّكَ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ۝٦٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ۝٦٨ أَمْ آمَنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ۝٦٩﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار إذا مسهم الضر في البحر؛ أي اشتدت عليهم الريح فغشيتهم أمواج البحر كأنها الجبال، وظنوا أنهم لا خلاص لهم من ذلك ضل عنهم؛ أي غاب عن أذهانهم وخواطرهم في ذلك الوقت كل ما كانوا يعبدون من دون الله - جل وعلا - فلا يدعون في ذلك الوقت إلا الله - جل وعلا - وحده؛ لعلمهم أنه لا ينقذ من ذلك الكرب وغيره من الكرب إلا هو وحده - جل وعلا - فأخلصوا العبادة والدعاء له وحده في ذلك الحين الذي أحاط بهم فيه هول البحر، فإذا نجاهم الله وفرج عنهم، ووصلوا البر رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَدَّكَ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ۝٦٧﴾.

وهذا المعنى المذكور في هذه الآية الكريمة أوضحه الله - جل وعلا - في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتَ فِي أَلْفَاكٍ وَجَّيْنِ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَئِنْ آمَنَّا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝٢٣﴾ فَلَمَّا أَجْتَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ [يونس: ٢٢ - ٢٣]، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝٢٤﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْكِرُونَ ۝٢٥﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي أَلْفَاكٍ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا تَجَدَّكَ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْكِرُونَ ۝٢٦﴾ [العنكبوت]، وقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَاطِلٌ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا تَجَدَّكَ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ۝٢٧﴾ [لقمان]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حُلُّهُ يَفْعَةً مِنْهُ نَسَىٰ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلٍ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۝٢٨﴾ [الزمر: ٨]، إلى غير ذلك من الآيات كما قدمنا إيضاحه «في سورة الأنعام» وغيرها.

ثم إن الله - جل وعلا - بين في هذا الموضع الذي نحن بصدده سخافة عقول الكفار، وأنهم إذا وصلوا إلى البر ونجوا من هول البحر رجعوا إلى كفرهم آمنين عذاب الله؛ مع أنه قادر على إهلاكهم بعد وصولهم إلى البر، بأن يخسف بهم جانب البر الذي يلي البحر فتبتلعهم الأرض، أو يرسل عليهم حجارة من السماء فتهلكهم، أو يعيدهم مرة أخرى في البحر فتغرقهم أمواجه المتلاطمة. كما قال هنا منكرًا عليهم أمنهم وكفرهم بعد وصول البر: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۝٦٨﴾ وهو المطر أو الريح اللذين فيهما الحجارة ﴿أَمْ آمَنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ۝٦٩﴾ أي بسبب كفرهم؛ فالباء سببية، وما مصدرية، والقاصف: ريح البحار الشديدة التي تكسر المراكب وغيرها، ومنه قول أبي تمام:

إن الرياح إذا ما أعصفت قصفت عيدان نجد ولا يعبان بالرتم

يعني إذا ما هبت بشدة كسرت عيدان شجر نجد رتماً كان أو غيره.

وهذا المعنى الذي بينه - جل وعلا - هنا من قدرته على إهلاكهم في غير البحر بخسف أو عذاب من السماء - أوضحه في مواضع آخر كقوله: ﴿إِنْ شَاءَ نَخَسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ ... الآية [سبا: ٩]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ ... الآية [الأنعام: ٦٥]، وقوله: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمَلُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ (١٧) [الملك]، وقوله «في قوم لوط»: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا نَالَ لُوطٌ نَجَاتَهُمْ سَجَرٍ (٢٤) [القمر]، وقوله: ﴿لِيُرْسِلَ عَلَيْهِمْ جِبَارَةً مِّنْ طِينٍ (٢٣)﴾ [الذاريات] إلى غير ذلك من الآيات، والحاصب في هذه الآية قد قدمنا أنه قيل إنها السحابة أو الريح، وكلا القولين صحيح؛ لأن كل ريح شديدة ترمي بالحصياء تسمى حاصباً وحصة. وكل سحابة ترمي بالبرد تسمى حاصباً أيضاً؛ ومنه قول الفرزدق:

مستقبلين شمال الشام يضربنا بحاصب كنديف القطن منشور
وقول لبيد:

جرت عليها أن خوت من أهلها أذيالها كل عصف حصبه

وقوله في هذه الآية: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ فعيل بمعنى فاعل؛ أي تابعاً يتبعنا بالمطالبة بآركم؛ كقوله: ﴿قَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)﴾ [الشمس]، أي لا يخاف عاقبة تبعة تلحقه بذلك. وكل مطالب بدين أو ثار أو غير ذلك تسميه العرب تبيعاً؛ ومنه قول الشماخ يصف عقاباً:

تلوذ ثعالب الشرفين منها كما لاذ الغريم من التببيع

أي كعياذ المدين من صاحب الدين الذي يطالبه بغرمه منه، ومنه قول الآخر:

غدوا وغدت غزلانهم وكأنها ضوامن غرم لدهن تببيع

أي خصمهن مطالب بدين، ومن هذا القليل قوله تعالى: ﴿فَأَنبِئْ بِالْمَعْرُوفِ وَادَّأءِ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وقوله ﷺ: «إذا أتبع أحدكم على مليء فليتبّع» وهذا هو معنى قول ابن عباس وغيره «تبيعاً» أي نصيراً، وقول مجاهد نصيراً ثائراً.

تنبيه: لا يخفى على الناظر في هذه الآية الكريمة أن الله ذم الكفار وعاتبهم بأنهم في وقت الشدائد والأحوال خاصة يخلصون العبادة له وحده، ولا يصرفون شيئاً من حقه لمخلوق. وفي وقت الأمن والعافية يشركون به غيره في حقوقه الواجبة له وحده، التي هي عبادته وحده في جميع أنواع العبادة، ويعلم من ذلك أن بعض جهلة المتسمين باسم الإسلام أسوأ حالاً من عبدة الأوثان؛ فإنهم إذا دهمتهم الشدائد، وغشيتهم الأحوال

والكروب التجئوا إلى غير الله ممن يعتقدون فيه الصلاح؛ في الوقت الذي يخلص فيه الكفار العبادة لله، مع أن الله - جل وعلا - أوضح في غير موضع أن إجابة المضطر، وإنجاءه من الكرب من حقوقه التي لا يشاركه فيها غيره.

ومن أوضح الأدلة في ذلك قوله تعالى: «في سورة النمل»: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَوَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ هُمْ يَدْعُونَ ۖ﴾ (١٦) ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۖ﴾ (١٧) ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَوَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ ۖ﴾ (١٨) ... [النمل] الآيات، فتراه - جل وعلا - في هذه الآيات الكريمات جعل إجابة المضطر إذا دعا وكشف سوء عنه من حقه الخالص الذي لا يشاركه فيه أحد؛ كخلقه السموات والأرض، وإنزاله الماء من السماء، وإنباته به الشجر، وجعله الأرض قراراً، وجعله خلالها أنهاراً، وجعله لها رواسي، وجعله بين البحرين حاجزاً، إلى آخر ما ذكر في هذه الآيات من غرائب صنعته وعجائبه التي لا يشاركه فيها أحد، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وهذا الذي ذكره الله - جل وعلا - في هذه الآيات الكريمات كان سبب إسلام عكرمة بن أبي جهل، فإنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فاراً منه إلى بلاد الحبشة، فركب في البحر متوجهاً إلى الحبشة؛ فجاءتهم ريح عاصف فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده. فقال عكرمة في نفسه: والله إن كان لا ينفع في البحر غيره فإنه لا ينفع في البر غيره! اللهم لك علي عهد، لئن أخرجتني منه لأذهبن فلاضعن يدي في يد محمد ﷺ فلاأجدنه رؤوفاً رحيماً. فخرجوا من البحر، فخرج إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه ﷺ، اهـ.

والظاهر أن الضمير في قوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَا﴾ راجع إلى الإهلاك بالإغراق المفهوم من قوله: ﴿فَيُغْرِقُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي لا تجدون تبعاً يتبعنا بئاركم بسبب ذلك الإغراق.

وقال صاحب روح المعاني: وضمير «به» قيل للإرسال، وقيل للإغراق، وقيل لهما باعتبار ما وقع، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾. قال بعض أهل العلم: من تكميمه لبني آدم خلقه لهم على أكمل الهيئات وأحسنها؛ فإن الإنسان يمشي قائماً منتصباً على رجليه، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع، ويأكل بفمه. ومما يدل على هذا من القرآن قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين، ١) وقوله: ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤] وفي الآية كلام غير هذا، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَلَدِ وَالْبَحْرِ...﴾. أي في البر على الأنعام، وفي البحر

على السفن. والآيات الموضحة لذلك كثيرة جداً كقوله: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون]، وقوله: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف]، وقد قدمنا هذا مستوفى بإيضاح «في سورة النحل».

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ﴾. قال بعض العلماء: المراد «بإمامهم» هنا كتاب أعمالهم. ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٣]، وقوله: ﴿وَرَبِّ كُلِّ أُمَّةٍ جَائِئٌ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الحاثية]. وقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩]، وقوله: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزِمَتَهُ طَبْعُهُ فِي عُقُبِهِ وَنُخِرَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ [الأنبياء: ١٠٣] واختار هذا القول ابن كثير؛ لدلالة آية «يس» المذكورة عليه. وهذا القول رواية عن ابن عباس ذكرها ابن جرير وغيره، وعزاه ابن كثير لابن عباس وأبي العالية والضحاك والحسن. وعن قتادة ومجاهد أن المراد «بإمامهم» نبيهم.

ويدل على هذا القول قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ١٧]، وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النحل: ٨٩]، وقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالشَّهَادَةِ﴾ [الزمر: ٦٩].

قال بعض السلف: وفي هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث؛ لأن إمامهم النبي ﷺ. وقال بعض أهل العلم: «بإمامهم»؛ أي بكتابهم الذي أنزل على نبيهم من التشريع، وممن قال به: ابن زيد، واختاره ابن جرير.

وقال بعض أهل العلم: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ﴾؛ أي ندعو كل قوم بمن يأتون به، فأهل الإيمان أئمتهم الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - وأهل الكفر أئمتهم سادتهم وكبرائهم من رؤساء الكفرة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكْفُرُونَ إِلَى الْفُكَارِ﴾ [القصص: ٤١]. وهذا الأخير أظهر الأقوال عندي، والعلم عند الله تعالى. فقد رأيت أقوال العلماء في هذه الآية، وما يشهد لها من قرآن.

وقوله بعد هذا: ﴿فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابُهُ بِسْمِيهِ﴾ من القرائن الدالة على ترجيح ما اختاره ابن كثير من أن الإمام في هذه الآية كتاب الأعمال.

وذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الذين يؤتون كتابهم بأيمانهم يقرؤونه ولا يظلمون. فتبلياً.

وقد أوضح هذا في مواضع أخر كقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابُهُ بِسْمِيهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِي﴾ [إلى قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابُهُ بِسْمَالِهِ فَيَقُولُ يَلْتَنِي لَرَأَوْتُ كِتَابِي﴾ [الحاقة]، وقد قدمنا هذا مستوفى في أول هذه السورة الكريمة.

وقول من قال: إن المراد «بإمامهم» كمحمد بن كعب «أمهاتهم» أي يقال: يا فلان ابن فلانة، قول باطل بلا شك. وقد ثبت في الصحيح من حديث ابن عمر مرفوعاً: «يرفع يوم القيامة لكل غادر لواء فيقال هذه غدره فلان ابن فلان».

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۖ﴾. المراد بالعمى في هذه الآية الكريمة عمى القلب لا عمى العين، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]؛ لأن عمى العين مع إبصار القلب لا يضرب، بخلاف العكس؛ فإن أعمى العين يتذكر فتنفعه الذكرى ببصيرة قلبه، قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّكُمْ يَزَكُّ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَىٰ (٤)﴾ [عبس].

إذا بصر القلب المروءة والتقى فإن عمى العينين ليس يضير
وقال ابن عباس رضي الله عنهما لما عمي في آخر عمره، كما روي عنه من وجوه، وذكره ابن عبد البر وغيره:

إن يأخذ الله من عيني نورهما ففي لساني وقلبي منهما نور
قلبي ذكي وعقلي غير ذي دخل وفي فمي صارم كالسيف مأثور
وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ قال بعض أهل العلم: ليست الصيغة صيغة تفضيل بل المعنى فهو في الآخرة أعمى كذلك لا يهتدي إلى نفع وبهذا جزم الزمخشري:

قال مقبده - عفا الله عنه -: الذي يتبادر إلى الذهن أن لفظة «أعمى» الثانية صيغة تفضيل؛ أي هو أشد عمى في الآخرة.

ويدل عليه قوله بعده: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فإنها صيغة تفضيل بلا نزاع، والمقرر في علم العربية أن صيغتي التعجب وصيغة التفضيل لا يأتیان من فعل الوصف منه على أفعال الذي أثناء فعلاء، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

وغير ذي وصف يضاهي أشهلاً

والظاهر أن ما وجد في كلام العرب مصوغاً من صيغة تفضيل أو تعجب غير مستوف للشروط، أنه يحفظ ولا يقاس عليه؛ كما أشار له في الخلاصة بقوله:

وبالنسبة لحكم لغير ما ذكر ولا تقس على الذي منه أثر
ومن أمثلة ذلك قوله:

ما في المعالي لكم ظل ولا ثمر وفي المخازي لكم أشباح أشياخ
أما الملوك فأنتم اليوم الأمهم لوماً وأبيضهم سربال طباخ

وقال بعض العلماء: إن قوله في هذا البيت «وأبيضهم سربال طباخ» ليس صيغة تفضيل، بل المعنى أنت وحدك الأبيض سربال طباخ من بينهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوتِيتَ إِلَّا نَكْثَ لِفَتْرَى عَلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِذَا لَأَتَّخِذُوكَ خَلِيلًا ۖ﴾. روي عن سعيد بن جبير أنها نزلت في المشركين من قريش، قالوا له ﷺ: لا ندعك تستلم الحجر الأسود حتى تلم بآلهتنا، وعن ابن عباس في رواية عطاء أنها نزلت في وفد ثقيف، أتوا النبي فسألوه شططاً قالوا: متعنا بآلهتنا سنة حتى نأخذ ما يهدى لها، وحرم وادينا كما حرمت مكة، إلى غير ذلك من الأقوال في سبب نزولها، وعلى كل حال فالعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

ومعنى الآية الكريمة أن الكفار كادوا يفتنونه؛ أي قاربوا ذلك، ومعنى يفتنونك: يزلونك عن الذي أوحينا إليك لتفترى علينا غيره مما لم نوحه إليك.

قال بعض أهل العلم: قاربوا ذلك في ظنهم لا فيما في نفس الأمر، وقيل: معنى ذلك أنه خطر في قلبه ﷺ أن يوافقهم في بعض ما أحبوا ليجرهم إلى الإسلام لشدة حرصه على إسلامهم.

وبين في موضع آخر أنهم طلبوا منه الإتيان بغير ما أوحى إليه، وأنه امتنع أشد الامتناع وقال لهم: إنه لا يمكنه أن يأتي بشيء من تلقاء نفسه؛ بل يتبع ما أوحى إليه ربه، وذلك في قوله: ﴿قَالَ الَّذِي لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّهُ يَفْتَرِي عَنَّا هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي بِرَبِّي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥]. وقوله في هذه الآية: ﴿وَلَنْ كَادُوا﴾ هي المخففة من الثقيلة، وهي هنا مهملة، واللام هي الفارقة بينها وبين إن النافية كما قال في الخلاصة:

وخففت إن فقل العمل وتلزم اللام إذا ما تهمل والغالب أنها لا تكون كذلك مع فعل إلا إن كان ناسخاً كما في هذه الآية، قال في الخلاصة:

والفعل إن لم يك ناسخاً فلا تلتفيه غالباً بأن ذي موصل كما هو معروف في النحو.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَشِّرَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۖ﴾ (٧٤) إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۖ﴾ (٧٥). بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة تشبته لنبيه ﷺ، وعصمته له من الركون إلى الكفار، وأنه لو ركن إليهم لأذاقه ضعف الحياة وضعف الممات؛ أي مثلي عذاب الحياة في الدنيا ومثلي عذاب الممات في الآخرة؛ وبهذا جزم القرطبي في تفسيره. وقال بعضهم: المراد بضعف عذاب الممات: العذاب المضاعف في القبر، والمراد بضعف الحياة: العذاب المضاعف في الآخرة بعد حياة البعث. وبهذا جزم الزمخشري وغيره، والآية تشمل الجميع، وهذا الذي ذكره هنا من شدة الجزاء لنبيه لو خالف، بينه في غير هذا الموضع كقوله: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ (٤٨) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ (٤٩) ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَيْتَ﴾ (٥١) الآية [الحاقة].

وهذا الذي دلت عليه هذه الآية من أنه إذا كانت الدرجة أعلى كان الجزاء عند المخالفة أعظم بينه في موضع آخر كقوله: ﴿يَنْسَأَ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ فِيْ حَشَةٍ مُّبِيْنَةٍ يُضَعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]. ولقد أجاد من قال:

وكبائر الرجل الصغير صغائر وصغائر الرجل الكبير كبائر

تنبيه: هذه الآية الكريمة أوضحت غاية الإيضاح براءة نبينا ﷺ من مقارنة الركون إلى الكفار، فضلاً عن نفس الركون؛ لأن «لولا» حرف امتناع لوجود؛ فمقاربة الركون منعها «لولا» الامتناعية لوجود التثبيت من الله - جل وعلا - لأكرم خلقه ﷺ، فصح يقيناً انتفاء مقارنة الركون فضلاً عن الركون نفسه، وهذه الآية تبين ما قبلها، وأنه لم يقارب الركون إليهم البتة؛ لأن قوله: ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً﴾؛ أي قاربت تركن إليهم هو عين الممنوع بـ«لولا» الامتناعية كما ترى، ومعنى ﴿تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾: تميل إليهم.

قوله تعالى: ﴿أَقِرْ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ...﴾. قد بينا «في سورة النساء» أن هذه الآية الكريمة من الآيات التي أشارت لأوقات الصلاة؛ لأن قوله: ﴿لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾؛ أي لزوالها على التحقيق، فيتناول وقت الظهر والعصر؛ بدليل الغاية في قوله: ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ أي ظلامه، وذلك يشمل وقت المغرب والعشاء، وقوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ أي صلاة الصبح، كما تقدم إيضاحه. وأشرنا للآيات المشيرة لأوقات الصلوات كقوله: ﴿وَأَقِرْ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤]، وقوله: ﴿فَسَبِّحْنَا اللَّهَ حِينَ تُسُوبُ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [٧] الآية [الروم]، وأتممنا بيان ذلك من السنة في الكلام على قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، فراجعه هناك إن شئت. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [٨١]. الحق في لغة العرب: الثابت الذي ليس بزائل ولا مضمحل، والباطل: هو الذاهب المضمحل، والمراد بالحق في هذه الآية هو ما في هذا القرآن العظيم والسنة النبوية من دين الإسلام، والمراد بالباطل فيها الشرك بالله، والمعاصي المخالفة لدين الإسلام. وقد بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الإسلام جاء ثابتاً راسخاً، وأن الشرك بالله زهق؛ أي ذهب واضمحل وزال. تقول العرب: زهقت نفسه: إذا خرجت وزالت من جسده.

ثم بين - جل وعلا - أن الباطل كان زهوقاً، أي مضمحلاً غير ثابت في كل وقت، وقد بين هذا المعنى في غير هذا الموضع. وذكر أن الحق يزيل الباطل ويذهبه؛ كقوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَذْفُ بِالْحَقِّ عِلْمَ الْغُيُوبِ﴾ [٨١] قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ [٨٢] [سبا]، وقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقال صاحب الدر المنثور في الكلام على هذه الآية الكريمة، أخرج ابن أبي شيبة، والبخاري ومسلم، والترمذي والنسائي، وابن جرير وابن المنذر، وابن مردويه

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ مكة، وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩].

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو يعلى وابن المنذر عن جابر رضي الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ مكة، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً؛ فأمر بها رسول الله ﷺ فأكبت لوجهها، وقال: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

وأخرج الطبراني في الصغير، وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح، وعلى الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً؛ فشد لهم إبليس أقدامها بالرصاص؛ فجاء ومعه قضيب فجعل يهوي إلى كل صنم منها فيخر لوجهه فيقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ حتى مرَّ عليها كلها.

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية: وفي هذه الآية دليل على كسر نصب المشركين وجميع الأوثان إذا غلب عليهم، ويدخل بالمعنى كسر آلة الباطل كله وما لا يصلح إلا لمعصية الله كالطنابير والعيدان والمزامير التي لا معنى لها إلا اللهو بها عن ذكر الله.

قال ابن المنذر: وفي معنى الأصنام الصور المتخذة من المدر والخشب وشبهها، وكل ما يتخذ الناس مما لا منفعة فيه إلا اللهو المنهي عنه، ولا يجوز بيع شيء منه إلا الأصنام التي تكون من الذهب والفضة والحديد والرصاص إذا غيرت عما هي عليه وصارت نقرأ أو قطعاً فيجوز بيعها والشرء بها. قال المهلب: وما كسر من آلات الباطل وكان في حبسها بعد كسرها منفعة فصاحبها أولى بها مكسورة، إلا أن يرى الإمام حرقها بالنار على معنى التشديد والعقوبة في المال. وقد تقدم حرق ابن عمر رضي الله عنهما. وقد همَّ النبي ﷺ بتحريق دور من تخلف عن صلاة الجماعة وهذا أصل في العقوبة في المال؛ مع قوله ﷺ في الناقة التي لعتتها صاحبها: «دعوها فإنها ملعونة» فأزال ملكها عنها تأديباً لصاحبها، وعقوبة لها فيما دعت عليه بما دعت به. وقد أراق عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبناً شيب بماء على صاحبه، اه الغرض من كلام القرطبي - رحمه الله تعالى -، وقوله ﷺ: «والله لينزلن عيسى ابن مريم حكماً عدلاً فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير» الحديث - من قبيل ما ذكرنا دلالة عليه، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٢). وقد قدمنا في أول «سورة البقرة» الآيات المبينة لهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة كقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١١٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١١٥) [التوبة]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًّ﴾ [فصلت: ٤٤] كما تقدم إيضاحه، وقوله في هذه الآية: ﴿مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾

يشمل كونه شفاء للقلب من أمراضه؛ كالشك والنفاق وغير ذلك. وكونه شفاء للأجسام إذا رقي عليها به؛ كما تدل عليه قصة الذي رقى الرجل اللديغ بالفاتحة، وهي صحيحة مشهورة، وقرأ أبو عمرو «ونزل» بإسكان النون وتخفيف الزاي. والباقون بفتح النون وتشديد الزاي، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ۝٨٣﴾.

بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه إذا أنعم على الإنسان بالصحة والعافية والرزق أعرض عن ذكر الله وطاعته، ونأى بجانبه: أي تباعد عن طاعة ربه؛ فلم يمثل أمره، ولم يجتنب نهيه.

وقال الزمخشري: أعرض عن ذكر الله كأنه مستغن عنه، مستبد بنفسه، «ونأى بجانبه» تأكيد للإعراض؛ لأن الإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه، والنأى بالجانب أن يلوي عنه عطفه، ويوليه ظهره، وأراد الاستكبار؛ لأن ذلك من عادة المستكبرين. واليئوس: شديد اليأس، أي القنوط من رحمة الله.

وقد أوضح - جل وعلا - هذا المعنى في مواضع كثيرة من كتابه، كقوله «في سورة هود»: ﴿وَلَمَّا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝١٠ وَلَمَّا أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١١﴾ [هود]، وقوله في «آخر فصلت»: ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ۝١٢ وَلَمَّا أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْبَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝١٣ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ۝١٤﴾ [فصلت]، وقوله «في سورة الروم»: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقْنَاهُمْ مِنَّا رَحْمَةً إِذَا فَرِحُوا مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝١٥﴾ [الروم]، وقوله فيها أيضاً: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ۝١٦﴾ [الروم]، وقوله «في سورة يونس»: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ ۝١٧﴾ [يونس: ١٧]، وقوله «في سورة الزمر»: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حُلِّمَ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۝١٨﴾ [الزمر: ١٨]، وقوله فيها أيضاً: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا حُلِّمَهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٩﴾ [الزمر]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد استثنى الله من هذه الصفات عبادة المؤمنين في قوله «في سورة هود»: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١٢٠﴾ [هود]، كما تقدم إيضاحه، وقرأ ابن ذكوان «وناء» كجاء، وهو بمعنى نأى؛ كقولهم: راء في رأى.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه ما أعطى خلقه من العلم إلا قليلاً بالنسبة إلى علمه - جل وعلا - لأن ما أعطيه الخلق من العلم بالنسبة إلى علم الخالق قليل جداً. ومن الآيات التي فيها الإشارة إلى ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ لَّحَبَّتْ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَوْلَ أَنْ نَفَذَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جُنَّا بِإِيمَانِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٨]، وقوله: ﴿لَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفَذْتُ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿إِنْ فَضَلُّكُمْ كَانَ عَلَيْكُمْ كَبِيرًا﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن فضله على نبيه ﷺ كبير. وأوضح هذا المعنى في مواضع آخر كقوله: ﴿وَعَلَّمَكُمَا مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُونَ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، وقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [يوسف: ١]، ﴿لِيُخَوِّفَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُنْذِرَ نِعَمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [يوسف: ٢]، ﴿وَيُضْرِكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ٣]، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشعراء: ١]، ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ [الشعراء: ٢]، ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

وبين تعالى في موضع آخر أن فضله كبير على جميع المؤمنين، وهو قوله: ﴿وَيُشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَيُّهَا اللَّهُ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧]، وبين المراد بالفضل الكبير في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [٩١]، أو تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا [٩١]، أو تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِنَا إِلَهُ وَالْمَلَكَةِ قَبِيلًا [٩٢]، أو يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفُوقِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَأُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا [٩٣].

بين الله - جل وعلا - في هذه الآيات الكريمة شدة عناد الكفار وتعنتهم، وكثرة اقتراحاتهم لأجل التعنت لا لطلب الحق، فذكر أنهم قالوا له ﷺ: إنهم لن يؤمنوا له؛ أي لن يصدقوه حتى يفجر لهم من الأرض ينبوعاً، وهو يفعل من نبع، أي ماء غزير؛ ومنه قوله تعالى: ﴿سَلَكُومٌ يَتَّبِعُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١]، ﴿أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ﴾ أي بستان من نخيل وعنب؛ فيفجر خلالها، أي وسطها أنهاراً من الماء. أو يسقط السماء عليهم كسفاً؛ أي قطعاً كما زعموا؛ أي في قوله تعالى: ﴿إِنْ شَاءَ نَحْنُ نَخْصِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [سبا: ٩]. أو يأتيهم بالله والملائكة قبلاً، أي معانية. قاله قتادة وابن جريج، كقوله: ﴿لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكَةُ أَوْ نَزِلَ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١].

وقال بعض العلماء: «قبلاً»: أي كفيلاً؛ من تقبله بكذا: إذا كفله به. والقبيل والكفيل والزعيم بمعنى واحد.

وقال الزمخشري قبلاً بما تقول شاهداً بصحته. وكون القبيل في هذه الآية بمعنى

الكفيل مروي عن ابن عباس والضحاك. وقال مقاتل: «قبيلة» شهيداً. وقال مجاهد: هو جمع قبيلة؛ أي تأتي بأصناف الملائكة. وعلى هذا القول فهو حال من الملائكة، أو يكون له بيت من زخرف؛ أي من ذهب. ومنه قوله «في الزخرف»: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَزَخْرَفًا﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥] أي ذهباً. أو يرقى في السماء؛ أي يصعد فيه، وإنهم لن يؤمنوا لرقبه؛ أي من أجل صعوده، حتى ينزل عليهم كتاباً يقرؤونه. وهذا التعنت والعناد العظيم الذي ذكره - جل وعلا - عن الكفار هنا بينه في مواضع آخر، وبين أنهم لو فعل الله ما اقترحوا ما آمنوا؛ لأن من سبق عليه الشقاء لا يؤمن بكوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرَاطٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِي نَكْثُرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَهُمُ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ التَّوْقَ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَسَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، وقوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ [١٢٤] لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر]، وقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١١] وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس]، والآيات بمثل هذا كثيرة.

وقوله في هذه الآية: ﴿كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ﴾ أي كتاباً من الله إلى كل رجل منا. ويوضح هذا قوله تعالى «في المدثر»: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُفْحًا مُّثَشَّرَةً﴾ [المدثر] كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مَآ أُوْتِيَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾، أي تنزيهاً لربي - جل وعلا - عن كل ما لا يليق به، ويدخل فيه تنزيهه عن العجز عن فعل ما اقترحتهم، فهو قادر على كل شيء، لا يعجزه شيء، وأنا بشر أتبع ما يوحى إلي ربي.

وبين هذا المعنى في مواضع آخر كقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَمَّا﴾ [الكهف]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَعِظُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]. وكقوله تعالى عن جميع الرسل: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَسَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١] إلى غير ذلك من الآيات.

وقرأ «تفجر» الأولى عاصم وحمزة والكسائي بفتح التاء وإسكان الفاء وضم الجيم، والباقون بضم التاء وفتح الفاء وتشديد الجيم مكسورة. واتفق الجميع على هذا في الثانية. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم «كسفاً» بفتح السين والباقون بإسكانها، وقرأ أبو عمرو «تنزل» بإسكان النون وتخفيف الزاي، والباقون بفتح النون وشد الزاي.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ﴾. هذا المانع المذكور هنا عادي؛ لأنه جرت عادة جميع الأمم باستغرابهم بعث الله رسلاً من البشر كقوله: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله: ﴿أَنْزِلُنَا لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وقوله: ﴿أَشْرَكْنَا مِمَّا تَدْعُوهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤]، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنْتُمْ كَأَنْتُمْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، وقوله: ﴿وَلَيْنَ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ لَأَكُنَّكُمْ إِذَا أُلْحِيسْتُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

والدليل على أن المانع في هذه الآية عادي أنه تعالى صرح بمانع آخر غير هذا «في سورة الكهف» وهو قوله: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيهِمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ قَبْلًا ۖ﴾ [الكهف: ٥٥]. فهذا المانع المذكور «في الكهف» مانع حقيقي؛ لأن من أراد الله به سنة الأولين من الإهلاك، أو أن يأتيه العذاب قبلاً فإرادته به ذلك مانعة من خلاف المراد؛ لاستحالة أن يقع خلاف مراده - جل وعلا - بخلاف المانع «في آية بني إسرائيل» هذه، فهو مانع عادي يصح تخلفه. وقد أوضحنا هذه المسألة في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب».

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَسْمُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۖ﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية أن الرسول يلزم أن يكون من جنس المرسل إليهم، فلو كان مرسلًا رسولاً إلى الملائكة لنزل عليهم ملكاً مثلهم؛ أي وإذا أرسل إلى البشر أرسل لهم بشراً مثلهم.

وقد أوضح هذا المعنى في مواضع آخر كقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ۖ﴾ [٨] وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ۖ﴾ [الأنعام: ٩]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] كما تقدم إيضاحه.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَادِرٌ عَلَيْهِ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ۚ﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من خلق السموات والأرض مع عظمهما قادر على بعث الإنسان بلا شك؛ لأن من خلق الأعظم الأكبر فهو على خلق الأصغر قادر بلا شك.

وأوضح هذا المعنى في مواضع آخر كقوله: ﴿لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، أي ومن قدر على خلق الأكبر فهو قادر على خلق الأصغر، وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ﴾ [يس: ٨١]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقوله: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۖ﴾ [٨] رَفَعَ سَكَهَا فَسَوَّاهَا ۖ﴾ [٨]

وَأَنْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ صُحُفَهَا ﴿١٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٢٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٢١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَنَهَا ﴿٢٢﴾ مِمَّا لَكُمْ وَلَا تَعْمُرُوا ﴿٢٣﴾ [النازعات].

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ ﴿٢٣﴾. بين تعالى في هذه الآية أن بني آدم لو كانوا يملكون خزائن رحمته، أي خزائن الأرزاق والنعم، لبخلوا بالرزق على غيرهم، ولأمسكوا عن الإعطاء؛ خوفاً من الإنفاق لشدة بخلهم.

وبين أن الإنسان قتور؛ أي بخيل مضيق من قولهم: قتر على عياله، أي ضيق عليهم.

وبين هذا المعنى في مواضع أخرى؛ كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ ﴿٥٢﴾ [النساء]، وقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ﴿٩١﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٩٢﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٩٣﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٩٤﴾ [المعارج]، إلى غير ذلك من الآيات.

والمقرر في علم العربية أن «لو» لا تدخل إلا على الأفعال، فيقدر لها في الآية فعل محذوف، والضمير المرفوع بعد «لو» أصله فاعل الفعل المحذوف؛ فلما حذف الفعل فصل الضمير. والأصل: قل لو تملكون، فحذف الفعل فبقيت الواو فجعلت ضميراً منفصلاً: هو أنتم. هكذا قاله غير واحد، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ...﴾ الآية. قال بعض أهل العلم: هذه الآيات التسع، هي: العصا، واليد، والسنون، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات.

وقد بين - جل وعلا - هذه الآيات في مواضع آخر كقوله: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ ﴿١٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَةٌ لِلنَّظِيرِ ﴿١٨﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْيَحْرَ فَاثْلُقْ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٢٣﴾ [الشعراء]، وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفْصَلَاتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣] إلى غير ذلك من الآيات المبينة لما ذكرنا، وجعل بعضهم الجبل بدل «السنين» وعليه فقد بين ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَفَخْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٧١] ونحوها من الآيات.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَابِرٍ﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن فرعون عالم بأن الآيات المذكورة ما أنزلها إلا رب السموات والأرض بصائر؛ أي حججاً واضحة؛ وذلك يدل على أن قول فرعون: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٤٩]، وقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ [الشعراء] كل ذلك منه تجاهل عارف.

وقد أوضح - جل وعلا - هذا المعنى مبيناً سبب جحوده لما علمه «في سورة النمل» بقوله: ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَةٍ مِنْ غَيْرِ سُوٍّ فِي تِسْعَ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ

كُلُوا قَوْماً فَلْيَقِيعُوا ﴿١١٠﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١١﴾ وَحَمَّدُوا بِهَا وَأَسْتَفْتَنَاهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا ﴿١١٢﴾ الآية [النمل: ١٢ - ١٤].

قوله تعالى: ﴿وَبَلِّغْ أَنْزَلْنَاهُ وَبَلِّغْ نَزْلَهُ﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أنزل هذا القرآن بالحق، أي متلبساً به متضمناً له؛ فكل ما فيه حق. فأخباره صدق، وأحكامه عدل كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] وكيف لا! وقد أنزله - جل وعلا - بعلمه؛ كما قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦].

وقوله: ﴿وَبَلِّغْ نَزْلَهُ﴾ يدل على أنه لم يقع فيه تغيير ولا تبديل في طريق إنزاله؛ لأن الرسول المؤتمن على إنزاله قوي لا يغلب عليه حتى يغير فيه، أمين لا يغير ولا يبدل كما أشار إلى هذا بقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤]، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنَتَّسِقُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف]، ﴿وَيُؤَقِّبُ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [٢٥] ﴿مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ﴾ [التكوير]، وقوله في هذه الآية: ﴿لَقَوْلِ رَسُولٍ﴾ [التكوير: ١٩] أي لتبليغه عن ربه؛ بدلالة لفظ الرسول لأنه يدل على أنه مرسل به.

قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكَّةٍ﴾. قرأ هذا الحرف عامة القراء «فرقناه» بالتخفيف؛ أي بيناه وأوضحناه، وفصلناه وفرقناه فيه بين الحق والباطل، وقرأ بعض الصحابة «فرقناه» بالتشديد؛ أي أنزلناه مفرقاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة. ومن إطلاق فرق بمعنى بين وفصل قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان].

وقد بين - جل وعلا - أنه بين هذا القرآن لنبيه ليقراه على الناس على مكث، أي مهل وتؤدة وتثبت، وذلك يدل على أن القرآن لا ينبغي أن يقرأ إلا كذلك، وقد أمر تعالى بما يدل على ذلك في قوله: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤] ويدل على ذلك أيضاً قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا﴾ منصوب بفعل محذوف يفسره ما بعده، على حد قوله في الخلاصة:

فالسابق نصبه بفعل أضمرنا حتماً موافق لما قد أظهرنا

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾. أمر الله - جل وعلا - عباده في هذه الآية الكريمة أن يدعوه بما شاؤوا من أسمائه، إن شاؤوا قالوا: يا الله، وإن شاؤوا قالوا: يا رحمن، إلى غير ذلك من أسمائه - جل وعلا - .
وبين هذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا

الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٧٠﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيِّئُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٧١﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلَّاقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [الحشر].

وقد بين - جل وعلا - في غير هذا الموضع أنهم تجاهلوا اسم الرحمن في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟﴾ [الفرقان: ٦٠]. وبين لهم بعض أفعال الرحمن - جل وعلا - في قوله: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن]؛ ولذا قال بعض العلماء: إن قوله: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾﴾ جواب لقولهم: ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟﴾ [الفرقان: ٦٠]. وسيأتي لهذا - إن شاء الله - زيادة إيضاح «في سورة الفرقان».

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبْرًا تَكْبِيرًا ﴿١﴾﴾. أمر الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة الناس على لسان نبيه ﷺ؛ لأن أمر القدوة أمر لاتباعه كما قدمنا أن يقولوا: «الحمد لله» أي كل ثناء جميل لائق بكماله وجلاله، ثابت له، مبيناً أنه منزّه عن الأولاد والشركاء والعزة بالأولياء، سبحانه وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً.

فبين تنزهه عن الولد والصاحبة في مواضع كثيرة كقوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص: ١] إلى آخر السورة، وقوله: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن]: وقوله: ﴿يَدْبَعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَمْ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ يَكْلُ كُلَّ شَيْءٍ عَلَيْهِمُ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَغِيْرُ الْجِبَالِ هَذَا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَلْبِغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَخْذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وبين في مواضع آخر أنه لا شريك له في ملكه، أي ولا في عبادته كقوله: ﴿وَمَا لَمْ يَكُنْ فِيهِمَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبا: ٢٢]، وقوله: ﴿لَيْنَ الْمُلْكِ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وقوله: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي يَدِيهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [الملك]، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

ومعنى قوله في هذه الآية: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ يعني أنه لا يذل فيحتاج إلى ولي يعز به؛ لأنه هو العزيز القهار، الذي كل شيء تحت قهره وقدرته، كما بينه في مواضع كثيرة كقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَّابٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠] والعزیز: الغالب. وقوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨] والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقوله: ﴿وَكَبِيرَةٌ تَبْكِيًا﴾ أي عظمه تعظيماً شديداً. ويظهر تعظيم الله في شدة المحافظة على امتثال أمره واجتناب نهيه، والمصارعة إلى كل ما يرضيه، كقوله تعالى: ﴿لَتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدٰكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] ونحوها من الآيات، والعلم عند الله تعالى.

وروى ابن جرير في تفسير هذه الآية الكريمة عن قتادة أنه قال: ذكر لنا أن النبي ﷺ كان يعلم الصغير والكبير من أهله هذه الآية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾... الآية. وقال ابن كثير: قلت وقد جاء في حديث أن رسول الله ﷺ سمي هذه الآية آية العز. وفي بعض الآثار أنها ما قرئت في بيت في ليلة فيصبيه سرق أو آفة. والله أعلم. ثم ذكر حديثاً عن أبي يعلى من حديث أبي هريرة مقتضاه أن قراءة هذه الآية تذهب السقم والضر، ثم قال: إسناده ضعيف، وفي منته نكارة. والله تعالى أعلم.

وصلّى الله على نبينا محمد ﷺ.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الكهف

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عِوَجًا ۖ ۝١ قِيمًا لِّبُذَرَ بَاسًا شَدِيدًا ۖ مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ ۝٢ مَّتَّكِينَ فِيهِ أَبَدًا ۖ ۝٣ وَيُنذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۖ ۝٤ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۖ ۝٥﴾. علم الله - جل وعلا - عباده في أول هذه السورة الكريمة أن يحمده على أعظم نعمة أنعمها عليهم؛ وهي إنزاله على نبينا ﷺ هذا القرآن العظيم، الذي لا اعوجاج فيه؛ بل هو في كمال الاستقامة، أخرجهم به من الظلمات إلى النور. وبين لهم فيه العقائد، والحلال والحرام، وأسباب دخول الجنة والنار، وحذرهم فيه من كل ما يضرهم، وحضهم فيه على كل ما ينفعهم، فهو النعمة العظمى على الخلق؛ ولذا علمهم ربهم كيف يحمدونه على هذه النعمة الكبرى بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾... الآية.

وما أشار له هنا من عظيم الإنعام والامتنان على خلقه بإنزال هذا القرآن العظيم، منذراً من لم يعمل به، ومبشراً من عمل به ذكره - جل وعلا - في مواضع كثيرة كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ۖ ۝١٧٤ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسُيِّدْ لَهُمْ فِي رَحْمَةِ رَبِّهِمْ وَفَضْلٍ وَبِهِدْيِهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۖ ۝١٧٥﴾ [النساء]. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۖ ۝٥١﴾ [العنكبوت]، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يُقَرَأُ عَلَىٰ بَيْتٍ إِسْرَءِيلَ أَكْثَرُ

الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَفُونَ ﴿٦٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ [النمل]، وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَسِيدِينَ﴾ ﴿٦٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٦٩﴾ [الأنبياء]، وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ رَجُوعًا أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]، وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

وهو تصريح منه - جل وعلا - بأن إيراد هذا الكتاب فضل كبير، والآيات بمثل هذا كثيرة جداً.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَوْ يَجْعَلُ لَّهُمُ عِوَجًا﴾؛ أي لم يجعل في القرآن عوجاً؛ أي لا اعوجاج فيه البتة، لا من جهة الألفاظ ولا من جهة المعاني، أخباره كلها صدق، وأحكامه عدل، سالم من جميع العيوب في ألفاظه ومعانيه، وأخباره وأحكامه؛ لأن قوله: ﴿عِوَجًا﴾ نكرة في سياق النفي؛ فهي تعم نفي جميع أنواع العوج. وما ذكره - جل وعلا - هنا من أنه لا اعوجاج فيه بينه في مواضع أخر كثيرة كقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٧٨﴾ [الزمر]، وقوله: ﴿وَمَتَّ كِتَابَ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٧٩﴾ [الأنعام] فقوله: ﴿صِدْقًا﴾ أي في الأخبار، وقوله: ﴿وَعَدْلًا﴾ أي في الأحكام. وكقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ ﴿٨٧﴾ [النساء] والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿قِيمًا﴾ أي مستقيماً لا ميل فيه ولا زيغ، وما ذكره هنا من كونه "قيماً" لا ميل فيه ولا زيغ - بينه أيضاً في مواضع أخر، كقوله: ﴿لَوْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ [البينة] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ الآية [الإسراء: ٩]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يَفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ [يونس]، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَعُ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، وقوله: ﴿الَّذِي هَدَىٰ الْقَوْمَ الْبَاقِينَ﴾ ﴿١﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَّكُنَّ أَهْلًا لِّكَتَابٍ أَن تُنْفَخَ مِنْ لَدُنْكَ حِكْمَةٌ خَبِيرَةٌ﴾ [هود] وقوله: ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا يَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] إلى غير ذلك من الآيات.

وهذا الذي فسرنا به قوله تعالى: ﴿قِيمًا﴾ هو قول الجمهور، وهو الظاهر، وعليه فهو تأكيد في المعنى لقوله: ﴿وَلَوْ يَجْعَلُ لَّهُمُ عِوَجًا﴾؛ لأنه قد يكون الشيء مستقيماً في الظاهر وهو لا يخلو من اعوجاج في حقيقة الأمر؛ ولذا جمع تعالى بين نفي العوج وإثبات الاستقامة، وفي قوله: ﴿قِيمًا﴾ وجهان آخران من التفسير:

الأول: أن معنى كونه ﴿فِيمَا﴾ أنه قيم على ما قبله من الكتب السماوية، أي مهيمن عليه، وعلى هذا التفسير فالآية كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

ولأجل هيمنته على ما قبله من الكتب قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَبَيِّنُ لَكَ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٦١]. وقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣] وقال: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ ... الآية [المائدة: ١٥].

الوجه الثاني: أن معنى كونه ﴿فِيمَا﴾ أنه قيم بمصالح الخلق الدينية والدنيوية، وهذا الوجه في الحقيقة يستلزمه الوجه الأول.

واعلم أن علماء العربية اختلفوا في إعراب قوله: ﴿فِيمَا﴾؛ فذهب جماعة إلى أنه حال من الكتاب، وأن في الآية تقديمًا وتأخيرًا، وتقريره على هذا: أنزل على عبده الكتاب في حال كونه قيمًا ولم يجعل له عوجًا. ومنع هذا الوجه من الإعراب الزمخشري في الكشف قائلًا: إن قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُمْ عِوَجًا﴾ معطوف على صلة الموصول التي هي جملة ﴿أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ والمعطوف على الصلة داخل في حيز الصلة فجعل ﴿فِيمَا﴾ حال من «الكتاب» يؤدي إلى الفصل بين الحال وصاحبها ببعض الصلة؛ وذلك لا يجوز.

وذهب جماعة آخرون إلى أن ﴿فِيمَا﴾ حال من ﴿الْكِتَابِ﴾ وأن المحذور الذي ذكره الزمخشري متنفذ؛ وذلك أنهم قالوا: إن جملة ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُمْ عِوَجًا﴾ ليست معطوفة على الصلة، وإنما هي جملة حالية. وقوله: ﴿فِيمَا﴾ حال بعد حال، وتقريره: أن المعنى أنزل على عبده الكتاب في حال كونه غير جاعل فيه عوجًا، وفي حال كونه قيمًا، وتعدد الحال لا إشكال فيه، والجمهور على جواز تعدد الحال مع اتحاد عامل الحال وصاحبها، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

والحال قد يجيء ذا تعدد لمفرد فاعلم وغير مفرد

وسواء كان ذلك بعطف أو بدون عطف. فمثاله مع العطف قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَشِيرُكَ يَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]، ومثاله بدون عطف قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ [الأعراف: ١٥٠]. وقول الشاعر:

عليّ إذا ما جئت ليلى بخفية زيارة بيت الله رجلان خافيا

ونقل عن أبي الحسن بن عصفور منع تعدد الحال ما لم يكن العامل فيه صيغة التفضيل في نحو قوله: هذا بسراً أطيب منه رطباً، ونقل منه ذلك أيضاً عن الفارسي وجماعة، وهؤلاء الذين يمنعون تعدد الحال يقولون: إن الحال الثانية إنما هي حال من الضمير المستكن في الحال الأولى. والأولى عندهم هي العامل في الثانية. فهي عندهم

أحوال متداخلة، أو يجعلون الثانية نعتاً للأولى. وممن اختار أن جملة ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ﴾ حالية، وأن ﴿فِيمَا﴾ حال بعد حال؛ الأصفهاني.

وذهب بعضهم إلى أن قوله: ﴿فِيمَا﴾ بدل من قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عِوَجًا﴾؛ لأن انتفاء العوج عنه هو معنى كونه قيمياً.

وعزا هذا القول الرازي وأبو حيان لصاحب حل العقد، وعليه فهو بدل مفرد من جملة. كما قالوا في: عرفت زيدا أبو من أنه بدل جملة من مفرد، وفي جواز ذلك خلاف عند علماء العربية.

وزعم قوم أن ﴿فِيمَا﴾ حال من الضمير المجرور في قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عِوَجًا﴾، واختار الزمخشري وغيره أن ﴿فِيمَا﴾ منصوب بفعل محذوف، وتقديره: ولم يجعل له عوجاً وجعله قيمياً، وحذف ناصب الفضلة إذا دل عليه المقام جائز؛ كما قال في الخلاصة:

ويحذف الناصبها إن علما وقد يكون حذفه ملتزماً

وأقرب أوجه الإعراب في قوله: ﴿فِيمَا﴾ أنه منصوب بمحذوف، أو حال ثانية من «الكتاب»، والله تعالى أعلم.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ اللام فيه متعلقة بـ «أنزل»، وقال الحوفي: هي متعلقة بقوله: «قيماً»، والأول هو الظاهر.

والإنذار الإعلام المقترون بتخويف وتهديد، فكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذاراً، والإنذار يتعدى إلى مفعولين، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [١] [الليل] وقوله: ﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبا: ٤٠].

وفي أول هذه السورة الكريمة كرر تعالى الإنذار، فحذف في الموضع الأول مفعول الإنذار الأول، وحذف في الثاني مفعول الثاني، فصار المذكور دليلاً على المحذوف في الموضعين، وتقدير المفعول الأول المحذوف في الموضع الأول: ﴿لِيُنذِرَ الذين كفروا بأساً شديداً من لدنه﴾ وتقدير المفعول الثاني المحذوف في الموضع الثاني: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ بأساً شديداً من لدنه.

وقد أشار تعالى في هذه الآية الكريمة إلى أن هذا القرآن العظيم تخويف وتهديد للكافرين، وبشارة للمؤمنين المتقين. إذ قال في تخويف الكفرة به: ﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ﴾ وقال: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [٢] الآية، وقال في بشارته للمؤمنين: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾.

وهذا الذي ذكره هنا من كونه إنذاراً لهؤلاء وبشارة لهؤلاء بينه في مواضع آخر كقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُهُ يَسَافِرُك لِيُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُذِرَ بِهِ قَوْمًا لِّئَلَّا﴾ [مریم]، وقوله: ﴿الْمَصِّ كِتَابٌ أُزِيلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِيُنذِرَ بِهِ وَيُذَكِّرَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الاعراف].

وقد أوضحنا هذا المبحث في أول سورة «الأعراف»، وأوضحنا هنالك المعاني التي ورد بها الإنذار في القرآن. والبأس الشديد الذي أنذرهم إياه: هو العذاب الأليم في الدنيا والآخرة، والبشارة: الخبر بما يسر.

وقد تطلق العرب البشارة على الإخبار بما يسوء، ومنعه قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧]. ومنه قول الشاعر:

وبشرتني يا سعد أن أحبتي جفوني وقالوا الود موعده الحشر
وقول الآخر:

يبشرني الغراب ببين أهلي فقلت له ثكلتك من بشير

والتحقيق أن إطلاق البشارة على الإخبار بما يسوء، أسلوب من أساليب اللغة العربية. ومعلوم أن علماء البلاغة يجعلون مثل ذلك مجازاً، ويسمونه استعارة عنادية، ويقسمونها إلى تهكمية وتمليحية كما هو معروف في محله.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ بينت المراد به آيات أخر، فدللت على أن العمل لا يكون صالحاً إلا بثلاثة أمور:

الأول: أن يكون مطابقاً لما جاء به النبي ﷺ، فكل عمل مخالف لما جاء به - صلوات الله وسلامه عليه - فليس بصالح، بل هو باطل، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧٠]، وقال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذُنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] إلى غير ذلك من الآيات.

الثاني: أن يكون العامل مخلصاً في عمله لله فيما بينه وبين الله، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ ① وأمرت لأن أكون أول المسلمين ② ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ③ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي ④ ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر] إلى غير ذلك من الآيات.

الثالث: أن يكون العمل مبنياً على أساس الإيمان والعقيدة الصحيحة؛ لأن العمل كالسقف، والعقيدة كالأساس، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُفٍّ وَهُوَ مُؤْمِنٌ...﴾ الآية [النحل: ٩٧]، فجعل الإيمان قيداً في ذلك.

وبين مفهوم هذا القيد في آيات كثيرة، كقوله في أعمال غير المؤمنين: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ ⑤ [الفرقان]، وقوله: ﴿أَعْمَلْتُمْ كَبِيرًا...﴾ الآية [النور: ٣٩]، وقوله: ﴿أَعْمَلْتُمْ كِرَامًا شَدَدَتْ عَلَيْهِ الرِّيحُ﴾ [إبراهيم: ١٨]، إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه.

والتحقيق أن مفرد «الصلاحات» في قوله: ﴿يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾، وقوله: ﴿وَعَمِلُوا

الْفَصْلِحَتِ ﴿البقرة: ٢٥﴾ ونحو ذلك أنه صالحة، وأن العرب تطلق لفظة الصالحة على الفعلية الطيبة؛ كإطلاق اسم الجنس لتناسي الوصية. كما شاع ذلك الإطلاق في الحسنة مراداً بها الفعلية الطيبة.

ومن إطلاق العرب لفظ الصالحة على ذلك قول أبي العاص بن الربيع في زوجه زينب بنت رسول الله ﷺ:

بنت الأمين جزاك الله صالحة وكل بعل سيثني بالذي علما
وقول الحطيئة:

كيف الهجاء ولا تنفك صالحة من آل لأم بظهر الغيب تأتيني
وسئل أعرابي عن الحب فقال:

الحب مشغلة عن كل صالحة وسكرة الحب تنفي سكرة الوسن
وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي؛ وليشرهم بأن لهم أجراً حسناً، والأجر: جزاء العمل، وجزاء عملهم الميعر عنه هنا بالأجر: هو الجنة؛ ولذا قال: ﴿مُكَتِّبِينَ فِيهِ﴾ وذكر الضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ لأنه راجع إلى الأجر وهو مذكر، وإن كان المراد بالأجر الجنة، ووصف أجرهم هنا بأنه حسن، وبين أوجه حسنه في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) [الواقعة] إلى قوله: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٦) وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٣٧) [الواقعة]، وكقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً معلومة.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿مُكَتِّبِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ (٢٤)؛ أي خالدين فيه بلا انقطاع. وقد بين هذا المعنى في مواضع أخر كثيرة، كقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا سَاءَ رُبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مُجْدُوفٍ﴾ (١٣٨) [هود] أي غير مقطوع، وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ (٩٦) [ص] أي ما له من انقطاع وانتهاء، وقوله: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وقوله: ﴿وَالْآخِرَةُ أَشَدُّ بَاقِيًا﴾ (١٢٧) [طه] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ (١٦)؛ أي ينذرهم بأساً شديداً ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾ أي من عنده كما تقدم، وهذا من عطف الخاص على العام؛ لأن قوله: ﴿يُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ شامل للذين قالوا اتخذ الله ولداً، ولغيرهم من سائر الكفار.

وقد تقرر في فن المعاني أن عطف الخاص على العام إذا كان الخاص يمتاز عن سائر أفراد العام بصفات حسنة أو قبيحة من الإطناب المقبول، تنزيراً للتغاير في الصفات منزلة التغاير في الذوات.

ومثاله في الممتاز: عن سائر أفراد العام بصفات حسنة قوله تعالى: ﴿وَمَلَكَيْنِ وَرُسُلِهِمْ وَجَبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ﴾ [الأحزاب: ٧].

ومثاله في الممتاز بصفات قبيحة الآية التي نحن بصدها، فإن الذين قالوا اتخذ الله ولداً امتازوا عن غيرهم بفرية شنعاء؛ ولذا ساغ عطفهم على اللفظ الشامل لهم ولغيرهم.

والآيات الدالة على شدة عظم فريتهم كثيرة جداً كقوله هنا: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۝٨٩ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ ۖ تَتَشَقَّقُ الْأَرْضُ وَخَرُّوا لِلْبَالِ هَذَا ۝٩٠ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَلْبِغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾ [مريم]، وقوله: ﴿أَفَاصْفَنُكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَكَةِ ابْنًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [الإسراء] والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة.

وقد قدمنا أن القرآن بين أن الذين نسبوا الولد لله ﷻ عن ذلك علواً كبيراً ثلاثة أصناف من الناس: اليهود، والنصارى، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىٰرُ بْنُ اللَّهِ ۖ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۚ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ الآية [التوبة: ٣٠]، والصنف الثالث مشركو العرب كما قال تعالى عنهم: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ۝٥٧﴾ [النحل]، والآيات بنحوها كثيرة معلومة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ يعني أن ما نسبوه له - جل وعلا - من اتخاذ الولد لا علم لهم به، لأنه مستحيل.

والآية تدل دلالة واضحة على أن نفي الفعل لا يدل على إمكانه، ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]؛ لأن ظلمهم لربنا وحصول العلم لهم باتخاذ الولد، كل ذلك مستحيل عقلاً، ففيه لا يدل على إمكانه. ومن هذا القبيل قول المنطقيين: السالبة لا تقتضي وجود الموضوع، كما بيانه في غير هذا الموضع.

وما نفاه عنهم وعن آبائهم من العلم باتخاذ الولد ﷻ عن ذلك علواً كبيراً بيته في مواضع آخر كقوله: ﴿وَحَرِّقُوا لَمْ يَبْنِ وَبَنَتْ عَلَيْهِمْ سُبْحَانَهُ وَقَعَلَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، وقوله في آبائهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ يعني أن ما قالوه بأفواههم من أن الله اتخذ ولداً أمر كبير عظيم؛ كما بينا الآيات الدالة على عظمه آنفاً كقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠]، وقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ ۖ تَتَشَقَّقُ الْأَرْضُ وَخَرُّوا لِلْبَالِ هَذَا ۝٩٠﴾ [مريم]. وكفى بهذا كبراً وعظماً.

وقال بعض علماء العربية: إن قوله: «كبرت كلمة» معناه التعجب؛ فهو بمعنى ما أكبرها كلمة، أو أكبر بها كلمة!

والمقرر في علم النحو: أن «فعل» بالضم تُصاغ لإنشاء الذم والمدح، فتكون من باب (نعم وبئس) ومنه قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً...﴾ الآية، وإلى هذا أشار في الخلاصة بقوله:

واجعل كبئس ساء واجعل فعلا من ذي ثلاثة كنعم مسجلا

وقوله: «كنعم» أي اجعله من باب «نعم» فيشمل بئس، وإذا تقرر ذلك ففاعل «كبر» ضمير محذوف، و«كلمة» نكرة مميزة للضمير المحذوف، على حد قوله في الخلاصة:

ويرفعان مضمراً يفسره مميز كنعم قوماً معشره

والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: كبرت هي كلمة خارجة من أفواههم تلك المقالة التي فاهوا بها، وهي قولهم: اتخذ الله ولداً، وأعرب بعضهم «كلمة» بأنها حال، أي كبرت فريتهم في حال كونها كلمة خارجة من أفواههم، وليس بشيء.

وقال ابن كثير في تفسيره: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾؛ أي ليس لها مستند سوى قولهم، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراءهم؛ ولذا قال: ﴿إِنْ يَقُولُوكَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

وهذا المعنى الذي ذكره ابن كثير له شواهد في القرآن كقوله: ﴿يَقُولُوكَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧] ونحو ذلك من الآيات.

والكذب: مخالفة الخبر للواقع على أصح الأقوال.

فائدة: لفظة «كبر» إذا أريد بها غير الكبر في السن فهي مضمومة الباء في الماضي والمضارع، كقوله هنا: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾، وقوله: ﴿كَبُرَ مَقَاتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف]، وقوله: ﴿أَوْ خَلَقْنَا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ [الإسراء: ٥١] ونحو ذلك.

وإن كان المراد بها الكبر في السن فهي مكسورة الباء في الماضي، مفتوحتها في المضارع على القياس، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا﴾ [النساء: ٦]، وقول المجنون:

تعشقت ليلى وهي ذات ذوائب ولم يبد للعينين من ثديها حجم

صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر إليهم

وقوله في هذا البيت: «صغيرين» شاهد عند أهل العربية في إتيان الحال من الفاعل والمفعول معاً.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ يعني بالكلمة الكلام الذي هو قولهم: ﴿أَتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الله يطلق اسم الكلمة على الكلام أوضحت آيات أخر كقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، والمراد بها قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [١٧] لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ [المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠]. وقوله:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] وما جاء لفظ «الكلمة» في القرآن إلا مراداً به الكلام المفيد.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿عَوَجًا﴾ هو بكسر العين في المعاني كما في هذه الآية الكريمة، وفتحها فيما كان منتصباً كالحائط.

قال الجوهري في صحاحه: قال ابن السكيت: وكل ما كان ينتصب كالحائط والعود قيل فيه: «عوج» بالفتح. والعوج - بالكسر - ما كان في أرض أو دين أو معاش، يقال: في دينه عوج، اهـ.

وقرأ هذا الحرف حفص عن عاصم في الوصل ﴿عَوَجًا﴾ بالسكت على الألف المبدلة من التتوين سكتة يسيرة من غير تنفس، إشعاراً بأن ﴿قِيَمًا﴾ ليس متصلاً بـ ﴿عَوَجًا﴾ في المعنى، بل للإشارة إلى أنه منصوب بفعل مقدر، أي جعله قِيَمًا كما قدمنا.

وقرأ أبو بكر عن عاصم «من لدنه» بإسكان الدال مع إشمامها للضم وكسر النون والهاء ووصلها بياء في اللفظ.

وقوله: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ﴾ قرأها الجمهور - بضم الياء وفتح الباء الموحدة وكسر الشين مشددة - وقرأ حمزة والكسائي «يبشر» - بفتح الياء وإسكان الباء الموحدة وضم الشين -.

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾. اعلم أولاً أن لفظة «لعل» تكون للترجي في المحبوب، وللإشفاق في الماحذور، واستظهر أبو حيان في البحر المحيط أن «لعل» في قوله هنا: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ﴾ للإشفاق عليه ﷺ أن ييخع نفسه لعدم إيمانهم به.

وقال بعضهم: إن «لعل» في الآية للنهي. وممن قال به العسكري، وهو معنى كلام ابن عطية كما نقله عنهما صاحب البحر المحيط.

وعلى هذا القول، فالمعنى لا تبخع نفسك لعدم إيمانهم. وقيل: هي في الآية للاستفهام المضمن معنى الإنكار. وإتيان «لعل» للاستفهام مذهب كوفي معزوف.

وأظهر هذه الأقوال عندي في معنى «لعل» أن المراد بها في الآية النهي عن الحزن عليهم.

وإطلاق لعل مضمنة معنى النهي في مثل هذه الآية أسلوب عربي يدل عليه سياق الكلام.

ومن الأدلة على أن المراد بها النهي عن ذلك؛ كثرة ورود النهي صريحاً عن ذلك كقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [فاطر: ٨]، وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: ٨٨]، وقوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨] إلى غير ذلك من الآيات، وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

والباحع: المهلك؛ أي مهلك نفسك من شدة الأسف على عدم إيمانهم، ومنه قول ذي الرمة:

ألا أيهذا الباحع الوجد نفسه لشيء نحته عن يديه المقادر
كما تقدم.

وقوله: ﴿عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾ قال القرطبي: آثارهم جمع أثر. ويقال: إثر، والمعنى: على أثر توليهم وإعراضهم عنك.

وقال أبو حيان في البحر: ومعنى ﴿عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾ من بعدهم، أي بعد يأسك من إيمانهم. أو بعد موتهم على الكفر، يقال: مات فلان على أثر فلان؛ أي بعده.

وقال الزمخشري: شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به، وما داخله من الوجد والأسف على توليهم برجل فارقت أحبته وأعزته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ويبخع نفسه وجداً عليهم، وتلهفاً على فراقهم! والأسف هنا: شدة الحزن، وقد يطلق الأسف على الغضب كقوله: ﴿فَلَمَّا أَصَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

فإذا حققت معنى هذه الآية الكريمة، فاعلم أن ما ذكره فيها - جل وعلا - من شدة حزن نبيه ﷺ عليهم ومن نهيه له عن ذلك مبين في آيات أخر كثيرة كقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [فاطر: ٨]، وكقوله: ﴿لَكَ بِبَيْعِ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء] وكقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] وكقوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨] وكقوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] وكقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٦] كما قدمناه موضحاً.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿أَيُّهَا﴾ مفعول من أجله، أي مهلك نفسك من أجل الأسف، ويجوز إعرابه حالاً؛ أي في حال كونك أسفاً عليهم، على حد قوله في الخلاصة:

ومصدر منكر حالاً يقع بكثرة كبغته زيد طلع

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا (٨). قال الزمخشري في معنى هذه الآية الكريمة: ﴿مَا عَلَيْهَا﴾ يعني ما على الأرض مما يصلح أن يكون زينة لها ولأهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها.

وقال بعض العلماء: كل ما على الأرض زينة لها من غير تخصيص، وعلى هذا القول فوجه كل الحيات وغيرها مما يؤذي زينة للأرض؛ لأنه يدل على وجود خالقه، واتصافه بصفات الكمال والجلال، ووجود ما يحصل به هذا العلم في شيء زينة له.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان المذكورة فيه، أن يذكر لفظ عام، ثم يصرح في بعض المواضع بدخول بعض أفراد ذلك العام فيه كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرٌ أَلَّهُ﴾ [الحج: ٣٢]. مع تصريحه بأن البدن داخله في هذا العموم بقوله: ﴿وَالْبُدُنُ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٣٦].

وإذا علمت ذلك فاعلم أن قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا﴾ قد صرح في مواضع آخر ببعض الأفراد الداخلة فيه، كقوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وقوله: ﴿وَاللَّيْلُ وَالنَّجْمُ وَالْجِبَالُ وَالْأَنْهَارُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْأَنْبِيَاءُ﴾ [النحل: ٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿صَعِيدًا جُرًّا﴾؛ أي أرضاً بيضاء لا نبات بها، وقد قدمنا معنى «الصعيد» بشواهد العربية في سورة «المائدة».

والجزر: الأرض التي لا نبات بها كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرَّةِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعُمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة] ومنه قول ذي الرمة:

طوى النحر والأجزاء ما في غروضها وما بقيت إلا الضلوع الجراشع

لأن مراده «بالأجزاء» الفيافي التي لا نبات فيها، والأجزاء: جمع جرزة، والجرزة: جمع جرز، فهو جمع الجمع للجرز، كما قاله الجوهري في صحاحه.

قال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: ﴿وإِنَّا لَجَعَلُونَهَا عَلَيْهَا﴾ من هذه الزينة صعيداً أو جرزاً، أي مثل أرض بيضاء لا نبات فيها بعد أن كانت خضراء معشبة في إزالة بهجته، وإمالة حسنه، وإبطال ما به، كان زينة من إمالة الحيوان، وتجفيف النبات والأشجار، اهـ.

وهذا المعنى المشار إليه هنا جاء مبيناً في مواضع آخر كقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىهَا أُنْزِلْنَا لَهَا لِيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقَدِّرًا﴾ [٢٥] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أي لنختبرهم على السنة رسلنا.

وهذه الحكمة التي ذكرها هنا لجعل ما على الأرض زينة لها، وهي الابتلاء في إحسان العمل، بين في مواضع آخر أنها هي الحكمة في خلق الموت والحياة والسموات والأرض، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١] الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [٢] [الملك]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

وقد بين ﷺ الإحسان بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» كما تقدم.

وهذا الذي أوضحنا من أنه - جل وعلا - جعل ما على الأرض زينة لها ليبتلي خلقه، ثم يهلك ما عليها ويجعله صعيداً جرزاً، فيه أكبر واعظ للناس، وأعظم زاجر عن اتباع الهوى، وإيثار الفاني على الباقي؛ ولذا قال ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فأنظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء».

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۖ﴾. «أم» في هذه الآية الكريمة هي المنقطعة عن التحقيق، ومعناها عند الجمهور «بل» والهمزة، وعند بعض العلماء بمعنى «بل» فقط، فعلى القول الأول، فالمعنى بل أحسبت، وعلى الثاني، فالمعنى بل حسبت، فهي على القول الأول جامعة بين الإضراب والإنكار، وعلى الثاني فهي للإضراب الانتقالي فقط.

وأظهر الأقوال في معنى الآية الكريمة أن الله يقول لنبيه ﷺ: إن قصة أصحاب الكهف وإن استعظمها الناس وعجبوا منها، فليست شيئاً عجباً بالنسبة إلى قدرتنا وعظيم صنعنا، فإن خلقنا السموات والأرض، وجعلنا ما على الأرض زينة لها، وجعلنا إياها بعد ذلك صعيداً جرزاً - أعظم وأعجب مما فعلنا بأصحاب الكهف، ومن كوننا أنماهم هذا الزمن الطويل، ثم بعثناهم، ويدل على هذا الذي ذكرنا آيات كثيرة:

منها: أنه قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ إلى قوله: ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾ ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ﴾... الآية، فدل ذلك على أن المراد أن قصتهم لا عجب فيها بالنسبة إلى ما خلقنا مما هو أعظم منها.

ومنها أنه يكثر في القرآن العظيم تنبيه الناس على أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق الناس، ومن خلق الأعظم فهو قادر على الأصغر بلا شك، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ...﴾ الآية [غافر: ٥٧]، وكقوله: ﴿إِنَّمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ أَتْمَأْتُهُ بَنُهَا﴾ [النازعات] إلى قوله: ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنفُسِكُمْ﴾ [النحل]. كما قدمناه مستوفى في سورة «البقرة»، و«النحل».

ومن خلق هذه المخلوقات العظام كالسما والأرض وما فيهما، فلا عجب في إقامته أهل الكهف هذه المدة الطويلة، ثم بعثه إياهم، كما هو واضح.

والكهف: النقب المتسع في الجبل، فإن لم يك واسعاً فهو غار. وقيل: كل غار في جبل: كهف، وما يروى عن أنس من أن الكهف نفس الجبل غريب، غير معروف في اللغة. واختلف العلماء في المراد بـ«الرقيم» في هذه الآية على أقوال كثيرة، قيل: الرقيم اسم كلبهم، وهو اعتقاد أمية بن أبي الصلت حيث يقول:

وليس بها إلا الرقيم مجاوراً وصيدهم والقوم في الكهف همد

وعن الضحاك أن الرقيم: بلدة بالروم، وقيل: اسم الجبل الذي فيه الكهف.

وقيل: اسم للوادي الذي فيه الكهف، والأقوال فيه كثيرة. وعن ابن عباس أنه قال: لا أدري ما الرقيم؟ أكتاب أم بinaan؟

وأظهر الأقوال عندي بحسب اللغة العربية وبعض آيات القرآن أن الرقيم معناه: المرقوم، فهو فعيل بمعنى مفعول، من رقمت الكتاب إذا كتبت، ومنه قوله تعالى: ﴿كَتَبَ مَرثُومٌ﴾ [المطففين] الآية. سواء قلنا: إن الرقيم كتاب كان عندهم فيه شرعهم الذي تمسكوا به، أو لوح من ذهب كتبت فيه أسماءهم وأنسابهم وقصتهم وسبب خروجهم، أو صخرة نقش فيها أسماءهم، والعلم عند الله تعالى.

والظاهر أن أصحاب الكهف والرقيم؛ طائفة واحدة أضيفت إلى شيتين: أحدهما معطوف على الآخر، خلافاً لمن قال: إن أصحاب الكهف طائفة، وأصحاب الرقيم طائفة أخرى، وأن الله قص على نبيه في هذه السورة الكريمة قصة أصحاب الكهف ولم يذكر له شيئاً عن أصحاب الرقيم، وخلافاً لمن زعم أن أصحاب الكهف هم الثلاثة الذين سقطت عليهم صخرة فسدت عليهم باب الكهف الذي هم فيه، فدعوا الله بأعمالهم الصالحة وهم: البار بالديه، والعفيف، والمستأجر. وقصتهم مشهورة ثابتة في الصحيح، إلا أن تفسير الآية بأنهم هم المراد، بعيد كما ترى.

واعلم أن قصة أصحاب الكهف وأسماءهم، وفي أي محل من الأرض كانوا كل ذلك لم يثبت فيه عن النبي ﷺ شيء زائد على ما في القرآن، وللمفسرين في ذلك أخبار كثيرة إسرائيلية أعرضنا عن ذكرها لعدم الثقة بها.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿عَجَبًا﴾ صفة لمحذوف، أي شيئاً عجباً، أو آية عجباً.

وقوله: ﴿مِنْ آيَاتِنَا﴾ في موضع الحال. وقد تقرر في فن النحو أن نعت النكرة إذا تقدم عليها صار حالاً، وأصل المعنى كانوا عجباً كائناً من آياتنا، فلما قدم النعت صار حالاً.

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آئِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [١٠]. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من صفة أصحاب الكهف أنهم فتية، وأنهم أواوا إلى الكهف، وأنهم دعوا ربهم هذا الدعاء العظيم الشامل لكل خير، وهو قوله عنهم: ﴿رَبَّنَا آئِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

وبين في غير هذا الموضع أشياء أخرى من صفاتهم وأقوالهم كقوله: ﴿إِنَّهُمْ فَتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَهُمْ هُدًى﴾ إلى قوله: ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ و«إذ» في قوله هنا: «إذ أوى الفتية» منصوبة بـ «اذكر» مقدراً. وقيل: بقوله: «عجباً»، ومعنى قوله: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ أي جعلوا الكهف مأوى لهم ومكان اعتصام.

ومعنى قوله: ﴿آئِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أي أعطنا رحمة من عندك، والرحمة هنا تشمل الرزق والهدى والحفظ مما هربوا خائفين منه من أذى قومهم، والمغفرة.

والفتية: جمع فتى جمع تكسير، وهو من جموع القلة، ويدل لفظ الفتية على قتلهم، وأنهم شباب لا شيب، خلافاً لما زعمه ابن السراج من أن الفتية اسم جمع لا جمع تكسير. وإلى كون مثل الفتية جمع تكسير من جموع القلة أشار ابن مالك في الخلاصة بقوله:

أفعلة أفعال ثم فعله كذاك أفعال جموع قلة

والتهيئة: التقريب والتيسير؛ أي يسر لنا وقرب لنا من أمرنا رشداً، والرشد: الاهتداء والديمومة عليه.. و«من» في قوله: ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ فيها وجهان: أحدهما أنها هنا للتجريد، وعليه فالمعنى: اجعل لنا أمرنا رشداً كله، كما تقول: لقيت من زيد أسداً، ومن عمرو بحراً.

والثاني أنها للتبويض، فالمعنى واجعل لنا بعض أمرنا؛ أي وهو البعض الذي نحن فيه من مفارقة الكفار رشداً حتى نكون بسببه راشدين مهتدين.

قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه ضرب على آذان أصحاب الكهف سنين عدداً، ولم يبين قدر هذا العدد هنا، ولكنه بينه في موضع آخر وهو قوله: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾.

وضربه - جل وعلا - على آذانهم في هذه الآية كناية عن كونه أنامهم، ومفعول «ضربنا» محذوف، أي ضربنا على آذانهم حجاباً مانعاً من السماع فلا يسمعون شيئاً يوقظهم. والمعنى أنماهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات.

وقوله: ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ على حذف مضاف؛ أي ذات عدد، أو مصدر بمعنى اسم المفعول، أي سنين معدودة. وقد ذكرنا الآية المبينة لقدّر عددها بالسنة القمرية والشمسية، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾.

وقال أبو حيان في البحر في قوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ عبر بالضرب ليدل على قوة المباشرة واللصوق واللزوم، ومنه ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ﴾ [آل عمران: ١١٢] وضرب الجزية وضرب البعث. وقال الفرزدق:

ضرب عليك العنكبوت بنسجها وقضى عليك به الكتاب المنزل

وقال الأسود بن يعفر:

ومن الحوادث لا أبالك أنني ضربت على الأرض بالأسداد

وقال آخر:

إن المروءة والسماحة والندي في قبة ضربت على ابن الحشرج

وذكر الجارحة التي هي الآذان، إذ هي يكون منها السمع؛ لأنه لا يستحکم نوم

لَا رَيْبَ فِيهَا. واعلم أن قوله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ بَشَّرَهُمْ لِنِعْمَةٍ...﴾ الآية لا يدل على أنه لم يكن عالماً بذلك قبل بعثهم، وإنما علم بعد بعثهم؛ كما زعمه بعض الكفرة الملاحدة! بل هو - جل وعلا - عالم بكل ما سيكون قبل أن يكون، لا يخفى عليه من ذلك شيء، والآيات الدالة على ذلك لا تحصى كثرة.

وقد قدمنا أن من أصرح الأدلة على أنه - جل وعلا - لا يستفيد بالاختيار والابتلاء علماً جديداً ﷺ عن ذلك علواً كبيراً قوله تعالى في آل عمران: ﴿وَلَيَبْتَلِيَنَّ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] فقلوه: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بعد قوله: ﴿وَلَيَبْتَلِيَنَّ﴾ دليل واضح في ذلك.

وإذا حققت ذلك فمعنى ﴿لِنِعْمَةٍ أُنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾؛ أي نعلم ذلك علماً يظهر الحقيقة للناس، فلا ينافي أنه كان عالماً به قبل ذلك دون خلقه.

واختلف العلماء في قوله: ﴿أَحْصَى﴾ فذهب بعضهم إلى أنه فعل ماضٍ و﴿أَمْدًا﴾ مفعوله. «وما» في قوله: ﴿لَمَّا لَبِثُوا﴾ مصدرية؛ وتقرير المعنى على هذا لنعلم أي الحزبين ضبط أمداً للبهيم في الكهف.

وممن اختار أن ﴿أَحْصَى﴾ فعل ماضٍ: الفارسي، والزمخشري، وابن عطية وغيرهم. وذهب بعضهم إلى أن ﴿أَحْصَى﴾ صيغة تفضيل، و﴿أَمْدًا﴾ تمييز، وممن اختاره الزجاج والتبريزي وغيرهما. وجوز الحوفي وأبو البقاء الوجهين.

والذين قالوا: إن ﴿أَحْصَى﴾ فعل ماضٍ قالوا: لا يصح فيه أن يكون صيغة تفضيل؛ لأنها لا يصح بناؤها هي ولا صيغة فعل التعجب قياساً إلا من الثلاثي و﴿أَحْصَى﴾ رباعي فلا تصاغ منه صيغة التفضيل ولا التعجب قياساً. قالوا: وقولهم: ما أعطاه وما أولاه للمعروف، وأعدى من الجرب، وأفلس من ابن المذلق شاذ لا يقاس عليه، فلا يجوز حمل القرآن عليه.

واحتج الزمخشري في الكشف أيضاً؛ لأن ﴿أَحْصَى﴾ ليست صيغة تفضيل بأن ﴿أَمْدًا﴾ لا يخلو إما أن ينتصب بأفعل، فأفعل لا يعمل. وإما أن ينتصب بـ«البثوا» فلا يسد عليه المعنى أن لا يكون سديداً على ذلك القول، وقال: فإن زعمت نصبه بإضمار فعل يدل عليه «أحصى» كما أضمر في قوله: (وأضرب منا بالسيوف القوانس)؛ أي نضرب القوانس، فقد أبعدت المتناول وهو قريب، حيث أبيت أن يكون «أحصى» فعلاً، ثم رجعت مضطراً إلى تقديره وإضماره، انتهى كلام الزمخشري.

وأجيب من جهة المخالفين عن هذا كله قالوا: لا نسلم أن صيغة التفضيل لا تصاغ من غير الثلاثي، ولا نسلم أيضاً أنها لا تعمل.

وحاصل تحرير المقام في ذلك أن في كون صيغة التفضيل تصاغ من «أفعل» كما هنا، أو لا تصاغ منه؛ ثلاثة مذاهب لعلماء النحو:

الأول: جواز بنائها من أفعل مطلقاً، وهو ظاهر كلام سيبويه، وهو مذهب أبي إسحاق كما نقله عنه أبو حيان في البحر.

والثاني: لا يبنى منه مطلقاً، وما سمع منه فهو شاذ يحفظ ولا يقاس عليه، وهو الذي درج عليه ابن مالك في الخلاصة بقوله:

وبالنذور احكم لغير ما ذكر ولا تقس على الذي منه أثر
كما قدمناه في سورة «بني إسرائيل» في الكلام على قوله: ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

الثالث: تصاغ من أفعل إذا كانت همزتها لغير النقل خاصة، كأظمم الليل، وأشكل الأمر، لا إن كانت الهمزة للنقل فلا تصاغ منها، وهذا هو اختيار أبي الحسن بن عصفور. وهذه المذاهب المذكورة بأدلتها في كتب النحو، وأما قول الزمخشري: فأفعل لا يعمل، فليس بصحيح؛ لأن صيغة التفضيل تعمل في التمييز بلا خلاف، وعليه درج في الخلاصة بقوله:

والفاعل المعنى انصب بأفعلا مفضلاً كانت أعلى منزلاً

و﴿أَمَدًا﴾ تمييز كما تقدم؛ فنصبه بصيغة التفضيل لا إشكال فيه.

وذهب الطبري إلى أن: ﴿أَمَدًا﴾ منصوب بـ ﴿لَبِثُوا﴾ وقال ابن عطية: إن ذلك غير متجه.

وقال ابن حيان: قد يتجه ذلك؛ لأن الأمد هو الغاية، ويكون عبارة عن المدة من حيث إن المدة غاية، و«ما» بمعنى الذي، و﴿أَمَدًا﴾ منتصب على إسقاط الحرف؛ أي لما لبثوا من أمد، ويصير من أمد تفسيراً لما انهم في لفظ «ما لبثوا» كقوله: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾ [البقرة: ١٠٦]، ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ [فاطر: ٢] ولما سقط الحرف وصل إليه الفعل.

قال مقيده - عفا الله عنه -: إطلاق الأمد على الغاية معروف في كلام العرب،

ومنه قول نابغة ذبيان:

إلا لمثلك أو من أنت سابقه سبق الجواد إذا استولى على الأمد

وقد قدمنا في سورة «النساء» أن علي بن سليمان الأخفش الصغير أجاز نصب بنزع الخافض عند أمن اللبس مطلقاً، ولكن نصب قوله: ﴿أَمَدًا﴾ بقوله: ﴿لَبِثُوا﴾ غير سديد كما ذكره الزمخشري وابن عطية، وكما لا يخفى، اهـ.

وأجاز الكوفيون نصب المفعول بصيغة التفضيل، وأعربوا قول العباس بن مرداس

السلمي:

فلم أر مثل الحي حياً مصيحاً ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا

أكر وأحمى للحقيقة منهم وأضرب منا بالسيوف القوانسا

بأن «القوانس» مفعول به لصيغة التفضيل التي هي أضرب. قالوا: ولا حاجة لتقدير فعل محذوف. ومن هنا قال بعض النحويين: إن «من» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَصِلُ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١١٧] منصوب بصيغة التفضيل قبله نصب المفعول به.

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: ومذهب الكوفيين هذا أجرى عندي على المعنى المعقول؛ لأن صيغة التفضيل فيها معنى المصدر الكامن فيها، فلا مانع من عملها عمله، ألا ترى أن قوله: «وأضرب منا بالسيوف القوانسا» معناه: يزيد ضربنا بالسيوف القوانس على ضرب غيرنا، كما هو واضح. وعلى هذا الذي قررنا فلا مانع من كون ﴿أَمْدًا﴾ منصوب بـ ﴿أَحْصَى﴾ نصب المفعول به على أنه صيغة تفضيل، وإن كان القائلون بأن ﴿أَحْصَى﴾ صيغة تفضيل، أعربوا ﴿أَمْدًا﴾ بأنه تمييز.

تنبيه: فإن قيل: ما وجه رفع ﴿أَيُّ﴾ من قوله: ﴿لَعَلَّ أَيْ الْحَزْبَيْنِ أَحْصَى﴾... الآية، مع أنه في محل نصب لأنه مفعول به؟ فالجواب أن للعلماء في ذلك أجوبة، منها أن ﴿أَيُّ﴾ فيها معنى الاستفهام، والاستفهام يعلق الفعل عن مفعوليته كما قال ابن مالك في الخلاصة عاطفاً على ما يعلق الفعل القلبي عن مفعوليته:

وإن ولا لام ابتداء أو قسم كذا والاستفهام ذا له انحتم

ومنها ما ذكره الفخر الرازي وغيره من أن الجملة بمجموعها متعلق العلم؛ ولذلك السبب لم يظهر عمل قوله: «لنعلم» في لفظة ﴿أَيُّ﴾ بل بقيت على ارتفاعها، ولا يخفى عدم اتجاه هذا القول كما ترى.

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: أظهر أوجه الأعراب عندي في الآية أن لفظة ﴿أَيُّ﴾ موصولة استفهامية. و﴿أَيُّ﴾ مبنية لأنها مضافة، وصدر صلتها محذوف على حد قوله في الخلاصة:

أي كما وأعربت ما لم تضاف وصدر وصلها ضمير انحذف

ولبنائها لم يظهر نصبها، وتقدير المعنى على هذا لنعلم الحزب الذي هو أحصى لما لبثوا أمداً ونميزه عن غيره. و﴿أَحْصَى﴾ صيغة تفضيل كما قدمنا توجيهه، نعم، للمخالف أن يقول: إن صيغة التفضيل تقتضي بدلالة مطابقتها الاشتراك بين المفضل والمفضل عليه في أصل الفعل، وأحد الحزبين لم يشارك الآخر في أصل الإحصاء لجهله بالمدة من أصلها، وهذا مما يقوي قول من قال: إن «أحصى» لعل، والعلم عند الله تعالى.

فإن قيل: أي فائدة مهمة في معرفة الناس للحزب المحصي أمد اللبث من غيره، حتى يكون علة غائية لقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ...﴾ الآية؟ وأي فائدة مهمة في مساءلة بعضهم بعضاً، حتى يكون علة غائية لقوله: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ؟﴾

فالجواب: أنا لم نر من تعرض لهذا؛ والذي يظهر لنا - والله تعالى أعلم - أن ما ذكر من إعلام الناس بالحزب الذي هو أحصى أمداً لما لبثوا، ومساءلة بعضهم بعضاً

عن ذلك، يلزمه أن يظهر للناس حقيقة أمر هؤلاء الفتية، وأن الله ضرب على آذانهم في الكهف ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً، ثم بعثهم أحياء طرية أبدانهم؛ لم يتغير لهم حال. وهذا من غريب صنعه - جل وعلا - الدال على كمال قدرته، وعلى البعث بعد الموت، ولا اعتبار هذا اللازم جعل ما ذكرنا علة غائية والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿تَحْنُ نَفْسُ عَلَيْكَ نِبَاهُمْ يَأْلَحْ بِهَمِّهِمْ فَسَيَكُونُ سَبْعًا مِمَّا يَشْكُرُونَ وَرَزَقْنَاهُمْ هُدًى ۝١٣﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة لنبيه ﷺ أنه يقص عليه نبأ أصحاب الكهف بالحق. ثم أخبره مؤكداً له أنهم فتية آمنوا بربهم، وأن الله - جل وعلا - زادهم هدى. ويفهم من هذه الآية الكريمة أن من آمن بربه وأطاعه زاده ربه هدى؛ لأن الطاعة سبب للمزيد من الهدى والإيمان.

وهذا المفهوم من هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في مواضع أخرى، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَآذَنُوا بِحَقِّ رَبِّهِمْ لَوَعَدَنَّهُمْ نَفْسُ هُدى ۝١٤﴾ [محمد]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] الآية، وقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادْنَاهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يُسَبِّحُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾. [الفتح: ٤]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنَ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ الآية [الحديد: ٢٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

وهذه الآيات المذكورة نصوص صريحة في أن الإيمان يزيد مفهوم منها أنه ينقص أيضاً، كما استدلل بها البخاري رحمه الله على ذلك، وهي تدل عليه دلالة صريحة لا شك فيها، فلا وجه معها للاختلاف في زيادة الإيمان ونقصه كما ترى، والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا﴾. أي ثبتنا قلوبهم وقويها على الصبر، حتى لا يجزعوا ولا يخافوا من أن يصدعوا بالحق، ويصبروا على فراق الأهل والنعيم، والفرار بالدين في غار في جبل لا أنيس به، ولا ماء ولا طعام. ويفهم من هذه الآية الكريمة أن من كان في طاعة ربه - جل وعلا - أنه تعالى يقوي قلبه، ويشته على تحمل الشدائد، والصبر الجميل.

وقد أشار تعالى إلى وقائع من هذا المعنى في مواضع أخرى كقوله في أهل بدر مخاطباً نبيه ﷺ وأصحابه: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ اللَّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝١٥﴾. إذ يوحى ربك إلى الملائكة أتي معكم فتيوتاً الذين ءامنوا﴾ [الأنفال: ١١، ١٢]، وكقوله في أم موسى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَرِيقًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَى بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٦﴾ [القصاص].

وأكثر المفسرين على أن قوله: ﴿إِذْ قَامُوا﴾ أي بين يدي ملك بلادهم، وهو ملك جبار يدعو إلى عبادة الأوثان، يزعمون أن اسمه: دقيانوس.

وقصتهم المذكورة في جميع كتب التفسير، أعرضنا عنها لأنها إسرائيلية، وفي قيامهم المذكور هنا أقوال أخر كثيرة. والعامل في قوله: «إذ» هو ربطنا على قلوبهم حين قاموا.

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم ربهم هدى قالوا: إن ربهم هو رب السموات والأرض، وأنهم لن يدعوا من دونه إلهاً، وأنهم لو فعلوا ذلك قالوا شططاً، أي قولاً ذا شطط. أو هو من النعت بالمصدر للمبالغة؛ كأن قولهم هو نفس الشطط، والشطط: البعد عن الحق والصواب. وإليه ترجع أقوال المفسرين، كقول بعضهم: «شططاً»: جوراً، تعدياً، كذباً، خطأ، إلى غير ذلك من الأقوال.

وأصل مادة الشطط: مجاوزة الحد، ومنه أشط في السوم: إذا جاوز الحد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا شُطُطٌ﴾... الآية [ص: ٢٢] الآية. أو البعد، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة: تشط غداً دار جيراننا وللدار بعد غد أبعد ويكثر استعمال الشطط في الجور والتعدي، ومنه قول الأعشى:

أنهون ولن ينهى ذوي شطط كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل

وهذه الآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أن من أشرك مع خالق السموات والأرض معبوداً آخر، فقد جاء بأمر شطط بعيد عن الحق والصواب في غاية الجور والتعدي؛ لأن الذي يستحق العبادة هو الذي يبرز الخلائق من العدم إلى الوجود؛ لأن الذي لا يقدر على خلق غيره مخلوق يحتاج إلى خالق يخلقه ويرزقه ويدبر شؤونه.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في آيات أخر كثيرة كقوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ عَبْدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ١٦] الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [البقرة: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧] وقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦] أي الواحد القهار الذي هو خالق كل شيء هو المستحق للعبادة وحده - جل وعلا -.. وقوله - جل وعلا -: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٨] وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٢٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾؛ أي إذا دعونا من دونه إلهاً فقد قلنا شططاً.

قوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمُ سُلْطَانٌ بَيِّنٌ﴾. «لولا» في هذه الآية الكريمة للتضيض، وهو الطلب بحث وشدة. والمراد بهذا

الطلب التعجيز؛ لأنه من المعلوم أنه لا يقدر أحد أن يأتي بسلطان بين على جواز عبادة غير الله تعالى. والمراد بالسلطان البين: الحجة الواضحة.

وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من تعجيزهم عن الإتيان بحجة على شركهم وكفرهم، وإبطال حجة المشركين على شركهم، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنَبِّئُ بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْتَرَوْا مِنَ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢١]، وقوله تعالى منكرأ عليهم: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَسْكِنُونَ﴾ [الزخرف: ١٨]، وقوله - جل وعلا -: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُمْ يَكْتُمُونَ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِنْ يَعْذِرُ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ بَعْضًا مِنْهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٧]، والآيات الدالة على أن المشركين لا مستند لهم في شركهم إلا تقليد آبائهم الضالين كثيرة جداً، وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ مبتدأ، و﴿قَوْمَنَا﴾ قيل: عطف بيان، والخبر جملة ﴿أَتُخَذُوا﴾ وقيل: ﴿قَوْمَنَا﴾ خبر المبتدأ، وجملة ﴿أَتُخَذُوا﴾ في محل حال، والأول أظهر، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾. أي لا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب بادعاء أن له شريكاً كما افتراه عليه قوم أصحاب الكهف، كما قال عنهم أصحاب الكهف: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً...﴾ الآية.

وهذا المعنى ذكره هنا من أن افتراء الكذب على الله يجعل الشركاء له هو أعظم الظلم جاء مبيناً في آيات كثيرة، كقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ [الزمر: ٣٢]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ افْتَرَسْتُمْ بُيُوتَكُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْتُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾. ﴿إِذْ﴾ في قوله: ﴿وَإِذْ افْتَرَسْتُمْ بُيُوتَكُمْ﴾ للتعليل على التحقيق، كما قاله ابن هشام، وعليه فالمعنى ولأجل اعتزالكم قومكم الكفار وما يعبدونه من دون الله، فاتخذوا الكهف مأوى ومكان اعتصام، ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً، وهذا يدل على أن اعتزال المؤمن قوم الكفار ومعبودهم من أسباب لطف الله به ورحمته.

وهذا المعنى يدل عليه أيضاً قوله تعالى في نبيه إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -: ﴿وَاَعْتَرَلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ۝٢٨﴾ فَلَمَّا أَعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝٢٩ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝٣٠﴾ [مريم]، واعتزالهم إياهم هو مجانبتهم لهم، وفرارهم منهم بدينهم.

وقوله: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ اسم موصول في محل نصب معطوف على الضمير المنصوب في قوله: ﴿أَعْتَرَلْتَهُمْ﴾؛ أي واعتزلتم معبوديهم من دون الله، وقيل: ﴿مَا﴾ مصدرية، أي اعتزلتموهم واعتزلتم عبادتهم غير الله تعالى والأول أظهر.

وقوله: ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ قيل: هو استثناء متصل، بناء على أنهم كانوا يعبدون الله والأصنام. وقيل: هو استثناء منقطع؛ بناء على القول بأنهم كانوا لا يعبدون إلا الأصنام، ولا يعرفون الله ولا يعبدونه.

وقوله: ﴿مَرْفَقًا﴾ أي ما ترتفعون به، أي تنتفعون به. وقرأه نافع وابن عامر - بفتح الميم وكسر الفاء مع تفخيم الراء - وقرأه باقي السبعة - بكسر الميم وفتح الفاء وترقيق الراء -، وهما قراءتان ولغتان فيما يرتفق به، وفي عضو الإنسان المعروف. وأنكر الكسائي في «المرفق» بمعنى عضو الإنسان - فتح الميم وكسر الفاء - وقال: هو بكسر الميم وفتح الفاء، ولا يجوز غير ذلك.

وزعم ابن الأنباري أن «من» في قوله: ﴿وَيَهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُمْ﴾ بمعنى البدلية، أي يهيئ لكم بدلاً من «أمركم» الصعب مرفقاً، وعلى هذا الذي زعم غاية كقوله تعالى: ﴿أَرْضَيْتُهُ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨] أي بدلاً منها وعوضاً عنها. ومن هذا المعنى قول الشاعر:

فليت لنا من ماء زمزم شربة مبردة باتت على طهيان

أي بدلاً من ماء زمزم، والله تعالى أعلم.

ومعنى ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ﴾: يبسط لكم، كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا فَتَقْنَا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشورى: ٢٨] الآية: وقوله: ﴿وَيَهَيِّئْ﴾، أي ييسر ويقرب ويسهل.

قوله تعالى: ﴿وَرَرَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَرَوُّرٌ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْ ذَاتِ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾. اعلم أولاً أننا قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، ويكون في نفس الآية قرينة تدل على خلاف ذلك القول، وذكرنا من ذلك أمثلة متعددة.

وإذا علمت ذلك فاعلم أن العلماء اختلفوا في هذه الآية على قولين، وفي نفس الآية قرينة تدل على صحة أحدهما وعدم صحة الآخر.

أما القول الذي تدل القرينة في الآية على خلافه، فهو أن أصحاب الكهف كانوا

في زاوية من الكهف، وبينهم وبين الشمس نواجز طبيعية من نفس الكهف، تقيهم حر الشمس عند طلوعها وغروبها، على ما سنذكر تفصيله - إن شاء الله تعالى -.

وأما القول الذي تدل القرينة في هذه الآية على صحته، فهو أن أصحاب الكهف كانوا في فجوة من الكهف على سمت تصيبه الشمس وتقبله؛ إلا أن الله منع ضوء الشمس من الوقوع عليهم على وجه خرق العادة؛ كرامة لهؤلاء القوم الصالحين، الذين فروا بدينهم طاعة لربهم - جل وعلا -.

والقرينة الدالة على ذلك هي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾، إذ لو كان الأمر كما ذكره أصحاب القول الأول لكان ذلك أمراً معتاداً مألوفاً، وليس فيه غرابة حتى يقال فيه: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾، وعلى هذا الوجه الذي ذكرناه أنه تشهد له القرينة المذكورة، فمعنى تزاور الشمس عن كهفهم ذات اليمين عند طلوعها، وقرضها إياهم ذات الشمال عند غروبها هو أن الله يقلص ضوءها عنهم، ويبعده إلى جهة اليمين عند الطلوع، وإلى جهة الشمال عند الغروب؛ والله - جل وعلا - قادر على كل شيء، يفعل ما يشاء، فإذا علمت هذا، فاعلم أن أصحاب القول الأول اختلفوا في كيفية وضع الكهف.

وجزم ابن كثير في تفسيره بأن الآية تدل على أن باب الكهف كان من نحو الشمال، قال: لأنه تعالى أخبر بأن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ذات اليمين، أي تقلص الفيء يمنة. كما قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة: تزاور أي تميل؛ وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في ذلك المكان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْ ذَاتِ الشِّمَالِ﴾؛ أي تدخل إلى غارهم من شمال بابه وهو من ناحية الشرق، فدل على صحة ما قلناه، وهذا بين لمن تأمله، وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر والكواكب.

وبيانه - أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب، ولو كان من ناحية القبلة لما دخل إليه منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب، ولا تزاور الفيء يميناً وشمالاً، ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع، بل بعد الزوال، ولم تزل فيه إلى الغروب، فتعين ما ذكرناه، والله الحمد، انتهى كلام ابن كثير.

وقال الفخر الرازي في تفسيره: أصحاب هذا القول قالوا: إن باب الكهف كان مفتوحاً إلى جانب الشمال، فإذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف، وإذا غربت كانت على شماله، فضوء الشمس ما كان يصل إلى داخل الكهف، وكان الهواء الطيب والنسيم الموافق يصل إليه، انتهى كلام الرازي.

وقال أبو حيان في تفسير هذه الآية: وهذه الصفة مع الشمس تقتضي أنه كان لهم حاجب من جهة الجنوب، وحاجب من جهة الدبور وهم في زاوية. وقال عبد الله بن مسلم: كان باب الكهف ينظر إلى بنات نعش، وعلى هذا كان أعلى الكهف مستوراً من المطر.

قال ابن عطية: كان كهفهم مستقبل بنات نعش لا تدخله الشمس عند الطلوع ولا عند الغروب، اختار الله لهم مضجعاً متسعاً في مقناة لا تدخل عليهم الشمس فتؤذيهم، انتهى الغرض من كلام أبي حيان. والمقناة: المكان الذي لا تطلع عليه الشمس، إلى غير ذلك من أقوال العلماء.

والقول الأول أنسب للقرينة القرآنية التي ذكرنا. وممن اعتمد القول الأول لأجل القرينة المذكورة الزجاج، ومال إليه بعض الميل الفخر الرازي والشوكاني في تفسيريهما، لتوجيههما قول الزجاج المذكور بقرينة الآية المذكورة. وقال الشوكاني رحمه الله في تفسيره: ويؤيد القول الأول قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ فإن صرف الشمس عنهم مع توجه الفجوة إلى مكان تصل إليه عادة أنسب، بمعنى كونها آية. ويؤيده أيضاً إطلاق الفجوة وعدم تقييدها بكونها إلى جهة كذا، ومما يدل على أن الفجوة المكان الواسع قول الشاعر:

ألبست قومك مخزاة ومنقصة حتى أبيحوا وحلوا فجوة الدار
انتهى كلام الشوكاني.

ومعلوم أن الفجوة هي المتسع. وهو معروف في كلام العرب، ومنه البيت المذكور، وقول الآخر:

ونحن ملأنا كل واد وفجوة رجالاً وخيلاً غير ميل ولا عزل
ومنه الحديث: «إذا وجد فجوة نص».

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَرَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ﴾ أي ترى أيها المخاطب الشمس عند طلوعها تميل على كهفهم، والمعنى أنك لو رأيتهم لرأيتهم كذلك، لا أن المخاطب رآهم بالفعل، كما يدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾... الآية، والخطاب بمثل هذا مشهور في لغة العرب التي نزل بها هذا القرآن العظيم، وأصل مادة التزاور: الميل، فمعنى تزاور: تميل، والتزاور: الميل، ومنه شهادة الزور؛ لأنها ميل عن الحق. ومنه الزيارة؛ لأن الزائر يميل إلى المزور، ومن هذا المعنى قول عنترة في معلقته:

فأزور من وقع القنا بلبانه وشكا إلي بعبرة وتحمحم
وقول عمر بن أبي ربيعة:

وخفض عني الصوت أقبلت مشية الـ حباب وشخصي خشية الحي أزور
وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أي جهة اليمين، وحقيقتها الجهة المسماة باليمين. وقال أبو حيان في البحر: وذات اليمين: جهة يمين الكهف، وحقيقتها الجهة المسماة باليمين، يعني يمين الداخل إلى الكهف، أو يمين الفتية، اهـ وهو منصوب على الظرف.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقَرُّضُهُمْ﴾ من القرض بمعنى القطيعة والصرم؛ أي تقطعهم وتتجافى عنهم ولا تقرّبهم. وهذا المعنى معروف في كلام العرب؛ ومنه قول غيلان ذي الرمة:

نظرت بجرعاء السبية نظرة ضحى وسواد العين في الماء شامس
إلى ظعن يقرضن أقواز مشرف شمالاً وعن أيماهن الفوارس

فقوله: «يقرضن أقواز مشرف» أي يقطعنها ويبعدنها ناحية الشمال وعن أيماهن الفوارس، وهو موضع أو رمال الدهناء، والأقواز: جمع قوز - بالفتح - وهو العالي من الرمل كأنه جبل، ويروى أجواز مشرف - جمع جوز؛ من المجاز بمعنى الطريق. وهذا الذي ذكرنا هو الصواب في معنى قوله تعالى: ﴿تَقَرُّضُهُمْ﴾ خلافاً لمن زعم أن معنى تقرضهم تقطعهم من ضوئها شيئاً ثم يزول سريعاً كالقرض يسترد، ومراد قائل هذا القول أن الشمس تميل عنهم بالغداة، وتصيبهم بالعشي إصابة خفيفة، بقدر ما يطيب لهم هواء المكان ولا يتعفن.

قال أبو حيان في البحر: ولو كان من القرض الذي يعطى ثم يسترد لكان الفعل رباعياً، فتكون التاء في قوله: ﴿تَقَرُّضُهُمْ﴾ مضمومة، لكن دل فتح التاء من قوله: ﴿تَقَرُّضُهُمْ﴾ على أنه من القرض بمعنى القطع، أي تقطع لهم من ضوئها شيئاً، وقد علمت أن الصواب القول الأول. وقد قدمنا أن الفجوة: المتسع.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿تَزَوَّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ﴾ فيه ثلاث قراءات سبعيات: قرأه ابن عامر الشامي «تزور» بإسكان الزاي وإسقاط الألف وتشديد الراء؛ على وزن تحمر، وهو على هذه القراءة من الازورار بمعنى الميل؛ كقول عنترة المتقدم:

فازور من وقع القنا... البيت

وقرأه الكوفيون وهم عاصم وحمزة والكسائي بالزاي المخففة بعدها ألف، وعلى هذه القراءة فأصله «تتزاور» فحذفت منه إحدى التائين؛ على حد قوله في الخلاصة:

وما بتائين ابتدي قد يقتصر فيه على تاكثبين الغبر

وقرأه نافع المدني وابن كثير المكي وأبو عمرو البصري «تزاور» بتشديد الزاي بعدها ألف، وأصله «تتزاور» أدغمت فيه التاء في الزاي، وعلى هاتين القراءتين: أعني قراءة حذف إحدى التائين، وقراءة إدغامها في الزاي فهو من التزاور بمعنى الميل أيضاً، وقد يأتي التفاعل بمعنى مجرد الفعل كما هنا، وكقولهم: سافر وعاقب وعافى.

وعلى قول من قال: إن في الكهف حواجز طبيعية تمنع من دخول الشمس بحسب وضع الكهف فلا إشارة في قوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ راجعة إلى ما ذكر من حديثهم؛ أي ذلك المذكور إلى هدايتهم إلى التوحيد وإخراجهم من بين عبدة الأوثان، وإيوائهم إلى ذلك الكهف، وحمايتهم من عدوهم إلى آخر حديثهم من آيات الله، وأصل الآية

عند المحققين «آية» بثلاثة فتحات، أبدلت فيه الياء الأولى ألفاً؛ والغالب في مثل ذلك أنه إذا اجتمع موجبا إعلال، كان الإعلال في الأخير؛ لأن التغير عادة أكثر في الأواخر؛ كما في طوى ونوى، ونحو ذلك، وهنا أعل الأول على خلاف الأغلب، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

وإن لحرفين ذا الإعلال استحق صحح أول وعكس قد يحق
والآية تطلق في اللغة العربية إطلاقين. وتطلق في القرآن العظيم إطلاقين أيضاً، أما إطلاقها في اللغة: الأول منهما أنها تطلق بمعنى العلامة، وهو الإطلاق المشهور، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ...﴾ الآية [البقرة: ٢٤٨]، وقول عمر بن أبي ربيعة:

بآية ما قالت غداة لقيتها بمدفع أكنان أهذا المشهر
يعني أن قولها ذلك هو العلامة بينها وبين رسوله إليها المذكور في قوله قبله:
أكني إليها بالسلام فإنه يشهر إمامي بها وينكر
وقد جاء في شعر نابغة ذبيان وهو جاهلي تفسير الآية بالعلامة في قوله:
توهمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع
ثم بين أن مراده بالآيات علامات الدار بقوله بعده:
رماد كحل العين لأياً أبينه ونؤدي كجذم الحوض أثلم خاشع
وأما الثاني منهما فهو إطلاق الآية بمعنى الجماعة، يقولون: جاء القوم بأيّهم، أي بجماعتهم، ومنه قول برج بن مسهر أو غيره:
خرجنا من النقبين لا حي مثلنا بآياتنا نزجي اللقاح المطافلا
فقوله: «بآياتنا» أي بجماعتنا.

وأما إطلاقها في القرآن فالأول منهما: إطلاقها على الآية الكونية القدريّة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران]؛ أي علامات كونية قدرية، يعرف بها أصحاب العقول السليمة أن خالقها هو الرب المعبود وحده - جل وعلا - والآية الكونية القدريّة في القرآن من الآية بمعنى العلامة لغة.
وأما إطلاقها الثاني في القرآن فهو إطلاقها على الآية الشرعية الدينية؛ كقوله: ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ...﴾ الآية [الطلاق: ١١]. ونحوها من الآيات.

والآية الشرعية الدينية قيل: هي من الآية بمعنى العلامة لغة؛ لأنها علامات على صدق من جاء بها، أو أن فيها علامات على ابتدائها وانتهائها.
وقيل: من الآية، بمعنى الجماعة، لاشتغال الآية الشرعية الدينية على طائفة وجماعة من كلمات القرآن.

قوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًا مُرْشِدًا﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الهدى والإضلال بيده وحده - جل وعلا - فمن هداه فلا مضل له، ومن أضله فلا هادي له.

وقد أوضح هذا المعنى في آيات كثيرة جداً، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عُمًا وِثْكًا وَصُفًّا...﴾ الآية [الإسراء: ٩٧]، وقوله: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَا وَلِيَكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨]، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، وقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]، وقوله: ﴿إِنْ تَحَرَّضَ عَلَىٰ هُدْيَتِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ نَعِيرٍ﴾ [النحل: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿لَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، والآيات بمثل هذا كثيرة جداً.

ويؤخذ من هذه الآيات وأمثالها في القرآن بطلان مذهب القدرية: أن العبد مستقل بعمله من خير أو شر، وأن ذلك ليس بمشيئة الله بل بمشيئة العبد، سبحانه - جل وعلا - عن أن يقع في ملكه شيء بدون مشيئته! وتعالى عن ذلك علواً كبيراً! وسيأتي بسط هذا المبحث - إن شاء الله تعالى.

وقد أوضحنا أيضاً في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة «الشمس» في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَالْمُهَيَّاءُ فَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس]، وقوله: ﴿فَلَنْ يَجْعَلَ لُؤْلُؤًا مُمَرِّدًا﴾؛ أي لن تكون بينه وبينه سبب للموالة يرشده إلى الصواب والهدى، أي لن يكون ذلك لأن من أضله الله فلا هادي له، وقوله: ﴿فَهُوَ الْمُهَيَّاءُ﴾ قرأه بإثبات الياء في الوصل دون الوقف نافع وأبو عمرو. وبقية السبعة قرؤوه بحذف الياء في الحاليين.

قوله تعالى: ﴿وَتَحْسِبُهُمْ أَنْكَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾. الحسبان بمعنى الظن، والأيقاظ: جمع يقظ - بكسر القاف وضمها -، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

فلما رأَت من قد تنبه منهم وأيقاظهم قالت أشر كيف تأمر والرقود: جمع راقِد وهو النَّائم، أي تظنهم أيها المخاطب لو رأيتهم أيقاظاً والحال أنهم رقاد، ويدل على هذا المعنى قوله تعالى في نظيره: ﴿لَوْ أَطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا...﴾ الآية. وقال بعض العلماء: سبب ظن الرائي أنهم أيقاظ هو أنهم نيام وعيونهم مفتحة. وقيل: لكثرة تقلبهم. وهذا القول يشير له قوله تعالى بعده: ﴿وَنَقَلْنَاهُمْ ذَاتَ أَلْيَمٍ وَذَاتَ أَلْسَمَالٍ﴾، وكلام المفسرين هنا في عدد تقلبهم من كثرة وقلة لا دليل عليه؛ ولذا أعرضنا عن ذكر الأقوال فيه.

وقوله في هذه الآية: ﴿وَحَسْبَهُمْ﴾ قرأه بفتح السين على القياس ابن عامر وعاصم وحمزة. وقرأه بكسر السين نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي، وهما قراءتان سبعيتان، ولغتان مشهورتان، والفتح أقيس والكسر أفصح.

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّهْم بِسْطَ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَيْدِ﴾. اختلفت عبارات المفسرين في المراد بـ«الوَيْدِ» فقيل: هو فناء البيت، ويروى عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير، وقيل الوَيْد: الباب، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً. وقيل: الوَيْد العتبة. وقيل: الصعيد. والذي يشهد له القرآن أن الوَيْد هو الباب. ويقال له: «أصيد» أيضاً؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ [الهمزة؛ أي مغلقة مطبقة؛ وذلك بإغلاق كل وصيد أو أصيد، وهو الباب من أبوابها، ونظير الآية من كلام العرب قول الشاعر:

تحن إلى أجبال مكة ناقتي ومن دونها أبواب صنعاء مؤصدة

وقول ابن قيس الرقيات:

إن في القصر لو دخلنا غزالا مصفقا مؤصداً عليه الحجاب

فالمراد بالإيصاد في جميع ذلك: الإطباق والإغلاق؛ لأن العادة فيه أن يكون بالوَيْد وهو الباب. ويقال فيه أصيد. وعلى اللغتين القراءتان في قوله: ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾ مهموزاً من الأصيد... وغير مهموز من الوَيْد.

ومن إطلاق العرب الوَيْد على الباب قول عبيد بن وهب العبسي، وقيل زهير:

بأرض فضاء لا يسد وصيدها علي ومعروفي بها غير منكر

أي لا يسد بابها علي، يعني ليست فيها أبواب حتى تسد علي، كقول الآخر:

ولا ترى الضب بها ينجحر

فإن قيل: كيف يكون الوَيْد هو الباب في الآية، والكهف غار في جبل لا باب له؟.

فالجواب: أن الباب يطلق على المدخل الذي يدخل للشئ منه، فلا مانع من تسمية المدخل إلى الكهف باباً. ومن قال: الوَيْد الفناء لا يخالف ما ذكرنا؛ لأن فناء الكهف هو بابه. وقد قدمنا مراراً أن من أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً وتكون في الآية قرينة تدل على خلافه.

وقد قال بعض أهل العلم في هذه الآية الكريمة: إن المراد بالكلب في هذه الآية رجل منهم، لا كلب حقيقي. واستدلوا لذلك ببعض القراءات الشاذة، كقراءة «وكالْهُمْ باسط ذراعيه بالوَيْدِ» وقراءة «وكالْهُمْ باسط ذراعيه».

وقوله - جل وعلا -: ﴿بَسْطَ ذِرَاعَيْهِ﴾ قرينة تدل على بطلان ذلك القول؛ لأن بسط الذراعين معروف من صفات الكلب الحقيقي، ومنه حديث أنس المتفق عليه عن النبي ﷺ أنه قال: «اعتدلوا في السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب» وهذا المعنى مشهور في كلام العرب، فهو قرينة على أنه كلب حقيقي، وقراءة «وكالْهُمْ بالهمزة لا تنافي كونه كلباً؛ لأن الكلب يحفظ أهله ويحرسهم. والكلاءة: الحفظ.

فإن قيل: ما وجه عمل اسم الفاعل الذي هو «باسط» في مفعوله الذي هو «ذراعيه» والمقرر في النحو أن اسم الفاعل إذا لم يكن صلة «أل» لا يعمل إلا إذا كان واقعاً في الحال أو المستقبل؟.

فالجواب: أن الآية هنا حكاية حال ماضية، ونظير ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْنُتُونَ﴾ [البقرة: ٧٢].

واعلم أن ذكره - جل وعلا - في كتابه هذا الكلب، وكونه باسطاً ذراعيه بوصيد كهفهم في معرض التنويه بشأنهم يدل على أن صحبة الأخيار عظيمة الفائدة. قال ابن كثير رحمته الله في تفسير هذه الآية الكريمة: وشملت كلبهم بركتهم، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذا فائدة صحبة الأخيار، فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن، اهـ. ويدل على هذا المعنى قوله ﷺ لمن قال إني أحب الله ورسوله: «أنت مع من أحببت» متفق عليه من حديث أنس.

ويفهم من ذلك أن صحبة الأشرار فيها ضرر عظيم، كما بينه الله تعالى في سورة «الصفات» في قوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ (٥١) إلى قوله: ﴿قَالَ تَأَلَّوْاْ إِن كِدْتُمْ لِرُبُوبِنَا﴾ (٥١) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضِرِينَ (٥٧) [الصفات].

وما يذكره المفسرون من الأقوال في اسم كلبهم، فيقول بعضهم: اسمه قطمير. ويقول بعضهم: اسمه حمران، إلى غير ذلك لم نطل به الكلام لعدم فائدته.

ففي القرآن العظيم أشياء كثيرة لم يبينها الله لنا ولا رسوله، ولم يثبت في بيانها شيء، والبحث عنها لا طائل تحته ولا فائدة فيه.

وكثير من المفسرين يطنبون في ذكر الأقوال فيها بدون علم ولا جدوى، ونحن نعرض عن مثل ذلك دائماً؛ كلون كلب أصحاب الكهف، واسمه، وكالبعض الذي ضرب به القتل من بقرة بني إسرائيل، وكاسم الغلام الذي قتله الخضر، وأنكر عليه موسى قتله، وكخشب سفينة نوح من أي شجر هو، وكم طول السفينة وعرضها، وكم فيها من الطبقات، إلى غير ذلك مما لا فائدة في البحث عنه، ولا دليل على التحقيق فيه.

وقد قدمنا في سورة «الأنعام» في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ [الأنعام: ١٤٥] - حكم أكل لحم الكلب وبيعه، وأخذ قيمته إن قتل، وما يجوز اقتناؤه منها وما لا يجوز. وأوضحنا الأدلة في ذلك وأقوال العلماء فيه.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِّتَسْأَلُواْ بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه بعث أصحاب الكهف من نومتهم الطويلة ليتساءلوا بينهم، أي ليسأل بعضهم بعضاً عن مدة لبثهم في الكهف في تلك النومة، وأن بعضهم قال: إنهم لبثوا يوماً أو بعض يوم، وبعضهم رد علم ذلك إلى الله - جل وعلا -.

ولم يبين هنا قدر المدة التي تساءلوا عنها في نفس الأمر، ولكنه يبين في موضع آخر أنها ثلاثمائة سنة بحساب الشمسية، وثلاثمائة سنة وتسع سنين بحساب السنة القمرية، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۝١٥﴾ كما تقدم.

قوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾. في قوله في هذه الآية: «أزكى» قولان للعلماء:

أحدهما: أن المراد بكونه «أزكى» أطيب لكونه حلالاً ليس مما فيه حرام ولا شبهة.

وثانيهما: أن المراد بكونه أزكى أنه أكثر، كقولهم: زكا الزرع إذا كثر، وكقول الشاعر:

قبائلنا سبع وأنتم ثلاثة وللسبع أزكى من ثلاث وأطيب

أي أكثر من ثلاثة.

والقول الأول هو الذي يدل عليه القرآن؛ لأن أكل الحلال والعمل الصالح أمر الله به المؤمنين كما أمر المرسلين قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا...﴾ الآية [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝١٧١﴾ [البقرة]. ويكثر في القرآن إطلاق مادة الزكاة على الطهارة كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى ۝١٥﴾... الآية [الأعلى]، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى ۝١٦﴾... الآية [الشمس]، وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، وقوله: ﴿فَارْزُقْنَاهُ أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رِجْهًا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝٨٨﴾ وقوله: ﴿أَفَلَنْتُمْ أَنْفُسَ زَكَاةً يَغَيِّرُ نَفْسٍ﴾، إلى غير ذلك من الآيات.

فالزكاة في هذه الآيات ونحوها: يراد بها الطهارة من أدناس الذنوب والمعاصي، فاللائق بحال هؤلاء الفتية الأخيار المتقين أن يكون مطلبهم في ماكلهم الحلية والطهارة، لا الكثرة، وقد قال بعض العلماء: إن عهدهم بالمدينة فيها مؤمنون يخفون إيمانهم، وكافرون، وأنهم يريدون الشراء من طعام المؤمنين دون الكافرين، وأن ذلك هو مرادهم بالزكاة في قوله: ﴿أَزْكَى طَعَامًا﴾ وقيل: كان فيها أهل كتاب ومجوس، والعلم عند الله تعالى.

والورق في قوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ﴾: الفضة، وأخذ علماء المالكية وغيرهم من هذه الآية الكريمة مسائل من مسائل الفقه:

المسألة الأولى: جواز الوكالة وصحتها؛ لأن قولهم: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ﴾... الآية، يدل على توكيلهم لهذا المبعوث لشراء الطعام. وقال بعض العلماء: لا تدل الآية على جواز التوكيل مطلقاً بل مع التقية والخوف؛ لأنهم لو خرجوا كلهم لشراء حاجتهم لعلم بهم أعداؤهم في ظنهم فهم معذورون، فالآية تدل على توكيل المعذور دون غيره. وإلى هذا ذهب أبو حنيفة، وهو قول سحنون من أصحاب مالك في التوكيل على الخصام.

قال ابن العربي: وكأن سحنون تلقه من أسد بن الفرات، فحكم به أيام قضائه. ولعله كان يفعل ذلك لأهل الظلم والجبروت إنصافاً منهم وإذلاً لأهلهم، وهو الحق، فإن الوكالة معونة ولا تكون لأهل الباطل، اهـ.

وقال القرطبي: كلام ابن العربي هذا حسن؛ فأما أهل الدين والفضل فلهم أن يوكّلوا وإن كانوا حاضرين أصحاء. والدليل على صحة جواز الوكالة للشاهد الصحيح ما أخرجه الصحيحان وغيرهما عن أبي هريرة قال: كان لرجل على النبي ﷺ سن من الإبل، فجاء يتقاضاه فقال: «أعطوه» فطلبوا سنه فلم يجدوا إلا سنّاً فوقها. فقال: «أعطوه» فقال: أوفيتي أوفى الله لك. وقال النبي ﷺ: «إن خيركم أحسنكم قضاء» لفظ البخاري.

فدل هذا الحديث مع صحته على جواز توكيل الحاضر الصحيح البدن، فإن النبي ﷺ أمر أصحابه أن يعطوا عنه السن التي عليه، وذلك توكيل منه لهم على ذلك، ولم يكن النبي ﷺ مريضاً ولا مسافراً. وهذا يرد قول أبي حنيفة وسحنون في قولهما: إنه لا يجوز توكيل الحاضر الصحيح إلا برضا خصمه، وهذا الحديث خلاف قولهما، اهـ كلام القرطبي. ولا يخفى ما فيه؛ لأن أبا حنيفة وسحنوناً إنما خالفا في الوكالة على المخاصمة بغير إذن الخصم فقط، ولم يخالفا في الوكالة في دفع الحق.

وبهذه المناسبة سنذكر - إن شاء الله - الأدلة من الكتاب والسنة على صحة الوكالة وجوازها، وبعض المسائل المحتاج إليها من ذلك، تنبهاً بها على غيرها.

اعلم أولاً: أن الكتاب والسنة والإجماع كلها دل على جواز الوكالة وصحتها في الجملة، فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى هنا: ﴿فَاَبْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ﴾ هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿وَالْعَمَلَيْنِ عَلَيْهِمَا﴾... الآية [التوبة: ٦٠]، فإن عملهم عليها توكيل لهم على أخذها.

واستدل لذلك بعض العلماء أيضاً بقوله: ﴿أَذْهَبُوا بِقِمِيمِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي﴾ [يوسف: ٩٣]؛ فإنه توكيل لهم من يوسف على إلقائهم قميصه على وجه أبيه ليرتد بصيراً.

واستدل بعضهم لذلك أيضاً بقوله تعالى عن يوسف: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥]، فإنه توكيل على ما في خزائن الأرض.

وأما السنة فقد دلت أحاديث كثيرة على جواز الوكالة وصحتها؛ من ذلك حديث أبي هريرة المتقدم في كلام القرطبي، الدال على التوكيل في قضاء الدين، وهو حديث متفق عليه، وأخرج الجماعة إلا البخاري من حديث أبي رافع عن النبي ﷺ نحوه.

ومنها: حديث عروة بن أبي الجعد البارقي أن النبي ﷺ أعطاه ديناراً ليشتري به له شاة، فاشترى له به شاتين. فباع إحداهما بدينار وجاءه بدينار وشاة، فدعا بالبركة في بيعه؛ وكان لو اشترى التراب لربح فيه، رواه الإمام أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي وابن ماجه والدارقطني، وفيه التوكيل على الشراء.

ومنها: حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: أردت الخروج إلى خيبر، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: إني أردت الخروج إلى خيبر؟ فقال: «إذا أتيت وكيلي فخذ منه خمسة عشر وسقاً، فإن ابتغى منك آية فضع يدك على ترقوته» أخرجه أبو داود والدارقطني، وفيه التصريح منه ﷺ بأن له وكيلًا.

ومنها: قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «واغدُ يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها» وهو صريح في التوكيل في إقامة الحدود.

ومنها: حديث علي رضي الله عنه قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أقوم على بدنة وأن أتصدق بلحومها وجلودها وأجلتها، وألا أعطي الجازر منها شيئاً، وقال: «نحن نعطيها من عندنا»، متفق عليه. وفيه التوكيل على القيام على البدن والتصدق بلحومها وجلودها وأجلتها. وعديم إعطاء الجازر شيئاً منها.

ومنها: حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي ﷺ أعطاه غنماً يقسمها على أصحابه فبقي عتود، فذكره للنبي ﷺ فقال: «ضح أنت به». متفق عليه أيضاً. وفيه الوكالة في تقسيم الضحايا، والأحاديث بمثل ذلك كثيرة. وقد أخرج الشيخان في صحيحيهما طرفاً كافياً منها، ذكرنا بعضه هنا.

وقد قال ابن حجر في «فتح الباري» في كتاب الوكالة ما نصه: اشتمل كتاب الوكالة - يعني من صحيح البخاري - على ستة وعشرين حديثاً، المعلق منها ستة، والبقية موصولة. المكرر منها فيه وفيما مضى اثنا عشر حديثاً، والبقية خالصة وافقه مسلم على تخريجها سنوى حديث عبد الرحمن بن عوف في قتل أمية بن خلف، وحديث كعب بن مالك في الشاة المذبوحة، وحديث وفد هوازن من طريقه، وحديث أبي هريرة في حفظ زكاة رمضان، وحديث عقبة بن الحرث في قصة النعمان، وفيه من الآثار عن الصحابة وغيرهم ستة آثار، والله أعلم، انتهى من فتح الباري. وكل تلك الأحاديث دالة على جواز الوكالة وصحتها.

وأما الإجماع فقد أجمع المسلمون على جواز الوكالة وصحتها في الجملة، وقال ابن قدامة في المغني: وأجمعت الأمة على جواز الوكالة في الجملة؛ ولأن الحاجة داعية إلى ذلك؛ فإنه لا يمكن كل أحد فعل ما يحتاج إليه فدعت الحاجة إليها، انتهى منه. وهذا مما لا نزاع فيه.

وهناك وسائل متعلقة بالوكالة يُرجع إليها من أراد الوقوف عليها إلى الأصل.

وأما شركة المضاربة وهي القراض، فأصلها من الضرب في الأرض؛ لأن التاجر يسافر في طلب الربح، والسفر يكتنى عنه بالضرب في الأرض، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١].

وهناك أقوال للعلماء في الشركة وأنواعها راجع الأصل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبْكَدًا ۝﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة عن أصحاب الكهف أنهم قالوا: إن قومهم الكفار الذين فروا منهم بدينهم إن يظهروا عليهم، أي يطلعوا عليهم ويعرفوا مكانهم، يرحمهم بالحجارة، وذلك من أشنع أنواع القتل. وقيل: يرحمهم بالشتم والقذف، أو يعيدوهم في ملتهم، أي يردوهم إلى ملة الكفر.

وهذا الذي ذكره هنا من فعل الكفار مع المسلمين من الأذى أو الرد إلى الكفر ذكر في مواضع أخر أنه هو فعل الكفار مع الرسل وأتباعهم؛ كقوله - جل وعلا -: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ۝﴾ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۝ [الأعراف: ٨٨ - ٨٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧] إلى غير ذلك من الآيات.

مسألة: أخذ بعض العلماء من هذه الآية الكريمة أن العذر بالإكراه من خصائص هذه الأمة؛ لأن قوله عن أصحاب الكهف: ﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ ظاهر في إكراههم على ذلك وعدم طواعيتهم، ومع هذا قال عنهم: ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبْكَدًا﴾ فدل ذلك على أن ذلك الإكراه ليس بعذر. ويشهد لهذا المعنى حديث طارق بن شهاب في الذي دخل النار في ذباب قربه مع الإكراه بالخوف من القتل؛ لأن صاحبه الذي امتنع أن يقرب ولو ذبياً قتلوه.

ويشهد له أيضاً دليل الخطاب، أي مفهوم المخالفة في قوله ﷺ: «إِنْ اللَّهُ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ». فإنه يفهم من قوله: «تجاوز لي عن أمتي» أن غير أمته من الأمم لم يتجاوز لهم عن ذلك، وهذا الحديث وإن أعله الإمام أحمد وابن أبي حاتم فقد تلقاه العلماء قديماً وحديثاً بالقبول، وله شواهد ثابتة في القرآن العظيم والسنة الصحيحة. وقد أوضحنا هذه المسألة في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة «الكهف»، في الكلام على قوله: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ... الآية؛ ولذلك اختصرناها هنا، أما هذه الأمة فقد صرح الله تعالى بعذرهم بالإكراه في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦] والعلم عند الله تعالى. اهـ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ لم يبين الله هنا من هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم، هل هم من المسلمين، أو من الكفار؟ وذكر ابن جرير وغيره فيهم قولين: أحدهما: أنهم كفار، والثاني: أنهم مسلمون، وهي قولهم:

﴿لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾؛ لأن اتخاذ المساجد من صفات المؤمنين لا من صفات الكفار. هكذا قال بعض أهل العلم. ولقائل أن يقول: اتخاذ المساجد على القبور من فعل الملعونين على لسان رسول الله ﷺ، لا من فعل المسلمين، وقد قدمنا ذلك مستوفى بأدله في سورة «الحجر» في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر].

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَذِبٌ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَذِبٌ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَذِبٌ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

أخبر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف، فذكر ثلاثة أقوال، على أنه لا قائل برابع، وجاء في الآية الكريمة بقرينة تدل على أن القول الثالث هو الصحيح والأولان باطلان؛ لأنه لما ذكر القولين الأولين بقوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَذِبٌ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَذِبٌ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ أي قولاً بلا علم، كمن يرمى إلى مكان لا يعرفه فإنه لا يكاد يصيب، وإن أصاب بلا قصد، كقوله: ﴿وَيَقُولُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٣] وقال القرطبي: الرجم القول بالظن، يقال لكل ما يخرص رجم فيه ومرجوم ومرجم كما قال زهير:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم

ثم حكى القول الثالث بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَذِبٌ﴾ فأقره، ولم يذكر بعده أن ذلك رجم بالغيب، فدل على أنه الصحيح. وقوله: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال ابن عباس: أنا من ذلك القليل الذي يعلمهم، كانوا سبعة. وقوله: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾ فيه تعليم للناس أن يردوا علم الأشياء إلى خالقها - جل وعلا - وإن علموا بها، كما أعلم نبيه ﷺ بمدة لبثهم في قوله: ﴿وَلْيَسِّرُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [١٥] ثم أمره مع ذلك برد العلم إليه - جل وعلا - في قوله - جل وعلا -: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُمْ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾... الآية. وما قدمنا من أنه لا قائل برابع قاله ابن كثير أخذاً من ظاهر الآية الكريمة، مع أن ابن إسحاق وابن جريج قالوا: كانوا ثمانية. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ [٣٢] إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ.

نهى الله نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول: إنه سيفعل شيئاً في المستقبل إلا معلقاً ذلك على مشيئة الله الذي لا يقع شيء في العالم كائناً ما كان إلا بمشيئته - جل وعلا -، فقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ أي لا تقولن لأجل شيء تعزم على فعله في المستقبل إنني فاعل ذلك الشيء غداً. والمراد بالغد: ما يستقبل من الزمان؛ لا خصوص الغد. ومن أساليب العربية إطلاق الغد على المستقبل من الزمان؛ ومنه قول زهير:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم

يعني أنه لا يعلم ما يكون في المستقبل، إذ لا وجه لتخصيص الغد المعين بذلك. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١] إلا قائلًا في ذلك: إلا أن يشاء الله، أي معلقًا بمشيئة الله. أو لا تقولنه إلا بيان شاء الله، أي إلا بمشيئة الله. وهو في موضع الحال، يعني إلا متلبسًا بمشيئة الله قائلًا إن شاء الله، قاله الزمخشري وغيره.

وسبب نزول هذه الآية الكريمة أن اليهود قالوا لقريش: سلوا محمدًا ﷺ عن الروح، وعن رجل طواف في الأرض (يعنون ذا القرنين)، وعن فتية لهم قصة عجيبة في الزمان الماضي (يعنون أصحاب الكهف). فقال لهم رسول الله ﷺ: «سأخبركم غداً عما سألتهم عنه» ولم يقل - إن شاء الله - فلبث عنه الوحي مدة، قيل خمس عشرة ليلة، وقيل غير ذلك. فأحزنه تأخر الوحي عنه، ثم أنزل عليه الجواب عن الأسئلة الثلاثة، قال في الروح: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]. وقال في الفتية: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾... الآيات إلى آخر قصتهم. وقال في الرجل الطواف: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [٨٦]... الآيات إلى آخر قصته.

فإذا عرفت معنى هذه الآية الكريمة وسبب نزولها، وأن الله عاتب نبيه فيها على عدم قوله - إن شاء الله - لما قال لهم سأخبركم غداً، فاعلم أنه دلت آية أخرى بضميمة بيان السنة لها على أن الله عاتب نبيه سليمان على عدم قوله - إن شاء الله - كما عاتب نبيه في هذه الآية على ذلك. بل فتنة سليمان بذلك كانت أشد؛ فقد أخرج الشيخان في صحيحيهما من حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «قال سليمان بن داود - عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام -: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة - وفي رواية تسعين امرأة، وفي رواية مائة امرأة - تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله فقيل له - وفي رواية قال له الملك: قل إن شاء الله فلم يقل. فطاف بهن فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان» فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركاً لحاجته». وفي رواية: «ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعون» اهـ.

فإذا علمت هذا فاعلم أن هذا الحديث الصحيح بين معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ [ص: ٣٤]. وأن فتنة سليمان كانت بسبب تركه قول: «إن شاء الله»، وأنه لم يلد من تلك النساء إلا واحدة نصف إنسان، وأن ذلك الجسد الذي هو نصف إنسان هو الذي ألقى على كرسيه بعد موته في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ [ص: ٣٤]، فما يذكره المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ [ص: ٣٤]، من قصة الشيطان الذي أخذ الخاتم وجلس على كرسى سليمان، وطرده سليمان عن ملكه؛ حتى وجد الخاتم في بطن السمكة التي أعطاها له من كان يعمل عنده بأجر مطروداً عن ملكه، إلى آخر القصة لا يخفى أنه باطل لا أصل له، وأنه لا يليق بمقام النبوة؛ فهو من الإسرائيليات التي لا يخفى أنها باطلة.

والظاهر في معنى الآية هو ما ذكرنا، وقد دلت السنة الصحيحة عليه في الجملة، واختاره بعض المحققين. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾. في هذه الآية الكريمة قولان معروفان لعلماء التفسير:

الأول: أن هذه الآية الكريمة متعلقة بما قبلها، والمعنى أنك إن قلت سأفعل غداً كذا ونسيت أن تقول: إن شاء الله، ثم تذكرت بعد ذلك فقل إن شاء الله؛ أي اذكر ربك معلقاً على مشيئته ما تقول أنك ستفعله غداً إذا تذكرت بعد النسيان. وهذا القول هو الظاهر؛ لأنه يدل عليه قوله تعالى قبله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۖ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ وهو قول الجمهور. وممن قال به: ابن عباس والحسن البصري وأبو العالية وغيرهم.

القول الثاني: أن الآية لا تعلق لها بما قبلها، وأن المعنى: إذا وقع منك النسيان لشيء فاذكر الله؛ لأن النسيان من الشيطان؛ كما قال تعالى عن فتى موسى: ﴿وَمَا أَسْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَّ﴾، وكقوله: ﴿أَسْتَعِذُّ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ﴾ [المجادلة: ١٩] وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا يُنْسِيكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨] وذكر الله تعالى يطرد الشيطان؛ كما يدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقْضِ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٦١] وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ (١) مَلِكِ النَّاسِ ۝ (٢) إِلَهِ النَّاسِ ۝ (٣) مِنْ سَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝ (٤)﴾... الآية [الناس: ١]؛ أي الوسواس عند الغفلة عن ذكر الله. الخناس؛ الذي يخنس ويتأخر صاغراً عند ذكر الله، فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان. وقال بعضهم: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي صل الصلاة التي كنت ناسياً لها عند ذكرك لها، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] وقول من قال: إذا نسيت؛ أي إذا غضبت، ظاهر السقوط.

مسألة: اشتهر على ألسنة العلماء عن ابن عباس رضي الله عنه أنه استنبط من هذه الآية الكريمة أن الاستثناء يصح تأخيره عن المستثنى منه زمناً طويلاً. قال بعضهم: إلى شهر. وقال بعضهم: إلى سنة. وقال بعضهم عنه: له الاستثناء أبداً. ووجه أخذه ذلك من الآية أن الله تعالى نهى نبيه أن يقول: إنه سيفعل شيئاً في المستقبل إلا من الاستثناء بأن شاء الله. ثم قال: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾؛ أي إن نسيت تستثني بأن شاء الله فاستثن إذا تذكرت من غير تقييد باتصال ولا قرب.

والتحقيق الذي لا شك فيه أن الاستثناء لا يصح إلا مقترناً بالمستثنى منه، وأن الاستثناء المتأخر لا أثر له ولا تحل به اليمين. ولو كان الاستثناء المتأخر يصح لما علم في الدنيا أنه تقرر عقد ولا يمين ولا غير ذلك، لاحتمال طرو الاستثناء بعد ذلك، وهذا في غاية البطلان كما ترى. ويحكي عن المنصور أنه بلغه أن أبا حنيفة رضي الله عنه

يخالف مذهب ابن عباس المذكور؛ فاستحضره لينكر عليه ذلك، فقال الإمام أبو حنيفة للمنصور: هذا يرجع عليك! إنك تأخذ البيعة بالآيمان، افترض أن يخرجوا من عندك فيستنوا فيخرجوا عليك؟! فاستحسن كلامه ورضي عنه.

فائدة: قال ابن العربي المالكي: سمعت فتاة ببغداد تقول لجارتها: لو كان مذهب ابن عباس صحيحاً في الاستثناء ما قال الله تعالى لأيوب: ﴿وَحُذِّ بِدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُ﴾ [ص: ٤٤] بل يقول: استثنى بأن شاء الله، انتهى منه بواسطة نقل صاحب نشر البنود في شرح قوله في (مراقي السعود):

بشركة وبالتوطى قالوا بعض وأوجب فيه الاتصالا
وفي البواقي دون ما اضطرار وأبطلن بالصمت للتذكار

فإن قيل: فما الجواب الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما فيما نسب إليه من القول بصحة الاستثناء المتأخر.

فالجواب: أن مراد ابن عباس رضي الله عنهما أن الله عاتب نبيه على قوله إنه سيفعل كذا غداً ولم يقل إن شاء الله، وبين له أن التعليق بمشيئة الله هو الذي ينبغي أن يفعل، لأنه تعالى لا يقع شيء إلا بمشيئته، فإذا نسي التعليق بالمشيئة ثم تذكر ولو بعد طول فإنه يقول إن شاء الله؛ ليخرج بذلك من عهدة عدم التعليق بالمشيئة، ويكون قد فوض الأمر إلى من لا يقع إلا بمشيئة.

فنتيجة هذا الاستثناء هي الخروج من عهدة تركه الموجب للعتاب السابق؛ لا أنه يحل اليمين؛ لأن تداركها قد فات بالانفصال. هذا هو مراد ابن عباس كما جزم به الطبري وغيره. وهذا لا محذور فيه ولا إشكال.

وأجاب بعض أهل العلم بجواب آخر وهو - أنه نوى الاستثناء بقلبه ونسي النطق به بلسانه؛ فأظهر بعد ذلك الاستثناء الذي نواه وقت اليمين، هكذا قاله بعضهم. والأول هو الظاهر. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَغَيِّبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه هو المختص بعلم الغيب في السموات والأرض، وذكر هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل] وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد]، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [الآية: هود: ١٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ

فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [يونس: ٦١]، وقوله تعالى: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [سبا: ٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝﴾ [آل عمران: ٥]. وبين في مواضع آخر أنه يطلع من شاء من خلقه على ما شاء من وجهه، كقوله تعالى: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝﴾ [آل مائدة: ٢٦]، الآية [الجن: ٢٦ - ٢٧]. وقد أشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْهِرَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾. أي ما أبصره وما أسمع - جل وعلا - وما ذكره في هذه الآية الكريمة من اتصافه - جل وعلا - بالسمع والبصر، ذكره في مواضع آخر كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝﴾ [المجادلة: ١٢] وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝﴾ [الحج: ١٧]. والآيات بذلك كثيرة جدًا.

قوله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن أصحاب الكهف ليس لهم ولي من دونه - جل وعلا -، بل وهو وليهم - جل وعلا - وهذا المعنى مذكور في آيات آخر، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝﴾ [يونس: ٦٤]، فبين أنه ولي المؤمنين، وأن المؤمنين أوليائه، والولي هو من انعقد بينك وبينه سبب يواليك وتواليه به، فالإيمان سبب يوالي به المؤمنون ربهم بالطاعة، ويواليهم به الثواب والنصر والإعانة.

وبين في مواضع آخر أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، كقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية [المائدة: ٥٥]، وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ ... الآية [التوبة: ٩١]. وبين في مواضع آخر أن نبينا ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو قوله تعالى: ﴿الَّتِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

وبين في موضع آخر أنه تعالى مولى المؤمنين دون الكافرين، وهو قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ۝﴾ [محمد: ١٠]. وهذه الولاية المختصة بالمؤمنين هي ولاية الثواب والنصر والتوفيق والإعانة، فلا تنافي أنه مولى الكافرين ولاية ملك وقهر ونفوذ مشيئة كقوله: ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٠]. وقال بعض العلماء: الضمير في قوله: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ راجع لأهل السموات والأرض المفهومين من قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْغَيْبُ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ. وقيل: الضمير في قوله: ﴿مَا لَهُمْ﴾ راجع لمعاصري النبي ﷺ من الكفار؛ ذكره القرطبي. وعلى كل حال فقد دلت الآيات المتقدمة أن ولاية الجميع لخالقهم - جل وعلا - وأن منها ولاية ثواب وتوفيق وإعانة، وولاية ملك وقهر ونفوذ مشيئة. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾. قرأ هذا الحرف عامة السبعة ما عدا ابن عامر ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾ بالياء المثناة التحتية، وضم الكاف على الخبر، ولا نافية، والمعنى: ولا يشرك الله - جل وعلا - أحداً في حكمه، بل الحكم له وحده - جل وعلا - لا حكم لغيره البتة، فالحلال ما أحله تعالى، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه، والقضاء ما قضاه. وقرأه ابن عامر من السبعة: «ولا تشرك» بضم التاء المثناة الفوقية وسكون الكاف بصيغة النهي، أي لا تشرك يا نبي الله. أو لا تشرك أيها المخاطب أحداً في حكم الله - جل وعلا - بل أخلص الحكم لله من شوائب شرك غيره في الحكم. وحكمه - جل وعلا - المذكور في قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ شامل لكل ما يقضيه - جل وعلا - ويدخل في ذلك التشريع دخولاً أولاً.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون الحكم لله وحده لا شريك له فيه على كلتا القراءتين جاء مبيناً في آيات أخر؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يوسف: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَخْلَقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَيَّ اللَّهُ﴾ [الشورى: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿لَهُ الْخَزَائِرُ فِي الْأَوَّلِ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠]، وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهَنَّمِ يَتَّبِعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُظِلُّونَ﴾ [المائدة: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿أَفَتَعْبِرُونَ حُكْمًا وَهُمْ أَلَّا الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

ويفهم من هذه الآيات كقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ أن متبعي أحكام المشرعين غير ما شرعه الله أنهم مشركون بالله، وهذا المفهوم جاء مبيناً في آيات أخر كقوله فيمن اتبع تشريع الشيطان في إباحة الميتة بدعوى أنها ذبيحة الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهُ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِرُؤُوسِهِ إِنَّهُ لَكُنُوزٌ عَذُوبٌ مُبِينٌ﴾ [١٠] وَأَنْ تَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ [١١]، وقوله تعالى عن نبيه إبراهيم: ﴿يَتَأْتِيَ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِنَا إِلَّا أَنْتَا وَإِنْ يَدْعُونَ

إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿٢٦﴾ [النساء] أي ما يعبدون إلا شيطاناً، أي وذلك باتباع تشريعه؛ ولذا سَمَى الله تعالى الذين يطاعون فيما زينوا من المعاصي شركاء في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زُفَّتْ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

وقد بين النبي ﷺ هذا لعدي بن حاتم رضي الله عنه لما سأله عن قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] فبين له أنهم أحلوا لهم ما حرم الله، وخرموا عليهم ما أحل الله فاتبعوهم في ذلك، وأن ذلك هو اتخاذهم إياهم أرباباً، ومن أصرح الأدلة في هذا أن الله - جل وعلا - في سورة النساء بين أن من يريدون أن يتحاكموا إلى غير ما شرعه الله يتعجب من زعمهم أنهم مؤمنون، وما ذلك إلا لأن دعواهم الإيمان مع إزادة التحاكم إلى الطاغوت بالغة من الكذب ما يحصل منه العجب؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أَوَّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدِ امْرَأُ أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء].

وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهر غاية الظهور أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على السنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله جل وعلا على السنة رسله - صلى الله عليه وسلم - أنه لا يشك في كفرهم وشركهم إلا من طمس الله بصيرته، وأعماه عن نور الوحي مثلهم.

تنبيه: اعلم أنه يجب التفصيل بين النظام الوضعي الذي يقتضي تحكيمه الكفر بخالق السموات والأرض، وبين النظام الذي لا يقتضي ذلك.

وإيضاح ذلك أن النظام قسمان: إداري، وشرعي، أما الإداري الذي يراد به ضبط الأمور وإتقانها على وجه غير مخالف للشرع، فهذا لا مانع منه، ولا مخالف فيه من الصحابة، فمن بعدهم، وقد عمل عمر رضي الله عنه من ذلك أشياء كثيرة ما كانت في زمن النبي ﷺ؛ ككتبه أسماء الجند في ديوان لأجل الضبط، ومعرفة من غاب ومن حضر كما قدمنا إيضاح المقصود منه في سورة "بني إسرائيل" في الكلام على العاقلة التي تحمل دية الخطأ، مع أن النبي ﷺ لم يفعل ذلك، ولم يعلم بتخلف كعب بن مالك عن غزوة تبوك إلا بعد أن وصل تبوك ﷺ. وكاشترائه - أعني عمر رضي الله عنه - دار صفوان بن أمية وجعله إياها سجناً في مكة المكرمة، مع أنه ﷺ لم يتخذ سجناً هو ولا أبو بكر، فمثل هذا من الأمور الإدارية التي تفعل لإتقان الأمور مما لا يخالف الشرع - لا بأس به؛ كتنظيم شؤون الموظفين، وتنظيم إدارة الأعمال على وجه لا يخالف الشرع. فهذا النوع من الأنظمة الوضعية لا بأس به، ولا يخرج عن قواعد الشرع من مراعاة المصالح العامة.

وأما النظام الشرعي المخالف لتشريع خالق السموات والأرض فتحكيمه كفر بخالق السموات والأرض كدعوى أن تفصيل الذكر على الأنثى في الميراث ليس

بإنصاف، وأنهما يلزم استواؤهما في الميراث. وكدعوى أن تعدد الزوجات ظلم، وأن الطلاق ظلم للمرأة، وأن الرجم والقطع ونحوهما أعمال وحشية لا يسوغ فعلها بالإنسان، ونحو ذلك.

فتحكيم هذا النوع من النظام في أنفس المجتمع وأموالهم وأعراضهم وأنسابهم وعقولهم وأديانهم كفر بخالق السموات والأرض، وتمرد على نظام السماء الذي وضعه من خلق الخلائق كلها وهو أعلم بمصالحها ﷻ عن أن يكون معه مشرع آخر علواً كبيراً ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ آذَنَ لَكُمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يونس: ٥٩]، ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصَبْنَا لَكُمْ مِنَ الذِّكْرِ هَذَا مَقَالِدُ الْحَرَامِ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفْتِنَ عَلَى اللَّهِ الْكَافِرِينَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦] وقد قدمنا جملة وافية من هذا النوع في سورة «بني إسرائيل» في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾. أمر الله - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يتلو هذا القرآن الذي أوحاه إليه ربه، والأمر في قوله: ﴿وَاتْلُ﴾ شامل للتلاوة بمعنى القراءة. والتلو: بمعنى الاتباع. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أمره تعالى نبيه ﷺ بتلاوة القرآن العظيم واتباعه جاء مبيناً في آيات أخر كقوله تعالى في سورة «العنكبوت»: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وكقوله تعالى في آخر سورة «النمل»: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَؤُلَاءِ الْبَلَدِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَمْ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١ - ٩٢]، ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ رَتِيلًا﴾ [المزمل: ٤] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على الأمر بتلاوته، وكقوله تعالى في الأمر باتباعه ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَمِعْ يَا ذَا الْقُرْآنِ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكْفُرُ إِنْ أَنِيعَ إِلَّا مَا يُوْحِي إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الأحقاف: ١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَنِيعَ إِلَّا مَا يُوْحِي إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على الأمر باتباع هذا القرآن العظيم.

وقد بين في مواضع أخر بعض النتائج التي تحصل بسبب تلاوة القرآن واتباعه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ [فاطر: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَةٍ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١]. والعبرة في هذه الآية بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قوله تعالى: ﴿لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَتِهِ﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه لا مبدل لكلماته؛ أي لأن أخبارها صدق، وأحكامها عدل، فلا يقدر أحد أن يبدل صدقها كذباً، ولا أن يبدل عدلها جوراً. وهذا الذي ذكره هنا جاء مبيناً في مواضع آخر كقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام]. فقوله: «صدقاً» يعني في الإخبار. وقوله: «عدلاً» أي في الأحكام. وكقوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنْتُمْ نَصَرْنَا وَلَا مُبْدِلَ لِكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام].

وقد بين تعالى في مواضع آخر أنه هو يبدل ما شاء من الآيات مكان ما شاء منها كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ﴾ [النحل: ١٠١]. وقوله: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَزَّلْنَا بِبَنَاتٍ قَالِ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتِ بِفِرْعَوْنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي﴾ [يونس: ١٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾. أصل الملتحد: مكان الالتحاد وهو الافتعال، من اللحد بمعنى الميل، ومنه اللحد في القبر؛ لأنه ميل في الحفر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْجِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٤٠]، وقوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْجِدُونَ فِي أَسْمَائِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فمعنى اللحد والالتحاد في ذلك: الميل عن الحق. والملحد المائل عن دين الحق. وقد تقرر في فن الصرف أن الفعل إن زاد ماضيه على ثلاثة أحرف فمصدره الميمي واسم مكانه واسم زمانه كلها بصيغة اسم المفعول كما هنا. فالملتحد بصيغة اسم المفعول، والمراد به مكان الالتحاد، أي المكان الذي يميل فيه إلى ملجأ أو منجى ينجيه مما يريد الله أن يفعله به.

وهذا الذي ذكره هنا من أن نبيه ﷺ لا يجد من دونه ملتحد؛ أي مكاناً يميل له ويلجأ إن لم يبلغ رسالة ربه ويطعه جاء مبيناً في مواضع آخر كقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [١] قُلْ إِنِّي لَنْ يُخْرِجَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا [٢] إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ [الجن: ١]، وقوله: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ [٣] لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ [٤] ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ [٥] فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ [٦] [الحاقة].

وكونه ليس له ملتحد، أي مكان يلجأ إليه تكرر نظيره في القرآن بعبارات مختلفة؛ كالمناص، والمحيص، والملجأ، والموئل، والمفر، والوزر، كقوله: ﴿فَنَادَا وَلَاتَ جِئْنَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣] وقوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: ١٢١]، وقوله: ﴿فَقَبُوا فِي الْبَلَدِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ [لق: ٣٦]، وقوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٧]، وقوله: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾، وقوله: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَتَيْنَ الْفَرَّ [٧] كَلَّا لَا وَزَرَ [٨]﴾ [القيامة] فكل ذلك راجع في المعنى إلى شيء واحد، وهو انتفاء مكان يلجؤون إليه ويعتصمون به.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾. أمر الله - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة: أن يصبر نفسه، أي يحبسها مع المؤمنين الذين يدعون ربهم أول النهار وآخره مخلصين له، لا يريدون بدعائهم إلا رضاه - جل وعلا -.

وقد نزلت هذه الآية الكريمة في فقراء المهاجرين، كعمار، وصهيب، وبلال، وابن مسعود ونحوهم، لما أراد صناديد الكفار من النبي ﷺ أن يطردهم عنه، ويجالسهم بدون حضور أولئك الفقراء المؤمنين، وقد قدمنا في سورة «الأنعام» أن الله كما أمره هنا بأن يصبر نفسه معهم أمره بالألا يطردهم، وأنه إذا رآهم يسلم عليهم، وذلك في قوله: ﴿وَلَا تَقْرُؤِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام] إلى قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام] وقد أشار إلى ذلك المعنى في قوله: ﴿عَسَىٰ وَنُؤَي ١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَرْجَى ٣ أَوْ يَكْفُرُ فَنَنْفَعُهُ الذِّكْرَى ٤ أَمَّا مَنْ أَسْتَفْتَى ٥ فَآتَتْهُ لَمْ تَصِدْ ٦ وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَرْجَى ٧ وَأَمَّا مَنْ جَاءَهُ يَسْعَى ٨ وَهُوَ يَخْفَى ٩ فَآتَتْهُ لَعَلَّهٗ ١٠ كَلَّا ١١﴾ [عبس]. وقد قدمنا أن ما طلبه الكفار من نبينا ﷺ من طرده فقراء المؤمنين وضعفائهم تكبراً عليهم وازدراء بهم، طلبه أيضاً قوم نوح من نوح - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - وأنه امتنع من طردهم أيضاً، كقوله تعالى عنهم: ﴿قَالُوا اتَّوَيْنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء]، وقوله عنهم أيضاً: ﴿وَمَا زَنَّاكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاؤُنَا بِادِّى الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧]، وقال عن نوح في امتناعه من طردهم: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [الشعراء]، وكقوله تعالى عنه: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ وَيَقُولُ مَنْ يُضِلُّهُ مِنْ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [هود].

وقوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ فيه الدليل على أن مادة الصبر تتعدى بنفسها للمفعول، ونظير ذلك من كلام العرب قول أبي ذؤيب أو عترة:

فصبرت عارفة بذلك حرة ترسو إذا نفس الجبان تطلع

والغداة: أول النهار. والعشي آخره. وقال بعض العلماء: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَوَةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢] أي يصلون صلاة الصبح والعصر. والتحقيق أن الآية تشمل أعم من مطلق الصلاة، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. نهى الله - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة - أن تعدو عيناه عن ضعفاء المؤمنين وفقرائهم، طموحاً إلى الأغنياء وما لديهم من زينة الحياة الدنيا. ومعنى ﴿وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ﴾؛ أي لا تتجاوزهم عيناك وتنسب عن رثائهم، محتقراً لهم طامحاً إلى أهل الغنى والجاه والشرف بدلاً منهم. وعدا يعدو: تتعدى بنفسها إلى المفعول وتلزم. والجملة في قوله: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في محل حال والرباط الضمير، على حد قوله في الخلاصة:

على نحو ما يطابقه من استقلال قدرة العبد وإرادته بأفعاله دون مشيئة الله، لا يخفى بطلانه، كما تدل عليه الآيات المذكورة آنفاً، وأمثالها في القرآن كثيرة.

ومعنى اتباعه هواه أنه يتبع ما تميل إليه نفسه الأمارة بالسوء وتهواه من الشر، كالكفر والمعاصي.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ قيل: هو من التفريط الذي هو التقصير، وتقديم العجز بترك الإيمان؛ وعلى هذا فمعنى ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾؛ أي كانت أعماله سفهاً وضياًعاً وتفريطاً. وقيل: من الإفراط الذي هو مجاوزة الحد، كقول الكفار المحققين لفقراء المؤمنين: نحن أشرف مضر وساداتها إن اتبعناك اتبعك جميع الناس. وهذا من التكبر والإفراط في القول. وقيل: ﴿فُرُطًا﴾ أي قدماً في الشر... من قولهم: فرط منه أمر، أي سبق. وأظهر الأقوال في معنى الآية الكريمة عندي بحسب اللغة العربية التي نزل بها القرآن أن معنى قوله: «فرطاً»؛ أي متقدماً للحق والصواب، نابذاً له وراء ظهره؛ من قولهم: فرس فرط، أي متقدم للخيل. ومنه قول لبيد في معلقته:

ولقد حميت الخيل تحمل شكتي فرط وشاحي إذ غدوت لجامها

وإلى ما ذكرنا في معنى الآية ترجع أقوال المفسرين كلها، كقول قتادة ومجاهد: «فرطاً» أي ضياًعاً. وكقول مقاتل بن حيان: «فرطاً» أي سرفاً. كقول الفراء: «فرطاً» أي متروكاً. وكقول الأخفش: «فرطاً» أي مجاوزاً للحد، إلى غير ذلك من الأقوال.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾. أمر الله - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول للناس: الحق من ربكم. وفي إعرابه وجهان:

أحدهما: أن «الحق» مبتدأ، والجار والمجرور خبره، أي الحق الذي جئتكم به في هذا القرآن العظيم، المتضمن لدين الإسلام كائن مبدؤه من ربكم جل وعلا. فليس من وحي الشيطان، ولا من افتراء الكهنة، ولا من أساطير الأولين، ولا غير ذلك. بل هو من خالقكم جل وعلا، الذي تلزمكم طاعته وتوحيده، ولا يأتي من لدنه إلا الحق شامل للصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام، فلا حق إلا منه - جل وعلا -.

وثانيهما: أنه خبر مبتدأ محذوف، أي هذا الذي جئتكم به الحق.

وهذا الذي ذكره تعالى في هذه الآية الكريمة ذكره أيضاً في مواضع آخر كقوله في سورة «البقرة»: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ﴿١٧﴾ [البقرة]، وقوله في «آل عمران»: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ﴿١٧﴾ [آل عمران] إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾.

ظاهر هذه الآية الكريمة بحسب الوضع اللغوي - التخيير بين الكفر والإيمان - ولكن المراد من الآية الكريمة ليس هو التخيير، وإنما المراد بها التهديد والتخويف. والتهديد بمثل هذه الصيغة التي ظاهرها التخيير أسلوب من أساليب اللغة العربية،

والدليل من القرآن العظيم على أن المراد في الآية التهديد والتخويف أنه أتبع ذلك بقوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ وهذا أصرح دليل على أن المراد التهديد والتخويف؛ إذ لو كان التخويف على بابه لما توعد فاعل أحد الطرفين المخير بينهما بهذا العذاب الأليم، وهذا واضح كما ترى.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿أَعْتَدْنَا﴾ أصله من الإعتاد، والتاء فيه أصلية وليست مبدلة من دال على الأصح؛ ومنه العتاد بمعنى العدة للشيء. ومعنى ﴿أَعْتَدْنَا﴾: أَرَصَدْنَا وأَعَدَدْنَا. والمراد بالظالمين هنا: الكفار بدليل قوله قبله: ﴿وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ وقد قدمنا كثرة إطلاق الظلم على الكفر في القرآن كقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [القمان: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦] ونحو ذلك من الآيات. وقد قدمنا أن الظلم في لغة العرب: وضع الشيء في غير محله، ومن أعظم ذلك وضع العبادة في مخلوق. وقد جاء في القرآن إطلاق الظلم على النقص في قوله: ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ يَتَهُ شَيْئًا﴾ وأصل معنى مادة الظلم هو ما ذكرنا من وضع الشيء في غير موضعه، ولأجل ذلك قيل الذي يضرب اللبن قبل أن يروب: ظالم لوضعه ضرب لبنه في غير موضعه؛ لأن ضربه قبل أن يروب يضيع زبده، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

وقائلة ظلمت لكم سقائي وهل يخفى على العكد الظليم
فقوله: «ظلمت لكم سقائي» أي ضربته لكم قبل أن يروب. ومنه قول الآخر في سقاء له ظلمه بنحو ذلك:

وصاحب صدق لم تربني شكاته ظلمت وفي ظلمي له عامداً أجر
وقوله: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ﴾ أي أحاط بهم من كل جانب. وقوله: ﴿سُرَادِقُهَا﴾ أصل السرادق واحد السراقات التي تمتد فوق صحن الدار. وكل بيت من كرسف فهو سرادق. والكرسف: القطن. ومنه قول رؤبة أو الكذاب الحرمازي:

يا حكم ابن المنذر بن الجارود سرادق المجد عليك ممدود
وبيت مسردق: أي مجعول له سرادق، ومنه قول سلامة بن جندل يذكر أبريوز وقتله للنعمان بن المنذر تحت أرجل الفيلة:

هو المدخل النعمان بيتاً سماؤه صدور الفيول بعد بيت مسردق
هذا هو أصل معنى السرادق في اللغة. ويطلق أيضاً في اللغة على الحجرة التي حول الفسطاط.

وأما المراد بالسرادق في الآية الكريمة ففيه للعلماء أقوال مرجعها إلى شيء واحد، وهو إحداق النار بهم من كل جانب، فمن العلماء من يقول «سرادقها»: أي سورها، قاله

ابن الأعرابي وغيره. ومنهم من يقول «سرادقها»: سور من نار، وهو مروى عن ابن عباس. ومنهم من يقول «سرادقها»: عنق يخرج من النار فيحيط بالكفار كالخطيرة، قاله الكلبي، ومنهم من يقول: هو دخان يحيط بهم. وهو المذكور في «المرسلات» في قوله تعالى: ﴿أُظِلُّوا إِلَى ظِلِّ ذِي تِلْكَ شَعْبٍ﴾ (٢٩) لَا ظِلِّ وَلَا يَنْفَعُ مِنَ الْآلِهَةِ ﴿٣٠﴾ [المرسلات]، و«الواقعة» في قوله: ﴿وَبَلَدٍ مِّنْ يَّحْيُو﴾ (٣١) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٣٢﴾ [الواقعة].

ومنهم من يقول: هو البحر المحيط بالدنيا. وروى يعلى بن أمية عن النبي ﷺ أنه قال: «البحر هو جهنم ثم تلا: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهَا سَرَادِقُهَا﴾» ثم قال: والله لا أدخلها أبداً ما دمت حياً ولا تصيبني منها قطرة». ذكره الماوردي. وروى ابن المبارك من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «السرادق النار أربعة جدر كثف، كل جدار مسيرة أربعين سنة» وأخرجه أبو عيسى الترمذي وقال فيه: حديث حسن صحيح غريب. انتهى من القرطبي. وهذا الحديث رواه أيضاً الإمام أحمد وابن جرير وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن حبان، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه وابن أبي الدنيا؛ قاله صاحب الدر المنثور وتبعه الشوكاني. وحديث يعلى بن أمية رواه أيضاً ابن جرير في تفسيره. قال الشوكاني: ورواه أحمد والبخاري وابن أبي حاتم والحاكم وصححه، ورواه صاحب الدر المنثور عن البخاري في تاريخه، وأحمد وابن أبي الدنيا وابن جرير والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقي: وعلى كل حال، فمعنى الآية الكريمة أن النار محيطة بهم من كل جانب، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنَ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال: ﴿لَهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِنَ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، وقال: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُصْرَفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٩] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِن يَسْتَفِثُوا﴾ يعني إن يطلبوا الغوث مما هم فيه من الكرب يغاثوا؛ يؤثوا بغوث هو ماء كالمهل. والمهل في اللغة: يطلق على ما أذيب من جواهر الأرض، كذاب الحديد والنحاس، والرصاص ونحو ذلك. ويطلق أيضاً على دردي الزيت وهو عكره، والمراد بالمهل في الآية ما أذيب من جواهر الأرض. وقيل: دردي الزيت. وقيل: هو نوع من القطران. وقيل: السم. فإن قيل: أي إغاثة في ماء كالمهل مع أنه من أشد العذاب، وكيف قال الله تعالى: ﴿يَغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾؟

فالجواب: أن هذا من أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن. ونظيره من كلام العرب قول بشر بن أبي حازم:

غضبت تميم أن تقتل عامر يوم النصار فأعتبوا بالصيلم

فمعنى قوله: «أعتبوا بالصيلم»: أي أرضوا بالسيف. يعني: ليس لهم منا إرضاء

إلا بالسيف. وقول عمرو بن معديكرب:

وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيع
يعني: لا تحية لهم إلا الضرب الوجيع. وإذا كانوا لا يغاثون إلا بماء كالمهل،
علم من ذلك أنهم لا إغاثة لهم البتة. والياء في قوله: ﴿يَسْتَفِثُوا﴾ والألف في قوله:
﴿يُغَاثُوا﴾ كلتاهما مبدلة من واو، لأن مادة الاستغاثة من الأجوف الواوي العين، ولكن
العين أعلت للساكن الصحيح قبلها، على حد قوله في الخلاصة:

لساكن صح انقل التحريك من ذي لين آت عين فعل كابن
وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَشْوِي الْوُجُوهُ﴾ أي يحرقها حتى تسقط فروة
الوجه، أعادنا الله والمسلمين منه! وعن النبي ﷺ في تفسير هذه الآية الكريمة أنه قال:
﴿كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهُ﴾، هو كعكر الزيت فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه. قال ابن
حجر رحمه الله في (الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف): أخرجه الترمذي من طريق
رشدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد،
واستغربه وقال: لا يعرف إلا من حديث رشدين بن سعد، وتعقب قوله بأن أحمد وأبا
يعلى أخرجاه من طريق ابن لهيعة عن دراج، وبأن ابن جبان والحاكم أخرجاه من طريق
وهب عن عمرو بن الحارث.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿يَشْرَبُ الشَّرَابُ﴾ المخصوص بالذم فيه محذوف،
تقديره: يشرب ذلك الماء الذي يغاثون به. والضمير الفاعل في قوله: «ساءت»
عائد إلى النار. والمرتفق: مكان الارتفاق. وأصله أن يتكئ الإنسان معتمداً على
مرفقه. وللعلماء في المراد بالمرتفق في الآية أقوال متقاربة في المعنى. قيل: مرتفقاً؛
أي منزلاً، وهو مروي عن ابن عباس. وقيل: مقراً، وهو مروي عن عطاء. وقيل:
مجلساً، وهو مروي عن العتبي. وقال مجاهد: مرتفقاً أي مجتمعاً، فهو عنده مكان
الارتفاق بمعنى مرافقة بعضهم لبعض في النار.

وحاصل معنى الأقوال أن النار بش المستقر هي، وبش المقام هي. ويدل لهذا
قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان]، وكون أصل الارتفاق هو
الاتكاء على المرفق، معروف في كلام العرب، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي:

نام الخلي وبت الليل مرتفقاً كأن عيني فيها الصاب مذبوح

ويروى «وبت الليل مشتجراً» وعليه فلا شاهد في البيت. ومنه قول أعشى باهلة:

قد بت مرتفقاً للنجم أرقبه حيران إذا حذر ليو ينفع الحذر

وقول الراجز:

قالت له وارتفتت ألا فتى يسوق بالقوم غزالات الضحا

وهذا الذي ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من صفات هذا الشراب

الذي يسقى به أهل النار، جاء نحوه في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ عَابِتَةٍ﴾ [الغاشية: ٥]، وقوله تعالى: ﴿يَطْوِفُونَ فِيهَا وَيَنْحِمُونَ حَمِيمٍ عَابِتٍ﴾ [الرحمن: ٤٤] والحميم الآني الماء المتناهي في الحرارة.

وقوله تعالى: ﴿وَسُقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ [١٦] يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ... الآية [إبراهيم: ١٦ - ١٧]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿فَقَسْرُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ [٥٤] فَتَشْرَبُونَ شُرْبَ الْفَيْمِ [٥٥] [الواقعة: ٥٥]؛ وقوله تعالى: ﴿لَا يَذُقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ [٢٤] إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا [٢٥]... الآية [النبا: ٢٤]؛ وقوله تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذُقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ﴾ [٥٧] وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَرْوَحٌ [٥٨] [ص: ٥٨] إلى غير ذلك من الآيات. وقد قدمنا طرفاً من هذا في سورة «يونس».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [٢٠]. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من عمل صالحاً وأحسن في عمله أنه - جل وعلا - لا يضيع أجره، أي جزاء عمله، بل يجازى بعمله الحسن الجزاء الأوفى. وبين هذا المعنى في آيات كثيرة جداً، كقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى﴾ [آل عمران: ١٩٥]؛ وقوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ وَفَّيْلٌ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧١]؛ وقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة جداً.

وفي هذه الآية الكريمة سؤالان معروفان عند العلماء:

الأول: أن يقال: أين خبر «إن» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فإذا قيل: خبرها جملة ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ الآية توجه السؤال.

الثاني: وهو أن يقال: أين رابط الجملة الخبرية بالمتبداً الذي هو اسم «إن»؟

اعلم أن خبر «إن» في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ قيل: هو جملة ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ وعليه فقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ جملة اعتراضية. وعلى هذا فالرابط موجود ولا إشكال فيه. وقيل: «إن» الثانية واسمها وخبرها، كل ذلك خبر «إن» الأولى. ونظير الآية من القرآن في الإخبار عن «إن» ب«إن» وخبرها واسمها قوله تعالى في سورة «الحج»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالصَّعْبِيَّةَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾... الآية [الحج: ١٧]، وقول الشاعر:

إن الخليفة إن الله ألبسه
سربال ملك به ترجى الخواتيم

على أظهر الوجهين في خبر «إن» الأولى في البيت. وعلى هذا فالجواب عن السؤال الثاني من وجهين:

الأول: أن الضمير الرابط محذوف، تقديره: لا نضيع أجر من أحسن منهم عملاً، كقولهم: السمن منوان بدرهم، أي: منوان منه بدرهم، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾... الآية [البقرة: ٢٣٤]. أي: يتربصن بعدهم.

الوجه الثاني: أن ﴿مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإذا كان الذين آمنوا، ومن أحسن عملاً ينظمها معنى واحد قام ذلك مقام الربط بالضمير. وهذا هو مذهب الأخفش، وهو الصواب؛ لأن الربط حاصل بالاتحاد في المعنى.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّتَ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَبْغُ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٢١).

بيّن - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أجر من أحسن عملاً، فذكر أنه جنات عدن تجري من تحتهم فيها الأنهار، ويحلون فيها أساور الذهب، ويلبسون فيها الثياب الخضراء من السندس والإستبرق، في حال كونهم متكئين فيها على الأرائك وهي السرر في الحجال. والحجال: جمع حجلة؛ وهو بيت يزين للعروس بجميع أنواع الزينة، ثم أثنى على ثوابهم بقوله: ﴿نَبْغُ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾. وهذا الذي بيّنه هنا من صفات جزاء المحسنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، جاء مبيناً في مواضع كثيرة جداً من كتاب الله تعالى، كقوله تعالى في سورة «الإنسان»: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ (٣). [الإنسان] إلى قوله: ﴿وَكَانَ سَعِيرٌ مُشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢]، وكقوله في سورة «الواقعة»: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ (١٠) ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (١١) ﴿فِي جَنَّاتٍ أَلْعَافٍ﴾ (١٢) إلى قوله: ﴿لَا ضَرْبُ أَلْعَافٍ﴾ (٢٨) [الواقعة] وأمثال ذلك كثيرة في القرآن.

وقد بيّن في سورة «السجدة» أن ما أخفاه الله لهم من قرة أعين لا يعلمه إلا هو - جل وعلا - وذلك في قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أي إقامة لا رحيل بعدها ولا تحول كما قال تعالى: ﴿لَا يَبْغَوْنَ عَنْهَا جَوْلًا﴾ أصله من عدن بالمكان: إذا أقام به. وقد تقدم في سورة «النحل» معنى السندس والإستبرق بما أغنى عن إعادته هنا، والأساور: جمع سوار. وقال بعضهم: جمع أسورة. والثواب: الجزاء مطلقاً على التحقيق؛ ومنه قول الشاعر:

لكل أخي مدح ثواب علمته وليس لمدح الباهلي ثواب

وقول من قال: إن الثواب في اللغة يختص بجزاء الخير بالخير غير صواب، بل يطلق الثواب أيضاً على جزاء الشر بالشر ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ تُؤْبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٣١) [المطففين]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾... الآية [المائدة: ٦٠].

وقوله: ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ الضمير في قوله: «حسنّت» راجع إلى ﴿جَنَّتْ عَذْنٌ﴾ (التوبة: ٧٢). والمرتفق قد قدمنا أقوال العلماء فيه. وقوله هنا في الجنة: ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ يبين معناه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْرُونَ أَلْفَرَقَةً بِمَا صَبَرُوا وَيَلْقَوْنَ فِيهَا زَوْجَهَا وَبَثَّوْنَهَا بِهَا وَهُمْ فِيهَا شَاغِرُونَ﴾ (٧٥) ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٧٦) [الفرقان].

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ (٣٦). ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة عن هذا الرجل الكافر الظالم لنفسه، الذي ضربه مثلاً مع الرجل المؤمن في هذه الآيات لرؤساء الكفار، الذين افتخروا بالمال والجاه على ضعفاء المسلمين الفقراء كما تقدم أنه دخل جنته في حال كونه ظالماً لنفسه وقال: إنه ما يظن أن تهلك جنته ولا تفنى، لما رأى من حسناتها ونضارتها، وقال: إنه لا يظن الساعة قائمة، وإنه إن قدر أنه يبعث ويرد إلى ربه ليجد عنده خيراً من الجنة التي أعطاه في الدنيا.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من جهل الكفار واغترارهم بمتاع الحياة الدنيا، وظنهم أن الآخرة كالدنيا ينعم عليهم فيها أيضاً بالمال والولد، كما أنعم عليهم في الدنيا، جاء مبيناً في آيات أخر، كقوله في «فصلت»: ﴿وَلَئِن أَذَقْتُهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ صَرَّاةٍ مَّتَّسَةٍ لِّقَوْلِهِ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقوله في «مريم»: ﴿أَفَرَأَيْتِ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ (٧٧) [مريم]، وقوله في «سبا»: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ (٧٥) [سبا]. وقوله في هذه السورة: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾.

وبين - جل وعلا - كذبهم واغترارهم فيما ادعوه من أنهم يجدون نعمة الله في الآخرة كما أنعم عليهم بها في الدنيا في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٠﴾ تُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون]، وقوله: ﴿سَنَسْتَلِفُحُمُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ﴾ (٧٦) وَأَمَلِي لَهُمْ لَئِنْ كِيدِي مَيَّنُّ ﴿٧٧﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَمِّلُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (٧٨) [آل عمران]، وقوله: ﴿وَمَا أُنْزِلُكُمْ إِلَّا بِبَيِّنَاتٍ لِّتُبَيِّنَ لَكُمْ عِنْدَنَا ذُلُّكُمْ وَلَئِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْآيَةَ [سبا: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ (١١) [المسد] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿مُنْقَلَبًا﴾ أي مرجعاً وعاقبة، وانتصابه على التمييز، وقوله: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا﴾ قرأه ابن عامر ونافع وابن كثير «منهما» بصيغة تشنية الضمير. وقرأه الباقون «منها» بصيغة أفراد هاء الغائبة. فالضمير على قراءة تشنيته راجع إلى الجنتين في قوله: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾، وقوله: ﴿كَلَّا الْجَنَّتَيْنِ﴾، وعلى قراءة الأفراد راجع إلى الجنة في قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾.

فإن قيل: ما وجه أفراد الجنة مع أنهما جنتان؟ فالجواب: أنه قال ما ذكره الله عنه

حين دخل إحداهما، إذ لا يمكن دخوله فيهما معاً في وقت واحد. وما أجاب به الزمخشري عن هذا السؤال ظاهر السقوط، كما نبه عليه أبو حيان في البحر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَمْ صَاحِبُهُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ۖ لَكِنَّكَ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۝﴾ [٢٨]. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن ذلك الرجل المؤمن المضروب مثلاً للمؤمنين، الذين تكبر عليهم أولو المال والجاه من الكفار، قال لصاحبه الآخر الكافر المضروب مثلاً لذوي المال والجاه من الكفار، منكراً عليه كفه: أكفرت بالذي خلقك من تراب، ثم من نطفة، ثم سواك رجلاً؛ لأن خلقه إياه من تراب، ثم من نطفة، ثم تسويته إياه رجلاً، كل ذلك يقتضي إيمانه بخالقه الذي أبرزه من العدم إلى الوجود، وجعله بشراً سوياً، ويجعله يستبعد منه كل البعد الكفر بخالقه الذي أبرزه من العدم إلى الوجود. وهذا المعنى المبين هنا بينه في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَنًا فَأَخْبِكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِنَّهُ رُجِعُونَ ۝﴾ [البقرة: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدَ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝﴾ [يس: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۝﴾ [٧٥] أنتم وآبائكم الأقدمون ۝ فَإِنَّهُمْ عَادُو لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ [٧٧] الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝﴾ [٧٨] وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝﴾ [٧٩] وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝﴾ [٨٠] وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۝﴾ [٨١] [الشعراء]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۝﴾ [٢١] إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۝﴾ [الزخرف: ٢١] إلى غير ذلك من الآيات، وقد قدمنا كثيراً من الآيات الدالة على أن ضابط من يستحق العبادة وحده دون غيره، أن يكون هو الذي يخلق المخلوقات، ويظهرها من العدم إلى الوجود بما أغنى عن إعادته هنا.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ معنى خلقه إياه من تراب؛ أي خلق آدم الذي هو أصله من التراب؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ ... الآية [آل عمران: ٥٩]، ونظير الآية التي نحن بصددنا قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥].

وقوله: ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي بعد أن خلق آدم من التراب، وخلق حواء من ضلعه، وجعلها زوجاً له، كانت طريق إيجاد الإنسان بالتناسل. فبعد طور التراب طور النطفة، ثم طور العلقة إلى آخر أطواره المذكورة في قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَا أَطْوَارًا ۝﴾ [نوح: ٦]، وقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦] وقد أوضحها تعالى إيضاحاً تاماً في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝﴾ [٧] ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝﴾ [١٢] ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝﴾ [المؤمن: ٦].

ومما يبين خلق الإنسان من تراب، ثم من نطفة. قوله تعالى في «السجدة»: ﴿ذَلِكَ

عَلَيْهِمُ اللَّعْنَةُ وَالشَّهَادَةُ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْصَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ [السجدة].

وقوله في هذه الآية: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا﴾ كقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿١﴾ [النحل]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٧٧﴾ [يس] أي بعد أن كان نطفة صار إنساناً خصباً شديداً الخصومة في توحيد ربه.

وقوله: ﴿سَوَّاهُ﴾ أي خلقتك مستوي الأجزاء، معتدل القامة والخلق، صحيح الأعضاء في أكمل صورة، وأحسن تقويم؛ كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ﴿١﴾ [التين]، وقوله: ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]، وقوله: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَكَ رِيَكٍ أَلْكِرِ﴾ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاهُ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ [الانفطار]، وقوله: ﴿رَجُلًا﴾ أي ذكراً بالغاً مبلغ الرجال، وربما قالت العرب للمرأة: رجلة، ومنه قول الشاعر:

كل جار ظل مغتبطاً غير جيران بني جبله
مزقوا ثياب فتاتهم لم يراعوا حرمة الرجله

وانتصاب ﴿رَجُلًا﴾ على الحال. وقيل: مفعول ثان لسوى على تضمينه معنى جعلك أو صيّرَكَ رجلاً. وقيل: هو تمييز. وليس بظاهر عندي، والظاهر أن الإنكار المدلول عليه بهمزة الإنكار في قوله: ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ مضمن معنى الاستبعاد؛ لأنه يستبعد جداً كفر المخلوق بخالقه، الذي أبرزه من العدم إلى الوجود، ويستبعد إنكار البعث ممن علم أن الله خلقه من تراب، ثم من نطفة، ثم سواه رجلاً كقوله: ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْتُكُمْ مِّن تُرَابٍ﴾ الآية [الحج: ٥]. ونظير الآية في الدلالة على الاستبعاد لوجود موجه قول الشاعر:

ولا يكشف الغماء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها
لأن من عاين غمرات الموت يستبعد منه اقتحامها.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿١٨﴾ بَيَّنَّ فِيهِ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ الْمُؤْمِنَ قَالَ لِصَاحِبِهِ الْكَافِرِ: أَنْتَ كَافِرٌ! لَكِن أَنَا لَسْتُ بِكَافِرٍ! بَلْ مُخْلِصٌ عِبَادَتِي لِرَبِّي الَّذِي خَلَقَنِي؛ أَي لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ مِنِّي أَنْ أَعْبُدَهُ؛ لِأَنَّ الْمَخْلُوقَ مُحْتَاجٌ مُثْلِي إِلَى خَالِقِ يَخْلُقُهُ، تَلْزِمُهُ عِبَادَةُ خَالِقِهِ كَمَا تَلْزِمُنِي. ونظير قول هذا المؤمن ما قدمنا عن الرجل المؤمن المذكور في «يس» في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس: ٢٢] أي أبدعني وخلقني ﴿وَلِلَّهِ تُرْجَعُونَ﴾. وما قدمنا عن إبراهيم في قوله: ﴿فَاتَّخَذُوا عَدُوًّا لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾... الآية [الشعراء]، وقوله: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾... الآية [الزخرف: ٢٦ - ٢٧].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ بعد قوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ يدل على أن الشك في البعث كفر بالله تعالى. وقد صرح بذلك في أول سورة «الرعد» في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبْتَ فَقَوْلُكُمْ آءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ يَأْتِ خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾﴾ [الرعد].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿لَكِنَّا﴾ أصله «لكن أنا» فحذفت همزة «أنا» وأدغمت نون «لكن» في نون «أنا» بعد حذف الهمزة. وقال بعضهم: نقلت حركة الهمزة إلى نون «لكن» فسقطت الهمزة بنقل حركتها، ثم أدغمت النون في النون؛ ونظير ذلك من كلام العرب قول الشاعر:

وترمينني بالطرف أي أنت مذنب وتقلينني لكنا إياك لم أقل
أي: لكن أنا إياك لم أقل. وقال بعضهم: لا يتعين في البيت ما ذكر؛ لجواز أن يكون المقصود لكنني، فحذف اسم «لكن» كقول الآخر:

فلو كنت ضبياً عرفت قرابتي ولكن زنجي عظيم المشافر
أي: لكنك زنجي، في رواية من روى زنجي بالرفع. وأشد الكسائي لنحو هذا الحذف من «لكن أنا» قول الآخر:

لهنك من عبسية لو سمية على هنوات كاذب من يقولها
قال: أراد بقوله: «لهنك» لله إنك؛ فحذف إحدى اللامين من «الله» وحذف الهمزة من «إنك». نقله القرطبي عن أبي عبيد.

وقوله تعالى: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ قرأه جماهير القراء في الوصل «لكن» بغير ألف بعد النون المشددة. وقرأه ابن عامر من السبعة «لكننا» بالألف في الوصل، ويروى ذلك عن عاصم، ورواه المسيلي عن نافع، ورويس عن يعقوب. واتفق الجميع على إثبات الألف في الوقف. ومد نون «أنا» لغة تميم إن كان بعدها همزة. وقال أبو حيان في البحر: إن إثبات ألف «أنا» مطلقاً في الوصل لغة بني تميم، وغيرها يشبونها على الاضطرار، قال: فجاءت قراءة «لكننا» بإثبات الألف في الوصل على لغة تميم. ومن شواهد مد «أنا» قبل غير الهمزة قول الشاعر:

أنا سيف العشيرة فاعرفوني حميداً قد تذریت السناما
وقول الأعشى:

فكيف أنا وانتحال القوافي بعد المشيب كفى ذاك عارا
وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ جملة حالية، والمحاورة: المراجعة في الكلام؛ ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ [المجادلة: ١]، وقول عترة في معلقته:

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولو كان لو علم الجواب مكلمي
وكلام المفسرين في الرجلين المذكورين هنا في قصتهما كيان أسمائهما، ومن أي
الناس هما، أعرضنا عنه لما ذكرنا سابقاً من عدم الفائدة فيه، وعدم الدليل المقنع
عليه. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَمْ طَلَبًا ۝٤١﴾.

معنى قوله: «غورا» أي غائراً؛ فهو من الوصف بالمصدر، كما قال في الخلاصة:
ونعتوا بمصدر كثيراً فالتزموا الإفراد والتذكير

والغائر: ضد النابع. وقوله: ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَمْ طَلَبًا﴾؛ لأن الله إذا أعدم ماءه
بعد وجوده، لا تجد من يقدر على أن يأتيك به غيره جل وعلا. وأشار إلى نحو هذا
المعنى في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ۝٤٢﴾ [الملك]
ولا شك أن الجواب الصحيح: لا يقدر على أن يأتينا به إلا الله وحده؛ كما قال هنا:
﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَمْ طَلَبًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فِتْنَةً يَصُورُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ۝٤٣﴾ هُنَاكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ
الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ نَوَابًا وَخَيْرٌ عَقَبًا ۝٤٤﴾، اعلم أن في هذه الآية الكريمة قراءات سبعة،
وأقوالاً لعلماء التفسير، بعضها يشهد له قرآن، وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب
المبارك: أن الآية قد تكون فيها مذاهب للعلماء، يشهد لكل واحد منها قرآن؛ فنذكر
الجميع وأدلته في القرآن، فإذا علمت ذلك فاعلم أن قوله في هذه الآية: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَمْ
فِتْنَةً﴾ قرأه السبعة ما عدا حمزة والكسائي بالتاء المثناة الفوقية. وقرأه حمزة والكسائي:
«ولم يكن له فِتْنَةً» بالياء المثناة التحتية. وقوله: ﴿الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقُّ﴾ قرأه السبعة ما عدا
حمزة والكسائي أيضاً «الْوَلِيَّةُ» بفتح الواو. وقرأه حمزة والكسائي بكسر الواو. وقوله:
﴿الْحَقُّ﴾ قرأه السبعة ما عدا أبا عمرو والكسائي بالخفض نعتاً «الله». وقرأه أبو عمرو
والكسائي بالرفع نعتاً للولاية. فعلى قراءة من قرأ «الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ» بفتح الواو، فإن معناها:
الموالة والصلة، وعلى هذه القراءة ففي معنى الآية وجهان:

الأول: أن معنى «هُنَاكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ» أي في ذلك المقام، وتلك الحال تكون
الولاية من كل أحد لله؛ لأن الكافر إذا رأى العذاب رجع إلى الله. وعلى هذا المعنى
فالآية كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ
مُشْرِكِينَ ۝٤٥﴾ [غافر]، وقوله في فرعون: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْفُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ
إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٩٠﴾ مَالَكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ
الْمُفْسِدِينَ ۝٩١﴾ [يونس] ونحو ذلك من الآيات.

الوجه الثاني: أن الولاية في مثل ذلك المقام وتلك الحال لله وحده، فيوالي فيه
المسلمين ولاية رحمة، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾... الآية [البقرة]:

[٢٥٧]، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد]. وله على الكافرين. ولاية الملك والقهر، كما في قوله: ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠]. وعلى قراءة حمزة والكسائي فالولاية بالكسر بمعنى الملك والسلطان، والآية على هذه القراءة كقوله: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وقوله: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾... الآية [الفرقان: ٢٦]، وقوله: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج: ٥٦]. وعلى قراءة «الحق» بالجزز نعتاً لله، فالآية كقوله: ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ﴾... الآية [يونس: ٣٠]. وقوله: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾... الآية [يونس: ٣٢]، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يُقِيمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [٢٥] [النور] إلى غير ذلك من الآيات، وعلى قراءة «الحق» بالرفع نعتاً للولاية، على أن الولاية بمعنى الملك، فهو كقوله: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾... الآية [الفرقان: ٢٦].

وما ذكره - جل وعلا - عن هذا الكافر من أنه لم تكن له فئة ينصرونه من دون الله - ذكر نحوه عن غيره من الكفار، كقوله في قارون: ﴿خَسَفْنَا بِهِ يَدَاهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنْ الْأُنْتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١]، وقوله: ﴿فَأَلْهَمْنَاهُ الْقُوَىٰ وَلَا نَاصِرَ لَهُ﴾ [طارق: ١٠] والآيات بمثل هذا كثيرة جداً.

وقوله: ﴿هَٰذَا لَكَ﴾ قال بعض العلماء: هو متعلق بما بعده، والوقف تام على قوله: ﴿وَمَا كَانَ مُنْصِراً﴾. وقال بعضهم: هو متعلق بما قبله، فعلى القول الأول فالظرف الذي هو ﴿هَٰذَا لَكَ﴾ عامله ما بعده، أي الولاية كائنة لله هنالك. وعلى الثاني فالعامل في الظرف اسم الفاعل الذي هو ﴿مُنْصِراً﴾ أي لم يكن انتصاره واقعاً هنالك. وقوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ نَّوَابِكاً﴾ أي جزاء كما تقدم. وقوله: «عقباً» أي عاقبة ومآلاً. وقرأه السبعة ما عدا عاصماً وحمزة «عقباً» بضميتين. وقراءة عاصم ﴿عُقْباً﴾ بضم العين وسكون القاف والمعنى واحد. وقوله: ﴿نَّوَابِكاً﴾ وقوله: ﴿عُقْباً﴾ كلاهما منصوب على التمييز بعد صيغة التفضيل التي هي «خير» كما قال في الخلاصة:

والفاعل المعنى انصبين بأفعلا مفضلاً كَأَنْتَ أَعْلَىٰ مَنْزِلَا

ولفظه: خير وشر كلتاها تأتي صيغة تفضيل حذفت منها الهمزة تخفيفاً لكثرة الاستعمال، قال ابن مالك في الكافية:

وَعَالِباً أَغْنَاهُمْ خَيْرٌ وَشَرٌّ عَنْ قَوْلِهِمْ أَخِيرٌ مِنْهُ وَأَشَرٌ

تنبيه: قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَتَّةٌ﴾ محذوف منه حرف بلا خلاف، إلا أن العلماء اختلفوا في الحرف المحذوف؛ هل هو ياء أو واو، وهل هو العين أو اللام؟ قال بعضهم: المحذوف العين، وأصله ياء. وأصل المادة ف ي أ، من فاء يفيء: إذا رجع؛ لأن فتة الرجل طائفته التي يرجع إليها في أموره، وعلى هذا فالتاء عوض عن العين المحذوفة، ووزنه بالميزان الصرفي «فلة». وقال بعضهم: المحذوف اللام. وأصله

واو؛ من فأوت رأسه: إذا شققته نصفين، وعليه فالفتة الفرقة من الناس، وعلى هذا فوزنه بالميزان الصرفي «فعة» والتاء عوض عن اللام. وكلا القولين نصره بعض أهل العلم، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (٤٦).

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا وأن الباقيات الصالحات خير عند الله ثواباً وخير أملاً. والمراد من الآية الكريمة: تنبيه الناس للعمل الصالح؛ لئلا يشتغلوا بزينة الحياة الدنيا من المال والبنين عما ينفعهم في الآخرة عند الله من الأعمال الباقيات الصالحات، وهذا المعنى الذي أشار له هنا جاء مبيناً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْمَنْطَرِ الْمُنْقَطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ (١٤٠) قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَمُ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴿١٤١﴾... الآية [آل عمران: ١٤ - ١٥]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٠١) [المنافقون]، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٥٦) [التغابن]، وقوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ الآية [سبا: ٣٧]، وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) إِلَّا مَنْ ءَاتَى اللَّهَ يَلْفَ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ [الشعراء] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الإنسان لا ينبغي له الاشتغال بزينة الحياة الدنيا عما ينفعه في آخرته.

وأقوال العلماء في الباقيات الصالحات كلها راجعة إلى شيء واحد، وهو الأعمال التي ترضي الله، سواء قلنا: إنها الصلوات الخمس، كما هو مروي عن جماعة من السلف؛ منهم ابن عباس، وسعيد بن جبیر، وأبو ميسرة، وعمر بن شراحيل. أو أنها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وعلى هذا القول جمهور العلماء، وجاءت دالة عليه أحاديث مرفوعة عن أبي سعيد الخدري، وأبي الدرداء، وأبي هريرة، والنعمان بن بشير، وعائشة رضي الله عنهن.

قال مقيده - عفا الله عنه -: التحقيق أن ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ لفظ عام، يشمل الصلوات الخمس، والكلمات الخمس المذكورة، وغير ذلك من الأعمال التي ترضي الله تعالى؛ لأنها باقية لصاحبها غير زائلة، ولا فانية كزينة الحياة الدنيا؛ لأنها أيضاً صالحة لوقوعها على الوجه الذي يرضي الله تعالى، وقوله: ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ تقدم معناه. وقوله: ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي الذي يؤمل من عواقب الباقيات الصالحات، خير مما يؤمله أهل الدنيا من زينة حياتهم الدنيا.

وأصل الأمل: طمع الإنسان بحصول ما يرجوه في المستقبل، ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى في «مريم»: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَيْتُ الَّذِي صَلَّيْتُ عَلَيْهِ إِعْدَادٌ لِّرَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مِّمَّا مَرَدَّدًا﴾ [مريم: ٤٦] والمراد: المرجع إلى الله يوم القيامة. وقال بعض العلماء: «مَرَدَّدًا» مصدر ميمي، أي وخير رداً للثواب على فاعلها، فليست كأعمال الكفار التي لا ترد ثواباً على صاحبها.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [٤٧]. قوله: ﴿وَيَوْمَ﴾ منصوب باذكر مقدراً. أو بفعل القول المحذوف قبل قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدًى﴾ [الأنعام: ٩٤] أي قلنا لهم يوم نسير الجبال: لقد جئتمونا فرادى. وقول من زعم أن العامل فيه «خير» يعني والباقيات الصالحات خير يوم نسير الجبال، بعيد جداً كما ترى.

وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن يوم القيامة يختل فيه نظام هذا العالم الدنيوي، فتسير جباله، وتبقى أرضه بارزة لا حجر فيها ولا شجر، ولا بناء ولا وادي ولا علم؛ ذكره في مواضع أخر كثيرة، فذكر أنه يوم القيامة يحمل الأرض والجبال من أماكنهما، ويدكهما دكة واحدة، وذلك في قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْثَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّا دَكَّةً وَاحِدَةً ۖ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٣].

وما ذكره من تسير الجبال في هذه الآية الكريمة، ذكره أيضاً في مواضع أخر كقوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۖ وَنُسِرُّ الْجِبَالَ سِيرًا﴾ [الطور: ١٠] وقوله: ﴿وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبا: ١٠]، وقوله: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتِ﴾ [التكوير: ٢]، وقوله: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُ جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ ... الآية [النمل: ٨٨].

ثم ذكر في مواضع أخر: أنه - جل وعلا - يفتتها حتى تذهب صلابتها الحجرية وتلين، فتكون في عدم صلابتها ولينها كالعهن المنفوش، وكالرمل المتهائل، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ۖ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٩] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۖ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] والعهن: الصوف. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلاً﴾ [المزمل: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَيُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ [الواقعة: ٥] أي فتنت حتى صارت كالبسيسة، وهي دقيق ملتوت بسمن، على أشهر التفسيرات.

ثم ذكر - جل وعلا - أنه يجعلها هباءً وسراباً قال: ﴿وَيُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۖ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾ [الواقعة: ٥ - ٦]، وقال: ﴿وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبا: ٢٠].

وبين في موضع آخر أن السراب عبارة عن لا شيء، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ كُورٍ بَيِّعُوا﴾ [النور: ٣٩] إلى قوله: ﴿لَوْ يَجِدُهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ﴾ قرأه ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو «نُسِرُّ الجبال»

بالتاء المثناة الفوقية وفتح الياء المشددة من قوله: «تَسِير» مبنياً للمفعول. ﴿وَلِجِبَالٍ﴾ بالرفع نائب فاعل (تُسِير) والفاعل المحذوف ضمير يعود إلى الله جل وعلا. وقرأه باقي السبعة ﴿سِيرَ﴾ بالنون وكسر الياء المشددة مبنياً للفاعل، و«الجبال» منصوب مفعول به، والنون في قوله: ﴿سِيرَ﴾ للتعظيم.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ البروز: الظهور؛ أي ترى الأرض ظاهرة منكشفة لذهاب الجبال والظراب والآكام، والشجر والعمارات التي كانت عليها. وهذا المعنى الذي ذكره هنا، بينه أيضاً في غير هذا الوضع؛ كقوله تعالى: ﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۗ﴾ [طه]. وأقوال العلماء في معنى ذلك راجعة إلى شيء واحد، وهو أنها أرض مستوية لا نبات فيها، ولا بناء ولا ارتفاع ولا انحدار. وقول من قال: إن معنى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾: أي بارزاً ما كان في بطنها من الأموات والكنوز بعيد جداً كما ترى. وبروز ما في بطنها من الأموات والكنوز دلت عليه آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۖ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخَلَّتْ ۖ﴾ [الانشقاق]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۖ وَخُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۖ﴾ [العاديات]، وقوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَنْفَالَهَا ۖ﴾ [الزلزلة]، وقوله: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۖ﴾ [الانفطار].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ أي جمعناهم للحساب والجزاء، وهذا الجمع المعبر عنه بالحشر هنا جاء مذكوراً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۖ لَمَجْبُورُونَ ۖ إِلَىٰ مِيقَاتٍ يَوْمَ نَعْلَمُ ۖ﴾ [الواقعة]، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ [النساء: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكَ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ۖ ذَلِكَ يَوْمُ النَّفَاثِ ۖ﴾ [التغابن: ٩]، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ يَجْمَعُ لَهَ النَّاسِ ۖ وَذَلِكَ يَوْمُ مَشْهُودٍ ۖ﴾ [هود: ١٠٣]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ۖ﴾ [الأنعام: ٢٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

وبين في موضع آخر أن هذا الحشر المذكور شامل للعقلاء وغيرهم من أجناس المخلوقات، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ ۖ مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إَلَ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۖ﴾ [الأنعام].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَلَمْ نَجِدْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾، أي لم نترك. والمغادرة: الترك؛ ومنه الغدر؛ لأنه ترك الوفاء والأمانة. وسمي الغدير من الماء غديراً؛ لأن السيل ذهب وتركه. ومن المغادرة بمعنى الترك قول عترة في مطلع معلقته:

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم
وقوله أيضاً:

غادرته متعفراً أوصاله والقوم بين مجرح ومجدل
وما ذكره في هذه الآية الكريمة من أنه حشرهم ولم يترك منهم أحداً جاء مبنياً في.

مواضع أخر كقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾... الآية [الأنعام: ٢٢]، ونحوها من الآيات؛ لأن حشرهم جميعاً هو معنى أنه لم يغادر منهم أحداً.

قوله تعالى: ﴿وَعَرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الخلائق يوم القيامة يعرضون على ربهم صفّاً، أي في حال كونهم مصطفىين. قال بعض العلماء: صفّاً بعد صف. وقال بعضهم: صفّاً واحداً. وقال بعض العلماء: «صفّاً» أي جميعاً، كقوله: ﴿ثُمَّ أَنتَوُا صَفًّا﴾ [طه: ٦٤] على القول فيه بذلك. وقال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة: وخرج الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن منده في كتاب التوحيد عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى ينادي يوم القيامة بصوت رفيع غير فظيع: يا عبادي، أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين. يا عبادي، لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون، أحضروا حجتكم ويسروا جواباً فإنكم مسؤولون ومحاسبون. يا ملائكتي، أقيموا عبادي صفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب». قلت: هذا الحديث غاية في البيان في تفسير الآية. ولم يذكره كثير من المفسرين، وقد كتبناه في كتاب التذكرة ومنه نقلناه. والحمد لله، انتهى كلام القرطبي.

والحديث المذكور يدل على أن «صفّاً» في هذه الآية يراد به صفوفاً كقوله في الملائكة: ﴿وَمَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] ونظير الآية قوله في الملائكة: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٢٨].

فيذا علمت أن الله - جل وعلا - ذكر في هذه الآية الكريمة حالاً من أحوال عرض الخلائق عليه يوم القيامة، فاعلم أنه بين في مواضع أخر أشياء أخر من أحوال عرضهم عليه كقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]. وبين في مواضع أخر ما يلاقيه الكفار، وما يقال لهم عند ذلك العرض على ربهم كقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ اتَّخَذَ أُوتَاهُكَ بَعْضُكَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ و يَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الذين يصدّون عن سبيل الله ويبعونها عوجاً وهم بالآخرة هم كفرون] [هود: ٢٨].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿صَفًّا﴾ أصله مصدر، والمصدر المنكر قد يكون حالاً على حد قوله في الخلاصة:

ومصدر منكر حالاً يقع بكثرة كبغته زيد طلع

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. هذا الكلام مقول قول محذوف، وحذف القول مطرد في اللغة العربية، كثير جداً في القرآن العظيم، والمعنى: يقال لهم يوم القيامة لقد جئتمونا، أي والله لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة، أي حفاة عراة غرلاً، أي غير مختونين، كل واحد منكم فرد لا مال معه ولا ولد، ولا خدم ولا حشم.

وقد أوضح هذا المعنى في مواضع آخر بقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمَا مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ زَعُمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنعام،] وقوله: ﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٥٠﴾ وَكُلُّهُمْ عِندَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٥١﴾﴾ [مریم،] وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ وَعَدًّا عَلَيْنَا﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] تقدم.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ «ما» مصدرية، والمصدر المنسبك منها ومن صلتها نعت لمصدر محذوف على حذف مضاف. وإيضاح تقريره: ولقد جئتمونا كما خلقناكم، أي مجيئاً مثل مجيء خلقكم، أي حفاة عراة غرلاً كما جاء في الحديث، وخالين من المال والولد، وهذا الإعراب هو مقتضى كلام أبي حيان في البحر. ويظهر لي أنه يجوز إعرابه أيضاً حالاً، أي جئتمونا في حال كونكم مشابهين لكم في حالتكم الأولى؛ لأن التشبيه يؤول بمعنى الوصف، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

ويكثر الجمود في شعر وفي مبدي تأول بلا تكلف
كبعه مداً بكذا يداً بيد وكر زيد أسداً أي كأسد

فقوله: «وكر زيد أسداً أي كأسد» مثال لمبدي التأول؛ لأنه في تأويل كر في حال كونه مشابهاً للأسد كما ذكرنا. واعلم أن حذف القول وإثبات مقوله مطرد في اللغة العربية، وكثير في القرآن العظيم كما ذكرناه آنفاً. لكن عكسه وهو إثبات القول وحذف مقوله قليل جداً، ومنه قول الشاعر:

لنحن الألى قلتم فأنى ملئتم برؤيتنا قبل اهتمام بكم رعباً

لأن المراد لنحن الألى قلتم نقاتلهم، فحذف جملة نقاتلهم التي هي مقول القول. وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ عبر فيه بالماضي وأراد المستقبل؛ لأن تحقيق وقوع ذلك ينزله منزلة الواقع بالفعل. والتعبير بصيغة الماضي عن المستقبل لما ذكرنا كثير جداً في القرآن العظيم، ومنه قوله هنا: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَعَرَّضْنَاهُ عَلَىٰ رَيْكٍ﴾ وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾. ومنه قوله: ﴿أَفَئِنَّ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١]، وقوله: ﴿وَفُتِحَ فِي الصُّورِ﴾، وقوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الزمر: ٧١] وقوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٧٣] ونحو ذلك كثير في القرآن لما ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿بَلْ زَعَمْتَ أَنَّ تَجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار زعموا أن الله لن يجعل لهم موعداً، والموعود يشمل زمان الوعد ومكانه. والمعنى أنهم زعموا أن الله لم يجعل وقتاً ولا مكاناً لإنجاز ما وعدهم على السنة رسله من البعث والجزاء والحساب. وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من إنكارهم للبعث - جاء مبيناً في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّنْ يَبْعَثُ...﴾ الآية [التغابن: ٧]. وقوله عنهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٥] ونحو ذلك من الآيات.

وقد بين الله تعالى كذبهم في إنكارهم للبعث في آيات كثيرة؛ كقوله في هذه السورة الكريمة: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾، وقوله: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾... الآية [التغابن: ٧]، وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨]، وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] والآيات بمثل هذا كثيرة جداً. وقد قدمنا في سورة «البقرة» وسورة «النحل» البراهين التي يكثر في القرآن العظيم الاستدلال بها على البعث.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿بَلْ زَعَمْتَ﴾ إضراب انتقالي من خبر إلى خبر آخر، لا إبطالي كما هو واضح، وأن في قوله: ﴿أَلَّنْ نَجْعَلَ﴾. مخففة من الثقيلة، وجملة الفعل الذي بعدها خبرها، والاسم ضمير الشأن المحذوف على حد قوله في الخلاصة: «وإن تخفف أن... البيت».

والفعل المذكور متصرف وليس بدعاء، ففصل بينه وبينها بالنفي؛ على حد قوله في الخلاصة: «وإن يكن فعلاً ولم يكن دعا... البيت».

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوتِلْنَا مَالٌ هَذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكتاب يوضع يوم القيامة. والمراد بالكتاب: جنس الكتاب؛ فيشمل جميع الصحف التي كتبت فيها أعمال المكلفين في دار الدنيا. وأن المجرمين يشفقون مما فيه؛ أي يخافون منه، وأنهم يقولون: ﴿يُوتِلْنَا مَالٌ هَذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ﴾ أي لا يترك «صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً» من المعاصي التي عملنا ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أي ضبطها وحصرها.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في مواضع آخر كقوله: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَزَمْتَهُ طَلَبُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [١٣] أقرأ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا [١٤] [الإسراء]. وبين أن بعضهم يؤتى كتابه يمينه. وبعضهم يؤتاه بشماله. وبعضهم يؤتاه وراء ظهره. قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَقَوْلُ يَلْتَنِني لَمْ يَأْتِ كِتَابَهُ [١٥]... الآية [الحاقة]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ [١٦] فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا [١٧] وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا [١٨] وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ [١٩] فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا [٢٠] وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا [٢١]﴾ [الانشقاق] وقد قدمنا هذا في سورة «بني إسرائيل». وما ذكره من وضع الكتاب هنا ذكره في «الزمر» في قوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾... الآية [الزمر: ٦٩].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ تقدم معنى مثله في الكلام على قوله: ﴿وَتَرَى النَّفْسَ إِذَا طَلَعَتْ﴾... الآية. والمجرمون: جمع المجرم، وهو اسم فاعل الإجماع، والإجماع: ارتكاب الجريمة، وهي الذنب العظيم الذي يستحق صاحبه عليه النكال. ومعنى كونهم «مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ»: أنهم خائفون مما في ذلك الكتاب من

كشف أعمالهم السيئة، وفضيحتهم على رؤوس الأشهاد، وما يترتب على ذلك من العذاب السرمدي. وقولهم: ﴿يَوَلِّتُنَا﴾ الويلة: الهلكة، وقد نادوا هلكتهم التي هلكوها خاصة من بين الهلكات، فقالوا: يا ويلتنا! أي يا هلكتنا احضري، فهذا أوان حضورك! وقال أبو حيان في البحر: المراد من بحضرتهم، كأنهم قالوا: يا من بحضرتنا انظروا هلكتنا. وكذا ما جاء من نداء ما لا يعقل كقوله: ﴿يَتَأَسَّفُ عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]، ﴿يَحْضَرُنِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، ﴿يَوَلِّتُنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢]، وقوله: يا عجباً لهذه الخليفة، فيا عجباً من رحلها المتحمل، إنما يراد به تنبيه من يعقل بالتعجب مما حل بالمنادي، انتهى كلام أبي حيان. وحاصل ما ذكره: أن أداة النداء في قوله: ﴿يَوَلِّتُنَا﴾ [الأنبياء: ١٤] ينادى بها محذوف، وأن ما بعدها مفعول فعل محذوف، والتقدير كما ذكره: يا من بحضرتنا انظروا هلكتنا. ومعلوم أن حذف المنادى مع إثبات أداة النداء، ودلالة القرينة على المنادى المحذوف مسموع في كلام العرب؛ ومنه قول عترة في معلقته:

يا شاة ما قنص لمن حلت له حرمت على وليتها لم تحرم

يعني: يا قوم انظروا شاة قنص. وقول ذي الرمة:

ألا يا اسلمي يا دار مي على البلا ولا زال منهلاً بجرعائك القطر

يعني: يا هذه اسلمي. وقوله تعالى: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ﴾ أي: أي شيء ثبت لهذا الكتاب ﴿لَا يُغَادِرُ﴾ أي لا يترك ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أي من المعاصي. وقول من قال: الصغيرة القبلية، والكبيرة الزنى، ونحو ذلك من الأقوال في الآية، إنما هو على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر. وللعلماء اختلاف كثير في تعريف الكبيرة معروف في الأصول. وقد صرح تعالى بأن المنهيات منها كبائر. ويفهم من ذلك أن منها صغائر. وبين أن اجتناب الكبائر يكفر الله به الصغائر؛ وذلك في قوله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾... الآية [النساء: ٣١]. ويروى عن الفضيل بن عياض في هذه الآية أنه قال: ضجوا من الصغائر قبل الكبائر. وجملة ﴿لَا يُغَادِرُ﴾ حال من ﴿الْكِتَابِ﴾.

تنبيه: هذه الآية الكريمة يفهم منها أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة؛ لأنهم وجدوا في كتاب أعمالهم صغائر ذنوبهم محصاة عليهم، فلو كانوا غير مخاطبين بها لما سجلت عليهم في كتاب أعمالهم. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾، ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنهم في يوم القيامة يجدون أعمالهم التي عملوها في الدنيا حاضرة محصاة عليهم. وأوضح هذا أيضاً في غير هذا الموضع كقوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُنْضَرًّا وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقوله تعالى:

﴿هَٰئِلًا تَبْلُو كُلَّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾... الآية [يونس: ٣٠]، وقوله: ﴿يَبْئُتُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [١٢]، [القيامة]، وقوله: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [١٣]، [الطارق] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظِلُّ رُكُوكَ أَحَدًا﴾، ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه لا يظلم أحداً، فلا ينقص من حسنات محسن، ولا يزيد من سيئات مسيء، ولا يعاقب على غير ذنب.

وأوضح هذا المعنى في مواضع آخر كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [١٤]، [يونس]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [١٥]، [النساء]، وقوله تعالى: ﴿وَتَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيبًا﴾ [١٦]، [الأنبياء]، وقوله: ﴿وَمَا رُكُوكَ يَظْلِمُ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمَهُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٢٣]، وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨] والآيات بمثل ذلك كثيرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾. قدمنا في سورة «البقرة» أن قوله تعالى: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤] محتمل لأن يكون أمرهم بذلك قبل وجود آدم أمراً معلقاً على وجوده. ومحتمل لأنه أمرهم بذلك تنجيلاً بعد وجود آدم، وأنه - جل وعلا - بين في سورة «الحجر» وسورة «ص» أن أصل الأمر بالسجود متقدم على خلق آدم معلق عليه. قال في «الحجر»: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَنْسُوجٍ﴾ [١٨]، ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [١٩]، [الحجر] وقال في «ص»: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ [٢٠]، ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [٢١]، [ص] ولا ينافي هذا أنه بعد وجود آدم جدد لهم الأمر بالسجود له تنجيلاً.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَسَجَدُوا﴾ محتمل لأن يكونوا سجدوا كلهم أو بعضهم، ولكنه بين في مواضع آخر أنهم سجدوا كلهم، كقوله: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [٢٢]، [الحجر] ونحوها من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ ظاهر في أن سبب فسقه عن أمر ربه كونه من الجن. وقد تقرر في الأصول في «مسلك النص» وفي «مسلك الإيماء والتنبيه» أن الفاء من الحروف الدالة على التعليل، كقولهم: سرق فقطعت يده، أي لأجل سرقة. وسها فسجد، أي لأجل سهوه، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] أي لعله سرقتهما، وكذلك قوله هنا: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ﴾ أي لعله كينونته من الجن؛ لأن هذا الوصف فرق بينه وبين الملائكة؛ لأنهم امتثلوا الأمر وعصا هو ولأجل ظاهر هذه الآية الكريمة ذهب جماعة من العلماء إلى أن إبليس ليس من الملائكة في الأصل بل من الجن، وأنه كان

يتعبد معهم، فأطلق عليه اسمهم لأنه تبع لهم، كالحليف في القبيلة يطلق عليه اسمها. والخلاف في إبليس هل هو ملك في الأصل وقد مسخه الله شيطاناً، أو ليس في الأصل بملك، وإنما شمله لفظ الملائكة لدخوله فيهم وتعبد به معهم - مشهور عند أهل العلم.

وحجة من قال: إن أصله ليس من الملائكة أمران:

أحدهما: عصمة الملائكة من ارتكاب الكفر الذي ارتكبه إبليس كما قال تعالى عنهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِ رَسُولِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [٧] [الأنبياء]. وثانيهما: أن الله صرح في هذه الآية الكريمة بأنه من الجن، والجن غير الملائكة. قالوا: وهو نص قرآني في محل النزاع. واحتج من قال: إنه ملك في الأصل بما تكرر في الآيات القرآنية من قوله: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [٣٠] [إِلَّا إِبْلِيسَ] [الحجر: ٣٠ - ٣١] قالوا: فأخراجه بالاستثناء من لفظ الملائكة دليل على أنه منهم، وقال بعضهم: والظواهر إذا كثرت صارت بمنزلة النص، ومن المعلوم أن الأصل في الاستثناء الاتصال لا الانقطاع. قالوا: ولا حجة لمن خالفنا في قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ لأن الجن قبيلة من الملائكة، خلقوا من بين الملائكة من نار السموم كما روي عن ابن عباس. والعرب تعرف في لغتها إطلاق الجن على الملائكة؛ ومنه قول الأعشى في سليمان بن داود:

وسخر من جن الملائك تسعة قياماً لديه يعملون بلا أجر

قالوا: ومن إطلاق الجن على الملائكة قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَبْأً﴾ [الصفات: ١٥٨] عند من يقول: بأن المراد بذلك قولهم: الملائكة بنات الله؛ تفريق عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله علواً كبيراً! ومن جزم بأنه ليس من الملائكة في الأصل لظاهر هذه الآية الكريمة: الحسن البصري، ونصره الزمخشري في تفسيره. وقال القرطبي في تفسير سورة «البقرة»: إن كونه من الملائكة هو قول الجمهور: ابن عباس، وابن مسعود، وابن جريج، وابن المسيب، وقاتادة وغيرهم. وهو اختيار الشيخ أبي الحسن، ورجحه الطبري، وهو ظاهر قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾، اه، وما يذكره المفسرون عن جماعة من السلف كابن عباس وغيره من أنه كان من أشرف الملائكة، ومن خزان الجنة، وأنه كان يدبر أمر السماء الدنيا، وأنه كان اسمه عزازيل - كله من الإسرائيليات التي لا معول عليها.

وأظهر الحجج في المسألة حجة من قال: إنه غير ملك؛ لأن قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ﴾... الآية، وهو أظهر شيء في الموضوع من نصوص الوحي، والعلم عند الله تعالى.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أي خرج عن طاعة أمر ربه. والفسق في اللغة: الخروج؛ ومنه قول رؤبة بن العجاج:

يهوين في نجد وغوراً غائراً فواسقاً عن قصدها جوائرا

وهذا المعنى ظاهر لا إشكال فيه فلا حاجة لقول من قال: إن «عن» سببية، كقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ﴾ [هود: ٥٣] أي بسببه، وأن المعنى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، أي بسبب أمره حيث لم يمثل، ولا غير ذلك من الأقوال.

قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِكُمْ وَأَنْتُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ لِقَائِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

الهمزة في قوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ﴾ للإنكار والتوبيخ، ولا شك أن فيها معنى الاستبعاد كما تقدم نظيره مراراً، أي أبعد ما ظهر منه من الفسق والعصيان، وشدة العداوة لكم ولأبويكم آدم وحواء - تتخذونه وذريته أولياء من دون خالقكم جل وعلا! بش للظالمين بدلاً من الله إبليس وذريته! وقال: ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾؛ لأنهم اعتاضوا الباطل من الحق، وجعلوا مكان ولايتهم لله ولايتهم لإبليس وذريته. وهذا من أشنع الظلم الذي هو في اللغة: وضع الشيء في غير موضعه؛ كما تقدم مراراً. والمخصوص بالذم في الآية محذوف دل عليه المقام، وتقديره: بش البذل من الله إبليس وذريته. وفاعل «بش» ضمير محذوف يفسره التمييز الذي هو ﴿بَدَلًا﴾ على حد قوله له في الخلاصة:

ويرفعان مضمراً يفسره مميز كنعم قوماً معشره

والبدل: العوض من الشيء، وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من عداوة الشيطان لبني آدم جاء مبيناً في آيات أخر كقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]. وكذلك الأبوان، كما قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَقَادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِزْقِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه].

وقد بين في غير هذا الموضع أن الذين اتخذوا الشياطين أولياء بدلاً من ولاية الله يحسبون أنهم في ذلك على حق؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْمِلْهُمْ فَيَفْهَمُهُمْ فَتَشْقَى﴾ [الأعراف: ٣٠]. وبين في مواضع أخر أن الكفار أولياء الشيطان؛ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقُولُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقِيلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾... الآية [النساء: ٧٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاءُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾... الآية [البقرة: ٢٥٧]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَذُرِّيَّتَهُ﴾ دليل على أن للشيطان ذرية، فادعاء أنه لا ذرية له مناقض لهذه الآية مناقضة صريحة كما ترى. وكل ما ناقض صريح القرآن فهو باطل بلا شك! ولكن طريقة وجود نسله هل هي عن تزويج أو غيره. لا دليل عليها من نص صريح، والعلماء مختلفون فيها. ومن أراد الوقوف على أقوالهم في المسألة فليرجع إلى الأصل..

قوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدُكُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝٥١﴾، التحقيق في معنى هذه الآية الكريمة أن الله يقول: ما أشهدت إبليس وجنوده؛ أي ما أحضرتهم خلق السموات والأرض، فأستعين بهم على خلقها ولا خلق أنفسهم، أي ولا أشهدتهم خلق أنفسهم، أي ما أشهدت بعضهم خلق بعضهم فأستعين به على خلقه، بل تفردت بخلق جميع ذلك بغير معين ولا ظهير! فكيف تصرفون لهم حقي وتتخذونهم أولياء من دوني وأنا خالق كل شيء!.

وهذا المعنى الذي أشارت له الآية من أن الخالق هو المعبود وحده جاء مبيناً في آيات كثيرة، وقد قدمنا كثيراً منها في مواضع متعددة كقوله: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٧﴾ [النحل] وقوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْفَأَلِقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝١٦﴾ [الرعد: ١٦]، وقوله: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝١١﴾ [لقمان]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ۚ... الآية [فاطر: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ۚ الآية [الأحقاف: ٤]، إلى غير ذلك من الآيات كما قدمناه مراراً، وقال بعض العلماء: ﴿وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي ما أشهدتهم خلق أنفسهم بل خلقتهم على ما أردت وكيف شئت.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ فيه الإظهار في محل الإضمار؛ لأن الأصل الظاهر وما كنت متخذهم عضداً كقوله: ﴿مَا أَشْهَدُكُمْ﴾ والنكته البلاغية في الإظهار في محل الإضمار هي ذمه تعالى لهم بلفظ الإضلال. وقوله: ﴿عَضُدًا﴾ أي أعواناً.

وفي هذه الآية الكريمة التنبيه على أن الضالين المضلين لا تنبغي الاستعانة بهم، والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب. والمعنى المذكور أشير له في مواضع آخر كقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ يَمَا أَتَمَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ۝٧﴾ [القصاص] والظهير: المعين. والمضلون: الذين يضلون أتباعهم عن طريق الحق. وقد قدمنا معنى الضلال وإطلاقاته في القرآن بشواهد العربية.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ۝٥٢﴾. أي واذكر يوم يقول الله - جل وعلا - للمشركين الذين كانوا يشركون معه الآلهة والأنناد من الأصنام وغيرها من المعبودات من دون الله توبيخاً لهم وتقريعاً: نادوا شركائي الذين زعمتم أنهم شركاء معي، فالمفعولان محذوفان؛ أي زعمتموهم شركاء لي كذباً وافتراء؛ أي ادعوهم واستغيثوا بهم لينصروكم ويمنعوكم من عذابي، فدعوههم فلم يستجيبوا لهم، أي فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم. وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: من عدم استجابتهم لهم إذا دعوه يوم القيامة جاء موضحاً في مواضع آخر كقوله تعالى في سورة «القصاص»: ﴿وَيَوْمَ يَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ

تَزْعُمُونَ ﴿١٦﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿١٧﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿١٨﴾ [القصص]، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَجُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْعٍ﴾ ﴿١٩﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكَكُمْ وَلَا يَنْصُرُكُمْ مِثْلُ خَيْرِ ﴿٢٠﴾ [فاطر]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ ﴿٢١﴾ وَإِذَا حُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٢٢﴾ [الأحقاف]، وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ ﴿٢٣﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٢٤﴾ [مريم]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَزَكَّيْنًا مَا حَوَّلْنَكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ [الأنعام]، والآيات في تبرئهم منهم يوم القيامة، وعدم استجابتهم لهم كثيرة جداً. وخطبة الشيطان المذكورة في سورة إبراهيم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَا فُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ وَعَلَيْكُمْ وَعَدَ الْخَلْقِ وَعَدْتُكُمْ فَلَخَقْتُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢] من قبيل ذلك المعنى المذكور في الآيات المذكورة.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ اختلف العلماء فيه من ثلاث جهات: الأولى: في المراد بالظرف الذي هو «بين». والثانية: في مرجع الضمير. والثالثة: في المراد بالموبق، وسنذكر هنا أقوالهم، وما يظهر لنا رجحانه منها - إن شاء الله تعالى -.

أما الموبق فقيل: المهلك. وقيل: واد في جهنم. وقيل: الموعد. قال صاحب الدر المنثور: أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ يقول: مهلكاً. وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿مَوْبِقًا﴾ يقول: مهلكاً. قال أيضاً: واد في جهنم. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن الجريز وابن المنذر وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن أنس في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ قال: واد في جهنم من قيع ودم. وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عمر في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ قال: هو واد عميق في النار، فرق الله به يوم القيامة بين أهل الهدى والضلالة. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عمرو البكالي قال: الموبق الذي ذكر الله: واد في النار، بعيد القعر، يفرق الله به يوم القيامة بين أهل الإسلام وبين من سواهم من الناس. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿مَوْبِقًا﴾ قال: هو نهر يسيل ناراً على حافتيه حيات أمثال البغال الدهم، فإذا ثارت إليهم لتأخذهم استغاثوا بالاقترحام في النار منها، وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب قال: إن في النار أربعة أودية يعذب الله بها أهلها: غليظ، وموبق، وأثام، وغى. انتهى كلام صاحب الدر المنثور.

ونقل ابن جرير عن بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة، أن الموبق الموعد، واستدل لذلك بقول الشاعر:

وحاد شروري والستار فلم يدع تعاراً له والواديين بموبق

يعني بموعد. والتحقيق أن الموبق المهلك، من قولهم: وبق يبق، كوعد يعد: إذا هلك. وفيه لغة أخرى وهي بوق يوبق كوجل يوجل. ولغة ثالثة أيضاً وهي: وبق يبق كورث يرث. ومعنى كل ذلك: الهلاك. والمصدر من بوق - بالفتح - البوق على القياس، والبوق. ومن بوق - بالكسر - البوق بفتحيتين على القياس. وأوبقته ذنوبه: أهلكته، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقَهُنَّ يَمَّا كَسَبُوا﴾ [الشورى: ٣٤] أي يهلكهن، ومنه الحديث: «فموبق نفسه أو بائعها فمعتقها» وحديث «السبع الموبقات» أي المهلكات، ومن هذا المعنى قول زهير:

ومن يشتري حسن الثناء بماله يصن عرضه عن كل شنعاء موبق

وقول من قال: إن الموبق العداوة، وقول من قال: إنه المجلس - كلاهما ظاهر السقوط. والتحقيق فيه هو ما قدمنا.

وأما أقوال العلماء في المراد بلفظة «بين» فعلى قول الحسن ومن وافقه: أن الموبق العداوة، فالمعنى واضح؛ أي وجعلنا بينهم عداوة؛ كقوله: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾... الآية [الزخرف: ٦٧]، وقوله: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَمَنَّ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾... الآية [العنكبوت: ٢٥]، إلى غير ذلك من الآيات. ولكن تفسير الموبق بالعداوة بعيد كما قدمنا.

وقال بعض العلماء: المراد بالبين في الآية: الوصل؛ أي وجعلنا تواصلهم في الدنيا ملكاً لهم يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَبَّاهُمْ وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة] أي المواصلات التي كانت بينهم في الدنيا. وكما قال: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مریم]، وكما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَمَنَّ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥] ونحو ذلك من الآيات. وقال بعض العلماء: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَّوْبِقًا﴾: جعلنا الهلاك بينهم؛ لأن كلا منهم معين على هلاك الآخر لتعاونهم على الكفر والمعاصي فهم شركاء في العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَن يَفْعَلَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف]، وقوله: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] ومعنى هذا القول مروى عن ابن زيد. وقال بعض العلماء: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَّوْبِقًا﴾؛ أي بين المؤمنين والكافرين موبقاً، أي مهلكاً يفصل بينهم، فالداخل فيه، في هلاك، والخارج عنه في عافية. وأظهر الأقوال عندي وأجراها على ظاهر القرآن، أن المعنى: وجعلنا بين الكفار

وبين من كانوا يعبدونهم ويشركونهم مع الله موبقاً؛ أي مهلكاً، لأن الجميع يحيط بهم الهلاك من كل جانب، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، وقوله: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ قَوْفِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. وقال ابن الأعرابي: كل شيء حاجز بين شيئين يسمى موبقاً، نقله عنه القرطبي.

وبما ذكرنا تعلم أن الضمير في قوله: «بينهم» قيل: راجع إلى أهل النار. وقيل: راجع إلى أهل الجنة وأهل النار معاً. وقيل: راجع للمشركين وما كانوا يعبدونه من دون الله. وهذا هو أظهرها لدلالة ظاهر السياق عليه؛ لأن الله يقول: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَذَعَبُوهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ ثم قال مخبراً عن العابدين والمعبودين: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ أي مهلكاً يفصل بينهم ويحيط بهم. وهذا المعنى كقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَرَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨]؛ أي فرقنا بينهم.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ قرأه عامة السبعة ما عدا حمزة بالياء المثناة التحتية. وقرأه حمزة «نقول» بنون العظمة، وعلى قراءة الجمهور فالفاعل ضمير يعود إلى الله، أي يقول هو؛ أي الله.

قوله تعالى: ﴿وَرَبَّاءَ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [٥٣].

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن المجرمين يرون النار يوم القيامة، ويظنون أنهم موافعوها، أي مخالطوها وواقعون فيها، والظن في هذه الآية بمعنى اليقين؛ لأنهم أبصروا الحقائق وشاهدوا الواقع. وقد بين تعالى في غير هذا الموضع أنهم موقنون بالواقع؛ كقوله عنهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [١٧] [السجدة]، وكقوله: ﴿فَكَفَفْنَا عَنْكَ غِلَظَافَكَ فَصَرَكَ الْيَوْمَ حَيْدًا﴾ [ق: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ ... الآية [مريم: ٣٨]. ومن إطلاق الظن على اليقين قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [١٥] الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ [١٦] [البقرة] أي يوقنون أنهم ملاقوا ربهم. وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهَ كَمْ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ يَادِّينَ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَرَفَ كِتَابَهُ بِسَمِينِهِ فَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِي﴾ [٨] إِنْ ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِي [الحاقة] فالظن في هذه الآيات كلها بمعنى اليقين. والعرب تطلق الظن على اليقين وعلى الشك. ومن إطلاقه على اليقين في كلام العرب قول دريد بن الصمة:

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج
سراتهم في الفارسي المسرد

وقول عميرة بن طارق:

بأن تغتزوا قومي وأقعد فيكم وأجعل مني الظن غيباً مرجحاً.

وقد ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن المجرمين يرون النار، وبين في موضع آخر أنها هي تراهم أيضاً، وهو قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ (١١) إذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَّانٍ يُبْعِدُ سِعُورًا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا (١٢) [الفرقان]. وما جرى على السنة العلماء من أن الظن جل الاعتقاد اصطلاح للأصوليين والفقهاء. ولا مشاحة في الاصطلاح. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرَفًا﴾ المصرف: المعدل، أي ولم يجدوا عن النار مكاناً ينصرفون إليه ويعدلون إليه، ليتخذوه ملجأً ومعتصماً ينجون فيه من عذاب الله. ومن إطلاق المصرف على المعدل بمعنى مكان الانصراف للاعتصام بذلك المكان، قول أبي كبير الهذلي:

أزهير هل عن شية من مصرف أم لا خلود لباذل متكلف

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ من رأى البصرية، فهي تتعدى لمفعول واحد، والتعبير بالماضي عن المستقبل نظراً لتحقيق الوقوع، فكان ذلك لتحقيق وقوعه كالواقع بالفعل، كما تقدم مراراً. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْئًا جَدَلًا﴾ (٥٤).

قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي رددنا وكثرنا تصريف الأمثال بعبارات مختلفة، وأساليب متنوعة في هذا القرآن للناس؛ ليهتدوا إلى الحق، ويتعظوا؛ فعارضوا بالجدل والخصومة. والمثل: هو القول الغريب السائر في الآفاق، وضرب الأمثال كثير في القرآن جداً كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦] ومن أمثلة ضرب المثل فيه: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَجِوْا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ... الآية [السج: ٧٣]، وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنَكَبُوتِ أَخَذَتْ يَتِيمًا وَإِنَّ أَوْهَرَ الْبُيُوتِ لَيَبِيتُ الْعَنَكَبُوتُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٥١) [العنكبوت]، وقوله: ﴿فَمَثَلُ كَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِيلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٧٦) مَثَلًا الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الآية [الأعراف: ١٧٦، ١٧٧]، وكقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَبِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ... الآية [الجمعة: ٥]، وقوله: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَا أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ... الآية، وقوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) [النحل]، وقوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي

هُوَ وَمَنْ يَأْمُرْ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦١﴾ [النحل]، وقوله: ﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾... الآية [الروم: ٢٨]. والآيات بمثل هذا كثيرة جداً، وفي هذه الأمثال وأشباهها في القرآن عبر ومواعظ وزواجر عظيمة جداً، لا لبس في الحق معها؛ إلا أنها لا يعقل معانيها إلا أهل العلم كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْلَمُهَا إِلَّا الْمَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ [العنكبوت]. ومن حكم ضرب المثل أن يتذكر الناس كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْآمِلِينَ أَنْ تُنْفِرَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَكُونُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

وقد بين تعالى في مواضع آخر أن الأمثال مع إيضاحها للحق يهدي بها الله قوماً، ويضل بها قوماً آخرين؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوَّهًا فَإِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا فَعِلْمُوكَ أَنَّ الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٦٣﴾ [البقرة]، وأشار إلى هذا المعنى في سورة «الرعد»؛ لأنه لما ضرب المثل بقوله: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثَلٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْمَثَلُ لِقَوْمٍ كَذَبُوا بِالْحَقِّ وَالْبَاطِلُ قَامًا وَالزُّبْدُ يَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْمَثَلُ لِقَوْمٍ كَذَبُوا بِالْحَقِّ﴾ ﴿٦٤﴾ [الرعد]. ولا شك أن الذين استجابوا لربهم الْحَقِّ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِمْ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لربهم هم العقلاء الذين عقلوا معنى الأمثال، وانتفعوا بما تضمنت من بيان الحق، وأن الذين لم يستجيبوا له هم الذين لم يعقلوها، ولم يعرفوا ما أوضحته من الحقائق. فالفريق الأول: هم الذين قال الله فيهم ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾، والفريق الثاني: هم الذين قال فيهم: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ وقال فيهم: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا﴾ قال بعض العلماء: مفعول «صرفنا» محذوف، تقديره: البيّنات والعبر. وعلى هذا «من» لا ابتداء الغاية؛ أي ولقد صرفنا الآيات والعبر من أنواع ضرب المثل للناس في هذا القرآن ليذكروا، فقابلوا ذلك بالجدال والخصام؛ ولذا قال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ وهذا هو الذي استظهره أبو حيان في البحر، ثم قال: وقال ابن عطية: يجوز أن تكون «من» زائدة للتوكيد؛ فالتقدير: ولقد صرفنا كل مثل؛ فيكون مفعول «صرفنا»: «كل مثل» وهذا التخريج هو على مذهب الكوفيين والأخفش، لا على مذهب جمهور البصريين. انتهى الغرض من كلام صاحب البحر المحيط. وقال الزمخشري: ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه اهـ. وضابط ضرب المثل الذي يرجع إليه كل معانيه التي يفسر بها: هو إيضاح معنى النظر بذكر نظيره؛ لأن النظر يعرف بنظيره. وهذا المعنى الذي ذكره في هذه الآية الكريمة جاء مذكوراً في آيات آخر كقوله في «الإسراء»: ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي

وقوله: ﴿أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أي أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل جدلاً كما تقدم. وصيغة التفضيل إذا أضيفت إلى نكرة كما في هذه الآية، أو جردت من الإضافة والتعريف بالألف واللام لزم إفرادها وتذكيرها كما عقده في الخلاصة بقوله:

وإن لمنكور يصف أو جرداً ألزم تذكيراً وأن يوحداً

وقال ابن جرير رحمته الله في تفسير هذه الآية الكريمة مبيناً بعض الآيات المبينة للمراد بجدل الإنسان في الآية الكريمة، بعد أن ساق سنده إلى ابن زيد في قوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ قال: الجدل الخصومة، خصومة القوم لأنبيائهم وردهم عليهم ما جاؤوا به. وقرأ: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، وقرأ: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وقرأ: «حتى توفي» الآية، ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَائِسٍ فَلَمَّسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا أَلَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [٧] [الأنعام]، وقرأ: ﴿وَلَوْ فَدَحْنَاهُ عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ أَسْمَاءَ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ [١٤] لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ [١٥] [الحجر] انتهى من تفسير الطبري. ولا شك أن هذه الآيات التي ذكر عن ابن زيد أنها مفسرة لجدل الإنسان المذكور في الآية أنها كذلك، كما قدمنا أن ذلك هو ظاهر السياق وسبب النزول، والآيات الدالة على مثل ذلك كثيرة في القرآن العظيم. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥﴾.

في هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير معروفان عند أهل العلم، وكلاهما تدل على مقتضاه آيات من كتاب الله تعالى، وأحد الوجهين أظهر عندي من الآخر.

الأول منهما: أن معنى الآية: وما منع الناس من الإيمان والاستغفار إذ جاءتهم الرسل بالبينات الواضحات، إلا ما سبق في علمنا: من أنهم لا يؤمنون، بل يستمرون على كفرهم حتى تأتيتهم سنة الأولين، أي سنتنا في إهلاكهم بالعذاب المستأصل. أو يأتيتهم العذاب قبلاً. والظاهر أن «أو» في هذه الآية مانعة خلو، فهي تجوز الجمع لإمكان إهلاكهم بالعذاب المستأصل في الدنيا كسنة الله في الأولين من الكفار، وإتيان العذاب إياهم يوم القيامة قبلاً. وعلى هذا القول فالآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة جداً كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [١٤] [النحل]، وقوله: ﴿وَمَا تَعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١٠١]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [٣٧] [النحل]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِهِمْ فَلَمْ يَهْدِهِمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١]. والآيات في مثل هذا المعنى كثيرة.

القول الثاني: أن في الآية الكريمة مضافاً محذوفاً، تقديره: وما منع الناس من الإيمان والاستغفار إلا طلبهم أن تأتيهم سنة الأولين، أو يأتيهم العذاب قبلاً.

والآيات الدالة على طلبهم الهلاك والعذاب عناداً وتعنتاً كثيرة جداً، كقوله عن قوم شعيب: ﴿تَأْسِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء]، وكقوله عن قوم هود: ﴿قَالُوا إِنَّمَا إِنَّا فَعَلْنَا مَا يَعْتَدُونَ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف]، وكقوله عن قوم صالح: ﴿وَقَالُوا يَنْصَلِحُ النَّاسُ بِآثِنَا إِنَّا كُنَّا صَالِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وكقوله عن قوم لوط: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، وكقوله عن قوم نوح: ﴿قَالُوا يَنْشُؤُ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثُرْتَ جِدْلَنَا فَإِنَّا بِمَا نَعْتَدُكَ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود].

فهذه الآيات وأمثالها في القرآن، ذكر الله فيها شيئاً من سنة الأولين: أنهم يطلبون تعجيل العذاب عناداً وتعنتاً. وبين تعالى أنه أهلك جميعهم بعذاب مستأصل، كإهلاك قوم نوح بالطوفان، وقوم صالح بالصيحة، وقوم شعيب بعذاب يوم الظلة، وقوم هود بالريح العقيم، وقوم لوط بجعل عالي قراهم سافلها، وإرسال حجارة السجيل عليهم، كما هو مفصل في الآيات القرآنية.

وبين في آيات كثيرة أن كفار هذه الأمة كمشركي قريش سألوا العذاب كما سأل من قبلهم كقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا فَاهْبِطْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال]، وقوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْلَ قَبْلِ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص] وأصل القط: كتاب الملك الذي فيه الجائزة، وصار يطلق على النصيب. فمعنى: ﴿عَجِّلْ لَنَا قِطْلًا﴾ [ص: ١٦] أي نصيبنا المقدر لنا من العذاب الذي نترجم وقوعه بنا إن لم نصدقك ونؤمن بك، كالنصيب الذي يقدره الملك في القط الذي هو كتاب الجائزة، ومنه قول الأعشى:

ولا الملك النعمان يوم لقيته
بغبطته يعطي القطوط ويأفق

وقوله: «يأفق» أي يفضل بعضاً على بعض في العطاء. والآيات بمثل ذلك كثيرة. والقول الأول أظهر عندي؛ لأن ما لا تقدير فيه أولى مما فيه تقدير إلا بحجة الرجوع إليها تثبت المحذوف المقدر. والله تعالى أعلم. وقد ذكرنا في كتابنا (دفع إيهاام الاضطراب عن آيات الكتاب) وجه الجمع بين قوله تعالى هنا: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾... الآية وبين قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء] بما حاصله باختصار أن المانع المذكور في سورة «الإسراء» مانع عادي يجوز تخلفه؛ لأن استغرابهم بعث رسول من البشر مانع عادي يجوز تخلفه لإمكان أن يستغرب الكافر بعث رسول من البشر ثم يؤمن به مع ذلك الاستغراب؛ فالحصر في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء] حصر

في المانع العادي. وأما الحصر في قوله هنا: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥﴾ فهو حصر في المانع الحقيقي؛ لأن إرادته - جل وعلا - عدم إيمانهم، وحكمه عليهم بذلك، وقضاه به مانع حقيقي من وقوع غيره.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ قرأه الكوفيون: وهم عاصم وحمزة والكسائي ﴿قُبُلًا﴾ بضم القاف والباء. وقرأه الأربعة الباقون من السبعة: وهم نافع وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر ﴿قُبُلًا﴾ بكسر القاف وفتح الباء. أما على قراءة الكوفيين فقوله: ﴿قُبُلًا﴾ بضميتين جمع قبيل. والفعل إذا كان اسماً يجمع على فعل كسرير وسرر، وطريق وطرق، وحصير وحصر، كما أشار إلى ذلك في الخلاصة بقوله: وفعل لاسم رباعي بمد قد زيد قبل لام إعلالاً فقد ما لم يضاعف في الأعم ذو الألف... إلخ.

وعلى هذا فمعنى الآية: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾، أي أنواعاً مختلفة يتلو بعضها بعضاً. وعلى قراءة من قرؤوا «قبلاً» كعنب، فمعناه عياناً، أي أو يأتيهم العذاب عياناً. وقال مجاهد رحمته الله: «قبلاً» أي فجأة. والتحقيق: أن معناه عياناً. وأصله من المقابلة؛ لأن المتقابلين يعاين كل واحد منهما الآخر. وذكر أبو عبيد: أن معنى القراءتين واحد، وأن معناه عياناً، وأصله من المقابلة. وانتصاب «قبلاً» على الحال على كلتا القراءتين. وهو على القولين المذكورين في معنى «قبلاً» إن قدرنا أنه بمعنى عياناً، فهو مصدر منكر حال كما قدمنا مراراً. وعلى أنه جمع قبيل: فهو اسم جامد مؤول بمشتق؛ لأنه في تأويل: أو يأتيهم العذاب في حال كونه أنواعاً وضروباً مختلفة. والمصدر المنسبك من «أن» وصلتها في قوله: ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ في محل نصب؛ لأنه مفعول «منع» الثاني، والمنسبك من «أن» وصلتها في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ في محل رفع؛ لأنه فاعل «منع»؛ لأن الاستثناء مفرغ، وما قبل «إلا» عامل فيما بعدها، فصار التقدير: منع الناس الإيمان إتيان سنة الأولين، على حد قوله في الخلاصة:

وإن يفرغ سابق إلا لما بعد يكن كما لو إلا عدما

والاستغفار في قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ هو طلب المغفرة منه جل وعلا لجميع الذنوب السالفة بالإجابة إليه، والندم على ما فات، والعزم المصمم على عدم العود إلى الذنب.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾، ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه ما يرسل الرسل إلا مبشرين من أطاعهم بالجنة، ومنذرين من عصاهم بالنار، وكرر هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ مَأْمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٨٨﴾ [الأنعام]. وقد أوضحنا معنى البشارة والإنذار في أول هذه السورة الكريمة في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَنُنَزِّلَ بِأَسَا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ...﴾ الآية، وانتصاب قوله: ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ على الحال؛ أي ما نرسلهم إلا في حال كونهم مبشرين ومنذرين.

قوله تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾، ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الذين كفروا يجادلون بالباطل، أي يخاصمون الرسل بالباطل، كقولهم في الرسول: ساحر، شاعر، كاهن. وكقولهم في القرآن: أساطير الأولين، سحر، شعر، كهانة. وكسؤالهم عن أصحاب الكهف، وذوي القرنين. وسؤالهم عن الروح عناداً. وتعبثاً، ليبطلوا الحق بجдалهم وخصامهم بالباطل، فالجدال: المخاصمة. ومفعول «يجادل» محذوف دل ما قبله عليه؛ لأن قوله: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ﴾ يدل على أن الذين يجادلهم الكفار بالباطل هم المرسلون المذكورون آنفاً، وحذف الفضلة إذا دل المقام عليها جائز، وواقع كثيراً في القرآن وفي كلام العرب؛ كما عقده في الخلاصة بقوله:

وحذف فضلة أجز إن لم يضر كحذف ما سيق جواباً أو حصر

والباطل: ضد الحق، وكل شيء زائل مضمحل تسميه العرب: باطلاً، ومنه قول

ليد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
ويجمع الباطل كثيراً على أباطيل على غير القياس، فيدخل في قول ابن مالك في الخلاصة:

وحائد عن القياس كل ما خالف في البابين حكماً رسماً
ومنه قول كعب بن زهير:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً وما مواعيذه إلا الأباطيل

ويجمع أيضاً على البواطيل قياساً. والحق: ضد الباطل. وكل شيء ثابت غير زائل ولا مضمحل تسميه العرب حقاً، وقوله تعالى: ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ أي ليبطلوه ويزيلوه به، وأصله من إدحاض القدم، وهو إزلاقها وإزالتها عن موضعها. تقول العرب: دحضت رجله: إذا زلقت، وأدحضها الله، أزلقها، ودحضت حجته إذا بطلت، وأدحضها الله أبطلها، والمكان الدحض: هو الذي تزل فيه الأقدام؟ ومنه قول طرفة:

أبا منذر رمت الوفاء فهبته وجدت كما حاد البعير عن الدحض

وهذا الذي ذكره هنا من مجادلة الكفار للرسل بالباطل أوضحه في مواضع أخر كقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَحْتُهُمْ دَاخِصَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾... الآية [الشورى: ١٦]. وقوله - جل وعلا -: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨] وإرادتهم إطفاء نور الله بأفواههم، إنما هي بخصامهم وجدالهم بالباطل.

وقد بين تعالى في مواضع أخر أن ما أَرادَه الكفار من إدحاض الحق بالباطل لا

يكون، وأنهم لا يصلون إلى ما أرادوا، بل الذي سيكون هو عكس ما أرادوه فيحق الحق ويبطل الباطل، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]؛ وكقوله: ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُسَمِّعَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، وقوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ مَثَلٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧] [الرعد: ١٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الحق سيظهر ويعلو، وأن الباطل سيضمحل ويزهق ويذهب جفاء. وذلك هو نقيض ما كان يريده الكفار من إبطال الحق وإدحاضه بالباطل عن طريق الخصام والجدال.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا عَائِيَّ وَمَا أَنْذَرُوا هُزُؤًا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار اتخذوا آياته التي أنزلها على رسوله، وإنذاره لهم هُزُؤًا، أي سخرية واستخفافاً، والمصدر بمعنى اسم المفعول، أي اتخذوها مهزوءاً بها مستخفاً بها كقوله: ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

وهذا المعنى المذكور هنا جاء مبيناً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُؤًا﴾ [الجاثية: ٩]، وكقوله تعالى: ﴿يَحْشَرُهُ عَلَى الْوَعْدِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَقَّقَ بِالذِّبِّ سَخَرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ٦٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوشُ وَلَكَمُبُّ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرُسُلِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [٥٦] لَا تَعْتَدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ... الآية [التوبة: ٦٥ - ٦٦]، إلى غير ذلك من الآيات. و«ما» في قوله: «ما أنذروا» مصدرية، كما قررنا، وعليه فلا ضمير محذوف. وقيل: هي موصولة والعائد محذوف. تقديره: وما أنذروا به هُزُؤًا. وحذف العائد المجرور بحرف إنما يطرد بالشروط التي ذكرها في الخلاصة بقوله:

كذا الذي جر بما الموصول جر كمر بالذي مررت فهو بر

وفي قوله: «هُزُؤًا» ثلاث قراءات سبعة، قرأه حمزة بإسكان الزاي في الوصل. وبقية السبعة بضم الزاي وتحقيق الهمزة. إلا حفصاً عن عاصم فإنه يبدل الهمزة واواً، وذلك مروى عن حمزة في الوقف.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَهُ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه لا أحد أظلم؛ أي أكثر ظلماً لنفسه

ممن ذكر؛ أي وعظ بآيات ربه، وهي هذا القرآن العظيم ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي تولى وصد عنها. وإنما قلنا: إن المراد بالآيات هذا القرآن العظيم لقريئة تذكير الضمير العائد إلى الآيات في قوله: ﴿أَن يَقْفَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥]، أي القرآن المعبر عنه بالآيات، ويحتمل شمول الآيات للقرآن وغيره، ويكون الضمير في قوله: ﴿أَن يَقْفَهُوهُ﴾ أي ما ذكر من الآيات، كقول رؤية:

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه في الجلد توليع البهق

ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨] أي ذلك الذي ذكر من الفارض والبكر. ونظيره من كلام العرب قول ابن الزبعرى:

إن للخير وللشر مدى وكلا ذلك وجه وقبل

أي كلا ذلك المذكور من خير وشر. وقد قدمنا إيضاح هذا، وقوله: ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي من المعاصي والكفر، مع أن الله لم ينسه بل هو محصيه عليه ومجازيه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مریم: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥١]، وقال بعض العلماء في قوله: ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي تركه عمداً ولم يتب منه. وبه صدر القرطبي رحمه الله تعالى. وما ذكره في هذه الآية الكريمة من أن الإعراض عن التذكرة بآيات الله من أعظم الظلم، قد زاد عليه في مواضع آخر بيان أشياء من النتائج السيئة، والعواقب الوخيمة الناشئة عن الإعراض عن التذكرة، فمن نتائجه السيئة: ما ذكره هنا من أن صاحبه من أعظم الناس ظلماً. ومن نتائجه جعل الأكنة على القلوب حتى لا تفقه الحق، وعدم الاهتداء أبداً كما قال هنا مبيناً بعض ما ينشأ عنه من العواقب السيئة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ ومنها انتقام الله - جل وعلا - من المعرض عن التذكرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ [السجدة: ٣٣]، ومنها كون المعرض كالحمار، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَمْ يَنْتَبِهُوا مِنَ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ﴾ [٣٤] كَانَهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَفِرَّةٌ ﴿٥٥﴾... الآية [المدثر]. ومنها الإنذار بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [٥٦]... الآية [فصلت]. ومنها المعيشة الضنك والعمى، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [٥٧] [طه]. ومنها سلكه العذاب الصعد، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧] ومنها تقييض القراء من الشياطين، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ

ذَكَرَ الرَّحْمَنُ يُقِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣١﴾ [الزخرف] إلى غير ذلك من النتائج السيئة، والعواقب الوخيمة، الناشئة عن الإعراض عن التذكير بآيات الله - جل وعلا - .

وقد أمر تعالى في موضع آخر بالإعراض عن المتولي عن ذكره، القاصر نظره على الحياة الدنيا، وبين أن ذلك هو مبلغه من العلم، فلا علم عنده بما ينفعه في معاده، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴿[النجم: ٢٩ - ٣٠]﴾. وقد نهى - جل وعلا - عن طاعة مثل ذلك المتولي عن الذكر الغافل عنه في قوله: ﴿وَلَا تَطْعَمَنْ أَغْفَلًا فَلَبَّ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ كما تقدم إيضاحه.

وقوله في هذه الآية: ﴿مَا قَدَّمْتَ يَدَهُ﴾ أي ما قدم من أعمال الكفر، ونسبة التقديم إلى خصوص اليد؛ لأن اليد أكثر مزاولة للأعمال من غيرها من الأعضاء، فنسبت الأعمال إليها على عادة العرب في كلامهم، وإن كانت الأعمال التي قدمها منها ما ليس باليد كالكفر باللسان والقلب، وغير ذلك من الأعمال التي لا تزاوُل باليد كالزنى. وقد بينا في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) وجه الجمع بين قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ ... الآية وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١] ونحو ذلك من الآيات. وأشهر أوجه الجمع في ذلك وجهان:

أحدهما: أن كل من قال الله فيه: ومن أظلم ممن فعل كذا، لا أحد أظلم من واحد منهم. وإذا فهم متساوون في الظلم لا يفوق بعضهم فيه بعضاً، فلا إشكال في كون كل واحد منهم لا أحد أظلم منه.

وثانيهما: أن صلة الموصول تعين كل واحد في محله؛ وعليه فالمعنى في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾، لا أحد أظلم ممن ذكر فأعرض أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها. وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١]، لا أحد من المفتريين أظلم ممن افتري على الله كذباً، وهكذا والأول أولى؛ لأنه جار على ظاهر القرآن ولا إشكال فيه. وممن اختاره أبو حيان في البحر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه جعل على قلوب الظالمين المعرضين عن آيات الله إذا ذكروا بها، أكنة أي أغطية تغطي قلوبهم فتمنعها من إدراك ما ينفعهم مما ذكروا به. وواحد الأكنة كنان، وهو الغطاء. وأنه جعل في آذانهم وقراً، أي ثقلاً يمنعها من سماع ما ينفعهم من الآيات التي ذكروا بها، وهذا المعنى أوضحه الله تعالى في آيات آخر كقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً﴾ [البقرة: ٧]، وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشْوَةً﴾ ... الآية [الجاثية: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا

يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٥٨﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِهِمْ فِي الْقُرْآنِ وَحَدِّثُوا عَلَى آذَانِهِمْ تُفَرُّوا ﴿٥٩﴾، وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ﴿٦٠﴾﴾ [محمد]، وقوله: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]. والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

فإن قيل: إذا كانوا لا يستطيعون السمع ولا يبصرون ولا يفقهون؛ لأن الله جعل الأكنة المانعة من الفهم على قلوبهم، والوقر الذي هو الثقل المانع من السمع في آذانهم؛ فهم مجبورون. فما وجه تعذيبهم على شيء لا يستطيعون العدول عنه والانصراف إلى غيره؟!

فالجواب: أن الله - جل وعلا - بين في آيات كثيرة من كتابه العظيم أن تلك الموانع التي يجعلها على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، كالختم والطبع والغشاوة والأكنة، ونحو ذلك إنما جعلها عليهم جزاء وفاقاً لما بادروا إليه من الكفر وتكذيب الرسل باختيارهم، فأزاح الله قلوبهم بالطبع والأكنة ونحو ذلك؛ جزاء على كفرهم، فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥] أي بسبب كفرهم، وهو نص قرآني صريح في أن كفرهم السابق هو سبب الطبع على قلوبهم. وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وهو دليل أيضاً واضح على أن سبب إزاحة الله قلوبهم هو زيغهم السابق، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ ... الآية [البقرة: ١٠]، وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَأَى عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الطبع على القلوب ومنعها من فهم ما ينبغ عقاب من الله على الكفر السابق على ذلك.

وهذا الذي ذكرنا هو وجه رد شبهة الجبرية التي يتمسكون بها في هذه الآيات المذكورة وأمثالها في القرآن العظيم، وبهذا الذي قررنا يحصل الجواب أيضاً عن سؤال يظهر لطالب العلم فيما قررنا، وهو أن يقول: قد بينتم في الكلام على الآية التي قبل هذه أن جعل الأكنة على القلوب من نتائج الإعراض عن آيات الله عند التذكير بها، مع أن ظاهر الآية يدل عكس ذلك من أن الإعراض المذكور سببه هو جعل الأكنة على القلوب؛ لأن «إن» من حروف التعليل كما تقرر في الأصول في مسلك الإيماء والتنبيه، كقولك: اقطعه إنه سارق، وعاقبه إنه ظالم، فالمعنى اقطعه لعله سرقته، وعاقبه لعله ظلمه. وكذلك قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسَى مَا قَدَّمَتْ يَدَهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي أعرض عنها لعله جعل الأكنة على قلوبهم؛ لأن الآيات الماضية دلت على أن الطبع الذي يعبر عنه تارة بالطبع، وتارة بالختم، وتارة بالأكنة، ونحو ذلك سببه الأول الإعراض عن آيات الله والكفر بها كما تقدم إيضاحه.

وفي هذه الآية سؤالان معروفان: الأول: أن يقال: ما مفسر الضمير في قوله: ﴿أَنْ يَفْقَهُوْهُ﴾ [الأنعام: ٢٥] وقد قدمنا أن الآيات في قوله: ﴿ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] بتضمين الآيات معنى القرآن، فقوله: ﴿أَنْ يَفْقَهُوْهُ﴾ [الأنعام: ٢٥] أي القرآن المعبر عنه بالآيات كما تقدم إيضاحه قريباً.

السؤال الثاني: أن يقال: ما وجه إفراد الضمير في قوله: ﴿ذُكِّرَ﴾ وقوله: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ وقوله: ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ مع الإتيان بصيغة الجمع في الضمير في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوْهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ مع أن مفسر جميع الضمائر المذكورة واحد، وهو الاسم الموصول في قوله: ﴿وَمَنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾... الآية.

والجواب: هو أن الإفراد باعتبار لفظ «من» والجمع باعتبار معناها؛ وهو كثير في القرآن العظيم. والتحقيق في مثل ذلك جواز مراعاة اللفظ تارة، ومراعاة المعنى تارة أخرى مطلقاً؛ خلافاً لمن زعم أن مراعاة اللفظ بعد مراعاة المعنى لا تصح؛ والدليل على صحة قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُمْ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١] فإنه في هذه الآية الكريمة راعى لفظ «من» أولاً فأفرد الضمير في قوله: ﴿يُؤْمِنُ﴾ وقوله: ﴿يَعْمَلُ﴾ وقوله: ﴿يُدْخِلْهُ﴾ وراعى المعنى في قوله: ﴿خَالِدِينَ﴾ فأتى فيه بصيغة الجمع، ثم راعى اللفظ بعد ذلك في قوله: ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُمْ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١] وقوله: ﴿أَنْ يَفْقَهُوْهُ﴾ [الأنعام: ٢٥].

فيه وفي كل ما يشابهه من الألفاظ وجهان معروفان لعلماء التفسير: أحدهما أن المعنى جعلنا على قلوبهم أكنة لثلاث يفقهوه. وعليه فلا النافية محذوفة دل المقام عليها. وعلى هذا القول هنا اقتصر ابن جرير الطبري. وثانيهما أن المعنى جعلنا على قلوبهم أكنة كراهة أن يفقهوه؛ وعلى هذا فالكلام على تقدير مضاف، وأمثال هذه الآية في القرآن كثيرة. وللعلماء في كلها الوجهان المذكوران كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ الَّتِي كُنْتُمْ تَجْهَلُونَ﴾ [النساء: ١٧٦] أي لثلاث تضلوا، أو كراهة أن تضلوا. وقوله: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلِئِهِمْ﴾ [الحجرات: ٦] أي لثلاث تصيبوا، أو كراهة أن تصيبوا، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن العظيم.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ يَفْقَهُوْهُ﴾ [الأنعام: ٢٥] أي يفهموه. فالفقه: الفهم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] أي يفهمونه، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَسْعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١] أي ما نفهمه. والوقر: الثقل. وقال الجوهري في صحاحه: الوقر - بالفتح، الثقل في الأذن. والوقر - بالكسر - الحمل، يقال جاء يحمل وقره، وأوقر بعيره، وأكثر ما يستعمل الوقر في حمل البغل والحمار، اه. وهذا الذي ذكره الجوهري وغيره جاء به القرآن، قال في ثقل الأذن: ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥] وقال في الحمل: ﴿فَالْحَمَلَتِ وَقْرًا﴾ [الذاريات: ٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَدَعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾. بين في هذه الآية الكريمة أن الذين جعل الله على قلوبهم أكنة تمنعهم أن يفقهوا ما ينفعهم من آيات القرآن التي ذكروا بها لا يهتدون أبداً، فلا ينفع فيهم دعاؤك إياهم إلى الهدى، وهذا المعنى الذي أشار له هنا من أن من أشقاهم الله لا ينفع فيهم التذكير جاء مبيناً في مواضع آخر كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس]، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء] وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذِيرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِرَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ اللَّهُ رِجْسًا عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [يونس]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل].

وهذه الآية وأمثالها في القرآن فيها وجهان معروفان عند العلماء.

أحدهما: أنها في الذين سبق لهم في علم الله أنهم أشقياء، عياداً بالله تعالى.

وثانيهما: أن المراد أنهم كذلك ما داموا متلبسين بالكفر. فإن هداهم الله إلى الإيمان وأنابوا زال ذلك المانع. والأول أظهر والعلم عند الله تعالى؛ والفاء في قوله: ﴿فَلَنْ يَهْتَدُوا﴾ لأن الفعل الذي بعد «لن» لا يصلح أن يكون شرطاً لـ«إن» ونحوها، والجزاء إذا لم يكن صالحاً «لأن» يكون شرطاً لـ«إن» ونحوها - لزم اقترانه بالفاء؛ كما عقده في الخلاصة بقوله:

واقرن بفا حتماً جواباً لو جعل شرطاً لأن أو غيرها لم ينجعل

وقوله في هذه الآية الكريمة: «إذا» جزاء وجواب؛ فدل على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول ﷺ، بمعنى أنهم جعلوا ما يجب أن يكون سبباً للاهتداء سبباً لانتفائه؛ لأن المعنى فلن يهتدوا إذا دعوتهم ذكر هذا المعنى الزمخشري، وتبعه أبو حيان في البحر. وهذا المعنى قد غلط فيه، وغلط فيه خلق لا يحصى كثرة من البلاغيين وغيرهم.

وإيضاح ذلك أن الزمخشري هنا وأبا حيان ظنا أن قوله: ﴿وَإِنْ نَدَعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ شرط وجزاء، وأن الجزاء مرتب على الشرط كترتيب الجزاء على ما هو شرط فيه؛ ولذا ظنا أن الجزاء الذي هو عدم الاهتداء المعبر عنه في الآية بقوله: ﴿فَلَنْ يَهْتَدُوا﴾ مرتب على الشرط الذي هو دعاؤه إياهم المعبر عنه في الآية بقوله: ﴿وَإِنْ نَدَعُهُمْ إِلَى الْهُدَى﴾ المشار إليه أيضاً بقوله: «إذا» فصار دعاؤه إياهم سبب انتفاء اهتدائهم وهذا غلط؛ لأن هذه القضية الشرطية في هذه الآية الكريمة ليست شرطية لزومية، حتى يكون بين شرطها وجزائها ارتباط، بل هي شرطية اتفاقية، والشرطية الاتفاقية لا ارتباط أصلاً بين طرفيها، فليس أحدهما سبباً في الآخر، ولا ملزوماً ولا لازماً له، كما لو قلت: إن كان الإنسان ناطقاً فالفرس صاهل - فلا ربط بين الطرفين؛

لأن الجزاء في الاتفاقية له سبب آخر غير مذكور، كقولك: لو لم يخف الله لم يعصه؛ لأن سبب انتفاء العصيان ليس هو عدم الخوف الذي هو الشرط، بل هو شيء آخر غير مذكور، وهو تعظيم الله - جل وعلا - ومحبة المانعة من معصيته. وكذلك قوله هنا: ﴿فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ سببه الحقيقي غير مذكور معه فليس هو قوله: ﴿وَأِنْ تَدْعُهُمْ﴾ كما ظنه الزمخشري وأبو حيان وغيرهما، بل سببه هو إرادة الله - جل وعلا - انتفاء اهتدائهم على وفق ما سبق في علمه أولاً.

ونظير هذه الآية الكريمة في عدم الارتباط بين طرفي الشرطية قوله تعالى: ﴿قُلْ لَّوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]؛ لأن سبب بروزهم إلى مضاجعهم شيء آخر غير مذكور في الآية، وهو ما سبق في علم الله من أن بروزهم إليها لا محالة واقع، وليس سببه كينونتهم في بيوتهم المذكورة في الآية. وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ...﴾ الآية، إلى غير ذلك من الآيات. وقد أوضحت الفرق بين الشرطية اللزومية والشرطية الاتفاقية في أرجوزتي في المنطق وشرحي لها في قولي:

مقدم الشرطية المتصلة	مهما تكن صحة ذاك التال له
لموجب قد اقتضاها كسبب	فهي اللزومية ثم إن ذهب
موجب الاصطحاب ذا بينهما	فالاتفاقية عند العلما

ومثال الشرطية المتصلة اللزومية قولك: كلما كانت الشمس طالعة كان النهار موجوداً، لظهور التلازم بين الطرفين، ويكفي في ذلك حصول مطلق اللزومية دون التلازم من الطرفين، كقولك: كلما كان الشيء إنساناً كان حيواناً، إذ لا يصدق عكسه.

فلو قلت: كلما كان الشيء حيواناً كان إنساناً لم يصدق؛ لأن اللزوم في أحد الطرفين لا يقتضي الملازمة في كليهما، ومطلق اللزوم تكون به الشرطية لزومية، أما إذا عدم اللزوم من أصله بين طرفيها فهي اتفاقية. ومثالها: كلما كان الإنسان ناطقاً كان الحمار ناهقاً. وبسبب عدم التنبه للفرق بين الشرطية اللزومية والشرطية الاتفاقية ارتبك خلق كثير من النحويين والبلاغيين في الكلام على معنى «لو»؛ لأنهم أرادوا أن يجمعوا في المعنى بين قولك: لو كانت الشمس طالعة لكان النهار موجوداً، وبين قولك: لو لم يخف الله لم يعصه، مع أن الشرط سبب في الجزاء في الأول؛ لأنها شرطية لزومية، ولا ربط بينهما في الثاني لأنها شرطية اتفاقية، ولا شك أن من أراد أن يجمع بين المفترقتين ارتبك، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه غفور، أي كثير المغفرة، وأنه ذو الرحمة يرحم عباده المؤمنين يوم القيامة، ويرحم الخلائق في الدنيا.

وبين في مواضع آخر أن هذه المغفرة شاملة لجميع الذنوب بمشيئته - جل وعلا - إلا الشرك كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقوله: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ يُشْرِكٍ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [البائدة: ٧٢].

وبين في موضع آخر أن رحمته واسعة، وأنه سيكتبها للمتقين وهو قوله: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ ... الآية [الأعراف: ١٥٦].

وبين في مواضع آخر سعة مغفرته ورحمته كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ﴾ [النجم: ٣٢]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]؛ ونحو ذلك من الآيات.

وبين في مواضع آخر أنه مع سعة رحمته ومغفرته شديد العقاب كقوله: ﴿وَلِإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦] وقوله: ﴿غَافِرِ الذُّنُوبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]، وقوله تعالى: ﴿تَتَجَنَّبَا عَنْ عِبَادَتِي أَيُّ أَنَا الْعَفْوَ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٦٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٦﴾ [الحجر]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبْتُمْ لَعَجَلْتُمْ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾. بين في هذه الآية الكريمة أنه لو يؤاخذ الناس بما كسبوا من الذنوب كالكفر والمعاصي لعجل لهم العذاب لشناعة ما يرتكبونه، ولكنه حليم لا يعجل بالعقوبة؛ فهو يمهّل ولا يهمل.

وأوضح هذا المعنى في مواضع آخر كقوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]، وقوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥] وقد قدمنا هذا في سورة «النحل» مستوفى.

قوله تعالى: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيِلًا﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه وإن لم يعجل لهم العذاب في الحال فليس غافلاً عنهم، ولا تاركاً عذابهم، بل هو تعالى جاعل لهم موعداً يعذبهم فيه، لا يتأخر العذاب عنه ولا يتقدم.

وبين هذا في مواضع آخر، كقوله في «النحل»: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ ﴿٦١﴾ [النحل]، وقوله في آخر سورة «فاطر»: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ ﴿٥٥﴾ [فاطر]، وكقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ ﴿١٢١﴾ [إبراهيم]، وكقوله: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ ... الآية [العنكبوت: ٥٣].

وقد دلت آيات كثيرة على أن الله لا يؤخر شيئاً عن وقته الذي عين له ولا يقدمه عليه كقوله: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]، وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ ... الآية [نوح: ٤]، وقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]، وقوله: ﴿لِكُلِّ نَبْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿لَنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾ أي ملجأ يلجؤون إليه فيعتصمون به من ذلك العذاب المجعول له الموعد المذكور. وهو اسم مكان، من وأل يئل وألاً وؤلاً بمعنى لجأ. ومعلوم في فن الصرف أن واوي الفاء من الثلاثي ينقاس مصدره الميمي واسم مكانه وزمانه، على المفعول بكسر العين كما هنا، ما لم يكن معتل اللام، فالقياس فيه الفتح كالمولى. والعرب تقول: لا وألت نفسه، أي لا وجدت منجى تنجو به، ومنه قول الشاعر:

لا وألت نفسك خليتها للعامرين ولم تكلم

وقال الأعشى:

وقد أخالس رب البيت غفلته وقد يحاذر مني ثم ما يئل

أي ما ينجو.

وأقوال المفسرين في «الموئل» راجعة إلى ما ذكرنا، كقول بعضهم: موئلاً: محيصاً، وقول بعضهم: منجى. وقول بعضهم: محرزاً، إلى غير ذلك. فكله بمعنى ما ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ۖ﴾.

بين في هذه الآية الكريمة أن القرى الماضية لما ظلمت بتكذيب الرسل والعناد والتجاج في الكفر والمعاصي أهلكهم الله بذنوبهم.

وهذا الإجمال في تعيين هذه القرى وأسباب هلاكها، وأنواع الهلاك التي وقعت بها، جاء مفصلاً في آيات أخر كثيرة، كما جاء في القرآن من قصة قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم شعيب، وقوم موسى، كما تقدم بعض تفاصيله. والقرى: جمع قرية على غير قياس؛ لأن جمع التكسير على «فعل» - بضم ففتح - لا ينقاس إلا في جمع «فعله» - بالضم - اسماً كغرفة وقربة. أو «فعلى» إذا كانت أثنى الأفعال خاصة، كالكبرى والكبر، كما أشار لذلك في الخلاصة بقوله:

وفعل جمعاً لفعله عرف ونحو كبرى... إلخ

أي وأما في غير ذلك فسماع يحفظ ولا يقاس عليه. وزاد في التسهيل فرعاً ثالثاً ينقاس فيه «فعل» بضم ففتح، وهو الفعلة بضمين إن كان اسماً كجمعة وجمع. واسم الإشارة في قوله: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى﴾ إنما أشير به لهم؛ لأنهم يمرون عليها في أسفارهم كقوله: ﴿وَلْيَكُونُوا لِلْمُؤْمِنِينَ مَكِينًا﴾. وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى﴾ [الصافات]، وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا لِنَفْسِهِمْ آلِهَةً كَمَا اتَّخَذَ آدَمُ لِقَيْنَ وَهُنَكَ الْجَنَّةُ الَّتِي ظَلَمُوا﴾ [الحجر: ٧٩] ونحو ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿وَتِلْكَ﴾ مبتدأ و﴿الْقُرَى﴾ صفة له. أو عطف بيان. وقوله: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ هو الخبر، ويجوز أن يكون الخبر هو ﴿الْقُرَى﴾ وجملة ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ في محل حال، كقوله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢]. ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَتِلْكَ﴾ في محل نصب بفعل محذوف يفسره العامل المشتغل بالضمير، على حد قوله في الخلاصة:

إن مضمراً اسم سابق فعلاً شغل عنه بنصب لفظه أو المحل
فالسابق انصبه بفعل أضمراً - حتماً موافق لما قد أظهرنا

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿لَمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ قرأه عامة السبعة ما عدا عاصماً
بضم الميم وفتح اللام على ضيغة اسم المفعول. وهو محتمل على هذه القراءة أن يكون
مصدرًا ميميًا، أي جعلنا لإهلاكهم موعداً. وأن يكون اسم زمان، أي وجعلنا لوقت
إهلاكهم موعداً. وقد تقرر في فن الصرف أن كل فعل زاد ماضيه على ثلاثة أحرف مطلقاً
فالقياص في مصدره الميمي واسم مكانه واسم زمانه - أن يكون الجميع بصيغة اسم
المفعول. والمهلك - بضم الميم - من أهلكه الرباعي. وقرأه حفص عن عاصم
﴿لَمَهْلِكِهِمْ﴾ بفتح الميم وكسر اللام. وقرأه شعبة عن عاصم «المهلكهم» بفتح الميم واللام
معاً. والظاهر أنه على قراءة حفص اسم زمان، أي وجعلنا لوقت هلاكهم موعداً؛ لأنه
من هلك يهلك بالكسر. وما كان ماضيه على «فعل» بالفتح ومضارعه «يفعل» بالكسر
كهلك يهلك، وضرب يضرب، ونزل ينزل فالقياص في اسم مكانه وزمانه «المفعول»
بالكسر. وفي مصدره الميمي المفعول بالفتح. تقول: هذا منزله - بالكسر - أي مكان نزوله
أو وقت نزوله، وهذا «منزله» بفتح الزاي؛ أي نزوله، وهكذا. منه قول الشاعر:

أأن ذكرتك الدار منزلها جمل بكيت فدمع العين منحدر سجل

فقوله: «منزلها جمل» بالفتح؛ أي نزول جمل إياها. وبه تعلم أنه على قراءة شعبة
«المهلكهم» بفتح الميم واللام أنه مصدر ميمي؛ أي وجعلنا لهلاكهم موعداً. والموعد:
الوقت المحدد لوقوع ذلك فيه.

تنبيه: لفظة «لما» ترد في القرآن وفي كلام العرب على ثلاثة أنواع:

الأول: لما النافية الجازمة للمضارع؛ نحو قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ
وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ
وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ ... الآية [آل عمران: ١٤٢]. وهذه حرف بلا خلاف،
وهي مختصة بالمضارع. والفوارق المعنوية بينها وبين لم النافية المذكورة في علم
العربية، وممن أوضحها ابن هشام وغيره.

الثاني: أن تكون حرف استثناء بمعنى إلا؛ فتدخل على الجملة الاسمية؛ كقوله
تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق] في قراءة من شدد «لما» أي ما كل نفس
إلا عليها حافظ. ومن هذا النوع قول العرب: أنشدك الله لما فعلت؛ أي ما أسألك إلا
فعلك؛ ومنه قول الراجز:

قالت له بالله ياذا البردين لما غنثت نفساً أو نفسين

فقولها: «غنثت» بغين معجمة ونون مكسورة وثناء مثلثة مسنداً لثناء المخاطب.
والمراد بقولها: «غنثت» تنفست في الشرب؛ كنت بذلك عن الجماع، تريد عدم متابعتها

لذلك، وأن يتنفس بين ذلك. وهذا النوع حرف أيضاً بلا خلاف. وبعض أهل العلم يقول: إنه لغة هذيل.

الثالث: من أنواع «لما» هو النوع المختص بالماضي المقتضي جملتين، توجد ثانيتهما عند وجود أولاهما، كقوله: ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [يونس: ١٣] أي لما ظلموا أهلكتهم، فما قبلها دليل على الجملة المحذوفة. وهذا النوع هو الغالب في القرآن وفي كلام العرب. «ولما» هذه التي تقتضي ربط جملة بجملة تختلف فيها النحويون: هل هي حرف، أو اسم، وخلافهم فيها مشهور، وممن انتصر لأنها حرف ابن خروف وغيره، وممن انتصر لأنها اسم ابن السراج والفارسي وابن جني وغيرهم. وجواب «لما» هذه يكون فعلاً ماضياً بلا خلاف كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغْنَا إِلَى آلِ الْبَرِّ أَعْرَضُوا﴾ ... الآية [الإسراء: ٦٧]، ويكون جملة اسمية مقرونة بـ «إذا» الفجائية؛ كقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغْنَا آلَ الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. أو مقرونة بالفاء كقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغْنَا آلَ الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ﴾ ... الآية [لقمان: ٣٢]، ويكون جوابها فعلاً مضارعاً كما قاله ابن عصفور كقوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ مُجْتَدِلًا فِي قَوْمٍ لُوطٍ﴾ (٧٦) ... الآية [هود]. وبعض ما ذكرنا لا يخلو من مناقشة عند علماء العربية، ولكنه هو الظاهر.

هذه الأنواع الثلاثة، هي التي تأتي لها «لما» في القرآن وفي كلام العرب.

أما «لما» المركبة من كلمات أو كلمتين - فليست من «لما» التي كلامنا فيها؛ لأنها غيرها، فالمركبة من كلمات كقول بعض المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَلَامًا لَّهُمْ يَفْقَهُهُمْ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١١] في قراءة ابن عامر وحزمة وحفص عن عاصم بتشديد نون «إن» وميم «لما» على قول من زعم الأصل على هذه القراءة: لمن ما بمن التبغضية، وما بمعنى من، أي وإن كلاماً لمن جملة ما يوفيههم ربك أعمالهم، فأبدلت نون «من» ميماً وأدغمت في ما، فلما كثرت الميمات حذفت الأولى فصار لما. وعلى هذا القول فلما مركبة من ثلاث كلمات: الأولى الحرف الذي هو اللام، والثانية من، والثالثة ما، وهذا القول - وإن قال به بعض أهل العلم - لا يخفى ضعفه وبعده، وأنه لا يجوز حمل القرآن عليه. وقصدنا مطلق التمثيل لـ «لما» المركبة من كلمات على قول من قال بذلك. وأما المركبة من كلمتين فكقول الشاعر:

لما رأيت أبا يزيد مقاتلاً أدع القتال وأشهد الهيجاء

لأن قوله: «لما» في هذا البيت، مركبة من «لن» النافية الناصبة للمضارع و«ما» المصدرية الظرفية، أي لن أدع القتال ما رأيت أبا يزيد مقاتلاً، أي مدة رؤيتي له مقاتلاً.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسَاءَ حُوتَهُمَا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن موسى وفتاه نسيا حوتهما لما بلغا مجمع البحرين، ولكنه تعالى أوضح أن النسيان واقع من فتى موسى؛ لأنه هو الذي كان تحت يده الحوت، وهو الذي

نسيه. وإنما أسند النسيان إليهما؛ لأن إطلاق المجموع مراداً بعضه أسلوب عربي كثير في القرآن وفي كلام العرب. وقد أوضحنا أن من أظهر أدلته قراءة حمزة والكسائي ﴿فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَنْتُمْ لَهُمُ﴾ [البقرة: ١٩١] من القتل في الفعلين لا من القتال، أي فإن قتلوا بعضكم فليقتلهم بعضكم الآخر، والدليل على أن النسيان إنما وقع من فتى موسى دون موسى قوله تعالى عنهما: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنَّا غَدَاةٌ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ۚ﴾ [١٧] قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخَرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ؛ لأن قول موسى: ﴿إِنَّا غَدَاةٌ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ يعني به الحوت فهو يظن أن فتاه لم ينسه، كما قاله غير واحد. وقد صرح فتاه: بأنه نسيه بقوله: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَا أَنْسِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ دليل على أن النسيان من الشيطان كما دلت عليه آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يُنْسِيكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدَ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨] وقوله تعالى: ﴿أَسْتَحْوِذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ...﴾ الآية [المجادلة: ١٩].

وفتى موسى هو يوشع بن نون. والضمير في قوله تعالى: ﴿مَجْمَعٌ بَيْنَهُمَا﴾ عائذ إلى ﴿الْبَحْرَيْنِ﴾ المذكورين في قوله تعالى: ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ...﴾ الآية، والمجمع: اسم مكان على القياس، أي مكان اجتماعهما.

والعلماء مختلفون في تعيين «البحرين» المذكورين، فذهب أكثرهم إلى أنهما بحر فارس مما يلي المشرق، وبحر الروم مما يلي المغرب. وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ﴾ عند طنجة في أقصى بلاد المغرب. وروى ابن أبي حاتم من طريق السدي قال: هما الكر والرأس حيث يصبان في البحر. وقال ابن عطية: ﴿مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ﴾ ذراع في أرض فارس من جهة أذربيجان، يخرج من البحر المحيط من شماله إلى جنوبه، وطرفيه مما يلي بر الشام. وقيل: هما بحر الأردن والقلزم. وعن ابن المبارك قال: قال بعضهم: بحر أرمنية. وعن أبي بن كعب قال: بإفريقية. إلى غير ذلك من الأقوال. ومعلوم أن تعيين «البحرين» من النوع الذي قدمنا أنه لا دليل عليه من كتاب ولا سنة، وليس في معرفته فائدة، فالبحت عنه تعب لا طائل تحته، وليس عليه دليل يجب الرجوع إليه، وزعم بعض الملاحدة الكفرة المعاصرين: أن موسى لم يسافر إلى مجمع بحرين، بدعوى أنه لم يعرف ذلك في تاريخه زعم في غاية الكذب والبطلان. ويكفي في القطع بذلك أنه مناقض لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا﴾، مع التصريح بأنه سفر فيه مشقة وتعب، وذلك لا يكون إلا في بعيد السفر، ولذا قال تعالى عن موسى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾. ومعلوم أن ما ناقض القرآن فهو باطل؛ لأن نقيض الحق باطل بإجماع العقلاء لاستحالة صدق النقيضين معاً.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَا أَنْسِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ قرأه عامة القراء ما عدا حفصاً «أنسانيه» بكسر الهاء. وقرأه حفص عن عاصم «أَنْسِينِيهِ» بضم الهاء.

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (٦٥). هذا العبد المذكور في هذه الآية الكريمة هو الخضر عليه السلام بإجماع العلماء، ودلالة النصوص الصحيحة على ذلك من كلام النبي ﷺ، وهذه الرحمة والعلم اللدني اللذان ذكر الله امتنانه عليه بهما لم يبين هنا هل هما رحمة النبوة وعلمها، أو رحمة الولاية وعلمها. والعلماء مختلفون في الخضر: هل هو نبي، أو رسول، أو ولي؛ كما قال الراجز:

واختلفت في خضر أهل العقول قيل نبي أو ولي أو رسول

وقيل: ملك. ولكنه يفهم من بعض الآيات أن هذه الرحمة المذكورة هنا رحمة نبوة، وأن هذا العلم اللدني علم وحى، مع العلم بأن في الاستدلال بها على ذلك مناقشات معروفة عند العلماء.

اعلم أولاً أن الرحمة تكرر إطلاقها على النبوة في القرآن، وكذلك العلم المؤتى من الله تكرر إطلاقه فيه على علم الوحي، فمن إطلاق الرحمة على النبوة قوله تعالى في «الزخرف»: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣١) أَمْرٌ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ... الآية [الزخرف: ٣١ - ٣٢]. أي نبوته حتى يتحكموا في إنزال القرآن على رجل عظيم من الفريقين. وقوله تعالى في سورة «الدخان»: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ (١) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ... الآية [الدخان: ٤ - ٥]، وقوله تعالى في آخر «القصص»: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾... الآية [القصص: ٨٦]. ومن إطلاق إيتاء العلم على النبوة قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، وقوله: ﴿وَلَهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾... [يوسف: ٦٨] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

ومعلوم أن الرحمة وإيتاء العلم اللدني أعم من كون ذلك عن طريق النبوة وغيرها، والاستدلال بالأعم على الأخص فيه أن وجود الأعم لا يستلزم وجود الأخص كما هو معروف، ومن أظهر الأدلة في أن الرحمة والعلم اللدني اللذين امتن الله بهما على عبده الخضر عن طريق النبوة والوحي قوله تعالى عنه: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِئٍ﴾ أي وإنما فعلته عن أمر الله - جل وعلا - وأمر الله إنما يتحقق عن طريق الوحي، إذ لا طريق تعرف بها أوامر الله ونواهيه إلا الوحي من الله - جل وعلا - ولا سيما قتل الأنفس البريئة في ظاهر الأمر، وتعييب سفن الناس بخرقها؛ لأن العدوان على أنفس الناس وأموالهم لا يصح إلا عن طريق الوحي من الله تعالى. وقد حصر تعالى طرق الإنذار في الوحي في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ [الأنبياء: ٤٥] و﴿إِنَّمَا﴾ صيغة حصر. فإن قيل: قد يكون ذلك عن طريق الإلهام؟ فالجواب أن المقرر في الأصول أن الإلهام من الأولياء لا يجوز الاستدلال به على شيء، لعدم العصمة، وعدم الدليل على الاستدلال به، بل ولوجود الدليل على عدم جواز الاستدلال به، وما يزعمه

بعض المتصوفة من جواز العمل بالإلهام في حق الملهم دون غيره، وما يزعمه بعض الجبرية أيضاً من الاحتجاج بالإلهام في حق الملهم وغيره جاعلين الإلهام كالوحي المسموع مستدلين بظاهر قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ويخبر «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» كله باطل لا يعول عليه، لعدم اعتضاده بدليل. وغير المعصوم لا ثقة بخواطره؛ لأنه لا يأمن دسيسة الشيطان. وقد ضمنت الهداية في اتباع الشرع، ولم تضمن في اتباع الخواطر والإلهامات، والإلهام في الاصطلاح: إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر من غير استدلال بوحي ولا نظر في حجة عقلية، يختص الله به من يشاء من خلقه، أما ما يلهمه الأنبياء مما يلقيه الله في قلوبهم فليس كإلهام غيرهم؛ لأنهم معصومون بخلاف غيرهم. قال في (مراقي السعود) في كتاب الاستدلال:

وينبذ الإلهام بالعرء أعني به إلهام الأولياء
وقد رآه بعض من تصوفنا وعصمة النبي توجب اقتفا

وبالجملة، فلا يخفى على من له إمام بمعرفة دين الإسلام أنه لا طريق تعرف بها أوامر الله ونواهيه، وما يتقرب إليه به من فعل وترك، إلا عن طريق الوحي. فمن ادعى أنه غني في الوصول إلى ما يرضي ربه عن الرسل، وما جاؤوا به ولو في مسألة واحدة، فلا شك في زندقته. والآيات والأحاديث الدالة على هذا لا تحصى، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] ولم يقل حتى نلقي في القلوب إلهاماً. وقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾... الآية [طه: ١٣٤]. والآيات والأحاديث بمثل هذا كثيرة جداً. وقد بينا طرفاً من ذلك في سورة «بني إسرائيل» في الكلام على قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. وبذلك تعلم أن ما يدعيه كثير من الجهلة المدعين التصوف من أن لهم ولأشياخهم طريقاً باطنة توافق الحق عند الله ولو كانت مخالفة لظاهر الشرع، كمخالفة ما فعله الخضر لظاهر العلم الذي عند موسى - زندقه وذريعة إلى الانحلال بالكلية من دين الإسلام، بدعوى أن الحق في أمور باطنة تخالف ظاهره.

قال القرطبي رحمه الله في تفسيره ما نصه: قال شيخنا الإمام أبو العباس: ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق لا تلزم منه هذه الأحكام الشرعية فقالوا: هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأنبياء والعامة. وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص؛ بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم. ويحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم. وقالوا: وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار، وخلوها عن الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية، والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات، ويعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع

الكليات، كما اتفق للخضر فإنه استغنى بما تجلى له من العلوم عما كان عند موسى من تلك الفهوم. وقد جاء فيما ينقلون: «استفت قلبك وإن أفتاك المفتون». قال شيخنا رحمته: وهذا القول زندقة وكفر، يقتل قائله ولا يستتاب؛ لأنه إنكار ما علم من الشرائع، فإن الله تعالى قد أجرى سنته، وأفخذ حكمته بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه، وهم المبلغون عنه رسالته وكلامه، المبينون شرائعه وأحكامه، اختارهم لذلك وخصهم بما هنالك، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّكَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣] إلى غير ذلك من الآيات. وعلى الجملة، فقد حصل العلم القطعي واليقين الضروري، واجتماع السلف والخلف على أن لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه، ولا يعرف شيء منها إلا من جهة الرسل. فمن قال: إن هناك طريقاً أخرى يعرف بها أمره ونهيه غير الرسل حيث يستغنى عن الرسل فهو كافر يقتل ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال وجواب. ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبينا محمد صلوات الله عليه؛ الذي قد جعله الله خاتم أنبيائه ورسله، فلا نبي بعده ولا رسول.

وبيان ذلك أن من قال: يأخذ عن قلبه؛ وأن ما يقع فيه حكم الله تعالى، وأنه يعمل بمقتضاه، وأنه لا يحتاج مع ذلك إلى كتاب ولا سنة فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة؛ فإن هذا نحو ما قاله عليه السلام: «إن روح القدس نفث في روعي...» الحديث. انتهى من تفسير القرطبي.

وما ذكره في كلام شيخه المذكور من أن الزنديق لا يستتاب هو مذهب مالك ومن وافقه، وقد بينا أقوال العلماء في ذلك وأدلتهم، وما يرجحه الدليل في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة «آل عمران». وما يستدل به بعض الجهلة ممن يدعي التصوف على اعتبار الإلهام من ظواهر بعض النصوص كحديث: «استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك»، لا دليل فيه البتة على اعتبار الإلهام؛ لأنه لم يقل أحد ممن يعتد به أن المفتي الذي تتلقى الأحكام الشرعية من قبله القلب، بل معنى الحديث: التحذير من الشبه؛ لأن الحرام بين والحلال بين، وبينهما أمور مشبهة لا يعلمها كل الناس. فقد يفتيك المفتي بحلية شيء وأنت تعلم من طريق أخرى أنه يحتمل أن يكون حراماً، وذلك باستناد إلى الشرع، فإن قلب المؤمن لا يطمئن لما فيه الشبهة، والحديث، كقوله: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»، وقوله عليه السلام: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس» رواه مسلم من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه، وحديث وابصة بن معبد رضي الله عنه المشار إليه قال: أتيت رسول الله صلوات الله عليه فقال: «جئت تسأل عن البر؟ قلت: نعم: قال: «استفت قلبك. البر ما اطمأنت إليه

النفس واطمأن إليه القلب. والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك»، قال النووي في (رياض الصالحين): حديث حسن، رواه أحمد والدارمي في مسنديهما. ولا شك أن المراد بهذا الحديث ونحوه الحث على الورع وترك الشبهات، فلو التبست مثلاً ميتة بمذكاة، أو امرأة محرم بأجنبية، وأفتاك بعض المفتين بحلة إحداهما لاحتمال أن تكون هي المذكاة في الأول، والأجنبية في الثاني؛ فإنك إذا استفتيت قلبك علمت أنه يحتمل أن تكون هي الميتة أو الأخت، وأن ترك الحرام والاستبراء للدين والعرض لا يتحقق إلا بتجنب الجميع؛ لأن ما لا يتم ترك الحرام إلا بتركه فتركه واجب. فهذا يحيك في النفس ولا تنشرح له، لاحتمال الوقوع في الحرام فيه كما ترى. وكل ذلك مستند لنصوص الشرع لا للألهام.

ومما يدل على ما ذكرنا من كلام أهل الصوفية المشهود لهم بالخير والدين والصلاح - قول الشيخ أبي القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد الخزاز القواريري رحمته الله: (مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة)، نقله عنه غير واحد ممن ترجمه رحمته الله، كابن كثير وابن خلكان وغيرهما. ولا شك أن كلامه المذكور هو الحق، فلا أمر ولا نهى إلا على السنة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وبهذا كله تعلم أن قتل الخضر للغلام، وخرقه للسفينة، وقوله: «وما فعلته عن أمري» دليل ظاهر على نبوته. وعزا الفخر الرازي في تفسيره القول بنبوته للأكثرين، ومما يستأنس به للقول بنبوته تواضع موسى عليه الصلاة والسلام له في قوله: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُسُلًا﴾، وقوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ مع قول الخضر له: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾.

مسألة: اعلم أن العلماء اختلفوا في الخضر: هل هو حي إلى الآن، أو هو غير حي، وأقوالهم في المسألة مبسطة في الأصل يرجع إليها من أراد.

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ﴾.

هذه الآية الكريمة من أكبر الأدلة التي يستدل بها القائلون بأن المجاز في القرآن؛ زاعمين أن إرادة الجدار الانقضاء لا يمكن أن تكون حقيقة، وإنما هي مجاز. وقد دلت آيات من كتاب الله على أنه لا مانع من كون إرادة الجدار حقيقة؛ لأن الله تعالى يعلم للجمادات إرادات وأفعالاً وأقوالاً لا يدركها الخلق كما صرح تعالى بأنه يعلم من ذلك ما لا يعلمه خلقه في قوله - جل وعلا -: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَهُمْ جَوْدُهُمْ وَلَكِنْ لَا يَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] فصرح بأننا لا نفقه تسبيحهم، وتسبيحهم واقع عن إرادة لهم يعلمها هو - جل وعلا - ونحن لا نعلمها، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن والسنة.

فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَهُمْ جَوْدُهُمْ وَلَكِنْ لَا يَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] فصرح بأننا لا نفقه تسبيحهم، وتسبيحهم واقع عن إرادة لهم يعلمها هو - جل وعلا - ونحن لا نعلمها، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن والسنة.

فتصريحه تعالى بأن بعض الحجارة يهبط من خشية الله دليل واضح في ذلك؛ لأن تلك الخشية بإدراك يعلمه الله ونحن لا نعلمه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَنُ﴾... الآية [الأحزاب: ٧٢]. فتصريحه - جل وعلا - بأن السماء والأرض والجبال أبت وأشفقت أي خافت دليل على أن ذلك واقع بإرادة وإدراك يعلمه هو - جل وعلا - ونحن لا نعلمه.

ومن الأحاديث الدالة على ذلك ما ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «إني لأعرف حجراً كان يسلم علي بمكة» وما ثبت في صحيح البخاري من حنين الجذع الذي كان يخطب عليه ﷺ جزعاً لفراقه فتسليم ذلك الحجر، وحنين ذلك الجذع كلاهما بإرادة وإدراك يعلمه الله ونحن لا نعلمه، كما صرح بمثله في قوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْيِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وزعم من لا علم عنده أن هذه الأمور لا حقيقة لها، وإنما هي ضرب أمثال زعم باطل؛ لأن نصوص الكتاب والسنة لا يجوز صرفها عن معناها الواضح المتبادر إلا بدليل يجب الرجوع إليه. وأمثال هذا كثيرة جداً، وبذلك تعلم أنه لا مانع من إبقاء إرادة الجدار على حقيقتها لإمكان أن يكون الله علم منه إرادة الانقضاء، وإن لم يعلم خلقه تلك الإرادة. وهذا واضح جداً كما ترى، مع أنه من الأساليب العربية إطلاق الإرادة على المقاربة والميل إلى الشيء، كما في قول الشاعر:

يريد الرمح صدر أبي براء ويعدل عن دماء بني عقيل

أي يميل إلى صدر أبي براء. وكقول راعي نمير:

في مهمه قلقت به هامتها قلق الفؤوس إذا أردن نضولا

فقوله: «إذا أردن نضولا» أي قاربته. وقول الآخر:

إن دهرأ يلف شملني بجمل لزمان يهم بالإحسان

فقوله: «لزمان يهم بالإحسان» أي يقع الإحسان فيه، وقد بينا في رسالتنا المسماة (منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز) أن جميع الآيات التي يزعمون أنها مجاز أن ذلك لا يتعين في شيء منها، وبيننا أدلة ذلك. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾. ظاهر هذه الآية الكريمة أن ذلك الملك يأخذ كل سفينة، صحيحة كانت أو معيبة، ولكنه يفهم من آية أخرى أنه لا يأخذ المعيبة، وهي قوله: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي لئلا يأخذها، وذلك هو الحكمة في خرقه لها المذكور في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ ثم بين أن قصده بخرقها سلامتها لأهلها من أخذ ذلك الملك الغاصب؛ لأن عيبها يزهده فيها، ولأجل ما ذكرنا كانت هذه الآية الكريمة مثلاً عند علماء العربية لحذف النعت؛ أي وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صحيحة غير معيبة بدليل ما ذكرنا. وقد قدمنا الشواهد العربية على ذلك في سورة «بني إسرائيل» في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَنْ مِّن قَرِيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا»... الآية [الإسراء: ٥٨].. واسم ذلك الملك: هدد بن بدر، وقوله: ﴿وَرَأَاهُمْ﴾ أي أمامهم كما تقدم في سورة «إبراهيم»:

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَقْرَبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَرْجُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾. قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم ﴿حَمِئَةٍ﴾ بلا ألف بعد الحاء، وبهمزة مفتوحة بعد الميم المكسورة، وقرأه ابن عامر وحزمة والكسائي وشعبة عن عاصم «حامية» بألف بعد الحاء، وباء مفتوحة بعد الميم المكسورة على صيغة اسم الفاعل، فعلى القراءة الأولى فمعنى ﴿حَمِئَةٍ﴾ ذات حمأة وهي الطين الأسود، ويدل على هذا التفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] والحمأ: الطين كما تقدم. ومن هذا المعنى قول تبع الحميري فيما يؤثر عنه يمدح ذا القرنين:

بلغ المشارق والمغارب يبتغي أسباب أمر من حكيم مرشد
فراى مغيب الشمس عند غروبها في عين ذي خلب وثأط حرمد

والخلب في لغة حمير: الطين. والثأط: الحمأة. والحرمد: الأسود. وعلى قراءة «حامية» بصيغة اسم الفاعل، فالمعنى: أنها حارة، وذلك لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها، وملاقاتها الشعاع بلا حائل. ولا منافاة بين القراءتين؛ لأن العين المذكورة حارة وذات ماء وطين أسود، فكلتا القراءتين حق.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: «وجدها تغرب في عين حمئة» أي رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه إلى آخر كلامه. ومقتضى كلامه أن المراد بالعين في الآية البحر المحيط، وهو ذو طين أسود. والعين تطلق في اللغة على ينبوع الماء. والينبوع: الماء الكثير، فاسم العين يصدق على البحر لغة. وكون من على شاطئ المحيط الغربي يرى الشمس في نظر عينه تسقط في البحر أمر معروف، وعلى هذا التفسير فلا إشكال في الآية، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا رَمَمٌ مِنْ رَقِيٍّ فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَاةً وَكَانَ وِعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [٩٨] وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فُجِعَتْهُمْ جَمْعًا [٩٩]. اعلم أولاً أننا قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أنه إن كان لبعض الآيات بيان من القرآن لا يفي بإيضاح المقصود وقد بينه النبي ﷺ فإننا نتمم بيانه بذكر السنة المبينة له. وقد قدمنا أمثلة متعددة لذلك، فإذا علمت ذلك فاعلم أن هاتين الآيتين الكريمتين لهما بيان من كتاب أوضحته السنة، فصار بضميمة السنة إلى القرآن بياناً وافياً بالمقصود، والله - جل وعلا - قال في كتابه لنبيه ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] فإذا علمت ذلك فاعلم أن هذه الآية الكريمة، وآية الأنبياء قد دلنا في الجملة على أن السد الذي بناه ذو القرنين دون يأجوج ومأجوج إنما يجعله الله دكاً عند مجيء الوقت الموعود بذلك فيه. وقد دلنا على أنه بقرب يوم القيامة؛ لأنه قال هنا: ﴿إِذَا جَاءَ

وَعَدَ رَبِّي جَلَّةَ دِكَاةٍ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿١٨﴾ وَرَكْنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَفُتِحَ فِي الْأَصُورِ... الآية. وأظهر الأقوال في الجملة المقدره التي عوض عنها تنوين ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ من قوله: ﴿وَرَكْنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أنه يوم إذ جاء وعد ربي بخروجهم وانتشارهم في الأرض.. ولا ينبغي العدول عن هذا القول لموافقته لظاهر سياق القرآن العظيم.

وإذا تقرر أن معنى ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ جاء الوعد بخروجهم وانتشارهم، فاعلم أن الضمير في قوله: ﴿وَرَكْنَا بَعْضُهُمْ﴾ على القول بأنه لجميع بنى آدم فالمراد يوم القيامة. وإذا فقدت الآية على اقترانه بالخروج إذا ذك السد، وقربه منه: وعلى القول بأن الضمير راجع إلى يأجوج ومأجوج، فقوله بعده: ﴿وُفِّحَ فِي الْأَصُورِ﴾ يدل في الجملة على أنه قريب منه. قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّي﴾ هو إشارة إلى السد؛ أي هذا السد نعمة من الله ورحمة على عباده. أو هذا الإقذار والتمكين من تسويته ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ يعني فإذا دنا مجيء يوم القيامة، وشارف أن يأتي جعل السد دكاً؛ أي مذكوكاً مبسوطاً مسوى بالأرض. وكل ما انبسط من بعد ارتفاع فقد اندك؛ ومنه الجمل الأدك المنبسط السنام، اهـ.

وآية الأنبياء المشار إليها هي قوله تعالى: ﴿حَقَّقْ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ ﴿١٩﴾ وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا... الآية [الأنبياء: ٩٦-٩٧]؛ لأن قوله: ﴿حَقَّقْ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ [الأنبياء: ٩٦] واتباعه لذلك بقوله: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء: ٩٧] يدل في الجملة على ما ذكرنا في تفسير آية الكهف التي نحن بصددھا، وذلك يدل على بطلان قول من قال: إنهم روسية، وأن السد فتح منذ زمان طويل. فإذا قيل: إنما تدل الآيات المذكورة في «الكهف» و«الأنبياء» على مطلق اقتراب يوم القيامة من ذك السد واقترابه من يوم القيامة لا ينافي كونه قد وقع بالفعل كما قال تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]. وقال: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأَسْفَقَ الْقَمَرُ﴾ [القمر]، وقال النبي ﷺ: «ويل للعرب، من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها...» الحديث، وقد قدمناه في سورة «المائدة». فقد دل القرآن والسنة الصحيحة على أن اقتراب ما ذكر لا يستلزم اقترانه به، بل يصح اقترابه مع مهلة، وإذا فلا ينافي ذك السد الماضي المزعوم الاقتراب من يوم القيامة، فلا يكون في الآيات المذكورة دليل على أنه لم يدك السد إلى الآن.

فالجواب: هو ما قدمنا أن هذا البيان بهذه الآيات ليس وافياً بتمام الإيضاح إلا بضميمة السنة له، ولذلك ذكرنا أننا نتمم مثله من السنة لأنها مبينة للقرآن، قال مسلم بن الحجاج رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه: حدثنا أبو خيثمة زهير بن حرب، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدثني يحيى بن جابر الطائي قاضي حمص، حدثني عبد الرحمن بن جبير عن أبيه جبير بن ثفير الحضرمي أنه سمع النواس بن

سمعان الكلابي (ح) وحدثني محمد بن مهران الرازي (واللفظ له)، حدثني الوليد بن مسلم، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن يحيى بن جابر الطائي، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه جبير بن نفير، عن النواس بن سميان قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا فقال: «ما شأنكم؟» قلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت، حتى ظنناه في طائفة النخل؟ فقال: «غير الدجال أخوفني عليكم! إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط، عينه طافئة، كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة «الكهف» إنه خارج خلة بين الشام والعراق، فعاث يمينا وعاث شمالاً. يا عباد الله فاثبوا».

قلنا: يا رسول الله، وما لبثه في الأرض؟ قال: «أربعون يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم» قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة، أتكفيننا فيه صلاة يوم؟ قال: «لا، اقدروا له قدره» قلنا: يا رسول الله، وما إسراره في الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح. فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له: فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبث، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذراً وأسبغه ضروعاً، وأمدّه خواصر ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله؛ فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيما يسب النحل، ثم يدعو رجلاً مملئاً شاباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعو فيقبل ويتهلل وجهه يضحك. فبينما هو كذلك إذ يبعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ؛ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله. ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذا أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرز عبادي إلى الطور. وبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون؛ فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النصف في رقابهم؛ فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة.

ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملاء زهمهم ونتنهم؛ فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا

وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة ثم يقال للأرض: انبتي ثمرتك، وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس. واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس. فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم؛ فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم. ويبقى شرار الناس يتهاجرون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة» انتهى بلفظه من صحيح مسلم - رحمه الله تعالى - .

وهذا الحديث الصحيح قد رأيت فيه تصريح النبي ﷺ بأن الله يوحى إلى عيسى ابن مريم خروج يأجوج ومأجوج بعد قتله الدجال. فمن يدعي أنهم روسية، وأن السد قد اندك منذ زمان فهو مخالف لما أخبر به النبي ﷺ مخالفة صريحة لا وجه لها، ولا شك أن كل خبر ناقض خبر الصادق المصدوق ﷺ فهو باطل؛ لأن نقيض الخبر الصادق كاذب ضرورة كما هو معلوم. ولم يثبت في كتاب الله ولا سنة نبيه ﷺ شيء يعارض هذا الحديث الذي رأيت صحة سنده، ووضوح دلالة على المقصود:

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الكهف: ٩٨] قرأه نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو «دكاً» بالتثنية مصدر دكه. وقرأه عاصم وحزمة والكسائي ﴿جَعَلَهُ دَكَّةً﴾ بألف التانيث الممدودة تأنيث الأدك، ومعنى القراءتين راجع إلى شيء واحد، وقد قدمنا إيضاحه.

قوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا﴾. قوله: ﴿وَعَرَضْنَا﴾؛ أي أبرزنا وأظهرنا جهنم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي يوم إذ جمعناهم جمعاً كما دل على ذلك قوله قبله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَمَجَّعْنَاهُمْ مَّجْجًا﴾، وقال بعض العلماء: اللام في قوله: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ بمعنى على، أي عرضنا جهنم على الكافرين، وهذا يشهد له القرآن في آيات متعددة؛ لأن العرض في القرآن يتعدى بمعنى لا باللام كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، وقوله: ﴿الَّذِينَ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾، ونظيره في كلام العرب من إتيان اللام بمعنى على، البيت الذي قدمناه في أول سورة «هود»، وقدمنا الاختلاف في قائله، وهو قوله:

هتكت له بالرمح جيب قميصه فخر صريعاً لليدين وللنم
أي خر صريعاً على اليدين.

وقد علم من هذه الآيات أن النار تعرض عليهم ويعرضون عليها؛ لأنها تقرب إليهم ويقربون إليها؛ كما قال تعالى في عرضها عليهم هنا: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا﴾، وقال في عرضهم عليها: ﴿يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ ... الآية [الأحقاف: ٢٠]، ونحوها من الآيات. وقد بينا شيئاً من صفات عرضهم دلت عليه آيات آخر من كتاب الله في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾. وقول من قال:

إن قوله هنا: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾... الآية فيه قلب، وأن المعنى: وعرضنا الكافرين لجحهم أي عليها بعيد كما أوضحه أبو حيان في البحر، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾.

التحقيق في قوله: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ أنه في محل خفض نعتاً للكافرين، وقد بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من صفات الكافرين الذين تعرض لهم جهنم يوم القيامة أنهم كانت أعينهم في دار الدنيا في غطاء عن ذكره تعالى، وكانوا لا يستطيعون سمعاً، وقد بين هذا من صفاتهم في آيات كثيرة كقوله في تغطية أعينهم: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، وقوله: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِمْ عَشِيرَةً﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقوله: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لُحًى كُنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ [الرعد: ١٩]، وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً، وقال في عدم استطاعتهم السمع: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ١٢]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، وقد بينا معنى كونهم لا يستطيعون السمع في أول سورة «هود» في الكلام على قوله تعالى: ﴿يُضَعِّفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠] فأغنى عن إعادته هنا. وقد بينا أيضاً طرفاً من ذلك في الكلام على قوله تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وقد بين تعالى في موضع آخر أن الغطاء المذكور الذي يعشو بسببه البصر عن ذكره تعالى يقيض الله لصاحبه شيطاناً فيجعله له قريناً وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ

لِلْكَافِرِينَ تَرًا﴾. الهمزة في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ﴾ للإنكار والتوبيخ، وفي الآية حذف دل المقام عليه، قال بعض العلماء: تقدير المحذوف هو: أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء، ولا أعاقبهم العقاب الشديد! كلا!! بل سأعاقبهم على ذلك العقاب الشديد؛ بدليل قوله تعالى بعده: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ تَرًا﴾ وقال بعض العلماء: تقديره: أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء! وأن ذلك ينفعهم. كلا! لا ينفعهم بل يضرهم. ويدل لهذا قوله تعالى عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] وقوله عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. ثم إنه تعالى بين بطلان ذلك بقوله: ﴿قُلْ أَتُشْرِكُونَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، وما أنكره عليهم هنا من ظنهم أنهم يتخذون من دونه أولياء من عباده ولا يعاقبهم؛ أو أن ذلك ينفعهم جاء مبيناً في مواضع كقوله في أول سورة «الأعراف»: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ...﴾ الآية [الأعراف: ٣]. فقد نهاهم عن اتباع الأولياء من دونه في هذه الآية؛ لأنه يضرهم ولا ينفعهم، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن من الأدلة على أنه لا ولي من

دون الله لأحد، وإنما الموالاة في الله كقوله: ﴿اتَّبِعْ بَيْتَكَ وَأَبْصِرْ﴾ [مريم: ٣٨] ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾... الآية وقوله: ﴿وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ [هود]، وقوله: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ﴾... الآية [الشورى: ٤٤]، وقوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ﴾... الآية [الأنعام: ٥١]، وقوله: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ﴾ الآية [الأنعام: ٧٠]، ونحو ذلك من الآيات. وسيأتي له قريباً - إن شاء الله تعالى - زيادة إيضاح وأمثلة.

والأظهر المتبادر من الإضافة في قوله: «عبادي» أن المراد بهم نحو الملائكة وعيسى وعزير، لا الشياطين ونحوهم؛ لأن مثل هذه الإضافة للتحريف غالباً. وقد بين تعالى أنهم لا يكونون أولياء لهم في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُخْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْؤُلَاءِ إِنْ أَرَأَيْتُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿١٠٣﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾... الآية [سبا: ٤٠ - ٤١]، وقوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ قد أوضحنا معناه في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا﴾... الآية، فأغنى عن إعادته هنا. وفي قوله: ﴿تَزْلَا﴾ أوجه من التفسير للعلماء:

أظهرها: أن «النزل» هو ما يقدم للضيف عند نزوله، والقادم عند قدومه. والمعنى أن الذي يهيا لهم من الإكرام عند قدومهم إلى ربهم هو جهنم المعدة لهم كقوله: ﴿فَبَيَّرَهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]. وقوله: ﴿يَعْتَاوُا يَمَآءَ كَالْمُهْلِ﴾. وقد قدمنا شواهد العربية في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَعْتَاوُا يَمَآءَ كَالْمُهْلِ﴾؛ لأن ذلك الماء الذي يشوي الوجوه ليس فيه إغاثة، كما أن جهنم ليست نزل إكرام الضيف أو قادم.

الوجه الثاني: أن «نزلاً» بمعنى المنزل، أي أعتدنا جهنم للكافرين منزلاً، أي مكان نزول، لا منزل لهم غيرها. وأضعف الأوجه ما زعمه بعضهم من أن «النزل» جمع نازل، كجمع الشارف على شرف بضمين، والذي يظهر في إعراب «نزلاً» أنه حال مؤولة بمعنى المشتق. أو مفعول لـ «أعتدنا» بتضمينه معنى صيرنا أو جعلنا، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ ﴿١٠٤﴾. المعنى: قل لهم يا نبي الله: هل ننبئكم أي نخبركم بالأخسرين أعمالاً، أي بالذين هم أخسر الناس أعمالاً وأضيعها، فالأخسر صيغة تفضيل من الخسران، وأصله نقص مال التاجر، والمراد به في القرآن غبنهم بسبب كفرهم ومعاصيهم في حظوظهم مما عند الله لو أطاعوه، وقوله: ﴿أَعْمَالًا﴾ منصوب على التمييز.

فإن قيل: نبئنا بالأخسرين أعمالاً من هم؟

كان الجواب: هم ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ ﴿١٠٤﴾، وبه تعلم أن ﴿الَّذِينَ﴾ من قوله: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ خبر مبتدأ محذوف جواباً للسؤال المفهوم من المقام، ويجوز نصبه على الذم، وجزه على أنه بدل من الأخسرين، أو

نعت له، وقوله: ﴿صَلَّ سَعِيمٌ﴾ أي بطل عملهم وحبط، فصار كالهباء وكالسراب وكالرماد! كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ يَفِيغَةٍ﴾... الآية [النور: ٣٩]؟ وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨] ومع هذا فهم يعتقدون أن عملهم حسن مقبول عند الله.

والتحقيق أن الآية نازلة في الكفار الذين يعتقدون أن كفرهم صواب وحق، وأن فيه رضى ربهم؛ كما قال عن عبدة الأوثان: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، وقال عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقال عن الرهبان الذين يتقربون إلى الله على غير شرع صحيح: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ خِشْعَةٌ﴾ [عائلة ناصية ٢] ﴿صَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾... الآية [الغاشية]، على القول فيها بذلك. وقوله تعالى في الكفار: ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا مِنَ الشَّيْطَانِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠] وقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ لَبِئْسُ دُونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٧].

والدليل على نزولها في الكفار تصريحه تعالى بذلك في قوله بعده يليه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾... الآية، فقول من قال: إنهم الكفار، وقول من قال: إنهم الرهبان، وقول من قال: إنهم أهل الكتاب الكافرون بالنبي ﷺ، كل ذلك تشمل هذه الآية، وقد روى البخاري في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه أنه سأله ابنه مصعب عن (الأخسرين أعمالاً) في هذه الآية، هل هم الحرورية؟ فقال: لا، هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكفروا بمحمد ﷺ، وأما النصارى فكفروا بالجنة، وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب. والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، وكان سعيد يسميهم الفاسقين، اهـ من البخاري. وما روي عن علي رضى الله عنه من أنهم أهل حروراء المعروفون بالحروريين معناه أنهم يكون فيهم من معنى الآية بقدر ما فعلوا؛ لأنهم يرتكبون أموراً شنيعة من الضلال، ويعتقدون أنها هي معنى الكتاب والسنة، فقد ضل سعيهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وإن كانوا في ذلك أقل من الكفار المجاهرين؛ لأن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب كما قد قدمنا إيضاحه وأدلته.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ صَلَّ سَعِيمٌ﴾ أي بطل واضمحل، وقد قدمنا أن الضلال يطلق في القرآن واللغة العربية ثلاثة إطلاقات:

الأول: الضلال بمعنى الذهاب عن طريق الحق إلى طريق الباطل، كالذهاب عن الإسلام إلى الكفر، وهذا أكثر استعمالاته في القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

الثاني: الضلال بمعنى الهلاك والغيبة والاضمحلال، ومنه قول العرب: ضل

السمن في الطعام؛ إذا استهلك فيه وغاب فيه، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤]؛ أي غاب واضمحل، وقوله هنا: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ﴾ أي بطل واضمحل، وقول الشاعر:

ألم تسأل فتخبرك الديار عن الحي المضلل أين ساروا
أي عن الحي الذي غاب واضمحل، ومن هنا سمي الدفن إضلالاً؛ لأن مآل الميت المدفون إلى أن تختلط عظامه بالأرض، فيضل فيها كما يضل السمن في الطعام. ومن إطلاق الضلال على الدفن قول نابغة ذبيان:

فآب مضلوه بعين جلية وغودر بالجولان حزم ونائل
فقوله: «مضلوه» يعني دافنيه في قبره. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا آءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾... الآية [السجدة: ١٠]، فمعنى: ﴿ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] أنهم اختلطت عظامهم الرميم بها فغابت واستهلك فيها.

الثالث: الضلال بمعنى الذهاب عن علم حقيقة الأمر المطابقة للواقع، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى] أي ذاهباً عما تعلمه الآن من العلوم والمعارف التي لا تعرف إلا بالوحي فهداك إلى تلك العلوم والمعارف بالوحي. وحدد هذا المعنى قوله تعالى عن أولاد يعقوب: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾ [يوسف] أي ذهابك عن العلم بحقيقة أمر يوسف، ومن أجل ذلك تطمع في رجوعه إليك، وذلك لا طمع فيه على أظهر التفسيرات، وقوله تعالى: ﴿إِن كَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَأَمْرًا كَانِ يَمْنَنَ الشُّهَدَاءُ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ [البقرة: ٢٨٢] أي تذهب عن حقيقة علم المشهود به بنسيان أو نحوه بدليل قوله: ﴿فَتَذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [٥٦] [طه]، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

وتظن سلمى أنني أبغي بها بدلاً أراها في الضلال تهيم
فقوله: «أراها في الضلال» أي الذهاب عن علم حقيقة الأمر حيث تظنني أبغي بها بدلاً، والواقع بخلاف ذلك.

وقوله في هذه الآية: ﴿وَمُحْسِنُونَ﴾ أي يظنون. وقرأه بعض السبعة بكسر السين، وبعضهم بفتحها كما قدمنا مراراً في جميع القرآن، ومفعولاً «حسب» هما المبتدأ والخبر اللذان عملت فيهما «أن»، والأصل: ويحسبون أنفسهم محسنين صنعهم. وقوله: «صنعاً» أي عملاً وبين قوله: «يحسبون، ويحسنون» الجنس المسمى عند أهل البديع «تجنيس التصحيف» وهو أن يكون النقط فرقاً بين الكلمتين، كقول البحري:

ولم يكن المغتر بالله إذ سرى ليعجز والمعتز بالله طالبه

فبين «المغتر والمعتز» الجنس المذكور.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾... الآية، نص في أن الكفر بآيات الله ولقائه يحبط العمل، والآيات الدالة على ذلك كثيرة جداً، كقوله تعالى في «العنكبوت»: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكُونُ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٣٣) [العنكبوت] والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً، وسيأتي بعض أمثلة لذلك قريباً - إن شاء الله - .

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ فيه للعلماء أوجه:

أحدها: أن المعنى أنهم ليس لهم حسنات توزن في الكفة الأخرى في مقابلة سيئاتهم، بل لم يكن لهم إلا السيئات، ومن كان كذلك فهو في النار، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (٥٢) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (٥٣) [المؤمنون]. وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَوْمِئِذٍ الْحَقُّ مِنْ قُلُوبِهِمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ [الأعراف: ٨ - ٩]، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأَتَمَّتْ هَكَاوِيَهُ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ (١٠) نَارُ حَامِيَةٍ (١١)﴾ [القارعة]؛ إلى غير ذلك من الآيات. وقال بعض أهل العلم: معنى ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ أنهم لا قدر لهم عند الله لحقارتهم، وهو أنهم بسبب كفرهم؛ وذلك كقوله عنهم: ﴿سَيَذَخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، أي صاغرين أذلاء حقيرين، وقوله: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ [الصفافات] وقوله: ﴿قَالَ اخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هوانهم وصغارهم وحقارتهم.

وقد دلت السنة الصحيحة على أن معنى الآية يدخل فيه الكافر السمين العظيم البدن؛ لا يزن عند الله يوم القيامة جناح بعوضة، قال البخاري في صحيحه في تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا سعيد بن أبي مريم، أخبرنا المغيرة بن عبد الرحمن، حدثني أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال: اقروا ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾» وعن يحيى بن بكير، عن المغيرة بن عبد الرحمن، عن أبي الزناد مثله، اهـ. من البخاري.

وهذا الحديث أخرجه أيضاً مسلم في صحيحه، وهو يدل على أن نفس الكافر العظيم السمين لا يزن عند الله جناح بعوضة. وفيه دلالة على وزن الأشخاص. وقال أبو عبد الله القرطبي في تفسير هذه الآية بعد أن أشار إلى حديث أبي هريرة المذكور ما نصه: وفي هذا الحديث من الفقه ذم السمن لمن تكلفه؛ لما في ذلك من تكلف المطاعم والاشتغال بها عن المكارم. بل يدل على تحريم الأكل الزائد على قدر الكفاية، المبتغى به الترفه والسمن؛ وقد قال ﷺ: «إن أبغض الرجال إلى الله تعالى الحبر السمين» ومن حديث عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: «خيركم قرني ثم

الذين يلونهم - قال عمران: قلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة - ثم إن من بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن» وهذا ذم. وبسبب ذلك أن السمن المكتسب إنما هو من كثرة الأكل والشره والدعة والراحة والأمن، والاسترسال مع النفس على شهواتها؛ فهو عبد نفسه لا عبد ربه، ومن كان هذا حاله وقع لا محالة في الحرام، وكل لحم تولد من سحت فالنار أولى به، وقد ذم الله تعالى الكفار بكثرة الأكل فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَاللَّارِ مَوْتُهُمْ﴾ [محمد: ١٢] فإذا كان المؤمن يتشبه بهم، ويتنعم تنعمهم في كل أحواله وأزماته، فأين حقيقة الإيمان والقيام بوظائف الإسلام. ومن كثر أكله وشربه كثر نهمه وحرصه، وزاد بالليل كسله ونومه، فكان نهاره هائماً، وليله نائماً، اهـ. محل الغرض من كلام القرطبي؛ وما تضمنه كلامه من الجزم بأن النبي ﷺ قال: «إن الله يبغيض الجبر السمين» فيه نظر؛ لأنه لم يصح مرفوعاً، وقد حسنه البيهقي من كلام كعب، وما ذكر من ذم كثرة الأكل والشرب والسمن المكتسب ظاهر وأدلتة كثيرة: «وحسب المؤمن لقيمات يقمن صلبه».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الأعمال الصالحة والإيمان سبب في نيل جنات الفردوس، والآيات الموضحة لكون العمل الصالح سبباً في دخول الجنة كثيرة جداً كقوله تعالى: ﴿وَيُنَبِّئُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْعَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَّا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ (٢)، وقوله: ﴿وَوُودُوا أَنْ تُلْقُوا بِأَعْيُنِكُمْ الْجَنَّةَ أَوْ رُشْتُمْوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف] أي بسببه، وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧٧) [الزخرف]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ قَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (٦٦) جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ... الآية [مريم: ٦٠ - ٦١]، إلى غير ذلك من الآيات.

تنبيه: فإن قيل: هذه الآيات فيها الدلالة على أن طاعة الله بالإيمان والعمل الصالح سبب في دخول الجنة، وقوله ﷺ: «لن يدخل أحدكم عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل» يرد بسببه إشكال على ذلك.

فالجواب أن العمل لا يكون سبباً لدخول الجنة إلا إذا تقبله الله تعالى وتقبله له فضل منه، فالفعل الذي هو سبب لدخول الجنة هو الذي تقبله الله بفضله، وغيره من الأعمال لا يكون سبباً لدخول الجنة، وللجمع بين الحديث والآيات المذكورة أوجه أخر، هذا أظهرها عندي، والعلم عند الله تعالى. وقد قدمنا أن «النزل» هو ما يهيا من الإكرام للضيف أو القادم.

قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَتَغَوَّنَ عَنْهَا حَوْلًا﴾ (٧٨).

أي خالدين في جنات الفردوس لا يبيغون عنها حولاً، أي تحولاً إلى منزل آخر؛ لأنها لا يوجد منزل أحسن منها يرغب في التحول إليه عنها، بل هم خالدون فيها دائماً من غير تحول ولا انتقال، وهذا المعنى المذكور هنا جاء موضعاً في مواضع آخر كقوله: ﴿الَّذِينَ أَحْلَنَّا دَارَ الْقَامَةِ﴾ [فاطر: ٣٥] أي الإقامة أبداً، وقوله: ﴿وَيَبْشِرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْكُوتُ الصَّالِحِينَ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَّا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [٢]، وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ﴾ [ص: ٥٤]، وقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ يُجْذَوْنَ﴾ [هود: ١٠٨]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على دوامهم فيها، ودوام نعيمها لهم، والحوال: اسم مصدر بمعنى التحول.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جَنَّا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [١٦٩]. أمر - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول: ﴿لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي﴾؛ أي لو كان ماء البحر مداداً للأقلام التي تكتب بها كلمات الله ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ أي فرغ وانتهى قبل أن تنفد كلمات ربي ﴿وَلَوْ جَنَّا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ أي ببحر آخر مثله مدداً، أي زيادة عليه. وقوله: «مدداً» منصوب على التمييز، ويصح إعرابه حالاً، وقد زاد هذا المعنى إيضاحاً في سورة «لقمان» في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُودُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]. وقد دلت هذه الآيات على أن كلماته تعالى لا نفاذ لها ﷻ علواً كبيراً.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ﴾. أمر - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول للناس: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾؛ أي لا أقول لكم إنني ملك ولا غير بشر، بل أنا بشر مثلكم؛ أي بشر من جنس البشر، إلا أن الله تعالى فضّلني وخصني بما أوحى إليّ من توحيده وشرعه. وقوله هنا: ﴿يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ﴾ أي فوحده ولا تشركوا به غيره. وهذا الذي بينه تعالى في هذه الآية؛ أوضحه في مواضع آخر كقوله في أول «فصلت»: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا وَرَبِّ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣] وقوله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠]. وهذا الذي أمر الله به نبيه ﷺ في هذه الآية من أنه يقول للناس أنه بشر، ولكن الله فضله على غيره بما أوحى إليه من وحيه، جاء مثله عن الرسل غيره - صلوات الله وسلامه عليهم - في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١]. فكون الرسل مثل البشر من حيث أن أصل الجميع وعنصرهم واحد، وأنهم تجري على جميعهم الأعراض البشرية لا ينافي تفضيلهم على سائر البشر بما خصهم الله به من وحيه واصطفائه وتفضيله كما هو ضروري.

وقال بعض أهل العلم: معنى هذه الآية: قل يا محمد للمشركين: إنما أنا بشر

مثلكم، فمن زعم منكم أنني كاذب فليأت بمثل ما جئت به، فإنني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به عما سألتكم عنه من أخبار الماضين كقصص أصحاب الكهف، وخبر ذي القرنين، وهذا له اتجاه، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

قوله في هذه الآية: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ يشمل كونه يأمل ثوابه، ورؤية وجهه الكريم يوم القيامة، وكونه يخشى عقابه؛ أي فمن كان راجياً من ربه يوم يلقاه الثواب الجزيل والسلامة من الشر فليعمل عملاً صالحاً، وقد قدمنا إيضاح العمل الصالح وغير الصالح في أول هذه السورة الكريمة وغيرها، فأغنى عن إعادته هنا.

وقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ قال جماعة من أهل العلم: أي لا يرأي الناس في عمله؛ لأن العمل بعبادة الله لأجل رياء الناس من نوع الشرك، كما هو معروف عند العلماء أن الرياء من أنواع الشرك، وقد جاءت في ذلك أحاديث مرفوعة. وقد ساق طرفها ابن كثير في تفسير هذه الآية، والتحقيق أن قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ أعم من الرياء وغيره، أي لا يعبد ربه رياء وسمعة، ولا يصرف شيئاً من حقوق خالقه لأحد من خلقه؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ...﴾ الآية [النساء: ٤٨] في الموضعين، ويقول: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، إلى غير ذلك من الآيات.

ويضهم من مفهوم مخالفة الآية الكريمة أن الذي يشرك أحداً بعبادة ربه، ولا يعمل صالحاً أنه لا يرجو لقاء ربه، والذي لا يرجو لقاء ربه لا خير له عند الله يوم القيامة.

وهذا المفهوم جاء مبيناً في مواضع أخر كقوله تعالى فيما مضى قريباً: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ [١٥] ذَلِكَ جَزَاءُهمْ... الآية؛ لأن من كفر بلقاء الله لا يرجو لقاءه. وقوله في «العنكبوت»: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكُونُ مِنْ رَحْمَتِي...﴾ الآية [العنكبوت: ٢٣]، وقوله في «الأعراف»: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٧] «الأعراف» وقوله في «الأنعام»: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْزَنْنَا عَلَى مَا ظَنَنَّا فِيهَا...﴾ الآية [الأنعام: ٣١]، وقوله تعالى في «يونس»: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥]، وقوله في «الفرقان»: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [٦] «الفرقان»، وقوله في «الروم»: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَائِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [١١] «الروم» إلى غير ذلك من الآيات.

تنبيه: اعلم: أن الرجاء كقوله هنا: ﴿يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ يستعمل في رجاء الخير، ويستعمل في الخوف أيضاً، واستعماله في رجاء الخير مشهور. ومن استعمال الرجاء في الخوف قول أبي ذؤيب الهذلي:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وحالفها في بيت نوب عواسل
فقوله: «لم يرج لسعها» أي لم يخف لسعها. ويروى حالفها بالحاء والخاء،
ويروى عواسل بالسین، وعواسل بالمیم.

فإذا علمت أن الرجاء يطلق على كلا الأمرين المذكورين فاعلم أنهما متلازمان،
فمن كان يرجو ما عند الله من الخير فهو يخاف ما لديه من الشر كالعكس، واختلف
العلماء في سبب نزول هذه الآية الكريمة أعني قوله تعالى: ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ
فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا...﴾ الآية، فعن ابن عباس أنها نزلت في جندب بن زهير الأزدي
الغامدي، قال: يا رسول الله، إنني أعمل العمل لله تعالى وأريد وجه الله تعالى، إلا أنه
إذا اطلع عليه سرنى؟ فقال النبي ﷺ: «إن الله طيب ولا يقبل إلا الطيب، ولا يقبل ما
شورك فيه» فنزلت الآية. وذكره القرطبي في تفسيره، وذكر ابن حجر في الإصابة أنه من
رواية ابن الكلبي في التفسير عن أبي صالح عن أبي هريرة، وضعف هذا السند مشهور،
وعن طاوس أنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أحب الجهاد في سبيل الله
تعالى، وأحب أن يرى مكاني. فنزلت هذه الآية. وعن مجاهد قال: جاء رجل إلى
النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أتصدق وأصل الرحم، ولا أصنع ذلك إلا لله
تعالى، فيذكر ذلك مني، وأحمد عليه فيسرنى ذلك، وأعجب به. فسكت رسول الله ﷺ
ولم يقل شيئاً، فأنزل الله تعالى: ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ
رَبِّهِ أَحَدًا﴾، انتهى من تفسير القرطبي.

ومعلوم أن من قصد بعمله وجه الله فعله الله ولو سره اطلاع الناس على ذلك، ولا
سيما إن كان سروره بذلك لأجل أن يقتدوا به فيه، ومن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا
فهو في سبيل الله، والعلم عند الله تعالى.

وقال صاحب الدر المنثور: أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه
والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله: ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾... الآية
قال: نزلت في المشركين الذين عبدوا مع الله إلهاً غيره، وليست هذه في المؤمنين.
وأخرج عبد الرزاق وابن أبي الدنيا في الإخلاص، وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم
عن طاوس قال: قال رجل: يا نبي الله إني أقف مواقف أبتغي وجه الله، وأحب أن
يرى موطني، فلم يرد عليه شيئاً حتى نزلت هذه الآية: ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ
عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾. وأخرجه الحاكم وصححه، والبيهقي موصولاً عن
طاوس عن ابن عباس. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: كان من المسلمين من
يقاتل وهو يحب أن يرى مكانه. فأنزل الله ﷻ: ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾... الآية، وأخرج
ابن منده وأبو نعيم في الصحابة، وابن عساكر من طريق السدي الصغير، عن الكلبي،
عن أبي صالح عن ابن عباس قال: كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدق
فذكر بخير ارتاح له، فزاد في ذلك لمقالة الناس فلامه الله، فنزل في ذلك: ﴿فَن كَانَ

من كون الإخفاء أفضل من الإعلان في الدعاء، ودعاء زكريا هذا لم يبين الله في هذا الوضع مكانه ولا وقته. ولكنه أشار إلى ذلك في سورة «آل عمران» في قوله: ﴿كَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْغَرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِيقًا قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴿٣٨﴾... الآية [آل عمران: ٣٧ - ٣٨]. فقوله: «هنالك» أي في ذلك المكان الذي وجد فيه ذلك الرزق عند مريم. وقال بعضهم: «هنالك» أي في ذلك الوقت، بناء على أن هنا ربما أشير بها إلى الزمان. وقوله في دعائه هذا: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي ضعف. والوهن: الضعف. وإنما ذكر ضعف العظم؛ لأنه عمود البدن وبه قوامه، وهو أصل بنائه فإذا وهن دل على ضعف جميع البدن؛ لأنه أشد ما فيه وأصلبه، فوهنه يستلزم وهن غيره من البدن.

قوله تعالى: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ الألف واللام في «الرأس» قاما مقام المضاف إليه، إذ المراد: واشتعل رأسي شيباً، والمراد باشتعال الرأس شيباً: انتشار بياض الشيب فيه. قال الزمخشري في كشافه: شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته وانتشاره في الشعر وفشوه فيه، وأخذه منه كل مأخذ باشتعال النار، ثم أخرجه مخرج الاستعارة، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس، وأخرج الشيب مميّزاً، ولم يصف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا. فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة، انتهى منه. والظاهر عندنا كما بينا مراراً أن مثل هذا من التعبير عن انتشار بياض الشيب في الرأس، باشتعال الرأس شيباً أسلوب من أساليب اللغة العربية الفصحى. جاء القرآن به، ومنه قول الشاعر:

ضيعت حزمي في إبعادي الأملأ وما ارعويت وشيباً رأسي اشتغلا

ومن هذا القبيل قول ابن دريد في مقصورته:

واشتعل المبيض في مسوده مثل اشتعال النار في جزل الغضا

وقوله: ﴿شَيْبًا﴾ تمييز محول عن الفاعل في أظهر الأعراب، خلافاً لمن زعم أنه ما ناب عن المطلق من قوله: ﴿وَأَشْتَعَلَ﴾ لأنه اشتعل بمعنى شاب، فيكون «شيباً» مصدراً منه في المعنى، ومن زعم أيضاً أنه مصدر منكر في موضع الحال.

وهذا الذي ذكره الله هنا عن زكريا في دعائه من إظهار الضعف والكبر جاء في مواضع آخر كقوله هنا: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾، وقوله في «آل عمران»: ﴿وَقَدْ بَلَغْتَ الْكِبَرُ﴾... الآية [آل عمران: ٤٠]. وهذا الذي ذكره هنا من إظهار الضعف يدل على أنه ينبغي للداعي إظهار الضعف والخشية والخشوع في دعائه.

وقوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي لم أكن بدعائي إياك شقيّاً؛ أي لم تكن تخيب دعائي إذا دعوتك، يعني أنك عودتني الإجابة فيما مضى. والعرب تقول: شقي بذلك إذا تعب فيه ولم يحصل مقصوده. وربما أطلقت

الشقاء على التعب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرَوْحِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنْ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧] وأكثرها ما يستعمل في ضد السعادة، ولا شك أن إجابة الدعاء من السعادة، فيكون عدم إجابته من الشقاء.

قوله تعالى عن زكرياء: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأَى وَكَانَتْ أَمْرًا عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ أَلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝١٦﴾.

معنى قوله: ﴿خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ أي خفت أقاربي وبنني عمي وعصبي أن يضيعوا الدين بعدي، ولا يقوموا لله بدينه حق القيام، فارزقني ولداً يقوم بعدي بالدين حق القيام، وبهذا التفسير تعلم أن معنى قوله: ﴿يَرِثُنِي﴾ أنه إرث علم ونبوة، ودعوة إلى الله والقيام بدينه، لا إرث مال. ويدل على ذلك أمران:

أحدهما: قوله: ﴿يَرِثْ مِنْ أَلِ يَعْقُوبَ﴾ ومعلوم أن آل يعقوب انقضوا من زمان، فلا يورث عنهم إلا العلم والنبوة والدين.

وثانيهما: ما جاء من الأدلة على أن الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - لا يورث عنهم المال، وإنما يورث عنهم العلم والدين؛ فمن ذلك ما أخرجه الشيخان في صحيحيهما عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أنه قال: «لا نورث ما تركنا صدقة». ومن ذلك أيضاً ما رواه الشيخان أيضاً عن عمر رضي الله عنه أنه قال لعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير، وسعد، وعلي، والعباس، رضي الله عنهم: أنشدكم الله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض، أتعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا صدقة»، قالوا: نعم. ومن ذلك ما أخرجه الشيخان أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أن أزواج النبي ﷺ حين توفي أردن أن يبعثن عثمان إلى أبي بكر يسألنه ميراثهن؛ فقالت عائشة: أليس قال النبي ﷺ: «ما تركنا صدقة». ومن ذلك ما رواه الشيخان أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقسم ورثتي ديناراً، ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤونة عاملي فهو صدقة» وفي لفظ عند أحمد: «لا تقسم ورثتي ديناراً ولا درهماً». ومن ذلك أيضاً ما رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه؛ عن أبي هريرة أن فاطمة رضي الله عنها قالت لأبي بكر رضي الله عنه: من يرثك إذا مت؟ قال: ولدي وأهلي. قالت: فما لنا لا نرث النبي ﷺ؟ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن النبي لا يورث» ولكن أعول من كان رسول الله ﷺ يعوله، وأنفق على من كان رسول الله ﷺ ينفق.

فهذه الأحاديث وأمثالها ظاهرة في أن الأنبياء لا يورث عنهم المال بل العلم والدين، فإن قيل: هذا مختص به ﷺ؛ لأن قوله: «لا نورث» يعني به نفسه؛ كما قال عمر رضي الله عنه في الحديث الصحيح المشار إليه عنه آنفاً: أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركنا صدقة» يريد رسول الله ﷺ نفسه. قال الرهط: قد قال ذلك الحديث، ففي هذا الحديث الصحيح أن

عمر قال: إن مراد النبي ﷺ بقوله: «لا نورث» نفسه، وصدقه الجماعة المذكورون في ذلك، وهذا دليل على الخصوص فلا مانع إذن من كون الموروث عن زكريا في الآية التي نحن بصدددها هو المال؟ فالجواب من أوجه:

الأول: أن ظاهر صيغة الجمع شمول جميع الأنبياء، فلا يجوز العدول عن هذا الظاهر إلا بدليل من كتاب أو سنة، وقول عمر لا يصح تخصيص نص من السنة به؛ لأن النصوص لا يصح تخصيصها بأقوال الصحابة على التحقيق كما هو مقرر في الأصول.

الوجه الثاني: أن قول عمر: «يريد ﷺ نفسه» لا ينافي شمول الحكم لغيره من الأنبياء، لاحتمال أن يكون قصده يريد أنه هو ﷺ يعني نفسه فإنه لا يورث، ولم يقل عمر: إن اللفظ لم يشمل غيره، وكونه يعني نفسه لا ينافي أن غيره من الأنبياء لا يورث أيضاً.

الوجه الثالث: ما جاء من الأحاديث صريحاً في عموم عدم الإرث المالي في جميع الأنبياء. وسنذكر طرقاً من ذلك هنا - إن شاء الله تعالى -.

قال ابن حجر في فتح الباري ما نصه: وأما ما اشتهر في كتب أهل الأصول وغيرهم بلفظ «نحن معاشر الأنبياء لا نورث» فقد أنكره جماعة من الأئمة، وهو كذلك بالنسبة لخصوص لفظ «نحن» لكن أخرجه النسائي من طريق ابن عيينة عن أبي الزناد بلفظ: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث». الحديث، أخرجه عن محمد بن منصور، عن ابن عيينة عنه، وهو كذلك في مسند الحميدي عن ابن عيينة، وهو من أتقن أصحاب ابن عيينة فيه. وأورده الهيثم بن كليب في مسنده من حديث أبي بكر الصديق باللفظ المذكور. وأخرجه الطبراني في الأوسط بنحو اللفظ المذكور. وأخرجه الدارقطني في العلل من رواية أم هانئ عن فاطمة رضي الله عنها، عن أبي بكر الصديق بلفظ: «إن الأنبياء لا يورثون» انتهى محل الغرض من كلام ابن حجر. وقد رأيت فيه هذه الطرق التي فيها التصريح بعموم الأنبياء. وقد قال ابن حجر: إن إنكار الحديث المذكور غير مسلم إلا بالنسبة لخصوص لفظ «نحن» وهذه الروايات التي أشار لها يشد بعضها. وقد تقرر في الأصول أن البيان يصح بكل ما يزيل الإشكال ولو قرينة أو غيرها كما قدمناه موضحاً في ترجمة هذا الكتاب المبارك، وعليه فهذه الأحاديث التي ذكرنا تبين أن المقصود من قوله في الحديث المتفق عليه: «لا نورث» أنه يعني نفسه؛ كما قال عمر وجميع الأنبياء كما دلت عليه الروايات المذكورة. والبيان إرشاد ودلالة يصح بكل شيء يزيل اللبس عن النص من نص أو فعل أو قرينة أو غير ذلك. قال في (مراقي السعود) في تعريف البيان وما به البيان:

وهو واجب على النبي
من الدليل مطلقاً يجلو العما

تصيير مشكل من الجلي
إذا أريد فهمه وهو بما

وبهذا الذي قررنا تعلم أن قوله هنا: «بِرَّثِي وَبَرَّتْ مِنِّي أَل يَعْقُوبُ» يعني وراثته العلم والدين لا المال، وكذلك قوله: «وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ»... الآية [النمل: ١٦] فتلك

الوراثه أيضاً وراثه علم ودين، والوراثه قد تطلق في الكتاب والسنة علي وراثه العلم والدين، كسقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا...﴾ الآية [فاطر: ٣٢]، وقسوله: ﴿وَلِلَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَقِيَ شَئِ مِنْهُ مُرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٤]، وقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ...﴾ الآية [الأعراف: ١٦٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

ومن السنة الواردة في ذلك ما رواه أبو الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «العلماء ورثة الأنبياء» وهو في المسند والسنن. قال صاحب (تميز الطيب من الخبيث، فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث): رواه أحمد وأبو داود والترمذي وآخرون عن أبي الدرداء مرفوعاً بزيادة: «إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم» وصححه ابن حبان والحاكم وغيرهما، انتهى منه بلفظه. وقال صاحب (كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس): «العلماء ورثة الأنبياء» رواه أحمد والأربعة وآخرون عن أبي الدرداء مرفوعاً بزيادة: «إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم...» الحديث، وصححه ابن حبان والحاكم وغيرهما، وحسنه حمزة الكناني وضعفه غيرهم لاضطراب سنده، لكن له شواهد، ولذا قال الحافظ: له طرق يعرف بها أن للحديث أصلاً، ورواه الديلمي عن البراء بن عازب بلفظ الترجمة، اه محل الغرض منه.

والظاهر صلاحية هذا الحديث للاحتجاج لاعتضاد بعض طرقه ببعض، فإذا علمت ما ذكرنا من دلالة هذه الأدلة على أن الوراثة المذكورة في الآية وراثه علم ودين لا وراثه مال، فاعلم أن للعلماء في ذلك ثلاثة أقوال: الأول: هو ما ذكرنا. والثاني: أنها وراثه مال، والثالث: أنها بالنسبة لنفس زكريا وراثه مال، وبالنسبة لآل يعقوب في قوله: ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ وراثه علم ودين. وهذا اختيار ابن جرير الطبري. وقد ذكر من قال: إن وراثته لزكريا وراثه مال حديثاً عن النبي ﷺ في ذلك أنه قال: «رحم الله زكريا ما كان عليه من وراثته» أي ماذا يضره إرث ورثته لماله، ومعلوم أن هذا لم يثبت عن النبي ﷺ. والأرجح فيما يظهر لنا هو ما ذكرنا من أنها وراثه علم ودين؛ للأدلة التي ذكرنا وغيرها مما يدل على ذلك، وقد ذكر ابن كثير في تفسيره هنا ما يؤيد ذلك من أوجه. قال ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ﴾: وجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفاً سيئاً فسأل الله ولداً يكون نبياً من بعده، ليسوسهم بنبوته بما يوحي إليه فأجيب في ذلك؛ لا أنه خشي من وراثتهم له ماله؛ فإن النبي أعظم منزلة، وأجل قدراً من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده، وأن يأنف من وراثه عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم، وهذا وجه.

الثاني: أنه لم يذكر أنه كان ذا مال؛ بل كان نجاراً يأكل من كسب يديه. ومثل هذا لا يجمع مالا، ولا سيما الأنبياء، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا.

الثالث: أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركنا صدقة» وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: «نحن معشر الأنبياء لا نورث» وعلى هذا فتعين حمل قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ ﴿٥﴾ بِرُثْيٍ عَلَى ميراث النبوة. ولهذا قال: ﴿يُرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ كقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦] أي في النبوة، إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه، فلو لا أنها وراثه خاصة لما أخبر بها، وكل هذا يقرره ويثبت ما صح في الحديث: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة»، اه محل الغرض من كلام ابن كثير، ثم ساق بعد هذا طرق الحديث الذي أشرنا له: «يرحم الله زكريا وما كان عليه من ورثة ماله» الحديث، ثم قال في أسانيده: وهذه مراسلات لا تعارض الصحاح.

واعلم أن لفظ: «نحن معاشر الأنبياء» ولفظ: «إنا معاشر الأنبياء» مؤداهما واحد؛ إلا أن «إن» دخلت على «نحن» فأبدلت لفظه «نحن» التي هي المبتدأ بلفظة «نا» الصالحة للنصب، والجملة هي هي إلا أنها في أحد اللفظين أكدت بـ«إن» كما لا يخفى.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ يعني بهذا الولي الولد خاصة دون غيره من الأولياء؛ بدليل قوله تعالى في القصة نفسها: ﴿هَئِلَكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾... الآية [آل عمران: ٣٨]، وأشار إلى أنه الولد أيضاً بقوله: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩] فقوله: ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أي واحداً بلا ولد.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة عن زكريا: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ﴾ أي من بعدي إذا مت أن يغيروا في الدين. وقد قدمنا أن الموالى الأقارب والعصبات، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾... الآية [النساء: ٣٣]. والمولى في لغة العرب: يطلق على كل من انعقد بينك وبينه سبب يواليك وتواليه به، وكثيراً ما يطلق في اللغة على ابن العم؛ لأن ابن العم يوالي ابن عمه بالقرابة العصبية، ومنه قول طرفة بن العبد:

وأعلم علماً ليس بالظن أنه إذا ذل مولى المرء فهو ذليل

يعني إذا ذلت بنو عمه فهو ذليل. وقول الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب:

مهلاً ابن عمنا مهلاً موالينا لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكَاَنَّا آمِرَاتٍ عَاقِرَاتٍ﴾ ظاهر في أنها كانت عاقراً في زمن شبابها، والعاقرة: هي العقيم التي لا تلد وهو يطلق على الذكر والأنثى؛ فمن إطلاقه على الأنثى هذه الآية، وقوله تعالى عن زكريا أيضاً: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَآمِرَاتٍ عَاقِرَاتٍ﴾ [آل عمران: ٤٠]، ومن إطلاقه على الذكر قول عامر بن الطفيل:

لبئس الفتى إن كنت أعور عاقراً جباناً فما عذري لدى كل محضر

وقد أشار تعالى إلى أنه أزال عنها العقم، وأصلحها، فجعلها ولوداً بعد أن كانت عاقراً في قوله - عز وجل -: ﴿فَأَسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجُهُ﴾ [الأنبياء: ٩٠] فهذا الإصلاح هو كونها صارت تلد بعد أن كانت عقيماً. وقول من قال: إن إصلاحها المذكور هو جعلها حسنة الخلق بعد أن كانت سيئة الخلق لا ينافي ما ذكر لجواز أن يجمع له بين الأمرين فيها، مع أن كون الإصلاح هو جعلها ولوداً بعد العقم هو ظاهر السياق، وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير، ومجاهد وغيرهم، والقول الثاني يروى عن عطاء.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة عن زكريا: ﴿وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾؛ أي مرضياً عندك وعند خلقك في أخلاقه وأقواله وأفعاله ودينه، وهو فعل بمعنى مفعول.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ أي من عندك، وقوله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: ﴿يَرْثِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ قرأه أبو عمرو والكسائي بإسكان التاء المثلثة من الفعلين، أعني «يرثي ويرث من آل يعقوب» وهما على هذه القراءة مجزومان لأجل جواب الطلب الذي هو «هب لي» والمقرر عند علماء العربية أن المضارع المجزوم في جواب الطلب مجزوم بشرط مقدر يدل عليه فعل الطلب، وتقديره في هذه الآية التي نحن بصدددها، إن تهب لي من لدنك ولياً يرثي ويرث من آل يعقوب، وقرأ الباقون ﴿يَرْثِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ برفع الفعلين على أن الجملة نعت لقوله: «ولياً» أي ولياً وارثاً لي، ووارثاً من آل يعقوب، كما قال في الخلاصة:

ونعتوا بجملة منكرأ فأعطيت ما أعطيته خبراً

وقراءة الجمهور برفع الفعلين أوضح معنى. وقرأ ابن كثير بفتح الياء من قوله: «من ورائي وكانت امرأتي» والباقون بإسكانها، وقرأ «زكريا» بلا همزة بعد الألف حمزة والكسائي وحفص عن عاصم. والباقون قرؤوا «زكرياء» بهمزة بعد الألف، وبه تعلم أن المد في قوله: «وزكرياء إذ نادى» منفصل على قراءة حمزة والكسائي وحفص، ومتصل على قراءة الباقيين. والهمزة الثانية على قراءة الجمهور التي هي همزة «إذ» مسهلة في قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو، ومحقة في قراءة ابن عامر وشعبة عن عاصم. وقراءة «خفت الموالى» بفتح الخاء والفاء المشددة بصيغة الفعل الماضي، بمعنى أن مواليه خفوا أي قلوا، شادة لا تجوز القراءة بها وإن رويت عن عثمان بن عفان، ومحمد بن علي، وعلي بن الحسين، وغيرهم رضي الله عنهم. وامرأة زكريا المذكورة قال القرطبي: هي إيشاع بنت فاقوذ بن قبيل، وهي أخت حنة بنت فاقوذ؛ قاله الطبري. وحنة: هي أم مريم. وقال القتيبي: امرأة زكريا هي إيشاع بنت عمران؛ فعلى هذا القول يكون يحيى ابن خالة عيسى عليه السلام على الحقيقة. وعلى القول الأول يكون ابن خالة أمه. وفي

حديث الإسراء قال - عليه الصلاة والسلام - : «فلقيت ابني الخالة يحيى وعيسى» شاهداً للقول الأول، اهـ منه، والظاهر شهادة الحديث للقول الثاني لا للأول، خلافاً لما ذكره - رحمه الله تعالى -، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَزْكِرُنَا إِنَّا بُشِّرُكَ بِغُلَامٍ أَكْبَرٍ أَسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾. في هذه الآية الكريمة حذف دل المقام عليه، وتقديره: فأجاب الله دعاء فنودي ﴿يَزْكِرُنَا﴾... الآية. وقد أوضح - جل وعلا - في موضع آخر هذا الذي أجمله هنا، فبين أن الذي ناداه بعض الملائكة. وأن النداء المذكور وقع وهو قائم يصلي في المحراب؛ وذلك قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ۝١٦﴾ [آل عمران] وقوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال بعض العلماء: أطلق الملائكة وأراد جبريل. ومثل به بعض علماء الأصول للعام المراد به الخصوص قائلاً: إنه أراد بعموم الملائكة خصوص جبريل، وإسناد الفعل للمجموع مراداً بعضه قد بيناه فيما مضى مراراً.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿أَسْمُهُ يَحْيَى﴾ يدل على أن الله هو الذي سماه، ولم يكل تسميته إلى أبيه. وفي هذا منقبة عظيمة ليحيى.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ اعلم أولاً أن السمي يطلق في اللغة العربية إطلاقين: الأول قولهم: فلان سمي فلان أي مسمى باسمه. فمن كان اسمهما واحد فكلاهما سمي الآخر أي مسمى باسمه.

والثاني: إطلاق السمي يعني المسامي أي المماثل في السمو والرفعة والشرف، وهو فعيل بمعنى مفاعل من السمو بمعنى العلو والرفعة، ويكثر في اللغة إتيان الفعيل بمعنى المفاعل؛ كالقعيد والجليل بمعنى المقاعد والمجالس. والأكيل والشريب بمعنى المؤاكل والمشارب، وكذلك السمي بمعنى المسامي أي المماثل في السمو. فإذا علمت ذلك، فاعلم أن قوله هنا: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي لم نجعل من قبله أحداً يتسمى باسمه؛ فهو أول من كان اسمه يحيى. وقول من قال: إن معناه لم نجعل له سميّاً أي نظيراً في السمو والرفعة غير صواب لأنه ليس بأفضل من إبراهيم وموسى ونوح، فالقول الأول هو الصواب. وممن قال به ابن عباس وقتادة والسدي وابن أسلم وغيرهم. ويروى القول الثاني عن مجاهد وابن عباس أيضاً، وإذا علمت أن الصواب أن معنى قوله: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي لم نسّم أحداً باسمه قبله فاعلم أن قوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ۝١٥﴾ معناه أنه تعالى ليس له نظير ولا مماثل يساميه في العلو والعظمة والكمال على التحقيق، وقال بعض العلماء: وهو مروي عن ابن عباس ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾: هل تعلم أحداً يسمى باسمه الرحمن - جل وعلا - والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ آمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن زكريا لما بشر بيحيى قال: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ آمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ وهذا الذي ذكر أنه قاله هنا ذكره أيضاً في «آل عمران» في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ وَآمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠]. وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ قرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم «عتيا» بكسر العين اتباعاً للكسرة التي بعدها، ومجانسة للياء، وقرأه الباقون «عتيا» بضمها على الأصل. ومعنى قوله: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أنه بلغ غاية الكبر في السن؛ حتى نحل عظمه ويس. قال ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية: يقول وقد عتوت من الكبر فصرت نحيل العظام يابسها؛ يقال منه للعود اليابس: عود عات عاس. وقد عتا يعتو عتواً وعتياً. وعسا يعسو عسياً وعسواً. وكل متناه إلى غاية في كبر أو فساد أو كفر فهو عات وعاس.

تنبيه: فإن قيل: ما وجه استفهام زكريا في قوله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ مع علمه بقدرة الله تعالى على كل شيء.

فالجواب في ثلاثة أوجه قد ذكرناها في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة «آل عمران» وواحد منها فيه بعد وإن روي عن عكرمة والسدي وغيرهما. الأول: أن استفهام زكريا استفهام استخبار واستعلام؛ لأنه لا يعلم هل الله يأتيه بالولد من زوجه العجوز على كبر سنهما على سبيل خرق العادة، أو يأمره بأن يتزوج شابة، أو يردهما شابين؟ فاستفهم عن الحقيقة ليعلمها، ولا إشكال في هذا، وهو أظهرها. الثاني: أن استفهامه استفهام تعجب من كمال قدرة الله تعالى،

الثالث: وهو الذي ذكرنا أن فيه بعداً، هو ما ذكره ابن جرير عن عكرمة والسدي من أن زكرياء لما نادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى، قال له الشيطان: ليس هذا نداء الملائكة، وإنما هو نداء الشيطان، فداخل زكرياء الشك في أن النداء من الشيطان، فقال عند ذلك الشك الناشئ عن وسوسة الشيطان قبل أن يتيقن أنه من الله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ الآية [آل عمران: ٤٠]؛ ولذا طلب الآية من الله على ذلك بقوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً﴾ الآية [آل عمران: ٤١]. وإنما قلنا: إن هذا القول فيه بعد لأنه لا يلتبس على زكرياء نداء الملائكة بنداء الشيطان.

وقوله في هذه الآية الكريمة: «عتياً» أصله عتوا، فأبدلت الواو ياء، ومن إطلاق العتي على الكبر المتناهي قول الشاعر:

إنما يعذر الوليد ولا يعذر من كان في الزمان عتياً
وقراءة «عسيا» بالسین شاذة لا تجوز القراءة بها، وقال القرطبي: وبها قرأ ابن عباس، وهي كذلك في مصحف أبي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۖ﴾. هذا الذي ذكره تعالى في هذه الآية الكريمة، ذكره أيضاً في «آل عمران» في قوله: ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠]. وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿كَذَلِكَ﴾ للعلماء في إعرابه أوجه:

الأول: أنه خبر مبتدأ محذوف، وتقديره، الأمر كذلك، ولا محالة أن تلد الغلام المذكور، وقيل: الأمر كذلك أنت كبير في السن، وامراتك عاقر، وعلى هذا فقوله: ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ ابتداء كلام.

الوجه الثاني: أن «كذلك» في محل نصب بـ«قال» وعليه فالإشارة بقوله: «ذلك» إلى مبهم يفسره قوله: ﴿هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾ ونظيره على هذا القول قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَوْلَاءَ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ۖ﴾ [الحجر: ١٧]. وغير هذين من أوجه إعرابه تركناه لعدم وضوحه عندنا. وقوله: ﴿هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾ أي يسير سهل.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ أي ومن خلقتك ولم تكن شيئاً فهو قادر على أن يرزقك الولد المذكور كما لا يخفى، وهذا الذي قاله هنا لتركيباً من أنه خلقه ولم يكن شيئاً، أشار إليه بالنسبة إلى الإنسان في مواضع أخر كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَذْكُرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۖ﴾ [١٧]... الآية، وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ۖ﴾ [الإنسان: ١].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ دليل على أن المعدوم ليس بشيء؛ ونظيره قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [يس: ٨٢]، وهذا هو الصواب، خلافاً للمعتزلة القائلين: إن المعدوم الممكن وجوده شيء؛ مستلدين لذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۖ﴾ [الأنعام: ٦٧] [يس] قالوا: قد سماه الله شيئاً قبل أن يقول له كن فيكون، وهو يدل على أنه شيء قبل وجوده، ولأجل هذا قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: لأن المعدوم ليس بشيء. أو ليس شيئاً يعتد به؛ كقولهم: عجب من لا شيء... وقول الشاعر:

وضاقت الأرض حتى كان هاربهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلاً

لأن مراده بقوله: «غير شيء»، أي إذا رأى شيئاً تافهاً لا يعتد به كأنه لا شيء لحقارته ظنه رجلاً؛ لأن غير شيء بالكلية لا يصح وقوع الرؤية عليه. والتحقيق هو ما دلت عليه هذه الآية وأمثالها في القرآن من أن المعدوم ليس بشيء، والجواب عن استدلالهم بالآية أن ذلك المعدوم لما تعلق الإرادة بإيجاده، صار تحقق وقوعه كوقوعه بالفعل، كقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [الكهف: ٩٩]، وقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالنَّبِيِّينَ﴾ [الزمر: ٦٩]، وقوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾... الآية [الزمر: ٧١]، وقوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾

رَّحِمَهُمْ... الآية [الزمر: ٧٣]، وأمثال ذلك، كل هذه الأفعال الماضية الدالة على الوقوع بالفعل فيما مضى، أطلقت مراداً بها المستقبل؛ لأن تحقق وقوع ما ذكر صيره كالواقع بالفعل. وكذلك تسميته شيئاً قبل وجوده لتحقيق وجوده بإرادة الله تعالى.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ﴾ قرأه عامة السبعة ما عدا حمزة والكسائي ﴿خَلَقْنَاكَ﴾ بناء الفاعل المضمومة التي هي تاء المتكلم. وقرأه حمزة والكسائي «وقد خلقناك» بكون بعدها ألف، وصيغة الجمع فيها للتعظيم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ لَيْلًا سَوْيًا ۝١٠﴾. المراد بالآية هنا العلامة، أي اجعل لي علامة أعلم بها وقوع ما بشرت به من الولد، قال بعض أهل العلم: طلب الآية على ذلك لتتم طمأنينته بوقوع ما بشر به. ونظيره على هذا القول قوله تعالى عن إبراهيم: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]. وقيل: أراد بالعلامة أن يعرف ابتداء حمل امرأته؛ لأن الحمل في أول زمنه يخفى.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ لَيْلًا سَوْيًا﴾؛ أي علامتك على وقوع ذلك ألا تكلم الناس، أي أن تمنع الكلام فلا تطيقه ثلاث ليال بأيامهن في حال كونك سويًا، أي سوي الخلق، سليم الجوارح، ما بك خرس ولا بكم ولكنك ممنوع من الكلام على سبيل خرق العادة، كما قدمنا في «آل عمران»، أما ذكر الله فليس ممنوعاً منه بدليل قوله في «آل عمران»: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَتَحْيَىٰ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [آل عمران: ٤١]. وقول من قال: إن معنى قوله تعالى: ﴿تَلَثَّ لَيْلًا سَوْيًا﴾ أي ثلاث ليال متتابعات، غير صواب، بل معناه هو ما قدمناه من كون اعتقال لسانه عن كلام قومه ليس لعله ولا مرض حدث به ولكن بقدرة الله تعالى، وقد قال تعالى هنا: ﴿تَلَثَّ لَيْلًا﴾ ولم يذكر معها أيامها، ولكنه ذكر في «آل عمران»، في قوله: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾... الآية [آل عمران: ٤١]. فدللت الآيتان على أنها ثلاث ليال بأيامهن.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ يعني إلا بالإشارة أو الكتابة، كما دل عليه قوله هنا: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، وقوله في «آل عمران»: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا﴾... الآية [آل عمران: ٤١]؛ لأن الرمز الإشارة والإيماء بالشفيتين والحاجب، والإيحاء في قوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا﴾... الآية، قال بعض العلماء: هو الإشارة وهو الأظهر بدليل قوله: ﴿إِلَّا رَمْرًا﴾ كما تقدم آنفاً، وممن قال بأن الوحي في الآية الإشارة: قتادة، والكلبي، وابن منبه، والعتبي، كما نقله عنهم القرطبي وغيره. وعن مجاهد، والسدي ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ١٣] أي كتب لهم في الأرض، وعن عكرمة: كتب لهم في كتاب. والوحي في لغة العرب يطلق

على كل إلقاء في سرعة وخفاء؛ ولذلك أطلق على الإلهام، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّبْلِ﴾... الآية [النحل: ٦٨]. وعلى الإشارة كما هو الظاهر في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا﴾... الآية، ويطلق على الكتابة كما هو القول الآخر في هذه الآية الكريمة، وإطلاق الوحي على الكتابة مشهور في كلام العرب، ومنه قول لبيد بن ربيعة في معلقته:

فمدافع الريان عرى رسمها خلقاً كما ضمن الوحي سلامها

فقوله: «الوحي» بضم الواو وكسر الحاء وتشديد الياء، جمع وحي بمعنى الكتابة. وقول عترة:

كوحى صحائف من عهد كسرى فأهداها لأعجم طمطمى
وقول ذي الرمة:

سوى الأربع الدهم اللواتي كأنها بقية وحي في بطون الصحائف
وقول جرير:

كان أخوا الكتاب يخط وحيًا بكاف في منازلها ولام
قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن زكرياء خرج على قومه من المحراب فأشار إليهم، أو كتب لهم أن سبحوا الله أول النهار وآخره، فالبكرة أول النهار، والعشي آخره. وقد بين تعالى في «آل عمران» أن هذا الذي أمر به زكرياء قومه بالإشارة أو الكتابة من التسبيح بكرة وعشيًا، أن الله أمر زكرياء به أيضاً، وذلك في قوله: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [آل عمران: ٤١]. والظاهر أن هذا المحراب الذي خرج منه على قومه هو المحراب الذي بشر بالولد وهو قائم يصلي فيه المذكور في قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: ٣٩]. قال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية: والمحراب: أرفع المواضع، وأشرف المجالس. وكانوا يتخذون المحاريب فيما ارتفع من الأرض، اه. وقال الجوهري في صحاحه: قال الفراء: المحاريب: صدور المجالس، ومنه سمي محراب المسجد، والمحراب: الغرفة. قال وضاح اليمن:

ربة محراب إذا جئتها لم ألقها أو أرتقي سلما

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وللعلماء أقوال في ارتفاع الإمام على المأمومين في الصلاة مستنبطة من الآية والخلاصة ما قال مقيده رحمه الله يرجع من أراد الوقوف عليها إلى الأصل وخلاصة رأي الشيخ فيها: وجوب الجمع بين الأدلة المذكورة، وأن علو الإمام مكروه لما تقدم.

ويجمع بينه وبين قصة الصلاة على المنبر بجوازه للتعليم دون غيره، ويدل لهذا إخباره ﷺ أنه ارتفع على المنبر ليعلمهم الصلاة؛ لأنه إذا ارتفع رأوه وإذا نزل لم يره إلا من يليه، وجمع بعضهم بأن ارتفاعه على المنبر ارتفاع يسير وهو مغتفر. أما علو المأموم فقد تعارض فيه القياس مع فعل أبي هريرة؛ لأن القياس يقتضي كراهة ارتفاع المأموم قياساً على ارتفاع الإمام وهو قياس جلي، وإذا تعارض القياس مع قول الصحابي فمن الأصوليين من يقول بتقديم القياس، وهو مذهب مالك وجماعة، ومنهم من يقول بتقديم قول الصحابي، ولا شك أن الأحوط تجنب علو كل واحد من الإمام والمأموم على الآخر، والعلم عند الله تعالى.

و«أن» في قوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا﴾ هي المفسرة، والمعنى أن ما بعدها يفسر الإيحاء المذكور قبلها، فهذا الذي أشار لهم به هو الأمر بالتسبيح بكرة وعشياً، وهذا هو الصواب، ويحتمل أن تكون مصدرية بناء على أن «أن» المصدرية تأتي مع الأفعال الطلبية؛ وعليه فالمعنى أوحى إليهم أي أشار إليهم بأن سبِّحوا، أي بالتسبيح أو كتب لهم ذلك بناء على القول بأن المراد به الكتابة، وكونها مفسرة هو الصواب، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَبْحِثْ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۚ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا ۝١٣ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۝١٤ وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٥﴾ وَبَرًّا بِوَالَدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٦ وَسَلَّمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٧﴾. اعلم أولاً أننا قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يذكر شيء مع بعض صفاته وله صفات أخر مذكورة في موضع آخر، فإننا نبينها؛ وقد مر فيه أمثلة كثيرة من ذلك، وأكثرها في الموصوفات من أسماء الأجناس لا الأعلام، وربما ذكرنا ذلك في صفات الأعلام كما هنا، فإذا علمت ذلك، فاعلم أنه تعالى ذكر في هذه الآية الكريمة بعض صفات يحيى، وقد ذكر شيئاً من صفاته أيضاً في غير هذا الموضع، وسنين - إن شاء الله - المراد بالمذكور منها هنا، والمذكور في غير هذا الموضع.

اعلم أنه هنا وصفه بأنه قال له: ﴿يَبْحِثْ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ ووصفه بقوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾، فقوله: ﴿يَبْحِثْ خُذِ الْكِتَابَ﴾ مقول قول محذوف؛ أي وقلنا له يا يحيى خذ الكتاب بقوة، والكتاب: التوراة؛ أي خذ التوراة بقوة؛ أي بجهد واجتهاد، وذلك بتفهم المعنى أولاً حتى يفهمه على الوجه الصحيح، ثم يعمل به من جميع الجهات، فيعتقد عقائده، ويحل حلاله، ويحرم حرامه، ويتأدب بأدابه، ويتعظ بمواعظه، إلى غير ذلك من جهات العمل به. وعامة المفسرين على أن المراد بالكتاب هنا: التوراة. وحكى غير واحد عليه الإجماع. وقيل: هو كتاب أنزل على يحيى، وقيل: هو اسم جنس يشمل الكتب المتقدمة، وقيل: هو صحف إبراهيم، والأظهر قول الجمهور: إنه التوراة كما قدمنا.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحُكْمَ﴾ أي أعطيناه الحكم، وللعلماء في المراد بالحكم أقوال متقاربة، مرجعها إلى شيء واحد، وهو أن الله أعطاه الفهم في الكتاب؛ أي إدراك ما فيه والعمل به في حال كونه صبيّاً. قال ابن كثير رحمته الله في تفسير هذه الآية: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾ أي الفهم والعلم والجد والعزم، والإقبال على الخير والإكباب عليه، والاجتهاد فيه، وهو صغير حدث. قال عبد الله بن المبارك: قال معمر: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، فقال: ما للعب خلقنا! فلهذا أنزل الله: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾، وقال ابن جرير الطبري رحمته الله في تفسير هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾ يقول تعالى ذكره: وأعطيناه الفهم بكتاب الله في حال صباه قبل بلوغه أسنان الرجال، وقد حدثنا أحمد بن منيع قال: حدثنا عبد الله بن المبارك قال: أخبرني معمر ولم يذكره عن أحد في هذه الآية ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾ قال: بلغني أن الصبيان قالوا ليحيى: اذهب بنا نلعب، فقال: ما للعب خلقنا، فأنزل الله ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾. وقال الزمخشري في الكشاف: ﴿الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾ أي الحكمة، ومنه قول نابغة ذبيان:

واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت إلى حمام سراع وارد الشمد

وقال أبو حيان في البحر في تفسير هذه الآية: والحكم النبوة، أو حكم الكتاب، أو الحكمة، أو العلم بالأحكام، أو اللب وهو العقل، أو آداب الخدمة، أو الفراسة الصادقة. أقوال.

قال مقبده - عفا الله عنه وغفر له -: الذي يظهر لي، هو أن الحكم العلم النافع والعمل به، وذلك بفهم الكتاب السماوي فهماً صحيحاً، والعمل به حقاً، فإن هذا يشمل جميع أقوال العلماء في الآية الكريمة. وأصل معنى «الحكم» المنع، والعلم النافع، والعمل به يمنع الأقوال والأفعال من الخلل والفساد والنقصان.

وقوله تعالى: ﴿صَبِيّاً﴾ أي لم يبلغ، وهو الظاهر. وقيل: صبيّاً أي شاباً لم يبلغ سن الكهولة، ذكره أبو حيان وغيره، والظاهر الأول. قيل: ابن ثلاث سنين، وقيل: ابن سبع، وقيل: ابن ستين، والله أعلم.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَحَنَاناً﴾ معطوف على ﴿الْحُكْمَ﴾ أي وآتيناه حناناً من لدنا، والحنان: هو ما جبل عليه من الرحمة، والعطف والشفقة. وإطلاق الحنان على الرحمة والعطف مشهور في كلام العرب، ومنه قولهم: حنانك وحنانيك يا رب، بمعنى رحمتك، ومن هذا المعنى قول امرئ القيس:

أبنت الحارث الملك بن عمرو له ملك العراق إلى عمان

ويمنحها بنو شمعجي بن جرم معيرهم حنانك ذا الحنان

يعني رحمتك يا رحمن؛ وقول طرفة بن العبد:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا
حنانك بعض الشر أهو من بعض
وقول منذر بن درهم الكلبي:

وأحدث عهد من أمينة نظرة
على جانب العلياء إذ أنا واقف
فقلت حنان ما أتى بك هاهنا
أذو نسب أم أنت بالحي عارف

فقوله: «حنان» أي أمري حنان؛ أي رحمة لك، وعطف، وشفقة عليك، وقول
الخطيئة أو غيره:

تحنن على هداك المليك فإن لكل مقام مقالاً

وقوله تعالى: ﴿مَنْ لَدُنَّا﴾ أي من عندنا، وأصح التفسيرات في قوله: ﴿وَزَكَاةٌ﴾ أنه
معطوف على ما قبله أي أو أعطيناه زكاة، أي طهارة من أدران الذنوب والمعاصي
بالطاعة، والتقرب إلى الله بما يرضيه، وقد قدمنا في سورة «الكهف» الآيات الدالة على
إطلاق الزكاة في القرآن بمعنى الطهارة، فأغنى ذلك عن إعادته هنا، وقال أبو عبد الله
القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية ﴿وَزَكَاةٌ﴾ الزكاة: التطهير والبركة والتنمية في وجوه
الخير؛ أي جعلناه مباركاً للناس يهديهم. وقيل: المعنى زكينا بحسن الثناء عليه كما
يزكي الشهود إنساناً. وقيل: ﴿زَكَاةٌ﴾ صدقة على أبويه؛ قاله ابن قتيبة. انتهى كلام
القرطبي، وهو خلاف التحقيق في معنى الآية. والتحقيق فيه - إن شاء الله - هو ما ذكرنا
من أن المعنى: وأعطيناه زكاة؛ أي طهارة من الذنوب والمعاصي بتوفيقنا إياه للعمل بما
يرضي الله تعالى، وقول من قال من العلماء: بأن المراد بالزكاة في الآية العمل الصالح،
راجع إلى ما ذكرنا؛ لأن العمل الصالح هو الذي به الطهارة من الذنوب والمعاصي.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾، أي ممثلاً لأوامر ربه مجتنباً
كل ما نهى عنه؛ ولذا لم يعمل خطيئة قط، ولم يلم بها، قاله القرطبي وغيره عن قتادة
 وغيره. وفي نحو ذلك أحاديث مرفوعة، والظاهر أنه لم يثبت شيء من ذلك مرفوعاً؛
إما بانقطاع، وإما بعنونة مدلس، وإما بضعف راو، كما أشار له ابن كثير وغيره. وقد
قدمنا معنى «التقوى» مراراً وأصل مادتها في اللغة العربية:

وقوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ البر بالفتح هو فاعل البر - بالكسر - كثيراً، أي
وجعلناه كثير البر بوالديه، أي محسناً إليهما، لطيفاً بهما، لين الجانب لهما. وقوله:
﴿وَبَرًّا﴾ معطوف على قوله: ﴿تَقِيًّا﴾ وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ أي لم يكن
مستكبراً عن طاعة ربه وطاعة والديه، ولكنه كان مطيعاً لله، متواضعاً لوالديه، قاله ابن
جيرير. والجبار: هو كثير الجبر، أي القهر للناس، والظلم لهم، وكل متكبر على الناس
يظلمهم: فهو جبار. وقد أطلق في القرآن على شديد البطش في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا
بَطَشْتُمْ بَطْشَتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء] وعلى من يتكرر منه القتل في قوله: ﴿أَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ
كَمَا قُتِلَتْ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾... الآية [القصص: ١٩].

والظاهر أن قوله: ﴿عَصِيًّا﴾ فعول قلبت فيه الواو ياء وأدغمت في الياء على القاعدة التصريفية المشهورة؛ التي عقدها ابن مالك في الخلاصة بقوله:

إن يسكن السابق من واو ويا واتصلا ومن عروض عريا
فياء الواو اقلبن مدغما وشذ معطى غير ما قد رسما

فأصل «عصيا» على هذا «عصوباً» كصبور، أي كثير العصيان، ويحتمل أن يكون أصله فعيلًا وهي من صيغ المبالغة أيضاً، قاله أبو حيان في البحر.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾ قال ابن جرير: وسلام عليه أي أمان له. وقال ابن عطية: والأظهر عندي أنها التحية المتعارفة، فهي أشرف من الأمان؛ لأن الأمان متحصل له بنفي العصيان عنه وهو أقل درجاته، وإنما الشرف في أن سلم الله عليه وحياه في المواطن التي الإنسان فيها في غاية الضعف والحاجة، وقلة الحيلة والفقر إلى الله تعالى عظيم الحول، انتهى كلام ابن عطية بواسطة نقل القرطبي في تفسير هذه الآية، ومرجع القولين إلى شيء واحد؛ لأن معنى سلام، التحية، الأمان، والسلامة مما يكره. وقول من قال: هو الأمان، يعني أن ذلك الأمان من الله. والتحية من الله معناها الأمان والسلامة مما يكره. والظاهر المتبادر أن قوله: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾ تحية من الله ليحيى ومعناها الأمان والسلامة.

وقوله: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ﴾ مبتدأ، وسوغ الابتداء به وهو نكرة أنه في معنى الدعاء، وإنما خص هذه الأوقات الثلاثة بالسلام التي هي وقت ولادته، ووقت موته، ووقت بعثه في قوله: ﴿يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾... الآية؛ لأنها أوحش من غيرها، قال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم. قال: فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلام عليه فيها؛ رواه عنه ابن جرير وغيره. وذكر ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية بإسناده عن الحسن رضي الله عنه قال: إن عيسى ويحيى التقيا فقال له عيسى: استغفر لي، أنت خير مني. قال الآخر: استغفر لي، أنت خير مني، فقال عيسى: أنت خير مني، سلمت على نفسي وسلم الله عليك. وقد نقل القرطبي هذا الكلام الذي رواه ابن جرير عن الحسن البصري - رحمه الله تعالى - ثم قال: انتزع بعض العلماء من هذه الآية في التسليم، فضل عيسى بأن قال إدلاله في التسليم على نفسه ومكانته من الله تعالى التي اقتضت ذلك حين قرر وحكى في محكم التنزيل أعظم في المنزلة من أن يسلم عليه، قال ابن عطية: ولكل وجه. انتهى كلام القرطبي. والظاهر أن سلام الله على يحيى في قوله: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾ الآية أعظم من سلام عيسى على نفسه في قوله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝١٦﴾ كما هو ظاهر.

قال مقيده - عفا الله عنه - : وجه هذا الاستنباط أن الحال قيد لعاملها، وصف لصاحبها، وعليه فبعثه مقيد بكونه حياً، وتلك حياة الشهداء، وليس بظاهر كل الظهور، والله تعالى أعلم.

هذا هو حاصل ما ذكره الله تعالى في هذه السورة الكريمة من صفات يحيى، وذكر بعض صفاته في غير هذا الموضع، كقوله في «آل عمران»: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩] ومعنى كونه ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩] أنه مصدق بعبسى، وإنما قيل لعيسى كلمة لأن الله أوجده بكلمة هي قوله: «كن» فكان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ... الآية [النساء: ١٧١]. وقال: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ... الآية [آل عمران: ٤٥]. وهذا هو قول جمهور المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩] وقيل: المراد بكلمة الكتاب، أي مصدقاً بكتاب الله. والكلمة في القرآن تطلق على الكلام المفيد، كقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠] إلى غير ذلك من الآيات، وباقي الأقوال تركناه لظهور ضعفه. والصواب - إن شاء الله - هو ما ذكرنا. وقوله: ﴿وَسَيِّدًا﴾ [آل عمران: ٣٩] وزن السيد بالميزان الصرفي «فيعل» وأصل مادته (س و د) سكنت ياء الفاعل الزائدة قبل الواو التي هي في موضع العين، فأبدلت الواو ياء عن القاعدة التصريفية المشار لها بقوله في الخلاصة:

إن يسكن السابق من واو ويا

البيتين المتقدمين آنفاً. وأصله من السواد وهو الخلق الكثير، فالسيد من يطيعه، ويتبعه سواد كثير من الناس. والدليل على أن عين المادة واو أنك تقول فيه: ساد يسود بالواو، وتقول: سودوه، إذا جعلوه سيّداً، والتضعيف يرد العين إلى أصلها، ومنه قول عامر بن الطفيل العامري:

وإني وإن كنت ابن سيد عامر وفارسها المشهور في كل موكب

فما سودتني عامر عن وراثة أبى الله أن أسمو بأب ولا أب

وقال الآخر:

وإن بسقوم سودوك لحاجة إلى سيد لو يظفرون بسيد

وشهرة مثل ذلك تكفي عن بيانه، والآية فيها دليل على إطلاق السيد على من ساد من الناس، وقد جاء في الصحيحين وغيرهما أن النبي ﷺ قال في الحسن بن علي ؑ: «إن ابني هذا سيد» الحديث، وأنه ﷺ لما جاء سعد بن معاذ ؓ للحكم في بني قريظة قال ﷺ: «قوموا لسيدكم» والتحقيق في معنى قوله: ﴿وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩] أنه الذي

حصر نفسه عن النساء مع القدرة على إتيانهن تبتلاً منه، وانقطاعاً لعبادة الله. وكان ذلك جائزاً في شرعه، وأما سنة النبي ﷺ فهي الزوج وعدم التبتل، أما قول من قال: إن الحضور فعول بمعنى مفعول، وأنه محصور عن النساء لأنه عنين لا يقدر على إتيانهن، فليس بصحيح؛ لأن العنة عيب ونقص في الرجال، وليست من فعله حتى يثني عليه بها. فالصواب - إن شاء الله - هو ما ذكرنا، واختاره غير واحد من العلماء. وقول من قال: إن الحضور هو الذي لا يدخل مع القوم في الميسر كما قال الأخطل:

وشارب مريح بالكأس نادمني لا بالحضور ولا فيها بسوار

قول ليس بالصواب في معنى الآية، بل معناها هو ما ذكرنا وإن كان إطلاق الحضور على ذلك صحيحاً لغة. وقوله: «ونبيئاً» على قراءة نافع بالهمزة معناه واضح، وهو فعيل بمعنى مفعول، من النبأ وهو الخبر الذي له شأن؛ لأن الوحي خبر له شأن يخبره الله به. وعلى قراءة الجمهور بالياء المشددة فقال بعض العلماء: معناه كمعنى قراءة نافع، إلا أن الهمزة أبدلت ياء وأدغمت فيها الياء التي قبلها. وعلى هذا فهو كالقراءتين السبعيتين في قوله: ﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْبَنِيَّ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧] بالهمزة وتشديد الياء. وقال بعض العلماء: هو على قراءة الجمهور من النبوة بمعنى الارتفاع لرفعة النبي وشرفه، والصالحون هم الذين صلحت عقائدهم، وأعمالهم، وأقوالهم، ونياتهم، والصالح ضد الفساد، وقد وصف الله تعالى يحيى بالصالح مع من وصف بذلك من الأنبياء في سورة «الأنعام» في قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [٨٥] «الأنعام».

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [١٦].

أمر الله - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يذكر في الكتاب وهو القرآن ﴿مَرْيَمَ﴾ حين انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، وقوله: ﴿انْتَبَذَتْ﴾ أي تنحت عنهم واعتزلتهم منفردة عنهم. وقوله: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أي مما يلي شرقي بيت المقدس. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: «إِذْ بَدَلُ مِنْ ﴿مَرْيَمَ﴾ بدل اشتمال؛ لأن الأحيان مشتملة على ما فيها اشتمال الظرف على مظروفه. قاله الزمخشري في الكشف واعترضه عليه أبو البقاء وأبو حيان. والظاهر سقوط اعتراضهما، وأن الصواب معه، والله تعالى أعلم. ولم يذكر هنا شيئاً عن نسب «مريم» ولا عن قصة ولادتها، وبين في غير هذا الموضع أنها ابنة عمران، وأن أمها نذرت ما في بطنها محرراً، تعني لخدمة بيت المقدس، تظن أنها ستلد ذكراً فولدت «مريم». قال في بيان كونها ابنة عمران: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانُ الَّتِي أَحْصَيْنَا فَجْعَهَا﴾... الآية [التحریم: ١٢]. وذكر قصة ولادتها في «آل عمران» في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [٢٥] فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ

كَأَلَانِي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ أَيْ لَكَ هَذَا قَالَتَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُرِزُّ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ [آل عمران].

وقوله: ﴿مَكَانًا﴾ منصوب لأنه ظرف.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾. أظهر الأقوال أن المراد بقوله: ﴿رُوحَنَا﴾ جبريل. ويدل لذلك قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء]، وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وإضافته إلى الله إضافة تشريف وتكريم.

قوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾. تمثله لها بشراً سوياً المذكور في الآية يدل على أنه ملك وليس بآدمي، وهذا المدلول صرح به تعالى في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُكَ إِنَّ اللَّهَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥]. وهذا الذي بشرها به هو الذي قال لها هنا: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ وقوله: ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ حالان من ضمير الفاعل في قوله: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن ذلك الروح الذي هو جبريل قال لها إنه رسول ربها ليهب لها، أي ليعطيها غلاماً أي ولداً زكياً، أي طاهراً من الذنوب والمعاصي، كثير البركات، وبين في غير هذا الموضع كثيراً من صفات هذا الغلام الموهوب لها، وهو عيسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الْمُذَلِّجِينَ ﴿٤٦﴾ [آل عمران: ٤٦] وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْقُ إِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُلُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٨، ٤٩]، إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على صفات هذا الغلام. وقرأ هذا الحرف أبو عمرو وورش عن نافع وقالون عنه أيضاً بخلف عنه «ليهب» بالياء المفتوحة بعد اللام، أي ليهب لك هو، أي ربك غلاماً زكياً. وقرأ الباقون «لأهب» بهمزة المتكلم أي لأهب لك هو أنا أيها الرسول من ربك غلاماً زكياً. وفي معنى إسناد الهبة إلى نفسه على قراءة الجمهور خلاف معروف بين العلماء، وأظهر الأقوال في ذلك عندي أن المراد بقول جبريل لها: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾؛ أي لأكون سبباً في هبة الغلام بالنفخ في الدرع الذي وصل إلى الفرج، فصار بسببه حملها عيسى، وبين تعالى في سورة «التحريم» أن هذا النفخ في فرجها في قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ ... الآية [التحريم: ١٢]. والضمير في قوله: «فيه» راجع إلى فرجها. ولا ينافي

ذلك قوله تعالى في «الأنبياء»: ﴿وَالَّذِي أَخَصَّكَ فَزَعَجْنَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] لأن النفخ وصل إلى الفرج فكان منه حمل عيسى، وبهذا فسر الزمخشري في الكشف الآية.

وقال بعض العلماء: قول جبريل ﴿لَا هَبَ لَكَ﴾ حكاية منه لقول الله - جل وعلا - عليه فالمعنى إنما أنا رسول ربك، وقد قال لي أرسلتك لأهب غلاماً، والأول أظهر. وفي الثاني بعد عن ظاهر اللفظ. وقال بعض العلماء: جعل الهبة من قبله لما كان الإعلام بها من قبله. وبهذا صدر القرطبي في تفسيره. وأظهرها الأول، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن مريم لما بشرها جبريل بالغلام الزكي - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - قالت: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ أي كيف ألد غلاماً والحال أنني لم يمسنني بشر، تعني لم يجامعني زوج بنكاح ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾، أي لم أك زانية. وإذا انتفى عنها ميسس الرجال حلالاً وحراماً فكيف تحمل، والظاهر أن استفهامها استخبار واستعلام عن الكيفية التي يكون بها حمل الغلام المذكور؛ لأنها مع عدم ميسس الرجال لم تتضح لها الكيفية. ويحتمل أن يكون استفهامها استفهام تعجب من كمال قدرة الله تعالى، وهذا الذي ذكر الله - جل وعلا - عنها أنها قالت هنا ذكره عنها أيضاً في سورة «آل عمران» في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِبَشَرِكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝٢٠﴾ وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْهَدْيِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝٢١﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: ٤٥ - ٤٧]. واقتصارها في آية «آل عمران» على قولها: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: ٤٧] يدل على أن ميسس البشر المنفي عنها شامل للميسس بنكاح والميسس بزنى، كما هو الظاهر. وعليه فقولها في سورة «مريم»: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ يظهر فيه أن قولها: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ تخصيص بعد تعميم؛ لأن ميسس البشر يشمل الحلال والحرام. وقال الزمخشري في الكشف في تفسير قوله تعالى هنا: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ جعل المس عبارة عن النكاح الحلال لأنه كناية عنه كقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿أَوْ لَيَمَسُنَّ أَلْسِنَةً﴾ [النساء: ٤٣] والزنى ليس كذلك، إنما يقال فيه: فجر بها، وخبث بها، وما أشبه ذلك. وليس بقمن أن تراعى فيه الكنايات والآداب، اهـ.

وأظهر الأول، وآية (آل عمران) تدل عليه، ويؤيده أن لفظة «بشر» نكرة في سياق النفي فهي تعم كل بشر فينتفي ميسس كل بشر كائناً من كان، والبغي: المجاهرة المشتهرة بالزنى. ووزنه فاعول عند المبرد، اجتمعت فيه واو وياء سبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياء وأدغمت في الياء وكسر ما قبلها لأجل الياء كما كسرت في عصي ودلي جمع عصا ودلو. كما قدمنا هذا مراراً. والقائل بأن أصل البغي فاعول، يقول: لو كان أصله فعلاً للحقته هاء التأنيث، لأنها لازمة في فعيل بمعنى فاعل. وقال

ابن جني في كتاب التمام: أصل البغي على وزن فعيل، ولو كان فعولاً؛ لتقليل بغو؛ كما قيل: فلان نهو عن المنكر. وعلى هذا القول فقد يجاب عن عدم لحوق تاء التأنيث بأن البغي وصف مختص بالإناث. والرجل يقال فيه باغ لا بغي؛ كما قاله أبو حيان في البحر، والأوصاف المختصة بالإناث لا تحتاج إلى تاء الفرق بين الذكر والأنثى كحائض؛ كما عقده ابن مالك في الكافية بقوله:

وما من الصفات بالأنثى يخص عن تاء استغنى لأن اللفظ نص

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾. قد قدمنا تفسير هذه الآية مستوفى في قصة زكرياء، فأغنى عن إعادته هنا. وقول جبريل لمريم في هذه الآية: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾؛ أي وستلدين ذلك الغلام المبشر به من غير أن يمسك بشر، وقد أشار تعالى إلى معنى هذه الآية في سورة في قوله: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا فَصَخْ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّهَا آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من حكم خلقه عيسى من امرأة بغير زوج ليجعل ذلك آية للناس؛ أي علامة دالة على كمال قدرته، وأنه تعالى يخلق ما يشاء كيف يشاء إن شاء خلقه من أنثى بدون ذكر كما فعل بعيسى، وإن شاء خلقه من ذكر بدون أنثى كما فعل يعقوب كما نص على ذلك في قوله: ﴿وَيُطَلِّقُ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] أي خلق من تلك النفس التي هي آدم زوجها حواء، وإن شاء خلقه بدون الذكر، والأنثى معاً كما فعل بآدم. وإن شاء خلقه من ذكر وأنثى كما فعل بسائر بني آدم، فسيحان الله العظيم القادر على كل شيء؟ وما ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: من كونه جعل عيسى آية حيث ولدته أمه من غير زوج أشار له أيضاً في «الأنبياء» بقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]، وفي «الفلاح» بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّهَا آيَةً لِلنَّاسِ﴾ فيه حذف دل المقام عليه. قال الزمخشري في الكشاف: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّهَا آيَةً لِلنَّاسِ﴾ تعليل معلله محذوف؛ أي ولنجعل آية للناس فعلنا ذلك، أو هو معطوف على تعليل مضمر، أي لنبين به قدرتنا ولنجعل آية. ونحوه ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَيِّ وَلِيُخْرِجَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [البجائية: ٢٢]، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ﴾ [يوسف: ٢١] اهـ.

وقوله في هذه الآية: ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ أي لمن آمن به، ومن كفر به فلم يتبع الرحمة لنفسه، كما قال تعالى في نبينا ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي وكان وجود ذلك الغلام منك أمراً مقضياً، أي مقدراً في الأزل، مسطوراً في اللوح المحفوظ لا بد من وقوعه، فهو واقع لا محالة.

قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۖ﴾ (٢٢) ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مَثٌ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ۖ﴾ (٢٣).

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن مريم حملت عيسى. فقوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ أي عيسى ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِ﴾ أي تنحت به وبعدت معتزلة عن قومها ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي في مكان بعيد، والجمهور على أن المكان المذكور بيت لحم. وفيه أقوال آخر غير ذلك، وقوله: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾ أي ألجأها الطلق إلى جذع النخلة، أي جذع نخلة في ذلك المكان. والعرب تقول: جاء فلان، وأجاءه غيره: إذا حملة على المجيء، ومنه قول زهير:

وجار سار معتمداً إلينا أجاءته المخافة والرجاء
وقول حسان رضي الله عنه:

إذ شددنا شدة صادقة فأجأناكم إلى سفح الجبل
والمخاض: الطلق، وهو وجع الولادة، وسمي مخاضاً من المخض، وهو الحركة الشديدة لشدة تحرك الجنين في بطنها إذا أراد الخروج.

وقوله: ﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مَثٌ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ تمت أن تكون قد ماتت قبل ذلك ولم تكن شيئاً يذكر. فإذا عرفت معنى هاتين الآيتين، فاعلم أنه هنا لم يبين كيفية حملها به، ولم يبين هل هذا الذي تنحت عنهم من أجله، وتمنت من أجله أن تكون ماتت قبل ذلك، وكانت نسياً منسياً؛ وهو خوفها من أن يتهموها بالزنى، وأنها جاءت بذلك الغلام من زنى وقعت فيه أو سلمت منه. ولكنه تعالى بين كل ذلك في غير هذا الموضع، فأشار إلى أن كيفية حملها أنه نفخ فيها فوصل النفخ إلى فرجها فوقع الحمل بسبب ذلك، كما قال: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢] وقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾... الآية [الأنبياء: ٩١]. والذي عليه الجمهور من العلماء أن المراد بذلك النفخ نفخ جبريل فيها بإذن الله فحملت، كما تدل لذلك قراءة الجمهور في قوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ كما تقدم، ولا ينافي ذلك إسناد الله - جل وعلا - النفخ المذكور لنفسه في قوله: ﴿فَنَفَخْنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]؛ لأن جبريل إنما أوقعه بإذنه وأمره ومشيئته، وهو تعالى الذي خلق الحمل من ذلك النفخ؛ فجبريل لا قدرة له على أن يخلق الحمل من ذلك النفخ؛ ومن أجل كونه بإذنه ومشيئته وأمره تعالى، ولا يمكن أن يقع النفخ المذكور ولا وجود الحمل منه إلا بمشيئته - جل وعلا - أسنده إلى نفسه، والله تعالى أعلم.

وقول من قال: إن فرجها الذي نفخ فيه الملك هو جيب درعها ظاهر السقوط، بل النفخ الواقع في جيب الدرع وصل إلى الفرج المعروف فوقع الحمل.

وقد بين تعالى في مواضع آخر أن ذلك الذي خافت منه وهو قذفهم لها بالفاحشة

قد وقعت فيه، ولكن الله برأها، وذلك كقوله عنهم: ﴿قَالُوا يَلْمِزُكَ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ يعنون الفاحشة، وقوله عنهم: ﴿يَتَأَخَتِ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعِيًّا﴾ يعنون فكيف فجرت أنت وجئت بهذا الولد؟ وكقوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرِهِمْ يَقُولُهُمْ عَلَيَّ مَرْيَمَ يَهْتِنُنَّ عَظِيمًا﴾ [النساء].

وقوله: ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ القصي، البعيد، ومنه قول الراجز:

لتقعدن مقعد القصي مني ذي القاذورة المقلبي
أو تحلفني بربك العلي أني أبو ذياك الصبي

وهذا المكان القصي قد وصفه الله تعالى في غير هذا الموضع بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون]؛ وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَانْتَبَذَتْ بِهِ﴾ أي انتبذت وهو في بطنها. والإشارة في قوله هذا إلى الحمل والمخاض الذي أصابها للوضع.

وقوله في هذه الآية الكريمة عنها: ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ النسي والنسي - بالكسر والفتح - هو ما من حقه أن يطرح وينسى لحقارته، كخزق الحيض، وكالوتد والعصا، ونحو ذلك. ومن كلام العرب إذا ارتحلوا عن الدار قولهم: انظروا أنساءكم، جمع نسي، أي الأشياء الحقيرة التي من شأنها أن تترك وتنسى كالعصا والوتد؛ ونحو ذلك. فقولها: ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا﴾ أي شيئاً تافهاً حقيراً من حقه أن يترك وينسى عادة. وقولها: ﴿مَنْسِيًّا﴾ تعني أن ذلك الشيء التافه الذي من عادته أن يترك وينسى قد نسي وطرح بالفعل فوجد فيه النسيان الذي هو حقه. وأقوال المفسرين في الآية راجعة إلى ما ذكرنا، ومن إطلاق النسي على ما ذكرنا قول الكمي:

أتجعلنا جسراً لكلب قضاة ولنست بنسي في معد ولا دخل

فقوله: «بنسي» أي شيء تافه منسي، وقول الشنفرى:

كان لها في الأرض نسياً تقصه على أمها وإن تحدثك تبلى

فقوله: «نسياً» أي شيء تركته ونسيته. وقوله: «تبلى» بفتح التاء وسكون الباء الموحدة وفتح اللام بعدها تاء التأنيث - أي تقطع كلامها من الحياء. والبلت في اللغة: القطع. وقرأ نافع وحفص عن عاصم وحمزة والكسائي ﴿يَلْتَنِي مِتُّ﴾ بكسر الميم، وقرأ الباقر «مت» بضم الميم. وقرأ حفص عن عاصم وحمزة ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا﴾ بفتح النون. والباقر بكسرهما، وهما لغتان فصيحتان، وقرأتان صحيحتان.

وأقوال العلماء في قدر المدة التي حملت فيها مريم بعيسى قبل الوضع لم نذكرها، لعدم دليل على شيء منها. وأظهرها أنه حمل كعادة حمل النساء وإن كان منشؤه خارقاً للعادة، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾.

اعلم أولاً: أن في هذا الحرف قراءتين سبعيتين: قرأه نافع وحفص عن عاصم وحمزة والكسائي ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾؛ بكسر الميم على أن «من» حرف جر، وخفض تاء تحتها؛ لأن الظرف مجرور بـ«من». وقرأه ابن كثير وأبو عمرو، وابن عامر وشعبة عن عاصم، ﴿فَنَادَاهَا مَنْ تَحْتَهَا﴾ بفتح ميم «من» على أنه اسم موصول هو فاعل نادى، أي ناداها الذي تحتها، وفتح «تحتها»، فعلى القراءة الأولى ففاعل النداء ضمير محذوف، وعلى الثانية فالفاعل الاسم الموصول الذي هو «من».

وإذا عرفت هذا فاعلم أن العلماء مختلفون في هذا المنادي الذي ناداها المعبر عنه في إحدى القراءتين بالضمير، وفي الثانية بالاسم الموصول من هو؟ فقال بعض العلماء: هو عيسى. وقال بعض العلماء: هو جبريل. وممن قال: إن الذي نادى مريم هو جبريل، ابن عباس، وعمرو بن ميمون الأودي، والضحاك، وقتادة، والسدي، وسعيد بن جبیر في إحدى الروايتين عنه. وأهل هذا القول قالوا: لم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها.

وممن قال: إن الذي ناداها هو عيسى عندما وضعته، أبي، ومجاهد، والحسن، ووهب بن منبه، وسعيد بن جبیر في الرواية الأخرى عنه، وابن زيد.

فإذا علمت ذلك فاعلم أن من قال: إنه الملك يقول: فناداها جبريل من مكان تحتها؛ لأنها على رتبة مرتفعة، وقد ناداها من مكان منخفض عنها. وبعض أهل هذا القول يقول: كان جبريل تحتها يقبل الولد كما تقبله القابلة. والظاهر الأول على هذا القول. وعلى قراءة «فناداها من تحتها» بفتح الميم وتاء «تحتها» عند أهل هذا القول، فالمعنى فناداها الذي هو تحتها أي في مكان أسفل مكانها، أو تحتها يقبل الولد كما تقبل القابلة مع ضعف الاحتمال الأخير كما قدمنا، أي وهو جبريل. فعلى القراءة الأولى على هذا القول «فناداها» هو أي جبريل من تحتها. وعلى القراءة الثانية «فناداها من تحتها» أي الذي تحتها وهو جبريل. وأما على القول بأن المنادي هو عيسى، فالمعنى على القراءة الأولى: فناداها هو أي المولود الذي وضعته من تحتها؛ لأنه كان تحتها عند الوضع. وعلى القراءة الثانية: «فناداها من تحتها» أي الذي تحتها وهو المولود المذكور الكائن تحتها عند الوضع، وممن اختار أن الذي ناداها هو عيسى، ابن جرير الطبري في تفسيره، واستظهره أبو حيان في البحر، واستظهر القرطبي أنه جبريل.

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: أظهر القولين عندي أن الذي ناداها هو ابنها عيسى، وتدل على ذلك قرنتان: الأولى: أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور إلا بدليل صارف عن ذلك يجب الرجوع إليه، وأقرب مذكور في الآية هو عيسى لا جبريل؛ لأن الله قال: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾؛ يعني عيسى ﴿فَانْتَبَذَتْ بِهِ﴾؛ أي بعيسى.

ثم قال بعده: ﴿فَنَادَاهَا﴾؛ فالذي يظهر ويتبادر من السياق أنه عيسى، والقرينة

الثانية أنها لما جاءت به قومها تحمله، وقالوا لها ما قالوا أشارت إلى عيسى ليكلموه؛ كما قال تعالى عنها: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ تُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾؛ وإشارتها إليه ليكلموه قرينة على أنها عرفت قبل ذلك أنه يتكلم على سبيل خرق العادة لندائه لها عندما وضعت. وبهذه القرينة الأخيرة استدل سعيد بن جبير في إحدى الروايتين عنه على أنه عيسى كما نقله عنه غير واحد. و«أن» في قوله: ﴿أَلَا تَحْزَنِي﴾؛ هي المفسرة، فهي بمعنى أي، وضابط «أن» المفسرة أن يتقدمها معنى القول دون حروفه، كما هنا، فالنداء فيه بمعنى القول دون جروفه ومعنى كونها مفسرة أن الكلام الذي بعدها هو معنى ما قبلها؛ فالنداء المذكور قبلها هو: لا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً.

واختلف العلماء في المراد بالسري هنا، فقال بعض العلماء: هو الجدول وهو النهر الصغير؛ لأن الله أجرى لها تحتها نهراً؛ وعليه فقوله تعالى: ﴿فَكُلِّي﴾؛ أي من الرطب المذكور في قوله: ﴿سَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا حَيًّا﴾ ﴿وَأَشْرَبِي﴾؛ أي من النهر المذكور في قوله: ﴿فَدَّ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾؛ وإطلاق السري على الجدول مشهور في كلام العرب؛ ومنه قول لبيد في معلقته:

فتوسطا عرض السري وصدعا مسجورة متجاورا قلامها
وقول لبيد أيضاً يصف نخلاً نابتاً على ماء النهر:

سحق يمتنعها الصفا وسريه عم نواعم بينهن كروم
وقول الآخر:

سهل الخليفة ما جد ذو نائل مثل السري تمده الأنهار
فقوله «سريه»؛ وقولهما «السري» بمعنى الجدول. وكذلك قول الراجز:

سلم ترى الدالي منه أزورا إذا يعب في السري هرهرا
وقال بعض أهل العلم: السري هو عيسى. والسري هو الرجل الذي له شرف ومروءة؛ يقال في فعله سرو بالضم. وسرا - بالفتح - يسرو سرواً فيهما. وسري - بالكسر - يسري سري وسراء وسرواً إذا شرف. ويجمع السري هذا على أسرياء على القياس، وسرواء وسراة بالفتح. وعن سيبويه أن السراة - بالفتح - اسم جمع لا جمع؛ ومنه قول الأفوه الأودي:

لا يصلح الناس فوضي لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا
ويجمع السراة على سروات؛ ومنه قول قيس بن الخطيم:

وعمرة من سروات النساء تنفج بالمسك أردانها
ومن إطلاق السري بمعنى الشريف قول الشاعر:

تلقى السري من الرجال بنفسه وابن السري إذا سرى أسراهما

وقوله «أسراهما» أي أشرفهما؛ قاله في اللسان.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له - : أظهر القولين عندي أن السري في الآية النهر الصغير، والدليل على ذلك أمران:

أحدهما: القرينة من القرآن، فقوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي﴾؛ قرينة على أن ذلك المأكول والمشروب هو ما تقدم الامتنان به في قوله: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾، وقوله: ﴿سُقِطَ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوَيْنَهُمَا إِلَى رِجْوَى ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، لأن المعين الماء الجاري، والظاهر أنه الجدول المعبر عنه بالسري في هذه الآية. والله تعالى أعلم.

ثانيهما: حديث جاء بذلك عن النبي ﷺ. قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وقد جاء بذلك حديث مرفوع، قال الطبراني: حدثنا أبو شعيب الحراني، حدثنا يحيى بن عبد الله البابلي، حدثنا أيوب بن نهيك، سمعت عكرمة مولى ابن عباس، سمعت ابن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن السري الذي قال الله لمريم: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾، نهر أخرجه الله لها لتشرب منه» وهذا حديث غريب جداً من هذا الوجه. وأيوب بن نهيك هذا هو الحبلي، قال فيه أبو حاتم الرازي: ضعيف. وقال أبو زرعة: منكر الحديث. وقال أبو الفتح الأزدي: متروك الحديث، انتهى كلام ابن كثير. وقال ابن حجر رحمه الله في «الكافي الشاف»، في تخريج أحاديث الكشاف في الحديث المذكور: أخرجه الطبراني في الصغير، وابن عدي من رواية أبي سنان سعيد بن سنان، عن أبي إسحاق، عن البراء عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾، قال: «السري النهر». قال الطبراني: لم يرفعه عن أبي إسحاق إلا أبو سنان، رواه عنه يحيى بن معاوية وهو ضعيف. وأخرجه عبد الرزاق، عن الثوري، عن أبي إسحاق عن البراء موقوفاً. وكذا ذكره البخاري تعليقاً عن وكيع، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق. ورواه ابن مردويه من طريق آدم، عن إسرائيل كذلك، وأخرجه الحاكم من وجه آخر عن أبي إسحاق موقوفاً. وفي الباب عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «إن السري الذي قاله لمريم نهر أخرجه الله لتشرب منه»، أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية في ترجمة عكرمة، عن ابن عمر، ورواه عن عكرمة أيوب بن نهيك ضعفه أبو حاتم وأبو زرعة، انتهى.

فهذا الحديث المرفوع إلى النبي ﷺ وإن كانت طرقه لا يخلو شيء منها من ضعف أقرب إلى الصواب من دعوى أن السري عيسى بغير دليل يجب الرجوع إليه. وممن اختار أن السري المذكور في الآية النهر: ابن جرير في تفسيره، وبه قال البراء بن عازب، وعلي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وعمرو بن ميمون، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، وإبراهيم النخعي، وقتادة، والسدي، وهب بن منبه وغيرهم. وممن قال إنه عيسى: الحسن، والربيع بن أنس، ومحمد بن عباد بن جعفر؛ وهو إحدى الروایتين عن قتادة. وقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قاله ابن كثير وغيره.

قوله تعالى: ﴿وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ يَجْمَعُ النَّخْلَةَ تَنْقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ۝١٥﴾ فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَفَرِي عَيْنًا. لم يصرح - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة ببيان الشيء الذي أمرها أن تأكل منه، والشيء الذي أمرها أن تشرب منه، ولكنه أشار إلى أن الذي أمرها أن تأكل منه هو «الرطب الجني» المذكور، والذي أمرها أن تشرب منه هو النهر المذكور المعبر عنه «بالسري» كما تقدم هذا هو الظاهر.

وقال بعض العلماء: إن جذع النخلة الذي أمرها أن تهز به كان جذعاً يابساً؛ فلما هزته جعله الله نخلة ذات رطب جني. وقال بعض العلماء: كان الجذع جذع نخلة نابتة إلا أنها غير مثمرة، فلما هزته أنبت الله فيه الثمر وجعله رطباً جنيّاً. وقال بعض العلماء: كانت النخلة مثمرة، وقد أمرها الله بهزها ليتساقط لها الرطب الذي كان موجوداً. والذي يفهم من سياق القرآن أن الله أنبت لها ذلك الرطب على سبيل خرق العادة، وأجرى لها ذلك النهر على سبيل خرق العادة. ولم يكن الرطب والنهر موجودين قبل ذلك، سواء قلنا: إن الجذع كان يابساً أو نخلة غير مثمرة، إلا أن الله أنبت فيه الثمر وجعله رطباً جنيّاً. ووجه دلالة السياق على ذلك أن قوله تعالى: ﴿فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَفَرِي عَيْنًا﴾؛ يدل على أن عينها إنما تقرر في ذلك الوقت بالأمور الخارقة للعادة؛ لأنها هي التي تبين براءتها مما اتهموها به. فوجود هذه الخوارق من تفجير النهر، وإنبات الرطب، وكلام المولود تطمئن إليه نفسها وتزول به عنها الريبة، وبذلك يكون قرة عين لها؛ لأن مجرد الأكل والشرب مع بقاء التهمة التي تمتنت بسببها أن تكون قد ماتت من قبل وكانت نسياً منسياً لم يكن قرة لعينها في ذلك الوقت كما هو ظاهر، وخرق الله لها العادة بتفجير الماء، وإنبات الرطب، وكلام المولود لا غرابة فيه. وقد نص الله - جل وعلا - في «آل عمران» على خرقه لها العادة في قوله: ﴿كَلَّمَكَ اللَّهُ دَحْلاً عَلَىٰهَا ذَرْبًا مِّنَ الْمَرْحَبِ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنْزِيلُ مِنَ اللَّهِ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]. قال العلماء: كان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف. وإجراء النهر وإنبات الرطب ليس أغرب من هذا المذكور في سورة «آل عمران».

مسألة: أخذ بعض العلماء من قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ يَجْمَعُ النَّخْلَةَ﴾... الآية، أن السعي والتسبب في تحصيل الرزق أمر مأمور به شرعاً وأنه لا ينافي التوكل على الله - جل وعلا - وهذا أمر كالمعلوم من الدين بالضرورة، أن الأخذ بالأسباب في تحصيل المنافع ودفع المضار في الدنيا أمر مأمور به شرعاً لا ينافي التوكل على الله بحال؛ لأن المكلف يتعاطى السبب امتثالاً لأمر ربه مع علمه وبيقينه أنه لا يقع إلا ما يشاء الله وقوعه. فهو متوكل على الله، عالم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له من خير أو شر، ولو شاء الله تخلف تأثير الأسباب عن مسبباتها لتخلف.

ومن أصرح الأدلة في ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَنَّاوُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبراهيمَ ۝١٦﴾...

الآية [الأنبياء]. فطبيعة الإحراق في النار معنى واحد لا يتجزأ إلى معانٍ مختلفة، ومع هذا أحرقت الحطب فصار رماداً من حرها في الوقت الذي هي فيه كائنة برداً وسلاماً على إبراهيم، فدل ذلك دلالة قاطعة على أن التأثير حقيقة إنما هو بمشيئة خالق السموات والأرض، وأنه يسبب ما شاء من المسببات على ما شاء من الأسباب، وأنه لا تأثير لشيء من ذلك إلا بمشيئته - جل وعلا -.

ومن أوضح الأدلة في ذلك أنه ربما جعل الشيء سبباً لشيء آخر مع أنه مناف له، كجعله ضرب ميت بني إسرائيل ببعض من بقرة مذبوحة سبباً لحياته، وضربه بقطعة ميتة من بقرة ميتة مناف لحياته، إذ لا تكسب الحياة من ضرب بميت؟ وذلك يوضح أنه - جل وعلا - يسبب ما شاء من المسببات على ما شاء من الأسباب، ولا يقع تأثير البتة إلا بمشيئته - جل وعلا -.

ومما يوضح أن تعاطي الأسباب لا ينافي التوكل على الله قوله تعالى عن يعقوب: ﴿وَقَالَ يَبْنَئِ لَّا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف: ٦٧]، أمرهم في هذا الكلام بتعاطي السبب، وتسبب في ذلك بالأمر به؛ لأنه يخاف عليهم أن تصيبهم الناس بالعين لأنهم أحد عشر رجلاً أبناء رجل واحد، وهم أهل جمال وكمال وبسطة في الأجسام. فدخلهم من باب واحد مظنة لأن تصيبهم العين فأمرهم بالتفرق والدخول من أبواب متفرقة تعاطياً للسبب في السلامة من إصابة العين؛ كما قال غير واحد من علماء السلف، ومع هذا التسبب فقد قال الله عنه: ﴿وَقَالَ يَبْنَئِ لَّا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]. فانظر كيف جمع بين التسبب في قوله: ﴿لَّا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ﴾ [يوسف: ٦٧] وبين التوكل على الله في قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]، وهذا أمر معلوم لا يخفى إلا على من طمس الله بصيرته، والله - جل وعلا - قادر على أن يسقط لها الرطب من غير هز الجذع، ولكنه أمرها بالتسبب في إسقاطه بهز الجذع. وقد قال بعضهم في ذلك:

ألم تر أن الله قال لمريم وهزي إليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أن تجنيه من غير هزه جنته ولكن كل شيء له سبب

وقد أخذ بعض العلماء من هذه الآية أن خير ما تطعمه النفساء الرطب، قالوا: لو كان شيء أحسن للنساء من الرطب لأطعمه الله مريم وقت نفاسها بعيسى، قاله الربيع بن خيثم وغيره. والباء في قوله: ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجَنَاحِ النَّخْلَةِ﴾؛ مزيدة للتوكيد؛ لأن فعل الهز يتعدى بنفسه، وزيادة حرف الباء للتوكيد قبل مفعول الفعل المتعدي بنفسه كثيرة في القرآن وفي كلام العرب، فمنه في القرآن قوله هنا: ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجَنَاحِ النَّخْلَةِ﴾ لأن المتبادر من اللغة أن الأصل وهزي إليك جذع النخلة، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَىٰ

الْهَلَكَةُ [البقرة: ٢٩٥]، وقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمِ﴾. الآية [الحج: ٢٥].
 وقوله: ﴿فَسَبِّحْ وَبُصِّرْ ۝ ٥﴾ بِأَيِّكُمْ أَلْمَقْتُونَ ﴿٦﴾ الآية [القلم]، وقوله: ﴿تَبَّتْ يُالُدَّهِنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، على قراءة ابن كثير وأبي عمرو بضم التاء وكسر الباء مضارع أنبت الرباعي؛ لأن الرباعي الذي هو أنبت ينبت بضم الباء المثناة وكسر الباء الموحدة يتعدى بنفسه دون الحرف، فالباء مزيدة للتوكيد كما رأيت في الآيات المذكورة، ونظير ذلك من كلام العرب قول أمية بن أبي الصلت الثقيفي:

إذ يسقون بالدقيق وكانوا قبل لا يأكلون خبزاً فطيرا

لأن الأصل يسقون الدقيق فزيدت الباء للتوكيد. وقول الراعي:

هن الحرائر لا ربات أخمرة سود المعاجر لا يقرآن بالسور

فالأصل: لا يقرآن السور، فزيدت الباء لما ذكر.

وقول يعلى الأحول الشكري أو غيره:

بواد يمان ينبت الشث صدره وأسفله بالمرخ والشبهان

فالأصل: وأسفله المرخ؛ أي وينبت أسفله المرخ، فزيدت الباء لما ذكر، وقول

الأعشى:

ضمنت برزق عيالننا أرماحنا ملء المراحل والصريح الأجردا

فالأصل ضمننت رزق عيالننا. وقول الراجز:

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

أي نرجو الفرج. وقول امرئ القيس:

فلما تنازعنا الحديث وأسماحت هصرت بغصن ذي شماريخ مبال

فالأصل: هصرت غصنا؛ لأن هصر تتعدى بنفسها. وأمثال هذا كثيرة في كلام العرب.

وفي قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: «تساقط» تسع قراءات، ثلاث منها سبعة.

وست شاذة. أما الثلاث السبعة فقد قرأه حمزة وحده من السبعة «تساقط» بفتح التاء وتخفيف السين وفتح القاف، أصله: تتساقط؛ فحذفت إحدى التائين. وعلى هذه القراءة فقوله «رطباً» تمييز محول عن الفاعل. وقرأه حفص وحده عن عاصم «تساقط» بضم التاء وكسر القاف وتخفيف السين، مضارع ساقطت تساقط. وعلى هذه القراءة فقوله «رطباً» مفعول به للفعل الذي هو «تساقط» هي أي النخلة رطباً. وقرأه بقية السبعة «تساقط» بفتح التاء والقاف وتشديد السين، أصله: تتساقط؛ فأدغمت إحدى التائين في السين. وعلى قراءة الجمهور هذه فقوله «رطباً» تمييز محول عن الفاعل كإعزابه على قراءة حمزة وغير هذا من القراءات شاذ.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿رُطْبًا جَيِّتًا﴾؛ الجني: هو ما طاب وصلح لأن

يجنى فيؤكل. وعن أبي عمرو بن العلاء أن الجني هو الذي لم يجف ولم يبس، ولم يبعد عن يدي متناوله.

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَىٰ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنِ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنسِيًّا﴾. قائل هذا الكلام لمريم هو الذي ناداها من تحتها ألا تحزني. وقد قدمنا الخلاف عليه هل هو عيسى، أو جبريل، وما يظهر رجحانه عندنا من ذلك.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ قيل: أمرت أن تقول ذلك باللفظ. وقيل: أمرت أن تقوله بالإشارة. وكونها أمرت أن تقوله باللفظ هو مذهب الجمهور؛ كما قاله القرطبي وأبو حيان، وهو ظاهر الآية الكريمة؛ لأن ظاهر القول في قوله تعالى: ﴿فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ﴾... الآية، أنه قول باللسان. واستدل من قال: إنها أمرت أن تقول ذلك بالإشارة بأنها لو قالته باللفظ أفست نذرها الذي نذرته ألا تكلم اليوم إنسياً، فإذا قالت لإنسي بلسانها: ﴿إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾؛ فقد كلمت ذلك الإنسي فأفست نذرها. واختار هذا القول الأخير لدلالة الآية عليه ابن كثير رحمته، قال في تفسير هذه الآية: ﴿فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنِ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنسِيًّا﴾؛ المراد بهذا القول الإشارة إليه بذلك، لأن المراد به القول اللفظي لئلا ينافي ﴿فَلَنِ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنسِيًّا﴾. وأجاب المخالفون عن هذا بأن المعنى ﴿فَلَنِ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنسِيًّا﴾؛ بعد قولي: ﴿إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾؛ فقد رأيت كلام العلماء في الآية. وأن القول الأول يدل عليه ظاهر السياق. وأن الثاني يدل عليه قوله: ﴿فَلَنِ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنسِيًّا﴾؛ لأنه يدل على نفي الكلام للإنسي مطلقاً. قال أبو حيان في البحر، وقوله: ﴿إَنسِيًّا﴾؛ لأنها كانت تكلم الملائكة. ومعنى كلامه أن قوله «إنسياً» له مفهوم مخالفة، أي بخلاف غير الإنسي كالملائكة فإني أكلمه. والذي يظهر لي أنه لم يرد في الكلام إخراج المفهوم عن حكم المنطوق، وإنما المراد شمول نفي الكلام كل إنسان كائناً من كان.

وللعلماء أقوال مستنبطه في هذه الآية من أراد الوقوف عليها فليرجع إلى الأصل هل الإشارة تقوم مقام الكلام. وخلاصة رأي الشيخ في المسألة هو قوله:

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: الذي يظهر لي رجحانه في المسألة أن الإشارة إن دلت على المعنى دلالة واضحة لا شك في المقصود معها أنها تقوم مقام النطق مطلقاً، ما لم تكن في خصوص اللفظ أهمية مقصودة من قبل الشارع، فإن كانت فلا تقوم الإشارة مقامه كإيمان البعان، فإن الله نص عليها بصورة معينة، فالظاهر أن الإشارة لا تقوم مقامها، وكجميع الألفاظ المتعبد بها فلا تكفي فيها الإشارة، والله - جل وعلا - أعلم.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾؛ أي إمساكاً عن الكلام في قول الجمهور، والصوم في اللغة: الإمساك، ومنه قول نابغة ذبيان:

خيل صيام وخيل غير صائمة تحت العجاج وأخرى تعلق اللجما
فقوله: «خيل صيام» أي ممسكة عن الجري، وقيل عن العلف «وخيل غير صائمة»
أي غير ممسكة عما ذكر، وقول امرئ القيس:

كأن الثريا علق في مصامها بأمراس كتان إلى صم جندل

فقوله: «في مصامها» أي مكان صومها، يعني إمساكها عن الحركة. وهذا القول هو الصحيح في معنى الآية؛ أن المراد بالصوم الإمساك عن الكلام، بدليل قوله بعده: ﴿قَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْشِيًا﴾؛ وهو قول أكثر أهل العلم. وقال ابن حجر في (الفتح) في (باب اللعان). وقد ثبت من حديث أبي بن كعب وأنس بن مالك أن معنى قوله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أي صمتاً. أخرجه الطبراني وغيره، اهـ. وقال بعض العلماء: المراد بالصوم في الآية: هو الصوم الشرعي المعروف المذكور في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣]. وعليه فالمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم حرم عليهم الكلام كما يحرم عليهم الطعام، والصواب في معنى الآية الأول. وعليه فهذا النذر الذي نذرته ألا تكلم اليوم إنشياً كان جائزاً في شريعتهم. أما في الشريعة التي جاءنا بها نبينا ﷺ فلا يجوز ذلك النذر ولا يجب الوفاء به، قال البخاري في صحيحه: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا وهيب، حدثنا أيوب عن عكرمة عن ابن عباس قال: بينما النبي يخطب إذا هو برجل قائم فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم، فقال النبي ﷺ: «مره فليتكلم، وليستظل وليقعد وليتم صومه» قال عبد الوهاب: حدثنا أيوب عن عكرمة عن النبي ﷺ، اهـ.

وقال ابن حجر «في الفتح» في الكلام على هذا الحديث وفي حديثه أن السكوت عن المباح ليس من طاعة الله: وقد أخرج أبو داود من حديث علي: «ولا صمت يوم إلى الليل» وتقدم في السيرة النبوية قول أبي بكر الصديق: إن هذا «يعني الصمت» من فعل الجاهلية، وفيه: أن كل شيء يتأذى به الإنسان ولو مآلاً مما لم يرد بمشروعته كتاب أو سنة، كالمشي حافياً، والجلوس في الشمس ليس هو من طاعة الله، فلا ينعقد به النذر، فإنه ﷺ أمر أبا إسرائيل بإتمام الصوم دون غيره. وهو محمول على أنه علم أنه لا يشق عليه. وأمره أن يقعد ويتكلم ويستظل. قال القرطبي في قصة أبي إسرائيل هذه أوضح الحجج للجمهور في عدم وجوب الكفارة على من نذر معصية، أو ما لا طاعة فيه. قال مالك لما ذكره: ولم أسمع أن رسول الله ﷺ أمره بالكفارة، انتهى كلام صاحب (فتح الباري). وقد قال الزمخشري في تفسير هذه الآية التي نحن بصددنا: وقد نهى ﷺ عن صوم الصمت. فقال ابن حجر في (الكافي الشاف) في تخريج أحاديث (الكشاف): لم أره هكذا. وأخرج عبد الرزاق من حديث جابر بلفظ: «لا صمت يوم إلى الليل» وفيه حزام بن عثمان وهو ضعيف. ولأبي داود من حديث علي مثله، وقد تقدم في تفسير سورة «النساء».

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَإِمَّا تَرِينَ﴾؛ معناه فإن تري من البشر أحداً، فلفظة: «إما» مركبة من «إن» الشرطية و«ما» المزيدة لتوكيد الشرط، والأصل ترأين على وزن تفعلين، تحركت الياء التي هي لام الكلمة وانفتح ما قبلها وجب قلبها ألفاً فصارت ترأين، فحذفت الهمزة ونقلت حركتها إلى الراء؛ لأن اللغة الفصحى التي هي الأغلب في كلام العرب حذف همزة رأى في المضارع والأمر، ونقل حركتها إلى الراء فصارت «ترأين» فالتقى الساكنان فحذف الأول وهو الألف، فصار ترين، فدخلت عليه نون التوكيد الثقيلة فحذفت نون الرفع من أجلها هي، والجازم الذي هو إن الشرطية؛ لأن كل واحد منهما بانفراده يوجب حذف نون الرفع، فصار ترين، فالتقى ساكنان هما الياء الساكنة والنون الأولى الساكنة من نون التوكيد المثقلة؛ لأن كل حرف مشدد فهو حرفان، فحركت الياء بحركة تناسبها وهي الكسرة فصارت ترين، كما أشار إلى هذا ابن مالك في الخلاصة بقوله:

واحذفه من رافع هاتين وفي واو ويا شكل مجالس قفي
نحو اخشين يا هند بالكسر ويا قوم اخشون واضمم وقس مسويا

وما ذكرنا من أن همزة «رأى» تحذف في المضارع والأمر هو القياس المطرد في كلام العرب وبقاؤها على الأصل مسموع، ومنه قول سراقه بن مرداس البارقي الأصغر:

أري عيني ما لم ترأياه كلانا عالم بالترهات
وقول الأعمى بن جرادة السعدي، أو شاعر من تيم الرباب:

ألم ترأ ما لا قيت والدهر أعصر ومن يتمل العيش يرأ ويسمع
وقول آخر:

أحن إذا رأيت جبال نجد ولا أراى إلى نجد سبيلا

ونون التوكيد في العمل المضارع بعد «إما» لازمة عند بعض علماء العربية، وممن قال بلزومها بعد «إما» كقوله هنا: ﴿فَإِمَّا تَرِينَ مِنْ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾: المبرد والزجاج. ومذهب سيبويه والفارسي وجماعة أن نون التوكيد في الفعل المضارع بعد «إما» غير لازمة، ويدل له كثرة وروده في شعر العرب، كقول الأعشى ميمون بن قيس:

فإما ترينني ولي لمة فإن الحوادث أودى بها
وقول لييد بن ربيعة:

فإما ترينني اليوم أصبحت سالماً فلست بأحيا من كلاب وجعفر
وقول الشنفرى:

فإما ترينني كابنة الرمل ضاحياً على رقة أحفى ولا أتنعل
وقول الأفوه الأودي:

إِذَا تَرَى رَأْسِي أَزْرَى بِهِ مَأْسُ زَمَانٍ ذِي انْتِكَاسٍ مَوْسُ
وقول الآخر:

زَعَمْتُ تَمَاضِرَ أَنَّنِي إِذَا أَمْتُ يَسُدُّ أَبْيَنُوهَا الْأَصَاغِرُ خَلْتِي
وقول الآخر:

يَا صَاحِبَ إِذَا تَجَدَّنِي غَيْرُ ذِي جِدَّةٍ فَمَا التَّخْلِي عَنْ الْخِلَانِ مِنْ شِيْمِي
وأمثال هذا كثيرة في شعر العرب، والمبرد والزجاج يقولان: إن حذف النون في
الآبيات المذكورة ونحوها إنما هو لضرورة الشعر. ومن خالفهم كسيبويه والفارسي
يمنعون كونه للضرورة، ويقولون: إنه جائز مطلقاً. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرُؤُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ٢٧﴾ يَتَأَخَتُ
هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ٢٨﴾. لما اطمأنت مريم بسبب ما رأت
من الآيات الخارقة للعادة التي تقدم ذكرها آنفاً، أتت به (أي بعيسى) قومها تحمله غير
محتشمة ولا مكترثة بما يقولون، فقالوا لها: ﴿يَمْرُؤُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾! قال
مجاهد وقتادة وغير واحد: «فريا» أي عظيماً. وقال سعيد بن مسعدة: «فريا» أي مختللاً
مفتعلاً. وقال أبو عبيدة والأخفش: «فريا» أي عجيباً نادراً.

قال مقبده - عفا الله عنه وغفر له -: الذي يفهم من الآيات القرآنية أن مرادهم
بقولهم: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾؛ أي منكراً عظيماً؛ لأن الفري فعيل من الفرية،
يعنون به الزنى؛ لأن ولد الزنى كالشيء المفترى المخلوق؛ لأن الزانية تدعي إلحاقه
بمن ليس أباه. ويدل على أن مرادهم بقولهم «فريا» الزنى قوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُهُمْ
وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بَهْتًا عَظِيمًا ٢٨﴾ [النساء]؛ لأن ذلك البهتان العظيم الذي هو ادعاؤهم
أنها زنت، وجاءت بعيسى من ذلك الزنى (حاشاها وحاشاه من ذلك) هو المراد
بقولهم لها: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾. ويدل لذلك قوله تعالى بعده: ﴿يَتَأَخَتُ هَرُونَ مَا
كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ٢٨﴾؛ والبغي الزانية كما تقدم. يعنون كان
أبواك عفيفين لا يعلان الفاحشة، فما لك أنت ترتكبينها!! ومما يدل على أن ولد
الزنى كالشيء المفترى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ بِبَهْتَيْنِ بِفَرِيئَةٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلَيْهِمْ﴾
[المتحنة: ١٢]. قال بعض العلماء: معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ بِبَهْتَيْنِ بِفَرِيئَةٍ بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلَيْهِمْ﴾ [المتحنة: ١٢]، أي ولا يأتين بولد زنى يقصدن إلحاقه برجل ليس
أباه، هذا هو الظاهر الذي دل عليه القرآن في معنى الآية. وكل عمل أجاده عامله فقد
فراه لغة، ومنه قول الراجز وهو زرارة بن صعب بن دهر:

قَدْ أَطْعَمْتَنِي دَقْلًا حَوْلِيَا مَسْبُوسًا مَدُودًا حَجْرِيَا

قد كنت تفريين به الفريا

يعني: تعملين به العمل العظيم. والظاهر أنه يقصد أنها تأكله أكلاً لمأ عظيماً.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَتَأَخَتَ هَرُونَ﴾؛ ليس المراد به هارون بن عمران أخا موسى كما يظنه بعض الجهلة. وإنما هو رجل آخر صالح من بني إسرائيل يسمى هارون، والدليل على أنه ليس هارون أخا موسى ما رواه مسلم - رحمه الله تعالى - في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبه، ومحمد بن عبد الله بن نمير، وأبو سعيد الأشج، ومحمد بن المثنى العنزي؛ واللفظ لابن نمير قالوا: حدثنا ابن إدريس عن أبيه، عن سماك بن حرب، عن علقمة بن وائل، عن المغيرة بن شعبة قال: لما قدمت نجران سألتوني فقالوا: إنكم تقرؤون ﴿يَتَأَخَتَ هَرُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال: «إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم»، اه، هذا لفظ مسلم في الصحيح. وهو دليل على أنه رجل غير هارون أخي موسى، ومعلوم أن هارون أخا موسى قبل مريم بزمان طويل. وقال ابن حجر في (الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف) في قول الزمخشري: إنما عنوا هارون النبي ما نصه: لم أجده هكذا إلا عند الثعلبي بغير سند، ورواه الطبري عن السدي قوله وليس بصحيح؛ فإن عند مسلم والنسائي والترمذي عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني النبي ﷺ إلى نجران فقالوا لي: رأيتم شيئاً يقرؤونه ﴿يَتَأَخَتَ هَرُونَ﴾؛ وبين موسى وعيسى ما شاء الله من السنين، فلم أدر ما أجيبهم؟ فقال لي النبي ﷺ: «هلا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين من قبلهم» وروى الطبري من طريق ابن سيرين: نبئت أن كعباً قال: إن قوله تعالى: ﴿يَتَأَخَتَ هَرُونَ﴾؛ ليس بهارون أخي موسى، فقالت له عائشة: كذبت؟ فقال لها: يا أم المؤمنين، إن كان النبي ﷺ قال فهو أعلم، وإلا فأنا أجد بينهما ستمائة سنة، انتهى كلام ابن حجر.

وقال صاحب الدر المنثور في قوله تعالى: ﴿يَتَأَخَتَ هَرُونَ﴾؛ أخرج ابن أبي شيبه، وأحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران... إلى آخر الحديث كما تقدم آنفاً، وبهذا الحديث الصحيح الذي رأيت إخراج هؤلاء الجماعة له، وقد قدمناه بلفظه عند مسلم في صحيحه تعلم أن قول من قال: إن المراد هارون أخو موسى باطل سواء قيل إنها أخته، أو أن المراد بأنها أخته أنها من ذريته، كما يقال للرجل: يا أخا تميم، والمراد يا أخا بني تميم؛ لأنه من ذرية تميم، ومن هذا القبيل قوله: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ [الأحقاف: ٢١]؛ لأن هوداً إنما قيل له أخو عاد لأنه من ذريته، فهو أخو بني عاد، وهم المراد بعاد في الآية؛ لأن المراد بها القبيلة لا الجد. وإذا حققت أن المراد بهارون في الآية غير هارون أخي موسى، فاعلم أن بعض العلماء قال: إن لها أخاً اسمه هارون. وبعضهم يقول: إن هارون المذكور رجل من قومها مشهور بالصلاح، وعلى هذا فالمراد بكونها أخته أنها تشبهه في العبادة والتقوى، وإطلاق اسم الأخ على النظير المشابه معروف في

القرآن وفي كلام العرب، فمنه في القرآن قوله تعالى: ﴿وَمَا يُرِيدُ مِنَ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾... الآية [الزخرف: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبْدِينَ كَانُوا إِخْوَنَ الشَّيْطَانِ﴾... الآية [الإسراء: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْفِتَنِ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف]، ومنه في كلام العرب قوله:

وكل أخ يفارقه أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان
فجعل الفرقدين أخوين.

وكثيراً ما تطلق العرب اسم الأخ على الصديق والصاحب، ومن إطلاقه على الصاحب قول الفلاح بن حزن:

أخا الحرب لباساً إليها جلالها وليس بولاج الخوالف أعقلا
فقوله: «أخا الحرب» يعني صاحبها؛ ومنه قول الراعي وقيل لأبي ذؤيب:

عشية سعدى لو تراءت لراهب بدومة تجردونه وحجيج
قلبي دينه واهتاج للشوق إنها على النأي إخوان العزاء هيوج
فقوله «إخوان العزاء» يعني أصحاب الصبر.

قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾. معنى إشارتها إليه أنهم يكلمونه فيخبرهم بحقيقة الأمر، والدليل على أن هذا هو مرادها بإشارتها إليه قوله تعالى بعده: ﴿قَالُوا كَيْفَ تُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْمِ صَبِيحًا﴾؛ فالفعل الماضي الذي هو «كان» بمعنى الفعل المضارع المقتزن بالحال كما يدل عليه السياق. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ مَاتَنِي الْكَتَبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ وَبَرًّا بِوَلَدِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَارًا ۖ سَقِيًّا ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۖ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن أول كلمة نطق لهم بها عيسى وهو صبي في مهده أنه عبد الله، وفي ذلك أعظم زجر للنصارى عن دعواهم أنه الله، أو ابنه أو إله معه! وهذه الكلمة التي نطق بها عيسى في أول خطابه لهم ذكرها الله - جل وعلا - عنه في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَسَىٰ ۖ إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّكُمْ لَعِندِي ۖ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقوله في «آل عمران»: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۖ﴾ [آل عمران]، وقوله في «الزخرف»: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۖ﴾ [الزخرف]، وقوله هنا في سورة «مريم»: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۖ﴾؛ وقوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾... الآية [المائدة: ١١٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿مَاتَنِي الْكَتَبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ التحقيق فيه - إن شاء الله -: أنه عبر بالماضي عما سيقع في المستقبل تنزيلاً لتحقيق الوقوع منزلة الوقوع. ونظائره في

القرآن كثيرة كقوله تعالى: ﴿أَنَّهُ أَمَرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَمِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ ١٨، وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَتْ يَاسِينَ وَالشُّهَدَاءُ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ١٩، وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ الزَّمَرِ: ٦٨ - ٧١. وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٧٣].

فهذه الأفعال الماضية المذكورة في الآيات بمعنى المستقبل تنزيلاً لتحقيق وقوعه منزلة الوقوع بالفعل، ونظائرها كثيرة في القرآن. وهذا الذي ذكرنا من أن الأفعال الماضية في قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنِيَ الْكِتَابُ﴾ إلخ، بمعنى المستقبل هو الصواب - إن شاء الله - خلافاً لمن زعم أنه نبئ وأوتي الكتاب في حال صباه لظاهر اللفظ. وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ أي كثير البركات؛ لأنه يعلم الخير ويدعو إلى الله، ويبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله. وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية: ﴿مُبَارَكًا أَيْ مَا كُنْتُ﴾؛ عن رسول الله ﷺ نفاعاً حيث كنت. وقال ابن حجر في (الكافي الشاف): أخرجه أبو نعيم (في الحلية) في ترجمة يونس بن عبيد عن الحسن عن أبي هريرة بهذا وأتم. وقال: تفرد به هشيم عن يونس، وعنه شعيب بن محمد الكوفي، ورواه ابن مردويه من هذا الوجه، اهـ.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْ﴾؛ قال الحوفي وأبو البقاء: هو معطوف على قوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾. قال أبو حيان (في البحر): وفيه بعد للفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بالجملة التي هي ﴿وَأَوْصَنِي﴾ ومتعلقها؛ والأولى أنه منصوب بفعل مضمر؛ أي وجعلني براً بوالدي، ولما قال: ﴿بِوَالِدَيْ﴾؛ ولم يقل بوالدي، علم أنه أمر من قبل الله؛ كما ذكره القرطبي عن ابن عباس ؓ، وقد قدمنا معنى «الجبار والشقي». وقال القرطبي ؓ في تفسير هذه الآية: «شقياً» أي خائباً من الخير، وعن ابن عباس: عاقاً. وقيل عاصياً لربه. وقيل: لم يجعلني تاركاً لأمره فأشقى كما شقي إبليس، اهـ كلام القرطبي.

تنبيه: احتج مالك ؓ بهذه الآية على القدرية، قال أبو عبد الله القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة: قال مالك بن أنس - رحمه الله تعالى - في هذه الآية: ما أشدها على أهل القدر؛ أخبر عيسى ؑ بما قضى من أمره وبما هو كائن إلى أن يموت، اهـ.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمَتُّونَ﴾ ٢١. اعلم أن هذا الحرف فيه قراءتان سبعيتان: قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وحزمة والكسائي ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ بضم اللام، وقرأه ابن عامر وعاصم ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ بالنصب. والإشارة في قوله «ذلك» راجعة إلى المولود المذكور في الآيات المذكورة قبل هذا، وقوله «ذلك» مبتدأ، «وعيسى»، خبره، و«ابن مريم» نعت لـ «عيسى» وقيل: بدل منه. وقيل: خبر بعد خبر.

وقوله: ﴿قَوْلُ الْحَقِّ﴾ على قراءة النصب مصدر مؤكد لمضمون الجملة. وإلى نحوه أشار ابن مالك بقوله في الخلاصة:

والثاني كابني أنت حقاً صرفاً

وقيل: منصوب على المدح، وأما على قراءة الجمهور بالرفع فـ«قَوْلُ الْحَقِّ» خبر مبتدأ محذوف؛ أي هو، أي نسبته إلى أمه فقط قول الحق؛ قاله أبو حيان. وقال الزمخشري: وارتفاعه على أنه خبر بعد خبر، أو بدل، أو خبر مبتدأ محذوف.

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: اعلم أن لفظة «الحق» في قوله هنا «قول الحق» فيها للعلماء وجهان:

الأول: أن المراد بالحق ضد الباطل بمعنى الصدق والثبوت كقوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦]، وعلى هذا القول فإعراب قوله: ﴿قَوْلُ الْحَقِّ﴾؛ على قراءة النصب أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة كما تقدم، وعلى قراءة الرفع فهو خبر مبتدأ محذوف كما تقدم، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى في «آل عمران» في القصة بعينها: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران].

الوجه الثاني: أن المراد بالحق في الآية الله - جل وعلا - لأن من أسمائه «الحق» كقوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥]، وقوله: ﴿ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ هُوَ الْحَقُّ...﴾ الآية [الحج: ٦]. وعلى هذا القول فإعراب قوله تعالى: ﴿قَوْلُ الْحَقِّ﴾ على قراءة النصب أنه منصوب على المدح، وعلى قراءة الرفع فهو بدل من «عيسى» أو خبر بعد خبر، وعلى هذا الوجه (قول الحق) هو «عيسى» كما سماه الله كلمة في قوله: ﴿وَكَلَّمْنَاهُ آفَاقَهُ إِلَى مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَشْرِكُ بِكَلِمَتِهِ أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى...﴾ الآية [آل عمران: ٤٥]. وإنما سمي «عيسى» كلمة؛ لأن الله أوجده بكلمته التي هي «كن» فكان؛ كما قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾ [آل عمران: ٥٩]. والقول والكلمة على هذا الوجه من التفسير بمعنى واحد.

وقوله: ﴿الَّذِي فِيهِ يَمَتَّرُونَ﴾ أي يشكون، فالامتراء افتعال من المرية وهي الشك. وهذا الشك الذي وقع للكفار نهى الله عنه المسلمين على لسان نبيهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران]، وهذا القول الحق الذي أوضح الله به حقيقة الأمر في شأن عيسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - بعد نزوله على نبينا ﷺ أمره ربه أن يدعو من حازه في شأن عيسى إلى المباهلة؛ ثم أخبره أن ما قص عليه من خبر عيسى هو القصص الحق، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ نَذْرٌ ابْنَاءَنَا وَأَبْنَاءُكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءُكُمْ وَأَنْفُسُكُمْ ثُمَّ نَبْتَلُ فَتَنْجَلِ لَعَنَتُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٦١ - ٦٢]. ولما نزلت ودعا النبي ﷺ وفد نجران إلى المباهلة خافوا الهلاك وأدوا كما هو مشهور.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا فَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١٥). اعلم أولاً أن لفظ «ما كان» يدل على النفي، فتارة يدل ذلك النفي من جهة المعنى على الزجر والردع، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ...﴾ الآية [التوبة: ١٢٠]. وتارة يدل على التعجيز كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢٩) ﴿أَمَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَابًا ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ الآية [النمل: ٥٩]، و٦٠، وتارة يدل على التنزيه، كقوله هنا: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾؛ وقد أعقبه بقوله: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أي تنزيهاً له عن اتخاذ الولد وكل ما لا يليق بكماله وجلاله. فقوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ﴾ بمعنى ما يصح ولا يتأتى ولا يتصور في حقه - جل وعلا - أن يتخذ ولداً، عن ذلك علواً كبيراً، والآية كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (٢٧)، وفي هذه الآية الرد البالغ على النصارى الذين زعموا المحال في قولهم «عيسى ابن الله» وما نزه عنه - جل وعلا - نفسه هنا من الولد المزعوم كذباً كعيسى نزه عنه نفسه في مواضع آخر كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ الآية [النساء: ١٧١]. والآيات الدالة على مثل ذلك كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٨٨) ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ (٨٩) ﴿نَكَادُ السَّمَوَاتِ يَفْطَرْنَ مِنْهُ نَبْشَ الْأَرْضِ وَنَحْنُ لِجَبَالِ هَذَا﴾ (٩٠) ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ (٩١) ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (٩٢)؛ إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم مستوفى في سورة «الكهف».

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِذَا فَضَىٰ أَمْرًا﴾ أي أراد قضاءه، بدليل قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢٩) [النحل]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٧) [يسر]، وحذف فعل الإرادة لدلالة المقام عليه كثير في القرآن وفي كلام العرب، ومن أمثلته في القرآن قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْذَّبِثُ مَأْمُوءًا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ...﴾ الآية [المائدة: ٦]، أي إذا أردتم القيام إليها، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٦٨) [النحل]، أي إذا أردت قراءة القرآن، كما تقدم مستوفى.

وقوله تعالى في الآية التي نحن بصدددها: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾؛ زيدت فيه لفظه «من» قبل المفعول به لتأكيد العموم، وقد تقرر في الأصول أن النكرة في سياق النفي إذا زيدت قبلها لفظه «من» لتوكيد العموم كانت نصاً صريحاً في العموم، وتطرد زيادتها للتوكيد المذكور قبل النكرة في سياق النفي في ثلاثة مواضع قبل الفاعل كقوله تعالى: ﴿مَّا أَتْنَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ﴾ [القصص: ٤٦]، وقبل المفعول كهذه الآية وكقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ...﴾ الآية [الأنبياء: ٢٥]، وقبل المبتدأ كقوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]...

قوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٣٧).

أظهر الأقوال في «الأحزاب» المذكورة في هذه الآية أنهم فرق اليهود والنصارى الذين اختلفوا في شأن عيسى. فقالت طائفة: هو ابن زنى. وقالت طائفة: هو ابن الله. وقالت طائفة: هو الله. وقالت طائفة: هو إله مع الله. ثم إن الله توعد الذين كفروا منهم بالويل لهم من شهود يوم القيامة؛ وذلك يشمل من كفر بالتفريط في عيسى كالذي قال: إنه ابن زنى. ومن كفر بالإفراط فيه كالذين قالوا إنه الله أو ابنه. وقوله «ويل» كلمة عذاب؛ فهو مصدر لا فعل له من لفظه. وسوغ الابتداء به وهو نكرة كونه في معنى الدعاء، والظاهر أن المشهد في الآية مصدر ميمي؛ أي فويل لهم من شهود ذلك اليوم أي حضوره لما سيلاقونه فيه من العذاب، خلافاً لمن زعم أن المشهد في الآية اسم مكان؛ أي فويل لهم من ذلك المكان الذي يشهدون فيه تلك الأحوال والعذاب. والأول هو الظاهر وهو الصواب - إن شاء الله تعالى - وهذا المعنى الذي ذكره هنا ذكره أيضاً في سورة «الزخرف» في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلَئِنْ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (١٤) ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ إِلِيمٍ﴾ (١٥) [الزخرف]، وما أشار إليه في الآيتين من أن الذين كفروا بالإفراط أو التفريط في عيسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - أنه لم يعاجلهم بالعذاب، وأنه يؤخر عذابهم إلى الوقت المحدد لذلك أشار له في مواضع آخر كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٢١) [إبراهيم]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدَّدٍ﴾ (١٤) [هود]، وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣]. وبالجمله فالله تعالى يمهّل الظالم إلى وقت عذابه، ولكنه لا يمهله، وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (٢١) [هود]، وقال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ (٢٨) [الحج]،

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾؛ قال أبو حيان في (البحر): ومعنى قوله «من بينهم» أن الاختلاف لم يخرج عنهم بل كانوا هم المختلفين، انتهى محل الغرض منه.

قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٢٨).

قوله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ صيغتا تعجب، ومعنى الآية الكريمة أن الكفار يوم القيامة يسمعون ويبصرون الحقائق التي أخبرتهم بها الرسل سمعاً وإبصاراً عجيبين، وأنهم في دار الدنيا في ضلال وغفلة لا يسمعون الحق ولا يبصرونه؛ وهذا الذي بينه تعالى في

هذه الآية الكريمة بينه في مواضع آخر كقوله في سمعهم وإبصارهم يوم القيامة: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢١]، وكقوله في غفلتهم في الدنيا وعدم إبصارهم وسمعهم: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٢١]، وقوله: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٠]، وقوله: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْنَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرَ وَالسَّمِيعَ﴾... الآية [هود: ٢٤]، والمراد بالأعمى والأصم: الكفار، والآيات بمثل هذا كثيرة، واعلم أن صيغة التعجب إذا كانت على وزن أفعل به فهي فعل عند الجمهور، وأكثرهم يقولون: إنه فعل ماض جاء على صورة الأمر. وبعضهم يقول: إنه فعل أمر لإنشاء التعجب، وهو الظاهر من الصيغة، ويؤيده دخول نون التوكيد عليه، كقول الشاعر:

ومستبدل من بعد غضبا صريمة فأحربه من طول فقر وأحريا

لأن الألف في قوله «وأحريا» مبدلة من نون التوكيد الخفيفة على حد قوله في الخلاصة:

وأبدلناها بعد فتح ألفا وقفاً كما تقول في قفن قفا

والجمهور أيضاً على أن صيغة التعجب الأخرى التي هي ما أفعله فعل ماض، خلافاً لجماعة من الكوفيين في قولهم: إنها اسم بدليل تصغيرها في قول العرجي:

ياما أميليح غزلاناً شدن لنا من هؤلياتكن الضال السمر

قالوا: والتصغير لا يكون إلا في الأسماء، وأجاب من خالفهم بأن تصغيرها في البيت المذكور شاذ يحفظ ولا يقاس عليه.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٣٩]، الحسرة: أشد الندم والتلف على الشيء الذي فات ولا يمكن تداركه، والإنذار: الإعلام المقترن بتهديد؛ أي أُنذر الناس يوم القيامة: وقيل له: يوم الحسرة لشدة ندم الكفار فيه على التفريط، وقد يندم فيه المؤمنون على ما كان منهم من التقصير، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى في مواضع آخر كقوله: ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ﴾ [غافر: ١٨]، وقوله: ﴿إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبا: ٤٦].

وأشار إلى ما يحصل فيه من الحسرة في مواضع آخر كقوله: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَّقْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ... الآية [الزمر: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْصَرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَّقْنَا فِيهَا... الآية [الأنعام: ٣١]، وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، إلى غير ذلك من الآيات، وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾؛ أي في غفلة الدنيا معرضون عن الآخرة، وجملة ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ حالية، والعامل

فيها «أنذرهم» أي أنذرهم في حال غفلتهم غير مؤمنين. خلافاً لمن قال: إن العامل في الجملة الحالية قوله قبل هذا ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، وقد جاء في الحديث الصحيح ما يدل على أن المراد بقوله هنا: ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي ذبح الموت. قال البخاري رحمه الله في صحيحه: باب قوله ﷺ: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾؛ حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثنا أبو صالح عن أبي سعيد الخدري رحمه الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي مناد: يا أهل الجنة! فيشرئبون وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه. ثم ينادي: يا أهل النار! فيشرئبون وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح. ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت» ثم قرأ ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾؛ وهؤلاء في غفلة الدنيا وهم لا يؤمنون، انتهى من صحيح البخاري.

والحديث مشهور متفق عليه، وقراءة النبي ﷺ الآية بعد ذكره ذبح الموت تدل على أن المراد بقوله: ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي ذبح الموت. وفي معناه أقوال آخر غير هذا تركناها لدلالة الحديث الصحيح على المعنى الذي ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (٤٠). معنى قوله - جلّ وعلا - في هذه الآية أنه يرث الأرض ومن عليها، أنه يميت جميع الخلائق الساكنين بالأرض، ويبقى هو - جلّ وعلا - لأنه الحي الذي لا يموت، ثم يرجعون إليه يوم القيامة. وقد أشار إلى هذا المعنى في مواضع آخر كقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (٢١) وَبَئِىَ وَصْفُهُ لِرَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) [الرحمن]. وقوله تعالى: ﴿وَلِنَا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ (٢٢) [الحجر]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَادِقًا نَبِيًّا﴾ (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَأْتَبُتْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَأْتَبُتْ إِنِّي فَقَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَأْتَبُتْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَأْتَبُتْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥).

أمر الله - جلّ وعلا - نبيه «محمداً» ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يذكر في الكتاب الذي هو القرآن العظيم المنزل إليه من الله «إبراهيم» - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - ويتلو على الناس في القرآن نبأه مع قومه ودعوته لهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر. وكرر هذا المعنى المذكور في هذه الآيات في آيات آخر من كتابه - جلّ وعلا - فهذا الذي أمر به نبيه هنا من ذكره في الكتاب إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَأْتَبُتْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾... الآية، أوضحه في سورة «الشعراء» في قوله: ﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٦٧) ﴿

[الشعراء]. فقلوه هنا: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾ هو معنى قوله: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٩)، وزاد في «الشعراء» أن هذا الذي قاله لأبيه من النهي عن عبادة الأوثان قاله أيضاً لسائر قومه. وكرر تعالى الإخبار عنه بهذا النهي لأبيه وقومه عن عبادة الأوثان في مواضع آخر كقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَإِذْ أَنْتَخَذُ أَصْنَامًا إِلَٰهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٧٦) [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (٧٦) ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عِزِّينَ﴾ (٧٦) ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ﴾ (٧٦) ﴿أَوْ يَفْعَلُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ (٧٦) ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٧٦) ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (٧٦) ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ﴾ (٧٦) ﴿فَأَنبَأَهُمُ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٧) [الشعراء]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (٥١) ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ (٥٢) ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ﴾ (٥٢) ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٥٢) ﴿قَالُوا أَجِئْنَا بِطَحِيٍّ أَمْ أَنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٥٣) ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٥٤) [الأنبياء]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (٦١) ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ (٦١) [الزخرف]، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ مِنْ شَيْعِهِ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٨٣) ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٤) ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ (٨٥) ﴿أَفَبُكَ إِلَٰهَةٌ دُونَ اللَّهِ يُرِيدُونَ﴾ (٨٦) ﴿فَمَا تَلْكُمُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٧) [الصافات]. وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ الآية [الممتحنة: ٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، الظرف الذي هو «إِذْ» بدل اشتغال من «إبراهيم» في قوله: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ كما تقدم نظيره في قوله: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ﴾، وقد قدمنا هناك إنكار بعضهم لهذا الإعراب، وجملة «إِنَّهُمْ كَانُوا صِدِّيقًا نَبِيًّا»؛ معترضة بين البدل والمبدل منه على الإعراب المذكور، والصديق صيغة مبالغة من الصديق؛ لشدة صدق إبراهيم في معاملته مع ربه وصدق لهجته، كما شهد الله له بصدق معاملته في قوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم]، وقوله: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

ومن صدقه في معاملته ربه، رضاه بأن يذبح ولده، وشروعه بالفعل في ذلك طاعة لربه؛ مع أن الولد فلذة من الكبد.

لَكُنَّا أَوْلَادُنَا بَيْنَنَا أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمْنَا وَلَكُمُ لِلْجَنِّينَ﴾ (٨٧) ﴿وَلَنَدَّيْنَهُ أَنْ يَبْرَاهِيمُ﴾ (٨٧) ﴿قَدْ صَدَّقَ الرُّؤْيَا﴾ ... [الصافات: ١٠٣ - ١٠٥].

ومن صدقه في معاملته مع ربه صبره على الإلقاء في النار كما قال تعالى: ﴿قَالُوا

حَرْفُوهُ وَأَنْصُرُوا إِلَهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَعَلَيْتُمْ ﴿٣٨﴾ [الأنبياء]، وقال: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنْ النَّارِ﴾... الآية [العنكبوت: ٢٤].

وذكر علماء التفسير في قصته أنهم لما رموه إلى النار لقيه جبريل فسأله: هل لك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا! وأما إلى الله فنعم. فقال له: لم لا تسأله؟ فقال: علمه بحالي كاف عن سؤالي.

ومن صدقه في معاملته ربه، صبره على مفارقة الأهل والوطن فراراً لدينه كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِإِيْمَانٍ إِلَّا بِمُهَاجِرٍ إِلَى رَبِّهِ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وقد هاجر من سواد العراق إلى دمشق، وقد بين - جلّ وعلا - في مواضع أخر أنه لم يكتف بنهيهم عن عبادة الأوثان وبيان أنها لا تنفع ولا تضر، بل زاد على ذلك أنه كسرها وجعلها جذاذا وترك الكبير من الأصنام، ولما سأله هل هو الذي كسرها قال لهم: إن الذي فعل ذلك كبير الأصنام، وأمرهم بسؤال الأصنام إن كانت تنطق كما قال تعالى عنه: ﴿وَاللَّهُ لَا كِبِدَ أَنْتُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذْأً إِلَّا كَبِيرًا مِمَّنْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَى عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَتَتْ فَعَلَتْ هَذَا بِإِلَهِنَا يَبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُمُ كِبَرُهُمْ هَذَا فَتَكَلَّمُوا عَنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ تَكَلَّمُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفَى لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿فَرَأَى إِلَى إِلَهِهِمْ فَقَالَ لَا تَأْكُلُونَ ﴿٦٨﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٦٩﴾ فَرَأَى عَلَيْهِمْ صَرْباً بِالْيَمِينِ ﴿٧٠﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْتَفُونَ ﴿٧١﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٧٢﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٧٣﴾ [الصافات]. فقوله: ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ صَرْباً بِالْيَمِينِ﴾ ﴿٧٤﴾ أي مال إلى الأصنام يضربها ضرباً بيمينه حتى جعلها جذاذاً، أي قطاعاً متكسرة من قولهم: جذه إذا قطعه وكسره.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا صِدِّيقًا﴾؛ أي كثير الصدق، يعرف منه أن الكذبات الثلاث المذكورة في الحديث عن إبراهيم كلها في الله تعالى، وأنها في الحقيقة من الصدق لا من الكذب بمعناه الحقيقي، وسيأتي - إن شاء الله - زيادة إيضاح لهذا في سورة «الأنبياء»:

وقوله تعالى عن إبراهيم ﴿يَتَأْتٍ﴾ [يوسف: ٤]، التاء فيه عوض عن ياء المتكلم؛ فالأصل يا أبي كما أشار له في الخلاصة بقوله:

وفي السندا أبت أمت عرض واكسر أو افتح ومن اليا التا عوض

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿لَمْ تَعْبُدْ﴾ أصله «ما» الاستفهامية، فدخل عليها حرف الجر الذي هو «اللام» فحذف ألفها على حد قوله في الخلاصة:

وما في الاستفهام إن جرت حذف ألفها وأولها الها إن تقف

ومعلوم أن القراءة سنة متبعة لا تجوز بالقياس؛ ولذا يوقف على «لم» بسكون الميم لا بهاء السكت كما في البيت، ومعنى عبادته للشيطان في قوله: ﴿لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾؛ طاعته للشيطان في الكفر والمعاصي، فذلك الشرك شرك طاعة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٧) وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (١٨) [يس]، كما تقدم هذا المبحث مستوفى في سورة «الإسراء» وغيرها.

والآية تدل على أن الكفار المعذبين يوم القيامة أولياء الشيطان لقوله هنا: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾، والآيات الدالة على أن الكفار أولياء الشيطان كثيرة، وقد قدمنا كثيراً من ذلك في سورة الكهف وغيرها كقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ ... الآية [النساء: ٧٦]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٥]، أي يخوفكم أولياءه وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ... الآية [الأعراف: ٣٠]. إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم. وكل من كان الشيطان يزين له الكفر والمعاصي فيتبعه في ذلك في الدنيا فلا ولي له في الآخرة إلا الشيطان كما قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَزَنَ لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١٣]، ومن كان لا ولي له يوم القيامة إلا الشيطان تحقق أنه لا ولي له ينفعه يوم القيامة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾؛ يعني ما علمه الله من الوحي وما ألهمه وهو صغير، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١]، ومحااجة إبراهيم لقومه كما ذكرنا بعض الآيات الدالة عليها أنى الله بها على إبراهيم، وبين أنها حجة الله آتاه نبيه إبراهيم؛ كما قال تعالى: ﴿وَبِذَلِكَ حُجِّتْنَا أَتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ شَأْنِهِ﴾ ... الآية [الأنعام: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَحَاجُّهُمْ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي﴾ ... الآية [الأنعام: ٨٠]، وكون الآيات المذكورة واردة في محاجته لهم المذكورة في سورة «الأنعام» لا ينافي ما ذكرنا؛ لأن أصل المحاجة في شيء واحد وهو توحيد الله - جلّ وعلا - وإقامة الحجة القاطعة على أنه لا معبود إلا هو وحده - جلّ وعلا - في سورة «الأنعام» وفي غيرها، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِ يَتَّبِعُهُمْ لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ (١٩) قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرَ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا (٢٠).

بين الله - جلّ وعلا - في هاتين الآيتين الكريمتين أن إبراهيم لما نصح أباه النصيحة المذكورة مع ما فيها من الرفق واللين، وإيضاح الحق والتحذير من عبادة ما لا

يسمع ولا يبصر ومن عذاب الله تعالى وولاية الشيطان، خاطبه هذا الخطاب العنيف، وسماه باسمه ولم يقل له يا بني في مقابلة قوله له يا أبت. وأنكر عليه أنه راغب عن عبادة الأوثان، أي معرض عنها لا يريد لها؛ لأنه لا يعبد إلا الله وحده - جلّ وعلا - وهدده بأنه إن لم ينته عما يقوله له ليرجمه (قيل بالحجارة وقيل باللسان شتماً) والأول أظهر، ثم أمره بهجره ملياً أي زماناً طويلاً، ثم بين أن إبراهيم قابل أيضاً جوابه العنيف بغاية الرفق واللين في قوله: ﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾، وخطاب إبراهيم لأبيه الجاهل بقوله: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾ قد بين - جلّ وعلا - أنه خطاب عباده المؤمنين للجهال إذا خاطبهم، كما قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَلَى الْغُرُفِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝١٢٦﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي السَّجُنَ لِالْجَاهِلِينَ ۝١٢٧﴾ [القصص]، وما ذكره تعالى هنا من أن إبراهيم لما أقنع أباه بالحجة القاطعة، قابله أبوه بالعنف والشدة، بين في مواضع آخر أنه هو عادة الكفار المتعصين لأصنامهم، كلما أفتحوا بالحجة القاطعة لجأوا إلى استعمال القوة، كقوله تعالى عن إبراهيم لما قال له الكفار عن أصنامهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْفَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥]. قال: ﴿أَفَبِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٢٧﴾ [الأنبياء]، فلما أفتحهم بهذه الحجة لجأوا إلى القوة، كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ۝١٢٨﴾ [الأنبياء]. ونظيره قوله تعالى عن قوم إبراهيم: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنْ النَّارِ ۝١٢٩﴾ [العنكبوت: ٢٤]، وقوله عن قوم لوط لما أفتحهم بالحجة: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُو آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: ٥٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾، يعني لا ينالك مني أذى ولا مكروه، بل ستسلم مني فلا أؤذيك. وقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾؛ وعد من إبراهيم لأبيه باستغفاره له، وقد وفى بذلك الوعد، كما قال تعالى عنه: ﴿وَأَغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ۝١٣١﴾ [إبراهيم].

ولكن الله لما بين له أنه عدو لله تبرأ منه، ولم يستغفر له بعد ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، والموعدة المذكورة هي قوله هنا: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾... الآية، ولما اقتدى المؤمنون بإبراهيم فاستغفروا لموتاهم المشركين، واستغفر النبي ﷺ لعمه أبي طالب، أنزل الله فيهم: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝١٣٣﴾ [التوبة]. ثم قال: ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ... الآية [التوبة: ١١٤]. وبين في سورة «المتحنة» أن الاستغفار للمشركين مستثنى من الإساءة بإبراهيم، والإساءة الاقتداء، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ

كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمَا نَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ...﴾ الآية [المتحنة: ٤]. أي فلا أسوة لكم في إبراهيم في ذلك، ولما ندم المسلمون على استغفارهم للمشركين حين قال فيهم: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية [التوبة: ١١٣]، بين الله تعالى أنهم معذرون في ذلك؛ لأنه لم يبين لهم منع ذلك قبل فعله، وذلك في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمَ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥].

وقوله في هذه الآية: ﴿أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي﴾؛ يجوز فيه أن يكون «أراغب» خبراً مقدماً، و﴿أَنْتَ﴾ مبتدأ مؤخر، وأن يكون «أَرَأَيْبُ» مبتدأ و﴿أَنْتَ﴾ فاعل سد مسد الخبر، ويترجح هذا الإعراب الأخير على الأول من وجهين: الأول: أنه لا يكون فيه تقديم ولا تأخير؛ والأصل في الخبر التأخير كما هو معلوم، الوجه الثاني: هو ألا يكون فصل بين العامل الذي هو «أَرَأَيْبُ» وبين معموله الذي هو «عَنْ إِلَهِي» بما ليس بمعمول للعامل؛ لأن الخبر ليس هو عاملاً في المبتدأ، بخلاف كون «أَنْتَ» فاعلاً؛ فإنه معمول «أَرَأَيْبُ» فلم يفصل بين «أَرَأَيْبُ» وبين «عَنْ إِلَهِي» بأجنبي، وإنما فصل بينهما بمعمول المبتدأ الذي هو فاعله الساد مسد خبره. والرغبة عن الشيء: تركه عمداً للزهد فيه، وعدم الحاجة إليه. وقد قدمنا في سورة «النساء» الفرق بين قولهم: رغب عنه، وقولهم: رغب فيه في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَرَغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾... الآية [النساء: ١٢٧]، والتحقيق في قوله: ﴿مَلِكًا﴾ أن المراد به الزمن الطويل، ومنه قول مهلهل:

فتصدعت صم الجبال لموته وبكت عليه المرملات ملياً
وأصله واوي اللام؛ لأنه من الملاوة وهي مدة العيش، ومن ذلك قيل لليل والنهار: الملوان. ومنه قول ابن مقبل:

ألا يا ديار الحي بالسبعان أمل عليها باليلى الملوان
وقول الآخر:

نهار وليل دائم ملواهما على كل حال المرء يختلفان
وقيل: الملوان في بيت ابن مقبل: طرفا النهار.

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا﴾؛ أي لطيفاً بي، كثير الإحسان إلي، وجملة «وَأَهْجَرَنِي» عطف على جملة «لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ»، وذلك دليل على جواز عطف الجملة الإنشائية على الجملة الخبرية، ونظير ذلك من كلام العرب قول امرئ القيس:

وإن شفائي عبرة إن سفحتها وهل عند رسم دارس من معول
فجملة «وإن شفائي» خبرية، وجملة «وهل عند رسم» إلخ. إنشائية معطوفة عليها، وقول الآخر أيضاً:

تناغي غزالاً عند باب ابن عامر وكحل مآقيك الحسان بإئمد

وهذا هو الظاهر كما قاله أبو حيان عن سيبويه. وقال الزمخشري في الكشف: فإن قلت: علام عطف «واهجرني»؟ قلت: على معطوف عليه محذوف يدل عليه «لأرجمنك» أي فاحذرني واهجرني؛ لأن «لأرجمنك» تهديد وتقريع، اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ (٥١). اعلم أن في قوله «مخلصاً» قراءتين سبعيتين: قرأه عاصم وحزمة والكسائي بفتح اللام بصيغة اسم المفعول، والمعنى على هذه القراءة أن الله استخلصه واصطفاه، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿قَالَ يَمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَتِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]. ومما يماثل هذه القراءة في القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّا اخْتَصَيْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ (٤١) [ص]، فالذين أخلصهم الله هم المخلصون بفتح اللام، وقرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر «مخلصاً» بكسر اللام بصيغة اسم الفاعل كقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ أَغْبَدُ مُخْلِصًا لِّمِ دِينِي﴾ (٧) [الزمر].

قوله تعالى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَوَرَيْنَاهُ يَمِينًا﴾ (٥٢). قال ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة: يقول تعالى ذكره: وناديناه موسى من ناحية الجبل. ويعني بالأيمن يمين موسى؛ لأن الجبل لا يمين له ولا شمال، وإنما ذلك كما يقال: قام عن يمين القبله وعن شمالها، وهذه القصة جاءت مبينة في مواضع متعددة من كتاب الله تعالى؛ وذلك أن موسى لما قضى الأجل الذي بينه وبين صهره، وسار بأهله راجعاً من مدين إلى مصر آنس من جانب الطور ناراً، فذهب إلى تلك النار ليجد عندها من يده على الطريق، وليأتي بجذوة منها ليوقد بها النار لأهله ليصطلوا بها؛ فناداه الله وأرسله إلى فرعون، وشفعه في أخيه هارون فأرسله معه، وأراه في ذلك الوقت معجزة العصا واليد ليستأنس بذلك قبل حضوره عند فرعون؛ لأنه لما رأى العصا في المرة الأولى صارت ثعباناً ولى مدبراً ولم يعقب، فلو فعل ذلك عندما انقلبت ثعباناً لما طالبه فرعون وقومه بآية لكان ذلك غير لائق، ولأجل هذا مرّن عليها في أول مرة ليكون مستأنساً غير خائف منها حين تصير ثعباناً مبيناً.

قال تعالى في سورة «طه»: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (١) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا (٢) إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَسِيٍّ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (٣) فَلَمَّا أَنَّنَّهَا نُورٌ يَمُوسَى (٤) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاصْلَعْ نَعْلَيْكَ (٥) إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (٦) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (٧) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (٨)﴾ [طه: ٩ - ١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾؛ هو معنى قوله في «طه»: ﴿فَلَمَّا أَنَّنَّهَا نُورٌ يَمُوسَى (٤) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾.

وقوله: ﴿يَقْسِي﴾ أي شهاب؛ بدليل قوله في «النمل»: ﴿أَوْ عَيْنُكُمْ فِي شَهَابٍ مِّنْ لَّعَلِّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧]، وذلك هو المراد بالجذوة في قوله: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾

[القصص: ٢٩]، وقوله: ﴿أَوْ أَجِدْ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أي من يهديني إلى الطريق ويدلني عليها؛ لأنهم كانوا ضلوا الطريق، والزمن زمن برد. وقوله: ﴿ءَأَسْتُنَّارًا﴾ أي أبصرتها. وقوله: ﴿فَلَخَلَعْنَا عَلَيْكَ﴾ قال بعض العلماء: لأنهما كانتا من جلد حمار غير ذكي، ويروى هذا عن كعب وعكرمة وقتادة، نقله عنهم القرطبي وغيره. وروي أيضاً عن علي والحسن والزهري كما رواه عنهم صاحب الدر المنثور، ونقله ابن كثير عن علي وأبي أيوب وغير واحد من السلف. ويروى هذا القول عن غير من ذكر. وجاء فيه حديث مرفوع من حديث عبد الله بن مسعود رواه الترمذي وغيره ولا يصح. وفيه أقوال أخر للعلماء غير ذلك. وأظهرها عندي - والله تعالى أعلم - أن الله أمره بخلع نعليه أي نزعهما من قدميه ليعلمه التواضع لربه حين ناداه، فإن نداء الله لعبده أمر عظيم، يستوجب من العبد كمال التواضع والخضوع، والله تعالى أعلم. وقول من قال: إنه أمر بخلعهما احتراماً للبقعة يدل عليه أنه أتبع أمره بخلعهما بقوله: ﴿إِنَّكَ يَا لَوَادُ الْمُقَدَّسِ طُوى﴾، وقد تقرر في (مسلك الأئمة والتنبيه): أن «إن» من حروف التعليل. وأظهر الأقوال في قوله ﴿طُوى﴾: أنه اسم للوادي، فهو بدل من الوادي أو عطف بيان. وفيه أقوال أخر غير ذلك. وقوله: ﴿وَأَنَا أَخَذْتُكَ﴾ أي اصطفيتك برسالتني، كقوله: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَيَكَلِّمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، ومعنى الاستعلاء في قوله: ﴿عَلَى النَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧]، أن المصطلين بالنار يستعلون المكان القريب منها، ونظير ذلك من كلام العرب قول الأعشى:

تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلح

وقال تعالى في سورة «النمل»: ﴿وَلَيْكَ لِلْقُرْآنِ فَهْمٌ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝١﴾ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِيهِ إِنِّي ءَأَسْتُنَّارًا سَتَائِكُمْ مِنْهَا يَخْبَرُ أَوْ ءَأَتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٢﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٣﴾ يَمْوَسَّىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٤﴾ [النمل]، فقوله في «النمل»: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ﴾ [النمل: ٨]، هو معنى قوله في «مريم»: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾. وقوله في «طه»: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَّىٰ ۝١١﴾... الآية [طه]، وقوله: ﴿سَتَائِكُمْ مِنْهَا يَخْبَرُ﴾ [النمل: ٧]، هو معنى قوله في «طه»: ﴿أَوْ أَجِدْ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠]، أي من يدلني على الطريق فيخبرني عنها فاتيككم بخبره عنها. وقال تعالى في سورة «القصص»: ﴿فَلَمَّا فَصَنَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ءَأَسْبَحَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ كَارًّا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَأَسْتُنَّارًا لَعَلِّي ءَأَتِيكُمْ مِنْهَا يَخْبَرُ أَوْ جَذْوَةً مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝١٢﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَطِئِ الْأَوْدِ الْأَيْمَنِ فِي الْفَغْفَغَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ۝١٣﴾... الآية [القصص: ٢٩ - ٣٠]، فالنداء في هذه الآية هو المذكور في «مريم، وطه، والنمل» وقد بين هنا أنه نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة، فدللت الآيات على أن الشجرة التي رأى فيها النار عن يمين الجبل الذي هو الطور، وفي يمين الوادي المقدس الذي هو طوى على القول بأن طوى اسم له، وقد قدمنا قول ابن جرير أن المراد يمين موسى؛ لأن الجبل ومثله الوادي لا يمين له ولا

شمال. وقال ابن كثير في قوله: ﴿ثَوْدَىٰ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ [النمل: ٣٠] أي من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤] فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة والجبل الغربي عن يمينه، اهد منه، وهو معنى قوله: ﴿وَنَدَيْتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾، وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٦].

والنداء المذكور في جميع الآيات المذكورة نداء الله له؛ فهو كلام الله أسمع نبيه موسى، ولا يعقل أنه كلام مخلوق، ولا كلام خلقه الله في مخلوق كما يزعم ذلك بعض الجهلة الملاحدة؛ إذ لا يمكن أن يقول غير الله: ﴿إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩]، ولا أن يقول: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤]، ولو فرض أن الكلام المذكور قاله مخلوق افتراء على الله، كقول فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] على سبيل فرض المحال، فلا يمكن أن يذكره الله في معرض أنه حق وصواب

فقوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤]، وقوله: ﴿إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩] صريح في أن الله هو المتكلم بذلك صراحة لا تحتل غير ذلك؛ كما هو معلوم عند من له أدنى معرفة بدين الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠]، قال الزمخشري في الكشاف: «من» الأولى والثانية لابتداء الغاية؛ أي أنه النداء من شاطئ الوادي من قبل الشجرة و﴿مِنْ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠]، بدل من قوله: ﴿مِنْ شَطِئِ الْوَادِ﴾ [القصص: ٣٠] بدل اشتمال؛ لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطئ كقوله: ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرْ بِالرَّحْمَنِ لِيُثْوِيَهُمْ﴾ [الزخرف: ٣٣].

وقال القرطبي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ثَوْدَىٰ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾... الآية [القصص: ٣٠]: قال المهدي: وكلم الله تعالى موسى عليه السلام من فوق عرشه، وأسمعه كلامه من الشجرة على ما شاء، انتهى منه. وشاطئ الوادي جانبه. وقال بعض أهل العلم: معنى «الأيمن» في قوله: ﴿مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ [القصص: ٣٠]. وقوله: ﴿وَنَدَيْتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ من اليمن وهو البركة؛ لأن تلك البلاد بارك الله فيها. وأكثر أهل العلم على أن النار التي رآها موسى «نور» وهو يظنها ناراً. وفي قصته أنه رأى النار تشتعل فيها وهي لا تزداد إلا خضرة وحسناً. قيل: هي شجرة عوسج. وقيل: شجرة عليق. وقيل: شجرة عنب. وقيل: سمرة، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى في سورة «النمل»: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا ثَوْدَىٰ أَنْ بُرُوكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨]، اختلفت عبارات المفسرين في المراد ب﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ في هذه الآية من سورة «النمل» فقال بعضهم: هو الله - جلّ وعلا - وممن روى عنه هذا القول: ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب قالوا: ﴿بُرُوكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ أي تقدس الله

وتعالى، وقالوا: كان نور رب العالمين في الشجرة. واستدل من قال بهذا القول بحديث أبي موسى الثابت في الصحيح: أن النبي ﷺ قال: «إن الله ﷻ لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل. حجاب النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

قال مقيده - عفا الله عنه -: وهذا القول بعيد من ظاهر القرآن. ولا ينبغي أن يطلق على الله أنه في النار التي في الشجرة؛ سواء قلنا: إنها نار أو نور، سبحانه - جلّ وعلا - عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله! وتأويل ذلك ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ [النمل: ٨]، سلطانه وقدرته لا يصح؛ لأن صرف كتاب الله عن ظاهره المتبادر منه لا يجوز إلا بدليل يجب الرجوع إليه من كتاب الله أو سنة نبيه ﷺ وبه تعلم أن قول أبي حيان في «البحر المحيط»: قال ابن عباس، وابن جبير، والحسن وغيرهم: أراد بمن في النار ذاته، وعبر بعضهم بعبارات شنيعة مردودة بالنسبة إلى الله تعالى. وإذا ثبت ذلك عن ابن عباس ومن ذكر أول على حذف؛ أي بورك من قدرته وسلطانه في النار، اه أنه أصاب في تنزيهه لله عن تلك العبارات، ولم يصب فيما ذكر من التأويل. والله أعلم. وقال بعضهم: إن معنى ﴿بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ أي بورك النار لأنها نور. وبعده عن ظاهر القرآن واضح كما ترى. وقال بعضهم: ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ أي بورك الشجرة التي تتقد فيها النار. وبعده عن ظاهر القرآن أيضاً واضح كما ترى. وإطلاق لفظة «من» على الشجرة وعلى ما في النار من أمر الله غير مستقيم في لغة العرب التي نزل بها القرآن العظيم كما ترى.

وأقرب الأقوال في معنى الآية إلى ظاهر القرآن العظيم قول من قال: إن في النار التي هي نور ملائكة وحولها ملائكة وموسى، وأن معنى ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾؛ أي الملائكة الذين هم في ذلك النور ومن حولها؛ أي وبورك الملائكة الذين هم حولها، وبورك موسى لأنه حولها معهم، وممن يروى عنه هذا السدي. وقال الزمخشري (في الكشاف): ومعنى ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، بورك من في مكان النار ومن حول مكانها، ومكانها البقعة التي حصلت فيها، وهي البقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى: ﴿نُودِيَ مِنْ شَطِئِ الْأَوْدِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ [النمل: ٣٠]، وتدل عليه قراءة أبي: «أن تباركت النار ومن حولها». وعنه «بورك النار».

وقال القرطبي رحمه الله في قوله: ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [النمل: ٨]: وهذا تحية من الله لموسى، وتكرمة له كما حيى إبراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا إليه قال: ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣]. وقوله: ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ نائب فاعل «بورك» والعرب تقول: باركك الله، وبارك فيك، وبارك عليك، وبارك لك؛ فهي أربع لغات. قال الشاعر:

فبوركت مولوداً وبوركت ناشئاً
وبوركت عند الشيب إذ أنت أشيب

وقال أبو طالب بن عبد المطلب يرثى مسافر بن أبي عمرو بن أمية:

ليت شعري مسافر بن أبي عم
بورك الميت الغريب كما
ر وليت يقولها المحزون
بورك نبغ الرمان والزيتون
وقال آخر:

فبورك في بنيك وفي بنيهم إذا ذكروا ونحن لك الفداء

والآيات في هذه القصة الدالة على أنه أراه آية اليد والعصا ليتمرن على ذلك قبل حضوره عند فرعون وقومه، وأنه ولي مدبراً خوفاً منها في المرة الأولى لما صارت ثعباناً، جاءت في مواضع متعددة، كقوله تعالى في سورة «طه»: ﴿قَالَ أَفْعَمَا يَمُوسَىٰ ۖ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمَا إِذَا هِيَ حَيَّةٌ سَتَعْنَى ۖ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ۖ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه]. فقوله: «ولا تخف» يدل على أنه فرغ منها لما صارت ثعباناً مبيناً، كما جاء مبيناً في «النمل والقصص». وقوله في آية «طه» هذه: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [طه: ٢٢]، أي من غير برص، وفيه ما يسميه البلاغيون احتباساً، وكقوله تعالى في سورة «النمل»: ﴿يَمُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۖ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُتَنَزَّلُ كَانَتْهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدَبِّرًا وَلَمْ يَعْقِبْ يَمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ ۖ إِلَّا مَن ظَلَمَ فُرْ بِدَلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۖ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ... الآية [النمل: ٩ - ١٢]، وقوله في «القصص»: ﴿وَأَن أَلْقَىٰ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُتَنَزَّلُ كَانَتْهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدَبِّرًا وَلَمْ يَعْقِبْ يَمُوسَىٰ أَقِيلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ۖ أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلِكَ بُرْهَانُكَ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقًا ۖ﴾. والبرهانان المشار إليهما بقوله: ﴿فَذَلِكِ بُرْهَانُكَ﴾ [القصص: ٣٢]، هما اليد والعصا؛ فلما تمرن موسى على البرهانين المذكورين، وبلغ الرسالة هو وأخوه إلى فرعون وملئه طالبوه بآية تدل على صديقه فجاءهم بالبرهانين المذكورين، ولم يخف من الثعبان الذي صارت العصا إياه كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ۖ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۖ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۖ وَرَزَّ يَدُوهَا فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ۖ﴾ [الشعراء]، ونحوها من الآيات.

وقوله في «النمل، والقصص»: ﴿وَلَمْ يَعْقِبْ﴾ [النمل: ١٠]؛ أي لم يرجع من فراره منها؛ يقال: عقب الفارس إذا كَرَّ بعد الفرار. ومنه قوله:

فما عقبوا إذ قيل هل من معقب ولا نزلوا يوم الكريهة منزلاً

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَرْنَتْهُ نَحِيًّا﴾ أي قرب الله موسى في حال كونه نجياً، أي مناجياً لربه. وإتيان الفعل بمعنى المفاعل كثير كالعقيد والجليس. وقال ابن كثير - رحمه الله تعالى - في تفسير هذه الآية: روى ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى هو القطان، حدثنا سفيان عن عطاء بن يسار، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن

عباس ﴿وَقَرْنَتْهُ نَحِيًّا﴾ قال: أدنى حتى سمع صريف القلم. وهكذا قال مجاهد وأبو العالية وغيرهم. يعنون صريف القلم بكتابة التوراة. وقال السدي ﴿وَقَرْنَتْهُ نَحِيًّا﴾ قال: أدخل في السماء فكلم. وعن مجاهد نحوه. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة ﴿وَقَرْنَتْهُ نَحِيًّا﴾ قال: نجياً بصدقه، اه، محل الغرض من كلام ابن كثير - رحمه الله تعالى -.

وقوله تعالى في طه: ﴿أَشْدُّ بِهِ أَمْرِي﴾ [طه]، أي قوني به. والأزر: القوة. وآزره: أي قواه. وقوله في القصص: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥]، أي سنقويك به؛ وذلك لأن العضد هو قوام اليد؛ وبشدتها تشتد اليد، قال طرفة:

أبني لبيني لستموبيد إلا يد ليست لها عضد

وقوله: ﴿رَدءًا﴾ [القصص: ٣٤]، أي معيناً؛ لأن الردء اسم لكل ما يعان به، ويقال ردأته أي أعنته.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [٥٤].

معنى الآية الكريمة أن الله وهب لموسى نبوة هارون، والمعنى أنه سأله ذلك فاتاه سؤاله، وهذا المعنى أوضحه تعالى في آيات أخر كقوله في سورة «طه» عنه: ﴿وَجَعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِ الْهَرُونَ﴾ [١٩] هَرُونَ أَخِي [٢٠] أَشْدُّ بِهِ أَمْرِي [٢١] وَأَشْرَكُهُ فِي أَمْرِي [٢٢] إلى قوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ [٣٦] [طه]، وقوله في «القصص»: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [٣٣] وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ [٣٤] قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجَعَلْنَا لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصُلُونَ إِلَيْكُمَا بِإِذْنِنَا أَنتُمَا وَهَبْنَا لَكُمَا الْفُلُكُنِ [٣٥] [القصص]، وقوله في سورة «الشعراء»: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتَ الْفَقِيرُ الظَّالِمِينَ﴾ [١٢] قَوْمُ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ [١٣] قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ [١٤] وَيَضْحَكُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ [١٥] وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ [١٦] قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِإِذْنِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ [١٧] فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ [١٨] [الشعراء]، فهذه الآيات تبين أنه سأل ربه أن يرسل معه أخاه، فأجاب ربه - جلّ وعلا - سؤاله في ذلك، وذلك يبين أن الهبة في قوله: «ووهبنا» هي في الحقيقة واقعة على رسالته لا على نفس هرون؛ لأن هرون أكبر من موسى، كما قاله أهل التاريخ.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [٥٤].

أمر الله - جلّ وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يذكر في الكتاب وهو هذا القرآن العظيم (جده إسماعيل)، وأثنى عليه - أعني إسماعيل - بأنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً، ومما يبين من القرآن شدة صدقه في وعده أنه وعد أباه بصبره له على ذبحه ثم وفى بهذا الوعد، ومن وفى بوعده في تسليم نفسه للذبح فإن ذلك من أعظم الأدلة على عظيم صدقه في وعده قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظِرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَبْنَؤُا أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠١] فهذا

وعده. وقد بين تعالى وفاءه به في قوله: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات]. والتحقيق أن الذبيح هو إسماعيل، وقد دلت على ذلك آيتان من كتاب الله تعالى دلالة واضحة لا لبس فيها. وسنوضح ذلك - إن شاء الله - غاية الإيضاح في سورة «الصافات».

وثناؤه - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة على نبيه إسماعيل بصدق الوعد يفهم من دليل خطابه - أعني مفهوم مخالفته - أن إخلاف الوعد مذموم، وهذا المفهوم قد جاء مبيناً في مواضع آخر من كتاب الله تعالى كقوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبْتُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة]. وقوله: ﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف]. وفي الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان».

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾، قد بين في مواضع آخر أن نبينا ﷺ كان يفعل ذلك الذي أثنى الله به على جده إسماعيل كقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾... الآية [طه: ١٣٢]، ومعلوم أنه امتثل هذا الأمر، وكقوله: ﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْلًا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾... الآية [التحریم: ٦]، ويدخل في ذلك أمرهم أهلهم بالصلاة والزكاة؛ إلى غير ذلك من الآيات.

وللعلماء أقوال في المسألة يرجع من أراد الوقوف عليها للأصل وخلاصة رأي الشيخ فيها: أن إخلاف الوعد لا يجوز لكونه من علامات المنافقين ولأن الله يقول ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ وظاهر عموميه يشمل إخلاف الوعد ولكن الواعد إذا امتنع من إنجاز الوعد لا يحكم عليه به ولا يلزم به جبراً بل يؤمر به ولا يجبر عليه لأن أكثر علماء الأمة على أنه لا يجبر على الوفاء به لأنه وعد بمعروف محض والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [٥٨].

الإشارة في قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ راجعة إلى الأنبياء المذكورين في هذه السورة الكريمة، وقد بين الله هنا أنه أنعم عليهم واجتباهم وهداهم، وزاد على هذا في سورة «النساء» بيان جميع من أنعم عليهم من غير الأنبياء في قوله: ﴿وَمِن يُطِيعُ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء]. وبين في سورة الفاتحة: أن صراط الذين أنعم عليهم غير صراط المغضوب عليهم ولا الضالين في قوله: ﴿هَدَيْنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [١] صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ [٧] [الفاتحة]. وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة: قال السدي وابن جرير - رحمهما الله - : فالذي عني به من ذرية آدم: «إدريس».

والذي عني به من ذرية من حملنا مع نوح: «إبراهيم». والذي عني به من ذرية إبراهيم: «إسحاق ويعقوب وإسماعيل». والذي عني به من ذرية إسرائيل: «موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم». قال ابن جرير: ولذلك فرق أنسابهم وإن كان يجمع جميعهم آدم؛ لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة وهو إدريس فإنه جد نوح.

قلت: هذا هو الأظهر، أن إدريس في عمود نسب نوح - عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام - وقد قيل: إنه من أنبياء بني إسرائيل أخذاً من حديث الإسراء حيث قال في سلامه على النبي ﷺ: مرحباً بالنبي الصالح، والأخ الصالح، ولم يقل والولد الصالح، كما قال آدم وإبراهيم - عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام - انتهى الغرض من كلام ابن كثير - رحمه الله تعالى -.

وقال ابن كثير أيضاً في تفسير هذه الآية الكريمة: يقول تعالى هؤلاء النبيون، وليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط؛ بل جنس الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - استطراد من ذكر الأشخاص إلى الجنس، إلى أن قال في آخر كلامه: ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنس الأنبياء أنها كقوله تعالى في سورة «الأنعام»: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٨٧﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ۝٨٨ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فِيمَهْدِيهِمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٨٩﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٩٠] اهـ. وقد قال تعالى في صفة هؤلاء المذكورين في «الأنعام»: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَهْدِيَّتهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٩٠﴾ [الأنعام: ٨٧]. كما قال في صفة هؤلاء المذكورين في سورة «مريم»: ﴿وَمَمَّنْ هَدَيْنَا وَاجِبِينَ ۝٩١﴾.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِذَا نُنَادِيكَ عَلَيْهِمْ عَلِيمٌ ءَاتَيْتَ الرَّحْمَنَ خَرُوا سُبُجًا وَبُكِيًا﴾ بين فيه أن هؤلاء الأنبياء المذكورين إذا تتلى عليهم آيات ربهم بكوا وسجدوا. وأشار إلى هذا المعنى في مواضع آخر بالنسبة إلى المؤمنين لا خصوص الأنبياء، كقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُوتُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝١٩﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩]، وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۝٢٠﴾ [المائدة: ٨٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ۝٢١﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانًى تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۝٢٣﴾ [الزمر: ٢٣]. فكل هذه الآيات فيها الدلالة على أنهم إذا سمعوا آيات ربهم تتلى تأثروا تأثراً عظيماً، يحصل منه لبعضهم البكاء والسجود، وبعضهم قشعريرة الجلد ولين القلوب والجلود، ونحو ذلك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَبُكِيًا﴾ جمع باك. وعن عمر بن

الخطاب ﷺ أنه قرأ هذه الآية من سورة «مريم» فسجد وقال: هذا السجود، فأين البكى؟ يريد البكاء. وهذا الموضع من عزائم السجود بلا خلاف بين العلماء في ذلك.

قوله تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (٥٩).

الضمير في قوله: ﴿مِنْ بَعدِهِمْ﴾ راجع إلى النبيين المذكورين في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾... الآية، أي فخلف من بعد أولئك النبيين خلف، أي أولاد سوء. قال القرطبي رحمه الله في تفسير سورة «الأعراف»: قال أبو حاتم: الخلف - بسكون اللام -: الأولاد، الواحد والجمع فيه سواء. والخلف - بفتح اللام - البدل ولدأ كان أو غريباً. وقال ابن الأعرابي: الخلف - بالفتح - الصالح. وبالسكون: الطالح. قال ليبد:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجر
ومنه قيل للردىء من الكلام: خلف؛ ومنه المثل السائر: «سكت ألفاً ونطق خلفاً». فخلف في الذم بالإسكان. وخلف بالفتح في المدح. هذا هو المستعمل المشهور؛ قال رحمه الله: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله» وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر؛ قال حسان بن ثابت رحمه الله:

لنا القدم الأولى إليك وخلفنا لأولنا في طاعة الله تابع
وقال آخر:

إننا وجدنا خلفاً بئس الخلف أغلق عنا بابه ثم حلف
لا يدخل البواب إلا من عرف عبداً إذا ما ناء بالحمل وقف
ويروى خضف، أي ردم، انتهى منه. والردم: الضراط.

ومعنى الآية الكريمة أن هذا الخلف السيء الذي خلف من بعد أولئك النبيين الكرام، كان من صفاتهم القبيحة: أنهم أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، واختلف أهل العلم في المراد بإضاعتهم الصلاة، فقال بعضهم: المراد بإضاعتها تأخيرها عن وقتها. وممن يروى عنه هذا القول: ابن مسعود، والنخعي، والقاسم بن مخيمرة، ومجاهد، وعمر بن عبد العزيز وغيرهم. وقال القرطبي في تفسير هذه الآية: إن هذا القول هو الصحيح. وقال بعضهم: إضاعتها الإخلال بشروطها، وممن اختار هذا القول الزجاج، وقال بعضهم: المراد بإضاعتها جحد وجوبها؛ ويروى هذا القول وما قبله عن محمد بن كعب القرظي. وقيل: إضاعتها في غير الجماعات. وقيل: إضاعتها تعطيل المساجد، والاشتغال بالصنائع والأسباب.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: وكل هذه الأقوال تدخل في الآية؛ لأن تأخيرها عن وقتها، وعدم إقامتها في الجماعة، والإخلال بشروطها، وجحد وجوبها،

وتعطيل المساجد منها كل ذلك إضاعة لها، وإن كانت أنواع الإضاعة تتفاوت، واختلف العلماء أيضاً في الخلف المذكورين من هم؟ فقيل: هم اليهود. ويروى عن ابن عباس ومقاتل. وقيل: هم اليهود والنصارى، ويروى عن السدي. وقيل: هم قوم من أمة محمد ﷺ يأتون عند ذهاب الصالحين منها، يركب بعضهم بعضاً في الأزقة زنى. ويروى عن مجاهد وعطاء وقتادة ومحمد بن كعب القرظي. وقيل: إنهم البربر. وقيل: إنهم أهل الغرب. وفيهم أقوال آخر.

قال مقيد - عفا الله عنه -: وكونهم من أمة محمد ﷺ ليس بوجيه عندي؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، صيغة تدل على الوقوع في الزمن الماضي، ولا يمكن صرفها إلى المستقبل إلا بدليل يجب الرجوع إليه كما ترى، والظاهر أنهم اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار الذين خلفوا أنبياءهم وصالحهم قبل نزول الآية، فأضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، وعلى كل حال فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات يدخلون في الذم والوعيد المذكور في هذه الآية. واتباع الشهوات المذكور في الآية عام في اتباع كل مشتهى يشغل عن ذكر الله وعن الصلاة، وعن علي عليه السلام: من بنى المشيد، وركب المنظور، ولبس المشهور، فهو ممن اتبع الشهوات.

وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾؛ اعلم أولاً أن العرب تطلق الغي على كل شر. والرشاد على كل خير. قال المرقش الأصغر:

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره
ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً

فقوله: «ومن يغو» يعني ومن يقع في شر، والإطلاق المشهور هو أن الغي الضلال. وفي المراد بقوله: «غيا» في الآية أقوال متقاربة، منها أن الكلام على حذف مضاف، أي فسوف يلقون جزاء غي، ولا شك أنهم سيلقون جزاء ضلالهم، وممن قال بهذا القول: الزجاج. ونظير هذا التفسير قوله تعالى: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]، عند من يقول: إن معناه يلق مجازاة آثامه في الدنيا، ويشبه هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُونُ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠]، وقوله: ﴿أَوَّلَئِكَ مَا يَأْكُونُ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا نَارًا﴾ [البقرة: ١٧٤]؛ فأطلق النار على ما أكلوا في بطونهم في الدنيا من المال الحرام لأنها جزاؤه؛ كما أطلق الغي والأثام على العذاب لأنه جزاؤهما، ومنها أن الغي في الآية الخسران والحصول في الورطات. وممن روي عنه هذا القول: ابن عباس، وابن زيد. وروي عن ابن زيد أيضاً «غياً» أي شراً أو ضلالاً أو خيبة. وقال بعضهم: إن المراد بقوله: «غياً» في الآية: واد في جهنم من قيح؛ لأنه يسيل فيه قيح أهل النار وصديدهم، وهو بعيد القعر خبيث الطعم. وممن قال بهذا ابن مسعود، والبراء بن عازب. وروي عن عائشة، وشفي بن ماع.

وجاء حديث مرفوع بمقتضى هذا القول من حديث أبي أمامة وابن عباس فيه: أن النبي ﷺ قال: «إن غياً واد في جهنم» كما في حديث ابن عباس. وفي حديث أبي أمامة: أن غياً، وأثاماً: نهران في أسفل جهنم، يسيل فيهما صديد أهل النار. والظاهر أنه لم يصح في ذلك شيء عن النبي ﷺ. وقد ذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية حديث أبي أمامة صدق بن عجلان الباهلي الذي أشرنا له آنفاً، ثم قال: هذا حديث غريب ورفعه منكر. وقيل: إن المعنى فسوف يلقون غياً، أي ضللاً في الآخرة عن طريق الجنة، ذكره الزمخشري. وفيه أقوال أخرى، ومدار جميع الأقوال في ذلك على شيء واحد، وهو أن أولئك الخلف الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات سوف يلقون يوم القيامة عذاباً عظيماً.

فإذا عرفت كلام العلماء في هذه الآية الكريمة، وأن الله تعالى توعد فيها من أضاع الصلاة واتبع الشهوات بالغى الذي هو الشر العظيم والعذاب الأليم.

فاعلم أنه أشار إلى هذا المعنى في مواضع أخر كقوله في ذم الذين يضيعون الصلاة ولا يحافظون عليها وتهديدهم: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ﴾ [١] ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۚ وَيَتَذَكَّرُونَ ۚ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْ لَا يَأْتُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وقوله فيهم أيضاً: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُقِيمُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [٢] [التوبة]. وأشار في مواضع كثيرة إلى ذم الذين يتبعون الشهوات وتهديدهم، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَصَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى مِنْهُمْ﴾ [محمد: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَبْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣]، وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَشَبَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ [٤] ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ الْمَكَذِبِينَ﴾ [الحجر: ٧]، إلى غير ذلك من الآيات. ويفهم من مفهوم مخالفة الآية الكريمة أن الخلف الطيبين لا يضيعون الصلاة، ولا يتبعون الشهوات، وقد أشار تعالى إلى هذا في مواضع من كتابه؛ كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۚ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾. إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝١ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝٢ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٣﴾ [المؤمنون]، إلى غير ذلك من الآيات، وكقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٥٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝٥١﴾ [النازعات]، إلى غير ذلك من الآيات. وهناك مسائل تتعلق بالآية فيمن ترك الصلاة يرجع إليها من أراد الزيادة في الأصل وخلاصة رأي الشيخ: أنه يقتل بالسيف وأنه يستتاب للإجماع على قبول توبته إذا تاب والأظهر أنه يستتاب في الحال، ولا يمهل ثلاثة أيام وهو يمتنع من الصلاة لظواهر النصوص المذكورة، وإنه لا يقتل حتى لا يبقى من الوقت الضروري ما يسع ركعة بسجديتها والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْآخِرَةِ إِنَّهُمْ كَانُوا وَعْدُهُ مَأْتِيًا ۝﴾.

يَبْن - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه وعد عباده المؤمنين المطيعين جنات عدن، ثم يَبْن أن وعده مأتى؛ بمعنى أنهم يأتونه وينالون ما وعدوا به؛ لأنه - جلّ وعلا - لا يخلف الميعاد، وأشار لهذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ۝... الآية [الروم: ٦٦]؛ وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْوَعْدَ ۝ [آل عمران: ٩٩]، وقوله: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ ۝ [آل عمران: ١٩٤ - ١٩٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْوَعْدَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَان وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝ [الاسراء: ١٠٧]، وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۝ [الأنعام: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ وَعْدَهُ ۝ [المزمل: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿أَذْلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ۝ [الأنعام: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّنُوعًا ۝ [الفرقان: ١١]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿مَأْتِيًا﴾ اسم مفعول أتاه إذا جاءه، والمعنى أنهم لا بد أن يأتوا ما وعدوا به، خلافاً لمن زعم أن «مأتيا» صيغة مفعول أريد بها الفاعل؛ أي كان وعده آتياً، إذ لا داعي لهذا مع وضوح ظاهر الآية.

تنبيه: مثل بعض علماء البلاغة بهذه الآية لنوع من أنواع البدل، وهو بدل الكل من البعض، قالوا: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ﴾ بدل من الجنة في قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ بدل كل من بعض.

قالوا: ومن أمثلة بدل الكل من البعض قوله:

رحم الله أعظماً دفنوها بسجستان طلحة الطلحات

«فطلحة» بدل من قوله: «أعظماً» بدل كل من بعض. وعليه فأقسام البدل ستة: بدل الشيء من الشيء، وبدل البعض من الكل. وبدل الكل من البعض، وبدل الاشتمال، وبدل البداء، وبدل الغلط.

قال مقبده - عفا الله عنه -: ولا يتعين عندي في الآية والبيت كون البدل بدل كل من بعض، بل يجوز أن يكون بدل الشيء من الشيء؛ لأن الألف واللام في قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ للجنس، وإذا كان للجنس جاز أن يراد بها جميع الجنات، فيكون قوله: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ﴾ بدلاً من «الجنة» بدل الشيء من الشيء؛ لأن المراد بالأول الجمع كما تقدم كثير من أمثلة ذلك. والأعظم في البيت كناية عن الشخص، «فطلحة» بدل منه بدل الشيء من الشيء؛ لأنهم لم يدفنوا الأعظم وحدها بل دفنوا الشخص المذكور جميعه، أعظمه وغيرها من بدنه، وعبر هو عنه بالأعظم.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا ۝﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن المؤمنين إذا أدخلهم ربهم جنات عدن التي وعدهم ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي في الجنات المذكورة ﴿لَقَوْا﴾ أي كلاماً تافهاً ساقطاً كما يسمع في الدنيا، واللغو: هو فضول الكلام، وما لا طائل تحته. ويدخل فيه فحش الكلام وباطله، ومنه قول رؤبة وقيل العجاج:

ورب أسراب حجيج كظم عن اللغا ورفث التكلم
كما تقدم في سورة «المائدة».

والظاهر أن قوله: ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ استثناء منقطع، أي لكن يسمعون فيها سلاماً؛ لأنهم يسلم بعضهم على بعض، وتسلم عليهم الملائكة، كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾... الآية [إبراهيم: ٢٣]، وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ... الآية [الرعد: ٢٣ - ٢٤]. كما تقدم مستوفى.

وهذا المعنى الذي أشار له هنا جاء في غير هذا الموضع أيضاً كقوله في «الواقعة»: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً وَلَا تَأْنِيًا﴾ (١٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (١٦) [الواقعة]، وقد جاء الاستثناء المنقطع في آيات أخر من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ الظَّلَمِ﴾... الآية [النساء: ١٥٧]. وقوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ (١٦) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) [الليل]، وقوله: ﴿لَا يَذْقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦]، وكقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ إِلَّا أَنْ تَكُونُ بِحِكْمَةٍ عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾... الآية [النساء: ٢٩]، إلى غير ذلك من الآيات، فكل الاستثناءات المذكورة في هذه الآيات منقطعة. ونظير ذلك من كلام العرب في الاستثناء المنقطع قول نابغة ذبيان:

وقفت فيها أصيلاً لا أسألها عيت جواباً وما بالربع من أحد
إلا الأواري لأياً ما أبينها والنوى كالحوض بالمظلومة العبد
«فالأواري» التي هي مرابط الخيل ليست من جنس «الأحد»، وقول الفرزدق:
وبنت كريم قد نكحنا ولم يكن لها خاطب إلا السنان وعامله
وقول جرير العود:

وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيس
«فالسنان» ليس من جنس «الخاطب» و«اليعافير والعيس» ليس واحد منهما من جنس «الأنيس». وقول ضرار بن الأزور:

أجاهد إذ كان الجهاد غنيمة والله بالعبد المجاهد أعلم
عشية لا تغني الرماح مكانها ولا النيل إلا المشرفي المصمم
وبهذا الذي ذكرنا تعلم صحة وقوع الاستثناء المنقطع كما عليه جماهير الأصوليين

خلافًا للإمام أحمد بن حنبل وبعض الشافعية القائلين بأن الاستثناء المنقطع لا يصح؛ لأن الاستثناء إخراج ما دخل في اللفظ، وغير جنس المستثنى منه لم يدخل في اللفظ أصلاً حتى يخرج بالاستثناء. وللعلماء آراء في المسألة يرجع من أراد الوقوف عليها للأصل.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾؛ فيه سؤال معروف، وهو أن يقال: ما وجه ذكر البكرة والعشي، مع أن الجنة ضياء دائم ولا ليل فيها. وللعلماء عن هذا السؤال أجوبة:

الأول: أن المراد بالبكرة والعشي قدر ذلك من الزمن كقوله: ﴿غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ﴾ [سبا: ١٢]؛ أي قدر شهر، وروي معنى هذا عن ابن عباس، وابن جريج وغيرهما.
الجواب الثاني: أن العرب كانت في زمنها ترى أن من وجد غداء وعشاء فذلك الناعم، فنزلت الآية مرغبة لهم وإن كان ما في الجنة أكثر من ذلك. ويروي هذا عن قتادة، والحسن، ويحيى بن أبي كثير.

الجواب الثالث: أن العرب تعبر عن الدوام بالبكرة والعشي، والمساء والصباح، كما يقول الرجل: أنا عند فلان صباحاً ومساءً، وبكرة وعشيّاً. يريد الديمومة ولا يقصد الوقتين المعلومين.

الجواب الرابع: أن تكون البكرة هي الوقت الذي قبل اشتغالهم ببلذاتهم. والعشي: هو الوقت الذي بعد فراغهم من لذاتهم؛ لأنه يتخللها فترات انتقال من حال إلى حال، وهذا يرجع معناه إلى الجواب الأول.

الجواب الخامس: هو ما رواه الترمذي الحكيم في (نواذر الأصول) من حديث أبان عن الحسن وأبي قلابة قالا: قال رجل: يا رسول الله، هل في الجنة من ليل؟ قال: «وما يهيجك على هذا؟» قال: سمعت الله تعالى يذكر: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فقلت: الليل بين البكرة والعشي. فقال رسول الله ﷺ: «ليس هناك ليل، إنما هو ضوء ونور، يرد الغدو على الرواح والرواح على الغدو، تأتيهم طرف الهدايا من الله تعالى لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلون فيها في الدنيا، وتسلم عليهم الملائكة» انتهى بواسطة نقل صاحب الدر المشور والقرطبي في تفسيره. وقال القرطبي بعد أن نقل هذا: وهذا في غاية البيان لمعنى الآية. وقد ذكرناه في كتاب (التذكرة) ثم قال: وقال العلماء ليس في الجنة ليل ولا نهار، وإنما هم في نور أبداً، إنما يعرفون مقدار الليل من النهار بإرخاء الحجب، وإغلاق الأبواب. ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب، وفتح الأبواب؛ ذكره أبو الفرج الجوزي والمهدوي وغيرهما، اه منه. وهذا الجواب الأخير الذي ذكره الحكيم الترمذي عن الحسن وأبي قلابة عن النبي ﷺ راجع إلى الجواب الأول، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ (١٣). الإشارة في قوله:

«تلك» إلى ما تقدم من قوله: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (١٤) جَنَّتْ عَنِ الَّتِي

وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ... الآية، وقد بين - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يورث المتقين من عباده جنته. وقد بين هذا المعنى أيضاً في مواضع آخر كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤﴾﴾ [المؤمنون]، وقوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٥٣﴾﴾... [آل عمران] الآيات، وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا...﴾ الآية [الزمر: ٧٣]، وقوله: ﴿وَوَدُّوا أَن يَنَالُوا لَهْجَتَهُ أَوْ يُنَادُوا بِهَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف]، إلى غير ذلك من الآيات، ومعنى إيراثهم الجنة: الإنعام عليهم بالخلود فيها في أكمل نعيم وسرور، قال الزمخشري في (الكشاف): نورث أي نبقي عليه الجنة كما نبقي على الوارث مال الموروث؛ ولأن الاتقياء يلقون ربهم يوم القيامة قد انقضت أعمالهم، وثمرتها باقية وهي الجنة، فإذا أدخلهم الجنة فقد أورثهم من تقواهم كما يورث الوارث المال من المتوفي. وقال بعض أهل العلم: معنى إيراثهم الجنة أن الله تعالى خلق لكل نفس منزلاً في الجنة، ومنزلاً في النار؛ فإذا دخل أهل الجنة الجنة؛ أراهم منازلهم في النار لو كفروا وعصوا الله ليزداد سرورهم وغبطتهم؛ وعند ذلك يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَن هَدَانَا﴾... الآية [الأعراف: ٤٣]. وكذلك يرى أهل النار منازلهم في الجنة لو آمنوا واتقوا الله لتزداد ندامتهم وحسرتهم، وعند ذلك يقول الواحد منهم: ﴿لَوْ أَنَّنَا لَمْ نَدْنِ لَكَ نَارٍ لَّكُنَّا مِنَّا لَكُنَّا مِنَّا﴾ [الزمر: ٥٧]. ثم إنه تعالى يجعل منازل أهل الجنة في النار لأهل النار، ومنازل أهل النار في الجنة لأهل الجنة، فيرثون منازل أهل النار في الجنة. وهذا هو معنى الإيراث المذكور على هذا القول.

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: قد جاء حديث يدل لما ذكر من أن لكل أحد منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار، إلا أن حمل الآية عليه غير صواب؛ لأن أهل الجنة يرثون من الجنة منازلهم المعدة لهم بأعمالهم وتقواهم، كما قد قال تعالى: ﴿وَوَدُّوا أَن يَنَالُوا لَهْجَتَهُ أَوْ يُنَادُوا بِهَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ونحوها من الآيات، ولو فرضنا أنهم يرثون منازل أهل النار فحمل الآية على ذلك يوهم أنهم ليس لهم في الجنة إلا ما أورثوا من منازل أهل النار. والواقع بخلاف ذلك كما ترى. والحديث المذكور هو ما رواه الإمام أحمد في المسند، والحاكم في المستدرک من حديث أبي هريرة: «كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني فيكون له شكر، وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لولا أن الله هداني فيكون عليه حسرة»، اهـ. وعلم في الجامع الصغير على هذا الحديث علامة الصحة. وقال شارحه المناوي: قال الحاكم صحيح على شرطهما وأقره الذهبي. وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح، اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِثٌ لَّسَوْفَ أَخْرِجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَّلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾.

قال بعض أهل العلم: نزلت هذه الآية في أبي بن خلف، وجد عظاماً بالية ففتتها بيده وقال: زعم محمد أنا نبعت بعد الموت؟ قاله الكلبي، وذكره الواحدى والثعلبي. وقال المهدوي: نزلت في الوليد بن المغيرة وأصحابه، وهو قول ابن عباس. وقيل: نزلت في العاص بن وائل. وقيل: في أبي جهل. وعلى كل واحد من هذه الأقوال فقد أسند تعالى هذا القول لجنس الإنسان وهو صادر من بعض أفراد الجنس؛ لأن من الأساليب العربية إسناد الفعل إلى المجموع، مع أن فاعله بعضهم لا جميعهم. ومن أظهر الأدلة القرآنية في ذلك قراءة حمزة والكسائي (فإن قاتلوكم فاقتلوهم) من القتل في الفعلين، أي فإن قتلوا بعضكم فليقتلهم بعضكم الآخر كما تقدم مراراً. ومن أظهر الشواهد العربية في ذلك قول الفرزدق:

فسياف بني عبس وقد ضربوا به نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد

فقد أسند الضرب إلى بني عبس، مع أنه صرح بأن الضارب الذي بيده السيف هو ورقاء وهو ابن زهير بن جذيمة العبسي. وخالد هو ابن جعفر الكلابي. وقصة قتله لزهير المذكور مشهورة.

وقد بين تعالى في هذه الآية: أن هذا الإنسان الكافر يقول منكراً للبعث: أنذا مت لسوف أخرج حياً، زعماً منه أنه إذا مات لا يمكن أن يحيا بعد الموت. وقد رد الله عليه مقالته هذه بقوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتُهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۚ﴾ يعني: أيقول الإنسان مقالته هذه في إنكار البعث، ولا يذكر أنا أوجدناه الإيجاد الأول ولم يك شيئاً، بل كان عدماً فأوجدناه، وإيجادنا له المرة الأولى دليل قاطع على قدرتنا على إيجاداه بالبعث مرة أخرى.

وهذا البرهان الذي أشار له هنا قد قدمنا الآيات الدالة عليه في سورة «البقرة»، والنحل» وغيرهما، كقوله تعالى: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُعِي الْحِطَمَ ۚ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يسر]، وقوله تعالى: ﴿أَفَعَبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُوَ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٨٥﴾ [ق]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَمَتْهُ السَّاعَةُ الْأَوَّلَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٧﴾ [الواقعة]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ ۝٢٧﴾ الآية [الروم: ٢٧]، وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۝٥١﴾ [الإسراء: ٥١]، وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْتُكُمْ مِّن ثَرَابٍ ۝٥٥﴾ الآية [الحج: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ۝١٠٤﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه.

وفي الحديث الصحيح الذي يرويه ﷺ عن ربه: «يقول الله تعالى: كذبنى ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني، وأذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني. أما تكذيبه إياي فقول له يعيدني كما بدأني. وليس أول الخلق أهون على من آخره. وأما أذاه إياي فقول له: إن

لي ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد». فإن قيل: أين العامل في الظرف الذي هو «إذا»؟ فالجواب: أنه منصوب بفعل مضمر دل عليه جزاء الشرط؛ وتقديره: أأخرج حيا إذا ما مت، أي حين يتمكن في الموت والهلاك أخرج حياً. يعني لا يمكن ذلك. فإن قيل: لم لا تقول بأنه منصوب بـ «أخرج» المذكور في قوله «لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا» على العادة المعروفة، من أن العامل في «إذا» هو جزاؤها؟ فالجواب: أن لام الابتداء في قوله: «لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا» مانعة من عمل ما بعدها فيما قبلها كما هو معلوم في علم العربية، فلا يجوز أن تقول: اليوم لزيد قائم؛ تعني لزيد قائم اليوم. وما زعمه بعضهم من أن حرف التنفيس الذي هو سوف مانع من عمل ما بعده فيما قبله أيضاً، حتى إنه على قراءة طلحة بن مصرف «أئذا ما مت سأخرج حياً» بدون اللام لا يمتنع نصب «إذا» بـ «أخرج» المذكورة؛ فهو خلاف التحقيق.

والتحقيق أن حرف التنفيس لا يمنع من عمل ما بعده فيما قبله. ودليله وجوده في كلام العرب؛ كقول الشاعر:

فلما رآته آمنا هان وجدها وقالت أبونا هكذا سوف يفعل

فقوله «هكذا» منصوب بقوله «يفعل» كما أوضحه أبو حيان في البحر، وعليه فعلى قراءة طلحة بن مصرف فقوله: «إذا» منصوب بقوله: «أخرج» لعدم وجود اللام فيها وعدم منع حرف التنفيس من عمل ما بعده فيما قبله.

تنبيه: فإن قلت: لام الابتداء الداخلة على المضارع تعطى معنى الحال، فكيف جامع حرف التنفيس الدال على الاستقبال؟ فالجواب: أن اللام هنا جردت من معنى الحال، وأخلصت لمعنى التوكيد فقط؛ ولذلك جامع حرف الاستقبال كما بينه الزمخشري في الكشف، وتعبه أبو حيان في البحر المحيط بأن من علماء العربية من يمنع أن اللام المذكورة تعطى معنى الحال، وعلى قوله أسقط الإشكال من أصله، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْضُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا ۖ﴾.

لما أقام الله - جلّ وعلا - البرهان على البعث بقوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۖ﴾ أقسم - جلّ وعلا - بنفسه الكريمة، أنه يحشرهم أي الكافرين المنكرين للبعث وغيرهم من الناس، ويحشر معهم الشياطين الذين كانوا يضلونهم في الدنيا، وأنه يحضرهم حول جهنم جثياً، وهذان الأمران اللذان ذكرهما في هذه الآية الكريمة أشار إليهما في غير هذا الموضع، أما حشره لهم ولشياطينهم فقد أشار إليه في قوله: ﴿لَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۖ﴾ من دون الله فأفقدوهم إلى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ [الصفات]، على أحد التفسيرات، وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَسْرِقَيْنِ فَيَنسُ الْقَرِينُ ۖ﴾ [الزخرف].

وأما إحضارهم حول جهنم جثياً فقد أشار له في قوله: ﴿وَرَوَىٰ كُلُّ امْتَرٍ جَائِيَةً كُلُّ امْتَرٍ

تَدْعُ إِلَىٰ كَيْفِهَا الْيَوْمَ يُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ [الجاثية]، وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿جِثْيَا﴾ جمع جاث. والجاثي اسم فاعل جثا يجثو جثواً. وجثى يجثي جثياً: إذا جلس على ركبتيه أو قام على أطراف أصابعه. والعادة عند العرب: أنهم إذا كانوا في موقف ضنك وأمر شديد، جثوا على ركبهم، ومنه قول بعضهم:

فمن للحماة ومن للكماة إذا ما الكماة جثوا للركب
إذا قيل مات أبو مالك فتى المكرمات قريع العرب

وكون معنى قوله ﴿جِثْيَا﴾ في هذه الآية، وقوله: ﴿وَرَبَّى كُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ الآية [الجاثية: ٢٨]، أنه جثيهم على ركبهم هو الظاهر، وهو قول الأكثر، وهو الإطلاق المشهور في اللغة، ومنه قول الكمي:

هم تركوا سراتهم جثياً وهم دون السراة مقرنين

وعن ابن عباس في قوله في هذه الآية الكريمة «جثياً» أن معناه جماعات. وعن مقاتل «جثياً»: أي جمعاً جمعاً، وهو على هذا القول جمع «جثوة» مثلثة الجيم، وهي الحجارة المجموعة والتراب المجموع، فأهل الخمر يحضرون حول جهنم على حدة، وأهل الزنى على حدة؛ وأهل السرقة على حدة، وهكذا، ومن هذا المعنى قول طرفة بن العبد في معلقته:

ترى جثوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفيح منضد

هكذا قال بعض أهل العلم. ولكنه يرد عليه أن فعلة كجثوة لم يعهد جمعها على فاعول كجثى. وقرأ هذا الحرف حمزة والكسائي وحفص «جثياً» بكسر الجيم إتباعاً للكسرة بعده وقرأ الباقون «جثياً» بضم الجين على الأصل.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَزَعُنَّكُ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَهْلُهَا أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾ ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلًا ﴿٧٠﴾. قوله في هذه الآية الكريمة ﴿لَنَزَعُنَّكُ﴾ أي لنستخرجن ﴿وَمِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أي من كل أمة أهل دين واحد. وأصل الشيعة فعلة كفرقة، وهي الطائفة التي شاعت غيرها أي تبعت في هدي أو ضلال؛ تقول العرب: شاعه شياعاً: إذا تبعه.

وقوله تعالى: ﴿أَهْلُهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾؛ أي لنستخرجن ولنميزن من كل طائفة من طوائف الغي والفساد أعصاهم فأعصاهم، وأعتاهم فأعتاهم، فيبدأ بتعذيبه وإدخاله النار على حسب مراتبهم في الكفر، والإضلال والضلال. وهذا هو الظاهر في معنى الآية الكريمة أن الرؤساء القادة في الكفر يعذبون قبل غيرهم ويشدد عليهم العذاب لضلالهم وإضلالهم.

وقد جاءت آيات من كتاب الله تعالى تدل على هذا كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَجْلِبَ أَتْقَاهُمْ وَأَقْصَالَ مَعَ أَتْقَاهُمْ وَلَيَسْئَلَنَّ يَوْمَ الْفَيْصَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿١٤﴾

[العنكبوت]، وقوله: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]، ولأجل هذا كان في أمم النار أولى وأخرى، فالأولى التي يبدأ بعذابها ويدخلها النار. والأخرى التي تدخل بعدها على حسب تفاوتهم في أنواع الكفر والضلال كما قال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِجْنَهُمْ لِأَوْلَنَّهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَجَاءَنَّهُمْ عَذَابٌ ضَعِيفٌ مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٢٨] وَقَالَتْ أُولَهُنَّ لِأَخْرَجْنَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمُ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلَاً﴾ [٧٦]، يعني أنه - جلّ وعلا - أعلم بمن يستحق منهم أن يصلى النار، ومن هو أولى بذلك، وقد بين أن الرؤساء والمرؤوسين كلهم ممن يستحق ذلك في قوله: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ﴾... الآية [الأعراف: ٣٨]، والصلي مصدر صلى النار كرضي يصلها صلياً (بالضم والكسر) إذا قاسى ألمها، وبأشرفها.

واختلف العلماء في وجه رفع «أي» مع أنه منصوب؛ لأنه مفعول «لننزعن» فذهب سيويه ومن تبعه إلى أن لفظة «أي» موصولة، وأنها مبنية على الضم إذا كانت مضافة، وصدر صلتها ضمير محذوف كما هنا. وعقده ابن مالك في الخلاصة بقوله:

أي كما وأعربت ما لم تضاف وصدر وصلها ضمير انحذف
وبعضهم أعرب مطلقاً... إلخ.

ويدل على صحة قول سيويه رحمه الله قول غسان بن ولة:

إذا ما لقيت بني مالك فسلم على أيهم أفضل
والرواية بضم «أيهم». وخالف الخليل ويونس وغيرهما سيويه في «أي» المذكورة. فقال الخليل: إنها في الآية استفهامية محكية بقول مقدر والتقدير: ثم لننزعن من كل شيعة الذي يقال فيه أيهم أشد؛ وأنشد الخليل لهذا المعنى الذي ذهب إليه قول الشاعر:

ولقد أبيت من الفتاة بمنزل فأبيت لا حرج ولا محروم
أي فأبيت بمنزلة الذي يقال له: لا هو حرج ولا محروم. وأما يونس فذهب إلى أنها استفهامية أيضاً، لكنه حكم بتعليق الفعل قبلها بالاستفهام؛ لأن التعليق عنده لا يختص بأفعال القلوب، واحتج لسيويه على الخليل ويونس ومن تبعهما بيت غسان بن ولة المذكور آنفاً؛ لأن الرواية فيه بضم «أيهم»، مع أن حروف الجر لا يضم بينها وبين معمولها قول ولا تعلق على الأصوب، وإن خالف فيه بعضهم ببعض التأويلات. وبما ذكرنا تعلم أن ما ذكره بعضهم من أن جميع النحويين غلطوا سيويه في قوله هذا في «أي» في هذه الآية الكريمة خلاف التحقيق. والعلم عند الله تعالى. وقرأ حمزة والكسائي وحفص «عتيا» بكسر العين. و«صليا» بكسر الصاد للإتباع. وقرأ الباقون بالضم فيهما على الأصل.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۖ﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا ۖ ﴿٧٢﴾ .

اختلف العلماء في المراد بورود النار في هذه الآية الكريمة على أقوال:
الأول: أن المراد بالورود الدخول، ولكن الله يصرف أذاها عن عباده المتقين عند ذلك الدخول.

الثاني: أن المراد بورود النار المذكور: الجواز على الصراط؛ لأنه جسر منصوب على متن جهنم.

الثالث: أن الورود المذكور هو الإشراف عليها والقرب منها.

الرابع: أن حظ المؤمنين من ذلك الورود هو حر الحمى في دار الدنيا. وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها الاستدلال على أحد المعاني الداخلة في معنى الآية بكونه هو الغالب في القرآن فغلبته فيه دليل استقرائي على عدم خروجه من معنى الآية، وقد قدمنا أمثلة لذلك، فإذا علمت ذلك فاعلم أن ابن عباس رضي الله عنه استدل على المراد بورود النار في الآية بمثل ذلك الدليل الذي ذكرنا أنه من أنواع البيان في هذا الكتاب المبارك.

وإيضاحه أن ورود النار جاء في القرآن في آيات متعددة، والمراد في كل واحدة منها الدخول، فاستدل بذلك ابن عباس على أن الورود في الآية التي فيها النزاع هو الدخول؛ لدلالة الآيات الأخرى على ذلك كقوله تعالى: ﴿بَقْدُمُ قَوْمِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُورَدُهُمُ النَّارَ وَيَتَّسِ الْأُورُ الدُّمُورُ ۖ﴾ [هود] قال: فهذا ورود دخول وكقوله: ﴿لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوها وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ۖ﴾ [الأنبياء]، فهو ورود دخول أيضاً وكقوله: ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا ۖ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ۖ﴾ [الأنبياء]، وبهذا استدل ابن عباس على نافع بن الأزرق في أن الورود الدخول.

واحتج من قال بأن الورود: الإشراف والمقاربة بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ۖ﴾ ... الآية [القصص: ٢٣]. فهذا ورود مقاربة وإشراف عليه، وكذا قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ۖ﴾ ... الآية [يوسف: ١٩]. ونظيره من كلام العرب قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

فلما وردن الماء زرقاً جمامه وضعن عصي الحاضر المتخيم

قالوا: والعرب تقول: وردت القافلة البلد وإن لم تدخله، ولكن قربت منه. واحتج من قال بأن الورود في الآية التي نحن بصددنا ليس نفس الدخول بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۖ﴾ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَهُمْ فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ۖ﴾ [الأنبياء] قالوا: إيعادهم عنها المذكور في هذه الآية يدل على عدم دخولهم فيها، فالورود غير الدخول.

واحتج من قال بأن ورود النار في الآية بالنسبة للمؤمنين - حر الحمى في دار الدنيا - بحديث: «الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء» وهو حديث متفق عليه من حديث عائشة وأسماء ابنتي أبي بكر، وابن عمر ورافع بن خديج رضي الله عنه. ورواه البخاري أيضاً مرفوعاً عن ابن عباس.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: قد دلت على أن الورود في الآية معناه الدخول أدلة:

الأول: هو ما ذكره ابن عباس رضي الله عنه من أن جميع ما في القرآن من ورود النار معناه دخولها غير محل النزاع، فدل ذلك على أن محل النزاع كذلك، وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

الدليل الثاني: هو أن في نفس الآية قرينة دالة على ذلك، وهي أنه تعالى لما خاطب جميع الناس بأنهم سيردون النار برهم وفاجرهم بقوله: ﴿وَلَنْ يَنْكَرُوا إِلَّا وَأَرْدُهَا كَانَتْ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ (٧١)، بين مصيرهم ومآلهم بعد ذلك الورود المذكور بقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا﴾؛ أي نترك الظالمين فيها، دليل على أن ورودهم لها دخولهم فيها، إذ لو لم يدخلوها لم يقل: ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا﴾؛ بل يقول: وندخل الظالمين، وهذا واضح كما ترى، وكذلك قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ دليل على أنهم وقعوا فيما من شأنه أنه هلكة؛ ولذا عطف على قوله: ﴿وَلَنْ يَنْكَرُوا إِلَّا وَأَرْدُهَا﴾ قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾.

الدليل الثالث: ما روي من ذلك عن النبي ﷺ. قال صاحب الدر المنثور في الكلام على هذه الآية الكريمة: أخرج أحمد وعبد بن حميد، والحكيم الترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث، عن أبي سمية قال: اختلفنا في الورود فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن. وقال بعضهم: يدخلونها جميعاً ثم ينجي الله الذين اتقوا. فلقيت جابر بن عبد الله رضي الله عنه فذكرت له ذلك فقال وأهوى بأصبعيه إلى أذنيه: صمماً إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها؛ فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً»، اهـ. وقال ابن حجر في (الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف) في هذا الحديث: رواه أحمد وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد قالوا: حدثنا سليمان بن حرب، وأخرجه أبو يعلى والنسائي في الكنى، والبيهقي في الشعب في باب النار، والحكيم في النوادر، كلهم من طريق سليمان قال: حدثنا أبو صالح غالب بن سليمان، عن كثير بن زياد عن أبي سمية قال: اختلفنا في الورود فسالنا جابراً. فذكر الحديث أتم من اللفظ الذي ذكره الزمخشري. وخالفهم كلهم الحاكم فرواه من طريق سليمان بهذا الإسناد فقال: عن سمية الأزدية عن عبد الرحمن بن شيبه بدل أبي سمية عن جابر، اهـ. وقال ابن

كثير رحمته في تفسير هذه الآية: قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا غالب بن سليمان، عن كثير بن زياد البرساني، عن أبي سمية قال: اختلفنا في الورود فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن. وقال بعضهم: يدخلونها جميعاً ثم ينجي الله الذي اتقوا، فلقيت جابر بن عبد الله فقلت: إنا اختلفنا في الورود فقال: يدخلونها جميعاً... ثم ذكر الحديث المتقدم. ثم قال ابن كثير رحمته: غريب ولم يخرجوه.

قال مقبده - عفا الله عنه وغفر له -: الظاهر أن الإسناد المذكور لا يقل عن درجة الحسن لأن طبقة الأولى: سليمان بن حرب، وهو ثقة إمام حافظ مشهور. وطبقته الثانية: أبو صالح أو أبو سلمة غالب بن سليمان العتكي الجهمي الخراساني أصله من البصرة، وهو ثقة. وطبقته الثالثة: كثير بن زياد أبو سهل البرساني بصري نزل بلخ، وهو ثقة. وطبقته الرابعة: أبو سمية وقد ذكره ابن حبان في الثقات، قاله ابن حجر في تهذيب التهذيب: وبوثيق أبي سمية المذكور تتضح صحة الحديث؛ لأن غيره من رجال هذا الإسناد ثقات معروفون، مع أن حديث جابر المذكور يعتضد بظاهر القرآن وبآيات الأخرى التي استدلت بها ابن عباس، وآثار جاءت عن علماء السلف عليهم السلام. كما ذكره ابن كثير عن خالد بن معدان، وعبد الله بن رواحة عليهما السلام، وذكره هو وابن جرير عن أبي ميسرة، وذكره ابن كثير عن عبد الله بن المبارك عن الحسن البصري، كلهم يقولون: إنه ورود دخول، وأجاب من قال: بأن الورود في الآية الدخول؛ عن قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، بأنهم مبعدون عن عذابها وألمها، فلا ينافي ذلك ورودهم إياها من غير شعورهم بألم ولا حر منها كما أوضحناه في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» في الكلام على هذه الآية الكريمة.

وأجابوا عن الاستدلال بحديث «الحمى من فيح جهنم» بالقول بموجبه، قالوا: الحديث حق صحيح ولكنه لا دليل فيه لمحل النزاع؛ لأن السياق صريح في أن الكلام في النار في الآخرة وليس في حرارة منها في الدنيا؛ لأن أول الكلام قوله تعالى: ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثَاً﴾؛ إلى أن قال: ﴿وَلَنُيَكِّرَنَّ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؛ فدل على أن كل ذلك في الآخرة لا في الدنيا كما ترى، والقراءة في قوله تعالى: ﴿جِثَاً﴾ كما قدمنا في قوله: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثَاً﴾. وقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي﴾؛ قراءة الكسائي بإسكان النون الثانية وتخفيف الجيم، وقرأه الباقر بفتح النون الثانية وتشديد الجيم. وقد ذكرنا في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» أن جماعة رووا عن ابن مسعود أن ورود النار المذكور في الآية هو المرور عليها؛ لأن الناس تمر على الصراط وهو جسر منصوب على متن جهنم. وأن الحسن وقتادة روي عنهما نحو ذلك أيضاً، وروى عن ابن مسعود أيضاً مرفوعاً أنهم يردونها جميعاً وَيَصْدُرُونَ عنها بحسب أعمالهم. وعنه أيضاً تفسير الورود بالوقوف عليها. والعلم عند الله تعالى.

وقوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ يعني أن ورودهم النار المذكور كان حتماً على ربك مقضياً، أي أمراً واجباً مفعولاً لا محالة، والحثم: الواجب الذي لا محيد عنه - ومنه قول أمية بن أبي الصلت الثقيفي:

عبادك يخطئون وأنت رب يكفيك المنايا والحثوم

فقوله: «والحثوم» جمع حتم، يعني الأمور الواجبة التي لا بد من وقوعها. وما ذكره جماعة من أهل العلم من أن المراد بقوله: ﴿حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ قسماً واجباً، كما روي عن عكرمة وابن مسعود ومجاهد وقتادة وغيرهم لا يظهر كل الظهور.

واستدل من قال: إن في الآية قسماً بحديث أبي هريرة الثابت في الصحيحين. قال البخاري في صحيحه: حدثنا علي، حدثنا سفيان قال: سمعت الزهري عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَا يَمُوتُ لِمُسْلِمٍ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ فِيلَجُ النَّارِ إِلَّا تَحْلَةَ الْقِسْمِ» قال أبو عبد الله: «وَلَا يَمُوتُ لِمُسْلِمٍ إِلَّا وَارِدُهَا»، اهـ. وقال مسلم في صحيحه: حدثنا يحيى بن يحيى قال: قرأت على مالك، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لَا يَمُوتُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ فَتَمْسُهُ النَّارُ إِلَّا تَحْلَةَ الْقِسْمِ». حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، وعمر بن الناقد، وزهير بن حرب قالوا: حدثنا سفيان بن عيينة (ح) وحدثنا عبد بن حميد، وابن رافع، عن عبد الرزاق، أخبرنا معمر كلاهما عن الزهري بإسناد مالك، وبمعنى حديثه إلا أن في حديث سفيان: «فِيلَجُ النَّارِ إِلَّا تَحْلَةَ الْقِسْمِ»، اهـ.

قالوا: المراد بالقسم المذكور في هذا الحديث الصحيح هو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمُوتُ لِمُسْلِمٍ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾؛ وهو معنى ما ذكرنا عن البخاري في قوله: قال أبو عبد الله: «وَلَا يَمُوتُ لِمُسْلِمٍ إِلَّا وَارِدُهَا»، والذين استدلوا بالحديث المذكور على أن الآية الكريمة قسماً اختلفوا في موضع القسم من الآية، فقال بعضهم: هو مقدر دل عليه الحديث المذكور، أي والله وإن منكم إلا واردها. وقال بعضهم: هو معطوف على القسم قبله، والمعطوف على القسم قسم، والمعنى فوربك لنحشرنهم والشياطين، وربك إن منكم إلا واردها، وقال بعضهم: القسم المذكور مستفاد من قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾؛ أي قسماً واجباً كما قدمناه عن ابن مسعود ومجاهد، وعكرمة، وقتادة. وقال بعضهم: يحتمل أن يكون المراد بالقسم عادل على القطع والبت من السياق؛ فإن قوله تعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾؛ تذييل وتقرير لقوله: ﴿وَلَا يَمُوتُ لِمُسْلِمٍ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؛ وهذا بمنزلة القسم في تأكيد الإخبار، بل هذا أبلغ للحصر في الآية بالنفي والإثبات.

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: الذي يظهر لي - والله تعالى أعلم - أن الآية ليس يتعين فيها قسم؛ لأنها لم تقتن بأداة من أدوات القسم، ولا قرينة واضحة دالة على القسم، ولم يتعين عطفها على القسم. والحكم بتقدير قسم في كتاب الله دون قرينة

ظاهرة فيه زيادة على معنى كلام الله بغير دليل يجب الرجوع إليه، وحديث أبي هريرة المذكور المتفق عليه لا يتعين منه أن في الآية قسماً؛ لأن من أساليب اللغة العربية التعبير بتحلة القسم عن القلة الشديدة وإن لم يكن هناك قسم أصلاً. يقولون: ما فعلت كذا إلا تحلة القسم، يعنون إلا فعلاً قليلاً جداً قدر ما يحل به الحالف قسمه. وهذا أسلوب معروف في كلام العرب، ومنه قول كعب بن زهير في وصف ناقته:

تخدي على يسرات وهي لاصقة ذوابل مسهن الأرض تحليل

يعني أن قوائم ناقته لا تمس الأرض لشدة خفتها إلا قدر تحليل القسم، ومعلوم أنه لا يمين من ناقته أنها تمس الأرض حتى يكون ذلك المس تحليلاً لها كما ترى. وعلى هذا المعنى المعروف، فمعنى قوله ﷺ: «إلا تحلة» أي لا يلج النار إلا ولوجاً قليلاً جداً لا ألم فيه ولا حر، كما قدمنا في حديث جابر المرفوع. وأقرب أقوال من قالوا: إن في الآية قسماً قول من قال إنه معطوف على قوله: «فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ لَنُحْشِرُنَّهُمْ»؛ لأن الجمل المذكورة بعده معطوفة عليه، كقوله: «ثُمَّ لَنُحْشِرُنَّهُمْ» وقوله: «ثُمَّ لَنُزَعِجَنَّ» وقوله: «ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ» للدلالة قرينة لام القسم في الجمل المذكورة على ذلك. أما قوله: «وَإِنْ يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدُهَا» فهو محتمل للعطف أيضاً، ومحتمل للاستئناف. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: «وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرَدًّا ﴿٧٤﴾».

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: «خَيْرٌ مَّقَامًا» قرأه ابن كثير بضم الميم، والباقون بفتحها، وقوله: «وَرَدًّا» قرأه قالون وابن ذكوان «وريا» بتشديد الياء من غير همز. وقرأه الباقون بهمزة ساكنة بعد الراء وبعدها ياء مخففة.

ومعنى الآية الكريمة أن كفار قريش كانوا إذا يتلو عليهم رسول الله ﷺ وأصحابه آيات هذا القرآن، في حال كونها بينات أي مرتلات الألفاظ، واضحات المعاني، بينات المقاصد، إما محكمات جاءت واضحة، أو متشابهات قد تبعها البيان بالمحكمات، أو تبين الرسول ﷺ قولاً أو فعلاً، أو ظاهرات الإعجاز تحدى بها فلم يقدر على معارضتها أو حججاً وبراهين.

والظاهر أن قوله: «بَيِّنَاتٍ» [البقرة: ٩٩]، حال مؤكدة؛ لأن آيات الله لا تكون إلا كذلك. ونظير ذلك قوله تعالى: «وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا» [البقرة: ٩١]، أي إذا تتلى عليهم آيات الله في حال كونها متصفة بما ذكرنا عارضوها واحتجوا على بطلانها، وأن الحق معهم لا مع من يتلوها بشبهة ساقطة لا يحتج بها إلا من لا عقل له. ومضمون شبهتهم المذكورة: أنهم يقولون لهم: نحن أوفر منكم حظاً في الدنيا، فنحن أحسن منكم منازل، وأحسن منكم متاعاً، وأحسن منكم منظراً، فلولا أننا أفضل عند الله منكم لما أثرا عليكم في الحياة الدنيا، وأعطانا من نعيمها وزيتها ما لم يعطكم.

فقوله: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا﴾؛ أي نحن وأنتم أينما خير مقاماً. والمقام على قراءة ابن كثير بضم الميم محل الإقامة، وهو المنازل والأمكنة التي يسكنونها. وعلى قراءة الجمهور فالمقام بفتح الميم مكان القيام وهو موضع قيامهم وهو مساكنهم ومنازلهم. وقيل: وهو موضع القيام بالأمور الجليلة، والأول هو الصواب.

وقوله: ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي مجلساً ومجتمعاً، والاستفهام في قوله: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ الظاهر أنه استفهام تقرير؛ ليحملوا به ضعفاء المسلمين الذين هم في تقشف ورثاة هيئة على أن يقولوا أنتم خير مقاماً وأحسن ندياً منا. وعلى كل حال فلا خلاف أن مقصودهم بالاستفهام المذكور أنهم - أي كفار قريش - خير مقاماً وأحسن ندياً من أصحاب النبي ﷺ، وأن ذلك هو دليلهم على أنهم على الحق، وأنهم أكرم على الله من المسلمين. وما في التلخيص وشروحه من أن السؤال بـ«أي» في الآية التي نحن بصددنا سؤال بها عما يميز أحد المشتركين في أمر يعمهما كالعادة في أي غلط منهم؛ لأنهم فسروا الآية الكريمة بغير معناها الصحيح. والصواب ما ذكرناه - إن شاء الله تعالى - واستدلّاهم هذا بحظهم في الحياة الدنيا على حظهم يوم القيامة، وأن الله ما أعطاهم في الدنيا إلا لمكانتهم عنده، واستحقاقهم لذلك لسخافة عقولهم ذكره الله تعالى في مواضع من كتابه كقوله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيدٌ ۖ﴾ [الأحقاف]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالظَّالِمِينَ ۝٥٤﴾ [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ۝٥٥﴾ [سبا]، وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ۝٥٦﴾ [سبا]، وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ۝٥٧﴾، وقوله: ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۝٥٨﴾ [الكهف]، وقوله: ﴿وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْصَىٰ ۝٥٩﴾ [فصلت: ٥٠]، إلى غير ذلك من الآيات، فكل هذه الآيات دالة على أنهم لجهلهم يظنون أن الله لم يعطهم نصيباً من الدنيا إلا لرضاه عنهم، ومكانتهم عنده، وأن الأمر في الآخرة سيكون كذلك.

وقد أبطل الله تعالى دعوهم هذه في آيات كثيرة من كتابه كقوله تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿وَكُلُّ أُمَّلِكُمْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرَبَّيَا ۝٦١﴾؛ والمعنى أهلكنّا قرونًا كثيرة، أي أمما كانت قبلهم وهم أكثر نصيباً في الدنيا منهم، فما متعهم ما كان عندهم من زينة الدنيا ومتاعها من إهلاك الله إياهم لما عصوا وكذبوا رسله، فلو كان الحظ والنصيب في الدنيا يدل على رضا الله والمكانة عنده لما أهلك الذين من قبلكم، الذين هم أحسن أثناً ورئياً منكم.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكَمْ﴾ هي الخبرية، ومعناها الإخبار بعدد كثير، وهي في محل نصب على المفعول به لأهلكنا، أي أهلكنا كثيراً. «ومن» مبينة لـ «كم» وكل أهل عصر قرن لمن بعدهم لأنهم يتقدمونهم. قيل: سموا قرناً لاقترانهم في الوجود. والأثاث: متاع البيت. وقيل هو الجديد من الفرش. وغير الجديد منها يسمى «الخرثي» بضم الخاء وسكون الراء والثاء والمثلثة بعدها ياء مشددة، وأنشد لهذا التفصيل الحسن بن علي الطوسي قول الشاعر:

تَقْدَامُ الْعَهْدِ مِنْ أُمِّ الْوَلِيدِ بِنَا دَهْرًا وَصَارَ أَثَاثُ الْبَيْتِ خَرْثِيَا
والإطلاق المشهور في العربية هو إطلاق الأثاث على متاع البيت مطلقاً. قال الفراء: لا واحد له. ويطلق الأثاث على المال أجمع: الإبل، والغنم، والعبيد، والمتاع. والواحد أثاثه. وتأث فلان: إذا أصاب رياشاً، قاله الجوهري عن أبي زيد. وقوله: ﴿وَرِيًّا﴾ على قراءة الجمهور مهموزاً، أي أحسن منظر وهيئة، وهو فعل بمعنى مفعول من رأى البصرية. والمراد به الذي تراه العين من هيااتهم الحسنة ومتاعهم الحسن، وأنشد أبو عبيدة لمحمد بن نمير الثقفي في هذا المعنى قوله:

أَشَافَتِكَ الظَّعَائِنُ يَوْمَ بَانُوا بِذِي الرَّثِي الْجَمِيلِ مِنَ الْأَثَاثِ
وعلى قراءة قالون وابن ذكوان بتشديد الياء من غير همز. فقال بعض العلماء: معناه معنى القراءة الأولى، إلا أن الهمزة أبدلت ياء فأدغمت في الياء. وقال بعضهم: لا همز على قراءتهما أصلاً، بل عليها فهو من الري الذي هو النعمة والترفة، من قولهم: هو ريان من النعيم، وهي ريا منه. وعلى هذا فالمعنى أحسن نعمة وترفها، والأول أظهر عندي. والله تعالى أعلم.

والآيات التي أبطل الله بها دعواهم هذه كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَبِّلُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَبِّلُ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَهُمْ وَعَدَابُ مُهِينٌ ﴿٧٣﴾﴾ [آل عمران]، وقوله: ﴿وَمَا أَمُولُكُمْ وَلَا أُولَدُكُمْ بَالِي تَقْرِيكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَعْدِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [سبأ]، وقوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ هَٰذَا الْحَدِيثَ سَنَسْتَدْرِجُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَأَمْلِ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٧٦﴾﴾ [القلم]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دُسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فُوحُوا بِمَا أَوْتُوا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنعام]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً، وقد قدمنا شيئاً من ذلك.

وقول الكفار الذي حكاه الله عنهم في هذه الآية الكريمة: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَبِيًّا﴾؛ الظاهر فيه أن وجه ذكرهم للمقام والندي أن المقام هو محل السكنى الخاص لكل واحد منهم، والندي محل اجتماع بعضهم ببعض، فإذا كان كل منهما للكفار أحسن من نظيره عند المسلمين دل ذلك على أن نصيبهم في الدنيا أوفر من نصيب أصحاب النبي ﷺ في ذلك الوقت، ونظير ذلك من كلام العرب قول الشاعر:

يومان يوم مقامات وأنديّة ويوم سير إلى الأعداء تأويب
والمقامات: جمع مقامة بمعنى المقام، والأنديّة: جمع ناد بمعنى الندي وهو
مجلس القوم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرُ﴾ [العنكبوت: ٢٩]
فالنّادي والندي يطلقان على المجلس، وعلى القوم الجالسين فيه. وكذلك المجلس
يطلق على القوم الجالسين، ومن إطلاق الندي على المكان قول الفرزدق:

وما قام منا قائم في ندينا فينطق إلا بالتي هي أعرف
وقوله تعالى هنا: ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾. ومن إطلاقه على القوم قوله: ﴿فَلْيَبْغُ نَادِيَهُ﴾ [٧]
سَنَعُ الزَّيَّاتَةَ [٨] [العلق]. ومن إطلاق المجلس على القوم الجالسين فيه قول ذي الرمة:
لهم مجلس صهب السبال أذلة سواسية أحرارها وعبيدها

والجملة في قوله: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا﴾: قال الزمخشري: هي في محل نصب
صفة لقوله: ﴿كَمْ﴾ ألا ترى أنك لو تركت لفظة «هم» لم يكن لك بد من نصب
«أحسن» على الوصفية، اهـ - وتابع الزمخشري أبو البقاء على ذلك. وتعبه أبو حيان
في البحر بأن بعض علماء النحو نصوا على أن «كم» سواء كانت استفهامية أو خبرية لا
توصف ولا يوصف بها. قال: وعلى هذا يكون «هم أحسن» في موضع الصفة لا «قرن»
وجمع نعت القرن اعتباراً لمعنى القرن، وهذا هو الصواب عندي لا ما ذكره الزمخشري
وأبو البقاء، وصيغة التفضيل في قوله: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا﴾؛ تلزمها «من» لتجردها من
الإضافة والتعريف، إلا أنها محذوفة لدلالة المقام عليها. والتقدير: هم أحسن أثناً
ورئياً منهم، على حد قوله في الخلاصة:

وأفعل التفضيل صله أبداً. تقديرأ أو لفظاً بمن إن جرداً

فإن قيل: أين مرجع الضمير في هذه الآية الكريمة في قوله: ﴿وَإِذَا نُتِلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا
بَيَّنَّتْ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا... الآية [الأحقاف: ٢٧]؟ فالجواب: أنه راجع إلى الكفار
المذكورين في قوله: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِثٌّ... الآية، وقوله: ﴿وَنَذُرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا
جِثًّا﴾ قاله القرطبي، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا
أَعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضَعُفُ جُنْدًا﴾ [٧٥]. في معنى هذه الآية
الكريمة وجهان من التفسير معروفان عند العلماء، وكلاهما يشهد له قرآن:

الأول: أن الله - جلّ وعلا - أمر نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول هذه
الكلمات كدعاء المباهلة بينه وبين المشركين، وإيضاح معناه: قل يا نبي الله ﷺ لهؤلاء
المشركين الذين ادعوا أنهم خير منكم، وأن الدليل على ذلك أنهم خير منكم مقاماً
وأحسن منكم ندياً، من كان منا ومنكم في الضلالة أي الكفر والضلال عن طريق الحق
فليمدد له الرحمن مدداً، أي فأمهله الرحمن إمهالاً فيما هو فيه حتى يستدرجه بالإمهال

ويموت على ذلك ولا يرجع عنه، بل يستمر على ذلك حتى يرى ما يوعده الله، وهو: إما عذاب في الدنيا بأيدي المسلمين كقوله: ﴿قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]، أو بغير ذلك، وإما عذاب الآخرة إن ماتوا وهم على ذلك الكفر، وعلى ذلك التفسير فصيغة الطلب المدلول عليها باللام في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ على بابها، وعليه فهي لام الدعاء بالإمهال في الضلال على الضال من الفريقين، حتى يرى ما يوعده من الشر وهو على أقبح حال من الكفر والضلال، واقتصر على هذا التفسير ابن كثير وابن جرير، وهو الظاهر من صيغة الطلب في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ ونظير هذا المعنى في القرآن قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَعْدِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران]، لأنه على ذلك التفسير يكون في كلتا الآيتين دعاء بالشر على الضال من الطائفتين. وكذلك قوله تعالى في اليهود: ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤]، في «البقرة والجمعة» عند من يقول: إن المراد بالتمني الدعاء بالموت على الكاذبين من الطائفتين، وهو اختيار ابن كثير، وظاهر الآية لا يساعد عليه.

الوجه الثاني: أن صيغة الطلب في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ يراد بها الإخبار عن سنة الله في الضالين، وعليه فالمعنى: أن الله أجرى العادة بأنه يمهل الضال ويملي له فيستدرجه بذلك حتى يرى ما يوعده وهو في غفلة وكفر وضلال.

وتشهد لهذا الوجه آيات كثيرة كقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْما نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾... الآية [آل عمران: ١٧٨]، وقوله: ﴿فَلَمَّا سَأَوْا مَا دُعُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فُوحُوا بِمَا أَوْتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾... الآية [الأنعام: ٤٤]، كما قدمنا قريباً بعض الآيات الدالة عليه.

ومما يؤيد هذا الوجه ما أخرجه ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن حبيب بن أبي ثابت قال في حرف أبي: «قل من كان في الضلالة فإنه يزيده الله ضلالة»، اهـ قاله صاحب الدر المنثور. ومثل هذا من جنس التفسير لا من جنس القراءة؛ فإن قيل على هذا الوجه؛ ما النكتة في إطلاق صيغة الطلب في معنى الخبر؟ فالجواب: أن الزمخشري أجاب في كشفه عن ذلك، قال في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ أي مَدَّ له الرحمن، يعني أمهله وأملى له في العمر؛ فأخرج على لفظ الأمر إيداناً بوجوب ذلك، وأنه مفعول لا محالة، كالمأمور به الممثل لتقطع معاذير الضال، ويقال له يوم القيامة: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ نَا يَدْكَرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ﴾ [فاطر: ٣٧]، اهـ محل الغرض منه. وأظهر الأقوال عندي في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾؛ أنه متعلق بما قبله يليه، والمعنى: فليمدد له الرحمن مدًّا حتى إذا رأى ما يوعده علم أن الأمر على خلاف ما كان يظن. وقال الزمخشري: إن ﴿حَتَّى﴾ في هذه الآية هي التي تحكى بعدها الجمل، واستدل على ذلك بمجيء الجملة الشرطية بعدها.

وقوله: ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ لفظة ﴿مَا﴾ مفعول به لـ ﴿رَأَوْا﴾. وقوله: ﴿إِنَّمَا الْعَذَابُ وَلِيْمًا أَسَاعَةً﴾؛ بدل من المفعول به الذي هو ﴿مَا﴾. ولفظة ﴿مِنْ﴾ من قوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ﴾... الآية، قال بعض العلماء: هي موصولة في محل نصب على المفعول به ليعلمون. وعليه فعلم هنا عرفانية تتعدى إلى مفعول واحد، وقال بعض أهل العلم: ﴿مِنْ﴾ استهامية والفعل القلبي الذي هو «يعلمون» معلق بالاستفهام، وهذا أظهر عندي. وقوله: ﴿شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾؛ في مقابلة قولهم: ﴿خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَيْلًا﴾؛ لأن مقامهم هو مكانهم ومسكنهم. والندي: المجلس الجامع لوجوه قومهم وأعوانهم وأنصارهم، والجند هم الأنصار والأعوان، فالمقابلة المذكورة ظاهرة. وقد دلت آية من كتاب الله على إطلاق «شر مكاناً»، والمراد اتصاف الشخص بالشر لا المكان، وهو قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوْثِقُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يَبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾ [يوسف: ٧٧]، فتفضيل المكان في الشرها هنا الظاهر أن المراد به تفضيله إخوته في الشر على نفسه فيما نسبوا إليه من شر السرقة لا نفس المكان، اللهم إلا أن يراد بذلك المكان المعنوي، أي أنتم شر منزلة عند الله تعالى.. وقوله في هذه الآيات المذكورة: ﴿مَقَامًا﴾ و﴿نَيْلًا﴾ و﴿أَثَلًا﴾ و﴿مَكَانًا﴾ و﴿جُنْدًا﴾ كل واحد منها تمييز محول عن الفاعل، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

والفاعل المعني انصبين بأفعلا مفضلاً كانت أعلى منزلاً

قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَيِّنَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ (٧٦). قوله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾؛ دليل على رجحان القول الثاني في الآية المتقدمة، وأن المعنى أن من كان في الضلالة زاده الله ضلالة، ومن اهتدى زاده الله هدى. والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة، كقوله في الضلال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَتَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾... الآية [الأأنعام: ١١٠]، كما قدمنا كثيراً من الآيات الدالة على هذا المعنى.

وقال في الهدى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ قُرُونَهُمْ﴾ (٧٧) [محمد]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا﴾... الآية [العنكبوت: ٦٩]: وقد جمع بينهما في آيات أخر كقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَآذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى...﴾ الآية [فصلت: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ هَؤُلَاءِ فَمِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٧٨) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (٧٩) [التوبة]، كما تقدم إيضاحه.

وقوله: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾، تقدم إيضاحه في سورة «الكهف»، فإن قيل: ظاهر الآية أن لفظة «خير» في قوله: ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ صيغة تفضيل، والظاهر أن المفضل عليه هو جزاء الكافرين؛ ويدل على ذلك ما قاله صاحب الدر المشور، قال: وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ يعني خير جزاء من جزاء المشركين. ﴿وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ يعني مرجعاً من مرجعهم إلى النار. والمعروف في العربية أن صيغة التفضيل تقتضي مشاركة المفضل والمفضل عليه في أصل المصدر، مع أن المفضل يزيد فيه على المفضل عليه، والخيرية منفية بتاتاً عن جزاء المشركين وعن مردهم، فلم يشاركوا في ذلك المسلمين حتى يفضلوا عليهم.

فالجواب أن الزمخشري في كشافه حاول الجواب عن هذا السؤال بما حاصله أنه كأنه قيل ثوابهم النار، والجنة خير منها على طريقة قول بشر بن أبي حازم:

غضبت تميم أن تقتل عامر يوم النسيار فأعتبوا بالصيلم
فقوله: «أعتبوا بالصيلم» يعني أرضوا بالسيف، أي لا رضى لهم عندنا إلا السيف
نقتلهم به. ونظيره قول عمرو بن معدي كرب:

وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيع
أي لا تحية بينهم إلا الضرب الوجيع. وقول الآخر:

شجعاء جرتها الذميل تلوكه أصلاً إذا راح المطي غرائاً

يعني أن هذه الناقة لا جرة لها تخرجها من كرشها فتضعها إلا السير، وعلى هذا المعنى فالمراد لا ثواب لهم إلا النار. وباعتبار جعلها ثواباً بهذا المعنى فضل عليها ثواب المؤمنين، هذا هو حاصل جواب الزمخشري مع إيضاحه له.

قال مقيدة - عفا الله عنه وغفر له -: ويظهر لي في الآية جواب آخر أقرب من هذا، وهو أننا قدمنا أن القرآن والسنة الصحيحة دلا على أن الكافر يجازى بعمله الصالح في الدنيا، فإذا بر والديه ونفس عن المكروب، وقرى الضيف، ووصل الرحم مثلاً يبتغي بذلك وجه الله فإن الله يثيبه في الدنيا، كما قدمنا دلالة الآيات عليه، وحديث أنس عند مسلم. فتوابه هذا الراجع إليه من عمله في الدنيا، هو الذي فضل الله عليه في الآية ثواب المؤمنين، وهذا واضح لا إشكال فيه. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾. أخرج الشيخان وغيرهما من غير وجه عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: جئت العاص بن وائل السهمي أتقاضاه حقاً لي عنده؛ فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم. فقلت: لا، حتى تموت ثم تبعث. قال: وإني لميت ثم مبعوث؟ قلت: نعم. قال: إن لي هناك مالاً وولداً فأقضيك؛ فنزلت هذه الآية: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾، وقال بعض أهل العلم: إن مراده بقوله: ﴿لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾، الاستهزاء بالدين

وبخباب بن الارت رضي الله عنه، والظاهر: أنه زعم أنه يؤتى مالاً وولداً قياساً منه للآخرة على الدنيا، كما بينا الآيات الدالة على ذلك؛ كقوله: «وَلَيْنَ تُجَعَّتْ إِلَى رَبِّكَ إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَىٰ» [فصلت: ٥٠]، وقوله: «أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُضَاهُهُمْ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ﴿٥٥﴾ شَايَعَهُمْ فِي الْفِرَتِ»... الآية [المؤمنون: ٥٥ - ٥٦]، وقوله: «وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾» [سبأ]، إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه. وقرأ هذا الحرف حمزة والكسائي «وولداً» بضم الواو الثانية وسكون اللام. وقرأه الباقر بفتح الواو واللام معاً، وهما لغتان معناهما واحد كالعرب والعرب، والعدم والعدم. ومن إطلاق العرب الولد بضم الواو وسكون اللام كقراءة حمزة والكسائي قول الحارث بن حلزة: ولقد رأيت معاشراً قد ثمروا مالاً وولداً وقول رؤية:

الحمد لله العزيز فرداً لم يتخذ من ولد شيء ولداً

وزعم بعض علماء العربية أن الولد بفتح الواو واللام مفرد، وأن الولد بضم الواو وسكون اللام جمع له؛ كأسد بالفتح يجمع على أسد بضم فسكون. والظاهر عدم صحة هذا.

ومما يدل على أن «الولد» بالضم ليس بجمع قول الشاعر:

فليت فلاناً كان في بطن أمه وليت فلاناً كان ولد حمار

لأن «الولد» في هذا البيت بضم الواو وسكون اللام، وهو مفرد قطعاً كما ترى.

قوله تعالى: «أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا».

اعلم أن الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة رد على العاص بن وائل السهمي قوله: إنه يؤتى يوم القيامة مالاً وولداً بالدليل المعروف عند الجدليين بالتقسيم والترديد، وعند الأصوليين بالسبر والتقسيم، وعند المنطقيين بالشرطي المنفصل.

وضابط هذا الدليل العظيم أنه متركب من أصليين: أحدهما: حصر أوصاف المحل بطريق من طرق الحصر، وهو المعبر عنه بالتقسيم عند الأصوليين والجدليين، وبالشرطي المنفصل عند المنطقيين.

وثانيهما: هو اختيار تلك الأوصاف المحصورة، وإبطال ما هو باطل منها وإبقاء ما هو صحيح منها كما ستري إيضاحه - إن شاء الله تعالى - وهذا الأخير هو المعبر عنه عند الأصوليين «بالسبر»، وعند الجدليين «بالترديد»، وعند المنطقيين بالاستثناء في الشرطي المنفصل. والتقسيم الصحيح في هذه الآية الكريمة يحصر أوصاف المحل في ثلاثة، والسبر الصحيح يبطل اثنين منها ويصحح الثالث، وبذلك يتم إلقاء العاص بن وائل الحجر في دعواه أنه يؤتى يوم القيامة مالاً وولداً.

أما وجه حصر أوصاف المحل في ثلاثة فهو أنا نقول: قولك إنك تؤتى مالا وولداً يوم القيامة لا يخلو مستندك فيه من واحد من ثلاثة أشياء:

الأول: أن تكون اطلعت على الغيب، وعلمت أن إيتاءك المال والولد يوم القيامة مما كتبه الله في اللوح المحفوظ.

الثاني: أن يكون الله أعطاك عهداً بذلك، فإنه إن أعطاك عهداً لن يخلفه.

الثالث: أن تكون قلت ذلك افتراء على الله من غير عهد ولا اطلاع غيب.

وقد ذكر تعالى القسمين الأولين في قوله: ﴿أَطْلَعَ أَلَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ٧٨ مبطلاً لهما بأداة الإنكار. ولا شك أن كلا هذين القسمين باطل؛ لأن العاص المذكور لم يطلع الغيب؛ ولم يتخذ عند الرحمن عهداً. فتعين القسم الثالث وهو أنه قال ذلك افتراء على الله. وقد أشار تعالى إلى هذا القسم الذي هو الواقع بحرف الزجر والردع وهو قوله: ﴿كَلَّا﴾ أي لأنه يلزمه، ليس الأمر كذلك، لم يطلع الغيب، ولم يتخذ عند الرحمن عهداً، بل قال ذلك افتراء على الله؛ لأنه لو كان أحدهما حاصلاً لم يستوجب الردع عن مقالته كما ترى. وهذا الدليل الذي أبطل به دعوى ابن وائل هذه هو الذي أبطل به بعينه دعوى اليهود: أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة في سورة «البقرة»، وصرح في ذلك بالقسم الذي هو الحق، وهو أنهم قالوا ذلك كذباً من غير علم. وحذف في «البقرة» قسم اطلاع الغيب المذكور في «مريم» لدلالة ذكره في «مريم» على قصده في «البقرة» كما أن كذبهم الذي صرح به في «البقرة» لم يصرح به في «مريم» لأن ما في «البقرة» يبين ما في «مريم» لأن القرآن العظيم يبين بعضه بعضاً، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا أَلْكَارُ إِلَّا أَنْبَاءًا مَقْدُودَةً قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ٨٠ [البقرة]، فالأوصاف هنا هي الأوصاف الثلاثة المذكورة في «مريم» كما أوضحنا، وما حذف منها يدل عليه ذكره في «مريم» فاتخاذ العهد ذكره في «البقرة» ومعاً والكذب في ذلك على الله صرح به في «البقرة» بقوله: ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠]، وأشار له في «مريم» بحرف الزجر الذي هو ﴿كَلَّا﴾ واطلاع الغيب صرح به في «مريم» وحذفه في «البقرة» لدلالة ما في «مريم» على المقصود في «البقرة» كما أوضحنا. وهناك مسائل تتعلق بالآية يرجع من أراد الزيادة لها في الأصل.

وأظهر الأقوال عندي في معنى العهد في قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾؛ أن المعنى أم أعطاه الله عهداً أنه سيفعل له ذلك، بدليل قوله تعالى في نظيره في سورة «البقرة»: ﴿قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ [البقرة: ٨٠]. وخير ما يفسر به القرآن القرآن. وقيل: العهد المذكور: العمل الصالح. وقيل شهادة أن لا إله إلا الله.

قوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَكَ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ۖ﴾ (٧٩) وَنَرِيكَ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾، ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه سيكتب ما قاله ذلك الكافر افتراء عليه، من أنه يوم القيامة يؤتى مالاّ وولداً مع كفره بالله، وأنه يمد له من العذاب مداً. قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَكَ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾؛ أي يزيده عذاباً فوق عذاب. وقال الزمخشري في الكشاف: ﴿وَنَمُدُّ لَكَ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾؛ أي نطول له من العذاب ما يستأهله؛ ونعذبه بالنوع الذي يعذب به المستهزون. أو نزيده من العذاب ونضاعف له من المدد، يقال: مده وأمده بمعنى، وتدل عليه قراءة علي بن أبي طالب عليه السلام «ونمد له» بالضم وأكد ذلك بالمصدر، وذلك من فرط غضب الله، نعوذ به من التعرض لما يستوجب غضبه، اهـ.

وأصل المدد لغة: الزيادة، ويدل لذلك المعنى قوله تعالى في أكابر الكفار الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله: ﴿زِدْنَهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، وقوله في الأتباع والمتبعين: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقوله في هذه الآية: ﴿وَنَرِيكَ مَا يَقُولُ﴾ أي ما يقول: إنه يؤتاه يوم القيامة من مال وولد، أي نسلبه منه في الدنيا ما أعطيناه من المال والولد بإهلاكنا إياه. وقيل: نحرمه ما تمناه من المال والولد في الآخرة، ونجعله للمسلمين. ويدل للمعنى الأول قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِيَّ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (٢١)، وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الحجر: ٢٢]، كما تقدم إيضاحه في هذه السورة الكريمة.

وقوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أي منفرداً لا مال له ولا ولد ولا خدم ولا غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدًا كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾... [الأنعام: ٩٤]، الآية، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ (١٥) كما تقدم إيضاحه.

فإن قيل: كيف عبر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة بحرف التنفيس الدال على الاستقبال في قوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾؛ مع أن ما يقوله الكافر يكتب بلا تأخير بدليل قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنٌ﴾ (٧٨) [ق].

فالجواب أن الزمخشري في كشافه تعرض للجواب عن هذا السؤال بما نصه: قلت فيه وجهان: أحدهما: سنظهر له ونعلمه أنا كتبنا قوله على طريقة قول زائد بن صعصعة الفقعسي:

إذا ما انتسبنا لم تلدني لثيمة ولم تجدي من أن تقري بها بداً
أي تبين وعلم بالانتساب أنني لست بابن لثيمة، والثاني: أن المتوعد يقول للجاني: سوف أنتقم منك، يعني أنه لا يخل بالانتصار وإن تناول به الزمان واستأخر، فجردها هنا لمعنى الوعيد اهـ منه بلفظه. إلا أنا زدنا اسم قائل البيت وتكملته.
وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أنه يكتب ما يقول هذا الكافر

ذكر نحوه في مواضع متعددة من كتابه، كقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكَرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْفُرُونَ مَا تَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلَنَا لَدَيْهِمْ يَكْفُرُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقوله تعالى: ﴿هَذَا كَيْدُنَا يَنْطِقُ عَلَىٰكُمْ يَالْحَقُّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِجُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجنانية: ٩٦]، وقوله تعالى: ﴿سَتَكُنُّبُ شَهِدَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]؛ وقوله تعالى: ﴿سَتَكُنُّبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمْ أَلْفَيْكَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكْذِبُونَ بِالَّذِينَ﴾ [٩] ﴿وَلَنْ عَلَيْكُمْ لِحُفَظِينَ﴾ [١٠] ﴿كَرَامًا كَبِيرِينَ﴾ [١١] ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُدْعَوْنَ بِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]؛ وقوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [٢١] ﴿أَفَرَأَى كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [٨١] ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [٨٢]. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار المتقدم ذكرهم في قوله: ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾؛ اتخذوا من دون الله آلهة؛ أي معبودات من أصنام وغيرها يعبدونها من دون الله، وأنهم عبدوهم لأجل أن يكونوا لهم عزاً؛ أي أنصاراً وشفعاء ينقذونهم من عذاب الله؛ كما أوضح تعالى مرادهم ذلك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لَيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، فتقريبهم إليهم إلى الله زلفى في زعمهم هو عزهم الذي أملوه بهم وكقوله تعالى عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الآية: يونس: ١٨]. فالشفاعة عند الله عز لهم يزعمونه كذباً وافتراء على الله كما بينه بقوله تعالى: ﴿قُلِ أَتُشْرِكُونَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿كَلَّا﴾ زجر وردع لهم عن ذلك الظن الفاسد الباطل؛ أي ليس الأمر كذلك! لا تكون المعبودات التي عبدتم من دون الله عزاً لكم، بل تكون بعكس ذلك؛ فيكون عليكم ضداً، أي أعواناً عليكم في خصومتكم وتكذيبكم والتبرؤ منكم، وأقوال العلماء في الآية تدور حول هذا الذي ذكرنا، كقول ابن عباس ﴿ضِدًّا﴾ أي أعواناً، وقول الضحاك ﴿ضِدًّا﴾ أي أعداء... وقول قتادة ﴿ضِدًّا﴾؛ أي قرناء في النار يلعن بعضهم بعضاً، وكقول ابن عطية ﴿ضِدًّا﴾ يجيئهم منهم خلاف ما أملوه فيؤول بهم ذلك إلى الدل والهوان، ضد ما أملوه من العز.

وهذا المعنى الذي ذكر الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة بينه أيضاً في غير هذا الموضع كقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [٥] ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [١] ﴿[الأحقاف]، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ

يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ ﴿٨١﴾ [فاطر]، إلى غير ذلك من الآيات، وضمير الفاعل في قوله: ﴿سَيَكْفُرُونَ﴾ فيه وجهان للعلماء، وكلاهما يشهد له قرآن؛ إلا أن لأحدهما قرينة ترجحه على الآخر.

الأول: أن واو الفاعل في قوله: ﴿سَيَكْفُرُونَ﴾ راجعة إلى المعبودات التي كانوا يعبدونها من دون الله، أما العاقل منها فلا إشكال فيه. وأما غير العاقل فالله قادر على أن يخلق له إدراكاً يخاطب به من عبده ويكفر به بعبادته إياه. ويدل لهذا الوجه قوله تعالى عنهم: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلَقُوا إِلَيْهِمْ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النحل]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس]، إلى غير ذلك من الآيات.

الوجه الثاني: أن العابدين هم الذين يكفرون بعبادتهم شركاءهم وينكرونها، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام]، وقوله عنهم: ﴿بَلْ لَمْ تَكُنْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا... الآية [غافر: ٧٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

والقرينة المرجحة للوجه الأول أن الضمير في قوله: ﴿يَكْفُرُونَ﴾ راجع للمعبودات؛ وعليه فرجوع الضمير في: ﴿يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢]، للمعبودات أظهر؛ لانسجام الضمائر بعضها مع بعض.

أما على القول الثاني فإنه يكون ضمير ﴿يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢] للعبادين، وضمير ﴿يَكْفُرُونَ﴾ [الجن: ١٩] للمعبودين، وتفرق الضمائر خلاف الظاهر، والعلم عند الله تعالى. وقول من قال من العلماء: إن ﴿كَلَّا﴾ في هذه الآية متعلقة بما بعدها لا بما قبلها، وأن المعنى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ﴾، أي حقاً سيكفرون بعبادتهم، محتمل، ولكن الأول أظهر منه وأرجح، وقائله أكثر، والعلم عند الله تعالى، وفي قوله: ﴿كَلَّا﴾ قراءات شاذة تركنا الكلام عليها لشذوذها.

وقوله في هذه الآية: ﴿لَيَكُونُوا لَكُمْ عِزًّا﴾ أفرد فيه العز مع أن المراد الجمع؛ لأن أصله مصدر على حد قوله في الخلاصة:

ونعتوا بمصدر كثير

والإخبار بالمصدر يجري على حكم النعت به، وقوله: ﴿صِدًّا﴾ مفرداً أيضاً أريد به الجمع. قال ابن عطية: لأنه مصدر في الأصل؛ حكاه عنه أبو حيان في البحر. وقال الزمخشري: الضد العون، وحد توحيد قوله ﴿لَكُمْ﴾: «هم يد على من سواهم» لاتفاق كلمتهم، وأنهم كشيء واحد لفرط تضامنهم وتوافقهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَهُمُ آثًا﴾. قوله: ﴿أَرْسَلْنَا

الشَّيْطَانِ... الآية، أي سلطانهم عليهم وقيضناهم لهم؛ وهذا هو الصواب، خلافاً لمن زعم أن معنى: ﴿أَرْسَلْنَا الشَّيْطَانِ﴾... الآية؛ أي خَلينا بينهم وبينهم، ولم نعصمهم من شرهم؛ يقال: أرسلت البعير أي خَليته.

وقوله: ﴿تَوَّزَّهُمْ أَرْأَ﴾ الأز والهز والاستفزاز بمعنى، ومعناها التهيج وشدة الإزعاج. فقوله: ﴿تَوَّزَّهُمْ أَرْأَ﴾ أي تهيجهم وترعجهم إلى الكفر والمعاصي.

وأقوال أهل العلم في الآية راجعة إلى ما ذكرنا، كقول ابن عباس ﴿تَوَّزَّهُمْ أَرْأَ﴾؛ أي تغويهم إغواء. وكقول مجاهد ﴿تَوَّزَّهُمْ أَرْأَ﴾؛ أي تسليهم إشلاء، وكقول قتادة ﴿تَوَّزَّهُمْ أَرْأَ﴾ أي ترعجهم إزعاجاً.

وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أنه سلط الشياطين على الكافرين، وقبضهم لهم يضلونهم عن الحق بينه في مواضع آخر من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَقَبَضْنَا لَهُمْ قُرْآنَهُ فَزَيَّنَّا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾... الآية [فصلت: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾... الآية [الزخرف: ٣٦ - ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا نَمَكَشَرَ الْحَاجِثَ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾... الآية [الأنعام: ١٢٨]، وقوله: ﴿وَلِإِخْوَانِهِمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الأعراف]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾﴾. قوله: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي لا تستعجل وقوع العذاب بهم فإن الله حدد له أجلاً معيناً معدوداً؛ فإذا انتهى ذلك الأجل جاءهم العذاب، فقوله: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾؛ أي نعد الأعوام والشهور والأيام التي دون وقت هلاكهم، فإذا جاء الوقت المحدد لذلك أهلكتناهم، والعرب تقول: عجلت عليه بكذا إذا استعجلته منه.

وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن هلاك الكفار حدد له أجل معدود ذكره في مواضع كثيرة من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿وَسَتَجِدُنَا فِي الْعَذَابِ وَأُولَئِكَ أَجُلٌ مُسَمًّى لِّجَاءِ هَؤُلَاءِ الْعَذَابِ﴾... الآية [العنكبوت: ٥٣]، وقوله: ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ﴿٥٤﴾﴾ [هود]، وقوله: ﴿وَلَكِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أَتَمِّ مَعْدُودَةٍ لِيُكَلِّمُنَا مَا يَحِجُّهُمْ﴾ [هود: ٨]، وقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٥٦﴾﴾ [إبراهيم]، وقوله تعالى: ﴿نَمِيعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٧﴾﴾ [القمان]، وقوله: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمِتَّتُمْ فَلَإِنَّ أَوَّلَ آخِرَةٍ لَكُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ إِنَّكُمْ كَذِبُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٦]، وقوله: ﴿فَهَبْ لِكُفْرَيْنِ أَهْلَهُمْ رُوحًا ﴿٥٩﴾﴾ [الطارق] إلى غير ذلك من الآيات.

وروي أن المأمون قرأ هذه السورة الكريمة فمر بهذه الآية وعنده جماعة من الفقهاء؛ فأشار إلى ابن السماك أن يعظه، فقال: إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد، فما أسرع ما تنفد.

والأظهر في الآية هو ما ذكرنا من أن العد المذكور عد الأعوام والأيام والشهور من الأجل المحدد.

وقال بعض أهل العلم: هو عد أنفاسهم؛ كما أشار إليه ابن السماك في موعظته للمؤمن التي ذكرنا إن صح ذلك. وعن ابن عباس رضي الله عنه أنها كان إذا قرأها بكى وقال: آخر العدد: خروج نفسك، آخر العدد: فراق أهلك، آخر العدد: دخول قبرك.

وقال بعض أهل العلم: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾؛ أي نعد أعمالهم لنجازيهم عليها، والظاهر هو ما قدمنا، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥) **وسوف المجرمين إلى جهنم وزدًا** (٨٦). ذكر - جل - وعلا - في هذه الآية الكريمة أن المتقين الذين كانوا يتقونه في دار الدنيا بامتنال أمره واجتناب نهيه يحشرون إليه يوم القيامة في حال كونهم وفداً، والوفد على التحقيق جمع وافد كصاحب وصحب، وراكب وزكب. وقدمنا في سورة «النحل» أن التحقيق أن الفعل بفتح فسكون من صيغ جموع الكثرة للفاعل وصفاً، وبيننا شواهد ذلك من العربية، وإن أغفله الصرفيون. والوافد: من يأتي إلى الملك مثلاً في أمر له شأن. وجمهور المفسرين على أن معنى قوله: ﴿وَفْدًا﴾ أي ركبانا. وبعض العلماء يقول: هم ركبانا على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة. وبعضهم يقول: يحشرون ركبناً على صور من أعمالهم الصالحة في الدنيا في غاية الحسن وطيب الرائحة.

قال ابن كثير رحمته الله في تفسير هذه الآية الكريمة: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن خالد عن عمرو بن قيس الملائي عن ابن مرزوق رضي الله عنه ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥) قال: يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها وأطيبها ريحاً، فيقول: من أنت؟ فيقول: أما تعرفني؟ فيقول: لا إلا أن الله قد طيب ريحك، وحسن وجهك، فيقول: أنا عمك الصالح، وهكذا كنت في الدنيا حسن العمل طيبه، فطالما ركبناك في الدنيا فهل أمركني. فذلك قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥). وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥) قال: ركبانا. وقال ابن جرير: حدثني ابن المشني، حدثني ابن مهدي عن سعيد عن إسماعيل عن رجل عن أبي هريرة: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥)؛ قال: على الإبل. وقال ابن جريج: على النجائب. وقال الثوري: على الإبل النوق. وقال قتادة: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥) قال: إلى الجنة.

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد في مسند أبيه: حدثنا سويد بن سعيد، أخبرنا علي بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحاق، حدثنا النعمان بن سعيد قال: كنا جلوساً عند علي رضي الله عنه فقرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥) قال: والله ما على أرجلهم يحشرون. ولا يحشر الوفد على أرجلهم، ولكن بنوق لم ير الخلائق

مثلها، عليها رحائل من ذهب فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة!! وهكذا رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير من حديث عبد الرحمن بن إسحاق المدني به، وزاد: عليها رحائل من ذهب، وأزمتها الزبرجد...، والباقي مثله. وروى ابن أبي حاتم هنا حديثاً غريباً جداً مرفوعاً عن علي قال: حدثنا أبي، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النهدي، حدثنا سلمة بن جعفر البجلي، سمعت أبا معاذ البصري يقول: إن علياً كان ذات يوم عند رسول الله ﷺ، فقرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥)؛ فقال: ما أظن الوفد إلا الركب يا رسول الله ﷺ؟ فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنهم إذا خرجوا من قبورهم يستقبلون أو يؤتون بنوق بيض لها أجنحة وعليها رحائل الذهب، شرك نعالهم نور يتلألأ، كل خطوة منها مد البصر، فينتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عينان فيشربون من إحدهما فتغسل ما في بطونهم من دنس، ويغتسلون من الأخرى فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبداً، وتجري عليهم نضرة النعيم فينتهون أو فيأتون باب الجنة فإذا حلقة من ياقوت حمراء على صفائح الذهب؛ فيضربون بالحلقة على الصفحة فيسمع لها طنين، يا علي؛ فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل فتبعث قيمها ليفتح له فإذا رآه خر له (قال سلمة: أراه قال ساجداً) فيقول ارفع رأسك فإنما أنا قيمك وكلت بأمرك، فيتبعه ويقفو أثره فتستخف الحوراء العجلة فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتنقه...» إلى آخر الحديث بطوله. وفي آخر السياق: هكذا وقع في هذه الرواية مرفوعاً. وقد روينا في المقدمات من كلام علي عليه السلام، وهو أشبه بالصحة، والله أعلم. وركوبهم المذكور إنما يكون من المحشر إلى الجنة، أما من القبر فالظاهر أنهم يحشرون مشاة؛ بدليل حديث ابن عباس الدال على أنهم يحشرون حفاة عراة غرلا. هذا هو الظاهر، وجزم به القرطبي، والله تعالى أعلم.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾ (٨٦) السوق معروف. والمجرمون: جمع تصحيح للمجرم، وهو اسم فاعل الإجرام، والإجرام: ارتكاب الجريمة، وهي الذنب الذي يستحق صاحبه به النكال والعذاب. ولم يأت الإجرام في القرآن إلا من أجرم الرباعي على وزن أفعل. ويجوز إتيانه في اللغة بصيغة الثلاثي فتقول: جرم يجرم كضرب يضرب؛ والفاعل منه جارم، والمفعول مجروم، كما هو ظاهر، ومنه قول عمرو بن البراقة النهمي:

وننصر مولانا ونعلم أنه
كما الناس مجروم عليه وجارم

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَرْدًا﴾ أي عطاشاً، وأصل الورد: الإتيان إلى الماء، ولما كان الإتيان إلى الماء لا يكون إلا من العطش أطلق هنا اسم الورد على الجماعة العطاش، أعادنا الله والمسلمين من العطش في الآخرة والدنيا. ومن إطلاق الورد على المسير إلى الماء قول الراجز يخاطب ناقته:

ردي ردي ورد قطاة صما كدرية أعجبها برد الما

واختلف العلماء في العامل الناصب لقوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ﴾ ف قيل منصوب بـ ﴿يَمْلِكُونَ﴾ بعده؛ أي لا يملكون الشفاعة يوم نحشر المتقين، واختاره أبو حيان في البحر. وقيل: منصوب بـ «اذكر» أو احذر مقدراً، وفيه أقوال غير ذلك.

وهذا الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة «الزمر»: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٦﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٧٧﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ ۖ طِبْتُ لَهُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الزمر].

قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾. قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يكون في الآية وجهان أو أوجه من التفسير كلها حق، وكل واحد منها يشهد له قرآن، فإننا نذكر الجميع وأدلته من كتاب الله تعالى؛ لأنه كله حق، فإذا علمت ذلك فاعلم أن هذه الآية الكريمة من ذلك النوع، قال بعض أهل العلم: الواو في قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ راجعة إلى «المُجْرِمِينَ» المذكورين في قوله: ﴿وَسُوءُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي لا يملك المجرمون الشفاعة، أي لا يستحقون أن يشفع فيهم شافع يخلصهم مما هم فيه من الهول والعذاب.

وهذا الوجه من التفسير تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿فَمَا نَفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٨٦] وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] مع قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

وهذا الوجه يفهم منه بالأحرى أن المجرمين لا يشفعون في غيرهم؛ لأنهم إذا كانوا لا يستحقون أن يشفع فيهم لغيرهم، فشفاعتهم في غيرهم ممنوعة من باب أولى، وعلى كون الواو في ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ راجعة إلى: «المُجْرِمِينَ» فالاستثناء منقطع و«من» في محل نصب، والمعنى: لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً يملكون الشفاعة، أي يتمليك الله إياهم وإذنه لهم فيها. فيملكها الشافعون بما ذكرنا، ويستحقها به المشفوع لهم، قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال: ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَن بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦].

وقال بعض أهل العلم: الواو في قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ﴾ راجعة إلى «المتقين والمجرمين» جميعاً المذكورين في قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [سورة: ٨٥] وسُوءُ

الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِثًا ۝ (٨٦)؛ وعليه فالاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَن أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾: متصل و﴿مِنْ﴾ بدل من الواو في «لا يملكون» أي لا يملك من جميعهم أحد الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً وهم المؤمنون، والعهد: العمل الصالح. والقول بأنه لا إله إلا الله وغيره من الأقوال يدخل في ذلك؛ أي إلا المؤمنون فإنهم يشفع بعضهم في بعض كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَن أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضَىٰ لَهُ قَوْلًا ۝ (٨٧)﴾، وقد بين تعالى في مواضع آخر أن المعبودات التي يعبدونها من دون الله لا تملك الشفاعة، وأن من شهد بالحق يملكها بإذن الله له في ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ الآية [الزخرف: ٨٦]؛ أي لكن من شهد بالحق يشفع بإذن الله له في ذلك. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ۝ (٨٨) وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ﴾... الآية [الروم: ١٢ - ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُتَّبِعُونَ اللَّهَ يَمَّا لَا يَعْلَمُ﴾... الآية [يونس: ١٨]. والأحاديث في الشفاعة وأنواعها كثيرة معروفة، والعلم عند الله تعالى.

وفي إعراب جملة «لا يملكون» وجهان: الأول: أنها حالية؛ أي نسوق المجرمين إلى جهنم في حال كونهم لا يملكون الشفاعة. أو نحشر المتقين ونسوق المجرمين في حال كونهم لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ منهم عند الرحمن عهداً. والثاني: أنها مستأنفة للإخبار، حكاية أبو حيان في البحر. ومن أقوال العلماء في العهد المذكور في الآية أنه المحافظة على الصلوات الخمس، واستدل من قال ذلك بحديث عبادة بن الصامت الذي قدمنا عند الكلام على قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾.

وقال بعضهم: العهد المذكور هو أن يقول العبد كل صباح ومساءً، «اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك في هذه الحياة بأنني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك، فلا تكلني إلى نفسي؛ فإنك إن تكلني إلى نفسي تباعدني من الخير وتقربني من الشر، وإنني لا أثق إلا برحمتك. فاجعل لي عندك عهداً توفينيهِ يوم القيامة؛ إنك لا تخلف الميعاد»، فإذا قال ذلك طبع الله عليها طابعاً ووضعها تحت العرش، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الذين لهم عند الله عهد؟ فيقوم فيدخل الجنة، انتهى. ذكره القرطبي بهذا اللفظ مرفوعاً عن ابن مسعود. وذكر صاحب الدر المنثور أنه أخرجه ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن مسعود موقوفاً عليه، وليس فيه قوله: فإذا قال ذلك إلخ. وذكر صاحب الدر المنثور أيضاً: أن الحكيم الترمذي أخرج نحوه مرفوعاً عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، والظاهر أن المرفوع لا يصح. والذي يظهر لي أن العهد في الآية يشمل الإيمان بالله وامتنال أمره واجتناب نهيه؛ خلافاً لمن زعم أن العهد في الآية كقول العرب: عهد الأمير إلى فلان بكذا؛ أي أمره به، أي لا يشفع إلا من أمره الله بالشفاعة، فهذا القول ليس صحيحاً في المراد بالآية وإن كان صحيحاً

في نفسه . وقد دلت على صحته آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرِضَىٰ﴾ [النجم: ٢١]، وقوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾... الآية، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾... الآيات، قد تكلمنا عليها وعلى الآيات التي بمعناها في القرآن في مواضع متعددة، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (٩٦).

قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يذكر في القرآن لفظ عام ثم يصرح في بعض المواضع بدخول بعض أفراد ذلك العام فيه، وقد قدمنا أمثلة متعددة لذلك فإذا علمت ذلك فاعلم أنه - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة ذكر أنه سيجعل لعبادة المؤمنين الذين يعملون الصالحات وداً؛ أي محبة في قلوب عباده، وقد صرح في موضع آخر بدخول نبيه موسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - في هذا العموم، وذلك في قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ الآية. وفي حديث أبي هريرة المتفق عليه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه؛ قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبه؛ فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض. وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل، فقال: يا جبريل إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضه أهل السماء، ثم يوضع له البغضاء في الأرض»، اهـ.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزُقُهُ بِلسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ (٩٧).

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه إنما يسر هذا القرآن بلسان هذا النبي العربي الكريم، ليبشر به المتقين، وينذر به الخصوم الألداء وهم الكفرة، وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في مواضع أخرى، أما ما ذكر فيها من تيسير هذا القرآن العظيم فقد أوضحه في مواضع آخر كقوله في سورة «القمر» مكرراً لذلك: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (٧) [القمر]، وقوله في آخر «الدخان»: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزُقُهُ بِلسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥٨) [الدخان]، وأما ما ذكر فيها من كونه بلسان هذا النبي العربي الكريم فقد ذكره في مواضع آخر كقوله: ﴿وَلَقَدْ لَتَنِيزِيلَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢٢) [الشعراء]، وقوله ﴿الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (١٢٢) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٢٥﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٢٥﴾ [الشعراء]، وقوله تعالى: ﴿الرَّيَالُكَ ءَابَتْ إِلَيْكَ الْكُتُبِ الْمُبِينِ﴾ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ [يوسف]، وقوله تعالى: ﴿حَمِّمَ﴾ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ [الزخرف]، وقوله تعالى: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿لَتُنْفِثَنَّ بِهِ الَّتَفِثَ﴾... الآية قد أوضحنا الآيات الدالة عليه في سورة «الكهف» وغيرها فأغنى ذلك عن إعادته هنا. وأظهر الأقوال في قوله: ﴿لَذَٰٓا﴾ أنه جمع الألد، وهو شديد الخصومة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]، وقول الشاعر:

أبيت نجياً للهموم كأنني أخاصم أقواماً ذوي جدل لدا
قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحْسِبُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ سَمِعَ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (٨١). ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ [الأنعام: ٦]، في هذه الآية الكريمة هي الخبرية، وهي في محل نصب لأنها مفعول ﴿أَهْلَكْنَا﴾، و﴿مِّنْ﴾ هي المبينة لـ ﴿كَمْ﴾ كما تقدم إيضاحه.
وقوله: ﴿هَلْ يُحْسِبُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي هل ترى أحداً منهم، أو تشعر به، أو تجده ﴿أَوْ سَمِعَ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أي صوتاً. وأصل الركن: الصوت الخفي؛ ومنه ركن الرمح: إذا غيب طرفه وأخفاه في الأرض. ومنه الركاز: وهو دفن جاهلي مغيب بالدفن في الأرض، ومن إطلاق الركن على الصوت قول لبيد في معلقته:

فتوجست ركن الأنيس فراعها
عن ظهر غيب والأنيس سقامها
وقول طرفه في معلقته:

وصادقتا سمع التوجس للسرى
لركن خفي أو لصوت مندد
وقول ذي الرمة:

إذا توجس ركزا مقفر ندس
بنبأ الصوت ما في سمعه كذب
والاستفهام في قوله: ﴿هَلْ﴾ يراد به النفي، والمعنى أهلكنا كثيراً من الأمم الماضية فما ترى منهم أحد ولا تسمع لهم صوتاً، وما ذكره في هذه الآية من عدم رؤية أشخاصهم، وعدم سماع أصواتهم، ذكر بعضه في غير هذا الموضع كقوله في عاد: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٨]، وقوله فيهم: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، وقوله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَمِنْهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْنَؤُ مَعْقَلَةٌ وَقَصْرٌ مَّشِيدٌ﴾ [الحج: ٢٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة طه

قوله تعالى: ﴿طه﴾ (١).

أظهر الأقوال فيه عندي أنه من الحروف المقطعة في أوائل السور، ويدل لذلك أن الطاء والهاء المذكورتين في فاتحة هذه السور، جاءتا في مواضع آخر لا نزاع

فيها في أنهما من الحروف المقطعة، أما الطاء ففي فاتحة «الشعراء» ﴿طسّر﴾ [الشعراء] وفاتحة «النمل» ﴿طسّ﴾ [النمل: ١]؛ وفاتحة «القصص»، وأما الهاء ففي فاتحة «مريم» في قوله تعالى: ﴿كَهَيَّصَ﴾ [مريم]، وقد قدمنا الكلام مستوفى على الحروف المقطعة في أول سورة «هود» وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

وقال بعض أهل العلم: قوله طه: معناه يا رجل، قالوا: وهي لغة بني عك بن عدنان، وبني طيء، وبني عكل، قالوا: لو قلت لرجل من بني عك: يا رجل. لم يفهم أنك تناديه حتى تقول: طه، ومنه قول متمم بن نويرة التميمي:

دعوت بطه في القتال فلم يجب فخفت عليه أن يكون موائلا

ويروى مزيلا. وقال عبد الله بن عمرو: معنى (طه) بلغة عك: يا حبيبي، ذكره الغزنوي. وقال قطرب: هو بلغة طيء، وأنشد ليزيد بن المهلهل:

إن السفاهة طه في شمائلكم لا بارك الله في القوم الملاعين

ويروى:

إن السفاهة طه من خلائقكم لا قدس الله أرواح الملاعين

ومن روي عنه أن معنى «طه»: يا رجل، ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء ومحمد بن كعب وأبو مالك وعطية العوفي والحسن وقتادة والضحاك والسدي وابن أبيزى وغيرهم، كما نقله عنهم ابن كثير وغيره. وذكر القاضي عياض في الشفاء عن الربيع بن أنس قال: كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل الله ﴿طه﴾ يعني طأ الأرض بقدميك يا محمد. وعلى هذا القول فالهاء مبدلة من الهمزة، والهمزة خفت بإبدالها أن ألفا كقول في الفرزدق:

راحت بمسلمة البغال عشية فارعي فزارة لا هناك المرتع

ثم بنى عليه الأمر والهاء للسكت، ولا يخفى ما في هذا القول من التعسف والبعد عن الظاهر.

وفي قوله: ﴿طه﴾ أقوال آخر ضعيفة، كالقول بأنه من أسماء النبي ﷺ. والقول بأن الطاء من الطهارة، والهاء من الهداية يقول لنبيه: يا طاهراً من الذنوب، يا هادي الخلق إلى علام الغيوب، وغير ذلك من الأقوال الضعيفة. والصواب - إن شاء الله - في الآية هو ما صدرنا به، ودل عليه القرآن في مواضع آخر.

قوله تعالى: ﴿مَا أُنزِلَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَتَشَقَّ﴾.

في قوله تعالى: ﴿مَا أُنزِلَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَتَشَقَّ﴾ وجهان من التفسير، وكلاهما

يشهد له قرآن:

الأول: أن المعنى ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى؛ أي لتتعب التعب الشديد بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم؛ وتحسرك على أن يؤمنوا. وهذا الوجه جاءت بنحوه آيات

كثيرة كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ﴾... الآية [فاطر: ٨]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ نَفْسُكَ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف]، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَلَغَ نَفْسُكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء]؛ والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً، وقد قدمنا كثيراً منها في مواضع من هذا الكتاب المبارك..

الوجه الثاني: أنه ﷺ صلى بالليل حتى تورمت قدماه فأُنزل الله: ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾؛ أي تنهك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة الفادحة؛ وما بعثناك إلا بالحنيفية السمحة. وهذا الوجه تدل له ظواهر آيات من كتاب الله، كقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة]. والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ويفهم من قوله: ﴿لِتَشْقَىٰ﴾ أنه أنزل عليه ليسعد؛ كما يدل عليه الحديث الصحيح: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» وقد روى الطبراني عن ثعلبة بن الحكم رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أن الله يقول للعلماء يوم القيامة: «إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي» وقال ابن كثير: إن إسناده جيد، ويشبه معنى الآية على هذا القول الأخير قوله تعالى: ﴿فَاقْرَأُوا مَا يَسَّرَ مِنْهُ﴾... الآية [المزمل: ٢٠]. وأصل الشقاء في لغة العرب: العناء والتعب، ومنه قول أبي الطيب:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا نَذْكُرْهُ لِمَنْ يَخْنَىٰ﴾. أظهر الأقوال فيه أنه مفعول لأجله، أي ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة، أي إلا لأجل التذكرة لمن يخشى الله ويخاف عذابه، والتذكرة: الموعظة التي تلين لها القلوب؛ فتمثل أمر الله، وتجنب نهيه وخص بالتذكرة من يخشى دون غيرهم؛ لأنهم هم المتنفعون بها، كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ﴾ [يس: ١١]، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ تَحْشَنَّا﴾ [النازعات]. فالتخصيص المذكور في الآيات «من تنفع فيهم الذكرى» لأنهم هم المتنفعون بها دون غيرهم. وما ذكره هنا من أنه ما أنزل القرآن إلا للتذكرة بينه في غير هذا الموضع كقوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (١٨) [التكوير]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَشْتَلِكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، إلى غير ذلك من الآيات، وإعراب ﴿إِلَّا نَذْكُرْهُ﴾ بأنه بدل من ﴿لِتَشْقَىٰ﴾ لا يصح؛ لأن التذكرة ليست بشقاء وإعراجه مفعولاً مطلقاً أيضاً غير ظاهر. وقال الزمخشري في الكشاف: ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ (٢) إِلَّا نَذْكُرْهُ لِمَنْ يَخْنَىٰ (٣)، ما أنزلنا عليك هذا المتعب الشاق إلا ليكون تذكرة. وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون ﴿نَذْكُرْهُ﴾ حالاً ومفعولاً له.

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْفُلَى ۖ﴾.

في قوله: ﴿تَنْزِيلًا﴾ أوجه كثيرة من الإعراب ذكرها المفسرون، وأظهرها عندي أنه مفعول مطلق، منصوب بنزل مضمرة دل عليها قوله: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۖ﴾؛ أي نزله الله تنزيلاً ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ الآية، أي فليس بشعر ولا كهانة، ولا سحر ولا أساطير الأولين، كما دل لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ۖ﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤١﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ [الحاقة]، والآيات المصرحة بأن القرآن منزل من رب العالمين كثيرة جداً معروفة، كقوله: ﴿وَلَنُنَزِّلُ لَكَ نَزِيلًا مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۖ﴾... الآية [الشعراء]، وقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۖ﴾ [الزمر] وقوله: ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۖ﴾ [فصلت]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۖ﴾. تقدم إيضاح الآيات الموضحة لهذه الآية وأمثالها في القرآن في سورة «الأعراف» مستوفى، فأغنى عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالنَّوَالِ فَإِنَّهُ يُعَلِّمُ الْبُتْرَ وَأَخْفَى ۖ﴾.

خاطب الله نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة بأنه إن يجهر بالقول أي يقله جهرة في غير خفاء، فإنه - جلّ وعلا - يعلم السر وما هو أخفى من السر، وهذا المعنى الذي أشار إليه هنا ذكره في مواضع أخر كقوله: ﴿وَأَيُّرَأُ قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۖ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۖ﴾ [الملك]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكَ وَمَا تَعْلَنُونَ ۖ﴾ [النحل]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۖ﴾ [محمد: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ الْبُتْرَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ﴾... الآية [الفرقان: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

وفي المراد بقوله في هذه الآية: ﴿وَأَخْفَى﴾ أوجه معروفة كلها حق ويشهد لها قرآن، قال بعض أهل العلم ﴿يَعْلَمُ الْبُتْرَ﴾ أي ما قاله العبد سرّاً ﴿وَأَخْفَى﴾ أي ويعلم ما هو أخفى من السر، وهو ما توسوس به نفسه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَحَنَّا أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۖ﴾ [ق]. وقال بعض أهل العلم: ﴿فَأِنَّهُ يَعْلَمُ الْبُتْرَ﴾: أي ما توسوس به نفسه ﴿وَأَخْفَى﴾ من ذلك، وهو ما علم الله أن الإنسان سيفعله قبل أن يعلم الإنسان أنه فاعله، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَشْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَاثِلُونَ ۖ﴾ [المؤمنون: ٦٣]، وكما قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَتٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ۖ﴾ [النجم: ٣٢]، فالله يعلم ما يسره الإنسان اليوم؛ وما سيسره غداً. والعبد لا يعلم ما في غد كما قال زهير في معلقته:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَخْفَى﴾ صيغة تفضيل كما بينا، أي ويعلم ما هو أخفى من السر. وقول من قال: إن «أخفى» فعل ماض بمعنى أنه يعلم سر الخلق، وأخفى عنهم ما يعلمه هو؛ كقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ۖ﴾ [الأنعام: ١٠١]، ظاهر السقوط كما لا يخفى.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ جَهِرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ﴾؛ أي فلا حاجة لك إلى الجهر بالدعاء ونحوه، كما قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ قَضَعًا وَخَفِيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ قَضَعًا وَخَفِيَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾... الآية [الأعراف: ٢٠٥]. ويوضح هذا المعنى الحديث الصحيح؛ لأن النبي ﷺ لما سمع أصحابه رفعوا أصواتهم بالتكبير قال ﷺ: «أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً بصيراً، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته».

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ ﴿١٨﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه المعبود وحده، وأن له الأسماء الحسنى، وبين أنه المعبود وحده في آيات لا يمكن حصرها لكثرتها كقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿قَالَ لَهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾... الآية [محمد: ١٩].

وبين في مواضع آخر أن له الأسماء الحسنى، وزاد في بعض المواضع الأمر بدعائه بها كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقوله: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]، وزاد في موضع آخر تهديد من ألحد في أسمائه وهو قوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال بعض العلماء: ومن إلحادهم في أسمائه أنهم اشتقوا العزى من اسم العزيز، واللات من اسم الله، وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة». وقد دل بعض الأحاديث على أن من أسمائه - جلّ وعلا - ما استأثر به ولم يعلمه خلقه، كحديث: «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك» الحديث. وقوله: ﴿الْحُسْنَى﴾ تأنيث الأحسن، وإنما وصف أسمائه - جلّ وعلا - بلفظ المؤنث المفرد؛ لأن جمع التكسير مطلقاً، وجمع المؤنث السالم يجريان مجرى المؤنثة الواحدة المجازية التأنيث، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

والتاء مع جمع سوى السالم من مذكر كالتاء من إحدى اللب

ونظير قوله هنا: ﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ من وصف الجمع بلفظ المفرد المؤنث قوله: ﴿مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾، وقوله: ﴿مَنَارِبٌ أُخْرَى﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾... الآيات، قد بينا الآيات الموضحة لها في سورة «مريم» في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنَدَيْتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّقْتُهُ نَجِيًّا﴾ ﴿٥٦﴾ [مريم]، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَأَحْلَلْ عَقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ ﴿٣٧﴾ يَقْفَهُوا قَوْلِي ﴿٣٨﴾. قال بعض العلماء: دل قوله: ﴿عَقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ بالتكثير والإفراد، وإتباعه لذلك بقوله: ﴿يَقْفَهُوا قَوْلِي﴾ ﴿٣٨﴾، على

أنه لم يسأل إزالة جميع ما بلسانه من العقد، بل سأل إزالة بعضها الذي يحصل بإزالته فهم كلامه مع بقاء بعضها. وهذا المفهوم دلت عليه آيات أخر كقوله تعالى عنه: ﴿وَأَخِي هَكَرْتُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾... الآية [القصص: ٣٤]، وقوله تعالى عن فرعون: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٦]، والاستدلال بقول فرعون في موسى، فيه أن فرعون معروف بالكذب والبهتان. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَتَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْدِفْهُ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفْهُ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُمْ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه من على موسى مرة أخرى قبل مته عليه بالرسالة ورسالة أخيه معه، وذلك بإنجائه من فرعون وهو صغير، إذ أوحى إلى أمه أي ألهمها وقذف في قلبها، وقال بعضهم: هي رؤيا منام. وقال بعضهم: أوحى إليها ذلك بواسطة ملك كلمها بذلك، ولا يلزم من الإيحاء في أمر خاص أن يكون الموحى إليه نبياً، و«أن» في قوله ﴿أَنْ أَقْدِفْهُ﴾ هي المفسرة؛ لأن الإيحاء فيه معنى القول دون حروفه والتعبير بالموصول في قوله: ﴿مَا يُوحَىٰ﴾ للدلالة على تعظيم شأن الأمر المذكور كقوله: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا غَشِيَهُمْ﴾، وقوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٧]، والتابوت: الصندوق. واليم: البحر. والساحل: شاطئ البحر. والبحر المذكور: نيل مصر. والقذف: الإلقاء والوضع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: ٢٦]. ومعنى: ﴿أَنْ أَقْدِفْهُ فِي التَّابُوتِ﴾ أي ضعبه في الصندوق. والضمير في قوله: ﴿أَنْ أَقْدِفْهُ﴾ راجع إلى موسى بلا خلاف، وأما الضمير في قوله: ﴿فَأَقْدِفْهُ فِي الْيَمِّ﴾ وقوله: ﴿فَلْيُلْقِهِ﴾ فقليل: راجع إلى التابوت، والصواب رجوعه إلى موسى في داخل التابوت؛ لأن تفريق الضمائر غير حسن، وقوله: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُمْ﴾، هو فرعون، وصيغة الأمر في قوله: ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ فيها وجهان معروفان عند العلماء:

أحدهما: أن صيغة الأمر معناها الخبر، قال أبو حيان في البحر المحيط: و﴿فَلْيُلْقِهِ﴾ أمر معناه الخبر، وجاء بصيغة الأمر مبالغة، إذ الأمر أقطع الأفعال وأوجها.

وثانيهما: أن صيغة الأمر في قوله: ﴿فَلْيُلْقِهِ﴾ أريد بها الأمر الكوني القدري كقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فالبحر لا بد أن يلقيه بالساحل؛ لأن الله أمره بذلك كوناً وقدرًا. وقد قدمنا ما يشبه هذين الوجهين في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥].

وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآيات أوضحه في غير هذا الموضع كقوله في [القصص: ١٦]: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ كَالْيَتِيمِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَاقِعُوهُ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [٧] فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً [القصص: ٧ - ٨]، وقد بين تعالى شدة جزع أمه عليه لما ألقته في البحر،

وَأَلْقَاهُ الْيَمَ بِالسَّاحِلِ، وَأَخَذَهُ عَدُوهُ فَرَعُونُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى قَرِيحًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْ أَنَّ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٠] [القصص].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَأْخُذْهُ﴾ مجزوم في جواب الطلب الذي هو ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾، وعلى أنه بمعنى الأمر الكوني، فالأمر واضح، وعلى أنه بمعنى الخبر فالجزم مراعاة لصيغة اللفظ، والعلم عند الله تعالى. وذكر في قصتها أنها صنعت له التابوت وطلته بالقار - وهو الزفت - لئلا يتسرب منه الماء إلى موسى في داخل التابوت، وحشته قطناً محلوجاً، وقيل: إن التابوت المذكور من شجر الجميز، وأن الذي نجره لها هو مؤمن آل فرعون، قيل: واسمه حزقييل. وكانت عقدت في التابوت خبلاً فإذا خافت على موسى من عيون فرعون أرسلته في البحر وأمسكت طرف الحبل عندها، فإذا أمنت جذبته إليها بالحبل. فذهبت مرة لتشد الحبل في منزلها فانفلت منها وذهب البحر بالتابوت الذي فيه موسى فحصل لها بذلك من الغم والهم ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى قَرِيحًا﴾ ... الآية [القصص: ١٠].

وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من مننه المتتابعة على موسى حيث قال: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ [١٧] أشار إلى ما يشبهه في قوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ [١٧] [الصافات].

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾. من آثار هذه المحبة التي ألقاها الله على عبده ونبيه موسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - ما ذكره - جلّ وعلا - في «القصص» في قوله: ﴿وَقَالَتْ أُمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ ... الآية [القصص: ٩]، قال ابن عباس: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ أي أحبه الله وحببه إلى خلقه. وقال ابن عطية: جعل عليه مسحة من جمال؛ لا يكاد يصبر عنه من رآه، وقال قتادة: كانت في عيني موسى ملاحظة، ما رآه أحد إلا أحبه وعشقه؛ قاله القرطبي.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُمْ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾. اختلف في العامل الناصب للظرف الذي هو «إِذْ» من قوله: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ﴾ فقيل: هو «ألقيت عليك محبة مني حين تمشي أختك»، وقيل: هو «تصنع» أي تصنع على عيني حين تمشي أختك. وقيل: هو بدل من «إِذْ» في قوله: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ﴾.

قال الزمخشري: فإن قلت: كيف يصح البدل والوقتان مختلفان متباعدان؟ قلت: كما يصح وإن اتسع الوقت وتباعد طرفاه أن يقول لك الرجل: لقيت فلاناً سنة كذا. فتقول: وأنا لقيته إذ ذاك. وربما لقيه هو في أولها وأنت في آخرها.

وهذا الذي ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من كون أخته مشيت إليهم، وقالت لهم: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُمْ﴾ أوضحه - جلّ وعلا - في سورة «القصص» فبين

أن أخته المذكورة مرسله من قبل أمها لتتعرف خبره بعد ذهابه في البحر، وأنها أبصرته من بعد وهم لا يشعرون بذلك، وأن الله حرم عليه المراضع غير أمه تحريماً كونياً قديراً. فقالت لهم أخته: ﴿هَلْ أَذْكَرُ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ؟﴾ أي على مريض يقبل هو ثديها وتكفله لكم بنصح وأمانة وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١١) وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ (١٢) فَوَدَدْنَا إِلَيْكُمُ أَهْلَهُ كَمَا نَقَرَّ عَيْنَهُمَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) [القصص]، فقوله تعالى في آية [القصص] هذه ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ﴾ [القصص: ١١]، أي قالت أم موسى لأخته وهي ابنتها ﴿قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١]، أي اتبعي أثره، وتطلبي خبره حتى تطلعي على حقيقة أمره.

وقوله: ﴿فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ﴾ [القصص: ١١]؛ أي رآته من بعيد كالمرضة عنه، تنظر إليه وكأنها لا تريده ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥]، بأنها أخته جاءت لتعرف خبره فوجدته ممتنعاً من أن يقبل ثدي مرضعة؛ لأن الله يقول: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢]، أي تحريماً كونياً قديراً؛ أي منعناه منها ليتيسر بذلك رجوعه إلى أمه؛ لأنه لو قبل غيرها أعطوه لذلك الغير الذي قبله ليرضعه ويكفله فلم يرجع إلى أمه. وعن ابن عباس أنها لما قالت لهم: ﴿هَلْ أَذْكَرُ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ﴾ [القصص: ١٢]، أخذوها وشكوا في أمرها وقالوا لها: ما يدريك بنصحهم له وشفتقتهم عليه؟! فقالت لهم: نصحتهم له، وشفتقتهم عليه رغبة في سرور الملك، ورجاء منفعة، فأرسلوها. فلما قالت لهم ذلك وخلصت من أذاهم، ذهبوا معها إلى منزلهم فدخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، وذهب البشير إلى امرأة الملك فاستدعت أم موسى، وأحسن إليها، وأعطتها عطاء جزيلاً وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة، ولكن لكونه قبل ثديها. ثم سألتها «آسية» أن تقيم عندها فترضعه فأبت عليها وقالت: إن لي بعلأً وأولاداً، ولا أقدر على المقام عندك، ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك، وأجرت عليها النفقة والصلوات والكساوي والإحسان الجزيل. فرجعت أم موسى بولدها قد أبدلها الله بعد خوفها أمناً في عز وجاه، ورزق دار. (اه) من ابن كثير.

وقوله تعالى في آية [القصص]: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [القصص: ١٣]، وعد الله المذكور هو قوله: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، والمؤرخون يقولون: إن أخت موسى المذكورة اسمها «مريم» وقوله: ﴿كَمَا نَقَرَّ عَيْنَهُمَا﴾ إن قلنا فيه: إن «كي» حرف مصدر ي فاللام محذوفة، أي لكي تقر. وإن قلنا: إنها تعليلية، فالفعل منصوب بأن مضمرة. وقوله: ﴿نَقَرَّ عَيْنَهُمَا﴾ قيل: أصله من القرار؛ لأن ما يحبه الإنسان تسكن عينه عليه، ولا تنظر إلى غيره: كما قال أبو الطيب:

وخصر تثبت الأبصار فيه كأن عليه من حدق نطاقا

وقيل: أصله من القر - بضم القاف - وهو البرد، تقول العرب: يوم قر - بالفتح - أي بارد، ومنه قول امرئ القيس:

تميم بن مر وأشياعها وكندة حولي جميعاً صبر
إذا ركبوا الخيل واستلأموا تحرقبت الأرض واليوم قر
ومنه أيضاً قول حاتم الطائي الجواد:

أوقد فإن الليل ليل قر والريح يا واقد ريح صر
عل يرى نارك من يمر إن جلبت ضيفاً فأنت حر

وعلى هذا القول: فقرة العين من بردها؛ لأن عين المسرور باردة، ودمع البكاء من السرور بارد جداً، بخلاف عين المحزون فإنها حارة، ودمع البكاء من الحزن حار جداً. ومن أمثال العرب: أحر من دمع المقلات. وهي التي لا يعيش لها ولد، فيشتد حزنها لموت أولادها فتشتد حرارة دمعها لذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ وَفَلْتَ نَفْسًا فَجِئْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ﴾. لم يبين هنا - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة سبب قتله لهذه النفس؛ ولا ممن هي، ولم يبين السبب الذي نجاه به من ذلك الغم، ولا الفتون الذي فتنه، ولكنه بين في سورة «القصص» خبر القتل المذكور في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتُلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَى الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص]، وأشار إلى القتل المذكور في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص]، وهو المراد بالذنب في قوله تعالى عن موسى: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَٰذِهِنَّ ﴿٧٢﴾ وَهُنَّ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٧٤﴾﴾ [الشعراء]، وهو مراد فرعون بقوله لموسى فيما ذكره الله عنه: ﴿وَقَتَلْتَ فَعَلْنَاكَ آتِي فَعَلْتَ﴾... الآية [الشعراء: ١٩]. وقد أشار تعالى في «القصص» أيضاً إلى غم موسى، وإلى السبب الذي أنجاه الله به منه في قوله: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْشِي ابْنٌ أَمْلَأُ يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَذْيَبٌ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾، إلى قوله: ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٢ - ٢٥]. وقوله: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ قال بعض أهل العلم: الفتون مصدر، وربما جاء مصدر

الثلاثي المتعدي على فاعول. وقال بعضهم: هو جمع فتنة. وقال الزمخشري في الكشاف: ﴿فُتُونًا﴾ يجوز أن يكون مصدراً على فاعول في المتعدي كالشور والشكور والكفور. وجمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بثناء التائب كحجوز وبدور في حجة وبدرة؛ أي فتناك ضرورياً من الفتن. وقد جاء في تفسير الفتون المذكور حديث معروف

عند أهل العلم بحديث «الفتون»، أخرجه النسائي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وساقه ابن كثير في تفسيره عن النسائي بسنده. وهو حديث طويل يقتضي أن الفتون يشمل كل ما جرى على موسى من المحن من فرعون في صغره وكبره، كالخوف عليه من الذبح وهو صغير، ومن أجل ذلك ألقى في التابوت وقذف في اليم فألقاه اليم بالساحل، وكخوفه وهو كبير من أن يقتله فرعون بالقبطي الذي قتله. وعلى هذا فالآيات التي ذكرت فيها تلك المحن مبينة للفتون على تفسير ابن عباس للفتون المذكور. وقال ابن كثير رحمته الله بعد أن ساق حديث الفتون بطوله: هكذا رواه النسائي في السنن الكبرى، وأخرجه أبو جعفر بن جرير، وابن أبي حاتم في تفسيريهما، كلهم من حديث يزيد بن هرون به، وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقاه ابن عباس رضي الله عنه مما أبيع نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره، والله أعلم. وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك أيضاً، اهـ.

قوله تعالى: ﴿فَلَيْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْؤُؤُ﴾.

السنين التي لبثها في مدين هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَكْهَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَٰئِهِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَاجَ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ [القصص: ٢٧]، وقد قدمنا في سورة «مريم» أنه أتم العشر، وبيننا دليل ذلك من السنة، وبه تعلم أن الأجل في قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ [القصص: ٢٩]، أنه عشر سنين لا ثمان. وقال بعض أهل العلم: لبث موسى في مدين ثماناً وعشرين سنة، عشر منها مهر ابنة صهره، وثمان عشرة أقامها هو اختياراً، والله تعالى أعلم.

وأظهر الأقوال في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْؤُؤُ﴾؛ أي جئت على القدر الذي قدرته وسبق في علمي أنك تجيء فيه فلم تتأخر عنه ولم تتقدم كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر]، وقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]. وقال جرير يمدح عمر بن عبد العزيز:

نال الخلافة أو كانت له قدرا كما أتى ربه موسى على قدر

قوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ أَنتَ وَلَوْكَ يَأْتِي وَلَا نَبِيَّ فِي ذِكْرِي﴾ [١١] ﴿أَذْهَبَا إِلَيَّ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [١٢]. قال بغض أهل العلم: المراد بالآيات في قوله هنا: ﴿أَذْهَبَ أَنتَ وَلَوْكَ يَأْتِي﴾ الآيات التسع المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى سَعَةً إِذْ نَبَتْ يَنْتَبُ... الآية [الإسراء: ١٠١]، وقوله: ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْدٍ فِي سَعَةٍ إِذْ نَبَتْ... الآية [النمل: ١٢]. والآيات التسع المذكورة هي: العصا واليد البيضاء... إلى آخرها، وقد قدمنا الكلام عليها مستوفى في سورة «بني إسرائيل».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أصل الطغيان: مجاوزة الحد، ومنه: ﴿إِنَّا لَنَّا طَغَا أَلْمَاءُ حَمَلْنَهُ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة]، وقد بين الله تعالى شدة طغيان فرعون ومجاوزته الحد في

قوله عنه: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات]، وقوله عنه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وقوله عنه أيضاً: ﴿لَيْنِ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا نَبِيَّ﴾ مضارع وني يني، على حد قول ابن مالك في الخلاصة:

فَا أَمْراً ومضارع من كوعد احذف وفي كعدة ذاك اطرده
والوئي في اللغة: الضعف، والفتور، والكلال والإعياء، ومنه قول امرئ القيس في معلقته:

مسح إذا ما السابحات على الوئي أثرن غباراً بالكديد المركل
وقول العجاج:

فما وني محمد مذ أن غفر له الإله ما مضى وما غبر
فقوله: ﴿وَلَا نَبِيَّ فِي ذِكْرِي﴾ أي لا تضعفا ولا تفترا في ذكري، وقد أثنى الله على من يذكره في جميع حالاته في قوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وأمر بذكر الله عند لقاء العدو في قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فُجَاءً فَأُنبِئُوهُم بِأَنَّكُمْ أَتَيْتُمُ الْمَدِينَةَ مِنْ خِلْفِهِمْ فَأَقْصُوا عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخْرُجُوا إِلَيْكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٥] كما تقدم إيضاحه.

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيره هذه الآية الكريمة: والمراد أنهما لا يفتران في ذكر الله في حال مواجهة فرعون؛ ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له، كما جاء في الحديث: «إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو مناجز قرنه»، اهـ منه.
وقال بعض أهل العلم: ﴿وَلَا نَبِيَّ فِي ذِكْرِي﴾ لا تزال في ذكري، واستشهد لذلك بقول طرفة:

كأن القدور الراسيات أمامهم قباب بنوها لا تني أبداً تغلي
أي لا تزال تغلي. ومعناه راجع إلى ما ذكرنا، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَىٰ﴾.

أمر الله - جل وعلا - نبيه موسى وهارون - عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام - أن يقولوا لفرعون في حال تبليغ رسالة الله إليه ﴿قَوْلًا لِّئَا﴾؛ أي كلاماً لطيفاً سهلاً رقيقاً، ليس فيه ما يغضب وينفر. وقد بين - جل وعلا - المراد بالقول اللين في هذه الآية بقوله: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ٧ ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكَىٰ﴾ ٨ ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ ٩ [النازعات]، وهذا والله غاية لين الكلام ولطافته ورقته كما ترى، وما أمر به موسى وهارون في هذه الآية الكريمة أشار له تعالى في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بِأَلْسِنَتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

مسألة: يؤخذ من هذه الآية الكريمة: أن الدعوة إلى الله يجب أن تكون بالرفق واللين لا بالقسوة والشدة والعنف. كما بينا في سورة «المائدة» في الكلام على قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾... الآية [المائدة: ١٠٥]. وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال يزيد الرقاشي عند قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا﴾: يا من يتحجب إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولاه وينادي به؟ اهـ، ولقد صدق من قال:

ولو أن فرعون لما طغى وقال على الله إفكا وزورا
أناب إلى الله مستغفراً لما وجد الله إلا غفورا

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ قد قدمنا قول بعض العلماء: إن «لعل» في القرآن بمعنى التعليل، إلا التي في سورة «الشعراء»: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ﴾ [الشعراء]، فهي بمعنى كأنكم. وقد قدمنا أيضاً أن «لعل» تأتي في العربية للتعليل؛ ومنه قوله:

فقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا نكف ووثقتم لنا كل موثق
فلما كففنا الحرب كانت عهدكم كشبه سراب بالمال متألق

فقوله: «لعلنا نكف»؛ أي لأجل أن نكف.

وقال بعض أهل العلم: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ معناه على رجائكما وطمعكما، فالترجي والتوقع المدلول عليه بلعل راجع إلى جهة البشر، وعزا القرطبي هذا القول لكبراء النحويين كسيبويه وغيره.

قوله تعالى: ﴿فَأَنبِأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِْبُهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَاللَّسْتُ عَلَىٰ مَن اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [٤٧]. ألف الاثنين في قوله: ﴿فَأَنبِأَهُ﴾ راجعة إلى موسى وهرون، والهاء راجعة إلى فرعون، أي فأنبأ فرعون ﴿فَقُولَا﴾ له: «إنا رسولان إليك من ربك فأرسل معنا بني إسرائيل» أي خل عنهم وأطلقهم لنا يذهبون معنا حيث شاءوا، ولا تعذبهم.

العذاب الذي نهى الله فرعون أن يفعله ببني إسرائيل هو المذكور في سورة «البقرة» في قوله: ﴿وَإِذْ يَخِيبُكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة]، وفي سورة «إبراهيم» في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾... الآية [إبراهيم: ٦]، وفي سورة «الأعراف» في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخْرَجْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾... الآية [الأعراف: ١٤١]؛ وفي سورة «الدخان» في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينَ﴾ [٢٠] مِّنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِّنَ الْمُتَكِبِينَ [٢١] [الدخان]؛ وفي سورة «الشعراء» في قوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّهَا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [٣٧] الآية [الشعراء].

وما أمر به الله موسى وهرون في آية «طه» هذه من أنهما يقولان لفرعون إنهما رسولاً ربه إليه، وأنه يأمره بإرسال بني إسرائيل ولا يعذبهم أشار إليه تعالى في غير هذا الموضع، كقوله في سورة «الشعراء»: ﴿فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١١) أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٢﴾ [الشعراء].

تنبيه: فإن قيل: ما وجه الإفراد في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٢]، في «الشعراء»؟ مع أنهما رسولان؟ كما جاء الرسول مثنى في «طه» فما وجه التثنية في «طه» والإفراد في «الشعراء»، وكل واحد من اللفظين: المثنى والمفرد يراد به موسى وهرون؟

فالذي يظهر لي - والله تعالى أعلم - أن لفظ الرسول أصله مصدر ووصف به، والمصدر إذا وصف به ذكر وأفرد كما قدمنا مراراً فالإفراد في «الشعراء» نظراً إلى أن أصل الرسول مصدر، والتثنية في «طه» اعتداداً بالوصفية العارضة وإعراضاً عن الأصل؛ ولهذا يجمع الرسول اعتداداً بوصفيته العارضة، ويفرد مراداً به الجمع نظراً إلى أن أصله مصدر. ومثال جمعه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أَلُمُوسِلُ﴾... الآية [البقرة: ٢٥٣]، وأمثالها في القرآن. ومثال إفراده مراداً به الجمع قول أبي ذؤيب الهذلي:

ألكني إليها وخير الرسول أعلمهم بنواحي الخبر
ومن إطلاق الرسول مراداً به المصدر على الأصل قوله:

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم يقول ولا أرسلتهم برسول
أي برسالة. وقول الآخر:

ألا بلغ بني عصم رسولا بأني عن فتاحتكم عني
يعني أبلغهم رسالة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ﴾ يراد به جنس الآية الصادق بالعصا واليد وغيرهما؛ للدلالة آيات أخر على ذلك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ يدخل فيه السلام على فرعون إن اتبع الهدى. ويفهم من الآية أن من لم يتبع الهدى لا سلام عليه، وهو كذلك؛ ولذا كان في أول الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم «بسم الله الرحمن الرحيم» من معجم رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام... إلى آخر كتابه ﷺ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (١٣).

ما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة عن موسى وهرون أن الله أوحى إليهما أن العذاب على من كذب وتولى أشير إلى نحوه في آيات كثيرة من كتاب الله تعالى كقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ لَطَمَ﴾ (٣٧) وَآتَى الْحَبْوَ الدِّينَارَ ﴿٣٨﴾ إِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾

[النازعات]، وقوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتَهُمْ نَارًا تَلْقَوْنَ ۖ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۖ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۖ﴾ [الليل: ٤] وقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا سَلَٰ ۖ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۖ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِيهِ يَسْكُ ۖ أُولَٰئِكَ فَاُولَٰئِكَ ۖ ثُمَّ أُولَٰئِكَ فَأُولَٰئِكَ ۖ﴾ [القيامة]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَّبُّكُمْ يَا مُوسَىٰ ۖ﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۖ ﴿٥٠﴾ ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن موسى وهرون لما بلغا فرعون ما أمرا بتبليغه إياه قال لهما: من ربكما الذي تزعمان أنه أرسلكما إلي؟! زاعماً أنه لا يعرفه؛ وأنه لا يعلم لهما إلهاً غير نفسه، كما قال تعالى: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهِ غَيْرِي ۖ﴾ [القصص: ٢٨]، وقال: ﴿لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ۖ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وبين - جلّ وعلا - في غير هذا الموضع أن قوله: ﴿فَمَنْ رَّبُّكُمْ ۖ﴾ تجاهل عارف بأنه عبد مريبوب لرب العالمين، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُ مَا أُنْزِلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَٰٓئِرٍ ۖ... الآية [الإسراء: ١٠٢]، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۖ﴾ [١٣]، ﴿وَحَمَلُوا بِهَا وَاسْتَفْتَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُظُمًا ۖ﴾ [النمل: ١٣ - ١٤]، كما تقدم إيضاحه. وسؤال فرعون عن رب موسى، وجواب موسى له جاء موضحاً في سورة [الشعراء] بأبسط مما هنا، وذلك في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۖ﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۖ ﴿٥١﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ۖ ﴿٥٢﴾ قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ ۖ ﴿٥٣﴾ قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۖ ﴿٥٤﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ۖ ﴿٥٥﴾ قَالَ لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ۖ ﴿٥٦﴾ قَالَ أُولُو حِجَّتِكَ يٰشُعَيْبُ ۖ أَمْ لِي مُبِينٌ ۖ ﴿٥٧﴾ قَالَ قَاتِلْهُ يٰمُؤْمِنُونَ ۖ كُنْتُمْ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ۖ ﴿٥٨﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۖ ﴿٥٩﴾ وَنَجَّىٰ يَدَهُ إِذِذَا هِيَ بِصَٰٓئِرٍ لِلنَّظِيرِينَ ۖ ﴿٦٠﴾ [الشعراء] إلى آخر القصة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۖ﴾ ﴿٥٠﴾ فيه للعلماء أوجه لا يكذب بعضها بعضاً، وكلها حق، ولا مانع من شمول الآية لجميعها، منها أن معنى ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۖ﴾؛ أنه أعطى كل شيء نظير خلقه في الصورة والهيئة، كالذكور من بني آدم أعطاهم نظير خلقهم من الإناث أزواجاً. وكالذكور من البهائم أعطاهم نظير خلقها في صورتها وهيئتها من الإناث أزواجاً؛ فلم يعط الإنسان خلاف خلقه فيزوجه بالإناث من البهائم، ولا البهائم بالإناث من الإنس، ثم هدى الجميع لطريق المنكح الذي منه النسل والنماء، كيف يأتيه، وهدى الجميع لسائر منافعهم من المطاعم والمشارب وغير ذلك.

وهذا القول مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريق علي بن أبي طلحة، وعن السدي وسعيد بن جبير، وعن ابن عباس أيضاً: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ ۖ﴾ أي هداة إلى الألفة والاجتماع والمناكحة.

وقال بعض أهل العلم: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۖ﴾؛ أي أعطى كل شيء صلاحه ثم هداة إلى ما يصلحه، وهذا مروي عن الحسن وقتادة.

وقال بعض أهل العلم: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾؛ أي أعطى كل شيء صورته المناسبة له؛ فلم يجعل الإنسان في صورة البهيمة، ولا البهيمة في صورة الإنسان، ولكنه خلق كل شيء على الشكل المناسب له فقدره تقديراً، كما قال الشاعر:

وله في كل شيء خلقه وكذلك الله ما شاء فعل

يعني بالخلق: الصورة، وهذا القول مروى عن مجاهد ومقاتل وعطية وسعيد بن جبير ﴿ثُمَّ هَدَى﴾ كل صنف إلى رزقه وإلى زوجه.

وقال بعض أهل العلم: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾: أي أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به، كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع، وكذلك الأنف والرجل واللسان وغيرها، كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناب عنه. وهذا القول روي عن الضحاك، وعلى جميع هذه الأقوال المذكورة فقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ هو المفعول الأول لـ ﴿أَعْطَى﴾، و﴿خَلَقَهُ﴾ هو المفعول الثاني.

وقال بعض أهل العلم: إن ﴿خَلَقَهُ﴾ هو المفعول الأول، و﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ هو المفعول الثاني. وعلى هذا القول فالمعنى أنه تعالى أعطى الخلائق كل شيء يحتاجون إليه، ثم هداهم إلى طريق استعماله. ومعلوم أن المفعول من مفعولي باب كسا ومنه ﴿أَعْطَى﴾ في الآية لا مانع من تأخيره وتقديم المفعول الأخير إن أمن اللبس، ولم يحصل ما يوجب الجري على الأصل كما هو معلوم في علم النحو؛ وأشار له في الخلاصة بقوله:

ويلزم الأصل لموجب عرا وترك ذاك الأصل حتما قيد يرى

قال مقيد - عفا الله عنه -: ولا مانع من شمول الآية الكريمة لجميع الأقوال المذكورة؛ لأنه لا شك أن الله أعطى الخلائق كل شيء يحتاجون إليه في الدنيا، ثم هداهم إلى طريق الانتفاع به، ولا شك أنه أعطى كل صنف شكله وصورته المناسبة له، وأعطى كل ذكر وأنثى الشكل المناسب له من جنسه في المناكحة والألفة والاجتماع، وأعطى كل عضو شكله الملائم للمنفعة المنوطة به، فسيحانه - جل وعلا - ما أعظم شأنه وأكمل قدرته؟!

وفي هذه الأشياء المذكورة في معنى هذه الآية الكريمة براهين قاطعة على أنه - جل وعلا - رب كل شيء، وهو المعبود وحده - جل وعلا -: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

وقد حرر العلامة الشيخ تقي الدين أبو العباس ابن تيمية رحمته الله في رسالته في علوم القرآن أن مثل هذا الاختلاف من اختلاف السلف في معاني الآيات ليس اختلافاً حقيقياً متضاداً يكذب بعضه بعضاً، ولكنه اختلاف تنوعي لا يكذب بعضه بعضاً، والآيات

تشمل جميعه، فينبغي حملها على شمول ذلك كله، وأوضح أن ذلك هو الجاري على أصول الأئمة الأربعة عليهم السلام، وعزاه لجماعة من خيار أهل المذاهب الأربعة، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن تَبَاتٍ شَقٍّ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ ﴿٥٤﴾﴾.

قرأ هذا الحرف عاصم وحمزة والكسائي «مهداً» بفتح الميم وإسكان الهاء من غير ألف، وقرأ الباقون من السبعة بكسر الميم وفتح الهاء بعدها ألف. والمهاد: الفراش. والمهد بمعناه. وكون أصله مصدرًا لا ينافي أن يستعمل اسماً للفراش.

وقوله في هذه الآية: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ﴾ في محل رفع نعت لـ«ربي» من قوله قبله: ﴿قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٣﴾﴾؛ أي لا يضل ربي الذي جعل لكم الأرض مهداً. ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف؛ أي هو الذي جعل لكم الأرض. ويجوز أن ينصب على المدح، وهو أجود من أن يقدر عامل النصب لفظة أعني، كما أشار إلى هذه الأوجه من الإعراب في الخلاصة بقوله:

وارفع أو انصب إن قطعت مضمراً. مبتدأ أو ناصباً لن يظهرا

هكذا قال غير واحد من العلماء، والتحقيق أنه يتعين كونه خبر مبتدأ محذوف؛ لأنه كلام مستأنف من كلام الله. ولا يصح تعلقه بقول موسى: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي﴾ لأن قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ يعين أنه من كلام الله، كما نبه عليه أبو حيان في البحر، والعلم عند الله تعالى.

وقد بين - جل وعلا - في هاتين الآيتين أربع آيات من آياته الكبرى الدالة على أنه المعبود وحده، ومع كونها آيات على كمال قدرته واستحقاقه العبادة وحده دون غيره، فهي من النعم العظمى على بني آدم.

الأولى: فرش الأرض على هذا النمط العجيب.

الثانية: جعله فيها سبلاً يمر معها بنو آدم ويتوصلون بها من قطر إلى قطر.

الثالثة: إنزاله الماء من السماء على هذا النمط العجيب.

الرابعة: إخراج أنواع النبات من الأرض.

أما الأولى: التي هي جعله الأرض مهداً فقد ذكر الامتنان بها مع الاستدلال بها على أنه المعبود وحده في مواضع كثيرة من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴿٢﴾ الْآيَةُ [الزخرف: ٩ - ١٠]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴿١﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ [النبا]، وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهْدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الذاريات]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ﴿٣﴾﴾، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

وأما الثانية: التي هي جعله فيها سبلاً، فقد جاء الامتنان والاستدلال بها في آيات كثيرة كقوله في «الزخرف»: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْنَهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولَنَّ خَلَقْنَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ①﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ②﴾ [الزخرف]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ③﴾ [الأنبياء: ٣١]، وقد قدمنا الآيات الدالة على هذا في سورة «النحل» في الكلام علي قوله: ﴿وَأَنذَرْنَا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ④﴾ [النحل: ١٥].

وأما الثالثة والرابعة: وهما إنزال الماء من السماء، وإخراج النبات به من الأرض فقد تكرر ذكرهما في القرآن على سبيل الامتنان والاستدلال معاً كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ⑤﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ ⑥﴾ ... الآية [النحل: ١٠ - ١١]. وقد قدمنا الآيات الدالة على ذلك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا ⑦﴾، فيه الثفات من الغيبة إلى التكلم بصيغة التعظيم؛ ونظيره في القرآن قوله تعالى في «الأنعام»: ﴿الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ⑧﴾ الآية [الأنعام: ٩٩]، وقوله في «فاطر»: ﴿الَّذِي تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ⑨﴾ الآية [فاطر: ٢٧]، وقوله في «النمل»: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ⑩﴾ ... الآية [النمل: ٦٠].

وهذا الالتفات من الغيبة إلى التكلم بصيغة التعظيم في هذه الآيات كلها في إنبات النبات يدل على تعظيم شأن إنبات النبات؛ لأنه لو لم ينزل الماء ولم ينبت شيئاً لهلك الناس جوعاً وعطشاً، فهو يدل على عظمته - جلّ وعلا -، وشدة احتياج الخلق إليه ولزوم طاعتهم له - جلّ وعلا -.

وقوله في هذه الآية: ﴿أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ⑪﴾؛ أي أصنافاً مختلفة من أنواع النبات، فالأزواج: جمع زوج، وهو هنا الصنف من النبات، كما قال تعالى في سورة «الحج»: ﴿وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ ⑫﴾ [الحج: ٥]، أي من كل صنف حسن من أصناف النبات، وقال تعالى في سورة «لقمان»: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بَعِيرٍ عَمِدٍ تَرَوْنَهَا وَآلَقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَيَتَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ⑬﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ كَرِيمٍ ⑭﴾ [لقمان: ١١]، أي من كل نوع حسن من أنواع النبات، وقال تعالى في سورة «يس»: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ⑮﴾ [يس: ١]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿شَتَّى ⑯﴾ نعت لقوله: ﴿أَزْوَاجًا ⑰﴾. ومعنى قوله: ﴿أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ⑱﴾ أي أصنافاً مختلفة الأشكال والمقادير، والمنافع والألوان، والروائح والطعوم. وقيل:

﴿شَقَى﴾ جمع لـ «نبات» أي نبات مختلف كما بينا. والأظهر الأول، وقوله: ﴿شَقَى﴾ جمع شتيت؛ كمريض ومرضى. والشتيت: المتفرق؛ ومنه قول رؤية يصف إبلا جاءت مجتمعة ثم تفرقت، وهي تثير غباراً مرتفعاً:

جاءت معاً وأطرقت شتيتاً وهي تثير الساطع السختيتا
وثر شتيت: أي متفلج لأنه متفرق الأسنان؛ أي ليس بعضها لاصفاً ببعض.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾؛ قد قدمنا أن معنى السلك: الإدخال. وقوله: (سلك) هنا معناه أنه جعل في داخل الأرض بين أوديتها وجبالها سبلاً فجاءاً يمر الخلق معها، وعبر عن ذلك هنا بقوله: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾؛ وعبر في مواضع آخر عن ذلك بالجعل كقوله في «الأنبياء»: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١]، وقوله في «الزخرف»: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ١٥]، وعبر في بعض المواضع عن ذلك بالإلقاء كقوله في «النحل»: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوًى أَنْ يَنبِذَ بِكُمْ وَيَنْتَرَىٰ وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥]؛ لأن عطف السبل على الرواسي ظاهر في ذلك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾؛ أي كلوا أيها الناس من الثمار والحبوب التي أخرجناها لكم من الأرض بالماء الذي أنزلنا من جميع ما هو غذاء لكم من الحبوب والفواكه ونحو ذلك، وارعوا أنعامكم؛ أي أسيموها وسرحوها في المرعى الذي يصلح لأكلها، تقول: رعت الماشية الكلاً، ورعاها صاحبها أي أسامها وسرحها يلزم ويتعدى، والأمر في قوله: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا﴾ للإباحة، ولا يخفى ما تضمنه من الامتنان والاستدلال على استحقاق المنعم بذلك للعبادة وحده.

وما ذكره في هذه الآية الكريمة من الامتنان على بني آدم بأرزاقهم وأرزاق أنعامهم جاء موضحاً في مواضع آخر كقوله في سورة «السجدة»: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧]، وقوله في «النازعات»: ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات: ٢٢]، ﴿وَالْجِبَالِ أَوَّسَهَا﴾ [النازعات: ٢٢]، ﴿مِنَّا لَكُمْ وَلَا تَعْمِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٢]، وقوله في «عبس»: ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ [عبس: ٢٥]، ﴿ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَفَاً﴾ [عبس: ٢٦]، ﴿فَأَبَلْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ [عبس: ٢٧]، ﴿وَعَبَاً وَقَضَبًا﴾ [عبس: ٢٨]، ﴿وَرَزَقْنَا وَنَحْلًا﴾ [عبس: ٢٩]، ﴿وَحَدَائِقَ غُلًّا﴾ [عبس: ٣٠]، ﴿وَفَيْكَةً وَأَبًا﴾ [عبس: ٣١]، ﴿مِنَّا لَكُمْ وَلَا تَعْمِكُمْ﴾ [عبس: ٣٢]، وقوله في «النحل»: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لِأَوَّلَىٰ آلَيْهِ﴾ أي لأصحاب العقول، فالنهي: جمع نهية بضم النون، وهي العقل؛ لأنه ينهي صاحبه عما لا يليق. تقول العرب: نهو الرجل بصيغة فعل بالضم: إذا كملت نهيته أي عقله. وأصله نهى بالياء فأبدلت الياء واواً لأنها لام فعل بعد ضم؛ كما أشار له في الخلاصة بقوله:

وواو إثر الضم رد إليها متى ألفى لام فعل أو من قبل تا

قوله تعالى: ﴿وَمِنَّا خَلَقْنَاهُمْ وَفِيهَا نُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى ۖ﴾.

الضمير في قوله: ﴿وَمِنَّا﴾ معاً، وقوله: ﴿فِيهَا﴾ راجع إلى ﴿الْأَرْضِ﴾ المذكورة في قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾.

وقد ذكر في هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل:

الأولى: أنه خلق بني آدم من الأرض.

الثانية: أنه يعيدهم فيها.

الثالثة: أنه يخرجهم منها مرة أخرى، وهذه المسائل الثلاث المذكورة في هذه الآية جاءت موضحة في غير هذه الموضوع.

أما خلقه إياهم من الأرض، فقد ذكره في مواضع من كتابه كقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ﴾... الآية [الحج: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ﴾... الآية [الروم: ٢٠]، وقوله في سورة «المؤمنين»: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن تُرَابٍ﴾... الآية [غافر: ٦٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

والتحقيق أن معنى خلقه الناس من تراب أنه خلق أباهم آدم منها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ﴾... الآية [آل عمران: ٥٩]. ولما خلق أباهم من تراب وكانوا تبعاً له في الخلق صدق عليهم أنهم خلقوا من تراب. وما يزعمه بعض أهل العلم من أن معنى خلقهم من تراب أن النطفة إذا وقعت في الرحم انطلق الملك الموكل بالرحم فأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه فيذره على النطفة فيخلق الله النسمة من النطفة والتراب معاً - فهو خلاف التحقيق؛ لأن القرآن يدل على أن مرحلة النطفة بعد مرحلة التراب بمهلة؛ فهي غير مقارنة لها بدليل الترتيب بينهما بـ«ثم» في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾... الآية [الحج: ٥]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾... الآية [غافر: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٨)﴾... الآية [المؤمنون]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٩) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ (٢٠) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢١)﴾ [السجدة]، وكذلك ما يزعمه بعض المفسرين من أن معنى خلقهم من تراب أن المراد أنهم خلقوا من الأغذية التي تتولد من الأرض فهو ظاهر السقوط كما ترى.

وأما المسألة الثانية فقد ذكرها تعالى أيضاً في غير هذا الموضع وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِهَاتَا (٢٥) أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا (٢٦)﴾ [المرسلات]، فقوله: ﴿كِهَاتَا﴾ [المرسلات: ٢٥]، أي موضعهم الذي يكفون فيه أي يضمون فيه أحياء على ظهرها، وأمواتا في بطنها؛ وهو معنى قوله: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُهُمْ﴾.

وأما المسألة الثالثة: وهي إخراجهم من الأرض أحياء يوم القيامة فقد جاءت موضحة في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَيُخْرِجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩]؛ أي من قبوركم أحياء بعد الموت، وقوله تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ص: ١١]، أي من القبور بالبعث يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا يَفْقَاهَا سَفْنُهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاجًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق: ١٦]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿مِنهَا خَلَقْنَكُمْ﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ١٥]، والتارة في قوله: ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ بمعنى المرة. وفي حديث في السنن أن رسول الله ﷺ حضر جنازة، فلما أرادوا دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها في القبر وقال: ﴿مِنهَا خَلَقْنَكُمْ﴾ ثم أخذ أخرى وقال: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ ثم أخرى وقال: ﴿وَمِنهَا تُخْرَجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَإِنِّي﴾. أظهر القولين أن الإضافة في قوله: ﴿ءَايَاتِنَا﴾ مضمنة معنى العهد كالألف واللام. والمراد بآياتنا المعهودة لموسى كلها وهي التسع المذكورة في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ...﴾ الآية [الإسراء: ١٠١]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ يَصْطَاءٍ مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعَ ءَايَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾... الآية [النمل: ١٢]. وقال بعضهم: الآيات التسع المذكورة هي: العصا، واليد البيضاء، وفلق البحر، والحجر الذي انفجرت منه اثنتا عشرة عينا، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ونثق الجبل فوقهم كأنه ظلة. وقد قدمنا كلام أهل العلم في الآيات التسع في سورة «الإسراء». وقال بعض أهل العلم: العموم على ظاهره، وإن الله أرى فرعون جميع الآيات التي جاء بها موسى، والتي جاء بها غيره من الأنبياء، وذلك بأن عرفه موسى جميع معجزاته ومعجزات سائر الأنبياء، والأول هو الظاهر.

وقد بين - جلّ وعلا - في غير هذا الموضع أن الآيات التي أراها فرعون وقومه بعضها أعظم من بعض، كما قال تعالى في سورة «الزخرف»: ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨]، وقوله: ﴿لَئِيْكَ مِن ءَايَاتِنَا الْكُبْرَىٰ﴾ [١٣]، وقوله: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ [النازعات: ٢٠]؛ لأن الكبرى في الموضعين تأنيث الأكبر، وهي صيغة تفضيل تدل على أنها أكبر من غيرها.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَكَذَّبَ وَإِنِّي﴾ يعني أنه مع ما أراه الله من الآيات المعجزات الدالة على صدق نبيه موسى، كذب رسول ربه موسى، وأبى عن قبول الحق. وقد أوضح - جلّ وعلا - في غير هذا الموضع شدة إيائه وعناده وتكبره

على موسى في مواضع كثيرة من كتابه كقوله: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَانَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِلشَّعْرَانَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٢]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [٤٧]، [الزخرف: ٤٧]، وقوله: ﴿لَئِنْ أَخَذْتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْفِقُوا إِلَيْكَ مِثْرَ مِثْرٍ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [٥١] أَرَأَيْتَ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَهُ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ [الزخرف: ٥٣]. ومقصوده بذلك كله تعظيم أمر نفسه وتحقير أمر موسى، وأنه لا يمكن أن يتبع الفاضل المفضول.

وقد بين - جلّ وعلا -: أن فرعون كذب وأبى، وهو غالم بأن ما جاء به موسى حق، وأن الآيات التي كذب بها وأبى عن قبولها ما أنزلها إلا الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بِهَا أَسَافَةً لْأَنفُسِهِمْ ظُلُمًا وَعُظُمًا﴾ [النمل: ١٤]؛ وقوله: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]، إلى غير من ذلك من الآيات، وقوله: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ أصله من رأى البصرية على الصحيح.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْؤِسُكَ﴾ [٥٧] ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه لما أرى فرعون آياته على يد نبيه موسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - قال: إن الآيات التي جاء بها موسى سحر، وأنه يريد بها إخراج فرعون وقومه من أرضهم.

أما دعواه هو وقومه أن موسى ساحر فقد ذكره الله - جلّ وعلا - في مواضع كثيرة من كتابه كقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [النمل: ١٢]، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس: ٦٦]، وقوله: ﴿إِنَّهُ لَكَيْدٌ كُفِرْتُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾، وقوله: ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾... الآية [الزخرف: ٤٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما ادعائهم أنه يريد إخراجهم من أرضهم بالسحر، فقد ذكره الله - جلّ وعلا - أيضاً في مواضع من كتابه كقوله تعالى في هذه السورة: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْؤِسُكَ﴾، وقوله في [الأعراف: ١٢٢]: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ [١٢٢] يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١٢٣﴾ [الأعراف: ١٢٣]، وقوله في [الشعراء: ٢٩]: ﴿قَالَ لِلْمَلَآئِكَةِ إِن هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ [٢٩] يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٠﴾ [الشعراء: ٣٠]، وقوله في [يونس: ٦٦]: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِرْبَةُ فِي الْأَرْضِ﴾... الآية [يونس: ٧٨]. وقال سحرة فرعون: ﴿إِنْ هَؤُلَاءِ لَسَاحِرُونَ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكَ الْمُتْلَى﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن فرعون - لعنه الله - لما رأى آيات الله ومعجزاته الباهرة، وادعى أنها سحر أقسم ليأتين

موسى بسحر مثل آيات الله التي يزعم هو أنها سحر. وقد بين في غير هذا الموضع أن إتيانهم بالسحر وجمعهم السحرة كان عن اتفاق ملئهم على ذلك كقوله في «الأعراف»: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٥٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكَ فَمَآذَا تَأْمُرُونَ (١٦٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١٦١) يَا تَوَكُّ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ (١٦٢) [الأعراف]، وقوله في «الشعراء»: ﴿قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٦٢) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِ فَمَآذَا تَأْمُرُونَ (١٦٣) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَتَيْتُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١٦٤) يَا تَوَكُّ بِكُلِّ سِحَارٍ عَلِيمٍ (١٦٥) [الشعراء]، لأن قوله: ﴿فَمَآذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥]، في الموضعين يدل على أن قول فرعون: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾ وقع بعد مشاورة واتفاق الملأ منهم على ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوًى﴾ (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ الْإِنْسُ ضُجًى (٥٩) ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن فرعون لما وعد موسى بأنه يأتي بسحر مثل ما جاء به موسى في زعمه قال لموسى: ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ﴾ والإخلاف: عدم إنجاز الوعد، وقرر أن يكون مكان الاجتماع للمناظرة والمغالبة في السحر في زعمه مكاناً سوى، وأصح الأقوال في قوله: ﴿سَوًى﴾ على قراءة الكسر والضم أنه مكان وسط تستوي أطراف البلد فيه؛ لتوسطها بينها، فلم يكن أقرب للشرق من الغرب، ولا للجنوب من الشمال. وهذا هو معنى قول المفسرين «مَكَانًا سَوًى» أي نصفاً وعدلاً ليتمكن جميع الناس أن يحضروا. وقوله: ﴿سَوًى﴾ أصله من الاستواء؛ لأن المسافة من الوسط إلى الطرفين لا تفاوت فيها بل هي مستوية. وقوله: ﴿سَوًى﴾ فيه ثلاث لغات: الضم، والكسر مع القصر، وفتح السين مع المد. والقراءة بالأولين دون الثالثة هنا، ومن القراءة بالثالثة «إِلَّا كَلِمَةً سَوَاءً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ» [آل عمران: ٦٤]، ومن إطلاق العرب «مَكَانًا سَوًى» على المكان المتوسط بين الفريقين قول موسى بن جابر الحنفي، وقد أنشده أبو عبيدة شاهداً لذلك:

وإن أبانا كان حل ببلدة سوى بين قيس قيس عيلان والفزر

والفزر: سعد بن زيد مائة بن تميم؛ يعني حل ببلدة مستوية مسافتها بين قيس عيلان والفزر، وأن موسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - أجاب فرعون إلى ما طلب منه من الموعد، وقرر أن يكون وقت ذلك يوم الزينة. وأقوال أهل العلم في يوم الزينة راجعة إلى أنه يوم معروف لهم، يجتمعون فيه ويتزيتون؛ سواء قلنا: إنه يوم عيد لهم، أو يوم عاشوراء، أو يوم النيروز، أو يوم كانوا يتخذون فيه سوقاً ويتزينون فيه بأنواع الزينة.

قال الزمخشري: إنما واعدهم موسى ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله وظهور دينه، وكبت الكافر وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد في المجمع الغاص لتقوى رغبة من رغب في اتباع الحق، ويكل حد المبطلين وأشياعهم، ويكثر المحدث بذلك الأمر؛ ليعلم في كل بدو وحضر، ويشيع في جميع أهل الوبر والحضر، اه منه.. والمصدر

المنسبك من «أن» وصلتها في قوله: ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾؛ في محل جر عطفاً على: ﴿الزَّيْنَةَ﴾؛ أي موعدكم يوم الزينة وحشر الناس، أو في محل رفع عطفاً على قوله: ﴿يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ على قراءة الجمهور بالرفع. والحشر: الجمع، والضحي: من أول النهار حين تشرق الشمس. والضحي يذكر ويؤنث؛ فمن أنه ذهب إلى أنه جمع ضحوة. ومن ذكره ذهب إلى أنه اسم مفرد جاء على فعل بضم ففتح كصرد وزفر، وهو منصرف إذا لم ترد ضحي يوم معين بلا خلاف. وإن أردت ضحي يومك المعين فقليل يمنع من الصرف كسحر، وقيل لا.

وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من كون المناظرة بين موسى والسحرة عين لوقتها يوم معلوم يجتمع الناس فيه؛ ليعرفوا الغالب من المغلوب أشير له في غير هذا الموضع كقوله تعالى في «الشعراء»: ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَبِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَبْنِئَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ أَغْلَبِينَ ۝٤٠﴾ [الشعراء].

فقوله تعالى: ﴿لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ٣٨] اليوم المعلوم: هو يوم الزينة المذكور هنا. وميقاته وقت الضحي منه المذكور في قوله: ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾.

تنبيه: اعلم أن في تفسير هذه الآية الكريمة أنواعاً من الإشكال معروفة عند العلماء، وسنذكر - إن شاء الله تعالى - أوجه الإشكال فيها، ونبين إزالة الإشكال عنها. اعلم أولاً أن الفعل الثلاثي إن كان مثلاً أعني واوي الفاء كوعد ووصل، فالقياس في مصدره الميمي واسم مكانه وزمانه كلها المفعل - بفتح الميم وكسر العين - ما لم يكن معتل اللام؛ فإن كان معتلها فالقياس فيه المفعل - بفتح الميم والعين - كما هو معروف في فن الصرف.

فإذا علمت ذلك فاعلم أن قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾؛ صالح بمقتضى القياس الصرفي؛ لأن يكون مصدراً ميمياً بمعنى الوعد، وأن يكون اسم زمان يراد به وقت الوعد، وأن يكون اسم مكان يراد به مكان الوعد، ومن إطلاق الموعد في القرآن اسم زمان قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١]، أي وقت وعدهم بالإهلاك الصبح، ومن إطلاقه في القرآن اسم مكان قوله تعالى: ﴿وَلِإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٢﴾ [الحجر]، أي مكان وعدهم بالعذاب.

وأوجه الإشكال في هذا أن قوله: ﴿لَا تُخْلَفُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ﴾ يدل على أن الموعد مصدر؛ لأن الذي يقع عليه الإخلاف هو الوعد لا زمانه ولا مكانه.

وقوله تعالى: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ يدل على أن الموعد في الآية اسم مكان.

وقوله: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ يدل على أن الموعد في الآية اسم زمان، فإن قلنا إن الموعد في الآية مصدراً أشكل على ذلك ذكر المكان في قوله: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾، والزمان في قوله: ﴿يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ وإن قلنا: إن الموعد اسم مكان أشكل عليه قوله: ﴿لَا

تُخْلِفُهُ؛ لأن نفس المكان لا يخلف وإنما يخلف الوعد، وأشكل عليه أيضاً قوله: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾، وإن قلنا: إن الموعد اسم زمان أشكل عليه أيضاً قوله: ﴿لَا تُخْلِفُهُ﴾، وقوله: ﴿مَكَانًا سَوًى﴾ هذه هي أوجه الإشكال في هذه الآية الكريمة، وللعلماء عن هذا أجوبة منها ما ذكره الزمخشري في الكشاف قال: لا يخلو الموعد في قوله: ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ من أن يجعل زماناً أو مكاناً أو مصدرًا؛ فإن جعلته زماناً نظراً في أن قوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ مطابق له لزمتك شيان: أن تجعل الزمان مخلفاً وأن يعضل عليك ناصب ﴿مَكَانًا﴾، وإن جعلته مكاناً لقوله تعالى: ﴿مَكَانًا سَوًى﴾ لزمتك أيضاً أن توقع الإخلاف على المكان، ولا يطابق قوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ إلى أن قال: فبقي أن يجعل مصدرًا بمعنى الوعد ويقدر مضاف محذوف، أي مكان الوعد، ويجعل الضمير في ﴿تُخْلِفُهُ﴾ للموعد و﴿مَكَانًا﴾ بدل من المكان المحذوف.

فإن قلت: كيف طابقه قوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ ولا بد من أن تجعله زماناً والسؤال واقع عن المكان لا عن الزمان؟

قلت: هو مطابق معنى وإن لم يطابق لفظاً؛ لأنهم لا بد لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة في مكان بعينه مشتهر باجتماعهم فيه في ذلك اليوم؛ فبذكر الزمان علم المكان، انتهى محل الغرض منه. ولا يخفى ما في جوابه هذا من التعسف والحذف والإبدال من المحذوف.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: أظهر ما أجيب به عما ذكرنا من الإشكال عندي في هذه الآية الكريمة أن فرعون طلب من موسى تعيين مكان الموعد، وأنه يكون مكاناً سوى؛ أي وسطاً بين أطراف البلد كما بينا، وأن موسى وافق وعين زمان الوعد وأنه يوم الزينة ضحى؛ لأن الوعد لا بد له من مكان وزمان. فإذا علمت ذلك، فاعلم أن الذي يترجح عندي المصير إليه هو قول من قال في قوله: ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾؛ إنه اسم مكان أي مكان الوعد، وقوله: ﴿مَكَانًا﴾ بدل من قوله موعداً؛ لأن الموعد إذا كان اسم مكان صار هو نفس المكان فاتضح كون ﴿مَكَانًا﴾ بدلاً. ولا إشكال في ضمير ﴿تُخْلِفُهُ﴾ على هذا، ووجه إزالة الإشكال عنه أن المعروف في فن الصرف أن اسم المكان مشتق من المصدر كاشتقاق الفعل منه، فاسم المكان ينحل عن مصدر ومكان، فالمنزل مثلاً مكان النزول، والمجلس مكان الجلوس، والموعد مكان الوعد، فإذا اتضح لك أن المصدر كامن في مفهوم اسم المكان فالضمير في قوله: ﴿لَا تُخْلِفُهُ﴾ راجع إلى المصدر الكامن في مفهوم اسم المكان، كرجوعه للمصدر الكامن في مفهوم الفعل في قوله: ﴿أَعِدُّوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]؛ فقوله: ﴿هُوَ﴾ أي العدل المفهوم من ﴿أَعِدُّوا﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿لَا تُخْلِفُهُ﴾ أي الوعد الكامن في مفهوم اسم المكان الذي هو الموعد؛ لأنه مكان الوعد، فمعناه مركب إضافي وآخر جزأه لفظ الوعد وهو مرجع الضمير في ﴿لَا تُخْلِفُهُ﴾.

فإذا عرفت معنى هذا الكلام الذي أخبر الله أن فرعون قاله لموسى، فاعلم أن قوله عن موسى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾؛ يدل على أنه وافق على طلب فرعون ضمناً، وزاد تعيين زمان الوعد بقوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾؛ ولا إشكال في ذلك، هذا هو الذي ظهر لنا صوابه. وأقرب الأوجه التي ذكرها العلماء بعد هذا عندي قول من قال: إن الموعد في الآية مصدر وعليه ﴿لَا تُخْلَفُمْ﴾ راجع للمصدر، و﴿مَكَانًا﴾ منصوب بفعل دل عليه الموعد؛ أي عدنا مكاناً سوى. ونصب المكان بأنه مفعول المصدر الذي هو ﴿مَوْعِدًا﴾ أو أحد مفعولي ﴿أَجْعَلْ﴾ غير صواب فيما يظهر لي والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ قرأه ابن عامر وعاصم وحمزة «سوى» بضم السين والباقون بكسرهما، ومعنى القراءتين واحد كما تقدم.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾.

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ قال بعض العلماء: معناه فتولى فرعون، انصرف مدبراً من ذلك المقام ليهيئ ما يحتاج إليه مما تواعد عليه هو وموسى، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى في سورة «النازعات» في القصة بعينها ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿[النازعات] وقوله: ﴿فَحَشَرَ﴾ أي جمع السحرة.

وقال بعض العلماء: معنى قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ أي أعرض عن الحق الذي جاء به موسى، ومن معنى هذا الوجه قوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ الظاهر أن المراد بـ«كيد» ما جمعه من السحر ليغلب به موسى في زعمه. وعليه فالمراد بقوله: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ هو جمعه للسحرة من أطراف مملكته، ويدل على هذا أمران: أحدهما: تسمية السحر في القرآن كيداً كقوله: ﴿إِنَّمَا صَعَوْا كَيْدَ سِحْرٍ﴾... الآية، وقوله تعالى عن السحرة: ﴿فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ﴾ وكيدهم سحرهم. الثاني: أن الذي جمعه فرعون هو السحرة كما دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى في «الأعراف»: ﴿قَالُوا أَجِئَهُ وَآخَاهُ وَارْتَدَّ فِي الدَّلَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿[الأعراف] وقوله: ﴿حَاشِرِينَ﴾ أي جامعين يجمعون السحرة من أطراف مملكته، وقوله في «الشعراء»: ﴿وَأَبَتْ فِي الدَّلَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحَارٍ عَلِيمٍ ﴿فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء]، وقوله في «يونس»: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ [يونس].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾، أي جاء فرعون بسحرته للميعاد ليغلب نبي الله موسى بسحره في زعمه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن السحرة لما جمعهم فرعون واجتمعوا مع موسى للمغالبة قالوا له متأدبين معه: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾؛ وقد بين تعالى

مقاتلتهم هذه في غير هذا الموضع؛ كقوله في «الأعراف»: ﴿قَالُوا يَكُونُ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ خَنْ أَلْمَلَيْنِ﴾ [١٥]. [الأعراف]. وقد قدمناه في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يحذف مفعول فعل في موضع، ثم يبين في موضع آخر، فإننا نبين ذلك، وقد حذف هنا في هذه الآية مفعول ﴿تُلْقَىٰ﴾، ومفعول أول من ﴿أَلْقَىٰ﴾ وقد بين تعالى في مواضع آخر أن مفعول إلقاء موسى هو عصاه وذلك في قوله في «الأعراف»: ﴿فَالْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [١٥] [الشعراء]، وقوله في «الشعراء»: ﴿فَالْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [١٥] [الشعراء]، وقوله هنا: ﴿وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا﴾ الآية، وما في يمينه هو عصاه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَكُونُ﴾ [٧] قَالَ هِيَ عَصَايَ.

وقد بين تعالى أيضاً في موضع آخر أن مفعول إلقاءهم هو حبالهم وعصيتهم، وذلك في قوله في «الشعراء»: ﴿فَالْقُوا جِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ وَقَالُوا بِعَرَّةٍ فَرَعُونَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [٤٤]. [الشعراء: ٤٤]. وقد أشار تعالى إلى ذلك أيضاً بقوله هنا: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِبَالُهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُحِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسَعَىٰ﴾ [٤٦]؛ لأن في الكلام حذفاً دل المقام عليه، والتقدير: قال بل ألقوا فآلقوا حبالهم وعصيتهم فإذا حبالهم وعصيتهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، والمصدر المنسبك من «أن» وصلتها في قوله: ﴿أَنْ تُلْقَىٰ﴾ وفي قوله: ﴿أَنْ تَكُونَ﴾ فيه وجهان من الإعراب:

الأول: أنه في محل نصب بفعل محذوف دل المقام عليه، والتقدير: إما أن تختار أن تلقي أي تختار إلقاءك أولاً، أو تختار إلقاءنا أولاً، وتقدير المصدر الثاني: وإما أن تختار أن نكون أي كوننا أول من ألقى.

والثاني: أنه في محل رفع، وعليه فقيل: هو مبتدأ والتقدير إما إلقاءك أولاً، أو إلقاءنا أولاً. وقيل: خبر مبتدأ محذوف، أي إما الأمر إلقاءنا أو إلقاءك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن نبيه موسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - لما خيره سحرة فرعون أن يلقي قبلهم أو يلقوا قبله قال لهم: ﴿أَلْقُوا﴾ يعني ألقوا ما أنتم ملقون كما صرح به في «الشعراء» في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّقْبُوْنَ﴾ [الشعراء: ٤٣]، وذلك هو المراد أيضاً بقوله في «الأعراف»: ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾... الآية [الأعراف: ١١٦].

تنبيه: قول موسى للسحرة: ألقوا المذكور في «الأعراف»، وطه، والشعراء» فيه سؤال معروف، وهو أن يقال: كيف قال هذا النبي الكريم للسحرة ألقوا؛ أي ألقوا حبالكم وعصيتكم، يعني اعملوا السحر وعارضوا به معجزة الله التي أيد بها رسوله، وهذا أمر بمنكر؟ والجواب: هو أن قصد موسى بذلك قصد حسن يستوجه المقام؛ لأن إلقاءهم قبله يستلزم إبراز ما معهم من مكائد السحر، واستنفاد أقصى طرقهم

ومجهودهم؛ فإذا فعلوا ذلك كان في إلقائه عصاه بعد ذلك وابتلاعها لجميع ما ألقوا من إظهار الحق وإبطال الباطل ما لا جدال بعده في الحق لأدنى عاقل، ولأجل هذا قال لهم: ألقوا، فلو ألقى قبلهم وألقوا بعده لم يحصل ما ذكرنا، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَهُمْ يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾.

قرأ هذا الحرف ابن ذكوان عن ابن عامر (تخيل) بالياء، أي تخيل هي أي الحبال والعصي أنها تسعى، والمصدر في ﴿أَنَّهَا تَسْعَى﴾ بدل من ضمير الحبال والعصي الذي هو نائب فاعل «تخيل» بدل اشتغال، وقرأ الباقون بالياء التحتية. والمصدر في ﴿أَنَّهَا تَسْعَى﴾ نائب فاعل «يخيل».

وفي هذه الآية الكريمة حذف دل المقام عليه، والتقدير: قال بل ألقوا فألقوا حبالهم وعصيتهم، فإذا حبالهم وعصيتهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، وبه تعلم أن الفاء في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ﴾ عاطفة على محذوف كما أشار لنحو ذلك ابن مالك في الخلاصة بقوله:

وحذف متبوع بدا هنا استبح

و«إذا» هي الفجائية، وقد قدمنا كلام العلماء فيها فأغنى ذلك عن إعادته هنا، والحبال: جمع جبل، وهو معروف. «والعصي» جمع عصا، وألف العصا منقلبة عن واو؛ ولذا ترد إلى أصلها في التثنية: ومنه قول غيلان ذي الرمة:

فجاءت بنسج العنكبوت كأنه على عصويها سابري مشبرق

وأصل العصي عصوو على وزن فعول جمع عصا؛ فأعل بإبدال الواو التي في موضع اللام ياء فصار عصويا، فأبدلت الواو ياء وأدغمت في الياء، فالياءان أصلهما واوان. وإلى جواز هذا النوع من الإعلال في واوي اللام مما جاء على فعول أشار في الخلاصة بقوله:

كذاك ذا وجهين جا الفعول من ذي الواو لام جمع أو فرد يعن

وضمة الصاد في «عصيتهم» أبدلت كسرة لمجانسة الياء، وضمة عين «عصيتهم» أبدلت كسرة لاتباع كسرة الصاد. والتخيل في قوله: ﴿يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾؛ هو إبداء أمر لا حقيقة له، ومنه الخيال. وهو الطيف الطارق في النوم. قال الشاعر:

ألا يا لقومي للخيال المشوق وللدار تنأى بالحبيب ونلتقي

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾؛ يدل على أن السحر الذي جاء به سحرة فرعون تخيل لا حقيقة له في نفس الأمر، وهذا الذي دلت عليه آية «طه» هذه دلت عليه آية «الأعراف» وهي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾... الآية [الأعراف: ١١٦]؛ لأن قوله: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾، يدل على أنهم

خيلوا لأعين الناظرين أمراً لا حقيقة له، وبهاتين الآيتين احتج المعتزلة ومن قال بقولهم على أن السحر خيال لا حقيقة له.

والتحقيق الذي عليه جماهير العلماء من المسلمين أن السحر منه ما هو أمر له حقيقة لا مطلق تخيل لا حقيقة له، ومما يدل على أن منه ما له حقيقة قوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فهذه الآية تدل على أنه شيء موجود له حقيقة تكون سبباً للتفريق بين الرجل وامرأته وقد عبر الله عنه بما الموصولة وهي تدل على أنه شيء له وجود حقيقي، ومما يدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ الْفَقْصِ فِي الْمَقَدِّ﴾ [الفلق]، يعني السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن وينفنن في عقدهن، فلولا أن السحر حقيقة لم يأمر الله بالاستعاذة منه، وسيأتي - إن شاء الله - أن السحر أنواع: منها ما هو أمر له حقيقة، ومنها ما هو تخيل لا حقيقة له، وبذلك يتضح عدم التعارض بين الآيات الدالة على أن له حقيقة، والآيات الدالة على أنه خيال.

فإن قيل: قوله في «طه»: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ﴾... الآية، وقوله في «الأعراف»: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦]، الدالان على أن سحر سحرة فرعون خيال لا حقيقة له، يعارضهما قوله في «الأعراف»: ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، لأن وصف سحرهم بالعظم يدل على أنه غير خيال، فالذي يظهر في الجواب - والله أعلم - أنهم أخذوا كثيراً من الحبال والعصي، وخيلوا بسحرهم لأعين الناس أن الحبال والعصي تسعى وهي كثيرة. فظن الناظرون أن الأرض ملئت حيات تسعى، لكثرة ما ألقوا من الحبال والعصي فخافوا من كثرتها، وبتخيل سعى ذلك العدد الكثير وصف سحرهم بالعظم. وهذا ظاهر لا إشكال فيه.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِرٌ﴾.

قرأ هذا الحرف نافع وأبو عمرو وحزمة والكسائي وقنبل عن ابن كثير، وهشام عن ابن عامر، وشعبة عن عاصم بتاء مفتوحة مخففة بعدها لام مفتوحة ثم قاف مفتوحة مشددة بعدها فاء ساكنة، وهو مضارع تلقف وأصله تتلقف بتاءين فحذفت إحداهما تخفيفاً، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

وما بتاءين ابتد قد يقتصر فيه على تا كتبين العبر

والمضارع مجزوم؛ لأنه جزاء الطلب في قوله: ﴿أَلْقَى﴾ وجمهور علماء العربية على أن الجزم في نحو ذلك بشرط مقدر دلت عليه صيغة الطلب، وتقديره هنا: إن تلق ما في يمينك تلقف ما صنعوا، وقرأه البزي عن ابن كثير كالقراءة التي ذكرنا، إلا أنه يشدد تاء تلقف وصلأ. ووجه تشديد التاء هو إدغام إحدى التاءين في الأخرى، وهو جائز في كل فعل بدئ بتاءين كما هنا، وأشار إليه في الخلاصة بقوله:

وحيني أفكك وادغم دون حذر . . . كذلك نحو تتجلى واستتر
ومحل الشاهد منه قوله نحو «تتجلى» ومثاله في الماضي قوله:

تولى الضجيع إذا ما التذها خصرًا عذب المذاق إذا ما اتّابع القبل
أصله تنابع، وقرأه ابن ذكوان عن ابن عامر كالقراءة المذكورة للجمهور إلا أنه
يضم الفاء، فالمضارع على قراءته مرفوع، ووجه رفعه أن جملة الفعل حال، أي ألق
بما في يمينك في حال كونها متلقفة ما صنعوا، أو مستأنفة، وعليه فهي خبر مبتدأ
محذوف، أي فهي تلقف ما صنعوا، وقرأ حفص عن عاصم ﴿تَلَقَّفْ﴾ بفتح التاء وسكون
اللام وفتح القاف مخففة مع الجزم، مضارع لقفه بالكسر يلقفه بالفتح ومعنى القراءتين
واحد؛ لأن معنى تلقفه لقفه إذا تناوله بسرعة، والمراد بقوله: ﴿تَلَقَّفْ مَا صَنَعُوا﴾ على
جميع القراءات أنها تتلع كل ما زوروه واقتعلوه من الحبال والعصي التي خيلوا للناس
أنها تسعى وصنعهم في قوله تعالى: ﴿مَا صَنَعُوا﴾ واقع في الحقيقة على تخيلهم إلى
الناس بسحرهم أن الحبال والعصي تسعى، لا على نفس الحبال والعصي لأنها من
صنع الله تعالى، ومن المعلوم أن كل شيء كائناً ما كان بمشيئته تعالى الكونية القدرية.

وهذا المعنى الذي ذكره - جلّ وعلا - هنا في هذه الآية الكريمة من كونه أمر نبيه
موسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - أن يلقي ما في يمينه أي يده اليمنى، وهو
عصاه فإذا هي تتلع ما يأفكون من الحبال والعصي التي خيلوا إليه أنها تسعى أوضحه
في غير هذا الموضع، كقوله في «الأعراف»: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ إِذَا هِيَ
تَلَقَّتْ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١٧٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٨﴾ فَعُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَدِرِينَ ﴿١٧٩﴾﴾
[الأعراف]، وقوله تعالى في «الشعراء»: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٤﴾﴾
[الشعراء]، فذكر العصا في «الأعراف» و«الشعراء» يوضح أن المراد بما في يمينه في «طه»
أنه عصاه كما لا يخفى.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥]، أي يختلقونه
ويفترونه من الكذب، وهو زعمهم أن الحبال والعصي تسعى حقيقة، وأصله من قولهم:
أفكه عن الشيء يأفكه عنه (من باب ضرب): إذا صرفه عنه وقلبه. فأصل الأفك بالفتح
القلب والصرف عن الشيء. ومنه قيل لقرى قوم لوط (المؤتفكات)؛ لأن الله أفكها أي
قلبها؛ كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَابِلَهَا﴾ [الحجر: ٧٤]. ومنه قوله تعالى: ﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ
مَنْ أُلْفِكَ ﴿٦١﴾﴾ [الذاريات]، أي يصرف عنه من صرف، وقوله: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأَفَّكَ عَنْ
عَالِهَتِنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢]، أي لتصرفنا عن عبادتها، وقول عمرو بن أذينة:

إنك تك عن أحسن المروءة ما فوكاً فبفي آخرين قد أفكوا

وأكثر استعمال هذه المادة في الكذب؛ لأنه صرف وقلب للأمر عن حقيقة
بالكذب والافتراء، كما قال تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِلَّذِينَ آمَنُوا آيَاتِ ﴿٧﴾﴾ [الجاثية]، وقال تعالى:
﴿وَذَلِكَ إِنْكَهَمُ وَمَا كَانُوا يَقَرُّونَ﴾ [الأحقاف: ٢٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سِحْرٍ﴾؛ «ما» موصولة وهي اسم «إن»، و«كيد» خبرها، والعائد إلى الموصول محذوف؛ على حد قوله في الخلاصة:

والحذف عندهم كثير منجلى

في عائد متصل إن انتصب بفعل أو وصف كمن نرجو يهب

والتقدير: إن الذي صنعوه كيد ساحر، وأما على قراءة من قرأ (كيد ساحر) بالنصب فـ «ما» كافة و«كيد» مفعول «صنعوا» وليست سبعية، وعلى قراءة حمزة والكسائي «كيد سحر» بكسر السين وسكون الحاء، فالظاهر أن الإضافة بيانية؛ لأن الكيد المضاف إلى السحر هو المراد بالسحر، وقد بسطنا الكلام في نحو ذلك في غير هذا الموضع. والكيد: هو المكر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾. قد قدمنا في سورة «بني إسرائيل» أن الفعل في سياق النفي من صيغ العموم؛ لأنه ينحل عند بعض أهل العلم عن مصدر وزمان، وعند بعضهم عن مصدر وزمان ونسبة؛ فالمصدر كامن في مفهومه إجماعاً، وهذا المصدر الكامن في مفهوم الفعل في حكم النكرة فيرجع ذلك إلى النكرة في سياق النفي وهي صيغة عموم عند الجمهور. فظهر أن الفعل في سياق النفي من صيغ العموم، وكذلك الفعل في سياق الشرط؛ لأن النكرة في سياق الشرط أيضاً صيغة عموم، وأكثر أهل العلم على ما ذكرنا من أن الفعل في سياق النفي أو الشرط من صيغ العموم، خلافاً لبعضهم فيما إذا لم يؤكد الفعل المذكور بمصدر؛ فإن أكد به فهو صيغة عموم بلا خلاف، كما أشار إلى ذلك في (مراقي السعود) بقوله عاطفاً على صيغ العموم:

ونحو لا شربت أو إن شرباً. واتفقوا إن مصدر قد جلياً

والتحقيق في هذه المسألة أنها لا تختص بالفعل المتعدي دون اللازم، خلافاً لمن زعم ذلك، وأنه لا فرق بين التأكيد بالمصدر وعدمه؛ لإجماع النحاة على أن ذكر المصدر بعد الفعل تأكيد للفعل، والتأكيد لا ينشأ به حكم، بل هو مطلق تقوية لشيء ثابت قبل ذلك كما هو معروف. وخلاف العلماء في عموم الفعل المذكور هل هو بدلالة المطابقة أو الالتزام معروف. وإذا علمت ذلك، فاعلم أن قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ﴾... الآية، يعم نفي جميع أنواع الفلاح عن الساحر، وأكد ذلك بالتعميم في الأمكنة بقوله: ﴿حَيْثُ أَتَى﴾ وذلك دليل على كفره؛ لأن الفلاح لا ينفي بالكلية نفيّاً عاماً إلا عمن لا خير فيه وهو الكافر، ويدل على ما ذكرنا أمران:

الأول: هو ما جاء من الآيات الدالة على أن الساحر كافر كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ الآية [البقرة: ١٠٢]؛ فقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ يدل على أنه لو كان ساحراً - وحاشاه من ذلك - لكان كافراً، وقوله: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ صريح في كفر معلم السحر،

وقوله تعالى عن هاروت وماروت مقررًا له: ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقوله: ﴿وَيَنْتَعِلُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي من نصيب، ونفي النصيب في الآخرة بالكلية لا يكون إلا للكافر عيادًا بالله تعالى، وهذه الآيات أدلة واضحة على أن من السحر ما هو كفر بواح، وذلك مما لا شك فيه.

الأمر الثاني: أنه عرف باستقراء القرآن أن الغالب فيه أن لفظة: ﴿وَلَا يُفْلِحُ﴾ يراد بها الكافر كقوله تعالى في سورة «يونس»: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١٩﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا نُمًا إِيَّانَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذَرْنَاهُمْ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [يونس]، وقوله في «يونس» أيضًا: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُظْلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام] إلى غير ذلك من الآيات.

ويفهم من مفهوم مخالفة الآيات المذكورة أن من جانب تلك الصفات التي استوجبت نفي الفلاح عن السحرة والكفرة غيرهم أنه ينال الفلاح، وهو كذلك، كما بينه - جل وعلا - في آيات كثيرة كقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ الآية [المؤمنون: ١]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾؛ مضارع أفلح بمعنى نال الفلاح. والفلاح يطلق في العربية على الفوز بالمطلوب؛ ومنه قول لبيد:

فاعقلي إن كنت لما تعقلي ولقد أفلح من كان عقل

فقوله: «ولقد أفلح من كان عقل» يعني أن من رزقه الله العقل فاز بأكبر مطلوب. ويطلق الفلاح أيضاً على البقاء والدوام في النعيم، ومنه قول لبيد:

لو أن حيا مدرك الفلاح لناله ملاعب الرماح

فقوله: «مدرك الفلاح» يعني البقاء. وقول الأضبط بن قريع السعدي، وقيل كعب بن زهير:

لكل هم من الهموم سعه والمسي والصبح لا فلاح معه

يعني أنه ليس مع تعاقب الليل والنهار بقاء. وبكل واحد من المعنيين فسر بعض أهل العلم «حي على الفلاح» في الأذان والإقامة:

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿حَيْثُ أَقْبَ﴾ حيث كلمة تدل على المكان، كما تدل حين على الزمان، ربما ضمنت معنى الشرط، فقوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ

أَنَّى؟ أي حيث توجه وسلك. وهذا أسلوب عربي معروف يقصد به التعميم؛ كقولهم: فلان متصف بكذا حيث سير، وأية سلك، وأينما كان؛ ومن هذا القبيل قول زهير:

بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا وزودوك اشتياقاً أية سلكوا

وقال القرطبي رحمته الله في تفسير هذه الآية: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾؛ أي لا يفوز ولا ينجو حيث أتى من الأرض. وقيل: حيث احتال. والمعنى في الآية هو ما بينا - والله تعالى أعلم -.

وهناك مسائل تتعلق بالسحر وأحكامه من أراد الوقوف عليها فليرجع إلى الأصل وخلاصة ما ذهب إليه الشيخ فيها هو: أنَّ التحقيق في هذه المسألة هو التفصيل؛ فإن كان السحر مما يعظم فيه غير الله كالكواكب والجن وغير ذلك مما يؤدي إلى الكفر فهو كفر بلا نزاع، ومن هذا النوع سحر هاروت وماروت المذكور في سورة «البقرة» فإنه كفر بلا نزاع كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾؛ كما تقدم إيضاحه. وإن كان السحر لا يقتضي الكفر كالاستعانة بخواص بعض الأشياء من دهانات وغيرها فهو حرام حرمة شديدة ولكنه لا يبلغ بصاحبه الكفر. هذا هو التحقيق - إن شاء الله تعالى - في هذه المسألة التي اختلف فيها العلماء. وخلاصة رأي الشيخ في قتل الساحر وعدمه:

أنَّ السحر نوعان كما تقدم: منه ما هو كفر، ومنه ما لا يبلغ بصاحبه الكفر، فإن كان الساحر استعمل السحر الذي هو كفر فلا شك في أنه يقتل كفراً، لقوله رحمته الله: «من بدل دينه فاقتلوه». وأظهر القولين عندي في استتابته أنه يستتاب، فإن تاب قبلت توبته. وقد بينت في كتابي (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة «آل عمران» أن أظهر القولين دليلاً أن الزنديق تقبل توبته؛ لأن الله لم يأمر نبيه ولا أمته رحمته الله بالتنقيب عن قلوب الناس، بل بالاكْتِفَاء بِالظَّاهِر. وما يخفونه في سرائرهم أمره إلى الله تعالى، خلافاً للإمام مالك رحمته الله وأصحابه القائلين بأن الساحر له حكم الزنديق؛ لأنه مستسر بالكفر والزنديق لا تقبل توبته عنده إلا إذا جاء تائباً قبل الاطلاع عليه، وأظهر القولين عندي: أن المرأة الساحرة حكمها حكم الرجل الساحر وأنها إن كفرت بسحرها قتلت كما يقتل الرجل؛ لأن لفظة «من» في قوله: «من بدل دينه فاقتلوه» تشمل الأنثى على أظهر القولين وأصحهما إن شاء الله تعالى. ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ الآية [النساء: ١٢٤]. فأدخل الأنثى في لفظة «من»، وقوله تعالى: ﴿يَنْسَاءُ الَّتِي مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ﴾... الآية [الأحزاب: ٣٠]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَفْتَنُ مِنْكُنَّ لِلَّهِ﴾... الآية [الأحزاب: ٣١]، إلى غير ذلك من الآيات. وإلى هذه المسألة التي هي شمول لفظة «من» في الكتاب والسنة للأنثى أشار في (مراقي السعود) بقوله:

وما شمول من للأنثى جنف وفي شبهه المسلمين اختلّفوا

وأما إن كان الساحر عمل السحر الذي لا يبلغ بصاحبه الكفر، فهذا هو محل الخلاف بين العلماء. فالذين قالوا يقتل ولو لم يكفر بسحره قال أكثرهم: يقتل حداً ولو قتل إنساناً بسحره، وانفرد الشافعي في هذه الصورة بأنه يقتل قصاصاً لا حداً.

والأظهر عندي أن الساحر الذي لم يبلغ به سحره الكفر ولم يقتل به إنساناً أنه لا يقتل؛ للدلالة النصوص القطعية، والإجماع على عصمة دماء المسلمين عامة إلا بدليل واضح. وقتل الساحر الذي لم يكفر بسحره لم يثبت فيه شيء عن النبي ﷺ، والتجروء على دم مسلم من غير دليل صحيح من كتاب أو سنة مرفوعة غير ظاهر عندي. والعلم عند الله تعالى، مع أن القول بقتله مطلقاً قوي جداً لفعل الصحابة له من غير نكير.

قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ (٧٠). ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن سحرة فرعون لما عاينوا عصا موسى تبتلع جميع حبالهم وعصيهم خروا سجداً لله تعالى قائلين: آمنا بالله الذي هو رب هارون وموسى. فهداهم الله بذلك البرهان الإلهي، هذه الهداية العظيمة. وقد أوضح تعالى هذا المعنى في مواضع أخر كقوله في «الأعراف»: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ إِذًا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (١٧) ﴿فَوَقَّ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٨) ﴿فَعُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ (١٩) ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ﴾ (٢٠) ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢١) ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ (٢٢) ﴿[الأعراف]، وقوله في «الشعراء»: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (٤٥) ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ﴾ (٤٦) ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٧) ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ (٤٨) ﴿[الشعراء]، وقوله: ﴿فَأَلْقَى﴾ يدل على قوة البرهان الذي عاينوه؛ كأنهم أمسكهم إنسان وألقاهم ساجدين بالقوة لعظم المعجزة التي عاينوها. وذكر في قصتهم أنهم عاينوا منازلهم في الجنة في سجودهم. والظاهر أن ذلك من نوع الإسرائيليات، وأطلق عليهم اسم السحرة في حال سجودهم لله مؤمنين به نظراً إلى حالهم الماضية كقوله: ﴿وَأَتَوْا إِلَيْنَآ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٢]، فأطلق عليهم اسم اليتيم بعد البلوغ نظراً إلى الحال الماضية كما هو معروف في محله.

والظاهر أن تقديم هارون على موسى في هذه الآية لمراعاة فواصل الآيات.

واعلم أن علم السحر مع خسته، وأن الله صرح بأنه يضر ولا ينفع، قد كان سبباً لإيمان سحرة فرعون؛ لأنهم لمعرفتهم بالسحر عرفوا أن معجزة العصا خارجة عن طور السحر، وأنها أمر إلهي فلم يداخلهم شك في ذلك؛ فكان ذلك سبباً لإيمانهم الراسخ الذي لا يزعه الوعيد والتهديد. ولو كانوا غير عالمين بالسحر جداً، لأمكن أن يظنوا أن مسألة العصا من جنس الشعوذة. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكِبْرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُطْعَمُونَ أَيِّدِكُمْ وَأَزْجَلِكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبُنَّكُمْ فِي مَجْدُوعِ النَّعْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ (٧١). ذكر

- جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن سحرة فرعون لما آمنوا برب هارون وموسى قال لهم فرعون منكراً عليهم: ﴿ءَأَمَنْتُمْ لَّيَّ﴾ أي صدقتموه في أنه نبي مرسل من الله، وأمنتم بالله قبل أن أذن لكم، يعني أنهم لم يكفوا عن الإيمان حتى يأذن لهم؛ لأنه يزعم أنهم لا يحق لهم أن يفعلوا شيئاً إلا بعد إذنه هو لهم. وقال لهم أيضاً: إن موسى هو كبيرهم؛ أي كبير السحرة وأستاذهم الذي علمهم السحر. ثم هددهم مقسماً على أنه يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف: يعني اليد اليمنى والرجل اليسرى مثلاً؛ لأنه أشد على الإنسان من قطعهما من جهة واحدة؛ لأنه إن كان قطعهما من جهة واحدة يبقى عنده شق كامل صحيح، بخلاف قطعهما من خلاف، فالجنب الأيمن يضعف بقطع اليد، والأيسر يضعف بقطع الرجل كما هو معلوم. وأنه يصلبهم في جذوع النخل، وجذع النخلة هو أخشن جذع من جذوع الشجر، والتصليب عليه أشد من التصليب على غيره من الجذوع كما هو معروف.

وما ذكره - جلّ وعلا - عنه هنا أوضحه في غير هذا الموضع أيضاً كقوله في سورة الشعراء: ﴿قَالَ ءَأَمَنْتُمْ لَّيَّ قَبْلَ أَنْ ءَأْذَنَ لَّكُمْ إِنَّكُمْ لَكَيْرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ الْبَيْتَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صُلْبَتَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء]. وذكر هذا أيضاً في سورة الأعراف وزاد فيها التصريح بفاعل قال. وادعاء فرعون أن موسى والسحرة تماثلوا على أن يظهروا أنه غلبهم مكرراً ليتعاونوا على إخراج فرعون وقومه من مصر وذلك في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَأْذَنَ لَّكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف] وقوله في طه: ﴿وَلَا صُلْبَتَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ يبين أن التصليب في جذوع النخل هو مراده بقوله في «الأعراف»، والشعراء: ﴿وَلَا صُلْبَتَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي في جذوع النخل. وتعدية التصليب بـ«في» أسلوب عربي معروف، ومنه قول سويد بن أبي كاهل:

هم صلبوا العبدى في جذع نخلة فلا عطست شيبان إلا بأجدعا

ومعلوم عند علماء البلاغة: أن في مثل هذه الآية استعارة تبعية في معنى الحرف كما سيأتي - إن شاء الله تعالى - إيضاح كلامهم في ذلك ونحوه في سورة «القصص». وقد أوضحنا في كتابنا المسمى (منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز). أن ما يسميه البلاغيون من أنواع المجاز مجازاً كلها أساليب عربية نطقت بها العرب في لغتها. وقد بينا وجه عدم جواز المجاز في القرآن وما يترتب على ذلك من المحذور.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾؛ قال بعض أهل العلم: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا﴾: يعني أنا، أم رب موسى أشد عذاباً وأبقى. واقتصر على هذا القرطبي؛ وعليه ففرعون يدعي أن عذابه أشد وأبقى من عذاب الله؛ وهذا كقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وقوله: ﴿لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]. وقال بعضهم:

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا﴾ أنا، أم موسى أشد عذاباً وأبقى. وعلى هذا فهو كالتهمكم بموسى لاستضعافه له، وأنه لا يقدر على أن يعذب من لم يطعه؛ كقوله: ﴿أَمْرٌ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾... الآية [الزخرف: ٥٢]. والله - جلّ وعلا - أعلم.

واعلم أن العلماء اختلفوا: هل فعل بهم فرعون ما توعدهم به، أو لم يفعله بهم؟ فقال قوم: قتلهم وصلبهم. وقوم أنكروا ذلك، وأظهرهما عندي: أنه لم يقتلهم، وأن الله عصمهم منه لأجل إيمانهم الراسخ بالله تعالى؛ لأن الله يقول لموسى وهرون: ﴿أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥]، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٧٢).

قوله: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ﴾؛ أي لن نختار اتباعك وكوننا من حزبك، وسلامتنا من عذابك على ما جاءنا من البينات؛ كمعجزة العصا التي أتنا وتيقنا صحتها. والواو في قوله: ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ عاطفة على «ما» من قوله: ﴿عَلَىٰ مَا جَاءَنَا﴾؛ أي لن نختارك ﴿عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ﴾ ولا على ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾؛ أي خلقنا وأبرزنا من العدم إلى الوجود. وقيل: هي واو القسم والمقسم عليه محذوف دل عليه ما قبله؛ أي ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ لا نؤثرك ﴿عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ﴾، ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾؛ أي اصنع ما أنت صانع. فلسنا راجعين عما نحن عليه ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؛ أي إنما ينفذ أمرك فيها. «هذه» منصوب على الظرف على الأصح. أي وليس فيها شيء يهم لسرعة زوالها وانقضائها.

وما ذكره - جلّ وعلا - عنهم في هذا الموضع من ثباتهم على الإيمان، وعدم مبالاتهم بتهديد فرعون ووعيده فيما غند الله، قد ذكره في غير هذا الموضع كقوله في «الشعراء» عنهم في القصة بعينها: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُقْلِبُونَ﴾ [الشعراء]. وقوله في «الأعراف»: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُقْلِبُونَ﴾ ﴿وَمَا نُنْقِمْ مِنَّا إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِإِثْبَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف]. وقوله: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾؛ عائد الصلة محذوف، أي ما أنت قاضيه لأنه مخفوض بالوصف، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

كذلك حذف ما بوصف خفضاً كأنت قاض بعد أمر من قضى

ونظيره من كلام العرب قول سعد بن ناشب المازني:

ويصغر في عيني تلادي إذا انثنت يميني بإدراك الذي كنت طالباً

أي طالبه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّعْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (٧٣). ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن فرعون لعنه الله لما قال للسحرة ما قال لما آمنوا، قالوا له: ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا﴾؛ يعنون ذنوبهم

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ظاهره المتبادر منه أن المعنى خير من فرعون وأبقى منه؛ لأنه باق لا يزول ملكه، ولا يذل ولا يموت، ولا يعزل. كما أوضحنا هذا المعنى في سورة «النحل» في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الَّذِينَ وَاصِبًا﴾... الآية [النحل: ٥٢]. أي بخلاف فرعون وغيره من ملوك الدنيا فإنه لا يبقى، بل يموت أو يعزل، أو يذل بعد العز. وأكثر المفسرين على أن المعنى: أن ثوابه خير مما وعدهم فرعون في قوله: ﴿إِنِّي لَأَنْجِيَنَّ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [٥١] قَالَ نَعَمْ وَإِنَّمَا إِذَا لَمِنَ الْمُفْرِيقِينَ [٥٢]. وأبقى: أي أدام؛ لأن ما وعدهم به فرعون زائل، وثواب الله باق؛ كما قال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [١١] وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى [١٢] [الأعلى]. وقال بعض العلماء: ﴿وَأَبْقَى﴾؛ أي أبقى عذاباً من عذابك، وأدام منه. وعليه فهو رد لقول فرعون ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ ومعنى: ﴿وَأَبْقَى﴾ أكثر بقاء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [٧٤]. ذكر الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّهُ﴾؛ أي الأمر والشأن ﴿مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ﴾ يوم القيامة في حال كونه ﴿مُجْرِمًا﴾؛ أي مرتكباً الجريمة في الدنيا حتى مات على ذلك كالكافر عبداً بالله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُ﴾ عند الله ﴿جَهَنَّمَ﴾ يعذب فيها ﴿لَا يَمُوتُ﴾ فيستريح ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ حياة فيها راحة.

وهذا الذي ذكره هنا أوضحه في غير هذا الموضع كقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ [٣٦] [فاطر]، وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [١٥] مِنْ رَبِّهِمْ جَهَنَّمَ وَنَسَفَتْ مِنْ مَاءٍ صَٰدِرٍ [١٦] يَتَجَرَّعُهُمْ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُمْ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ رَبِّهِمْ عَذَابٌ غَلِيظٌ [١٧] [إبراهيم]، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَفِخَتْ فِي جُودِهِمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَاهَا لِأَشَقَى﴾ [١١] الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكُبْرَى [١٢] ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى [١٣] [الأعلى]، وقوله تعالى: ﴿وَنَادَا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوتٌ﴾ [١٧] [الزخرف] إلى غير ذلك من الآيات، ونظير ذلك من كلام العرب قول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد فقهاء المدينة السبعة:

ألا من لنفس لا تموت فينقضني شقاها ولا تحيا حياة لها طعم

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِيهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّٰلِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْأَعْلَىٰ﴾ [٧٥].

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة «أن» ﴿وَمَنْ يَأْتِيهِ﴾ يوم القيامة في حال كونه ﴿مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّٰلِحَاتِ﴾؛ أي في الدنيا حتى مات على ذلك ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ﴾ عند الله ﴿الدَّرَجَاتُ الْأَعْلَىٰ﴾ والعلی: جمع عليا وهي تأنث الأعلى. وقد أشار إلى هذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]، وقوله: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢] ونحو ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ۖ﴾، ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أوحى إلى نبيه موسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - أن يسري بعباده، وهم بنو إسرائيل فيخرجهم من قبضة فرعون ليلاً، وأن يضرب لهم طريقاً في البحر ييساً، أي يابساً لا ماء فيه. ولا بلل، وأنه لا يخاف دركاً من فرعون وراءه أن يناله بسوء. ولا يخشى من البحر أمامه أن يغرق قومه. وقد أوضح هذه القصة في غير هذا الموضع كقوله في سورة «الشعراء»: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ۖ فَارْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَلَأَيْنِ حَاشِرَيْنِ ۖ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۖ وَأَنْتُمْ لَنَا لَغَاطُونَ ۖ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِقُونَ ۖ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَكُنُوزٍ وَمَقَامِرٍ كَرِيمٍ ۖ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ۖ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ۖ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۖ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۖ﴾ [الشعراء]. فقوله في «الشعراء»: ﴿أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣]، أي فضربه فانفلق - يوضح معنى قوله: ﴿فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾، وقوله: ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ۖ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۖ﴾... الآية [الشعراء]، يوضح معنى قوله: ﴿لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾؛ وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله في «الدخان»: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ تُجْرِمُونَ ۖ فَاسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ۖ وَاتْرِكُوا الْبَحْرَ رَهَوًّا إِنَّهُمْ مَحْزُورُونَ ۖ﴾ [الدخان]، إلى غير ذلك من الآيات. وقد قدمنا طرفاً من ذلك في سورة «البقرة» والقصة معروفة واضحة من القرآن العظيم.

وقرأ نافع وابن كثير ﴿أَنْ أَسْرِ﴾ بهمزة وصل وكسر نون «أن» لالتقاء الساكنين، والباقون قرؤوا ﴿أَنْ أَسْرِ﴾ بهمزة قطع مفتوحة مع إسكان نون «أن». وقد قدمنا في سورة «هود» أن أسرى وسرى لغتان وبيننا شواهد ذلك العربية، وقرأ حمزة (لا تخف) بسكون الفاء بدون ألف بين الخاء والفاء، وهو مجزوم لأنه جزاء الطلب، أي فاضرب لهم طريقاً في البحر ييساً لا تخف. وقد قدمنا أن نحو ذلك من الجزم بشرط محذوف تدل عليه صيغة الطلب، أي أن تضرب لهم طريقاً في البحر ييساً لا تخف. وعلى قراءة الجمهور ﴿لَا تَخَفْ﴾ بالرفع، فلا إشكال في قوله: ﴿وَلَا تَخْشَى﴾ لأنه فعل مضارع مرفوع بضمّة مقدرة على الألف، معطوف على فعل مضارع مرفوع هو قوله: ﴿لَا تَخَفْ﴾. وأما على قراءة حمزة ﴿لَا تَخَفْ﴾ بالجزم ففي قوله: ﴿وَلَا تَخْشَى﴾ إشكال معروف، وهو أنه معطوف على مضارع مجزوم، وذلك يقتضي جزمه، ولو جزم لحذفت الألف من ﴿تَخْشَى﴾ على حد قوله في الخلاصة:

واحدف جازماً ثلاثهن تقض حكماً لازماً

والألف لم تحذف فوق الإشكال بسبب ذلك.

وأجيب عنه من ثلاثة أوجه:

الأول: أن ﴿وَلَا تَحْقُقْ﴾ مستأنف خبر مبتدأ محذوف، تقديره: وأنت لا تخشى، أي ومن شأنك أنك آمن لا تخشى.

والثاني: أن الفعل مجزوم، والألف ليست هي الألف التي في موضع لام الكلمة، ولكنها زيدت للإطلاق من أجل الفاصلة، كقوله: ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وقوله: ﴿وَتَطْلُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠].

والثالث: أن إشباع الحركة بحرف مد يناسبها، أسلوب معروف من أساليب اللغة العربية، كقول عبد يغوث بن وقاص الحارثي:

وتضحك مني شيخه عبشمية كأن لم ترا قبلي أسيراً يمانيا
وقول الراجز:

إذا العجوز غضبت فطلق ولا ترضاها ولا تملق
وقول الآخر:

قلت وقد خرت على الكلكال يا ناقتي ما جلت من مجال
وقول عنترة في معلقته:

ينباع من ذفري غضوب جسرة زينة مثل الفنيق المكدم

فالأصل في البيت الأول: كأن لم تر، ولكن الفتحة أشبعت. والأصل في الثاني: ولا ترضاها، ولكن الفتحة أشبعت. والأصل في الثالث: على الكلكال يعني الصدر، ولكن الفتحة أشبعت. والأصل في الرابع: ينبع يعني أن العرق ينبع من عظم الذفري من ناقتة على التحقيق، ولكن الفتحة أشبعت، وإشباع الفتحة بألف في هذه الأبيات وأمثالها مما لم نذكره ليس لضرورة الشعر لتصريح علماء العربية بأنه أسلوب عربي معروف. ويؤيد ذلك أنه مسموع في النثر، كقولهم في النثر: كلكال، وخاتام، وداناق، يعنون كلكلا، وخاتماً، ودانقاً. وقد أوضحنا هذه المسألة، وأكثرنا من شواهدا العربية في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة «البلد» في الكلام على قوله: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝﴾ [البلد]، مع قوله: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝﴾ [التين]. وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية: ﴿فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا﴾ فاجعل لهم طريقاً، من قولهم: ضرب له في ماله سهماً، وضرب اللبن عمله، اهـ. والتحقيق أن ﴿يَبَسًا﴾ صفة مشبهة جاءت على فعل بفتحتين كبطل وحسن. وقال الزمخشري: ليس مصدر وصف به؛ يقال: ليس يبساً ويبساً، ونحوهما العدم والعدم، ومن ثم وصف به المؤنث، فقليل: شاتنا ليس، وناقتنا ليس، إذا جف لبنها.

وقوله: ﴿لَا تَحْقُقْ دَرَكًا﴾ الدرك: اسم مصدر بمعنى الإدراك، أي لا يدركك

فرعون وجنوده، ولا يلحقونك من ورائك، ولا تخشى من البحر أمامك. وعلى قراءة الجمهور ﴿لَا تَخَفْ﴾ فالجملة حال من الضمير في قوله: ﴿فَأَضْرِبْ﴾ [ص: ٤٤]؛ أي فاضرب لهم طريقاً في حال كونك غير خائف دركاً ولا خاش. وقد تقرر في علم النحو أن الفعل المضارع المنفي بلا إذا كانت جملته حالية وجب الربط فيها بالضمير وامتنع بالواو؛ كقوله هنا: ﴿فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا﴾ أي في حال كونك لا تخاف دركاً، وقوله: ﴿مَالِكٌ لَا أَرَى الْهَيْدَهُ﴾ [النمل: ٢٠] وقوله: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ [المائدة: ٨٤]، ونظير ذلك من كلام العرب قول الشاعر:

ولو أن قوماً لارتفاع قبيله دخلوا السماء دخلتها لا أحجب

يعني دخلتها في حال كوني غير محجوب، وبذلك تعلم أن قوله في الخلاصة:

وذا بدء بمضارع ثبت حوت ضميراً ومن الواو خلت

في مفهومه تفصيل كما هو معلوم في علم النحو.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ (٧٨). التحقيق أن أتبع واتبع بمعنى واحد؛ فقوله: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ﴾ أي اتبعهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصفات: ١٠]، وقوله: ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ الآية [الأعراف: ٧]. والمعنى: أن موسى لما أسرى بني إسرائيل ليلاً أتبعهم فرعون وجنوده ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ﴾ أي البحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي أغرق الله فرعون وجنوده في البحر فهلكوا عن آخرهم. وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن فرعون أتبع بني إسرائيل هو وجنوده، وأن الله أغرقهم في البحر - أوضحه في غير هذا الموضع. وقد بين تعالى أنهم اتبعوهم في أول النهار عند إشراق الشمس، فمن الآيات الدالة على اتباعه لهم قوله تعالى في «الشعراء»: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكَ مُتَّبَعُونَ﴾ (٥١) [الشعراء]، يعني سيتبعكم فرعون وجنوده. ثم بين كيفية اتباعه لهم فقال: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَلَأَيْنِ خَبِيرَيْنِ﴾ (٥٢) ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ (٥٣) ﴿وَأِنَّهُمْ لَفَآئِطُونَ﴾ (٥٤) ﴿وَأِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ (٥٥) ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٥٦) ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامِرَ كَرِيمٍ﴾ (٥٨) ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٥٩) ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ (٦٠) ﴿فَلَمَّا تَرَاكَ الْجَمْعَانَ قَالَ أَصَحَبْتُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾ (٦١) ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (٦٢) [الشعراء].

وقوله في هذه الآية: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ (٦٠) [الشعراء: ٦٠]، أي أول النهار عند إشراق الشمس، ومن الآيات الدالة على ذلك أيضاً قوله تعالى في «يونس»: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾ [يونس: ٩٠]، وقوله في «الدخان»: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ (٢٣) [الدخان]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على إتياعه لهم.

وأما غرقه هو وجميع قومه المشار إليه بقوله هنا: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾؛ فقد أوضحه تعالى في مواضع متعددة من كتابه العزيز كقوله في «الشعراء»: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (٦٣) ﴿وَأَرْزَقْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾

﴿٧٩﴾ وَأَخَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٨٠﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨١﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٢﴾ ... الآية [الشعراء]، وقوله في «الأعراف»: ﴿فَأَنقَضْنَا مِنْهُمْ فَاغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ ... الآية [الأعراف: ١٣٦]، وقوله في «الزخرف»: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف]، وقوله في «البقرة»: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَمَجْنَكُمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَشَدَّ نَظَرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة]، وقوله في «يونس»: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَاكُهُ الْعُرْقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، وقوله في «الدخان»: ﴿وَاتْرِكْ الْبَحرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الدخان]، إلى غير ذلك من الآيات. والتعبير بالاسم المبهم الذي هو الموصول في قوله: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾، يدل على تعظيم الأمر وتفضيم شأنه، ونظيره في القرآن قوله: ﴿إِذْ يَغْشَى السَّيْدَةَ مَا يَغْشَى ﴿١١﴾﴾ [النجم]، وقوله: ﴿وَالْمُؤْنِفِكَةُ أَهْرَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ فَغَشَاهَا مَا غَشَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [النجم]، وقوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم]. واليم: البحر، والمعنى: فأصابهم من البحر ما أصابهم وهو الغرق والهلاك المستأصل.

قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾.

يعني أن فرعون أضل قومه عن طريق الحق وما هداهم إليها، وهذه الآية الكريمة بين الله فيها كذب فرعون في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، ومن الآيات الموضحة لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبينٍ ﴿٩١﴾ إِلَيْنَا فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٢﴾﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَشْسُ الْوَرْدُ الْمَرْزُودُ ﴿٩٣﴾﴾ [هود]. والنكته البلاغية في حذف المفعول في قوله: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ ولم يقل وما هداهم، هي مراعاة فواصل الآيات، ونظيره في القرآن قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٢﴾﴾ [الضحى].

قوله تعالى: ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾. وذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة امتنانه على بني إسرائيل بإنجائه إياهم من عدوهم فرعون، وأنه واعدهم جانب الطور الأيمن، وأنه نزل عليهم المن والسلوى، وقال لهم: كلوا من طيبات ما رزقناكم؛ ولا تطغوا فيغضب عليكم ربكم. وما ذكره هنا أوضحه في غير هذا الموضع؛ كقوله في امتنانه عليهم بإنجائهم من عدوهم فرعون في «سورة البقرة»: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنَ يَدِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكَ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكَ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَظِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة]، وقوله في «الأعراف»: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكَ مِنَ يَدِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يَقُولُونَ أَبْنَاءُكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَظِيمٌ ﴿١١١﴾﴾ [الأعراف]، وقوله في «الدخان»: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٢٠﴾﴾ مِّن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِّنَ الْمُرْسِفِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الدخان]، وقوله في سورة «إبراهيم»: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَيْنَاكُمْ مِّن يَدِ فِرْعَوْنَ

يَسْأَلُونَكَ سَاءَ الْعَذَابِ وَيَدْعُوكَ ابْنَاءَكَ وَسَتَعْبُونَ إِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦١﴾ [إبراهيم]، وقوله في «الشعراء»: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﴿٥٩﴾ [الشعراء]، وقوله في «الدخان»: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ [الدخان]، وقوله في «الأعراف»: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقوله في «القصص»: ﴿وَرِيدٌ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ إلى قوله: ﴿يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله هنا: ﴿وَوَاعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾؛ الأظهر أن ذلك الوعد هو المذكور في قوله: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ ... الآية [الأعراف: ١٤٢]، وقوله: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ ... الآية [البقرة: ٥١]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾ وهو الوعد بإنزال التوراة، وقيل فيه غير ذلك.

وقوله هنا: ﴿وَوَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَى وَالسَّلْوَى﴾؛ قد أوضح امتثانه عليهم بذلك في غير هذا الموضع كقوله في «البقرة»: ﴿وَوَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾ [البقرة: ٥٧]، وقوله في «الأعراف»: ﴿وَوَزَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾ [الأعراف: ١٦٠]، وأكثر العلماء على أن المن: الترنجيبين، وهو شيء ينزل من السماء كنزول الندى ثم يتجمد، وهو يشبه العسل الأبيض. والسلوى: طائر يشبه السمانى. وقيل هو السمانى. وهذا قول الجمهور في المن والسلوى. وقيل: السلوى العسل. وأنكر بعضهم إطلاق السلوى على العسل. والتحقيق أن «السلوى» يطلق على العسل لغة؛ ومنه قول خالد بن زهير الهذلي:

وقاسمها بالله جهداً لأنتم؛ ألد من السلوى إذا ما نشورها
يعني ألد من العسل إذا ما نستخرجها؛ لأن النشور استخراج العسل. قال مؤرج بن عمر السدوسي: إطلاق السلوى على العسل لغة كنانة؛ سمي به لأنه يسلي؛ قاله القرطبي. إلا أن أكثر العلماء على أن ذلك ليس هو المراد في الآية. واختلفوا في السلوى؛ هل هو جمع أو مفرد؟ فقال بعضهم: هو جمع، واحده سلواة، وأنشد الخليل لذلك قول الشاعر:

وإني لتعروني لذكراك هزة كما انتفض السلواة من بلل القطر
ويروى هذا البيت:

كما انتفض العصفور بلله القطر

وعليه فلا شاهد في البيت. وقال الكسائي: السلوى مفرد وجمعه سلاوى. وقال الأخفش: هو جمع لا واحد له من لفظه؛ مثل الخير والشر، وهو يشبه أن يكون واحده سلوى مثل جماعته؛ كما قالوا: دفلى وسماني وشكاعي في الواحد والجمع. والدفلى كذكرى: شجر أخضر مر حسن المنظر، يكون في الأودية. والشكاعى كحبارى وقد تفتح: نوع من دقيق النبات صغير أخضر، دقيق العيدان يتداوى به. والسماني: طائر معروف.

قال مقيده - عفا الله عنه -: والأظهر عندي في المن: أنه اسم جامع لما يمن الله به على عبده من غير كد ولا تعب، فيدخل فيه الترجييب الذي من الله به على بني إسرائيل في البتية، ويشمل غير ذلك مما يماثله. ويدل على هذا قوله ﷺ الثابت في الصحيحين: «الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين»..

والأظهر عندي في السلوى: أنه طائر، سواء قلنا إنه السمانى، أو طائر يشبهه، لإطباق جمهور العلماء من السلف والخلف على ذلك. مع أن السلوى، يطلق لغة على العسل، كما بينا.

وقوله في آية «طه» هذه: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، أي من المن والسلوى، والأمر فيه للإباحة والامتنان.

وقد ذكر ذلك أيضاً في غير هذا الموضع كقوله في «البقرة»: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلًّا مِّن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، وقوله في «الأعراف»: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ عَلَىٰ آلِهِمُ الْغَنَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلًّا مِّن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، وقوله: ﴿كُلُوا﴾ في هذه الآيات مقول قول محذوف، أي وقلنا لهم كلوا، والضمير المحرور في قوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ راجع إلى الموصول الذي هو «ما» أي كلوا من طيبات الذي رزقناكم ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ أي فيما رزقناكم، ونهاهم عن الطغيان فيما رزقهم، وهو أن يتعدوا حدود الله فيه بأن يكفروا نعمته به، ويشغلهم الله والنعيم عن القيام بشكر نعمه، وأن ينفقوا رزقه الذي أنعم عليهم به في المعاصي، أو يستعينوا به على المعصية، أو يمنعوا الحقوق الواجبة عليهم فيه، ونحو ذلك.

وبين أن ذلك يسبب لهم أن يحل عليهم غضبه - جلّ وعلا -؛ لأن الفاء في قوله: ﴿فَيَحْلِلْ﴾ سببية، والفعل منصوب بأن مضمرة بعدها؛ لأنه بعد النهي وهو طلب محض، كما أشار إلى ذلك في الخلاصة بقوله:

وبعد فإ جواب نفي أو طلب محضين أن وسترها حتم نصب

وقرأ هذا الحرف الكسائي «فيحل» بضم الحاء (ومن يحلل) بضم اللام، والباقون قرؤوا «يحل» بكسر الحاء و«يحلل» بكسر اللام. وعلى قراءة الكسائي «فيحل» بالضم أي ينزل بكم غضبي. وعلى قراءة الجمهور فهو من حل يحل بالكسر: إذا وجب، ومنه حل دينه إذا وجب أدائه. ومنه ﴿ثُمَّ مَحَلَّهَا إِلَىٰ آلِيبَتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣]. وقوله: ﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾ أي هلك وصار إلى الهاوية، وأصله أن يسقط من جبل أو نحوه فيهوي إلى الأرض فيهلك، ومنه قول الشاعر:

هوى من رأس مرقبة ففتت تحتها كبده

ويقولون: هوت أمه، أي سقط سقوطاً لا نهوض بعده. ومنه قول كعب بن سعد

الغنوي:

هوت أمه ما يبعث الصبح غادياً وماذا يرد الليل حين يثوب

ونحو هذا هو أحد التفسيرات في قوله تعالى: ﴿قَامُمْ هَآؤِيَّةً﴾ [القارعة]، وعن شفي بن ماته الأصبحي قال: إن في جهنم جبلاً يدعى صعوداً يطلع فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يرقاه؛ قال الله تعالى: ﴿سَازِهَقُمْ صَعُوًا﴾ [المدثر]، وإن في جهنم قصراً يقال له هوى، يرمى الكافر من أعلاه فيهوي أربعين خريفاً قبل أن يبلغ أصله، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَحِلِّدْ عَلَيْهِ عَصَبِي فَقَدْ هَوَى﴾؛ قاله القرطبي وابن كثير، والله تعالى أعلم.

واعلم أن الغضب صفة وصف الله بها نفسه إذا انتهكت حرماته، تظهر آثارها في المغضوب عليهم. نعوذ بالله من غضبه - جل وعلا - ونحن معاشر المسلمين نمرها كما جاءت فنصدق ربنا في كل ما وصف به نفسه، ولا نكذب بشيء من ذلك. مع تنزيها التام له - جلّ وعلا - عن مشابهة المخلوقين ﷺ عن ذلك علواً كبيراً. كما أوضحنا ذلك غاية الإيضاح في سورة «الأعراف» وقرأ حمزة والكسائي في هذه الآية «قد أنجيتكم من عدوكم وواعدتكم» بناء المتكلم فيهما. وقرأه الباقون «وواعدناكم وأنجيناكم» بالنون الدالة على العظمة، فصيغة الجمع في قراءة الجمهور للتعظيم. وقرأ أبو عمرو «ووعدناكم» بلا ألف بعد الواو الثانية بصيغة الفعل المجرد، من الوعد لا من المواعدة مع نون التعظيم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [٨٢]. ذكر الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه غفار؛ أي كثير المغفرة لمن تاب إليه من معاصيه وكفره، وآمن به وعمل صالحاً ثم اهتدى. وقد أوضح هذا المعنى في مواضع متعددة من كتابه، كقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]. وقوله في الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٨٤] وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اتَّخَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [٨٥] وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُمْ [الزمر]، إلى غير ذلك من الآيات، وقد قدمنا معنى التوبة والعمل الصالح.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ أي استقام وثبت على ما ذكر من التوبة والإيمان والعمل الصالح ولم ينكث. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا﴾ [فصلت: ٣٠]، وفي الحديث: «قل آمنت بالله ثم استقم». وقال تعالى: ﴿فَاسْتَقِيمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ الآية [هود: ١١٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَغْلَجْنَاكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ﴾ [٨٦] قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ [٨٧]. أشار - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة إلى قصة مواعده موسى أربعين ليلة وذهابه إلى الميقات، واستعجاله إليه قبل قومه. وذلك أنه لما واعده ربه وجعل له الميقات المذكور، وأوصى أخاه هارون أن يخلفه في قومه، استعجل إلى

الميقات فقال له ربه: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْلِكَ﴾ الآية.. وهذه القصة التي أجملها هنا أشار لها في غير هذا الموضع كقوله في «الأعراف»: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَزْبَعْتِ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٢ - ١٤٣].

وفي هذه الآية سؤال معروف: وهو أن جواب موسى ليس مطابقاً للسؤال الذي سأله ربه؛ لأن للسؤال عن السبب الذي أعجله عن قومه، والجواب لم يأت مطابقاً لذلك؛ لأنه أجاب بقوله: ﴿هُمُ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ﴾.

وأجيب عن ذلك بأجوبة: منها أن قوله: ﴿هُمُ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي﴾ يعني هم قريب وما تقدمتهم إلا بيسير يغتفر مثله، فكأنني لم أتقدمهم ولم أعجل عنهم لقرب ما بيني وبينهم. ومنها أن الله - جلّ وعلا - لما خاطبه بقوله: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْلِكَ﴾؛ داخله من الهيبة والإجلال والتعظيم لله - جلّ وعلا - ما أذهله عن الجواب المطابق. والله أعلم. وقوله: ﴿هُمُ أَوْلَاءُ﴾ المد فيه لغة الحجازيين. وزججها ابن مالك في الخلاصة بقوله: والمد أولى...

ولغة التميميين «أولا» بالقصر، ويجوز دخول اللام على لغة التميميين في البعد، ومنه قول الشاعر:

أولا لك قومي لم يكونوا أشابة وهل يعظ الضليل إلا أولالكوا

وأما على لغة الحجازيين بالمد فلا يجوز دخول اللام عليها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ ﴿٨٥﴾، الظاهر أن الفتنة المذكورة هي عبادتهم العجل؛ فهي فتنة إضلال كقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. وهذه الفتنة بعبادة العجل جاءت مبيّنة في آيات متعددة كقوله: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١]، ونحو ذلك من الآيات.

قوله هنا: ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ أوضح كيفية إضلاله لهم في غير هذا الموضع كقوله: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَيفَتِهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُمُ خُورٌ﴾ إلى قوله: ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، أي اتخذوه إلهاً وقد صنعه السامري لهم من حلي القبط فأضلهم بعبادته.

وقوله هنا: ﴿كَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ ﴿٨٦﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُمُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسَوْا ﴿٨٧﴾؛ والسامري: قيل اسمه هارون، وقيل اسمه موسى بن ظفر. وعن ابن عباس: أنه من قوم كانوا يعبدون البقر. وقيل: كان رجلاً من القبط؛ وكان جاراً لموسى آمن به وخرج معه. وقيل: كان عظيماً من عظماء بني إسرائيل من قبيلة تعرف بالسامرة وهم معروفون بالشام. قال سعيد بن جبير: كان من أهل كرمان.

والفتنة أصلها في اللغة: وضع الذهب في النار ليتبين أهو خالص أم زائف. وقد أطلقت في القرآن إطلاقاً متعددة. منها: الوضع في النار كقوله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقَنَّنُونَ﴾ [الذاريات]، أي يحرقون بها، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآية [البروج: ١٠]؛ أي أحرقوهم بنار الأخدود. ومنها: الاختبار وهو الأغلب في استعمال الفتنة؛ كقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ الآية [التغابن: ١٥]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَفْتَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا﴾ [الجن: ١٦ - ١٧]، ومنها: نتيجة الاختبار إذا كانت سيئة. ومن هنا أطلقت الفتنة على الشرك، كقوله: ﴿وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقوله هنا: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾... الآية، ومنها: الحجة، كقوله: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام] أي لم تكن حجتهم.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ أسند إضلالهم إليه؛ لأنه هو الذي تسبب فيه بصياغته لهم العجل من حلي القبط ورميه عليه التراب الذي مسه حافر الفرس التي جاء عليها جبريل، فجعله الله بسبب ذلك عَجَلًا جسداً له خوار، كما قال تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ [٨٧] فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَداً لَمْ يَخُورْ، وقال في «الأعراف»: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عَجَلًا جَسَداً لَمْ يَخُورْ﴾... الآية [الأعراف: ١٤٨]. والخوار: صوت البقر. قال بعض العلماء: جعل الله بقدرته ذلك الحلي المصوغ جسداً من لحم ودم، وهذا هو ظاهر قوله: ﴿عَجَلًا جَسَداً﴾ [الأعراف: ١٤٨]. وقال بعض العلماء: لم تكن تلك الصورة لحماً ولا دماً، ولكن إذا دخلت فيها الريح صوتت كخوار العجل، والأول أقرب لظاهر الآية، والله تعالى قادر على أن يجعل الجماد لحماً ودماً، كما جعل آدم لحماً ودماً وكان طيناً.

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَيْنَ أَسْفًا﴾، ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن موسى رجع إلى قومه بعد مجيئه للميقات في حال كونه في ذلك الرجوع غضبان أسفاً على قومه من أجل عبادتهم العجل.

وقوله: ﴿أَسْفًا﴾ أي شديد الغضب، فالأسف هنا: شدة الغضب، وعلى هذا فقوله: ﴿غَضَبَيْنَ أَسْفًا﴾ أي غضبان شديد الغضب، ومن إطلاق الأسف على الغضب في القرآن قوله تعالى في «الزخرف»: ﴿قَلَمًا أَهْأَسْفُونَا أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥] أي فلما أغضبونا بتماديهم في الكفر مع توالي الآيات عليهم انتقمنا منهم. وقال بعض العلماء: الأسف هنا الحزن والجزع؛ أي رجع موسى في حال كونه غضبان حزيناً جزعاً لكفر قومه بعبادتهم للعجل. وقيل: أسفاً أي مغتاضاً: وقابل هذا يقول: الفرق بين الغضب والغيط: أن الله وصف نفسه بالغضب، ولم يجز وصفه بالغيط؛ حكاة الفخر الرازي. ولا يخفى عدم اتجاهه في تفسير هذه الآية؛ لأنه راجع إلى القول الأول، ولا حاجة في ذلك إلى التفصيل المذكور.

وقوله: ﴿عَصَيْنَ أَسِفًا﴾ حالان. وقد قدمنا فيما مضى أن التحقيق جواز تعدد الحال من صاحب واحد مع كون العامل واحداً؛ كما أشار له في الخلاصة بقوله:
والحال قد يجيء ذا تعدد لمفرد فاعلم وغير مفرد

وما ذكره - جل وعلا - في آية «طه» هذه من كون موسى رجع إلى قومه ﴿عَصَيْنَ أَسِفًا﴾ ذكره في غير هذا الموضع، وذكر أشياء من آثار غضبه المذكور، كقوله في «الأعراف»: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبًا أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾... الآية [الأعراف: ١٥٠]. وقد بين تعالى أن من آثار غضب موسى إلقاء الألواح التي فيها التوراة، وأخذه برأس أخيه يجره إليه، كما قال في «الأعراف»: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَآخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، وقال في «طه» مشيراً لأخذه برأس أخيه: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾. وهذه الآيات فيها الدلالة على أن الخبر ليس كالبيان؛ لأن الله لما أخبر موسى بكفر قومه بعبادتهم العجل كما بينه في قوله: ﴿قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾، وهذا خبر من الله يقين لا شك فيه لم يلق الألواح، ولكنه لما عاين قومه حول العجل يعبدونه أثرت فيه معاينة ذلك أثراً لم يؤثره فيه الخبر اليقين بذلك، فألقى الألواح حتى تكسرت، وأخذ برأس أخيه يجره إليه لما أصابه من شدة الغضب من انتهاك حرمة الله تعالى.

وقال ابن كثير في تفسيره في سورة «الأعراف»: وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله موسى ليس المعادين كالمخبر، أخبره ربه ﷻ أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعابنهم ألقى الألواح». قوله تعالى: ﴿قَالَ يَقْوَرُ آلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَبًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَقْتُمْ مَّوْعِدِي﴾ ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَقْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن موسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - لما رجع إلى قومه، ووجدهم قد عبدوا العجل من بعده قال لهم: ﴿يَقْوَرُ آلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَبًا﴾.

وأظهر الأقوال عندي في المراد بهذا الوعد الحسن؛ أنه وعدهم أن ينزل على نبينهم كتاباً فيه كل ما يحتاجون إليه من خير الدنيا والآخرة. وهذا الوعد الحسن المذكور هنا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَوَعَدْنَاهُ الْطُورَ الْآيَمَنَ﴾ الآية، وفيه أقوال غير ذلك.

وقوله: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ﴾؛ الاستفهام فيه للإنكار، يعني لم يطل العهد؛ كما يقال في المثل: (وما بالعهد من قدم)؛ لأن طول العهد مظنة النسيان، والعهد قريب لم يطل فكيف نسيتم؟

وقوله: ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ قال بعض العلماء: «أم» هنا هي المنقطعة، والمعنى بل أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم، ومعنى إرادتهم حلول الغضب، أنهم فعلوا ما يستوجب غضب ربهم بإرادتهم؛ فكأنهم أرادوا الغضب لما أرادوا سببه، وهو الكفر بعبادة العجل.

وقوله: ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾؛ كانوا وعدوه أن يتبعوه لما تقدمهم إلى الميقات، وأن يثبتوا على طاعة الله تعالى؛ فعبدوا العجل وعكفوا عليه ولم يتبعوا موسى؛ فأخلفوا موعده بالكفر وعدم الذهاب في أثره ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا﴾؛ قرأه نافع وعاصم ﴿بِمَلِكِنَا﴾ بفتح الميم. وقرأه حمزة والكسائي «بملكنا» بضم الميم، وقرأه ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو «بملكنا» بكسر الميم. والمعنى على جميع القراءات: ما أخلفنا موعدك بأن ملكنا أمرنا، فلو ملكنا أمرنا ما أخلفنا موعدك. وهو اعتذار منهم بأنهم ما أخلفوا الموعد باختيارهم، ولكنهم مغلوبون على أمرهم من جهة السامري وكيده. وهو اعتذار بارد ساقط كما ترى!! ولقد صدق من قال:

إذا كان وجه العذر ليس ببين فإن اطراح العذر خير من العذر

وأما على قول من قال: إن الذين قالوا لموسى: ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا﴾؛ هم الذين لم يعبدوا العجل؛ لأنهم وعدوه أن يتبعوه، ولما وقع ما وقع من عبادة أكثرهم للعجل تأخروا عن اتباع موسى بسبب ذلك، ولم يتجرؤوا على مفارقتهم خوفاً من الفرقة - فالعذر له وجه في الجملة، كما يشير إليه قوله تعالى في القصة في هذه السورة الكريمة: ﴿قَالَ يَهْرُؤُنِ مَا مَعَكَ إِذْ رَأَيْنَهُمْ ضَلُّوا ۖ أَلا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿١٢﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِحَقِّي وَلَا بِرَأْيِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿١٣﴾﴾، والمصدر في قوله: ﴿بِمَلِكِنَا﴾ مضاف إلى فاعله ومفعوله محذوف، أي بملكنا أمرنا. وقال القرطبي: كأنه قال بملكنا الصواب بل أخطأنا؛ فهو اعتراف منهم بالخطأ. وقال الزمخشري: ﴿أَفْطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ الزمان، يريد مدة مفارقتهم لهم.

تنبيه: كل فعل مضارع في القرآن مجزوم بـ«لم» إذا تقدمتها همزة استفهام كقوله هنا: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسْتًا﴾؛ فيه وجهان معروفان عند العلماء:

الأول: أن مضارعة تنقلب ماضوية، ونفيه ينقلب إثباتاً فيصير قوله: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ﴾ بمعنى وعدكم، وقوله: ﴿أَلَمْ تَشْرَحْ﴾ [الشرح: ١]، بمعنى شرحنا، وقوله: ﴿أَلَمْ تَجْعَلْ لَّنَا عَيْنَيْنِ﴾ [البلد]، بمعنى جعلنا له عيين. وهكذا. ووجه انقلاب المضارعة ماضوية ظاهر؛ لأن «لم» حرف قلب تنقلب المضارع من معنى الاستقبال إلى معنى الماضي كما هو معروف. ووجه انقلاب النفي إثباتاً أن الهمزة إنكارية، فهي مضمنة معنى النفي، فيتسلط النفي الكامن فيها على النفي الصريح في «لم» فينفيه، ونفي النفي إثبات، فيؤول إلى معنى الإثبات.

الوجه الثاني: أن الاستفهام في ذلك للتقرير، وهو حمل المخاطب على أن يقر

فيقول «بلى» وعليه فالمراد من قوله: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾؛ حملهم على أن يقرؤا بذلك فيقولوا: بلى هكذا. ونظير هذا من كلام العرب قول جرير:

ألستم خير من ركب المطايا وأنسى العالمين بطون راح

فإذا عرفت أن قوله هنا: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسَفًا﴾ إلى قوله: ﴿يَمْلِكُنَا﴾ قد بين الله فيه أن موسى لما رجع إليهم في شدة غضب مما فعلوا وعتابهم قال لهم في ذلك العتاب: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْهَهُدُ... الآية، فاعلم أن بعض عتابه لهم لم يبينه هنا، وكذلك بعض فعله، ولكنه بينه في غير هذا الموضع؛ كقوله في «الأعراف» في القصة بعينها: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَيْسًا قَالَ يَئْسَ خَلْقُكُمْ مِنِّي بَعْدَ مَا بَعَدْتُ أَعْيَلْتُمُ امْرَأَتِي﴾ [الأعراف: ١٥٠]، وبين بعض ما فعل بقوله في «الأعراف»: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، وقد أشار إلى ذلك هنا في «طه» في قوله: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِرَأْسِي وَلَا بِرَأْسِي﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّا جَمَلْنَا أَوْزَارًا مِّنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُمْ خَوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ (٨٨).

قرأ هذا الحرف أبو عمرو وشعبة عن عاصم، وحزمة والكسائي (حملنا) بفتح الحاء والميم المخففة مبيناً للفاعل مجرداً. وقرأه نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم ﴿جَمَلْنَا﴾ بضم الحاء وكسر الميم المشددة مبيناً للمفعول. و«نا» على القراءة الأولى فاعل «حمل» وعلى الثانية نائب فاعل «حمل» بالتضعيف. والأوزار في قوله: ﴿أَوْزَارًا﴾ قال بعض العلماء: معناها الأثقال، وقال بعض العلماء: معناها الآثام. ووجه القول الأول أنها أحمال من حلي القبط الذي استعاروه منهم. ووجه الثاني أنها آثام وتبعات؛ لأنهم كانوا معهم في حكم المستأمنين في دار الحرب، وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربي؛ ولأن الغنائم لم تكن تحل لهم. والتعليل الأخير أقوى.

وقوله: ﴿مِّنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾؛ المراد بالزينة الحلي، كما يوضحه قوله تعالى: ﴿وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُمْ خَوَارٌ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، أما قوله: ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ أي ألقيناها وطرحناها في النار التي أوقدها السامري في الحفرة، وأمرنا أن نطرح الحلي فيها. وأظهر الأقوال عندي في ذلك: هو أنهم جعلوا جميع الحلي في النار ليزوب فيصير قطعة واحدة؛ لأن ذلك أسهل لحفظه حتى يرى نبي الله موسى فيه رأيه. والسامري يريد تدبير خطة لم يطلعوا عليها. وذلك أنه لما جاء جبريل ليذهب بموسى إلى الميقات وكان على فرس، أخذ السامري تراباً مسه حافر تلك الفرس، ويزعمون في القصة أنه عاين موضع أثرها ينبت فيه النبات، ففترس أن الله جعل فيها خاصية الحياة، فأخذ تلك القبضة من التراب واحتفظ بها، فلما أرادوا أن يطرحوا الحلي في النار ليجعلوه قطعة واحدة أو لغير ذلك من الأسباب وجعلوه فيها، ألقى

السامري عليه تلك القبضه من التراب المذكورة، وقال له: كن عجلاً جسداً له خوار؛ فجعله الله عجلاً جسداً له خوار؛ فقال لهم: هذا العجل هو إلهكم وإله موسى، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى عن موسى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِعُ﴾ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٥٦﴾﴾.

وقوله في هذه الآية: ﴿وَلَكِنَّا جُمَلْنَا أَوزَارًا مِّنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾؛ هو من بقية اعتذارهم الفاسد البارد، وهو يدل على أن ذلك الاعتذار من الذين عبدوا العجل لا من غيرهم، ولا يبعد معه احتمال أنه من غيرهم؛ لأنه ليس فيه ما يعين كون الاعتذار منهم تعيناً غير محتمل. ومعلوم أن هذا العذر عذر لا وجه له على كل حال.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَنَسِيَ﴾ أي نسي موسى إلهه هنا وذبح يطلبه في محل آخر؛ قاله ابن عباس في حديث الفتون. وهو قول مجاهد. وعن ابن عباس أيضاً من طريق عكرمة ﴿فَنَسِيَ﴾ أي نسي أن يذكرهم به. وعن ابن عباس أيضاً ﴿فَنَسِيَ﴾ أي السامري ما كان عليه من الإسلام، وصار كافراً بادعاء ألوهية العجل وعبادته.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ﴿٨٩﴾.

بين الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة سخافة عقول الذين عبدوا العجل، وكيف عبدوا ما لا يقدر على رد الجواب لمن سألته، ولا يملك نفعاً لمن عبده، ولا ضرراً لمن عصاه. وهذا يدل على أن المعبود لا يمكن أن يكون عاجزاً عن النفع والضرر ورد الجواب. وقد بين هذا المعنى في غير هذا الموضع؛ كقوله في «الأعراف» في القصة بعينها: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، ولا شك أن من اتخذ من لا يكلمه ولا يهديه سبيلاً إلهاً أنه من أظلم الظالمين. ونظير ذلك قوله تعالى عن إبراهيم: ﴿يَتَّبِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]، وقوله تعالى عنه أيضاً: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ أَوْ يَفْعَلُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ لَمْ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ شَيْئًا وَلَا لِيُحِثَّرَ لَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ ﴿٦﴾ [الأحقاف]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْعٍ﴾ ﴿٧٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ﴿٨٩﴾ [فاطر]. وقد قدمنا الكلام مستوفى في همزة الاستفهام التي بعدها أداة عطف كالفاء والواو، كقوله هنا: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وقرأ هذا الحرف جماهير القراء ﴿أَلَّا يَرْجِعُ﴾ بالرفع لأن «أن» مخففة من الثقيلة، والدليل على أنها مخففة من الثقيلة تصريحه تعالى بالثقلية في قوله في المسألة بعينها في

«الأعراف»: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ﴾... الآية [الأعراف: ١٤٨]، ورأى في آية «طه، والأعراف» علمية على التحقيق؛ لأنهم يعلمون علماً يقيناً أن ذلك العجل المصوغ من الحلي لا ينفع ولا يضر ولا يتكلم.

واعلم أن المقرر في علم النحو أن: «أن» لها ثلاث حالات:

الأولى: أن تكون مخففة من الثقيلة قولاً واحداً، ولا يحتمل أن تكون «أن» المصدرية الناصبة للفعل المضارع. وضابط هذه: أن تكون بعد فعل العلم وما جرى مجراه من الأفعال الدالة على اليقين كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجِيٌّ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقوله: ﴿لَيَعْلَمَنَّ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رَحْمَتَهُمْ﴾ الآية [الجن: ٢٨]، ونحو ذلك من الآيات، وقول الشاعر:

واعلم فعلم المرء ينفعه أن سوف يأتي كل ما قدرا
وقول الآخر:

في فتية كسيوف الهند قد علموا أن هالك كل من يخفى وينتعل
وإذا جاء بعد هذه المخففة من الثقيلة فعل مضارع فإنه يرفع ولا ينصب كقوله:

علموا أن يؤملون فجادوا قبل أن يسألوا بأعظم سؤال
و«أن» هذه المخففة من الثقيلة يكون اسمها مستكناً غالباً، والأغلب أن يكون ضمير الشأن. وقيل لا يكون إلا ضمير الشأن، وخبرها الجملة التي بعدها، كما أشار إلى ذلك في الخلاصة بقوله:

وإن تخفف «أن» فاسمها استكن والخبر اجعل جملة من بعد أن
وما سمع في شعر العرب من بروز اسمها في حال كونه غير ضمير الشأن فمن ضرورة الشعر؛ كقول جنود أخت عمرو ذي الكلب:

لقد علم الضيف والميرملون إذا اغبر أفق وهبت شمالا
بأنك ربيع وغيث مريع وأنتك هناك تكون الشمالا
وقول الآخر:

فلو أنك في يوم الرخاء سألتني طلاقك لم أبخل وأنت صديق

الحالة الثانية: أن تكون محتملة لكونها المصدرية الناصبة للمضارع، ومحتملة لأن تكون هي المخففة من الثقيلة، وإن جاء بعدها فعل مضارع جاز نصبه للاحتمال الأول، ورفع له للاحتمال الثاني، وعليه القراءتان السبعيتان في قوله: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ [المائدة: ٧١]، بنصب «تكون» ورفع، وضابط «أن» هذه أن تكون بعد فعل يقتضي الظن ونحوه من أفعال الرجحان. وإذا لم يفصل بينها وبين الفعل فاصل فالنصب أرجح، ولذا اتفق القراء على النصب في قوله تعالى: ﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا﴾

الآية [العنكبوت: ٢٢]. وقيل: إن «أن» الواقعة بعد الشك ليس فيها إلا النصب؛ نقله الصبان في حاشيته عن أبي حيان بواسطة نقل السيوطي.

الحالة الثالثة: أن تكون «أن» ليست بعد ما يقتضي اليقين ولا الظن ولم يجر مجراها، فهي المصدرية الناصبة للفعل المضارع قولاً واحداً. وإلى الحالات الثلاث المذكورة أشار بقوله في الخلاصة:

ويلن انصبه وكي كذا بأن لا بعد علم والتي من بعد ظن
فانصب بها والرفع صحح واعتقد تخفيفها من أن فهو مطرد
قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ ٩٠ ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِيفَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ ٩١.

بين - جل وعلا - في هاتين الآيتين الكريمتين أن بني إسرائيل لما فتنهم السامري وأضلهم بعبادة العجل، نصحهم نبي الله هارون - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -، وبين لهم أن عبادتهم العجل فتنة فتنوا بها؛ أي كفر وضلال ارتكبهوا بذلك، وبين لهم أن ربهم الرحمن خالق كل شيء - جلّ وعلا -، وأن عجلاً مصطنعاً من حلي لا يعبد إلا مقتون ضال كافر. وأمرهم باتباعه في توحيد الله تعالى، والوفاء بموعد موسى - عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام - وأن يطيعوه في ذلك؛ فصارحوه بالتمرد والعصيان والديمومة على الكفر حتى يرجع موسى. وهذا يدل على أنه بلغ معهم غاية جهده وطاقته، وأنهم استضعفوه وتمردوا عليه ولم يطيعوه.

وقد أوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله في «الأعراف»: ﴿قَالَ ابْنُ أُمِّ إِيْسَى الْقَوْمُ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]. فقوله عنهم في خطابهم له: ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِيفَ﴾؛ يدل على استضعافهم له وتمردهم عليه المصرح به في «الأعراف» كما بينا، وقال أبو عبد الله القرطبي - رحمه الله تعالى - في تفسير هذه الآيات الكريمات ما نصه:

وسئل الإمام أبو بكر الطرطوشي رحمته الله: ما يقول سيدنا الفقيه في مذهب الصوفية؟ واعلم حرس الله مدته: أنه اجتمع جماعة من رجال فيكثرون من ذكر الله تعالى وذكر محمد صلى الله عليه وسلم، ثم إنهم يوقعون بالقضيب على شيء من الأديم، ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشياً عليه، ويحضرون شيئاً يأكلونه. هل الحضور معهم جائز أم لا؟ أفتونا مأجورين. وهذا القول الذي يذكرونه:

يا شيخ كف عن الذنوب قبل التفريق والزلل
واعمل لنفسك صالحاً ما دام ينفعك العمل
أما الشباب فقد مضى ومشيب رأسك قد نزل

وفي مثل هذا ونحوه الجواب يرحمك الله: مذهب الصوفية بطالة وجهالة

وضلالة، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأما الرقص والتواجد؛ فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذ لهم عجلاً جسداً له خوار، قاموا يرقصون حواليه، ويتواجدون، فهو دين الكفار وعباد العجل. وأما القضيبي: فأول من اتخذ الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى. وإنما كان يجلس النبي ﷺ مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار؛ فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعهم من حضور المساجد وغيرها. ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم، ولا أن يعينهم على باطلهم. هذا مذهب مالك، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وغيرهم من أئمة المسلمين وبالله التوفيق - انتهى منه بلفظه.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: قد قدمنا في سورة «مريم» ما يدل على أن بعض الصوفية على الحق؛ ولا شك أن منهم ما هو على الطريق المستقيم من العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبذلك عالجوا أمراض قلوبهم وحرسوها، وراقبوها وعرفوا أحوالها، وتكلموا على أحوال القلوب كلاماً مفصلاً كما هو معلوم، كعبد الرحمن بن عطية، أو ابن أحمد بن عطية، أو ابن عسكر؛ أعني أبا سليمان الداراني، وكعون بن عبد الله الذي كان يقال له حكيم الأمة، وأضرابهما، وكسهل بن عبد الله التستري، وأبي طالب المكي، وأبي عثمان النيسابوري، ويحيى بن معاذ الرازي، والجنيد بن محمد، ومن سار على منوالهم؛ لأنهم عالجوا أمراض أنفسهم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ولا يحيدون عن العمل بالكتاب والسنة ظاهراً وباطناً، ولم تظهر منهم أشياء تخالف الشرع. فالحكم بالضلال على جميع الصوفية لا ينبغي ولا يصح على إطلاقه، والميزان الفارق بين الحق والباطل في ذلك هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. فمن كان منهم متبعاً لرسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله، وهديه وسمته، كمن ذكرنا وأمثالهم، فإنهم من جملة العلماء العاملين، ولا يجوز الحكم عليهم بالضلال. وأما من كان على خلاف ذلك فهو الضال.

نعم، صار المعروف في الآونة الأخيرة، وأزمة كثيرة قبلها بالاستقراء، أن عامة الذين يدعون التصوف في أقطار الدنيا إلا من شاء الله منهم دجاجة يتظاهرون بالدين ليضلوا العوام الجهلة وضعاف العقول من طلبة العلم، ليتخذوا بذلك أتباعاً وخداماً، وأمواً وجاهاً، وهم بمعزل عن مذهب الصوفية الحق، لا يعملون بكتاب الله ولا بسنة نبيه، واستعمارهم لأفكار ضعاف العقول أشد من استعمار كل طوائف المستعمرين. فيجب التباعد عنهم، والاعتصام من ضلالتهم بكتاب الله وسنة نبيه، ولو ظهر على أيديهم بعض الخوارق، ولقد صدق من قال:

إذا رأيت رجلاً يطير وفوق ماء البحر قد يسير
ولم يقف عند حدود الشرع فإنه مستدرج أو بدعي

والقول الفصل في ذلك هو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ فِيهَا ۝ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۝﴾ [النساء]، فمن كان عمله مخالفاً للشرع كمتصوفة آخر الزمان فهو الضال، ومن كان عمله موافقاً لما جاء به نبينا - عليه الصلاة والسلام - فهو المهتدي. نرجو الله تعالى أن يهدينا وإخواننا المؤمنين، وألا يزيغنا ولا يضلنا عن العمل بكتابه وسنة نبيه ﷺ التي هي محجة بيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۝ أَلَا تَتَّبِعَنِ ۝﴾ قال بعض أهل العلم: «لا» في قوله: ﴿أَلَا تَتَّبِعَنِ ۝﴾ زائدة للتوكيد، واستدل من قال ذلك بقوله تعالى في «الأعراف»: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۝﴾ [الأعراف: ١٢]، قال لأن المراد، ما منعك أن تسجد إذ أمرتك؛ بدليل قوله في القصة بعينها في سورة «ص»: ﴿قَالَ يٰٓإِبْرٰهٖمُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِدَيِّ ۝﴾ ... الآية [ص: ٧٥]، فحذف لفظة «لا» في «ص» مع ثبوتها في «الأعراف» والمعنى واحد؛ فدل ذلك على أنها مزيدة للتوكيد.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: قد عرف في اللغة العربية أن زيادة لفظة «لا» في الكلام الذي فيه معنى الجحد لتوكيده مطردة؛ كقوله هنا: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۝ أَلَا تَتَّبِعَنِ ۝﴾؛ أي ما منعك أن تتبعني؛ وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ۝﴾ [الأعراف: ١٢]، بدليل قوله في «ص»: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِدَيِّ ۝﴾ ... الآية [ص: ٧٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ ۝﴾ ... الآية [الحديد: ٢٩]؛ أي ليعلم أهل الكتاب، وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾ [النساء: ٦٥]، أي فوربك لا يؤمنون، وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۝﴾ [فصلت: ٣٤]، أي والسيئة، وقوله: ﴿وَحَرِّمْنَا عَلَىٰ قُرْبَىٰ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝﴾ [الأنبياء: ١٠٩]، على أحد القولين، وقوله: ﴿وَمَا يَشْعُرْكُمْ أَنَّهُمْ إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾ [الأنعام: ١٠٩]، على أحد القولين. وقوله: ﴿قُلْ تَكَالَوْا أَنَا أَعْلَمُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ عَلَيَّكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا ۝﴾ ... الآية [الأنعام: ١٥١]، على أحد الأقوال فيها. ونظير ذلك من كلام العرب قول امرئ القيس:

فلا وأبيك ابنة العامري لا يدعي القوم أنى أفر

يعني فوأيك. وقول أبي النجم:

فما ألوم البيض ألا تسخرا لما رأين الشمط القفنندرا

يعني أن تسخر، وقول الآخر:

ما كان يرزى رسول الله دينهم والأطيبان أبو بكر ولا عمر

يعني وعمر. وقول الآخر:

وتلحينني في اللهو ألا أحبه وللهو داع دائب غير غافل
يعني أن أحبه، و«لا» مزيدة في جميع الأبيات لتوكيد الجحد فيها. وقال الفراء:
إنها لا تزداد إلا في الكلام الذي فيه معنى الجحد كالأمثلة المتقدمة. والمراد بالجحد
النفي وما يشبهه كالمنع في قوله: ﴿مَا مَنَّكَ﴾ [الأعراف: ١٢] ونحو ذلك. والذي يظهر لنا
- والله تعالى أعلم -: أن زيادة لفظه «لا» لتوكيد الكلام وتقويته أسلوب من أساليب
اللغة العربية، وهو في الكلام الذي فيه معنى الجحد أغلب مع أن ذلك مسموع في
غيره. وأنشد الأصمعي لزيادة «لا» قول ساعدة الهذلي:

أفعنك لا برق كان وميضه غاب تسنمه ضرام مشقب
ويروى «أفمنك» بدل «أفعنك» و«تسيمه» بدل «تسنمه»، يعني أعنك برق و«لا»
زائدة للتوكيد والكلام ليس فيه معنى الجحد. ونظيره قول الآخر:

تذكرت ليلى فاعترتني صباية وكاد صميم القلب لا يتقطع
يعني كاد يتقطع. وأنشد الجوهري لزيادة «لا» قول العجاج:

في بئر لا حور سرى وما شعر بإفكه حتى رأى الصبح جشر
والحور الهلكة؛ يعني في بئر هلكة، و«لا» زائدة للتوكيد؛ قاله أبو عبيدة وغيره.
والكلام ليس فيه معنى الجحد. وقد أوضحنا هذه المسألة في كتابنا (دفع إيهام
الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة «البلد».

قوله تعالى: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾، الظاهر أن أمره المذكور في هذه الآية هو المذكور
في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَطِيعِي فِي قَوْمِي وَأَطِيعِي وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾
[الأعراف: ١٤٢]، وهذه الآية الكريمة تدل على اقتضاء الأمر للوجوب؛ لأنه أطلق اسم
المعصية على عدم امتثال الأمر، والنصوص الدالة على ذلك كثيرة: كقوله تعالى:
﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]،
وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا الْمُؤْمِنَةِ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾
[الأحزاب: ٣٦] فجعل أمره وأمر رسول الله ﷺ مانعاً من الاختيار، موجباً للامتثال. وقوله
تعالى: ﴿مَا مَنَّكَ إِلَّا سَجْدًا إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] فوبخه هذا التوبيخ الشديد على عدم
امتثال الأمر المدلول عليه بصيغة إفعال في قوله تعالى: ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤].
وجماهير الأصوليين على أن صيغة الأمر المجردة عن القرائن تقتضي الوجوب للأدلة التي
ذكرنا وغيرها مما هو مماثل لها؛ وإلى ذلك أشار في (مراقي السعود) بقوله:

وافعل لدى الأكثر للوجوب وقيل للندب أو المطلوب إلخ
قوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي
إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (٩٤)، ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن هارون قال
لأخيه موسى ﴿يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ وذلك يدل على أنه لشدة غضبه أراد أن

يمسك برأسه ولحيته. وقد بين تعالى في «الأعراف» أنه أخذ برأسه يجره إليه؛ وذلك في قوله: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠]. وقوله: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ من بقية كلام هارون؛ أي خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل، وأن تقول لي لم لم ترقب قولي! أي لم تعمل بوصيتي وتمثل أمري.

تنبيه: هذه الآية الكريمة بضميمة آية «الأنعام» إليها تدل على لزوم إعفاء اللحية، فهي دليل قرآني على إعفاء اللحية وعدم حلقها. وآية الأنعام المذكورة هي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾... الآية [الأنعام: ٨٤]، ثم إنه تعالى قال بعد أن عد الأنبياء الكرام المذكورين ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فدل ذلك على أن هارون من الأنبياء الذين أمر نبينا ﷺ بالاعتداء بهم، وأمره ﷺ بذلك أمر لنا؛ لأن أمر القدوة أمر لاتباعه! كما بينا إيضاحه بالأدلة القرآنية في هذا الكتاب المبارك في سورة «المائدة». وقد قدمنا هناك أنه ثبت في صحيح البخاري: أن مجاهدًا سأل ابن عباس من أين أخذت السجدة في «ص» قال: أو ما تقرأ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ﴾، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فسجدها داود فسجدها رسول الله ﷺ فإذا علمت بذلك أن هارون من الأنبياء الذين أمر نبينا ﷺ بالاعتداء بهم في سورة «الأنعام»، وعلمت أن أمره أمر لنا؛ لأن لنا فيه الأسوة الحسنة، وعلمت أن هارون كان موفراً شعر لحيته بدليل قوله لأخيه: ﴿لَا تَأْخُذْ يَلْحَتِي﴾؛ لأنه لو كان حالقاً لما أراد أخوه الأخذ بلحيته تبين لك من ذلك بإيضاح أن إعفاء اللحية من السمات الذي أمرنا به في القرآن العظيم، وأنه كان سمت الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم.

والعجب من الذين مسخت ضمائرهم، واضمححل ذوقهم، حتى صاروا يفرون من صفات الذكورية، وشرف الرجولة، إلى خنوثة الأنوثة، ويمثلون بوجوههم بحلق أذقانهم، ويتشبهون بالنساء حيث يحاولون القضاء على أعظم الفوارق الحسية بين الذكر والأنثى وهو اللحية. وقد كان ﷺ كثر اللحية، وهو أجمل الخلق وأحسنهم صورة. والرجال الذين أخذوا كنوز كسرى وقيصر، ودانت لهم مشارق الأرض ومغاربها: ليس فيهم حائق. نرجو الله أن يرينا وإخواننا المؤمنين الحق حقاً، ويرزقنا اتباعه، والباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه.

أما الأحاديث النبوية الدالة على إعفاء اللحية، فلسنا بحاجة إلى ذكرها لشهرتها بين الناس، وكثرة الرسائل المؤلفة في ذلك، وقصدنا هنا أن نبين دليل ذلك من القرآن. وإنما قال هرون لأخيه: ﴿يَبْنُومُ﴾ لأن قرابة الأم أشد عطفاً وحناناً من قرابة الأب. وأصله يا بنؤمي بالإضافة إلى ياء المتكلم، ويطرد حذف الياء وإبدالها ألفاً وحذف الألف المبدلة منها كما هنا، وإلى ذلك أشار في الخلاصة بقوله:

وفتح أو كسر وحذف اليا استمر في يا بنؤم يا بن عم لا مفر
وأما ثبوت ياء المتكلم في قول حرملة بن المنذر:

يا بنؤمي ويا شقيق نفسي أنت خلّيتني لدهر شديد

فلغة قليلة. وقال بعضهم: هو لضرورة الشعر. وقوله: ﴿يَبْنُؤُمْ﴾ قرأه ابن عامر
وشعبة عن عاصم وحمزة والكسائي بكسر الميم. وقرأه الباقون بفتحها. وكذلك قوله في
[الأعراف]: ﴿قَالَ ابْنُ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ﴾... الآية [الأعراف: ١٥٠].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

بين - جلّ وعلا - في هذه الآية أن العجل الذي صنعه السامري من حلي القبط لا
يمكن أن يكون إلهاً؛ وذلك لأنه حصر الإله؛ أي المعبود بحق بـ ﴿إِنَّمَا﴾ التي هي أداة
حصر على التحقيق في خالق السموات والأرض، الذي لا إله إلا هو؛ أي لا معبود
بالحق إلا هو وحده جلّ وعلا، وهو الذي وسع كل شيء علماً. وقوله: ﴿عِلْمًا﴾ تمييز
محول عن الفاعل، أي وسع علمه كل شيء.

وما ذكره تعالى في هذه الآية الكريمة من أنه تعالى هو الإله المعبود بحق دون
غيره، وأنه وسع كل شيء علماً ذكره في آيات كثيرة من كتابه تعالى كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾... الآية [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾... الآية
[محمد: ١٩] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في إحاطة علمه بكل شيء: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا
فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]، وقوله تعالى:
﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْغَيْبِ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا
يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]،
والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾، الكاف في قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾
في محل نصب على أنه نعت لمصدر محذوف، أي نقص عليك من أنباء ما سبق قصصاً
مثل ذلك القصص الحسن الحق الذي قصصنا عليك عن موسى وهارون، وعن موسى
وقومه والظاهر أن «من» في قوله: ﴿مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ للتبعية، ويفهم
من ذلك أن بعضهم لم يقصص عليه خبره، ويدل لهذا المفهوم قوله تعالى في سورة
[النساء]: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]،
وقوله في سورة [المؤمنين]: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ
مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]، وقوله في سورة [إبراهيم]: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [إبراهيم: ٩]. والأنباء: جمع نبأ؛ وهو الخبر الذي له شأن.

وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أنه قص على نبيه ﷺ أخبار الماضين؛ أي ليبين بذلك صدق نبوته؛ لأنه أُمي لا يكتب ولا يقرأ الكتب، ولم يتعلم أخبار الأمم وقصصهم، فلولا أن الله أوحى إليه ذلك لما علمه، بينه أيضاً في غير هذا الموضع كقوله في «آل عمران»: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمْ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران]، أي فلولا أن الله أوحى إليك ذلك لما كان لك علم به، وقوله تعالى في سورة «هود» ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُغْلِبِينَ﴾ [هود]، وقوله في «هود» أيضاً: ﴿وَكَلَّا تَقْصُ عَلَيْنَا مَا نُنَبِّئُكَ بِهِ فَوَادِّعْ﴾ [هود: ١٢٠]. وقوله تعالى في سورة «يوسف»: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَكُفُّونَ﴾ [يوسف: ١٢]، وقوله في «يوسف» أيضاً: ﴿وَنَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٢]، وقوله في «القصص»: ﴿وَمَا كُنْتَ بِحَاظِ الْغُرُفِ إِذْ فَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤]، وقوله فيها: ﴿وَمَا كُنْتَ بِحَاظِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٦]، وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِئَ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [القصص: ٤٥]، إلى غير ذلك من الآيات. يعني لم تكن حاضراً يا نبي الله لتلك الوقائع، فلولا أن الله أوحى إليك ذلك لما علمته. وقوله: ﴿مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ أي أخبار ما مضى من أحوال الأمم والرسل.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾.

أي أعطيناك من عندنا ذكراً وهو هذا القرآن العظيم، وقد دلت على ذلك آيات من كتاب الله كقوله: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَمْ تُنْكِرُونَهُ﴾ [الأنبياء]، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ تَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُجَدِّدٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء]، وقوله: ﴿وَقَالُوا يَأْتِيَهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، وقوله تعالى: ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ فِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١، ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا لَذِكْرُ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ الآية [الزخرف: ٤٤]، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] إلى غير ذلك من الآيات.

وقال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة: ثم في تسمية القرآن بالذكر وجوه: أحدهما: أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم.

وثانيها: أنه يذكر أنواع آلاء الله ونعمائه تعالى، ففيه التذكير والمواعظ.

وثالثها: أنه فيه الذكر والشرف لك ولقومك على ما قال: ﴿وَإِنَّمَا لَذِكْرُ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

واعلم أن الله تعالى سمي كل كتبه ذكراً فقال: ﴿فَتَسْلُوْا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [النحل: ٤٣]، اهـ. المراد من كلام الرازي.

ويدل للوجه الثاني في كلامه قوله تعالى: ﴿كَتَبُ أَرْزَلْتُهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِّدَبَرُوا إِلَيْهِ﴾ وَلَيَسْذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٠٠﴾ [ص]، وقوله تعالى: ﴿وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَنْقَوْنَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ ﴿١٠١﴾ خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿١٠٢﴾، ذكر - جل - وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من أعرض عن هذا الذكر الذي هو القرآن العظيم، أي صد وأدبر عنه، ولم يعمل بما فيه من الحلال والحرام، والآداب والمكارم، ولم يعتقد ما فيه من العقائد، ويعتبر بما فيه من القصص والأمثال، ونحو ذلك، فإنه يحمل يوم القيامة وزراً، قال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: يريد بالوزر العقوبة الثقيلة الباهظة؛ سناها وزراً تشبيهاً في ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها، بالحمل الذي يفدح الحامل وينقض ظهره، ويلقي عليه بهره، أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: قد دلت آيات كثيرة من كتاب الله: على أن المجرمين يأتون يوم القيامة يحملون أوزارهم؛ أي أثقال ذنوبهم على ظهورهم؛ كقوله في سورة «الأنعام»: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا قَرَرْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُونُ﴾ ﴿٣١﴾ [الأنعام: ٣١]، وقوله في «النحل»: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَحِثُّ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُونُ﴾ ﴿١٥﴾ [النحل: ٢٥]، وقوله في «العنكبوت»: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿١٣﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقوله في «فاطر»: ﴿وَلَا تُزْرُ وَازِدَةٌ وَزَرٌ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يَحْمِلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وبهذه الآيات التي ذكرنا وأمثالها في القرآن تعلم أن معنى قوله تعالى: ﴿فَأَنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾، وقوله: ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾؛ أن المراد بذلك الوزر المحمول أثقال ذنوبهم وكفرهم يأتون يوم القيامة يحملونها؛ سواء قلنا: إن أعمالهم السيئة تتجسم في أقبح صورة وأنتنها، أو غير ذلك كما تقدم إيضاحه. والعلم عند الله. وقد قدمنا عمل «ساء» التي بمعنى بش مراراً؛ فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وقوله تعالى: ﴿خَلِيدِينَ فِيهِ﴾ قال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة: ﴿خَلِيدِينَ فِيهِ﴾ يريد مقيمين فيه، أي في جزائه، وجزاؤه جهنم.

تنبيه: إفراد الضمير في قوله: ﴿أَعْرَضَ﴾، وقوله: ﴿فَأَنَّهُ﴾ وقوله: ﴿يَحْمِلُ﴾ باعتبار لفظ «من». وأما جمع ﴿خَلِيدِينَ﴾ وضمير لهم ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فباعتبار معنى من كقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَبِعَمَلِهِ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الطلاق: ١١]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الجن: ٢٣].

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: فإن قلت: اللام في «لهم» ما هي؟ وبم تتعلق؟ قلت: هي للبيان كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿وَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ ﴿١٣٥﴾﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنهم يسألونه عن الجبال، وأمره أن يقول لهم: إن ربه ينسفها نسفًا؛ وذلك بأن يقلعها من أصولها، ثم يجعلها كالرمل المتهايل الذي يسيل، وكالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا.

واعلم أنه - جلّ وعلا - بين الأحوال التي تصير إليها الجبال يوم القيامة في آيات من كتابه. فبين أنه ينزعها من أماكنها. ويحملها فيدكها دكًا؛ وذلك في قوله: ﴿وَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ ﴿١٣٦﴾ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۖ ﴿١٣٧﴾﴾ [الحاقة: ١٣ - ١٤].

ثم بين أنه يسيرها في الهواء بين السماء والأرض؛ وذلك في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتُنْفَخُ مِنَ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوٍّ ذَاخِرِينَ ۖ ﴿١٣٨﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا شَيْءٌ إِنَّهُ خَيْرُ مَا تَفْعَلُونَ ۖ ﴿١٣٩﴾﴾ [النمل: ١٣٨]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تُسَرُّ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ۖ ﴿١٤٠﴾﴾... الآية [الكهف: ٤٧]، وقوله: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۖ ﴿١٤١﴾﴾ [التكوير: ١٤١]، وقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۖ ﴿١٤٢﴾﴾... [النبأ: ١٤٢]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۖ ﴿١٤٣﴾﴾ [الطور: ١٤٣].

ثم بين أنه يفتتنها ويدقها كقوله: ﴿وُسِّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۖ ﴿١٤٤﴾﴾ [الواقعة: ١٤٤]، أي فتت حتى صارت كالبيسة، وهي دقيق ملتوت بسمن أو نحوه على القول بذلك، وقوله: ﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۖ ﴿١٤٥﴾﴾ [الحاقة: ١٤٥].

ثم بين أنه يصيرها كالرمل المتهايل، وكالغن المنفوش، وذلك في قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَغِيَابٍ مُهِيلًا ۖ ﴿١٤٦﴾﴾ [المزمل: ١٤٦]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلِّ ۖ ﴿١٤٧﴾﴾ [المعارج: ١٤٧]، في «المعارج»، والقارعة». والعهن: الصوف المصبوغ؛ ومنه قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

كأن فتات العهن في كل منزل نزلن به حب القنا لم يحطم

ثم بين أنها تصير كالهباء المنبث في قوله: ﴿وُسِّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۖ ﴿١٤٤﴾﴾ فكانت هباءً مُنْبَثًا ۖ ﴿١٤٥﴾﴾ [الواقعة: ١٤٥]، ثم بين أنها تصير سرابًا، وذلك في قوله: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۖ ﴿١٤٦﴾﴾ [النبأ: ١٤٦]، وقد بين في موضع آخر أن السراب لا شيء؛ وذلك قوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ۖ ﴿٣٩﴾﴾ [النور: ٣٩] وبين أنه ينسفها نسفًا في قوله هنا: ﴿وَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ ﴿١٣٥﴾﴾.

تنبيه: جرت العادة في القرآن أن الله إذا قال لنبيه ﷺ: ﴿يَسْتَلُونَكَ﴾ قال له: ﴿قُلْ﴾ بغير فاء كقوله: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾... الآية [الإسراء: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾... الآية [البقرة: ٢١٩]، وقوله:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أُنْفِقُ مِنْ خَيْرٍ﴾ ... الآية [البقرة: ٢١٥]، وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَكُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ كُلُّ حَلَالٍ﴾ ... الآية [المائدة: ٤٤]، وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧]، إلى غير ذلك من الآيات، أما في آية «طه» هذه فقال فيها: ﴿فَقُلْ يَسْأَلُهَا﴾ بالفاء.

وقد أجاب القرطبي رحمه الله عن هذا في تفسير هذه الآية بما نصه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾؛ أي عن حال الجبال يوم القيامة، فقل: جاء هذا بفاء، وكل سؤال في القرآن «قل» بغير فاء إلا هذا؛ لأن المعنى: إن سألوكم عن الجبال فقل، فضمن الكلام معنى الشرط، وقد علم الله أنهم يسألونه عنها فأجابهم قبل السؤال. وتلك أسئلة تقدمت، سألوها عنها النبي ﷺ فجاء الجواب عقب السؤال؛ فلذلك كان بغير فاء. وهذا سؤال لم يسأله عنه بعد؛ فتفهمه، انتهى منه. وما ذكره يحتاج إلى دليل، والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۗ﴾.

الضمير في قوله: ﴿فَيَذَرُهَا﴾ فيه وجهان معروفان عند العلماء: أحدهما: أنه راجع إلى الأرض وإن لم يجر لها ذكر. ونظير هذا القول في هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]، فالضمير فيهما راجع إلى الأرض ولم يجر لها ذكر. وقد بينا شواهد ذلك من العربية والقرآن بإيضاح في سورة «النحل» فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وثانيهما: أنه راجع إلى منابت الجبال التي هي مراكزها ومقارها لأنها مفهومة من ذكر الجبال، والمعنى فيذر مواضعها التي كانت مستقرة فيها من الأرض قاعاً صفصفاً. والقاع: المستوي من الأرض. وقيل: مستنقع الماء. والصفصف: المستوي الأملس الذي لا نبات فيه ولا بناء، فإنه على صف واحد في استوائه، وأنشد لذلك سيويه قول الأعشى: وكم دون بيتك من صفصف وكذلك رمل وأعقادها ومنه قول الآخر:

وملومة شهباء لو قذفوا بها شماريخ من رضوى إذا عاد صفصفا
وقوله: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۗ﴾؛ أي لا اعوجاج فيها ولا أمت. والأمت: النتوء اليسير؛ أي ليس فيها اعوجاج ولا ارتفاع بعضها على بعض، بل هي مستوية، ومن إطلاق الأمت بالمعنى المذكور قول لبيد:

فاجر مزت ثم سارت وهي لاهية في كافر ما به أمت ولا شرف
وقول الآخر:

فأبصرت لمحة من رأس عكرشة في كافر ما به أمت ولا عوج
والكافر في البيتين: قيل الليل. وقيل المطر؛ لأنه يمنع العين من رؤية الارتفاع والانحدار في الأرض.

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: فإن قلت: قد فرقوا بين العوج والعوج. فقالوا: العوج بالكسر في المعاني. والعوج بالفتح في الأعيان. والأرض عين، فكيف صح فيها المكسور العين؟

قلت: اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والملاسة، ونفي الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون؛ وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسويتها، وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصراء من الفلاحة، وانفقتم على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط، ثم استطلعت رأي المهندس فيها، وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية لعثر فيها على عوج في غير موضع لا يدرك ذلك بحاسة البصر، ولكن بالقياس الهندسي، فنفى الله ﷻ ذلك العوج الذي دق ولطف عن الإدراك، اللهم إلا بالقياس الذي يعرفه صاحب التقدير والهندسة، وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني فقليل فيه: عوج بالكسر، والامت: التواء اليسير، يقال: مد حبله حتى ما فيه أمت. انتهى منه، وقد قدمنا في أول سورة الكهف ما يغني عن هذا الكلام الذي ذكره، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَذِ يَبْعَثُ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾، قوله: ﴿يَوْمَذِ﴾ أي يوم إذ نسفت الجبال يتبعون الداعي. والداعي: هو الملك الذي يدعوهم إلى الحضور للحساب، قال بعض أهل العلم: يناديهم أيتها العظام المتخرة، والأوصال المتفرقة، واللحوم المتمزقة، قومي إلى ربك للحساب والجزاء، فيسمعون الصوت ويتبعونه. ومعنى ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾؛ أي لا يحدون عنه، ولا يميلون يميناً ولا شمالاً. وقيل: لا عوج لدعاء الملك عن أحد، أي لا يعدل بدعائه عن أحد، بل يدعوهم جميعاً. وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من اتباعهم للداعي للحساب، وعدم عدولهم عنه بينه في غير هذا الموضع، وزاد أنهم يسرعون إليه كقوله تعالى: ﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِيَ إِلَى شَيْءٍ تُكْذِرُ﴾ ١ ﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَعْدَادِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ ٢ ﴿مُطْعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ﴾ ٣ [القمر]، والإهطاع: الإسراع. وقوله تعالى: ﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ٤ ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ﴾ ٥ [ق]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ﴾ ٦ [الإسراء: ٥٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآيات الكريمة: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾؛ أي خفضت وخفتت، ومكنت هبة الله، وإجلالاً وخوفاً ﴿فَلَا تَسْمَعُ﴾ في ذلك اليوم صوتاً عالياً، بل لا تسمع ﴿إِلَّا هَمْسًا﴾ أي صوتاً خفياً خافتاً من شدة الخوف. أو ﴿إِلَّا هَمْسًا﴾ أي إلا صوت خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر - والهمس يطلق في اللغة على الخفاء، فيشمل خفض الصوت وصوت الأقدام؛ كصوت أخفاف الإبل في الأرض التي فيها يابس النبات، ومنه قول الراجز:

وهن يمشين بنا هميسا إن تصدق الطير نك لميسا

وما ذكره - جلّ وعلا - هنا أشار له في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۖ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا]:

وقوله هنا: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ...﴾ الآية، قد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في «مريم» وغيرها، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [الأنعام].

قوله: ﴿وَعَنَتِ﴾ أي ذلت وخضعت؛ تقول العرب: عنا يعنو عنواً وعناء: إذا ذل وخضع وخشع؛ ومنه قيل للأسير عان؛ لذله وخضوعه لمن أسره. ومنه قول أمية بن أبي الصلت الثقفي:

ملك على عرش السماء مهيمن لعزته تعنو الوجوه وتسجد
وقوله أيضاً:

وعنا له وجهي وخلقلي كله في الساجدين لوجهه مشكورا

واعلم أن العلماء اختلفوا في هذه الآية الكريمة، فقال بعضهم: المراد بالوجوه التي ذلت وخشعت للحي القيوم: وجوه العصاة خاصة وذلك يوم القيامة؛ وأسند الذل والخشوع لوجوههم؛ لأن الوجه تظهر فيه آثار الذل والخشوع. ومما يدل على هذا المعنى من الآيات القرآنية قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتْ وَجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآية [الملك: ٢٧]، وقوله: ﴿وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ بَايِرٌ ۖ تَنْظُرُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة]، وقوله تعالى: ﴿وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۖ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۖ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية]، وعلى هذا القول اقتصر الزمخشري واستدل له ببعض الآيات المذكورة.

وقال بعض العلماء: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ﴾: أي ذلت وخضعت وجوه المؤمنين لله في دار الدنيا، وذلك بالسجود والركوع، وظاهر القرآن يدل على أن المراد الذل والخشوع لله يوم القيامة؛ لأن السياق في يوم القيامة، وكل الخلائق تظهر عليهم في ذلك اليوم علامات الذل والخشوع لله - جلّ وعلا -.

وقوله في هذه الآية: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾؛ فلا بعض العلماء: أي خسر من حمل شركاً، وتدل لهذا القول الآيات القرآنية الدالة على تسمية الشرك ظلماً كقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس]، وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ الآية [الأنعام: ٨٢]، إلى غير ذلك من الآيات، والأظهر أن الظلم في قوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾؛ يعم الشرك وغيره من المعاصي. وخيبة كل ظالم بقدر ما حمل من الظلم، والعلم عند الله تعالى.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ الحي: المتصف بالحياة الذي لا يموت أبداً، والقيوم صيغة مبالغة؛ لأنه - جلّ وعلا - هو القائم بتدبير شؤون جميع الخلق. وهو القائم على كل نفس بما كسبت. وقيل: القيوم الدائم الذي لا يزول.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من يعمل من الصالحات وهو مؤمن بربه فإنه لا يخاف ظُلماً ولا هضماً. وقد بين هذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس]، وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] إلى غير ذلك من الآيات، كما قدمنا ذلك.

وفرق بعض أهل العلم بين الظلم والهضم بأن الظلم المنع من الحق كله. والهضم: النقص والمنع من بعض الحق. فكل هضم ظلم، ولا ينعكس. ومن إطلاق الهضم على ما ذكر قول المتوكل الليثي:

إن الأذلة واللىثام لمعشر مولا هم المنهضم المظلوم

فالمنهضم: اسم مفعول تهضمه إذا اهتضمه في بعض حقوقه وظلمه فيها، وقرأ هذا الحرف عامة السبعة ما عدا ابن كثير «فلا يخاف» بضم الفاء وبألف بعد الخاء مرفوعاً ولا نافية؛ أي فهو لا يخاف، أو فإنه لا يخاف. وقرأه ابن كثير «فلا يخف» بالجزم من غير ألف بعد الخاء. وعليه «لا» ناهية جازمة للمضارع. وقول القرطبي في تفسيره: إنه على قراءة ابن كثير مجزوم؛ لأنه جواب لقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ﴾ - غلط منه ﷺ؛ لأن الفاء في قوله: ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ مانعة من ذلك. والتحقيق هو ما ذكرنا من أن «لا» ناهية على قراءة ابن كثير، والجملة الطلبية جزاء الشرط، فيلزم اقترانها بالفاء؛ لأنها لا تصلح فعلاً للشرط كما قدمناه مراراً.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾... الآية.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة «الكهف» فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. كان النبي ﷺ إذا جاءه جبريل بالوحي كلما قال جبريل آية قالها معه ﷺ من شدة حرصه على حفظ القرآن؛ فأرشدته الله في هذه الآية إلى ما ينبغي. فنهاه عن العجلة بقراءة القرآن مع جبريل، بل أمره أن ينصت لقراءة جبريل حتى ينتهي، ثم يقرؤه هو بعد ذلك، فإن الله ييسر له حفظه. وهذا المعنى المشار إليه في هذه الآية أوضحه الله في غير هذا الموضع كقوله في «القيامة»: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْمَلَ بِهِ﴾ [١١] إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ [١٢] فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَلْجَعَ قُرْآنُهُ [١٣] ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ [١٤] [القيامة]، وقال البخاري في صحيحه: حدثنا موسى بن إسماعيل قال: حدثنا أبو عوانة قال: حدثنا موسى بن أبي

عائشة قال: حدثنا سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُحَاجِلَ بِهِ﴾ [١١٥]، قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، وكان مما يحرك شفثيه، فقال ابن عباس: فأنا أحركهما لكم كما كان رسول الله ﷺ يحركهما. وقال سعيد: أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما، فحرك شفثيه فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُحَاجِلَ بِهِ﴾ [١١٦] إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ [١١٧] [القيامة]، قال: جمعه لك في صدرك، ونقرأه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ فَأَنْجِ قُرْآنَهُ﴾ [١١٨] [القيامة]، قال: فاستمع له وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [١١٩] [القيامة]، ثم علينا أن نقرأه. فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع؛ فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ نَنسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [١٢٠]. قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ﴾؛ أي أوصيناه ألا يقرب تلك الشجرة، وهذا العهد إلى آدم الذي أجمله هنا بينه في غير هذا الموضع كقوله في سورة «البقرة»: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [٢٥] [البقرة: ٣٥]، فقلوه: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ هو عهده إلى آدم المذكور هنا. وقوله في «الأعراف»: ﴿وَبَكَادُمْ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [١٢١].

وقوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ﴾ فيه للعلماء وجهان معروفان: أحدهما: أن المراد بالنسيان الترك، فلا ينافي كون الترك عمداً. والعرب تطلق النسيان وتريد به الترك ولو عمداً، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنتُكَ ءَايَتُنَا فَنَسِينَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي﴾ [١٢٢]، فالمراد في هذه الآية: الترك قصداً. وكقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْدِثُونَ﴾ [الأعراف: ٥١]، وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا يَمَّا نَسِينَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِكُ مَا نَكُنْ لَكُمْ فِتْنَةً يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَا وَكُنْ لَكُمْ مِنْ نَصْرٍ﴾ [الجاثية: ٢٤]. وعلى هذا فمعنى قوله: ﴿فَنَسِيَ﴾ أي ترك الوفاء بالعهد، وخالف ما أمره الله به من ترك الأكل من تلك الشجرة؛ لأن النهي عن الشيء يستلزم الأمر بضده.

والوجه الثاني: هو أن المراد بالنسيان في الآية: النسيان الذي هو ضد الذكر؛ لأن إبليس لما أقسم له بالله أنه له ناصح فيما دعاه إليه من الأكل من الشجرة التي نهاه ربه عنها، غره وخدعه بذلك، حتى أنساه العهد المذكور؛ كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمُهُمَا إِنْ كُنَّا لَيْنَ النَّاصِحِينَ﴾ [١٢٣] فَذَلَّلْنَاهَا بِمُرُوْرٍ [الأعراف: ٢١ - ٢٢]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنما سمي الإنسان لأنه عهد إليه فنسي. رواه عنه ابن أبي حاتم اهـ. ولقد قال بعض الشعراء:

وما سمي الإنسان إلا لنسيه ولا القلب إلا أنه يتقلب

أما على القول الأول فلا إشكال في قوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ وأما على الثاني ففيه إشكال معروف؛ لأن الناسي معذور فكيف يقال فيه ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾. وأظهر أوجه الجواب عندي عن ذلك: أن آدم لم يكن معذوراً بالنسيان؛ وقد بينت في كتابي (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) الأدلة الدالة على أن العذر بالنسيان والخطأ والإكراه من خصائص هذه الأمة؛ كقوله هنا: ﴿فَنَسِيَ﴾ مع قوله: ﴿وَعَصَى﴾ فأسند إليه النسيان والعصيان؛ فدل على أنه غير معذور بالنسيان. ومما يدل على هذا ما ثبت في صحيح مسلم من حديث ابن عباس وأبي هريرة أن النبي ﷺ لما قرأ ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال الله: نعم قد فعلت. فلو كان ذلك معفواً عن جميع الأمم لما كان لذكره على سبيل الامتنان وتعظيم المنة عظيم موقع. ويستأنس لذلك بقوله: ﴿كَمَا حَمَلْتُهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ويؤيد ذلك حديث: «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه». فقوله: «تجاوز لي عن أمتي» يدل على الاختصاص بأمتي؛ وليس مفهوم لقب؛ لأن مناط التجاوز عن ذلك هو ما خصه الله به من التفضيل على غيره من الرسل. والحديث المذكور وإن أعله الإمام أحمد وابن أبي حاتم، فله شواهد ثابتة في الكتاب والسنة. ولم يزل علماء الأمة قديماً وحديثاً يتلقونه بالقبول.

ومن الأدلة على ذلك حديث طارق بن شهاب المشهور في الذي دخل النار في ذباب قربه مع أنه مكره وصاحبه الذي امتنع من تقرب شيء للصنم ولو ذباباً قتلوه. فدل ذلك على أن الذي قربه مكره؛ لأنه لو لم يقرب لقتلوه كما قتلوا صاحبه، ومع هذا دخل النار فلم يكن إكراهه عذراً، ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى عن أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكَ يَرْجُمُوكَ أَوْ يُبْدُوكُمْ فِي مَلَأِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢٠]، فقوله: ﴿يَرْجُمُوكَ أَوْ يُبْدُوكُمْ فِي مَلَأِهِمْ﴾ [الكهف: ٢٠]، دليل على الإكراه، وقوله: ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢٠]، دليل على عدم العذر بذلك الإكراه؛ كما أوضحنا ذلك في غير هذا الموضع.

واعلم أن في شرعنا ما يدل على نوع من التكليف بذلك في الجملة كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَجَرَّرَ رِقَابَهُ﴾... الآية [النساء: ٩٢]. فتحرير الرقبة هنا كفارة لذلك القتل خطأ، والكفارة تشعر بوجود الذنب في الجملة؛ كما يشير إلى ذلك قوله في كفارة القتل خطأ: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٩٢]، فجعل صوم الشهرين بدلاً من العتق عند العجز عنه. وقوله بعد ذلك: ﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ٩٢]، يدل على أن هناك مؤاخذه في الجملة بذلك الخطأ، مع قوله: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ [الأحزاب: ٥]، وما قدمنا من حديث مسلم: أن النبي ﷺ لما قرأ: ﴿لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال الله: نعم قد فعلت، فالمؤاخذه التي هي الإثم مرفوعة والكفارة

المذكورة؛ قال بعض أهل العلم: هي بسبب التقصير في التحفظ والحذر من وقوع الخطأ والنسيان، والله - جلّ وعلا - أعلم.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾؛ هو ونحوه من الآيات مستند من قال من أهل الأصول بعدم عصمة الأنبياء من الصغائر التي لا تتعلق بالتبليغ؛ لأنهم يتداركونها بالتوبة والإنابة إلى الله حتى تصير كأنها لم تكن.

واعلم أن جميع العلماء أجمعوا على عصمة الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - في كل ما يتعلق بالتبليغ. واختلفوا في عصمتهم من الصغائر التي لا تعلق لها بالتبليغ اختلافاً مشهوراً معروفاً في الأصول، ولا شك أنهم صلوات الله عليهم وسلامه إن وقع منهم بعض الشيء فإنهم يتداركونه بصدق الإنابة إلى الله حتى يبلغوا بذلك درجة أعلى من درجة من لم يقع منه ذلك؛ كما قال هنا: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعْنَاهُ رِبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَيْنَا﴾.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾؛ يدل على أن أبانا آدم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - ليس من الرسل الذين قال الله فيهم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد ﷺ. وقيل: هم جميع الرسل. وعن ابن عباس وقتادة ﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ أي لم نجد له صبراً عن أكل الشجرة ومواظبة على التزام الأمر. وأقوال العلماء راجعة إلى هذا، والوجود في قوله: ﴿وَلَمْ يَجِدْ﴾ قال أبو حيان في البحر: يجوز أن يكون بمعنى العلم، ومفعولاه: ﴿لَمْ عَزْماً﴾ وأن يكون نقيض العزم؛ كأنه قال: وعدمنا له عزمًا أه منه. والأول أظهر، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى، أي أبى أن يسجد؛ فذكر عنه هنا الإباء ولم يذكر عنه هنا الاستكبار. وذكر عنه الإباء أيضاً في «الحجر» في قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣١]. وقوله في آية «طه» هذه التي هي قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ [البقرة: ٣٤]، أي أبى أن يكون مع الساجدين، كما صرح به في «الحجر» وكما أشار إلى ذلك في «الأعراف» في قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١]، وذكر عنه في سورة «ص» الاستكبار وحده في قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص: ١٧]. وذكر عنه الإباء والاستكبار معاً في سورة «البقرة» في قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]. وقد بينا في سورة «البقرة» سبب استكباره في زعمه وأدلة بطلان شبهته في زعمه المذكور. وقد بينا في سورة «الكهف» كلام العلماء فيه؛ هل أصله ملك من الملائكة أو لا؟

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَسَجِدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ صرح في غير هذا الموضع أن السجود المذكور سجد الملائكة كلهم أجمعون لا بعضهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٢٠) إِلَّا إِبْلِيسَ... الآية [الحجر: ٣٠، ٣١].

قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَتَدَبَّرُونَ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِزْوَانِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنْ الْجَنَّةِ فَتَشْفَى﴾ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى (١١٩).

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِزْوَانِكَ﴾ قد قدمنا الآيات الموضحة له في «الكهف» فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَتَشْفَى﴾ أي فتتعب في طلب المعيشة بالكد والاكْتِسَاب؛ لأنه لا يحصل لقمة العيش في الدنيا بعد الخروج من الجنة حتى يحرث الأرض، ثم يزرعها، ثم يقوم على الزرع حتى يدرك، ثم يدرسه، ثم ينقيه، ثم يطحنه، ثم يعجنه، ثم يخبزه، فهذا شقاؤه المذكور.

والدليل على أن المراد بالشقاء في هذه الآية: التعب في اكتساب المعيشة قوله تعالى بعده: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى (١١٩) يعني احذر من عدوك أن يخرجك من دار الراحة التي يضمن لك فيها الشبع والري، والكسوة والسكن. قال الزمخشري: وهذه الأربعة هي الأقطاب التي يدور عليها كفاف الإنسان، فذكره استجماعاً له في الجنة، وأنه مكفي لا يحتاج إلى كفاية كاف، ولا إلى كسب كاسب كما يحتاج إلى ذلك أهل الدنيا. وذكرها بلفظ النفي لنقائضها التي هي الجوع والعري والظمأ والضحو؛ ليطرق سمعه بأسامي أصناف الشقوة التي حذر منها، حتى يتحامي السبب الموقع فيها كراهة لها، اهـ.

فقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ (١١٨)؛ قرينة واضحة على أن الشقاء المحذر منه تعب الدنيا في كد المعيشة ليدفع به الجوع والظمأ والعري والضحاء. والجوع معروف، والظمأ: العطش. والعري بالضم: خلاف اللبس.

وقوله: ﴿وَلَا تَصْحَى﴾ أي لا تصير بارزاً للشمس، ليس لك ما تستكن فيه من حرها، تقول العرب: ضحى يضحى، كرضي يرضى. وضحى يضحى كسعى يسعى إذا كان بارزاً لحر الشمس ليس له ما يكتنه منه. ومن هذا المعنى قول عمر بن أبي ربيعة: رأت رجلاً أيماً إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشي فيخصر

وقول الآخر:

ضحيت له كي أستظل بظله إذا الظل أضحى في القيامة قالصا

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة ما عدا نافعاً وشعبة عن عاصم ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ﴾ بفتح همزة «أن»، والمصدر المنسبك من «أن» وصلتها معطوف على المصدر المنسبك من «أن» وصلتها في قوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ﴾ أي وإن لك أنك لا تظمأ فيها ولا تضحى. ويجوز في المصدر المعطوف المذكور النصب والرفع، كما أشار إلى ذلك في الخلاصة بقوله:

وجائز زفيعك معطوفاً على منصوب إن بعد أن تستكملا

وإيضاح تقدير المصدرين المذكورين: إن لك عدم الجوع فيها، وعدم الظمأ.

تنبيه: أخذ بعض العلماء من هذه الآية الكريمة وجوب نفقة الزوجة على زوجها؛ لأن الله لما قال: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ﴾؛ بخطاب شامل لآدم وحواء، ثم خص آدم بالشقاء دونها في قوله: ﴿فَتَشَقَّجُ﴾ دل ذلك على أنه هو المكلف بالكد عليها وتحصيل لوازم الحياة الضرورية لها: من مطعم، ومشرب، وملبس، ومسكن.

قال أبو عبد الله القرطبي رحمته في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه: وإنما خصه بذكر الشقاء ولم يقل: فتشقى يعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج، فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج. فلما كانت نفقة حواء على آدم كذلك نفقات بناتها على بني آدم بحق الزوجية. وأعلمنا في هذه الآية: أن النفقة التي تجب للمرأة على زوجها هذه الأربعة: الطعام، والشراب، والكسوة، والمسكن. فإذا أعطاهها هذه الأربعة فقد خرج إليها من نفقتها، فإن تفضل بعد ذلك فهو مأجور. فأما هذه الأربعة فلا بد لها منها؛ لأن بها إقامة المهجة، اه منه.

وذكر في قصة آدم أنه لما أهبط إلى الأرض أهبط إليه ثور أحمر وحبات من الجنة، فكان يحرق على ذلك الثور ويمسح للعرق عن جبينه وذلك من الشقاء المذكور في الآية. والظاهر أن الذي في هذه الآية الكريمة من البديع المعنوي في اصطلاح البلاغيين، هو ما يسمى «مراعاة النظير»، ويسمى «التناسب والائتلاف». والتوفيق والتلفيق؛ فهذه كلها أسماء لهذا النوع من البديع المعنوي. وضابطه: أنه جمع أمر وما يناسبه لا بالتضاد كقوله تعالى: ﴿الْقَمَرُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٦٥﴾ [الرحمن]، فإن الشمس والقمر متناسبان لا بالتضاد. وكقول البحري يصف الإبل الأنشاء المهازيل، أو الرماح:

كالقسي المعطفات بل الأسهم مبرية بل الأوتار

وبين الأسهم والقسي المعطفات والأوتار مناسبة في الرقة وإن كان بعضها أرق من بعض، وهي مناسبة لا بالتضاد. وكقول ابن رشيق:

أصح وأقوى ما سمعناه في الندي من الخبر المأثور منذ قديم

أحاديث ترويحها السيول عن الحيا عن البحر عن كف الأمير تميم

فقد ناسب بين الصحة والقوة، والسماع والخبر المأثور، والأحاديث والرواية، وكذا ناسب بين السيل والحيا وهو المطر، والبحر وكف الأمير تميم، وكقول أسيد بن عتقاء الفزاري:

كأن الثريا علقت في جبينه وفي خده الشعري وفي وجهه البدر

فقد ناسب بين الثريا والشعري والبدر، كما ناسب بين الجبين والوجنة والوجه، وأمثلة هذا النوع كثيرة معروفة في فن البلاغة.

وإذا علمت هذا فاعلم أنه - جل وعلا - ناسب في هذه الآية الكريمة في قوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾؛ بين نفي الجوع المتضمن لنفي الحرارة الباطنية والألم الباطني الوجداني، وبين نفي العري المتضمن لنفي الألم الظاهري عن أذى الحر والبرد، وهي مناسبة لا بالتضاد، كما أنه تعالى ناسب في قوله: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾؛ بين نفي الظمأ المتضمن لنفي الألم الباطني الوجداني الذي يسببه الظمأ، وبين نفي الضحي المتضمن لنفي الألم الظاهري الذي يسببه حر الشمس ونحوه كما هو واضح.

بما ذكرنا تعلم أن قول من قال: إن في الآية المذكورة ما يسمى قطع النظر عن النظر، وأن الغرض من قطع النظر عن النظر المزعوم تحقيق تعداد هذه النعم وتكثيرها؛ لأنه لو قرن النظر بنظيره لأوهم أن المعدودات نعمة واحدة، ولهذا قطع الظمأ عن الجوع، والضحو عن الكسوة، مع ما بين ذلك من التناسب. وقالوا: ومن قطع النظر المذكور قول امرئ القيس:

كأنني لم أركب جنوداً للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم أسب الزق الروي ولم أقل لخيلي كري كرة بعد إجحاف

فقطع ركوب الجنود من قوله: «لخيلي كري كرة» وقطع «تبطن الكاعب» عن شرب «الزق الروي» مع التناسب في ذلك. وغرضه أن يعدد ملاذه ومفاخره ويكثرها، كله كلام لا حاجة له لظهور المناسبة بين المذكورات في الآية كما أوضحنا، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَذَكَّرُ أَلْأَنْكَ عَلَى شَجَرَةِ الْجَنَّةِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ﴾، الوسوسة والوسواس: الصوت الخفي. ويقال لهمس الصائد والكلاب، وصوت الحلي: وسواس. والوسوس بكسر الواو الأولى مصدر، وفتحتها الاسم، وهو أيضاً من أسماء الشيطان، كما في قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس] ويقال لحديث النفس: وسواس ووسوسة. ومن إطلاق الوسواس على صوت الحلي قول الأعشى:

تسمع للحلي وسواساً إذا انصرفت كما استعان بريح عشرق زجل
ومن إطلاقه على همس الصائد قول ذي الرمة:

فبات يشئزه ثأد ويسهره تذبّ الرّيح والوسواس والهضب
وقول رؤبة:

وسوس يدعو مخلصاً رب الفلق سرا وقد أون تأوين العقق
في الزرب لو يمضغ شرباً ما بصق

وإذا علمت ذلك، فاعلم أن قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾؛ أي كلمه كلاماً خفياً فسمعه منه آدم وفهمه. والدليل على أن الوسوسة

المذكورة في هذه الآية الكريمة كلام من إبليس سمعه آدم وفهمه أنه فسر الوسوسة في هذه الآية بأنها قول، وذلك في قوله: ﴿فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادُمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ الآية. فالقول المذكور هو الوسوسة المذكورة. وقد أوضح هذا في سورة «الأعراف» وبين أنه وسوس إلى حواء أيضاً مع آدم، وذلك في قوله: ﴿فَوَسَّسَ لَهَا الشَّيْطَانُ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ﴿فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٠ - ٢٢]؛ لأن تصريحه تعالى في آية «الأعراف» هذه بأن إبليس قاسمهما؛ أي حلف لهما على أنه ناصح لهما فيما ادعاه من الكذب دليل واضح على أن الوسوسة المذكورة كلام مسموع. واعلم أن في وسوسة الشيطان إلى آدم إشكالاً معروفاً، وهو أن يقال: إبليس قد أخرج من الجنة صاغراً مذموماً مدحوراً، فكيف أمكنه الرجوع إلى الجنة حتى وسوس لآدم؟ والمفسرون يذكرون في ذلك قصة الحية، وأنه دخل فيها فأدخلته الجنة، والملائكة الموكلون بها لا يشعرون بذلك. وكل ذلك من الإسرائيليات. والواقع أنه لا إشكال في ذلك، لإمكان أن يقف إبليس خارج الجنة قريباً من طرفها بحيث يسمع آدم كلامه وهو في الجنة، وإمكان أن يدخله الله إياها لامتحان آدم وزوجه، لا لكرامة إبليس. فلا محال عقلاً في شيء من ذلك. والقرآن قد جاء بأن إبليس كلم آدم، وحلف له حتى غره وزوجه بذلك.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ أضاف الشجرة إلى الخلد وهو الخلود؛ لأن من أكل منها يكون في زعمه الكاذب خالداً لا يموت ولا يزول، وكذلك يكون له في زعمه ملك لا يبلى أي لا يفنى ولا ينقطع. وقد قدمنا أن قوله هنا: ﴿وَمَنْ لَّا يَبْلُ﴾ يدل لمعنى قراءة من قرأ (إلا أن تكونا ملكين) بكسر اللام. وقوله: ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]، هو معنى قوله في «طه»: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾.

والحاصل أن إبليس لعنه الله كان من جملة ما وسوس به إلى آدم وحواء أنهما إن أكلا من الشجرة التي نهاهما الله عنها نالا الخلود والملك، وصارا ملكين، وحلف لهما أنه ناصح لهما في ذلك. يريد لهما الخلود والبقاء والملك فدلّاهما بغرور. وفي القصة: أن آدم لما سمعه يحلف بالله اعتقد من شدة تعظيمه لله أنه لا يمكن أن يحلف به أحد على الكذب، فأنساه ذلك العهد بالنهي عن الشجرة.

تنبيه: في هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أن يقال: كيف عدى فعل الوسوسة في «طه» بالي في قوله: ﴿فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾؛ مع أنه عداه في «الأعراف» باللام في قوله: ﴿فَوَسَّسَ لَهَا الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ٢٠]، وللعلماء عن هذا السؤال أجوبة: أحدها: أن حروف الجر يخلف بعضها بعضاً، فاللام تأتي بمعنى إلى كعكس ذلك.

قال الجوهري في صحاحه: وقوله تعالى: ﴿فَوَسَّسَ لَهَا الشَّيْطَانُ﴾ يريد إليهما، ولكن العرب توصل بهذه الحروف كلها الفعل، اهـ. وتبعه ابن منظور في اللسان. ومن

الأجوبة عن ذلك: إرادة التضمين، قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: فإن قلت: كيف عدى «وسوس» تارة باللام في قوله: ﴿وَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ وأخرى بـ«إلى»؟ قلت: وسوسة الشيطان كلوله الثكلي، ووعوة الذئب، ووقوة الدجاجة، في أنها حكايات للأصوات، وحكمها حكم صوت وأجرس؛ ومنه وسوس المبرسم وهو موسوس بالكسر والفتح لحن. وأنشد ابن الأعرابي:

وسوس يدعو مخلصا رب الفلق

فإذا قلت: وسوس له؛ فمعناه لأجله، كقوله:

أجرس لها يا ابن أبي كباش فما لها الليلة من إنفاس

غير السرى وسائق نجاش

ومعنى: ﴿وَسْوَسَ إِلَيْهِ﴾ أنهى إليه الوسوسة، كقوله: حدث إليه وأسر إليه، اه منه. وهذا الذي أشرنا إليه هو معنى الخلاف المشهور بين البصريين والكوفيين في تعاقب حروف الجر؛ وإتيان بعضها مكان بعض هل هو بالنظر إلى التضمين، أو لأن الحروف يأتي بعضها بمعنى بعض؟ وسنذكر مثالا واحداً من ذلك يتضح به المقصود؛ فقوله تعالى مثلاً: ﴿وَصَرَّتْهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾... الآية [الأنبياء: ٧٧]، على القول بالتضمين. فالحرف الذي هو «من» وارد في معناه لكن «نصر» هنا مضمنة معنى الإنجاء والتخلص، أي أنجيناها وخلصناه من الذين كذبوا بآياتنا. والإنجاء مثلاً يتعدي بمن. وعلى القول الثاني ف«نصر» وارد في معناه، لكن «من» بمعنى على، أي نصرناه على القوم الذين كذبوا الآية، وهكذا في كل ما يشاكله.

وقد قدمنا في سورة «الكهف» أن اختلاف العلماء في تعيين الشجرة التي نهى الله آدم عن الأكل منها اختلاف لا طائل تحته، لعدم الدليل على تعيينها، وعدم الفائدة في معرفة عينها. وبعضهم يقول: هي السنبلة. وبعضهم يقول: هي شجرة الكرم. وبعضهم يقول: هي شجرة التين، إلى غير ذلك من الأقوال.

قوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْءُ تُهْمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾، الفاء في قوله: ﴿فَأَكَلَا﴾ تدل على أن سبب أكلهما هو وسوسة الشيطان المذكورة قبله في قوله: ﴿وَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾؛ أي فأكلا منها بسبب تلك الوسوسة. وكذلك الفاء في قوله: ﴿فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْءُ تُهْمَا﴾؛ تدل على أن سبب ذلك هو أكلهما من الشجرة المذكورة، فكانت وسوسة الشيطان سبباً للأكل من تلك الشجرة، وكان الأكل منها سبباً لبدو سوء أتهما. وقد تقرر في الأصول في مسلك (الإيماء والتنبيه) أن الفاء تدل على التعليل كقولهم: سها فسجد، أي لعله سهوه. وسرق فقطعت يده، أي لعله سرقته، كما قدمناه مراراً، وكذلك قوله هنا: ﴿وَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّخِذُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبَلُغُ﴾ ﴿١٢٠﴾ فأكلا منها؛ أي بسبب تلك الوسوسة فبدت لهما

سوءاتهما، أي بسبب ذلك الأكل، ففي الآية ذكر السبب وما دلت عليه الفاء هنا كما بينا من أن وسوسة الشيطان هي سبب ما وقع من آدم وحواء جاء مبيناً في مواضع من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦]، فصرح بأن الشيطان هو الذي أزلهما. وفي القراءة الأخرى «فأزالهما» وأنه هو الذي أخرجهما مما كانا فيه، أي من نعيم الجنة، وقوله تعالى: ﴿يَنْبَغِيءَ آدَمَ لَا يَفْنَيْتَكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقوله: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

وما ذكره - جلّ وعلا - في آية «طه» هذه من ترتب بدو سوءاتهما على أكلهما من تلك الشجرة أوضحه في غير هذا الموضع، كقوله في «الأعراف»: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقوله فيها أيضاً: ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقد دلت الآيات المذكورة على أن آدم وحواء كانا في ستر من الله يستتر به سوءاتهما، وأنهما لما أكلتا من الشجرة التي نهاهما ربهما عنها انكشف ذلك الستر بسبب تلك الزلة، فبدت سوءاتهما أي عوراتهما. وسميت العورة سوءة؛ لأن انكشافها يسوء صاحبها، وصاروا يحاولان ستر العورة بورق شجر الجنة، كما قال هنا: ﴿وَطُفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾، وقال في «الأعراف»: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطُفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾... الآية [الأعراف: ٢٢].

وقوله: ﴿وَطُفِقَا﴾ أي شرعاً؛ فهي من أفعال الشرع، ولا يكون خبر أفعال الشرع إلا فعلاً مضارعاً غير مقترن بـ«أن» وإلى ذلك أشار في الخلاصة بقوله:

وترك أن مع ذي الشرع وجبا

كأنشأ السائق يحدو وطفق كذا جعلت وأخذت وعلق

فمعنى قوله: ﴿وَطُفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، أي شرعاً يلزقان عليهما من ورق الجنة بعضه ببعض ليستترا به عوراتهما. والعرب تقول: خصف النعل يخصفها: إذا خرزها. وخصف الورق على بدنه: إذا ألزقها وأطبقها عليه ورقة ورقة. وكثير من المفسرين يقولون: إن ورق الجنة التي طفق آدم وحواء يخصفان عليهما منه إنه ورق التين، والله تعالى أعلم.

واعلم أن الستر الذي كان على آدم وحواء، وانكشف عنهما لما ذاقا الشجرة اختلف العلماء في تعيينه.

فقال جماعة من أهل العلم: كان عليهما لباس من جنس الظفر؛ فلما أكلتا من الشجرة أزاله الله عنهما إلا ما أبقي منه على رؤوس الأصابع. وقال بعض أهل العلم: كان لباسهما نوراً يستتر الله به سوءاتهما. وقيل: لباس من ياقوت، إلى غير ذلك من

الأقوال. وهو من الاختلاف الذي لا طائل تحته، ولا دليل على الواقع فيه كما قدمنا كثيراً من أمثلة ذلك في سورة «الكهف». وغاية ما دل عليه القرآن أنهما كان عليهما لباس يسترهما الله به؛ فلما أكلتا من الشجرة نزع عنهما فبدت لهما سوءاتهما. ويمكن أن يكون اللباس المذكور الظفر أو النور، أو لباس التقوى، أو غير ذلك من الأقوال المذكورة فيه.

وأسند - جلّ وعلا - إبداء ما ووري عنهما من سوءاتهما إلى الشيطان قوله: ﴿لِيُذَيِّقَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠]، كما أسند له نزع اللباس عنهما في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُ أَخْرَجَ أَوْيَظَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٧]، لأنه هو المتسبب في ذلك بوسوسته وتزيينه كما قدمناه قريباً، وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أن يقال: كيف جعل سبب الزلة في هذه الآية وهو وسوسة الشيطان مختصاً بآدم دون حواء في قوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ مع أنه ذكر أن تلك الوسوسة سببت الزلة لهما معاً كما أوضحناه.

والجواب ظاهر، وهو أنه بين في «الأعراف» أنه وسوس لحواء أيضاً مع آدم في القصة بعينها في قوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ٢٠]، فبينت آية «الأعراف» ما لم تبينه آية «طه» كما ترى، والعلم عند الله تعالى.

مسألة: أخذ بعض أهل العلم من هذه الآية الكريمة وجوب ستر العورة؛ لأن قوله: ﴿وَطُفُّوا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ رَقِّ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، يدل على قبح انكشاف العورة، وأنه ينبغي بذل الجهد في سترها. قال القرطبي رحمه الله في تفسيره في سورة «الأعراف» ما نصه: وفي الآية دليل على قبح كشف العورة، وأن الله أوجب عليهما الستر؛ ولذلك ابتدرا إلى سترها، ولا يمتنع أن يؤمرا بذلك في الجنة كما قيل لهما: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥]. وقد حكى صاحب البيان عن الشافعي: أن من لم يجد ما يستر به عورته إلا ورق الشجر لزمه أن يستتر بذلك؛ لأنه سترة ظاهرة، عليه التستر بها كما فعل آدم في الجنة. والله أعلم، انتهى كلام القرطبي.

ووجوب ستر العورة في الصلاة مجمع عليه بين المسلمين. وقد دلت عليه نصوص من الكتاب والسنة، كقوله تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وكبعثه ﷺ من ينادي عام حج أبي بكر بالناس عام تسع: «ألا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان». وكذلك لا خلاف بين العلماء في منع كشف العورة أمام الناس، وسيأتي بعض ما يتعلق بهذا إن شاء الله في سورة «النور».

فإن قيل: لم جمع السوءات في قوله: ﴿سَوْءَاتِهِمَا﴾ مع أنهما سؤاتان فقط؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن آدم وحواء كل واحد منهما له سوءتان: القبل والدبر، فهي أربع، فكل منهما يرى قبل نفسه وقبل الآخر، ودبره، وعلى هذا فلا إشكال في الجمع.

الوجه الثاني: أن المثنى إذا أضيف إليه شيان هما جزاءه جاز في ذلك المضاف الذي هو شيان الجمع والتثنية، والإفراد، وأفصحها الجمع، فالإفراد، فالتثنية على الأصح، سواء كانت الإضافة لفظاً أو معنى. ومثال اللفظ: شويت رؤوس الكبشين أو رأسهما أو رأسيهما، ومثال المعنى: قطعت من الكبشين الرؤوس، أو الرأس، أو الرأسين. فإن فرق المثنى المضاف إليه فالمختار في المضاف الإفراد، نحو: ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨]. ومثال جمع المثنى المضاف المذكور الذي هو الأفصح قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَعَتَ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحریم: ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، ومثال الإفراد قول الشاعر:

حمامة بطن الواديين ترنمي سقاك من الغر الغوادي مطيرها
ومثال التثنية قول الراجز:

ومهمهين قذفين مرتين ظهراهما مثل ظهور الترسين
وللضامات الراجعة إلى المضاف المذكور المجموع لفظاً وهو مثنى معنى يجوز فيها الجمع نظراً إلى اللفظ، والتثنية نظراً إلى المعنى، فمن الأول قوله:
خليلي لا تهلك نفوسكما أسي فإن لها فيما به دهيت أسي
ومن الثاني قوله:

قلوبكما يغشاهما الأمن عادة إذا منكما الأبطال يغشاهم الذعر
الوجه الثالث: ما ذهب إليه مالك بن أنس من أن أقل الجمع اثنان. قال في (مراقي السعود):

أقل معنى الجمع في المشتهر الاثنان في رأى الإمام الحميري
وأما إن كان الاثنان المضافان منفصلين عن المثنى المضاف إليه، أي كانا غير جزءيه فالقياس الجمع وفاقاً للفراء، كقولك: ما أخرجكما من بيوتكما، وإذا أوتيتما إلى مضاجعكما، وضرباه بأسياهما، وسألنا عن إنفاقهما على أزواجهما، ونحو ذلك.
قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾.

المعصية خلاف الطاعة. فقوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ﴾ أي لم يطعه في اجتناب ما نهاه عنه من قربان تلك الشجرة.

وقوله: ﴿فَغَوَى﴾ الغي: الضلال، وهو الذهاب عن طريق الصواب، فمعنى الآية: لم يطع آدم ربه فأخطأ طريق الصواب بسبب عدم الطاعة، وهذا العصيان والغى بين الله - جلّ وعلا - في غير موضع من كتابه أن المراد به أن الله أباح له أن يأكل هو وامرأته من الجنة رغداً حيث شاءا، ونهاهما أن يقربا شجرة معينة من شجرها؛ فلم يزل الشيطان يوسوس لهما ويحلف لهما بالله إنه لهما لناصح، وإنهما إن أكلا منها نالا الخلود والملك الذي لا يبلى، فخدعهما بذلك كما نصّ الله على ذلك في قوله:

﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ١٢١ ﴿فَلَنُكَلِّمَهُمَا بِقُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢١ - ٢٢] فأكلا منها، وكان بعض أهل العلم يقول: من خادعنا بالله خدعنا؛ وهو مروى عن عمر. وفي حديث أبي هريرة عند أبي داود والترمذي والحاكم: «المؤمن غر كريم، والفاجر خب لئيم». وأنشد لذلك نبطويه:

إن الكريم إذا تشاء خدعته وترى اللئيم مجرباً لا يخدع

فَآدَمَ ﷺ ما صدرت منه الزلة إلا بسبب غرور إبليس له. وقد قدمنا قول بعض أهل العلم: إن آدم من شدة تعظيمه لله اعتقد أنه لا يمكن أن يحلف به أحد وهو كاذب، فأنساه حلف إبليس بالله العهد بالنهي عن الشجرة. وقول بعض أهل العلم: إن معنى قوله: ﴿فَقَوَّيْ﴾ أي فسد عليه عيشه بنزوله إلى الدنيا.

قالوا: والغى: الفساد، خلاف الظاهر وإن حكاه النقاش واختاره القشيري واستحسنه القرطبي. وكذلك قول من قال: ﴿فَقَوَّيْ﴾ أي بشم من كثرة الأكل. والبشم: التخمّة، فهو قول باطل. وقال فيه الزمخشري في الكشاف: وهذا وإن صح على لغة من يقلب الياء المكسورة ما قبلها ألفاً فيقول في فني وبقي، فنا وبقا، وهم بنو طيء، تفسير خبيث، اه منه. وما أشار إليه الزمخشري من لغة طيء معروف؛ فهم يقولون للجارية: جارة، وللناصية ناصاة، ويقولون في بقي: بقي، كرمى. ومن هذه اللغة قول الشاعر: لعمرك لا أخشى التصعلك ما بقي على الأرض قيسي يسوق الأباعرا

وهذه اللغة التي ذكرها الزمخشري لا حاجة لها في التفسير الباطل المذكور؛ لأن العرب تقول: غوى الفصيل كرمى وكرمى: إذا بشم من اللبن.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَعَصَى آدَمُ﴾ يدل على أن معنى «غوى» ضل عن طريق الصواب كما ذكرنا. وقد قدمنا أن هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن هي حجة من قال بأن الأنبياء غير معصومين من الصغائر. وعصمة الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - مبحث أصولي لعلماء الأصول فيه كلام كثير واختلاف معروف، ومن أراد الوقوف على طرف منه يرجع إلى الأصل وخلاصة رأي الشيخ فيه:

أن الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - لم يقع منهم ما يزرى بمراتبهم العلية، ومناصبهم السامية. ولا يستوجب خطأ منهم ولا نقصاً فيهم - صلوات الله وسلامه عليهم - ولو فرضنا أنه وقع منهم بعض الذنوب لأنهم يتداركون ما وقع منهم بالتوبة، والإخلاص، وصدق الإنابة إلى الله حتى ينالوا بذلك أعلى الدرجات، فتكون بذلك درجاتهم أعلى من درجة من لم يرتكب شيئاً من ذلك، ومما يوضح هذا قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَّى﴾ ١٢٢ ﴿لَحَبْنَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ ١٢٣؛ فانظر أي أثر يبقى للعصيان والغى بعد توبة الله عليه، واجتباؤه أي اصطفاؤه إياه، وهدايته له، ولا شك أن بعض الزلات ينال صاحبها بالتوبة منها درجة أعلى من درجته قبل ارتكاب تلك الزلة، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَعْيَنَ رَبُّهُ فَبَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾. الاجتباء: الاصطفاء والاختيار؛ أي ثم بعد ما صدر من آدم بمهلة اصطفاه ربه واختاره فتاب عليه وهداه إلى ما يرضيه. ولم يبين هنا السبب لذلك، ولكنه بين في غير هذا الموضع أنه تلقى من ربه كلمات فكانت سبب توبة ربه عليه، وذلك في قوله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، أي بسبب تلك الكلمات كما تدل عليه الفاء. وقد قدمنا في سورة «البقرة»: أن الكلمات المذكورة هي المذكورة في سورة «الأعراف» في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَنَا تَتَفَرِّ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾. الظاهر أن ألف الاثنين في قوله ﴿أَهْبِطُوا﴾ راجعة إلى آدم وحواء المذكورين في قوله: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾... الآية، خلافاً لمن زعم أنها راجعة إلى إبليس وادم، وأمره إياهما بالهبوط من الجنة المذكور في آية «طه» هذه جاء مبيناً في غير هذا الموضع كقوله في سورة «البقرة»: ﴿وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [٣٦]، وقوله فيها أيضاً: ﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هَذَا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وقوله في «الأعراف»: ﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾. وفي هذه الآيات سؤال معروف، وهو أن يقال: كيف جيء بصيغة الجمع في قوله: ﴿أَهْبِطُوا﴾ [البقرة: ٣٦]، في «البقرة» و«الأعراف» وبصيغة التثنية في «طه» في قوله: ﴿أَهْبِطُوا﴾ مع أنه أتبع صيغة التثنية في «طه» بصيغة الجمع في قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨]، وأظهر الأجوبة عندي عن ذلك أن التثنية باعتبار آدم وحواء فقط، والجمع باعتبارهما مع ذريتهما، خلافاً لمن زعم أن التثنية باعتبار آدم وإبليس، والجمع باعتبار ذريتهما معهما، وخلافاً لمن زعم أن الجمع في قوله: ﴿أَهْبِطُوا﴾ مراد به آدم وحواء وإبليس والحية، والدليل على أن الحية ليست مراده في ذلك هو أنها لا تدخل في قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨] لأنها غير مكلفة. وهناك جملة من أحكام قتل الحيات من أراد الوقوف عليها يرجع للأصل.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، على ما ذكرنا أنه الأظهر، فالمعنى أن بعض بني آدم عدو لبعضهم كما قال تعالى: ﴿أَوْ يَلِسْكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، ونحوها من الآيات. وعلى أن المراد بقوله: ﴿أَهْبِطُوا﴾ آدم وإبليس، فالمعنى أن إبليس وذريته أعداء لآدم وذريته؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَنَسْخَذُونَهُ وَذَرْيَتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠]، ونحوها من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هَذَا فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْغَى﴾.

الظاهر أن الخطاب لبني آدم؛ أي فإن يأتكم مني هدى أي رسول أرسله إليكم، وكتاب يأتي به رسول، فمن اتبع منكم هداي أي من آمن برسلي وصدق بكلامي، وامثل ما أمرت به، واجتنب ما نهيت عنه على السنة رسلي؛ فإنه لا يضل في الدنيا، أي لا يزيغ عن طريق الحق لاستمساكه بالعروة الوثقى، ولا يشقى في الآخرة لأنه كان في الدنيا عاملاً بما يستوجب السعادة من طاعة الله تعالى وطاعة رسله. وهذا المعنى المذكور هنا ذكر في غير هذا الموضع كقوله في «البقرة»: ﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، ونحو ذلك من الآيات. وفي هذه الآيات دليل على أن الله بعد أن أخرج أبونا من الجنة لا يرد إليها أحداً منا إلا بعد الابتلاء والامتحان بالثكاليف من الأوامر والنواهي؛ ثم يطيع الله فيما ابتلاه به؛ كما تقدمت الإشارة إليه في سورة «البقرة».

قوله تعالى: ﴿وَمَن أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾. قد قدمنا في سورة «الكهف» في الكلام على قوله: ﴿وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: ٥٧]، الآيات الموضحة نتائج الإعراض عن ذكر الله تعالى الوخيمة؛ فأغنى ذلك عن إعادته هنا، وقد قدمنا هناك أن منها المعيشة الضنك، واعلم أن الضنك في اللغة: الضيق؛ ومنه قول عترة:

إن يلحقوا أكرر وإن يستلحموا أشدد وإن يلفوا بضنك أنزل
وقوله أيضاً:

إن المنية لو تمثل مثلث مثلي إذا نزلوا بضنك المنزل

وأصل الضنك مصدر وصف به، فيستوي فيه المذكر والمؤنث والمفرد والجمع. وبه تعلم أن معنى قوله: ﴿مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أي عيشاً ضيقاً والعياذ بالله تعالى.

واختلف العلماء في المراد بهذا العيش الضيق على أقوال متقاربة، لا يكذب بعضها بعضاً. وقد قدمنا مراراً أن الأولى في مثل ذلك شمول الآية لجميع الأقوال المذكورة، ومن الأقوال في ذلك أن معنى ذلك أن الله ﷻ جعل مع الدين التسليم والقناعة، والتوكل على الله، والرضا بقسمته، فصاحبه ينفق مما رزقه الله بسمح وسهولة، فيعيش عيشاً هنيئاً. ومما يدل على هذا المعنى من القرآن قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ ... الآية [النحل: ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿وَأَن يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ تُؤْوُوا إِلَيْهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مَتَّعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ... الآية [هود: ٣]، كما تقدم إيضاح ذلك كله.

وأما المعرض عن الدين فإنه يستولي عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا مسلط عليه الشح الذي يقبض يده عن الإنفاق، فعيشه ضنك، وحاله مظلمة. ومن الكفرة من ضرب الله عليه الذلة والمسكنة بسبب كفره، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ

وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ [البقرة: ٦١]. وذلك من العيش الضنك بسبب الإعراض عن ذكر الله. وبين في مواضع آخر أنهم لو تركوا الإعراض عن ذكر الله فأتاعوه تعالى أن عيشهم يصير واسعاً ورغداً لا ضنكاً، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنْفِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَفِي تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وكقوله تعالى عن نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٢٤﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٢٥﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَمِنْ وَحْيٍ يُضَيِّقُ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢٦﴾﴾ [نوح]، وقوله تعالى عن هود: ﴿وَيَقُولُوا اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمْتُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا ﴿١١٦﴾ لَتَفْنِينَ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦، ١٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

وعن الحسن أن المعيشة الضنك: هي طعام الضريع والزقوم يوم القيامة، وذلك مذكور في آيات من كتاب الله تعالى، كقوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿١١٦﴾﴾ الآية [الغاشية]، وقوله: ﴿إِنَّ سَجَرَتِ الزَّقُّومِ ﴿١٢٤﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿١٢٥﴾﴾ الآية [الدخان]، ونحو ذلك من الآيات. وعن عكرمة والضحاك ومالك بن دينار: المعيشة الضنك: الكسب الحرام، والعمل السيئ. وعن أبي سعيد الخدري وعبد الله بن مسعود وأبي هريرة: المعيشة الضنك: عذاب القبر وضغطته. وقد أشار تعالى إلى فتنة القبر وعذابه في قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّانِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٧٧﴾﴾ [إبراهيم].

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: قد جاء عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة أن المعيشة الضنك في الآية: عذاب القبر. وبعض طرقه بإسناد جيد كما قاله ابن كثير في تفسير هذه الآية. ولا ينافي ذلك شمول المعيشة الضنك لمعيشته في الدنيا. وطعام الضريع والزقوم، فتكون معيشته ضنكاً في الدنيا والبرزخ والآخرة، والعياذ بالله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من أعرض عن ذكره يحشره يوم القيامة في حال كونه أعمى، قال مجاهد وأبو صالح والسدي أعمى أي لا حجة له. وقال عكرمة: عمى عليه كل شيء إلا جهنم. وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، ويكون في نفس الآية قرينة تدل على خلاف ذلك القول. وقد ذكرنا أمثلة متعددة لذلك. فإذا علمت ذلك، فاعلم أن في هذه الآية الكريمة قرينة دالة على خلاف قول مجاهد وأبي صالح والسدي وعكرمة، وأن المراد بقوله: ﴿أَعْمَى﴾ أي أعمى البصر لا يرى شيئاً، والقرينة المذكورة هي قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾؛ فصرح بأن عماء هو العمى المقابل للبصر وهو بصر العين؛ لأن الكافر كان في الدنيا أعمى القلب كما دلت على ذلك آيات كثيرة من كتاب الله، وقد زاد - جلّ وعلا - في

سورة «بنی اسرائیل» أنه مع ذلك العمی يحشر أصم أبكم أيضاً، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَٰ وَبَكَمَا وَصَمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

تنبيه: في آية «طه» هذه وآية «الإسراء» المذكورتين إشكال معروف، وهو أن يقال: إنهما قد دلتا على أن الكافر يحشر يوم القيامة أعمى، وزادت آية «الإسراء» أنه يحشر أبكم أصم أيضاً، مع أنه دلت آيات من كتاب الله على أن الكفار يوم القيامة يبصرون ويسمعون ويتكلمون؛ كقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَّا﴾ [مريم: ٨٣]، وقوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ [السجدة: ١٢]، إلى غير ذلك من الآيات. وقد ذكرنا في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) الجواب عن هذا الإشكال من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: واستظهره أبو حيان أن المراد بما ذكر من العمى والصمم والبكم حقيقة؛ ويكون ذلك في مبدأ الأمر ثم يرد الله تعالى إليهم أبصارهم ونطقهم وسمعهم فيرون النار ويسمعون زفيرها، وينطقون بما حكى الله تعالى عنهم في غير موضع.

الوجه الثاني: أنهم لا يرون شيئاً يسرهم، ولا يسمعون كذلك، ولا ينطقون بحجة، كما أنهم كانوا في الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ولا يسمعون. وأخرج ذلك ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس، وروي أيضاً عن الحسن كما ذكره الألوسي وغيره. وعلى هذا القول فقد نزل ما يقولونه وسمعونهم ويبصرونهم منزلة العدم لعدم الانتفاع به؛ كما أوضحناه في غير هذا الموضع. ومن المعلوم أن العرب تطلق لا شيء على ما لا نفع فيه. ألا ترى أن الله يقول في المنافقين: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمَىٰ...﴾ [البقرة: ١٨]، مع أنه يقول فيهم: ﴿فَإِنَّا ذَهَبْنَا بِأَلْسِنَتِهِمْ جَدَادِ﴾ [الأحزاب: ١٩]، ويقول فيهم: ﴿وَأَن يَقُولُوا سَمِعْنَا لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، أي لفصاحتهم وحلاوة ألسنتهم. ويقول فيهم: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٠]، وما ذلك إلا لأن الكلام ونحوه الذي لا فائدة فيه كلاً شيء؛ فيصدق على صاحبه أنه أعمى وأصم وأبكم، ومن ذلك قول قعنب ابن أم صاحب:

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا
وقول الآخر:

أصم عن الأمر الذي لا أريده وأسمع خلق الله حين أريد
وقول الآخر:

قل ما بدا لك من زور ومن كذب حلمي أصم وأذني غير صماء
ونظائر هذا كثيرة في كلام العرب من إطلاق الصمم على السماع الذي لا فائدة فيه، وكذلك الكلام الذي لا فائدة فيه، والرؤية التي لا فائدة فيها.

الوجه الثالث: أن الله إذا قال لهم: ﴿أَخْشَوْا فِيهَا وَلَا تَكْفُرُوا﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وقع بهم ذلك العمى والصمم والبكم من شدة الكرب واليأس من الفرج - قال تعالى: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَظْقُونَ﴾ [النمل: ٨٥]، وعلى هذا القول تكون الأحوال الخمسة مقدرة: أعني قوله في «طه»: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾، وقوله فيها: ﴿لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى﴾، وقوله في «الإسراء»: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وأظهرها عندي الأول. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَنَسِينَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْشِئُ﴾؛ من النسيان بمعنى الترك عمداً كما قدمنا الآيات الموضحة له في هذه السورة الكريمة في الكلام على قوله: ﴿فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يجازي المفسرفين ذلك الجزاء المذكور، وقد دل مسلك الإيماء والتنبيه على أن ذلك الجزاء لعله إسرافهم على أنفسهم في الطغيان والمعاصي، وبين في غير هذا الموضع أن جزاء الإسراف النار، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٣]، وبين في موضع آخر أن محل ذلك إذا لم ينبؤوا إلى الله ويتوبوا إليه، وذلك في قوله: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا يَقْضُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾، إلى قوله: ﴿وَأُيُوبَا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَمْ يَنَالُوا أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾... الآية [الزمر: ٥٣ - ٥٤].

قوله تعالى: ﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَشَدُّ وَأَلَمُّ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن عذاب الآخرة أشد وأبقى؛ أي أشد ألماً وأدوم من عذاب الدنيا، ومن المعيشة الضنك التي هي عذاب القيَر، وقد أوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الرعد: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٦]، إلى غير ذلك من الآيات. وقوله: ﴿أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾... الآية.

تقدم بعض الآيات الموضحة له في سورة «مريم» وسيأتي له بعد هذا - إن شاء الله - زيادة إيضاح.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مِّنَ الْبُحُورِ﴾.

أظهر الأقوال عندي في معنى هذه الآية الكريمة أن الكفار اقترحوا على عاداتهم في التعنت آية على النبوة كالعصا واليد من آيات موسى، وكناقة صالح، واقترحهم لذلك بحرف التحضيض الدال على شدة الحُض في طلب ذلك في قوله: ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا﴾ أي هلا يأتينا محمد بآية كناقة صالح، وعصا موسى، أي نطلب ذلك منه بحض وحث. فأجابهم الله بقوله: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مِّنَ الْبُحُورِ﴾ وهي هذا القرآن العظيم؛ لأنه

آية هي أعظم الآيات وأدلها على الإعجاز. وإنما عبر عن هذا القرآن العظيم بأنه بينة ما في الصحف الأولى؛ لأن القرآن برهان قاطع على صحة جميع الكتب المنزلة من الله تعالى، فهو بينة واضحة على صدقها وصحتها كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصِّلُ عَلَى بَيِّنَاتٍ لِّسِرِّهِ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل]، وقال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية على هذا التفسير الذي هو الأظهر أوضحه - جلّ وعلا - في سورة «العنكبوت» في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْأَيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَلَئِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [٥٥] أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أُنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَى لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت].

فقوله في «العنكبوت»: ﴿أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أُنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ هو معنى قوله في «طه»: ﴿أَوْلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾؛ كما أوضحنا، والعلم عند الله تعالى، ويزيد ذلك إيضاحاً الحديث المتفق عليه: «ما من نبي من الأنبياء إلا أوتي ما آمن البشر على مثله، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة». وفي الآية أقوال آخر غير ما ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى﴾ [١٣٤]. قد قدمنا في سورة «النساء» أن آية «طه» هذه تشير إلى معناها آية «القصص» التي هي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٤٧] «القصص»، وأن تلك الحجة التي يحتجون بها لو لم يأتهم نذير هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿لَئِنَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

فقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ مُرْتَبِصٍ فَتَرَصُّوا﴾.

أمر الله - جلّ وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول للكفار الذين يقترحون عليه الآيات عناداً وتعنتاً: كل منا ومنكم مرتبص، أي منتظر ما يحل بالآخر من الدوائر كالموت والغلبة. وقد أوضح في غير هذا الموضع أن ما ينتظره النبي ﷺ وأصحابه والمسلمون كله خير، بعكس ما ينتظره ويتربصه الكفار كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بَنًا إِلَّا إِحْدَى الْمُسْتَضَيِّينَ وَنَحْنُ نَرْتَبِصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا فَتَرْبِصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥١]، وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَخَدُّ مَا يُفُوقُ مَعْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمْ الدَّوَابُّ عَلَيْهِمْ ذَائِرَةُ السَّوْءِ﴾... الآية [التوبة: ٩٨]، إلى غير ذلك من الآيات، والتربص: الانتظار.

قوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَن أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار سيعلمون في ثاني حال من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى؛ أي وفق لطريق الصواب والديمومة على ذلك، وأمر نبيه أن يقول ذلك للكفار، والمعنى سيتضح لكم أنا مهتدون، وأنا على صراط مستقيم، وأنكم على ضلال وباطل. وهذا يظهر لهم يوم القيامة إذا عاينوا الحقيقة، ويظهر لهم في الدنيا لما يرونه من نصر الله لنبيه ﷺ.

وهذا المعنى الذي ذكره هنا بينه في غير هذا الموضع كقوله: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢]، وقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْآيَةُ ۖ﴾ [القمر: ٣١]، وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ نَبَأٌ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ١٠]، إلى غير ذلك من الآيات والصراط في لغة العرب: الطريق الواضح. والسوي: المستقيم، وهو الذي لا اعوجاج فيه؛ ومنه قول جرير:

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم
و«من» في قوله: ﴿مِنْ أَصْحَابٍ﴾ قال بعض العلماء: هي موصولة مفعول به لـ «يعلمون». وقال بعضهم: هي استفهامية معلقة لفعل العلم، كما قدمنا إيضاحه في «مريم» والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنبياء

قوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في أول سورة «النحل» فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْرَأُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار أخفوا النجوى فيما بينهم، قائلين: إن النبي ﷺ ما هو إلا بشر مثلهم، فكيف يكون رسولا إليهم؟ والنجوى: الإسرار بالكلام وإخفاؤه عن الناس، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من دعواهم أن بشراً مثلهم لا يمكن أن يكون رسولا، وتكذيب الله لهم في ذلك جاء في آيات كثيرة، وقد قدمنا كثيراً من ذلك كقوله: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]، وقوله: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكُفُّوا وَقُولُوا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ...﴾ الآية [التغابن: ٦]، وقوله: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ مِمَّنَّا وَحِدًا نَبِّعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِئَ ضَلَّالٍ وَشُعْرٍ﴾ [القمر: ٢٤]، وقوله: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]، وَلَيْنَ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلُكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخِثِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ

أَلْطَعَامَ وَيَتَشَى فِي الْأَنْشَاقِ ﴿٧﴾ الآية [الفرقان: ٧]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كُنَّا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾... الآية [إبراهيم: ١٠]. والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً، كما تقدم إيضاح ذلك.

وقد رد الله عليهم هذه الدعوى الكاذبة التي هي منع إرسال البشر، كقوله هنا في هذه السورة الكريمة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَتْلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً﴾ الآية [الرعد: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقوله هنا: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾﴾، إلى غير ذلك من الآيات، وجملة ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾. قيل بدل من ﴿النَّجْوَى﴾؛ أي أسروا النجوى التي هي هذا الحديث الخفي الذي هو قولهم: هل هذا إلا بشر مثلكم. وصدر به الزمخشري، وقيل: مفعول به للنجوى؛ لأنها بمعنى القول الخفي؛ أي قالوا في خفية: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، وقيل: معمول قول محذوف؛ أي قالوا: هل هذا إلا بشر مثلكم، وهو أظهرها؛ لا طراد حذف القول مع بقاء مقوله، وفي قوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أوجه كثيرة من الإعراب معروفة، وأظهرها عندي أنها بدل من الواو في قوله: ﴿وَأَسْرُوا﴾ بدل بعض من كل، وقد تقرر في الأصول أن بدل البعض من الكل من المخصصات المتصلة، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. فقوله: ﴿مَنْ﴾ بدل من «الناس» بدل بعض من كل، وهي مخصصة لوجوب الحج بأنه لا يجب إلا على من استطاع إليه سبيلاً، كما قدمنا هذا في سورة «المائدة».

قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكَ السِّحَرَ وَأَنْتَ تَبْصُرُونَ﴾. إعراب هذه الجملة جار مجرى إعراب الجملة التي قبلها، التي هي ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، والمعنى: أنهم زعموا أن ما جاء به نبينا ﷺ سحر، وبناء على ذلك الزعم الباطل أنكروا على أنفسهم إتيان السحر وهم يبصرون. يعنون بذلك تصديق النبي ﷺ، أي لا يمكن أن نصدقك وتنبعك، ونحن نبصر أن ما جئت به سحر. وقد بين - جلّ وعلا - في غير هذا الموضع أنهم ادعوا أن ما جاء به ﷺ سحر، كقوله عن بعضهم: (إن هذا إلا سحر يؤثر)، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّنٌ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات]. وقد رد الله عليهم دعواهم أن القرآن سحر بقوله هنا: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥٢﴾﴾؛ يعني أن الذي يعلم القول في السماء والأرض الذي هو السميع العليم، المحيط علمه بكل شيء، هو الذي أنزل هذا القرآن العظيم، وكون من أنزله هو العالم بكل شيء، يدل على كمال صدقه في الأخبار وعدله في الأحكام، وسلامته من جميع العيوب والنقائص، وأنه ليس بسحر. وقد أوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع: كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾... الآية

[الفرقان: ٦]، وقوله تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ مَلَكِكُمْ لَشَهِدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝﴾ [النساء]، إلى غير ذلك من الآيات. وقرأ هذا الحرف حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾ بآلف بعد القاف وفتح اللام بصيغة الفعل الماضي، وقرأه الباقون «قُلْ» بضم القاف وإسكان اللام بصيغة الأمر.

قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمٌ بَلْ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾. الظاهر أن الإضراب في قوله هنا: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمٌ﴾، إضراب انتقالي لا إبطالي؛ لأنهم قالوا ذلك كله، وقال بعض العلماء: كل هذه الأقوال المختلفة التي حكاها الله عنهم صدرت من طائفة متفقة لا يشتون على قول، بل تارة يقولون هو ساحر، وتارة شاعر، وهكذا؛ لأن المبطل لا يثبت على قول واحد. وقال بعض أهل العلم: كل واحد من تلك الأقوال قالته طائفة: كما قدمنا الإشارة إلى هذا في سورة «الحجر» في الكلام على قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ۝﴾ [الحجر]، وقد رد الله عليهم هذه الدعاوى الباطلة في آيات من كتابه كرده دعواهم أنه شاعر أو كاهن في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿١١٦﴾ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿١١٨﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿١٢٠﴾ فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَثَرِ عَثَةٍ حَنِينٍ ﴿١٢١﴾ [الحاقة]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿١٢٢﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [يس]، وقوله في رد دعواهم أنه افتراه: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نَصَدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [يونس]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [هود]، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، إلى غير ذلك من الآيات، وكقوله في رد دعواهم إنه كاهن أو مجنون: ﴿فَمَا أَنْتَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ۝﴾ [التكوير]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيَكُمْ بَرُوحِدَ أَنْ تَقُولُوا لِلَّهِ مَثْنً وَفَرْدًى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لِّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝﴾ [سبا]، وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ يُنْكَرُوا ۝﴾ [المؤمنون: ٦١] أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَثُرَتْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٦٢﴾ [المؤمنون]، إلى غير ذلك من الآيات المبينة بإبطال كل ما ادعوه في النبي ﷺ والقرآن. وقوله: ﴿أَضْغَتْ أَحْلَمٌ﴾ أي أخلاط كالأحلام المختلفة التي يراها النائم ولا حقيقة لها كما قال الشاعر:

أحاديث طسم أو سراب بفد فد تفرق للساوي وأضغات حالم

وعن البيهقي: الأضغات ما لم يكن له تأويل.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتِنَا بَيِّنَاتٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾، ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار اقترحوا على نبينا أن يأتيهم بآية كآيات الرسل قبله؛ نحو ناقة صالح، وعصا موسى، وريح سليمان، وإحياء عيسى للأموات وإبرائه الأكمه والأبرص، ونحو ذلك. وإيضاح وجه التشبيه في قوله: ﴿كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾؛ هو أنه في معنى: كما أتى الأولون بالآيات؛ لأن إرسال الرسل متضمن للإتيان بالآيات. فقولك: أرسل محمد ﷺ كقولك: أتى محمد ﷺ بالمعجزة. وقد بين تعالى أن الآيات التي اقترحوها لو جاءتهم ما آمنوا، وأنها لو جاءتهم وتمادوا على كفرهم أهلكهم الله بعذاب مستأصل؛ كما أهلك قوم صالح لما عقروا الناقة؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَالْأَوَّلُ ثَمُودَ الْأَوَّلُ ثَمُودَ الْأَوَّلُ ثَمُودَ الْأَوَّلُ ثَمُودَ الْأَوَّلُ﴾ [الإسراء: ٥٩]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وأشار إلى ذلك هنا في قوله: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِينٍ أَهْلَكَهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [١]؛ يعني أن الأمم الذين اقترحوا الآيات من قبلهم وجاءتهم رسلهم بما اقترحوا، لم يؤمنوا بل تمادوا، فأهلكهم الله وأنتم أشد منهم غتوا وعناداً؛ فلو جاءكم ما اقترحتم ما أنتم فهلكتم كما هلكوا. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْآيَاتِ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٢] وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ [يونس]، إلى غير ذلك من الآيات.

وبين أنهم جاءتهم آية هي أعظم الآيات، فيستحق من لم يكتف بها التفرع والتوبيخ وذلك في قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [٥٠ - ٥١]، وقد ذكرنا أن هذا المعنى يشير إليه قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِنَا بَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّهِ أَوْلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [طه].

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة لذلك، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [١]. بين - جلّ وعلا - في هذه الآيات أنه أرسل الرسل إلى الأمم فكذبوهم، وأنه وعد الرسل بأن لهم النصر والعاقبة الحسنة، وأنه صدق رسله ذلك الوعد فأنجاهم، وأنجى معهم ما شاء أن ينجيهم... والمراد به من آمن بهم من أممهم، وأهلك المسرفين وهم الكفار المكذبون للرسل، وقد أوضح هذا المعنى في مواضع كثيرة من كتابه كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْشَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرًا مِنْ رَبِّهِمْ وَمَنْ يَرْجُ بِأُسْنَى عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [١١٥] [يوسف]، وقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [٤٧] [إبراهيم]، وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَهَاكُنَّ أَنْظِلِيلِينَ﴾ [١١٦] وَلَنَسْجَنَكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ [إبراهيم: ١٣ - ١٤]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِإِِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ [١٦] وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْفَالِقُونَ ﴿١٧﴾ [الصافات]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود: ٦٦]، وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود: ٩٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

والظاهر أن «صدق» تتعدى بنفسها وبالحرف، تقول: صدقته الوعد، وصدقته في الوعد؛ كقوله هنا: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُ الْوَعْدَ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. فقول الزمخشري ﴿صَدَقْنَاهُ الْوَعْدَ﴾ كقوله: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥]، لا حاجة إليه، والله أعلم. والإسراف: مجاوزة الحد في المعاصي كالكفر، ولذلك يكثر في القرآن إطلاق المسرفين على الكفار.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [١١]. «كم» هنا للإخبار بعدد كثير، وهي في محل نصب لأنها مفعول ﴿قَصَمْنَا﴾؛ أي قصمنا كثيراً من القرى التي كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين، وهذا المعنى المذكور هنا جاء مبيناً في مواضع كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَانَ يَرْجَىٰ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧]، وقوله: ﴿فَكَانَ مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾... الآية [الحج: ٤٥]، وقوله: ﴿وَكَانَ مِن قَرْيَةٍ عَنَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلُهَا فَهَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا ثَقِيلًا﴾ [٨] فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ [الطلاق]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ أصل القصم: أقطع الكسر لأنه الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء، بخلاف الفصم بالفاء فهو كسر لا يبين تلاؤم الأجزاء بالكلية. والمراد بالقصم في الآية: الإهلاك الشديد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٍ﴾ [١١]. قد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة «الحجر» فأغنى ذلك عن إعادته هنا، وكذلك قوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾... الآية. قد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة «بني إسرائيل»، وكذلك الآيات التي بعد هذا قد قدمنا في مواضع متعددة ما بينها من كتاب الله.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ بَلِّ عِبَادًا مُّكْرَمُونَ﴾ [١١] لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار لعنهم الله قالوا عليه أنه اتخذ ولدًا، وقد بينا ذلك فيما مضى بياناً شافياً في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك ﷺ عما يقول الظالمون علواً كبيراً. وبين هنا بطلان ما ادعوه على ربهم من اتخاذ الأولاد وهم في زعمهم الملائكة بحرف الإضراب الإبطالي الذي هو ﴿بَلِّ﴾ مبيناً أنهم عباده المكرمون، والعبد لا يمكن أن يكون ولدًا لسيده. ثم أثنى على ملائكته بأنهم عباد مكرمون، لا يسبقون ربهم بالقول أي لا يقولون إلا ما أمرهم أن يقولوه لشدة طاعتهم له ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾.

وما أشار إليه في هذه الآية الكريمة من أن الملائكة عبيده وملكه، والعبد لا يمكن أن يكون ولداً لسيده، أشار إليه في غير هذا الموضع كقوله في «البقرة»: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَمْ يَمَسَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَدِئُونَ﴾ [البقرة]، وقوله في «النساء»: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَحْدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١]، أي والمالك بكل شيء لا يمكن أن يكون له ولد؛ لأن الملك ينافي الولدية، ولا يمكن أن يوجد شيء سواه إلا وهو ملك له - جلّ وعلا -.

وما ذكره في هذه الآية الكريمة: من الثناء الحسن على ملائكته - عليهم صلوات الله وسلامه - بينه في غير هذا الموضع؛ كقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَكُوتُ غُلَاطٍ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ كِرَامًا كَثِيرِينَ ۖ يَصْلَحُونَ مَا تَجْلُونَ﴾ [الانفطار]، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۖ يُسَبِّحُونَ أَيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

مسألة: أخذ بعض العلماء من هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن أن الأب إذا ملك ابنه عتق عليه بالملك، ووجه ذلك واضح؛ لأن الكفار زعموا أن الملائكة بنات الله؛ فنفى الله تلك الدعوى بأنهم عباده وملكه. فدل ذلك على منافية الملك للولدية، وأنهما لا يصح اجتماعهما. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْ إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَلْنُكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١١]. الضمير في قوله: ﴿وَمَنْ﴾ عائداً إلى الملائكة المذكورين في قوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ والمعنى أنهم مع كرامتهم على الله لو ادعى أحد منهم أن له الحق في صرف شيء من حقوق الله الخاصة به إليه لكان مشركاً، وكان جزاؤه جهنم. ومعلوم أن التعليق يصح فيما لا يمكن ولا يقع؛ كقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ...﴾ الآية [الزخرف: ٨١]، وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾؛ والمراد بذلك تعظيم أمر الشرك. وهذا الفرض والتقدير الذي ذكره - جلّ وعلا - هنا في شأن الملائكة، ذكره أيضاً في شأن الرسل على الجميع - صلوات الله وسلامه - قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَكَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر]، ولما ذكر - جلّ وعلا - من ذكر من الأنبياء في سورة «الأنعام» في قوله: ﴿وَمِن دُرِّيَّتِهِ دَاوُدُ﴾ [الأنعام: ٨٤]، إلى آخر من ذكر منهم، قال بعد ذلك: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْ إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَلْنُكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ...﴾ الآية، دليل قاطع على أن حقوق الله الخالصة له من جميع أنواع العبادة لا يجوز أن يصرف شيء منها لأحد ولو ملكاً مقرباً، أو نبياً مرسلأ. ومما يوضح ذلك

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِشَرِّ أَنْ يُؤْفِكَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٨﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا اللَّاتِئِمَّةَ وَالنَّبِيِّنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران]، وقوله تعالى مخاطباً لسيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه: ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ قُولُوا فَاقُولُوا شَهْدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾. قرأ هذا الحرف عامة السبعة ما عدا ابن كثير ﴿أَوَلَمْ يَرِ﴾ بواو بعد الهمزة، وقرأه ابن كثير «ألم ير الذين كفروا» بدون واو، وكذلك هو في مصحف مكة. والاستفهام لتوبيخ الكفار وتقريعهم، حيث يشاهدون غرائب صنع الله وعجائبه، ومع هذا يعبدون من دونه ما لا ينفع من عبده، ولا يضر من عصاه، ولا يقدر على شيء.

وقوله: ﴿كَانَتَا﴾ التثنية باعتبار النوعين اللذين هما نوع السماء، ونوع الأرض كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمِيطُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]، ونظيره قول عمر بن شبيب:

ألم يحزنك أن جبال قس وتغلب قد تباينتا انقطاعاً

والرتق مصدر رتقه رتقاً: إذا سده؛ ومنه الرتقاء. وهي التي انسدت فرجها، ولكن المصدر وصف به هنا ولذا أفردته ولم يقل كانتا رتقين. والفتق: الفصل بين الشيئين المتصلين، فهو ضد الرتق. ومنه قول الشاعر:

يهون عليهم إذا يغضبوا ن سخط العداة وإرغامها

ورثق الفتوق وفتق الرتو ق ونقض الأمور وإبرامها

واعلم أن العلماء اختلفوا في المراد بالرتق والفتق في هذه الآية على خمسة أقوال، بعضها في غاية السقوط، وواحد منها تدل له قرائن من القرآن العظيم:

الأول: أن معنى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ أي كانت السموات والأرض متلاصقة بعضها مع بعض، ففتقها الله وفصل بين السموات والأرض، فرفع السماء إلى مكانها، وأقر الأرض في مكانها، وفصل بينهما بالهواء الذي بينهما كما ترى.

القول الثاني: أن السموات السبع كانت رتقاً؛ أي متلاصقة بعضها ببعض، ففتقها الله وجعلها سبع سموات، كل اثنتين منها بينهما فصل، والأرضون كذلك كانت رتقاً ففتقها، وجعلها سبعاً بعضها منفصل عن بعض.

القول الثالث: أن معنى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ أن السماء كانت لا ينزل منها مطر، والأرض كانت لا ينبت فيها نبات، ففتق الله السماء بالمطر، والأرض بالنبات.

الرابع: أنهما ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾؛ أي في ظلمة لا يرى من شدتها شيء ففتقهما الله بالنور، وهذا القول في الحقيقة يرجع إلى القول الأول، والثاني.

الخامس: وهو أبعدها لظهور سقوطه: أن الرشق يراد به العدم، والفتق يراد به الإيجاد؛ أي كانتا عدماً فأوجدناهما، وهذا القول كما ترى ظاهر السقوط.

فإذا عرفت أقوال أهل العلم في هذه الآية، فاعلم أن القول الثالث منها وهو كونهما كانتا رتقاً بمعنى أن السماء لا ينزل منها مطر، والأرض لا تنبت شيئاً ففتق الله السماء بالمطر والأرض بالنبات، قد دلت عليه قرائن من كتاب الله تعالى:

الأولى: أن قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يدل على أنهم رأوا ذلك؛ لأن الأظهر في «رأى» أنها بصرية، والذي يروونه بأبصارهم هو أن السماء تكون لا ينزل منها مطر، والأرض ميتة هامدة لا نبات فيها؛ فيشاهدون بأبصارهم إنزال الله المطر، وإنباته به أنواع النبات.

القرينة الثانية: أنه أتبع ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾، والظاهر اتصال هذا الكلام بما قبله؛ أي وجعلنا من الماء الذي أنزلناه بفتقنا السماء، وأنبتنا به أنواع النبات بفتقنا الأرض كل شيء حي.

القرينة الثالثة: أن هذا المعنى جاء موضحاً في آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْرِجِّ ۝ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصُّنُوعِ ۝﴾ [الطارق]؛ لأن المراد بالرجع نزول المطر منها تارة بعد أخرى، والمراد بالصدع: انشقاق الأرض عن النبات. وكقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝﴾ [عبس]. واختار هذا القول ابن جرير وابن عطية وغيرهما للقرائن التي ذكرنا. ويؤيد ذلك كثرة ورود الاستدلال بإنزال المطر، وإنبات النبات في القرآن العظيم على كمال قدرة الله تعالى، وعظم منته على خلقه، وقدرته على البعث. والذين قالوا: إن المراد بالرتق والفتق أنهما كانتا متلاصقتين ففتقهما الله وفصل بعضهما عن بعض قالوا في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ أنها من رأى العلمية لا البصرية. وقالوا: وجه تقريرهم بذلك أنه جاء في القرآن، وما جاء في القرآن فهو أمر قطعي لا سبيل للشك فيه، والعلم عند الله تعالى.

وأقرب الأقوال في ذلك هو ما ذكرنا دلالة القرائن القرآنية عليه، وقد قال فيه الفخر الرازي في تفسيره: ورجحوا هذا الوجه على سائر الوجوه بقوله بعد ذلك: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ وذلك لا يليق إلا وللماء تعلق بما تقدم، ولا يكون كذلك إلا إذا كان المراد ما ذكرنا.

فإن قيل: هذا الوجه مرجوح؛ لأن المطر لا ينزل من السموات بل من سماء واحدة وهي سماء الدنيا.

قلنا: إنما أطلق عليه لفظ الجمع لأن كل قطعة منها سماء؛ كما يقال ثوب أخلاق، وبرمة أعشار، اه منه.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

الظاهر أن «جعل» هنا بمعنى خلق؛ لأنها متعدية لمفعول واحد. ويدل لذلك قوله تعالى في سورة «النور»: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ [النور: ٤٥].

واختلف العلماء في معنى خلق كل شيء من الماء. قال بعض العلماء: الماء الذي خلق منه كل شيء هو النطفة؛ لأن الله خلق جميع الحيوانات التي تولد عن طريق التناسل من النطفة، وعلى هذا فهو من العام المخصوص.

وقال بعض العلماء: هو الماء المعروف؛ لأن الحيوانات إما مخلوقة منه مباشرة كبعض الحيوانات التي تتخلق من الماء، وإما غير مباشرة لأن النطفة من الأغذية، والأغذية كلها ناشئة عن الماء، وذلك في الحبوب والثمار ونحوها ظاهر، وكذلك هو في اللحوم والألبان والأسمان ونحوها: لأنه كله ناشئ بسبب الماء.

وقال بعض أهل العلم: معنى خلقه كل حيوان من ماء أنه كأنما خلقه عن الماء لفرط احتياجه إليه، وقلة صبره عنه؛ كقوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ إلى غير ذلك من الأقوال. وقد قدمنا المعاني الأربعة التي تأتي لها لفظة «جعل» وما جاء منها في القرآن وما لم يجئ فيه في سورة «النحل».

وقال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه: لقائل أن يقول: كيف قال وخلقنا من الماء كل حيوان؟ وقد قال: ﴿وَالْبَنَاءَ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السُّمُورِ﴾ [الحجر]، وجاء في الأخبار: أن الله تعالى خلق الملائكة من النور، وقال تعالى في حق عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ نَخَلْنَا مِنْ الْمَاءِ الْمَمِينِ فَأَخَذْنَا بِأُذُنِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ يَبْكُ وَأَنَّهُ بَالِغٌ فِي عِلْمِهِ﴾ [المائدة: ١١٠]، وقال في حق آدم ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ طِينٍ﴾ [آل عمران: ٥٩].

والجواب: اللفظ وإن كان عاماً إلا أن القرينة المخصصة قائمة، فإن الدليل لا بد وأن يكون مشاهداً محسوساً ليكون أقرب إلى المقصود. وبهذا الطريق تخرج عنه الملائكة والجن وآدم وقصة عيسى عليه السلام؛ لأن الكفار لم يروا شيئاً من ذلك. اهـ منه.

ثم قال الرازي أيضاً: اختلف المفسرون، فقال بعضهم: المراد من قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ الحيوان فقط. وقال آخرون: بل يدخل فيه النبات والشجر؛ لأنه من الماء صار نامياً، وضار فيه الرطوبة والخضرة، والنور والثمر. وهذا القول أليق بالمعنى المقصود، كأنه تعالى قال: ففتقنا السماء لإنزال المطر، وجعلنا منه كل شيء في الأرض من النبات وغيره حياً. حجة القول الأول: أن النبات لا يسمى حياً. قلنا: لا نسلم، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠] انتهى منه أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل]. قد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة «النحل» فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [النحل]. تضمنت هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل:

الأولى: أن الله - جلّ وعلا - جعل السماء سقفاً؛ أي لأنها للأرض كالسقف للبيت.
الثانية: أنه جعل ذلك السقف محفوظاً.

الثالثة: أن الكفار معرضون عما فيها «أي السماء» من الآيات، لا يتعظون به ولا يتذكرون، وقد أوضح هذه المسائل الثلاث في غير هذا الموضع.

أما كونه جعلها سقفاً فقد ذكره في سورة «الطور» أنه مرفوع وذلك في قوله: ﴿وَالطُّورِ ۝١﴾ وَكَتَبَ مُسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍ مَّنْشُورٍ ﴿٣﴾ وَأَلَيْتَ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ [الطور].

وأما كون ذلك السقف محفوظاً فقد بينه في مواضع من كتابه، فبين أنه محفوظ من السقوط في قوله: ﴿وَيُتْسِكُّ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْكِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]، وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنْ خَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون]، على قول من قال: وما كنا عن الخلق غافلين؛ إذ لو كنا نغفل لسقطت عليهم السماء فأهلكتهم. وبين أنه محفوظ من التشقق والتفطر، لا يحتاج إلى ترميم ولا إصلاح كسائر السقوف إذا طال زمنها كقوله تعالى: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا يَنْظَرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق]، أي ليس فيها من شقوق ولا صدوع. وبين أن ذلك السقف المذكور محفوظ من كل شيطان رجيم كقوله: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [الحجر]، وقد بينا الآيات الدالة على حفظها من جميع الشياطين في سورة «الحجر».

وأما كون الكفار معرضين عما فيها من الآيات فقد بينه في مواضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف]، وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾... الآية [القمر: ٢]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١١﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ [يونس: ٩٦ - ٩٧]، وقوله: ﴿وَمَا تَعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ. قال بعض أهل العلم: كان المشركون ينكرون نبوته ﷺ ويقولون: هو شاعر يتربص به رب المنون، ولعله يموت كما مات شاعر بني فلان؛ فقال الله تعالى: قد مات الأنبياء من قبلك، وتولى الله دينه بالنصر والحيطة، فهكذا نحفظ دينك وشرعك.

وقال بعض أهل العلم: لما نعي جبريل إلى النبي ﷺ نفسه قال: «فمن لأمتي؟» فنزلت: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾؛ والأول أظهر؛ لأن السورة مكية. ومعنى الآية أن الله لم يجعل لبشر قبل نبيه الخلد؛ أي دوام البقاء في الدنيا، بل كلهم يموت.

وقوله: ﴿أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ استفهام إنكاري معناه النفي، والمعنى أنك إن مت

فهم لن يخلدوا بعدك، بل سيموتون؛ ولذلك أتبعه بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾. وما أشار إليه - جل وعلا - في هذه الآية من أنه ﷺ سيموت، وأنهم سيموتون، وأن الموت ستذوقه كل نفس أوضحه في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر]، وكقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [١٣] وَبَقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ [٧] [الرحمن]، وقوله في سورة «آل عمران»: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقوله في سورة «العنكبوت»: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِلُونِ﴾ [٥١] كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِنَّا رُجِعُونَ [٥٧] [العنكبوت]، وقوله تعالى في سورة «النساء»: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، إلى غير ذلك من الآيات. وقد قدمنا في سورة «الكهف» استدلال بعض أهل العلم بهذه الآية الكريمة على موت الخضر عليه السلام. وقال بعض أهل العلم في قوله: ﴿فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾: هو استفهام حذف أداته؛ أي أفهم الخالدون؟ وقد تقرر في علم النحو أن حذف همزة الاستفهام إذا دل المقام عليها جائز، وهو قياسي عند الأخفش مع «أم» ودونها ذكر الجواب أم لا: فمن أمثله دون «أم» ودون ذكر الجواب قول الكمي:

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب ولا لعباً مني وذو الشيب يلعب
يعني: أو ذو الشيب يلعب. وقول أبي خراش الهذلي واسمه خويلد:

رفوني وقالوا يا خويلد لم ترع فقلت وأنكرت الوجوه هم هم
يعني: أ هم هم على التحقيق. ومن أمثله دون «أم» مع ذكر الجواب قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

ثم قالوا تحبها قلت بهراً عدد النجم والحصى والتراب
يعني: أتحبها على الصحيح. وهو مع «أم» كثير جداً، وأنشد له سيبويه قول الأسود يعفر التميمي:

لعمرك ما أدري وإن كنت دارياً شعيت بن سهم أم شعيت بن منقر
يعني: أشعيت بن سهم، ومنه قول ابن أبي ربيعة المخزومي:

بدا لي منها معصم يوم جمرت وكف خضيب زيتنت ببنان
فو الله ما أدري وإنني لحاسب بسبع رميت الجمر أم بثمان
يعني: أبسبع. وقول الأخطل:

كذبتك عينك أم رأيت بنوا سط غلس الظلام من الرباب خيالا

يعني: أكذبتك عينك. كما نص سيبويه في كتابه على جواز ذلك في بيت الأخطل هذا، وإن خالف في ذلك الخليل قائلًا: إن «كذبتك» صيغة خبرية ليس فيها استفهام محذوف، وإن «أم» بمعنى «بل»؛ ففي البيت على قول الخليل نوع من أنواع البديع

المعنوي يسمى «الرجوع». وقد أوضحنا هذه المسألة وأكثرنا من شواهدا العربية في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة «آل عمران» وذكرنا أن قوله تعالى في آية «الأنبياء» هذه ﴿فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ من أمثلة ذلك، والعلم عند الله تعالى..

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَفَأَيْنَ مَتَّ﴾ قرأه نافع وحفص عن عاصم وحمزة والكسائي «مت» بكسر الميم. والباقون بضم الميم. وقد أوضحنا في سورة «مريم» وجه كسر الميم.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿أَفَأَيْنَ مَتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ يفهم منه أنه لا ينبغي للإنسان أن يفرح بموت أحد لأجل أمر دنيوي يناله بسبب موته؛ لأنه هو ليس مخلداً بعده. وروى عن الشافعي رحمه الله أنه أنشد هذين البيتين مستشهداً بهما:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للذي يبقى خلاف الذي مضى تهيأ لأخرى مثلها فكان قد
ونظير هذا قول الآخر:

فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

قوله تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾. المعنى ونختبركم بما يجب فيه الصبر من البلاء، وبما يجب فيه الشكر من النعم، وإلينا مرجعكم فجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر، وقوله ﴿فِتْنَةً﴾ مصدر مؤكد لـ «بللوكم» من غير لفظه.

وما ذكره - جلّ وعلا -: من أنه يتلى خلقه أي يختبرهم بالشر والخير قد بينه في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرُّوْنَ ۝١٧ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا نَضُرُّوْا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٨ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ۝١٩ فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢٠﴾ [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرُّوْنَ ۝٢١ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٢٢﴾ [الأعراف]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآيات الكريمة: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾ يدل على أن بلا يبلو تستعمل في الاختبار بالنعم، وبالمصائب والبلاء، وقال بعض العلماء: أكثر ما يستعمل في الشر بلا يبلو، وفي الخير أبلى يبلي. وقد جمع اللغتين في الخير قول زهير بن أبي سلمى:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

وعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْغَيْرِ﴾ قال: أي نبتليكم بالشر والخير فتنة بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأََاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار إذا رأوا النبي ﷺ ما يتخذونه إلا هزواً، أي مستهزأ به مستخفاً به، والهزؤ: السخرية، فهو مصدر وصف به. ويقولون: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ أي يعييبها وينفي أنها تشفع لكم وتقربكم إلى الله زلفى، ويقول: إنها لا تنفع من عبدها، ولا تضر من لم يعبدها، وهم مع هذا كله كافرون بذكر الرحمن، فالخطاب في قوله: ﴿وَإِذَا رَأََاكَ﴾ للنبي ﷺ. و«إن» في قوله: ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ﴾ نافية. والاستفهام في قوله: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ قال فيه أبو حيان في البحر: إنه للإنكار والتعجب.

والذي يظهر لي أنهم يريدون بالاستفهام المذكور التحقير بالنبي ﷺ، كما تدل عليه قرينة قوله: ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾. وقد تقرر في فن المعاني أن من الأغراض التي تؤدي بالاستفهام التحقير. وقال القرطبي في تفسير هذه الآية: إن جواب «إذا» هو القول المحذوف، وتقديره: وإذا رآك الذين كفروا يقولون أهذا الذي يذكر آلهتكم. وقال: إن جملة ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ جملة معترضة بين ﴿إِذَا﴾ وجوابها. واختار أبو حيان في البحر أن جواب «إذا» هو جملة ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ﴾ وقال: إن جواب «إذا» بجملة مصدرة بـ «إن» أو ما النافيتين لا يحتاج إلى الاقتران بالفاء. وقوله: ﴿يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ أي يعييبها. ومن إطلاق الذكر بمعنى العيب قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي يعييبهم. وقول عنتره:

لا تذكرني مهري وما أطعمته فيكون جلدك مثل جلد الأجر

أي لا تعيبي مهري، قاله القرطبي.

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة الذكر يكون بخير وبخلافه. فإذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد، كقولك للرجل: سمعت فلاناً يذكرك، فإن كان الذاكر صديقاً فهو ثناء، وإن كان عدواً فذم، ومنه قوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ وقوله: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ انتهى محل الغرض منه. والجملة في قوله: ﴿وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ حالية. وقال بعض أهل العلم: معنى كفرهم بذكر الرحمن هو الموضح في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان]، وقولهم: ما نعرف الرحمن إلا رحمان اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب. وقد بين ابن جرير الطبري وغيره: أن إنكارهم لمعرفتهم الرحمن تجاهل منهم ومعاندة مع أنهم يعرفون أن الرحمن من أسماء الله تعالى. قال: وقال بعض شعراء الجاهلية الجاهلاء:

ألا ضربت تلك الفتاة هجينها
وقال سلامة بن جندل الطهوي:

عجلتم علينا عجلتينا عليكم وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق

وفي هذه الآية الكريمة دلالة واضحة على سخافة عقول الكفار؛ لأنهم عاكفون على ذكر أصنام لا تنفع ولا تضر، ويسوءهم أن تذكر بسوء، أو يقال: إنها لا تشفع ولا تقرب إلى الله، وأما ذكر الله وما يجب أن يذكر به من الوحدانية فهم به كافرون لا يصدقون به، فهم أحق بأن يتخذوا هزواً من النبي ﷺ الذي اتخذوه هزواً، فإنه محق وهم مبطلون.

فإذا عرفت معنى هذه الآية الكريمة فاعلم أن هذا المعنى الذي دلت عليه جاء أيضاً مبيناً في سورة «الفرقان» في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَخَذُوكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۖ إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرْوُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضِلُّ سَبِيلًا ۖ﴾ [الفرقان: ٢١]، فتحقيرهم لعنهم الله له ﷺ المذكور في قوله في «الأنبياء»: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾؛ هو المذكور في قوله في «الفرقان»: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١]. وذكره لآلهتهم بالسوء المذكور في «الأنبياء» في قوله: ﴿يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾؛ هو المذكور في «الفرقان» في قوله: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢] أي لما يبين من معائبها، وعدم فائدتها، وعظم ضرر عبادتها.

قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [٢٧]. قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يذكر بعض العلماء في الآية قولاً ويكون في نفس الآية قرينة تدل على خلاف القول، فإذا علمت ذلك فاعلم أن في قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مِنْ عَجَلٍ﴾ فيه للعلماء قولان معروفان، وفي نفس الآية قرينة تدل على عدم صحة أحدهما، أما القول الذي دلت القرينة المذكورة على عدم صحته، فهو قول من قال: العجل الطين وهي لغة حميرية؛ كما قال شاعرهم:

البيع في الصخرة الصماء منبته والنخل ينبت بين الماء والعجل

يعني: بين الماء والطين. وعلى هذا القول فمعنى الآية خلق الإنسان من طين كقوله تعالى: ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]، وقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]. والقرينة المذكورة الدالة على أن المراد بالعجل في الآية ليس الطين قوله بعده: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٢٨]، فهذا يدل على أن المراد بالعجل هو العجلة التي هي خلاف التأني. والتثبت. والعرب تقول: خلق من كذا. يعنون بذلك المبالغة في الإنصاف؛ كقولهم: خلق فلان من كرم، وخلق فلانة من الجمال. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾

[الروم: ٥٤]، على الأظهر. ويوضح هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ مَجْبُولًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، أي ومن عجلته دعاؤه على نفسه أو ولده بالشر، قال بعض العلماء: كانوا يستعجلون عذاب الله وآياته الملجئة إلى العلم والإقرار، ويقولون متى هذا الوعد فنزل قوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ للزجر عن ذلك، كأنه يقول لهم: ليس ببدع منكم أن تستعجلوا؛ فإنكم مجبولون على ذلك، وهو طبعكم وسجيتكم، ثم وعدهم بأنه سيربهم آياته، ونهاهم أن يستعجلوا بقوله: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُون﴾؛ كما قال تعالى: ﴿سَأُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. وقال بعض أهل العلم: المراد بالإنسان في قوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ آدم، وعن سعيد بن جبير والسدي: لما دخل الروح في عيني آدم نظر في ثمار الجنة، فلما دخل جوفه اشتهى الطعام، فوثب من قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة؛ فذلك قوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾. وعن مجاهد والكلبي وغيرهما: خلق آدم يوم الجمعة في آخر النهار، فلما أحيا الله رأسه استعجل وطلب تميم نفخ الروح فيه قبل غروب الشمس. والظاهر أن هذه الأقوال ونحوها من الإسرائيليات، وأظهر الأقوال أن معنى الآية أن جنس الإنسان من طبعه العجل وعدم التأني كما بينا، والعلم عند الله تعالى.

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة: والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ها هنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول ﷺ، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم، واستعجلت ذلك، فقال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾؛ لأنه تعالى يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر؛ ولهذا قال: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ أي نقمي وحكمي، واقداري على من عصاني فلا تستعجلون. انتهى منه.

قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [٣٩]. جواب ﴿لَوْ﴾ في هذه الآية محذوف، وقد قدمنا أدلة ذلك وشواهد من «الغربية» في سورة «البقرة»، وأشرنا إليه في سورة «إبراهيم» وسورة «يوسف». ومعنى الآية الكريمة لو يعلم الكفار الوقت الذي يسألون عنه بقولهم: متى هذا الوعد؟ وهو وقت صعب شديد، تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام. فلا يقدرון على منعها ودفعها عن أنفسهم، ولا يجدون ناصراً ينصرهم، لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال، ولكن جهلهم بذلك هو الذي هونه عليهم. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من المعاني جاء مبيناً في مواضع آخر من كتاب الله تعالى.

أما إحاطة النار بهم في ذلك اليوم، فقد جاءت موضحة في آيات متعددة كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاوُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾... الآية [الأعراف: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ

النَّارَ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادُهُمْ فَأَتَقُونَ ﴿١١﴾ [الزمر]، وقوله تعالى: ﴿سَرَّابُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ تَقَعَتْ وَجُوهُهُمْ النَّارَ ﴿٥١﴾﴾ [إبراهيم]، وقوله تعالى: ﴿تَلَفَعُ وَجُوهُهُمْ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون]، إلى غير ذلك من الآيات، نرجو الله الكريم العظيم أن يعيدنا منها ومن كل ما قرب إليها من قول وعمل، إنه قريب مجيب. وما تضمنته من كونهم في ذلك اليوم ليس لهم ناصر ولا قوة يدفعون بها عن أنفسهم، جاء مبيناً في مواضع آخر كقوله تعالى: ﴿فَأَلَوْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٥﴾﴾ [الطارق]، وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿١٥﴾ بَلْ هُمْ أَلْوَمٌ مُتَسَلِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الصافات]، والآيات في ذلك كثيرة.

وما أشارت إليه هذه الآية من أن الذي هون عليهم ذلك اليوم العظيم حتى استعجلوه واستهزؤوا بمن يخوفهم منه إنما هو جهلهم به - جاء مبيناً أيضاً في مواضع آخر كقوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُمْ بَيِّنَاتٌ أَوْ تَنَارًا مَآذًا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يونس]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَوْ يَعْلَمُ﴾ قال بعض أهل العلم: هو فعل متعد، والظاهر أنها عرفانية، فهي تتعدى إلى مفعول واحد؛ كما أشار له في الخلاصة بقوله:

لعلم عرفان وظن تهمة تعدية لواحد ملتزمه

وعلى هذا فالمفعول هو قوله: ﴿حِينَ﴾؛ أي لو يعرفون حين وقوع العذاب بهم وما فيه من الفظائع لما استخفوا به واستعجلوه. وعلى هذا فالحين مفعول به لا مفعول فيه؛ لأن العلم الذي هو بمعنى المعرفة واقع على نفس الحين المذكور. وقال بعض أهل العلم: فعل العلم في هذه الآية منزل منزلة اللازم، فليس واقعاً على مفعول. وعليه فالعلم لو كان لهم علم ولم يكونوا جاهلين لما كانوا مستعجلين. وعلى هذا فالآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، والمعنى لا يستوي من عنده علم ومن لا علم عنده. وقد تقرر في فن المعاني أنه إذا كان الغرض إثبات الفعل لفاعله في الكلام المثبت، أو نفيه عنه في الكلام المنفي مع قطع النظر عن اعتبار تعلق الفعل بمن وقع عليه، فإنه يجري مجرى اللازم، كقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]؛ لأنه يراد منه أن من ثبت له صفة العلم لا يستوي هو ومن انتفت عنه، ولم يعتبر هنا وقوع العلم على معلومات من اتصف بذلك العلم. وعلى هذا القول فقوله: ﴿حِينَ لَا يَكْفُرُونَ﴾ منصوب بمضمر؛ أي حين لا يكفون عن وجههم النار يعلمون أنهم كانوا على الباطل. والأول هو الأظهر. واستظهر أبو حيان أن مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾ محذوف، وأنه هو العامل في الظرف الذي هو ﴿حِينَ﴾، والتقدير: لو يعلم الذين كفروا مجيء الموعود الذي استعجلوه حين لا يكفون لما كفروا واستعجلوا واستهزؤا.

واعلم أنه لا إشكال في قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ مع قوله: ﴿فَلَا

سَتَجِدُونَ ﴿٤١﴾ فلا يقال: كيف يقول: إن الإنسان خلق من العجل وجبل عليه، ثم ينهائهم عما خلق منه وجبل عليه؛ لأنه تكليف بمحال!؟ لأننا نقول: نعم، هو جبل على العجل، ولكن في استطاعته أن يلزم نفسه بالتأني، كما أنه جبل على حب الشهوات مع أنه في استطاعته أن يلزم نفسه بالكف عنها كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٢﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النازعات].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٤﴾﴾، في هذه الآية الكريمة تسلية للنبي ﷺ بأن إخوانه من الرسل الكرام - صلوات الله وسلامه عليهم - استهزأ بهم الكفار، كما استهزءوا به ﷺ. يعني فاصبر كما صبروا، ولك العقابة الحميدة، والنصر النهائي كما كان لهم. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من ذلك جاء موضحاً في مواضع من كتاب الله؛ كقوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّا قُضِيَ عَلَيْكَ مِنْ أَتْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَبِئْتُ بِهِمْ فُوَادِكْ﴾ [هود: ١٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالْزُكُورِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٤٦﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٧﴾﴾ [فاطر]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٨﴾﴾ [فاطر]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ﴾ أي أحاط بهم. ومادة حاق يائية العين؛ بدليل قوله في المضارع: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] ولا تستعمل هذه المادة إلا في إحاطة المكروه خاصة؛ فلا تقول: حاق به الخير بمعنى أحاط به. والأظهر في معنى الآية: أن المراد وحاق بهم العذاب الذي كانوا يكذبون به في الدنيا ويستهزئون به، وعلى هذا اقتصر ابن كثير. وقال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة: ﴿فَحَاقَ﴾ أي أحاط ودار ﴿بِالَّذِينَ﴾ كفروا و﴿سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾ وهزءوا بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي جزاء استهزائهم. والأول أظهر، والعلم عند الله تعالى، والآية تدل على أن السخرية من الاستهزاء وهو معروف.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ.....﴾

أمر الله - جلّ وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول للمعرضين عن ذكر ربهم: ﴿مَنْ يَكْفُرْكُمْ﴾ أي من هو الذي يحفظكم ويحرسكم ﴿بِاللَّيْلِ﴾ في حال نومكم ﴿وَالنَّهَارِ﴾ في حال تصرفكم في أموركم، والكلاءة بالكسر: الحفظ والحراسة؛ يقال: اذهب في كلاءة الله؛ أي في حفظه، واكتلات منهم: احترست. ومنه قول ابن هرمة:

إن سليمي والله يكلؤها ضنت بشيء ما كان يرزوها

وقول كعب بن زهير:

أنخت بعيرى واكتلات بعينه وأمرت نفسي أي أمري أفعل

و﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَنْ الرَّحْمَنُ﴾ فيها للعلماء وجهان معروفان:

أحدهما: - وعليه اقتصر ابن كثير: - أن «من» هي التي بمعنى بدل. وعليه فقوله:

﴿مَنْ الرَّحْمَنُ﴾ أي بدل الرحمن، يعني غيره. وأنشد ابن كثير لذلك قول الراجز:

جارية لم تلبس المرققا ولم تذق من البقول الفستقا

أي لم تذق بدل البقول الفستق. وعلى هذا القول فالآية كقوله تعالى: ﴿أَرْضِيْتُمْ

بِالْحَيَوَةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨] أي بدلها. ونظير ذلك من كلام العرب قول الشاعر:

أخذوا المخاض من الفصيل غلبة ظلماً ويكتب للأمير أفيلا

يعني أخذوا في الزكاة المخاض بدل الفصيل.

والوجه الثاني: أن المعنى ﴿مَنْ يَكْلُوكُمْ﴾ أي يحفظكم ﴿مَنْ الرَّحْمَنُ﴾ أي من

عذابه وبأسه. وهذا هو الأظهر عندي. ونظيره من القرآن قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَصْرِفْ

مِنْ اللَّهِ إِنَّ عَصِيئَتَهُ﴾ [هود: ٦٣]، أي من ينصرنى منه فيدفع عني عذابه. والاستفهام في

قوله تعالى: ﴿مَنْ يَكْلُوكُمْ﴾ قال أبو حيان في البحر: هو استفهام تقريع وتوبيخ. وهو

عندي يحتمل الإنكار والتقرير؛ فوجه كونه إنكارياً أن المعنى لا كالى لكم يحفظكم من

عذاب الله البتة إلا الله تعالى؛ أي فكيف تعبدون غيره. ووجه كونه تقريرياً أنهم إذا قيل

لهم: من يكلؤكم؟ اضطروا إلى أن يقرروا بأن الذي يكلؤهم هو الله؛ لأنهم يعلمون أنه

لا نافع ولا ضار إلا هو تعالى، ولذلك يخلصون له الدعاء عند الشدائد والكروب، ولا

يدعون معه غيره، كما قدمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة «الإسراء» وغيرها. فإذا

أقروا بذلك توجه إليهم التوبيخ والتقريع، كيف يصرفون حقوق الذي يحفظهم بالليل

والنهار إلى ما لا ينفع ولا يضر.

وهذا المعنى الذي أشارت إليه هذه الآية الكريمة: أنه لا أحد يمنع أحداً من

عذاب الله، ولا يحفظه ولا يحرسه من الله، وأن الحافظ لكل شيء هو الله وحده جاء

مبيناً في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ

اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، على أظهر التفسيرات، وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ

شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ الآية [الفتح: ١١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي

يَعَصُّكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَحِذُّونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَئِنْ نَصَبُوا

﴿٧﴾ ﴿لَهُ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ﴾ [الأحزاب: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ

الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ

يُحْيِي وَلَا يُكْرِئُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ تَتَعَبُّونَ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا

يُصْحَبُونَ ﴿١٣﴾ . قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة، وهي بمعنى بل والهمزة، فقد اشتملت على معنى الإضراب والإنكار، والمعنى ألهم آلهة تجعلهم في منعة وعز حتى لا ينالهم عذابنا، ثم بين أن آلهتهم التي يزعمون لا تستطيع نفع أنفسهم، فكيف تنفع غيرها بقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ . وقوله: ﴿مِنْ دُونِنَا﴾ فيه وجهان: أحدهما أنه متعلق ﴿بِالْهَةِ﴾ أي ألهم آلهة ﴿مِنْ دُونِنَا﴾ أي سوانا ﴿تَمْنَعُهُمْ﴾ مما نريد أن نفعله بهم من العذاب! كلا! ليس الأمر كذلك. الوجه الثاني أنه متعلق: «تمنعهم» لقول العرب: منعت دونه، أي كففت أذاه. والأظهر عندي الأول. ونحوه كثير في القرآن كقوله: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْ إِلَهُ مِ دُونِي﴾ الآية وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الفرقان: ٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من كون الآلهة التي اتخذوها لا تستطيع نصر أنفسهم فكيف تنفع غيرها، جاء مبيناً في غير هذا الموضع بقوله تعالى: ﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (١٦١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْتَجِيبُوكُمْ سِوَاكَ عَلَيْهِمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَادِقُونَ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٤﴾ أَلَهُمْ أَنْجُلٌ يَسْمَعُونَ بِهَا أَمْ لَّهُمْ آيَاتٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آيَاتٌ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُظِرُّونَ ﴿١٦٥﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (١٦٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَكْنَهُمْ يُظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٦٨﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ﴾ (١٦٩) إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَا يَسْمَعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ... الآية [فاطر: ١٣ - ١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ... الآية [الأحقاف: ٥]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن تلك الآلهة المعبودة من دون الله ليس فيها نفع البتة.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا بِصَحْبٍ﴾؛ أي يجارون؛ أي ليس لتلك الآلهة مجير يجيرهم منا؛ لأن الله يجير ولا يجار عليه كما صرح بذلك في سورة «قد أفلح المؤمنون» في قوله: ﴿قُلْ مَنْ يَدْعُو مِن دُونِهِ مَلَكُوتٌ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون]. والعرب تقول: أنا جار لك وصاحب من فلان؛ أي مجير لك منه. ومنه قول الشاعر:

يَنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ مُتَعَوِّذًا لِيَصْحَبَ مِنَّا وَالرِّمَاحُ دَوَانِي

يعني ليجار ويغاث منا: وأغلب أقوال العلماء في الآية راجعة إلى ما ذكرنا، كقول بعضهم ﴿يُضْحَبُونَ﴾ يمنعون. وقول بعضهم ينصرون. وقول بعضهم: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُضْحَبُونَ﴾ أي لا يصحبهم الله بخير، ولا يجعل الرحمة صاحباً لهم، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾.

الظاهر أن الإضراب بـ ﴿بَلْ﴾ في هذه الآية الكريمة انتقالي، والإشارة في قوله ﴿هَؤُلَاءِ﴾، راجعة إلى المخاطبين من قبل في قوله: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾... الآية، وهم كفار قريش، ومن اتخذ آلهة من دون الله. والمعنى أنه متع هؤلاء الكفار وآباءهم قبلهم بما رزقهم من نعم الدنيا حتى طالت أعمارهم في رخاء ونعمة، فحملهم ذلك على الطغيان واللجاج في الكفر.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أنه تعالى يمهل الكفار ويملي لهم في النعمة، وأن ذلك يزيدهم كفراً وضلالاً، جاء موضحاً في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى، كقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّنا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران]، وقوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٨٧] وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ [٨٧] [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يُبْغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [٨١] [الفرقان]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ [٩٦] وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ [٩٦] [الفرقان]، والآيات بمثل ذلك كثيرة. والعمر يطلق على مدة العيش.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

في معنى إتيان الله الأرض ينقصها من أطرافها في هذه الآية الكريمة أقوال معروفة للعلماء، وبعضها تدل له قرينة قرآنية:

قال بعض العلماء: نقصها من أطرافها: موت العلماء، وجاء في ذلك حديث مرفوع عن أبي هريرة. وبعد هذا القول عن ظاهر القرآن بحسب دلالة السياق، ظاهر كما ترى، وقال بعض أهل العلم: نقصها من أطرافها خرابها عند موت أهلها.

وقال بعض أهل العلم: نقصها من أطرافها هو نقص الأنفس والثمرات، إلى غير ذلك من الأقوال، وأما القول الذي دلت عليه القرينة القرآنية، فهو أن معنى ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي نقص أرض الكفر ودار الحرب، ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها، وردّها دار إسلام. والقرينة الدالة على هذا المعنى هي قوله بعده: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾. والاستفهام لإنكار غلبتهم. وقيل: لتقريبهم بأنهم مغلوبون لا غالبون، فقوله: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ دليل على أن نقص الأرض من أطرافها سبب لغلبة المسلمين للكفار، وذلك إنما يحصل بالمعنى المذكور، ومما يدل لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرَأِىَ الَّذِينَ كَفَرُوا نُصِيْبُهُمْ بِمَا صَعَوْا قَارِعَةً أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٣١]، على قول من قال: إن المراد بالقارعة التي تصيبهم سرايا النبي ﷺ تفتح أطراف بلادهم، أو تحل أنت يا نبي الله قريباً من دارهم. وممن يروى عنه هذا

القول: ابن عباس وأبو سعيد وعكرمة ومجاهد وغيرهم. وهذا المعنى الذي ذكر الله هنا ذكره في آخر سورة «الرعد» أيضاً في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَنزَغُ لَكُمْ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]. وقال ابن كثير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تفسير آية «الأنبياء» هذه: إن أحسن ما فسر به قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾؛ هو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَفْنَا آيَاتِنَا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧].

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: ما ذكره ابن كثير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صواب، واستقرأ القرآن العظيم يدل عليه. وعليه فالمعنى: أفلا يرى كفار مكة ومن سار سيرهم في تكذيبك يا نبي الله، والكفر بما جئت به ﴿أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١]، أي بإهلاك الذين كذبوا الرسل كما أهلكنا قوم صالح وقوم لوط، وهم يمرون بديارهم. وكما أهلكنا قوم هود، وجعلنا سبأ أحاديث ومزقناهم كل ممزق، كل ذلك بسبب تكذيب الرسل، والكفر بما جاءوا به. وهذا هو معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى﴾ [الأحقاف: ٢٧]، كقوم صالح وقوم لوط وقوم هود وسبأ، فاحذروا من تكذيب نبينا محمد ﷺ؛ لئلا ننزل بكم مثل ما أنزلنا بهم. وهذا الوجه لا ينافي قوله بعده ﴿أَفَهُمْ أَغْلِبُونَ﴾ والمعنى أن الغلبة لحزب الله القادر على كل شيء، الذي أهلك ما حولكم من القرى بسبب تكذيبهم رسلهم، وأنتم لستم بأقوى منهم، ولا أكثر أموالاً ولا أولاداً كما قال تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ [الدخان: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٢١]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

وإنذار الذين كذبوه ﷺ بما وقع لمن كذب من قبله من الرسل كثير جداً في القرآن. وبه تعلم اتجاه ما استحسنة ابن كثير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من تفسير آية «الأنبياء» هذه بآية «الأحقاف» المذكورة كما بينا.

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: فإن قلت: أي فائدة في قوله: ﴿نَأْتِي الْأَرْضَ﴾؟ قلت: فيه تصوير ما كان الله يجريه على أيدي المسلمين، وأن عساكرهم وسرايهم كانت تغزو أرض المشركين، وتأتيها غالبية عليها ناقصة من أطرافها. (اه منه)، والله - جل وعلا - أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيبًا﴾ [٤٧].

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يضع الموازين القسط ليوم القيامة؛

فتوزن أعمالهم وزناً في غاية العدالة والإنصاف: فلا يظلم الله أحداً شيئاً، وأن عمله من الخير أو الشر، وإن كان في غاية القلة والدقة كمثل حبة من خردل، فإن الله يأتي به؛ لأنه لا يخفى عليه شيء، وكفى به - جلّ وعلا - حاسباً؛ لإحاطة علمه بكل شيء.

وبين في غير هذا الموضع أن الموازين عند ذلك الوزن منها ما يخف، ومنها ما يشقل، وأن من خفت موازينه هلك، ومن ثقلت موازينه نجا كقوله تعالى: ﴿وَالْوِزَنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [٨] وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَمَا كَانُوا يَبْتَغِيْنَ بَاطِلُمُونَ ﴿٩﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَلْزِمُونَ﴾ [١٠] فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١١﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٢﴾ [المؤمنون]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿١﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٣﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٤﴾﴾ [القارعة] إلى غير ذلك من الآيات.

وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن موازين يوم القيامة موازين قسط، ذكره في «الأعراف» في قوله: ﴿وَالْوِزَنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨]؛ لأن الحق عدل وقسط. وما ذكره فيها: من أنه لا تظلم نفس شيئاً بينه في مواضع أخر كثيرة كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقد قدمنا الآيات الدالة على هذا في سورة «الكهف».

وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من كون العمل وإن كان مثقال ذرة من خير أو شر أتى به - جلّ وعلا - أوضحه في غير هذا الموضع كقوله عن لقمان مقررأ له: ﴿بَقِيَ إِنَّمَا إِنْ تَكَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنْ اللَّهُ لَظَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ﴾ جمع ميزان، وظاهر القرآن تعدد الموازين لكل شخص، لقوله: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الأعراف: ٨]، وقوله: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الأعراف: ٩]، فظاهر القرآن يدل على أن للعامل الواحد موازين يوزن بكل واحد منها. صنف من أعماله، كما قال الشاعر:

ملك تقوم الحادثات لعذله فلكل حادثة لها ميزان

والقاعدة المقررة في الأصول أن ظاهر القرآن لا يجوز العدول عنه إلا بدليل يجب الرجوع إليه. وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة: الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه. وقد قدمنا في آخر سورة «الكهف» كلام العلماء في كيفية وزن الأعمال، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وقوله في هذه الآية: ﴿أَقْسَطُ﴾ أي العدل، وهو مصدر وصف به؛ ولذا لزم إفراده، كما قال في الخلاصة:

ونعتوا بمصدر كثيراً فالتزموا الإفراد والتذكير
كما قدمنا مراراً، ومعلوم أن النعت بالمصدر يقول فيه بعض العلماء: إنه للمبالغة. وبعضهم يقول: هو بنية المضاف المحذوف، فعلى الأول كأنه بالغ في عدالة الموازين حتى سماها القسط الذي هو العدل. وعلى الثاني فالمعنى: الموازين ذوات القسط.

واللام في قوله: ﴿يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ فيها أوجه معروفة عند العلماء:
منها: أنها للتوقيت، أي الدلالة على الوقت، كقول العرب: جئت لخمس ليال بقين من الشهر، ومنه قول نابغة ذبيان:

توهمت آيات لها فعرفت لها لستة أعوام وذا العام سابع
ومنها: أنها لام كي، أي نضع الموازين القسط لأجل يوم القيامة، أي لحساب الناس فيه حساباً في غاية العدالة والإنصاف.

ومنها: أنها بمعنى في، أي نضع الموازين القسط في يوم القيامة.
والكوفيون يقولون: إن اللام تأتي بمعنى في، ويقولون: إن من ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾؛ أي في يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿لَا يُجْلَى لَوْحَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]؛ أي في وقتها. ووافقهم في ذلك ابن قتيبة من المتقدمين، وابن مالك من المتأخرين، وأنشد مستشهداً لذلك قول مسكين الدارمي:

أولئك قومي قد مضوا لسبيلهم كما قد مضى من قبل عاد وتبع
يعني مضوا في سبيلهم. وقول الآخر:

وكل أب وابن وإن عمراً معاً مقيمين مفقود لوقت وفاقد
أي في وقت.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ يجوز أن يكون ﴿شَيْئاً﴾ هو المفعول الثاني لـ ﴿تُظْلَمُ﴾ ويجوز أن يكون ما ناب عن المطلق؛ أي شيئاً من الظلم لا قليلاً ولا كثيراً. ومثقال الشيء: وزنه. والخردل: حب في غاية الصغر والدقة. وبعض أهل العلم يقول: هو زريعة الجرجير. وأنت الضمير في قوله: ﴿بِهَا﴾ وهو راجع إلى المضاف الذي هو ﴿مُثْقَالٌ﴾ وهو مذكر لاكتسابه التأنيث من المضاف إليه الذي هو: ﴿حَبَكُم مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ على حد قوله في الخلاصة:

وربما أكسب ثان أولاً تأنيثاً إن كان لحذف مؤهلاً

ونظير ذلك من كلام العرب قول عترة في معلقة:

جاد عليه كل عين ثرة
وقول الراجز:

طول الليالي أسرع في نقضي
نقضن كلي ونقضن بعضي
وقول الأعشى:

وتشرق بالقول الذي قد أذعته
كما شرقت صدر القناة من الدم
وقول الآخر:

مشين كما اهتزت رماح تسفهت
أعاليها مر الرياح النواسم
فقد أنث في البيت الأول لفظة «كل» لإضافتها إلى «عين»، وأنث في البيت الثاني لفظة «طول» لإضافتها إلى «الليالي» وأنث في البيت الثالث «الصدر» لإضافته إلى «القناة» وأنث في البيت الرابع «مر» لإضافته إلى «الرياح». والمضافات المذكورة لو حذفت لبقى الكلام مستقيماً، كما قال في الخلاصة:

إن كان لحذف مؤهلاً

وقرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا نافعاً ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِثْقَالُ حَبَّةٍ﴾ بنصب ﴿مِثْقَالُ﴾ على أنه خبر ﴿كَانَ﴾ أي وإن كان العمل الذي يراد وزنه مثقال حبة من خردل. وقرأ نافع وحده (وإن كان مثقالاً) بالرفع فاعل ﴿كَانَ﴾ على أنها تامة كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ دُو عُسْرَةٍ﴾... الآية [البقرة: ٢٨٠].

قوله تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ (٥٠). ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن العظيم ﴿ذِكْرٌ مُبَارَكٌ﴾ أي كثير البركات والخيرات؛ لأنه فيه خير الدنيا والآخرة، ثم وبخ من ينكرونه منكرأ عليهم بقوله: ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾. وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن هذا القرآن مبارك بينه في مواضع متعددة من كتابه كقوله تعالى في «الأنعام»: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَأَتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٥٥)، وقوله فيها أيضاً: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢]؛ وقوله تعالى في «ص»: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٩٦)، إلى غير ذلك من الآيات، فنرجو الله تعالى القريب المجيب أن تغمرنا بركات هذا الكتاب العظيم المبارك بتوفيق الله تعالى لنا لتدبر آياته، والعمل بما فيها من الحلال والحرام، والأوامر والنواهي، والمكارم والآداب: امتثالاً واجتناباً، إنه قريب مجيب.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ إلى قوله ﴿... أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٧٧).

قد قدمنا ما يوضح هذه الآيات إلى آخر القصة من القرآن في سورة «مريم»، فأعنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٧٨). ذكر - جل وعلا -

في هذه الآية الكريمة أن نبيه إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - لما أفحم قومه الكفرة بالبراهين والحجج القاطعة، لجأوا إلى استعمال القوة فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي بقتلكم عدوها إبراهيم شر قتلة، وهي الإحراق بالنار.

ولم يذكر هنا أنهم أرادوا قتله بغير التحريق، ولكنه تعالى ذكر في سورة «العنكبوت» أنهم ﴿قَالُوا أَتَقْتُلُونَهُ أَوْ حَرِّقُونَهُ﴾، وذلك في قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُونَهُ أَوْ حَرِّقُونَهُ﴾... الآية [العنكبوت: ٢٤].

وقد جرت العادة بأن المبطل إذا أفحم بالدليل لجأ إلى ما عنده من القوة ليستعملها ضد الحق.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي إن كنتم ناصرين آلِهَتكم نصراً مؤزرأ. فاختاروا له أقطع قتلة، وهي الإحراق بالنار. وإلا فقد فرطتم في نصرها.

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَنْتَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾. في الكلام حذف دل المقام عليه، وتقديره: قالوا حرقوه فرموه في النار، فلما فعلوا ذلك قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً، وقد بين في «الصفات» أنهم لما أرادوا أن يلقوه في النار بنوا له بنياناً ليلقوه فيه.

وفي القصة أنهم ألقوه من ذلك البنيان العالي بالمنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس (يعنون الأكراد)، وأن الله خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّبِعُوا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ قُوَّةٌ فِي الْحُجْمِ﴾ [الصفات: ٩٧]. والمفسرون يذكرون من شدة هذه النار وارتفاع لهبها، وكثرة حطبها شيئاً عظيماً هائلاً. وذكروا عن نبي الله إبراهيم أنهم لما كتفوه مجرداً ورموه إلى النار، قال له جبريل: هل لك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، وأما الله فنعم! قال: لم لا تسأله؟ قال: علمه بحالي كاف عن سؤالي.

وما ذكر الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أنه أمر النار بأمره الكوني القدري أن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم، يدل على أنه أنجاه من تلك النار؛ لأن قوله تعالى: ﴿كُونِي بَرْدًا﴾ يدل على سلامته من حرها، وقوله: ﴿وَسَلَامًا﴾ يدل على سلامته من شر بردها الذي انقلبت الحرارة إليه. وإنجاؤه إياه منها الذي دل عليه أمره الكوني القدري هنا جاء مصرحاً به في «العنكبوت» في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ [العنكبوت: ٢٤] وأشار إلى ذلك هنا بقوله: ﴿وَبَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا﴾... الآية.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ يوضحه ما قبله، فالكيد الذي أرادوه به؛ إحراقه بالنار نصراً منهم لآلهتهم في زعمهم، وجعله تعالى إياهم الأخسرين؛ أي الذين هم أكثر خسراناً لبطلان كيدهم وسلامته من نارهم.

وقد أشار تعالى إلى ذلك أيضاً في سورة «الصفات» في قوله: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصفات: ٧١]، وكونهم الأسفلين واضح لعلوه عليهم وسلامته من

شرهم، وكونهم الأخسرين؛ لأنهم خسروا الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين. وفي القصة أن الله سلط عليهم خلقاً من أضعف خلقه فأهلكهم وهو البعوض. وفيها أيضاً أن كل الدواب تطفئ عن إبراهيم النار، إلا الوزغ فإنه ينفخ النار عليه.

وقد قدمنا الأحاديث الواردة بالأمر بقتل الأوزاغ في سورة «الأنعام». وعن أبي العالية: لو لم يقل الله ﴿سَلَامًا﴾ [هود: ٦٩]، لكان بردها أشد عليه من حرها، ولو لم يقل ﴿عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ لكان بردها باقياً إلى الأبد. وعن علي وابن عباس رضي الله عنهما لو لم يقل ﴿وَسَلَامًا﴾ لمات إبراهيم من بردها. وعن السدي: لم تبق في ذلك اليوم نار إلا طفئت. وعن كعب وقتادة: لم تحرق النار من إبراهيم إلا وثاقه. وعن المنهال بن عمرو: قال إبراهيم ما كنت أياماً قط أنعم مني في الأيام التي كنت فيها في النار. وعن شعيب الحماني: أنه ألقى في النار وهو ابن ست عشر سنة. وعن ابن جريج: ألقى فيها وهو ابن ست وعشرين. وعن الكلبي: بردت نيران الأرض جميعاً، فما أنضجت ذلك اليوم كراعاً. وذكروا في القصة أن نمرود أشرف على النار من الصرح فرأى إبراهيم جالساً على السرير يؤنسه ملك الظل، فقال: نعم الرب ربك، لأقربن له أربعة آلاف بقرة، وكف عنه. وكل هذا من الإسرائيليات. والمفسرون يذكرون كثيراً منها في هذه القصة وغيرها من قصص الأنبياء.

وقال البخاري في صحيحه: حدثنا أحمد بن يونس، أراه قال: حدثنا أبو بكر عن أبي حصين عن أبي الضحى عن ابن عباس: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَعَلُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا إسرائيل عن أبي حصين عن أبي الضحى عن ابن عباس قال: كان آخر قول إبراهيم حين ألقى في النار: «حسبي الله ونعم الوكيل»، انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧١﴾، الضمير في قوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾ عائد إلى إبراهيم، قال أبو حيان في البحر المحيط: وضمن قوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾ معنى أخرجناه بنجاتنا إلى الأرض؛ ولذلك تعدى «نجيناه» بإلى، ويحتمل أن يكون ﴿إِلَى﴾ متعلقاً بمحذوف؛ أي منتهياً إلى الأرض، فيكون في موضع الحال. ولا تضمين في ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾ على هذا، والأرض التي خرجا منها هي كوثى من أرض العراق، والأرض التي خرجا إليها: هي أرض الشام، اه منه. وهذه الآية الكريمة تشير إلى هجرة إبراهيم ومعه لوط من أرض العراق إلى الشام فراراً بدينهما.

وقد أشار تعالى إلى ذلك في غير هذا الموضع كقوله في «العنكبوت»: ﴿فَقَامَنَّ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ الآية [العنكبوت: ٢٦]، وقوله في «الصفات»: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ ﴿٩٩﴾ [الصفات]، على أظهر القولين؛ لأنه فار إلى ربه بدينه من

الكفار. وقال القرطبي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ (٩٩): هذه الآية أصل في الهجرة والعزلة، وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام، وذلك حين خلصه الله من النار قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾، أي مهاجر من بلد قومي ومولدي، إلى حيث أتمكن من عبادة ربي ﴿فَإِنَّهُمْ سَيِّدِينَ﴾، فيما نويت إلى الصواب. وما أشار إليه - جلّ وعلا - من أنه بارك للعالمين في الأرض المذكورة، التي هي الشام على قول الجمهور في هذه الآية بقوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾؛ بينه في غير الموضع كقوله: ﴿وَلَسْلُمْنَا رِيحَ عَاصِفَةٍ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١]. ومعنى كونه (بارك فيها)؛ هو ما جعل فيها من الخصب والأشجار والأنهار والثمار كما قال تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]؛ ومن ذلك أنه بعث أكثر الأنبياء منها.

وقال بعض أهل العلم: ومن ذلك أن كل ماء عذب أصل متبناه من تحت الصخرة التي عند بيت المقدس، وجاء في ذلك حديث مرفوع، والظاهر أنه لا يصح. وفي قوله تعالى: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ أقوال آخر تركناها لضعفها في نظرنا.

وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الفرار بالدين من دار الكفر إلى بلد يتمكن فيه الفار بدينه من إقامة دينه واجب، وهذا النوع من الهجرة وجوبه ياق بلا خلاف بين العلماء في ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ (٧٢).

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه وهب لإبراهيم ابنه إسحاق، وابن ابنه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وأنه جعل الجميع صالحين، وقد أوضح البشارة بهما في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَاهُ قَائِمَةً فَذُكِّرَتْ بِهَا فَاسْتَرْجَاهَا يَاسْحَقُ وَمِنْ وَرَاءَهُ إِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ﴾ (٧١) [هود]، وقوله: ﴿وَيَسِّرْنَاهُ يَاسْحَقُ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٢) [الصافات]. وقد أشار تعالى في سورة «مریم» إلى أنه لما هجر الوطن والأقارب عوضه الله من ذلك قرة العين بالذرية الصالحة، وذلك في قوله: ﴿فَلَمَّا أَغْتَرَبْتُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ (٢١) [مریم].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿نَافِلَةً﴾ قال فيه ابن كثير: قال عطاء ومجاهد: نافلة عطية. وقال ابن عباس وقتادة والحكم بن عتيبة: النافلة: ولد الولد، يعني أن يعقوب ولد إسحاق.

قال مقبده - عفا الله عنه وغفر له -: أصل النافلة في اللغة: الزيادة على الأصل، ومنه النوافل في العبادات؛ لأنها زيادات على الأصل الذي هو الفرض، وولد الولد زيادة على الأصل، الذي هو ولد الصلب، ومن ذلك قول أبي ذؤيب الهذلي:

فلإن تك أنثى من معد كريمة . علينا فقد أعطيت نافلة الفضل

أي أعطيت الفضل عليها والزيادة في الكرامة علينا، كما هو التحقيق في معنى بيت أبي ذؤيب هذا، وكما شرحه به أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري في شرحه لأشعار الهذليين، وبه تعلم أن إيراد صاحب اللسان بيت أبي ذؤيب المذكور مستشهداً به؛ لأن النافلة العنيفة غير صواب، بل هو غلط، مع أن الأنفال التي هي الغنائم راجعة في المعنى إلى معنى الزيادة؛ لأنها زيادة تكريم أكرم الله بها هذا النبي الكريم فأحلها له ولأمته، أو لأن الأموال المغنومة أموال أخذوها زيادة على أموالهم الأصلية بلا ثمن.

وقوله: ﴿نَافِلَةٌ﴾ فيه وجهان من الإعراب، فعلى قول من قال: النافلة العطية، فهو ما ناب عن المطلق من «وهبنا» أي وهبنا له إسحاق ويعقوب هبة، وعليه فالنافلة مصدر جاء بصيغة اسم الفاعل كالعاقبة والعافية. وعلى أن النافلة بمعنى الزيادة فهو حال من «يعقوب»؛ أي وهبنا له يعقوب في حال كونه زيادة على إسحاق.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ يَأْمُرُنا وَأَوْحِيَنَّا إِلَيْهِمْ فَعَلِ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عِدِينَ﴾ (٧٣). الضمير في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ يشمل كل المذكورين: إبراهيم، ولوطاً وإسحاق، ويعقوب، كما جزم به أبو حيان في البحر المحيط، وهو الظاهر.

وقد دلت هذه الآية الكريمة على أن الله جعل إسحاق ويعقوب من الأئمة، أي جعلهم رؤساء في الدين يقتدى بهم في الخيرات وأعمال الطاعات، وقوله: ﴿يَأْمُرُنا﴾ أي بما أنزلنا عليهم من الوحي والأمر والنهي، أو يهدون الناس إلى ديننا بأمرنا إياهم، بإرشاد الخلق ودعائهم إلى التوحيد.

وهذه الآية الكريمة تبين أن طلب إبراهيم الإمامة لذريته المذكور في سورة «البقرة» أجابه الله فيه بالنسبة إلى بعض ذريته دون بعضها، وضابط ذلك أن الظالمين من ذريته لا ينالون الإمامة بخلاف غيرهم؛ كإسحاق ويعقوب فإنهم ينالونها كما صرح به تعالى في قوله هنا: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً﴾، وطلب إبراهيم هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أُنْتَقَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (١٢٤). فقوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: ١٢٤]، أي واجعل من ذريتي أئمة يقتدى بهم في الخير فأجابه الله بقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، أي لا ينال الظالمين عهدي بالإمامة؛ على الأصوب، ومفهوم قوله: ﴿الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، أن غيرهم يناله عهده بالإمامة، كما صرح به هنا. وهذا التفصيل المذكور في ذرية إبراهيم أشار له تعالى في «الصافات» بقوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣]، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَوْحِيَنَّا إِلَيْهِمْ فَعَلِ الْخَيْرَاتِ﴾؛ أي أن يفعلوا الطاعات، ويأمروا الناس بفعلها، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة من جملة

الخيرات، فهو من عطف الخاص على العام، وقد قدمنا مراراً النكتة البلاغية المسوغة للإطناب في عطف الخاص على العام، وعكسه في القرآن، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وقوله: ﴿وَكَانُوا لَنَا عَدِيْبِينَ﴾؛ أي مطيعين باجتناب النواهي وامتنال الأوامر بإخلاص؛ فهم يفعلون ما يأمرهم الناس به، ويجتنبون ما ينهونهم عنه كما قال نبي الله شعيب: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ﴾... الآية [هود: ٨٨]. وقوله: ﴿أَيُّمَّةٌ﴾ معلوم أنه جمع إمام، والإمام: هو المقتدى به، ويطلق في الخير كما هنا، وفي الشر كما في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَّةً يَبْغَوْنَ إِلَىٰ الْكَافِرِ﴾... الآية [القصص: ٤١]، وما ظنه الزمخشري من الإشكال في هذه الآية ليس بواقع، كما نبه عليه أبو حيان. والعلم عند الله تعالى.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِقَامَ الصَّلَاةِ﴾ لم تعوض هنا تاء عن العين الساقطة بالاعتلال على القاعدة التصريفية المشهورة؛ لأن عدم تعويضها عنه جائز كما هنا، كما أشار إلى ذلك في الخلاصة بقوله:

وَأَلْفَ الْإِفْعَالِ وَاسْتَفْعَالِ

أزل لذا الإعلال والتأ الزم عوض وحذفها بالنقل ربما عرض

وقد أشار في أبنية المصادر إلى أن تعويض التاء المذكورة من العين هو الغالب بقوله:

واستعذ استعادة ثم أقم إقامة وغالباً ذا التالزم

وما ذكرناه من أن التاء المذكورة عوض عن العين أجود من قول من قال: إن العين باقية وهي الألف الباقية، وأن التاء عوض عن ألف الإفعال.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَيَّنَّا لَهُ مِنَ الْقُرْآنِ الَّذِي كَانَ تَعْمَلُ الْفَجَائِثُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥).

قوله ﴿وَلَوْطًا﴾ منصوب بفعل مضمر وجوباً يفسره آتيانه، كما قال في الخلاصة:

فالساق انصبه بفعل أضمر حتماً موافق لما قد أظهرنا

قال القرطبي في تفسير هذه الآية: الحكم: النبوة. والعلم: المعرفة بأمر الدين، وما يقع به الحكم بين الخصوم. وقيل: علماً: فهماً، وقال الزمخشري: حكماً: حكمة، وهو ما يجب فعله، أو فصلاً بين الخصوم. وقيل: هو النبوة.

قال مقيده - عفا الله عنه -: أصل الحكم في اللغة: المنع كما هو معروف، فمعنى الآيات أن الله أتاه من النبوة والعلم ما يمنع أقواله وأفعاله من أن يعترئها الخلل. والقرية التي كانت تعمل الخبائث: هي سدوم وأعمالها، والخبائث التي كانت تعملها جاءت موضحة في آيات من كتاب الله: منها: اللواط، وأنهم هم أول من فعله من الناس، كما قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، وقال:

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رِزْقُكُمْ مِنْ أَرْزَاقِهِمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء]. ومن الخبائث المذكورة إتيانهم المنكر في ناديبهم، وقطعهم الطريق، كما قال تعالى: ﴿أَيُّكُمْ لَأَتَأْتِيَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]. ومن أعظم خبائثهم: تكذيب نبي الله لوط وتهديدهم له بالإخراج من الوطن كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء]، وقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُ أَلْ لُوطُ مِنْ قَرِيْبِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْأَسُ بِطَهْرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل]، إلى غير ذلك من الآيات، وقد بين الله في مواضع متعددة من كتابه أنه أهلكهم فقلب بهم بلدهم، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، كما قال تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَاقِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢] والآيات بنحو ذلك كثيرة. والخبائث: جمع خبيثة، وهي الفعل السيئة كالكفر واللواط وما جرى مجرى ذلك.

وقوله: ﴿قَوْمَ سَوَءٍ﴾ أي أصحاب عمل سيئ، ولهم عند الله جزاء يسوءهم: وقوله: ﴿فَسَقِيْنِ﴾ أي خارجين عن طاعة الله، وقوله: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ﴾ يعني لوطاً: ﴿فِي رَحْمَتِنَا﴾ شامل لنجاته من عذابهم الذي أصابهم، وشامل لإدخاله إياه في رحمته التي هي الجنة، كما في الحديث الصحيح: «تحتاج النار والجنة». الحديث، وفيه: «فقال للجنة: أنت رحمتي أرحم بها من أشياء من عبادي».

قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَنُوحًا﴾ منصوب بـ«اذكر» مقدراً، أي واذكر نوحاً حين نادى من قبل، أي من قبل إبراهيم ومن ذكر معه. ونداء نوح هذا المذكور هنا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْيَنْصَرِ إِلَىٰ جِوْشُنٍ ﴿٧٥﴾ وَنَجِّنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرَّ الْقَابِقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات] وقد أوضح الله هذا النداء بقوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَرِيَّةً ﴿١١﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَصِلُوا إِلَىٰ عِبَادِكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح]، وقوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ قُلُوبُهُمْ قَوْمٌ نُوْحٌ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ﴿١٤﴾ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوْبٌ فَأَنْصِرْ ﴿١٥﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١٦﴾﴾ [القمر]. والمراد بالكرب العظيم في الآية: الغرق بالطوفان الذي تتلاطم أمواجه كأنها الجبال العظام، كما قال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفِينَةَ﴾ [العنكبوت: ١٥]، إلى غير ذلك من الآيات، والكرب: هو أقصى الغم، والأخذ بالنفس.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ يعني إلا من سبق عليه القول من أهله بالهلاك مع الكفرة الهالكين، كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا أَمَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾... الآية [هود: ٤٠]. ومن سبق عليه القول منهم ابنه المذكور في قوله: ﴿وَحَالٌ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُنْقَرِفِينَ﴾ [هود: ٤٣]، وامراته

المذكورة في قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتَ نُوحٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ [التحریم: ١٠].

قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّأْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا، قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ﴾ منصوب بـ«اذكر» مقدراً. وقيل: معطوف على قوله: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ أي واذكر نوحاً إذ نادى من قبل: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾... الآية، وقوله: ﴿إِذْ﴾ بدل من ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ بدل اشتمال كما أوضحناه في سورة «مريم» وذكرنا بعض المناقشة فيه، وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً ويكون في نفس الآية قرينة تدل على خلاف ذلك القول. وذكرنا في هذا الكتاب مسائل كثيرة من ذلك، فإذا علمت ذلك فاعلم أن جماعة من العلماء قالوا: إن حكم داوود وسليمان في الحرث المذكور في هذه الآية كان بوحى: إلا أن ما أوحى إلى سليمان كان ناسخاً لما أوحى إلى داوود.

وفي الآية قرينتان على أن حكمهما كان باجتهاد لا بوحى، وأن سليمان أصاب فاستحق الثناء باجتهاده، وإصابته، وأن داوود لم يصب فاستحق الثناء باجتهاده ولم يستوجب لوماً ولا ذماً بعدم إصابته؛ كما أثنى على سليمان بالإصابة في قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾، وأثنى عليهما في قوله: ﴿وَكَلَّأْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فدل قوله: ﴿إِذْ يَخْتَصِمَانِ﴾ على أنهما حكما فيها معاً، كل منهما بحكم مخالف لحكم الآخر، ولو كان وحياً لما ساغ الخلاف. ثم قال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ فدل ذلك على أنه لم يفهمها داوود، ولو كان حكمه فيها بوحى لكان مفهماً إياها كما ترى. فقوله: ﴿إِذْ يَخْتَصِمَانِ﴾ مع قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ قرينة على أن الحكم لم يكن بوحى بل باجتهاد، وأصاب فيه سليمان دون داوود بتفهم الله إياه ذلك.

والقرينة الثانية: هي أن قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾... الآية، يدل على أنه فهمه إياها من نصوص ما كان عندهم من الشرع؛ لا أنه أنزل عليه فيها وحياً جديداً ناسخاً؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ أليق بالأول من الثاني، كما ترى. وهناك مسائل عديدة تتعلق بالآية يرجع من أراد الوقوف عليها إلى الأصل.

وقوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ أي القضية أو الحكومة المفهومة من قوله: ﴿إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ وقوله: ﴿وَكَلَّأْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي أعطينا كلا من داوود وسليمان حكماً وعِلْماً، والتنوين في قوله: ﴿وَكَلَّأْنَا﴾ عوض عن كلمة أي كل واحد منهما.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه سخر الجبال أي ذللها، وسخر الطير تسبح مع داوود. وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من تسخير الطير، والجبال تسبح مع

نيه داوود بينه في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أُورِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ [سبأ: ١٠]. وقوله: ﴿أُورِي مَعَهُ﴾ أي رجعي معه التسبيح. ﴿وَالطَّيْرُ﴾ أي ونادين الطير بمثل ذلك من ترجيع التسبيح معه، وقول من قال: ﴿أُورِي مَعَهُ﴾ أي سيري معه، وأن التأويب سير النهار ساقط كما ترى. وكقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧] إِنَّا سَخَرْنَا لَلْجِبَالِ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُتَيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ [ص].

والتحقيق أن تسبيح الجبال والطير مع داوود المذكور تسبيح حقيقي؛ لأن الله - جل وعلا - يجعل لها إدراكات تسبح بها، يعلمها هو - جل وعلا - ونحن لا نعلمها كما قال: ﴿وَأَن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَن مِّنَ الْجِبَالِ لَمَا يَكْفَجُرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِن مِّنْهَا لَمَا يَشْفُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ أَلْمَاءٌ وَإِن مِّنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ حَشِيَّةٍ إِلَهُ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢]. وقد ثبت في صحيح البخاري أن الجذع الذي كان يخطب عليه النبي ﷺ لما انتقل عنه بالخطبة إلى المنبر سمع له حنين، وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي قال: «إني لأعرف حجراً كان يسلم علي في مكة» وأمثال هذا كثيرة، والقاعدة المقررة عند العلماء أن نصوص الكتاب والسنة لا يجوز صرفها عن ظاهرها المتبادر منها إلا بدليل يجب الرجوع إليه، والتسبيح في اللغة: الإبعاد عن السوء، وفي اصطلاح الشرع: تنزيه الله - جل وعلا - عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله.

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية: ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ﴾؛ أي جعلناها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح. والظاهر أن قوله: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ يؤكد لقوله: ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرُ﴾؛ والموجب لهذا التأكيد أن تسخير الجبال وتسبيحها أمر عجب خارق للعادة، مظنة لأن يكذب به الكفرة الجهلة.

وقال الزمخشري: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾؛ أي قادرين على أن نفعل هذا، وقيل: كنا نفعل بالأنبياء مثل ذلك. وكلا القولين اللذين قال ظاهر السقوط؛ لأن تأويل ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ بمعنى كنا قادرين؛ بعيد، ولا دليل عليه كما لا دليل على الآخر كما ترى.

وقال أبو حيان: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾؛ أي فاعلين هذه الأعاجيب من تسخير الجبال وتسبيحهن، والطير لمن نخصه بكرامتنا، اه، وأظهرها عندي هو ما تقدم، والعلم عند الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [٨١]. الضمير في قوله: ﴿عَلَّمْنَاهُ﴾ راجع إلى داوود. والمراد بصناعة اللبوس: صناعة الدروع ونسجها؛ والدليل على أن المراد باللبوس في الآية الدروع أنه أتبعه بقوله: ﴿لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾؛ أي لتحرز وتقي بعضكم من بأس بعض؛ لأن الدرع تقيه ضرر الضرب بالسيف، والرمي بالرمح والسهم، كما هو معروف، وقد أوضح هذا المعنى بقوله: ﴿وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ﴾ [٨٢] أَنْ أَعْمَلَ سَيِّغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرَدِ [سبأ: ١٠، ١١]،

قوله: ﴿إِنْ أَعْمَلَ سَيِّئَاتٍ﴾؛ أي أن اصنع دروعاً سابغات من الحديد الذي ألناه لك، والسرد: نسج الدرع. ويقال فيه الزرد، ومن الأول قول أبي ذؤيب الهذلي:
وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السوابغ تبع
ومن الثاني قول الآخر:

نقريهم لهذميات نقد بها ما كان خاط عليهم كل زراد
ومراده بالزراد: ناسج الدرع. وقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾؛ أي اجعل الحلق والمسامير في نسجك للدرع بأقدار متناسبة؛ فلا تجعل المسمار دقيقاً لئلا ينكسر، ولا يشد بعض الحلق ببعض، ولا تجعله غليظاً غليظاً زائداً فيفصم الحلقة. وإذا عرفت أن اللبوس في الآية الدروع فاعلم أن العرب تطلق اللبوس على الدروع كما في الآية؛ ومنه قول الشاعر:

عليها أسود ضاويات لبوسهم سوابغ بيض لا يخرقها النبل
فقوله «سوابغ» أي دروع سوابغ، وقول كعب بن زهير:

شم العرانيين أبطال لبوسهم من نسج داود في الهيجا سراويل
ومراده باللبوس التي عبر عنها بالسراويل: الدروع. والعرب تطلق اللبوس أيضاً على جميع السلاح درعاً كان أو جوشناً أو سيفاً أو رمحاً، ومن إطلاقه على الرمح قول أبي كبير الهذلي يصف رمحاً:

ومعي لبوس للبئيس كأنه رزق بجبهة ذي نعاج مجفل
وتطلق اللبوس أيضاً على كل ما يلبس؛ ومنه قول بيهس:

البس كل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بوسها

وما ذكره هنا من الامتنان على الخلق بتعليمه صنعة الدروع ليقبهم بها من بأس السلاح تقدم إيضاحه في سورة «النحل» في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسَرَّيْلَ تَقِيكُمْ بِأَسْكُمُ﴾... الآية [النحل: ٨١].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهَلْ أَتَمَّ شُكْرُونَ﴾؛ الظاهر فيه أن صيغة الاستفهام هنا يراد بها الأمر، ومن إطلاق الاستفهام بمعنى الأمر في القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَبِهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]؛ أي انتهوا؛ ولذا قال عمر رضي الله عنه: انتهينا يا رب. وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةِ اسْلَمُوا﴾ [آل عمران: ٢٠]؛ أي أسلموا، وقد تقرر في فن المعاني أن من المعاني التي تؤدي بصيغة الاستفهام: الأمر، كما ذكرنا. وقوله: ﴿شُكْرُونَ﴾ شكر العبد لربه، هو أن يستعين بنعمه على طاعته، وشكر الرب لعبده هو أن يشبه الثواب الجزيل من عمله القليل، ومادة «شكر» لا تتعدى غالباً إلا باللام، وتعديتها بنفسها دون اللام قليلة. ومنه قول أبي نخيلة:

شكرتك إن الشكر حبل من التقى وما كل من أوليته نعمة يقضى

وفي قوله: ﴿لِنُحْصِنَكُمْ﴾ ثلاث قراءات سبعة، قرأه عامة السبعة ما عدا ابن عامر وعاصماً (ليحصنكم) بالياء المثناة التحتية، وعلى هذه القراءة فضمير الفاعل عائد إلى داود، أو إلى اللبوس؛ لأن تذكيرها باعتبار معنى ما يلبس من الدروع جائز، وقرأه ابن عامر وحفص عن عاصم ﴿لِنُحْصِنَكُمْ﴾ بالتاء المثناة الفوقية، وعلى هذه القراءة فضمير الفاعل راجع إلى اللبوس وهي مؤنثة، أو إلى الصنعة المذكورة في قوله: ﴿صَنَعَةُ لُبُوسٍ﴾، وقرأه شعبة عن عاصم (لنحصنكم) بالنون الدالة على العظمة، وعلى هذه القراءة فالأمر واضح.

قوله تعالى: ﴿وَلَسْلِمَنْ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكَتْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾. قوله: ﴿وَلَسْلِمَنْ الرِّيحَ﴾ معطوف على معمول «سخرنا» في قوله: ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجَبَالَ﴾؛ أي وسخرنا لسليمان الريح في حال كونها عاصفة؛ أي شديدة الهبوب. يقال عصفت الريح أي اشتدت، فهي ريح عاصف وعصوف، وفي لغة بني أسد (أعصفت) فهي معصف ومعصفة، وقد قدمنا بعض شواهد العربية في سورة (الإسراء).

وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ أي تطيعه وتجري إلى المحل الذي يأمرها به، وما ذكره في هذه الآية من تسخير الريح لسليمان، وأنها تجري بأمره، بينه في غير هذا الموضع وزاد بيان قدر سرعتها، وذلك في قوله: ﴿وَلَسْلِمَنْ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوْاحُها شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢]، وقوله: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ١٣].

تنبيه: اعلم أن في هذه الآيات التي ذكرنا سؤاليين معروفين:

الأول: أن يقال: إن الله وصف الريح المذكورة هنا في سورة «الأنبياء» بأنها عاصفة؛ أي شديدة الهبوب، ووصفها في سورة «ص» بأنها تجري بأمره رخاء. والعاصفة غير التي تجري رخاء.

والسؤال الثاني: هو أنه هنا في سورة «الأنبياء» خص جريها به بكونه إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين، وفي سورة «ص» قال: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]، وقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦] يدل على التعميم في الأمكنة التي يريد الذهاب إليها على الريح، فقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]، أي حيث أراد؛ قاله مجاهد. وقال ابن الأعرابي: العرب تقول: أصاب الصواب، وأخطأ الجواب؛ أي أراد الصواب وأخطأ الجواب. ومنه قول الشاعر:

أصاب الكلام فلم يستطع فأخطأ الجواب لدى المفصل

قاله القرطبي. وعن ربيعة أن رجلين من أهل اللغة تصداه ليسألاه عن معنى «أصاب»؛ فخرج إليهما فقال: أين تصبيان؟ فقالا: هذه طلبتنا؛ ورجعا.

أما الجواب عن السؤال الأول فمن وجهين: الأول: أنها عاصفة في بعض

الأوقات، ولينة رخاء في بعضها بحسب الحاجة؛ كأن تعصف ويشد هبوبها في أول الأمر حتى ترفع البساط الذي عليه سليمان وجنوده، فإذا ارتفع سارت به رخاء حيث أصاب.

الجواب الثاني: هو ما ذكره الزمخشري قال: فإن قلت: وصفت هذه الرياح بالعصف تارة وبالرخاء أخرى، فما التوفيق بينهما؟ قلت: كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم، فإذا مرت بكبرسيه أبعدت به في مدة سيرة، على ما قال: ﴿غَدُوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢]. فكان جمعها بين الأمرين: أن تكون رخاء في نفسها، وعاصفة في عملها مع طاعتها لسليمان، وهبوبها على حسب ما يريد ويحكم، اه محل الغرض منه.

وأما الجواب عن السؤال الثاني فهو أن قوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦] يدل على أنها تجري بأمره حيث أراد من أقطار الأرض، وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾؛ لأن مسكنه فيها وهي الشام، فترده إلى الشام. وعليه فقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦] في حالة الذهاب. وقوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾؛ في حالة الإياب إلى محل السكنى، فانفكت الجهة فزال الإشكال. وقد قال نابغة ذبيان:

إلا سليمان إذ قال الإله له قم في البرية فاحدها عن الفند
وخيس الجن إنني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد

وتدمر: بلد بالشام. وذلك مما يدل على أن الشام هو محل سكناه كما هو معروف.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَغْوُصُّ لَمْ يَعْمَلْ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ (٨٢). الأظهر في قوله: ﴿مَنْ يَغْوُصُّ﴾ أنه في محل نصب عطفاً على معمول ﴿سَخَرْنَا﴾ [ص: ١٨]؛ أي وسخرنا له من يغوصون له من الشياطين. وقيل: «من» مبتدأ، والجار والمجرور قبله خبره.

وقد ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه سخر لسليمان من يغوصون له من الشياطين؛ أي يغوصون له في البحار فيستخرجون له منها الجواهر النفيسة؛ كاللؤلؤ، والمرجان، والغوص: النزول تحت الماء. والغواص: الذي يغوص البحر ليستخرج منه اللؤلؤ ونحوه، ومنه قول نابغة ذبيان:

أو درة صدفية غواصها بهج متى يرها يهل ويسجد

وقد ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أيضاً أن الشياطين المسخرين له يعملون له عملاً دون ذلك؛ أي سوى ذلك الغوص المذكور؛ أي كبناء المدائن والقصور، وعمل المحاريب والتمائيل، والجفان والقدرور الراسيات، وغير ذلك من اختراع الصنائع العجيبة.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾؛ أي من أن يزيغوا عن أمره، أو يبدلوا أو يغيروا، أو يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون فيه، وهذه المسائل الثلاث

التي تضمنتها هذه الآية الكريمة جاءت مبنية في غير هذا الموضع، كقوله في الغوص والعمل سواء: ﴿وَاللَّيْطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ﴾ (١٧) ... الآية [ص]، وقوله في العمل غير الغوص: ﴿وَمَنْ أَلْجَأَ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذْنِ رَبِّهِ﴾ [سبأ: ١٢]، وقوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَمِثْلِيلٍ وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ [سبأ: ١٣]، وكقوله في حفظهم من أن يزيغوا عن أمره: ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢]، وقوله: ﴿وَأَخْرَجَ مُقْرِنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ (١٨) [ص].

وصفة البساط، وصفة حمل الريح له، وصفة جنود سليمان من الجن والإنس والطير، كل ذلك مذكور بكثرة في كتب للتفسير، ونحن لم نطل به الكلام في هذا الكتاب المبارك.

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَأَنْتَ أَهْلُهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ (٨٤). الظاهر أن قوله: ﴿وَأَيُّوبَ﴾ منصوب بـ «ذكر» مقدراً، ويدل على ذلك قوله تعالى في «ص»: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بُيُصْبُ وَعَذَابٍ﴾ (٨١) [ص].

وقد أمر - جلّ وعلا - في هاتين الآيتين الكريمتين نبيه ﷺ أن يذكر أيوب حين نادى ربه قائلاً: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾؛ وأن ربه استجاب له فكشف عنه جميع ما به من الضر، وأنه آتاه أهله، وآتاه مثلهم معهم رحمة منه - جلّ وعلا - به، وتذكيراً للعابدين أي الذين يعبدون الله لأنهم هم المتفعون بالذكرى.

وهذا المعنى الذي ذكر هنا ذكره أيضاً في سورة «ص» في قوله: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بُيُصْبُ وَعَذَابٍ﴾ (٨١)، إلى قوله: ﴿لَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٤١ - ٤٣]، والضر الذي مس أيوب، ونادى ربه ليكشفه عنه كان بلاء أصابه في بدنه وأهله وماله. ولما أراد الله إذهاب الضر عنه أمره أن يركض برجله ففعل، فنبعت له عين ماء فاغتسل منها فزال كل ما بظاهر بدنه من الضر، وشرب منها فزال كل ما بباطنه، كما أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ (٨٢) [ص].

وما ذكره في «الأنبياء» من أنه آتاه أهله ومثلهم معهم رحمة منه وذكرى لمن يعبد - بينه في «ص» في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرْنَا لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ (٨٢) [ص]، وقوله في «الأنبياء» ﴿وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ﴾ مع قوله في «ص»: ﴿وَذَكَرْنَا لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾، فيه الدلالة الواضحة على أن أصحاب العقول السليمة من شوائب الاختلال، هم الذين يعبدون الله وحده ويطيعونه. وهذا يؤيد قول من قال من أهل العلم: إن من أوصى بشيء من ماله لأعقل الناس أن تلك الوصية تصرف لأتقى الناس وأشدّهم طاعة لله تعالى؛ لأنهم هم أولوا الألباب؛ أي العقول الصحيحة السالمة من الاختلال.

تنبيه: في هذه الآيات المذكورة سؤال معروف، وهو أن يقال: إن قول أيوب

المذكور في «الأنبياء» في قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾؛ وفي «ص» في قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]، يدل على أنه ضجر من المرض فشكا منه مع أن قوله تعالى عنه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، يدل على كمال صبره؟

والجواب: أن ما صدر من أيوب دعاء وإظهار فقر وحاجة إلى ربه، لا شكوى ولا جزع.

قال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة، ولم يكن قوله: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ جزعاً؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ بل كان ذلك دعاء منه. والجزع في الشكوى إلى الخلق لا إلا الله تعالى، والدعاء لا ينافي الرضا. قال الثعلبي: سمعت أستاذنا أبا القاسم بن حبيب يقول: حضرت مجلساً غاصاً بالفقهاء والأدباء في دار السلطان؛ فسئلت عن هذه الآية الكريمة بعد اجتماعهم على أن قول أيوب كان شكاية وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ فقلت: ليس هذا شكاية، وإنما كان دعاءً بيانه ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُمُ﴾ والإجابة لتعقب الدعاء لا الاشتكاء. فاستحسنوه وارتضوه. وسئل الجنيد عن هذه الآية الكريمة فقال: عَرَفَهُ فَاقَهُ السُّؤَالُ لِيُؤْمِنَ عَلَيْهِ بِكَرَمِ النَّوَالِ، انتهى منه.

ودعاء أيوب المذكور ذكره الله في سورة «الأنبياء» من غير أن يسند مس الضر أيوب إلى الشيطان في قوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، وذكره في سورة «ص» وأسند ذلك إلى الشيطان في قوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]، والنصب على جميع القراءات معناه: التعب والمشقة، والعذاب: الألم. وفي نسبة ما أصابه من المشقة والألم إلى الشيطان في آية «ص» هذه إشكال قوي معروف؛ لأن الله ذكر في آيات من كتابه أن الشيطان ليس له سلطان على مثل أيوب من الأنبياء الكرام كقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَيْسَ لَكُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [٢١]، ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُمُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ...﴾ الآية [سبأ: ٢١]، وقوله تعالى عنه مقررأ له: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر].

وللعلماء عن هذا الإشكال أجوبة، منها ما ذكره الزمخشري قال:

فإن قلت: لم نسبة إلى الشيطان، ولا يجوز أن يسلطه على أنبيائه ليقضي من إعتابهم وتعذيبهم وطره، ولو قدر على ذلك لم يدع صالحاً إلا وقد نكبه وأهلكه، وقد تكرر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب؟

قلت: لما كانت وسوسته إليه، وطاعته له فيما وسوس سبباً فيما مسه الله به من

النصب والعذاب نسبه إليه، وقد راعى الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو، وقيل: أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء، ويغريه على الكراهة والجزع، فالتجأ إلى الله تعالى في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء، أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل.

وروى أنه كان يعود ثلاثه من المؤمنين، فارتد أحدهم فسأل عنه، فقيل: ألقى إليه الشيطان أن الله لا يتلي الأنبياء الصالحين. وذكر في سبب بلائه أن رجلاً استغاثه على ظالم فلم يغثه. وقيل: كانت مواشيه في ناحية ملك كافر فداهنه ولم يغزه. وقيل: أعجب بكثرة ماله، انتهى منه.

ومنها ما ذكره جماعة من المفسرين أن الله سلط الشيطان على ماله وأهله ابتلاء لأيوب؛ فأهلك الشيطان ماله وولده، ثم سلطه على بدنه ابتلاء له فنفخ في جسده نفخة اشتعل منها، فصار في جسده ثآليل، فحكها بأظافره حتى دميت، ثم بالفخار حتى تساقط لحمه، وعصم الله قلبه ولسانه (وغالب ذلك من الإسرائيليات) وتسليطه للابتلاء على جسده وماله وأهله ممكن، وهو أقرب من تسليطه عليه بحمله على أن يفعل ما لا ينبغي؛ كمداهنة الملك المذكور، وعدم إغاثة الملهوف، إلى غير ذلك من الأشياء التي يذكرها المفسرون. وقد ذكروا هنا قصة طويلة تتضمن البلاء الذي وقع فيه، وقدر مدته (وكل ذلك من الإسرائيليات) وقد ذكرنا هنا قليلاً.

وغاية ما دل عليه القرآن أن الله ابتلى نبيه أيوب - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - وأنه ناداه فاستجاب له وكشف عنه كل ضرر، ووهبه أهله ومثلهم معهم، وأن أيوب نسب ذلك في «ص» إلى الشيطان. ويمكن أن يكون سلطه الله على جسده وماله وأهله؛ ابتلاء ليظهر صبره الجميل، وتكون له العافية الحميدة في الدنيا والآخرة، ويرجع له كل ما أصيب فيه، والعلم عند الله تعالى، وهذا لا ينافي أن الشيطان لا سلطان له على مثل أيوب؛ لأن التسليط على الأهل والمال والجسد من جنس الأسباب التي تنشأ عنها الأعراض البشرية كالمرض، وذلك يقع للأنبياء؛ فإنهم يصيبهم المرض، وموت الأهل، وهلاك المال لأسباب متنوعة. ولا مانع من أن يكون جملة تلك الأسباب تسليط الشيطان على ذلك للابتلاء، وقد أوضحنا جواز وقوع الأمراض والتأثيرات البشرية على الأنبياء في سورة «طه» وقول الله لنبيه أيوب في سورة «ص»: ﴿وَعُذِّ بِرِكَ ضَعْفًا فَأُضْرِبَ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ﴾ [ص: ٤٤]. قال المفسرون فيه: إنه حلف في مرضه ليضربن زوجه مائة سوط، فأمره الله أن يأخذ ضعفاً فيضربها به ليخرج من يمينه، والضغث: الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو نحو ذلك. والمعنى أنه يأخذ حزمة فيها مائة عود فيضربها بها ضربة واحدة، فيخرج بذلك من يمينه. وقد قدمنا في سورة «الكهف» الاستدلال بآية: ﴿وَلَا تَحْنُثْ﴾ [ص: ٤٤]، على أن الاستثناء المتأخر لا يفيد، إذ لو كان يفيد لقال الله لأيوب قل - إن شاء الله - ليكون ذلك استثناء في يمينك.

قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَكَاذَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُصْحِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾. أي واذكر ذا النون. والنون: الحوت. «وذا» بمعنى صاحب. فقوله: ﴿وَذَا النُّونِ﴾ معناه صاحب الحوت؛ كما صرح الله بذلك في «القلم» في قوله: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْمَثُوتِ﴾... الآية [القلم: ٤٨]. وإنما أضافه إلى الحوت؛ لأنه التقمه كما قال تعالى: ﴿فَالْقَمَّةُ الْخُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصفات].

وقوله: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾؛ فيه وجهان من التفسير لا يكذب أحدهما الآخر:

الأول: أن المعنى: ﴿لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾؛ أي لن نضيق عليه في بطن الحوت. ومن إطلاق «قدر» بمعنى «ضيق» في القرآن قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]، أي ويضيق الرزق علي من يشاء، وقوله تعالى: ﴿لِنُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾... الآية [الطلاق: ٧]. فقوله: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ أي ومن ضيق عليه رزقه.

الوجه الثاني: أن معنى ﴿لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ لن نقضي عليه ذلك. وعليه فهو من القدر والقضاء، «وقدر» بالتخفيف تأتي بمعنى «قدر» المضعفة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَالْتَفَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢]، أي قدره الله. ومنه قول الشاعر وأنشده ثعلب شاهداً لذلك:

فليست عشيات الحمى برواجع لنا أبداً ما أوزق النسلم النضر
ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى تباركت ما تقدر يقع ولك الشكر

والعرب تقول: قدر الله لك الخير يقدره قدراً، كضرب يضرب، ونصر ينصر، بمعنى قدره لك تقديراً؛ ومنه على أصح القولين «ليلة القدر»؛ لأن الله يقدر فيها الأشياء؛ كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿١﴾﴾ [الدخان]، والقدر بالفتح، والقدر بالسكون: ما يقدره الله من القضاء، ومنه قول هذبة بن الخشرم:

ألا يا لقومي للنوائب والقدر وللأمر يأتي المرء من حيث لا يدري

أما قول من قال: إن ﴿لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ من القدرة - فهو قول باطل بلا شك؛ لأن نبي الله يونس لا يشك في قدرة الله على كل شيء، كما لا يخفى.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿مُغْضِبًا﴾ أي في حال كونه مغاضباً لقومه، ومعنى المفاعلة فيه أنه أغضبهم بمفارقته وتخوفهم حلول العذاب بهم، وأغضبوه حين دعاهم إلى الله مدة فلم يجيبوه، فأوعدهم بالعذاب. ثم خرج من بينهم على عادة الأنبياء عند نزول العذاب قبل أن يأذن الله له في الخروج؛ قاله أبو حيان في البحر. وقال أيضاً: وقيل معنى ﴿مُغْضِبًا﴾ غضبان، وهو من المفاعلة التي لا تقتضي اشتراكاً؛ نحو عاقبت اللص، وسافرت، اهـ.

واعلم أن قول من قال: ﴿مُغْضِبًا﴾ أي مغاضباً لربه كما روي عن ابن مسعود،

وبه قال الحسن والشعبي وسعيد بن جببر، واختاره الطبري والقتيبي، واستحسنه المهدوي يجب حملة على معنى القول الأول؛ أي مغاضباً من أجل ربه. قال القرطبي بعد أن ذكر هذا القول عمن ذكرنا؛ وقال النحاس: وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة، وهو قول صحيح، والمعنى: مغاضباً من أجل ربه كما تقول: غضبت لك أي من أجلك. والمؤمن يغضب لله ﷻ، إذا عصي، انتهى منه. والمعنى على ما ذكر: مغاضباً قومه من أجل ربه، أي من أجل كفرهم به، وعصيانهم له، وغير هذا لا يصح في الآية.

وقوله تعالى: ﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾؛ أي ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت. «وأن» في قوله: ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ مفسرة، وقد أوضحنا فيما تقدم معنى «أن لا إله»، ومعنى «سبحانك»، ومعنى الظلم، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وقوله: ﴿فَأَسْتَجَبْنَا لَهُمْ﴾؛ أي أجبناه ونجينا من الغم الذي هو فيه في بطن الحوت، وإطلاق استجاب بمعنى أجاب معروف في اللغة، ومنه قول كعب بن سعد الغنوي:

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب

وما ذكره الله - جلّ وعلا - في هذه الآية من نداء نبيه يونس في تلك الظلمات، هذا النداء العظيم، وأن الله استجاب له ونجاه من الغم أوضحه في غير هذا الموضع.

وبين في بعض المواضع أنه لو لم يسبح هذا التسبيح العظيم للبت في بطن الحوت إلى يوم البعث ولم يخرج منه. وبين في بعضها أنه طرحه بالعراء وهو سقيم.

وبين في بعضها أنه خرج بغير إذن كخروج العبد الآبق، وأنهم اقترعوا على من يلقي في البحر فوقعت القرعة على يونس أنه هو الذي يلقي فيه.

وبين في بعضها أن الله تداركه برحمته؛ ولو لم يتداركه بها لنبذ بالعراء في حال كونه مذموماً، ولكنه تداركه بها فنبذ غير مذموم، قال تعالى في «الصفات»: ﴿وَإِنْ يُؤْسَ لِمَنِ الْفَرْسَلَيْنِ ۖ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۖ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ۖ فَالْقَمْعَةُ الْخَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۖ فَلَوْلَا أَنْتُمْ كَانُوا مِنَ الْمُسْتَجِيبِينَ ۖ لَلِيتُ فِي بَطْنِهِ ۖ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۖ فَبَدَّدْتُهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۖ وَأَبْنَيْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ۖ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يُزِيدُوكَ ۖ فَتَأَمَّنُوا فَمَرَدُّهُمْ إِلَى حِينٍ ۖ﴾ [الصفات]. فقوله في آيات «الصفات» المذكورة: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ أي حين أبق، وهو من قول العرب: عبد أبق؛ لأن يونس خرج قبل أن يأذن له ربه؛ ولذلك أطلق عليه اسم الإباق. واستحقاق الملامة في قوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠] لأن المليم اسم فاعل ألام إذا فعل ما يستوجب الملام. وقوله: ﴿فَسَاهَمَ﴾ أي قارع بمعنى أنه وضع مع أصحاب السفينة سهام القرعة ليخرج سهم من يلقي في البحر. وقوله: ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي المغلوبين في القرعة؛ لأنه خرج له السهم الذي يلقي صاحبه في البحر. ومن ذلك قول الشاعر:

قتلنا المدحضين بكل فج فقد قرت بقتلهم العيون

وقوله: ﴿فَبَدَّلَ﴾ أي طرحناه، بأن أمرنا الحوت أن يلقيه بالساحل، والعراء: الصحراء. وقول من قال: العراء؛ الفضاء أو المتسع من الأرض، أو المكان الخالي أو وجه الأرض، راجع إلى ذلك، ومنه قول الشاعر وهو رجل من خزاعة:

ورفعت رجلاً لا أخاف عثاها
ونبذت بالبلد العراء ثيابي

وشجرة اليقطين: هي الدباء. وقوله: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾؛ أي مريض لما أصابه من انتقام الحوت إياه. وقال تعالى في «القلم»: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْتُوْتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ (٤٨) ﴿لَوْلَا أَن تَدْرِكُهُ نَفَسٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالنَّارِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ (٤٩) ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٥٠) [القلم]، فقوله في آية «القلم» هذه: ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ أي نادى أن لا إله إلا أنت سبحانه إني كنت من الظالمين، وقوله: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي مملوء غماً، كما قال تعالى: ﴿وَبَجَّيْنَاهُ مِّنَ الْغَمِّ﴾؛ وهو قول ابن عباس ومجاهد. وعن عطاء وأبي مالك ﴿مَكْظُومٌ﴾: مملوء كرباً. قال الماوردي: والفرق بين الغم والكرب: أن الغم في القلب. والكرب في الأنفاس. وقيل: ﴿مَكْظُومٌ﴾ محبوس. والكظم: الحبس؛ ومنه قولهم: كظم غيظه، أي حبس غضبه، قاله ابن بحر. وقيل: المكظوم المأخوذ بكظمه، وهو مجرى النفس، قاله المبرد، انتهى من القرطبي.

آية «القلم» المذكورة تدل على أن نبي الله يونس - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - عجل بالذهاب ومغاضبة قومه، ولم يصبر الصبر اللازم بدليل قوله مخاطباً نبينا ﷺ فيها: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْتُوْتِ﴾ [القلم: ٤٨]. فإن أمره لنبينا ﷺ بالصبر ونهيه إياه أن يكون كصاحب الحوت دليل على أن صاحب الحوت لم يصبر كما ينبغي. وقصة يونس، وسبب ذهابه ومغاضبته قومه مشهورة مذكورة في كتب التفسير، وقد بين تعالى في سورة «يونس» أن قوم يونس آمنوا فنفعهم إيمانهم دون غيرهم من سائر القرى التي بعثت إليهم الرسل، وذلك في قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَنفَعَهَا إِيمَانَهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنشِئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ يدل على أنه ما من مؤمن يصيبه الكرب والغم فيبتهل إلى الله داعياً بإخلاص، إلا نجاه الله من ذلك الغم، ولا سيما إذا دعا بدعاء يونس هذا، وقد جاء في حديث مرفوع عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في دعاء يونس المذكور: «لم يدع به مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له» رواه أحمد والترمذي وابن أبي حاتم وابن جرير وغيرهم، والآية الكريمة شاهدة لهذا الحديث شهادة قوية كما ترى؛ لأنه لما ذكر أنه أنجى يونس شبه بذلك إنجاء المؤمنين. وقوله: ﴿نُنشِئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ صيغة عامة في كل مؤمن كما ترى، وقرأ عامة القراء السبعة غير ابن عامر وشعبة عن عاصم ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنشِئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ بنونين أولهما مضمومة، والثانية ساكنة بعدها جيم مكسورة مخففة فياء ساكنة، وهو

مضارع أنجى الرباعي على صيغة أفعل، والنون الأولى دالة على العظمة، وقرأ ابن عامر وشعبة عن عاصم: (وكذلك نُنجِي المؤمنين) بنون واحدة مضمومة بعدها جيم مكسورة مشددة فياء ساكنة. وهو على هذه القراءة بصيغة فعل ماض مبني للمفعول من نجى المضعفة على وزن فعل بالتضعيف. وفي كلتا القراءتين إشكال معروف، أما قراءة الجمهور فهي من جهة القواعد العربية واضحة لا إشكال فيها، ولكن فيها إشكال من جهة أخرى، وهي: أن هذا الحرف إنما كتبه الصحابة في المصاحف العثمانية بنون واحدة، فيقال: كيف تقرأ بنونين وهي في المصاحف بنون واحدة؟ وأما على قراءة ابن عامر وشعبة فالإشكال من جهة القواعد العربية؛ لأن نجى على قراءتهما بصيغة ماض مبني للمفعول، فالقياس رفع ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ بعده على أنه نائب الفاعل، وكذلك القياس فتح ياء «نجى» لا إسكانها.

وأجاب العلماء عن هذا بأجوبة، منها ما ذكره بعض الأئمة، وأشار إليه ابن هشام في باب الإدغام من توضيحه: أن الأصل في قراءة ابن عامر وشعبة «ننجي» بفتح النون الثانية مضارع نجى مضعفاً، فحذفت النون الثانية تخفيفاً. أو «ننجي» بسكونها مضارع أنجى وأدغمت النون في الجيم لاشتراكهما في الجهر والانفتاح والتوسط بين القوة والضعف، كما أدغمت في «إجاصة وإجانة» بتشديد الجيم فيهما، والأصل «إنجاصة وإنجانة» فأدغمت النون فيهما. والإجاصة: واحدة الإجاص، قال في القاموس: الإجاص بالكسر مشدداً؛ ثمر معروف دخيل؛ لأن الجيم والصاد لا يجتمعان في كلمة، الواحدة بهاء. ولا تقل إنجاص، أو لغية، اهـ. والإجانة. واحدة الأجاجين. قال في التصريح: وهي بفتح الهمزة وكسرها. قال صاحب الفصيح: قصرية يعجن فيها ويغسل فيها. ويقال: إنجانة كما يقال إنجاصة، وهي لغة يمانية فيهما أنكرها الأكثرون اهـ، فهذان وجهان في توجيه قراءة ابن عامر وشعبة، وعليهما فلفظة «المؤمنين» مفعول به لـ«ننجي».

ومن أجوبة العلماء عن قراءة ابن عامر وشعبة أن «نجي» على قراءتهما فعل ماض مبني للمفعول، والنائب عن الفاعل ضمير المصدر، أي نجى هو أي الإنجاء، وعلى هذا الوجه فالآية كقراءة من قرأ: (لِيُجْزَى قوماً) . . . الآية، ببناء «يجزى» للمفعول والنائب ضمير المصدر، أي ليجزى هو أي الجزاء، ونيابة المصدر عن الفاعل في حال كون الفعل متعدياً للمفعول ترد بقله، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

وقابل من ظرف أو من مصدر أو حرف جر بنيابة حري

ولا ينوب بعض هذا إن وجد في اللفظ مفعول به وقد يرد

ومحل الشاهد منه قوله: «وقد يرد». وممن قال بجواز ذلك الأخفش والكوفيون

وأبو عبيد. ومن أمثلة ذلك في كلام العرب قول جرير يهجو أم الفرزدق:

ولو ولدت قفيرة جرو كلب لسنب بذلك الجرو الكلابا

يعني لسب هو أي السب. وقول الراجز:

لم يعن بالعلياء إلا سيذاً ولا شفى ذا الغي إلا ذو هدى

وأما إسكان ياء «نجي» على هذا القول فهو على لغة من يقول من العرب: رضى،
وبقى بإسكان الياء تخفيفاً. ومنه قراءة الحسن (وذروا ما بقي من الربا) بإسكان ياء
«بقي»، ومن شواهد تلك اللغة قول الشاعر:

خمر الشيب لمننى تخميرا وحدا بني إلى القبور البعيرا

ليت شعري إذا القيامة قامت ودعي بالحساب أين المصيرا

وأما الجواب عن قراءة الجمهور، فالظاهر فيه أن الصحابة حذفوا النون في
المصاحف لتمكن موافقة قراءة ابن عامر وشعبة المصاحف لخفائها. أما قراءة الجمهور
فوجهها ظاهر ولا إشكال فيها، فغاية الأمر أنهم حذفوا حرفاً من الكلمة لمصلحة مع
تواتر الرواية لفظاً بذكر الحرف المحذوف والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (٩٦) وَتَقَطَّعُوا
أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهٍ لَّهُمْ رَجُوعٌ (٩٦).

قد قدمنا معاني «الأمة» في القرآن في سورة «هود»، والمراد بالأمة هنا: الشريعة
والملة. والمعنى وأن هذه شريعتكم شريعة واحدة، وهي توحيد الله على الوجه الأكمل
من جميع الجهات، وامتنال أمره، واجتناب نهيه بإخلاص في ذلك على حسب ما
شرعه لخلقه ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾؛ أي وحدي، والمعنى دينكم واحد وربكم
واحد، فلم تختلفون ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي تفرقوا في الدين وكانوا شيعاً؛
فمنهم يهودي، ومنهم نصراني، ومنهم عابد وثن، إلى غير ذلك من الفرق المختلفة.

ثم بين بقوله: ﴿كُلُّ إِلَهٍ لَّهُمْ رَجُوعٌ﴾؛ أنهم جميعهم راجعون إليه يوم القيامة،
وسيجازيهم بما فعلوا. وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ
بَيْنَهُمْ﴾؛ المعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً كما يتوزع الجماعة الشيء ويقسمونه؛
فيصير لهذا نصيب ولذلك نصيب؛ تمثيلاً لاختلافهم فيه، وصيرورتهم فرقاً شتى، اهـ.

وظاهر الآية أن «تقطع» متعدية إلى المفعول ومفعولها ﴿أَمْرَهُمْ﴾ ومعنى تقطعوه
أنهم جعلوه قطعاً كما ذكرنا. وقال القرطبي: قال الأزهري: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ﴾ أي
تفرقوا في أمرهم، فنصب «أمرهم» بحذف «في». ومن إطلاق الأمة بمعنى الشريعة
والدين كما في هذه الآية: قوله تعالى في الكفار: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾
[الزخرف: ٢٢]، أي على شريعة وملة ودين. ومن ذلك قول نابغة ذبيان:

حلفت فلم أترك في نفسك ريبة وهل يأثم من ذو أمة وهو طائع

ومعنى قوله: «وهل يأمن ذو أمة... إلخ» أن صاحب الدين لا يرتكب الإثم طائعا.

وما ذكره - جل وعلا - في هاتين الآيتين الكريمتين من أن الدين واحد والرب واحد فلا داعي للاختلاف، وأنهم مع ذلك اختلفوا وصاروا فرقا أوضحه في سورة «قد أفلح المؤمنون»، وزاد أن كل حزب من الأحزاب المختلفة فرحون بما عندهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ٥١﴾ وَلَئِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ٥٢ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ٥٣ فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يَسِيْرَ ٥٤﴾ [المؤمنون]، وقوله في هذه الآية: ﴿زُبُرًا﴾ أي قطعاً كزبر الحديد والفضة، أي قطعها. وقوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، أي كل فرقة من هؤلاء الفرق الضالين المختلفين المتقطعين دينهم قطعاً فرحون بباطلهم، مطمئنون إليه، معتقدون أنه هو الحق.

وقد بين - جلّ وعلا - في غير هذا الموضع أن ما فرحوا به، واطمأنوا إليه باطل، كما قال تعالى في سورة «المؤمن»: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ٨٢﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمْ وَكُفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ٨٣﴾ [غافر]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ٨٤﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ «هذه» اسم «إن» وخبرها ﴿أُمَّتُكُمْ﴾. وقوله: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ حال كما هو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن أهل النار لهم فيها زفير والعياذ بالله تعالى، وأظهر الأقوال في الزفير: أنه كأول صوت الحمار، وأن الشهيق كآخره، وقد بين تعالى أن أهل النار لهم فيها زفير في غير هذا الموضع وزاد على ذلك الشهيق والخلود كقوله في «هود»: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ٦٦﴾ خَلِيلِيَتْ فِيهَا﴾ [هود: ١٠٦، ١٠٧].

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن أهل النار لا يسمعون فيها. وبين في غير هذا الموضع أنهم لا يتكلمون ولا يبصرون، كقوله في «الإسراء»: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًا وَعِيًا وَنُكَمَا وَصْنًا...﴾ الآية [الإسراء: ٩٧]، وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]، وقوله: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَبْطِقُونَ ٨٥﴾ [النمل]، مع أنه - جلّ وعلا - ذكر في آيات أخر ما يدل على أنهم يسمعون ويبصرون ويتكلمون، كقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا...﴾ الآية [مريم: ٣٨]، وقوله: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا...﴾ الآية [السجدة: ١٢]، وقوله: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾... الآية [الكهف: ٥٣]. وقد بينا أوجه الجمع بين الآيات المذكورة في «طه» فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (١٠١). ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الذين سبقت لهم منه في علمه الحسنى وهي تأنيث الأحسن، وهي الجنة أو السعادة مبعدون يوم القيامة عن النار؛ وقد أشار إلى نحو ذلك في غير هذا الموضع كقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ (١٠٢) [الرحمن]، ونحو ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَنُلْقِيهِمُ الْمَلَكَةَ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن عباده المؤمنين الذين سبقت لهم منه الحسنى ﴿وَنُلْقِيهِمُ الْمَلَكَةَ﴾؛ أي تستقبلهم بالبشارة، وتقول لهم: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾؛ أي توعدون فيه أنواع الكرامة والنعيم، قيل: تستقبلهم على أبواب الجنة بذلك. وقيل: عند الخروج من القبور كما تقدم.

وما ذكره - جلّ وعلا - من استقبال الملائكة لهم بذلك - بينه في غير هذا الموضع كقوله في «فصلت»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٢١) ﴿تَحْنُ أُولِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَىٰ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ (٢٢) ﴿وَلَا مِن عَفْوَِرٍ رَّحِيمٍ﴾ (٢٣) [فصلت]، وقوله في «النحل»: ﴿الَّذِينَ نُوَلِّهِمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٦١) [النحل] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ منصوب بقوله: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ﴾، أو بقوله: ﴿وَنُلْقِيهِمُ﴾. وقد ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يوم القيامة يطوي السماء كطي السجل للكتب. وصرح في «الزمر» بأن الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، وأن السموات مطويات بيمينه، وذلك في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِّمَيْمَنِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢٧) [الزمر]. وما ذكره من كون السموات مطويات بيمينه في هذه الآية جاء في الصحيح أيضاً عن النبي ﷺ، وقد قدمنا مراراً أن الواجب في ذلك إمراره كما جاء، والتصديق به مع اعتقاد أن صفة الخالق أعظم من أن تماثل صفة المخلوق. وأقوال العلماء في معنى قوله: ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ راجعة إلى أمرين:

الأول: أنَّ السجل الصحيفة: والمراد بالكتب: ما كتب فيها، واللام بمعنى على، أي كطي السجل على الكتب، أي كطي الصحيفة على ما كتب فيها، وعلى هذا فطي السجل مصدر مضاف إلى مفعوله؛ لأن السجل على هذا المعنى مفعول الطي.

الثاني: أن السجل ملك من الملائكة، وهو الذي يطوي كتب أعمال بني آدم إذا رفعت إليه، ويقال: إنه في السماء الثالثة، ترفع إليه الحفظة الموكلون بالخلق أعمال بني

آدم في كل خميس واثنين، وكان من أعوانه (فيما ذكروا) هاروت وماروت، وقيل: إنه لا يطوي الصحيفة حتى يموت صاحبها فيرفعها ويطويها إلى يوم القيامة، وقول من قال: إن السجل صحابي، كاتب للنبي ﷺ ظاهر السقوط كما ترى.

وقوله في هذه الآية الكريمة: «الكتاب» قرأه عامة السبعة غير حمزة والكسائي وحفص عن عاصم «الكتاب» بكسر الكاف وفتح التاء بعدها ألف بصيغة الإفراد. وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم (لِلْكِتَابِ) بضم الكاف والتاء بصيغة الجمع. ومعنى القراءتين واحد؛ لأن المراد بالكتاب على قراءة الإفراد جنس الكتاب، فيشمل كل الكتب.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١٠٥)، أظهر الأقوال عندي في هذه الآية الكريمة أن الزبور الذي هو الكتاب يراد به جنس الكتاب فيشمل الكتب المنزلة، كالتوراة والإنجيل، وزبور داود، وغير ذلك، وأن المراد بالذكر أم الكتاب، وعليه فالمعنى ولقد كتبنا في الكتب المنزلة على الأنبياء أن الأرض يرثها عبادي الصالحون بعد أن كتبنا ذلك في أم الكتاب. وهذا المعنى واضح لا إشكال فيه. وقيل الزبور في الآية: زبور داود، والذكر: التوراة، وقيل غير ذلك. وأظهرها هو ما ذكرنا واختاره غير واحد.

واعلم أنا قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية قد يكون فيها قولان للعلماء، وكلاهما حق ويشهد له قرآن فنذكر الجميع؛ لأنه كله حق داخل في الآية. ومن ذلك هذه الآية الكريمة؛ لأن المراد بالأرض في قوله هنا: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾؛ فيه للعلماء وجهان:

الأول: أنها أرض الجنة يورثها الله يوم القيامة عباده الصالحين، وهذا القول يدل له قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَبْؤُا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ كُنَّا﴾ فَنِعَمَ أَجْرَ الْعَمِلِينَ ﴿١٧٦﴾ [الزمر]، وقد قدمنا معنى إيراثهم الجنة مستوفى في سورة «مريم».

الثاني: أن المراد بالأرض أرض العدو يورثها الله المؤمنين في الدنيا؛ ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب]، وقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا...﴾ الآية [الأعراف: ١٣٧]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ...﴾ الآية [النور: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَحْمَتَهُمْ لَهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ (١٢) وَلَسَخَنَّاكَمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴿[إبراهيم: ١٣، ١٤]، إلى غير ذلك من الآيات، وقرأ هذا الحرف عامة القراء غير حمزة ﴿فِي الزُّبُورِ﴾ بفتح الزاي ومعناه الكتاب. وقرأ حمزة وحده (في الزبور) بضم الزاي. قال القرطبي: وعلى قراءة حمزة

فهو جمع زبر، والظاهر أنه يريد الزبر بالكسر بمعنى المزبور أي المكتوب. وعليه فمعنى قراءة حمزة: ولقد كتبنا في الكتب. وهي تؤيد أن المراد بالزبور على قراءة الفتح جنس الكتب لا خصوص زبور داود كما بينا. وقرأ حمزة أيضاً «يرثها عبادي» بإسكان الياء. والباقون بفتحها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَلنَّعْمِ لِقَوْمٍ عَكِيدِينَ﴾.

الإشارة في قوله: ﴿هَذَا﴾ للقرآن العظيم، الذي منه هذه السورة الكريمة، والبلاغ: الكفاية، وما تبلغ به البغية. وما ذكره هنا من أن هذا القرآن فيه الكفاية للعابدين، وما يبلغون به بغيتهم، أي من خير الدنيا والآخرة، ذكره في غير هذا الموضع بكفوله: ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرَ أَوَّلُوا الْأَنْبِيَاءِ﴾ [إبراهيم]. وخص القوم العابدين بذلك لأنهم هم المتفعلون به.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه ما أرسل هذا النبي الكريم - صلوات الله وسلامه عليه - إلى الخلائق إلا رحمة لهم؛ لأنه جاءهم بما يسعدهم وينالون به كل خير من خير الدنيا والآخرة إن اتبعوه. ومن خالف ولم يتبع فهو الذي ضيع على نفسه نصيبه من تلك الرحمة العظمى. وضرب بعض أهل العلم لهذا مثلاً قال: لو فجر الله عيناً للخلق غزيرة الماء، سهلة التناول؛ فسقى الناس زروعهم ومواشيهم بمائها. فتتابعت عليهم النعم بذلك، وبقي أناس مفرطون كسالى عن العمل؛ فضيعوا نصيبهم من تلك العين، فالعين المفجرة في نفسها رحمة من الله، ونعمة للفريقين. ولكن الكسلان محنة على نفسه حيث حرّمها ما ينفعها. ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم]. وقيل: كونه رحمة للكفار من حيث إن عقوبتهم أخرت بسببه، وأمنوا به عذاب الاستئصال، والأول أظهر.

وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أنه ما أرسله إلا رحمة للعاملين، يدل على أنه جاء بالرحمة للخلق فيما تضمنه هذا القرآن العظيم. وهذا المعنى جاء موضحاً في مواضع من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت]، وقوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَرْجَوْنَ أَن يُلْقَى إِلَيْكُمُ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكُمْ﴾ [القصص: ٨٦].

وقد قدمنا الآيات الدالة على ذلك في سورة «الكهف» في موضعين منها، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين. قال: «إني لم أبعث لعناً وإنما بعثت رحمة».

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾. قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا وصدوا عما تدعوهم إليه ﴿فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾؛ أي أعلمتكم أنني حرب لكم كما

أنكم حرب لي، بريء منكم كما أنتم برآء مني. وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية أشارت إليه آيات أخر، كقوله: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]، أي ليكن علمك وعلمهم بنبد العهد على السواء. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس]. وقوله: ﴿مَّاذَنْتُكُمْ﴾ الأذان: الإعلام؛ ومنه الأذان للصلاة. وقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ...﴾ الآية [التوبة: ٣]، أي إعلام منه، قوله: ﴿فَأَذِّنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ...﴾ الآية [البقرة: ٢٧٩]، أي أعلموا. ومنه قول الحرث بن حنظلة:

أذنتنا ببينها أسماء رب ثاوٍ يمل منه الشواء

يعني أعلمتنا بينها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهَنَّمَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يعلم ما يجهر به خلقه من القول، ويعلم ما يكتُمونه. وقد أوضح هذا المعنى في آيات كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٩٩]، في الموضعين، وقوله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَِّّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ اقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق]، وقوله: ﴿وَإِنْ تَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ أَعْمُرْ بِالْحَقِّ﴾. قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير حفص عن عاصم (قُلْ ربّي) بضم القاف وسكون اللام بصيغة الأمر، وقرأه حفص وحده ﴿قَالَ﴾ بفتح القاف واللام بينهما ألف بصيغة الماضي، وقراءة الجمهور تدل على أنه ﷺ أمر أن يقول ذلك. وقراءة حفص تدل على أنه امتثل الأمر بالفعل. وما أمره أن يقوله هنا قاله نبي الله شعيب كما ذكره الله عنه في قوله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٣٤]. وقوله: ﴿افْتَحْ﴾ أي احكم كما تقدم.

وقوله: ﴿وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾؛ أي تصفونه بالسنتكم من أنواع الكذب بادعاء الشركاء والأولاد وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَصِفُوكَ السِّتَهُمُ الْكَذِبَ﴾ الآية [النحل: ٦٢]، وقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦]. وما قاله النبي ﷺ في هذه الآية قاله يعقوب لما علم أن أولاده فعلوا بأخيهم يوسف شيئا غير ما أخبروه به؛ وذلك في قوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، والمستعان: المطلوب منه العون، والعلم عند الله تعالى.

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحج

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ① يَوْمَ تَرْوُنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ②﴾. أمر - جل وعلا - في أول هذه السورة الكريمة الناس بتقواه - جل وعلا - بامتنال أمره، واجتناب نهيه، وبين لهم أن زلزلة الساعة شيء عظيم، تذهل بسببه المراضع عن أولادهن، وتضع بسببه الحوامل أحمالها، من شدة الهول والفرع، وأن الناس يرون فيه كأنهم سكارى من شدة الخوف، وما هم بسكارى من شرب الخمر، ولكن عذابه شديد.

وما ذكره تعالى هنا من الأمر بالتقوى، ذكره في مواضع كثيرة جداً من كتابه، كقوله في أول سورة النساء: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ③ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ④... الآية [النساء: ١] والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

وما بينه هنا من شدة أهوال الساعة، وعظم زلزلتها، بينه في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ⑤ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ⑥ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا هَٰذَا ⑦ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ⑧﴾ [الزلزلة] وقوله تعالى: ﴿وَحُلَّتِ الْأَرْضُ نَجْالًا ⑨ فَدَكَّا دَكًّا ⑩ وَاجِدَةً ⑪﴾ [الحاقة] وقوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ⑫ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ⑬﴾ [الواقعة] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِفَةُ ⑭ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ⑮ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ⑯ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ⑰﴾ [النازعات] وقوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ ⑱﴾ [الأعراف: ١٨٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عظم هول الساعة.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿آتِفُوا رَبَّكُمْ ①﴾ قد أوضحنا فيما مضى معنى التقوى بشواهد العربية، فأعنى ذلك عن إعادته هنا، والزلزلة: شدة التحريك والإزعاج، ومضاعفة زليل الشيء عن مقره ومركزه، أي تكرير انحرافه وتزحزحه عن موضعه؛ لأن الأرض إذا حركت حركة شديدة تزلزل كل شيء عليها زلزلة قوية.

وقوله: ﴿يَوْمَ تَرْوُنَهَا ②﴾ منصوب بتذهل، والضمير عائد إلى الزلزلة. والرؤية: بصرية؛ لأنهم يرون زلزلة الأشياء بأبصارهم، وهذا هو الظاهر، وقيل: إنها من رأي العلمية.

وقوله: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ③﴾ أي بسبب تلك الزلزلة، والذهول: الذهاب عن الأمر مع دهشة، ومنه قول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

ضرباً يزيلُ الهامَ عن مقيله ويُذهِلُ الخليلَ عن خليله
وقال قطرب: ذهل عن الأمر: اشتغل عنه. وقيل: ذهل عن الأمر: غفل عنه
لطرو شاغل، من همّ أو مرض، أو نحو ذلك، والمعنى واحد، وبقيّة الأقوال راجعة
إلى ما ذكرنا.

وقوله: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾؛ أي كل أنثى ترضع ولدها، ووجه قوله: مرضعة،
ولم يقل: مرضع: هو ما تقرر في علم العربية، من أن الأوصاف المختصة بالإناث إن
أريد بها الفعل لحقها التاء، وإن أريد بها النسب جردت من التاء، فإن قلت: هي
مرضع تريد: أنها ذات رضاع، جردته من التاء كقول امرئ القيس:
فمثلك حُبلى قد طرقت ومرضعاً فألهيتها عن ذي تمائم مغيل
وإن قلت: هي مرضعة بمعنى، أنها تفعل الرضاع: أي تلقم الولد الثدي، قلت:
هي مرضعة بالتاء ومنه قوله:

كمرضعة أولادٍ أُخرى وضِيعت بني بطنها هذا الضلال عن القصد
كما أشار له بقوله:

وما من الصفات بالأنثى يُخص عن تاء استغنى لأن اللَّفْظ نص
وحيث معنى الفعل يعني التاء زد كذي غدت مرضعةً طفلاً ولد

وما زعمه بعض النحاة الكوفيين من أن أم الصبي مرضعة بالتاء والمستأجرة
للإرضاع: مرضع بلا هاء باطل، قاله أبو حيان في البحر. واستدل عليه بقوله: كمرضعة
أولاد أخرى، البيت: فقد أثبت التاء لغير الأم، وقول الكوفيين أيضاً: إن الوصف
المختص بالأنثى لا يحتاج فيه إلى التاء؛ لأن المراد منها الفرق بين الذكر والأنثى:
والوصف المختص بالأنثى لا يحتاج إلى فرق لعدم مشاركة الذكر لها فيه مردود أيضاً،
قاله أبو حيان في البحر أيضاً مستدلاً بقول العرب: مرضعة، وحائضة، وطالقة:
والأظهر في ذلك هو ما قدمنا، من أنه إن أريد الفعل جيء بالتاء، وإن أريد النسبة جُرِّدَ
من التاء، ومن مجيء التاء للمعنى المذكور قول الأعشى:

أجارتنا يميني فإنك طالقة كذاك أمورُ الناس غادٍ وطارقة

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: فإن قلت: لم قيل: مرضعة دون مرضع؟
قلت: المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي. والمرضع: التي
شأنها أن ترضع، وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به، فقيل: مرضعة، كيدلّ على
أن ذلك الهول، إذا فوجئت به هذه، وقد ألقمت الرضيع ثديها: نزعته عن فيه، لما
يلحقها من الدهشة.

وقوله تعالى: ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ الظاهر أن ما موصولة، والعائد محذوف: أي
أرضعته على حد قوله في الخلاصة:

والحذف عندهم كثير مُنْجَلِي

في عائِدٍ مُتَّصِلٍ إِنْ انتصب . بفعلٍ أَوْ وصفٍ كَمَنْ نَرْجُو يَهْب

وقال بعض العلماء: هي مضدزية؛ أي تذهل كل مرضعة عن إرضاعها.

قال أبو حيان في البحر: ويقوي كونها موصولة تعدي وضع إلى المفعول به في قوله: ﴿حَمَلَهَا﴾ لا إلى المصدر.

وقوله: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا﴾؛ أي كل صاحبة حمل تضع جنينها، من شدة الفزع، والهول، والحمل بالفتح: ما كان في بطن من جنين، أو على رأس شجرة من ثمر ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ جمع سكران: أي يشبههم من رآهم بالسكرارى، من شدة الفزع ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾ من الشراب ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ والخوف منه هو الذي صيّر من رآهم يشبههم بالسكرارى، لذهاب عقولهم، من شدة الخوف، كما يذهب عقل السكران من الشراب. وقرأ حمزة والكسائي: «وترى الناس سكرى وما هم بسكرى» بفتح السين، وسكون الكاف في الحرفين على وزن فعلى بفتح فسكون. وقرأه الباقر ﴿سُكَارَى﴾ بضم السين، وفتح الكاف بعدها ألف في الحرفين أيضاً، وكلاهما جمع سكران على التحقيق. وقيل: إن سكرى بفتح فسكون: جمع سكر بفتح فكسر بمعنى: السكران، كما يجمع الزمن على الزمنى، قاله أبو علي الفارسي، كما نقله عنه أبو حيان في البحر. وقيل: إن سكرى مفرد، وهو غير صواب. واستدلال المعتزلة بهذه الآية الكريمة على أن المعدوم يسمى شيئاً؛ لأنه وصف زلزلة الساعة، بأنها شيء في حال عدمها قبل وجودها. قد بينّا وجه رده في سورة مريم، فأغنى عن إعادته هنا.

مسألة: اختلف العلماء في وقت هذه الزلزلة المذكورة هنا، هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة، أو هي عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من القبور؟

فقال جماعة من أهل العلم: هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا، وأول أحوال الساعة، وممن قال بهذا القول: علقمة، والشعبي، وإبراهيم، وعبيد بن عمير، وابن جريج. وهذا القول من حيث المعنى له وجه من النظر، ولكنه لم يثبت ما يؤيده من النقل، بل الثابت من النقل يؤيد خلافه؛ وهو القول الآخر.

وحجة من قال بهذا القول حديث مرفوع، جاء بذلك، إلا أنه ضعيف لا يجوز الاحتجاج به.

قال ابن جرير الطبري في تفسيره مبيناً دليل من قال: إن الزلزلة المذكورة في آخر الدنيا قبل يوم القيامة: حدثنا أبو كريب قال: حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي، عن إسماعيل بن رافع المدني، عن يزيد بن أبي زياد، عن رجل من الأنصار، عن محمد بن كعب القرظي، عن رجل من الأنصار، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«لما فرغ الله من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطى إسرأفيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى السماء ينظر متى يؤمر»، قال أبو هريرة: يا رسول الله، وما الصور؟ قال: «قَرْن»، قال: وكيف هو؟ قال: «قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات، الأولى: نفخة الفزع، والثانية: نفخة الصّعق، والثالثة: نفخة القيام لرب العالمين، يأمر الله ﷻ إسرأفيل بالنفخة الأولى: أنفخ نفخة الفزع فتفرع أهل السموات والأرض إلا من شاء الله ويأمره الله فيديهما ويطولها فلا يفتر، وهي التي يقول الله: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ [ص] فيسير الله الجبال فتكون سراباً، وترج الأرض بأهلها رجاً، وهي التي يقول الله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۖ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ۖ قُلُوبٌ يَوْزَجُ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات] فتكون الأرض كالسفينة الموبقة في البحر، تضربها الأمواج تكفاً بأهلها، أو كالقنديل المعلق بالعرش، ترججه الأرواح، فتميد الناس على ظهرها، فتذهل المراضع، وتضع الحوامل، وتشيب الولدان، وتطير الشياطين هاربة حتى تأتي الأقطار، فتلقاها الملائكة، فتضرب وجوهها، ويولى الناس مُدِيرِينَ، ينادي بعضهم بعضاً، وهو الذي يقول الله: ﴿وَيَقُولُ إِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ [النمل: ٢٢] يَوْمَ تُولَوْنَ مُدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَنَ يُضِلِلَ اللَّهُ فَا لَكُمْ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر] فبينما هم على ذلك، إذ تصدعت الأرض من قطر إلى قطر فرأوا أمراً عظيماً، وأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به، ثم نظروا إلى السماء، فإذا هي كالمهل، ثم خسفت شمسها، وخسف قمرها، وانتشرت نجومها، ثم كسّطت عنهم» قال رسول الله ﷺ: «والأموات لا يعلمون بشيء من ذلك»، فقال أبو هريرة: فمن استثنى الله حين يقول: ﴿فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧] قال: «أولئك الشهداء، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون، وقاهم الله فزع ذلك اليوم، وأمنهم، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه، وهو الذي يقول: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١٠١] إلى قوله: ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ انتهى منه. ولا يخفى ضعف الإسناد المذكور كما ترى. وابن جرير رحمه الله قبل أن يسوق الإسناد المذكور قال ما نصه: وقد روي عن النبي ﷺ بنحو ما قال هؤلاء خبر في إسناده نظر، وذلك ما حدثنا أبو كريب إلى آخر الإسناد، كما سقناه عنه آنفاً.

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وقد أورد الإمام أبو جعفر بن جرير مستند من قال ذلك في حديث الصور، من رواية إسماعيل بن رافع، عن يزيد بن أبي زياد، عن رجل من الأنصار، عن محمد بن كعب القرظي، عن رجل، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ، ثم ساق الحديث نحو ما ذكرناه بطوله، ثم قال: هذا الحديث قد رواه الطبراني وابن جرير، وابن أبي حاتم، وغير واحد مطولاً جداً.

والغرض منه أنه دلّ على أن هذه الزلزلة كائنة قبل يوم القيامة أضيفت إلى الساعة لقربها منها، كما يقال: أشراط الساعة، ونحو ذلك والله أعلم، انتهى منه. وقد علمت ضعف الإسناد المذكور.

وأما حجة أهل القول الآخر القائلين بأن الزلزلة المذكورة كائنة يوم القيامة بعد البعث من القبور، فهي ما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ من تصريحه بذلك، وبذلك تعلم أن هذا القول هو الصواب كما لا يخفى.

قال البخاري رحمه الله في صحيحه في التفسير في باب قوله: ﴿وَرَى النَّاسَ سُكَرَى﴾ حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثنا أبو صالح، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله ﷻ يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار، قال: يا رب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف أراه، قال: تسعمائة وتسعة وتسعين، فحينئذ تضع الحمل حملها، ويشيب الوليد، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد». فشق ذلك على الناس، حتى تغيرت وجوههم، فقال النبي ﷺ: «من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين، ومنكم واحد، وأنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة»، فكبرنا ثم قال: «ثلث أهل الجنة»، فكبرنا، ثم قال: «شطر أهل الجنة»، فكبرنا.

وقال أبو أسامة، عن الأعمش: ﴿وَرَى النَّاسَ سُكَرَى وَمَا هُمْ بِسُكَرَى﴾ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين. وقال جرير، وعيسى بن يونس، وأبو معاوية: «سكرى وما هم بسكرى» انتهى من صحيح البخاري.

وفيه تصريح النبي ﷺ بأن الوقت الذي تضع فيه الحمل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى: هو يوم القيامة لا آخر الدنيا.

وقال البخاري في صحيحه أيضاً في كتاب الرقاق، في باب: إن زلزلة الساعة شيء عظيم: حدثني يوسف بن موسى، حدثنا جرير عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: «يقول الله ﷻ يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، قال يقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فذلك حين يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكرى، وما هم بسكرى؛ ولكن عذاب الله شديد». فاشتد ذلك عليهم فقالوا: يا رسول الله آتينا ذلك الرجل؟ قال: «أبشروا، فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً، ومنكم رجل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده إنني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة»، فحمدنا الله وكبرنا. ثم قال: «والذي نفسي بيده إنني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة، إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالرقمة في ذراع الحمار»، انتهى منه. ودلالته على المقصود ظاهرة.

وقال البخاري أيضاً في صحيحه في كتاب: بدء الخلق في أحاديث الأنبياء في باب

قول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْعَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿سَبَّأً﴾ [الكهف: ٨٣ - ٨٩] حدثنا إسحاق بن نصر، حدثنا أبو أسامة، عن الأعمش، حدثنا أبو صالح، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبيك، وسعديك، والخير في يديك، فيقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فعنده يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد» إلى آخر الحديث نحو ما تقدم.

وقال مسلم بن الحجاج رحمته الله في صحيحه في آخر كتاب الإيمان بكسر الهمزة في باب: بيان كون هذه الأمة نصف أهل الجنة: حدثنا عثمان بن أبي شيبة العبسي، حدثنا جرير عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله ﷻ: يا آدم، فيقول: لبيك، وسعديك، والخير في يديك، قال: يقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، قال: فذلك حين يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد» إلى آخر الحديث نحو ما تقدم.

فحديث أبي سعيد هذا الذي اتفق عليه الشيخان كما رأيت، فيه التصريح من النبي ﷺ بأن الوقت الذي تضع فيه كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، بعد القيام من القبور كما ترى، وذلك نص صحيح صريح في محل النزاع. فإن قيل: هذا النص فيه إشكال؛ لأنه بعد القيام من القبور لا تحمل الإناث، حتى تضع حملها من الفزع، ولا ترضع، حتى تذهل عما أرضعت. فالجواب عن ذلك من وجهين:

الأول: هو ما ذكره بعض أهل العلم، من أن من ماتت حاملاً تبعث حاملاً، فتضع حملها من شدة الهول والفزع، ومن ماتت مرضعة بعثت كذلك، ولكن هذا يحتاج إلى دليل. الوجه الثاني: أن ذلك كناية عن شدة الهول كقوله تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧] ومثل ذلك من أساليب اللغة العربية المعروفة.

تنبيه: اعلم أن هذا الذي دلت عليه الأحاديث الصحيحة التي ذكرنا بعضها يرد عليه سؤال، وهو أن يقال: إذا كانت الزلزلة المذكورة بعد القيام من القبور، فما معناها؟ والجواب: أن معناها شدة الخوف، والهول، والفزع؛ لأن ذلك يسمى زلزلاً، بدليل قوله تعالى فيما وقع بالمسلمين يوم الأحزاب من الخوف ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَظَنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ هَٰذَا لَكِ آيَاتُ الْيَوْمِ الَّذِي كُنْتَ تُكَذِّبُ فِيهِ الْكُفْرَ [الأحزاب: ١١] أي وهو زلزال فزع وخوف، لا زلزال حركة الأرض.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَفْءٌ عَظِيمٌ﴾ يدل على أن عظم الهول يوم القيامة موجب واضح للاستعداد لذلك الهول؛ بالعمل

الصالح، في دار الدنيا، قبل تعذر الإمكان لما قدمنا مراراً من أن إن المشددة المسكورة تدل على التعليل، كما تقرر في الأصول في مسلك الإيماء والتنبيه، ومسلك النص الظاهر: أي اتقوا الله؛ لأن أمامكم أهوالاً عظيمة، لا نجاة منها إلا بتقواه - جل وعلا - .

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ۖ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن قَوْلَاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ۝١١﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من الناس بعضاً يجادل في الله بغير علم؛ أي يخاصم في الله بأن ينسب إليه ما لا يليق بجلاله وكماله، كالذي يدعي له الأولاد والشركاء، ويقول: إن القرآن أساطير الأولين، ويقول: لا يمكن أن يحيي الله العظام الرميم، كالنضر بن الحارث، والعاص بن وائل، وأبي جهل بن هشام وأمثالهم من كفار مكة الذين جادلوا في الله ذلك الجدل الباطل بغير مستند، من علم عقلي، ولا نقلي، ومع جدالهم في الله ذلك الجدل الباطل يتبعون كل شيطان مرید؛ أي عاتٍ طاغٍ من شياطين الإنس والجن ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾: أي كتب الله عليه كتابة قدر وقضاء ﴿أَنَّهُ مَن قَوْلَاهُ﴾؛ أي كل من صار ولياً له: أي للشيطان المرید المذكور، فإنه يضلّه عن طريق الجنة إلى النار، وعن طريق الإيمان إلى الكفر، ويهديه إلى عذاب السعير؛ أي النار الشديدة الوقود.

وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن بعض الجهال كالكفار يجادل في الله بغير علم؛ أي يخاصم فيه بغير مستند من علم بينه في غير هذا الموضع كقوله في هذه السورة الكريمة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِي عَظِيمِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾. وقوله تعالى في لقمان: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنُهُ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۝٢٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَبَّبْتُ مَا أُبَدِّلْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلَوْ كَانُ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ۝٢١﴾ [لقمان] فقوله في آية لقمان هذه: أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير، كقوله في الحج: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن قَوْلَاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ۝١١﴾ وهذه الآية الكريمة التي هي من قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الآية، يدخل فيما تضمنته من الوعيد والذم: أهل البدع والضلال، المعرضين عن الحق، المتبعين للباطل، يتركون ما أنزل الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رؤساء الضلالة الدعاة إلى البدع والأهواء والآراء، بقدر ما فعلوا من ذلك؛ لأن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

ومن الآيات الدالة على مجادلة الكفار في الله بغير علم قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٢٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسَى خَلْقَهُ قَالَ مَن يُعِى الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٢٨﴾ [يس] وقوله في أول النحل: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝١﴾ [النحل] وقوله تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ لَعْنَهُ﴾ [الكهف: ٥٦]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جَحَنَهُمْ

دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١١﴾ [الشورى] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهَهُنَّ خَيْرٌ أَمْرٌ هُوَ مَا صَرَّبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨] وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِثِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] والآيات بمثل ذلك كثيرة، وما ذكره الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أنه قدر وقضى أن من تولّى الشيطان، فإن الشيطان يضلّه ويهديه إلى عذاب السعير، بيّنه في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر] وقوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١] وقوله تعالى عن نبيه وخليله إبراهيم: ﴿يَتَأْتِيَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١] إلى غير ذلك من الآيات.

واعلم أنه يفهم من دليل خطاب هذه الآية الكريمة، أعني مفهوم مخالفتها أن من يجادل بعلم على ضوء هذى كتاب منير، كهذا القرآن العظيم، ليحق الحق، ويبطل الباطل بتلك المجادلة الحسنة أن ذلك سائغ محمود؛ لأن مفهوم قوله: ﴿يَغْيِّرُ عِلْمَهُ﴾ أنه إن كان بعلم، فالأمر بخلاف ذلك، وليس في ذلك اتباع للشيطان، ويدل لهذا المفهوم المذكور قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَخَدِّ لَهُمْ بِآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقال الفخر الرازي في تفسيره: هذه الآية بمفهومها تدل على جواز المجادلة الحقّة؛ لأن تخصيص المجادلة مع عدم العلم بالدلائل، يدل على أن المجادلة مع العلم جائزة، فالمجادلة الباطلة هي المراد من قوله: ﴿مَا صَرَّبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [الزخرف: ٥٨] والمجادلة الحقّة هي المراد من قوله: ﴿وَيَخَدِّ لَهُمْ بِآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، اهـ منه.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿عَذَابِ السَّعِيرِ﴾: يعني عذاب النار، فالسعير: النار أعاذنا الله، وإخواننا المسلمين منها. والظاهر أن أصل السعير: فعيل، بمعنى: من قول العرب: سَعَرَ النَّارَ، يسعرها كمنع يمنع إذا أوقدها، وكذلك سَعَرَهَا بالتضعيف، وعلى لغة التضعيف والتخفيف القراءتان السبعيتان في قوله: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ [التكوير] فقد قرأه من السبعة نافع وابن عامر في رواية ابن ذكوان، وعاصم في رواية حفص: سُعِّرَتْ بتشديد العين، وقرأه الباقر بتخفيف العين، ومما جرى من كلام العرب على نحو قراءة نافع، وابن ذكوان، وحفص قول بعض شعراء الحماسة:

قالت له عرسه يوماً لتُسمعني مهلاً فإن لنا في أمنا أربا
ولو رأتنى في نار مُسَعِّرة ثم استطاعت لزادت فوقها خطبا

إذ لا يخفى أن قوله: مسعرة: اسم مفعول سُعِّرَتْ بالتضعيف، وبما ذكرنا يظهر أن أصل السعير؛ فعيل بمعنى اسم المفعول؛ أي النار المسعرة؛ أي الموقدة بإقداً

شديداً لأنها بشدة الإيقاد يزداد حرها عياداً بالله منها، ومن كل ما قرب إليها من قول وعمل، وفي ذلك لغة ثالثة، إلا أنها ليست في القرآن: وهي أسعر النار بصيغة أفعال، بمعنى أوقدها.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَهْدِي إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ يدل على أن الهدى كما أنه يستعمل في الإرشاد والدلالة على الخير، يستعمل أيضاً في الدلالة على الشر؛ لأنه قال: ﴿وَيَهْدِي إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَنَّةِ﴾ [الصافات: ٢٣] وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكُونُونَ إِلَىٰ التَّكْوِينِ...﴾ الآية [التقصص: ٤١]؛ لأن الإمام هو من يقتدى به في هديه وإرشاده.

وإطلاق الهدى في الضلال كما ذكرنا أسلوب عربي معروف، وكلام البلاغيين في مثل ذلك بأن فيه استعارة عنادية، وتقسيمهم العنادية إلى تهكمية وتمليحية، معروف كما أشرنا إليه سابقاً، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ قد أوضحنا معنى الشيطان في سورة الحجر، والمريد والمارد في اللغة العربية: العاتي، تقول: مرد الرجل بالضم يمرد، فهو مارد، ومريد إذا كان عاتياً، والظاهر أن الشيطان في هذه الآية، يشمل كل عات يدعو إلى عذاب السعير، ويضل عن الهدى، سواء كان من شياطين الجن أو الإنس، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤَفِّقُ وَيَنْصَحُ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَأْتِ إِلَىٰ أَزْوَاجِهِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾. هذه الآية الكريمة والآيات التي بعدها، تدل على أن جدال الكفار المذكور في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يدخل فيه جدالهم في إنكار البعث، زاعمين أنه - جل وعلا - لا يقدر أن يحيي العظام الرميم، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، كما قال تعالى: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس] وكقوله تعالى عنهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٥] ونحو ذلك من الآيات كما قدمنا الإشارة إليه قريباً.

ولأجل ذلك أقام تعالى البراهين العظيمة على بعث الناس من قبورهم أحياء إلى عرصات القيامة للحساب، والجزاء فقال - جل وعلا -: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ﴾ فمن أوجدكم الإيجاد الأول، وخلقكم من التراب لا شك أنه قادر على إيجادكم، وخلقكم مرة ثانية، بعد أن بليت عظامكم، واختلطت بالتراب؛ لأن الإعادة لا يمكن أن تكون أصعب من ابتداء الفعل، وهذا البرهان القاطع على القدرة على البعث الذي هو خلقه تعالى للخلائق المرة الأولى المذكور هنا، جاء

الطور الثالث: العلقه: وهي القطعة من العلق، وهو الدم الجامد فقوله: ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾: أي قطعة دم جامدة، ومن إطلاق العلق على الدم المذكور قول زهير:

إليك أعملتها فتلا مرافقتها شهرين يجهض من أرحامها العلق

الطور الرابع: المضغة: وهي القطعة الصغيرة من اللحم، على قدر ما يمضغه الآكل، ومنه قوله ﷺ: «إِنْ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةٌ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ» الحديث.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ في معناه أوجه معروفة عند العلماء، سنذكرها هنا - إن شاء الله - ونبين ما يقتضي الدليل رجحانه.

منها: أن قوله: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ صفة للنطفة وأن المخلقة: هي ما كان خلقاً سوياً، وغير المخلقة: هي ما دفعته الأرحام من النطف، وألقته قبل أن يكون خلقاً، وممن روي عنه هذا القول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه نقله عنه ابن جرير وغيره، ولا يخفى بعد هذا القول؛ لأن المخلقة وغير المخلقة من صفة المضغة، كما هو ظاهر.

ومنها أن معنى مخلقة: تامة، وغير مخلقة: أي غير تامة، والمراد بهذا القول عند قائله: أن الله - جل وعلا - يخلق المضع متفاوتة، منها: ما هو كامل الخلقة، سالم من العيوب، ومنها: ما هو على عكس ذلك، فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس، في خلقهم، وصورهم، وطولهم، وقصرهم، وتماهم، ونقصانهم.

وممن روي عنه هذا القول: قتادة كما نقله عنه ابن جرير وغيره، وعزاه الرازي لقتادة والضحاك. ومنها أن معنى مخلقة مصورة إنساناً، وغير مخلقة: أي غير مصورة إنساناً كالسقط الذي هو مضغة، ولم يجعل له تخطيط وتشكيل، وممن نقل عنه هذا القول: مجاهد، والشعبي، وأبو العالية كما نقله عنهم ابن جرير الطبري. ومنها أن المخلقة: هي ما ولد حياً، وغير المخلقة: هي ما كان من سقط.

وممن روي عنه هذا القول: ابن عباس رضي الله عنه. وقال صاحب الدر المنثور: إنه أخرجه عنه ابن أبي حاتم وصححه ونقله عنه القرطبي وأنشد لذلك قول الشاعر:

أفني غير المخلقة البكاء فأئين الحزم ويحك والحياء

وقال أبو جعفر بن جرير - رحمه الله تعالى -: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: المخلقة: المصورة خلقاً تاماً. وغير المخلقة: السقط قبل تمام خلقه؛ لأن المخلقة، وغير المخلقة من نعت المضغة، والنطفة بعد مصيرها مضغة لم يبق لها حتى تصير خلقاً سوياً إلا التصوير، وذلك هو المراد بقوله: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ خلقاً سوياً، وغير مخلقة بأن تلقيه الأم مضغة ولا تصوير، ولا ينفخ الروح، انتهى منه.

وهذا القول الذي اختاره ابن جرير، اختاره أيضاً غير واحد من أهل العلم.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: هذا القول الذي اختاره الإمام الجليل الطبري

رحمه الله تعالى، لا يظهر صوابه، وفي نفس الآية الكريمة قرينة تدل على ذلك وهي قوله - جل وعلا - في أول الآية: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّرَابٍ﴾؛ لأنه على القول المذكور الذي اختاره الطبري يصير المعنى ثم خلقناكم من مضغة مخلقة، وخلقناكم من مضغة غير مخلقة. وخطاب الناس بأن الله خلق بعضهم من مضغة غير مصورة، فيه من التناقض كما ترى، فافهم.

فإن قيل: في نفس الآية الكريمة قرينة تدل على أن المراد بغير المخلقة: السقط؛ لأن قوله: ﴿وَيُقَرَّرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يفهم منه أن هناك قسماً آخر لا يقره الله في الأرحام، إلى ذلك الأجل المسمى، وهو السقط.

فالجواب أنه لا يتعين فهم السقط من الآية؛ لأن الله يقر في الأرحام ما يشاء أن يقره إلى أجل مسمى، فقد يقره ستة أشهر، وقد يقره تسعة، وقد يقره أكثر من ذلك كيف شاء.

أما السقط: فقد دلت الآية على أنه غير مراد بدليل قوله: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ...﴾ الآية؛ لأن السقط الذي تلقيه أمه ميتاً، ولو بعد التشكيل والتخطيط، لم يخلق الله منه إنساناً واحداً من المخاطبين بقوله: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّرَابٍ﴾... الآية. فظاهر القرآن يقتضي أن كلاً من المخلقة، وغير المخلقة: يخلق منه بعض المخاطبين في قوله: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾... الآية.

وبذلك تعلم أن أولى الأقوال في الآية، هو القول الذي لا تناقض فيه؛ لأن القرآن أنزل ليصدق بعضه بعضاً، لا ليتناقض بعضه مع بعض، وذلك هو القول الذي قدمنا عن قتادة والضحاك، وقد اقتصر عليه الزمخشري في الكشف ولم يحك غيره: وهو أن المخلقة: هي التامة، وغير المخلقة: هي غير التامة.

قال الزمخشري في الكشف: والمخلقة المسواة للمساء من النقصان والعيب، يقال: خلق السواك والعود: إذا سواه وملسه، من قولهم: صخرة خلقاء، إذا كانت لمساء، كأن الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة، منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب. ومنها ما هو على عكس ذلك، فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم، انتهى منه.

وهذا المعنى الذي ذكره الزمخشري معروف في كلام العرب، تقول العرب: حجر أخلق، أي أملس مصمت لا يؤثر فيه شيء، وصخرة خلقاء بينة الخلق: أي ليس فيها وسم، ولا كسر، ومنه قول الأعشى:

قد يترك الدهرُ في خلقاء راسيةً وهياً وينزل منها الأعصم الصّدا

والدهر في البيت: فاعل يترك، والمفعول به: وهياً. يعني أن صرف الدهر قد يؤثر في الحجارة الصم السالمة من الكسر والوصم، فيكسرها، ويوهيها، ويؤثر في العصم من الأوعال برووس الجبال، فينزلهما من معاقلها، ومن ذلك أيضاً قول ابن أحمر يصف فرساً، وقد أنشده صاحب اللسان للمعنى المذكور:

بمقلّص درك الطريدة متنه كصفا الخليقة بالفضاء الملبد

فقوله: كصفا الخليقة، يعني أن متن الفرس المذكور كالصخرة الملساء التي لا كسر فيها، ولا وسم، وهو من إضافة الموصوف إلى صفته. والسهم المخلوق: هو الأملس المستوي.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: وهذا القول هو أولى الأقوال بالصواب فيما يظهر لي لجريانه على اللغة التي نزل بها القرآن وسلامته من التناقض، والله - جل وعلا - أعلم. وقوله - جل وعلا - في الآية الكريمة: ﴿لَنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾؛ أي لنبيّن لكم بهذا النقل من طور إلى طور، كمال قدرتنا على البعث بعد الموت، وعلى كل شيء؛ لأن من قدر على خلق البشر من تراب أولاً، ثم من نطفة ثانياً، مع ما بين النطفة والتراب من المنافاة والمغايرة، وقدر على أن يجعل النطفة علقه، مع ما بينهما من التباين والتغاير، وقدر على أن يجعل العلقه مضغة، والمضغة عظماً، فهو قادر بلا شك على إعادة ما بدأه من الخلق، كما هو واضح، وقوله: ﴿لَنُبَيِّنَ﴾ الظاهر أنه متعلق بخلقناكم، في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَيْتِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تَرَابٍ...﴾ الآية؛ أي خلقناكم خلقاً من بعد خلق على التدرج المذكور: لنبيّن لكم قدرتنا على البعث وغيره. وقال الزمخشري مبيناً نكتة حذف مفعول ﴿لَنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ ما نصه: وورود الفعل غير مُعدّى إلى المبين إعلام بأن أفعاله هذه يتبيّن بها من قدرته وعلمه ما لا يكتنّيه الذكر، ولا يحيط به الوصف. انتهى منه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَنَقَرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّكَ أَبْلَغُ مُسَمًّى﴾؛ أي نقّر في أرحام الأمهات ما نشاء إقراره فيها، من الأحمال، والأجنة إلى أجل مسمى؛ أي معلوم معيّن في علمنا، وهو الوقت الذي قدره الله لوضع الجنين، والأجنة تختلف في ذلك حسبما يشاءه الله - جل وعلا - فتارة تضعه أمه لستة أشهر، وتارة لتسعة، وتارة لأكثر من ذلك، وما لم يشأ الله إقراره من الحمل مجّته الأرحام وأسقطته، ووجه رفع: ونقرّ أن المعنى ونحن نقّر في الأرحام، ولم يعطف على قوله ﴿لَنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ لأنه ليس علة لما قبله، فليس المراد خلقناكم من تراب، ثم من نطفة، لنقرّ في الأرحام ما نشاء، وبذلك يظهر لك رفعه، وعدم نصبه، وقراءة من قرأ: ونقرّ بالنصب عطفاً على لنبيّن، على المعنى الذي نفينا على قراءة الرفع، ويؤيد معنى قراءة النصب قوله بعده: ﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾؛ أي وذلك بعد أن يخلق الله المضغة عظماً، ثم يكسو العظام لحماً، ثم ينشئ ذلك الجنين خلقاً آخر، فيخرجه من بطن أمه في الوقت المعين لوضعه في حال كونه طفلاً أي ولداً بشراً سوياً. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾؛ أي لتبلغوا كمال قوتكم، وعقلكم، وتمييزكم بعد إخراجكم من بطون أمهاتكم في غاية الضعف وعدم علم شيء.

وقد قدمنا أقوال العلماء في المراد بالأشد، وهل هو جمع أو مفرد مع بعض الشواهد العربية في سورة الأنعام، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤْوِتُ﴾؛ أي ومنكم أيها الناس من يتوفى من قبل؛ أي من قبل بلوغه أشده، ومنكم من ينسأ له في أجله، فيعمر حتى يهرم فيرد من بعد شبابه وبلوغه غاية أشده إلى أرذل العمر، وهو الهرم، حتى يعود كهيشته في حال صباه من الضعف، وعدم العلم.

وقد أوضحنا كلام العلماء في أرذل العمر ومعنى ﴿لَكِنَّ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ في سورة [النحل: ٧٠]، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وهذا الذي ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من الاستدلال على كمال قدرته، على بعث الناس بعد الموت، وعلى كل شيء ينقله الإنسان من طور إلى طور، من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقه إلى آخر الأطوار المذكورة، ذكره - جل وعلا - في مواضع من كتابه مبيناً أنه من البراهين القطعية على قدرته، على البعث وغيره.

فمن الآيات التي ذكر فيها ذلك من غير تفصيل لتلك الأطوار قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٩] وقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [١٣] وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ٥] أي طوراً بعد طور كما بيّنا. وقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ أَنْفُسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَانزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْثَرِ مَنِينَةً أَرْوَجَ يَخْلَقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصَرِّفُونَ﴾ [الزمر: ١] وقوله في آية الزمر هذه في ظلمات ثلاث: أي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة. فقد ركب تعالى عظام الإنسان بعضها ببعض وكساها اللحم، وجعل فيها العروق والعصب، وفتح مجاري البول والغائط، وفتح العيون والأذان والأفواه وفرّق الأصابع وشد رؤوسها بالأظفار إلى غير ذلك من غرائب صنعه، وعجائبه وكل هذا في تلك الظلمات الثلاث، لم يحتاج إلى شق بطن أمه وإزالة تلك الظلمات.

سبحانه - جل وعلا - ما أعظم شأنه وما أكمل قدرته هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم، ولأجل هذه الغرائب والعجائب من صنعه تعالى قال بعد التنبيه عليها: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصَرِّفُونَ﴾ [الزمر: ٦]. ومن الآيات التي أوضح فيها تلك الأطوار على التفصيل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [١٧] ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي فَقَارٍ مَّكِينٍ﴾ [١٨] ثُمَّ خَلَقْنَا النَّظْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا أَلْفَلَقَةً مَّضْجَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [٢٠] ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [٢١] ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [٢٢] [المؤمنون].

وقد ذكر تعالى تلك الأطوار مع حذف بعضها في قوله في سورة المؤمن: ﴿هُوَ الَّذِي

خَلَقَكُمْ مِنْ رُأْبٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِنَبْلُغُوا لَبًّا مَسًى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧﴾ [غافر] وقوله تعالى في الكهف: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ رُأْبٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [الكهف] ﴿٣٧﴾ وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [النحل] ﴿٦٧﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [يس] ﴿٦٧﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢] الآية، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق] ﴿٢﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمِنَّا خَلَقْنَاهُ﴾ [طه: ٥٥] إلى غير ذلك من الآيات. وقد بيّنت الستة الصحيحة القدر الذي تمكنه النطفة قبل أن تصير علقة، والقدر الذي تمكنه العلقة، قبل أن تصير مضغة، والقدر الذي تمكنه المضغة قبل أن تصير مضغة.

قال مسلم بن الحجاج رحمته الله في صحيحه حدثنا أبو بكر بن أبي شيبه، حدثنا أبو معاوية ووكيع، وحدثنا محمد بن عبد الله بن نمير الهمداني واللفظ له، حدثنا أبي وأبو معاوية، ووكيع قالوا: حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون في ذلك علقةً مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغةً مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد» الحديث، ففي هذا الحديث الصحيح تصريحه ﷺ بأن الجنين يمكث أربعين يوماً نطفة، ثم يصير علقة، ويمكث كذلك أربعين يوماً، ثم يصير مضغة، ويمكث كذلك أربعين يوماً، ثم ينفخ فيه الروح، فنفخ الروح إذاً في أول الشهر الخامس من أشهر الحمل.

وقال البخاري رحمته الله في صحيحه: حدثنا أبو الوليد هشام بن عبد الملك، حدثنا شعبة، أنبأني سليمان الأعمش، قال: سمعت زيد بن وهب، عن عبد الله قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً ثم علقةً مثل ذلك ثم يكون مضغةً مثل ذلك ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربعة: برزقه وأجله وشقي أو سعيد» الحديث. وهذه الرواية في البخاري ينقص منها ذكر العمل، وهو مذكور في روايات أخر صحيحة معروفة. وقد قدمنا وجه الدلالة المقصودة من الحديث المذكور، والله أعلم.

وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف: وهو أن يقال: ما وجه الإفراد في قوله: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ مع أن المعنى نخرجكم أطفالاً، وللعلماء عن هذا السؤال أجوبة.

منها: ما ذكره ابن جرير الطبري قال: ووجد الطفل وهو صفة للجمع؛ لأنه مصدر مثل عذر وزور وتبعه غيره في ذلك.

ومنها: قول من قال: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾: أي نخرج كل واحد منكم طفلاً، ولا يخفى عدم اتجاه هذين الجوابين.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: الذي يظهر لي من استقراء اللغة العربية التي نزل بها القرآن، هو أن من أساليبها أن المفرد إذا كان اسم جنس، يكثر إطلاقه مراداً به الجمع مع تنكيره كما في هذه الآية، وتعريفه بالآلف واللام، وبالإضافة، فمن أمثله في القرآن مع التنكير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّائِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ۖ﴾ [القمر: ٥٤] أي وأنهار بدليل قوله تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ [محمد: ١٥]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُفْسِقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]؛ أي أئمة، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَبَعَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ قَسًا﴾ [النساء: ٤]؛ أي أنفساً، وقوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَعِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٧]؛ أي سامرين، وقوله تعالى: ﴿لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٣٦]؛ أي بينهم، وقوله تعالى: ﴿وَصَصَّنَ أَوْلِيكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]؛ أي رفقاء، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطْهَرُوا﴾ [المائدة: ٦]؛ أي مجنبيين أو أجنباً، وقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحریم: ٤]؛ أي مظاهرون. ومن أمثلة ذلك مع التنكير في كلام العرب قول عقيل بن علفة المري:

وَكَا نَبْنُو فِزَارَةَ شَرَّ عَمٍّ وَكُنْتُ لَهُمْ كَشْرَ بَنِي الْأَخِينَا

يعني: شر أعمام. وقول قعنب ابن أم صاحب:

مَا بَالُ قَوْمٍ صَدِيقٌ ثُمَّ لَيْسَ لَهُمْ دِينٌ وَلَيْسَ لَهُمْ عَقْلٌ إِذَا اتَّمَنُوا

يعني: ما بال قوم أصدقاء. وقول جرير:

نَصَبْنِ الْهَوَىٰ ثُمَّ ارْتَمَيْنِ قُلُوبَنَا بِأَعْيُنِ أَعْدَاءٍ وَهَنَ صَدِيقٌ

يعني: صديقات. وقول الآخر:

لَعَمْرِي لِئِنْ كُنْتُمْ عَلَى النَّأْيِ وَالنَّوَى بِكُمْ مِثْلُ مَا بِي إِنْكُمْ لَصَدِيقٌ

وقول الآخر:

يَا عَاذِلَاتِي لَا تَزِدْنِ مَلَامَةً إِنْ الْعَوَاذِلَ لَيْسَ لِي بِأَمِيرٍ

أي: لسن لي بأمراء.

ومن أمثله في القرآن واللفظ مضاف قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاخِحُهُ أَوْ صَدِيقُكُمْ﴾ [النور: ٦١]؛ أي أصدقائكم، وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور: ٦٣]؛ أي أوامره، وقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]؛ أي نعم الله، وقوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ ضَلُّوا﴾ ... الآية [الحجر: ٦٨]؛ أي أضيافي، ونظير ذلك من كلام العرب قول علقمة بن عبدة التميمي:

بِهَا جِيفُ الْحَسْرِ فَأَمَّا عِظَامُهَا فَبَيْضٌ وَأَمَّا جِلْدُهَا فَصَلِيبٌ

أي: وأما جلودها فضليبة. وقول الآخر:

كَلُّوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْ تَعَفُّوا فَإِنْ زَمَانَكُمْ زَمَنٌ خَمِصٌ

أي بطونكم. وهذا البيت والذي قبله أنشدهما سيويه في كتابه مستشهداً بهما لما ذكرنا.
ومن أمثلة ذلك قول العباس بن مرداس السلمي:

فقلنا أسلموا إننا أخوكم وقد سلّمت من الإحن الصدور
أي إنا إخوانكم، وقول جرير:

إذا أبأؤنا وأبوك عدوا أبان المقرفات من العراب
أي إذا أبأؤنا وأبأوك عدوا، وهذا البيت، والذي قبله يحتمل أن يراد بهما جمع
التصحيح للأب وللأخ، فيكون الأصل: أبون وأخون فحذت النون للإضافة، فصار
كلفظ المفرد.

ومن أمثلة: جمع التصحيح في جمع الأخ بيت عقيل بن علفة المذكور آنفاً، حيث
قال فيه: كشر بني الأخينا. ومن أمثلة تصحيح جمع الأب قول الآخر:

فلما تبين أصواتنا بكين وفديننا بالأبينا

ومن أمثلة ذلك في القرآن، واللفظ معرف بالألف واللام قوله تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ
بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]؛ أي بالكتب كلها، بدليل قوله: ﴿كُلُّ ءَامَنٍ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ
وَكُتُبِهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٨٥]، وقوله: ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ [الشورى: ١٥]
وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٧٥]؛ أي الغرف بدليل
قوله: ﴿لَهُمْ عُرُقٌ مِّنْ فَوْقَهَا عُرُقٌ مَّيْنَةً﴾ [الزمر: ٢٠] وقوله: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾
[سبا: ٣٧] وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَيْكَ وَالْمَلَكُ صَفًا صَفًا ۝٣٧﴾ [الفجر: ٣٧] أي الملائكة بدليل
قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠] وقوله
تعالى: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ۝٤٥﴾ [القمر: ٤٥] أي الأدبار بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَا
تُؤْلُوهُمُ الْأَذْبَكَارَ﴾ [الأنفال: ١٥] وقوله تعالى: ﴿أَوِ الْطِفْلِ الَّذِي لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ
النِّسَاءِ﴾ [النور: ٣١]؛ أي الأطفال، وقوله تعالى: ﴿هَرُّ الْعَدُوِّ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]؛
أي الأعداء، ونحو هذا كثير في القرآن، وفي كلام العرب: وهو في النعت بالمصدر
مطرد، كما تقدم مراراً.

ومن أمثلة ذلك قول زهير:

متى يَشْتَجِرَ قومٌ يقل سرواتهم هم بيننا هم رضى وهم عدل
أي: عدول مرضيون. وهناك مسائل تتعلق بمعاني الآية يرجع من أراد الوقوف
إلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَائِلَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ
كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ﴾، هذا برهان قاطع آخر على البعث، وقوله: ﴿وَتَرَى﴾: أي يا نبي الله؛
وقيل: وترى أيها الإنسان المخاطب: وهي رؤية بصرية تتعدى إلى مفعول واحد.

فقوله: ﴿هَامِدَةً﴾ حال من الأرض، لا مفعول ثان لتري. وقوله: هامدة؛ أي يابسة قاحلة لا نبات فيها.

وقال بعض أهل العلم: هامدة: أي دراسة الآثار من النبات، والزرع. قالوا: وأصل الهمود الدروس والدثور. ومنه قول الأعشى ميمون بن قيس:

قالت قتيلة ما لجسمك شاحباً وأرى ثيابك باليات هُمّداً

أي وأرى ثيابك باليات دارسات. ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾؛ أي سواء كان من المطر، أو الأنهار أو العيون أو السواقي ﴿أَهْتَزَّتْ﴾؛ أي تحركت بالنبات. ولما كان النبات نابتاً فيها متصلاً بها، كان اهتزازه كأنه اهتزازها فأطلق عليها بهذا الاعتبار، أنها اهتزت بالنبات؛ وهذا أسلوب عربي معروف.

وقال أبو حيان في البحر المحيط: واهتزازها تخلخلها واضطراب بعض أجسامها لأجل خروج النبات، وقوله: ﴿وَرَبَّتْ﴾؛ أي زادت وارتفعت. وقال بعض أهل العلم: وربت: انتفخت لأجل خروج النبات. وقال ابن جرير الطبري: وربت؛ أي أضعفت النبات بمجيء الغيث.

قال مقبده - عفا الله عنه وغفر له -: أصل المادة التي منها ربت: الزيادة، والظاهر أن معنى الزيادة الحاصلة في الأرض هي أن النبات لما كان نابتاً فيها متصلاً بها صار كأنه زيادة حصلت في نفس الأرض.

وقال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة: والاهتزاز: الحركة على سرور، فلا يكاد يقال: اهتز فلان لكيت وكيت، إلا إذا كان الأمر من المحاسن والمنافع. اه منه. والاهتزاز أصله: شدة الحركة. ومنه قوله:

تَشْنِي إِذَا قَامَتْ وَتَهْتَزُّ إِنْ مَشَتْ كَمَا اهْتَزَّ غَضُنُّ الْبَانِ فِي وَرَقٍ خُضِرَ

وقوله: ﴿وَأَنْبَتَتْ﴾؛ أي أنبت الله فيها ﴿مِنْ كُلِّ نَوْعٍ﴾؛ أي صنف من أصناف النبات، والزرع، والثمار ﴿بِهَيْجٍ﴾: أي حسن، والبهجة: الحسن. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَائِقَ حَذَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠] تقول: بُهِج بالضم بهجة فهو بهيج، إذا كان حسناً. وقرأ عامة السبعة: وربت، وهو من قولهم: ربا يربو إذا نما وزاد. وقرأ من الثلاثة أبو جعفر يزيد بن القعقاع: وربأت بهمزة مفتوحة بعد الباء: أي ارتفعت، كأنه من الربيئة أو الربيئي، وهو الرقيب الذي يعلو على شيء مشرف يحرس القوم ويحفظهم.

ومنه قول امرئ القيس:

بَعَثْنَا رَبِيئاً قَبْلَ ذَاكَ مَخْمَلاً كَذَبَ الْعَصَا يَمْشِي الضَّرَاءَ وَيَتَّقِي

وما أشار إليه - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن إحياء الأرض بعد موتها، برهان قاطع على قدرة من فعل ذلك على إحياء الناس بعد موتهم؛ لأن الجميع

إحياء بعد موت، وإيجاد بعد عدم بيّنه في آيات كثيرة، وقد قدمنا في سورة البقرة والنحل، كثرة الاستدلال بهذا البرهان في القرآن على البعث، وذكرنا الآيات الدالة على ذلك كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَرَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١٣٦] [فصلت] وقوله تعالى: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩]: أي من قبوركم أحياء بعد الموت، وقوله تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]؛ أي خروجكم من القبور أحياء بعد الموت وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَفَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَنِّ مَيْتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتِ لَكُمْ تَذَكُّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧] وقوله: ﴿فَانْظُرْ إِلَى ثَأْنِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٥٨] [الروم] وقوله تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الْشُّورُ﴾ [فاطر: ٩] وقوله تعالى: ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُونَ﴾ [الزخرف: ١١] ومن ذلك قوله هنا: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ بدليل قوله بعده: ﴿ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ أَنْ يَخْلُقَ مَا يَشَاءُ يُحْيِي الْمَوْتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [٨] ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ [٩].

قال بعض أهل العلم: الآية الأولى التي هي: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ [٣] نازلة في الأتباع الجهلة الذين يجادلون بغير علم، اتباعاً لرؤسائهم، من شياطين الإنس والجن، وهذه الآية الأخيرة في الرؤساء الدعاة إلى الضلال المتبوعين في ذلك، ويدل لهذا أنه قال في الأولى: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ﴾ وقال في هذه: ﴿ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فتبين بذلك أنه مضل لغيره، متبوع في الكفر والضلال، على قراءة الجمهور بضم ياء يضل. وأما على قراءة ابن كثير، وأبي عمر: بفتح الياء، فليس في الآية دليل على ذلك، وقد قدمنا معنى جدال الكفرة في الله بغير علم، فأغنى عن إعادته هنا.

وقال بعض العلماء في قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ أي بدون علم ضروري، حاصل لهم بما يجادلون به ﴿وَلَا هُدًى﴾؛ أي استدلال، ونظر عقلي، يهتدي به العقل للصواب ﴿وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ﴾؛ أي وحي نير واضح، يعلم به ما يجادل به، فليس عنده علم ضروري ولا علم مكتسب بالنظر الصحيح العقلي، ولا علم من وحي، فهو جاهل محض من جميع الجهات، وقوله: ﴿ثَانِي عَطْفِهِ﴾ حال من ضمير الفاعل المستكن في: يجادل؛ أي يخاصم بالباطل في حال كونه ثاني عطفه؛ أي لاوي عنقه عن قبول الحق استكباراً وإعراضاً، فقوله: ثاني اسم فاعل ثنى الشيء إذا لواه، وأصل العطف الجانب، وعطفا الرجل: جانباه من لدن رأسه إلى وركبيه. تقول العرب: ثنى فلان عنك عطفه: تعني أعرض عنك؛ وإنما عبر العلماء هنا بالعنق فقالوا: ثاني عطفه:

لاوي عنقه، مع أن العطف يشمل العنق وغيرها؛ لأن أول ما يظهر فيه الصدود عنق الإنسان، يلويها، ويصرف وجهه عن الشيء بليها. والمفسرون يقولون: إن اللام في قوله: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ونحوها من الآيات مما لم تظهر فيه العلة الغائبة، كقوله: ﴿فَالنَّقْطَةُ﴾ ٥٧ ﴿أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ الآية [القصص: ٨]. ونحو ذلك لام العاقبة، والبلاغيون يزعمون أن في ذلك استعارة تبعية، في معنى الحرف. وقد وعدنا بإيضاح ذلك في سورة القصص.

ونقول هنا: إن الظاهر في ذلك أن الصواب فيه غير ما ذكروا، وأن اللام في الجميع لام التعليل، والمعنى واضح لا إشكال فيه كما نبه عليه الحافظ ابن كثير رحمته الله في مواضع من تفسيره.

وإيضاح ذلك أن الله هو الذي قدر على الكافر في أزمه أن يجادل في الله بغير علم في حال كونه لاوي عنقه إعراضاً عن الحق، واستكباراً. وقد قدر عليه ذلك ليجعله ضالاً مضالاً وله الحكمة البالغة في ذلك كقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الكهف: ٥٧]: أي لئلا يفقهوه وكذلك: ﴿فَالنَّقْطَةُ﴾ ٥٧ ﴿أَلْ فِرْعَوْنَ﴾ [القصص: ٨]؛ أي قدر الله عليهم أن يلتقطوه لأجل أن يجعله لهم عدواً وحزناً؛ وهذا واضح لا إشكال فيه كما ترى.

وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية من إعراض بعض الكفار عن الحق واستكبارهم أوضحه في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ أَيْتُنَا وَلَكُنْ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [لقمان: ٧] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْنَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ٥٥﴾ [المنافقون] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْنَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ٦١﴾ [النساء] وقوله تعالى عن لقمان في وصيته لابنه: ﴿وَلَا تَصَغِرْ هَذَكِ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨]؛ أي لا تمل وجهك عنهم، استكباراً عليهم، وقوله تعالى عن فرعون: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ٢٥﴾ ﴿فَتَوَلَّىٰ رُكْبَهُ وَفَالَ سَحَرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ٢٦﴾ [الذاريات] فقولوه: ﴿فَتَوَلَّىٰ رُكْبَهُ﴾ بمعنى: ثنى عطفه؛ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَقْمَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَمْرَهُ وَنَا بِحَاجَتِهِ﴾ ... الآية [الإسراء: ٨٣] إلى غير ذلك من الآيات، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾؛ أي ذل وإهانة، وقد أذل الله الذين جادلوا في الله بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير كأبي جهل بن هشام، والنضر بن الحارث بالقتل يوم بدر.

ويفهم من هذه الآية الكريمة أن من ثنى عطفه استكباراً عن الحق وإعراضاً عنه عامله الله بنقيض قصده فأذله وأهانته؛ وذلك الذل والإهانة نقيض ما كان يؤمله من الكبر والعظمة.

وهذا المفهوم من هذه الآية دلت عليه آيات أخر كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَّا هُمْ بِيَلْقِيهِ﴾ [غافر: ٥٦] وقوله في إبليس لما استكبر: ﴿فَاهْوَيْطَ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣] والصغار: الذل والهوان، عياداً

بالله من ذلك، كما قدمنا إيضاحه. وقوله: ﴿وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾؛ أي نحرقه بالنار، ونذيقه ألم حرها يوم القيامة: وسمي يوم القيامة؛ لأن الناس يقومون فيه له - جل وعلا -، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿١﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين].

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾. المعنى أن الكافر إذا أذيق يوم القيامة عذاب الحريق، يقال له ذلك؛ أي هذا العذاب الذي نذيقه بسبب ما قدمت يداك؛ أي قدمته في الدنيا من الكفر والمعاصي ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢] فلا يظلم أحداً مثقال ذرة ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] والظاهر أن المصدر المنسبك من أن وصلتها في قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ في محل خفض عطفاً على ما المجرورة بالباء.

والمعنى هذا العذاب الذي يذيقه الله حصل لك بسببين، وهما ما قدمته يداك، من عمل السوء من الكفر والمعاصي وعدالة من جازاك، ذلك الجزاء الوفاق، وعدم ظلمه. وقد أوضحنا فيما مضى إزالة الإشكال المعروف في نفي صيغة المبالغة، في قوله: ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ﴾ فأغنى ذلك عن إعادته هنا، وفي هذه الآية الكريمة ثلاثة أسئلة:

الأول: هو ما ذكرنا آنفاً أنا أوضحنا الجواب عنه سابقاً، وهو أن المعروف في علم العربية أن النفي إذا دخل على صيغة المبالغة، لم يقتضِ نفي أصل الفعل.

فلو قلت: ليس زيد بظلام للناس، فمعناه المعروف: أنه غير مبالغ في الظلم، ولا ينافي ذلك حصول مطلق الظلم منه. وقد قدمنا إيضاح هذا.

والسؤال الثاني: أنه أسند كل ما قدم إلى يديه في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ﴾ وكفره الذي هو أعظم ذنوبه، ليس من فعل اليد، وإنما هو من فعل القلب واللسان، وإن كان بعض أنواع البطش باليد، يدل على الكفر، فهو في اللسان والقلب أظهر منه في اليد، وزناه لم يفعله بيده، بل بفرجه، ونحو ذلك من المعاصي التي تزاول بغير اليد.

والجواب عن هذا ظاهر وهو أن من أساليب اللغة العربية، التي نزل بها القرآن إسناد جميع الأعمال إلى اليد، نظراً إلى أنها الجارحة التي يزاول بها أكثر الأعمال فغلبت على غيرها، ولا إشكال في ذلك.

والسؤال الثالث: هو أن يقال ما وجه إشارة البعد في قوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ﴾ مع أن العذاب المشار إليه قريب منه حاضر؟.

والجواب عن هذا أن من أساليب اللغة العربية وضع إشارة البعد موضع إشارة القرب. وقد أوضحنا هذه المسألة في كتابنا: (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في الكلام على قوله تعالى في أول سورة البقرة: ﴿الْعَمَّ ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾... الآية [البقرة: ١، ٢]: أي هذا الكتاب.

ومن شواهد ذلك في اللغة العربية قول خفاف بن ندبة السلمي:

فإن تَكْ خيلي قد أُصِيبَ صَمِيمُهَا فَعَمِدًا عَلَى عَيْنِي تَيَمَّمْتُ مَالِهَا
أَقُولُ لَهُ وَالرَّمْحُ يَأْطُرُ مَتْنُهُ تَأْمَلُ خِفَافًا إِنَّنِي أَنَا ذَلِكَا

يعني أنا هذا، وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن الكافر يقال له يوم القيامة: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ﴾ الآية. لا يخفى أنه توبيخ، وتفريع، وإهانة له. وأمثال ذلك القول في القرآن كثيرة كقوله تعالى: ﴿حُدُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۖ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَبِيمِ ۝٤٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ۝٤٩ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ۝٥٠﴾ [الدخان] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ۝١٣ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ أَصَلُّوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ [الطور] والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعُ لَهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ۝١٧﴾، ضمير الفاعل في قوله: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ﴾ راجع إلى الكافر المشار إليه في قوله: ﴿وَلَنْ أَصَابَهُ مِنْهُ فَقَلْبٌ أَوْ لَعْنٌ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾؛ أي يدعو ذلك الكافر المذكور من دون الله، ما لا يضره، إن ترك عبادته، وكفر به، وما لا ينفعه، إن عبده، وزعم أنه يشفع له.

وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن الأوثان، لا تضر من كفر بها، ولا تنفع من عبدها بينه في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَدْعُونَهُ أَلَمْ يَخْلُقْكُمْ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ يَوْمَ الْمَوْتِ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ سُبْحَنَهُ وَقَتْلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] وقوله تعالى عن نبيه إبراهيم: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُوهُمْ ۖ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٦ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٧٧﴾ [الشعراء].

إذ المعنى أنهم اعترفوا بأنهم لا يسمعون، ولا ينفعون ولا يضرعون؛ ولكنهم عبدوهم تقليداً لأبائهم؛ والآيات بمثل ذلك كثيرة.

تنبيه: فإن قيل: ما وجه الجمع بين نفيه تعالى النفع والضرر معاً، عن ذلك المعبود من دون الله في قوله: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ﴾ مع إثباتهما في قوله: ﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾.

لأن صيغة التفضيل في قوله: أقرب دلت على أن هناك نفعاً، وضرراً، ولكن الضرر أقرب من النفع، فالجواب أن للعلماء أجوبة عن ذلك.

منها: ما ذكره الزمخشري قال: فإن قلت: الضر والنفع منفيان عن الأصنام، مثبتان لها في الآيتين، وهذا تناقض.

قلت: إذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم؛ وذلك أن الله تعالى سَفَّ الكافر، بأنه يعبد جماداً لا يملك ضرراً، ولا نفعاً، وهو يعتقد فيه بجهله وضلاله، أنه يستنفع به،

حين يستشفع به، ثم قال يوم القيامة: يقول هذا الكافر بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالأصنام ودخوله النار بعبادتها، ولا يرى أثر الشفاعة التي ادعاها لها لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى، ولبئس العشير؛ وكرّر يدعو كأنه قال: يدعو يدعو من دون الله ما لا يضره، وما لا ينفعه. ثم قال لمن ضره بكونه معبوداً: أقرب من نفعه، بكونه شافعاً: لبئس المولى، ولبئس العشير، اه منه.

ولا يخفى أن جواب الزمخشري هذا غير مقنع؛ لأن المعبود من دون الله، ليس فيه نفع البتة، حتى يقال فيه: إن ضره أقرب من نفعه، وقد بين أبو حيان عدم اتجاه جوابه المذكور، ومنها: ما أجاب به أبو حيان في البحر.

وحاصله أن الآية الأولى في الذين يعبدون الأصنام، فالأصنام لا تنفع من عبدها، ولا تضر من كفر بها؛ ولذا قال فيها: ما لا يضره وما لا ينفعه؛ والقرينة على أن المراد بذلك الأصنام، هي التعبير بلفظة «ما» في قوله: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَنْفَعُهُ﴾؛ لأن لفظة «ما» تأتي لما لا يعقل، والأصنام لا تعقل.

أما الآية الأخرى فهي فيمن عبد بعض الطغاة المعبودين من دون الله كفرعون القائل: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٢٨] ﴿لَيْنَ أَتَذَرْتَهَا خَيْرٌ لِّأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُودِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، فإن فرعون ونحوه من الطغاة المعبودين قد يصدقون نعم الدنيا على عابديهم؛ ولذا قال له القوم الذين كانوا سحرة: ﴿إِن لَّنَا لَأَجْرٌ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ ① قَالَ نَعَمْ وَلَكُمْ إِذَا لِمَنِ الْمَقْرِين ② [الشعراء] فهذا النفع الدنيوي بالنسبة إلى ما سيلاقونه، من العذاب، والخلود في النار كلا شيء، فضرّ هذا المعبود بخلود عابده في النار، أقرب من نفعه، بعرض قليل زائل من حطام الدنيا، القرينة على أن المعبود في هذه الآية الأخيرة: بعض الطغاة الذين هم من جنس العقلاء: هي التعبير بمن تأتي لمن يعقل في قوله: ﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ هذا هو خلاصة جواب أبي حيان وله اتجاه، والله تعالى أعلم.

واعلم أن اللام في ﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ فيها إشكال معروف، وللعلماء عن ذلك أجوبة، ذكر ابن جرير الطبري ③ منها ثلاثة:

أحدها: أن اللام مترحلة عن محلها الأصلي، وأن ذلك من أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن، والأصل: يدعو من لضره أقرب من نفعه، وعلى هذا فمن الموصولة في محل نصب مفعول به ليدعوا، واللام موطئة للقسم، داخلة على المبتدأ، الذي هو وخبره صلة الموصول، وتأكيد المبتدأ في جملة الصلة باللام، وغيرها لا إشكال فيه.

قال ابن جرير: وحكي عن العرب سماعاً: منها عندي لما غيره خير منه؛ أي عندي ما لغيره خير منه، وأعطيتك لما غيره خير منه؛ أي ما لغيره خير منه.

والثاني: منها أن قوله: يدعوا تأكيد ليدعوا في الآية التي لما قبلها، وعليه فقوله: ﴿لَمَنْ ضَرُّهُ﴾ في محل رفع بالابتداء، وجملة ﴿ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ صلة الموصول الذي هو من والخبر هو جملة ﴿لَيْسَ الْمَوْلَى﴾... الآية. وهذا المعنى كقول العرب: لما فعلت لهو خير لك.

قال ابن جرير: لما ذكر هذا الوجه: واللام الثانية في ﴿لَيْسَ الْمَوْلَى﴾ جواب اللام الأولى. قال: وهذا القول على مذهب أهل العربية أصح، والأول إلى مذهب أهل التأويل أقرب، اهـ.

والثالث: منها أن «من» في موضع نصب بيدعوا، وأن اللام دخلت على المفعول به، وقد عزا هذا لبعض البصريين مع نقله عن عزاه إليه أنه شاذ، وأقربها عندي الأول. وقال القرطبي رحمه الله: ولم ير منه نفعاً أصلاً، ولكنه قال: ﴿ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ ترفيعاً للكلام كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ آيَاتَكُمْ لَعَلَى هَذَى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣٤] وباقي الأقوال في اللام المذكورة تركناه، لعدم اتجاهه في نظرنا، والعلم عند الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾، المولى: هو كل ما انعقد بينك وبينه سبب، يواليك، وتواليه به. والعشير: هو المعاشر، وهو صاحب والخليل.

والتحقيق: أن المراد بالمولى والعشير المذموم في هذه الآية الكريمة، هو المعبود الذي كانوا يدعونه من دون الله، كما هو الظاهر المتبادر من السياق.

وقوله: ﴿ذَلِكَ هُوَ أَضَلُّلُ الْبَعِيدِ﴾؛ أي البعيد عن الحق والصواب.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ (١٥). في هذه الآية الكريمة أوجه من التفسير معروفة عند العلماء، وبعضها يشهد لمعناه قرآن.

الأول: أن المعنى من كان من الكفرة الحسدة له ﷺ، يظن أن لن ينصره الله؛ أي أن لن ينصر الله نبيه محمداً ﷺ ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾: أي بحبل إلى السماء؛ أي سماء بيته، والمراد به السقف؛ لأن العرب تسمي كل ما علاك سماء كما قال:

وقد يسمى سماء كل مرتفع وإنما الفضل حيث الشمس والقمر

كما أوضحناه في سورة الحجر.

والمعنى فليعقد رأس الحبل في خشبة السقف ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾؛ أي ليختنق بالحبل، فيشده في عنقه، ويتدلى مع الحبل المعلق في السقف حتى يموت، وإنما أطلق القطع على الاختناق؛ لأن الاختناق يقطع النفس بسبب حبس مجاريه؛ ولذا قيل للبهر وهو تتابع النفس: قطع، فليُنظر إذا اختنق ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾: أي هل يذهب فعله ذلك ما يغيبه من نصر الله نبيه ﷺ، في الدنيا والآخرة.

والمعنى: لا يذهب ذلك الذي فعله ذلك الكافر الحاسد ما يغيظه ويغضبه من نصر الله لنبيه محمد ﷺ.

قال الزمخشري: وسمي فعله كيداً؛ لأنه وضعه موضع الكيد، حيث لم يقدر على غيره، أو على سبيل الاستهزاء؛ لأنه لم يكذب به محسوده، إنما كاد به نفسه، والمراد: ليس في يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظه، إله منه.

وحاصل هذا القول أن الله يقول لحاسديه ﷺ، الذين يتربصون به الدوائر، ويظنون أن ربه لن ينصره، موتوا بغیظكم، فهو ناصره لا محالة على رغم أنوفكم، وممن قال بهذا القول: مجاهد، وقتادة، وعكرمة، وعطاء، وأبو الجوزاء، وغيرهم. كما نقله عنهم ابن كثير، وهو أظهرها عندي.

ومما يشهد لهذا المعنى من القرآن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾.

الوجه الثاني: أن المعنى من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه محمداً ﷺ في الدنيا والآخرة، والحال أن النصر يأتيه ﷺ من السماء، فليمدد بسبب إلى السماء فيرتقي بذلك السبب، حتى يصعد إلى السماء، فيقطع نزول الوحي من السماء، فيمنع النصر عنه ﷺ.

والمعنى أنه وإن غاظه نصر الله لنبيه فليس له حيلة، ولا قدرة على منع النصر؛ لأنه لا يستطيع الارتقاء إلى السماء ومنع نزول النصر منها عليه ﷺ. وعلى هذا القول فصيغة الأمر في قوله: ﴿فَلْيَنْذِرْ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ لَيَقَطَّعْ﴾ للتعجيز، ثم لينظر ذلك الحاسد العاجز عن قطع النصر عنه ﷺ هل يذهب كيده إذا بلغ غاية جهده في كيد النبي ﷺ ما يغيظه من نصر الله لنبيه ﷺ.

والمعنى أنه إن أعمل كل ما في وسعه، من كيد النبي ﷺ ليمنع عنه نصر الله، فإنه لا يقدر على ذلك، ولا يذهب كيده ما يغيظه من نصر الله لنبيه ﷺ.

ومما يشهد لهذا القول من القرآن قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ثُلُكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ ﴿١١﴾ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١٢﴾ [ص] وقد أوضحنا معنى هذه الآية في سورة الحجر.

ولبعض أهل العلم قول ثالث في معنى الآية الكريمة وهو أن الضمير في ﴿لَنْ يَنْصُرَهُ﴾ عائد إلى من في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ﴾ وأن النصر هنا بمعنى الرزق، وأن المعنى من كان يظن أن لن ينصره الله؛ أي لن يرزقه، فليختنق، وليقتل نفسه، إذ لا خير في حياة ليس فيها رزق الله وعونه، أو فليختنق، وليمت غيظاً وغماً، فإن ذلك لا يغير شيئاً مما قضاه الله وقدره، والذين قالوا هذا القول قالوا: إن العرب تسمي الرزق نصراً، وعن أبي عبيدة قال: وقف علينا سائل من بني بكر، فقال: من ينصرني نصره الله، يعني: من يعطيني أعطاه الله، قالوا: ومن ذلك قول العرب: أرض منصورة: أي مطورة، ومنه قول رجل من بني فقعس:

وإنك لا تُعطي امرأً فوق حقِّه ولا تملك الشَّق الذي أَلْفَيْتَ ناصره
أي: معطيه.

قال مقبده - عفا الله عنه وغفر له -: وهذا القول الأخير ظاهر السقوط، كما ترى، والذين قالوا: إن الضمير في قوله: ﴿أَنْ لَّنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾ راجع إلى الدين، أو الكتاب، لا يخالف قولهم قول من قال: إن الضمير للنبي ﷺ؛ لأن نصر الدين، والكتاب هو نصره ﷺ كما لا يخفى، ونصر الله له ﷺ في الدنيا، بإعلائه كلمته، وقهره أعداءه، وإظهار دينه، وفي الآخرة بإعلاء درجته، والانتقام ممن كذبه، ونحو ذلك كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ۝٥١﴾ [غافر] فإن قيل: قررتم أن الضمير في ينصره، عائد إليه ﷺ، وهو لم يجر له ذكر، فكيف قررتم رجوع الضمير إلى غير مذكور.

فالجواب: هو ما قاله غير واحد من أنه ﷺ، وإن لم يجر له ذكر، فالكلام دال عليه؛ لأن الإيمان في قوله في الآية التي قبلها تليها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ... الآية. هو الإيمان بالله، وبمحمد ﷺ، والانقلاب عن الدين المذكور في قوله: ﴿أَنْفَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ انقلاب عما جاء به محمد ﷺ.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ لَيَقَطَّعَ﴾ قرأه أبو عمرو، وابن عامر، وورش، عن نافع بكسر اللام على الأصل في لام الأمر، وقرأه الباقون بإسكان اللام تخفيفاً.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ قد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في مواضع من هذا الكتاب المبارك، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۝١٩ يَصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُمْ مَقْلِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١﴾ ما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة، من أنواع عذاب أهل النار، أعاذنا الله وإخواننا المسلمين منها، ومن كل ما قرب إليها من قول وعمل، جاء مبيناً في آيات أخر من كتاب الله، فقوله هنا: ﴿قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾؛ أي قطع الله لهم من النار ثياباً، وألبسهم إياها تتقَدُّ عليهم كقوله فيهم: ﴿سَرَابِلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠] والسرابيل: هي الثياب التي هي القمص، كما قدمنا إيضاحه، وكقوله: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] والغواشي: جمع غاشية: وهي غطاء كاللحاف، وذلك هو معنى قوله هنا: ﴿قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ وقوله تعالى هنا: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ ذكره أيضاً في غير هذا الموضع كقوله: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۝٢٢﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ۝٢٣﴾ [الدخان] والحميم: الماء البالغ شدة الحرارة، وكقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَسْتَغِيثُوا يَغَاثُوا يَمَاءً كَأَنَّهَمْ يَشَوْنَ الْمَوْجُوهَ﴾... الآية [الكهف: ٢٩]. وقوله

هنا: ﴿يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾: أي يذاب بذلك النحميم، إذا سقوه فوصل إلى بطونهم، كل ما في بطونهم من الشحم والأمعاء وغير ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾ والعرب تقول: صهرت الشيء فانصهر، فهو صهير: أي أذبتة فذاب، ومنه قول ابن أحمر يصف تغذية قطاة لفرخها في فلاة من الأرض:

تروي لقي أَلْقِي فِي صَفْصَفٍ تَصْهَرُ الشَّمْسُ فَمَا يَنْصَهَرُ

أي تذيبه الشمس، فيصبر على ذلك، ولا يذوب، وقوله: ﴿وَالْجُلُودُ﴾ الظاهر أنه معطوف على «ما» من قوله: ﴿يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ التي هي نائب فاعل يصهر، وعلى هذا، الظاهر المتبادر من الآية، فذلك الحميم يذيب جلودهم، كما يذيب ما في بطونهم؛ لشدة حرارته.

إذ المعنى: يصهر به ما في بطونهم، وتصهر به الجلود؛ أي جلودهم، فالألف واللام قامتا مقام الإضافة، وقال بعض أهل العلم: والجلود مرفوع بفعل محذوف معطوف على تصهر، وتقديره: وتحرق به الجلود، ونظير ذلك في تقدير العامل المحذوف الرفع الباقي معموله مرفوعاً بعد الواو قول لبيد في معلقته:

فعلا فروغ الأيهقان وأطفلت بالجهلتيّن ظباؤها ونعامها

يعني: وباض نعامها؛ لأن النعامة لا تلد الطفل، وإنما تبيض، بخلاف الطيبة فهي تلد الطفل، ومثاله في المنصوب قول الآخر:

إذا ما الغانيات برزن يوماً وزججن الحواجب والعيوننا
تري منّا الأيور إذا رأوها قياماً راكعين وساجديننا

يعني: زججن الحواجب، وأكحلن العيون وقوله:

ورأيت زوجك في الوغى متقلداً سيفاً ورُمحاً

أي: وحاملاً رمحاً؛ لأن الرمح لا يُتقلد، وقول الآخر:

تراه كأن الله يجدع أنفه وعينيه إن مولاه ثاب له وفّر

يعني: ويفقأ عينيه، ومن شواهد المشهورة قول الراجز:

علفتها تبناً وماء بارداً حتى شئت همالة عيناها

يعني: وسقيتها ماء بارداً، ومن أمثلة ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾... الآية [الحشر: ٩]: أي وأخلصوا الإيمان، أو ألقوا الإيمان، ومثال ذلك في المخفوض قولهم: ما كل بيضاء شحمة، ولا سوداء تمرّة؛ أي ولا كل سوداء تمرّة، وإلى هذه المسألة أشار في الخلاصة بقوله:

وهي انفردت

بعطف عامل مُزال قد بقي معموله دفعاً لوهم اتقي

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَهُمْ مَقْعٌ مِّنْ حَدِيدٍ﴾ (٢١) المقامع: جمع مقمعة بكسر الميم الأولى، وفتح الميم الأخيرة، ويقال: مقمعة بلاهاء، وهو في اللغة: حديدة كالمحجن يضرب بها على رأس الفيل: وهي في الآية مراذب عظيمة من حديد تضرب بها خزنة النار رؤوس أهل النار، وقال بعض أهل العلم: المقامع: سياط من نار، ولا شك أن المقامع المذكورة في الآية من الحديد لتصريحه تعالى بذلك.

وقوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ﴾، نزل في المبارزين يوم بدر، وهم: حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث بن المطلب، وفي أقرانهم المبارزين من الكفار وهم: عتبة بن ربيعة، وابنه الوليد بن عتبة، وأخوه شيبه بن ربيعة، كما ثبت في الصحيحين، وغيرهما.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٢٢).

ما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن أهل النار كلما أرادوا الخروج منها، لما يصيبهم من الغم فيها عياداً بالله منها، أعيدوا فيها، ومنعوا من الخروج منها بيّنه في غير هذا الموضع، كقوله في المائدة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْقَدُوهُ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا نُقِلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٣) يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (المائدة) وقوله في السجدة: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا... الآية، وقوله في آية الحج هذه: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ حذف فيه القول.

والمعنى أعيدوا فيها، وقيل لهم: ذوقوا عذاب الحريق، وهذا القول المحذوف في الحج صرح به في السجدة في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠] والمفسرون يقولون: إن لهب النار يرفعهم، حتى يكاد يرميهم خارجها، فتضربهم خزنة النار بمقامع الحديد، فتردهم في قعرها، نعوذ بالله منها، ومن كل ما يقرب إليها من قول وعمل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالسَّجِدِ الْكَرِيمِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً أَلَعَكُمُ فِيهِ وَالْبَاءُ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يَظْلَمِ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (٢٤).

اعلم أن خبر إن في قوله هنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ محذوف كما ترى. والذي تدل عليه الآية أن التقدير إن الذين كفروا، ويصدون عن سبيل الله، نذيقهم من عذاب أليم. كما دل على هذا قوله في آخر الآية: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يَظْلَمِ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

فإن قيل: ما وجه عطف الفعل المضارع على الفعل الماضي في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ﴾؟ فالجواب من أربعة أوجه: واحد منها ظاهر السقوط.

الأول: هو ما ذكره بعض علماء العربية من أن المضارع، قد لا يلاحظ فيه زمان

معين من حال، أو استقبال، فيدل إذ ذاك على الاستمرار، ومنه: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨] قاله أبو حيان وغيره.

الثاني: أن يصدون خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: إن الذين كفروا، وهم يصدون، وعليه فالجملة المعطوفة اسمية لا فعلية، وهذا القول استحسنة القرطبي.

الثالث: أن يصدون مضارع أريد به الماضي، أي كفروا، وصدوا وليس بظاهر.

الرابع: أن الواو زائدة، وجملة يصدون خبر إن؛ أي إن الذين كفروا يصدون.

وهذا هو الذي قدمنا أنه ظاهر السقوط، وهو كما ترى، وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية من أن من أعمال الكفار الصد عن سبيل الله، وعن المسجد الحرام بيّنه في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرُوا بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَإِخْرَاجَ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. وقوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدَى مَعَكُوا أَنْ يَبْلُغَ مَجْلَهُ﴾ [الفتح: ٢٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَائِنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٢] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿سَوَاءٌ أَلْعَكُفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ قرأه عامة السبعة غير حفص عن عاصم: سواء، بضم الهمزة، وفي إعرابه على قراءة الجمهور هذه برفع سواء وجهان:

الأول: أن قوله ﴿أَلْعَكُفُ﴾ مبتدأ، والباد: معطوف عليه، وسواء خبر مقدم، وهو مصدر أطلق وأريد به الوصف.

فالمعنى: العاكف والبادي سواء؛ أي مستويان فيه، وهذا الإعراب أظهر الوجهين.

الثاني: أن سواء مبتدأ والعاكف فاعل سد مسد الخبر، والظاهر أن مسوغ الابتداء بالنكرة التي هي سواء، على هذا الوجه: هو عملها في المجرور الذي هو فيه، إذ المعنى سواء فيه العاكف والبادي، وجملة المبتدأ وخبره في محل المفعول الثاني: لجعلنا، وقرأ حفص عن عاصم: سواء بالنصب، وهو المفعول الثاني: لجعلنا التي بمعنى صيرنا. والعاكف فاعل سواء؛ أي مستوياً فيه العاكف والبادي. ومن كلام العرب: مررت برجل سواء هو والعدم. ومن قال: إن «جعل» في الآية تتعدى إلى مفعول واحد. قال: إن سواء حال من الهاء في جعلناه؛ أي وضعناه للناس في حال كونه سواء العاكف فيه والبادي كقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ الآية [آل عمران: ٩٦]. وقال بعض أهل العلم: إن المراد بالمسجد الحرام في هذه الآية الكريمة: يشمل جميع الحرم؛ ولذلك أخذ بعض العلماء من هذه الآية، أن رباة مكة لا تملك، وقد قدمنا الكلام مستوفى في هذه المسألة، وأقوال أهل العلم فيها، ومناقشة أدلتهم في سورة الأنفال، فأغنى ذلك عن إعادته هنا، والعاكف: هو المقيم في الحرم، والبادي: الطارئ عليه من البادية، وكذلك غيرها من أقطار الدنيا.

وقوله تعالى في الآية الكريمة: «والبادي» قرأه أبو عمرو وورش، عن نافع بإثبات الياء، بعد الدال في الوصل، وإسقاطها في الوقف، وقرأه ابن كثير بإثباتها وصلًا ووقفًا، وقرأه باقي السبعة بإسقاطها، وصلًا ووقفًا.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمِ نُذُقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ» قد أوضحنا إزالة الإشكال عن دخول الباء على المفعول في قوله: بإلحاد، ونظائره في القرآن، وأكثرنا على ذلك من الشواهد العربية في الكلام على قوله تعالى: «وَهَزَيَ إِلَيْكَ جَنَّاتُ أَلَحَّةٍ» [مريم: ٢٥] فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

والإلحاد في اللغة أصله: الميل، والمراد بالإلحاد في الآية أن يميل، ويحيد عن دين الله الذي شرعه، ويعم ذلك كل ميل وحيدة عن الدين، ويدخل في ذلك دخولاً أولياً الكفر بالله، والشرك به في الحرم، وفعل شيء مما حرمه، وترك شيء مما أوجبه. ومن أعظم ذلك: انتهاك حرمت الحرم. وقال بعض أهل العلم: يدخل في ذلك احتكار الطعام بمكة. وقال بعض أهل العلم: يدخل في ذلك قول الرجل: لا والله، وبلى والله. وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه كان له فسطاطان: أحدهما: في طرف الحرم، والآخر: في طرف الحل، فإذا أراد أن يعاتب أهله، أو غلامه فعل ذلك في الفسطاط الذي ليس في الحرم، يرى أن مثل ذلك يدخل في الإلحاد فيه بظلم. قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: الذي يظهر في هذه المسألة أن كل مخالفة بترك واجب، أو فعل محرم تدخل في الظلم المذكور، وأما الجائزات كعتاب الرجل امرأته، أو عبده، فليس من الإلحاد، ولا من الظلم.

مسألة: قال بعض أهل العلم: من هم أن يعمل سيئة في مكة، أذاقه الله العذاب الأليم بسبب همه بذلك، وإن لم يفعلها، بخلاف غير الحرم المكي من البقاع، فلا يعاقب فيه بالهم. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لو أن رجلاً أراد بإلحاد فيه بظلم وهو بعدن أبين، لأذاقه الله من العذاب الأليم، وهذا ثابت عن ابن مسعود، ووقفه عليه أصح من رفعه، والذين قالوا هذا القول: استدلوا له بظاهر قوله تعالى: «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمِ نُذُقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ»؛ لأنه تعالى رتب إذاعة العذاب الأليم، على إرادة الإلحاد بالظلم فيه ترتيب الجزاء على شرطه، ويؤيد هذا قول بعض أهل العلم: إن الباء في قوله: بإلحاد، لأجل أن الإرادة مضمنة معنى الهم؛ أي ومن يهتم فيه بإلحاد، وعلى هذا الذي قاله ابن مسعود وغيره.

فهذه الآية الكريمة مخصصة لعموم قوله ﷺ: «ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة» الحديث، وعليه فهذا التخصيص لشدة التغليظ في المخالفة في الحرم المكي، ووجه هذا ظاهر.

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: ويحتمل أن يكون معنى الإرادة في قوله: «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ» العزم المصمم على ارتكاب الذنب فيه، والعزم المصمم على الذنب ذنب يعاقب عليه في جميع بقاع الله مكة وغيرها.

والدليل على أن إرادة الذنب إذا كانت عزمًا مصممًا عليه أنها كارتكابه حديث أبي بكرة الثابت في الصحيح: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»، قالوا: يا رسول الله، قد عرفنا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه». فقولهم: ما بال المقتول: سؤال عن تشخيص عين الذنب الذي دخل بسببه النار مع أنه لم يفعل القتل، فبين النبي ﷺ بقوله: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» أن ذنبه الذي أدخله النار، هو عزمه المصمم وحرصه على قتل صاحبه المسلم. وقد قدما مراراً أن إن المكسورة المشددة تدل على التعليل كما تقرر في مسلك الإيماء والتنبيه.

ومثال المعاقبة على العزم المصمم على ارتكاب المحظور فيه، ما وقع بأصحاب الفيل من الإهلاك المستأصل، بسبب طير أباييل ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [الفيل] لعزمهم على ارتكاب المناكر في الحرم، فأهلكهم الله. بذلك العزم قبل أن يفعلوا ما عزموا عليه، والعلم عند الله تعالى. والظاهر أن الضمير في قوله «فيه» راجع إلى المسجد الحرام، ولكن حكم الحرم كله في تغليظ الذنب المذكور كذلك. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾. أي اذكر حين بؤأنا، تقول العرب: بؤأت له منزلاً، وبؤأته منزلاً، وبؤأته في منزل بمعنى واحد كلها بمعنى: هيأته له، ومكنت له فيه، وأنزلته فيه، فتبوأه: أي نزله، وتبؤأت له منزلاً أيضاً هيأته له، وأنزلته فيه فتبوأه المتعدي بنفسه، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت: ٥٨]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [النحل: ٤١]، ومنه قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي:

كَمْ مِنْ أَخٍ لِي مَاجِدٍ بَوَّأْتَهُ بَيْدِي لِحُدَا

أي: هيأته له، وأنزلته فيه، وبؤأت له كقوله هنا: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ﴾ الآية، وبؤأته فيه، كقول الشاعر:

وَبُؤِئْتُ فِي صَمِيمٍ مَعْشَرِهَا وَتَمَّ فِي قَوْمِهَا مُبَوِّؤُهَا

أي نزلت من الكرم في صميم النسب، وتبؤأت له منزلاً كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ [يونس: ٨٧] وتبوأه كقوله: ﴿وَأَوْزَنَّا الْأَرْضَ نَبْؤًا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤]. وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الحشر: ٩]. وأصل التبوء: من المباءة: وهي منزل القوم في كل موضع، فقوله: ﴿بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ﴾؛ أي هيأناه له، وعرفناه إياه، ليبنيه بأمرنا على قواعده الأصلية بالمندرس، حين أمرناه ببناؤه، كما يهيا المكان لمن يريد النزول فيه.

والمفسرون يقولون: بؤأه له، وأراه إياه بسبب ريح تسمى الخجوج كنست ما فوق

الأساس، حتى ظهر الأساس الأول الذي كان مندرساً، فبناه إبراهيم وإسماعيل عليه. وقيل: أرسل له مزنة فاستقرت فوقه، فكان ظلها على قدر مساحة البيت، فحفروا عن الأساس، فظهر لهما فنياء عليه. وهم يقولون أيضاً: إنه كان مندرساً من زمن طوفان نوح، وأن محله كان مريض غنم لرجل من جرهم، والله تعالى أعلم.

وغاية ما دل عليه القرآن أن الله بوأ مكانه لإبراهيم، فهيأه له، وعرفه إياه لبيته في محله، وذهبت جماعة من أهل العلم إلى أن أول من بناه إبراهيم ولم يبن قبله، وظاهر قوله: حين ترك إسماعيل، وهاجر في مكة ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] يدل على أنه كان مبنياً، واندرس، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿مَكَاتِ الْبَيْتِ﴾ لأنه يدل على أن له مكاناً سابقاً، كان معروفاً. والله أعلم.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾. متعلق بمحذوف، وقد دلت على تقدير المحذوف المذكور آية البقرة وهي قوله تعالى: ﴿وَعَهْدًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾ [البقرة: ١٢٥]، فدلّت آية البقرة المذكورة على أن معنى آية الحج هذه ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ﴾ وعهدنا إليه؛ أي أوصيناه، أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين، وزادت آية البقرة أن إسماعيل مأمور بذلك أيضاً مع أبيه إبراهيم، وإذا عرفت أن المعنى وعهدنا إلى إبراهيم ألا تشرك بي شيئاً، وطهر بيتي، الآية، فاعلم أن في «أن» وجهين:

أحدهما: أنها هي المفسرة، وعليه فتطهير البيت من الشرك، وغيره هو تفسير العهد إلى إبراهيم؛ أي والعهد هو إيصاله بالتطهير المذكور.

وثانيهما: أنها مصدرية بناء على دخول «أن» المصدرية على الأفعال الطلبية.

فإن قيل: كيف تكون مفسرة للعهد إلى إبراهيم، وهو غير مذكور هنا؟

فالجواب أنه مذكور في سورة البقرة في المسألة بعينها، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، فالمذكور هناك كأنه مذكور هنا؛ لأن كلام الله يصدق بعضه بعضاً، والتطهير هنا في قوله: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ يشمل التطهير المعنوي والحسي، فيطهره الطهارة الحسية من الأقدار، والمعنوية: من الشرك والمعاصي؛ ولذا قال: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ وكانت قبيلة جرهم تضع عنده الأصنام تعبدونها من دون الله، وقد قدمنا في سورة الإسراء الكلام مستوفى فيما كان عند الكعبة من الأصنام عام الفتح، وطهرها رسول الله ﷺ من أنجاس الأوثان وأقدارها، كما أمر الله بذلك إبراهيم هنا وقال لنبينا ﷺ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [النحل: ١٢٣]، والمراد بالطائفين في هذه الآية: الذين يطوفون حول البيت، والمراد بالقائمين والركع السجود: المصلون؛ أي طهر بيتي للمتعبدين، بطواف، أو صلاة، والركع: جمع راع، والسجود: جمع ساجد.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ لفظة «شيئاً» مفعول

به: لِأَ تَشْرِكْ؛ أي لا تشرك بي شيئاً من الشركاء كائناً ما كان، ويحتمل أن تكون ما ناب عن المطلق، من لا تشرك: أي لا تشرك بي شيئاً من الشرك، لا قليلاً، ولا كثيراً.
فالمعنى على هذا لا تشرك بي شركاً قليلاً، ولا كثيراً. وقرأ نافع وعاصم في رواية حفص، وابن عامر في رواية هشام: بيتي بفتح الياء، وقرأ باقي السبعة بإسكانها.
واعلم أن المؤرخين لهم كلام كثير في قصة بناء إبراهيم، وإسماعيل للبيت، ومن جملة ما يزعمون، أن البيت الحرام رفعه الله إلى السماء أيام الطوفان، وأنه كان من ياقوتة حمراء، ودرج على ذلك ناظم عمود النسب فقال:

ودلت إبراهيم مزنةً عليه فهي على قدر المساحة تُريه
وقيل دلته خجوجٌ كنست ما حوله حتى بدا ما أسست
قُبُل الملائك من البناء قبل ارتفاعه إلى السماء

ومعلوم أن هذا ونحوه شبيه بالإسرائيليات لا يصدق منه إلا ما قام دليل من كتاب، أو سنة على صدقه؛ ولذلك نقل من ذكر مثل ذلك في الغالب.

مسألة: يؤخذ من هذه الآية الكريمة أنه لا يجوز أن يترك عند بيت الله الحرام قذر من الأقدار، ولا نجس من الأنجاس المعنوية، ولا الحسية، فلا يترك فيه أحد يرتكب ما لا يرضي الله، ولا أحد يلوثه بقذر من النجاسات.

ولا شك أن دخول المصورين في المسجد الحرام حول بيت الله الحرام بآلات التصوير يصورون بها الطائفين والقائمين والركع السجود أن ذلك مناف لما أمر الله به من تطهير بيته الحرام للطائفين والقائمين والركع السجود، فانتهاك حرمة بيت الله بارتكاب حرمة التصوير عنده لا يجوز؛ لأن تصوير الإنسان دلت الأحاديث الصحيحة على أنه حرام، وظاهرها العموم في كل أنواع التصوير؛ ولا شك أن ارتكاب أي شيء حرمه رسول الله ﷺ أنه من الأقدار، والأنجاس المعنوية التي يلزم تطهير بيت الله منها؛ وكذلك ما يقع في المسجد من الكلام المخبل بالدين والتوحيد لا يجوز إقرار شيء منه، ولا تركه.
ونرجو الله لنا ولمن ولاه الله أمرنا، وإخواننا المسلمين التوفيق إلى ما يرضيه في حرمة، وسائر بلاده، إنه قريب مجيب.

قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ٢٧﴾. الأذان في اللغة: الإعلام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: ٣] وقول الحارث بن حنظلة:

أَذَّنَتْنا ببيئِها أسماء رُبَّ ثاوٍ يملُّ منه الثَّواء

والحج في اللغة: القصد، وكثرة الاختلاف، والتردد. تقول العرب: حج بنو فلان فلاناً: إذا قصدوه، وأطالوا الاختلاف إليه، والتردد عليه. ومنه قول المخبل السعدي:

أَلَمْ تَعْلَمِي يَا أُمَّ أَسْعَدَ أَنَّمَا تَخَاطَأَنِي رَبُّبُ الْمَنُونِ لِأَكْبَرَا
وَأَشْهَدُ مِنْ عَوْفِ حُلُولًا كَثِيرَةً يَحْجُونَ سِبَّ الزَّبْرِقَانِ الْمَزْغَفَرَا

قوله: يحجون يعني، يكثرون قصده، والاختلاف إليه، والتردد عليه. والسب بالكسر: العمامة، وعنى بكونهم يحجون عمامته أنهم يحجونه، فكنى عنه بالعمامة. والرجال في الآية: جمع راجل، وهو الماشي على رجله، والضامر: البعير ونحوه. المهزول: الذي أتعبه السفر. وقوله: «يأتين» يعني: الضوامر المعبر عنها بلفظ كل ضامر؛ لأنه في معنى وعلى ضوامر يأتين من كل فج عميق؛ لأن لفظة «كل» صيغة عموم، يشمل ضوامر كثيرة. والفج: الطريق، وجمعه: فجاج. ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لِّعَلَّاهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١] والعميق: البعيد، ومنه قول الشاعر:

إِذَا الْحَيْلُ جَاءَتْ مِنْ فِجَاجٍ عَمِيقَةٍ يَمْدُّ بِهَا فِي السَّيْرِ أَشْعَثُ شَا حِبِ

وأكثر ما يستعمل العمق في البعد سفلًا. تقول: بئر عميقة؛ أي بعيدة القعر. والخطاب في قوله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ لإبراهيم كما هو ظاهر من السياق. وهو قول الجمهور، خلافًا لمن زعم أن الخطاب لنبينا - صلى الله عليه وعلى إبراهيم وسلم -، وممن قال بذلك: الحسن، ومال إليه القرطبي، فقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾؛ أي وأمرنا إبراهيم أن أذن في الناس بالحج؛ أي أعلمهم، وناد فيهم بالحج: أي بأن الله أوجب عليهم حج بيته الحرام.

وذكر المفسرون أنه لما أمره ربه، أن يأذن في الناس بالحج قال: يا رب، كيف أبلغ الناس، وصوتي لا ينفذهم، فقال: ناد وعلينا البلاغ، فقام على مقامه. وقيل: على الحجر. وقيل: على الصفا. وقيل: على أبي قبيس، وقال: يا أيها الناس، إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت، حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر، ومن كتب الله أن يحج إلى يوم القيامة: لييك اللهم لييك.

قال ابن كثير رحمته الله بعد أن ذكر هذا الكلام: هذا مضمون ما ورد عن ابن عباس ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وغير واحد من السلف، والله أعلم، وأوردها ابن جرير وابن أبي حاتم مطولة، انتهت منه.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ مجزوم في جواب الطلب، وهو عند علماء العربية مجزوم بشرط مقدّر، دلّ عليه الطلب على الأصح: أي إن تؤذن في الناس بالحج يأتوك، وإنما قال: «يأتوك»؛ لأن المدعو يتوجه نحو الداعي، وإن كان إتيانهم في الحقيقة للحج؛ لأن نداء إبراهيم للحج؛ أي يأتوك ملبيين دعوتك، حاجين بيت الله الحرام، كما ناديتهم لذلك، وعلى قول الحسن الذي ذكر عنه أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم.

ففي هذه الآية دليل على وجوب الحج، وعلى قول الجمهور، فوجوب الحج بها

على هذه الأمة، مبني على أن شرع من قبلنا شرع لنا، كما أوضحناه في سورة المائدة، مع أنه دلت آيات أخر، على أن الإيجاب المذكور على لسان إبراهيم وقع مثله أيضاً على لسان نبينا محمد ﷺ، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحُجَّ وَالْمَعْرَةَ لِلَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَصْفَاءَ وَالْمُرْوَءَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة].

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية، وقوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾... الآية، قد يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشياً لمن قدر عليه أفضل من الحج راكباً؛ لأنه قدمهم في الذكر، فدل على الاهتمام بهم وقوة همهم. وقال وكيع، عن أبي العميس، عن أبي حلحلة، عن محمد بن كعب، عن ابن عباس قال: ما آسى على شيء إلا أنني وددت أنني كنت حججت ماشياً؛ لأن الله يقول: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾.

والذي عليه الأكثر أن الحج راكباً أفضل اقتداء برسول الله ﷺ، فإنه حج راكباً مع كمال قوته ﷺ، انتهى منه. وقد فصل الشيخ الكلام في الحج ومناسكه فليرجع من أراد الوقوف مع ما قال إلى الأصل.



قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾. اللام في قوله: ليشهدوا: هي لام التعليل، وهي متعلقة بقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحُجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾؛ أي إن تؤذن فيهم يأتوك مشاة وركبانا، لأجل أن يشهدوا؛ أي يحضروا منافع لهم، والمراد بحضورهم المنافع: حصولها لهم.

وقوله: ﴿مَنَافِعَ﴾ جمع منفعة، ولم يبين هنا هذه المنافع ما هي، وقد جاء بيان بعضها في بعض الآيات القرآنية، وأن منها ما هو دنيوي، وما هو أخروي، أما الدنيوي فكأرباح التجارة، إذا خرج الحاج بمال تجارة معه، فإنه يحصل له الربح غالباً، وذلك نفع دنيوي.

وقد أطبق علماء التفسير على أن معنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] أنه ليس على الحاج إثم ولا حرج، إذا ابتغى ربحاً بتجارة في أيام الحج، إن كان ذلك لا يشغله عن شيء، من أداء مناسكه كما قدمنا إيضاحه.

فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فيه بيان لبعض المنافع المذكورة في آية الحج هذه وهذا نفع دنيوي.

ومن المنافع الدنيوية ما يصيبونه من البدن والذبائح كما يأتي تفصيله إن شاء الله قريباً كقوله في البدن: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ على أحد التفسيرين.

وقوله: ﴿تَكُلُّوا مِنْهَا﴾ في الموضوعين، وكل ذلك نفع دنيوي، وفي ذلك بيان أيضاً لبعض المنافع المذكورة في آية الحج هذه.

وقد بينت آية البقرة على ما فسرناها جماعة من الصحابة ومن بعدهم، واختاره أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسيره، ووجه اختياره له، بكثرة الأحاديث الدالة عليه أن من المنافع المذكورة في آية الحج غفران ذنوب الحاج، حتى لا يبقى عليه إثم إن كان متقياً ربه في حجة بامتثال ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه.

وذلك أنه قال: إِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣] أن الحاج يرجع مغفوراً له، ولا يبقى عليه إثم سواء تعجل في يومين، أو تأخر إلى الثالث، ولكن غفران ذنوبه هذا مشروط بتقواه ربه في حجه، كما صرح به في قوله تعالى: ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ [البقرة: ٢٠٣]؛ أي وهذا الغفران للذنوب، وحط الآثام إنما هو لخصوص من اتقى.

ومعلوم أن هذه الآية الكريمة فيها أوجه من التفسير غير هذا.

وممن نقل عنهم ابن جرير أن معناها أنه يغفر للحاج جميع ذنوبه، سواء تعجل في يومين أو تأخر، علي وعبد الله بن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وإبراهيم، وعامر، ومعاوية بن قرة.

ولما ذكر أقوال أهل العلم فيها قال وأولى هذه الأقوال بالصحة قول من قال: تأويل ذلك، فمن تعجل من أيام منى الثلاثة، فنفر في اليوم الثاني، فلا إثم عليه، يحط الله ذنوبه إن كان قد اتقى في حجه، فاجتنب فيه ما أمر الله باجتنابه، وفعل فيه ما أمر الله بفعله، وأطاعه بأدائه على ما كلفه من حدوده، ومن تأخر إلى اليوم الثالث منهن، فلم ينفر إلى النفر الثاني، حتى نفر من غد النفر الأول، فلا إثم عليه، لتكفير الله ما سلف من آثامه، وإجرامه إن كان اتقى الله في حجه بأدائه بحدوده.

وإنما قلنا: إن ذلك أولى تأويلاته: لتظاهر الأخبار، عن رسول الله ﷺ أنه قال «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» وأنه قال «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة» وساق ابن جرير ﷺ بأسانيده أحاديث دالة على ذلك ففي لفظ له أن النبي ﷺ قال: «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس للحجة المبرورة ثواب دون الجنة» وفي لفظ له، عن عمر يبلغ به النبي ﷺ قال: «تابعوا بين الحج والعمرة فإن المتابعة بينهما تنفي الفقر والذنوب كما ينفي الكير الخبث أو خبث الحديد» وفي لفظ له عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قضيت حجك فأنت مثل ما ولدتك أمك» وما أشبه ذلك من الأخبار التي يطول بذكر جميعها الكتاب مما ينبئ عن أن من حج، فقضاه بحدوده

على ما أمره الله، فهو خارج من ذنوبه كما قال جل ثناؤه: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣] لمن اتقى الله في حجه فكان في ذلك من قول رسول الله ﷺ، ما يوضح أن معنى قوله جل وعز: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أنه خارج من ذنوبه، محطوبة عنه آثامه، مغفورة أجرامه إلى آخر كلامه الطويل في الموضوع.

وقد بين فيه أنه لا وجه لقول من قال: إن المعنى لا إثم عليه في تعجله ولا إثم عليه في تأخره؛ لأن التأخر إلى اليوم الثالث، لا يحتمل أن يكون فيه إثم، حتى يقال فيه ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ وأن قول من قال: إن سبب النزول أن بعضهم كان يقول: التعجل لا يجوز، وبعضهم يقول: التأخر لا يجوز.

فمعنى الآية النهي عن تخطئة المتأخر المتعجل كعكسه؛ أي لا يؤمن أحدهما الآخر أن هذا القول خطأ، لمخالفته لقول جميع أهل التأويل.

والجاصل أنه - أعني الطبري - بين كثيراً من الأدلة على أن معنى الآية هو ما ذكر من أن الحاج يخرج مغفوراً له، كيوم ولدته أمه، لا إثم عليه، سواء تعجل في يومين، أو تأخر، وقد يظهر للنظر أن ربط نفي الإثم في قوله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ بالتعجل والتأخر في الآية ربط الجزاء بشرطه يتبادر منه، أن نفي الإثم إنما هو في التعجل والتأخر، ولكن الأدلة التي أقامها أبو جعفر الطبري، على المعنى الذي اختار فيها فيه مقنع، وتشهد لها أحاديث كثيرة، وخير ما يفسر به القرآن بعد القرآن سنة النبي ﷺ.

فقوله في آية البقرة هذه ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ هو معنى قوله ﷺ «رجع كيوم ولدته أمه» وقوله: ﴿لَمَنِ اتَّقَى﴾ [البقرة: ٢٠٣] هو معنى قوله ﷺ «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق» لأن من لم يرفث، ولم يفسق، هو الذي اتقى.

ومن كلام ابن جرير الطويل الذي أشرنا إليه أنه قال: ما نصه: فإن قال قائل ما الجالب للآم في قوله: ﴿لَمَنِ اتَّقَى﴾ وما معناها؟

قيل: الجالب لها معنى قوله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾؛ لأن في قوله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ معنى: حططنا ذنوبه، وكفرنا آثامه، فكان في ذلك معنى: جعلنا تكفير الذنوب لمن اتقى الله في حجه، وترك ذكر جعلنا تكفير الذنوب اكتفاء بدلالة قوله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، وقد زعم بعض نحويي البصرة أنه كأنه إذا ذكر هذه الرخصة، فقد أخبر عن أمر فقال: ﴿لَمَنِ اتَّقَى﴾ أي هذا لمن اتقى، وأنكر بعضهم ذلك من قوله: وقد زعم أن الصفة لا بد لها من شيء تتعلق به؛ لأنها لا تقوم بنفسها، ولكنها فيما زعم من صلة قول متروك.

فكان معنى الكلام عنده ما قلنا: من أن من تأخر لا إثم عليه لمن اتقى، وقام قوله: ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ مقام القول، انتهى محل الغرض من كلام ابن جرير.

وعلى تفسير هذه الآية الكريمة بأن معنى ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣] في الموضوعين أن الحاج يغفر جميع ذنوبه، فلا يبقى عليه إثم، فغفران جميع ذنوبه هذا

الذي دل عليه هذا التفسير من أكبر المنافع المذكورة في قوله: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ وعليه فقد بينت آية البقرة هذه بعض ما دلت عليه آية الحج، وقد أوضحت السنة هذا البيان بالأحاديث الصحيحة التي ذكرنا كحديث «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» وحديث «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» ومن تلك المنافع التي لم يبينها القرآن حديث «إن الله يباهي بأهل عرفة أهل السماء» الحديث كما تقدم، ومن تلك المنافع التي لم يبينها القرآن تيسر اجتماع المسلمين من أقطار الدنيا في أوقات معينة، في أماكن معينة ليشعروا بالوحدة الإسلامية، ولتتمكن استفادة بعضهم من بعض، فيما يهم الجميع من أمور الدنيا والدين، وبدون فريضة الحج، لا يمكن أن يتسنى لهم ذلك، فهو تشريع عظيم من حكيم خبير، والعلم عند الله تعالى.



قوله تعالى: ﴿وَلْيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ﴾، قوله: ويذكروا منصوب بحذف النون؛ لأنه معطوف على المنصوب بأن المضمر بعد لام التعليل أعني قوله: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾.

وإيضاح المعنى: وأذن في الناس بالحج يأتوك مشاة وركبانا، لأجل أن يشهدوا منافع لهم، ولأجل أن يتقربوا إليه بإقامة دماء ما رزقهم من بهيمة الأنعام، مع ذكرهم اسم الله عليها عند النحر والذبح، وظاهر القرآن يدل على أن هذا التقرب بالنحر في هذه الأيام المعلومات، إنما هو الهدايا لا الضحايا؛ لأن الضحايا لا يحتاج فيها إلى الأذان بالحج، حتى يأتي المضحون مشاة وركبانا، وإنما ذلك في الهدايا على ما يظهر، ومن هنا ذهب مالك، وأصحابه إلى أن الحاج بمنى لا تلزمه الأضحية ولا تسن له، وكل ما يذبح في ذلك المكان والزمان، فهو يجعله هدياً لا أضحية.

وقوله: ﴿وَلْيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ﴾ أي على نحر وذبح ما رزقهم ﴿مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ﴾ ليتقربوا إليه بدمائها؛ لأن ذلك تقوى منهم، فهو يصل إلى ربهم كما في قوله تعالى: ﴿لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنْ يَبَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ وقد بين في بعض المواضع أنه لا يجوز الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه منها كقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾... الآية [الأنعام: ١٢١]. وقوله ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩] وقد بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه جعل الحرم المكي منسكاً تراق فيه الدماء تقرباً إلى الله، ويذكر عليها عند تذكيته اسم الله، ولم يبين في هذه الآية، هل وقع مثل هذا لكل أمة أو لا، ولكنه بين في موضع آخر: أنه جعل مثل هذا لكل أمة من الأمم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ﴾.

وهناك أمور ذات صلة بالآية الكريمة فليرجع من أراد الوقوف عليها إلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ﴾.

الضمير في قوله: منها، راجع إلى بهيمة الأنعام المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا أَنَّمَا اللَّهُ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ وهذا الأكل الذي أمر به هنا منها وإطعام البائس الفقير منها، أمر بنحوه في خصوص البدن أيضاً في قوله تعالى ﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ﴾، ففي الآية الأولى الأمر بالأكل من جميع بهيمة الأنعام الصادق بالبدن، وبغيرها، وقد بينت الآية الأخيرة أن البدن داخلة في عموم الآية الأولى.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يرد نص عام، ثم يرد نص آخر يصرح بدخول بعض أفرادها في عمومها، ومثلنا لذلك بعض الأمثلة وفي الآية العامة هنا أمر بالأكل، وإطعام البائس الفقير، وفي الآية الخاصة بالبدن: أمر بالأكل، وإطعام القانع والمعتز، وفي هاتين الآيتين الكريمتين مبحثان.

الأول: حكم الأكل المأمور به في الآيتين هل هو الوجوب لظاهر صيغة الأمر، أو الندب والاستحباب؟

المبحث الثاني: فيما يجوز الأكل منه لصاحبه؛ وما لا يجوز له الأكل منه، ومذاهب أهل العلم في ذلك.

أما المبحث الأول فجمهور أهل العلم على أن الأمر بالأكل في الآيتين: للاستحباب، والندب، لا للوجوب، والقرينة الصارفة عن الوجوب في صيغة الأمر: هي ما زعموا من أن المشركين، كانوا لا يأكلون هداياهم فرخص للمسلمين في ذلك.

وعليه فالمعنى فكلوا إن شئتم ولا تحرموا الأكل على أنفسكم كما يفعله المشركون، وقال ابن كثير في تفسيره: إن القول بوجوب الأكل غريب، وعزا للأكثرين أن الأمر للاستحباب قال: وهو اختيار ابن جرير في تفسيره، وقال القرطبي في تفسيره ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أمر معناه الندب عند الجمهور، ويستحب للرجل، أن يأكل من هديه وأضحيته، وأن يتصدق بالأكثر مع تجوزهم الصدقة بالكل، وأكل الكل وشذت طائفة، فأوجبت الأكل والإطعام بظاهر الآية، ولقوله ﷺ: «فكلوا وادخروا وتصدقوا»، قال الكيا قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا﴾ يدل على أنه لا يجوز بيع جميعه، ولا التصديق بجميعه. انتهى كلام القرطبي.

ومعلوم أن بيع جميعه لا وجه لحليته، بل ولا بيع بعضه، كما هو معلوم.

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: أقوى القولين دليلاً: وجوب الأكل والإطعام من الهدايا والضحايا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ في موضعين. وقد قدمنا أن الشرع واللغة دلا على أن صيغة أفعل تدل على الوجوب إلا لدليل صارف، عن الوجوب، وذكرنا الآيات الدالة على ذلك كقوله ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ

تُصِيبُهُمْ فَتَنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [التور: ٦٣]. وأوضحنا جميع أدلة ذلك في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك، منها آية الحج التي ذكرنا عندها مسائل الحج.

ومما يؤيد أن الأمر في الآية يدل على وجوب الأكل وتأكيده: «أن النبي ﷺ نحر مائة من الإبل فأمر بقطعة لحم من كل واحدة منها، فأكل منها وشرب من مرقها». وهو دليل واضح على أنه أراد ألا تبقى واحدة، من تلك الإبل الكثيرة إلا وقد أكل منها أو شرب من مرقها، وهذا يدل على أن الأمر في قوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ ليس لمجرد الاستحباب والتخيير، إذ لو كان كذلك لكتفى بالأكل من بعضها، وشرب مرقه دون بعض، وكذلك الإطعام فالأظهر فيه الوجوب.

والحاصل أن المشهور عند الأصوليين أن صيغة افعل تدل على الوجوب إلا لصارف عنه، وقد أمر بالأكل من الذبائح مرتين، ولم يقم دليل يجب الرجوع إليه صارف عن الوجوب وكذلك الإطعام، هذا هو الظاهر بحسب الصناعة الأصولية، وقد دلت عليها أدلة الوحي، كما قدمنا إيضاحه.

وقال أبو حيان في البحر المحيط: والظاهر وجوب الأكل والإطعام وقيل باستحبابهما. وقيل: باستحباب الأكل، ووجوب الإطعام. والأظهر أنه لا تحديد للقدر الذي يأكله والقدر الذي يتصدق به، فيأكل ما شاء ويتصدق بما شاء، وقد قال بعض أهل العلم: يتصدق بالنصف ويأكل النصف واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعُمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ قال: فجزأها نصفين نصف له، ونصب للفقراء، وقال بعضهم: يجعلها ثلاثة أجزاء، يأكل الثلث ويتصدق بالثلث، ويهدي الثلث، واستدل بقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعُمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ فجزأها ثلاثة أجزاء، ثلث له، وثلث للقانع، وثلث للمعتر. هكذا قالوا وأظهرها الأول، والعلم عند الله تعالى، والبائس: هو الذي أصابه البؤس، وهو الشدة. قال الجوهري في صحاحه: وبئس الرجل يبأس بؤساً وبئساً: اشتدت حاجته، فهو بائس وأنشد أبو عمرو:

لبيضاء من أهل المدينة لم تذق بئساً ولم تتبع حمولة مجحد

وهو اسم وضع موضع المصدر، اه منه يعني أن البئس في البيت لفظه لفظ الوصف، ومعناه المصدر، والفقير معروف، والقاعدة عند علماء التفسير أن الفقير والمسكين إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، وعلى قولهم: فالفقير هنا يشمل المسكين؛ لأنه غير مذكور معه هنا، وذلك هو مرادهم، بأنهما إذا افترقا اجتمعا، ومعلوم خلاف العلماء في الفقير والمسكين في آية الصدقة أيهما أشد فقراً، وقد ذكرنا حجج الفريقين وناقشناها في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة البلد، ومما استدل به القائل: إن الفقير أحوج من المسكين، وأن المسكين من عنده شيء لا يقوم بكفايته قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾... الآية [الكهف: ٧٩]، قالوا: فسماهم مساكين، مع أن عندهم سفينة عاملة للإيجار.

ومما استدل به القائلون بأن المسكين أحوج من الفقير: أن الله قال في المسكين: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتَرٍ﴾ [البلد] قالوا: ذا مترية: أي لا شيء عنده. حتى كأنه قد لصق بالتراب من الفقر، ليس له مأوى إلا التراب.

قال ابن عباس: هو المطروح على الطريق الذي لا بيت له. وقال مجاهد: هو الذي لا يقيه من التراب لباس، ولا غيره انتهى من القرطبي. وعضدوا هذا بأن العرب تطلق الفقير على من عنده مال لا يكفيه، ومئة قول راعي نمير:

أما الفقير الذي كانت حلوبته وفق العيال فلم يترك له سبد
فسماه فقيراً مع أن له حلوبة قدر عياله. وهناك مسائل تتعلق بالآية يرجع للأصل من أراد الوقوف عليها.

قوله تعالى: ﴿وَلَيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾. في المراد بالعتيق هنا للعلماء ثلاثة أقوال:
الأول: أن المراد به القديم؛ لأنه أقدم مواضع التعبد.
الثاني: أن الله أعتقه من الجبابة.

الثالث: أن المراد بالعتق فيه الكرم، والعرب تسمي القديم عتيقاً وعاتقاً، ومنه قول حسان رضي الله عنه:

كالمسك تخلطه بماء سحابة أو عاتق كدم الذبيح مدام
لأن مراده بالعاتق الخمر القديمة التي طال مكثها في دنها زمناً طويلاً، وتسمى الكرم عتيقاً ومنه قول كعب بن زهير:

قنواء في حرتيها للبصير بها عتق مبين وفي الخدين تسهيل
فقوله: عتق مبين: أي كرم ظاهر، ومنه قول المتنبي:

* ويبين عتق الخيل في أصواتها *

أي كرمها، والعتق من الجبابة كالعتق من الرق، وهو معروف.

وإذا علمت ذلك فاعلم أنه قد دلت آية من كتاب الله، على أن العتيق في الآية بمعنى القديم الأول وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦] مع أن المعنيين الآخرين كلاهما حق، ولكن القرآن دل على ما ذكرنا، وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

تنبيهان:

الأول: دلت هذه الآية الكريمة، على لزوم طواف الإفاضة وأنه لا صحة للحج بدونه.

الثاني: دلت هذه الآية أيضاً على لزوم الطواف من وراء الحجر الذي عليه الجدار القصير شمال البيت لأن أصله من البيت، فهو داخل في اسم البيت العتيق، كما تقدم إيضاحه.

قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾.

لم يبين هنا هذا الذي يتلى عليهم المستثنى من حلية الأنعام، ولكنه بينه بقوله في سورة الأنعام: ﴿قُلْ لَا أُحَدِّثُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِثْلَهُ أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥] وهذا الذي ذكرنا هو الصواب، أما ما قاله جماعات من أهل التفسير من أن الآية التي بينت الإجمال في قوله تعالى هنا ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١] أنها قوله تعالى في المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ﴾ [المائدة: ٣] الآية فهو غلط؛ لأن المائدة من آخر ما نزل من القرآن وآية الحج هذه نازلة قبل نزول المائدة بكثير، فلا يصح أن يحال البيان عليها في قوله ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ بل المبين لذلك الإجمال آية الأنعام التي ذكرنا لأنها نازلة بمكة، فيصح أن تكون مبينة لآية الحج المذكورة كما نبه عليه غير واحد.

أما قوله تعالى في المائدة ﴿أُحِلَّتْ لَكُمُ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١] فيصح بيانه بقوله في المائدة ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ﴾ [المائدة: ٣]. كما أوضحنا في أول المائدة، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾. «من» في هذه الآية بيانية.

والمعنى فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان؛ أي عبادتها والرجس القذر الذي تعافه النفوس، وفي هذه الآية الكريمة الأمر باجتنباب عبادة الأوثان، ويدخل في حكمها، ومعناها عبادة كل معبود من دون الله كائناً من كان. وهذا الأمر باجتنباب عبادة غير الله المذكور هنا، جاء مبيناً في آيات كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وبين تعالى أن ذلك شرط في صحة إيمانه بالله في قوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَسْلَكَ بِالْحَقِّ الْوُتْقَ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وأثنى الله على مجتنبابي عبادة الطاغوت المنبيين لله، وبين أن لهم البشرى، وهي ما يسرهم عند ربهم في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ [الزمر: ١٧]. وقد سأل إبراهيم ربه أن يزرقه اجتناب عبادة الطاغوت، في قوله تعالى: ﴿وَاجْتَنِبْ رَبِّي أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] والأصنام، تدخل في الطاغوت دخولاً أولياً.

قوله تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ ﴿٣٧﴾ حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ. أمر في هذه الآية الكريمة باجتنباب قول الزور، وهو الكذب والباطل كقولهم: إن الله حرم البحيرة والسائبة، ونحو ذلك، وكادعائهم له الأولاد والشركاء، وكل قول مائل عن الحق فهو زور؛ لأن أصل المادة التي هي الزور من الإزورار بمعنى الميل، والاعوجاج، كما أوضحناه في الكلام على قوله: ﴿تَزَوَّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف: ١٧].

واعلم أننا قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها، أن يذكر لفظ عام، ثم يصرح في بعض المواضع بدخول بعض أفراد ذلك العام فيه، وتقدمت لذلك أمثلة، وسيأتي بعض أمثله في الآيات القرية من سورة الحج هذه.

وإذا علمت ذلك فاعلم أنه هنا قال: ﴿وَلَجَّئُنَا إِلَى الْزُّورِ﴾ بصيغة عامة، ثم بين في بعض المواضع بعض أفراد قول الزور المنهي عنه كقوله تعالى في الكفار الذين كذبوه ﷺ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان] فصرح بأن قولهم هذا من الظلم والزور، وقال في الذين يظاهرون من نسائهم، ويقول الواحد منهم لامرأته أنت علي كظهر أمي ﴿وَلَا يَتْلُونَ تَسْبِيحًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: ٢] فصرح بأن قولهم ذلك، منكر وزور، وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي بكرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى يا رسول الله ﷺ قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين وكان متكئا فجلس فقال: ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت، اه وقد جمع تعالى هنا بين قول الزور والإشراك به تعالى في قوله: ﴿وَلَجَّئُنَا إِلَى الْزُّورِ﴾ وكما أنه جمع بينهما هنا، فقد جمع بينهما أيضاً في غير هذا الموضع كقوله ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] لأن قوله: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩] هو قول الزور. وقد أتى بمقروناً بقوله: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [الأعراف: ٣٣]؛ وذلك يدل على عظمة قول الزور؛ لأن الإشراك بالله قد يدخل في قول الزور، كادعائهم الشركاء، والأولاد لله، وكتكذيبه ﷺ فكل ذلك الزور فيه أعظم الكفر والإشراك بالله. نعوذ بالله من كل سوء.

ومعنى حنفاء: قد قدمناه مراراً مع بعض الشواهد العربية، فأغنى عن إعادته هنا. قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن من أشرك بالله غيره أي ومات ولم يتب من ذلك فقد وقع في هلاك، لا خلاص منه بوجه ولا نجاة معه بحال؛ لأنه شبهه بالذي خر: أي سقط من السماء إلى الأرض، فتمزقت أوصاله، وصارت الطير تتخطفها وتهوي بها الريح فتلقبها في مكان سحيق؛ أي محل بعيد لشدة هبوبها بأوصاله المتمزقة، ومن كانت هذه صفته فإنه لا يرجى له خلاص ولا يطمع له في نجاة، فهو هالك لا محالة؛ لأن من خر من السماء إلى الأرض لا يصل الأرض عادة إلا متمزق الأوصال، فإذا خطفت الطير أوصاله وتفرقت في حواصلها، أو ألقت الريح في مكان بعيد فهذا هلاك محقق لا محيد عنه، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من هلاك من أشرك بالله وأنه لا يرجى له خلاص، جاء موضعاً في مواضع آخر كقوله ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]. وكقوله: ﴿قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ حَرَمَهُمَا عَلَى

الْكَافِرِينَ ﴿[الأعراف: ٥٠] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨] في الموضوعين من سورة النساء، والخطف: الأخذ بسرعة والسحق البعيد. ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَحَقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١]؛ أي بعداً لهم.

وقد دلت آيات أخر على أن محل هذا الهلاك الذي لا خلاص منه بحال الواقع بمن يشرك بالله، إنما هو في حق من مات على ذلك الإشراك، ولم يتب منه قبل حضور الموت، أما من تاب من شركه قبل حضور الموت، فإن الله يغفر له؛ لأن الإسلام يجب ما قبله.

والآيات الدالة على ذلك متعددة كقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مِمَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠]. وقوله في الذين: ﴿قَالُوا إِنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَالِئُكَ تَلَكُّهُ﴾ ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤] وقوله ﴿وَإِنْ لَفَقَرْنَا لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [طه: ٨٢]. إلى غير ذلك من الآيات، وأما إن كانت توبته من شركه عند حضور الموت، فإنها لا تنفعه.

وقد دلت على ذلك آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوبَةُ لِلَّذِينَ يَمْعَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨] فقد دلت الآية على التسوية بين الموت على الكفر والتوبة منه، عند حضور الموت وكقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسًا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمْ وَكُفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيصْنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥] وكقوله في فرعون: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْفُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿أَلَمْ تَكُنْ مِنَّا قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس: ٩١] وقرأ هذا الحرف نافع فتخطفه بفتح الخاء وتشديد الطاء أصله فتخطفه الطير بتاءين فحذفت إحداهما وقرأه غيره من السبعة فتخطفه الطير بإسكان الخاء وتخفيف الطاء مضارع خطفه بالكسر.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ﴿٣٢﴾. قد ذكرنا قريباً أنا ذكرنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يذكر لفظ عام، ثم يصرح في بعض المواضع بدخول بعض أفراد ذلك العام فيه، فيكون ذلك الفرد قطعي الدخول لا يمكن إخراجه بمخصص، وواعدنا بذكر بعض أمثله في هذه الآيات. ومرادنا بذلك هذه الآية الكريمة؛ لأن قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ﴾ عام في جميع شعائر الله، وقد نص تعالى على أن البدن فرد من أفراد هذا العموم، داخل فيه قطعاً وذلك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ في الآية تعظيم البدن واستسمانها واستحسانها كما قدمنا عن البخاري أنهم كانوا يسمنون الأضاحي، وكانوا يرون أن ذلك من تعظيم شعائر الله، وقد قدمنا أن الله صرح بأن الصفا والمروة

ما جاء به الرسول ﷺ فطمأنينتهم بذلك قوية؛ لأنها لم تتطرقها الشكوك، ولا الشبه والوجل عند ذكر الله تعالى يكون بسبب خوف الزيف عن الهدى، وعدم تقبل الأعمال، كما قال تعالى عن الراسخين في العلم ﴿رَبَّنَا لَا تُفِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون] وقال تعالى ﴿نَقْشَعُرُهُمْ مِنْهُ جُلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] ولهذا كان ﷺ يقول في دعائه: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك».

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمَعْتَرَّ﴾. قد قدمنا أنه تعالى أمر بالأكل من بهيمة الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم بأنواعها الثمانية، وأمر بإطعام البائس الفقير منها. وأمر بالأكل من البدن وإطعام القانع والمعتر منها، وما كان من الإبل، فهو من البدن بلا خلاف.

واختلفوا في البقرة، هل هي بدنة، وقد قدمنا الحديث الصحيح أن البقرة من البدن، وقد قدمنا أيضاً ما يدل على أنها غير بدنة، وأظهرهما أنها من البدن، وللعلماء في تفسير القانع والمعتر أقوال متعددة متقاربة أظهرها عندي أن القانع هو الطامع الذي يسأل أن يعطى من اللحم ومنه قول الشماخ:

لَمَالِ الْمِرَّةِ يَصْلَحُهُ فَيَغْنِي مَفَاقِرَهُ أَغْفَ مِنَ الْقَنُوعِ

يعني أغف من سؤال الناس، والطمع فيهم، وأن المعتر هو الذي يعترى متبرصاً للإعطاء من غير سؤال وطلب، والله أعلم. وقد قدمنا حكم الأكل من أنواع الهدايا والضحايا، وأقوال أهل العلم في ذلك بما أغنى عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

قوله كذلك: نعت لمصدر؛ أي سَخَرْنَاهَا أي البدن لكم تسخيراً كذلك؛ أي مثل ذلك التسخير الذي تشاهدون: أي ذللناها لكم، وجعلناها منقادة لكم تفعلون بها ما شئتم من نحر وركوب، وحلب وغير ذلك من المنافع، ولولا أن الله ذللها لكم لم تقدروا عليها؛ لأنها أقوى منكم ألا ترى البعير، إذا توحش صار صاحبه غير قادر عليه، ولا متمكن من الانتفاع به. وقوله هنا: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ قد قدمنا مراراً أن لعل تأتي في القرآن لمعان أقربها اثنان؛ أحدهما: أنها بمعناها الأصلي، الذي هو الترجي والتوقع، وعلى هذا فالمراد بذلك خصوص الخلق؛ لأنهم هم الذين يترجى منهم شكر النعم من غير قطع، بأنهم يشكرونها أو لا ينكرونها لعدم علمهم بما تؤول إليه الأمور، وليس هذا المعنى في حق الله تعالى؛ لأنه عالم بما سيكون فلا يجوز في حقه - جل وعلا - إطلاق الترجي والتوقع لتنزيهه عن ذلك، وإحاطة علمه بما ينكشف عنه الغيب، وقد قال تعالى لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [طه] أي على رجائكما وتوقعكما أنه يتذكر أو يخشى، مع أن الله عالم في سابق أزمه فرعون لا يتذكر ولا يخشى، فمعنى لعل بالنسبة إلى الخلق، لا إلى الخالق - جل وعلا -.

المعنى الثاني: هو ما قدمنا من أن بعض أهل العلم، قال: كل لعل في القرآن فهي للتعليل إلا التي في سورة الشعراء ﴿وَتَتَخِدُونَ مَصَالِحَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء] قال: فهي بمعنى كأنكم تخلدون. وإتيان لفظة لعل للتعليل معروف في كلام العرب. وقد قدمناه موضحاً مراراً وقد قدمنا من شواهد العربية قول الشاعر:

فقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا نكف ووثقتم لنا كل موثق

يعني كفوا الحروب لأجل أن نكف، وإذا علمت أن هذه الآية الكريمة بين الله فيها أن تسخير الأنعام لبني آدم نعمة من إنعامه، تستوجب الشكر لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

فاعلم أنه بين هذا في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلَتْ أَيْدِيئَانَا أَنْعَمَّا فَهُمَ لَهَا مَلِكُونَ﴾ [٧١] ودَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [٧٢] وَفَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَسَارِيبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١ - ٧٣] وقوله في آية يس هذه: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٥] كقوله في آية الحج: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦] ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى قريباً: ﴿كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾، وقد قدمنا معنى شكر العبد لربه وشكر الرب لعبده، مراراً بما أغنى عن إعادته هنا والتسخير التذليل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يدفع السوء عن عباده الذين آمنوا به إيماناً حقاً، ويكفيهم شر أهل السوء، وقد أشار إلى هذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَكْفِي عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] وقوله تعالى: ﴿تَتَلَوْنَهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورٌ قَوِيرٌ مُؤْمِنِينَ﴾ [٧٤] وَيُذْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٥١]. وقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] وقوله: ﴿وَإِنَّا جُنَدًا لَهُمُ الْفَلِيلُونَ﴾ [الصافات: ٧٣] إلى غير ذلك من الآيات، وقرأ هذا الحرف ابن كثير وأبو عمرو: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بفتح الياء والفاء بينهما دال ساكنة مضارع دفع المجرد، وعلى هذه القراءة، فالمفعول محذوف أي يدفع عن الذين آمنوا الشر والسوء؛ لأن الإيمان بالله هو أعظم أسباب دفع المكاره. وقرأ الباقون: يدفع بضم الياء، وفتح الدال بعدها ألف. وكسر الفاء مضارع دافع المزيد فيه ألف بين الفاء والعين على وزن فاعل. وفي قراءة الجمهور هذه إشكال معروف، وهو أن المفاعلة تقتضي بحسب الوضع العربي اشتراك فاعلين في المصدر. والله - جل وعلا - يدفع كل ما شاء من غير أن يكون له مدافع يدفع شيئاً.

والجواب هو ما عرف من أن المفاعلة قد ترد بمعنى المجرد، نحو: جاوزت المكان بمعنى جزته، وعاقبت اللص، وسافرت، وعافاك الله، ونحو ذلك، فإن فاعل في

جميع ذلك بمعنى المجرد، وعليه فقوله: يدافع بمعنى: يدفع. كما دلت عليه قراءة ابن كثير وأبي عمرو، وقال الزمخشري: ومن قرأ يدافع فمعناه يبالغ في الدفع عنهم كما يبالغ من يغالب فيه؛ لأن فعل المغالب يجيء أقوى وأبلغ، اهـ منه، ولا يبعد عندي أن يكون وجه المفاعلة أن الكفار يستعملون كل ما في إمكانهم لإضرارهم بالمؤمنين، وإيذائهم، والله - جل وعلا - يدفع كيدهم عن المؤمنين، فكان دفعه - جل وعلا - لقوة عظيمة أهلها في طغيان شديد يحاولون إلحاق الضرر بالمؤمنين وبهذا الاعتبار كان التعبير بالمفاعلة، في قوله: يدافع، وإن كان - جل وعلا - قادراً على إهلاكهم، ودفع شرهم عن عباده المؤمنين، ومما يوضح هذا المعنى الذي أشرنا إليه قول كعب بن مالك رضي الله عنه:

زعمت سخيئة أن ستغلب ربها وليغلب مغالب الغلاب

والعلم عند الله تعالى، ومفعول يدافع محذوف فعلي القول بأنه بمعنى يدفع فقد ذكرنا تقديره، وعلى ما أشرنا إليه أخيراً فتقدير المفعول: يدافع عنهم أعدائهم، وخصوصهم فيرد كيدهم في نحورهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾. صرح - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة بأنه لا يحب كل خوان كفور، والخوان والكفور كلاهما صيغة مبالغة؛ لأن الفعل بالتضعيف والفعل بفتح الفاء من صيغ المبالغة، والمقرر في علم العربية أن نفي المبالغة في الفعل لا يستلزم نفي أصل الفعل، فلو قلت: زيد ليس بقاتل للرجال فقد نفيت مبالغته في قتلهم، ولم يستلزم ذلك أنه لم يحصل منه قتل لبعضهم ولكنه لم يبالغ في القتل، وعلى هذه القاعدة العربية المعروفة، فإن الآية قد صرحت بأن الله لا يحب المبالغين في الكفر والمبالغين في الخيانة، ولم تتعرض لمن يتصف بمطلق الخيانة ومطلق الكفر من غير مبالغة فيهما، ولا شك أن الله يبغض الخائن مطلقاً، والكافر مطلقاً، وقد أوضح - جل وعلا - ذلك في بعض المواضع، فقال في الخائن ﴿وَأَمَّا تَخَافَتْ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَاذْنَبْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال] وقال في الكافر: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿أُذِّنْ لِلَّذِينَ يَمُوتُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

متعلق أذن محذوف في هذه الآية الكريمة: أي أذن لهم في القتال بدليل قوله: يقاتلون، وقد صرح - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أذن للذين يقاتلون وهم النبي ﷺ وأصحابه ودل قوله: يقاتلون: على أن المراد من يصلح للقتال منهم دون من لا يصلح له، كالأعمى والأعرج والمريض والضعيف والعاجز عن السفر للجهاد لفقره بدليل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ﴾ [النور: ٦١]. وقوله جل وعلا: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمُرْتَضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١] وقوله:

﴿يَأْتِيهِمْ ظُلُمًا﴾ الباء فيه سببية وهي من حروف التعليل، كما تقرر في مسلك النص الظاهر من مسالك العلة. وهذه الآية هي أول آية نزلت في الجهاد كما قال به جماعات من العلماء، وليس فيها من أحكام الجهاد إلا مجرد الإذن لهم فيه، ولكن قد جاءت آيات أخر دالة على أحكام أخر زائدة على مطلق الإذن فهي مبينة عدم الاقتصار، على الإذن كما هو ظاهر هذه الآية. وقد قالت جماعة من أهل العلم: إن الله - تبارك وتعالى - لعظم حكمته في التشريع، إذا أراد أن يشرع أمراً شاقاً على النفوس كان تشريعه له على سبيل التدرج؛ لأن إلزامه بغتة في وقت واحد من غير تدرج فيه مشقة عظيمة، على الذين كلفوا به قالوا فمن ذلك الجهاد، فإنه أمر شاق على النفوس لما فيه من تعريضها لأسباب الموت؛ لأن القتال مع العدو الكافر القوي من أعظم أسباب الموت عادة، وإن كان الأجل محدوداً عند الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥] وقد بين تعالى مشقة إيجاب الجهاد عليهم، بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧] ومع تعريض النفوس فيه لأعظم أسباب الموت، فإنه ينفق فيه المال أيضاً كما قال تعالى: ﴿وَيُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمُوتُونَ وَأُفْسِسُكُمْ﴾ [الصف: ١١] قالوا: ولما كان الجهاد فيه هذا من المشقة، وأراد الله تشريعه شرعه تدرجاً، فأذن فيه أولاً من غير إيجاب بقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلُمًا﴾. ثم لما استأنست به نفوسهم بسبب الإذن فيه، أوجب عليهم قتال: من قاتلهم دون من لم يقاتلهم بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ وَلَا تَسُدُّوْا﴾ [البقرة: ١٩٠]. وهذا تدرج من الإذن إلى نوع خاص من الإيجاب، ثم لما استأنست نفوسهم بإيجابه في الجملة أوجبه عليهم إيجاباً عاماً جازماً في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضَرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ [التوبة: ٥] وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] وقوله: ﴿نُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُوْا﴾ [الفتح: ١٦] إلى غير ذلك من الآيات.

واعلم أن لبعض أهل العلم في بعض الآيات التي ذكرنا أقوالاً غير ما ذكرنا، ولكن هذا التدرج الذي ذكرنا دل عليه استقرار القرآن في تشريع الأحكام الشاقة، ونظيره شرب الخمر فإن تركه شاق على من اعتاده، فلما أراد الله أن يحرم الخمر حرمها تدرجاً، فذكر أولاً بعض معائبه كقوله تعالى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آكَبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] ثم لما استأنست نفوسهم بأن في الخمر إثماً أكثر مما فيها من النفع، حرمها عليهم في أوقات الصلاة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ [النساء: ٤٣] فكانوا بعد نزولها، لا يشربونها إلا في وقت يزول فيه السكر قبل وقت الصلاة، وذلك بعد صلاة

العشاء وبعد صلاة الصبح؛ لأن ما بين العشاء والصبح يصحو فيه السكران عادة، وكذلك ما بين الصبح والظهر، وهذا تدرّج من عيها إلى تحريمها في بعض الأوقات. فلما استأنست نفوسهم بتحريمها حرّمها عليهم تحريماً عاماً جازماً بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَنُ وَالْيَسِيرُ وَالْأَنهَابُ وَالْأَزْلَمُ يَجَسَّ مِن عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [٩٠] إلى قوله: ﴿فَهَلْ أُنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩١] وكذلك الصوم، فإنه لما كان الإمساك عن شهوة الفرج والبطن شاقاً على النفوس، وأراد تعالى تشريعه شرعه تدرّجاً؛ فخير أولاً بين صوم اليوم وإطعام المسكين في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤] فلما استأنست النفوس به في الجملة، أوجبه أيضاً إيجاباً عاماً جازماً بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال بعض أهل العلم: التدرّج في تشريع الصوم على ثلاثة مراحل كما قبله قالوا: أوجب عليهم أولاً صوماً خفيفاً لا مشقة فيه وهو صوم يوم عاشوراء وثلاثة من كل شهر، ثم لما أراد فرض صوم رمضان شرعه تدرّجاً على المرحلتين اللتين ذكرناهما آنفاً، هكذا قالت جماعات من أهل العلم، وله اتجاه والعلم عند الله تعالى، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ يشير إلى معنيين.

أحدهما: أن فيه الإشارة إلى وعده للنبي وأصحابه، بالنصر على أعدائهم كما قال قبله قريباً: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

وثانيهما: أن الله قادر على أن ينصر المسلمين على الكافرين من غير قتال لقدرته على إهلاكهم بما شاء، ونصرة المسلمين عليهم بإهلاكه إياهم، ولكنه شرع الجهاد لحكم منها اختبار الصادق في إيمانه، وغير الصادق فيه، ومنها تسهيل نيل فضل الشهادة في سبيل الله بقتل الكفار لشهداء المسلمين، ولولا ذلك لما حصل أحد فضل الشهادة في سبيل الله. كما أشار تعالى إلى حكمة اختبار الصادق في إيمانه وغيره بالجهاد في آيات من كتابه، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنْفَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لَّابُلَاؤٌ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤] وكقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢١] وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الضَّالِّينَ﴾ [آل عمران: ١٢٢] وقوله تعالى: ﴿وَلَبَّوْكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّالِّينَ وَتَبْلُغُوا أَمَّارِكُمْ﴾ [محمد: ١٢٣] إلى غير ذلك من الآيات، وكقوله تعالى في حكمة الابتلاء المذكور وتسهيل الشهادة في سبيله: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢١٤] ولِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمَحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٦] وقرأ هذا الحرف نافع، وأبو عمرو وعاصم: أذن بضم الهمزة وكسر

الذال مبنياً للمفعول، وقرأ الباقون: بفتح الهمزة مبنياً للفاعل؛ أي أذن الله للذين يقاتلون، وقرأ نافع وابن عامر وحفص، عن عاصم: يقاتلون بفتح التاء مبنياً للمفعول، وقرأ الباقون بكسر التاء مبنياً للفاعل.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغْيَ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾.

تقدم ما يوضح هذه الآية من الآيات في سورة براءة في الكلام على قوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٧٤].

قوله تعالى: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. بين الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أقسم لينصر من ينصره، ومعلوم أن نصر الله إنما هو باتباع ما شرعه بامثال أوامره، واجتناب نواهيه ونصرة رسله وأتباعهم، ونصرة دينه وجهاد أعدائه وقهرهم حتى تكون كلمته - جل وعلا - هي العليا، وكلمة أعدائه هي السفلى. ثم إن الله - جل وعلا - بين صفات الذين وعدهم بنصره ليميزهم عن غيرهم فقال مبيناً من أقسم أنه ينصره؛ لأنه ينصر الله - جل وعلا -: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن من نصر الله نصره الله جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْهُمْ وَيُنِيبُ أَقْدَامُكُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلُ أَعْمَالِهِمْ﴾ [محمد: ٧، ٨] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِإِِبَادِنَا الرِّسَالِ ۚ إِنَّهُمْ لَمُتُّوا ۖ أَلَمْ تَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [النور: ٥٥]. إلى غير ذلك من الآيات وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، دليل على أنه لا وعد من الله بالنصر، إلا مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. فالذين يمكن الله لهم في الأرض ويجعل الكلمة فيها والسلطان لهم، ومع ذلك لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة، ولا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر فليس لهم وعد من الله بالنصر؛ لأنهم ليسوا من حزبه، ولا من أوليائه الذين وعدهم بالنصر، بل هم حزب الشيطان وأوليائه، فلو طلبوا النصر من الله بناء على أنه وعدهم إياه، فمثلهم كمثّل الأجير الذي يمتنع من عمل ما أجر عليه، ثم يطلب الأجرة، ومن هذا شأنه فلا عقل له، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ العزيز الغالب الذي لا يغلبه شيء، كما قدمناه مراراً بشواهد العربية. وهذه الآيات تدل على صحة خلافة الخلفاء الراشدين؛ لأن الله نصرهم على أعدائهم؛ لأنهم نصره فأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وقد مكر لهم، واستخلفهم في الأرض كما قال ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥]. والحق أن الآيات المذكورة تشمل أصحاب رسول الله ﷺ، وكل من قام بنصرة دين الله على الوجه الأكمل، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾. في هذه الآيات الكريمة تسلية للنبي ﷺ بأن الذي عامله به قومه من التكذيب عومل به غيره من الرسل الكرام، وذلك يسليه ويخفف عليه كما قال تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِذِي قُوَّةٍ أَدَّكَ﴾ [هود: ١٢٠]. وقوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣] وقوله ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فاطر: ٤] إلى غير ذلك من الآيات، وذكر تعالى في هذه الآيات سبع أمم كل واحدة منهم كذبت رسولها.

الأولى: قوم نوح في قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ والآيات الدالة على تكذيب قوم نوح لا تكاد تحصى في القرآن، لكثرتها ولتقتصر على الأمثلة لكثرة الآيات الدالة على تكذيب هذه الأمم رسلها كقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الشعراء] وقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿١٦١﴾﴾ [القمرا] إلى غير ذلك من الآيات.

الثانية: عاد، وقد بين تعالى في غير هذا الموضع في آيات كثيرة أنهم كذبوا رسولهم هوداً، كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الشعراء] وقوله: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِسَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٤﴾﴾ [هود].

الثالثة: ثمود وقد بين تعالى في غير هذا الموضع تكذيبهم لنبيهم صالح في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء] وقوله ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤] إلى غير ذلك من الآيات.

الرابعة: قوم إبراهيم، وقد بين تعالى في غير هذا الموضع أنهم كذبوه في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ النَّارَ﴾ [العنكبوت: ٢٤] وقوله: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٨]. وكقوله: ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْفِي مَلَانًا﴾ [مريم: ٤٦] إلى غير ذلك من الآيات.

الخامسة: قوم لوط وقد بين تعالى في غير هذا الموضع أنهم كذبوه في آيات كثيرة كقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ [الشعراء] وقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُو آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: ٥٦] إلى غير ذلك من الآيات.

السادسة: أصحاب مدين، وقد بين تعالى أنهم كذبوا نبيهم شعيباً في غير هذا الموضع في آيات كثيرة كقوله: ﴿أَلَا بَعْدًا لِمَلِكَيْنِ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥] وقوله: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوَّمُ عِبَدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٨٤] إلى قوله ﴿قَالُوا يَنْشُعِبِ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود] وقوله: ﴿قَالُوا يَنْشُعِبُ مَا تَفْعَلُ كَثِيرًا وَمَا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ [الآية: ٩١]، إلى غير ذلك من الآيات.

السابعة: من كذبوا موسى وهم فرعون وقومه، وقد بين تعالى في غير هذا الموضع أن فرعون وقومه كذبوا موسى في آيات كثيرة كقوله: ﴿لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] وقوله: ﴿أَلَمْ تَرْبِكْ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثَ فِينَا مِنْ عُمَرِكَ سِنَّينَ ۖ وَفَعَلَكَ فَعْلَانِكَ أَتَنِى فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝١٦﴾ [الشعراء] وقوله: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٧﴾ [الأعراف] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ قد بين تعالى نوع العذاب الذي عذب به كل أمة من تلك الأمم، بعد الإملاء لها والإمهال، فبين أنه أهلك قوم نوح بالغرق في مواضع كثيرة كقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤] وقوله: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ ۝١١ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ ۝١٢﴾ [القمر] وقوله: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ۝١٣﴾ [الشعراء] إلى غير ذلك من الآيات. وبين في مواضع كثيرة أنه بعد الإملاء والإمهال لعاد أهلكهم بالريح العقيم كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَفُلِسْطُا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝١٦﴾ [الحاقة] الآيات، وقوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۝١٦ مَا نَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَارِئِيو ۝١٧﴾ [الذاريات] وقوله: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ ۝١٩﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥] إلى غير ذلك من الآيات. وبين أنه أهلك ثمود بصيحة أهلكتهم جميعاً كقوله فيهم: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمِ ۝١٧﴾ [هود] وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ ۝١٧﴾ [فصلت: ١٧] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوم إبراهيم الذين كذبوه هم نمرود، وقومه، وقد ذكر المفسرون أن العذاب الدنيوي الذي أهلكهم الله به هو المذكور في قوله تعالى في سورة النحل: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝٢١﴾ [النحل]. وقد بين تعالى أنه أهلك قوم لوط بجعل عالي أرضهم سافلها، وأنه أرسل عليها مطراً من حجارة السجيل في مواضع متعددة كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابَةً مِّنْ سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢] ونحو ذلك من الآيات. وقد بين تعالى أنه أهلك أصحاب مدين بالصيحة في مواضع كقوله فيهم: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمِ ۝١٧﴾ [هود: ٨٢] إلى غير ذلك من الآيات. وقد بين في مواضع كثيرة أنه أهلك الذين كذبوا موسى، وهم فرعون وقومه بالغرق كقوله: ﴿وَأَتْرَكَ الْأَبْحَرُ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ۝٢٤﴾ [الدخان] وقوله تعالى: ﴿فَأَلْبَسْنَاهُمْ فِرْعَوْنَ بِحُجُوبِهِ فَنَبَّاهُمْ مِنَ الْآيَمِ مَا فَشَاهُم ۝٢٨﴾ [طه]، وقوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَاْمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاْمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] إلى غير ذلك من الآيات.

ومعلوم أن الآيات كثيرة في بيان ما أهلكت به هذه الأمم السبع المذكورة، وقد

ذكرنا قليلاً منها كالمثال لغيره، وكل ذلك يوضح معنى قوله تعالى بعد أن ذكر تكذيب الأمم السبع لأنبيائهم ﴿فَأَمَلْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ﴾ [الرعد: ٣٢] أي بالعذاب، وهو ما ذكرنا بعض الآيات الدالة على تفاصيله.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ النكير: اسم مصدر بمعنى الإنكار أي كيف كان إنكارهم عليهم منكرهم، الذي هو كفرهم بي، وتكذيبهم رسلي، وهو ذلك العذاب المستأصل الذي بينا وبعده عذاب الآخرة الذي لا ينقطع نرجو الله لنا ولإخواننا المسلمين العافية من كل ما يسخط خالقنا، ويستوجب عقوبته. والجواب إنكارك عليهم بذلك العذاب واقع موقعه على أكمل وجه؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فجزاء العمل البالغ غاية القبح بالنكال العظيم جزاء وفاق واقع موقعه، فسبحان الحكيم الخبير الذي لا يضع الأمر إلا في موضعه ولا يوقعه إلا في موقعه، وقرأ هذا الحرف ورش وحده عن نافع: (فكيف كان نكير) بياء المتكلم بعد الراء وصلأ فقط وقرأ الباقون بحذفها اكتفاء بالكسرة عن الياء.

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَثْرِئُ مُعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أهلك كثيراً من القرى في حال كونها ظالمة؛ أي بسبب ذلك الظلم، وهو الكفر بالله وتكذيب رسله، فصارت بسبب الإهلاك والتدمير ديارها متهدمة وآبارها معطلة، لا يسقى منها شيء لإهلاك أهلها الذين كانوا يستقون منها. وهذا المعنى الذي ذكره تعالى في هذه الآية: جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَكُنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَنُصِبْنَا فِيهَا صُورًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَا عَذَابًا لُكْرًا﴾ [٨ - ١٠] وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَةَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَةَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ العروش السقوف والخواوية الساقطة ومنه قول الخنساء:

كان أبو حسان عرشاً خوى مما بناه الدهر دان ظليل

والمعنى أن السقوف سقطت ثم سقطت عليها حيطانها على أظهر التفسيرات، والقصر المشيد المطلي بالشيد بكسر الشين، وهو الجص، وقيل المشيد الرفيع الحصين، كقوله تعالى: ﴿أَيَنَّا تَكُونُوا يَذْرِكُمْ أَلَمُوتٌ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] أي حصون رفيعة منيعة. والظاهر أن قوله ﴿وَيَثْرِئُ مُعْطَلَةٍ﴾ معطوف على قرية: أي

وكأين من قرية أهلكناها، وكم من بئر عطلناها بإهلاك أهلها، وكم من قصر مشيد أخليناه من ساكنيه، وأهلكناهم لما كفروا وكذبوا الرسل. وفي هذه الآية وأمثالها: تهديد لكفار قريش الذين كذبوه ﷺ، وتحذير لهم من أن ينزل بهم ما نزل بتلك القرى من العذاب لما كذبت رسلها.

تنبيه: يظهر لطالب العلم في هذه الآية سؤال وهو أن قوله: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ يدل على تهدم أبنية أهلها، وسقوطها وقوله: ﴿وَقَصِرَ مَشِيدٌ﴾ يدل على بقاء أبنيتها قائمة مشيدة.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: الظاهر لي في جواب هذا السؤال أن قصور القرى التي أهلكها الله، وقت نزول هذه الآية، منها ما هو متهدم كما دل عليه قوله: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾، ومنها ما هو قائم باق على بنائه، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَقَصِرَ مَشِيدٌ﴾ وإنما استظهرنا هذا الجمع؛ لأن القرآن دل عليه، وخير ما يفسر به القرآن القرآن، وذلك في قوله - جل وعلا - في سورة هود: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْاَلْقُرْاَنِ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود] فصرح في هذه الآية بأن منها قائماً، ومنها حصيداً. وأظهر الأقوال وأجراها على ظاهر القرآن أن القائم هو الذي لم يتهدم. والحصيد هو الذي تهدم وتفرقت أنقاضه، ونظيره من كلام العرب قوله:

والناس في قسم المنية بينهم كالزراع منه قائم وحصيد

وفي معنى القائم والحصيد، أقوال آخر غير ما ذكرنا، ولكن ما ذكرنا هو أظهرها. وذكر الزمخشري ما يفهم منه وجه آخر للجمع، وهو أن معنى قوله: خاوية: خالية من أهلها من قوله: خوى المكان إذ خلا من أهله، وأن معنى: على عروشها أن الأبنية باقية أي هي خالية من أهلها مع بقاء عروشها قائمة على حيطانها. وما ذكرناه أولاً هو الصواب - إن شاء الله تعالى -.

وقد دلت هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن أن لفظ القرية يطلق تارة على نفس الأبنية، وتارة على أهلها الساكنين بها، فالإهلاك في قوله: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾، والظلم في قوله: ﴿وَهِيَ ظَلُمَةٌ﴾: يراد به أهلها الساكنون بها وقوله: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ يراد به الأبنية كما قال في آية: ﴿وَسَكَلِ الْاَلْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢] وقال في أخرى: ﴿حَتَّى إِذَا آتَى اَهْلَ قَرْيَةٍ اَسْتَطَعَمَا اَهْلُهَا﴾ [الكهف: ٧٧]. وقد بينا في رسالتنا المسماة منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز أن ما يسميه البلاغيون مجاز النقص، ومجاز الزيادة، ليس بمجاز حتى عند جمهور القائلين بالمجاز من الأصوليين، وأقمنا الدليل على ذلك.

وقرأ هذا الحرف ابن كثير: وكائن بألف بعد الكاف، وبعد الألف همزة مكسورة، فنون ساكنة وقرأه الباقون: وكأين بهمزة مفتوحة بعد الكاف بعدها ياء مكسورة مشددة

فنون ساكنة، ومعنى القراءتين واحد، فهما لغتان فصيحتان، وقراءتان سبعيتان صحيحتان. وأبو عمرو يقف على الياء، والباقون يقفون على النون، وقرأ أبو عمرو: أهلكتها بتاء المتكلم المضمومة بعد الكاف من غير ألف، والباقون بنون مفتوحة بعد الكاف، وبعد النون ألف، والمراد بصيغة الجمع، على قراءة الجمهور التعظيم، كما هو واضح، وقرأ ورش والسوسي ويبر بإبدال الهمزة ياء والباقون بالهمزة الساكنة، وهناك مسألة تتعلق بالآية يرجع من أحب الوقوف عليها في الأصل.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾.

بين الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن كفار مكة الذين كذبوا نبينا صلوات الله وسلامه عليه، ينبغي لهم أن يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها؛ لأنهم إذا سافروا مروا بأماكن قوم صالح، وأماكن قوم لوط، وأماكن قوم هود، فوجدوا بلادهم خالية وآثارهم منظمسة لم يبق منهم داع ولا مجيب، لتكذيبهم رسلهم، وكفرهم بربهم، فيدركون بعقولهم: أن تكذيبهم نبيهم لا يؤمن أن يسبب لهم من سخط الله مثل ما حل بأولئك الذين مروا بمساكنهم خالية، قد عم أهلها الهلاك، وتكون لهم آذان يسمعون بها ما قص الله في كتابه على نبيه من أخبار تلك الأمم، وما أصابها من الإهلاك المستأصل والتدمير، فيحذروا أن يحل بهم مثل ما حل بأولئك.

والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [محمد: ١٠] ثم بين تهديده لكفار مكة بما فعل بالأمم الماضية في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَّا﴾ [محمد: ١٠] وكقوله في قوم لوط: ﴿وَلَا تَكْفُرْ لَهُمْ عَلَيْهِمْ مَصِيبٌ مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الصافات] وكقوله فيهم: ﴿وَأَنَّهُمْ لَسَبِيلٌ مُقِيمٌ﴾ [الحجر: ٧٦] وكقوله في قوم لوط وقوم شعيب: ﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ [الحجر: ٧٨]، ﴿وَأَنَّهُمَا لِيَآمَارٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٩]؛ لأن معنى الآيتين: أن ديارهم على ظهر الطريق الذي يمرّون فيه المعبر عنه بالسبيل والإمام، والآيات بمثل هذا كثيرة، وقد قدمنا منها جملاً كافية في سورة المائدة وغيرها.

والآية تدل على أن محل العقل: في القلب، ومحل السمع: في الأذن، فما يزعمه الفلاسفة من أن محل العقل الدماغ باطل، كما أوضحناه في غير هذا الموضع، وكذلك قول من زعم أن العقل لا مركز له أصلاً في الإنسان؛ لأنه زمني فقط لا مكاني فهو في غاية السقوط والبطلان كما ترى.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة لمعنى هذه الآية في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ [الإسراء: ٧٢]. مع بعض الشواهد العربية، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار يطلبون من النبي ﷺ، تعجيل العذاب الذي يعدهم به طغياناً وعناداً. والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَانًا قَلِيلَ يَوْمٍ الْحِسَابِ﴾ [ص] وقوله: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت] وقوله: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا المعنى في مواضع متعددة، من هذا الكتاب المبارك في سورة الأنعام في الكلام على قوله: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]؛ وفي يونس في الكلام على قوله: ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ [يونس: ٥١] إلى غير ذلك من المواضع.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ الظاهر أن المراد بالوعد هنا هو ما أوعدهم به من العذاب الذي يستعجلون نزوله.

والمعنى هو منجز ما وعدهم به من العذاب، إذا جاء الوقت المحدد لذلك كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [هود: ٨]، وقوله تعالى ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَأَلْتُمْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: ٥١]. وبه تعلم أن الوعد يطلق في القرآن على الوعد بالشر.

ومن الآيات الموضحة لذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَُمُ النَّارِ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ فإنه قال في هذه الآية في النار: وعدها الله بصيغة الثلاثي الذي مصدره الوعد، ولم يقل أوعدها وما ذكر في هذه الآية، من أن ما وعد به الكفار من العذاب واقع لا محالة، وأنه لا يخلف وعده بذلك، جاء مبيناً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة ق: ﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ﴾ [١٨] مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ [ق: ٢٨، ٢٩]. والصحيح أن المراد بقوله: ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ أن ما أوعد الكفار به من العذاب، لا يبدل لديه، بل هو واقع لا محالة، وقوله تعالى ﴿كُلُّ كَذِبٍ أُرْسِلَ حَقٌّ وَبَعِيدٌ﴾ [ق: ١٤] أي وجب وثبت فلا يمكن عدم وقوعه بحال. وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلِ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص]، كما أوضحناه في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب، عن آيات الكتاب) في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. وأوضحنا أنما أوعد به الكفار لا يخلف بحال، كما دلت عليه الآيات المذكورة. أما ما أوعد به عصاة المسلمين، فهو الذي يجوز ألا ينفذه وأن يعفو كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وبالتحقيق الذي ذكرنا: تعلم أن الوعد يطلق في الخير والشر كما بينا، وإنما شاع

على ألسنة كثير من أهل التفسير، من أن الوعد لا يستعمل إلا في الوعد بخير وأنه هو الذي لا يخلفه الله، وأما إن كان المتوعد به شراً، فإنه وعيد وإيعاد. قالوا: إن العرب تعد الرجوع عن الوعد لؤماً، وعن الإيعاد كرمًا، وذكروا عن الأصمعي أنه قال: كنت عند أبي عمرو بن العلاء، فجاء عمرو بن عبيد فقال: يا أبا عمرو، هل يخلف الله الميعاد؟ فقال: لا، فذكر آية وعيد، فقال له: أمن العجم أنت؟ إن العرب تعد الرجوع عن الوعد لؤماً وعن الإيعاد كرمًا، أما سمعت قول الشاعر:

ولا يرهب ابن العم والجار سطوتي ولا أنثني عن سطوة المتهدد
فإنني وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدتي

فيه نظر من وجهين:

الأول: هو ما بيناه آنفاً من إطلاق الوعد في القرآن على التوعد بالنار، والعذاب كقوله تعالى: ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَسَتَجْلِبُونَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يَخْلَفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾؛ لأن ظاهر الآية الذي لا يجوز العدول عنه، ولن يخلف الله وعده في حلول العذاب الذي يستعجلونك به بهم؛ لأنه مقترن بقوله: ﴿وَسَتَجْلِبُونَ بِالْعَذَابِ﴾ فتعلقه به هو الظاهر.

الثاني: هو ما بينا أن ما أوعد الله به الكفار لا يصح أن يخلفه بحال؛ لأن ادعاء جواز إخلافه؛ لأنه إيعاد وأن العرب تعد الرجوع عن الإيعاد كرمًا يبطله أمران:

الأول: أنه يلزمه جواز ألا يدخل النار كافر أصلاً؛ لأن إيعادهم بإدخالهم النار مما زعموا أن الرجوع عنه كرم، وهذا لا شك في بطلانه.

الثاني: ما ذكرنا من الآيات الدالة على أن الله لا يخلف ما أوعد به الكفار من العذاب كقوله: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ ﴿ق: ٢٨﴾، وقوله تعالى فيهم: ﴿حَقُّ وَعِيدٍ﴾ ﴿ق: ١٤﴾ وقوله فيهم: ﴿حَقُّ عِقَابٍ﴾ [ص: ١٤] ومعنى حق: وجب وثبت، فلا وجه لانتفائه بحال، كما أوضحناه هنا وفي غير هذا الموضع.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾، بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن اليوم عنده - جل وعلا - كألف سنة مما يعده خلقه، وما ذكره هنا من كون اليوم عنده كألف سنة، أشار إليه في سورة السجدة بقوله: ﴿يَذِكرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة]. وذكر في سورة المعارج أن مقدار اليوم خمسون ألف سنة وذلك في قوله ﴿تَرْجِعُ الْمَلَكُكُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج]، فأية الحج، وآية السجدة متوافقتان تصدق كل واحدة منهما الأخرى، وتماثلها في المعنى، وآية المعارج تخالف ظاهرهما لزيادتها عليهما بخمسين ضعفاً. وقد ذكرنا وجه الجمع بين هذه الآيات في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) وسنذكره - إن شاء الله - هنا ملخصاً مختصراً، ونزيد عليه بعض ما تدعو الحاجة إليه.

فقد ذكرنا ما ملخصه أن أبا عبيدة روى عن إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة أنه حضر كلاً من ابن عباس، وسعيد بن المسيب، سئل عن هذه الآيات فلم يدر ما يقوله فيها، ويقول: لا أدري، ثم ذكرنا أن للجمع بينهما وجهين:

الأول: هو ما أخرجه ابن أبي خاتم من طريق سماك، عن عكرمة عن ابن عباس من أن يوم الألف في سورة الحج: هو أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض ويوم الألف في سورة السجدة، هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه تعالى ويوم الخمسين ألفاً، هو يوم القيامة.

الوجه الثاني: أن المراد بجميعها يوم القيامة، وأن اختلاف زمن اليوم إنما هو باعتبار حال المؤمن، وحال الكافر؛ لأن يوم القيامة أخف على المؤمن منه على الكافر كما قال تعالى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٦١﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿٦٢﴾﴾ [المدثر]، اهـ. ذكر هذين الوجهين صاحب الإتيان.

وذكرنا أيضاً في كتابنا: (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان] ما ملخصه أن آية الفرقان هذه تدل على انقضاء الحساب في نصف نهار؛ لأن المقيّل القيلولة أو مكانها وهي الاستراحة نصف النهار في الحر، وممن قال بانقضاء الحساب في نصف نهار: ابن عباس، وابن مسعود، وعكرمة، وابن جبير لدلالة هذه الآية، على ذلك، كما نقله عنهم ابن كثير وغيره.

وفي تفسير الجلالين ما نصه: وأخذ من ذلك انقضاء الحساب في نصف نهار، كما ورد في حديث انتهى منه، مع أنه تعالى ذكر أن مقدار يوم القيامة خمسون ألف سنة في قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] وهو يوم القيامة بلا خلاف في ذلك. والظاهر في الجواب أن يوم القيامة يطول على الكفار ويقصر على المؤمنين، ويشير لهذا قوله تعالى بعد هذا بقليل: ﴿الَّذِينَ يَوْمِئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان] فتخصيصه عسر ذلك اليوم بالكافرين: يدل على أن المؤمنين ليسوا كذلك وقوله تعالى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٦١﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿٦٢﴾﴾ [المدثر] يدل بمفهوم مخالفته على أنه يسير على المؤمنين غير عسير كما دل عليه قوله تعالى: ﴿مُطَهَّعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر].

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، أنبأنا عمرو بن الحارث: أن سعيد الصواف حدثه أنه بلغه أن يوم القيامة يقصر على المؤمنين، حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس، وأنهم يتقلبون في رياض الجنة، حتى يفرغ من الناس وذلك قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان] ونقله عنه ابن كثير في تفسيره، وأما على قول من فسر المقيّل في الآية بأنه المأوى والمنزل كقتادة رحمه الله،

فلا دلالة في الآية لشيء مما ذكرنا. ومعلوم أن من كان في سرور ونعمة، أنه يقصر عليه الزمن الطويل قصراً شديداً، بخلاف من كان في العذاب المهين والبلايا والكروب، فإن الزمن القصير يطول عليه جداً، وهذا أمر معروف، وهو كثير في كلام العرب. وقد ذكرنا في كتابنا المذكور بعض الشواهد الدالة عليه، كقول أبي سفيان بن الحارث رضي الله عنه يرثي رسول الله ﷺ:

أرقت فبات ليلي لا يزول وليل أخي المصيبة فيه طول
وقول الآخر:

فقصارهن مع الهموم طويلة وطوالهن مع السرور قصار
وقول الآخر:

ليلي وليلي نفى نومي اختلافهما في الطول والطول طوبى لي لو اعتدلا
يجود بالطول ليلي كلما بخلت بالطول ليلي وإن جادت به بخلا

ونحو هذا كثير جداً في كلام العرب، ومن أظرف ما قيل فيه ما روي عن يزيد بن معاوية أنه قال:

لا أسأل الله تغييراً لما فعلت نامت وقد أسهرت عيني عيناها
فالليل أطول شيء حين أفقدها والليل أقصر شيء حين ألقاها

وقد ورد بعض الأحاديث بما يدل على ظاهر آية الحج، وآية السجدة.

وسنذكر هنا طرفاً منه بواسطة نقل ابن كثير في تفسير هذه الآية من سورة الحج. قال ابن كثير: قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثني عبدة بن سليمان، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، خمسمائة عام» ورواه الترمذي والنسائي من حديث الثوري عن محمد بن عمرو به، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقد رواه ابن جرير عن أبي هريرة موقوفاً فقال: حدثني يعقوب، ثنا ابن عليه، ثنا سعيد الجريري عن أبي نضرة، عن سمير بن نهار قال: قال أبو هريرة: يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء، بمقدار نصف يوم، قلت: وما مقدار نصف يوم؟ قال: «أوما تقرأ القرآن؟» قلت: بلى قال: «وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ». وقال أبو داود في آخر كتاب الملاحم من سننه: حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا أبو المغيرة، حدثني صفوان عن شريح بن عبيد، عن سعيد بن أبي وقاص، عن النبي ﷺ أنه قال: «إني لأرجو ألا تعجز أمتي عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم» قيل لسعد: وكم نصف يوم؟ قال: خمسمائة سنة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن إسرائيل، عن سماك عن عكرمة، عن ابن عباس «وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا

تَعْدُونَ ﴿٤٨﴾ قال: من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض. ورواه ابن جرير عن ابن بشار، عن ابن المهدي وبه قال مجاهد، وعكرمة، ونص عليه أحمد بن حنبل في كتاب الرد على الجهمية. وقال مجاهد: هذه الآية كقوله: ﴿يَذِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَنْعِجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعْدُونَ﴾ [السجدة]، اهـ محل الغرض من ابن كثير، وظواهر الأحاديث التي ساق يمكن الجمع بينها وبين ما ذكرنا من أن أصل اليوم كآلف سنة، ولكنه بالنسبة إلى المؤمنين يقصر ويخف، حتى يكون كنصف نهار، والله تعالى أعلم، وقرأ هذا الحرف ابن كثير، وحزمة، والكسائي: ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا يَعْدُونَ﴾ بياء الغيبة، وقرأه الباقر ﴿تَعْدُونَ﴾ بقاء الخطاب ومعنى القراءتين واضح، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْبَةٍ أَتَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [٤٨]. تقدمت قريباً الآيات الموضحة لمعنى هذه الآية في الكلام على قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَصِرَ مَشِيدٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَتَايَأُ النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. أمر الله - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية أن يقول للناس ﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي إني لست بربكم، ولا بيدي هدايتكم ولا على عقابكم يوم القيامة، ولكني مخوف لكم من عذاب الله وسخطه.

والآيات بهذا المعنى كثيرة جداً كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ [الرعد: ٧] وقوله: ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء] وقوله: ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِلَّا أَلْبَلَعُكَ﴾ [الشورى: ٤٨] وقوله: ﴿إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبا: ٤٦] وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان] والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً، وقوله في هذه الآية الكريمة مبين الظاهر أنه الوصف من أبان الرباعية اللازمة التي بمعنى بان، والعرب تقول: أبان فهو بين بمعنى بان، فهو بين من اللازم الذي ليس بمتعد إلى المفعول، ومنه قول كعب بن زهير:

قنواء في حرتيها للبصير بها عتق مبين وفي الخدين تسهيل

فقوله عتق مبين؛ أي كرم ظاهر ومن أبان اللازمة قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

لو دب ذر فوق ضاحي جلدها لأبان من آثارهن حدور

يعني لظهر وبان من آثارهن ورم ومنه قول جرير:

إذا أبأؤنا وأبوك عبدوا أبان المقرفات من العراب

أي ظهر وبان المقرفات من العراب، ويحتمل أن يكون قوله في هذه الآية: مبين: اسم فاعل أبان المتعدية، والمفعول محذوف للتعميم؛ أي مبين لكم في إنذار كل ما ينفعكم، وما يضركم لتجتلبوا النفع، وتجتنبوا الضر، والأول أظهر، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾.

بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الذين آمنوا به وبرسله، وكل ما يجب الإيمان به، وعملوا الفعلات الصالحات من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي لهم من الله مغفرة لذنوبهم، ورزق كريم؛ أي حسن، وهو ما يرزقهم من أنواع النعيم في جناته، وأن الذين عملوا بخلاف ذلك فهم أصحاب الجحيم: أي النار الشديد حرها، وفي هذه الآية وعد لمن أطاعه ووعيد لمن عصاه. والآيات بمثل ذلك في القرآن كثيرة كقوله تعالى: ﴿تَوَيْتُ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٨﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥١﴾﴾ [الحجر] وقوله ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾... الآية [غافر: ٣] إلى غير ذلك من الآيات، وقد أوضحناها في غير هذا الموضع.

وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ قال مجاهد: معاجزين يشيطون الناس عن متابعة النبي ﷺ وكذا قال عبد الله بن الزبير: مشبطين. وقال ابن عباس: معاجزين أي مغالبيين ومشاقين، وعن الفراء معاجزين: معاندين. وعن الأخفش معاجزين: معاندين مسابقين، وعن الزجاج معاجزين: أي ظانين أنهم يعجزوننا؛ لأنهم ظنوا ألا بعث، وأن الله لا يقدر عليهم.

واعلم أن في هذا الحرف قراءتين سبعيتين قرأه الجمهور معاجزين بألف بين العين والجيم بصيغة المفاعلة اسم فاعل عاجزه، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو معجزين بلا ألف مع تشديد الجيم المكسورة على صيغة اسم الفاعل من عاجزه. قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: الظاهر بحسب الوضع العربي في قراءة الجمهور معاجزين: هو اقتضاء طرفين؛ لأن الظاهر لا يعدل عنه إلا لدليل يجب الرجوع إليه، والمفاعلة تقتضي الطرفين إلا لدليل يصرف عن ذلك، واقتضاء المفاعلة الطرفين في الآية من طريقين:

الأولى: هي ما قاله ابن عرفة من أن معنى معاجزين في الآية أنهم يعاجزون الأنبياء وأتباعهم، فيحاول كل واحد منهما إعجاز الآخر، فالأنبياء وأتباعهم يحاولون إعجاز الكفار وإخضاعهم لقبول ما جاء عن الله تعالى، والكفار يقاتلون الأنبياء وأتباعهم، ويمنعونهم ليصيروهم إلى العجز عن أمر الله، وهذا الوجه ظاهر كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧] وعليه فمفعول معاجزين محذوف؛ أي معاجزين الأنبياء وأتباعهم، أي مغالبين لهم، ليعجزوهم عن إقامة الحق.

الطريقة الثانية: هي التي ذكرناها آنفاً عن الزجاج أن معنى معاجزين ظانين أنهم يعجزون ربهم، فلا يقدر عليهم لزعمهم أنه لا يقدر على بعثهم بعد الموت كما قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْمَرُوا﴾ [التغابن: ٧] وكما قال تعالى ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسَى

خَلَقَهُ قَالَ مَنْ يُعِى الْعَظَمَ وَهَى رَمِيْدٌ ﴿٧٨﴾ [يس] وقال تعالى عنهم إنهم قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوْثِيْنَ﴾ [الأنعام: ٢٩]، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِيْنَ﴾ [الدخان: ٣٥] وعلى هذا القول فالكفار معجزين الله في زعمهم الباطل وقد بين تعالى في آيات كثيرة أن زعمهم هذا كاذب، وأنهم لا يعجزون ربهم بحال كقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِيْنَ﴾ [التوبة: ٢] وقوله ﴿فَأَعْلَمُوا أَنَّهُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَشَرَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ الْبَلَاءِ﴾ [التوبة: ٣] وقوله: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِيْنَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ... الآية [العنكبوت: ٢٢] وقوله تعالى في الجن: ﴿وَأَنَّا طَنَّا أَنَّ لَن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ [الجن: ٢٢] إلى غير ذلك من الآيات. وقد قدمنا أن مما يوضح هذا الوجه الأخير قول كعب بن مالك رضي الله عنه:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها وليغلبن مغالب الغلاب

ومراده بسخينة قريش: يعني أنهم يحاولون غلبة ربهم، والله غالبهم بلا شك والوجه الأول أظهر. وأما على قراءة ابن كثير، وأبي عمرو: معجزين بكسر الجيم المشددة، بلا ألف، فالأظهر أن المعنى معجزين؛ أي مثبطين من أراد الدخول في الإيمان عن الدخول فيه، وقيل معجزين من اتبع النبي ﷺ، ومعنى ذلك أنهم ينسبونهم إلى العجز من قولهم: عجزه بالتضعيف إذا نسبته إلى العجز الذي هو ضد الحزم، يعنون أنهم يحسبون المسلمين سفهاء لا عقول لهم، حيث ارتكبوا أمراً غير الحزم والصواب، وهو اتباع دين الإسلام في زعمهم كما قال تعالى عن إخوانهم المنافقين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ ... الآية [البقرة: ١٣].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِيْنَ سَعَوْا فِيْ ءَايَاتِنَا﴾. اعلم أولاً أن السعي يطلق على العمل في الأمر لإفساده وإصلاحه، ومن استعماله في الإفساد قوله تعالى هنا ﴿سَعَوْا فِيْ ءَايَاتِنَا﴾ أي سعوا في إبطالها وتكذيبها بقولهم: إنها سحر وشعر وكهانة وأساطير الأولين، ونحو ذلك. ومن إطلاق السعي في الفساد أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ ... الآية [البقرة: ٢٠٥] ومن إطلاق السعي في العمل للإصلاح قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢] وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعًا﴾ [٨] وَهُوَ يَخْشَى [٩] ... الآية [عبس] إلى غير ذلك من الآيات. ومن إطلاق السعي على الخير والشر معاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [١] إلى قوله: ﴿وَمَا يُعِى عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [١١] [الليل].

وهذه الآية التي ذكرها هنا في سورة الحج التي هي قوله تعالى: ﴿فَالَّذِيْنَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [٥٠] وَالَّذِيْنَ سَعَوْا فِيْ ءَايَاتِنَا مُعْجِزِيْنَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيْمِ [٥١] جاء معناها واضحاً في سورة سبأ في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَكَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [١] وَالَّذِيْنَ سَعَوْا فِيْ ءَايَاتِنَا مُعْجِزِيْنَ أُولَٰئِكَ

لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ ﴿٥٢﴾ [سبأ] فـالعذاب من الرجز الأليم المذكور في سبأ هو عذاب الجحيم المذكور في الحج.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾.

معنى قوله تمنى في هذه الآية الكريمة فيه للعلماء وجهان من التفسير معروفان:

الأول: أن تمنى بمعنى قرأ وتلا ومنه قول حسان في عثمان بن عفان رضي الله عنه:

تمنى كتاب الله أول ليلة وأخرها لاقى حمام المقادر
وقول الآخر:

تمنى كتاب الله آخر ليلة تمنى داود الزبور على رسل
فمعنى تمنى في البيتين قرأ وتلا.

وفي صحيح البخاري، عن ابن عباس أنه قال: إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته: إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه، وكون تمنى بمعنى: قرأ وتلا. هو قول أكثر المفسرين.

القول الثاني: أن تمنى في الآية من التمني المعروف وهو تمنيه إسلام أمته وطاعتهم لله ولرسله، ومفعول ألقى محذوف فعلى أن تمنى بمعنى: أحب إيمان أمته، وعلق أمله بذلك، فمفعول ألقى يظهر أنه من جنس الوسواس، والصد عن دين الله حتى لا يتم للنبي أو الرسول ما تمنى. ومعنى كون الإلقاء في أمنيته على هذا الوجه: أن الشيطان يلقي وسواسه وشبهه ليصد بها عما تمناه الرسول أو النبي، فصار الإلقاء كأنه واقع فيها بالصد عن تمامها والحيلولة دون ذلك. وعلى أن تمنى بمعنى: قرأ. ففي مفعول ألقى تقديران:

أحدهما: من جنس الأول: أي ألقى الشيطان في قراءة الرسول ﷺ أو النبي الشبه والوسواس ليصد الناس عن اتباع ما يقرؤه، ويتلوه الرسول أو النبي، وعلى هذا التقدير فلا إشكال.

وأما التقدير الثاني: فهو ألقى الشيطان في أمنيته أي قراءته ما ليس منها ليظن الكفار أنه منها. وقوله ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ يستأنس به لهذا التقدير.

وقد ذكر كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية قصة الغرائق قالوا: سبب نزول هذه الآية الكريمة أن النبي ﷺ قرأ سورة النجم بمكة، فلما بلغ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْكُتُبَ وَالْعِزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الثَّلَاثَةِ الْآخِرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم] ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى، فلما بلغ آخر السورة سجد وسجد معه المشركون والمسلمون. وقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم، وشاع في الناس أن أهل مكة أسلموا بسبب سجودهم مع النبي ﷺ، حتى رجع المهاجرون من الحبشة ظناً منهم أن قومهم أسلموا، فوجدوهم على كفرهم.

فقد أخرج البزار وابن مردويه من طريق أمية بن خالد عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فيما أحسب، ثم ساق حديث القصة المذكورة، وقال البزار: لا يرى متصلاً إلا بهذا الإسناد، تفرد بوصله أمية بن خالد، وهو ثقة مشهور، وقال البزار: وإنما يروى من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس. والكلبي متروك.

فتحصل أن قصة الغرانيق، لم ترد متصلة إلا من هذا الوجه الذي شك راويه في الوصل، ومعلوم أن ما كان كذلك لا يحتج به لظهور ضعفه، ولذا قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: إن لم يرها مسندة من وجه صحيح.

وقال الشوكاني في هذه القصة: ولم يصح شيء من هذا، ولا يثبت بوجه من الوجوه، ومع عدم صحته، بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله كقوله: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِلِ﴾ ... الآية [الحاقة] وقوله: ﴿وَمَا يَطُّقُ عَنِ الْمَوْتِ﴾ ... الآية [النجم]. وقوله ﴿وَلَوْلَا أَنْ نُبْنِئَكَ لَقَدْ كُنْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ [الإسراء] فنفي المقاربة للركون فضلاً عن الركون، ثم ذكر الشوكاني عن البزار أنها لا تروى بإسناد متصل، وعن البيهقي أنه قال: هي غير ثابتة من جهة النقل، وذكر عن إمام الأئمة ابن خزيمة أن هذه القصة من وضع الزنادقة وأبطلها ابن العربي المالكي، والفخر الرازي وجماعات كثيرة، وقراءته ﷺ سورة النجم وسجود المشركين ثابت في الصحيح، ولم يذكر فيه شيء من قصة الغرانيق. وعلى هذا القول الصحيح وهو أنها باطلة فلا إشكال.

وأما على ثبوت القصة كما هو رأي الحافظ ابن حجر فإنه قال في فتح الباري: إن هذه القصة ثابتة بثلاثة أسانيد كلها على شرط الصحيح، وهي مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل، وكذلك من لا يحتج به لاعتضاد بعضها ببعض؛ لأن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها، دل ذلك على أن لها أصلاً، فللعلماء عن ذلك أجوبة كثيرة أحسنها، وأقربها أن النبي ﷺ كان يرتل السورة ترتيباً تتخلله سككات، فلما قرأ ﴿وَمَنْزُةَ الْثَالِثَةِ الْآخِرَةِ﴾ [النجم] قال الشيطان لعنه الله محاكياً لصوته: تلك الغرانيق العلى ... إلخ، فظن المشركون أن الصوت صوته ﷺ، وهو بريء من ذلك براءة الشمس من اللمس، وقد أوضحنا هذه المسألة في رحلتنا إيضاحاً وافياً، واختصرناها هنا، وفي كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب).

والحاصل أن القرآن دل على بطلانها، ولم تثبت من جهة النقل، مع استحالة الإلقاء على لسانه ﷺ لما ذكر شرعاً، ومن أثبتها نسب التلفظ بذلك الكفر للشيطان. فتبين أن نطق النبي ﷺ بذلك الكفر، ولو سهواً مستحيل شرعاً، وقد دل القرآن على بطلانها، وهو باطل قطعاً على كل حال، والغرانيق: الطير البيض المعروفة واحدها: غرنوق كزنبور وفردوس، وفيه لغات غير ذلك، يزعمون أن الأصنام ترتفع إلى الله كالطير البيض، فتشفع عنده لعابديها قبحهم الله ما أكفرهم، ونحن وإن ذكرنا أن قوله:

﴿فَيَنْسُخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ يستأنس به لقول من قال: إن مفعول الإلقاء المحذوف تقديره: ألقى الشيطان في قراءته ما ليس منها؛ لأن النسخ هنا هو النسخ اللغوي، ومعناه الإبطال والإزالة من قولهم: نسخت الشمس الظل، ونسخت الريح الأثر، وهذا كأنه يدل على أن الله ينسخ شيئاً ألقاه الشيطان، ليس مما يقرؤه الرسول أو النبي، فالذي يظهر لنا أنه الصواب، وأن القرآن يدل عليه دلالة واضحة، وإن لم ينتبه له من تكلم على الآية من المفسرين: هو أن ما يلقيه الشيطان في قراءة النبي: الشكوك والوساوس المانعة من تصديقها وقبولها، كإلقائه عليهم أنها سحر أو شعر، أو أساطير الأولين، وأنها مفتراة على الله ليست منزلة من عنده.

والدليل على هذا المعنى أن الله بين أن الحكمة في الإلقاء المذكور امتحان الخلق؛ لأنه قال: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ ثم قال ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ فقلوه: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾... الآية، يدل على أن الشيطان يلقي عليهم أن الذي يقرأه النبي ليس بحق فيصدقه الأشقياء، ويكون ذلك فتنة لهم، ويكذبه المؤمنون الذين أوتوا العلم، ويعلمون أنه الحق لا الكذب كما يزعم لهم الشيطان في إلقائه، فهذا الامتحان لا يناسب شيئاً زاده الشيطان من نفسه في القراءة، والعلم عند الله تعالى. وعلى هذا القول، فمعنى نسخ ما يلقي الشيطان: إزالته وإبطاله، وعدم تأثيره في المؤمنين الذين أوتوا العلم.

ومعنى يحكم آيته يتقنها بالإحكام، فيظهر أنها وحي منزل منه بحق، ولا يؤثر في ذلك محاولة الشيطان صد الناس عنها بإلقائه المذكور، وما ذكره هنا من أنه يسلط الشيطان فيلقي في قراءة الرسول والنبي، فتنة للناس ليظهر مؤمنهم من كافرهم.

بذلك الامتحان، جاء موضحاً في آيات كثيرة قدمناها مراراً كقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفْتِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْثِيَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِقَوْلِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنِ يَشَاءُ﴾ [المدر: ٣١] وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقِيبًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الزُّبْيَا الَّتِي أَرْتِكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْفُرْقَانِ﴾ [الإسراء: ٦٠]؛ أي لأنها فتنة، كما قال: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ [٦٦] إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ [الصافات]؛ لأنه لما نزلت هذه الآية قالوا: ظهر كذب محمد ﷺ؛ لأن الشجر لا ينبت في الموضع اليابس، فكيف تنبت شجرة في أصل الجحيم إلى غير ذلك من الآيات، كما تقدم إيضاحه مراراً، والعلم عند الله تعالى.

واللام في قوله: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾... الآية الأظهر أنها متعلقة بألقى؛

أي ألقى الشيطان في أمنية الرسل والأنبياء، ليجعل الله ذلك الإلقاء فتنة للذين في قلوبهم مرض، خلافاً للحوافي القائل: إنها متعلقة بيحكم، وابن عطية القائل: إنها متعلقة بينسخ. ومعنى كونه: فتنة لهم أنه سبب لتماديهم في الضلال والكفر، وقد أوضحنا معاني الفتنة في القرآن سابقاً، وبيننا أن أصل الفتنة في اللغة وضع الذهب في النار، ليظهر بسبكه فيها أخالص هو أم زائف، وأنها في القرآن تطلق على معان متعددة منها: الوضع في النار، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات] أي يحرقون بها، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنُّوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...﴾ الآية [البروج: ١٠] أي أحرقوهم بنار الأخدود على أظهر التفسيرين، ومنها: الاختبار وهو أكثر استعمالاتها في القرآن، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] وقوله تعالى: ﴿وَيَبْلُوكُمْ بِالنَّارِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقوله تعالى: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذْقًا﴾ [الجن: ١٦، ١٧] ومنها نتيجة الابتلاء إن كانت سيئة كالكفر والضلال كقوله: ﴿وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ [البقرة: ١٩٣] أي شرك بدليل قوله: ﴿وَيَكُونَ الَّذِينَ يَلِيهِ﴾ [البقرة: ١٩٣] وقوله في الأنفال: ﴿وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلَّمُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] ومما يوضح هذا المعنى قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله» الحديث، فالغاية في الحديث مبينة للغاية في الآية؛ لأن خير ما يفسر به القرآن بعد القرآن السنة، ومنه بهذا المعنى قوله هنا ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وقد جاءت الفتنة في موضع بمعنى الحجة، وهو قوله تعالى في الأنعام ﴿ثُمَّ لَوْ كُنَّا فِتْنَتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام] أي حجتهم كما هو الظاهر.

واعلم أن مرض القلب في القرآن يطلق على نوعين:

أحدهما: مرضه بالنفاق والشك والكفر، ومنه قوله تعالى في المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾... الآية [البقرة: ١٠] وقوله هنا: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي كفر وشك.

وثانيهما: إطلاق مرض القلب على ميله للفاحشة والزنى، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]؛ أي ميل إلى الزنى ونحوه، والعرب تسمي انطواء القلب على الأمور الخبيثة: مرضاً وذلك معروف في لغتهم ومنه قول الأعشى:

حافظ للفرج راض بالتقى
ليس ممن قلبه فيه مرض

وقوله هنا: ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ قد بينا في سورة البقرة الآيات القرآنية الدالة على سبب قسوة القلوب في الكلام على قوله ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] وآية الحج هذه تبين أن ما اشتهر على ألسنة أهل العلم، من أن النبي هو من أوحى إليه وحى، ولم يؤمر بتبليغه، وأن الرسول هو النبي الذي أوحى

إليه، وأمر بتبليغ ما أوحى إليه غير صحيح؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾... الآية. يدل على أن كلاً منهما مرسل، وأنهما مع ذلك بينهما تغاير، واستظهر بعضهم أن النبي الذي هو رسول أنزل إليه كتاب وشرع مستقل مع المعجزة التي ثبتت بها نبوته، وأن النبي المرسل الذي هو غير الرسول، هو من لم ينزل عليه كتاب وإنما أوحى إليه أن يدعو الناس إلى شريعة رسول قبله، كأنبيا بني إسرائيل الذين كانوا يرسلون ويؤمنون بالعمل بما في التوراة، كما بينه تعالى بقوله ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ الآية [المائدة: ٤٤] وقوله في هذه الآية: ﴿فَتَحَّتْ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أي تخشع وتخضع وتطمئن.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْةً أَوْ يُأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ (٥٥). ذكر الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار لا يزالون في مرية، أي شك وريب منه؛ أي من هذا القرآن العظيم كما هو الظاهر، واختاره ابن جرير وهو قول ابن جريج، كما نقله عنهم ابن كثير: وقال سعيد بن جبير، وابن زيد: في ﴿مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ أي في شك مما ألقى الشيطان، وذكر تعالى في هذه الآية: أنهم لا يزالون كذلك، حتى تأتيهم الساعة؛ أي القيامة بغة؛ أي فجأة ﴿أَوْ يُأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾، قد روى مجاهد عن أبي بن كعب أن اليوم العقيم المذكور يوم بدر، وكذا قال مجاهد وعكرمة، وسعد بن جبير وغير واحد: واختاره ابن جرير كما نقله عنهم ابن كثير في تفسيره ثم قال: وقال مجاهد وعكرمة في رواية عنهما: هو يوم القيامة لا ليل له، وكذا قال الضحاك والحسن البصري، ثم قال: وهذا القول هو الصحيح، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به اهـ. محل الغرض من ابن-كثير.

وقد ذكرنا مراراً أننا بينا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، ويكون في الآية قرينة تدل على عدم صحة ذلك القول. وذكرنا لذلك أمثلة كثيرة. وبه تعلم أن القرينة القرآنية هنا دلت على أن المراد باليوم العقيم: يوم القيامة، لا يوم بدر؛ وذلك أنه تعالى أتبع ذكر اليوم العقيم، بقوله ﴿الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾... الآية. وذلك يوم القيامة وقوله: يومئذ: أي يوم إذ تأتيهم الساعة، أو يأتيهم عذاب عقيم، وكل ذلك يوم القيامة، فظهر أن اليوم العقيم: يوم القيامة، وإن كان يوم بدر عقيماً على الكفار؛ لأنهم لا خير لهم فيه، وقد أصابهم ما أصابهم.

قوله تعالى: ﴿الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الملك يوم القيامة له، وإن كان الملك في الدنيا له أيضاً؛ لأن في الدنيا ملوكاً من المخلوقين، ويوم القيامة لا يكون فيه اسم الملك إلا الله - جل وعلا - وحده، وما ذكره في هذه الآية الكريمة من أن الملك يوم القيامة له، ومعلوم أن الملك هو الذي له الحكم بين الخلق. بيّنه في غير هذا الموضع بقوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

﴿١﴾ [الفاتحة] وقوله: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْخَبِيرُ﴾... الآية [الفرقان: ٢٦] وقوله: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [وآفا: ١٦] قوله تعالى ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [الأنعام: ٧٣] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ﴿٥٧﴾، إدخال الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنة المذكور هنا وكون الكفار المكذبين بآيات الله لهم العذاب المهين: يتضمن تفصيل حكم الله بينهم في قوله: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ وما ذكره هنا من الوعد والوعيد قد بينا الآيات الدالة على معناه مراراً بكثرة، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ﴿٥٨﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية أن المؤمنين الذين هاجروا في سبيل الله، ثم قتلوا بأن قتلهم الكفار في الجهاد؛ لأن هذا هو الأغلب في قتل من قتل منهم، أو ماتوا على فرشهم حتف أنفهم في غير جهاد، أنه تعالى أقسم ليرزقهم رزقاً حسناً وأنه خير الرازقين، وما تضمنته هذه الآية الكريمة مما ذكرنا جاء مبيناً في غير هذا الموضع.

أما الذين قتلوا في سبيل الله، فقد بين الله - جل وعلا - أنه يرزقهم رزقاً حسناً، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران] ولا شك أن ذلك الذي يرزقهم رزق حسن، وأما الذين ماتوا في غير قتال المذكورين في قوله هنا: أو ماتوا، فقد قال الله فيهم: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠] ولا شك أن من وقع أجره على الله أن الله يرزقه الرزق الحسن كما لا يخفى، والأحاديث الدالة على ذلك كثيرة.

وقد ذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية طرفاً منها والعلم عند الله تعالى، وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ قرأه ابن عامر بتشديد التاء والباقون بتخفيفها.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٥٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَكُونُ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ﴿٦٠﴾. ذكر غير واحد من المفسرين أن الإشارة في قوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾... الآية؛ أي ذلك النصر المذكور كائن بسبب أنه قادر لا يعجز عن نصرته من شاء نصرته، ومن علامات قدرته الباهرة أنه يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، أو بسبب أنه خالق الليل والنهار، ومظرفهما، فلا يخفى عليه ما يجري فيهما على أيدي عباده من الخير والشر والبغي والانتصار، وأنه سميع لما يقولون، بصير بما يفعلون؛ أي وذلك الوصف بخلق النهار والليل والإحاطة بما يجري فيهما، والإحاطة بكل قول وفعل بسبب أن الله هو

الحق؛ أي الثابت الإلهية والاستحقاق للعبادة وحده، وأن كل ما يدعى إلهاً غيره باطل وكفر، ووبال على صاحبه، وأنه - جل وعلا - هو العلي الكبير، الذي هو أعلى من كل شيء وأعظم وأكبر سبحانه وتعالى علواً كبيراً.

وقد أشار تعالى لأول ما ذكرنا، بقوله: ﴿ذَلِكَ يَأْتِكُ اللَّهُ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾... الآية، ولآخره بقوله: ﴿ذَلِكَ يَأْنِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾... الآية.

والأظهر عندي أن الإشارة في قوله ذلك: راجعة إلى ما هو أعم من نصرة المظلوم، وأنها ترجع لقوله: ﴿الْمَلِكُ يُؤَمِّرُ اللَّهُ بِحُكْمٍ بَيْنَهُمْ﴾ إلى ما ذكره من نصرة المظلوم؛ أي ذلك المذكور من كون الملك له وحده، يوم القيامة، وأنه الحاكم وحده بين خلقه، وأنه المدخل الصالحين جنات النعيم والمعذب الذين كفروا العذاب المهين، والناصر من بغى عليه من عباده المؤمنين، بسبب أنه القادر على كل شيء، ومن أدلة ذلك أنه يولج الليل في النهار إلى آخر ما ذكرنا. وهذا الذي وصف به نفسه هنا من صفات الكمال والجلال ذكره في غير هذا الموضع كقوله في سورة لقمان، مبيناً أن من اتصف بهذه الصفات قادر على إحياء الموتى، وخلق الناس ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَجِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان].

ثم استدل على قدرته على الخلق والبعث، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان]. ذلك يَأْنِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ [لقمان]، فهذه الصفات الدالة على كمال قدرته، استدل بها على قدرته في الحج، وفي لقمان، وإيلاج كل من الليل والنهار في الآخر فيه معنيان:

الأول: وهو قول الأكثر: هو أن إيلاج كل واحد منهما في الآخر، إنما هو بإدخال جزء منه فيه، وبذلك يطول النهار في الصيف؛ لأنه أولج فيه شيء من الليل ويطول الليل في الشتاء؛ لأنه أولج فيه شيء من النهار، وهذا من أدلة قدرته الكاملة.

المعنى الثاني: هو أن إيلاج أحدهما في الآخر، هو تحصيل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك، بغيوبة الشمس، وضياء ذلك في مكان ظلمة هذا كما يضيء البيت المغلق بالسراج، ويظلم بفقده، ذكر هذا الوجه الزمخشري، وكأنه يميل إليه والأول أظهر، وأكثر قائلًا، والعلم عند الله تعالى.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَطْلُ﴾ قرأه حفص وحمزة والكسائي: يدعون بالياء التحتية، وقرأه الباقون: بناء الخطاب الفوقية.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان]. الظاهر أن «تر» هنا من رأى بمعنى: علم؛ لأن إنزال المطر وإن كان مشاهداً بالبصر فكون الله هو الذي أنزله، إنما يدرك بالعلم لا بالبصر، فالرؤية هنا علمية على التحقيق.

فالمعنى ألم تعلم الله منزلاً من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة؛ أي ذات خضرة بسبب النبات الذي ينبت الله فيها بسبب إنزاله الماء من السماء، وهذه آية من آياته وبراهين قدرته على البعث كما بيناه مراراً. وهذا المعنى المذكور هنا من كون إنبات نبات الأرض، بإنزال الماء من آياته الدالة، على كمال قدرته جاء موضحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خُشْعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩]. ثم بين أن ذلك من براهين البعث بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ﴾ [فصلت: ٣٩] وكقوله: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠]. ثم بين أن ذلك من براهين البعث بقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠] وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿١﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿٢﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا﴾ [ق: ٩ - ١١]. ثم بين أن ذلك من براهين البعث بقوله: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]؛ أي خروجكم من قبوركم أحياء بعد الموت كقوله: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩] وقوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١] ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ تُخْرِجُ الْمَوْتُ لَكُمْ تَذَكُّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧] والآيات بمثل هذا كثيرة.

تنبيه: في هذه الآية الكريمة سؤالان معروفان:

الأول: هو ما حكمة عطف المضارع في قوله: فتصبح على الماضي الذي هو أنزل؟

السؤال الثاني: ما وجه الرفع في قوله: فتصبح مع أن قبلها استفهاماً؟

فالجواب عن الأول: أن النكتة في المضارع هي إفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان كما تقول: أنعم علي فلان عام كذا وكذا، فأروح وأغدو شاكرًا له، ولو قلت: فغدوت ورحت، لم يقع ذلك الموقع، هكذا أجاب به الزمخشري.

والذي يظهر لي - والله أعلم - أن التعبير بالمضارع يفيد استحضار الهيئة التي اتصفت بها الأرض: بعد نزول المطر، والماضي لا يفيد دوام استحضارها؛ لأنه يفيد انقطاع الشيء، أما الرفع في قوله: فتصبح؛ فلأنه ليس مسبباً عن الرؤية التي هي موضع الاستفهام، وإنما هو مسبب الإنزال في قوله: أنزل، والإنزال الذي هو سبب إصباح الأرض مخضرة ليس فيه استفهام، ومعلوم أن الفاء التي ينصب بعدها المضارع إن حذف جاز جعل مدخولها جزاء للشرط، ولا يمكن أن تقول هنا: إن تر أن الله أنزل من السماء ماء، تصبح الأرض مخضرة؛ لأن الرؤية لا أثر لها البتة في اخضرار الأرض، بل سببه إنزال الماء لا رؤية إنزاله.

وقد قال الزمخشري في الكشف في الجواب عن هذا السؤال: فإن قلت: فما له رفع ولم ينصب جواباً للاستفهام.

قلت: لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض؛ لأن معناه إثبات الاخضرار فينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار.

مثاله: أن تقول لصاحبك: ألم تر أنني أنعمت عليك فتشكر، إن تنصبه فأنت ناف لشكره شاك تفريطه، وإن رفعتَه فأنت مثبت للشكر، وهذا وأمثاله مما يجب أن يرغب له من اتسم بالعلم في علم الإعراب، وتوقير أهله، انتهى منه. وذكر نحوه أبو حيان وفسره ظاناً أنه أوضحه، ولا يظهر لي كل الظهور، والعلم عند الله تعالى.

فإن قيل: كيف قال: فتصبح مع أن اخضرار الأرض، قد يتأخر عن صبيحة المطر.

فالجواب: أنه على قول من قال: فتصبح الأرض مخضرة، أي تصير مخضرة فالأمر واضح، والعرب تقول: أصبح فلان غنياً مثلاً بمعنى صار، وذكر أبو حيان عن بعض أهل العلم أن بعض البلاد تصبح فيه الأرض مخضرة في نفس صبيحة المطر. ذكره عكرمة وابن عطية وعلى هذا فلا إشكال. وقال بعضهم: إن الفاء للتعقيب، وتعقيب كل شيء بحسبه كقوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْثَةَ عِلْقَةً فَخَلَقْنَا الْعِلْقَةَ مُمْضِكَةً﴾ [المؤمنون: ١٤] مع أن بين ذلك أربعين يوماً كما في الحديث، قاله ابن كثير. وقوله: لطيف خبير؛ أي لطيف بعباده، ومن لطفه بهم إنزاله المطر وإنباته لهم به أقواتهم، خبير بكل شيء، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض سبحانه وتعالى علواً كبيراً.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلَّكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الله سخر لخلق ما في الأرض، وسخر لهم السفن تجري في البحر بأمره، وهذا الذي ذكره هنا جاء موضعاً في مواضع كثيرة كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجن: ١٣] وقد بينا معنى تسخير ما في السماء بليضاح في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧] وكقوله: ﴿وَأَيُّهُ لَمَّا أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ [٤١] ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤١] وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا في سورة النحل وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾. ذكر - جل وعلا - في

هذه الآية الكريمة أنه هو الذي يمسك السماء ويمنعها من أن تقع على الأرض، فتهلك من فيها، وأنه لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض فأهلك من عليها كما قال: ﴿إِنْ نَشَأْ نُخِيفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ ... الآية [سبا: ٩]. وقد أشار لهذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ﴾ ... الآية [فاطر: ٤١]، وكقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [٧] [المؤمنون] على قول من فسرها بأنه غير غافل عن الخلق بل حافظ لهم من سقوط السموات المعبر عنها بالطرائق عليهم.

تنبيه: هذه الآيات المذكورة وأمثالها في القرآن كقوله: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى

الْأَرْضِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ

مِنْ بَعْدِهِ ﴿فَاطْر: ٤١﴾ وقوله: ﴿إِنْ نَشَأْ نُخَسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ ﴿سبأ: ٩﴾ وقوله: ﴿وَبَيْنَنَا وَفَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ ﴿النبا، وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا بِأَيِّدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ﴿الذاريات﴾، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ ﴿الأنبياء: ٣٢﴾، ونحو ذلك من الآيات، يدل دلالة واضحة، على أن ما يزعمه ملاحدة الكفرة، ومن قلدهم من مطموسي البصائر ممن يدعون الإسلام أن السماء فضاء لا جرم مبني، أنه كفر وإلحاد وزندقة، وتكذيب لنصوص القرآن العظيم، والعلم عند الله تعالى.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالْكَاسِ لَرُءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي ومن رأفته ورحمته بخلقه أنه أمسك السماء عنهم، ولم يسقطها عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ ﴿١٦﴾. قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ أي بعد أن كنتم أمواتاً في بطون أمهاتكم قبل نفخ الروح فيكم فهما إحياءتان، وإماتتان كما بينه بقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٨﴾ [البقرة] وقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَثْنَتَيْنِ وَلَحِيتَنَا أَثْنَتَيْنِ... الآية [غافر: ١١].

ونظير آية الحج المذكورة هذه قوله تعالى في الجاثية: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ الآية [الجاثية: ٢٦]، وكفر الإنسان المذكور في هذه الآية في قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ مع أن الله أحياه مرتين، وأماته مرتين، هو الذي دل القرآن على استبعاده وإنكاره مع دلالة الإماتتين والإحياءتين على وجوب الإيمان بالمحيي المميت، وعدم الكفر به في قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾... الآية [البقرة: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾. الأظهر في معنى قوله: ﴿مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي متعبداً هم متعبدون فيه؛ لأن أصل النسك التعبّد وقد بين تعالى أن منسك كل أمة فيه التقرب إلى الله بالذبح، فهو فرد من أفراد النسك صرح القرآن بدخوله في عمومه؛ وذلك من أنواع البيان الذي تضمنها هذا الكتاب المبارك.

والآية التي بين الله فيها ذلك هي قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّذِكْرِهِمْ أَسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ كَالْهٰكِمِ إِلٰهٍ وَحْدًا فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾، وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ في الموضعين قرأه حمزة والكسائي بكسر السين والباقون بفتحها.

قوله تعالى: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾. أمر الله - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يدعو الناس إلى ربهم أي إلى طاعته، وطاعة رسوله، وأخبره فيها أنه على صراط مستقيم؛ أي طريق حق واضح لا اعوجاج فيه، وهو دين الإسلام الذي أمره أن يدعو الناس إليه وما تضمنته هذه الآية الكريمة من الأمرين المذكورين، جاء واضحاً في مواضع آخر، كقوله في الأول منهما: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ

أَنْزَلْتَ إِلَيْكَ وَادَّعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ [القصص] وقوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادَّعُ وَأَمْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ﴾ [الشورى: ١٥] الآية، وقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]. وأخبر - جل وعلا - أنه امثل الأمر بدعائهم إلى ربهم في قوله تعالى: ﴿وَأِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون] وقوله: ﴿وَأِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] وكقوله في الأخير: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل] وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ ... الآية [الجاثية: ١٨] وقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢]، والآيات بمثل هذا كثيرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَدَلُواكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨٨﴾.

أمر الله - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أنه إن جادله الكفار؛ أي خاصموه بالباطل وكذبوه، أن يقول لهم: الله أعلم بما تعملون.

وهذا القول الذي أمر به تهديد لهم فقد تضمنت هذه الآية أمرين:

أحدهما: أمر الرسول ﷺ أن يهددهم بقوله: الله أعلم بما تعملون؛ أي من الكفر، فمجازيكم عليه أشد الجزاء.

ثانيهما: الإعراض عنهم، وقد أشار تعالى للأمرين اللذين تضمنتهما هذه الآية في غير هذا الموضع.

أما إعراضه عنهم عند تكذيبهم له بالجدال الباطل فمن المواضع التي أشير له فيها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨٩﴾ [يونس].

وأما تهديدهم فقد أشار له في مواضع كقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعِلُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحقاف: ٨] وقوله: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوَّامِ الْمُجِيبِ﴾ [الأنعام: ٧٧]. فقوله: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ﴾ ... الآية فيه أشد الوعيد للمكذبين، كما قال: ﴿وَلِئَلَّيْكُمْ كَذِبِينَ﴾ ﴿٩٠﴾ [المرسلات] في مواضع متعددة، وهم إنما يكذبونه بالجدال، والخصام بالباطل، وقد أمره الله في غير هذا الموضع أن يجادلهم بالتي هي أحسن وذلك في قوله ﴿وَحَدِّثْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وقوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وبين له أنهم لا يأتونه بمثل ليحتجوا عليه به بالباطل، إلا جاءه الله بالحق الذي يدمغ ذلك الباطل، مع كونه أحسن تفسيراً وكشفاً وإيضاحاً للحقائق وذلك في قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ ﴿٩١﴾ [الفرقان].

قوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾. أي ما عظموه حق عظمتهم حين عبدوا معه من لا يقدر على خلق ذباب، وهو عاجز أن يسترد من الذباب ما سلبه الذباب منه، كالطيب الذي يجعلونه على أصنامهم، إن سلبها الذباب منه شيئاً لا تقدر على استنقاذه

منه، وكونهم لم يعظموا الله حق عظمته، ولم يعرفوه حق معرفته حيث عبدوا معه من لا يقدر على جلب نفع، ولا دفع ضرر، ذكره تعالى في غير هذا الموضع كقوله في الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] وكقوله في الزمر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِّيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾. بين الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يصطفى أي يختار رسلاً من الملائكة، ومن الناس فرسل الناس لإبلاغ الوحي، ورسلي الملائكة لذلك أيضاً، وقد يرسلهم لغيره، وهذا الذي ذكره هنا من اصطفاؤه الرسل منهما جاء واضحاً في غير هذا الموضع، كقوله في رسل الملائكة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعٌ﴾ [فاطر: ١]. وقوله في جبريل: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤١]. ومن ذكره إرسال الملائكة بغير الوحي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ﴾ [الأنعام: ٦١]. وكقوله في رسل بني آدم: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقوله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٧٦].

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَحَبُّكُمْ﴾. أي اصطفاكم، واختاركم يا أمة محمد.

ومعنى هذه الآية أوضحه بقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾... الآية [آل عمران: ١١٠].

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾. الحرج: الضيق كما أوضحناه في أول سورة الأعراف.

وقد بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن هذه الحنيفية السمحة التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ أنها مبنية على التخفيف والتيسير، لا على الضيق والحرج. وقد رفع الله فيها الآصار والأغلال التي كانت على من قبلنا.

وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة ذكره - جل وعلا - في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٦٨]. وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة، وابن عباس أن النبي ﷺ لما قرأ خواتم سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] «قال الله: قد فعلت» في رواية ابن عباس. وفي رواية أبي هريرة قال: «نعم». ومن رفع الحرج في هذه الشريعة الرخصة في قصر الصلاة في السفر والإفطار في رمضان فيه، وصلاة العاجز عن القيام قاعداً وإباحة المحظور للضرورة كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا

أَضْطَرُّرْتُمْ إِلَيْهِ [الأنعام: ١١٩] إلى غير ذلك من أنواع التخفيف والتيسير، وما تضمنته هذه الآية الكريمة والآيات التي ذكرنا معها من رفع الحرج، والتخفيف في شريعة نبينا ﷺ، هو إحدى القواعد الخمس، التي بني عليها الفقه الإسلامي وهي هذه الخمس.

الأولى: الضرر يزال ومن أدلتها حديث: «لا ضرر ولا ضرار».

الثانية: المشقة تجلب التيسير: وهي التي دل عليها قوله هنا: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ وما ذكرنا في معناها من الآيات.

الثالثة: لا يرفع يقين بشك، ومن أدلتها حديث «من أحس بشيء في دبره في الصلاة وأنه لا يقطع الصلاة حتى يسمع صوتاً أو يشم ريحاً» لأن تلك الطهارة المحققة لم تنقض بتلك الريح المشكوك فيها.

الرابعة: تحكيم عرف الناس المتعارف عندهم في صيغ عقودهم ومعاملاتهم، ونحو ذلك، واستدل لهذه بعضهم بقوله: ﴿وَأُمِرُ بِالْعُرْفِ﴾... الآية [الأعراف: ١٩٩].

الخامسة: الأمور تبع المقاصد، ودليل هذه حديث «إنما الأعمال بالنيات» الحديث. وقد أشار في (مراقي السعود) في كتاب الاستدلال إلى هذه الخمس المذكورات بقوله:

قد أسس الفقه على رفع الضرر وأن ما يشق يجلب الوطر
ونفي رفع القطع بالشك وأن يحكم العرف وزاد من فطن
كون الأمور تبع المقاصد مع التكلف ببعض وارد

قوله تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾. قال بعضهم: هو منصوب بنزع الخافض، ومال إليه ابن جرير؛ أي ما جعل عليكم في دينكم من ضيق، كملة إبراهيم، وأعربه بعضهم منصوباً بمحذوف؛ أي الزموا ملة أبيكم إبراهيم، ولا يبعد أن يكون قوله: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ شاملاً لما ذكر قبله من الأوامر في قوله: ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكُفُّوا رُءُوسُهُمْ وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْكُلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ وَاجْهَدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ ويوضح هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١] والدين القيم الذي هو ملة إبراهيم شامل لما ذكر كله.

قوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَنُكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾. اختلف في مرجع الضمير الذي هو لفظ «هو» من قوله: ﴿هُوَ سَمَنُكُمُ﴾ فقال بعضهم: الله هو الذي سماكم المسلمين من قبل وفي هذا، وهذا القول مروى عن ابن عباس، وبه قال مجاهد وعطاء، والضحاك، والسدي، ومقاتل بن حيان، وقتادة. كما نقله عنهم ابن كثير. وقال بعضهم: هو أي إبراهيم سماكم المسلمين، واستدل لهذا بقول إبراهيم وإسماعيل ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وبهذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، كما نقله عنه ابن كثير. وقد قدمنا أن من أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك أن يقول

بعض العلماء في الآية قولاً وتكون في الآية قرينة تدل على عدم صحة ذلك القول، وجئنا بأمثلة كثيرة في الترجمة، وفيما مضى من الكتاب، وفي هذه الآيات قريتان تدلان على أن قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم غير صواب.

إحدهما: أن الله قال: ﴿هُوَ سَمَنُكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾؛ أي القرآن، ومعلوم أن إبراهيم لم يسمهم المسلمين في القرآن، لنزوله بعد وفاته بأزمان طويلة كما نبه على هذا ابن جرير.

القرينة الثانية: أن لأفعال كلها في السياق المذكور راجعة إلى الله، لا إلى إبراهيم فقوله: ﴿هُوَ أَجَبَنُكُمُ﴾ أي الله وما جعل عليكم في الدين من حرج؛ أي الله هو سماكم المسلمين؛ أي الله.

فإن قيل: الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور للضمير المذكور: هو إبراهيم. فالجواب: أن محل رجوع الضمير إلى أقرب مذكور محله ما لم يصرف عنه صارف، وهنا قد صرف عنه صارف؛ لأن قوله وفي هذا يعني القرآن، دليل على أن المراد بالذي سماهم المسلمين فيه: هو الله لا إبراهيم، وكذلك سياق الجمل المذكورة قبله نحو هو ﴿أَجَبَنُكُمُ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يناسبه أن يكون هو سماكم؛ أي الله المسلمين.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية بعد أن ذكر أن الذي سماهم المسلمين من قبل وفي هذا: هو الله، لا إبراهيم ما نصه:

قلت: وهذا هو الصواب لأنه تعالى قال: ﴿هُوَ أَجَبَنُكُمُ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول ﷺ بأنه ملة إبراهيم أبيهم الخليل، ثم ذكر منته تعالى على هذه الأمة بما نوه به من ذكرها، والثناء عليها في سالف الدهر، وقديم الزمان في كتب الأنبياء، تتلى على الأحرار والرهبان فقال: ﴿هُوَ سَمَنُكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل هذا القرآن.

وفي هذا روى النسائي عند تفسير هذه الآية: أنبأنا هشام بن عمار، حدثنا محمد بن شعيب، أنبأنا معاوية بن سلام أن أخاه زيد بن سلام، أخبره عن أبي سلام أنه أخبره قال: أخبرني الحارث الأشعري، عن رسول الله ﷺ قال: «من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جنتي جهنم»، قال رجل: يا رسول الله، وإن صام وإن صلى؟ قال: «نعم وإن صام وإن صلى، فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله» وقد قدمنا هذا الحديث بطوله عند تفسير قوله ﴿يَأْتِيَا النَّاسَ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة]، اه من تفسير ابن كثير.

وقال ابن كثير في تفسير سورة البقرة: إن الحديث المذكور فيه أن الله هو الذي سماهم المسلمين المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾. يعني إنما اجتباكم، وفضلكم ونوه بإسمكم المسلمين قبل نزول كتابكم، وزكاكم على السنة الرسل المتقدمين، فسماكم فيها المسلمين، وكذلك سماكم في هذا القرآن. وقد عرف بذلك أنكم أمة وسط عدول خيار مشهود بعدالتكم، لتكونوا شهداء على الناس يوم القيامة، أن الرسل بلغتهم رسالات ربهم، حين ينكر الكفار ذلك يوم القيامة، ويكون الرسول عليكم شهيداً، أنه بلغكم، وقيل: شهيداً على صدقكم فيما شهدتم به للرسل على أمهم من التبليغ.

وهذا المعنى المذكور هنا ذكره الله - جل وعلا - في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال فيه ﷺ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾... الآية [الأحزاب: ٤٥]. والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة المؤمنون

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾، ذكر - جل وعلا - في هذه الآيات التي ابتدأ بها أول هذه السورة علامات المؤمنين المفلحين فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي فازوا وظفروا بخير الدنيا والآخرة.

وفلاح المؤمنين مذكور ذكراً كثيراً في القرآن كقوله: ﴿وَيُشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب] وقوله ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ أصل الخشوع: السكون، والطمأنينة، والانخفاض ومنه قول نابغة ذبيان:

رماد ككحل العين لا يابأ أبينه ونوى كجذم الحوض أثلم خاشع

وهو في الشرع: خشية من الله تكون في القلب، فتظهر آثارها على الجوارح.

وقد عد الله الخشوع من صفات الذين أعد لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا في قوله في الأحزاب: ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقد عد الخشوع في الصلاة هنا من صفات المؤمنين المفلحين، الذين يرثون الفردوس، وبين أن من لم يتصف بهذا الخشوع تصعب عليه الصلاة في قوله: ﴿وَلِئَلَّا يَكْبِرُوا إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] وقد استدل جماعة من أهل العلم بقوله ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ على أن من خشوع المصلي أن يكون نظره في صلاته إلى موضع سجوده، قالوا: كان النبي ﷺ ينظر إلى السماء في الصلاة، فأنزل الله ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ فجعل رسول الله ﷺ ينظر حيث يسجد.

وقال صاحب الدر المنثور: وأخرج ابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة «أن النبي ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء فنزلت ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ ﴿٣﴾ فطأطأ رأسه»، اهـ منه.

وأكثر أهل العلم على أن المصلي ينظر إلى موضع سجوده، ولا يرفع بصره. وخالف المالكية الجمهور، فقالوا: إن المصلي ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده، واستدلوا لذلك بقوله تعالى: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤] قالوا: فلو نظر إلى موضع سجوده لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء، وذلك ينافي كمال القيام. وظاهر قوله تعالى: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤]؛ لأن المنحني بوجهه إلى موضع سجوده، ليس بمتولٍّ وجهه شطر المسجد الحرام، والجمهور على خلافهم كما ذكرنا.

واعلم أن معنى أفلح: نال الفلاح، والفلاح يطلق في لغة العرب على معنيين:
الأول: الفوز بالمطلوب الأكبر، ومنه قول لبيد:

فاعقلي إن كنت لمّا تعقلي ولقد أفلح من كان عقل
أي فاز من رزق العقل بالمطلوب الأكبر.

والثاني: هو إطلاق الفلاح على البقاء السرمدى في النعيم، ومنه قول لبيد أيضاً في رجز له:

لو أن حيّا مدرك الفلاح لناله ملاعب الرماح
يعني مدرك البقاء، ومنه بهذا المعنى قول كعب بن زهير، أو الأصبط بن قريع:
لكل هم من الهموم سعه والمسى والصبح لا فلاح معه

أي لا بقاء معه، ولا شك أن من اتصف بهذه الصفات التي ذكرها الله في أول هذه السورة الكريمة دخل الجنة كما هو مصرح به في الآيات المذكورة، وأن من دخل الجنة نال الفلاح بمعنييه المذكورين، والمعنيان اللذان ذكرنا للفلاح بكل واحد منهما، فسر بعض العلماء حديث الأذان والإقامة في لفظة: حي على الفلاح.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٣﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من صفات المؤمنين المفلحين: إعراضهم عن اللغو، وأصل اللغو ما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، فيدخل فيه اللعب واللهو والهزل، وما توجب المروءة تركه. وقال ابن كثير ﴿عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ أي عن الباطل، وهو يشمل الشرك كما قاله بعضهم، والمعاصي كما قاله آخرون، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، اهـ منه.

وما أثنى الله به على المؤمنين المفلحين في هذه الآية، أشار له في غير هذا الموضع كقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٣] ومن مروهم به كراماً

إعراضهم عنه، وعدم مشاركتهم أصحابه فيه، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلُواكَ الْغَنَىٰ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾... الآية [القصص: ٤].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾. في المراد بالزكاة هنا وجهان من التفسير معروفان عند أهل العلم.

أحدهما: أن المراد بها زكاة الأموال، وعزاه ابن كثير للأكثرين.

ثانيهما: أن المراد بالزكاة هنا: زكاة النفس أي تطهيرها من الشرك، والمعاصي بالإيمان بالله، وطاعته وطاعة رسله - عليهم الصلاة والسلام -، وعلى هذا فالمراد بالزكاة كالمراد بها في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (١) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (٢) [الشمس] وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ (٣) ... الآية [الأعلى]، وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١] وقوله: ﴿حَبِيرًا مِنْهُ زَكَاةٌ﴾ ... الآية [الكهف: ٨١]، وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (٤) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ [فصلت: ٦، ٧] على أحد التفسيرين. وقد يستدل لهذا القول الأخير بثلاث قرائن:

الأولى: أن هذه السورة مكية، بلا خلاف، والزكاة إنما فرضت بالمدينة كما هو معلوم. فدل على أن قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ نزل قبل فرض زكاة الأموال المعروفة، فدل على أن المراد به غيرها.

القرينة الثانية: هي أن المعروف في زكاة الأموال: أن يعبر عن أدائها بالإيتاء كقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] وقوله: ﴿وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ [الأنبياء: ٧٣] ونحو ذلك. وهذه الزكاة المذكورة هنا لم يعبر عنها بالإيتاء بل قال تعالى فيها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ فدل على أن هذه الزكاة أفعال المؤمنين المفلحين، وذلك أولى بفعل الطاعات، وترك المعاصي من أداء مال.

الثالثة: أن زكاة الأموال تكون في القرآن عادة مقرونة بالصلاة، من غير فصل بينهما كقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] وقوله: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [الأنبياء: ٧٣] وهذه الزكاة المذكورة هنا فصل بين ذكرها، وبين ذكر الصلاة بجملته ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (٥).

والذين قالوا المراد بها زكاة الأموال قالوا: إن أصل الزكاة فرض بمكة قبل الهجرة، وأن الزكاة التي فرضت بالمدينة سنة اثنتين هي ذات النصب، والمقادير الخاصة.

وقد أوضحنا هذا القول في الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٦] وقد يستدل؛ لأن المراد بالزكاة في هذه الآية غير الأعمال التي تزكى بها النفوس من دنس الشرك والمعاصي، بأننا لو حملنا معنى الزكاة على ذلك، كان شاملاً لجميع صفات المؤمنين المذكورة في أول هذه السورة، فيكون كالتكرار معها، والحمل على التأسيس والاستقلال أولى من غيره، كما تقرر في

الأصول، وقد أوضحناه في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيَوَةً طَيِّبَةً﴾... الآية [النحل: ٩٧] والذين قالوا: هي زكاة الأموال قالوا: فاعلمون أي مؤدون، قالوا: وهي لغة معروفة فصيحة، ومنها قول أمية بن أبي الصلت:

المطعمون الطعام في السنة الأزمنة والفاعلون للزكوات

وهو واضح بحمل الزكاة على المعنى المصدري بمعنى التزكية للمال؛ لأنها فعل المزكي كما هو واضح. ولا شك أن تطهير النفس بأعمال البر، ودفع زكاة المال كلاهما من صفات المؤمنين المفلحين الوارثين الجنة.

وقد قال ابن كثير رحمته الله: وقد يحتمل أن المراد بالزكاة ها هنا زكاة النفس من الشرك، والدنس إلى أن قال ويحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً وهو زكاة النفوس، وزكاة الأموال فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يفعل هذا وهذا، والله أعلم، اهـ منه.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۖ﴾ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۚ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۖ﴾ (٧). ذكر - جل وعلا - في هذه الآيات الكريمة أن من صفات المؤمنين المفلحين الذين يرثون الفردوس ويخلدون فيها حفظهم لفروجهم؛ أي من اللواط والزنى، ونحو ذلك، وبين أن حفظهم فروجهم، لا يلزمهم عن نسائهم الذين ملكوا الاستمتاع بهن بعقد الزواج أو بملك اليمين، والمراد به التمتع بالسراري، وبين أن من لم يحفظ فرجه عن زوجه أو سريته لا لوم عليه، وأن من ابتغى تمتعاً بفرجه، وراء ذلك غير الأزواج والمملوكات فهو من العادين؛ أي المعتدين المتعدين حدود الله، المجاوزين ما أحله الله إلى ما حرمه.

وبين معنى العادين في هذه الآية قوله تعالى في قوم لوط: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَيَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رِجَالَكُمْ مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۖ﴾ [الشعراء] وهذا الذي ذكره هنا ذكره أيضاً في سورة سأل سائل؛ لأنه قال فيها في الثناء على المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۖ﴾ (١٦) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۚ﴾ (٢٠) [المعارج].

مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة:

المسألة الأولى: اعلم أن «ما» في قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من صيغ العموم، والمراد بها «مَنْ» وهي من صيغ العموم، فآية قد أفلح المؤمنون وآية سأل سائل تدل بعمومها المدلول عليه بلفظة ما، في قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ في الموضعين على جواز جمع الأختين بملك اليمين في التسري بهما معاً لدخولهما في عموم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ وبهذا قال داود الظاهري، ومن تبعه، ولكن قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣] يدل بعمومه على منع جمع الأختين، بملك اليمين؛ لأن الألف واللام في الأختين صيغة عموم، تشمل كل أختين سواء كانتا بعقد

أو ملك يمين؛ ولذا قال عثمان رضي الله عنه، لما سئل عن جمع الأختين بملك اليمين: أحلتها آية، وحرمتها أخرى يعني الآية المحلة ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ﴾ وبالمحرمة ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾.

وقد أوضحنا هذه المسألة في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب وسنذكر هنا - إن شاء الله - المهم مما ذكرنا فيه ونزيد ما تدعو الحاجة إلى زيادته.

وحاصل تحرير المقام في ذلك أن الآيتين المذكورتين بينهما عموم وخصوص، من وجه يظهر للنظر تعارضهما في الصورة التي يجتمعان فيها كما قال عثمان رضي الله عنه عنهما: أحلتها آية، وحرمتها أخرى وإيضاحه أن آية: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ تنفرد عن آية ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ﴾ في الأختين المجموع بينهما، بعقد نكاح وتنفرد آية ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ﴾ في الأمة الواحدة، أو الأمتين اللتين ليستا بأختين، ويجتمعان في الجمع بين الأختين. فعموم ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ يقتضي تحريمه، وعموم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ﴾ يقتضي إباحته، وإذا تعارض الأعمان من وجه في الصورة التي يجتمعان فيها: وجب الترجيح بينهما، والراجح منهما، يقدم ويخصص به عموم الآخر، كما أشار له في (مراقي السعود) بقوله:

وإن يك العموم من وجه ظهر فالحكم بالترجيح حتماً معتبر

وإذا علمت ذلك فاعلم أن عموم ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ مرجح من خمسة أوجه على عموم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ﴾:

الأول: منها أن عموم ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ نص في محل المدرك المقصود بالذات؛ لأن السورة سورة النساء: وهي التي بين الله فيها من تحل منهن، ومن لا تحل وآية ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ﴾ في الموضوعين لم تذكر من أجل تحريم النساء، ولا تحليلهن بل ذكر الله صفات المؤمنين التي يدخلون بها الجنة، فذكر من جعلتها حفظ الفرج، فاستطرد أنه لا يلزم حفظه عن الزوجة والسرية. وقد تقرر في الأصول أن أخذ الأحكام من مظانها أولى من أخذها، لا من مظانها.

الوجه الثاني: أن آية ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ﴾ ليست باقية على عمومها بإجماع المسلمين؛ لأن الأخت من الرضاع لا تحل بملك اليمين، إجماعاً للإجماع على أن عموم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ﴾ يخص عموم ﴿وَأَوْفُواكُمْ مِنَ الرِّضْعَةِ﴾ [النساء: ٢٣]. ومطوأة الأب لا تحل بملك اليمين إجماعاً، للإجماع على أن عموم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ﴾ يخصه عموم ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾... الآية [النساء: ٢٢]، والأصح عند الأصوليين في تعارض العام الذي دخله التخصيص، مع العام الذي لم يدخله التخصيص: هو تقديم الذي لم يدخله التخصيص، وهذا هو قول جمهور أهل الأصول، ولم أعلم أحداً خالف فيه، إلا صفي الدين الهندي، والسبكي.

وحجة الجمهور أن العام المخصص، اختلف في كونه حجة في الباقي، بعد التخصيص، والذين قالوا: هو حجة في الباقي، قال جماعة منهم: هو مجاز في الباقي، وما اتفق على أنه حجة، وأنه حقيقة، وهو الذي لم يدخله التخصيص أولى مما اختلف في حجته، وهل هو حقيقة، أو مجاز؟ وإن كان الصحيح أنه حجة في الباقي، وحقيقة فيه؛ لأن مطلق حصول الخلاف فيه يكفي في ترجيح غيره عليه، وأما حجة صفي الدين الهندي والسبكي، على تقديم الذي دخله التخصيص فهي أن الغالب في العام التخصيص، والحمل على الغالب أولى، وأن ما دخله التخصيص يبعد تخصيصه مرة أخرى، بخلاف الباقي على عمومه.

الوجه الثالث: أن عموم ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ غير وارد في معرض مدح ولا ذم وعموم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ وارد في معرض مدح المتقين، والعام الوارد في معرض المدح أو الذم اختلف العلماء في اعتبار عمومه، فأكثر العلماء على أن عمومه معتبر كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَارَ لَفِي حَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار] فإنه يعم كل بر مع أنه للمدح، وكل فاجر مع أنه للذم. قال في (مراقي السعود):

وما أتى للمدح أو للذم يعم عند جل أهل العلم

وخالف في ذلك بعض العلماء منهم: الإمام الشافعي رحمته الله قائلاً: إن العام الوارد في معرض المدح، أو الذم لا عموم له؛ لأن المقصود منه الحث في المدح والزجر في الذم؛ ولذا لم يأخذ الإمام الشافعي بعموم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْذِبُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] في الحلبي المباح؛ لأن الآية سيقت للذم، فلا تعم عنده الحلبي المباح.

وإذا علمت ذلك، فاعلم أن العام الذي لم يقترن بما يمنع اعتبار عمومه أولى من المقترن بما يمنع اعتبار عمومه، عند بعض العلماء.

الوجه الرابع: أنا لو سلمنا المعارضة بين الآيتين، فالأصل في الفروج التحريم، حتى يدل دليل لا معارض له على الإباحة.

الوجه الخامس: أن العموم المقتضي للتحريم أولى من المقتضي للإباحة؛ لأن ترك مباح أهون من ارتكاب حرام.

فهذه الأوجه الخمسة يرد بها استدلال داود الظاهري، ومن تبعه على إباحته جمع الأختين بملك اليمين، محتجاً بقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ ولكن داود يحتج بأية أخرى يعسر التخلص من الاحتجاج بها، بحسب المقرر في أصول الفقه المالكي والشافعي والحنبلي، وإيضاح ذلك أن المقرر في أصول الأئمة الثلاثة المذكورين أنه إن ورد استثناء بعد جمل متعاطفة، أو مفردات متعاطفة، أن الاستثناء المذكور يرجع لجميعها خلافاً لأبي حنيفة القائل يرجع إلى الجملة الأخيرة فقط، قال في (مراقي السعود):

وكل ما يكون فيه العطف
دون دليل العقل أو ذي السمع
من قبل الاستثناء فكلاً يقفو
..... إلخ

وإذا علمت أن المقرر في أصول الأئمة الثلاثة المذكورين رجوع الاستثناء لكل المتعاطفات، وأنه لو قال الواقف في صيغة وقفه: هو وقف على بني تميم وبني زهرة والفقراء إلا الفاسق منهم، أنه يخرج من الوقف فاسق الجميع لرجوع الاستثناء إلى الجميع، وأن أبا حنيفة وحده هو القائل برجوعه إلى الجملة الأخيرة فقط؛ ولذلك لم يقبل شهادة القاذف، ولو تاب وأصلح، وصار أعدل أهل زمانه؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤، ٥] يرجع عنده الاستثناء فيه للأخيرة فقط وهي ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ أي فقد زال عنهم اسم الفسق، ولا يقبل رجوعه لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ إلا الذين تابوا، فاقبلوا شهادتهم بل يقول: لا تقبلوا لهم شهادة أبداً مطلقاً بلا استثناء لاختصاص الاستثناء عنده بالجملة الأخيرة، ولم يخالف أبو حنيفة أصوله في قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾... الآية [الفرقان: ٧٠]، فإن هذا الاستثناء راجع لجميع الجمل المتعاطفة قبله عند أبي حنيفة، وغيره.

ولكن أبا حنيفة لم يخالف فيه أصله؛ لأن الجمل الثلاث المذكورة جمعت في الجملة الأخيرة، التي هي ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]؛ لأن الإشارة في قوله: ذلك راجعة إلى الشرك، والقتل والزنى في الجمل المتعاطفة قبله فشملت الجملة الأخيرة معاني الجمل قبلها، فصار رجوع الاستثناء لها وحدها، عند أبي حنيفة، على أصله المقرر: مستلزماً لرجوعه للجميع.

وإذا حققت ذلك فاعلم أن داود يحتج لجواز جمع الأختين بملك اليمين أيضاً، برجوع الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] لقوله: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣] فيقول: قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٢٤] يرجع لكل منهما الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] فيكون المعنى وحرم عليكم أن تجمعوا بين الأختين، إلا ما ملكت أيما نكم فلا يحرم عليكم فيه الجمع بينهما، وحرمت عليكم المحصنات من النساء، إلا ما ملكت أيما نكم، فلا يحرم عليكم.

وقد أوضحنا معنى الاستثناء من المحصنات في محله من هذا الكتاب المبارك، وبهذا تعلم أن احتجاج داود برجوع الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] إلى قوله: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣] جار على أصول المالكية والشافعية والحنابلة، فيصعب عليهم التخلص من احتجاج داود هذا.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: الذي يظهر لي أن الجواب عن استدلال داود المذكور من وجهين:

الأول منهما أن في الآية نفسها قرينة مانعة من رجوع الاستثناء إلى قوله: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ لما قدمنا من أن قوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي بالسبي خاصة مع الكفر، وأن المعنى والمحصلات من النساء؛ إلا ما ملكت أيمانكم؛ أي وحرمت عليكم المتزوجات من النساء؛ لأن المتزوجة لا تحل لغير زوجها إلا ما ملكت أيمانكم بالسبي مع الكفر فإن السبي يرفع حكم الزوجية عن المسبية، وتحل لسابيه بعد الاستبراء كما قال الفرزدق:

وذاث حليل أنكحتها رماحنا حلال لمن يبني بها لم تطلق

وإذا كان ملك اليمين في قوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ في السبي خاصة كما هو مذهب الجمهور كان ذلك مانعاً من رجوعه إلى قوله: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ لأن محل النزاع في ملك اليمين مطلقاً، وقد قدمنا في سورة النساء أن قول من قال: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ مطلقاً، وأن بيع الأمة طلاقاً أنه خلاف التحقيق، وأوضحنا الأدلة على ذلك.

الوجه الثاني: هو أن استقراء القرآن يدل على أن الصواب في رجوع الاستثناء لجميع الجمل المتعاطفة قبله أو بعضها، يحتاج إلى دليل منفصل؛ لأن الدليل قد يدل على رجوعه للجميع أو لبعضها، دون بعض. وربما دل الدليل على عدم رجوعه للأخيرة التي تليه. وإذا كان الاستثناء ربما كان راجعاً لغير الجملة الأخيرة التي تليه، تبين أنه لا ينبغي الحكم برجوعه إلى الجميع إلا بعد النظر في الأدلة. ومعرفة ذلك منها، وهذا القول الذي هو الوقف عن رجوع الاستثناء إلى الجميع أو بعضها المعين، دون بعض، إلا بدليل مروى عن ابن الحاجب من المالكية، والغزالي من الشافعية، والآمدي من الحنابلة، واستقراء القرآن يدل على أن هذا القول هو الأصح؛ لأن الله يقول: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] وإذا رددنا هذه المسألة إلى الله، وجدنا القرآن دالاً على صحة هذا القول، وبه يندفع أيضاً استدلال داود.

فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿فَقَرِّرُ رَقَبَةً مُّؤْمِنَةً وَدِيَّةً مُّسَلَّمَةً إِلَىٰ أَهْلِهَا إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾ [النساء: ٩٢] فالاستثناء راجع للدية، فهي تسقط بتصدق مستحقها بها، ولا يرجع لتحرير الرقبة قولاً واحداً؛ لأن تصديق مستحق الدية بها لا يسقط كفارة القتل خطأ، ومنها قوله تعالى: ﴿فَأَجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝١١ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ ... الآية [النور: ٤، ٥] فالاستثناء لا يرجع لقوله: ﴿فَأَجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾؛ لأن القاذف إذا تاب لا تسقط توبته حد القذف.

وما يروى عن الشعبي من أنها تسقطه، خلاف التحقيق الذي هو مذهب جماهير

العلماء ومنها قوله تعالى: ﴿إِن تَوَلَّوْا فَعُدُّوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنَحَّضُوا مِنْهُمْ وَلَا يَصِيرًا ۝٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ [النساء: ٨٩، ٩٠].

فالاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ﴾... الآية [النساء: ٩٠] لا يرجع قولاً واحداً، إلى الجملة الأخيرة، التي تليه أعني قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَحَّضُوا مِنْهُمْ وَلَا يَصِيرًا﴾ [النساء: ٨٩] لأنه لا يجوز اتخاذ ولي ولا نصير من الكفار أبداً، ولو وصلوا إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق، بل الاستثناء راجع للأخذ والقتل في قوله: ﴿فَعُدُّوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ﴾ [النساء: ٨٩] والمعنى فخذوهم بالأسر واقتلوهم إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق، فليس لكم أخذهم بأسر، ولا قتلهم؛ لأن الميثاق الكائن لمن وصلوا إليهم يمنع من أسرهم، وقتلهم كما اشترطه هلال بن عويمر الأسلمي في صلحه مع النبي ﷺ كما ذكروا أن هذه الآية نزلت فيه وفي سراقه بن مالك المدلجي، وفي بني جذيمة بن عامر وإذا كان الاستثناء ربما لم يرجع لأقرب الجمل إليه في القرآن العظيم الذي هو في الطرف الأعلى من الإعجاز تبين أنه ليس نصاً في الرجوع إلى غيرها.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣] على ما قاله: جماعات من المفسرين؛ لأنه لولا فضل الله ورحمته لاتبعوا الشيطان، كلا بدون استثناء، قليل أو كثير كما ترى.

واختلفوا في مرجع هذا الاستثناء، ف قيل: راجع لقوله: ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾ [النساء: ٨٣] وقيل: راجع لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] وإذا لم يرجع للجملة التي تليه، لم يكن نصاً في رجوعه لغيرها.

وقيل: إن هذا الاستثناء راجع للجملة التي تليه، وأن المعنى ولولا فضل الله عليكم ورحمته بإرسال محمد ﷺ لاتبعتم الشيطان في الاستمرار، على ملة آبائكم من الكفر، وعبادة الأوثان إلا قليلاً كمن كان على ملة إبراهيم في الجاهلية، كزيد بن نفيل وقس بن ساعدة وورقة بن نوفل، وأمثالهم.

وذكر ابن كثير أن عبد الرزاق روى عن معمر عن قتادة في قوله: ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ معناه: لاتبعتم الشيطان كلا، قال: والعرب تطلق القلة، وتريد بها العدم. واستدل قائل هذا القول بقول الطرماح بن حكيم يمدح يزيد بن المهلب:

أشم ندي كثير النوادي قليل المثالب والقادحة

يعني لا مثلبة فيه، ولا قادمة. وهذا القول ليس بظاهر كل الظهور، وإن كانت العرب تطلق القلة في لغتها، وتريد بها العدم كقولهم: مررت بأرض قليل بها الكراث والبصل، يعنون لا كراث فيها ولا بصل. ومنه قول ذي الرمة:

أنىخت فألقت بلدة فوق بلدة قليل بها الأصوات إلا بغامها

يريد: أن تلك القلة لا صوت فيها غير بغام ناقته. وقول الآخر:

فما بأس لورثت علينا تحية قليلاً لدى من يعرف الحق عابها

يعني لا عاب فيها؛ أي لا عيب فيها عند من يعرف الحق، وأمثال هذا كثير في كلام العرب، وبالآيات التي ذكرنا تعلم أن الوقف عن القطع برجوع الاستثناء لجميع الجمل المتعاطفة قبله إلا للدليل، هو الذي دل عليه القرآن في آيات متعددة، وبدلالاتها يرد استدلال داود المذكور أيضاً، والعلم عند الله تعالى.

المسألة الثانية: اعلم أن أهل العلم أجمعوا على أن حكم هذه الآية الكريمة في التمتع بملك اليمين في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَقُّونَ ۖ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ خاص بالرجال دون النساء، فلا يحل للمرأة أن تتسرى عبدها، وتتمتع به بملك اليمين، وهذا لا خلاف فيه بين أهل العلم، وهو يؤيد قول الأكثرين أن النساء لا يدخلن في الجموع المذكورة الصحيحة إلا بدليل منفصل، كما أوضحنا أدلته في سورة الفاتحة، وذكر ابن جرير أن امرأة اتخذت مملوكها، وقالت: تأولت آية من كتاب الله ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ فأتى بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال له ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: تأولت آية من كتاب الله عز وجل على غير وجهها، قال: فضرب العبد، وجز رأسه وقال: أنت بعده حرام على كل مسلم، ثم قال ابن كثير: هذا أثر غريب منقطع، ذكره ابن جرير في تفسير أول سورة المائدة، وهو ها هنا أليق وإنما حرّمها على الرجال، معاملة لها بنقيض قصدها، والله أعلم.

وقال أبو عبد الله القرطبي: قد روى معمر بن قتادة قال: تسررت امرأة غلامها، فذكر ذلك لعمر فسألها ما حملك على ذلك؟ قالت: كنت أراه يحل لي بملك يميني، كما تحل للرجل المرأة بملك اليمين، فاستشار عمر في رجمها أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: تأولت كتاب الله ﷻ على غير تأويله لا رجم عليها، فقال عمر: لا جرم، والله لا أحلك لحر بعده عاقبها بذلك، ودرأ الحد عنها، وأمر العبد ألا يقربها.

وعن أبي بكر بن عبد الله أنه سمع أباه يقول: أنا حضرت عمر بن عبد العزيز جاءته امرأة بغلام لها وضيء، فقالت: إني استسررت، فمنعني بنو عمي عن ذلك، وإنما أنا بمنزلة الرجل تكون له الوليدة فيطؤها، فانه عني بني عمي فقال عمر: أتزوجت قبله؟ قالت: نعم.. قال: أما والله لولا منزلتك من الجهالة لرجمتك بالحجارة، ولكن اذهبا به فبيعوه إلى من يخرج به إلى غير بلدها، اهـ. من القرطبي.

المسألة الثالثة: اعلم أنه لا شك في أن آية ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ هذه التي هي ﴿فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَادُونَ ۝٧﴾ تدل بعمومها على منع الاستمناة باليد المعروف، بجلد عميرة، ويقال له الخضخضة؛ لأن من تلذذ بيده حتى أنزل منه بذلك، قد ابتغى وراء ما أحله الله، فهو من العادين بنص هذه الآية الكريمة المذكورة هنا، وفي سورة سأل سائل، وقد ذكر ابن كثير أن الشافعي ومن تبعه استدلوا بهذه الآية، على منع

الاستمناء باليد. وقال القرطبي: قال محمد بن عبد الحكم: سمعت حرملة بن عبد العزيز، قال: سألت مالكا عن الرجل يجلد عميرة فتلا هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُفْرُوهُمْ حَفُظُونَ﴾ إلى قوله، ﴿الْعَادُونَ﴾.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: الذي يظهر لي أن استدلال مالك، والشافعي وغيرهما من أهل العلم بهذه الآية الكريمة، على منع جلد عميرة الذي هو الاستمناء باليد استدلال صحيح بكتاب الله، يدل عليه ظاهر القرآن، ولم يرد شيء يعارضه من كتاب ولا سنة، وما روى عن الإمام أحمد مع علمه، وجلالته وورعه من إباحة جلد عميرة مستدلاً على ذلك بالقياس قائلًا: هو إخراج فضلة من البدن تدعو الضرورة إلى إخراجها فجاز قياساً على الفصد والحجامة، كما قال في ذلك بعض الشعراء:

إذا حليت بواد لا أنيس به فاجلد عميرة لا عار ولا حرج

فهو خلاف الصواب، وإن كان قائله في المنزلة المعروفة التي هو بها؛ لأنه قياس يخالف ظاهر عموم القرآن، والقياس إن كان كذلك رد بالقادح المسمى فساد الاعتبار، كما أوضحناه في هذا الكتاب المبارك مراراً وذكرنا فيه قول صاحب (مراقي السعود):

والخلف للنص أو إجماع دعا فساد الاعتبار كل من وعى

فأله - جل وعلا - قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُفْرُوهُمْ حَفُظُونَ﴾ ولم يستثن من ذلك البتة إلا النوعين المذكورين، في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ وصرح برفع الملازمة في عدم حفظ الفرج، عن الزوجة، والمملوكة فقط ثم جاء بصيغة عامة شاملة لغير النوعين المذكورين، دالة على المنع هي قوله: ﴿فَعَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ وهذا العموم لا شك أنه يتناول بظاهره، ناكح يده، وظاهر عموم القرآن، لا يجوز العدول عنه، إلا للدليل من كتاب أو سنة، يجب الرجوع إليه، أما القياس المخالف له فهو فاسد الاعتبار، كما أوضحنا، والعلم عند الله تعالى.

وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية، بعد أن ذكر بعض من حرم جلد عميرة، واستدلوا لهم بالآية ما نصه: وقد استأنسوا بحديث رواه الإمام الحسن بن عرفة في جزئه المشهور، حيث قال: حدثني علي بن ثابت الجزري، عن مسلمة بن جعفر، عن حسان بن حميد، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولا يجمعهم مع العاملين ويدخلهم النار أول الداخلين إلا أن يتوبوا ومن تاب تاب الله عليه: الناكح يده، والفاعل، والمفعول، ومدمن الخمر، والضارب والديه حتى يستغيثا، والمؤذي جيرانه حتى يلعنوه، والناكح حليلة جاره»، اهـ.

ثم قال ابن كثير: هذا حديث غريب وإسناده فيه من لا يعرف لجهالته، والله أعلم، انتهى منه ولكنه على ضعفه يشهد له في نكاح اليد ظاهر القرآن في الجملة، لدلالته على منع ذلك، وإنما قيل للاستمناء باليد: جلد عميرة؛ لأنهم يكونون بعميرة عن الذكر.

لطيفة: قد ذكر في نوادر المغفلين، أن مغفلاً كانت أمه تملك جارية تسمى عميرة فضربتها مرة، فصاحت الجارية، فسمع قوم صياحها، فجاءوا وقالوا ما هذا الصياح؟ فقال لهم ذلك المغفل: لا بأس تلك أُمِّي كانت تجلد عميرة.

المسألة الرابعة: اعلم أنا قدمنا في سورة النساء، أن هذه الآية التي هي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ تدل بظاهرها على معنى نكاح المتعة؛ لأنه - جل وعلا - صرح فيها بما يعلم منه وجوب حفظ الفرج عن غير الزوجة والسرية، ثم صرح بأن المبتغي وراء ذلك من العادين بقوله: ﴿فَمَنْ أَبْغَىٰ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ﴾ وأن المرأة المستمتع بها في نكاح المتعة، ليست زوجة، ولا مملوكة، أما كونها غير مملوكة فواضح. وأما الدليل على كونها غير زوجة، فهو انتفاء لوازم الزوجية عنها كالميراث والعدة والطلاق والنفقة، ونحو ذلك، فلو كانت زوجة لورثت واعتدت ووقع عليها الطلاق، ووجبت لها النفقة، فلما انتفت عنها لوازم الزوجية علمنا أنها ليست بزوجة؛ لأن نفي اللازم يقتضي نفي الملزوم بإجماع العقلاء.

فتبين بذلك أن مبتغي نكاح المتعة من العادين المجاوزين ما أحل الله إلى ما حرم، وقد أوضحنا ذلك في سورة النساء بأدلة الكتاب والسنة، وأن نكاح المتعة ممنوع إلى يوم القيامة، وقد يخفى على طالب العلم معنى لفظة على في هذه الآية يعني قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ... الآية لأن مادة الحفظ لا تتعدى إلى المعمول الثاني في هذا الموضوع بعلی فقيل: إن على بمعنى عن. والمعنى أنهم حافظون فروجهم عن كل شيء، إلا عن أزواجهم، وحفظ قد تتعدى بعن.

وحاول الزمخشري الجواب عن الإتيان بعلی هنا فقال ما نصه: على أزواجهم في موضع الحال أي إلا والين، على أزواجهم، أو قوامين عليهن من قولك: كان فلان على فلانة، فمات عنها، فخلف عليها فلان، ونظيره: كان زياد على البصرة؛ أي والياً عليها، ومنه قولهم: فلانة تحت فلان، ومن ثمة سميت المرأة فراشاً.

والمعنى أنهم لفروجهم حافظون في كافة الأحوال، إلا في تزوجهم أو تسريحهم، أو تعلق على بمحذوف يدل عليه غير ملومين، كأنه قيل: يلامون إلا على أزواجهم أي يلامون على كل مباشرة إلا على ما أطلق لهم، فإنهم غير ملومين عليه، أو تجعله صلة لحافظين من قولك: احفظ على عنان فرسي على تضمينه، معنى النفي كما ضمن قولهم: نشدتك بالله إلا فعلت بمعنى: ما طلبت منك إلا فعلك، اه منه ولا يخفى ما فيه من عدم الظهور.

قال أبو حيان: وهذه الوجوه التي تكلفها الزمخشري ظاهر فيها العجمة، وهي

متكلفة، ثم استظهر أبو حيان أن يكون الكلام من باب التضمنين، ضمن حافظون. معنى: فممسكون أو قاصرون، وكلاهما يتعدى بعلى كقوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧] والظاهر أن قوله هنا: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ مع أن المملوكات من جملة العقلاء، والعقلاء يعبر عنهم بمن لا بما هو أن الإماء لما كنّ يتصفن ببعض صفات غير العقلاء كبيعهن وشرائهن، ونحو ذلك، كان ذلك مسوغاً لإطلاق لفظة ما عليهن، والعلم عند الله تعالى.

وقال بعض أهل العلم: إن وراء ذلك، هو مفعول ابتغى؛ أي ابتغى سوى ذلك، وقال بعضهم: إن المفعول به محذوف، ووراء ظرف؛ أي فمن ابتغى مستمتعاً لفرجه وراء ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَعُونَ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من صفات المؤمنين المفلحين الوارثين الفردوس أنهم راعون لأماناتهم وعهدهم؛ أي محافظون على الأمانات، والعهود. والأمانة تشمل: كل ما استودعك الله، وأمرك بحفظه، فيدخل فيها حفظ جوارحك من كل ما لا يرضي الله، وحفظ ما ائتمنت عليه من حقوق الناس، والعهود أيضاً تشمل: كل ما أخذ عليك العهد بحفظه، من حقوق الله، وحقوق الناس.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من حفظ الأمانات والعهود جاء مبيناً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال] وقوله تعالى في سأل سائل: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَعُونَ﴾. وقوله في العهد: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]. وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَيُؤْخَذُ بِعَمَلَ غَظِيمٍ﴾ [الفتح: ١] وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ [النحل: ٩١] وقد أوضحنا هذا في سورة الأنبياء في الكلام على قوله: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ [الأنبياء: ٧٨]. وقوله: راعون: جمع تصحيح للراعي، وهو القائم على الشيء، بحفظ أو إصلاح كراعي الغنم وراعي الرعية، وفي الحديث «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» الحديث، وقرأ هذا الحرف ابن كثير وحده لأمانتهم بغير ألف بعد النون، على صيغة الأفراد. والباقون بألف بعد النون، على صيغة الجمع المؤنث السالم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من صفات المؤمنين المفلحين الوارثين الفردوس أنهم يحافظون على صلواتهم والمحافظة عليها تشمل إتمام أركانها، وشروطها، وسننها، وفعلها في أوقاتها في الجماعات في المساجد، ولأجل أن ذلك من أسباب نيل الفردوس أمر تعالى بالمحافظة عليها في قوله تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وقال تعالى في سورة المعارج: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ يَخْلَوْنَ ۖ﴾ [المعارج] وقال فيها أيضاً: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۖ﴾.

وذم وتوعد من لم يحافظ عليها في قوله: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ۖ﴾ [مريم]. وقد أوضحنا ذلك في سورة مريم، وقوله تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۖ﴾ [الماعون] الآية. وقال تعالى في ذم المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ ۖ... الآية [النساء: ١٤٢]. وفي الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ أي العمل أحب إلى الله؟ قال «الصلاة على وقتها» الحديث.

وقد قدمناه والأحاديث في فضل الصلاة والمحافظة عليها كثيرة جداً، ولكن موضوع كتابنا بيان القرآن بالقرآن، ولا نذكر غالباً البيان من السنة، إلا إذا كان في القرآن بيان غير واف بالمقصود، فتتمم البيان من السنة كما قدمناه مراراً، وذكرناه في ترجمة هذا الكتاب المبارك.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۖ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۖ﴾، ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن المؤمنين المتصفين بالصفات التي قدمناهم الوارثون، وحذف مفعول اسم الفاعل الذي هو الوارثون، للدلالة قوله: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ عليه، والفرديوس: أعلى الجنة، وأوسطها، ومنته تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن - جل وعلا - وعبر تعالى عن نيل الفردوس هنا باسم الوراثة.

وقد أوضحنا معنى الوراثة والآيات الدالة على ذلك المعنى كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ۖ﴾ [مريم: ٦٣] وقوله: ﴿وَتُورَثُونَ أَنْ تَلَكُمُ الْجَنَّةُ أُورَثُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣] وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤] في سورة مريم في الكلام على قوله: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ۖ﴾ [مريم] فأغنى ذلك عن إعادته هنا، وقرأ هذا الحرف: حمزة والكسائي على صلاتهم بغير واو، بصيغة الإفراد، وقرأ الباكون: على صلواتهم بالواو المفتوحة بصيغة الجمع المؤنث السالم والمعنى واحد؛ لأن المفرد الذي هو اسم جنس، إذا أضيف إلى معرفة، كان صيغة عموم كما هو معروف في الأصول. وقوله هنا: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي بلا انقطاع أبداً، كما قال تعالى: ﴿عَطَاةٌ غَيْرَ مَجْدُوزَةٍ﴾ [هود: ١٠٨] أي غير مقطوع. وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَبَاءٍ ۖ﴾ [ص: ١] وقال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] كما قدمناه مستوفى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۖ﴾ ثم جعلناه نُطْفَةً في قرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٣﴾.

بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أطوار خلقه الإنسان ونقله له من حال إلى حال، ليدل خلقه بذلك على كمال قدرته واستحقاقه للعبادة وحده - جل وعلا - وقد أوضحنا في أول سورة الحج معنى النطفة، والعلقة، والمضغة، وبيننا أقوال أهل العلم في المخلقة، وغير المخلقة، والصحيح من ذلك، وأوضحنا أحكام الحمل إذا سقط علقه أو مضغة هل تنقضي به عدة الحامل أو لا؟ وهل تكون الأمة به أم ولد إن كان من سيدها أو لا؟ إلى غير ذلك من أحكام الحمل الساقط، ومتى يرث، ويورث، ومتى يصلى عليه، وأقوال أهل العلم في ذلك في الكلام على قوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُتِبَ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تَرَابٍ﴾... الآية [الحج: ٥]. وسنذكر هنا ما لم نبينه هنالك مع ذكر الآيات التي لها تعلق بهذا المعنى، أما معنى السلالة: فهي الفعالة من سللت الشيء من الشيء، إذا استخرجته منه، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

خلق البيرة من سلالة منبتن . وإلى السلالة كلها ستعود
والولد سلالة أبيه كأنه أنسل من ظهر أبيه. ومنه قول حسان رضي الله عنه:

فجاءت به غضب الأديم غَضْنَفَرًا سلالة فرج كان غير حصين

وبناء الاسم على الفعالة، يدل على القلة كقلامة الظفر، ونحاة الشيء المنحوت، وهي ما يتساقط منه عند النحت، والمراد بخلق الإنسان من سلالة الطين: خلق أبيهم آدم منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقد أوضحنا فيما مضى أطوار ذلك التراب، وأنه لما بلل بالماء صار طيناً ولما خمر صار طيناً لازباً يلصق باليد، وصار حمأ مسنوناً. قال بعضهم: طيناً أسود منتناً، وقال بعضهم: المسنون: المصور، كما تقدم إيضاحه في سورة الحجر، ثم لما خلقه من طين خلق منه زوجه حواء، كما قال في أول النساء: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُولُ رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَّوْهَا مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] وقال في الأعراف: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] وقال في الزمر: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٦] كما تقدم إيضاح ذلك كله، ثم لما خلق الرجل والمرأة، كان وجود جنس الإنسان منهما عن طريق التناسل، فأول أطواره: النطفة، ثم العلقه، إلخ.

وقد بينا أغلب ذلك في أول سورة الحج، وقوله هنا ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (٧) يعني بداه خلق نوع الإنسان بخلق آدم، وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً﴾؛ أي بعد خلق آدم وحواء، فالضمير في قوله: ثم جعلناه لنوع الإنسان، الذي هو النسل لدلالة المقام عليه، كقولهم: عندي درهم ونصفه؛ أي نصف درهم آخر، كما أوضح تعالى هذا المعنى في سورة السجدة في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ

﴿٩﴾ [السجدة] وأشار إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَائِنْتَهُ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم] وما ذكره هنا من أطوار خلقه الإنسان، أمر كل مكلف أن ينظر فيه. والأمر المطلق، يقتضي الوجوب إلا للدليل صارف عنه، كما أوضحناه مراراً. وذلك في قوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ يَمَّ خُلُقٍ﴾ ⑤ خُلُقٍ مِنْ مَلَأَ دَاقِقٍ ﴿٦﴾ [الطلاق].

وقد أشار في آيات كثيرة إلى كمال قدرته بنقله الإنسان في خلقه من طور إلى طور، كما أوضحه هنا وكما في قوله تعالى ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ ⑫ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ [نوح]. وبين أن انصراف خلقه عن التفكير في هذا والاعتبار به مما يستوجب التساؤل والعجب، وأن من غرائب صنعه وعجائب قدرته نقله الإنسان من النطفة إلى العلقة، ومن العلقة إلى المضغة إلخ، مع أنه لم يشق بطن أمه بل هو مستتر بثلاث ظلمات: وهي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة المنطوية على الجنين، وذلك في قوله - جل وعلا - ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونٍ أُمَّهَاتِكُمْ خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦] فتأمل معنى قوله: ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أي عن هذه العجائب والغرائب، التي فعلها فيكم ربيكم ومعبودكم. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦] وقال: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥]، ثم ذكر الحكمة فقال: ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [الحج: ٥] أي لنظهر لكم بذلك عظمتنا، وكمال قدرتنا، وانفرادنا بالإلهية واستحقاق العبادة، وقال في سورة المؤمن: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ [غافر: ٦٧] وقال تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ ⑭ أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُتَقَى ⑮ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ⑯ فَعَمِلَ مِنْهُ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ⑰ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُخَيَّرَ الْوَلَدَ ⑱ [القيامة] والآيات بمثل هذا كثيرة.

وقد أبهم هذه الأطوار المذكورة في قوله: ﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ مَّاءٍ يَعْلَمُونَ﴾ ⑲ [المعارج] وذلك الإبهام يدل على ضعفهم وعظمة خالقهم - جل وعلا - فسبحانه - جل وعلا - ما أعظم شأنه وما أكمل قدرته، وما أظهر براهين توحيده، وقد بين في آية المؤمنون هذه أنه يخلق المضغة عظاماً، وبين في موضع آخر أنه يركب بعض تلك العظام مع بعض، تركيباً قوياً، ويشد بعضها مع بعض، على أكمل الوجوه وأبدعها، وذلك في قوله: ﴿تَخَنُّ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ ... الآية [الإنسان: ٢٨]، والأسر: شد العظام بعضها مع بعض، وتكسير السرج ومركب المرأة السيور التي يشد بها، ومنه قول حميد بن ثور:

وما دخلت في الخدب حتى تنقضت
تأسير أعلى قده وتحطما

وفي صحاح الجوهري: أسر قته يأسره أسراً شده بالأسار وهو القد، ومنه سمي

الأسير، وكانوا يشدونّه بالقدر، فقول بعض المفسرين واللغويين أسرهم: أي خلقهم فيه قصور في التفسير؛ لأن الأسر هو الشد القوي بالأسار الذي هو القدر، وهو السير المقطوع من جلد البعير ونحوه، الذي لم يدبغ والله - جل وعلا - يشد بعض العظام ببعض، شداً محكماً متماسكاً كما يشد الشيء بالقدر، والشد قوي جداً. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ القرار هنا: مكان الاستقرار، والمكين: المتمكن. وصف القرار به لتمكنه في نفسه بحيث لا يعرض له اختلال، أو لتمكن من يحل فيه. قاله أبو حيان في البحر. وقال الزمخشري: القرار: المستقر، والمراد به: الرحم وصفت بالمكانة التي هي صفة المستقر فيها، أو بمكانتها في نفسها؛ لأنها مكنت بحيث هي وأحرزت. وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ قال الزمخشري: أي خلقاً مبانئاً للخلق الأول مبانئة ما أبعدها حيث جعله حيواناً، وكان جماداً وناطقاً، وكان أبكم وسميعاً، وكان أصم وبصيراً، وكان أكمه وأودع باطنه وظاهره، بل كلّ عضو من أعضائه وجزء من أجزائه عجائب فطرة، وغرائب حكمة، لا تدرك بوصف الواصف، ولا بشرح الشارح، انتهى منه.

وقال القرطبي: اختلف في الخلق الآخر المذكور، فقال ابن عباس، والشعبي، وأبو العالية، والضحاك، وابن زيد: هو نفخ الروح فيه بعد أن كان جماداً. وعن ابن عباس: خروجه إلى الدنيا، وقال قتادة: عن فرقة نبات شعره. وقال الضحاك: خروج الأسنان، ونبات الشعر، وقال مجاهد: كمال شبابه. وروي عن ابن عمر والصحيح، أنه عام في هذا وفي غيره من النطق والإدراك، وتحصيل المعقولات إلى أن يموت، اه منه. والظاهر أن جميع أقوال أهل العلم في قوله: ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾ أنه صار بشراً سوياً بعد أن كان نطفة، ومضغة، وعلقة، وعظاماً كما هو واضح.

مسألة: وقد استدل بهذه الآية الإمام أبو حنيفة رحمته الله، على أن من غصب بيضة، فأفرخت عنده أنه يضمن البيضة، ولا يرد الفرخ؛ لأن الفرخ خلق آخر سوى البيضة، فهو غير ما غصب، وإنما يرد الغاصب ما غصب. وهذا الاستدلال له وجه من النظر، والعلم عند الله تعالى.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿فَبَارَكْ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ وقوله: ﴿فَبَارَكْ اللَّهُ﴾ قال أبو حيان في البحر المحيط: تبارك: فعل ماض لا ينصرف، ومعناه: تعالى وتقدس، اه منه. وقوله في هذه الآية: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أي المقدرين والعرب تطلق الخلق وتريد التقدير. ومنه قول زهير:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ض القوم يخلق ثم لا يفري

فقوله: يخلق ثم لا يفري؛ أي يقدر الأمر، ثم لا ينفذه لعجزه عنه كما هو معلوم. ومعلوم أن النحويين مختلفون في صيغة التفضيل إذا أضيفت إلى معرفة، هل

إضافتها إضافة محضة، أو لفظية غير محضة، كما هو معروف في محله؟ فمن قال: هي محضة أعرب قوله: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ نعتاً للفظ الجلالة، ومن قال: هي غير محضة أعربه بدلاً، وقيل: خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو أحسن الخالقين. وقرأ هذين الجرفين ﴿فَخَلَقْنَا الْمُنْضَغَةَ عَظْمًا﴾ وقوله: ﴿فَكَسَوْنَا الْعَظْمَ لَحْمًا﴾ ابن عامر وشعبة عن عاصم عظمًا: بفتح العين، وإسكان الظاء من غير ألف بصيغة المفرد فيهما، وقرأه الباكون: عظاماً بكسر العين وفتح الظاء، وألف بعدها بصيغة الجمع، وعلى قراءة ابن عامر وشعبة. فالمراد بالعظم العظام.

وقد قدمنا بإيضاح في أول سورة الحج وغيرها أن المفرد إن كان اسم جنس، قد تطلقه العرب، وتريد به معنى الجمع، وأكثرنا من أمثلته في القرآن وكلام العرب مع تعريفه وتنكيره وإضافته، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٧﴾﴾.

بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنهم بعد أن أنشأهم خلقاً آخر، فأخرج الواحد منهم من بطن أمه صغيراً، ثم يكون محتتماً، ثم يكون شاباً، ثم يكون كهلاً، ثم يكون شيخاً، ثم هرمًا أنهم كلهم صائرون إلى الموت من عمر منهم ومن لم يعمر، ثم هم بعد الموت يبعثون أحياء، يوم القيامة للحساب والجزاء، وهذا الموت والحياة المذكوران هنا كل واحد منهما له نظير آخر؛ لأنهما إمامتان وإحياءتان ذكر من كل منهما واحدة هنا، وذكر الجميع في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ نَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوتًا فَأُحْيَكُم ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا آتْنَيْنِ وَأَحْيِيْنَا آتْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] كما قدمنا إيضاحه في سورة الحج والبقرة، وكل ذلك دليل على كمال قدرته، ولزوم الإيمان به، واستحقاقه للعبادة وحده سبحانه وتعالى علواً كبيراً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾﴾.

في قوله تعالى طرائق، وجهان من التفسير:

أحدهما: أنها قيل لها طرائق؛ لأن بعضها فوق بعض من قولهم: طارق النعل إذا صيرها طاقاً فوق طاق، وركب بعضها على بعض، ومنه قوله ﷺ: «كأن وجوههم الميجان المطرقة» أي التراس التي جعلت لها طبقات بعضها فوق بعض، ومنه قول الشاعر يصف نعلًا له مطارقة:

وطراق من خلفهن طراق ساقطات تلوى بها الصحراء

يعني: نعال الإبل، ومنه قولهم: طائر طراق الريش ومطرقة؛ إذا ركب بعض ريشه بعضاً، ومنه قول زهير يصف بازياً:

أهوى لها أسفع الخدين مطرق ريش القوادم لم تنصب له الشبك

وقول ذي الرمة يصف بازياً أيضاً:

طراق الخوافي واقع فوق ريعه ندى ليلة في ريشه يترقرق
وقول الآخر يصف قطاة:

سكاء مخطومة في ريشها طرق سود قوادمها كدر خوافيتها
فعلى هذا القول فقوله: ﴿سَعَّ طَرَائِقُ﴾ يوضح معناه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ
خَلَقَ اللَّهُ سَعَّ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۝﴾... الآية [نوح] وهذا قول الأكثر.

الوجه الثاني: أنها قيل لها طرائق؛ لأنها طرق الملائكة في النزول والعروج،
وقيل: لأنها طرائق الكواكب في مسيرها، وأما قول من قال: قيل لها طرائق لأن لكل
سماة طريقة، وهيئة غير هيئة الأخرى وقول من قال: طرائق؟ أي مبسوطات فكلاهما
ظاهر البعد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ قد قدمنا أن معناه كقوله: ﴿وَيُمْسِكُ
السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ [الحج: ٦٥]؛ لأن من يمسك السماء لو كان يغفل لسقطت
فأهلك الخلق كما تقدم إيضاحه وقال بعضهم: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ بل نحن
القائمون بإصلاح جميع شؤونهم، وتيسير كل ما يحتاجون إليه. وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا
فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ يعني السموات برهان على قوله قبله: ﴿فَرَأَيْتُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تَبْعُثُونَ
۝﴾؛ لأن من قدر على خلق السموات، مع عظمها فلا شك أنه قادر على خلق
الإنسان كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وقوله
تعالى: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝﴾... الآية [النازعات]، وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١] والآيات بمثل هذا متعددة.

وقد قدمنا براهين البعث التي هذا البرهان من جملتها، وأكثرنا من أمثلتها وهي
مذكورة هنا، ولم نوضحها هنا لأننا أوضحناها فيما سبق في النحل والبقرة. والعلم
عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ
لَقَادِرُونَ ۝﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أنزل من السماء ماء معظماً
نفسه - جل وعلا - بصيغة الجمع المراد بها التعظيم وأن ذلك الماء الذي أنزله من
السماء أسكنه في الأرض لينتفع به الناس في الآبار، والعيون، ونحو ذلك، وأنه
- جل وعلا - قادر على إذهابه لو شاء أن يذهبه فيهلك جميع الخلق بسبب ذهاب الماء
من أصله جوعاً وعطشاً وبين أنه أنزله بقدر أي بمقدار معين عنده يحصل به نفع الخلق
ولا يكثره عليهم، حتى يكون كطوفان نوح لئلا يهلكهم، فهو ينزله بالقدر الذي فيه
المصلحة، دون المفسدة سبحانه - جل وعلا - ما أعظمه وما أعظم لطفه بخلقه. وهذه
المسائل الثلاث التي ذكرها في هذه الآية الكريمة، جاءت مبينة في غير هذا الموضع.

الأولى: التي هي كونه أنزله بقدر أشار إليها في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا
خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ۝﴾ [الحجر].

والثانية: التي هي إسكانه الماء المنزل من السماء في الأرض بينها في قوله - جل وعلا -: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَبَاتٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١] والينبوع: الماء الكثير وقوله: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ نَخْلًا وَلَكُمْ فِي الْخَلْجِ لَعْنٌ كَثِيرٌ﴾ [الحجر: ٢٢] على ما قدمنا في الحجر.

والثالثة: التي هي قدرته على إذهابه أشار لها في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: ٢٠] ويشبه معناها قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥] لأنه إذا صار ملحاً أجاجاً لا يمكن الشرب منه، ولا الانتفاع به صار في حكم المعدم، وقد بين كيفية إنزاله الماء من السماء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [النور: ٤٣] فصرح بأن الودق الذي هو المطر يخرج من خلال السحاب الذي هو المزن، وهو الوعاء الذي فيه الماء وبين أن السحابة تمتلئ من الماء حتى تكون ثقيلة لكثرة ما فيها من الماء في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْقَلَتِ سَحَابًا نَقَالًا سَقْنَاهُ لِبَاسًا لَّيْسَ فِيهَا مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ غَلَقٍ وَلَا نَجَسٍ﴾ [الأعراف: ٥٧] فقوله: ثقلاً جمع ثقيلة، وثقلها إنما هو بالماء الذي فيها وقوله تعالى: ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد: ٦٢] جمع سحابة ثقيلة.

وهذه الآيات القرآنية تدل على أن الله يجمع الماء في المزن، ثم يخرج من خلال السحاب، وخلال الشيء ثقوبه وفروجه التي هي غير مسدودة، وبين - جل وعلا - أنه هو الذي ينزله ويصرفه بين خلقه كيف يشاء، فيكثر المطر في بلاد قوم سنة، حتى يكثر فيها الخصب وتزايد فيها النعم، لبيتلي أهلها في شكر النعمة، وهل يعتبرون بعظم الآية في إنزال الماء، ويقل المطر عليهم في بعض السنين، فتهلك مواشيهم من الجذب ولا تنبت زروعهم، ولا تثمر أشجارهم، لبيتليهم بذلك، هل يتوبون إليه، ويرجعون إلى ما يرضيه.

وبين أنه مع الإنعام العام على الخلق بإنزال المطر بالقدر المصلح وإسكان مائه في الأرض ليشربوا منه هم وأنعامهم وينتفعوا به، أبى أكثرهم إلا الكفر به، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِّنُخْرِجَ بِهِ بَلَدَةً مِّيتًا وَنُسْقِيَهُم مِّمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأُنَاسًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨] وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان: ٤٩].

ولا شك أن من جملة من أبى منهم إلا كفوراً الذين يزعمون أن المطر لم ينزل منزلاً هو فاعل مختار، وإنما نزل بطبيعته، فالمنزل له عندهم: هو الطبيعة، وأن طبيعة الماء التبخر، إذا تكاثرت عليه درجات الحرارة من الشمس أو الاحتكاك بالرياح، وأن ذلك البخار يرتفع بطبيعته؛ ثم يجتمع، ثم يتقاطر. وأن تقاطره ذلك أمر طبيعي لا فاعل له، وأنه هو المطر، فينكرون نعمة الله في إنزاله المطر وينكرون دلالة إنزاله على قدرة منزله، ووجوب الإيمان به واستحقاقه للعبادة وحده، فمثل هؤلاء داخلون في قوله: ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ بعد قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا﴾.

وقد صرح في قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ﴾ أنه تعالى، هو مصرف الماء، ومنزله حيث شاء كيف شاء، ومن قبيل هذا المعنى: ما ثبت في صحيح مسلم من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في أثر السماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي، وكافر بي؛ فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب» هذا لفظ مسلم رحمته في صحيحه، ولا شك أن من قال: مطرنا ببخار كذا مسنداً ذلك للطبيعة، أنه كافر بالله مؤمن بالطبيعة والبخار، والعرب كانوا يزعمون أن بعض المطر أصله من البحر، إلا أنهم يسندون فعل ذلك للفاعل المختار - جل وعلا - ومن أشعارهم في ذلك قول طرفة بن العبد:

لا تلمني إنها من نسوة رقد النصف مقاليت نزر
كشبات البحر يمدن إذا أنبت النصف عساليح الخضر
فقوله: بنات البحر يعني: المزن التي أصل مائها من البحر.
وقول أبي ذؤيب الهذلي:

سقى أم عمرو كل آخر ليلة حناتم غر ماؤهن ثجيج
شربن بماء البحر ثم ترفعت متى لجج خضر لهن نشيج
ولا شك أن خالق السموات والأرض - جل وعلا - هو منزل المطر على القدر الذي يشاء كيف يشاء سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.
قوله تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَبَ لَكُمْ فِيهَا فَوَكَّهُ كَثِيرٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة لما دلت عليه هذه الآية الكريمة في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ﴾... الآية [النحل: ٦٧] وغيرها، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدَّهْنِ وَصَبْغٍ لِّلْأَكْلِينَ﴾.

قوله: وشجرة: معطوف على جنات من عطف الخاص على العام. وقد قدمنا مسوَّغه مراراً؛ أي فأنشأنا لكم به جنات، وأنشأنا لكم به شجرة تخرج من طور سيناء وهي شجرة الزيتون، كما أشار له تعالى بقوله: ﴿يُؤْتِي مِّنْ شَجَرِهِ مَيْدَنًا زَيْتُونًا﴾... الآية [النور: ٣٥]، والدهن الذي تنبت به: هو زيتها المذكور في قوله ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ﴾ [النور: ٣٥] ومع الاستضاءة منها، فهي صبغ للأكلين: أي إدام يأتدمون به، وقرأ هذا الحرف: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو: سيناء بكسر السين، وقرأ الباقر: بفتحها، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: تنبت بضم التاء، وكسر الباء الموحدة مضارع أنبت الرباعي،

وقرأ الباقون: تنبت بفتح التاء وضم الباء مضارع: نبت الثلاثي، وعلى هذه القراءة، فلا إشكال في حرف الباء في قوله: بالدهن؛ أي تنبت مصحوبة بالدهن الذي يستخرج من زيتونها، وعلى قراءة ابن كثير وأبي عمرو، ففي الباء إشكال، وهو أن أنبت الرباعي يتعدى بنفسه، ولا يحتاج إلى الباء وقد قدمنا النكتة في الآيات بمثل هذه الباء في القرآن، وأكثرنا من أمثلته في القرآن وفي كلام العرب، في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ يَمِيعَ النَّخْلَةِ﴾... الآية [مريم: ٢٥]، ولا يخفى أن أنبت الرباعي، على قراءة ابن كثير، وأبي عمرو هنا: لازمة لا متعدية إلى المفعول، وأنبت تتعدى، وتلزم فمن تعديها قوله تعالى: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ﴾... الآية [النحل: ١١] وقوله تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩] ومن لزومها قراءة ابن كثير، وأبي عمرو المذكورة، ونظيرها من كلام العرب قول زهير:

رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم قطينا بها حتى إذا أنبت البقل

فقوله: أنبت البقل لازم بمعنى نبت، وهذا هو الصواب في قراءة: تنبت بضم التاء. خلافاً لمن قال: إنها مضارع أنبت المتعدي: وأن المفعول محذوف؛ أي تنبت زيتونها، وفيه الزيت. وقال ابن كثير: الطور: هو الجبل، وقال بعضهم: إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجر، فإن عري عن الشجر، سمي جبلاً لا طوراً، والله أعلم. وطور سيناء: هو طور سينين، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران ﷺ، وما حوله من الجبال، التي فيها شجر الزيتون، اه محل الغرض من كلام ابن كثير.

وفي حديث أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة» رواه أحمد ورواه الترمذي وغيره عن عمر، والظاهر أنه لا يخلو من مقال، وقال فيه العجلوني في كشف الخفاء ومزيل الإلباس: رواه أحمد والترمذي وابن ماجه عن عمر وابن ماجه فقط عن أبي هريرة، وصححه الحاكم على شرطهما ثم قال: وفي الباب عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، اه منه والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ لَّكَ فِي الْآنَعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّتُفَكِّرَ بِمَا فِي بُطُونِهَا وَلَكَّ فِيهَا مَنَفَعٌ كَثِيرٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٢١). قد قدمنا الآيات الموضحة لمعنى هذه الآية، وما يستفاد منها من الأحكام الفقهية في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ لَّكَ فِي الْآنَعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّتُفَكِّرَ بِمَا فِي بُطُونِهَا﴾ الآية مع بيان أوجه القراءة، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَكِ تَكْمَلُونَ﴾ (٢٢). الضمير في قوله: عليها راجع إلى الأنعام المذكورة في قوله: ﴿وَلَئِنْ لَّكَ فِي الْآنَعَامِ﴾ وقد بين تعالى في هذه الآية: أنه يحمل خلقه على الأنعام، والمراد بها هنا الإبل؛ لأن الحمل عليها هو الأغلب، وعلى الفلك: وهي السفن ولفظ الفلك، يطلق على الواحد والجمع من السفن، وما ذكره

تعالى في هذه الآية الكريمة من الامتنان على خلقه بما يسر لهم من الركوب والحمل، على الأنعام والسفن جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْفُسَ لِيَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [٧١] وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَكِ تَحْمَلُونَ﴾ [٨٥] [غافر] وقوله في الأنعام: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ [٧١] وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [٧١] [يسر] وقوله فيها: ﴿وَتَحْمِلُ أَنْفُسَكُمْ إِلَىٰ بُلَدٍ لَّئِنْ تَكُونُوا بِلَاغِهِ إِلَّا نِشْقَ الْأنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [٧١] [النحل] وقوله في الفلك والأنعام معاً: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [٧٢] لِيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَكَ مُقْرِنِينَ﴾ [٧٢] وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [٧٢] [الزخرف] وقوله في السفن: ﴿وَمَا يَكُونُ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ دَرَجَاتٌ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [٨١] وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [٨١] [يسر] وقوله: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلْكَ تَجْرَىٰ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ [الحج: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ الْفَلْكَ مَوَازِيرَ فِيهِ وَلِتَبَلَّغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النحل: ١٤] والآيات بمثل هذا كثيرة، وهذا من نعمه وآياته، وقرن الأنعام بالفلك في الآيات المذكورة؛ لأن الإبل سفائن البر، كما قال ذو الرمة:

ألا خيلت مني وقد نام صحبتي فما نفر التهويم إلا سلامها
طروقا وجلب الرحل مشدودة بها سفينة بر تحت خدي زمامها

فتراه سمى ناقته سفينه بر وجلب الرحل بالضم والكسر عيدانه أو الرحل بما فيه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ﴾.

قد تقدمت الإشارة إلى ما فيه من الآيات، التي لها بيان في مواضع متعددة فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا نُوحًا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولًا كَذَّبُوهُ فَأَتَيْنَاهُ بِبَعْضِهِمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١١] . بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه بعد إرسال نوح والرسول المذكور بعده أرسل رسله تترى أي متواترين واحداً بعد واحد، وكل متتابع متتال تسميه العرب متواتراً، ومنه قول لبيد في معلقته:

يعلمو طريقة متنها متواتر في ليلة كفر النجوم غمامها

يعني مطراً متتابعاً، أو غبار ريح متتابعاً، وتاء تترأ مبدلة من الواو، وأنه كلما أرسل رسولاً إلى أمة كذبوه فأهلكهم، وأتبع بعضهم بعضاً في الإهلاك المستأصل بسبب تكذيب الرسل، وهذا المعنى المذكور في هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات كثيرة. وقد بينت آية استثناء أمة واحدة من هذا الإهلاك المذكور.

أما الآيات الموضحة لما دلت عليه هذه الآية فهي كثيرة جداً كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ] وقوله

تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الزخرف] قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿١٤﴾﴾ ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ الْيَتِيمَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ ... الآية [الأعراف] والآيات بمثل هذا كثيرة جداً.

أما الآية التي بينت استثناء أمة واحدة من هذه الأمم فهي قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُنَافِسُ لِمَاءَ ءَامِنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ... الآية [يونس: ٩٨]، وظاهر آية الصافات أنهم آمنوا إيماناً حقاً، وأن الله عاملهم به معاملة المؤمنين، وذلك في قوله في يونس: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ فَآمَنُوا فَفَتَنْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأحقاف]؛ لأن ظاهر إطلاق قوله: فَآمَنُوا، يدل على ذلك. والعلم عند الله تعالى. ومن الأمم التي نص على أنه أهلكها وجعلها أحاديث سباً؛ لأنه تعالى قال فيهم: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرْفَعَتُهُمْ كُلٌّ مُرْفَقٌ ﴿١٩﴾﴾ وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي أخباراً وقصصاً يسمر بها، ويتعجب منها، كما قال ابن دريد في مقصوده:

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

وقرأ هذا الحرف ابن كثير، وأبو عمرو: تتراً بالتنوين: وهي لغة كنانة، والباقون بألف التانيث المقصورة من غير تنوين: وهي لغة أكثر العرب، وسهل نافع وابن كثير وأبو عمرو الهمزة الثانية من قوله: جاء أمة، وقرأها الباقون بالتحقيق، كما هو معلوم وقوله: ﴿قَبْعًا لَقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مصدر لا يظهر عامله، وقد بعد بعداً بفتحتين، وبعداً بضم فسكون: أي هلك فقوله: بعداً: أي هلاكاً مستأصلاً، كما قال تعالى ﴿أَلَا بُعْدًا لِمَلِيٍّ كَمَا بَعَدَتْ كَمُودٌ﴾ [هود: ٩٥] قال الشاعر:

قل الغناء إذا لاقى الفتى تلفاً قول الأحبة لا تبعد وقد بعدا

وقد قال سيبويه: إن بعداً وسحقاً ودفراً أي تتناً من المصادر المنصوبة بأفعال لا تظهر، اهـ ومن هذا القبيل قولهم: سقياً ورعياً، كقول نابغة ذبيان:

نبئت نعلما على الهجران عاتية سقياً ورعياً لذاك العائب الزاري

والأحاديث في قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ في مفردة وجهان معروفان.

أحدهما: أنه جمع حديث كما تقول: هذه أحاديث رسول الله ﷺ، تريد بالأحاديث جمع حديث، وعلى هذا فهو من الجموع الجارية على غير القياس المشار لها بقول ابن مالك في الخلاصة:

وحائد عن القياس كل ما خالف في البابين حكماً رسماً

يعني بالبابين: التكسير والتصغير، كتكسير حديث على أحاديث وباطل على أباطيل، وكتصغير مغرب، على مغيربان، وعشية على عشيشية. وقال بعضهم: إنها اسم جمع للحديث.

ثانيهما: أن الأحاديث جمع أحداثثة التي هي مثل: أضحوكة، وألعوبة، وأعجوبة بضم الأول، وإسكان الثاني: وهي ما يتحدث به الناس تلهياً، وتعجباً ومنه بهذا المعنى قول توبة بن الحمير:

من الخفرات البيض ود جلسها إذا ما انقضت أحداثثة لو تعيدها
وهذا الوجه أنسب هنا لجريان الجمع فيه على القياس، وجزم به الزمخشري،
والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١﴾.

أمر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة رسله - عليهم الصلاة والسلام - مع أن الموجود منهم، وقت نزولها واحد، وهو نبينا ﷺ، بالأكل من الطيبات: وهي الحلال الذي لا شبهة فيه على التحقيق، وأن يعملوا العمل الصالح؛ وذلك يدل على أن الأكل من الحلال له أثر في العمل الصالح، وهو كذلك، وهذا الذي أمر به الرسل في هذه الآية الكريمة، أمر به المؤمنين من هذه الأمة التي هي خير الأمم، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٥٢﴾ [البقرة] والآية تدل على أن كل رسول أمر في زمنه بالأكل من الحلال، والعمل الصالح، وتأثير الأكل من الحلال في الأعمال معروف. وفي حديث أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١﴾ وقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام يمد يديه إلى السماء، يا رب يا رب فأنتى يستجاب له. وهو يدل دلالة واضحة أن دعاء الذي هو من أعظم القرب لم ينفعه؛ لأنه لم يأكل من الحلال ولم يشرب منه، ولم يركب منه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ ءَمَتُكُمْ ءُمَةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَّبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ۝٥٢﴾ فَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾. قد أوضحنا معنى هاتين الآيتين، وفسرنا ما يحتاج منهما إلى تفسير وبيننا الآيات الموضحة لمعناها في سورة الأنبياء في الكلام على قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ ءَمَتُكُمْ ءُمَةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ۝٥٢﴾ وَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ۝٥٣﴾ [الأنبياء] وبيننا المراد بالأمة مع بعض الشواهد العربية، وبيننا جميع معاني الأمة في القرآن في أول سورة هود في الكلام على قوله ﴿وَلَكِنَّ أَخْرَانَا عَنْهُمْ ءَلْعَابُ الْإِنْسِ أَنَّهُمْ مُّعْذَرُونَ ۝٨﴾ الآية [هود: ٨] فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿فَذَرَّهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤﴾.

أمر - جلّ وعلا - نبيه ﷺ أن يذر الكفار أي يتركهم في غمرتهم إلى حين، أي

وقت معين عند الله، والظاهر أنه وقت انقضاء آجالهم بقتل أو موت، وصيرورتهم إلى ما هم صائرون إليه بعد الموت من العذاب البرزخي، والأخروي، وكون المراد بالحين المذكور: وقت قتلهم، أو موتهم ذكره الزمخشري عن علي عليه السلام بغير سند.

وأقوال أهل العلم في معنى غمرتهم راجعة إلى شيء واحد، كقول الكلبي: في غمرتهم؛ أي جهلتهم. وقول ابن بحر: في حيرتهم، وقول ابن سلام: في غفلتهم، وقول بعضهم: في ضلالتهم فمعنى كل هذه الأقوال واحد، وهو أنه، أمره أن يتركهم فيما هم فيه من الكفر والضلال والغبي والمعاصي. قال الزمخشري: الغمرة: الماء الذي يغمر القامة فضربت مثلاً لما هم مغمورون فيه من جهلهم، وغمائتهم أو شبهوا باللاعبيين في غمرة الماء لما هم عليه من الباطل، قال ذو الرمة:

ليالي اللهو يطبيني فأتبعه كأنني ضارب في غمرة لعب

وصيغة الأمر في قوله ﴿ذَرُّهُمْ فِي غَمْرِهِمْ﴾ للتهديد، وقد تقرر في فن الأصول في مبحث الأمر وفي فن المعاني في مبحث الإنشاء أن من المعاني التي تأتي لها صيغة افعل التهديد، وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، من تهديد الكفار الذين كذبوا نبينا ﷺ، جاء موضحاً في مواضع أخرى، كقوله: ﴿ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٢٠] وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَنَّهُمْ رَبُّوهُمْ﴾ [الطارق: ١٧] وقوله: ﴿قُلْ تَسْمَعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠] وقوله: ﴿قُلْ تَمَنَّعَ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا المعنى في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: ﴿ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾... الآية [الحجر: ٣] وتكلمنا هناك على لفظ ذرهم.

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّكُمْ تُبْدَهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ رَيْنٍ﴾ (٥٥) شائع لهم في الخبرين بل لَا يَشْعُرُونَ (٥٦). قد أوضحنا الكلام على الآيات الموضحة لهاتين الآيتين في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ رُودَتْ إِلَى رَبِّهِ لَآجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] فأعني ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُفُّ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. ما تضمنته هذه الآية من التخفيف في هذه الحنفية السمحة، التي جاء بها نبينا ﷺ قد ذكرنا طرفاً من الآيات الدالة عليه في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] فأعني ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَطْلُقُ بِالْحَقِّ وَهُوَ لَا يَطْلُقُونَ﴾.

الحق أن المراد بهذا الكتاب كتاب الأعمال الذي يحصيها الله فيه، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَطْلُقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ١٩].

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا المعنى في الكهف، في الكلام عَلَى قوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾... الآية [الكهف: ٤٩]، وفي سورة الإسراء في الكلام عَلَى قوله ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

والظاهر أن معنى نطق الكتاب بالحق أن جميع المكتوب فيه حق، فمن قرأ المكتوب فيه، كأنه لا ينطق في قراءته له إلا بالحق، وربما أطلقت العرب اسم الكلام على الخط، كما روي عن عائشة أنها قالت: ما بين دفتي المصحف كلام الله، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخْتَصِرُونَ﴾ (٦٤) لَا تَخْشَرُوا الْيَوْمَ إِنَّا كُنَّا لَا تَنْصُرُونَ﴾ (٦٥). حتى هنا في هذه الآية هي التي يبدأ بعدها الكلام، والكلام الجملة الشرطية، والعذاب الذي أخذهم ربهم به، قيل: هو عذاب يوم بدر بالقتل والأسر، وقيل: الجوع والقحط الشديد الذي أصابهم، لما دعا عليهم رسول الله ﷺ فقال: «اللهم اشدد وطأتك عَلَى مضر اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف» فأصابهم بسبب دعوته ﷺ من الجوع الشديد، عذاب أليم، وأظهرها عندي أنه أخذهم بالعذاب يوم القيامة، وقد بين تعالى في هاتين الآيتين أنه أخذ مترفهم بالعذاب، والمترفون هم أصحاب النعمة والرفاهية في دار الدنيا. وهذا المعنى أشار له بقوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْكَافِرِينَ أَزْوَاجًا لَا يَنصُرُونَ﴾ (٦٤) وَأُولَى النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَبِيلًا﴾ (٦٥) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾ (٦٦) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٦٧) [المزمل]. فقوله: أُولَى النعمة يريد بهم: المترفين في الدنيا، وبين أنه سيعذبهم بعد التهديد بقوله: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾ (٦٦) [المزمل]، وقوله: يجأرون، الجوار: الصراخ باستغاثة، والعرب تقول: جأر الثور يجأر: صاح، فالجوار كالخوار وفي بعض القراءات (عجلا جسداً له جوار) بالجيم والهمزة: أي خوار، وجأر الرجل إلى الله: تضرع بالدعاء.

فمعنى الآية الكريمة أن المنعمين في الدنيا من الكفار، إذا أخذهم الله بالعذاب يوم القيامة، صاحوا مستصرخين مستغيثين، يطلبون الخلاص مما هم فيه، وصراخهم واستغاثتهم المشار له هنا، جاء في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ (٣١) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧] فقوله: يصطرخون: يفتعلون من الصراخ، مستغيثين يريدون الخروج مما هم فيه، بدليل قوله تعالى عنهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧] فهذا الصراخ المذكور في هذه الآية العام للمترفين وغيرهم، هو الجوار المذكور عن المترفين هنا، ومن إطلاق العرب الجوار على الصراخ والدعاء للاستغاثة قول الأعشى:

يراوح من صلوات المليك فظوراً سجوداً وظوراً جواراً

والجوار المذكور: هو النداء في قوله: ﴿كُرْ أَهْلَكُمَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادََا وَلَا تَجِئَا

مَنَاصِرٍ ﴿٢٦﴾ [ص] لأن نداءهم نداء استغاثة واستصراخ وكقوله تعالى: ﴿وَنَادُوا بِمَلِكٍ لِّيَقْضِيَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ﴾... الآية [الزخرف: ٧٧]؛ لأن القضاء عليهم من أعظم الأمور التي يطلبونها، فيستغيثون بالموت من دوام ذلك العذاب الشديد، أجازنا الله وإخواننا المسلمين منه. وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَبِّقًا مُّقْرَّبَيْنَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿٢٧﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفرقان] وذلك الدعاء بالشبور الذي هو أعظم الهلاك، والويل من أنواع جوارهم والعياذ بالله. وقوله تعالى في هذه الآية ﴿لَا تَحْتَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنْهَا لَا تَنْصُرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ يدل على أنهم إن استغاثوا لم يغاثوا، وإن استرحموا لم يرحموا، وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿وَلَنْ يَسْتَنْصِفُوا بِغَاثُوا يَمَاءً كَأَمْهَلِ يَشْوَى الْوُجُوهُ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكَبُونَ ﴿٣٠﴾﴾. لما بين أن المترفين من الكفار إذا أخذهم ربهم بالعذاب، ضجوا وصاحوا واستغاثوا، وبين أنهم لا يغاثون كما أوضحناه آنفاً بين سبب ذلك بقول: ﴿فَقَدْ كَانَتْ آيَاتِي﴾ أي التي أرسلت بها رسلي ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ تقرأ عليكم واضحة مفصلة، فكنتم على أعقابكم تنكصون: ترجعون عنها القهقري. والعقب: مؤخر القدم، والنكوص: الرجوع عن الأمر، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفُتَيَانُ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: ٤٨] ومنه قول الشاعر:

زعموا بأنهم على سبل النجاة ة وإنما نكص على الأعقاب

وهذا المعنى الذي ذكره هنا: أشار له في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا آيَاتِنِ وَأَحْيِيْنَا أَلْمَتَيْنِ فَاعْرِفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿٣١﴾﴾ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿٣٢﴾﴾ [غافر] فكفرهم عند ذكر الله وحده، من نكوصهم على أعقابهم، وبين في موضع آخر أنهم إذا تلى عليهم آياته، لم يقتصروا على النكوص عنها، على أعقابهم، بل يكادون يبطشون بالذي يتلوها عليهم، لشدة بغضهم لها، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [الحج: ٧٢] وهذا الذي ذكرنا أن العذاب عذاب يوم القيامة، أظهر عندنا من قول من قال: إنه يوم بدر أو الجوع، ومن قول من زعم أن الذين يجأرون: هم الذين لم يقتلوا يوم بدر وأن جوارهم من قبل إخوانهم، فكل ذلك خلاف الظاهر، وإن قاله من قاله.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَذَّبَرُوا الْقَوْلَ﴾. يتضمن حضهم، على تدبر هذا القول الذي هو القرآن العظيم؛ لأنهم إن تدبروه تدبراً صادقاً، علموا أنه حق، وأن اتباعه واجب وتصديق من جاء به لازم. وقد أشار لهذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانُ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [النساء] وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانُ أَمْرٌ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد] وقوله في هذه الآية

الكريمة: ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ﴾ قال القرطبي: فأنكروه، وأعرضوا عنه، وقيل: أم بمعنى: بل جاءهم ما لا عهد لآبائهم به، فلذلك أنكروه، وتركوا التدبر له.

وقال ابن عباس: وقيل المعنى: أم جاءهم أمان من العذاب، وهو شيء لم يأتي آباءهم الأولين، قال أبو حيان في تفسير هذه الآية: قرعهم أولاً بترك الانتفاع بالقرآن، ثم ثانياً بأن ما جاءهم جاء آباءهم الأولين؛ أي إرسال الرسل ليس بدعاً، ولا مستغرباً، بل أرسلت الرسل للأمة قبلهم، وعرفوا ذلك بالتواتر ونجاة من آمن، واستئصال من كذب، وآبأوهم إسماعيل وأعقابه إلى آخر كلامه. وهذا الوجه من التفسير له وجه من النظر وعليه فالآية كقوله: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ﴾... الآية [الأحقاف: ٩] ونحوها من الآيات.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ مُنْكَرُونَ﴾ ﴿٦٩﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة لهذه الآية في سورة يونس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ فَيْكُمُ غُمرًا مِنْ قَبْلِهِ﴾... الآية [يونس: ١٦] فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَانُوا كَافِرِينَ﴾ ﴿٧٠﴾.

أم المذكورة في هذه الآية هي المعروفة عند النحويين بأمر المنقطعة، وضابطها ألا تتقدم عليها همزة تسوية نحو ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾... الآية [البقرة: ٦] أو همزة مغنية، عن لفظة: أي كقولك أزيد عندك أم عمرو؟ أي أيهما عندك؟ فالمسبوقة بإحدى الهمزتين المذكورتين، هي المعروفة عندهم بأمر المتصلة، والتي لم تسبق بواحدة منهما هي المعروفة بالمنقطعة كما هنا، وأمر المنقطعة تأتي لثلاثة معان.

الأول: أن تكون بمعنى: بل الإضرابية.

الثاني: أن تكون بمعنى همزة استفهام الإنكار.

الثالث: أن تكون بمعنى همزة استفهام الإنكار. هذا الأخير هو الأكثر في معناها، خلافاً لابن مالك في الخلاصة في اقتضاره على أنها بمعنى: بل في قوله:

وبانقطاع وبمعنى بل وفـت إن تك مما قيدت به خلت

ومراد بخلوها مما قيدت به: ألا تسبقها إحدى الهمزتين المذكورتين، فإن سبقتها إحداها، فهي المتصلة كما تقدم قريباً، وعلى ما ذكرنا فيكون المعنى متضمناً للإضراب عما قبله إضراباً انتقاليّاً، مع معنى استفهام الإنكار، فتضمن الآية الإنكار على الكفار في دعواهم: أن نبينا ﷺ به جنة أي جنون يعنون أن هذا الحق الذي جاءهم به هذان مجنون، قبحهم الله ما أجددهم للحق، وما أكفرهم ودعواهم عليه هذه أنه مجنون كذبها الله هنا بقوله: ﴿بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ﴾ فالإضراب ببل إبطالي.

والمعنى ليس بمجنون بل هو رسول كريم جاءكم بالحق الواضح، المؤيد

بالمعجزات الذي يعرف كل عاقل، أنه حق، ولكن عاندتم وكفرتم لشدة كراهيتكم للحق، وما نفته هذه الآية الكريمة من دعوهم عليه الجنون صرح الله بنفيه في مواضع آخر كقوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير] وقوله تعالى: ﴿فَمَا أَنْتَ بِمُعْتَرِكٍ لِّبَكَاهِنٍ وَلَا بِمَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩] وهذا الجنون الذي افترى على آخر الأنبياء، افترى أيضاً على أولهم، كما قال تعالى في هذه السورة الكريمة عن قوم نوح أنهم قالوا فيه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَرَضُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [٥٥] وقد بين في موضع آخر أن الله لم يرسل رسولاً إلا قال قومه: إنه ساحر، أو مجنون، كأنهم اجتمعوا فتواصوا على ذلك لتواطئ أقوالهم لرسولهم عليه، وذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ [٥٥] اتواصوا به بل هم قوم طاعون [٥٦] [الذاريات] فبين أن سبب تواطئهم على ذلك ليس التواصي به، لاختلاف أزمته، وأمكتهم، ولكن الذي جمعهم على ذلك هو مشابهة بعضهم لبعض في الطغيان، وقد أوضح هذا المعنى في سورة البقرة في قوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهْتُمْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، فهذه الآيات تدل على أن سبب تشابه مقالاتهم لرسولهم، هو تشابه قلوبهم في الكفر والطغيان، وكراهية الحق وقوله ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كِرْهُونٌ﴾ ذكر نحو معناه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كِرْهُونٌ﴾ [الزخرف] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُنَادِيهِمْ ءَايَتُنَا بِنِئْنٍ تُعْرَفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرُ﴾ [الحج: ٧٢]، وذلك المنكر الذي تعرفه في وجوههم، إنما هو لشدة كراهيتهم للحق، ومن الآيات الموضحة لكراهيتهم للحق أنهم يمتنعون من سماعه، ويستعملون الوسائل التي تمنعهم من أن يسمعه، كما قال تعالى في قصة أول الرسل الذين أرسلهم بتوحيده والنهي عن الإشراك به، وهو نوح ﴿وَإِنِّي كُنْتُ مَدْعُوهُمْ لِيُغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغُرَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [٧] وإنما جعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم خوف أن يسمعوا ما يقوله لهم نبيهم نوح - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - من الحق، والدعوة إليه. وقال تعالى في أمة آخر الأنبياء ﷺ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]، فترى بعضهم ينهى بعضاً عن سماعه، ويأمرهم بالغو فيه، كالصياح والتصفيق المانع من السماع لكراهتهم للحق، ومحاولتهم أن يغلبوا الحق بالباطل.

وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف وهو أن يقال: قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كِرْهُونٌ﴾ يفهم من مفهوم مخالفته أن قليلاً من الكفار، ليسوا كارهين للحق. وهذا السؤال وارد أيضاً على آية الزخرف التي ذكرنا آنفاً، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كِرْهُونٌ﴾ [الزخرف: ٧٨].

والجواب عن هذا السؤال: هو ما أجاب به بعض أهل العلم بأن قليلاً من الكفار كانوا لا يكرهون الحق، وسبب امتناعهم عن الإيمان بالله ورسوله ليس هو كراهيتهم للحق، ولكن سببه الأنفة والاستكاف من توبيخ قومهم، وأن يقولوا صباوا وفارقوا دين

آبائهم، ومن أمثلة من وقع له هذا أبو طالب فإنه لا يكره الحق، الذي جاء به النبي ﷺ وقد كان يشد عضده في تبليغه رسالته كما قدمنا في شعره في قوله:

* اصدع بأمرك ما عليك غضاضة *

الآيات وقال فيها:

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية ديناً
وقال فيه ﷺ أيضاً:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

وقد بين أبو طالب في شعره أن السبب المانع له من اعتناق الإسلام ليس كراهية الحق، ولكنه الأنفة والخوف من ملامة قومه أو سبهم له كما في قوله:

لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحاً بذاك يقينا
قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْكَافِرُ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾.

اختلف العلماء في المراد بالحق في هذه الآية، فقال بعضهم: الحق: هو الله تعالى، ومعلوم أن الحق من أسمائه الحسنى، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥] وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [الحج: ٦] وكون المراد بالحق في الآية هو الله عزاء القرطبي للأكثرين، وممن قال به: مجاهد وابن جريج، وأبو صالح، والسدي. وروي عن قتادة، وغيرهم.

وعلى هذا القول فالمعنى لو أجابهم الله إلى تشريع ما أحبوا تشريعه وإرسال من اقترحوا إرساله، بأن جعل أمر التشريع وإرسال الرسل ونحو ذلك تابعاً لأهوائهم الفاسدة، لفسدت السموات والأرض، ومن فيهن؛ لأن أهواءهم الفاسدة وشهواتهم الباطلة، لا يمكن أن تقوم عليها السماء والأرض وذلك لفساد أهوائهم، واختلافها. فالأهواء الفاسدة المختلفة لا يمكن أن يقوم عليها نظام السماء والأرض ومن فيهن، بل لو كانت هي المتبعة لفسد الجميع.

ومن الآيات الدالة على أن أهواءهم لا تصلح لأن تكون متبعة قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ١٨] لأن القرآن لو أنزل على أحد الرجلين المذكورين، وهو كافر يعبد الأوثان فلا فساد أعظم من ذلك. وقد رد الله عليهم بقوله ﴿أَمْ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾... الآية [الزخرف: ٣٢] وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّم تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنشَاءِ وَكَانَ الْإِنشَاءُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ٨٠] وقال تعالى: ﴿أَمْ هُمْ تَقْسِمُونَ أَنَّا لَنُؤْتِيَنَّ النَّاسَ نَفِيرًا﴾ [النساء: ٥٢] قال ابن كثير رحمه الله: ففي هذا كله تبين عجز العباد، واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله وشرعه وقدره وتدييره لخلق سبحانه وتعالى علواً كبيراً.

ومما يوضح أن الحق لو اتبع الأهواء الفاسدة المختلفة لفسدت السموات والأرض ومن فيهن قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

القول الثاني أن المراد بالحق في الآية: الحق الذي هو ضد الباطل المذكور في قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ وهذا القول الأخير اختاره ابن عطية، وأنكر الأول.

وعلى هذا القول فالمعنى أنه لو فرض كون الحق متبعاً لأهوائهم، التي هي الشرك بالله، وادعاء الأولاد، والأنذاد له ونحو ذلك: لفسد كل شيء؛ لأن هذا الفرض يصير به الحق، وهو أبطل الباطل، ولا يمكن أن يقوم نظام السماء والأرض على شيء، هو أبطل الباطل؛ لأن استقامة نظام هذا العالم لا تمكن إلا بقدرة وإرادة إله هو الحق منفرد بالتشريع، والأمر والنهي كما لا يخفى على عاقل، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَلِيتَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾. اختلف العلماء في الذكر في الآية فمنهم من قال: ذكرهم: فخرهم، وشرفهم؛ لأن نزول هذا الكتاب على رجل منهم، فيه لهم أكبر الفخر والشرف، وعلى هذا، فالآية كقوله: ﴿وَأَنَّهُ لَذِكْرُ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] على تفسير الذكر بالفخر والشرف، وقال بعضهم: الذكر في الآية: الوعظ والتوصية، وعليه فالآية كقوله: ﴿ذَلِكَ تَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران] وقال بعضهم: الذكر هو ما كانوا يتمنونوه في قولهم: ﴿لَوْ أَنَّنَا عِنْدَ ذِكْرِكَ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [لَمَّا عَادَ اللَّهُ الْمُتَلَفِّينَ] [الصافات] وعليه، فالآية كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِمْدَى الْأُنْثَىٰ﴾ [فاطر: ٤٢] وعلى هذا القول فقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا قُبُورًا﴾ [فاطر: ٤٢] الآية كقوله هنا ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ وكقوله: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٧] والآيات بمثل هذا على القول الأخير كثيرة، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَقَرْجُكَ خَيْرٌ وَمَوْ خَيْرٌ الرَّزْقِينَ﴾ [٧١]. المراد بالخروج والخراج هنا: الأجر والجزاء، والمعنى أنك لا تسألهم على ما بلغتهم من الرسالة المتضمنة لخيري الدنيا والآخرة، أجرة ولا جعلاً، وأصل الخروج والخراج: هو ما تخرجه إلى كل عامل في مقابلة أجرة، أو جعل، وهذه الآية الكريمة تتضمن أنه ﷺ لا يسألهم أجراً، في مقابلة تبليغ الرسالة.

وقد أوضحنا الآيات القرآنية الدالة على أن الرسل لا يأخذون الأجرة على التبليغ في سورة هود، في الكلام على قوله تعالى عن نوح: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾... الآية [هود: ٢٩]. وبيننا وجه الجمع بين تلك الآيات، مع آية ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] وبيننا هناك حكم أخذ الأجرة، على تعليم القرآن وغيره، فأغنى ذلك عن إعادته هنا. وقرأ هذين الحرفين ابن عامر: خرجا

فخرج ربك، بإسكان الرءاء فيهما معاً، وحذف الألف فيهما، وقرأ حمزة والكسائي: خراجاً فخراج ربك بفتح الرءاء بعدها ألف فيهما معاً، وقرأ الباقون: خراجاً فخراج ربك بإسكان الرءاء، وحذف الألف في الأول، وفتح الرءاء وإثبات الألف في الثاني، والتحقيق أن معنى الخرج والخراج واحد، وأنهما لغتان فصيحتان وقراءتان سبعيتان، خلافاً لمن زعم أن بين معنهما فرقاً زاعماً أن الخرج ما تبرعت به، والخراج: ما لزمك أدائه. ومعنى الآية لا يساعد على هذا الفرق كما ترى، والعلم عند الله تعالى.

وصيغة التفضيل في قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّزِقِينَ﴾ نظراً إلى أن بعض المخلوقين يرزق بعضهم كقوله تعالى: ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْثُوهُمْ﴾ [النساء: ٥] وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْوَلَدِ لَهُمْ رِزْقُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ الآية [البقرة: ٢٣٣]، ولا شك أن فضل رزق الله خلقه، على رزق بعض خلقه بعضهم، كفضل ذاته وسائر صفاته على ذوات خلقه، وصفاتهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْكَ لِنَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٦).

قد قدمنا الآيات الموضحة، لمعنى هذه الآية في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَمَكِلُ هَذَا مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧] فأغنى عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَوِّنَنَّ﴾ (٧٦).

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الذين لا يؤمنون بالآخرة لإنكارهم البعث والجزاء، ناكبون عن الصراط، والمراد بالصراط، الذي هم ناكبون عنه: الصراط المستقيم الموصل إلى الجنة المذكور في قوله قبله: ﴿وَلَيْكَ لِنَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٦) ومن نكب عن هذا الصراط المستقيم، دخل النار بلا شك.

والآيات الدالة على ذلك كثيرة كقوله تعالى في سورة الروم: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١٧] ومعنى قوله: لناكبون: عادلون عنه، حائدون غير سالكين إياه وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول نصيب:

خليلي من كعب ألما هديتما بزینب لا تفقدكما أبداً كعب
من اليوم زوراهما فإن ركبنا غداة غد عنها وعن أهلها نكب

جمع ناكبة، عنها: أي عادلة عنها متباعدة عنها، وعن أهلها.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَمَحْنَهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٥).

قد بينا الآيات الموضحة لما دلت عليه هذه الآية من أنه تعالى يعلم المعدم الذي سبق في علمه أنه لا يوجد، أن لو وجد كيف يكون، في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] فأغنى ذلك عن إعادته هنا: وقوله في هذه الآية: ﴿لَلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ اللجاج هنا: التماذي في الكفر والضلال. والطغيان: مجاوزة الحد، وهو كفرهم بالله، وادعائهم له الأولاد

والشركاء، وقوله: يعمهون: يترددون متحيرين لا يميزون حقاً، من باطل. وقال بعض أهل العلم: العمه: عمى القلب، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَاثُوا لِلرَّيْبِ وَمَا يَنْصُرُونَهُ﴾ (٧٦).

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أخذ الكفار بالعذاب، والظاهر أنه هنا العذاب الدنيوي كالجوع والقحط والمصائب، والأمراض والشدائد، ﴿فَمَا اسْتَكَاثُوا لِلرَّيْبِ﴾ أي ما خضعوا له، ولا ذلوا ﴿وَمَا يَنْصُرُونَهُ﴾ أي ما يتهلون إليه بالدعاء متضرعين له، ليكشف عنهم ذلك العذاب لشدة قسوة قلوبهم، وبعدهم من الانعاز، ولو كانوا متصفين بما يستوجب ذلك من إصابة عذاب الله لهم. وهذا المعنى الذي ذكره هنا جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُم بِالْأَسَاءِ وَالْضَّرِّ لَعَلَّهُمْ يَضُرُّونَ﴾ (٤٢) ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤٣) [الأنعام] وقوله في سورة الأعراف: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْأَسَاءِ وَالضَّرِّ لَعَلَّهُمْ يَضُرُّونَ﴾ (٤٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آلَ الْهَآءِ الضَّرُّ وَالضَّرُّ فَآخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٤٥) [الأعراف] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨).

قد ذكرنا الآيات التي فيها إيضاح لمعنى هذه الآية في سورة النحل. في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وبيننا هناك وجه أفراد السمع مع الجمع للأبصار والأفئدة، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٧٩). ذرأكم معناه: خلقكم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقوله في الأرض: أي خلقكم وبشكم في الأرض، عن طريق التناسل، كما قال تعالى: ﴿وَبَيْنَٰهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَشِدَاءٌ﴾ [الساء: ١] وقال: ﴿إِذَا أَنشَأَ بِشَرٍّ نَّتَشَبَّرُ﴾ [الروم: ٢٠] وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي إليه وحده، تجمعون يوم القيامة أحياء بعد البعث للجزاء والحساب.

وما تضمنته هذه الآية من أنه خلقهم وبشهم في الأرض وأنه سيحشرهم إليه يوم القيامة، جاء معناه في آيات كثيرة كقوله في أول هذه السورة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِّن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (١٣) إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّا كَرَّمْنَا الْقَائِمَةَ تُصْبِتُ﴾ (١٤) وذكر - جل وعلا - أيضاً هاتين الآيتين في سورة الملك في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٢١) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٢) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) [الملك] والآيات في هذا المعنى كثيرة.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾. قد قدمنا الآيات الدالة على الإماتتين والإحياءتين، وأن ذلك من أكبر الدواعي للإيمان به - جل وعلا - في سورة الحج في

الكلام على قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الحج: ٦٦] وفي سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]. فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن له اختلاف الليل والنهار، يعني: أن ذلك هو الفاعل له وهو الذي يذهب بالليل، ويأتي بالنهار، ثم يذهب بالنهار ويأتي بالليل، واختلاف الليل والنهار، من أعظم آياته الدالة على كمال قدرته، ومن أعظم منته على خلقه كما بين الأمرين في سورة القصص في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) [القصص]. أي لتسكنوا في الليل وتطلبوا معاشكم بالنهار، والآيات الدالة على أن اختلاف الليل والنهار، من أعظم الآيات الدالة على عظمة الله، واستحقاقه للعبادة وحده كثيرة جداً كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾... الآية [فصلت: ٣٧] وقوله: ﴿وَأَيُّهُ لَهُمُ اللَّيْلُ سَلَخٌ مِنْهُ النَّهَارُ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ (٧٧) [يس] وقوله: ﴿يُعْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ﴾. [الأعراف: ٥٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا إِلِيلَ سَابِقُ النَّهَارُ﴾ [يس: ٤٠] وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١) [يونس] والآيات بمثل هذا كثيرة جداً، وقوله تعالى: أفلا تعقلون؟ أي تدركون بعقولكم أن الذي ينشئ السمع والأبصار والأفئدة، ويذروكم في الأرض وإليه تحشرون، وهو الذي يحيي ويميت ويخالف بين الليل والنهار، أنه الإله الحق المعبود وحده - جل وعلا -، الذي لا يصح أن يسوى به غيره سبحانه وتعالى علواً كبيراً.

قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ (٨١) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَنَبْعُوهُنَّ (٨٢). لفظة بل هنا للإضراب الانتقالي.

والمعنى أن الكفار الذين كذبوا نبينا ﷺ، قالوا مثل ما قالت الأمم قبلهم، من إنكار البعث؛ لأن الاستفهام في قوله ﴿أَوْنَا لَنَبْعُوهُنَّ﴾ إنكار منهم للبعث.

والآيات الدالة على إنكارهم للبعث كثيرة كقوله تعالى عنهم: ﴿مَنْ يُعِى الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] وكقوله عنهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٥] وقوله عنهم: ﴿إِذَا كُنَّا عِظْمًا فَخْرَةً﴾ (٨١) قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (٨٢) [النازعات: ٣٥] والآيات بمثل هذا في إنكارهم البعث كثيرة، وقد بينا في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾... الآية [البقرة: ٢١]. وفي أول

سورة النحل، وغيرهما الآيات الدالة على البعث بعد الموت، وأوردنا منها كثيراً كقوله ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ...﴾ الآية [يس: ٧٩]. وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخُلُقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِن تَرَابٍ﴾ [الحج: ٥] الآيات. وأوضحنا أربعة براهين قرآنية دالة على البعث بعد الموت، وأكثرنا من ذكر الآيات الدالة على ذلك، فأغنى ذلك عن التطويل هنا. وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿أَوَدَّا مِنَّا﴾ قرأ نافع والكسائي، بالاستفهام في: أئذا متنا، وحذف همزة الاستفهام، في أئنا لمبعوثون بل قرأ إنا لمبعوثون بصيغة الخبر لدلالة الاستفهام الأول، على الاستفهام الثاني المحذوف وقرأه ابن عامر بالعكس، فحذف همزة الاستفهام، من أئذا، وقرأ إذا بدون استفهام، وأثبت همزة الاستفهام في قوله: ﴿أَوَدَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ وقد دل الاستفهام الثاني المثبت في قراءة ابن عامر، على الاستفهام الأول المحذوف فيها، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة بالاستفهام فيهما معا ﴿أَوَدَّا مِنَّا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْنَا أَوَدَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ وهم على أصولهم في الهمزتين، فنافع وابن كثير وأبو عمرو يسهلون الثانية، والباقيون يحققونها، وأدخل قالون، وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر ألفاً بين الهمزتين. وقرأ الباقيون بالقصر دون الألف، وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص، عن عاصم: متنا بكسر الميم، والباقيون: بضم الميم. وقد قدمنا في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلَ هَذَا﴾ الآية [مريم: ٢٣] وجه كسر الميم في إسناد الفعل الذي هو مات إلى تاء الفاعل، وبيننا أنه يخفى على كثير من طلبة العلم. وأوضحنا وجهه غاية مع بعض الشواهد العربية، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَءَاوَدْنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار المنكرين للبعث قالوا: إنهم وعدوا بالبعث، ووعد به آبائهم من قبلهم، والظاهر أنهم يعنون أجدادهم، الذين جاءتهم الرسل، وأخبرتهم بأنهم يبعثون بعد الموت للحساب والجزاء، وقالوا: إن البعث الذي وعدوا به هم وآبائهم كذب لا حقيقة له، وأنه ما هو إلا أساطير الأولين؛ أي ما سطره وكتبه من الأباطيل والترهات، والأساطير: جمع أسطورة، وقيل: جمع أسطورة. وهذا الذي ذكره عنهم من إنكارهم البعث ذكر مثله في سورة النمل في قوله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَاوَدْنَا أَبْنَاءَ لَمُخْرَجُونَ﴾ [النمل: ٧] لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَاوَدْنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ [النمل] ثم إنه تعالى أقام البرهان على البعث، الذي أنكروه في هذه الآية بقوله ﴿قُلْ لَّيِّنَ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٨٤] إلى قوله: ﴿فَأَن تَشْعُرُونَ﴾ لأن من له الأرض، ومن فيها، ومن هو رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، ومن بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، لا شك أنه قادر على بعث الناس بعد الموت، كما أوضحنا فيما مر البراهين القرآنية القطعية، الدالة على ذلك.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٨٥) ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٨٦) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِقُ﴾ (٨٧) ﴿قُلْ مَنْ يَدِيرُ الْأَمْرَ فَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا نُنْفِقُ﴾ (٨٨) ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (٨٩).

قدمنا ما دلت عليه هذه الآيات الكريمة، من كماله وجلاله وأوصافه ربوبيته المستلزمة لإخلاص العبادة له وحده، في سورة يونس في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ النَّفْسَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا نُنْفِقُ﴾ [يونس] وفي سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [الأنبياء: ٩] وأوضحنا دلالة توحيده في ربوبيته، على توحيده في عبادته وقد ذكرنا كثيراً من الآيات القرآنية الدالة على ذلك، مع الإيضاح، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وقوله في هذا الآية الكريمة: ﴿مَنْ يَدِيرُ الْأَمْرَ فَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا نُنْفِقُ﴾: فعلت من الملك؛ أي من يدير ملك كل شيء، بمعنى: من هو مالك كل شيء كائناً ما كان: وقال بعض أهل العلم: زيادة التواو والتاء في نحو: الملكوت، والرحموت، والرهبوت بمعنى الملك والرخمة، والرهبة: تفيد المبالغة في ذلك، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي هو يمنع من شاء ممن شاء، ولا يمنع أحداً منه أحداً شاء أن يهلكه أو يعذبه؛ لأنه هو القادر وحده، على كل شيء، وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير. ومنه قول الشاعر:

أراك طفقت تظلم من أجبرنا وظلم الجار إذلال المجير

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ أي كيف تخدعون، وتصرفون عن توحيد ربكم، وطاعة مع ظهور براهينه القاطعة وأدلتها الساطعة، وقيل ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ أي كيف يخيل إليكم: أن تشركوا به ما لا يضر، ولا ينفع، ولا يغني عنكم شيئاً بناء على أن السحر هو التخيل.

وقد قدمنا الكلام على السحر مستوفى في سورة طه في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩] والظاهر أن معنى تسحرون هنا: تخدعون بالشبه الباطلة فيذهب بقولكم، عن الحق كما يفعل بالمسحور، والله تعالى أعلم.

وقوله ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الصفات] قرأه حفص عن عاصم، وحمزة، والكسائي بتخفيف الذال بحذف إحدى التاءين، والباقون بالتشديد لإدغام إحدى التاءين في الذال.

وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ جاء في هذه الآيات ثلاث مرات.

الأول: سيقولون لله، قل أفلا تذكرون. وهذه اتفق جميع السبعة على قراءتها بلام الجر الداخلة على لفظ الجلالة؛ لأنها جواب المجرور بلام الجر، وهو قوله: ﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ فجواب لمن لأرض، هو أن تقول: لله، وأما الثاني الذي هو

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٩٧) والثالث: الذي هو قوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ (٩٨) فقد قرأهما أبو عمرو بحذف لام الجر ورفع الهاء من لفظ الجلالة.

والمعنى على قراءة أبي عمرو المذكورة واضح لا إشكال فيه؛ لأن الظاهر في جواب من رب السموات السبع، ورب العرش العظيم أن تقول: الله بالرفع أي رب ما ذكر هو الله، وكذلك جواب قوله ﴿مَنْ يَدْعُو مَلَكَتْ كُلُّ شَيْءٍ﴾ الآية، فالظاهر في جوابه أيضاً أن يقال: الله بالرفع: أي الذي بيده ملكوت كل شيء هو الله، فقراءة أبي عمرو جارية على الظاهر، الذي لا إشكال فيه. وقرأ الحرفين المذكورين غيره من السبعة، بحرف الجر وخفض الهاء من لفظ الجلالة كالأول.

وفي هذه القراءة التي هي قراءة الجمهور سؤال معروف وهو أن يقال: ما وجه الإتيان بلام الجر، مع أن السؤال لا يستوجب الجواب بها؛ لأن قول: ﴿مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الظاهر أن يقال في جوابه: ربهما الله، وإذا يشكل وجه الإتيان بلام الجر. والجواب عن هذا السؤال معروف واضح؛ لأن قوله تعالى: ﴿مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ﴾ الآية، وقوله: ﴿مَنْ يَدْعُو مَلَكَتْ كُلُّ شَيْءٍ﴾ فيه معنى من هو مالك السموات والأرض، والعرش وكل شيء، فيحسن الجواب بأن يقال: لله؛ أي كل ذلك ملك لله، ونظيره من كلام العرب قول الشاعر:

إذا قيل من رب المزالف والقرى ورب الجياد الجرد قلت لخالد

لأن قوله: من رب المزالف فيه معنى من هو مالكها، فحسن الجواب باللام؛ أي هي لخالد. والمزالف: جمع مزلفة كمرحلة. قال في القاموس: هي كل قرية تكون بين البر والريف، وجمعها مزالف.

قوله تعالى: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا بَضَعُوا عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (٩١). بين الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل:

الأولى: أنه لم يتخذ ولداً سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

والثانية: أنه لم يكن معه إله آخر سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

والثالثة: أنه أقام البرهان على استحالة تعدد الآلهة بقوله: ﴿إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا بَضَعُوا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أما ادعائهم له الأولاد، فقد بينا الآيات الدالة على عظم فريتهم في ذلك، وظهور بطلان دعواهم، ورد الله عليهم في ذلك في مواضع متعددة، فقد أوضحناه في سورة النحل في الكلام، على قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ... الآية [النحل: ٥٧، ٥٨]. وذكرنا طرفاً منه في أول الكهف في الكلام على قوله: ﴿وَنُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ (٢١) [الكهف] وفي مواضع غير ما ذكر، فأغنى ذلك عن إعادته.

وأما تفردہ تعالیٰ بالألوهیة مع إقامة الدلیل علی ذلك فقد بیناه، وذكرنا ما یدل علیہ من الآیات فی سورة بنی اسرائیل، فی الكلام علی قوله تعالیٰ: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَقُوا إِلَيَّ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء] ولم نتعرض لما یسمیہ المتكلمون دلیل التمانع، لكثرة المناقشات الواردة علی أهل الكلام فیہ، وإنما بینا الآیات بالقرآن علی طریق الاستدلال القرآنی بها فأغنی ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالیٰ: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُ مَا يُوعَدُونَ﴾ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤). أمر - جلا وعلا - نبیه فی هاتین الآیتین الکریمتین أن یقول: رب إِمَّا تُرِيدُ مَا یُوعَدُونَ؟ أي إن تُرِيدُ ما توعدهم من العذاب بأن تنزله بهم، وأنا حاضر شاهد أرى نزوله بهم ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي لا تجعلني فی جملة المعذبين الظالمين، بل أخرجني منهم، ونجني من عذابهم، وقد بین تعالیٰ فی مواضع أخر أنه لا یُنزل بهم العذاب، وهو فیهم وذلك فی قوله تعالیٰ: ﴿وَمَا كُنَّا إِلَهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾... الآية [الأنفال: ٣٣]، وبین هنا أنه قادر علی أن یُرِیَ العذاب، الذي وعدهم به فی قوله: ﴿وَأَنَا عَلَيَّ أَنْ تُرِيدَ مَا وَعَدْتَهُمْ لَقَدْ يُرِيدُونَ﴾ (٩٥) وبین فی سورة الزخرف أنه إن ذهب به قبل تعذيبهم، فإنه معذب لهم ومنتقم منهم لا محالة، وأنه إن عذبهم، وهو حاضر فهو مقتدر علیهم. وذلك فی قوله تعالیٰ: ﴿فَأَمَّا نَذَبْنَا بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ (٩٦) أَوْ تُرِيدُكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْنَا مُنْتَقِمُونَ (٩٧) [الزخرف].

قوله تعالیٰ: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (٩٨) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٩) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (١٠٠).

هذا الذي تضمنته هذه الآيات الثلاث مما ينبغي أن يعامل به شياطين الإنس وشياطين الجن. قد قدمنا الآيات الدالة عليه بإيضاح في آخر سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالیٰ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٠١) وَإِنَّمَا يَزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيَاطِينِ نَزْعٌ... الآية [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠]. وقوله فی هذه الآية ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي بالخصلة التي هي أحسن الخصال، والسيئة مفعول ادفع ووزن السيئة، فبعلة أصلها: سيوئة وحروفها الأصلية السين والواو والهمزة، وقد زیدت الياء الساكنة بین الفاء والعين، فوجب إبدال الواو التي هي عين الكلمة ياء وإدغام ياء الفعلة الزائدة فيها على القاعدة التصريفية المشار لها بقول ابن مالك في الخلاصة:

إن يسكن السابق من واو ويا واتصلا ومن عروض عريا
فياء الواو اقلبن مدغما وشذ معطي غير ما قد رسما

كما قدمناه مراراً، والسيئة في اللغة: الخصلة من خصال السوء. وقوله تعالیٰ: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي بما تصفه ألسنتهم من الكذب في تكذيبهم لك، وادعائهم الأولاد والشركاء لله. وقد قدمنا في سورة المائدة أن اللين والصفح المطلوب في آيات

القرآن بعد نزول القتال إنما هو بالنسبة إلى المؤمنين، دون الكافرين في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِذْ لَوْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وبيننا الآيات الدالة على ذلك كقوله في النبي ﷺ وأصحابه ﴿أَشِدَّةٌ عَلَى الْكَافِرِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وقوله: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] وقوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدُ الْكَفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] إلى آخر ما تقدم، وقوله في هذه الآية: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ (٧٧) الهمزات: جمع همزة وهي المرة من فعل الهمز، وهو في اللغة: النخس والدفع، وهمزات الشياطين نخساتهم لبني آدم ليحثوهم، ويحضوهم على المعاصي، كما أوضحنا الكلام عليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيْطَانَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣] وكقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفَيِّضْ لَهُمُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٦٦) وَلَهُمْ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ... الآية [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

والظاهر في قوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِي﴾ (٧٨) أن المعنى أعوذ بك أن يحضرني الشيطان في أمر من أموري كائناً ما كان، سواء كان ذلك وقت تلاوة القرآن، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٧٨) [النحل: ٩٨] أو عند حضور الموت أو غير ذلك من جميع الشؤون في جميع الأوقات، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (٧٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا، الظاهر عندي أن حتى في هذه الآية هي التي يبتدأ بعدها الكلام، ويقال لها: حرف ابتداء، كما قاله ابن عطية، خلافاً للزمخشري القائل: إنها غاية لقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ ولأبي حيان القائل: إن الظاهر له أن قبلها جملة محذوفة هي غاية لها يدل عليها ما قبلها، وقدرة الجملة المذكورة بقوله فلا أكون كالكفار الذين تهمزهم الشياطين ويحضرونهم، حتى إذا جاء أحدهم الموت قال: رب ارجعون. ونظير حذف هذه الجملة قول الشاعر وهو الفرزدق:

فواعجباً حتى كليب تسبني كأن أباهـا نهشل أو مجاشع

قال المعنى يسبني الناس حتى كليب، فدل ما بعد حتى على الجملة المحذوفة. وفي الآية دل ما قبلها عليها. انتهى الغرض من كلام أبي حيان، ولا يظهر عندي كل الظهور.

بل الأظهر عندي: هو ما قدمته وهو قول ابن عطية، وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن الكافر والمفرط في عمل الخير إذا حضر أحدهما الموت طلبا الرجعة إلى الحياة، ليعملا العمل الصالح الذي يدخلهما الجنة، ويتداركا به ما سلف منهما من الكفر والتفريط وأنهما لا يجابان لذلك، كما دل عليه حرف الزجر والردع الذي هو كلا جاء موضحاً في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْفِكَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ يَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٠) وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا... الآية [المنافقون: ١٠، ١١]. وقوله تعالى ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ

الْعَذَابِ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُحِبِّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ اأَوَّلَمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٩٩﴾ [إبراهيم] إلى غير ذلك من الآيات، وكما أنهم يطلبون الرجعة عند حضور الموت، ليصلحوا أعمالهم فإنهم يطلبون ذلك يوم القيامة ومعلوم أنهم لا يجابون إلى ذلك.

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْيِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِن مُّثْعَمَةٍ فَيشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [السجدة] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يُوقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا لَوْلَا إِلَهُنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَكُن مِن الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمُ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنعام] وقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُوا هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الشورى: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَتُنَزِّلُ اثْنَيْنِ وَأُحْيِيَتُنَا أَثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿٧٧﴾﴾ [غافر] وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧٧﴾﴾ [فاطر] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾ وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥١﴾﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ... الآية [سبأ: ٥١ - ٥٣]. وقد تضمنت هذه الآيات التي ذكرنا، وأمثالها في القرآن أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند حضور الموت، ويوم النشور ووقت عرضهم على الله تعالى، ووقت عرضهم على النار.

وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف وهو أن يقال: ما وجه صيغة الجمع في قوله: ﴿رَبِّ ارْجِعُون﴾ ولم يقل: رب ارجعني بالافراد.

وقد أوضحنا الجواب عن هذا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب وبيننا أنه يجاب عنه من ثلاثة أوجه:

الأول: وهو أظهرها أن صيغة الجمع في قوله: ارجعون، لتعظيم المخاطب وذلك النادم السائل الرجعة يظهر في ذلك الوقت تعظيمه ربه، ونظير ذلك من كلام العرب قول الشاعر حسان بن ثابت أو غيره:

ألا فارحموني يا إله محمد فإن لم أكن أهلاً فأنت له أهل
وقول الآخر يخاطب امرأة:

وإن شئت حرمت النساء سواكم وإن شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا
والنقاخ: الماء البارد والبرد: النوم، وقيل: ضد الحر.. والأول أظهر.

الوجه الثاني: قوله: رب استغاثة به تعالى، وقوله: ارجعون: خطاب للملائكة،

ويستأنس لهذا الوجه بما ذكره ابن جرير، عن ابن جريج قال: قال رسول الله ﷺ لعائشة: «إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا نرجعك إلى دار الدنيا فيقول: إلى دار الهموم والأحزان، فيقول: بل قدموني إلى الله وأما الكافر فيقولون له: نرجعك؟ فيقول: رب ارجعون».

الوجه الثالث: وهو قول المازني: إنه جمع الضمير ليدل على التكرار فكأنه قال: رب ارجعني ارجعني ارجعني، ولا يخفى بعد هذا القول كما ترى. والعلم عند الله تعالى. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَعَلَّيْ أَغْمَلُ صَالِحًا﴾ الظاهر أن لعل فيه للتعليل؛ أي ارجعون، لأجل أن أغمل صالحاً، وقيل: هي للترجي والتوقع؛ لأنه غير جازم، بأنه إذا رد للدنيا عمل صالحاً، والأول أظهر، والعمل الصالح يشمل جميع الأعمال من الشهادتين والحج الذي كان قد فرط فيه والصلوات والزكاة ونحو ذلك، والعلم عند الله تعالى. وقوله كلا: كلمة زجر: وهي دالة على أن الرجعة التي طلبها لا يعطاها كما هو واضح.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١٠١)، في هذه الآية الكريمة سؤالان معروفان يحتاجان إلى جواب مبين للمقصود من زيل للإشكال.

السؤال الأول: أنه تعالى ذكر في هذه الآية أنه إذا نفخ في الصور، والظاهر أنها النفخة الثانية، أنهم لا أنساب بينهم يومئذ، فيقال: ما وجه نفي الأنساب بينهم، مع أنها باقية كما دل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ﴾ (١٠٢) يَوْمَ يَقْرَأُ الرَّؤُوفُ مِنْ أَخِيهِ (١٠٣) وَأُخُوهُ (١٠٤) وَصَحْبُهُ وَبَنُوهُ (١٠٥) [عبر] ففي هذه الآية ثبوت الأنساب بينهم.

السؤال الثاني: أنه قال ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ مع أنه ذكر في آيات أخر أنهم في الآخرة يتساءلون، كقوله في سورة الطور ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١٠٦) [الطور] وقوله في الصافات: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١٠٧) [الصافات] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد ذكرنا الجواب عن هذين السؤالين في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب بما حاصله:

أن الجواب عن السؤال الأول هو أن المراد بنفي الأنساب انقطاع آثارها، التي كانت مترتبة عليها في دار الدنيا، من التفاخر بالآباء، والنفع والعواطف والصلوات. فكل ذلك ينقطع يوم القيامة، ويكون الإنسان لا يهيمه إلا نفسه، وليس المراد نفي حقيقة الأنساب، من أصلها بدليل قوله ﴿يَوْمَ يَقْرَأُ الرَّؤُوفُ مِنْ أَخِيهِ (١٠٢) وَأُخُوهُ (١٠٣) وَبَنُوهُ (١٠٤)﴾ [سبأ] الآية.

وأن الجواب عن السؤال الثاني من ثلاثة أوجه:

الأول: هو قول من قال: إن نفي السؤال بعد النفخة الأولى، وقبل الثانية، وإثباته بعدهما معاً، وهذا الجواب فيما يظهر لا يخلو من نظر.

الثاني: أن نفي السؤال عند اشتغالهم بالصعق والمحاسبة، والجواز على الصراط وإثباته فيما عدا ذلك وهو عن السدي، من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس.

الثالث: أن السؤال المنفي سؤال خاص، وهو سؤال بعضهم العفو من بعض، فيما بينهم من الحقوق، لقنوطهم من الإعطاء، ولو كان المسؤول أباً أو ابناً أو أمّاً أو زوجة، ذكر هذه الأوجه الثلاثة صاحب الإتيان.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (١٠٣)، قد قدمنا الآيات الموضحة، لمعنى هاتين الآيتين في سورة الأعراف في الكلام على قوله: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الأعراف: ٨، ٩]. وقوله في سورة مريم: ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٥] وغير ذلك. فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ (١٠٤).

ما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار تلفح وجوههم النار؛ أي تحرقها إحراقاً شديداً، جاء موضحاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [الأحزاب: ٦٦]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [النمل: ٩٠]. وقوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣٩]. وقوله تعالى: ﴿سَرَابِلُهُمْ مِّنْ فَطْرَانٍ وَتَعَثَّى وُجُوهُهُمْ﴾ [النار: ٥٥]. وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَاحِشَهُمْ سَوَاءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: ٢٤] وقوله: ﴿يَسْئَرُ الْوُجُوهُ يَسُكُ الشَّرَابِ﴾ [الكهف: ٢٩]. إلى غير ذلك من الآيات وقوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ الكالِح: هو الذي تقلصت شفتاه حتى بدت أسنانه، والنار والعياذ بالله تحرق شفاههم، حتى تقلص عن أسنانهم، كما يشاهد مثله في رأس الشاة المشوي في نار شديدة الحر، ومنه قول الأعشى:

وله المقدم لا مثل له ساعة الشدق عن الناب كلح

وعن ابن عباس: كالحنون: عابسون.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ مِّنْ ءَايَاتِي تُنَلَّى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ (١٠٦).

ما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن أهل النار يستلون يوم القيامة، فيقول لهم ربهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ مِّنْ ءَايَاتِي تُنَلَّى عَلَيْكُمْ﴾ أي في دار الدنيا على ألسنة الرسل فكنتم بها تكذبون، وأنهم اعترفوا بذلك، وأنهم لم يجيبوا الرسل لما دعوهم إليه من الإيمان؛ لأن الله أراد بهم الشقاء وهم ميسرون لما خلقوا له، فلذلك كفروا، وكذبوا الرسل.

قد أوضحنا الآيات الدالة عليه في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وقوله هنا: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ (١٠٦) الظاهر أن معنى قولهم: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أن الرسل بلغتهم، وأنذرتهم وتلت عليهم آيات

ربهم، ولكن ما سبق في علم الله من شقاوتهم الأزلية، غلب عليهم، فكذبوا الرسل، ليصيروا إلى ما سبق في علمه جل وعلا، من شقاوتهم، ونظير الآية على هذا الوجه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٧﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يونس] وقوله عن أهل النار: ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١] إلى غير ذلك من الآيات، ويزيد ذلك إيضاحاً قوله ﷺ: «كُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ» وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِّمُكُمْ كَافِرًا وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢] وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ تُخَلِّفُونَ ﴿١٠٨﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] على أصح التفسيرين وقوله عنهم: ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ اعتراف منهم بضلالهم، حيث لا ينفع الاعتراف بالذنب ولا الندم عليه، كقوله تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠٩﴾﴾ [الملك] ونحو ذلك من الآيات.

وهذا الذي فسرنا به الآية، هو الأظهر الذي دل عليه الكتاب والسنة، وبه تعلم أن قول أبي عبد الله القرطبي في تفسير هذه الآية، وأحسن ما قيل في معناه: غلبت علينا لذاتنا وأهواؤنا، فسمى اللذات والأهواء شقوة لأنهما يؤديان إليها كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠]؛ لأن ذلك يؤديهم إلى النار، اهد تكلف مخالف للتحقيق.

ثم حكى القرطبي ما ذكرنا أنه الصواب بقليل ثم قال: وقيل: حسن الظن بالنفس، وسوء الظن بالخلق، اهـ.

ولا يخفى أن الصواب هو ما ذكرنا - إن شاء الله تعالى - وقوله هنا: ﴿قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ أي عن الإسلام إلى الكفر، وعن طريق الجنة إلى طريق النار، وقرأ هذا الحرف: حمزة، والكسائي: شقاوتنا بفتح الشين، والقاف وألف بعدها، وقرأه الباقون: بكسر الشين، وإسكان القاف وحذف الألف.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ قَالَ أَخْسَتْ فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونِ ﴿١١٠﴾﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أهل النار يدعون ربهم فيها فيقولون: ربنا أخرجنا منها فإن عدنا إلى ما لا يرضيك بعد إخراجنا منها، فإننا ظالمون، وأن الله يجيبهم بقوله: ﴿أَخْسَتْ فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونِ﴾ أي امكثوا فيها خاسئين؛ أي أذلاء صاغرين حقيرين؛ لأن لفظة أخساً إنما تقال للحقير الدليل، كالكلب ونحوه، فقوله: ﴿أَخْسَتْ فِيهَا﴾ أي ذلوا فيها ماكثين في الصغار والهوان.

وهذا الخروج من النار الذي طلبوه قد بين تعالى أنهم لا ينالونه كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ وَمِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة] وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُرِيدُهُمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧] وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يُخْرِجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يُخْرِجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد جاء في القرآن أجوبة متعددة لطلب أهل النار فهنا قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ فأجيبوا ﴿أَفْسَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾.

وفي السجدة ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ فأجيبوا ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾. الآية [السجدة: ١٢ - ١٣].

وفي سورة المؤمن ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتَيْنَاكَ أَتَيْنَا وَلَاحِقَتْنَا أَتَيْنَا فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١٠﴾﴾ فأجيبوا ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١١١﴾﴾ [عافر].

وفي الزخرف ﴿وَوَادُوا بِمَنَّا لِكَيْ يَقْضَىٰ عَلَيْنَا رُدُّكَ﴾ فأجيبوا ﴿إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]. وفي سورة إبراهيم ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ فيجابون ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

وفي سورة فاطر ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فيجابون ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرْ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على مثل هذه الأجوبة.

وعن ابن عباس أن بين كل طلب منها وجوابه ألف سنة والله أعلم. وقوله في هذه الآية ﴿وَلَا تُكَلِّمُون﴾؛ أي في رفع العذاب عنكم، ولا إخراجكم من النار أعادنا الله، وإخواننا المسلمين منها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ فَأَتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرَاءَ حَتَّىٰ أَسْأَلْتُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١١﴾﴾.

قد تقرر في الأصول في مسلك الإيماء والتنبيه، أن إن المكسورة المشددة من حروف التعليل كقولك: عاقبه إنه مسيء؛ أي لأجل إساءته. وقوله في هذه الآية: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي﴾ الآيتين. يدل فيه لفظ إن المكسورة المشددة، على أن من الأسباب التي أدخلتهم النار هو استهزاؤهم، وسخريتهم من هذا الفريق المؤمن الذي يقول: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾، فالكفار يسخرون من ضعفاء المؤمنين في الدنيا حتى ينسيهم ذلك ذكر الله، والإيمان به فيدخلون بذلك النار.

وما ذكره تعالى في هاتين الآيتين الكريمتين أشار له في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المطففين] وكقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا﴾... الآية [الأنعام: ٥٣] وكل ذلك احتقار منهم لهم، وإنكارهم أن الله يمن عليهم بخير، وكقبوله تعالى: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾... الآية [الأعراف: ٤٩]. وقوله تعالى عنهم: ﴿أَوَ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] وكل ذلك احتقار منهم لهم، وقوله: ﴿فَأَتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرَاءَ﴾ والسخري بالضم والكسر: مصدر

سخر منه، إذا استهزء به على سبيل الاحتقار. قال الزمخشري في ياء النسب: زيادة في الفعل، كما قيل في الخصوصية بمعنى الخصوص، ومعناه أن الياء المشددة في آخره تدل على زيادة سخرهم منهم: ومبالغتهم في ذلك، وقرأ نافع وحزمة والكسائي: سخرتاً بضم السين، والباقون بكسرهما ومعنى القراءتين واحد، وهو سخرية الكفار واستهزائهم بضعفاء المؤمنين، كما بينا. وممن قال بأن معناهما واحد: الخليل وسيبويه، وهو الحق - إن شاء الله تعالى - وعن الكسائي والقرءاء أن السخري بكسر السين من قبيل ما ذكرنا من الاستهزاء، وأن السخري بضم السين من التسخير، الذي هو التذليل والعبودية.

والمعنى أن الكفار يسخرون ضعفاء المؤمنين، ويستعبدونهم كما كان يفعل أمية بن خلف ببلال، ولا يخفى أن الصواب هو ما ذكرنا - إن شاء الله تعالى - وحتى في قوله: ﴿حَتَّىٰ أَسْأَلُكُمْ ذِكْرِي﴾ حرف غاية، لاتخاذهم إياهم سخرتاً أي لم يزالوا كذلك، حتى أنساهم ذلك ذكر الله والإيمان به، فكان مأواهم النار، والعياذ بالله.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه جزي أولئك المؤمنين المستضعفين في الدنيا بالفوز بالجنة في الآخرة. وقوله ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾، أي بسبب صبرهم في دار الدنيا، على أذى الكفار الذين اتخذوهم سخرتاً، وعلى غير ذلك من امتهال أمر الله، واجتناب نهيه، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة، من أن أولئك المستضعفين الذين كان الكفار يستهزئون بهم، جزاهم الله يوم القيامة الفوز بجنته، ورضوانه، جاء مبيناً في مواضع آخر مع بيان أنهم يوم القيامة يهزؤون بالكفار، ويضحكون منهم، والكفار في النار والعياذ بالله، كقوله تعالى: ﴿قَالِیْمَ الَّذِیْنَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ یَضْحَكُونَ﴾ (٢١) عَلَى الْأَرْوَاحِ یَظُنُّونَ (٢٢) هَلْ تُؤْتَى الْكُفَّارُ مَا كَانُوا یَقُولُونَ (٢٣) [المطففين] وقوله تعالى: ﴿أَمْوَلَهُ الَّذِیْنَ أَقْسَمْتُمْ لَا یَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَیْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (٢٤) [الأعراف] وقوله: ﴿زَیْنٌ لِلَّذِیْنَ كَفَرُوا الْحَیْوةُ الدُّنْیَا وَیَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِیْنَ ءَامَنُوا وَالَّذِیْنَ أَتَقَوْا قَوْفَهُمْ یَوْمَ الْقِیَمَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢] إلى غير ذلك من الآيات، وقرأ حمزة والكسائي: إنهم هم الفائزون بكسر همزة إن، وعلى قراءتهما فمفعول جزيتهم: محذوف أي جزيتهم جنتي إنهم هم الفائزون، وعلى هذه القراءة فإن لاستثناف الكلام، وقرأ الباقر: أنهم هم الفائزون بفتح همزة أن، وعلى قراءة الجمهور هذه فالمصدر المنسبك، من أن وصلتها: مفعول به لجزيتهم: أي جزيتهم فوزهم كما لا يخفى. والفوز نيل المطلوب الأعظم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ (٢٥) قَالُوا لَبِئْنَا یَوْمًا أَوْ بَعْضَ یَوْمٍ فَسْأَلُ الْعَادِیْنَ (٢٦). في هذه الآية سؤال معروف وهو أنهم لما سئلوا يوم القيامة عن قدر مدة لبثهم في الأرض أجابوا بأنهم لبثوا يوماً أو بعض يوم، مع أنه قد دلت آيات أخر على أنهم أجابوا بغير هذا الجواب كقوله تعالى: ﴿یَتَخَفَتُونَ یَوْمَهُمْ إِنْ

لَيْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١١٦﴾ [طه] والعشر أكثر من يوم أو بعضه، وكقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥] والساعة: أقل من يوم أو بعضه، وقوله: ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُؤْتَوْنَ لِأَنَّهُمْ يُخَيَّبُونَ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ [النازعات] وقوله: ﴿كَانَ لَوْ يَلْبَثُونَ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥] وقوله تعالى: ﴿لَوْ يَلْبَثُونَ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ نَّهَارٍ بَلَّغَ فُهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقد بينا الجواب عن هذا السؤال في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في الكلام على هذه الآية بما حاصله أن بعضهم يقول لبثنا يوماً أو بعض يوم، ويقول بعض آخر منهم: لبثنا ساعة ويقول بعض آخر منهم لبثنا عشراً.

والدليل على هذا الجواب من القرآن أنه تعالى بين أن أقوامهم إدراكاً، وأرجحهم عقلاً، وأمثلهم طريقة هو من يقول: إنهم ما لبثوا إلا يوماً واحداً، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [١١٦] نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١١٧﴾ [طه]، فالآية صريحة في اختلاف أقوالهم، وعلى ذلك فلا إشكال والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَسَلِّ الْعَلَاِينَ﴾ أي الحاسبين، الذين يضبطون مدة لبثنا، وقرأ ابن كثير والكسائي بنقل حركة الهمزة إلى السين، وحذف الهمزة، والباقون: فاسأل بغير نقل، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي: قل كم لبثتم بضم القاف وسكون اللام بصيغة الأمر، وقرأ الباقر: قال كم لبثتم بفتح القاف بعدها ألف وفتح اللام بصيغة الفعل الماضي.

وقال الزمخشري ما حاصله أنه على قراءة قال بصيغة الماضي فالفاعل ضمير يعود إلى الله، أو إلى من أمر بسؤالهم من الملائكة، وعلى قراءة قل بصيغة الأمر، فالضمير راجع إلى الملك المأمور بسؤالهم أو بعض رؤساء أهل النار هكذا قال. والله تعالى أعلم، وقد صدقهم الله - جل وعلا - في قلة لبثهم في الدنيا بقوله: ﴿قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [١١٧] لأن مدة مكثهم في الدنيا قليلة جداً، بالنسبة إلى طول مدتهم خالدين في النار، والعياذ بالله. وقرأ حمزة والكسائي: قل إن لبثتم إلا قليلاً بصيغة الأمر والباقر بصيغة الماضي.

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [١١٨] فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِئِكُ الْعَقْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٩﴾. الاستفهام في قوله: أفحسبتم للإنكار، والحسبان هنا معناه: الظن. يعني أظنتم أنا خلقناكم عبثاً لا لحكمة، وأنكم لا ترجعون إلينا يوم القيامة، فنجازيكم على أعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ثم نزه - جل وعلا - نفسه، عن أن يكون خلقهم عبثاً، وأنهم لا يرجعون إليه للحساب والجزاء.

وقوله: ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِئِكُ الْعَقْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [١١٩] أي تعاظم وتقدس، وتنزه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، ومنه خلقكم عبثاً سبحانه وتعالى، عن ذلك علواً كبيراً.

وما تضمنته هذه الآية من إنكار الظن المذكور جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۖ﴾ [ص] وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ﴾ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ [الدخان: ٣٨، ٣٩] وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ۖ﴾ (٣٩) أَلَمْ تَرَ أَنَّا جَعَلْنَا نَارَ الْفُتُوحِ مِنْ مَنِيِّ يَمْنَى ۖ ثُمَّ كَانَ عَقَقَةً فَطَلَقَ نَسْوَى ۖ﴾ (٣٨) جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۖ﴾ [القيامة] وقوله: سدى؛ أي مهملاً لا يحاسب ولا يجازي، وهو محل إنكار ظن ذلك في قوله ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ۖ﴾ [القيامة] وقوله: ﴿عَبَثًا﴾: يجوز إعرابه حالاً؛ لأنه مصدر منكر أي إنما خلقناكم في حال كوننا عابثين، ويجوز أن يعرب مفعولاً من أجله؛ أي إنما خلقناكم، لأجل العبث لا لحكمة اقتضت خلقنا إياكم، وأعرابه بعضهم مفعولاً مطلقاً، وليس بظاهر. قال القرطبي عبثاً: أي مهملين، والعبث في اللغة: اللعب، ويدل على تفسيره في الآية باللعب قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ﴾ (٣٨) [الدخان] وقوله: ﴿أَلَمْ يَكُنْ الْحَقُّ﴾ قال بعضهم أي الذي يحق له الملك؛ لأن كل شيء منه وإليه. وقال بعضهم: الملك الحق: الثابت الذي لا يزول ملكه، كما قدمنا إيضاحه في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْدِّينُ وَإِصْبَآءُ﴾ [النحل: ٥٢] وإنما وصف عرشه بالكرم لعظمته وكبر شأنه والظاهر أن قوله: ﴿وَأَنكُمُ إِنَّا لَا تُرْجِعُونَ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ خلافاً لمن قال: إنه معطوف على قوله: عبثاً؛ لأن الأول أظهر منه والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [البرهان: البرهان: الدليل الذي لا يترك في الحق لبساً، وقوله: لا برهان له به كقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ﴾... الآية [الحج: ٢١]. والسلطان: هو الحجة الواضحة وهو بمعنى: البرهان.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ قد بين أن حسابه الذي عند ربه، لا فلاح له فيه بقوله بعده ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ وأعظم الكافرين كفراً هو من يدعو مع الله إلهاً آخر، لا برهان له به، ونفى الفلاح عنه يدل على هلاكه وأنه من أهل النار، وقد حذر الله من دعاء إله معه في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٥١) [الذاريات] وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص] وقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ [الإسراء] والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً، ولا خلاف بين أهل العلم أن قوله هنا ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ لا مفهوم مخالفة له، فلا يصح لأحد أن يقول: أما من عبد معه إلهاً آخر له برهان به فلا مانع من ذلك، لاستحالة وجود برهان على عبادة إله آخر معه، بل البراهين القطعية المتواترة، دالة على أنه هو المعبود وحده - جل وعلا - ولا يمكن أن يوجد دليل على عبادة غيره البتة، وقد تقرر

في فن الأصول أن من موانع اعتبار مفهوم المخالفة، كون تخصيص الوصف بالذكر لموافقته للواقع فيرد النص ذاكراً لوصف الموافق للواقع ليطبق عليه الحكم، فتخصيصه بالذكر إذاً ليس لإخراج المفهوم عن حكم المنطوق، بل لتخصيص الوصف بالذكر لموافقته للواقع.

ومن أمثلته في القرآن هذه الآية لأن قوله: ﴿لَا بُرْهَانَ لَكُمْ﴾ وصف مطابق للواقع؛ لأنهم يدعون معه غيره بلا برهان، فذكر الوصف لموافقته الواقع، لا لإخراج المفهوم عن حكم المنطوق.

ومن أمثلته في القرآن أيضاً قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨]؛ لأنه نزل في قوم والوا اليهود دون المؤمنين، فقوله: ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ذكر لموافقته للواقع لا لإخراج المفهوم، عن حكم المنطوق، ومعلوم أن اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء، ممنوع على كل حال، وإلى هذا أشار في (مراقي السعود) في ذكره موانع اعتبار مفهوم المخالفة بقوله:

أو امتنان أو وفاق الواقع والجهل والتأكيد عند السامع

وقوله تعالى في خاتمة هذه السورة الكريمة: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [٣١] فيه الدليل على أن ذلك الفريق الذين كانوا يقولون: ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين. موفقون في دعائهم ذلك؛ ولذا أثنى الله عليهم به، وأمر به نبيه ﷺ لتقتدي به أمته في ذلك، ومعمول اغفر وارحم حذف هنا، لدلالة ما تقدم عليه في قوله ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥] والمغفرة: ستر الذنوب بعفو الله وحلمه حتى لا يظهر لها أثر يتضرر به صاحبها، والرحمة صفة الله التي اشتق لنفسه منها اسمه الرحمن، واسمه الرحيم؛ وهي صفة تظهر آثارها في خلقه الذين يرحمهم، وصيغة التفضيل في قوله: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾؛ لأن المخلوقين قد يرحم بعضهم بعضاً، ولا شك أن رحمة الله تتخالف رحمة خلقه، كمخالفة ذاته وسائر صفاته لذواتهم، وصفاتهم كما أوضحناه في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْسِ﴾ [الأعراف: ٥٤] والعلم عند الله تعالى.

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النُّورِ

قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾.

ظاهر هذه الآية الكريمة أن كل زانية وكل زان يجب جلد كل واحد منهما مائة جلدة؛ لأن الألف واللام في قوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ إن قلنا: إنهما موصول وصلتهما

الوصف الذي هو اسم الفاعل الذي هو الزانية والزاني، فالموصلات من صيغ العموم. وإن قلنا: إنهما للتعريف لتناسي الوصفية، وأن مرتكب تلك الفاحشة يطلق عليه اسم الزاني، كإطلاق أسماء الأجناس، فإن ذلك يفيد الاستغراق، فالعموم الشامل لكل زانية وكل زان، هو ظاهر الآية، على جميع الاحتمالات.

وظاهر هذا العموم شموله للعبد، والحر، والأمة، والحرّة، والبكر، والمحصن من الرجال والنساء.

وظاهره أيضاً أنه لا تغرب الزانية، ولا الزاني عاماً مع الجلد، ولكن بعض الآيات القرآنية دل على أن عموم الزانية يخص مرتين.

إحداهما: تخصيص حكم جلدها مائة بكونها حرة، أما إن كانت أمة، فإنها تجلد نصف المائة وهو خمسون، وذلك في قوله تعالى في الإماء: ﴿إِنْ أَتَيْتَ يُفَكِّحْتَهُنَّ فَعَلَيْهِنَّ يَصِفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥] والمراد بالمحصنات هنا: الحرائر، والعذاب الجلد، وهو بالنسبة إلى الحرّة الزانية: مائة جلدة والأمة عليها نصفه بنص آية النساء هذه، وهو خمسون، فأية ﴿فَعَلَيْهِنَّ يَصِفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥] مخصصة لعموم قوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾... الآية، بالنسبة إلى الزانية الأنثى.

وأما التخصيص المرة الثانية لعموم الزانية في آية النور هذه فهو بآية منسوخة التلاوة، باقية الحكم، تقتضي أن عموم الزانية هنا مخصص بكونها بكراً.

أما إن كانت محصنة، بمعنى أنها قد تزوجت من قبل الزنى، وجامعها زوجها في نكاح صحيح فإنها ترحم.

والآية التي خصصتها بهذا الحكم الذي ذكرنا أنها منسوخة التلاوة باقية الحكم هي قوله تعالى: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكلاً من الله والله عزيز حكيم».

وهذا التخصيص إنما هو على قول من يقول: لا يجمع للزاني المحصن، بين الجلد والرجم، وإنما يرحم فقط بدون جلد.

أما على قول من يرى الجمع بينهما فلا تخصيص، وإنما في آية الرجم زيادته على الجلد، فكلتا الآيتين أثبتت حكماً لم تثبته الأخرى، وسيأتي إيضاح هذا - إن شاء الله - غير بعيد وأقوال أهل العلم فيه ومناقشة أدلتهم.

أما الزاني الذكر فقد دلت الآية التي ذكرنا، أنها منسوخة التلاوة، باقية الحكم على تخصيص عمومها، وأن الذي يجلد المائة من الذكور، إنما هو الزاني البكر، وأما المحصن فإنه يرحم، وهذا التخصيص في الذكر أيضاً إنما هو على قول من لا يرى الجمع بين الجلد والرجم، كما أوضحناه قريباً في الأثر.

وأما على قول من يرى الجمع بينهما فلا تخصيص، بل كل واحدة من الآيتين أثبتت حكماً لم تثبته الأخرى.

وعموم الزاني في آية النور هذه، مخصص عند الجمهور أيضاً مرة أخرى، بكون جلد المائة خاصاً بالزاني الحر، أما الزاني الذكر العبد فإنه يجلد نصف المائة وهو الخمسون.

ووجه هذا التخصيص إلحاق العبد بالأمة في تشطير حد الزنى بالرق؛ لأن مناط التشطير الرق بلا شك؛ لأن الذكورة والأنوثة بالنسبة إلى الحدود وصفان طرديان، لا يترتب عليهما حكم، فدل قوله تعالى في آية النساء في الإماء: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥] أن الرق مناط تشطير حد الزنى، إذ لا فرق بين الذكر والأنثى في الحدود، فالمخصص لعموم الزاني في الحقيقة: هو ما أفادته آية ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥] وإن سماه الأصوليون تخصيصاً بالقياس، فهو في الحقيقة تخصيص آية بما فهم من آية أخرى.

وهناك مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة يرجع من أراد الوقوف عليها إلى الأصل:

قوله تعالى: ﴿الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرَكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢). قد قدمنا مراراً أن من أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، ويكون في نفس الآية قرينة دالة على عدم صحة ذلك القول، ذكرنا هذا في ترجمة الكتاب وذكرنا فيما مضى من الكتاب أمثلة كثيرة لذلك، ومن أمثلة ذلك هذه الآية الكريمة.

وإيضاح ذلك أن العلماء اختلفوا في المراد بالنكاح في هذه الآية، فقال جماعة: المراد بالنكاح في هذه الآية: الوطء الذي هو نفس الزنى، وقالت جماعة أخرى من أهل العلم: إن المراد بالنكاح في هذه الآية هو عقد النكاح. قالوا: فلا يجوز لعفيف أن يتزوج زانية كعكسه، وهذا القول الذي هو أن المراد بالنكاح في الآية: التزويج لا الوطء في نفس الآية قرينة تدل على عدم صحته، وتلك القرينة هي ذكر المشرك والمشركة في الآية؛ لأن الزاني المسلم لا يحل له نكاح مشركة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ﴾ [البقرة: ٢٢١] وقوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهَا﴾ [المتحنة: ١٠] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفِرِ﴾ [المتحنة: ١٠]، وكذلك الزانية المسلمة لا يحل لها نكاح المشرك لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ [البقرة: ٢٢١] فنكاح المشركة والمشرك لا يحل بحال. وذلك قرينة على أن المراد بالنكاح في الآية التي نحن بصدد الوطء الذي هو الزنى؛ لا عقد النكاح، لعدم ملائمة عقد النكاح لذكر المشرك والمشركة، والقول بأن نكاح الزاني للمشركة والزانية للمشرك منسوخ؛ ظاهر السقوط؛ لأن سورة النور مدنية، ولا دليل على أن ذلك أحل بالمدينة، ثم نسخ. والنسخ لا بد له من دليل يجب الرجوع إليه.

وهناك مسائل تتعلق بالآية الكريمة يرجع من أراد الوقوف عليها للأصل وخلاصة ما ذهب إليه الشيخ فيها هو أن هذه الآية الكريمة من أصعب الآيات تحقيقاً؛ لأن حمل النكاح فيها على التزويج، لا يلائم ذكر المشركة والمشرک، وحمل النكاح فيها على الوطء لا يلائم الأحاديث الواردة المتعلقة بالآية، فإنها تعين أن المراد بالنكاح في الآية: التزويج، ولا أعلم مخرجاً واضحاً من الإشكال في هذه الآية إلا مع بعض تعسف، وهو أن أصح الأقوال عند الأصوليين كما حرره أبو العباس بن تيمية رحمته الله في رسالته في علوم القرآن، وعزاه لأجلاء علماء المذاهب الأربعة هو جواز حمل المشترك على معنیه، أو معانيه، فيجوز أن تقول: عدا اللصوص البارحة على عين زيد، وتعني بذلك أنهم عوروا عينه الباصرة وغوروا عينه الجارية، وسرقوا عينه التي هي ذهبه أو فضته.

وإذا علمت ذلك فاعلم أن النكاح مشترك بين الوطء والتزويج، خلافاً لمن زعم أنه حقيقة في أحدهما مجاز في الآخر، كما أشرنا له سابقاً، وإذا جاز حمل المشترك على معنیه، فيحمل النكاح في الآية على الوطء، وعلى التزويج معاً، ويكون ذكر المشركة والمشرک على تفسير النكاح بالوطء دون العقد، وهذا هو نوع التعسف الذي أشرنا له، والعلم عند الله تعالى.

وأكثر أهل العلم على إباحة تزويج الزانية، والمانعون لذلك أقل وهناك فروع تتعلق بالآية يرجع من أراد الوقوف عليها للأصل.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝١﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٢﴾، قوله تعالى في هذه الآية: ﴿يَزْمُونَ﴾ معناه: يقدفون المحصنات بالزنا صريحاً أو ما يستلزم الزنا كنفى نسب ولد المحصنة عن أبيه؛ لأنه إن كان من غير أبيه كان من زنى، وهذا القذف هو الذي أوجب الله تعالى فيه ثلاثة أحكام:

الأول: جلد القاذف ثمانين جلدة.

والثاني: عدم قبول شهادته.

والثالث: الحكم عليه بالفسق.

فإن قيل: أين الدليل من القرآن على أن معنى «يرمون» المحصنات في هذه الآية: هو القذف بصريح الزنى، أو بما يستلزمه كنفى النسب؟

فالجواب: أنه دلت عليه قريتان من القرآن:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ بعد قوله: ﴿يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ ومعلوم

أنه ليس شيء من القذف يتوقف إثباته على أربعة شهداء إلا الزنى. ومن قال: إن اللواط حكمه حكم الزنى أجرى أحكام هذه الآية على اللواط.

وقد قلنا أحكام اللواط مستوفاة في سورة هود.

القرينة الثانية: هي ذكر المحصنات بعد ذكر الزواني في قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾... الآية. وقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ فذكر المحصنات بعد ذكر الزواني، يدل على إحصانهن أي عفتهم عن الزنى، وأن الذين يرمونهن إنما يرمونهن بالزنى، وقد قدمنا جميع المعاني التي تتراد بالمحصنات في القرآن، ومثلنا لها كلها من القرآن في سورة النساء في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] فذكرنا أن من المعاني التي تتراد بالمحصنات كونهن عفاف غير زانيات، كقوله: ﴿مُحْصَنَاتٌ غَيْرُ مُسْلِفَاتٍ﴾ [النساء: ٢٥] أي عفاف غير زانيات، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْفَحْشَىٰ وَالْفُجْرَ﴾ أي العفاف، وإطلاق المحصنات على العفاف معروف في كلام العرب. ومنه قول جرير:

فلا تأمنن السعي قيساً فإنهم بنو محصنات لم تدنس حجوزها
وإطلاق الرمي على رمي الشخص لآخر بلسانه بالكلام القبيح معروف في كلام العرب. ومنه قول عمرو بن أحمز الباهلي:

رمانى بأمر كنت منه ووالدي بريئاً ومن أجل الطوي رمانى
فقوله رمانى بأمر: يعني أنه رماه بالكلام القبيح، وفي شعر امرئ القيس أو غيره:

* وجرح اللسان كجرح اليد *

واعلم أن هذه الآية الكريمة مبينة في الجملة من ثلاث جهات:

الجهة الأولى: هي القرينتان القرآنيتان الدالتان على أن المراد بالرمي في قوله: ﴿يَزْمُونَ الْفَحْشَىٰ وَالْفُجْرَ﴾، هو الرمي بالزنى، أو ما يستلزمه كنفى النسب، كما أوضحناه قريباً.

الجهة الثانية: هي أن عموم هذه الآية ظاهر في شموله لزواج المرأة إذا رماها بالزنى، ولكن الله - جل وعلا - بين أن زوج المرأة إذا قذفها بالزنى خارج من عموم هذه الآية، وأنه إن لم يأت بالشهداء تلاعنا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاحَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾... الآية.

ومضمونها أن الزوج إذا قذف زوجته بالزنى ولم يكن له شاهد غير نفسه، والمعنى أنه لم يقدر على الإتيان ببينة تشهد له على الزنى الذي رماها به، فإنه يشهد أربع شهادات يقول في كل واحدة منها أشهد بالله إنني لصادق فيما رميتها به من الزنى، ثم يقول في الخامسة: علي لعنة الله إن كنت كاذباً عليها فيما رميتها به، ويرتفع عنه الجلد وعدم قبول الشهادة والفسق بهذه الشهادات. وتشهد هي أربع شهادات بالله تقول في كل واحدة منها أشهد بالله إنه لكاذب فيما رمانى به من الزنى، ثم تقول في الخامسة: غضب الله عليّ إن كان صادقاً فيما رمانى به من الزنى، كما هو واضح من نص الآية.

الجهة الثالثة: أن الله بين هنا حكم عقوبة من رمى المحصنات في الدنيا، ولم يبين ما أعد له في الآخرة، ولكنه بين في هذه السورة الكريمة ما أعد له في الدنيا

وَالْآخِرَةُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٣٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٤﴾ يُؤَيِّدُ بِيُوفِيِّهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وقد زاد في هذه الآية الأخيرة كونهن مؤمنات غافلات لإيضاح صفاتها الكريمة.

ووصفه تعالى للمحصنات في هذه الآية بكونهن غافلات ثناء عليهن بأنهن سليمات الصدور نقيات القلوب لا تخطر الريبة في قلوبهن لحسن سرائرهن، ليس فيهن دهاء ولا مكر؛ لأنهن لم يجربن الأمور فلا يفتن لما تفتن له المجربات ذوات المكر والدهاء، وهذا النوع من سلامة الصدور وصفاتها من الريبة من أحسن الثناء، وتطلق العرب على المتصفات به اسم البله مدحاً لها لا ذماً، ومنه قول حسان عليه السلام:

نفج الحقيبة بوصها متنضد بلهاء غير وشيكة الإقسام
وقول الآخر:

ولقد لهوت بطفلة ميالة بلهاء تطلعني على أسرارها
وقول الآخر:

عهدت بها هنداً وهند غريرة عن الفحش بلهاء العشاء نؤوم
رداح الضحى ميالة بحترية لها منطلق يصبي الحليم رخم

والظاهر أن قوله تعالى: ﴿لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٣٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٤﴾ محله فيما إذا لم يتوبوا ويصلحوا، فإن تابوا وأصلحوا، لم ينلهم شيء من ذلك الوعيد، ويدل له قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾... الآية.

وعموماً نصوص الكتاب والسنة دالة على أن من تاب إلى الله من ذنبه توبة نصوحاً قبلها منه، وكفر عنه ذنبه ولو من الكبائر، وبه تعلم أن قول جماعة من أجلاء المفسرين إن آية ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ التي جعل الله فيها التوبة بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ عامة، وأن آية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾... الآية. خاصة بالذين رموا عائشة عليها السلام أو غيرها من خصوص أزواجه عليهن السلام، وأن من رماهن لا توبة له خلاف التحقيق. والعلم عند الله تعالى.

وهناك مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة يرجع من أراد الوقوف إليها إلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَذَّابِينَ﴾ (٨). قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ﴾، معنى يدرأ: يدفع، والمراد بالعذاب هنا: الحد، والمصدر المنسبك من أن وصلتها في قوله: «أن تشهد» فاعل يدرأ؛ أي يدفع عنها الحد شهادتها أربع شهادات الآية.

والدليل على أن المراد بالعذاب في قوله: ﴿وَيَذُرُّهَا عَنْهَا الْعَذَابُ﴾، الحد من أوجه.

الأول: منها سياق الآية، فهو يدل على أن العذاب الذي تدرؤه عنها شهاداتها هو الحد.

والثاني: أنه أطلق اسم العذاب في مواضع آخر، على الحد مع دلالة السياق فيها على أن المراد بالعذاب فيها الحد، كقوله تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَدَاؤُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فقوله: ﴿وَلَيَشْهَدَ عَدَاؤُهُمَا﴾؛ أي حدهما بلا نزاع. وكذلك قوله تعالى في الإماء: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]؛ أي نصف ما على الحرائر من الجلد.

وهذه الآية تدل على أن الزوج إذا رمى زوجته وشهد شهاداته الخمس المبينة في الآية أن المرأة يتوجه عليها الحد بشهاداته، وأن ذلك الحد المتوجه إليها بشهادات الزوج تدفعه عنها شهاداتها هي الموضحة في الآية.

ومفهوم مخالفة الآية يدل على أنها لو نكلت عن شهاداتها، لزمها الحد بسبب نكلها مع شهادات الزوج، وهذا هو الظاهر الذي لا ينبغي العدول عنه، فشهادات الزوج القاذف تدرأ عنه هو حد القذف، وتوجه إليها هي حد الزنى، وتدفعه عنها شهاداتها.

وظاهر القرآن أيضاً أنه لو قذف زوجته وامتنع من اللعان أنه يحد حد القذف، فكل من امتنع من الزوجين من الشهادات الخمس وجب عليه الحد، وهذا هو الظاهر من الآيات القرآنية؛ لأن الزوج القاذف داخل في عموم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْنُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾، ولكن الله بين خروج الزوج من هذا العموم بشهاداته حيث قال: ﴿وَالَّذِينَ يَزْنُونَ أَرْوَاحَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحْيِهِمْ أَرْبَعٌ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١) وَالْخَمْسَةُ أَنْ لَعَنَتَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢) فلم يجعل له مخرجاً من جلد ثمانين، وعدم قبول الشهادة، والحكم بالفسق إلا بشهاداته التي قامت له مقام البيعة المبرئة له من الحد. فإن نكل عن شهاداته فالظاهر وجوب الحد عليه؛ لأنه لم تدرأ عنه أربعة عدول يشهدون بصدقه، ولا شهادات تنوب عن الشهود. فتعين أنه يحد لأنه قاذف، ولم يأت بما يدفع عنه حد القذف، وكذلك الزوجة إذا نكلت عن إيمانها فعليها الحد؛ لأن الله نص على أن الذي يدرأ عنها الحد هو شهاداتها في قوله تعالى: ﴿وَيَذُرُّهَا عَنْهَا الْعَذَابُ﴾... الآية، وممن قال: إن الزوج يلزمه الحد إن نكل عن الشهادات الأثمة الثلاثة، خلافاً لأبي حنيفة القائل بأنه يحبس، حتى يلاعن، أو يكذب نفسه، فيقام عليه حد القذف، ومن قال: بأنها إن شهد هو، ونكلت هي أنها تحد بشهاداته ونكلها: مالك والشافعي والشعبي، ومكحول، وأبو عبيد، وأبو ثور. كما نقله عنهم صاحب المغني.

وهذا القول أصوب عندنا؛ لأنه ظاهر قوله: ﴿وَيَذُرُّهَا عَنْهَا الْعَذَابُ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ

بِاللَّهِ... الآية. ولا ينبغي العدول عن ظاهر القرآن إلا للدليل يجب الرجوع إليه من كتاب أو سنة. وقال أبو حنيفة وأحمد: لا حد عليها بنكولها عن الشهادات، وتحبس أيضاً حتى تلاعن أو تقر فيقام عليها الحد.

قال في المغني: وبهذا قال الحسن، والأوزاعي، وأصحاب الرأي. وروي ذلك عن الحارث العكلي، وعطاء الخراساني، واحتج أهل هذا القول بحجج يرجع جميعها إلى أن المانع من حدها أن زناها لم يتحقق ثبوته؛ لأن شهادات الزوج ونكولها هي لا يتحقق بواحد منهما، ولا بهما مجتمعين ثبوت الزنى عليها.

وقول الشافعي ومالك ومن وافقهما في هذه المسألة أظهر عندنا؛ لأن مسألة اللعان أصل مستقل لا يدخله القياس على غيره، فلا يعدل فيه عن ظاهر النص إلى القياس على مسألة أخرى. والعلم عند الله تعالى.

وهناك مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة يرجع من أراد الوقوف عليها إلى الأصل. قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية أنه لولا فضله ورحمته، ما زكا أحد من خلقه ولكنه بفضلله ورحمته يزكي من يشاء تركيته من خلقه.

ويفهم من الآية أنه لا يمكن أحداً أن يزكي نفسه بحال من الأحوال، وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ...﴾ الآية [النساء: ٤٩]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢].

والزكاة في هذه الآية هي الطهارة من أنجاس الشرك، والمعاصي. وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي يطهره من أدناس الكفر والمعاصي بتوفيقه وهدايته إلى الإيمان والتوبة النصوح، والأعمال الصالحة.

وهذا الذي دلت عليه هذه الآيات المذكورة لا يعارضه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس] ولا قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ [الأعلى] على القول بأن معنى تزكى تطهر من أدناس الكفر والمعاصي، لا على أن المراد بها خصوص زكاة الفطر، ووجه ذلك في قوله: من زكاها أنه لا يزكيها إلا بتوفيق الله وهدايته إياه للعمل الصالح، وقوله منه، وكذلك الأمر في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ [الأعلى] كما لا يخفى.

والأظهر أن قوله: ﴿مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ الآية: جواب لولا التي تليه، خلافاً لمن زعم أنه جواب لولا في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ إِنَّ اللَّهَ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [٢١] وقد تكرر في الآيات التي قبل هذه الآية حذف جواب لولا، لدلالة القرائن عليه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ

فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْمَلُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾. نزلت هذه الآية الكريمة في أبي بكر رضي الله عنه، ومسطح بن أثانة بن عباد بن المطلب، وكان مسطح المذكور من المهاجرين، وهو فقير، وكانت أمه ابنة خالة أبي بكر رضي الله عنه، وكان أبو بكر ينفق عليه لفقره وقرباته وهجرته، وكان ممن تكلم في أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالإفك المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾، وهو ما رموها به من أنها فجرت مع صفوان بن المعطل السلمي رضي الله عنه.

وقصة الإفك معروفة مشهورة ثابتة في عشر آيات من هذه السورة الكريمة، وفي الأحاديث الصحاح، فلما نزلت براءة عائشة رضي الله عنها في الآيات المذكورة، حلف أبو بكر ألا ينفق على مسطح، ولا ينفعه بنافعة بعد ما رمى عائشة بالإفك ظلماً وافتراءً، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية. وقوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾؛ أي لا يحلف. فقوله: يأتل وزنه يفتعل من الألية وهي اليمين، تقول العرب آلى يؤلي واثلى يأتلي إذا حلف، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٢٦] أي يحلفون مضارع آلى يؤلي إذا حلف. ومنه قول امرئ القيس:

ويوماً على ظهر الكثيب تعذرت علي وآلت حلفة لم تحلل

أي حلفت حلفة. وقول عاتكة بنت زيد العدوية ترثي زوجها عبد الله ابن أبي بكر رضي الله عنه:

فأليت لا تنفك عيني حزيئة عليك ولا ينفك جلدي أغبرا

والألية اليمين، ومنه قول الآخر يمدح عمر بن عبد العزيز:

قليل الألايا حافظ ليمينه وإن سبقت منه الألية برت

أي لا يحلف أصحاب الفضل والسعة؛ أي الغنى كأبي بكر رضي الله عنه أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله كمسطح بن أثانة. وقوله: أن يؤتوا: أي لا يحلفوا عن أن يؤتوا، أو لا يحلفوا ألا يؤتوا وحذف حرف الجر قبل المصدر المنسبك من أن وأن وصلتهما مطرد. وكذلك حذف لا النافية قبل المضارع بعد القسم، ولا يؤثر في ذلك هنا كون القسم منهياً عنه. ومفعول يؤتوا الثاني محذوف؛ أي أن يؤتوا أولي القربى النفقة والإحسان، كما فعل أبو بكر رضي الله عنه.

وقال بعض أهل العلم: قوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾: أي لا يقصر أصحاب الفضل والسعة كأبي بكر في إيتاء أولى القربى كمسطح، وعلى هذا فقوله «يأتل» يفتعل من ألا يألو في الأمر إذا قصر فيه وأبطأ.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾

[آل عمران: ١١٨] أي لا يقصرون في مضررتكم، ومنه بهذا المعنى قول الجعدي:

وأشمت عريان يلشد كتافه يلام على جهد القتال وما ائتلا
وقول الآخر:

وإن كنتاني لنساء صدق فما آلى بني ولا أساءوا

فقوله: فما آلى بني: يعني ما قصرُوا، ولا أبطُوا، والأول هو الأصح؛ لأن حلف أبي بكر ألا ينفع مسطحاً بنافعة، ونزول الآية الكريمة في ذلك الحلف معروف. وهذا الذي تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي عن الحلف عن فعل البر من إيتاء أولي القربى والمساكين والمهاجرين، جاء أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢٤] أي لا تحلفوا بالله عن فعل الخير، فإذا قيل لكم: اتقوا وبروا، وأصلحوا بين الناس قلتم: حلفنا بالله لا نفعل ذلك، فتجعلوا الحلف بالله سبباً للامتناع من فعل الخير، على الأصح في تفسير الآية.

وقد قدمنا دلالة هاتين الآيتين على المعنى المذكور، وذكرنا ما يوضحه من الأحاديث الصحيحة في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْخَذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّعْنِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُم بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ فيه الأمر من الله للمؤمنين إذا أساء إليهم بعض إخوانهم المسلمين أن يعفوا عن إساءتهم ويصفحوا، وأصل العفو: من عفت الريح الأثر إذا طمسته.

والمعنى: فليطمسوا آثار الإساءة بحلمهم وتجاوزهم، والصفح، قال بعض أهل العلم: مشتق من صفحة العنق؛ أي أعرضوا عن مكافأة إساءتهم حتى كأنكم تولونها بصفحة العنق، معرضين عنها، وما تضمنته هذه الآية من العفو والصفح جاء مبيناً في مواضع آخر كقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنِّتْ عُرْضَتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [٢٢] الَّذِينَ يُفْقُونَ فِي الشَّرِّ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَظِيمِ الْعِظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ [٢٣] [آل عمران] وقد دلت هذه الآية على أن كظم الغيظ والعفو عن الناس، من صفات أهل الجنة، وكفى بذلك حثاً على ذلك. ودلت أيضاً على أن ذلك من الإحسان الذي يحب الله المتصفين به. وكقوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تَخْفَوْهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء] وقد بين تعالى في هذه الآية أن العفو مع القدرة من صفاته تعالى، وكفى بذلك حثاً عليه. وكقوله تعالى: ﴿فَاصْفَحْ أَصْفَحَ الْجَبِيلِ﴾ [الحجر: ٨٥] وكقوله: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ دليل على أن العفو والصفح عن المسيء المسلم من موجبات غفران الذنوب، والجزاء من جنس

العمل؛ ولذا لما نزلت قال أبو بكر: بلى والله، نحب أن يغفر لنا ربنا، ورجع للإفناق على مسطح، ومفعول «أن يغفر الله» محذوف للعلم به؛ أي يغفر لكم ذنوبكم.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أُولَئِكَ الْقَرِينُ﴾ أي أصحاب القرابة، ولفظة أولي اسم جمع لا واحد له من لفظه يعرب إعراب الجمع المذكر السالم.

فائدة: في هذه الآية الكريمة دليل على أن كبائر الذنوب لا تحبط العمل الصالح؛ لأن هجرة مسطح بن أثاثه من عمله الصالح، وقذفه لعائشة من الكبائر ولم يبطل هجرته؛ لأن الله قال فيه بعد قذفه لها: ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فدل ذلك على أن هجرته في سبيل الله، لم يحبطها قذفه لعائشة رضي الله عنها.

قال القرطبي: في هذه الآية دليل على أن القذف وإن كان كبيراً لا يحبط الأعمال؛ لأن الله تعالى وصف مسطحاً بعد قوله بالهجرة والإيمان، وكذلك سائر الكبائر، ولا يحبط الأعمال غير الشرك بالله قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْطَبَنَّ عَلَيْكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، اهـ.

وما ذكر من أن في الآية وصف مسطح بالإيمان لم يظهر من الآية، وإن كان معلوماً.

وقال القرطبي أيضاً: قال عبد الله بن المبارك: هذه أرجى آية في كتاب الله. ثم قال بعد هذا: قال بعض العلماء، هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى من حيث لطف الله بالقذفة العصاة بهذا اللفظ. وقيل: أرجى آية في كتاب الله ﷻ قوله تعالى: ﴿وَشَرَّ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾ [الأحزاب] وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢] فشرح الفضل الكبير في هذه الآية، وبشر به المؤمنين في تلك.

ومن آيات الرجاء قوله تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ الآية [الزمر: ٥٣]. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى: ١٩] وقال بعضهم: أرجى آية في كتاب الله ﷻ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥]؛ وذلك أن رسول الله ﷺ لا يرضى ببقاء أحد من أمته في النار. انتهى كلام القرطبي.

وقال بعض أهل العلم: أرجى آية في كتاب الله ﷻ، آية الدين: وهي أطول آية في القرآن العظيم، وقد أوضح الله - تبارك وتعالى - فيها الطرق الكفيلة بصيانة الدين من الضياع، ولو كان الدين حقيراً كما يدل عليه قوله تعالى فيها: ﴿وَلَا تَسْمُرُوا أَنْ تَكُونُوا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٨٢]، قالوا: هذا من المحافظة في آية الدين على صيانة مال المسلم، وعدم ضياعه، ولو قليلاً يدل على العناية التامة بمصالح المسلم، وذلك يدل على أن اللطيف الخبير لا يضيعه يوم القيامة عند اشتداد الهول، وشدة حاجته إلى ربه.

قال مقبده - عفا الله عنه وغفر له -: من أرجى آيات القرآن العظيم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ

أَوْزِنَا الْكَذِبَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٧﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٨﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِي أَلْهَنَّا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٤٠﴾ [فاطر].

فقد بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن إيرات هذه الأمة لهذا الكتاب، دليل على أن الله اصطفاه في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْزِنَا الْكَذِبَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وبين أنهم ثلاثة أقسام:

الأول: الظالم لنفسه، وهو الذي يطيع الله، ولكنه يعصيه أيضاً، فهو الذي قال الله فيه: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢].

والثاني: المقتصد وهو الذي يطيع الله، ولا يعصيه، ولكنه لا يتقرب بالنوافل من الطاعات.

والثالث: السابق بالخيرات: وهو الذي يأتي بالواجبات ويجتنب المحرمات ويتقرب إلى الله بالطاعات والقربات التي هي غير واجبة، وهذا على أصح الأقوال في تفسير الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق، ثم إنه تعالى بين أن إيراثهم الكتاب هو الفضل الكبير منه عليهم، ثم وعد الجميع بجنت عدن وهو لا يخلف الميعاد في قوله: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ والواو في «يدخلونها» شاملة للظالم، والمقتصد والسابق على التحقيق؛ ولذا قال بعض أهل العلم: حق لهذه الواو أن تكتب بماء العينين، فوعده الصادق بجنت عدن لجميع أقسام هذه الأمة، وأولهم الظالم لنفسه يدل على أن هذه الآية من أرجى آيات القرآن، ولم يبق من المسلمين أحد خارج عن الأقسام الثلاثة، فالوعد الصادق بالجنة في الآية شامل لجميع المسلمين؛ ولذا قال بعدها متصلاً بها: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦ - ٣٧].

واختلف أهل العلم في سبب تقديم الظالم في الوعد بالجنة على المقتصد والسابق، فقال بعضهم: قدم الظالم لثلاث يقنط، وآخر السابق بالخيرات لثلاث يعجب بعمله فيحبط. وقال بعضهم: قدم الظالم لنفسه؛ لأن أكثر أهل الجنة الظالمون لأنفسهم؛ لأن الذين لم تقع منهم معصية أقل من غيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات، أنهم ملعونون في الدنيا والآخرة، ولهم عذاب عظيم، يوم تشهد عليهم ألسنتهم، وأيديهم، وأرجلهم بما كانوا يعملون، وبين في غير هذا الموضع أن بعض

أجزاء الكافر تشهد عليه يوم القيامة غير اللسان كقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ١٠].

قوله تعالى: ﴿حَقًّا إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [١١] وَقَالُوا لِمَ يُشْهِدُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَشِيرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [١٢] وَذَلِكَ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [١٣] [فصلت: ٢٠ - ٢٣].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَذِ يُؤْفِقُ اللَّهُ وَيَهْتُمُ الْحَقَّ﴾. المراد بالدين هنا الجزاء، ويدل على ذلك قوله: يؤفقيهم؛ لأن التوفية تدل على الجزاء كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزِيهِ الْجَزَاءُ الْأَوَّلُ﴾ [النجم] وقوله تعالى: ﴿وإِنَّمَا تُؤْفَوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْفَيْصَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وقوله: ﴿تُؤْفَقُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ [آل عمران: ١٦٦] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: دينهم؛ أي جزاءهم الذي هو في غاية العدل والإنصاف، وقال الزمخشري: دينهم الحق؛ أي جزاءهم الواجب الذي هم أهله، والأول أصح؛ لأن الله يجازي عباده بإنصاف تام، وعدل كامل، والآيات القرآنية في ذلك كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٧] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسُ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس] وقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنَّا بِمَا حَسِبْتُمْ﴾ [الأنبياء] إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه. ومن إتيان الدين بمعنى الجزاء في القرآن قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة].

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا يُوْسُفَ غَيْرَ يُؤْتِيكُمْ حَقَّ تَسْتَأْذِينًا وَتَسْلِمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكَ خَبَرٌ لِّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [١٧].

اعلم أن هذه الآية الكريمة أشكلت على كثير من أهل العلم، وذلك من أجل التعبير عن الاستئذان بالاستئناس، مع أنهما مختلفان في المادة والمعنى. وقال ابن حجر في الفتح: وخكى الطحاوي أن الاستئناس في لغة اليمن: الاستئذان. وفي تفسير هذه الآية الكريمة بما يناسب لفظها وجهان، ولكل منهما شاهد من كتاب الله تعالى:

الوجه الأول: أنه من الاستئناس الظاهر الذي هو ضد الاستيحاش؛ لأن الذي يقرع باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه، فإذا أذن له استأنس وزال عنه الاستيحاش، ولما كان الاستئناس لازماً للإذن أطلق اللزام، وأريد ملزومه الذي هو الإذن، وإطلاق اللزام، وإرادة الملزوم أسلوب عربي معروف، والقائلون بالمجاز يقولون: إن ذلك من المجاز المرسل، وعلى أن هذه الآية أطلق فيها اللزام الذي هو الاستئناس وأريد ملزومه الذي هو الإذن يصير المعنى: حتى تستأذنوا،

ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣] ، وقوله تعالى بعده: ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ ، وقال الزمخشري في هذا الوجه بعد أن ذكره: وهذا من قبيل الكناية، والإرداف؛ لأن هذا النوع من الاستئناس يردف الإذن فوضع موضع الإذن.

الوجه الثاني: في الآية هو أن يكون الاستئناس بمعنى الاستعلام، والاستكشاف. فهو استفعال من آنس الشيء إذا أبصره ظاهراً مكشوفاً أو علمه.

والمعنى: حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال، هل يؤذن لكم أو لا؟ وتقول العرب: استئنس هل ترى أحداً، واستأنست فلم أر أحداً، أي تعرفت واستعلمت، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنْ ءَافَقْتُمْ نَجْشًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦] أي علمتم رشدهم وظهر لكم. وقوله تعالى عن موسى: ﴿إِنِّي ءَافَقْتُ نَارًا لَّعَلِّي ءَالِيكُمْ مِنْهَا يَقْسِي﴾ [طه: ١٠] وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ءَآنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا...﴾ الآية [القصص: ٢٩]. فمعنى آنس ناراً: رآها مكشوفة. ومن هذا المعنى قول نابغة ذبيان:

كَأَن رَحْلِي وَقَدْ زَالَ النَّهَارُ بِنَا بِذِي الْجَلِيلِ عَلَى مَسْتَأْنَسٍ وَحْدَ
مِنْ وَحْشٍ وَجَرَةٍ مَوْشَى أَكْبَارِعِهِ طَاوِي الْمَصِيرِ كَسِيفِ الصِّقْلِ الْفَرْدِ
فقوله على مستأنس يعني: حمار وحش شبه به ناقته، ومعنى كونه مستأنساً أنه يستكشف، ويستعلم القانصين بشمه ريحهم وحدة بصره في نظره إليهم. ومنه أيضاً قول الحارث بن حلزة الشكري يصف نعامه شبه بها ناقته:

آنست نبأه وأفزعها القنا ص عَصراً وَقَدْ دَنَا الْإِمْسَاءُ
فقوله: آنست نبأه؛ أي أحست بصوت خفي، وهذا الوجه الذي هو أن معنى تستأنسوا تستكشفوا وتستعلموا، هل يؤذن لكم وذلك الاستعلام والاستكشاف إنما يكون بالاستئذان أظهر عندي، وإن استظهر بعض أهل العلم الوجه الأول، وهناك وجه ثالث في تفسير الآية تركناه لعدم اتجاهه عندنا.

وبما ذكرنا تعلم أن ما يروى عن ابن عباس وغيره من أن أصل الآية: «حتى تستأذنوا»، وأن الكاتبين غلطوا في كتابتهم، فكتبوا «تستأنسوا» غلطاً بدل «تستأذنوا» لا يعول عليه، ولا يمكن أن يصح عن ابن عباس، وإن صحح سنده عنه بعض أهل العلم. ولو فرضنا صحته فهو من القراءات التي نسخت وتركت، ولعل القارئ بها لم يطلع على ذلك؛ لأن جميع الصحابة رضي الله عنهم أجمعوا على كتابة «تستأنسوا» في جميع نسخ المصحف العثماني، وعلى تلاوتها بلفظ: «تستأنسوا»، ومضى على ذلك إجماع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها في مصاحفهم وتلاوتهم من غير نكير. والقرآن العظيم تولى الله تعالى حفظه من التبديل والتغيير، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١﴾﴾ [الحجر] وقال فيه: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ

مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٢٧﴾ [فصلت] وقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۚ إِنَّ عِلْمَنا جَمْعُهُمْ وَقُوَّةُهُ أَنَّهُ ۖ﴾ [القيامة].

وهناك مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة يرجع من أراد الوقوف عليها للأصل.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۖ﴾ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ۖ. أمر الله - جل وعلا - المؤمنين والمؤمنات بغض البصر، وحفظ الفرج، ويدخل في حفظ الفرج: حفظه من الزنى، واللواط، والمساحقة، وحفظه من الإبداء للناس والانكشاف لهم، وقد دلت آيات أخر على أن حفظه من المباشرة المدلول عليه بهذه الآية يلزم عن كل شيء إلا الزوجة والسرية، وذلك في قوله تعالى في سورة المؤمنون وسأل سائل: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۖ﴾ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مُلُومِينَ ۖ﴾ ﴿٣٠﴾ [المعارج].

فقد بينت هذه الآية أن حفظ الفرج من الزنى، واللواط لازم، وأنه لا يلزم حفظه عن الزوجة والموطوءة بالملك.

وقد بينا في سورة البقرة أن الرجل يجب عليه حفظ فرجه عن وطء زوجته في الدبر، وذكرنا لذلك أدلة كثيرة، وقد أوضحنا الكلام على آية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۖ﴾ ﴿٥﴾ [المؤمنون] في سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۖ﴾ ﴿١﴾ [المؤمنون] وقد وعد الله تعالى من امتثل أمره في هذه الآية من الرجال والنساء بالمغفرة والأجر العظيم، إذا عمل معها الخصال المذكورة معها في سورة الأحزاب وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥] وأوضح تأكيد حفظ الفرج عن الزنى في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ۖ﴾ ﴿٣٢﴾ [الإسراء] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ﴾ ﴿٧١﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۖ﴾ ﴿٧٢﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ ۖ... الآية [الفرقان] إلى غير ذلك من الآيات، وأوضح لزوم حفظ الفرج عن اللواط وبين أنه عدوان في آيات متعددة في قصة قوم لوط كقوله: ﴿اتَّخَذُوا الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ۖ﴾ ﴿١٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ۖ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۖ﴾ [الشعراء] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِأَقْوَمِهِ ۖ إِنَّكُمْ لَأَتَّخَذْتُمْ أَلْفَ حِشَّةٍ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ۖ﴾ ﴿١٨﴾ إِنَّكُمْ لَأَتَّخَذْتُمْ الرِّجَالَ وَتَقَاطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَكَاحِكُمْ الْمُنْكَرَ ۖ﴾ [العنكبوت: ٢٨، ٢٩] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد أوضحنا كلام أهل العلم وأدلتهم في عقوبة فاعل فاحشة اللواط في سورة هود وعقوبة الزاني في أول هذه السورة الكريمة.

واعلم أن الأمر بحفظ الفرج يتناول حفظه من انكشافه للناس، وقال ابن كثير رحمه الله

في تفسير هذه الآية: وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنى كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ الآية [المؤمنون]، وتارة يكون بحفظه من النظر إليه كما جاء في الحديث في مسند أحمد والسنن: احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك، اه منه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾... الآيتين. قال الزمخشري في الكشاف: من للتبعض والمراد غض البصر عما يحرم، والاقتصار به على ما يحل، وجوز الأخفش أن تكون مزيدة وأباه سبويه، فإن قلت: كيف دخلت في غض البصر دون حفظ الفرج؟ قلت: دلالة على أن أمر النظر أوسع، ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهن، وصدورهن، وثديهن، وأعضادهن، وأسوقهن وأقدامهن، وكذلك الجواري المستعرضات، والأجنبية ينظر إلى وجهها وكفيها وقدميها في إحدى الروايتين، وأما أمر الفرج فمضيق، وكفاك فرقاً أن أبيح النظر إلا ما استثني منه، وحظر الجماع إلا ما استثني منه، ويجوز أن يراد مع حفظها من الإفضاء إلى ما لا يحل حفظها عن الإبداء.

وعن ابن زيد: كل ما في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنى إلا هذا فإنه أراد به الاستتار، اه كلام الزمخشري.

وما نقل عن ابن زيد من أن المراد بحفظ الفرج في هذه الآية الاستتار فيه نظر. بل يدخل فيه دخولاً أولاً حفظه من الزنى واللواط، ومن الأدلة على ذلك تقديمه الأمر بغض البصر على الأمر بحفظ الفرج؛ لأن النظر بريد الزنى كما سيأتي إيضاحه قريباً - إن شاء الله تعالى -، وما ذكر جواز النظر إليه من المحارم لا يخلو بعضه من نظر. وسيأتي تحقيق ذلك - إن شاء الله تعالى - وتفصيله في سورة الأحزاب، كما وعدنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك، أنا نوضح مسألة الحجاب في سورة الأحزاب.

وقول الزمخشري: إن «من» في قوله: ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ للتبعض قاله غيره، وقواه القرطبي بالأحاديث الواردة في أن نظرة الفجاءة لا حرج فيها وعليه أن يغض بصره بعدها، ولا ينظر نظراً عمداً إلى ما لا يحل، وما ذكره الزمخشري عن الأخفش، وذكره القرطبي وغيرهما من أن «من» زائدة لا يعول عليه. وقال القرطبي وقيل: الغض: النقصان. يقال: غض فلان من فلان: أي وضع منه، فالبصر إذا لم يمكن من عمله، فهو موضوع منه ومنقوص، فمن صلة للغض، وليست للتبعض، ولا للزيادة، اه منه.

والأظهر عندنا أن مادة الغض تتعدى إلى المفعول بنفسها. وتتعدى إليه أيضاً بالحرف الذي هو «من»، ومثل ذلك كثير في كلام العرب، ومن أمثلة تعدي الغض للمفعول بنفسه قول جرير:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

وقول عنترة:

وأغض طرفي ما بدت لي جارتني حتى يوارى جارتني مأواها

وقول الآخر:

وما كان غض الطرف منا سجية ولكننا في مذحج غربان

لأن قوله: غض الطرف مصدر مضاف إلى مفعوله بدون حرف.

ومن أمثلة تعدي الغض بـ «من» قوله تعالى: ﴿يَغْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ﴾، ﴿يَغْضَضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ﴾ وما ذكره هنا من الأمر بغض البصر قد جاء في آية أخرى تهديد من لم يمثله، ولم يغض بصره عن الحرام، وهي قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ [غافر: ١٩].

وقد قال البخاري رحمه الله: وقال سعيد بن أبي الحسن للحسن: إن نساء العجم يكشفن صدورهن ورؤوسهن، قال: اصرف بصرك عنهن. يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُنَّ﴾ قال قتادة: عما لا يحل لهم ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضَضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ خاتمة الأعين النظر إلى ما نهى عنه، اه محل الغرض منه بلفظه.

وبه تعلم أن قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ [غافر: ١٩] فيه الوعيد لمن يخون بعينه بالنظر إلى ما لا يحل له، وهذا الذي دلت عليه الآياتان من الزجر عن النظر إلى ما لا يحل، جاء موضحاً في أحاديث كثيرة.

منها ما ثبت في الصحيح، عن أبي سعيد الخدري رحمه الله أن النبي ﷺ قال: «إياكم والجلوس بالطرقات»، قالوا: يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها، قال: «فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه»، قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله ﷺ؟ قال: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر» انتهى هذا لفظ البخاري في صحيحه.

ومنها ما ثبت في الصحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: «أردف النبي ﷺ الفضل بن عباس يوم النحر خلفه على عجز راحلته، وكان الفضل رجلاً وضيقاً فوقف النبي ﷺ للناس يفتيهم، وأقبلت امرأة من خثعم وضيفة تستفتي رسول الله ﷺ، فطفق الفضل ينظر إليها وأعجبه حسننها، فالتفت النبي ﷺ، والفضل ينظر إليها، فأخلف بيده، فأخذ بذقن الفضل فعدل وجهه عن النظر إليها» الحديث.

ومحل الشاهد منه أنه ﷺ صرف وجه الفضل عن النظر إليها، فدل ذلك على أن نظره إليها لا يجوز، واستدلال من يرى أن للمرأة الكشف عن وجهها بحضرة الرجال الأجانب بكشف الخثعمية وجهها في هذا الحديث، سيأتي - إن شاء الله - الجواب عنه في الكلام على مسألة الحجاب في سورة الأحزاب.

ومنها ما ثبت في الصحيحين، وغيرهما من أن نظر العين إلى ما لا يحل لها

تكون به زانية، فقد ثبت في الصحيح عن ابن عباس أنه قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: «إن الله كتب على ابن آدم حفظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة، فزنى العين: النظر، وزنى اللسان: المنطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك كله ويكذبه». اهـ هذا لفظ البخاري، والحديث متفق عليه، وفي بعض رواياته زيادة على ما ذكرنا هنا.

ومحل الشاهد منه قوله ﷺ فزنى العين النظر، بإطلاق اسم الزنى على نظر العين إلى ما لا يحل دليل واضح على تحريمه والتحذير منه، والأحاديث بمثل هذا كثيرة معلومة. ومعلوم أن النظر سبب الزنى؛ فإن من أكثر من النظر إلى جمال امرأة مثلاً قد يتمكن بسببه حبها من قلبه تمكناً يكون سبب هلاكه، والعياذ بالله، فالنظر يريد الزنى. وقال مسلم بن الوليد الأنصاري:

كسبت لقلبي نظرة لتسره عيني فكانت شقوة ووبالا
ما مر بي شيء أشد من الهوى سبحان من خلق الهوى وتعالى
وقال آخر:

ألم تر أن العين للقلب رائد فما تألف العينان فالقلب آلف
وقال آخر:

وأنت إذا أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر
وقال أبو الطيب المتنبّي:

وأنا الذي اجتلب المنية طرفه فمن المطالب والقتيل القاتل

وقد ذكر ابن الجوزي رحمه الله في كتابه ذم الهوى فصلاً جيدة نافعة أوضح فيها الآفات التي يسببها النظر وحذر فيها منه، وذكر كثيراً من أشعار الشعراء، والحكم الثرية في ذلك وكله معلوم، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْدِيكَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾. اعلم أولاً أن كلام العلماء في هذه الآية يرجع جميعه إلى ثلاثة أقوال:

الأول: أن الزينة هنا نفس شيء من بدن المرأة كوجهها وكفيها.

الثاني: أن الزينة هي ما يتزين به خارجاً عن بدنها.

وعلى هذا القول ففي الزينة المذكورة الخارجة عن بدن المرأة قولان:

أحدهما: أنها الزينة التي لا يتضمن إبدائها رؤية شيء من البدن كالملاءة التي تلبسها المرأة فوق القميص والخمار والإزار.

وثانيهما: أنها الزينة التي يتضمن إبدائها رؤية شيء من البدن كالكحل في العين،

فإنه يتضمن رؤية الوجه أو بعضه، وكالخضاب والخاتم، فإن رؤيتهما تستلزم رؤية اليد، وكالقرط والقلادة والسوار، فإن رؤية ذلك تستلزم رؤية محله من البدن كما لا يخفى.

وسنذكر بعض كلام أهل العلم في ذلك، ثم نبين ما يفهم من آيات القرآن رجحانه.

قال ابن كثير رحمته الله في تفسيره هذه الآية: وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾؛ أي لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب، إلا ما لا يمكن إخفاؤه، قال ابن مسعود: كالرداء والثياب، يعني على ما كان يتعاطاه نساء العرب من المقنعة التي تجلجل ثيابها، وما يبدو من أسافل الثياب، فلا حرج عليها فيه؛ لأن هذا لا يمكنها إخفاؤه، ونظيره في زي النساء ما يظهر من إزارها، وما لا يمكن إخفاؤه، وقال بقول ابن مسعود الحسن، وابن سيرين، وأبو الجوزاء، وإبراهيم النخعي، وغيرهم، وقال الأعمش عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: وجهها وكفيها والخاتم. وروي عن ابن عمر، وعطاء، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، وأبي الشعثاء، والضحاك، وإبراهيم النخعي وغيرهم نحو ذلك. وهذا يحتمل أن يكون تفسيراً للزينة التي نهين عن إبدائها، كما قال أبو إسحاق السبيعي، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال في قوله: ﴿وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ﴾ الزينة: القرط، والدملج، والخلخال، والقلادة. وفي رواية عنه بهذا الإسناد قال: الزينة زينتَان، فزينة لا يراها إلى الزوج الخاتم والسوار، وزينة يراها الأجانب، وهي الظاهر من الثياب، وقال الزهري: لا يبدو لهؤلاء الذين سمى الله ممن لا تحل له إلا الأسورة والأخمرة والأقربة من غير حسر، وأما عامة الناس، فلا يبدو منها إلا الخواتم. وقال مالك، عن الزهري رضي الله عنه ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: الخاتم والخلخال. ويحتمل أن ابن عباس، ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها: بالوجه والكفين، وهذا هو المشهور عند الجمهور، ويستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داود في سننه:

حدثنا يعقوب بن كعب الأنطاكي، ومؤمل بن الفضل الحراني، قالوا: حدثنا الوليد عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن خالد بن دريك، عن عائشة رضي الله عنها: أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم، وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال: «يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا» وأشار إلى وجهه وكفيه. لكن قال أبو داود، وأبو حاتم الرازي: هو مرسل، خالد بن دريك لم يسمع من عائشة رضي الله عنها والله أعلم، اه كلام ابن كثير.

وقال القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ واختلف الناس في قدر ذلك، فقال ابن مسعود: ظاهر الزينة: هو الثياب. وزاد ابن جبیر: الوجه. وقال سعيد بن جبیر أيضاً، وعطاء، والأوزاعي: الوجه والكفان والثياب. وقال ابن عباس، وقاتادة، والمسور بن مخرمة: ظاهر الزينة هو الكحل، والسوار والخضاب إلى نصف

الذراع والقرطة والفتخ ونحو هذا، فمباح أن تبديه المرأة لكل من دخل عليها من الناس. وذكر الطبري عن قتادة في معنى نصف الذراع حديثاً عن النبي ﷺ. وذكر آخر عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر إذا عركت أن تظهر إلا وجهها ويديها إلى ما هنا وقبض على نصف الذراع».

قال ابن عطية: ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بأن لا تبدي وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة، ووقع الاستثناء فيما يظهر بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه، أو إصلاح شأن ونحو ذلك، فما ظهر على هذا الوجه مما تؤدي إليه الضرورة في النساء فهو المعفو عنه.

قلت: هذا قول حسن إلا أنه لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما عادة وعبادة وذلك في الصلاة والحج، فيصلح أن يكون الاستثناء راجعاً إليهما، يدل على ذلك ما رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها، ثم ذكر القرطبي حديث عائشة المذكور الذي قدمناه قريباً، ثم قال: وقد قال ابن خويز منداد من علمائنا: إن المرأة إذا كانت جميلة، وخيف من وجهها وكفيها الفتنة، فعليها ستر ذلك، وإن كانت عجوزاً أو مقبحة جاز أن تكشف وجهها وكفيها، اه محل الغرض من كلام القرطبي.

وقال الزمخشري: الزينة ما تزينت به المرأة من حلي أو كحل أو خضاب، فما كان ظاهراً منها كالخاتم والفتخة والكحل والخضاب، فلا بأس به، وما خفي منها كالسوار والخلخال، والدملج، والقلادة والإكليل والوشاح والقرط فلا تبديه إلا لهؤلاء المذكورين، وذكر الزينة دون مواقعها للمبالغة في الأمر بالتصون، والتستر؛ لأن هذه الزينة واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها لغير هؤلاء، وهي الذراع، والساق، والعضد، والعنق، والرأس، والصدر، والأذن، فنهي عن إبداء الزينة نفسها ليعلم أن النظر إذا لم يحل إليها لملاستها تلك المواقع، بدليل أن النظر إليها غير ملابسة لها لا مقال في حله، كان النظر إلى المواقع أنفسها متمكناً في الحظر، ثابت القدم في الحرمة، شاهد على أن النساء حقهن أن يحتطن في سترها ويتقين الله في الكشف عنها إلى آخر كلامه.

وقال صاحب الدر المنثور: وأخرج عبد الرزاق والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ﴾ قال: الزينة السوار، والدملج، والخلخال، والقرط، والقلادة ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: الثياب والجلباب.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: الزينة زينتان، زينة ظاهرة، وزينة باطنة لا يراها إلا الزوج، فأما الزينة الظاهرة،

فالثياب، وأما الزينة الباطنة، فالكحل، والسوار والخاتم. ولفظ ابن جرير: فالظاهرة منها الثياب. وما يخفى: فالخلخالان والقرطان والسواران.

وأخرج ابن المنذر عن أنس في قوله: ﴿وَلَا يَبْدِيكَ زِينَتُهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: الكحل والخاتم.

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَلَا يَبْدِيكَ زِينَتُهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: الكحل والخاتم والقرط، والقلادة.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: هو خضاب الكف، والخاتم.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: وجهها، وكفاها، والخاتم.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: رقعة الوجه، وباطن الكف.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي في سننه، عن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت عن الزينة الظاهرة فقالت: القلب والفتخ، وضمت طرف كمها.

وأخرج ابن أبي شيبة عن عكرمة في قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: الوجه وثغرة النحر.

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: الوجه والكف.

وأخرج ابن جرير عن عطاء في قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: الكفان والوجه.

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة ﴿وَلَا يَبْدِيكَ زِينَتُهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: المسكتان والخاتم والكحل.

قال قتادة: وبلغني أن النبي ﷺ قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر إلا

إلى ها هنا» ويقبض نصف الذراع. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير، عن المسور بن مخرمة في قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: القلبين يعني السوار، والخاتم، والكحل.

وأخرج سعيد وابن جرير عن ابن جريج قال: قال ابن عباس في قوله تعالى:

﴿وَلَا يَبْدِيكَ زِينَتُهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: الخاتم والمسكة، قال ابن جريج، وقالت

عائشة رضي الله عنها: القلب والفتخ. قالت عائشة: دخلت علي ابنة أخي لأمي، عبد الله بن

الطفيل مزينة، فدخلت على النبي ﷺ، وأعرض. فقالت عائشة رضي الله عنها: إنها ابنة أخي

وجارية فقال: إذا عركت المرأة لم يحل لها أن تظهر إلا وجهها وإلا ما دون هذا،

وقبض على ذراع نفسه، فترك بين قبضته وبين الكف مثل قبضة أخرى. اه محل الغرض

من كلام صاحب الدر المنثور.

وقد رأيت في هذه النقول المذكورة عن السلف أقوال أهل العلم في الزينة المظاهرة والزينة الباطنة، وأن جميع ذلك راجع في الجملة إلى ثلاثة أقوال كما ذكرنا:

الأول: أن المراد بالزينة ما تتزين به المرأة خارجاً عن أصل خلقتها، ولا يستلزم النظر إليه رؤية شيء من بدنها، كقول ابن مسعود ومن وافقه: إنها ظاهر الثياب؛ لأن الثياب زينة لها خارجة عن أصل خلقتها وهي ظاهرة بحكم الاضطرار كما ترى. وهذا القول هو أظهر الأقوال عندنا وأحوطها؛ وأبعدها من الرية وأسباب الفتنة.

القول الثاني: أن المراد بالزينة ما تتزين به، وليس من أصل خلقتها أيضاً، لكن النظر إلى تلك الزينة يستلزم رؤية شيء من بدن المرأة، وذلك الخضاب والكحل، ونحو ذلك، لأن النظر إلى ذلك يستلزم رؤية الموضع الملابس له من البدن كما لا يخفى.

القول الثالث: أن المراد بالزينة الظاهرة بعض بدن المرأة الذي هو من أصل خلقتها، كقول من قال: إن المراد بما ظهر منها الوجه، والكفان، وما تقدم ذكره عن بعض أهل العلم.

وإذا عرفت هذا فاعلم أننا قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، وتكون في نفس الآية قرينة دالة على عدم صحة ذلك القول، وقدمنا أيضاً في ترجمته أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يكون الغالب في القرآن إرادة معنى معين في اللفظ، مع تكرار ذلك اللفظ في القرآن، فكون ذلك المعنى هو المراد من اللفظ في الغالب، يدل على أنه هو المراد في محل النزاع؛ لدلالة غلبة إرادته في القرآن بذلك اللفظ، وذكرنا له بعض الأمثلة في الترجمة.

وإذا عرفت ذلك فاعلم أن هذين النوعين من أنواع البيان اللذين ذكرناهما في ترجمة هذا الكتاب المبارك، ومثلنا لهما بأمثلة متعددة كلاهما موجود في هذه الآية التي نحن بصددتها.

أما الأول منهما، فبيانه أن قول من قال في معنى: ﴿وَلَا يَبْزِيكَ زِينَتُهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أن المراد بالزينة: الوجه والكفان مثلاً، توجد في الآية قرينة تدل على عدم صحة هذا القول، وهي أن الزينة في لغة العرب، هي ما تتزين به المرأة مما هو خارج عن أصل خلقتها: كالحلي، والحلل، فتفسير الزينة ببعض بدن المرأة خلاف الظاهر، ولا يجوز الحمل عليه، إلا بدليل يجب الرجوع إليه، وبه تعلم أن قول من قال: الزينة الظاهرة: الوجه، والكفان، خلاف ظاهر معنى لفظ الآية، وذلك قرينة على عدم صحة هذا القول، فلا يجوز الحمل عليه إلا بدليل منفصل يجب الرجوع إليه.

وأما نوع البيان الثاني المذكور فإيضاحه أن لفظ الزينة يكثر تكرره في القرآن العظيم مراداً به الزينة الخارجة عن أصل المزين بها، ولا يراد بها بعض أجزاء ذلك

الشيء المزين بها كقوله تعالى: ﴿يَبْقَىٰ مَادَمٌ خُدُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١] وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ٣٢] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا﴾ [الكهف: ٧] وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُوَيْسَتْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [القصص: ٦٠] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُوْكُبِ ۖ﴾ [الصفات] وقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ وَالْغَالِ وَالْحَمِيرَ لِرَكْبُهَا وَزِينَةً﴾ الآية [النحل: ٨]. وقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾... الآية [القصص: ٧٩]. وقوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾... الآية [الكهف: ٤٦]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَتُهُ﴾... الآية [الحديد: ٢٠]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ [طه: ٥٩] وقوله تعالى عن قوم موسى: ﴿وَلَكِنَّا جُمَلْنَا أَوزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ [طه: ٨٧] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضُرُّنَّ بِأَرْحَامِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ فلفظ الزينة في هذه الآيات كلها يراد به ما يزين به الشيء وهو ليس من أصل خلقته كما ترى، وكون هذا المعنى هو الغالب في لفظ الزينة في القرآن، يدل على أن لفظ الزينة في محل النزاع يراد به هذا المعنى الذي غلبت إرادته في القرآن العظيم، وهو المعروف في كلام العرب بقول الشاعر:

يأخذن زينتهن أحسن ما ترى وإذا عطلن فهن خير عواطل

وبه تعلم أن تفسير الزينة في الآية بالوجه والكفين فيه نظر.

وإذا علمت أن المراد بالزينة في القرآن ما يتزين به مما هو خارج عن أصل الخلقة، وأن من فسروها من العلماء بهذا اختلفوا على قولين، فقال بعضهم: هي زينة لا يستلزم النظر إليها رؤية شيء من بدن المرأة كظواهر الثياب. وقال بعضهم: هي زينة يستلزم النظر إليها رؤية موضعها من بدن المرأة، كالكحل، والخضاب، ونحو ذلك.

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: أظهر القولين المذكورين عندي قول ابن مسعود رضي الله عنه أن الزينة الظاهرة: هي ما لا يستلزم النظر إليها رؤية شيء من بدن المرأة الأجنبية، وإنما قلنا إن هذا القول هو الأظهر؛ لأنه هو أحوط الأقوال، وأبعدها عن أسباب الفتنة، وأظهرها لقلوب الرجال والنساء، ولا يخفى أن وجه المرأة هو أصل جمالها ورؤيته من أعظم أسباب الافتتان بها، كما هو معلوم والجاري على قواعد الشرع الكريم، هو تمام المحافظة والابتعاد من الوقوع فيما لا ينبغي.

واعلم أن مسألة الحجاب وإيضاح كون الرجل لا يجوز له النظر إلى شيء من بدن الأجنبية، سواء كان الوجه والكفان أو غيرهما قد وعدنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك وغيرها من المواضع، بأننا سنوضح ذلك في سورة الأحزاب في الكلام على آية الحجاب، وسنفي إن شاء الله تعالى بالوعد في ذلك بما يظهر به للمنصف ما ذكرنا.

واعلم أن الحديث الذي ذكرنا في كلام ابن كثير عند أبي داود، وهو حديث عائشة في دخول أسماء على النبي ﷺ، في ثياب رفاق، وأنه قال لها: «إن المرأة إذا

بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا، وأشار إلى وجهه وكفيه»، حديث ضعيف عند أهل العلم بالحديث كما قدمنا عن ابن كثير أنه قال فيه: قال أبو داود، وأبو حاتم الرازي: هو مرسل، وخالد بن دريك، لم يسمع من عائشة، والأمر كما قال، وعلى كل حال فسنبين هذه المسألة - إن شاء الله - بياناً شافياً مع مناقشة أدلة الجميع في سورة الأحزاب ولذلك لم نطل الكلام فيها ها هنا. وهناك تنبيه يرجع من أراد الوقوف عليه للأصل، قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، لما أمر الله تعالى بهذه الآداب المذكورة في الآيات المتقدمة، وكان التقصير في امتثال تلك الأوامر قد يحصل علم خلقه ما يتداركون به ما وقع منهم من التقصير في امتثال الأمر، واجتناب النهي، وبين لهم أن ذلك إنما يكون بالتوبة، وهي الرجوع عن الذنب والإنابة إلى الله بالاستغفار منه، وهي ثلاثة أركان:

الأول: الإقلاع عن الذنب إن كان متلبساً به.

والثاني: الندم على ما وقع منه من المعصية.

والثالث: النية ألا يعود إلى الذنب أبداً، والأمر في قوله في هذه الآية: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾ الظاهر أنه للوجوب وهو كذلك، فالتوبة واجبة على كل مكلف، من كل ذنب اقترفه، وتأخيرها لا يجوز فتجب منه التوبة أيضاً.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩] قد قدمنا مراراً أن أشهر معاني «لعل» في

القرآن اثنان:

الأول: أنها على بابها من الترجى أي توبوا إلى الله، رجاء أن تفلحوا، وعلى هذا فالرجاء بالنسبة إلى العبد، أما الله - جل وعلا - فهو عالم بكل شيء، فلا يجوز في حقه إطلاق الرجاء، وعلى هذا فقوله تعالى لموسى وهارون في مخاطبة فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه] وهو - جل وعلا - عالم بما سبق في الأزل من أنه لا يتذكر ولا يخشى.

معناه: فقولا له قولاً لينا رجاء منكما بحسب عدم علمكما بالغيب أن يتذكر أو يخشى.

والثاني: هو ما قاله بعض أهل العلم بالتفسير من أن كل «لعل» في القرآن للتعليل، إلا التي في سورة الشعراء، وهي في قوله تعالى: ﴿وَتَتَخَذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ﴾ [الشعراء] قالوا فهي بمعنى كأنكم، وقد قدمنا أن إطلاق «لعل» للتعليل معلوم في العربية، ومنه قول الشاعر:

فقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا نكف ووثقتم لنا كل موثق

أي كفوا الحروب، لأجل أن نكف كما تقدم.

وعلى هذا القول فالمعنى: وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون، لأجل أن

تفلحوا؛ أي تنالوا الفلاح، والفلاح في اللغة العربية: يطلق على معنيين:

الأول: الفوز بالمطلوب الأعظم، ومن هذا المعنى قول لبيد:

فاعقلي إن كنت لما تعقلي ولقد أفلح من كان عقل
أي فاز بالمطلوب الأعظم من رزقه الله العقل.

المعنى الثاني: هو البقاء الدائم في النعيم والسرور، ومنه قول الأضبط بن قريع،
وقيل: كعب بن زهير:

لكل هم من الهموم سعه والمسي والصبح لا فلاح معه
يعني أنه لا بقاء لأحد في الدنيا مع تعاقب المساء والصباح عليه. وقول لبيد بن
ربيعة أيضاً:

لو أن حياً مدرك الفلاح لناله ملاعب الرماح
يعني لو كان أحد يدرك البقاء ولا يموت، لناله ملاعب الرماح، وهو عمه عامر بن
مالك بن جعفر المعروف بملاعب الأسنة. وقد قال فيه الشاعر يمدحه، ويذم أخاه
الطفيل والد عامر بن الطفيل المشهور:

فررت وأسلمت ابن أمك عامراً يلعب أطراف الوشيح المزعزع

وبكل من المعنيين اللذين ذكرناهما في الفلاح فسر حديث الأذان والإقامة: حي
على الفلاح كما هو معروف. ومن تاب إلى الله كما أمره الله نال الفلاح بمعنييه، فإنه
يفوز بالمطلوب الأعظم وهو الجنة، ورضى الله تعالى، وكذلك ينال البقاء الأبدي في
النعيم والسرور. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أمره - جل وعلا -، لجميع
المسلمين بالتوبة مشيراً إلى أنها تؤدي إلى فلاحهم في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أوضحه
في غير هذا الموضع، وبين أن التوبة التي يمحو الله بها الذنوب، ويكفر بها السيئات،
أنها التوبة النصوح، وبين أنها يترتب عليها تكفير السيئات، ودخول الجنة، ولا سيما
عند من يقول من أهل العلم: إن «عسى» من الله واجبة، وله وجه من النظر؛ لأنه ﷺ
جواد كريم، رحيم غفور، فإذا أطمع عبده في شيء من فضله، فجوده وكرمه تعالى،
وسعة رحمته يجعل ذلك الإنسان الذي أطمعه ربه في ذلك الفضل يثق، بأنه ما أطمعه
فيه، إلا ليتفضل به عليه.

ومن الآيات التي بينت هذا المعنى المذكور هنا قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا
ثُوبًا إِلَى اللَّهِ ثُوبَةً نَّصُوحًا عَنِّي رَبِّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ﴾ [التحریم: ٨] فقوله في آية التحريم هذه: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كقوله في آية
النور: ﴿آيَةُ الْيَوْمِوت﴾. وقوله في آية التحريم: ﴿عَنِّي رَبِّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ
وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ كقوله في آية النور: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾؛ لأن من
كفرت عنه سيئاته وأدخل الجنة، فقد نال الفلاح بمعنييه، وقوله في آية التحريم: ﴿ثُوبًا
إِلَى اللَّهِ ثُوبَةً نَّصُوحًا﴾ موضح لقوله في النور: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾ ونداؤه لهم بوصف

الإيمان في الآيتين فيه تهيج لهم، وحث على امتثال الأمر؛ لأن الاتصاف بصفة الإيمان بمعناه الصحيح، يقتضي المسارعة إلى امتثال أمر الله، واجتناب نهيه، والرجاء المفهوم من لفظة «عسى» في آية التحريم، هو المفهوم من لفظة «لعل» في آية النور كما لا يخفى.

وهناك مسائل متعلقة بالآية الكرية يرجع من أراد الوقوف عليها إلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَّتَى مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُمُ وَإِمَائِكُمُ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾، الإنكاح هنا معناه: التزويج ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَّتَى﴾ أي زوجهم، والأيامى: جمع أيم بفتح الهمزة، وتشديد الياء المكسورة، والأيم: هو من لا زوج له من الرجال والنساء، سواء كان قد تزوج قبل ذلك، أو لم يتزوج قط. يقال: رجل أيم، وامرأة أيم. وقد فسر الشماخ بن ضرار في شعره: الأيم الأنثى بأنها التي لم تتزوج في حالتها الراهنة، وذلك في قوله:

يقر بعيني أن أنبأ أنها وإن لم أنلها أيم لم تزوج

فقوله: لم تزوج تفسير لقوله: أنها أيم. ومن إطلاق الأيم على الذكر الذي لا زوج له قول أمية بن أبي الصلت الثقفي:

لله دربني على أيم منهم وناكح

ومن إطلاقه على الأنثى قول الشاعر:

أحب الأيامى إذ بثينة أيم وأحببت لما أن غنيت الغوانيا

والعرب تقول: أم الرجل يئيم، وآمت المرأة تئيم إذا صار الواحد منهما أيماً. وكذلك تقول: تأيم إذا كان أيماً.

ومثاله في الأول قول الشاعر:

لقد إمت حتى لامني كل صاحب رجاء بسلمى أن تأتئيم كما إمت

ومن الثاني قوله:

فإن تنكحي أنكح وإن تتأيمي وإن كنت أفتى منكم أتأيم

ومن الأول أيضاً قول يزيد بن الحكم الثقفي:

كل امرئ ستئيم منه العرس أو منها يئيم

وقول الآخر:

نجوت بقوف نفسك غير أني إخال بأن سيئتم أو تئيم

يعني: يئتم ابنك وتيأم امرأتك.

فإذ علمت هذا فاعلم أن قوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَّتَى﴾ شامل للذكور والإناث. وقوله في هذه الآية ﴿مِّنكُمُ﴾ أي من المسلمين، ويفهم من دليل

الخطاب أي مفهوم المخالفة في قوله: «منكم»، أن الأياى من غيركم؛ أي من غير المسلمين، وهم الكفار ليسوا كذلك.

وهذا المفهوم الذي فهم من هذه الآية جاء مصرحاً به في آيات أخر كقوله تعالى في آياى الكفار الذكور: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ [البقرة: ٢٢١]. وقوله في آياى هم الإناث: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وقوله فيهما جميعاً: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا مِنْ جِلٍّ لَهُنَّ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [المتحنة: ١٠].

وبهذه النصوص القرآنية الصريحة الموضحة لمفهوم هذه الآية، تعلم أنه لا يجوز تزويج المسلمة للكافر مطلقاً، وأنه لا يجوز تزويج المسلم للكافرة، إلا أن عموم هذه الآيات خصصته آية المائدة، فأبانت أن المسلم يجوز له تزويج المحصنة الكتابية خاصة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥] فقوله تعالى عاطفاً على ما يحل للمسلمين: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ صريح في إباحة تزويج المسلم للمحصنة الكتابية، والظاهر أنها الحرة العفيفة.

فالحاصل أن التزويج بين الكفار والمسلمين ممنوع في جميع الصور، إلا صورة واحدة، وهي تزويج الرجل المسلم بالمرأة المحصنة الكتابية، والنصوص الدالة على ذلك قرآنية كما رأيت.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ دليل على لزوم تزويج الأياى من المملوكين الصالحين، والإماء المملوكات، وظاهر هذا الأمر الوجوب لما تقرر في الأصول.

وقد بيناه مراراً من أن صيغة الأمر المجردة عن القرائن تقتضي الوجوب، وبذلك تعلم أن الخالية من زوج إذا خطبها كفاء ورضيته، وجب على وليها تزويجها إياه، وأن ما يقوله بعض أهل العلم من المالكية ومن وافقهم من أن السيد له منع عبده وأمته من التزويج مطلقاً غير صواب لمخالفته لنص القرآن في هذه الآية الكريمة.

واعلم أن قوله في هذه الآية الكريمة: «وإمائكم»، بينت آية النساء أن الأمة لا تزويج للحر إلا بالشروط التي أشارت إليها الآية، فأية النساء المذكورة مخصصة بعموم آية النور هذه بالنسبة إلى الإماء وآية النساء المذكورة هي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيْسِتِكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِئِنْ خَشِىَ أَلَمْتُ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصِيرُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٥] فدلّت آية النساء هذه على أن الحر لا يجوز له أن يتزوج المملوكة المؤمنة، إلا إذا كان غير مستطيع تزويج حرة لعدم الطول عنده وقد خاف الزنى، فله حينئذٍ تزويج الأمة بإذن أهلها المالكين لها، ويلزمه دفع مهرها، وهي مؤمنة عفيفة ليست من الزانيات ولا متخذات الأخدان، ومع

هذا كله فصبره عن تزويجها خير له، وإذا كان الصبر عن تزويجها مع ما ذكرنا من الاضطرار خيراً له فمع عدمه أولى بالمنع. وبما ذكرنا تعلم أن الصواب قول الجمهور من منع تزويج الحر الأمة، إلا بالشروط المذكورة في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً﴾. وقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ الْغَنَى مِنْكُمْ﴾؛ أي الزنى، إلى آخر ما ذكر في الآية خلافاً لأبي حنيفة القائل بجواز نكاحها مطلقاً، إلا إذا تزوجها على حرة.

والحاصل أن قوله تعالى في آية النور هذه: ﴿وَأَمَّا بَيْعُكُمْ﴾ خصصت عموم آية النساء كما أوضحناه آنفاً، والعلماء يقولون: إن علة منع تزويج الحر الأمة، أنها إن ولدت منه كان ولدها مملوكاً؛ لأن كل ذات رحم فولدها بمنزلتها، فيلزمه ألا يتسبب في رق أولاده ما استطاع، ووجهه ظاهر كما ترى.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فيه وعد من الله للمتزوج الفقير من الأحرار، والعبيد بأن الله يغنيه، والله لا يخلف الميعاد، وقد وعد الله أصحاب رسول الله ﷺ الفقراء باليسر بعد ذلك العسر، وأنجز لهم ذلك، وذلكم في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾؛ أي ضيق عليه رزقه، إلى قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧] وهذا الوعد منه جل وعلا وعد به من اتقاه في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَرِزْقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾... الآية [الطلاق: ٢، ٣]. ووعد بالرزق أيضاً من يأمر أهله بالصلاة، ويصطرع عليها وذلك في قوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطِرِعْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْ رِزْقًا فَغَنُ رِزْقُكَ وَالْعِزَّةُ لِلنَّفَوَى ۖ﴾ [طه] وقد وعد المستغفرين بالرزق الكثير على لسان نبيه نوح في قوله تعالى عنه ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كَانُمْ أَهْلًا مِنْكُمْ غَفَارًا ۖ﴾ [يونس: ١٠] يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۖ وَيَبْسُطُ الرِّيحَ وَابْتِغَاءَ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا ۖ﴾ [نوح] وعلى لسان نبيه هود في قوله تعالى عنه: ﴿وَيَقُولُوا اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُبَوِّأُ إِلَيْهِ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَنَزِدُكُمْ قُوَّةً إِلَى قُلُوبِكُمْ﴾... الآية [هود: ٥٢]. وعلى لسان نبينا صلى الله عليه وعليهما جميعاً وسلم: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُبَوِّأُ إِلَيْهِ يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [هود: ٣].

ومن الآيات الدالة على أن طاعة الله تعالى سبب للرزق قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾... الآية [الأعراف: ٩٦]. ومن بركات السماء: المطر، ومن بركات الأرض: النبات مما يأكل الناس والأنعام، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَفَامُوا التَّورَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾... الآية [المائدة: ٦٦]. وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيَوَةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] أي في الدنيا كما قدمنا إيضاحه في سورة النحل، وكما يدل عليه قوله بعده في جزائه في الآخرة ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] وقد قدمنا أنه - جل وعلا - وعد بالغنى عند التزويج وعند الطلاق.

أما التزويج ففي قوله هنا: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْطِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾. وأما الطلاق ففي قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَفْرَقَهُ اللَّهُ كَلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾... الآية [النساء: ١٣٠]. والظاهر أن المتزوج الذي وعده الله بالغنى، هو الذي يريد بتزويجه الإعانة على طاعة الله بغض البصر، وحفظ الفرج كما بينه النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج» الحديث، وإذا كان قصده بالتزويج طاعة الله، بغض البصر، وحفظ الفرج فالوعد بالغنى إنما هو على طاعة الله بذلك.

وقد رأيت ما ذكرنا من الآيات الدالة على وعد الله بالرزق من أطاعه، سبحانه - جل وعلا - ما أكرمه فإنه يجزي بالعمل الصالح في الدنيا والآخرة، وما قاله أهل الظاهر من أن هذه الآية الكريمة تدل على أن العبد يملك ماله؛ لأن قوله: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْطِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ بعد قوله: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِيمَانِكُمْ﴾ يدل على وصف العبيد بالفقر والغنى، ولا يطلق الغنى إلا على من يملك المال الذي به صار غنياً، ووجهه قوي ولا ينافي أن لسيده أن ينتزع منه ذلك المال الذي هو ملك له. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتُفِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾. هذا الاستعفاف المأمور به في هذه الآية الكريمة، هو المذكور في قوله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُوا مِنْ أَنْبُسِهِمْ وَحَفِظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَى إِنَّكُمْ كُنْتُمْ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء] ونحو ذلك من الآيات. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُكْرِهْنِ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِنَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِنَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قيل: غفور لهن. وقيل: غفور لهن. وقيل: غفور لهن ولهن.

وأظهرها أن المعنى غفور لهن؛ لأن المكروه لا يؤاخذ بما أكره عليه، بل يغفره الله له لعذره بالإكراه كما يوضحه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ الآية [النحل: ١٠٦]، ويؤيده قراءة ابن مسعود، وجابر بن عبد الله، وابن جبير: «فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم». ذكره عنه القرطبي، وذكره الزمخشري عن ابن عباس رضي الله عنهما جميعاً.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أنا لا نبين القرآن بقراءة شاذة، وربما ذكرنا القراءة الشاذة استشهاداً بها لقراءة سبعية كما هنا، فزيادة لفظة لهن في قراءة ما ذكرنا استشهاد بقراءة شاذة لبيان بقراءة غير شاذة أن الموعود بالمغفرة والرحمة، هو المعذور بالإكراه دون المكروه؛ لأنه غير معذور في فعله القبيح، وذلك البيان المذكور بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: فإن قلت: لا حاجة إلى تعليق المغفرة بهن؛ لأن المكروه على الزنا، بخلاف المكروه عليه في أنها غير آثمة.

قلت: لعل الإكراه كان دون ما اعتبرته الشريعة من إكراه بقتل، أو بما يخاف منه التلف، أو ذهاب العضو من ضرب عنيف أو غيره، حتى يسلم من الإثم، وربما قصرت عن الحد الذي تُعَدَّر فيه فتكون آثمة، انتهى منه.

والذي يظهر أنه لا حاجة إليه؛ لأن إسقاط المؤاخذه بالإكراه يصدق عليه أنه غفران ورحمة من الله بعبده، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٣٤). ذكر الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أنزل إلينا على لسان نبيه ﷺ آيات مبينات، ويدخل فيها دخولاً أولاً آيات التي بينت في هذه السورة الكريمة، وأوضح في معاني الأحكام والحدود، ودليل ما ذكر من القرآن قوله تعالى: ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَّبَيِّنُ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١) ولا شك أن هذه الآيات المبينات المصرح بنزولها في هذه السورة الكريمة، داخلة في قوله تعالى هنا: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾... الآية.

وبذلك تعلم أن قوله تعالى هنا: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ معناه: أنزلناها إليكم لعلكم تذكرون: أي تتعظون بما فيها من الأوامر والنواهي والمواعظ، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَّبَيِّنُ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ فقد صرح في هذه الآية الكريمة بأن من حكم إنزالها أن يتذكر الناس، ويتعظوا بما فيها، ويدل لذلك عموم قوله تعالى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِّتُبَيِّنَ لَهُ آيَاتِهِ وَيُرْسِلَ رُوحَنَا تَتْلُوهُ أَوَّلَهَا آيَةً﴾ (٢) [ص] وقوله تعالى: ﴿التَّصَّ ١ كَتَبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣) [الأعراف] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ معطوف على آيات: أي أنزلنا إليكم آيات؛ وأنزلنا إليكم مثلاً من الذين خلوا من قبلكم.

قال أبو حيان في البحر المحيط: «ومثلاً» معطوف على آيات، فيحتمل أن يكون المعنى: ومثلاً من أمثال الذين من قبلكم؛ أي قصة غريبة من قصصهم كقصة يوسف، ومريم في براءتهما.

وقال الزمخشري: ومثلاً من أمثال من قبلكم؛ أي قصة عجيبة من قصصهم كقصة يوسف، ومريم، يعني قصة عائشة رضي الله عنها، وما ذكرنا عن أبي حيان والزمخشري ذكره غيرهما.

وإيضاحه أن المعنى وأنزلنا إليكم مثلاً أي قصة عجيبة غريبة في هذه السورة الكريمة، وتلك القصة العجيبة من أمثال الذين خلوا من قبلكم: أي من جنس قصصهم العجيبة، وعلى هذا الذي ذكرنا فالمراد بالقصة العجيبة التي أنزلها إلينا، وعبر عنها بقوله: «ومثلاً» هي براءة عائشة رضي الله عنها مما رماها به أهل الإفك، وذلك مذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ مِرَّةٌ مِّمَّا يَقُولُونَ﴾

الآية. فقد بين في الآيات العشر المشار إليها أن أهل الإفك رموا عائشة، وأن الله برأها في كتابه مما رموها به، وعلى هذا:

فمن الآيات المبينة لبعض أمثال من قبلنا قوله تعالى في رمي امرأة العزيز يوسف بأنه أراد بها سوءاً تعني الفاحشة قالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُنتُمْ حَتَّى جَاءَ أَيْدِيكُمْ﴾ [يوسف] لأنهم سجنوه بضع سنين، بدعوى أنه كان أراد الفاحشة من امرأة العزيز، وقد برأه الله من تلك الفرية التي افترت عليه بإقرار النسوة وامرأة العزيز نفسها؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرُّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [٥٥] قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَوَدْتُمْ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنِّ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [٥٦] [يوسف] وقال تعالى عن امرأة العزيز في كلامها مع النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢].

فقصة يوسف هذه مثل من أمثال من قبلنا؛ لأنه رمي بإرادة الفاحشة وبرأه الله من ذلك، والمثل الذي أنزله إلينا في هذه السورة، شبيه بقصة يوسف؛ لأنه هو وعائشة كلاهما رمي بما لا يليق، وكلاهما برأه الله تعالى، وبراءة كل منهما نزل بها هذا القرآن العظيم، وإن كانت براءة يوسف وقعت قبل نزول القرآن بإقرار امرأة العزيز، والنسوة كما تقدم قريباً وبشهادة الشاهد من أهلها. ﴿إِنْ كَانَتْ فَمِصُّهُ قَدْ مِنْ قُبُلٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا فَمِصُّهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾... الآية [يوسف: ٢٦ - ٢٨].

ومن الآيات المبينة لبعض أمثال الذين من قبلنا ما ذكره تعالى عن قوم مريم من أنهم رموها بالفاحشة، لما ولدت عيسى من غير زوج كقوله تعالى: ﴿وَكُفِّرْهُمْ وَقُولِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء] يعني فاحشة الزنى. وقوله تعالى: ﴿قَاتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [مريم] يعنون الفاحشة، ثم بين الله تعالى براءتها مما رموها به في مواضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿فَاشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [١٩] قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٢٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا إِلَى قَوْمِهِ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ أُبْعِثُ حَيًّا ﴿٢٢﴾ [مريم: ٢٩ - ٣٣] فكلام عيسى، وهو رضيع ببراءتها، يدل على أنها بريئة. وقد أوضح الله براءتها مع بيان سبب حملها بعيسى، من غير زوج، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا﴾ [٢١] فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿٢٢﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَفْسًا وَحِيدًا قَالِ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿٢٣﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٤﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢٥﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٦﴾ [مريم] إلى آخر الآيات.

ومن الآيات التي بين الله فيها براءتها قوله تعالى في الأنبياء: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء]. وقوله تعالى في التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا الظِّلْمُ﴾ [التحريم]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فهذه الآيات التي ذكرنا التي دلت على قذف يوسف وبراءته، وقذف مريم وبراءتها من أمثال من قبلنا فهي مما يبين بعض ما دل عليه قوله: ﴿وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكَ﴾. والآيات التي دلت على قذف عائشة وبراءتها بينت المثل الذي أنزل إلينا وكونه من نوع أمثال من قبلنا واضح؛ لأن كلاً من عائشة، ومريم، ويوسف رمي بما لا يليق، وكل منهم برأه الله، وقصة كل منهم عجيبة؛ ولذا أطلق عليها اسم المثل في قوله: ﴿وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكَ﴾.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾. قال الزمخشري: وموعظة ما وعظ به في الآيات والمثل من نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾، ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾. ﴿يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾، اهـ كلام الزمخشري، والظاهر أن وجه خصوص الموعظة بالمتقين دون غيرهم أنهم هم المتفعون بها.

ونظيره في القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [فاطر: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا﴾ [النازعات] فخص الإنذار بمن ذكر في الآيات؛ لأنهم هم المتفعون به مع أنه ﷺ في الحقيقة منذر لجميع الناس كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان]. ونظيره أيضاً قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] ونحوها من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ قرأه نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وشعبة عن عاصم: «مبينات» بفتح الياء المثناة التحتية المشددة بصيغة اسم المفعول. وقرأه ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «مبينات» بكسر الياء المشددة بصيغة اسم الفاعل، فعلى قراءة من قرأ بفتح الياء فلا إشكال في الآية؛ لأن الله بينها، وأوضحها، وعلى قراءة من قرأ «مبينات» بكسر الياء بصيغة اسم الفاعل، ففي معنى الآية وجهان معروفان:

أحدهما: أن قوله: «مبينات» اسم فاعل بين المتعدية، وعليه فالمفعول محذوف أي مبينات الأحكام والحدود.

وثانيهما: أن قوله: «مبينات» وصف من بين اللازمة، وهو صفة مشبهة، وعليه فالمعنى آيات مبينات أي بينات واضحات، ويدل لهذا الوجه الأخير قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾. وذكر الوجهين المذكورين الزمخشري، وأبو حيان وغيرهما، ومثلوا لبين اللازمة بالمثل المعروف، وهو قول العرب: قد بين الصبح لذي عينين.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: من المعروف في العربية أن بين مضعفاً، وأبان
كلتاهما تأتي متعدية للمفعول ولازمة، فتعدي «بين» للمفعول مشهور واضح كقوله تعالى:
﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ [آل عمران: ١١٨] وتعدي أبان للمفعول مشهور واضح أيضاً كقولهم:
أبان له الطريق: أي بينها له، وأوضحها، وأما ورود بين لازمة بمعنى تبين ووضح فمنه
المثل المذكور: قد بين الصبح لذي عينين. أي تبين وظهر، ومنه قول جرير:

وجوه مجاشع طليت بلوْم يبين في المقلد والعدار

فقوله: يبين بكسر الباء بمعنى: يظهر، ويتضح، وقول جرير أيضاً:

رأى الناس البصيرة فاستقاموا وبينت المراض من الصحاح

ومنه أيضاً قول قيس بن ذريح:

وللحب آيات تبين بالفتى شحوب وتعري من يديه الأشاجع

على الرواية المشهورة برفع شحوب.

والمعنى للحب علامات تبين بالكسر؛ أي تظهر وتتضح بالفتى، وهي شحوب
الخ، وأنشد ثعلب هذا البيت فقال: شحوباً بالنصب، وعليه فلا شاهد في البيت؛ لأن
شحوباً على هذا مفعول تبين، فهو على هذا من بين المتعدية، وأما ورود أبان لازمة
بمعنى بان وظهر، فهو كثير في كلام العرب أيضاً، ومنه قول جرير:

إذا آباؤنا وأبوك عدوا أبان المقرفات من العراب

أي ظهرت المقرفات وتبينت، وقول عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

لو دب ذر فوق ضاحي جلدها لأبان من آثارهن حذور

أي لظهر وبان من آثارهن حذور أي ورم، وقول كعب بن زهير:

قنواء في حريتها للبصير بها عتق مبين وفي الخدين تسهيل

فقوله: مبين وصف من أبان اللازمة: أي عتق بين واضح؛ أي كرم ظاهر.

قوله تعالى: ﴿يَسِّحْ لَهُ فِيهَا بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ
اللَّهِ... الآية. قرأ هذا الحرف جميع السبعة غير ابن عامر، وشعبة، عن عاصم:
«يسبح له» فيها بكسر الباء الموحدة المشددة، مبنياً للفاعل، وفاعله «رجال» والمعنى
واضح على هذه القراءة. وقرأ ابن عامر، وشعبة، عن عاصم: «يسبح له فيها» بفتح
الباء الموحدة المشددة، مبنياً للمفعول، وعلى هذه القراءة فالفاعل المحذوف قد دلت
القراءة الأولى على أن تقديره: «رجال» فكأنه لما قال يسبح له فيها، قيل: ومن يسبح
له فيها؟ قال رجال: أي يسبح له فيها رجال.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك ما لفظه، وقد التزمنا أنا لا نبين القرآن
إلا بقراءة سبعة، سواء كانت قراءة أخرى في الآية المبينة نفسها، أو آية أخرى غيرها

إلى آخره، وإنما ذكرنا أن الآية يبين بعض القراءات فيها معنى بعض؛ لأن المقرر عند العلماء أن القراءتين في الآية الواحدة كالآيتين.

وإذا علمت ذلك فاعلم أن قراءة الجمهور «يسبح» بكسر الباء وفاعله «رجال»، مبينة أن الفاعل المحذوف في قراءة ابن عامر، وشعبة، عن عاصم: «يسبح» بفتح الباء مبنياً للمفعول لحذف الفاعل هو رجال كما لا يخفى، والآية على هذه القراءة حذف فيها الفاعل ليسبح، وحذف أيضاً الفعل الرفع للفاعل الذي هو رجال على حد قوله في الخلاصة:

ويرفع الفاعل فعل أضمرا كمثل زيد في جواب من قرا

ونظير ذلك من كلام العرب قول ضرار بن نهشل يرثي أخاه يزيد أو غيره:

لِيُبَكَّ يَزِيدَ ضَارِعَ لَخْصُومَةٍ وَمَخْتَبَطَ مِمَّا تَطِيحُ الطَّوَائِحُ

فقوله: ليبك يزيد بضم الياء المثناة التحتية، وفتح الكاف مبنياً للمفعول، فكأنه قيل: ومن يبيكه؟ فقال: يبيكه ضارع لخصومة إلخ. وقراءة ابن عامر، وشعبة هنا كقراءة ابن كثير: «كذلك يوحى» إليك بفتح الحاء مبنياً للمفعول فقوله: الله فاعل يوحى المحذوفة، ووصفه تعالى لهؤلاء الرجال الذين يسبحون له بالغدو والأصا، بكونهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة على سبيل مدحهم، والثناء عليهم، يدل على أن تلك الصفات لا ينبغي التساهل فيها بحال؛ لأن ثناء الله على المتصف بها يدل على أن من أخل بها يستحق الذم الذي هو ضد الثناء، ويوضح ذلك أن الله نهى عن الإخلال بها نهياً جازماً في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ١٩﴾ [المنافقون] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَوَدَّعَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ... الآية [الجمعة: ٩١]. إلى غير ذلك من الآيات.

وهناك مسائل متعلقة بالآية الكريمة يرجع من أراد الوقوف عليها إلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الرجال الذين يسبحون له في المساجد بالغدو والأصا، إلى آخر ما ذكر من صفاتهم أنهم يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار، وهو يوم القيامة لشدة هولها، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من عظم هول ذلك اليوم، وتأثيره في القلوب والأبصار، جاء في آيات كثيرة من كتاب الله العظيم كقوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ٩﴾ [النازعات] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢] وقوله تعالى: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ... الآية [غافر: ١٨]. ونحو ذلك من الآيات الدالة على عظم ذلك اليوم كقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ٧ أَلَسَاءَ مُنْفَطِرٌ بِهِ ٨﴾ الآية [المزمل: ١٧، ١٨]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَطْمَعُكُمْ لِيَوْمِ اللَّهِ لَا تُرِيدُ بِكُمْ جَزَاءً

وَلَا شُكُّوا ﴿٣٨﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غَبُوسًا قَطْرِيرًا ﴿٣٩﴾ [الإنسان] إلى غير ذلك من الآيات، وفي معنى تقلب القلوب والأبصار أقوال متعددة لأهل التفسير، ذكرها القرطبي وغيره.

وأظهرها عندي أن تقلب القلوب هو حركتها من أماكنها من شدة الخوف كما قال تعالى: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ [غافر: ١٨] وأن تقلب الأبصار هو زيغوغتها ودورانها بالنظر في جميع الجهات من شدة الخوف، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَقْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾... الآية [الأحزاب: ١٩]، وكقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَلَفَّتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] فالدوران والزيغوغة المذكوران يعلم بهما معنى تقلب الأبصار، وإن كانا مذكورين في الخوف من المكروه في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾، الظاهر أن اللام في قوله: ليجزيهم، متعلقة بقوله: يسبح: أي يسبحون له، ويخافون يوماً ليجزيهم الله أحسن ما عملوا، وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾، الظاهر أن هذه الزيادة من فضله تعالى، هي مضاعفة الحسنات، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَلٍهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلُمُ شَيْئًا ذَرًّا وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال بعض أهل العلم: الزيادة هنا كالزيادة في قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَّعْتِمْ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] والأصح أن الحسنات الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم، وذلك هو أحد القولين في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق].

وقد قدمنا قول بعض أهل العلم أن قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ ونحوها من الآيات يدل على أن المباح حسن؛ لأن قوله: ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ صيغة تفضيل، وأحسن ما عملوا هو ما تقربوا به إلى الله من الواجبات والمستحبات، وصيغة التفضيل المذكورة تدل على أن من أعمالهم حسناً لم يجزوه وهو المباح. قال في (مراقي السعود):

ما ربنا لم ينه عنه حسن وغيره القبيح والمستهجن

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كِرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَاقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن أعمال الكفار باطلة، وأنها لا شيء؛ لأنه قال في السراب الذي مثلها به: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من بطلان أعمال الكفار، جاء موضحاً في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ الآية [إبراهيم: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّا عَلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا أن عمل الكافر إذا كان على الوجه الصحيح أنه يجزى به في الدنيا كما أوضحناه في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ... الآية [النحل: ٢٣].

وقد دلت آيات من كتاب الله على انتفاع الكافر بعمله في الدنيا دون الآخرة كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿١٠﴾﴾ [الشورى] وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَوْنَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود] وهذا الذي دلت عليه هذه الآيات من انتفاع الكافر بعمله الصالح في الدنيا دون الآخرة، ثبت في صحيح مسلم وغيره من حديث أنس رضي الله عنه كما أوضحناه في الكلام على آية النحل المذكورة، وهو أحد التفسيرين في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابًا﴾ ... الآية، أي وفاء حسابه في الدنيا على هذا القول، وقد بين الله - جل وعلا - في سورة بني إسرائيل أن ما دلت عليه الآيات من انتفاع الكافر بعمله الصالح في الدنيا، أنه مقيد بمشيئة الله تعالى، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَالَةَ عَجَلًا لَّمْ يَفْلَحْ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿٨﴾﴾ [الإسراء].

تنبيه: في هذه الآية الكريمة سؤال معروف ذكرناه وذكرنا الجواب عنه في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» وذلك في قولنا فيه: لا يخفى ما يسبق إلى الذهن من أن الضمير في قوله: جاء يدل على شيء موجود واقع عليه المجيء؛ لأن وقوع المجيء على عدم لا يعقل، ومعلوم أن الصفة الإضافية، لا تتقوم إلا بين متضائفين، فلا تدرك إلا بإدراكهما، فلا يعقل وقوع المجيء بالفعل، إلا بإدراك فاعل واقع منه المجيء، ومفعول به واقع عليه المجيء. وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ يدل على عدم وجود شيء يقع عليه المجيء في قوله تعالى: ﴿جَاءَهُ﴾.

والجواب عن هذا من وجهين ذكرهما ابن جرير في تفسير هذه الآية الكريمة.

قال: فإن قال قائل كيف قيل: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ فإن لم يكن السراب شيئاً فعلام دخلت الهاء في قوله: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَهُ﴾، قيل: إنه شيء يرى من بعيد كالضباب الذي يرى كثيفاً من بعيد، فإذا قرب منه رق وصار كالهواء، وقد يحتمل أن يكون معناه حتى إذا جاء موضع السراب لم يجد السراب شيئاً فاكفى بذكر السراب عن ذكر موضعه، انتهى منه.

والوجه الأول أظهر عندي، وعنده، بدليل قوله: وقد يحتمل أن يكون معناه إلخ. انتهى كلامنا في «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» وقد رأيت فيه جواب ابن جرير الطبري عن السؤال المذكور، وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿بِقِيعَةٍ﴾، قيل: جمع

قاع كجار وجيرة. وقيل: القيعه والقاع بمعنى، وهو المنبسط المستوي المتسع من الأرض، وعلى هذا فالقاع واحد القيعان كجار وجيران.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤١)، اعلم أن الضمير المحذوف الذي هو فاعل «علم» قال بعض أهل العلم: إنه راجع إلى الله في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾... الآية. وعلى هذا فالمعنى كل من المسبحين والمصلين قد علم الله صلاته وتسبيحه. وقال بعض أهل العلم: إن الضمير المذكور راجع إلى قوله: (كل) أي كل من المصلين والمسبحين، قد علم صلاة نفسه وتسبيح نفسه، وقد قدمنا في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الآية [النحل: ٩٧] كلام الأصوليين في اللفظ إن احتمل التوكيد والتأسيس حمل على التأسيس، وبيننا أمثلة متعددة لذلك من القرآن العظيم.

وإذا علمت ذلك فاعلم أن الأظهر على مقتضى ما ذكرنا عن الأصوليين، أن يكون ضمير الفاعل المحذوف في قوله: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ راجعاً إلى قوله: «كل» أي كل من المصلين قد علم صلاة نفسه، وكل من المسبحين قد علم تسبيح نفسه، وعلى هذا القول فقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ تأسيس لا تأكيد، أما على القول بأن الضمير راجع إلى الله؛ أي قد علم الله صلته يكون قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ كال تكرار مع ذلك فيكون من قبيل التوكيد اللفظي.

وقد علمت أن المقرر في الأصول أن الحمل على التأسيس أرجح من الحمل على التوكيد كما تقدم إيضاحه. والظاهر أن الطير تسبح وتصلي صلاة وتسبيحاً يعلمهما الله، ونحن لا نعلمهما كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ سِتْرٌ وَلَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ سِتْرٌ وَلَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ سِتْرٌ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ومن الآيات الدالة على أن غير العقلاء من المخلوقات لها إدراك يعلمه الله ونحن لا نعلمه، قوله تعالى في الحجارة: ﴿وَلَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ سِتْرٌ وَلَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ سِتْرٌ وَلَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ سِتْرٌ﴾ [البقرة: ٧٤] فأثبت خشيته للحجارة، والخشية تكون بإدراك. وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشْيَةً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾... الآية [الأحزاب: ٧٢]. والإباء والإشفاق إنما يكونان بإدراك، والآيات والأحاديث واردة بذلك، وهو الحق. وظاهر الآية أن للطير صلاة وتسبيحاً، ولا مانع من الحمل على الظاهر. ونقل القرطبي عن سفيان: إن للطير صلاة ليس فيها ركوع ولا سجود، اهـ.

ومعلوم أن الصلاة في اللغة الدعاء، ومنه قول الأعشى:

تقول بنتي وقد قَرَبْتُ مرتحلاً يا رب جنب أبي الأوصاب والوجعا

عليك مثل الذي صليت فاغتبطي نوماً فإن لجنب المرء مضجعاً

فقوله: مثل الذي صليت أي دعوت يعني قولها: يا رب جنّب أبي الأوصاب والوجعا. وقوله: صافات؛ أي صافات أجنحتها في الهواء. وقد بين تعالى في غير هذا الموضع أن إمساكه الطير صافات أجنحتها في الهواء وقابضات لها من آيات قدرته، واستحقاقه العبادة وحده، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفْتٌ وَيُقْبَضُ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا أَلْزَمَهُنَّ﴾ الآية [الملك: ١٩]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ١٧٩].

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هذه الأمة ليستخلفنهم في الأرض؛ أي ليجعلنهم خلفاء الأرض، الذين لهم السيطرة فيها، ونفوذ الكلمة، والآيات تدل على أن طاعة الله بالإيمان به، والعمل الصالح سبب للقوة والاستخلاف في الأرض ونفوذ الكلمة كقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ تُسْتَضَعُونَ فِي الْأَرْضِ تَحَافَتُونَ أَن يَخَاطَبَكُمْ النَّاسُ فَتَأْوِنَكُمْ وَآيَدُكُمْ يَضْرِبُونَ﴾ ... الآية [الأنفال: ٢٦]. وقوله تعالى: ﴿وَلَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ مَن يَضْرِبُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الزمر: ١٢]. الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَنُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عِاقِبَةُ الْأُمُورِ [الحج: ١١]. وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَصْرَفُوا اللَّهُ يَصْرَفْكُمْ وَيَلْتَأْتِ أَعْدَانُكُمْ﴾ [محمد: ٧] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي كبنی إسرائيل.

ومن الآيات الموضحة لذلك قوله تعالى: ﴿وَرُبُّدُ أَنْ تَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَيَمْكُلَهُمْ أَمَةٌ وَيَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [٥] وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَرَبِّيَ فَرَعُونَ وَهَمَنَ وَخُودُهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ [١١] [القصاص]. وقوله تعالى عن موسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عِدْوُكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩] وقوله تعالى: ﴿وَأَوْثَرْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ ... الآية [الأعراف: ١٣٧]. إلى غير ذلك من الآيات، وقوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾، اللام موطئة لقسم محذوف؛ أي وعدهم الله، وأقسم في وعده ليستخلفنهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَيُمْكِنَنَّ لَهُمْ دِينُهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، هذا الدين الذي ارتضاه لهم هو دين الإسلام بدليل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]: وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ

الْخَسِرِينَ ﴿٥٥﴾ [آل عمران]. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَيْمَكُنَّ لَهُمْ دِينٌ﴾؛ قال الزمخشري تمكنه هو تشيته وتوطيده.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾، هذه الآية الكريمة تدل على أن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول ﷺ سبب لرحمة الله تعالى سواء قلنا: إن لعل في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ حرف تعليل أو ترج؛ لأنها إن قلنا: إنها حرف تعليل، فإقامة الصلاة وما عطف عليه سبب لرحمة الله؛ لأن العلل أسباب شرعية، وإن قلنا: إن لعل للترجي؛ أي أقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة على رجائكم أن الله يرحمكم بذلك؛ لأن الله ما أطعمهم بتلك الرحمة عند عملهم بموجبها إلا ليرحمهم لما هو معلوم من فضله وكرمه. وكون: «لعل» هنا للترجي إنما هو بحسب علم المخلوقين كما أوضحناه في غير هذا الموضع، وهذا الذي دلت عليه هذه الآية من أنهم إن أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأطاعوا الرسول رحمهم الله بذلك جاء موضحاً في آية أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُؤِثِّرُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ الآية [التوبة: ٧١]. وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ بعد قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ من عطف العام على الخاص؛ لأن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، داخلان في عموم قوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، وقد قدمنا مراراً أن عطف العام على الخاص وعكسه كلاهما من الإطناب المقبول إذا كان في الخاص مزية ليست في غيره من أفراد العام.

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْصَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَعْجِزَاتٍ فِي الْأَرْضِ﴾، نهى الله نبيه محمداً ﷺ أن يحسب أي يظن الذين كفروا معجزين في الأرض، ومفعول معجزين محذوف؛ أي لا يظنهم معجزين ربه، بل قادر على عذابهم لا يعجز عن فعل ما أراد بهم لأنه قادر على كل شيء.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢] وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْفِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١﴾﴾ [العنكبوت]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِي وَرَقِيْ وَإِنَّمَا لِحَقِّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]. وقوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ مِّنْ يَّسَاءُ وَيَرْهَمُ مِّنْ يَّسَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٦﴾ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾... الآية [العنكبوت: ٢١، ٢٢]. وقوله في الشورى: ﴿وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٦٦﴾﴾ [الشورى] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَا تَحْصَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قرأه ابن عامر وحزمة: «لا يحسبن» بالياء المثناة التحتية على الغيبة. وقرأه باقي السبعة: «لا تحسبن» بالياء الفوقية. وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحزمة بفتح السين وباقي السبعة بكسرها.

والحاصل أن قراءة ابن عامر وحمزة بالياء التحتية وفتح السين، وقراءة عاصم بالتاء الفوقية وفتح السين، وقراءة الباقيين من السبعة بالتاء الفوقية وكسر السين، وعلى قراءة من قرأ بالتاء الفوقية فلا إشكال في الآية مع فتح السين وكسرها؛ لأن الخطاب بقوله: لا تحسبن للنبي ﷺ، وقوله: «الذين كفروا» هو المفعول الأول، وقوله: «معجزين» هو المفعول الثاني لتحسبن، وأما على قراءة: «ولا يحسبن» بالياء التحتية ففي الآية إشكال معروف وذكر القرطبي الجواب عنه من ثلاثة أوجه:

الأول: أن قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في محل رفع فاعل يحسبن، والمفعول الأول محذوف تقديره: أنفسهم. ومعجزين: مفعول ثان؛ أي لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين الله في الأرض، وعزا هذا القول للزجاج، والمفعول المحذوف قد تدل عليه قراءة من قرأ بالتاء الفوقية كما لا يخفى، ومفعولا الفعل القلبي يجوز حذفهما أو حذف أحدهما إن قام عليه دليل كما أشار له ابن مالك في الخلاصة بقوله:

ولا تجز هنا بلا دليل سقوط مفعولين أو مفعول

ومثال حذف المفعولين معاً مع قيام الدليل عليهما قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُتِرَ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٢٢]؛ أي تزعمونهم شركائي. وقول الكمي:

بأي كتاب أم بأية سنة ترى حبهام عاراً علي وتحسب

أي وتحسب حبهام عاراً علي، ومثال حذف أحد المفعولين قول عنترة:

ولقد نزلت فلا تظني غيره مني بمنزلة المحب المكرم

أي لا تظني غيره واقعاً.

الجواب الثاني: أن فاعل «يحسبن» النبي ﷺ؛ لأنه مذكور في قوله قبله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢] أي لا يحسبن محمد ﷺ الذين كفروا معجزين. وعلى هذا فالذين كفروا مفعول أول، ومعجزين مفعول ثان. وعزا هذا القول للفراء، وأبي علي.

الجواب الثالث: أن المعنى لا يحسبن الكافر أن الذين كفروا معجزين في الأرض وعزا هذا القول لعلي بن سليمان، وهو كالذي قبله، إلا أن الفاعل في الأول النبي ﷺ، وفي الثاني الكافر. وقال الزمخشري: وقرئ لا يحسبن بالياء وفيه أوجه أن يكون معجزين في الأرض هما المفعولان.

والمعنى لا يحسبن الذين كفروا أحداً يعجز الله في الأرض، حتى يطمعوا هم في مثل ذلك، وهذا معنى قوي جيد، وأن يكون فيه ضمير الرسول لتقدم ذكره في قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢] وأن يكون الأصل: لا يحسبنهم الذين كفروا معجزين، ثم حذف الضمير الذي هو المفعول الأول، وكأن الذي سوغ ذلك أن الفاعل والمفعولين لهما كانت لشيء واحد، اقتنع بذكر اثنين عن ذكر الثالث، اهـ.

وما ذكره النحاس وأبو حاتم وغيرهما من أن قراءة من قرأ: «لا يحسبن» بالياء التحتية خطأ أو لحن؛ كلام ساقط لا يلتفت إليه؛ لأنها قراءة سبعية ثابتة ثبوتاً لا يمكن الطعن فيه، وقرأ بها من السبعة: ابن عامر، وحمزة كما تقدم.

وأظهر الأجوبة عندي أن معجزين في الأرض هما المفعولان، فالمفعول الأول معجزين، والمفعول الثاني دل عليه قوله: في الأرض، أي لا تحسبن معجزين الله موجودين أو كائنين في الأرض، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾.

لأهل العلم في هذه الآية أقوال راجعة إلى قولين:

أحدهما: أن المصدر الذي هو دعاء مضاف إلى مفعوله، وهو الرسول ﷺ، وعلى هذا فالرسول مدعو.

ثانيهما: أن المصدر المذكور مضاف إلى فاعله، وهو الرسول ﷺ، وعلى هذا فالرسول داع.

وإيضاح معنى قول من قال: إن المصدر مضاف إلى مفعوله، أن المعنى لا تجعلوا دعاءكم الرسول إذا دعوتهم كدعاء بعضكم بعضاً، فلا تقولوا له: يا محمد مصرّحين باسمه، ولا ترفعوا أصواتكم عنده كما يفعل بعضكم مع بعض، بل قولوا له: يا نبي الله، يا رسول الله مع خفض الصوت احتراماً له ﷺ.

وهذا القول هو الذي تشهد له آيات من كتاب الله تعالى كقوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ ﴿٣﴾... الآية [الحجرات: ٢، ٣]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٥﴾... الآية [الحجرات: ٤، ٥]. وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾... الآية [البقرة: ١٠٤]، وهذا القول في الآية مروي عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة. كما ذكره عنهم القرطبي، وذكره ابن كثير عن الضحاك، عن ابن عباس، وذكره أيضاً عن سعيد بن جبير، ومجاهد، ومقاتل، ونقله أيضاً عن مالك عن زيد بن أسلم، ثم قال: إن هذا القول هو الظاهر واستدل له بالآيات التي ذكرنا.

وأما على القول الثاني: وهو أن المصدر مضاف إلى فاعله ففي المعنى وجهان:

الأول: ما ذكره الزمخشري في الكشاف، قال: إذا احتاج رسول الله ﷺ إلى اجتماعكم عنده لأمر فدعاكم فلا تتفرقوا عنه إلا بإذنه، ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً، ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعي.

والوجه الثاني: هو ما ذكره ابن كثير في تفسيره قال، والقول الثاني في ذلك أن

المعنى في ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾؛ أي لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره، فإن دعاءه مستجاب، فاحذروا أن يدعو عليكم، فتهلكوا، حكاة ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، والحسن البصري، وعطية العوفي، والله أعلم، انتهى كلام ابن كثير.

قال مقبده - عفا الله عنه وغفر له -: هذا الوجه الأخير يأباه ظاهر القرآن؛ لأن قوله تعالى: ﴿كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ يدل على خلافه، ولو أراد دعاء بعضهم على بعض لقال: لا تجعلوا دعاء الرسول عليكم كدعاء بعضكم على بعض، فدعاء بعضهم بعضاً، ودعاء بعضهم على بعض متغايران كما لا يخفى. والظاهر أن قوله: «لا تجعلوا» من جعل التي بمعنى اعتقد، كما ذكرنا عن ابن كثير آنفاً.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. الضمير في قوله: «عن أمره» راجع إلى الرسول، أو إلى الله والمعنى واحد؛ لأن الأمر من الله والرسول مبلغ عنه، والعرب تقول: خالف أمره وخالف عن أمره: وقال بعضهم: يخالفون: مضمن معنى يصدون، أي يصدون عن أمره.

وهذه الآية الكريمة قد استدلت بها الأصوليون على أن الأمر المجرد عن القرائن يقتضي الوجوب؛ لأنه - جل وعلا - توعّد المخالفين عن أمره بالفتنة أو العذاب الأليم وحذرهم من مخالفة الأمر، وكل ذلك يقتضي أن الأمر للوجوب، ما لم يصرف عنه صارف؛ لأن غير الواجب لا يستوجب تركه الوعيد الشديد والتحذير.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة من اقتضاء الأمر المطلق الوجوب دلت عليه آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [المرسلات] فإن قوله: اركعوا أمر مطلق، وذمه تعالى للذين لم يمثلوه بقوله: ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ يدل على أن امتثاله واجب. وكقوله تعالى لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] فإنكاره تعالى على إبليس موبخاً له بقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، يدل على أنه تارك واجباً. وأن امتثال الأمر واجب مع أن الأمر المذكور مطلق، وهو قوله تعالى: ﴿أَسْجُدُوا لِلْإِدَمِ﴾ [البقرة: ٣٤] وكقوله تعالى عن موسى: ﴿أَفَعْصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٣] فسمى مخالفة الأمر معصية، وأمره المذكور مطلق، وهو قوله: ﴿أَخْلَفْتَنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحَ وَلَا تَنْفَعُ سَيْلَ الْمَقْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] وكقوله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦] وإطلاق اسم المعصية على مخالفة الأمر يدل على أن مخالفه عاص، ولا يكون عاصياً إلا بترك واجب، أو ارتكاب محرم. وكقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] فإنه يدل على أن أمر الله، وأمر رسوله مانع من الاختيار موجب للامتثال، وذلك يدل على اقتضائه الوجوب كما ترى، وأشار إلى أن مخالفته معصية بقوله بعده: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

واعلم أن اللغة تدل على اقتضاء الأمر المطلق الوجوب بدليل أن السيد لو قال لعبده: اسقني ماء مثلاً، ولم يمثل العبد أمر سيده فعاقبه السيد فليس للعبد أن يقول عقابك لي ظلم؛ لأن صيغة الأمر في قولك: اسقني ماء لم توجب علي الامتثال، فقد عاقبتني على ترك ما لا يلزمي، بل يفهم من نفس الصيغة أن الامتثال يلزمه، وأن العقاب على عدم الامتثال واقع موقعه، والفتنة في قوله: ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ قبل هي القتل، وهو مروي عن ابن عباس، وقيل: الزلازل والأهوال، وهو مروي عن عطاء: وقيل: السلطان الجائر، وهو مروي عن جعفر بن محمد. قال بعضهم: هي الطبع على القلوب بسبب شؤم مخالفة أمر الله ورسوله ﷺ، وقال بعض العلماء: فتنة: محنة في الدنيا أو يصيبهم عذاب أليم في الآخرة.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: قد دل استقراء القرآن العظيم أن الفتنة فيه أطلقت على أربعة معان:

الأول: أن يراد بها الإحراق بالنار كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْنُونَ﴾ [الذاريات]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَكُفِّرَتْ... الآية [البروج: ١٠]، أي أحرقوهم بنار الأخدود على القول بذلك.

الثاني: وهو أشهرها إطلاق الفتنة على الاختبار كقوله تعالى: ﴿وَيَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾... الآية [الأنبياء: ٣٥]. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّوِ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا﴾ [الجن: ١٦، ١٧].

والثالث: إطلاق الفتنة على نتيجة الاختبار إن كانت سيئة كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ هَتَّاءٍ مَلِئِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣]. وفي الأنفال: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَلْبًا مَلِئِينَ﴾ [الأنفال: ٣٩]. فقلوه: ﴿هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ هَتَّاءٍ مَلِئِينَ﴾ أي حتى لا يبقى شرك على أصح التفسيرين، ويدل على صحته قوله بعده: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَلْبًا مَلِئِينَ﴾؛ لأن الدين لا يكون كله الله حتى لا يبقى شرك كما ترى، ويوضح ذلك قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» كما لا يخفى.

والرابع: إطلاق الفتنة على الحجة في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِحُجَّتِهِمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، أي لم تكن حجتهم، كما قال به بعض أهل العلم. والأظهر عندي أن الفتنة في قوله هنا: ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أنه من النوع الثالث من الأنواع المذكورة.

وأن معناه أن يفتنهم الله؛ أي يزيدهم ضلالاً بسبب مخالفتهم، عن أمره وأمر رسوله ﷺ. وهذا المعنى تدل عليه آيات كثيرة من كتاب الله تعالى، كقوله - جل وعلا -: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين] وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ الآية

[البقرة: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَأَدْتَهُمْ رَجْسًا إِلَى رَجْسِهِمْ﴾... الآية [التوبة: ١٢٥]، والآيات بمثل ذلك كثيرة، والعلم عند الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يعلم ما عليه خلقه أي من الطاعة والمعصية وغير ذلك.

وهذا المعنى الذي دلّت عليه هذه الآية مع أنه معلوم بالضرورة من الدين، جاء مبيناً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِیَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود: ٥] وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِدٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] أي هو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر، وقوله تعالى: ﴿وَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الزمر: ١٧] الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ [١٨] وَتَقْلُوكَ فِي السَّجْدِ [١٩] إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [٢٠] [الشعراء]، وقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِأُتْرُقٍ وَسَارِبٍ بِأُتْرُقٍ﴾ [الرعد: ١٠] وقوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلَيْهِ يَذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك: ٢٣] وقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود] وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] إلى غير ذلك من الآيات، وفي هذه الآيات وما في معناها أحسن وعد للمطيعين، وأشد وعيد للعصاة المجرمين، ولفظة «قد» في قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ﴾ للتحقيق، وإتيان «قد» للتحقيق مع المضارع كثير جداً في القرآن العظيم. كقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْلُكُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾ وقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾... الآية [الأحزاب: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ إِنَّهُ يَمُوتُ الَّذِي يَقُولُونَ﴾... الآية [الأنعام: ٣٣]. وقوله تعالى: ﴿قَدْ رَأَى قَلْبُ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ﴾... الآية [البقرة: ١٤٤].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنْشَأُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ الظاهر أنه ليس بظرف، بل هو معطوف على المفعول به الذي هو ما، من قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ﴾؛ أي ويعلم يوم يرجعون إليه، وقد ذكر الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يوم القيامة ينبيء الخلائق بكل ما عملوا؛ أي يخبرهم به ثم يجازيهم عليه.

وما دلّت عليه هذه الآية الكريمة من كونه - جل وعلا - يخبرهم يوم القيامة بما

عملوا جاء موضحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿يَبْنُوا لِلْإِنسَانِ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة] وقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَلِّتُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف] والآيات بمثل ذلك كثيرة. والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الفرقان

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه نزل الفرقان، وهو هذا القرآن العظيم على عبده، وهو محمد ﷺ، لأجل أن يكون للعالمين نذيراً، أي منذراً، وقد قدمنا مراراً أن الإنذار هو الإعلام المقترن بتهديد وتخويف وأن كل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذاراً، كما أوضحناه في أول سورة الأعراف.

وهذه الآية الكريمة تدل على عموم رسالته ﷺ للأسود والأحمر والجن والإنس لدخول الجميع في قوله تعالى: ﴿لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ ... الآية [سبأ: ٢٨] أي أرسلناك للناس كافة؛ أي جميعاً، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَكْبَرُ شَهَادَةٍ قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]. وقوله تعالى: ﴿يَتَمَنَّوْنَ الْغِنَى وَالْإِنْسَانُ إِنَّهُ سَتَقَطُّ عَنْ أَنْ يُفْعَدُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَأَنفَعُوا لَا تُفْعَدُونَ إِلَّا بِإِذْنِ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٦]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْيَهُودِ يَسْتَعْمُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصَتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [٢٨] قَالُوا يَقَوْمُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ [٢٩] يَقَوْمُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجْزِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ [٣٠] وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ [٣١] الآية [الأحقاف: ٢٩ - ٣٢]. وفي معنى قوله تعالى تبارك أقوال لأهل العلم.

قال القرطبي: تبارك اختلف في معناه: فقال الفراء هو في العربية بمعنى: تقدس وهما للعظمة، وقال الزجاج، تبارك: تفاعل من البركة. قال: ومعنى البركة: الكثرة من كل ذي خير، وقيل: تبارك: تعالي، وقيل: تعالي عطاؤه؛ أي زاد وكثر. وقيل المعنى:

دام وثبت إنعامه. قال النحاس: وهذا أولها في اللغة والاشتقاق من برك الشيء إذا ثبت ومنه برك الجمل والطير على الماء؛ أي دام وثبت، انتهى محل الغرض من كلام القرطبي.

وقال أبو حيان في البحر المحيط: قال ابن عباس: تبارك لم يزل، ولا يزول. وقال الخليل: تمجد وقال الضحاك: تعظم، وحكى الأصمعي: تباركت عليكم من قول عربي صعد رابية فقال ذلك لأصحابه؛ أي تعاليت وارتفعت، ففي هذه الأقوال تكون صفة ذات، وقال ابن عباس أيضاً، والحسن، والنخعي: هو من البركة، وهو التزايد في الخير من قبله. فالمعنى زاد خيره وعطاؤه وكثر، وعلى هذا يكون صفة فعل. انتهى محل الغرض من كلام أبي حيان.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: الأظهر في معنى تبارك بحسب اللغة التي نزل بها القرآن أنه تفاعل من البركة، كما جزم به ابن جرير الطبري، وعليه فمعنى تبارك: تكاثرت البركات والخيرات من قبله، وذلك يستلزم عظمته وتقدهس عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله؛ لأن من تأتي من قبله البركات والخيرات ويدر الأرزاق على الناس هو وحده المتفرد بالعظمة، واستحقاق إخلاص العبادة له، والذي لا تأتي من قبله بركة ولا خير، ولا رزق كالأصنام، وسائر المعبودات من دون الله لا يصح أن يعبد وعبادته كفر مخلد في نار جهنم، وقد أشار تعالى إلى هذا في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧] وقوله تعالى: ﴿وَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يَطْعَمُهُ﴾ [الأنعام: ١٤] وقوله تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعَمُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٧] وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُم آيَاتِهِ وَيُزِيلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [فادعوا الله مخلصين له الذين ولو كره الكافرون] [غافر: ٦٠].

تنبيه: اعلم أن قوله «تبارك» فعل جامد لا يتصرف، فلا يأتي منه مضارع، ولا مصدر ولا اسم فاعل ولا غير ذلك، وهو مما يختص به الله تعالى، فلا يقال لغيره تبارك خلافاً لما تقدم عن الأصمعي، وإسناده تبارك إلى قوله: ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ يدل على أن إنزاله الفرقان على عبده من أعظم البركات والخيرات والنعمة التي أنعم بها على خلقه، كما أوضحناه في أول سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾... الآية [الكهف: ١]. وذكرنا الآيات الدالة على ذلك، وإطلاق العرب تبارك مسنداً إلى الله تعالى معروف في كلامهم ومنه قول الطرماح:

تباركت لا معطٍ لشيء منعه وليس لما أعطيت يا رب مانع

وقول الآخر:

فليست عشيات الحمى برواجع
ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى
لنا أبداً ما أورد السلم النضر
تباركت ما تقدر يقع ولك الشكر

وقد قدمنا الشاهد الأخير في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلَنَ أَنْ لَنَ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وقوله: «الفرقان» يعني هذا القرآن العظيم، وهو مصدر زيدت فيه الألف والنون كالكفران والطغيان والرجحان، وهذا المصدر أريد به اسم الفاعل؛ لأن معنى كونه فرقاناً أنه فارق بين الحق والباطل، وبين الرشد والغي، وقال بعض أهل العلم: المصدر الذي هو الفرقان بمعنى اسم المفعول؛ لأنه نزل مفرقاً، ولم ينزل جملة.

واستدل أهل هذا القول بقوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِنُقَرِّمَ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكِّ﴾... الآية [الإسراء: ١٠٦]، وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ وقوله في هذه الآية الكريمة: نزل بالتضعيف يدل على كثرة نزوله أنجماً منجماً. قال بعض أهل العلم: ويدل على ذلك قوله في أول سورة آل عمران: ﴿نُزِّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾... الآية [آل عمران]. قالوا: عبر في نزول القرآن بنزل بالتضعيف لكثرة نزوله، وأما التوراة والإنجيل، فقد عبر في نزولهما بأنزل التي لا تدل على تكثير؛ لأنهما نزلا جملة في وقت واحد، وبعض الآيات لم يعتبر فيها كثرة نزول القرآن كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾... الآية [الكهف: ١]، وقوله في هذه الآية «على عبده». قال فيه بعض العلماء: ذكره صفة العبودية مع تنزيل الفرقان، يدل على أن العبودية لله هي أشرف الصفات، وقد بينا ذلك في أول سورة بني إسرائيل.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ يَتَّخِذُ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾. قوله: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٥٨] يدل من الذي في قوله تعالى: ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ﴾، وقال بعضهم: هو مرفوع على المدح، وقال بعضهم: هو منصوب على المدح. وقد أثنى على نفسه في هذه الآية الكريمة بخمسة أمور، هي أدلة قاطعة على عظمته، واستحقاقه وحده لإخلاص العبادة له:

الأول منها: أنه هو الذي له ملك السموات والأرض.

والثاني: أنه لم يتخذ ولداً، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

والثالث: أنه لا شريك له في ملكه.

والرابع: أنه هو خالق كل شيء.

والخامس: أنه قدر كل شيء خلقه تقديراً، وهذه الأمور الخمسة المذكورة في هذه

الآية الكريمة جاءت موضحة في آيات أخر.

أما الأول منها: وهو أنه له ملك السموات والأرض، فقد جاء موضحاً في آيات

كثيرة كقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾...

الآية [المائدة: ٤٠]. وقوله تعالى في سورة النور: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ

الْمَصِيرُ ﴿٢٤﴾ [النور]. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾... الآية [فاطر: ١٣]. وجميع الآيات التي ذكر فيها جل وعلا أن له الملك، فالملك فيها شامل لملك السموات والأرض، وما بينهما وغير ذلك. كقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ﴾... الآية [آل عمران: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿تَبَرَكَ الَّذِي يَدِيرُ الْمُلْكَ﴾... الآية [الملك: ١]. وقوله تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾... الآية [الأنعام: ٧٣]. وقوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة] والآيات الدالة على أن له ملك كل شيء كثيرة جداً معلومة.

وأما الأمر الثاني: وهو كونه تعالى لم يتخذ ولداً، فقد جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص] وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن] وقوله تعالى: ﴿يَبْقَى السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾... الآية [الأنعام: ١٠١]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [م] لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْقَطْنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ﴿١٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿١١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿١٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿١٣﴾ [مریم] وقوله تعالى: ﴿وَنَذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [م] مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ [الكهف] وقوله تعالى: ﴿أَفَاصْفَكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيِّنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَكَةِ ابْنًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء]. وقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَدٍ﴾ [إلى قوله: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة وقد قدمنا ذلك في مواضع من هذا الكتاب المبارك في سورة الكهف وغيرها.

وأما الأمر الثالث، وهو كونه تعالى لم يكن له شريك في الملك، فقد جاء موضحاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في آخر سورة بني إسرائيل: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ الآية [الإسراء: ١١١]، وقوله تعالى في سورة سبأ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ] وقوله تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]؛ لأن قوله: ﴿الْوَحِدُ الْقَهَّارُ﴾ يدل على تفرده بالملك، والقهر، واستحقاق إخلاص العبادة، كما لا يخفى، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الأمر الرابع وهو أنه تعالى خلق كل شيء، فقد جاء موضحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿يَبْقَى السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢] ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٣﴾ [الأنعام] وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآيٌ تُؤْكَوْنَ ﴿٢٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٢٣﴾
[غافر] إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الأمر الخامس وهو أنه قدّر كل شيء خلقه تقديراً، فقد جاء أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسْوَىٰ ﴿٢١﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعلى] وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر] إلى غير ذلك من الآيات، وقال ابن عطية: تقدير الأشياء هو حدها بالأمكانة، والأزمان، والمقادير، والمصلحة، والإتقان، انتهى بواسطة نقل أبي حيان في البحر.

تنبيه: في هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أن يقال: الخلق في اللغة العربية، معناه التقدير ومنه قول زهير:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ض القنوم يخلق ثم لا يفري

قال بعضهم: ومنه قوله تعالى: ﴿فَبَارَكْ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] قال: أي أحسن المقدرين، وعلى هذا فيكون معنى الآية وخلق كل شيء؛ أي قدر كل شيء فقدره تقديراً، وهذا تكرار كما ترى، وقد أجاب الزمخشري عن هذا السؤال، وذكر أبو حيان جوابه في البحر ولم يتعبه.

والجواب المذكور هو قوله: فإن قلت في الخلق معنى التقدير، فما معنى قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ كأنه قال: وقدر كل شيء فقدره.

قلت: المعنى أنه أحدث كل شيء إحداثاً مراعي فيه التقدير والتسوية فقدره وهياً لما يصلح له.

مثاله أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر المسوى الذي تراه، فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به في بابي الدين والدنيا، وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الحيلة المستوية المقدرة بأمثلة الحكمة والتدبير، فقدره لأمر ما ومصلحة مطابقاً لما قدر له غير متجاف عنه، أو سمى إحداث الله خلقاً؛ لأنه لا يحدث شيئاً لحكمته إلا على وجه التقدير غير متفاوت، فإذا قيل: خلق الله كذا، فهو بمنزلة قولك: أحدث وأوجد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق، فكأنه قيل: وأوجد كل شيء فقدره في إيجاده لم يوجد متفاوتاً، وقيل: فجعل له غاية ومتهى، ومعناه: فقدره للبقاء إلى أمد معلوم. انتهى كلام صاحب الكشف وبعضه له اتجاه. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شَوْراً ﴿٢٣﴾﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الآلهة التي يعبدونها المشركون من دونه، متصفة بستة أشياء كل واحد منها برهان قاطع، أن عبادتها مع الله، لا وجه لها بحال، بل هي ظلم-متناه، وجهل عظيم، وشرك يخلد به صاحبه في نار جهنم، وهذا

بعد أن أثنى على نفسه - جل وعلا - بالأمور الخمسة المذكورة في الآية التي قبلها التي هي براهين قاطعة على أن المتصف بها هو المعبود وحده، والأمور الستة التي هي من صفات المعبودات من دون الله:

الأول منها: أنها لا تخلق شيئاً؛ أي لا تقدر على خلق شيء.
والثاني منها: أنها مخلوقة كلها؛ أي خلقها خالق كل شيء.
والثالث: أنها لا تملك لأنفسها ضراً ولا نفعاً.

الرابع والخامس والسادس: أنها لا تملك موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً، أي بعثاً بعد الموت، وهذه الأمور الستة المذكورة في هذه الآية الكريمة، جاءت مبينة في مواضع آخر من كتاب الله تعالى.

أما الأول منها وهو كون الآلهة المعبودة من دون الله لا تخلق شيئاً، فقد جاء مبيناً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُمْ...﴾ الآية [الحج: ٧٣]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ﴿١٠﴾ آمُونَ عِزِّ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿١١﴾﴾ [النحل]. وقوله تعالى في سورة فاطر: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ ﴿١٥﴾ [فاطر] وقوله تعالى في سورة لقمان: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١٦﴾ [لقمان] وقوله تعالى في الأحقاف: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتَأْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَتُكْفَرُ مِنْ عِندِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١٧﴾ [الأحقاف]. وقوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ ﴿١٨﴾ [الكهف] وقد بين تعالى في آيات من كتابه الفرق بين من يخلق، ومن لا يخلق؛ لأن من يخلق هو المعبود، ومن لا يخلق لا تصح عبادته، كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ...﴾ الآية [البقرة: ٢١]، أي وأما من لم يخلقكم؛ فليس برب، ولا بمعبود لكم كما لا يخفى، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١٩﴾ [النحل] وقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقَ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦] أي ومن كان كذلك، فهو المعبود وحده - جل وعلا - وقوله تعالى: ﴿أَبَشِّرْكَوْنَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ [الأعراف].

وأما الأمر الثاني منها وهو كون الآلهة المعبودة من دونه مخلوقة، فقد جاء مبيناً في آيات من كتاب الله كآية النحل والأعراف، المذكورتين آنفاً.

أما آية النحل فهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ﴿٢١﴾ [النحل] فقوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ صريح في ذلك، وأما آية الأعراف فهي قوله تعالى: ﴿أَبَشِّرْكَوْنَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ [الأعراف] إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الأمر الثالث منها وهو كونهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً، فقد جاء مبيناً أيضاً في مواضع من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد: ١٦]. وكقوله تعالى: ﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [١٨١] وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٨٢﴾ ومن لا ينصر نفسه فهو لا يملك لها ضرراً ولا نفعاً، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَمِتُونَ﴾ [١٩٢] إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُمْنَاهُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْتَطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَصْهَرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٣ - ١٩٥].

وفيها الدلالة الواضحة على أنهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً، وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَسْلُمَ لَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُونَ مِنْهُ﴾ ... الآية [الحج: ٧٣] إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الرابع والخامس والسادس، من الأمور المذكورة أعني كونهم لا يملكون موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً. فقد جاءت أيضاً مبينة في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤].

فقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، يدل دلالة واضحة على أن شركاءهم ليس واحد منهم يقدر أن يفعل شيئاً من ذلك المذكور في الآية، ومنه الحياة المعبر عنها بخلقكم، والموت المعبر عنه بقوله: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾، والنشور المعبر عنه بقوله: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾، وبين أنهم لا يملكون نشوراً بقوله: ﴿أَمِرُ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وبين أنهم لا يملكون حياة ولا نشوراً في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا لِلْخَلْقِ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَدْعُوا لِلْخَلْقِ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ... الآية [يونس: ٣٤]، وبين أنه وحده الذي بيده الموت والحياة في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا﴾ [آل عمران: ١٤٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ ... الآية [المنافقون: ١١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ ... الآية [نوح: ٤]، وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ ... الآية [البقرة: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتَيْنَا وَأَحْيَيْتَنَا أَتَيْنَا﴾ ... الآية [غافر: ١١]، إلى غير ذلك من الآيات، وهذا الذي ذكرنا من بيان هذه الآيات بعضها لبعض معلوم بالضرورة من الدين.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أظهر الأقوال فيه أن المعنى لا يملكون لأنفسهم دفع ضرر ولا جلب نفع، كما قاله القرطبي

وغيره. وغاية ما في هذا التفسير حذف مضاف دل المقام عليه، وهو كثير في القرآن وفي كلام العرب. وقد أشار إليه في الخلاصة بقوله:

وما يلي المضاف يأتي خلفاً عنه في الإعراب إذا ما حذفاً

وقيل المعنى: لا يقدرون أن يضرروا أنفسهم، أو ينفعوها بشيء. والأول هو الأظهر؛ أي وإذا عجزوا عن دفع ضرر عن أنفسهم وجلب نفع لها فهم عن الموت والحياة والنشور أعجز؛ لأن ذلك لا يقدر عليه إلا الله - جل وعلا -.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا تُشْوَرُ﴾ اعلم أن النشور يطلق في العربية إطلاقين:

الأول: أن يكون مصدر نشر الثلاثي المتعدي، تقول: نشر الله الميت ينشره نشرًا ونشورًا.

والثاني: أن يكون مصدر نشر الميت ينشر نشورًا لازماً، والميت فاعل نشر.

والحاصل أن في المادة ثلاث لغات؛ الأولى: أنشره رباعياً بالهمزة ينشره بضم الياء إنشاراً. ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا سَاءَ أَنْشَرُهُ﴾ [عبس] وقوله تعالى: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِرُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] بضم النون وبالراء المهملة في قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو. وهو مضارع أنشره. والثانية نشر الله الميت ينشره بصيغة الثلاثي المتعدي، والمصدر في هذه اللغة النشر والنشور، ومنه قوله هنا: ﴿وَلَا تُشْوَرُ﴾: أي لا يملكون أن ينشروا أحداً بفتح الياء، وضم الشين، والثالثة: نشر الميت بصيغة الثلاثي اللازم، ومعنى أنشره، ونشره متعدياً أحياء بعد الموت، ومعنى نشر الميت لازماً حيي الميت وعاش بعد موته، وإطلاق النشر والنشور على الإحياء بعد الموت، وإطلاق النشور على الحياة بعد الموت معروف في كلام العرب، ومن إطلاقهم نشر الميت لازماً فهو ناشر؛ أي عاش بعد الموت قول الأعشى:

لو أسندت ميتاً إلى نحرها عاش ولم ينقل إلى قابر
حتى يقول الناس مما رأوا يا عجباً للميت الناشر

ومن إطلاق النشور بمعنى الإحياء بعد الموت، مصدر الثلاثي المتعدي، قوله هنا: ﴿وَلَا تُشْوَرُ﴾: أي بعثاً بعد الموت، ومن إطلاقهم النشور بمعنى الحياة بعد الموت مصدر الثلاثي اللازم قول الآخر:

إذا قبلتها كرعت بفيها كروع العسجدية في الغدير
فياخذني العناق وبرد فيها بموت في عظامي أو فتور
فنحيا تارة ونموت أخرى ونخلط ما نموت بالنشور

فقد جعل الغيوبه من شدة اللذة موتاً، والإفاقة منها نشوراً، أي حياة بعد الموت.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ حذف فيه أحد المفعولين؛ أي اتخذوا من دونه أصناماً آلهة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَعِزَّ اتَّخَذُوا أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام: ٧٤]. والآلهة جمع إله، فهو فعال مجموع على أفعله؛ لأن الألف التي بعد الهمزة مبدلة من همزة ساكنة هي فاء الكلمة كما قال في الخلاصة:

ومداً ابدل ثاني الهمزين من كلمة إن يسكن كآثر وأتمن

والإله المعبود فهو فعال بمعنى مفعول، وإتيان الفاعل بمعنى المفعول جاءت منه أمثلة في اللغة العربية كالإله بمعنى المألوه؛ أي المعبود، والكتاب بمعنى المكتوب، واللباس بمعنى: الملبوس، والإمام بمعنى المؤتم به. ومعلوم أن المعبود بحق واحد وغيره من المعبودات أسماء سماها الكفار، ما أنزل الله بها من سلطان ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦]، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ إِفْكِهِ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الذين كفروا وكذبوا النبي ﷺ فقالوا في هذا القرآن العظيم، الذي أوحاه الله إليه: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ إِفْكِهِ﴾: أي ما هذا القرآن إلا كذب اختلقه محمد ﷺ، وأعانه عليه على الإفك الذي افتراه قوم آخرون، قيل: اليهود، وقيل: عداس مولى حويطب بن عبد العزى، ويسار مولى العلاء بن الحضرمي، وأبو فكيهة الرومي، قال ذلك النضر بن الحراث العبدري.

وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن الكفار كذبوه وادعوا عليه أن القرآن كذب اختلقه، وأنه أعانه على ذلك قوم آخرون، جاء مبيناً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُوهَا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ﴾ [ص: ١٠] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُرْسَلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتِرٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٢١] وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [ق: ١٧] وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦]، والآيات في ذلك كثيرة معلومة.

وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أنهم افتروا على النبي ﷺ أنه أعانه على افتراء القرآن قوم آخرون جاء أيضاً موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ [المدثر: ٢١] أي يرويه محمد ﷺ عن غيره ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ [الأنعام: ١٠٥] كما تقدم إيضاحه في الأنعام، وقد كذبهم الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة فيما افتروا عليه من البهتان بقوله: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ قال الزمخشري ظلمهم أن جعلوا العربي يتلقن من الأعجمي الرومي كلاماً عربياً أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب، والزور هو أن بهتوه بنسبة ما

هو برئ منه إليه انتهى، وتكذيبه - جل وعلا - لهم في هذه الآية الكريمة، جاء موضحاً في مواضع آخر من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبُكُمْ وَهَذَا لِسَانٌ عَكْرٌ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣] كما تقدم إيضاحه في سورة النحل، وقوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦] وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۖ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۖ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۖ وَمَا أَزْكَرُ مَا سَقَرُ ۖ﴾ ... الآية [المدثر]؛ لأن قوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۖ﴾ [المدثر] بعد ذكر افتراءه على القرآن العظيم يدل على عظم افتراءه وأنه سيصلى بسببه عذاب سقر، أعادنا الله وإخواننا المسلمين منها، ومن كل ما قرب إليها من قول وعمل.

واعلم أن العرب تستعمل جاء وأتى بمعنى فعل، فقوله: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلُمًا﴾ أي فعلوه، وقيل: بتقدير الباء؛ أي جاءوا بظلم، ومن إتيان أتى بمعنى فعل قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرُحُونَ بِمَا آتَوَاهُمْ﴾ ... الآية [آل عمران: ١٨٨]؛ أي بما فعلوه. وقول زهير بن أبي سلمى:

فما يك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل

واعلم بأن الإفك هو أسوأ الكذب؛ لأنه قلب للكلام عن الحق إلى الباطل، والعرب تقول: أفكه بمعنى قلبه، ومنه قوله تعالى في قوم لوط ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةُ أَهْوَىٰ﴾ [النجم] وإنما قيل لها مؤتفكات؛ لأن الملك أفكها أي قلبها كما أوضحه تعالى بقوله: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: ٧٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۖ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَفُوًّا رَحِيمًا ۖ﴾.

ذكر - جل وعلا - في الأولى من هاتين الآيتين أن الكفار قالوا: إن هذا القرآن أساطير الأولين أي مما كتبه وسطره الأولون، كأحاديث رستم واسفنديار، وأن النبي ﷺ جمعه، وأخذه من تلك الأساطير، وأنه اكتتب تلك الأساطير، قال الزمخشري: أي كتبها لنفسه وأخذها، كما تقول: استكتب الماء واصطبه إذا سكبها وصبه لنفسه وأخذها، وقوله: ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي تلقى إليه، وتقرأ عليه عند إرادته كتابتها ليكتبها، والإملاء إلقاء الكلام على الكاتب ليكتبه، والهمزة مبدلة من اللام تخفيفاً، والأصل في الإملاء الإملا باللام ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾. الآية [البقرة: ٢٨٢]، وقوله: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩] البكرة: أول النهار، والأصيل: آخره.

وما ذكر - جل وعلا - في هذه الآية من أن الكفار قالوا: إن القرآن أساطير الأولين، وأن النبي ﷺ تعلمه من غيره وكتبه، جاء موضحاً في آيات متعددة كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَزَّلْنَا عَلَيْنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال].

وقد ذكرنا آنفاً الآيات الدالة على أنهم افتروا عليه أنه تعلم القرآن من غيره، وأوضحنا تعنتهم، وكذبهم في ذلك في سورة النحل، ودلالة الآيات على ذلك في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَسَاثُ أَلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِي﴾... الآية [النحل: ١٠٣]؛ فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

ومن الآية الدالة على كذبهم في قوله: ﴿اَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ﴾. قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْمَعُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾؛ إلى قوله تعالى ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾... الآية [الأعراف: ١٥٧ - ١٥٨]، والأمي هو الذي لا يقرأ ولا يكتب. وما ذكر - جل وعلا - في الآية الأخيرة من قوله: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾... الآية. جاء أيضاً موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾... الآية [النحل: ١٠٢]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجَبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾... الآية [البقرة: ٩٧]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي نُنَزِّلُ بِهِ الْقُرْآنَ﴾ [الشعراء] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤]، وقوله تعالى: ﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [النحل: ١٧١]، ﴿إِنْ عَلَيْنَا جُمُوعُهُمْ وَقُورًا﴾ [طه: ١٧٢]، ﴿فَرَأَاهُ فَاتَّبَعَ قُرْآنَهُ﴾ [طه: ١٧٣]، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتِهِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، ﴿وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ [طه: ١٧٤]، ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [طه: ١٧٥]، ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [طه: ١٧٦]، ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [طه: ١٧٧]، ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ [طه: ١٧٨]، ﴿نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [طه: ١٧٩]، [الحاقة]، وقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ [طه: ١٨٠]، إلى غير ذلك من الآيات، وقوله هنا: ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي ومن يعلم السر فلا شك أنه يعلم الجهر.

ومن الآيات الدالة على ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من كونه تعالى يعلم السر في السماوات والأرض قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَحْنُ بِقَوْلٍ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ١٧٩]، وقوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّهُ عَلِيمُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة] وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتَئِبُونَ﴾ [الزخرف]، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عَلِيمُ الْغُيُوبِ وَالشَّهَادَةُ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [السجدة]، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا غَفَورًا رَحِيمًا﴾، قال فيه ابن كثير: هو دعاء لهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار لهم بأن رحمته واسعة، وأن حلمه عظيم، وأن من تاب إليه تاب عليه، فهو لا مع كذبهم، وافتراءهم، وفجورهم، وبهتانهم، وكفرهم، وعنادهم، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا، يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه

إلى الإسلام والهدى، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ وَكُنَّا مِنْ آلِهِ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨﴾﴾ [المائدة] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمُ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ [البروج].

قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود! قتلوا أولياءه، وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة، انتهى كلام ابن كثير - رحمه الله تعالى - وما ذكره واضح.

والآيات الدالة على مثله كثيرة كقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مِمَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا... الآية [طه: ٨٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَنْشَى فِي الْأَسْوَاقِ﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار قالوا في نبينا ﷺ ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ﴾، يعنون ما لهذا الذي يدعي أنه رسول، وذلك كقول فرعون في موسى: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] أي ماله يأكل الطعام كما نأكله، فهو محتاج إلى الأكل كاحتياجنا إليه، ويمشي في الأسواق؛ أي لاحتياجه إلى البيع والشراء، ليحصل بذلك قوته، يعنون أنه لو كان رسولاً من عند الله، لكان ملكاً من الملائكة لا يحتاج إلى الطعام، ولا إلى المشي في الأسواق، وادعاء الكفار أن الذي يأكل كما يأكل الناس، ويحتاج إلى المشي في الأسواق لقضاء حاجته منها، لا يمكن أن يكون رسولاً. وأن الله لا يرسل إلّا ملكاً لا يحتاج للطعام، ولا للمشي في الأسواق، جاء موضحاً في آيات كثيرة، وجاء في آيات أيضاً تكذيب الكفار في دعواهم هذه الباطلة.

فمن الآيات الدالة على قولهم مثل ما ذكر عنهم في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فِي الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَئِنْ أَعْطَمَ بِشَرًا مِثْلُكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَيْرِيُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المؤمنون] وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء]، وقوله تعالى عنهم: ﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا... الآية [المؤمنون: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿أَبَشَرًا مِمَّا وَحَدَّا نَجَّيْنَاهُ﴾... الآية [القمر: ٢٤]، وقوله: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدِيَانَا فَكْفَرُوا وَقُولُوا وَأَسْتَعِىَّ اللَّهُ﴾... الآية [التغابن: ٦]. وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كُنَّا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠].

ومن الآيات التي كذبهم الله بها في دعواهم هذه الباطلة، وبين فيها أن الرسل يأكلون ويمشون في الأسواق ويتزوجون ويولد لهم، وأنهم من جملة البشر، إلا أنه فضلهم بوحية ورسالته، وأنه لو أرسل للبشر ملكاً لجعله رجلاً، وأنه لو كانت في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين، لنزل عليهم ملكاً رسولاً؛ لأن المرسل من جنس

المرسل إليهم، قوله تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْآسَاقِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]؛ أي ولم نجعلهم ملائكة؛ لأن كونهم رجالاً وكونهم من أهل القرى، صريح في أنهم ليسوا ملائكة، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيسُوتُ﴾ [الأنعام: ٩]، وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يقول للكفار: إنه بشر، وإنه رسول؛ وذلك لأن البشرية لا تنافي الرسالة في قوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾ [فصلت: ١]، وبين - جل وعلا - أن الرسل قالوا مثل ذلك في قوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَنْشَأُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشِي مِثْلُكُمْ لَأَزَلْتُكُمْ عَنْهَا وَلَكِنَّ اللَّهَ شَهِيدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿وَيَمْنِي فِي الْآسَاقِ﴾ جمع سوق وهي مؤنثة، وقد تذكر، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنْفِثُ إِلَيْهِ كَافًرًا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾.

اعلم أولاً أن «لولا» في هذه الآية الكريمة حرف تحضيض على التحقيق، والتحضيض: هو الطلب بحث، وشدة، وإليه أشار في الخلاصة بقوله:

وبهما التحضيض مزوها لا ألا وأوليتها الفعل

وبه تعلم أن المضارع في قوله: ﴿فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ منصوب بأن مستتره وجوباً؛ لأن الفاء في جواب الطلب المحض الذي هو التحضيض، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

وبعد فاجواب نفى أو طلب محضين أن وسترها حتم نصب

ونظير هذا من النصب بأن المستتر بعد الفاء التي هي جواب التحضيض، قوله تعالى: ﴿يَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠]، لأن قوله: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي﴾ طلب منه للتأخير بحث وشدة، كما دل عليه حرف التحضيض الذي هو «لولا»، ونظيره من كلام العرب قول الشاعر:

لولا تعوجين يا سلمى على دنف فتخمدى نار وجد كاد يفنيه

فقوله تعالى في الآية الكريمة: «فأصدق» بالنصب، وقول الشاعر: فتخمدى! منصوب أيضاً بحذف النون؛ لأن الفاء في جواب الطلب المحض الذي هو التحضيض.

واعلم أن جزم الفعل المعطوف على الفعل المنصوب؛ أعني قوله: ﴿وَأَكُنْ مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠] إنما ساغ فيه الجزم؛ لأنه عطف على المحل؛ لأن الفاء لو حذفت مع قصد جواب التحضيض لجزم الفعل، وجواز الجزم المذكور عند الحذف المذكور، هو الذي سوغ عطف المجزوم على المنصوب. وقد أشار إلى ذلك في الخلاصة بقوله:

وبعد غير النفي جزماً اعتمد إن تسقط الفاء والجزاء قد قصد وبما ذكرنا تعلم أن ما ذكره القرطبي وغيره، وأشار له الزمخشري من أن «لولا» في الآية للاستفهام، ليس بصحيح.

واعلم أن الكفار في هذه الآية الكريمة اقترحوا بحث وشدة عليه ﷺ ثلاثة أمور:
الأول: أن ينزل إليه ملك، فيكون معه نذيراً؛ أي يشهد له بالصدق، ويعينه على التبليغ.
الثاني: أن يلقى إليه كنز، أي ينزل عليه كنز من المال ينفق منه، ويستغني به عن المشي في الأسواق.

الثالث: أن تكون له جنة يأكل منها، والجنة في لغة العرب البستان، ومنه قول زهير:
كأن عيني في غربي مقتلة من النواضح تسقى جنة سحقا
فقوله: تسقى جنة أي بستاناً، وقوله: سحقا يعني أن نخله طوال.

وهذه الأمور الثلاثة المذكورة في هذه الآية الكريمة التي اقترحها الكفار وطلبوها بشدة وحث، تعنتاً منهم وعناداً، جاءت مبينة في غير هذا الموضع، فبين - جل وعلا - في سورة هود اقتراحهم، لنزول الكنز، ومجيء الملك معه، وأن ذلك العناد والعنت قد يضيق به صدره ﷺ وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَثُرَ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ [هود: ١٢]، وبين - جل وعلا - في سورة بني إسرائيل اقتراحهم الجنة، وأوضح أنهم يعنون بها بستاناً من نخيل وعنب، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَكَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ لَهَا مِنَ الْأَنْهَارِ خِلَالَهَا فَيَجْرُونَ فِيهَا﴾ [الإسراء: ٩٠] واقترحهم هذا شبيه بقول فرعون في موسى: ﴿فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٢] تشابهت قلوبهم فتشابهت أقوالهم.

وقد قدمنا في الكلام على آية سورة بني إسرائيل، هذه الآيات الدالة على كثرة اقتراح الكفار، وشدة تعنتهم وعنادهم، وأن الله لو فعل لهم كل ما اقترحوا لما آمنوا كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ زَلَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا أَلَّيْنِ كَذَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۖ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٥] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْتَوْنُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ...﴾ الآية [الأنعام: ١١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَ نَهُم كُتُبٌ مِّنْ رَبِّكَ﴾ الآية [يونس]، إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم.

وقال الزمخشري في تفسير آية الفرقان هذه: يأكل الطعام كما نأكل، ويتردد في الأسواق كما نتردد، يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكاً مستغنياً عن الأكل والتعيش، ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكاً إلى اقتراح أن يكون إنساناً معه ملك، حتى يتساعدا في الإنذار والتخويف، ثم نزلوا أيضاً فقالوا إن لم يكن مرفوداً بذلك، فليكن مرفوداً بكنز يلقي إليه من السماء، يستظهر به، ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش، ثم نزلوا فافتنعوا بأن يكون له بستان يأكل منه، ويرتزق كالدهاقين أو يأكلون هم من ذلك البستان، فينتفعون به في دنياهم، ومعاشهم، انتهى منه. وكل تلك الاقتراحات لشدة تعنتهم، وعنادهم. وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير حمزة والكسائي «يأكل منها» بالمشناة التحتية، وقرأ حمزة والكسائي: «جنة نأكل منها» بالنون، وهذه القراءة هي مراد الزمخشري بقوله: أو يأكلون هم من ذلك البستان.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝٨ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الظالمين وهم الكفار قالوا للذين اتبعوا النبي ﷺ: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ يعنون أنه أثر فيه السحر فاختلط عقله فالتبس عليه أمره، وقال مجاهد: مسحوراً أي مخدوعاً كقوله فأنى تسحرون: أي من أين تخذعون، وقال بعضهم: مسحوراً؛ أي له سحر أي رثة فهو لا يستغني عن الطعام والشراب، فهو بشر مثلكم، وليس بملك، وقد قدمنا كلام أهل العلم في قوله: «مسحوراً» بشواهد العربية في سورة طه في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩] ولما ذكر الله هذا الذي قاله الكفار في نبيه ﷺ، من الإفك والبهتان خاطب نبيه ﷺ بقوله: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩﴾، وما قاله الكفار في هذه الآية أعني قولهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ وما قاله الله لنبيه في ذلك، وهو قوله: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ الآية. جاء كله مصرحاً به في سورة بني إسرائيل في قوله تعالى: ﴿تَحْنُ أَعْمُو بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩﴾ [الإسراء].

قال الزمخشري: ضربوا لك الأمثال: قالوا فيك تلك الأقوال، واقترحوا لك تلك الصفات والأحوال النادرة، من نبوة مشتركة بين إنسان وملك، وإلقاء كنز عليك من السماء، وغير ذلك، فبقوا متحيرين ضلالاً لا يجدون قولاً يستقرون عليه، أو فضلوا عن الحق، فلا يجدون طريقاً إليه، اهـ.

والأظهر عندي في معنى الآية ما قاله غير واحد من أن معنى: ﴿ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ أنهم تارة يقولون إنك ساحر، وتارة مسحور، وتارة مجنون، وتارة شاعر، وتارة كاهن، وتارة كذاب، ومن ذلك ما ذكر الله عنهم من قوله هنا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ﴾... الآية، وقوله: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وقوله: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن

تَنبِئُوكَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿١١﴾ وقوله تعالى: ﴿فَضْلُوا﴾ أي عن طريق الحق؛ لأن الأقوال التي قالوها، والأمثال التي ضربوها كلها كذب واقتراء، وكفر مخلد في نار جهنم، فالذين قالوها هم أضل الضالين، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ فيه أقوال كثيرة متقاربة.

وأظهرها أن معنى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾؛ أي طريقاً إلى الحق والصواب، ونفى الاستطاعة المذكور هنا كقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠] وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف] وقد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة هود في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ وقد قدمنا أيضاً معنى الظلم والضلال وما فيهما من الإطلاقات في اللغة مع الشواهد العربية في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ ﴿١٢﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار كذبوا بالساعة؛ أي أنكروا القيامة من أصلها لإنكارهم البعث بعد الموت والجزاء، وأنه - جل وعلا - اعتد أي هيا وأعد لمن كذب بالساعة، أي أنكروا يوم القيامة سعيراً؛ أي ناراً شديدة الحر يعذبه بها يوم القيامة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ يدل على أن التكذيب بالساعة كفر مستوجب لنار جهنم، كما ستري الآيات الدالة على ذلك قريباً إن شاء الله تعالى، وهذان الأمران المذكوران في هذه الآية الكريمة، وهما تكذيبهم بالساعة، ووعيد الله لمن كذب بها بالسعير؛ جاءا موضحين في آيات أخر، أما تكذيبهم بيوم القيامة لإنكارهم البعث، والجزاء بعد الموت، فقد جاء في آيات كثيرة عن طوائف الكفار كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿١٣﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعْشِرِينَ﴾ [الدخان] وقوله تعالى: ﴿مَنْ يُعْجِ الْعِظَمُ وَهِيَ رَيْبٌ﴾ [يس: ٧٨] إلى غير ذلك من الآيات.

وأما كفر من كذب بيوم القيامة ووعيده بالنار، فقد جاء في آيات كثيرة:

كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٤﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا وَدَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرَةٍ﴾ [الجاثية: ٣٢ - ٣٤] فقوله: ﴿وَمَا وَدَّكُمُ النَّارُ﴾ بعد قوله: ﴿قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾... الآية، يدل على أن قولهم: ما ندري ما الساعة هو سبب كون النار مأواهم، وقوله بعده: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ أَخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوا﴾ [الجاثية: ٣٥] لا ينافي ذلك؛ لأن من اتخاذهم آيات الله هزواً تكذيبهم بالساعة، وإنكارهم البعث كما لا يخفى.

وكقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَذًا كَمَا تَرَبَّأْنَا لَئِي خَلَقِ جَدِيدٌ أَوَّلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿١٥﴾ [الرعد] فقد بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من سورة الرعد أن إنكارهم البعث،

الذي عبروا عنه باستفهام الإنكار في قوله تعالى عنهم: ﴿أَوَدَّا كُفَّا تَرَبَّا لَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ جامع بين أمرين:

الأول منهما أنه عجب من العجب لكثرة البراهين القطعية الواضحة الدالة على ما أنكروه.

والثاني منهما وهو محل الشاهد من الآية أن إنكارهم البعث المذكور كفر مستوجب للنار وأغلالها والخلود فيها، وذلك في قوله تعالى مشيراً إلى الذين أنكروا البعث ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِيْ أََعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد: ٥] ومعلوم أن إنكار البعث إنكار للساعة، وكقوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرَدَّى﴾ [طه] أي لا يصدك من لا يؤمن بالساعة عن الإيمان بها، فتردى؛ أي تهلك لعدم إيمانك بها، والردى الهلاك، وهو هنا عذاب النار بسبب التكذيب بالساعة، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل] وقوله تعالى في آية طه هذه: «فتردى»، يدل دلالة واضحة على أنه إن صده من لا يؤمن بالساعة عن التصديق بها أن ذلك يكون سبباً لرداه؛ أي هلاكه بعذاب النار كما لا يخفى، وكقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم] فأية الروم هذه، تدل على أن الذين كذبوا بلقاء الآخرة وهم الذين كذبوا بالساعة معدودون مع الذين كفروا وكذبوا بآيات الله، وأنهم في العذاب محضرون؛ وهو عذاب النار. والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ أظهر الأقوال فيه عندي أنه متصل بما يليه، وأن «بل» فيه للإضراب الانتقالي، وقد أوضحنا معنى السعير مع بعض الشواهد العربية في أول سورة الحج، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا وَزَفِيرًا﴾ [٧].

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن النار يوم القيامة، إذا رأت الكفار من مكان بعيد؛ أي في عرصات المحشر اشتد غيظها على من كفر بربها، وعلا زفيرها فسمع الكفار صوتها من شدة غيظها، وسمعوا زفيرها.

وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة بين بعضه في سورة الملك، فأوضح فيها شدة غيظها على من كفر بربها، وأنهم يسمعون لها أيضاً شهيقاً مع الزفير الذي ذكره في آية الفرقان هذه، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ [٧] تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ [الملك: ٧ - ٨] أي يكاد بعضها يتفصل عن بعض من شدة غيظها على من كفر بالله تعالى.

وللعلماء أقوال في معنى الزفير والشهيق، وأقربها أنهما يمثلهما معاً صوت الحمار في نهيقه، فأوله زفير، وآخره الذي يردده في صدره شهيق.

والأظهر أن معنى قوله تعالى: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا﴾؛ أي سمعوا غليانها من شدة غيظها، ولما كان سبب الغليان التغيظ أطلقه عليه، وذلك أسلوب عربي معروف. وقال بعض أهل العلم: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا﴾؛ أي أدركوه، والإدراك يشمل الرؤية والسمع، وعلى هذا فالسمع مضمن معنى الإدراك، وما ذكرنا أظهر.

وقال القرطبي: قيل المعنى إذا رأتهم جهنم سمعوا لها صوت التغيظ عليهم، ثم ذكر في آخر كلامه أن هذا القول هو الأصح.

مسألة: أعلم أن التحقيق أن النار تبصر الكفار يوم القيامة، كما صرح الله بذلك في قوله هنا: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ورؤيتها إياهم من مكان بعيد، تدل على حدة بصرها كما لا يخفى، كما أن النار تتكلم كما صرح الله به في قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق] والأحاديث الدالة على ذلك كثيرة، كحديث محاجة النار مع الجنة، وكحديث اشتكائها إلى ربها، فأذن لها في نفسين، ونحو ذلك، ويكفي في ذلك أن الله - جل وعلا - صرح في هذه الآية، أنها تراهم وأن لها تغيظاً على الكفار، وأنها تقول: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾.

وأعلم أن ما يزعمه كثير من المفسرين وغيرهم، من المتسبين للعلم من أن النار لا تبصر، ولا تتكلم، ولا تغتاض. وأن ذلك كله من قبيل المجاز، أو أن الذي يفعل ذلك خزنتها؛ كله باطل ولا معول عليه لمخالفته نصوص الوحي الصحيحة بلا مستند، والحق هو ما ذكرنا.

وقد أجمع من يعتد به من أهل العلم على أن النصوص من الكتاب والسنة، لا يجوز صرفها عن ظاهرها إلا لدليل يجب الرجوع إليه، كما هو معلوم في محله.

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة: إن القول بأن النار تراهم هو الأصح، ثم قال: لما روي مرفوعاً أن رسول الله ﷺ قال: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً» قيل: يا رسول الله أو لها عينان؟ قال: «أو ما سمعتم الله - عز وجل - يقول: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، يخرج عنق من النار له عينان تبصران ولسان ينطق فيقول: وكلت بكل من جعل مع الله إلهاً آخر فهو أبصر بهم من الطير بحب السمسم فيلنقطه». وفي رواية: «يخرج عنق من النار فيلنقط الكفار لقط الطائر حب السمسم» ذكره رزين في كتابه، وصححه ابن العربي في قبه، وقال: أي تفصلهم عن الخلق في المعرفة، كما يفصل الطائر حب السمسم عن التربة، وخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق فيقول: إني وكلت بثلاث: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين» وفي الباب عن أبي سعيد. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب صحيح: انتهى محل الغرض من كلام القرطبي.

وقال صاحب الدر المنثور: وأخرج الطبراني، وابن مردويه من طريق مكحول، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعداً من بين عيني جهنم». قالوا يا رسول الله: وهل لجهنم من عين؟ قال: «نعم أما سمعتم الله يقول: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ فهل تراهم إلا بعينين» وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، من طريق خالد بن دريك، عن رجل من الصحابة قال: قال رسول الله ﷺ: «من يقل علي ما لم أقل، أو ادعى إلى غير والديه، أو انتمى إلى غير مواليه، فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً» قيل: يا رسول الله وهل لها من عينين؟ قال: «نعم أما سمعتم الله يقول: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ إلى آخر كلامه»، وفيه شدة هول النار، وأنها تزفر زفرة يخاف منها جميع الخلائق.

نرجو الله - جل وعلا - أن يعيذنا وإخواننا المسلمين منها، ومن كل ما قرب إليها من قول وعمل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبَيْنَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَا تَدْعُوا آلِيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن أهل النار إذا ألقوا أي طرحوا في مكان ضيق من النار، في حال كونهم مقرنين، دعوا هنالك: أي في ذلك المكان الضيق ثبوراً، فيقال لهم: لا تدعوا ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً، فقوله: مكاناً منصوب على الظرف، كما قال أبو حيان في البحر المحيط.

وما ذكره هنا من أنهم يلقون في مكان ضيق من النار، جاء مذكوراً أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾ [الهمزة] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٦﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾ ومعنى مؤصدة من الموضعين بهمز، وبغير همز: مطبقة أبوابها، مغلقة عليهم كما أوضحناه بشواهد العربية في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ نَبَسٌ بِذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨] ومن كان في مكان مطبق مغلق عليه، فهو في مكان ضيق، والعياذ بالله، وقد ذكر أن الواحد منهم يجعل في محله من النار بشدة كما يدق الود في الحائط، وعن ابن مسعود أن جهنم تضيق على الكافر كتضيق الزج على الرمح. والزج بالضم: الحديد التي في أسفل الرمح.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: «مقرنين»؛ أي في الأصفاد بدليل قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَنَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٦٨﴾﴾ [إبراهيم] والأصفاد: القيود، والأظهر أن معنى مقرنين أن الكفار يقرن بعضهم إلى بعض في الأصفاد والسلاسل، وقال بعض أهل العلم: كل كافر يقرن هو وشیطانه، وقد قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَّسَّ الْفَرِيقُ ﴿٧٨﴾﴾ [الزخرف].

وهذا أظهر من قول من قال: مقرنين مكتفين، ومن قول من قال: مقرنين؛ أي قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال، والثبور: الهلاك والويل والخسران.

وقال ابن كثير: والأظهر أن الثبور يجمع الخسار والهلاك والويل والدمار. كما قال موسى لفرعون: ﴿وَأِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرُّعَوْتُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] أي هالكاً، قال عبد الله بن الزبير السهمي:

إذا جارى الشيطان في سنن الغد ي ومن مال ميله مَثْبُور. اهـ.

وقال الجوهري في صحاحه: والثبور: الهلاك والخسران أيضاً، قال الكمي:

ورأت قضاة في الأيا من رأي مَثْبُور وثابر

أي مخسور وخاسر يعني في انتسابها لليمن. اهـ منه.

وقوله تعالى: ﴿دَعُوا هَٰؤُلَاءِ ثُبُورًا﴾ معنى دعائهم الثبور هو قولهم: واثبورا، يعنون: يا ويل، يا هلاك، تعال، فهذا حينك وزمانك.

وقال الزمخشري: ومعنى ﴿وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحداً، إنما هو ثبور كثير، إما لأن العذاب أنواع وألوان، كل نوع منها ثبور، لشدة وفظاعته، أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها، فلا غاية لهلاكهم، اهـ.

تنبيه: اعلم أنه تعالى في هذه الآية الكريمة قال: ﴿مَكَانًا ضَيْقًا﴾، وكذلك في الأنعام في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُ صَدْرُهُ ضَيْقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] وقال في هود: ﴿وَصَاقِبُ يَوْمٍ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢] فما وجه التعبير في سورة هود، بقوله: «ضائق» على وزن فاعل، وفي الفرقان والأنعام بقوله: «ضيقاً» على وزن فيعل، مع أنه في المواضع الثلاثة هو الوصف من ضاق يضيّق، فهو ضيق.

والجواب عن هذا هو أنه تقرر في فن الصرف أن جميع أوزان الصفة المشبهة باسم الفاعل إن قصد بها الحدوث والتجدد جاءت على وزن فاعل مطلقاً، كما أشار له ابن مالك في لاميته بقوله:

وفاعل صالح للكل إن قصد الـ حدوث نحو غداً فارح جذا

وإن لم يقصد به الحدوث، والتجدد بقي على أصله.

وإذا علمت ذلك فاعلم أن قوله تعالى في سورة هود: ﴿فَلَعَلَّكَ نَارُكَ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَاقِبُ يَوْمٍ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢] أريد به أنه يحدث له ضيق الصدر، ويتجدد له بسبب عنادهم وتعنتهم في قولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ كَذْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢] ولما كان كذلك، قيل فيه: «ضائق» بصيغة اسم الفاعل، أما قوله: «ضيقاً» في الفرقان والأنعام فلم يرد به حدوث، ولذلك بقي على أصله.

ومن أمثلة إتيان الفاعل على فاعل إن قصد به الحدوث قوله تعالى: ﴿وَصَاقِبُ يَوْمٍ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢] وقول قيس بن الخطيم الأنصاري:

أبلغ خدشاً أنني ميت كل امرئ ذي حسب مائت

فلما أراد حدوث الموت قال: مائت بوزن فاعل، وأصله ميت على وزن فيعل.
ومن أمثلته في فعل بفتح فكسر قول أبي عمرو أشجع بن عمرو السلمي يرثي
قتيبة بن مسلم:

فما أنا من رزء وإن جل جازع ولا بسترور بعد موتك فارج
فلما نفى أن يحدث له في المستقبل فرح ولا جزع قال جازع وفارج، والأصل:
جزع وفرح.

ومثاله في فعيل قول لبيد:

حسبت التقى والجود خير تجارة رباحاً إذا ما المرء أصبح ثاقلاً

فلما أراد حدوث الثقل قال: ثاقلاً والأصل ثقل، وقول السمهري العكلي:

بمنزلة أما اللئيم فسامن بها وكرام الناس باد شحوبها

فلما أراد حدوث السمن قال: فسامن والأصل سمين.

واعلم أن قراءة ابن كثير «ضيقة» بسكون الياء في الموضعين راجعة في المعنى إلى
قراءة الجمهور بتشديد الياء؛ لأن إسكان الياء تخفيف كهين ولين، في هين ولين.
والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَذْلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً
وَمَصِيرًا لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولاً﴾ (١٦).

التحقيق أن الإشارة في قوله: «أذلك» راجعة إلى النار، وما يلقاه الكفار فيها من
أنواع العذاب كما ذكره - جل وعلا - بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ إلى
قوله تعالى: ﴿وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾، وغير هذا من الأقوال لا يعول عليه، كقول من
قال: إن الإشارة راجعة إلى الكنز والجنة في قوله تعالى: ﴿أَوْ يُلقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ
تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ﴾ الآية، وكقول من قال: إنها راجعة إلى الجنات والقصور المعلقة على
المشيئة في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُقُورًا﴾ (١٦) والتحقيق - إن شاء الله - أنه لما ذكر شدة عذاب النار
وظاعته قال: أذلك العذاب خير أم جنة الخلد، الآية.

وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة، جاء أيضاً في غير هذا الموضع،
كقوله تعالى في سورة الصافات: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوُ الْفُورِ الْعَظِيمِ﴾ (١٦) لِيُثْلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ
الْعَامِلُونَ (١٦) أَذْلِكَ خَيْرٌ نَزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ (١٧) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (١٨) إِنَّا شَجَرَةُ
تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (١٩) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٢٠) فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهَا فَنَالُونَ مِنْهَا
الْبُظُونَ (٢١) إلى قوله: ﴿يَهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٠ - ٧٠] وقوله تعالى: ﴿أَفَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ
خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ... الآية [نصلت: ٤٠].

وفي هذه الآيات وأمثالها في القرآن إشكال معروف، وهو أن يقال: لفظة «خير» في الآيات المذكورة صيغة تفضيل كما قال في الكافية:

وغالباً أغناهم خير وشر عن قولهم أخير منه وأشر
كما قدمناه موضحاً في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ ... الآية [النحل: ٣٠].

والمعروف في علم العربية أن صيغة التفضيل تقتضي المشاركة بين المفضل والمفضل عليه فيما فيه التفضيل، إلا أن المفضل أكثر فيه وأفضل من المفضل عليه، ومعلوم أن المفضل عليه في الآيات المذكورة الذي هو عذاب النار لا خير فيه البتة، وإذن فصيغة التفضيل فيها إشكال، والجواب عن هذا الإشكال من وجهين:

الأول: أن صيغة التفضيل قد تطلق في القرآن، وفي اللغة مراداً بها مطلق الاتصاف، لا تفضيل شيء على شيء. وقدمناه مراراً وأكثرنا من شواهد العربية في سورة النور وغيرها.

الثاني: أن من أساليب اللغة العربية أنهم إذا أرادوا تخصيص شيء بالفضيلة، دون غيره جاءوا بصيغة التفضيل، يريدون بها خصوص ذلك الشيء بالفضل، كقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

أتهجنوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء
وكقول العرب: الشقاء أحب إليك، أم السعادة؟ وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ ... الآية [يوسف: ٣٣].

قال أبو حيان في البحر المحيط في قوله تعالى: ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ﴾ ... الآية، و«خير» هنا ليست تدل على الأفضلية، بل هي على ما جرت به عادة العرب في بيان فضل الشيء، وخصوصيته بالفضل دون مقابلة كقوله:

فشركما لخيركما الفداء

وكقول العرب: الشقاء أحب إليك أم السعادة، وكقوله: ﴿السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣] وهذا الاستفهام على سبيل التوقيف والتوبيخ. اه الغرض من كلام أبي حيان.

وعلى كل حال فعذاب النار شر محض لا يخالطه خير البتة كما لا يخفى، والوجهان المذكوران في الجواب متقاربان.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ العائد محذوف؛ أي وعدها المتقون، والآية تدل على أن الوعد الصادق بالجنة، يحصل بسبب التقوى. وقد قدمنا الآيات الدالة على ذلك بإيضاح في سورة النحل في الكلام على قوله

تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣١] وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ العائد أيضاً محذوف كالذي قبله؛ أي ما يشاءونه، وحذف العائد المنصوب بالفعل أو الوصف كثير، كما قال في الخلاصة:

والجذف عندهم كثير منجلي في عائد متصل إن انتصب
بفعل أو وصف كمن نرجو يهب

وهذه الآية الكريمة، تدل على أن أهل الجنة يجدون كل ما يشاءونه من أنواع النعيم.

وقد قدمنا الآيات الدالة على ذلك في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ [النحل: ٣١] والآيات المذكورة تدل على أن حصول كل ما يشاءه الإنسان لا يكون إلا في الجنة، وقوله: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَاصِيراً﴾ المصير مكان الصيرورة، وقد مدح الله جزاءهم ومحلله كقوله تعالى: ﴿يَعْمُ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١] لأن حسن المكان وجودته من أنواع النعيم.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ فيه وجهان معروفان:

أحدهما أن معنى كونه مسئلاً أن المؤمنين كانوا يسألونه، وكانت الملائكة أيضاً تسأله لهم، أما سؤال المسلمين له فقد ذكره تعالى بقوله عنهم: ﴿رَبَّنَا وَعَايِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران] وسؤال الملائكة لهم إياه ذكره تعالى أيضاً في قوله: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾... الآية [غافر: ٨]، وقال بعض العلماء: مسئلاً: أي واجباً لأن ما وعد الله به فهو واجب الوقوع؛ لأنه لا يخلف الميعاد، وهو - جل وعلا - يوجب على نفسه بوعده الصادق ما شاء لا معقب لحكمه ويستأنس لهذا القول بلفظة «على» في قوله: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] وقال بعض أهل العلم: إن المسلمين يوم القيامة يقولون: قد فعلنا في دار الدنيا كل ما أمرتنا به فأنجز لنا ما وعدتنا، والقولان الأولان أقرب من هذا، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءَ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ ﴿٧﴾ قالوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَلْبِغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاؤَهُمْ حَقًّا نَسُوا اللَّهَ وَكَانُوا قَوْمًا بُرًّا﴾. قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن كثير وحفص عن عاصم: «نحشرهم»، بالنون الدالة على العظمة، وقرأ ابن كثير، وحفص، عن عاصم: «يحشرهم» بالياء المثناة التحتية، وقرأ عامة السبعة غير ابن عامر، «فيقول» بالياء المثناة التحتية، وقرأ ابن عامر «فبقول» بنون العظمة.

فتحصل أن ابن كثير وحفصاً يقرآن بالياء التحتية فيهما، وأن ابن عامر يقرأ بالنون فيهما، وأن باقي السبعة يقرؤون: «نحشرهم» بالنون، «فيقول» بالياء، وقد ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنه يحشر الكفار يوم القيامة، وما كانوا يعبدون من دونه؛

أي يجمعهم جميعاً فيقول للمعبودين: أنتم أضللتم عبادي هؤلاء فزيتم لهم أن يعبدوكم من دوني، أم هم ضلوا السبيل؛ أي كفروا وأشركوا بعبادتهم إياكم من دوني من تلقاء أنفسهم من غير أن تأمروهم بذلك ولا أن تزينوه لهم، وأن المعبودين يقولون: سبحانه أي تنزيهاً لك عن الشركاء وكل ما لا يليق بجلالك وعظمتك، ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء: أي ليس للخلائق كلهم، أن يعبدوا أحداً سواك لا نحن ولا هم، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك، بل فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم، من غير أمرنا، ونحن برآء منهم، ومن عبادتهم. ثم قال: ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتُهُمْ وَءَابَأَهُمْ﴾ أي طال عليهم العمر، حتى نسوا الذكر أي نسوا ما أنزلته عليهم على السنة رسلك، من الدعوة إلى عبادتك وحدك، لا شريك لك، وكانوا قوماً بوراً، قال ابن عباس: أي هلكى، وقال الحسن البصري ومالك عن الزهري؛ أي لا خير فيهم، اه. الغرض من كلام ابن كثير.

وقال أبو حيان في البحر: ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾؛ أي ما كان يصح لنا ولا يستقيم إلى آخر كلامه.

وإذا عرفت ما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية من سؤاله للمعبودين وجوابهم له، فاعلم أن العلماء اختلفوا في المعبودين. فقال بعضهم: المراد بهم الملائكة وعيسى وعزير. قالوا: هذا القول يشهد له القرآن؛ لأن فيه سؤال عيسى والملائكة عن عبادة من عبدهم، كما قال في الملائكة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [١١] قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ [١٢] وقال في عيسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [١٣] [المائدة] وجواب الملائكة وجواب عيسى كلاهما شبيه بجواب المعبودين في آية الفرقان هذه؛ ولذلك اختار غير واحد من العلماء أن المعبودين الذين يسألهم الله في سورة الفرقان هذه هم خصوص العقلاء، دون الأصنام.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: الأظهر عندي شمول المعبودين المذكورين للأصنام، مع الملائكة وعيسى وعزير؛ لأن ذلك تدل عليه قرأتان:

الأولى: أنه عبر عن المعبودين المذكورين بما التي هي لغير العاقل في قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾... الآية. فلفظة ما تدل على شمول غير العقلاء، وأنه غلب غير العاقل لكثرة.

القرينة الثانية: هي دلالة آيات من كتاب الله، على أن المعبودين غافلون عن عبادة من عبدهم؛ أي لا يعلمون بها لكونهم غير عقلاء كقوله تعالى في سورة يونس: ﴿وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِِنَّا نَعْبُدُونَ﴾ [١٤] فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ

﴿١٧﴾ [يونس] وإنما كانوا غافلين عنها لأنهم جماد لا يعقلون، وإطلاق اللفظ المختص بالعقلاء عليهم، نظراً إلى أن المشركين نزلوهم منزلة العقلاء كما أوضحناه في غير هذا الموضع، وكقوله تعالى في الأحقاف: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْبَاسِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف] فقد دل قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ﴾ على أنهم لا يعقلون، ومع ذلك قال: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف] وكقوله تعالى في العنكبوت: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَنًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَمَنَّ بِعَصْكُمْ بَعْضًا...﴾ الآية [العنكبوت: ٢٥]. فصرح بأنهم أوثان، ثم ذكر أنهم هم وعبدتهم يلعن بعضهم بعضاً، وكقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ﴾ الظاهر أن معنى نسوا تركوا، والأظهر أن الذكر هو ما جاءت به الرسل من التوحيد، وقيل ذكر الله بشكر نعمه، والأصح أن قوله بوراً معناه هلكى، وأصله اسم مصدر يقع على الواحد وعلى الجماعة، فمن إطلاقه على الجماعة قوله هنا: ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ وقوله في سورة الفتح: ﴿وَلَقَدْ كُفِّرْنَا عَنْكَ الْبُورَ﴾ [الفتح: ١٢] ومن إطلاقه على المفرد قول عبد الله بن الزبير السهمي رضي الله عنه.

يا رسول الملوك إن لسانى راتق ما فتقت إذ أنا بور
ويطلق البور على الهلاك. وعن ابن عباس أنها لغة أهل عمان، وهم من أهل اليمن، ومنه قول الشاعر:

فلا تكفروا ما قد صنعنا إليكم وكافوا به فالكفر بور لصانعه

واعلم أن ما ذكره الزمخشري في هذه الآية، وأطنب فيه من أن الله لا يضل أحداً؛ مذهب المعتزلة، وهو مذهب باطل وبطلانه في غاية الوضوح من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فإياك أن تغتر به، وما ذكر عن الحسن البصري، ومالك، عن الزهري من أن معنى بوراً لا خير فيهم له وجه في اللغة العربية، ولكن التحقيق أنه ليس معنى الآية، وأن معنى «بوراً»: هلكى كما تقدم، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية أن المعبودين كذبوا العابدين وذلك في قوله عنهم: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَلْبِغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من تكذيب المعبودين للعبادين، جاء في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف] وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرُكَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا

مِنْ دُونِكَ قَالُوا إِلَيْهِمْ أَلْقَوْا الْكَلِمَةَ لَكُنْ أَنْتَ الْكَاذِبُ ﴿٨١﴾ [النحل] وقوله: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائِهِمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا أَنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبَاعَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [٨٢] [مريم] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَظْلِمِ نَفْسًا مِنْكُمْ نَفْسُهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

قال ابن كثير: ومن يظلم منكم أي يشرك بالله، وذكره القرطبي عن ابن عباس رضي الله عنه. وهذا التفسير تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وقد ثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ فسر الظلم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَلْسُوا بِأَيْمَانِهِمْ يَظْلِمُون﴾ [الأنعام: ٨٢] فقال: أي بشرك كما قدمناه موضحاً.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه جعل بعض الناس فتنة لبعض، وهذا المعنى الذي دلت عليه الآية ذكره في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ ... الآية [الأنعام: ٥٣].

وقال القرطبي في تفسير قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ ومعنى هذا أن كل واحد مختبر بصاحبه، فالغني ممتحن بالفقير عليه أن يواسيه، ولا يسخر منه، والفقير ممتحن بالغني عليه أن لا يحسده ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق، كما قال الضحاك في معنى: «أتصبرون»؛ أي على الحق، وأصحاب البلايا يقولون: لِمَ لَمْ نَعَفْ، والأعمى يقول لم لم أجعل كالبصير؟ وهكذا صاحب كل آفة، والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس من الكفار في عصره وكذلك العلماء وحكام العدل ألا ترى إلى قولهم: ﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] فالفتنة أن يحسد المبتلى المعافى، ويحقر المعافى المبتلى، والصبر أن يحبس كلاهما نفسه؛ هذا عن البطر، وذلك عن الضجر، انتهى محل الغرض من كلام القرطبي.

وإذا علمت معنى كون بعضهم فتنة لبعض؛ فاعلم أن قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ ... الآية [الأنعام: ٥٣]. فيه فتنة أغنياء الكفار بفقراء المسلمين، حيث احتقروهم وازدروهم، وأنكروا أن يكون الله من عليهم دونهم لأنهم في زعمهم لفقيرهم، وورثاته حالهم، لا يمكن أن يرحمهم الله ويعطيهم من فضله الواسع كما قال تعالى عنهم أنهم قالوا فيهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ٢١] وقال: ﴿أَنزِلْ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨] إلى غير ذلك من الآيات، وسيوبخهم الله يوم القيامة على احتقارهم لهم في الدنيا كما قال تعالى: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنْالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا يَخُوفُهُمْ عَلَيْهِمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٨٩] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنْ

الَّذِينَ ءَامَنُوا يَصْحَكُونَ ﴿١٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٢٠﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالِیْمَ الَّذِیْنَ ءَامَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ یَصْحَكُونَ ﴿٢١﴾ عَلَى الْأَرَاكِ یَظُنُّونَ ﴿٢٢﴾ هَلْ تُؤْتِی الْكُفَّارَ مَا كَانُوا یَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المطففين]
وقوله تَعَالَى: ﴿وَسِعْرُونَ مِنْ الَّذِیْنَ ءَامَنُوا وَالَّذِیْنَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ یَوْمَ الْقِیَمَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢]
وقوله تَعَالَى: أَنْصَبِرُونَ، أَى عَلَى الْحَقِّ أَمْ لَا تَصْبِرُونَ. وَالْعَلَمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

قوله تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِیْنَ لَا یَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَیْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِیْ أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِیْرًا ﴿٢٤﴾﴾.

ذكر - جل وعلا - فی هذه الآية الكريمة أَنَّ الَّذِیْنَ لَا یَرْجُونَ لِقَاءَ اللَّهِ قَالُوا: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَیْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾، و«لولا» فی هذه الآية للتحذیض.

والمعنى أَنَّهُمْ طَلَبُوا بَحْثَ وَشِدَّةٍ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ یَرَوْا رَبَّهُمْ، وَهَذَا التَّعَنُّتُ الَّذِی ذَكَرَهُ اللَّهُ عَنْهُمْ هُنَا مِنْ طَلَبِهِمْ إِنْزَالَ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ أَوْ رُؤُوسَهُمْ رَبَّهُمْ، ذَكَرَهُ فِی غَیْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ تَأْتِیَ بِاللَّهِ وَالْمَلٰٓئِكَةِ فِیْلًا﴾ [الإسراء: ٩٢] وَقَوْلِهِمْ: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَیْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ﴾ قِیلَ: فَتَوَحَّى إِلَيْنَا كَمَا أَوْحَتْ إِلَیكَ، وَهَذَا الْقَوْلُ یَدُلُّ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُنْزِلَ مِنَّا أَوْقِی رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وَقِیلَ: لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَیْنَا الْمَلَائِكَةُ فَتَرَاهُمْ عِیَانًا، وَهَذَا یَدُلُّ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ تَأْتِیَ بِاللَّهِ وَالْمَلٰٓئِكَةِ فِیْلًا﴾؛ أَى مَعَانِیَةً عَلَى الْقَوْلِ بِذَلِكَ، وَقَدْ قَدَّمْنَا الْأَقْوَالَ فِی ذَلِكَ فِی سُورَةِ بَنِی إِسْرَآئِیلَ.

وقوله تَعَالَى فِی هذه الآية الكريمة: «لا یرجون». قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: لَا یرجون أَى لَا یَخَافُونَ لِقَاءَنَا لَعَدَمِ إِيْمَانِهِمْ بِالْبَعْثِ، وَالرَّجَاءُ یُطْلَقُ عَلَى الْخَوْفِ كَمَا یُطْلَقُ عَلَى الطَّمَعِ. قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تُرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿٧٣﴾﴾ [نوح]: قَالَ: أَى لَا تَخَافُونَ اللَّهَ عَظَمَةً، وَمِنْهُ قَوْلُ أَبِي ذُوئِبٍ الْهَذَلِ:

إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ یَرْجُ لَسْعَهَا وَخَالَفَهَا فِی بَیْتِ نَوْبِ عَوَاسِلَ

فَقَوْلُهُ لَمْ یَرْجُ لَسْعَهَا؛ أَى لَمْ یَخَفْ لَسْعَهَا، وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِطْلَاقُ الرَّجَاءِ عَلَى الْخَوْفِ لُغَةٌ تَهَامَةٌ، وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: لَا یرجون لِقَاءَنَا: لَا یَأْمَلُونَ، وَعِزَّاهُ الْقُرْطُبِیُّ لِابْنِ شَجَرَةٍ وَقَالَ: وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

أَتَرْجُو أُمَّةً قَتَلَتْ حَسِینًا شَفَاعَةَ جَدِّهِ یَوْمَ الْحِسَابِ

أَى أَتَأْمَلُ أُمَّةً، إِخ. وَالَّذِی لَا یُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ لَا یَخَافُ لِقَاءَ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ لَا ِیَصْدُقُ بِالْعَذَابِ، وَلَا یَأْمَلُ الْخَیْرَ مِنْ تَلْقَائِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا یُؤْمِنُ بِالثَّوَابِ.

وقوله - جل وعلا -: ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِیْ أَنْفُسِهِمْ﴾؛ أَى أَضْمَرُوا التَّكْبَرَ عَنِ الْحَقِّ فِی قُلُوبِهِمْ، وَاعْتَقَدُوهُ عِنَادًا وَكُفْرًا، وَیُوضَحُ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ فِی صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مِمَّا هُمْ بِیَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ٥٦] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِیْرًا﴾؛ أَى تَجَاوَزُوا الْحَدَّ فِی الظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ. یَقَالُ: عَتَا عَلَيْنَا فُلَانٌ؛ أَى تَجَاوَزَ الْحَدَّ فِی ظُلْمِنَا، وَوَصَفَهُ تَعَالَى عَتَوْهُمْ الْمَذْكُورَ بِالْكِبَرِ، یَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ بَالِغٌ فِی إِفْرَاطِهِ، وَأَنَّهُمْ بَلَغُوا غَايَةَ

الاستكبار، وأقصى العتو، وهذه الآية الكريمة تدل على أن تكذيب الرسل بعد دلالة المعجزات، ووضوح الحق، وعنادهم والتعنّت عليهم بطلب إنزال الملائكة أو رؤية الله، استكبار عن الحق عظيم وعتو كبير يستحق صاحبه النكال، والتقريع، ولذا شدد الله النكير على من تعنت ذلك التعنّت واستكبر عن قبول الحق، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: ١٠٨] وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهَنَّمَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ الآية [النساء: ١٥٣] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوَسَى ابْنُ تَوْفَنَ لَكَ حَتَّىٰ رَأَىٰ اللَّهُ جَهَنَّمَ فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾ [البقرة] واستدلال المعتزلة بهذه الآية، وأمثالها على أن رؤية الله مستحيلة استدلال باطل ومذهبهم والعياذ بالله من أكبر الضلال، وأعظم الباطل، وقول الزمخشري في كلامه على هذه الآية: إن الله لا يرى؛ قول باطل، وكلام فاسد.

والحق الذي لا شك فيه أن المؤمنين يرون الله بأبصارهم يوم القيامة كما تواترت به الأحاديث عن الصادق المصدق عليه السلام، ودلت عليه الآيات القرآنية منطوقاً ومفهوماً. كما أوضحناه في غير هذا الموضع.

وقد قدمنا في هذه السورة وفي سورة بني إسرائيل الآيات الدالة على أن الله لو فعل لهم كل ما اقترحوا لما آمنوا، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيُقَالُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار الذين طلبوا إنزال الملائكة عليهم أنهم يوم يرون الملائكة لا بشرى لهم؛ أي لا تسرهم رؤيتهم ولا تكون لهم في ذلك الوقت بشارة بخير، ورؤيتهم للملائكة تكون عند احتضارهم، وتكون يوم القيامة، ولا بشرى لهم في رؤيتهم في كلا الوقتين.

أما رؤيتهم الملائكة عند حضور الموت فقد دلت آيات من كتاب الله أنهم لا بشارة لهم فيها لما يلاقون من العذاب من الملائكة عند الموت، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٥٠]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ أُنْزِلُوا فِي عَمَزَاتِ اللَّوْنِ وَالْمَلَائِكَةُ بِأَسْطُرٍ أَيْدِيَهُمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَهُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣] وقوله تعالى: ﴿تَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ الآية [٧] ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ الآية [٨] (محمّد) وأما رؤيتهم الملائكة يوم القيامة فلا بشرى لهم فيها أيضاً، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرْزَلْنَا مَلَكَ لَفِضَى الْأَمْرِ ثُمَّ لَا يُظْهَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ يدل بدليل

خطابه؛ أي مفهوم مخالفته، أن غير المجرمين يوم يرون الملائكة تكون لهم البشرى، وهذا المفهوم من هذه الآية جاء مصرحاً به في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقْتَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٠﴾ نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُم فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُم فِيهَا مَا تَشْتَهُي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُم فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٢١﴾ تَزُولُ مِنْ عَقُورٍ رَاحِمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [فصلت].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا﴾ أظهر القولين فيه عندي أنه من كلام الكفار يوم يرون الملائكة، لا من كلام الملائكة. وإيضاحه أن الكفار الذين اقترحوا إنزال الملائكة إذا رأوا الملائكة توقعوا العذاب من قبلهم، فيقولون حينئذ للملائكة: حجراً محجوراً؛ أي حراماً محرماً عليكم أن تمسونا بسوء؛ أي لأننا لم نرتكب ذنباً نستوجب به العذاب، كما أوضحه تعالى بقوله عنهم: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ طَالِيَينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [النحل] فقولهم: ما كنا نعمل من سوء: أي لم نستوجب عذاباً فتعذيبنا حرام محرم، وقد كذبهم الله في دعواهم هذه بقوله: ﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. وعادة العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، أنهم يقولون هذا الكلام؛ أي حجراً محجوراً عند لقاء عدو موتور أو هجوم نازلة أو نحو ذلك.

وقد ذكر سيبويه هذه الكلمة أعني: حجراً محجوراً، في باب المصادر غير المتصرفة المنصوبة بأفعال متروكة إظهارها نحو: معاذ الله، وعمرك الله، ونحو ذلك، وقوله: حجراً محجوراً، أصله من حجره بمعنى منعه، والحجر الحرام؛ لأنه ممنوع ومنه قوله: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَمْثَلُ الَّذِي هُوَ أَعْيَنَ وَحَرَّكَ جِجْرًا﴾؛ أي حرام ﴿لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرِغِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٣٨] ومنه قول المتلمس:

حنت إلى النخلة القصوى فقلت لها حجر حرام ألا تلك الدهارينس

فقوله حرام تأكيد لقوله حجر لأن معناه حرام. وقول الآخر:

ألا أصبحت أسماء حجراً محرماً وأصبحت من أدنى حموتها حما

وقول الآخر:

قالت وفيها خيرة وذعر عوذ بربي منكم وحجر

وقوله: محجوراً تأكيد لمعنى الحجر. قال الزمخشري: كقول العرب: ذيل ذائل. والذيل: الهوان، وموت مائت، وأما على القول بأن حجراً محجوراً من قول الملائكة، فمعناه: أنهم يقولون للكفار حجراً محجوراً؛ أي حراماً محرماً أن تكون للكفار اليوم بشرى، أو أن يغفر لهم، أو يدخلون الجنة. وهذا القول اختاره ابن جرير، وابن كثير وغير واحد.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ قال الزمخشري: يوم منصوب بأحد شيئين، إما بما دل عليه «لا بشرى»؛ أي يوم يرون الملائكة يمنعون

البشرى، أو يعدمونها، ويومئذٍ للتكرير، وإما بإضمار «اذكر»؛ أي اذكر يوم يرون الملائكة، ثم قال: لا بشرى يومئذٍ للمجرمين.

قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (١٣). قد قدمنا الآيات الموضحة له في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾... الآية [الإسراء: ١٩]. وفي سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النحل: ٩٧]. وغير ذلك، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (١٤)، استنبط بعض العلماء من هذه الآية الكريمة أن حساب أهل الجنة يسير، وأنه ينتهي في نصف نهار، ووجه ذلك أن قوله: مقيلاً؛ أي مكان قيلولة وهي الاستراحة في نصف النهار، قالوا: وهذا الذي فهم من هذه الآية الكريمة، جاء بيانه في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ﴾ (٧) ﴿فَسَوْفَ يَحْسَبُ حِسَابًا يَّسِيرًا﴾ (٨) وَيَنْفَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ (٩) [الانشقاق].

وفهم من قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾... الآية أن أصحاب النار ليسوا كذلك وأن حسابهم غير يسير.

وهذا المفهوم دلت عليه آيات أخر كقوله تعالى قريباً من هذه الآية: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ (١١) فقوله: على الكافرين يدل على أنه على المؤمنين غير عسير، كما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَجُ الْأَكْبَرُ﴾... الآية [الأنبياء: ١٠٣]. وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّافِرِ﴾ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) [المذثر] وقوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ (٨) [القمر] وإذا علمت مما ذكرنا ما جاء من الآيات فيه بيان لقوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (١٤) فهذه أقوال بعض المفسرين في المعنى الذي ذكرنا في الآية.

قال صاحب الدر المنثور: وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ قال في الغرف من الجنة، وكان حسابهم أن عرضوا على ربهم عرضة واحدة، وذلك الحساب اليسير، وذلك مثل قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ﴾ (٧) ﴿فَسَوْفَ يَحْسَبُ حِسَابًا يَّسِيرًا﴾ (٨) وَيَنْفَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ (٩) [الانشقاق] وأخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن مسعود. قال: لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقبل هؤلاء وهؤلاء ثم قرأ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (١٤) وقرأ: (ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم) وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: إنما هي ضحوة. فيقبل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين، ويقبل أعداء الله مع الشياطين مقرنين.

وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر، وأبو نعيم في

الحلية، عن إبراهيم النخعي: كانوا يرون أنه يفرغ من حساب الناس يوم القيامة، نصف النهار. فيقول أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، فذلك قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ ٢٤.

وأخرج ابن جرير، عن سعيد بن الصواف قال: بلغني أن يوم القيامة يقصر على المؤمن، حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس، وإنهم ليقيلون في رياض الجنة، حين يفرغ الناس من الحساب، وذلك قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ ٢٤ إلى أن قال: وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: إني لأعرف الساعة التي يدخل فيها أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، الساعة التي يكون فيها ارتفاع الضحى الأكبر، إذا انقلب الناس إلى أهلهم، للقلولة، فينصرف أهل النار إلى النار، وأما أهل الجنة فينطلق بهم إلى الجنة، فكانت قيلولتهم في الجنة، وأطعموا كبد الحوت فأشبعهم كلهم فذلك قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ ٢٤ انتهى منه.

وذكر نحوه القرطبي مرفوعاً وقال: ذكره المهدوي. والظاهر أنه لا يصح مرفوعاً، وقال القرطبي أيضاً: وذكر قاسم بن أصبغ من حديث أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» فقلت: ما أطول هذا اليوم. فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة» وهو ضعيف أيضاً، وما ذكره عن ابن مسعود من أنه قرأ: (ثم إنَّ مَقِيلَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ) معلوم أن ذلك شاذ لا تجوز القراءة به، وأن القراءة الحق ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ ٢٨ [الصافات].

واعلم أن قول قتادة في هذه الآية معروف مشهور، وعليه فلا دليل في الآية لما ذكرنا، وقول قتادة هو أن معنى قوله: ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي منزلاً ومأوى، وهذا التفسير لا دليل فيه على القيلولة في نصف النهار كما ترى.

وقد بينا في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) وجه الجمع بين ما دل عليه قوله هنا ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ من انقضاء الحساب في نصف نهار، وبين ما دل عليه قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] وذكرنا الآيات المشيرة إلى الجمع، وبعض الشواهد العربية.

واعلم أن المشهور في كلام العرب أن المقيّل القيلولة أو مكانها، وهي الاستراحة نصف النهار زمن الحر مثلاً، وإن لم يكن معها نوم، ومنه قوله:

جزى الله ربَّ الناس خيراً جزائه رقيقين قالاً خيمتي أم معبد

أي نزلا فيها وقت القائلة، كما قاله صاحب اللسان، وما فسر به قتادة الآية، من أن المقيّل المنزل والمأوى، معروف أيضاً في كلام العرب ومنه قول ابن رواحة:

اليوم نضربكم على تنزيله ضرباً يزيل الهام عن مقيله

فقوله: يزيل الهام عن مقيله، يعني: يزيل الرؤوس عن مواضعها من الأعناق، ومعلوم أن المقييل فيه المحل الذي تسكن فيه الرؤوس. والظاهر أن من هذا القبيل قول أحيحة بن الجلاح الأنصاري:

وما تدري وإن أجمعت أمراً بأي الأرض يدركك المقييل

وعليه فالمعنى: بأي الأرض يدركك الثواء والإقامة بسبب الموت أو غيره من الأسباب، وصيغة التفضيل في قوله هنا ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ تكلمنا على مثلها قريباً في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشْقَى السَّمَاءُ بِالنِّفْمِ وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ نَزِيلًا ۝٢٥﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن السماء تشقق يوم القيامة بالغمام، وأن الملائكة تنزل تنزيلاً. وقال القرطبي: تشقق السماء بالغمام أي عن الغمام. قال: والباء وعن يتعاقبان كقولك: رميت بالقوس، وعن القوس انتهى. ويستأنس لمعنى عن بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْقَى الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾... الآية [ق: ٤٤].

وهذه الأمور الثلاثة المذكورة في هذه الآية الكريمة من تشقق السماء يوم القيامة ووجود الغمام، وتنزيل الملائكة كلها جاءت موضحة في غير هذا الموضع.

أما تشقق السماء يوم القيامة فقد بينه - جل وعلا - في آيات كثيرة من كتابه كقوله تعالى: ﴿إِذَا أَنْشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ۝٢٧﴾ [الرحمن] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝٢٨ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝٢٩﴾ [الحاقة] وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ ۝٣٠﴾... الآية [الانشقاق]. وقوله تعالى: ﴿إِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٣١﴾ [الأنعام] وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ فُجِّرَتْ ۝٣٢﴾... الآية [المرسلات: ٨ - ٩] فقوله: فرجت؛ أي شقت، فكان فيها فروج؛ أي شقوق كقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفطرت ۝٣٣﴾ [الانفطار] وقوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ۝٣٤﴾ [النبأ]، وأما الغمام ونزول الملائكة، فقد ذكرهما معاً في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ۝٣٥﴾... الآية [البقرة: ٢١٠]. وقد ذكر - جل وعلا - نزول الملائكة في آيات أخرى كقوله ﴿وَجَاءَ رَيْكُ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٣٦﴾ [الفجر] وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ۝٣٧﴾... الآية [الأنعام: ١٥٨] وقوله تعالى: ﴿مَا نَزَّلَ الْمَلَائِكَةُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ۝٣٨﴾ [الحجر].

قال الزمخشري: والمعنى أن السماء تنفتح بغمام يخرج منها، وفي الغمام الملائكة ينزلون، وفي أيديهم صحف أعمال العباد، انتهى منه.

وقرأ هذا الحرف نافع وابن كثير وابن عامر «تشقق» بتشديد الشين، والباقون بتخفيفها بحذف إحدى التائين، وقرأ ابن كثير: «ونزل الملائكة» بنونين الأولى مضمومة، والثانية ساكنة مع تخفيف الزاي، وضم اللام، مضارع أنزل، والملائكة بالنصب مفعول به، والباقون بنون واحدة وكسر الزاي المشددة ماضياً مبنياً للمفعول،

والملائكة مرفوعاً نائب فاعل نزل، والأظهر أن يوم منصوب باذكر مقدراً، كما قاله القرطبي، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْخَبِيرُ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ۝﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الملك الحق يوم القيامة له - جل وعلا - دون غيره، وأن يوم القيامة كان عسيراً على الكافرين.

وهذان الأمران المذكوران في هذه الآية الكريمة جاءا موضحين في آيات من كتاب الله، أما كون الملك له يوم القيامة، فقد ذكره تعالى في آيات من كتابه كقوله جل وعلا: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝﴾ [الفاتحة] وقوله: ﴿لَيْنَ الْمَلِكِ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَلَكُ يَوْمَ يُفْتَحُ فِي الصُّورِ﴾ ... الآية [الأنعام: ٧٣]. إلى غير ذلك من الآيات.

وأما كون يوم القيامة عسيراً على الكافرين، فقد قدمنا الآيات الدالة عليه قريباً في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا ۝﴾ ... الآية.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝﴾ يَتَوَلَّيْ لَيِّنِي لِمَ أَخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا ۝﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ۝﴾. من المشهور عند علماء التفسير أن الظالم الذي نزلت فيه هذه الآية، هو عقبة بن أبي معيط، وأن فلاناً الذي أضله عن الذكر أمية بن خلف، أو أخوه أبي بن خلف، وذكر بعضهم أن في قراءة بعض الصحابة. ليتني لم أتخذ ألباً خليلاً، وهو على تقدير ثبوته من قبيل التفسير، لا القراءة، وعلى كل حال فالعبرة بعموم الألفاظ، لا بخصوص الأسباب، فكل ظالم أطاع خليله في الكفر، حتى مات على ذلك يعجري له مثل ما جرى لابن أبي معيط.

وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآيات الكريمة جاء موضحاً في غيرها، فقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ كناية عن شدة الندم والحسرة؛ لأن النادم ندماً شديداً، يعض على يديه، وندم الكافر يوم القيامة وحسرتة الذي دلت عليه هذه الآية، جاء موضحاً في آيات آخر، كقوله تعالى في سورة يونس: ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُتِيَ بَيْنَهُمُ بِالْقِسْطِ ۝﴾ الآية [يونس: ٥٤]. وقوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْدَلَ فِي أَغْنَاكِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۝﴾ الآية [سبأ: ٣٣]. وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَحْسَرُنَا عَلَى مَا قَرَرْنَا فِيهَا ۝﴾ ... الآية [الأنعام: ٣١]. والحسرة أشد الندامة. وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧] إلى غير ذلك من الآيات، وما ذكره هنا من أن الكافر يتمنى أن يكون آمن بالرسول في دار الدنيا، واتخذ معه سبيلاً: أي طريقاً إلى الجنة في قوله هنا: ﴿يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ جاء موضحاً في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ

يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٢٦﴾ [الأحزاب] وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٧﴾ [الفجر] وقوله تعالى: ﴿زَيْمًا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢٨﴾ [الحجرات] إلى غير ذلك من الآيات.

والسبيل التي يتمنى الكافر أن يتخذها مع الرسول المذكورة في هذه الآية، ذكرت أيضاً في آيات أخر كقوله تعالى في هذه السورة الكريمة سورة الفرقان: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٨﴾﴾ [المزمل] في المزمّل والإنسان، ويقرب من معناه المآب المذكور في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾﴾ [النبا] وما ذكره هنا من أن الكافر ينادي بالويل، ويتمنى أنه لم يتخذ من أضله خليلاً، ذكره في غير هذا الموضع، أما دعاء الكفار بالويل: فقد تقدم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هَٰؤُلَاءِ ثُبُورًا ﴿١٢﴾﴾ لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٣﴾﴾.

وأما تمنيههم لعدم طاعة من أضلهم، فقد ذكره أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَكُنَّا كَرَّةً فَتَنْبَرَأَ مِنْهُمْ كَمَا تَنْبَرَأُوا مِنْهَا﴾ [البقرة: ١٦٧] فلفظة لو في قوله ﴿لَوْ أَكُنَّا كَرَّةً﴾ للتمني؛ ولذلك نصب الفعل المضارع بعد الفاء في قوله: ﴿فَتَنْبَرَأَ مِنْهُمْ﴾... الآية. وهو دليل واضح على ندمهم على موالاتهم، وطاعتهم في الدنيا، وما ذكره - جل وعلا هنا - من أن أخلاء الضلال من شياطين الإنس والجن، يضلون أخلاءهم عن الذكر بعد إذ جاءهم، ذكره في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَلِيُخَوِّثَهُمْ بَعْدَ وَبَيْعِهِمْ فِي الْعَقْبِ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف] وقوله تعالى: ﴿وَقَفَّضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾... الآية [فصلت: ٢٥] وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُخَشِّرُهُمْ جَمِيعًا يَتَخَفَتُونَ الْإِنْسَ قَدْ اسْتَخَبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾... الآية [الأنعام: ١٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب] وقوله تعالى: ﴿حَقٌّ إِذَا أَدْرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِجْتُمْ لَوْلَهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّنَا فَفَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَخَبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾... [سبا: ٣١] الآيات. إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى هنا: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ الأظهر أنه من كلام الله، وليس من كلام الكافر النادم يوم القيامة، والخذول صيغة مبالغة، والعرب تقول: خذله إذا ترك نصره مع كونه يترقب النصر منه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَّخِذْ لَكُمْ فَنًا الَّذِي يَصْرِفُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠] وقول الشاعر:

إن المرء مَيِّتاً بانقضاء حياته ولكن بأن يبغي عليه فيخذلا

وقول الآخر:

إن الألى وصفوا قومي لهم فبهم هذا اعتصم تلق من عاداك مخذولا

ومن الآيات الدالة على أن الشيطان يخذل الإنسان قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْقِفْتَانَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ ... الآية [الأنفال: ٤٨]، وقوله تعالى في هذه الآية ﴿لَقَدْ أَضَلَّيْ عَنِ الذِّكْرِ﴾ الأظهر أن الذكر القرآن وقوله: ﴿لَوْ أَخَذُوا فَلَانًا﴾ العرب تطلق لفظة فلان كناية عن العلم: أي لم أأخذ أياً أو أمية خليلاً، ويكونون عن علم الأثنى بفلانة، ومنه قول عروة بن حزام العذري:

ألا قاتل الله الوشاة وقولهم فلانة أضحت خلة لفلان

وقوله: ﴿بَعْضُ الظَّالِمِ﴾ من بعض بكسر العين في الماضي، يعرض بفتحها في المضارع على القياس، ومنه قول الحارث بن وعله الدهلي:

الآن لما أبيض مسررتي وعضضت من نابي على جذم

فإن الرواية المشهورة في البيت عضضت بكسر الضاد الأولى وفيها لغة بفتح العين في الماضي، والكسر أشهر، وعض تتعدى بعلی كما في الآية وبيت الحارث بن وعله، المذكورين وربما عدت بالباء ومنه قول ابن أبي ربيعة:

فقاتل وعضت بالبنان فضحتني وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر

وهذه الآية الكريمة تدل على أن قرين السوء، قد يدخل قرينه النار، والتحذير من قرين السوء مشهور معروف، وقد بين - جل وعلا - في سورة الصافات أن رجلاً من أهل الجنة أقسم بالله أن قرينه كاد يرديه أي يهلكه بعذاب النار، ولكن لطف الله به فتداركه برحمته وإنعامه فهداه وأنقذه من النار، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۖ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۖ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَاطْلَعْ فَلَوْ أَنَّهُ فِي سَوَاءِ الْحَجِيمِ ۖ﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرِيدُنِي ۖ وَلَوْ لَأَفْعَمَهُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ ۖ﴾ [الصافات].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۖ﴾.

معنى هذه الآية الكريمة ظاهر، وهو أن نبينا ﷺ شكاً إلى ربه هجر قومه، وهم كفار قريش لهذا القرآن العظيم أي تركهم لتصديقه، والعمل به، وهذه شكوى عظيمة، وفيها أعظم تخويف لمن هجر هذا القرآن العظيم، فلم يعمل بما فيه من الحلال والحرام والآداب والمكارم، ولم يعتقد ما فيه من العقائد، ويعتبر بما فيه من الزواجر والقصص والأمثال.

وقد استنبط بعض العلماء من هذه الآية مسألة في الأصول يرجع من أراد الوقوف عليها إلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (٣١)، لما شكى النبي ﷺ إلى ربه في قوله: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (٣٠) أنزل الله قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا...﴾ الآية، تسلياً له ﷺ، أي كما جعلنا الكفار أعداء لك، يكدبونك، ويتخذون القرآن الذي أنزل إليك مهجوراً، كذلك جعل جعلنا لكل نبي عدواً: أي جعلنا لك أعداء، كما جعلنا لكل نبي عدواً.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا...﴾ الآية. قد قدمنا إيضاحه في الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ﴾... الآية [الأنعام: ١١٢].

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ قد قدمنا الكلام مستوفى على «كفى» اللازمة، والمتعدية بشواهد العربية في سورة الإسراء في الكلام على قوله: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ جاء معناه موضحاً في آيات كثيرة، كقوله: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ [الكهف: ١٧] وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠] وقوله: ونصيراً: أي وكفى بربك نصيراً، جاء معناه أيضاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿إِنْ يَصْرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾. تقدمت الآيات التي بمعناه في آخر سورة الإسراء في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكِنٍ﴾... الآية [الإسراء: ٣٢]، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾؛ أي كذلك الإنزال مفزعة بحسب الوقائع أنزلناه لا جملة كما اقترحوا، وقوله: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي أنزلناه مفزعة، لنثبت فؤادك بإنزاله مفزعة.

قال بعضهم: معناه لنقوي بتفريقه فؤادك على حفظه؛ لأن حفظه شيئاً فشيئاً أسهل من حفظه مرة واحدة، لو نزل جملة واحدة.

وقال بعضهم: ومما يؤكد ذلك أنه صلوات الله وسلامه عليه أُمي لا يقرأ ولا يكتب.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سَرُّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٣٢). ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار يحشرون على وجوههم إلى جهنم يوم القيامة، وأنهم شر مكاناً، وأضل سبيلاً؛ وبين في مواضع آخر أنهم تكب وجوههم في النار ويسحبون على وجوههم فيها، كقوله تعالى: ﴿وَنَجَّاءَ يَاسِينَ فَكَتَبَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [النمل: ٩٠]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [الأحزاب: ٦٦] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْجُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (٤٨) [القمر] وبين - جل وعلا - في سورة بني إسرائيل أنهم يحشرون على وجوههم، وزاد مع ذلك

أنهم يحشرون عمياً وبكماً وصماً، وذكر في سورة طه أن الكافر يحشر أعمى. قال في سورة بني إسرائيل: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًىٰ وَبُكْمًا وَصَمًّا مَّا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧] وقال في سورة طه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ﴾ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَيْنَا فَتَسِينَهَا ﴿طه﴾.

وقد بينا وجه الجمع بين آية بني إسرائيل وآية طه المذكورتين مع الآيات الدالة على أن الكفار يوم القيامة يبصرون ويتكلمون ويسمعون كقوله تعالى: ﴿أَتَسْمِعُ بِهِمْ وَأَبْصِرُ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨] وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَاتَّجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] وقوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣]. وفي سورة طه في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤] وكذلك بينا أوجه الجمع بين الآيات المذكورة في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» في الكلام على آية بني إسرائيل المذكورة.

وصيغة التفضيل في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ قد قدمنا الكلام في مثلها في الكلام على قوله: ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ والمكان محل الكينونة، والظاهر أنه يكون حسيّاً، ومعنوياً؛ فالحسي ظاهر، والمعنوي كقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ ... الآية [يوسف: ٧٧]، والسبيل الطريق وتذكر وتوث كما تقدم، ومن تذكير السبيل قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَكُونُوا سَبِيلَ الَّذِي يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦] ومن تأنيثها قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ ... الآية [يوسف: ١٠٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا﴾ ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَلْنَاهُمْ نَذِيرًا﴾ ﴿٣٦﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة مريم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنَلَدَيْنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ ﴿٥٦﴾ [مريم]. قوله تعالى: ﴿وَقَوْمٌ نُوْحٌ لَّمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾.

قد قدمنا بعض الآيات الدالة على كيفية إغراقهم في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف: ٦٤].

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ ﴿٣٨﴾.

الأظهر عندي أن قوله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا﴾ معطوف على قوله: ﴿وَقَوْمٌ نُوْحٌ﴾ ... الآية، وأن قوم نوح مفعول به لأغرقنا محذوفة دل عليها قوله بعده: ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ على حد قوله في الخلاصة:

فالسابق انصبه بفعل أضمرنا حتماً موافق لما قد ذكرنا

أي أهلكنا قوم نوح بالغرق، وأهلكنا عاداً وثموداً وأصحاب الرس، وقروناً بين ذلك كثيراً، أي وأهلكنا قروناً كثيرة بين ذلك المذكور من قوم نوح، وعاد، وثمود.

والأظهر أن القرون الكثيرة المذكورة بعد قوم نوح، وعاد، وثمود، وقبل أصحاب الرس وقد دلت آية من سورة إبراهيم على أن بعد عاد، وثمود، خلقاً كفروا وكذبوا الرسل، وأنهم لا يعلمهم إلا الله - جل وعلا -.

وتصريحه بأنهم بعد عاد وثمود، يوضح ما ذكرنا وذلك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْتِيَكُمُ نُبَأُ الْآيَاتِ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم].

وقد قدمنا كلام أهل العلم في معنى قوله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ والإشارة في قوله: ﴿يَبَيِّنُ ذَلِكَ﴾ راجعة إلى عاد، وثمود، وأصحاب الرس: أي بين ذلك المذكور ورجوع الإشارة، أو الضمير بالإفراد مع رجوعهما إلى متعدد باعتبار المذكور أسلوب عربي معروف ومنه في الإشارة قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَائٍ يَبَيِّنُ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨] أي ذلك المذكور من الفارض والبكر، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَبَيِّنُ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ أي بين ذلك المذكور من الإسراف والقتل، وقول عبد الله بن الزبير السهمي.

إن للخير وللشر مدى وكلا ذلك وجه وقبل

أي وكلا ذلك المذكور من الخير والشر، ومنه في الضمير قول رؤية:

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه في الجلد توليع البهق

أي كأنه، أي ما ذكر من خطوط السواد والبلق، وقد قدمنا هذا البيت.

أما عاد وثمود فقد جاءت قصة كل منهما مفصلة في آيات متعددة، وأما أصحاب الرس فلم يأت في القرآن تفصيل قصتهم ولا اسم نبيهم، وللمفسرين فيهم أقوال كثيرة تركناها لأنها لا دليل على شيء منها.

والرس في لغة العرب البئر التي ليست بمطوية، وقال الجوهري في صحاحه: إنها البئر المطوية بالحجارة، ومن إطلاقها على البئر قول الشاعر:

وهم سائرون إلى أرضهم فيا ليتهم يحفرون الرساسا

وقول النابغة الجعدي:

سبقت إلى فرط ناهل تنابله يحفرون الرساسا

والرساس في البيتين جمع رس، وهي البئر، والرس واد في قول زهير في معلقته:

بكرن بكوراً واستحرن بسحرة فهن لوادي الرس كاليد للفم

العلم، وأن الله يهدي بها قوماً، ويضل بها آخرين. وهذه الآيات الدالة على ذلك كله فمنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الحشر] وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت]، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴿٦٥﴾﴾ ... الآية [الحج: ٧٣]، الآية. والآيات الدالة على ذلك كثيرة معلومة، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوَاءً أَفَكُم يَكُونُوا يَكُونُهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٦٦﴾﴾. أقسم - جل وعلا - في هذه الآية أن الكفار الذين كذبوا نبينا ﷺ، قد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء، وهو أن الله أمطر عليها حجارة من سجيل، وهي سدوم قرية قوم لوط، وهذان الأمران المذكوران في هذه الآية الكريمة، وهما أن الله أمطر هذه القرية مطر السوء الذي هو حجارة السجيل، وأن الكفار أتوا عليها، ومروا بها جاء موضحاً في آيات أخرى.

أما كون الله أمطر عليها الحجارة المذكورة، فقد ذكره - جل وعلا - في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الحجر]، وبين في سورة الذاريات أن السجيل المذكور نوع من الطين، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ ﴿٦٨﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٦٩﴾﴾ [الذاريات]، ولا شك أن هذا الطين وقعه أليم شديد مهلك. وكقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الشعراء] وقوله تعالى: ﴿لَعَنَّا إِيَّاهُمْ لِنَمَسَّ مِنْهُمْ لُفْيَةً يُحْشَرُونَ ﴿٧١﴾﴾ فَاحْذَرُوهُمْ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٣﴾﴾ ... الآية [الحجر].

وأما كونهم قد أتوا على تلك القرية المذكورة فقد جاء موضحاً أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا لِلَّذِينَ هُمْ مُصْحِفُونَ ﴿٧٤﴾﴾ وَأَنَّا لَمُنُورُونَ ﴿٧٥﴾﴾ وَأَنَّا لَمُنُورُونَ ﴿٧٦﴾﴾ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات] والمراد بأنهم مروا على قرية قوم لوط، وأن مرورهم عليها، ورؤيتهم لها خالية من أهلها ليس فيها داع، ولا مجيب؛ لأن الله أهلك أهلها جميعاً لكفرهم وتكذيبهم رسوله لوطاً فيه أكبر واعظ وأعظم زاجر عن تكذيب نبينا محمد ﷺ، لئلا ينزل بالذين كذبوه مثل ما نزل بقوم لوط من العذاب والهلاك؛ ولذا وبخهم على عدم الاعتبار بما أنزل بها من العذاب كقوله في آية الصافات المذكورة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: ٦٠]، وكقوله تعالى في آية الفرقان هذه: ﴿أَفَكُم يَكُونُوا يَكُونُهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٧٩﴾﴾ فقلوه: أفلم يكونوا يرونها: توبخ لهم على عدم الاعتبار كقوله في الآية الأخرى: أفلا تعقلون، ومعلوم أنهم يمرون عليها مصبحين، وبالليل وأنهم يرونها،

وكقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن سِجِّيلٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ۝٥٦﴾ وَإِنَّهَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝٥٧﴾ [الحجر] يعني أن ديار قوم لوط بسبيل مقيم؛ أي بطريق مقيم، يمرون فيه عليها في سفرهم إلى الشام، وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾، أي لا يخافون بعثاً، ولا جزاء أو لا يرجون بعثاً وثواباً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَخَذُوكَ إِلَّا هُرُورًا أَلَيْسَ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۝٥٨﴾ كَذَٰلِكَ لِيُضِلَّآ عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَنَّ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۝٥٩﴾. تقدم إيضاحه في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَخَذُوكَ إِلَّا هُرُورًا أَلَيْسَ الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ۝٦٠﴾ [الأنبياء]، وما قالوه هنا من أنهم صبروا على آلهتهم، بين في سورة ۝٥٨﴾ أن بعضهم أمر به بعضاً في قوله تعالى: ﴿وَأَنطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى ءَالِهَتِكُمْ ۝٦١﴾... الآية [ص: ٦].

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٦٢﴾. قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: أَرَأَيْتَ من اتخذ إلهه هواه؛ أي مهما استحسنت من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه كان دينه ومذهبه، إلى أن قال: قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول، اه منه.

وذكر صاحب الدر المنثور: أن ابن أبي حاتم وابن مردويه أخرجا عن ابن عباس أن عبادة الكافر للحجر الثاني، مكان الأول، هي سبب نزول هذه الآية، ثم قال صاحب الدر المنثور: وأخرج ابن مردويه عن أبي رجاء العطاردي، قال: كانوا في الجاهلية يأكلون الدم بالعلهز ويعبدون الحجر، فإذا وجدوا ما هو أحسن منه، رموا به وعبدوا الآخر، فإذا فقدوا الآخر أمروا منادياً فنادى: أيها الناس إن إلهكم قد ضل فالتمسوه، فأنزل الله هذه الآية: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ۝٦٢﴾، وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ۝٦٢﴾ قال: ذلك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من الله ولا برهان.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ۝٦٢﴾. قال: لا يهوى شيئاً إلا تبعه.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ۝٦٢﴾ قال: كلما هوى شيئاً ركب، وكلما انتهى شيئاً أتاه لا يحجزه عن ذلك ورع، ولا تقوى.

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أنه قيل له: أفي أهل القبلة شرك؟ قال: نعم المنافق مشرك، إن المشرك يسجد للشمس والقمر من دون الله، وإن المنافق عبد هواه ثم تلا هذه الآية: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٦٢﴾.

وأخرج الطبراني، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تحت ظل السماء

من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متبع»، انتهى محل الغرض من كلام صاحب الدر المنثور.

وإيضاح أقوال العلماء المذكورة في هذه الآية أن الواجب الذي يلزم العمل به، هو- أن يكون جميع أفعال المكلف مطابقة لما أمره به معبوده جل وعلا، فإذا كانت جميع أفعاله تابعة لما يهواه، فقد صرف جميع ما يستحقه عليه خالقه من العبادة والطاعة إلى هواه، وإذن فكونه اتخذ إلهه هواه في غاية الوضوح.

وإذا علمت هذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، فاعلم أن الله - جل وعلا - بينه في غير هذا الموضع في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ عَشَبَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ...﴾ الآية [الجاثية: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ أَلَّهُ بُخْلٌ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ...﴾ الآية [فاطر: ٨]. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾: استفهام إنكار فيه معنى النفي. والمعنى أن من أضله الله فاتخذ إلهه هواه، لا تكون أنت عليه وكيلاً؛ أي حفيظاً تهديه، وتصرف عنه الضلال الذي قدره الله عليه؛ لأن الهدى بيد الله وحده لا بيدك، والذي عليك إنما هو البلاغ، وقد بلغت.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ...﴾ الآية [القصص: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ الآية [النحل: ٣٧]. وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ...﴾ [الزمر]، وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ...﴾ الآية [يونس: ٩٩ - ١٠٠]، وقوله في آية فاطر المذكورة آنفاً: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ...﴾ الآية [فاطر: ٨]، وقوله تعالى في آية الجاثية المذكورة آنفاً أيضاً: ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ...﴾ الآية [الجاثية: ٢٣]، والآيات بمثل ذلك كثيرة، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا...﴾. «أم» في هذه الآية الكريمة هي المنقطعة، وأشهر معانيها أنها جامعة بين معنى بل الإضرابية، واستفهام الإنكار معاً، والإضراب المدلول عليه بها هنا إضراب انتقالي: والمعنى بل أتحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون؛ أي لا تعتقد ذلك ولا تظنه، فإنهم لا يسمعون الحق ولا يعقلونه: أي لا يدركونه بعقولهم إن هم إلا كالأنعام أي ما هم إلا كالأنعام، التي هي الإبل والبقر والغنم في عدم سماع الحق، وإدراكه، بل هم أضل من الأنعام؛ أي أبعد عن فهم الحق، وإدراكه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ قال الزمخشري: فإن

قلت: كيف جعلوا أضل من الأنعام؟

قلت: لأن الأنعام تنقاد لأربابها التي تعلفها وتتعهدها، وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها، وتجتنب ما يضرها، وتهتدي لمراعيتها ومشاربها، وهؤلاء لا يتقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذي هو عدوهم، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهالك، ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهني والعذب الروي، اه منه.

وإذا علمت ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، فاعلم أن الله بينه في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَنفُسٌ لَا يَسْعَوْنَ فِيهَا أُوتِيَتْكَ أَفْئِدَتُهُمْ فَأَتَوْنَهَا﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى في البقرة: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ بِمَا لَا يَسْعَى إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمُّ بُكْمٌ عُنِيَ فَهَمْ لَا يَقُولُونَ﴾ [البقرة].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [٢٧].

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي جعل لخلقه الليل لباساً، والنوم سباتاً، وجعل لهم النهار نشوراً، أما جعله لهم الليل لباساً، فالظاهر أنه لما جعل الليل يغطي جميع من في الأرض بظلامه، صار لباساً لهم، يسترهم كما يستر اللباس عورة صاحبه، وربما انتفعوا بلباس الليل كهروب الأسير المسلم من الكفار في ظلام الليل، واستتاره به حتى ينجو منهم، ونحو ذلك من الفوائد التي تحصل بسبب لباس الليل كما قال أبو الطيب المتنبى:

وكم لظلام الليل عندي من يد تخبر أن المانوية تكذب
وقاك ردى الأعداء تسري إليهم وزارك فيه ذو الدلال المحجب

وأما جعله لهم النوم سباتاً فأكثر المفسرين على أن المراد بالسبات: الراحة، من تعب العمل بالنهار؛ لأن النوم يقطع العمل النهاري، فينقطع به التعب، وتحصل الاستراحة، كما هو معروف.

وقال الجوهري في صحاحه: السبات: النوم وأصله الراحة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبا]، وقال الزمخشري في الكشاف: والسبات: الموت، والمسبوت: الميت؛ لأنه مقطوع الحياة، وهذا كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، فإن قلت: هلا فسرت بالراحة؟.

قلت: النشور في مقابلته يأباه إباء العيوف الورد، وهو مرتق، اه محل الغرض منه.

وإيضاح كلامه أن النشور هو الحياة بعد الموت كما تقدم إيضاحه، وعليه فقوله: ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي حياة بعد الموت، وعليه فالموت هو المعبر عنه بالسبات في قوله: ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ وإطلاق الموت على النوم معروف في القرآن العظيم كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠] وقوله:

﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ فهي دليل على ما ذكره الزمخشري؛ لأن كلا من البعث والنشور، يطلق على الحياة بعد الموت، وكقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]، وقال الجوهري في صحاحه: والمسبوت الميت والمغشي عليه، اهـ.

والذين قالوا: إن السبات في الآية الراحة بسبب النوم من تعب العمل بالنهار، قالوا: إن معنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُسُوراً﴾ أنهم ينشرون فيه لمعايشهم، ومكاسبهم، وأسبابهم، والظاهر أن هذا التفسير فيه حذف مضاف، أو هو من النعت بالمصدر، وهذا التفسير يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً﴾ [النبا] وقوله تعالى في القصص: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣]؛ أي لتسكنوا في الليل، ولتبتغوا من فضله بالنهار في السعي للمعاش.

وإذا علمت هذا فاعلم أن ما دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضعاً في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً﴾ [١] وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً [٢] وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً [٣] [النبا] وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَظْلَمَةٍ أَوْ لَسَمُومَةٍ﴾ [٦] قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُ فِيهِ أَوْ لَظْلَمَةٍ أَوْ لَسَمُومَةٍ﴾ [٧] وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [٧٢] [القصص].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوِّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرةً لِّتَبْتَغُوا فَضلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئَاتِ وَالْجَسَابِ﴾ ... الآية [الإسراء: ١٢].

وقد أوضحنا هذا في الكلام على هذه الآية.

وكقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [١] وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَلَّى [٢] [الليل] وقوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَّاهَا﴾ [٣] وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [٤] [الشمس] إلى غير ذلك من الآيات.

وفي الآيات المذكورة بيان أن الليل والنهار آيتان من آياته ونعمتان من نعمه - جلّ وعلا -.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾. قد قدمنا الآية الموضحة له في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧] على قراءة من قرأ بشراً بالباء.

وآية الأعراف وآية الفرقان المذكورتان تدلان على أن المطر رحمة من الله لخلقه.

وقد بين ذلك في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْرِجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ ... الآية [الشورى: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ [٥٥].

التحقيق أن الضمير في قوله: ولقد صرفناه، راجع إلى ماء المطر المذكور في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ كما روي عن أن عباس وابن مسعود، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وغير واحد، خلافاً لمن قال: إن الضمير المذكور راجع إلى القرآن كما روي عن عطاء الخراساني وصدر به القرطبي، وصدر الزمخشري بما يقرب منه.

وإذا علمت أن التحقيق أن الضمير في: صرفناه، عائد إلى ماء المطر.

فاعلم أن المعنى ولقد صرفنا ماء المطر بين الناس فأنزلنا مطراً كثيراً في بعض السنين على بعض البلاد، ومنعنا المطر في بعض السنين عن بعض البلاد، فيكثر الخصب في بعضها، والجذب في بعضها الآخر. وقوله: ليذكروا؛ أي صرفناه بينهم، لأجل أن يتذكروا: أي يتذكر الذين أخصبت أرضهم لكثرة المطر، نعمة الله عليهم، فيشكروا له، ويتذكر الذين أجذبت أرضهم ما نزل بهم من البلاء، فيبادروا بالتوبة إلى الله - جل وعلا -، ليرحمهم ويسقيهم. وقوله: ﴿فَأَيُّ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩]، أي كفرأ لنعمة من أنزل عليهم المطر، وذلك بقولهم: مطرنا بنوء كذا.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة أشار له - جل وعلا - في سورة الواقعة في قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة] فقوله: رزقكم: أي المطر، كما قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣]، وقوله: ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي بقولكم: مطرنا بنوء كذا، ويزيد هذا إيضاحاً الحديث الثابت في صحيح مسلم، وقد قدمناه بسنده ومثته مستوفى، وهو أنه ﷺ قال لأصحابه يوماً على أثر سماء أصابتهم من الليل: «أتدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب».

وقد قدمنا أن قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَأَيُّ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ يدخل فيه من قال مطرنا بنوء كذا. ومن قال مطرنا بالبخر، يعني أن البحر يتصاعد منه بخار الماء، ثم يتجمع ثم ينزل على الأرض بمقتضى الطبيعة لا بفعل فاعل، وأن المطر منه كما تقدم إيضاحه، فسبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ (٥١) فَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَحَنَاهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢). المعنى: لو شئنا لخففنا عنك أعباء الرسالة، وبعثنا في كل قرية نذيراً يتولى مشقة إنذارها عنك؛ أي ولكننا اصطفيناك، وخصصناك بعموم الرسالة لجميع الناس، تعظيماً لشأنك، ورفعاً من منزلتك، فقابل ذلك بالاجتهاد والتشدد التام في إبلاغ الرسالة ﴿وَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من اصطفائه ﷺ بالرسالة لجميع الناس، جاء موضحاً، في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ

جَمِيعًا ﴿[الأعراف: ١٥٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبا: ٢٨] وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُذَكِّرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]. وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾... الآية [هود: ١٧].

وقد قدمنا إيضاح هذا في أول هذه السورة الكريمة في الكلام على قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿١﴾.

وقوله: ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ﴾ ذكره أيضاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالتَّنَافِثِينَ﴾... الآية [الأحزاب: ١]. وقوله: ﴿وَلَا تُطِيعُ مِنْهُمْ عَائِشًا أَوْ كُفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤] وقوله: ﴿وَلَا تُطِيعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾... الآية [الكهف: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَائِفٍ مِّمَّيْنِ﴾ ﴿١٠﴾ [القلم].

وقوله في هذه الآية الكريمة: وجاهدكم به؛ أي بالقرآن كما روي عن ابن عباس. والجهاد الكبير المذكور في هذه الآية هو المصحوب بالغلظة عليهم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ﴾، من المعلوم أنه ﷺ لا يطيع الكافرين ولكنه يأمر، وينهى ليشرع لأُمَّته على لسانه كما أوضحناه في سورة بني إسرائيل. قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ ﴿٥٣﴾، اعلم أن لفظة مرج تطلق في اللغة إطلاقين:

الأول: مرج بمعنى أرسل وخلي، من قولهم: مرج دابته إذا أرسلها إلى المرج، وهو الموضع الذي ترعى فيه الدواب، كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وكانت لا يزال بها أنيس خلال مروجها نعم وشاء

وعلى هذا فالمعنى أرسل البحرين وخلاهما لا يختلط أحدهما بالآخر.

والإطلاق الثاني: مرج بمعنى خلط، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي أَمْرِ مَرْيَمَ﴾ [ق: ٥] أي مختلط.

فعلى القول الأول: فالمراد بالبحرين الماء العذب في جميع الدنيا، والماء الملح في جميعها.

وقوله: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ يعني به ماء الآبار، والأنهار والعيون في أقطار الدنيا.

وقوله: ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾؛ أي البحر الملح، كالبحر المحيط، وغيره من البحار التي هي ملح أجاج، وعلى هذا التفسير فلا إشكال.

وأما على القول الثاني بأن مرج بمعنى خلط، فالمعنى أنه يوجد في بعض المواضع اختلاط الماء الملح والماء العذب في مجرى واحد، ولا يختلط أحدهما

بالآخر، بل يكون بينهما حاجز من قدرة الله تعالى، وهذا محقق الوجود في بعض البلاد، ومن المواضع التي هو واقع فيها المحل الذي يختلط فيه نهر السنغال بالمحيط الأطلسي بجانب مدينة سانلويس، وقد زرت مدينة سانلويس عام ست وستين وثلاثمائة وألف هجرية، واغتسلت مرة في نهر السنغال، ومرة في المحيط، ولم آت محل اختلاطهما، ولكن أخبرني بعض المرافقين الثقات أنه جاء إلى محل اختلاطهما، وأنه جالس يغرف بإحدى يديه عذبا فراتا، وبالأخرى ملحا أجاجا، والجميع في مجرى واحد، لا يختلط أحدهما بالآخر. فسبحانه - جل وعلا - ما أعظمه، وما أكمل قدرته.

وهذا الذي ذكره - جل وعلا - في هذه الآية جاء موضحا في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة فاطر: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢] وقوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٣﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمن: أي لا يبغي أحدهما على الآخر فيمتزج به، وهذا البرزخ الفاصل بين البحرين المذكور في سورة الفرقان وسورة الرحمن، قد بين تعالى في سورة النمل أنه حاجز حجز به بينهما، وذلك في قوله - جل وعلا -: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَنَجْعَلُ خِلَافَهَا أَثْنَدًا وَنَجْعَلُ لَهَا رَاسِيًا وَنَجْعَلُ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَمْ نَعِ اللَّهَ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل]. وهذا الحاجز هو اليبس من الأرض، الفاصل بين الماء العذب، والماء المالح على التفسير الأول.

وأما على التفسير الثاني فهو حاجز من قدرة الله غير مرئي للبشر، وأكد شدة حجزه بينهما بقوله هنا ﴿وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾، والظاهر أن قوله هنا: حجرا أي منعاً، وحراماً قدرياً، وأن محجوراً تأكيد له أي منعاً شديداً للاختلاط بينهما، وقوله: ﴿هَذَا عَذْبٌ﴾ صفة مشبهة من قولهم: عذب الماء بالضم فهو عذب وقوله فرات صفة مشبهة أيضاً، من فرت الماء بالضم، فهو فرات، إذا كان شديد العذوبة. وقوله: وهذا ملح، صفة مشبهة أيضاً من قولهم: ملح الماء بالضم والفتح فهو ملح.

قال الجوهري في صحاحه: ولا يقال مالح إلا في لغة ردية، اهـ.

وقد أجاز ذلك بعضهم واستدل له بقول القائل:

ولو تفلت في البحر والبحر مالح لأصبح ماء البحر من ريقها عذبا

وقوله: أجاج: صفة مشبهة أيضاً من قولهم: أج الماء يؤج أجوجاً فهو أجاج؛ أي ملح مر، فالوصف بكونه أجاجاً يدل على زيادة المرارة على كونه ملحا، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ سَبًا وَصَهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾.

قال الزمخشري في الكشاف في تفسير هذه الآية الكريمة: فقسم البشر قسمين، ذوي نسب أي ذكورا ينسب إليهم فيقال: فلان بن فلان وفلانة بنت فلان، وذوات صهر أي إناثا يصاهر بهن كقوله: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الْزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ [القيامة]، ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ حيث خلق من النطفة الواحدة بشراً نوعين ذكر وأنثى، انتهى منه.

وهذا التفسير الذي فسر به الآية يدل له ما استدل عليه به وهو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْلُقْ مِنْ مَتْنٍ يَتَنَّى ۖ ثُمَّ كَانَ عَقْلُهُ فُطْلَقَ فَسَوَّى ۚ﴾ [٢٨] ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ﴾ [٢٩] [القيامة] وهو دليل على أن آية الفرقان هذه بينتها آية القيامة المذكورة، وفي هذه الآية الكريمة أقوال آخر غير ما ذكره الزمخشري.

منها ما ذكر ابن كثير قال: فجعله نسباً وصهرًا، فهو في ابتداء أمره ولد نسب ثم يتزوج فيصهر صهرًا، وانظر بقية الأقوال في الآية في تفسير القرطبي والدر المنثور للسيوطي.

مسألة: استنبط بعض العلماء من هذه الآية الكريمة أن بنت الرجل من الزنى، لا يحرم عليه نكاحها. قال ابن العربي المالكي في هذه الآية: والنسب عبارة عن خلط الماء بين الذكر والأنثى، على وجه الشرع، فإن كان بمعصية كان خلقاً مطلقاً، ولم يكن نسباً محققاً، ولذلك لم يدخل تحت قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] بنته من الزنى؛ لأنها ليست ببنت له في أصح القولين لعلمائنا، وأصح القولين في الدين، وإذا لم يكن نسب شرعاً فلا صهر شرعاً، فلا يحرم الزنى بنت أم ولا أم بنت، وما يحرم من الحلال، لا يحرم من الحرام؛ لأن الله امتن بالنسب، والصهر على عباده ورفع قدرهما، وعلق الأحكام في الحل والحرم عليهما، فلا يلحق الباطل بهما، ولا يساويهما. انتهى منه بواسطة نقل القرطبي عنه.

وقال القرطبي: اختلف الفقهاء في نكاح الرجل ابنته من زنى، أو أخته أو بنت ابنه من زنى: فحرم ذلك قوم منهم ابن القاسم وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، وأجاز ذلك آخرون منهم: عبد الملك بن الماجشون، وهو قول الشافعي، وقد مضى هذا في النساء مجوداً، انتهى منه.

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: الخلاف في هذه المسألة مشهور معروف، وأرجح القولين دليلاً فيما يظهر أن الزنى لا يحرم به حلال، فبنته من الزنى ليست بنتاً له شرعاً، وقد أجمع أهل العلم أنها لا تدخل في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ [النساء: ١١] فالإجماع على أنها لا تترث، ولا تدخل في آيات الموارث، دليل صريح على أنها أجنبية منه، وليست بنتاً شرعاً، ولكن الذي يظهر لنا أنه لا ينبغي له أن يتزوجها بحال. وذلك لأمرين:

الأول: أن كونها مخلوقة من مائه، يجعلها شبيهة شبيهاً صورياً بابنته شرعاً وهذا الشبه القوي بينهما ينبغي أن يزعه عن تزويجها.

الأمر الثاني: أنه لا ينبغي له أن يتلذذ بشيء سبب وجوده معصيته لخالقه - جل وعلا -، فالندم على فعل الذنب الذي هو ركن من أركان التوبة، لا يلائم التلذذ بما هو ناشئ عن نفس الذنب، وما ذكره عن الشافعي من أنه يقول: إن البنت من الزنى لا تحرم، هو مراد الزمخشري بقوله:

وإن شافعيّاً قلت قالوا بأنني أبيع نكاح البنت والبنت تحرم تنبيه: أعلم أنما ذكره صاحب الدر المنثور عن قتادة مما يقتضي أنه استنبط من قوله تعالى في هذه الآية: ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أن الصهر كالنسب في التحريم، وأن كل واحد منهما تحرم به سبع نساء، لم يظهر لي وجهه، ومما يزيده عدم ظهور ضعف دلالة الاقتران عند أهل الأصول، كما تقدم إيضاحه مراراً، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾. تقدم إيضاحه في سورة الحج وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾. الظهير في اللغة: المعين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْمَلِكُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَقَمْتُ عَلَىٰ فَلَئِنْ أَكُنْتُ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصاص].

ومعنى قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ على أظهر الأقوال، وكان الكافر معيناً للشيطان، وحزبه من الكفرة على عداوة الله ورسله، فالكافر من حزب الشيطان يقاتل في سبيله أولياء الله، الذين يقاتلون في سبيل الله، فالكافر يعين الشيطان وحزبه في سعيهم؛ لأن تكون كلمة الله ليست هي العليا، وهذا المعنى دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ الآية [النساء: ٧٦]، ومعلوم أن الذي يقاتل في سبيل الطاغوت، المقاتلين في سبيل الله، أنه على ربه ظهير.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَّعَلَّهُمْ يُصْزَوْنَ﴾ ٧٦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ ٧٧ [يس] على قول من قال: إن الجند المحضرون هم الكفار، يقاتلون عن آلهتهم ويدافعون عنها، ومن قاتل عن الأصنام مدافعاً عن عبادتها، فهو على ربه ظهير، وكونه ظهيراً على ربه أي معيناً للشيطان، وحزبه على عداوة الله ورسله، ككونه عدواً له المذكور في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]. وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [نصفت] ومعلوم بالضرورة أن جميع الخلق لو تعاونوا على عداوة الله لا يمكن أن يضروه بشيء وإنما يضرون بذلك أنفسهم: ﴿يَكَايَهُمُ النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في أول سورة الأعراف وأول سورة الكهف.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ ٧٧. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة هود في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَقْوُوا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾... الآية [هود: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿وَوَكَّلْ عَلَى آلِيٍّ لَا يَمُوتُ﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة لمثله في سورة الفاتحة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].
قوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِهِ يَذُوبٍ عَبَادُهُ خَيْرًا﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِهِ يَذُوبٍ عَبَادُهُ خَيْرًا﴾.
قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

قد قدمنا الآية التي فيها تفصيل ذلك في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤].
قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَشَلَّ بِهِ خَيْرًا﴾، قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ ﴿٣٧﴾، ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار إذا قيل لهم: اسجدوا للرحمن؛ أي قال لهم ذلك رسول الله ﷺ والمسلمون، تجاهلوا الرحمن، وقالوا: وما الرحمن؛ وأنكروا السجود له تعالى، وزادهم ذلك نفوراً عن الإيمان والسجود للرحمن، وما ذكره هنا من أنهم أمروا بالسجود له وحده - جل وعلا - جاء مذكوراً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ ﴿٣٨﴾ [النجم] وقد وبخهم تعالى على عدم امتثال ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ [الإنشقاق]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ [المرسلات] وتجاهلهم للرحمن هنا أجابهم عنه تعالى بقوله: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾ [الرحمن].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]. وقد قدمنا طرفاً من هذا الكلام على هذه الآية؛ وقد قدمنا أيضاً أنهم يعلمون أن الرحمن هو الله، وأن تجاهلهم له تجاهل عارف، وأدلة ذلك. وقوله هنا: وزادهم نفوراً، جاء معناه في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ﴿٤١﴾ [الإسراء]. وقوله تعالى: ﴿بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢١] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ ﴿٤٢﴾، قد قدمنا كلام أهل العلم في معنى تبارك في أول هذه السورة الكريمة، والبروج في اللغة: القصور العالية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

واختلف العلماء في المراد بالبروج في الآية، فقال بعضهم: هي الكواكب

العظام. قال ابن كثير: وهو قول مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبي صالح، والحسن، وقتادة، ثم قال: وقيل هي قصور في السماء للحرس. ويروى هذا عن علي، وابن عباس، ومحمد بن كعب، وإبراهيم النخعي، وسليمان بن مهران الأعمش، وهو رواية عن أبي صالح أيضاً، والقول الأول أظهر اللهم إلا تكون الكواكب العظام، هي قصور للحرس فيجتمع القولان، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ﴾ [الملك: ٥]، اهـ. محل الغرض من كلام ابن كثير.

وقال الزمخشري في الكشف: البروج منازل الكواكب السبعة السيارة: الحمل، والثور، والجوزاء، السرطان، الأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، سميت البروج التي هي القصور العالية؛ لأنها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها، واشتقاق البرج من التبرج لظهوره، اهـ منه.

وما ذكره - جل وعلا - هنا من أنه جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وهو الشمس، وقمرأ منيراً، بينه في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ [الحجر: ١٦] وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١] وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبا: ١٢] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا جَعَلْنَا سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا جَعَلْنَا الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلْنَا الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١١] وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير حمزة والكسائي: وجعل فيها «سراجاً» بكسر السين وفتح الراء بعدها ألف على الأفراد، وقرأه حمزة والكسائي: «سرجاً» بضم السين، والراء جمع سراج، فعلى قراءة الجمهور بإفراد السراج، فالمراد به الشمس، بدليل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦] وعلى قراءة حمزة والكسائي بالجمع، فالمراد بالسرج الشمس، والكواكب العظام.

وقد قدمنا في سورة الحجر أن ظاهر القرآن أن القمر في السماء المبنية لا السماء التي هي مطلق ما علاك؛ لأن الله بين في سورة الحجر، أن السماء التي جعل فيها البروج هي المحفوظة، والمحمولة هي المبنية في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] وقوله: ﴿وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شَدَادًا﴾ [النبا: ١٢] وليست مطلق ما علاك، والبيان المذكور في سورة الحجر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ [الحجر: ١٦، ١٧]، فأية الحجر هذه دالة على أن «ذات البروج» هي المبنية، المحفوظة لا مطلق ما علاك.

وإذا علمت ذلك فاعلم أنه - جل وعلا - في آية الفرقان هذه، بين أن القمر في السماء التي جعل فيها البروج؛ لأنه قال هنا: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الحجر: ١٦] وذلك دليل على أنها ليست مطلق ما علاك، وهذا الظاهر لا ينبغي للمسلم العدول عنه إلا بدليل يجب الرجوع إليه، مما جاء به محمد ﷺ.

فإن قيل: يوجد في كلام بعض السلف، أن القمر في فضاء بعيد من السماء، وأن علم الهيئة دل على ذلك، وأن الأرصاد الحديثة بينت ذلك.

قلنا: ترك النظر في علم الهيئة عمل بهدي القرآن العظيم؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم لما تآقت نفوسهم إلى تعلم هيئة القمر منه ﷺ، وقالوا له: يا نبي الله ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم لم يزل يكبر حتى يستدير بديراً؟ نزل القرآن بالجواب بما فيه فائدة للبشر وترك ما لا فائدة فيه، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] وهذا الباب الذي أرشد القرآن العظيم إلى سده لما فتحه الكفرة كانت نتيجة فتحه الكفر، والإلحاد وتكذيب الله ورسوله من غير فائدة دنيوية، والذي أرشد الله إليه في كتابه هو النظر في غرائب صنعه، وعجائبه في السماوات والأرض ليستبدل بذلك على كمال قدرته تعالى، واستحقاقه للعبادة وحده، وهذا المقصد الأساسي لم يحصل للناظرين في الهيئة من الكفار.

وعلى كل حال فلا يجوز لأحد ترك ظاهر القرآن العظيم إلا لدليل مقنع يجب الرجوع إليه كما هو معلوم في محله.

ولا شك أن الذين يحاولون الصعود إلى القمر بآلاتهم ويزعمون أنهم نزلوا على سطحه سينتهي أمرهم إلى ظهور حقارتهم، وضعفهم، وعجزهم، وذلهم أمام قدرة خالق السماوات والأرض - جل وعلا -.

وقد قدمنا في سورة الحجر أن ذلك يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ثُلُكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ (١٠) جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (١١) [الحجر].
فإن قيل: الآيات التي استدلت بها على أن القمر في السماء المحفوظة فيها احتمال على أسلوب عربي معروف، يقتضي عدم دلالتها على ما ذكرت، وهو عود الضمير إلى اللفظ وحده دون المعنى.

وإيضاحه أن يقال في قوله: ﴿جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ هي السماء المحفوظة؛ ولكن الضمير في قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ راجع إلى مطلق لفظ السماء الصادق بمطلق ما علاك في اللغة، وهذا أسلوب عربي معروف وهو المعبر عنه عند علماء العربية بمسألة: عندي درهم ونصفه أي نصف درهم آخر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١] أي ولا ينقص من عمر معمر آخر.

قلنا: نعم هذا محتمل، ولكنه لم يقم عليه عندنا دليل يجب الرجوع إليه، والعدول عن ظاهر القرآن العظيم لا يجوز إلا لدليل يجب الرجوع إليه، وظاهر القرآن أولى بالاتباع والتصديق من أقوال الكفرة ومقلديهم، والعلم عند الله تعالى.

أقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ١٧].

أقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ الآية [مريم: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ (٦٤)، ما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن عباده الصالحين، يبيتون لربهم سجداً وقياماً يعبدون الله، ويصلون له، بينه في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ عَلَاءَ أَيْلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩] وقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتَمَنِّينَ﴾ (٦٥) كَانُوا قَلِيلًا مِّنْ أَيْلٍ مَا يَهْجُونَ (٦٦) وَإِلَّا تَحَارَّ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٦٧) [الذاريات]. وقوله تعالى: ﴿يَبِيتُونَ﴾ قال الزجاج: بات الرجل يبيت: إذا أدركه الليل، نام أو لم ينم، قال زهير:

فبيتنا قياماً عند رأس جوادنا
يزاولنا عن نفسه ونزاوله
انتهى بواسطة نقل القرطبي.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ (٦٨).

الأظهر أن معنى قوله: كان غراماً؛ أي كان لازماً دائماً غير مفارق، ومنه سمي الغريم لملازمته، ويقال: فلان مغرم بكذا أي لازم له، مولع به.

وهذا المعنى دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]. وقوله: ﴿لَا يُقَرَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسُوتُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥]. وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ وقوله تعالى: ﴿فَلَنْ تَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠]. وقوله: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦٢] وقوله: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ [فاطر: ٣٦]. وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]. وقوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] إلى غير ذلك من الآيات.

وقال الزجاج: الغرام أشد العذاب. وقال ابن زيد: الغرام الشر. وقال أبو عبيدة: الهلاك، قاله القرطبي. وقول الأعشى:

إن يعاقب يكن غراماً وإن يعـ طـ جزيلاً فإنه لا يبال

يعني يكن عذابه دائماً لازماً. وكذلك قول بشر بن أبي حازم:

ويوم النصار ويوم الجفا ر كانا عذاباً وكان غراماً

وذلك هو الأظهر أيضاً في قول الآخر:

وما أكلت إن نلتها بغنيمة ولا جوعة إن جعلتها بغرام

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (٦٩).

قرأ هذا الحرف نافع وابن عامر: «ولم يقتروا» بضم الياء المثناة التحتية وكسر التاء مضارع أقترب الرباعي، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو: «ولم يقتروا» بفتح المثناة التحتية، وكسر المثناة الفوقية مضارع قتر الثلاثي. كضرب، وقرأه عاصم وحمزة،

والكسائي، «ولم يقتروا» بفتح المثناة التحتية، وضم المثناة الفوقية مضارع قتر الثلاثي كنصر، والإقتار على قراءة نافع وابن عامر، والقتر على قراءة الباقيين معناهما واحد، وهو التضييق المخل بسد الخللة اللازم، والإسراف في قوله تعالى: «لم يسرفوا»، مجاوزة الحد في النفقة.

واعلم أن أظهر الأقوال في هذه الآية الكريمة أن الله مدح عباده الصالحين بتوسطهم في إنفاقهم، فلا يجاوزون الحد بالإسراف في الإنفاق، ولا يقترون أي لا يضيقون فيخلون بإنفاق القدر اللازم.

وقال بعض أهل العلم: الإسراف في الآية: الإنفاق في الحرام والباطل، والإقتار منع الحق الواجب، وهذا المعنى وإن كان حقاً فالأظهر في الآية هو القول الأول.

قال ابن كثير رحمته: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾... الآية:

أي ليسوا مبذرين في إنفاقهم، فيصرفوا فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهلهم، فيقتصروا في حقهم فلا يكفوهم، بل عدلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها، لا هذا، ولا هذا، انتهى محل الغرض منه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ أي بين ذلك المذكور من الإسراف والقتر. قواماً؛ أي عدلاً وسطاً سالماً من عيب الإسراف والقتر.

وأظهر أوجه الإعراب عندي في الآية هو ما ذكره القرطبي، قال: وقواماً خير كان واسمها مقدر فيها أي كان الإنفاق بين الإسراف والقتر قواماً، ثم قال: قاله الفراء، وباقي أوجه الإعراب في الآية ليس بوجه عندي كقول من قال: إن لفظة «بين» هي اسم كان، وأنها لم ترفع لبنائها بسبب إضافتها إلى مبني، وقول من قال: إن «بين» هي خبر كان، وقواماً حال مؤكدة له، ومن قال إنهما خبران كل ذلك ليس بوجه عندي، والأظهر الأول، والظاهر أن التوسط في الإنفاق الذي مدحهم به شامل لإنفاقهم على أهلهم، وإنفاقهم المال في أوجه الخير.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في غير هذا الموضع، فمن ذلك أن الله أوصى نبيه عليه السلام بالعمل بمقتضاه في قول تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، فقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ أي ممسكة عن الإنفاق إمساكاً كلياً، يؤدي معنى قوله هنا «ولم يقتروا». وقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾، يؤدي معنى قوله هنا: «لم يسرفوا». وأشار تعالى إلى هذا المعنى في قوله: ﴿وَأَن تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُزْءِ وَلَا تَبْذُرُوا مَالَكُمْ يَذَرًا﴾ [الإسراء: ٣٥] وقوله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ أَمْوَالُي يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]. على أصح التفسيرين.

وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا المعنى في أول سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣].

مسألة: هذه الآية الكريمة التي هي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾... الآية والآيات التي ذكرناها معها، قد بينت أحد ركني ما يسمى الآن بالاقتصاد.

وإيضاح ذلك أنه لا خلاف بين العقلاء أن جميع مسائل الاقتصاد على كثرتها واختلاف أنواعها راجعة بالتقسيم الأول إلى أصليين لا ثالث لهما.

الأول منهما: اكتساب المال.

والثاني منهما: صرفه في مصارفه، وبه تعلم أن الاقتصاد عمل مزدوج، ولا فائدة في واحد من الأصلين المذكورين إلا بوجود الآخر، فلو كان الإنسان أحسن الناس نظراً في أوجه اكتساب المال إلا أنه أخرج جاهل بأوجه صرفه، فإن جميع ما حصل من المال يضيع عليه بدون فائدة، وكذلك إذا كان الإنسان أحسن الناس نظراً في صرف المال في مصارفه المنتجة إلا أنه أخرج جاهل بأوجه اكتسابه. فإنه لا ينفعه حسن نظره في الصرف مع أنه لم يقدر على تحصيل شيء يصرفه، والآيات المذكورة أرشدت الناس ونهتهم على الاقتصاد في الصرف.

وإذا علمت أن مسائل الاقتصاد كلها راجعة إلى الأصلين المذكورين، وأن الآيات المذكورة دلت على أحدهما فاعلم أن الآخر منهما وهو اكتساب المال أرشدت إليه آيات أخر دلت على فتح الله الأبواب إلى اكتساب المال بالأوجه اللائقة، كالتجارات وغيرها، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجُوٌّ وَأَخْرَجَ بَصِيرَتَهُ فِي الْأَرْضِ فَلْيَتَّبِعْهُ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، والمراد بفضل الله في الآيات المذكورة ربح التجارة، وكقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ يَحْتَرَهُ عَنْ تَرَضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقد قدمنا في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَاْبْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾... الآية [الكهف: ١٩]. أنواع الشركات، وأسماءها، وبينما ما يجوز منها وما لا يجوز عند الأئمة الأربعة، وأوضحنا ما اتفقوا على منعه، وما اتفقوا على جوازه، وما اختلفوا فيه، وبه تعلم كثرة الطرق التي فتحها الله لاكتساب المال بالأوجه الشرعية اللائقة.

وإذا علمت مما ذكرنا أن جميع مسائل الاقتصاد راجعة إلى أصليين هما اكتساب المال وصرفه في مصارفه، فاعلم أن كل واحد من هذين الأصلين، لا بد له من أمرين ضروريين له:

الأول منهما: معرفة حكم الله فيه؛ لأن الله - جل وعلا - لم يبيح اكتساب المال بجميع الطرق التي يكتسب بها المال، بل أباح بعض الطرق، وحرّم بعضها كما قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ولم يبيح الله - جل وعلا - صرف المال في كل شيء، بل أباح بعض الصرف وحرّم بعضه، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُبْذَرُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سَنَابِلٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾...

الآية [البقرة: ٢٦١]. وقال تعالى في الصرف الحرام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ الآية [الأنفال: ٣٦]، فمعرفة حكم الله في اكتساب المال وفي صرفه أمر ضروري لا بد منه؛ لأن من لم يعلم ذلك قد يكتسب المال من وجه حرام، والمال المكتسب من وجه حرام، لا خير فيه البتة، وقد يصرف المال في وجه حرام، وصرفه في ذلك حسرة على صاحبه.

الأمر الثاني: هو معرفة الطريق الكفيلة باكتساب المال، فقد يعلم الإنسان مثلاً أن التجارة في النوع الفلاني مباحة شرعاً، ولكنه لا يعلم أوجه التصرف بالمصلحة الكفيلة بتحصيل المال من ذلك الوجه الشرعي، وكم من متصرف يريد الربح، فيعود عليه تصرفه بالخسران، لعدم معرفته بالأوجه التي يحصل بها الربح. وكذلك قد يعلم الإنسان أن الصرف في الشيء الفلاني مباح، وفيه مصلحة، ولكنه لا يهتدي إلى معرفة الصرف المذكور، كما هو مشاهد في المشاريع الكثيرة النفع إن صرف فيها المال بالحكمة والمصلحة، فإن جواز الصرف فيها معلوم، وإيقاع الصرف على وجه المصلحة، لا يعلمه كل الناس، وبهذا تعلم أن أصول الاقتصاد الكبار أربعة:

الأول: معرفة حكم الله في الوجه الذي يكتسب به المال، واجتناب الاكتساب به، إن كان محرماً شرعاً.

الثاني: حسن النظر في اكتساب المال بعد معرفة ما يبيحه خالق السماوات والأرض، وما لا يبيحه.

الثالث: معرفة حكم الله في الأوجه التي يصرف فيها المال، واجتناب المحرم منها.

الرابع: حسن النظر في أوجه الصرف، واجتناب ما لا يفيد منها، فكل من بنى اقتصاده على هذه الأسس الأربعة كان اقتصاده كفيلاً بمصلحته، وكان مرضياً لله - جل وعلا -، ومن أخل بواحد من هذه الأسس الأربعة كان بخلاف ذلك؛ لأن من جمع المال بالطرق التي لا يبيحها الله - جل وعلا - فلا خير في ماله، ولا بركة كما قال تعالى: ﴿يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦] وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَيْرُ وَالْأُطْيَبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْرِ﴾ ... الآية [المائدة: ١٠٠].

وقد تكلمنا على مسائل الربا في آية الربا في سورة البقرة وتكلمنا على أنواع الشركات وأسمائها، وبيننا ما يجوز منها وما لا يجوز في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمَلَكُمْ يَوْمَ قَمِصَكُم هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ ... الآية [الكهف: ١٩].

ولا شك أنه يلزم المسلمين في أقطار الدنيا التعاون على اقتصاد يجيزه خالق السماوات والأرض، على لسان رسوله ﷺ، ويكون كفيلاً بمعرفة طرق تحصيل المال بالأوجه الشرعية، وصرفه في مصارفه المنتجة الجائزة شرعاً؛ لأن الاقتصاد الموجود الآن في أقطار الدنيا لا يبيحه الشرع الكريم؛ لأن الذين نظموا طرقه ليسوا بمسلمين،

فمعاملات البنوك والشركات لا تجد شيئاً منها يجوز شرعاً؛ لأنها إما مشتملة على زيادات ربوية، أو على غرر، لا تجوز معه المعاملة كأنواع التأمين المتعارفة عند الشركات اليوم في أقطار الدنيا، فإنك لا تكاد تجد شيئاً منها سالماً من الغرر، وتحريم بيع الغرر ثابت عن النبي ﷺ، ومن المعلوم أن من يدعي إباحة أنواع التأمين المعروفة عند الشركات، من المعاصرين أنه مخطئ في ذلك؛ ولأنه لا ليل معه، بل الأدلة الصحيحة على خلاف ما يقول، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾، أي إذا مروا بأهل اللغو والمشتغلين به مروا معرضين عنهم كراماً مكرمين أنفسهم عن الخوض معهم في لغوهم، وهو كل كلام لا خير فيه كما تقدم.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة أوضحه - جل وعلا - بقوله: ﴿وَإِذَا سَكَبُوا لِلَّغْوِ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي لِلْجَاهِلِينَ﴾ (٥٥) [القصص]، وقد قدمنا الآيات الدالة على معاملة عباد الرحمن للجاهلين، في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْقِئُكَ رِيقِي...﴾ الآية [مريم: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾. قال الزمخشري: لم يخرؤا عليها ليس بنفي للخروج، وإنما هو إثبات له، ونفي للصمم والعمى كما تقول: لا يلقاني زيد مسلماً، هو نفي للسلام لا للقاء. والمعنى أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها، حرصاً على استماعها وأقبلوا على المذكر بها، وهم في إكبابهم عليها سامعون بأذان واعية مبصرون بعيون راعية. انتهى محل الغرض منه.

ولا يخفى أن لهذه الآية الكريمة دالتين: دلالة بالمنطوق، ودلالة بالمفهوم، فقد دلت بمنطوقها على أن من صفات عباد الرحمن، أَنَّهُمْ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا، لم يكبوا عليها في حال كونهم صمًّا عن سماع ما فيها من الحق، وعُميَانًا عن إبطاره، بل هم يكونون عليها سامعين ما فيها من الحق مبصرين له.

وهذا المعنى دلت عليه آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَايَتُهُمْ ءَاتَتْهُمْ إِيمَانًا﴾... الآية [الأنفال: ٢]. ومعلوم أن من تليت عليه آيات هذا القرآن، فزادته إيماناً أنه لم يخر عليها أصم أعمى. وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٢٤) [التوبة] وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد دلت الآية المذكورة أيضاً بمفهومها أن الكفرة المخالفين لعباد الرحمن

الموصوفين في هذه الآيات، إذا ذكروا بآيات ربهم خروا عليها صماً وعمياناً؛ أي لا يسمعون ما فيها من الحق، ولا يبصرونه، حتى كأنهم لم يسمعوها أصلاً.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة بمفهومها جاء موضحاً في آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى في سورة لقمان: ﴿وَإِذَا تُنْزِلُ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَاطٌ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٧﴾ [لقمان] وقوله تعالى في الجاثية: ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ٧﴾ يَمَعُ عَائِلَتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ٩﴾ [الجاثية]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أُنْزِلَتْ هَذِهِ آيَاتُنَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ١٢﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ١٣﴾ الآية [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]؛ إلى غير ذلك من الآيات.

والظاهر أن معنى خور الكفار على الآيات، في حال كونهم صماً وعمياناً، هو إكسابهم على إنكارها، والتكذيب بها، خلافاً لما ذكره الزمخشري في الكشف، والصم. في الآية، جمع أصم؛ والعميان؛ جمع أعمى. والغلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْرَؤْنَ أَلْفُورَةً بِمَا صَبَرُوا﴾، الظاهر أن المراد بالغرفة في هذه الآية الكريمة جنسها الصادق بغرف كثيرة، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبا: ٣٧]. وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ غُرُفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرُفٌ مِّبْلِيَّةٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾... الآية [الزمر: ٢٠]، وقد أوضحنا هذا في أول سورة الحج وفي غيرها، قوله تعالى: ﴿وَيُلْقَوْنَ فِيهَا حَمِيمًا وَسَلَامًا﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ فِيهَا مِنْكُمْ﴾ [يونس: ١٠].

قوله تعالى: ﴿حَلِيلِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ ٦١﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَعْمُ الْتَوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْزُبُ عَنِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ٧٥﴾، العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، يقولون: ما عبأت بفلان أي ما باليت به، ولا اكرثت به؛ أي ما كان له عندي وزن، ولا قدر يستوجب الاكتراث والمبالاة به، وأصله من العبء وهو الثقل، ومنه قول أبي زيد يصف أسداً:

كأن ينحره ويمنكيه عبيراً بات يعبؤه عروس

وقوله: يعبؤه؛ أي يجعل بعضه فوق بعض لمبالاته به واكرثته به.

وإذا علمت ذلك فاعلم أن كلام أهل التفسير في هذه الآية الكريمة، يدور على أربعة أقوال.

واعلم أولاً أن العلماء اختلفوا في المصدر في قوله: ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾، هل هو

مضاف إلى فاعله، أو إلى مفعوله، وعلى أنه مضاف إلى فاعله فالمخاطبون بالآية، داعون: لا مدعون؛ أي «ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم»؛ أي عبادتكم له. وأما على أن المصدر مضاف إلى مفعوله فالمخاطبون بالآية، مدعون، لا داعون؛ أي ما يعبؤ بكم لولا دعاؤه إياكم إلى توحيده، وعبادته على السنة رسله عليهم الصلاة والسلام.

واعلم أيضاً أن ثلاثة من الأقوال الأربعة المذكورة في الآية مبنية على كون المصدر فيها مضافاً إلى فاعله. والرابع: مبني على كونه مضافاً إلى مفعوله. أما الأقوال الثلاثة المبنية على كونه مضافاً إلى فاعله:

فالأول منها أن المعنى ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم: أي عبادتكم له وحده - جل وعلا -، وعلى هذا القول فالخطاب عام للكافرين والمؤمنين ثم أفرد الكافرين دون المؤمنين بقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾... الآية.

والثاني منها أن المعنى لولا دعاؤكم أيها الكفار له وحده عند الشدائد والكروب؛ أي ولو كنتم ترجعون إلى شرككم، إذا كشف الضر عنكم.

والثالث أن المعنى ما يعبؤ بكم ربي؛ أي ما يصنع بعذابكم، لولا دعاؤكم معه آلهة أخرى، ولا يخفى بعد هذا القول، وأن فيه تقدير ما لا دليل عليه، ولا حاجة إليه. أما القول الرابع المبني على أن المصدر في الآية مضاف إلى مفعوله، فهو ظاهر أي ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤه إياكم على السنة رسله.

وإذا عرفت هذه الأقوال فاعلم أن كل واحد منها قد دل عليه قرآن، وسنين هنا - إن شاء الله تعالى - دليل كل قول منها من القرآن مع ذكر ما يظهر لنا أنه أرجحها.

أما هذا القول الأخير المبني على أن المصدر في الآية مضاف إلى مفعوله، وأن المعنى: ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤه إياكم إلى الإيمان به، وتوحيده، وعبادته على السنة رسله، فقد دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى في أول سورة هود: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] وقوله تعالى في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧] وقوله في أول سورة الملك: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

فهذه الآيات قد أوضحت أن الحكمة في خلقه السماوات والأرض، وجميع ما على الأرض والموت والحياة، هي أن يدعوهم على السنة رسله، ويبتليهم، أي أن يختبرهم أيهم أحسن عملاً.

وهذه الآيات تبين معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥١].

وفي هذه الآيات إيضاح؛ لأن معنى قوله: لولا دعاؤكم: أي دعاؤه إياكم على السنة رسله، وابتلاؤكم أيكم أحسن عملاً، وعلى هذا فلا إشكال في قوله: «فقد كذبتُم»: أي ما يعبؤ بكم لولا دعاؤه إياكم؛ أي وقد دعاكم فكذبتُم، وهذا القول هو وحده الذي لا إشكال فيه. فهو قوي بدلالة الآيات المذكورة عليه.

وأما القول بأن معنى: «لولا دعاؤكم» أي إخلاصكم الدعاء له أيها الكفار عند الشبهائد والكروب، فقد دلت على معناه آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَاؤُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] وقوله تعالى: ﴿جَاءَتْهَا رَيْحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَاؤُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [يونس: ٢٢].

وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا المعنى في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وهذا القول وإن دلت عليه آيات كثيرة، فلا يظهر كونه هو معنى آية الفرقان هذه.

وأما القول بأن المعنى: ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة أخرى، فقد دل على معناه قوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ [النساء: ١٩٧].

والقول الأول الذي هو أشهر الأقوال وأكثرها قائلًا، وهو أن المعنى: «لولا دعاؤكم»: أي عبادتكم له وحده، قد دل عليه جميع الآيات الدالة على ما يعطيه الله لمن أطاعه، وما أعد له لمن عصاه، وكثرتها معلومة لا خفاء بها. واعلم أن لفظة «ما»، في قوله: ﴿قُلْ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّي﴾ قال بعض أهل العلم: هي استفهامية، وقال بعضهم: هي نافية، وكلاهما له وجه من النظر.

واعلم أن قول من قال: لولا دعاؤكم؛ أي دعاؤكم إياي لأغفر لكم، وأعطيتكم ما سألتكم راجع إلى القول الأول؛ لأن دعاء المسألة داخل في العبادة كما هو معلوم. وقوله: فقد كذبتُم؛ أي بما جاءكم به رسول الله ﷺ.

وقد قدمنا في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنْ عَذَابُهَا كَانَ عَرَامًا﴾ أن معنى قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي سوف يكون العذاب ملازمًا لهم غير مفارق، كما تقدم إيضاحه.

وقال جماعة من أهل العلم: إن المراد بالعذاب اللازم لهم المعبر عن لزومه لهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أنه ما وقع من العذاب يوم بدر؛ لأنهم قتل منهم سبعون وأسر سبعون، والذين قتلوا منهم أصابهم عذاب القتل، واتصل به عذاب البرزخ والآخر، فهو ملازم لا يفارقهم بحال، وكون اللزام المذكور في هذه الآية: العذاب الواقع يوم بدر. نقله ابن كثير عن عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، ومحمد بن كعب القرظي، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم، ثم قال: وقال الحسن البصري: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾؛ أي يوم القيامة، ولا منافاة بينهما، انتهى من ابن كثير، ونقله صاحب الدر المنثور عن أكثر المذكورين وغيرهم.

وقال جماعة من أهل العلم: إن يوم بدر ذكره الله تعالى في آيات من كتابه، قالوا: هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَى﴾ [السجدة: ٢١] أي يوم بدر ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١]، أي يوم القيامة، وأنه هو المراد بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾، وأنه هو المراد بالبطش والانتقام، في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ [الدخان] وأنه هو الفرقان الفارق بين الحق والباطل في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامِنُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] وهو يوم بدر، وأنه هو الذي فيه النصر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾... الآية [آل عمران: ١٢٣]، وكون المراد بهذه الآيات المذكورة يوم بدر ثبت بعضه في الصحيح، عن ابن مسعود، وهو المراد بقول الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي في نظمه للمغازي في الكلام على بدر: وقد أتى منها في الذكر.

لأنه العذاب واللام وأنه البطش والانتقام
وأنه الفرقان بين الكفر والحق والنصر سجين الدهر
ومعنى سجين الدهر؛ أي مدته.

وأظهر الأقوال في الآية عندي، هو القول بأن المصدر فيها مضاف إلى مفعوله لجريانه على اللغة الفصيحة من غير إشكال ولا تقدير، وممن قال به قتادة، والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الشعراء

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ٢١.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسَكَ عَلَيَّ ءَاثَرِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف] وفي آخر سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: ٨٨] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٧].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ ٧. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ٨. أشار - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة إلى أن كثرة ما أنبت في الأرض، من كل زوج كريم؛ أي صنف حسن من أصناف النبات، فيه آية دالة على كمال قدرته.

وقد أوضحنا في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك أن إحياء الأرض بعد موتها، وإنبات النبات فيها بعد عدمه، من البراهين القاطعة على بعث الناس بعد الموت.

وقد أوضحنا دلالة الآيات القرآنية على ذلك في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١ - ٢٢٢] وفي أول سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠، ١١].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتِ الْقَوْمُ الظَّالِمِينَ﴾ [١٠] قَوْمٌ فِرْعَوْنُ لَا يَنْفِقُونَ [١١]. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنَادَيْتَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّقْنَاهُ يَمِينًا﴾ [٥٢] [مريم].

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ [١٢] وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَبْدَأُ لِسَانِي. قوله تعالى في هذه الآية الكريمة عن نبيه موسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ أي بسبب أنني قتلت منهم نفساً، وفررت منهم لما خفت أن يقتلوني بالقتل الذي قتلتهم منهم، ويوضح هذا المعنى الترتيب بالفاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [١٣] [القصص]؛ لأن من يخاف القتل فهو يتوقع التكذيب، وقوله: ﴿وَلَا يَبْدَأُ لِسَانِي﴾؛ أي من أجل العقدة المذكورة في قوله تعالى عن موسى: ﴿وَأَحْلَلْتُ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ [١٧] يَقْفَهُوا قَوْلِي [١٨] [طه] قدمنا في الكلام على آية طه هذه بعض الآيات الدالة على ما يتعلق بهذا المبحث.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [٥٢] [مريم].

قوله تعالى عن نبيه موسى: ﴿وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [١٤]، لم يبين هنا هذا الذنب الذي لهم عليه الذي يخاف منهم أن يقتلوه بسببه، وقد بين في غير هذا الموضع أن الذنب المذكور هو قتله لصاحبه القبطي، فقد صرح تعالى بالقتل المذكور في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [١٣] [القصص] فقلوه: ﴿قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ مفسر لقوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ﴾؛ ولذا رتب بالفاء على كل واحد منهما، قوله: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ وقد أوضح تعالى قصة قتل موسى له بقوله في القصص: ﴿وَدَخَلَ الدِّينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ هَٰذَا وَمِنَ الْآخَرِ فَاسْتَغْنَىٰ الَّذِي مِّنْ شِيعَتِهِ عَلَىٰ الَّذِي مِّنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥] وقوله: ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي قتله، وذلك هو الذنب المذكور في آية الشعراء هذه.

وقد بين تعالى أنه غفر لنبيه موسى ذلك الذنب المذكور، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ [١٦] الآية [القصص: ١٦].

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِبَنَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ (١٥)، صيغة الجمع في قوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ للتعظيم، وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية من رده على موسى خوفاً للقتل من فرعون وقومه، بحرف الزجر الذي هو كلا، وأمره أن يذهب هو وأخوه بآياته مبيناً لهما أن الله معهم؛ أي وهي معية خاصة بالنصر والتأييد، وأنه مستمع لكل ما يقول لهم فرعون، أوضحه أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (٢١) [طه]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَدُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِبَنَاتِنَا إِنَّمَا وُفِّيْنَاكُمْ آلَ فُلْيُوتَ﴾ (٢٥) [القصص].

قوله تعالى: ﴿فَأْتَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦)، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة مريم وطه، وبيننا في سورة طه في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] وجه تشنيته الرسول في طه، وإفراده هنا في الشعراء مع شواهد العربية.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكُنَا فِينَا وَلِيدًا﴾، تربية فرعون لموسى هذه التي ذكرها له هي التي ذكر مبدؤها في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكُ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنِي. أَوْ تَخْذُمْ لَدَٰكُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١) [القصص] وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾... الآية [طه: ٣٩].

قوله تعالى في كلام فرعون لموسى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٨)، أبهم - جل وعلا - هذه الفعلة التي فعلها لتعبيره عنها بالاسم المبهم الذي هو الموصول في قوله: «التي فعلت»، وقد أوضحها في آيات آخر، وبين أن الفعل المذكورة هي قتله نفساً منهم كقوله تعالى: ﴿فَوَكَّرْتُ مَوْسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾... الآية [القصص: ٢٣]. وقوله عن الإسرائيلي الذي استغاث بموسى مرتين ﴿قَالَ يَمُوسَى أَتَرِيدُ أَنْ قَتَلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِأَلَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩].

وأظهر الأقوال عندي في معنى قوله: وأنت من الكافرين: أن المراد به كفر النعمة، يعني أنعمنا عليك بتربيتنا إياك صغيراً، وإحساننا إليك تتقلب في نعمتنا فكفرت نعمتنا، وقابلت إحساننا بالإساءة لقتلك نفساً منا، وبأقي الأقوال تركناه؛ لأن هذا أظهرها عندنا.

وقال بعض أهل العلم: رد موسى على فرعون امتنانه عليه بالتربية بقوله: ﴿وَلَكُ نِعْمَةٌ تَمُنَّا عَلَى أَنْ عَبَدَتْ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ (٢٢) يعني تعبيدك لقومي، وإهانتك لهم لا يعتبر معه إحسانك إليّ لأنني رجل واحد منهم، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (٢٦). أي قال موسى مجيباً لفرعون: فعلتها إذا؛ أي إذ فعلتها وأنا في ذلك الحين من الضالين؛ أي قبل أن يوحى الله إليّ، ويبعثني رسولاً، وهذا هو التحقيق إن شاء الله في معنى الآية.

وقول من قال من أهل العلم: وأنا من الضالين، أي من الجاهلين، راجع إلى ما ذكرنا؛ لأنه بالنسبة إلى ما علمه الله من الوحي يعتبر قبله جاهلاً؛ أي غير عالم بما أوحى الله إليه.

وقد بينا مراراً في هذا الكتاب المبارك أن لفظ الضلال يطلق في القرآن وفي اللغة العربية ثلاثة إطلاقات:

الإطلاق الأول: يطلق الضلال مراداً به الذهاب عن حقيقة الشيء. فتقول العرب في كل من ذهب عن علم حقيقة شيء: ضل عنه، وهذا الضلال ذهاب عن علم شيء ما، وليس من الضلال في الدين.

ومن هذا المعنى قوله هنا: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي من الذاهبين عن علم حقيقة العلوم، والأسرار التي لا تعلم إلا عن طريق الوحي؛ لأنني في ذلك الوقت لم يوح إلي ومنه على التحقيق ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى] أي ذاهباً عما علمك من العلوم التي لا تدرك إلا بالوحي.

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه] فقوله: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي﴾ أي لا يذهب عنه علم شيء كائن ما كان، وقوله تعالى: ﴿إِنْ لَمْ يَكُونَا رَظِينَ فَرَجُلٍ وَآمَرَآكَانِ مِمَّن رَظُونُ مِنْ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَهُمَا فَتُكْذِرَ إِحْدَهُمَا الْآخَرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢] فقوله: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَهُمَا﴾ أي تذهب عن علم حقيقة المشهود به بدليل قوله بعده: ﴿فَتُكْذِرَ إِحْدَهُمَا الْآخَرَى﴾، وقوله تعالى عن أولاد يعقوب: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف: ٨] وقوله: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف: ٩٥] على التحقيق في ذلك كله. ومن هذا المعنى قول الشاعر:

وتظن سلمى أنني أبغي بها بدلاً أراها في الضلال تهيم

والإطلاق الثاني: وهو المشهور في اللغة وفي القرآن، هو إطلاق الضلال على الذهاب عن طريق الإيمان إلى الكفر، وعن طريق الحق إلى الباطل، وعن طريق الجنة إلى النار، ومنه قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَعْصُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧].

والإطلاق الثالث: هو إطلاق الضلال على الغيوبة والاضمحلال، تقول العرب: ضل الشيء؛ إذا غاب واضمحل، ومنه قولهم: ضل السمن في الطعام، إذا غاب فيه واضمحل، ولأجل هذا سمت العرب الدفن في القبر إضلالاً؛ لأن المدفون تأكله الأرض فيغيب فيها ويضمحل.

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ... الآية [السجدة: ١٠]، يعنون إذا دفنوا وأكلتهم الأرض، فضلوا فيها؛ أي غابوا فيها واضمحلوا.

ومن إطلاقهم الإضلال على الدفن، قول نابغة ذبيان يرثي النعمان بن الحرث بن أبي شمر الغساني:

فإن تحيى لا أملك حياتي وإن تمت
فأب مضلوه بعين جلية
وقول المخبل السعدي يرثي قيس بن عاصم:

أضلت بنو قيس بن سعد عميدها وفارسها في الدهر قيس بن عاصم
فقول الذبياني: فأب مضلوه: يعني فرجع دافنوه، وقول السعدي: أضلت أي دفنت.
ومن إطلاق الضلال أيضاً على الغيبة والاضمحلال قول الأخطل:

كنت القذى في موج أكرد مزيد
قذف الأتي به فضل ضلالاً
وقول الآخر:

ألم تسأل فتخبرك الديار عن الحي المضلل أين ساروا
وزعم بعض أهل العلم: أن للضلال إطلاقاً زائلاً: قال: ويطلق أيضاً على المحبة
قال: ومنه قوله: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ عَظِيمٍ﴾ [يوسف] قال: أي في حبك
القديم ليوسف، قال ومنه قول الشاعر:

هذا الضلال أشاب مني المفرقا والعارضين ولم أكن متحققا
عجباً لعزة في اختيار قطيعتي بعد الضلال فحبيلها قد أخلقا
وزعم أيضاً أن منه قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ [الضحى: ٧] قال: أي محباً للهداية
فهذا، ولا يخفى سقوط هذا القول. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى عن نبيه موسى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾. خوفاً منهم هذا الذي ذكر
هنا أنه سبب لفراره منهم، قد أوضحه تعالى وبين سببه في قوله: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا
الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْشُونَ عَلَى الْمَلَأَ يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِلَيَّ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [٢٥] فَرَجَّ
مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [٢٦] [القصص] وبين خوفاً المذكور بقوله
تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾... الآية [القصص: ١٨].

قوله تعالى: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة
لابتداء رسالته المذكورة هنا في سورة مريم وغيرها، وقوله: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ قال
بعضهم: الحكم هنا هو النبوة، ومن يروى عنه ذلك: السدي.

والأظهر عندي أن الحكم هو العلم النافع الذي علمه الله إياه بالوحي، والعلم
عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. ظاهر هذه الآية الكريمة أن
فرعون لا يعلم شيئاً عن رب العالمين، وكذلك قوله تعالى عنه: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ
يَمْشُونَ﴾ [طه] وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرٍ﴾ [القصص: ٣٨] وقوله: ﴿لَيْسَ
أَتَّخَذْتُ لِنَفْسِي غَيْرَ لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾. ولكن الله - جل وعلا - بين أن سؤال فرعون

في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وقوله: ﴿فَمَنْ زَكَّاهُ يَكُونُ﴾ تجاهل عارف أنه عبد مربوط لرب العالمين بقوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَكْفِرُونَ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء] وقوله تعالى في فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وقد أوضحنا هذا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] وفي سورة طه في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ زَكَّاهُ يَكُونُ﴾ [طه].

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ [٣٥] قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [٣٦] فَأَتَى عَصَاهُ... إلى آخر القصة. قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في سورة طه، والأعراف. قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [١٩] إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ [٢٠] قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَلَيْكُمُ الْغُيُوبَ [٢١] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾... الآيات [مريم: ٤١].

قوله تعالى: ﴿فَتَكْبَرُوا فِيهَا هُمْ وَالْقَارُونَ﴾ [٤٢] وَجُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ [٤٣]. قد قدمنا الآيات الموضحة له في مواضع من هذا الكتاب المبارك في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ قَرَّبَ﴾ [١٢] [الإسراء] وفي الحجر في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَنْ جَهَنَّمَ لَمُوعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [١٤] لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ [١٥] [الحجر].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ [٩٦] تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [٩٧] إِذْ سَأَلْتُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ [٩٨]. ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن أهل النار يختصمون فيها جاء موضحاً في مواضع آخر من كتاب الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَضٍ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ لَهُمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ [٩٩] قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْجَأَ بِكُمْ إِلَى قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٥٩ - ٦٤].

وقد قدمنا إيضاح هذا بالآيات القرآنية في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿حَقٌّ إِذَا أَدْرَاكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِجْتُمْ لَوْلَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلَحُوا فَأَتَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] وفي سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ أُتِيعُوا... الآية [البقرة: ١٦٦]. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [٩٧] إِذْ سَأَلْتُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ [٩٨]، قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَقْدِرُونَ﴾ [الأنعام: ١].

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ [١٣٠]. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ... الآية [البقرة: ٤٨]. وفي سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَعَةٍ فَيُشَفِّعُوا لَنَا﴾... الآية [الأعراف: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٠٢. دلت هذه الآية الكريمة على أمرين:

الأول منهما أن الكفار يوم القيامة، يتمنون الرد إلى الدنيا؛ لأن «لو» في قوله هنا: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا﴾ للتمني، والكرة هنا: الرجعة إلى الدنيا. وأنهم زعموا أنهم إن ردوا إلى الدنيا كانوا من المؤمنين المصدقين للرسل فيما جاءت به، وهذان الأمران قد قدمنا الآيات الموضحة لكل واحد منهما.

أما تمنيهما الرجوع إلى الدنيا فقد أوضحناه بالآيات القرآنية في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣] وأما زعمهم أنهم إن ردوا إلى الدنيا آمنوا، فقد بينا الآيات الموضحة له في الأعراف في الكلام على الآية المذكورة، وفي الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نَبُحَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ١٠٣. قد قدمنا الكلام عليها في سورة الحج، وفي غيرها، وتكلمنا على قوله تعالى: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١٠٤ في قصة نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب. وبيننا الآيات الموضحة لذلك في سورة هود في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ ١٠٥. قد قدمنا الكلام عليه في سورة هود في الكلام على قوله تعالى عن قوم نوح: ﴿وَمَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى آلِ الْذِيكَ هُمْ أَرَادُوا لِنَاكَ﴾ [هود: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٠٦. قد قدمنا ما يدل عليه من القرآن في سورة هود في الكلام على قوله تعالى عن نوح: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرِيتُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ ١٠٧ وَيَقُولُ مَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ... الآية [هود: ٢٩، ٣٠].

وأوضحناه بالآيات القرآنية في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَطْرُدُهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢] وفي سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذِبُونَ﴾ ١٠٧ فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا وَبَحِيًّا وَمِنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ١٠٨ فَأَجَبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَاحِ الْمَشْحُونِ ١٠٩ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ١١٠.

قوله تعالى هنا عن نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذِبُونَ﴾ ١٠٧ أوضحه في غير هذا الموضع كقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَبًّا وَهَرَا ١٠٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ١٠٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَاعَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَأَسْتَفْشَوْا شِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ١٠٧﴾ [نوح]

وقوله هنا: ﴿فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أي احكم بيني وبينهم حكماً، وهذا الحكم الذي سأل ربه إياه هو إهلاك الكفار، وإنجاؤه هو ومن آمن معه، كما أوضحه تعالى في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿دَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ﴾ [القمر] وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله هنا عن نوح: ﴿وَنَجَّيْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قد بين في آيات كثيرة أنه أجاب دعاءه هذا كقوله هنا ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةِ﴾... الآية [العنكبوت: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ [٥٧] وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ [٦١] [الصفات]، والآيات بمثل ذلك كثيرة. وقوله هنا: ﴿ثُمَّ أَتَرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ﴾ جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿فَاخْذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَخْطِطُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧] إلى غير ذلك من الآيات، والمشحون: المملوء، ومنه قول عبيد بن الأبرص:

شحننا أرضهم بالخييل حتى تركناهم أذل من الصراط

والفلك: يطلق على الواحد والجمع، فإن أطلق على الواحد جاز تذكيره كقوله هنا: ﴿فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ وإن جمع أنت، والمراد بالفلك هنا السفينة، كما صرح تعالى بذلك في قوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةِ﴾... الآية [العنكبوت: ١٥].

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾. قال أكثر أهل العلم: إن أصحاب الأيكة هم مدين. قال ابن كثير: وهو الصحيح، وعليه فتكون هذه الآية بينها الآيات الموضحة قصة شعيب مع مدين، ومما استدل به أهل هذا القول أنه قال هنا لأصحاب الأيكة: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ [٧١] وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ [٨٢] وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ [٨٣] وهذا الكلام ذكر الله عنه أنه قاله لمدين في مواضع متعددة كقوله في هود: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوِرَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [هود] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا في سورة الأعراف قولنا: فإن قيل: الهلاك الذي أصاب قوم شعيب ذكر الله - جل وعلا - في الأعراف أنه رجفة، وذكر في هود أنه صيحة، وذكر في الشعراء أنه عذاب يوم الظلة.

فالجواب ما قاله ابن كثير رحمته الله في تفسيره، قال: وقد اجتمع عليهم ذلك كله؛ أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلمتهم فيها شر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام، انتهى.

وعلى القول بأن شعيباً أرسل إلى أمتين: مدين وأصحاب الأيكة، وأن مدين ليسوا هم أصحاب الأيكة فلا إشكال. وقد جاء ذلك في حديث ضعيف عن عبد الله بن عمرو، وممن روي عنه هذا القول: قتادة، وعكرمة، وإسحاق بن بشر.

وقد قدمنا بعض الآيات الموضحة لهذا في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلِنْ كَانَ أَحَبُّ الْأَيْكَةِ لِظُلَمَيْنِ ۖ﴾ [٧٨] ﴿فَلَنَقَمَنَّا مِنْهُمْ﴾ [الحجر: ٧٨، ٧٩]، وأوضحنا هنالك أن نافعاً، وابن عامر، وابن كثير قرأوا ليكة في سورة الشعراء، وسورة ﴿ص﴾ بلام مفتوحة أول الكلمة، وتاء مفتوحة آخرها من غير همز. ولا تعريف على أنه اسم للقرية غير منصرف، وأن الباقيين قرأوا: «الأيكة» بالتعريف، والهمز وكسر التاء، وأن الجميع اتفقوا على ذلك في ق والحجر. وأوضحنا هنالك توجيه القراءتين في الشعراء و﴿ص﴾ ومعنى الأيكة في اللغة مع بعض الشواهد العربية.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَى ۖ﴾ [٧٨]. الجبلية الخلق ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ وقد استدل بآية ﴿يَس ۖ﴾ [١] [يس] المذكورة على آية الشعراء هذه: ابن زيد، نقله عنها ابن كثير. ومن ذلك قول الشاعر:

والموت أعظم حادث مما يمر على الجبلية

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ﴾ [١٢٧] ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۖ﴾ [١٢٨] ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۖ﴾ [١٢٩] ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ۖ﴾ [١٣٠]. أكد - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن العظيم تنزيل رب العالمين، وأنه نزل به الروح الأمين الذي هو جبريل على قلب نبينا - صلى الله عليه وسلم -، ليكون من المنذرين به، وأنه نزل عليه بلسان عربي مبين، وما ذكره - جل وعلا - هنا أوضحه في غير هذا الموضع. أما كون هذا القرآن تنزيل رب العالمين: فقد أوضحه - جل وعلا - في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۖ﴾ [٧٧] ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۖ﴾ [٧٨] ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۖ﴾ [٧٩] ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۖ﴾ [٨٠] [الواقعة] وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۖ﴾ [٨١] ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ ۖ﴾ [٨٢] ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۖ﴾ [٨٣] [الحاقة] وقوله تعالى: ﴿طه ۖ﴾ [٨٤] ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۖ﴾ [٨٥] ﴿إِلَّا نَذْكِرُكَ لِمَن يَخْشَى ۖ﴾ [٨٦] ﴿نَزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ۖ﴾ [٨٧] [طه] وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۖ﴾ [٨٨] [الزمر] وقوله: ﴿حَمْدٌ ۖ﴾ [٨٩] ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۖ﴾ [٩٠] ﴿كِتَابٌ فَصَّلْتَ أَيْتَهُمْ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ۖ﴾ [فصلت: ١ - ٣]. وقوله تعالى: ﴿يَس ۖ﴾ [٩١] ﴿وَالْقُرْآنُ الْحَكِيمُ ۖ﴾ [٩٢] ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۖ﴾ [٩٣] ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۖ﴾ [٩٤] ﴿تَنزِيلُ الْغَزِيرِ الرَّحِيمِ ۖ﴾ [٩٥] ﴿لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاءَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ۖ﴾ [٩٦] [يس] والآيات بمثل ذلك كثيرة، وقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۖ﴾ [٩٧] ﴿بَيْنَهُ أَيْضًا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ كقوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]. وقوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي نزل به عليك لأجل أن تكون من المنذرين به، جاء مبيناً في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿الْمَصَّ

﴿ كَذَّبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ ﴾ [الأعراف: ١، ٢]، أي أنزل إليك لتنذر به، وقوله تعالى: ﴿ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ [الننذر: قَوْمًا مَّا أَنْذَرَ آبَاؤُهُمْ] [يس: ٥، ٦]. وقوله: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [١٩٥] ذكره أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣] وقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَ فَصَلَّتْ ءَايَتُهُمْ فَرَأَانَا عَرَبِيًّا ﴾ [فصلت: ٣].

وقد بينا معنى اللسان العربي بشواهد في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣] وقد أوضحنا معنى إنزال جبريل القرآن على قلبه ﷺ بالآيات القرآنية في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٩٧].

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴾ [١٩٨] فَقَرَأُوا عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ [١٩٩]. قد قدمنا هذه الآية الكريمة، مع ما يوضحها من الآيات في النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ﴾ ... الآية [النحل: ١٠٣].

واعلم أن كل صوت غير عربي تسميه العرب أعجم، ولو من غير عاقل، ومنه قول حميد بن ثور يذكر صوت حمامة:

فلم أر مثلي شاقه صوت مثلها ولا عربياً شاقه صوت أعجمها

قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [٢٠٠] لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [٢٠١]، قوله: سلكناه؛ أي أدخلناه كما قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية، والشواهد العربية في سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا أَجْمَلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ ... الآية [هود: ٤٠]، والضمير في سلكناه قيل: للقرآن، وهو الأظهر، وقيل، للتكذيب والكفر المذكور في قوله: ﴿ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾، وهؤلاء الكفار الذين ذكر الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم: هم الذين حقت عليهم كلمة العذاب، وسبق في علم الله: أنهم أشقياء كما يدل لذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِيكَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [٢٠٠] وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [٢٠١] [يونس] وقد أوضحنا شدة تعنت هؤلاء، وأنهم لا يؤمنون بالآيات في سورة الفرقان وفي سورة بني إسرائيل وغيرهما. وقوله: ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ ﴾ نعت لمصدر محذوف؛ أي كذلك السلك أي الإدخال. سلكناه: أي أدخلناه في قلوب المجرمين، وإيضاحه على أنه القرآن أن الله أنزله على رجل عربي فصيح بلسان عربي مبين، فسمعه وفهموه لأنه بلغتهم، ودخلت معانيه في قلوبهم، ولكنهم لم يؤمنوا به؛ لأن كلمة العذاب حقت عليهم، وعلى أن الضمير في سلكناه للكفر والتكذيب فقوله عنهم ﴿ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ يدل على إدخال الكفر والتكذيب في قلوبهم، أي كذلك السلك سلكناه إلخ.

قوله تعالى: ﴿فَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ (١٧٢). لفظة «هل» هنا يراد بها التمني، والآية تدل على أنهم تمنوا التأخير والإنظار؛ أي الإمهال، وقد دلت آيات أخر على طلبهم ذلك صريحاً، وأنهم لم يجابوا إلى ما طلبوا، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبِ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوَّلَمَ نَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ (١٧٣) [إبراهيم] وأوضح أنهم لا ينظرون في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٠] وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا إِذَا تُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (١٧٤). قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾... الآية [الرعد: ٦]، وذكرنا طرفاً منه في سورة «يونس» في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (١٥١) أَعْرَ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُكُمْ بِهِ ءَأَلْتُمْ وَقَدْ كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٥١) [يونس].

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ (١٥٢) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (١٥٣) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ (١٥٤). قد قدمنا إيضاحه في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿يُودُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَحِّجِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ [البقرة: ٩٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ (١٥٥). قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

قوله تعالى: ﴿ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (١٥٦).

قد قدمنا الآيات الدالة عليه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١٥٧) [يونس: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١٥٨) [النساء] إلى غير ذلك من الآيات، وقوله: ذكرى أعربه بعضهم مرفوعاً، على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي هذه ذكرى، وأعربه بعضهم منصوباً، وفي إعرابه على أنه منصوب أوجه:

منها أنه ما ناب عن المطلق من قوله: منذرون لأن أنذر وذكر متقاربان.

ومنها أنه مفعول من أجله؛ أي منذرون من أجل الذكرى بمعنى التذكرة.

ومنها أنها حال من الضمير في منذرون؛ أي يندرونهم في حال كونهم ذوي تذكرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ (١٥٩).

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (١١) وَحَفِظْنَاهَا (١٢) [الحجر: ١٦، ١٧].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَنْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ (٢١٣). قد أوضحنا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَحْدُومًا﴾ [الإسراء: ٢٢] بالدليل القرآني أن النبي ﷺ يخاطب بمثل هذا الخطاب، والمراد التشريع لأُمَّته مع بعض الشهود العربية، وقوله هنا ﴿فَلَا تَنْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾... الآية. جاء معناه في آيات كثيرة كقوله: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَحْدُومًا﴾ [الإسراء: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢١٤). هذا الأمر في هذه الآية الكريمة بإنذاره خصوص عشيرته الأقربين، لا ينافي الأمر بالإنذار العام، كما دلت على ذلك الآيات القرآنية كقوله تعالى: ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى إِلَيْ هَذَا الْقُرْآنُ لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَتَنْذِرْ بِهِ قَوْمًا لِّدًّا﴾ [مريم: ٩٧] والآيات بمثل ذلك كثيرة.

قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢١٥). قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وفي الحجر في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] وقد وعدنا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَإِلَى الْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] بأننا نوضح معنى خفض الجناح، وإضافته إلى الذل في سورة الشعراء في هذا الموضع، وهذا وفاؤنا بذلك الوعد، وكيفينا في الوفاء به أن ننقل كلامنا في رسالتنا المسماة: «منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز».

فقد قلنا فيها ما نصه: والجواب عن قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٤] أن الجناح هنا مستعمل في حقيقته؛ لأن الجناح يطلق لغة حقيقة على يد الإنسان وعضده وإبطه. قال تعالى: ﴿وَأَضْمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢]، والخفض مستعمل في معناه الحقيقي، الذي هو ضد الرفع؛ لأن مريد البطش يرفع جناحيه، ومظهر الذل والتواضع يخفض جناحيه، فالأمر بخفض الجناح للوالدين كناية عن لين الجانب لهما والتواضع لهما، كما قال لنبيه ﷺ: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢١٥)، وإطلاق العرب خفض الجناح كناية عن التواضع، ولين الجانب: أسلوب معروف، ومنه قول الشاعر:

وأنت الشهير بخفض الجناح ح فلا تك في رفعه أجدا

وأما إضافة الجناح إلى الذل، فلا تستلزم المجاز كما يظنه كثير؛ لأن الإضافة فيه كالإضافة في قولك: حاتم الجود.

فيكون المعنى: واخفض لهما الجناح الذليل من الرحمة، أو الذلول على قراءة الذل بالكسرة، وما يذكر عن أبي تمام من أنه لما قال:

لا تسقني ماء الملام فإنني صب قد استعذبت ماء بكائي

جاءه رجل فقال له: صب لي في هذا الإناء شيئاً من ماء الملام، فقال له: إن أتيتني بريشة من جناح الذل صبيت لك شيئاً من ماء الملام، فلا حجة فيه؛ لأن الآية لا يراد بها أن للذل جناحاً، وإنما يراد بها خفض الجناح المتصف بالذل للوالدين من الرحمة بهما، وغاية ما في ذلك إضافة الموصوف إلى صفته كحاتم الجود، ونظيره في القرآن الإضافة في قوله: ﴿مَطَرُ السَّوءِ﴾ [الفرقان: ٤٠] ﴿عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣] أي مطر حجارة السجيل الموصوف بسوء من وقع عليه، وعذاب أهل النار الموصوف بهون من وقع عليه. والمسوغ لإضافة خصوص الجناح إلى الذل مع أن الذل من صفة الإنسان لا من صفة خصوص الجناح، أن خفض الجناح كُني به عن ذل الإنسان، وتواضعه ولين جانبه لوالديه رحمة بهما، وإسناد صفات الذات لبعض أجزائها من أساليب اللغة العربية، كإسناد الكذب والخطيئة إلى الناصية في قوله تعالى: ﴿نَاصِيَةٌ كَذِبَةٌ﴾ [العلق: ١٦]، وكإسناد الخشوع والعمل والنصب إلى الوجوه في قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۖ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ [الغاشية: ٤]، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن وفي كلام العرب. وهذا هو الظاهر في معنى الآية، ويدل عليه كلام السلف من المفسرين.

وقال العلامة ابن القيم رحمته الله في الصواعق: إن معنى إضافة الجناح إلى الذل أن للذل جناحاً معنوياً يناسبه لا جناح ريش. والله تعالى أعلم، انتهى. وفيه إيضاح معنى خفض الجناح.

والتحقيق أن إضافة الجناح إلى الذل من إضافة الموصوف إلى صفته كما أوضحنا. والعلم عند الله تعالى. وقال الزمخشري في الكشاف في تفسير قوله تعالى: ﴿لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فإن قلت: المتبعون للرسول هم المؤمنون، والمؤمنون هم المتبعون للرسول، فما قوله: ﴿لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؟.

قلت: فيه وجهان؛ أن يسميهم قبل الدخول في الإيمان مؤمنين، لمشارفتهم ذلك، وأن يريد بالمؤمنين المصدقين بألستهم وهم صنفان: صنف صدق واتبع رسول الله ﷺ فيما جاء به، وصنف لم يوجد منهم إلا التصديق فحسب، ثم إما أن يكونوا منافقين أو فاسقين، والمنافق والفاسق، لا يخفض لهما الجناح.

والمعنى: المؤمنين من عشيرتك وغيرهم، أي أئذ قومك، فإن اتبعوك وأطاعوك فاخفض لهم جناحك، وإن عصوك ولم يتبعوك فترأ منهم ومن أعمالهم من الشرك بالله وغيره، انتهى منه.

والأظهر عندي في قوله: ﴿لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أنه نوع من التوكيد يكثر مثله في القرآن العظيم كقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ﴾ ... الآية [آل عمران: ١٦٧]، ومعلوم أنهم

إنما يقولون بأفواههم. وقوله تعالى: ﴿قَوْلِيلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩] ومعلوم أنهم إنما يكتبونه بأيديهم، وقوله تعالى: ﴿وَلَا ظَلَمَ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقوله تعالى: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (١٧) ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ جِبْنَ تَقُومُ﴾ (١٨) ﴿وَتَقَلُّكَ فِي السَّجْدِ﴾ (١٩). قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، وتكون في الآية قرينة تدل على عدم صحته، وذكرنا أمثلة متعددة لذلك في الترجمة وفيما مضى من الكتاب.

وإذا علمت ذلك فاعلم أن قوله هنا: ﴿وَتَقَلُّكَ فِي السَّجْدِ﴾ (١٩) قال فيه بعض أهل العلم: المعنى: وتقلبك في أصلاب آبائك الساجدين؛ أي المؤمنين بالله كآدم، ونوح، وإبراهيم، وإسماعيل.

واستدل بعضهم لهذا القول فيمن بعد إبراهيم من آبائه بقوله تعالى عن إبراهيم: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ [الزخرف: ٢٨] وممن روي عنه هذا القول ابن عباس. نقله عنه القرطبي، وفي الآية قرينة تدل على عدم صحة هذا القول وهي قوله تعالى قبله مقترناً به: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ جِبْنَ تَقُومُ﴾ (١٨) فإنه لم يقصد به أنه يقوم في أصلاب الآباء إجماعاً، وأول الآية مرتبط بآخرها؛ أي الذي يراك حين تقوم إلى صلاتك، وحين تقوم من فراشك، ومجلسك ﴿وَتَقَلُّكَ فِي السَّجْدِ﴾ (١٩) أي المصلين، على أظهر الأقوال؛ لأنه ﷺ يتقلب في المصلين قائماً وساجداً وراكعاً، وقال بعضهم: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ جِبْنَ تَقُومُ﴾ (١٨) أي إلى الصلاة وحدك. ﴿وَتَقَلُّكَ فِي السَّجْدِ﴾ (١٩) أي المصلين إذا صليت بالناس.

وقوله هنا: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ جِبْنَ تَقُومُ﴾ (١٨) ... الآية. يدل على الاعتناء به ﷺ، ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ... الآية [الطور: ٤٨].

وقوله: «وتوكل» قرأه عامة السبعة غير نافع وابن عامر: وتوكل بالواو، وقرأه نافع وابن عامر «فتوكل» بالفاء، وبعض نسخ المصحف العثماني فيها الواو وبعضها فيها الفاء، وقوله هنا: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (١٧) قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفاتحة في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وبسطنا إيضاحه بالآيات القرآنية مع بيان معنى التوكل في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿وَأَشْعَرَاءَهُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٢٠)، الشعراء: جمع شاعر كجاهل وجهلاء، وعالم وعلماء، والغاؤون: جمع غاو وهو الضال، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ يدل على أن اتباع الشعراء من اتباع الشيطان بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٢٤] وقرأ هذا الحرف نافع وحده: «يتبعهم» بسكون التاء المثناة، وفتح الباء الموحدة، وقرأه الباقون «يتبعهم» بتشديد المثناة، وكسر الموحدة ومعناها واحد.

وما ذكره تعالى في هذه الآية الكريمة في قوله: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ يدل على تكذيب الكفار في دعواهم، أن النبي ﷺ شاعر؛ لأن الذين يتبعهم الغاؤون، لا يمكن أن يكون النبي ﷺ منهم.

ويوضح هذا المعنى ما جاء من الآيات مبيناً أنهم ادعوا عليه ﷺ أنه شاعر وتكذيب الله لهم في ذلك، أما دعواهم أنه ﷺ شاعر، فقد ذكره تعالى في قوله عنهم ﴿بَلْ قَالُوا أَضَلَّتْ أَهْلًا بِكُلِّ فِتْنَةٍ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾... الآية [الأنبياء: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ الْهِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٢١] وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور: ٢٠] وأما تكذيب الله لهم في ذلك، فقد ذكره في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ الآية [الحاقة]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَلْبِغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]، وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ الْهِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٢١] ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٢٧]؛ لأن قوله تعالى: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ [الصافات: ٣٧]. تكذيب لهم في قولهم: (إنه شاعر مجنون).

وقد ساق المؤلف رحمه الله جملة أمور فيها ما يتعلق بحفظ الشعر وقوله فليرجع من أراد الوقوف إلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾.

هذا الذي ذكره هنا عن الشعراء من أنهم يقولون ما لا يفعلون، بين في آية أخرى أنه من أسباب المقت عنده - جل وعلا -، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [٢] كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [٢] [الصف: ١] والمقت في لغة العرب: البغض الشديد. فقول الإنسان ما لا يفعل كما ذكر عن الشعراء يبيغضه الله، وإن كان قوله ما لا يفعل فيه تفاوت، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾... الآية [الكهف: ٢]. مع شواهد العربية.

وقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

أثنى الله تعالى في هذه الآية الكريمة على الذين آمنوا وعملوا الصالحات، بذكرهم الله كثيراً، وهذا الذي أثنى عليهم به هنا من كثرة ذكر الله، أمر به في آيات أخرى وبين جزاءه. قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذَكَرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [١٠] الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِسْمًا وَوَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١]. وقال تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

قوله تعالى: ﴿وَأَنصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له كقوله

تعالى: ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَدَّ ظَلَمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ۚ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ [الشورى: ٤١، ٤٢] في آخر سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَدَّ ظَلَمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ۚ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ [النحل: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾. المنقلب هنا المرجع والمصير، والأظهر أنه هنا مصدر ميمي، وقد تقرر في فن الصرف أن الفعل إذا زاد على ثلاثة أحرف كان كل من مصدره الميمي، واسم مكانه واسم زمانه على صيغة اسم المفعول..

والمعنى: وسيعلم الذين ظلموا أي مرجع يرجعون، وأي مصير يصيرون. وما دلت عليه هذه الآية الكريمة، من أن الظالمين سيعلمون يوم القيامة المرجع الذي يرجعون؛ أي يعلمون العاقبة السيئة التي هي مآلهم، ومصيرهم ومرجعهم، جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۚ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۚ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۚ﴾ [التكاثر: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يُرُونَ الْعَذَابَ ۚ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارُ﴾ [الرعد: ٤٢] والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً، وقوله: ﴿أَيُّ مُنْقَلَبٍ﴾ ما ناب عن المطلق من قوله: ﴿يَنْقَلِبُونَ﴾ وليس مفعولاً به لقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾، قال القرطبي رحمه الله: وأي منصوب بـ: «ينقلبون»، وهو بمعنى المصدر، ولا يجوز أن يكون منصوباً بسيعلم؛ لأن أياً وسائر أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها فيما ذكره النحويون، قال النحاس: وحقيقة القول في ذلك أن الاستفهام معنى وما قبله معنى آخر، فلو عمل فيه ما قبله، لدخل بعض المعاني في بعض، انتهى منه. والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة النمل

قوله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾. تقدم إيضاحه بالآيات القرآنية في أول سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾. إلى آخر القصة. تقدم إيضاحه في مريم وطه والأعراف.

قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾.

قد قدمنا أنها وراثه علم ودين لا وراثه مال في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ أَمَالِ بَعْقُوبَ﴾... الآية [مريم: ٥، ٦]، وبيننا هناك الأدلة على أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لا يورث عنهم المال.

قوله تعالى: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (٢٥). تقدم إيضاحه بالآيات القرآنية في أول سورة هود في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَأْتُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُبْرِئُونَ وَمَا يَعلَنُونَ إِنَّهُ عَلَيْهِمْ يَدَاتُ السُّدُورِ﴾ (٢٥) [هود].

وقوله: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الْآيَةَ، كقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧] وقوله تعالى: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ (٢٦) [النجم].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾ قال بعض أهل العلم: الخبأ في السموات: المطر، والخبأ في الأرض: النبات، والمعادن، والكنوز، وهذا المعنى ملائم لقوله: ﴿يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾ وقال بعض أهل العلم: الخبأ: السر والغيب أي يعلم ما غاب في السموات والأرض، كما يدل عليه قوله بعده: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ وكقوله في هذه السورة الكريمة: ﴿وَمَا مِنْ عَلَاقٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٢٥) وقوله ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١] كما أوضحناه في سورة هود.

وقرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير الكسائي: «ألا يسجدوا لله» بتشديد اللام في لفظة ألا، ولا خلاف على هذه القراءة أن «يسجدوا» فعل مضارع منصوب بأن المدغمة في لفظة لا، فالفعل المضارع على هذه القراءة، وأن المصدرية المدغمة في «لا» ينسبك منهما مصدر في محل نصب على الأظهر، وقيل: في محل جر، وفي إعرابه أوجه:

الأول: أنه منصوب على أنه مفعول من أجله؛ أي وزين لهم الشيطان أعمالهم، من أجل ألا يسجدوا لله؛ أي من أجل عدم سجودهم لله، أو فصدهم عن السبيل، لأجل ألا يسجدوا لله، وبالأول قال الأخفش. وبالثاني قال الكسائي، وقال اليزيدي وغيره: هو منصوب على أنه بدل من أعمالهم؛ أي وزين لهم الشيطان أعمالهم، ألا يسجدوا أي عدم سجودهم، وعلى هذا فأعمالهم هي عدم سجودهم لله.

وهناك مسائل لغوية معلقة بالآية الكريمة يرجع من أراد الوقوف عليها للأصل.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ قرأه حفص والكسائي بالتاء الفوقية على الخطاب، وقرأه الباقون: يخفون، ويعلنون بالتحية على الغيبة، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ شَكَرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾. جاء معناه موضحاً في آيات متعددة، كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦] وقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَّبِّي عَنِّي كَرِيمٌ﴾.

جاء معناه موضحاً أيضاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨] وقوله تعالى: ﴿فَكْفُرُوا وَقُولُوا وَأَسْتَعِثَّ اللَّهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦] وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَفِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَفِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِلَى اللَّهِ تَتَوَلَّوْنَ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [٤٥]. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أرسل نبيه صالحاً إلى ثمود، فإذا هم فريقان يختصمون، ولم يبين هنا خصومة الفريقين، ولكنه بين ذلك في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْتُمْ كَرِهْتُمْ أَنْ تَصِلُوا مَرْسَلًا مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [٧٦] [الأعراف] فهذه خصومتهم، وأعظم أنواع الخصومة: الخصومة في الكفر والإيمان.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْقُورُ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسَتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ﴾ [الرعد: ٦].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَطِيرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُثْثَنُونَ﴾ [٤٧]. قوله «اطيرنا بك»: أي تشاءنا بك، وكان قوم صالح إذا نزل بهم قحط أو بلاء أو مصائب قالوا: ما جاءنا هذا إلا من شؤم صالح، ومن آمن به. والتطير: التشاؤم، وأصل اشتقاقه من التشاؤم بجزر الطير. وقد بينا كيفية التشاؤم والتيا من الطير في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قال بعض أهل العلم؛ أي سببكم الذي يجيء منه خيركم وشركم عند الله، فالشر الذي أصابكم بذنوبكم لا بشؤم صالح ومن آمن به من قومه.

وقد قدمنا معنى طائر الإنسان في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرُ فِي عَقْبِهِ﴾ [الإسراء: ١٣]، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من تشاؤم الكفار بصالح، ومن معه من المؤمنين جاء مثله موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى في تشاؤم فرعون وقومه بموسى: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ سَنَنُوحُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۚ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١] وقوله تعالى في تطير كفار قريش بنينا ﷺ: ﴿وَإِنْ تُصِيبِهِمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] والحسنة في الآيتين النعمة كالرزق والخصب،

والعافية. والسيئة المصيبة بالجدب والقحط، ونقص الأموال، والأنفس، والثمرات، وكقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [يس: ١٨، ١٩]؛ أي بليتكم جاءكم من ذنوبكم، وكفركم.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾. قال بعض العلماء: تختبرون. وقال بعضهم: تعذبون كقوله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ (١٣) [الذاريات]. وقد قدمنا أن أصل الفتنة في اللغة، وضع الذهب في النار ليختبر بالسبك أزائف هو أم خالص؟ وأنها أطلقت في القرآن على أربعة معان:

الأول: إطلاقها على الإحراق بالنار كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ (١٣) [الذاريات] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [البروج: ١٠] أي حرقوهم بنار الأخدود على أحد التفسيرين. وقد اختاره بعض المحققين.

المعنى الثاني: إطلاق الفتنة على الاختبار، وهذا هو أكثرها استعمالاً كقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقوله تعالى: ﴿وَالْوَلِيُّ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ (١١) لِفَتْنِهِمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦ - ١٧] والآيات بمثل ذلك كثيرة.

الثالث: إطلاق الفتنة على نتيجة الاختبار إن كانت سيئة خاصة، ومن هنا أطلقت الفتنة على الكفر والضلال كقوله تعالى: ﴿وَقَبِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ [البقرة: ١٩٣] أي حتى لا يبقى شرك، وهذا التفسير الصحيح، دل عليه الكتاب والسنة.

أما الكتاب فقد دل عليه في قوله بعده في البقرة: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣] وفي الأنفال: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] فإنه يوضح أن معنى لا تكون فتنة، أي لا يبقى شرك؛ لأن الدين لا يكون كله لله، ما دام في الأرض شرك كما ترى.

وأما السنة ففي قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله» الحديث. فقد جعل ﷺ الغاية التي ينتهي إليها قتاله للناس، هي شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ وهو واضح في أن معنى: لا تكون فتنة: لا يبقى شرك، فالآية والحديث كلاهما دال على الغاية التي ينتهي إليها قتال الكفار هي ألا يبقى في الأرض شرك، إلا أنه تعالى في الآية عبر عن هذا المعنى بقوله: ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ [البقرة: ١٩٣] وقد عبر ﷺ عنه بقوله: «حتى يشهدوا ألا إله إلا الله» فالغاية في الآية والحديث واحدة في المعنى. كما ترى.

الرابع: هو إطلاق الفتنة على الحجة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (٢٣) [الأنعام] أي لم تكن حجبتهم، كما قاله غير واحد. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (٨) ، قد دلت هذه الآية الكريمة على أن نبي الله صالحاً - عليه وعلى

الأرض ولا يصلحون، وذلك في قوله: ﴿أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي وهم قوم صالح وthumbود ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ﴾ أي خالية من السكان لهلاك جميع أهلها ﴿يَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي بسبب ظلمهم الذي هو كفرهم وتمردهم وقتلهم ناقة الله التي جعلها آية لهم. وقال بعضهم: خاوية: أي ساقطاً أعلاها على أسفلها.

الثاني: أنه - جل وعلا - جعل إهلاكه قوم صالح آية: أي عبرة يتعظ بها من بعدهم، فيحذر من الكفر، وتكذيب الرسل، لئلا ينزل به ما نزل بهم من التدمير. وذلك في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

الثالث: أنه تعالى أنجى الذين آمنوا وكانوا يتقون من الهلاك والعذاب، وهم نبي الله صالح ومن آمن به من قومه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٥٢) وهذه الأمور الثلاثة التي ذكرها - جل وعلا - هنا جاءت موضحة في آيات أخر.

أما إنجاءه نبيه صالحاً، ومن آمن به وإهلاكه thumbود، فقد أوضحه - جل وعلا - في مواضع من كتابه كقوله في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ رَحِمُوا مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَقْوَى الْعَزِيزُ﴾ (١١٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَثِيمِينَ (١١٧) كَانَ لَمْ يَفْتَنُوا فِيهَا إِلَّا إِنَّا ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا لِثَمُودَ (١١٨) [هود]. وآية هود هذه قد بينت أيضاً التدمير المجمل في آية النمل هذه، فالتدمير المذكور في قوله تعالى: ﴿أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بينت آية هود أنه الإهلاك بالصيحة، في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَثِيمِينَ﴾ (١١٧) [هود] أي وهم موتى، وأما كونه جعل إهلاكه إياهم آية، فقد أوضحه أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى فيهم: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ (١٥٧) فَلَعَنَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَتْ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩) [الشعراء]. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو. وابن عامر: إنا دمرناهم بكسر همزة «إنا» على الاستئناف، وقرأه الكوفيون وهم: عاصم وحمزة والكسائي: «أنا دمرناهم» بفتح همزة «أنا». وفي إعراب المصدر المنسبك من أن وصلتها على قراءة الكوفيين أوجه، منها أنه بدل من عاقبة مكرهم، ومنها أنه خبر مبتدأ محذوف، وتقديره هي؛ أي عاقبة مكرهم تدميرنا إياهم.

وهذان الوجهان، هما أقرب الأوجه عندي للصواب، ولذا تركنا غيرهما من الأوجه، والضمير في قوله: «مكرهم» وفي قوله: «دمرناهم» راجع إلى التسعة المذكورين، في قول تعالى: ﴿وَكَاثَ فِي الْمَدِينَةِ سَعَةُ رَهْطٍ﴾... الآية. وقوله: ﴿خَاوِيَةٌ﴾ حال من بيوتهم، والعامل فيه الإشارة الكامنة في معنى «تلك».

قوله تعالى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ (٥٣)

إلى قوله تعالى: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ النَّذِيرِينَ﴾. قد قدمنا الآيات التي فيها إيضاح قصة لوط وقومه في سورة هود في الكلام على قصة لوط وقومه، وبيننا هناك كلام أهل العلم ومناقشة أدلهم في عقوبة فاعل فاحشة اللواط، وذكرنا الآيات المبينة لها أيضاً في سورة الحجر في الكلام على قصة لوط وقومه، وذكرنا بعض ذلك في سورة الفرقان.

قوله تعالى: ﴿أَنَّنِىْ خَلَقْتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلْتُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ دَانٍ بِهَاجَةٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَنَّنِىْ جَعَلْتُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلْتُ خِلَافَهَا أَهْرَارًا﴾. قد أوضحنا ما تضمنته من البراهين على البعث في أول سورة البقرة، وأول سورة النحل.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُعْثَرُونَ﴾ (٥٩).

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾... الآية [الأنعام: ٥٩]، وفي مواضع أخرى.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ (٦٠)، أظهر أقوال أهل العلم عندي في هذه الآية الكريمة أن المعنى «بل أدارك علمهم» أي تكامل علمهم في الآخرة، حين يعاينونها؛ أي يعلمون في الآخرة علماً كاملاً، ما كانوا يجهلون في الدنيا، وقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ أي في دار الدنيا، فهذا الذي كانوا يشكون فيه في دار الدنيا، ويعمون عنه مما جاءتهم به الرسل، يعلمونه في الآخرة علماً كاملاً لا يخالجه شك، عند معاينتهم لما كانوا ينكرونه من البعث، والجزاء.

وإنما اخترنا هذا القول دون غيره من أقوال المفسرين في الآية؛ لأن القرآن دل عليه دلالة واضحة في آيات متعددة كقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَنْصُرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم] بقوله: ﴿أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَنْصُرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ بمعنى ما أسمعهم وما أبصرهم للحق الذي كانوا ينكرونه يوم يأتوننا: أي يوم القيامة، وهذا يوضح معنى قوله: ﴿بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾؛ أي تكامل عملهم فيها لمبالغتهم في سماع الحق وإبصاره في ذلك الوقت، وقوله: ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨] يوضح معنى قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾؛ لأن ضلالهم المبين اليوم؛ أي في دار الدنيا، هو شكهم في الآخرة، وعماهم عنها. وكقوله تعالى: ﴿فَكُنْفَكْنَا عَنْكَ غِطَاءً فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ كَحَدِيدٍ﴾ [ق: ٢٢] أي علمك اليوم بما كنت تنكره في الدنيا مما جاءتك به الرسل حديد؛ أي قوي كامل.

وقد بينا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في سورة الشورى، في الجواب عما يتوهم من التعارض بين قوله تعالى: ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ كَحَدِيدٍ﴾ [ق: ٢٢] أن المراد بحدّة البصر في ذلك اليوم:

كمال العلم وقوة المعرفة. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة] فقلوه: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾: أي يوم القيامة، يوضح معنى قوله هنا: ﴿بَلْ أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾، وكقوله تعالى: ﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَيْكَ صَفًا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمُو أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتَ أَنَّا نَجْعَلُ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف] فعرضهم على ربهم صفاً يتدارك به علمهم، لما كانوا ينكرونه. وقوله: ﴿بَلْ زَعَمْتَ أَنَّا نَجْعَلُ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ صريح في أنهم في الدنيا كانوا في شك وعمى عن البعث والجزاء كما ترى، إلى غير ذلك من الآيات.

واعلم أن قوله: «بل ادرك» فيه اثنتا عشرة قراءة اثنتان منها فقط سبعيتان، فقد قرأه عامة السبعة، غير ابن كثير وأبي عمرو: «بل ادرك» بكسر اللام من بل وتشديد الدال بعدها ألف والألف التي قبل الدال همزة وصل، وأصله تدارك بوزن: تفاعل. وقد قدمنا وجه الإدغام، واستجلاب همزة الوصل في تفاعل وتفاعل وأمثلة ذلك في القرآن، وبعض شواهد العربية في سورة طه في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧]، وقرأه ابن كثير، وأبو عمرو: بل «أدرك بسكون» اللام من بل، وهمزة قطع مفتوحة، مع سكون الدال على وزن: أفعل.

والمعنى على قراءة الجمهور: «بل ادرك علمهم»؛ أي تدارك بمعنى: تكامل. كقوله: ﴿حَقِّقْ إِذَا أَذْرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾.

وعلى قراءة ابن كثير، وأبي عمرو: بل أدرك قال البغوي: أي بلغ ولحق. كما يقال أدركه علمي إذا لحقه وبلغه، والإضراب في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ يَنْهَاجُونَ﴾ إضراب انتقالي، والظاهر أن «من» في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ يَنْهَاجُونَ عَمُونَ﴾ بمعنى عن، و«عمون» جمع عم، وهو الوصف من عمى يعمى فهو أعمى وعم، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤] وقول زهير في معلقته:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [٧٦]، ومن ذلك اختلافهم في عيسى، فقد قدمنا في سورة مريم ادعاءهم على أمه الفاحشة، مع أن طائفة منهم آمنت به، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ [الصف: ١٤] والطائفة التي آمنت قالت الحق في عيسى، والتي كفرت افترت عليه، وعلى أمه. كما تقدم إيضاحه في سورة مريم.

وقد قص الله عليهم في سورة مريم وسورة التوبة وغيرهما حقيقة عيسى ابن مريم، وهي أنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، ولما بين لهم حقيقة أمره مفصلة في سورة مريم، قال ذلك عيسى ابن مريم: ﴿قَوْلِكَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ

يَمْرُؤُنَ ﴿مريم: ٣٤﴾. وذلك يبين بعض ما دل عليه قوله تعالى هنا: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفْصَحُ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٧٦﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٧٧﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَتَحْمِذُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ ﴿٧٨﴾.

اعلم أن التحقيق الذي دلت عليه القرائن القرآنية واستقراء القرآن، أن معنى قوله هنا: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ﴾ لا يصح فيه من أقوال العلماء، إلا تفسيران:

الأول أن المعنى: إنك لا تسمع الموتى؛ أي لا تسمع الكفار، الذين أُمات الله قلوبهم، وكتب عليهم الشقاء في سابق علمه إسماع هدى وانتفاع؛ لأن الله كتب عليهم الشقاء، فختم على قلوبهم، وعلى سمعهم، وجعل على قلوبهم الأكنة، وفي آذانهم الوقر، وعلى أبصارهم الغشاوة، فلا يسمعون الحق سماع اهتداء وانتفاع: ومن القرائن القرآنية الدالة على ما ذكرنا أنه - جل وعلا - قال بعده: ﴿إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُّسْلِمُونَ﴾.

فاتضح بهذه القرينة أن المعنى: إنك لا تسمع الموتى: أي الكفار الذين هم أشقياء في علم الله إسماع هدى وقبول للحق، ما تسمع ذلك الإسماع، إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون، فمقابلته - جل وعلا - بالإسماع المنفي في الآية عن الموتى بالإسماع المثبت فيها لمن يؤمن بآياته فهو مسلم، دليل واضح على أن المراد بالموت في الآية: موت الكفر والشقاء لا موت مفارقة الروح للبدن، ولو كان المراد بالموت في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ﴾ مفارقة الروح للبدن لما قابل قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ﴾ بقوله: ﴿إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾، بل لقابله بما يناسبه كأن يقال: إن تسمع إلا من لم يمت؛ أي يفارق روحه بدنه كما هو واضح.

وإذا علمت أن هذه القرينة القرآنية دلت على أن المراد بالموتى هنا الأشقياء الذين لا يسمعون الحق سماع هدى وقبول.

فاعلم أن استقراء القرآن العظيم يدل على هذا المعنى كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]، وقد أجمع من يعتد به من أهل العلم أن المراد بالموتى في قوله: ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ الكفار، ويدل له مقابلة الموتى في قوله: والموتى يبعثهم الله بالذين يسمعون في قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦] ويوضح ذلك قوله تعالى قبله: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ أي فافعل، ثم قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٧٩﴾. إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ

الآية [الأنعام: ٣٥، ٣٦]، وهذا واضح فيما ذكرنا، ولو كان يراد بالموتى من فارقت أرواحهم أبدانهم لقابل الموتى بما يناسبهم كأن يقال: إنما يستجيب الأحياء؛ أي الذين لم تفارق أرواحهم أبدانهم. وكقوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام].

فقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا﴾ أي كافرًا، فأحييناه؛ أي بالإيمان والهدى. وهذا لا نزاع فيه، وفيه إطلاق الموت، وإرادة الكفر بلا خلاف. وكقوله: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٧٧). وكقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ٢٢] أي لا يستوي المؤمنون والكافرون.

ومن أوضح الأدلة على هذا المعنى أن قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتِ﴾ الآية. وما في معناها من الآيات كلها، تسلية له ﷺ؛ لأنه يحزنه عدم إيمانهم كما بينه تعالى في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ إِنَّهُ يَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾... الآية [الأنعام: ٣٣]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَ أَنَّكَ يَبِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (٧٧). الآية [الحجر]. وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾... الآية [الحجر: ٨٨]. وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨]، وكقوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ الآية [فاطر: ٨]. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَبَبِخَ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (٦١) [الكهف] وقوله تعالى: ﴿لَمَّا كَبَبِخَ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٢) [الشعراء] إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه. ولما كان يحزنه كفرهم، وعدم إيمانهم أنزل الله آيات كثيرة تسلية له ﷺ بين له فيها أنه لا قدرة له ﷺ على هدى من أضله الله، فإن الهدى والإضلال بيده - جل وعلا - وحده، وأوضح له أنه نذير، وقد أتى بما عليه فأنذرهم على أكمل الوجوه وأبلغها، وأن هداهم وإضلالهم بيد من خلقهم.

ومن الآيات النازلة تسلية له ﷺ قوله هنا: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتِ﴾؛ أي لا تسمع من أضله الله إسماع هدى وقبول، ﴿إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِنَايَتِنَا﴾ يعني ما تسمع إسماع هدى وقبول، إلا من هديناهم للإيمان بآياتنا فهم مسلمون.

والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾... الآية [النحل: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١] وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَن أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ الآية [القصص: ٥٦]. وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٦١) وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٦٢) [يونس] إلى غير ذلك من الآيات، ولو كان معنى الآية، وما

شابهها: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَ﴾ أي الذين فارقت أرواحهم أبدانهم لما كان في ذلك تسلية له ﷺ، كما ترى، واعلم أن آية النمل هذه جاءت آيتان أخريان بمعناها:

الأولى منهما: قوله تعالى في سورة الروم: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ ولفظ آية الروم هذه كلفظ آية النمل التي نحن بصدها، فيكفي في بيان آية الروم ما ذكرنا في آية النمل.

والثانية منهما: قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنَ فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٣] وآية فاطر هذه كآية النمل والروم المتقدمتين؛ لأن المراد بقوله فيها: ﴿مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ الموتى، فلا فرق بين قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْكَلِمَ﴾ وبين قوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنَ فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢] لأن المراد بالموتى ومن في القبور واحد كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧] أي يبعث جميع الموتى من قبر منهم ومن لم يقبر، وقد دلت قرائن قرآنية أيضاً على أن معنى آية فاطر هذه كمعنى آية الروم، منها قوله تعالى قبلها: ﴿إِنَّمَا نُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ...﴾ الآية [فاطر: ١٨]؛ لأن معناها لا ينفع إنذارك إلا من هداه الله ووقفه فصار ممن يخشى ربه بالغيب، ويقيم الصلاة ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنَ فِي الْقُبُورِ﴾... أي الموتى؛ أي الكفار الذين سبق لهم الشقاء كما تقدم. ومنها قوله تعالى أيضاً: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿٨١﴾﴾ [فاطر: ٨١] أي المؤمن والكافر. وقوله تعالى قبلها: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَخْيَارُ وَلَا الْأَشْقَارُ ﴿٢٢﴾﴾ أي المؤمنون والكفار. ومنها قوله تعالى بعده: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [فاطر: ٢٣] أي ليس الإضلال والهدى بيدك ما أنت إلا نذير؛ أي وقد بلغت.

التفسير الثاني: هو أن المراد بالموتى الذين ماتوا بالفعل، ولكن المراد بالسمع المنفي في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَ﴾ خصوص السماع المعتاد الذي ينتفع صاحبه به، وأن هذا مثل ضرب للكفار، والكفار يسمعون الصوت، لكن لا يسمعون سماع قبول بفقه واتباع كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ﴾ [البقرة: ١٧١]، فهكذا الموتى الذين ضرب بهم المثل لا يجب أن ينفي عنهم جميع أنواع السماع كما لم ينف ذلك عن الكفار، بل قد انتفى عنهم السماع المعتاد الذي ينتفعون به، وأما سماع آخر فلا، وهذا التفسير الثاني جزم به واقتصر عليه العلامة أبو العباس ابن تيمية رحمه الله، كما سيأتي إيضاحه إن شاء الله في هذا المبحث.

وهذا التفسير الأخير دلت عليه أيضاً آيات من كتاب الله جاء فيها التصريح بالكم والصمم والعمى مسنداً إلى قوم يتكلمون ويسمعون ويصرون، والمراد بصممهم صممهم عن سماع ما ينفعهم، دون غيره، فهم يسمعون غيره، وكذلك في البصر والكلام، وذلك كقوله تعالى في المنافقين: ﴿هُمْ بِكُمْ عَمَىٰ فَهُمْ لَا يَجْعُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة: ٨١]. فقد قال

فيهم صم بكم مع شدة فصاحتهم، وحلاوة ألسنتهم كما صرح به في قوله تعالى فيهم: ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤] أي لفصاحتهم وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ جِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩] فهؤلاء الذين إن يقولوا تسمع لقولهم ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ جِدَادٍ﴾ هم الذين قال الله فيهم ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَى﴾ [البقرة: ١٨] وما ذلك إلا أن صممهم وبكمهم وعماهم بالنسبة إلى شيء خاص، وهو ما ينتفع به من الحق، فهذا وحده هو الذي صموا عنه: فلم يسمعه، وبكموا عنه فلم ينطقوا به، وعموا عنه فلم يروه، مع أنهم يسمعون غيره ويبصرونه وينطقون به، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾... الآية [الأحقاف: ٢٦]، وهذا واضح كما ترى.

وقد أوضحنا هذا غاية الإيضاح مع شواهد العربية في كتابنا: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، في سورة البقرة في الكلام على وجه الجمع بين قوله في المنافقين: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَى﴾ [البقرة: ١٨] مع قوله فيهم: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٠] وقوله فيهم: ﴿سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ جِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩] وقوله فيهم أيضاً: ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وقد أوضحنا هناك أن العرب تطلق الصمم وعدم السماع على السماع، الذي لا فائدة فيه، وذكرنا بعض الشواهد العربية على ذلك، وهناك مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة يرجع من أراد الوقوف عليها للأصل.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَخْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

ظاهر هذه الآية الكريمة خصوص الحشر بهذه الأفواج المكذبة بآيات الله، ولكنه قد دلت آيات كثيرة على عموم الحشر لجميع الخلائق، كقوله تعالى بعد هذا بقليل: ﴿وَكُلُّ أُنثَىٰ ذَاخِرِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]. وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَخْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ [الأنعام: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُنْمِئْنَاكُمْ مَا قَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٨] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد أوضحنا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في آية النمل هذه في الكلام على وجه الجمع بين قوله تعالى فيها: ﴿وَيَوْمَ نَخْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ الآية. وبين قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أُنثَىٰ ذَاخِرِينَ﴾ ونحوها من الآيات، وذكرنا قول الألوسي في تفسيره أن قوله: ﴿وَكُلُّ أُنثَىٰ ذَاخِرِينَ﴾ في الحشر العام لجميع الناس للحساب والجزاء. وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَخْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾... الآية. في الحشر الخاص بهذه الأفواج المكذبة، لأجل التوبيخ المنصوص عليه في قوله هنا: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ الآية. وهذا يدل عليه القرآن كما ترى. وقال بعضهم: هذه الأفواج التي تحشر حشراً خاصاً هي رؤساء أهل الضلال وقادتهم، وعليه فالآية كقوله تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِّلْخَبِيرِ ۚ ثُمَّ لَنُنَزِّلُنَّكَ مِن مِّغْصَاتِنَا فَهُمْ يُبْصِرُونَ ۚ﴾ [مريم: ٢٢] وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهُمْ يُؤْزَعُونَ﴾ أي يرد أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا، ثم يدفعون جميعاً كما قاله غير واحد.

قوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا أَمَآذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٨٤].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة أي يسألون عن اعتقادهم وأعمالهم، ومقصوده بسؤالهم عن اعتقادهم قوله تعالى: ﴿أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي﴾؛ لأن التصديق بآيات الله التي هي هذا القرآن؛ من عقائد الإيمان، التي لا بد منها كما هو معلوم في حديث جبريل وغيره، ومقصوده بسؤالهم عن أعمالهم قوله تعالى: ﴿أَمَآذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والسؤال المذكور سؤال توبيخ وتقريع، فقد وبخهم تعالى فيه على فساد الاعتقاد، وفساد الأعمال، والتوبيخ عليهما معاً المذكور هنا جاء مثله في قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ [٨٤] وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى [٨٥] [القيامة] كما أشار له ابن كثير رحمته، فقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ﴾، وقوله: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ﴾ توبيخ على فساد الاعتقاد. وقوله: ﴿وَلَا صَلَّى﴾: توبيخ على إضاعة العمل.

قوله تعالى: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَبْطِقُونَ﴾ [٨٥]، الظاهر أن القول الذي وقع عليهم هو كلمة العذاب، كما يوضحه قول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ٢٦] ونحو ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهُمْ لَا يَبْطِقُونَ﴾، ظاهره أن الكفار لا ينطقون يوم القيامة، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَبْطِقُونَ﴾ [٢٥] وَلَا يُؤْنَسُ لَهُمْ فَعْدُهُمْ [٢٦] [المرسلات] وقوله تعالى: ﴿وَتَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عَمًىٰ وَيَكُنَّا صُفًىٰ﴾... الآية [الإسراء: ٩٧]، مع أنه بينت آيات أخر من كتاب الله أنهم ينطقون يوم القيامة، ويعتذرون، كقوله تعالى عنهم: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وقوله تعالى عنهم: ﴿فَالْقَوْلُ السَّكَرُ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سَوْمٍ﴾ [النحل: ٢٨] وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾... الآية [السجدة: ١٢]. وقوله تعالى عنهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [١٦] رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ [١٧] [المؤمنون] وقوله تعالى: ﴿وَوَدَّاعُوا يَمْسُكُ﴾ الآية [الزخرف: ٧٧]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كلامهم يوم القيامة.

وقد بينا الجواب عن هذا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في سورة المرسلات في الكلام على قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَبْطِقُونَ﴾ [٢٥] [المرسلات] وما ذكرنا من الآيات، فذكرنا أن من أوجه الجواب عن ذلك أن القيامة مواطن، ففي بعضها

ينطقون، وفي بعضها لا ينطقون، فإثبات النطق لهم ونفيه عنهم كلاهما منزل حال ووقت، غير حال الآخر ووقته. ومنها أن نطقهم الميثب لهم خاص بما لا فائدة لهم فيه، والنطق المنفي عنهم خاص بما لهم فيه فائدة ومنها غير ذلك، وقد ذكر شيئاً من أجوبة ذلك في الفرقان، وطه والإسراء.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِسِئَانِهِمْ فِي النَّهَارِ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٦)، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا آلِيلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ آلِيلٍ﴾ الآية (الإسراء: ١٢).

قوله تعالى: ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُ جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَفْنَى كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (٨٧). قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، ويكون في الآية قرينة تدل على بطلان ذلك القول، وذكرنا في ترجمته أيضاً أن من أنواع البيان التي تضمنها الاستلال على المعنى، بكونه هو الغالب في القرآن؛ لأن غلبته فيه، تدل على عدم خروجه من معنى الآية، ومثلنا لجميع ذلك أمثلة متعددة في هذا الكتاب المبارك، والأمران المذكوران من أنواع البيان قد اشتملت عليهما معاً آية النمل هذه.

وإيضاح ذلك: أن بعض الناس قد زعم أن قوله تعالى: ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُ جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ يدل على أن الجبال الآن في دار الدنيا يحسبها رائيها جامدة: أي واقفة ساكنة غير متحركة، وهي تمر مر السحاب، ونحوه قول النابغة يصف جيشاً: بأرعن مثل الطود تحسب أنهم وقوف لحاج والركاب تهملج

والنوعان المذكوران من أنواع البيان، يبينان عدم صحة هذا القول.

أما الأول منهما: وهو وجود القرينة الدالة على عدم صحته، فهو أن قوله تعالى: ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ﴾ معطوف على قوله: ففزع، وذلك المعطوف عليه مرتب بالفاء على قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزَعَنَّ فِي السَّمَوَاتِ﴾... الآية؛ أي ويوم ينفخ في الصور، فيفزع من في السماوات، وترى الجبال؛ فدلّت هذه القرينة القرآنية الواضحة على أن مر الجبال مر السحاب كائن يوم ينفخ في الصور لا الآن.

وأما الثاني: وهو كون هذا المعنى هو الغالب في القرآن فواضح؛ لأن جميع الآيات التي فيها حركة الجبال كلها في يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ (١) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا (٢) [الطور] وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَسِيرُ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧] وقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ (٣) [النبا] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ (٤) [التكوير] وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَفْنَى كُلَّ شَيْءٍ﴾ جاء نحوه في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿مُبَارَكٌ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] وقوله تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾ [الملك: ٣] وتسير الجبال وإيجادها ونصبها قبل تسيرها كل ذلك صنع متقن. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

قد قلدنا الآيات التي بمعناه في أول سورة هود في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَكْتُمُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَدَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود: ٥].
قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾.

اعلم أن الحسنة في هذه الآية الكريمة تشمل نوعين من الحسنات:

الأول حسنة، هي فعل خير من أفعال العبد، كالإنفاق في سبيل الله، وبذل النفس والمال في إعلاء كلمة الله، ونحو ذلك معنى قوله تعالى: ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ بالنسبة إلى هذا النوع من الحسنات، أن الثواب مضاعف، فهو خير من نفس العمل؛ لأن من أنفق درهماً واحداً في سبيل الله فأعطاه الله ثواب سبعمائة درهم فله عند الله ثواب هو سبعمائة درهم مثلاً، خير من الحسنة التي قدمها التي هي إنفاق درهم واحد، وهذا لا إشكال فيه كما ترى.

وهذا المعنى توضحه آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ومعلوم أن عشر أمثال الحسنة خير منها هي وحدها، وكقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠] وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُبْغُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَكَبًا فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وأما النوع الثاني من الحسنة: فكقول من قال من أهل العلم: إن المراد بالحسنة في هذه الآية: لا إله إلا الله، ولا يوجد شيء خير من لا إله إلا الله. بل هي أساس الخير كله، والذي يظهر على هذا المعنى أن لفظة «خير» ليست صيغة تفضيل.

وأن المعنى فله خير عظيم عند الله حاصل له منها: أي من قبلها ومن أجلها، وعليه فلفظة «من» في الآية كقوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُعْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥] أي من أجل خطيئاتهم أُعْرِقُوا، فأدخلوا ناراً. وأما على الأول فخير صيغة تفضيل، ويحتمل عندي أن لفظة خير على الوجه الثاني صيغة تفضيل، أيضاً ولا يراد بها تفضيل شيء على لا إله إلا الله، بل المراد أن كلمة لا إله إلا الله تعبد بها العبد في دار الدنيا، وتعبد بها فعله المحض، وقد أثابه الله في الآخرة على تعبد به، وإثابة الله فعله - جل وعلا -، ولا شك أن فعل الله خير من فعل عبده، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ فِرْعَ يَوْمِذٍ مُّؤْمِنُونَ﴾. دلت على معناه آية من كتاب الله كقوله تعالى في أمنهم من الفزع ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]. وقوله تعالى في أمنهم ﴿فَأُولَئِكَ لَمْ يَصِبْ لَهُمْ مِنْ أَجْلِ اللَّهِ الْوَيْلُ وَهُمْ فِي الْعَرُفَةِ مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبا: ٣٧]. وقوله تعالى: ﴿أَمِنْ يَلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي بِنُفْسٍ مُّسِيئَةٍ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ الآية [فصلت: ٤٠]. وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ فِرْعَ يَوْمِذٍ﴾ قرأه عاصم، وحمزة، والكسائي بتنوين فزع، وفتح ميم يومئذ، وقرأه الباقون بغير تنوين، بل بالإضافة إلى يومئذ، إلا أن نافعا

قرأ بفتح ميم يومئذ مع إضافة فرع إليه، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو بإضافة فرع إلى يومئذ مع كسر ميم يومئذ، وفتح الميم وكسرها من نحو يومئذ قد أوضحناه بلغاته وشواهد العربية مع بيان المختار من اللغات في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ الآية [مريم: ١٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٠)، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وقال ابن مسعود، وابن عباس، وأبو هريرة، وأنس بن مالك رضي الله عنه، وعطاء، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، ومجاهد، وإبراهيم النخعي، وأبو وائل، وأبو صالح، ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم، والزهري، والسدي، والضحاك، والحسن، وقتادة، وابن زيد في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ يعني: الشرك، وهذه الآية الكريمة تضمنت أمرين:

الأول: أن من جاء ربه يوم القيامة بالسيدة كالشرك يكب وجهه في النار.

والثاني: أن السيدة إنما تجزى بمثلها من غير زيادة، وهذان الأمران جاءا موضحين في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في الأول منهما: ﴿إِنَّهُمْ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُمْ جَحْدًا فَلَمْ يَجْهَدُوا لَمْ يَمُوتُوا فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [طه] وكقوله تعالى في الثاني منهما: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [القصاص: ٨٤] وقوله تعالى: ﴿جَزَاءً وَفَاءً﴾ [النبا: ٢٣].

وإذا علمت أن السيئات لا تضاعف، فاعلم أن السيئة قد تعظم فيعظم جزاؤها بسبب حرمة المكان كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحُكْمِ يُظْلَمَ ثُلُوثَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] أو حرمة الزمان كقوله تعالى في الأشهر الحرم: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

وقد دلت آيات من كتاب الله أن العذاب يعظم بسبب عظم الإنسان المخالف، كقوله تعالى في نبينا ﷺ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبْنَتَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٦) إِذَا لَادَقْنَكَ ضَعْفَ الْحَيَوةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ [الإسراء: ٧٤، ٧٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقْوِيلِ﴾ (٨٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٨٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٨٦) [الحاقة]، وكقوله تعالى في أزواجه ﷺ: ﴿يَنْسَاءَ اللَّيْلِ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحْشَاةٍ مُبِينَةٍ يُضَعَّفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ الآية [الأحزاب: ٣٠]، وقد قدمنا طرفاً من الكلام على هذا في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِذَا لَادَقْنَكَ ضَعْفَ الْحَيَوةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٥] مع تفسير الآية، ومضاعفة السيئة المشار إليها في هاتين الآيتين، إن كانت بسبب عظم الذنب، حتى صار في عظمه كذنبين، فلا إشكال، وإن كانت مضاعفة جزاء السيئة كانت هاتان الآيتان مخصصتين للآيات المصرحة بأن السيئة لا تجزى إلا بمثلها، والجميع محتمل، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ عَبَّدَ رَبِّكَ هَذِهِ الْبَلَدَةَ﴾. جاء معناه موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

وَلَكِنْ أَعِذُّ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّعُكُمْ ﴿١٠٤﴾ الآية [يونس: ١٠٤]. وقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾
 ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ ﴿١٠٥﴾ [قريش] إلى غير ذلك من الآيات.
 قوله تعالى: ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿١٠٦﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾.

قد قدمنا الآيات التي فيها زيادة إيضاح لقوله: ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ في
 سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾... الآية.
 وقد قدمنا الآيات الموضحة لقوله تعالى هنا: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ في سورة
 الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾... الآية
 [الكهف: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَتَلَّ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾.
 جاء معناه مبيناً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾
 [الرعد: ٤٠]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢] وقوله
 تعالى: ﴿فَقَوْلٌ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ ﴿١٠٧﴾ [الذاريات] إلى غير ذلك من الآيات.
 قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِمَنْدُلِ اللَّهِ سِيرِيكُمْ ءَايَتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾، جاء معناه في غير هذا الموضع
 كقوله تعالى: ﴿سَرِّبَهُمْ ءَايَتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].
 قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِفَعْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.
 جاء معناه موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ
 الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ ﴿١٠٨﴾ [إبراهيم] إلى غير ذلك من الآيات.
 وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم: «عما تعملون» بناء الخطاب، وقرأ
 الباقون «عما يعملون» بياء الغيبة.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القصص

قوله تعالى: ﴿وَرِيدٌ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَغْفِرُوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿١٠٩﴾، قد قدمنا أن قوله هنا: ﴿وَرِيدٌ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَغْفِرُوا﴾ هو الكلمة
 في قوله تعالى: ﴿وَتَمَتَّ كَيْمَتْ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾... الآية [الأعراف: ١٣٧]،
 ولم يبين هنا السبب الذي جعلهم به أئمة جمع إمام، أي قادة في الخير، دعاء إليه على
 أظهر القولين. ولم يبين هنا أيضاً الشيء الذي جعلهم وارثيه، ولكنه تعالى بين جميع
 ذلك في غير هذا الموضع، فبين السبب الذي جعلهم به أئمة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا

مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ يَأْتِرْنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿١٤﴾ [السجدة] فالصبر واليقين، هما السبب في ذلك، وبين الشيء الذي جعلهم له وارثين بقوله تعالى: ﴿وَأَوْثَرْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا﴾... الآية [الأعراف: ١٣٧]. وقوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿١٦﴾ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَكَهِنَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الدخان]، وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء].

قوله تعالى: ﴿فَالْفَلَقَةُ مَالٌ فَرَعُونَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

اعلم أن التحقيق - إن شاء الله -، أن اللام في قوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ لام التعليل المعروفة بلام كي، وذلك على سبيل الحقيقة لا المجاز، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

وإيضاح ذلك أن قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] صريح في أن الله تعالى يصرف مشيئة العبد وقدرته بمشيئته - جل وعلا -، إلى ما سبق به علمه، وقد صرف مشيئة فرعون وقومه بمشيئته - جل وعلا -، إلى التقاطعهم موسى؛ ليجعله لهم عدوًّا وحزنًا، فكأنه يقول: قدرنا عليهم التقاطع بمشيئتنا ليكون لهم عدوًّا وحزنًا، وهذا معنى واضح، لا لبس فيه ولا إشكال كما ترى.

وقال ابن كثير رحمته الله في تفسير هذه الآية: ولكن إذا نظر إلى معنى السياق، فإنه تبقى اللام للتعليل؛ لأن معناه: أن الله تعالى قبضهم لالتقاطه، ليجعله عدوًّا لهم وحزنًا، فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه، انتهى محل الغرض من كلامه، وهذا المعنى هو التحقيق في الآية إن شاء الله تعالى، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] كما بينا وجهه آنفًا. وقد أفاض الشيخ في الجوانب البيانية المتعلقة بالآية. فليرجع من أراد الوقوف إلى الأصل.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَزَ وَهَمَزَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ أي مرتكبين الخطيئة التي هي الذنب العظيم كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَطِئْتَهُمْ أَغْرَقُوا فَأَذْخَلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥] وقوله تعالى: ﴿بِكُلِّ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِئْتُهُ﴾ [البقرة: ٨١].

ومن إطلاق الخاطيء على المذنب العاصي. قوله تعالى: ﴿وَلَا طَعَامَ إِلَّا مِنْ غِشَلِينَ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحاقة]. وقوله تعالى: ﴿نَاصِبًا كَذِبًا خَالِطًا ﴿١١﴾﴾ [العلق]. وقوله: ﴿إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩] والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾. قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في سورة مريم.

واعلم أنا ربما تركنا كثيراً من الآيات التي تقدم إيضاحها من غير إحالة عليها لكثرة ما تقدم إيضاحه.

قوله تعالى: ﴿وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الْأَيَّامِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ٤٢﴾ .
ما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من إتباعه اللعنة لفرعون وجنوده، بينه أيضاً في سورة هود بقوله فيهم: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ بِئْسَ الرَّقْدُ الْمَرْفُودُ ٩٩﴾ [هود].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ قال الزمخشري أي من المطرودين المبعدين، ولا يخفى أن المقبوحين اسم مفعول قبحه إذا صيره قبيحاً، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ٥١﴾ .
ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن نبيه ﷺ لا يهدي من أحب هدايته، ولكنه - جل وعلا - هو الذي يهدي من يشاء هداه، وهو أعلم بالمهتدين.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ٣٧﴾ . وقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِهِمْ فَلْيُوَيْسِرْ لَهُمُ الْأَمْرَ ٤١﴾ [المائدة: ٤١] إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه.

وقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ جاء معناه موضحاً في آيات كثيرة كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ٣٠﴾ [النجم: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ٧٧﴾ [الأنعام] والآيات بمثل ذلك كثيرة، وقد أوضحنا سابقاً أن الهدى المنفي عنه ﷺ في قوله تعالى هنا: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هو هدى التوفيق؛ لأن التوفيق؛ بيد الله وحده، وأن الهدى المثبت له ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] هو هدى الدلالة على الحق والإرشاد إليه، ونزول قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ في أبي طالب مشهور معروف.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ ٥١﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَتَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ ... الآية [الكهف: ١].

قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ٧٧﴾ . كقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ٦٦﴾ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ٧٧ [الرحمن]، والوجه من الصفات التي يجب الإيمان بها مع التنزيه التام عن مشابهة صفات الخلق، كما أوضحناه في سورة الأعراف وفي غيرها.

قوله تعالى: ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدٌ﴾ [الكهف: ٢٦] ، وقد تركنا ذكر إحالات كثيرة في سورة القصص هذه.

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة العنكبوت

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۖ﴾.

قد قدمنا الكلام على الحروف المقطعة مستوفى في أول سورة هود، والاستفهام في قوله: أحسب الناس للإنكار.

والمعنى أن الناس لا يتركون دون فتنة، أي ابتلاء واختبار؛ لأجل قولهم: آمنا، بل إذا قالوا آمنا فتنوا؛ أي امتحنوا واختبروا بأنواع الابتلاء، حتى يتبين بذلك الابتلاء الصادق في قوله آمنا من غير الصادق.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِبِينَ ۚ وَالنَّارُ وَالنَّارُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ۖ﴾ [البقرة] وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الضَّالِّينَ ۚ﴾ [آل عمران] وقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّالِّينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَجْرَكُمْ ۚ﴾ [محمد] وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۚ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. وقوله تعالى: ﴿وَلَيَبْتَلِيَنَّ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلَيُمَجِّصَنَّ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۚ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۚ﴾ [التوبة]، إلى غير ذلك من الآيات، وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله هنا: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا ۚ﴾.

وقد بينت السنة الثابتة أن هذا الابتلاء المذكور في هذه الآية يتلى به المؤمنون على قدر ما عندهم من الإيمان، كقوله ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمتل فالأمتل».

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِطُوا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۖ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا ۚ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَآلَؤُا لَدَيْنَٰهُ حُسْنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾. يعني: أن من الناس من يقول: آمنا بالله بلسانه، فإذا أُوذِيَ في الله؛ أي آذاه الكفار إيذاءهم للمسلمين جعل فتنة الناس صارقة له عن الدين إلى الردة، والعياذ بالله، كعذاب الله فإنه صارف رادع عن الكفر والمعاصي. ومعنى فتنة الناس: الأذى الذي يصيبه من الكفار؟ وإيذاء الكفار للمؤمنين من أنواع الابتلاء الذي هو الفتنة، وهذا قال به غير واحد.

وعليه، فمعنى الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج].

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾... الآية

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أن المنافقين الذين يقولون: آمنا بالستهم ولم تؤمن قلوبهم، إذا حصل للمسلمين من الكفار أذى وهم معهم، جعلوا فتنة الناس؛ أي آذاهم، كعذاب الله، وأنه إن جاء نصر من الله لعباده المؤمنين، فنصرهم على الكفار، وهزموهم وغنموا منهم الغنائم. قال أولئك المنافقون: ألم نكن معكم؟ يغنون أنهم مع المؤمنين، ومن جملتهم، يريدون أخذ نصيبهم من الغنائم.

وهذا المعنى، جاء في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ يَكُمُ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَنْكُرُ لَكُمْ يُعِطَنَّ فَإِنْ أَصَبْتُمْ مَّصِيبَةً قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [٧٦] وَلَكِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [٧٧] [النساء]. وقد قدمنا طرفاً من هذا في سورة النساء.

وقد بين تعالى أنهم كاذبون في قولهم: إنا كنا معكم، وبين أنه عالم بما تخفي صدورهم من الكفر والنفاق بقوله: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا مَسَلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلْيَسْتَأْذِنُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْرُوتُونَ﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له، وزيادة إيضاها من السنة الصحيحة في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِيدُونَ﴾ [النحل].

قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [١٥]، تقدم إيضاها في هود وغيرها.

وقوله تعالى هنا: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني سفينة نوح كقوله تعالى: ﴿وَأَيُّهَا لَمْ أَتَا حَمَلًا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْهُورِ﴾ [١٦] وَجَعَلْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ [١٧] [يسر]، ونحو ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَاتَّبِعُوا عِنْدَ اللَّهِ الزَّيْفَ وَاعْبُدُوهُ﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٢٢]، وفي سورة الفرقان.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأعراف في الكلام، على قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَذَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِنَهُمْ لِأُولِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف: ٣٨]. وفي سورة الفرقان وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَبْنَاءَ وَالْكَتَبَ﴾، الضمير في قوله: «ذُرِّيَّتِهِ» راجع إلى إبراهيم.

والمعنى، أن الأنبياء والمرسلين الذين أنزلت عليهم الكتب، بعد إبراهيم كلهم من ذرية إبراهيم، وما ذكره هنا عن إبراهيم، ذكر في سورة الحديد: أن نوحاً مشترك معه فيه؛ وذلك واضح لأن إبراهيم من ذرية نوح مع أن بعض الأنبياء من ذرية نوح، دون إبراهيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا الْأَبْنَاءَ وَالْكَتَبَ﴾ [الحديد: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنه أتى إبراهيم أجره؛ أي جزاء عمله في الدنيا، وإنه في الآخرة أيضاً من الصالحين.

وقال بعض أهل العلم: المراد بأجره في الدنيا: الثناء الحسن عليه في دار الدنيا من جميع أهل الملل على اختلافهم، إلى كفار ومؤمنين. والثناء الحسن المذكور، هو لسان الصدق في قوله: ﴿وَلَجَّلَ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠]. وقوله: ﴿وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]، لا يخفى أن الصلاح في الدنيا يظهر بالأعمال الحسنة، وسائر الطاعات، وأنه في الآخرة يظهر بالجزاء الحسن، وقد أثنى الله في هذه الآية الكريمة على نبيه إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -، وقد أثنى على إبراهيم أيضاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْلَمَ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَتْهُمُ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] وقوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [شأنه] لَأَتْمِمْ أَجْرَهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿[النحل: ١٢٣]﴾ وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿[النحل: ١٢٣]﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾. قد قدمنا إيضاحه في سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ إلى قوله: ﴿لَقَوْمٍ يَعْزِلُونَ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له، مع بعض الشواهد، في سورة هود في الكلام على قصة لوط، وفي سورة الحجر.

قوله تعالى: ﴿وَالِإِذْ مَدَّيْنِ أَخَاهُم شُعَيْبًا﴾ إلى قوله: ﴿فِي دَارِهِمْ جَاهِلِينَ﴾، تقدم إيضاحه في سورة الأعراف، في الكلام على قصته مع قومه، وفي الشعراء أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْجِدِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ (٣٨) ﴿وَفِرْعَوْنَ وَهَارُونَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَافِكِينَ﴾ (٣٩) ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾، الظاهر أن قوله: «وعاداً» مفعول به، لأهلكتنا مقدرة، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ﴾ [الأعراف: ٧٨]، أي: أهلكتنا مدين بالرجفة، وأهلكتنا عاداً، ويدل للإهلاك المذكور، قوله بعده: ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْجِدِهِمْ﴾ أي هي خالية منهم لإهلاكهم. وقوله: بعده أيضاً ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ﴾.

وقد أشار - جلّ وعلا - في هذه الآيات الكريمة، إلى إهلاك عاد، وثمود، وقارون، وفرعون، وهامان، ثم صرح بأنه أخذ كلا منهم بذنبه، ثم فصل على سبيل ما يسمى في البديع باللف والنشر المرتب، أسباب إهلاكهم فقال: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾، وهي الريح يعني: عاداً، بدليل قوله: ﴿وَلَمَّا عَادُ فَاهْتَكَمُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة]. وقوله: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات]، ونحو ذلك من الآيات. وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ يعني ثمود؛ بدليل قوله تعالى فيهم: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمًا﴾ (٧) ﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا إِنَّا ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا لِثَمُودَ﴾ (٨) [هود]. وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ يعني قارون؛ بدليل قوله تعالى فيه: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١]. وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ يعني فرعون، وهامان، بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء]، ونحو ذلك من الآيات.

والأظهر في قوله في هذه الآية: ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾، أن استبصارهم المذكور هنا بالنسبة إلى الحياة الدنيا خاصة، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ (٧) [الروم]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (١٢) [الملك]، ونحو ذلك من الآيات. وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا سَافِكِينَ﴾، كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١) [الأنعام].

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ ذُنُوبِ اللَّهِ أُولِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١) [العنكبوت]، إِنَّ اللَّهَ بِسَلْمٍ مَا يَدْعُونَ

مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥٦﴾ وَذَلِكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٥٧﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَتَلَهُمْ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾... الآية [الأعراف: ١٧٦]. وفي مواضع أخر.

قوله تعالى: ﴿أَتَلَّ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَتَلَّ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾... الآية [الكهف: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ الآية [البقرة: ٤٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾.

قد قدمنا إيضاحه، وتفسير ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ في آخر سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَحَدِّثْ لَهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة الكهف، وفي آخر سورة طه في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [طه: ١٣٣]، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَسَتَجِدُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٩﴾ سَتَجِدُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وفي سورة يونس في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُمْ بِهِ ءَاَلْتَنَّ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعِجِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [يونس]، وفي سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسَتَجِدُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾... الآية [الرعد: ٦].

قوله تعالى: ﴿بِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةً فَإِنِّي فَاعِلُودُنَّ ﴿٦٢﴾﴾.

نادى الله - جلّ وعلا - عباده المؤمنين، وأكد لهم أن أرضه واسعة، وأمرهم أن يعبدوه وحده دون غيره، كما دل عليه تقديم المعمول الذي هو إياي، كما بيناه في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٦٣﴾﴾ [الفاتحة].

والمعنى: أنهم إن كانوا في أرض لا يقدرון فيها على إقامة دينهم، أو يصيبهم فيها أذى الكفار، فإن أرض ربهم واسعة، فليهاجروا إلى موضع منها يقدرון فيه على إقامة دينهم، ويسلمون فيه من أذى الكفار، كما فعل رسول الله ﷺ والمسلمون.

وهذا المعنى، الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء في آيات أخر، كقوله

تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْغُلَامَ ظَالِمٍ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿وَأَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرِينَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

جاء مغناه موضحاً في آيات أخر، كقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أجْرُكُمْ يَوْمَ الْفَيْصَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. وقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن]. وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾.

قد قدمنا معنى وعملوا الصالحات، موضحاً في أول سورة الكهف، وقدما معنى لنبوتهم في سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ﴾ ... الآية [الحج: ٢٦]. وذكرنا الآيات التي ذكرت فيها الغرف في آخر الفرقان في الكلام على قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْفُرْقَةَ﴾ ... الآية [الفرقان: ٧٥].

قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن كثيراً من الدواب التي لا تحمل رزقها لضعفها، أنه هو - جلّ وعلا - يرزقها، وأوضح هذا المعنى، في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَحَرَّ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ﴾ إلى قوله ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له غاية الإيضاح في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا جَنَحَتْهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [١٥]. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا﴾ إلى قوله ﴿يَبْعَا﴾ [الإسراء: ٦٧ - ٦٩]، وفي مواضع أخر.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفِّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ ... الآية

امتن الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، على قريش، بأنه جعل لهم حرماً آمناً؛ يعني حرم مكة، فهم آمنون فيه على أموالهم، ودمائهم، والناس الخارجون عن الحرم، يتخطفون قتلاً وأسراً.

وهذا المعنى، الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، جاء مبيناً في آيات أخر كقوله تعالى في القصص: ﴿وَقَالُوا إِن تَبِيعَ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَفَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نَكُنْ لَهُمْ حَرَمًا

﴿إِٰمَنَّا﴾... الآية [الفصص: ٥٧]. وقوله تعالى: ﴿وَمِن دَخَلُهُ كَانَ ءِٰمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَكْبَةَ الْغُبَاةَ أَلِيَّتَ الْكِرَامِ قِنًّٰمًا لِلنَّاسِ﴾... الآية [المائدة: ٩٧]. وقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۖ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّن خَوْفٍ﴾ [قريش].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنّ الذين جاهدوا فيه، أنّه يهديهم إلى سبل الخير والرشاد، وأقسم على ذلك بدليل اللام في قوله: «لنهديهم».

وهذا المعنى، جاء مبيناً في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْدَوْا رَادَّهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ الآية [التوبة: ١٢٤]. كما تقدم إيضاحه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾. قد قدمنا إيضاحه في آخر سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل].



باسم الرحمن الرحيم

سورة الروم

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [١] يَعْلَمُونَ ظَهَرَ مِنَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ [٧].

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾، مصدر مؤكد لنفسه؛ لأن قوله قبله: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِيظِهِمْ سَبِيلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّحُ الْمُؤْمِنُونَ يُنْصِرُ اللَّهُ﴾ هو نفس الوعد كما لا يخفى، أي وعد الله ذلك وعداً.

وقد ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أربعة أمور:

الأول: أنه لا يخلف وعده.

والثاني: أنّ أكثر الناس وهم الكفار لا يعلمون.

والثالث: أنهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا.

والرابع: أنهم غافلون عن الآخرة. وهذه الأمور الأربعة جاءت موضحة في غير

هذا الموضع:

أما الأول منها: وهو كونه لا يخلف وعده، فقد جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ [آل عمران: ٩]. وقد بينّ تعالى أنّ وعيده للكفار لا يخلف

أيضاً في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ﴾ [١٨] يَبْدَأُ الْقَوْلَ لَدَيَّ [ق: ٢٨، ٢٩].

والتحقيق: أن القول الذي لا يبدل لديه، في هذه الآية الكريمة، هو وعيده للكفار.
 وكقوله تعالى: ﴿كُلُّ كَذَبٍ لَّرُسُلٍ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٤]. وقوله: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبٌ لَّرُسُلٍ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٤]، فقوله: (حق) في هاتين الآيتين. أي وجب وثبت، فلا يمكن تخلفه بحال.

وأما الثاني منها: وهو أن أكثر الناس وهم الكفار لا يعلمون، فقد جاء موضحاً في آيات كثيرة، فقد بين تعالى، في آيات أن أكثر الناس هم الكافرون، كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ١٦١]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٢٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد بين - جلّ وعلا - أيضاً في آيات من كتابه أن الكفار لا يعلمون كقوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَبْعُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَفْئِدَةٌ لَا يَشْعُرُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الثالث منها: وهو كونهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، فقد جاء أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، أي في الدنيا. وقوله تعالى: ﴿فَاعْرَضَ عَنِ مَن تَوَلَّى عَنْ دِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [٢٩] ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ... الآية [النجم: ٢٩ - ٣٠].

وأما الرابع منها: وهو كونهم غافلين عن الآخرة فقد جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى عنهم: ﴿هَيَّاتْ هَيَّاتْ لِّمَا تُوْعَدُونَ﴾ [٣٦] إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ... الآية [المؤمنون: ٣٦، ٣٧].

وقوله تعالى عنهم: ﴿وَمَا تَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٥]، ﴿وَمَا تَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ﴿مَنْ يُخَيِّ الْعِظَمَ وَهِيَ رَوِيَّةٌ﴾ [يس: ٧٨]، والآيات في ذلك كثيرة معلومة.

تنبيه: اعلم أنه يجب على كل مسلم في هذا الزمان: أن يتدبر آية الروم هذه تدبراً كثيراً، ويبين ما دلت عليه لكل من استطاع بيانه له من الناس.

وإيضاح ذلك أن من أعظم فتن آخر الزمان التي ابتلى الله بها ضعاف العقول من

المسلمين شدة إتقان الإفرنج لأعمال الحياة الدنيا ومهارتهم فيها على كثرتها، واختلاف أنواعها مع عجز المسلمين عن ذلك، فظنوا أن من قدر على تلك الأعمال أنه على الحق، وأن من عجز عنها متخلف وليس على الحق، وهذا جهل فاحش، وغلط فادح. وفي هذه الآية الكريمة إيضاح لهذه الفتنة وتخفيف لشأنها أنزله الله في كتابه قبل وقوعها بأزمان كثيرة، فسبحان الحكيم الخبير ما أعلمه، وما أعظمه، وما أحسن تعليمه.

فقد أوضح - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن أكثر الناس لا يعلمون، ويدخل فيهم أصحاب هذه العلوم الدنيوية دخولاً أولياً، فقد نفى عنهم - جلّ وعلا - اسم العلم بمعناه الصحيح الكامل؛ لأنهم لا يعلمون شيئاً عن خلقهم، فأبرزهم من العدم إلى الوجود، ورزقهم، وسوف يميتهم، ثم يحييهم، ثم يجازيهم على أعمالهم، ولم يعلموا شيئاً عن مصيرهم الأخير الذي يقيمون فيه إقامة أبدية في عذاب فظيع دائم، ومن غفل عن جميع هذا فليس معدوداً من جنس من يعلم، كما دلت عليه الآيات القرآنية المذكورة، ثم لما نفى عنهم - جلّ وعلا - اسم العلم بمعناه الصحيح الكامل أثبت لهم نوعاً من العلم في غاية الحقارة بالنسبة إلى غيره.

وعاب ذلك النوع المذكور من العلم بعينين عظيمين:

أحدهما: قلته وضيق مجاله؛ لأنه لا يجاوز ظاهراً من الحياة الدنيا، والعلم المقصور على ظاهر من الحياة الدنيا في غاية الحقارة، وضيق المجال بالنسبة إلى العلم بخالق السماوات والأرض - جلّ وعلا -، والعلم بأوامره ونواهيه، وبما يقرب عبده منه، وما يبعده منه، وما يخلد في النعيم الأبدي والعذاب الأبدي من أعمال الخير والشر.

والثاني منهما: هو دناءة هدف ذلك العلم، وعدم نبل غايته؛ لأنه لا يتجاوز الحياة الدنيا، وهي سريعة الانقطاع والزوال، ويكفيك من تحقير هذا العلم الدنيوي أن أجود أوجه الإعراب في قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا﴾ أنه بدل من قوله قبله «لا يعلمون»، فهذا العلم كلا علم لحقارته.

قال الزمخشري في الكشاف، وقوله: «يعلمون» بدل من قوله: «لا يعلمون»، وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه، وجعله بحيث يقوم مقامه، ويسد مسده؛ ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل، وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا.

وقوله: ﴿ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطناً، فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها، والتنعم بملاذها، وباطنها وحقيقتها أنها مجاز إلى الآخرة، يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة، وفي تنكير الظاهر أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً من ظواهرها. وهم الثانية، يجوز أن يكون مبتدأ، وغافلون خبره، والجملة خبر «هم» الأولى، وأن يكون توكيداً للأولى، وغافلون: خبر الأولى، وأياً كانت فذكرها مناد على أنهم معدن الغفلة عن الآخرة، ومقرها، ومحلها وأنها منهم تنبع وإليهم ترجع. انتهى كلام صاحب الكشاف.

وقال غيره: وفي تنكير قوله؛ ظاهراً لتقليل لمعلومهم، وتقليله يقربه من النفي، حتى يطابق المبدل منه. اهـ. ووجهه ظاهر.

واعلم أن المسلمين يجب عليهم تعلم هذه العلوم الدنيوية، كما أوضحنا ذلك غاية الإيضاح في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبِ أَوْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم]، وهذه العلوم الدنيوية التي بينا حقارتها بالنسبة إلى ما غفل عنه أصحابها الكفار، إذا تعلمها المسلمون، وكان كل من تعليمها واستعمالها مطابقاً لما أمر الله به، على لسان نبيه ﷺ؛ كانت من أشرف العلوم وأنفعها؛ لأنها يستعان بها على إعلاء كلمة الله ومرضاته - جلّ وعلا -، وإصلاح الدنيا والآخرة، فلا عيب فيها إذن كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فالعمل في إعداد المستطاع من القوة امتثالاً لأمر الله تعالى وسعياً في مرضاته، وإعلاء كلمته ليس من جنس علم الكفار الغافلين عن الآخرة كما ترى، والآيات بمثل ذلك كثيرة. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [٨].

لما بين - جلّ وعلا - أن أكثر الناس وهم الكفار لا يعلمون، ثم ذكر أنهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم غافلون، أنكر عليهم غفلتهم عن الآخرة، مع شدة وضوح أدلتها بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾... الآية؛ والتفكير التأمل والنظر العقلي، وأصله إعمال الفكر، والمتأخرون يقولون: الفكر في الاصطلاح حركة النفس في المعقولات. وأما حركتها في المحسوسات فهو في الاصطلاح تخيل.

وقال الزمخشري في الكشاف: «في أنفسهم» يحتمل أن يكون ظرفاً كأنه قيل: أو لم يحدثوا التفكير في أنفسهم: أي في قلوبهم الفارغة من الفكر، والفكر لا يكون إلا في القلوب، ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين كقولك: اعتقده في قلبك وأضمره في نفسك، وأن يكون صلة للتفكير كقولك: تفكر في الأمر؛ أجال فيه فكره، و«ما خلق» متعلق بالقول المحذوف، معناه: أو لم يتفكروا فيقولوا هذا القول. وقيل معناه: فيعلموا؛ لأن في الكلام دليلاً عليه ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي ما خلقها باطلاً وعبثاً بغير غرض صحيح، وحكمة بالغة، ولا لتبقى خالدة، وإنما خلقها مقرونة بالحق، مصحوبة بالحكمة، وبتقدير أجل مسمى لا بد لها أن تنتهي إليه، وهو قيام الساعة، ووقت الحساب، والثواب، والعقاب.

ألا ترى إلى قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون]، كيف سمى تركهم غير راجعين إليه عبثاً، والباء في قوله: «إلا بالحق» مثلها في قولك: دخلت عليه بثياب السفر، واشترى الفرس بسرجه ولجامه، تريد: اشتراه وهو متلبس بالسرج واللجام غير منك عنهما، وكذلك المعنى: ما خلقها إلا وهي متلبسة بالحق مقترنة به.

فإن قلت: إذا جعلت في أنفسهم صلة للتفكر فما معناه؟

قلت: معناه أو لم يتفكروا في أنفسهم، التي هي أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات وهم أعلم، وأخبر بأحوالها منهم بأحوال ما عداها فتدبروا ما أودعها الله ظاهراً وباطناً، من غرائب الحكم الدالة على التدبير دون الإهمال، وأنه لا بد لها من انتهاء إلى وقت يجازيها فيه الحكم الذي دبر أمرها على الإحسان إحساناً، وعلى الإساءة مثلها، حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة والتدبير، وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت، والمراد بلقاء ربهم: الأجل المسمى. انتهى كلام صاحب الكشف في تفسير هذه الآية.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة: من أن خلقه تعالى للسموات والأرض وما بينهما، لا يصح أن يكون باطلاً، ولا عبثاً بل ما خلقهما إلا بالحق؛ لأنه لو كان خلقهما عبثاً لكان ذلك العبث باطلاً ولعباً، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، بل ما خلقهما وخلق جميع ما فيهما وما بينهما إلا بالحق، وذلك أنه يخلق فيهما الخلائق، ويكلفهم فيأمرهم وينهاهم ويوعدهم ويوعدهم، حتى إذا انتهى الأجل المسمى لذلك بعث الخلائق وجازاهم، فيظهر في المؤمنين صفات رحمته ولطفه وجوده وكرمه وسعة رحمته ومغفرته، وتظهر في الكافرين صفات عظمتهم، وشدة بطشه، وعظم نكاله وشدة عدله وإنصافه، دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله:

كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ﴾ (٣٨) ﴿مَا خَلَقْنَاهُمْ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٩) ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٠) [الدخان]، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ الآية. بعد قوله: ﴿مَا خَلَقْنَاهُمْ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، يبين ما ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ﴾ [الحجر: ٨٥]. فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ﴾، بعد قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، يوضح ذلك. وقد أوضحه تعالى في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم].

وقد بين - جلّ وعلا - أن الذين يظنون أنه خلقهما باطلاً لا لحكمة الكفار، وهددهم على ذلك الظن الكاذب بالويل من النار، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (٧) [ص]، وبين - جلّ وعلا - أنه لو لم يبعث الخلائق ويجازهم؛ لكان خلقه لهم أولاً عبثاً، ونزه نفسه عن ذلك العبث سبحانه وتعالى عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله علواً كبيراً، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١٥) ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ (١٦) [المؤمنون].

فهذه الآيات القرآنية، تدل على أنه تعالى ما خلق الخلق إلا بالحق، وأنه لا بد

باعثهم، ومجازيهم على أعمالهم، وإن كان أكثر الناس لا يعلمون هذا، فكانوا غافلين عن الآخرة، كافرين بقاء ربهم.

وقوله تعالى في الآيات المذكورة: «وما بينهما» أي ما بين السماوات والأرض، يدخل فيه السحاب المسخر بين السماء والأرض، والطير صافات، ويقبضن بين السماء والأرض والهواء الذي لا غنى للحيوان عن استنشاقه.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لِنَسْبِلَ مُّؤَيِّدٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر]، وفي المائدة في الكلام على قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجَلٍ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الآية [المائدة: ٣٢]. وفي هود في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]، وفي الإسراء في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ ... الآية [الإسراء: ١٧]، وفي غير ذلك.

وقوله تعالى في آية الروم هذه: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾، جاء موضحاً في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [غافر]، ونحو ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾﴾. قرأ هذا الحرف نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، «كان عاقبة» بضم التاء اسم كان، وخبرها السوأي، وقرأه ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: «ثم كان عاقبة الذين» بفتح التاء، خبر كان قدم على اسمها على حد قوله في الخلاصة:

وفي جميعها توسط الخبر ————— أجـز.....

وعلى هذه القراءة فالسوأي اسم كان، وإنما جرد الفعل من التاء مع أن السوأي مؤنثة لأمرين:

الأول: أن تأنيثها غير حقيقي.

والثاني: الفصل بينها وبين الفعل كما هو معلوم.

وأما على قراءة ضم التاء، فوجه تجريد الفعل من التاء هو كون تأنيث العاقبة غير حقيقي فقط.

وأظهر الأقوال في معنى الآية عندي، أن المعنى على قراءة ضم التاء، كانت عاقبة المسيئين السوأي، وهي تأنيث الأسوأ، بمعنى الذي هو أكثر سوءاً: أي كانت عاقبتهم العقوبة، التي هي أسوأ العقوبات، أي أكثرها سوءاً وهي النار أعادنا الله، وإخواننا المسلمين منها.

وأما على قراءة فتح التاء، فالمعنى: كانت السوأى عاقبة الذين أساءوا، ومعناه واضح مما تقدم، وأن معنى قوله. «أن كذبوا» أي كانت عاقبتهم أسوأ العقوبات لأجل أن كذبوا.

وهذا المعنى، تدل عليه آيات كثيرة توضح أن الكفر والتكذيب قد يؤدي شؤمه إلى شقاء صاحبه، وسوء عاقبته، والعياذ بالله. كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]. وقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٦]، وفي الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأعراف: ١٠١]، وفي غير ذلك.

وبما ذكرنا تعلم أن قول من قال: إن السوأى منصوب بأساءوا؛ أي اقترفوا الجريمة السوأى خلاف الصواب. وكذلك قول من قال: إن «أن» في قوله: «أن كذبوا» تفسيرية، فهو خلاف الصواب أيضاً. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في البقرة، والنحل، والحج، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، وفي غير ذلك. قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة مريم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم]، وفي غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَنَّ اللَّهَ حِينَ تُسْجَدُ وَحِينَ تَصْبِحُونَ﴾ ﴿٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ ﴿٨﴾. قد قدمنا في سورة النساء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، أي قوله هنا: ﴿فَسُبْحَنَّ اللَّهَ حِينَ تُسْجَدُ﴾، الآيتين من الآيات التي أشير فيها إلى أوقات الصلوات الخمس، وأوضحنا وجه ذلك مع إيضاح جميع الآيات التي أشير فيها إلى أوقات الصلوات الخمس.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكَ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في ذكرنا براهين البعث في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاتَّخِذَ بِهِ مِنْ الشَّجَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]. وفي سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ﴾... الآية [النحل: ١١]، وفي غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة طه، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْتَكُمْ﴾ [طه: ٥٥]، وفي غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ الآية [النحل: ٧٢]:

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَخَلَقَ السِّنِينَ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارَ﴾ الآية [النحل: ٧٢]:

قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة في الكلام، على قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [البقرة: ١٦٤]. وقوله: ﴿وَخَلَقَ السِّنِينَ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارَ﴾، قد أوضح تعالى في غير هذا الموضع: أن اختلاف ألوان آدميين، واختلاف ألوان الجبال، والثمار، والدواب، والأنعام، كل ذلك من آياته الدالة على كمال قدرته، واستحقاقه للعبادة وحده. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٧٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلْوَانٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُمْ كَذَلِكَ﴾، واختلاف الألوان المذكورة من غرائب صنعه تعالى وعجائبه، ومن البراهين القاطعة على أنه هو المؤثر - جلّ وعلا -، وأن إسناد التأثير للطبيعة من أعظم الكفر والضلال.

وقد أوضح تعالى إبطال تأثير الطبيعة غاية الإيضاح بقوله في سورة الرعد: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَةٌ﴾، إلى قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَقُولُونَ﴾ [الرعد: ٤]. وقرأ هذا الحرف حفص وحده عن عاصم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾، بكسر اللام: جمع عالم الذي هو ضد الجاهل. وقرأه الباقون: للعالمين بفتح اللام كقوله: رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآبِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [٢٢]. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ آلِ لُوطٍ وَجَعَلْنَا آيَةَ الْفَارُوقِ لِمُوسَى﴾ الآية [الإسراء: ١٢]. وفي سورة الفرقان. وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ الآية.

قد قدمنا ما يوضحه من الآيات مع تفسير قوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ في سورة الرعد، في الكلام على قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾... الآية [الرعد: ١٢]، وسنحذف هنا بعض الحالات لكثرتها.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ﴾. قد قدمنا إيضاحه بالقرآن في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَمَحُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٦].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَيزِيدُ يَصْدَعُونَ﴾، أي يتفرون فريقين: أحدهما في الجنة، والثاني: في النار.

وقد دلت على هذا آيات من كتاب الله كقوله تعالى في هذه السورة الكريمة ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَخُونَ﴾ (١٤) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ (١٥) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ (١٦) وقوله تعالى: ﴿وَنُذِرُ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فِرْقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفِرْقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، ويدل لهذا قوله بعده ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَهْدُونُ﴾ (١٧) لِيُجْزَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (١٨)، وقد أشار تعالى أيضاً للتفرق المذكور هنا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَيزِيدُ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْنَاكَ لِيُرَوْا أَعْمَلُهُمْ﴾ (١٩) [الزلزلة].

قوله تعالى: ﴿إِنْ شِئْتُ لَأَمَنَّ الْإِنسَانَ﴾ (٢٠) قد قدمنا الآيات الموضحة في سورة النمل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ [النمل: ٨٠].

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾. قد بين تعالى الضعف الأول الذي خلقهم منه في آيات من كتابه، وبين الضعف الأخير في آيات أخر، قال في الأول ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ (٢١) [المرسلات]. وقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٢٢) [النحل]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ الآية [يس: ٧٧]. وقال: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ (٢٣) ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ (٢٤) [الطارق] وقال: ﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٥) [المعارج]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقال في الضعف الثاني: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ [النحل: ٧٠]، وقال: ﴿وَمَنْ تُعْمِرْهُ تَتَكَبَّرْ فِي خَلْقِهِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٢٦) [يس]، إلى غير ذلك من الآيات. وأشار إلى القوة بين الضعفين في آيات من كتابه كقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [النحل: ٤]، وإطلاقه نفس الضعف، على ما خلق الإنسان منه، قد أوضحنا وجهه في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ﴾ الآية [الأنبياء: ٣٧]. وقرأ عاصم وحمزة «من ضعف» في المواضع الثلاثة المخفوضين، والمنصوب بفتح الضاد في جميعها، وقرأ الباقون بالضم.

واختار حفص القراءة بالضم وفاقاً للجمهور. للحديث الوارد عن ابن عمر عن النبي ﷺ من طريق عطية العوفي أنه - أعني ابن عمر - قرأ عليه ﷺ: «من ضعف» بفتح الضاد، فرد عليه ﷺ، وأمره أن يقرأها بضم الضاد، والحديث رواه أبو داود والترمذي وحسنه، ورواه غيرهما. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ (٢٧).

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾ [يونس: ٤٥]، وفي غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٥٦]. ذكر - جل - وعلا - في هذه الآية الكريمة أَنَّ الكفار إذا بعثوا يوم القيامة، وأقسموا أنهم ما لبثوا غير ساعة يقول لهم الذين أوتوا العلم والإيمان، ويدخل فيهم الملائكة، والرسل، والأنبياء، والصالحون: والله لقد لبستم في كتاب الله إلى يوم البعث، فهذا يوم البعث، ولكنكم كنتم لا تعلمون. وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في سورة يس على أصح التفسيرين، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَتَوَلَّيْنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢].

والتحقيق: أن هذا قول الكفار عند البعث، والآية تدل دلالة لا لبس فيها، على أنهم ينامون نومة قبل البعث كما قاله غير واحد، وعند بعثهم أحياء من تلك النومة التي هي نومة موت يقول لهم الذين أوتوا العلم والإيمان: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]، أي هذا البعث بعد الموت، الذي وعدكم الرحمن على السنة رسله، وصدق المرسلون في ذلك، كما شاهدتموه عياناً، فقلوه في يس: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾، قول الذين أوتوا العلم والإيمان، على التحقيق، وقد اختاره ابن جرير، وهو مطابق لمعنى قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ الآية.

والتحقيق أن قوله «هذا»: إشارة إلى ما وعد الرحمن وأنها من كلام المؤمنين، وليست إشارة إلى المرقد في قول الكفار ﴿مَنْ بَعْثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا﴾ [يس: ٥٢]، وقوله في كتاب الله: أي فيما كتبه وقدره وقضاه. وقال بعض العلماء: إن قوله: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ ... الآية [يس: ٥٢] من قول الكفار، ويدل له قوله في الصفات: ﴿وَقَالُوا يَتَوَلَّيْنَا هَذَا يَوْمَ الَّذِينَ هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ ... الآية [الصفات: ٢٠، ٢١].

قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

قد قدمنا ما فيه من اللغات، والشواهد العربية في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُلْزَمُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ جِئْتُم بِبَيِّنَاتٍ لِقَوْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧]، وفي سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٦]، وفي سورة يونس في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ... الآية [يونس: ٩٦]. وفي غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَحْفِظُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، قد قدمنا في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَحْدُودًا﴾ [الإسراء: ٣٣]، أن الله تعالى قد بين في بعض الآيات القرآنية أنه يخاطب النبي ﷺ بخطاب لا يريد به نفس رسول الله ﷺ، وإنما يريد به التشريع.

وبيّنا أن من أصرح الآيات في ذلك قوله تعالى مخاطباً له ﷺ: ﴿إِنَّمَا يَتْلُقَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَّهُمَا أُنْثَى﴾... الآية [الإسراء: ٢٣]، ومعلوم أن والديه قد ماتا قبل نزول ﴿إِنَّمَا يَتْلُقَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾، بزمان طويل، فلا وجه البتة لاشتراط بلوغهما، أو بلوغ أحدهما الكبر عنده. بل المراد تشريع بر الوالدين لأُمته، بخطابه ﷺ.

واعلم: أنّ قول من يقول: إن الخطاب في قوله: ﴿إِنَّمَا يَتْلُقَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ لمن يصح خطابه من المكلفين، وأنه كقول طرفة بن العبد:
* ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً *

خلاف الصواب.

والدليل على ذلك قوله بعد ذكر المعطوفات على قوله: ﴿فَلَا تَقُلْ لَّهُمَا أُنْثَى﴾ [الإسراء: ٢٣]، ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾... الآية [الإسراء: ٣٩]. ومعلوم أن قوله: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾، خطاب له ﷺ كما ترى، وذكرنا هناك بعض الشواهد العربية على خطاب الإنسان، مع أن المراد بالخطاب في الحقيقة غيره.
وبهذا تعلم أن مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَخَفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَكَ﴾، وقوله: ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْطَرَّ عَنْكَ﴾ [الزمر: ٦٥]. وقوله: ﴿وَلَا تُطْعَمُ مِنْهُمْ عَائِماً أَوْ كَفُوراً﴾ [الإنسان: ٢٤]. وقوله: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ [الإسراء: ٢٢]، يراد به التشريع لأُمته؛ لأنه ﷺ معصوم من ذلك الكفر الذي نهى عنه.

فائدة: روي من غير وجه: أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ ناداه رجل من الخوارج في صلاة الفجر، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْطَرَّ عَنْكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ١٥]، فأجابه علي ﷺ وهو في الصلاة: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخَفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَكَ﴾ [١٥].

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة لقمان

قوله تعالى: ﴿الَّذِي تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (١) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٢).
قد قدمنا الآيات الموضحة لقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ (٢) في أول سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿الَّذِي تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢].
قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَادَى عَلَيْهِ أَيْشُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٧). ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنّ الكافر إذا تتلى

عليه آيات الله، وهي هذا القرآن العظيم، ولي مستكبراً؛ أي متكبراً عن قبولها، كأنه لم يسمعها؛ كأن في أذنيه وقراً؛ أي صمماً وثقلاً مانعاً له من سماعها، ثم أمر نبيه ﷺ أن يشره بالعذاب الأليم.

وقد أوضح - جلّ وعلا - هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۖ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرُهُ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا حُزْرًا أَثْلُكَبُ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠﴾ [الجاثية]، وقد قال تعالى هنا: ﴿كَأَن فِيْ أُذُنِيْهِ وَقْرًا﴾، على سبيل التشبيه، وصرح في غير هذا الموضع أنه جعل في أذنيه الوقر بالفعل في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوْهُ وَفِيْ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧]. والظاهر أن الوقر المذكور على سبيل التشبيه الوقر الحسي؛ لأن الوقر المعنوي يشبه الوقر الحسي. والوقر المجعول على آذانهم بالفعل؛ هو الوقر المعنوي المانع من سماع الحق فقط، دون سماع غيره. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾.

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في أول سورة الرعد، في الكلام على قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾... الآية [الرعد: ٢].

قوله تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الرعد، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾... الآية [الرعد: ١٦]. وفي أول سورة الفرقان.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يُعْطِيهِ يَبْنَى لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝٦٣﴾، دلت هذه الآية الكريمة: على أن الشرك ظلم عظيم.

وقد بين تعالى ذلك في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۝٦٤﴾ [يونس]، وقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه فسر الظلم في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، بأنه الشرك، وبين ذلك بقوله هنا ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، وقد أوضحنا هذا سابقاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾. معناه لا تتكبر على الناس، ففي الآية نهي عن التكبر على الناس، والصعر الميل، والمتكبر يميل وجهه عن الناس متكبراً عليهم، معرضاً عنهم، والصعر: الميل، وأصله: داء يصيب البعير يلوي منه عنقه، ويطلق على المتكبر يلوي عنقه، ويميل خده عن الناس تكبراً عليهم، ومنه قول عمرو بن جني التغلبي:

وكنّا إذا الجبار صعر خده أقمنا له من ميله فتقوموا

وقول أبي طالب:

وكنا قديماً لا نغير ظلامه إذا ما ثنوا صغر الرأس نقيمها

ومن إطلاق الصغر على الميل قول النمر بن تولب العكلي:

إننا أتيناك وقد طال السفر نقود خيلاً ضميراً فيها صعر

وإذا علمت أن معنى قوله: ﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَلْقَ النَّاسِ﴾، لا تتكبر عليهم.

فاعلم أنا قدمنا في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣]، الآيات القرآنية الدالة على التحذير من الكبر المبينة لكثرة عواقبه السيئة، وأوضحنا ذلك مع بعض الآيات الدالة على حسن التواضع، وثناء الله على المتواضعين.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾.

قد قدمنا إيضاحه وتفسير الآية في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

قوله تعالى: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَسِيرِكَ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في مواضع كقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ الآية [الفرقان: ٦٣]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [٨].

قد قدمنا إيضاحه في أول سورة الحج.

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

قدمنا الآيات الموضحة له أيضاً في أول سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنْهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ١].

قوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٥٥]. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾. قد قدمنا إيضاحه في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفِدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ الآية [الكهف: ١٠٩].

قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَّسٍ وَاحِدًا﴾. قد قدمنا إيضاحه في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَيُزَيِّنُكُمْ بِآيَاتِهِ﴾ [البقرة: ٧٧].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ﴾... الآية [الإسراء: ٦٧]، وفي الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَعْبَدَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾... الآية [الأنعام]، وفي غير ذلك:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَأْذًا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

قد قدمنا في سورة الأنعام، أن هذه الخمسة المذكورة في خاتمة سورة لقمان: أنها هي مفاتيح الغيب المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وأن النبي ﷺ أوضح ذلك بالسنة الصحيحة.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة السجدة

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِشَذَرَ قَوْمًا مِمَّا أَنْتَهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾. قد قدمنا إيضاحه في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

قوله تعالى: ﴿يَذِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَلُهُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمِمَّا تَعُدُّونَ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، وأنه يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة.

وأشار تعالى إلى هذا المعنى في قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، وقد بين في سورة الحج أن اليوم عنده تعالى كالف سنة مما يعدّه الناس، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ وَمِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، وقد قال تعالى في سورة سائل: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج].

وقد ذكرنا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب الجمع بين هذه الآيات من وجهين:

الأول: هو ما أخرجه ابن أبي حاتم، من طريق سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس من أن يوم الألف في سورة الحج، هو أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض، ويوم الألف في سورة السجدة هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه تعالى، ويوم الخمسين ألفاً هو يوم القيامة.

الوجه الثاني: أن المراد بجميعها يوم القيامة، وأن الاختلاف باعتبار حال المؤمن والكافر، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ عَذْرٌ يُسِيرُ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر]. وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [القمر: ٨].

وقد أوضحنا هذا الوجه في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان]، وقد ذكرنا في دفع إبهام الاضطراب عن آيات الكتاب أن أبا عبيدة روى عن إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة أنه حضر كلاً من ابن عباس وسعيد بن المسيب سئل عن هذه الآيات فلم يدر ما يقول فيها، ويقول: لا أدري.

قوله تعالى: ﴿قُلْ بِتَوْفِيقِكُمْ مَلَكَ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾.

ظاهر هذه الآية الكريمة أن الذي يقبض أرواح الناس ملك واحد معين، وهذا هو المشهور، وقد جاء في بعض الآثار أن اسمه عزرائيل.

وقد بين تعالى في آيات أخر أن الناس تتوفاهم ملائكة لا ملك واحد كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَصْرُفُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٩٣]. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]، إلى غير ذلك من الآيات.

وإيضاح هذا عند أهل العلم أن الموكل بقبض الأرواح ملك واحد، هو المذكور هنا، ولكن له أعوان يعملون بأمره ينتزعون الروح إلى الحلقوم، فيأخذها ملك الموت، أو يعينونه إعانة غير ذلك.

وقد جاء في حديث البراء بن عازب الطويل المشهور أن النبي ﷺ ذكر فيه «أن ملك الموت إذا أخذ روح الميت أخذها من يده بسرعة ملائكة فصعدوا بها إلى السماء، وقد بين فيه ﷺ ما تعامل به روح المؤمن وروح الكافر بعد أخذ الملائكة له من ملك الموت حين يأخذها من البدن» وحديث البراء المذكور صححه غير واحد، وأوضح ابن القيم في كتاب الروح بطلان تضعيف ابن حزم له.

والحاصل: أن حديث البراء المذكور، دل على أن مع ملك الموت ملائكة آخرين يأخذون من يده الروح، حين يأخذها من بدن الميت. وأما قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، فلا إشكال فيه؛ لأن الملائكة لا يقدر أن يتوفوا أحداً إلا بمشيئته - جل وعلا - ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

فتحصل: أن إسناد التوفي إلى ملك الموت في قوله هنا: ﴿قُلْ بِتَوْفِيقِكُمْ مَلَكَ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾، لأنه هو المأمور بقبض الأرواح، وأن إسناده لملائكة في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الآية [محمد: ٢٧]. ونحوها من الآيات؛ لأن لملك

الموت أعواناً يعملون بأمره، وأن إسناده إلى الله في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، لأن كل شيء كائناً ما كان لا يكون إلا بقضاء الله وقدره. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ﴾... الآية [الأعراف: ٥٣]. وفي سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿اسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ الآية [مريم: ٣٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٧٨﴾﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ ﴿٧٩﴾﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له مع بيان الآيات الدالة على العواقب السيئة الناشئة عن الإعراض، عن التذكير بآيات الله في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧].
قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ﴾. قد قدمنا بعض الآيات الموضحة له في آخر سورة مريم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُخَشِئُهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٨١].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَمُهم وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة طه، في الكلام على قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَرَسَّكَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ تَحْتَ الشَّجَرِ أَرْوَاهُ وَأَرْعَاوُا أَنْعَمَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٨٣﴾﴾ [طه]. وقد أوضحنا تفسير الأرض الجرز مع بعض الشواهد العربية في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا﴾ [الكهف: ٨٤].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٥﴾﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيحْتُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٦﴾. أظهر أقوال أهل العلم عندي هو أن الفتح في هذه الآية الكريمة، هو الحكم والقضاء، وقد قدمنا أن الفتح القاضي؛ وهي لغة حميرية قديمة. والفتاحة الحكم والقضاء، ومنه قوله:

ألا من مبلغ عمراً رسولاً
بأنني عن فتاحتكم غني
وقد جاءت آيات تدل على أن الفتح الحكم، كقوله تعالى عن نبيه شعيب: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، أي احكم بيننا بالحق، وأنت خير الحاكمين.

وقوله تعالى عن نبيه نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوِّمِي كَذَّبُونِ﴾ (١٧) فَأَفْلَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَمَّامًا [الشعراء: ١١٧، ١١٨] الآية. أي احكم بيني وبينهم حكماً. وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ (٣١) [سبا]. وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]، أي إن تطلبوا الحكم بهلاك الظالم منكم، ومن النبي ﷺ فقد جاءكم الفتح: أي الحكم بهلاك الظالم وهو هلاكهم يوم بدر، كما قاله غير واحد، وقد ذكروا أنهم لما أرادوا الخروج إلى بدر، جاء أبو جهل، وتعلق بأستار الكعبة وقال: اللهم إنا قطان بيتك نسقي الحجيح، ونفعل ونفعل، وإن محمداً قطع الرحم وفرق الجماعة، وعاب الدين، وشم الآلهة، وسفه أحلام الآباء، اللهم أهلك الظالم منا ومنه، فطلب الحكم على الظالم، فجاءهم الحكم على الظالم فقتلوا ببدر، وصاروا إلى الخلود في النار... إلى غير ذلك من الآيات.

وعلى قول من قال من أهل العلم: إن المراد بالفتح في الآية الحكم والقضاء بينهم يوم القيامة فلا إشكال في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَتُهُمْ﴾، وعلى القول بأن المراد بالفتح في الآية الحكم بينهم في الدنيا بهلاك الكفار. كما وقع يوم بدر، فالظاهر أن معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَتُهُمْ﴾، أي إذا عاينوا الموت؛ وشاهدوا القتل بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمْ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَتُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَلَّتْ أَلْوِي الْقِيَامَةِ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَاكَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٥) [غافر]، وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتِّتُ أَتَيْنَ﴾ الآية [النساء: ١٨]. وقوله تعالى في فرعون: ﴿وَجَوْرَانَا بِنْتِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنْتَ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩١) ءَاكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٩١) [يونس]، ولا يخفى أن قول من قال من أهل العلم: إن الفتح في هذه الآية: فتح مكة أنه غير صواب بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَتُهُمْ﴾، ومعلوم أن فتح مكة لا يمنع انتفاع المؤمن في وقته بإيمانه كما لا يخفى.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَظِرُ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾.

جاء معناه موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَبُّهُنَّ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مَرْجِعًا﴾ [الطور]، ومعلوم أن التربص هو الانتظار. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأحزاب

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ ... الآية.

قد قدمنا الآيات الموضحة لمثله في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الآية [الإسراء: ٣٩]، وما دلت عليه آية الأحزاب هذه، من أن الخطاب الخاص لفظه بالنبي ﷺ يشمل حكمه جميع الأمة، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة المائدة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَغْتَرِ نَفْسًا﴾ ... الآية [المائدة: ٣٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ أَرْوَاجَكُمْ أَلْفًا تُظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُتَاهِكُكُمْ﴾، في هذا الحرف أربع قراءات سبعية: قرأه عاصم وحده: «تُظَاهَرُونَ» بضم التاء وتخفيف الظاء بعدها ألف فهاء مكسورة مخففة. وقرأه حمزة والكسائي: «تَظَاهَرُونَ» بفتح التاء بعدها ظاء مفتوحة مخففة، فألف فهاء مفتوحة مخففة، وقرأه ابن عامر وحده كقراءة حمزة والكسائي؛ إلا أن ابن عامر يشدد الظاء [تَظَاهَرُونَ]، وهما يخففانها. وقرأه نافع وابن كثير، وأبو عمرو: تَظَاهَرُونَ بفتح التاء بعدها ظاء فهاء مفتوحة مشددة بدون ألف.

فقوله تعالى: «تظاهرون»، على قراءة عاصم مضارع ظاهر بوزن «فاعل»، وعلى قراءة حمزة والكسائي فهو مضارع تظاهر بوزن «تفاعل» حذفت فيه إحدى التاءين على حد قوله في الخلاصة:

وما بتاءين ابتدئ قد يقتصر فيه على تا كتبيين العبر

فالأصل على قراءة الأخوين تظاهرون، فحذفت إحدى التاءين، وعلى قراءة ابن عامر، فهو مضارع تظاهر أيضاً، كقراءة حمزة والكسائي، إلا أن إحدى التاءين أدغمت في الظاء، ولم تحذف وماضيه أظاھر كادارك، واثاقلتم، وادارأتم؛ بمعنى تدارك.

وعلى قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، فهو مضارع تظهر على وزن «تفعل»، وأصله تتظهرون بتاءين، فأدغمت إحدى التاءين في الظاء، وماضيه: اظهر نحو: اطيّرنا، وازينت، بمعنى: تطيّرنا، وتزينت، كما قدمنا إيضاحه في سورة طه في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧]، فعلم مما ذكرنا أن قولهم ظاهر من أمراته، وتظاهر منها، وتظهر منها كلها بمعنى واحد، وهو أن يقول لها: أنت عليّ كظهر أمي، يعني أنها حرام عليه، وكانوا يطلقون بهذه الصيغة في الجاهلية.

وقد بين الله - جلّ وعلا - في قوله هنا: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾، أن من قال لامرأته: أنت علي كظهر أمي: لا تكون أماً له بذلك، ولم يزد هنا على ذلك، ولكنه - جلّ وعلا - أوضح هذا في سورة المجادلة، فبين أن أزواجهم التي ظاهروا منهن لسن أمهاتهم، وأن أمهاتهم هن النساء اللاتي ولدنهم خاصة دون غيرهن، وأن قولهم: أنت علي كظهر أمي، منكر من القول وزور.

وقد بين الكفارة اللازمة في ذلك عند العود وذلك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ ۝٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكَُمْ تَوْعُظُونَ بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾ [المجادلة].

فقوله تعالى في آية الأحزاب هذه: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ كقوله تعالى في سورة المجادلة: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢]، وقد رأيت ما في سورة المجادلة، من الزيادة والإيضاح لما تضمنته آية الأحزاب هذه.

وهناك جملة مسائل متعلقة بالأحكام المأخوذة يرجع من أراد الوقوف عليها إلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾. قال ابن كثير: أي في الحرمة والاحترام والتوقير والإكرام والإعظام، ولكن لا يجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن، وأخواتهن بالإجماع. اهـ. محل الغرض منه، وما ذكر من أن المراد بكون أزواجه ﷺ، أمهات المؤمنين هو حرمتهم عليهم، كحرمة الأم، واحترامهم لهم، كاحترام الأم إلخ. واضح لا إشكال فيه، ويدل له قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ﴾ لأن الإنسان لا يسأل أمه الحقيقية من وراء حجاب. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢]، ومعلوم أنهن رضي الله عنهن، لم يلدن جميع المؤمنين الذين هن أمهاتهم، ويفهم من قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾، أنه هو ﷺ أب لهم. وقد روي عن أبي بن كعب، وابن عباس أنهما قرآ: «وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم»، وهذه الأبوة أبوة دينية، وهو ﷺ أرأف بأمته من الوالد الشفيق بأولاده، وقد قال - جلّ وعلا - في رأفته ورحمته بهم: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وليست الأبوة أبوة نسب كما بينه تعالى بقوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾، ويدل لذلك أيضاً حديث أبي هريرة عند أبي داود والنسائي وابن ماجه أن النبي ﷺ قال: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطب بيمينه» وكان يأمر بثلاثة أحجار

وينهى عن الروث والرمة فقوله ﷺ، في هذا الحديث: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد» يبين معنى أبوته المذكورة كما لا يخفى.

قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾، قد قدمنا إيضاحه وكلام أهل العلم، فيما يتعلق به من الأحكام في آخر الأنفال في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ الآية [الأنفال: ٧٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ٧﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنه أخذ من النبيين ميثاقهم ثم خص منهم بذلك خمسة: هم أولوا العزم من الرسل، وهم: محمد ﷺ، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ولم يبين هنا الميثاق الذي أخذه عليهم، ولكنه - جلّ وعلا - بين ذلك في غير هذا الموضع، فبين الميثاق المأخوذ على جميع النبيين بقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ٨١﴾ فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴿٨٢﴾ [آل عمران]، وقد قدمنا الكلام على هذه الآية في سورة مريم، في الكلام على قصة الخضر، وقد بين - جلّ وعلا - الميثاق الذي أخذه على خصوص الخمسة الذين هم أولوا العزم من الرسل في سورة الشورى في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وبما ذكرنا تعلم: أن آية آل عمران وآية الشورى فيهما بيان لآية الأحزاب هذه.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾، من عطف الخاص على العام، وقد تكلمنا عليه مراراً، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾. أمر الله - جلّ وعلا - المؤمنين في هذه الآية الكريمة: أن يذكروا نعمته عليهم حين جاءتهم جنود وهم جيش الأحزاب، فأرسل - جلّ وعلا - عليهم ريحاً وجنوداً لم يرها المسلمون، وهذه الجنود التي لم يروها التي امتن عليهم بها هنا في سورة الأحزاب، بين أنه من عليهم بها أيضاً في غزوة حنين، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ١٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا [التوبة: ٢٥، ٢٦]، وهذه الجنود هي الملائكة، وقد بين - جلّ وعلا - ذلك في الأنفال في الكلام على غزوة بدر، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ

الْأَعْتَاقَ وَكُفِّرُوا بَيْنَهُمْ كُلِّ نَبَاٍ ﴿١٦﴾ الآية [الأنفال]، وهذه الجنود التي لم يروها التي هي الملائكة، قد بين الله - جلّ وعلا - في براءة أنه أيد بها نبيه ﷺ وهو في الغار وذلك في قوله: ﴿إِلَّا تَصُورُوهَ فَقَدْ صَبَّرَ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَائِفَ أَتْنَيْنِ إِذْ هُنَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ ﴿١٧﴾، ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن المؤمنين لما رأوا الأحزاب يعني جنود الكفار الذين جاؤوهم من فوقهم، ومن أسفل منهم في غزوة الخندق قالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، ولم يبين هنا الآية التي وعدهم إياها فيها، ولكنه بين ذلك في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْمِلُنَّ الْبَاسَاءَ وَالضَّالَّةَ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ ﴿١٧٤﴾ [البقرة]، وممن قال إن آية البقرة المذكورة مبينة لآية الأحزاب هذه: ابن عباس، وقادة، وغير واحد، وهو ظاهر.

وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا﴾... الآية، صريح في أن الإيمان يزيد، وقد صرح الله بذلك في آيات من كتابه، فلا وجه للاختلاف فيه مع تصريح الله - جلّ وعلا - به في كتابه، في آيات متعددة كقوله تعالى: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]. وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَدَتْهُمْ إِيمَانُهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنه رد الذين كفروا بغیظهم، لم ينالوا خيراً، وأنه كفى المؤمنين القتال، وهم النبي ﷺ، وأصحابه. ولم يبين هنا السبب الذي رد به الذين كفروا وكفى به المؤمنين القتال، ولكنه - جلّ وعلا -، بين ذلك بقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أي وبسبب تلك الريح، وتلك الجنود ردهم بغیظهم وكفاهم القتال كما هو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿يَسَاءَ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفِتْنَةٍ سُبُحَنَ مَا يُضْعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾.

قد قدمنا الآية الموضحة له في آخر سورة النمل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمِنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُودُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٠﴾ [النمل]، وفي سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِذَا لَادَقْنَكَ الْحَيَوَةُ ضَعْفَ الْحَيَوَةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ﴾ الآية [الإسراء: ٧٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلَ صَالِحًا تُوَفَّى أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾.

ذكر الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن من قتل من نساء نبيه ﷺ لله ولرسوله،

وعمل عملاً صالحاً: أن الله - جلّ وعلا - يؤتها أجرها مرتين، والقنوت: الطاعة، وما وعد الله به - جلّ وعلا - من أطاع منهن بإيتائها أجرها مرتين في هذه الآية الكريمة جاء الوعد بنظيره لغيرهن، في غير هذا الموضع، فمن ذلك وعده لمن آمن من أهل الكتاب بنبيه، ثم آمن بمحمد ﷺ بإيتائه أجره مرتين، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥١) الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُنَالُ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ... الآية [القصص: ٥١، ٥٤].

ومن ذلك وعده لجميع المطيعين من أمته ﷺ بإيتائهم كفلين من رحمته تعالى، وذلك في قوله - جلّ وعلا -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨]، الآية.

واعلم: أن ظاهر هذه الآية الكريمة من سورة الحديد، الذي لا ينبغي العدول عنه، أن الخطاب بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ الآية [الحديد: ٢٨]. عام لجميع هذه الأمة. كما ترى، وليس في خصوص مؤمني أهل الكتاب، كما في آية القصص المذكورة آنفاً، وكونه عاماً هو التحقيق إن شاء الله، لظاهر القرآن المتبادر الذي لم يصرف عنه صارف، فما رواه النسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما من حمله آية الحديد هذه على خصوص أهل الكتاب كما في آية القصص، خلاف ظاهر القرآن، فلا يضح الحمل عليه إلا بدليل يجب الرجوع إليه، وإن وافق ابن عباس في ذلك الضحاك، وعتبة بن أبي حكيم، وغيرهما. واختاره ابن جرير الطبري.

والصواب في ذلك إن شاء الله هو ما ذكرنا؛ لأن المعروف عند أهل العلم: أن ظاهر القرآن المتبادر منه، لا يجوز العدول عنه، إلا للدليل يجب الرجوع إليه.

وقال ابن كثير: وقال سعيد بن جبير: لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين، أنزل الله تعالى على نبيه هذه الآية في حق هذه الأمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾، أي ضعفين ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾، وزادهم ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨]، فضلهم بالنور والمغفرة. اهـ نقله عنه ابن جرير، وابن كثير. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، ويكون في نفس الآية قرينة تدل على عدم صحة ذلك القول، وذكرنا لذلك أمثلة متعددة في الترجمة، وفي مواضع كثيرة من هذا الكتاب المبارك.

ومما ذكرنا من أمثلة ذلك في الترجمة قولنا فيها: ومن أمثله قول بعض أهل العلم: إن أزواجه ﷺ لا يدخلن في أهل بيته في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، فإن قرينة السياق صريحة في دخولهن؛ لأن الله تعالى

قال: ﴿قُلْ لِّأَزْوَاجِكُمْ إِن كُنْتُنَّ تُحِدْنَ﴾، ثم قال في نفس خطابه لهن: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ ثم قال بعده: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يُمْسِلُ فِي يَوْمِكُنَّ﴾... الآية.

وقد أجمع جمهور علماء الأصول على أن صورة سبب النزول قطعية الدخول، فلا يصح إخراجها بمخصص، وزوي عن مالك أنها ظنية الدخول، وإليه أشار في (مراقي السعود) بقوله:

واجزم بإدخال ذوات السبب وارو عن الإمام ظناً تصب

فالحق أنهم داخلات في الآية. اهـ من ترجمة هذا الكتاب المبارك.

والتحقيق إن شاء الله: أنهم داخلات في الآية، وإن كانت الآية تتناول غيرهن من أهل البيت.

أما الدليل على دخولهن في الآية، فهو ما ذكرناه آنفاً من أن سياق الآية صريح في أنها نازلة فيهن.

والتحقيق: أن صورة سبب النزول قطعية الدخول كما هو مقرر في الأصول.

ونظير ذلك من دخول الزوجات في اسم أهل البيت. قوله تعالى في زوجة إبراهيم: ﴿قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣].

وأما الدليل على دخول غيزهن في الآية، فهو أحاديث جاءت عن النبي ﷺ أنه قال في علي، وفاطمة، والحسن، والحسين ﷺ: «إنهم أهل البيت» ودعا لهم الله أن يذهب عنهم الرجس ويبطهرهم تطهيراً. وقد روى ذلك جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ، منهم أم المؤمنين أم سلمة ﷺ، وأبو سعيد، وأنس، ووائل بن الأسقع، وأم المؤمنين عائشة، وغيرهم ﷺ.

وبما ذكرنا من دلالة القرآن والسنة: تعلم أن الصواب شمول الآية الكريمة لأزواج النبي ﷺ، ولعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين ﷺ، كلهم.

تنبيه: فإن قيل: إن الضمير في قوله: ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾، وفي قوله: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، ضمير الذكور، فلو كان المراد نساء النبي ﷺ لقيل: ليذهب عنكن ويبطركن.

فالجواب من وجهين: الأول: هو ما ذكرنا من أن الآية الكريمة شاملة لهن، ولعلي، والحسن، والحسين، وفاطمة، وقد أجمع أهل اللسان العربي على تغليب الذكور على الإناث في الجموع ونحوها، كما هو معلوم في محله.

الوجه الثاني: هو أن من أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن أن زوجة الرجل يطلق عليها اسم الأهل، وباعتبار لفظ الأهل تخاطب مخاطبة الجمع المذكر، ومنه قوله تعالى في موسى: ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ [طه: ١٠]. وقوله: ﴿سَتَأْتِكُمُ﴾ [النمل: ٧]. وقوله: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ﴾ [طه: ١٠]. والمخاطب امرأته كما قاله غير واحد، ونظيره من كلام العرب قول الشاعر:

فإن شئت حرمت النساء سواكم وإن شئت لم أطعم نقاخاً ولا برداً

وبما ذكرنا تعلم أن قول من قال: إن نساء النبي ﷺ لسن داخلات في الآية، يرد عليه صريح سياق القرآن، وأن من قال: إن فاطمة وعلياً والحسن والحسين ليسوا داخلين فيها، ترد عليه الأحاديث المشار إليها.

وقال بعض أهل العلم: إن أهل البيت في الآية هم من تحرم عليهم الصدقة. والعلم عند الله تعالى. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾... الآية. يعني أنه يذهب الرجس عنهم، ويطهرهم بما يأمر به من طاعة الله، وينهى عنه من معصيته؛ لأن من أطاع الله أذهب عنه الرجس، وطهره من الذنوب تطهيراً.

وقال الزمخشري في الكشف: ثم بين أنه إنما نهاهم وأمرهم ووعظهم؛ لثلاث يقارف أهل بيت رسول الله ﷺ المآثم، وليتصونوا عنها بالتقوى. واستعار للذنوب الرجس، وللتقوى الطهر؛ لأن عرض المقترف للمقبحات يتلوث بها ويتدنس كما يتلوث بدنه بالأرجاس. وأما الحسنات فالعرض منها نقي مصون كالثوب الطاهر، وفي هذه الاستعارة ما ينفر أولي الأبواب عما كرهه الله لعباده، ونهاهم عنه، ويرغبهم فيما يرضاه لهم، وأمرهم به. وأهل البيت نصب على النداء أو على المدح. وفي هذا دليل بين على أن نساء النبي ﷺ من أهل بيته.

تنبيه: اعلم أنه يكثر في القرآن العظيم، وفي اللغة إتيان اللام المكسورة منصوباً بعدها المضارع بعد فعل الإرادة كقوله هنا: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾... الآية. وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]. وقوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ الآية [الصف: ٨]. وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات. وكقول الشاعر:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمشل لي ليلى بكل سبيل

وللعلماء في اللام المذكورة أقوال: منها أنها مصدرية بمعنى أن، وهو قول غريب. ومنها: أنها لام كي، ومفعول الإرادة محذوف والتقدير: إنما يريد الله أن يأمركم وينهاكم؛ لأجل أن يذهب عنكم الرجس: والرجس كل مستقذر تعافه النفوس، ومن أقدر المستقذرات معصية الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَنُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾. قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها بيان الإجمال الواقع بسبب الإبهام في صلة موصول، وذكرنا أن من أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَنُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾؛ لأن جملة: الله مبديه صلة الموصول الذي هو ما. وقد قلنا في الترجمة المذكورة: فإنه هنا أبهم هذا الذي أخفاه ﷺ في نفسه وأبداه الله، ولكنه أشار إلى أن المراد به زواجه ﷺ

زينب بنت جحش رضي الله عنها، حيث أوحى إليه ذلك، وهي في ذلك الوقت تحت زيد بن حارثة؛ لأن زواجه إياها هو الذي أبداه الله بقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا﴾، وهذا هو التحقيق في معنى الآية الذي دل عليه القرآن، وهو اللاتق بجنابه ﷺ.

وبه تعلم أن ما يقوله كثير من المفسرين من أن ما أخفاه في نفسه ﷺ وأبداه الله وقوع زينب في قلبه ومحبته لها، وهي تحت زيد، وأنها سمعته قال: سبحان مقلب القلوب إلى آخر القصة، كله لا صحة له، والدليل عليه أن الله لم يبد من ذلك شيئاً، مع أنه صرح بأنه مبدي ما أخفاه رسول الله ﷺ. انتهى محل الغرض من كلامنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك.

وقال القرطبي رحمته الله في تفسير هذه الآية: واختلف الناس في تأويل هذه الآية، فذهب قتادة، وابن زيد، وجماعة من المفسرين منهم: الطبري، وغيره: إلى أن النبي ﷺ وقع منه استحسان لزينب بنت جحش، وهي في عصمة زيد، وكان حريصاً على أن يطلقها زيد، فيتزوجها هو إلى أن قال: وهذا الذي كان يخفي في نفسه، ولكنه لزم ما يجب من الأمر بالمعروف يعني قوله: ﴿أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾. اهـ. ولا شك أن هذا القول غير صحيح، وأنه غير لائق به ﷺ.

ونقل القرطبي نحوه عن مقاتل، وابن عباس أيضاً، وذكر القرطبي عن علي بن الحسين أن الله أوحى إلى نبيه ﷺ أن زيداً سيطلق زينب، وأن الله يزوجه رسول الله ﷺ، وبعد أن علم هذا بالوحي قال لزيد: أمسك عليك زوجك. وأن الذي أخفاه في نفسه: هو أن الله سيزوجه زينب رضي الله عنها، ثم قال القرطبي بعد أن ذكر هذا القول: قال علماؤنا - رحمة الله عليهم -: وهذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية. وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين، والعلماء الراسخين؛ كالزهري، والقاضي بكر بن العلاء القشيري، والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم، إلى أن قال: فأما ما روي أن النبي ﷺ هوى زينب امرأة زيد، وربما أطلق بعض المجان لفظ عشق، فهذا إنما يصدر عن جاهل بعصمة النبي ﷺ عن مثل هذا أو مستخف بحرمته.

قال الترمذي الحكيم في نواذر الأصول، وأسند إلى علي بن الحسين قوله: فعلي بن الحسين جاء بهذا من خزانة العلم جوهرًا من الجواهر ودرًا من الدرر أنه إنما عتب الله عليه في أنه قد أعلمه، أن ستكون هذه من أزواجك، فكيف قال بعد ذلك لزيد: ﴿أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، وأخذتكم خشية الناس أن يقولوا: تزوج امرأة ابنه، والله أحق أن تخشاه. انتهى محل الغرض منه.

وقال ابن كثير رحمته الله في تفسير هذه الآية: ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير هاهنا آثاراً عن بعض السلف رضي الله عنهم، أحبين أن تضرب عنها صفحاً لعدم صحتها، فلا نوردها، إلى آخر كلامه. وفيه كلام علي بن الحسين الذي ذكرنا آنفاً.

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: التحقيق إن شاء الله في هذه المسألة: هو ما ذكرنا أن القرآن دل عليه، وهو أن الله أعلم نبيه ﷺ بأن زيدا يطلق زينب، وأنه يزوجه إياه ﷺ، وهي في ذلك الوقت تحت زيد، فلما شكها زيدا إليه ﷺ قال له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾، فعاتبه الله على قوله: أمسك عليك زوجك بعد علمه أنها ستصير زوجته هو ﷺ وخشي مقالة الناس أن يقولوا: لو أظهر ما علم من تزويجه إياها أنه يريد تزويج زوجة ابنه في الوقت الذي هي فيه في عصمة زيد. والدليل على هذا أمران:

الأول: هو ما قدمنا من أن الله - جلّ وعلا - قال: ﴿وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، وهذا الذي أبداه الله - جلّ وعلا -، هو زواجه إياها في قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا﴾، ولم يبد - جلّ وعلا - شيئاً مما زعموه أنه أحبها، ولو كان ذلك هو المراد لأبداه الله تعالى كما ترى.

الأمر الثاني: أن الله - جلّ وعلا - صرح بأنه هو الذي زوجه إياها، وأن الحكمة الإلهية في ذلك التزويج هي قطع تحريم أزواج الأدعياء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِئَلَّا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾... الآية، فقوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾، تعليل صريح لتزويجه إياها لما ذكرنا، وكون الله هو الذي زوجه إياها لهذه الحكمة العظيمة صريح في أن سبب زواجه إياها ليس هو محبته لها التي كانت سبباً في طلاق زيد لها كما زعموا، ويوضحه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾ الآية؛ لأنه يدل على أن زيدا قضى وطره منها، ولم تبق له بها حاجة، فطلقها باختياره. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا﴾.

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من الأمر بالإكثار من الذكر، جاء معناه في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَالَفُوا ذِكْرَ اللَّهِ﴾ الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾. لم يبين هنا المراد بالفضل الكبير في هذه الآية الكريمة، ولكنه بينه في سورة الشورى في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُّوهُنَّ مِّنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾. قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها، أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، وتكون في نفس الآية قرينة تدل على عدم صحة ذلك القول، وذكرنا له أمثلة في الترجمة، وأمثلة كثيرة في الكتاب لم تذكر في الترجمة، ومن أمثلته التي ذكرنا في الترجمة هذه الآية الكريمة؛ فقد قلنا في ترجمة هذا الكتاب

المبارك، ومن أمثلته قول كثير من الناس: إن آية الحجاب أعني قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُّوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾، خاصة بأزواج النبي ﷺ، فإن تعليله تعالى لهذا الحكم الذي هو إيجاب الحجاب بكونه أطهر لقلوب الرجال والنساء من الريبة في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ كُمْ أَظْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، قرينة واضحة على إرادة تعميم الحكم، إذ لم يقل أحد من جميع المسلمين، إن غير أزواج النبي ﷺ لا حاجة إلى أطهرية قلوبهن وقلوب الرجال من الريبة منهن. وقد تقرر في الأصول: أن العلة قد تعم معلولها، وإليه أشار في مراقي السعود بقوله:

وقد تخصص وقد تعمم لأصلها لكنها لا تخرم

انتهى محل الغرض من كلامنا في الترجمة المذكورة.

وبما ذكرنا تعلم أن في هذه الآية الكريمة، الدليل الواضح على أن وجوب الحجاب حكم عام في جميع النساء، لا خاص بأزواجه عليه السلام، وإن كان أصل اللفظ خاصاً بهن؛ لأن عموم علته دليل على عموم الحكم فيه.. وقد بسط الشيخ القول في مسألة الحجاب فليرجع من أراد الوقوف على ما ذكر إلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾. أمر الله تعالى نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول للناس الذين يسألونه عن الساعة ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾، ومعلوم أن «إنما» صيغة حصر.

فمعنى الآية: أن الساعة لا يعلمها إلا الله وحده.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، جاء واضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرِيدُ الْغَيْثَ﴾ الآية [لقمان: ٣٤].

وقد بين ﷺ أَنَّ الخَمْسَ المذكورة في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية [لقمان: ٣٤]. هي المراد بقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وكقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ نُقِلَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَافِيَ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٧] وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّكَ مِنْ نَحْوِ مَا تُنَبِّئُهَا﴾ [التازعات: ٢٦] وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَرْجِعُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية [فصلت: ٤٧]، وفي الحديث: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل».

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِكُ لَعَلَّ السَّاعَةِ تَكُونُ قَرِيبًا﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنَّ الساعة التي هي القيامة لعلها تكون قريباً، وذكر نحوه في قوله في الشورى: ﴿وَمَا يُدْرِكُ لَعَلَّ السَّاعَةِ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]، وقد أوضح - جلّ وعلا - اقترابها في آيات أخر كقوله: ﴿افْتَرَيْتَ السَّاعَةَ﴾. من الآية [القمر: ١]. وقوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء]. وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَمَرُ اللَّهُ فَلَا مَسَاجِدَ لَهُمْ﴾... الآية [النحل: ١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ﴿٦٤﴾ إلى قوله: ﴿لَعَنَّا كَبِيرًا﴾.

تقدمت الآيات الموضحة له مراراً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ﴿٧١﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنه عرض الأمانة، وهي التكليف مع ما يتبعها من ثواب وعقاب، على السماوات والأرض والجبال، وأنهن أبين أن يحملنها، وأشفقن منها؛ أي خفن من عواقب حملها أن ينشأ لهن من ذلك عذاب الله وسخطه، وهذا العرض والإباء والإشفاق كله حق، وقد خلق الله للسماوات والأرض والجبال إدراكاً بعلمه هو - جلّ وعلا -، ونحن لا نعلمه، وبذلك الإدراك أدركت عرض الأمانة عليها، وأبت وأشفقت؛ أي خافت.

ومثل هذا تدل عليه آيات وأحاديث كثيرة، فمن الآيات الدالة على إدراك الجمادات المذكور قوله تعالى في سورة البقرة في الحجارة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، فصرح بأن من الحجارة ما يهبط من خشية الله، وهذه الخشية التي نسبها الله لبعض الحجارة بإدراك يعلمه هو تعالى.

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿تَسْجُدُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ الآية [الإسراء: ٤٤]. ومنها قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾... الآية [الأنبياء: ٧٩]. إلى غير ذلك من الآيات.

ومن الأحاديث الصحيحة الدالة على ذلك قصة حنين الجذع الذي كان يخطب عليه النبي ﷺ لما انتقل بالخطبة إلى المنبر، وهي في صحيح البخاري وغيره.

ومنها: ما ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «إني لأعرف حجراً كان يسلم عليّ في مكة» وأمثال هذا كثيرة، فكل المذكور في الكتاب والسنة، إنما يكون بإدراك يعلمه الله، ونحن لا نعلمه. كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ولو كان المراد بتسبيح الجمادات، دلالتها على خالقها لكننا نفقهه كما هو معلوم، وقد دلت عليه آيات كثيرة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، الظاهر أن المراد بالإنسان آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وأن الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، راجع للفظ الإنسان مجرداً عن إرادة المذكور منه الذي هو آدم.

والمعنى: أنه أي الإنسان الذي لا يحفظ الأمانة كان ظليماً جهولاً: أي كثير الظلم والجهل، والدليل على هذا أمران:

أحدهما: قرينة قرآنية دالة على انقسام الإنسان في حمل الأمانة المذكورة إلى معذب ومرحوم في قوله تعالى بعده متصلاً به: ﴿لُعِنَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿٧١﴾، فدل هذا على أن الظلوم الجهول من الإنسان، هو المعذب والعياذ بالله، وهم المنافقون،

والمنافقات، والمشركون، والمشركات، دون المؤمنين والمؤمنات. واللام في قوله: «ليعذب»: لام التعليل وهي متعلقة بقوله: «وحملها الإنسان».

الأمر الثاني: أن الأسلوب المذكور الذي هو رجوع الضمير إلى مجرد اللفظ دون اعتبار المعنى التفصيلي معروف في اللغة التي نزل بها القرآن، وقد جاء فعلاً في آية من كتاب الله، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزَرُ مِنْ مُعْمَرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١]؛ لأن الضمير في قوله: ﴿وَمَا يَعْزَرُ مِنْ مُعْمَرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمْرِهِ﴾، راجع إلى لفظ المعمر دون معناه التفصيلي كما هو ظاهر، وقد أوضحناه في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْ فِيهَا سِرًّا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]، وبيننا هناك أن هذه المسألة هي المعروفة عند علماء العربية بمسألة عندي درهم ونصفه: أي نصف درهم آخر كما ترى. وبعض من قال من أهل العلم إن الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، عائد إلى آدم، قال المعنى: أنه كان ظلوماً لنفسه جهولاً: أي غراً بعواقب الأمور، وما يتبع الأمانة من الصعوبات، والأظهر هو ما ذكرنا. والعلم عند الله تعالى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة سبا

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾، قد ذكرنا ما هو بمعناه من الآيات في أول سورة الفاتحة، في الكلام على قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١].
قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾.

بين - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنه يعلم ما يلبج في الأرض، أي ما يدخل فيها كالماء النازل من السماء، الذي يلبج في الأرض، كما أوضحه بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾... الآية [الزمر: ٢١].

وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية [المؤمنون: ١٨]، فهو - جلّ وعلا -، يعلم عدد القطر النازل من السماء إلى الأرض، وكيف لا يعلمه من خلقه؛ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١]، ويعلم أيضاً ما يلبج في الأرض من الموتى الذين يدفنون فيها، كما قال - جلّ وعلا -: ﴿وَمِنَّا مَخْلَقَتَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥]، وقال: ﴿أَتَرَبَّيْتُ الْأَرْضَ كَنَاءً﴾ [١٥] أُنْجَاءً وَأَمْوَاتًا [المرسلات: ١٦]، والكفات من الكفت: وهو الضم؛ لأنها تضمهم أحياء على ظهرها، وأمواتاً في بطنها، ويعلم أيضاً ما يلبج في الأرض من البذر كما قال تعالى: ﴿وَلَا حَبْرٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا

يَأْتِيهِ إِلَّا فِي كَنْزٍ مُّبِينٍ [الأنعام: ٥٩]. وكذلك ما في بطنها من المعادن وغير ذلك. قوله: ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾، أي من الأرض كالنبات، والحبوب، والمعادن، والكنوز، والدفائن وغير ذلك، ويعلم ما ينزل من السماء من المطر، والثلج، والبرد، والرزق وغير ذلك، وما يعرج: أي يصعد فيها أي السماء كالأعمال الصالحة، كما بينه بقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وكأرواح المؤمنين وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَكِ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿يُنْزِلُ الْأَمْثَرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]. وما ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أنه يعلم جميع ما ذكره؛ ذكره في سورة الحديد في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

وقد أوضحنا الآيات الدالة على كمال إخطاة علم الله بكل شيء في أول سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يُلْتَوْنَ صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخَفُوا مِنْهُ﴾ الآية [هود: ٥]، وفي مواضع أخر متعددة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنّ الكفار أنكروا البعث، وقالوا: لا تأتينا الساعة؛ أي القيامة، وأنه - جلّ وعلا - أمر نبيه أن يقسم لهم بربه العظيم أن الساعة سوف تأتيتهم مؤكداً ذلك توكيداً متعددًا.

وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من إنكار الكفار للبعث جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]. وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَشِئًا خَلَقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]. وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِئْتٌ لَسَوْفَ أَخْرُجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦]. وقوله تعالى عنهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٥]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً، وما ذكره - جلّ وعلا - من أنه أمر نبيه بالإقسام لهم على أنهم يبعثون، جاء موضحاً في مواضع أخر.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة: هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابعة لهن مما أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد، لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد، فأحداهن في سورة يونس عليه السلام وهي قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَأْذِنُكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتَ بِمُعْجِزٍ﴾ [يونس: ٥٢]، والثانية هذه ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ الثالثة: في سورة التغابن وهي قوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْمَرُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُعْمَرُنَّ ثُمَّ لَنَنْبُوْنَ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ ... الآية [التغابن: ٧].

وقد قدّمنا البراهين الدالة على البعث بعد الموت من القرآن في سورة البقرة، وسورة النحل وغيرهما.

وقد قدّمنا الآيات الدالة على إنكار الكفار البعث، وما أعد الله لمنكري البعث من العذاب في الفرقان في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١١] وفي مواضع أخرى. وقوله: «قل بلى» لفظة بلى قد قدّمنا معانيها في اللغة العربية بإيضاح في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ قَوْلاً اسْتَكْرَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى﴾ ... الآية [النحل: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿عَلِيهِ الْغَيْبُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

ما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، جاء موضحاً في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس]. وقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام]، والآيات بمثل ذلك كثيرة، وقد بينها في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: «لا يعزب»: أي لا يغيب عنه مثقال ذرة، ومنه قول كعب بن سعد الغنوي:

أخي كان أما حلمه فمروح عليه وأما جهله فبعزيب

يعني: أن الجهل غائب عنه ليس متصفاً به. وقرأ هذا الحرف نافع وابن عامر: «عالم الغيب» بألف بعد العين، وتخفيف اللام المكسورة، وضم الميم على وزن فاعل. وقرأ حمزة والكسائي: «عَلَامُ الغيب» بتشديد اللام وألف بعد اللام المشددة وخفض الميم على وزن فاعل. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: «عالم الغيب» كقراءة نافع وابن عامر؛ إلا أنهم يخفضون الميم. وعلى قراءة نافع، وابن عامر: بضم الميم من قوله: عالم الغيب، فهو مبتدأ خبره جملة ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ ... الآية. أو خبر مبتدأ محذوف أي هو عالم الغيب.

وعلى قراءة ابن كثير وأبي عمرو وعاصم: «عالم الغيب» بخفض الميم فهو نعت لقوله ربي: أي قل بلى وربّي عالم الغيب لتأتينكم، وكذلك على قراءة حمزة، والكسائي: «عَلَامُ الغيب». وقرأ هذا الحرف عامة القراء غير الكسائي: «لا يعزب عنه» بضم الزاي من يعزب، وقرأه الكسائي بكسر الزاي.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ ٥﴾.

لم يبين هنا نوع هذا العذاب، ولكنه بينه بقوله في الحج: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ٥﴾ [الحج]. وقوله: معاجزين: أي مغالبيين، ومسابقين يظنون أنهم يعجزون ربهم، فلا يقدر على بعثهم وعذابهم، والرجز: العذاب كما قال: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا﴾ الآية [البقرة: ٥٩]، وقرأ هذا الحرف ابن كثير، وأبو عمرو: «معجزين» بلا ألف بعد العين مع تشديد الجيم المكسورة. وقرأه الباقون بألف بعد العين، وتخفيف الجيم، ومعنى قراءة التشديد أنهم يحسبون أنهم يعجزون ربهم، فلا يقدر على بعثهم وعقابهم.

وقال بعضهم: أن معنى «معجزين» بالتشديد: أي مثبطين الناس عن الإيمان. وقرأ ابن كثير، وحفص «من رجز أليم»: بضم الميم من قوله: أليم على أنه نعت لقوله: عذاب. وقرأ الباقون: «أليم» بالخفض على أنه نعت لقوله: رجز.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مُّزَقٍّ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ٧﴾ إلى قوله: ﴿وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ٧ - ٨﴾.

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من إنكار البعث، وتكذيب الله لهم في ذلك قدم موضعاً في مواضع كثيرة من هذا الكتاب، في البقرة والنحل وغيرهما.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مُّزَقٍّ﴾، أي تمزقت أجسادكم وتفرقت وبليت عظامكم، واختلطت بالأرض، وتلاشت فيها. وقوله عنهم: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، أي البعث بعد الموت وهو مصب إنكارهم قبحهم الله، وهو - جلّ وعلا - يعلم ما تلاشى في الأرض من أجسادهم، وعظامهم كما قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ ١١﴾ [ق].

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ١٢﴾.

ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من توبيخ الكفار، وتقريعهم على عدم تفكيرهم ونظرهم إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض؛ ليستدلوا بذلك على كمال قدرة الله على البعث، وعلى كل شيء، وأنه هو المعبود وحده، جاء موضعاً في مواضع آخر، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ١٣﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ١٤﴾ بَيِّنَةٌ وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ١٥﴾ [ق]. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَن عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ ١٦﴾ [الأعراف: ١٨٥]. وقوله تعالى: ﴿وَكَايْنِ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَشُرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ١٧﴾ [يوسف]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معروفة.

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال عبد بن حميد: أخبرنا عبد الرزاق،

عن معمر عن قتادة: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، قال: إنك إن نظرت عن يمينك، أو عن شمالك، أو من بين يديك، أو من خلفك، رأيت السماء والأرض.

قوله تعالى: ﴿إِنْ شَاءَ نَخِيفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أمرين:

أحدهما: أنه إن شاء خسف الأرض بالكفار خسفها بهم لقدرته على ذلك.

والثاني: أنه إن شاء أن يسقط عليهم كسفاً من السماء فعل ذلك أيضاً لقدرته عليه.

أما الأول الذي هو أنه لو شاء أن يخسف بهم الأرض لفعل، فقد ذكره تعالى في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [١١] [الملك]، وقوله تعالى: ﴿وَأَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ...﴾ الآية [الإسراء: ٦٨]. وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ [القصص: ٨٢]. وقوله تعالى في الأنعام: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٦٥].

وقوله هنا: ﴿أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾، قد بينا في سورة بني إسرائيل، أنه هو المراد بقوله تعالى عن الكفار: ﴿أَوْ نُسْقِطُ السَّمَاءَ كَمَا رَعِمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾... الآية [الإسراء: ٩٢]. وقرأ حمزة والكسائي: «إن يشأ يخسف بهم الأرض، أو يسقط عليهم كسفاً من السماء» بالياء المثناة التحتية في الأفعال الثلاثة: أعني يشأ. ويخسف. ويسقط، وعلى هذه القراءة فالفاعل ضمير يعود إلى الله تعالى؛ أي إن يشأ هو؛ أي الله، يخسف بهم الأرض، وقرأ الباقون بالنون الدالة على العظمة في الأفعال الثلاثة أي إن نشأ نحن إلخ. وقرأ حفص عن عاصم: «كسفاً» بفتح السين، والباقون بسكونها. والكسف بفتح السين القطع، والكسف بسكون السين واحدها.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنه أتى داود منه فضلاً تفضّل به عليه، وبين هذا الفضل الذي تفضل به على داود في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَنَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٢٥]. وقوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَمْ ذَلِكَ وَإِنَّ لَنَا لِعَذَابٍ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ﴾ [ص: ٢٦]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿يَجِبَالٍ أَوْيَ مَعَهُ وَالطَّيْرِ﴾. قد بينا الآيات الموضحة له مع إيضاح

معنى «أوبي معه» في سورة الأنبياء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَهُ الْخَدِيدُ﴾ ﴿أَن أَعْمَلَ سَفِيحَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾. قد قدمنا الآيات التي فيها إيضاحه، مع بعض الشواهد وتفسير قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾، في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعَلَّنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. وفي النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسَرَّيْلَ تَفَيَّكُمْ بِأَسْكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَسُلَيْمَنَ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ﴾. قد بينا الآيات التي فيها إيضاحه له في سورة الأنبياء، في الكلام على قوله: ﴿وَلَسُلَيْمَنَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [الأنبياء: ٨١]. مع الأجوبة عن بعض الأسئلة الواردة، على الآيات المذكورة.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَقُدُّوهُ رَأْسَيْنِ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنبياء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَن يَفُوضُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِلَهُس ظَنُّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى عنه: ﴿لَا زَيْنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا نُفُوسُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾... الآية [الحجر: ٢٣٩]، وفي سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحِدْ أَكْثَرَهُمْ شَكْرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ﴾، قرأه عاصم، وحزمة والكسائي بتشديد الدال والباقون بالتخفيف.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ﴾ الآية.

قد بينا الآيات الموضحة له في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِكَادَك مِّنْهُمْ الْمُتَلَصِّصِينَ﴾ [الحجر: ١٤]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥١].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَن أَذِنَ لَهُ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةً﴾ [البقرة: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾. أمر الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، نبيه محمداً ﷺ أن يقول للكفار: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي يرزقكم من السماوات بإنزال المطر مثلاً، والأرض بإنبات الزروع والثمار ونحو ذلك. ثم أمره أن يقول: الله: أي الذي يرزقكم من السماوات والأرض هو الله، وأمره تعالى له ﷺ بأن يجيب بأن رازقهم هو الله يفهم منه أنهم مقرون بذلك، وأنه ليس محل نزاع.

وقد صرح تعالى بذلك، في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ الآية [يونس: ٣١]، وإقرارهم بربوبيته تعالى يلزمه الاعتراف بعبادته وحده، والعمل بذلك.

وقد قدمنا كثيراً من الآيات الموضحة لذلك في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا تُشْكِرُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُشْكِلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ١٥. أمر الله - جلّ وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول للكفار: إِنَّهُ وَإِيَاهُمْ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ مَسْئُولاً عَمَّا يُعْمَلُ الْآخِرَ، بل كل منهم مؤاخذ بعمله، والآخر بريء منه.

وأوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَمْرًا أَعْمَلَ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ١١ [يونس]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا الْكُفْرَ وَلَا أَعْبُدْ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ٢، إلى قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ ٦ [الكافرون]، وفي معنى ذلك في الجملة قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَمٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُشْكِلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ١٢٤ [البقرة]. وكقوله تعالى عن نبيه هود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ٥١ [هود]. فَيَكْفُرُونَ جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ٥٢ [هود].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ٢٧. أمر الله - جلّ وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول لعبدة الأوثان: أروني أوثانكم التي ألحقتموها بالله شركاء له في عبادته كفرأ منكم، وشركأ وافتراء. وقوله: ﴿أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾؛ لأنهم إن أروه إياها تبين برؤيتها أنها جماد لا ينفع ولا يضر، واتضح بعدها عن صفات الألوهية. فظهر لكل عاقل برؤيتها بطلان عبادة ما لا ينفع ولا يضر، فإحضارها والكلام فيها، وهي مشاهدة أبلغ من الكلام فيها غائبة، مع أنه ﷺ يعرفها، وكما أنه في هذه الآية الكريمة أمرهم أن يروه إياها ليتبين بذلك بطلان عبادتها، فقد أمرهم في آية أخرى أن يسموها بأسمائها؛ لأن تسميتها بأسمائها يظهر بها بعدها عن صفات الألوهية، وبطلان عبادتها لأنها أسماء إناث حقيرة كاللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْثَاءً﴾ [النساء: ١١٧]، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَاهِرُونَ الْقَوْلَ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يَضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

والأظهر في قوله: ﴿أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ﴾، في هذه الآية: هو ما ذكرنا من أن الرؤية بصرية وعليه فقوله: شركاء: حال، وقال بعض أهل العلم: إنها من رأى العلمية،

وعليه فشركاء: مفعول ثالث لأروني. قال القرطبي: يكون أروني هنا من رؤية القلب فيكون شركاء مفعولاً ثالثاً أي عرفوني الأصنام والأوثان التي جعلتموها شركاء لله ﷻ، وهل شاركت في خلق شيء، فبينوا ما هو وإلا فلم تعبدونها. اهـ محل الغرض منه. واختار هذا أبو حيان في البحر المحيط. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: «كلا» ردع لهم، وزجر عن إلحاق الشركاء به. وقوله: ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: أي والمتصف بذلك هو المستحق للعبادة، وقد قدمنا معنى العزيز الحكيم بشواهد مراراً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّخِذُ النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وفي غير ذلك من المواضع. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾، استشهد به بعض علماء العربية على جواز تقدم الحال على صاحبها المجرور بالحرف كما أشار له ابن مالك في الخلاصة بقوله:

وسبق حال ما بحرف جر قد أبوا ولا أمنعه فقد ورد
قالوا: لأن المعنى: وما أرسلناك إلا للناس كافة: أي جميعاً، أي أرسلناك للناس، في حال كونهم مجتمعين في رسالتك، وممن أجاز ذلك أبو علي الفارسي، وابن كيسان، وابن برهان، ولذلك شواهد في شعر العرب، كقول طليحة بن خويلد الأسدي:
فلن تك أذواد أصبن ونسوة
فلن يذهبوا فرغاً بقتل حبال
وكقول كثير:

لئن كان برد الماء هيمان صاديا
إلي حبيباً إنها الحبيب
وقول الآخر:

تسليت طراً عنكم بعد بينكم
بذكركم حتى كأنكم عندي
وقول الآخر:

غافلاً تعرض المنية للمر
ء فيدعى ولات حين إباء
وقوله:

مشغوفة بك قد شغفت وإنما
حم الفراق فما إليك سبيل
وقوله:

إذا المرء أعيته المروءة ناشئاً
فمطلبها كهلاً عليه شديد

فقوله في البيت الأول فرغاً: أي هدرأ حال وصاحبة المجرور بالباء الذي هو بقتل، وحبال اسم رجل. وقوله في البيت الثاني: هيمان صادياً: حالان من ياء المتكلم المجرورة بإلي في قوله: إلي حبيباً. وقوله في البيت الثالث: طراً: حال من الضمير المجرور بعن في قوله: عنكم، وهكذا. . وتقدم الحال على صاحبها المجرور بالحرف منه أغلب النحويين.

وقال الزمخشري في الكشاف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾، إلا رسالة عامة لهم محيطة بهم؛ لأنها إذا شملتهم، فإنها قد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم.

وقال الزجاج: المعنى: أرسلناك جامعاً للناس في الإنذار والإبلاغ، فجعله حالاً من الكاف، وحق التاء على هذا أن تكون للمبالغة كناء الراوية، والعلامة، ومن جعله حالاً من المجرور متقدماً عليه فقد أخطأ؛ لأن تقدم حال المجرور عليه في الإحالة بمنزلة تقدم المجرور على الجار، وكم ترى ممن يرتكب هذا الخطأ ثم لا يقنع به حتى يضم إليه أن يجعل اللام بمعنى إلى؛ لأنه لا يستوي له الخطأ الأول إلا بالخطأ الثاني، فلا بد له من ارتكاب الخطأين. اهـ منه.

وقال الشيخ الصبان في حاشيته على الأشموني: جعل الزمخشري «كافة» صفة لمصدر محذوف أي رسالة كافة للناس، ولكن اعترض بأن كافة مختصة بمن يعقل وبالنصب على الحال كطراً، وقاطبة. انتهى محل الغرض منه. وما ذكره الصبان في «كافة» هو المشهور المتداول في كلام العرب، وأوضح ذلك أبو حيان في البحر. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قد بينا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَن تَطْعَ أَكْثَرُ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾ الآية [الأنعام: ١١٦]. وغير ذلك من المواضع. قوله تعالى: ﴿قُلْ لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَحْزِنُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِرُونَ﴾ (٣١).

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس في الكلام على قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَحْزِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ [يونس: ٤٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَرَيْتَ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾. إلى قوله: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾. ذكرنا بعض الآيات التي فيها بيان له في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦]، وبيناه في مواضع آخر من هذا الكتاب المبارك.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَعْدَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

جاء موضحاً في مواضع آخر كقوله تعالى: ﴿إِذِ الْأَعْدَلَ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ﴾ [غافر: ٧١] وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْدَلَ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ [الرعد: ٥]، وقوله: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ (٣٢) [الحاقة]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٣٣).

قد بينا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ مُّجْرِمِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وأوضحنا ذلك في سورة قد أفلح المؤمنون في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ ... الآية [المؤمنون: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ ٣٥.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا زُودَتْ إِلَىٰ ذِي الْحِجْدِ حَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلُكِي إِيَّاهُ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ٣٧ قَالُوا

سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَإِنَّا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ. قد قدمنا الآيات الموضحة له في

سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

فَقُولُوا أَأَنْتُمْ أَضَلُّهُمْ عِبَادِي أَهْلُكِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ ٣٧ قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَلْبِغِي لَنَا أَنْ

نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ ... الآية [الفرقان: ١٧، ١٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَاسَلْنَا نَبْتًا قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ

آبَاءَكُمْ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ ٩٢.

قد قدمنا الآيات التي بمعناها في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا تَلَفُوا مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَهُمْ فَكذبوا رُسُلِي فَكَيْفَ

كَانَ تَكْبِيرُ﴾ ٩٣. ما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أنه أهلك الأمم

الماضية لما كذبت رسله، وأن الأمم الماضية أقوى، وأكثر أموالاً وأولاداً، وأن كفار

مكة عليهم أن يخافوا من إهلاك الله لهم بسبب تكذيب رسوله ﷺ، كما أهلك الأمم

التي هي أقوى منهم، ولم يؤتوا: أي كفار مكة معشار ما أتى الله الأمم التي أهلكها من

قبل من القوّة، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً

وَأَنَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [غافر: ٨٢]، وقد قدمنا بعض الكلام على هذا في سورة الروم، في

الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرُ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَنَفَّسْكَرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ

شَدِيدٍ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة المؤمنون، في الكلام على قوله

تعالى: ﴿أَمَرُ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّهُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ ٩٧ [المؤمنون].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في

سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُوا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ

اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝٤٦﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَّكَ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتَ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَفِئٌ ۝٤٧﴾.

قد قدمنا الآيات التي بمعناها في سورة الأنبياء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ [الأنبياء: ٧٨]، في معرض بيان حجج الظاهرية في دعواهم منع الاجتهاد.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٤٨﴾.

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الكفار يوم القيامة يؤمنون بالله، وأن ذلك الإيمان لا ينفعهم لفوات وقت نفعه، الذي هو مدة دار الدنيا جاء موضحاً في آيات كثيرة.

وقد قدمنا الآيات الدالة عليه في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ﴾ الآية [الأعراف: ٥٣].

وفي سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝١٨﴾ [مريم]، وفي غير ذلك من المواضع. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، «أنى» تدل على كمال الاستبعاد هنا، والتناوش: التناول، وقال بعضهم: هو خصوص التناول السهل للشيء القريب.

والمعنى: أنه يستبعد كل الاستبعاد ويبعد كل البعد، أن يتناول الكفار الإيمان النافع في الآخرة بعد ما ضيعوا ذلك وقت إمكانه في دار الدنيا، وقيل الاستبعاد لردهم إلى الدنيا مرة أخرى ليؤمنوا، والأول أظهر، ويدل عليه قوله قبله: ﴿وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ﴾، ومن أراد تناول شيء من مكان بعيد لا يمكنه ذلك. والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة فاطر

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحٍ مَّثْنَىٰ وُتِلَكَ وَرُبْعٌ ۝١﴾. الألف واللام في قوله: «الحمد لله» للاستغراق: أي جميع المحامد ثابت لله - جلّ وعلا -، وقد أثنى - جلّ وعلا - على نفسه بهذا الحمد العظيم، معلماً خلقه في كتابه: أن يشنوا عليه بذلك، مقترناً بكونه فاطر السموات والأرض، جاعل الملائكة رسلاً، وذلك يدل على أن خلقه للسموات والأرض، وما ذكر معه يدل على عظمته، وكمال قدرته، واستحقاقه للحمد لذاته لعظمته وجلاله وكمال قدرته مع ما في خلق

يمسكه عنهم من رحمته وإنعامه لا يقدر أحد كائناً من كان أن يرسله إليهم، وهذا معلوم بالضرورة من الدين والرحمة المذكورة في الآية عامة في كل ما يرحم الله به خلقه من الإنعام الدنيوي والأخروي، كفتحهم رحمة المطر، كما قال تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧]. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْغَيِّثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾... الآية [الشورى: ٢٨]، ومن رحمته إرسال الرسل، وإنزال الكتب، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]، كما تقدم إيضاحه في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾... الآية [الكهف: ٦٥].

وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾... الآية [الفتح: ١١]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ الآية [الأحزاب: ١٧]. إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدّمنا بعض الكلام على هذا في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١٧] [الأنعام]، و ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يَفْجَحُ اللَّهُ﴾. وقوله: ﴿وَمَا يُنْسِكُ﴾ شرطية، وفتح الشيء التمكين منه وإزالة الحواجز دونه والإمساك بخلاف ذلك. قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

الاستفهام في قوله: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾ إنكاري، فهو مضمن معنى النفي.

والمعنى: لا خالق إلا الله وحده، والخالق هو المستحق للعبادة وحده.

وقد قدّمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الرعد، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ [الرعد: ١٦]، وفي سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وفي غير ذلك من المواضع.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، يدل على أنه تعالى هو الرازق وحده، وأن الخلق في غاية الاضطرار إليه تعالى.

والآيات الدالة على ذلك كثيرة كقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَكُمْ﴾ [الملك: ٢١]. وقوله: ﴿فَاتَّبِعُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقد قدّمنا كثيراً من الآيات الدالة على ذلك في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ ١. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من تسليته ﷺ، بأن ما لاقاه من قومه من التكذيب لاقاه الرسل الكرام من قومهم قبله - صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً - جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾ [الأنعام: ٣٤]. وقوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معروفة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾. قد قدمنا الآيات التي بمعناها في مواضع من هذا الكتاب المبارك كقوله تعالى في الكهف: ﴿فَاتَّخِذُوا لَهُ وَدُرَيْتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِكُمْ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِن أَحْصَى السَّعِيرِ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وفي الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ نَفْسُكَ عَلَى مَا نَزَّلْنَاهُمْ﴾ الآية [الكهف: ٦]. وغير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ مَعَابَا فَسَقَنَّهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَالْحَيَاتَا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الْفُتُورُ﴾ ٢. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن إحياءه تعالى الأرض بعد موتها المشاهد في دار الدنيا برهان قاطع على قدرته على البعث، قد تقدم إيضاحه بالآيات القرآنية في مواضع كثيرة في سورة البقرة، والنحل، والأنبياء، وغير ذلك، وقد تقدمت الإحالة عليه مراراً.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾. بين - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن من كان يريد العزة فإنها جميعها لله وحده، فليطلبها منه وليتسبب لنيلها بطاعته - جلّ وعلا -، فإن من أطاعه أعطاه العزة في الدنيا والآخرة، أما الذين يعبدون الأصنام لينالوا العزة بعبادتها، والذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يبتغون عندهم العزة، فإنهم في ضلال وعمى عن الحق؛ لأنهم يطلبون العزة من محل الذل.

وهذا المعنى، الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات من كتاب الله تعالى كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً يَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ ٣. ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ ٤. [مریم]. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئِنَّهُمْ عِندَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ٥. [يونس].

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ زَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾... الآية [المنافقون: ٨]. وقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصفات: ١٨] والعزة: الغلبة والقوة، ومنه قول الخنساء:

كَأَن لَّمْ يَكُونُوا حَمِي يَخْتَشِي إِذِ النَّاسِ إِذْ ذَاكَ مَنْ عَزَبَراً
أي من غلب استلب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَزَّزْنَا فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]، أي غلبني وقوي علي في الخصومة.

وقول من قال من أهل العلم: إن معنى الآية: من كان يريد العزة أي يريد أن يعلم لمن العزة؛ أصوب منه ما ذكرنا. والعلم عند الله تعالى.
قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾. قد تقدم بعض الكلام عليه في سورة النحل، مع إعراب السيئات.

وقد قدمنا في مواضع آخر أن من مكروهم السيئات كفرهم بالله وأمرهم أتباعهم به، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ أَلِيلٌ وَالنَّهَارُ إِذْ تَأْمُرُونَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣٣]. وكقوله تعالى: ﴿وَمَكُرُوا مَكْرًا كَبَّارًا﴾ [آل عمران: ٣١] وقالوا لا نذرنا الهتك ولا نذرنا ودا ولا سواعا ولا يعوث ويعوق ونسرا [نوح: ٦٨]. والعلم عند الله تعالى.
قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾.

قد تقدم إيضاحه بالآيات القرآنية في أول سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْتُمُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الرعد، في الكلام على قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا يُقِيضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]. مع بيان الأحكام المتعلقة بالآية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾. قد قدمنا بعض الكلام عليه في آخر سورة الأحزاب، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] وفي سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوهَا سِرْبًا وَقَمَراً شَمِيكًا﴾ [الفرقان: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾.

تقدم إيضاحه في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا﴾. قد تقدم الكلام عليه مع يسط أحكام فقهية تتعلق بذلك في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: ١٤].

وتقدم في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَمَعَسَرُ لَيْعِنَ وَالْإِنْسِ أَلَهُ يَأْتِيَكُمُ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

أَنَّ قوله في آية فاطر هذه: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَآكُلُونَ لَحْمًا طَرِيبًا وَنَسْتَخْرِجُونَ حَبِيَّةً تَلْبَسُونَهَا﴾، دليل قرآني واضح على بطلان دعوى من ادعى من العلماء أن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من البحر الملح خاصة.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة مريم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ١٢١]، وفي غيره من المواضع.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [١٥].

بين جلّ - وعلا - في هذه الآية الكريمة: أنه غني عن خلقه، وأن خلقه مفتقر إليه: أي فهو يأمرهم وينهاهم لا ليتنفع بطاعتهم، ولا ليدفع الضرر بمعصيتهم، بل النفع في ذلك كله لهم، وهو - جلّ وعلا - الغني لذاته، الغني المطلق.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة مع كونه معلوماً من الدين بالضرورة، جاء في مواضع كثيرة، من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ فَوْقَكُمْ غَيْرِكُمْ﴾ الآية [محمد: ٣٨]. وقوله تعالى: ﴿فَكْفُرُوا وَلَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الآية [التغابن: ٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨] إلى غير ذلك من الآيات.

وبذلك تعلم عظم افتراء الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء، وقد هددهم الله على ذلك بقوله: ﴿سَتَكُنُّبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمْ أَلْيُسْـَٔرًا يُغَيِّرُ حَقِّي وَقَوْلُوا دُفُّوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [١٦] وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ [١٧].

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النساء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ بَدِيلٍ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له مع الجواب عن بعض الأسئلة الواردة على الآية في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَدَعُ ثِقَلَهُ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يَجْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِينُونَ﴾ [النحل: ٢٥]، ووجه الجمع بين أمثال هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [العنكبوت: ١٣]، ونحوها من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن إنذاره ﷺ محصور في الذين يخشون ربهم بالغيب، وأقاموا الصلاة، وهذا الحصر الإضافي؛ لأنهم هم المنتفعون بالإنذار، وغير المنتفع بالإنذار، كأنه هو والذي لم ينذر سواء بجامع عدم النفع في كل منهما.

وهذا المعنى، جاء موضحاً في آيات من كتاب الله تعالى كقوله تعالى: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٦) ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ الآية [يس: ١٠، ١١]. وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ اتَّبَعَهَا﴾ (٤٥) [النازعات]، ويشبه معنى ذلك في الجملة قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] وقد قدمنا معنى الإنذار وأنواعه موضحاً في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ (٨) . قد قدمنا إيضاحه بالآيات في أول سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ [هود: ٢٤]. قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾. الأحياء هنا المؤمنون، والأموات الكفار، فالحياء هنا حياة إيمان والموت موت كفر.

وهذا المعنى، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَمْ نُورًا يَمْشِي يَوْمَ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فقوله: أو من كان ميتاً: أي موت كفر فأحييناه حياة إيمان، وكقوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٧٦) [يس]، فيفهم من قوله: ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾، أي وهي حياة إيمان أن الكافرين الذين حق عليهم القول ليسوا كذلك، وقد أطبق العلماء على أن معنى قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦] أن المعنى: والكفار يبعثهم الله.

وقد قدمنا هذا موضحاً بالآيات القرآنية في سورة النمل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْوَقْوَ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ﴾ ... الآية [النمل: ٨٠]. قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له وما جاء في سماع الموتى في سورة النمل في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْوَقْوَ﴾ الآية [النمل: ٨٠].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالْذَوَاتِ الْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُمْ كَذَلِكَ. قد قدمنا الكلام عليه في سورة الروم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْإِنْبَاءِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ السَّيِّدِ كُمْ وَالْوَيْكُمُ﴾ الآية [الروم: ٢٢]، وبيننا هناك دلالة الآيات على أنه - جلّ وعلا - هو المؤثر وحده، وأن الطبائع لا تأثير لها إلا بمشيئته تعالى.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، إلى قوله ﴿وَلِبَاسُهمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾. قد قدمنا الكلام على هذه الآية، مع نظائرها من آيات الرجاء استطراداً، وذكرنا معنى الظالم والمقتصد والسابق، ووجه تقديم الظالم عليهما بالوعد في الجنات في سورة النور، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِلُ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى﴾... الآية [النور: ٢٢].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلِبَاسُهمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣]، قد قدمناه مع الآيات المماثلة والمشابهة له في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُوا مِنْهُ جِلْبَةً فَلْيُسْوَاهَا﴾ [النحل: ١٤].

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُمْ يَقُولُ الَّذِينَ سُوءُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَةٍ فَيشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾... الآية [الأعراف: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٣]، وفي سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الآية [الرعد: ١٦].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُنْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَا﴾ قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيُنْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥].

قوله تعالى: ﴿وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهمْ لَعَلَّ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لِيَكُونُوا أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُتُمِ﴾ قد قدمنا الكلام عليه في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ الآية [الأنعام: ١٥٧].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمْ مِنْ دَابَّةٍ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له وشواهد العربية في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾... الآية [النحل: ٦١].



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يس

قوله تعالى: ﴿يَسْ﴾. التحقيق أنه من جملة الحروف المقطعة في أوائل السور، والياء المذكورة فيه ذكرت في فاتحة سورة مريم في قوله تعالى: ﴿كَهَيَّصَ﴾. والسين المذكورة فيه ذكرت في أول الشعراء والقصص. في قوله:

﴿طَسَّرَ ١﴾، وفي أول النمل في قوله: ﴿طَسَّ﴾، وفي أول الشورى في قوله تعالى: ﴿حَمَّ ٢﴾ ﴿عَسَقَ ٣﴾ [الشورى].

وقد قدّمنا الكلام مستوفى على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة هود.

قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣﴾. قد بيّنا أنّ موجب التوكيد لكونه من المرسلين، هو إنكار الكفار لذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣]، في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ١٥٢﴾ [البقرة].

قوله تعالى: ﴿لَنُنَزِّلَ فَوْقَ مَا نُذِرُ أَبَاوَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ١﴾. لفظة «ما» في قوله تعالى: ﴿مَا نُذِرُ أَبَاوَهُمْ﴾، قيل نافية وهو الصحيح، وقيل: موصولة، وعليه فهو المفعول الثاني لتنذر. وقيل: مصدرية.

وقد قدّمنا دلالة الآيات على أنها نافية، وأن مما يدل على ذلك ترتيبه بالفاء عليه قوله بعده: ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾؛ لأن كونهم غافلين يناسب عدم الإنذار لا الإنذار، وهذا هو الظاهر مع آيات أخر دالة على ذلك كما أوضحنا ذلك كله. في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٧﴾.

الظاهر أن القول في قوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَفِيضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ الآية [افصلت: ٢٥]. وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ الآية [القصص: ٦٣]. وفي قوله تعالى: ﴿وَبِحَقِّ الْقَوْلِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿حَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ٣٦﴾ [الصفافات]، والكلمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ٩٧﴾ [يونس]. وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، أن المراد بالقول والكلمة أو الكلمات على قراءة: «حقت عليهم كلمات ربك» بصيغة الجمع، هو قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، كما دلت على ذلك آيات من كتاب الله تعالى: كقوله تعالى في آخر سورة هود: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْلِيفِينَ ١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ١٩﴾ [هود]، وقوله تعالى في السجدة: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ١٢٢﴾ [السجدة].

وقوله تعالى في أخريات ص: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ١٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ بَعْدَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ١٨٥﴾ [ص].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾، يدل على أن أكثر الناس من أهل جهنم، كما دلت على ذلك آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هـود: ١٧]، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٣]، ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٦]، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨].

وقد قدمنا الكلام على هذا في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تُطِيعَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] الآية.

وبيّنا بالسنة الصحيحة في أول سورة الحج: أن نصيب النار من الألف تسعة وتسعون وتسعمائة، وأن نصيب الجنة منها واحد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْيُنِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾ [٨] وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [٩].

الأغلال: جمع غل وهو الذي يجمع الأيدي إلى الأعناق، والأذقان: جمع ذقن وهو ملتقى اللحيين، والمقمح بصيغة اسم المفعول، هو الرافع رأسه. والسد بالفتح والضم: هو الحاجز الذي يسد طريق الوصول إلى ما وراءه.

وقوله: ﴿فَأَعْشَيْنَاهُمْ﴾، أي جعلنا على أبصارهم الغشاوة، وهي الغطاء الذي يكون على العين يمنعها من الإبصار، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ غُشُوءٌ﴾ [البقرة: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غُشُوءٌ﴾ [الجاثية: ٢٣]. وقول الشاعر وهو الحارث بن خالد بن العاص:

هويتك إذ عيني عليها غشاوة فلما انجلت قطعت نفسي ألزمتها

والمراد بالآية الكريمة: أن هؤلاء الأشقياء الذين سبقت لهم الشقاوة في علم الله المذكورين في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٧]، صرفهم الله عن الإيمان صرفاً عظيماً مانعاً من وصوله إليهم؛ لأن من جعل في عنقه غل، وصار الغل إلى ذقنه، حتى صار رأسه مرفوعاً لا يقدر أن يطأطئه، وجعل أمامه سد، وخلفه سد، وجعل على بصره الغشاوة لا حيلة له في التصرف، ولا في جلب نفع لنفسه، ولا في دفع ضرر عنها، فالذين أشقاهم الله بهذه المثابة لا يصل إليهم خير.

وهذا المعنى، الذي دلت عليه هذه الآية من كونه - جلّ وعلا - يصرف الأشقياء الذين سبقت لهم الشقاوة في علمه عن الحق ويحول بينهم وبينه، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧]. وقوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ غُشُوءٌ﴾ [البقرة: ٧]. وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهَ عَلَىٰ عِلْرٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غُشُوءٌ﴾ [الجاثية: ٢٣]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا

كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ [الأنعام: ١٢٥]. وقوله تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَسَا هَادِيَ لَمْ﴾ [الأعراف: ١٨٦]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرَ قُلُوبُهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْقَافِلُونَ﴾ [النحل]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقد قدّمنا أن هذا الطبع والختم على القلوب وكذلك الأغلال في الأعناق، والسد من بين أيديهم ومن خلفهم، أنّ جميع تلك الموانع المانعة من الإيمان، ووصول الخير إلى القلوب أنّ الله إنّما جعلها عليهم بسبب مسارعتهم لتكذيب الرسل، والتمادي على الكفر، فعاقبهم الله على ذلك بطمس البصائر والختم على القلوب والطبع عليها، والغشاوة على الأبصار؛ لأنّ من شؤم السيئات أنّ الله - جلّ وعلا - يعاقب صاحبها عليها بتماديه على الشر، والحيلولة بينه وبين الخير جزاءه الله بذلك على كفره جزاءً وفاقاً.

والآيات الدالة على ذلك كثيرة كقوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، فالباء سببية، وفي الآية: تصريح منه تعالى أن سبب ذلك الطبع على قلوبهم هو كفرهم، وكقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣]، ومعلوم أنّ الفاء من حروف التعليل: أي فطبع على قلوبهم بسبب كفرهم ذلك، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]. وقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه.

وقد دللت هذه الآيات على أنّ شؤم السيئات يجر صاحبه إلى التماذي في السيئات، ويفهم من مفهوم مخالفة ذلك، أن فعل الخير يؤدي إلى التماذي في فعل الخير، وهو كذلك كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، إلى غير ذلك من الآيات.

واعلم: أنّ قول من قال من أهل العلم: إنّ معنى قوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْيُنِهِمْ أَغْشَاةً﴾، أن المراد بذلك الأغلال التي يعذبون بها في الآخرة كقوله تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِيْ أَعْيُنِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [في الحميم] ثمّ في النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧﴾ [غافر]، خلاف التحقيق، بل المراد بجعل الأغلال في أعناقهم وما

ذكر معه في الآية هو صرفهم عن الإيمان والهدى في دار الدنيا كما أوضحنا. وقرأ هذه الحرف حمزة، والكسائي، وحفص، عن عاصم: «سداً» بالفتح في الموضعين، وقرأه الباقون بضم السين، ومعناهما واحد على الصواب. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾. تقدم إيضاحه مع نظائره من الآيات في سورة فاطر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [فاطر: ١٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ (٧). ذكر - جل - وعلا - في هذه الآية الكريمة أربعة أشياء.

الأول: أنه يحيي الموتى مؤكداً ذلك متكلماً عن نفسه بصيغة التعظيم.

الثاني: أنه يكتب ما قدموا في دار الدنيا.

الثالث: أنه يكتب آثارهم.

الرابع: أنه أحصى كل شيء في إمام مبين. أي في كتاب بين واضح، وهذه الأشياء الأربعة جاءت موضحة في غير هذا الوضع.

أما الأول منها: وهو كونه يحيي الموتى بالبعث فقد جاء في آيات كثيرة من كتاب الله تعالى. كقوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧] وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُمْ لَحَقُّ﴾ [يونس: ٥٣]. وقوله تعالى: ﴿وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَذَابٌ عَلَيْهِمْ حَقٌّ﴾ [النحل: ٣٨]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقد قدمناها بكثرة في سورة البقرة، وسورة النحل، في الكلام على براهين البعث، وقدمنا الإحالة على ذلك مراراً.

وأما الثاني منها: وهو كونه يكتب ما قدموا في دار الدنيا فقد جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥]. وقوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُطِيقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩]. وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُرْضِهِ وَنُخْرِجُهُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا﴾ (١٢) أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٣) [الإسراء: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَرَى الْمَجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُرْوِلُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ ... الآية [الكهف: ٤٩]. وقوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (١٨) [ق].

وقد قدمنا بعض الكلام على هذا في سورة الكهف.

وأما الثالث منها: وهو كونهم تكتب آثارهم فقد ذكر في بعض الآيات أيضاً.

واعلم: أن قوله: «وآثارهم» فيه وجهان من التفسير معروفان عند العلماء:

الأول منهما: أن معنى ما قدموا ما باشروا فعله في حياتهم، وأن معنى آثارهم: هو ما سنّوه في الإسلام من سنة حسنة أو سيئة، فهو من آثارهم التي يعمل بها بعدهم.

الثاني: أن معنى آثارهم خطاهم إلى المساجد ونحوها من فعل الخير، وكذلك خطاهم إلى الشر، كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم» يعني خطاكم من بيوتكم إلى مسجده ﷺ.

أما على القول الأول فالله - جلّ وعلا - قد نص على أنهم يحملون أوزار من أضلوهم وسنّوا لهم السنن السيئة كما في قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الآية [النحل: ٢٥]. وقوله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وقد أوضحنا ذلك في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الآية [النحل: ٢٥]، وذكرنا حديث جرير، وأبي هريرة في صحيح مسلم في إيضاح ذلك.

ومن الآيات الدالة على مؤاخذه الإنسان بما عمل به بعده مما سنه من هدى أو ضلالة؛ قوله تعالى: ﴿يَبْقَا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة]، بناء على أن المعنى بما قدم مباشراً له، وآخر مما عمل به بعده مما سنه من هدى أو ضلال. وقوله تعالى: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار]، على القول بذلك.

وأما على التفسير الثاني: وهو أن معنى آثارهم خطاهم إلى المساجد ونحوها، فقد جاء بعض الآيات دالاً على ذلك المعنى كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢١]، لأن ذلك يستلزم أن تكتب لهم خطاهم التي قطعوا بها الوادي في غزوهم.

وأما الرابع: وهو قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾، فقد تدل عليه الآيات الدالة على الأمر الثاني، وهو كتابة جميع الأعمال التي قدموها بناء على أن المزداد بذلك خصوص الأعمال.

وأما على فرض كونه عاماً فقد دلت عليه آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَلَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨] وقوله تعالى: ﴿مَّا قَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]. بناء على أن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ، وهو أصح القولين. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [١٥].

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بتي إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة عن الكفار ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا

تَكْذِبُونَ ﴿٨﴾، قد بين أنهم قد قالوا ذلك في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَلْفَيْ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُنَا آلَ رَأْسٍ يَأْتِيهِمْ بَلَدٌ بَلَدٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴿٩﴾﴾ [الملئ: ٨، ٩]، وقد بين تعالى أن الذين أنكروا إنزال الله الوحي كهؤلاء أنهم لم يقدره حق قدره: أي لن يعظموه حق عظمتهم وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام: ٩١].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا نَطِيرُنَا يَوْمَ يُكَمِّ لِبَاسُنَا لَنَرَّ نَلَوْنَهُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٨﴾﴾ قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ ﴿١٠٩﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ ﴿١١٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣١]، وذكرنا بعض الكلام عليه في سورة النمل في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَيَمْنُ مَعَكُمْ ﴿١٤٧﴾﴾ ... الآية [النمل: ١٤٧].

قوله تعالى: ﴿أَتَسْمِعُونَ مَن لَّا يَشْكُرُ أَجْرًا ﴿١٢٩﴾﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له، وما يتعلق بها من الأحكام في سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَنْقُورُ لَّا أَشْكُرُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَّا إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴿١٢٩﴾﴾ [هود: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٣٠﴾﴾. قوله: فطرني معناه: خلقتني وابتدعني، كما تقدم إيضاحه في أول سورة فاطر.

والمعنى: أي شيء ثبت لي يمنعني من أن أعبد الذي خلقتني، وابتدعني، وأبرزني من العدم إلى الوجود، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الذي يخلق هو وحده الذي يستحق أن يعبد وحده، جاء موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله.

وقد قدمنا إيضاح ذلك في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الفرقان: ١٣]، وفي سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد: ١٦].

قوله تعالى: ﴿ءَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يَرُدِّنَ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُعْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُفِيدُونِ ﴿١٣١﴾﴾ [إِن إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٣٢﴾﴾. الاستفهام في قوله تعالى: ﴿ءَاتَّخَذُوا﴾: للإنكار، وهو مضمن معنى النفي: أي لا أعبد من دون الله معبودات، إن أَرَادَنِي الله بضر لا تقدر على دفعه عني، ولا تقدر أن تنقذني من كرب.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من عدم فائدة المعبودات من دون الله جاء موضحاً في آيات من كتاب الله تعالى: كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [الإسراء: ٥١]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢]. وقوله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَمْلِكُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ شَيْئًا وَمَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿لَا تَعْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا﴾، أي لا شفاعة لهم أصلاً حتى تغني شيئاً، ونحو هذا أسلوب عربي معروف، ومنه قول امرئ القيس:

على لاحب لا يهتدى بمناره إذا سافه العود النباطي جرجرا

فقوله: لا يهتدى بمناره: أي لا منار له أصلاً حتى يهتدى به، وقول الآخر:

لا تفرع الأرنب أهوالها ولا ترى الضب بها ينجر

أي لا أرنب فيها، حتى تفرعها أهوالها، ولا ضب فيها حتى ينجر: أي يتخذ حجراً.

وهذا المعنى، هو المعروف عند المنطقيين بقولهم: السالبة لا تقتضي وجود الموضوع. كما تقدم إيضاحه.

قوله تعالى: ﴿يَحْزَنُونَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [٢١].

بين - جلّ وعلا - أن العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون غير مكتفين بتكذيبه، بل جامعين معه الاستهزاء.

وقوله تعالى في هذه الآية: الكريمة ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾، نص صريح في تكذيب الأمم لجميع الرسل لما تقرر في الأصول، من أن النكرة في سياق النفي إذا زيدت قبلها من فهي نص صريح في عموم النفي، كما هو معروف في محله.

وهذا العموم الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات أخر، وجاء في بعض الآيات إخراج أمة واحدة عن حكم هذا العموم بمخصص متصل، وهو الاستثناء.

فمن الآيات الموضحة لهذا العموم قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ]. وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْأَسَا وَالضَّرَبِ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَخَذْتَهُمْ بَغْةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤ - ٩٥].

وقد قدمنا الكلام على هذا في سورة قد أفلح المؤمنون، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَهُمْ مِنْهُمْ كَذَّبُوهُ﴾ ... الآية [المؤمنون: ٤٤].

وقدّمنا طرفاً من الكلام عليه في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِينَ﴾ ... الآية [الأنعام: ١٢٣].

وأما الأمة التي أخرجت من هذا العموم فهي أمة يونس، والآية التي بينت ذلك هي قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْنَ لِمَا ءَامَنُوا كُفَرْتُمْ عَنْهُمْ﴾

عَذَابَ الْعِزِّي فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْتُمْ إِلَى حِينٍ ﴿٣٣﴾ [يونس]. وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُ ﴿٣٤﴾ فَأَمَّا نَافَثَتْهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ [الصافات]، والحسرة أشد الندامة، وهو منصوب على أنه منادى عامل في المجزوء بعده، فأشبهه المنادى المضاف.

والمعنى: يا حسرة على العباد تعالى واحضري فإن الاستهزاء بالرسول هو أعظم الموجبات لخضورك.

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَهْمٍ الْأَرْضُ الَّتِي تَبَىٰ﴾ - إلى قوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

قد قدمنا أن إحياء الأرض المذكور في هذه الآية، برهان قاطع على البعث في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]، وفي سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النمل]، وفي غير ذلك من المواضع. وأوضحنا في المواضع المذكورة، بقية براهين البعث بعد الموت.

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَهْمٍ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَسْحُونِ﴾ [١١] وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾... الآية [النحل: ١٤].

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [١١].

ذم - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة الكفار بإعراضهم عن آيات الله.

وهذا المعنى، الذي تضمنته هذه الآية جاء في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى في أول سورة الأنعام: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [١] فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٤، ٥]. وقوله تعالى في آخر يوسف: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [١٥٥] [يوسف]، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتِ السَّاعَةَ وَاشْتَقَّى الْقَمَرُ﴾ [١] وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْتَرٍ﴾ [١] [القمر]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ [١] وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ [١] [الصافات]، وأصل الإعراض مشتق من العرض بالضم، وهو الجانب؛ لأن المعرض عن الشيء يولي به جانب عنقه صاداً عنه.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [٥١].

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة النفخة الأخيرة، والصور قرن من نور ينفخ فيه الملك نفخة البعث، وهي النفخة الأخيرة، وإذا نفخها قام جميع أهل القبور من قبورهم، أحياء إلى الحساب والجزاء.

وقوله: ﴿إِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾، جمع جدث بفتحيتين، وهو القبر، وقوله: ينسلون: أي يسرعون في المشي من القبور إلى المحشر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاجًا كَانَتْهُمْ إِلَىٰ نَصْبِ يَوْمُوفُونَ﴾ [١] [المعارج]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ الآية [ق: ٤٤]. وكقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَانَتْهُمْ جَرَادًا مُتَشِيرًا﴾ [٧] مُهْطِعِينَ

إِلَى الدَّاعِ ﴿القمر: ٧، ١٨ الآية. وقوله: ﴿مُتَّعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾، أي مسرعين مادي أعناقهم على أشهر التفسيرين. ومن إطلاق نسل بمعنى أسرع.
قوله تعالى: ﴿حَقَّقْ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ ﴿٩٦﴾
[الأنبياء] وقول لبيد:

عسلان الذئب أمسى قارباً برد الليل عليه فنسل

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن أهل القبور يقومون أحياء عند النفخة الثانية، جاء موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله تعالى كقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِيَّامٍ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿١٨﴾ [الزمر]. وقوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ ﴿٥٣﴾، وهذه الصيحة هي النفخة الثانية كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ ﴿٩٦﴾ [ق]، أي الخروج من القبور. وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ ﴿٩٧﴾ [النازعات]، والزجرة: هي النفخة الثانية. والساهرة: وجه الأرض والفلاة الواسعة، ومنه قول أبي كبير الهذلي:

يرتدن ساهرة كأن جميمها وعميمها أسداف ليل مظلم

وقول الأشعث بن قيس:

وساهرة يضجى السراب مجللاً لأقطارها قد حببتها مثلثماً

وكقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿٩٧﴾ [الصافات]. وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ ﴿١٥﴾ [الروم]، وهذه الدعوة بالنفخة الثانية، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ ... الآية [الإسراء: ٥٢]. إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَتَوَلَّوْنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَرْفِدٍ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿٥٦﴾. قد قدمنا الكلام عليه في سورة الروم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦].
قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿١٠﴾ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١١﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، وأوضحنا فيه التفصيل بين النظم الوضعية، وفي سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٢﴾.

قوله: جبلاً كثيراً. أي خلقاً كثيراً كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّ الْأُولَىٰ﴾ [الشعراء]، وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من كون الشيطان أضل خلقاً كثيراً من بني آدم جاء مذكوراً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا

يَمَعَّشَرَ الْإِنْسِ قَدْ اسْتَكَرَّتْهُ مِنَ الْإِنْسِ ﴿[الأنعام: ١٢٨]، أي قد استكثرتهم أيها الشياطين، من إضلال الإنس، وقد قال إبليس: ﴿لَئِنْ أَهَرْتَنَ إِلَى يَوْمِ الْفَلِئِمَةِ لَأَحْتَنِكَ ذَرِيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقد بين تعالى أن هذا الظن الذي ظنه بهم من أنه يضلهم جميعاً إلا القليل صدقه عليهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيْقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ]، كما تقدم إيضاحه. وقرأ هذا الحرف نافع وعاصم: «جبلًا» بكسر الجيم والباء وتشديد اللام، وقرأه ابن كثير وحمزة والكسائي: «جبلًا» بضم الجيم، والباء وتخفيف اللام، وقرأه أبو عمرو وابن عامر: «جبلًا» بضم الجيم وتسكين الباء مع تخفيف اللام، وجميع القراءات بمعنى واحد؛ أي خلقاً كثيراً.

قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَاتُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، ما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من شهادة بعض جوارح الكفار عليهم يوم القيامة، جاء موضعاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة النور: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور]. وقوله تعالى في فصلت: ﴿حَقِّقْ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٢٠]، وَقَالُوا لِمَ يُجْزَوْنَهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ... الآية [فصلت: ٢٠، ٢١]. وقد قدمنا الكلام على هذا في سورة النساء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْفُرُونَ اللَّهُ حَاشَا﴾ [النساء: ٤٢].

وبينا هناك: أن آية يس هذه توضح الجمع بين الآيات كقوله تعالى عنهم: ﴿وَلَا يَكْفُرُونَ اللَّهُ حَاشَا﴾ [النساء: ٤٢]. مع قوله عنهم: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام]، ونحو ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [١٨]. قوله تعالى: ننكسه في الخلق؛ أي نقلبه فيه، فنخلقه على عكس ما خلقناه من قبل، وذلك أنا خلقناه على ضعف في جسده، وخلو من عقل وعلم، ثم جعلناه يتزايد وينتقل من حال إلى حال، ويرتقي من درجة إلى درجة إلى أن يبلغ أشده، ويستكمل قوته ويعقل ويعلم ما له وما عليه، فإذا انتهى نكسناه في الخلق، فجعلناه يتناقص حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبي في ضعف جسده وقلة عقله وخلوه من العلم، وأصل معنى التنكيس: جعل أعلى الشيء أسفله.

وهذا المعنى، الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضعاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ الآية [الروم: ٥٤]. وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [١]، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ الآية [التين]. على أحد التفسيرين، وقوله تعالى في الحج: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥]. وقوله تعالى في النحل: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧]. وقوله تعالى في سورة المؤمن: ﴿ثُمَّ لِنَكُونُوا شُيُوعًا﴾ [غافر: ٦٧].

- وقد قدمنا الكلام على هذا في سورة النحل. وقرأ هذا الحرف عاصم، وحمزة:

«ننكسه» بضم النون الأولى، وفتح الثانية وتشديد الكاف المكسورة من التنكيس: وقرأه الباقون بفتح النون الأولى، وإسكان الثانية، وضم الكاف مخففة مضارع نكسه المجرد وهما بمعنى واحد. وقرأ نافع وابن ذكوان عن ابن عامر: «أفلا تعقلون» بتاء الخطاب، وقرأه الباقون: «أفلا يعقلون» بياء الغيبة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾: قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الشعراء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾ ﴿١٢٢﴾ [الشعراء]، وذكرنا الأحكام المتعلقة بذلك هناك.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٧٧﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النمل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتِ وَلَا تَسْمِعُ الْقُلُوبَ﴾ الآية [النمل: ٨٠]. وفي سورة فاطر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَغْيَاءُ وَلَا الْأَمْرُتُ﴾ [فاطر].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٧٦﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل، في الكلام على قوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل].

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَبَسَى خَلْقَهُ﴾ - إلى قوله - ﴿وَهُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ﴾. قد بينا الآيات الموضحة له في سورة البقرة، والنحل، مع بيان براهين البعث.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٨٧﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل]. وبيننا هناك أن الآيات المذكورة لا تنافي مذهب أهل السنة في إطلاق اسم الشيء على الموجود دون المعدوم، وقد قدمنا القراءتين وتوجيههما في قوله: «كن فيكون» هناك.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الصافات

قوله تعالى: ﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًّا﴾ ﴿١﴾ فَالْزَجَرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالْجِبَالِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَهُكُمُ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ ﴿٥﴾.

أكثر أهل العلم على أن المراد بالصفات هنا، والزاجرات، والتاليات: جماعات الملائكة، وقد جاء وصف الملائكة بأنهم صافون، وذلك في قوله تعالى عنهم: ﴿وَلَا نَحْنُ الصَّافُونَ﴾ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَعْنُ الْمُسِيحُونَ ﴿١٦٦﴾، ومعنى كونهم صافين: أن يكونوا صفوفاً

متراسين بعضهم جنب بعض في طاعة الله تعالى، من صلاة وغيرها. وقيل: لأنهم يصفون أجنحتهم في السماء، ينتظرون أمر الله، ويؤيد القول الأول حديث حذيفة الذي قدمنا في أول سورة المائدة في صحيح مسلم: وهو قوله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت لنا تربتها طهوراً إذا لم نجد الماء»، وهو دليل صحيح على أن الملائكة يصفون كصفوف المصلين في صلاتهم، وقد جاء في بعض الآيات ما يدل على أنهم يلقون الذكر على الأنبياء؛ لأجل الإعذار والإنذار به كقوله تعالى: ﴿فَالْمُؤَيَّدَاتُ دَكْرًا ۝ عَذْرَاءُ أَوْ تَنْذَرًا ۝﴾ [المرسلات]، فقوله: ﴿فَالْمُؤَيَّدَاتُ دَكْرًا ۝﴾. كقوله هنا: ﴿فَالْمُؤَيَّدَاتُ دَكْرًا ۝﴾؛ لأن الذكر الذي تتلوه تلقية إلى الأنبياء كما كان جبريل ينزل بالوحي على نبينا وغيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه على الجميع، وقوله: ﴿عَذْرَاءُ أَوْ تَنْذَرًا ۝﴾ أي لأجل الإعذار والإنذار، أي بذلك الذكر الذي تتلوه وتلقيه، والإعذار: قطع العذر بالتبليغ.

والإنذار قد قدمنا إيضاحه وبيننا أنواعه في أول سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿الْقَصِّ ۝ كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الأعراف]. وقوله في هذه الآية: ﴿فَالزَّاجِرَاتُ زَجْرًا ۝﴾، الملائكة تزجر السحاب، وقيل تزجر الخلائق عن معاص الله بالذكر الذي تتلوه، وتلقيه إلى الأنبياء.

وممن قال بأن الصافات والزاجرات والتاليات في أول هذه السورة الكريمة هي جماعات الملائكة: ابن عباس، وابن مسعود، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة؛ كما قاله القرطبي وابن كثير وغيرهما، وزاد ابن كثير وغيره ممن قال به: مسروقاً والسدي والربيع بن أنس، وقد قدمنا أنه قول أكثر أهل العلم.

وقال بعض أهل العلم: الصافات في الآية الطير تصف أجنحتها في الهواء. واستأنس لذلك بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ قَوْعَهُمْ صَفَقَاتُ وَيَقَعْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ ۝﴾ الآية [الملك: ١٩]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَقَاتُ كُلِّ قَدِّعِلْمٍ صَلَاتُهُمْ وَسُجُودُهُمْ ۝﴾ ... الآية [النور: ٤١].

وقال بعض العلماء: المراد بالصافات جماعات المسلمين يصفون في مساجدهم للصلاة، ويصفون في غزوهم عند لقاء العدو، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُتَيْنَ مَرْصُومٍ ۝﴾ [الصف].

وقال بعض العلماء أيضاً: المراد بالزاجرات زجراً، والتاليات ذكراً: جماعات العلماء العاملين يلقون آيات الله على الناس، ويزجرون عن معاص الله بآياته، ومواعظه التي أنزلها على رسله.

وقال بعضهم: المراد بالزاجرات زجراً: جماعات الغزاة يزجرون الخيل لتسرع إلى الأعداء، والقول الأول أظهر وأكثر قائلًا، ووجه توكيده تعالى قوله: ﴿إِنَّ إِلَهُكُمْ

لَوْجِدُ ﴿١﴾، بهذه الأقسام، وبأن واللام هو أن الكفار أنكروا كون الإله واحداً إنكاراً شديداً وتعجبوا من ذلك تعجباً شديداً، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص]، ولما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ﴿٢﴾، أقام الدليل على ذلك بقوله: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ ﴿٣﴾، فكونه خالق السماوات والأرض الذي جعل فيها المشرق والمغرب، برهان قاطع على أنه المعبود وحده.

وهذا البرهان القاطع الذي أقامه هنا على أنه هو الإله المعبود وحده، أقامه على ذلك أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَاللَّهُكَ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة]، فقد أقام البرهان على ذلك بقوله بعده متصلاً به: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِثَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْرَجَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة].

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: فإن قلت: ما حكم الفاء إذا جاءت عاطفة في الصفات؟ قلت: إما أن تدل على ترتب معانيها في الوجود كقوله:

يَا لَهْفَ زِيَابَةٍ لِلْحَارِثِ الْـ صَاحِبِ فَالْغَانِمِ فَالْأَنْبِ

كأنه قيل: الذي صبح فغنم فأب، وإما على ترتبها في التفاوت من بعض الوجوه كقولك: خذ الأفضل فالأكمل، واعمل الأحسن فالأجمل، وإما على ترتب موصوفاتها في ذلك كقوله: رحم الله المحلقين فالمقصرين، فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساق أمر الفاء العاطفة في الصفات.

فإن قلت: فعلى أي هذه القوانين هي فيما أنت بصدده؟

قلت: إن وُحِّدَ الموصوف كانت للدلالة على ترتب الصفات في التفاضل، وإن ثلثته فهي للدلالة على ترتب الموصوفات فيه.

بيان ذلك: أنك إذا أجريت هذه الأوصاف على الملائكة، وجعلتهم جامعين لها فعطفها بالفاء يفيد ترتبها لها في الفضل، إما أن يكون الفضل للصف، ثم للزجر ثم للتلاوة. وإما على العكس، وكذلك إن أردت العلماء وقواد الغزاة. وإن أجريت الصفة الأولى على طوائف والثانية والثالثة على آخر، فد أفادت ترتب الموصوفات في الفضل؛ أعني أن الطوائف الصافات ذوات فضل والزاجرات أفضل، والتاليات أبهر فضلاً أو على العكس، وكذلك إذا أردت بالصفات الطير، وبالزاجرات كل ما يزجر عن معصية، وبالتاليات كل نفس تلو الذكر، فإن الموصوفات مختلفة. انتهى كلام الزمخشري في الكشف.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: كلام صاحب الكشف هذا نقله عنه أبو حيان، والقرطبي وغيرهما، ولم يتعقبوه، والمظاهر أنه كلام لا تحقيق فيه، ويوضح ذلك

اعتراف الزمخشري نفسه بأنه لا يدري ما ذكره: هل هو كذا أو على العكس، وذلك صريح في أنه ليس على علم مما يقوله؛ لأن من جزم بشيء ثم جوز فيه النقيضين دل ذلك على أنه ليس على علم مما جزم به.

والأظهر الذي لا يلزمه إشكال أن الترتيب بالفاء لمجرد الترتيب الذكري، والإتيان بأداة الترتيب لمجرد الترتيب الذكري فقط دون إرادة ترتيب الصفات أو الموصوفات أسلوب عربي معروف جاء في القرآن في مواضع، وهو كثير في كلام العرب.

ومن أمثلته في القرآن العظيم قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْنَمَ الْقَبَّةَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَبَّةَ ۝ فَكَ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ ۝ يَسْمَا ذَا مَقَرَبَةٍ ۝ أَوْ مَشْكِنًا ذَا مَقَرَبَةٍ ۝ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَةِ ۝﴾ الآية [البلد]، فلا يخفى أن ثم حرف ترتيب وأن المرتب به الذي هو كونه من الذين آمنوا لا ترتب له على ما قبله إلا مطلق الترتيب الذكري، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ... الآية [الأنعام: ١٥٣، ١٥٤]، كما لا يخفى أن الترتيب فيه ذكري.

وقد قدمنا الكلام على هذا في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّكَاسُ﴾ [البقرة: ٦٩٩]. ومن أمثلة ذلك في كلام العرب قوله: إن من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جده وقوله تعالى: في هذه الآية الكريمة: ﴿وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾، لم يذكر في هذه الآية إلا المشارق وحدها، ولم يذكر فيها المغارب.

وقد بينا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب: وجه اختلاف ألفاظ الآيات في ذلك. فقلنا فيه في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥]، ما لفظه: أفرد في هذه الآية الكريمة المشرق والمغرب، وثناهما في سورة الرحمن في قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ٧]، وجمعهما في سورة سأل سائل في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، وجمع المشارق في سورة الصافات في قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝﴾.

والجواب: أن قوله هنا: والله المشرق والمغرب المراد به جنس المشرق والمغرب، فهو صادق بكل مشرق من مشارق الشمس التي هي ثلاثمائة وستون، وكل مغرب من مغاربها التي هي كذلك كما روي عن ابن عباس وغيره.

قال ابن جرير في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه: وإنما معنى ذلك: والله المشرق الذي تشرق منه الشمس كل يوم، والمغرب الذي تغرب فيه كل يوم.

فتأويله إذا كان ذلك معناه: والله ما بين قطري المشرق وقطري المغرب إذا كان

شروق الشمس كل يوم من موضع منه لا تعود لشروقها منه إلى الحول الذي بعده، وكذلك غروبها: انتهى منه بلفظه:

وقوله: ﴿رَبُّ الشَّرْقَيْنِ وَرَبُّ الْغَرْبَيْنِ﴾ [٧] ﴿الرَّحْمَنُ﴾، يعني مشرق الشتاء، ومشرق الصيف، ومغربهما كما عليه الجمهور، وقيل: مشرق الشمس والقمر ومغربهما.

وقوله: ﴿رَبِّ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، أي مشارق الشمس ومغاربها كما تقدم. وقيل: مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنًا أَلَمَّا دُنِيَ زَيْنَ الْكُوكَبِ﴾ [١]. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ الآية [الأنعام: ٩٧]. وقرأ هذا الحرف السبعة غير عاصم وحمزة، بإضافة زينة إلى الكواكب أي بلا تنوين في زينة، مع خفض الباء في الكواكب. وقرأه حمزة وحفص عن عاصم: بتنوين زينة، وخفض الكواكب على أنه بدل من زينة. وقرأه أبو بكر عن عاصم: «بزينة الكواكب» بتنوين زينة، ونصب الكواكب، وأعرب أبو حيان الكواكب على قراءة النصب إعرابين:

أحدهما: أَنَّ الكواكب بدل من السماء في قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنًا أَلَمَّا﴾.

والثاني: أَنَّهُ مفعول به لزينة بناء على أنه مصدر منكر، كقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْمَعُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ﴾ [٢] ﴿يَتِيمًا﴾... الآية [البلد: ١٤، ١٥].

والأظهر عندي: أنه مفعول فعل محذوف تقديره أعني الكواكب، على حد قوله في الخلاصة:

ويحذف الناصبها إن علما وقد يكون حذفه ملتزما

قوله تعالى: ﴿وَحَفَظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [٧] - إلى قوله - ﴿شِهَابٍ مُّاقِبٍ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَحَفَظَهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ [٧] ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾... الآية [الحجر: ١٧، ١٨]. في سورة الحجر.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهَمْ أَسَدٌ خَلَقًا أَمْ مِّنْ خَلْقِنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [٩].

ذكر في هذه الآية الكريمة برهانين من براهين البعث، التي قدمنا أنها يكثر في القرآن العظيم الاستدلال بها على البعث.

الأول: هو المراد بقوله: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهَمْ أَسَدٌ خَلَقًا أَمْ مِّنْ خَلْقِنَا﴾، لأن معنى فاستفتهم: استخبرهم، والأصل في معناه: اطلب منهم الفتوى: وهي الإخبار بالواقع فيما تسألهم عنه؛ أهم أشد خلقاً أي أصعب إيجاداً واختراعاً، أم من خلقنا من المخلوقات التي هي أعظم وأكبر منهم، وهي ما تقدم ذكره من الملائكة المعبر عن جماعاتهم بالصافات، والنزاجرات، والتاليات، والسموات والأرض، والشمس

والقمر، ومردة الشياطين كما ذكر ذلك كله في قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝ إِنَّا رَبُّكَ السَّمَاءُ الدُّنْيَا بَيْنَهُمَا لَكُوكِبٌ ۝﴾ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾، وجواب الاستفتاء المذكور الذي لا جواب له غيره هو أن يقال: من خلقت يا ربنا من الملائكة، ومردة الجن والسموات، والأرض، والمشارك، والمغرب، والكواكب، أشد خلقاً منا؛ لأنها مخلوقات عظام، أكبر وأعظم منا فيتضح بذلك البرهان القاطع على قدرته جل علا على البعث بعد الموت؛ لأن من المعلوم بالضرورة أن من خلق الأعظم الأكبر كالسموات والأرض، وما ذكر معهما قادر على أن يخلق الأصغر الأقل كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، أي ومن قدر على خلق الأكبر فلا شك أنه قادر على خلق الأصغر، كخلق الإنسان خلقاً جديداً بعد الموت. وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝﴾ [يسر]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لَهُمْ بَدَلًا يَخْلُقْهُمْ يَخْلُقْهُمْ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُخْلِقَ الْمَوْتُ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ [الأحقاف]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الاسراء: ٩٩]. وقال تعالى في النازعات موضعاً الاستفتاء المذكور في آية الصافات هذه: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ أَسْمَاءُ بَنَاتٍ ۝﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ۝ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۝ وَالْجِبَالُ أَوَّسَهَا ۝ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْفُسِكُمْ ۝﴾ [النازعات].

وقد علمت أن وجه العبارة بمن التي هي للعالم في قوله تعالى: ﴿أَمْ مِّنْ خَلْقٍ﴾، عن السموات والأرض والكواكب هو تغليب ما ذكر معها من العالم كالملائكة على غير العالم، وذلك أسلوب عربي معروف.

وأما البرهان الثاني: فهو في قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾، لأن من خلقهم أولاً من طين، وأصله التراب المبلول بالماء لا يشك عاقل في قدرته على خلقهم مرة أخرى بعد أن صاروا تراباً؛ لأن الإعادة لا يعقل أن تكون أصعب من البدء. والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة جداً كقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۝﴾ الآية [يس: ٧٩]. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ ۝﴾ [الروم: ٢٧] وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥].

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذين البرهانين وغيرهما من براهين البعث في سورة البقرة، والنحل، والحج، وغير ذلك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ اللازب: هو ما يلزق باليد مثلاً إذا لاقته، وعبارات المفسرين فيه تدور حول ما ذكرنا، والعرب تطلق اللازب واللاتب واللازم، بمعنى واحد، ومنه في اللازب قول علي عليه السلام:

تعلّم فإن الله زادك بسطة وأخلاق خير كلها لك لازب
وقول نابغة ذبيان:

ولا يحسبون الخير لا شر بعده ولا يحسبون الشر ضربة لازب
فقوله: ضربة لازب: أي شيئاً ملازماً لا يفارق، ومنه في اللاتب قوله:

فإن يك هذا من نبيل شربته فإني من شرب النبيل لتائب
صداع وتوصيم العظام وفترة وغم مع الإشراق في الجوف لاتب

والبرهانان المذكوران على البعث يلزمان الكفار حجراً في إنكارهم البعث
المذكور بعدهما قريباً منهما في قوله تعالى: ﴿أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا نُرَابَا وَعَظَلْنَا أَوَدَا لَبُئُونُ ۖ أَوْ
مَابَاؤُنَا الْأَوَلُونَ ۖ﴾ (٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴿٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٩﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۖ﴾ (١٢). قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير
حمزة والكسائي: عجبت بالتاء المفتوحة وهي تاء الخطاب، المخاطب بها النبي ﷺ.
وقرأ حمزة والكسائي: «بل عجبت» بضم التاء وهي تاء المتكلم، وهو الله - جلّ وعلا -.

وقد قدّمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن القراءتين المختلفتين يحكم لهما
بحكم الآيتين.

وبذلك تعلم أنّ هذه الآية الكريمة على قراءة حمزة والكسائي فيها إثبات العجب لله
تعالى، فهي إذاً من آيات الصفات على هذه القراءة.

وقد أوضحنا طريق الحق التي هي مذهب السلف في آيات الصفات وأحاديثها،
في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]،
فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَنْوَلِّنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ۖ﴾ (١٠) هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ
تُكَذِّبُونَ ﴿١١﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة الروم، في الكلام على قوله
تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ
الْبَعْثِ... الآية [الروم: ٥٦].

قوله تعالى: ﴿لَمَسَّوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۖ﴾ (١٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ
إِلَىٰ صِرَاطٍ مُبِينٍ ﴿١٣﴾. المراد بالذين ظلموا الكفار كما يدل عليه قوله بعده ﴿وَمَا كَانُوا
يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

وقد قدّمنا إطلاق الظلم على الشرك في آيات متعددة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ
لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]. وقوله
تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].
وقد ثبت في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنّه فسر الظلم بالشرك في قوله تعالى:

﴿وَلَهُ يَلْبِسُوا إِبْنَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]. وقوله تعالى: ﴿وَأَزْوَجَهُمْ﴾، جمهور أهل العلم منهم: عمر وابن عباس، على أن المراد به أشباههم ونظراؤهم، فعابد الوثن مع عابد الوثن، والسارق مع السارق، والزاني مع الزاني، واليهودي مع اليهودي، والنصراني مع النصراني، وهكذا. وإطلاق الأزواج على الأصناف مشهور في القرآن، وفي كلام العرب كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ الآية [الزخرف: ١٢]. وقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْ أَزْوَاجٍ مِّنْ نَّبَاتٍ شَقًى﴾ [طه: ٥٣]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [طه: ١٣١]، إلى غير ذلك من الآيات.

فقوله تعالى: ﴿اخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾، أي أجمعوا الظالمين وأشباههم ونظراءهم، فاهدوهم إلى النار ليدخلها جميعهم، وبذلك تعلم أن قول من قال: المراد بأزواجهم نساؤهم اللاتي على دينهم خلاف الصواب. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [٢٢] مِّن دُونِ اللَّهِ، أي احشروا مع الكفار الشركاء التي كانوا يعبدونها من دون الله ليدخل العابدون والمعبودات جميعاً النار كما أوضح ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ [٩٨] لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ إِلَٰهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ [٩٩]، وقد بين تعالى أن الذين عبدوا من دون الله من الأنبياء، والملائكة، والصالحين كعيسى وعزير خارجون عن هذا، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [١٠٦]. إلى قوله: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١ - ١٠٣]، وأشار إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [٥٧] وَقَالُوا إِلَٰهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ [٥٨] إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٧، ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ ... الآية [الإسراء: ٥٧].

وقوله تعالى: في هذه الآية الكريمة ﴿فَأَهْدُوهُمْ﴾. من الهدى العام: أي دلوهم وأرشدوهم إلى صراط الحجييم؛ أي طريق النار ليسلكوها إليها، والضمير في قوله تعالى «فاهدوهم»: راجع إلى الثلاثة: أعني الذين ظلموا، وأزواجهم، وما كانوا يعبدون من دون الله.

وقد دلت هذه الآية أن الهدى يستعمل في الإرشاد والدلالة على الشر، ونظير ذلك في القرآن قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَتَهُ بِضُلْمٍ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ١]، ولذلك كان للشر أئمة يؤتم بهم فيه، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكْتُمُونَ إِلَىٰ الْكُفَّارِ﴾ ... الآية [القصص: ٤١].

قوله تعالى: ﴿وَقَفَّوهُمْ إِيَّاهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [١٦] مَا لَكُمْ لَا نَنْصَرُونَ [١٥].

قد قَدَّمْنَا الآيات الموضحة له في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْتَأْذِنَكَ لِيُخَالِفَ إِلَهُهُمْ وَأَنَّا لَمَبْلُوكُونَ ۖ﴾ [الأعراف: ١٠١]، وبيننا هناك وجه الجمع بين الآيات في نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ عَنْ دُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الفصص: ٧٨]، وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمِذٍ لَا يَسْتَلْ عَنْ دُوبِهِمْ إِلَّا وَجْهٌ ۚ وَلَا جُنْدٌ ۖ﴾ [الرحمن: ٣٦]، مع قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَأْذِنَهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ﴾ [١٧] عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١٦] [الحجر: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْتَأْذِنَكَ لِيُخَالِفَ إِلَهُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦] الآية، وقوله هنا ﴿وَقَفُوهُمْ إِنَّمَا مَسْئُولُونَ﴾ [٢٧] .

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلْ بِعَقْبِهِمْ عَلَى بَعْضِ يَسَاءَلُونَ﴾ [٢٧] . قد قَدَّمْنَا الآيات الموضحة له مع التعرض لإزالة إشكالين في بعض الآيات المتعلقة بذلك، في سورة قد أفلح المؤمنون في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ [١٦] [المؤمنون: ١٦] .

قوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ [١٦] فَأَعْوَيْنَهُمْ إِنَّا كَمَا عَوَيْنَ [١٧] . قد قَدَّمْنَا الآيات المبينة للمراد بالقول الذي حق عليهم في سورة يس، في الكلام على قوله تعالى ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾ الآية [يس: ٧]، وما ذكره - جلّ وعلا - عنهم من أنهم قالوا: إنه لما حق عليهم القول الذي هو: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، فكانوا غاوين أغووا أتباعهم؛ لأن متبع الغاوي في غيه، لا بد أن يكون غاوياً مثله، ذكره تعالى في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة القصص: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ .

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [١٧] .

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية أن الضالين والمضلين، مشتركون في العذاب يوم القيامة، وبين في سورة الزخرف أن ذلك الاشتراك ليس بنافعهم شيئاً، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ أَيْوَمَئِذٍ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [١٦] [الزخرف: ٣٩]، وبين في مواضع آخر أن الأتباع يسألون الله أن يعذب المتبوعين عذاباً مضاعفاً لإضلالهم إياهم، كقوله تعالى: ﴿فَحَقَّ إِذَا أَذَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِجْنَهُمْ لِأُولِنَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَأْتِيهِمْ عَذَابًا مُضَاعَفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ﴾ ... الآية [الأعراف: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾ [٧] رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكِينَ [٨] .

وقد قَدَّمْنَا الكلام على تخاصم أهل النار وسيأتي - إن شاء الله - له زيادة إيضاح في سورة ص، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [١٦] [ص: ١٦] .

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [٢٨] إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ [٢٩] . بين - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن ذلك العذاب الذي فعله بهؤلاء المعذبين المذكورين في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَذِقُونَ﴾، أي العذاب الأليم، وقوله

تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (٣٦)، أنه يفعل مثله من التعذيب والتنكيل بالمجرمين، والمجرمون جمع مجرم، وهو مرتكب الجريمة: وهي الذنب الذي يستحق صاحبه عليه التنكيل الشديد، ثم بين العلة لذلك التعذيب؛ لأنها هي امتناعهم من كلمة التوحيد التي هي لا إله إلا الله إذا طلب منهم الأنبياء وأتباعهم أن يقولوا ذلك في دار الدنيا. فلفظة «إن» في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٧)، من حروف التعليل، كما تقرر في الأصول في مسلك الإيماء والتنبية.

وعليه فالمعنى: كذلك نفعل بالمجرمين لأجل أنهم كانوا في دار الدنيا إذا قيل لهم ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾، أي يتكبرون عن قبولها ولا يرضون أن يكونوا أتباعاً للرسل.

وهذا المعنى، الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة من كون ذلك هو سبب تعذيبهم بالنار، دلت عليه آيات كقوله تعالى مبيناً دخولهم النار: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ (٣٧) [غافر: ١٢]. وقوله تعالى في ذكر صفات الكفار وهم أهل النار: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ﴾ (٣٨) [الزمر: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَئِنَّا لِشَاعِرٍ مُجْتَوٍ﴾ (٣٩). قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الشعراء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٤٠) [الشعراء: ٢٢٤].

قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا عِوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُزْفُونَ﴾ (٤١).

قد قدمنا تفسيره مع ذكر الآيات الدالة على معناه في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْأَصْبَابُ وَالْأَذَلَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٤٢) [المائدة: ٩٠]، وبيننا هنا كلام أهل العلم في نجاسة عين خمر الدنيا دون خمر الآخرة، وأن ذلك يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ سَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]. قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَتُ الظَّرْفِ عَيْنٌ﴾ (٤٣) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكُونٌ (٤٤). ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة ثلاث صفات من صفات نساء أهل الجنة.

الأولى: أَنَّهُنَّ قاصرات الطرف، وهو العين؛ أي عيونهن قاصرات على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم لشدة اقتناعهن واكتفائهن بهم.

الثانية: أَنَّهُنَّ عِين، والعين جمع عينا، وهي واسعة دار العين، وهي النجلاء.

الثالثة: أَنَّ الْوَانِهْنَ بَيْضٌ بِياضاً مَشْرِباً بِصَفْرَةٍ؛ لأنَّ ذلك هو لون بَيْض النعَام الذي شبههن به، ومنه قول امرئ القيس في نحو ذلك:

كَبِكَرِ الْمَقَانَاتِ الْبِيَاضِ بِصَفْرَةٍ غَذَاهَا نَمِيرُ الْمَاءِ غَيْرِ الْمَحَلَّلِ

لأنَّ معنى قوله: كَبِكَرِ الْمَقَانَاتِ الْبِيَاضِ بِصَفْرَةٍ، أَنَّ لَوْنَ الْمَرْأَةِ الْمَذْكُورَةِ كَلَوْنَ الْبَيْضَةِ

البكر المخالط بياضها بصفرة، وهذه الصفات الثلاث المذكورة هنا، جاءت موضحة في غير هذا الموضع مع غيرها من صفاتهن الجميلة، فبين كونهن قاصرات الطرف على أزواجهن بقوله تعالى في ص: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَتُ الْأَطْرَفِ أَتْرَابٌ﴾ [ص]، وكون المرأة قاصرة الطرف من صفاتها الجميلة، وذلك معروف في كلام العرب، ومنه قول امرئ القيس:

من القاصرات الطرف لو دب مُحَوِّلٌ
من النذر فوق الأتب منها لأثرا
وذكر كونهن عينا في قوله تعالى فيهن: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة]، وذكر صفاء ألوانهن وبياضها في قوله تعالى: ﴿كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكُونِ﴾ [الواقعة]. وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّ الْياقُوتَ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن]. وصفاتهن كثيرة معروفة في الآيات القرآنية.

واعلم: أن الله أثنى عليهن بنوعين من أنواع القصر:

أحدهما: أنهن قاصرات الطرف، والطرف العين، وهو لا يجمع ولا يشي لأن أصله مصدر، ولم يأت في القرآن إلا مفرداً كقوله تعالى: ﴿لَا يَزِدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْثُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣]. وقوله تعالى: ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]: ومعنى كونهن قاصرات الطرف هو ما قدّمنا من أنهن لا ينظرن إلى غير أزواجهن بخلاف نساء الدنيا.

والثاني من نوعي القصر: كونهن مقصورات في خيامهن لا يخرجن منها، كما قال تعالى لأزواج نبيه ﷺ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، كذلك في قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن]، وكون المرأة مقصورة في بيتها لا تخرج منه من صفاتها الجميلة، وذلك معروف في كلام العرب ومنه قوله:

من كان حرباً للنساء ء فإني سلم لهنه
فإذا عثرن دعونني وإذا عرت دعوتهنه
وإذا برزن لمحفل فقاصرهن ملاحهنه

فقوله: قاصرهن يعني المقصورات منهن في بيوتهن اللاتي لا يخرجن إلا نادراً، كما أوضح ذلك كثير عزة في قوله:

وأنت التي حبت كل قصيرة إلي وما تدري بذاك القصائر
عنيت قصيرات الحجال ولم أرد قصار الخطا شر النساء البحاطر

والحجال: جمع حجلة: وهي البيت الذي يزين للعروس، فمعنى قصيرات الحجال: المقصورات في حجالهن. وذكر بعضهم أن رجلاً سمع آخر، قال: لقد أجاد الأعشى في قوله:

غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوحل
كأن مشيتها من بيت جاريتها مر السحابة لا ريث ولا عجل
ليست كمن يكره الجيران طلعتها ولا تراها لسر الجار تختل

فقال له: قاتلك الله، تستحسن غير الحسن هذه الموصوفة خراجة ولاجة، والخراجة الولاجة لا خير فيها ولا ملاحه لها، فهل لا قال كما قال أبو قيس بن الأسلت: وتكسل عن جاراتها فيزرنها وتعتل من إتيانهن فتعذر قوله تعالى: ﴿أَذْلَكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾.

قد قدمنا إيضاحه بالقرآن في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذْلَكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الفرقان: ١٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ [١٦] ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ [١٧]. قد قدمنا إيضاحه في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الزَّيْءَ الَّتِي أَرَبْتِكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْ وَنِهَا الْبَطُونُ﴾ [١٨] ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [١٩]. ما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن الكفار في النار يأكلون من شجرة الزقوم، فيملؤون منها بطونهم، ويجمعون معها شوباً من حميم. أي خلطاً من الماء البالغ غاية الحرارة، جاء موضحاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في الواقعة: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ أَصْأَلُونَ الْمَكْذُوبِينَ﴾ [٢٠] ﴿لَا يَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زَقُّومٍ﴾ [٢١] ﴿فَمَا لَوْ وَنِهَا الْبَطُونُ﴾ [٢٢] ﴿فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِّنَ الْحَمِيمِ﴾ [٢٣] ﴿فَشَرِبُوا شَرْبَ الْهَبِيمِ﴾ [٢٤] [الواقعة]، وقوله: ﴿شَرْبَ الْهَبِيمِ﴾، الهيم: جمع أهيم وهيماء، وهي الناقة مثلاً التي أصابها الهيام، وهو شدة العطش بحيث لا يرويهما كثرة شراب الماء فهي تشرب كثيراً من الماء، ولا تزال مع ذلك في شدة العطش. ومنه قول غيلان ذي الرمة:

فأصبحت كالهيماء لا الماء مبرد صداها ولا يقضي عليها هيامها

وقوله تعالى في الواقعة: ﴿فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِّنَ الْحَمِيمِ﴾ [٢٣] ﴿فَشَرِبُوا شَرْبَ الْهَبِيمِ﴾ [٢٤] [الواقعة] يدل على أن الشوب أي الخلط من الحميم المخلوط لهم بشجرة الزقوم المذكور هنا في الصافات، أنه شوب كثير من الحميم لا قليل.

وقال أبو عبد الله القرطبي في تفسير هذه الآية: ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾. الشوب: الخلط، والشوب والشوب لغتان، كالفقر والفقر، والفتح أشهر. قال الفراء: شاب طعامه وشرابه إذا خلطهما بشيء يشوبهما شوباً وشيابة. انتهى منه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَفْوَءُ آبَاءَهُمْ صَالِينَ﴾ [٢٥] ﴿فَهُمْ عَلَىٰ عَاتِرِهِمْ يَهْرَعُونَ﴾ [٢٦].

ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الكفار الذين أرسل إليهم نبينا ﷺ، أفوا آباءهم ضالين: أي وجدوهم على الكفر، وعبادة الأوثان، فهم على آثارهم يهرعون: أي يتبعونهم في ذلك الضلال والكفر، مسرعين فيه، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى عنهم: ﴿قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا آلَفْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠]. وقوله عنهم: ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة: ١٠٤]. وقوله عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ

أُمَّةً وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ [الزخرف: ٢٣]. وقوله عنهم: ﴿إِن أُنشِئَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ الآية [إبراهيم: ١٠].

ورد الله عليهم في الآيات القرآنية معروف كقوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَتْ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْمَلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]. وقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أُولُو حِشْكَمٍ بَاهِدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٢٤].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾، أي فهم على اتباعهم، والافتداء بهم في الكفر والضلال، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: يهرعون، قد قدمنا في سورة هود، أن معنى يهرعون: يسرعون ويهرولون، وأن منه قول مهلهل:

فجاءوا يهرعون وهم أسارى تقودهم على رغم الأنوف

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأُولِينَ﴾ ﴿٧١﴾.

قد قدمنا الآيات التي بمعناه في سورة يس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٧﴾ [يس]. وفي سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِن تَطَّعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ... الآية [الأنعام: ١١٦].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ وَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا بَالِقِينَ ﴿٧٧﴾. تقدم إيضاحه بالآيات القرآنية، وتفسيره في سورة الأنبياء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٧٦﴾ ... الآية [الأنبياء].

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ أَيُنَاكَ إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ ﴿٨٦﴾.

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية بكثرة في سورة مريم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَادِقًا نَبِيًّا﴾ ﴿١١٦﴾ إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ يَتَابَعُ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ ﴿١٢١﴾ ... الآية [مريم].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ ﴿١٢٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٣٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ ﴿١٣١﴾. إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَزَّلْنَاهُ بِذَنبٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٣٧﴾.

اعلم أولاً: أن العلماء اختلفوا في هذا الغلام الذي أمر إبراهيم في المنام بذبحه، ومعلوم أن رؤيا الأنبياء وحي، ثم لما باشر عمل ذبحه امتثالاً للأمر، فداه الله بذبح عظيم، هل هو إسماعيل أو إسحاق؟ وقد وعدنا في سورة الحجر، بأننا نوضح ذلك بالقرآن في سورة الصافات، وهذا وقت إنجاز الوعد.

اعلم - وفقني الله وإياك - أن القرآن العظيم قد دل في موضعين على أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق، أحدهما في الصافات، والثاني في هود.

أما دلالة آيات الصافات على ذلك فهي واضحة جداً من سياق الآيات، وإيضاح ذلك أنه تعالى قال عن نبيه إبراهيم: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سِتْرَيْنِ﴾ (٩٩) ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ (١٠٠) ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ (١٠١) ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قَالَ يَتَّبِعُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٢) ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّمَ لِلْحَبِثِ﴾ (١٠٣) ﴿وَوَدَّيْتَهُ أَنْ يَبَرِّهِيهِ﴾ (١٠٤) ﴿فَدَصَفَتْ الرَّوْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٠٥) ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَّ الْاِتْلَافُ الْمُنِينُ﴾ (١٠٦) ﴿وَوَدَّيْتَهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ﴾ (١٠٧) ﴿وَوَكَّلْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (١٠٨) ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (١٠٩) ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١٠). قال بعد ذلك عاطفاً على البشارة الأولى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١١١)، فدل ذلك على أن البشارة الأولى شيء غير المبشر به في الثانية؛ لأنه لا يجوز حمل كتاب الله على أن معناه: فبشرناه بإسحاق، ثم بعد انتهاء قصة ذبحه يقول أيضاً: وبشرناه بإسحاق، فهو تكرار لا فائدة فيه ينزه عنه كلام الله، وهو واضح في أن الغلام المبشر به أولاً الذي فدي بالذبح العظيم، هو إسماعيل، وأن البشارة بإسحاق نص الله عليها مستقلة بعد ذلك.

وقد أوضحنا في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾... الآية [النحل: ٩٧]. أن المقرر في الأصول أن النص من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إذا احتمل التأسيس والتأكيد معاً، وجب حمله على التأسيس ولا يجوز حمله على التأكيد إلا لدليل يجب الرجوع إليه.

ومعلوم في اللغة العربية، أن العطف يقتضي المغايرة، فأية الصافات هذه دليل واضح للمنتصف على أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق، ويستأنس لهذا بأن المواضع التي ذكر فيها إسحاق يقيناً عبر عنه في كلها بالعلم لا الحلم، وهذا الغلام الذبيح وصفه بالحلم لا العلم.

وأما الموضع الثاني الدال على ذلك الذي ذكرنا أنه في سورة هود، فهو قوله تعالى: ﴿وَأَمْرًا لَهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكْتُ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ (٦١) [هود]؛ لأن رسل الله من الملائكة بشرتها بإسحاق، وأن إسحاق يلد يعقوب، فكيف يعقل أن يؤمر إبراهيم بذبحه، وهو صغير، وهو عنده علم يقين بأنه يعيش حتى يلد يعقوب.

فهذه الآية أيضاً دليل واضح على ما ذكرنا، فلا ينبغي للمنتصف الخلاف في ذلك بعد دلالة هذه الأدلة القرآنية على ذلك. والعلم عند الله تعالى.

وقد ذكر الشيخ الحكمة من التكليف فليرجع من أراد الوقوف إلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾. قد قدمنا الكلام عليه في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَبْتَاعُ غَدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ (١١٤). ذكر - جلّ وعلا - منته عليهما في غير هذا الموضع، كقوله في طه: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَىٰ﴾ (١٣٦) ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ (١٣٧) [طه]، لأن من سؤله الذي أوتيته إجابة دعوته في رسالة أخيه هارون معه، ومعلوم أن الرسالة من أعظم المنن.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنْ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (١١٥). قوله: وقومهما يعني بني إسرائيل.

والمعنى: أنه نجى موسى، وهارون، وقومهما من الكرب العظيم، وهو ما كان يسومهم فرعون وقومه من العذاب، كذب الذكور من أبنائهم وإهانة الإناث، وكيفية إنجائه لهم مبينة في انفلاق البحر لهم، حتى خاضوه سالمين، وإغراق فرعون وقومه وهم ينظرون.

وقد قدّمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَمَّجَيْنَاكُمُ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَشْمَ نَظَرُونَ﴾ (٥١) [البقرة]، وقدّمنا تفسير الكرب العظيم في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى في قصة نوح: ﴿فَأَسْتَجَبْنَا لَهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ أَهْلًا مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء].

قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ (١١٦). بين - جلّ وعلا - أنه نصر موسى وهارون وقومهما على فرعون وجنوده، فكانوا هم الغالبين؛ أي وفرعون وجنوده هم المغلوبون، وذلك بأن الله أهلكهم جميعاً بالغرق، وأنجى موسى وهارون وقومهما من ذلك الهلاك، وفي ذلك نصر عظيم لهم عليهم. وقد بين - جلّ وعلا - ذلك في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿قَالَ سَتَشِدُّ عَضْدَكَ بِأَخِيكَ وَجَعَلَ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّدِنَا أَمْثًا وَمِنْ أَتْبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ (١٢٥) [القصص] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَيِّنَ﴾ (١١٧). الكتاب هو التوراة كما ذكره في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (١٢٣) [السجدة]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَىٰ الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٤] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (١١٨) [المؤمنون]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١١٩) [الأنبياء]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدّمنا بعض الكلام على ذلك في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ الآية [البقرة: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُ لَكُمْ لُغُورٌ عَلَيْهِمْ مُّصِيبِينَ﴾ (١٢٠) ﴿وَالَّذِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٢١). قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُ لَيْسَابِيلٌ مُّقْبِعٌ﴾ (١٢١) [الحجر]، وفي سورة المائدة، في الكلام على قوله تعالى:

﴿مَنْ أَجَلْ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَغْتَرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، وغير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ (١٧٣) لَلَّيْتُ فِي بَطْنِيهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٧٤﴾.

تسبيح يونس هذا، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، المذكور في الصافات، جاء موضحاً في الأنبياء في قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونُ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُمْ وَجَعَلْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ [الأنبياء].

وقد قدمنا تفسير هذه الآية وإيضاحها في سورة الأنبياء، قوله تعالى: ﴿فَتَأْتُوا مَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (١٧٨).

ما ذكره في هذه الآية الكريمة من إيمان قوم يونس وأن الله متعمهم إلى حين، ذكره أيضاً في سورة يونس في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (١٠٩) [يونس].

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُتُونَ﴾ (١٤٩). إلى قوله ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (١٥٠). قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (١٥٧). إلى قوله تعالى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٧ - ٥٩].

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٧٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٧٩﴾ فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٨٠﴾. قد قدمنا الكلام على ما في معناه من الآيات في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾... [الأنعام: ١٥٧] الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾. هذه الآية الكريمة تدل على أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وأتباعهم منصورون دائماً على الأعداء بالحجة والبيان، ومن أمر منهم بالجهاد منصور أيضاً بالسيف والسنان، والآيات الدالة على هذا كثيرة كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَحْمَدَ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ (٥١) [غافر]. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ (١٦) وَلَنَسَخِّنَكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴿١٧﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤].

وقد قدمنا إيضاح هذا بالآيات القرآنية في سورة آل عمران، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَكَايْنِ مِنْ نَجْيٍ قَتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ﴾ الآية [آل عمران: ١٤٦]. وسيأتي له - إن شاء الله - زيادة إيضاح في آخر سورة المجادلة.

قوله تعالى: ﴿أَفَعَدَّيْنَا بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ﴾ [الرعد: ٦]، وذكرنا بعض

الكلام على ذلك في سورة يونس في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَنْتَ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ [يونس: ٥١]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]، مع ثنائه على نفسه بقوله تعالى: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]، معلماً خلقه أن يشنوا عليه بذلك، وما ذكره هنا من حمده هذا الحمد العظيم، والسلام على رسله الكرام، ذكره في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة النمل: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩]. ويشبه ذلك قوله تعالى: ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَفِيَّئَهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجُوا دَعَوْنَهُمْ أَنْ لِحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة ص

﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١]، قرأه الجمهور: ﴿صَّ﴾ بالسكون منهم القراء السبعة، والتحقيق أن ﴿صَّ﴾، من الحروف المقطعة في أوائل السورة كص في قوله تعالى: ﴿الْمَصَّ﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿كَهَيْعَصَ﴾ [مريم].

وقد قدمنا الكلام مستوفى على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة هود، فأغنى ذلك عن إعادته هنا. وقد تطرق الشيخ إلى توجيه القراءات غير المتواترة في «ص» فليرجع من أراد الوقوف إلى كلامه إلى الأصل.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾، قد قدمنا أن أصل القرآن مصدر، زيد فيه الألف والنون؛ كما زيدتا في الطغيان، والرجحان، والكفران، والخسران، وأن هذا المصدر أريد به الوصف.

وأكثر أهل العلم، يقولون: إن هذا الوصف المعبر عنه بالمصدر هو اسم المفعول. وعليه فالقرآن بمعنى المقروء، من قول العرب: قرأت الشيء إذا أظهرته وأبرزته، ومنه قرأت الناقة السلا والجنين؛ إذا أظهرته وأبرزته من بطنها، ومنه قول عمرو بن كلثوم في معلقته:

تريك إذا دخلت على خلاء وقد أمنت عيون الكاشحين
ذراعي عيطل أدماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا
على إحدى الروائتين في البيت.

ومعنى القرآن على هذا المقروء الذي يظهره القارئ، ويرزه من فيه، بعباراته الواضحة.
وقال بعض أهل العلم: إنَّ الوصف المعبر عنه بالمصدر، هو اسم الفاعل.
وعليه فالقرآن بمعنى القارئ، وهو اسم فاعل قرأت، بمعنى جمعت.
ومنه قول العرب: قرأت الماء في الحوض أي جمعته فيه.

وعلى هذا فالقرآن بمعنى القارئ؛ أي الجامع؛ لأن الله جمع فيه جميع ما في الكتب المنزلة.

وقوله تعالى: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾، فيه وجهان من التفسير معروفان عند العلماء:
أحدهما: أن الذكر بمعنى الشرف، والعرب تقول فلان مذكور يعنون له ذكر؛ أي شرف.
ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] أي شرف لكم على أحد القولين.

الوجه الثاني: أن الذكر اسم مصدر بمعنى التذكير؛ لأن القرآن العظيم فيه التذكير والمواعظ، وهذا قول الجمهور، واختاره ابن جرير.

تنبيه: اعلم أن العلماء اختلفوا في تعيين الشيء الذي أقسم الله عليه في قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾، فقال بعضهم: إن المقسم عليه مذكور، والذين قالوا إنه مذكور، اختلفوا في تعيينه وأقوالهم في ذلك كلها ظاهرة السقوط.
فمنهم من قال: إن المقسم عليه هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ ❶.
ومنهم من قال: هو قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ﴾ ❷.

ومنهم من قال: هو قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ﴾ ❸.
كقوله: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ٩٧]. وقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ❹. وَمَا أَذْرَكَ مَا الطَّارِقُ ❺. أَلَتَجِمْ النَّاقِبُ ❻. إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ❼. [الطارق].

ومنهم من قال: هو قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الشعراء: ٩٧]، ومن قال هذا قال: إن الأصل لكم أهلكتنا ولما طال الكلام، حذفت لام القسم، فقال: كم أهلكتنا، بدون لام.

قالوا: ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَشْمَسِ وَحُحَّهَا﴾ [الشمس]، لما طال الكلام بين القسم والمقسم عليه، الذي هو قد أفلح من زكاهها، حذفت منه لام القسم.

ومنهم من قال: إن المقسم عليه من قوله: ﴿صَ﴾ قالوا معنى: ﴿صَ﴾ صدق رسول الله ﴿وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾. وعلى هذا فالمقسم عليه هو صدقه ﷺ.

ومنهم من قال المعنى: هذه ﴿ص﴾ أي السورة التي أعجزت العرب، ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾، إلى غير ذلك من الأقوال التي لا يخفى سقوطها.

وقال بعض العلماء إنَّ المقسم عليه محذوف، واختلفوا في تقديره، فقال الزمخشري في الكشاف، التقدير ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾. إنه لمعجز، وقدره ابن عطية وغيره فقال: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾، ما الأمر كما يقوله الكفار، إلى غير ذلك من الأقوال.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: الذي يظهر صوابه بدليل استقراء القرآن: أن جواب القسم محذوف وأنَّ تقديره ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾، ما الأمر كما يقوله الكفار، وأنَّ قولهم المقسم على نفيه شامل لثلاثة أشياء متلازمة.

الأول: منها أن النبي ﷺ مرسل من الله حقاً وأنَّ الأمر ليس كما يقول الكفار في قوله تعالى عنهم: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣].

والثاني: أن الإله المعبود - جلّ وعلا - واحد، وأنَّ الأمر ليس كما يقوله الكفار في قوله تعالى عنهم: ﴿أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

والثالث: أن الله - جلّ وعلا - يبعث من يموت، وأنَّ الأمر ليس كما يقوله الكفار في قوله تعالى عنهم: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]. وقوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثَ﴾ [التغابن: ٧]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ [سبا: ٣].

أما الدليل من القرآن على أن المقسم عليه محذوف فهو قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّ وَشِقَاقٍ﴾؛ لأنَّ الإضراب بقوله بل، دليل واضح على المقسم عليه المحذوف. أي ما الأمر كما يقوله الذين كفروا، بل الذين كفروا في غزة، أي في حمية وأنفة واستكبار عن الحق، وشقاق، أي مخالفة ومعاندة.

وأما دلالة استقراء القرآن على أنَّ المنفي المحذوف شامل للأمر الثلاثة المذكورة، فللدلالة آيات كثيرة: أما صحة رسالة الرسول ﷺ، وكون الإله المعبود واحداً لا شريك له؛ فقد أشار لهما هنا.

أما كون الرسول مرسلًا حقاً ففي قوله تعالى هنا: ﴿وَنَحْنُ أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ يعني: أي لا وجه للعجب المذكور لأنَّ يجيء المنذر الكائن منهم، لا شك في أنَّه يارسال من الله حقاً.

وقولهم: ﴿هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾. إنما ذكره تعالى إنكاراً عليهم وتكذيباً لهم، فعرف بذلك أن في ضمن المعنى: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾. إنك مرسل حقاً ولو عجبوا من مجيئك منذراً لهم، وزعموا أنك ساحر كذاب، أي فهم الذين عجبوا من الحق الذي لا شك فيه، وزعموا أن خاتم الرسل وأكرمهم على الله ساحر كذاب.

وأما كون الإله المعبود واحداً لا شريك له، ففي قوله هنا: ﴿أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا

إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَبٌ ﴿٥﴾؛ لأن الهمزة في قوله: ﴿أَجْعَلْ﴾. للإنكار المشتمل على معنى النفي، فهي تدل على نفي سبب تعجبهم من قوله ﷺ: إن الإله المعبود واحد.

وهذان الأمران قد دلت آيات أخر من القرآن العظيم، على أن الله أقسم على تكذيبهم فيها وإثباتها بالقسم صريحاً كقوله تعالى مقسماً على أن الرسول مرسل حقاً: ﴿يَسْ ۖ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝﴾ [يس]، فهي توضح معنى: صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ.

وقد جاء تأكيد صحة تلك الرسالة في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝﴾ [البقرة]، وأما كونه تعالى هو المعبود الحق لا شريك له، فقد أقسم تعالى عليه في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًا ۝ فَالْزَجْرَتِ زَجْرًا ۝ فَالتَّيْنَتِ ذِكْرًا ۝ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝﴾ [الصفات] ونحو ذلك من الآيات. فدل ذلك على أن المعنى تضمن ما ذكر أي القرآن ذي الذكر، إن إلهكم لواحد كما أشار إليه بقوله: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ ۝﴾ الآية.

وأما كون البعث حقاً، فقد أقسم عليه إقساماً صحيحاً صريحاً في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبا: ٣]، أي الساعة. وقوله: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣].

وأقسم على اثنين من الثلاثة المذكورة وحذف المقسم عليه الذي هو الاثنان المذكوران، وهي كون الرسول مرسلًا، والبعث حقاً، وأشار إلى ذلك إشارة واضحة، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝ بَلْ عِجْبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝ أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝﴾ [ق]، فانتضح بذلك أن المعنى ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، إن المنذر الكائن منكم الذي عجبتم من مجيئه لكم منذراً، رسول منذر لكم من الله حقاً، وإن البعث الذي أنكرتموه واستبعدتموه غاية الإنكار، والاستبعاد، في قوله تعالى عنكم: ﴿أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝﴾، أي ذلك الرجوع الذي هو البعث؛ رجع بعيد في زعمكم واقع لا محالة، وإنه حق لا شك فيه، كما أشار له في قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ ۝﴾ [ق]، إذ المعنى أن ما أكلته الأرض من لحومهم، ومزقته من أجسامهم وعظامهم، يعلمه - جلّ وعلا -، لا يخفى عليه منه شيء؛ فهو قادر على زده كما كان.

وإحياء تلك الأجساد البالية، والشعور المتمزقة، والعظام النخرة، كما قدّمنا موضحاً بالآيات القرآنية، في سورة يس في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ۖ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ۝﴾ [يس]، وكونه ﷺ مرسل من الله حقاً، يستلزم استلزماً لا شك فيه، أن القرآن العظيم منزل من الله حقاً وأنه ليس بسحر ولا شعر ولا كهانة ولا أساطير الأولين.

ولذلك أقسم تعالى، في مواضع كثيرة، على أن القرآن أيضاً منزل من الله؛ كقوله تعالى في أول سورة الدخان: ﴿حَمِّمٌ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ۝﴾ الآية [الدخان: ١ - ٣]، وقوله تعالى في أول سورة الزخرف: ﴿حَمِّمٌ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدِينًا لَعَلَّيْكُمْ حَكِيمٌ ۝﴾ [الزخرف].

وقوله تعالى: ﴿يَا الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَشِقَاقِي ۝﴾. قد قدّمنا الكلام قريباً على الإضراب بيل في هذه الآية.

وقوله تعالى هنا ﴿فِي عِزِّهِ﴾، أي في حمية واستكبار عن قبول الحق، وقد بين - جلّ وعلا - في سورة البقرة أن من أسباب أخذ العزة المذكورة بالإثم للكفار أمرهم بتقوى الله، وبين أن تلك العزة التي هي الحمية والاستكبار عن قبول الحق من أسباب دخولهم جهنم، وذلك في قوله عن بعض الكفار الذين يظهرون غير ما يبيتون: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسِبُوهُ جَاهِلًا ۖ وَلَيْسَ بِالْجَاهِلِ ۝﴾ [البقرة].

والظاهر أن وجه إطلاق العزة على الحمية والاستكبار: أن من اتصف بذلك كأنه ينزل نفسه منزلة الغالب، القاهر، وإن كان الأمر ليس كذلك؛ لأن أصل العزة في لغة العرب الغلبة والقهر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ ۖ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾ الآية [المنافقون: ٨]، والعرب يقولون: من عز بز، يعنون من غلب استلب، ومنه قول الخنساء:

كَأَن لَّمْ يَكُونُوا حَمِي يَخْتَشِي إِذَا النَّاسُ إِذَا ذَاكَ مَنْ عَزَّ بَزَا
وقوله تعالى في الخصم الذين تسوروا على داود: ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْحُطَابِ ۖ﴾، أي غلبني وقهرني في الخصومة.

والدليل من القرآن على أن العزة التي أثبتها الله للكفار في قوله: ﴿يَا الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ ۖ﴾ الآية. وقوله: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۖ﴾ الآية [البقرة: ٢٠٦]، ليست هي العزة التي يراد بها القهر والغلبة بالفعل، أن الله خص بهذه العزة المؤمنين دون الكافرين والمنافقين، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ ۖ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾ [المنافقون: ٨].

ولذلك فسرها علماء التفسير، بأنها هي الحمية والاستكبار عن قبول الحق. والشقاق: هي المخالفة والمعاندة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ قُلُوبُكُمْ فَمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ﴾ الآية [البقرة: ١٣٧]. قال بعض العلماء: وأصله من الشق الذي هو الجانب؛ لأن المخالف المعاند، يكون في الشق؛ أي في الجانب الذي ليس فيه من هو مخالف له ومعاند. وقال بعض أهل العلم: أصل الشقاق من المشقة؛ لأن المخالف المعاند يجتهد في إيصال المشقة إلى من هو مخالف معاند. وقال بعضهم: أصل الشقاق من شق العصا؛ وهو الخلاف والتفرق.

وقد بين تعالى أن المراد بذكر إهلاك الأمم الماضية بسبب الكفر وتكذيب الرسل تهديد كفار مكة، وتخويفهم من أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك إن تمادوا على الكفر وتكذيبه ﷺ.

ذكر تعالى ذلك في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ۖ ﴾ [محمد: ١٠]، تهديد عظيم بذلك.

وقوله تعالى: ﴿ جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَابِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا جِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ۖ ﴾ [سورة هود: ٨٢]، ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ۖ ﴾ [هود: ٨٢]، ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ۖ ﴾ فيه تهديد عظيم لمن يعمل عمل قوم لوط من الكفر وتكذيب نبيهم، وفواحشهم المعروفة، وقد وبخ تعالى من لم يعتبر بهم، ولم يحذر أن ينزل به مثل ما نزل بهم، كقوله في قوم لوط: ﴿ وَإِذْ كُنَّا لَمَشُورَةً عَلَيْهِمْ مُصْهِبِينَ ۖ ﴾ [٢٧] ﴿ وَإِذْ أَنْتُمْ أَفْلَاكُ تَعْقِلُونَ ۖ ﴾ [الصافات: ١٢٨]. وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ الْأَمْطَرِ الْمَطَرِ السَّوِيَّ أَكَلْتُمْ يَكُونُوا بِرُؤُسِهِمْ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ۖ ﴾ [الفرقان: ٤٠]، وقوله فيهم: ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۖ ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقوله فيهم: ﴿ وَإِنَّا لَنَسِيلٌ لَمُتَّعٍ ۖ ﴾ [الحجر: ٧٩]، وقوله فيهم وفي قوم شعيب: ﴿ وَإِنَّمَا لَكُمْ فِي مِثْلِهَا نَذِيرٌ ۖ ﴾ [الحجر: ٧٩]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وأما المسألة الثانية: وهي نداؤهم إذا أحسوا بأوائل العذاب؛ فقد ذكر تعالى في آيات من كتابه نوعين من أنواع ذلك النداء:

أحدهما: نداؤهم باعترافهم أنهم كانوا ظالمين، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَصْنَا مِنْ قَبْلِهِ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۖ ﴾ [١١] ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ۖ ﴾ [١٢]، إلى قوله: ﴿ قَالُوا يَنْزِلُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۖ ﴾ [١٤] ﴿ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ ۖ ﴾ [الأنبياء: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ۖ ﴾ [٤] ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۖ ﴾ [الأعراف: ٤].

الثاني: من نوعي النداء المذكور؛ نداؤهم بالإيمان بالله مستغيثين من ذلك العذاب الذي أحسوا أوائله، كقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۖ ﴾ [٨١] ﴿ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ۖ ﴾ [٨٥] [غافر]، وهذا النوع الأخير هو الأنسب والأليق بالمقام، لدلالة قوله: ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۖ ﴾ عليه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۖ ﴾ الذي هو المسألة الثالثة، معناه: ليس الحين الذي نادوا فيه، وهو وقت معاينة العذاب، حين مناص، أي ليس حين فرار ولا ملجأ من ذلك العذاب الذي عاينوه.

فقوله: ﴿ وَلَاتَ ۖ ﴾ هي لا النافية زيدة بعدها تاء التأنيث اللفظية كما زيدت في ﴿ ثُمَّ ۖ ﴾، فقبل فيها «ثمت»، وفي ﴿ رَبِّ ۖ ﴾، فقبل فيها «ربت».

وأشهر أقوال النحويين فيها، أنها تعمل عمل ليس وأنها لا تعمل إلا في الحين خاصة، أو في لفظ الحين ونحوه من الأزمنة، كالساعة والأوان، وأنها لا بد أن يحذف اسمها أو خبرها، والأكثر حذف المرفوع منهما وإثبات المنصوب، وربما عكس، وهذا قول سيبويه، وأشار إليه ابن مالك في الخلاصة بقوله:

في التكرات أعملت كليس «لا» وقد تلي «لات» و«إن» ذا العملا
وما للات في سوى حين عمل وحذف ذي الرفع فشا والعكس قل

والمناص مفعول من النوص، والعرب تقول: ناصه ينوصه إذا فاته وعجز عن إدراكه، ويطلق المناص على التأخر؛ لأن من تأخر ومال إلى ملجأ ينقذه مما كان يخافه فقد وجد المناص.

والمناص والملجأ والمفر والموئل معناها واحد، والعرب تقول: استناص إذا طلب المناص، أي السلامة والمفر مما يخافه، ومنه قول حارثة بن بدر:

غمر الجراء إذا قصرت عنانه بيدي استناص ورام جري المسحل

والأظهر أن إطلاق النوص على الفوت والتقدم، وإطلاقه على التأخر والروغان كلاهما راجع إلى شيء واحد؛ لأن المناص مصدر ميمي معناه المنطبق على جزئياته، أن يكون صاحبه في كرب وضيق، فيعمل عملاً يكون به خلاصه ونجاته من ذلك.

فتارة يكون ذلك العمل بالجري والإسراع أمام من يريده بالسوء، وتارة يكون بالتأخر والروغان حتى ينجو من ذلك.

والعرب تطلق النوص على التأخر. والبوص بالباء الموحدة التحتية على التقدم، ومنه قول امرئ القيس:

أمن ذكر سلمى إذ نأتك تنوص فتقصر عنها خطوة وتبوص

وأصوب الأقوال في «لات» أن التاء منفصلة عن حين وأنها تعمل عمل ليس خلافاً لمن قال: إنها تعمل عمل إن، ولمن قال: إن التاء متصلة بحين وأنه رآها في الإمام وهو مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه متصلة بها.

وعلى قول الجمهور منهم القراء السبعة، أن التاء ليست موصولة بحين، فالوقف على «لات» بالتاء عند جميعهم، إلا الكسائي فإنه يقف عليها بالهاء.

أما قراءة كسر التاء وضمها فكلتاها شاذة لا تجوز القراءة بها، وكذلك قراءة كسر النون من حين، فهي شاذة لا تجوز، مع أن تخريج المعنى عليها مشكل.

وتعسف له الزمخشري وجهاً لا يخفى سقوطه، ورده عليه أبو حيان في البحر المحيط، واختار أبو حيان أن تخريج قراءة الكسر أن حين مجرورة بمن محذوفة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَتَادُوا﴾ أصل النداء: رفع الصوت؛ والعرب تقول: فلان أئدى صوتاً من فلان، أي أرفع، ومنه قوله:

فقلت ادعي وأدعو إن أنذا لصوت أن ينادي داعيان
وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الأمم الماضية المهلكة ينادون عند معاينة
العذاب، وأن ذلك الوقت ليس وقت نداء، إذ لا ملجأ فيه ولا مفر ولا مناص. ذكره
في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا
كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا الآية [غافر: ٨٤، ٨٥]. وقوله
تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ (٧٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أَتَرْتُمْ فِيهِ
وَمَسْكِنِكُمْ لَكُمْ سَتُونَ (٧٣) قَالُوا يَوَلَّيْنَا إِيَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٧٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ
حَصِيدًا خَمِيدِينَ (٧٥) [الأنبياء]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد بين تعالى وقوع مثل ذلك في يوم القيامة في آيات من كتابه كقوله تعالى:
﴿اسْتَجِبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ
مِنْ نَكِيرٍ﴾ (٤٧) [الشورى]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا بِقِيَامِ يَوْمِئِذٍ عَلِيمُونَ﴾ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ يَوْمَئِذٍ أَنْ الْمَقَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) [القيامة]، والوزر: الملجأ، ومنه
قول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

والناس إل علينا فيك ليس لنا إلا الرماح وأطراف القنا وزر
وكقوله تعالى: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيِلًا﴾ [الكهف: ٥٨]، والموئل؛
اسم مكان من وأل يئل إذا وجد ملجأ يعتصم به، ومنه قول الأعشى ميمون بن قيس:
وقد أخالس رب البيت غفلته وقد يحاذر مني ثم ما يئل
أي ثم ما ينجو.

قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة
أن كفار قريش عجبوا من أجل أن جاءهم رسول منذر منهم، وما ذكره - جلّ وعلا - في
هذه الآية الكريمة، من عجبهم المذكور، ذكره في غير هذا الموضع وأنكره عليهم،
وأوضح تعالى سببه ورده عليهم في آيات أخرى، فقال في عجبهم المذكور: ﴿قَدْ وَالْقُرْآنِ
الْنَجِيدِ﴾ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ [ق: ١ - ٢].

وقال تعالى في إنكاره عليهم في أول سورة يونس ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (١) أَكَانَ
لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ١، ٢]، وذكر مثل عجبهم المذكور
في سورة الأعراف، عن قوم، نوح وقوم هود، فقال عن نوح مخاطباً لقومه: ﴿أَوْ عَجِبْتَ أَنْ
جَاءَكَ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكَ عَلَى رَجُلٍ مِنْكَ لِيُنْذِرَكَ وَلَتَنْقُوَا وَلَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ (١٣) [الأعراف].

وقال عن هود مخاطباً لعاد: ﴿أَوْ عَجِبْتَ أَنْ جَاءَكَ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكَ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ
لِيُنْذِرَكَ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ الآية [الأعراف: ٦٩]، وبين أن سبب
عجبهم من كون المنذر منهم أنه بشر مثلهم زاعمين أن الله لا يرسل إليهم أحداً من
جنسهم. وأنه لو أراد أن يرسل إليهم أحداً لأرسل إليهم ملكاً؛ لأنه ليس بشراً مثلهم
وأنه لا يأكل ولا يشرب ولا يمشي في الأسواق.

والآيات في ذلك كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ﴾ ﴿١٩﴾ قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشِي مَطْمَئِينَ لَآتَيْنَاكَ عَلَيْهِمْ قَبْلَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۖ﴾ ﴿٢٠﴾ [الإسراء]. وقوله تعالى: ﴿أَتُؤْمِنُ بِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ وَلَقَوْمُهُمَا لَنَا عَدُوٌّ﴾ ﴿المؤمنون: ٤٧﴾. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ أَتَقْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ بِأَكُلِ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۖ﴾ ﴿٢٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ۖ﴾ ﴿٢٤﴾ [المؤمنون]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَسْئَلُ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا... الآية [التغابن: ٦]. وقوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ نَجْوَىٰ بِالْأَنْدَرِ ۖ﴾ ﴿٢٢﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَجِدًا نَقِيعُهُ إِنَّآ إِذَا لَفَىٰ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۖ﴾ ﴿٢٣﴾ [القمر]. وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ الآية [إبراهيم: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ فَهُمْ لَا يُمْضُونَ ۖ﴾ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ۖ﴾ ﴿٩﴾ [الأنعام]. وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صِغِقَةً مِثْلَ صِغِقَةِ عَادٍ وَنُوحٍ ۖ﴾ ﴿١٢﴾ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ خَلْقِهِمْ وَمِنَ خَلْقِهِمْ إِلَّا تَعْبَدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَكًا مِثْلِكَ فَأِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۖ﴾ ﴿١٣﴾ [فصلت]. وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَكًا مِثْلِكَ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ۖ﴾ ﴿١٤﴾ [المؤمنون]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُنَا الَّذِي نُنْزِلُ عَلَيْهِ الذِّكْرَ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۖ﴾ ﴿١٥﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۖ﴾ ﴿١٦﴾ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكِ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ۖ﴾ ﴿١٧﴾ [الحجر]. وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَهُهُ لَكُنَّا مِنَ الْمُفْضَلِينَ ۖ﴾ ﴿١٨﴾ [الفرقان: ٧]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ۖ﴾ ﴿١٩﴾ بَعَثَ يَرْوَنَ الْمَلَكُ لَا يَشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ۖ﴾ الآية [الفرقان: ٢١، ٢٢]. وقوله تعالى عن فرعون مع موسى: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَكُ مُقْتَرِبِينَ ۖ﴾ ﴿٢٣﴾ [الزخرف].

وقد ردَّ الله تعالى على الكفار عجبهم من إرسال الرسل من البشر في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۖ﴾ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ۖ﴾ ﴿٨﴾ [الأنبياء]. وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١]. أي بالرسالة والوحي ولو كان بشراً مثلكم. إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنطَلَقَ الْكَلَامُ مِنْهُمْ أَنْ آمَنُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ الْهَيْكَةِ﴾. قد قدّمنا الكلام عليه

في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنْ كَذَّابٌ لِّضَلَّانًا عَنْ إِلَهِتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن كفار مكة، أنكروا أن الله خص نبيه محمداً ﷺ بإنزال القرآن عليه وحده، ولم ينزله على أحد آخر منهم، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة، جاء في آيات أخرى، مع الرد على الكفار في إنكارهم خصوصه ﷺ بالوحي، كقوله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، يعنون بالقريتين مكة والطائف، وبالرجلين من القريتين الوليد بن المغيرة في مكة، وعروة بن مسعود في الطائف، زاعمين أنهما أحق بالنبوة منه. وقد رد - جلّ وعلا - ذلك عليهم في قوله تعالى: ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٢٢] لأنّ الهمزة في قوله: أهم يقسمون، للإنكار المشتمل على معنى النفي، وكقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْتِيَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقد رد الله تعالى ذلك عليهم في قوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وأشار إلى رد ذلك عليهم في آية ص هذه في قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابَ اللَّهِ عِنْدَهُمْ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾، أم لهم تلك السموات والأرض وما بينهما... الآية؛ لأنه لا يجعل الرسالة حيث يشاء، ويخص بها من يشاء، إلا من عنده خزائن الرحمة، وله ملك السموات والأرض.

وقوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾، قد بين في موضع آخر أن ثمود قالوا مثله لنبي الله صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وذلك في قوله تعالى عنهم: ﴿أَتَأْتِيَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ [١٥] وقد رد الله تعالى عليهم ذلك في قوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ﴾ [القمر].

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ثُلُكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾. قد قدّمنا بعض الكلام عليه في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [الحجر: ٧].

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَكَادَ يُفْرِغُونَ دُونَ الْوُحَايِدِ﴾ و﴿وَقَوْمُ لُوطٍ وَاصْتَبَتْ لَيْكَةً أُورُشَلِيمَ الْأَخْرَابُ﴾ [٣٣] إن كلّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ [٧].

قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ الآية [الحج: ٤٢]. وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا فِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة له في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]. وفي سورة يونس في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَتَمَرُ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنُكُمْ بِهِ﴾ الآية [يونس: ٥١]. وفي سورة الرعد

في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ الآية [الرعد: ٦]. وفي سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾. [الحج: ٤٧].

وقد قدّمنا أن القط: النصيب من الشيء، أي عجل لنا نصيبنا من العذاب الذي توعدنا به. وأن أصل القط كتاب الجائزة؛ لأن الملك يكتب فيه النصيب الذي يعطيه لذلك الإنسان، وجمعه ققوط، ومنه قول الأعشى:

ولا الملك النعمان حين لقيته بغبطته يعطي الققوط ويأفق

وقوله: ويأفق أي يفضل بعضهم على بعض في العطاء المكتوب في الققوط.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ﴾. إلى قوله: ﴿وَأَوَّابٌ﴾.

قد قدّمنا الآيات الموضحة له، في سورة الأنبياء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرُ﴾ الآية [الأنبياء: ٧٩].

قوله تعالى: ﴿وَوَلَّى دَاوُدَ آتَمًا فَلَمَّا فَتَنَّهُ فَأَسْتَفَرَّ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ ﴿١٢٠﴾ فَفَرْنَا لَمْ ذَلِكَ﴾.

قد قدّمنا الكلام على مثل هذه الآية، من الآيات القرآنية التي يفهم منها صدور بعض الشيء من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وبيننا كلام أهل الأصول في ذلك في سورة طه، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١].

واعلم أن ما يذكره كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية الكريمة، مما لا يليق بمنصب داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، كله راجع إلى الإسرائيليات، فلا ثقة به، ولا معول عليه، وما جاء منه مرفوعاً إلى النبي ﷺ لا يصح منه شيء.

قوله تعالى: ﴿بِئْسَ دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾. في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾، قد بينا الحكم الذي دل عليه في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾... الآية [البقرة: ٣٠].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، قد أمر نبيه داود فيه بالحكم بين الناس بالحق، ونهاه فيه عن اتباع الهوى، وأن اتبع الهوى علة للضلال عن سبيل الله، لأن الفاء في قوله: ﴿فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، تدل على العلية.

وقد تقرر في الأصول، في مسلك الإيماء والتنبيه، أن الفاء من حروف التعليل كقوله: سها فسجد، وسرق فقطعت يده، أي لعله السهو في الأول، ولعله السرقة في الثاني، وأتبع ذلك بالتهديد الشديد لمن اتبع الهوى، فأضله ربنا عن سبيل الله في قوله تعالى بعده يليه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.

ومعلوم أن نبي الله داود، لا يحكم بغير الحق، ولا يتبع الهوى فيضله عن سبيل الله، ولكن الله تعالى يأمر أنبياءهم عليهم الصلاة والسلام، وينهاهم؛ ليشرع لأمتهم. ولذلك أمر نبينا ﷺ، بمثل ما أمر به داود، ونهاه أيضاً عن مثل ذلك في آيات من

كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٤٢]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]. وكقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعِ أَهْلَهُمْ أَوْ كُفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعِ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ...﴾ الآية [الكهف: ٢٨].

وقد قَدَّمنا الكلام على هذا، في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَدَّمَ مَذْمُومًا مَحْدُومًا﴾ [الإسراء: ٣١].

وبيَّنا أن من أصرح الأدلة القرآنية الدالة على أن النبي ﷺ يخاطب بخطاب، والمراد بذلك الخطاب غيره يقيناً؛ قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ الآية [الإسراء: ٢٣]، ومن المعلوم أن أباه ﷺ توفي قبل ولادته، وأن أمه ماتت وهو صغير، ومع ذلك فإن الله يخاطبه بقوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣]، ومعلوم أنه لا يبلغ عنده الكبر أحدهما ولا كلاهما؛ لأنهما قد ماتا قبل ذلك بزمان.

فتبين أن أمره تعالى لنبيه ونهيه له في قوله: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [٣١] وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ الآية [الإسراء: ٢٣، ٢٤]: إنما يراد به التشريع على لسانه لأمرته، ولا يراد به هو نفسه ﷺ، وقد قَدَّمنا هناك أن من أمثال العرب: إياك أعني واسمعي يا جارة، وذكرنا في ذلك رجز سهل بن مالك الفزاري الذي خاطب به امرأة، وهو يقصد أخرى وهي أخت حارثة بن لأم الطائي وهو قوله:

يا أخت خير البدو والحضارة

كيف ترين في فتى فزاره

أصبح يهوى حرة معطاره

إياك أعني واسمعي يا جاره

وذكرنا هناك الرجز الذي أجابته به المرأة.

وقول بعض أهل العلم إن الخطاب في قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾... الآية [الإسراء: ٢٣]، هو الخطاب بصيغة المفرد، الذي يراد به عموم كل من يصح خطابه. كقول طرفة بن العبد في معلقته:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

أي ستبدي لك ويأتيك أيها الإنسان الذي يصح خطابك، وعلى هذا فلا دليل في الآية: غير صحيح، وفي سياق الآيات قرينة قرآنية واضحة دالة على أن المخاطب بذلك هو النبي ﷺ، وعليه فالاستدلال بالآية استدلال قرآني صحيح، والقرينة القرآنية المذكورة، هي أنه تعالى قال في تلك الأوامر والنواهي التي خاطب بها رسوله ﷺ،

التي أولها: ﴿وَالَّذِينَ أَحْسَنَ أَمَّا يَلْعَنُ عِنْدَكَ الْكُفَرُ﴾... الآية [الإسراء: ٢٣]. ما هو صريح في أن المخاطب بذلك هو النبي ﷺ، لا عموم كل من يصح منه الخطاب، وذلك في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنَّا آوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في آخر سورة النجر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، وفي آخر سورة قد أفلح المؤمنون. في الكلام على قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥].

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾. الإشارة في قوله ﴿ذَلِكَ﴾ راجعة إلى المصدر الكامن في الفعل الصناعي، ذلك أي خلقنا السماوات والأرض باطلاً هو ظن الذين كفروا بنا، والنفي في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا﴾، منصب على الحال لا على عاملها الذي هو خلقنا؛ لأن المنفي بأداة النفي التي هي ما: ليس خلقه للسماوات والأرض، بل هو ثابت، وإنما المنفي بها، هو كونه باطلاً، فهي حال شبه العمدية وليست فضلة صريحة؛ لأن النفي منصب عليها هي خاصة، والكلام لا يصح دونها. والكلام في هذا معلوم في محله، ونفي كونه خلقه تعالى للسماوات والأرض باطلاً نزه عنه نفسه ونزاهه عنه عباده الصالحون؛ لأنه لا يليق بكماله وجلاله تعالى. أما تنزيهه نفسه عنه ففي قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

ثم نزه نفسه عن كونه خلقهم عبثاً، بقوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]. أي تعالى وتقدس وتنزهه عن كونه خلقهم عبثاً. وأما تنزيه عباده الصالحين له عن ذلك، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالتَّوَارِكِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [المؤمنون: ١١٧]. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِسْمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُوبِهِمْ رَتَقَ كُرُورًا فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ [آل عمران: ١١٨]. فقوله تعالى عنهم: ﴿سُبْحَنَكَ﴾، أي تنزيهاً لك، عن أن تكون خلقت السماوات والأرض باطلاً. فقولهم: ﴿سُبْحَنَكَ﴾، تنزيه له، كما نزه نفسه عن ذلك بقوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾... الآية [المؤمنون: ١١٦].

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾، يدل على أن من ظن بالله ما لا يليق به - جلّ وعلا -، فله النار.

وقد بين تعالى في موضع آخر أن من ظن بالله ما لا يليق به أرداه وجعله من الخاسرين، وجعل النار مثواه. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١٧]. وَذَلِكَ ظَنُّكَ الَّذِي ظَنَنْتَ بِرَبِّكَ أَرَدْتَكُمُ فَاصْبِرْهُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ [الأنعام: ١١٨]. فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ... الآية [فصلت: ٢٢ - ٢٤].

وقولنا في أول هذا المبحث الإشارة في قوله ﴿ذَلِكَ﴾ راجعة إلى المصدر الكامن في الفعل الصناعي؛ قد قَدَّمنا إيضاحه في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وبيننا هناك أن الفعل نوعان، أحدهما الفعل الحقيقي، والثاني الفعل الصناعي، أما الفعل الحقيقي، فهو الحدث المتجدد المعروف عند النحويين بالمصدر. وأما الفعل الصناعي، فهو المعروف في صناعة علم النحو بالفعل الماضي، والفعل المضارع، وفعل الأمر، على القول بأنه مستقل عن المضارع.

ومعلوم أن الفعل الصناعي ينحل عند النحويين عن مصدر وزمن، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

المصدر اسم ما سوى الزمان من مدلولي الفعل كَأَمِنَ من أَمِنَ وعُثِدَ جماعات من البلاغيين، أنه ينحل عن مصدر، وزمن، ونسبة، وهو الأقرب، كما حرره بعض علماء البلاغة في مبحث الاستعارة التبعية، وبذلك تعلم أنه لا خلاف بينهم في أن المصدر، والزمن كامنان في الفعل الصناعي، فيصح رجوع الإشارة والضمير إلى كل من المصدر والزمن الكامنين في الفعل الصناعي.

فمثال رجوع الإشارة إلى المصدر الكامن في الفعل، قوله هنا: ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾... الآية، فإن المصدر الذي هو الخلق، كامن في الفعل الصناعي، الذي هو الماضي في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ﴾، أي خلق السماوات المذكور الكامن في مفهوم خلقنا، ظن الذين كفروا.

ومثال رجوع الإشارة إلى الزمن الكامن في مفهوم الفعل الصناعي، قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ﴾ [ق]، أي ذلك الزمن الكامن في الفعل هو يوم الوعيد. ومثال رجوع الضمير للمصدر الكامن في مفهوم الفعل قوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]. فقوله: هو، أي العدل الكامن في مفهوم اعدلوا، كما تقدم إيضاحه.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [٢٨]. في قوله: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾. وقوله: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾. كلاهما، منقطعة وأم المنقطعة، فيها لعلماء العربية ثلاثة مذاهب:

الأول: أنها بمعنى همزة استفهام الإنكار.

الثاني: أنها بمعنى بل الإضرابية.

والثالث: أنها تشمل معنى الإنكار والإضراب معا، وهو الذي اختاره بعض المحققين.

وعليه فالإضراب بها هنا انتقالي لا إبطالي، ووجه الإنكار بها عليهم واضح؛ لأن من ظن بالله الحكيم الخبير، أنه يساوي بين الصالح المصلح، والمفسد الفاجر، فقد ظن ظناً قبيحاً جديراً بالإنكار.

وقد بين - جلّ وعلا - هذا المعنى في غير هذا الموضع، وذم حكم من يحكم به، وذلك في قوله تعالى في سورة الجاثية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

قوله تعالى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [١٦]. قوله تعالى: ﴿كَتَبَ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هذا كتاب، وقد ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أنه أنزل هذا الكتاب، معظماً نفسه - جلّ وعلا - بصيغة الجمع، وأنه كتاب مبارك، وأن من حكم إنزاله أن يتدبر الناس آياته، أي يتفهموها ويتعقلوها ويمعنوا النظر فيها، حتى يفهموا ما فيها من أنواع الهدى، وأن يتذكر أولوا الأبواب؛ أي يتعظ أصحاب العقول السليمة، من شوائب الاختلال. وكل ما ذكره في هذه الآية الكريمة جاء واضحاً في آيات أخر.

أما كونه - جلّ وعلا - هو الذي أنزل هذا القرآن، فقد ذكره في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ تُحَكِّمُ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وأما كون هذا الكتاب مباركاً، فقد ذكره في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ الآية [الأنعام: ٩٢]. وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]. والمبارك: كثير البركات من خير الدنيا والآخرة.

ونرجو الله القريب المجيب، إذ وفقنا لخدمة هذا الكتاب المبارك، أن يجعلنا مباركين أينما كنا، وأن يبارك لنا وعلينا، وأن يشملنا ببركاته العظيمة في الدنيا والآخرة. وأن يعم جميع إخواننا المسلمين الذين يأتُمرون بأوامره، بالبركات والخيرات، في الدنيا والآخرة إنه قريب مجيب.

وأما كون تدبر آياته من حكم إنزاله: فقد أشار إليه في بعض الآيات، بالتحضيض على تدبره، وتوبيخ من لم يتدبره، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [٢٢] [محمد]. وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٧]. وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَذَّبَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

وأما كون تذكر أولي الأبواب من حكم إنزاله، فقد ذكره في غير هذا الموضع، مقترناً ببعض الحكم الأخرى التي لم تذكر في آية ص هذه، كقوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [٥١]. [إبراهيم]، فقد بين في هذه الآية الكريمة، أن تذكر أولي الأبواب من حكم إنزاله، مبيناً

منها حكمتين أخريين من حكم إنزاله، وهما إنذار الناس به، وتحقيق معنى لا إله إلا الله، وكون إنذار الناس وتذكر أولي الألباب من حكم إنزاله، ذكره في قوله تعالى: ﴿الْمَصِّ ۝ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي سُدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِيُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الأعراف: ١، ٢]، لأن اللام في قوله لتنذر متعلقة بقوله: أنزل، والذكرى اسم مصدر بمعنى التذكير، والمؤمنون في الآية لا يخفى أنهم هم أولوا الألباب.

وذكر حكمة الإنذار في آيات كثيرة كقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝﴾ [الفرقان]. وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ۝﴾ [الأنعام: ١٩]. وقوله تعالى: ﴿نَزِيلَ الْغَزِيرِ الرَّحِيمِ ۝ لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ ۝﴾ الآية [يس: ٥، ٦]. وقوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ۝﴾ ... الآية [يس: ٧٠].

وذكر في آيات آخر أن من حكم إنزاله: الإنذار والتبشير معاً، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا ۝﴾ [مريم]. وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عِوَجًا ۝ قِيمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ۝﴾ ... الآية [الكهف: ١، ٢].

وبين - جلّ وعلا - أنّ من حكم إنزاله أن يبين ﷺ للناس ما أنزل إليهم ولأجل أن يتفكروا، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝﴾ [النحل: ٤٤].

وقد قدّمنا مراراً كون «لعل» من حروف التعليل، وذكر حكمة التبيين المذكورة مع حكمة الهدى والرحمة، في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝﴾ [النحل].

وبين أن من حكم إنزاله، تثبيت المؤمنين والهدى والبشرى للمسلمين في قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝﴾ [النحل].

وبين أنّ من حكم إنزاله إلى النبي ﷺ، أن يحكم بين الناس بما أراه الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۝﴾ [النساء: ١٠٥].

والظاهر أنّ معنى قوله: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾، أي بما علمك من العلوم في هذا القرآن العظيم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا ۝﴾ الآية [الشورى: ٥٢]. وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝﴾ [يوسف].

وبين - جلّ وعلا - أنّ من حكم إنزاله: إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وذلك في قوله تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۝﴾ [إبراهيم: ١].

وَبَيَّنَ أَنَّ مِنْ حِكْمِ إِنْزَالِهِ التَّذْكَرَةَ لِمَنْ يَخْشَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿طه﴾ ١ مَّا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْفَى ٢ إِلَّا تَذَكُّرٌ لِمَنْ يَخْشَى ٣ ﴿طه﴾؛ أي ما أنزلناه إلا تذكرة لمن يخشى. وهذا القصر على التذكرة إضافي، وكذلك القصر في قوله تعالى الذي ذكرناه قبل هذا: ﴿وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ إِلَّا لِيُتَذَكَّرَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ الآية [النحل: ٦٤]، بدليل الحِجْمِ الأخرى التي ذكرناها.

وَبَيَّنَ أَنَّ مِنْ حِكْمِ إِنْزَالِهِ قِرَاءَةً عَرَبِيًّا وَتَصْرِيفَ اللَّهِ فِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْوَعِيدِ: أَنْ يَتَّقِيَ النَّاسُ اللَّهَ، أَوْ يَحْدِثَ لَهُمْ هَذَا الْكِتَابُ ذِكْرًا؛ أَيْ مَوْعِظَةً وَتَذَكُّرًا، يَهْدِيهِمْ إِلَى الْحَقِّ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أُنزِلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ ٤ ﴿طه﴾. والعلم عند الله تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لِذَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾ ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، أَنَّهُ وَهَبَ سُلَيْمَانَ لِدَاوُدَ، وَقَدْ بَيَّنَّ فِي سُورَةِ النَّمْلِ، أَنَّ الْمَوْهُوبَ وَرَثَ الْمَوْهُوبِ لَهُ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦].

وَقَدْ بَيَّنَّا فِي سُورَةِ مَرْيَمَ، فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ زَكَرِيَّا: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ ٥ يَرْثِي وَيَرِثُ مِنْ آلٍ يَعْقُوبُ ٦ الْآيَةِ [مريم: ٥، ٦]، أَنَّهَا وَرَاثَةُ عِلْمٍ وَدِينٍ لَا وَرَاثَةَ مَالٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ قَدْ قَدَّمْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ، وَعَلَى مَا يَذْكُرُهُ الْمُفَسِّرُونَ فِيهَا مِنَ الرِّوَايَاتِ الَّتِي لَا يَخْفَى سَقُوطُهَا، وَأَنَّهَا لَا تَلِيْقُ بِمَنْصَبِ النَّبِيِّ، فِي سُورَةِ الْكَهْفِ فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً﴾ ٧ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ٨ [الكهف: ٢٣، ٢٤]. وَمَا رَوَى عَنْهُ مِنَ السَّلَفِ مِنْ جُمْلَةِ تِلْكَ الرِّوَايَاتِ، أَنَّ الشَّيْطَانَ أَخَذَ خَاتَمَ سُلَيْمَانَ، وَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّهِ وَطَرَدَ سُلَيْمَانَ إِلَى آخِرِهِ، يُوَضِّحُ بَطْلَانَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ ٩ [الحجر: ٨٢] واعتراف الشيطان بذلك في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخَلَّصِينَ﴾ ١٠ [الحجر: ٨٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ ١١. قَدْ قَدَّمْنَا الْكَلَامَ عَلَيْهِ مُوضِحًا بِالْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ، فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ ١٢... الْآيَةِ [الأنبياء: ٨١].

وَفَسَّرْنَا هُنَاكَ قَوْلَهُ هُنَا: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ وَذَكَرْنَا هُنَاكَ أَوْجَهَ الْجَمْعِ بَيْنَ قَوْلِهِ هُنَا: ﴿رُخَاءً﴾ وَقَوْلِهِ هُنَاكَ: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ [الأنبياء: ٨١]، وَوَجْهَ الْجَمْعِ أَيْضًا بَيْنَ عَمُومِ الْجِهَاتِ الْمَفْهُومِ مِنْ قَوْلِهِ هُنَا: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾، أَيْ حَيْثُ أَرَادَ، وَبَيْنَ خُصُوصِ الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ الْمَذْكُورِ هُنَاكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَنَكْنَا فِيهَا﴾ ١٣... الْآيَةِ [الأنبياء: ٨١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ﴾ ١٤ قَدْ قَدَّمْنَا إِضَاحَهُ بِالْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ، فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَفُوضُونَ لَهُمُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَكِيمِينَ﴾ ١٥ [الأنبياء: ٨٢].

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ يَبْصِرْ وَعَذَابٌ ﴿٨١﴾﴾ إلى قوله: ﴿لَأُؤْتِيَ الْأَلْبَابَ﴾. قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية مع التعرض لإزالة ما فيه من الإشكال في سورة الأنبياء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣ - ٨٤].

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ أمر الله - جلّ وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة، أن يذكر عبده إبراهيم، ولم يقيد ذلك الذكر بكونه في الكتاب، مع أنه قيده بذلك في سورة مريم، في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾... الآية [مريم].

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ﴾ أطلق هنا أيضاً الأمر بذكر إسماعيل، وقيده في سورة مريم بكونه في الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ الآية [مريم: ٥٤]، وفي ذلك إشارة إلى أنه ﷺ مأمور أيضاً بذكر جميع المذكورين في الكتاب؛ ولذلك جاء ذكرهم كلهم في القرآن العظيم كما لا يخفى.

قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرٌ مِّنَ الْأُفُقِ الْأَرْبَاءِ﴾. قد قدمنا الكلام عليه في سورة الصافات، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرٌ مِّنَ الْأُفُقِ عِشْرُونَ﴾ [الصافات].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُم مِّن نَّفَادٍ﴾. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن نعيم الجنة لا نفاذ له، أي لا انقطاع له ولا زوال، ذكره - جلّ وعلا - في آيات أخر كقوله تعالى فيه: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْذُورٌ﴾ [هود: ١٠٨]. وقوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاضُّمُ أَهْلِ النَّارِ﴾. قد قدمنا ما يوضحه من الآيات القرآنية في مواضع متعددة، من هذا الكتاب المبارك، ذكرنا بعضها في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾... الآية [البقرة: ١٦٦]، وذكرنا بعضه في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿حَقٌّ إِذَا أَدْرَاكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾... الآية [الأعراف: ٣٨]. وغير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾. قد تقدم إيضاحه مع بعض المباحث في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنِ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة هود، وذكرنا الأحكام المتعلقة بالآيات، في الكلام على قوله تعالى عن نبيه نوح: ﴿وَيَقُولُوا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾... الآية [هود: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بعد جِئَ ﴿٨٨﴾. الحين المذكور هنا، قال بعض العلماء: المراد به بعد الموت، ويدل له ما قدمنا في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر].

وقال بعض العلماء: الحين المذكور هنا، هو يوم القيامة. ولا منافاة بين القولين؛ لأن الإنسان بعد الموت تتبين له حقائق الهدى والضلال.

واللام في ﴿وَلَعَلَّنَ﴾ موطئة للقسم، وقد أكد في هذه الآية الكريمة أنهم سيعلمون نبأ القرآن؛ أي صدقه وصحة جميع ما فيه بعد حين بالقسم، ونون التوكيد.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد الكفار بأنهم سيعلمون نبأه بعد حين، قد أشار إليه تعالى في سورة الأنعام، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَأَسْأَلَنَّكُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ لِئَلَّا تَكُنَّ تَكْفُورًا وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٧٧].

قال غير واحد من العلماء: ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧]، أي لكل خبر حقيقة ووقوع، فإن كان حقاً تبين صدقه ولو بعد حين، وإن كان كذباً تبين كذبه، وستعلمون صدق هذا القرآن ولو بعد حين.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الزمر

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾. قد دل استقراء القرآن العظيم، على أن الله - جلّ وعلا - إذا ذكر تنزيله لكتابه، أتبع ذلك ببعض أسمائه الحسنى، المتضمنة صفاته العليا.

ففي أول هذه السورة الكريمة، لما ذكر تنزيله كتابه، بين أن مبدأ تنزيله كائن منه - جلّ وعلا -، وذكر اسمه الله، واسمه العزيز، والحكيم، وذكر مثل ذلك في أول سورة الباقية، في قوله تعالى: ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الباقية: ١]، ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الباقية: ٢]، وفي أول سورة الأحقاف في قوله تعالى: ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الأحقاف: ١]، ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ١ - ٣].

وقد تكرر كثيراً في القرآن ذكره بعض أسمائه وصفاته، بعد ذكر تنزيل القرآن العظيم، كقوله في أول سورة غافر: ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [غافر: ١]، ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾ [غافر: ٢]، وقوله تعالى في أول فصلت: ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١]، وقوله تعالى في أول هود: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْعَمْتَ بِإِثْنِهِ ثُمَّ فَضَّلْتَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وقوله في فصلت: ﴿وَأَنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ مُّجِيدٍ﴾ [فصلت: ١١]، وقوله تعالى في صدر يس: ﴿تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [يس: ١]، ﴿لَشُدْرَ قَوْمًا

مَا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ ﴿١٥٥﴾ [يس: ٥، ٦]. وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ لَنْزِيلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥٦﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٥٧﴾... الآية [الشعراء]. وقوله تعالى: ﴿نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥٨﴾ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنا بَعْضُ الْأَقَابِلِ ﴿١٥٩﴾ الآية [الحاقة].

ولا يخفى أن ذكره - جلّ وعلا - هذه الأسماء الحسنى العظيمة، بعد ذكره تنزيل هذا القرآن العظيم، يدل بليّضاح على عظمة القرآن العظيم، وجلالة شأنه وأهمية نزوله. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴿٢﴾. أمر الله - جلّ وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة، أن يعبد في حال كونه مخلصاً له الدين، أي مخلصاً له في عبادته، من جميع أنواع الشرك صغيرها وكبيرها، كما هو واضح من لفظ الآية. والإخلاص: إفراد المعبود بالقصد، في كل ما أمر بالتقرب به إليه.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من كون الإخلاص في العبادة لله وحده لا بد منه، جاء في آيات متعددة، وقد بين - جلّ وعلا -، أنه ما أمر بعبادة، إلا عبادة يخلص له العابد فيها.

أما غير المخلص فكل ما أتى به من ذلك جاء به من تلقاء نفسه، لا بأمر ربه، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴿١﴾ الآية [البينة: ٥]، وقال - جلّ وعلا -: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١﴾ فاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴿٢﴾. وقد قدمنا الكلام على العمل الصالح، وأنه لا بد فيه من الإخلاص في أول سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ﴿٢٧﴾﴾ [الكهف: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٢٨﴾﴾.

أي التوحيد الصافي من شوائب الشرك، أي هو المستحق لذلك وحده، وهو الذي أمر به.

وقول من قال من العلماء: إن المراد بالدين الخالص كلمة لا إله إلا الله؛ موافق لما ذكرناه. والعلم عند الله تعالى.

ثم لما ذكر - جلّ وعلا - إخلاص العبادة له وحده، بين شبهة الكفار التي احتجوا بها للإشراك به تعالى، في قوله تعالى هنا: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾.

فبين أنهم يزعمون أنهم ما عبدوا الأصنام إلا لأجل أن تقربهم من الله زلفى، والزلفى القرابة، فقوله: زلفى، ما ناب عن المطلق من قوله ليقربونا؛ أي ليقربونا إليه.

قراءة تنفعنا بشفاعتهم في زعمهم؛ ولذا كانوا يقولون في تليبتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك.

وقد قدّمنا في سورة المائدة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، أن هذا النوع من ادعاء الشفعاء، واتخاذ المعبودات من دون الله وسائط؛ من أصول كفر الكفار.

وقد صرح تعالى بذلك في سورة يونس؛ في قوله - جلّ وعلا -: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَقَعْلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

فصرح تعالى بأن هذا النوع، من ادعاء الشفعاء شرك بالله، ونزه نفسه الكريمة عنه بقوله - جلّ وعلا -: ﴿سُبْحَنَهُ وَقَعْلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، وأشار إلى ذلك في آية الزمر هذه؛ لأنه - جلّ وعلا - لما قال عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

وقوله: كفار، صيغة مبالغة، فدل ذلك على أن الذين قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى جامعون بذلك، بين الكذب والمبالغة في الكفر بقولهم ذلك، وسيأتي إن شاء الله لهذا زيادة إيضاح في سورة الناس.

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [١]. قد قدّمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ١٧]. قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أنه خلق بني آدم من نفس واحدة هي أبوهم آدم، ثم جعل من تلك النفس زوجها يعني حواء. أي وبث جميع بني آدم منها، وأوضح هذا في مواضع آخر من كتابه، كقوله تعالى في أول سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]. وقوله في الأعراف: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾... الآية [الأعراف: ١٨٩]، وتأنيث الوصف، بقوله: واحدة، مع أن الموصوف به مذكر، وهو آدم نظراً إلى تأنيث لفظ النفس، وإن كان المراد بها مذكراً، ونظير ذلك من كلام العرب قوله:

أبوك خليفة ولدته أخرى وأنت خليفة ذاك الكمال

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ زَوْجٍ﴾.

قد قدّمنا إيضاح هذه الأزواج الثمانية بنص القرآن العظيم، في سورة آل عمران، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤].

قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونٍ أُمَّهُتِكُمْ خَلَقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِّن تَرَابٍ﴾ الآية [الحج: ٥]، وبيننا هناك المراد بالظلمات الثلاث المذكورة هنا.

قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾.

قد بين - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أنه غني عن خلقه الغنى المطلق، وأنه لا يضره كفرهم به، والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم]. وقوله تعالى: ﴿فَكْفُرُوا وَقُولُوا وَأَسْتَغْنَىٰ اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ الآية [يس: ٦٨]. وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر]. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨]، وقد أوضحنا هذا بالآيات في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾. قد قدمنا إيضاحه مع إزالة الإشكال، والجواب عن الأسئلة الواردة على تلك الآيات في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وأوضحنا ذلك، مع إزالة الإشكال في بعض الآيات، في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾... الآية [النحل: ٢٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَنَّ الْإِنسَانُ ضُرًّا دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسَىٰ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلٍ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَنَّ الْإِنسَانُ الْأَمْرُ دَعَانَا لِجَنَّةٍ أُورْثُهَا قَائِدًا أَوْ فَأِيمًا﴾ الآية [يونس: ١٢].

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له مع الإشارة إلى بحث أصوله في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبِعُوا وَيَهْتُمُّ بِالْأَمَلِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر].

قوله تعالى: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ﴾. الظاهر أن معنى الآية، أن الإنسان إذا كان في محل لا يتمكن فيه من إقامة دينه على الوجه المطلوب، فعليه أن يهاجر منه في مناكب أرض الله الواسعة، حتى يجد محلاً يمكنه فيه إقامة دينه.

وقد أوضح تعالى هذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]. وقوله تعالى: ﴿بِيعَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي

فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ [العنكبوت]، ولا يخفى أن الترتيب بالفاء في قوله: ﴿فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]. على قوله: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، دليل واضح على ذلك.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ لَخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُبِينُ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له من أوجه في سورة يونس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥].

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادُهُ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنبياء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِهمُ النَّارُ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ الآية [الأنبياء: ٣٩]، وذكرنا طرفاً من ذلك في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَطْلَعُوا أَنْ يُعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾. ما تضمنته هذه الآية الكريمة، من تحقيق معنى لا إله إلا الله، قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية، في سورة الفاتحة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾. أظهر الأقوال في الآية الكريمة، أن المراد بالقول، ما جاء به النبي ﷺ، من وحي الكتاب والسنة، ومن إطلاق القول على القرآن قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَذْكُرُوا الْقَوْلَ﴾ الآية [المؤمنون: ٦٨]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِأَمْرٍ يُؤْتَى﴾ [الطارق: ١٣].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أي يقدمون الأحسن، الذي هو أشد حسناً، على الأحسن الذي هو دونه في الحسن، ويقدمون الأحسن مطلقاً على الحسن. ويدل لهذا آيات من كتاب الله.

أما الدليل على أن القول الأحسن المتبع، ما أنزل عليه ﷺ من الوحي، فهو في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. وقوله تعالى لموسى يأمره بالأخذ بأحسن ما في التوراة: ﴿فَخُذْهَا يَقْوَاهُ وَأُمِّرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وأما كون القرآن فيه الأحسن والحسن، فقد دلت عليه آيات من كتابه.

واعلم أولاً: أنه لا شك في أن الواجب أحسن من المندوب، وأن المندوب أحسن من مطلق الحسن، فإذا سمعوا مثلاً قوله تعالى: ﴿وَأَقْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]، قدموا فعل الخير الواجب، على فعل الخير المندوب، وقدموا هذا الأخير، على مطلق الحسن الذي هو الجائز؛ ولذا كان الجزاء بخصوص الأحسن الذي هو الواجب والمندوب، لا على مطلق الحسن، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]. وقال تعالى: ﴿وَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي

كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ كما قدّمنا إيضاحه في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل]، وبيننا هناك دلالة الآيات على أن المباح حسن، كما قال صاحب المراقي:

ما ربنا لم ينه عنه حسن وغيره القبيح والمستهجن

ومن أمثلة الترغيب في الأخذ بالأحسن وأفضليته مع جواز الأخذ بالحسن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل]، فالأمر في قوله: ﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦] للجواز، والله لا يأمر إلا بحسن. فدل ذلك على أن الانتقام حسن، ولكن الله بين أن العفو والصبر خير منه وأحسن في قوله: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن، كقوله تعالى في إباحة الانتقام: ﴿وَلَكِنْ أُنصِرْ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ [الشورى]، مع أنه بين أن الصبر والغفران خير منه، في قوله بعده: ﴿وَلَكِنْ صَبَرْ وَعَفَّرْ إِنَّ ذَٰلِكَ لَكِن عِزٌّ الْأُمُورِ ﴿٤٢﴾﴾ [الشورى]، وكقوله في جواز الانتقام: ﴿لَا يَجِبُ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ [النساء: ١٤٨] مع أنه أشار إلى أن العفو خير منه، وأنه من صفاته - جلّ وعلا - مع كمال قدرته، وذلك في قوله بعده: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوهُ عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء].

وكقوله - جلّ وعلا - مثنياً على من تصدق، فأبدى صدقته: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ [البقرة: ٢٧١]، ثم بين أن إخفاءها وإيتاءها الفقراء، خير من إبدائها الذي مدحه بالفعل الجامد، الذي هو لإنشاء المدح الذي هو نعم، في قوله: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهُهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١].

وكقوله في نصف الصداق اللازم للزوجة بالطلاق قبل الدخول: ﴿فِيصِفُ مَا قُرِّضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ولا شك أن أخذ كل واحد من الزوجين النصف حسن؛ لأن الله شرعه في كتابه في قوله: ﴿فِيصِفُ مَا قُرِّضْتُمْ﴾، مع أنه رغب كل واحد منهما أن يعفو للآخر عن نصفه، وبين أن ذلك أقرب للتقوى وذلك في قوله بعده: ﴿وَأَنْ تَعَفُّوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وقد قال تعالى: ﴿وَحَزْرًا سَيِّئَةً سَيِّئًا تَمَثَّلُوا﴾ [الشورى: ٤٠]، ثم أرشد إلى الأحسن بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَمْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَالْجُورُ قِيَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥]، ثم أرشد إلى الأحسن، في قوله: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥].

واعلم: أن في هذه الآية الكريمة أقوالاً غير الذي اخترنا.

منها ما روي عن ابن عباس، في معنى ﴿فَيَسْتَعْمُونَ أَحْسَنَهُ﴾. قال: «هو الرجل يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن، وينكف عن القبيح، فلا يتحدث به».

وقيل: يستمعون القرآن وغيره، فيتبعون القرآن.

وقيل: إن المراد بأحسن القول لا إله إلا الله، وبعض من يقول بهذا يقول: إن الآية نزلت فيمن كان يؤمن بالله قبل بعث الرسول ﷺ كزيد بن عمرو بن نفيل العدوي، وأبي ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، إلى غير ذلك من الأقوال.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾. أظهر القولين في الآية الكريمة، أنهما جملتان مستقلتان، فقوله: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾، جملة مستقلة، لكن فيها حذفاً، وحذف ما دل المقام عليه واضح، لا إشكال فيه.

والتقدير: أفمن حق عليه كلمة العذاب، تخلصه أنت منه. والاستفهام مضمن معنى النفي، أي لا تخلص أنت يا نبي الله أحداً سبق في علم الله أنه يعذبه من ذلك العذاب، وهذا المحذوف دل عليه قوله بعده: ﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾.

وقد قدمنا مراراً قولي المفسرين في أداة الاستفهام المقترنة بأداة عطف كالفاء والواو وثم كقوله هنا: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ﴾. وقوله: ﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ﴾.

أما القول بأن الكلام جملة واحدة شرطية، كما قال الزمخشري: أصل الكلام: أمن حق عليه كلمة العذاب، فأنت تنقذه؛ جملة شرطية، دخل عليها همزة الإنكار، والفاء فاء الجزاء، ثم دخلت الفاء التي في أولها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب، تقديره: أنت مالك أمرهم، فمن حق عليه العذاب فأنت تنقذه، والهمزة الثانية هي الأولى، كررت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد، ووضع من في النار موضع الضمير، فالآية على هذا جملة واحدة، فإنه لا يظهر كل الظهور.

واعلم أن ما دلت عليه هذه الآية الكريمة قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في أول سورة يس في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾. الآية [يس: ٧]، وبيننا دلالة الآيات... على المراد بكلمة العذاب.

قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا رَحِمَهُمْ لَهْمٌ عُرْفٌ مِّنْ فَوْقِهَا عُرْفٌ مَّيْنَةً﴾. ما تضمنته هذه الآية الكريمة، من وعد أهل الجنة بالغرف المبنية، ذكره - جلّ وعلا - في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُفَرِّقُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ أَضْعَافٌ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ]. وقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ الآية [التوبة: ٧٢]. وقوله تعالى في سورة الصف: ﴿يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف]؛ لأن المساكين الطيبة المذكورة في التوبة والصف صادقة بالغرف المذكورة في الزمر وسبأ، وقد قدمنا طرفاً من هذا في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾... الآية [الفرقان: ٧٥].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾. ينبوع: جمع ينبوع، وهو الماء الكثير.

وقوله: فسلكه؛ أي أدخله، كما قدّمنا إيضاحه بشواهد العربية والآيات القرآنية في سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْنَا أَهْمَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠]. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من سورة الزمر، قد أوضحناه في أول سورة سبأ في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾... الآية [سبأ: ٢].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾. قد قدّمنا الكلام على ما يماثله من الآيات في سورة الروم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمِنْ عِبَادِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ النَّبِيِّكُمْ وَالزَّيْكُمُ﴾ [الروم: ٢٢]، وأحلنا عليه في سورة فاطر، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَهْبِجُ فَرَنَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾. قوله: ﴿ثُمَّ يَهْبِجُ﴾: أي ثم بعد نضارة ذلك الزرع وخضرته ييبس، ويتم جفافه ويثور من منابته فتراه أيها الناظر مصفراً يابساً قد زالت خضرته ونضارته، ثم يجعله حطاماً أي فتاتاً متكسراً، هشياً، تذروه الرياح، إن في ذلك المذكور من حالات ذلك الزرع المختلف الألوان لذكرى؛ أي عبرة وموعظة وتذكيراً لأولي الألباب؛ أي لأصحاب العقول السليمة من شوائب الاختلال.

فقد ذكر - جلّ وعلا - مصير هذا الزرع على سبيل الموعظة والتذكير، وبين في موضع آخر، أن ما وعظ به خلقه هنا من حالات هذا الزرع شبيه أيضاً بالدنيا. فوعظ به في موضع وشبه به حالة الدنيا في موضع آخر، وذلك في قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَرَنَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَلًا﴾ [الحديد: ٢٠]. ويبين في سورة الروم أن من أسباب اصفراره المذكور إرسال الريح عليه، وذلك في قوله: ﴿وَلَكِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ [الروم: ٥١].

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾. قد تقدم الكلام عليه في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ الآية [النحل: ٣٧]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿فَرَأَيْنَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة له في أول سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١٢٥]. الآية

[الكهف: ١، ٢]. وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿قُرْءَانًا﴾ انتصب على الحال وهي حال مؤكدة، والحال في الحقيقة هو عربياً، وقرآنًا توطئة له، وقيل: انتصب على المدح.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: عربياً؛ أي لأنه بلسان عربي كما قال تعالى: ﴿لَسَاتِ الْآيَةُ يُلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَتَعْجَبُونَ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]. وقال تعالى في أول سورة يوسف: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١]. وقال في أول الزخرف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ١]. وقال في طه: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٤]. وقال تعالى في فصلت: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَبِيًّا لَقَالُوا لَافُالُؤْ لَا فَصْلَتْ ءَايَاتُهُ ؕ أَتَعْجَبُونَ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: ٤٤]. وقال تعالى في الشعراء: ﴿وَلَئِنَّ لِلنَّازِلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥]. وقال تعالى في سورة الشورى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]. وقال تعالى في الرعد: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنْ أَلْعَامٍ مَا لَكَ مِنْ آلِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٧]. إلى غير ذلك من الآيات.

وهذه الآيات القرآنية تدل على شرف اللغة العربية وعظمتها، دلالة لا ينكرها إلا مكابر.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ أوضح - جلّ وعلا -، أن الذي في هذه الآية بمعنى الذين، بدليل قوله بعده ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [٣٣] لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين [٣٤].

وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن «الذي» تأتي بمعنى «الذين» في القرآن وفي كلام العرب، فمن أمثلة ذلك في القرآن، قوله تعالى في آية الزمر هذه: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾... الآية. وقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧]، أي الذين استوفدوا بدليل قوله بعده: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزَكَّاهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]. وقوله فيها أيضاً: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقًا نَارًا﴾ [البقرة: ٢٦٤] أي كالذين ينفقون، بدليل قوله بعده: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وقوله تعالى في التوبة: ﴿رَخُصَّ كَالَّذِي خَاصُوا﴾ [التوبة: ٦٩]. على القول بأن الذي موصولة لا مصدرية، ونظيره من كلام العرب قول أشهب بن رميلة:

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد

وقول عدیل بن الفرخ العجلي:

فبت أساقي القوم إختوتني الذي غوايتهم غيٌّ ورشداهم رشد

وقول الراجز:

يا رب عيس لا تبارك في أحد في قائم منهم ولا فيمن قعد

إلا الذي قاموا بأطراف المسد

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٤).

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾... الآية [النحل: ٣١].

قوله تعالى: ﴿وَيُجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له، في هذه السورة الكريمة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَيُزِيلُ الْعَارَ عَنْهُمْ﴾ (٣٥) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ، وفي سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَنُجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنفال، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٦) [الأنفال]، وعلى قراءة الجمهور «بكاف عبده»، بفتح العين وسكون الباء، بإفراد العبد، والمراد به، النبي ﷺ. كقوله: ﴿نَسِيكَهُمْ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧]. وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾... الآية [الأنفال: ٦٤].

وأما على قراءة حمزة والكسائي «عباده» بكسر العين وفتح الباء بعدها ألف على أنه جمع عبد، فالظاهر أنه يشمل عباده الصالحين من الأنبياء وأتباعهم. قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أن الكفار عبدة الأوثان، يخوفون النبي ﷺ بالأوثان التي يعبدونها من دون الله؛ لأنهم يقولون له: إنها ستضره وتخبله، وهذه عادة عبدة الأوثان لعنهم الله، يخوفون الرسل بالأوثان ويزعمون أنها ستضرهم وتصل إليهم بالسوء.

ومعلوم أن أنبياء الله - عليهم صلوات الله وسلامه - لا يخافون غير الله ولا سيما الأوثان التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع؛ ولذا قال تعالى عن نبيه إبراهيم لما خوّفوه بها: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾... الآية [الأنعام: ٨١].

وقال عن نبيه هود وما ذكره له قومه في ذلك: ﴿إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْبُدْكَ بَعْضَ آلِهَتِنَا بِسُوِّ قَالَ إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ وَآشْهَدُوكَ آتِي بَرِيءٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ﴾ (٣٧) مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُوْنِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ (٣٨) إِنْ تَوَلَّيْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩)﴾ [هود].

وقال تعالى في هذه السورة الكريمة مخاطباً نبينا ﷺ بعد أن ذكر تخويفهم له بأصنامهم: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُنْسِكَةٌ رَحْمَتَهُ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٤٠). ومعلوم أن الخوف من تلك الأصنام من أشنع أنواع الكفر والإشراك بالله.

وقد بين - جلّ وعلا - في موضع آخر، أن الشيطان يخوف المؤمنين أيضاً، الذين هم أتباع الرسل من أتباعه وأوليائه، من الكفار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

والأظهر أن قوله: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، حذف فيه المفعول الأول، أي يخوفكم أوليائه، بدليل قوله بعده: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَقْرَبُكُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَافِقَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ﴾. ما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، من أن المعبودات من دونه، لا تقدر أن تكشف ضراً أراد الله به أحداً، أو تمسك رحمة أراد بها أحداً، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿لِمَ تَقْبَلُ مَا لَا تِسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ [مريم: ٤٢]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ﴾ [٧٦] أو يَفْعَلُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ [٧٦] قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ [٧٦] [الشعراء]. وقوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [٤٥].

قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة الصافات، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَذَلِكَ تَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [١٦] إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ [١٥] [الصافات].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الذين ظلموا وهم الكفار لو كان لهم في الآخرة ما في الأرض جميعاً ومثله معه، لفدوا أنفسهم به من سوء العذاب الذي عاينوه يوم القيامة، وبين هذا المعنى في مواضع آخر وصرح فيها بأنه لا فداء البتة يوم القيامة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوْ افْتَذَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ﴾ [آل عمران: ٩١]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يُؤِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ] [المائدة: ٢٧]. وقوله تعالى: ﴿قَالِیْمٌ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَتْكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَانَكُمْ وَفَسَّ الْمَصِیْرُ﴾ [الحديد: ١٥]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ عَدْلًا لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٠]. فقوله: ﴿وَإِنْ

تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ، أي وإن تفتد كل فداء، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨]. وقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾... الآية [البقرة: ١٢٣]، والعدل الفداء وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ لِلْهَادِ [الرعد: ١٨].

وقد قدمنا طرفاً من هذا في سورة آل عمران، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلَن يُغْنِكَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾... الآية [آل عمران: ٩١].

قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾. قوله: ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ أي ظهر لهم سيئات ما كسبوا؛ أي جزاء سيئاتهم التي اكتسبوها في الدنيا، فالظاهر أنه أطلق السيئات هنا مراداً بها جزاؤها.

ونظيره من القرآن قوله تعالى: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِثْلَهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

ونظير ذلك أيضاً إطلاق العقاب، على جزاء العقاب، في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيُصْرَفَهُ اللَّهُ﴾... الآية [الحج: ٦٠].

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أنهم يبدو لهم يوم القيامة، حقيقة ما كانوا يعملونه في الدنيا، جاء موضحاً في آيات أخرى، كقوله تعالى: ﴿هَٰؤُلَاءِكَ تَبَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠]. وقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥]. وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَرْثِنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ الآية [الكهف: ٤٩]. وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ الْإِنْسَانِ أَلَزَمْتَهُ طَيْرُهُ فِي عُنُقِهِ وَخُجِرَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا﴾ [٣٣] أَفَرَأَى كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا [٣٤] [الإسراء: ٤٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ﴾ الآية [يونس: ١٢].

قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغُوا أَحْسَنَ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في هذه السورة الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ﴾ [٧] الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ، وقدّمنا طرفاً منه في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنِّي لِي كَرَّةٌ فَأَكْرَأُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [٨١]. قد قدمنا الآيات الموضحة له من جهات في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ سُوءُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا مِنَّا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ﴾.

قد قَدَّمنا الكلام عليه وعلى ما يماثله من الآيات في سورة آل عمران، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ ... الآية [آل عمران: ١٠٦].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾. تقدم إيضاحه بالآيات القرآنية، مع بيان جملة من آثار الكِبَر السيئة، في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾. تقدم الكلام عليه في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقد ذكرنا في سورة المائدة، الآية المتضمنة للقيد الذي لم يذكر في هذه الآيات على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ ... الآية [المائدة: ٥].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِيهَا بِظُغَرٍ﴾، قد قَدَّمنا الآيات الموضحة له في سورة يس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس].

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾. قد قَدَّمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩]، وفي سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَكَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾. اختلف العلماء في المراد بالشهداء في هذه الآية الكريمة، فقال بعضهم: هم الحفظة من الملائكة الذين كانوا يحصون أعمالهم في الدنيا، واستدل من قال هذا بقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق].

وقال بعض العلماء: الشهداء أمة محمد ﷺ يشهدون على الأمم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقيل: الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، وأظهر الأقوال في الآية عندي، أن الشهداء هم الرسل من البشر، الذين أرسلوا إلى الأمم؛ لأنه لا يقضي بين الأمة حتى يأتي رسولها، كما صرح تعالى بذلك في سورة يونس في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس]. فصرح - جل وعلا - بأنه يسأل الرسل عما أجابتهم به أممهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩]. وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف]، وقد يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ

بَشِيرٍ وَنَذِيرٍ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿١١﴾ [النساء]؛ لَأَنْ كونه ﷺ هو الشهيد على هؤلاء الذين هم أمته، يدل على أن الشهيد على كل أمة هو رسولها.

وقد بين تعالى أن الشهيد على كل أمة من أنفس الأمة، فدل على أنه ليس من الملائكة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٨٩]، والرسول من أنفس الأمم، كما قال تعالى في نبينا محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٤].

والمسوغ للايجاز بحذف الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ بِالْيَقِينِ﴾ هو أنه من المعلوم الذي لا نزاع فيه، أنه لا يقدر على المجيء بهم إلا الله وحده - جلّ وعلا - .

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير الكسائي وهشام عن ابن عامر: «وجيء» بكسر الجيم كسرة خالصة، وقرأ الكسائي وهشام عن ابن عامر بإشمام الكسرة الضم.

وإنما كان الإشمام هنا جائزاً، والكسر جائزاً؛ لأنه لا يحصل في الآية البتة لبس بين المبني للفاعل، والمبني للمفعول، إذ من المعلوم أن قوله هنا: «وجيء» مبني للمفعول ولا يحتمل البناء للفاعل بوجه، وما كان كذلك جاز فيه الكسر الخالص وإشمام الكسرة الضم، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

واكسر أو اشمم «فا» ثلاثي أعل عينا وضم جاء كبوع فاحتمل

أما إذا أسند ذلك الفعل إلى ضمير الرفع المتصل، فإن ذلك قد يؤدي إلى اللبس فيشتبه المبني للمفعول، بالمبني للفاعل، فيجب حينئذ اجتناب الشكل الذي يوجب اللبس، والإتيان بما يزيل اللبس من شكل أو إشمام كما أشار له في الخلاصة بقوله:

وإن بشكل خيف لبس يجتنب

ومن أمثلة ذلك قول الشاعر، وقد أنشده صاحب اللسان:

وإني على المولى وإن قل نفعه دفعوا إذا ما صمت غير صبور

فقوله صمت أصله صيمت بالبناء للمفعول؛ فيجب الإشمام أو الضم؛ لأن الكسر الخالص يجعله محتملاً للبناء للفاعل كبعت وسرت. وقول جرير يرثي المزارع بن عبد الرحمن بن أبي بكر:

وأقول من جزع وقد فتنا به ودموع عيني في الرداء غزار

للدافنين أبا المكارم والندا لله ما ضمننت بك الأحجار

أصله فوتنا بالبناء للمفعول فيجب الكسر أو الإشمام؛ لأن الضم الخالص يجعله محتملاً للبناء للفاعل، كقلنا وقمنا.

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾. الزمر الأفواج المتفرقة،

واحدة زمرة، وقد عبر تعالى عنها هنا بالزمر، وعبر عنها في الملك بالأنفاج في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ...﴾ الآية [الملك: ٨]، وعبر عنها في الأعراف بالأأمم في قوله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِيَهُمْ لِأُولَئِهِمْ﴾ الآية [الأعراف: ٣٨].

وقال في فصلت: ﴿وَحَقُّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ لَهُمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ [ص: ٥١].

ومن إطلاق الزمر على ما ذكرنا قوله:

وترى الناس إلى منزله زمراً تنتابه بعد زمر
وقول الراجز:

إن العفاة بالسيوب قد غمر حتى احزألت زمراً بعد زمر
قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا فَتُحِتْ أَبْوَابُهَا﴾. لم يبين - جلّ وعلا - هنا عدد أبوابها المذكورة، ولكنه بين ذلك في سورة الحجر، في قوله: ﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [١٢١] لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ [١٢٢] [الحجر].
وقوله تعالى: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾، قرأه نافع وابن كثير أبو عمرو وابن عامر: (فُتِحَتْ) بتشديد التاء دلالة على التكثير. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي: ﴿فُتِحَتْ﴾ بتخفيف التاء.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.
قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوْفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ طَبِيبِينَ يَقُولُونَ سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٣].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَبَوْا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن أهل الجنة إذا دخلوها وعابنوا ما فيها من النعيم، حمدوا ربهم وأثنوا عليه، ونوهوا بصدق وعده لهم، وذكر هذا المعنى في آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلِيٍّ يُخْوِىٰ مِنْ تَحِيهِمُ الْأَنْهَارَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَدُودُوا أَنَّ يَلَكُمُ الْجَنَّةُ أَوْرَشْتُمْوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿وَأَدْنَىٰ أَصْعَبُ الْجَنَّةِ أَصْعَبُ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا﴾ الآية [الأعراف: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَهْلَأَ دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر].



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة غافر

قوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾. جمع - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد؛ لأن مطامع العقلاء محصورة في أمرين، هما جلب النفع ودفع الضرر، وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿يَتَّقِ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٩٠﴾﴾ [الحجر]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف]. وقوله تعالى في آخر الأنعام: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام]. وقوله في الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦٧]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معروفة.

قوله تعالى: ﴿مَا يُجَدِّدُ فِي عَازِنَةِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه لا يجادل في آيات الله، أي لا يخاصم فيها محاولاً ردها، وإبطال ما جاء فيها، إلا الكفار.

وقد بين تعالى في غير هذا الموضع الغرض الحامل لهم على الجدل فيها مع بعض صفاتهم، وذلك في قوله: ﴿وَيُجَدِّدُ الَّذِينَ كَفَرُوا إَلَّا يَبْطُلِ لِيُدْجِسُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا ءَايَتِي وَمَا أُذِيرُوا هُزُوا﴾ [الكهف: ٥٦]، وأوضح ذلك الغرض في هذه السورة الكريمة، في قوله: ﴿وَجَدَلُوا إَلَّا يَبْطُلِ لِيُدْجِسُوا بِهِ الْحَقَّ﴾.

وقد قدمنا في سورة الحج، أن الذين يجادلون في الله منهم، أتباع يتبعون رؤساءهم المضلين، من شياطين الإنس والجن، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَدِّدُ فِي اللَّهِ بَغْيًا عَلَيْهِ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٢﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾ [الحج].

وأن منهم قادة هم رؤسائهم المتبعون وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَدِّدُ فِي اللَّهِ بَغْيًا عَلَيْهِ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٨، ٩].

وبيّن تعالى في موضع آخر أنّ من أنواع جدال الكفار، جدالهم للمؤمنين الذين استجابوا لله وآمنوا به وبرسوله؛ ليردوهم إلى الكفر بعد الإيمان، وبين بطلان حجة هؤلاء، وتوعدهم بغضبه عليهم، وعذابه الشديد وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَخْاجُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جَحِيشٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى].

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَعْزُرَكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْإِلْدَادِ﴾. نهى الله - جلّ وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة، ليشرع لأمته عن أن يغرّه قلب الذين كفروا في بلاد الله بالتجارات والأرباح، والعافية وسعة الرزق، كما كانت قريش تفيض عليها الأموال من أرباح التجارات، وغيرها من رحلة الشتاء والصيف المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِفَهْمِ رِحْلَةِ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ [قريش]، أي إلى اليمن والشام، وهم مع ذلك كفره فجرة، يكذبون نبي الله ويعادونه.

والمعنى: لا تغتر بإنعام الله عليهم وتقلبهم في بلاده في إنعام وعافية، فإن الله - جلّ وعلا - يستدرجهم بذلك الإنعام، فيمتعهم به قليلاً، ثم يهلكهم فيجعل مصيرهم إلى النار.

وقد أوضح هذا المعنى في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُرَكَ تَقْلِبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْإِلْدَادِ﴾ [٩٦] متّع قليلاً ثم ماؤنهم جهنم وبئس المهاد [٩٧] [آل عمران]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَعْزُرَكَ كَفَرُهُ إِلَّا نَارُ مَرْجِعِهِمْ فَنُفِثَتْهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [١٣] نعيمهم قليلاً ثم نصطّرهم إلى عذاب غليظ [١٤] [لقمان]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمِتُمْ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبئس المصير﴾ [البقرة: ١٢٦]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَقْلِحُونَ﴾ [٦] متّع في الدنيا ثم إيتنا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون [٧] [يوسف]، إلى غير ذلك من الآيات.

والفاء في قوله: ﴿فَلَا يَعْزُرَكَ﴾، سببية أي لا يكن تقلبهم في بلاد الله؛ متنعمين بالأموال والأرزاق، سبباً لا غترارك بهم فتظن بهم ظناً حسناً؛ لأن ذلك التنعم، تنعم استدراج، وهو زائل عن قريب، وهم صاثرون إلى الهلاك والعذاب الدائم.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [١].

قرأ هذا الحرف نافع وابن عامر (كلمات) بصيغة الجمع المؤنث السالم، وقرأه الباقون ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بالإنفراد.

وقد أوضحنا معنى الكلمة والكلمات فيما يماثل هذه الآية في سورة يس في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٧] [يس].

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾. لم يبين هنا الآية المتضمنة لوعدهم بالجنات، هم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم. ولكنه - جلّ وعلا - أوضح وعده إياهم بذلك في سورة الرعد في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا

وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَمْ يُعْطِ الدَّارَ ﴿١١﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمُ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿١٢﴾ ... الآية [الرعد].
قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا اثْنَيْنِ وَلِحَيِّتَنَا اثْنَيْنِ﴾.

التحقيق الذي لا ينبغي العدول عنه، أن المراد بالإماتتين في هذه الآية الكريمة، الإمامة الأولى، التي هي كونهم في بطون أماتهم نطفاً وعلقاً ومضغاً قبل نفخ الروح فيهم، فهم قبل نفخ الروح فيهم لا حياة لهم، فأطلق عليهم بذلك الاعتبار اسم الموت. والإمامة الثانية هي إماتتهم وصيورتهم إلى قبورهم عند انقضاء آجالهم في دار الدنيا. وأن المراد بالإحياءتين، الإحياء الأولى في دار الدنيا، والإحياء الثانية، التي هي البعث من القبور إلى الحساب والجزاء والخلود الأبدي، والذي لا موت فيه، إما في الجنة وإما في النار.

والدليل من القرآن على أن هذا القول في الآية هو التحقيق، أن الله صرح به واضحاً في قوله - جلّ وعلا -: ﴿كَيْفَ نَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٣﴾ [البقرة]، وبذلك تعلم أن ما سواه من الأقوال في الآية لا معول عليه.

والأظهر عندي أن المسوغ الذي سوغ إطلاق اسم الموت على العلقه والمضغة مثلاً، في بطون الأمهات، أن عين ذلك الشيء، الذي هو نفس العلقه والمضغة، له أطوار كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَا أَطْوَارًا﴾ ﴿١٤﴾ [نوح]، ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾، ولما كان ذلك الشيء تكون فيه الحياة في بعض تلك الأطوار، وفي بعضها لا حياة له، صح إطلاق الموت والحياة عليه من حيث إنه شيء واحد، ترتفع عنه الحياة تارة وتكون فيه أخرى، وقد ذكر له الزمخشري مسوغاً غير هذا، فأنظره إن شئت.

قوله تعالى: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾. قد بين - جلّ وعلا - في غير هذا الموضع، أن الاعتراف بالذنب في ذلك الوقت لا ينفع، كما قال تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿١٥﴾ [الملك]. وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾، قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ سُوءُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَمَّنُوا﴾ ... الآية.

قد تقدم الكلام عليه في سورة الصافات، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿١٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٧﴾ [الصافات].

قوله تعالى: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾، قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].
قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أنّه - جلّ وعلا - هو الذي يري خلقه آياته؛ أي الكونية القدرية ليجعلها علامات لهم على ربوبيته، واستحقاقه العبادة وحده. ومن تلك الآيات الليل والنهار والشمس والقمر، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾... الآية [فصلت: ٣٧].

. ومنها السماوات والأرضون وما فيهما، والنجوم، والرياح، والسحاب، والبحار، والأنهار، والعيون، والجبال والأشجار، وأثار قوم هلكوا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّبِعُ لِقَوْمٍ يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ﴾ [٣] وفي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أُنَزَّلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ ءَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ [الجاثية]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [١] [يونس].

وما ذكره - جلّ وعلا - في آية المؤمن هذه، من أنّه هو الذي يري خلقه آياته بينه وزاده إيضاحاً في غير هذا الموضع، فبين أنّه يريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم، وأن مراده بذلك البيان أن يتبين لهم أن ما جاء به محمد ﷺ حق، كما قال تعالى: ﴿سَرِّبْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

والآفاق جمع أفق وهو الناحية، والله - جلّ وعلا - قد بيّن من غرائب صنعه، وعجائبه، في نواحي سماواته وأرضه، ما يتبين به لكل عاقل أنّه هو الرب المعبود وحده. كما أشرنا إليه، من الشمس والقمر والنجوم والأشجار والجبال، والدواب والبحار، إلى غير ذلك.

وبين أيضاً أن من آياته التي يريهم ولا يمكنهم أن ينكروا شيئاً منها تسخيرهم للأنعام ليركبوها ويأكلوا من لحومها، وينتفعوا بألبانها، وزبدها وسمنها وأقطها، ويلبسوا من جلودها، وأصوافها ولؤبارها وأشعارها، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِيَرْكَبُوا مِنْهَا وَفِيهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧١﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَىٰ الْفَالِكِ تَحْمِلُونَهَا ﴿٧٢﴾ وَرَبِّكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَيُّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ [٨١].

وبيّن في بعض المواضع، أن من آياته التي يريها بعض خلقه، معجزات رسله؛ لأن المعجزات آيات، أي دلالات، وعلامات على صدق الرسل، كما قال تعالى في فرعون: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥١﴾﴾ [طه]، وبيّن في موضع آخر، أن من آياته التي يريها خلقه، عقوبته المكذبين رسله، كما قال تعالى في قصة إهلاكه قوم لوط: ﴿وَلَقَدْ رَزَقْنَاهَا مِنْهَا ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [٢٥] [العنكبوت].

وقال في عقوبته فرعون وقومه بالطوفان والجراد والقمل... إلخ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَاءَ لِيَظْلِمَنَّهُ مَقْصَفَاتٍ﴾ الآية [الأعراف: ١٣٣].
قوله تعالى: ﴿وَيُزِيلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾.

أطلق - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة الرزق وأراد المطر؛ لأن المطر سبب الرزق، وإطلاق المسبب وإرادة سببه لشدة الملازمة بينهما، أسلوب عربي معروف، وكذلك عكسه الذي هو إطلاق السبب وإرادة المسبب كقوله:

أكلت دماً إن لم أرُغكِ بضرةً بعيدة مهوى القرط طيبة النشر
فأطلق الدم وأراد الدية؛ لأنه سببها.

وقد أوضحنا في رسالتنا المسماة: «منع جواز المجاز في المنزل للتعدد والإعجاز» أن أمثال هذا أساليب عربية، نطقت بها العرب في لغتها، ونزل بها القرآن، وأن ما يقوله علماء البلاغة من أن في الآية ما يسمونه المجاز المرسل الذي يعدون من علاقاته السببية والمسببية، لا داعي إليه، ولا دليل عليه يجب الرجوع إليه.

وإطلاق الرزق في آية المؤمن هذه على المطر جاء مثله في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في أول سورة الجاثية: ﴿وَمَا أَرْزَلْنا إِلَهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَكْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الجاثية: ٥]، فأوضح بقوله: ﴿فَأَكْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الجاثية: ٥]، أن مراده بالرزق المطر؛ لأن المطر هو الذي يحيى الله به الأرض بعد موتها.

وقد أوضح - جلّ وعلا -، أنه إنما سمى المطر رزقاً؛ لأن المطر سبب الرزق، في آيات كثيرة من كتابه، كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢٢]، والباء في قوله ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾ سببية كما ترى.

وكقوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿إِلَهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ الآية [إبراهيم: ٣٢]. وقوله تعالى في سورة ق: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝ رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ [ق: ٩ - ١١].

وبين في آيات أخر أن الرزق المذكور، شامل لما يأكله الناس، وما تأكله الأنعام؛ لأن ما تأكله الأنعام، يحصل بسببه للناس الانتفاع بلحومها، وجلودها وألبانها، وأصوافها وأوبارها، وأشعارها، كما تقدم كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠، ١١].

فقوله: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾، أي تتركون أنعامكم سائمة فيه تأكل منه من غير أن

تتكلفوا لها مؤونة العلف كما تقدم إيضاحه بشواهد العربية، في سورة النحل وكقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى كُلًّا وَارِعًا لَّانْعَمَكُمُ﴾ الآية [طه: ٥٣، ٥٤]. وقوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَنَحْنُهَا ﴿٣٣﴾ وَالْجِبَالِ أَرْسُنَهَا ﴿٣٤﴾ مِّنْعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعِمَكُمُ ﴿٣٥﴾﴾ [البازعات] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أن الناس ما يتذكر منهم؛ أي ما يتعظ بهذه الآيات المشار إليها في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ أي من رزقه الله الإنابة إليه.

والإنابة: الرجوع عن الكفر والمعاصي، إلى الإيمان والطاعة.

وهؤلاء المنيبون، المتذكرون، المتعظون، هم أصحاب العقول السليمة من شوائب الاختلال، المذكورون في قوله تعالى في أول سورة آل عمران: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْآلَتِيبِ﴾ [آل عمران: ٧]. وفي قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَلَعَلَّوْا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلْيَذْكُرُوا الْأَلْتِيبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد دلت آية المؤمن هذه، وما في معناها من الآيات، على أن غير أولي الألباب المتذكرين المذكورين آنفاً، لا يتذكر ولا يتعظ بالآيات، بل يعرض عنها أشد الإعراض.

وقد جاء هذا المعنى موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَتَىٰ مِنَ آيَاتِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْشُرُ عَلَيْهَا وَهُمَّ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [يوسف]. وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿١٦٠﴾﴾ [القمر]. وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٦١﴾﴾ [الصافات]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [يونس]. وقوله: ﴿وَمَا قَائِلُهُم مِّن آيَةٍ مِّن آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَالْوَاغِ عَنِ الْمُرْصِينِ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام]، في الأنعام ويس إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾. قد قدمنا الكلام على نحوه من الآيات في أول سورة الزمر، في الكلام على قوله: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزمر: ٢، ٣].

قوله تعالى: ﴿يَلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥٠﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ﴾. قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية، في أول سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢٠﴾﴾ [النحل].

وقوله تعالى في آية المؤمن هذه: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ جاء مثله في آيات كثيرة، كقوله في بروزهم ذلك اليوم: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَرْضَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦١﴾﴾ [إبراهيم]. وقوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا... الآية [إبراهيم: ٢١].

وكقوله في كونهم لا يخفى على الله منهم شيء ذلك اليوم: ﴿يَوْمَ يُقْرَضُونَ لَا تَحْفَظُ مِنْكُمْ خَافِيَةً ۝٨﴾ [الحاقة]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾ [العدايات]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝٥﴾ [آل عمران: ٥]، والآيات بمثل ذلك كثيرة، وقد بينها في أول سورة هود في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَكْتُمُونَ صُدُورُهُمْ لِّسَتَحْفَظُوا مِنْهُ ۝١٠﴾ . . . الآية [هود: ٥]، وذكرنا طرفاً من ذلك، في أول سورة سبأ، في الكلام على قوله تعالى: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِقَالٌ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۝٣﴾ الآية [سبأ: ٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ﴾. الإنذار: الإعلام المقترن بتهديد خاصة، فكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذاراً. وقد أوضحنا معنى الإنذار وأنواعه في أول سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا نُزُلًا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ...﴾ الآية [الأعراف: ٢]. والظاهر أن قوله هنا: ﴿يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ هو المفعول الثاني للإنذار لا ظرف له؛ لأن الإنذار والتخويف من يوم القيامة، واقع في دار الدنيا.

والآزفة: القيامة. أي أنذرهم يوم القيامة، بمعنى خوفهم إياه وهددهم بما فيه من الأهوال العظام ليستعدوا لذلك في الدنيا بالإيمان والطاعة.

وإنما عبر عن القيامة بالآزفة لأجل أزوفها أي قريبا، والعرب تقول: أزف الترحل بكسر الزاي، يأزف بفتحها، أزفاً بفتحتيْن، على القياس، وأزوفاً فهو أزف، على غير قياس في المصدر الأخير، والوصف بمعنى قرب وقته وحان وقوعه، ومنه قول نابغة ذبيان:

أزف الترحل غير أن ركابنا لما تنزل برحالننا وكأن قد

ويروى أفد الترحل، ومعناها واحد.

والمعنى: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَقِ﴾ أى يوم القيامة القريب مجيئها ووقوعها.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من اقتراب قيام الساعة، جاء موضحاً في آيات أخرى، كقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتِ الْآلَافَةَ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النجم]. وقوله تعالى: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾... الآية [القمر: ١]. وقوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ الآية [الأنبياء: ١]. وقوله تعالى في الأحزاب: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]. وقوله تعالى في الشورى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]. وقد قدمنا هذا في أول سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَنِّي أَمَرُ اللَّهَ فَلَا تَسْعَ جُلُودٌ﴾ [النحل: ١].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِذْ أَلْقَلُّوْا لَدَى الْحَنَاجِرِ كُظُمِيْنَ٥﴾، الظاهر فيه، أن «إِذْ»، بدل من «يوم»، وعليه فهو من قبيل المفعول به، لا المفعول فيه، كما بينا آنفاً.

والقلوب: جمع قلب وهو معروف. ولدى: ظرف بمعنى عند. والحناجر: جمع حنجرة وهي معروفة.

ومعنى كون القلوب لدى الحناجر، في ذلك الوقت فيه لعلماء التفسير وجهان معروفان:

أحدهما: ما قاله قتادة وغيره، من أن قلوبهم يومئذ، ترتفع من أماكنها في الصدور حتى تلتصق بالحلق، فتكون لدى الحناجر، فلا هي تخرج من أفواههم فيموتوا، ولا هي ترجع إلى أماكنها في الصدور فيتنفسوا. وهذا القول هو ظاهر القرآن.

والوجه الثاني: هو أن المراد بكون القلوب لدى الحناجر، بيان شدة الهول، وفضاعة الأمر، وعليه فالآية كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْبَصُورُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۚ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب]، وهو زلزال خوف وفزع لا زلزال حركة الأرض.

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿كَظِيمٍ﴾ معناه مكروبين ممتلئين خوفاً وغماً وحرزاً. والكظم: تردد الخوف والغيط والحزن في القلب حتى يمتلئ منه، ويضيق به. والعرب تقول: كظمت السقاء إذا ملأته ماء، وشددته عليه.

وقول بعضهم كاظمين؛ أي ساكتين، لا ينافي ما ذكرنا؛ لأن الخوف والغم الذي ملأ قلوبهم يمنعهم من الكلام، فلا يقدرون عليه، ومن إطلاق الكظم على السكوت قول العجاج:

ورب أسراب حجيح كظم عن اللغا ورفث التكلم

ويرجع إلى هذا القول معنى قول من قال: كاظمين؛ أي لا يتكلمون إلا من أذن له الله، وقال الصواب، كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨].

وقوله: ﴿كَظِيمٍ﴾ حال من أصحاب القلوب على المعنى، والتقدير: ﴿إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾؛ أي إذ قلوبهم لدى حناجرهم في حال كونهم كاظمين، أي ممتلئين خوفاً وغماً وحرزاً، ولا يبعد أن يكون حالاً من نفس القلوب، لأنها وصفت بالكظم الذي هو صفة أصحابها.

ونظير ذلك في القرآن: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، فإنه أطلق في هذه الآية الكريمة، على الكواكب والشمس والقمر صفة العقلاء في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، والمسوغ لذلك وصفه الكواكب والشمس والقمر بصفة العقلاء التي هي السجود.

ونظير ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّ أَغْتَابُهُمْ مَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء]. وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَلَيْسَ طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

قوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾.

قد قدّمنا الكلام عليه في سورة البقرة، وسورة الأعراف، وأحلنا عليه مراراً.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (١٨). قد قدمنا الكلام على ما يماثله من الآيات في أول سورة هود، وفي غيرها، وأحلنا عليه أيضاً مراراً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَكَذَا وَقَرُّونَ فَقَالُوا سَجِرٌ كَذَّابٌ﴾ (٢٤). ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أنه أرسل نبيه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، بآياته وحججه الواضحة كالعصا واليد البيضاء إلى فرعون وهامان وقارون فكذبوه، وزعموا أنه ساحر.

وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِينَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّسَحَرِنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ١٣٢]، وقوله تعالى عن فرعون: ﴿إِنَّهُ لَكَيْدٌ كَرِيمٌ الَّذِي عَلَّمَكَ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ حَولِي إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٢٤] والآيات بمثل ذلك كثيرة. وقد بينها في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (٢٧). ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن نبيه موسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - عاذ بربه؛ أي اعتصم به، وتمنع من كل متكبر؛ أي متصف بالكبر، لا يؤمن بيوم الحساب؛ أي لا يصدق بالبعث والجزاء.

وسبب عياد موسى بربه المذكور، أن فرعون قال لقومه: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾.

فعياد موسى المذكور بالله إنما هو في الحقيقة من فرعون، وإن كانت العبارة أعم من خصوص فرعون؛ لأن فرعون لا شك أنه متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، فهو داخل في الكلام دخولاً أولياً، وهو المقصود بالكلام.

وما ذكره - جلّ وعلا - في آية المؤمن هذه، في عياد موسى بالله من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب كفرعون، وعتاة قومه، ذكر نحوه في سورة الدخان في قوله تعالى عن موسى مخاطباً فرعون وقومه: ﴿وَلْيَا عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ (٢٥) الآية [الدخان].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن رجلاً مؤمناً في آل فرعون يكتُم إيمانه، أي يخفي عنهم أنه مؤمن، أنكر على فرعون وقومه إرادتهم قتل نبي الله موسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - حين قال فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ الآية. مع أنه لا ذنب له يستحق به القتل، إلا أنه يقول: ربي الله.

وقد بيّن في آيات آخر أن من عادة المشركين قتل المسلمين، والتنكيل بهم، وإخراجهم من ديارهم من غير ذنب، إلا أنهم يؤمنون بالله ويقولون: ربنا الله، كقوله تعالى في أصحاب الأخدود، الذين حرقوا المؤمنين: ﴿قِيلَ أَضْحَبَ الْأَعْدُوذُ! أَلَا تَرَىٰ ذَاتَ الْوُفُوذِ﴾ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا

بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ [البروج]. وقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]. وقوله تعالى عن الذين كانوا سحرة لفرعون، وصاروا من خيار المؤمنين، لما هددهم فرعون قائلًا: ﴿لَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُسَبِّحَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٢٤﴾ [الأعراف]، أنهم أجابوه، بما ذكره الله عنهم في قوله: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَهُ رَبِّنَا مُنْقَلَبُونَ﴾ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نَنقُمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِإِلَهِكَ رَبَّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ [الأعراف: ١٢٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

والتحقيق أن الرجل المؤمن المذكور في هذه الآية من جماعة فرعون كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿مَنْ ءَالٍ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٤٩].

فدعوى أنه إسرائيلي، وأن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، وأن من آل فرعون متعلق ببيعتكم؛ أي وقال رجل مؤمن يكتن إيمانه من آل فرعون؛ أي يخفي إيمانه عن فرعون وقومه، خلاف التحقيق كما لا يخفى.

وقيل: إن هذا الرجل المؤمن هو الذي قال لموسى: ﴿إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرِجْ﴾ [القصص: ٢٠]. وقيل غيره.

واختلف العلماء في اسمه اختلافاً كثيراً فقيل: اسمه حبيب، وقيل: اسمه شمعان، وقيل: اسمه حزقيل، وقيل غير ذلك. ولا دليل على شيء من ذلك. والظاهر في إعراب المصدر المنسب من أن وصلتها في قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾، أنه مفعول من أجله.

وقال البخاري رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعي قال: حدثني يحيى بن أبي كثير قال: حدثني محمد بن إبراهيم التيمي، حدثني عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ؟ قال: «بيننا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله ﷺ وقال: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟»، وقد جاءكم بالبينات من ربكم».

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

الظاهر أن أرى في هذه الآية الكريمة علمية، عرفانية، تتعدى لمفعول واحد، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

لِعِلْمِ عِرْفَانٍ وَظَنِّ تَهْمِهِ تَعْبِيدُهُ لِوَاحِدٍ مِلْتَزِمِهِ

وعليه فالمعنى: قال فرعون ما أعلمكم وأعرفكم، من حقيقة موسى وأنه ينبغي أن يقتل، خوف أن يبدل دينكم، ويظهر الفساد في أرضكم؛ إلا ما أرى؛ أي أعلم وأعرف أنه الحق والصواب، فما أخفي عنكم خلاف ما أظهره لكم، وما أهديك بهذا إلا سبيل الرشاد؛ أي طريق السداد والصواب.

وهذان الأمران اللذان ذكر تعالى عن فرعون أنه قالهما في هذه الآية الكريمة، قد بين في آيات أخرى أن فرعون كاذب في كل واحد منهما.

أما الأول منهما وهو قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾، فقد بين تعالى كذبه فيه في آيات من كتابه، وأوضح فيها أنه يعلم ويتيقن أن الآيات التي جاء بها موسى حق، وأنها ما أنزلها إلا الله، وأنه جحدما هو ومن استيقنتها معه من قومه ليستخفوا بها عقول الجهلة منهم، كقوله تعالى في سورة النمل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ بَيْضَةً مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ فِي شَيْءٍ ؕ إِلَيَّ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ إِنَّهُمْ كَانُوا فٰسِقِينَ ۝١٢٧﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝١٢٨ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ۝١٢٩﴾ [النمل].

فقوله تعالى: في هذه الآية ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٢٩]، دليل واضح على أن فرعون كاذب في قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾.

وكقوله تعالى في سورة بني إسرائيل: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يٰفِرْعَوْنُ مُنْجَبِرًا ۝١٢٧﴾ [الإسراء]. فقول نبي الله موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، مؤكداً إخباره بأن فرعون عالم بذلك بالقسم، وقد دل أيضاً على أنه كاذب في قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾.

وكان غرض فرعون بهذا الكذب التدليس والتضويق؛ ليظن جهلة قومه أن معه الحق، كما أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝١٢٨﴾ [الزخرف].

وأما الأمر الثاني وهو قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فقد بين تعالى كذبه فيه في آيات من كتابه، كقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]. وقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ۝١٢٨﴾ [طه].

وقال بعض العلماء في قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾؛ أي ما أشير عليكم إلا بما أرى لنفسي من قتل موسى. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾. هذه الآية الكريمة، وأمثالها من الآيات الدالة على أن السيئات لا تضاعف، ولا تجزى إلا بمثلها، بينها وبين الآيات الأخرى الدالة على أن السيئات ربما ضوعفت في بعض الأحوال، كقوله تعالى في نبينا ﷺ: ﴿إِذَا لَادَقْنٰكَ ضَعْفَ الْحَيَّةِ وَضَعْفَ أَلَمَاتٍ﴾ [الإسراء: ٧٥]. وقوله تعالى في نسائه رضي الله عنهن: ﴿يَلْبَسْنَ أَلْبِسَاءَ النَّارِ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحْشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، إشكال معروف. وقد قدمنا الجواب عنه موضحاً في سورة النمل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٢٩﴾ [النمل].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنُثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. قد أوضحنا معنى هذه الآية الكريمة، وبيننا العمل الصالح بالآيات القرآنية، وأوضحنا الآيات المبينة لمفهوم المخالفة، في قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنُثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. وفي أول سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَنكِحِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿وَتَدْعُوْنَ إِلَى النَّارِ ﴿١١﴾ تَدْعُوْنِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾. الظاهر أن جملة قوله: ﴿تَدْعُوْنِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾، بدل من قوله: ﴿وَتَدْعُوْنَ إِلَى النَّارِ﴾؛ لأن الدعوة إلى الكفر بالله والإشراك به دعوة إلى النار.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الكفر والإشراك بالله مستوجب لدخول النار، بيّنه تعالى في آيات كثيرة من كتابه كقوله: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقد قدمنا ما فيه كفاية من ذلك في سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾... الآية [الحج: ٣١].

قوله تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤُصْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَدَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾. التحقيق الذي لا شك فيه، أن هذا الكلام، من كلام مؤمن آل فرعون الذي ذكر الله عنه، وليس لموسى فيه دخل.

وقوله: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾، يعني أنهم يوم القيامة يعلمون صيغة ما كان يقول لهم، ويذكرون نصيحته، فيندمون حيث لا ينفع الندم، والآيات الدالة على مثل هذا من أن الكفار تنكشف لهم يوم القيامة حقائق ما كانوا يكذبون به في الدنيا كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لِّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٦﴾ لِكُلِّ نَجَمٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام] وقوله تعالى: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نُبَأَ بَعْدَ حِينٍ ﴿١٨﴾﴾. وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ تُوًّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [النبا]. وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [التكاثر]. وقوله تعالى: ﴿فَكَفَفْنَا عَنكَ غِظَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حُدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَفَؤُصْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَدَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾، دليل واضح على أن التوكل الصادق على الله، وتفويض الأمور إليه، سبب للحفظ والوقاية من كل سوء، وقد تقرر في الأصول أن الفاء من حروف التعليل، كقولهم سها فسجد؛ أي سجد لعلة سهاوه، وسرق فقطعت يده؛ أي لعلة سرقة، كما قلناه مراراً.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من كون التوكل على الله سبباً للحفظ، والوقاية من السوء، جاء مبيناً في آيات أخرى، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [١٧٣] فَأَنقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ دِيَارِهِمْ فَأُخْرِجُوا مِنْهَا أَمْثِلًا وَأَنقَلَبُوا إِلَىٰ مَا أَكْبَدُوا مِنْهُم مِّنَ النَّاسِ وَقَالُوا لَوْلَا إِلَهُنَا لَمَكُنَّا بِأَرْسَالِهِمْ مُّجْرَمِينَ ﴿١٧٤﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

وقد ذكرنا الآيات الدالة على ذلك بكثرة، في أول سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الإسراء: ٢]. والظاهر أن «ما» في قوله: ﴿سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوءًا﴾ مصدرية؛ أي فوqاه الله سيئات مكروهم؛ أي أضرار مكروهم وشدائده، والمكر: الكيد.

فقد دلت هذه الآية الكريمة، على أن فرعون وقومه أرادوا أن يمكروا بهذا المؤمن الكريم وأن الله وقاه، أي حفظه ونجاه، من أضرار مكروهم وشدائده بسبب توكله على الله، وتفويضه أمره إليه.

وبعض العلماء يقول: نجاه الله منهم مع موسى وقومه، وبعضهم يقول: صعد جبلاً فأعجزهم الله عنه ونجاه منهم، وكل هذا لا دليل عليه، وغاية ما دل عليه القرآن أن الله وقاه سيئات مكروهم؛ أي حفظه ونجاه منها.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾؛ معناه أنهم لما أرادوا أن يمكروا بهذا المؤمن، وقاه الله مكروهم، ورد العاقبة السيئة عليهم، فرد سوء مكروهم إليهم، فكان المؤمن المذكور ناجياً في الدنيا والآخرة، وكان فرعون وقومه هالكين، في الدنيا والآخرة والبرزخ.

فقال في هلاكهم في الدنيا: ﴿وَأَغْرَقْنَاهُ آلَ فِرْعَوْنَ﴾ الآية [البقرة: ٥٠]، وأمثالها من الآيات.

وقال في مصيرهم في البرزخ: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

وقال في عذابهم في الآخرة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة، من حيق المكر السيئ بالماكر، أوضحه تعالى في قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.

والعرب تقول حاق به المكروه يحيق به حيقاً وحيوقاً، إذا نزل به وأحاط به، ولا يطلق إلا على إحاطة المكروه خاصة.

يقال حاق به السوء والمكروه، ولا يقال حاق به الخير، فمادة الحيق من الأجوف الذي هو يائي العين، والوصف منه حائق على القياس، ومنه قول الشاعر:

فأوطأ جُرد الخيل عقر ديارهم وحاَقَ بهم من يأس ضبَّة حائق

وقد قدمنا أن وزن السيئة بالميزان الصرفي، «فيعلة» من السوء فأدغمت ياء الفيعلة الزائدة في الواو، التي هي عين الكلمة، بعد إبدال الواو ياء على القاعدة التصريفية المشار إليها في الخلاصة بقوله:

إن يسكن السابق من واو وَيَا واتصلا ومن عروض عَرِيَا
فِيَا الواو اقلبن مدغما وشذَّ معطى غير ما قد رسما

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضَّعِيفُونَ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ۖ﴾ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعَبَادِ ۖ ﴿٤٨﴾. قوله تعالى: ﴿يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ﴾ أصله يتفاعلون؛ من الحجة أي يختصمون، ويحتج بعضهم على بعض، وما تضمنته هذا الآية الكريمة، جاء موضحاً في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاسُمُ أَهْلِ النَّارِ ۖ﴾ (٤٩) [ص]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَزَقْنَاهُ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْفُوتُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۖ﴾ (٥٠) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ شُرَكَمِ ۖ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۖ﴾ [سبأ: ٣١ - ٣٣]. وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِيَهُمْ لِأُولٰٓئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۚ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ۖ﴾ (٥١) وَقَالَتْ أُوْلٰٓئِهِمْ لِأَخْرِيَهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۖ﴾ (٥٢) [الأعراف]. وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۖ﴾ (٥٣) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَبْرَأُ مِنَ اللَّهِ فَلَوْلَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۚ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ۖ﴾ (٥٤) [البقرة]. وقوله تعالى: ﴿وَيَبْرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعِفَتُونَ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَكُم سَوَاءً عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّجِيصٍ ۖ﴾ (٥٥) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّكَ اللَّهُ وَعَدَكُمْ وَغَدَا لَحِقَ وَعْدُكُمْ فَاتَّخَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِي ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۖ﴾ [إبراهيم: ٢١، ٢٢]، والآيات بمثل هذا كثيرة، وقد قدمنا الكلام عليها في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ۖ﴾ (٥٦) ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أن أهل النار طلبوا من خزنة جهنم أن يدعوا لهم الله أن يخفف عنهم من شدة عذاب النار.

وقد بين في سورة الزخرف أنهم نادوا مالكا خاصة، من خزنة أهل النار، ليقضي الله عليهم، أي ليميتهم فيستريحوا بالموت من عذاب النار.

وقد أوضح - جلّ وعلا - في آيات من كتابه، أنهم لا يجابون في واحد من الأمرين.
فلا يخفف عنهم العذاب، الذي سألوا تخفيفه، في سورة المؤمن هذه.

ولا يحصل لهم الموت الذي سألوه في سورة الزخرف. فقال تعالى في عدم تخفيف العذاب عنهم في هذه الآية: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝٥٠﴾. وقال تعالى: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ [فاطر: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿فَلَنْ تَرِيدَکُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿لَا يُغْنِي عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسِئُونَ ۝٥١﴾ [الزخرف]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥]. وقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧]. وقال تعالى: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْكَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧].

وقال تعالى في عدم موتهم في النار: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ [فاطر: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِسَمِيتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧]. وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَّتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُمْ مَجْرِمًا فَإِنَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝٧٦﴾ [طه]. وقال تعالى: ﴿وَنَجْجِبُهَا الْأَشْقَى ۝٧٧﴾ [الزخرف: ٧٧]. أجابهم بقوله: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَقْكُوتُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]. قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

وقد قدّمنا الكلام عليه مع الآيات التي بمعناه في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ۝٥١﴾.

قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة آل عمران، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ﴾ الآية [آل عمران: ١٤٦]، وذكرنا طرفاً من ذلك في الصفات، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْثَنَا لِعَادَاتِ الْمُرْسَلِينَ ۝٧٦﴾ [إِنَّهُمْ لَكُمُ الْمَصُورُونَ ۝٧٧] [الصفات]، وستأتي له زيادة إيضاح إن شاء الله في سورة المجادلة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ۝٥٢﴾ هُدًى وَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝٥٣﴾. اللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْهُدَىٰ﴾ موطئة للقسم، وصيغة الجمع في آتينا وأورثنا للتعظيم.

والمراد بالهدى ما تضمنته التوراه من الهدى في العقائد والأعمال: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ وهو التوراة، وقوله: ﴿هُدًى وَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝٥٣﴾ مفعول من أجله؛ أي لأجل الهدى والتذكير.

وقال بعضهم: هدى حال، وورود المصدر المنكر حالاً معروفاً، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

ومصدر منكر حالاً يقع بكثرة كبغته زيد طلع

وقال القرطبي: هدى بدل من الكتاب، أو خبر مبتدأ محذوف.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن الله أنزل التوراة على موسى وأنزل فيها الهدى لبني إسرائيل جاء موضحاً في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٩]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الآية [السجدة]]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَّحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٤٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم يَلْقَآءَ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٦]. وقوله تعالى: ﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَتُوحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الآية [الأعراف: ١٤٥]]. إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِن فِي صُؤْدُرِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِيَلْفِيهِ﴾. قد قدمنا إيضاحه في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ فَأَهْطِ لَهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣]، وذكرنا هناك بعض النتائج السيئة الناشئة عن الكبر.

قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾، قد قدمنا أن هذه الآية من البراهين الدالة على البعث، وأوضحنا كل البراهين الدالة على البعث بالآيات القرآنية بكثرة في سورة البقرة، وسورة النحل، وأحلنا على مواضع ذلك مراراً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُنُفَرِّقُونَ﴾. قوله تعالى في هذه الآية الكريمة، وما يستوي الأعمى والبصير، قد قدمنا الكلام عليه في سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْنَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ [الآية [هود: ٢٤]].

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُنُفَرِّقُونَ﴾، قد قدمنا إيضاح معناه بالآيات القرآنية، في سورة ص، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٧٨]. قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٥٨]. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١١].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [٥٦]. قال بعض العلماء: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾: اعبدوني أثبكم من عبادتكم، ويدل لهذا قوله بعده: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

وقال بعض العلماء: ﴿أَدْعُوْنِيْ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، أي اسألوني أعطكم. ولا منافاة بين القولين؛ لأن دعاء الله من أنواع عبادته.

وقد أوضحنا هذا المعنى، وبيننا وجه الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، مع قوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُوْنَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ [الأنعام: ٤١]، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآيِلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّكُمُ لَعِندَ اللَّهِ لَدُوْرٌ فَصَلِّ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُوْنَ﴾ ﴿١١﴾ قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية، في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآيِلَ لِأَسَا وَالنَّوْمِ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ ﴿٤٧﴾ [الفرقان]، وفي سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَحَرَوْنَا آيَةَ الْآيِلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الإسراء: ١٢].

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن رُّبَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَتَّكِنُوا شُيُوعًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلٍ وَلِيَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْنَ﴾ ﴿٤٧﴾ قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية، في سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَتَّيْنَهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ﴾ الآية [الحج: ٥]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٤١﴾ [النحل]. وبيننا أوجه القراءة في قوله: «فيكون» هناك.

قوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلَيْنِ فِيهَا فَمِن مَّنْ مَّا تَكْتَرُونَ﴾ لم يبين هنا - جلّ وعلا - عدد أبواب جهنم، ولكنه بين ذلك في سورة الحجر، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْجِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٦﴾ لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴿١٧﴾ [الحجر].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقُصِّصْ عَلَيْكَ﴾ ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الله - تبارك وتعالى - قص على نبيه ﷺ أنباء بعض الرسل؛ أي كنعان، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وموسى، وأنه لم يقصص عليه أنباء رسل آخرين، بينه في غير هذا الموضع، كقوله في سورة النساء: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقُصِّصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ ﴿١٧٦﴾ [النساء]، وأشار إلى ذلك في سورة إبراهيم في قوله: ﴿الَّذِي يَأْتِيكُمْ بُرُؤًا مِّن قَبْلِكُمْ قَوْمٌ يُؤْتُونَ عَوَاكِدَ وَتَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ يَابِئْتَنِي﴾ ... الآية [إبراهيم: ٩]. وفي سورة الفرقان في قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْعَابَ الرِّسِّ وَفُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ ﴿٢٨﴾ [الفرقان]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فَخُذْ بِالْمَعْقِلِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

قوله هنا: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾، أي قامت القيامة، كما قدمنا إيضاحه في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] أي فإذا قامت القيامة، قضى بين الناس بالحق الذي لا يخالطه حيف ولا جور، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالسَّاعَةِ وَالشَّهَادَةُ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾... الآية [الزمر: ٣٩]. وقال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمَلِكَةَ حَاقِيَةً مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ [الزمر: ٧٥].

والحق المذكور في هذه الآيات: هو المراد بالقسط المذكور في سورة يونس في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رُسُلُهُمْ فُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ [يونس: ٤٧]. وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أنه إذا قامت القيامة يخسر المبطلون، أوضحه - جلّ وعلا - في سورة الجاثية في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِيزُ بَخْسٍ خَسِرَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الجاثية: ٧] والمبطل هو: من مات مصراً على الباطل. وخسران المبطلين المذكور هنا، قد قدمنا بيانه في سورة يونس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِ اللَّهِ وَكَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥].

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [٧٩] وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ﴾ [٨٠]. قد قدمنا أن لفظه «جعل»، تأتي في اللغة العربية لأربعة معان، ثلاثة منها في القرآن:

الأول: إتيان جعل بمعنى اعتقد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَكَةَ الَّذِينَ هُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِنشَاءً﴾ [الزخرف: ٤١٩]، أي اعتقدوهم إناثاً، ومعلوم أن هذه تنصب المبتدأ والخبر. الثاني: جعل بمعنى صيّر، كقوله: ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خِلْدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٥]، وهذه تنصب المبتدأ والخبر أيضاً.

الثالث: جعل بمعنى خلق، كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، أي خلق السماوات والأرض وخلق الظلمات والنور. والظاهر، أن منه قوله هنا: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ﴾، أي خلق لكم الأنعام، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ [النحل: ٥]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾... الآية [يس: ٧١].

والرابع: وهو الذي ليس في القرآن: جعل بمعنى شرع، ومنه قوله:

وقد جعلت إذا ما قمت يثقلني ثوبي فأنهض نهض الشارب السكير

وما ذكره الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، من الامتنان بهذه النعم الكثيرة التي أنعم عليهم بها، بسبب خلقه لهم الأنعام وهي الذكور والإناث، من الإبل والبقر والضأن والمعز، كما قدمنا إيضاحه في سورة آل عمران في الكلام على قوله: ﴿وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤]، بينه أيضاً في مواضع أخرى، كقوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [٥] وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْهَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحْنَ

كتاب خير مبتدأ محذوف، أي هذا كتاب، والكتاب، فعال بمعنى مفعول، أي مكتوب. وإنما قيل له كتاب؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٦٦﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٦٧﴾﴾ [البروج].

ومكتوب أيضاً في صحف عند الملائكة كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّا نَذْكُرُهُ ﴿٦٨﴾ فَتَنَّا ذُكُّرَهُ ﴿٦٩﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿٧٠﴾ تَرْفَعُهُمْ مُّطَهَّرَةٍ ﴿٧١﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿٧٢﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿٧٣﴾﴾ [عبس]. وقال تعالى في قراءة النبي ﷺ لما تضمنته الصحف المكتوب فيها القرآن: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿١﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٢﴾﴾ [البينة].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ﴾. التفصيل ضد الإجمال؛ أي فصل الله آيات هذا القرآن، أي بينها وأوضح فيها ما يحتاج إليه الخلق، من أمور دينهم ودنياهم. والمسوغ لحذف الفاعل في قوله تعالى: ﴿فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ﴾ هو العلم بأن تفصيل آيات هذا القرآن، لا يكون إلا من الله وحده.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تفصيل آيات هذا الكتاب، جاء موضحاً في آيات آخر، مبيناً فيها أن الله فصله على علم منه وأن الذي فصله حكيم خبير، وأنه فصله ليهدي به الناس ويرحمهم، وأن تفصيله شامل لكل شيء، وأنه لا شك أنه منزل من الله، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَفَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ هُدًى وَرَحْمَةٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف]. وقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُوحِيَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يونس]. وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [يوسف]. وقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام]. والآيات بمثل ذلك كثيرة.

قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١﴾﴾. قوله: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، قد تكلمنا عليه وعلى الآيات التي بمعناه في القرآن في سورة الزمر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾... الآية [الزمر: ٢٨].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي فصلت آياته، في حال كونه قرآنًا عربيًّا لقوم يعلمون.

وإنما خصهم بذلك؛ لأنهم هم المتفهمون بتفصيله، كما خصهم بتفصيل الآيات في سورة يونس في قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥]، وفي سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَوْفٍ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد أوضحنا وجه تخصيص المتفعين بالأمر المشترك دون غيرهم في سورة فاطر في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يُخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [فاطر] وبيننا هناك أن تخصيصهم بالإنذار دون غيرهم في آية فاطر هذه، وفي قوله تعالى في يس: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ [يس: ١١]. وقوله في النازعات: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ تَخَشَّنَا﴾ [النازعات]. وقوله في الأنعام: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ الآية [الأنعام: ٥١]، مع أن أصل الإنذار عام شامل للمذكورين وغيرهم كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان].

وإنما خص المذكورين بالإنذار؛ لأنهم هم المنتفعون به؛ لأن من لم ينتفع بالإنذار، ومن لم ينذر أصلاً، سواء في عدم الانتفاع، كما قال الله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].

وقوله تعالى، في هذه الآية الكريمة: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ حال بعد حال. وقد قدمنا الكلام عليه وبعض شواهد العربية، في أول سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لِنُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّمَّنْ لَدُنْهُ وَيُنَبِّئَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ... الآية [الكهف: ٢]. وبسطنا الكلام عليه في أول سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا نُزْلًا لِّكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِنُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَاعْرِضْ أَكْثَرَهُمْ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يس في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس]. وفي سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأِنْ تُلَاقَ أَكْثَرُ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا يسمعون سماع قبول وانتفاع.

وقد أوضحنا ذلك بالآيات القرآنية في سورة النمل في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَ وَلَا تَسْمَعُ الضَّمَّ الدُّعَاءَ﴾ ... الآية [النمل: ٨٠].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ وَإِنَّا لَفَرٌّ وَمِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حُبَابٌ﴾. ذكر الله جلا وعلا في هذه الآية الكريمة، أن الكفار صرحوا للنبي ﷺ، بأنهم لا يستجيبون له ولا يؤمنون به، ولا يقبلون منه ما جاءهم به، فقالوا له: قلوبنا التي نعقل بها ونفهم، في أكنة؛ أي أغطية.

والأكنة، جمع كنان، وهو الغطاء والغلاف الذي يغطي الشيء ويمنعه من الوصول إليه. ويعنون أن تلك الأغطية مانعة لهم من فهم ما يدعوهم إليه ﷺ، وقالوا إن في آذانهم التي يسمعون بها وقرأ أي: ثقلاً وهو الصمم. وأن ذلك الصمم مانع لهم من أن

يسمعوا من النبي ﷺ شيئاً مما يقول، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦].

وأن من بينهم وبينه حجاباً مانعاً لهم من الاتصال والاتفاق؛ لأن ذلك الحجاب يحجب كلا منهما عن الآخر، ويحول بينهم وبين رؤية ما بيديه ﷺ من الحق.

والله - جلّ وعلا -، ذكر عنهم هذا الكلام في معرض الذم، مع أنه تعالى صرح بأنه جعل على قلوبهم الأكنة، وفي آذانهم الوقر، وجعل بينهم وبين رسوله حجاباً عند قراءته القرآن، قال تعالى في سورة بني إسرائيل: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ (١٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا [الإسراء: ٤٥، ٤٦]. وقال تعالى في الأنعام: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ مَاءٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأنعام: ٢٥]. وقال تعالى في الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

وهذا الإشكال الذي أشرنا إليه في هذه الآيات قوي، ووجه كونه مشكلاً ظاهراً؛ لأنه تعالى ذمهم على دعواهم الأكنة والوقر والحجاب في هذه الآية الكريمة من فصلت، وبين في الآيات الأخرى أن ما ذمهم على ادعائه واقع بهم فعلاً، وأنه تعالى هو الذي جعله فيهم؟

فيقال: فكيف يذمون على قول شيء، هو حق في نفس الأمر.

والتحقيق في الجواب عن هذا الإشكال، هو ما ذكرناه مراراً، من أن الله إنما جعل على قلوبهم الأكنة، وطبع عليها وختم عليها، وجعل الوقر في آذانهم، ونحو ذلك من الموانع من الهدى، بسبب أنهم باذروا إلى الكفر، وتكذيب الرسل طائعين مختارين، فجزاهم الله على ذلك الذنب الأعظم، طمس البصيرة، والعمى عن الهدى، جزاءً وفاقاً. فالأكنة والوقر والحجاب المذكورة إنما جعلها الله عليهم مجازاة لكفرهم الأول. ومن جزاء السيئة، تمادي صاحبها في الضلال، والله الحكمة البالغة في ذلك.

والآيات المصروفة بمعنى هذا كثيرة في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [النساء: ١٥٥].

فقول اليهود في هذه الآية: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾. كقول كفار مكة: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾؛ لأن الغلف جمع أغلف وهو الذي عليه غلاف، والأكنة جمع كنان، والغلاف والكنان كلاهما بمعنى الغطاء الساتر.

وقد رد الله على اليهود دعواهم ببل التي هي للإضراب الإبطالي، في قوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾.

فالباء في قوله: «بكفرهم» سببية، وهي دالة على أن سبب الطبع على قلوبهم هو كفرهم، والأكنة والوقر والطبع كلها من باب واحد.

وكقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون]، والفاء في قوله: «طبع سببية أي ثم كفروا، «طبع» على قلوبهم بسبب ذلك الكفر. وقد قَدَّمنا مراراً أنه تقرر في الأصول أن الفاء من حروف التعليل، ومن المعلوم أن العلة الشرعية سبب شرعي.

وكذلك الفاء في قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾. فهي سببية أيضاً؛ أي «طبع على قلوبهم، فهم بسبب ذلك الطبع لا يفقهون؛ أي لا يفهمون» من براهين الله وحججه شيئاً. وذلك مما يبين أن الطبع والأكنة يؤول معناهما إلى شيء واحد، وهو ما ينشأ عن كل منهما من عدم الفهم؛ لأنه قال في الطبع: ﴿فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾. وقال في الأكنة: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥]، أي كراهة أن يفقهوه، أو لأجل ألا يفقهوه، كما قَدَّمنا إيضاحه.

وكقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، فبين أن زيغهم الأول، كان سبباً لإزاغة الله قلوبهم، وتلك الإزاغة قد تكون بالأكنة والطبع والختم على القلوب. وكقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿وَنَقَلْنَا أَفْعَانَهُمْ وَأَبْصَرْتَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَزَلَّ مَرَقًا﴾ [الأنعام: ١١٠]. وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ ... الآية [التوبة: ١٢٥].

وإيضاح هذا الجواب: أن الكفار قالوا للنبي ﷺ: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ وَمَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيْءِ ءَادَانَا وَقَدْ رَمَيْنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ يقصدون بذلك إخباره ﷺ بأنهم لا يؤمنون به بوجه، ولا يتبعونه بحال، ولا يقرون بالحق الذي هو كون كفرهم هذا هو الجريمة، والذنب الذي كان سبباً في الأكنة، والوقر والحجاب.

فدعواهم كاذبة؛ لأن الله جعل لهم قلوباً يفهمون بها، وأذناً يسمعون بها، خلافاً لما زعموا، ولكنه سبب لهم الأكنة والوقر والحجاب، بسبب مبادرتهم إلى الكفر، وتكذيب الرسول ﷺ.

وهذا المعنى، أوضحه رده تعالى على اليهود في قوله عنهم: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ [النساء: ١٥٥].

وقد حاول الفخر الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة، الجواب على الإشكال المذكور فقال: فإن قيل إنه تعالى حكى هذا المعنى عن الكفار في معرض الذم، وذكر أيضاً ما يقرب منه في معرض الذم، فقال: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ [البقرة: ٨٨]، ثم إنه تعالى ذكر هذه الأشياء الثلاثة بعينها في معنى التقرير والإثبات في سورة الأنعام، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِيْءِ ءَادَانِهِمْ وَقَدْ رَمَيْنَا﴾ [الأنعام: ٢٥] فكيف الجمع بينهما؟

قلنا: إنه لم يقل ها هنا إنهم كذبوا في ذلك، إنما الذي ذمهم عليه، أنهم قالوا: إنا إذا كنا كذلك، لم يجز تكليفنا وتوجيه الأمر والنهي علينا، وهذا الثاني باطل.

أما الأول: فلأنه ليس في الآية ما يدل على أنهم كذبوا فيه. اهـ منه. والأظهر: هو ما ذكرنا.

قال صاحب الكشاف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾.

فإن قلت: هل لزيادة: «من» في قوله: ﴿وَمِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ فائدة؟ قلت: نعم؛ لأنه لو قيل: وبيننا وبينك حجاب، لكان المعنى أن حجاباً حاصل وسط الجهتين.

وأما بزيادة «من» فالمعنى: أن حجاباً ابتدأ منا وابتدأ منك.

فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب، لا فراغ فيها. انتهى منه.

واستحسن كلامه هذا الفخر الرازي وتعبه ابن المنير على الزمخشري، فأوضح سقوطه والحق معه في تعقبه عليه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾، وقد قدّمنا تفسيره وإيضاحه بالآيات القرآنية، في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُثَلَّكُ يُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ﴾. أمر الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة نبيه ﷺ أن يقول للناس: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُثَلَّكُ يُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ﴾.

والقصر في قوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ﴾، إضافي؛ أي لا أقول لكم إني ملك، وإنما أنا رجل من البشر.

وقوله: ﴿مُثَلَّكُ﴾، في الصفات البشرية، ولكن الله فضلني بما أوحى إليّ من توحيده.

كما قال تعالى عن الرسل في سورة إبراهيم: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١]، أي كما منّ علينا بالوحي والرسالة.

وما ذكره الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، ذكره في آخر سورة الكهف، في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُثَلَّكُ يُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾... الآية [الكهف: ١١٠].

وقد أوضحنا وجه حصر ما أوحى إليه ﷺ في مضمون لا إله إلا الله، في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء]، في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُمْ أَقَوْمٌ﴾ [الإسراء: ٩].

وبينا في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك إنكار المشركين كون الرسل من

البشر، وأنهم ينبغي أن يكونوا من الملائكة، وما رد الله عليهم به ذلك من الآيات القرآنية، أوضحنا ذلك في سورة ص، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ [ص: ٤]، وفي سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ إلى قوله: ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤ - ٩٥].

قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝﴾.

قد استدل بعض علماء الأصول بهذه الآية الكريمة، على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة؛ لأنه تعالى صرح في هذه الآية الكريمة، بأنهم مشركون، وأنهم كافرون بالآخرة، وقد توعدهم بالويل على شركهم وكفرهم بالآخرة، وعدم إيتائهم الزكاة، سواء قلنا إن الزكاة في الآية هي زكاة المال المعروفة، أو زكاة الأبدان بفعل الطاعات واجتناب المعاصي.

ورجح بعضهم القول الأخير؛ لأن سورة فصلت هذه من القرآن النازل بمكة قبل الهجرة، وزكاة المال المعروفة إنما فرضت بعد الهجرة سنة اثنتين، كما قلدها في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاوْا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَّاصِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وعلى كل حال، فالآية تدل على خطاب الكفار بفروع الإسلام؛ أعني امتثال أوامره واجتناب نواهيه.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة، من كونهم مخاطبين بذلك وأنهم يعذبون على الكفر، ويعذبون على المعاصي، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى عنهم مقررأ له: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۝ قَالَُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ ۝ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَاطِئِينَ ۝ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الَّذِينَ ۝ حَقَّ أَتْنَا الْيَقِينَ ۝﴾ [المدثر].

فصرح تعالى عنهم مقررأ له أن من الأسباب التي سلكتهم في سقر؛ أي أدخلتهم النار، عدم الصلاة، وعدم إطعام المسكين، وعد ذلك مع الكفر بسبب التكذيب بيوم الدين.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝﴾ [الحاقة]، ثم بين سبب ذلك فقال: الآية ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۝ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حِمِيمٌ ۝ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ ۝﴾ [الحاقة] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝﴾. الأجر

جزاء العمل، وجزاء عمل الذين آمنوا وعملوا الصالحات هو نعيم الجنة، وذلك الجزء غير ممنون؛ أي غير مقطوع، فالممنون اسم مفعول منه بمعنى قطعه، ومنه قول لبيد بن ربيعة في معلقته:

لمعفر قهدٍ تنازع شِلْوُهُ غُبِسُ كَوَاسِبُ مَا يَمْنُ طَعَامُهَا

فقوله: ما يمن طعامها؛ أي ما يقطع. وقول ذي الأصبع:

إني لعمرك ما بابي بذى غلق على الصديق ولا خيري بممنون

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن أجرهم غير ممنون، نض الله تعالى عليه في آيات أخر من كتابه، كقوله تعالى في آخر سورة الانشقاق: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾. وقوله تعالى في سورة التين: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾. وقوله تعالى في سورة هود: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُودُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوفٍ﴾.

فقوله: ﴿غَيْرَ مَجْذُوفٍ﴾ أي غير مقطوع، وبه تعلم أن غير مجذوذ وغير ممنون، معناهما واحد.

وقوله تعالى في ص: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ [ص]، أي ماله من انتهاء ولا انقطاع. وقوله في النحل: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]. وهذا الذي ذكرنا هو الذي عليه الجمهور خلافاً لمن قال: إن معنى غير ممنون؛ غير ممنون عليهم به.

وعليه، فالمن في الآية من جنس المن المذكور في قوله تعالى: ﴿لَا يُبْطَلُوا صَدَقَتُكُمْ بِالْمِنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤].

ومن قال: إن معنى غير ممنون، غير منقوص، محتجاً بأن العرب تطلق الممنون على المنقوص، قالوا: ومنه قول زهير:

فضل الجياد على الخيل البطاء فلا يعطي بذلك مَمْنُوناً ولا نَزَقاً
فقوله مَمْنُوناً؛ أي منقوصاً.

وهذا وإن صح لغة، فالأظهر أنه ليس معنى الآية. بل معناها: هو ما قدّمناه. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رُءُوسَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾.

الظاهر أن معنى قوله هنا: «في أربعة أيام»: أي في تمة أربعة أيام. وتمة الأربعة حاصلة بيومين فقط؛ لأنه تعالى قال: ﴿قُلْ أَتُكْفِرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ثم قال ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾، أي في تمة أربعة أيام.

ثم قال: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، فتضم اليومين إلى الأربعة السابقة، فيكون مجموع الأيام التي خلق فيها السماوات والأرض وما بينهما، ستة أيام.

وهذا التفسير الذي ذكرنا في الآية لا يصح غيره بحال؛ لأن الله تعالى صرح في آيات متعددة من كتابه بأنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام كقوله في الفرقان: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَبيراً﴾ [الفرقان]. وقوله تعالى في السجدة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَيْعٍ... الآية [السجدة: ٤]. وقوله تعالى في ق: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق]. وقوله تعالى في الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ الآية [الأعراف: ٥٤]. إلى غير ذلك من الآيات.

فلو لم يفسر قوله تعالى: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾، بأن معناه في تنمة أربعة أيام، لكان المعنى أنه تعالى خلق السماوات والأرض وما بينهما في ثمانية أيام؛ لأن قوله تعالى: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ إذا فسر بأنها أربعة كاملة ثم جمعت مع اليومين الذين خلقت فيهما الأرض المذكورين في قوله: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، واليومين الذين خلقت فيهما السماوات المذكورين في قوله تعالى: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَنَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، لكان المجموع ثمانية أيام وذلك لم يقل به أحد من المسلمين. والنصوص القرآنية مصرحة بأنها ستة أيام، فعلم بذلك صحة التفسير الذي ذكرنا، وصحة دلالة الآيات القرآنية عليه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ مِنْ فَوْقِهَا﴾، قد قدّمنا الكلام على أمثاله من الآيات، في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾... الآية [النحل: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَيَتْرَكُ فِيهَا﴾ أي أكثر فيها البركات، والبركة الخير، وقوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾. التقدير والخلق في لغة العرب معناهما واحد.

والأقوات جمع قوت، والمراد بالأقوات: أرزاق أهل الأرض ومعاشهم وما يصلحهم. وقد ذكرنا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب، عن آيات الكتاب: أن آية فصلت هذه، أعني قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾، يفهم منها الجمع بين الآيات الدالة على أن الأرض خلقت قبل السماء كقوله هنا: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ثم رتب على ذلك بشم، قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾، إلى قوله: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَنَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، مع بعض الآيات الدالة على أن السماء خلقت قبل الأرض، كقوله تعالى في النزاعات: ﴿إِنَّمَا أَنْتُمْ مُنَادُونَ أَلْأَنْتُمْ خَلَقُوا السَّمَاءَ وَبَيْنَهَا﴾ [النزاعات: ١٢]، إلى قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النزاعات: ١٢].

فقلنا في كتابنا المذكور ما نصه: قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ الآية، هذه الآية تدل على أن خلق الأرض قبل خلق السماء، بدليل لفظه «ثم» التي هي للترتيب والانفصال.

وكذلك آية حم السجدة، تدل أيضاً على خلق الأرض قبل السماء؛ لأنه قال فيها: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى أن قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾... الآية.

مع أن آية النازعات تدل على أن دحا الأرض بعد خلق السماء؛ لأنه قال فيها: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ السَّمَاءُ بَنُهَا﴾ ﴿١٧﴾ إلى قوله: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ﴿٢٥﴾ [النازعات].
اعلم أولاً أن ابن عباس رضي الله عنه سئل عن الجمع بين آية السجدة وآية النازعات، فأجاب بأن الله تعالى خلق الأرض أولاً قبل السماء غير مدحوة، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبعاً في يومين، ثم دحا الأرض بعد ذلك، وجعل فيها الرواسي والأنهار وغير ذلك.
فأصل خلق الأرض قبل خلق السماء، ودحوها بجبالها وأشجارها ونحو ذلك، بعد خلق السماء.

ويدل لهذا أنه قال: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ﴿٢٥﴾ [النازعات]، ولم يقل خلقها، ثم فسر دحوه إياها بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَنَزَعْنَا مِنْهَا﴾ ﴿٢٦﴾ [النازعات]، وهذا الجمع الذي جمع به ابن عباس بين هاتين الآيتين واضح لا إشكال فيه. مفهوم من ظاهر القرآن العظيم إلا أنه يرد عليه إشكال من آية البقرة هذه.
وإيضاحه أن ابن عباس جمع بأن خلق الأرض قبل خلق السماء، ودحوها بما فيها بعد خلق السماء.

وفي هذه الآية التصريح بأن جميع ما في الأرض مخلوق قبل خلق السماء؛ لأنه قال فيها: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩].
وقد مكثت زمناً طويلاً أفكر في حل هذا الإشكال حتى هداني الله إليه ذات يوم ففهمته من القرآن العظيم.

وإيضاحه: أن هذا الإشكال مرفوع من وجهين، كل منهما تدل عليه آية من القرآن.
الأول: أن المراد بخلق ما في الأرض جميعاً قبل خلق السماء: الخلق اللغوي الذي هو التقدير لا الخلق بالفعل الذي هو الإبراز من العدم إلى الوجود، والعرب تسمى التقدير خلقاً. ومنه قول زهير:

ولأنت تَفْري ما خلقت وبعض القوم يخلُق ثم لا يَفْري

والدليل على أن المراد بهذا الخلق التقدير، أنه تعالى نص على ذلك في سورة فصلت. حيث قال: ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا أَفْوَنتَهَا﴾، ثم قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾.

الوجه الثاني: أنه لما خلق الأرض غير مدحوة وهي أصل لكل ما فيها، كان كل ما فيها كأنه خلق بالفعل لوجود أصله فعلاً.

والدليل من القرآن على أن وجود الأصل يمكن به إطلاق الخلق على الفرع، وإن لم يكن موجوداً بالفعل، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ الآية [الأعراف: ١١]، فقوله: ﴿خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، أي بخلقنا وتصويرنا لأبيكم آدم الذي هو أصلكم.

وجمع بعض العلماء بأن معنى قوله: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ﴿٢٥﴾ [النازعات]، أي مع ذلك، فلفظة بعد بمعنى مع.

ونظيره قوله تعالى: ﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْبٌ﴾ [القلم]، وعليه فلا إشكال في الآية.

ويستأنس بهذا القول بالقراءة الشاذة وبها قرأ مجاهد: «والأرض مع ذلك دحاها».

وجمع بعضهم بأوجه ضعيفة؛ لأنها مبنية على أن خلق السماء قبل الأرض، وهو خلاف التحقيق. منها أن ثم: بمعنى الواو. ومنها: أنها للترتيب الذكري كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾... الآية [البعد: ١٧].

قوله تعالى: ﴿وَرَبَّنَا السَّمَاءُ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا﴾. المصاييح: النجوم، وما تضمنته هذه الآية من تزيين السماء الدنيا بالنجوم، قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية، في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِيَهْتَدُوا بِهَا﴾... الآية [الأنعام: ٩٧].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَحِفْظًا﴾، قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ﴾ [الحجر]. قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في سورة ص، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعِبْرًا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ص: ٤].

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ﴾. الصرصر: وزنه بالميزان الصرفي فعفل، وفي معنى الصرصر لعلماء التفسير وجهان معروفان:

أحدهما: أن الريح الصرصر هي الريح العاصفة الشديدة الهبوب، التي يسمع لهبوبها صوت شديد، وعلى هذا فالصرصر من الصرّة، التي هي الصيحة المزعجة.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ كَأَمْرَاتُهُ فِي صَرْقٍ﴾ [الذاريات: ٢٩]، أي في صيحة، ومن هذا المعنى صرير الباب والقلم، أي صوتهما.

الوجه الثاني: أن الصرصر من الصر الذي هو البرد الشديد المحرق، ومنه على أصح التفسيرين قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾... الآية [آل عمران: ١١٧]؛ أي فيها برد شديد محرق، ومنه قول حاتم الطائي:

أوقد فإن الليل ليل قر والريح يا واقد ريح صر
علّ يرى نارك من يمر إن جلبت ضيفاً فأنت حر

فقوله: ريح صرّ، أي باردة شديدة البرد.

والأظهر أن كلا القولين صحيح، وأن الريح المذكورة جامعة بين الأمرين، فهي عاصفة شديدة الهبوب، باردة شديدة البرد.

وما ذكره - جلّ وعلا - من إهلاكه عاداً بهذه الريح الصرصر، في تلك الأيام النحسات، أي المشؤمات النكدات؛ لأن النحس ضد السعد، وهو الشؤم جاء موضحاً في آيات من كتاب الله.

وقد بين تعالى في بعضها عدد الأيام والليالي التي أرسل عليهم الريح فيها، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۖ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَحْنِينًا أَيَّامٍ خُسُوفًا ۖ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ ۖ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ ۖ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ۖ﴾ [الحاقة]. وقوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۖ مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالْأَمْيَمِ ۖ﴾ [الذاريات]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ۖ تَنْزِعُ النَّاسَ أَعْجَازٌ ۖ نَحْلٌ مُتَفَعِّرٍ ۖ﴾ [القمر]. وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ۖ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٤، ٢٥].

وهذه الريح الصرصر هي المراد بصاعقة عاد في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ أَذَرْتُمْ صَبِغَةً مِثْلَ صَبِغَةِ عَادٍ ۖ﴾.

وقرأ هذا الحرف نافع، وابن كثير، وأبو عمر: «نَحْسَات»، بسكون الحاء، وعليه فالنحس، وصف أو مصدر، نزل منزلة الوصف.

وقرأه ابن عامر، وعاصم، وحزمة، والكسائي: «نَحْسَات» بكسر الحاء، ووجهه ظاهر، وقد قدمنا أن معنى النحسات: المشومات النكدات.

وقال صاحب الدر المنثور: وأخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ [القمر: ١٩]. قال: النحس، البلاء والشدة، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت زهير بن أبي سلمى يقول:

سواء عليه أي يوم أتيته أساعة نحس تتقى أم بأسعد

وتفسير النحس بالبلاء والشدة تفسير بالمعنى؛ لأن الشؤم بلاء وشدة. ومقابلة زهير النحس بالأسعد في بيته يوضح ذلك، وهو معلوم.

ويزعم بعض أهل العلم، أنها من آخر شوال، وأن أولها يوم الأربعاء وآخرها يوم الأربعاء، ولا دليل على شيء من ذلك.

وما يذكره بعض أهل العلم من أن يوم النحس المستمر، هو يوم الأربعاء الأخير من الشهر، أو يوم الأربعاء مطلقاً، حتى إن بعض المنتسبين لطلب العلم وكثيراً من العوام صاروا يتشاءمون بيوم الأربعاء الأخير من كل شهر، حتى إنهم لا يقدمون على السفر، والتزوج ونحو ذلك فيه، ظانين أنه يوم نحس وشؤم، وأن نحسه مستمر على جميع الخلق في جميع الزمن، لا أصل له ولا معول عليه، ولا يلتفت إليه من عنده علم؛ لأن نحس ذلك اليوم مستمر على عاد فقط الذين أهلكهم الله فيه، فاتصل لهم عذاب البرزخ والآخرة بعذاب الدنيا، فصار ذلك الشؤم مستمراً عليهم استمراراً لا انقطاع له.

أما غير عاد فليس مؤاخذاً بذنب عاد؛ لأنه ﴿وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةً وَزِدْ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقد أردنا هنا أن نذكر بعض الروايات التي اغتر بها من ظن استمرار نحس ذلك

اليوم، لنبين أنها لا معول عليها.

قال صاحب الدر المنثور: وأخرج ابن أبي حاتم عن زر بن حبیش ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَبْرَ﴾ [القمر: ١٩]. قال: «يوم الأربعاء».

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل: اقض باليمين مع الشاهد. وقال: يوم الأربعاء يوم نحس مستمر». وأخرج ابن مردويه عن علي قال: «نزل جبريل على النبي ﷺ باليمين مع الشاهد والحجامة. ويوم الأربعاء يوم نحس مستمر». وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقول: «يوم نحس يوم الأربعاء».

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال: سئل رسول الله ﷺ عن الأيام، وسئل عن يوم الأربعاء؟ قال: يوم نحس، قالوا: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «أغرق فيه الله فرعون وقومه، وأهلك عاداً وثمود».

وأخرج وكيع في الغرر وابن مردويه والخطيب بسند ضعيف عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «آخر أربعاء في الشهر يوم نحس مستمر».

فهذه الروايات وأمثالها لا تدل على شؤم يوم الأربعاء على من لم يكفر بالله ولم يعصه؛ لأن أغلبها ضعيف وما صح معناه منها، فالمراد بنحسه: شؤمه على أولئك الكفرة العصاة الذين أهلكهم الله فيه بسبب كفرهم ومعاصيهم.

فالحاصل أن النحس والشؤم إنما منشأه وسببه الكفر والمعاصي.

أما من كان متقياً لله مطيعاً له في يوم الأربعاء المذكور فلا نحس ولا شؤم فيه عليه. فمن أراد أن يعرف النحس والشؤم والنكد، والبلاء والشقاء على الحقيقة، فليتحقق أن ذلك كله في معصية الله وعدم امتثال أمره. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾.

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهَدَيْنَهُمْ﴾؛ المراد بالهدى فيه هدى الدلالة والبيان والإرشاد، لا هدى التوفيق والاصطفاء.

والدليل على ذلك قوله تعالى بعده: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾؛ لأنها لو كانت هداية توفيق لما انتقل صاحبها عن الهدى إلى العمى.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ أي اختاروا الكفر على الإيمان، وآثروه عليه، وتعرضوه منه.

وهذا المعنى الذي ذكرنا يوضحه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ [التوبة: ٢٣]. فقوله في آية التوبة هذه: ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ [التوبة: ٢٣]، موافق في المعنى لقوله هنا: فاستحبوا العمى على الهدى.

ونظير ذلك في المعنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَجِبُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ . . . الآية [إبراهيم: ٣].

فلفظة استحب في القرآن كثيراً ما تتعدى بعلى؛ لأنها في معنى اختار وأثر.

وقد قدمنا في سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى﴾ [هود: ٢٤]. أن العمى الكفر، وأن المراد بالأعمى في آيات عديدة الكافر.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن الهدى يأتي في القرآن بمعناه العام الذي هو البيان، والدلالة والإرشاد، لا ينافي أن الهدى قد يطلق في القرآن في بعض المواضع على الهدى الخاص الذي هو التوفيق، والاصطفاء، كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أُمْتَدَّةٌ﴾ [الأنعام: ٩٠].

فمن إطلاق القرآن الهدى على معناه العام قوله هنا: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ﴾، أي بينا لهم طريق الحق وأمرناهم بسلوكها، وطرق الشر ونهيناهم عن سلوكها على لسان نبينا صالح - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - ﴿فَاسْتَجَبُوا أَمْرِي عَلَى الْهُدَى﴾، أي اختاروا الكفر على الإيمان بعد إيضاح الحق لهم.

ومن إطلاقه على معناه العام قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣]، بدليل قوله بعده: ﴿إِنَّمَا شَاكَرَ وَإِنَّمَا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]؛ لأنه لو كان هدى توفيق لما قال: ﴿وَأَمَّا كَفُورًا﴾.

ومن إطلاقه على معناه الخاص قوله تعالى: ﴿فَبِهِدْهُمْ أُمْتَدَّةٌ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]. وقوله: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ [الكهف: ١٧].

وبمعرفة هذين الإطلاقين تتيسر إزالة إشكال قرآني: وهو أنه تعالى أثبت الهدى لنبينا ﷺ في آية، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] ونفاه عنه في آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

فيعلم مما ذكرنا: أن الهدى المثبت له ﷺ، هو الهدى العام الذي هو البيان والدلالة والإرشاد، وقد فعل ذلك ﷺ بين المحجة البيضاء، حتى تركها ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

والهدى المنفي عنه في آية: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، هو الهدى الخاص الذي هو التفضل بالتوفيق؛ لأن ذلك بيد الله وحده، وليس بيده ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ الآية [المائدة: ٤١]. وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾ الآية [البقرة: ١٨٥]، لا منافاة فيه بين عموم الناس في هذه الآية، وخصوص المتقين في قوله

تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة]؛ لأن الهدى العام للناس هو الهدى العام، والهدى الخاص بالمتقين هو الهدى الخاص كما لا يخفى.

وقد بينا هذا في غير هذا الموضع. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾. الفاء في قوله: «فأخذتهم» سببية، أي فاستحبوا العمى على الهدى، وبسبب ذلك، أخذتهم صاعقة العذاب الهون.

واعلم: أن الله - جلّ وعلا - عبر عن الهلاك الذي أهلك به ثمود، بعبارات مختلفة، فذكره هنا باسم الصاعقة في قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ وقوله: ﴿فَقُلْ أَنتَرَكُمُ صَاعِقَةٌ مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾.

وعبر عنه أيضاً بالصاعقة في سورة الذاريات في قوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ يَجِيءَ رَبُّكُمْ بِالسَّاعِقَةِ وَالصَّيْحَةِ الْكُبْرَىٰ﴾ [الذاريات].

وعبر عنه بالصيحة في آيات من كتابه، كقوله تعالى في سورة هود، في إهلاكه ثمود: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمًا﴾ [هود] ﴿كَانَ لَمْ يَخْلُ مِنْهَا آلَاَ إِنَّا ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود]. وقوله تعالى في الحجر: ﴿وَكَانُوا يَنْجُونِ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمًا ءَامِينًا﴾ [الحجر] ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر]. وقوله تعالى في القمر: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخِطِرِ﴾ [القمر]. وقوله تعالى في العنكبوت: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، يعني به ثموداً المذكورين في قوله قبله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّرَ لَكُمْ مِنْ سَكِينِهِمْ وَرَزَقَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُصْتَبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ١٧]. الآية [العنكبوت].

وعبر عنه بالرجفة، في سورة الأعراف، في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَفْنَانَا يَمَّا قَدَدْنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧، ٧٨]. الآية [الأعراف].

وعبر عنه بالتدمير في سورة النمل، في قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل].

وعبر عنه بالطاغية في الحاقة في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَقْبَرُوا بِطَاغِيَةٍ﴾ [الحاقة].

وعبر عنه بالدمدمة في الشمس، في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس].

وعبر عنه بالعذاب، في سورة الشعراء، في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٧، ١٥٨]. الآية [الشعراء].

ومعنى هذه العبارات كلها راجع إلى شيء واحد، وهو أن الله أرسل عليهم صيحة أهلكتهم، والصيحة الصوت المزعج المهلك.

والصاعقة تطلق أيضاً على الصوت المزعج المهلك، وعلى النار المحرقة، وعليهما معاً، ولشدة عظم الصيحة وهولها من فوقهم، رجفت بهم الأرض من تحتهم؛ أي تحركت حركة قوية، فاجتمع فيها أنها صيحة وصاعقة ورجفة، وكون ذلك تدميراً واضح. وقيل لها طاغية؛ لأنها واقعة مجاوزة للحد في القوة وشدة الإهلاك.

والطغيان في لغة العرب: مجاوزة الحد.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ الآية [الحاقة: ١١]. أي جاوز الحدود التي يبلغها الماء عادة.

واعلم أن التحقيق، أن المراد بالطاغية في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَقْبَرُوا بِطَاغِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٥]، أنها الصيحة التي أهلكهم الله بها، كما يوضحه قوله بعده: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَقْبَرُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦].

خلافاً لمن زعم أن الطاغية، مصدر كالعاقبة، والعافية، وأن المعنى أنهم أهلكوا بطغيانهم؛ أي بكفرهم وتكذيبهم نبيهم، كقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَنِهَا﴾ [الشمس: ١١].

وخلافاً لمن زعم أن الطاغية هي أشقاهم الذي انبعث فعقر الناقة، وأنهم أهلكوا بسبب فعله وهو عقره الناقة، وكل هذا خلاف التحقيق.

والصواب إن شاء الله هو ما ذكرنا. والسياق يدل عليه واختاره غير واحد.

وأما قوله تعالى: ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الشمس: ١٤]، فإنه لا يخالف ما ذكرنا؛ لأن معنى ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾، أي أطلق عليهم العذاب وألبسهم إياه؛ بسبب ذنوبهم.

قال الزمخشري في معنى دمدم: وهو من تكرير قولهم ناقة مدمومة، إذا ألبسها الشحم. وأما إطلاق العذاب عليه في سورة الشعراء فواضح، فاتضح رجوع معنى الآيات المذكورة إلى شيء واحد.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿صَلَبَةُ الْعَذَابِ أَهْوَنُ﴾، من النعت بالمصدر؛ لأن الهون مصدر بمعنى الهوان، والنعت بالمصدر أسلوب عربي معروف، أشار إليه في الخلاصة بقوله:

ونعتوا بمصدر كثير

وهو موجه بأحد أمرين:

أحدهما: أن يكون على حذف مضاف. أي العذاب ذي الهون.

والثاني: أنه على سبيل المبالغة، فكأن العذاب لشدة اتصافه بالهوان اللاحق بمن وقع عليه، صار كأنه نفس الهوان، كما هو معروف في مجله.

وقوله تعالى: ﴿يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، كالتوكيد في المعنى لقوله: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى

عَلَى الْمُدَى؛ لأن كلا منهما سبب لأخذ الصاعقة إياهم، فالفاء في قوله: «فأخذتهم» سببية، والباء في قوله: «بما كانوا» سببية. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَحِينَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (١٨)، ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أنه أهلك ثمود بالصاعقة، ونجى من ذلك الإهلاك الذين آمنوا وكانوا يتقون الله، والمراد بهم صالح ومن آمن معه من قومه.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، جاء مبيناً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَحِينَا صَالِحًا وَالدِّينَ ءَامَنُوا مَعَهُ رِخَمَوْا مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (١١) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ الآية [هود: ٦٦، ٦٧]، وقوله تعالى في النمل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فِئَفَافٍ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٥١) [النمل]. إلى قوله تعالى في ثمود: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٥٢) وَأَحْيَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣) [النمل] أي وهم صالح ومن آمن معه.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (٥٤).

قرأ هذا الحرف عامة القراء غير نافع ﴿يُحْشَرُ﴾ بضم الياء وفتح الشين مبنيًا للفعول ﴿أَعْدَاءُ اللَّهِ﴾ بالرفع على أنه نائب الفاعل.

وقرأه نافع وحزمة، من السبعة (نحشر أعداء الله) بالنون المفتوحة الدالة على العظمة، وضم الشين مبنيًا للفاعل، (أعداء الله) بالنصب على أنه مفعول به، أي واذكر (يوم نحشر أعداء الله) أي يجمعون إلى النار.

وما دلت عليه الآية، من أن الله أعداء، وأنهم يحشرون يوم القيامة إلى النار. جاء مذكوراً في آيات أخر.

فبين في بعضها أن له أعداء وأن أعداءه هم أعداء المؤمنين، وأن جزاءهم النار كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (١٨) [البقرة]. وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ... الآية [المتحنة: ١]. وقوله تعالى: ﴿فَلْيُلْغِهِ إِلَهُمُ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَكُمْ﴾ [طه: ٣٩]. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ الَّذِينَ ءَاتَوْا هُمْ فِيهَا دَارَ الْخُلْدِ﴾ الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾. أي يرد أولهم إلى آخرهم، ويلحق آخرهم بأولهم، حتى يجتمعوا جميعاً، ثم يدفعون في النار، وهو من قول العرب: وزعت الجيش، إذا حبست أوله على آخره حتى يجتمع.

وأصل الوزع الكف، تقول العرب وزعه، يزعه وزعاً، فهو وازع له، إذا كفه عن الأمر، ومنه قول نابغة ذبيان:

إلى شيء واحد، وهو أن الله - تبارك وتعالى - هياً للكافرين قرناء من الشياطين يضلونهم عن الهدى، ويزينون لهم الكفر والمعاصي وقدرهم عليهم.

والقرناء: جمع قرين وهم قرناؤهم من الشياطين على التحقيق.

وقوله: ﴿فَرِيقٌ لَّهُمْ مَّا يَشَاءُونَ﴾، أي من أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة:

﴿وَمَا خَلَقَهُمْ﴾ أي من أمر الآخرة، فدعاهم إلى التكذيب به، وإنكار البعث.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، أنه تعالى قيض للكفار قرناء من الشياطين،

يضلونهم عن الهدى، بينه في مواضع آخر من كتابه.

وزاد في بعضها سبب تقييضمهم لهم، وأنهم مع إضلالهم لهم، يظنون أنهم

مehتدون، وأن الكافر يوم القيامة يتمنى أن يكون بينه وبين قرينه من الشياطين بعد عظيم،

وأنه يذمه ذلك اليوم كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ

قَرِينٌ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَقَّ إِذَا جَاءَنَا قَالَ بَلَّيْتُ

بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسَنَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾ [الزخرف].

فترتيبه قوله: ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾، على قوله: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾

[الزخرف: ٣٦]، ترتيب الجزاء على الشرط يدل على أن سبب تقييضمه له، هو غفلته عن

ذكر الرحمن.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿مِنْ سَرِّ الْأَوْسَاسِ الْخَنَاسِ ﴿٤١﴾﴾ [الناس]؛ لأنَّ

الوسواس هو كثير الوسوسة ليضل بها الناس، والخناس هو كثير التأخر والرجوع عن

إضلال الناس، من قولهم: خنس بالفتح يخنس بالضم إذا تأخر.

فهو وسواس عند الغفلة عن ذكر الرحمن، خناس عند ذكر الرحمن، كما دلت

عليه آية الزخرف المذكورة، ودل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُم سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

[النحل]؛ لأنَّ الذين يتولونه، والذين هم به مشركون، غافلون عن ذكر الرحمن؛ وبسبب

ذلك قيضه الله لهم فأضلهم.

ومن الآيات الدالة على تقييضم الشياطين للكفار ليضلوه، قوله تعالى: ﴿إِنَّا

أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَهُمُ آذًا﴾ [مريم: ٨٣]، وقد أوضحنا الآيات الدالة على ذلك

في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الآية

[مريم: ٨٣]. وبيننا هناك أقوال أهل العلم في معنى ﴿تَوَهُمُ آذًا﴾ [مريم: ٨٣].

وبينا أيضاً هناك أن من الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا

يَمْعَشَرُ الْجِنَّ فَذِ اسْتَعْزَلْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، أي استكثرتم من إضلال الإنس في

دار الدنيا، وقوله: ﴿وَلَاخُوتُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأعراف].

ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْهَدَ إِلَيْكُمْ بِحَبْنِ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ إلى

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢].

وقد دل قوله في آية الزخرف: ﴿فَلَيْسَ الْقُرْآنُ﴾ [الزخرف: ٣٨]، على أن قرناء الشياطين المذكورين في آية فصلت، وآية الزخرف وغيرهما، جديرين بالذم الشديد، وقد صرح تعالى بذلك في سورة النساء في قوله: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَكُمْ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨]؛ لأن قوله: ﴿فَسَاءَ قَرِينًا﴾، بمعنى: ﴿فَلَيْسَ الْقُرْآنُ﴾؛ لأن كلاً من «سَاء» و«بئس» فعل جامد لإنشاء الذم كما ذكره في الخلاصة بقوله:

واجعل كبئس ساء واجعل فعلا من ذي ثلاثة كنعم مسجلا
واعلم: أن الله تعالى بين أن الكفار الذين أضلهم قرناؤهم من الشياطين يظنون أنهم على هدى، فهم يحسبون أشد الضلال، أحسن الهدى، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَأَنَّهُمْ لَيَصْدُقُوا عَنْ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

وبين تعالى أنهم بسبب ذلك الظن الفاسد هم أخسر الناس أعمالاً في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الزخرف: ٣٦] الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿٣٧﴾ [الكهف].

وقوله تعالى في آية الزخرف: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ [الزخرف: ٣٦]، من قولهم عشا بالفتح عن الشيء يعشو بالضم إذا ضعف بصره عن إدراكه؛ لأن الكافر أعمى القلب. فبصيرته تضعف عن الاستنارة بذكر الرحمن، وبسبب ذلك يقبض الله له قرناء الشياطين. قوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾ الآية [يس: ٧].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾. وقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا﴾ [البقرة: ٩٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا تَنَزَّلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَكُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [٢٥] نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ [٢٦] تَزَلَا مِنْ غَفْوَةٍ رَحِيمٍ ﴿٢٧﴾. ما تضمنته هذه الآية الكريمة مما أعده الله في الآخرة للذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، ذكره الله تعالى في الجملة في قوله في الأحقاف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [٢٨] أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ [الأحقاف]، لأن انتفاء الخوف والحزن والوعد الصادق، بالخلود في الجنة المذكور في آية الأحقاف هذه، يستلزم جميع ما ذكر في هذه الآية الكريمة، من سورة فصلت.

قوله تعالى: ﴿أَدْعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [٣٠] وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ وَإِنَّمَا يَرُغْزَكُ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٢﴾. قد أوضحناه مع الآيات التي بمعناها في آخر

سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٩٩ - ٢٠٠].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾... الآية.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ﴾ الآية [الإسراء: ١٢]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ قد قدمنا الكلام عليه في سورة النمل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥].

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْتَمِعُونَ﴾ (٣٨). قوله تعالى: ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي فإن تكبر الكفار عن توحيد الله، والسجود له وحده، وإخلاص العبادة له، فالذين عند ربك وهم الملائكة يسبحون له بالليل؛ أي يعبدونه وينزهونه دائماً ليلاً ونهاراً. وهم لا يسأمون؛ أي لا يملون من عبادة ربهم؛ لاستلذاذهم لها وحلاوتها عندهم، مع خوفهم منه - جلّ وعلا - كما قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ، وَالْمَلَكُوتُ مِنْ خِفَتِهِ﴾ [الرعد: ١٣]، وقد دلت هذه الآية الكريمة من سورة فصلت على أمرين.

أحدهما: أن الله - جلّ وعلا - إن كفر به بعض خلقه، فإن بعضاً آخر من خلقه يؤمنون به، ويطيعونه كما ينبغي، ويلزمون طاعته دائماً بالليل والنهار.

والثاني منهما: أن الملائكة يسبحون الله ويطيعونه دائماً لا يفترون عن ذلك.

وهذان الأمران اللذان دلت عليهما هذه الآية الكريمة، قد جاء كل منهما موضحاً في غير هذا الموضع.

أما الأول منهما: فقد ذكر - جلّ وعلا - في قوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

وأما الثاني منهما: فقد أوضحه تعالى في آيات من كتابه كقوله تعالى في الأنبياء: ﴿وَلَمْ يَكُنْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (٨) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٩) [الأنبياء]. وقوله تعالى في آخر الأعراف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (١٢١) [الأعراف]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَمِعُونَ﴾ أي لا يملون.

والسامة الملل ومنه قول زهير:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً، لا أباً لك، يسأم

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَلَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾^(١) هذه الآية الكريمة قد أوضحنا الكلام عليها، مع ما في معناها من الآيات، وبيننا أن تلك الآيات فيها البرهان القاطع على البعث بعد الموت، وذكرنا معها الآيات التي يكثر الاستدلال بها في القرآن على البعث بعد الموت، وهي أربعة براهين قرآنية. ذكرنا ذلك في سورة البقرة وفي سورة النحل وغيرهما وأحلنا عليه مراراً.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾^(٢).

قد قدمنا الكلام عليه مع ما يماثله من الآيات، في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَلِكْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ الآية [الفرقان: ١٥].

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾^(٣). قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وفي سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْفُتُرَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [الإسراء: ٨٢].

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾^(٤). قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]، وفي سورة النمل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ [النمل: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾^(٥). ما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من كونه ليس بظلام للعبيد، ذكره في مواضع أخرى، كقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾^(٦) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا - الآية [آل عمران: ١٨٢، ١٨٣]. وقوله في الأنفال: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾^(٧) كَذَابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ - الآية [الأنفال: ٥١، ٥٢]. وقوله في الحج: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ يَدَاكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾^(٨) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ - الآية [الحج: ١٠، ١١]. وقوله في سورة ق: ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾^(٩) [ق: ١٩].

وفي هذه الآيات سؤال معروف، وهو أن لفظة ظلام فيها صيغة مبالغة. ومعلوم أن نفي المبالغة لا يستلزم نفي الفعل من أصله.

فقولك مثلاً: زيد ليس بقتال للرجال لا ينفي إلا مبالغته في قتلهم، فلا ينافي أنه ربما قتل بعض الرجال. ومعلوم أن المراد بنفي المبالغة، في الآيات المذكورة هو نفي الظلم من أصله، والجواب عن هذا الإشكال من أربعة أوجه:

الأول: أَنَّ نفي صيغة المبالغة في الآيات المذكورة، قد بينت آيات كثيرة، أن المراد به نفي الظلم من أصله. ونفي صيغة المبالغة، إذا دلت أدلة منفصلة على أن يراد به نفي أصل الفعل، فلا إشكال لقيام الدليل على المراد.

والآيات الدالة على ذلك كثيرة معروفة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا﴾ الآية [النساء: ٤٠]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْنَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] وقوله تعالى: ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ ... الآية [الأنبياء: ٤٧]. إلى غير ذلك من الآيات كما قدّمنا إيضاحه في سورة الكهف والأنبياء.

الوجه الثاني: أن الله - جلّ وعلا - نفى ظلمه للعبيد، والعبيد في غاية الكثرة. والظلم المنفي عنهم تستلزم كثرتهم كثرته، فناسب ذلك الإتيان بصيغة المبالغة للدلالة على كثرة المنفي التابعة لكثرة العبيد المنفي عنهم الظلم، إذ لو وقع على كل عبد ظلم ولو قليلاً، كان مجموع ذلك الظلم في غاية الكثرة، كما ترى.

وبذلك تعلم اتجاه التعبير بصيغة المبالغة، وأن المراد بذلك نفى أصل الظلم عن كل عبد من أولئك العبيد الذين هم في غاية الكثرة، سبحانه وتعالى عن أن يظلم أحداً شيئاً، كما بيّنته الآيات القرآنية المذكورة.

وفي الحديث: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي» ... الحديث.

الوجه الثالث: أن المسوغ لصيغة المبالغة، أن عذابه تعالى بالغ من العظم والشدة، أنه لولا استحقاق المعذنين لذلك العذاب بكفرهم ومعاصيهم، لكان معذبهم به ظلاماً بليغ الظلم متفاقمه، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وهذا الوجه والذي قبله أشار لهما الزمخشري في سورة الأنفال.

الوجه الرابع: ما ذكره بعض علماء العربية وبعض المفسرين، من أن المراد بالنفي في قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ يَظْلِمُ لِلْعَبِيدِ﴾، نفى نسبة الظلم إليه؛ لأن صيغة فعال تستعمل مراداً بها النسبة فتعني عن ياء النسب كما أشار له في الخلاصة بقوله:

ومع فاعل وفعل فاعل في نسب أغنى عن اليا فقبل

ومعنى البيت المذكور، أن الصيغ الثلاثة المذكورة فيه التي هي فاعل كظالم، وفعل كظلام، وفعل كفرح، كل منها قد تستعمل مراداً بها النسبة، فيستغنى بها عن ياء النسب، ومثاله في فاعل قول الحطيئة في هجوه الزبرقان بن بدر التميمي:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فالمراد بقوله الطاعم الكاسي النسبة، أي ذو طعام وكسوة. وقول الآخر وهو من

شواهد سيبويه:

وغررتني وزعمت أنك لابن في الصيف تامر

أي ذو لبن وذو تمر، وقول نابغة ذبيان:

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكبي

فقلوه: ناصب أي ذو نصب، ومثاله في فعال قول امرئ القيس:

وليس بذني رمح فيطعنني به وليس بذني سيف وليس بنبال

فقلوه: وليس بنبال؛ أي ليس بذني نبل، ويدل عليه قوله قبله:

وليس بذني رمح وليس بذني سيف

وقال الأشموني بعد الاستشهاد بالبيت المذكور: قال المصنف؛ يعني ابن مالك:

وعلى هذا حمل المحققون قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْمَعِيدِ﴾. أي بذني ظلم اهـ.

وما عزاه لابن مالك جزم به غير واحد من النحويين والمفسرين، ومثاله في فعل

قول الراجز وهو من شواهد سيويه:

لست بليلي ولكني نهر لا أدلج الليل ولكن أبتكر

فقلوه نهر بمعنى نهاري.

وقد قدّمنا إيضاح معنى الظلم بشواهد العربية، في مواضع متعددة من هذا

الكتاب المبارك. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرْجَعُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾. تقدم الكلام على نحوه في سورة الأعراف،

في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهُا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ٨]،

وفي الأنعام عند قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَقْلِبُهَا إِلَّا هُوَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾. قد قدّمنا الكلام عليه في

سورة الزعد، في الكلام على قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ

الْأَرْحَامُ وَمَا تَرْذَلْنَ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَطَنُّوْا مَا لَكُمْ مِنْ حَيِّصٍ﴾. الظن هنا بمعنى اليقين؛ لأن الكفار يوم

القيامة إذا عاينوا العذاب، وشاهدوا الحقائق، علموا في ذلك الوقت أنهم ليس لهم من

محيص؛ أي ليس لهم مفر ولا ملجأ.

والظاهر أن المحيص مصدر ميمي، من حاص يحيص بمعنى حاد وعدل وهرب.

وما ذكرنا من أن الظن في هذه الآية الكريمة بمعنى اليقين والعلم، هو التحقيق إن

شاء الله؛ لأن يوم القيامة تنكشف فيه الحقائق، فيحصل للكفار العلم بها لا يخالجهم

في ذلك شك، كما قال تعالى عنهم، إنهم يقولون يوم القيامة: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا

فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]. وقال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾

[مريم: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ خَبِيرٌ﴾ [ق: ٢٢]. وقال تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَقُولُ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا﴾ [الأنعام: ٣٠]. وقد قدّمنا

الآيات الموضحة لهذا في سورة النمل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿بَلْ أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي

الْآخِرَةِ﴾ الآية [النمل: ٦٦].

ومعلوم أنّ الظن يطلق في لغة العرب، التي نزل بها القرآن على معنيين:

أحدهما: الشك كقوله: ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨]، وقوله تعالى عن الكفار: ﴿إِنْ تَنْظُرُوا إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمَسْتَظْفِينَ﴾ [الحجّة: ٣٢].

والثاني: هو إطلاق الظن مراداً به العلم واليقين، ومنه قوله تعالى هنا: ﴿وَنُظُنُّوهُمَا هُم مِّنْ نَّحِيصٍ﴾ أي أيقنوا، أنهم ليس لهم يوم القيامة محيص؛ أي لا مفر ولا مهرب لهم من عذاب ربهم، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَرَوَّا الْمُحِجَّرُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُّوَافِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣]، أي أيقنوا ذلك وعلموه، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلتَقُوا رَبَّهُمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلتَقُوا اللَّهَ كَم مِّنْ فَتْكٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فَتْنَهُ كَثِيرَةً يَّاذِنُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْتِبُ يُسَبِّحُ يَقُولُ هَؤُلَاءِ أَهْوَأُ مِنْ كَيْتِبِ﴾ [البقرة: ٢٥١]، فإلّا في الآيات المذكورة كلها بمعنى اليقين.

ونظير ذلك من كلام العرب قول دريد بن الصمة:

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج سراتهم في الفارسي المسرد

وقول عميرة بن طارق:

بأن تفتروا قومي وأقعد فيكم وأجعل مني الظن غيباً مرجماً

والظن في البيتين المذكورين بمعنى اليقين، والفعل القلبي في الآية المذكورة التي هي قوله: ﴿وَنُظُنُّوهُمَا هُم مِّنْ نَّحِيصٍ﴾. معلق عن العمل في المفعولين بسبب النفي بلفظة «ما» في قوله: ﴿مَا هُم مِّنْ نَّحِيصٍ﴾. كما أشار له في الخلاصة بقوله:

والتزم التعليق قبل نفي «ما»

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَدْقَنُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ رُودَتْ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُنْمِتْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَا بَاحِيَةً وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [٥١]. قد قدمنا الآيات الموضحة له، وبعض الأحاديث الصحيحة الموافقة لها في سورة يونس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانُ الضَّرَّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَلْبًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضَرْمَهُ مَرَّ كَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضَرْمِهِ مَسَّهُ﴾ [يونس: ١٢].

قوله تعالى: ﴿سَرَّيْهُم مَّا يُبْتِغَىٰ فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾. قد قدمنا الكلام عليه في سورة المؤمن، في الكلام على قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُزِيلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ الآية [غافر: ١٣].

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾، المرية: الشك.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من شك الكفار في البعث والجزاء، قد قدمنا الآيات الموضحة له، ولما يترتب عليه من الخلود في النار في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ ﴿١١﴾ [الفرقان].



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الشُّورَى

قوله تعالى: ﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ عَسَى ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٣﴾، قد قدمنا الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة هود.

وقول الزمخشري في تفسير هذه الآية: ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ أي مثل ذلك الوحي، أو مثل ذلك الكتاب يوحى إليك وإلى الرسل من قبلك الله.

يعني أن ما تضمنته هذه السورة من المعاني، قد أوحى الله إليك مثله، في غيرها من السور، وأوحاه من قبلك إلى رسله، على معنى أن الله تعالى كرر هذه المعاني في القرآن وفي جميع الكتب السماوية؛ لما فيها من التنبيه البليغ، واللفظ العظيم، لعباده من الأولين والآخرين. اهـ منه.

وظاهر كلامه، أن التشبيه في قوله: كذلك يوحى؛ بالنسبة إلى الموحى باسم المفعول. والأظهر أن التشبيه في المعنى المصدري الذي هو الإيحاء.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾، لم يصرح هنا بشيء من أسماء الذين من قبله الذين أوحى إليهم، كما أوحى إليه، ولكنه قد بين أسماء جماعة منهم في سورة النساء، وبين فيها أن بعضهم لم يقصص خبرهم عليه، وأنه أوحى إليهم وأرسلهم لقطع حجج الخلق، في دار الدنيا وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالذِّكْرِ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ إِذْ هَبَسَ دَاوُدَ رُجُومًا﴾ ﴿١٢٢﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٢٣﴾ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٢٤﴾ [النساء].

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، ذكر - جلّ وعلا - فيه الثناء على نفسه، باسمه العزيز واسمه الحكيم بعد ذكره إنزاله وحيه على أنبيائه، كما قال في آية النساء المذكورة: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨]، بعد ذكره إيحاؤه إلى رسله.

وقد قدّمنا في أول سورة الزمر أن استقراء القرآن، قد دل على أن الله - جلّ وعلا - إذا ذكر تنزيهه لكتابه أتبع ذلك ببعض أسمائه الحسنى وصفاته العليا، وذكرنا كثيراً من أمثلة ذلك. وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن كثير: ﴿يُوحَى﴾، بكسر الحاء بالبناء للفاعل، وعلى قراءة الجمهور هذه فقوله: ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فاعل يوحى.

وقرأه ابن كثير (يُوحَى إِلَيْكَ)، بفتح الحاء بالبناء للمفعول، وعلى هذه القراءة، فقوله: ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فاعل فعل محذوف تقديره يوحى كما قدّمنا إيضاحه في سورة النور في الكلام على قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿يَجَالُ﴾... الآية [النور: ٣٦، ٣٧].

وقد قدّمنا معاني الوحي مع الشواهد العربية في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، وغير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾. وصف نفسه - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، بالعلو والعظمة، وهما من الصفات الجامعة كما قدّمناه في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْمَرْثَى﴾ [الأعراف: ٥٤].

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من وصفه تعالى نفسه بهاتين الصفتين الجامعتين المتضمنتين لكل كمال وجلال، جاء مثله في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُوَدُّهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤]. وقوله تعالى: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ١٦]. وقوله تعالى: ﴿وَالَهُ الْكِبَرِيَّةُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [الجاثية: ٣٧]. إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْ فَوْقهنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يَسْجُدُونَ بِحَمْدِ رَبِّهنَّ وَسَتَسْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾. قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير نافع والكسائي ﴿تَكَادُ﴾ بالتاء الفوقية؛ لأن السماوات مؤنثة، وقرأه نافع والكسائي ﴿يَكَادُ﴾ بالياء التحتية لأن تأنيث السماوات غير حقيقي.

وقرأه عامة السبعة غير أبي عمرو، وشعبة عن عاصم ﴿يَنْفَطَرْنَ﴾ بقاء مثناة فوقية مفتوحة بعد الياء وفتح الطاء المشددة مضارع: تفتقر أي تشقق.

وقرأه أبو عمرو وشعبة عن عاصم ﴿يَنْفَطَرْنَ﴾ بنون ساكنة بعد الياء وكسر الطاء المخففة، مضارع انفطرت كقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] أي انشقت.

وقوله: ﴿تَكَادُ مضارع كاد، التي هي فعل مقاربة، ومعلوم أنها تعمل في المبتدأ والخبر، ومعنى كونها فعل مقاربة، أنها تدل على قرب اتصاف المبتدأ بالخبر.

وإذا، فمعنى الآية أن السماوات قاربت أن تتصف بالانفطار على القراءة الأولى، والانفطار على القراءة الثانية.

واعلم أن سبب مقاربة السماوات للانفطار، في هذه الآية الكريمة، فيه للعلماء وجهان كلاهما يدل له قرآن:

الوجه الأول: أن المعنى تكاد السماوات يتفطرن خوفاً من الله، وهيبة وإجلالاً. ويدل لهذا الوجه قوله تعالى قبله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾؛ لأن علوه وعظمته سبب للسماوات ذلك الخوف والهيبة والإجلال، حتى كادت تتفطر.

وعلى هذا الوجه فقوله بعده: ﴿وَالْمَلَكُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾، مناسبتة لما قبله واضحة.

لأن المعنى: أن السماوات في غاية الخوف منه تعالى والهيبة والإجلال له، وكذلك سكانها من الملائكة فهم يسبحون بحمد ربهم؛ أي ينزهونه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، مع إثباتهم له كل كمال وجلال؛ خوفاً منه وهيبة وإجلالاً، كما قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد: ١٣]. وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلِكُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿١٤﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿١٥﴾ [النحل].

فهم لشدة خوفهم من الله وإجلالهم له، يسبحون بحمد ربهم، ويخافون على أهل الأرض؛ ولذا يستغفرون لهم خوفاً عليهم من سخط الله، وعقابه، ويستأنس لهذا الوجه بقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. إلى قوله: ﴿وَأَشْفَقْنَا مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢]؛ لأن الإشفاق الخوف.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ يعني لخصوص الذين آمنوا منهم وتابوا إلى الله واتبعوا سبيله، كما أوضحه تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ يَمْلِكُونَ الْغَرْسَ وَمَنْ حَوْلَهُمْ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧]. فقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، يوضح المراد من قوله: ﴿لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾.

ويزيد ذلك إيضاحاً قوله تعالى عنهم إنهم يقولون في استغفارهم للمؤمنين: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧]؛ لأن ذلك يدل دلالة واضحة على عدم استغفارهم للكفار.

الوجه الثاني: أن المعنى ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ﴾، من شدة عظم الفرية التي افتراها الكفار على خالق السماوات والأرض - جلّ وعلا -، من كونه اتخذ ولداً، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، وهذا الوجه جاء موضحاً في سورة مريم، في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ نَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَنَخِرَ لَلْجِبَالِ هَدًا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ [مريم]، كما قدمنا إيضاحه.

وغاية ما في هذا الوجه أن آية الشورى هذه فيها إجمال في سبب تفطر السماوات، وقد جاء ذلك موضحاً في آية مريم المذكورة. وكلا الوجهين حق.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَنْفَطَرْنَ مِنْ قَوْفِهِمْ﴾، فيه للعلماء أوجه.

قيل: يتفطرن، أي السماوات من فوقهن أي الأرضين، ولا يخفى بعد هذا القول كما ترى.

وقال بعضهم: «من فوقهن» أي كل سماء تنفطر فوق التي تليها.

وقال الزمخشري في الكشاف: فإن قلت لم قال: ﴿مِنْ فَوْقَهُنَّ﴾ قلت: لأن أعظم الآيات وأدلها على الجلال والعظمة فوق السماوات، وهي العرش والكرسي، وصفوف الملائكة المرتجة بالتسبيح والتقديس حول العرش، وما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى من آثار ملكوته العظمى، فلذلك قال: ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقَهُنَّ﴾، أي يبتدئ الانفطار من جهتهن الفوقانية.

أو لأن كلمة الكفر جاءت من الذي تحت السموات، فكان القياس أن يقال: يتفطرن من تحتهن من الجهة التي جاءت منها الكلمة.

ولكنه بولغ في ذلك فجعلت مؤثرة في وجهة الفوق. كأنه قيل: يكدن يتفطرن من الجهة التي فوقهن، دع الجهة التي تحتهن.

ونظيره في المبالغة قوله ﷺ: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۖ يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠]، فجعل الحميم مؤثراً في أجزائهم الباطنة. اهـ. محل الغرض منه. وهذا إنما يتمشى على القول بأن سبب التفطر المذكور هو افتراؤهم على الله في قولهم: ﴿أَتُخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨].

وقد قدمنا آنفاً أنه دلت عليه آية مريم المذكورة، وعليه فمناسبة قوله: ﴿وَالْمَلَكُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، لما قبله أن الكفار وإن قالوا أعظم الكفر وأشنعه، فإن الملائكة بخلافهم فإنهم يداومون ذكر الله وطاعته.

ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ [٢٨] [فصلت]. وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، كما قدمنا إيضاحه في آخر سورة فصلت.

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. أكد - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أنه هو الغفور الرحيم، وبيّن فيها أنه هو وحده المختص بذلك.

وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة، قد جاءا موضحين في غير هذا الموضع.

أما اختصاصه هو - جلّ وعلا - بغفران الذنوب، فقد ذكره في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، والمعنى لا يغفر الذنوب إلا الله، وفي الحديث: «رب إنني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت» الحديث. وفي حديث سيد الاستغفار: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني»... الحديث. وفيه «وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

وجه دلالة هذه الآية على أن الله وحده هو الذي يغفر الذنوب، هو أن ضمير الفصل بين المسند والمسند إليه في قوله: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، يدل على ذلك كما هو معلوم في محله، وأما الأمر الثاني، هو توكيده تعالى أنه هو الغفور الرحيم، فإنه أكد ذلك هنا بحرف الاستفتاح الذي هو ألا، وحرف التوكيد الذي هو إن. وقد أوضح ذلك في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. وقوله تعالى: ﴿وَلِيَّ لَغَفَّارٍ لِمَن تَابَ وَآمَنَ﴾... الآية [طه: ٨٢]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ﴾ [النجم: ٣٢]. وقوله في الكفار: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]. وقوله في الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَسْتَغْفِرُونَ؟ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٥]. والآيات بمثل ذلك كثيرة.

فخرجوا الله - جلّ وعلا - الكريم الرؤوف الغفور الرحيم، أن يغفر لنا جميع ذنوبنا ويتجاوز عن جميع سيئاتنا، ويدخلنا جنته على ما كان منا، ويغفر لإخواننا المسلمين، إنه غفور رحيم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [١]. قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾، أي أشركوا معه شركاء يعبدونهم من دونه، كما أوضح تعالى ذلك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْلِيَاءَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، أي يخوفكم أوليائه. وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ الآية [النساء: ٧٦].

وقد وبخهم تعالى على اتخاذهم الشيطان وذريته أولياء من دونه تعالى في قوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

وقد أمر - جلّ وعلا - باتباع هذا القرآن العظيم، ناهياً عن اتباع الأولياء المتخذين من دونه تعالى، في أول سورة الأعراف، في قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

وقد علمت من الآيات المذكورة أن أولياء الكفار الذين اتخذوهم وعبدوهم من دون الله نوعان:

الأول منهما: الشياطين، ومعنى عبادتهم للشيطان طاعتهم له فيما يزين لهم من الكفر والمعاصي، فشرکهم به شرك طاعة، والآيات الدالة على عبادتهم للشياطين بالمعنى

المذكور كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَنْبَغِ عَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ الآية [يس: ٦٠]. وقوله تعالى عن إبراهيم: ﴿يَتَأْتَى لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾... الآية [مريم: ٤٤]. وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَنَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ [النساء: ١٧]. أي وما يعبدون إلا شيطاناً مريداً. وقوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ١٢]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَنُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوْحُونَ إِلَى أُولِيَائِهِمْ لِيُجْدِلُوهُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، إلى غير ذلك من الآيات.

والنوع الثاني: هو الأوثان، كما بين ذلك تعالى بقوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ الآية [الزمر: ٣].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿اللَّهُ حَفِظٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي رقيب عليهم حافظ عليهم كل ما يعملونه من الكفر والمعاصي، وفي أوله اتخاذهم الأولياء، يعبدونهم من دون الله، وفي الآية تهديد عظيم لكل مشرك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾؛ أي لست يا محمد، بموكل عليهم تهدي من شئت هدايته منهم، بل إنما أنت نذير فحسب، وقد بلغت ونصحت.

والوكيل عليهم هو الله الذي يهدي من يشاء منهم ويضل من يشاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [١١]. وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله وَيَفْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ [١٢]. [يونس]. وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وبما ذكرنا تعلم أن التحقيق في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾. وما جرى مجراه من الآيات ليس منسوخاً بآية السيف، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الشعراء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [١٤٢] بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ [١٤٥] [الشعراء]، وفي الزمر في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، خص الله - تبارك وتعالى - في هذه الآية الكريمة إنذاره ﷺ بأم القرى ومن حولها، والمراد بأم القرى مكة حرسها الله.

ولكنه أوضح في آيات أخر أن إنذاره عام لجميع الثقيلين كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرْ النَّاسُ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ

الْفَرَقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١١﴾ [الفرقان]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾... الآية [سبأ: ٢٨]، كما أوضحنا ذلك مراراً في هذا الكتاب المبارك.

وقد ذكرنا الجواب عن تخصيص أم القرى ومن حولها هنا وفي سورة الأنعام، في قوله تعالى: ﴿وَلَنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ الآية [الأنعام: ٩٢]، في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب»، فقلنا فيه: والجواب من وجهين:

الأول: أن المراد بقوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾؛ شامل لجميع الأرض، كما رواه ابن جرير وغيره، عن ابن عباس.

الوجه الثاني: أنا لو سلمنا تسليماً جديلاً، أن قوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾؛ لا يتناول إلا القريب من مكة المكرمة - حرسها الله -، كجزيرة العرب مثلاً، فإن الآيات الأخر، نصت على العموم كقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وذكر بعض أفراد العام بحكم العام، لا يخصه عند عامة العلماء، ولم يخالف فيه إلا أبو ثور.

وقد قدّمنا ذلك واضحاً بأدلته في سورة المائدة، فالآية على هذا القول كقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] فإنه لا يدل على عدم إنذار غيرهم، كما هو واضح. والعلم عند الله تعالى. اهـ منه.

قوله تعالى: ﴿وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين:

أحدهما: أن من حكم إيحائه تعالى، إلى نبينا ﷺ هذا القرآن العربي، إنذار يوم الجمع، فقوله تعالى: ﴿وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾؛ معطوف على قوله: ﴿لَنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾؛ أي لأجل أن تنذر أم القرى وأن تنذر يوم الجمع، فحذف في الأول أحد المفعولين وحذف في الثاني أحدهما، فكان ما أثبت في كل منهما دليلاً على ما حذف في الثاني، ففي الأول حذف المفعول الثاني، والتقدير «لتنذر أم القرى» أي أهل مكة ومن حولها عذاباً شديداً إن لم يؤمنوا، وفي الثاني حذف المفعول الأول؛ أي وتنذر الناس يوم الجمع وهو يوم القيامة؛ أي تخوفهم مما فيه من الأهوال والأوجال؛ ليستعدوا لذلك في دار الدنيا.

والثاني: أن يوم الجمع المذكور لا ريب فيه، أي لا شك في وقوعه، وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة، جاءا موضحين في آيات أخر.

أما تخوفه الناس يوم القيامة، فقد ذكر في مواضع من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَأَنقُضْ يَوْمًا رُّسُومَهُمْ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٨١]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾... الآية [غافر: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]. وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ [المزمل: ١٧، ١٨]. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١٧، ١٨]. والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وأما الثاني منهما؛ وهو كون يوم القيامة لا ريب فيه، فقد جاء في مواضع أخر، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧].

وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٢٥]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ الآية [الحج: ٧]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ الآية [الجاثية: ٣٢]. إلى غير ذلك من الآيات.

وإنما سمي يوم القيامة يوم الجمع؛ لأن الله يجمع فيه جميع الخلائق. والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٨﴾ لَجَمْعُوْنَ إِلَىٰ يَوْمِ مَعْدٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿٤٩﴾﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]. وقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكَ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المرسلات]. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ الآية [النساء: ٨٧]. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ يَوْمَ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَاجِ﴾ [التغابن: ٩]. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ يَجْمَعُ لَهُ الْنَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمُ مَسْهُودٍ﴾ [هود: ١٠٣]. وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران] وقوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

وقد بين تعالى شمول ذلك الجمع لجميع الدواب والطير في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمُّ أَمْثَلِكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿١٨١﴾﴾ [الأنعام]، والآيات الدالة على الجمع المذكور كثيرة.

قوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾. ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الله خلق الخلق، وجعل منهم فريقاً سعداء، وهم أهل الجنة، وفريقاً أشقياء وهم أصحاب السعير، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِّمُ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١٣٨﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، أي ولذلك الاختلاف، إلى مؤمن وكافر وشقي وسعيد، خلقتهم على الصحيح، ونصوص الوحي الدالة على ذلك كثيرة جداً.

وقد ذكرنا في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)، وجه الجمع بين قوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٩]، على التفسير المذكور، وبين قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات]، وسنذكر ذلك - إن شاء الله - في سورة الذاريات.

وقد قدمنا معنى السعير بشواهد العربية في أول سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤]، والجنة في لغة العرب البستان. ومنه قول زهير بن أبي سلمى:

كَأَنَّ عَيْنِي فِي غَرْبِي مَقْتَلَةٌ مِنْ النَّوَاضِحِ تَسْقِي جَنَّةَ سَحَقُلَا
فقوله: جنة سحَقُلَا؛ يعني بستاناً طویل النخل، وفي اصطلاح الشرع هي دار الكرامة التي أعد الله لأوليائه يوم القيامة.

والفريق: الطائفة من الناس، ويجوز تعدده إلى أكثر من اثنين، ومنه قول نصيب:

فَقَالَ فَرِيقَ الْبُقُومِ لَا، وَفَرِيقَهُمْ نَعَمْ وَفَرِيقٌ قَالَ وَيَحْكُ مَا نَدْرِي

والمسوغ للابتداء بالنكرة في قوله: فريق في الجنة، أنه في معرض التفصيل.

ونظيره من كلام العرب قول امرئ القيس:

فلما دنوت تسديتها فثوب نسيت وثوب أجر

قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾.

ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن ما اختلف فيه الناس من الأحكام فحكمه إلى الله وحده لا إلى غيره، جاء موضحاً في آيات كثيرة.

فالإشراك بالله في حكمه كالإشراك به في عبادته، قال في حكمه: ﴿وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، وفي قراءة ابن عامر من السبعة (ولا تُشْرِكُ في حكمه أحداً) بصيغة النهي.

وقال في الإشراك به في عبادته: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، فالأمران سواء كما ترى إيضاحه إن شاء الله.

وبذلك تعلم أن الحلال هو ما أحله الله، والحرام هو ما حرمه الله، والدين هو ما شرعه الله، فكل تشريع من غيره باطل، والعمل به بدل تشريع الله عند من يعتقد أنه مثله أو خير منه، كفر بواح لا نزاع فيه.

وقد دل القرآن في آيات كثيرة، على أنه لا حكم لغير الله، وأن اتباع تشريع غيره كفر به، فمن الآيات الدالة على أن الحكم لله وحده قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ الآية [يوسف: ٦٧]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الفصل: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿لَهُ الْخُضُوعُ فِي الْأَوَّلَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الفصل: ٧٠]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقد قدّمنا إيضاحها في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].

وأما الآيات الدالة على أن اتباع تشريع غير الله المذكور؛ كفر فهي كثيرة جداً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ آخُذْ بِالْبَنِينَ بِبَيْتِ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ الآية [يس: ٦٠]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً، كما تقدم إيضاحه في الكهف. وقد أفاض في مسألة الحكم بغير ما أنزل الله فليرجع من أراد الوقوف على كلامه في المسألة إلى الأصل.

وفي قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾؛ فقد سمى تعالى الذين يشرعون من الدين ما لم يأذن به الله شركاء، ومما يزيد ذلك إيضاحاً، أن ما ذكره الله عن الشيطان يوم القيامة، من أنه يقول للذين كانوا يشركون به في دار الدنيا: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أن ذلك الإشراك المذكور ليس فيه شيء زائد على أنه دعاهم إلى طاعته فاستجابوا له كما صرح بذلك في قوله تعالى عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢]، وهو واضح كما ترى.

قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُوكُمْ فِيهِ﴾. قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ تقدم تفسيره في أول سورة فاطر.

وقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾. أي خلق لكم أزواجاً من أنفسكم كما قدّمنا الكلام عليه في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنًا وَحَدَّةً﴾ [النحل: ٧٢]، وبيننا أن المراد بالأزواج الإناث كما يوضحه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ عَائِنَيْهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ الآية [الروم: ٢١]. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ۚ﴾ الآية [الأنثى ٤٥] من تَفْطَةٍ إِذَا تَمَّتْ ﴿٤٦﴾ [النجم]. وقوله: ﴿جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ۚ﴾ الآية [القيامة]. وقوله تعالى: ﴿وَالْأُنْثَى إِذَا يَفْتَنَى ۚ﴾ الآية [الأنثى ٤٦] وقوله تعالى: ﴿وَالْأُنْثَى إِذَا تَجَلَّى ۚ﴾ الآية [الأنثى ٤٦] وقوله في آدم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَّوْا وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ الآية [النساء: ١]. وقوله تعالى فيه أيضاً: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَّوْا وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ الآية [الأعراف: ١٨٩]. وقوله تعالى فيه أيضاً: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَّوْا ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ الآية [الزمر: ٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾. هي الثمانية المذكورة في قوله تعالى: ﴿ثَمِينَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ الآية [الأنعام: ١٤٣].

وفي قوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَّوْا ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦]. وهي ذكور الضأن والمعز والإبل والبقر وإناثها، كما قدّمنا إيضاحه في سورة آل عمران في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَذُرُوكُمْ فِيهِ﴾ الظاهر أن ضمير الخطاب في قوله: «يذروكم» شامل للآدميين والأنعام، وتغليب الآدميين على الأنعام في ضمير المخاطبين في قوله: «يذروكم واضح لا إشكال فيه.

والتحقيق إن شاء الله أن الضمير في قوله: «فيه» راجع إلى ما ذكر من الذكور والإناث، من بني آدم والأنعام في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾؛ سواء قلنا إلى المعنى: أنه جعل للآدميين إناثاً من أنفسهم أي من جنسهم، وجعل للأنعام أيضاً إناثاً كذلك، أو قلنا إن المراد بالأزواج الذكور والإناث منهما معاً.

وإذا كان ذلك كذلك، فمعنى الآية الكريمة، يذروكم أي يخلقكم ويبتكم وينشركم فيه؛ أي فيما ذكر من الذكور والإناث، أي في ضمنه، عن طريق التناسل كما هو معروف. ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُوا لِلَّذِي هُوَ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَنَىٰ مِنْهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]. فقوله تعالى: ﴿وَبَنَىٰ مِنْهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾؛ يوضح معنى قوله: ﴿يَذَرُوكُمْ فِيهِ﴾.

فإن قيل: ما وجه إفراد الضمير المجرور في قوله «يذروكم فيه»، مع أنه على ما ذكرتم، عائد إلى الذكور والإناث من الآدميين والأنعام؟. فالجواب: أن من أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن، رجوع الضمير أو الإشارة بصيغة الإفراد إلى مثنى أو مجموع باعتبار ما ذكر مثلاً. ومثاله في الضمير: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمَكَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَنَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦]، فالضمير في قوله: «به» مفرد مع أنه راجع إلى السمع والأبصار والقلوب.

فقوله: ﴿يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦]، أي بما ذكر من سمعكم وأبصاركم وقلوبكم، ومن هذا المعنى قول رؤية بن العجاج:

فيها خطوط من سواد وبلق

كأنه في الجلد توليع البهق

فقوله: «كأنه» أي ما ذكر من خطوط من سواد وبلق.

ومثاله في الإشارة: ﴿لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَكَ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨]، أي بين ذلك المذكور، من فارض ويكر، وقول عبد الله بن الزبير السهمي:

إن للخير وللشر مدى وكلا ذلك وجه وقبيل

أي كلا ذلك المذكور من الخير والشر.

وقول من قال: إن الضمير في قوله «فيه» راجع إلى الرحم، وقول من قال: راجع إلى البطن، ومن قال: راجع إلى الجعل المفهوم من جعل. وقول من قال: راجع إلى التدبير، ونحو ذلك من الأقوال خلاف الصواب.

والتحقيق إن شاء الله هو ما ذكرنا. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. وقد قدمنا الكلام عليه في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾. مقاليد السموات والأرض؛ هي مفاتيحهما، وهو جمع لا واحد له من لفظه، فمفردا إقليد، وجمعها مقاليد على غير قياس، والإقليد المفتاح. وقيل: واحدا مقلد، وهو قول غير معروف في اللغة.

وكونه - جلّ وعلا - ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٣]، أي مفاتيحهما كناية عن كونه - جلّ وعلا - هو وحده المالك لخزائن السماوات والأرض؛ لأن ملك مفاتيحها يستلزم ملكها.

وقد ذكر - جلّ وعلا - مثل هذا في سورة الزمر، في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [الزمر: ٦٢، ٦٣].

وما دلت عليه آية الشورى هذه، وآية الزمر المذكورتان من أنه - جلّ وعلا - هو مالك خزائن السماوات والأرض، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٨٥].

وبين في مواضع أخر أن خزائن رحمته لا يمكن أن تكون لغيره، كقوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الرَّهَابِ﴾ [ص: ٨١]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ عَنْدهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ٨٣].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾؛ جاء معناه موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ [سبأ: ٣٩]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٣٩]. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآية [الرعد: ٢٦]. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢]. وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَاقِرًا فَإِنَّهُ أُولَىٰ بِنَاهٍ﴾ [النساء: ١٣٥]. وقوله تعالى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ﴾ الآية [الطلاق: ٧]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق: ٧]، أي ضيق عليه رزقه لقلته.

وكذلك قوله: ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾؛ في الآيات المذكورة؛ أي يبسط الرزق لمن يشاء بسطه له ويقدر، أي يضيق الرزق على من يشاء تضيقه عليه، كما أوضحناه في سورة الأنبياء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَطَلَّ أَنْ لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. وقد بين - جلّ وعلا - في بعض الآيات حكمة تضيقه للرزق على من ضيقه عليه.

وذكر أن من حكم ذلك أن بسط الرزق للإنسان، قد يحمله على البغي والطغيان، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٧٧﴾. وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ ﴿١٠١﴾ ﴿أَن رَّاهُ اسْتَفْتَى﴾ ﴿٧٧﴾ [العلق: ٧٧].

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾. قد قدّمنا الكلام عليه في سورة الأحزاب، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ الآية [الأحزاب: ٧].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَفْرُقُوا فِيهِ﴾. الضمير في قوله: «فيه»، راجع إلى الدين في قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي عن الافتراق في الدين، جاء مبيناً في غير هذا الموضع، وقد بين تعالى أنه وصى خلقه بذلك، فمن الآيات الدالة على ذلك، قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ الآية [آل عمران: ١٠٣]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام].

وقد بين تعالى في بعض المواضع أن بعض الناس لا يجتنبون هذا النهي، وهددهم على ذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ لِمَآ أُمِرُوا إِلَى اللَّهِ فَرَّقُوا بَيْنَهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام]؛ لأن قوله: ﴿لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ إلى قوله: ﴿يَفْعَلُونَ﴾ فيه تهديد عظيم لهم.

وقوله تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [٥٦] فَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فِرْحُونَ [٥٧] فَذَرَهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ حَتَّى جِيءَ [٥٨] [المؤمنون].

فقوله: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾، أي إن هذه شريعتكم شريعة واحدة ودينكم دين واحد، وربكم واحد فلا تتفرقوا في الدين. وقوله - جلّ وعلا -: ﴿فَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ [المؤمنون: ٥٣]، دليل على أنهم لم يجتنبوا ما نهوا عنه من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ حَتَّى جِيءَ﴾ [المؤمنون]، فيه تهديد لهم ووعد عظيم على ذلك. ونظير ذلك قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [٩٢] وَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهَةٍ رَجِعَتْ [٩٣] [الأنبياء]، فقوله تعالى: ﴿كُلُّ إِلَهَةٍ رَجِعَتْ﴾؛ فيه أيضاً تهديد لهم ووعد على ذلك. وقد أوضحنا تفسير هذه الآيات في آخر سورة الأنبياء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ الآية.

وقد جاء في الحديث المشهور: «افتراق اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافتراق النصراني إلى اثنتين وسبعين فرقة، وافتراق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، وأن الناجية منها واحدة، وهي التي كانت على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه». قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾.

بين - جلّ وعلا - أنه كبر على المشركين أي شق عليهم وعظم ما يدعوهم إليه ﷺ من عبادة الله تعالى وحده، وطاعته بامتثال أمره واجتناب نهيه؛ ولعظم ذلك ومشقته عليهم، كانوا يكرهون ما أنزل الله ويجتهدون في عدم سماعه لشدة كراهتهم له، بل يكادون يبطشون بمن يتلو عليهم آيات ربهم لشدة بغضهم وكراهتهم لها.

والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة في كتاب الله، وفيها بيان أن ذلك هو عادة الكافرين مع جميع الرسل من عهد نوح إلى عهد محمد ﷺ.

فقد بين تعالى مشقة ذلك على قوم نوح وكبره عليهم في مواضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوُّوا إِنَّ كَانَ كِبَرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكَّرِي بِشَأْنِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾... الآية [يونس: ٧١].

وقوله تعالى عن نوح: ﴿وَإِنِّي كَلِمًا دَعَوْتُهُمْ لِيُغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغَعُمْ فِيَءَاذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح].

فقوله تعالى: ﴿جَعَلُوا أُصْغَعُمْ فِيَءَاذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾؛ يدل دلالة واضحة على شدة بغضهم وكراحتهم لما يدعوهم إليه نوح، فهو واضح في أنهم كبر عليهم ما يدعوهم إليه من توحيد الله والإيمان به.

وقد بين الله تعالى مثل ذلك في الكفار الذين كذبوا نبينا محمداً ﷺ في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَلَّيْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرُ يَكَادُرُونَ بِأُلْبَابِهِمْ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا﴾ [الحج: ٧٢]، فقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرُ﴾ الآية. يدل دلالة واضحة، على شدة بغضهم وكراحتهم لسماع تلك الآيات.

وكقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْقَوَا فِيهِ﴾... الآية [فصلت: ٢٦]. وقوله تعالى في الزخرف: ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ [٢٨] [الزخرف]، وقوله تعالى في قد أفلح المؤمنون: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ [٢٩] [المؤمنون]. وقوله تعالى في القتال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْطَبُوا أَعْمَلَهُمْ﴾ [٣٠] [محمد]، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَابِئِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [٣١] وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ [٣٢] يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تَنْتَلِي عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [٣٣] [الجاثية]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَلَّيْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَاطٌ فَبَشِيرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [٣٤] [لقمان]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيَءَاذَانِنَا وَقَدْ أُنْزِلَ مِنَّا وَبَيِّنَاتٍ وَبَيِّنَاتٍ حِجَابٌ﴾ الآية [فصلت: ٥]. والآيات بمثل ذلك كثيرة.

واعلم: أن هؤلاء الذين يكرهون ما أنزل الله، يجب على كل مسلم أن يحذر كل الحذر من أن يطيعهم في بعض أمرهم، لأن ذلك يستلزم نتائج سيئة متناهية في السوء، كما أوضح تعالى ذلك في قوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [٣٥] [٣٦] الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ [٣٧] ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَطِيْعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ [٣٨] فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ [٣٩] ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْطَبُوا أَعْمَلَهُمْ [٤٠] [محمد].

فعلى كل مسلم أن يحذر ثم يحذر كل الحذر، من أن يقول للذين كفروا، الذين يكرهون ما أنزل الله: سنطيعكم في بعض الأمر؛ لأن ذلك يسبب له ما ذكره الله في الآيات المذكورة، ويكفيه زجراً وردعاً عن ذلك قول ربه تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ ﴿١٧﴾؛ إلى قوله: ﴿فَأَحْطَ أَعْمَلُهُمْ﴾ [محمد: ٢٧ - ٢٨].

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾. الاجتباء في اللغة العربية معناه الاختيار والاصطفاء، وقد دلت هذه الآية الكريمة على أنه تعالى يجتبي من خلقه من يشاء اجتباءه.

وقد بين في مواضع آخر بعض من شاء اجتباءه من خلقه، فبين أن منهم المؤمنين من هذه الأمة في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ﴾؛ إلى قوله: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٧ - ٧٨]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية [فاطر: ٣٢].

وبين في موضع آخر أن منهم آدم وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَيْنَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ ﴿١٣١﴾ [طه]. وذكر أن منهم إبراهيم في قوله: ﴿إِنَّا إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً﴾ إلى قوله: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَيْنَاهُ﴾... الآية [النحل: ١٢٠ - ١٢١]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اجتباء بعض الخلق بالتعيين.

وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾؛ أي من سبق في علمه أنه ينيب إلى الله؛ أي يرجع إلى ما يرضيه، من الإيمان والطاعة، ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾.

تقدمت الآيات الموضحة له في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى ﴿وَمَا أَوْفَىٰ النَّيِّتُونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٣٦].

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾. بين - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي أنزل الكتاب في حال كونه متلبساً بالحق الذي هو ضد الباطل، وقوله: ﴿الْكِتَابَ﴾؛ اسم جنس مراد به جميع الكتب السماوية.

وقد أوضحنا في سورة الحج، أن المفرد الذي هو اسم جنس يطلق مراداً به الجمع، وذكرنا الآيات الدالة على ذلك مع الشواهد العربية.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَالْمِيزَانَ﴾؛ يعني أن الله - جلّ وعلا - هو الذي أنزل الميزان، والمراد به العدل والإنصاف.

وقال بعض أهل العلم: الميزان في الآية: هو آلة الوزن المعروفة. ومما يؤيد ذلك أن الميزان مفعال، والمفعال قياسي في اسم الآلة.

وعلى التفسير الأول وهو أن الميزان العدل والإنصاف، فالميزان الذي هو آلة الوزن المعروفة داخل فيه؛ لأن إقامة الوزن بالقسط من العدل والإنصاف.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الله تعالى هو الذي أنزل الكتاب والميزان أوضحه في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

فصرح تعالى بأنه أنزل مع رسله الكتاب والميزان لأجل أن يقوم الناس بالقسط، وهو العدل والإنصاف. وكقوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن].

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: الذي يظهر لي - والله تعالى أعلم -: أن الميزان في سورة الشورى وسورة الحديد هو العدل والإنصاف، كما قاله غير واحد من المفسرين. وأن الميزان في سورة الرحمن، هو الميزان المعروف؛ أعني آلة الوزن التي يوزن بها بعض المبيعات.

ومما يدل على ذلك أنه في سورة الشورى، وسورة الحديد عبر بإنزال الميزان لا بوضعه، وقال في سورة الشورى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾. وقال في الحديد: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥].

وأما في سورة الرحمن، فقد عبر بالوضع لا الإنزال، قال: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾﴾ [الرحمن]، ثم أتبع ذلك بما يدل على أن المراد به آلة الوزن المعروفة، وذلك في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن]؛ لأن الميزان الذي نهوا عن إفساده هو أخو المكيال، كما قال تعالى: ﴿﴿١٠﴾ أَوفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَلْسِنَتِكُمْ ﴿١٢﴾ وَلَا تَبَخْسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ [الشعراء: ١٨١ - ١٨٣]. وقال تعالى: ﴿﴿١٤﴾ وَبَلِّغُوا لِلْمُطْغَفِينَ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا كَالَهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [المطففين]. وقال تعالى عن نبيه شعيب: ﴿﴿١٨﴾ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤]. وقال تعالى عنه أيضاً: ﴿﴿١٩﴾ قَدْ جَاءَكُمْ بَيْئَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الأعراف: ٨٥]. وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿﴿٢٠﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكْذِبُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢] وقال تعالى في سورة بني إسرائيل: ﴿﴿٢١﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ بِالْقِسْطِ أَلْسِنَتَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء].

فإن قيل: قد اخترتم أن المراد بالميزان في سورة الشورى وسورة الحديد، هو العدل والإنصاف، وأن المراد بالميزان في سورة الرحمن هو آلة الوزن المعروفة، وذكرتم نظائر ذلك من الآيات القرآنية، وعلى هذا الذي اخترتم يشكل الفرق بين الكتاب والميزان؛ لأن الكتب السماوية كلها عدل وإنصاف، فالجواب من وجهين:

الأول منهما: هو ما قدمنا مراراً من أن الشيء الواحد إذا عبر عنه بصفيتين

مختلفتين جاز عطفه على نفسه تنزيلاً للتغاير بين الصفات منزلة التغاير في الذوات، ومن أمثلة ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝﴾ [الأعلى]، فالموصوف واحد والصفات مختلفة، وقد ساغ العطف لتغاير الصفات. ونظير ذلك من كلام العرب قول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهما م وليث الكتيبة في المزدحم

وأما الوجه الثاني: فهو ما أشار إليه العلامة ابن القيم رحمته الله في إعلام الموقعين، من المغايرة في الجملة بين الكتاب والميزان.

وإيضاح ذلك: أن المراد بالكتاب هو العدل والإنصاف المصرح به في الكتب السماوية.

وأما الميزان: فيصدق بالعدل والإنصاف الذي لم يصرح به في الكتب السماوية، ولكنه معلوم مما صرح به فيها.

فالتأيف في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لِّمَنَّا أُنْزِلَ﴾ [الإسراء: ٢٣]، من الكتاب لأنه مصرح به في الكتاب، ومنع ضرب الوالدين مثلاً المدلول عليه بالنهي على التأيف من الميزان، أي من العدل والإنصاف الذي أنزله الله مع رسله.

وقبول شهادة العدلين في الرجعة والطلاق المنصوص في قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوْقَ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢]، من الكتاب الذي أنزله الله؛ لأنه مصرح به فيه. وقبول شهادة أربعة عدول في ذلك من الميزان الذي أنزله الله مع رسله.

وتحريم أكل مال اليتيم المذكور في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ الآية [النساء: ١٠]، من الكتاب.

وتحريم إغراق مال اليتيم وإحراقه، المعروف من ذلك من الميزان، الذي أنزله الله مع رسله.

وجلد القاذف الذكر، للمحصنة الأنثى، ثمانين جلدة ورد شهادته، والحكم بفسقه المنصوص في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ الآية [النور: ٤]، من الكتاب الذي أنزله الله.

وعقوبة القاذف الذكر لذكر مثله، والأنثى القاذفة للذكر أو لأنثى بمثل تلك العقوبة المنصوصة في القرآن من الميزان المذكور.

وحلية المرأة التي كانت مبتوتة، بسبب نكاح زوج ثان وطلاقه لها بعد الدخول المنصوص في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ [البقرة: ٢٣٠]، أي فإن طلقها الزوج الثاني، بعد الدخول وذوق العسيلة فلا جناح عليهما؛ أي لا جناح على المرأة التي كانت مبتوتة والزوج الذي كانت حراماً عليه، أن يتراجعا بعد نكاح الثاني وطلاقه لها، من الكتاب الذي أنزل الله.

وأما إن مات الزوج الثاني بعد أن دخل بها وكان موته قبل أن يطلقها، فحليتها للأول الذي كانت حراماً عليه، من الميزان الذي أنزله الله مع رسله.

وقد أشرنا إلى كلام ابن القيم المذكور، وأكثرنا من الأمثلة لذلك في سورة الأنبياء في كلامنا الطويل على قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ [الأنبياء: ٧٨].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ الآية [النحل: ١]. وفي سورة الأحزاب في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وفي سورة المؤمن، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ﴾ الآية [غافر: ١٨].

قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل:

الأولى: أن الكفار الذين لا يؤمنون بالساعة يستعجلون بها؛ أي يطلبون تعجيلها عليهم؛ لشدة إنكارهم لها.

والثانية: أن المؤمنين مشفقون منها، أي خائفون منها.

والثالثة: أنهم يعلمون أنها الحق، أي أن قيامها ووقوعها حق لا شك فيه.

وكل هذه المسائل الثلاث المذكورة في هذه الآية الكريمة جاءت موضحة في غير هذا الموضع.

أما استعجالهم لها فقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الرعد، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ﴾ [الرعد: ٦]، وفي غير ذلك من المواضع.

وأما المسألة الثانية، التي هي إشفاق المؤمنين وخوفهم من الساعة، فقد ذكره في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧]. وقوله تعالى: ﴿يُؤْتُونَ بِالَّذِرِّ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

وأما المسألة الثالثة: وهي علمهم أن الساعة حق، فقد دلت عليه الآيات المصرحة بأنها لا ريب فيها؛ لأنها تتضمن نفي الريب فيها عن المؤمنين.

والريب: الشك، كقوله تعالى عن الراسخين في العلم: ﴿رَبِّكَ إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾... الآية [آل عمران: ٩]. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ الآية [النساء: ٨٧]. وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ إِلَى يَوْمِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ الآية [آل عمران: ٢٥]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنذَرِ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْنِ أَنْ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتُمْ يُحْيِ الْمَوْتِ وَأَنْتُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٨ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ۝١٩﴾ [الحج]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝٢٠﴾ [الفرقان].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يُمَارُونَ﴾؛ مضارع ماري يماري وراء ومماراة؛ إذا خاصم وجادل، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرَ﴾ [الكهف: ٢٢]. وقوله: ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾؛ أي بعيد عن الحق والصواب.

وقد قدّمنا معاني الضلال في القرآن واللغة العربية، مع الشواهد في سورة الشعراء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ۝٢١﴾ [الشعراء]، وفي مواضع أخرى من هذا الكتاب المبارك.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾. قد بينا في سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ [هود: ٢٩]. أن جميع الرسل - عليهم الصلوات والسلام - لا يأخذون أجراً على التبليغ، وذكرنا الآيات الدالة على ذلك.

وقد ذكرنا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، وجه الجمع بين تلك الآيات، وآية الشورى هذه فقلنا فيه: اعلم أولاً أن في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أربعة أقوال:

الأول: ورواه الشعبي وغيره عن ابن عباس، وبه قال مجاهد وقتادة وعكرمة وأبو مالك والسدي والضحاك وابن زيد وغيرهم كما نقله عنهم ابن جرير وغيره، أن معنى الآية: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾؛ أي إلا أن تودوني في قرابتي التي بيني وبينكم، فتكفوا عني إذاكم وتمنعوني من أذى الناس، كما تمنعون كل من بينكم وبينه مثل قرابتي منكم، وكان ﷺ له في كل بطن من قريش رحم، فهذا الذي سألهم ليس بأجر على التبليغ؛ لأنه مبذول لكل أحد؛ لأن كل أحد يوده أهل قرابته وينتصرون له من أذى الناس.

وقد فعل له ذلك أبو طالب ولم يكن أجراً على التبليغ لأنه لم يؤمن.

وإذا كان لا يسأل أجراً إلا هذا الذي ليس بأجر تحقق أنه لا يسأل أجراً كقول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتاب

ومثل هذا يسميه البلاغيون تأكيد المدح بما يشبه الذم.

وهذا القول هو الصحيح في الآية، واختاره ابن جرير، وعليه فلا إشكال.

الثاني: أن معنى الآية ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾؛ أي لا تؤذوا قرابتي وعترتي

واحفظوني فيهم، ويروى هذا القول عن سعيد بن جبير، وعمرو بن شعيب، وعلي بن الحسين، وعليه فلا إشكال أيضاً؛ لأن المودة بين المسلمين واجبة فيما بينهم، وأخرى قرابة النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وفي الحديث: «مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم كالجسد الواحد إذا أصيب منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» وقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» والأحاديث في مثل هذا كثيرة جداً.

وإذا كان نفس الدين يوجب هذا بين المسلمين، تبين أنه غير عوض عن التبليغ.

وقال بعض العلماء: الاستثناء منقطع على كلا القولين، وعليه فلا إشكال.

فمعناه على القول الأول: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾؛ لكن أذكركم قرابتي فيكم.

وعلى الثاني: لكن أذكركم الله في قرابتي فاحفظوني فيهم.

القول الثالث: وبه قال الحسن: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾؛ أي إلا أن تتوددوا إلى الله وتتقربوا إليه بالطاعة والعمل الصالح، وعليه فلا إشكال؛ لأن التقرب إلى الله ليس أجراً على التبليغ.

القول الرابع: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، أي إلا أن تتوددوا إلى قراباتكم وتصلوا أرحامكم. ذكر ابن جرير هذا القول عن عبد الله بن قاسم، وعليه أيضاً فلا إشكال؛ لأن صلة الإنسان رحمه ليست أجراً على التبليغ، فقد علمت الصحيح في تفسير الآية وظهر لك رفع الإشكال على جميع الأقوال.

وأما القول بأن قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾؛ منسوخ بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ [سبا: ٤٧]، فهو ضعيف، والعلم عند الله تعالى. انتهى منه.

وقد علمت مما ذكرنا فيه أن القول الأول هو الصحيح في معنى الآية.

مع أن كثيراً من الناس يظنون أن القول الثاني هو معنى الآية، فيحسبون أن معنى ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾؛ إلا أن تودوني في أهل قرابتي.

وممن ظن ذلك محمد السجاد حيث قال لقاتله يوم الجمل: أذكرك حم؛ يعني سورة الشورى هذه، ومراده أنه من أهل قرابة رسول الله ﷺ فيلزم حفظه فيهم؛ لأن الله تعالى قال في حم هذه: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾؛ فهو يريد المعنى المذكور، يظنه هو المراد بالآية؛ ولذا قال قاتله في ذلك:

يذكرني حاميم والرمح شاجر فهل لا تلا حاميم قبل التقدم

وقد ذكرنا هذا البيت والأبيات التي قبله في أول سورة هود، وذكرنا أن البخاري ذكر البيت المذكور في سورة المؤمن، وذكرنا الخلاف في قائل الأبيات الذي قتل محمداً السجاد بن طلحة بن عبيد الله يوم الجمل، هل هو شريح بن أبي أوفى العبسي

كما قال البخاري، أو الأشتر النخعي، أو عصام بن مقشعر، أو مدلج بن كعب السعدي، أو كعب بن مدلج.

وممن ظن أنّ معنى الآية هو ما ظنه محمد السجاد المذكور: الكميّ في قوله في أهل قرابة رسول الله ﷺ:

وجدنا لكم في آل حاميم آية تأولها منا تقي ومعرب

والتحقيق - إن شاء الله - أن معنى الآية هو القول الأول: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَىٰ﴾؛ أي إلا أن تودوني في قرابتي فيكم وتحفظوني فيها، فتكفوا عني أذاكم وتمنعوني من أذى الناس، كما هو شأن أهل القرابات.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدَ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾. الاقتراف معناه الاكتساب، أي من يعمل حسنة من الحسنات، ويكتسبها نزيد له فيها حسناً، أي نضاعفها له.

فمضاعفة الحسنات هي الزيادة في حسننها، وهذا المعنى توضحه آيات من كتاب الله تعالى كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً فَيضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]. وقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَالٍهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]. وقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضَاعًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]. وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقْرِضُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠]، فكونه خيراً وأعظم أجراً زيادة في حسنه كما لا يخفى، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾. يبين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه هو وحده الذي يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات. وقد جاء ذلك موضحاً في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٤]. وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ آلِ الْيَتِيمِ ءَامَنُوا ثُبُوتًا إِلَى اللَّهِ قَوْلَهُ تَصُوحًا عَنِّي رَبِّكُم أَنْ يُكْفِرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ الآية [التحریم: ٨]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدّمنا معنى التوبة وأركانها وإزالة ما في أركانها من الإشكال، في سورة النور، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أنّه ينزل ما يشاء تنزيله من الأرزاق وغيرها بقدر، أي بمقدار معلوم عنده - جلّ وعلا -، وهو - جلّ وعلا - أعلم بالحكمة والمصلحة في مقدار كل ما ينزله. وقد أوضح هذا في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٨٨]. وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

والأظهر أنها من أشنعها؛ لأن الفاحشة في اللغة: وهي الخصلة المتناهية في القبح، وكل متشدد في شيء مبالغ فيه فهو فاحش فيه.

ومنه قول طرفة بن العبد في معلقته:

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد

فقوله: «الفاحش» أي المبالغ في البخل المتناهي فيه.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من وعده تعالى للذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش بما عنده لهم من الثواب الذي هو خير وأبقى، جاء موضحاً في غير هذا الموضع، فبين تعالى في سورة النساء، أن من ذلك تكفيره تعالى عنهم سيئاتهم، وإدخالهم المدخل الكريم وهو الجنة في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ﴾ [النساء]، وبين في سورة النجم، أنهم باجتنابهم كبائر الإثم والفواحش، يصدق عليهم اسم المحسنين ووعدهم على ذلك بالحسن.

والأظهر أنها الجنة، ويدل له حديث «الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم» في تفسير قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، كما قدمناه.

وآية النجم المذكورة هي قوله تعالى: ﴿وَيَمْزِجُ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ﴾ [النجم: ٣١]، ثم بين المراد بالذين أحسنوا في قوله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَعْفَرَةِ﴾ [النجم: ٣٢].

وأظهر الأقوال في قوله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾، أن المراد باللمم صغائر الذنوب، ومن أوضح الآيات القرآنية في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآية [النساء: ٣١]. فدللت على أن اجتناب الكبائر سبب لغفران الصغائر، وخير ما يفسر به القرآن: القرآن.

ويدل لهذا حديث ابن عباس الثابت في الصحيح: قال ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب على ابن آدم حفظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة، فزنى العين النظر، وزنى اللسان النطق، والنفس تمنى وتشتهى، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه».

وعلى هذا القول فالاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ منقطع؛ لأن اللمم الذي هو الصغائر على هذا القول لا يدخل في الكبائر والفواحش، وقد قدمنا تحقيق المقام في الاستثناء المنقطع. في سورة مريم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَقَوْاً إِلَّا سَلَاماً﴾ [مريم: ٦٢].

وقالت جماعة من أهل العلم: الاستثناء متصل، قالوا: وعليه، فمعنى ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾: إلا أن يلزم بفاحشة مرة ثم يجتنبها ولا يعود لها بعد ذلك.

واستدلوا لذلك بقول الرازي:

إن تغفر اللهم تغفر جما . وأي عبد لك ما ألما

وروى هذا البيت ابن جرير والترمذي وغيرهما مرفوعاً . وفي صحته مرفوعاً نظراً .

وقال بعض العلماء . المراد باللمم ما سلف منهم من الكفر والمعاصي قبل الدخول في الإسلام . ولا يخفى بعده .

وأظهر الأقوال هو ما قدّمنا لدلالة آية النساء المذكورة عليه ، وحديث ابن عباس المتفق عليه .

واعلم أن كبائر الإثم ليست محدودة في عدد معين ، وقد جاء تعيين بعضها كالسبع الموبقات أي المهلكات لعظمها ، وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة : «أنها الإشراك بالله ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، والسحر ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» وقد جاءت روايات كثيرة عن النبي ﷺ في تعيين بعض الكبائر : «كعقوق الوالدين ، واستحلال حرمة بيت الله الحرام ، والرجوع إلى البادية بعد الهجرة ، وشرب الخمر ، واليمين الغموس ، والسرقة ، ومنع فضل الماء ، ومنع فضل الكلاء ، وشهادة الزور» .

وفي بعض الروايات الثابتة في الصحيح عن ابن مسعود : «أن أكبر الكبائر الإشراك بالله الذي خلق الخلق ، ثم قتل الرجل ولده خشية أن يطعم معه ، ثم زناه بحليلة جاره» . وفي بعضها أيضاً : «أن من الكبائر تسبب الرجل في سبّ والديه» ، وفي بعضها أيضاً : «أن سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» وذلك يدل على أنهما من الكبائر .

وفي بعض الروايات : «أن من الكبائر الوقوع في عرض المسلم ، والسبتين بالسبة» .

وفي بعض الروايات : «أن منها جمع الصلاتين من غير عذر» .

وفي بعضها : «أن منها اليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله» ويدل عليهما قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف : ٨٧] . وقوله : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٩] .

وفي بعضها : «أن منها سوء الظن بالله» ؛ ويدل له قوله تعالى : ﴿ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتُ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْمُشْرِكَاتُ الظَّالِمَاتُ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [الفتح] ، وفي بعضها : «أن منها الإضرار في الوصية» .

وفي بعضها أن منها الغلول ، ويدل له قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ [آل عمران : ١٦١] . وقدّمنا معنى الغلول في سورة الأنفال ، وذكرنا حكم الغال .

وفي بعضها : «أن من أهل الكبائر الذي يشتركون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً» . ويدل له قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٧٧] ، ولم نذكر أسانيد هذه

الروايات ونصوص متونها خوف الإطالة، وأسانيد بعضها لا تخلو من نظر لكنها لا يكاد يخلو شيء منها عن بعض الشواهد الصحيحة، من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ.

واعلم أن أهل العلم اختلفوا في حد الكبيرة.

فقال بعضهم: هي كل ذنب استوجب حداً من حدود الله، وقال بعضهم: هي كل ذنب جاء الوعيد عليه بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب، واختار بعض المتأخرين حد الكبيرة بأنها هي كل ذنب دل على عدم اكتراث صاحبه بالدين.

وعن ابن عباس: أن الكبائر أقرب إلى السبعين منها إلى السبع، وعنه أيضاً أنها أقرب إلى سبعمائة منها إلى سبع.

قال مقبده - عفا الله عنه وغفر له -: التحقيق أنها لا تنحصر في سبع، وأن ما دل عليه من الأحاديث على أنها سبع لا يقتضي انحصارها في ذلك العدد؛ لأنه إنما دل على نفي غير السبع بالمفهوم، وهو مفهوم لقب، والحق عدم اعتباره.

ولو قلنا إنه مفهوم عدد لكان غير معتبر أيضاً؛ لأن زيادة الكبائر على السبع مدلول عليها بالمنطوق.

وقد جاء منها في الصحيح عدد أكثر من سبع، والمنطوق مقدم على المفهوم، مع أن مفهوم العدد ليس من أقوى المفاهيم.

والأظهر عندي في ضابط الكبيرة أنها كل ذنب اقترن بما يدل على أنه أعظم من مطلق المعصية؛ سواء كان ذلك الوعيد عليه بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب، أو كان وجوب الحد فيه، أو غير ذلك مما يدل على تغليظ التحريم وتوكيده.

مع أن بعض أهل العلم قال: إن كل ذنب كبيرة. وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾... الآية [النساء: ٣١]. وقوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ [النجم: ٢٢]، يدل على عدم المساواة، وأن بعض المعاصي كبائر، وبعضها صغائر، والمعروف عند أهل العلم: أنه لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَحَرِّزُوا سِتْرَ سِتْنَةٍ مِثْلَهَا﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في آخر سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ الآية [النحل: ١٢٦]. وفي سورة الزمر في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ الآية [الزمر: ١٧، ١٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَنْصَرَ بَدَّ ظُلْمِهِ فَأَوَّلَيْكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٥١). قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل، وآية الزمر، المذكورتين آنفاً.

قوله تعالى: ﴿وَرَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة له في أول سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يُزِيلُ الْمَلَكُةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ الآية [النحل: ٢].

قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا يَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾. قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾؛ يبين الله - جلّ وعلا - فيه منته على هذا النبي الكريم، بأن علمه هذا القرآن العظيم ولم يكن يعلمه قبل ذلك، وعلمه تفاصيل دين الإسلام ولم يكن يعلمها قبل ذلك.

قوله: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ﴾: أي ما كنت تعلم ما هو هذا الكتاب الذي هو القرآن العظيم، حتى علمته، وما كنت تدري ما الإيمان الذي هو تفاصيل هذا الدين الإسلامي، حتى علمته.

ومعلوم أن الحق الذي لا شك فيه الذي هو مذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان شامل للقول والعمل مع الاعتقاد.

وذلك ثابت في أحاديث صحيحة كثيرة، منها: حديث وفد عبد القيس المشهور، ومنها حديث: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً» الحديث، فسمى فيه قيام رمضان إيماناً، وحديث: «الإيمان بضع وسبعون شعبة»، وفي بعض رواياته: «بضع وستون شعبة أعلاها شهادة ألا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق».

والأحاديث بمثل ذلك كثيرة، ويكفي في ذلك ما أورده البيهقي في شعب الإيمان، فهو صلوات الله وسلامه عليه ما كان يعرف تفاصيل الصلوات المكتوبة وأوقاتها ولا صوم رمضان، وما يجوز فيها وما لا يجوز، ولم يكن يعرف تفاصيل الزكاة ولا ما تجب فيه ولا قدر النصاب وقدر الواجب فيه ولا تفاصيل الحج ونحو ذلك، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَا الْإِيمَانُ﴾.

وما ذكره هنا من أنه لم يكن يعلم هذه الأمور حتى علمه إياها بأن أوحى إليه هذا النور العظيم الذي هو كتاب الله، جاء في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾... الآية [النساء: ١١٣]. وقوله - جلّ وعلا -: ﴿تَحَنَّنْ فَقَضَ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَضَىِّ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٢].

فقوله في آية يوسف هذه: ﴿وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]. كقوله هنا: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٥]. على أصح التفسيرات، كما قدّمناه في سورة الشعراء في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ فَعَلَّهَا إِذَا أَنَا مِنَ الْغَالِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠١]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا يَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ﴾؛ الضمير في قوله: «جعلناه» راجع إلى القرآن العظيم المذكور في قوله: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾. وقوله:

﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ﴾؛ أي ولكن جعلنا هذا القرآن العظيم نوراً نهدي به من نشاء هدايته من عبادنا.

وسمى القرآن نوراً؛ لأنه يضيء الحق ويزيل ظلمات الجهل والشك والشر. وما ذكره هنا من أن هذا القرآن نور، جاء موضحاً في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]. وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [١٥] يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [١٦] [المائدة] وقوله تعالى: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورَ الَّذِي أُنْزِلْنَا﴾ [التغابن: ٨].

وما دلت عليه هذه الآيات الكريمة من كون هذا القرآن نوراً؛ يدل على أنه هو الذي يكشف ظلمات الجهل، ويظهر في ضوئه الحق، ويتميز عن الباطل، ويميز به بين الهدى والضلال والحسن والقيح.

فيجب على كل مسلم أن يستضيء بنوره، فيعتقد عقائده، ويحل حلاله، ويحرم حرامه، ويمثل أوامره، ويجتنب ما نهى عنه، ويعتبر بقصصه وأمثاله. والسنة كلها داخله في العمل به؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَلَاكُمْ الرَّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. الصراط المستقيم، قد بينه تعالى في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [١] صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [٧] [الفاتحة].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي﴾... الآية، قد بينا الآيات الموضحة له في سورة فصلت، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا نُمُودُ فَبَدِّعْنَاهُمْ﴾ الآية [فصلت: ١٧]، وبيننا هناك وجه الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ مع قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

والصراط في لغة العرب: الطريق الواضح، والمستقيم الذي لا اعوجاج فيه، ومنه قول جرير.

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون الأمور كلها تصير إلى الله؛ أي ترجع إليه وحده لا إلى غيره، جاء موضحاً في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ﴾ [هود: ١٢٣]. وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [١٦] كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٠٩، ١١٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الزخرف

قوله تعالى: ﴿حَمَّ ①﴾ وَالْكَتَبِ ② أَلْمِينِ ③ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ④ ... الآية.

قد قدمنا الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة هود.

وقوله تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾؛ قد قدمنا الكلام عليه في سورة الشعراء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْتَائِيَةِ ⑤﴾ يَلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ⑥ [الشعراء]، وفي سورة الزمر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ⑦﴾ الآية [الزمر: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ⑧﴾، الضمير في قوله «منهم» عائد إلى القوم المسرفين، المخاطبين بقوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ⑨﴾، وفيه ما يسميه علماء البلاغة بالالتفات من الخطاب إلى الغيبة.

وقوله: ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾؛ مفعول به لأهلكنا، وأصله نعت لمحذوف، والتقدير: فأهلكنا قوماً أشد منهم بطشاً، على حد قوله في الخلاصة:

وما من المنعوت والنعت عُقِلَ يجوز حذفه وفي النعت يَقِل

وقوله «بطشاً»: تمييز محول من الفاعل على حد قوله في الخلاصة:

والفاعل المعنى انصبين بأفعلاً مفضلاً كانت أعلا منزلاً

والبطش: أصله الأخذ بعنف وشدة.

والمعنى: فأهلكنا قوماً أشد بطشاً من كفار مكة الذين كذبوا نبينا بسبب تكذيبهم رسلهم، فليحذر الكفار الذين كذبوك أن يهلكهم بسبب ذلك كما أهلكنا الذين كانوا أشد منهم بطشاً؛ أي أكثر منهم عدداً وعدداً وجلداً.

فعلى الأضعف الأقل أن يتعظ بإهلاك الأقوى الأكثر.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي صفتهم التي هي إهلاكهم المستأصل، بسبب تكذيبهم الرسل.

وقول من قال: ﴿مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي عقوبتهم وستهم راجع في المعنى إلى ذلك.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد الكفار الذين كذبوا محمداً ﷺ بأن الله أهلك من هم أقوى منهم، ليحذروا أن يفعل بهم مثل ما فعل بأولئك، جاء موضحاً في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْآرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا... الآية [الروم: ٩].
 وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ... الآية [غافر: ٨٢]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَّكَ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا... إلى قوله: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَذُوبِينَ... الآية [الأنعام: ٦]. وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا تَبَلَّغُوا مَعِشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رَسُولِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ [سبا]. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٦﴾ [فاطر].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ ما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد كفار مكة الذين كذبوا محمداً ﷺ، بصفة إهلاكهم، وستته فيهم التي هي العقوبة وعذاب الاستئصال، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٦﴾ اسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكَّرَ السَّيِّئُ وَلَا يُجِئُ الْمَكْرَ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُلُوكَ الْأَوَّلِينَ فَلَن يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٧﴾ [فاطر].
 وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ رُحِّلَتْ فِرْعَوْنُ بِمَا عِنْدَهُمْ مِّنَ الْعُلَمَاءِ وَخَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمْ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٤٩﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَاكَ الْكَافِرُونَ ﴿٥٠﴾ [غافر]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ الآية [الكهف: ٥٥]. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٦﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٧﴾ [الزخرف].

وقد قدّمنا بعض الآيات الدالة على هذا في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى: ﴿مِن أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ... الآية [المائدة: ٣٢].
 قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾. وقد قدّمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾. قرأ هذا الحرف، عاصم وحمره والكسائي ﴿مَهْدًا﴾؛ بفتح الميم وسكون الهاء وقرأه باقي السبعة ﴿مِهْدًا﴾؛ بكسر الميم وفتح الهاء بعدها ألف، ومعناها واحد وهو الفراش.

وقد ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أنه جعل الأرض لبني آدم مهداً أي فراشاً، وأنه جعل لهم فيها سبلاً أي طرقاً ليمشوا فيها ويسلكوها، فيصلوا بها من قطر إلى قطر. وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة، من كونه تعالى جعل

الأرض فراشاً لبني آدم وجعل لهم فيها الطرق لينفذوا من قطر إلى قطر، جاء موضحاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١١﴾ لَسَلَكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿١٢﴾ [نوح]، وكقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٣﴾ [الأنبياء].

وذكر كون الأرض فراشاً لبني آدم في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ فَرْشَتَهَا فَنِعْمَ الْمَبْدُوءُ ۝١٤﴾ [الذاريات]. وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۝١٥﴾ [البقرة: ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ۝١٦﴾ [غافر: ٦٤].

وقد قدّمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَرَ سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٧﴾ [النحل].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مِّثْنًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١٨﴾. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من دلالة إحياء الأرض بعد موتها على خروج الناس من قبورهم أحياء بعد الموت، في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١٩﴾؛ جاء موضحاً في آيات كثيرة قد قدّمناها في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۝٢٠﴾ [البقرة: ٢٢]، مع بقية براهين البعث في القرآن. وأوضحنا ذلك أيضاً في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝٢١﴾ [النحل]، وفي غير ذلك من المواضع، وأحلنا على ذلك مراراً كثيرة في هذا الكتاب المبارك.

وقد قدّمنا في سورة الفرقان، معنى الإنشاء والنشور، وما في ذلك من اللغات مع الشواهد العربية.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة. ﴿بِقَدَرٍ ۝٢٢﴾. قال بعض العلماء: أي بقدر سابق وقضاء. وقال بعض العلماء: أي بمقدار يكون به إصلاح البشر فلم يكثر الماء جداً فيكون طوفاناً فيهلكهم، ولم يجعله قليلاً دون قدر الكفاية، بل نزله بقدر الكفاية من غير مضرة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ۝٢٣﴾ [المؤمنون]. وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ۝٢٤﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا أَنْشَأْ لَهُمْ إِخْوِينَ ۝٢٥﴾ [الحجر: ٢١ - ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ۝٢٦﴾. والأزواج: الأصناف، والزوج تطلقه العرب على الصنف.

وقد بين تعالى أن الأزواج المذكورة هنا تشمل أصناف النبات وبني آدم وما لا يعلمه إلا الله، قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٧﴾ [يس]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٢٨﴾ [طه: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَخْرَجَتْ رَوِيَّتٌ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهَيْجٍ﴾ [الحج: ٥]، أي من كل صنف حسن من أصناف النبات.

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنْ أَلْسَمَاءٍ مَاءً فَأَلْبَنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ كَرِيمٍ﴾ [القمان: ١٠].
ومن إطلاق الأزواج على الأصناف في القرآن قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص: ١]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [طه: ١٣١].

وقد قدّمنا طرفاً من ذلك في سورة الصافات، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَخْرَجُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ الآية [الصافات: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ مِنْ أَلْفِكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ ﴿١٢﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾.

قد قدّمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة المؤمن، في الكلام على قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِيَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ الآية [غافر: ٧٩]. وضمير المفرد المذكر الغائب في قوله: ﴿لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾، وقوله: ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ راجع إلى لفظ «ما» في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَلْفِكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾... يعني - جلّ وعلا - أنه جعل لبني آدم ما يركبونه من الفلك التي هي السفن، ومن الأنعام ليستولوا أي يرتفعوا معتدلين على ظهوره، ثم يذكروا في قلوبهم نعمة ربهم عليهم بتلك المركوبات ثم يقولوا بألسنتهم مع تفهم معنى ما يقولون: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾.

وقوله: «سبحان» قد قدّمنا في أول سورة بني إسرائيل معناه بإيضاح، وأنه يدل على تنزيه الله - جلّ وعلا - أكمل التنزيه وأتمه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله. والإشارة في قوله ﴿هَذَا﴾ راجعة إلى لفظ «ما» من قوله: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ وجمع الظهور نظراً إلى معنى «ما»؛ لأن معناها عام شامل لكل ما تشمله صلتها ولفظها مفرد، فالجمع في الآية باعتبار معناها، والإفراد باعتبار لفظها.

وقوله: ﴿الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾؛ أي الذي ذلل لنا هذا الذي هو ما نركبه من الأنعام والسفن؛ لأن الأنعام لو لم يذلّها الله لهم لما قدروا عليها ولا يخفى أن الجمل أقوى من الرجل، وكذلك البحر لو لم يذله ويسخر لهم إجراء السفن فيه لما قدروا على شيء من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾؛ أي مطيقين. والعرب تقول: أقرن الرجل للأمر وأقرنه إذا كان مطيقاً له كفواً للقيام به، من قولهم: أقرنت الدابة للدابة، بمعنى أنك إذا قرنتهما في حبل قدرت على مقاومتها، ولم تكن أضعف منها فتجرها؛ لأن الضعيف إذا لزم في القرن، أي الحبل، مع القوي جره ولم يقدر على مقاومته، كما قال جرير:

وابن اللبون إذا ما لز في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس
وهذا المعنى: معروف في كلام العرب، ومنه قول عمر بن معد يكرّب وقد أنشده
قطرب لهذا المعنى:

لقد علم القبائل ما عقيل لنا في النائبات بمقرنينا
وقول ابن هرمة:

وأقرنت ما حملتني ولقلما يطاق احتمال الصدياد عدو الهجر
وقول الآخر:

ركبتم صعبتي أشراً وحيفاً ولستم للصعاب بمقرنينا ..

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن ما ذكر من السفن والأنعام لو لم يذلل الله
لما أقرنوا له ولما أطاقوه جاء مبيّناً في آيات أخر. قال تعالى في ركوب الفلك: ﴿وَمَا يَكُونُ﴾ [يسر]. وقال
تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً﴾ الآية [النحل: ١٤]. وقال
تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَسَفِّرُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ .. الآية
[الجاثية: ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلُكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ
الْأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢]. الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِ
وَالنَّهَارِ وَالْفُلُكِ لَآيَاتٍ لِّمَنْ يَعْقِلُ﴾ الآية [البقرة: ١٦٤]. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلُكَ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ
عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ الآية [الحج: ٦٥]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقال تعالى في تسخير الأنعام: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَكُم فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يسر].
وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَجَعْتَ جُوفُهَا فُكَلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ وَالْمُعَرَّةَ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُم لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٦٦]. لَنْ يَتَأَلَّ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنَّ بِنَاؤَهُ النَّفْثَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ
لِتُكْبِرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَيَشْرَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٦٧]. إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَمْ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً﴾. قال بعض العلماء: ﴿جُزْءاً﴾ أي عدلاً
ونظيراً، يعني الأصنام وغيرها من المعبودات من دون الله، وقال بعض العلماء:
﴿جُزْءاً﴾ أي ولداء. وقال بعض العلماء: ﴿جُزْءاً﴾ يعني البنات.

وذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية: أن الجزء النصيب، واستشهد على ذلك بآية
الأنعام. أعني قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا
هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦] .. الآية.

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: الذي يظهر أن قول ابن كثير هذا ككلامه غير
صواب في الآية؛ لأن المَجْعُولَ لله في آية الأنعام، هو النصيب مما ذرأ من الحرث

والأنعام، والمجموع له. في آية الزخرف هذه، جزء من عباده لا مما ذرأ من الحرث والأنعام. وبين الأمرين فرق واضح كما ترى.

وأن قول قتادة ومن وافقه: إن المراد بالجزء العدل والنظير الذي هو الشريك غير صواب أيضاً؛ لأن إطلاق الجزء على النظير ليس بمعروف في كلام العرب.

أما كون المراد بالجزء في الآية الولد، وكون المراد بالولد خصوص الإناث، فهذا هو التحقيق في الآية. وإطلاق الجزء على الولد يوجه بأمرين:

أحدهما: ما ذكره بعض علماء العربية من أن العرب تطلق الجزء مراداً به البنات، ويقولون: أجزأت المرأة إذا ولدت البنات، وامرأة مجزئة أي تلد البنات، قالوا: ومنه قول الشاعر:

إن ما أجزأت حرة يوماً فلا عجب قد تجزئ الحرة المذكر أحياناً

وقول الآخر:

زوجتها من بنات الأوس مجزئة للعوسج اللذن في أبياتها زجل

وأنكر الزمخشري هذه اللغة قائلاً إنها كذب وافتراء على العرب.

قال في الكشف في الكلام على هذه الآية الكريمة: ومن يدع التفاسير، تفسير الجزء بالإناث وادعاء أن الجزء في لغة العرب اسم للإناث، وما هو إلا كذب على العرب ووضع مستحدث منحول ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه أجزأت المرأة ثم صنعوا بيتاً وبيتاً.

إن ما أجزأت حرة يوماً فلا عجب زوجتها من بنات الأوس مجزئة

وقال ابن منظور في اللسان: وفي التنزيل العزيز: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً﴾.

قال أبو إسحاق: يعني به الذين جعلوا الملائكة بنات الله تعالى وتقدس عما افتروا، قال: وقد أنشدت بيتاً يدل على أن معنى جزءاً معنى الإناث قال: ولا أدري البيت هو قديم أم مصنوع؟

إن أجزأت حرة يوماً فلا عجب

والمعنى في قوله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً﴾؛ أي جعلوا نصيب الله من الولد

الإناث، قال: ولم أجده في شعر قديم ولا رواه عن العرب الثقات، وأجزأت المرأة: ولدت الإناث، وأنشد أبو حنيفة:

زوجتها من بنات الأوس مجزئة

انتهى الغرض من كلام صاحب اللسان، وظاهر كلامه هذا الذي نقله عن الزجاج

أن قولهم: أجزأت المرأة؛ إذا ولدت الإناث معروف؛ ولذا ذكره وذكر البيت الذي أنشده له أبو حنيفة كالمسلم له.

والوجه الثاني: وهو التحقيق - إن شاء الله -؛ أن المراد بالجزء في الآية الولد، وأنه أطلق عليه اسم الجزء؛ لأن الفرع كأنه جزء من أصله، والولد كأنه بضعة من الوالد كما لا يخفى.

وأما كون المراد بالولد المعبر عنه بالجزء في الآية خصوص الإناث فقريته السياق دالة عليه دلالة واضحة؛ لأن جعل الجزء المذكور لله من عباده هو بعينه الذي أنكره الله إنكاراً شديداً وقرع مرتكبه تقريباً شديداً في قوله تعالى بعده ﴿أَمْ أَخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ (١١) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا. إلى قوله: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مُبِينٍ﴾.

وقرأ هذا الحرف شعبة عن عاصم: ﴿جُرْءٌ﴾ بضم الزاي وباقي السبعة بإسكانها وحزمة عند الوقف يسقط الهمزة، بنقل حركتها إلى الزاي مع حذف التنوين للوقف.

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ يَابْنَينَ﴾. «أم» هنا بمعنى استفهام الإنكار، فالكفار لما قالوا: الملائكة بنات الله، أنكر الله عليهم أشد الإنكار، موبخاً لهم أشد التوبيخ، حيث افتروا عليه الولد، ثم جعلوا له أنقص الولدين وأحقهما وهو الأنثى، كما قال هنا: ﴿أَرَأَيْتُمْ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾؛ وهي النصيب الأدنى من الأولاد، وأصفاكم أنتم، أي خصكم وأترككم بالبنين الذين هم النصيب الأعلى من الأولاد.

وإنكار هذا عليهم وتوبيخهم عليه جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله هنا: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾؛ يعني الأنثى، كما أوضحه بقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨]، يعني: فكيف تجعلون لله الإناث وأنتم لو بشر الواحد منكم بأن امرأته ولدت أنثى لظل وجهه مسوداً؛ يعني من الكآبة وهو كظيم؛ أي ممتلئ حزناً وغماً، وكقوله تعالى هنا: ﴿أَوْ مَن يُشْرِكْ فِي الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي الْخَصَامِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾؛ ففيه إنكار شديد وتقريع عظيم لهم بأنهم مع افتراءهم عليه - جلّ وعلا - الولد جعلوا له أنقص الولدين الذي لنقصه الخلقي، ينشأ في الحلية من الحلبي والحلل وأنواع الزينة، من صغره إلى كبره ليجبر بتلك الزينة نقصه الخلقي الطبيعي، وهو في الخصام غير مبين؛ لأن الأنثى غالباً لا تقدر على القيام بحجتها ولا الدفاع عن نفسها.

وقد أوضحنا هذا المعنى بشواهد العربية غاية الإيضاح في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. وكقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ الْإِنْسَانَ مَسْجِدًا وَهُمْ مَا يَشْتَبُونَ﴾ [النحل: ٥٧] وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢]. وقوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْسَانًا إِنَّكُمْ لَقَائِلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٥٠] وقوله تعالى: ﴿الْكُفْرَ الذَّكْرَ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾ [النحل: ٦١] إذا فسدت ضريبة [النجم: ٣١] وقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَفْتِهِمْ أَلَزَيْتَ لَنَا الْبَنَاتَ وَهَهُنَّ الْبَنُونَ﴾ [١٦٩] أم خلقنا الملائكة إنسا وهم شهودون [١٦٨] ألا إنهم من إفكهم ليقولون [١٦٧]

وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢٧﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٢٨﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٢٩﴾ لَقَلَّأَ تَذْكُرُونَ ﴿١٣٠﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٣١﴾ فَأَتُوا بِكُتُبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣٢﴾ [الصفات].

وقد قدّمنا كثيراً من الآيات الموضحة لهذا المعنى في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ [النحل].

وجه التعبير عن الأثنى بما ضرب مثلاً لله في قوله: ﴿وَإِذَا يُنْزِلُ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا...﴾ الآية، ظاهر؛ لأن البنات المزعومة يلزم ادعاءها أن تكون من جنس من نسبت إليه؛ لأن الوالد والولد من جنس واحد، وكلاهما يشبه الآخر في صفاته.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ﴾ ﴿١٣١﴾. قرأ هذا الحرف نافع وابن كثير وابن عامر: ﴿عِنْدَ الرَّحْمَنِ﴾؛ بسكون النون وفتح الدال ظرف كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ [الأعراف: ٢٠٦]، وقرأه أبو عمرو وعاصم وحزمة والكسائي ﴿الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ﴾ بكسر العين وباء موحدة بعدها ألف وضم الدال جمع عبد كقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقوله: ﴿أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ﴾؛ قرأه عامة السبعة غير نافع «أشهدوا» بهمزة واحدة مع فتح الشين، وقرأه نافع «أشهد»: بهمزتين الأولى مفتوحة محققة، والثانية مضمومة مسهلة بين بين، وقالون: يجعل بين الهمزتين ألف الإدخال على إحدى الروايتين.

وقد ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أربع مسائل:

الأولى: أن الكفار افتروا على الملائكة أنهم إناث، زاعمين أنهم بنات الله.

الثانية: أنه وبخهم على ذلك توبيخاً شديداً وأنكر عليهم ذلك في قوله: ﴿أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ﴾ يعني هل حضروا خلق الله لهم فعابنوه إناثاً.

الثالثة: أن شهادتهم الكاذبة بذلك ستكتب عليهم.

الرابعة: أنهم يسألون عنها يوم القيامة.

وهذه المسائل الأربع التي تضمنتها هذه الآية الكريمة، جاءت موضحة في غير هذا الموضع.

أما الأولى منها وهي كونهم اعتقدوا الملائكة إناثاً، فقد ذكرها تعالى في مواضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَكَ رُحُومَ الْبَنِينَ وَأَتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَقُلُوبُونَ قَلِيلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٩٠]. وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونُ الْمَلَائِكَةَ نَسِيَةَ الْأَثْنِ﴾ [الأنبياء: ١٧]. الآية [النجم]، وقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَفْتِهِمُ أَلَيْكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ [النجم: ١٨] أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا... الآية [الصفات: ١٤٩، ١٥٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما المسألة الثانية، وهي سؤاله تعالى لهم على وجه الإنكار والتوبيخ والتفريع هل شهدوا خلق الملائكة وحضروه، حتى علموا أنهم خلقوا إناثاً، فقد ذكرها في قوله تعالى:

﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ [الصفات: ١٥] ﴿وَبَيْنَ تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يَشْهَدْ الْكُفَارَ خَلْقَ شَيْءٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الكهف: ٥١].

وأما المسألة الثالثة التي هي كون شهادتهم بذلك الكفر ستكتب عليهم، فقد ذكرها تعالى في مواضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ [١٥] ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [١١] ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [١٢] [الانفطار]، وقوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [١٩] [الجاثية]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [٢٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا نَكْمُرُونَ﴾ [يونس: ٢١] وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَزَمْتَهُ طَرِيقًا فِي عُنُقِهِ وَنُفِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [٢٣] ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]. وقوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٩].

وأما المسألة الرابعة وهي كونهم يسألون عن ذلك الافتراء والكفر، فقد ذكرها تعالى في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَتَقَالَا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿تَوَرَّيْكَ لَنَسْتَأْذِنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [١٢] ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [١٣] [الحجر]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لَذِكْرُ لَك وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَيَعْمَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَالَلَّهِ لَسْتُمْ عَنَّْا كُنْتُمْ تَفَرُّونَ﴾ [النحل: ٥١] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْتَهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [٧٠].

في هذه الآية الكريمة إشكال معروف، ووجهه أن قول الكفار الذي ذكره الله عنهم هنا، أعني قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْتَهُمْ﴾، وهو بالنظر إلى ظاهره كلام صحيح؛ لأن الله لو شاء أن لا يعبدوهم ما عبدوهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعْتُهُمْ عَلَىٰ الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْخَاطِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣]. وقال تعالى: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

وهذا الإشكال المذكور في آية الزخرف هو بعينه واقع في آية الأنعام، وآية النحل. وأما آية الأنعام فهي قوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وأما في آية النحل، فهي قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا﴾ ... الآية [النحل: ٣٥].

فإذا عرفت أن ظاهر آية الزخرف وآية الأنعام، وآية النحل أن ما قاله الكفار حق، وأن الله لو شاء ما عبدوا من دونه من شيء ولا أشركوا به شيئاً، كما ذكرنا في الآيات الموضحة قريباً.

فاعلم أن وجه الإشكال أن الله صرح بكذبهم في هذه الدعوى التي ظاهرها حق، قال في آية الزخرف: ﴿يَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾؛ أي يكذبون، وقال في آية الأنعام: ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَاوُّوا بِأَسْنَاءٍ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقال في آية النحل: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُسِينُ﴾ [النحل: ٣٥]. ومعلوم أن الذي فعله الذين من قبلهم، هو الكفر بالله والكذب على الله، في جعل الشركاء له وأنه حرم ما لم يحرمه.

والجواب عن هذا أن مراد الكفار بقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾؛ وقوله: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، مرادهم به أن الله لما كان قادراً على منعهم من الشرك، وهدايتهم إلى الإيمان ولم يمنعهم من الشرك. دل ذلك على أنه راض منهم بالشرك في زعمهم.

قالوا: لأنه لو لم يكن راضياً به، لصرفنا عنه، فتكذيب الله لهم في الآيات المذكورة منصب على دعواهم أنه راض به، والله - جلّ وعلا - يكذب هذه الدعوى في الآيات المذكورة وفي قوله: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧].

فالكفار زعموا أن الإرادة الكونية القدريّة، تستلزم الرضا وهو زعم باطل، وهو الذي كذبهم الله فيه في الآيات المذكورة.

وقد أشار تعالى إلى هذه الآيات المذكورة، حيث قال في آية الزخرف: ﴿أَمْ أَلَيْسَ كَذِبًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾؛ أي آتيناهم كتاباً يدل على أنا راضون منهم بذلك الكفر، ثم أضرب عن هذا إضراباً مبيناً أن مستندهم في تلك الدعوى الكاذبة هو تقليد آبائهم التقليد الأعمى، وذلك في قوله: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ أي شريعة وملة وهي الكفر وعبادة الأوثان ﴿وَرِثْنَا عَلَى أَمْثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾.

فقوله عنهم مهتدون هو مصب التكذيب؛ لأن الله إنما يرضى بالاهتداء لا بالضلال. فالاهتداء المزعوم أساسه تقليد الآباء الأعمى، وسيأتي إيضاح رده عليهم قريباً - إن شاء الله -.

وقال تعالى في آية النحل، بعد ذكره دعواهم المذكورة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

فأوضح في هذه الآية الكريمة أنه لم يكن راضياً بكفرهم، وأنه بعث في كل أمة رسولاً، وأمرهم على لسانه أن يعبدوا الله وحده ويجتنبوا الطاغوت، أي يتباعدوا عن عبادة كل معبود سواه.

وأن الله هدى بعضهم إلى عبادته وحده، وأن بعضهم حقت عليه الضلالة؛ أي ثبت عليه الكفر والشقاء.

- وقال تعالى في آية الأنعام: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٦٦). [الأنعام]، فملكه تعالى وحده للتوفيق والهداية، هو الحجة البالغة على خلقه، يعني فمن هديناه وتفضلنا عليه بالتوفيق، فهو فضل منا ورحمة. ومن لم نفعل له ذلك فهو عدل منا وحكمة؛ لأنه لم يكن له ذلك ديناً علينا ولا واجباً مستحقاً يستحقه علينا، بل إن أعطينا ذلك ففضل، وإن لم نعظه فعدل.

وحاصل هذا أن الله تبارك وتعالى قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق الخلق، وعلم أن قوماً صائرون إلى الشقاء وقوماً صائرون إلى السعادة ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]. وأقام الحجة على الجميع ببعث الرسل وتأيدهم بالمعجزات التي لا تترك في الحق لبساً، فقامت عليهم حجة الله في أرضه بذلك.

ثم إنه تعالى وفق من شاء توفيقه، ولم يوفق من سبق لهم في علمه الشقاء الأزلي، وخلق لكل واحد منهم قدرة وإرادة يقدر بها على تحصيل الخير والشر، وصرف قدرهم وإرادتهم بقدرته وإرادته إلى ما سبق لهم في علمه، من أعمال الخير المستوجبة للسعادة وأعمال الشر المستوجبة للشقاء، فأتوا كل ما أتوا وفعلوا كل ما فعلوا، طائعين مختارين، غير مجبورين، ولا مهوورين ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٦٦). [الأنعام].

وقد رد الشيخ مذهب الجبرية عند هذه الآية فليرجع من أراد الوقوف عليه للأصل. قوله تعالى: ﴿أَمْ أَلَيْسَ كَتَبْنَا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ (٦٦). «أم» هنا تتضمن معنى استفهام الإنكار؛ يعني - جلّ وعلا - أنّ هذا الذي يزعم الكفار من أنّهم على حق في عبادتهم الأوثان، وجعلهم الملائكة بنات الله، لا دليل لهم عليه، ولذا أنكر أن يكون آتاهم كتاباً يحل فيه ذلك وأن يكونوا مستمسكين في ذلك بكتاب من الله، فأنكر عليهم هذا هنا إنكاراً دالاً على النفي للتمسك بالكتاب المذكور، مع التوبيخ والتقريع. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن كفرهم المذكور لم يكن عن هدى من الله، ولا كتاب أنزله الله بذلك، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى في سورة فاطر: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ أَلَيْسَ لَهُمْ كِتَابٌ فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ﴾ ... الآية [فاطر: ٤٠].

وقوله تعالى في الأحقاف: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنَوِّى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَتَرْوِى مَتَّ عَلَيْنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤١). [الأحقاف].

وقوله تعالى في الروم: ﴿أَمْ أُنْزِلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ (٢٥). [الروم].

وقوله تعالى في الصافات: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ (٥٦). فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٥٧). [الصافات].

وقوله تعالى في النمل: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل].

وقوله تعالى في الحج ولقمان: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [الحج].

وقوله تعالى في الأنعام: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [١٣١] قُلْ أُولَئِكَ جُنُودُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ. .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة قد أفلح المؤمنون، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةً رُسُلُهُمْ كَذَّبُوهُ﴾ . . . الآية [المؤمنون: ٤٤].

وفي سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أُولَئِكَ جُنُودُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾، قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وحزمة والكسائي وشعبة عن عاصم: «قُلْ أَوْ لَوْ جُنُودُكُمْ» بضم القاف وسكون اللام بصيغة الأمر.

وقرأه ابن عامر وحفص عن عاصم: ﴿قُلْ أُولَئِكَ جُنُودُكُمْ﴾؛ بفتح القاف واللام بينهما ألف بصيغة الفعل الماضي.

فعلى قراءة الجمهور فالمعنى قل لهم يا نبي الله أتقتدون بأبائكم في الكفر والضلال، ولو جنتكم بأهدى، أي بدين أهدى مما وجدتم عليه آباءكم، وصيغة التفضيل هنا لمطلق الوصف؛ لأن آباءهم لا شيء عندهم من الهداية أصلاً.

وعلى قراءة ابن عامر وحفص، فالمعنى قال هو: أي رسول الله ﷺ.

وقد أوضحنا هذا المعنى بشواهد العربية مراراً في هذا الكتاب المبارك.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تسفيه رأي الكفار وبيان شدة ضلالهم في تقليدهم آباءهم هذا التقليد الأعمى، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى في البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ عَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٥]. وكقوله تعالى في المائدة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ عَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٦].

وأوضح تعالى في آية لقمان أن ما وجدوا عليه آباءهم من الكفر والضلال طريق من طرق الشيطان يدعوهم بسلوكلها إلى عذاب السعير، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ

لَهُمْ أَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ مَآبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٦١﴾ [لقمان]. كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ الْفِرَاقَاءُ بَيْنَهُمْ صَالِينَ﴾ ﴿٦١﴾ فَمَنْ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ يَرْشُدُونَ ﴿٦٢﴾ [الصافات]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِوَجْهِهِ عَلِيمِينَ﴾ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ [الأنبياء]. والآيات بمثل ذلك كثيرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ ﴿٦٤﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - قال لأبيه وقومه: إنه براء أي بريء، من جميع معبوداتهم التي يعبدونها من دون الله، أي يعني أنه بريء من عبادة كل معبود، إلا المعبود الذي خلقه وأوجده فهو وحده معبوده.

وقد أوضح تعالى هذا المعنى الذي ذكره عن إبراهيم في مواضع آخر من كتابه كقوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ [الشعراء]. وكقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى السَّمَاءَ بَازِيَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُغَوِّمُ لِي رَبِّيٓ مَنَافِرَٓهُ وَمِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِيَّيَّاهُ حَسْبِيَ الْيَوْمَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام].

وزاد - جلّ وعلا - في سورة الممتحنة براءته أيضاً من العابدين وعداوته لهم وبغضه لهم في الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كُفَرًا بِكُرْبَىٰ وَيَدَايِنَا وَيَتَيْكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَإِنَّهُمْ سَيَهْدِينِ﴾؛ ذكر نحوه في قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ﴿٧٨﴾ [الشعراء]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ﴿٦٤﴾ [الصافات]. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَلَّ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧]. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾؛ أي خلقتني، يدل على أنه لا يستحق العبادة، إلا الخالق وحده - جلّ وعلا -.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، دلت عليه آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَىٰ﴾ ﴿١٨٨﴾ [الشعراء]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦]. وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ الآية [النحل: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ﴿١٨٨﴾ [الأعراف]. وقوله تعالى: ﴿الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ سَويٌّ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ رُحِمَ فَقِيرًا﴾ ﴿٢٠﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَا يُخْلِقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٢، ٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢٨) بَلْ مَنَعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَقَّقَ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ .

الضمير المنصوب في «جعلها» على التحقيق راجع إلى كلمة الإيمان المشتملة على معنى لا إله إلا الله، المذكورة في قوله: ﴿إِنِّي بَرَكَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (٣١) إِلَّا آلَ الَّذِي فَطَرَنِي؛ لأن لا إله إلا الله نفي وإثبات، فمعنى النفي منها هو البراءة من جميع المعبودات غير الله في جميع أنواع العبادات، وهذا المعنى جاء موضحاً في قوله: ﴿إِنِّي بَرَكَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ .

ومعنى الإثبات منها هو أفراد الله وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه الذي شرعه على السنة رسوله. وهذا المعنى جاء موضحاً في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُمْ سَيَّيِدِينَ﴾ (٣٢) . وضمير الفاعل المستتر في قوله ﴿وَجَعَلَهَا﴾ قال بعضهم: هو راجع إلى إبراهيم، وهو ظاهر السياق. وقال بعضهم: هو راجع إلى الله تعالى.

فعلى القول الأول فالمعنى صير إبراهيم تلك الكلمة باقية في عقبه؛ أي ولده وولد ولده. وإنما جعلها إبراهيم باقية فيهم لأنه تسبب لذلك بأمرين:

أحدهما: وصيته لأولاده بذلك وصاروا يتوارثون الوصية بذلك عنه، فيوصي به السلف منهم الخلف، كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَى مَن سِوَةِ نَفْسِهِ وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٣٣) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٤﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَدْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ... الآية [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢].

وثانيهما: هو سؤاله ربه تعالى لذريته الإيمان والصلاح؛ كقوله تعالى: ﴿وَلِإِذْ أَبَتَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّتْهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: ١٢٤]، أي واجعل من ذريتي أيضاً أئمة، وقوله تعالى عنه: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠] . وقوله عنه: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] . وقوله عنه هو وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ إلى قوله: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] .

وقد أجاب الله دعاءه في بعث الرسول المذكور ببعثه محمداً ﷺ؛ ولذا جاء في الحديث عنه ﷺ أنه قال: «أنا دعوة إبراهيم» .

وقد جعل الله الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته، كما قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] ، وقال عنه وعن نوح في سورة الحديد: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ ... الآية [الحديد: ٢٦] .

وعلى القول الثاني، أن الضمير عائد إلى الله تعالى، فلا إشكال.

وقد بيّن تعالى في آية الزخرف هذه؛ أن الله لم يجب دعوة إبراهيم في جميع ذريته، ولم يجعل الكلمة باقية في جميع عقبه؛ لأن كفار مكة الذين كذبوا بنينا ﷺ من عقبه بإجماع العلماء، وقد كذبوه ﷺ وقالوا إنه ساحر. وكثير منهم مات على ذلك، وذلك في قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ﴾؛ يعني كفار مكة وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين، هو محمد ﷺ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٣٠).

وما دلت عليه آية الزخرف هذه من أن بعض عقب إبراهيم لم يجعل الله الكلمة المذكورة باقية فيهم، دلت عليه آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى في البقرة: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، أي الظالمين من ذرية إبراهيم. وقوله تعالى في الصافات: ﴿وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات].

فالمحسن منهم هو الذي الكلمة باقية فيه، والظالم لنفسه المبين منهم ليس كذلك. وقوله تعالى في النساء: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ۖ فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء].

وقد بيّن تعالى في الحديد أن غير المهتدين منهم كثيرون، وذلك في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُّهُتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [الحديد]. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ أي جعل الكلمة باقية فيهم لعل الزائغين الضالين منهم يرجعون إلى الحق بإرشاد المؤمنين المهتدين منهم؛ لأن الحق ما دام قائماً في جملتهم فرجوع الزائغين عنه إليه مرجو مأمول كما دل عليه قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

والرجاء المذكور بالنسبة إلى بني آدم؛ لأنهم لا يعرفون من يصير إلى الهدى، ومن يصير إلى الضلال.

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة: وفي الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى فإنه سيهدين لعلمهم يرجعون، وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلمهم يرجعون، أي قال لهم، يتوبون عن عبادة غير الله، اه منه.

وإيضاح كلامه أن المعنى أن إبراهيم قال لأبيه وقومه: إنني براء مما تعبدون لأجل أن يرجعوا عن الكفر إلى الحق.

والضمير في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ على هذا راجع إلى أبيه وقومه. وعلى ما ذكرناه أولاً فالضمير راجع إلى من ضل من عقبه؛ لأن الضالين منهم داخلون في لفظ العقب، فرجوع ضميرهم إلى العقب لا إشكال فيه، وهذا القول هو ظاهر السياق، والعلم عند الله تعالى. وهناك مسائل تتعلق بدخول أبناء البنات في العقب يرجع من أراد الوقوف عليها للأصل.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣١) أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٣٢). وقالوا: أي قال كفار مكة، لولا أي هلا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين، أي من إحدى القريتين، وهما مكة والطائف، عظيم يعنون بعظمه كثرة ماله وعظم جاهه، وعلو منزلته في قومه، وعظيم مكة الذي يريدون هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب، وفي مرة بن كعب يجتمع نسبه بالنبي ﷺ، وقيل: هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف.

وعظيم الطائف: هو عروة بن مسعود. وقيل: حبيب بن عمرو بن عمير. وقيل: هو كنانة بن عبد ياليل، وقيل غير ذلك.

وإيضاح الآية أن الكفار أنكروا أولاً أن يبعث الله رسولاً من البشر كما أوضحناه مراراً، ثم لما سمعوا الأدلة على أن الله لم يبعث إلى البشر رسولاً إلا من البشر تنازلوا عن افتراضهم إرسال رسل من الملائكة إلى اقتراح آخر، وهو اقتراح تنزيل هذا القرآن على أحد الرجلين المذكورين.

وهذا الاقتراح يدل على شدة جهلهم، وسخافة عقولهم، حيث يجعلون كثرة المال، والجاه في الدنيا، موجباً لاستحقاق النبوة؛ وتنزيل الوحي؛ ولذا زعموا أن محمداً ﷺ ليس أهلاً لإنزال هذا القرآن عليه، لقلته ماله، وأن أحد الرجلين المذكورين أحق أن ينزل عليه القرآن منه ﷺ.

وقد بين تعالى في هذه الآية الكريمة، شدة جهلهم، وسخافة عقولهم، بقوله: ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؛ والظاهر المتبادر أن المراد برحمة ربك: النبوة وإنزال الوحي.

وإطلاق الرحمة على ذلك متعدد في القرآن كقوله تعالى في الدخان: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ (٥٦) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ... الآية [الدخان: ٥، ٦]، وقوله في آخر القصص: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾... الآية [القصص: ٨٦]، وقوله في آخر الأنبياء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٧٧) [الأنبياء].

وقد قدمنا الآيات الدالة، على إطلاق الرحمة والعلم على النبوة في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ [الكهف: ٦٥].

وقدّمنا معاني إطلاق الرحمة في القرآن في سورة فاطر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا يَفْجَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾... الآية [فاطر: ٢].

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾؛ يعني أنه تعالى لم يفوض إليهم أمر معاشهم وحظوظهم في الدنيا، بل تولى هو - جلّ وعلا - قسمة ذلك بينهم، فجعل هذا غنياً، وهذا فقيراً، وهذا رفيعاً، وهذا وضيعاً، وهذا خادماً، وهذا مخدوماً، ونحو ذلك.

فإذا لم يفوض إليهم حظوظهم في الدنيا، ولم يحكمهم فيها. بل كان تعالى هو المتصرف فيها بما شاء كيف شاء، فكيف يفوض إليهم أمر إنزال الوحي حتى يتحكموا في من ينزل إليه الوحي؟

فهذا مما لا يعقل ولا يظنه إلا غبي جاهل كالكفار المذكورين.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَتَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾؛ التحقيق - إن شاء الله - أنه من التسخير.

ومعنى تسخير بعضهم لبعض، خدمة بعضهم البعض، وعمل بعضهم لبعض؛ لأن نظام العالم في الدنيا يتوقف قيامه على ذلك، فمن حكمته - جلّ وعلا -، أن يجعل هذا فقيراً مع كونه قوياً قادراً على العمل، ويجعل هذا ضعيفاً لا يقدر على العمل بنفسه، ولكنه تعالى يهيئ له دراهم، يؤجر بها ذلك الفقير القوي فينتفع القوي بدراهم الضعيف، والضعيف بعمل القوي فتتظم المعيشة لكل منهما، وهكذا.

وهذه المسائل التي ذكرها الله - جلّ وعلا - في هذه السورة الكريمة، جاءت كلها موضحة في آيات آخر من كتاب الله.

أما زعمهم أن محمداً ﷺ أنقص شرفاً وقدرًا من أن ينزل عليه الوحي، فقد ذكره الله عنهم في سورة (ص)، في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي... الآية [ص: ٨].

فقول كفار مكة: ﴿أَنزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨]، معناه إنكارهم أن يخصه الله بإنزال الوحي من بينهم، لزعمهم أن فيهم من هو أحق بالوحي منه، لكثرة ماله، وجاهه وشرفه فيهم.

وقد قال قوم صالح مثل ذلك لصالح، كما قال تعالى عنهم: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْوَحْيِ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاكِبُونَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِالْوَحْيِ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاكِبُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْوَحْيِ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاكِبُونَ﴾ [القصص: ٢٥].

فقلوب الكفار متشابهة؛ فكانت أعمالهم متشابهة.

كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]. وقال تعالى: ﴿أَتَوَصَّوْنَ بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢].

وأما اقتراحهم إنزال الوحي على غيره منهم، وأنهم لا يرضون خصوصيته بذلك دونهم، فقد ذكره تعالى في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وقوله تعالى في المدثر: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّثَشَّرَةً﴾ [المدثر: ٥١]. أي تنزل عليه صحف بالوحي من السماء، كما قاله مجاهد وغير واحد، وهو ظاهر القرآن، وفي الآية قول آخر معروف.

وأما إنكاره تعالى عليهم اقتراح إنزال الوحي على غير محمد ﷺ الذي دلت عليه

همزة الإنكار المتضمنة مع الإنكار لتجهيلهم، وتسفيه عقولهم في قوله: ﴿أَفَمَنْ يَقْسِيُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾، فقد أشار تعالى إليه مع الوعيد الشديد في الأنعام؛ لأنه تعالى لما قال: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مَآ أُوْتِيَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أتبع ذلك بقوله رداً عليهم، وإنكاراً لمقالتهم: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ثم أوعدهم على ذلك بقوله: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وأما كونه تعالى هو الذي تولى قسمة معيشتهم بينهم، فقد جاء في مواضع آخر كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ [النحل: ٧١]. وقوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَةٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]. وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُزِيلُ يُدْرِكُ مَا يَشَاءُ إِنَّمَا يَبْصُرُ بِمَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٧]. وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ [النساء: ١٣٥].

وقد أوضح تعالى حكمة هذا التفاضل والتفاوت في الأرزاق، والحفظ والقوة والضعف، ونحو ذلك، بقوله هنا: ﴿لَسَنَخَذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرَآءً﴾، كما تقدم.

وقوله تعالى هنا: ﴿وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾؛ يعني أن النبوة، والاهتداء بهدي الأنبياء، وما يناله المهتدون يوم القيامة، خير مما يجمعه الناس في الدنيا من حطامها.

وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى، في غير هذا الموضع، كقوله في سورة يونس: ﴿قُلْ يَفْضَلُ اللَّهُ وَرَحْمَتِهِ فِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٢٨]. وقوله تعالى في آل عمران: ﴿وَلَكِنْ قُلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِنْكُمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧]. وقد أشار الشيخ إلى بعض ما يتعلق بالآية فليرجع من أراد الوقوف عليه إلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْتِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [٣٣] وَلِيُؤْتِيَهُمْ آبُوتًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ [٣٤] وَزُخْرَفًا [٣٥] وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ [٣٥]، قوله «ليؤتيهم» في الموضعين، قرأه ورش، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم، بضم الباء على الأصل.

وقرأه قالون عن نافع، وابن كثير، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وشعبة عن عاصم «ليؤتيهم» بكسر الباء لمجانسة الكسرة للياء.

وقوله «سُقْفًا»: قرأه نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم، «سُقْفًا» بضمين على الجمع.

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو «سُقْفًا» بفتح السين وإسكان القاف على الإفراد المراد به الجمع.

وقوله: ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾: قرأه نافع وابن كثير، وابن عامر،

في رواية ابن ذكوان، وإحدى الروایتين عن هشام وأبو عمرو والكسائي: «لَمَّا مَتَاعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» بتخفيف الميم من «لما».

وقراه عاصم، وحزمة، وهشام، عن ابن عامر، في إحدى الروایتين: «لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا»؛ بتشديد الميم من «لما».

ومعنى الآية الكريمة أن الله لما بين حقارة الدنيا، وعظم شأن الآخرة في قوله: «وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ». أتبع ذلك بيان شدة حقارتها، وأنه جعلها مشتركة بين المؤمنين والكافرين، وجعل ما في الآخرة من النعيم خاصاً بالمؤمنين، دون الكافرين، وبين حكمته في اشتراك المؤمن مع الكافر، في نعيم الدنيا بقوله: «وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً»؛ أي لولا كراهتنا لكون جميع الناس أمة واحدة، متفقة على الكفر، لأعطينا زخارف الدنيا كلها للكفار.

ولكننا لعلمنا بشدة ميل القلوب إلى زهرة الحياة الدنيا، وحبها لها لو أعطينا ذلك كله للكفار، لحملت الرغبة في الدنيا جميع الناس على أن يكونوا كفاراً، فجعلنا في كل من الكافرين والمؤمنين غنياً وفقيراً، وأشركنا بينهم في الحياة الدنيا.

ثم بين - جلّ وعلا - اختصاص نعيم الآخرة بالمؤمنين في قوله: «وَأَنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ»؛ أي خالصة لهم دون غيرهم.

وهذا المعنى جاء - موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في الأعراف: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ» [الأعراف: ٣٢].

فقوله: «قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا»، أي مشتركة بينهم في الحياة الدنيا، خالصة يوم القيامة؛ أي خاصة بهم، دون الكفار، يوم القيامة، إذ لا نصيب للكفار البتة في طيبات الآخرة.

فقوله في آية الأعراف هذه: «قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا» [الأعراف: ٣٢] صريح في اشتراك المؤمنين مع الكفار في متاع الحياة الدنيا.

وذلك الاشتراك المذكور، دل عليه حرف الامتناع، للوجود الذي هو «لولا»، في قوله هنا: «وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً».

وخصوص طيبات الآخرة بالمؤمنين المنصوص عليه في آية الأعراف بقوله: «خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ» [الأعراف: ٣٢]، هو الذي أوضحه تعالى في آية الزخرف هذه بقوله: «وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ»، وجميع المؤمنين يدخلون في الجملة في لفظ «المتقين»؛ لأن كل مؤمن اتقى الشرك بالله.

وما دلت عليه هذه الآيات من أنه تعالى يعطي الكفار من متاع الحياة الدنيا، دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله، كقوله تعالى: «قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ

عَذَابِ النَّارِ» [البقرة: ١٢٦]. وقوله: ﴿نَمِيعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۖ﴾ [لقمان]. وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِعَيْكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٣]. وقوله: ﴿قُلْ إِنَّا إِلَهُ الْدِّينِ يَتَذَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۖ﴾ [يونس: ٣١] مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۖ﴾ [يونس: ٣٦]. والآيات بمثل هذا كثيرة.

وقد بين تعالى في آيات من كتابه أن إنعامه على الكافرين ليس لكرامتهم عليه، ولكنه للاستدراج، كقوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۚ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۖ﴾ [القلم]. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ۖ﴾ [فصل دابر القوم الذين ظلموا] وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ﴾ [الأنعام] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۖ﴾ [الأعراف]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ۖ﴾ [مريم: ٧٥]، على أظهر التفسيرين. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَلِّي لَهُمْ خَبَرًا لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُطَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۖ﴾ [آل عمران]. وقوله تعالى: ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ أَنُحَذِّثَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ﴾ [الحج: ٤٤].

ودعوى الكفار أن الله ما أعطاهم المال ونعيم الدنيا إلا لكرامتهم عليه واستحقاقهم لذلك، وأنه إن كان البعث حقاً أعطاهم خيراً منه في الآخرة، قد ردها الله عليهم في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنٍ ۖ﴾ [سورة] سَأَرُّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ۖ﴾ [المؤمنون]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُفَرِّقُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ۖ﴾ [سبأ: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ۖ﴾ [الأعراف: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۖ﴾ [المسد] وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ۖ﴾ [الليل]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ﴾ [الأنعام: ٩٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا طرفاً من هذا في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رُودَتْ إِلَىٰ رَبِّهِ لَآجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

ولنرجع إلى تفسير ألفاظ الآية الكريمة، فقوله: ﴿جَعَلْنَا﴾؛ أي صيرنا، وقوله: ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾، بدل اشتغال مع إعادة العامل، من قوله: ﴿لِمَنْ يَكْفُرْ﴾، وعلى قراءة «سُقفاً» بضميتين، فهو جمع سقف، وسقف البيت معروف. وعلى قراءة سقفاً بفتح السين، وسكون القاف فهو مفرد أريد به الجمع.

وقد قدمنا في أول سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طفلاً﴾ [الحج: ٥]، أن المفرد إذا كان اسم جنس، يجوز إطلاقه مراداً به الجمع، وأكثرنا من أمثلة ذلك في القرآن، ومن الشواهد العربية على ذلك.

وقوله ﴿وَمَعَارِجَ﴾ الظاهر أنه جمع معرج بلا ألف بعد الراء، والمعرج والمعراج بمعنى واحد؛ وهو الآلة التي يعرج بها أي يصعد بها إلى العلو.

وقوله: ﴿يَظْهَرُونَ﴾ أي يصعدون ويرتفعون، حتى يصيروا على ظهور البيوت، ومن ذلك المعنى قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُمْ نَبَأًا﴾ (٧) [الكهف]. والسرر جمع سرير، والاتكاء معروف، والأبواب جمع باب وهو معروف، والزخرف الذهب.

قال الزمخشري: إن المعارج التي هي المصاعد، والأبواب والسرر كل ذلك من فضة، كأنه يرى اشتراك المعطوف والمعطوف عليه في ذلك، وعلى هذا المعنى فقوله: «زخرفاً» مفعول، عامله محذوف، والتقدير: وجعلنا لهم مع ذلك زخرفاً.

وقال بعض العلماء: إن جميع ذلك بعضه من فضة، وبعضه من زخرف، أي ذهب. وقد ذكر القرطبي أن إعراب قوله: «وزخرفاً» على هذا القول أنه منصوب بنزع الخافض، وأن المعنى من فضة، ومن زخرف، فحذف حرف الجر فانتصب زخرفاً. وأكثر علماء النحو على أن النصب بنزع الخافض ليس مطرداً ولا قياسياً، وما سمع منه يحفظ ولا يقاس عليه.

وعليه درج ابن مالك في الخلاصة في قوله: وإن حذف فالنصب للمنجر نقلاً. إلخ. وعلي بن سليمان وهو الأخفش الصغير، يرى إطراده في كل شيء أمن فيه اللبس. كما أشار في الكافية بقوله:

وابن سليمان اطراده رأى إن لم يخف لبس كمن زيد نأى
وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؛ على قراءة الجمهور بتخفيف الميم من لما، فإن هي المخففة، من الثقيلة، واللام هي الفارقة بين إن المخففة من الثقيلة، وإن النافية المشار إليها بقوله في الخلاصة:

وخففت إن فقل العمل وتلزم اللام إذا ما تهمل
وما مزيدة للتوكيد، وأما على قراءة عاصم وحمزة وابن عامر في إحدى الروايتين عن هشام «لما» بتشديد الميم فإن نافية، ولما حرف إثبات بمعنى إلا. والمعنى: وما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا.

وذكر بعضهم أن تشديد ميم لما على بعض القراءات في هذه الآية وآية الطارق: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق]، لغة بني هذيل ابن مدركة. والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٦) [الأنعام] لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ (٧) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدُ الْمَرْفِقَيْنِ فَيَنْسُ الْفَرْقَيْنِ (٢٨) ﴿٢٨﴾.

وقد قَدَّمنا الآيات الموضحة له في سورة فضلت، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرْءَانًا﴾... الآية [فصلت: ٢٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَفْعَلَكَمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (٣٩)، قد قَدَّمنا الكلام عليه في الصفات، في الكلام على قوله: ﴿فَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الصفات: ٣٣].

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٤٠). قد قَدَّمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة النمل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْأَعْمَى وَلَا تَسْمِعُ الْأَعْمَى إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠].

قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَسِيكَ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤١).

أمر الله - جلّ وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يتمسك بهدي هذا القرآن العظيم، ويبين له أنه على صراط مستقيم؛ أي طريق واضح، لا اعوجاج فيه، وهو دين الإسلام الذي تضمنه هذا القرآن العظيم الذي أوحى إليه.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، قد جاء موضحاً في آيات أخر، من كتاب الله.

أما أمره بالتمسك بالقرآن العظيم، فقد قَدَّمنا الآيات الموضحة له في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا يُبَدِّلُ لِكَلِمَتِهِ﴾ [الكهف: ٢٧].

وأما إخباره ﷺ بأنه على صراط مستقيم، فمن الآيات التي أوضح ذلك فيها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧٨) [الجاثية]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥١) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَكُن فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ [الشورى: ٥٢، ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٦) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَوِّنَنَّ [المؤمنون]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَنزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَّ هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (٧٩) [النمل] إلى غير ذلك من الآيات.

وآية الزخرف هذه تدل على أن المتمسك بهذا القرآن على هدى من الله، وهذا معلوم بالضرورة.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ مَن أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ (٨٠)، ما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن جميع الرسل جاءوا بإخلاص التوحيد لله، الذي تضمنته كلمة لا إله إلا الله، جاء موضحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوعَاتِ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٨٥) [الأنبياء]، وذلك التوحيد هو أول ما يأمر به كل نبي أمته.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَالَيْكَ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَالَيْكَ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَالَيْكَ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ﴾ ... الآية [الأعراف: ٨٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾. قد قدّمنا الكلام على قصة موسى وفرعون في سورة الأعراف، وسورة طه.

قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، لم يبين هنا نوع العذاب الذي أخذهم به، ولكنه أوضحه في الأعراف، في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالذَّمَ أَيْنِثِ مُفْضَلَتِ﴾ [الأعراف: ١٣٢، ١٣٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِنْ الثَّمَرَاتِ﴾ ... الآية [الأعراف: ١٣٠].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَتَّيَّأُ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ ﴿١٣١﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ ﴿١٣٢﴾، ما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أوضحه في الأعراف، بقوله: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَتُوسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﴿١٣٣﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ ﴿١٣٤﴾ [الأعراف].

والرجز المذكور في الأعراف هو بعينه العذاب المذكور في آية الزخرف هذه.

قوله تعالى عن فرعون: ﴿وَلَا يَكَادُ يَبِيتُ﴾، قد تقدم الكلام عليه في طه، في الكلام على قوله تعالى عن موسى: ﴿وَأَحْلَلْتُ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ ﴿١٧﴾ [طه].

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْرُهُ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَايِكَةُ مُقَرَّرِينَ﴾ ﴿٥٣﴾. قد قدّمنا الكلام عليه في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرٌ﴾ الآية [الفرقان: ٧].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، «آسفونا» معناه أغضبونا، وأسخطونا، وكون المراد بالأسف الغضب، يدل عليه إطلاق الأسف على أشد الغضب في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ [الأعراف: ١٥٠] على أصح التفسيرين.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ ﴿٥٦﴾، قد قدّمنا الكلام عليه في هذه السورة الكريمة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءِإِلَهُنَا حَيٌّ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبْنَاهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ ﴿٥٨﴾.

قرأ هذا الحرف نافع وابن عامر والكسائي (يَصْدُونَ) بضم الصاد.
 وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمة (يَصِدُونَ) بكسر الصاد.
 فعلى قراءة الكسر فمعنى «يصدون» يضحون ويصيحون، وقيل يضحكون، وقيل
 معنى القراءتين واحد. كيعرشون ويعرشون ويعكفون ويعكفون.
 وعلى قراءة الضم فهو من الصدود.
 والفاعل المحذوف في قوله: ﴿ضَرَبَ﴾. قال جمهور المفسرين: هو عبد الله بن
 الزبعرى السهمي قبل إسلامه.

أي ولما ضرب ابن الزبعرى المذكور عيسى ابن مريم مثلاً فاجأك قومك بالضجيج
 والصياح والضحك، فرحاً منهم وزعماً منهم أن ابن الزبعرى خصمك، أو فاجأك
 صدودهم عن الإيمان بسبب ذلك المثل.

والظاهر أن لفظة «من» هنا سببية، ومعلوم أن أهل العربية، يذكرون أن من معاني
 من السببية، ومنه قوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]، أي بسبب
 خطيئاتهم أغرقوا.

ومن ذلك قول الحالفين في أيمان القسامة: أقسم بالله لمن ضربه مات.
 وإيضاح معنى ضرب ابن الزبعرى عيسى مثلاً، أن الله لما أنزل قوله تعالى:
 ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢٥]،
 قال ابن الزبعرى: إن محمداً ﷺ يقول: إن كل معبود من دون الله في النار وأنا
 وأصنامنا جميعاً في النار، وهذا عيسى ابن مريم قد عبده النصارى من دون الله فإن كان
 ابن مريم مع النصارى الذين عبده في النار فقد رضي أن نكون نحن وآلهتنا معه.
 وقالوا مثل ذلك في عزيز والملائكة؛ لأن عزيزاً عبده اليهود، والملائكة عبدهم
 بعض العرب.

فاتضح أن ضربه عيسى مثلاً، يعني أنه على ما يزعم أن محمداً ﷺ قاله، من أن
 كل معبود وعابده في النار، يقتضي أن يكون عيسى مثلاً لأصنامهم، في كون الجميع
 في النار، مع أن النبي ﷺ يشي على عيسى الثناء الجميل، ويبين للناس أنه عبد الله
 ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

فزعم ابن الزبعرى أن كلام النبي ﷺ لما اقتضى مساواة الأصنام مع عيسى في
 دخول النار مع أنه ﷺ يعترف بأن عيسى رسول الله ﷺ وأنه ليس في النار، دل ذلك
 على بطلان كلامه عنده.

وعند ذلك أنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٣١﴾
 لَا يَسْمَعُونَ حَيِّسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٣٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١ - ١٠٣]، وأنزل الله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾.

وعلى هذا القول فمعنى قوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾؛ أي ما ضربوا عيسى مثلاً إلا من أجل الجدل والخصومة بالباطل.

وقيل: «إن جدلاً» حال وإتيان المصدر المنكر حالاً كثير، وقد أوضحنا توجيهه مراراً، والمراد بالجدل هنا الخصومة بالباطل لقصد الغلبة بغير حق.

قال جماعة من العلماء: والدليل على أنهم قصدوا الجدل بشيء يعلمون في أنفسهم أنه باطل، أن الآية التي تذرعوها بها إلى الجدل، لا تدل البتة على ما زعموه، وهم أهل اللسان، ولا تخفى عليهم معاني الكلمات.

والآية المذكورة إنما عبر الله فيها بلفظة «ما» التي هي في الوضع العربي لغير العقلاء لأنه قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، ولم يقل «ومن» تعبدون وذلك صريح في أن المراد الأصنام، وأنه لا يتناول عيسى ولا عزيزاً ولا ملائكة، كما أوضح تعالى أنه لم يرد ذلك بقوله تعالى بعده: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

وإذا كانوا يعلمون من لغتهم أن الآية الكريمة، لم تتناول عيسى بمقتضى لسانهم العربي الذي نزل به القرآن، تحققنا أنهم ما ضربوا عيسى مثلاً، إلا لأجل الجدل، والخصومة بالباطل.

ووجه التعبير في صيغة الجمع في قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾؛ مع أن ضارب المثل واحد وهو ابن الزبعرى يرجع إلى أمرين:

أحدهما: أن من أساليب اللغة العربية إسناد فعل الرجل الواحد من القبيلة إلى جميع القبيلة، ومن أصرح الشواهد العربية في ذلك قوله:

فسيف بني عيس وقد ضربوا به نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد

فإنه نسب الضرب إلى جميع بني عيس مع تصريحه بأن السيف في يد رجل واحد منهم، وهو ورقاء بن زهير، والشاعر يشير بذلك إلى قتل خالد بن جعفر الكلابي لزهير بن جذيمة العبسي، أن ورقاء بن زهير، ضرب بسيف بني عيس، رأس خالد بن جعفر الكلابي، الذي قتل أباه ونبا عنه، أي لم يؤثر في رأسه، فإن معنى: نبا السيف ارتفع عن الضربة ولم يقطع.

والشاعر يهجو بني عيس بذلك، والحروب التي نشأت عن هذه القصة، وقتل الحارث بن ظالم المري لخالد المذكور، كل ذلك معروف في محله.

وثانيهما: أن جميع كفار قريش، صوبوا ضرب ابن الزبعرى عيسى مثلاً، وفرحوا بذلك، ووافقوه عليه، فصاروا كالمتمثلين عليه.

وبهذين الأمرين المذكورين جمع المفسرون بين صيغة الجمع في قوله: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ [الأعراف: ٧٧]. وقوله ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤]، وبين صيغة الأفراد في قوله: ﴿فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ [القمر: ١٦].

وقال بعض العلماء: الفاعل المحذوف في قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾؛ هو عامة قريش.

والذين قالوا: إن كفار قريش لما سمعوا النبي ﷺ يذكر عيسى، وسمعوا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقُوهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]، قالوا للنبي ﷺ: ما تريد بذكر عيسى إلا أن نعبدك كما عبد النصارى عيسى. وعلى هذا فالمعنى أنهم ضربوا عيسى مثلاً للنبي ﷺ في عبادة الناس لكل منهما، زاعمين أنه يريد أن يعبد كما عبد عيسى.

وعلى هذا القول، فمعنى قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾؛ أي ما ضربوا لك هذا المثل إلا لأجل الخصومة بالباطل، مع أنهم يعلمون أنك لا ترضى أن تعبد بوجه من الوجوه. وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهُلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَلَّا تَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾... الآية [آل عمران: ٦٤]. وإن كان من القرآن المدني النازل بعد الهجرة فمعناه يكرره عليهم النبي ﷺ كثيراً قبل الهجرة كما هو معلوم.

وكذلك قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ولا شك أن كفار قريش متيقنون، في جميع المدة التي أقامها ﷺ في مكة قبل الهجرة بعد الرسالة، وهي ثلاث عشرة سنة، أنه لا يدعو إلا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فادعائهم أنه يريد أن يعبدوه، افتراء منهم، وهم يعلمون أنهم مفترون في ذلك. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِلَهُنَّ خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾؟ التحقيق أن الضمير في قوله: ﴿هُوَ﴾ راجع إلى عيسى، لا إلى محمد - عليهما الصلاة والسلام -.

قال بعض العلماء: ومرادهم بالاستفهام تفضيل معبوداتهم على عيسى. قيل: لأنهم يتخذون الملائكة آلهة، والملائكة أفضل عندهم من عيسى. وعلى هذا فمرادهم أن عيسى عبد من دون الله، ولم يكن ذلك سبباً لكونه في النار، ومعبوداتنا خير من عيسى، فكيف تزعم أنهم في النار.

وقال بعض العلماء: أرادوا تفضيل عيسى على آلهتهم، والمعنى على هذا أنهم يقولون: عيسى خير من آلهتنا، أي في زعمك وأنت تزعم أنه في النار، بمقتضى عموم ما تتلوه من قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وعيسى عبده النصارى من دون الله، فدلالة قولك على أن عيسى في النار، مع اعترافك بخلاف ذلك، يدل على أن ما تقوله، من أنا وآلهتنا في النار ليس بحق أيضاً. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾؛ أي لد، مبالغون في الخصومة بالباطل، كما قال تعالى: ﴿وَنَذِرُ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧]، أي شديدي الخصومة.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي الْخَصَّاصُ﴾ [البقرة: ٢٠٤]؛ لأن الفعل بفتح فكسر كخصم، من صيغ المبالغة، كما هو معلوم في محله.

وقد علمت مما ذكرنا أن قوله تعالى هنا: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾، إنما بينته الآيات التي ذكرنا بيان سببه. ومعلوم أن الآية قد يتضح معناها ببيان سببها.

فعلى القول الأول، أنهم ضربوا عيسى مثلاً لأصنامهم، في دخول النار، فإن ذلك المثل يفهم من أن سبب نزول الآية نزول قوله تعالى قبلها: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، لأنها لما نزلت قالوا: إن عيسى عبد من دون الله كآلهتهم فهم بالنسبة لما دلت عليه سواء، وقد علمت بطلان هذا مما ذكرناه آنفاً.

وعلى القول الثاني أنهم ضربوا عيسى مثلاً لمحمد ﷺ في أن عيسى قد عبد، وأنه ﷺ يريد أن يعبد كما عبد عيسى، فكون سبب ذلك سماعهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وسماعهم للآيات المكية النازلة في شأن عيسى يوضح المراد بالمثل.

وأما الآيات التي بينت قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾؛ فبيانها له واضح على كلا القولين، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾، والتحقيق أن الضمير في قوله: «هو» عائد إلى عيسى أيضاً، لا إلى محمد - عليهما الصلاة والسلام -.

وقوله هنا: ﴿عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾؛ لم يبين هنا شيئاً من الإنعام الذي أنعم به على عبده عيسى، ولكنه بين ذلك في المائدة، في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكُرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُخَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيَ إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [المائدة: ١١٠]، وفي آل عمران، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾. إلى قوله ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥ - ٤٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَعِلْمٌ لِّسَاعَةِ فَلَا تَمَرَّتْ بِهَا﴾، التحقيق أن الضمير في قوله: «وإنه» راجع إلى عيسى لا إلى القرآن، ولا إلى النبي ﷺ.

ومعنى قوله: ﴿لَعِلْمٌ لِّسَاعَةِ﴾؛ على القول الحق الصحيح الذي يشهد له القرآن العظيم، والسنة المتواترة، هو أن نزول عيسى في آخر الزمان حياً، علم للساعة أي علامة لقرب مجيئها لأنه من أشراتها الدالة على قربها.

وهناك مسائل تتعلق بنزول عيسى ﷺ آخر الزمان فليرجع من أراد الوقوف عليها إلى الأصل.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَلَا تَمْتَرْتُمْ بِهَا﴾؛ أي لا تشكن في قيام الساعة؛ فإنه لا شك فيه.

وقد قدمنا الآيات الموضحة له مراراً كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الحج: ٧]. وقوله: ﴿وَنُذِرُ يَوْمَ الْبَعْثِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]. وقوله: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧] وقوله ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٢٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [٦٦]. قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة مراراً كقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]. وقوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ آلِيمٍ﴾، قوله هنا: ﴿ظَلَمُوا﴾؛ أي كفروا، بدليل قوله في مريم في القصة بعينها: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧].

وقوله: ﴿مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يوضحه قوله هنا: ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ آلِيمٍ﴾.

وقد قدمنا مراراً الآيات الدالة على إطلاق الظلم على الكفر كقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]. وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]. وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، أي بشرك، كما فسره به النبي ﷺ في الحديث الثابت في صحيح البخاري.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [١١٦].

الاستفهام بهل هنا بمعنى النفي، وينظرون بمعنى ينتظرون، أي ما ينتظر الكفار إلا الساعة، أي القيامة أن تأتيهم بغتة، أي في حال كونها مباغتة لهم، أي مفاجئة لهم، وهم لا يستغفرون؛ أي بمفاجأتها في حال غفلتهم وعدم شعورهم بمجيئها.

والظاهر أن المصدر المنسبك من «أن» وصلتها في قوله: ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ في محل نصب، على أنه بدل اشتمال من الساعة، وكون ينظرون، بمعنى ينتظرون، معروف في كلام العرب، ومنه قول امرئ القيس:

فإنكما إن تنظراني ساعة من الدهر تنفعني لدى أم جندب

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الساعة تأتيهم بغتة، جاء موضحاً في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى في الأعراف: ﴿تَنَقَّلْتَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقوله تعالى في القتال: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ٨١].

وقوله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (٦٨) ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ [يس: ٤٩، ٥٠]، فالمراد بالصيحة: القيامة. وقوله: ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (٦٨) ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ [يس: ٤٩، ٥٠]، يدل على أنها تأتيهم وهم في غفلة، وعدم شعور بآياتها، إلى غير ذلك من الآيات، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَعْبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (٦٩) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (٦٩). ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة بعض صفات الذين ينتفي عنهم الخوف والحزن يوم القيامة. فذكر منها هنا الإيمان بآيات الله والإسلام، وذكر بعضاً منها في غير هذا الموضع.

فمن ذلك الإيمان والتقوى، وذلك في قوله تعالى في سورة يونس: ﴿إِلَّا إِنْ أَوَّلَيْتَ اللَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٠١) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (١٠٢) [يونس].

ومن ذلك الاستقامة، وقولهم: ربنا الله، وذلك في قوله في فصلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا...﴾ الآية [فصلت: ٣٠]: وقوله تعالى في الأحقاف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٢٤) [الأحقاف]، إلى غير ذلك من الآيات.

والخوف في لغة العرب: الغم من أمر مستقبل، والحزن: الغم من أمر ماض. وربما استعمل كل منهما في موضع الآخر.

وإطلاق الخوف على العلم أسلوب عربي معروف.

قال بعض العلماء: ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾. قال معناه: إلا أن يعلموا، ومنه قول أبي محجن الثقفي:

فإن مت فادفني إلى جنب كرمه تروي عظامي في الممات عروقها
ولا تدفني في الفلاة فإنني أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

فقوله أخاف: أي لا أعلم؛ لأنه لا يشك في أنه لا يشربها بعد موته..

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (٦٩)، ظاهره المغايرة بين الإيمان والإسلام.

وقد دل بعض الآيات على اتحادهما كقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٥) ﴿فَمَا وَدَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٢٦) [الذاريات].

ولا منافاة في ذلك، فإن الإيمان يطلق تارة على جميع ما يطلق عليه الإسلام من الاعتقاد والعمل، كما ثبت في الصحيح، في حديث وفد عبد القيس، والأحاديث بمثل ذلك كثيرة جداً.

ومن أصرحها في ذلك قوله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون». وفي بعض الروايات

الثابتة في الصحيح: «وستون شعبة أعلاها شهادة ألا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق»، فقد سمي ﷺ «إمطة الأذى عن الطريق» إيماناً.

وقد أطال البيهقي رحمه الله في شعب الإيمان، في ذكر الأعمال التي جاء الكتاب والسنة بتسميتها إيماناً، فالإيمان الشرعي التام والإسلام الشرعي التام معناهما واحد. وقد يطلق الإيمان إطلاقاً آخر على خصوص ركنه الأكبر الذي هو الإيمان بالقلب، كما في حديث جبريل الثابت في الصحيح.

والقلب مضغة في الجسد إذا ضلحت صلح الجسد كله فغيره تابع له، وعلى هذا تحصل المغايرة في الجملة بين الإيمان والإسلام، فالإيمان، على هذا الإطلاق اعتقاد، والإسلام شامل للعمل.

واعلم: أن مغايرته تعالى بين الإيمان والإسلام في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ نُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

قال بعض العلماء: المراد بالإيمان هنا، معناه الشرعي، والمراد بالإسلام معناه اللغوي؛ لأن إذعان الجوارح وانقيادها دون إيمان القلب إسلام لغة لا شرعاً.

وقال بعض العلماء: المراد بكل منهما معناه الشرعي، ولكن نفي الإيمان في قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ﴾، يراد به عند من قال هذا، نفي كمال الإيمان لا نفي أصله، ولكن ظاهر الآية لا يساعد على هذا؛ لأن قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ﴾ [الحجرات: ١٤]، فعل في سياق النفي وهو صيغة عموم على التحقيق، وإن لم يؤكد بمصدر، ووجهه واضح جداً، كما قدّمناه مراراً.

وهو أن الفعل الصناعي ينحل عن مصدر وزمن عند التحويين، وعن مصدر وزمن ونسبة عند البلاغيين، كما جرّوه في مبحث الاستعارة التبعية، وهو أصوب.

فالمصدر كامن في مفهوم الفعل الصناعي إجماعاً، وهو نكرة لم تتعرف بشيء فيؤول إلى معنى النكرة في سياق النفي.

وقد أشار صاحب (مراقي السعود) إلى أن الفعل في سياق النفي أو الشرط من صيغ العموم بقوله:

ونسحو لا شربت أو وإن شربا واتفقوا إن مصدر قد جلبا.

وجه إهمال «لا» في هذه الآية في قوله تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ﴾ أن لا الثانية التي هي ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] بعدها معرفة وهي الضمير، وهي لا تعمل في المعارف، بل في النكرات، فلما وجب إهمال الثانية، أهملت الأولى لينسجم الحرفان بعضهما مع بعض في إهمالهما معاً.

قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ ﴿٧٠﴾.

قوله تعالى في هذه الآية ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾؛ فيه لعلماء التفسير وجهان:

أحدهما: أن المراد بأزواجهم، نظرائهم وأشباههم في الطاعة وتقوى الله. واقتصر على هذا القول ابن كثير.

وثانيهما: أن المراد بأزواجهم، نساؤهم في الجنة؛ لأن هذا الأخير أبلغ في التنعم والتلذذ من الأول؛ ولذا يكثر في القرآن، ذكر إكرام أهل الجنة بكونهم مع نسائهم دون الامتنان عليهم بكونهم مع نظرائهم وأشباههم في الطاعة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس].

وقال كثير من أهل العلم: إن المراد بالشغل المذكور في الآية، هو افتضاض الأبقار. وقال تعالى: ﴿وَوُجِّعَتْهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِ الْأَكَوْنِ ﴿٢٣﴾﴾ [الواقعة]. وقال تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرٌ حَسَنًا ﴿٧٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٦﴾﴾ [الرحمن]، وقال: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٨١﴾﴾ [الصافات]. وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَرْأَبٌ ﴿٥٦﴾﴾ [ص]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا أن مفرد الأزواج زوج بلا هاء، وأن الزوجة بالتاء لغة لا لحن، خلافاً لمن زعم أن الزوجة لحن من لحن الفقهاء، وأن ذلك لا أصل له في اللغة. والحق أن ذلك لغة عربية، ومنه قول الفرزدق:

وإن الذي يسعى ليفسد زوجتي كساع إلى أسد الشرى يستبيلها
وقول الحماسي:

فبكى بناتي شجوهن وزوجتي والظاعنون إليّ ثم تصدع

وفي صحيح مسلم من حديث أنس أن النبي ﷺ قال في صفة: «إنها زوجتي».

وقوله: ﴿تُحْبَرُونَ﴾؛ أقوال العلماء فيه راجعة إلى شيء واحد، وهو أنهم يكرمون بأعظم أنواع الإكرام وأتمها.

قوله تعالى: ﴿يَطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له، وجميع الآيات التي فيها الإنعام على أهل الجنة بأواني الذهب والفضة، والتحلي بهما، ولبس الحرير، ومنه السندس والإستبرق، في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسَتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلَّةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: ١٤].

قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن كل ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، أي تلتذ به الأعين أي برويته لحسنه، كما قال تعالى: ﴿صَفَرَاءُ فَاغِقَ لَوْنُهَا تُسَرُّ الْبَقَرُ﴾ [البقرة: ٦٩]. وأسند اللذة إلى العين، وهي في الحقيقة مسندة لصاحب

العين، كإسناد الكذب والخطيئة إلى الناصية، وهي مقدم شعر الرأس في قوله تعالى: ﴿نَاصِيَةٌ كَذِبَةٌ خَاطِئَةٌ﴾ [العلق]، وإسناد الخشوع، والعمل والنصب، إلى الوجوه، في قوله تعالى: ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ﴾ [٢١] عَامِلَةٌ نَاصِيَةٌ﴾ [٢٢] ... الآية [الغاشية].

ومعلوم أن الكذب والخطيئة مسندان في الحقيقة لصاحب الناصية، كما أن الخشوع والعمل والنصب مسندات إلى أصحاب الوجوه.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الجنة فيها كل أمشتهى، وكل مستلذ، جاء مبسوطاً موضحة أنواعه في آيات كثيرة من كتاب الله، وجاء مجملاً أيضاً إجمالاً شاملاً لكل شيء من النعيم.

أما إجمال ذلك ففي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٧١] [السجدة: ١٧].

وأما بسط ذلك وتفصيله، فقد بين القرآن أن من ذلك النعيم المذكور في الآية، المشارب، والمآكل، والمناكح، والفرش، والسرر، والأواني، وأنواع الحلي والملابس والخدم إلى غير ذلك، وسنذكر بعض الآيات الدالة على كل شيء من ذلك.

أما المآكل فقد قال تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [٧٢]، وقال: ﴿وَلَهُنَّ فِيهَا مِمَّا يُشْتَبَوْنَ﴾ [٧٣] [الواقعة]. وقال تعالى: ﴿وَفِيهَا كَثِيرٌ مِّن مِّمَّنْ تُكْرَهُ﴾ [٧٤] [الواقعة]. وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ ... الآية [البقرة: ٢٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

أما المشارب فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْتَرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [٥] عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [٦] [الإنسان]. وقال تعالى: ﴿وَيُشَقَّقُونَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَجْجِيلًا﴾ [٧] عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ [٨] ... الآية [الإنسان]، وقوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [٩] بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ﴾ [١٠] لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ﴾ [١١] [الواقعة]. وقال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ﴾ [١٢] بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ [١٣] لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُزْفُونَ﴾ [١٤] [الصفات]: وقال تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّيْنٍ لَّدَى طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن حَمَرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَيٍّ وَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [محمد: ١٥]. وقال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [١٦] [الحاقة]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الملابس والأواني والحلي، فقد قدّمنا الكلام عليها مستوفى في سورة النحل.

وأما المناكح فقد قدّمنا بعض الآيات الدالة عليها قريباً، وهي كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥]. ويكفي ما قدّمنا من ذلك قريباً.

وأما ما يتكثرون عليه من الفرش والسرر ونحو ذلك، ففي آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِن إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]. وقوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّلٍ

عَلَى الْأَرْيَافِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ [يسر]. وقوله تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿٥٧﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَلِّبِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الواقعة]. والسرر الموضونة هي المنسوجة بقضبان الذهب.

وقوله تعالى: ﴿إِخْرَجْنَا عَلَى سُرُرٍ مُنْقَلِبِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]. وقوله تعالى: ﴿سُرُرٌ مَّرْثُومَةٌ﴾ [الغاشية: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرَ وَعَبَقْرِي حِسَانٍ﴾ [الرحمن] إلى غير ذلك من الآيات.

وأما خدمهم فقد قال تعالى في ذلك: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الواقعة]. وقال تعالى في سورة الإنسان، في صفة هؤلاء الغلمان: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنُورًا﴾ [الإنسان: ١٩]، وذكر نعيم أهل الجنة بأبلغ صيغة في قوله تعالى: ﴿وَلَاذًا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ فِيمَا كُنْتُمْ كَيَرًا ﴿٦٠﴾﴾ [الإنسان].

والآيات الدالة على أنواع نعيم الجنة وحسنها وكمالها كالظلال والعيون والأنهار وغير ذلك كثيرة جداً ولنكتف منها بما ذكرنا.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة؛ لأنّ خلودهم المذكور لا انقطاع له البتة كقوله تعالى: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ يُجْدُوزُ﴾ [هود: ١٠٨]، أي غير مقطوع، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرْفَعًا مَّا لَمْ يَنْفَادِ ﴿٦١﴾﴾ [ص]. وقوله تعالى: ﴿مَّا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْجَنَّةُ الَّتِي أَوْصِيَتْكُمْ بِهَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

قد قدمنا الكلام على هذه الآية الكريمة، ونحوها من الآيات الدالة على أنّ العمل سبب لدخول الجنة كقوله تعالى: ﴿وَتُودُّونَ أَنْ تُلْجُمُوا الْجَنَّةَ أَوْصِيَتْكُمْ بِهَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم]. وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [السجد].

وبيّنا أقرب أوجه الجمع بين هذه الآيات الكريمة وما بمعناها، مع قوله ﷺ: «لن يدخل أحدكم عمله الجنة قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

وذكرنا في ذلك أن العمل الذي بينت الآيات كونه سبب دخول الجنة هو العمل الذي تقبله الله برحمة منه وفضل: وأن العمل الذي لا يدخل الجنة هو الذي لم يقبله الله، والله يقول: ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَا يَمُوكُ لِيَقْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ﴿٦٥﴾﴾. اللام في قوله ﴿لِيَقْضَ﴾؛ لام الدعاء، والظاهر أن المعنى أن مرادهم بذلك سؤال مالك خازن النار، أن يدعو الله لهم بالموت، والدليل على ذلك أمران:

الأول: أنهم لو أرادوا دعاء الله بأنفسهم أن يميتهم لما نادوا: يا مالك، ولما خاطبوه في قولهم: (ربك).

والثاني: أن الله بيّن في سورة المؤمن، أن أهل النار يطلبون من خزنة النار أن يدعوا الله لهم ليخفف عنهم العذاب، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ۖ﴾ [غافر]. وقوله: ﴿لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي ليمتنا فنستريح بالموت من العذاب.

ونظيره قوله تعالى: ﴿فَوَكِّزْهُمُومِي فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]، أي أماته.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ تَمُوتُونَ﴾؛ دليل على أنهم لا يجابون إلى الموت، بل يمكثون في النار معذبين إلى غير نهاية.

وقد دل القرآن العظيم على أنهم لا يموتون فيها فيستريحوا بالموت، ولا تنفى هي عنهم، ولا يخفف عنهم عذابها، ولا يخرجون منها.

أما كونهم لا يموتون فيها الذي دل عليه قوله هنا: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ تَمُوتُونَ﴾؛ فقد دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُم مِّن يَّاتٍ رَبِّهِمْ يُخْرِجُونَ فَإِنَّ لَهُم جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يُحْيَىٰ ۖ﴾ [طه]. وقوله تعالى: ﴿وَبَنَجَّيْنَاهُ الْآسَفَىٰ ۖ﴾ [الذي يَصِلُ النَّارَ الْكُبْرَىٰ ۖ] ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يُحْيَىٰ ۖ﴾ [الأعلى]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ [فاطر: ٣٦]. وقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمُسْمِتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧].

وأما كون النار لا تنفى عنهم، فقد بينه تعالى بقوله: ﴿كُلَّمَا حَتَّ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، فمن يدعي أن للنار خبوة نهائية وفناء رد عليه بهذه الآية الكريمة.

وأما كون العذاب لا يخفف عنهم فقد دلت عليه آيات كثيرة جداً كقوله: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]. وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [النحل: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿لَنْ نَّرِيدَ لَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠]. وقوله تعالى: ﴿لَا يُفَقَّرُ عَنْهُمْ﴾ ... الآية. وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥] وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧] على الأصح في الأخيرين.

وأما كونهم لا يخرجون؛ منها فقد جاء موضحاً في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى في البقرة: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]. وقوله تعالى في المائدة: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقيمٌ﴾ [المائدة]. وقوله تعالى في الحج: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ ... الآية [الحج: ٢٢]. وقوله تعالى في السجدة: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]، وقوله تعالى في الجاثية: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد أوضحنا هذا المبحث إيضاحاً شافياً في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوٍ لَّكُمْ خَالِدِينَ

فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴿١٢٨﴾ [الأنعام: ١٢٨]، وفي سورة النبأ في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَيْتِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [النبأ]، وسنوضحه أيضاً - إن شاء الله - في هذا الكتاب المبارك في الكلام على آية النبأ المذكورة، ونوضح هناك - إن شاء الله - إزالة إشكال يورده الملاحظون على الآيات التي فيها إيضاح هذا المبحث. قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

قد قَدَّمْنَا الآيات الموضحة له في سورة الشورى، في الكلام على قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾. قد قَدَّمْنَا الآيات الموضحة له في هذه السورة الكريمة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿سَتَكُنُّ شُهَدَائِهِمْ وَيُسْأَلُونَ﴾، وأكثرنا من الآيات الموضحة لذلك في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَتَكُنُّ مَا يَقُولُ﴾... الآية [مريم: ٧٩].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ ﴿٨١﴾. اختلف العلماء في معنى ﴿إِنْ﴾ في هذه الآية.

فقال جماعة من أهل العلم: إنها شرطية، واختاره غير واحد، ومن اختاره ابن جرير الطبري، والذين قالوا إنها شرطية اختلفوا في المراد بقوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾.

فقال بعضهم: فأنا أول العابدين لذلك الولد.

وقال بعضهم: فأنا أول العابدين لله على فرض أن له ولداً.

وقال بعضهم: فأنا أول العابدين لله جازمين بأنه لا يمكن أن يكون له ولد.

وقالت جماعة آخرون: إن لفظة ﴿إِنْ﴾ في الآية نافية. والمعنى: ما كان لله ولد، وعلى القول بأنها نافية ففي معنى قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ ثلاثة أوجه:

الأول: وهو أقربها أن المعنى ما كان لله ولد فأنا أول العابدين لله، المنزهين له عن الولد، وعن كل ما لا يليق بكماله، وجلاله.

والثاني: أن معنى قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾؛ أي الأنفين المستنكفين من ذلك يعني القول الباطل المفترى على ربنا الذي هو ادعاء الولد له. والعرب تقول: عبد بكسر الباء يعبد بفتحها فهو عبد بفتح فكسر على القياس، وعابد أيضاً سماعاً، إذا اشتدت أنفثه واستنكفه وغضبه، ومنه قول الفرزدق:

أولئك قومي إن هجوني هجوتهم وأعبد أن أهجو كليبا بدارم

فقوله: وأعبد، يعني أنف وأستنكف. ومنه أيضاً قول الآخر:

متى ما يشأ ذو الود يصرم خليله ويعبد عليه لا محالة ظالماً

وفي قصة عثمان بن عفان رضي الله عنه المشهورة أنه جيء بامرأة من جهينة تزوجت،

فولدت لسته أشهر، فبعث بها عثمان لترجم، اعتقاداً منه أنها كانت حاملاً قبل العقد لولادتها قبل تسعة أشهر، فقال له علي رضي الله عنه: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾﴾** [الأحقاف: ١٥]. ويقول - جلّ وعلا -: **﴿وَفَصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾** [لقمان: ١٤]، فلم يبق عن الفصل من المدة إلا ستة أشهر.

فما عبد عثمان رضي الله عنه أن بعث إليها، لترد ولا ترجم.

ومحل الشاهد من القصة، فوالله: (ما عبد عثمان) أي ما أنف ولا استنكف من الرجوع إلى الحق.

الوجه الثالث: أن المعنى **﴿فَأَنَّا أَوَّلَ الْآمِنِينَ﴾**؛ أي الجاحدين النافين أن يكون لله ولد، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً. قال مقيد عفا الله عنه وغفر له: الذي يظهر لي في معنى هذه الآية الكريمة أنه يتعين المصير إلى القول بأن إن نافية، وأن القول بكونها شرطية لا يمكن أن يصح له معنى بحسب وضع اللغة العربية التي نزل بها القرآن وإن قال به جماعة من إجلاء العلماء.

وهناك مسائل عزز بها الشيخ رأيه يرجع من آراء الوقوف عليها إلى الأصل..

قوله تعالى: **﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾** (٨٢).

قد قدّمنا معنى لفظة سبحان، وما تدل عليه من تنزيه الله عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، وإعراب لفظة سبحان مع بعض الشواهد العربية في أول سورة بني إسرائيل.

ولما قال تعالى: **﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ...﴾** الآية. نزه نفسه تنزيهاً تاماً عما يصفونه به من نسبة الولد إليه مبيناً أن رب السماوات والأرض، ورب العرش، جدير بالتنزيه عن الولد، وعن كل ما لا يليق بكماله وجلاله.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أنه لما ذكر وصف الكفار له بما لا يليق به، نزه نفسه عن ذلك، معلماً خلقه في كتابه أن ينزهوه عن كل ما لا يليق به، جاء مثله موضعاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: **﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾**. إلى قوله تعالى: **﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾** (٩١) **﴿عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** (٩٢) [المؤمنون]. وقوله تعالى: **﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾** (٩٤) **﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾** (٩٥) [الإسراء]. وقوله تعالى: **﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾** (٩٦) [الأنبياء]. وقوله تعالى: **﴿سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾** [النساء: ١٧١]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: **﴿نَذَرَهُمْ مُخْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾** (٩٧).

قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: **﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾** ... الآية.

- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ .
- قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ . . . الآية [الأنعام: ٣].
- قوله تعالى: ﴿وَعِنْدُهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ . قد بينا الآيات الموضحة في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعِنْدُهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الآية [الأنعام: ٥٩].
- وفي الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْفِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وفي غير ذلك من المواضع.
- قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ﴾ . . . الآية.
- قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةً﴾ . . . الآية [البقرة: ٤٨]. وفي غير ذلك من المواضع.
- قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٨٧).
- قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة، في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].
- قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٨).
- قرأ هذا الحرف نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، والكسائي (وقيله) بفتح اللام وضم الهاء، وقرأه عاصم وحزمة: ﴿وَقِيلَ لَهُ﴾ بكسر اللام والهاء.
- قال بعض العلماء: إعرابه بأنه عطف محل على الساعة؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَعِنْدُهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾؛ مصدر مضاف إلى مفعوله.
- لفظ الساعة مجرور لفظاً بالإضافة، منصوب محلاً بالمفعولية، وما كان كذلك جاز في تابعه النصب نظراً إلى المحل، والخفض نظراً إلى اللفظ، كما قال في الخلاصة:
- وجر ما يتبع ما جر ومن راعى في الاتباع المحل فحسن وقال في نظيره في الوصف:
- واخفض أو نصب تابع الذي انخفض كمبتغي جاء وماً من نهض وقال بعضهم: هو معطوف على (سره).
- وعليه فالمعنى: أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم، وقيله يا رب، الآية.
- وقال بعضهم: هو منصوب على أنه مفعول مطلق.
- أي، وقال: «قيله» وهو بمعنى قوله إلا أن القاف لما كسرت، أبدلت الواو ياء لمجانسة الكسرة، قالوا: ونظير هذا الإعراب قول كعب بن زهير:
- تمشي الوشاة جنابيهما وقيلهم إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول

أي ويقولون: قيلهم..

وقال بعضهم: هو منصوب بـ يعلم محذوفة؛ لأن العطف الذي ذكرنا على قوله: سرهم، والعطف على الساعة يقال فيه إنه يقتضي الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يصلح لكونه اعتراضاً، وتقدير الناصب إذا ذل المقام عليه لا إشكال فيه، كما قال في الخلاصة:

ويحذف الناصبها إن علما وقد يكون حذفه ملتزمًا

وأما على قراءة الخفض، فهو معطوف على الساعة، أي وعنده علم الساعة، وعلم قيله يا رب.

واختار الزمخشري أنه مخفوض بالقسم، ولا يخفى بعده كما نبه عليه أبو حيان.

والتحقيق أن الضمير في قيله للنبي ﷺ.

والدليل على ذلك أن قوله بعد: ﴿فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ خطاب له ﷺ بلا نزاع، فادعاء أن الضمير في قيله لعيسى، لا دليل عليه ولا وجه له.

وملأ تضمينته هذه الآية الكريمة، من شكواه ﷺ إلى ربه عدم إيمان قومه، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنِّي قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان]، وذكر مثله عن موسى في قوله تعالى في الدخان: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَتَّوِّلَةٌ لَّهُمْ أَن يَغِيْرَ قَوْمِي﴾ [الدخان]، وعن نوح في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَبًّا وَلَئِنِّي أَخَافُ أَن يُكَلِّمُنِي رُسُلُهُمْ فَيَقُولُوا هَذَا نَجْوَاهُ عَلَيْنَا﴾ [نوح]، إلى آخر الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [٨٩]. قرأ هذا الحرف ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحزمة، والكسائي: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩] بياء الغيبة. وقرأ نافع وابن عامر: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ بقاء الخطاب، وهذه الآية الكريمة تضمنت، ثلاثة أمور:

الأول: أمره ﷺ بالصفح عن الكفار.

والثاني: أن يقول لهم سلام.

والثالث: تهديد الكفار، بأنهم سيعلمون حقيقة الأمر وصحة ما يوعد به الكافر من عذاب النار.

وهذه الأمور الثلاثة جاءت موضحة في غير هذا الموضع: كقوله تعالى في الأول: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَأَصْفَحْ فَأَصْفَحْ الْجَمِيلُ﴾ [الحجر: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٨].

والصفح: الإعراض عن المؤاخاة بالذنب، قال بعضهم: وهو أبلغ من العفو.

قالوا: لأن الصفح أصله مشتق من صفحة العنق، فكأنه يولي المذنب بصفحة عنقه معرضاً عن عتابه فما فوقه.

وأما الأمر الثاني، فقد بين تعالى أنه هو شأن عباده الطيبين.
ومعلوم أنه ﷺ سيدهم كما قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي الْجَهْلِينَ﴾ [القصص]. وقال عن إبراهيم إنه قال له أبوه: ﴿لَيْنَ لَمَ تَنَزَّ لِلْأَرْحَمَكِ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] قال له: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم: ٤٧].

ومعنى السلام في الآيات المذكورة، إخبارهم بسلامة الكفار من أذاهم، ومن مجازاتهم لهم بالسوء، أي سلمتم منا لا نسافهكم، ولا نعاملكم بمثل ما تعاملونا.
وأما الأمر الثالث الذي هو تهديد الكفار بأنهم سيعلمون الحقيقة، قد جاء موضحاً في آيات كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ بَنَاتُ بَعْدَ جِيئِ﴾ [ص]. وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَفَرٍّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام]. وقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [٢] ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ [١] [التكاثر]. وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [٤] كَلَّا سَيَعْلَمُونَ [٥] [النبا: ٤، ٥]. وقوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [١] ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ [٧] [التكاثر]، إلى غير ذلك من الآيات.
وكثير من أهل العلم يقول: إن قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾، وما في معناه منسوخ بآيات السيف، وجماعات من المحققين يقولون هو ليس بمنسوخ.
والقتال في المحل الذي يجب فيه القتال، والصفح عن الجهلة والإعراض عنهم وصف كريم، وأدب سماوي، لا يتعارض مع ذلك، والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الدخان

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾.

أبهم تعالى هذه الليلة المباركة هنا، ولكنه بين أنها هي ليلة القدر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [١] [القدر: ١]، وبين كونها ﴿مُبَرَّكَةً﴾ المذكورة هنا في قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [٢] [القدر]، إلى آخر السورة.
فقوله: ﴿فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾؛ أي كثيرة البركات والخيرات. ولا شك أن ليلة هي خير من ألف شهر، إلى آخر الصفات التي وصفت بها في سورة القدر، كثيرة البركات والخيرات جداً.

وقد بين تعالى أن هذه الليلة المباركة هي ليلة القدر، التي أنزل فيها القرآن من شهر رمضان، في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فدعوى أنها ليلة النصف من شعبان كما روي عن عكرمة وغيره، لا شك في أنها دعوى باطلة لمخالفتها لنص القرآن الصريح، ولا شك كل ما خالف الحق فهو باطل. والأحاديث التي يوردها بعضهم في أنها من شعبان المخالفة لصريح القرآن لا أساس لها، ولا يصح سند شيء منها، كما جزم به ابن العربي وغير واحد من المحققين. فالعجب كل العجب من مسلم يخالف نص القرآن الصريح، بلا مستند كتاب ولا سنة صحيحة.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾.

معنى قوله: يفرق؛ أي يفصل ويبين، ويكتب في الليلة المباركة التي هي ليلة القدر، كل أمر حكيم، أي ذي حكمة بالغة؛ لأن كل ما يفعله الله، مشتمل على أنواع الحكم الباهرة. وقال بعضهم: حكيم، أي محكم، لا تغيير فيه، ولا تبديل. وكلا الأمرين حق؛ لأن ما سبق في علم الله لا يتغير ولا يتبدل؛ ولأن جميع أفعاله في غاية الحكمة؛ وهي في الاصطلاح وضع الأمور في مواضعها وإيقاعها في مواقعها. وإيضاح معنى الآية أن الله - تبارك وتعالى - في كل ليلة قدر من السنة يبين للملائكة ويكتب لهم، بالتفصيل والإيضاح، جميع ما يقع في تلك السنة، إلى ليلة القدر من السنة الجديدة.

فتبين في ذلك الآجال والأرزاق والفقر والغنى، والخصب والجذب والصحة والمرض، والحروب والزلازل، وجميع ما يقع في تلك السنة كائناً ما كان. قال الزمخشري في الكشاف: ومعنى يفرق: يفصل ويكتب كل أمر حكيم من أرزاق العباد وآجالهم، وجميع أمورهم فيها إلى الأخرى القابلة، إلى أن قال: فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخة الحروب إلى جبرائيل، وكذلك الزلازل، والصواعق والخسف، ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم، ونسخة المصائب إلى ملك الموت. اهـ محل الغرض منه بلفظه.

ومرادنا بيان معنى الآية، لا التزام صحة دفع النسخ المذكورة للملائكة المذكورين؛ لأننا لم نعلم له مستنداً.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، يدل أيضاً على أن الليلة المباركة هي ليلة القدر فهو بيان قرآني آخر.

وإيضاح ذلك أن معنى قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝﴾ [القدر]، أي في ليلة التقدير لجميع أمور السنة، من رزق وموت، وحياة وولادة، ومرض وصحة، وخصب وجذب، وغير ذلك من جميع أمور السنة.

قال بعضهم: حتى إن الرجل لينكح ويتصرف في أموره ويولد له، وقد خرج اسمه في الموتى في تلك السنة.

وعلى هذا التفسير الصحيح ليلية القدر، فالتقدير المذكور هو بعينه المراد بقوله: ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝﴾.

وقد قدمنا في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلَنَ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]؛ أن قدر بفتح الدال مخففاً يقدر ويقدر بالكسر والضم كيضرب وينصر قدراً بمعنى قدر تقديرًا، وأن ثعلباً أنشد لذلك قول الشاعر:

فليست عشيات الحمى برواجع لنا أبداً ما أورك السلم النضر
ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى تباركت ما تقدر يقع ولك الشكر

وبيّننا هناك، أن ذلك هو معنى ليلة القدر؛ لأن الله يقدر فيها وقائع السنة.

وبيّننا أن ذلك هو معنى قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝﴾؛ وأوضحنا هناك أن القدر بفتح الدال والقدر بسكونها هما ما يقدره الله من قضائه؛ ومنه قول هذبة بن الخشرم:

ألا يا لقومي للنوائب والقدر وللأمر يأتي المرء من حيث لا يدرى

واعلم: أن قول من قال: إنما سميت ليلة القدر لعظمها وشرفها على غيرها من الليالي من قولهم: فلان ذو قدر؛ أي ذو شرف ومكانة رفيعة، لا ينافي القول الأول لاتصافها بالأميرين معاً، وصحة وصفها بكل منهما كما أوضحنا مثله مراراً.

واختلف العلماء في إعراب قوله: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا﴾، قال بعضهم: هو مصدر منكر في موضع الحال؛ أي أنزلناه في حال كوننا أمرين به. ومن قال بهذا الأخفش.

وقال بعضهم: هو ما ناب عن المطلق من قوله: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ وجعل ﴿أَمْرًا﴾ بمعنى: إنزالاً. ومن قال به المبرد.

وقال بعضهم هو ما ناب عن المطلق من يفرق، فجعل ﴿أَمْرًا﴾ بمعنى فرقا أو فرق بمعنى أمراً. ومن قال بهذا الفراء والزجاج.

وقال بعضهم هو حال من «أمر»؛ أي ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝﴾؛ في حال كونه أمراً من عندنا، وهذا الوجه جيد ظاهر، وإنما ساغ إتيان الحال من النكرة وهي متأخرة عنها لأن النكرة التي هي «أمر» وصفت بقوله: ﴿حَكِيمٍ﴾ كما لا يخفى.

وقال بعضهم: ﴿أَمْرًا﴾ مفعول به لقوله: ﴿مُنْذِرِينَ﴾ وقيل غير ذلك.

واختار الزمخشري أنه منصوب بالاختصاص، فقال: جعل كل أمر جزلاً فخماً بأن وصفه بالحكيم ثم زاده جزالة وأكسبه فخامة بأن قال: أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا، كائناً من لدنا، وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا. وهذا الوجه أيضاً ممكن، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له

في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ ... الآية [الكهف: ٦٥]. وفي سورة فاطر في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ الآية [فاطر: ٢].

قوله تعالى: ﴿يُمْ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾. هذا الذي أدعوه على النبي ﷺ افتراء، من أنه معلم، يعنون أن هذا القرآن علمه إياه بشر، وأنه ﷺ مجنون، قد بينا الآيات الموضحة لإبطاله.

أما دعواهم أنه معلم فقد قدمنا الآيات الدالة على تلك الدعوى في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَمَلَّكُم أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، وفي سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا فُكٌّ أَفْتَرِيهِ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ﴾. إلى قوله: ﴿فَبِهِ تَمَثَّلَ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٤ - ٥].

وبينا الآيات الموضحة لافتراءهم وتعتهم في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبِي وَهَذَا لِسَانٌ عَكِثٌ مُّثِيتٌ﴾ [النحل: ١٠٣]. وفي الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَهُ ظُلُمَاتُ وَرُودًا﴾ ﷻ وَقَالُوا اسْتَطِيرُ الْأُولَى أَكْتَبَهَا﴾ ... الآية [الفرقان: ٤، ٥].

وأما دعواهم أنه مجنون، فقد قدمنا الآيات الموضحة لها. وإبطالها في سورة قد أفلح المؤمنون، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ ... الآية [المؤمنون: ٧٠].

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ ﷻ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ، الرسول الكريم هو موسى، والآيات الدالة على أن موسى هو الذي أرسل لفرعون وقومه كثيرة ومعروفة.

وقوله: ﴿أَدُّوا إِلَيَّ﴾ أي سلموا إلي عباد الله يعني بني إسرائيل، وأرسلوهم معي.

فقوله: ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ مفعول به لقوله: ﴿أَدُّوا﴾.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن موسى طلب فرعون أن يسلم له بني إسرائيل ويرسلهم معه جاء موضحاً في آيات آخر، مصرح فيها بأن عباد الله هم بنو إسرائيل كقوله تعالى في طه: ﴿فَأَنبَأَهُ فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِِبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧]، وقوله تعالى في الشعراء: ﴿فَأَنبَأَ فِرْعَوْنَ فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﷻ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﷻ ... الآية [الشعراء].

والتحقيق أن أن في قوله: ﴿أَنْ أَدُّوا﴾ هي المفسرة؛ لأن مجيء الرسول يتضمن معنى القول لا المخففة من الثقل، وأن قوله: ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ مفعول به كما ذكرنا وكما أوضحته آية طه وآية الشعراء لا منادى مضاف.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي عَذْتُ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ ... الآية.

قد قدمنا الكلام عليه في سورة المؤمن، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر].

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [٢٨]. لم يبين هنا من هؤلاء القوم الذين أورثهم ما ذكره هنا، ولكنه بين في سورة الشعراء أنهم بنو إسرائيل وذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء]، كما تقدم في الترجمة، وفي الأعراف.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [٢٩] من فرعون إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ [٣٠]. ما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أنه نجى بني إسرائيل من العذاب المهين الذي كان يعذبهم به فرعون وقومه، جاء موضحاً في آيات أخر، مصرح فيها بأنواع العذاب المذكور، كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ بَعَثْنَا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة]. إلى قوله: ﴿وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٤٩ - ٥٠]. وقوله في الأعراف: ﴿وَإِذْ أَبْحَنَّاكُمْ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقُولُونَ أَبْنَاءَكُمُ﴾ ... الآية [الأعراف: ١٤١]. وقوله تعالى في المؤمن: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ الآية [غافر: ٢٥]. وقوله تعالى في إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَبْعَدَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ ... الآية [إبراهيم: ٦]. وقوله في الشعراء: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَنْهَا عَلَى أَنْ عُدَّتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء]. فتعيده إياهم من أنواع عذابه لهم، إلى غير ذلك من الآيات.

وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن فرعون كان علياً من المسرفين، أوضحه أيضاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في يونس: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣]. وقوله تعالى في أول القصص: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يذِيبُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ [٣١]. قد قدمنا الآيات الموضحة في سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩].

وقد تركنا إحالات متعددة بينا فيها بعض آيات سورة الدخان هذه خشية الإطالة بكثرة الإحالة.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [٣٢]. قد قدمنا الآيات الموضحة في سورة مريم، في الكلام على قوله: ﴿فَلَمَّا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ الآية [مريم: ٩٧].

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الجاثية

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ وفي خلقكم وما يبث من دابّ ءآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَآخَا بِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ ءآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾. ذكر - جلّ وعلا -، في هذه الآيات الكريمة من أول سورة الجاثية ستة براهين من براهين التوحيد الدالة على عظمته وجلاله، وكمال قدرته، وأنه المستحق للعبادة وحده تعالى.

الأول منها: خلقه السماوات والأرض. الثاني: خلقه الناس. الثالث: خلقه الدواب. الرابع: اختلاف الليل والنهار. الخامس: إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به. السادس: تصريف الرياح.

وذكر أن هذه الآيات والبراهين، إنما ينتفع بها المؤمنون، الموقنون الذين يعقلون عن الله حججه، وآياته، فكأنهم هم المختصون بها دون غيرهم؛ ولذا قال: ﴿لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم قال: ﴿ءآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، ثم قال: ﴿ءآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وهذه البراهين الستة المذكورة في أول هذه السورة الكريمة، جاءت موضحة في آيات كثيرة جداً كما هو معلوم.

أما الأول منها وهو خلقه السماوات والأرض المذكور في قوله: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾؛ فقد جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَبَّيْنَاهَا وَمَا هِيَ مِنْ فُجُوعٍ ۝٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۝٨﴾ [ق]. وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۝٩﴾ الآية [سبأ: ٩]. وقوله: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١١﴾ [يونس]. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝١٨٥﴾ [الأعراف: ١٨٥]. وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝٢٢﴾ [الروم: ٢٢]. وقوله: ﴿أَلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ۝٢٢﴾ الآية [البقرة: ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ۝٦٤﴾ [غافر: ٦٤]. وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَبْدُوءُ ۝٨﴾ [الذاريات: ٨]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ۝٦﴾ - إلى قوله - ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝٧﴾ [النبا]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً معروفة.

وأما الثاني منها: وهو خلقه الناس المذكور في قوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾، فقد جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم]. وقوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ عِبْدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ... الآية [البقرة: ٢١]. وقوله تعالى عن نبيه نوح: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح]، وقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصَرِّفُونَ﴾ [الزمر: ٦] وقوله: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات]، والآيات بمثل ذلك كثيرة ومعلومة.

وأما الثالث منها: وهو خلقه الدواب المذكور في قوله: ﴿وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ﴾؛ فقد جاء أيضاً موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى في سورة الشورى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى]. وقوله تعالى في البقرة: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَآتِيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ ... الآية [البقرة: ١٦٤]. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ قَمِيصًا أَرَأَيْتُمْ أَزْوَاجَ﴾ [الزمر: ٦]، والآيات بمثل ذلك كثيرة، معلومة.

وأما الرابع منها: وهو اختلاف الليل والنهار المذكور في قوله: ﴿وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ [البقرة: ١٦٣]. فقد جاء موضحاً أيضاً في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى في البقرة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾. إلى قوله: ﴿لَا تَسْتَوِي أَعْيُنُهُمْ فِي الْبَصَرِ﴾ [البقرة: ١٦٤]. وقوله تعالى في آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ أَلْبَسَ﴾ [آل عمران]. وقوله تعالى في فصلت: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ ... الآية [فصلت: ٣٧]. وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّهُ لَهْمُ اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمُ مُظْلِمُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]. الآية [يس: ٣٧، ٣٨]. وقوله تعالى: ﴿يَقُلِ اللَّهُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِقَوْمٍ أَلْبَسَ﴾ [النور]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [النور: ٦١]. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ فَلَيْلٌ تَنَسُّوْنَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [النور: ٦٢]. وَمِنْ وَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الفصr: ٦٣]. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٥]. والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وأما الخامس منها: وهو إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به وإنبات الرزق فيها المذكور في قوله: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مِنْ زَرْقٍ فَآتَا بِهَا الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ فقد جاء

موضحاً أيضاً في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى في البقرة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَنْجَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾. إلى قوله: ﴿لَا يَذَرِي لِقَوْمٍ يُفْقِرُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ﴿١٦٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿١٦٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿١٦٦﴾ فَأَنْبَأْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿١٦٧﴾ وَعَبَا ﴿١٦٨﴾. إلى قوله: ﴿مَتَّعْنَا لَكُمْ وَلِأَعْمِلِكُمْ﴾ ﴿١٦٩﴾ [عبس].

وإيضاح هذا البرهان باختصار أن قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ﴿١٦٤﴾؛ أمر من الله تعالى لكل إنسان مكلف أن ينظر ويتأمل في طعامه كالخبز الذي يأكله، ويعيش به من خلق الماء الذي كان سبباً لنباته، هل يقدر أحد غير الله أن يخلقه؟ الجواب: لا. ثم هب أن الماء قد خلق بالفعل، هل يقدر أحد غير الله أن ينزله إلى الأرض، على هذا الوجه الذي يحصل به النفع، من غير ضرر بإنزاله على الأرض رشاً صغيراً، حتى تروى به الأرض تدريجياً، من غير أن يحصل به هدم ولا غرق، كما قال تعالى: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾؟ الجواب: لا.

ثم هب أن الماء قد خلق فعلاً، وأنزل في الأرض، على ذلك الوجه الأتم الأكمل، هل يقدر أحد غير الله أن يشق الأرض، ويخرج منها مسمار النبات؟ الجواب: لا.

ثم هب أن النبات خرج من الأرض وانشقت عنه، فهل يقدر أحد غير الله أن يخرج السنبل من ذلك النبات؟ الجواب: لا.

ثم هب أن السنبل خرج من النبات، فهل يقدر أحد غير الله أن ينمي حبه وينقله من طور إلى طور حتى يدرك ويكون صالحاً للغذاء والقوت؟ الجواب: لا.

وقد قال تعالى: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَالًا﴾ ﴿١٦٦﴾ لَنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٦٧﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦٨﴾. [النبا]. وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّهُمْ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ ﴿١٦٩﴾ [يس]، والآيات يمثل ذلك كثيرة معلومة.

واعلم: أن إطلاقه تعالى الرزق على الماء، في آية الجاثية هذه، قد أوضحنا وجهه في سورة المؤمن في الكلام على قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ ... الآية [غافر: ١٣].

وأما السادس منها: وهو تصريف الرياح المذكور في قوله: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾؛ فقد جاء موضحاً أيضاً في آيات من كتاب الله كقوله في البقرة: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسْفَرِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَذَرِي لِقَوْمٍ يُفْقِرُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيْحَ بُشِيرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيْحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢] إلى غير ذلك من الآيات.

تنبيه: اعلم: أن هذه البراهين العظيمة المذكورة في أول سورة الجاثية هذه، ثلاثة منها من براهين البعث، التي يكثر في القرآن العظيم الاستدلال بها على البعث، كثرة مستفيضة.

وقد أوضحناها في مواضع من هذا الكتاب المبارك في سورة البقرة، وسورة النحل، وغيرهما، وأحلنا عليها مراراً كثيرة في هذا الكتاب المبارك، وسنعيد طرفاً منها هنا لأهميتها - إن شاء الله تعالى -.

والأول من البراهين المذكورة هو خلق السماوات والأرض المذكور هنا في سورة الجاثية هذه ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١)؛ لأن خلقه - جل وعلا - للسماوات والأرض، من أعظم البراهين على بعث الناس بعد الموت؛ لأن من خلق الأعظم الأكبر، لا شك في قدرته على خلق الأضعف الأصغر.

والآيات الدالة على هذا كثيرة كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، أي ومن قدر على خلق الأكبر فلا شك أنه قادر على خلق الأصغر، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨١) [يس]. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لَهُمْ بَدِيلًا عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٣) [الأحزاب]. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ...﴾ الآية [الإسراء: ٩٩]. وقوله تعالى: ﴿مَنْ مَتَّعْنَاهُ مِنْ بَيْنِنَا أَشَدَّ خَلْقًا مِمَّنْ فَتَضَلَّ أَعْيُنُهُمْ﴾ (٧) ﴿رَفَعْنَا سَنَكُمَا فَسُورَكُمَا﴾ (٨) ﴿وَأَغْطَشْنَا لَيْلَهَا وَأَخْرَجْنَا صُنْحَهَا﴾ (٩) ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (١٠) ﴿أَخْرَجْنَا مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرَعَهَا﴾ (١١) ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَلْنَا﴾ (١٢) ﴿مِنَافَا لَكُمْ وَلَافْتِكُمْ﴾ (١٣) [النازعات].

ونظير آية النازعات هذه قوله تعالى في أول الصافات: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدَّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا...﴾ الآية [الصافات: ١١]، لأن قوله: ﴿أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ [الصافات: ١١] يشير به إلى خلق السماوات والأرض، وما ذكر معهما المذكور في قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ (٥)، إلى قوله: ﴿فَأَتَّبِعُهُمْ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٥ - ١٠].

وأما الثاني من البراهين المذكورة: فهو خلقه تعالى للناس المرة الأولى؛ لأن من ابتدع خلقهم على غير مثال سابق، لا شك في قدرته على إعادة خلقهم مرة أخرى كما لا يخفى.

والاستدلال بهذا البرهان على البعث كثير جداً في كتاب الله كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تَرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، إلى آخر الآيات، وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِزُّ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٩) [يس]. وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ أَوَدَا مَا مِثْلُ سَوْفٍ أَخْرِجْ حَيًّا﴾ (١١) أولاً يذكُرُ الْإِنْسَانَ أَنَا خَلَقْتُهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم: ٦٦ - ٦٨]. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ

وما ذكره - جلّ وعلا - في آية الجاثية هذه، ذكره في آيات آخر بلفظه كقوله تعالى في البقرة: ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٥٦﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة]. وقوله تعالى في آل عمران: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أُتِفَتُوا بِجُوهِهِمْ فَبِمَا رَحِمَهُ اللَّهُ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [آل عمران]. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿تِلْكَ﴾ بمعنى هذه.

ومن أساليب اللغة العربية إطلاق الإشارة إلى البعيد على الإشارة إلى القريب كقوله: ﴿ذَلِكَ أَلْكِتَبُ﴾ [البقرة: ٢]، بمعنى هذا الكتاب، كما حكاه البخاري عن أبي عبيدة معمر بن المثنى، ومن شواهد قول خفاف بن نذبة السلمي:

فإن تك خيلي قد أصيب صميمها فعمداً على عيني تيممت مالكا
أقول له والرمح ياطر منه تأمل خفافاً إنني أنا ذالكا
يعني أنا هذا.

وقد أوضحنا هذا المبحث وذكرنا أوجهه في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في أول سورة البقرة.

وقوله تعالى: ﴿تَتْلُوهَا﴾ أي نقرؤها عليك، وأسند - جلّ وعلا - تلاوتها إلى نفسه لأنها كلامه الذي أنزله على رسوله بواسطة الملك، وأمر الملك أن يتلوه عليه مبلغاً عنه - جلّ وعلا -.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [١١] إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ [١٢] فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَحْهُ وَقُرْآنَهُ [١٣] ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ [١٤] [القيامة].

فقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ﴾، أي قرأه عليك الملك المرسل به من قبلنا مبلغاً عنا، وسمعت منه ﴿فَأَنبَحْهُ قُرْآنَهُ﴾؛ أي فاتبع قراءته وقرأه كما سمعته يقرؤه.

وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤].

وسمعه ﷺ القرآن من الملك المبلغ عن الله كلام الله وفهمه له هو معنى تنزله إياه على قلبه في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]. وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٩٢] نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ [٩٣] عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ [٩٤] بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ [٩٥] وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ يعني آياته الشرعية الدينية.

واعلم: أن لفظ الآية يطلق في اللغة العربية إطلاقين، وفي القرآن العظيم إطلاقين أيضاً، أما إطلاقه في اللغة العربية:

فالأول منهما: وهو المشهور في كلام العرب، فهو إطلاق الآية بمعنى العلامة، وهذا مستفيض في كلام العرب، ومنه قول نابغة ذبيان:

تنوهمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع
ثم بين أن مراده بالآيات علامات الدار في قوله بعده:

رماد ككحل العين لأياً أبينه ونؤي كجذم الحوض أثلم خاشع
وأما الثاني منهما: فهو إطلاق الآية بمعنى الجماعة، يقولون: جاء القوم بأيّهم أي بجماعتهم، ومنه قول برج بن مسهر:

خرجنا من النقبين لا حي مثلنا بأيّتنا نزجي اللقاح المطافلا
وقوله: بأيّتنا، يعني بجماعتنا، وأما إطلاقه في القرآن العظيم:

فالأول منهما: إطلاق الآية على الشرعية الدينية كآيات هذا القرآن العظيم، ومنه قوله هنا: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾... الآية.

وأما الثاني منهما: فهو إطلاق الآية على الآية الكونية القدريّة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران].

أما الآية الكونية القدريّة فهي بمعنى الآية اللغوية التي هي العلامة؛ لأن الآيات الكونية علامات قاطعة، على أن خالقها هو الرب المعبود وحده.

وأما الآية الشرعية الدينية، فقال بعض العلماء: إنها أيضاً من الآية التي هي العلامة؛ لأن آيات هذا القرآن العظيم، علامات على صدق من جاء بها، لما تضمنته من برهان الإعجاز، أو لأنّ فيها علامات يعرف بها مبدأ الآيات ومنتهاها.

وقال بعض العلماء: إنها من الآية بمعنى الجماعة، لتضمنها جملة وجماعة من كلمات القرآن وحروفه.

واختار غير واحد أنّ أصل الآية آية بفتح الهمزة وفتح الياءين بعدها، فاجتمع في الياءين موجبا لإعلال؛ لأن كلا منهما متحركة حركة أصلية بعد فتح متصل، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

من واو أو ياء بتحرك أصل ألفاً أبداً بعد فتح متصل
إن حرك التالي... إلخ.

والمعروف في علم التصريف أنّه إن اجتمع موجبا إعلال في كلمة واحدة فالأكثر في اللغة العربية تصحيح الأول منهما، وإعلال الثاني بإبدالها ألفاً كالهوى والنوى والطوى والشوى، وربما صحح الثاني وأعل الأول كغاية، وراية، وآية على الأصح، من أقوال عديدة، ومعلوم أن إعلالهما لا يصح، ولهذا أشار في الخلاصة بقوله:

وإن لحرفين ذا الإعلال استحق صحح أول وعكس قد يحق

قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَأَيْنِيهِ يُؤْمِنُونَ ٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةً بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٨﴾. ما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن من كفر بالله وبآيات الله ولم يؤمن بذلك مع ظهور الأدلة والبراهين على لزوم الإيمان بالله وآياته، أنه يستبعد أن يؤمن بشيء آخر؛ لأنه لو كان يؤمن بحديث لآمن بالله وبآياته لظهور الأدلة على ذلك، وأن من لم يؤمن بآيات الله متوعد بالويل، وأنه أفَّاك أثيم.

والأفَّاك: كثير الإفك وهو أسوأ الكذب، والأثيم: هو مرتكب الإثم بقلبه وجوارحه، فهو مجرم بقلبه ولسانه وجوارحه، قد ذكره تعالى في غير هذا الموضع فتوعد المكذبين لهذا القرآن، بالويل يوم القيامة، وبين استبعاد إيمانهم بأي حديث بعد أن لم يؤمنوا بهذا القرآن، وذلك بقوله في آخر المرسلات: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأُخَّرُكُمْ وَقَالُوا أَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْبُدُوهُ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُهْوَتْ بِهَا الْأَنْفُسُ أَفَرَأَوْكُمْ ٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ٤٩﴾ فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ ٥٠﴾ [المرسلات]. فقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ٥١﴾ [المرسلات] كقوله هنا: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ٧﴾.

وقد كرر تعالى وعيد المكذبين بالويل في سورة المرسلات كما هو معلوم، وقوله في آخر المرسلات: ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ ٥٠﴾ [المرسلات: ٥٠]. كقوله هنا في الجاثية: ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَأَيْنِيهِ يُؤْمِنُونَ ٦﴾.

ومعلوم أنّ الإيمان بالله على الوجه الصحيح، يستلزم الإيمان بآياته، وأن الإيمان بآياته كذلك يستلزم الإيمان به تعالى، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةً بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٨﴾؛ يدل على أن من يسمع القرآن يتلى ثم يصصر على الكفر والمعاصي في حالة كونه متكبراً عن الانقياد إلى الحق الذي تضمنته آيات القرآن، كأنه لم يسمع آيات الله، له البشارة يوم القيامة بالعذاب الأليم وهو الخلود في النار، وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في لقمان: ﴿وَإِذَا تُنَلَّى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِيرَةً بِعَذَابٍ ٧﴾. وقوله تعالى في الحج: ﴿وَإِذَا تُنَلَّى عَلَيْهِمُ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونُ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمُ ءَايَاتُنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُمُّونٌ ٦١﴾ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٦٢﴾ كَفَرُوا وَعَدَّاهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّوْا الْمَصِيرَ ٦٣﴾ [الحج]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْمَعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَفَأَنْتُمْ أَكْبَرُ ٦٤﴾ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٦٥﴾ وَابْعَثُوا أَهْلَ هَاؤُلَاءِ هُمْ ٦٦﴾ [محمد]، فقوله تعالى عنهم: ﴿مَاذَا قَالَ أَفَأَنْتُمْ أَكْبَرُ ٦٤﴾ يدل على أنهم ما كانوا يبالون بما يتلو عليهم النبي ﷺ من الآيات والهدى.

وقد ذكرنا كثيراً من الآيات المتعلقة بهذا المبحث في سورة فصلت، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَاعْرِضْ أَكْثَرَهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤١﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيْءِ ءَاذَانِنَا وَقَدْ وُفِّرَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حَبَابٌ ٤٢﴾ ... الآية [فصلت: ٤، ٥].

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾؛ خففت فيه لفظة (كأن)، ومعلوم أن (كأن) إذا خففت كان اسمها مقدراً وهو ضمير الشأن، والجملة خبرها كما قال في الخلاصة:

وخففت كأن أيضاً فنوى منصوبها وثابتاً أيضاً روى

وقد قدّمنا في أول سورة الكهف: أن البشارة تطلق غالباً على الإخبار بما يسر، وأنها ربما أطلقت في القرآن وفي كلام العرب على الإخبار بما يسوء أيضاً. وأوضحنا ذلك بشواهد العربية.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَلَّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۖ﴾. قال بعض العلماء: ﴿وَيَلَّ﴾ واد في جهنم.

والأظهر أن لفظة ﴿وَيَلَّ﴾ كلمة عذاب وهلاك، وأنها مصدر لا لفظ له من فعله، وأن المسوخ للابتداء بها مع أنها نكرة كونها في معرض الدعاء عليهم بالهلاك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَءَاتِيهِ يُؤْمِنُونَ﴾، قرأه نافع، وابن كثير، وأبو عمرو وحفص، عن عاصم: «يؤمنون» بياء الغيبة، وقرأه ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وشعبة عن عاصم: «تؤمنون» بئاء الخطاب، وقرأه ورش عن نافع والسوسي عن أبي عمرو: «يؤمنون» بإبدال الهمزة واواً وصلاً ووقفاً، وقرأه حمزة بإبدال الهمزة واواً في الوقف دون الوصل، والباقون بتحقيق الهمزة مطلقاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۖ﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة توعده الأفلاك الأثيم بالويل، والبشارة بالعذاب الأليم.

وقد قدّمنا قريباً أنّ من صفاته، أنّه إذا سمع آيات الله تتلى عليه أصر مستكبراً كأن لم يسمعها، وذكر في هذه الآية الكريمة أنه إذا علم من آيات الله شيئاً اتخذها هزواً أي مهزواً بها، مستخفاً بها، ثم توعده على ذلك بالعذاب المهين.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الكفار يتخذون آيات الله هزواً، وأنهم سيعذبون على ذلك يوم القيامة، قد بيّنه تعالى في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في آخر الكهف: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا ءَايَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ۖ﴾ [الكهف: ٢٦]. وقوله تعالى في الكهف أيضاً: ﴿وَيَجْدِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا ءَايَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَهُ...﴾ الآية [الكهف: ٥٧]. وقوله تعالى في سورة الجاثية هذه: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمَا نَسْفًا لِّقَاءِ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَا يُنَكِّرُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّصِيرِينَ ۖ﴾ [٢١] ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ تَخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ۖ.

قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير حمزة وحفص عن عاصم: «هزواً» بضم الزاي بعدها همزة محققة، وقرأه حفص عن عاصم بضم الزاي وإبدال الهمزة واواً، وقرأه حمزة: «هزءاً» بسكون الزاي بعدها همزة محققة في حالة الوصل.

إبراهيم: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ ... الآية [الشعراء].
 وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى﴾ الآية [سبا: ٣٧]. وقوله
 تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ
 النَّارِ﴾ (آل عمران). وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا
 أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (آل عمران). وقوله تعالى
 في المجادلة: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (١٦) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ
 أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ... الآية [المجادلة: ١٦، ١٧].

والآيات بمثل هذا كثيرة جداً، وقد قدمنا كثيراً منها في مواضع متعددة من هذا
 الكتاب المبارك.

وأما الثانية منهما: وهي كونهم لا تنفعهم المعبودات التي اتخذوها أولياء من
 دون الله، فقد أوضحها تعالى في آيات كثيرة، كقوله تعالى في هود: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ
 وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ
 وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ (هود). وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ
 قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ وَذَلِكُمْ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (الأحقاف). وقوله
 تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ (٦)
 [القصص]: وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ
 وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ (٥١) [الكهف]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا
 يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ (٥) وإذا خِشِيَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ...
 الآية [الأحقاف: ٥، ٦]. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رِزْقُكُمْ لَهُ الْمَلَائِكَةُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ
 مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ﴾ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا
 لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (٤) [فاطر]. وقوله تعالى:
 ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا
 ﴿٨٢﴾ [مريم]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَمَنَّ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا
 لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (١٥) [العنكبوت].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾، الأولياء:
 جمع ولي.

والمراد بالأولياء هنا، المعبودات التي يوالونها بالعبادة من دون الله، و(ما) في قوله:
 ﴿مَا كَسَبُوا؟﴾ «مَا اتَّخَذُوا» موصولة وهي في محل رفع في الموضعين؛ لأن (ما) الأولى
 فاعل (يغني)؟ (وما) الثانية معطوفة عليها. وزيادة لا قبل المعطوف على منفي معروفة.
 وقوله: ﴿وَلَا يَغْنَى﴾ أي لا ينفع. والظاهر أن أصله من الغناء - بالفتح والمد - وهو النفع.

ومنه قول الشاعر:

وقلّ غناء عنك مال جمعته إذا صار ميراثاً وواراك لاحد

فقوله: قل غناء؛ أي قل نفعاً. وقول الآخر:

قل الغناء إذا لاقى الفتى تلفاً قول الأحبة لا تبعد وقد بعدا

فقوله: الغناء؛ أي النفع.

والبيت من شواهد إعمال المصدر المعرف بالألف واللام؛ لأن قوله: قول الأحبة، فاعل قوله الغناء، وأما الغناء بالكسر والمد فهو الألحان المطربة.

وأما الغنى بالكسر والقصر فهو ضد الفقر.

وأما الغنى بالفتح والقصر فهو الإقامة، من قولهم غني بالمكان بكسر النون يغني بفتحها غنى بفتحتين إذا أقام به.

ومنه قوله تعالى: ﴿كَانَ لَمْ تَفَكْ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿كَانَ لَمْ يَفْنَوْا فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٢]، كأنهم لم يقيموا فيها.

وأما الغنى بالضم والقصر فهو جمع غنية وهي ما يستغنى به الإنسان.

وأما الغناء بالمد والضم فلا أعلمه في العربية.

وهذه اللغات التي ذكرنا في مادة غنى كنت تلقيتها في أول شبابي في درس من دروس الفقه لقنيها شيخني الكبير أحمد الأفرم بن محمد المختار الجكني، وذكر لي بيتي رجز في ذلك لبعض أفاضل علماء القطر وهما قوله:

وضد فقر كإلى وكسحاب النفع والمطرب أيضاً ككتاب

وكفتى إقامة وكهنا جمع لغنية لما به الغنى

قوله تعالى: ﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

الإشارة في قوله: ﴿هَذَا هُدًى﴾، راجعة للقرآن العظيم المعبر عنه بآيات الله في

قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾. وقوله: ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ﴾... الآية. وقوله: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا﴾.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن هذا القرآن هدى، وأن من كفر بآياته له

العذاب الأليم، جاء موضعاً في غير هذا الموضع.

أما كون القرآن هدى، فقد ذكره تعالى في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ

بِكُتُبٍ فَصَلَّنَاهُ عَلَىٰ هُدًى وَرَحْمَةٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧]. وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا

عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. وقوله

تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ

الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقوله: ﴿لَمْ يَكُنْ لَكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وأما كون من كفر بالقرآن يحصل له بسبب ذلك العذاب الأليم، فقد جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِّنَ الْأَحْزَابِ فَآلْتَارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ الآية [هود: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [٩٩] مَن أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ [١٠٠] خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾ [١٠١] [طه]. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ مِّمَّا كَفَرُوا وَتَأْخُذُوا ءَايَتِيَ وَرُسُلِي هَرَوًا﴾ [الكهف: ١٠٦]، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة.

وقد قدمنا في سورة فصلت، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا تُمُوذُ فَهَدَيْنَهُمْ﴾ [فصلت: ١٧]، وغير ذلك من المواضع أن الهدى يطلق في القرآن إطلاقاً عاماً، بمعنى أن الهدى هو البيان والإرشاد وإيضاح الحق كقوله: ﴿وَأَمَّا تُمُوذُ فَهَدَيْنَهُمْ﴾ [فصلت: ١٧]، أي بينا لهم الحق وأوضحناه وأرشدناهم إليه وإن لم يتبعوه، وكقوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقوله هنا: ﴿هَذَا هُدًى﴾ وأنه يطلق أيضاً في القرآن بمعناه الخاص وهو التفضل بالتوفيق إلى طريق الحق والاصطفاء كقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]. وقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]. وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ أَفْئِدَةً﴾ [الأنعام: ٩٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد أوضحنا في سورة فصلت، أن معرفة إطلاق الهدى المذكورين، يزول بها الإشكال الواقع في آيات من كتاب الله.

والهدي مصدر هذاه على غير قياس، وهو هنا من جنس النعت بالمصدر، وبيننا فيما مضى مراراً أن تنزيل المصدر منزلة الوصف؛ إما على حذف مضاف، وإما على المبالغة. وعلى الأول فالمعنى: هذا القرآن ذو هدى أي يحصل بسببه الهدى لمن اتبعه كقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. وعلى الثاني فالمعنى: أن المراد المبالغة في اتصاف القرآن بالهدى حتى أطلق عليه أنه هو نفس الهدى.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ﴾، أصح القولين فيه أن المراد بالرجز: العذاب، ولا تكرار في الآية؛ لأن العذاب أنواع متفاوتة والمعنى: لهم عذاب من جنس العذاب الأليم، والأليم معناه المؤلم؛ أي الموصوف بشدة الألم وفظاعته. والتحقيق - إن شاء الله - أن العرب تطلق الفعيل وصفاً بمعنى المفعول، فما يذكر عن الأصمعي من أنه أنكر ذلك إن صح عنه فهو غلط منه؛ لأن إطلاق الفعيل بمعنى المفعول معروف في القرآن العظيم وفي كلام العرب، ومن إطلاقه في القرآن العظيم قوله تعالى: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠]، أي مؤلم، وقوله تعالى: ﴿يَبِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧]، أي مبدعهما، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ﴾ الآية [سبا: ٤٦]؛ أي منذر لكم.

ونظير ذلك من كلام العرب قول عمرو بن معد يكرب:

أمن ريحانة الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هجوع
فقوله الداعي السميع؛ يعني الداعي المسمع، وقوله أيضاً:

وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيع
أي موجع. وقول غيلان بن عقبة:

ويرفع من صدور شمردلات يصك وجوهاها وهج أليم
أي مؤلم.

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن كثير وحفص عن عاصم: «من رجز أليم» بخفض أليم على أنه نعت لرجز.

وقرأه ابن كثير وحفص عن عاصم «من رجز أليم»، برفع أليم على أنه نعت لعذاب.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلْيَسْجُدُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧). قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾... الآية [النحل: ١٤]، وفي سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كُنَّا لَكُمْ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٣].

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَلَعَلَّهَا﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ الآية [الإسراء: ٧]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه فضل بني إسرائيل على العالمين.

وذكر هذا المعنى في موضع آخر من كتابه كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَلَيْ فَضَلَّتْكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة]، في الموضعين، وقوله في الدخان: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان]، وقوله في الأعراف: ﴿قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ آبَئِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف].

ولكن الله - جلّ وعلا - بين أن أمة محمد ﷺ، خير من بني إسرائيل وأكرم على الله، كما صرح بذلك في قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾... الآية [آل عمران: ١١٠]، ف«خير» صيغة تفضيل، والآية نص صريح في أنهم خير من جميع الأمم، بني إسرائيل وغيرهم.

ومما يزيد ذلك إيضاحاً حديث معاوية بن حيدة القشيري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال

في أمته: «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله»: وقد رواه عنه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم، وهو حديث مشهور.

وقال ابن كثير: حسنه الترمذي، ويروى من حديث معاذ بن جبل وأبي سعيد نحوه.

قال مقيله - عفا الله عنه وغفر له -: ولا شك في صحة معنى حديث معاوية بن حيدة المذكور ﷺ؛ لأنه يشهد له النص المعصوم المتواتر في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقد قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقوله: ﴿وَسَطًا﴾ أي خياراً عدولاً.

واعلم: أن ما ذكرنا من كون أمة محمد ﷺ أفضل من بني إسرائيل كما دلت عليه الآية والحديث المذكوران وغيرهما من الأدلة، لا يعارض الآيات المذكورات آنفاً في تفضيل بني إسرائيل؛ لأن ذلك التفضيل الوارد في بني إسرائيل ذكر فيهم حال عدم وجود أمة محمد ﷺ. والمعدوم في حال عدمه ليس بشيء حتى يفضل أو يفضل عليه.

ولكنه تعالى بعد وجود أمة محمد ﷺ صرح بأنها خير الأمم، وهذا واضح؛ لأن كل ما جاء في القرآن من تفضيل بني إسرائيل، إنما يراد به ذكر أحوال سابقة؛ لأنهم في وقت نزول القرآن كفروا به وكذبوا كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

ومعلوم أن الله لم يذكر لهم في القرآن فضلاً إلا ما يراد به أنه كان في زمنهم السابق، لا في وقت نزول القرآن.

ومعلوم أن أمة محمد ﷺ لم تكن موجودة في ذلك الزمن السابق الذي هو ظرف تفضيل بني إسرائيل، وأنها بعد وجودها، صرح الله بأنها خير الأمم، كما أوضحنا. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ قد قدمنا الآيات الموضحة في سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمِيعْ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، نهى الله - جلّ وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون.

وقد قدمنا في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخَذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]، أنه - جلّ وعلا - يأمر نبيه محمداً ﷺ وينهاه، ليشرع بذلك الأمر والنهي لأمته كقوله هنا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ومعلوم أنه ﷺ لا يتبع أهواء الذين لا يعلمون، ولكن النهي المذكور فيه التشريع لأمته، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمْ إِثْمًا أَوْ كُفْرًا﴾ [الإنسان: ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَطْعَمِ الْمُكَدِّبِينَ﴾ [القلم]، وقوله: ﴿وَلَا تَطْعَمْ كُلَّ حَلَالٍ مِّمَّيْنِ﴾ [القلم]. وقوله: ﴿وَلَا

تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴿الإسراء: ٣٩﴾. وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْطَبَنَّ عَلَيْكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقد بينا الأدلة القرآنية على أنه ﷺ يخاطب، والمراد به التشريع لأُمَّته في آية بني إسرائيل المذكورة.

وما تضمنته آية الجاثية هذه، من النهي عَنِ اتباع أهوائهم جاء موضحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى في الشورى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ [الشورى: ١٥]. وقوله تعالى في الأنعام: ﴿إِنْ شِهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠]. وقوله تعالى في القصص: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقد بين تعالى في ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ١؛ أَنَّ الحق لو اتبع أهواءهم لفسد العالم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

والأهواء: جمع هوى بفتحتين وأصله مصدر، والهمزة فيه مبدلة من ياء كما هو معلوم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾. قد قدّمنا في هذا الكتاب المبارك مراراً أَنَّ الظلم في لغة العرب أصله وضع الشيء في غير موضعه، وأن أعظم أنواعه الشرك بالله؛ لأن وضع العبادة في غير من خلق ورزق؛ هو أشنع أنواع وضع الشيء في غير موضعه.

ولذا كثر في القرآن العظيم، إطلاق الظلم بمعنى الشرك، كقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٦]. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَعْصِي الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٧]. وقوله تعالى عن لقمان: ﴿يَبْنَى لَا شَرِكَ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقد ثبت في صحيح البخاري أَنَّ النبي ﷺ فسر قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، «بأن معناه ولم يلبسوا إيمانهم بشرك».

وما تضمنته آية الجاثية هذه من أن الظالمين بعضهم أولياء بعض جاء مذكوراً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في آخر الأنفال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]. وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّنُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٦]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا

أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ التُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴿البقرة: ٢٥٧﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية [الأعراف: ٣٠]. وقوله تعالى: ﴿فَقَتَلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيَاطِينِ﴾ ... الآية [النساء: ٧٦]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَا سُلُطَنُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَكُمْ﴾ الآية [النمل: ١٠٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه ولي المتقين، وهم الذين يمثلون أمره ويجتنبون نهيه.

وذكر في موضع آخر أن المتقين أولياؤه؛ فهو وليهم وبالرحمة والجزاء، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس].

ثم بين المراد بأوليائه في قوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس]، فقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾؛ كقوله في آية الجاثية هذه ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقد بين تعالى في آيات من كتابه أنه ولي المؤمنين، وأنهم أولياؤه كقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ... الآية [المائدة: ٥٥]. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ... الآية [محمد: ١١]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦]. وقوله تعالى في الملائكة: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ الآية [سبأ: ٤١]. إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه بأبسط من هذا.

قوله تعالى: ﴿هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [٢٠]. الإشارة في قوله: ﴿هَذَا﴾ للقرآن العظيم. والبصائر جمع بصيرة؛ والمراد بها البرهان القاطع الذي لا يترك في الحق لبساً كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، أي على علم ودليل واضح.

والمعنى: أن هذا القرآن براهين قاطعة، وأدلة ساطعة، على أن الله هو المعبود وحده، وأن ما جاء به محمد ﷺ حق.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن القرآن بصائر للناس جاء موضحاً في مواضع آخر من كتاب الله كقوله تعالى في أخريات الأعراف: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، وقوله تعالى في الأنعام: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ﴾ [الأنعام: ١١٧].

وما تضمنته آية الجاثية من أن القرآن بصائر وهدى ورحمة، ذكر تعالى مثله في سورة القصص عن كتاب موسى الذي هو التوراة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].

وما تضمنته آية الجاثية هذه من كون القرآن هدى ورحمة جاء موضحاً في غير هذا الموضوع، أما كونه هدى فقد ذكرنا الآيات الموضحة له قريباً.

وأما كونه رحمة فقد ذكرنا الآيات الموضحة له في الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الكهف: ٦٥]، وفي أولها في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ إِلَى الدِّينِ أُنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابُ﴾ [الكهف: ١]. وفي فاطر في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢]. وفي الزخرف في الكلام على قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ ... الآية [الزخرف: ٣٢]. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَقَوْمٍ يُوقِتُونَ﴾، أي لأنهم هم المتفعلون به. وفي هذه الآية الكريمة سؤال عربي معروف.

وهو أن المبتدأ الذي هو قوله: ﴿هَذَا﴾ اسم إشارة إلى مذكر مفرد، والخبر الذي هو «بصائر» جمع مكسر مؤنث.

فيقال: كيف يسند الجمع المؤنث المكسر إلى المفرد المذكور؟

والجواب أن مجموع القرآن كتاب واحد، تصح الإشارة إليه بهذا، وهذا الكتاب الواحد يشتمل على براهين كثيرة، فصح إسناد البصائر إليه لاشتماله عليها كما لا يخفى.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. قد قدمنا الكلام عليه في سورة (ص)، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ١٨].

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوًى﴾. قد أوضحنا معناه في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوًى أَفَأَنَّتْ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَحَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشًوَةً﴾. قد أوضحنا معناه في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشًوَةً﴾ [البقرة: ٧].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ ما تضمنته هذه الآية الكريمة من إنكار الكفار للبعث بعد الموت، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى عنهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان]. وقوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنَّكُمْ تُخْرَجُونَ﴾ [٣٥] هَيَّاتْ هَيَّاتْ لِمَا تُوعَدُونَ [٣٦] إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ [٣٧] [المؤمنون]. وقوله تعالى عنهم: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٤]. وقوله تعالى عنهم: ﴿وَأَنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ [١٥] إِذَا كُنَّا عِظْمًا خِجْرَةً [١٦] قَالُوا يَلَكُ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ [١٧] [النازعات]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ يُغِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقد قدّمنا البراهين القاطعة القرآنية، على تكذيبهم في إنكارهم البعث، وبيننا دلائلها على أن البعث واقع لا محالة، في سورة البقرة، وسورة النحل، وسورة الحج، وأول سورة الجاثية هذه، وأحلنا على ذلك مراراً.

وبيننا في سورة الفرقان، الآيات الموضحة أن إنكار البعث كفر بالله، والآيات التي فيها وعيد منكري البعث بالنار في الكلام على قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝﴾ [الفرقان].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُخْسِرُ الْمُبِطُونَ﴾، قد قدّمنا الكلام عليه في سورة المؤمن، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُجِئَ الْمُفَوِّقُ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبِطُونَ﴾ [غافر: ٧٨].

قوله تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ دُعِيَ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾. قد قدّمنا إيضاحه في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩].
قوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُطْلَقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝﴾.

قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة مريم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ۝﴾ [مريم]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكَ كَمَا نَسِفْنَا لَقَاءَ يَوْمِكَ هَذَا﴾، قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة طه، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ۝﴾ [طه].

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾، قد أوضحنا معنى قوله: ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثَمَّ لَا يُوْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝﴾ [النحل].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾، قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنَادَا بِمَلِكِكَ لِيَقْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُومُونَ ۝﴾ [الزخرف].

قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْمَلَكُوتُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾.

أتبع الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، حمده - جلّ وعلا - بوصفه بأنه رب السماوات والأرض ورب العالمين، وفي ذلك دلالة على أن رب السماوات والأرض، ورب العالمين مستحق لكل حمد ولكل ثناء جميل.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات آخر كقوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ [الفاتحة]. وقوله تعالى في آخر الزمر: ﴿وَقُضِيَ

بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾. وقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام]. وقوله تعالى في أول الأنعام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]. وقوله تعالى في أول سبأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾ [سبأ]، وقوله في أول فاطر: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾... الآية [فاطر: ١].

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾، ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن له الكبرياء في السماوات والأرض، يعني أنه المختص بالعظمة، والكمال والجلال والسلطان، في السماوات والأرض؛ لأنه هو معبود أهل السماوات والأرض، الذي يلزمهم تكبيره وتعظيمه، وتمجيده، والخضوع والذل له.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكَ سَمَوَاتٍ وَلَا أَرْضٍ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الزخرف: ٨٤، ٨٥].

فقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤]، معناه أنه هو وحده الذي يعظم ويعبد في السماوات والأرض ويكبر ويخضع له ويدل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]. فقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، معناه أن له الوصف الأكمل، الذي هو أعظم الأوصاف، وأكملها وأجلها في السماوات والأرض.

وفي حديث أبي هريرة وأبي سعيد عن النبي ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: الْعِظْمَةُ إِزَارِي وَالْكِبَرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَازَعَنِي فِي وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَسَكَّنْتَهُ نَارِي».



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأحقاف

قوله تعالى: ﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾.

قد قَدَّمْنَا الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة هود، وقَدَّمْنَا الكلام على قوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ في أول سورة الزمر.

قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، صيغة الجمع في قوله: «خلقنا» للتعظيم، وقوله: «إلا بالحق» أي إلا خلقاً متلبساً بالحق.

والحق ضد الباطل، ومعنى كون خلقه للسماوات والأرض متلبساً بالحق أنه

خلقهما لحكم باهرة، ولم يخلقهما باطلاً، ولا عبثاً، ولا لعباً، فمن الحق الذي كان خلقهما متلبساً به، إقامة البرهان، على أنه هو الواحد المعبود وحده - جلّ وعلا -، كما أوضح ذلك في آيات كثيرة لا تكاد تحصى في المصحف الكريم:

كقوله تعالى في البقرة: ﴿وَلِلَّهِ كُلُّ شَيْءٍ قَدْرٌ ۖ وَلَاحُدٌ لَّآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝﴾، ثم أقام البرهان على أنه هو الإله الواحد بقوله بعده: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافِ أَيْلٍ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَاحِ أَلَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَنْبَا بِهَ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝﴾ [البقرة].

فتلبس خلقه للسموات والأرض بالحق واضح جداً من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ بعد قوله: ﴿وَلِلَّهِ كُلُّ شَيْءٍ قَدْرٌ ۖ وَلَاحُدٌ لَّآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ لأن إقامة البرهان القاطع على صحة معنى لا إله إلا الله هو أعظم الحق.

وكقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝﴾ [١] الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝﴾ [البقرة]؛ لأنّ قوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ فيه معنى الإثبات من لا إله إلا الله، وقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، يتضمن معنى النفي منها على أكمل وجه وأتمه.

وقد أقام الله - جلّ وعلا - البرهان القاطع، على صحة معنى لا إله إلا الله، نفياً وإثباتاً، بخلقه للسموات والأرض، وما بينهما في قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝﴾ [١] الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً... الآية.

وبذلك تعلم أنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا خلقاً متلبساً بأعظم الحق، الذي هو إقامة البرهان القاطع، على توحيده - جلّ وعلا -.

ومن كثرة الآيات القرآنية الدالة على إقامة هذا البرهان القاطع المذكور، على توحيده - جلّ وعلا -، علم من استقرأ القرآن، أن العلامة الفارقة بين من يستحق العبادة، وبين من لا يستحقها، هي كونه خالقاً لغيره، فمن كان خالقاً لغيره، فهو المعبود بحق، ومن كان لا يقدر على خلق شيء، فهو مخلوق محتاج، لا يصح أن يعبد بحال.

فالآيات الدالة على ذلك كثيرة جداً كقوله تعالى في آية البقرة المذكورة آنفاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾... الآية.

فقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾، يدل على أن المعبود هو الخالق وحده، وقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾... الآية [الرعد: ١٦]؛ يعني وخالق كل شيء هو المعبود وحده.

وقد أوضح تعالى هذا في سورة النحل؛ لأنه تعالى لما ذكر فيها البراهين القاطعة

على توحيده - جلّ وعلا -، في قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٣)، إلى قوله: ﴿وَعَلَّمَنِي وَإِلَتَّجِمَ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (١١)، أتبع ذلك بقوله: ﴿أَمَّنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٧) [النحل].

وذلك واضح جداً في أن من يخلق غيره هو المعبود وأن من لا يخلق شيئاً لا يصح أن يعبد.

ولهذا قال تعالى بعده قريباً منه: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (١١) [النحل].

وقال تعالى في الأعراف: ﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (٨١) [الأعراف]، وقال تعالى في الحج: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مِثْلِ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣]؛ أي ومن لا يقدر أن يخلق شيئاً لا يصح أن يكون معبوداً بحال. وقال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) [الذي خلق فسوّى]... الآية [الأعلى].

ولما بيّن تعالى في أول سورة الفرقان، صفات من يستحق أن يعبد، ومن لا يستحق ذلك، قال في صفات من يستحق العبادة: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ يَنْخِذُ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ بَقَدِيرٍ﴾ (١) [الفرقان]. وقال في صفات من لا يصح أن يعبد: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾... الآية [الفرقان: ٣].

والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً وكل تلك الآيات تدل دلالة واضحة على أنه تعالى ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا خلقاً متلبساً بالحق.

وقد بين - جلّ وعلا - أنّ من الحق الذي خلق السماوات والأرض وبينهما خلقاً متلبساً به، تعليمه خلقه أنه تعالى على كل شيء قدير، وأنه قد أحاط بكل شيء علماً، وذلك في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِلْعَالَمِ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ (٧) [الطلاق].

فلام التعليل في قوله: ﴿لِتَعْلَمُوا﴾، متعلقة بقوله: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾... الآية [الطلاق: ١٢]، وبه تعلم أنه ما خلق السماوات السبع، والأرضين السبع، وجعل الأمر يتنزل بينهن، إلا خلقاً متلبساً بالحق.

ومن الحق الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما خلقاً متلبساً به، هو تكليف الخلق، وابتلاؤهم أيهم أحسن عملاً، ثم جزاؤهم على أعمالهم، كما قال تعالى في أول سورة هود: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

فلام التعليل في قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾، متعلقة بقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، وبه تعلم أنه ما خلقهما إلا خلقاً متلبساً بالحق.

ونظير ذلك قوله تعالى في أول الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۖ﴾ [الكهف]. وقوله تعالى في أول الملك: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

ومما يوضح أنه ما خلق السماوات والأرض إلا خلقاً متلبساً بالحق، قوله تعالى في آخر الذاريات: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥١ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ۝٥٢﴾ [الذاريات].

سواء قلنا: إن معنى ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، أي لأمرهم بعبادتي فيعبدني السعداء منهم؛ لأن عبادتهم يحصل بها تعظيم الله وطاعته، والخضوع له كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]. وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْكَبُوا فَإِلَينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْتَمُونَ ۝٢٨﴾ [فصلت].

أو قلنا: إن معنى ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، أي إلا ليقروا لي بالعبودية، ويخضعوا ويدعوا لعظمتي؛ لأن المؤمنين يفعلون ذلك طوعاً، والكفار يدعون لقهرة وسلطانه تعالى كرهاً. ومعلوم أن حكمة الابتلاء والتكليف لا تتم إلا بالجزاء على الأعمال.

وقد بين تعالى أن من الحق الذي خلق السماوات والأرض خلقاً متلبساً به، جزاء الناس بأعمالهم، كقوله تعالى في النجم: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ ۝٦١﴾ [النجم].

فقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، أي هو خالقها ومن فيهما ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا﴾... الآية [النجم: ٣١].

ويوضح ذلك قوله تعالى في يونس: ﴿إِنَّهُمْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثَغَرٍ يُعْبِدُوهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤].

ولما ظن الكفار أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، لا لحكمة تكليف وحساب وجزاء، هددهم بالويل من النار، بسبب ذلك الظن السيئ، في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلاً ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۝٧٧﴾ [ص].

وقد نزه تعالى نفسه عن كونه خلق الخلق عبثاً، لا لتكليف وحساب وجزاء، وأنكر ذلك على من ظنه، في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝٧٩﴾ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكبير ۝ [المؤمنون].

فقوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾، أي تنزهه وتعظيمه، وتقديسه، عن أن يكون خلقهم لا لحكمة تكليف وبعث، وحساب وجزاء.

وهذا الذي نزه تعالى عنه نفسه، نزهه عنه أولوا الألباب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ

فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴿١١﴾، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١]، فقوله عنهم: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ أي تنزيهاً لك، عن أن تكون خلقت هذا الخلق، باطلاً لا لحكمة تكليف، وبعث وحساب وجزاء.

وقوله - جلّ وعلا - في آية الأحقاف هذه: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، يفهم منه أنه لم يخلق ذلك باطلاً، ولا لعباً ولا عبثاً.

وهذا المفهوم جاء موضحاً في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ [ص: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ﴾ [٣٨]، مَا خَلَقْتُهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

وقوله تعالى في آية الأحقاف هذه: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معطوف على قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ أي ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا خلقاً متلبساً بالحق، وبتقدير أجل مسمى، أي وقت معين مجدّد ينتهي إليه أمد السماوات والأرض، وهو يوم القيامة.

كما صرح الله بذلك في أخريات الحجر في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ [الحجر: ٨٥]. فقوله في الحجر: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾. بعد قوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾؛ يوضح معنى قوله في الأحقاف: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

وقد بين تعالى في آيات من كتابه أن للسماوات والأرض أمداً ينتهي إليه أمرهما، كما قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُثْبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَرْضَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]. وقوله: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: ١١]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ الآية [المزمل: ١٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾، ما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن الكفار معرضون عما أنذرتهم به الرسل جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى في البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٦]. وقوله في يس: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١٦]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: ١١]؛ والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

والإعراض عن الشيء الصدود عنه؛ وعدم الإقبال إليه، قال بعض العلماء: وأصله من العرض بالضم؛ وهو الجانب؛ لأن المعرض عن الشيء يوليّه بجانب عنقه؛ صادداً عنه.

والإنذار: الإعلام المقترن بتهديد؛ فكل إنذار إعلام وليس كل إعلام إنذاراً، وقد أوضحنا معاني الإنذار في أول سورة الأعراف.

و «ما» في قوله: ﴿عَمَّا أَنْذَرُوا﴾؛ قال بعض العلماء: هي موصولة؛ والعائد محذوف؛ أي الذين كفروا معرضون عن الذي أنذروهم؛ أي خوفه من عذاب يوم القيامة؛ وحذف العائد المنصوب بفعل أو وصف مضطرد كما هو معلوم. وقال بعض العلماء: هي مصدرية؛ أي والذين كفروا معرضون عن الإنذار، ولكليهما وجه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنَبِّئُونَ بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْزَلَهُ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾﴾.

قد ذكرنا قريباً أن قوله: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، يتضمن البرهان القاطع على صحة معنى لا إله إلا الله؛ وأن العلامة الفارقة بين المعبود بحق؛ وبين غيره هي كونه خالقاً؛ وأول سورة الأحقاف هذه يزيد ذلك إيضاحاً؛ لأنه ذكر من صفات المعبود بحق أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق؛ وذكر من المعبودات الأخرى التي عبادتها كفر مخلد في النار؛ أنها لا تخلق شيئاً.

فقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي هذه المعبودات التي تعبدونها من دون الله، أروني ماذا خلقوا من الأرض.

فقوله: «أروني» يراد بها التعجيز والمبالغة في عدم خلقهم شيئاً؛ وعلى أن ﴿مَا﴾ استفهامية ﴿وَذَا﴾ موصولة.

فالمعنى أروني ما الذي خلقوه من الأرض؛ وعلى أن ﴿مَا﴾ و ﴿ذَا﴾ بمنزلة كلمة واحدة يراد بها الاستفهام، فالمعنى: أروني أي شيء خلقوه من الأرض؟

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن من لم يخلق شيئاً في الأرض ولم يكن له شرك في السماوات؛ لا يصح أن يكون معبوداً بحال جاء موضحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى في فاطر: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ ءَاتَيْنَهُمْ كِتَابًا﴾ [فاطر: ٤٠]. وقوله في لقمان: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾. وقوله في سبأ: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة، وقد قدمنا طرفاً منها قريباً.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿اتَّبُونِي يَكْتَسِبْ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَسْكِنُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْفِئِمَةِ وَهُمْ

عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ ﴿٦﴾ قَدْ قَدَّمْنَا الْآيَاتِ الْمَوْضُوحَةَ لَهُ فِي سُورَةِ الْجَاثِيَةِ، فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾. [الجاثية: ١٠]، وَفِي سُورَةِ مَرْيَمَ، فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ ﴿٨١﴾ [مريم].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُنَاجِيهِمْ عَلَيْهِمْ مَا لَئِنَّا بَلَّغْنَاكَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٧﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار إذا قرئت عليهم آيات هذا القرآن العظيم الذي هو الحق ادعوا أنها سحر مبين واضح.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من افتراءهم على القرآن أنه سحر وعلى النبي ﷺ أنه ساحر جاء موضحاً في آيات كثيرة؛ كقوله تعالى في سبأ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣]. وقوله تعالى في الزخرف: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠]. وقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا أَتَمَّعُوهُ وَهُمْ يَقْبَحُونَ﴾ ﴿٢١﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَالْبَهْرَ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢ - ٣]. وقوله تعالى: ﴿وَلَيْتَ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ تَنْبَغُونُوتُ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [هود: ٧]. والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾. «أم» هذه هي المنقطعة، وقد قدّمنا أنها تأتي بمعنى الإضراب.

وتأتي بمعنى همزة الإنكار، وتأتي بمعناها معاً وهو الظاهر في هذه الآية الكريمة.

فأم فيها على ذلك تفيد معنى الإضراب والإنكار معاً، فهو بمعنى دع هذا، واسمع قولهم المستنكر لظهور كذبهم فيه، أن محمداً افترى هذا القرآن، وقد كذبهم الله في هذه الدعوى في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾... الآية [يونس: ٣٨]. وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ [هود: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾... الآية [يونس: ٣٧]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾؛ أي إن كنت افتريت هذا القرآن على سبيل الفرض.

والتقدير: عاجلني الله بعقوبته الشديدة، وأنتم لا تملكون لي منه شيئاً؛ أي لا تقدرون أن تدفعوا عني عذابه إن أراد أن يعذبني على الافتراء.

فكيف أفتره لكم، وأنتم لا تقدرون على دفع عذاب الله عني؟

وهذا المعنى: الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ ﴿١٦﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿١٨﴾ فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٌ ﴿١٩﴾ [الحاقة].

فَقُولُهُ تَعَالَى فِي آيَةِ الْحَاقَّةِ هَذِهِ: ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ كَقَوْلِهِ فِي آيَةِ الْأَحْقَافِ: ﴿قُلْ إِنْ أَفَرَقْتُمُ﴾.

وَقَوْلُهُ فِي الْحَاقَّةِ: ﴿فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَنْجَرِينَ﴾ يُوَضِّحُ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾؛ لِأَن مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَنْجَرِينَ﴾، أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يَحْجِزُوا عَنْهُ؛ أَيْ يَدْفَعُوا عَنْهُ عِقَابَ اللَّهِ لَهُ بِالْقَتْلِ، لَوْ تَقُولُ عَلَيْهِ بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ. وَذَلِكَ هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾؛ أَيْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى دَفْعِ عَذَابِهِ عَنِّي.

وَنَظِيرُ ذَلِكَ فِي الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُرِيدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١].

وَمَا تَضَمَّنَتْ آيَةُ الْأَحْقَافِ هَذِهِ وَآيَةُ الْحَاقَّةِ الْمَبِينَةُ لَهَا مِنْ أَنَّهُ لَوْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ أَوْ تَقُولُ عَلَيْهِ عَاجِلُهُ بِالْعَذَابِ، وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى دَفْعِهِ عَنْهُ، جَاءَ مَعْنَاهُ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي يُونُسَ: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَيْتَ بِشِرْكَائِنَا غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥]، أَيْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي بِالْإِفْتِرَاءِ عَلَيْهِ بِتَبْدِيلِ قَرَأَنِهِ أَوْ الْإِتْيَانِ بِقَرَأَنٍ غَيْرِهِ؛ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ.

وَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِثْلَ هَذَا عَنْ بَعْضِ الرُّسُلِ فِي آيَاتٍ أُخَرِ كَقَوْلِهِ عَنْ صَالِحٍ: ﴿قَالَ يَنْفُورُ آدَمُ بَشَرًا إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ [هود: ٦٣]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ: ﴿وَيَنْفُورُ مَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ [هود: ٣٠].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾. الْأَطْهَرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِدْعًا﴾ أَنَّهُ فَعَلَ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ فَهُوَ بِمَعْنَى مُبْتَدِعٍ، وَالْمُبْتَدِعُ هُوَ الَّذِي أَبْدَعَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ.

وَمَعْنَى الْآيَةِ: قُلْ لَهُمْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ: مَا كُنْتُ أَوَّلَ رَسُولٍ أُرْسِلَ إِلَى الْبَشَرِ، بَلْ قَدْ أُرْسِلَ اللَّهُ قَبْلِي جَمِيعَ الرُّسُلِ إِلَى الْبَشَرِ، فَلَا وَجْهَ لاسْتِعْجَادِكُمْ رِسَالَتِي، وَاسْتِنْكَارِكُمْ إِيَّاهَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ أُرْسِلَ قَبْلِي رَسُولًا كَثِيرًا.

وَهَذَا الْمَعْنَى: الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ، جَاءَ مُوَضِّحًا فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَحَمَلْنَا لَهُمْ أَنْوَابًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾... الْآيَةُ [الروم: ٤٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾... الْآيَةُ [النساء: ١٦٣]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَمْدٌ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ إِلَيْكَ وَلِئِنْ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ٢]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾... الْآيَةُ [فصلت: ٤٣]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾... الْآيَةُ [آل

عمران: ١٤٤. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا﴾... الآية [الأنعام: ٣٤]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾. التحقيق - إن شاء الله - أن معنى الآية الكريمة ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في دار الدنيا، فما أدري أأخرج من مسقط رأسي أو أقتل كما فعل ببعض الأنبياء، وما أدري ما ينالني من الحوادث والأمور في تحمل أعباء الرسالة.

وما أدري ما يفعل بكم؟ أيخسف بكم، أو تنزل عليكم حجارة من السماء؟ ونحو ذلك، وهذا هو اختيار ابن جرير وغير واحد من المحققين.

وهذا المعنى في هذه الآية دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْرَيْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾... الآية [الأعراف: ١٨٨]. وقوله تعالى آمراً له ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وبهذا تعلم أن ما يروى عن ابن عباس وأنس وغيرهما من أن المراد، ﴿وَمَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾؛ أي في الآخرة فهو خلاف التحقيق، كما سترى إيضاحه - إن شاء الله -.. فقد روي عن ابن عباس وأنس وقتادة والضحاك وعكرمة والحسن في أحد قوله؛ أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾؛ فرح المشركون واليهود والمنافقون، وقالوا: كيف نتبع نبياً لا يدري ما يفعل به ولا بنا وأنه لا فضل له علينا، ولولا أنه ابتدع الذي يقوله، من عند نفسه، لأخبره الذي بعثه بما يفعل به.

فنزلت: ﴿يَغْفِرْ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، فنسخت هذه الآية. وقالت الصحابة: هنيئاً لك يا رسول الله، لقد بين لك الله ما يفعل بك، فليت شعراً ما هو فاعل بنا.

فنزلت: ﴿لَيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾... الآية [الفتح: ٥]، ونزلت: ﴿وَيُنَبِّئُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

فالظاهر أن هذا كله خلاف التحقيق، وأن النبي ﷺ لا يجهل مصيره يوم القيامة لعصمته - صلوات الله وسلامه عليه - وقد قال له الله تعالى: ﴿وَلَا آخِرَةَ حَزْرٍ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ ① وَكَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ② [الضحى] وأن قوله: ﴿وَمَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾؛ في أمور الدنيا كما قدّمنا، فإن قيل: قد صح عن النبي ﷺ من حديث أم العلاء الأنصارية ما يدل على أن قوله: ﴿مَا يُفْعَلُ بِي﴾؛ أي في الآخرة فإن حديثها في قصة وفاة عثمان بن مظعون ؓ عندهم، ودخول رسول الله ﷺ فيه، أنها قالت: رحمة الله عليك، أبا السائب شهادتي عليك لقد أكرمك الله ﷻ تعني عثمان بن مظعون، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمهم؟» فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي! فقال رسول الله ﷺ: «أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وإنني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي» الحديث.

فالجواب هو ما ذكره الحافظ ابن كثير رحمته الله، فقد قال في تفسيره هذه الآية الكريمة، بعد أن ساق حديث أم العلاء المذكور بالسند الذي رواه به أحمد رحمته الله انفراد به البخاري دون مسلم، وفي لفظ له: «ما أدري وأنا رسول الله ﷺ ما يفعل به»، وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ بدليل قولها: فأحزنتني ذلك، اهـ. محل الغرض منه، وهو الصواب - إن شاء الله - والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾، جواب الشرط في هذه الآية محذوف.

وأظهر الأقوال في تقديره: إن كان هذا القرآن من عند الله وكفرتُم به، وجحدتموه فأنتم ضلال ظالمون. وكون جزاء الشرط في هذه الآية كونهم ضالين ظالمين يبينه قوله تعالى في آخر فصلت: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ٥١﴾ [فصلت]، وقوله في آية الأحقاف هذه: ﴿فَأَمَنْ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ١٠﴾.

وقال أبو حيان في البحر: مفعولا «أرأيتم» محذوفان لدلالة المعنى عليهما.

والتقدير: أرأيتم حالكم، إن كان كذا أستم ظالمين.

فالأول حالكم، والثاني أستم ظالمين، وجواب الشرط محذوف؛ أي فقد ظلمتم. ولذلك جاء فعل الشرط ماضياً.

وبعض العلماء يقول: إن ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ بمعنى أخبروني، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾. والتحقيق - إن شاء الله - أن هذه الآية الكريمة جارية على أسلوب عربي معروف، وهو إطلاق المثل على الذات نفسها، كقولهم: مثلك لا يفعل هذا، يعنون لا ينبغي لك أنت أن تفعله.

وعلى هذا فالمعنى وشهد شاهد من بني إسرائيل على أن هذا القرآن، وحي منزل حقاً من عند الله، لا أنه شهد على شيء آخر مماثل له، ولذا قال تعالى: ﴿فَأَمَنْ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ﴾.

ومما يوضح هذا، تكرار إطلاق المثل في القرآن مراداً به الذات كقوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّارِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ...﴾ الآية [الأنعام: ١٢٢].

فقوله: ﴿كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾؛ أي كمن هو نفسه في الظلمات، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ [البقرة: ١٣٧]، أي فإن آمنوا بما آمنتم به لا بشيء آخر مماثل له على التحقيق.

ويستأنس له بالقراءة المروية عن ابن عباس وابن مسعود (فإن آمنوا بما آمنتم به).

والقول بأن لفظة «ما» في الآية مصدرية، وأن المراد تشبيه الإيمان بالإيمان بالإيمان، أي فإن آمنوا بإيمان مثل إيمانكم فقد اهتدوا، لا يخفى بعده.

والشاهد في الآية هو عبد الله بن سلام ﷺ كما قال الجمهور، وعليه فهذه الآية مدنية في سورة مكية.

وقيل: إن الشاهد موسى بن عمران - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -، وقيل غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أظهر أقوال العلماء في هذه الآية الكريمة، أن الكافرين الذين قالوا للمؤمنين: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾، أنهم كفار مكة، وأن مرادهم أن فقراء المسلمين، وضعفاءهم كبلال وعمار وصهيب وخباب ونحوهم، أحقر عند الله من أن يختار لهم الطريق التي فيها الخير.

وأنهم هم الذين لهم عند الله عظمة وجاه واستحقاق السبق لكل خير لزعمهم أن الله أكرمهم في الدنيا بالمال والجاه، وأن أولئك الفقراء لا مال لهم ولا جاه، وأن ذلك التفضيل في الدنيا يستلزم التفضيل في الآخرة.

وهذا المعنى: الذي استظهرناه في هذه الآية الكريمة تدل عليه آيات كثيرة من كتاب الله، وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

أما ادعاؤهم أن ما أعطوا من المال والأولاد والجاه في الدنيا، دليل على أنهم سيعطون مثله في الآخرة، وتكذيب الله لهم في ذلك، فقد جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ ضَالِحٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنين]، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَوْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَكَتَ مِمَّا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾... الآية [مريم]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [سبا]. مع قوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى﴾... الآية [سبا: ٣٧]. وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَحُسْنَ فَلَنَتِلَّكَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠].

وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ رُجِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

وأما احتقار الكفار للضعفاء المؤمنين وفقرائهم، وزعمهم أنهم أحقر عند الله، من أن يصيبهم بخير، وأن ما هم عليه لو كان خيراً لسبقهم إليه أصحاب الغنى والجاه والولد من الكفار، فقد دلت عليه آيات أخر كقوله تعالى في الأنعام: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣].

فهزمة الإنكار في قوله: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾، تدل على إنكارهم أن الله يمن على أولئك الضعفاء بخير.

وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [٥٤] وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا نُنَزِّلُ فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ... الآية [الأنعام: ٥٣، ٥٤]. وقوله تعالى في الأعراف: ﴿وَأَذِّنْ لِلْعَذَابِ أَهْلَ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تُسْتَغْفَرُونَ﴾ [٥٨] أَهْلَ الْأَعْرَافِ لَا يَنْتَهِمُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٥٩﴾ [الأعراف]. وقوله تعالى في ص: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ [٦٢] أَتُخَذُونَ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْبَصَرُ ﴿٦٣﴾ [ص].

فقد قال غير واحد: إن الرجال الذين كانوا يعدونهم من الأشرار هم ضعفاء المسلمين الذين كانوا يسخرون منهم في دار الدنيا ويزعمون أنهم أحقر من أن ينالهم الله بخير ويدل له قوله: ﴿أَتُخَذُونَ سِخْرِيًّا﴾ [ص: ٦٣]، وسيسخر ضعفاء المسلمين في الجنة من الكفار الذين كانوا يسخرون منهم في الدنيا وهم في النار، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [٦١] وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ ﴿٦٢﴾. إلى قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [٦٤] عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٦٥﴾ هَلْ تُوِبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٦﴾ [المطففين]. وقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَسَخَّرْنَا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ أَتَقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾... الآية [البقرة: ٢١٢].

قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيًّا﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة في سورة الشعراء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] وفي سورة الزمر في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَرَأَيْنَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِجٍّ﴾... الآية [الزمر: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿لِنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُنذِرَ لِمَنْ يَحْسِنُ﴾ قد قدمنا الآيات الموضحة له مع بيان أنواع الإنذار في القرآن في أول سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِنُنذِرَ بِهِ﴾... الآية [الأعراف: ٢]. وفي أول سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لِنُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾... الآية [الكهف: ٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [٦٠] قد قدمنا الكلام عليه في سورة فصلت، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾... الآية [فصلت: ٣٠].

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾، قرأ هذا الحرف، نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو (حُسْنًا) بضم الحاء وسكون السين، وكذلك هو في مصاحفهم.

وقرأه عاصم وحزمة والكسائي: (إحسانًا) بهمة مكسورة وإسكان الحاء وألف بعد

السين.

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذه الآية في سورة بني إسرائيل، في الكلام على

قوله تعالى: ﴿وَقَصَّ رُبُّكَ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. وقال أبو حيان في البحر:

قيل: ضمن ﴿وَوَصَّيْنَا﴾، معنى ألزمتنا فيتعدي لاثنتين فانصب حسناً وإحساناً على المفعول الثاني لوصينا.

وقيل: التقدير إيضاء ذا حسن أو ذا إحسان، ويجوز أن يكون حسناً بمعنى إحسان فيكون مفعولاً له، أي ووصيناه بها لإحساننا إليهما فيكون الإحسان من الله تعالى.

وقيل: النصب على المصدر على تضمين معنى أحسننا بالوصية للإنسان بوالديه إحساناً اه منه، وكلها له وجه.

قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ قرأ هذا الحرف نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر: (كُرْهًا) بفتح الكاف في الموضعين، وقرأه عاصم وحمره والكسائي، وابن ذكوان، عن ابن عامر: (كُرْهًا) بضم الكاف في الموضعين. وهما لغتان كالضَّعْف والضَّعْف.

ومعنى حملته (كُرْهًا) أنها في حال حملها به تلاقي مشقة شديدة.

ومن المعلوم ما تلاقيه الحامل من المشقة والضعف، إذا أثقلت وكبر الجنين في بطنها. ومعنى «وضعته كُرْهًا»: أنها في حالة وضع الولد، تلاقي من ألم الطلق وكربه مشقة شديدة، كما هو معلوم.

وهذه المشاق العظيمة التي تلاقيها الأم في حمل الولد ووضعه، لا شك أنها يعظم حقها بها، ويتحتم برها، والإحسان إليها كما لا يخفى.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من المشقة التي تعانيتها الحامل، دلت عليه آية أخرى، وهي قوله تعالى في لقمان: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤]، أي تهن به وهناً على وهن؛ أي ضعفاً على ضعف، لأن الحمل كلما تزايد وعظم في بطنها، ازدادت ضعفاً على ضعف.

وقوله في آية الأحقاف هذه «كُرْهًا» في الموضعين مصدر منكر وهو حال؛ أي حملته ذات كره ووضعته ذات كره، وإتيان المصدر المنكر حالاً كثير كما أشار له في الخلاصة بقوله:

ومصدر منكر حالاً يقع بكثرة كبغته زيد طلع

وقال بعضهم: «كُرْهًا» في الموضعين نعت لمصدر، أي حملته حملاً ذا كره، ووضعته وضعاً ذا كره، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَحَمَلُهُمْ وَفَصَلُّوا ثَلَاثِينَ يَوْمًا﴾ هذه الآية الكريمة؛ ليس فيها بانفرادها تعرض لبيان أقل مدة الحمل، ولكنها بضميمة بعض الآيات الأخرى إليها يعلم أقل أمد

الحمل؛ لأن هذه الآية الكريمة من سورة الأحقاف، صرحت بأن أمد الحمل والفصال معاً، ثلاثون شهراً.

وقوله تعالى في لقمان: ﴿وَفَصَّلْهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]. وقوله في البقرة: ﴿وَالْوِلْدَاتُ يُرْضَعْنَ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، يبين أن أمد الفصال عامان وهما أربعة وعشرون شهراً، فإذا طرحتها من الثلاثين بقيت ستة أشهر، فتعين كونها أمداً للحمل، وهي أقله، ولا خلاف في ذلك بين العلماء.

ودلالة هذه الآيات على أن ستة أشهر أمد للحمل هي المعروفة عند علماء الأصول بدلالة الإشارة.

وقد أوضحنا الكلام عليها، في مباحث الحج في سورة الحج، في مبحث أقوال أهل العلم، في حكم المبيت بمزدلفة، وأشرنا لهذا النوع من البيان في ترجمة هذا الكتاب المبارك.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ قد قدمنا الكلام عليه في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وفي ترجمة هذا الكتاب المبارك.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدِهِ أُفٍّ لَّكَ مَا أَنْعَدَانِي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ حَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِihan اللهَ وَيَكْفُرُونَ بِهِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ فَاعِلُ كُلِّ أَمْرٍ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وفي ترجمة هذا الكتاب المبارك.

والتحقيق - إن شاء الله - أن (الذي) في قوله: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدِهِ﴾ بمعنى الذين، وأن الآية عامة في كل عاق لوالديه مكذب بالبعث.

والدليل من القرآن على أن «الذي»، بمعنى «الذين»، وأن المراد به العموم، أن (الذي) في قوله: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدِهِ﴾ مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾

والإخبار عن لفظة الذي في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾؛ القول بصيغة الجمع، صريح في أن المراد بالذي العموم لا الأفراد؛ وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

وبهذا الدليل القرآني تعلم أن قول من قال في هذه الآية الكريمة إنها نازلة في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ليس بصحيح، كما جازمت عائشة رضي الله عنها بطلانه.

وفي نفس آية الأحقاف هذه دليل آخر واضح على بطلانه، وهو أن الله صرح بأن الذين قالوا تلك المقالة حق عليهم القول، وهو قوله: ﴿وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

ومعلوم أن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه أسلم وحسن إسلامه، وهو من خيار المسلمين وأفاضل الصحابة رضي الله عنهم.

وغاية ما في هذه الآية الكريمة هو إطلاق «الذي» وإرادة «الذين»، وهو كثير في القرآن وفي كلام العرب؛ لأن لفظ «الذي» مفرد ومعناها عام لكل ما تشمله صلتها، وقد تقرر في علم الأصول أن الموصولات كالذي والتي وفروعهما من صيغ العموم، كما أشار له في (مراقي السعود) بقوله:

صيغه كل أو الجميع وقد تلا الذي التي الفروع

فمن إطلاق الذي وإرادة الذين في القرآن، هذه الآية الكريمة من سورة الأحقاف، وقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾... الآية [البقرة: ١٧]. أي كمثل الذين استوفدوا، بدليل قوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]، بصيغة الجمع في الضمائر الثلاثة التي هي ﴿بِنُورِهِمْ﴾، ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾، والواو في ﴿لَا يَبْصُرُونَ﴾.

وقوله تعالى في البقرة أيضاً: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، أي كالذين ينفقون بدليل قوله: ﴿لَا يَفْقَهُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وقوله في الزمر: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]. وقوله في التوبة: ﴿وَحُضِّمُوا كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩]، أي كالذين خاضوا بناء على أنها موصولة لا مصدرية، ونظير ذلك من كلام العرب قول أشهب بن ربيعة:

فإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد
وقول عدیل بن الفرخ العجلي:

وبت أساقي القوم إختوي الذي غوايتهم غيبي ورشدهم رشدي
وقول الراجز:

يا رب عبس لا تبارك في أحد في قائم منهم ولا في من قعد
إلا الذي قاموا بإطراف المسد

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَفِي لَكُمَّا﴾، كلمة تضجر، وقائل ذلك عاق لوالديه غير مجتنب نهى الله في قوله: ﴿إِنَّمَا يَلْفَنَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفِي﴾... الآية [الإسراء: ٢٣]، وقوله: ﴿أَتَعْدِلَانِي﴾: فعل مضارع وعد، وحذف واوه في المضارع مطرد، كما ذكره في الخلاصة بقوله:

فأمر أو مضارع من كوعد - احذف وفتي كعيدة ذاك اطررد

والنون الأولى نون الرفع، والثانية نون الوقاية كما لا يخفى.

وقرأ هذا الحرف أبو عمرو وابن عامر في رواية ابن ذكوان وعاصم وحمزة والكسائي: «أتعداني» بنونين مكسورتين مخففتين وياء ساكنة، وقرأ هشام عن ابن عامر بنون مشددة مكسورة وبياء ساكنة، وقرأ نافع وابن كثير بنونين مكسورتين مخففتين وياء مفتوحة، والهمزة للإنكار.

وقوله: ﴿أَنْ أُخْرَجَ﴾ أي أبعث من قبري حياً بعد الموت.

والمصدر المنسبك من «أن» وصلتها هو المفعول الثاني لتعداني؛ يعني أتعداني الخروج من قبري حياً بعد الموت، والخال قد مضت القرون أي هلكت الأمم الأولى، ولم يحي منهم أحد، ولم يرجع بعد أن مات.

وهما أي والداه يستغيثان الله أي يطلبانه أن يغيثهما بأن يهدي ولدتهما إلى الحق والإقرار بالبعث، ويقولان لولدتهما: ويلك آمن؛ أي بالله وبالبعث بعد الموت.

والمراد بقولهما ويلك: حثه على الإيمان إن وعد الله حق، أي وعده بالبعث بعد الموت حق لا شك فيه، فيقول ذلك الولد العاق المنكر للبعث: ﴿مَا هَذَا﴾ إن الذي تعداني إياه من البعث بعد الموت ﴿إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

والأساطير جمع أسطورة. وقيل: جمع إسطورة، ومراده بها ما سطره الأولون، أي كتبوه من الأشياء التي لا حقيقة لها.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ ترجع الإشارة فيه إلى العاقين المكذبين بالبعث المذكورين في قوله: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَدِيهِ أُنِ لِّكُمَا﴾... الآية.

وقوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي وجبت عليهم كلمة العذاب، وقد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة يس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس].

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن منكري البعث يحق عليهم القول لكفرهم، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِنَا سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١١].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طِبْيَعُكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمَعْتُمْ بِهَا فَالْوَمُ يُعْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [٢٠].

معنى الآية الكريمة أنه يقال للكفار يوم يعرضون على النار: ﴿أَدْهَبْتُمْ طِبْيَعُكُمْ﴾.

فقوله «يعرضون على النار»: قال بعض العلماء: معناه يباشرون حرها كقول العرب: عرضهم على السيف إذا قتلهم به، وهو معنى معروف في كلام العرب.

وقد ذكر تعالى مثل ما ذكر هنا في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾؛ وهذا يدل على أن المراد بالعرض مباشرة العذاب لقوله: ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠]. وقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِقَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [٥٥] النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا [غافر: ٤٥، ٤٦] لأنه عرض عذاب.

وقال بعض العلماء: معنى عرضهم على النار هو تقريبهم منها، والكشف لهم عنها، حتى يروها كما قال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾... الآية [الكهف: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر: ٢٣].

وقال بعض العلماء: في الكلام قلب، وهو مروى عن ابن عباس وغيره، قالوا: والمعنى ويوم تعرض النار على الذين كفروا. قالوا: وهو كقول العرب: عرضت الناقة على الحوض. يعنون عرضت الحوض على الناقة، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا﴾ [الكهف].

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: هذا النوع الذي ذكره من القلب في الآية، كقلب الفاعل مفعولاً، والمفعول فاعلاً ونحو ذلك، اختلف فيه علماء العربية، فمنعه البلاغيون إلا في التشبيه، فأجازوا قلب المشبه مشبهاً به والمشبه به مشبهاً بشرط أن يتضمن ذلك نكتة وسراً لطيفاً كما هو المعروف عندهم في مبحث التشبيه المقلوب. وأجازه كثير من علماء العربية، والذي يظهر لنا أنه أسلوب عربي نطقت به العرب في لغتها، إلا أنه يحفظ ما سمع منه، ولا يقاس عليه، ومن أمثله في التشبيه قول الراجز: ومنهل مغبرة أرجاؤه كأن لون أرضه سماؤه أي كأن سماءه لون أرضه، وقول الآخر:

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح
لأن أصل المراد تشبيه وجه الخليفة بغرة الصباح، فقلب التشبيه ليوهم أن الفرع أقوى من الأصل في وجه الشبه.

قالوا ومن أمثله في القرآن: ﴿وَأَنبَأْنَاهُ مِنَ الْكُتُبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْمُفَاتِحِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]؛ لأن العصبه من الرجال هي التي تنوء بالمفاتيح؛ أي تنهض بها بمشقة وجهد لكثرتها وثقلها، وقوله تعالى: ﴿فَعَمِيتُ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ﴾ [القصص: ٦٦]، أي عموا عنها. ومن أمثله في كلام العرب قول كعب بن زهير:

كأن أوب ذراعيها إذا عرقت وقد تلفع بالقور العساقيل
لأن معنى قوله: تلفع لبس اللفاع وهو اللحاف، والقور الحجارة العظام، والعساقيل: السراب. والكلام مقلوب، لأن القور هي التي تلتحق بالعساقيل لا العكس، كما أوضحه لبيد في معلقته بقوله:

فبتلك إذ رقص اللوامع بالضحى واجتأب أردية السراب إكامها
فصرح بأن الإكام التي هي الحجارة اجتأبت؛ أي لبست أردية السراب.

والأردية جمع رداء، وهذا النوع من القلب وإن أجازه بعضهم فلا ينبغي حمل الآية عليه؛ لأنه خلاف الظاهر، ولا دليل عليه يجب الرجوع إليه.

وظاهر الآية جار على الأسلوب العربي الفصيح، كما أوضحه أبو حيان في البحر المحيط.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيْبَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾، قرأه ابن كثير وابن عامر (أذهبتكم) بهمزين وهما على أصولهما في ذلك.

فابن كثير يسهل الثانية بدون ألف إدخال بين الهمزتين: وهشام يحققها ويسهلها مع ألف الإدخال. وابن ذكوان يحققها من غير إدخال.

وقرأه نافع وأبو عمرو وعاصم وحزمة والكسائي: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيْبِنَكُمْ﴾ بهمزة واحدة على الخبر من غير استفهام.

واعلم أن للعلماء كلاماً كثيراً في هذه الآية قائلين: إنها تدل على أنه ينبغي التشف والإقلال من التمتع بالمآكل والمشارب والملابس ونحو ذلك.

وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يفعل ذلك خوفاً منه أن يدخل في عموم من يقال لهم يوم القيامة: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيْبِنَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾... الآية. والمفسرون يذكرون هنا أثاراً كثيرة في ذلك، وأحوال أهل الصفة وما لاقوه من شدة العيش.

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: التحقيق - إن شاء الله - في معنى هذه الآية هو أنها في الكفار وليست في المؤمنين الذين يتمتعون باللذات التي أباحها الله لهم؛ لأنه تعالى ما أباحها لهم ليذهب بها حسناتهم.

وإنما قلنا: إن هذا هو التحقيق؛ لأن الكتاب والسنة الصحيحة دالان عليه والله تعالى يقول: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾... الآية [النساء: ٥٩].

أما كون الآية في الكفار فقد صرح الله تعالى به في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيْبِنَكُمْ﴾... الآية. والقرآن والسنة الصحيحة، قد دلا على أن الكافر إن عمل عملاً صالحاً مطابقاً للشرع، مخلصاً فيه لله، كالكافر الذي يبر والديه، ويصل الرحم ويقرى الضيف، وينفس عن المكروب، ويعين المظلوم يبتغي بذلك وجه الله يثاب بعمله في دار الدنيا خاصة بالرزق والعافية ونحو ذلك، ولا نصيب له في الآخرة.

فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) [هود]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ تُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وقد قيد تعالى هذا الثواب الدنيوي المذكور في الآيات بمشيئته وإرادته، في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (١٨) [الإسراء].

وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أنس أن النبي ﷺ قال: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطى بها في الدنيا ويجزي بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسناته ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزي بها» هذا لفظ مسلم في صحيحه.

وفي لفظ له عن رسول الله ﷺ: «إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة في الدنيا، وأما المؤمن فإن الله يدخر له حسناته في الآخرة ويعقبه رزقاً في الدنيا على طاعته»، اهـ.

فهذا الحديث الثابت عن النبي ﷺ فيه التصريح بأن الكافر يجازى بحسناته في الدنيا فقط، وأن المؤمن يجازى بحسناته في الدنيا والآخرة معاً، وبمقتضى ذلك يتعين تعييناً لا محيص عنه، أن الذي أذهب طيباته في الدنيا واستمتع بها هو الكافر؛ لأنه لا يجزى بحسناته إلا في الدنيا خاصة.

وأما المؤمن الذي يجزى بحسناته في الدنيا والآخرة معاً، فلم يذهب طيباته في الدنيا؛ لأن حسناته مدخرة له في الآخرة، مع أن الله تعالى يشبه بها في الدنيا كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] فجعل المخرج من الضيق له ورزقه من حيث لا يحتسب ثواباً في الدنيا وليس ينقص أجر تقواه في الآخرة.

والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، وعلى كل حال فالله - جلّ وعلا - أباح لعباده على لسان نبيه ﷺ الطيبات في الحياة الدنيا، وأجاز لهم التمتع بها، ومع ذلك جعلها خاصة بهم في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

فدل هذا النص القرآني أن تمتع المؤمنين بالزينة والطيبات من الرزق في الحياة الدنيا لم يمنعهم من اختصاصهم بالتنعم بذلك يوم القيامة، وهو صريح في أنهم لم يذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا.

ولا ينافي هذا أن من كان يعاني شدة الفقر في الدنيا كأصحاب الصفة، يكون لهم أجر زائد على ذلك؛ لأن المؤمنين يؤجرون بما يصيبهم في الدنيا من المصائب والشدائد، كما هو معلوم.

والنصوص الدالة على أن الكافر هو الذي يذهب طيباته في الحياة الدنيا؛ لأنه يجزى في الدنيا فقط كالآيات المذكورة، وحديث أنس المذكور عند مسلم، قد قدمناها موضحة في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤] وذكرنا هناك أسانيد الحديث المذكور وألفاظه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَالْيَوْمَ نَجْزِي عَذَابَ الْهُونِ﴾؛ أي عذاب الهوان وهو الذل والصغار.

وقوله تعالى: ﴿يَمَّا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنَّمَا كُنْتُمْ تَقْسُونَ﴾، الباء في قوله: ﴿يَمَّا كُنْتُمْ﴾ سببية، و«ما» مصدرية؛ أي تجزون عذاب الهون بسبب كونكم مستكبرين في الأرض، وكونكم فاسقين.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من كون الاستكبار في الأرض والفسق من أسباب عذاب الهون، وهو عذاب النار، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله

تعالى: ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]. وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيَهُمُ النَّارُ﴾ الآية [السجدة: ٢٠].

وقد قدّمنا النتائج الوخيمة الناشئة عن التكبر في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا...﴾ الآية [الأعراف: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿بَغْيٍ أَتَقْتِرُونَ؟﴾ مع أنه من المعلوم أنهم لا يستكبرون في الأرض إلا استكباراً متلبساً بغير الحق كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ومعلوم أنه لا يطير إلا بجناحيه، وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩]، ومعلوم أنهم لا يكتبهون إلا بأيديهم، ونحو ذلك من الآيات، وهو أسلوب عربي نزل به القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾.

أبهم - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أخا عاد ولم يعينه، ولكنه بيّن في آيات أخرى أنه هود - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - كقوله تعالى: ﴿وَالِإِخَاءِ أَخَاهُمُ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥]، في سورة الأعراف، وسورة هود، وغير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن النبي هوداً نهى قومه أن يعبدوا غير الله، وأمرهم بعبادته تعالى وحده، وأنه خوفهم من عذاب الله، إن تمادوا في شركهم به، وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية جاءا موضحين في آيات أخرى.

أما الأول منهما: ففي قوله تعالى: ﴿وَالِإِخَاءِ أَخَاهُمُ هُودًا قَالَ يَنْفَوِرُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥]، في سورة الأعراف، وسورة هود، ونحو ذلك من الآيات.

وأما خوفه عليهم العذاب العظيم فقد ذكره في الشعراء في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٦﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ ﴿١٢٧﴾ وَحَشَّتِ وَعُيُونِ ﴿١٢٨﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء] وهو يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَإِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٢١﴾﴾. ومعنى قوله تعالى: ﴿لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا﴾، أي لتصرفنا عن عبادتها إلى عبادة الله وحده، وقد تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين:

أحدهما: إنكار عاد على هود أنه جاءهم، لتركوا عبادة الأوثان ويعبدوا الله وحده.

وثانيهما: أنهم قالوا له: اتنا بما تعدنا من العذاب وعجله لنا إن كنت صادقاً فيما تقول، عناداً منهم وعتواً.

وهذان الأمران جاءا موضحين في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في الأعراف: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَإِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف].

قوله تعالى: ﴿وَأُتْلِفَكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾. ذكر - جلا وعلا - في هذه الآية الكريمة أن نبي الله هوداً قال لقومه: إنه يبلغهم ما أرسل به إليهم؛ لأنه ليس عليه إلا البلاغ، وهذا المعنى جاء مذكوراً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في الأعراف: ﴿قَالَ يَقُومُ لَيْسَ بِ سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ أُتْلِفُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى في سورة هود: ﴿فَإِنْ قَوْلُوا فَقَدْ أُتْلِفْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ [هود: ٥٧].

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة فصلت، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّهُمْ فِيْمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾، لفظة (إن) في هذه الآية الكريمة فيها للمفسرين ثلاثة أوجه؛ يدل استقرار القرآن على أن واحداً منها هو الحق، دون الاثنين الآخرين، قال بعض العلماء: «إن» شرطية وجزاء الشرط محذوف، والتقدير: إن مكناكم فيه طغيتم وبغيتم.

وقال بعضهم: «إن» زائدة بعد «ما» الموصولة حملاً لـ «ما» الموصولة على «ما» النافية؛ لأن ما النافية تزداد بعدها لفظة «إن» كما هو معلوم.

كقول قتيلة بنت الحرث بن النضر العبديّة:

أبلغ بها ميتاً بأن تحية ما إن تزال بها النجائب تخفق
وقول دريد بن الصمة في الخنساء:

ما إن رأيت ولا سمعت به كالיום طالي أينق جرب

ف«إن» زائدة بعد «ما» النافية في البيتين وهو كثير، وقد حملوا على ذلك ما الموصولة فقالوا: تزداد بعدها «إن» كآية الأحقاف هذه. وأنشد لذلك الأخفش:

يرجى المرء ما إن لا يراه وتعرض دون أدناه الخطوب

أي يرجى المرء الشيء الذي لا يراه، وإن زائدة، وهذان هما الوجهان اللذان لا تظهر صحة واحد منهما؛ لأن الأول منهما فيه حذف وتقدير. والثاني منهما فيه زيادة كلمة، وكل ذلك لا يصار إليه إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

أما الوجه الثالث الذي هو الصواب إن شاء الله، فهو أن لفظة «إن» نافية بعد «ما» الموصولة؛ أي ولقد مكناهم في الذي ما مكناكم فيه من القوة في الأجسام، وكثرة الأموال والأولاد والعدد.

وإنما قلنا: إن القرآن يشهد لهذا القول لكثرة الآيات الدالة عليه، فإن الله - جل وعلا - في آيات كثيرة من كتابه يهدد كفار مكة بأن الأمم الماضية كانت أشد منهم بطشاً وقوة،

وأكثر منهم عدداً، وأموالاً، وأولاداً، فلما كذبوا الرسل، أهلكهم الله ليخافوا من تكذيب النبي ﷺ أن يهلكهم الله بسببه، كما أهلك الأمم التي هي أقوى منهم، كقوله تعالى في المؤمن: ﴿أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا آغَتْ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر].

وقوله فيها أيضاً: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَلَاخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾... الآية [غافر: ٢١]. وقوله تعالى في الروم: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾... الآية [الروم: ٩].

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف].

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلَّلَ إِلَهُهُمْ وَمَا كَانُوا بِفِرَاقٍ﴾ [٢٨]. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الجاثية، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجاثية: ١٠].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ﴾ [٢٩] قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [٣٠].

ذكر الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من سورة الأحقاف، أنه صرف إلى النبي ﷺ ﴿نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾، والنفر دون العشرة ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾؛ وأنهم لما حضروه، قال بعضهم لبعض: ﴿أَنصِتُوا﴾ أي اسكتوا مستمعين، وأنه لما قضي؛ أي انتهى النبي ﷺ من قراءته ﴿وَلَّوْا﴾ أي رجعوا إلى قومهم من الجن في حال كونهم ﴿مُنْذِرِينَ﴾؛ أي مخوفين لهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا بالله، ويجيبوا داعيَهُ محمداً ﷺ، وأخبروا قومهم، أن هذا الكتاب الذي سمعوه يتلى، المنزل من بعد موسى ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾، وهو ضد الباطل، ﴿وَالِىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي لا اعوجاج فيه.

وقد دل القرآن العظيم أن استماع هؤلاء النفر من الجن، وقولهم ما قالوا عن القرآن كله وقع ولم يعلم به النبي ﷺ، حتى أوحى الله ذلك إليه، كما قال تعالى في القصة بعينها، مع بيانها وبسطها، بتفصيل الأقوال التي قالتها الجن بعد استماعهم القرآن العظيم: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا مَّجِيدًا﴾ [١] ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [٢] [الجن]، إلى آخر الآيات.

قوله تعالى: ﴿يَنْقُومُنَا لِحَبِيبِ اللَّهِ وَأَمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيَجْزِيَكَ مِّن عَذَابِ إِلَهِهِ﴾ [٣١]. منطوق هذه الآية أن من أجاب داعي الله محمداً ﷺ وآمن به، وبما

جاء به من الحق غفر الله له ذنوبه؛ وأجاره من العذاب الأليم، ومفهوما، أعني مفهوم مخالفتها، المعروف بدليل الخطاب، أن من لم يجب داعي الله من الجن ولم يؤمن به لم يغفر له ولم يجزه من عذاب أليم، بل يعذبه ويدخله النار، وهذا المفهوم جاء مصرحاً به مبيناً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَوَعَدْتُ كَلِمَةً رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]. وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨]. وقوله تعالى: ﴿فَكَبِّكُوا فِيهَا هُم وَالْغَاوُونَ يَنُودُوا إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء] إلى غير ذلك من الآيات.

أما دخول المؤمنين، المجيبين داعي الله من الجن الجنة، فلم تتعرض له الآية الكريمة بإثبات ولا نفي، وقد دلت آية أخرى على أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة، وهي قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿وَلِمَن شَاءَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ۖ فِيهَا نَضَاءٌ ۖ فِيهَا رِيحٌ مُّزَكَّاةٌ ۖ فِيهَا ثَمَرٌ مِّمَّا يَشَاءُونَ ۚ وَالْجَنَّاتُ وَالنَّارُ هُمَا أَشَدُّ حَرًّا ۚ وَبِئْسَ الْمَقَامُ﴾ [الرحمن: ٤٧]. وبه تعلم أن ما ذهب إليه بعض أهل العلم، قائلين إنه يفهم من هذه الآية، من أن المؤمنين من الجن لا يدخلون الجنة، وأن جزاء إيمانهم وإجابتهم داعي الله، هو الغفران وإجارتهم من العذاب الأليم فقط، كما هو نص الآية، كله خلاف التحقيق.

وقد أفاض الشيخ في الحديث عن هذه المسألة فليرجع من اراد الوقوف على كلامه فيها إلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ لَّيَاقِينٌ يَّقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يُخَوِّجَ الْمُؤْمِنَ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٣٣]. قد قدّمنا الآيات الموضحة لهذه الآية، وأنها من الآيات الدالة على البعث في البقرة والنحل والجاثية، وغير ذلك من المواضع وأحلنا على ذلك مراراً، والباء في قوله: ﴿يَّقْدِرُ﴾؛ يسوغه أن النفي متناول لـ«أن» فما بعدها، فهو في معنى أليس الله بقادر؟ ويوضح ذلك قوله بعد: بلى. مقررًا لقدرته على البعث وغيره.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾.

اختلف العلماء في المراد بأولي العزم من الرسل في هذه الآية الكريمة اختلافاً كثيراً، وأشهر الأقوال في ذلك أنهم خمسة، وهم الذين قدّمنا ذكرهم في الأحزاب والشورى، وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

وعلى هذا القول فالرسل الذين أمر رسول الله ﷺ أن يصبر كما صبروا أربعة فصار هو ﷺ خامسهم.

واعلم أن القول بأن المراد بأولي العزم جميع الرسل - عليهم الصلاة والسلام -، وأن لفظة «من»، في قوله: «من الرسل» بيانية يظهر أنه خلاف التحقيق، كما دل على ذلك بعض الآيات القرآنية كقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾... الآية [القلم: ٤٨]، فأمر الله - جلّ وعلا - نبيه في آية القلم هذه بالصبر، ونهاه عن أن

يكون مثل يونس؛ لأنه هو صاحب الحوت وكقوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَسَىٰ وَلَمْ يُحَذِّرْ لَمْ عَزْمًا ۝١٥﴾ [طه] فآية القلم، وآية طه المذكورتان كلتاها تدل على أن أولي العزم من الرسل الذين أمر النبي ﷺ بأن يصبر كصبرهم ليسوا جميع الرسل والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَّهُمْ﴾. نهى الله نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يستعجل العذاب لقومه، أي يدعو الله عليهم بتعجيله لهم، فمفعول «تستعجل» محذوف تقديره العذاب، كما قاله القرطبي، وهو الظاهر.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي عن طلب تعجيل العذاب لهم جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْكَذِبِينَ أَُولَىٰ النَّعْمَةِ وَمَهَلُكُمْ قَلِيلًا ۝١١﴾ [المزمل]. وقوله تعالى: ﴿مَهَلُ الْكَافِرِينَ أَهْمُكُمْ رُؤْيَا ۝١٧﴾ [الطارق].

فإن قوله: ﴿وَمَهَلُكُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١]، وقوله: ﴿مَهَلُ الْكَافِرِينَ أَهْمُكُمْ رُؤْيَا ۝١٧﴾ [الطارق]، موضح لمعنى قوله: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَّهُمْ﴾.

والمراد بالآيات نهيهم ﷺ عن طلب تعجيل العذاب لهم؛ لأنهم معذبون لا محالة عند انتهاء المدة المحددة للإمهال، كما يوضحه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ۝١٨﴾ [مريم]. وقوله تعالى: ﴿نُمِيعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٢٤﴾ [القمان]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمِيعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۝١٢٦﴾ [البقرة: ١٢٦]. وقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ۝١٢٦﴾ [البقرة: ١٢٦]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝١٩﴾ [النجم: ١٩]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝٢٠﴾ [يونس: ٢٠]. إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾.

قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥] وفي سورة قد أفلح المؤمنون في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَيْسَآ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْخُلِ الْعَادِينَ ۝١٠٧﴾ [المؤمنين].

وبيّنا في الكلام على آية قد أفلح المؤمنون وجه إزالة إشكال معروف في الآيات المذكورة.

قوله تعالى: ﴿بَلَّغْ﴾. التحقيق - إن شاء الله - أن أשוב القولين في قوله: ﴿بَلَّغْ﴾ أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا بلاغ، أي هذا القرآن بلاغ من الله إلى خلقه.

ويدل لهذا قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، وقوله في الأنبياء: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَصِيدِينَ ۝١٦١﴾ [الأنبياء: ١٦١]، وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

والبلاغ اسم مصدر، بمعنى التبليغ، وقد علم باستقراء اللغة العربية، أنَّ الفاعل يأتي كثيراً بمعنى التفعيل، كبلغه بلاغاً، أي تبليغاً، وكلمه كلاماً، أي تكليماً، وطلقها طلاقاً، وسرحها سراحاً، وبينه بياناً.

كل ذلك بمعنى التفعيل؛ لأنَّ فَعَّل مضعفة العين غير معتلة اللام ولا مهموزة قياس مصدرها التفعيل.

وما جاء منه على خلاف ذلك، يحفظ ولا يقاس عليه، كما هو معلوم في محله. أما القول بأنَّ المعنى وذلك اللبث بلاغ، فهو خلاف الظاهر كما ترى، والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

سُورَةُ الْقِتَالِ وَهِيَ سُورَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ۖ﴾ (١) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۖ﴾ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ۖ﴾ (٣).

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، قال بعضهم: هو من الصدود؛ لأنَّ صد في الآية لازمة، وقال بعضهم: هو من الصد؛ لأنَّ صد في الآية متعدية، وعليه: فالمفعول محذوف؛ أي صدوا غيرهم عن سبيل الله، أي عن الدخول في الإسلام.

وهذا القول الأخير هو الصواب؛ لأنه على القول بأنَّ صد لازمة، فإن ذلك يكون تكراراً مع قوله: ﴿كَفَرُوا﴾؛ لأنَّ الكفر هو أعظم أنواع الصدود عن سبيل الله.

وأما على القول: بأنَّ صدّ متعدية فلا تكرار؛ لأنَّ المعنى أنهم ضالون في أنفسهم، مضلون لغيرهم بصددهم إياهم عن سبيل الله. وقد قدّمنا في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيَوَةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ [النحل: ٩٧]، أن اللفظ إذا دار بين التأكيد والتأسيس وجب حمله على التأسيس، إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾؛ أي أبطل ثوابها، فما عمله الكافر من حسن في الدنيا، كقرى الضيف، وبر الوالدين، وحمى الجار، وصلة الرحم، والتنفيس عن المكروب، يبطل يوم القيامة، ويضمحل ويكون لا أثر له، كما قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَنْ مَاعِزٍ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان]، وهذا هو الصواب في معنى الآية.

وقيل: أضل أعمالهم؛ أي أبطل كيدهم الذي أرادوا أن يكيدوا به النبي ﷺ.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾؛ أي غفر لهم ذنوبهم وتجاوز لهم عن أعمالهم السيئة ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾؛ أي أصلح لهم شأنهم وحالهم إصلاحاً لا فساد معه، وما ذكره - جلّ وعلا - هنا في أول هذه السورة الكريمة، من أنه يبطل أعمال الكافرين، ويبقى أعمال المؤمنين جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦) ﴿[هود]. وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (٢٠) ﴿[الشورى]. وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ (٢٣) ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (٢٤) ﴿[الفرقان].

وقد قدّمنا الآيات الموضحة لهذا مع بعض الأحاديث الصحيحة فيه، مع زيادة إيضاح مهمة في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾ (٦٦) ﴿[الإسراء]. وفي سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرِ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ...﴾ الآية [النحل: ٩٧]، وذكرنا طرفاً منه في سورة الأحقاف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيْبَتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا...﴾ الآية [الأحقاف: ٢٠].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ أصله من الضلال بمعنى الغيبة، والاضمحلال، لا من الضالة كما زعمه الزمخشري فهو كقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤].

وقد قدّمنا معاني الضلال في القرآن واللغة، في سورة الشعراء، في الكلام على قوله: ﴿قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (٢٥) ﴿[الشعراء]، وفي آخر الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ١٠٤]، وفي غير ذلك من المواضع.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ قد قدّمنا إيضاحه في أول سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ...﴾ الآية [الإسراء: ٩]، وفي سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرِ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ...﴾ الآية [النحل: ٩٧].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَمَّا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾. قال فيه ابن كثير: هو عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته ﷺ، اهـ منه. ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مَرْيَبٍ مِنْهُ إِنَّهُ أَخْلَقَ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾؛ جملة اعتراضية تتضمن شهادة الله بأن هذا القرآن المنزل على هذا النبي الكريم ﷺ هو الحق من الله، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦]. قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) [الحاقة]. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَخُذُوا حِذْرًا فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ [يونس: ١٠٨]. وقال تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْنٍ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾؛ أي ذلك المذكور من إضلال أعمال الكفار أي إبطالها واضمحلالها، وبقاء ثواب أعمال المؤمنين، وتكفير سيئاتهم وإصلاح حالهم، كله واقع بسبب أن الكفار اتبعوا الباطل، ومن اتبع الباطل فعمله باطل، والزائل المضمحل تسميه العرب باطلاً وضده الحق. ويسبب أن الذين آمنوا اتبعوا الحق، ومتبع الحق أعماله حق، فهي ثابتة باقية، لا زائلة مضمحلة.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن اختلاف الأعمال، يستلزم اختلاف الثواب، لا يتوهم استواءهما إلا الكافر الجاهل، الذي يستوجب الإنكار عليه، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿أَفَجَعَلَ السَّالِفِينَ كَالْآخِرِينَ (٢٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٢٦)﴾ [القلم]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (١٨)﴾ [ص]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْجَمُهُمْ وَمَعَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١١)﴾ [الجاثية].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾، قال فيه الزمخشري: فإن قلت: أين ضرب الأمثال؟ قلت: في جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين.

أو في أن جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار، وتكفير السيئات مثلاً لنفوز المؤمنين، اهـ. منه، وأصل ضرب الأمثال يراد منه بيان الشيء بذكر نظيره الذي هو مثل له.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَخْتَضَمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الرُّءُوسَ أَوْ رِجَالَهُمْ﴾. قوله تعالى: فضرب الرقاب مصدر نائب عن فعله، وهو بمعنى فعل الأمر، ومعلوم أن صيغ الأمر في اللغة العربية أربع:

وهي فعل الأمر كقوله تعالى: ﴿أَقْرِ الصَّلَاةَ لِذَلِكَ الشَّمْسِ﴾... الآية [الإسراء: ٧٨].

واسم فعل الأمر كقوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾... الآية [المائدة: ١٠٥].

والفعل المضارع المجزوم بلام الأمر كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلَيُوفُوا نُذُرَهُمْ﴾... الآية [الحج: ٢٩].

والمصدر النائب عن فعله كقوله تعالى: ﴿فَضْرِبَ الرِّقَابِ﴾؛ أي فاضربوا رقابهم، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخْتَضَمْتُمُوهُمْ﴾، أي أوجعتم فيهم قتلاً.

فالإثخان هو الإكثار من قتل العدو حتى يضعف ويثقل عن النهوض.
وقوله: ﴿تَشُدُّوْا أَلْوَتَاكُ﴾؛ أي فأسروهم، والوثاق بالفتح والكسر اسم لما يؤسر به الأسير من قد ونحوه.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من الأمر بقتل الكفار حتى يثخنهم المسلمون، ثم بعد ذلك يأسروهم جاء موضحاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنْيَ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَتَخَرَّجَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]، وقد أمر تعالى بقتلهم في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿فَاَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾. [التوبة: ٥]. وقوله: ﴿فَاصْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَابِ وَاصْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]. وقوله: ﴿فَإِمَّا تَثَقَّفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَفَرِّدْ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٧].
وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾؛ أي إما تمنون عليهم مناً، أو تفادونهم فداءً.

ومعلوم أنّ المصدر إذا سيق لتفصيل وجب حذف عامله، كما قال في الخلاصة:
وما لتفصيل كما منا عامله يحذف حيث عنا
ومنه قول الشاعر:

لأجهدن فيما درء واقعة تخشى وإما بلوغ السؤل والأمل

وقال بعض العلماء: هذه الآية منسوخة بالآيات التي ذكرنا قبلها، وممن يروى عنه هذا القول، ابن عباس، والسدي وقتادة، والضحاك، وابن جريج. وذكر ابن جرير عن أبي بكر رضي الله عنه ما يؤيده.

ونسخ هذه الآية هو مذهب أبي حنيفة رحمته الله فإنه لا يجوز عنده المن ولا الفداء؛ لأنّ الآية منسوخة عنده بل يخير عنده الإمام بين القتل والاسترقاق.

ومعلوم أنّ آيات السيف النازلة في براءة نزلت بعد سورة القتال هذه.

وأكثر أهل العلم يقولون: إنّ الآية ليست منسوخة، وأنّ جميع الآيات المذكورة، محكمة، فالإمام مخير وله أن يفعل ما رآه مصلحة للمسلمين من من وفداء وقتل واسترقاق. وحول هذه المسألة أقوال للعلماء ذكرها الشيخ تفصيلاً فليرجع من أراد الوقوف عليها للأصل.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (٧).

ذكر الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أن المؤمنين إن نصروا ربهم نصرهم على أعدائهم، وثبت أقدامهم، أي عصمهم من الفرار والهزيمة.

وقد أوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، ويبيّن في بعضها صفات الذين وعدهم بهذا النصر كقوله تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]،

ثم بين صفات الموعودين بهذا النصر في قوله تعالى بعده: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿١٠﴾﴾ [الحج: ٤٧]، وكقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآية [غافر: ٥١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الرَّسُولِ ﴿١١﴾ إِنَّهُمْ لَكُمُ الْمَصُورُونَ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الصافات: ١١-١٣]، إلى غير ذلك من الآيات. وقوله تعالى في بيان صفات من وعدهم بالنصر في الآيات المذكورة: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾... الآية [الحج: ٤١]، يدل على أن الذين لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، ليس لهم وعد من الله بالنصر البتة. فمثلهم كمثل الأجير الذي لم يعمل لمستأجره شيئاً ثم جاءه يطلب منه الأجرة.

فالذين يرتكبون جميع المعاصي ممن يتسمون باسم المسلمين، ثم يقولون: إن الله سينصرنا، مغررون لأنهم ليسوا من حزب الله الموعودين بنصره كما لا يخفى.

ومعنى نصر المؤمنين لله، نصرهم لدينه ولكتابه، وسعيهم وجهادهم في أن تكون كلمته هي العليا، وأن تقام حدوده في أرضه، وتمثل أوامره وتجتنب نواهيه، ويحكم في عبادته بما أنزل على رسوله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَلُهَا ﴿١٤﴾﴾. قد قدمنا إيضاحه في سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]، وأحلنا على الآيات الموضحة لذلك في سورة الروم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ﴾... الآية [الروم: ٩]؛ وأوضحناها في الزخرف، في الكلام على قوله: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾... الآية [الزخرف: ٨]. وفي الأحقاف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾... الآية [الأحقاف: ٢٦]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنْ قَرَبِهِ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرَيْكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ والآيات التي توضح معنى هذه الآية، هي المشار إليها في نفس الآية، التي ذكرنا قبلها، وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من إخراج كفار مكة للنبي ﷺ منها بينه في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ الآية [المتحنة: ١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقد أخرجوه فعلاً بمكرهم المذكور، وبين - جلّ وعلا - أن النبي ﷺ وأصحابه الذين أخرجوا من ديارهم لا ذنب لهم يستوجبون به الإخراج إلا الإيمان بالله، كما قال

تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَيَأْتِيَكُمُ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [المتحنة: ١]؛ أي يخرجون الرسول وإياكم لأجل إيمانكم بربكم.

وقال تعالى في إخراجهم له: ﴿أَلَا تَقْنَلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرُّسُولِ﴾... الآية [التوبة: ١٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن كثير بهمزة مفتوحة بعد الكاف وياء مشددة مكسورة ونون ساكنة، وقرأه ابن كثير: «وكأئن»، بالالف بعد الكاف، وهمزة مكسورة، وكلهم عند الوقف يقفون على النون الساكنة، كحال الصلة، إلا أبا عمرو فإنه يقف على الياء.

وقد قدمنا أوجه القراءة في «كأين» ومعناها، وما فيها من اللغات، مع بعض الشواهد العربية في سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ الآية [الحج: ٤٥].

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنَ الْمَاءِ الْيَسْبِغِ فِيهَا ذُكْرُهَا اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَيْنَ بَعْضِ صِفَاتِهَا فِي آيَاتٍ أُخْرَى كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَجَرَّى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥]، في آيات كثيرة، وقوله: ﴿وَمَلَأَ مَسْكُوبٍ﴾ [الواقعة: ٢٦]. وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٢٧]. وقوله: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ [الغاشية: ٢٨]. وقد بين تعالى من صفات خمر الجنة أنها لا تسكر شاربيها، ولا تسبب له الصداع الذي هو وجع الرأس في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿لَا يَصُدُّونَ عَنْهَا وَلَا يَرْفُونَ﴾ [الواقعة: ٢٩]. وقوله: ﴿لَا فِيهَا عَوَلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُزْفُونَ﴾ [الصفافات: ٣٠].

وقد قدمنا معنى هذه الآيات بإيضاح في سورة المائدة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُفْرُ وَالْبَيْسُ وَالْأَصَابُ وَالْأَذَلَمُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾... الآية [المائدة: ٩٠]. وقوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿غَيْرِ آسِنٍ﴾؛ أي غير متغير اللون ولا الطعم. والآسن والآجن معناهما واحد، ومنه قول ذي الرمة:

ومنهل آجن قفر محاضره تذرو الرياح على جماته البعرا
وقول الراجز:

ومنهل فيه الغراب ميت كأنه من الأجون زيت
سقيت منها القوم واستقيت

وبما ذكرنا تعلم أن قوله: ﴿غَيْرِ آسِنٍ﴾، كقوله: ﴿مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾، قد بين تعالى في سورة البقرة، أن الثمار التي يرزقها أهل الجنة يشبه بعضها بعضاً في الجودة، والحسن، والكمال، ليس فيها شيء رديء، وذلك في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة: ٢٥].

قوله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاهُمْ﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يُصَبِّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ ﴿١٦﴾ يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠].

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿١٦﴾ [الزخرف].

قوله تعالى: ﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾، التحقيق - إن شاء الله تعالى - في معنى هذه الآية الكريمة أن الكفار يوم القيامة إذا جاءتهم الساعة، يتذكرون ويؤمنون بالله ورسله، وأن الإيمان في ذلك الوقت لا ينفعهم لفوات وقته فقوله: ﴿ذِكْرُهُمْ﴾؛ مبتدأ خبره ﴿فَأَنَّى لَهُمْ﴾؛ أي كيف تنفعهم ذكراهم وإيمانهم بالله، وقد فات الوقت الذي يقبل فيه الإيمان. والضمير المرفوع في ﴿جَاءَتْهُمْ﴾؛ عائد إلى الساعة التي هي القيامة.

وهذا المعنى: الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الكفار يوم القيامة يؤمنون ولا ينفعهم إيمانهم، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا ءَأَمَّا بِنَا وَأَنَّى لَهُمُ اتِّنَاؤُسٌ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿٥١﴾ [سبا]، وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُ يَوْمَئِذٍ يَوْمِئِذٍ بِذِكْرِ الْإِنْسَانِ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ ﴿١٣٢﴾ [الفجر].

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْيِيْلَهُ﴾. إلى قوله: ﴿أَوْ تَرُدُّ فَعْمَلَ غَيْرِ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]. فظهر أن قوله: ﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾؛ على حذف مضاف، أي أنى لهم نفع ذكراهم. والذكرى اسم مصدر بمعنى الاتعاظ الحامل على الإيمان. قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً مُحْكَمَةً وَذَكَرَ فِيهَا الْفِتَالَ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْنِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾، ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه إذا أنزل سورة محكمة، أي متقنة الألفاظ والمعاني، واضحة الدلالة، لا نسخ فيها وذكر فيها وجوب قتال الكفار، تسبب عن ذلك كون الذين في قلوبهم مرض أي شك ونفاق، ينظرون كنظر الإنسان الذي يغشى عليه؛ لأنه في سياق الموت، لأنّ نظر من كان كذلك تدور فيه عينه ويزيغ بصره.

وهذا إنّما وقع لهم من شدة الخوف من بأس الكفار المأمور بقتالهم.

وقد صرح - جلّ وعلا - بأن ذلك من الخوف المذكور في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩].

وقد بين تعالى أن الأغنياء من هؤلاء المنافقين، إذا أنزل الله سورة فيها الأمر بالجهاد، استأذنوا النبي ﷺ في التخلف عن الجهاد، وذهبهم الله على ذلك، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً أَنْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أَُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَتْلَعِينَ﴾ ﴿٨١﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿٨٧﴾ [التوبة].

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ ﴿٢٤﴾. الهمزة في قوله: «أفلا يتدبرون» للإنكار، والفاء عاطفة على جملة محذوفة، على أصح القولين، والتقدير أيعرضون عن كتاب الله فلا يتدبرون القرآن كما أشار له في الخلاصة بقوله:

وحذف متبوع بدا هنا استبح

وقوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾؛ «أم» فيه منقطعة بمعنى بل، فقد أنكر تعالى عليهم إعراضهم عن تدبر القرآن، بأداة الإنكار التي هي الهمزة، وبين أن قلوبهم عليها أقفال لا تفتح لخير، ولا لفهم قرآن.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من التوبيخ والإنكار على من أعرض عن تدبر كتاب الله، جاء موضحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانِ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ ﴿٨٧﴾ [النساء]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَذْكُرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٣١﴾ [المؤمنون]، وقوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزِلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَرَكًا لِيَتَّبِعُوا وَاتَّقُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٢١﴾ [ص].

وقد ذم - جلّ وعلا - المعرض عن هذا القرآن العظيم في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾... الآية [الكهف: ٥٧]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فُزِعْ عَنْهَا﴾ ﴿٣١﴾ [السجدة: ٢٢].

ومعلوم أن كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم أي تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها والعمل بها، فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات إن كان الله أعطاه فهماً يقدر به على التدبر، وقد شكك النبي ﷺ إلى ربه من هجر قومه هذا القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنِّي قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ ﴿٢٧﴾ [الفرقان].

وهذه الآيات المذكورة تدل على أن تدبر القرآن وتفهمه وتعلمه والعمل به، أمر لا بد منه للمسلمين.

وقد بين النبي ﷺ أن المشتغلين بذلك هم خير الناس. كما ثبت عنه ﷺ في الصحيح من حديث عثمان بن عفان ؓ أنه قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ نِعْمَ كُنْتُمْ تُعْلِمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

فإعراض كثير من الأقطار عن النظر في كتاب الله وتفهمه والعمل به وبالسنّة الثابتة المبيّنة له؛ من أعظم المناكر وأشنعها، وإن ظن فاعلوه أنهم على هدى.

ولا يخفى على عاقل أن القول بمنع العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ اكتفاء عنهما بالمذاهب المدونة، وانتفاء الحاجة إلى تعلمهما، لوجود ما يكفي عنهما من مذاهب الأئمة من أعظم الباطل.

وهو مخالف لكتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة ومخالف لأقوال الأئمة الأربعة.

فمركبه مخالف لله ولرسوله ولأصحاب رسوله جميعاً وللأئمة رحمهم الله، كما ستزى إيضاحه - إن شاء الله تعالى -.

وهناك مسائل عديدة متعلقة بهذا المعنى تناولها الشيخ باستفاضة فليرجع من أراد الوقوف عليها للأصل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمِّنْ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ٢٥﴾ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ٢٦ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ٢٧ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ أَتْبَعُوا مَا اسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَنَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ٢٨﴾.

الظاهر أنَّ الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى قوم كفروا بعد إيمانهم. وقال بعض العلماء: هم اليهود الذين كانوا يؤمنون بنبينا محمد ﷺ فلما بعث وتحققوا أنَّه هو النبي الموصوف في كتبهم كفروا به.

وعلى هذا القول فارتدادهم على أدبارهم هو كفرهم به بعد أن عرفوه وتيقنوه، وعلى هذا فالهدى الذي تبين لهم هو صحة نبوته ﷺ ومعرفته بالعلامات الموجودة في كتبهم.

وعلى هذا القول فهذه الآية يوضحها قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ٨٩﴾ [البقرة]، لأن قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ مبين معنى قوله: ﴿مِّنْ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾، وقوله: ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ مبين معنى قوله: ﴿ارْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ﴾. وقال بعض العلماء: نزلت الآية المذكورة في المنافقين.

وقد بين - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنَّ سبب ارتداد هؤلاء القوم من بعد ما تبين لهم الهدى، هو إغواء الشيطان لهم كما قال تعالى مشيراً إلى علة ذلك: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾؛ أي زين لهم الكفر والارتداد عن الدين، وأملى لهم؛ أي مد لهم في الأمر ووعدهم طول العمر.

قال الزمخشري: سول: سهل لهم ركوب العظائم من السؤل، وهو الاسترخاء، وقد اشتقه من السؤل من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعاً، وأملى لهم؛ ومد لهم في الآمال والأمانى، انتهى.

وإيضاح هذا أنَّ هؤلاء المرتدين على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى وقع لهم ذلك بسبب أنَّ الشيطان سول لهم ذلك؛ أي سهله لهم وزينه لهم وحسنه لهم ومناهم بطول الأعمار؛ لأنَّ طول الأمل من أعظم أسباب ارتكاب الكفر والمعاصي.

وفي هذا الحرف قراءتان سبعيتان: قرأه عامة السبعة غير أبي عمرو، «وَأَمْلَىٰ لَهُمْ» بفتح الهمزة واللام بعدها ألف وهو فعل ماض مبني للفاعل، وفاعله ضمير يعود إلى الشيطان.

وأصل الإملاء الإمهال والمد في الأجل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ إِنْ كِيدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا﴾... الآية [آل عمران: ١٧٨].

ومعنى إملاء الشيطان لهم وعده إياهم بطول الأعمار، كما قال تعالى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء].

وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾؛ إلى قوله: ﴿وَعِدُّهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤].

وقال بعض العلماء: ضمير الفاعل في قوله: ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ﴾؛ على قراءة الجمهور راجع إلى الله تعالى.

والمعنى: الشيطان ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾؛ أي سهل لهم الكفر والمعاصي، وزين ذلك وحسنه لهم، والله - جل وعلا - أَمَلِي لهم؛ أي أمهلهم إمهال استدراج.

وكون التسويل من الشيطان والإمهال من الله، قد تشهد لهم آيات من كتاب الله كقوله في تزوين الشيطان لهم: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَالَ لِيُفَسِّحُوا بَيْنَ يَدَيْهِمْ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ١٦]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. إلى غير ذلك من الآيات.

وكقوله تعالى في إملاء الله لهم استدراجاً: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ١٧]. وأَمَلِي لَهُمْ إِنْ كِيدِي مَتِينٌ [الأعراف: ١٧٨]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥]. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دُسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فُوحُوا بِمَاءٍ أُورُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٥]. وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُثَبِّهُ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ ٥٥ شَارِعٍ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥١]. والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقرأ هذا الحرف أبو عمرو وحده من السبعة: «وَأْمَلِي لَهُمْ» بضم الهمزة وكسر اللام بعدها ياء مفتوحة بصيغة الماضي المبني للمجهول والفاعل المحذوف فيه الوجهان المذكوران آنفاً في فاعل، «وَأْمَلِي لهم» على قراءة الجمهور بالبناء للفاعل.

وقد ذكرنا قريباً ما يشهد لكل منهما من القرآن كقوله تعالى في إملاء الشيطان لهم: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]. وقوله في إملاء الله لهم: ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ إِنْ كِيدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٧٨]. كما تقدم قريباً، والإشارة في قوله

تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ راجعة إلى قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾.

أي ذلك التسويل والإملاء المفضي إلى الكفر بسبب أنهم ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾.

وظاهر الآية يدل على أن بعض الأمر الذي قالوا لهم سنطيعكم فيه مما نزل الله وكرهه أولئك المطاعون.

والآية الكريمة تدل على أن كل من أطاع من كره ما نزل الله في معاونته له على كراهته وموازرتة له على ذلك الباطل، أنه كافر بالله بدليل قوله تعالى فيمن كان كذلك: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ يَصْرُوتُ وَجْهَهُمْ وَأَدْبَارُهُمْ ۖ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبِطْ أَعْمَلَهُمْ﴾.

وقد قدّمنا ما يوضح ذلك من القرآن في سورة الشورى، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] وفي مواضع عديدة من هذا الكتاب المبارك.

وبيّنا في سورة الشورى، أيضاً شدة كراهة الكفار لما نزل الله، وبيننا ذلك بالآيات القرآنية في الكلام على قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا دَعَوْهُمْ إِلَىٰ﴾ [الشورى: ١٣].

وقد قدّمنا مراراً أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾؛ قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة، عن عاصم: «أَسْرَارُهُمْ» بفتح الهمزة جمع سر.

وقراه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: «إِسْرَارَهُمْ» بكسر الهمزة مصدر أسر كقوله: ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٩]. وقد قالوا لهم ذلك سرّاً فأفشاء الله العالم بكل ما يسرون وما يعلنون.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ يَصْرُوتُ وَجْهَهُمْ وَأَدْبَارُهُمْ ۖ﴾ أي فكيف يكون حال هؤلاء إذا توفتهم الملائكة؟ أي قبض ملك الموت وأعوانه أرواحهم في حال كونهم ضاربين وجوههم وأدبارهم.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون الملائكة يتوفون الكفار وهم يضربون وجوههم وأدبارهم جاء موضحاً في مواضع آخر من كتاب الله كقوله تعالى في الأنفال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَصْرُوتُ وَجْهَهُمْ وَأَدْبَارُهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]، وقوله في الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ أُنْزِلُوا فِي عَمَرَاتِ النَّوَافِلِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣] فقوله: ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ [الأنعام: ٩٣]، أي بالضرب المذكور.

والإشارة في قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ﴾؛ راجعة إلى المصدر الكامن في الفعل الصناعي؛ أعني قوله: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]؛ أي ذلك الضرب وقت الموت واقع بسبب ﴿بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ﴾؛ أي أغضبه من الكفر به، وطاعة الكفار الكارهين لما نزل.

والإسقاط استجلاب السخط، وهو الغضب هنا، وقوله: ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾؛ لأن من أطاع من كره ما نزل الله فقد كره رضوان الله؛ لأن رضوانه تعالى ليس إلا في العمل بما نزل، فاستلزمت كراهة ما نزل كراهة رضوانه؛ لأن رضوانه فيما نزل، ومن أطاع كارهه، فهو ككارهه.

وقوله: ﴿فَأَخَاطُ أَعْمَلَهُمْ﴾؛ أي أبطلها؛ لأن الكفر سيئة لا تنفع معها حسنة، وقد أوضحنا المقام في ذلك إيضاحاً تاماً في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ٨١]. وفي سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيَوًى طَيِّبَةً﴾... الآية [النحل: ٩٧].

واعلم أن هذه الآية الكريمة، قد قال بعض العلماء: إنها نزلت في المنافقين، وقال بعضهم: إنها نزلت في اليهود، وأن المنافقين أو اليهود قالوا للكفار الذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر، وهو عداوة النبي ﷺ والتعويق عن الجهاد ونحو ذلك. وبعضهم يقول: إن الذين اتبعوا ما أسخط الله، هم اليهود حين كفروا بالنبي ﷺ لما عرفوه وكرهوا رضوانه، وهو الإيمان به ﷺ.

والتحقيق الذي لا شك فيه أن هذه الآيات عامة في كل ما يتناوله لفظها، وأن كل ما فيها من الوعيد عام لمن أطاع من كره ما نزل الله.

مسألة: اعلم أن كل مسلم يجب عليه في هذا الزمان تأمل هذه الآيات من سورة محمد وتدبرها، والحذر التام مما تضمنته من الوعيد الشديد؛ لأن كثيراً ممن ينتسبون للمسلمين داخلون بلا شك فيما تضمنته من الوعيد الشديد؛ لأن عامة الكفار من شرقيين وغربيين كارهون لما نزل الله على رسوله محمد ﷺ وهو هذا القرآن وما يبينه به النبي ﷺ من السنن.

فكل من قال لهؤلاء الكفار الكارهين لما نزل الله: سنطيعكم في بعض الأمر، فهو داخل في وعيد الآية.

وأحرى من ذلك من يقول لهم: سنطيعكم في كل الأمر؛ كالذين يتبعون القوانين الوضعية مطيعين بذلك للذين كرهوا ما نزل الله، فإن هؤلاء لا شك أنهم ممن تتوافهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم؛ وأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه، وأنه محبط أعمالهم، فاحذر كل الحذر من الدخول في الدين قالوا: سنطيعكم في بعض الأمر.

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَعْبَارَكُمْ﴾.

اللام في قوله: «لنبلونكم» موطئة لقسم محذوف، وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير شعبة عن عاصم بالنون الدالة على العظمة في الأفعال الثلاثة أعني لنبلونكم، ونعلم، ونبلو، وقرأه شعبة عن عاصم بالمشناة التحتية.

وضمير الفاعل يعود إلى الله وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الله - جلّ وعلا - يبلو الناس؛ أي يختبرهم بالتكاليف كبذل الأنفس والأموال في الجهاد ليميز بذلك صادقهم من كاذبهم، ومؤمنهم من كافرهم، جاء موضحاً في آيات أخر.

كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤] وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران] وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا أَنْ تَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ يَكْفُرُونَ﴾ [التوبة] وقوله تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت] وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَكُمْ عَلَىٰ الظُّلُمِ﴾ ... الآية [آل عمران: ١٧٩].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ﴾ ... الآية، قد قدمنا إزالة الإشكال في نحوه في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ ... الآية [البقرة: ١٤٣].

فقلنا في ذلك ما نصه: ظاهر هذه الآية قد يتوهم منه الجاهل أنه تعالى يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، بل هو تعالى عالم بكل ما سيكون قبل أن يكون.

وقد بين أنه لا يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه بقوله - جلّ وعلا -: ﴿وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلَيُمَصِّنَّكُمْ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ بعد قوله: «الليبتلي»، دليل قاطع على أنه لم يستفد بالاختبار شيئاً لم يكن عالماً به سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً؛ لأن العليم بذات الصدور غني عن الاختبار.

وفي هذه الآية بيان عظيم لجميع الآيات التي يذكر الله فيها اختباره لخلقه.

ومعنى ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾: أي علماً يترتب عليه الثواب والعقاب، فلا ينافي أنه كان عالماً به قبل ذلك، وفائدة الاختبار ظهور الأمر للناس؛ أما عالم السرى والنجوى، فهو عالم بكل ما سيكون، كما لا يخفى، اهـ.

قال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه: «وهذا العلم هو العلم الذي يقع عليه به الجزاء لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم، فتأويله حتى نعلم المجاهدين علم شهادة؛ لأنهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا، فالجزاء بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة، ونبلو أخباركم نخبرها ونظهرها» انتهى محل الغرض منه.

وقال أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه: «ولنبلونكم أيها المؤمنون بالقتل وجهاد أعداء الله حتى نعلم المجاهدين منكم يقول: حتى يعلم حزبي وأوليائي أهل الجهاد في الله منكم وأهل الصبر على قتال أعدائه، فيظهر ذلك لهم، ويعرف ذوو البصائر منكم في دينه من ذوي الشك والحيرة فيه، وأهل الإيمان من أهل النفاق، ونبلو أخباركم فنعرف الصادق منكم من الكاذب»، انتهى محل الغرض منه بلفظه.

وما ذكره من أن المراد بقوله: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ﴾... الآية، حتى يعلم حزبنا وأوليائنا المجاهدين منكم والصابرين له وجه، وقد يرشد له قوله تعالى: ﴿وَنَبَلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾؛ أي نظهرها ونبرزها للناس.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]؛ لأن المراد يميز الخبيث من الطيب ظهور ذلك للناس.

ولذا قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، فتعلموا ما ينطوي عليه الخبيث والطيب، ولكن الله عرفكم بذلك بالاختبار والابتلاء الذي تظهر بسببه طوايا الناس من خبيث وطيب، والقول الأول وجيه أيضاً، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَالُهُمْ﴾. الظاهر أن «صدوا» في هذه الآية متعدية، والمفعول محذوف، أي كفروا وصدوا غيرهم عن سبيل الله فهم ضالون مضلون.

وقد قدمنا في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلَنَحْيِيَنَّاهُ حَيَوَهُ طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ [النحل: ٩٧]. أن التأسيس مقدم على التوكيد كما هو مقرر في الأصول. وصدوا هنا، إن قدرت لازمة؛ فمعنى الصدود الكفر، فتكون كالتوكيد لقوله «كفروا».

وإن قدرت متعدية كان ذلك تأسيساً؛ لأن قوله: كفروا يدل على كفرهم في أنفسهم. وقوله: «وصدوا» على أنه متعد يدل على أنهم حملوا غيرهم على الكفر و«صدوهم» عن الحق، وهذا أرجح مما قبله.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾؛ أي خالفوا محمداً ﷺ مخالفة شديدة.

وقد دلت هذه الآية الكريمة على أمرين: أحدهما: أن الذين كفروا وصدوا غيرهم عن الحق وخالفوه ﷺ لن يضرروا الله بكفرهم شيئاً؛ لأنه غني لذاته الغني المطلق.

والثاني: أنهم إنما يضرون بذلك أنفسهم؛ لأن ذلك الكفر سبب لإحباط أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَسَيُحِطُّ أَعْمَالُهُمْ﴾.

وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة جاءا موضحين في آيات من كتاب الله.

فمن الآيات الدالة على الأول الذي هو غنى الله عن خلقه، وعدم تضرره بمعصيتهم: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ [الزمر: ٧] وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨] وقوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨] وقوله تعالى: ﴿فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَعَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦] وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنَّهُمْ أَفْقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] إلى غير ذلك من الآيات.

ومن الآيات الدالة على الثاني؛ وهو إحباط أعمالهم بالكفر أي إبطالها به: قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ ... الآية [إبراهيم: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَرِيمٍ يَجْعَلُهُ الظُّلُمَاتُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُمْ نَذِيرُهُمْ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩] وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطَلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١١] إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ ... الآية.

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [٥١] وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ [٥٢] [النور: ٥١] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ ... الآية [التوبة: ٧].

ولا شك عند أحد من أهل العلم أن طاعة الله ورسوله المذكورة في هذه الآيات ونحوها من نصوص الوحي، محصورة في العمل بكتاب الله وستة رسوله ﷺ، فنصوص القرآن والسنة كلها دالة على لزوم تدبر الوحي، وتفهمه وتعلمه والعمل به. فتخصيص تلك النصوص كلها، بدعوى أن تدبر الوحي وتفهمه والعمل به لا يصح شيء منه إلا لخصوص المجتهدين، الجامعين لشروط الاجتهاد المعروفة عند

متأخري الأصوليين، يحتاج إلى دليل يجب الرجوع إليه. ولا دليل على ذلك البتة، بل أدلة الكتاب والسنة، دالة على وجوب تدبر الوحي، وتفهمه وتعلمه والعمل بكل ما علم منه علماً صحيحاً قليلاً كان أو كثيراً.

قد قدمنا كثيراً جداً من الآيات المماثلة له قريباً في جملة كلامنا الطويل على قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ﴾... الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۖ﴾. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن من مات على الكفر لن يغفر الله له؛ لأن النار وجبت له بموته على الكفر، جاء موضحاً في آيات آخر من كتاب الله.

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ مِنَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ أَقْنَدْنَا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۝﴾ [آل عمران]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْقَرُونَ ۝﴾ [البقرة]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا الَّذِينَ يُمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝﴾ [النساء: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَزِدْكُمْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَبَّ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝﴾ [البقرة: ٢١٧].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَِّ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَزِيَّكُمْ أَعْمَلُكُمْ ۝﴾. قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير حمزة وشعبة عن عاصم: «إلى السلم» بفتح السين، وقرأ حمزة وشعبة: «إلى السلم» بكسر السين.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهْتُوا﴾ أي لا تضعفوا وتذلوا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ۝﴾ [الأنفال] أي مضعف كيدهم، وقول زهير بن أبي سلمى:

وأخلفتك ابنة البكري ما وعدت فأصبح الحبل منها واهناً خلقاً

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾؛ جملة حالية؛ أي فلا تضعفوا عن قتال الكفار وتدعوا إلى السلم، أي تبدعوا بطلب السلم أي الصلح والمهادنة وأنتم الأعلون؛ أي والحال أنكم أنتم الأعلون أي الأقهرون الأغلبون لأعدائكم، ولأنكم ترجون من الله من النصر والثواب ما لا يرجون.

وهذا التفسير في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾؛ هو الصواب، وتدل عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى بعده: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾؛ لأن من كان الله معه هو الأعلى وهو الغالب وهو القاهر المنصور الموعود بالثواب.

فهو جدير بأن لا يضعف عن مقاومة الكفار ولا يبدأهم بطلب الصلح والمهادنة.

وكقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْقَلِيلُونَ﴾ [الصافات]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١]، وقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤].

ومما يوضح معنى آية القتال هذه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾... الآية [النساء: ١٠٤]؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾؛ من النصر الذي وعدكم الله به والغلبة وجزيل الثواب، وذلك كقوله هنا: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾؛ وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾؛ أي بالنصر والإعانة والثواب.

واعلم أن آية القتال هذه لا تعارض بينها وبين آية الأنفال حتى يقال: إن إحداهما ناسخة للأخرى، بل هما محكمتان وكل واحدة منهما منزلة على حال غير الحال التي نزلت عليه الأخرى.

فالنهي في آية القتال هذه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَِّ﴾؛ إنما هو عن الابتداء بطلب السلم.

والأمر بالجنوح إلى السلم في آية الأنفال محله فيما إذا ابتدأ الكفار بطلب السلم والجنوح لها، كما هو صريح قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنِبْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾... الآية [الأنفال: ٦١].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾؛ قد قدمنا الآيات الموضحة له في آخر سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٧٨]، وهذا الذي ذكرنا في معنى هذه الآية أولى وأصوب مما فسرنا به ابن كثير رحمته.

وهو أن المعنى لا تدعوا إلى الصلح والمهادنة وأنتم الأعلى؛ أي في حال قوتكم وقدرتكم على الجهاد.

أي، وأما إن كنتم في ضعف وعدم قوة فلا مانع من أن تدعوا إلى السلم أي الصلح والمهادنة، ومنه قول العباس بن مرداس السلمي:

السلم تأخذ منها ما رضيت به والحرب تكفيك من أنفاسها جرع

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَنْ يَرْكُزَ أَعْمَلُكُمْ﴾؛ أي لن ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم، وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة من عدم نقصه تعالى شيئاً من ثواب الأعمال جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾ [الحجرات: ١٤]؛ أي لا ينقصكم من ثوابها شيئاً، وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة، وقد قدمناها مراراً.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَنْ يَزِيَكُمْ﴾؛ أصله من الوتر، وهو الفرد، فأصل قوله: ﴿وَلَنْ يَزِيَكُمْ﴾؛ لن يفردكم ويجردكم من أعمالكم بل يوفيكُم إياها.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْزِرْكُمْ أَجُورُكُمْ﴾.

هذه الأجور التي وعد الله بها من آمن واتقى جاءت مبينة في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْزِرْكُمْ كَهَٰلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [الحديد]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ﴾. في هذه الآية الكريمة أوجه معلومة عند أهل التفسير، منها أن المعنى ولا يسألکم النبي ﷺ أموالکم أجراً على ما بلغكم من الوحي المتضمن لخير الدنيا والآخرة.

وهذا الوجه تشهد له آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبا: ٤٧] وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨١] وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ [الطور].

وقد قدّمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُوا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لََّا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩] وذكرنا بعض ذلك في سورة الشورى في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة له قريباً في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ ... الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة النساء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء].



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الفتح

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، التحقيق الذي عليه الجمهور أن المراد بهذا الفتح صلح الحديبية؛ لأنه فتح عظيم.

وإيضاح ذلك أن الصلح المذكور هو السبب الذي تهيأ به للمسلمين أن يجتمعوا

بالكفار فيدعوهم إلى الإسلام وبينوا لهم محاسنه. فدخل كثير من قبائل العرب بسبب ذلك في الإسلام.

ومما يوضح ذلك أن الذين شهدوا صلح الحديبية مع النبي ﷺ في ذي العقدة عام ست كانوا ألفاً وأربعمائة.

ولما أراد النبي ﷺ غزو مكة حين نقض الكفار العهد، كان خروجه إلى مكة في رمضان عام ثمان. وكان معه عشرة آلاف مقاتل، وذلك يوضح أن الصلح المذكور من أعظم الفتوح لكونه سبباً لقوة المسلمين وكثرة عددهم.

وليس المراد بالفتح المذكور فتح مكة، وإن قال بذلك جماعة من أهل العلم.

وإنما قلنا ذلك؛ لأن أكثر أهل العلم على ما قلنا؛ ولأن ظاهر القرآن يدل عليه؛ لأن سورة الفتح هذه نزلت بعد صلح الحديبية في طريقه ﷺ راجعاً إلى المدينة.

ولفظ الماضي في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ يدل على أن ذلك الفتح قد مضى، فدعوى أنه فتح مكة ولم يقع إلا بعد ذلك بقرب ستين خلاف الظاهر.

والآية التي في فتح مكة دلت على الاستقبال لا على الماضي، وهو قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ﴿١﴾ [النصر].

وقد أوضحنا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب معنى اللام في قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾، ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الإيمان يزيد؛ دلت عليه آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ثَلَيْتَ عَلَيْهِمْ ءَايَتَهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]. وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَّادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقوله تعالى: ﴿لَيَسْتَفِيقَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَزَادُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١]، إلى غير ذلك من الآيات، وقد أوضحناه مراراً.

والحق الذي لا شك فيه؛ أن الإيمان يزيد وينقص، كما عليه أهل السنة والجماعة، وقد دل عليه الوحي من الكتاب والسنة كما تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن له جنود السماوات والأرض، وبين في المدثر أن جنوده هذه لا يعلمها إلا هو، وذلك في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

قوله تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُتَفَقِّهِينَ وَالْمُتَفَقِّهَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظُلْمَ السَّوَةِ. أظهر الأقوال وأصحها في الآية أن اللام في قوله: ﴿لِيُدْخِلَ﴾ متعلقة بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾.

وأيضاح المعنى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾؛ أي السكون والطمأنينة إلى الحق، في قلوب المؤمنين، ليزدادوا بذلك إيماناً لأجل أن يدخلهم بالطمأنينة إلى الحق، وازدياد الإيمان جنات تجري من تحتها الأنهار.

ومفهوم المخالفة في قوله: ﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أن قلوب غير المؤمنين ليست كذلك وهو كذلك؛ ولذا كان جزاؤهم مخالفاً لجزاء المؤمنين كما صرح تعالى بذلك في قوله: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُتَفَقِّهِينَ وَالْمُتَفَقِّهَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظُلْمَ السَّوءِ﴾.

وأيضاح المعنى أنه تعالى وفق المؤمنين بإنزال السكينة، وازدياد الإيمان، وأشفى غيرهم من المشركين والمنافقين فلم يوقفهم بذلك ليجازى كلا بمقتضى عمله.

وهذه الآية شبيهة في المعنى بقوله تعالى في آخر الأحزاب: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ﴿٧٢﴾ لِعَذَابِ اللَّهِ الْمُتَفَقِّهِينَ وَالْمُتَفَقِّهَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴿[الأحزاب: ٧٢ - ٧٣].

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. بين - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يجازي المشركين والمشركات والمنافقين والمنافقات بثلاث عقوبات وهي غضبه، ولعنته، ونار جهنم.

وقد بين في بعض الآيات بعض نتائج هذه الأشياء الثلاثة، كقوله في الغضب: ﴿وَمَنْ يَجْلِئْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١]. وقوله في اللعنة: ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فْلَنَ نَجَدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٢]. وقوله في نار جهنم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ...﴾ الآية [آل عمران: ١٩٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٨﴾. بين - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أنه أرسل نبيه محمداً ﷺ شاهداً ومبشراً ونذيراً.

وقد بين تعالى أنه يبعثه ﷺ يوم القيامة شاهداً على أمته، وأنه مبشر للمؤمنين ومنذر للكافرين. قال تعالى في شهادته ﷺ يوم القيامة على أمته: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ﴿٨١﴾ [النساء]. وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النحل: ٨٩].

فآية النساء وآية النحل المذكورتان الدالتان على شهادته ﷺ يوم القيامة على أمته نبيان آية الفتح هذه.

وما ذكرنا من أنه مبشر للمؤمنين ونذير للكافرين أوضحه في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَنْزِلُكَ إِلَاسًا لَكَ تَبَشِّرْ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنَذِرْ بِهِ قَوْمًا لَدَا﴾ ﴿٧﴾ [مريم].

وقد أوضحنا هذا في أول سورة الكهف، وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، ذكره وزيادة في سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٥٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ [الأحزاب].

وقوله هنا: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾؛ حال مقدرة، وقوله: مبشراً ونذيراً كلاهما حال معطوف على حال.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾.

أمر الله - جلّ وعلا - نبيه أن يقول للمنافقين الذين تخلفوا عنه واعتذروا بأعذار كاذبة: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾؛ أي لا أحد يملك دفع الضر الذي أراد الله إنزاله بكم ولا منع النفع الذي أراد نفعكم به؛ فلا نافع إلا هو ولا ضار إلا هو تعالى، ولا يقدر أحد على دفع ضراره ولا منع نفعه إرادته.

وهذا الذي تضمنته هذه الآية الكريمة، جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى في الأحزاب: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب].

وقوله تعالى في آخر يونس: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾... الآية [يونس: ١٠٧].

وقوله في الأنعام: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى في النساء: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧].

وقوله تعالى في فاطر: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ﴾... الآية [فاطر: ٢].

وقوله تعالى في الملك: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي أَلْهَكُنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الملك].

وقد ذكرنا بعض الآيات الدالة على هذا في أول سورة فاطر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾... الآية، وفي سورة الأحقاف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَقْرَبْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [الأحقاف: ٨].

قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أنزل السكينة على رسوله وعلى المؤمنين، والسكينة تشمل الطمأنينة والسكون إلى الحق والثبات والشجاعة عند البأس.

وقد ذكر - جلّ وعلا - إنزاله السكينة على رسوله وعلى المؤمنين في براءة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٢٦]، وذكر إنزال سكينته على رسوله في قوله في براءة: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾... الآية [التوبة: ٤٠].

وذكر إنزاله سكينة على المؤمنين في قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾. وهذه الآيات كلها لم يبين فيها موضع إنزال السكينة، وقد بين في هذه السورة الكريمة أن محل إنزال السكينة هو القلوب، وذلك في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾... الآية.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾. ما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة ذكره في سورة التوبة، وسورة الصف، وزاد فيهما أنه فاعل ذلك، ولو كان المشركون يكرهونه، فقال في الموضعين: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩].

قوله تعالى: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة المائدة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿وَمُلَّاغٌ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَّجَ أَخْرَجَ شَطَطُهُمْ فَتَازَرَهُ فَاسْتَقْلَطَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

قرأ هذا الحرف ابن كثير وابن ذكوان عن ابن عامر: «شَطَا» بفتح الطاء، والباقون من السبعة بسكون الطاء، وقرأ عامة السبعة غير ابن ذكوان: «فَازَرَهُ» بآلف بعد الهمزة، وقرأ ابن ذكوان عن ابن عامر: «فَازَرَهُ» بلا ألف بعد الهمزة مجرداً. وقرأ عامة السبعة غير قبل: «على سُوقِهِ» بواو ساكنة بعد السين. وقرأ قبل عن ابن كثير بهمزة ساكنة بدلاً من الواو، وعنه ضم الهمزة بعد السين بعدها واو ساكنة.

وهذه الآية الكريمة قد بين الله فيها أنه ضرب المثل في الإنجيل للنبي ﷺ وأصحابه بأنهم كالزراع يظهر في أول نباته رقيقاً ضعيفاً متفرقاً، ثم ينبت بعضه حول بعض، ويغلظ ويتكامل حتى يقوى ويشتد وتعجب جودته أصحاب الزراعة، العارفين بها، فكَذلك النبي ﷺ وأصحابه كانوا في أول الإسلام في قلة وضعف ثم لم يزلوا يكثرُونَ ويزدادون قوة حتى بلغوا ما بلغوا.

وقوله تعالى: ﴿كَرَّجَ أَخْرَجَ شَطَطُهُمْ﴾؛ أي فراخه فنبت في جوانبه. وقوله: ﴿فَازَرَهُ﴾ على قراءة الجمهور من المؤازرة، بمعنى المعاونة والتقوية، وقال بعض العلماء: ﴿فَازَرَهُ﴾ أي ساواه في الطول، ويكل واحد من المعنيين فسر قول امرئ القيس:

بمحنية قد آزر الضال نبتها
مجر جيوش غانمين وخيب

وأما على قراءة ابن ذكوان (فأزره) بلا ألف، فالعنى شدة أزره؛ أي قواه.

ومنه قوله تعالى عن موسى: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَبَرًا مِّنْ أَهْلِ﴾ [٢٩] هَرُونَ أَخِي [٢٠] أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى [٢١] الآية [طه]. وقوله: ﴿فَاسْتَقْلَطَ﴾ أي صار ذلك الزرع غليظاً بعد أن كان رقيقاً، وقوله: ﴿فَاسْتَوَى﴾ أي استتم وتكامل على سوقه أي على قصبه.

وما تضمنته الآية الكريمة من المثل المذكور في الإنجيل المضروب للنبي ﷺ وأصحابه بأنهم يكونون في مبدأ أمرهم في قلة وضعف، ثم بعد ذلك يكثرون ويقوون، جاء موضحاً في آيات من كتاب الله تعالى كقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ...﴾ الآية [الأنفال: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]. وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَسِرَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٣]. إلى غير ذلك من الآيات.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحجرات

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْقَوُّوْا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: «لا تقدموا» فيه لعلماء التفسير ثلاثة أوجه:

الأول منها: وهو أصحها وأظهرها أنه مضارع قدم اللازمة بمعنى تقدم. ومنه مقدمة الجيش ومقدمة الكتاب بكسر الدال فيهما، وهو اسم فاعل قدم بمعنى تقدم. ويدل على هذا الوجه قراءة يعقوب من الثلاثة الذين هم تمام العشرة: «لَا تَقْدُمُوا» بفتح التاء والدال المشددة وأصله «لا تتقدموا» فحذفت إحدى التائين.

الوجه الثاني: أنه مضارع قدم المتعدي، والمفعول محذوف لإرادة التعميم؛ أي لا تقدموا قولاً ولا فعلاً بين يدي الله ورسوله بل أمسكوا عن ذلك حتى تصدروا فيه عن أمر الله ورسوله.

الوجه الثالث: أنه مضارع قدم المتعدية ولكنها أجريت مجرى اللازم، وقطع النظر عن وقوعها على مفعولها؛ لأنَّ المراد هو أصل الفعل دون وقوعه على مفعوله.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [غافر: ٦٨]، أي هو المتصف بالإحياء والإماتة، ولا يراد في ذلك وقوعهما على مفعول.

وكقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمْلِكُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]؛ لأنَّ المراد أن المتصفين بالعلم لا يستوون مع غير المتصفين به.

ولا يراد هنا وقوع العلم على مفعول، وكذلك على هذا القول: «لا تقدموا»، لا تكونوا من المتصفين بالتقديم.

وقد قدمنا في كلامنا الطويل على آية: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ﴾ [محمد: ٢٤]، أن لفظة بين يديه معناها أمامه، وذكرنا الآيات الدالة على ذلك.

والمعنى لا تتقدموا أمام الله ورسوله، فتقولوا في شيء بغير علم ولا إذن من الله، وهذه الآية الكريمة فيها التصريح بالنهي عن التقديم بين يدي الله ورسوله، ويدخل في ذلك دخولاً أولاً تشريع ما لم يأذن به الله وتحريم ما لم يحرمه، وتحليل ما لم يحلله؛ لأنه لا حرام إلا ما حرمه الله، ولا جلال إلا ما أحله الله، ولا دين إلا ما شرعه الله.

وقد أوضحنا هذا بالآيات القرآنية بكثرة في سورة الشورى، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وفي سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، وفي سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُمْ أَقَوْمٌ﴾ [الإسراء: ٩]، وفي غير ذلك من المواضع.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي بامتنال أمره واجتناب نهيه. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ فهو سميع لكل ما تقولون من التقديم بين يديه وغيره، عليم بكل ما تفعلون من التقديم بين يديه وغيره.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [١]. سبب نزول هذه الآية الكريمة أنه لما قدم على النبي ﷺ وفد تميم، أشار عليه أبو بكر رضي الله عنه أن يؤمر عليهم القعقاع بن معبد بن زرارة بن عدس، وأشار عليه عمر أن يؤمر عليهم الأقرع بن حابس بن عقال.

فقال له أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما فأنزل الله: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾، ذكره البخاري في صحيحه وغيره. وهذه الآية الكريمة علم الله فيها المؤمنين أن يعظموا النبي ﷺ ويحترموا ويوقروه، فنهاهم عن رفع أصواتهم فوق صوته، وعن أن يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض، أي ينادونه باسمه: يا محمد، يا أحمد، كما ينادي بعضهم بعضاً.

وإنما أمروا أن يخاطبوه خطاباً يليق بمقامه ليس كخطاب بعضهم لبعض، كأن يقولوا: يا نبي الله، أو يا رسول الله، ونحو ذلك.

وقوله: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾؛ أي لا تفعلوا ذلك لئلا تحبط أعمالكم، أو ينهاكم عن ذلك كراهة أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون؛ أي لا تعلمون بذلك.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من لزوم توقير النبي ﷺ وتعظيمه واحترامه جاء مبيناً في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩]، على القول بأن الضمير في تعزروه وتوقروه للنبي ﷺ، وقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، كما تقدم، وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ ... الآية [الأعراف: ١٥٧]. وقوله هنا: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾؛ أي لا تنادوه باسمه: يا محمد.

وقد دلت آيات من كتاب الله على أن الله تعالى لا يخاطبه في كتابه باسمه، وإنما يخاطبه بما يدل على التعظيم والتوقير كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤]. و﴿يَا أَيُّهَا أَرْسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]. و﴿يَا أَيُّهَا الْمُرْسَلُ﴾ [المزمل: ١]. و﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]. مع أنه ينادي غيره من الأنبياء بأسمائهم كقوله: ﴿وَقُلْنَا يَحْيَىٰ﴾ [البقرة: ٣٥]. وقوله: ﴿وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَكْرِهِيهِ﴾ [الصافات: ١٢٥]. وقوله: ﴿قَالَ يَنْحُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦]. قيل: ﴿يَنْحُوحُ أَهْبَطَ وَسَلِّمَ مِتْنَا﴾ [هود: ٤٨]. وقوله: ﴿قَالَ يَمْوَسَّىٰ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤]. وقوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: ٥٥]. وقوله: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾ [ص: ٢٦].

أما النبي ﷺ فلم يذكر اسمه في القرآن في خطاب، وإنما يذكر في غير ذلك كقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. وقوله: ﴿وَمَا نَزَّلْنَا عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ [محمد: ٢]. وقوله: ﴿ثُمَّ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقد بين تعالى أن توقيره واحترامه ﷺ بغض الصوت عنده لا يكون إلا من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، أي أخلصها لها وأن لهم بذلك عند الله المغفرة والأجر العظيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢).

وقال بعض العلماء في قوله: ﴿وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾؛ أي لا ترفعوا عنده الصوت كرفع بعضكم صوته عند بعض.

قال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية ما نصه: وفي هذا دليل على أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقاً، حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالهمس والمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفة، أعني الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوة، وجلالة مقدارها وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها، انتهى محل الغرض منه.

وظاهر هذه الآية الكريمة أن الإنسان قد يحبط عمله وهو لا يشعر، وقد قال القرطبي: إنه لا يحبط عمله بغير شعوره. وظاهر الآية يرد عليه.

وقد قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية، ما نصه: وقوله ﷺ: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾؛ أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك فيغضب الله تعالى لغضبه، فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدري، كما جاء في الصحيح: «إِنَّ الرَّجُلَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَلْقَىٰ لَهَا بَالاً يَكْتُبُ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَلْقَىٰ لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»، اهـ. محل الغرض منه بلفظه.

ومعلوم أن حرمة النبي ﷺ بعد وفاته كحرمته في أيام حياته، وبه تعلم أن ما

جرت به العادة اليوم من اجتماع الناس قرب قبره ﷺ وهم في صخب ولغط، وأصواتهم مرتفعة ارتفاعاً مزعجاً كله لا يجوز، ولا يليق، وإقرارهم عليه من المنكر. وقد شدد عمر رضي الله عنه النكير على رجلين رفعاً أصواتهما في مسجده ﷺ، وقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً.

مسألان:

الأولى: اعلم أنّ عدم احترام النبي ﷺ المشعر بالغض منه أو تنقيصه ﷺ والاستخفاف به أو الاستهزاء به ردة عن الإسلام وكفر بالله.

وقد قال تعالى في الذين استهزأوا بالنبي ﷺ وسخروا منه في غزوة تبوك لما ضلت راحلته: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ سَاهُونَ﴾ (٦٥) لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿[التوبة: ٦٥، ٦٦].

المسألة الثانية: وهي من أهم المسائل، اعلم أنّه يجب على كل إنسان أن يميز بين حقوق الله تعالى التي هي من خصائص ربوبيته، التي لا يجوز صرفها لغيره، وبين حقوق خلقه كحق النبي ﷺ ليضع كل شيء في موضعه، على ضوء ما جاء به النبي ﷺ في هذا القرآن العظيم والسنة الصحيحة.

وإذا عرفت ذلك فاعلم أنّ من الحقوق الخاصة بالله التي هي من خصائص ربوبيته التجاء عبده إليه إذا دهمته الكروب بالله التي لا يقدر على كشفها إلا الله.

فالتجاء المضطر الذي أحاطت به الكروب ودهمته الدواهي لا يجوز إلا لله وحده؛ لأنّه من خصائص الربوبية؛ فصرف ذلك الحق لله وإخلاصه له هو عين طاعة الله ومراضاته وطاعة رسوله ﷺ ومراضاته، وهو عين التوقير والتعظيم للنبي ﷺ؛ لأن أعظم أنواع توقيره وتعظيمه هو اتباعه والافتداء به في إخلاص التوحيد والعبادة له وحده - جلّ وعلا -.

وقد بيّن - جلّ وعلا - في آيات كثيرة من كتابه أن التجاء المضطر من عباده إليه وحده في أوقات الشدة والكرب من خصائص ربوبيته تعالى.

ومن أصرح ذلك الآيات التي في سورة النمل، أعنى قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾؛ إلى قوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٥٩ - ٦٤].

فإنه - جلّ وعلا - قال في هذه الآيات الكريّمات العظيّمات: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۚ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ﴾ (٥٩).

ثم بيّن خصائص ربوبيته الدالة على أنه المعبود وحده فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَائِقَ ذَاتٍ بِهَيْجَةٍ مَّا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تَنْبِتُوا شَجَرَهَا ۚ أَوَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (٦٠).

فهذه المذكورات التي هي خلق السماوات والأرض، وإنزال الماء من السماء وإنبات الحقائق ذات البهجة، التي لا يقدر على إنبات شجرها إلا الله، من خصائص ربوبية الله؛ ولذا قال تعالى بعدها: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَهِجَةُ؟﴾ يقدر على خلق السماوات والأرض وإنزال الماء من السماء وإنبات الحقائق به، والجواب لا؛ لأنه لا إله إلا الله وحده.

ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَادًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَهِجَةُ؟﴾ يقدر على خلق السماوات والأرض وإنزال الماء من السماء وإنبات الحقائق به، والجواب لا؛ لأنه لا إله إلا الله وحده.

فهذه المذكورات أيضاً، التي هي جعل الأرض قراراً، وجعل الأنهار خلالها، وجعل الجبال الرواسي فيها، وجعل الحاجز بين البحرين من خصائص ربوبية - جلّ وعلا -، ولذا قال بعد ذكرها: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَهِجَةُ؟﴾ والجواب لا.

فالاعتراف لله - جلّ وعلا - بأن خلق السماوات والأرض وإنزال الماء وإنبات النبات ونحو ذلك مما ذكر في الآيات من خصائص ربوبية - جلّ وعلا - هو الحق، وهو من طاعة الله ورسوله، ومن تعظيم الله وتعظيم رسوله بالاعتداء به ﷺ في تعظيم الله.

ثم قال تعالى وهو محل الشاهد: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَهِجَةُ؟﴾ يقدر على خلق السماوات والأرض وإنزال الماء من السماء وإنبات الحقائق به، والجواب لا؛ لأنه لا إله إلا الله وحده.

فهذه المذكورات التي هي إجابة المضطر إذا دعا، وكشف السوء وجعل الناس خلفاء في الأرض؛ من خصائص ربوبية - جلّ وعلا - ولذا قال بعدها: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَهِجَةُ؟﴾ يقدر على خلق السماوات والأرض وإنزال الماء من السماء وإنبات الحقائق به، والجواب لا؛ لأنه لا إله إلا الله وحده.

فتأمل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَهِجَةُ؟﴾ مع قوله: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ؟﴾ تعلم أن إجابة المضطرين إذا التجأوا ودعوا وكشف السوء عن المكروبين، لا فرق في كونه من خصائص الربوبية، بينه وبين خلق السماوات والأرض، وإنزال الماء وإنبات النبات، ونصب الجبال وإجراء الأنهار؛ لأنه - جلّ وعلا - ذكر الجميع بنسق واحد في سياق واحد، وأتبع جميعه بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَهِجَةُ؟﴾

فمن صرف شيئاً من ذلك لغير الله توجه إليه الإنكار السماوي الذي هو في ضمن قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَهِجَةُ؟﴾ فلا فرق البتة بين تلك المذكورات في كونها كلها من خصائص الربوبية.

ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ أَلْوَىٰ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَهِجَةُ؟﴾ يقدر على خلق السماوات والأرض وإنزال الماء من السماء وإنبات الحقائق به، والجواب لا؛ لأنه لا إله إلا الله وحده.

فهذه المذكورات التي هي هدى الناس في ظلمات البر والبحر، وإرسال الرياح بشراً، أي مبشرات بين يدي رحمته التي هي المطر، من خصائص ربوبية - جلّ وعلا -؛ ولذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَهِجَةُ؟﴾، ثم نزه - جلّ وعلا - نفسه عن أن يكون معه إله يستحق شيئاً مما ذكر، فقال - جلّ وعلا -: ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَهِجَةُ؟﴾ يقدر على خلق السماوات والأرض وإنزال الماء من السماء وإنبات الحقائق به، والجواب لا؛ لأنه لا إله إلا الله وحده.

فهذه المذكورات التي هي بدء خلق الناس وإعادته يوم البعث، وورقه للناس من السماء بإنزال المطر، ومن الأرض بإنبات النبات، من خصائص ربوبيته - جلّ وعلا -، ولذا قال بعدها: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ﴾. ثم عجز - جلّ وعلا - كل من يدعي شيئاً من ذلك كله لغير الله، فقال أمراً نبيه ﷺ بأن يخاطبهم بصيغة التعجيز: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وقد اتضح من هذه الآيات القرآنية؛ أنّ إجابة المضطرين الداعين، وكشف السوء عن المكروبين، من خصائص الربوبية كخلق السماوات والأرض، وإنزال الماء، وإنبات النبات، والحجز بين البحرين، إلى آخر ما ذكر.

وكون إجابة المضطرين وكشف السوء عن المكروبين من خصائص الربوبية، كما أوضحه تعالى في هذه الآيات من سورة النمل، جاء موضحاً في آيات أخرى:

كقوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ يَضْرِبْ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ يَضْرِبْ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ... الآية [فاطر: ٢].

فعلينا معاشر المسلمين أن نتأمل هذه الآيات القرآنية ونعتقد ما تضمنته ونعمل به لنكون بذلك مطيعين لله تعالى ولرسوله ﷺ معظمين لله ولرسوله؛ لأنّ أعظم أنواع تعظيم رسول الله ﷺ هو اتباعه والافتداء به في إخلاص العبادة لله - جلّ وعلا - وحده.

فإخلاص العبادة له - جلّ وعلا - وحده هو الذي كان يفعله ﷺ ويأمر به، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾. إلى قوله: ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [١٤] فاعبدوا ما شئتم مِنْ دُونِهِ [الزمر: ١١ - ١٥].

واعلم أن الكفار في زمن النبي ﷺ كانوا يعلمون علماً يقيناً أنّ ما ذكر من إجابة المضطر وكشف السوء عن المكروب من خصائص الربوبية، وكانوا إذا دهمتهم الكروب، كإحاطة الأمواج بهم في البحر في وقت العواصف، يخلصون الدعاء لله وحده، لعلمهم أن كشف ذلك من خصائصه، فإذا أنجاهم من الكرب رجعوا إلى الإشراك.

وقد بين الله - جلّ وعلا - هذا في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ فِيهِ بِرِيحٍ طَبَقَتْهُمَا فَجَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [٢٣] فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ [يونس: ٢٢، ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّكُمْ مِنَ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَجْنَنَّا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٦﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْكُرُونَ ﴿١٧﴾﴾ قُلْ هُوَ الْفَائِزُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ ﴿١٨﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَغْيَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَلَغَكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٢١﴾ أَفَأَمْسَرْتُمْ أَنْ يَخْشَفَ بِكُمْ جَانِبُ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٢٢﴾ أَمْ أَمْسَرْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلِيًا بِهِ إِلْيَمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الْدِّينَ فَلَمَّا بَلَغْنَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [العنكبوت]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَاطِلٌ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الْدِّينَ فَلَمَّا بَلَغْنَهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان: ٣٢].

وقد قدّمنا في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، أنّ سبب إسلام عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه أنّه لما فتح النبي ﷺ مكة ذهب فاراً منه إلى بلاد الحبشة، فركب في البحر متوجّها إلى الحبشة فجاءتهم ريح عاصف.

فقال القوم بعضهم لبعض: إنّّه لا يغني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده. فقال عكرمة في نفسه: والله إن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لا ينفع في البر غيره. اللهم لك علي عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد ﷺ فلا جدنه رؤوفاً رحيماً، فخرجوا من البحر فخرج إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه ﷺ، انتهى.

وقد قدّمنا هناك أنّ بعض المتسمين باسم الإسلام أسوأ حالاً من هؤلاء الكفار المذكورين؛ لأنهم في وقت الشدائد يلجأون لغير الله طالبيين منه ما يطلب المؤمنون من الله، وبما ذكر تعلم أنّ ما انتشر في أقطار الدنيا من الالتجاء في أوقات الكرب والشدائد إلى غير الله - جلّ وعلا - كما يفعلون ذلك قرب قبر النبي ﷺ وعند قبور من يعتقدون فيهم الصلاح؛ زاعمين أنّ ذلك من دين الله ومحبة الرسول ﷺ وتعظيمه ومحبة الصالحين كله من أعظم الباطل، وهو انتهاك لحرّمات الله وحرّمات رسوله.

لأنّ صرف الحقوق الخاصة بالخالق التي هي من خصائص ربوبيته إلى النبي ﷺ أو غيره ممن يعتقد فيهم الصلاح مستوجب سخط الله وسخط النبي ﷺ وسخط كل متبع له بالحق.

ومعلوم أنّه - صلوات الله وسلامه عليه - لم يأمر بذلك هو ولا أحد من أصحابه، وهو ممنوع في شريعة كل نبي من الأنبياء، والله - جلّ وعلا - يقول: ﴿مَا كَانَ لِإِسْرَ أَنْ يُؤْيِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا

رَبَّنَا إِنَّا أَمْرٌ كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلَائِكَةِ
وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٧٧﴾ [آل عمران].

بل الذي كان يأمر به ﷺ هو ما يأمره الله بالأمر به في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَهْلَ
الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ
بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ قُولُوا فَقُولُوا شَهِدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران].

واعلم أن كل عاقل إذا رأى رجلاً متديناً في زعمه مدعياً حب النبي ﷺ وتعظيمه
وهو يعظم النبي ﷺ ويمدحه بأنه هو الذي خلق السماوات والأرض وأنزل الماء من
السماوات وأنبأ به الحقائق ذات البهجة، وأنه ﷺ هو الذي جعل الأرض قراراً وجعل
خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً، إلى آخر ما تضمنته الآيات
المتقدمة، فإن ذلك العاقل لا يشك في أن ذلك المادح المعظم في زعمه من أعداء الله
ورسوله المتعدين لحدود الله.

وقد علمت من الآيات المحكمات أنه لا فرق بين ذلك وبين إجابة المضطرين
وكشف السوء من المكرويين.

فعلينا معاشر المسلمين أن ننتبه من نومة الجهل وأن نعظم ربنا بامتنال أمره
واجتناب نهيه، وإخلاص العبادة له، وتعظيم نبينا ﷺ باتباعه والافتداء به في تعظيم الله
والإخلاص له والافتداء به في كل ما جاء به.

وَأَلَّا نَخَالِفَ ﷺ وَلَا نَعْصِيهِ، وَأَلَّا نَفْعَلَ شَيْئاً يشعر بعدم التعظيم والاحترام، كرفع
الأصوات قرب قبره ﷺ، وقصدنا النصيحة والشفقة لإخواننا المسلمين ليعملوا
بكتاب الله، ويعظموا نبيه ﷺ تعظيم الموافق لما جاء به ﷺ ويتركوا ما يسميه الجهلة
محبة وتعظيماً وهو في الحقيقة احتقار وازدراء وانتهاك لحرمات الله، ورسوله ﷺ:
﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٣٣﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ
الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [النساء].

واعلم أيضاً - رحمك الله -: أنه لا فرق بين ما ذكرنا من إجابة المضطر وكشف
السوء عن المكروب، وبين تحصيل المطالب التي لا يقدر عليها إلا الله، كالحصول
على الأولاد والأموال وسائر أنواع الخير.

فإن التجاء العبد إلى ربه في ذلك أيضاً من خصائص ربوبيته - جلّ وعلا - كما
قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ٣١]. وقال تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ
اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٧]. وقال تعالى: ﴿يَهَبْ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا
وَيَهَبْ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾ ... الآية [الشورى: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿جَعَلْ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْزَلِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةٍ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [النحل: ٧٢]. وقال
تعالى: ﴿وَسَئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

وفي الحديث: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسَأَلِ اللَّهَ». وقد أثنى الله - جلّ وعلا - على نبيه ﷺ وأصحابه بالتجائب إليهم وقت الكرب يوم بدر في قوله: ﴿إِذَا قَسَيْتُمْ فِي الْكَرْبِ فَقَتِّلْ﴾ فاستجاب لكم آية [الأنفال: ٩]. فبينما ﷺ كان هو وأصحابه إذا أصابهم أمر أو كرب التجأوا إلى الله وأخلصوا له الدعاء، فعملنا أن نتبع ولا نبتدع.

تنبيه: اعلم أنه يجب على كل مسلم أن يتأمل في معنى العبادة، وهي تشمل جميع ما أمر الله أن يتقرب إليه به من جميع القربات، فيخلص تقربه بذلك إلى الله. ولا يصرف شيئاً منه لغير الله كائناً ما كان.

والظاهر أن ذلك يشمل هيئات العبادة، فلا ينبغي للمسلم عليه ﷺ أن يضع يده اليمنى على اليسرى كهيئة المصلي؛ لأن هيئة الصلاة داخلة في جملتها فينبغي أن تكون خالصة لله، كما كان ﷺ هو وأصحابه يخلصون العبادات وهيئاتها لله وحده.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِثْلِ مَا فَضَحْتُمْ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَدِيمِينَ ﴿١﴾﴾. نزلت هذه الآية الكريمة في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وقد أرسله النبي ﷺ إلى بني المصطلق من خزاعة ليأتيه بصدقات أموالهم، فلما سمعوا به تلقوه فرحاً به، فخاف منهم وظن أنهم يريدون قتله، فرجع إلى نبي الله ﷺ وزعم له أنهم منعوا الصدقة وأرادوا قتله، فقدم وفد منهم إلى النبي ﷺ فأخبروه بكذب الوليد فأنزله الله هذه الآية وهي تدل على عدم تصديق الفاسق في خبره.

وصرح تعالى في موضع آخر بالنهي عن قبول شهادة الفاسق، وذلك في قوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤]، ولا خلاف بين العلماء في رد شهادة الفاسق وعدم قبول خبره، وقد دلت هذه الآية من سورة الحجرات على أمرين:

الأول منهما: أن الفاسق إن جاء نبأً ممكن معرفة حقيقته، وهل ما قاله فيه الفاسق حق أو كذب فإنه يجب فيه التثبت.

والثاني: هو ما استدلل عليه بها أهل الأصول من قبول خبر العدل؛ لأن قوله تعالى: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ يدل بدليل خطابه، أعني مفهوم مخالفته أن الجائي نبأً إن كان غير فاسق بل عدلاً لا يلزم التبين في نبئه على قراءة: «فتبينوا». ولا التثبت على قراءة: «فتثبتوا»، وهو كذلك.

وأما شهادة الفاسق فهي مردودة كما دلت عليه آية النور المذكورة آنفاً، وقد قدمنا معنى الفسق وأنواعه في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك.

وقوله: ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا﴾؛ أي لئلا تصيبوا قوماً، أو كراهة أن تصيبوا قوماً بجهالة؛ أي لظنكم النبأ الذي جاء به الفاسق حقاً فتصيحوا على ما فعلتم من إصابتكم للقوم المذكورين نادمين لظهور كذب الفاسق فيما أنبأ به عنهم؛ لأنهم لو لم يتبينوا في نبأ الوليد عن بني المصطلق لعاملوهم معاملة المرتدين؟ ولو فعلوا ذلك لندموا.

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير حمزة والكسائي: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ بالباء التحتية الموحدة بعدها مشاة تحتية مشددة ثم نون. وقرأه حمزة والكسائي: «فتبثوا» بالثاء المثناة بعدها باء تحتية موحدة مشددة ثم تاء مشاة فوقية، والأول من التبيين، والثاني من الثبوت، ومعنى القراءتين واحد، وهو الأمر بالتأني وعدم العجلة حتى تظهر الحقيقة فيما أنبأ به الفاسق.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْإِصْيَانَ﴾. ما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أنه هو الذي حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، جاء موضحاً في آيات كثيرة مصرح فيها بأنه تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء، كقوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾. [الإسراء: ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَا وَلِيَّكَ لَهُمْ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨]، وقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس]، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، نرجو الله الرحيم الكريم أن يهدينا وألا يضلنا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾. هذه الأخوة التي أثبت الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة للمؤمنين بعضهم لبعض هي أخوة الدين لا النسب.

وقد بينّ تعالى أن الأخوة تكون في الدين في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَتُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ ... الآية [الأحزاب: ٥].

وقد قدمنا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، أن الأخوة الدينية أعظم وأقوى من الأخوة النسبية، وبيننا أدلة ذلك من الكتاب والسنة، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرَكُم مِّن قَوْمٍ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾.

قوله تعالى ﴿لَا يَسْخَرَكُم مِّن قَوْمٍ مِّن قَوْمٍ﴾؛ أي لا يستخفوا ولا يستهزئوا بهم، والعرب تقول: سخر منه بكسر الخاء، يسخر بفتح الخاء على القياس، إذا استهزأ به واستخف.

وقد نهى الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة عن السخرية من الناس، مبيناً أن المسخور منه قد يكون خيراً من الساخر.

ومن أقبح القبيح استخفاف الدنيا بالأكرم الأفضل، واستهزائه به، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي عن السخرية، جاء ذم فاعله وعقوبته عند الله في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة].

وقد بين تعالى أن الكفار المترفين في الدنيا كانوا يسخرون من ضعاف المؤمنين في دار الدنيا، وأن أولئك يسخرون من الكفار يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَسَخَّرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢١﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٢٢﴾ إِلَى قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٢٣﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٤﴾ هَلْ تُوْبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [المطففين].

فلا ينبغي لمن رأى مسلماً في حالة رثة تظهر بها عليه آثار الفقر والضعف أن يسخر منه لهذه الآيات التي ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، أي لا يلمز أحدكم أخاه كما تقدم إيضاحه في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وقد أوعده الله - جلّ وعلا - الذين يلمزون الناس في قوله تعالى: ﴿وَلَيْلٌ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، والهمزة: كثير الهمز للناس، واللمزة: كثير اللمز.

قال بعض العلماء: الهمز يكون بالفعل كالغمز بالعين احتقاراً وازدراءً، واللمز باللسان، وتدخل فيه الغيبة.

وقد صرح الله تعالى بالنهي عن ذلك في قوله: ﴿وَلَا يَتَّبِعْ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾؛ ونفر عنه غاية التنفير في قوله تعالى: ﴿أَيُّبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾؛ فيجب على المسلم أن يتباعد كل التباعد من الوقوع في عرض أخيه.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه خلق الناس من ذكر وأنثى، ولم يبين هنا كيفية خلقه للذكر والأنثى المذكورين ولكنه بين ذلك في مواضع آخر من كتاب الله.

فبين أنه خلق ذلك الذكر الذي هو آدم من تراب، وقد بين الأَطوار التي مر بها ذلك التراب، كصيرورته طيناً لازباً وحملاً مسنوناً وصلصالاً كالْفَخَارِ.

وبين أنه خلق تلك الأنثى التي هي حواء من ذلك الذكر الذي هو آدم، فقال في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]. وقال تعالى في الأعراف: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]. وقال تعالى في الزمر: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٦].

وقد قدمنا أنه خلق نوع الإنسان على أربعة أنواع مختلفة:

الأول منها: خلقه لا من أنثى ولا من ذكر؛ وهو آدم ﷺ.

والثاني: خلقه من ذكر بدون أنثى؛ وهو حواء.

والثالث: خلقه من أنثى بدون ذكر؛ وهو عيسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - .
 الرابع: خلقه من ذكر وأنثى؛ وهو سائر الآدميين، وهذا يدل على كمال قدرته -
 جلّ وعلا -، وهناك مسائل مستنبطة من الآية يرجع من أراد الوقوف عليها إلى الأصل.
قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَكُمْ شُعوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ ﴿١٣﴾ لما كان قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾؛ يدل على استواء الناس في الأصل؛ لأنّ أباهم واحد وأمهم واحدة وكان في ذلك أكبر زاجر عن التفاخر بالأنساب وتطاول بعض الناس على بعض، بين تعالى أنه جعلهم شعوبًا وقبائل لأجل أن يتعارفوا؛ أي يعرف بعضهم بعضًا، ويتميز بعضهم عن بعض لا لأجل أن يفتخر بعضهم على بعض ويتطاول عليه.
 وذلك يدل على أن كون بعضهم أفضل من بعض وأكرم منه إنّما يكون بسبب آخر غير الأنساب.

وقد بين الله ذلك هنا بقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى اللَّهَ﴾؛ فاتضح من هذا أنّ الفضل والكرم إنّما هو بتقوى الله. لا بغيره من الانساب إلى القبائل، ولقد صدق من قال:

فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب
 وقد ذكروا أن سلمان رضي الله عنه كان يقول:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

وهذه الآيات القرآنية، تدل على أن دين الإسلام دين سماوي صحيح، لا نظر فيه إلى الألوان ولا إلى العناصر، ولا إلى الجهات، وإنما المعتبر فيه تقوى الله جلا وعلا وطاعته، فأكرم الناس وأفضلهم أتقاهم الله، ولا كرم ولا فضل لغير المتقي، ولو كان رفيع النسب. والشعوب جمع شعب، وهو الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب وهي: الشعب، والقبيلة، والعمارة، والبطن، والفخذ، والفصيلة.

فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطن يجمع الأفخاذ والفخذ يجمع الفصائل.

خزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ، والعباس فصيلة. وسميت الشعوب؛ لأن القبائل تشعب منها، اهـ.

ولم يذكر من هذه الست في القرآن إلا ثلاث: الشعوب، والقبائل كما في هذه الآية، والفصيلة في المعارج في قوله: ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤَيِّدُ﴾ ﴿١٢﴾ [المعارج]، وقد قدمنا ما دلت عليه هذه الآيات موضحاً في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

واعلم: أنّ العرب قد تطلق بعض هذه الست على بعض كإطلاق البطن على القبيلة في قول الشاعر:

وإن كلاباً هذه عشر أبطن وأنت بريء من قبائلها العشر
كما قدّمنا في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ قُرُوءٌ﴾
[البقرة: ٢٢٨].

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ مَآئِمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن هؤلاء الأعراب وهم أهل البادية من العرب قالوا آمنا، وأن الله - جلّ وعلا - أمر نبيه أن يقول لهم: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾، وهذا يدل على نفي الإيمان عنهم وثبوت الإسلام لهم.
وذلك يستلزم، أنّ الإيمان أخص من الإسلام؛ لأن نفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم.

وقد قدّمنا مراراً أنّ مسمى الإيمان الشرعي الصحيح، والإسلام الشرعي الصحيح هو استسلام القلب بالاعتقاد واللسان بالإقرار، والجوارح بالعمل، فمؤداهما واحد كما يدل له قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٥) ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهَا أَنْ يَبْلُغْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات].

وإذا كان ذلك كذلك فإنه يحتاج إلى بيان وجه الفرق بين الإيمان والإسلام في هذه الآية الكريمة؛ لأنّ الله نفى عنهم الإيمان دون الإسلام؛ ولذلك وجهان معروفان عند العلماء، أظهرهما عندي: أن الإيمان المنفي عنهم في هذه الآية هو مسماه الشرعي الصحيح، والإسلام المثبت لهم فيها هو الإسلام اللغوي الذي هو الاستسلام والانقياد بالجوارح دون القلب.

ولمّا ساغ إطلاق الحقيقة اللغوية هنا على الإسلام مع أنّ الحقيقة الشرعية مقدمة على اللغوية على الصحيح؛ لأنّ الشرع الكريم جاء باعتبار الظاهر. وأن توكل السرائر إلى الله. فانقياد الجوارح في الظاهر بالعمل واللسان بالإقرار يكتفى به شرعاً، وإن كان القلب منطقياً على الكفر.

ولهذا ساغ إرادة الحقيقة اللغوية في قوله: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾؛ لأن انقياد اللسان والجوارح في الظاهر لإسلام لغوي مكتمل به شرعاً عن التنقيب عن القلوب.
وكل انقياد واستسلام وإذعان يسمى إسلاماً لغة. ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل العدوي مسلم الجاهلية:

له الأرض تحمل صخراً ثقالا
جميعاً وأرسي عليها الجبالا
له المزن تحمل عذبا زلالا
أطاعت فصبت عليها سجالا
له الريح تصرف حالاً فحالاً

وأسلمت وجهي لمن أسلمت
دحاها فلما استوت شدها
وأسلمت وجهي لمن أسلمت
إذا هي سيقّت إلى بلدة
وأسلمت وجهي لمن أسلمت

فالمراد بالإسلام في هذه الآيات: الاستسلام والانقياد، وإذا حمل الإسلام في قوله: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾؛ انقدنا واستسلمنا بالألسنة والجوارح، فلا إشكال في الآية. وعلى هذا القول فالأعراب المذكورون منافقون؛ لأنهم مسلمون في الظاهر، وهم كفار في الباطن.

والوجه الثاني: أن المراد بنفي الإيمان في قوله: ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا﴾؛ نفي كمال الإيمان، لا نفيه من أصله.

وعليه فلا إشكال أيضاً؛ لأنهم مسلمون مع أن إيمانهم غير تام، وهذا لا إشكال فيه عند أهل السنة والجماعة القائلين بأن الإيمان يزيد وينقص.

وإنما استظهرنا الوجه الأول، وهو أن المراد الإسلام معناه اللغوي دون الشرعي، وأن الأعراب المذكورين كفار في الباطن وإن أسلموا في الظاهر؛ لأن قوله - جل وعلا -: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾؛ يدل على ذلك دلالة كما ترى؛ لأن قوله: ﴿يَدْخُلُ﴾ فعل في سياق النفي وهو من صيغ العموم كما أوضحناه مراراً، وإليه الإشارة بقول صاحب (مراقي السعود):

ونحو لا شربت أو إن شربا واتفقوا إن مصدر قد جلبا

فقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ في معنى لا دخول للإيمان في قلوبكم.

والذين قالوا بالثاني قالوا: إن المراد بنفي دخوله نفي كماله، والأول أظهر كما ترى. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾: المراد به بعض الأعراب، وقد استظهرنا أنهم منافقون لدلالة القرآن على ذلك، وهم من جنس الأعراب الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُودِ الدَّوَائِرِ﴾ [التوبة: ٩٨]، وإنما قلنا: إن المراد بعض الأعراب في هذه الآية؛ لأن الله بين في موضع آخر أن منهم من ليس كذلك، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّا قُرْبَةً لَهُمْ سِدِّحُ لَهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١١].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِ﴾، لما قال هؤلاء الأعراب: آمنا، وأمر الله نبيه أن يكذبهم في قوله: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ وقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾؛ أمر نبيه أن يقول لهم بصيغة الإنكار: ﴿أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾؛ وذلك بادعائكم أنكم مؤمنون والله لا يخفى عليه شيء من حالكم، وهو عالم بأنكم لم تؤمنوا وعالم بكل ما في السموات والأرض وعالم بكل شيء.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تقييح تركية النفس بالكذب جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿هُوَ أَكْبَرُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١﴾ .
 قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة هود، في الكلام على قوله تعالى:
 ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتَوُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشَوْنَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ
 إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتُ الصُّدُورِ﴾ ﴿٥﴾ [هود].



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة ق

قوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ ﴿١﴾ . المقسم عليه في الآية محذوف، والظاهر أنه كالمقسم عليه المحذوف في سورة ص، وقد أوضحناه في الكلام عليها.
 وقوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ﴿٢﴾ أَوْذَا
 مِنَّا وَكَأَنَّا نُرَايَا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ ﴿٣﴾ .

قد قدمنا في سورة (ص)، أن من المقسم عليه أن النبي ﷺ صادق وأن رسالته حق، كما دل عليه قوله في (ص): ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ [ص: ٤]، وقد دل على ذلك قوله هنا: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾، وقد قدمنا في (ص)، أنه يدخل في المقسم عليه تكذيب الكفار في إنكارهم البعث، ويدل عليه قوله هنا: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ﴿٢﴾ أَوْذَا مِنَّا وَكَأَنَّا نُرَايَا﴾، والحاصل أن المقسم عليه في (ص)، بقوله: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١]، وفي (ق) بقوله: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ محذوف وهو تكذيب الكفار في إنكارهم رسالة النبي ﷺ وإنكارهم البعث، وإنكارهم كون المعبود واحداً، وقد بينا الآيات الدالة على ذلك في سورة (ص)، وذكرنا هناك أن كون المقسم عليه في سورة (ق) هذه المحذوف يدخل فيه إنكارهم لرسالة النبي ﷺ بدليل قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾؛ وتكذيبهم في إنكارهم للبعث بدليل قوله: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾؛ وبيننا وجه إيضاح ذلك بالآيات المذكورة هناك وغيرها فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّنَا دَرَجَاتٍ لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ ﴿٤﴾ .

الهمزة في قوله: ﴿أَفَلَمْ﴾ تتعلق بمحذوف، والفاء عاطفة عليه، كما قدمنا مراراً أنه أظهر الوجهين، وأنه أشار إليه في الخلاصة بقوله:

وحذف متبوع بدا هنا استبح

والتقدير: أأعرضوا عن آيات الله فلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بيناها وزيناها وما لها من فروع؛ أي ليس فيها من شقوق ولا تصدع ولا تفتقر، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تعظيم شأن كيفية بنائه تعالى للسماء وتزيينه لها وكونها لا تصدع

ولا شقوق فيها جاء كله موضحاً في آيات أخر: كقوله - جلّ وعلا - في بنائه للسماء: ﴿إِنَّمَا أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۖ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ۖ﴾ [النازعات]، وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِإِيمَانٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۖ﴾ [الذاريات]، وقوله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۖ﴾ [النبا]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ ۖ﴾ [المك: ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ۖ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ۖ﴾ [المؤمنون]، وقوله تعالى في أول الرعد: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۗ﴾ [الرعد: ٢]، وقوله تعالى في لقمان: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۗ﴾ [لقمان: ١٠] إلى غير ذلك من الآيات. وكقوله تعالى في تزيينه للسماء: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ ۖ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ۗ﴾ [المك: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ۗ﴾ [فصلت: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوْكَبِ ۖ﴾ [الصافات]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ ۖ﴾ [الحجر]، وكقوله تعالى في حفظه للسماء من أن يكون فيها فروج أي شقوق: ﴿فَأَنجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۗ﴾ [المك: ٣]، والفطور والفروج بمعنى واحد، وهو الشقوق والصدوع. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ۖ﴾ [الأنبياء]، أما إذا كان يوم القيامة فإن السماء تشقق وتتفطر، وتكون فيها الفروج كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَنَمِ ۗ﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً ۗ﴾ [الرحمن: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ﴾ [الاحاقة: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ ۖ﴾ [الانشقاق]، وقال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۖ﴾ [الانفطار]، وقال تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۖ﴾ [السما: ٧]، ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۗ﴾ [المزمل: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۖ﴾ [٨]، ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُجِّرَتْ ۖ﴾ [٩] [المرسلات].

قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۖ﴾ [٧] تبصرةً وَذَكَرْنَاهُ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۖ﴾ [٨]. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه مد الأرض وألقى فيها الجبال الرواسي وأنبت فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب. وهذا الذي تضمنته هذه الآية الكريمة، جاء موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَتَهَرًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۗ﴾ [الرعد: ٣]، وكقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَيَتَّٰفِقَ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۖ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۖ﴾ [١٠] هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرَوْنِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۗ﴾ [لقمان: ١٠، ١١]، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۖ﴾ أي من كل صنف حسن من أصناف النبات، وقوله: ﴿تَبَصُّرَةً ۖ﴾ أي قدرنا الأرض وألقينا فيها الرواسي وأنبتنا فيها أصناف النبات الحسنة لأجل أن نبصر عبادنا كمال قدرتنا على البعث وعلى كل شيء وعلى استحقاقنا للعبادة دون غيرنا.

قوله تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾، قوله: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾، معناه أن الله تبارك وتعالى يبين أن إحياء الأرض بعد موتها بإنبات النبات فيها بعد انعدامه واضمحلاله، دليل على بعث الناس بعد الموت بعد كونهم تراباً وعظاماً، فقوله: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾، يعني أن خروج الناس أحياء من قبورهم بعد الموت كخروج النبات من الأرض بعد عدمه، بجامع استواء الجميع في أنه جاء بعد عدم، وهذا أحد براهين البعث التي يكثر الاستدلال عليه بها في القرآن، وقد قدمنا الآية الموضحة لذلك في صدر سورة البقرة وأول النحل وأول الجاثية، وغير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ كَذَّبٍ أُرْسِلَ حَقٌّ وَعِيدٌ﴾: هذه الآية الكريمة تدل على أن من كذب الرسل يحق عليه العذاب؛ أي يتحتم ويثبت في حقه ثبوتاً لا يصح معه تخلفه عنه، وهو دليل واضح على أن ما قاله بعض أهل العلم من أن الله يصح أن يخلف وعيده؛ لأنه قال: إنه لا يخلف وعده ولم يقل إنه لا يخلف وعيده، وأن إخلاف الوعيد حسن لا قبيح، وإنما القبيح هو إخلاف الوعد، وأن الشاعر قال:

وإنني وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

لا يصح بحال؛ لأن وعيده تعالى للكفار حق ووجب عليهم بتكذيبهم للرسل كما دل عليه قوله هنا: ﴿كُلُّ كَذَّبٍ أُرْسِلَ حَقٌّ وَعِيدٌ﴾، وقد تقرر في الأصول أن الفاء من حروف العلة كقوله: سها فسجد، أي لعلته سهوه، وسرق فقطعت يده أي لعلته سرقة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، فتكذيبهم الرسل علة صحيحة لكون الوعيد بالعذاب حق ووجب عليهم، فدعوى جواز تخلفه باطلة بلا شك.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضعاً في آيات أخرى، كقوله تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿قَالَ لَا تَخْضِبُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ ﴿١٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ... الآية، والتحقيق: أن المراد بالقول الذي لا يبدل لديه هو الوعيد الذي قدم به إليهم. وقوله تعالى في سورة (ص): ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ أُرْسِلَ حَقٌّ عِقَابٍ﴾ ﴿١٦﴾ [ص].

وبهذا تعلم أن الوعيد الذي لا يمتنع إخلافه هو وعيد عصاة المسلمين بتعذيبهم على كبائر الذنوب؛ لأن الله تعالى أوضح ذلك في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وهذا في الحقيقة تجاوز من الله عن ذنوب عباده المؤمنين العاصين، ولا إشكال في ذلك، وقد أوضحنا هذا في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

قوله تعالى: ﴿أَفَتَعْبِثُنَا بِالْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿١٥﴾. هذه الآية الكريمة من براهين البعث؛ لأن من لم يعي بخلق الناس ولم يعجز عن إيجادهم الأول لا شك في قدرته على إعادتهم وخلقهم مرة أخرى؛ لأن الإعادة لا يمكن أن تكون

أصعب من البدء، والآيات الدالة على هذا كثيرة جداً، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ بِحُجَّتِهَا أَلَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]. وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١]، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، وقد أوضحنا الآيات الدالة على براهين البعث التي يكثُر الاستدلال عليه بها في القرآن، كخلق الناس أولاً، وخلق السماوات والأرض وما فيهما، وإحياء الأرض بعد موتها، وغير ذلك في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك، في البقرة والنحل والحج والجنّة وغير ذلك، وأحلنا على ذلك مراراً كثيرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾. وقد قدّمنا الآيات الموضحة له في أول سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتُ الصُّدُورِ﴾ [هود: ٥١].

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ ٧. مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِيدٌ ٨. قوله «إذ»: منصوب بقوله: «أقرب»، أي نحن أقرب إليه من حبل الوريد في الوقت الذي يتلقى فيه الملكان جميع ما يصدر منه، والمراد أن الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد، في وقت كتابة الحفظة أعماله لا حاجة له لكتب الأعمال؛ لأنه عالم بها لا يخفى عليه منها شيء، وإنما أمر بكتابة الحفظة للأعمال لحكم أخرى كإقامة الحجة على العبد يوم القيامة، كما أوضحه بقوله: ﴿وَنُخْرِجُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ ١٢. أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ١٤. [الإسراء: ١٤]. ومفعول التلقي في الفعل الذي هو يتلقى، والوصف الذي هو المتلقيان محذوف تقديره؛ إذ يتلقى المتلقيان جميع ما يصدر عن الإنسان فيكتبانه عليه.

قال الزمخشري: والتلقي التلقن بالحفظ والكتابة، اهـ منه، والمعنى واضح؛ لأن الملك يتلقى عمل الإنسان عند صدوره منه فيكتبه عليه، والمتلقيان هما الملكان اللذان يكتبان أعمال الإنسان، وقد دلت الآية الكريمة على أن مقعد أحدهما عن يمينه ومقعد الآخر عن شماله.

والقعيد: قال بعضهم: معناه القاعد، والأظهر أن معناه المقاعد، وقد يكثُر في العربية إطلاق الفعل وإرادة المفاعل، كالجلّيس بمعنى المجالس، والأكيل بمعنى المؤاكل، والتديم بمعنى المنادم، وقال بعضهم: القعيد هنا هو الملازم، وكل ملازم دائماً أو غالباً يقال له قعيد، ومنه قول متمم بن نويرة التميمي:

قعيدك ألا تسمعيني ملامة ولا تنكسي قرج الفؤاد فييجعا

والمعنى عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، وهو أسلوب عربي معروف، وأنشد له سيبويه في كتابه قول عمرو بن أحمر الباهلي:

رمانى بأمر كنت منه ووالدى
وقول قيس بن الخثيم الأنصاري:
نحن بما عندنا أنت بما
وقول ضائب بن الحارث البرجمي:
فمن يك أمسى بالمدينة رحله
فإنني وقيار بها لغريب

فقول ابن أحمر: كنت منه ووالدى بريئاً؛ أي كنت بريئاً منه وكان والدى بريئاً منه.
وقوله ابن الخثيم: نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض: أي نحن راضون وأنت راض.
وقول ضائب بن الحارث: فإني وقيار بها لغريب: يعني إني لغريب وقيار غريب،
وهذا أسلوب عربي معروف. ودعوى أن قوله في الآية: قعيد هي الأولى أخرت
وحذفت الثانية لدالتها عليها؛ لا دليل عليه، ولا حاجة إليه كما ترى؛ لأن المحذوف
إذا صحت الدلالة عليه بالأخير فلا حاجة إلى أن هذا الأخير أصله هو الأول، ولا
دليل عليه. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ﴾؛ أي ما ينطق بنطق
ولا يتكلم بكلام إلا لديه، أي إلا والحال أن عنده رقيباً؛ أي ملكاً مراقباً لأعماله
حافظاً لها شاهداً عليها لا يفوته منها شيء. عتيد؛ أي حاضر ليس بغائب يكتب عليه ما
يقول من خير وشر، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الإنسان عليه حفظة من
الملائكة يكتبون أعماله، جاء موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ
عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ (١٥) ﴿كَرَامًا كَتَبِينَ﴾ (١٦) ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٧) [الانفطار]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ
يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ (٨٥) [الزخرف]. وقوله تعالى:
﴿وَرَبِّي كُلُّ أَمْرٍ جَائِئٍ كُلُّ أَمْرٍ نَدْعُ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ
بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧٩) [الجاثية].

وقد قدّمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة مريم، في الكلام على قوله تعالى:
﴿كَلاًَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾... الآية [مريم: ٧٩].

وفي سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾
[الزخرف: ١٩]، وقد ذكر جماعة من أهل العلم أن القعيد الذي هو عن اليمين يكتب
الحسنات، والذي عن الشمال يكتب السيئات، وأن صاحب الحسنات أمين على
صاحب السيئات، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرًا، وإذا عمل سيئة قال
صاحب اليمين لصاحب الشمال: أمهله ولا تكتبها عليه لعله يتوب أو يستغفر؟ وبعضهم
يقول: يمهله سبع ساعات، والعلم عند الله تعالى.

تنبيه: اعلم أن العلماء اختلفوا في عمل العبد الجائر الذي لا ثواب ولا عقاب
عليه، هل تكتبه الحفظة عليه أم لا؟ فقال بعضهم: يكتب عليه كل شيء حتى الأئين في
المرض، وهذا هو ظاهر قوله: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾. لأن قوله:
«من قول» نكرة في سياق النفي زيدت قبلها لفظة «من»، فهي نص صريح في العموم.

وقال بعض العلماء: لا يكتب من الأعمال إلا ما فيه ثواب أو عقاب، وكلهم مجتمعون على أنه لا جزاء إلا فيما فيه ثواب أو عقاب، فالذين يقولون: لا يكتب إلا ما فيه ثواب أو عقاب، والذين يقولون يكتب الجميع، متفقون على إسقاط ما لا ثواب فيه ولا عقاب، إلا أن بعضهم يقولون لا يكتب أصلاً، وبعضهم يقولون: يكتب أولاً ثم يمحي. وزعم بعضهم أن محو ذلك، وإثبات ما فيه ثواب أو عقاب هو معنى قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾... الآية [الرعد: ٣٩].

والذين قالوا: لا يكتب ما لا جزاء فيه. قالوا: إن في الآية نعتاً محذوفاً سوَّغ حذفه العلم به؛ لأن كل الناس يعلمون أن الجائز لا ثواب فيه ولا عقاب، وتقدير النعت المحذوف، ما يلفظ من قول مستوجب للجزاء. وقد قدّمنا أن حذف النعت إذا دل عليه دليل أسلوب عربي معروف، وقدّمنا أن منه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وِرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، أي كل سفينة صحيحة لا عيب فيها، بدليل قوله: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْصَةِ﴾... الآية [الإسراء: ٥٨]؛ أي قرية ظالمة بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، وأن من شواهد قول المرقش الأكبر:

ورب أسيلة الخدين بكر منهفهة لها فرع وجيد
أي لها فرع فاحم وجيد طويل. وقول عبيد بن الأبرص:

من قوله قول ومن فعله فعل ومن نائله نائل
أي قول فصل، وفعل جميل، ونائل جزل.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة النمل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾.

قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير نافع وشعبة عن عاصم: «يوم نقول» بالنون الدالة على العظمة، وقرأه نافع وشعبة «يوم يقول» بالياء، وعلى قراءتهما فالفاعل ضمير يعود إلى الله، واعلم أن الاستفهام في قوله: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾؛ فيه للعلماء قولان معروفان؛ الأول: أن الاستفهام إنكاري كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٧]؛ أي ما يهلك إلا القوم الظالمون، وعلى هذا فمعنى ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾؛ لا محل للزيادة لشدة امتلاء النار، واستدل بعضهم لهذا الوجه بآيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿وَوَسَّيْتُ كَلِمَةَ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]. قال: فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين، وقد قدّمنا

الآيات الموضحة لهذا في سورة يس في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾... الآية [يس: ٧]؛ لأن إقسامه تعالى في هذه الآية المدلول عليه بلام التوطئة في لأملأن على أنه يملأ جهنم من الجنة والناس، دليل على أنها لا بد أن تمتلئ؛ ولذا قالوا: إن معنى ﴿هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ﴾ لا مزيد، لأنني قد امتلأت فليس في محل للمزيد، وأما القول الآخر، فهو أن المراد بالاستفهام في قول النار: ﴿هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ؟﴾ هو طلبها للزيادة، وأنها لا تزال كذلك حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط أي كفاني قد امتلأت، وهذا الأخير هو الأصح، لما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن النبي ﷺ: «أَنَّ جَهَنَّمَ لَا تَزَالُ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ فَيَنْزَوِي بِبَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ الصَّاحِحِينَ وَغَيْرَهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ»: «أَنَّ جَهَنَّمَ لَا تَزَالُ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ فَيَنْزَوِي بِبَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ وَتَقُولُ قَطُّ قَطُّ»؛ لأن في هذا الحديث المتفق عليه التصريح بقولها قط قط، أي كفاني قد امتلأت، وأن قولها قبل ذلك هل من مزيد لطلب الزيادة، وهذا الحديث الصحيح من أحاديث الصفات، وقد قَدَّمْنَا الكلام عليها مستوفى في سورة الأعراف والقتال، واعلم أن قول النار في هذه الآية: ﴿هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ﴾، قول حقيقي ينطقها الله به، فزعم بعض أهل العلم أنه كقول الحوض:

امتلاً الحوض فقال قطني مهلاً رويداً قد ملأت بطني

وأن المراد بقولها ذلك هو ما يفهم من حالها خلاف التحقيق، وقد أوضحنا ذلك بأدلته في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَفِيضًا وَذَفِيرًا﴾ [الفرقان]. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [٣١]. قوله: أزلفت أي قربت. وقوله غير بعيد: فيه معنى التوكيد لقوله: أزلفت، سواء أعربت غير بعيد بأنها حال أو ظرف، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من إزلاف الجنة للمتقين جاء في مواضع أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجُحُومُ سُعِرَتْ﴾ [١٧] وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ [١٣] [التكوير]، وقوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [٩٠] وَوُزِنَتِ الْجُحُومُ لِلْفَآوِينَ [٩١] [الشعراء].

قال البغوي رحمه الله في تفسير هذه الآية: غير بعيد ينظرون إليها قبل أن يدخلوها.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [٣٥].

قوله: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾، قد قَدَّمْنَا الآيات الموضحة له في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ [النحل: ٣١].

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾. قال بعض العلماء: المزيد النظر إلى وجه الله الكريم، ويستأنس لذلك بقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنٍ وَزِيَادَةٍ﴾ [يونس: ٢٦]؛ لأنَّ الحسنَى الجنة، والزيادة النظر، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾.

قد قَدَّمْنَا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَنْ مِثْلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ۝٣٨﴾.

قد قدّمنا الكلام عليه في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وبيننا هناك أن الله أوضح ذلك في فصلت في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنتَ كُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩ - ١٢]، وأوضحنا ذلك. واللغوب: التعب والإعياء من العمل.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۝٣٩﴾.

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أمره تعالى لنبيه ﷺ بالصبر على ما يقوله الكفار والتسبيح بحمده - جلّ وعلا - أطراف النهار، قد ذكره الله في غير هذا الموضع كقوله تعالى في أخريات طه: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ۝٣٩﴾ [طه]، وأمره له بالتسبيح بعد أمره له بالصبر على أذى الكفار فيه دليل على أن التسبيح يعينه الله به على الصبر بالمأمور به، والصلاة داخله في التسبيح المذكور كما قدّمنا إيضاح ذلك، وذكرنا فيه حديث نعيم بن همار في آخر الحجر في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَرْنَاكَ بِضَبِّكَ صَدْرُكَ يَمَّا يَقُولُونَ ۝٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ۝٨﴾ [الحجر]، وبيننا هناك أن الله أمر بالاستعانة بالصبر وبالصلاة كما قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾... الآية [البقرة: ٤٥].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ۝٤٠﴾.

قد قدّمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة يس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيُفْخِ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ۝٥١﴾... [يس].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝٤١﴾ قرأ هذا الحرف نافع، وابن كثير، وابن عامر: «تشقق» بتشديد الشين بإدغام إحدى التائين فيها، وقرأ الباقون بتخفيف الشين لحذف إحدى التائين. وقوله تعالى: «سراعاً»: جمع سريع، وهو حال من الضمير المجرور في قوله: «عنهم» أي تشقق الأرض عنهم في حال كونهم مسرعين إلى الداعي وهو الملك الذي ينفخ في الصور، ويدعو الناس إلى الحساب والجزاء.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الناس يوم البعث يخرجون من قبورهم مسرعين إلى المحشر قاصدين نحو الداعي، جاء موضحاً في آيات آخر من كتاب الله.

كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٢﴾ [المعارج]، وقوله تعالى: ﴿وَيُفْخِ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ۝٥١﴾ [يس]. وقوله: «ينسلون»؛ أي يسرعون، وقوله تعالى: ﴿يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ۝٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ [القمر: ٧، ٨]، فقوله «مهطعين»؛ أي مسرعين مادي أعناقهم على الأصح.

وقد قدّمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة يس، في الكلام على قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُوتُ﴾ [يس: ٥١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدَ﴾. قد قدّمنا الكلام عليه في سورة فاطر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾... الآية [فاطر: ١٨].



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الذاريات

قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرَّوًا ۝١ فَالْحَالِكَاتِ وَقرًا ۝٢ فَالْمُجَرِّدَاتِ يَسَرًا ۝٣ فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا نُوَدِّعُنَّ لَصَافِئًا ۝٥ وَإِنَّ الْآيَةَ لَوُفَّعٌ ۝٦﴾.

أكثر أهل العلم على أنّ المراد بالذاريات الرياح. وهو الحق - إن شاء الله - ويدل عليه أن الذرو صفة مشهورة من صفات الرياح.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ [الكهف: ٤٥]، ومعنى تذرّوه: ترفعه وتفرقه، فهي تذرّو التراب والمطر وغيرهما، ومنه قول ذي الرمة:

ومنهل آجن قفر محاضره تذرّو الرياح على جماته البعرا

ولا يخفى سقوط قول من قال: إن الذاريات النساء.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَالْحَالِكَاتِ وَقرًا﴾، وقرأ أكثر أهل العلم على أنّ المراد بالحاملات وقرًا: السحاب؛ أي المزن تحمل وقرًا ثقلًا من الماء.

ويدل على هذا القول تصريح الله - جلّ وعلا - بوصف السحاب بالثقال، وهو جمع ثقيلة؛ وذلك لثقل السحابة بوقر الماء الذي تحمله كقوله تعالى: ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢]، وهو جمع سحابة ثقيلة، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِلْعِبَادِ مَوْتًا﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقال بعضهم: المراد بالحاملات وقرًا: السفن تحمل الأثقال من الناس وأمتعتهم، ولو قال قائل: إن الحاملات وقرًا الرياح أيضاً لكان وجهه ظاهراً.

ودلالة بعض الآيات عليه واضحة؛ لأنّ الله تعالى صرح بأنّ الرياح تحمل السحاب الثقال بالماء، وإذا كانت الرياح هي التي تحمل السحاب إلى حيث شاء الله،

فنسبة حمل ذلك الوقر إليها أظهر من نسبته إلى السحاب التي هي محمولة للرياح، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ إِلَيْكَ مَئِيتٌ﴾... الآية [الأعراف: ٥٧].

فقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [الأعراف: ٥٧]؛ أي حتى إذا حملت الرياح سحاباً ثقالاً، فالإقلال الحمل، وهو مسند إلى الريح، ودلالة هذا على أن الحملات وقرأ هي الرياح ظاهرة كما ترى، ويصح شمول الآية لجميع ذلك.

وقد قدّمنا مراراً أنه هو الأجود في مثل ذلك، وبيننا كلام أهل الأصول فيه، وكلامهم في حمل المشترك على معنيه أو معانيه، في أول سورة النور وغيرها.

والقول بأن الحملات وقرأ: هي حوامل الأجنة من الإناث، ظاهر السقوط، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَلْبَرِّيتِ بُشْرًا﴾ [٢٤]؛ أكثر أهل العلم على أن المراد بالجاريات يسراً: السفن تجري في البحر يسراً أي جرياً ذا يسر؛ أي سهولة.

والأظهر أن هذا المصدر المنكر حال كما قدّمنا نحوه مراراً؛ أي فالجاريات في حال كونها ميسرة مسخراً لها البحر، ويدل لهذا القول كثرة إطلاق الوصف بالجري على السفن كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ﴾... الآية [الشورى: ٣٢]، وقوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْبَارِيَةِ﴾ [الحاقة]، وقوله تعالى: ﴿وَالْفُلُكَ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ [الحج: ٦٥] وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرَىٰ أَلْفُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ [الجاثية: ١٢]، إلى غير ذلك من الآيات، وقيل: الجاريات الرياح، وقيل غير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَالْمُصْنِتِ أَمْرًا﴾ [١]؛ هي الملائكة يرسلها الله في شؤون وأمور مختلفة؛ ولذا عبر عنها بالمقسمات، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿فَالْمُصْنِتِ أَمْرًا﴾ [٥] [النازعات]، فمنهم من يرسل لتسخير المطر والريح، ومنهم من يرسل لكتابة الأعمال، ومنهم من يرسل لقبض الأرواح، ومنهم من يرسل لإهلاك الأمم، كما وقع لقوم صالح. والتحقيق أن قوله: «أمرًا» مفعول به للوصف الذي هو المقسمات، وهو مفرد أريد به الجمع.

وقد أوضحنا أمثلة ذلك في القرآن العظيم وفي كلام العرب من تنكير المفرد كما هنا، وتعريفه وإضافته في أول سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ [الحج: ٥]، والمقسم عليه بهذه الأقسام هو قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [٥] وَإِنَّ الَّذِينَ لَوَعُودٌ [١]، والموجب لهذا هو شدة إنكار الكفار للبعث والجزاء.

وقوله: ﴿إِنَّكَ مَا تُوعَدُونَ﴾؛ «ما»، فيه موصولة والعائد إلى الصلة محذوف، والوصف بمعنى المصدر، أي إن الذي توعدونه من الجزاء والحساب لصادق لا كذب فيه. وقال بعض العلماء: «ما»، مصدرية، أي إن الوعد بالبعث والجزاء والحساب لصادق.

وقال بعضهم: إن صيغة اسم الفاعل في «لصادق» بمعنى اسم المفعول، أي إن

الوعد- أو الموعود به لمصدق فيه لا مكذوب به، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فِي عِشَةِ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]؛ أي مرضية.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من صدق ما يوعدونه جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ [آل عمران: ١٩]. وقوله: ﴿إِنَّكَ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ [الأنعام: ١٣٤]. وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَوْعَنَهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة: ١٦] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

والمراد بالدين هنا الجزاء، أي وإن الجزاء يوم القيامة لواقع لا محالة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُؤْصِلُ بِهِمُ اللَّهُ دِيَنَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥]، أي جزاءهم بالعدل والإنصاف، وكقوله تعالى: ﴿وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يَرَى﴾ [٤٠] ثُمَّ يُعْزِلُهُ الْجَزَاءُ الْأَوَّلَى ﴿٤١﴾ [النجم].

وقد نزه الله نفسه عن كونه خلق الخلق لا لبعث وجزاء، وبين أن ذلك ظن الكفار، وهداهم على ذلك الظن السيئ بالويل من النار، قال تعالى منكرًا على من ظن عدم البعث والجزاء، ومنزهًا نفسه عن أنه خلقهم عبثًا لا لبعث وجزاء: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [١٥] فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيِّ ﴿١٦﴾ [المؤمنون]. وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٧]، في قوله في آية ص هذه: باطلاً أي عبثًا لا لبعث وجزاء.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُوبِ﴾ [٧] إِنَّكَ لَفِي قَوْلٍ مُتَخَلِّفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ ﴿٩﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَاتِ الْحُبُوبِ﴾؛ فيه للعلماء أقوال متقاربة لا يكذب بعضها بعضاً، فذهب بعض أهل العلم إلى أن الحبك جمع حبيكة أو حباك، وعليه فالمعنى ذات الحبك أي ذات الطرائق، فما يبدو على سطح الماء الساكن أو الرمل من الطرائق إذا ضربته الريح هو الحبك، وهو جمع حبيكة أو حباك، قالوا: ولبعد السماء لا ترى طرائقها المعبر عنها بالحبك، ومن هذا المعنى قول زهير:

مكمل بأصول النجم تنسجه ريح خريق بضاحي مائه حبك

وقول الراجز:

كأنما جليلها الحواك طنفسة في وشيها حباك

وممن نقل عنه هذا القول: الكلبي والضحاك.

وقال بعض أهل العلم: «ذات الحبك» أي ذات الخلق الحسن المحكم، وممن قال به: ابن عباس وعكرمة وقادة.

وهذا الوجه يدل عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ﴾ [٢] ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٣﴾ [الملك] إلى غير ذلك من الآيات.

وعلى هذا القول فالحبك مصدر؛ لأن كل عمل أتقنه عامله وأحسن صنعه، تقول فيه العرب: حبكه حبكاً بالفتح على القياس، والحبك بضمين بمعناه.

وقال بعض العلماء: ذات الحبك؛ أي الزينة.

وممن روي عنه هذا: سعيد بن جبير والحسن، وعلى هذا القول، فالآية كقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ﴾ [الملك: ٥]، وقد قدّمنا الآيات الموضحة لذلك في ق في الكلام على قوله: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾... الآية [ق: ٦].

وقال بعض العلماء: «ذات الحبك» أي ذات الشدة، وهذا القول يدل له قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبا].

والعرب تسمي شدة الخلق حبكاً، ومنه قيل للفرس الشديد الخلق: محبوبك. ومنه قول امرئ القيس:

قد غدا يحملني في أنفه لاحق الأطلين محبوبك ممر

والآية تشمل الجميع، فكل الأقوال حق. والمقسم عليه في هذه الآية هو قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَعَلَى قَوْلٍ مُخْتَلَفٍ﴾ [٨]؛ أي إنكم أيها الكفار لفي قول مختلف في شأن النبي ﷺ وشأن القرآن؛ لأن بعضهم يقول: هو شعر، وبعضهم يقول: سحر، وبعضهم يقول: كهانة، وبعضهم يقول: أساطير الأولين، وقول من قال: «في قول مختلف»؛ أي لأن بعضهم مصدق، وبعضهم مكذب؛ خلاف التحقيق.

ويدل على أن الاختلاف إنما هو بين المكذبين دون المصدقين. قوله تعالى في سورة (ق): ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [ق: ٥]؛ أي مختلط؛ وقال بعضهم: مختلف، والمعنى واحد.

وقوله تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [١]؛ أظهر الأقوال فيه عندي ولا ينبغي العدول عنه في نظري، أن لفظة «عن» في الآية سببية كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْنُ بِتَارِكِي آلِهِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ [هود: ٥٣]، أي بسبب قولك، ومن أجله، والضمير المجرور بعن راجع إلى القول المختلف، والمعنى: يؤفك أي يصرف عن الإيمان بالله ورسوله عنه، أي عن ذلك القول المختلف؛ أي بسببه من أفك أي من سبقت له الشقاوة في الأزل، فحرم الهدى وأفك عنه؛ لأن هذا القول المختلف يكذب بعضه بعضاً ويناقضه.

ومن أوضح الأدلة على كذب القول وبطلانه اختلافه وتناقضه كما لا يخفى، فهذا القول المختلف الذي يحاول كفار مكة أن يصدوا به الناس عن الإسلام، الذي يقول فيه بعضهم: إن الرسول ساحر، وبعضهم يقول: شاعر، وبعضهم يقول: كذاب، ظاهر البطلان لتناقضه وتكذيب بعضه لبعض، فلا يصرف عن الإسلام بسببه إلا من صرف، أي صرفه الله عن الحق لشقاوته في الأزل، فمن لم يكتب عليه في سابق علم الله الشقاوة والكفر لا يصرفه عن الحق قول ظاهر الكذب والبطلان لتناقضه.

وهذا المعنى جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿مَا أَنتَ عَلَيْهِ بِفَتْنٍ ۖ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات].

ومعنى هذه الآية أن دين الكفار، الذي هو الشرك بالله وعبادة الأوثان، مع حرصهم على صد الناس عن دين الإسلام إليه ما هم بفاتنين، أي ليسوا بمضلين عليه أحداً لظهور فسادهم وبطلانهم إلا من هو صال الجحيم، أي إلا من قدر الله عليه الشقاوة وأنه من أهل النار في سابق علمه، هذا هو الظاهر لنا في معنى هذه الآية الكريمة.

وأكثر المفسرين على أن الضمير في قوله: ﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ﴾ راجع إلى النبي ﷺ أو القرآن؛ أي يصرف عن الإيمان بالنبي أو القرآن، من أفك أي صرف عن الحق، وحرم الهدى لشدة ظهور الحق في صدق النبي ﷺ، وأن القرآن منزل من الله، وهذا خلاف ظاهر السياق كما ترى.

وقول من قال: يؤفك عنه؛ أي يصرف عن القول المختلف الباطل من أفك؛ أي من صرف عن الباطل إلى الحق، لا يخفى بعده وسقوطه.

والذين قالوا هذا القول، يزعمون أن الإفك يطلق على الصرف عن الحق إلى الباطل، وعن الباطل إلى الحق، ويبعد هذا أن القرآن لم يرد فيه الإفك مراد به إلا الصرف عن الخير إلى الشر دون عكسه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّيِّئِينَ فِي جَنَّتٍ وَعَيْنٍ﴾ [١٥]. لا يخفى على من عنده علم بأصول الفقه أن هذه الآية الكريمة فيها الدلالة المعروفة عند أهل الأصول بدلالة الإيماء والتنبيه على أن سبب نيل هذه الجنات والعيون هو تقوى الله والسبب الشرعي هو العلة على الأصح، وكون التقوى سبب دخول الجنات الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [١٦] [مريم]، وقد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣١].

قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [١٥] وفي أنفسكم آياتٌ تَبَصُّرُونَ [١٦]. قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة الجاثية.

قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [١٧]. اختلف العلماء في المراد بكون رزق الناس في السماء، فذهبت جماعة من أهل العلم أن المراد أن جميع أرزاقهم منشؤها من المطر وهو أنزل من السماء، ويكثر في القرآن إطلاق اسم الرزق على المطر، لهذا المعنى كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ﴾... الآية [الجاثية: ٥]. وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة المؤمن.

وإنزاله تعالى الرزق من السماء بإنزال المطر من أعظم آياته الدالة على عظمته وأنه المعبود وحده، ومن أعظم نعمه على خلقه في الدنيا؛ ولذلك كثر الامتنان به في القرآن على الخلق.

وقال بعض أهل العلم: معنى قوله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾؛ أَنَّ أَرْزَاقَكُمْ مقدرة مكتوبة، والله - جلّ وعلا - يدبر أمر الأرض من السماء، كما قال تعالى: ﴿يَذَرُّ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَنْزِلُ بِهِ إِلَيْهِ﴾... الآية [السجدة: ٥]. قوله تعالى: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (ما) في محل رفع عطف على قوله: ﴿رِزْقُكُمْ﴾، والمراد بما يوعدون، قال بعض أهل العلم: الجنة؛ لأن الجنة فوق السماوات، فإطلاق كونها في السماء إطلاق عربي صحيح؛ لأن العرب تطلق السماء على كل ما علاك كما قيل:

وقد يسمى سماء كل مرتفع وإنما الفضل حيث الشمس والقمر

ولما حكى النابغة الجعدي شعره المشهور، قال فيه:

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا وإنما لنرجو فوق ذلك مظهرها

قال له ﷺ: «إلى أين يا أبي ليلي؟» قال: إلى الجنة، قال: «نعم إن شاء الله».

وقال بعض أهل العلم: وما توعدون من الخير والشر كله مقدر في السماء، كما بيناه في القول الثاني في المراد بالرزق في الآية، وهذا المعنى فيما يوعدون به أنسب لهذا القول الثاني في معنى الرزق.

وقد وردت قصص تدل على أنه هو الذي يتبادر إلى ذهن السامع، فمن ذلك ما ذكره غير واحد عن سفيان الثوري أنه قال: قرأ وأصل الأحذب هذه الآية: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فقال: ألا أرى رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض، فدخل خبرة يمكث ثلاثاً لا يصيب شيئاً، فلما أن كان في اليوم الثالث إذا هو بدوخلة من رطب، وكان له أخ أحسن منه نية، فدخل معه فصارتا دواخلتين، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق بينهما الموت.

ومن ذلك أيضاً: ما ذكره الزمخشري في تفسير هذه الآية قال: وعن الأصمعي قال: أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود له، فقال: ممن الرجل؟ قلت: من بني أصم. قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام الرحمن. فقال: اتل علي، فتلوت: ﴿وَالذَّارِيَاتُ﴾؛ فلما بلغت قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ قال: حسبك. فقام إلى ناقته فنحراها ووزعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرها وولى، فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت رقيق فالتفت، فإذا أنا بالأعرابي قد نحل أصغر فسلم علي واستقرأ السورة، فلما بلغت الآية صاح، وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، ثم قال: وهل غير هذا؟ فقرأت: ﴿قُرْبَى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطُقُونَ﴾؛ فصاح وقال: يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف لم يصدقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين، قائلاً ثلاثاً، وخرجت معها نفسه، انتهى.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثٌ ضَافٍ لِزُجْجٍ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا، إِلَى

آخر القصة، قد قدّمنا إيضاحه في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الحجر]، الآيات. وفي سورة هود في القصة المذكورة، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٣٧)، قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَنهَا لَيْسَبِيلُ مُقِيمٍ﴾ (٧١) [الحجر]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ (٨١)، قد قدّمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة فصلت، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [فصلت: ١٦].

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْفَةُ وَمَنْ يَنْظُرُونَ﴾، قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة فصلت، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْفَةُ الْعَذَابَ الْهَوْنِ﴾ [فصلت: ١٧].

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٩٧). قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة ق، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ الآية [ق: ٦]. تنبيه: قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾، ليس من آيات الصفات المعروفة بهذا الاسم؛ لأن قوله بأيدي ليس جمع يد؛ وإنما الأيد القوة، فوزن قوله هنا بأيدي فعل، ووزن الأيدي أفعال، فالهمزة في قوله: بأيدي في مكان الفاء والياء في مكان العين، والدال في مكان اللام. ولو كان قوله تعالى: بأيدي جمع يد لكان وزنه أفعلا، فتكون الهمزة زائدة والياء في مكان الفاء، والدال في مكان العين والياء المحذوفة لكونه منقوصاً هي اللام.

والأيد، والآد في لغة العرب بمعنى القوة، ورجل أيد قوي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]، أي قويناه به، فمن ظن أنها جمع يد في هذه الآية فقد غلط غلطاً فاحشاً، والمعنى: والسماء بنيناها بقوة.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه ما أتى نبي قوماً إلا قالوا ساحر أو مجنون، ثم قال: أتواصوا به، ثم أضرب عن توأصيتهم بذلك إضراب إبطال؛ لأنهم لم يجمعوا في زمن حتى يتواصوا فقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾؛ أي الموجب الذي جمعهم على اتفاقهم جميعاً على تكذيب الرسل ونسبتهم للسحر والجنون هو اتحاد في الطغيان الذي هو مجاوزة الحد في الكفر.

وهذا يدل على أنهم إنما اتفقوا؛ لأن قلوب بعضهم تشبه قلوب بعض في الكفر والطغيان، فتشابهت مقالاتهم للرسل لأجل تشابه قلوبهم.

وقد أوضح تعالى هذا المعنى في سورة البقرة: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١٧٨].

قوله تعالى: ﴿قَوْلَ عَنْهُمْ مِمَّا أَنْتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤﴾، نفيه - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة للوم عن نبيه ﷺ يدل على أنه أدى الأمانة ونصح للأمة.

وقد أوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيْنًا﴾ [المائدة: ٣]. وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة معلومة.

قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾. قد قدّمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أنّ من أنواع البيان التي تضمنها أن يجعل الله شيئاً لحكم متعددة، فيذكر بعض حكمه في بعض المواضع، فإننا نذكر بقية حكمه، والآيات الدالة عليها، وقد قدّمنا أمثلة ذلك.

ومن ذلك القليل هذه الآية الكريمة، فإنها تضمنت واحدة من حكم التذكير وهي رجاء انتفاع المذكر به؛ لأنه تعالى قال هنا: ﴿وَذَكِّرْ﴾ [ق: ٤٥]، ورتب عليه قوله: ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ومن حكم ذلك أيضاً خروج المذكر من عهدة التكليف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد جمع الله هاتين الحكمتين في قوله: ﴿قَالُوا مَعْذَرَةٌ إِلَيْنَا رَبُّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَسْتَفْهِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

ومن حكم ذلك أيضاً النياية عن الرسل في إقامة حجة الله على خلقه في أرضه؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقد بيّن هذه الحجة في آخر طه، في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ ... الآية [طه: ١٣٤].

وأشار لها في القصص في قوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ يَمَآ قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾ [القصص: ٤٧].

وقد قدّمنا هذه الحكم في سورة المائدة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥١﴾، اختلف العلماء في معنى قوله: «لِيَعْبُدُونِ»، فقال بعضهم: المعنى ما خلقتهم إلا ليعبدني السعداء منهم ويعصيني الأشقياء، فالحكمة المقصودة من إيجاد الخلق التي هي عبادة الله حاصلة بفعل السعداء منهم، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوْا بِهَا بِكَفَرِيَّتِهِمْ﴾ [الأنعام: ٨٩]، وهذا القول نقله ابن جرير عن زيد بن أسلم وسفيان.

وغاية ما يلزم على هذا القول أنه أطلق فيها المجموع وأراد بعضهم.

وأمثال ذلك كثيرة في القرآن، ومن أوضحها قراءة حمزة والكسائي: «فإن قتلوكم فاقتلوهم»، من القتل لا من القتال، وقد بينا هذا في مواضع متعددة، وذكرنا أن من شواهد العربية قول الشاعر:

فسيف بني عبس وقد ضربوا به نبالاً من يدي ورقاء عن رأس خالد

فتراه نسب الضرب لبني عبس مع تصريحه أن الضارب الذي نباله بيده السيف عن رأس خالد يعني ابن جعفر الكلبي، هو ورقاء يعني ابن زهير العبسي.

وقد قدمنا في الحجرات أن من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِسُوا﴾ الآية [الحجرات: ١٤]. بدليل قوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٩].

وقال بعض العلماء: معنى قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؛ أي إلا ليقروا لي بالعبودية طوعاً أو كرهاً؛ لأن المؤمن يطيع باختياره والكافر مذعن منقاد لقضاء ربه جبراً عليه، وهذا القول رواه ابن جرير عن ابن عباس واختاره، ويدل له قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾... الآية [الرعد: ١٥]، والسجود والعبادة كلاهما خضوع وتذلل لله - جلّ وعلا -، وقد دلت الآية على أن بعضهم يفعل ذلك طوعاً وبعضهم يفعله كرهاً.

وعن مجاهد أنه قال: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؛ أي إلا ليعرفوني، واستدل بعضهم لهذا القول بقوله: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ونحو ذلك من الآيات، وهو كثير في القرآن، وقد أوضحنا كثرتة فيه في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وقال بعض أهل العلم: وهو مروي عن مجاهد أيضاً، معنى قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؛ أي إلا لأمرهم بعبادتي فيعبدني من وفقته منهم لعبادتي دون غيره، وعلى هذا القول، فإرادة عبادتهم المدلول عليها باللام في قوله: «ليعبدون»، إرادة دينية شرعية وهي الملازمة للأمر، وهي عامة لجميع من أمرتهم الرسل لطاعة الله لا إرادة كونية قدرية؛ لأنها لو كانت كذلك لعبده جميع الإنس والجن، والواقع خلاف ذلك بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَكْفُرُونَ ۖ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۚ وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون] إلى آخر السورة.

قال مقبده - عفا الله عنه وغفر له -: التحقيق - إن شاء الله - في معنى هذه الآية الكريمة: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؛ أي إلا لأمرهم بعبادتي وأبتليهم أي أختبرهم بالتكاليف ثم أجازيهم على أعمالهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وإنما قلنا: إن هذا هو التحقيق في معنى الآية؛ لأنه تدل عليه آيات محكمات من كتاب الله، فقد صرح تعالى في آيات من كتابه أنه خلقهم ليبتيهم أيهم أحسن عملاً، وأنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم.

قال تعالى في أول سورة هود: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ

عَرَّشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴿٧﴾ [هود: ٧]، ثم بين الحكمة في ذلك فقال: ﴿لِيَلْبُوكُمُ آبَاؤُكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَكِنْ قُلْتُ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [هود: ٧].

وقال تعالى في أول سورة الملك: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

وقال تعالى في أول الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ﴿٧﴾ ... الآية [الكهف].

فتصريحه - جلّ وعلا - في هذه الآيات المذكورة بأن حكمة خلقه للخلق، هي ابتلاؤهم أيهم أحسن عملاً، يفسر قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾، وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

ومعلوم أنّ نتيجة العمل المقصودة منه لا تتم إلا بجزاء المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته؛ ولذا صرح تعالى بأن حكمة خلقهم أولاً وبعثهم ثانياً، هو جزاء المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وذلك في قوله تعالى في أول يونس: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤]، وقوله في النجم: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ ﴿٣١﴾ [النجم].

وقد أنكر تعالى على الإنسان حسبانته وظنه أنّه يترك سدى، أي مهملاً، لم يؤمر ولم ينه، وبين أنّه ما نقله من طور إلى طور حتى أوجده إلا لبيعته بعد الموت؛ أي ويجازيه على عمله، قال تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ ﴿٣١﴾ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلُ نَفْثَةً مِنْ مَوْنٍ يُنْفَثُ ﴿٣٧﴾. إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقْدِيرٍ عَلَى أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ الْغَوَى﴾ ﴿٤٠﴾ [القيامة].

والبراهين على البعث دالة على الجزاء، وقد نزه تعالى نفسه عن هذا الظن الذي ظنه الكفار به تعالى، وهو أنه لا يبعث الخلق ولا يجازيهم، منكرًا ذلك عليهم في قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١٦﴾ [المؤمنون].

وقد قدّمنا الآيات الموضحة لهذا في أول سورة الأحقاف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الأحقاف: ٣].

تنبيه: اعلم: أنّ الآيات الدالة على حكمة خلق الله للسموات والأرض وأهلها وما بينهما قد يظن غير المتأمل أن بينهما اختلافاً، والواقع خلاف ذلك؛ لأنّ كلام الله لا يخالف بعضه بعضاً، وإيضاح ذلك أنّ الله - تبارك وتعالى - ذكر في بعض الآيات أن حكمة خلقه للسموات والأرض هي إعلام خلقه بأنه قادر على كل شيء، وأنّه محيط بكل شيء علماً، وذلك في قوله تعالى في آخر الطلاق: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِيُعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿٧﴾ [الطلاق].

وذكر في مواضع كثيرة من كتابه أنّه خلق الخلق ليبين للناس كونه هو المعبود

وحده، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ثم أقام البرهان على أنه إله واحد بقوله بعده: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافِ أَلْوَانِ السَّمَاءِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿لَا تَسْتَوِي أَعْيُنُهُمْ فِي الْبَصَرِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ولما قال: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَعْيُنُهُمْ رَبُّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، بين أن خلقهم برهان على أنه المعبود وحده بقوله بعده: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢١].

والاستدلال على أن المعبود واحد بكونه هو الخالق كثير جداً في القرآن، وقد أوضحنا الآيات الدالة عليه في أول سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا﴾ [١]، وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ الآية [الفرقان: ٢، ٣]، وفي سورة الرعد، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الآية [الرعد: ١٦]، وفي غير ذلك من المواضع.

وذكر في بعض الآيات أنه خلق السماوات والأرض ليستلي الناس، وذلك في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

وذكر في بعض الآيات أنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم وذلك في قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ ... الآية [يونس: ٤]، وذكر في آية الذاريات هذه أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعيده، فقد يظن غير العالم أن بين هذه الآيات اختلافاً مع أنها لا اختلاف بينها؛ لأن الحكم المذكور فيها كلها راجع إلى شيء واحد، وهو معرفة الله وطاعته ومعرفة وعده ووعيده، فقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وقوله: ﴿أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، راجع إلى شيء واحد هو العلم بالله؛ لأن من عرف الله أطاعه ووحده.

وهذا العلم يعلمهم الله إياه ويرسل لهم الرسل بمقتضاه ليهلك من هلك عن بينة، ويحيي من حيي عن بينة، فالتكليف بعد العلم، والجزاء بعد التكليف، فظهر بهذا اتفاق الآيات لأن الجزاء لا بد له من تكليف، وهو الابتلاء المذكور في الآيات والتكليف لا بد له من علم؛ ولذا دل بعض الآيات على أن حكمة الخلق للمخلوقات هي العلم بالخالق، ودل بعضها على أنها الابتلاء، ودل بعضها على أنها الجزاء، وكل ذلك حق لا اختلاف فيه، وبعضه مرتب على بعض.

وقد بينا معنى إلا ليعبدون في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» في سورة هود في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَلْقُهُمْ﴾ [هود: ١١٩]، وبيننا هناك أن الإرادة المدلول عليها باللام في قوله: ﴿وَلِلَّهِ خَلْقُهُمْ﴾، أي ولأجل الاختلاف إلى شقي وسعيد خلقهم، وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، إرادة كونية قدرية، وأن الإرادة المدلول عليها باللام في قوله: ﴿وَلَا يَعْْبُدُونَ﴾، إرادة دينية شرعية.

وَبَيْنَا هُنَاكَ أَيْضاً الْأَحَادِيثَ الدَّالَّةَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ مَنْقَسِماً إِلَى شَقِيٍّ وَسَعِيدٍ، وَأَنَّهُ كَتَبَ ذَلِكَ وَقَدَرَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرَ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ١٢]، وَقَالَ: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

والحاصل أَنَّ اللَّهَ دَعَا جَمِيعَ النَّاسِ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ وَعِبَادَتِهِ وَحَدَهُ وَأَمَرَهُمْ بِذَلِكَ، وَأَمَرَ بِذَلِكَ مُسْتَلْزِمٌ لِلْإِرَادَةِ الدِّينِيَّةِ الشَّرْعِيَّةِ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ - جَلَّ وَعَلَا - يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ بِإِرَادَتِهِ الْكُونِيَّةِ الْقَدْرِيَّةِ، فَيَصِيرُونَ إِلَى مَا سَبَقَ بِهِ الْعِلْمُ مِنْ شَقَاوَةٍ وَسَعَادَةٍ، وَبِهَذَا تَعْلَمُ وَجْهَ الْجَمْعِ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِعِبَادَةٍ﴾ (٥٦)، وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا أَنَّ الْإِرَادَةَ قَدْ تَكُونُ دِينِيَّةً شَرْعِيَّةً، وَهِيَ مُلَازِمَةٌ لِلْأَمْرِ وَالرَّضَا، وَقَدْ تَكُونُ كُونِيَّةً قَدْرِيَّةً وَلَيْسَتْ مُلَازِمَةً لِهَمَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ الْجَمِيعَ بِالْأَفْعَالِ الْمُرَادَةِ مِنْهُمْ دِينًا، وَيُرِيدُ ذَلِكَ كَوْنًا وَقَدْرًا مِنْ بَعْضِهِمْ دُونَ بَعْضٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، فَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ﴾؛ أَيُفِيمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِنَا؛ لِأَنَّهُ مُطْلُوبٌ مُرَادٌ مِنَ الْمَكْلُفِينَ شَرْعًا وَدِينًا، وَقَوْلُهُ: بِإِذْنِ اللَّهِ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَقَعُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا أَرَادَهُ اللَّهُ كَوْنًا وَقَدْرًا، وَاللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - يَقُولُ: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٥) [يونس]، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ مَيْسِرٍ لِمَا خَلَقَ لَهُ». وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِّفٍّ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾ (٥٧)، قَدْ قَدَّمْنَا الْآيَاتِ الْمَوْضُوحَةَ لَهُ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ، فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ﴾ (٥٩).

أَصْلُ الذُّنُوبِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ الدَّلْوُ، وَعَادَةُ الْعَرَبِ أَنَّهُمْ يَقْتَسِمُونَ مَاءَ الْآبَارِ وَالْقَلْبَ بِالْأَلْوِ، فَيَأْخُذُ هَذَا مِنْهُ مَلءُ دَلْوٍ، وَيَأْخُذُ الْآخَرُ كَذَلِكَ، وَمِنْ هُنَا أُطْلِقُوا اسْمَ الذُّنُوبِ، الَّتِي هِيَ الدَّلْوُ عَلَى النَّصِيبِ. قَالَ الرَّاجِزُ فِي اقْتِسَامِهِمُ الْمَاءَ بِالْأَلْوِ:

لَنَا ذُنُوبٌ وَلَكُمْ ذُنُوبٌ فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلَنَا الْقَلِيبُ
وَيُرْوَى:

إِنَّا إِذَا شَارِبْنَا شَرِيبَ لَهُ ذُنُوبٌ وَلَنَا ذُنُوبٌ
فَإِنْ أَبَى كَانَ لَنَا الْقَلِيبُ

وَمِنْ إِطْلَاقِ الذُّنُوبِ عَلَى مُطْلَقِ النَّصِيبِ قَوْلُ عَلْقَمَةَ بْنِ عَبْدِ التَّمِيمِيِّ.

وَقِيلَ عَبِيدٌ:

وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبِطَتْ بِنِعْمَةٍ فَحَقُّ لَشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذُنُوبٌ
وَقَوْلُ أَبِي ذُؤَيْبٍ:

لعمرك والمنايا طارقات لكل بني أب منها ذنوب

فالذنوب في البيتين النصيب، ومعنى الآية الكريمة، فإن للذين ظلموا بتكذيب النبي ﷺ ذنوباً، أي نصيباً من عذاب الله مثل ذنوب أصحابهم من الأمم الماضية من العذاب لما كذبوا رسلهم.

وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ [الزمر].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ﴾؛ قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الرعد، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسْتَعِجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ﴾ [الرعد: ٦]، وفي سورة مريم، في الكلام على قوله: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ (٨٤) [مريم]، وغير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (١٠).

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد الكفار بالويل من يوم القيامة لما ينالهم فيه من عذاب النار، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى في (ص): ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]. وقوله في (إبراهيم): ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٢]. وقوله في (المرسلات): ﴿وَيْلٌ يُؤْمِدُ لِلْكَافِرِينَ﴾ (١٦) [المرسلات]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقد قدمنا أن كلمة ﴿وَيْلٌ﴾، قال فيها بعض أهل العلم: إنها مصدر لا فعل له من لفظه، ومعناه الهلاك الشديد، وقيل: هو واد في جهنم تستعيز من حره، والذي سوغ الابتداء بهذه النكرة أن فيها معنى الدعاء.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الطور

قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ﴾ (١) وَكَتَبَ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍ مَشْهُورٍ (٣) وَأَلْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّعْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ (٨).

هذه الأقسام التي أقسم الله بها تعالى في أول هذه السورة الكريمة أقسم ببعضها بخصوصه، وأقسم بجميعها في آية عامة لها ولغيرها.

أما الذي أقسم به منها إقساماً خاصاً فهو الطور، والكتاب المسطور، والسقف المرفوع، والأظهر أن الطور الجبل الذي كلم الله عليه موسى، وقد أقسم الله تعالى بالطور في قوله: ﴿وَالْأَيْنِ وَالرَّيْثُونَ﴾ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) [التين].

والأظهر أنّ الكتاب المسطور هو القرآن العظيم، وقد أكثر الله من الإقسام به في كتابه كقوله تعالى: ﴿حَمْدٌ ۝١﴾ و﴿الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ [الزخرف]. وقوله تعالى: ﴿يَسَّ ۝٣﴾ و﴿الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٤﴾ [يس]، وقيل: هو كتاب الأعمال، وقيل غير ذلك، والسقف المرفوع: هو السماء، وقد أقسم الله بها في كتابه في آيات متعددة كقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧﴾ [الذاريات]. وقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝٨﴾ [البروج]. وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥﴾ [الشمس]، والرق بفتح الراء كل ما يكتب فيه من صحيفة وغيرها، وقيل هو الجلد المرقق ليكتب فيه. وقوله: منشور أي مبسوط، ومنه قوله: ﴿كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣]. وقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشُورَةً ۝٥٢﴾ [المدثر]. والبيت المعمور: هو البيت المعروف في السماء المسمى بالضرّاح بضم الضاد، وقيل فيه معمر، لكثرة ما يغشاه من الملائكة المتعبدين، فقد جاء الحديث: «أنه يزوره كل يوم سبعون ألف ملك، ولا يعودون إليه بعدها».

وقوله: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦﴾؛ فيه وجهان من التفسير للعلماء. أحدهما: أن المسجور هو الموقد ناراً، قالوا: وسيضطرم البحر يوم القيامة ناراً، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٢].

والوجه الثاني: هو أن المسجور بمعنى المملوء؛ لأنه مملوء ماء، ومن إطلاق المسجور على المملوء قول لبيد بن ربيعة في معلقته:

فتوسطا عرض السرى وصدعا مسجورة متجاوراً قلامها
فقوله: مسجورة: أي عيناً مملوءة ماء، وقول النمر بن تولب العكلي:

إذا شاء طالع مسجورة ترى حولها النبع والساسما

وهذان الوجهان المذكوران في معنى المسجور هما أيضاً في قوله: ﴿وَإِذَا أَلْحَاظَ سِجْرَتَ ۝١﴾ [التكوير]، وأما الآية العامة التي أقسم فيها تعالى بما يشمل جميع هذه الأقسام وغيرها، فهي قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٢٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٢٩﴾ [الحاقة]؛ لأن الإقسام في هذه الآية عام في كل شيء.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوْفٌ ۝٧﴾، قد قدّمنا الآيات الموضحة له في أول الذاريات، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ۝٢٤﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ يَهَا تُكَذِّبُونَ ۝٢٥﴾، الدع في لغة العرب: الدفع بقوة وعنف، ومنه قوله تعالى: ﴿فَذَلِكِ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۝١﴾ [الماعون]، أي يدفعه عن حقه بقوة وعنف، وقد تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين:

أحدهما: أن الكفار يدفعون إلى النار بقوة وعنف يوم القيامة.

وثانيهما: أنهم يقال لهم يوم القيامة توبيخاً وتقريعاً: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ يَهَا

تُكَذِّبُونَ ۝٢٥﴾.

وهذان الأمران المذكوران في هذه الآية الكريمة جاءا موضحين في آيات أخر،
أما الأخير منهما، وهو كونهم يقال لهم: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾؛ قد
ذكره تعالى في آيات من كتابه كقوله في السجدة: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا
وَقِيلَ لَهُمْ دُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠]: وقوله في سبأ:
﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمَكُّ بَعْضُكُمُ لِبَعْضٍ نَّعْمًا وَلَا ضَرًّا وَقُولُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا
تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ]: وقوله تعالى في المرسلات: ﴿أُطْلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾
﴿أُطْلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ ﴿لَا ظِلِيلَ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ
كَالْقَصْرِ﴾ [المرسلات]: إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الأول منهما وهو كونهم يدفعون إلى النار بقوة، فقد ذكره الله - جلّ وعلا - في
آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان]: أي جروه بقوة
وعنف إلى وسط النار، والعتل في لغة العرب: الجر بعنف وقوة، ومنه قول الفرزدق:

ليس الكرام بنا حليتك أباهم حتى ترد إلى عطية تعتل

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْلَامِ﴾ [الرحمن]: أي تجمع
الزبانية بين ناصية الواحد منهم، أي مقدم شعر رأسه وقدمه، ثم تدفعه في النار بقوة وشدة.

وقد بين - جلّ وعلا - أنهم أيضاً يسحبون في النار على وجوههم في آيات من كتابه
كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر]: وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآلِ كُتُبٍ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿إِذْ الْأَغْطَالُ فِي أَغْنَقِيهِمْ وَالْسَّلْسِلُ
يُسْحَبُونَ﴾ [القصص]: وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ
يَدْعُونَ﴾، بدل من قوله: يومئذ، في قوله تعالى قبله: ﴿قَوْلًا يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام]: ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنّ الكفار معذبون في النار لا
محالة، سواء صبروا أو لم يصبروا، فلا ينفعهم في ذلك صبر ولا جزع، وقد أوضح
هذا المعنى في قوله: ﴿قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ
مَحْصِنٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

قوله تعالى: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِنَا كَسَبَ رَهِيْنٌ﴾.

ظاهر هذه الآية الكريمة العموم في جميع الناس، وقد بيّن تعالى في آيات أخر أنّ
أصحاب اليمين خارجون من هذا العموم، وذلك في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ
رَهِيْنُهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] إلّا أصحاب اليمين [٢٩] في جَنَّتِ يَسَاءَلُونَ [٣٠] عَنِ الْمُجْرِمِينَ [٣١] [المدرثر].

ومن المعلوم أنّ التخصيص بيان، كما تقرر في الأصول.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِنُكْحَتِهِمْ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [٣٢]، لم يذكر هنا شيء من
صفات هذه الفاكهة ولا هذا اللحم إلا أنه مما يشتهون، وقد بيّن صفات هذه الفاكهة

في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿وَفَكَهَمَ كَثِيرٌ ۖ لَا مَقْطُوعَ وَلَا مَمْنُوعَ ۚ﴾ [الواقعة]، وبين أنها أنواع في مواضع أخر كقوله: ﴿وَلَمْ يَمْنَحْ مِنْ كُلِّ الشَّيْءِ﴾ [محمد: ١٥] وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ ... الآية [البقرة: ٢٥]. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ لَمْ يَرْزُقْ مَعْلُومٌ ۖ فَوَيْلٌ لَهُمْ﴾ [الواقعة]، إلى غير ذلك من الآيات.

ووصف اللحم المذكور بأنه من الطير، والفاكهة بأنها مما يتخيرونه على غيره، وذلك في قوله: ﴿وَفَكَهَمَ وَمَا يَخْبَرُونَ ۖ وَلَمْ يَمْنَحْ طَيْرٌ وَمَا يَشْتَرُونَ﴾ [الواقعة].

قوله تعالى: ﴿يَسْزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِ ۚ﴾، قرأه ابن كثير وأبو عمرو: «لَا لَغْوٌ» بالبناء على الفتح، «وَلَا تَأْتِيهِمْ» كذلك؛ لأنها «لا» التي لنفي الجنس فبنيت معها، وهي إن كانت كذلك نص في العموم، وقرأه الباقون من السبعة، «لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِ ۚ» بالرفع والتثنية؛ لأن لا النافية للجنس إذا تكررت كما هنا جاز إعمالها وإهمالها، والقراءتان في الآية فيهما المثال للوجهين، وإعمالها كثير، ومن شواهد إهمالها قراءة الجمهور في هذه الآية، وقول الشاعر:

وما هجرتك حتى قلت معلنة لا ناقة لي في هذا ولا جمل

وقوله: ﴿يَسْزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا ۚ» أي يتعاطون، ويتناول بعضهم من بعض كأساً أي خمرأ، فالتنازع يطلق لغة على كل تعاط وتناول، فكل قوم يعطي بعضهم بعضاً شيئاً ويناوله إياه، فهم يتنازعونه كتنازع كؤوس الشراب والكلام، وهذا المعنى معروف في كلام العرب. ومنه في الشراب قول الأخطل:

وشارب مريح بالكأس نادمني لا بالحصور ولا فيها بسوار

نازعت طيب الراح الشمول وقد صاح الدجاج وحانت وقعة السار

فقوله: نازعته طيب الراح: أي ناولته كؤوس الخمر وناولنيها، ومنه في الكلام قول امرئ القيس:

ولما تنازعنا الحديث وأسمحت هصرت بغصن ذي شماريخ ميال

والكأس تطلق على إناء الخمر، ولا تكاد العرب تطلق الكأس إلا على الإناء المملوء، وهي مؤنثة، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِ ۚ» يعني أن خمر الجنة التي يتعاطاها المؤمنون، فيها مخالفة في جميع الصفات لخمر الدنيا؛ فخمر الآخرة لا لغو فيها، واللغو كل كلام ساقط لا خير فيه، فخمر الآخرة لا تحمل شاربها على الكلام الخبيث والهذيان؛ لأنها لا تؤثر في عقولهم بخلاف خمر الدنيا، فإنهم إن يشربوها سكروا وطاشت عقولهم، فتكلموا بالكلام الخبيث والهذيان، وكل ذلك من اللغو. والتأنيث: هو ما ينسب به فاعله إلى الإثم، فخمر الآخرة لا يأثم شاربها بشربها؛ لأنها مباحة له، فينعم بلذتها كما قال تعالى: ﴿وَأَنهَزَ مِنْ خَمْرِ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ [محمد: ١٥]

ولا تحمل شاربها على أن يفعل إثماً بخلاف خمر الدنيا، فشاربها يأثم بشربها ويحملة السكر على الوقوع في المحرمات كالقتل والزنا والقذف.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من مخالفة خمر الآخرة لخمر الدنيا، جاء موضحاً في آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَايُنٍ مِنْ مَعِينٍ ۖ بَضَاءً لَدِّيرٍ ۚ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧] وقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ؛ أَي لَيْسَ فِيهَا غَوْلٌ يَغْتَالُ الْعُقُولَ، فَيَذْهَبُهَا كخمر الدنيا، وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ؛ أَي لَا يَسْكُرُونَ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ وَلَدُنْهُمْ مُخَلَّدُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَايُنٍ مِنْ مَعِينٍ ۚ لَا يُصْذَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ﴾ [الواقعة: ٦١] وقوله: ﴿لَا يُصْذَعُونَ؛ أَي لَا يُصِيبُهُم الصَّدَاعُ الَّذِي هُوَ وَجَعُ الرَّأْسِ بِسَبَبِهَا.

وقد أوضحنا معنى هذه الآيات في صفة خمر الآخرة، وبيننا أنها مخالفة في جميع الصفات لخمر الدنيا. وذكرنا الشواهد العربية في ذلك في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَاللَّبْسُ﴾ ... الآية [المائدة: ٩٠].

قوله تعالى: ﴿وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ [الأنعام: ٢٨] - ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنّ أهل الجنة يطوف عليهم غلمان جمع غلام؛ أي خدم لهم، وقد قدّمنا إطلاقات الغلام وشواهدا العربية في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ﴾ [الحجر: ٥٢].

ولم يبيّن هنا ما يطوفون عليهم به، وذكر هنا حسنهم بقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ في أصداقه؛ لأن ذلك أبلغ في صفائه وحسنه، وقيل: مكنون أي مخزون لنفاسه؛ لأن النفيس هو الذي يخزن ويكن.

وبين تعالى في الواقعة بعض ما يطوفون عليهم به في قوله: ﴿يُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَدُنْهُمْ مُخَلَّدُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَايُنٍ مِنْ مَعِينٍ ۚ [الواقعة: ٦١]. وزاد في هذه الآية كونهم مخلدين، وذكر بعض ما يطاف عليهم به في قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِبَاقِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ [الزخرف: ١٥] قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَرُهَا نَقِيرًا﴾ [الإنسان: ١١].

والظاهر أنّ الفاعل المحذوف في قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾ في آية الزخرف والإنسان المذكورتين هو الغلمان المذكورون في الطور والواقعة، وذكر بعض صفات هؤلاء الغلمان في الإنسان في قوله تعالى: ﴿وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَدُنْهُمْ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنُورًا﴾ [الإنسان: ١٨].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الأنعام: ٢٨] فَسَبَّحَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّعْنَا عَذَابَ الْسُّمُورِ﴾ [الأنعام: ٢٨] - ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنّ أهل الجنة يسأل بعضهم بعضاً، وأنّ المسؤول منهم يقول للسائل: إنّنا كنا قبل، أي في دار الدنيا في أهلنا مشفقين أي خائفين من عذاب الله، ونحن بين أهلنا أحياء فمنّ الله علينا أي أكرمنا،

وتفضل علينا بسبب الخوف منه في دار الدنيا فهدانا، ووفقنا في الدنيا ووقانا في الآخرة عذاب السموم، والسموم النار ولفحها ووهجها، وأصله الريح الحارة التي تدخل المسام، والجمع سائم. ومنه قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

أنامل لم تضرب على البهم بالضحى بهن ووجه لم تلحه السمائم

وقد يطلق السموم على الريح الشديدة البرد، ومنه قول الرازي:

اليوم يوم بارد سموه من جزع اليوم فلا ألومه

الفاء في قوله: ﴿فَمَرَبَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾، تدل على أن علة ذلك هي الخوف من الله في دار الدنيا، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الإشفاق الذي هو الخوف الشديد من عذاب الله في دار الدنيا، سبب للسلامة في الآخرة، يفهم من دليل خطابه، أعني مفهوم مخالفته أن من لم يخف من عذاب الله في الدنيا لم ينج منه في الآخرة.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة بمنطوقها ومفهومها جاء موضحاً في غير هذا الموضع، فذكر تعالى أن السرور في الدنيا وعدم الخوف من الله سبب العذاب يوم القيامة، وذلك في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كَيْدَهُ وَرَأَى ظَهْرَهُ ۖ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۖ وَيَصْلَى سَعِيرًا ۖ ﴿١١﴾ إِنَّهُمْ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۖ ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَن لَّنْ يَحُورَ ۖ ﴿١٣﴾... الآية [الانشقاق].

وقد تقرر في مسلك الإيماء والتنبيه أن «إن» المكسورة المشددة من حروف التعليل، فقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۖ ﴿١٢﴾﴾؛ علة لقوله: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۖ ﴿١١﴾ وَيَصْلَى سَعِيرًا ۖ ﴿١٣﴾﴾. والمسرور في أهله في دار الدنيا ليس بمشفق ولا خائف، ويؤيد ذلك قوله بعده: ﴿إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَن لَّنْ يَحُورَ ۖ ﴿١٣﴾﴾؛ لأن معناه ظن أن يرجع إلى الله حياً يوم القيامة، ولا شك أن من ظن أنه لا يبعث بعد الموت لا يكون مشفقاً في أهله خوفاً من العذاب؛ لأنه لا يؤمن بالحساب والجزاء، وكون لن يحور، بمعنى لن يرجع؛ معروف في كلام العرب، ومنه قول مهلهل بن ربيعة التغلبي:

أليتنا بذئ حسم أنيرى إذا أنت انقضيت فلا تحوري

فقوله: فلا تحوري، أي فلا ترجعي.

وقول لبيد بن ربيعة العامري:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رماداً بعد ما هو ساطع

أي يرجع رماداً، وقيل: يصير، والمعنى واحد، وقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ ۖ ﴿١٤﴾ فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ ۖ ﴿١٥﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُورٍ ۖ ﴿١٦﴾ لَا يُبَارِدُ وَلَا كَرِيمٍ ۖ ﴿١٧﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ۖ ﴿١٨﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ۖ ﴿١٩﴾ وَكَانُوا يَقُولُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا لَمَبَعُوثُونَ ۖ ﴿٢٠﴾... الآية [الواقعة]؛ لأن تنعمهم في الدنيا المذكور في قوله: ﴿مُتْرَفِينَ ۖ ﴿١٨﴾﴾، وإنكارهم للبعث المذكور في قوله: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ﴿٢٠﴾﴾... الآية [الواقعة: ٤٧]. دليل على عدم إشفاقهم في الدنيا، وهو علة كونهم في سموم وحميم.

وقد قدمنا قريباً أنّ «إن» المكسورة المشددة من حروف التعليل، فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ (٢٩) ... الآية [الواقعة]. علة لقوله: ﴿فِي سَمُورٍ وَجَمِيرٍ﴾ (٣٠) ... الآية [الواقعة].

وقد ذكر - جلّ وعلا - أنّ الإشفاق من عذاب الله من أسباب دخول الجنة والنجاة من العذاب يوم القيامة، كما دل عليه منطوق آية الطور هذه، قال تعالى في المعارج: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (١٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿١٨﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّةٍ مُكْرَمُونَ﴾ (٢٥) [المعارج]، وذكر ذلك من صفات أهل الجنة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ حَشِيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (٥٧) إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْغَيْثِ وَهُمْ لَهَا سَاقُونَ﴾ (٦١) [المؤمنون]، وقد قال تعالى: ﴿وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ﴾ (١٠) أُولَئِكَ الْمَفْرُوقُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ [الواقعة].

وقوله في آية الواقعة المذكورة: ﴿وَكَانُوا يُصْرُونَ عَلَى الْخَنِثِ الْعَظِيمِ﴾ (١٦) [الواقعة]، أي يديمون ويعزمون على الذنب الكبير، كالشرك وإنكار البعث، وقيل: المراد بالحنث: حنثهم في اليمين الفاجرة كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨].

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ (١٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبُّنَا أَلْمُونٍ ﴿٢٠﴾. نفى الله - جلّ وعلا - عن نبيه ﷺ في هاتين الآيتين الكريمتين ثلاث صفات قبيحة عن نبيه ﷺ رماه بها الكفار، وهي الكهانة والجنون والشعر، أما دعواهم أنّه كاهن أو مجنون، فقد نفاه صريحاً بحرف النفي الذي هو «ما» في قوله: ﴿فَمَا أَنْتَ، وأكد النفي بالباء في قوله: ﴿بِكَاهِنٍ، وأما كونه شاعراً فقد نفاه ضمناً بأَم المنقطعة في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾؛ لأنها تدل على الإضراب والإنكار المتضمن معنى النفي.

وقد جاءت آيات أخر بنفي هذه الصفات عنه ﷺ كقوله تعالى في نفي الجنون عنه في أول القلم: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (٢) [القلم]. وقوله في التكويد: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ (٣) [التكويد]. وكقوله في نفي الصفتين الأخيرتين؛ أعني الكهانة والشعر: ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ (٤) وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿٥﴾ [الحاقة]، وقد قدمنا بعض الكلام على هذا في سورة الشعراء، وغيرها.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبُّنَا أَلْمُونٍ﴾؛ أي نتظر به حوادث الدهر، حتى يحدث له منها الموت، فالمنون: الدهر، وريبه: حوادثه التي يطرأ فيها الهلاك والتغيير، والتحقيق أن الدهر هو المراد في قول أبي ذؤيب الهذلي:

أمن المنون وريبه تتوَجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

لأن الضمير في قوله: وريبه يدل على أن المنون الدهر، ومن ذلك أيضاً قول الآخر:

تربص بها ريب المنون لعلها تطلق يوماً أو يموت خليلها
وقال بعض العلماء: المنون في الآية الموت، وإطلاق المنون على الموت
معروف في كلام العرب، ومنه قول أبي الغول الطهوي:

هم منعوا حمى الوقي بضرب يؤلف بين أشات المنون
لأن الذين ماتوا عند ذلك الماء المسمى بالوقبا، جاءوا من جهات مختلفة، فجمع
الموت بينهم في محل واحد، ولو ماتوا في بلادهم لكانت منايهم في بلاد شتى.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (٣٤)، قد قدمنا أن الله
تحداهم بسورة واحدة من هذا القرآن في سورة البقرة، في قوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ
وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ الآية [البقرة: ٢٣]. وفي سورة يونس، في قوله تعالى:
﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ الآية [يونس: ٣٨].

وتحداهم في سورة هود، بعشر سور مثله في قوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ
مُفَارِسَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ الآية [هود: ١٣].

وتحداهم في سورة الطور، هذه به كله في قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ...﴾ الآية.
وبين في سورة بني إسرائيل، أنهم لا يقدرّون على شيء من ذلك في قوله: ﴿قُلْ لَئِنْ
اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ...﴾ الآية [الإسراء: ٨٨].

وقد أطلق - جلّ وعلا - اسم الحديث على القرآن في قوله هنا: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ
مِثْلِهِ﴾؛ كما أطلق عليه ذلك في قوله: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا...﴾ الآية
[الزمر: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ
يَدَيْهِ...﴾ الآية [يوسف: ١١١].

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥)، قد قدمنا الكلام عليه
وعلى الآيات المشابهة له في سورة مريم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ
أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ١٠٠].

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلُّوا يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ (٣٦)، قد قدمنا الكلام عليه وعلى الآيات المشابهة
له في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا
لِلنَّظَرِ ۖ وَحَفِظْنَاهَا...﴾ الآية [الحجر: ١٦، ١٧].

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ (٣٧)، قد قدمنا الآيات الموضحة له في
سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ
(٥٧)﴾ [النحل: ٥٧]، وفي مواضع أخر متعددة.

قوله تعالى: ﴿أَمْ سَأُلَهُمْ أَجْرًا فَهُمْ يَنْفَرُونَ مُنْجَلُونَ﴾ (٣٨)، قد قدمنا الآيات الموضحة
له وما يتعلق بها من الأحكام في سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَنْقُورُ لَا
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا...﴾ الآية [هود: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ٥﴾.

قد قدّمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ... الآية [الأنعام: ٧]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾. بين - جلّ وعلا - في هذه الآية أن كيد الكفار لا يغني عنهم شيئاً في الآخرة في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْقَصْلِ جَمَعْنَاكَ وَالْأَوَّلِينَ ٢٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكَ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٢٩﴾ [المرسلات].

وبين أنه لا ينفعهم في الدنيا أيضاً كقوله تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ٤٦﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ٥٥﴾ وَكَيْدٌ كَيْدًا ٦١﴾... الآية [الطارق]، وقوله: ﴿سَتَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ٨٧﴾ وَأَمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٨٨﴾ [الأعراف] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٤٧﴾. الظاهر أن قوله: ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾؛ هو ما عذبوا به في دار الدنيا من القتل وغيره، لما دل على ذلك قوله: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١]. وقوله تعالى: ﴿فَتَلَوْتُمُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]، إلى غير ذلك من الآيات، ولا مانع من دخول عذاب القبر في ذلك؛ لأنه قد يدخل في ظاهر الآية، وما قيل في معنى الآية غير هذا لا يتجه عندي. والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النَّجْمِ

قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾ مَا سَلَ صَاحِبُهُ وَمَا عَوَىٰ ٢﴾ وَمَا يُطِئُ عَنِ الْمَوَىٰ ٣﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ٤﴾، اختلف العلماء في المراد بهذا النجم الذي أقسم الله به في هذه الآية الكريمة، فقال بعضهم: المراد به النجم إذا رجعت به الشياطين، وقال بعضهم: إن المراد به الثريا، وهو مروي عن ابن عباس وغيره، ولفظة النجم علم للثريا بالغلبة، فلا تكاد العرب تطلق لفظ النجم مجرداً إلاّ عليها، ومنه قول نابغة ذبيان:

أقول والنجم قيد مالت أو آخره إلى المغييب تشبث نظرة حار

فقوله والنجم: يعني الثريا، وقوله تعالى: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾؛ أي سقط مع الصبح، وهذا اختيار ابن جرير. وقيل النجم: الزهرة، وقيل المراد بالنجم نجوم السماء، وعليه فهو

من إطلاق المفرد وإرادة الجمع كقوله: ﴿وَيُولُونُ أَلْدَبَرُ﴾ [القمر: ٤٥]، يعني الأدبار، وقوله: ﴿وَجَاءَ رُؤُوسُ الْمَلَائِكَةِ﴾ [الفجر: ١٧] أي والملائكة. وقوله: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرَّةَ يَمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٧٥] أي الغرف.

وقد قدمنا أمثلة كثيرة لهذا في القرآن، وفي كلام العرب في سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ [الحج: ٥]، وإطلاق النجم مراداً به النجوم مغرور في اللغة، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

ثم قالوا تحبها قلت بهرا عدد النجم والحصى والتراب
وقول الراعي:

فباتت تعد النجم في مستحيزة سريع بأيدي الأكلين جمودها

وعلى هذا القول، فمعنى هوى النجوم سقوطها إذا غربت أو انتثارها يوم القيامة. وقيل: النجم النبات الذي لا ساق له، وقال بعض أهل العلم: المراد بالنجم الجملة النازلة من القرآن، فإنه نزل على النبي ﷺ أنجماً منجماً في ثلاث وعشرين سنة، وكل جملة منه وقت نزولها يصدق عليها اسم النجم صدقاً عربياً صحيحاً كما يطلق على ما حان وقته من الدية المنجمة على العاقلة، ولكتابة المنجمة على العبد المكاتب.

وعلى هذا فقوله: ﴿إِذَا هُوَ﴾؛ أي نزل به الملك من السماء إلى النبي ﷺ، وقوله: هوى يهوى هويّاً إذا اخترق الهوى نازلاً من أعلى إلى أسفل.

اعلم أولاً أنّ القول بأنه الثريا وأن المراد بالنجم خصوصها، وإن اختاره ابن جرير وروى عن ابن عباس وغير واحد، ليس بوجيه عندي.

والأظهر أنّ النجم يراد به النجوم، وإن قال ابن جرير بأنه لا يصح، والدليل على ذلك جمعه تعالى للنجوم في القسم في قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]؛ لأنّ الظاهر أن المراد بالنجم إذا هوى هنا، كالمراد بمواقع النجوم في الواقعة.

وقد اختلف العلماء أيضاً في المراد بمواقع النجوم فقال بعضهم: هي مساقطها إذا غابت، وقال بعضهم: انتثارها يوم القيامة. وقال بعضهم: منازلها في السماء؛ لأنّ النازل في محل واقع فيه. وقال بعضهم: هي مواقع نجوم القرآن النازل بها الملك إلى النبي ﷺ.

قال مقبده - عفا الله عنه وغفر له -: أظهر الأقوال عندي وأقربها للصواب في نظري، أن المراد بالنجم إذا هوى هنا في هذه السورة، وبمواقع النجوم في الواقعة هو نجوم القرآن التي نزل بها الملك نجماً فتجماً، وذلك لأمرين:

أحدهما: أن هذا الذي أقسم الله عليه بالنجم إذا هوى الذي هو أن النبي ﷺ على حق وأنه ما ضل وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى موافق في المعنى لما أقسم عليه بمواقع النجوم، وهو قوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [٧٧] في كِتَابٍ مَّكُونٍ [٧٨] [الواقعة]. إلى قوله: ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٨١] [الواقعة].

والإقسام بالقرآن على صحة رسالة النبي ﷺ وعلى صدق القرآن العظيم وأنه منزل من الله جاء موضحاً في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿يَسَّ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ (١) ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢) ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٣) ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٤) [يسر]. وقوله تعالى: ﴿حَمَّ﴾ (٥) ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (٦) ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٧) ﴿وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْأَنْبِيَاءِ لَدِينًا لَعَلَى حَكِيمٍ﴾ (٨) [الزخرف]. وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

وثانیهما: أن كون المقسم به المعبر عنه بالنجوم، هو القرآن العظيم أنسب لقوله بعده: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَقْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (٩) [الواقعة]؛ لأن هذا التعظيم من الله يدل على أن هذا المقسم به في غاية العظمة.

ولا شك أن القرآن الذي هو كلام الله أنسب لذلك من نجوم السماء ونجم الأرض، والعلم عند الله تعالى.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ (١٠)، قال بعض العلماء: الضلال يقع من الجهل بالحق، والغي هو العدول عن الحق مع معرفته؛ أي ما جهل الحق وما عدل عنه، بل هو عالم متبع له.

وقد قدّمنا إطلاقات الضلال في القرآن بشواهدا العربية في سورة الشعراء في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ فَلَمَّا إِذَا مَا مِنَ الْأَشْيَاءِ﴾ (١١) [الشعراء]، وفي سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٢) [الكهف].

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كونه ﷺ على هدى مستقيم، جاء موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (١٣) [النمل]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَنْزِعُ عَنْكَ فِي الْآخِرَةِ وَادُّعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٤) [الحج: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقد قدّمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَاسْتَسْلِكْ بِلَدِّي أَوْحَى إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٥) [الزخرف]. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (١٦) [النجم]، استدلل به علماء الأصول على أن النبي ﷺ لم يكن يجتهد، والذين قالوا: إنه قد يقع منه الاجتهاد، استدلوا بقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ... الآية [التوبة: ٤٣]. وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنِّي أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَسْرَى حَتَّى يَخْرُجَ فِي الْأَرْضِ... الآية [الأنفال: ٦٧]. وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ... الآية [التوبة: ١١٣].

قالوا: فلو لم يكن هذا عن اجتهاد، لما قال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ... الآية [التوبة: ٤٣]. ولما قال: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنِّي أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَسْرَى﴾ [الأنفال: ٦٧]، ولا منافاة بين الآيات؛ لأن قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (١٦)، معناه أن النبي ﷺ لا يبلغ عن الله إلا شيئاً أوحى الله إليه أن يبلغه، فمن يقول: إنه شعر أو سحر

أو كهانة، أو أساطير الأولين، هو أكذب خلق الله وأكفرهم، ولا ينافي ذلك أنه أذن للمتخلفين من غزوة تبوك، وأسر الأسارى يوم بدر، واستغفر لعمه أبي طالب من غير أن ينزل عليه وحى خاص في ذلك، وقد أوضحنا هذا في غير هذا الموضع.

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ (٥)، المراد ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾؛ في هذه الآية: هو جبريل عليه السلام والمعنى أنه ﷺ علمه هذا الوحي ملك شديد القوى هو جبريل، وهذه الآية الكريمة قد تضمنت أمرين:

أحدهما: أن هذا الوحي الذي من أعظمه هذا القرآن العظيم، علمه جبريل النبي ﷺ بأمر من الله.

وثانيهما: أن جبريل شديد القوة.

وهذان الأمران جاءا موضحين في غير هذا الموضع.

أما الأول منهما وهو كون جبريل نزل عليه بهذا الوحي وعلمه إياه، فقد جاء موضحاً في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ... الآية [البقرة: ٩٧]. وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢٦) نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ ﴿١٢٦﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٢٧﴾ [الشعراء]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤]، وقوله تعالى: ﴿لَا تُخْرِكَ بِهِ لِسَانُكَ لِيَتَعَجَّلَ بِهِ﴾ (١٢٨) إِنْ عَلَيْنَا جَمْعَهُمْ وَقُرْآنَهُ ﴿١٢٩﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاقْبَعْ قُرْآنَهُ ﴿١٣٠﴾ [القيامة]؛ أي إذا قرأه عليك الملك المرسل به إليك منا مبلغاً له عنا فاتبع قرآنه، أي اقرأ كما سمعته يقرأ.

وأما الأمر الثاني، وهو شدة قوة جبريل النازل بهذا الوحي، فقد ذكره في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٤٠﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿١٤١﴾ [التكوير]. وقول في آية التكوير هذه: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ [الحاقة: ١٩]؛ أي لقوله المبلغ له عن الله، فقريئة ذكر الرسول تدل على أنه إنما يبلغ شيئاً أرسل به، فالكلام كلام الله بألفاظه ومعانيه، وجبريل مبلغ عن الله، وبهذا الاعتبار نسب القول له؛ لأن النبي ﷺ ما سمعه إلا منه، فهو القول الذي أرسله الله؛ وأمره بتبليغه، كما تدل عليه قريئة ذكر الرسول، وسيأتي إيضاح هذه المسألة - إن شاء الله - في سورة التكوير، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ (٧). قد قدمنا بعض الكلام عليه في أول سورة الإسراء.

قوله تعالى: ﴿الْكُفْرُ أَذْكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ (٨) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٩﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ [النحل: ٥٧]، وفي مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك.

قوله تعالى: ﴿فَلِللَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾ (١٥).

بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن له الآخرة والأولى وهي الدنيا، وبين

هذا في غير هذا الموضع كقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۖ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ ﴿١٣﴾ [الليل]، وبين في موضع آخر أن له كل شيء، وذلك في قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعْبَدَ رَبُّ هَٰذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَمَهَا وَلَمْ كُلِّ شَيْءٌ﴾ [النمل: ٩١]، وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ ﴿١٤﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾... الآية [البقرة: ٤٨]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَىٰ﴾ ﴿١٥﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ﴾ ﴿١٦﴾... الآية. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأحقاف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الأحقاف: ٣]، وفي سورة الذاريات في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥١﴾ [الذاريات].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الشورى، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ [الشورى].

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنْشَأَ رَبُّكَ الْأَرْضَ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النساء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٩]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ۖ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ﴾ ﴿٢٨﴾ أَعِنْدُهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٢٩﴾ أَمْ لَمْ يُبَيِّنْ بِمَا فِي صُحُفٍ مُّوسَىٰ ﴿٣٠﴾ وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣١﴾ أَلَّا نَزِدَّ وَزْرًا وَزَرًا تُخْرَىٰ ﴿٣٢﴾ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَنْ سَعْيُهُمْ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَىٰ ﴿٣٥﴾.

قوله: تولى؛ أي رجع وأدبر عن الحق. وقوله: أعطى قليلاً، قال بعضهم قليلاً من المال. وقال بعضهم: أعطى قليلاً من الكلام الطيب. وقوله: وأكدى أي قطع ذلك العطاء ولم يتمه، وأصله من أكدى صاحب الحفر؛ إذا انتهى في حفره إلى صخرة لا يقدر على الحفر فيها، وأصله من الكدية وهي الحجارة تعترض حافر البئر ونحوه فتمنعه الحفر، وهذا الذي أعطى قليلاً وأكدى، اختلف فيه العلماء، ف قيل هو الوليد بن المغيرة قارب أن يؤمن بالنبي ﷺ فعيّره بعض المشركين، فقال: أتركت دين الأشياء وضللتهم؟ قال: إني خشيت عذاب الله، فضمن له الذي عاتبه إن هو أعطاه كذا من ماله ورجع إلى

شركه أن يتحمل عنه عذاب الله، فرجع الوليد إلى الشرك وأعطى الذي عيّره بعض ذلك المال الذي ضمن ومنعه ثمانية، فأنزل الله عز وجل الآية.

وعلى هذا فقوله: تولى؛ أي الوليد عن الإسلام بعد أن قارب، وأعطى قليلاً من المال للذي ضمن له أن يتحمل عنه ذنوبه. وأكدى؛ أي بخل عليه بالباقي، وقيل: أعطى قليلاً من الكلام الطيب كمدحه للقرآن واعترافه بصدق النبي ﷺ، وأكدى أي انقطع عن ذلك ورجع عنه. وقيل: هو العاص بن وائل السهمي، وكان ربما وافق النبي ﷺ في بعض الأمور، وذلك هو معنى إعطائه القليل ثم انقطع عن ذلك، وهو معنى إكذائه، وهذا قول السدي ولم ينسجم مع قوله بعده: ﴿أَعْنَدُوا عِلْمُ الْغَيْبِ﴾

وعن محمد بن كعب القرظي أنه أبو جهل، قال: والله ما يأمرنا محمد ﷺ إلا بمكارم الأخلاق، وذلك معنى إعطائه قليلاً، وقطعه لذلك معروف.

واقتصر الزمخشري على أنه عثمان بن عفان ؓ قال: روي أن عثمان بن عفان كان يعطي ماله في الخير فقال له عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وهو أخوه من الرضاعة: يوشك ألا يبقى لك شيء. فقال عثمان: إن لي ذنباً وخطايا، وإنني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى، وأرجو عفوه، فقال عبد الله: أعطني ناقتك برحلتها، وأنا أتحمّل عنك ذنوبك كلها، فأعطاه وأشهد عليه، وأمسك عن العطاء فنزلت الآية.

ومعنى تولى ترك المركز يوم أحد، فعاد عثمان إلى أحسن من ذلك وأجمل، انتهى منه. ولا يخفى سقوط هذا القول وبطلانه، وأنه غير لائق بمنصب أمير المؤمنين عثمان بن عفان ؓ، وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة سبعة أمور:

الأول: إنكار علم الغيب المدلول عليه بالهمزة في قوله: ﴿أَعْنَدُوا عِلْمُ الْغَيْبِ﴾ والمراد نفي علمه للغيب.

الثاني: أن لكل من إبراهيم وموسى صنحفاً بما يتبأ بما فيها هذا الكافر.

الثالث: أن إبراهيم وفقى؛ أي أتم القيام بالتكاليف التي كلفه ربه بها.

الرابع: أن في تلك الصحف، أن لا تزر وازرة وزر أخرى.

الخامس: أن فيها أيضاً أنه ليس للإنسان إلا ما سعى.

السادس: أن سعيه سوف يرى.

السابع: أنه يجزاء الجزاء الأوفى، أي الأكمل الأتم.

وهذه الأمور السبعة قد جاءت كلها موضحة في غير هذا الموضع.

أما الأول منها: وهو عدم علمهم الغيب، فقد ذكره تعالى في مواضع كثيرة كقوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الطور]. وقوله: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَوْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مریم]. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. وقوله

تعالى: ﴿عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ۝... الآية [الجن: ٢٦، ٢٧]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۝ [النمل: ٦٥]. والآيات يمثل هذا كثيرة معلومة، وقد قدمناها مراراً.

والثاني: الذي هو أن لإبراهيم وموسى صحفاً لم يكن هذا المتولي المعطي قليلاً المكدي عالماً بها، ذكره تعالى في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝ [الأعلى: ١٨].

والثالث: منها وهو إبراهيم وفي تكاليفه، فقد ذكره تعالى في قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۝ [البقرة: ١٢٤]، وقد قدمنا أن الأصح في الكلمات التي ابتلي بها أنها التكاليف.

وأما الرابع منها: وهو أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، فقد ذكره تعالى في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِن خَطَايَهُمْ مِن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ۝ [العنكبوت: ١٢]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهَلَةٍ لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۝ [فاطر: ١٨].

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا، والجواب عما يرد عليها من الإشكال، في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝ [الإسراء: ١٥]، وذكرنا وجه الجمع بين الآيات الواردة في ذلك في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمِن أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِيلُونَ ۝ [النحل: ٢٥].

وأما الخامس منها: وهو أنه ليس للإنسان إلا ما سعى، فقد جاء موضحاً في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِن أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۝... الآية [الإسراء: ٧]. وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۝... الآية [فصلت: ٤٦]، وقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ۝، والآيات يمثل هذا كثيرة معلومة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَن لِّئْسَ لِلإِنسَنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ [٢٦]؛ يدل على أن الإنسان لا يستحق أجراً إلا على سعيه بنفسه، ولم تتعرض هذه الآية لانتفاعه بسعي غيره بنفي ولا إثبات؛ لأن قوله: ﴿وَأَن لِّئْسَ لِلإِنسَنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ [٢٦]، قد دلت اللام فيه على أنه لا يستحق ولا يملك شيئاً إلا بسعيه، ولم تتعرض لنفي الانتفاع بما ليس ملكاً له ولا مستحقاً له. وقد جاءت آية من كتاب الله تدل على أن الإنسان قد ينتفع بسعي غيره، وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ۝ [الطور: ٢١].

وقد أوضحنا وجه الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَأَن لِّئْسَ لِلإِنسَنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ [٢٦] وبين قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ ۝ [الطور: ٢١]، في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة النجم، وقلنا فيه ما نصه: والجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أَنَّ الآية إنما دلت على نفي ملك الإنسان لغير سعيه، ولم تدل على نفي انتفاعه بسعي غيره؛ لأنه لم يقل: وَأَنَّ لَنْ يَنْتَفِعَ الْإِنْسَانُ إِلَّا بِمَا سَعَى، وَإِنَّمَا قَالَ: وَأَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ، وبين الأمرين فرق ظاهر؛ لأن سعي الغير ملك لساعيه إن شاء بذله لغيره فانتفع به ذلك الغير، وإن شاء أبقاها لنفسه.

وقد أجمع العلماء على انتفاع الميت بالصلاة عليه والدعاء له وال الحج عنه ونحو ذلك مما ثبت الانتفاع بعمل الغير فيه.

الثاني: أَنَّ إيمان الذرية هو السبب الأكبر في رفع درجاتهم، إذ لو كانوا كفاراً لما حصل لهم ذلك، فإيمان العبد وطاعته سعي منه في انتفاعه بعمل غيره من المسلمين، كما وقع في الصلاة في الجماعة، فإن صلاة بعضهم مع بعض يتضاعف بها الأجر زيادة على صلاته منفرداً، وتلك المضاعفة انتفاع بعمل الغير سعي فيه المصلي بإيمانه وصلاته في الجماعة، وهذا الوجه يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُرَبُّهُمْ يُرَبُّهُمْ﴾ [الطور: ٢١].

الثالث: أن السعي الذي حصل به رفع درجات الأولاد ليس للأولاد كما هو نص قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم]، ولكن من سعي الآباء فهو سعي للآباء أقر الله عيونهم بسببه بأن رفع إليهم أولادهم ليتمتعوا في الجنة برؤيتهم.

فالأية تصديق الأخرى ولا تنافيها؛ لأن المقصود بالرفع إكرام الآباء للأولاد، فانتفاع الأولاد تبع فهو بالنسبة إليهم تفضل من الله عليهم بما ليس لهم، كما تفضل بذلك على الولدان والحدود العين، والخلق الذين ينشئهم للجنة. والعلم عند الله تعالى، اهـ منه.

والأمر السادس والسابع: وهما أن عمله سوف يرى، ثم يجزأه الجزاء الأوفى، فقد جاءا موضحين في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [١] وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ. . . الآية [الأعراف: ٨، ٩]. وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [٧] وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [٨]. [الزلزلة]. وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنا حَسِيبِينَ﴾ [٩] [الأنبياء]. وقوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [١٠] أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا [١١] [الإسراء]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهُوَ رَرَىٰ﴾؛ أي يعلم ذلك الغيب، والآية تدل على أن سبب النزول لا يخلو من إعطاء شيء في مقابلة تحمل الذنوب عمن أعطى؛ لأن فاعل ذلك ليس عنده علم الغيب، فيعلم به أن الذي ضمن له تحمل ذنوبه يفعل ذلك، ولم ينبأ بما في الصحف الأولى، من أنه لا تزر وازرة وزر أخرى؛ أي لا تتحمل نفس ذنب نفس أخرى.

وقد قدمنا تفسيره موضحاً في سورة بني إسرائيل، وأنه لا يملك الإنسان ولا

يستحق إلا سعي نفسه، وقد اتضح بذلك أنه لا يمكن أن يتحمل إنسان ذنوب غيره، وقد دلت على ذلك آيات كثيرة معلومة.

وقال أبو حيان في البحر: «أفرايت» بمعنى أخبرني، والمفعول الأول هو الموصول وصلته، والمفعول الثاني هو جملة ﴿أَعِنْدُهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ بِرُؤْيَا﴾ (٣٥).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ (٣٥) **من تَطَفَّعَ إِذَا تَمَتَّى** (٤١). ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه خلق الزوجين؛ أي النوعين الذكر والأنثى من نطفة، وهي نطفة المني، إذا تمنى أي تصب وتراق في الرحم، على أصح القولين.

ويدل قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ (٥٨) **أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْمَخْلُقُونَ** (٥٩) [الواقعة] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكْ نُطْفَعُ مِنْ مَنِيِّ يَمِينٍ﴾ (٧٧) [القيامة]. والعرب تقول: أمني الرجل ومني إذا أراق المني وصفه.

وقال بعض العلماء: ﴿مِنْ تَطَفَّعَ إِذَا تَمَتَّى﴾ (٤١)؛ أي تقدر بأن يكون الله قدر أن ينشأ منها حمل، ومن قول العرب: مني الماني إذا قدر، ومن هذا المعنى قول أبي قلابة الهذلي، وقيل سويد بن عامر المصطلق:

لا تأمن الموت في حل وفي حرم
واسلك سبيلك فيها غير محتشم
إن المنايا تنوافي كل إنسان
حتى تلاقي ما يمني لك الماني

وقد قدّمنا الكلام على النطفة مستوفى من جهات في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾... الآية [النحل: ٤]. وفي سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ﴾ [الحج: ٥]، وفي كل من الموضوعين زيادة ليست في الآخر.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من الاستدلال بخلق النوعين؛ أعني الذكر والأنثى من النطفة جاء موضعاً في غير هذا الموضع، وأنه يستدل به على أمرين: هما قدرة الله على البعث، وأنه ما خلق الإنسان إلا ليكلفه ويجازيه، وقد جمع الأمرين قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٣١) **أَلَمْ يَكْ نُطْفَعُ مِنْ مَنِيِّ يَمِينٍ﴾ (٣٧) ثُمَّ كَانَتْ عَلَقَةً فَطَلَقَ فُسْوًى﴾ (٣٨) **فَعَمَلُ** **بَيْنَهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَن يُخَيِّجَ الْكُفْرَ﴾ (٤١) [القيامة]، وذكر أنه ما خلقه ليهمله من التكليف والجزاء، منكرأ على من ظن ذلك بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٣١) [القيامة]، أي مهملاً من التكليف والجزاء.****

وقد قدّمنا بعض الكلام على هذا في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُمْ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ (٢١) [الفرقان].
قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْآخِرَىٰ﴾ (٤٧). قد قدّمنا الآيات الموضحة له، وأحلنا عليها مراراً كثيرة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ (٥٦) **وَتَمُودًا مَّا أَتَيْنَ﴾ (٥١).** وقد قدّمنا الآيات

الموضحة لما أهلك به عاداً، والآيات الموضحة لما أهلك به ثمود في سورة فصلت في قوله تعالى في الكلام في شأن عاد: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾... الآية [فصلت: ١٦]، وقوله في شأن ثمود: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ [فصلت: ١٧].

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمٌ نُوْحٌ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطَىٰ﴾ (٥١).

قوله: ﴿وَقَوْمٌ نُوْحٌ﴾؛ معطوف على قوله: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ (٥١)؛ أي وأهلك قوم نوح، ولم يبين هنا كيفية إهلاكهم، ولكنه بين ذلك في مواضع آخر من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَقَوْمٌ نُوْحٌ لَّمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ الآية [الفرقان: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا حَسِبْتَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤]. وقوله تعالى: ﴿وَنَصَرْتَهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥٢) [الأنبياء]. وقوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أَغْرَقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرَوْنُ﴾ [هود: ٣٧]؛ والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون قوم نوح أظلم وأطغى، أي أشد ظلماً وطغياناً من غيرهم، قد بيّنه تعالى في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لِيلَا وَهَارًا﴾ (٥٣) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا (٥٤) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا إِذِ انبَسَحُوا وَاسْتَعْصَفُوا لِيَاسِهِمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٥٥) [نوح].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُمْ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٥٦) وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا (٥٧) [نوح] إلى قوله ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَبِيرًا﴾ [نوح: ٢١ - ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوكَ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (٥٨) [نوح]. وقوله: ﴿وَيَصْنَعُ الْإِنْفَكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨].

ومن أعظم الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا حَسِبْتَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]، لأن قوماً لم يتأثروا بدعوة نبي كريم ناضح في هذا الزمن الطويل، لا شك أنهم أظلم الناس وأطغاهم.

قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَقْوَىٰ﴾ (٥٩). المؤتفكة، مفتعلة من الإفك، وهو القلب والصرف، والمراد بها قرى قوم لوط بدليل قوله في غير هذا الموضع: (والمؤتفكات). بالجمع؛ فهو من إطلاق المفرد وإرادة الجمع كما أوضحناه مراراً، وأكثرنا من أمثله في القرآن وفي كلام العرب وأحلنا عليه مراراً، وإنما قيل لها: مؤتفكة؛ لأن جبريل أفكها فأتفكت، ومعنى أفكها أنه رفعها نحو السماء ثم قلبها جاعلاً أعلاها أسفلها، وجعل عاليها أسفلها، وهو اتفأكها وإفكها.

وقد أوضح تعالى هذا المعنى في سورة هود، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا﴾... الآية [هود: ٨٢].

وقوله تعالى في سورة الحجر: ﴿فَأَخَذْتُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّن سِجِيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر].

وقد بينا قصة لوط في هود والحجر، وقوله في هذه الآية الكريمة: أهوى. تقول العرب: هوى الشيء إذا انحدر من عال إلى أسفل، وأهواه غيره: إذا ألقاه من العلو إلى السفل؛ لأن الملك رفع قراهم ثم أهواها؛ أي ألقاها تهوي إلى الأرض، منقلبة أعلاها أسفلها.

قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَنَّى أَمُرُ اللَّهَ﴾ [النحل: ١]، وفي سورة المؤمن في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾... الآية [غافر: ١٨].

قوله تعالى: ﴿أَفَنُفِ هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجُّبُونَ ﴿٥٩﴾﴾. قد قدمنا الآيات التي فيها إطلاق اسم الحديث على القرآن في سورة الطور، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾... الآية [الطور: ٣٤].



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القمر

قوله تعالى: ﴿أَفَتَرَبَّيَتِ السَّاعَةُ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَنَّى أَمُرُ اللَّهَ﴾ [النحل: ١] وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ زُلْزِلَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ الآية [الأنعام: ٧].

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يس، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، وفي سورة ق، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ [ق: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، وفي سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ﴿١١﴾﴾. ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴿١١﴾ وفجرنا

الْأَرْضَ عِيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾. قرأ هذا الحرف ابن عامر، «فَفَتَّحْنَا» بتشديد التاء للتكثير، وباقي السبعة بتخفيفها.

وقد ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن نبيه نوحاً دعاه قائلاً: إن قومه غلبوه سائلاً ربه أن ينتصر له منهم، وأن الله انتصر له منهم؛ فأهلكهم بالغرق؛ لأنه تعالى فتح أبواب السماء بماء منهمر أي متدفق منصب بكثرة وأنه تعالى فجر الأرض عيوناً.

وقوله: عيوناً، تمييز محول عن المفعول، والأصل فجرنا عيون الأرض، والتفجير: إخراج الماء منها بكثرة، وأل في قوله: التقى الماء للجنس، ومعناه التقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قُدِرَ؛ أي قدره الله وقضاه.

وقيل: إن معناه أن الماء النازل من السماء والمتفجر من الأرض جعلهما الله بمقدار ليس أحدهما أكثر من الآخر، والأول أظهر.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من دعاء نوح ربه - جلّ وعلا -، أن ينتصر له من قومه فينتقم منهم، وأن الله أجابه فانتصر له منهم فأهلكهم جميعاً بالغرق في هذا الماء المتلقى من السماء والأرض، جاء موضحاً في آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى في الأنبياء: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٦١﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنبياء].

وقوله تعالى في الصافات ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنَعَمْ الْمُجِيبُوْنَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ إلى قوله ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات].

وقد بين - جلّ وعلا - أن دعاء نوح فيه سؤاله الله أن يهلكهم إهلاكاً مستأصلاً، وتلك الآيات فيها بيان لقوله هنا: «فانتصر» وذلك كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٦١﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَصْلُوْا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِاجِرًا كَفَّارًا ﴿٦٢﴾﴾ [نوح]، وما دعا نوح على قومه إلا بعد أن أوحى الله إليه أنه لا يؤمن منهم أحد غير القليل الذي آمن، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ نُوحٌ إِنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ ﴿٣٦﴾﴾ [هود: ٣٦]، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿عِيُونًا﴾، قرأه ابن كثير وابن عامر في رواية ابن ذكوان، وعاصم في رواية شعبة وحمزة والكسائي: «عيونا» بكسر العين لمجانسة الياء.

وقرأه نافع وأبو عمرو وابن عامر في رواية هشام، وعاصم في رواية حفص «عِيُونًا» بضم العين على الأصل.

قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ ﴿١٣﴾﴾. لم يبين هنا ذات الألواح والדسر، ولكنه بين في مواضع آخر أن المراد: وحملناه على سفينة ذات ألواح؛ أي من الخشب ودسر: أي مسامير تربط بعض الخشب ببعض، وواحد الدسر دسار ككتاب وكتب، وعلى هذا القول أكثر المفسرين.

وقال بعض العلماء وبعض أهل اللغة: الدسور الخيوط التي تشد بها ألواح السفينة.
وقال بعض العلماء: الدسور جَوْجُو السفينة؛ أي صدرها ومقدمها الذي تدر به
الماء؛ أي تدفعه وتمخره به، قالوا: هو من الدسر وهو الدفع.

فمن الآيات الدالة على أن ذات الألواح والدسر السفينة. قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا
الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْجَارِيَةِ ۝﴾ [الحاقة: ١١]، أي السفينة كما أوضحناه في سورة الشورى في
الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۝﴾ [الشورى].

وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفِينَةَ ۝﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقوله تعالى ﴿وَأَيُّهُمْ
أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ۝﴾ [يس]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۝﴾ [الضمير في قوله تعالى:
«تركناها»، قال بعض العلماء: إنه عائد إلى هذه الفعلة العظيمة التي فعل بقوم نوح.

والمعنى، ولقد تركنا فعلتنا بقوم نوح وإهلاكنا لهم آية لمن بعدهم؛ لينزجروا
ويكفوا عن تكذيب الرسل، لئلا نفعل بهم مثل ما فعلنا بقوم نوح، وكون هذه الفعلة آية
نص عليه تعالى بقوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۝﴾
[الفرقان: ٣٧]. وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ۝﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ
﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الشعراء].

وقال بعض العلماء: الضمير في تركناها عائد إلى السفينة، وكون سفينة نوح آية
بينه الله في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً
لِّلْعَالَمِينَ ۝﴾ [العنكبوت] وقوله تعالى ﴿وَأَيُّهُمْ لَمَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ۝﴾
وَحَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ۝﴾ [يس].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۝﴾. قد قدمنا إيضاحه في
سورة القتال، في كلامنا الطويل على قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ
أَفْأَلْهَا ۝﴾ [محمد].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسَمَّرٍ ۝﴾. قد قدمنا الآيات
الموضحة له، وكلام أهل العلم في يوم النحس المستمر، في سورة فصلت في الكلام
على قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ ۝﴾ [فصلت: ١٦].

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَجَدًا نَّبْعُهُ ۝﴾ ... الآية.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَلِكِ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا ۝﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة لهما في
الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعِجْرًا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ۝﴾ [ص: ٤]، وقوله تعالى: الآية
﴿أَنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ۝﴾ [ص: ٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا السَّاعَةِ فَبِئْسَ لَهَا مَخْرِجُهَا ۝﴾. قوله: ﴿مُرْسِلُوا السَّاعَةِ ۝﴾ أي مخرجوها من

الهضبة، ﴿فَنَنَّا لَهُمْ﴾؛ أي ابتلاء واختباراً، وهو مفعول من أجله؛ لأنهم اقترحوا على صالح إخراج ناقة من صخرة، وأنها إن خرجت لهم منها آمنوا به واتبعوه، فأخرج الله الناقة من تلك الصخرة معجزة لصالح، وفنته لهم؛ أي ابتلاء واختباراً، وذلك أن تلك الناقة معجزة عاينوها، وأن الله حذرهم على لسان نبيه صالح أن يمسوها بسوء وأنهم إن تعرضوا لها بأذى أخذهم الله بعذابه.

والمفسرون يقولون: إنهم قالوا له: إن أخرجت لنا من هذه الصخرة ناقة وبراء عشراء اتبعناك.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الله أرسل لهم هذه الناقة امتحاناً واختباراً، وأنهم إن تعرضوا لآية الله هذه، التي هي الناقة، بسوء أهلكتهم، جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ آلِيمٍ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقوله تعالى في سورة هود، عن صالح: ﴿وَيَتَقَوَّمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ قَرِيبٍ﴾ [١٦] فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود]، وقوله تعالى في الشعراء: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لِّمَا شَرِبْتُمْ وَلَكُمْ شَرِبْتُمْ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ [١٦٠] وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء].

وقد بيّن تعالى: أنهم عقروا الناقة فجاءهم العذاب المستأصل في آيات من كتابه كقوله تعالى في الأعراف: ﴿فَعَقَرُوهَا النَّاقَةُ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧] - إلى قوله - ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ [٧٨] [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ [١٥٧] فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [الشعراء]، وقوله ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ ... الآية [الشمس: ١٤].

وقد أوضحنا هذا غاية الإيضاح في سورة فصلت، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ صَعَقَةٌ أَلْعَذَابِ أَلْهُونَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرِبٍ مُحْضَرٌّ﴾ [١٧٨]. أي أخبر يا صالح ثمود أن الماء - وهو ماء البئر التي كانت تشرب منها الناقة - قسمة بينهم، فيوم للناقة ويوم لثمود، فقوله: «بينهم»: أي بين الناقة وثمود، وغلب العقلاء على الناقة. ﴿كُلُّ شَرِبٍ مُحْضَرٌّ﴾؛ أي يحضره صاحبه، فتحضر الناقة شرب يومها وتحضر ثمود شرب يومها.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آية أخرى، وهي قوله تعالى في الشعراء: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لِّمَا شَرِبْتُمْ وَلَكُمْ شَرِبْتُمْ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء]، وشرب الناقة هو الذي حذرهم منه صالح لئلا يتعرضوا له في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةُ اللَّهِ وَسُقِيَهَا﴾ [الشمس: ١٣].

قوله تعالى: ﴿نَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ (١٦). قوله: ﴿فَتَعَاطَى﴾، قال أبو حيان في البحر: فتعاطى هو مطاوع عاظمى، وكان هذه الفعلة تدافعها الناس وعاطاها بعضهم بعضاً، فتعاطاها قدار وتناول العقر بيده، انتهى محل الغرض منه.

والعرب تقول: تعاطى كذا إذا فعله أو تناوله، وعاطاه إذا تناوله، ومنه قول حسان رضي الله عنه:

كلتاها حلب العصير فعاطني بزجاجة أرخاهما للمفصل

وقوله: «فَعَقَرَ» أي تعاطى عقر الناقة فعقرها، فمفعولا الفعلين محذوفان تقديرهما كما ذكرنا، وعبر عن عاقر الناقة هنا بأنه صاحبهم، وعبر عنه في الشمس بأنه أشقاهم؛ وذلك في قوله: ﴿إِذْ أَنْبَأَتْ أَشَقُّهَا﴾ (١٧) [الشمس].

وهذه الآية الكريمة تشير إلى إزالة إشكال معروف في الآية، وإيضاح ذلك أن الله تعالى فيها نسب العقر لواحد لا لجماعة؛ لأنه قال: ﴿فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾، بالافراد مع أنه أسند عقر الناقة في آيات أخر إلى ثمود كلهم كقوله في سورة الأعراف: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ الآية [الأعراف: ٧٧]، وقوله تعالى في هود: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتُّوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]، وقوله في الشعراء: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَذِيرِينَ﴾ (١٥٧) [الشعراء]، وقوله في الشمس: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤].

وجه إشارة الآية إلى إزالة هذا الإشكال هو أن قوله تعالى: ﴿نَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ (١٦) يدل على أن ثمود اتفقوا كلهم على عقر الناقة، فنادوا واحداً منهم لينفذ ما اتفقوا عليه، أصالة عن نفسه ونياية عن غيره. ومعلوم أن المتماثلين على العقر كلهم عاقرون، وصحت نسبة العقر إلى المنفذ المباشر للعقر، وصحت نسبته أيضاً إلى الجميع؛ لأنهم متماثلون كما دل عليه ترتيب تعاطي العقر بالفاء في قوله: ﴿فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ على نداءهم صاحبهم لينوب عنهم في مباشرة العقر في قوله تعالى: ﴿نَادُوا صَاحِبَهُمْ﴾؛ أي نادوه ليعقرها.

وجمع بعض العلماء بين هذه الآيات بوجه آخر، وهو أن إطلاق المجموع مراداً به بعضه أسلوب عربي مشهور، وهو كثير في القرآن وفي كلام العرب.

وقد قدّمنا في سورة الحجرات، أن منه قراءة حمزة في قوله تعالى: (فإن قتلوكم فاقتلوهم) بصيغة المجرد في الفعلين؛ لأن من قتل ومات لا يمكن أن يؤمر بقتل قاتله، بل المراد في إن قتلوا بعضكم فليقتلهم بعضكم الآخر، ونظيره قول ابن مطيع:

فإن تقتلونا عند حرة واقم فإننا على الإسلام أول من قتل

أي فإن تقتلوا بعضنا. وأن منه أيضاً: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ مَآئِمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ [الحجرات: ١٤]، لأن هذا في بعضهم دون بعض. بدليل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ إلى قوله ﴿سَيُجْزِيهِمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٩].

وقد قدّمنا في الحجرات وغيرها، أن من أصرح الشواهد العربية في ذلك قول الشاعر:

فسيف بني عبس وقد ضربوا به نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد
وقوله تعالى: ﴿هَقَرَهُ﴾ أي قتلها. والعرب تطلق العقر على القتل والنحر والجرح
ومنه قول امرئ القيس:

تقول وقد مال الغبيط بنا معاً عقرت بعيري يامراً القيس فانزل
ومن إطلاق العقر على نحر الإبل لقرى الضيف قول جرير:

تعدون عقر النيب أفضل مجدكم بني ضوطرا لولا الكمي المقنعا
قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيَحَةً وَجِدَةً﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في
سورة فصلت، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمْ صَيَعَةً الْعَذَابِ أَلْهُونِ بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا مَالَ لُوطٍ لَّجِنَّهُم بِسَحْرِ﴾، قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾: قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان، في الكلام على قوله
تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَىٰ آلِ فِرْعَوْنَ الْمَطَرِ الْأَسْوَدَ﴾ [الفرقان: ٤٠]، قوله: ﴿إِلَّا مَالَ لُوطٍ
لَّجِنَّهُم بِسَحْرِ﴾: قد قدمنا الآيات الموضحة له إيضاحاً شافياً بكثرة.

وقد تضمنت إيضاح قصة لوط وقومه في سورة هود، وسورة الحجر، في الكلام
على القصة المذكورة في السورتين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ﴾ ﴿١١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ
مُقَدِّرٍ ﴿١٢﴾. تضمنت هاتان الآيتان ثلاثة أمور:

الأول: أن آل فرعون جاءتهم النذر.

الثاني: أنهم كذبوا بآيات الله.

الثالث: أن الله أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وهذه الأمور الثلاثة المذكورة هنا جاءت موضحة في آيات آخر من كتاب الله؛ أما
الأول منها وهو أن آل فرعون وقومه جاءهم النذر، فقد أوضحه تعالى في آيات كثيرة من كتابه.
واعلم أولاً أن قوله: ﴿جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ﴾، قيل: هو جمع نذير وهو الرسول.
وقيل: هو مصدر بمعنى الإنذار فعلى أنه مصدر.

فقد بينت الآيات القرآنية بكثرة أن الذي جاءهم بذلك الإنذار هو موسى وهارون،
وعلى أنه جمع نذير أي منذر، فالمراد به موسى وهارون، وقد جاء في آيات كثيرة
إرسال موسى وهارون لفرعون كقوله تعالى في طه: ﴿فَأَنبَأَهُ فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ
مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِبرَهُمْ فَذَحِّنْكَ إِثَابَهُ مِنْ رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧].

ثم بين تعالى إنذارهما له في قوله: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ
وَتَوَلَّى﴾ [طه]، ونحوها من الآيات، وفي هذه الآية سؤال معروف، وهو أن الله

تبارك وتعالى أرسل لفرعون نبيين هما موسى وهارون، كما قال تعالى: ﴿فَأَيُّكَ فِرْعَوْنُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء]، وهنا جمع النذر في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُ آلُ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ﴾، وللعلماء عن هذا أجوبة؛ أحدها أن أقل الجمع اثنان كما هو مقرر في أصول مالك بن أنس رحمته الله، وعقده صاحب مراقي السعود بقوله:

أقل معنى الجمع في المشتهر لاثنان في رأي الإمام الحمير قالوا: ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَفَّتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحریم: ٤]، ولهما قلبان فقط. وقوله: ﴿إِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُنُ﴾ [النساء: ١١]، والمراد بالإخوة اثنان فصاعداً كما عليه الصحابة فمن بعدهم خلافاً لابن عباس، وقوله ﴿وَأَطْرَافُ النَّهَارِ﴾ [طه: ١٣٠] وله طرفان. ومنها ما ذكره الزمخشري وغيره من أن المراد بالنذر موسى وهارون وغيرهما من الأنبياء؛ لأنهما عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون. ومنها أن النذر مصدر بمعنى الإنذار.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: التحقيق في الجواب، أن من كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع المرسلين، ومن كذب نذيراً واحداً فقد كذب جميع النذر؛ لأن أصل دعوة جميع الرسل واحدة، وهي مضمون لا إله إلا الله كما أوضحه تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء]. وقوله تعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَعْمَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: ١٥].

وأوضح تعالى أن من كذب بعضهم فقد كذب جميعهم في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُوْنٌ مِّنْ بَعْضِ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]، وأشار إلى ذلك في قوله: ﴿لَا تَفَرِّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وقوله: ﴿لَا تَفَرِّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَتَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٢].

وقد أوضح تعالى في سورة الشعراء، أن تكذيب رسول واحد تكذيب لجميع الرسل، وذلك في قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء]. ثم بين أن تكذيبهم للمرسلين إنما وقع بتكذيبهم نوحاً وحده، حيث فرد ذلك بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْفِقُ﴾، إلى قوله ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوِيٌّ كَذِبُونٌ﴾ [الشعراء]. وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء]، ثم بين أن ذلك بتكذيب هود وحده، حيث فرد به بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْفِقُ﴾ [الشعراء]، ونحو ذلك. في قوله تعالى في قصة صالح وقومه، ولوط وقومه، وشعيب وأصحاب الأيكة، كما هو معلوم، وهو واضح لا خفاء فيه، ويزيده إيضاحاً قوله ﷺ: «إنا معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» يعني أنهم كلهم متفقون في الأصول وإن اختلفت شرائعهم في بعض الفروع.

وأما الأمر الثاني: وهو كون فرعون وقومه كذبوا بآيات الله، فقد جاء موضحاً في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا تَخُنْ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهَا مُوسَىٰ فَقَالَ كُذَّبَ وَأَنَّ﴾ [طه: ١٠٦]، وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا الْكَافِرِينَ﴾ [١٠٧]، ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ [النازعات: ١٠٧]، وقوله تعالى: ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ يَدَيْكَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي شِئْنِ مَا أَلَيْتَ إِلَيْنَا فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [١٠٨]، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا أَيْنَأْنَا مِنْهُمْ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [١٠٩]، ﴿وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَفْتَنَاهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١١٠].

وأما الأمر الثالث وهو قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتُم مِّنْهُمْ أَهْلًا عَزِيزًا مُّقَدِّرًا﴾، فقد جاء موضحاً في آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [٢٨]، إلى قوله ﴿فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَبَدَّتْهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿فَأَنبَتَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]، ﴿وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنشَرْنَا نَظَرَ﴾ [البقرة: ٥٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقَدِّرٌ﴾؛ يوضحه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رِيكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرَىٰ وَهِيَ ظَلَمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَشَدُّ شِدِيدًا﴾ [هود: ١٠٢].

وقد روى الشيخان في صحيحيهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته». ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رِيكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرَىٰ... الآية [هود: ١٠٢]، والعزير: الغالب، والمقدر: شديد القدرة عظيمها.

قوله تعالى: ﴿أَكْفَاكَ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ [الزخرف: ٨]، وفي صدر سورة الروم، وغير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْجَنُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهم دُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [٥٨]، قد قدمنا الكلام عليه في سورة الطور، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ [الطور: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [٥٩].

قد قدمنا الكلام عليه في سورة الزخرف، في بعض المناقشات التي ذكرناها في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ﴾ [٥٩].

الصحيح في معنى الآية: أن كل شيء فعله الناس مكتوب عليهم في الزبر؛ التي هي صحف الأعمال، وكل صغير وكبير مستطر؛ أي مكتوب عليهم لا يترك منه شيء.

وهذا المعنى جاء موضحاً في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَوَلَّلَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

والزبر: جمع زبور، وهو الكتاب. والمستطر: معناه المسطور؛ أي المكتوب، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلنَّفِثِينَ فِي جَنَّتِ وَهَرٍ﴾. أي في جنات وأنهار كما أوضح تعالى ذلك في قوله: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

وقد ذكرنا كثيراً من أمثلة إطلاق المفرد وإرادة الجمع، كما هنا في القرآن العظيم، مع تنكير المفرد وتعريفه وإضافته، وأكثرنا أيضاً من الشواهد العربية على ذلك في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ [الحج: ٥]، وفي غير ذلك من المواضع. والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الرحمن

قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝﴾. قال بعض أهل العلم: نزلت هذه الآية لما تجاهل الكفار الرحمن - جلّ وعلا - كما ذكره الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، كما تقدم في الفرقان.

وقد قدمنا معنى الرحمن وأدلته من الآيات في أول سورة الفاتحة.

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝﴾. أي علم نبيه ﷺ القرآن فتلقته أمته عنه، وهذه الآية الكريمة تتضمن رد الله على الكفار في قولهم إنه تعلم هذا القرآن من بشر كما تقدم في قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۝﴾ [المدثر]، أي يرويه محمد عن غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا فِكْ أَفْتَرْتَهُ وَاعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً ۝﴾ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ۝﴾ [الفرقان: ٥].

فقوله تعالى هنا: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝﴾؛ أي ليس الأمر كما ذكرتم من أنه تعلم القرآن من بشر، بل الرحمن - جلّ وعلا - هو الذي علمه إياه، والآيات الدالة على هذا كثيرة جداً، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦]، وقوله تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [الفرقان: ٦].

[هودا]، وقوله تعالى: ﴿حَدِّثْهُمْ تَسْرِيًّا مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٢﴾ كَتَبْتُ فَصَّلْتُ مَا بَيْنَتْهُمُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣﴾ بِشِيرًا وَنَذِيرًا [فصلت: ١ - ٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عَلَيْهِ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٥٢﴾ [الأعراف]. وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ١٣٢﴾ [طه]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ٣٧﴾ [الفرقان]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأُنْصِتْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ٨﴾ ثُمَّ إِنِّي عَلَيْنَا لِيَأْسَئَهُ ٩﴾ [القيامة]. وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ٥٢﴾ [الشورى: ٥٢]. وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ٢﴾ [يوسف]. وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ١١٣﴾ [النساء: ١١٣]، ومن أعظم ذلك هذا القرآن العظيم.

وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ١﴾ [البقرة: ١٨٥].

وتعليمه - جلّ وعلا - هذا القرآن العظيم، قد بين في مواضع آخر أنه من أعظم نعمه كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ٣٢﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ٣٢﴾ [فاطر: ٣٢].

وقد علم الله تعالى الناس أن يحمدوه على هذه النعمة العظمى التي هي إنزال القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عِوَجًا ١﴾ [الكهف]، وبين أن إنزاله رحمة منه لخلقه - جلّ وعلا - في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ١﴾ [القصص: ٨٦]. وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ٦﴾ [الدخان: ٥، ٦]، وقد بينا الآيات الموضحة لذلك في الكهف والزخرف.

﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ ١١﴾ حذف فيه أحد المفعولين، والتحقيق أن المحذوف هو الأول لا الثاني، كما ظنه الفخر الرازي، وقد رده عليه أبو حيان، والصواب هو ما ذكره، من أن المحذوف الأول، وتقديره: علم النبي القرآن وقيل جبريل، وقيل الإنسان.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ٢﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ٣﴾. اعلم أولاً أن خلق الإنسان وتعليمه البيان من أعظم آيات الله الباهرة، كما أشار تعالى لذلك بقوله، في أول النحل: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِّن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ١﴾ [النحل]، وقوله في آخر يس: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِّن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ٧﴾ [يس].

فالإنسان بالأمس نطفة واليوم هو في غاية البيان وشدة الخصام يجادل في ربه وينكر قدرته على البعث، فالمنافة العظيمة التي بين النطفة وبين الإبانة في الخصام، مع

أن الله خلقه من نطفة وجعله خصباً مبيناً آية من آياته - جلّ وعلا - دالة على أنه المعبود وحده، وأن البعث من القبور حق.

وقوله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾؛ لم يبين هنا أطوار خلقه للإنسان، ولكنه بينها في آيات أخر كقوله تعالى في الفلاح: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ ١٣٠ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي فَراغٍ مَكِينٍ ١٣١ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْثَةَ عِلْقَةً فَخَلَقْنَا الْعِلْقَةَ مِضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمِضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ١٣٢﴾ [المؤمنون]. والآيات المبينة أطوار خلق الإنسان كثيرة معلومة.

وقد بينّا ما يتعلق بالإنسان من الأحكام في جميع أطواره قبل ولادته في أول سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ الآية [الحج: ٥]، وبينّا هناك معنى النطفة والعلقه والمضغة في اللغة.

وقوله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ ١٣٣؛ التحقيق فيه أن المراد بالبيان الإفصاح عما في الضمير.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أنه علم الإنسان البيان قد جاء موضحاً في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُتِينٌ﴾ [النحل: ٤]، في سورة النحل، ويس، وقوله: ﴿مُتِينٌ﴾ [النحل: ٤]، على أنه اسم فاعل أبان المتعدية، والمفعول محذوف للتعميم، أي مبين كل ما يريد بيانه، وإظهاره بلسانه مما في ضميره، وذلك لأنّ ربه علمه البيان، وعلى أنه صفة مشبهة من أبان اللازمة، وأنّ المعنى: فإذا هو خصيم مبين أي بين الخصومة ظاهرها، فكذلك أيضاً؛ لأنه ما كان بين الخصومة إلا لأن الله علمه البيان.

وقد امتن الله - جلّ وعلا - على الإنسان بأنّه جعل له آلة البيان التي هي اللسان والشفتان، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَيْنَيْنِ ۖ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ ١٣٤﴾ [البلد].

قوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ١٣٥. الحسبان: مصدر زيدت فيه الألف والنون، كما زيدت في الطغيان والرجحان والكفران، فمعنى بحسبان أي بحساب وتقدير من العزيز العليم، وذلك من آيات الله ونعمه أيضاً على بني آدم؛ لأنّهم يعرفون به الشهور والسنين والأيام، ويعرفون شهر الصوم وأشهر الحج ويوم الجمعة وعدد النساء اللاتي تعدت بالشهور، كاليائسة والصغيرة والمتوفى عنها.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ١٣٦﴾ [يونس].

وقد قدّمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ آلِ إِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢].

قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾. اختلف العلماء في المراد بالنجم في هذه الآية، فقال بعض العلماء: النجم هو ما لا ساق له من النبات كالبقول، والشجر هو ما له ساق، وقال بعض أهل العلم: المراد بالنجم نجوم السماء.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: الذي يظهر لي صوابه أن المراد بالنجم هو نجوم السماء، والدليل على ذلك أن الله - جلّ وعلا - في سورة الحج، صرح بسجود نجوم السماء والشجر، ولم يذكر في آية من كتابه سجود ما ليس له ساق من النبات بخصوصه، ونعني بآية الحج قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ﴾... الآية [الحج: ١٨].

فدلّت هذه الآية أن الساجد مع الشجر في آية الرحمن هو النجوم السماوية المذكورة مع الشمس والقمر في سورة الحج، وخير ما يفسر به القرآن القرآن، وعلى هذا الذي اخترناه، فالمراد بالنجم النجوم، وقد قدّمنا الكلام عليه في أول سورة النجم، وأول سورة الحج، وذكرنا أن من الشواهد العربية لإطلاق النجم وإرادة النجوم قول الراعي:

فباتت تعد النجم في مستحيرة سريع بأيدي الآكلين جمودها
وقول عمرو بن أبي ربيعة المخزومي:

أبرزها مثل المهاة تهادي بين خمس كواعب أتراب
ثم قالوا تحبها قلت بهراً عدد النجم والحصا والتراب

وقوله في هذه الآية الكريمة: يسجدان، قد قدّمنا الكلام عليه مستوفى في سورة الرعد، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا﴾ [الرعد: ١٥].

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾. قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾؛ قد بينّا الآيات الموضحة له في سورة ق، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾... الآية [ق: ٦]. وقوله: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾، قد قدّمنا الكلام عليه في سورة الشورى، في الكلام على قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧].

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الزُّنْتَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكُلْ فَنقَسًا إِلَّا أَوْسَعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وذكرنا بعضه في سورة الشورى.

قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْبَاءِ﴾. فيها فليكنة والتخل ذات الأكلان. وهو الخلق؛ لأن وضع الأرض لهم على هذا الشكل العظيم، القابل لجميع أنواع

الانتفاع من إجراء الأنهار وحفر الآبار وزرع الحبوب والثمار، ودفن الأموات وغير ذلك من أنواع المنافع. من أعظم الآيات وأكبر الآلاء التي هي النعم؛ ولذا قال تعالى بعده: ﴿فَبِأَيِّ آءَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٢).

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من امتنانه - جلّ وعلا - على خلقه بوضع الأرض لهم بما فيها من المنافع، وجعلها آية لهم، دالة على كمال قدرة ربهم واستحقاقه للعبادة وحده، جاء موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾... الآية [الرعد: ٣]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ الآية [الملك: ١٥]. وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (٢٥) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٢٦﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَلْنَا ﴿٢٧﴾ مَتْنًا لَكُمْ وَلَا أَمْنٍ لَكُمْ ﴿٢٨﴾ [النازعات]، وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَبْدُوءُ﴾ (٢٨) [الذاريات]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾... الآية [البقرة: ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرًا لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَزَلَّلْنَا مِنْ سُلَيْمٍ مَاءً مُبْرَكًا﴾... الآية [ق: ٧ - ٩]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]. والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فِيهَا فَكْهَةٌ﴾؛ أي فواكه كثيرة، وقد قدّمنا أن هذا أسلوب عربي معروف، وأوضحنا ذلك بالآيات وكلام العرب. وقوله: ﴿وَالْتَحُلْ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾؛ ذات أي صاحبة، والأكمام جمع كم بكسر الكاف، وهو ما يظهر من النخلة في ابتداء إثمارها، شبه اللسان ثم ينفخ عن النور، وقيل: هو ليفها، واختار ابن جرير شموله للأمرين. وقوله: ﴿وَالْعَصْفُ﴾ كالقمح ونحوه، وقوله: ﴿ذُو الْعَصْفِ﴾، وقال أكثر العلماء: العصف ورق الزرع، ومنه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ (٥) [الفيل] وقيل العصف: التبن. وقوله: ﴿وَالرِّيحَانُ﴾: اختلف العلماء في معناه، فقال بعض أهل العلم: هو كل ما طاب ريحه من النبات وصار يشم للتمتع بريحه. وقال بعض العلماء الریحان: الرزق، ومنه قول التمر ابن توبل العكلي:

فروح الإله وريحانه ورحمته وسما درر
غمام ينزل رزق العباد فأحيا البلاد وطاب الشجر

ويتعين كون الریحان بمعنى الرزق على قراءة حمزة والكسائي، وأما على قراءة غيرهما فهو محتمل للأمرين المذكورين.

وإيضاح ذلك أن هذه الآية قرأها نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم: ﴿وَالْعَصْفُ ذُو الْعَصْفِ وَالرِّيحَانُ﴾ (٧)؛ بضم الباء والذال والنون من الكلمات الثلاث، وهو عطف على فاكهة أي فيها فاكهة، وفيها الحب... إلخ، وقرأه ابن عامر:

مسألة: أخذ بعض علماء الأصول من هذه الآية الكريمة وأمثالها من الآيات كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، أن الأصل فيما على الأرض الإباحة، حتى يرد دليل خاص بالمنع؛ لأن الله امتن على الأنعام بأنه وضع لهم الأرض، وجعل لهم فيها أرزاقهم من القوت والتفكه في آية الرحمن هذه، وامتن عليهم بأنه خلق لهم ما في الأرض جميعاً في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

ومعلوم أنه - جلّ وعلا - لا يمتن بحرام إذ لا منة في شيء محرم، واستدلوا لذلك أيضاً بحصر المحرمات في أشياء معينة في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْرٌ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِزِيرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]. وفي هذه المسألة قولان آخران:

أحدهما: أن الأصل فيما على الأرض التحريم حتى يدل دليل على الإباحة، واحتجوا لهذا بأن جميع الأشياء مملوكة لله - جلّ وعلا -، والأصل في ملك الغير منع التصرف فيه إلا بإذنه، وفي هذا مناقشات معروفة في الأصول، ليس هذا محل بسطها.

القول الثاني: هو الوقف وعدم الحكم فيها بمنع ولا إباحة حتى يقوم الدليل، فتحصل أن في المسألة ثلاث مذاهب: المنع، والإباحة، والوقف.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: الذي يظهر لي صوابه في هذه المسألة هو التفصيل؛ لأنّ الأعيان التي خلقها الله في الأرض للناس بها ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون فيها نفع لا يشوبه ضرر كأنواع الفواكه وغيرها.

الثانية: أن يكون فيها ضرر لا يشوبه نفع كأكل الأعشاب السامة القاتلة.

الثالثة: أن يكون فيها نفع من جهة وضرر من جهة أخرى، فإن كان فيها نفع لا يشوبه ضرر، فالتحقيق حملها على الإباحة حتى يقوم دليل على خلاف ذلك لعموم قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]. وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْعَامِ﴾ [البقرة: ٢٩].

وإن كان فيها ضرر لا يشوبه نفع فهي على التحريم لقوله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار».

وإن كان فيها نفع من جهة وضرر من جهة أخرى فلها ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون النفع أرجح من الضرر.

والثانية: عكس هذا.

والثالثة: أن يتساوى الأمران.

فإن كان الضرر أرجح من النفع أو مساوياً له فالمنع لحديث: «لا ضرر ولا

ضراراً»، ولأن درء المفسد مقدم على جلب المصالح. وإن كان النفع أرجح، فالأظهر الجواز؛ لأن المقرر في الأصول أن المصلحة الراجحة تقدم على المفسدة المرجوحة، كما أشار له في مراقي السعود بقوله:

والغ إن يك الفساد أبعداً

أو رجح الإصلاح كالأسارى تفدى بما ينفع للنصارى
وانظر تدلي دَوَالِي العنب في كل مشرق وكل مغرب

ومراده: تقديم المصلحة الراجحة على المفسدة المرجوحة، أو البعيدة ممثلاً له بمثالين:

الأول منهما: أن تخلص أسارى المسلمين من أيدي العدو بالفداء مصلحة راجحة قدمت على المفسدة المرجوحة، التي هي انتفاع العدو بالمال المدفوع لهم فداء للأسارى. الثاني: أن انتفاع الناس بالعنب والزبيب، مصلحة راجحة على مفسدة عصر الخمر من العنب، فلم يقل أحد بإزالة العنب من الدنيا لدفع ضرر عصر الخمر منه؛ لأن الانتفاع بالعنب والزبيب مصلحة راجحة على تلك المفسدة، وهذا التفصيل الذي اخترنا، قد أشار له صاحب مراقي السعود بقوله:

والحكم ما به يجيء الشرع وأصل كل ما يضر المنع

تنبيه: اعلم أن علماء الأصول يقولون: إن الإنسان لا يحرم عليه فعل شيء إلا بدليل من الشرع، ويقولون إن الدليل على ذلك عقلي، وهو البراءة الأصلية المعروفة بالإباحة العقلية، وهي استصحاب العدم الأصلي حتى يرد دليل ناقل عنه.

ونحن نقول: إنه قد دلت آيات من كتاب الله على أن استصحاب العدم الأصلي قبل ورود الدليل الناقل عنه حجة في الإباحة، ومن ذلك أن الله لما أنزل تشديده في تحريم الربا في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَقْعَلُوا فَاذْنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ...﴾ الآية [البقرة: ٢٧٩]، وكانت وقت نزولها عندهم أموال مكتسبة من الربا، اكتسبوها قبل نزول التحريم، بين الله تعالى لهم أن ما فعلوه من الربا، على البراءة الأصلية قبل نزول التحريم لا حرج عليهم فيه، إذ لا تحريم إلا ببيان، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَكَفَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. وقوله: ﴿مَا سَكَفَ﴾ أي ما مضى قبل نزول التحريم، ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَكَفَ﴾ [النساء: ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَكَفَ﴾ [النساء: ٢٣]، والأظهر أن الاستثناء فيهما في قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَكَفَ﴾ منقطع؛ أي لكن ما سلف من ذلك قبل نزول التحريم، فهو عفو؛ لأنه على البراءة الأصلية.

ومن أصرح الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، لأن النبي ﷺ لما استغفر لعمه أبي طالب بعد موته على الشرك، واستغفر المسلمون لموتاهم المشركين عاتبهم الله في

قوله: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّارِ وَالْزَّيْتِ مَامُونًا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾ الآية [التوبة: ١١٣]. ندموا على الاستغفار لهم، فبين الله لهم أن استغفارهم لهم لا مؤاخذة به؛ لأنه وقع قبل بيان منعه، وهذا صريح فيما ذكرنا.

وقد قدمنا أن الأخذ بالبراءة الأصلية يعذر به في الأصول أيضاً في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وبيننا هناك كلام أهل العلم في ذلك، وأوضحنا ما جاء في ذلك من الآيات القرآنية. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥] ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ۖ﴾ [طه: ١٥]. الصلصال: الطين اليابس الذي تسمع له صلصلة؛ أي صوت إذا قرع بشيء، وقيل الصلصال الممتن، والفخار الطين المطبوخ، وهذه الآية بين الله فيها طوراً من أطوار التراب الذي خلق منه آدم، فبين في آيات أنه خلقه من تراب كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]. وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَيْتِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]. وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢١]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [غافر: ٦٧] وقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥].

وقد بينا في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]. وقوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ [طه: ٥٥]. أن المراد بخلقهم منها هو خلق أبيهم آدم منها؛ لأنه أصلهم وهم فروعه، ثم إن الله تعالى عجن هذا التراب بالماء فصار طيناً، ولذا قال: ﴿وَأَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]. وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]. وقال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]. وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ [الصافات: ١١]. وقال تعالى: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧١]، ثم خمر هذا الطين فصار حمأً مسنوناً، أي طيناً أسود متغير الريح، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨]. وقال عن إبليس: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَاسِجِدٍ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣]. والمسنون قيل: المتغير، وقيل: المصور، وقيل: الأملس، ثم ييس هذا الطين فصار صلصالاً، كما قال هنا: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ۖ﴾ [طه: ١٥]. وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣]. فالآيات يصدق بعضها بعضاً، ويتبين فيها أطوار ذلك التراب كما لا يخفى.

قوله: ﴿وَالْجَانَّ﴾؛ أي وخلق الجان وهو أبو الجن، وقيل هو إبليس، وقيل: هو الواحد من الجن.

وعليه فالألف واللام للجنس، والمارج: اللهب الذي لا دخان فيه، وقوله من نار: بيان لمارج؛ أي من لهب صاف كائن من النار.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أنه تعالى خلق الجان من النار، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في الحجر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ (٢١) ﴿وَلَجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ (٢٧) [الحجر]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (٧١) [ص].

وقد أوضحنا الكلام على هذا في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنُ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ (١٧). قد أوضحنا الكلام عليه في أول الصفات في الكلام على قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ (٥) [الصفات].

قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ (١٨) ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ (٢٥). قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذَبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ (٥٢) [الفرقان].

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (٢٦). قرأ هذا الحرف نافع وأبو عمرو، «يُخْرِجُ» بضم الياء وفتح الراء مبنياً للمفعول، وعليه فاللؤلؤ نائب فاعل يخرج. وقرأه باقي السبعة: «يَخْرُجُ» بفتح الياء وضم الراء مبنياً للفاعل، وعليه فاللؤلؤ فاعل يخرج.

اعلم أن جماعة من أهل العلم قالوا: إن المراد بقوله في هذه الآية يخرج منهما أي من مجموعها الصادق بالبحر الملح، وأن الآية من إطلاق المجموع وإرادة بعضه، وأن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان من البحر الملح وحده دون العذب.

وهذا القول الذي قالوه في هذه الآية، مع كثرتهم وجلالتهم لا شك في بطلانه؛ لأن الله صرح بنقيضه في سورة فاطر، ولا شك أن كل ما ناقض القرآن فهو باطل، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢]، فالتنوين في قوله: «من كل» تنوين عوض أي من كل واحد من العذب والملح تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها؛ وهي اللؤلؤ والمرجان، وهذا مما لا نزاع فيه.

وقد أوضحنا هذا في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ١٣٠]. واللؤلؤ: الدر، والمرجان: الخرز الأحمر، وقال بعضهم: المرجان: صغار الدر، واللؤلؤ: كبازه.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٢٧). قد قدمنا الكلام عليه في سورة الشورى، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٢١) [الشورى].

قوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِنْ عَالِيَا فَاثٍ﴾ (٢٨) ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٧). ما تضمنته هذه الآية الكريمة من فناء كل من على الأرض وبقاء وجهه - جلّ وعلا - المتصف بالجلال والإكرام، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا

وَجَهَنَّمَ [القصص: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿وَوَكَّلْ عَلَى آلِيٍّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].
وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] إلى غير ذلك من الآيات.

والوجه صفة من صفات الله العلي وصف بها نفسه، فعليها أن نصدق ربنا ونؤمن بما وصف به نفسه مع التنزيه التام عن مشابهة صفات الخلق.

وقد أوضحنا هذا غاية الإيضاح بالآيات القرآنية في سورة الأعراف، وفي سورة القتال. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَمَعَّرَ لَجِنَ وَالْإِنسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [١٢٢]. قد قدّمنا الكلام عليه في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [٧] [الحجر]، وتكلمنا أيضاً هناك على غيرها من الآيات التي يفسرها الجاهلون بكتاب الله بغير معانيها، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿إِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [٢٧].

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن السماء ستنشق يوم القيامة، وأنها إذا انشقت صارت وردة كالدهان، وقوله: وردة: أي حمراء كلون الورد، وقوله كالدهان: فيه قولان معروفان للعلماء:

الأول منهما: أن الدهان هو الجلد الأحمر، وعليه فالمعنى أنها تصير وردة متصفة بلون الورد مشابهة للجلد الأحمر في لونه.

والثاني: أن الدهان هو ما يدهن به، وعليه، فالدهان، قيل: هو جمع دهن، وقيل: هو مفرد؛ لأنّ العرب تسمى ما يدهن به دهاناً، وهو مفرد، ومنه قول امرئ القيس:

كأنهما مزادتا متعجل
فريان لما تُدْهَنَى بدهان

وحقيقة الفرق بين القولين أنه على القول بأن الدهان هو الجلد الأحمر، يكون الله وصف السماء عند انشقاقها يوم القيامة بوصف واحد وهو الحمرة فشبها بحمرة الورد، وحمرة الأديم الأحمر.

قال بعض أهل العلم: إنّها يصل إليها حر النار فتحمر من شدة الحرارة. وقال بعض أهل العلم: أصل السماء حمراء إلا أنها لشدة بعدها وما دونها من الحواجز لم تصل العيون إلى إدراك لونها الأحمر على حقيقته، وأنها يوم القيامة ترى على حقيقة لونها.

وأما على القول بأن الدهان هو ما يدهن به، فإن الله قد وصف السماء عند انشقاقها بوصفين أحدهما حمرة لونها، والثاني أنها تذوب وتصير مائعة كالدهن.

أما على القول الأول، فلم نعلم آية من كتاب الله تبين هذه الآية، بأن السماء ستحمر يوم القيامة حتى تكون كلون الجلد الأحمر.

وأما على القول الثاني الذي هو أنها تذوب وتصير مائعة، فقد أوضحه الله في غير

هذا الموضع وذلك في قوله تعالى في المعارج: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۖ وَرَأَوْهُ قَرِيبًا ۖ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَمَلِ ۖ﴾ [المعارج]، والمهل شيء ذائب على كلا القولين سواء قلنا: إنه دردي الزيت وهو عكره، أو قلنا: إنه الذائب من حديد أو نحاس أو نحوهما.

وقد أوضح تعالى في الكهف، أنّ المهل شيء ذائب يشبه الماء شديد الحرارة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

والقول بأن الوردة تشبيه بالفرس الكميّ وهو الأحمر؛ لأن حمّره تتلون باختلاف الفصول، فتشتد حمّرتها في فصل، وتميل إلى الصفرة في فصل، وإلى الغبرة في فصل.

وأنّ المراد بالتشبيه كون السماء عند انشقاقها تتلون بألوان مختلفة واضح البعد عن ظاهر الآية، وقول من قال: إنها تذهب وتجيء معناه له شاهد في كتاب الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۖ﴾... الآية [الطور]، ولكنه لا يخلو عندي من بعد.

وما ذكره تعالى في هذه الآية الكريمة من انشقاق السماء يوم القيامة، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ﴾ [الانشقاق]. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُمِزُ وَفَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ﴾ [الواقعة] و﴿انْشَقَّتِ السَّمَاءُ ۖ﴾ [الحاقة: ١٥، ١٦]. وقوله: ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ فَالْتَمِيمُ ۖ﴾... الآية [الفرقان: ٢٥]. وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفطَرَتْ ۖ﴾ [الانفطار]، وقد قدّمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة ق، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا هَآءِ مِنْ فُرُوجٍ ۖ﴾ [ق: ٦].

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ۖ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أنّه يوم القيامة لا يسأل إنسان ولا جانا عن ذنبه، ويبيّن هذا المعنى في قوله تعالى في القصص: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

وقد ذكر - جلّ وعلا - في آيات أخر أنه يسأل جميع الناس يوم القيامة الرسل والمرسل إليهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۖ﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ﴾ [٩١] عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٢﴾ [الحج].

وقد جاءت آيات من كتاب الله مبينة لوجه الجمع بين هذه الآيات، التي قد يظن غير العالم أنّ بينها اختلافاً، اعلم أولاً أنّ للسؤال المنفي في قوله هنا: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ۖ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]، أخص من السؤال المثبت في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ﴾ [٩١] عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٢﴾ [الحجر]؛ لأنّ هذه فيها تعميم السؤال في كل عمل، والآيتان قبلها ليس فيهما نفي السؤال إلا عن الذنوب خاصة، وللجمع بين هذه الآيات أوجه معروفة عند العلماء.

الأول منها: وهو الذي دل عليه القرآن، وهو محل الشاهد عندنا من بيان القرآن بالقرآن هنا، هو أنّ السؤال نوعان: أحدهما سؤال التوبيخ والتقريع وهو من أنواع العذاب، والثاني هو سؤال الاستخبار والاستعلام.

فالسؤال المنفي في بعض الآيات هو سؤال الاستخبار والاستعلام؛ لأن الله أعلم بأفعالهم منهم أنفسهم كما قال تعالى: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوَّهُ﴾ [المجادلة: ٦].
وعليه فالمعنى لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان، سؤال استخبار واستعلام؛ لأن الله أعلم بذنبه منه.

والسؤال المثبت في الآيات الأخرى هو سؤال التوبيخ والتقريع، سواء كان عن ذنب أو غير ذنب، ومثال سؤالهم عن الذنوب سؤال توبيخ وتقريع قوله تعالى: ﴿قَالُوا الَّذِينَ أَسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، ومثاله عن غير ذنب قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُورُونَ﴾ [١٧] مَا لَكُمْ لَا نَحَارُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ [الصفافات]. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ [٧٦] هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَفَسِحْرُ هَذَا... الآية [الطور: ١٣ - ١٥]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

أما سؤال المؤودة في قوله: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير]، فلا يعارض الآيات النافية السؤال عن الذنب؛ لأنها سئلت عن أي ذنب قتلت وهذا ليس من ذنبها، والمراد بسؤالها توبيخ قاتلها وتقريعه؛ لأنها هي تقول لا ذنب لي، فيرجع اللوم على من قتلها ظلماً.

وكذلك سؤال الرسل، فإن المراد به توبيخ من كذبهم وتقريعه، مع إقامة الحجة عليه بأن الرسل قد بلغته، وباقي أوجه الجمع بين الآيات لا يدل عليه قرآن، وموضوع هذا الكتاب بيان القرآن بالقرآن، وقد بينا بقيتها في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في أول سورة الأعراف.

وقد قدمنا طرفاً من هذا في هذا الكتاب المبارك في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْتَأَنَّ الَّذِينَ أَزِيدُوا إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَأَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف].

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ يَسْمِعُهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالْوَصَى وَالْأَقْدَامِ﴾ [٤١]. قوله بسميهم: أي بعلامتهم المميزة لهم، وقد دل القرآن على أنها هي سواد وجوههم وزرقة عيونهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ﴾... الآية [آل عمران: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْفَيْصَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَرَهَقَهُمْ ذُلٌّ مَّا لَمَمَ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِيٍّ كَانِمًا أَغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قَطْعًا مِنْ أَيْلٍ مُّظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٥﴾ تَرْهَقُهَا قَرَّةٌ ﴿٤٦﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُ الْفَجَرُ ﴿٤٧﴾﴾ [عبس]؛ لأن معنى قوله: ﴿تَرْهَقُهَا قَرَّةٌ﴾ [٤٥] أي يعلوها ويغشاها سواد كالدخان الأسود، وقال تعالى في زرقة عيونهم: ﴿وَتَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرَّةً﴾ [طه: ١٠٢]، ولا شيء أقبح وأشوه من سواد الوجوه وزرقة العيون؛ ولذا لما أراد الشاعر أن يقبح علل البخيل بأسوأ الأوصاف وأقبحها، فوصفها بسواد الوجوه وزرقة العيون حيث قال:

وللبخيل على أمواله علل زرق العيون عليها أوجه سود
ولا سيما إذا اجتمع مع سواد الوجه اغبراره، كما في قوله: ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْفَعُهَا
قَدْرُهُ﴾ [عشر]، فإن ذلك يزيده قبحاً على قبح.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالتَّوَصَّى وَالْأَقْدَامِ﴾، قد قدّمنا تفسيره
والآيات الموضحة له في سورة الطور، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى
نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ [الطور].

قوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [١٣] يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ مَّائِنٍ ﴿١٤﴾.
أما قوله: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [١٣]، فقد قدّمنا الآيات الموضحة له
في سورة الطور، أيضاً في الكلام على قوله تعالى: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا
تُكَذِّبُونَ﴾ [١٤].

وأما قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ مَّائِنٍ﴾ [١٤]؛ فقد قدّمنا الآيات الموضحة له
في سورة الحج، في الكلام على قوله: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي
بُطُونِهِمْ﴾ ... الآية [الحج: ١٩، ٢٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [١١]، قد بيّنا في ترجمة هذا الكتاب
المبارك، أن الآية قد يكون فيها وجهان صحيحان كلاهما يشهد له قرآن، فنذكر ذلك
كله مبينين أنه كله حق، وذكرنا لذلك أمثلة متعددة في هذا الكتاب المبارك، ومن ذلك
هذه الآية الكريمة.

وإيضاح ذلك أن هذه الآية الكريمة فيها وجهان معروفان عند العلماء، كلاهما
يشهد له قرآن:

أحدهما: أن المراد بقوله: مقام ربه: أي قيامه بين يدي ربه، فالمقام اسم مصدر
بمعنى القيام، وفاعله على هذا الوجه هو العبد الخائف، وإنما أضيف إلى الرب لوقوعه
بين يديه، وهذا الوجه يشهد له قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [٥٠]
فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات]، فإن قوله: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]:
قرينة دالة على أنه خاف عاقبة الذنب حين يقوم بين يدي ربه، فنهى نفسه عن هواها.

والوجه الثاني: أن فاعل المصدر الميمي الذي هو المقام، هو الله تعالى: أي
خاف هذا العبد قيام الله عليه ومراقبته لأعماله وإحصائها عليه، ويدل لهذا الوجه الآيات
الدالة على قيام الله على جميع خلقه وإحصائه عليهم أعمالهم كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا
كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ
تُقِضُونَ فِيهِ﴾ الآية [يونس: ٦١]. إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدّمنا في سورة الأحقاف، في الكلام على قوله تعالى في شأن الجن:

﴿يَقُولُونَ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ﴾ الآية [الأحقاف: ٣١]، أن قوله: ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾، وتصريحه بالامتنان بذلك على الإنس والجن في قوله: ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، نص قرآني على أن المؤمنين الخائفين مقام ربهم من الجن يدخلون الجنة.

قوله تعالى: ﴿مُكَيِّنَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾. قد بينا في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنَسَخَّرْنَا مِنْهُ حِلْيَةً لَّحْلًا﴾ [النحل: ١٤]، جميع الآيات القرآنية الدالة على تنعم أهل الجنة بالسندس والإستبرق، والحلية بالذهب والفضة، وبيننا أن جميع ذلك يحرم على ذكور هذه الأمة في دار الدنيا.

قوله تعالى: ﴿فَبَيْنَ أَظْهُرٍ﴾. قد قدّمنا الكلام عليه مستوفى في سورة الصافات في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرِتُ الْأُظْفُرِ عِزٌّ﴾ [الصافات: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾. قد قدّمنا معنى القصر في الخيام، وقصر الطرف على الأزواج في سورة الصافات في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرِتُ الْأُظْفُرِ عِزٌّ﴾ [الصافات]، وقدّمنا الآيات الدالة على صفات نساء أهل الجنة في مواضع كثيرة من هذا الكتاب في سورة البقرة والصافات. وغير ذلك.



باسم الرحمن الرحيم

سورة الواقعة

قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ لَنُصِيبَنَّكَ كَذِبَةٌ﴾.

الذي يظهر لي صوابه أن «إذا» هنا هي الظرفية المضمنة معنى الشرط، وأن قوله الآتي: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾؛ بدل من قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾؛ وأن جواب «إذا» هو قوله: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾، وهذا هو اختيار أبي حيان خلافاً لمن زعم أنها مسلوبة معنى الشرط هنا، وأنها منصوبة بذكر مقدرة أو أنها مبتدأ، وخلافاً لمن زعم أنها منصوبة بليس المذكورة بعدها.

والمعروف عند جمهور النحويين أن «إذا» ظرف مضمن معنى الشرط منصوب بجزائه، وعليه فالمعنى: إذا قامت القيامة وحصلت هذه الأحوال العظيمة ظهرت منزلة أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾؛ أي قامت القيامة، فالواقعة من أسماء القيامة كالطامة والصاخة والأزفة والقارعة.

وقد بين - جلّ وعلا - أن الواقعة هي القيامة في قوله: ﴿إِذَا تُفْخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۚ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۚ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۚ﴾ [الحاقة].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَيْسَ لِقَوْلِهَا كَاذِبَةٌ ۚ﴾؛ فيه أوجه من التفسير معروفة عند العلماء كلها حق، وبعضها يشهد له قرآن:

الوجه الأول: أن قوله «كاذبة» مصدر جاء بصفة اسم الفاعل، فالكاذبة بمعنى الكذب كالعافية بمعنى المعافاة، والعاقبة بمعنى العقبي، ومنه قوله تعالى عند جماعات من العلماء: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَفِيَةً ۖ﴾ [الغاشية]، قالوا معناه لا تسمع فيها لغواً، وعلى هذا القول، فالمعنى ليس لقيام القيامة كذب ولا تخلف بل هو أمر واقع يقيناً لا محالة. ومن هذا المعنى، قولهم: حمل الفارس على قرنه فما كذب، أي ما تأخر ولا تخلف ولا جبن.

ومنه قول زهير:

ليث بعثراً يصطاد الرجال إذا ما كذب الليث عن أقرانه صدقا

وهذا المعنى قد دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُجَمِّعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْتَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ﴾ الآية [النساء: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ۚ﴾ [الحج: ٧]، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَاءِئُكَ الْيَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ﴾ [آل عمران: ٩]، وقد قدّمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الشورى، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ﴾ [الشورى: ٧].

الوجه الثاني: أن اللام في قوله: «لوقعتها» ظرفية، و«كاذبة» اسم فاعل صفة لمحذوف أي: ليس في وقعة الواقعة نفس كاذبة، بل جميع الناس يوم القيامة صادقون بالاقرار بالقيامة مصدقون بها ليس فيهم نفس كاذبة بإنكارها ولا مكذبة بها.

وهذا المعنى تشهد له في الجملة آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۚ﴾ [الشعراء]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي رَيْبٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۚ﴾ [الحج: ٥٥].

وقد قدّمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة النمل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿بَلْ أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُمْ عَنْهَا غَمُونَ ۚ﴾ [النحل]، وباقى الأوجه قد يدل على معناه قرآن ولكنه لا يخلو من بعد عندي، ولذا لم أذكره، وأقربها عندي الأول.

قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۚ﴾. خبر مبتدأ محذوف أي هي خافضة رافعة، ومفعول كل من الوصفين محذوف.

قال بعض العلماء: تقديره هي خافضة أقواماً في دركات النار، رافعة أقواماً إلى الدرجات العلى إلى الجنة، وهذا المعنى قد دلت عليه آيات كثيرة كقوله: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتٌ عَذْيٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦)﴾ [طه]. وقوله تعالى: ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَةٍ وَأَكْبَرُ تَقْصِيلاً﴾ [الإسراء: ٢١]، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة.

وقال بعض العلماء: تقديره خافضة أقواماً كانوا مرتفعين في الدنيا، رافعة أقواماً كانوا منخفضين في الدنيا، وهذا المعنى تشهد له آيات من كتاب الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ (٧٨) وَإِذَا مَرُؤًا بِهِمْ يَغْفَارُونَ (٧٩)﴾ [المطففين]. إلى قوله: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٨٢) عَلَى الْأَرَاكِ يَنْظُرُونَ (٨٣)﴾ [المطففين]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقال بعض العلماء: تقديره، خافضة بعض الأجرام التي كانت مرتفعة كالنجوم التي تسقط وتتناثر يوم القيامة، وذلك خفض لها بعد أن كانت مرتفعة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوْكَبُ انْثَرَتْ (٨٤)﴾ [الانفطار] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٨٥)﴾ [التكوير].

رافعة: أي رافعة بعض الأجرام التي كانت منخفضة كالجبال التي ترفع من أماكنها وتسير بين السماء والأرض كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تُسَرُّ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضُ بَارِزَةً (٨٦)﴾ [الكهف: ٤٧]، فقوله: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾؛ لأنها لم يبق على ظهرها شيء من الجبال، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالُ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

وقد قدّمنا أن التحقيق الذي دل عليه القرآن، أن ذلك يوم القيامة، وأنها تسير بين السماء والأرض كسير السحاب الذي هو المزن. وقد صرح تعالى بأن الجبال تحمل هي والأرض أيضاً يوم القيامة: وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَتَحَ فِي الصُّورِ نَفْثَةٌ وَاحِدَةٌ (٨٩) وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ (٩٠)﴾ ... الآية [الحاقة: ١٣، ١٤].

وعلى هذا القول: فالمراد تعظيم شأن يوم القيامة، وأنه يختل فيه نظام العالم، وعلى القولين الأولين، فالمراد الترغيب والترهيب؛ ليخاف الناس في الدنيا من أسباب الخفض في الآخرة فيطيعوا الله ويرغبوا في أسباب الرفع فيطيعوه أيضاً، وقد قدّمنا مراراً أن الصواب في مثل هذا حمل الآية على شمولها للجميع.

قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا (٩١) وَسُتِ الْجِبَالُ سُتًا (٩٢) فَكَانَتْ هَبَاءً مُتَّبَنًا (٩٣)﴾.

قد قدّمنا أن الأظهر عندنا أن قوله: «إذا رجّت» بدل من قوله: «إذا وقعت الواقعة»، والرج: التحريك الشديد، وما دلت عليه هذه الآية من أن الأرض يوم القيامة تحرك تحريكاً شديداً جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (٩٤)﴾ [الزلزلة]، وقد قدّمنا الآيات الموضحة لهذا في أول سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

وقوله تعالى: ﴿وُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾؛ في معناه لأهل العلم أوجه متقاربة، لا يكذب بعضها بعضاً وكلها حق، وكلها يشهد له قرآن. وقد قدّمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أنّ الآية الكريمة قد يكون فيها أوجه كلها حق وكلها يشهد له قرآن، فنذكر جميع الأوجه وأدلتها القرآنية.

الوجه الأول: قال أكثر المفسرين: ﴿وُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾؛ أي فتت تفتيتاً حتى ضارت كالبيسة، وهي دقيق ملتوت بسمن، ومنه قول لص من غطفان أراد أن يخبز دقيقاً عنده فخاف أن يعجل عنه، فأمر صاحبيه أن يلتاه ليأكلوه دقيقاً ملتوتاً، وهو البيسة:

١ - لا تخبزنا خبزاً وبساً بَساً ٢ - ولا تطيلاً بمناخ حبساً

وهذا الوجه يشهد له قرآن كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلاً﴾ [المزمل: ١٤]، فقلوه: ﴿كَيْبًا مَهِيلاً﴾؛ أي رملاً متهايلاً، ومنه قول امرئ القيس:

ويوماً على ظهر الكثيب تعذرت علي وآلت حلفة لم تحلل

ومشابهة الدقيق المنبوس بالرمال المتهايل؛ واضحة، فقلوه: ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلاً﴾ [المزمل: ١٥] مطابق في المعنى لتفسير ﴿وُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ بأن بسها هو تفتيتها وطحنها كما ترى.

وما دلت عليه هذه الآيات من أنها تسلب عنها قوة الحجرية وتتصف بعد الصلابة والقوة باللين الشديد الذي هو كلين الدقيق، والرمال المتهايل يشهد له في الجملة تشبيهها في بعض الآيات بالصفوف المنفوش الذي هو العهن، كقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ﴾ [المعارج]، وأصل العهن أخص من مطلق الصفوف؛ لأنه الصفوف المصبوغ خاصة؛ ومنه قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

كأن فتاة العهن في كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم

وقال بعضهم: الجبال منها جدد بيض وحممر ومختلف ألوانها وغرايب سود، فإذا بست وفتتت يوم القيامة وطيرت في الجو أشبهت العهن إذا طيرته الريح في الهوى، وهذا الوجه يدل عليه ترتيب كينونتها هباءً منبثاً بالفاء على قوله: ﴿وُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾، لأن الهباء هو ما ينزل من الكوة من شعاع الشمس إذا قابلتها: ﴿مُنْبَثًّا﴾ أي متفرقاً، ووصفها بالهباء المنبث أنسب لكون اليس بمعنى التفتيت والطحن.

الوجه الثاني: أنّ معنى قوله: ﴿وُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾؛ أي سيرت بين السماء والأرض، وعلى هذا فالمراد ببسها سوقها وتسييرها من قول العرب: بسست الإبل أبسها، بضم الباء وأبستها أبسها بضم الهمزة وكسر الباء، لغتان بمعنى سقتها، ومنه حديث: «يخرج أقوام من المدينة إلى اليمن والشام، والعراق يبسون والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون».

وهذا الوجه تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ﴾ ... الآية [الكهف: ٤٧]، وقوله: ﴿وَنُوسِرُ الْجِبَالَ سِرًّا﴾ [الطور: ١٥].

وقد قَدَّمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة النمل، في الكلام على قوله: ﴿وَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَمْدًا وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

الوجه الثالث: أن معنى قوله: ﴿وَيُسِّرُ الْجِبَالَ سِرًّا﴾؛ نزعته من أماكنها وقلعتها. وقد أوضحنا أن هذا الوجه راجع للوجه الأول مع الإيضاح التام لأحوال الجبال يوم القيامة، وأطوارها، بالآيات القرآنية وفي سورة طه في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: ١٥]، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُتَّبَثًا﴾ [١٦]. كقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبا: ٢٦]، والهباء إذا انبث، أي تفرق، واضمحل وصار لا شيء، والسراب قد قال الله تعالى فيه: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [٧]. أي صرتم أزواجاً ثلاثة، والعرب تطلق كان بمعنى صار، ومنه ﴿وَلَا تَقْرَأُ هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَكُنُوا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥] أي فتصيرا من الظالمين.

ومنه قول الشاعر:

بتيهاء قفر والمطي كأنها قطا الحزن قد كانت فراخاً بيوضها

وقوله: أزواجاً: أي أصنافاً ثلاثة، ثم بين هذه الأزواج الثلاثة بقوله: ﴿فَأَصْحَبُ الِّيمَنِ مَأْ أَصْحَبُ الِّيمَنِ﴾ [٨] وَأَصْحَبُ الِّيمَنِ مَأْ أَصْحَبُ الِّيمَنِ [٩] وَالَّتَيْنِ مَوَ السَّيِّئُونَ [١٠] أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ [١١] فِي جَنَّتِ النَّبِيِّ [١٢]؛ أما أصحاب الميمنة فهم أصحاب اليمين، كما أوضحه تعالى بقوله: ﴿وَأَصْحَبُ الِّيمَنِ مَأْ أَصْحَبُ الِّيمَنِ﴾ [١٣] فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ [١٤] ... الآيات، وأصحاب المشأمة هم أصحاب الشمال كما أوضحه تعالى بقوله: ﴿أَصْحَبُ الِّشَّامِ فِي سَوْدٍ وَحَمِيرٍ﴾ [١٥] ... الآيات.

قال بعض العلماء: قيل لهم أصحاب اليمين لأنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم. وقيل: لأنهم يذهب بهم ذات اليمين إلى الجنة. وقيل: لأنهم عن يمين أبيهم آدم، كما رآهم النبي ﷺ كذلك ليلة الإسراء. وقيل: سمو أصحاب اليمين، وأصحاب الميمنة لأنهم ميامين، أي مباركون على أنفسهم؛ لأنهم أطاعوا ربهم فدخلوا الجنة، واليمن: البركة.

وسمي الآخرون أصحاب الشمال، قيل: لأنهم يؤتون كتبهم بشمائلهم. وقيل: لأنهم يذهب بهم ذات الشمال إلى النار، والعرب تسمي الشمال شؤماً، كما تسمي اليمين يُمناً، ومن هنا قيل لهم أصحاب المشأمة أو لأنهم مشائيم على أنفسهم: فعصوا الله فأدخلهم النار، والمشائيم ضد الميامين، ومنه قول الشاعر:

مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب إلا ببين غرابها

وبين - جلّ وعلا - أن السابقين هم المقربون، وذلك في قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ (١٠) **أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ** (١١)، وهذه الأزواج الثلاثة المذكورة هي وجزاؤها في أول هذه السورة الكريمة جاءت هي وجزاؤها أيضاً في آخرها، وذلك في قوله: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٨٨) **فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَيْمٍ** (٨٩) **وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ** (٩٠) **فَسَلَامٌ لَّكَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ** (٩١) **وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ** (٩٢) **فَنَزُلُ مِنْ جَحِيمٍ** (٩٣) **وَنَصِيلُهُ جَحِيمٍ** (٩٤). والمكذبون هم أصحاب المشأمة وهم أصحاب الشمال.

وذكر تعالى بعض صفات أصحاب الميمنة والمشأمة في سورة البلد في قوله تعالى: ﴿فَكَ رَقِيعٍ﴾ (٣) **أَوْ إِطْرَافٍ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْجَرٍ** (٤) **يَسْمَا ذَا مَقَرٍّ** (٥). إلى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ (٨) **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَلَتْنَاهُمْ أَصْحَابُ الشَّشَمَةِ** (٩) **عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ** (١٠) [البلد].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾، وقوله: ﴿مَا أَصْحَابُ الشَّشَمَةِ﴾، استفهام أريد به التعجب من شأن هؤلاء في السعادة، وشأن هؤلاء في الشقاوة، والجملة فيهما مبتدأ وخبر، وهي خبر المبتدأ قبله، وهو «أصحاب الميمنة» في الأول و«أصحاب المشأمة» في الثاني.

وهذا الأسلوب يكثر في القرآن نحو: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ (١) **مَا الْحَاقَّةُ** (٢) [الحاقة]، و﴿الْقَارِعَةُ﴾ (١) **مَا الْقَارِعَةُ** (٢) [القارعة]. والرباط في جملة الخبر في جميع الآيات المذكورة هو إعادة لفظ المبتدأ في جملة الخبر كما لا يخفى، وقوله: والسابقون لم يذكر فيه استفهام تعجب كما ذكره فيما قبله، ولكنه ذكر في مقابلة تكرير لفظ السابقين.

والأظهر في إعرابه أنه مبتدأ وخبر على عادة العرب في تكريرهم اللفظ وقصدهم الإخبار بالثاني عن الأول، يعنون أن اللفظ المخبر عنه هو المعروف خبره الذي لا يحتاج إلى تعريف، ومنه قول أبي النجم:

أنا أبو النجم وشعري شعري لله دري ما أجبن صدري

فقوله: وشعري شعري يعني شعري هو الذي بلغك خبره، وانتهى إليك وصفه.

قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) **وَقِيلَ مِنَ الْآخِرِينَ** (١٤).

وقوله: ثلة: خبر مبتدأ محذوف، والتقدير، هم ثلة، والثلة الجماعة من الناس، وأصلها القطعة من الشيء وهي الثل، وهو الكسر.

وقال الزمخشري: والثلة من الثل، وهو الكسر، كما أن الأمة من الأم وهو الشبح، كأنها جماعة كسرت من الناس، وقطعت منهم. اهـ منه.

واعلم: أن الثلة تشمل الجماعة الكثيرة، ومنه قول الشاعر:

فجاءت إليهم ثلة خندفية بجيش كتيار من السيل مزبد

لأن قوله: تيار من السيل: يدل على كثرة هذا الجيش المعبر عنه بالثلة.

وقد اختلف أهل العلم في المراد بهذه الثلاثة من الأولين، وهذا القليل من الآخرين المذكورين هنا، كما اختلفوا في الثلاثين المذكورتين في قوله: ﴿ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (١٤). فقال بعض أهل العلم: كل هؤلاء المذكورين من هذه الأمة، وأن المراد بالأولين منهم الصحابة.

وبعض العلماء يذكر معهم القرون المشهود لهم بالخير في قوله ﷺ: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم» الحديث. والذين قالوا: هم كلهم من هذه الأمة، قالوا: إنما المراد بالقليل، وثلاثة من الآخرين، وهم من يعد ذلك إلى قيام الساعة. وقال بعض العلماء: المراد بالأولين في الموضعين الأهم الماضية قبل هذه الأمة، والمراد بالآخرين فيهما هو هذه الأمة.

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: ظاهر القرآن في هذا المقام: أن الأولين في الموضعين في الأمم الماضية، والآخرين فيهما من هذه الأمة، وأن قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (١٤)؛ في السابقين خاصة، وأن قوله: ﴿ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (١٤)؛ في أصحاب اليمين خاصة.

وإنما قلنا: إن هذا هو ظاهر القرآن في الأمور الثلاثة، التي هي شمول الآيات لجميع الأمم، وكون قليل من الآخرين في خصوص السابقين، وكون ثلاثة من الآخرين في خصوص أصحاب اليمين لأنه واضح من سياق الآيات.

أما شمول الآيات لجميع الأمم فقد دل عليه أول السورة؛ لأن قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ (١)؛ إلى قوله: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُّثْبِتًا﴾ (٦)؛ لا شك أنه لا يخص أمة دون أمة، وأن الجميع مستوون في الأهوال والحساب والجزاء.

فدل ذلك على أن قوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ (٧)؛ عام في جميع أهل المحشر، فظهر أن السابقين وأصحاب اليمين منهم من هو من الأمم السابقة، ومنهم من هو من هذه الأمة.

وعلى هذا، فظاهر القرآن أن السابقين من الأمم الماضية أكثر من السابقين من هذه الأمة، وأن أصحاب اليمين من الأمم السابقة ليست أكثر من أصحاب اليمين من هذه الأمة؛ لأنه عبر في السابقين من هذه الأمة، بقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ (١٤)؛ وعبر عن أصحاب اليمين من هذه الأمة: ﴿وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ (١٤).

ولا غرابة في هذا؛ لأن الأمم الماضية أمم كثيرة. وفيها أنبياء كثيرة ورسول، فلا مانع من أن يجتمع من سابقها من لدن آدم إلى محمد ﷺ أكثر من سابقي هذه الأمة وحدها.

أما أصحاب اليمين من هذه الأمة فيحتمل أن يكونوا أكثر من أصحاب اليمين من جميع الأمم؛ لأن الثلاثة تتناول العدد الكثير، وقد يكون أحد العديدين الكثيرين أكثر من الآخر، مع أنهما كلاهما كثير.

ولهذا تعلم أن ما دل عليه ظاهر القرآن واختاره ابن جرير، لا ينافي ما جاء من أن نصف أهل الجنة من هذه الأمة.

فأما كون قوله: ﴿وَقِيلَ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ دل ظاهر القرآن على أنه في خصوص السابقين، فلأن الله قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثم قال تعالى مخبراً عن هؤلاء السابقين المقربين ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿١٣﴾ وَقِيلَ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾. وأما كون قوله: ﴿وَلَا تُدْرِكُهُمُ الْعَيْنُ﴾ ؛ في خصوص أصحاب اليمين، فلأن الله تعالى قال: ﴿يَجْعَلْنَاهُمْ أَتَّكَارًا﴾ ﴿١٦﴾ عَرَبًا أَتَّكَارًا ﴿١٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿١٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٢٠﴾، والمعنى هم أي أصحاب اليمين: ثلثة من الأولين وثلثة من الآخرين، وهذا واضح كما ترى.

قوله تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ ﴿١٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَلِّبِينَ ﴿١٦﴾. السرر جمع سرير، وقد بين تعالى أن سررهم مرفوعة في قوله في الغاشية: ﴿سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ [الغاشية: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿مَوْضُونَةٍ﴾؛ منسوجة بالذهب، وبعضهم يقول بقضبان الذهب مشبكة بالدر والياقوت، وكل نسج أحكم ودخل بعضه في بعض، تسميه العرب وضناً، وتسمي المنسوج به موضوناً ووضيناً، ومنه الدرع الموضونة إذا أحكم نسجها ودخل بعض حلقاتها في بعض.

ومنه قول الأعشى:

ومن نسج داود موضونة تساق مع الحي عيراً فعييراً
وقوله أيضاً:

وبيضاء كالنهي موضونة لها قونس فوق جيب البدن
ومن هذا القليل تسمية البطان الذي ينسج من السيور، مع إدخال بعضها في بعض وضيناً.
ومنه قول الراجز:

إليك تعدو قلقاً وضينها معترضاً في بطنها جنينها
مخالفاً دين النصارى دينها

وهذه السرر المزينة، هي المعبر عنها بالأرائك في قوله: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ [الكهف: ٣١]. وقوله: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس: ١٣]. وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿مُتَّكِئِينَ﴾؛ حال من الضمير في قوله: ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾؛ والتقدير: استقروا على سرر في حال كونهم متكئين عليها.

وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من كونهم على سرر متقابلين، أي ينظر بعضهم إلى وجه بعض، كلهم يقابل الآخر بوجهه، جاء موضحاً في آيات آخر كقوله تعالى في الحجر: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِخْرَافًا عَلَى سُرُرٍ مُنْقَلِبِينَ﴾ [الحجر: ٤٣]. وقوله في الصافات: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ ﴿٤١﴾ فَوَكَرَهُمُ اللَّهُمَّ تُكْرِمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُنْقَلِبِينَ ﴿٤٤﴾ [الصافات: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿٧﴾﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الطور، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَوْنٌ ﴿٨﴾﴾ [الطور].
قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ مِّنْ مَّعِينٍ لَا يَصُدُّونَ عَنْهَا وَلَا يُزِفُونَ ﴿٩﴾﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الطور، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَنْزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الطور]، وفي المائدة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ... الآية [المائدة: ٩٠].

قوله تعالى: ﴿وَفَكَهَمَ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿١٢﴾ وَلَحِرَ طَيْرٌ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿١٣﴾﴾. قد قدمنا الكلام عليه في سورة الطور، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَكَهَمٍ وَلَحِمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الطور].

قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْأَكْثَنِ ﴿٢٣﴾﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴿٢٤﴾... الآية [النساء: ٥٧]، وفي الصفات في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرْفِ عِينٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الصفات]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْنِيًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَكْنَا سَلَكًا ﴿٢٦﴾﴾. قد قدمنا الكلام عليه بإيضاح في سورة مريم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَكًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم]، وتكلمنا هناك على الاستثناء المنقطع وذكرنا شواهد من القرآن وكلام العرب، وبيننا كلام أهل العلم في حكمه شرعاً.

قوله تعالى: ﴿وَطَلٍ مُّتَدَوِّرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَكَهَمٍ كَثِيرٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾. أما قوله: ﴿وَطَلٍ مُّتَدَوِّرٍ ﴿٣٠﴾﴾، فقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النساء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنُدَّحِلُّهُمْ ظَلًّا ظَلِيلًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء: ٥٧]. وأما قوله: ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾؛ فقد دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ [محمد: ١٥]. وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحجر]. وقوله: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ الآية [الأعراف: ٥٠]. إلى غير ذلك من الآيات.

والمسكوب اسم مفعول سكب الماء ونحوه إذا صبه بكثرة، والمفسرون يقولون: إن أنهار الجنة تجري في غير أ حدود، وأن الماء يصل إليهم أينما كانوا كيف شاءوا، كما قال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الإنسان]. وأما قوله: ﴿وَفَكَهَمٍ كَثِيرٍ ﴿٣٢﴾﴾... الآية. فقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الطور، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَكَهَمٍ وَلَحِمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الطور].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنشَاءً ﴿٤٥﴾ فَعَلَّاهُمْ أَبْكَارًا ﴿٤٦﴾ عُرْبًا أَرَابًا ﴿٤٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٤٨﴾﴾. الضمير في «أنشأناهم». قال بعض أهل العلم: هو راجع إلى المذكور، وقال بعض العلماء: هو راجع إلى غير المذكور، إلا أنه دل عليه المقام.

فمن قال إنه راجع إلى مذكور، قال هو راجع إلى قوله: ﴿وَفُرِّشَ مَرْفُوعَةٌ﴾ (٣٤)؛ قال: لأن المراد بالفرش النساء، والعرب تسمي المرأة لباساً وإزاراً وفراشاً ونعلاً، وعلى هذا فالمراد بالرفع في قوله: ﴿مَرْفُوعَةٌ﴾ [عبس: ١٤]، رفع المنزلة والمكانة.

ومن قال: إنه راجع إلى غير مذكور، قال: إنه راجع إلى نساء لم يذكرن، ولكن ذكر الفرش دل عليهن؛ لأنهن يتكئن عليهن مع أزواجهن.

وقال بعض العلماء: المراد بهن الحور العين، واستدل من قال ذلك بقوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنِشَاءً﴾ (٣٥) لأن الإنشاء هو الاختراع والابتداع.

وقالت جماعة من أهل العلم: إن المراد بهن بنات آدم التي كن في الدنيا عجائز شمساً رمصاً، وجاءت في ذلك آثار مرفوعة عنه ﷺ، وعلى هذا القول: فمعنى أنشأنهن إنشاء أي خلقناهن خلقاً جديداً.

وقوله تعالى: ﴿جَعَلْنَهُنَّ﴾؛ أي فصيرناهن أبكاراً، وهو جمع بكر، وهو ضد الثيب. وقوله: ﴿عُرْبًا﴾؛ قرأه عامة القراء السبعة غير حمزة وشعبة عن عاصم: «عُرْبًا» بضم العين والراء، وقرأه حمزة وشعبة «عُرْبًا» بسكون الراء، وهي لغة تميم، ومعنى القراءتين واحد، وهو جمع عروب، وهي المتحبة إلى زوجها الحسنة التبعل، وهذا هو قول الجمهور. وهو الصواب إن شاء الله. ومنه قول لبيد:

وفي الخباء عروب غير فاحشة ربا الروادف يعشى دونها البصر

وقوله تعالى: ﴿أَثَرَابًا﴾؛ جمع ترب بكسر التاء، والترب اللدة. وإيضاحه أن ترب الإنسان ما ولد معه في وقت واحد، ومعناه في الآية: أن نساء أهل الجنة على سن واحدة ليس فيهن شابة وعجوز، ولكنهن كلهن على سن واحدة في غاية الشباب.

وبعض العلماء يقول: إنهن ينشأن مستويات في السن على قدر بنات ثلاثة وثلاثين سنة، وجاءت بذلك آثار مروية عن النبي ﷺ، وكون الأثراب بمعنى المستويات في السن مشهور في كلام العرب.

ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

أبرزوها مثل المهاة تهادي بين خمس كواعب أثراب

وهذه الأوصاف الثلاثة التي تضمنتها هذه الآية الكريمة من صفات نساء أهل الجنة، جاءت موضحة في آيات أخر.

أما كونهن يوم القيامة أبكاراً، فقد أوضحه في سورة الرحمن في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْشَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾ [الرحمن: ٥٦]، في الموضعين لأن قوله: ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْشَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾ [الرحمن: ٥٦]، نص في عدم زوال بكارتهن، وأما كونهن عرباً أي

متحبيبات إلى أزواجهن، فقد دل عليه قوله في الصفات: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَتُ الْظَّرْفِ عَيْنٌ﴾ [الصفات]، لأن معناه أنهم قاصرات العيون على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم لشدة محبتهم لهم واقتناعهم بهم، كما قدّمنا إيضاحه، ولا شك أن المرأة التي لا تنظر إلى غير زوجها متحبة إليه حسنة التبعل معه.

وقوله في ص: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَتُ الْظَّرْفِ أَرْبَابٌ﴾ [ص]، وقوله في الرحمن: ﴿فِيهِنَّ قَصِيرَتُ الْظَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِسْرَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن]، وأما كونهن أتراباً فقد بينه تعالى في قوله في آية ص هذه: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَتُ الْظَّرْفِ أَرْبَابٌ﴾ [ص]، وفي سورة النبأ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۖ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ۖ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ [النبأ].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [٢٨]؛ يتعلق بقوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ﴾، وقوله: ﴿جَعَلْنَاهُمْ﴾ أي: أنشأناهم وصيرناهم أكراماً لأصحاب اليمين.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۖ فِي سَمُومٍ وَجَمِيمٍ ۖ وَظِلٍّ مِّنْ يَحُمُومٍ﴾ [٢٩]. قد قدّمنا معنى أصحاب الشمال في هذه السورة الكريمة، وأوضحنا معنى السموم في الآيات القرآنية التي يذكر فيها في سورة الطور، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَمَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّنَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧].

وقد قدّمنا صفات ظل أهل النار وظل أهل الجنة في سورة النساء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنُدُّهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧]، وبيننا هناك أن صفات ظل أهل النار هي المذكورة في قوله هنا: ﴿وَالَّذِينَ فِي سَمُومٍ وَجَمِيمٍ ۖ لَا يَبْرِدُ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [٢٩]؛ وقوله في المرسلات: ﴿أَنفُلِقُوا إِلَىٰ ظِلِّ ذِي تِلْكَ شُعْبٍ ۖ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ﴾ [٣١].

وقوله: ﴿مِنْ يَحُمُومٍ﴾؛ أي من دخان أسود شديد السواد، ووزن اليعموم يفعول، وأصله من الحمم وهو الفحم، وقيل: من الحم، وهو الشحم المسود لاحتراقه بالنار.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [٣٢] وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَىٰ لَيْسَتِ الْعَظِيمِ [٤١].

قد قدّمنا الكلام عليه في سورة الطور، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلَانَا مُتَشَفِّينَ﴾ [٣٣] فَمَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا... الآية [الطور: ٢٦، ٢٧].

قوله تعالى: ﴿وَكَاثُرًا يَقُولُونَ أَيْدَا مَتْنَا وَكُنَّا ثَرَابًا وَعَظْمًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [٣٤].

لما ذكر - جلّ وعلا - ما أعد لأصحاب الشمال من العذاب، بين بعض أسبابه، فذكر منها أنهم كانوا قبل ذلك في دار الدنيا مترفين أي متنعمين، وقد قدّمنا أن القرآن دل على أن الإتراف والتنعّم والسرور في الدنيا من أسباب العذاب يوم القيامة؛ لأن صاحبه معرض عن الله لا يؤمن به ولا برسله، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۖ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [٣٥] إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا [٣٦] [الانشقاق]، وقد أوضحنا هذا في الكلام على آية الطور المذكورة آنفاً.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من كون إنكار البعث سبباً لدخول النار؛ لأن قوله

تعالى لما ذكر أنهم في سموم وحميم وظل من يحموم، بين أن من أسباب ذلك أنهم قالوا: ﴿إِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَاكًا وَعَبَدْنَا...﴾ الآية [الصافات: ٥٣]. جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَنَنْصَبَنَّ فِيهِم مَّجَاجِبَ فَلْيُحَرِّصْ أَوْ يَهَيِّجْ قَوْمَهُمْ أَوْ يَكْنُزْهُمْ كُنُوزًا أَوْ يُنْزِلْهُمُ الْغُلُوبَ أَوْ يُنْزِلْهُمُ الْغُلُوبَ أَوْ يُنْزِلْهُمُ الْغُلُوبَ أَوْ يُنْزِلْهُمُ الْغُلُوبَ﴾ [الرعد: ١٤].

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَبَ الْبَلَاءَ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١١]. وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من إنكارهم بعث آبائهم الأولين في قوله: ﴿أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات: ١٨] وأنه تعالى بين لهم أنه يبعث الأولين والآخرين في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْبُورُونَ إِلَيَّ مِيقَاتِ يَوْمٍ مُّعْتَمَدٍ﴾ [٥٠]؛ جاء موضحاً في غير هذا الموضع، فبيننا فيه أن البعث الذي أنكروا، سيتحقق في حال كونهم أذلاء صاغرين، وذلك في قوله تعالى في الصافات: ﴿وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [٥٦] ﴿إِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَاكًا وَعَبَدْنَا لَدُنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [١٨] ﴿أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ [١٨] ﴿قُلْ نَمَّ وَاتَّمَّ دَجْرُونَ﴾ [١٨] ﴿فَأَنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [١٨] [الصافات: ١٨]. وقوله: ﴿أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ [١٨]، قرأه عامة القراء السبعة، غير ابن عامر وقالون عن نافع: «أَوْ أَبَاؤُنَا» بفتح الواو على الاستفهام والعطف، وقد قدمنا مراراً أن همزة الاستفهام إذا جاءت بعدها أداة عطف كالواو والفاء وثم نحو «أَوْ أَبَاؤُنَا»، «أفأمن أهل القرى»، «أثم إذا ما وقع»، أن في ذلك وجهين لعلماء العربية والمفسرين.

الأول: منهما أن أداة العطف عاطفة للجملة المصدرة بالاستفهام على ما قبلها، وهمزة الاستفهام متأخرة رتبة عن حرف العطف، ولكنها قدمت عليه لفظاً لا معنى؛ لأن الأصل في الاستفهام التصدير به كما هو معلوم في محله.

والمعنى على هذا واضح وهو أنهم أنكروا بعثهم أنفسهم بأداة الإنكار التي هي الهمزة، وعطفوا على ذلك بالواو إنكارهم بعث آبائهم الأولين، بأداة الإنكار التي هي الهمزة المقدمة عن محلها لفظاً لا رتبة، وهذا القول هو قول الأقدمين من علماء العربية، واختاره أبو حيان في البحر المحيط وابن هشام في مغني اللبيب، وهو الذي صرنا نميل إليه أخيراً بعد أن كنا نميل إلى غيره.

الوجه الثاني: هو أن همزة الاستفهام في محلها الأصلي، وأنها متعلقة بجملة محذوفة، والجملة المصدرة بالاستفهام معطوفة على المحذوفة بحرف العطف الذي بعد الهمزة، وهذا الوجه يميل إليه الزمخشري في أكثر المواضع من كشفه، وربما مال إلى غيره.

وعلى هذا القول، فالتقدير: أمبعوثون نحن وأبأؤنا الأولون؟! وما ذكره الزمخشري هنا من أن قوله: «أبأؤنا»، معطوف على واو الرفع في قوله: «لمبعوثون». وأنه ساغ العطف على ضمير رفع متصل من غير توكيد بالضمير المنفصل لأجل الفصل بالهمزة لا يصح، وقد رده عليه أبو حيان وابن هشام وغيرهما.

وهذا الوجه الأخير مال إليه ابن مالك في الخلاصة في قوله:

وحذف متبوع بدا هنا استبح وعطفك الفعل على الفعل يصح
وقرأ هذا الحرف قالون وابن عامر: «أَوْ أَبَاؤُنَا» بسكون الواو، والذي يظهر لي
على قراءتهما «أو» بمعنى الواو العاطفة، وأن قوله: «أَبَاؤُنَا»، معطوف على محل
المنصوب الذي هو اسم إن؛ لأن عطف المرفوع على منصوب إن بعد ذكر خبرها جائز
بلا نزاع؛ لأن اسمها وإن كان منصوباً فأصله الرفع لأنه مبتدأ في الأصل، كما قال ابن
مالك في الخلاصة:

وجائز رفعك معطوفاً على منصوب إن بعد أن تستكملاً
وإنما قلنا إن «أو» بمعنى الواو؛ لأن إتيانها بمعنى الواو معروف في القرآن وفي
كلام العرب، فمنه في القرآن: ﴿فَالْمُؤَيَّنَاتِ ذَكَرًا ۖ عَذْرًا أَوْ تَذَرًا ۖ﴾ [المرسلات]، لأن
الذكر الملقى للعذر، والنذر معاً لا لأحدهما؛ لأن المعنى أنها أَلْقَتِ الذكر إظهاراً
وإنذاراً، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَعِّمُهُمْ ۖ إِنَّمَا أَوْ كَفُّورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]، أي ولا كفوراً،
وهو كثير في كلام العرب، ومنه قول عمرو بن معد يكرب:

قوم إذا سمعوا الصريخ رأيتهم ما بين ملجم مهره أو سافع
فالمعنى ما بين الملجم مهره وسافع: أي أخذ بناصيته ليلجمه، وقول نابغة ذبيان:
قالت ألا ليت ما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا أو نصفه فقد
فحسبوه فالفوه كما زعمت ستاً وستين لم تنقص ولم تزد
فقوله: أو نصفه؛ بمعنى ونصفه كما هو ظاهر من معنى البيتين المذكورين؛ لأن
مرادها أنها تمت أن يكون الحمام المار بها هو ونصفه معه لها مع حمامتها التي معها،
ليكون الجميع مائة حمامة، فوجدوه ستاً وستين ونصفها ثلاث وثلاثون، فيكون
المجموع تسعاً وتسعين، والمروى في ذلك عنها أنها قالت:

ليت الحمام لي إلى حمامتيه
ونصفه قدييه
تم الحمام مايه

وقول توبة بن الحمير:

قد زعمت ليلي بأني فاجر لنفسي تقاها أو عليها فجورها
وقوله تعالى: ﴿إِنِّدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَاكًا وَعَظْمًا أَوْنًا لِّمَبْعُوثُونَ﴾؛ أجمع عامة القراء على
إثبات همزة الاستفهام في قوله: «إِذَا مَتْنَا»؛ وأثبتها أيضاً عامة السبعة غير نافع والكسائي
في قوله: «إِنَّا»، وقرأه نافع والكسائي «إِنَّا لِمَبْعُوثُونَ» بهمزة واحدة مكسورة على الخبر،
كما عقده صاحب الدرر اللوامع في أصل مقرأ الإمام نافع بقوله:

فصل والاستفهام إن تكررا فصير الثاني منه خبرا

واعكسه في النمل وفوق الروم إلخ

والقراءات في الهمزتين في «إذا» و«أنا» معروفة، فنافع يسهل الهمزة الثانية بين بين. ورواية قالون عنه هي إدخال ألف بين الهمزتين الأولى المحققة والثانية المسهلة.

ورواية قالون هذه عن نافع بالتسهيل والإدخال مطابقة لقراءة أبي عمرو، فأبو عمرو وقالون عن نافع يسهلان ويدخلان، ورواية ورش عن نافع هي تسهيل الأخيرة منهما بين بين من غير إدخال ألف. وهذه هي قراءة ابن كثير وورش؛ فابن كثير وورش يسهلان ولا يدخلان.

وقرأ هشام عن ابن عامر بتحقيق الهمزتين، وبينهما ألف الإدخال.

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وابن ذكوان عن ابن عامر بتحقيق الهمزتين من غير ألف الإدخال، هذه هي القراءات الصحيحة، في مثل إذا وأنا، ونحو ذلك في القرآن.

تنبيه: اعلم: وفقني الله وإياك أن ما جرى في الأقطار الإفريقية من إبدال الأخيرة من هذه الهمزة المذكورة وأمثالها في القرآن هاء خالصة من أشنع المنكر وأعظم الباطل، وهو انتهاك لحرمة القرآن العظيم وتعد لحدود الله، ولا يعذر فيه إلا الجاهل الذي لا يدري، الذي يظن أن القراءة بالهاء الخالصة صحيحة، وإنما قلنا هذا لأن إبدال الهمزة فيما ذكر هاء خالصة لم يروه أحد عن رسول الله ﷺ، ولم ينزل عليه به جبريل البتة، ولم يرو عن صحابي ولم يقرأ به أحد من القراء، ولا يجوز بحال من الأحوال، فالتجروء على الله بزيادة حرف في كتابه، وهو هذه الهاء التي لم ينزل بها الملك من السماء البتة، هو كما ترى، وكون اللغة العربية قد سمع فيها إبدال الهمزة هاء لا يسوغ التجروء على الله بإدخال حرف في كتابه لم يأذن بإدخاله الله ولا رسوله.

ودعوى أن العمل جرى بالقراءة بالهاء لا يعول عليها؛ لأن جريان العمل بالباطل باطل، ولا أسوة في الباطل بإجماع المسلمين، وإنما الأسوة في الحق، والقراءة سنة متبعة مروية عن رسول الله ﷺ، وهذا لا خلاف فيه.

وقوله تعالى: ﴿مُتَنَّا﴾، قرأه ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو وشعبة عن عاصم متنا بضم الميم وقرأه نافع وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم «مُتْنَا» بكسر الميم، وقد قَدَّمْنَا مسوغ كسر الميم لغة في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿بَلَّغْنِي مِثْ قَبْلَ هَذَا﴾ [مريم: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿١﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢﴾﴾. لما أنكر الكفار بعثهم وآباءهم الأولين في الآية المتقدمة، أمر الله نبيه ﷺ أن يخبرهم خبراً مؤكداً بأن الأولين والآخرين كلهم مجموعون يوم القيامة للحساب والجزاء بعد بعثهم.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من بعث الأولين والآخرين وجمعهم يوم القيامة؛ جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّلَافُتِ﴾ [التغابن: ٩]،

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [النساء: ٨٧]. وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ رَبِّ رَيْبٍ فِيهِ﴾... الآية [آل عمران: ٩]، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ نَجْمَعُ لَهُ النَّاسَ﴾ [هود: ١٠٣]. وقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْقَصَلِ جَمَعْنَا وَالْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات] وقوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

وقد قدمنا هذا موضحاً في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَآ الصَّالُونَ الْمَكْذُوبُونَ﴾ ٥١ ﴿لَاكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُفُورٍ﴾ ٥٢ ﴿فَالْتَوَيْنَا مِنَ الْبُطُونِ﴾ ٥٣ ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ مِن لَّغِيمٍ﴾ ٥٤ ﴿فَشَرِبُوا شَرْبَ الْيَمْرِ﴾ ٥٥. قد قدمنا إيضاح هذا وتفسيره في سورة الصافات، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات].

قوله تعالى: ﴿هَذَا نَزْلُكُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ ٥١. النزول بضمين: هو رزق الضيف الذي يقدم له عند نزوله إكراماً له، ومنه قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف]، وربما استعملت العرب النزول في ضد ذلك على سبيل التهكم والاحتقار، وجاء القرآن باستعمال النزول فيما يقدم لأهل النار من العذاب كقوله هنا في عذابهم المذكور في قولهم: ﴿لَاكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُفُورٍ﴾ ٥٢؛ إلى قوله: ﴿شَرْبَ الْيَمْرِ﴾ ٥٥. هذا نَزْلُكُمْ؛ أي هذا العذاب المذكور هو ضيافتهم ورزقهم المقدم لهم عند نزولهم في دارهم التي هي النار، كقوله تعالى للكافر الحقيقير الدليل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان].

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من إطلاق النزول على عذاب أهل النار، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله في آخر هذه السورة الكريمة: ﴿قُلْ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ٥٦ وَنَصْلَةٍ جَمِيمٍ ٥٧، وقوله تعالى في آخر الكهف: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لَهُمْ لِّلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ [الكهف: ٦٠٢]، ونظير ذلك من كلام العرب قول أبي السعد الضبي:

وكنا إذا الجبار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزلا

وقوله: ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي يوم الجزاء كما تقدم مراراً.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ ٥٧. لما أنكر الكفار بعثهم وآباءهم الأولين، وأمر الله رسوله أن يخبرهم أنه تعالى باعث جميع الأولين والآخرين، وذكر جزاء منكري البعث بأكل الزقوم وشرب الحميم، أتبع ذلك بالبراهين القاطعة الدالة على البعث فقال: نحن خلقناكم هذا الخلق الأول فلولا تصدقون، أي فهل لا تصدقون بالبعث الذي هو الخلق الثاني؛ لأن إعادة الخلق لا يمكن أن تكون أصعب من ابتدائه كما لا يخفى.

وهذا البرهان على البعث بدلالة الخلق الأول على الخلق الثاني، جاء موضحاً في آيات كثيرة جداً كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾

[الروم: ٢٧]، وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تَرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مِن يَّعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١]، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، وقد ذكرناها بإيضاح وكثرة في مواضع كثيرة من هذا الكتاب المبارك في سورة البقرة، والنحل، والحج، والجاثية، وغير ذلك من المواضع وأحلنا عليها كثيراً.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾، «لولا» حرف تحضيض، ومعناه الطلب بحث وشدة، فالآية تدل على شدة حث الله للكفار وحضه لهم على التصديق بالبعث لظهور برهانه القاطع الذي هو خلقه لهم أولاً.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾. قد قدمنا قريباً كلام أهل العلم في همزة الاستفهام المتبوعة بأداة عطف، وذكرناه قبل هذا مراراً، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾، يعني أفرأيتم ما تصبونه من المني في أرحام النساء، فلفظة «ما» موصولة، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد إلى الصفة محذوف؛ لأنه منصوب بفعل، والتقدير: أفرأيتم ما تمنونه، والعرب تقول: أمني النطفة بصيغة الرباعي، يمنيها بضم حرف المضارعة، إذا أراقها في رحم المرأة، ومنه قوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴿٦١﴾﴾ [النجم]، ومنى يمني بصيغة الثلاثي لغة صحيحة. إلا أن القراءة بها شاذة.

وممن قرأ: «تُمْنُونَ» بفتح التاء مضارع في الثلاثي المجرد، أبو السمال وابن السميعة، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾، استفهام تقرير، فإنهم لا بد أن يقولوا: أنتم الخالقون، فيقال لهم: إذا كنا خلقنا هذا الإنسان الخصيم المبين من تلك النطفة التي تمنى في الرحم، فكيف تكذبون بقدرتنا على خلقه مرة أخرى، وأنتم تعلمون أن الإعادة لا يمكن أن تكون أصعب من الابتداء، والضمير المنصوب في «تخلقونه» عائد إلى الموصول أي تخلقون ما تمنونه من النطفة علماً، ثم مضاعفاً إلى آخر أطواره.

وهذا الذي تضمنته هذه الآية من البراهين القاطعة على كمال قدرة الله على البعث وغيره، وعلى أنه المعبود وحده، ببيان أطوار خلق الإنسان، جاء موضحاً في آيات آخر، وقد قدمنا الكلام على ذلك مستوفى بالآيات القرآنية، وبينما ما يتعلق بكل طور من أطواره من الأحكام الشرعية في سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تَرَابٍ﴾ [الحج: ٥].

وذكرنا أطوار خلق الإنسان في سورة الرحمن أيضاً، في الكلام على قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ عِلْمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن]، وفي غير ذلك من المواضع. وبينما الآيات الدالة على أطوار خلقه جملة وتفصيلاً في الحج.

تنبيه: هذا البرهان الدال على البعث الذي هو خلق الإنسان من نطفة مني تمنى، يجب على كل إنسان النظر فيه؛ لأن الله - جلّ وعلا - وجه صفة الأمر بالنظر فيه إلى مني الإنسان، والأصل في صيغة الأمر على التحقيق الوجوب إلا للدليل صارف عنه، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۖ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۖ﴾... الآية [الطارق: ٥، ٦]، وقد قدّمنا شرحها في أول سورة النحل. وقرأ هذا الحرف نافع، «أفرايتم» بتسهيل الهمزة بعد الراء بين بين.

والرواية المشهورة التي بها الأداء عن ورش عنه إبدال الهمزة ألفاً وإشباعها لسكون الياء بعدها.

وقرأه الكسائي: «أفرايتم» بحذف الهمزة، وقرأه باقي السبعة بتحقيق الهمزة.

وقوله تعالى: ﴿هَآتُرْ﴾؛ قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر في إحدى الروایتين بتسهيل الهمزة الثانية، والرواية المشهورة التي بها الأداء عن ورش عن نافع إبدال الثانية ألفاً مشبّعاً مدها لسكون النون بعدها، وقرأه عاصم وحزمة والكسائي وهشام عن ابن عامر في الرواية الأخرى بتحقيق الهمزتين، وقالون، وأبو عمرو وهشام بألف الإدخال بين الهمزتين والباقون بدونها.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۖ﴾ [١١] عَلَى أَنْ يُبَدِّلَ أَمَثَلَكُمْ وَنُشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ [١٢]. قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير ابن كثير، «قَدَرْنَا» بتشديد الدال، وقرأه ابن كثير بتخفيفها. وقد قدّمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أنّ الآية الكريمة قد يكون فيها وجهان أو أكثر من التفسير، ويكون كل ذلك صحيحاً، وكله يشهد له قرآن، فنذكر الجميع وأدلته من القرآن، ومن ذلك هذه الآية الكريمة.

وإيضاح ذلك أن في قوله: ﴿قَدَرْنَا﴾ وجهين من التفسير وفيما تتعلق به ﴿عَلَى أَنْ يُبَدِّلَ﴾؛ وجهان أيضاً، فقال بعض العلماء، وهو اختيار ابن جرير أن قوله: ﴿قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾؛ أي قدرنا لموتكم أجلاً مختلفاً وأعماراً متفاوتة؛ فمنكم من يموت صغيراً ومنكم من يموت شاباً، ومنكم من يموت شيخاً.

وهذا المعنى دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَبَلُّغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤَوِّفُ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدِّدُ إِلَىٰ أَزْدِلِ الْعُمْرِ﴾ [الحج: ٥]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَبَلُّغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤَوِّفُ مِنْ قَبْلٍ وَلَتَبَلُّغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْمرُ مِنْ مَّعْمَرٍ وَلَا يُقْصِرُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِنْتٍ﴾ [فاطر: ١١]. وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١].

وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾؛ أي ما نحن بمغلوبين، والعرب تقول: سبقه على كذا أي غلبه عليه وأعجزه عن إدراكه؛ أي وما نحن بمغلوبين على ما قدرنا من آجالكم وحددناه من أعماركم، فلا يقدر أحد أن يقدم أجلاً أخرناه ولا يؤخر أجلاً قدّمناه.

وهذا المعنى دلت عليه آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ الآية [نوح: ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَذَبُوا مُوَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥] إلى غير ذلك من الآيات.

وعلى هذا القول، فقوله تعالى: ﴿عَلَى أَنْ تُبَدَّلَ أَمْثَلُكُمْ﴾؛ ليس متعلقاً بمسبوقين بل بقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾؛ والمعنى: نحن قدرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم؛ أي نبدل من الذين ماتوا أمثلاً لهم نوجدهم.

وعلى هذا، فمعنى تبديل أمثالهم إيجاد آخرين من ذرية أولئك الذي ماتوا، وهذا المعنى تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] إلى غير ذلك من الآيات.

وهذا التفسير هو اختيار ابن جرير، وقراءة «قَدَرْنَا» بالتشديد مناسبة لهذا الوجه، وكذلك لفظة «بينكم».

الوجه الثاني: أنَّ قدرنا بمعنى قضينا وكتبنا أي كتبنا الموت وقدرناه على جميع الخلق، وهذا الوجه تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقوله تعالى: ﴿وَنُكَوِّلُ عَلَى آلَيْهِ لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وعلى هذا القول فقوله: ﴿عَلَى أَنْ تُبَدَّلَ﴾: متعلق بمسبوقين أي ما نحن بمغلوبين والمعنى وما نحن بمغلوبين على أن نبدل أمثالكم إن أهلكناكم لو شئنا فنحن قادرون على إهلاككم، ولا يوجد أحد يغلبنا ويمنعنا من خلق أمثالكم بدلاً منكم.

وهذا المعنى تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [١٦] وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ [إبراهيم: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَنَزَّلُوا بِسَبِيلٍ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، وقد قدمنا هذا في سورة النساء. في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [النساء: ١٣٣]. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فيه للعلماء أقوال متقاربة.

وقال بعضهم: ننشئكم بعد إهلاككم فيما لا تعلمونه من الصور والهيئات، كأن ننشئكم قردة وخنازير، كما فعلنا ببعض المجرمين قبلكم.

وقال بعضهم: ننشئكم فيما لا تعلمونه من الصفات، فنغير صفاتكم ونجمل المؤمنين ببياض الوجوه، ونقبح الكافرين بسواد الوجوه وزرقة العيون. إلى غير ذلك من الأقوال.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (١٣) ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (١٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا فَظَلَمْتُمْ فَتَكْهُونُ﴾ (١٥). تضمنت هذه الآية الكريمة برهاناً قاطعاً ثانياً على البعث وامتناناً عظيماً على الخلق بخلق أرزاقهم لهم، فقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (١٣)، يعني أفرأيتم البذر الذي تجعلونه في الأرض بعد حرثها أي تحريكها وتسويتها أنتم تزرعون، أي تجعلونه زرعاً، ثم تنمونوه إلى أن يصير مدركاً صالحاً للأكل أم نحن الزارعون له، ولا شك أن الجواب الذي لا جواب غيره هو أن يقال: أنت يا ربنا هو الزارع المنبت، ونحن لا قدرة لنا على ذلك، فيقال لهم: كل عاقل يعلم أن من أنبت هذا السنبل من هذا البذر الذي تعفن في باطن الأرض قادر على أن يبعثكم بعد موتكم. وكون إنبات النبات بعد عدمه من براهين البعث، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِينَ أَحْيَاَهَا لَكُنِي الْمَوْتِ﴾ [فصلت: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿فَأَنْظُرْ إِلَى مَآثِرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ آيَاتِهِ الْقَوِيَّةِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٥٠) [الروم]، وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا نِفَالًا سُقْنَاهُ لِيَلَكِرَ فِيهِ فَتُزَلَقُوا فِيهِ الْمَاءَ فَأَخْرِجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الاعراف: ٥٧].

والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، وقد قدمناها مستوفاة مع سائر آيات براهين البعث في مواضع كثيرة في سورة البقرة والنحل والجمعة، وغير ذلك من المواضع، وأحلنا عليها مراراً.

تنبيه: اعلم: أنه يجب على كل إنسان أن ينظر في هذا البرهان الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة؛ لأن الله - جلّ وعلا - وجه في كتابه صيغة أمر صريحة عامة في كل ما يصدق عليه مسمى الإنسان بالنظر في هذا البرهان العظيم المتضمن للامتنان لأعظم النعم على الخلق، وللدلالة على عظم الله وقدرته على البعث وغيره، وشدة حاجة خلقه إليه مع غناه عنهم، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٤) ﴿إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ (٢٥) ﴿ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَفًّا﴾ (٢٦) ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ (٢٧) ﴿وَعَبًّا وَقَضْبًا﴾ (٢٨) ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ (٢٩) ﴿وَحَدَائِقَ غُلًّا﴾ (٣٠) ﴿وَفَجَّهَةً وَابًّا﴾ (٣١) ﴿مَثَلًا لِّكُلِّ شَاكِرٍ﴾ (٣٢) [عبس].

والمعنى: انظر أيها الإنسان الضعيف إلى طعامك كالخبز الذي تأكله ولا غنى لك عنه، من هو الذي خلق الماء الذي صار سبباً لإنباته هل يقدر أحد غير الله على خلق الماء؟ أي إبرازه من أصل العدم إلى الوجود. ثم هب أن الماء خلق، هل يقدر أحد غير الله أن ينزله على هذا الأسلوب الهائل العظيم الذي يسقي به الأرض من غير هدم ولا غرق؟ ثم هب أن الماء نزل في الأرض، من هو الذي يقدر على شق الأرض عن مسار الزرع؟ ثم هب أن الزرع طلع، فمن هو الذي يقدر على إخراج السنبل منه؟ ثم هب أن السنبل خرج منه، فمن هو الذي يقدر على إنبات الحب فيه وتنميته حتى يدرك صالحاً للأكل؟ ﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَرَيْحَهُ إِذَا فُيِّتَ فِي ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

[الأنعام: ٩٩]، والمعنى: انظروا إلى الثمر وقت طلوعه ضعيفاً لا يصلح للأكل، وانظروا إلى ينعه؛ أي انظروا إليه بعد أن صار يانعاً مدركاً صالحاً للأكل، تعلموا أن الذي رباه ونماه حتى صار كما ترونه وقت ينعه قادر على كل شيء منعم عليكم عظيم الإنعام، ولذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩]، فاللازم أن يتأمل الإنسان وينظر في طعامه ويتدبر قوله تعالى: ﴿إِنَّا صَبَّأْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ﴾ [عبس: ٢٥، ٢٦]، أي عن النبات شقاً إلى آخر ما بيناه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾؛ يعني لو نشاء تحطيم ذلك الزرع لجعلناه حطاماً؛ أي فتاتاً وهشيماً، ولكننا لم نفعل ذلك رحمة بكم، ومفعول فعل المشيئة محذوف للاكتفاء عنه بجزاء الشرط، وتقديره كما ذكرنا.

وقوله: ﴿فَظَلَمْتُمْ فَتَكْهُونُ﴾. قال بعض العلماء: المعنى فظلمتم تعجبون من تحطيم زرعكم. وقال بعض العلماء: تفكهون بمعنى تندمون على ما خسرتم من الإنفاق عليه كقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَفْقَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢]. وقال بعض العلماء: تندمون على معصية الله التي كانت سبباً لتحطيم زرعكم، والأول من الوجهين في سبب الندم هو الأخير.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۝٦٨ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠﴾.

تضمنت هذه الآية الكريمة امتناناً عظيماً على خلقه بالماء الذي يشربونه، وذلك أيضاً آية من آياته الدالة على عظمته وكمال قدرته وشدة حاجة خلقه إليه، والمعنى: أفرايتم الماء الذي تشربون الذي لا غنى لكم عنه لحظة، ولو أعدمناه لهلكتم جميعاً في أقرب وقت: ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ۝٦٩﴾؟.

والجواب الذي لا جواب غيره هو أنت يا ربنا منزله من المزن، ونحن لا قدرة لنا على ذلك. فيقال لهم: إذا كنتم في هذا القدر من شدة الحاجة إليه تعالى فلم تكفرون به وتشربون ماءه وتأكلون رزقه وتعبدون غيره؟ وما تضمنته هذه الآية الكريمة من الامتنان على الخلق بالماء وأنهم يلزمهم الإيمان بالله وطاعته شكراً لنعمة هذا الماء، كما أشار له هنا بقوله: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾؛ جاء في آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْشَيْتُمْ كُفَّيْكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُحْسِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠﴾ [النحل: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۝١٨ لِنُخَفِّيَ بِهِ بَلَدةً مَيْتًا وَنُخَفِّئَهُمْ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَنَاسِيًّا ۝١٩﴾ [الفرقان]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْشَيْتُمْ مَاءَ فُرَاتًا﴾ [النحل: ١٠]، إلى غير ذلك من الآيات. وقوله هنا: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾؛ أي لو نشاء جعله أجاجاً لفعلنا، ولكن جعلناه عذباً فراتاً سائغاً شرباً، وقد قدمنا في سورة الفرقان أن الماء الأجاج هو الجامع بين الملوحة والمرارة الشديتين.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كونه تعالى لو شاء لجعل الماء غير صالح للشراب، جاء معناه في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: ٢٠]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَلِنَا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨]. لأنّ الذهاب بالماء وجعله غوراً لم يصل إليه وجعله أجاباً، كل ذلك في المعنى سواء بجامع عدم تأتي شرب الماء، وهذه الآيات المذكورة تدل على شدة حاجة الخلق إلى خالقهم كما ترى.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الزَّمَنِ﴾؛ يدل على أن جميع الماء الساكن في الأرض النابع من العيون والآبار ونحو ذلك، أن أصله كله نازل من الزمن، وأن الله أسكنه في الأرض وخزنه فيها لخلقه.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١]، وقد قدمنا هذا في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢]، وفي سورة سبأ، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجِ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ ... الآية [سبأ: ٢].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾؛ «فلولا» بمعنى هلاً، وهي حرف تحضيض، وهو الطلب بحث وحض، والمعنى أنهم يطلب منهم شكر هذا المنعم العظيم بحث وحض.

واعلم: أنّ الشكر يطلق من العبد لربه ومن الرب لعبده.

فشكر العبد لربه ينحصر معناه في استعماله جميع نعمه فيما يرضيه تعالى، فشكر نعمة العين ألا ينظر بها إلا إلى ما يرضي من خلقها وهكذا في جميع الجوارح، وشكر نعمة المال أن يقيم فيه أوامر ربه ويكون مع ذلك شاكر القلب واللسان، وشكر العبد لربه جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى هنا: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾؛ وقوله تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وأما شكر الرب لعبده فهو أن يشبه الثواب الجزيل من عمله القليل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ رَبَّنَا لَعَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤] إلى غير ذلك من الآيات.

تنبيه لغوي: اعلم: أنّ مادة الشكر تتعدى إلى النعمة تارة، وإلى المنعم أخرى، فإن عديت إلى النعمة تعدت إليها بنفسها دون حرف الجر كقوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْعَيْتْ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ ... الآية [النمل: ١٥٢]، وإن عديت إلى المنعم تعدت إليه بحرف الجر الذي هو اللام كقولك: نحمد الله ونشكر له، ولم تأت في القرآن

معدة إلا باللام، كقوله: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وقوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ﴾ [لقمان: ١٤] وقوله: ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِتِيَاءَهُ تَبْدُونَ﴾ [البقرة: ٢]. وقوله: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الزَّكَاةَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

وهذه هي اللغة الفصحى، وتعديتها للمفعول بدون اللام لغة لا لحن، ومن ذلك قول أبي نخيلة:

شكرتك إن الشكر جبل من اتقى وما كل من أوليته نعمة يقضى
وقول جميل بن معمر:

خليلي عوجا اليوم حتى تسلما على عذبة الأنياب طيبة النشر
فإنكما إن عجتما لي ساعة شكرتكما حتى أغيب في قبري

وهذه الآيات من سورة الواقعة قد دلت على أن اقتران جواب لو باللام، وعدم اقترانه بها كلاهما سائغ؛ لأنه تعالى قال: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَمًا﴾؛ باللام ثم قال: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أُلْجًا﴾ بدونها.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ (٧١) ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَنَعْمًا لِلْمُقِيمِينَ (٧٣).

قوله تعالى: ﴿الَّتِي تُورُونَ﴾؛ أي توقدونها من قولهم: أورى النار إذا قدحها وأوقدها، والمعنى: أفرأيت النار التي توقدونها من الشجر أنتم أنشأتم شجرتها التي توقد منها، أي أوجدتموها من العدم؟

والجواب الذي لا جواب غيره: أنت يا ربنا هو الذي أنشأت شجرتها، ونحن لا قدرة لنا بذلك، فيقال: كيف تنكرون البعث وأنتم تعلمون أن من أنشأ شجرة النار وأخرجها منها قادر على كل شيء؟! وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون خلق النار من أدلة البعث، جاء موضحاً في يس في قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧١) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ (٧٢) [س]. فقوله في آخر يس: ﴿تُوقَدُونَ﴾؛ هو معنى قوله في الواقعة: ﴿تُورُونَ﴾؛ وقوله في آية يس: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾؛ بعد قوله: ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ دليل واضح على أن خلق النار من أدلة البعث.

وقوله هنا: ﴿ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا﴾؛ أي الشجرة التي توقد منها كالمرخ والعفار، ومن أمثال العرب: في كل شجر نار، واستنجد المرخ والعفار؛ لأن المرخ والعفار هما أكثر الشجر نصيباً في استخراج النار منهما، يأخذون قضيباً من المرخ ويحكون به عوداً من العفار فتخرج من بينهما النار. ويقال كل شجر فيه نار إلا العناب.

وقوله: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً﴾؛ أي نذكر الناس بها في دار الدنيا إذا أحسوا شدة

حرارتها؛ نار الآخرة التي هي أشد منها حراً لينزجروا عن الأعمال المقتضية لدخول النار، وقد صح عنه ﷺ: أن حرارة نار الآخرة مضاعفة على حرارة نار الدنيا سبعين مرة، فهي تفوقها بتسع وستين ضعفاً كل واحد منها مثل حرارة نار الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَتَّعْنَا لِلْمُقْوِينَ﴾؛ أي منفعة للنازلين بالقواء من الأرض؛ وهو الخلاء والفلاة التي ليس بها أحد، وهم المسافرون؛ لأنهم يتنفعون بالنار انتفاعاً عظيماً في الاستدفاء بها والاستضاءة وإصلاح الزاد.

وقد تقرر في الأصول أن من موانع اعتبار مفهوم المخالفة كون اللفظ وارداً للامتنان. وبه تعلم أنه لا يعتبر مفهوماً للمقوين؛ لأنه جيء به للامتنان أي وهي متاع أيضاً لغير المقوين من الحاضرين بالعمران، وكل شيء خلا من الناس يقال له أقوى، فالرجل إذا كان في الخلا قليل له: أقوى. والدار إذا خلت من أهلها قيل لها أقوت. ومنه قول نابغة ذبيان:

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد
وقول عنترة:

حيث من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم
وقيل: للمقوين: أي للجائعين، وقيل غير ذلك، والذي عليه الجمهور هو ما ذكرنا.
قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ (٧٥) وَإِنَّهُمْ لَفَسَّوْا لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾.
قد قدمنا الكلام عليه في أول سورة النجم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ (٧٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾.
أخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة، وأكد إخباره بأن هذا القرآن العظيم هو حق اليقين، وأمر نبيه بعد ذلك بأن يسبح باسم ربه العظيم.

وهذا الذي تضمنته هذه الآية ذكره الله - جلّ وعلا - في آخر سورة الحاقة في قوله في وصفه للقرآن: ﴿وَإِنَّهُمْ لَحَسِرَةٌ عَلَى الْكُفْرَيْنِ﴾ (٥٠) وَإِنَّهُمْ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ [الحاقة]، والحق هو اليقين.

وقد قدمنا أن إضافة الشيء إلى نفسه مع اختلاف اللفظين أسلوب عربي، وذكرنا كثرة وروده في القرآن وفي كلام العرب، ومنه في القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ١٠٩]، والدار هي الآخرة، وقوله: ﴿وَمَكَرَ السَّيِّئُ﴾ [فاطر: ٤٣]، والمكر هو السوء بدليل قوله بعده: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

وقوله: ﴿بَيْنَ حَبْلٍ أَلْوَيْدٍ﴾ [ق: ١٦]، والحبل هو الوريد، وقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، والشهر هو رمضان.

ونظير ذلك من كلام العرب قول امرئ القيس:

كَبُرَ الْمَقَانَاتِ الْبَيَاضُ بِصَفَرَةٍ
وَالْبَكْرُ هِيَ الْمَقَانَاتُ.
وقول عنترة:

ومشك سابعه هتكت فزوجها بالسيف عن حامي الحقيقة معلم

لأن مراده بالمشك هنا الدرع نفسها بدليل قوله: هتكت فزوجها؛ يعني الدرع، وإن كان أصل المشك لغة السير الذي تشد به الدرع؛ لأن السير لا تمكن إرادته في بيت عنترة هذا خلافاً لما ظنه صاحب تاج العروس، بل مراد عنترة بالمشك الدرع، وأضافه إلى السابعة التي هي الدرع كما ذكرنا، وإلى هذا يشير ما ذكره في باب العلم: وعقده في الخلاصة بقوله:

وإن يكونا مفردين فأضف حتماً وإلا أتبع الذي ردف

لأن الإضافة المذكورة من إضافة الشيء إلى نفسه مع اختلاف اللفظين، وقد بينا في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) أن قوله في الخلاصة:

ولا يضاف اسم لما به اتحد معني وأول موهما إذا ورد

أن الذي يظهر لنا من استقراء القرآن والعربية أن ذلك أسلوب عربي، وأن الاختلاف بين اللفظين كاف في المغايرة بين المضاف والمضاف إليه، وأنه لا حاجة إلى التأويل مع كثرة ورود ذلك في القرآن والعربية.

ويدل له تصريحهم بلزوم إضافة الاسم إلى اللقب إن كانا مفردين نحو سعيد كرز؛ لأن ما لا بد له من تأويل لا يمكن أن يكون هو اللازم كما ترى، فكونه أسلوباً أظهر.

وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٦)؛ التسبيح: أصله الإبعاد عن السوء، وتسبيح الله وتنزيهه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، وذلك التنزيه واجب له في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، والظاهر أن الباء في قوله: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾؛ داخلة على المفعول، وقد قدمنا في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهَزَى إِلَيْكَ جُنُجَ النَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٥]، أدلة كثيرة من القرآن وغيره على دخول الباء على المفعول الذي يتعدى إليه الفعل بنفسه، كقوله: ﴿وَهَزَى إِلَيْكَ جُنُجَ النَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٥]، والمعنى: وهزي جذع النخلة.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ﴾ [الحج: ٢٥]، أي إلحاداً، إلى آخر ما قدمنا من الأدلة الكثيرة، وعليه، فالمعنى: سبح اسم ربك العظيم كما يوضحه قوله في الأعلى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) [الأعلى].

وقال القرطبي: الاسم هنا بمعنى المسمى؛ أي سبح ربك، وإطلاق الاسم بمعنى المسمى معروف في كلام العرب، ومنه قول لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر
ولا يلزم في نظري أن الاسم بمعنى المسمى هنا لإمكان كون المراد نفس الاسم؛
لأن أسماء الله ألحد فيها قوم ونزهها آخرون عن كل ما لا يليق، ووصفها الله بأنها
بالغة غاية الحسن، وفي ذلك أكمل تنزيه لها لأنها مشتملة على صفاته الكريمة، وذلك
في قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وقوله تعالى: ﴿يَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ
الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

ولسنا نريد أن نذكر كلام المتكلمين في الاسم والمسمى، هل الاسم هو المسمى
أو لا؟ لأن مرادنا هنا بيان معنى الآية. والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحديد

قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

قد قدّمنا مراراً أن التسبيح هو تنزيه الله عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، وأصله
في اللغة الإبعاد عن السوء، من قولهم سبّح: إذا صار بعيداً، ومنه قيل للفرس: سابح؛
لأنه إذا جرى يبعد بسرعة، ومن ذلك قول عنترة في معلقته:

إذ لا أزال على رحالة سابح نهّد تعاوره الكماة مكلم
وقول عباس بن مرداس السلمي:

لا يغرسون فسيل النخل حولهم ولا تخاور في مشتاهم البقر
إلا سوابح كالعقبان مقربة في دارة حولها الأخطار والفكر

وهذا الفعل الذي هو سبّح قد يتعدى بنفسه بدون اللام كقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْهُ
بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الناس: ٢١].
وقد يتعدى باللام كقوله هنا: سبّح لله، وعلى هذا فسبحه وسبّح له لغتان
كنصحه ونصح له. وشكره وشكر له، وذكر بعضهم في الآية وجهاً آخر، وهو أن
المعنى: سبّح ما في السماوات والأرض، أي أحدث التسبيح لأجل الله أي ابتغاء
وجهه تعالى. ذكره الزمخشري وأبو حيان، وقيل: سبّح لله أي صلى له. وقد قدّمنا أن
التسبيح يطلق على الصلاة.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن أهل السماوات والأرض يسبحون لله؛ أي
ينزهونه عما لا يليق، بينه الله - جلّ وعلا - في آيات أخر من كتابه كقوله تعالى في

سورة الحشر: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر].
 وقوله في الصف: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الصف].
 أيضاً، وقوله في الجمعة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلِكُمُ الْقُدُّوسُ
 الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجمعة]، وقوله في التغابن: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ
 الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن].

وزاد في سورة بني إسرائيل، أنّ السماوات السبع والأرض يسبحن الله مع ما فيهما
 من الخلق وأن تسبح السماوات ونحوها من الجمادات يعلمه الله ونحن لا نفقهه أي لا
 نفهمه، وذلك في قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ
 بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وهذه الآية الكريمة تدل دلالة واضحة على
 أن تسبح الجمادات المذكور فيها وفي قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾
 [الأنبياء: ٧٩]، ونحو ذلك تسبيح حقيقي يعلمه الله ونحن لا نعلمه.

والآية الكريمة فيها الرد الصريح، على من زعم من أهل العلم، أن تسبيح
 الجمادات هو دلالة إيجادها على قدرة خالقها؛ لأن دلالة الكائنات على عظمة خالقها
 يفهمها كل العقلاء، كما صرح الله تعالى بذلك في قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَآخْتِلَافِ أَلْوَانِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ وَالْأَنْهَارِ وَالْغُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَسْتَفِهُونَ أَفَرَأَيْتَ لِقَوْمٍ
 يُعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وأمثال ذلك من الآيات كثيرة في القرآن.

وقد قدّمنا إيضاح هذا في سورة الرعد، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ
 فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلًّا لَهُمْ بِالْعُدُودِ وَالْأَصَالِ﴾ [الرعد]، وفي سورة الكهف،
 في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ الآية [الكهف: ٧٧]، وفي
 سورة الأحزاب، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وفي غير ذلك من المواضع.

وقد عبر تعالى هنا في أول الحديد بصيغة الماضي في قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ وكذلك هو
 في الحشر، والصف، وعبر في الجمعة والتغابن، وغيرهما بقوله: يسبح، بصيغة المضارع.
 قال بعض أهل العلم: إنما عبر بالماضي تارة وبالمضارع أخرى ليبين أن ذلك
 التسبيح لله، هو شأن أهل السماوات وأهل الأرض، ودأبهم في الماضي والمستقبل،
 ذكر معناه الزمخشري وأبو حيان.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ قد قدّمنا معناه مراراً وذكرنا أن العزيز، هو الغالب
 الذي لا يغلبه شيء، وأن العزة هي الغلبة، ومنه قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾
 [المنافقون: ٨]. وقوله: ﴿وَعَزَّزْنِي فِي الْحُطَابِ﴾ [ص: ٢٣]: أي غلبني في الخصام، ومن
 أمثال العرب من عزّ بَرٌّ، يعنون من غلب استلب، ومنه قول الخنساء:

كَأَنْ لَمْ يَكُونُوا حَمِي يَخْتَشِي إِذِ النَّاسِ إِذَا ذَاكَ مِنْ عَزْ بَزَا

والحكيم، هو من يضع الأمور في مواضعها، ويوقعها في مواقعها.

وقوله: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، غلب فيه غير العاقل. وقد قدمنا في غير هذا الموضع، أنه تعالى تارة يغلب غير العاقل، في نحو ما في السماوات وما في الأرض لكثرتيه. وتارة يغلب العاقل لأهميته، وقد جمع المثال للأمرين قوله تعالى في البقرة: ﴿بَلْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَكُمْ قَلِيلٌ﴾ [البقرة: ١١٦]، فغلب غير العاقل في قوله: ما في السماوات، وغلب العاقل في قوله: قانتون.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْثَىٰ﴾.

قوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، قد قدمنا إيضاحه في سورة فصلت، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]. إلى قوله تعالى: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَعَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]، وفي سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْثَىٰ﴾؛ قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْثَىٰ بِغُثَّىٰ أَيْدِي النَّهَارِ﴾ الآية [الأعراف: ٥٤]. وذكرنا طرفاً صالحاً من ذلك في سورة القتال في كلامنا الطويل على قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَاثَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ ﴿١٢﴾ [محمد].

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾.

قد قدمنا إيضاحه في أول سورة سبأ، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ﴾ ﴿١١﴾ [سبأ]. قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾.

قد قدمنا إيضاحه وبيننا الآيات القرآنية الدالة على المعية العامة، والمعية الخاصة، مع بيان معنى المعية في آخر سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ ﴿١٨٨﴾ [النحل].

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ مَائِدَتِ يَأْتِيهِ لِيُخْرِجَهُ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي ينزل على عبده محمد ﷺ آيات بينات؛ أي واضحات، وهي هذا القرآن العظيم؛ ليخرج الناس بهذا القرآن العظيم المعبر عنه بالآيات البينات من الظلمات؛ أي من ظلمات الكفر والمعاصي إلى نور التوحيد والهدى، وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في قوله تعالى في الطلاق: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْخُذُ بِالْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿١٠﴾ ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُمِيتَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠ - ١١]، وآية الطلاق هذه بينت أن آية الحديد من العام المخصوص، وأنه لا يخرج بهذا القرآن العظيم من الظلمات إلى النور إلا من وفقهم الله للإيمان والعمل الصالح، فقوله في

الحديد: ﴿يُخْرِجُكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾؛ أي بشرط الإيمان والعمل الصالح بدليل قوله: ﴿يُخْرِجُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ الآية.

فالدعوة إلى الإيمان بالقرآن والخروج بنوره من ظلمات الكفر عامة، ولكن التوفيق إلى الخروج به من الظلمات إلى النور خاص بمن وفقهم الله، كما دلت عليه آيات الطلاق المذكورة والله - جلّ وعلا - يقول: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس].

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون القرآن نوراً يخرج الله به المؤمنين من الظلمات إلى النور، جاء موضحاً في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء]. وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [يهدى به الله من أتبع رضوانكم سبيل السالكين ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم] [المائدة]. وقوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨]. وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الاعراف: ١٥٧]. وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ .. [الشورى: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَبْرُكُ أَسمَاءَ الْأَرْضِ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة مريم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ زَيْتُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ ... الآية [مريم: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن المؤمنين يوم القيامة، يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، وهو جمع يمين، وأنهم يقال لهم: ﴿بُشْرُكُمْ أَيَّامٌ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة مما ذكرنا، جاء موضحاً في آيات آخر، أما سعي نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، فقد بينه تعالى في سورة التحريم، وزاد فيها بيان دعائهم الذي يدعون به في ذلك الوقت وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ الآية [التحريم: ٨].

وأما تبشيرهم بالجنات، فقد جاء موضحاً في مواضع آخر، وبين الله فيها أن الملائكة تبشرهم وأن ربهم أيضاً يبشرهم كقوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ [خليلك فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم] [التوبة]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا فَتَنَّلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَكُ الْأَوَّلُ خَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [يونس]؛ إلى قوله: ﴿ثُمَّ لَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [نصلت]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّبْتُمْ

الْأَمَانِي حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَّكُمْ بِاللَّهِ الْقُرُورُ ﴿١٤٦﴾. الضمير المرفوع في «ينادونهم» راجع ؛ المنافقين والمنافقات، والضمير المنصوب راجع إلى المؤمنين والمؤمنات، وقد ذكر الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة: أن المنافقين والمنافقات إذا رأوا نور المؤمنين يوم القيامة يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، قالوا لهم: ﴿أَنْظُرُونَا نَقْتَسِبَ مِنْ نُورِكُمْ﴾، وقيل لهم جواباً لذلك: ﴿أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورَكُمْ﴾، وضرب بينهم بالسور المذكور أنهم ينادون المؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾، أي في دار الدنيا، كنا نشهد معكم الصلوات ونسير معكم في الغزوات وندين بدينكم؟ قالوا: بلى؛ أي كنتم معنا في دار الدنيا، ولكنكم فتنتم أنفسكم.

وقد قدمنا مراراً معاني الفتنة وإطلاقاتها في القرآن، وبيننا أن من معاني إطلاقاتها في القرآن الضلال كالكفر والمعاصي، وهو المراد هنا، أي ﴿فَنَتَّبِعُ أَنْفُسَكُمْ﴾: أي أضللتموها بالنفاق الذي هو كفر باطن، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣]، أي لا يبقى شرك كما تقدم إيضاحه.

وقوله: ﴿وَرَبَّصْتُمْ﴾؛ التربص: الانتظار، والأظهر أن المراد به هنا تربص المنافقين بالمؤمنين الدوائر؛ أي انتظارهم بهم نوائب الدهر أن تهلكهم، كقوله تعالى في منافقي الأعراب المذكورين في قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَفَقِّهُونَ﴾ [التوبة: ١٠١]، ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ﴾ [التوبة: ٩٨].

وقوله تعالى: ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾؛ أي شككتم في دين الإسلام، وشكهم المذكور هنا وكفرهم بسببه بينه الله تعالى في قوله عنهم: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ ﴿١٥٠﴾ [التوبة].

وقوله تعالى: ﴿وَعَزَّكُمْ الْأَمَانِي حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾، الأمانى جمع أمنية، وهي ما يمتنون به أنفسهم من الباطل، كزعمهم أنهم مصلحون في نفاقهم، وأن المؤمنين حقاً سفهاء في صدقهم، أي في إيمانهم، كما بين تعالى ذلك في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ﴿١١﴾ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾... الآية [البقرة: ١١، ١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ الآية [البقرة: ١٣]، وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من كون الأمانى المذكورة من الغرور الذي اغتروا به جاء موضعاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]. إلى قوله: ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ بَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

وقوله: ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾، والأظهر أنه الموت؛ لأنه ينقطع به العمل.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَعَزَّكُمْ بِاللَّهِ الْقُرُورُ﴾؛ هو الشيطان، وعبر عنه بصيغة المبالغة، التي هي الفعول لكثرة غروره لبني آدم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، من أن الشيطان الكثير الغرور يغرمهم بالله، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى في آخر القمان: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ اللَّهُ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، وقوله في أول فاطر: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ اللَّهُ الْغُرُورُ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُذَّوبٌ فَاحْذَرُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ١١].

وقوله تعالى في آية السجدة وآية فاطر المذكورتين: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾. وترتيبه على ذلك النهي عن أن يغرمهم بالله الغرور، دليل واضح على أن مما يغرمهم به الشيطان أن وعد الله بالبعث ليس بحق، وأنه غير واقع، والغرور بالضم الخديعة.

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُوَفِّدُ مِنْكُمْ فِدْيَةً وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة آل عمران، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلَنْ يُبْعَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [١١].

قد قدّمنا مراراً أنّ كل فعل مضارع في القرآن مجزوم بلم، إذا تقدمتها همزة الاستفهام كما هنا فيه وجهان من التفسير معروفان:

الأول منهما: هو أنّ قلب مضارعة ماضوية، ونفيه إثباتاً، فيكون بمعنى الماضي المثبت؛ لأنّ لم حرف قلب مضارع من معنى الاستقبال إلى معنى الماضي، وهمزة الاستفهام إنكارية فيها معنى النفي، فيتسلط النفي الكامن فيها على النفي الصريح في «لم» فينفيه. ونفي النفي إثبات، فيرجع المعنى إلى الماضي المثبت. وعليه فالمعنى، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يَكُونُونَ كَالَّذِينَ آمَنُوا﴾: أي أنّ للذين آمنوا.

والوجه الثاني: أن الاستفهام في جميع ذلك للتقرير، وهو حمل المخاطب على أن يقر فيقول: بلى. وقوله: يأن: هو مضارع أنى يأتي إذا جاء إناه أي وقته، ومنه قول كعب بن مالك رضي الله عنه:

ولقد أنى لك أن تناهي طائعاً أو تستفيق إذا نهاك المرشد

فقوله: أنى لك أن تناهي طائعاً، أي جاء الإناء الذي هو الوقت الذي تناهى فيه طائعاً، أي حضر وقت تناهيك، ويقال في العربية: أن يئين كباع يبيع، وأنى يأتي كرمى يرمي، وقد جمع اللغتين قول الشاعر:

ألمّا يئن لي أن تجلي عمايتي وأقصر عن ليلي بلى قد أنى ليا

والمعنى على كلا القولين أنّه حان للمؤمنين، وأنى لهم أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي جاء الحين والأوان لذلك، ما تردد عليهم من زواجر القرآن ومواعظه.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾؛ المصدر المنسبك من أن وصلتها في محل رفع فاعل بأن، والخشوع أصله في اللغة السكون والطمأنينة والانخفاض، ومنه قول نابغة ذبيان: رماد ككحل العين لاياً أبينه . ونؤي كنجدم الحوض أنلم خاشع
فقوله: خاشع أي متخفض مطمئن، والخشوع في الشرع خشية من الله تداخل القلوب، فتظهر آثارها على الجوارح بالانخفاض والسكون، كما هو شأن الخائف.
وقوله: ﴿لِيُذَكِّرَ اللَّهُ﴾، الأظهر منه أن المراد خشوع قلوبهم لأجل ذكر الله، وهذا المعنى دل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، أي خافت عند ذكر الله، فالوجل المذكور في آية الأنفال هذه، والخشية المذكورة هنا معناهما واحد.

وقال بعض العلماء: المراد بذكر الله القرآن، وعليه فقوله: ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾؛ من عطف الشيء على نفسه مع اختلاف اللفظتين، كقوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) أَلَيْ خَلَقَ فُتُوحًا (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) [الأعلى]، كما أوضحناه مراراً.
وعلى هذا القول، فالآية كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا فَيَشْعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، فالاقشعرار المذكور، ولين الجلود والقلوب عند سماع هذا القرآن العظيم المعبر عنه بأحسن الحديث، يفسر معنى الخشوع لذكر الله، وما نزل من الحق هنا كما ذكر.
وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ قد قدمنا في سورة البقرة، في الكلام على قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٧٤]، بعض أسباب قسوة قلوبهم، فذكرنا منها طول الأمد المذكور هنا في آية الحديد هذه، وغير ذلك في بعض الآيات الأخر.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كثرة الفاسقين من أهل الكتاب جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وقوله تعالى: ﴿فَتَأْتِنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ آجَبَ الْكُفَّارَ بَنَاتُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَرَّتْهُ مُصَفَّرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾.
قد قدمنا الكلام عليه في سورة الزمر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيْجُ فَرَّتْهُ مُصَفَّرًا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَمًا﴾، وبيننا هناك الآية الدالة على سبب اصفاره.
قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٢٢).

ذكر - جلّ - وعلا - في هذه الآية الكريمة، أن كل ما أصاب من المصائب في الأرض كالقحط والجذب والجوائح في الزراعة والثمار، وفي الأنفس من الأمراض والموت كله مكتوب في كتاب قبل خلق الناس، وقبل وجود المصائب، فقوله: ﴿مِنْ

قِيلَ أَنْ نَبْرَأَهُمْ، الضمير فيه عائد على الخليقة المفهومة في ضمن قوله: ﴿وَقَدْ أَنْفَسِكُمْ﴾؛ أو إلى المصيبة، واختار بعضهم رجوعه لذلك كله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ أي سهل هين لإحاطة علمه وكمال قدرته.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أنه لا يصيب الناس شيء من المصائب إلا وهو مكتوب عند الله قبل ذلك، أوضحه الله تعالى في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة]. وقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [التغابن: ١١]. وقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة]. ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾؛ قبل وقوع ذلك دليل على أن هذه المصائب معلومة له - جلّ وعلا - قبل وقوعها، ولذا أخبرهم تعالى بأنها ستقع، ليكونوا مستعدين لها وقت نزولها بهم؛ لأن ذلك يعينهم على الصبر عليها، ونقص الأموال والثمرات مما أصاب من مصيبة، ونقص الأنفس في قوله: والأنفس، مما أصاب من مصيبة في الأنفس.

قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَجُورٍ﴾؛ وقوله في آية الحديد هذه: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾؛ أي بينا لكم أن الأشياء مقدرة مكتوبة قبل وجود الخلق، وأن ما كتب واقع لا محالة لأجل ألا تحزنوا على شيء فاتكم؛ لأن فواته لكم مقدر، وما لا طمع فيه قل الأسى عليه، ولا تفرحوا بما آتاكم؛ لأنكم إذا علمتم أن ما كتب لكم من الرزق والخير لا بد أن يأتيكم قل فرحكم به، وقوله: تأسوا، مضارع أسى بكسر السين يأسى يفتحها أسى بفتحيتين على القياس؛ بمعنى حزن ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨] وقوله: «من مصيبة» مجرور في محل رفع؛ لأنه فاعل أصاب جر بمن المزيدة لتوكيد النفي، وما نافية.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾. قد قدمنا الكلام عليه في سورة الشورى، في الكلام على قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧]، وقدّمنا هناك كلام أهل العلم في معناه.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾.

بين الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة والتي قبلها، أن إقامة دين الإسلام تنبني على أمرين: أحدهما هو ما ذكره بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾؛ لأن في ذلك إقامة البراهين على الحق، وبيّن الحجة وإيضاح الأمر والنهي والثواب والعقاب، فإذا أصر الكفار على الكفر وتكذيب الرسل مع ذلك البيان والإيضاح، فإن الله - تبارك وتعالى - أنزل الحديد أي خلقه لبني آدم ليردع به المؤمنون الكافرين المعاندين، وهو قتلهم إياهم بالسيوف والرماح والسهام، وعلى هذا فقوله هنا: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾؛ توضّحه آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿قَتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَخْرِجُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]،

والآيات في مثل ذلك كثيرة معلومة، وقوله: ﴿وَمَنْ لَّئِيْلُ﴾ [البقرة: ٢١٩]، لا يخفى ما في الحديد من المنافع للناس، وقد أشار الله إلى ذلك في قوله: ﴿وَمَا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ﴾ [الرعد: ١٧]؛ لأن مما يوقد عليه في النار ابتغاء المتاع الحديد. قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ مُّكْتَبُونَ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَافِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ... الآية [الزخرف: ٢٨، ٢٩]. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٨).

قد قدمنا أن التحقيق أن هذه الآية الكريمة من سورة الحديد، في المؤمنين من هذه الأمة، وأن سياقها واضح في ذلك، وأن من زعم من أهل العلم أنها في أهل الكتاب فقد غلط، وأن ما وعد الله به المؤمنين من هذه الأمة أعظم مما وعد به مؤمني أهل الكتاب وإتيانهم أجرهم مرتين كما قال تعالى فيهم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ [البقرة: ١٧٧]. إلى قوله - ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾... الآية [الفصل: ٥٢ - ٥٤].

وكون ما وعد به المؤمنين من هذه الأمة أعظم أن إتياء أهل الكتاب أجرهم مرتين أعطى المؤمنين من هذه الأمة مثله كما بينه بقوله: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾، وزادهم بقوله: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الفضل بيد الله وحده وأنه يؤتيه من يشاء جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرْزَقَ لِلْغَنِيِّ فَزَعًا لَا يَرَىٰ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة فاطر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢].



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة المجادلة

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنْكُمْ فِي نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾؛ إلى قوله: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾. قد قدمنا الكلام عليه موضحاً في سورة الأحزاب، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تَظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤] وبيننا هناك كلام أهل العلم، وأدلتهم ومناقشتها في مسائل الظهار، ومسائل أحكام الكفارة بالعق، والصيام، والإطعام، وأوجه القراءة في الآية..

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. قد قدمنا الكلام عليه في آخر سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وذكرنا هناك معنى المعية الخاصة، والمعية العامة، والآيات القرآنية الدالة على كل واحدة منهما.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَ عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا هُوَ عَنْهُمْ وَيَنْتَجِبُونَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾. قد قدمنا الكلام عليه مع بيان الفرق بين النجوى بالخير، والنجوى بالإثم والعدوان، في سورة النساء في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَا حَيْثُ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾. قال بعض أهل العلم: معنى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾؛ ألم ينته علمك إلى الذين تولوا. وقد قدمنا الرد على من قال: إن لفظة «ألم تر» لا تعدى إلا بحرف الجر الذي هو إلى، ولا تتعدى بنفسها إلى المفعول، وبيننا أن ذلك وإن كان هو الذي في القرآن في جميع المواضع فإن تعديتها إلى المفعول بنفسها صحيحة.

ومن شواهد ذلك قول امرئ القيس:

ألم ترياني كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

والمراد إنكار الله على المنافقين توليهم القوم الذين غضب الله عليهم، وهم اليهود والكفار. وهذا الإنكار يدل على شدة منع ذلك التولي، وقد صرح الله بالنهي عن ذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المتحنة: ١٣].

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون المنافقين ليسوا من المؤمنين، ولا من القوم الذين تولوهم وهم الذين غضب الله عليهم من اليهود، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾؛ إلى قوله تعالى: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٢ - ١٤٣].

قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن المنافقين اتخذوا أيمانهم جُنَّةً، والأيمان جمع يمين؛ وهي الحلف، والجُنَّة هي الترس الذي يتقي به المقاتل وقع السلاح، والمعنى أنهم جعلوا الأيمان الكاذبة، وهي حلفهم للمسلمين أنهم معهم وأنهم مخلصون في باطن الأمر، ترساً لهم يتقون به الشر الذي ينزل بهم لو صرحوا بكفرهم، وقوله تعالى: ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ الظاهر أنه من صد المتعدية، وأن المفعول محذوف؛ أي فصدوا غيرهم ممن أطاعهم؛ لأن صدودهم في أنفسهم دل عليه قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ والحمل على التأسيس أولى من الحمل على التأكيد، كما أوضحناه مراراً.

وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة وهما كون المنافقين يحلفون الأيمان الكاذبة لتكون لهم جنة، وأنهم يصدون غيرهم عن سبيل الله جاء موضحين في آيات آخر من كتاب الله، أما أيمانهم الكاذبة فقد بينها الله - جلّ وعلا - في آيات كثيرة، كقوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللّٰهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾... الآية [التوبة: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ لَكُمْ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيُخْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾... الآية [التوبة: ٩٥]. وقوله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللّٰهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢]. وقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون].

وأما صدهم من أطاعهم عن سبيل الله فقد بيّنه الله في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللّٰهُ الْمُعَوِّضِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الاحزاب: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرًى أَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٥٦]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّلُنَّ﴾ [النساء: ٧٢].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ أي لأجل نفاقهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾... الآية [النساء: ١٤٥].

قوله تعالى: ﴿لَنْ تَقْبَلَ عَنْهُمُ آمَنَتُهُمْ وَلَا أَوَّلُهُمْ مِنَ اللّٰهِ شَيْئًا﴾... الآية. قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ إلى قوله: ﴿خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥ - ٣٦].

قوله تعالى: ﴿اسْتَخَوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللّٰهِ﴾. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من إسناد إنساء ذكر الله إلى الشيطان، ذكره تعالى في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يُسْأَلُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]. وقوله تعالى: ﴿فَأَنسَنَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢]، وفي معناه قول فتى موسى: ﴿وَمَا أَنْسَيْنِي إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرْ﴾ [الكهف: ٦٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْآدَانِ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الذين يحادون الله ورسوله داخلون في جملة الأذلين، لا يوجد أحد أذل منهم. وقوله: ﴿يُحَادِّثُونَ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ أي يعادون ويحالفون ويشاقون، وأصله مخالفة حدود الله التي حدها.

وقوله: ﴿فِي الْآدَانِ﴾؛ أي الذين هم أعظم الناس ذلاً. والذل: الصغار والهوان والحقارة.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون الذين يحادون الله ورسوله هم أذل خلق الله،

بَيْنَهُ - جَلَّ وَعَلَا - في غير هذا الموضع، وذلك بذكره أنواع عقوبتهم المفضية إلى الذل والخزي والهوان، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَنْتَ لَمْ تَأَرْجِهَنْمُ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَثُرُوا كَمَا كُنْتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة: ٥]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ [٢] ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ [٤] وقوله تعالى: ﴿الْحَشْرُ﴾. وقوله تعالى: ﴿فَأَضَرُّوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضَرُّوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [٧] ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَكَرَبَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ [١٢] ذَلِكَكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابُ النَّارِ [١٤] [الأنفال] إلى غير ذلك من آيات.

قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَعْلِيَّ إِنَّا وَرَسُولِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [١٦]. قد دلت هذه الآية الكريمة على أن رسل الله غالبون لكل من غالبهم، والغلبة نوعان: غلبة بالحجة والبيان، وهي ثابتة لجميع الرسل، وغلبة بالسيف والسنان، وهي ثابتة لمن أمر بالقتال منهم دون من لم يؤمر به.

وقد دلت هذه الآية الكريمة، وأمثالها من الآيات كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْفَتَنَا لِعِبَادِنَا الْفَرَسَيْنِ﴾ [١٧] إِنَّهُمْ لَمُتَّصِرُونَ [١٨] وَلَنْ جُنَدًا لَهُمُ الْعَلِيلُونَ [١٩] [الصفات]، أنه لن يقتل نبي في جهاد قط؛ لأن المقتول ليس بغالب؛ لأن القتل قسم مقابل للغلبة، كما بينه تعالى في قوله: ﴿وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ الآية [النساء: ٧٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا...﴾ الآية [غافر: ٥١]. وقد نفى عن المنصور كونه مغلوباً نفياً باتاً في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وبهذا تعلم أن الرسل الذين جاء في القرآن أنهم قتلوا كقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ الْبَينَتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٣]، ليسوا مقتولين في جهاد، وأن نائب الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَكَايِنْ مِنْ نَبِيِّ قَتَلْتُمْ مَعَهُ رَيْثُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، على قراءة قتل بالبناء للمفعول، هو ريثون لا ضمير النبي.

وقد أوضحنا هذا غاية الإيضاح بالآيات القرآنية في سورة آل عمران، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَكَايِنْ مِنْ نَبِيِّ قَتَلْتُمْ مَعَهُ رَيْثُونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وذكرنا بعضه في الصفات، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْفَتَنَا لِعِبَادِنَا الْفَرَسَيْنِ﴾ [الصفات].

قوله تعالى: ﴿لَا تَحِدْ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾. وردت هذه الآية الكريمة بلفظ الخبر، والمراد بها الإنشاء، وهذا النهي البليغ، والزجر العظيم عن موالة أعداء الله، وإيراد الإنشاء بلفظ الخبر أقوى وأؤكد من إيراده بلفظ الإنشاء، كما هو معلوم في محله، ومعنى قوله: ﴿يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: أي يحبون ويوالون أعداء الله ورسوله.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي والزجر العظيم عن موالاة أعداء الله جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [الممتحنة: ٤]. وقوله تعالى: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ الآية [التوبة: ١٢٣]. وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَوْ كَانُوا إِبْنَاءَهُمْ﴾؛ زعم بعضهم أنها نزلت في أبي عبيدة بن الجراح قائلاً: إنه قتل أباه كافراً يوم بدر أو يوم أحد، وقيل: نزلت في ابن عبد الله بن أبي المنافق المشهور، وزعم من قال: إن عبد الله استأذن النبي ﷺ في قتل أبيه عبد الله بن أبي فنهاه، وقيل: نزلت في أبي بكر، وزعم من قال: إن أباه أبا قحافة سب النبي ﷺ قبل إسلامه فضربه ابنه أبو بكر حتى سقط.

وقوله: ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾؛ زعم بعضهم أنها نزلت في أبي بكر حين طلب مبارزة ابنه عبد الرحمن يوم بدر.

وقوله: ﴿أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾؛ زعم بعضهم أنها نزلت في مصعب بن عمير، قالوا: قتل أخاه عبيد بن عمير. وقال بعضهم: مر بأخيه يوم بدر يأمره رجل من المسلمين، فقال: شدد عليه الأسر، علم أن أمه ملية وستفديه.

وقوله: ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾؛ قال بعضهم: نزلت في عبيدة بن الحارث بن المطلب، وحمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، لما قتلوا عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، في المبارزة يوم بدر، وهم بنو عمهم؛ لأنهم أولاد ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف. وعبد شمس أخو هاشم كما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾؛ أي ثبته في قلوبهم بتوفيقه.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تثبيت الإيمان في قلوبهم جاء موضحاً في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرُّشْدُونَ﴾ [٧] فضلاً من الله وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ [الحجرات].

إلى هنا انتهى تفسير الشيخ وقد اكتفينا بتفسير الشيخ دون التتمة للشيخ عطية حفاظاً على النسق المميز لكلام الشيخ رحمه الله، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة مختصر الكتاب	٥
مقدمة المؤلف	٧
مقدمة في تعريف الإجمال والبيان في اصطلاح أصل الأصول	٢٦
سورة الفاتحة	٣١
سورة البقرة	٣٥
سورة آل عمران	٧٩
سورة النساء	١٠٠
سورة المائدة	١٣٠
سورة الأنعام	١٥٩
سورة الأعراف	١٨٢
سورة الأنفال	٢٠٧
سورة التوبة	٢١٧
سورة يونس	٢٢٥
سورة هود	٢٣٦
سورة يوسف	٢٥٩
سورة الرعد	٢٧٠
سورة إبراهيم	٢٧٨
سورة الحجر	٢٨٦
سورة النحل	٣٢٢
سورة الإسراء	٤١٣
سورة الكهف	٥٠٦
سورة مريم	٦١٣
سورة طه	٧٠٠
سورة الأنبياء	٧٨٢
سورة الحج	٨٣٠
سورة المؤمنون	٩٠٨
سورة النور	٩٥٦

الموضوع	الصفحة
سورة الفرقان	١٠٠٠
سورة الشعراء	١٠٦٠
سورة النمل	١٠٧٥
سورة القصص	١٠٩١
سورة العنكبوت	١٠٩٤
سورة الروم	١١٠٠
سورة لقمان	١١١٠
سورة السجدة	١١١٣
سورة الأحزاب	١١١٧
سورة سبأ	١١٢٨
سورة فاطر	١١٣٨
سورة يس	١١٤٥
سورة الصافات	١١٥٦
سورة ص	١١٧٢
سورة الزمر	١١٩١
سورة غافر	١٢٠٦
سورة فصلت	١٢٢٤
سورة الشورى	١٢٤٩
سورة الزخرف	١٢٧٦
سورة الدخان	١٣١٤
سورة الجاثية	١٣١٩
سورة الأحقاف	١٣٣٨
سورة محمد	١٣٦٢
سورة الفتح	١٣٧٩
سورة الحجرات	١٣٨٤
سورة الذاريات	١٤٠٦
سورة الطور	١٤١٨
سورة النجم	١٤٢٦
سورة القمر	١٤٣٦
سورة الرحمن	١٤٤٤
سورة الواقعة	١٤٥٨
سورة الحديد	١٤٨٢
سورة المجادلة	١٤٩٠
فهرس الموضوعات	١٤٩٥